عدد ممتاز

العربي

ربيع الثاني 1407 هـ - يناير (كانون الثاني) 1987



إندونيسيا.. «سلاملك مكة»!

الجزائر.. وتجربة ربع قرن

■ مؤتمر القمة الإسلامي «ملف خاص»

■ مع العدد هدية خريطة العالم الإسلامي

العدد ٣٣٨ السنة الثلاثون يناير ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص. ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤١٨٢٤٢ - ٢٤٦٢٤١ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس : MITR 44041 KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL-ARABI

Issue No. 338 Jan. 1987 P. O. Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الإشتراكات

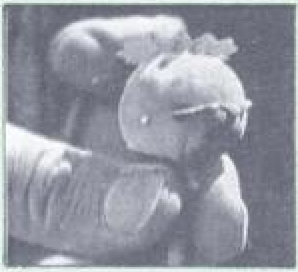
ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص. ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

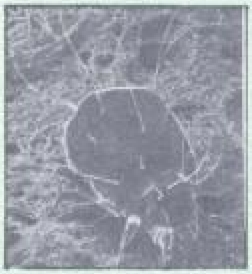
الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٢٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٢٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

العربي - العدد 338 - يناير 1987

محتويات العدد



القتلة البيض ص١٢٤



دورة الحياة والموت النباتية ص١٣٧



جمالية الخط الكوفي ص١٨٠



د . فؤاد زكريا



د . إمام عبدالفتاح إمام

استطلاعات ومقابلات



صورة الغلاف

ما أروع مشهد النساء والفتيات في اندونيسيا - وهن يؤدين الصلاة في المساجد ، في حجابهن الأبيض كأنهن موجات من الملائكة (ص ٣٦)



الجزائر ، ربع قرن من التنمية ص ١٠٠



مدينة زرقاء اليمامة ص ١٦٤

أبواب ثابتة :

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

أهلاً .. ضيوف الكويت

في هذا العدد نلتقي معك في أكثر من مناسبة تاريخية ، ففي أواخر هذا الشهر يلتقي رؤساء دول وحكومات ست وأربعين دولة إسلامية ، وممثلو المنظمات الإسلامية وحركات التحرير على أرض الكويت ، بدعوة كريمة من أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الصباح ، لعقد مؤتمر القمة الإسلامي الخامس . هذه المناسبة التاريخية التي تشهدها الكويت ، وقد أعدت لها عدتها ، تنبع من حرص أمير الكويت على العمل الإسلامي ، وتضامن المسلمين ، فلقد كان هاجس هذا الرجل القائد المسلم منذ زمن طويل فيما وصل إليه المسلمون من فرقة ، وكان عمله الدؤوب هو محاولة وضع أسلوب لمواجهة الخلافات التي تنشأ ، ليحول دون تطورها إلى مواجهة مسلحة ، أو ليضع حداً لأي مواجهة قائمة ، وفق معايير الإسلام وقواعده ، ولقد وفقه الله تعالى إلى تقديم ذلك الاقتراح التاريخي في مؤتمر القمة الإسلامي الثالث في الطائف ، بإنشاء محكمة عدل إسلامية ، يرتضيها المسلمون حكماً ، ومصلحاً ، وقاضياً ، في كل المنازعات بينهم .

وعندما يصلك - عزيزي القارىء - هذا العدد تكون الكويت قد استعدت للترحيب بضيوفها من الأقطار الإسلامية المختلفة ، واضعة نصب عينيها تماسك المسلمين ، ووحدة كلمتهم ، ونجاح مؤتمرهم المرتقب .

ومن جميل الصدف أن تدخل « العربي » بهذا الشهر في العام الثلاثين من عمرها ، بعد أن قدمت لقرائها - في الوطن العربي والعالم الإسلامي - حصيلة ثقافية وفكرية غزيرة ، عاقدة العزم على استمرار المسيرة وتجددها .

بهذه المناسبة أيضاً تهديك العربي خريطة تبين انتشار المسلمين في شتى قارات العالم وبلدانه جريا على عادتها السنوية ومساهمة منها في الترحيب بالمؤتمر الاسلامي الخامس .

فأهلاً بضيوف الكويت ، وكلنا أمل ورجاء في تحقيق أهداف هذا المؤتمر التاريخي المهم .

المحـــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

الإسلام والسلام

على أرض الكويت وبدعوة من أميرها الشيخ جابر الأحمد ينعقد في أواخر هذا الشهر - يناير ١٩٨٧م - المؤتمر الخامس لرؤساء الدول الإسلامية ، في أجواء عربية وإسلامية ودولية بالغة التعقيد ، سواء أكان ذلك على الجانب السياسي أم الاقتصادي أم الاجتماعي

ولعل هذا المؤتمر الخامس يكون فرصة طيبة لتجاوز مرتبة الموعظة الحسنة بين المسلمين ، والدعوات الطيبات فقط ، إلى تحليل الواقع العالمي ، وانعكاساته على الدول والشعوب الإسلامية ، وتحويل الرغبة المشروعة في التضامن بين المسلمين الى برنامج عمل ، تتكامل فيه الجهود ، وتحدد به الأولويات ، بعد أن تقطعت أوصال الأمة ، وانتهكت حرماتها ، وهددت أوطانها .

إنشاء محكمة عدل إسلامية ضرورة لمواجهة المشكلات التي يلجأ البعض لحلها بواسطة العنف والحرب



● سمو الشيخ جابر الأحمد .. ودعوة كريمة تنبع من حرص امير الكويت على العمل الاسلامي وتضامن المسلمين .

إن فكرة تجمع الدول والشعوب الإسلامية في منظمة تسعى لترسيخ التعاون بينها ، فتوحد مواقفها تجاه الغير ، وتحل المشكلات السياسية والاقتصادية التي تواجهها ، فكرة عظيمة ونبيلة ، تستمد عظمتها ونبلها من عظمة الإسلام الخالد الذي قاوم على مر القرون ـ وبخاصة الأخيرة ـ محاولات دءوبة لإطفاء نوره ، سواء بالغزوات الاستعمارية أو الايديولوجية . وكان من الطبيعي أن يقوم المجتمع الإسلامي ـ بعد أن تخلصت معظم الشعوب الإسلامية من نير الاستعمار المباشر وغير المباشر ، وشرعت في دخول معركة التنمية ـ بالدعوة إلى مثل هذا التجمع في بداية السبعينيات ، وهي نفس الفترة التي أخذ فيها الاستعمار القديم يستبدل بثيابه ثيابا جديدة ، ظاهرها الرحمة وباطنها فيه العذاب ، هادفا إلى الإيقاع بين الشعوب ، ومستنزفا طاقاتها .

ولم يكن غريبا أن يتبلور هذا التجمع العالمي للمسلمين حول قضية هي في مكان القلب من قضايا المسلمين اليوم ، فقد تنادى المسلمون بالدعوة الى مؤتمر ، بعد أن قامت عناصر صهيونية في ٢١ آب (أغسطس) من عام ١٩٦٩م بإضرام حريق في المسجد الأقصى ، أولى قبلتي المسلمين ، مما ألهب مشاعرهم ، ودفعهم الى اجتماع رؤساء الدول الإسلامية في سبتمبر من ذلك العام في الرباط ، وتواصلت إثره الاجتماعات ، سواء على مستوى وزراء خارجية الدول الإسلامية التي بلغ عددها تقريبا واحدا وعشرين اجتماعا عاديا وطارئاً أو على مستوى رؤساء الدول الذي تكتمل حلقته الخامسة في مؤتمر الكويت .

دعوة لقيام محكمة عدل إسلامية :

□ بعد المؤتمر الأول لرؤساء الدول الإسلامية ظهر إلى الوجود أول تنظيم دولي إسلامي ، هو منظمة المؤتمر الاسلامي التي أخذت على عاتقها تطوير العمل الإسلامي المشترك وتنظيمه ، وقد جاءت أهداف المنظمة ومبادئها منسجمة مع المطالب العالمية في السلم والتعاون العالمي ، ودعم كفاح الشعوب الإسلامية ، للمحافظة على كرامتها واستقلالها ، وتعزيز التعاضد بين أعضاء المنظمة من جهة ، وبينهم وبين المجتمع الدولي المحب للسلام والساعي الى الأمن والنماء من جهة أخرى .

ومن المؤمل أن تتم خطوة إيجابية كبيرة في استكمال مؤسسات المؤتمر

□ لقد مجد الإسلام العقل، وعلينا استخدامه لتطوير حياة الناس.

في الملتقى الخامس في الكويت ، وذلك بإعلان إنشاء محكمة عدل إسلامية ، تقدم باقتراح إنشائها سمو أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح في أثناء انعقاد المؤتمر الثالث للمنظمة في المملكة العربية السعودية في يناير ١٩٨١ ، لأن سموه يدرك الأهمية البالغة لمثل هذه المؤسسة ، وقيامها بين الدول الإسلامية في هذه المرحلة التاريخية الحرجه . وقد تمت الدراسات الأولية لهذه الفكرة الرائدة ، وفي حالة إقرارها نهائيا ستصبح الكويت مقرا لها .

منجزات أخرى :

□ في مسيرة منظمة المؤتمر الإسلامي التي أصبح اعضاؤها حوالي ست وأربعين دولة منجزات أخرى على مستوى إنشاء المؤسسات ، وقد بلغ مجموع المؤسسات التابعة للمنظمة ست عشرة مؤسسة ، منها البنك الإسلامي للتنمية ، ووكالة الأنباء الإسلامية الدولية ، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ومجمع الفقه الإسلامي ، واللجنة الإسلامية للهلال الدولي ، وإحدى عشرة مؤسسة أخرى موزعة على عواصم الدول الإسلامية .

وخلال ست عشرة سنة مضت على ظهور العمل الإسلامي المشترك الى الوجود تطورت منظمة المؤتمر الاسلامي بمؤسساتها الى الحد الذي أصبحت فيه قوة على المستوى الدولي ، فأصوات الدول الاسلامية تقارب ثلث أصوات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكتلتها في المنظمات الدولية لا يمكن تجاهلها ، كما أن المنظمة ـ كمنظمة ـ قد حاولت بذل مساع حميدة في القضايا التي تمس المسلمين ، وقد تكللت بعض هذه المساعي بالنجاح ، وصادف بعضها التعويق .

وخلال الست عشرة سنة الماضية فرضت على بعض الدول الإسلامية منازعات وخلافات ، من التبسيط والاختزال ردها إلى عامل واحد ، لكن يمكن القول ان أغلبها كان مصدره الاستعمار بأشكاله المختلفة ، القديمة والجديدة ، فقد كان استعمار الدول الاسلامية ـ أو معظمها ـ من قبل دول غربية متعددة ، حملت وتحمل كل منها ثقافتها وعقيدتها ولغتها ، وثبتت تلك الدول الاستعمارية حدودا إقليمية وعرقية ، وفرضت نمط حياة وأنشطة اقتصادية ، وشجعت على ازدياد التوتر والعنف بين الدول الإسلامية ، سواء كانت في دائرتها الإسلامية العربية ، أو في الدائرة الأوسع ، وهي الاسلامية الدولية .

ولعل أهم ما يواجه الدول الإسلامية اليوم بجانب القضية الرئيسية التي تنادى المسلمون لنصرتها ، وهي قضية الأرض والوطن الفلسطيني ، هي مشكلة النزاع المسلح بين الجارتين المسلمتين ، العراق وايران ، والتدخل السوفيتي في افغانستان ، لعل هذه الدوائر الثلاث ذات الأهمية القصوى إقليميا ودوليا من أهم ما يواجه منظمة المؤتمر الاسلامي في هذه الفترة .

الإسلام اليوم :

□ لعلي لا أتفق مع كثيرين في اعتبار حركة المسلمين اليوم حركة « صحوة » أو « تجديد » أو « يقظة أصوليّة »، فتلك مفاهيم غربية ، أطلقها بعضهم عندما أعادوا اكتشاف الإسلام ، وتشبث بعضنا بها نظرا لانبهاره بالشكل فقط ، فالاسلام موجود منذ زمن طويل ، وهو يشكل اليوم ـ كما شكل بالأمس البعيد ـ أحد مكونات الانسانية الثقافية والأخلاقية والروحية الكبرى .

وعودة قصيرة فقط الى التاريخ الحديث نعرف منها أن آخر محاولات الغرب لحصار الإسلام في عقر داره ـ كما اعتقدوا ـ هو سلسلة الارساليات التبشيرية التي طوّقت جزيرة العرب في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن ، لكننا نلتفت حولنا اليوم فلا نجد تلك الارساليات ، لقد اختفت وبقي الاسلام ، بدون تنظيرات وبدون تعابير الصحوة واليقظة ، إن هذا الدين الحنيف المتسامح يغذي المؤمنين به على مر العصور بغذاء مجدول من الصبر والمقاومة والايمان بالله الواحد القهار .

وعندما يقف الإسلام اليوم قويا شامخا بين قوى متصارعة ومتنافسة مثل الرأسمالية والاشتراكية بأشكالها المختلفة والمتدرجة فإنه يعني في جوهره أنه هيكل متفرد بذاته ، قادر ليس على البقاء فقط ولكنه قادر أيضا على الاستجابة لمتطلبات العصر دون إفراط أو تفريط .

إن الوحدة الاسلامية ، والتوحيد الرباني ، والاجتهاد الانساني ، حلقات ثلاث متكاملة ، فوحدة المسلمين تتجلى في توجههم الى قبلة واحدة ، هي الكعبة المشرفة ، وفي صومهم شهرا واحدا ، هو رمضان الكريم ، وتوجه من استطاع منهم إلى تجمع سنوي عظيم ، هو الحج الى بيت الله في أيام معلومات ، لقد فهم المسلمون اختلاف مناهج دعوة الأنبياء السابقين لمحمد ﷺ ـ رغم رفعهم لراية التوحيد ـ على أنه مظهر من مظاهر مسايرة التشريع للتطورات المستجدة ، كما اتجه الاجتهاد الفكري إلى إكمال كل ذلك عن طريق التدليل على قدرة الانسان على تنمية فضائله الجوهرية ، حيث مداد العلماء خير من دماء الشهداء .

إن من الخصائص الاسلامية الكبرى التنوع في إطار الوحدة ، فالنص

الاسلامي واحد ، إلا أن تفسير الفقهاء له يمكن أن يتنوع حسب الاجتهادات التي تختلف باختلاف الظروف والبيئات ، شرط ألا يخرج عن جوهر النص وقواعده . من هذا المنطلق نمت وتطورت في الاسلام مذاهب فقهية متنوعة ، ولولا الترك الجزئي ـ وأسبابه متعددة ـ لمسار تطور الأحكام الشرعية حتى كادت تنحصر في بعض البيئات في قضايا الأحوال الشخصية ، لأصبح لدينا اليوم اجتهاد متطور ، معايش للعصر ، مندمج في سلوك متقارب . والملفت للنظر أن الشريعة الاسلامية رغم محدودية استخدامها عبر العصور الأخيرة هي أحد العناصر الرئيسية التي هيأت للأمة الاسلامية أن تحافظ على كيانها .

إن شمولية الاسلام وتسامحه اللذين مكّناه من الاستمرار والانتشار في السابق في الأطراف الشرقية للأمة الاسلامية وكذلك في الأطراف الغربية حريٌ به اليوم في إطار مبادىء الاسلام العظيمة وثوابته الكبري أن يدفع بالمسلمين لتمثل هذا التراث ، والاجتهاد بدأب على طريق تآخي المثل الأعلى مع الواقع المعاش ، ورفع الواقع المعاش إلى المثل الأعلى .

الواقـــع والتصـــوّر :

مخططات تطويـق جـزيـرة العـرب بالإرساليات التبشيرية لم تفلح وبقي الإسلام صلبـا والمسلمون أتقيـاء

□ الواقع يقول لنا على الصعيد العملي ان هناك ثورة تقنية وعلمية على ظهر كوكبنا ، وأن هذه الثورة قد امتدت إلى أقصى أطراف المعمورة ، والواقع يقول لنا أيضا اننا كمسلمين دولا وشعوبا ننتمي إلى العالم الثالث بفقره ومرضه ، وتخلف وسائل إنتاجه ، وتخلف علاقاته الاجتماعية ، إن لم يكن على نطاق القيم ففي واقع الممارسة . والواقع يقول لنا ان تعليمنا محدود ، وثرواتنا منهوبة ، وطاقاتنا مهدورة ، واننا كدول إسلامية ، قد وصلنا إلى المسرح الدولي فوجدناه معدًا قبلنا بقوانينه ، وعلاقاته ، ومؤسساته ، وان اللاعبين على هذا المسرح عليهم أن يتحركوا بناء على تلك القوانين والقواعد التي لم نشارك في صياغتها ، فهي ثمرة التاريخ الأوربي في الغالب .

لذلك وجب علينا أن نستخدم العقل الذي مجدّه الاسلام ، وحث على احترامه ، نستخدمه كي نطور واقعا جديدا منطقيا ، فنحن لا نستطيع أن نفلت فجأة وفي مرة واحدة من قواعد المسرح المعدّ !



● مقر المؤتمرات الذي سيشهد تجمع القمة الاسلامية في الكويت .

وكمثال - شئنا أم أبينا - فإننا مازلنا نلتزم بالحدود التي فرضها التقسيم الحديث للدول ، بكل قواعدها الدولية والقانونية ، لكن هناك أمورا يمكن أن نتعايش معها ، وأخرى يجب أن نحكِّم عقولنا فيها ، فالنزاعات المسلحة بين الدول الاسلامية - مهما كانت أسبابها - هي نزاعات تضعف الأمة من جهة ، وتقوي أعداءها ، والاسلام - كمفاهيم وشرائع - قادر على تقديم نموذج لحل هذه النزاعات ، بل قادر على أن يكون عاملا قويا لبناء تلاحم حقيقي سياسي وتنموي ، وإذا كان الأخير ممكنا - وهو في طور النمو من خلال مؤسسات اقتصادية ومالية - فإننا نرجو أن يتحقق الهدف الأول (السياسي) من خلال محكمة العدل الاسلامية .

دين سلم :

□ أسباب الصراعات بين الدول الاسلامية متباينة ، منها ما هي متوارثة من أيام الاستعمار ، فرضها علينا ورحل ، وأخرى وجدت نتيجة لتدخل خارجي واضح أو خفي في مناطق إسلامية استراتيجية ، وغيرها

ناجمة عن آلام ومشاكل التغيرات الداخلية ، إلا أن المشكلات الدولية بين الدول الاسلامية ـ في رأينا ـ أشد خطورة وأكثر عمقا ، ويمكنها أن تعصف بالتكاتف الاسلامي نفسه .

وإذا لاحظنا أن الانسانية ـ رغم النكبات ـ تتقدم نحو مزيد من التضامن والتعاون ، وأن الأسباب المبررة للجوء إلى العنف ـ من منظور دولي ـ تتضاءل فحريٌ بالمسلمين ـ والاسلام دين التوحيد والسلام ـ أن يقودوا هذا التوجه ويبدءوا بأنفسهم ، فالاسلام دين سلم ، وتحية المسلمين بينهم هي السلام ، والاسلام كوحي إلهي حق ، يسعى إلى تأمين حياة الانسان المؤمن ، وينظم علاقاته مع الآخرين على أساس سلمي ، فالقتال ليس مرخصا به إلا إذا كان لدرء مظلمة ، ولا تعلن الحرب وجوبا إلا إذا كانت دفاعا عن الذات ، وللقتال في الاسلام قواعده الأخلاقية المعروفة ، كما أن العدوان أو المبادرة بالقتال ـ دون سبب صحيح ـ محرمان . وهناك قواعد إسلامية عظيمة كوجوب السلم في نطاق العدل ،

□ مازلنا ـ كدول إسلامية ـ جزءاً من العالم الثالث ، والمطلوب بذل كثير من الجهود للقضاء على فجوة التخلف ، ولمواكبة عصر التقدم التقني.

وتحريم المعاملة بالمثل في نطاق الظلم ، وتغليب الرحمة تأكيدا لصالح الجماعة ، وهي مبادىء لو تمثلناها اليوم لحل الوفاق بديلا عن الصراع ، والوئام بديلا عن الخصام . وإذا كان كل ذلك مطلوبا بين أمة الاسلام والأمم الأخرى فهو أكثر إلحاحا أن يتمثل بين مختلف الدول الاسلامية اليوم .

عمران المجتمع الاسلامي :

□ إذا كانت القضية الأكثر إلحاحا اليوم بين الدول الاسلامية هي إحلال التفاهم والحوار بدلا من الصراع في مجموعة القضايا العالقة بين دولها ، فالقضية الأخرى التي تليها في الأهمية هي واقع عمران المجتمع

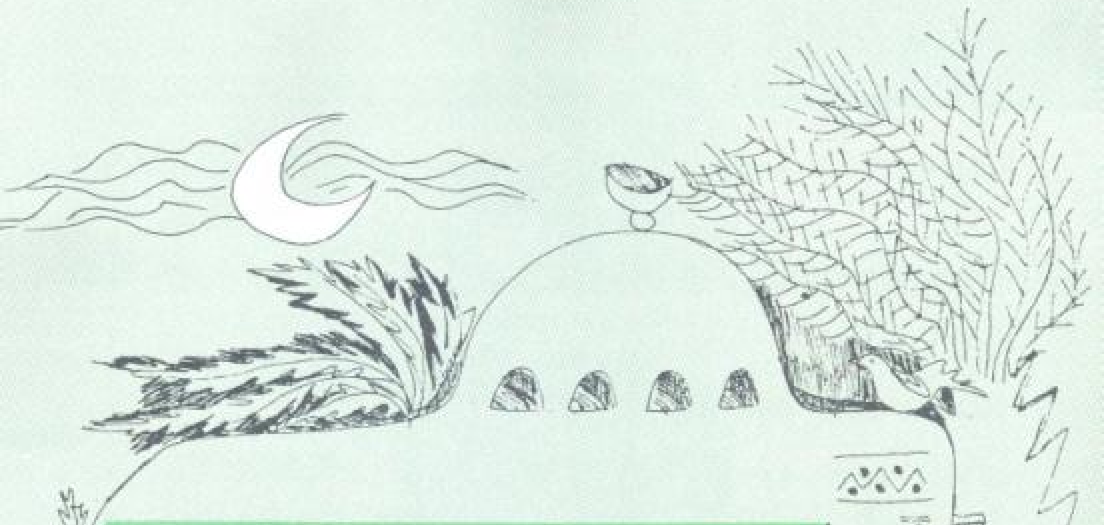
النزاعات المسلحة بين الدول الإسلامية تضعف الأمة وتقوى أعداءها

الاسلامي الذي ينتمي - كله تقريبا - إلى ما تصالحنا على تسميته بالعالم الثالث ، والذي مازالت علاقاته الاقتصادية مرتبطة بالمركز الغربي الذي شكل سطوة الاستعمار القديم أو الجديد . ورغم الجهود التي بذلت في الست عشرة سنة الأخيرة منذ قيام منظمة المؤتمر الاسلامي في الاطار الاقتصادي ، وعلى الرغم من الجهود الخيرة التي بذلتها صناديق التمويل والاعمار في الدول القادرة ماليا على التمويل ، فإن الواقع الاقتصادي وتطويره يحتاج إلى بذل المزيد من الجهود ، فهناك دول إسلامية تضربها المجاعة ، وأخرى تتزايد ديونها الخارجية عاما بعد عام مع تناقص في القدرة على السداد ، كما أن جهود بعضها التنموية في التعليم والتدريب وتطوير البنية التحتية مازالت في بداياتها الأولية أو تكاد . هذا العبء العمراني الثقيل لا يحتاج فقط إلى مال وبشر ، وإنما يحتاج قبل ذلك إلى طرق تفكير جديدة ، وأولويات تتركز على العلم والعمل كمنطلق لاعمار ذاتي ، وتحتاج كذلك إلى تعاون المتكافئين ، وليس منة المتبرعين ، تعاون يحرك الوعي الجماعي بالخطر المحدق ، ويصب الجهود لخدمة الانسان الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى .

وبعــــد ،

إن أنظار الشعوب الاسلامية معلقة بمؤتمر القمة الاسلامي الخامس على أرض الكويت ، والطموح الكبير في أن يقدم هذا المؤتمر مبادىء لحل المشكلات الرئيسية الدنيوية التي تواجه المسلمين اليوم ، في إطار من الروح الاسلامية السمحة ، وأن يبدأ بتضميد جراح الأمة الاسلامية الآن ، وحل الصراعات الجانبية التي هلك فيها الحرث والنسل ، والتي تنبيء - إن استمرت - بشرٍّ عظيم . لقد بدأ شيء جديد غير مسبوق من الدبلوماسية والعلاقات بين الأمم في إطار منظمة المؤتمر الاسلامي ، قد يكون من الحيف تحميلها ما لا طاقة لها به ، لكن البذرة موجودة ، والآمال كبيرة ، وإذا كان للمسلمين إسهام حضاري منتظر فليبدءوا بأنفسهم . □

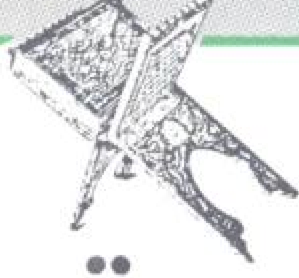
محمد الرميحي



صورة

شعر : خالد سعود الزيد

مَثَلٌ قد تجسَّدا   وقديمٌ تجدَّدا
وجديدٌ جُذورُهُ   ضارباتٌ بلا مدى
أرضُهُ أو سماؤُهُ   مثلما الصوتُ والصدى
ما ترى من تفاوُتٍ   مُطْلقاً أوْ مُقيَّدا
ليس شيءٌ كمثلِهِ   جَمَعَ الحُسْنَ مُفْرَدا
حُشِدَ الكونُ كلُّهُ   فيه حَشْداً مُجَدَّدا
واستدارَ الزمانُ في   ذاتِه ، مثلما بدا
مُسْتَمِدّاً ومُعْطِياً   واحدٌ ، إنْ تعدَّدا
غايةٌ ما سما لها   قبلَهُ مَنْ تمجَّدا
صورةٌ لن ترى لها   مَثَلاً قد تردَّدا
كان من قبلُ أحدا   وأتاها مُحَمَّدا



الوحدة والتنوع في العالم الإسلامي

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

وصف الله تعالى البيت الحرام بقوله : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين . . . » (آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧) .

وكان أول ما انزل من القرآن على المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ النبي الخاتم ـ قوله تعالى : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » . (العلق : ١ ـ ٥) .

وبالحج والقرآن والايمان بالرسالة سلوكا وعقيدة وشريعة ، تحددت أبرز معالم الوحدة في الاسلام . . فلنتناولها بشيء من التفصيل :

القرآن والرسول

والقرآن الكريم ، هو الكتاب المنزل الوحيد الذي يستطيع المسلمون من سن مبكرة أن يحفظوه عن ظهر قلب ، وأبناء الاسلام هم التصوير الحي لقول الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر : ٩) ولقوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مذكر » (القمر : ١٧) .

والقرآن الكريم ، هو الكتاب الذي تواتر كوثيقة ، من وقت أن أنزله الله على قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فكتبه أصحابه وحفظه منهم من استطاع ، وطبقوه والوحي ينزل ، فكان عندهم العلم والعمل .

يقول الامام ابن كثير في مقدمة تفسيره : قال ابو عبدالرحمن السلمي (وهو من كبار التابعين الحافظين لكتاب الله) : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا (أي من الصحابة) انهم كانوا يستقرءون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا اذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا .

وجمع ذو النورين ـ الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ المسلمين على المصحف الجامع ، بعد أن انتشر الصحابة في الأمصار ، بدلا من اعتماد كل منهم على ما كتب بيده ، أو حفظ بذاكرته فكان عمله توثيقا

كتابيا جامعا . وهذا العمل التوثيقي في الاجتماع على أصل واحد ، عصم القرآن ، كما عصم أبو بكر الاسلام بحروب الردة ، وصان كيان الدولة والوحدة الاسلامية . . والتقت بالعمليتين وحدة الارادة ووحدة العبادة .

والقرآن للمسلم كتاب الحياة ، والأمر الالهي الأول « اقرأ » مازال قائما . كان أمرا للمصطفى وهو أمر لكل مسلم من بعده . . وهو أمر يلتقي مع فطرة الانسان ، والفطرة دين ، والدين فطرة ، والله تعالى يقول : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . . . » (الروم : ٣٠ - ٣١) .

والقرآن عقيدة وشريعة وأخلاق وقصص : عقيدة هي التوحيد والايمان بما أنزل الله من كتاب ؛ وشريعة فيها إجمال ما يتغير - كالنظم السياسية والاقتصادية - وتفصيل ما لا يتغير كالعبادات ، واخلاق هي مستوى التعامل ، الذي صوره الرسول في حياته . فكان تصوير الاخلاق بالأسوة والكلمة . قال تعالى واصفاً رسوله « وإنك لعلى خلق عظيم » (القلم : ٤) وقال مخاطبا المؤمنين : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (الأحزاب : ٢١) ، وقصص قال الله تعالى فيه « لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . . . » (يوسف : ١١١) .

وبهذا دعا القرآن الى التوحيد والوحدة ، والى العمل الصالح في هذه الدنيا ، والايمان بعقيدة الجزاء . الناس جميعا عباد الله ، وهم في الانسانية اخوة ، جاءوا من نفس واحدة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » . . . (النساء : ١) .

والتوحيد نداء دائم للوحدة ، والصلاة تعبير دائم يومى عنها : الفرائض الخمس ، الاستعداد لها ، طريقة أدائها ، ثواب الاجتماع عليها ، كونها تلخص الاسلام كله : ففيها التوحيد ، وهي صلاة ، ولا طعام ولا شراب عند ادائها ففيها من الصوم نصيب ، وفيها تقديم جزء من الوقت وهو الحياة ، وهذه روح الزكاة ، وفيها التوجه الى البيت الحرام ، وهذا نصيبها من الحج وتذكير دائم به ، وفيها الاجتماع على هدف والانتظام من أجله ، وحسن القيادة والاتباع ، وتصويب الخطأ اذا كان من الامام والفتح عليه اذا سها وهو يتلو ، فهي ليست اتباعا دون وعي ولكنها اتباع يقظ وتعاون وتناصح . .

والزكاة رباط روحي واقتصادي بين الغني والفقير ، والصوم مساواة في أداء العبادة لكل قادر عليها ، وتأكيد لروح الوحدة الاسلامية على امتداد العصور والاقطار . . يؤديها كل مسلم في موطنه أو مقامه . . .

وفي هذا تختلف عن الحج حيث يجتمع الحجيج من كل فج عميق ليؤدوا مناسكها معا . . . ونقف فيها عند أمور اساسية :

١ - المساواة في الملبس بالاحرام .

٢ - تضاف وحدة المكان الى وحدة الملبس في الطوف بالبيت العتيق والسعي بين الصفا والمروة .

واذا كان الطواف تعبيراً عن الحب ، وصورة لحركة الكون . . والكون كله في طواف دائم ، تراه في المجموعة الشمسية كما تراه في الذرة ، فان السعي تعبير عن الحركة من أجل هدف ، كان الحصول على الماء ، والحياة حب وحركة . . .

٣ - ثم تضاف وحدة الزمان الى وحدة المكان والملبس . . وذلك في يوم عرفات وهو ذروة الحج . هنا الوحدة الشاملة الكاملة في أروع صورها ، حيث يتلاقى المسلمون - ضيوف الرحمن - على غير أرحام تصلهم ، ولا وحدة لسان أو لون ولكنها العقيدة التي يحسون بها أقوى من كل الفوارق . . وهو مشهد يتكرر كل عام ، مشهد مفتوح لكل قادر عليه . وان كان على المسلم القادر أن يؤديه - فريضة - وفي العمر مرة . هذه أضخم لوحة يرسمها المؤمنون بأجسادهم حول البيت العتيق وفي عرفات . . .

بين الوحدة والتنوع

ولقد جاء الاسلام من أول أمره مشيرا الى مظاهر التنوع البشري والطبيعي ، مع وحدة الحياة والاخاء الانساني : فالأرض هي وطن الانسان .. كل الانسان .. « والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحَبُّ ذو العصف والريحان ... » (الرحمن : ١٠ ـ ١٢) واذا رجعت الى سورة الرحمن ـ كمثال ـ رأيت أوصافا للكون كله : بسمائه وأرضه ، بره وبحره ، دنياه واخراه ، عمله وحسابه ، ونحس الوصف دعوة مفتوحة الى عمران الحياة .

وجاء اختلاف الألسنة والألوان مظهرا لقدرة الله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم والوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين ... » (الروم : ٢٢) .

وشأن البشر في اختلافهم شأن مظاهر الكون الأخرى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانهاوغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور ... » (فاطر : ٢٧ ـ ٢٨) .

فهناك اشارات الى عوالم وعلوم الطبيعة الجوية والنبات والجيولوجيا ، والأجناس والحيوان والتربة والأرض ، وتأمل كيف جاء لفظ « مختلف » ثلاث مرات في الآيتين .. وجاء لفظ « العلماء » مرة واحدة .. كان عليهم ـ وهم جميع متعاونون ـ أن يدرسوا مظاهر الاختلاف هذه ، ويضعوا لكل منها علومها ومناهجها دون أن يغيب عن أنظارهم « وحدة الخلق » و « توحيد الخالق » .. هل نقول وحدة المعرفة في تعدد مظاهرها ، وتنوع آفاقها ؟ هنا الوحدة في التنوع ، والتنوع في اطار الوحدة ..

من عروبة الحضارة الاسلامية الى عالميتها

بهذه المفاهيم الأساسية قام الاسلام : كان في أول أمره « جزءا » من العروبة ، دعوته الاولى في مكة ، وقاعدته الاولى في المدينة ، ومنها انتشر حتى غمر الجزيرة العربية في العهد النبوي ، واهتزت الجزيرة بعد وفاة الرسول ، ثم استقرت الدولة ، وانطلقت الى آفاق جديدة بدءاً من عهد الخلافة الراشدة .

نعم : ان الرسول بعث برسائله الى الملوك والحكام من حوله يدعوهم الى الاسلام ، فمنهم من رد ردا كريما ، ومنهم من غلبه الغرور .. وكان اصطدام الاسلام بما حوله من عهد النبوة .. ولكن المواقع الكبرى جاءت بعد رحيله ، وكانت خطوط المقاومة الرئيسية الى شمال قاعدة الاسلام في المدينة ، في الشمال الشرقي حيث الفرس ، وفي الشمال الغربي حيث الروم .

اذن : عبر الاسلام حدود العروبة الى أرض حضارات جديدة ، وأصبح العرب بعض الاسلام ، بعد أن كان الاسلام بعض العرب ، وانتشرت العربية مع الاسلام والقرآن ، ولنذكر أن العرب هم أول من حمل أمانة الاسلام ايمانا ونشرا وجهادا . والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين على رسول عربي في أم القرى العربية ودار الهجرة وما حولها . ومن هنا كان الرباط الوثيق والمقدس بين العروبة والاسلام والقرآن ..

وان اختيار الزمان والمكان والرسول واللسان أمور تتعلق في الاسلام بارادة الله ، لا بارادة البشر ، والاسلام كما هو كرامة وتكريم فهو مسئولية وعطاء والانتساب الى امة الاسلام تحكمه ثلاثة أركان تجمعها الآية الكريمة :

« كنتم خير أمة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ... » (آل عمران : ١١٠) والكرامة في الاسلام بالتقوى .. والتقوى عقيدة وعمل .

وبالفهم السمح لاختلاف الألسنة والألوان والبيئات والقدرات ، وتغير المكان وتعاقب الزمان ومتغيرات الحياة ، خرج الاسلام من الجزيرة العربية الى العالم .. أو هكذا ينبغي أن يكون ..

ولا نستطيع أن ننكر دور القبيلة في الحياة العربية ، ولا ان ننكر له . فمن قديم عرفت الجزيرة العربية : عرب الشمال والجنوب : العدنانيين والقحطانيين .. وعندما هاجروا في الجزيرة من موطن الى موطن حملوا معهم روابطهم .. ومن الممكن أن تتعايش الروابط ، ومن الممكن أن تتصارع ، من الممكن أن تصبح وحدات منظمة تتحرك مع القيادة

الى أهداف الاسلام . ومن الممكن أن تصبح قوى ضاغطة يستعين بها المتنافسون على السلطة ، وتتحول الروابط الى « عصبيات » ضيقة وجامحة ، تشتعل بها نيران الحروب ، ويتحول بها بأس المسلمين الى التنازع . . ورغم التحذير الالهي « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ، ان الله مع الصابرين . . » (الانفال : ٤٦) وقد حمل عرب الجزيرة بعض هذه العصبيات حتى عبرت معهم البحر المتوسط الى الاندلس . . واندفعت شرقاً الى وسط آسيا . وكان لها أثرها في تمزيق وسقوط دول اسلامية ، وقيام أخرى . . .

وجاءت عصبيات أخرى من الأقطار المفتوحة ، منهم من رضي الاسلام دينا ، ومن كان هواه مع قومه ، ومنهم من ظل على دينه ورأى في الاسلام قوة غازية عليه أن يقاومها ويطردها من الديار .

ولم يقتصر الامر على العصبيات العرقية واللونية والقومية ، وانما امتد الى العصبيات المذهبية . ونستطيع أن نرجع ـ كنموذج ـ الى كتاب الملل والنحل للشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م لنرى صورة عن الحياة العقلية والمذهبية للاسلام حتى في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . . واعتقاد كل فرقة من الفرق التي زادت على السبعين أنها على حق . . وأنها الفرقة الناجية . .

واذا كان كثير من هذه الفرق قد طواها التاريخ ، أو نبت بعدها جديد ، أو تعايش بعضها مع بعض في ظل الاخاء الاسلامي ، فان أخطر ما يعانيه الاسلام هو أن يتحول الحوار بين الفرق الاسلامية الى صراع مسلح ، أو تحاول احداها فرض آرائها بالقوة على من يعيشون في ظل دولتها ، وتقوم بتصدير مبادئها الى ما وراء حدودها . .

خطورة الفرق الاسلامية هو التحول من رأي عقلي الى صراع سياسي وعسكري . وأبرز نماذجه المعاصرة وأشدها ضراوة : الحرب بين ايران والعراق ، والصراعات المذهبية في لبنان . .

وهذه المشكلات العسكرية المذهبية أو الدينية ليست مقتصرة على الوطن العربي والاسلامي . . فهي من أمراض العصر . . هذا العصر الذي أصبح العنف فيه لغة دولية ومن أمثلته : الصراع الايرلندي البريطاني وهو في جوهره صراع بين البروتستانتية والكاثوليكية . الصراعات المذهبية في الهند ، الصراع بين شمال السودان وجنوبه ، الصراع بين الأتراك والأرمن ، حركات العنف في أكثر من قطر اسلامي . .

ومن الصراع الى التعايش

ولكن الذي نود الوقوف عنده : ان الكثير من جوانب الاختلاف العرقي واللغوي والمذهبي في أوروبا التي قامت بينها الحروب قرونا ، قد استطاع القوم هناك أن يتخطوها الى صور جديدة من التعاون ، وأخلت الحروب والمعاهدات مكانها لسوق أوروبية مشتركة ، وبرلمان أوروبي ، وتعاون علمي وتقني ، يجدون فيه منافسة خطيرة من اليابان ومن حولها دول في الشرق الأقصى ، ونحن بمقاييسهم مازلنا نعيش في مرحلة الصراعات المذهبية ، والقوميات الضيقة ، دون أن نصعد بجهودنا الى تحديات العصر الذي نعيش فيه . .

المثلث الحضاري

ولنحاول الآن تحديد المؤثرات التي تزيد من شقة الخلاف في العالم الاسلامي المعاصر :

أولا : المواريث الحضارية السابقة للاسلام في الأقطار التي انتشر فيها فالصورة ـ أو الصور ـ في افريقيا تختلف عن آسيا ، والاثنتان تختلفان عن صورة الوطن العربي .

ثانيا : المؤثرات الاسلامية ذاتها بمدارسها واتجاهاتها المختلفة .

ثالثا : الحضارة الغربية ، وقد استطاعت منذ القرن السادس عشر أن تحيط بالعالم الاسلامي ، وتحرمه من أهم موارده الضخمة في العالم الجديد ، وأن تجعل الحضارة الانسانية أوروبية المصدر ، وأن تغزو العالم الاسلامي والافريقي والاسيوي ، هذا مع تعدد مدارسها بين الاقتصاد الحر والرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، واتجاهاتها الفكرية والدينية : من نشر المسيحية بكنائسها المتعددة الى نشر الالحاد ، ومن محاولات نشر اساليبها في الادارة والحكم والنظم السياسية والاقتصادية . . وفي هذا كله وجد العالم الاسلامي نفسه أمام عرف كاسح وتجاذب وتنافر . . تعددت معه المواقف . . .

لقد شبهنا المؤثرات الثلاثة الأساسية بأضلاع مثلث .. ولكن أين يقف العالم الاسلامي ؟ أفي داخل المثلث أم خارجه ؟ واذا كان داخله ، فالى أي الاضلاع أقرب ؟ واذا كان خارجه فالى أي اتجاه يسير ؟

وتستطيع ـ هندسيا ـ ان تضع الدول الاسلامية داخله ، والبعض خارجه ، وفرق بين أن يحصرك المؤثر ، أو تتحكم أنت في مساره ، وتسيره به ومعه .

واتصور الوضع الأسلم ، الذي يكفل للعالم الاسلامي اقترابا من وحدته وتعاونا في مساره أن يحسن الاختيار من التراث القديم ومن شريعة الاسلام (ولا أقول العقيدة لانها ليست اختيارا) ومن منجزات العالم الحديثة .

والاختيار ليس مجرد تراكم أو تجاوز ، وإنما هو في ذاته تمهيد لابداع جديد ، ولنبدأ من نقطة وسط المثلث ، ترى كل ما حولها ويؤمن الواقف فيها ان الاضلاع الثلاثة حوله ليست حوائط أو أسوارا حاجزة ، وانما فيها أبواب ونوافذ تطل على الأعماق اذا كانت ماضيا وعلى الآفاق الجديدة اذا كانت حاضرا وغدا ..

المثلث يتحرك

ومع التزود من المصادر الثلاثة يكون المسار بحيث يصبح المثلث كأنه رأس سهم متحرك الى الغد ، دون أن ينفرط نظامه أو تتكسر أضلاعه .

هنا يبدو الابداع في صورة من أجمل صوره : يمكن ان يحتفظ كل قطر اسلامي بخصوصيته الحضارية ، من تراثه القديم ، وافادته وعطائه الاسلامي ، وتعامله مع العالم الحديث ، وفيه حشد من المراكز الحضارية .. ولكن هذه الخصوصية لا تنفي الوحدة الكبرى التي تنتظم العالم الاسلامي .

ولتكن الاستراتيجية الكبرى كما يلي : تقوية عوامل الوحدة والتقارب وتعايش الفروق الحضارية بحيث لا تصبح ـ بتقويتها ـ قوى تنافر وتباعد تحطم روابط الوحدة ، وكذلك : لا تكون روابط الوحدة قوى ضاغطة تحول دون نمو الخصوصيات الحضارية وهي بطبيعتها في الفروع لا في الأصول .

نداء من المسجد الحرام

ان القرآن الكريم يصف البيت الحرام بقوله : «ومن دخله كان آمنا» (آل عمران : ٩٧) ذلك لان له مكانة تعلو على الفروق والخلافات والجدال .

فهل نستطيع أن نأخذ من هذه الحرمة قبسا ـ مجرد قبس ـ نهديه الى الحركة العلمية الاسلامية ؟ مجرد تأمين للأنشطة العلمية وتوثيق لروابطها وحرية تتوفر للعلماء في الحركة والاتصال والبحث ، بعيدة عن تيارات السياسة وعواصفها . وسنجني من ذلك الكثير ، فاذا نجحت التجربة أمكن تطبيقها على مجالات أخرى . وبهذا تتسع دوائر التعاون ، ويزداد تدرب الأجيال الجديدة على الاخاء والسماحة والحوار العقلاني ... وفي هذا كله عون على تكوين صورة جديدة للعالم الاسلامي في وحدته الكبرى وتعدد خصوصياته الحضارية وتعايش الوحدة مع التنوع □

« اللطائف في صنع الكنافة والقطائف »

● الكنافة والقطائف من الأكلات المشهورة في شهر رمضان ، حتى أن الامام جلال الدين السيوطي قد ألف كراسا عنونه (اللطائف في صنع الكنافة والقطائف) . ويروى أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من قدمت له الكنافة والقطائف في رمضان ، إذ أن معاوية كان مشهورا بأنه أكول ، وقد شكا ذلك إلى طبيبه محمد بن أثال فأشار عليه أن يأكل الكنافة والقطائف فصار يأكلها في السحور ليرتاح من الجوع الشديد الذي كان يشعر به طوال أيام رمضان .

العلوم وطموحات المستقبل
في الأقطار العربية

بقلم : الدكتور محمد عبد السلام*

« تتوقف نهضة الأمم وتطورها على مدى اهتمامها بتطور العلوم الأساسية ، ونشاط مراكز البحث العلمي ، ورعاية العلماء وتشجيعهم ، فبدون مراكز بحث وعلماء لا أمل في نهضة عربية علمية » .

كل أمة تغفو فتكبو ، ثم تصحو فتنهض ، هكذا حال أمم شتى اعتراها الوهن ، وأثخنت جنباتها الجراح ، فما بال أمتنا قد طال سباتها ، وأصبحت جسدا مسجى في غرفة الإنعاش ؟ نريد سريعا (حقنة الحياة) ، لتتدارك آخر قطرات الدم في الوريد قبل الجفاف ، فهل نحن فاعلون ؟

ليس العرب أمة ضئيلة صغيرة ، فهم قد اقتربوا في تعدادهم من ٢٠٠ مليون نسمة تقريبا ، وهذا العدد يكاد يعادل سكان الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتي ، ويكاد يكون ضعف سكان اليابان . ويقدر الدخل القومي العربي حسب الإحصاءات العالمية لعام ١٩٨٣ بأكثر من ٤٠٠ بليون دولار ، بينما لم تتجاوز مدخولات الصين مثلا ٣٠٠ بليون دولار . وبينما ينفق العرب أكثر من ٥٠ بليون دولار سنويا على نظامهم الدفاعي ، فميزانية الدفاع في الصين لاتتجاوز ٢٥ بليون دولار . وفي مجال العلوم والحضارة كان للعرب تاريخ مجيد مشرف ، وإن حاول البعض طمس هذا الدور الإنساني العظيم ، وتجاهل الانجازات العربية الإسلامية في

* عالم ، فيزيائي ، باكستاني ، نال جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٧٩م . أسس المركز الدولي للفيزياء النظرية في تريستي بايطاليا خصيصا ليجمع فيه كثيرا من علماء العالم الثالث ، وهو يتبع منظمة (اليونسكو) العالمية ، والوكالة الدولية للطاقة الذرية .

يعمل في المركز ٣٧٦ عالما عربيا ، وحوالي ١٢٩٥ عالما من بلدان العالم الثالث ، ويتلقى ٥١ عالما ـ يعملون في هذا المركز ـ دعما ماليا من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، وجامعة قطر ، لمتابعة أبحاثهم العلمية .

الرياضيات ، والفيزياء ، والطب ، والأحياء ، فلن يستطيعوا أن ينكروا حقيقة أن العرب هم أول من أعطى للعلوم منهجيتها الحديثة ، في أساليب الملاحظة ، والتجريب ، والتدقيق ، يقول مؤرخ العلوم الكبير « جورج سارتون » « إن أهم الانجازات العلمية في القرون الوسطى كانت انبعاث تلك الروح التجريبية التي يعزى الفضل فيها إلى مسلمي القرن الثاني عشر » .

أسباب التخلف :

لو أخذنا في الحسبان - في عصرنا الحاضر - تلك الأعداد الضخمة من العلماء العرب ، والمسلمين المهاجرين ، والعاملين في الولايات المتحدة ، وأوربا ، وماقدموه ، ويقدمونه من النتاج لايمكن تجاهله في مجالات الطب ، والرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، لأدركنا اليوم مدى التأخر والتقهقر العلمي في بلادنا العربية والإسلامية ، ولاكتشفنا عاملا بيئيا طارئا ، يجب تصحيحه ، وعلاجه .

نستطيع أن نقول إن وراء هذا التخلف ثلاثة أسباب :

أولها افتقارنا إلى خطة قومية ، ملتزمة وحاسمة ، تسعى إلى اكتساب المعرفة ، والتوسع في مجالاتها ، كما حصل في اليابان مثلا إثر استعادة الامبراطور « ماتساشيتو » للسلطة عام ١٨٦٩ ، وقضائه على النظام العسكري والقبلي الذي كان سائدا إبان حكم « الشوجان » .

لقد كانت إحدى مبادىء الحكم الجديد الخمسة تتضمن العمل على تشجيع اكتساب المعرفة والعلوم ، بشتى الطرق والوسائل ، من أجل رفعة اليابان وتقدمها . والسبب الثاني هو إبعاد العلماء عن مشاريعهم ، فكافة المشاريع العلمية في بلادنا لايديرها العلماء أنفسهم ، ولا يشرفون عليها ، كما أننا لم نقم بأي جهد يذكر من أجل استدعاء الباحثين العلميين الممتازين ، أو الإبقاء عليهم ، ليشكل تواجدهم النواة الأولى في جامعاتنا ، ومعاهد أبحاثنا .

وثالث هذه الأسباب عدم وجود خطة واضحة للاعتماد على النفس في مجال التقنية ، وافتقارنا إلى خطة للتطور العلمي ، فليست هناك - حتى الآن - سياسة علمية واضحة في هذا المضمار .

بهذا نستطيع القول أن الضعف الذي نعانيه علميا وتقنيا يرجع - أساسا - إلى افتقارنا إلى الالتزام القومي الشديد بالسعي وراء العلوم ، والتقنية . قد يكون لنا سياسة خارجية محددة ، وخطة اقتصادية واضحة في التصدير والاستيراد ، وقد يكون لنا سياستنا الخاصة بنا في الدفاع والتسليح ، لكن للأسف - ليس لدينا - حتى الآن - خطة معلنة لاكتساب المعرفة ، والتقدم العلمي .

ومن مظاهر هذا التعتيم الحضاري خلو الساحة العربية من أي جهد تمويلي مسؤول على المستويين الحكومي والخاص ، فليس لدينا مؤسسات علمية عامة أو خاصة ، ومازلنا نعتبر العلوم نشاطا هامشيا في حياتنا ، ولم نحاول أن نجذب مثقفينا البارزين ، أو نغريهم بمناصب رفيعة تليق بسمعتهم العلمية ، كذلك لم نعط - ضمن خططنا المستقبلية للتقدم العلمي ، حتى العسكرية منها - أية أولوية من أجل بناء جيش قوي لأمتنا .

التعامل مع العلماء :

وعن مدى أهمية هذه الخطة وخطورتها نستطيع أن نستذكر تاريخ أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ونستلهمه ، تلك « الأكاديمية » التي أنشأها بطرس الأكبر قبل قيام الثورة الروسية ، وأوكل إليها مسؤولية زيادة عدد أعضائها ، وإغرائهم بشتى الطرق ، حتى أصبحت مطمح كل البارزين في كافة العلوم داخل الاتحاد السوفياتي ، وأصبحت تضم اليوم أكثر من ربع مليون عالم وباحث ، يعملون في المعاهد والمؤسسات التابعة لها ، ويحظى هؤلاء الأعضاء بكافة الامتيازات التشجيعية التي كفلها لهم النظام السياسي في بلدهم ، تلك الامتيازات التي يحسدهم عليها الآخرون .

وكما يقول (الأكاديمي) الروسي « مالكيف » : « لقد تحقق ذلك تقريبا عام ١٩٤٥ ، حينما انهار الاقتصاد الوطني بعد الحرب ، عندئذ قرر « ستالين » ضرورة تجنيد كافة المتفوقين - من رجال ونساء - في المجالات العلمية المختلفة ، متجاوزا بذلك كل العوائق (البيروقراطية) و (الروتينية) ، حيث أعلن حينئذ

عن زيادة أجور العلماء والباحثين العاملين في (الأكاديمية) والمعاهد التابعة لها إلى ثلاثة أضعاف ، وقد جاءت تلك الزيادة للعلماء دون الأطباء والمهندسين .

وربما تكون هناك بعض المشاكل في طريق التقدم العلمي داخل الاتحاد السوفياتي ، أو بلدان الكتلة الشرقية ، لكن الرعاية والنفقات ليست ـ حتما ـ ضمن هذه المشاكل .

كيفية إدارة المشاريع العلمية :

إن الانجازات العلمية تعتمد ـ أساسا ـ على النخبة المتعلمة ، وعلى الأفراد المتفوقين ، ومايجب أن نفعله هو أن نبحث عن هؤلاء ، ونجلبهم بكافة الوسائل ، والاغراءات ، وبالشروط الميسرة ، المقبولة من جانبهم ، لكي نحتفظ بهم ، ونبقيهم بين ظهرانينا . هذا ما يجب أن نوفره ، وندركه ، قبل أن نبحث عن عصر نهضة جديد للعلوم في بلادنا .

إن العلماء أنفسهم يجب أن يديروا هذه المشاريع . ولو نظرنا إلى كيفية إدارة هذه المشاريع في « اسرائيل » لذكرنا قول البروفسور « ديشاليت » ، مدير معهد وايزمن في القدس ، أمام إحدى لجان الأمم المتحدة ، حين سئل عن سياسة « اسرائيل » العلمية فأجاب قائلا : « لدينا سياسة بسيطة للتقدم العلمي ، تشتمل على عنصرين اثنين ، أولها أن العالم دائما على حق ، ويفضل أن يكون شابا ، وثانيهما منح هذا العالم مطلق الحرية في الحركة والسفر ، وحتى الهجرة في سبيل متابعة أبحاثه ودراسته ، لكن نحتفظ لنا بشرط واحد عليه قبل سفره ، وهو ضرورة اقترانه بفتاة يهودية ، قبل مغادرته ، فهي التي سترجعه إلى وطنه حتما ، فضلا عن احتفاظنا له بوظيفة مفتوحة حتى عودته » :

بهذه العقلية البسيطة المتفائلة يؤكد « ديشاليت » عددا من القناعات ، والحقائق العالمية ، الضرورية ، والحاسمة أيضا ، من أجل تقدم العلوم في العالم .

ليس للعلم وطن :

هذا القول يؤكد ضرورة إدارة العلماء لمشاريعهم وإشرافهم عليها ، واستبعاد كافة العقول المتحجرة المترمتة عنها ، كما يعني أيضا ضرورة التواصل الحي مع الدوائر العلمية العالمية ، فليس للعلم هوية واحدة أو وطن واحد ، لذا يجب الخروج من عزلتنا العلمية ، ووضع حد لهذا الاعتكاف المزمن ، فليس معقولا أبدا أن نجد معظم أقطارنا العربية والإسلامية تقتصر عضويتها على أربعة أو خمسة اتحادات عالمية ، باستثناء مصر التي تشارك في حوالي ١٥ اتحادا علميا عالميا ، كما أنه من المخجل حقا ألايوجد على أرضنا العربية أو الإسلامية مركز عالمي واحد للأبحاث العلمية ، لقد نظمت أقطارنا بعض المؤتمرات العلمية العالمية ، لكنها قليلة جدا ، أما السفر والترحال من أجل المشاركة في المؤتمرات العلمية فلا يزال ينظر إليه ـ في وطننا العربي والإسلامي ـ على أنه مضيعة للمال والوقت . وليست هذه هي العزلة الوحيدة التي يعاني منها علماؤنا ، بل هناك عزلة أخرى عن أخلاقيات العلوم العالمية ، فالفجوة مازالت واسعة بين الطريقة التي تدار بها مشاريعنا العلمية ، وطريقة التسيير الذاتي لهذه المشاريع بأيدي العلماء أنفسهم ، كما يحدث مثلا في الاتحاد السوفياتي .

كذلك مازالت أقطارنا تفتقر إلى الأنظمة المتطورة للجمعيات العلمية ، والمؤسسات المستقلة ، ذات المستوى الجيد ، وليس لدينا منظمات علمية مستقلة ، تشرف عليها جهات مستقلة فعلا وتمولها . وكذلك هناك خطأ (أكاديمي) في جامعاتنا ، فهي لاتركز على ضرورة الأبحاث ، ولا تحرص عليها ، كما هو الحال في الجامعات الأمريكية مثلا ، ثم ليس هناك معاهد أبحاث موجودة في الحرم الجامعي ، أو حق إعطاء مثل هذه المعاهد حق الارتباط والتبعية للجامعات . وهكذا يحرم شبابنا المتعلم من فرصة التواصل العلمي مع هذه المعاهد ، ومن فرصة اللقاء مع النخبة البارزة العاملة في هذه المعاهد ، والاحتكاك بهم ، والاستفادة منهم ، فهناك حاجة ملحة إلى رابطة علمية ، تضم كافة الأقطار العربية والإسلامية ، حتى ولو لم يكن الجو السياسي متوفرا في الوقت الحاضر .

- إن هذه الرابطة العلمية الواسعة كانت موجودة فعلا في تاريخنا القديم ، وفي عصوره الذهبية الرائعة ، حيث نجد علماءنا المسلمين في آسيا الوسطى كالبيروني وابن سينا يكتبون أبحاثهم باللغة

العربية ، وحيث نجد العالم الفيزيائي ابن الهيثم يتنقل بكل حرية من بلده (البصرة) والتي كانت تحت الحكم العباسي إلى مصر ، ويلقى في البلاط الفاطمي كل حفاوة وتكريم ، رغم تنافس النظامين (الفاطمي والعباسي) آنذاك ، ومثل هذا ماكان يلقاه في بغداد من تقدير واحترام ، فللعلم حرمة وقداسة أينما كان ، وحيثما حل ، بغض النظر عن الخلافات السياسية ، والدينية ، والطائفية التي كانت في ذلك الوقت من تاريخنا القديم أشد عنفا وحدة من نزاعاتنا ، وصراعاتنا الحالية ، في تاريخنا المعاصر .

إن تشكيل أية رابطة عربية للعلوم يتطلب قرارا واعيا ، واعترافا صريحا بهذا المفهوم الحضاري الانساني للعلوم ، من العلماء أنفسهم قبل حكوماتهم . إن طبقة العلماء في الوطن العربي والاسلامي مازالت تشكل فئة صغيرة متواضعة ، ومازالت جهودهم ونشاطاتهم العلمية ـ إذا ماقورنت بالانجازات العلمية للدول المتقدمة ـ قليلة ، فعلى العلماء أن يعملوا معا ، كيد واحدة ، وإلا تفرق أثرهم وجهدهم ، وأصبح الموقف حرجا . ومن أجل دعم هذا الاتجاه لا نستطيع أن نحلم فنرى حكوماتنا تصدر المراسيم الشجاعة الحاسمة من أجل حماية علمائنا ، ومنحهم الحصانة الكاملة لفترة ربع قرن قادم ، نرى خلالها تشكيل تلك الرابطة العلمية لكل العلماء العرب والمسلمين ، ونراهم يعاملون كفئة لها حصانتها وحمايتها ، بعيدا عن كل الصراعات الطائفية ، والسياسية ، والدينية ، كما كنا قديما في عصورنا الذهبية الغابرة .

العقلية العلمية والتقنية :

أما الملاحظة الأخرى الهامة ـ حول هذا الموضوع ـ فهي تتعلق بقضية النقل العلمي المصاحب للنقل التقني ، فهنالك كثير من الحكومات العربية تزعم أنها تشجع على احتواء هذه التقنية ، عن طريق استيراد التصاميم ، والآلات ، والأجهزة الفنية ، وأحيانا بعض المواد الخام ، وقد ظهر فشل هذا المسعى ، ومدى عبثيته حين فند البروفيسور « اولدهام » من معهد الأبحاث التابع لجامعة « ساسكس » خطأ هذا الأسلوب ، أثناء حضوره لأحد المؤتمرات العلمية التابعة للأمم المتحدة ، لقد كان « اولدهام » يعمل في (هونج كونج) كعالم (جيوفيزيائي) ، وأثناء عودته إلى (هونج كونج) زار « اسرائيل » ، وقد جعلته هذه الزيارة الخاطفة يدرك مدى اتساع الفجوة بين « اسرائيل » ، « وهونج كونج » ، فكلاهما شعبان من المهاجرين ، ويكاد يكون التشابه متقاربا من حيث عدد السكان والموارد الاقتصادية ، لكن (هونج كونج) حريصة جداً على اكتساب التقنية ، بينما « اسرائيل » ـ إضافة إلى اكتساب التقنية ـ حريصة على التقدم العلمي ، وعلى تطوير منجزات علمية . وربما يكون (أولدهام) قد أغفل بعض العوامل الأخرى التي ساعدت « اسرائيل » في هذا المضمار العلمي ، لكنه يبقى على حق حين أوضح التناقض بين العلم والتقنية .

توصيات لازمة

نحن بحاجة إلى خطة مطلقة معلنة ، تنتهج سياسة توسعية شاملة في العلوم ، وإلى سياسة واضحة للاعتماد على النفس في مجال التقنية القائمة على العلم ، كما يجب أن نؤكد هذه الخطة ، ونلتزم بأن التحول العلمي يجب أن يكون مصاحبا ـ في نفس الوقت ـ للتحول التقني ، ومن خلال خطة قومية ملتزمة كهذه يمكن توفير التدريب اللازم في المستقبل القريب ، لجيل كامل من شبابنا المتحفز في حقول العلم والتقنية ، وعن العدد المطلوب تأهيله علميا في بلادنا نورد هذا المثال من بريطانيا للمقارنة : يقوم مجلس الأبحاث العلمية هناك بتوفير أكثر من خمسة آلاف منحة سنويا ، للحصول على الدكتوراة ، بالإضافة إلى خمسة آلاف منحة أخرى تمنحها المعاهد المتخصصة (كمعهد الأبحاث الطبية ومعهد الأبحاث الزراعية) ، كما أن هناك أكثر من ألف منحة للدراسات والأبحاث لما بعد الدكتوراة في بريطانيا ، ذلك البلد الذي لايزيد عدد سكانه عن ربع سكان الوطن العربي .

كذلك يجب أن نفكر ـ على المدى البعيد ـ بإنشاء معاهد أبحاث راقية ، ذات كفاءة ، تكون تابعة لأنظمتنا الجامعية ومرتبطة بها ، كما يجب أن يمنح المدرسون الجامعيون الفرصة والتفويض الكاملين لتكريس نصف وقتهم للبحث العلمي ، ذلك البحث الذي سيقرر ـ فيمابعد ـ وضعهم الجامعي

والمهني ، كما هو الحال في الجامعات العالمية ، كما يجب أيضا أن نغير من طريقتنا الشكلية لإدارة العلوم ، وكيفية الإشراف عليها ، فالعلوم للعلماء المجتهدين . ونذكر بضرورة قيام مؤسسات علمية تنفق عليها بسخاء أطراف رسمية حكومية وجهات خاصة أيضا حتى يمكن ضمان توفير العديد من المنح الدراسية ، وإعطاء الفرص التعليمية لعلمائنا الشباب .

ويجب التأكد من أن كافة مشاريعنا العلمية ذات طابع عالمي ، تعطي وتأخذ ، مع توفير التمويل اللازم مهما بلغت النفقات ، وذلك من أجل الحفاظ على تواصلنا النشط مع القنوات العلمية العالمية ، وأن تكون مشاريعنا جزءا مكملا للعلوم الإنسانية ، بالإضافة إلى توفير حرية الحركة ، والأمن ، والقضاء على العوائق ـ مهما كانت ـ من أجل خلق هذه الرابطة العلمية الموحدة .

نحن مدعوون لدخول باب المعرفة ، والتسلح بالعلم ، فنحن أمة حباها الله بالإيمان ، وحثها على طلب العلم في كثير من آياته . يجب أن نخوض بحر العلم ليس لأن العلم أصبح يعني ـ اليوم ـ القوة ، والأداة الرئيسية للتقدم الاجتماعي والعسكري ، بل لأننا أعضاء في هذا المجتمع الدولي الكبير ، لم نقدم له جديدا كباقي الأمم ، لهذا نشعر بنظرات الاحتقار تطاردنا كالسياط من أمم أخرى سبقتنا ـ للأسف ـ في المجال العلمي في العصر الحديث . وفي هذا المجال نورد قول أحد الفائزين الأوروبيين بجائزة نوبل في الفيزياء : « هل تظنون أنه حق علينا أن نبقى نقدم العون والغوث والطعام والحياة لشعوب لم تقدم للمعرفة الإنسانية شيئا يذكر ؟»

وحتى لو لم يكن قد قال ذلك فإن الحرج يعترينا ، ويخدش حياءنا ، وكرامتنا ، عند زيارتنا لأي مستشفى ، وعند مشاهدة الأدوية المتقدمة ، والأدوات الطبية المتطورة من أجل إنقاذ الإنسان ، ونحن لم نقدم شيئا منذ اكتشاف (البنسلين) حتى يومنا هذا .

إن جميع هذه الإنجازات الطبية المعاصرة لم تشارك بصنعها ـ للأسف ـ يد عربية أو إسلامية واحدة . يجب أن تكون أهدافنا كبيرة ، وطموحة ، وواضحة ، بحيث نجاري ـ على الأقل ـ بريطانيا مع نهاية هذا القرن . إن الله قد وعدنا بأن لا يضيع عمل عامل منا .

مناهج المدارس :

إن افتقارنا الى البيانات والإحصاءات الدقيقة حول نسبة طلبة القسم العلمي في الوطن العربي والإسلامي يجعلنا لانخرج بتوصيات دقيقة حول هذا الموضوع الحساس ، ومع ذلك يبقى الانطباع العام بأن معدل الطلبة المسجلين في القسم العلمي لا يتجاوز الثلث أو الربع بالنسبة للمعدل العالمي في البلدان المتقدمة ، ففي الصين واليابان مثلا تعتبر المناهج العلمية مادة إلزامية لكافة صفوف المرحلة الثانوية ، وكذلك الحال في الاتحاد السوفيتي حيث تعتبر المواد العلمية كالفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات موادا إلزامية لجميع الطلاب حتى سن «١٦» ، بما في ذلك طلبة المعاهد الرياضية ، والموسيقية ، وحتى معاهد الحياكة للفتيات . وحسب معلوماتنا فليس هناك بلد عربي أو إسلامي واحد ينتهج هذا الأسلوب التربوي الصحيح . وهذا يوضح النسبة القليلة لأعداد الطلبة العلميين في بلادنا ، وهنا يأتي الدور التشجيعي حكوميا وأسريا ، لدفع أبنائنا للدراسات العلمية ، في كافة المراحل ، وعلى المستويين الثانوي والجامعي . ولعل نظرة واحدة على تجارب غيرنا من الأمم الناهضة قد يلهمنا الطريق الصحيح ، من أجل الانبعاث النهضوي الشامل لأمتنا العربية والإسلامية ، ولعل التجربة اليابانية خير مثال على ذلك .

دروس من التجربة اليابانية :

في عام ١٨٦٩ استولى الامبراطور « ماتساشيتو » على السلطة ، بعد قرون مظلمة من الصراعات والنزاعات الداخلية على يد القادة العسكريين « الشوجان » ، وكانت اليابان طوال هذه الفترة المظلمة التي امتدت إلى أكثر من ثلاثة قرون تعيش في عزلة تامة عن العالم ، حيث كانت السياسة اليابانية القديمة تتعمد محاربة النفوذ الأوروبي الدخيل وبخاصة الإرساليات التبشيرية ، ولكن مع بداية القرن التاسع

عشر بدأ النفوذ الأوروبي يتصاعد عالميا ، وبدأت اليابان تتأثر بذلك ، فأبرمت الاتفاقات الاقتصادية مع أميركا أولا ، ثم مع بعض الدول الأوروبية كبريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وهولندا . وهكذا بدأت العلاقة تنمو تدريجيا ، وتنسق بذلك البنية القديمة للمجتمع الياباني . وعندما وصل الامبراطور إلى السلطة كان همه الأوحد هو فك هذه العزلة القاتلة عن بلاده ، ثم احتواء المعرفة العالمية ، واكتسابها بشتى الطرق ، والوسائل . وعندما قررت اليابان استيراد التقنية الأوروبية ، والعلوم الحديثة ، كان ذلك بناء على خطة مرحلية ، بدأتها بمسح شامل للصناعات الهندسية في أوروبا وأميركا ، ثم خطت الخطوة الثانية باستدعاء الخبراء والعلماء الأجانب ، ثم بدأت بعد ذلك بإرسال البعثات التعليمية إلى الخارج ، وبعدها تم إنشاء الجامعات والكليات الصناعية بهيئات تعليمية أجنبية ، ثم تلا ذلك إنشاء معاهد الأبحاث ، وقد تأكد ذلك على لسان رئيس وزراء اليابان في عام ١٨٨٦ حين قال : « إن الطريق الوحيد لصيانة قوتنا القومية والحفاظ على مصلحة شعبنا هو العلم ، فبدونه ليس هناك ازدهار لأي أمة من الأمم » .

« ومن أجل مستقبل مزدهر ، ومن أجل أن نلحق بركب الأمم المتقدمة ، فليس أمامنا إلا أن نتسلح بالمعرفة ، ونطور من أسلوب أبحاثنا العلمية » . وقد بدأت التقنية الحديثة تصل إلى اليابان لتساهم في تطوير صناعة المناجم ، وصناعة النسيج ، وبدأ الاهتمام بالتعليم الصناعي والفني ، وتم إنشاء العديد من الكليات والمعاهد الصناعية ، حيث يتلقى الدارسون على أيدي مدرسيهم الأجانب بعض المواد التطبيقية ، كالهندسة والزراعة والطب والجيولوجيا ، جنبا إلى جنب مع المواد الأساسية ، كالرياضيات والفيزياء والأحياء .

لقد تم إنشاء كلية الهندسة في عام ١٨٧٣ ، وكان الهدف من وراء ذلك إعداد الكوادر اليابانية ، لوضع التصاميم والخطط اللازمة لتنفيذ سياسة التوسع العمراني والصناعي ، وتم إرسال الكثير من الخريجين إلى أوروبا لمواصلة تعليمهم ، لكي يباشروا بعد ذلك تدريس الجيل الثاني من إخوتهم اليابانيين . واستطاعت اليابان خلال عقدين من الزمان عن طريق مؤسساتها العلمية ومعاهد الأبحاث أن تكون ندا لأوروبا وأميركا مع نهاية القرن التاسع عشر .

إن التقدم العلمي والتقني كان العامل الحاسم وراء ذلك الازدهار وقتئذ ، وبروز اليابان كقوة عسكرية عظمى في الشرق الأقصى . لقد استطاعت اليابان عام ١٨٩٥ أن تهزم الصين ، وبعد ذلك بعشر سنوات في عام ١٩٠٥ استطاعت أن تهزم روسيا ، مسجلة بذلك أول هزيمة لدولة أوروبية على يد دولة خارج الحدود الأوروبية في العصر الحديث ، وبدأت اليابان مع نهاية القرن الماضي عصر الصناعات الثقيلة كالحديد والصلب ، ثم بدأت بتصنيع المركبات وبناء السفن والتوسع في صناعة المناجم ، ومع بداية القرن العشرين تحولت كافة الصناعات الثقيلة لاستغلال الطاقة الكهربائية .

وتأسس معهد الأبحاث الفيزيائية والكيميائية عام ١٩١٧ على غرار المعهد الامبراطوري الألماني الذي تأسس عام ١٨٨٧ ، وكان الخطوة الحاسمة على طريق التطور الذاتي للأبحاث العلمية اليابانية .

وأخذت معظم البحوث اليابانية وقتها تتجه اتجاها مغايرا للبحوث الأوروبية ، فقد تركز معظمها على التقنية العسكرية ، وفي الثلاثينيات من عصرنا الحاضر نمت القوة العسكرية اليابانية بشكل كبير جدا ، وبسرعة قياسية هائلة ، فقد استطاعت اليابان أن تضم إليها مقاطعة (منشوريا) ، واستغلت نشوب الحرب الأهلية عام ١٩٣٢ في الصين لتعلن الحرب عليها وتحتل معظم المدن الصينية الكبرى ، بما فيها العاصمة بكين وشنغهاي ونانكين . لقد كرست اليابان كل العلوم والتقنية لأغراضها العسكرية ، فقد صدر مرسوم التعبئة القومية عام ١٩٣٨ ، وتم إنشاء التعبئة للعلوم سنة ١٩٤٠ ، وقد استطاع العالم الياباني « يوكاوا » أن يقدم إنجازا علميا في الفيزياء في فترة الثلاثينيات ، وكان أول ياباني يفوز بجائزة نوبل للعلوم ، رغم أن أبحاثه في تلك الفترة العسكرية كانت تمثل الاستثناء وليس القاعدة ، ثم جاء الهجوم المباغت عام ١٩٤٢ على (بيرل هاربر) ليحطم الأسطول الاميركي المتواجد هناك ، ثم دخلت أميركا الحرب ، وكانت الهزيمة المعروفة للعسكرية اليابانية ، وفي عام ١٩٤٥ كانت اليابان أمة مهزومة انحدرت قوتها الانتاجية إلى العشر ، وظهرت مخاوف من انتشار

المجاعة والأوبئة لكنها استطاعت مرة ثانية أن تقف على قدميها ، عن طريق تحسين النظام الزراعي وتحسين نوعية الأسمدة والحبوب وه ميكنة ، الزراعة ، وقد أدى ذلك - فيما بعد - إلى زيادة الطاقة الانتاجية للبلاد ، الأمر الذي أدى أيضا إلى نمو القطاع الصناعي في الستينيات .

وكما حدث في الماضي اعتمدت اليابان على استيراد التقنية الغربية مرة أخرى ، لكن لاستغلالها في الصناعات المدنية ، وبخلاف التجربة السابقة فقد انفردت الشركات الخاصة بتمويل المشاريع العلمية الجديدة ، واكتفت الحكومة بدور الإشراف والمراقبة ، مع وضع القوانين التي تحد من ملكية الأجانب للمؤسسات الوطنية اليابانية ، كان التطبيق الجريء للتقنية هو المحور الأساسي للنمو الصناعي الهائل ، ثم عادت الحكومة لتساهم من جديد فأنشأت مؤسسات علمية للأبحاث منها وكالة العلوم والتقنية عام ١٩٥٦م ، ومجلس العلوم والتقنية عام ١٩٥٩ ،

وقد تفرع عن تلك الوكالات العديد من مختبرات الأبحاث ، كمعهد أبحاث الطاقة الذرية سنة ١٩٥٦ ، والمركز القومي لعلوم الفضاء عام ١٩٦٤ ،

ورغم أن التقارير الدولية تزعم أن اليابان تعاني بعض الصعوبات في بعض مجالات التطور العلمي ، إلا أن هذا لا ينفي حقيقة أن اليابان هي إحدى الدول الست المتقدمة في العالم ، جنبا الى جنب مع الاتحاد السوفياتي ، وأميركا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وألمانيا الغربية . وتأتي اليابان في المركز الثالث بالنسبة لقيم المبالغ والنفقات المخصصة للبحث العلمي بعد أميركا والاتحاد السوفياتي ، وكذلك بالنسبة لعدد العاملين في الأبحاث العلمية .

يلاحظ المراقبون بأنه رغم هذا الزخم العلمي الهائل فإن الاختراعات اليابانية أقل مما يجب ، وللتغلب على ذلك تحاول اليابان جاهدة تطوير الأبحاث المتعلقة بالطاقة النووية في المجالين الانشطاري والاندماجي معا ، وتطوير الأقمار الصناعية لاستخدامها في مجالات الاتصال والارصاد الجوية . فما الذي حول اليابان من دولة فقيرة تعاني من الانقسامات ، والنزاعات الدموية الداخلية ، الى دولة عصرية متقدمة ؟ وهل يمكن اعتبار اليابان أنموذجا يمكن تقليده والاستفادة منه ؟ أم أن التجربة اليابانية هي محض تكريس ذاتي للشخصية اليابانية المتميزة ؟ .

طرفة في عالم جاد :

لاشك أن العوامل الذاتية الكامنة في صلب أمة تلعب دورا قياديا في قضية التطور الاجتماعي والحضاري ، لكنها ستبقى همجية الطابع إذا لم تأخذ بمنهجية العلوم الإنسانية المتطورة . وبعد هذا السرد التاريخي الجاد عن تجربة جادة نورد هذه الطرفة : في إحدى لجان المؤتمر الإسلامي المنعقد عام ١٩٧٣ تقدمت باكستان بفكرة إنشاء مؤسسة إسلامية علمية على غرار مؤسسة (فورد) حجما وتمويلا ، وبرأسمال قدره « ١٠٠٠ » مليون دولار ، وبعد ثماني سنوات من التمحيص والتدقيق والدراسة جاءت البشرى بالإعلان عن مولدها ، لكن بتعديل بسيط تقهقر الرقم الموعود من ١٠٠٠ مليون إلى ٥٠ مليونا !

نورد هذه الطرفة دون (رتوش) ، ودون شماتة ، لعل سذاجتها تدفعك أيها القاريء العربي - اذا لم تكن قد ضحكت بعد - الى قراءة هذه الدراسة مرة أخرى وبطريقة مجهرية . □

الماء .. من أنت ؟

● يقول الأديب الحالم انطوان دي سانت اكزو بيري : « أيها الماء ليس لك طعم ، ولا رائحة ، وليس بالامكان وصفك . كم يتلذذون باحسائك وهم لا يعلمون من أنت . من المستحيل القول بأنك ضروري للحياة ، لأنك الحياة ذاتها » .

الإسلام والتراث الإسلامي

بقلم : الدكتور محمد احمد خلف الله

« التراث الاسلامي ليس مقدسا ولا ملزما ونحن نملك حق تعديله ، نأخذ منه ما يوافقنا ونرفض منه ما لا يتفق معنا . . والقول بغير ذلك تعسف وتزمت لا معنى له » .

الموضوع ، هو موضوع الساعة ، وبخاصة عندما تتحدد هذه الخدمة بتبصرة القراء لمواضع أقدامهم ، عندما يأخذون في الاستجابة لتلك الدعوة التي تأخذنا من كل جانب ، وهي الدعوة الى العودة الى الشريعة الاسلامية عند ممارستنا للحياة .

الاسلام والتراث الاسلامي عنصران متغايران .

وواو العطف التي تقع بين العنصرين هي المؤشر الذي يشير الى هذه المغايرة ، من حيث أننا نعلم جميعا من دراساتنا اللغوية أن العطف يقتضي المغايرة .

التراث الاسلامي إذن غير الاسلام ، على الرغم من أن العلاقة بينهما علاقة عضوية ، من حيث انه لا يمكن أن يوجد تراث إسلامي من غير أن يكون هناك إسلام .

إن الاسلام هو المحور الأصيل الذي يدور من حوله التراث .

والاسلام ـ فيما نعلم جميعا ـ هو الديانة السماوية التي أوحى بها الله سبحانه وتعالى الى النبي العربي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وطلب إليه أن يبلغها الناس ويبينها لهم ، وأن يدعوهم الى الايمان بها وممارسة الحياة على أساس منها .

والتراث الاسلامي ـ فيما يجب أن نعلم ـ هو ماورثناه عن الأسلاف من نتاج عقولهم في تفاعلها مع الإسلام باعتباره ديانة سماوية .

بين الدين والتراث :

والتغاير بين الاسلام والتراث الاسلامي ، يكاد ينحصر في مقالنا هذا في أمرين اثنين :

الأول : هو المصدر الذي صدر عنه كل من الاسلام والتراث الاسلامي .

الثاني : القوة التي يملكها كل من الاسلام والتراث الاسلامي في إلزام الناس إلزاما دينيا بممارسة حياتهم اليومية وحياتهم العامة على أساس مما جاء به ، أو جاء فيه .

ومصدر الاسلام فيما نعلم جميعا هو المولى سبحانه وتعالى ، وهو باعتباره ديانة سماوية لايمكن أن يكون إلا وضعا إلهيا . ومن هنا كانت له قداسته .

إن العقل البشري لا يمكن أن يضع دينا ، والذي يملكه العقل البشري هو أن يفسر هذا الدين ويبينه

للناس حسب تفاعله معه واستجابته له .

وضع الدين من حق الله وحده ، والذين يذهبون إلى غير ذلك يكونون من المعتدين على حقوق الله .

ومصدر التراث الاسلامي - حسب ماسبق من قول - هو العقل البشري ، العقل الذي تفاعل مع الاسلام باعتباره ديانة سماوية .

والتفاعل مع الاسلام ليس يلزم أبدا أن يكون موقفا مع الاسلام - فقد يكون موقفا ضد الإسلام - ومع ذلك نعتبره من التراث الاسلامي باعتباره من ردود الأفعال مع الاسلام .

ونحن حين نقول بذلك إنما نمضي مع سنة من سنن القرآن الكريم . فقد سجل القرآن الكريم أقوال المخالفين للاسلام والمنكرين له والرافضين دعوته ، وجعلها من القرآن الكريم ، ونقرؤها نحن اليوم على أنها من القرآن الكريم .

ليس يلزم في التراث الاسلامي أن يكون كله موقفا مع الاسلام ، ومن هنا كان من حقنا أن نعد منه المواقف التي جاءت ضد الاسلام ، أو المواقف التي تناقش الاسلام مناقشة عقلية .

والالحاد على هذا الاساس جزء من التراث الاسلامي ، إنه موقف فكري ناجم عن التفاعل مع عنصر أو أكثر من عناصر الإسلام ، إنه رد فعل ، وليس فعلا .

وإنه من هنا لا يمكن أن يدخل التراث الاسلامي في دائرة التقديس . إن التراث الاسلامي غير مقدس .

المقدس في الاسلام هو ماجاء عن الله سبحانه وتعالى ، ويلحق به ماكان من بيان رسول الله ﷺ له .. البيان العملي والبيان القولي .

أما غير ذلك فليس مقدسا .

غير ملـــزم :

هذا ماكان من أمر المصدر . أما مايكون من أمر قوة الالزام الديني التي يملكها كل من الاسلام والتراث الاسلامي ، فنراها على الوجه التالي :

الذي يملك قوة الإلزام الديني هو مايكون دينا ، هو مايكون مقدسا . أما غير الدين فيملك قوة إلزام أخرى هي الالزام الأدبي .

وقوة الالزام الديني تقتضي الخضوع لأوامر الدين من حيث أنها أوامر إلهية . أما قوة الالزام الأدبي فلا تقتضي الخضوع من حيث انها أوامر بشرية تحتمل الخطأ والصواب ، وقوة الإلزام فيها تدور مع المصلحة ، أو مع ماتملك من قوة وصل الأبناء بالآباء والأجداد .

إنه من هنا يجب التمييز بين ماهو من الدين ، وماهو من تراث الآباء والأجداد ، وعلى أساس من هذا التمييز يتحدد موقفنا من الالزام والالتزام .

الشريعة والتشريع :

والآن ننتقل الى كيفية التعامل مع كل من الاسلام والتراث الاسلامي حين ندعى لممارسة الحياة على أساس من الشريعة الاسلامية .

والخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها في سبيل هذا التعامل ، هي التمييز بين الشريعة الاسلامية والتشريع الاسلامي ، من حيث ان الشريعة الاسلامية يمكن حصرها فيما يكون مصدره وحي الله الى النبي العربي محمد بن عبدالله ﷺ ، وبيان رسول الله ﷺ لهذا الوحي .. أي يمكن حصر الشريعة بما فيه نص صريح واضح قطعي الدلالة ، وارد مورد التكليف .

أما التشريع فلا يمكن حصره فيما فيه نص من حيث انه يتجاوز ذلك الى مالا نص فيه . وهذا الذي لم يرد فيه نص هو الذي يكون محل الاجتهاد .. أي هو الذي يجتهد العقل البشري في وضع المعايير والموازين له .

والقدماء من علماء أصول الفقه قد ذهبوا الى أن مصادر التشريع أربعة : الكتاب والسنة وهما النص ، والاجماع والقياس وهما الاجتهاد .

والقدماء من علماء أصول الدين قد ذهبوا إلى أن الاسلام الموحى به من الله سبحانه وتعالى ، والمبين بسنة النبي عليه الصلاة والسلام هو عقيدة وشريعة ، وذهبوا أيضا إلى أن الشريعة قسمان : قسم هو العبادات ، وقسم هو المعاملات .

ونحن لن نتجاوز ما قال به علماء أصول الفقه من حيث مصادر التشريع ، ولا ماقال به علماء أصول الدين من حيث التقسيم ، عندما نتحدث عن كيفية

التعامل مع الاسلام والتراث الاسلامي ، أو التعامل مع التشريع الاسلامي الذي تدعى الى ممارسة حياتنا اليومية وحياتنا العامة على أساس منه .

وبادىء ذي بدء يجب أن نقرر أن ماكان مصدره النص لا ينسخه ولا يغيره أو يبدله إلا نص آخر صادر عن الذي صدر عنه النص الأول . . أي صادر عن الله سبحانه وتعالى ، ومبين بسنة رسول الله ﷺ .

إن الذي صدر عنه النص هو الذي يملك حق تعديله . كما يجب ان نقرر أن ماكان مصدره اجتهادات العقول البشرية يمكن أن تلغيه وتستبدل به غيره العقول البشرية ، اعتمادا على نفس الأصل التشريعي وهو أن الذي وضع التشريع هو الذي يستطيع تعديله وإلغاءه .

واعتقد أن المسألة قد وضحت تماما في ذهن القارىء ، وأنه يسلم بأن العقل البشري يستطيع التعامل مع ماكان مصدره الاجتهاد ، وما يمكن تسميته بالتراث الاسلامي مما لم يرد فيه نص ، بتعديله أو تغييره .

إننا قد ورثنا هذا اللون من الثقافة عن الأسلاف ، وأصبح بهذا الميراث ملكا لنا ، ومن حقنا ـ الذي لا يصح أن يدور في شأنه جدل أو حوار ـ أن نتصرف فيما نملك تصرف المالك ، وألا يحول بيننا وهذا التصرف أي حائل .

إن الشرط الذي يجب توفره هو أن يكون هذا التصرف لحساب المصلحة العامة ، أما حين يكون على حساب المصلحة ، فإنه يصبح من قبيل السفه ، وعندئذ يجب أن نحول بين السفيه وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة .

حقنا في التصرف فيما ورثناه عن السلف من تراث إسلامي حق لامشاحة فيه ، ولايصح أبدا أن يكون محل جدل أو حوار .

ولقد قال علماء أصول الفقه من قبل : إن الاجماع ينسخ الاجماع ، وقالوا شيئا آخر هو : تغير الاحكام بتغير الأزمان . . أي أن لكل زمان شأنه في تحديد المصلحة التي تليق والتي لا تليق ، وأنه من حق العقل البشري أن يجتهد في وضع حكم جديد يتلاءم والعصر الذي تبث فيه المسائل التي لا نص في شأنها .

إننا نملك هذا التراث الاسلامي ، ونملك في الوقت ذاته حق تعديله ، وليس لأحد مهما يكن شأنه أن يحول بيننا واستخدام هذا الحق .

وما نسميه اليوم بالقانون الوضعي هو نفس ماكان يسميه القدماء بالفقه الاسلامي ، وبخاصة فيما لم يرد فيه نص قطعي الدلالة .

لا اجتهاد مع نص :

هذا هو الموقف فيما نجم عن اجتهادات العقول البشرية فيما لا نص فيه ، وفيما نسميه بالتراث الاسلامي ، أما كيفية التعامل فيما مصدره الوحي ، وفيما نسميه بالاسلام من حيث هو ديانة سماوية ، فإن موقفنا منه هو التالي :

لا حق لنا ـ من حيث الأصل ـ في إدخال أي تعديل أو تغيير فيما جاء به الوحي عن الله سبحانه وتعالى ، من حيث ان الذي وضع هذا النص هو الذي يملك حق نسخه أو تعديله .

ولقد كان من الممكن ـ لو لم يكن الاسلام آخر الأديان السماوية ، ولو لم يكن محمد ﷺ خاتم الانبياء ـ أن يدخل الله سبحانه وتعالى نسخا وتعديلا في الاسلام : الأمر الذي وقع بالنسبة للأديان السماوية الأخرى ، والذي وقع بالنسبة للاسلام أيام نزول القرآن .

لقد كان هناك نسخ ، وتدرج في التشريع ، كما كان هناك من قبل استبدال بعض العناصر الدينية في الأديان السابقة ، بعناصر جديدة وردت في الاسلام .

لاحق لنا في إدخال أي تعديل على الحكم الذي ورد فيه نص صريح قطعي الدلالة وارد مورد التكليف ، وهذا هو الأصل التشريعي .

لكن هذا لن يحول بيننا وأن ندرس القضية على أساس آخر كي نمكن لها في عقل القارىء الكريم .

الأساس الآخر هو قدرة العقل البشري في إدخال التعديلات ، فهل يستطيع ذلك . . أو هو غير قادر على ذلك أصلا ؟

وسوف نمضي في ذلك على أساس مما ذهب اليه علماء أصول الدين من أن الاسلام عقيدة وشريعة ، ومن أن الشريعة عبادات ومعاملات .

١ ـ لا اجتهاد من العقول البشرية فيما يخص المعتقدات من حيث أنها من الغيبيات ـ ولم يكن عقل النبي ﷺ يستطيع ذلك ـ فما بالنا بالعقول الأخرى .

وقد مضى القرآن الكريم على أن الغيب مما خص الله سبحانه وتعالى به نفسه . وطلب القرآن الكريم الى النبي ﷺ أن يقول للمعارضة : « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسني السوء » .

لا عمل للعقل البشري مع المعتقدات الدينية من حيث هي غيبيات ، ومرجعه في ذلك ليس إلا النص الذي جاء به الوحي من السماء .

يملك العقل البشري تفسير النص وتوضيحه ، لكنه لا يملك أبدا حق نسخه أو تعديله .

إن موقف العقل البشري من ميدان المعتقدات هو التسليم بها كما جاء بها النص ، ثم الايمان أو عدم الايمان ، مع تحمل المسئولية .

وعلى ذكر المسئولية ، يحسن بنا أن ننبه الى أن التكليف بالايمان لا يكون إلا عندما يكون الانسان عاقلا بالغا رشيدا ، أي عندما يكون أهلا لتحمل المسئولية ، وقادرا على تحمل المسئولية .

إنه من هنا نستطيع القول بأن الحرية الدينية مكفولة تماما مع الاسلام . فالإنسان هو الذي ينظر ويفكر ويتدبر ويختار ، وعلى أساس من هذا الاختيار تكون مسئوليته أمام الله يوم القيامة ، يوم لاتغني نفس عن نفس شيئا ، ويوم لا تزر وازرة وزر أخرى . من أجل هذه الحرية الدينية التي كفلها الاسلام للانسان ، لا يصح ان تكون هناك تبعية دينية « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » صدق الله العظيم .

٢ ـ ولا اجتهاد للعقول البشرية مع التشريع المسمى بالعبادات ، من حيث ان هذه العبادات هي حق الله على عباده . حقه الذي فرضه هو وأوجبه على الناس .

ولقد حدد الله سبحانه وتعالى الكيفية التي تؤدي بها كل عبادة فرضها على الناس . ولقد بين النبي ﷺ هذه العبادات للناس ـ بينها بيانا عمليا وبيانا قوليا ـ كي يؤديها الناس على خير وجه .

فالعبادات من حيث الزمان تؤدي في أوقاتها المحددة . . وذلك واضح تماما في الصلاة ، وفي الصوم ، وفي الحج .

والعبادات من حيث المكان تؤدى في الأمكنة المخصصة لها . . وذلك واضح بصفة خاصة في عبادة الحج ، وفي التوجه نحو الكعبة في الصلاة .

وكذلك الحال في العدد من مثل عدد الركعات في الصلاة ، وعدد الأيام في الصوم ، وفي الحج .

وليس على العقول البشرية إلا الالتزام بما فرضه الله وأوجبه على الناس بالكيفية التي حددها لهم ، وبينها لهم رسول الله ﷺ .

إن الذي فرض هو الذي يملك حق التعديل ، ولقد كان رسول الله ﷺ يسمي ما أضافه للعبادات من زيادات بالسنة . . تمييزا لها عن الفرض .

٣ ـ إن المجال الوحيد الذي يمكن أن يكون للعقل اجتهاد فيه هو مجال المعاملات ، من حيث هي علاقة بين الناس بعضهم ببعض أو بعضهم بالحيوانات والمزروعات والأشياء .

وعمل العقل هنا قد تحقق من قبل فيما لا نص فيه . ونستطيع نحن في عصرنا هذا ان نحققه ، فكل جديد لم يرد في شأنه نص ، من حقنا ان نضع له الأحكام أو المعايير والموازين . من حقنا أن نضع له قانونا أو لائحة ، وليس يلزم في ذلك أبدا أن نأخذ بأقوال للقدماء .

ان الجديد في ايامنا هذه هو من مستلزمات حياتنا ، وليس من حق أحد أن يفرض علينا مستلزمات حياة غير حياتنا .

ليس فيما لم يرد فيه نص مشكلة ـ لا عند القدماء الذين اجتهدوا ، ولا عندنا ـ في حالة استخدامنا لحقنا في التشريع لكل جديد .

إن المشكلة التي فرضت نفسها على القدماء، هي نفس المشكلة التي تفرض نفسها علينا اليوم : ما العمل حين يتجاوز الزمن النص ، وحين يعمل الزمن عمله في تغيير المصالح التي تتطلب تغيير الاحكام ؟

هل نتمسك بالنص مع تغير المصلحة بفعل

الزمن ، أو نتمسك بالمصلحة ونضع تشريعا جديدا ؟

وفي مثل هذه الحالة الأخيرة ماهو شأن النص الذي أصبح لايمثل مصلحة ؟

العقل قبل النقل :

لقد مضى بعض علماء أصول الفقه من أمثال الفقيه الحنبلي الطوفي ، إلى أنه اذا عجز العقل البشري المؤمن عن التوفيق بين النص والمصلحة تقدم المصلحة . . اي بوضع تشريع جديد يتلاءم والمصلحة .

وحجته في ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد راعى مصلحة عباده في تشريع المعاملات ، وهذا يقتضي ان تكون المصلحة العامة هي الأساس في وضع التشريعات .

وكي تتضح الصورة في ذهن القاريء ، نضرب له المثل التالي الذي فعل الزمن فيه فعله ، وجعل الاستمساك بالنص فيه اضرار بالصالح العام .

التشريع السماوي في غنائم الحرب وردت فيه نصوص من أهمها ماورد في سورة الأنفال - « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير »آية ٤٠ والنص واضح تماما في كيفية قسمة الغنائم بين الله ورسوله وبقية المقاتلين.

ونظام قسمة الغنائم قد قام على اساس من النظم القتالية التي كان معمولا بها يومذاك ، وهي ان يكون القتال تطوعا ، وان يكون التجهيز للقتال من شأن الجند الذين يقاتلون .

في ايامنا هذه جاء الزمن بجديد ، وتغيرت نظم القتال ، وأصبح الاستمساك بالنظم القديمة مما يضر .

الجند الآن مجبرون على الخدمة الوطنية ، وليسوا بالمتطوعين المختارين . وتجهيز المقاتلة بالمعدات العسكرية ليس من شأن الجند وانما هو من شأن الدولة ، من حيث ان الأفراد يعجزون عن الحصول على هذه المعدات القتالية التي تعجز بعض الدول عن دفع أثمانها للحصول عليها ، كالطائرات ، والدبابات ، والاساطيل والصواريخ وما الى ذلك .

إن المصلحة اليوم في الأخذ بهذا الجديد ، والا ضاع الجند وضاع معهم الوطن وضاع الاسلام أيضا .

والأخذ بالجديد يقتضي تعديل نظام توزيع الغنائم ، ومعنى هذا عدم الأخذ بالنظام القديم ، ومعناه أيضا إخراج آية الغنائم من ميدان الممارسة .

إن الدولة هي التي تأخذ اليوم الغنائم وهو العدل ، إنها التي تنفق على الحرب من ألفها إلى يائها ومن حقها أن تأخذ بعض ما أنفقت .

وليست هذه هي المسألة الوحيدة التي اتى الزمن فيها بجديد ، والذي يتطلب فيها الجديد عدم إعمال بعض التشريعات السماوية .

لقد أتى الزمان بجديد في مسائل الرق ، ولقد ساهم القرآن الكريم في العمل من اجل تحرير العبيد ، ولقد اصبح الناس اليوم أحرارا او كادوا ، واقتضى هذا تعديل بعض التشريعات ، وبخاصة عند النص على ان تكون الكفارة عن الذنب فك رقبة ، أو التحرير عن طريق المكاتبة .

وكذلك الحال بالنسبة الى جريمة الزنا التي لا يمكن اثباتها اليوم عن طريق الشهود الذين يرون العملية رأي العين .

ان فن المعمار اليوم يحول بين الشهود ورؤ ية واقعة الزنا ، من حيث ان البنايات اليوم تشتمل على شقق تغلق بالمفتاح ، وكل شقة تشتمل على غرف تقفل بالمفتاح ، وليس في طاقة اي شاهد أن يجتاز هذه الحواجز ليرى رأي العين ، ثم يشهد بما رأى .

وهكذا نجد مع الجديد الذي جاء به الزمن ما يدفع الى تغيير الاحكام بتغير الأزمان ، كما قال علماء الأصول .

آفاق للاجتهاد :

وليس كل جديد يأتي به الزمن يوقف عمل بعض الايات القرآنية الكريمة ، فانما هناك جديد يعمل على العكس من ذلك ، ويفتح لنا باب فهم الآيات الكريمة ـ للاستفادة منها ـ على مصراعيه .

إن تقدم العلم واختراع التقنية قد مكنا الانسان من السيطرة على الطبيعة ، ومن استثمار الموارد الطبيعية لخير البشرية على افضل وجه ممكن .

ونضرب في ذلك المثل التالي الخاص بتسخير البحر للانسان ، حيث يقول الله تعالى : « وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه .. الخ » .

فنحن اليوم ندرك من معاني هذه الآية أكثر مما كان يدرك الاقدمون ، ونستفيد من تسخير البحر اكثر مما كان يستفيد الاقدمون ، وذلك بفضل العلم والتقنية .

اننا نستفيد من العلم والتقنية في صيد البحر واكل اللحم الطري اكثر مما كان يستفيد الاقدمون .

وإننا نستخرج من الحلي ، ونصنع منها الاشكال الكثيرة ، بفضل العلم والتقنية اكثر مما كان يفعل الاولون .

والحال مع البواخر اظهر وأبين من كل ما تقدم ، فبفضل العلم والتقنية تستخدم البواخر في شتى المجالات ، تستخدم في نقل الركاب والبضائع ، وفي الأعمال الحربية وفي الغوص الى قاع البحار .

إن ما يأتي به الزمن مما يغير بعض الأحكام لاقبل لأحد بمواجهته ، وليس أمامنا إلا التسليم به والاستفادة منه .

****

وننهي هذه الكلمة بالتركيز على ان الاسلام هو الدين الذي جاء من عند الله ، وان مصدره على هذا الاساس هو الله سبحانه وتعالى ، وان عمل الرسول ﷺ كان تبليغه الناس ، وتوضيحه لهم ، ودعوتهم الى الايمان به ، وممارسة الحياة على اساس منه .

والدين مقدس باعتباره وضعا إلٓهيا ، وملزم للناس إلزاما دينيا .

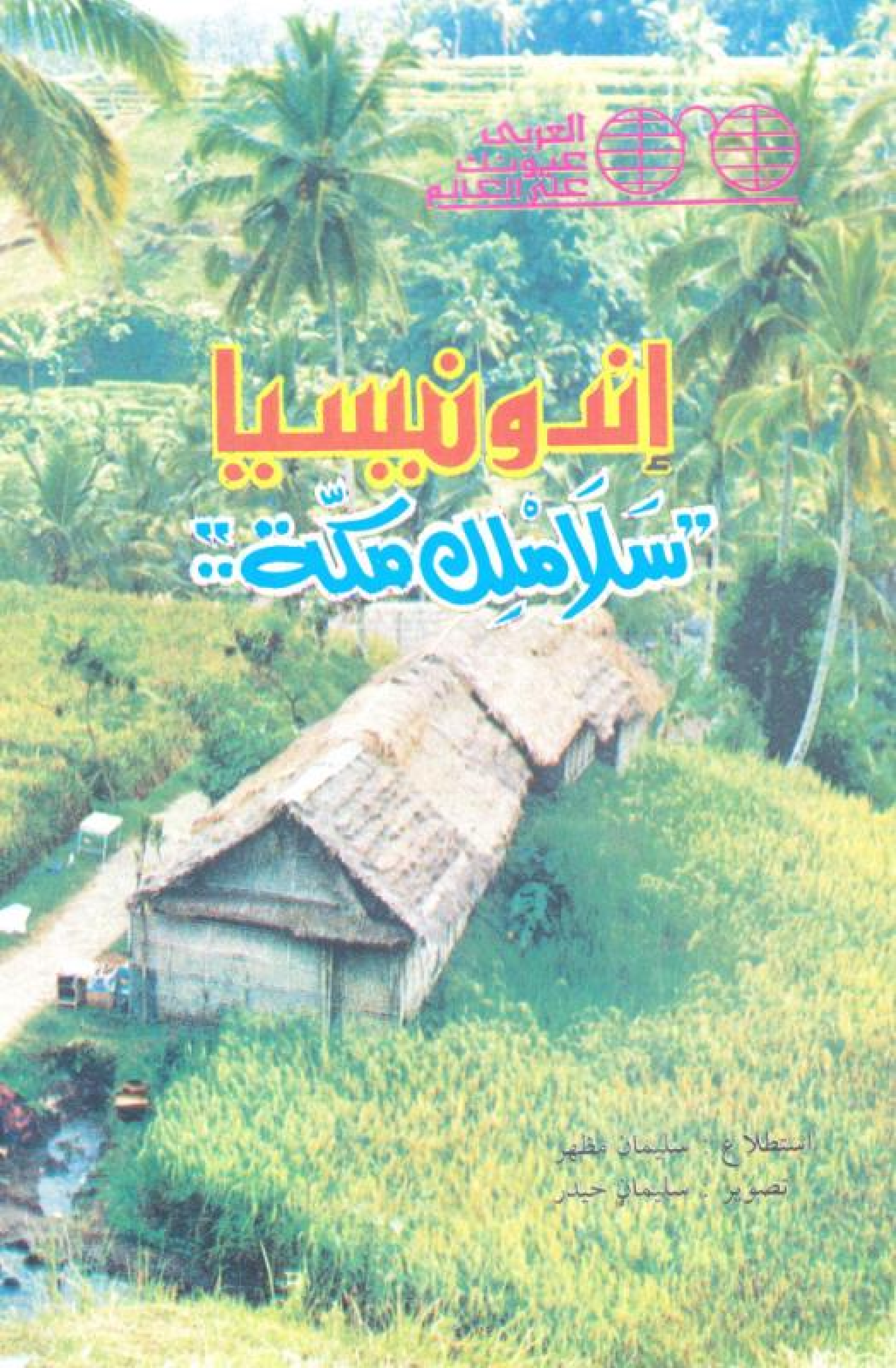
اما التراث الاسلامي فهو الألوان الثقافية التي ورثناها عن الأقدمين ، والتي أنتجتها عقولهم البشرية ، والتي قد تتفق مع الاسلام وقد تختلف معه .

إن التراث الاسلامي وضع بشري ، ومن هنا لم يكن مقدسا ، وكان الالتزام بما فيه التزاما أدبيا ليس غير .

وانه من حقنا أن نتعامل معه كما نتعامل مع كل موروث أصبح ملكا لنا . □

● كان الحطيئة الشاعر من أكثر الشعراء الذين ذموا البخل ، ومن العجيب أنه كان معروفا بهذه النقيصة ، وقد عرف عنه هجاؤه لأضيافه . يروى أن رجلا يدعى ابن حمامة مر بالحطيئة يوما وهو جالس بفناء بيته ، فقال له : السلام عليك ، فقال الحطيئة : قلت ما لاينكر ، فقال ابن حمامة : إني قد خرجت من عند أهلي بغير زاد ، فقال الحطيئة : ما ضمنت لأهلك قراك ، فقال : أفتأذن لي أن آتي ظل بيتك فأتفيأ به ؟ قال الحطيئة : دونك الجبل يفيء عليك ، قال : أنا ابن الحمامة فقال الحطيئة : انصرف وكن ابن أي طائر شئت .

● قال عمر بن عبدالعزيز : « اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك ، وهو التوحيد ، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك ، وهو الكفر ، فاغفر لي ما بينهما » .



العربي
عيونك
على العالم

إندونيسيا

"سلامِك مكّة"

استطلاع: سليمان مظهر

تصوير: سليمان حيدر



« سلاملك مكة » . . أو الصالة الأمامية للمدينة المقدسة . . اسم يعرفه ويتمنى أن يزوره في سومطره كل مسلم من بين ١٥٠ مليون يدينون بالاسلام في الأرخبيل الاندونيسي ، بجزره التي تتجاوز ١٣٦٦٠ جزيرة . . ومن لا يسعده الحظ بهذه الزيارة فإنه يتوجه مع آلاف الحجيج ليقف عند عتبات أول مسجد أقامه أولياء الله التسعة في جزيرة جاوه ، أشهر جزر أندونيسيا التي يسكنها خمس عدد المسلمين في العالم الاسلامي .

أمام لوحة محفورة بدقة على أحد جدران قصر السلطان « خليفة الله عبد الرحمن هامنجومونو التاسع » في العاصمة القديمة « يوجياكرتا » بقلب جزيرة جاوة الأندونيسية » وقفنا نستمع الى الدليل وهو يحكي قصة اللوحة ويقول :

نحن مسلمون . . ولكن في أعماقنا ظلال من الهندوكية التي كان يؤمن بها أجدادنا . . وهم يحكون أن « بوديستا » كان ملكا طاغية من « الباندادوا » ، وكان يطل شامخا في زهو من فوق عرشه ،وقد امتلأت رأسه بهدير صاخب وكأنه يقول لنفسه : « أنا أقوى من السماء وأعظم من الأرض . . أنا أعلى من جميع الكائنات . . أنا الكل في الكل . . أفعل ما أريد . . وأصنع كل ما يخطر لي . . لأني أنا حقيقة الحقيقة . . أنا بوديستا » .

واقترب منه رجل صالح ، ينصحه أن يخفف من غلوائه ويهديه الى الطريق السوي . ولكن الطاغية دفعه في خشونة وزراية . وضرب رأسه بقسوة وهو يهتف في سخرية :

ـ اغرب عن وجهي . . أسرع . . امض في طريقك عليك اللعنة . .

والتفت إليه الرجل المقدس وهو مسطوح على الأرض ينزف دما ، وقال في صوت هادىء :

ـ الحق الحق أقول لك . . سأذهب سريعا أما انت فستبقى . . ولسوف تهيم على وجهك في الأرض حتى يغفر لك الرب الذي في السماء . . وحتى تدرك أن هناك من هو أكبر منك وأعظم . . وأن قدرك مكتوب فوق رأسك الذي تشمخ به على العالمين . . !

ومنذ تلك اللحظة ، انصبت اللعنة على بوديستا ، فقد أسلم الرجل الروح وارتفع سريعا . . أما هو فقد بقي طويلا . . طويلا جدا . . لمئات كثيرة من السنين . . يتمنى أن يموت ولا يستطيع .

والتقى آخر الأمر برجل نزل بالبلاد قادما من الأرض المقدسة ، هو أول الدعاة المسلمين ، وأحد أولياء الله التسعة المشهورين ، فاقترب منه متوسلا :

ـ أيها الرجل الصالح . . أريد أن أموت . . وقد بلغت من الكبر عتيا . . ولكن مقدر علي ألا أموت حتى أتمكن من قراءة ما هو مكتوب فوق رأسي . . فهلا استطعت أن ترسلني الى الموت ؟

وانحنى الولي الصالح رأس بوديستا وقرأ ما هو مكتوب ثم قال يخاطبه :

ـ سأقرأ وعليك أن تردد خلفي . الله اكبر . . الله اكبر . . أشهد أن لا إله إلا الله . . وأشهد أن محمداً رسول الله . .

وعندما قالها بوديستا من أعماق قلبه . . انتهت عذاباته . . واستطاع أن يموت !

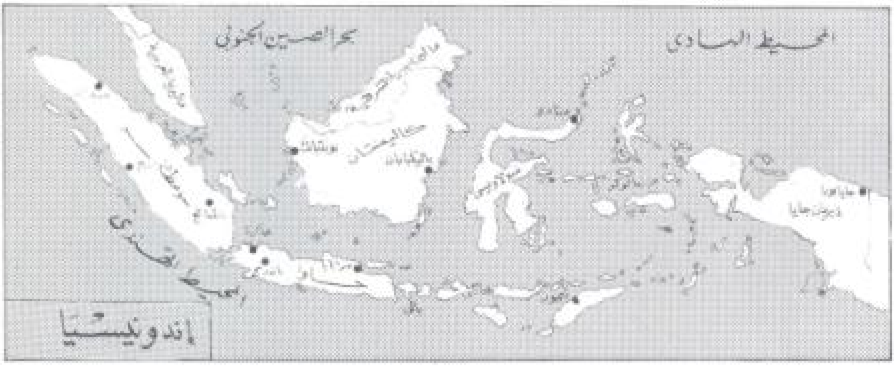
خمس العالم الاسلامي

قال لنا الدليل وهو يشير الى لوحة بوديستا إذ يحني رأسه أمام الولي الصالح ويردد الشهادتين :

ـ لهذا فإن من عادتنا في جاوه حين يحضر أحدنا الموت ، رجلا كان أو امرأة ، وحتى يستطيع أن يسلم الروح في سلام ، أن نهمس في أذنه بالشهادتين . .

وتلك حقيقة يؤمن بها أهل جاوه . . أكثر الجزر الأندونيسية ازدحاما بالسكان . إذ تضم أكثر من ٦٥٪ من مجموع سكان البلاد ، البالغ عددهم ١٦٥ مليون نسمة ، وتعتبر بلادهم خامس دول العالم من حيث عدد السكان بعد الصين والهند والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

والأرخبيل الأندونيسي الذي تتناثر جزره الزبرجدية الخضراء في أحضان المحيطين الهادي والهندي على امتداد خط الاستواء ، يشكل جسراً بين



● خريطة الأرخبيل الاندونيسي وجزره الرئيسية التي تشكل جسرا بين المحيطين الهادي والهندي حيث يعيش أكبر تجمع اسلامي في العالم .

المحيطين يبلغ طوله من الشرق الى الغرب ٦٠٠٠كم .. كما يشكل جسراً آخر بين قارتي آسيا شمالا واستراليا جنوبا لمسافة ٢١٠٠كم .

تامان ميني

ولكن .. هل تستطيع أن ترى أندونيسيا كلها مع اتساعها الشاسع في يوم واحد ؟!

الاجابة المنطقية تقول إن ذلك في حكم المستحيل . ومع ذلك فقد فعلناها .. وشهدنا كل انحاء الأرخبيل .. جزره ومدنه وبيوته وناسه ومزارعه ومظاهر ثقافته وأزيائه وتقاليده في جولة واحدة .. !!

حدث ذلك ونحن نطل من نوافذ (التلفريك) الكهربائي الذي دار بنا فوق « تامان ميني » .. وتعني « الروضة المنمنمة لأندونيسيا الجميلة » .. !

تعال بنا نحلق فوق أندونيسيا المصغرة ..

المشهد العام تعرضه خريطة طبيعية واسعة تصور الارخبيل كله ، ممتدا في بحيرة صناعية على هيئة « ماكيت » لجزر أندونيسيا ، تحيط بها ساحة عرض شاسعة في روضة مساحتها ١٢٠ هكتارا تضم ٢٧ مبنى ، كل منها يمثل محافظة من مجموع المحافظات التي تتشكل منها الجمهورية ، وتتركز فيها نماذج حية تمثل أشكال البيوت الأصلية التقليدية لمختلف المناطق والعشائر والجزر . وكل بيت من البيوت مزين بديكورات تعبر عن المظاهر الثقافية والأثرية والأزياء الشعبية ، يرتديها رجال ونساء وأطفال من كل عشيرة أو قبيلة ، وهم يمثلون كيف تسير الحياة وكيف تجري التقاليد والأعراف ، مع عروض لمختلف الوان الثقافة والموسيقا والفن الشعبي ..

ونطل الى الخريطة الطبيعية تحتنا .

إن أكبر الجزر في الجزء الغربي هي سومطرة ، يليها كالمنتان وهي القسم الأندونيسي الذي يشكل أكثر من ثلثي جزيرة بورنيو ثم تأتي بعد ذلك جزيرة جاوه . أما باقي الجزر فهي سلاويسي ، وايريان جايا ومجموعات أخرى من الجزر الصغيرة أبرزها جزر لومبوك وبالي وتيمور ومولوك .

أكثر ما يلفت النظر هو تباين أعراق السكان ، وتعدد أشكال المباني التقليدية في مختلف مناطق البلاد والتي تتباين حسب القبائل والعشائر في الجزر المتناثرة .

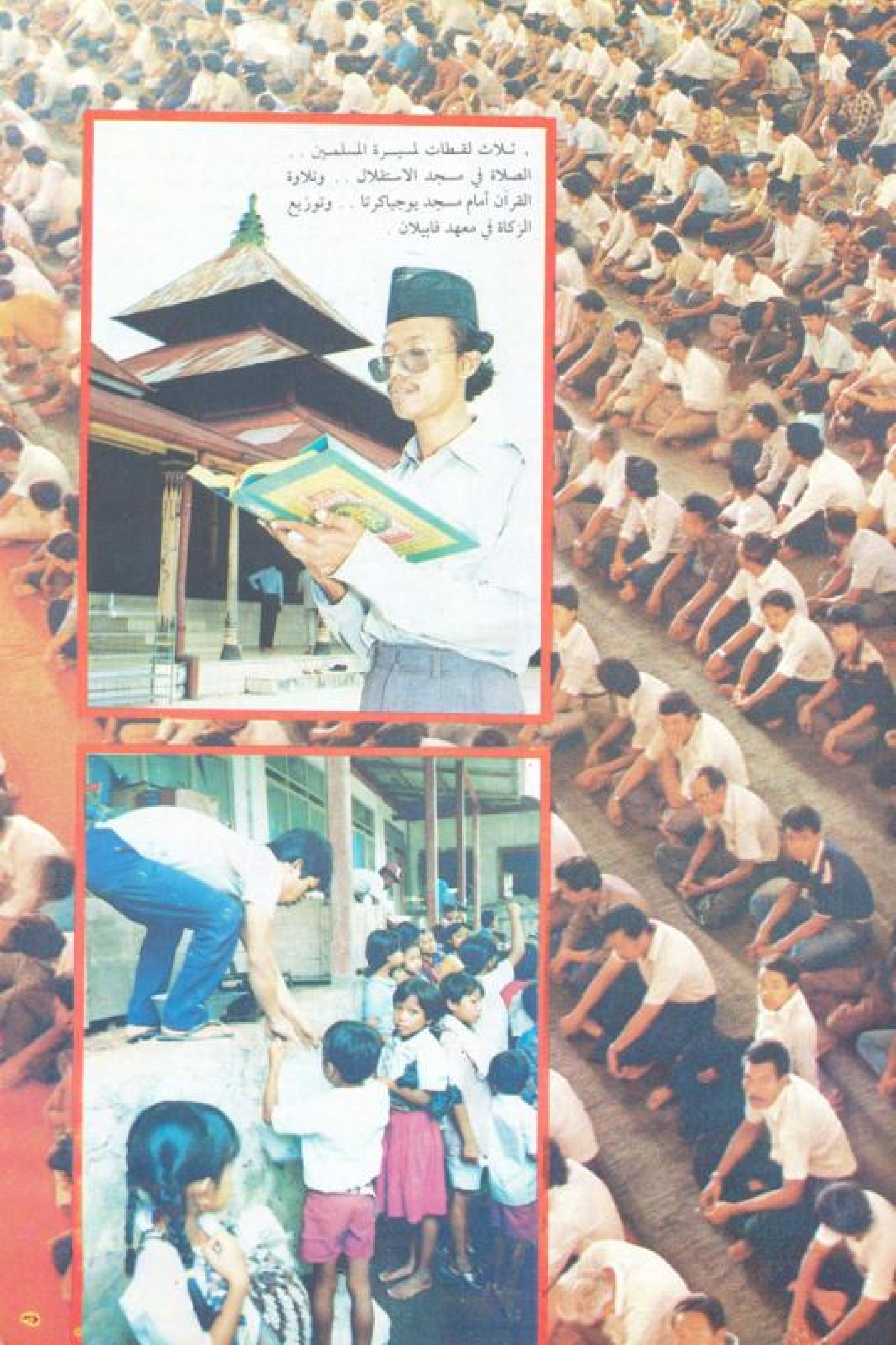
وهنا .. في « تامان ميني » نستطيع أن نلتقي بنماذج حية من كل لون من هذه الألوان .

قال لنا مرافقنا ونحن ندور بين المباني التقليدية ونتعرف على أبناء كل إقليم :

نحن أمة تنتمي أصولها من الناحية العرقية الى الجنس الملايوي . ولكن هذا لا يمنع من وجود مجموعات عنصرية متعددة تصل الى حوالي ٣٠٠ قومية ، أهمها الصينيون الذين يعتبرون من اكبر الاقليات في البلاد . فقبل قيام الجمهورية الأندونيسية ، ومنذ القدم ، استوطنت الجزر امم متباينة القوميات والمجتمعات، كل منها تشكل وحدة تضامنية ذات شخصية خاصة متميزة بمنطقتها ولغتها وفنونها وعاداتها وتقاليدها وفنها المعماري .

إن جميع الديانات الكبرى في العالم لها معتنقوها في





. ثلاث لقطات لمسيرة المسلمين . .
الصلاة في مسجد الاستقلال . . وتلاوة
القرآن أمام مسجد يوجياكرتا . . وتوزيع
الزكاة في معهد فايلان .

أندونيسيا . فالدين الاسلامي يحظى بحوالي ٩٠٪ من مجموع الشعب الأندونيسي وينتشرون في جميع انحاء البلاد ، ويبلغ البروتستانت والكاثوليك حوالي ٦٪ . اما الهندوكيون فيوجدون بوجه خاص في جزيرة بالي وتبلغ نسبتهم ٢٪ من السكان ، ويقدر البوذيون بحوالي ١٪ ، اما الباقي وهم حوالي ١٪ فمن القبائل اللادينية أغلبهم في كالمنتان بجزيرة بورنيو .

ومع ذلك ، وبرغم كل هذا التباين في المجتمع والعقيدة . فإن الدولة تضمن حسب نص الدستور حرية كل مواطن في اعتناق أي دين وممارسة العبادة وفق تعاليمه . وتقدر الدولة كل الاديان وتحترمها دون تفرقة او تمييز ، مع تسامح ديني يترافق مع منع جميع أشكال الدعاية ضد الأديان .

مع وزير الشئون الدينية

احسسنا بكل ذلك ونحن نلتقي بالناس في الشوارع والمكاتب والبيوت والمساجد والمزارع والحقول والاسواق .

الوجوه متباينة الملامح ، ولكن الطيبة والحب والتعاطف والوداعة هي طابع الجميع ، مهما اختلفت اللهجات والسمات ، وأيا كانت العقائد والديانات .

هذه الصورة بدت لنا واضحة حين التقينا بالحاج مناور شاذلي وزير الشئون الدينية - وكان قبل سنوات سفيرا لأندونيسيا في دولة الكويت - قال الوزير :

الحقيقة ان كل دولة في عالمنا المعاصر ، لها قاعدتها الدستورية كأساس لدولتها .. قاعدة تنبع من مبادىء حياة شعبها .. والأساس الذي قامت عليه دولة اندونيسيا هي « البانتشاسيلا » والتي تقوم على خمسة مبادىء :

الربانية المتفردة ، والانسانية العادلة ، والوحدة التي لا تتجزأ ، والمشاركة الشعبية الموجهة بالحكمة والشورى ، والعدالة الاجتماعية لكل افراد الشعب .

ويوضع أساس الربانية المتفردة في المرتبة الأولى من الأسس والمبادىء الخمسة ، وهو اعلان واعتراف من كل مواطن بأن الحرية التي نالها إنما كانت بفضل الله ورحمته .

ونسأل الوزير : والمسلمون .. ما هو موقفهم من تلك المبادىء ؟

يجيب : المسألة لها تاريخ .. فحين انعقدت جلسات لجنة الاعداد لاعلان الاستقلال عام ١٩٤٥ ووصلت في مناقشتها الى موضوع الدولة القادمة ، وقع خلاف عميق بين ممثلي التيارات الاسلامية والتيارات غير الاسلامية . وقد اراد اصحاب الاتجاه اللااسلامي ان يجعلوا العلمانية اساس الدولة . ورفض المسلمون بشدة وأصروا على أن يكون الاسلام هو أساس الدولة .. ووصلت المفاوضات الى طريق مسدود . وظهرت في الأفق احتمالات رفض الاستقلال أساسا من جانب المعارضين . فرأى ممثلو المسلمين أن يرضوا بمبادىء البانتشاسيلا اساسا ، اعتقادا منهم أنه اذا انعقد مجلس تأسيسي منتخب فسيكون بامكانهم إنجاح هدفهم باتخاذ الاسلام دينا للدولة . وهكذا تم تجنيب الشعب والبلاد مخاطر الفرقة والتنازع والصراع .

ثم هناك مسألة هامة .. كيف يمكن أن يعترض المسلمون على المبادىء الخمسة ، وما من مبدأ منها إلا ويؤكده الاسلام ويفسره ؟ .. فهل هناك ربانية متفردة مثل التوحيد في الاسلام ؟ وهل هناك إنسانية أروع مما أرساه الاسلام ؟ وهل هناك تمسك بالشورى أبلغ مما نص عليه الاسلام ؟ وهل هناك عدالة اجتماعية أنقى وأعظم مما جاء به الاسلام ؟

ذلك هو ماقاله الوزير : .. أما الذي لم يقله صراحة وسمعناه في شبه همس ، فهو أن آلاف الجزر التي تشكل الجمهورية متباعدة عن بعضها البعض في مساحات شاسعة ، وأغلبها يزخر بالثروات الطبيعية ولا يدين أهلها بالاسلام .. وكل هؤلاء معرضون للوقوع تحت إغراءات الانفصاليين والاستعماريين والمبشرين الذين يستهدفون الانقضاض على الأطراف المتباعدة .. وكان هؤلاء يصورون للأهالي أن إعلان الدولة جمهورية إسلامية سيفقدهم حقوقهم الدينية ، ويعرضهم للاضطهاد والاكراه على دخول الاسلام بالقوة .. وهكذا كان لابد من نزع الفتيل المتفجر ، واجتذاب السكان تحت مظلة واحدة يلتقي حولها الجميع .

فوضى الدعوة والتبشير

نقلب صفحات تقرير عنوانه « الوجه الاسلامي لاندونيسيا » قدمه لنا مدير الشئون الدينية الحاج عبدالقادر باسلامه .. ونقرأ :

عاشت الجزر الأندونيسية تحت نير الاستعمار الاسباني والبرتغالي والهولندي لأكثر من ٣٥٠ سنة ، تخللتها فترات ثارت فيها مخاوف المسلمين نتيجة الجهود المدعومة للمبشرين بين أوساط المسلمين بطرق

سومطرة وعجل الجاموس

وننطلق الى سومطرة . . حيث كانت بداية انتشار الاسلام في المنطقة كلها .

على متن طائرة « الجارودا » وصلنا الى « بادانج » العاصمة الاقليمية لسومطرة الغربية . . مدينة وديعة هادئة تبدو وكأنها تنهض من سبات عميق على فجر ندي يستعد لاستقبال الشروق ، مع نسمة رخية طيبة ينعم بها اكثر من ربع مليون من السكان ، تنطق سيماهم بالطيبة وتشع وجوههم بالرضا ، وتتميز تصرفاتهم بالكرم ، وهم ينطلقون في الشوارع الواسعة الى أعمالهم ومتاجرهم وأسواقهم ، يسير أكثرهم على الاقدام ، ويستقل بعضهم « الدوكار » التي تجرها الخيول ، أو يركبون الدراجات الهوائية ذات المظلة والمقاعد الخلفية التي تتسع لشخصين . .

هؤلاء السكان هم بعض جماعات « مينانج كابو » المزارعين البارعين والحرفيين المتميزين والتجار الاكفاء ، والذين جعلوا مدينتهم ذات طابع معماري فريد يؤكد عراقتها ، ويحكي عن وقائع تاريخ حافل ، ويتحدث عن ثقافة صوفية ممتعة تعطيها نكهة روحية حالمة .

والحقيقة ان أول ما يلفت النظر في بادانج وماحولها من مناطق سومطرة الغربية ، هو ذلك الطراز الفريد من المباني . . فأطراف الاسقف العليا المشيدة أفاريزها من قشور جوز الهند ، اقيمت على هيئة قرنين مدببين . وهذا الشكل المميز انما هو تعبير عن تكريم مجتمعات المينانج لعجل جاموس،يحكون انه كان سبب انتصارهم على جيرانهم الجاويين . . !

تحكي الاسطورة أن غزاة من جزيرة جاوة تحدوا أهل سومطرة الغربية في مصارعة للثيران ، وجاءوا معهم بثور ضخم صعب المراس يعرفون أنه لا يمكن أن يغلب . هذا فقد أثار دهشتهم أن يجدوا السومطريين وقد جاءوا الى حلبة المصارعة بعجل جاموس صغير لينازل الثور الضخم . وعندما ظهر العجل على الحلبة لم يلتفت إليه الثور وأهمله . . فهو مجرد عجل لا يستحق الاهتمام . ولكن العجل الذي كانوا قد تركوه جائعا لعشرة أيام وربطوا نصلا حادا بين قرنيه ، اندفع مسرعا الى الثور ظنا منه أنه أمه ، وانحنى بلهفة الجائع ليلتهم ضرعها . وبينما العجل يحك رأسه بحثا عن الضرع ، انغرس النصل الحاد بقوة في بطن الثور الذي سقط مضرجا في دمائه . .

وانتصر السومطريون . . ومن أجل أن يحتفلوا



● الحاج مناور شاذلي . . وزير الشئون الدينية . . وحديث عن البانتشاسيلا .

وأساليب متطرفة ، بالاضافة الى رواسب من النمط السياسي لعهود الاستعمار ، وأخطاء غير محسوبة العواقب من بعض ابناء البلاد .

وحدث في هذه الفترة أن ظهرت حركة باطنية ، حاولت بصلف إحياء ما كان قد اندثر من الهندوكية الجاوية . وقد تجرأت هذه الحركات على إبراز نفسها والمطالبة بالاعتراف بها ككيان ديني مستقل ، ومعاملتهم على قدم المساواة مع الأديان الأخرى . .

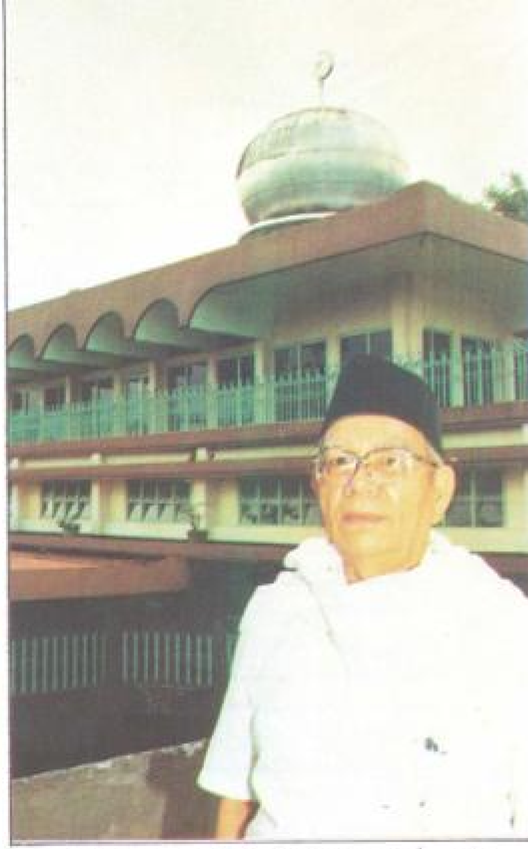
كما لجأ بعض المبشرين الكاثوليك الى الدعوة لدينهم بطريقة فيها شبهة استغلال بؤس الغير وحاجته ، لابتزاز عقيدته والعمل على ارتداده عن دينه ، في سبيل حفنة أرز أو زجاجة دواء أو قطعة قماش ، مما أثار موجة من السخط والغضب .

لذلك قررت الحكومة حفاظا على الأمن والنظام ، وللحد من هذه الفوضى ، منع ممارسة الدعوة الى دين من الأديان مع أشخاص اعتنقوا دينا آخر من قبل . .

وقرر وزير الشئون الدينية عام ١٩٧٨ عالم شاه منع استخدام وسائل الاغراء واستغلال حالات البؤس والفاقة والعوز لدى الآخرين باستخدام التفوق المادي ، كما منع توزيع المنشورات والمطبوعات المروجة لدين من الأديان بين من يتبعون دينا مخالفا .

وكذلك منع اقتحام البيوت في غيبة رجالها باعتبار أن ذلك يعتبر جنحة يعاقب عليها مرتكبها حسب قوانين العقوبات .





● مبنى أكاديمية علوم القرآن في بادانج .. بسومطرة الغربية .. وأمامه نائب المدير ..

● طراز فريد من المباني على هيئة قرنين مدببين تكريما لعجل الجاموس المنتصر على الجاويين .. ونظرة طفل من قبائل الميننانج كابو (الى اليسار) أما أفاريز وجدران المباني وديكورها فمن قشور جوز الهند الملونة (الى اليمين) .

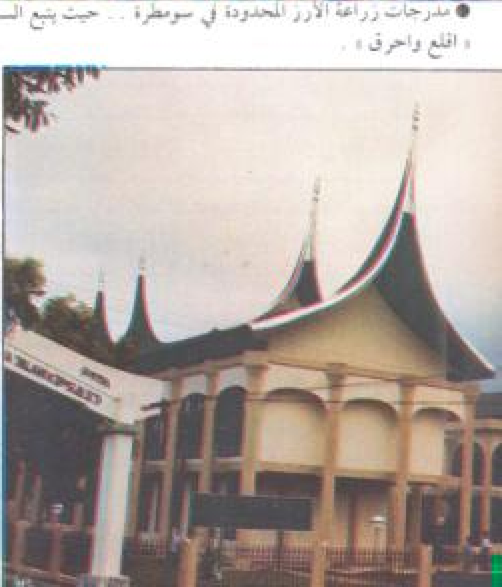






● مدرجات زراعة الأرز المحدودة في سومطرة .. حيث يتبع السكان وسائل الزراعة التقليدية على طريقة « اقلع واحرق » .





بهذا النصر الذي رد الجاويين خائبين الى جزيرتهم ، أطلقوا على انفسهم اسم « مينانج كابو » .. وتعني « العجل المنصور » .. كما خلدوا ذكرى انتصارهم بأن شيدوا سقوف بيوتهم على شكل جبهة عجل الجاموس بقرنيه المدببين .. !

اقلع واحرق

لم تكن تلك هي زيارتنا الأولى لسومطرة ، فقد سبقتها جولة زرنا خلالها مدينة « ميدان » بأقصى الشمال الشرقي ، كما زرنا باليمبانج ولامبونج في أقصى الجنوب الشرقي ، وهي كلها تشكل مراكز الثقل لاقتصاديات اندونيسيا . فهنا منابع وحقول النفط التي يستخرج منها ثلاثة أرباع إنتاج البلاد من الذهب الأسود ، الذي جعلها عضوا عاملا نشطا في منظمة الأوبك .

وإذا كانت الجزر الاندونيسية تضم اكثر من ٣٠٠ بركان بعضها خامد منذ القدم وبعضها مايزال نشطا حتى الآن ، فإن سومطرة وحدها يبرز على سطحها تسعون بركانا منها ١٥ بركانا نشطا ، واذا كانت ظاهرة البراكين تنتج عادة تربة خصبة وبحيرات وينابيع حارة ، مع وفرة في الزراعة والانتاج الزراعي ، وما يتبع ذلك من زيادة في كثافة السكان والعمران كما يحدث في جزيرة جاوه .. الا ان ذلك لا ينطبق كثيرا على جزيرة سومطرة . فهنا لا تتميز اللافا البركانية بمواد ومعادن تزيد من خصوبة الأرض ، حيث تسود التربة الحمراء ، الا في بعض المناطق مثل منطقة الباتاك الشمالية حول بحيرة توبا ومنطقة مرتفعات مينانج كابو في الغرب . ومن هنا فان التربة تعجز عن زراعة الارز والمحصولات المماثلة بشكل واسع ، وتحتفظ السفوح والمرتفعات بالغابات الطبيعية . ولمواجهة فقر الخصوبة والحاجة الى مزيد من زراعة المحاصيل الغذائية ، فقد اتبع السكان وسائل الزراعة التقليدية على طريقة « اقلع واحرق » فلجأوا الى اقتلاع اشجار الغابات واحراقها في الفترات التي تسبق هطول الأمطار ، حتى تتغذى الأرض بالخصوبة مع تنظيم طرق الحرث والري ، وأمكن بذلك زيادة المساحة المزروعة لتنتج المزيد من حاصلات الحبوب والتبغ والبن والمطاط والشاي والكاكاو والأرز وزيت النخيل ، الى جانب الثروة الخشبية الطائلة من التاك والبامبو والموجني والخيزران وانواع اخرى كثيرة من انتاج الغابات . على ان ابرز ما تتميز به سومطرة هو ثراؤها بالمعادن مثل القصدير والبوكسيت والذهب والفضة والفحم ، بالاضافة الى الانتاج الوفير من النفط والغاز الطبيعي واليوريا والمخصبات . وقد شهدنا ذلك بصورة واضحة في باليمبانج ، كما زرنا مصانع الاسمنت في جريسك وبادانج حيث ادخلت تحسينات كبيرة على الأفران من أجل مزيد من الانتاج بطاقة تصديرية كبيرة .

كان ذلك بعض ما شهدناه ، ونحن نخترق سومطرة خلال جولتنا التي رافقنا فيها الدكتور فوزان المحمدي نائب رئيس الجامعة الاسلامية الحكومية ، والتي بدأناها من بادانج ثالثة كبرى المدن في سومطرة .

على بعد ستة كيلومترات من وسط بادانج - المركز الاقليمي لجماعات مينانج كابو - نجد انفسنا وسط الميناء الصاخب المزدحم في « تيلوك بايور » ، وغير بعيد منه نجد المتحف حيث أجمل المعروضات من الصناعات اليدوية . ونعبر النهر الذي يقطع المدينة لنقف عند المعبد الصيني فوق التل المطل على المحيط في مشهد رائع بديع ..

ونبتعد قليلا في الطريق الساحلي على الخليج الى تابان ثم الى المناطق الداخلية لنصل الى « سونجاي بنو » المدينة الرئيسية في قلب المنطقة . وعند « جونبج توجو » نقف امام بحيراتها الزرقاء الصافية ونطل الى اخر اراضي الاخشاب في سومطرة الجنوبية ، حيث تمرح الفيلة والنمور والفهود والاورانج أوتان ، حيث لا تزال تعيش القبائل اللادينية من عبدة الأرواح ، مثل جماعات كوبو وساكاي ، التي تتجول بين المستنقعات وتصطاد الطيور وتأكل لحوم القردة ..

ونصل في النهاية الى مدينة « بوكيتنجي » التي تبرز وسط الخضرة الجبلية على ارتفاع ٩٢٠ مترا فوق سطح البحر .. هذه المدينة هي العاصمة القديمة لعشائر « المينانج كابو » الجو بارد مشمس والناس يتميزون باللطف والطيبة .. والسوق مكان ممتع لشراء المصوغات والهدايا والصناعات التقليدية .. وهو يزدحم بالمزارعين والحرفيين والبائعين والمشترين دون ارتفاع اصوات أو مساومة عند البيع والشراء .. !

سلاملك مكة

لعل أبرز ما لفت نظرنا خلال جولتنا هو مدى الحرص والتمسك بالتعاليم الدينية والروحية في سومطرة . وعرفنا الكثير عن مسيرة الاسلام من اللواء المهندس ازور انس محافظ سومطرة الغربية . ومن



● الدراجات الهوائية والبخارية .. هي وسيلة المواصلات الرئيسية التي يستخدمها الجميع .. وخاصة الطالبات عند العودة من المدرسة .

خلال حديثنا مع مرافقنا الدكتور فوزان المحمدي أثناء زيارتنا للجامعة الاسلامية الحكومية والتي اقيمت سنة ١٩٦٦ وتضم كليات اصول الدين والشريعة والتربية والآداب والدعوة الاسلامية .

كانت سومطرة اول جزر اندونيسيا اسلاما ، نتيجة موقعها على الطريق التجاري بين الهند وفارس وشبه جزيرة العرب من ناحية ، وبين الصين وما يليها شرقا من ناحية اخرى . وكان التجار الهندوس قبل ذلك يترددون على تلك البلاد فنقلوا اليها طابعهم الهندوكي . ولكن ما لبث التجار العرب المسلمون القادمون من شبه الجزيرة العربية ان نجحوا في نشر دينهم بالجزيرة عن طريق الموعظة الحسنة ، بالقول والسلوك والعلاقات الاجتماعية .

كانت أول المناطق التي وصل اليها الاسلام في العام ٥٥ الهجري (٦٧٤م) في عهد الخلفاء الراشدين هي شواطيء سومطرة الشمالية ، وأول مملكة إسلامية قامت في اندونيسيا وفي منطقة جنوب شرق آسيا كلها هي مملكة بيرلاك عام ٨٤٠م (٢٢٦ هـ) في شمال سومطرة ، وأول ملوكها هو السلطان علاء الدين سيد مولانا عبدالعزيز شاه . وبعد مملكة بيرلاك قامت عام ١٢٠٥ (٦٠٢ هـ) مملكة « آتشيه » الاسلامية التي ترسخت علاقاتها ببلاد العرب وتوطدت فيها أحكام الشريعة الاسلامية ، وكان أول ملوكها السلطان جيهان شاه الذي قدم الى سواحل آتشيه داعيا الى الاسلام ، واستطاع أن يدخل الكثيرين في هذا الدين ، وتزوج أميرة من أهالي البلاد ، فرحبوا به ملكا عليهم وتلقب بلقب « سري بدوكا سلطان » .

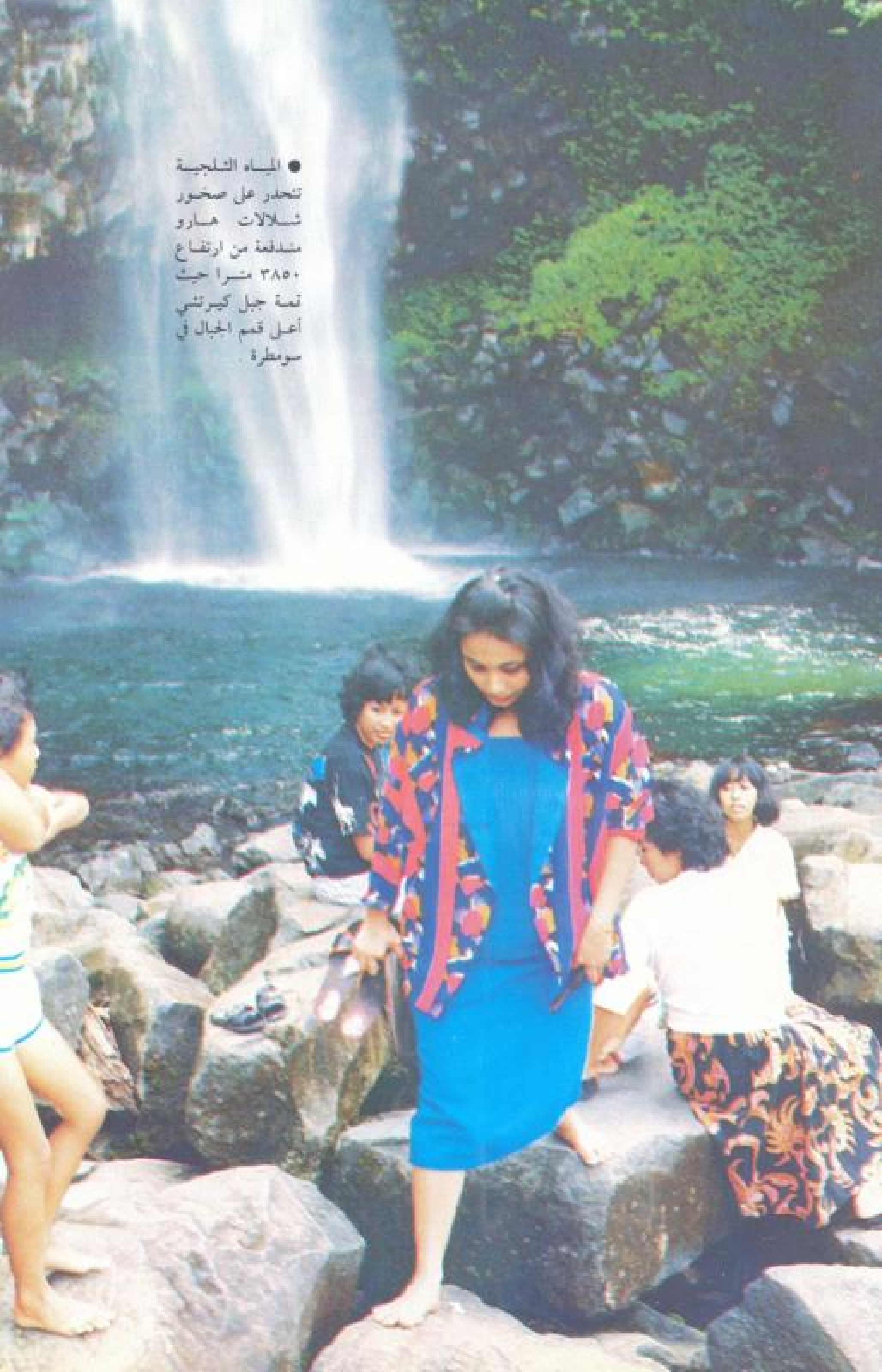
وقد لقبت منطقة آتشيه بلقب « سلاملك مكة » أي الصالة الأمامية لمكة . وعلى يد دولة آتشيه وطوال سنين كثيرة كان انتشار الاسلام منها منتظما ومكثفا يكاد يعم كل مناطق سومطرة باستثناء مناطق عشائر « الباتاك » وعشائر أخرى تنصرت فيما بعد أو بقيت على معتقداتها البدائية الأولى ..

أما عشائر « مينانج كابو » في غرب سومطرة فقد كانت مملكتهم تسيطر في القرن الخامس عشر على جزء من الجزيرة يقع شمالي خط الاستواء وجنوبيه . وبرغم أنها كانت قديما معقلا من معاقل الهندوكية ، إلا ان الاسلام وجد فيها أشياعا كثيرة ، رغم العقبات التي وضعت في سبيل تقدم الدين الجديد .. ومع هذه الحقيقة كان تأصل الاسلام في نفوس عشائر المينانج كابو أقوى منه في نفوس السواد الأعظم من السكان .. وكانت مقاومتهم لجهود المستعمرين والمبشرين عنيفة شديدة .. ولعل تلك المقاومة هي بعض الدوافع التي جعلت الاسلام في سومطرة الغربية متأصل الجذور ، وكانت وراء ذلك التمسك الشديد بالتعاليم الدينية والروحية .

أساليب التعليم الديني

من أبرز ما شهدناه في هذا المجال بعض صور التعليم الديني التي تتمثل في ذلك العدد الكبير من المدارس والمعاهد الأهلية التي ينفق عليها الأهالي من خلال المؤسسات والجمعيات الخيرية الاسلامية .. وتتميز كلها بميزة خاصة هي تدريس العلوم الاجتماعية والسياسية والقومية الى جانب التعليم الديني والاهتمام بقراءة وتجويد القرآن .. كما افتتحت عام ١٩٨٤ اكاديمية علوم القرآن التي اقيمت على نفقة الأهالي وبفائض ميزانية مسابقة تلاوة القرآن ، ويدرس فيها التفسير والفقه والشريعة والحديث وعلوم القرآن واللغة العربية .

في بادانج شهدنا أكثر من اسلوب للتعليم



● المياه الثلجية تنحدر على صخور شلالات هارو مندفعة من ارتفاع ٣٨٥٠ مترا حيث قمة جبل كيرنتشي أعلى قمم الجبال في سومطرة .



● مقر المؤتمر التاريخي في باندونج .. يحمل اسم « جيدونج ميرديكا » حيث أول انطلاقة لتضامن الشعوب الافريقية الآسيوية .



● جانب من صور زعماء مؤتمر باندونج في قاعة المتحف بينهم نهرو وعبد الناصر وشواين لاي .



● أعلام دول مؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي ما تزال ترفرف داخل القاعة وما تزال آلة التصوير السينمائي قائمة في مكانها ذكرى لانعقاد المؤتمر .

الديني ، وهو ما يجري ايضا في مختلف انحاء اندونيسيا . الاسلوب الأول ما يقدم عبر المدارس العمومية الحكومية والأهلية ، حيث نجد مادة تعليم الدين إجبارية في جميع مراحل التعليم . ويقوم المعلمون من خلال مناهج إضافية بتطوير التعليم الديني عبر أداء صلاة الجمعة وإحياء ذكريات المناسبات الدينية . أما الأسلوب الثاني فبإنشاء المدارس الدينية ، وتضطلع بها وزارة الشئون الدينية بجانب المؤسسات الأخرى في المجتمع . أبرز المعاهد تسمى « البيسانترين » حيث يفرض على الطلاب الإقامة في الداخلية ، ويستقل كل معهد منها بشيخه وكل شيخ بطريقته ، ومواد الدراسة دينية تماما الى جانب اللغة العربية وعلومها . وكلمة بيسانترين تعني مكان إعداد « السانتري » أي رجل الدين . وهو يقيم في (داخلية) المعهد في اكواخ تسمى بوندوك . في هذه المعاهد يعد الطالب ليصبح عالما ملتزما بالاسلام سلوكا وانضباطا ، ولهذا كان له دور كبير من الكفاح ضد الاستعمار . والنمط المتبع في مباني البسانترين تتركز على المسجد ومنزل الشيخ والاكواخ والمباني المستحدثة المعدة لسكن الطالب ، ومدة التعليم غير محدودة حيث تتبع النظام الحر ، ويمكن للطالب أن ينهي دراسته في خمس سنوات أو عشرين . . لا بأس . . !

نموذج آخر للاهتمام بالتعليم الديني للفتيات شهدناه في سومطرة الغربية .

ففي سنة ١٩٢٣ أسست أول مدرسة للبنات سميت بالمدرسة الدينية بقيادة الزعيمة « رانكايورحمة » ، وبعد فترة من الزمن تطورت المدرسة واشتهرت في معظم المناطق الأندونيسية وفي بلاد اخرى مجاورة كسنغافورة وماليزيا ، حيث تفد الطالبات للدراسة في معاهدها .

الصورة كما شهدناها ورافقتنا أثناءها الدكتورة « اثنايه صالح » مديرة المعاهد ، تعطي دليلا رائعا على الجهود الأهلية التي تعتمد على الجهد الذاتي . قالت لنا الدكتورة اثنائية : إن المعاهد الدينية للبنات لا تحصل على أي مساعدة من الحكومة ، ولهذا واجهتنا مشكلات كثيرة عندما تخلى بعض من يقدمون المعونة او اعتذروا عنها . فالمعاهد تعتمد على نوعين من المساعدات . . وفيما يتعلق بالمصاريف الادارية ومستحقات المدرسات والأدوات المدرسية واحتياجات الطالبات من الغذاء والأدوية والكتب وغير ذلك من المصاريف المماثلة يكون أكثرها على حساب أولياء أمور الطالبات الا اذا كانت الطالبة من أسرة فقيرة فتخفف عنها المصروفات أو تعطى لها الفرصة للدراسة مجانا أو تتولى المعاهد توظيفهن في اوقات الفراغ . اما المصدر الثاني فيقوم على جمع التبرعات من المحسنين سواء في داخل البلاد أو خارجها . وأنتم ترون هذا المسجد الذي مايزال تحت الإنشاء قد تولت نفقاته إحدى المحسنات من المملكة العربية السعودية . .

ان مثل هذا الجهد يحتاج الى دعم المحسنين من بلدان العالم الاسلامي القادرة ، والى معونات مادية تساعد الأهالي على القيام بهذه الخدمة التعليمية الروحية من أجل تقدم الاسلام في هذه البلاد .

الى باندونج

الآن . . عودة الى جاوه . . وريح آخر من عبق التاريخ في مدينة كانت نقطة انطلاق لأبرز مظاهر تضامن الشعوب . . هي مدينة باندونج .

وباندونج هي المدينة التي جمعت كل قمم العالم الضائع بين الشرق والغرب ، من خلال اختيارها مقرا لأول مؤتمر تاريخي يضع اللبنة الرئيسية لحركة عدم الانحياز . فهنا التقى رؤساء ٢٩ دولة افريقية واسيوية ، من بينها تسع دول عربية ، من أبرزهم جمال عبدالناصر وسوكارنو ونهرو وشواين لاي ، من ١٨ الى ٢٥ ابريل ١٩٥٥ ، في أول ظاهرة سياسية عبرت عن بروز الشعوب والامم النامية في كل من اسيا وافريقيا على الساحة الدولية ، وتكريس ولادة « الافرو اسيوية » كظاهرة معادية للاستعمار .

وحين نأتي الآن - وبعد ثلاثين سنة - لندخل المقر الذي عقد فيه المؤتمر وشهد لقاءات قمم التضامن الاسيوي الافريقي . . ثم لنطوف ونجول وندور بين معالم المدينة . . فإنما لنسبر اغوار الماضي القريب ، ونعيش حاضر المدينة التي يقول أهلها أنها تعج بالكثير من الذكريات التاريخية لمناهضة الاستعمار . .

مقر المؤتمر الذي يحمل اسم « جيدونج ميرديكا » أي مبنى الاستقلال ، احتفظت به أندونيسيا وجعلت منه متحفا ومنارة لانطلاقة الشعوب الافريقية والاسيوية ، وقفنا في القاعة الكبرى نستعيد الذكريات ونتأمل أعلام الدول التسعة والعشرين التي مازال ترفرف حول القاعة وأمام المنصة . . وكأننا نسمع صوت عبدالناصر - أول صوت لزعيم عربي في المجتمع الدولي - يجلجل « باسم شعب فلسطين الذي طرد من وطنه ليحتل مكانه شعب دخيل فرض عليه فرضا . . وكل هذا حدث على مرأى من هيئة



● وجوه معبرة للجيل الجديد في نظرات كلها الأمل في مستقبل مشرق .. بعيدا عن المعاناة التي يعيشون .

الامم المتحدة ، بل بمساعدتها وموافقتها .. إننا نقولها بصوت عال .. لقد استيقظ في الشعوب وعي جديد لا يمكن معه وقف تيار القومية والنهوض .. وإننا لنطالب الدول الافريقية والاسيوية أن تعلن تأييدها لحق الشعب العربي في الجزائر ومراكش وتونس في تقرير المصير والاستقلال .. وإننا لنطالب بتصفية الاستعمار ونندد بأساليب الضغط السياسي التي تلجأ إليها بعض الدول الكبرى مستخدمة فيها الدول الصغيرة كأداة لتحقيق أغراضها .. » .

في احدى قاعات المتحف عرضت صور الرؤساء الذين شاركوا في المؤتمر ، مع كل مانشر وصدر بعد ذلك من قرارات خلال المؤتمرات المتعاقبة لحركة التضامن الاسيوي الافريقي والتي أعلنت في المقر الذي اتخذ ايضا مركزا للدراسات للشئون الافريقية والاسيوية والدول النامية .

ويا لها من مبادىء وقرارات .. وآه لو أخذها العالم فعلا على محمل الجد .. ولكن هيهات .. !

إن الناس في باندونج لا ينسون أبدا أحداث المؤتمر التاريخي ، والشوارع التي تحيط بالمقر مازالت تحمل ـ وبالعربية ـ أسماء عبدالناصر ونهرو .. والفندقان اللذان يقومان على الجانب الاخر من الطريق الرئيسي « افرواسيا جالان » مازال يحمل صور الرؤساء سواء أثناء انعقاد المؤتمر أو بينما الزعماء يسيرون مشيا على الاقدام الى المقر من أماكن إقامتهم في فندقي هومان وبريتجر أو من الفيلات غير البعيدة عن المدينة .

كلية التكنولوجيا

على ان باندونج ، ويسمونها المدينة الزاهرة ، عاصمة جاوة الغربية بسكانها المليونين ، التي يمتد تاريخها الى القرن الرابع عشر حين كانت جزءا من مملكة باجاجاران ،والتي عرفت باسم « باريس جاوة ـ

● اندونيسيا .. « سلاملك مكة »

لا تكتفي بأن تعيش فقط على ما اكتسبت من شهرة في عالم السياسة ، فقد صنعت لنفسها أيضا عوالم جديدة في ميادين المسرح والموسيقا والغناء والعلوم والتقنية ... وصناعة الطائرات ..

في المدينة ٢٧ من الكليات والمعاهد العليا والمراكز العلمية المتخصصة ، أبرزها جامعة باجاجاران ، وكلية باندونج للعلوم التكنولوجية التي حصل منها الرئيس سوكارنو على شهادة الهندسة عام ١٩٢٦ .

في زيارة سريعة لكلية التكنولوجيا التقينا بعدد من الطلاب والطالبات الذين يبلغ عددهم عشرة آلاف ، إذ يقبل سنويا حوالي ١٥٠٠ طالب وطالبة يوزعون على ٢٣ قسما لجميع التخصصات التقنية .

لعل أبرز مالفت نظرنا مسجد سليمان التابع للكلية الذي أقيم ليكون جسرا بين التعليم الجامعي والتعليم الديني ، على أمل توثيق العلاقة بين التقنية والدين . المسجد أقامه عام ١٩٦٤ « مركز إرشاد الأمة » الذي يقوم بالأنشطة الدينية ، ثم تحول ليصبح ملكا للمجتمع والطلاب الذين يتولون جميع شئونه الادارية ، وهو ليس مخصصا فقط لأداء الصلوات ، إنما يقوم بمهمة التعليم الديني للطلاب بعد انتهائهم من دروسهم الاكاديمية في الكلية ، ويتولى التدريس علماء متخصصون في مختلف العلوم الدينية بلا مقابل ، كما يقوم المركز بنشر المطبوعات الدينية ونشرها . وتشارك الطالبات الطلاب في كل نشاطات الكلية والمسجد والتعاونيات من خلال لقاءات واجتماعات مشتركة .

المشهد المثير هنا ـ كما في جميع مساجد اندونيسيا ـ هو أداء النساء والفتيات من مختلف الأعمار للصلاة بالحجاب ، حيث يخصص لهن النصف الخلفي الذي يمتلىء عن آخره بصاحبات الزي الأبيض وهن يؤدين الصلاة وكأنهن موجات من الملائكة .. تلك صورة ما أروعها عند أداء صلاة التراويح في شهر رمضان .

قالت لنا « مبني بورنا ماواتي » « وكماليا ارتيني » الدارستان بالكلية : « الى جانب الجامعات الحكومية وعددها ثمانية ، قامت مبادرات أهلية لانشاء جامعات أهلية عمومية أو دينية ، وانشأت وزارة الشئون الدينية حوالي ١٤ جامعة حكومية إسلامية في مختلف العواصم الاندونيسية عدد كلياتها ٨٥ كلية ، بالاضافة الى كليات الجامعات الاسلامية الأهلية وعددها ٧٥ كلية . المهم أنه في جميع الجامعات والكليات توجد مساجد يؤم أحرامها الطلاب والطالبات والمدرسون بشكل منتظم ، سواء لأداء



● مع التوسع في صناعة الطائرات لم يعد مصنع نورتانيو يكتفي بسد الاحتياجات المحلية .. بعد أن انهالت عليه طلبات الاستيراد من الدول المجاورة (الصورة العليا) .





● الرقصات التقليدية، موروثة عن الثقافة والأساطير الهندوكية، وأغلب المسرحيات الراقصة تعتمد على حكايات الرامايانا والمهابارانا.

الصلوات المكتوبة أو صلاة الجمعة أو المحاضرات والاحتفالات بالمناسبات الدينية .

عالم الفنون

أما الفنون في باندونج فقد التقينا بها أول الامر في قاعة الفندق . . ففي ركن القاعة في أكثر الفنادق توجد فرقة موسيقية تعزف على الآلات الموسيقية وأبرزها العود الشرقي . وتنتشر الأغاني العربية وهي تعرف في أندونيسيا باسم « كصيداهان » تحويرا من كلمة قصيدة . وتعتمد الفرقة عادة على ثمانية أو عشرة دفوف يصحب النقر عليها إنشاد جماعي من قبل فتيات في شكل (كورس) .

فرق الموسيقا والكورس هنا لها أساس نابع من مجتمع القرية ، وهي الركيزة الرئيسية في كل الأقاليم . فالفلاحون المرهقون بعد يوم عمل شاق في الحقول يجتمعون في المساء فلا يخفف عنهم إلا الموسيقا والغناء على أنغام آلاتهم التقليدية التي تعتمد في الغالب على أوان نحاسية وبرونزية وطبول ودفوف وآلات مختلفة الاشكال مصنوعة من البامبو . وسر استخدام البامبو هو أنه يزرع في كل مكان وهو يصحب الناس في كل أعمالهم ويرتبط بحياة كل يوم . فهم يبنون بيوتهم من البامبو . . السقوف والجدران والأرضية والاثاث وادوات الطبخ . . كما أن فراشهم مصنوع من البامبو وأطراف البامبو عندما تكون صغيرة مادة لذيذة يأكلها الصغار والكبار . . وعندما يموت الأندونيسي فإنه يحمل على نعش من البامبو ، بل يدفن أيضا في قبر جدرانه من البامبو . . لهذا فان أول ما تسمعه عندما يبدأ عزف الفرقة الموسيقية هو أنغام على أدوات البامبو سواء في النفخ أو الدق أو التحريك وهي كلها تسمى « اوركسترا أو جلونج » .

ذلك هو الانطباع الرئيسي لما شهدناه ونحن نحضر حفلا موسيقيا تقليديا في « سونج أو جلونج » كل أعضائه من الفتيان والفتيات الصغار يقدمون عزفهم ورقصهم وأناشيدهم بطريقة مثيرة .

وقد عرفنا أنهم تدربوا وتخصصوا في مدرسة خاصة للفنون الموسيقية تسمى « مدرسة باك أوجو » .

في جاوة الغربية كلها بما في ذلك باندونج عاصمة الصونديين تجد جميع انواع الفنون كالرقص والتمثيل وكلها تسمى « الوايانج » ، عروض الوايانج تتباين بين ألعاب الدمى الخاصة وخيال الظل والرقص التقليدي والتمثيليات المسرحية . وتاريخ « الوايانج » الوافد أساسا من الهند القديمة يحكي بأن رواد الدعوة الاسلامية الاوائل في جاوة استعانوا بألعاب الوايانج بعد أن بدلوا الروايات التي تستعرضها في تمثيلياتها وشخصياتها الهندوكية بأفكار أخرى قائمة على الدعوة الاسلامية والتوجيهات الدينية .

تعال نذهب الى « جالان ناريبان » تتفرج على العرض المسرحي المسمى « بانج جوليك » وهو مسرح خيال الظل . انه نوع من الفن التقليدي حيث تخصص النحاتون والصناع والحرفيون المهرة في باندونج في صناعة وجوه العرائس الخشبية وأقنعة « الماريونيت » على أشكال مهرجين من الرجال والنساء بعد أن كانت هذه الاقنعة من قبل تمثل رؤوس البقر والجاموس . وهؤلاء الفنانون لم يتخصصوا فقط في صناعة العرائس بل أيضا في صناعة أغمدة السيوف وتزيين أنصالها بالتماثيل المرصعة والمزخرفة بالأحجار الكريمة .

« والوايانج أورانج » نوع آخر من الفنون شاهدناه على مسرح « رومتانج سيانج » إنه عبارة عن رقصات تقليدية موروثة عن الثقافة والأساطير الهندوكية . وأغلب المسرحيات الراقصة من هذا النوع تعتمد على حكايات الرامايانا (الامير راما وزوجته سيتا) والمهابهاراتا والصراع بين الخير والشر . وتقدم العروض مصحوبة بموسيقا وغناء هو من أجمل ما يقدم في هذا الميدان . وقد يقدم الراقصون والراقصات الهواة عروضهم وهم يلبسون الأقنعة على مسارح الشوارع والأرصفة لامتاع الناس ودون أي مقابل مادي . . ولكنهم يفضلون العمل في الليل في عروض على مسارح متخصصة تدفع لهم أجورا مجزية .

أما « الوايانج كوليت » فهو نوع آخر من العروض المسرحية الوثيقة الارتباط بالدين ، وهو من أشهر مسارح الظل في أندونيسيا . وهو يقدم على طريقة « القراجوز » الشرقي من خلال راوية يجلس خلف ستار تنعكس عليه أضواء شموع أو سراج زيتي ، ثم يحرك بيديه خلال الظلام مجموعات من العرائس المصنوعة من الجلد ، يحكي من خلالها قصة الحياة . لم نعرف هذا النوع الا حين وجدنا زحاما كبيرا أو مجموعات من الناس كبارا وصغارا يلتفون حول هذا اللاعب الفنان . كان اللاعب خلف الستار يزرع شجرة الحياة في ساق شجرة موز تتحرك عليها الدمى ممثلة الأرض وناسها . وهو يحرك ضوء السراج وكأنه الشمس لتظهر أحداث التمثيلية التي تنعكس ظلالا تتحرك على الستار ، وهو خلال كل ذلك يغير نغمات

صوته فهي تارة حزينة وتارة مبهجة ، ممثلا في بعض الأحيان أصوات معارك وصراعات بين الخير والشر حتى يكون النصر في النهاية للخير .

صناعة الطائرات

في باندونج أتيحت لنا فرصة لزيارة مصنع « نورتانيو » للطائرات ، أحد مفاخر النهضة في أندونيسيا . صناعة الطائرات لها قصة بدايتها عام ١٩٧٦ . فقد كانت الحاجة ماسة الى وسائل للنقل الجوي بين جزر الأرخبيل المتلقية على اتساع المحيط والمتباعدة عن بعضها البعض لمسافات بعيدة ، وليس أهم من الاعتماد على النفس في هذا الإنجاز الكبير . وتقرر إقامة مصنع لطائرات النقل الخفيف بالاعتماد على خبرات فنية تقنية يقودها الدكتور المهندس يوسف بحر حبيبي ، الذي وضع تخطيط المشروع وتولى تنفيذه وادارته . وكانت البداية بتجميع طائرات (كاسا ١١٢) بترخيص من المصنع الأم باسبانيا ، وهي طائرة حمولتها ١٩ راكبا أو طنان من البضائع . ثم بدأت عمليات التطور بتصميم جديد رفع حمولة الطائرة الى ٤٠ راكبا لتبدأ مهمتها في حركة الطيران الداخلي الخفيف تمهيدا لتصعيد مجالاتها الى النقل الاقليمي ثم النقل الدولي .

قال لنا المهندس محمد شوحلي مدير العلاقات العامة للشركة وهو يصحبنا في جولة داخل المصانع ، نستعرض خلالها مختلف أنواع الطائرات وهي تحت التجميع والتصنيع :

لم تكن المهمة سهلة . . ومع هذا فخلال أربعة أعوام من إنشاء المصنع جرى التعاقد لتصنيع طائرات أكبر حمولة بترخيص من شركة بوما الفرنسية ، تبعها تصنيع الهليوكبتر (ناس ٣٣٢) . . ومع التوسع في الصناعة وتطورها لم تعد تكتفي بسد الحاجة المحلية ، إذ بدأت الشركة تصنع الطائرات وتصدرها تلبية للطلبات التي انهالت عليها من الدول المجاورة وعلى رأسها تايلند . ومن أجل إعداد الكوادر المدربة لمزيد من الانتاج تم التوقيع على اتفاقية تعاون بين إدارة المصنع وبين كلية باندونج لعلوم التكنولوجيا في قطاع علوم الملاحة الجوية ، لدعم برامج صناعة الطائرات وتخريج الفنيين المدربين . وأعلن الدكتور حبيبي تصميمه على أن تكون الطائرات المنتجة في أندونيسيا على أعلى مستوى من الانتاج العالمي ، بعد أن تم الحصول على تراخيص إنتاج من أمريكا والمانيا الغربية وفرنسا . . وحتى يونيو ١٩٨١ كانت الشركة قد أنتجت وصدرت ٧٢ طائرة من مختلف الانواع .

بعد هذه النهضة الكبيرة بدأت الشركة تطور نفسها بانتاج الطائرات الهليوكبتر الحربية والطائرات القتالية لتزويد سلاح الجو الاندونيسي بالطائرات المنتجة محليا . . ثم كان أبرز أنواع الانتاج هو صناعة طائرات (بوينج) الأمريكية . . بالاضافة الى تصنيع قطع غيار الطائرات بعد أن تم التعاقد مع (جنرال الكتريك) لتصنيع التوربينات والموتورات والقطع الفنية التي تحتاج الى خبرة عالية من التقنية . . ونستطيع إدراك مدى التطور الكبير في هذه المصانع عندما نعلم أن عدد العاملين ارتفع من ٥٠٠ موظف عام ١٩٧٦ ليصل الى ١٣ الف موظف في العام الاخير . . وأن هناك عقودا لتصنيع ٢٥٩ طائرة لعدد من الدول بينها المملكة العربية السعودية .

وهو أمر يعبر بغير شك عن تطور ونجاح كبير في ميدان الصناعة والتقدم والتنمية . . في اندونيسيا .

معهد فابيلان

إن تنمية الانسان تقوم في الاساس على التربية والتعليم . ولقد شاهدنا نموذجا رائعا لهذه التنمية خلال زيارتنا لمعهد فابيلان الأهلي على مسافة ٢٠ كيلومترا الى الشمال من يوجياكرتا .

المعهد أسسه عام ١٩٦٥ الحاج همام جعفر وكان عمره وقتها ٢٦ سنة وشاركه في ذلك اخوه وزوجته ـ وهو مازال حتى الآن يتولى ادارته . وقد أقام المعهد على جزء من أرض صغيرة كان يملكها ، ثم جرى التوسع بعد ذلك حتى بلغت المساحة التي أقيمت عليها بقية أجنحة المعهد وأقسامه حوالي ٥٠ ألف متر مربع ، يحيط بها مساحة أخرى مزروعة جعل ريعها للصرف على الطلاب والطالبات الذين يفلحونها لانتاج كل الخضراوات والمواد الغذائية الاستهلاكية اللازمة للمعهد .

يقوم عند مدخل المعهد مسجد قديم مشيد على النمط التقليدي ، تم بناؤه عام ١٨٠٠ حيث يمارس فيه الطلاب والطالبات وأهالي قرية فابيلان الصلوات ويتلقون الدروس الدينية وتجري الاحتفالات الاسلامية ومسابقات تلاوة القرآن الكريم . الى اليسار من المسجد نجد قاعة جلست عند نافذتها الواسعة أربع فتيات في ردائهن الابيض وبين أيديهن دفاتر للتسجيل ، وحين نسأل عن مهمتهن نعرف أنهن يتولين تسلم زكاة المال تماما كما يتسلمون زكاة الفطر خلال أيام رمضان المبارك . وقالت لنا

إحداهن : اننا نسجل في هذه السجلات كل ما يصلنا من الزكاة واسماء من يقدمونها ثم نتولى توزيعها على الفقراء .

وننظر الى الناحية المقابلة ، فنجد طوابير النساء والصغار كل منهم يحمل كيسا ، بينما يجلس عدد من الطلاب على افريز مرتفع يكيلون كميات الارز التي اشتريت بأموال الزكاة ويوزعونها على المستحقين .

يقول لنا وكيل المعهد الذي كان يرافقنا : قبل أيام من حلول العيد يبدأ الناس أفرادا وجماعات في اخراج زكاة الأبدان وزكاة الاموال ، ولا يزال كثير من الناس يقومون بذلك بأنفسهم ، أو يقدمونها لمن يعرفون فيه الاستحقاق . ولكن بعض المناطق والجماعات - كما تفعل هنا - تنظم هذا العمل حيث تجمع الزكاة والصدقات ثم توزع على المستحقين بطريقة تتيح لهم أن يشقوا بها طريقهم للعمل والكسب . وفي عيد الاضحى وبعد أداء الصلاة يتم نحر الاضاحي وتوزيع لحومها على الفقراء المستحقين الذين قد لا يجدون اللحوم في عامهم إلا في هذه الفرصة . ونحن لا ننسى في هذه المناسبة دور الايتام والعجزة إذا تخصص لهم حصصهم من لحوم الاضاحي .

.. إلى يوجياكرتا

انطلقنا الى العاصمة القديمة يوجياكرتا في وسط جاوة . ويوجياكرتا مدينة غامضة عتيقة تخترق الذاكرة عبر بساط الريح ، ويصعب الإلمام بتاريخها الشامخ . وهي احدى المناطق الثلاث ذات الوضع الخاص ضمن محافظات أندونيسيا (الاثنتان الأخريان هما العاصمة جاكرتا وأتشيه في سومطرة الشمالية) وهي احدى أهم المراكز الثقافية القديمة حيث السهل الاخضر الخصيب الذي كان خلال القرنين ١٦ و١٧ مقرا لامبراطورية ماتارام الجاوية التي ورثت عنها يوجياكرتا الحالية اروع معالمها .

يوجياكرتا الآن يحكمها كاقليم خاص السلطان همنجو بونو التاسع . وقد برز تاريخها الحديث عام ١٧٥٥ عندما فقد المستعمرون الهولنديون صبرهم تحت ضربات الثوار المتوالية ، فكان أن لجأوا إلى تقسيم السلطنة الكبرى إلى مقاطعتين صغيرتين تحت الحكم الذاتي ، إحداهما سوالاكرتا والثانية يوجياكرتا . وعين الهولنديون الأمير مانوجلوجي للجلوس على عرش السلطنة تحت اسم همنجوبونو الأول ، وهو الجد الأكبر للسلطان التاسع الحالي الذي يحمل نفس الاسم .

قصر الشهادتين

قصر السلطان الكبير في قلب المدينة يسمونه (كراتون) ، ويطلقون عليه في بعض الأحيان قصر السكاتين . .

هل سمعت من قبل عن السكاتين . ؟

الاسم غريب ولكنه في الواقع تحريف باللسان الجاوي من كلمة الشهادتين . هذا الاسم اطلق على الساحة الواسعة امام قصر السلطان،والى يسار مسجد الشهادتين تمتد ساحة هي عبارة عن حديقة خضراء يحيط بجوانبها ٦٣ شجرة وهي رمز لسنوات عمر النبي محمد (ﷺ) ، وفي الصدر الموازي للقصر تقوم شجرتان ضخمتان عن يمين وشمال وهما الرمز لشهادتي ان لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وهنا وقبل وصول الاسلام كانت الساحة تستغل في اقامة المراسم التقليدية إذ تخرج الأدوات الملكية مثل الخناجر والرماح والعربة الملكية والأدوات الموسيقية والطبول لتنظيفها . وحين جاء عصر الدعاة الرواد ، وهم أولياء الله التسعة ، ونشطوا من أجل تقديم الدعوة الاسلامية ، تحول الاحتفال السابق ليصبح مجالا للدعوة الى النطق بالشهادتين لكل من جاء لدخول الاسلام . وكانت قمة البرنامج في هذه المراسم هي الاحتفال بالمولد النبوي . ولكن مع مرور الزمن تحولت الساحة لتصبح معرضا وسوقا يغص بأجنحة الباعة والعارضين من المنتجين والتجار والحرفيين . وفي قمة البرنامج يحضر السلطان الى ساحة المسجد في مراسم تقدم خلالها تلال الارز المطبوخ وقد غرست فيها اللحوم والاسماك كوليمة سلطانية للجماهير . وفي ذلك الوقت تصدح موسيقا (الجاملان) تعزفها جوقتان من العازفين على أدوات موسيقية من مخلفات عصر مملكة ماجاباهيت الهندوكية ومن مخلفات عصر الأولياء . .

وندخل قصر كراتون . القصر نموذج للفن التقليدي الذي تختلط فيه معالم الفنون الهندوكية والجاوية القديمة مع فنون المعمار الحديثة بديكوراته ونقوشه وزخارفه وساحته وقاعاته،والاعمدة المقامة على النسق الهندي الجاوي التي كانت تصور الفخامة الملكية منذ انشائه عام ١٩٥٥ . واستمر نفس الطابع عندما تم استكماله عام ١٩٥٧ . ولكن الواضح انه كان قائما قبل هذين التاريخين في عهد مملكة متارام ، إذ يلاحظ ان التاريخ المنقوش على البوابة الداخلية للقصر هو عام ١٦٨٢ ، كما ان المدخل يزدان على



● فن الباتيك من أبرز صناعات المنسوجات .
ويحتل مكانا متقدما في لائحة الصادرات الى خارج اندونيسيا (الصورة الى اليسار)

جانبيه بتمثالين كل منهما على شكل رأس حية ينثني حولها الجسد حتى الذيل .

إن أهم معالم القصر هو ردهة الساحة الرئيسية حيث تتصدرها المقصورة ذات الأعمدة الذهبية ، وهي مثل أغلب الردهات الداخلية عبارة عن قاعة مفتوحة بأعمدتها الخشبية المزخرفة والمموهة بالذهب هنا كان السلطان يستقبل الضيوف الملكيين حيث تقام عروض المسرح والرقص التقليدي التي يقدمها راقصون مدربون تدريبا خاصا تليق بالقصر كمركز للنشاط الديني في الاحتفالات الاسلامية الرئيسية الثلاث : المولد النبوي وعيد الفطر وعيد الأضحى .

إن هذا القصر الآن لم يعد يحتفظ بمكانته السلطانية ، ولكن هذا لا يمنع من أنه مايزال معرضا للاسلحة السلطانية ومجموعات العرائس الجلدية المزخرفة ، والعربة السلطانية ، وأدوات الموسيقا ، والمعروضات الأخرى من الهدايا المقدمة للسلاطين من الضيوف الملكيين في الماضي القريب .

ديماك مزار الحجيج

الى الشمال من يوجياكرتا تقع مدينة سمارانج وتعتبر المنطقة المحيطة بالمدينة منطلقا لنشر الدعوة الاسلامية في جاوة في القرن ١٣ على يد الدعاة الذين اشتهروا بلقب أولياء الله التسعة حيث كانوا يبدأون مهمتهم ببناء تلك المساجد .

على مسافه ٢٠ كيلومترا شمال شرقي سمارانج تقع مدينة ديماك . . هنا يوجد أول مسجد أقامه هؤلاء الأولياء ويعتبره المسلمون رمزا لنهضة الاسلام في جاوة . ومسجد ديماك يؤمه المسلمون في أندونيسيا حجيجا ، على أمل أن يكون حجهم إليه تمهيدا للانطلاق الى موسم الحج الكبير في عرفات ومكة . وبالمسجد ظاهرة غريبة وهي أن أحد أعمدته السامقة متخذة من نفايات الأخشاب المنجورة ، أتى به من ماجاهابت عاصمة الامبراطورية الهندوكية المنهارة .

نظرة الاحترام والتقدير للمسجد الأثري ليست نابعةفقط من أن الأولياء الدعاة كانوا يعقدون فيه اجتماعاتهم الدوريةللتشاور في شئون الدعوة ودراسة التقارير المقدمة عن ممارسات الدعوة في جميع أنحاء البلاد .

يتحدثون هنا عن ديماك باهتمام كبير . . وهم يتذاكرون قيام أول مملكة إسلامية في جاوة ، وأول ملوكها رادين باتاه (أو عبد الفتاح) وكان حصيفا حكيما في إدارة المملكة ، فلم يقتصر على استشارة علماء الدين في القضايا الكبرى فقط ، بل في سياسة نشر الدين بين أوساط الشعب الذي كان يعتنق الهندوكية . وفي ذكرهم لازدهار الاسلام في ديماك يقولون ان الملك عبدالفتاح (رادين باتاه) ونتيجة تشاوره المستمر مع الأولياء الدعاة ، كان يفرق في الأمور غير الاسلامية بين ما هو بالغ التعارض وبين ما هو بسيط لا يضير . فالأمور التي تتعارض أساسا مع تعاليم الاسلام لا يتردد في القضاء عليها قضاء مبرما . أما الأمور البسيطة فإنه يتركها مؤقتا . ولذلك لم يغير من عادات الشعب وتقاليده طفرة واحدة . . وكان ذلك وراء نجاح الدعوة ، وهو ما اعترف به المؤرخون العالميون من أمثال أرنولد توينبي وتوماس أرنولد .

على بعد كيلومترين من ديماك توجد مقبرة « سونان كالي جاقا » أحد الأولياء التسعة الرواد . والى الشرق في « بوباتيه قدوس » تقوم مئذنة تحمل نفس الاسم ، أقيمت بالقرب من المسجد المسمى مسجد « قدوس » الذي يمتاز بنمطه الخليط بين الفن المعماري الاسلامي والهندوكي . . وتمثل المئذنة التي يعتبرها الحجيج مزاراً لهم رمزا للدعوة الاسلامية المبكرة في جاوة . .

القرية التي أسلمت

على مسافة بضعة كيلومترات على الطريق بين معبد « بور وبودور » ومدينة يوجياكرتا ، توقفنا عند قرية بانجوريو الواقعة في دائرة « كاريباوان » وكان المختار واسمه « بري هارسيو » قد دعانا لزيارة قريته التي وصفها لنا وزير الشئون الدينية عند لقائنا معه في جاكرتا ، حيث عرّفنا بهذا المختار الداعية الى الاسلام .

كنا نعرف كما قال لنا الوزير أن هذا المختار هو إمام وخطيب أكبر مساجد المنطقة ، وأنه كان لسنوات قليلة ماضية قسيسا ومبشرا للدين المسيحي ، ولكنه آمن بالاسلام واستطاع بجهوده الذاتية أن يقوم بالدعوة للدين الجديد الذي آمن به ، وتحولت قريته كلها (٢٥٠٠٠ نسمة) على يديه الى الاسلام .

ودخلنا القرية ، وشاركنا مع الأهالي في أداء صلاة التراويح ـ وكنا في رمضان ـ حيث لم تكن مساحة المسجد تكفي للمصلين والمصليات ، فافترشوا



● بري هارسيو . . امام وخطيب مسجد قرية بانجوريو . . وكان من قبل قسيسا . . واستطاع بجهوده الذاتية أن يقنع أهل القرية بدخول الاسلام .

الساحة الأمامية كلها لأداء الصلاة برغم هبوط الأمطار غزيرة في ذلك المساء .

والتقينا بالناس وبالمختار الامام وسمعنا منهم الكثير . . .

في هذه المنطقة لم يكن عدد المسلمين يتجاوز ١٥٪ والآن اصبح سكانها كلهم مسلمين ١٠٠٪ . فعندما آمن قسيسهم بالاسلام استغرب الناس هذا التحول وبدأوا يناقشونه ويستمعون اليه ، وحين اقتنعوا بما كان يشرحه لهم من فضائل الاسلام وتعاليمه واقتنعوا بها ، راحوا يعلنون إسلامهم بين يديه .

ونسأله كيف آمن بالاسلام وهو الذي كان قسيسا مبشرا يدعو الناس الى المسيحية ؟

قال : لقد آمنت بالاسلام بعد ان تعمقت في دراسة القرآن الكريم وما جاء فيه من تشريعات وحقائق ، وأدركت أن ما كنا نتصوره من أن المسيح هو ابن الله أوهو الإله نفسه غير صحيح . ووجدت في الاسلام النور الهادي والنموذج العظيم للحياة الانسانية السليمة التي تقود الانسان على طريق الخير . وبدأت أدرس ما هو متاح لي من كتب التفسير فتفتحت أمامي آفاق الايمان وآليت على نفسي أن أسهم مع الدعاة المسلمين في الدعوة الى الاسلام ، وكانت قريتي بالطبع هي أول ساحة أبذل فيها جهدي بقدر ما مكنني الله .

والواقع أني لم اكتف بالمعهد الديني الذي أقمته في القرية ، بل عملت على إقامة تسعة مساجد صغيرة في كل منطقة ، وكنت ألقي فيها الدروس الدينية دون أن أحمل الناس عبء الانتقال للاستماع الى ما أقول .

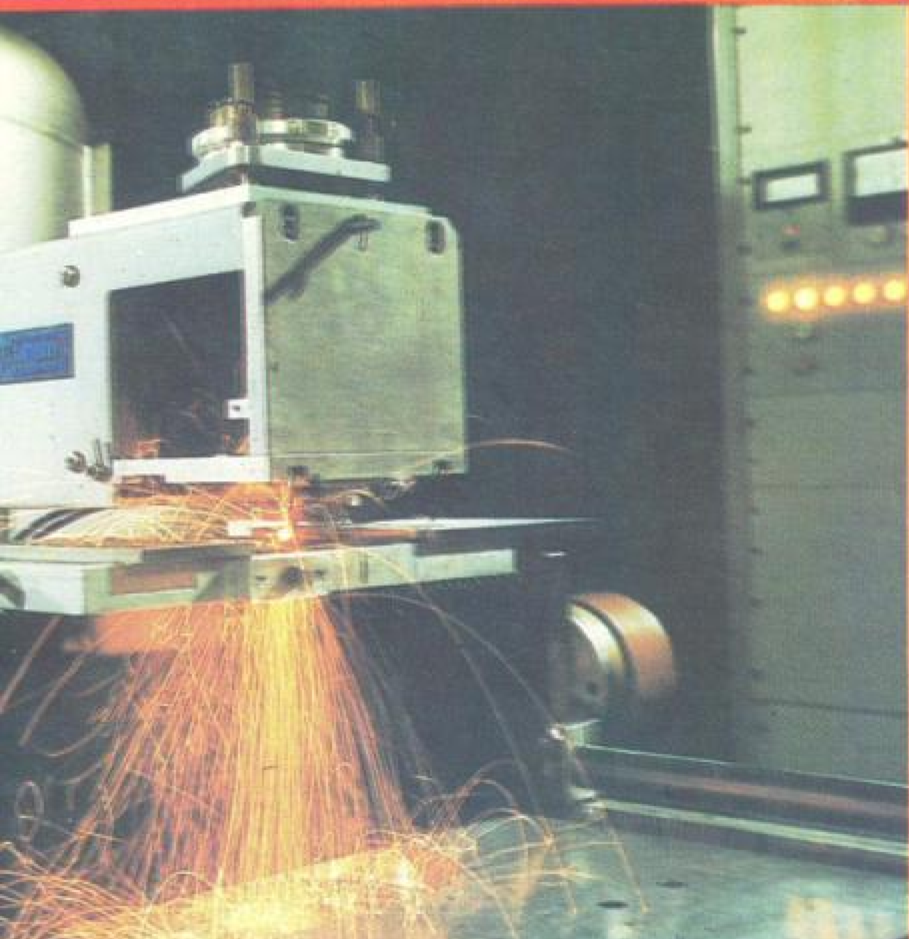
في خطبة الجمعة لم أكن أتكلم أبدا عن مساوىء العقائد والديانات الأخرى ، ولكني كنت أتناول فضائل الدين الجديد . لم ألجأ أبدا الى الهجوم والتشويه والتحطيم لما كان الناس يؤمنون به ، ولكني عملت على فتح العيون على ما نزل به الدين الحق بأسلوب بسيط محبب الى النفوس ، لا ألجأ فيه الى الاكراه أو الضغط بل أتبع الكلمة الطيبة والقدوة الحسنة .

كنت أدرك أن الناس سيتعرضون لضغوط شديدة من المبشرين ومن المسيحيين من سكان المناطق المجاورة ، بل انني انا نفسي تعرضت لضغوط شديدة من اخوتي التسعة ، ولكني استطعت بحمد الله أن أقنع اثنين من أشقائي بدخول الاسلام ، فوقفا بجانبي وكانا عونا لي في مواجهة الضغوط التي كان يتعرض لها سكان القرية الذين رفضوا كل ما كان المبشرون يلوحون لهم به من أغذية وتسهيلات في المعيشة . والحمدلله أن السكان قد امتلأوا قناعة بدينهم الجديد ، ولم يتذبذب إيمانهم أبدا .

ولكن لي همسة تصل إلى حد الرجاء ، أريد أن أطرحها . فكما ترون أن أهل القرية فقراء ، ولكنهم متمسكون بدينهم الذي اقتنعوا به ، ومع هذا فإن أشد ما اخشاه مع الضغوط التي يتعرضون لها ، أن ينخدعوا بما يدخله الآخرون في روعهم من أن دخولهم الاسلام لم يقدم لهم شيئا . صحيح أن الأهالي يدركون بحق بأن الأمر ليس مجال مساومة ، وأن الاسلام سيفتح لهم الطريق الى الجنة ورضاه الله ، إلا أنهم يتمنون أن تخفف عنهم أعباء الحياة التي يعيشونها ، وأبرز ما يعانيه سكان القرية هو صعوبة حصولهم على مياه الشرب ، فمصادر الماء موجودة ، ولكنها بعيدة عن متناول أيديهم ، وهم يطمحون أن تمد شبكة أنابيب لتوصيل المياه اليهم ، وهو أمر لا نستطيع بالجهود الذاتية أن نحققه . ولاشك أن هناك من القادرين من يستطيع ان يتبرع باقامة هذه الشبكة من الأنابيب ، وهو أمل لو تعلمون كبير .

ودعنا نقول ان تحقيق الأمل يملكه الكثيرون في أقطار وطننا العربي ، أفرادا وجماعات ومؤسسات .

ونحن نعرف أنهم سيفعلون . □



جرّاح المستقبل بين مبضع الليزر والموجات فوق الصوتية

بقلم : الدكتور عامر هشام جعفر

هل أصبح قريبا ذلك الوقت الذي نقول فيه وداعا لمبضع الجراح ، في ضوء التطورات المذهلة لاستخدامات الليزر ، والموجات فوق الصوتية في الجراحة ؟

قبل أن تقطع الاجابة ... اقرأ هذا المقال ..





في عام ١٩٨١ سعت المراكز العلمية في دولة الكويت لاقامة المؤتمر العالمي الأول للطب الاسلامي ، واذ كنت حاضرا جلسات عمل هذا المؤتمر العلمي المهم فاذا بي اواجه دراسة تراثية علمية فريدة في بابها ، لمحاولتها الاجابة عن سؤال فريد مازلت أذكره بالنص .. ماذا لو كان لدى ابن سينا (الشيخ الرئيس) حاسب آلي - كمبيوتر ؟ ، وقبل ان اعمل فكري في الاجابة قال صاحب الدراسة « بدون شك سيكون بيته أكبر مركز طبي في العالم كما ستكون غرفته مكتبة طبية مركزية ، كذلك كتابه « القانون » اذ سيعد عند ذاك الاطار العام المستخدم في ارجاء المعمورة ، لاحتوائه على مسارات واضحة لكل البرامج الطبية » .

تمر بخاطري امنية الباحث في توفر الكمبيوتر لعالمنا الجليل ابن سينا اذ اتصفح كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » للجراح العربي ابو القاسم الزهراوي - ت ٤١٤هـ/ ١٠١٣م - حيث ضمنه صورا مخطوطة لنماذج أجهزته الجراحية التي كان يستعملها في طبه تشخيصا وعلاجا . فماذا لو حصل هذا العالم الجراح على تقنية العصر الحاضرة من أشعة ليزر وموجات فوق صوتية وأخرى صادمة .

ان التطور التقني الهائل الذي نعيش واقعه الحاضر يعكس نتائجه في مختلف أوجه الحياة المعاصرة .. وإذا كان هناك علم لا يمكن أن يكتمل دون تجريب علمي ومختبري وبالتالي دون أجهزة تقنية فهو علم الطب بفروعه التشخيصية

والعلاجية .. الأساسية والسريرية ، والأمثلة في العمل كثيرة ومتعددة ، بل أكاد أجزم أن التطور الصحي الذي أحرزته المراكز العلمية العالمية،ممثلا بانخفاض معدلات الوفيات،وازدياد متوسط العمر للافراد،جاء متزامنا مع تطور العلاقة ايجابيا بين الطب بفروعه والتقنية بأنواعها بما وفرت من سهولة ودقة وجودة وحرية لعقل الطبيب في تيسير سبل المعالجة والمداواة .

ولو نأخذ من فروع الطب الكثيرة الا الجراحة .. فهي علم وعمل .. فكم هو نصيب الجراح من أجهزة تقنية .. وكم هو نصيب المريض بعد ذلك من عافية وصحة .. وكيف هو حال جراح المستقبل مع تقنية المستقبل ؟

أشعة الليزر .. المبضع البديل

لقد عرفت أشعة الليزر منذ فترة ليست طويلة في عمر الزمن .. حيث استطاع العلماء من زيادة قدرة الضوء عن طريق تحريض وتحفيز الاشعاع ، فكانت القدرة الناتجة عن ذلك تخلق حرارة عالية تكفي بدورها لقطع النسيج الحي أو تبخيره .. وما ذاك الا في مجال الطب .. بينما تبقى استخدامات وتطبيقات هذه الدرجة الحرارية العالية الناتجة من أشعة الليزر كثيرة وعظيمة ...

ولو سبرنا غور مجالات العلوم الطبية لتقدير امكانية استخدام اشعة الليزر فيها تشخيصا وعلاجا ،لوجدنا أن الطب الحديث يستخدم الليزر في طب العيون ، والانف والاذن والحنجرة ، وطب الأمراض الجلدية ، والامراض الصدرية والهضمية والبولية ، اضافة الى علوم العمل الجراحي العام والدقيق بما فيه عمل جراحة الجملة العصبية .. وما بدايات استخدام الاطباء لأشعة الليزر في مجالات عملهم الا في سنة ١٩٧٠م .. ولكنها مسيرة التطور تضيف الجديد دائما .. وهكذا كان لأشعة الليزر أنواع عديدة يستخدم بعضها في مجالات الطب كنوع NDYAG ، CO_2 LASER ، ARGON LASER ، LASER ، HELLUM NEON LASER ، فاذا سلطنا أشعة الليزر على زلال البيض مثلا سينتج عن ذلك تخثر منطقة سطحية محدودة دون تأثير على المناطق الاخرى المجاورة أو الداخلية .. مما يعني أن لأشعة الليزر تأثيراتها الموضعية التي لا تتجاوز في قطرها نفس قطر الشعاع الساقط ، وبحيث لا تزيد في عمقها عن سنتمتر واحد ، حيث يعتمد عمق التخثر الحاصل مثلا على القدرة المعطاة للشعاع المستخدم،ودون تأثير ضار على المناطق المجاورة بطبيعة الحال .

ولكن ماذا عن سقوط أشعة الليزر على الأنسجة الحيوانية ؟ لقد أثبتت التجارب المختبرية الدقيقة وباستعمال نوع (NDYAG LASER) أن تسليط الأشعة على مثل هذه الأنواع من الأنسجة الحية يؤدي الى تبخير السوائل من خلاياها ، مما يؤدي الى جفاف الأنسجة وفقدان الخلايا لعوامل استمرار الحياة .. وبذلك كان تركيز علماء الجراحة على الاستفادة من الحرارة العالية والناتجة من استخدامات الليزر في فتح جلد غطى عضوا معينا لغرض مداواته جراحيا .. وفتح عضو في جهاز جسمي لتطبيبه .. وبذلك عرفت أجهزة الليزر الجراحية .. ومباضع الليزر الجراحية الخاصة في معالجة أمراض الاعضاء التي تزداد فيها أوعية الدم كثافة ، حيث أن حرارة الليزر لا تقتصر على فتح العضو وتسهيل شؤون العملية الجراحية،وايقاف النزف من عضو يغزر نزف الدم منه اثناء العملية لاسباب تشريحية طبيعية .. وعرفت استخدامات الليزر في مداواة بعض الأورام السرطانية حيث تصيب اعضاء الجسم .. فالحرارة العالية الناتجة من زيادة قدرة الضوء عن طريق تحفيز الاشعة كفيلة بسلب الخلية حياتها .. فتقتل الخلية السرطانية الخبيثة ..

ولابد من الاشارة الى أن تأثيرات اشعة (NDYAG LASER) تختلف حسب قدرتها ، ففي المجال ٢٠ - ٤٠ واط يحدث تناثر للاشعة في الانسجة،وان امتصاصها من قبل النسيج يؤدي الى توليد طاقة حرارية تصل الى عمق ٥ ملم تقريبا حيث،ينتج عن هذه الحرارة تبخر الماء من الانسجة وانكماشها مؤدية الى تخثر الدم في أوعيته ، وفي المجال ٦٠ - ٨٠ تتبخر

السوائل من الانسجة السطحية حيث تتطلب هذه الانسجة حرارة كبيرة جدا فلا تبقى قدرة كافية للتأثير على الانسجة العميقة .

وموجات فوق الصوت كذلك

ومختبرات الطب التشخيصية وردهاته الجراحية العلاجية لا تزال مفتوحة على نوع من الاجهزة مدهش في نتائجه،حيث يستند اساسا على مبدأ الموجات التي تزيد في ترددها عن ٢٠,٠٠٠ ذبذبة في الثانية الواحدة مما يتعذر سماعه من الاذن البشرية فهي موجات فوق صوتية غير مسموعة ولكنها ذات قابلية للاختراق النسجي والعضوي مما له استخداماته وفوائده في الطب والجراحة .

فبامكان أطباء الجراحة اليوم الاستغناء عن عدد كبير من العمليات الجراحية اللازمة لاستخراج حصى الكلى مثلا .. وذلك باستخدام جهاز منظار الكلى المجهز بمعدات خاصة لتفتيت الحصى والتقاطه .. وما هذه المعدات الا مسبار خاص يدخل عبر قناة المنظار لتسليط الأمواج فوق الصوتية على الحصاة المتموضعة في نسيج الكلى،فتتفتت لتطرح خارج الجسم فيعافى المريض ويشفى .

واذا تموضعت الحصاة في حالب من حالبي الانسان فان الجراح اليوم يستطيع في صالة عملياته ادخال المنظار الخاص عبر المثانة ليصل الى الحالب ثم الى مكان الحصاة .. فتتكفل الموجات فوق الصوتية بتفتيتها وتخليص الجسم من آثارها الضارة .

وبعيدا عن مبضع الجراح .. تمكن العلماء مؤخرا من تطوير اسلوب في معالجة مرضى حصى الكلى وذلك بتوليد ما اصطلح عليه بالموجات الصادمة حيث انتجت الأجهزة المناسبة لذلك .. واستعملت في بعض المراكز الطبية بنجاح على ما يقرب من ١٠٠٠ حالة مرضية . وبعيدا عن النظريات العلمية التفصيلية المعتمدة في عمل مثل هذه الأجهزة الدقيقة التكوين ، نلخص المبدأ العلمي لجهاز تفتيت الحصى بواسطة الموجات الصادمة .

لقد أصبح معروفا أن قوانين الأمواج الصادمة التي يمكن توليدها من نبضات كهربائية تحت الماء ، يمكن استخدامها عمليا عن طريق جهازنا المذكور حيث توجه هذه الأمواج بواسطة عاكس اهليلجي لتسلط مباشرة على الحالب حيث تتموضع الحصى أو على الكلى ذات الحصاة .

ولم ينس الجراحون استخدام جهاز الأشعة السينية ذي المحورين في تحديد مكان الحصاة في الحالب أو في الكلى .

فاذا سقطت الأمواج الصادمة على المناطق الحدية .. نسيج - حصاة - نسيج - فان قسما منها ينعكس،ويؤثر القسم الآخر على الحصاة بواسطة الضغط الكبير الذي يعادل بضعة (كيلو بار) فيفتت الحصاة المقصودة الى أجزاء صغيرة جدا .. حيث لاتتحمل الحصاة مهما كان تركيبها الكيماوي قوة الضغط المسلط عليها والذي يستمر لمدة ٠,٥٪ من الميكروثانية .

ولا تسل عن تأثير أمواج الصدم على باقي نسيج الكلى فلا تؤثر الموجة الصادمة في النسيج الصحيح حيث المرونة والليونة التي تكفل تجاوز الصدم وموجاته ..

وجهاز تفتيت الحصى الكلوية على ذلك يتألف من أقسام عديدة .. حيث قسم توليد الأمواج الصادمة .. أما أجزاء توليد الأمواج الصادمة فتضم العاكس الاهليجي وقطب تفريغ الشحنات الكهربائية،ومولد الصدمات حيث يتم تفريغ الشحنات الكهربائية ضمن العاكس الاهليجي ..

وتأتي الطاقة اللازمة لذلك من مولد الأمواج الصادمة الذي يعمل بدورة بواسطة قاحم خاص .

انها فصول من قصة الطب التقنية .. فكم علينا أن نستوعب أفكار التقنية الحديثة واستخداماتها لصحة الانسان ؟ وكم علينا ان نسعى لتطوير العقل التقني عند ناشئتنا وشبابنا ؟ فالعصر الحديث عصر العلم وعصر التكنولوجيا .. وهي بشائر لمستقبل الانسان في عالم الغد . □

وجهاً لوجه





د. فــؤاد زكريا و د. إمام عبدالفتاح إمام

■ الكتابة السياسية عمل فلسفى يختلف فى الشكل فقط . ■ الحضارة هى نتاج تراكم خبرات كل المجتمعات الانسانية . ■ اختلاف منهج التفكير جعل من فلاسفة الشرق أنبياء ! ■ لاحل لمشكلات العالم الثالث إلا من خلال تجربة اشتراكية ! ■ الهدف الاساسي للكاتب هو تنوير العقول وتطهيرها من الاخطاء . ■ لست من أنصار القسمة الحادة للحضارات . ■ المقالات طلقات سريعة والكتب مدفعية ثقيلة والمهم توحيد الهدف .

الحوار بين اثنين من أساتذة الفلسفة من جيلين مختلفين ، د . إمام عبد الفتاح امام يحاور الاستاذ الدكتور فؤاد زكريا ، واحد من ألمع المفكرين العرب وأكثرهم ثورية فى الفكر والسياسة فى آن معا ، تشهد على ذلك كتاباته الفلسفية عن « نيتشه » و « اسبينوزا » ودراسته لجمهورية افلاطون . . . الخ ، وكذلك آراؤه النقدية فى السياسة والاجتماع . عمل رئيسا لقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس لسنوات طويلة ، وهو يعمل الآن رئيسا لقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الكويت .

والدكتور إمام عبد الفتاح إمام من جيل تال ،كان استاذا مساعداً للفلسفة الحديثة والمعاصرة بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، ويعمل الآن بجامعة الكويت ، وهو من الباحثين الذين يعملون على نشر الفلسفة الهيجلية تأليفا وترجمة ، لأنه يؤمن بأهمية الدور الذى تلعبه هذه الفلسفة العقلانية فى مجتمعنا العربى ، وهو لهذا يشرف على مكتبة كاملة للدراسة الهيجلية هى « المكتبة الهيجلية » التى أصدرت اكثر من خمسة عشر كتابا فى حقل الدراسات الهيجلية ، فضلا عن مقالاته ودراساته الاخرى .

الواقع أننى لم أرد لهذا اللقاء أن يكون مواجهة ـ فالمواجهة هنا بالغة الصعوبة ـ بقدر ما أردت له أن يكون ضرباً من « المحاكمة » العلنية التى توضع فيها بنود الاتهام وحيثيات الدفاع أمام القارىء ، ثم يترك له وحده إصدار الحكم فى نهاية اللقاء .

والسبب الذى جعلنى ألجأ الى تلك الطريقة أننا أمام مفكر ثائر ـ هو الاستاذ الدكتور فؤاد زكريا ـ وهو بطبيعته جموح متمرد تصعب مواجهته ، ومن ثم فقد اعتقدت بأن طرح شبكة من « الاتهامات » قد تجعلنا نتغلب على هذه الصعوبة ، ونواجه هذا الثائر المتمرد ، لنبقى معه بعض الوقت مستمتعين بجلسة فكرية بقدر ما تسمح به صفحات المجلة ، وسوف أكتفى بثلاثة اتهامات رئيسية وبعض التفريعات القليلة .

الفلسفة والسياسة

ـ الاتهام الأول ، ويطرحه المشتغلون بالفلسفة ، وهم يتهمونك بأنك طلقت الفلسفة لصالح السياسة ، لاسيما فى الفترة التى تركت فيها مصر ، وقضيتها فى الكويت لأكثر من عشر سنوات ، لم يصدر لك فيها سوى دراستين فى « الحوليات » التى تصدر عن كلية الآداب بجامعة الكويت ، الأولى عن « شجرة المعرفة عند ديكارت » ، والثانية عن « الجذور الفلسفية للبنائية » ، بالاضافة الى ترجمة « حكمة الغرب » لبرتراند رسل ، لكن هذه الأعمال الفلسفية الضئيلة لا تقاس بالنشاط السياسى الواسع سواء عن طريق المقالات والدراسات فى الصحف ، أو أحاديث الاذاعة أو المحاضرات والندوات ، فحقل السياسة الواسع قد استوعب جميع اهتماماتك ، وطغت أنشطته على نشاطك الفلسفى . فما رأيك فى هذا الاتهام ؟

○ قد يكون الاتهام فى ظاهره صحيحاً ، وله ما يبرره شكلاً ، من حيث ان مجمل النشاط الذى أقوم به يتجه نحو معالجة مشكلات سياسية واجتماعية .. الخ ، بينما الجانب الفلسفى الأكاديمى ربما أصبح أقل اهمية فى هذه الفترة التى نتحدث عنها . ولكنى أريد أولاً أن أصحح ما قيل عن أن المسألة لا تزيد عن بحثين . فأنا أعتقد أن هناك عدداً من البحوث أكثر من ذلك بكثير ، ولا أريد أن أضرب أمثلة ، ولكن يكفى أن أتحدث مثلاً عن بحثى الأخير عن « الاستشراق » .

- أنا أتحدث عما نشر فعلا .

○ لا بأس .. هناك بحث قبل ذلك عن « مستقبل الأصولية الاسلامية » وقد نشر فعلاً ، وبحث آخر عن : « العقل العربى والتوجه المستقبلى » وغيرهما . هناك مالا يقل عن عشرة بحوث ، وكلها تنتمى إلى المجال الفلسفى الأكاديمى بشكل أو بآخر ، يضاف الى ذلك كتاب كُتب فى هذه الفترة ، وأعنى به كتاب « التفكير العلمى » ، وآخر عن « الحقيقة والوهم فى الحركة الاسلامية المعاصرة » ، وثالث عن « الصحوة الاسلامية فى ميزان العقل »

- أظن أن الكتاب الأول قد كُتب ، أو على الأقل تمّ إعداده ، قبل مجيئك إلى الكويت ، وان كان قد نشر بعد ذلك ؟

○ ربما بعض العناصر قد كتبت فعلا ، ولكن نوع المشكلات التى عولجت كتبتها أثناء وجودى فى الكويت .

وعلى كل حال فهذا رد من حيث « الشكل » كما سبق أن ذكرت ، لكن إذا تناولنا المسألة من حيث المضمون ، فأنا أريد أن أقول إننى فى الواقع كنت أعمل بالفلسفة فى الحالتين ، كل ما فى الأمر أن هناك اختلافا فى الموضوع الذى يتجه إليه عمل فى الفلسفة : هل هو موضوع فلسفى أكاديمى ، أم أنه موضوع فلسفى ولكنه مطبق على مشكلات أكثر عينية وأكثر واقعية من المشكلات الأكاديمية ؟ بمعنى آخر أنا عندما أكتب مقالاً مثلاً عن « الحكم العسكرى » ، أو عن « مشكلة تطبيق الشريعة » وما شابه ذلك ، فإن عنوان هذه الموضوعات يوحى بأننا نناقش مشكلات سياسية أو دينية فحسب ، لكن المضمون وطريقة المعالجة « فلسفية » ، ولولا أننى « فلان » صاحب هذا التكوين الفلسفى ، وهذه الخلفية الطويلة فى ميدان الفلسفة ، ما كان من الممكن أن يأخذ أى مقال أكتبه هذا الشكل الذى يتخذه ، ولهذا فأنا أريد أن أصحح صيغة « الاتهام » فأجعله يقول : ان هناك اختلافاً فى الموضوع الذى أصبح يتجه إليه عمل الفلسفى ، لكنه فى الحالتين عمل فلسفى . وسأضرب لك مثلاً على الفكرة التى أطرحها ، البحث الطويل الذى كتبته بعنوان « مستقبل الأصولية الاسلامية » وكان رداً على مقالات الزميل الدكتور حسن حنفى .

وها هنا لا بد أن أشير إلى تجربة طريفة مررتُ بها وتستحق التنويه . فعندما نشر الزميل الدكتور حسن حنفى مقالاته أعجب بها عدد كبير جداً من أصدقائى اشد الاعجاب ، وسمعت منهم تعليقات كثيرة فيها إشادة بهذه المقالات ومدى أهميتها .. الخ . ثم كتبتُ بعد ذلك بحثى ووزعته عليهم بشكل خاص ، فاذا بنفس الناس الذين كانوا معجبين أشد الاعجاب بالمقالات الأصلية يكتشفون أنها مليئة بالتناقض ، ويصدرون عليها حكماً مضاداً تماماً . وبالمناسبة مجموعة كبيرة من هؤلاء الأصدقاء كانوا من صفوة المثقفين ومنهم حملة دكتوراه ... الخ . وما أريد أن أصل إليه هو أنه لعدم وجود المنهج الفلسفى عندهم فقد انساقوا وراء هذه المقالات عندما نشرت ، ثم اكتشفوا فيما بعد نقاط الضعف فيها بفضل التحليل الفلسفى ، والمنهج الفلسفى الذى اتبع فى نقدها . هذه التجربة تبين الفرق الأساسى بين مَنْ يكتب هذه الأمور بمنهج فلسفى ، وبخلفية فلسفية قوية ، وبين من يكتب أو يقرأ بالمناهج العادية حتى ولو كان مثقفاً على مستوى عال !

ماذا يريد المفكر ؟

- أنا لا أنكر أهمية استخدام المنهج الفلسفى والتحليل الفلسفى فى معالجة مشكلات سياسية ودينية ... الخ .

لكن هذا كله شيء ، والاضافة الأكاديمية للمكتبة الفلسفية شيء آخر مختلف أتم الاختلاف « كجمهورية افلاطون » مثلاً .

● هذا صحيح ، ولكن تأكد أن هناك ضغوطاً في الطرف الآخر ممن يلحون من أجل المزيد من هذه الاعمال .

ـ أعرف أن هناك كثيرين تسعدهم هذه الأعمال وتهمهم أكثر من معرفة « افلاطون » . . لكن على كل حال أين تجدك نحن في الجانبين » ؟

○ أود منك أن تقارن مثلاً تأثير كتابي الأخير « كم عمر الغضب » بتأثير أي كتاب فلسفي آخر أصدرته لدى الجمهور الذي يصل إليه . ثم علينا أن تساءل : ما هو هدف المفكر الذي يعمل بالفلسفة في نهاية الأمر ؟ هدفه تنوير عقول الناس . هذا هدف أساسي للمفكر ، أن يستطيع الوصول إلى عقول الناس ويساعد على تنويرها وتطهيرها من كثير من الأخطاء ، وتفتيحها على مشكلات لم تكن متنبهة إليها ، وتحليل الأمور بشكل لا يستطيع الانسان العادي أن يصل إليه ، فإذا كان هناك عمل تشعر أنه يستطيع أن يصل إلى عدد كبير من الناس ، ويؤدي هذه الوظيفة التي ربما لا يؤديها بنفس التعمق والتخصص الأكاديمي ، ولكن يقابل هذا انتشار كمي واسع ، أليس هذا شيئاً يستحق الاهتمام ؟

ـ هذه مسألة لا جدال فيها . ولكن هناك فارقاً واسعاً جداً بين « بقاء الاثنين » . فكتاب مثل « كم عمر الغضب » ، أو المقالات السياسية ، على الرغم من أنها تضيء نقاطاً بالغة الأهمية في حياتنا السياسية ، فإنها « محددة » بالفترة الزمانية التي تعالجها ، بمعنى أن هذا الكتاب بعد مرور فترة من الزمن ، وانكشاف الفترة الناصرية كلها ، لن يكون له نفس الوزن القوي الذي له الآن ، أي أن كشفه للقوة الخافية التي يظللها تعتيم قوى هو الآن أمر بالغ الأهمية ، لكنها أهمية مرهونة بوقتها .

○ هذا الكتاب ، لا يدور حول الفترة الناصرية وحدها ، بل الساداتية ايضا .

ـ فلنقل الفترة الناصرية الساداتية ولنجمعهما معاً الآن على الأقل ـ لكن ما أقصده هو أن الكتاب مرهون بفترة معينة ، أما كتابك « الموقف الطبيعي » فهو عملية تنوير مستمرة لا تتقيد بمدة



الدكتور فؤاد زكريا في لقاء المواجهة مع الدكتور امام

زمنية معنية ، وما يقال عن هذا الكتاب يقال أيضا عن « دراسة لجمهورية أفلاطون » ، وعن « اسبينوزا » ، وعن « نيتشه » ، و « التفكير العلمي » .. الخ .. فهذه كتب أكاديمية تقوم بنفس عملية التنوير التي أشرتم إليها لكن على مدى أطول ، فهي « باقية » ، لأنها لا ترتبط بحقبة زمنية معينة ، وليس فيها « ومضة » أو « فرقعة » الكتابات السياسية التي يخبو ضوؤها بعد حين .

○ أنا مسلم بهذا ، فطبعاً هذه الأعمال الأكاديمية هي الأبقى ، لكن ، كما سبق أن ذكرت ، تلح على المفكر مشكلات معينة في أوضاع محددة ، ويجد المفكر الملتزم نفسه ، في وطننا العربي المعاصر ، مستفزاً يومياً . وهناك أمور لا تحتمل التأخير ، ولا تحتمل أن تقف أمامها محايداً أو صامتاً ، خصوصاً إذا كنت تعلم أن لك جمهوراً وقراء فتجد نفسك مدفوعاً إلى استخدام فكرك ومنهجك الفلسفي لايضاح الأمور التي تعرض على الناس بغموض متعمد ، أو بغش وخداع أو مغالطات .. الخ تجد أنك بالفعل مدفوع إلى الكتابة ولا تملك أن تقف صامتاً ، أو أن تقضي سنوات في عمل أكاديمي في الوقت الذي يتعرض فيه وطنك لأخطار عاجلة وسريعة ولا تحتمل التأخير . وأستطيع أن أقول ان شكلاً من أشكال الشعور بالواجب والالتزام ، هو الذي يدفعني إلى معالجة هذه الموضوعات السياسية . وثق أنه لو استقرت الأوضاع قليلاً بحيث لم تعد مستفزة كما هي الآن ، فسوف يظهر إلى السطح ما لدي الآن من حنين قوي للأعمال الأكاديمية ..

الطلقات السريعة والمدفعية الثقيلة

ـ نحن في انتظار هذه الأعمال الأكاديمية التي ستكون بالغة الأهمية للمشتغلين بالفلسفة بصفة خاصة ، فأنا أشبه مقالاتك السياسية « بالطلقات السريعة » في حين أن الكتب والأعمال الأكاديمية أشبه « بالمدفعية الثقيلة .

○ المهم أن كلا منهما موجه نحو هدف واحد ، وهو تنوير عقول الناس ولكن بطريقتين مختلفتين .. فالكتاب الأكاديمي يقرؤه جمهور ، صحيح أنه أكثر ثقافة ، لكنه أضيق نطاقاً بكثير ، وعندما تشعر بالالتزام تجد أنك مضطر الى مخاطبة هذه الجماهير الواسعة لكي تحد ـ ولو قليلاً ـ من تأثير تلك المؤامرة الرهيبة التي تدار ضد عقل الانسان العربي بشكل عام في السنوات الأخيرة ..

الاستهلاك والابداع الفكري

ـ الاتهام الثاني وهو ليس خاصاً بك وحدك ، في الواقع ، وانما هو يمتد ليشمل أساتذة الفلسفة جميعاً ، وربما غيرهم من أساتذة الجامعات العربية الذين يقولون لطلابهم بصفة مستمرة اننا في الشرق لا ننتج شيئاً وإنما نستهلك منتجات الحضارة الغربية دون أن نشارك في إنتاجها ، ولا نسهم فيها ـ بشيء إيجابي ـ والسؤال الآن : وماذا يفعل هؤلاء الأساتذه إذن ؟ أليسوا هم أنفسهم مستهلكين لفكر الغرب ، ألسنا نستورد كأساتذة فلسفة فكر الغرب كما نستورد صناعاته ـ عندما نتحدث عن الوجودية ، والبرجماتية والماركسية ، « ومناهج العلم » ...... الخ .. ؟

○ أود أولاً أن أقول إني لستُ من أنصار القسمة الحادة للحضارات ، فأنا أعتقد أن هناك مساراً ضخماً للحضارة الانسانية يحمل الراية ـ في كل مرحلة من مراحله ـ مجتمع معين أو مجموعة معينة من الأمم ، وكل إنجاز في هذه الحضارة البشرية يحمل في داخله باقي الانجازات التي سبقته منذ فجر التاريخ . صحيح أن الحضارة الغربية الآن في موقع الصدارة والقيادة ، لكن ما أنجزته هذه الحضارة كان يستحيل

أن يتحقق لولا إنجازات البشر قبل ذلك ، بداية بالانسان الذى عرف كيف يستخدم النار استخداماً نافعاً ، أو الذى يمسك بحجر بسيط ليحوّله الى أداة تنفعه فى عمله ـ ابتداء من هذه الانجازات البدائية البسيطة حتى عصر النهضة الأوربية ـ كل ذلك ساهم فى توصيل الحضارة الأوروبية الى ما هى عليه الآن ، لذلك فإن تقسيم الحضارة البشرية إلى حضارة غربية وغير غربية مرفوض ـ أو لا بد على الأقل أن نخفف من حدة هذا التقسيم . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فان هذا بالضبط ما كان يقال عن المسلمين أيام كانوا متأثرين بالحضارة اليونانية . بالطبع كان للمسلمين إنجازاتهم وإبداعهم فى مجالات كثيرة كالشعر مثلا ، فلم يتأثروا بحضارات سابقة لكنهم كانوا فيه مبدعين . لكن فى ميدان الفلسفة ، فى قمة العصر الذى كانوا يعتبرونه عصراً ذهبياً للحضارة الاسلامية ، كان المسلمون يعيشون عالة ـ بمعنى من المعانى ـ على الفكر اليونانى ، ويبدو لى أننا فى مجال الفلسفة بالذات لنا عذر عندما نسير فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه الفلسفة الغربية ، لأنه يبدو أن الفكر الفلسفى الغربى كان مبدعاً ، وكان الغرب منذ البداية هو الذى يحمل لواء هذا النوع من النشاط الانسانى الذى نسميه « بالفلسفة » . طبعاً كانت هناك فلسفات أخرى شرقية ، ولكن شكل الفلسفة كما نعرفه ، القائم على العقل والمنطق ... الخ هو الى حد بعيد ظاهرة غربية . فنحن المشتغلين بالفلسفة ربما كان لنا بعض العذر ، وعذرنا هنا أقوى من عذر المشتغلين بالفن أو العلم مثلا ، لأن الظاهر نفسها التى تخصصنا فيها هى ظاهرة غربية الى حد بعيد . ثم هناك شىء آخر أود ن أضيفه ، وهو أن هذه الظاهرة هى ضريبة التخلف التى لا بد من دفعها ، نحن لا بد أن نعترف أننا تخلفنا فى ميادين كثيرة ، فالضريبة التى تدفعها طالما أنك متخلف هى أن تدور بفكرك فى إطار خارج عنك ، والى أن نستطيع أن نسدد هذه الضريبة ويصبح لنا فكرنا الخاص ، فلا بد أن نظل الى حد ما فى فلك خارج عنا ، مع السعى الدائم فى اتجاه تحقيق الاستقلال الفكرى .

ـ بمناسبة التقسيمات ، يقال أيضاً انه إذا ظهر مفكر فى الغرب أطلق عليه لقب فيلسوف ، أما إذا ظهر المفكر فى الشرق فانه يطلق عليه لفظ « نبى » هل تعتقد أن هذه القسمة صحيحة ؟ !

○ إذا صحّ هذا الكلام فهو ينطبق على فترات زمنية بعيدة جداً ، لأنه إذا كان الكلام عن الأنبياء فأنا أتصور أن هذا بدأ معظمه قبل عصر الفلسفة ، وجزء ضئيل منه تشابك مع القرون الأولى من الفكر الفلسفى معظمه عند اليونان وبعد ذلك انتهى الأمر .

ـ مثلا فى القرن السادس قبل الميلاد وفى نفس الفترة التى ظهرت فيها الفلسفة اليونانية ظهر مفكرون فى الشرق مثل كنفوشيوس فى الصين ، وزرادشت فى فارس ، وبوذا فى الهند ... الخ واطلق عليهم لقب « أنبياء » لا فلاسفة ، وعلى آرائهم « ديانات » وليس مذاهب فلسفية ؟

○ أريد أن أقول إن هذا التصنيف يصحّ قديما لكنه لا ينطبق على العصر الحديث .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فينبغى علينا ألا ننسى أن عددا كبيرا من الفلاسفة فى أوروبا طوال العصر الوسيط كان يطلق عليهم لقب « قديس » .

ـ ربما لأنهم كانوا من رجال الكنيسة ، أعنى من رجال الدين أصلا ؟ !

○ نعم كانوا من رجال الدين ، ولكن إطلاق لقب « قديس » عليهم ، وهو لقب يقترب جدا من لقب « النبى » عندنا ، يعنى أن اللقب ليس مقتصرا على المفكر فى الشرق . فهؤلاء هم الذين نعترف بهم كفلاسفة فى الغرب فى تلك الفترة . لكن ربما قلنا ان الاختلاف الأساسى بين الشرق والغرب هو اختلاف فى « منهج التفكير » . فالمفكر فى الغرب يقدم لك الآراء والأفكار التى يطرحها لكى تناقشها وتنقدها وتفندها إذا شئت ، أعنى أنه يقدم لك الأفكار وهو يضعها « موضع الاختبار » ، أما فى الشرق فالمفكر يقدّم أفكاره ، فى الأعم الأغلب ، لكى تقبلها على

أنها شيء غير قابل للنقاش ، وغير مطروح أمام عقول الناس لكي يفعلوا به مايشاؤون

ـ هذا هو ، في الواقع ، الاختلاف الاساسي بين المنهجين ، وهو الذي جعل الحكماء الشرقيين أقرب الى طابع الأنبياء ، وهو الذي اعطى في الوقت نفسه ميزة التفوق الفلسفي للغرب .

○ هل يعني ذلك ان هناك عقلية غربية لها « طبيعة خاصة » بمعنى أنها تفكر بطريقة معينة فتنتج فلسفة ، وهناك عقلية شرقية ذات طبيعة مختلفة ؟

ـ أعتقد ان هذه القسمة مرفوضة ، فكيف نفسر اذن طريقة الفلسفةالغربية التي استمرت على هذا النحو قرونا طويلة ؟

○ الواقع أن القول بأن هناك طبيعة معينة لشعب ما مسألة مرفوضة كما قلت ، بل نحن ننفر منها لأنها لوصحت لكان معنى ذلك ان نغلق أبوابنا ونمضي الى حال سبيلنا ! لكن ، كما تعلم ، اذا تجاوزنا فكرة « الفطرة » أو الطبيعة فلا بد أن نبحث عن عوامل اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أدت الى اتخاذ هذا النهج أو ذاك في التفكير . وهذه مشكلة معقدة غاية التعقيد ، وفيها اجتهادات كثيرة وان كنا لم نشعر بأن أيا منها قد حل المشكلة بشكل حاسم . لماذا ؟ لأن الحديث يدور في الغالب حول فترات قديمة مجهولة الى حد كبير ، لم تترك لنا آثارا كافية لكي نصدر عليها حكما . فمن بين هذه الاجتهادات على سبيل المثال من يفسر هذا الطابع ـ طابع الفكر السلطوي الذي ساد الشرق والذي لا يطرح نفسه كفكر قابل للمناقشة المنطقية ، وقابل للتفنيد والاعتراض ـ هناك من يفسر هذا الطابع بأوضاع سياسية استبدادية كانت سائدة في الشرق ، ويربطون بين الظاهرتين على أساس ان ظاهرة الاستبداد السياسي تولد الميل الى التفكير بالسلطة وتولد الميل الى فرض الآراء فرضا ، بل أكثر من ذلك تؤدي الى تصوير العقيدة نفسها كما لو كانت سلطة مفروضة على الانسان ، وتتحول صورة الآلهة الى تضخيم لصورة الحاكم المستبد ، واظن أن هذا ينطبق على كثير من العقائد الشرقية القديمة . .

المبادىء والتطبيقات

ـ هناك اتهام ثالث موجه إليك ، يتلخص في أنك تتحدث في بعض الأحيان كما لو كانت الاشتراكية هي الحل الوحيد لدول العالم الثالث ، وأنا أعتقد أن في مثل هذا التعميم مغالاة شديدة ، لأن الاشتراكية ، في رأيي ، عبارة عن علاج لمرض . فاذا لم أكن مريضاً فلماذا أتناول الدواء ؟ خذ مثلا الدول النفطية ذات العائد البترولي الضخم والعدد السكاني القليل ، هل هذه الدول يتحتم عليها تطبيق الاشتراكية ؟ أم أن المسألة « موضة » للعصر لا بد من السير في ركابها ؟ ثم ألسنا نجد عدداً من الدول التي طبقت الاشتراكية قد ازدادت فقراً على فقر ؟

○ أولا ، أرجو ألا نخلط بين التطبيقات المزيفة وبين المبدأ ، فهناك أنظمة كثيرة تتشدق بكلمة الاشتراكية ، ولكنها أبعد ما تكون عنها . وثانيا : لابد أن أقول ان الأمثلة التي ضربتها كلها أمثلة منتقاة بذكاء ، ولكنها « هدامة » ، وهي هدامة بمعنى أن المراد منها هو ارباكنا فقط فيما يتعلق بالمبدأ العام الذي تحدثنا عنه ، لأنك اخترت مجموعة من البلاد حتى المصنفون الاقتصاديون يحارون في تصنيفها . هل هي تندرج ضمن دول العالم الثالث أم لا ؟ مثلا اذا أخذت مؤشرات مثل متوسط دخل الفرد ، أو متوسط الدخل القومي ، فتجد أنها تقف لتناطح أرقى الدول في العالم الأول بل تفوق العالم الثاني بكثير . ومعنى ذلك أن هناك مشكلة في تصنيف الدول النفطية القليلة السكان الواسعة الثراء . لكن عندما نتحدث عن العالم الثالث فنحن نتحدث عن

العالم الثالث بمواصفاته التقليدية ، أعنى مجتمعات قليلة الموارد كثيرة السكان ، فيها تخلف عام في مختلف الميادين ، تخلف تعليمى وصحى واقتصادى وتموى .. الخ . فمثل هذه المجتمعات هى التى أعنيها عندما أقول إنه لا علاج لمشكلات العالم الثالث الا بشكل من أشكال الاشتراكية . وأنا في هذه الحالة متفتح جداً ، لا أريد أن أفرض شكلاً معيناً أو تجربة معينة ، وأنا مؤمن إيماناً كاملا بهذا الحل ، واذاكان لديك بديل آخر أرجو أن تخبرنى به !

أخر الرجال المحترمين !

ـ هناك في النهاية عتاب من شباب مصر موجه اليك ! فقد سمعت من أحد الشبان المصريين أنهم يطلقون عليك لقب « آخر الرجال المحترمين » ، وعندما سألته ما الذى تقصدونه بهذا الوصف ، أجاب بأن المفكر « فلان » باع نفسه للسلطة ، والأديب « علان » لا رجاء فيه ، ومفكر ثالث غير موافقه ، ولا أمل عندهم الا فى الدكتور فؤاد زكريا المفكر ـ ومن هنا كان « آخر الرجال المحترمين » ـ ولهذا السبب أيضاً تراهم يعتبون عليك بقاءك خارج مصر هذه الفترة الطويلة ، ألا يجعلك ذلك تفكر فى العودة الى مصر ؟

○ أولا أنا سعيد باللقب الذى أطلق علىّ ، وأعتزّ جدا به ، وان كنت آمل ألا أكون آخر الرجال المحترمين ـ لأن فى الجيل الجديد علامات وبشائر تدل على أن تراث الرجال المحترمين لا بد أن يستمر ! أما بالنسبة للعودة إلى مصر فأنا أعتقد طبعاً أنهم على حق فى جانب ، ولكنهم ليسوا على حق فى جانب آخر . أريد أن أقول اننا لا بد أن نفرق بين الهجرة الى بلد أجنبى مثل أمريكا أو استراليا ، والسفر الى بلد عربى . فالكويت تفصلها عن مصر مسافة تقطعها بالطائرة فى وقت أقل بكثير مما تقضيه عندما تنتقل من القاهرة الى الاسكندرية .. يعنى أنت فى أى بلد عربى كما لو كنت فى ضاحية من الضواحى مع سرعة وسهولة المواصلات الحديثة . ومن ناحية أخرى فان وضع المفكر الموجود فى بلد عربى يختلف عن وضع المفكر المهاجر ، لأنه أولا فى الوطن العربى يكتب فى قضايا عربية وباللغة العربية . وهناك اتصال قوى بين أى قطر عربى والاقطار الأخرى ، لأن الحواجز هنا قليلة جدا ، وأستطيع أن أقول لك من تجربتى التى عشتها بنفسى أن كثيراً من الأعمال التى كتبتها هنا فى الكويت انتشرت بشكل أوسع بكثير من الأعمال التى كتبتها فى مصر ، حتى أننى أجد جمهوراً كبيراً ـ فى رحلات كثيرة قمت بها فى الاردن وسوريا أو المغرب ـ يناقش مقالات لى كتبت فى صحف يومية وكنت أتصور أنها لن تصل الى هؤلاء الناس على الاطلاق ، ربما أيضاً لأن الصحف الكويتية عالية المستوى وواسعة الانتشار فى البلاد العربية ، وتقرأ باهتمام خصوصاً فى البلاد التى تعانى من مشكلة حرية الصحافة والتى تعتبر صحافتها المحلية عبارة عن نشرات حكومية فقط .. ولهذا فاننى أجد أن الكلمة التى أكتبها تصل الى الناس كما تصل أيضا الى الشباب فى مصر . ومن ثم تبقى مشكلة التباعد الجسدى ، لكنى أؤكد لك أن هذا التباعد لم يمنعنى على الاطلاق من التفكير فى مشكلات مصر كل دقيقة ، بل بالعكس ربما زادت حالة التباعد هذه من التزام الانسان ببلده ومن وضوح الرؤية بالنسبة له فيما يتعلق بالأحداث التى تدور فى مصر ، لأن لديه مصادر للمعلومات أوسع ، ومن ثم تستطيع أن تخدم بلدك خدمة لا يستهان بها .

وهكذا أنهيت الحديث مع مفكرنا « الثائر » ، وقد تحول الى مفكر غاية فى « الوداعة » عندما راوده الحنين الى الوطن ومشكلاته ، وبعد أن هزه بعنف وصف الشباب له بأن « آخر الرجال المحترمين » ! □

■ بوسعك أن تسحق الانسان ، لكنك لا تستطيع أن تهزمه .

أرنست هيمنجواي

فهد الدويري ناقداً..

بقلم : سالم عباس خداده*

سنة الحياة هي التجديد والتغيير الى الأفضل ، وكل جديد له معارضون ملتصقون بالقديم ، إما خوفا من الجديد ، أو اتباعا للمألوف ، وكل جيل يأتي بمجدديه . فكيف طرح الدويري المجدد آراءه في الحياة والمجتمع من خلال تجديد الأدب في نهاية الاربعينيات وبداية الخمسينيات ؟

عرف القراء فهد الدويري (١٩٢١) كاتبا في القصة ، وأدب الرحلات ، والمقالات الاجتماعية ، أما خطواته النقدية فذلك ما يجهله الكثيرون . حتى الذين كتبوا عن فهد لم يولوا هذا الجانب ما يستحقه من اهتمام . فالدكتور محمد حسن عبدالله في كتابه (الحركة الأدبية والفكرية في الكويت) عرض لاحدى لمساته عندما تناول النقد الأدبي في الكويت ، أما الأستاذ خالد سعود الزيد فقد قام بعمل جليل حين جمع تراث الرجل في كتابيه (أدباء الكويت في قرنين ، الجزء الثاني) ، و (شيخ القصاصين الكويتيين فهد الدويري حياته وآثاره) . إلا أن الباحثين المذكورين - على الرغم من جهودهما المشكورة - لم يمنحا هذه الزاوية - زاوية النقد في حياة هذا الفنان - ما يفي بحقه فيها ، وهي زاوية تبرز وعيه المبكر بكثير من القضايا الأدبية التي راح يدفع بها إلى الصحافة محركا الجو الأدبي ، دافعا به إلى رحاب التجديد .

بدأ فهد يحذر من المظاهر المادية التي أخذت تهجم على الحياة في الكويت ، بسبب تدفق النفط الذي بدأ تصديره عام ١٩٤٦ ، وطالب الأدباء بالظهور في ميدان الأدب ، والاسهام في النهضة الفكرية - كما جاء في مجلة البعثة (يونيو ١٩٤٨) - ويبدو أن هناك من لم يوافق الكاتب في آرائه ، وممن أثارته تلك الآراء الشاعر عبدالمحسن الرشيد الذي كتب قصيدة ضمنها رده ، مطلعها :

لمن أصوغ أناشيدي وأوزاني
وليس في القوم من يصغي لألحاني ؟

لكن الدويري الواعي بأبعاد القضية التي طرحها رد على هذا الشاعر بمقالة عاب فيها الركود الأدبي ، وضمنها اعترافه بأن للظروف والأحوال القدرة على تشجيع الأدب أو إضعافه ، إلا أن ذلك - كما يرى - (ليس سببا كافيا لهذا الركود الذي نحن فيه ، وعلينا أن نواجه الحقائق فنعترف صراحة أننا لا نملك إنتاجا أدبيا له قيمة يصح أن نباهي بها) ، ثم يخاطب الرشيد قائلا : (والكويت - رعاك الله - ياشاعرنا كأي بلد يجتاز فترة انتقال عقلي ، لن ترضى الأدباء والكتاب ، لأنها ما تزال في طريق الوعي حتى الآن ، ولتضع نصب عينيك - أنت وإخوانك من شعراء الوطن وكتابه - أنكم الضحايا على مذبح الفكر والفن ، فلتنزعوا من رؤوسكم فكرة اغتنام التبجيل والثناء ، لأنكم لبنات في الصرح الأدبي لا يجب أن تسألوا عن البدل والمقابل فيما تقدمون من غذاء عقلي لمواطنيكم ، ولا يجوز أن يصدكم عن الأدب والمساهمة فيه فئة تزعمون أنها لا تعي ما تقولون في هذه الأيام ، واعلموا أن جيل المستقبل سوف يقدر للمجيد منكم حقه) ، إلا أن عبدالمحسن الرشيد عاد فكرر رأيه

* شاعر وكاتب من الكويت ، حاصل على (ماجستير) في الآداب .

المطروح في قصيدته السالفة الذكر ، وهو يرى أن الأدب لن يزدهر ويسمو في بيئة تخيم عليها الأمية ، وتظللها الرغبات المادية ، ولا يستطيع الأديب أن يصور ما في نفسه بصدق وإخلاص .

لكن فهدا لم يقف عند هذا الحد من حث الشعراء والأدباء على الظهور في ميدان الأدب ، وإنما انتقل إلى تحديد الطريق التي يريد لهم أن يسلكوها لتحقيق وجودهم الأدبي ، فكتب مقالة بعنوان : (الترديد والتجديد) في نفس المجلة المذكورة عام ١٩٤٩م يقول فيها : (إن أكثر كتابنا وشعرائنا قد أمضوا نصف القرن الأخير في تكرار ما قاله الأولون ، يرددون معانيهم ذاتها ، ويقلدون أساليبهم عينها ، ولا يخرجون عن دائرة تفكيرهم أبدا ، حتى أنهم لم يتركوا لنا - نحن - شيئا نكرره ، ولم يبقوا لنا ما نقلده) . ويأتي صدى هذه المقالة قويا ، فتطالعنا مقالة ليعقوب عبدالعزيز الرشيد ، بعنوان (الترديد والتجديد) في مجلة الكويت عام ١٩٥٠م يتناول فيها قضية التجديد في الأدب ، ويرد على الدويري مدعيا بأن من طالب بترك الأدب القديم كاتب يبغض العرب ولغتهم وهو سلامة موسى ، وتلك فكرته منذ جيل تقريبا ، ويبدو جليا أن يعقوب لم يعالج قضية التجديد كما عالجها فهد ، ثم وضع فهد النقاط على الحروف في رده الذي جاء بعنوان (مهلا ياصاحبي) ، حيث نفى اتباعه لسلامة موسى ، ورأى أن أهم شروط خلود الأدب هو الابداع ، ثم خاطب الرشيد قائلا : (فلو أنشأت حضرتك مقامات كمقامات الحريري لما التفتنا إليها ، إن اليوم غير الأمس ، ومفاهيم الماضي تختلف كل الاختلاف عن مفاهيم الحاضر) . ثم بيّن فهد أن الأمم لا تستطيع أن تتنكر لتراثها ، لكن على أن يكون التراث منطلقا للتجديد لا للتقليد ، لأن التقليد هو الجمود الذي يقتل ، بل هو الموت الذي لا بعث بعده .

ويلح هذا الأديب على الابتكار في الأدب ، وقد جاء ذلك في مقالة (بين التقليد والابتكار) في مجلة الرائد أكتوبر ١٩٥٢م حيث طالب بتجاوز النماذج المرسومة ، وإطلاق اللغة من قيودها ، فالأدب الأصيل هو الذي (لا يقف عند نماذج معينة طال عليها القدم ، يبتهل إليها ويستوحيها ، ويبكي عليها ويستبكيها ، بل إن الأدب الأصيل ، المغرق في الأصالة ، هو الذي لا يكف عن ابتكار النماذج الأدبية ، فهو متجدد دائما ، متطور أبدا ، فدعوة الكاتب أو الشاعر إلى أن يلتزم محاكاة القوالب الموروثة ، كدعوة الحر الطليق إلى دخول السجن ، ثم يهاجم التقليديين ويعيب عليهم اجترار ما نظمه القدماء ، حتى جاءت أساليبهم كثوب ضم سبعين رقعة ، آيات قرآنية كريمة ، وأحاديث نبوية ، وألف مثل وحكمة ، وأطلال من الشعر ، لا رابط بينها إلا أدوات العطف . والدويري يشير هنا إلى الوحدة في العمل الأدبي ، وهي دعوة جديدة على الساحة الأدبية في الكويت ، وقد سبق له أن مهد لهذا المقياس النقدي خلال نقد تطبيقي لاحدى قصائد الشاعر أحمد العدواني وهي قصيدة (رأس حمار) ،

ففي مجال عرضه لهذه القصيدة نلاحظ إشادته بترابط أبياتها خلال انتهاجها الأسلوب القصصي ، يقول في مقالة نشرت في مجلة البعثة يناير ١٩٥٢ : (وعنصر القصة أو الوقائع المربوطة يلتزم وحدة القصيد إذا كان شعرا ، وتتابع الحوادث وتقييدها إذا كان نثرا .

والغربيون يأخذون على شعرنا ونثرنا أنه لا يتقيد بهذه الحدود ، وإنما يقوم على الأسلوب القوي ، وروعة المعاني المفردة ووحدة البيت فقط ، بحيث يصبح في الامكان التغيير في قصيدة عربية تقديما وتأخيرا وحذفا دون أن يطرأ على القصيدة أي تغيير) ، لكنه يأخذ على العدواني وضوح عنوان القصيدة وضوحا يفضح مضمونها منذ البداية ، ويرى أن العنوان يجب أن يكون مثيرا وليس كاشفا لموضوع القصيدة فيقول : (كان اعتراضي على رائعتك أنك عنونتها بما يفضح فكرتها ، لقد سميتها (رأس حمار) فما كدنا نقرأ البيتين الأولين حتى أدركنا القصد وعرفنا الخلاصة) ، ومع أن ناقدا آخر هو عبدالعزيز الصرعاوي عقب على رأي فهد ، ورأى أن الكشف عن النهاية في الشعر يختلف عن الكشف ذاته في القصة ، وانتهى إلى صحة عنونة الشاعر لقصيدته ،

إلا أن العدواني - كما ثبت ذلك فعلا - قد اقتنع بوجهة نظر الدويري ، لأنه عند نشر القصيدة المذكورة في ديوانه (أجنحة العاصفة) قد اكتفى بكلمة (رأس) عنوانا لها ، ليزيد من مساحة إيحائها . □



الديون الخارجية للعالم الإسلامي

بقلم : الدكتور رمزي زكي

تمثل ديون العالم الإسلامي ٢٣ بالمائة من إجمالي ديون العالم الثالث ، سدّد عنها من الفوائد ما قدره ٨ مليارات من الدولارات في عام واحد ، ونتيجة لعبء الديون وقعت دول العالم الإسلامي في تناقض بين حل مشكلة التنمية والديون ، ورغم ذلك فإن هناك تصوراً لحل هذا التناقض يناقشه الكاتب في هذا المقال .

تنتمي مجموعة الدول الإسلامية إلى العالم الثالث ، وهي تضم دولاً تتوزع على ثلاث مناطق في خريطة العالم ، هي الشرق الأوسط ، وأفريقيا ، والشرق الأدنى . يصل عدد سكانها تقريباً إلى ٧٢٠ مليون نسمة أي ما يمثل ١٥٪ من إجمالي سكان العالم ، كما تصل مساحة أراضيها الى حوالي ١٨٪ من مساحة المعمورة .. وتبلغ نسبة صادراتها الى إجمالي الصادرات العالمية حوالي ٩٪ ، بينما تمثل وارداتها ٧,٢ ٪ من إجمالي الواردات العالمية ، وذلك في عام ١٩٧٨ ، وبينما تتكون صادراتها أساساً من المواد الخام والأولية ، فان وارداتها تتوزع على جبهة عريضة من مختلف السلع والخدمات ، وتتفاوت الدول الاسلامية فيما بينها تفاوتاً كبيراً ، من حيث درجات التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، ومن حيث طبيعة هيكلها الانتاجي ، ومن حيث ما تزخر به من مواد وثروات طبيعية وبشرية ومالية ، بل ومن حيث طبيعة المشكلات الاقتصادية الملحة التي تواجهها ، ومع ذلك فهي تشارك مجموعة دول العالم الثالث فيما تكابده من أزمات وصعاب تعترض سبيلها في اقامة حياة أفضل لشعوبها .

ولعل أزمات الديون الخارجية التي تواجهها مجموعة الدول الاسلامية ، هي خير مثال على مشاركتها هموم العالم الثالث ومشكلاته الأساسية ، فالشطر الأعظم من هذه الدول يدخل في عداد الدول المدينة ، والاستثناء الوحيد هنا هو حالة الدول العربية النفطية (السعودية ، الكويت ، قطر ، الامارات) ، كما أن الآثار والنتائج الخطيرة التي نجمت عن تفاقم الديون الخارجية لدول العالم الثالث ، هي نفسها الآثار والنتائج التي تعاني منها الآن مجموعة الدول الاسلامية .

وطبقاً للبيانات التي ينشرها البنك الدولي ، فقد وصلت الديون الخارجية لهذه الدول الى حوالي ١٩٠ بليون دولار في عام ١٩٨٤ ، وهذا الرقم يعادل تقريباً ٢٣٪ من إجمالي مديونية دول العالم الثالث التي بلغت في نفس هذا العام حوالي ٨٢٨ بليون دولار ، على أنه تجدر الاشارة هنا ، الى أن الرقم الفعلي لديون العالم الثالث يزيد عن هذا الرقم ، ذلك أن بيانات البنك الدولي تستبعد من أرقام المديونية الخارجية بعض عناصر الديون المهمة ، مثل الديون العسكرية (التي عادة لا تتوافر عنها بيانات) والالتزامات تجاه صندوق النقد الدولي ، والديون الخاصة التي لم تضمنها الحكومات ، فضلاً عن الديون الخارجية التي تدفع بالعملة المحلية ، وبناء عليه ، فإننا لو أدخلنا بعين الاعتبار هذه الديون المستبعدة ، فلربما يصل الرقم الفعلي لديون العالم الاسلامي الى ٢٠٠ بليون دولار أو أكثر .

أهم ملامح صورة الديون

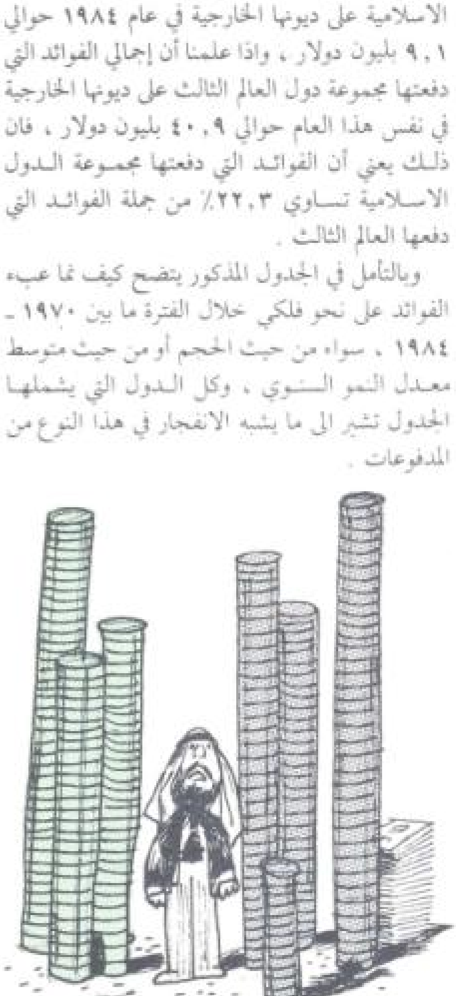
واذا شئنا الآن أن نرسم صورة سريعة عن الديون الخارجية لمجموعة الدول الاسلامية ، فان الجدول رقم (١) الذي يوضح حجم المديونية الخارجية وأعباءها في عام ١٩٨٤ ، يساعدنا كثيراً في رسم هذه الصورة وتحديد أدق معالمها ، وبالتأمل في هذا الجدول يمكننا أن نرصد المعالم الأساسية التالية :

هناك تسع دول من مجموعة الدول الاسلامية هي : الجزائر ، وأندونيسيا ، ومصر ، وتركيا ، وماليزيا ، ونيجيريا ، والمغرب ، وباكستان ، ونيجيريا ، تستأثر الشطر الأعظم من ديون مجموعة هذه الدول ، حيث بلغت ديونها حوالي ١٤٥,٢ بليون دولار في عام ١٩٨٤ ، وهو ما يعادل أكثر من ثلاثة أرباع (حوالي ٧٧٪) من إجمالي ديون هذه الدول ، أما النسبة الباقية فتتوزع على باقي الدول وعددها ٣٥ دولة .

يلاحظ من أرقام الجدول ، أن هناك دولاً نفطية ، مثل أندونيسيا والجزائر ، ونيجيريا ، وعُمان ، تدخل في عداد الدول النامية ، وقد وصل إجمالي ديونها في عام ١٩٨٤ حوالي ٦٧,٦ بليون دولار ، أي ما نسبته ٣٦٪ من إجمالي مديونية هذه الدول .

بلغ إجمالي الفوائد التي دفعتها مجموعة الدول الاسلامية على ديونها الخارجية في عام ١٩٨٤ حوالي ٩,١ بليون دولار ، واذا علمنا أن إجمالي الفوائد التي دفعتها مجموعة دول العالم الثالث على ديونها الخارجية في نفس هذا العام حوالي ٤٠,٩ بليون دولار ، فان ذلك يعني أن الفوائد التي دفعتها مجموعة الدول الاسلامية تساوي ٢٢,٣٪ من جملة الفوائد التي دفعها العالم الثالث .

وبالتأمل في الجدول المذكور يتضح كيف نما عبء الفوائد على نحو فلكي خلال الفترة ما بين ١٩٧٠ - ١٩٨٤ ، سواء من حيث الحجم أو من حيث متوسط معدل النمو السنوي ، وكل الدول التي يشملها الجدول تشير الى ما يشبه الانفجار في هذا النوع من المدفوعات .



جــدول رقـــم (١)

الصورة العامة للديون الخارجية وأعبائها لمجموعة الدول الاسلامية في عام ١٩٨٤

الدولـــة	إجمالي الديون الخارجية مليون دولار	مدفوعات الفوائد على الديون الطويلة الأجل - مليون دولار		معدل خدمة الدين (٪ من حصيلـــة الصـــادرات)	
	١٩٨٤	١٩٧٠	١٩٨٤	١٩٧٠	١٩٨٤
الامـــارات	-	-	-	-	-
الأردن	٣١٩٦	٢	١١٧	١٤,٨	٣,٦
البحرين	-	-	-	-	-
تونس	٤٣٠١	-	-	-	-
الجزائر	١٣٨١١	١٠	١٢٩١	٣,٨	٣٣,٦
جيبوتي	-	-	-	-	-
السعودية	-	-	-	-	-
الســودان	٦٦٦١	١٣	٦٥	١٠٠,٦	٣١,٦
ســوريـــا	٣٠٧٥	٦	٨٣	١١	١٢,٩
الصومـــال	١٣٨٤	-	٣	٢,١	٢٨,٩
العـــراق	-	-	-	-	-
عُمـــان	١٥٢٥	-	٨٦	-	٤,٦
قطـــر	-	-	-	-	-
الكويـــت	-	-	-	-	-
لبـــنان	٤٣٩	١	١٣	-	-
ليبيـــا	-	-	-	-	-
مصـــر	٢٣٢٠٦	-	٦٩٨	-	٣٤,١
المغـــرب	١٠١٦٩	-	٤٩٤	-	-
موريتانيـــا	١٢٨٣	-	٢٣	٣,١	١٠,٠
اليمن / ش	١٩٥٧	-	١٦	-	٢٦,٦
اليمن / ج	١٣٣٧	-	١٢	-	٢٢,٠
أفغانســـتان	-	-	-	-	-
بنجـــلادش	٥٦٤٤	-	٧٥	-	١٤,٢
الكامـــيرون	٢٦٢٨	٥	١٦٤	٣,٩	١٤,٥
تشـــاد	١١٤	-	١	٣,٩	١,٧
جـــزر القمـــر	-	-	-	-	-
بوركينافاســـو	٤٣٣	-	٧	٦,٢	-
جابـــون	٩٤٥	-	٧٠	-	-
غينيـــا	١٢٣٤	٤	٢١	-	-
غينيا بيساو	١٩٧٧	٩	١٤٨	٢٤,١	٣٥,٩
أندونيســـيا	٣٢٤٨٠	٤٥	١٩٠٠	١٣,٨	١٩,٠
بنيـــن	٦٤٤	-	١٧	٢,٣	-

الدولــة	إجمالي الديون الخارجية مليون دولار	مدفوعات الفوائد على الديون الطويلة الأجل ـ مليون دولار		معدل خدمة الدين (٪ من حصيلــة الصــادرات)	
	١٩٨٤	١٩٧٠	١٩٨٤	١٩٧٠	١٩٨٤
إيــــران	-	-	-	-	-
ماليزيـــا	١١٨٤٦	-	٩٥٨	-	-
ملاديـف	-	-	-	-	-
مـــلاوي	٨٨٥	٣	٣٢	٧.٢	-
البحـــر	٩٤٥	-	٢٧	–	-
برونـوي	-	-	-	-	-
باكستـان	١٦٦٦٥	٧٧	٣١٧	٢٣.٧	٢٧.١
السنغــال	٢٠٢٦	٢	٥٣	٣.٨	-
سيراليـون	٤٤٦	٢	٤	٩.٩	٧.٢
تركيـــا	٢٢٣٦٧	٤٥	١٠٩٣	٢٢.٧	٢٣.٨
أوغنـدا	١٠١٦	٤	٣٢	٢.٧	-
نيجيريـــا	١٩٧٤٢	٢٨	١٢٨٢	٧	٢٩.٩
المجموع	١٨٩٢٧٢	-	٧٥٥٣	-	-

ويعود ذلك الارتفـاع في أسعـار الفـائـدة على القروض وتعويمها ، فضلا عن نمو أحجام الديون نفسها .

ولو دققنا النظر أكثر في تفاصيل عبء الفوائد المدفوعة فسوف يسترعي النظر ، أن هناك ست دول هي نيجيريا ، وتركيا ، وأندونيسيا ، وماليزيا ، ومصر ، قد دفعت ٧.٢ بلايين دولار ، وهو ما يمثل حوالي ٧٧٪ من إجمالي الفوائد التي دفعتها مجموعة الدول الاسلاميـة (٩.١ بلايين دولار) في عام ١٩٨٤

وفيما يتعلق بمعدل خدمة الدين ، أي نسبة ما تستأثر بـه مدفوعات الفوائد والأقساط من إجمالي حصيلة صادرات السلع والخدمات ، فسوف نجد أن ثمة تباينا شديدا فيما بين هذه الدول ، فهناك طائفة منها يصل فيها هذا المعدل الى ٣٠٪ وأكثر ، وتلك هي حالة الجزائر ، ومصر ، وغينيا ، والسـودان . وهناك دول يتراوح فيها هذا المعدل فيما بين ٢٠٪ و ٣٠٪ وتلك هي حالة نيجيريا ، وباكستان ، واليمن الجنوبي ، واليمن الشمالي ، والصـومال . وهنـاك طائفة ثالثة من الدول يتراوح فيها هذا المعدل فيما بين ١٠٪ و ٢٠٪ مثـل أنـدونيسيـا ، وسـوريـا ، وبنجلاديش ، والكاميرون ، وموريتانيا . أما أقل معدلات خدمة الدين فتوجد في الأردن ، وعُمان ، وسيراليون ، وتشاد وغيرها .

والـواقع أن هـذا النمو الكبير الذي حدث في أحجام تلك الديون وأعبائها خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة يعود الى ما شاب الاقتصاد الرأسمالي العالمي من فوضى واضطراب واصحبن خلال هذه الفترة ، وتأثر مجموعة الدول الاسلامية بذلـك ، فضلا عن أخطاء السياسـات الاقتصادية التي انتهجتها هـذه الدول . فمنذ مطلع العقد السـابع الماضي دب ركود اقتصادي واضح في غالبـة الدول الرأسمالية الصناعية المستوردة لصادرات هـذه الـدول من المواد الخام والأولية ، وانهار نظام النقد الدولي بعد اتخاذ الولايات المتحدة الأمريكية قرارها المنفرد بوقف قابلية تحويـل الدولار الى ذهب في أغسطس ١٩٧١ ، وتعويم سعر الدولار ، والمضاربة على الـذهب ، وارتفاع أسعار الفائدة في أسواق النقد الدولية ، وتزايد نزعة الحماية

بالدول الصناعية ، واندلاع تضخم شديد في الاقتصاد العالمي .

نمو الديون وانخفاض الصادرات

في خضم هذا العالم المضطرب انخفضت حصيلة صادرات الدول النامية ، ومعها بطبيعة الحال مجموعة الدول الاسلامية ، باستثناء الدول النفطية ، هذا في الوقت الذي اتجهت فيه أسعار وارداتها نحو الارتفاع ، ومن هنا كانت أزمة موازين مدفوعاتها ، حيث اتجه العجز فيها نحو التزايد بشكل سريع ، وآنذاك استطاع الاقتصاد الرأسمالي أن يخلق آليات التكيف مع هذا الوضع المتأزم ، وهي الآليات التي استهدفت العمل على نقل الموارد المالية من بلاد الفائض الى بلاد العجز ، فبعد أن تمكن الاقتصاد الرأسمالي العالمي من اعادة تدوير الفوائض النفطية ، وبعد أن نمت قدرة سوق اليورو دولار الأوروبية على خلق السيولة بكميات هائلة ، نشأ ما يمكن أن نسميه « بالتخمة في السيولة الدولية » حيث راحت البنوك التجارية الدولية النشاط ، بعد أن تمردت على قواعد الغنى المصرفي التقليدية ، وقواعد الاحتراس المالي المعروفة ، راحت تتسابق فيما بينها في منح القروض للدول النامية بأسعار فائدة مرتفعة ، سعياً وراء تحقيق أرباح خيالية ، دون مراعاة لقدرة هذه الدول على السداد مستقبلاً .

ومن ناحية أخرى ، استسهلت مجموعة الدول النامية هذا النوع من الاقتراض لمواجهة العجز في موازين مدفوعاتها ، ووقعت في وهم كبير ، مؤداه ، أنه بالامكان الاستمرار في التنمية ، وزيادة مستوى المعيشة من خلال الاعتماد المتزايد على التمويل الخارجي ، ودون أن تهتم بتعبئة مدخراتها المحلية ، معتقدة في ذلك انه لن تظهر مشكلات للسداد في الأجل الطويل ، واستمرت هذه الدول تقترض بمعدل نمو سنوي لا يقل عن ٢٠٪ ، وكان من جراء ذلك حدوث تشويه واضح في هيكل ديونها الخارجية ، حيث ارتفع النصيب النسبي للديون المصرفية في اجمالي مديونية هذه الدول ، وهي ديون ، كما نعلم ، باهظة التكاليف حيث تتسم بقصر آجالها ، وبارتفاع أسعار فائدتها ، وبضآلة فترة السماح فيها ، وكان من الطبيعي والحال هذه أن ترتفع مدفوعات خدمة هذه الديون ، فما بالنا اذا علمنا أن الفوائد التي دفعتها مجموعة الدول الاسلامية عن ديونها الخارجية في عام ١٩٧٠ كانت تقل عن نصف مليار دولار ، بينما ارتفعت هذه الفوائد الى حوالي ٨ مليارات في عام ١٩٨٤ ، واذا أدخلنا في الحسبان مدفوعات الأقساط على هذه الديون فان الصورة تزداد قتامة .

ان هستيريا الاقراض التي حدثت في السبعينيات ، قد أدت الى التخفيف من حدة الركود الاقتصادي في الدول الرأسمالية الصناعية ، حيث ارتبط منح هذه القروض بزيادة صادرات هذه الدول الى البلاد المقترضة ، وبذلك خففت من حدة مشكلات البطالة والتضخم فيها ، وهذا ما يدعونا للقول ، بأن النمو المفرط الذي حدث في الائتمان الدولي كان عبارة عن محاولة لزيادة الطلب الكلي الفعال على النطاق العالمي من خلال ضخ المزيد من النقود ، في محاولة لمواجهة أزمة الكساد الاقتصادي في الرأسمالية العالمية ، بيد أنه لما كانت أزمة الرأسمالية العالمية حالياً ، وهي أزمة هيكلية وليست دورية ، وأنها ذات أمد طويل ، فان هذه المحاولة المستندة على الافراط في الائتمان الدولي ، سرعان ما استنفدت فاعليتها ، وبدلاً من أن تصبح حلاً للأزمة ، أصبحت جزءاً منها .

ففي أغسطس عام ١٩٨٢ ، توقفت كبريات الدول المدينة عن دفع أعباء ديونها الخارجية (المكسيك ، البرازيل ، الأرجنتين) من جراء النمو الهائل الذي حدث في تلك الأعباء ، وكان توقفها عن الدفع يعني افلاس البنوك الدائنة لها (ومعظمها بنوك أمريكية) ، هنالك دب ذعر واضح في الدوائر المالية الدائنة ، وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية - ومعها صندوق النقد الدولي وبنك التسويات الدولية - لمواجهة الموقف ، فأعطت هذه الدول مزيداً من القروض ، وأعادت جدولة بعض ديونها ، المهم أنه بعد ذلك التاريخ انكمش معدل نمو الائتمان المصرفي بشكل حاد ، بعد أن أعادت البنوك التجارية النظر في سياستها الائتمانية ، وأصبح من المتعذر على الدول المدينة - ومنها مجموعة الدول الاسلامية - أن تحصل على حاجتها من الائتمان الدولي ، الا بعد أن ترضخ لشرط الدائنين ، وبالذات لشروط صندوق النقد الدولي ، وهي شروط كما نعلم مجحفة وخاطئة ،

وتعرض البلاد المدينة للاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ومنذ ذلك التاريخ (١٩٨٢) دخلت أزمة المديونية الخارجية مرحلة جديدة .

نتائج نمو الديون

وعلى أية حال ، فقد تمخضت أزمة الديون الخارجية المستحقة على مجموعة الدول الاسلامية ومعها دول العالم الثالث عن نتائج وخيمة ، وبخاصة في السنوات الأخيرة ، حيث أدى التطور المفزع الذي حدث في أرقام هذه الديون وأعبائها الى ارهاق اقتصادي شديد لهذه الدول ، فقد أدى ارتفاع أعباء خدمة الديون (الاقساط + الفوائد) الى التهام النسبة الكبرى من حصيلة صادرات السلع والخدمات (انظر الجدول رقم ١) ، كما أن تلك الأعباء تمثل الآن نسبة مهمة من الناتج القومي الاجمالي ، مما يعني ارتفاع نصيب الأجانب من الدخل القومي المتحقق في هذه الدول ، وقد وصل معدل خدمة الدَّين الى مستوى حرج في بعض الدول الاسلامية ، مثل : مصر ، الجزائر ، الصومال ، السودان ، غينيا بيساو ، وتركيا ، اليمن الشمالي . . الى آخره ، وزاد من حرج الموقف عدم نمو حصيلة الصادرات ، وتعرضها للتقلب والتدهور تحت تأثير موجة الركود العالمي ، ومن ناحية ثانية اضطرت الدول المدينة الى أن تستنزف جانباً كبيراً من احتياطاتها النقدية ، وهو أمر عرّض الجدارة الائتمانية لها للاهتزاز في أسواق النقد الدولية ، ومن هنا زادت أمامها صعوبات الاقتراض ، وكل ذلك تزامن بأخطاء السياسات الاقتصادية الداخلية ، وبضعف الاهتمام بزيادة المدخرات المحلية ، وترشيد استخدامات النقد الأجنبي .

على أن أخطر ما تمخض عن تلك الديون ، بعد وصولها الى هذا المستوى الحرج ، هو تهديد قدرة الدول على المحافظة على استيراد احتياجاتها الضرورية : الغذائية ، والاستهلاكية ، والوسيطة ، وهو أمر عانت منه أشد معاناة الدول الاسلامية والنامية الأشد فقراً ، الواقعة في أفريقيا ، فمع أزمات النقد الأجنبي التي صاحبت أزمة الديون ، لم تعد تلك الدول قادرة على أن توائم بين دفع الأعباء المتزايدة لديونها ، وبين الاستمرار في تمويل تلك الواردات بما يحافظ على الحدود الدنيا أو المعقولة للاستهلاك والانتاج المحليين ، وزاد من صعوبة الموقف تدهور أسعار الصرف لهذه البلاد ، وهروب الأموال للخارج ، وارتفاع معدلات التضخم المحلي ، وتدهور معدلات النمو الاقتصادي وزيادة البطالة ، وانخفاض مستوى المعيشة ، وكل ذلك عرض النظم السائدة بهذه البلاد لضغوط واضطرابات شديدة .

ومع وجود عجز حقيقي عن الوفاء بأعباء الديون ، ومع عدم القدرة على الحصول على المزيد من القروض الخارجية والمعونات الاقتصادية ، اضطر عدد كبير من هذه الدول (السودان ، ملاوي ، النيجر ، أوغندا . . . . . .) الى طلب اعادة الجدولة لديونها الخارجية ، والدخول في مفاوضات مع الدائنين لتأجيل الدفع ، والرضوخ لشروط صندوق النقد الدولي . ومن المعلوم ، أن تشخيص صندوق النقد الدولي لأزمات موازين مدفوعات هذه البلاد يقوم على رؤ ية غير صحيحة ، وهي أن العجز في هذه الموازين ناجم عن وجود افراط في حجم الطلب الداخلي ، وانه من الممكن من خلال تخفيض عرض النقود ، والغاء الدعم السلعي ، وتخفيض سعر الصرف للعملة المحلية ، والغاء الرقابة على الواردات ، وتحجيم الاستثمار العام أن تستعيد هذه البلاد توازنها الداخلي والخارجي ، وتقل من ثم حاجتها للاستدانة الخارجية ، والواقع أن كثيرا من الدراسات والبحوث قد أثبتت أن أزمة موازين مدفوعات تلك البلاد ترجع الى حالة التبعية التي تعاني منها ، فهي تعود الى تأثير مجموعة من العوامل الخارجية التي لا تستطيع التحكم فيها (مثل حصيلة الصادرات بسبب الركود الاقتصادي العالمي ، وارتفاع أسعار الفائدة على القروض ، وزيادة أسعار الواردات ، وارتفاع سعر الدولار عالمياً . . الى آخره) كما أن كثيرا من الدول المدينة ، وان كانت تتسم بافراط في استهلاكها الترفي لبعض الفئات الاجتماعية الا انها تعاني من مشكلات عويصة في ندرة المواد الغذائية والضرورية . والاصرار على تنفيذ « روشتة » صندوق النقد الدولي قد أدت الى تطبيق سياسات انكماشية صارمة .

حماية التنمية من غول الديون

ان التناقض الرئيسي الذي أصبحت تواجهه مجموعة الدول الاسلامية والنامية المدينة ، يتمثل في كيفية حل أزمة الديون وأزمة التنمية ، فنمو أعباء الديون والرضوخ للشروط التي يفرضها الدائنون ، أصبح يعني ايقاف التنمية ، وتدهور مستوى المعيشة من أجل الوفاء بعبء الدين .

وقد صرح عدد كبير من رؤساء الدول المدينة ، بأن عبء المديونية الخارجية أصبح أمرا لا يطاق ، وان الشروط التي يطلبها الصندوق والدائنون لم تعد مقبولة ، وأنهم قد وصلوا في قبولها الى آخر مدى ممكن ، وأنه من الضروري الحرص على مواصلة التنمية ، وتحقيق التقدم الاقتصادي الاجتماعي لشعوبهم .

ولقد أعلنت الدول المدينة في المؤتمرات والمحافل الدولية عدة مطالب وأمانيّ لتخفيف أعباء الديون لمواصلة الجهد التنموي ، وكان أهم هذه المطالب والأماني ما يلي :

١ ـ ان المسئولية مشتركة بين الدائنين والمدينين .
٢ ـ تخفيض أسعار الفائدة الحقيقية على الديون .
٣ ـ وضع حدود معقولة لخدمة الديون .
٤ ـ ضرورة تعديل شروط صندوق النقد الدولي .
٥ ـ وجود آليات تكفل مساعدة الدول المدينة .
٦ ـ تشجيع نفاذ صادرات الدول المدينة الى الدول الدائنة .
٧ ـ المعاملة الخاصة للدول الأفريقية الفقيرة .

وقد ترددت هذه المقترحات والأماني في اعلان قرطاج لمجموعة الدول الأمريكية اللاتينية ، وفي مؤتمر القمة الأفريقي الذي انعقد في أديس بابا في يوليو ١٩٨٦ ، وفي قمة هراري لمجموعة دول عدم الانحياز في سبتمبر ١٩٨٦ ، ومع ذلك لم تلق هذه الأماني والمطالب أية آذان مصغية .

وليس هناك ما يدعونا لكي نتفاءل بامكان قبول هذه المقترحات والأماني ، وعلى ذلك نعتقد أن مشكلة الديون الخارجية سوف تستمر على النحو الذي سارت عليه في الآونة الأخيرة (حصار المدينين والضغط عليهم لدفع الديون) ، ولسوف تسوء أحوال البلاد المدينة ، وتسير من سيء الى أسوأ ، ما لم تبذل تلك البلاد جهودا واعية وخلاقة ، لوقف افتراس غول الديون للجهد التنموي لمستوى معيشة السكان في هذه البلاد .

الاعتماد على الذات

وهنا نرى أن الحل يجب أن يكون من خلال استراتيجية الاعتماد على الذات بشقيها الجماعي والمحلي ، أما عن الشق الجماعي ، فيتمثل في ضرورة تطوير دعم أشكال التعاون الاقتصادي بين مجموعة الدول الاسلامية فيما بينها ، وبين مجموعة دول العالم الثالث الذي ينتمون اليه ، وهناك أشكال عديدة في هذا الخصوص منها :

* الاسراع بتكوين ناد للمدينين على غرار نادي الدائنين (نادي باريس) ، تكون مهمته وضع أسس ومعايير جماعية للمفاوضات مع الدائنين ، تحافظ على مصالح المدينين ، وتربط حل مشكلة الديون بمواصلة عملية التنمية ، ورفع مستوى معيشة السكان .
* دعم وتطوير اتحادات منتجي المواد الأولية .
* زيادة التبادل التجاري والتعاون النقدي فيما بين هذه البلاد من غير وسيط ثالث .
* تسهيل نقل التقنية الموجودة داخل هذه البلاد .
* توحيد المواقف تجاه المشكلات الاقتصادية العالمية (نظام النقد الدولي ، الشركات المتعددة الجنسية ، المنظمات الاقتصادية الدولية . .) .
* تشجيع استثمار الفوائض المالية للدول النفطية داخل هذه البلاد .

أما على المستوى الداخلي ، فلا مفر أمام هذه البلاد ، لحل مأزق الديون ومعضلة التنمية الا باعادة ترتيب الدار من الداخل ، وذلك من خلال اعادة النظر في نهج التنمية وتوجهاتها ، والعمل على زيادة المدخرات المحلية (لتقليل فجوة الموارد المحلية) وترشيد استخدامات النقد الأجنبي (لتقليل فجوة العملات الأجنبية) وفرض الرقابة على الصرف وتشجيع الجهد الاستثماري المنتج ، في القطاعين العام والخاص ، ودعم قطاع الصادرات والقطاع المنتج لبدائل الواردات ، بيد أن تنفيذ ذلك يتطلب دورا فاعلا ومؤثرا للدولة في قيادة حركة النشاط الاقتصادي . □

أقوال



الأمير جابر الأحمد



الملك فهد



الملك حسين

■ الخطاب الالهي موجه إلى المسلمين جميعا ، عليهم أن يترجموه إلى حياة نابضة بالتقدم والخير .

من خطاب أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح
بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري

■ إذا ما حللنا الأوضاع بالنسبة لموقف أمريكا وغير أمريكا سنجد أن مرد هذه التصرفات كلها نوع من عدم الاكتراث بالأمة العربية ، والانسان العربي ، والامعان في اتخاذ مواقف وسياسات فيها تحد لكل مشاعر الوطن العربي ، وهذا شيء نحن ـ العرب ـ مسؤولون عنه قبل أي جهة أخرى ، لأن ما نعيشه واقع مؤلم .

الملك حسين بن طلال

■ في تاريخ الأمم والشعوب أيام تسطر على جبين الزمن أمجادا ، تحفل بمعان سامية ، وقيم أصيلة ، هي دائما مشاعل التوجه إلى المستقبل . وأحسب أننا نعيش اليوم واحدا من هذه الأيام الخالدة .

من كلمة أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة
في افتتاح الجسر الذي يربط السعودية بالبحرين .

■ إن هذا الجسر هو من منجزات القرن العشرين .

خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز

■ العلم والمعرفة والآداب أسلحة المستقبل ، وغذاء حقيقي لأي مجتمع يريد لنفسه النهوض والتقدم .

راشد عبدالعزيز الراشد
وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء ـ الكويت ـ
عند افتتاح معرض الكتاب العربي الثاني عشر

■ حين يتوقف الكاتب عن لعب دور الضمير في مجتمعه ، عليه أن يعترف أنه اختار إما التنكر الكامل لنفسه ، وإما الانسحاب إلى موقع المسجل لحدث ولى ، أو موقع طبيب شرعي ، يتعامل مع جثة هامدة !

وول سوينكا
الحائز على جائزة نوبل في الآداب لسنة ١٩٨٦

العربي ـ العدد 338 ـ يناير 1987

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

الشّريعة والنّاس

لا نحسب أن سوء الفهم وحده هو المسئول عن «تلغيم» العلاقة بين الشريعة والناس. وبنفس القدر فانه يظل من غير الانصاف أن نحمل طرفا بذاته كامل تلك المسئولية، من قبيل ما فعل احد شيوخ الازهر الكبار «الشيخ محمد مصطفى المراغي» عندما أشار الى الفقهاء بأصابع الاتهام، في مذكرة شهيرة له حول اصلاح الأزهر، قدمها في سنة ١٩٢٨، حيث قال:

ان «الأمة المصرية» تركت الفقه الاسلامي، لأنها وجدته ـ بحالته التي أوصلها اليه الفقهاء ـ غير ملائم... ولو أنها وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان، وتبدل العرف والعادة، وراعى الضرورات والحرج لما تركته الى غيره».

ووجه قلة الانصاف هنا أن الفقهاء ليسوا هم المتهم الأوحد في القضية، وأكاد أقول انهم أيضا ليسوا المتهم الأول. ذلك ان اثارة تلك النقطة ترتب سؤالا آخر هو: ما الذي جعل الفقهاء يقفون في الجانب المعطل للمسيرة، لا المعين على تقدمها؟ هل هم الذين تخلوا عن مسئولياتهم، أم انهم تخلوا عنها حينا، وحيل بينهم وبين أدائهم لتلك المسئولية في أحيان أخرى. ثم من يكون هذا المجهول الذي أحلنا اليه: الاستعمار؟ الحكام؟ أم انها مسيرة التطور التي نحت هؤلاء عن مكانهم، كما يحلو للبعض أن يفسر الظواهر الاجتماعية والفكرية؟.. أم انها الشريعة ذاتها، التي لم تتمتع بالمرونة الكافية التي تمكنها من ملاحقة عجلة التقدم المتسارعة؟

لانريد أن نشغل طويلا بالاسباب، فذلك بحث آخر، فضلا عن أن محاولة الاجابة عن السؤال الأخير هي موضوعنا الذي نحاول أن نستجلي جوانبه. ما نريد أن تلفت النظر اليه في البداية هو أن الفقهاء ليسوا هم الذين صنعوا الأزمة، وفي أسوأ الفروض فانهم كانوا شركاء فيما جرى، ولم يكونوا الفاعلين الوحيدين. وقد نذهب الى أن ما يسمى بالجمود أو التزمت قد عطل تطور الفقه وتقدمه، الا انه عند امعان النظر ـ لم يخل من فائدة، ربما لم تكن مقصودة ولا واردة في حينها، ذلك ان هذا الجمود قد حمى الفقه من الترخص والابتذال، في عصور لم يكن للفقهاء ـ ولا الشريعة ـ فيها حول ولا طول، وكان كل المطلوب منهم هو مباركة خطا السلاطين «والمرونة» في الاستجابة لنزواتهم وأهوائهم، أو في مسايرة كل جاء باسم التحديث والمعاصرة! وهو خطر يتبدى بأكثر ما يكون في حالات الضعف التي يفتقد فيها الذين يتصدون لامور الفتوى لشروط الاجتهاد ولا يتمكنون من عدته وآلته.

وهنا قد يهمنا التنبيه الى أمرين:

الأول. ان عصور الضعف والتدهور لا تطل على

الواقع فجأة وبلا مقدمات ، لكنها جماع اسباب عديدة وامراض مختلفة تصيب جسد الأمة وتقتل خلاياها الحية والفاعلة ، واحدة تلو الأخرى ، حتى يتمكن الداء من الجسد ، ويهزمه في نهاية الأمر . وحجم الهزيمة لايرتبط فقط بطبيعة الجرائيم التي تسري في الجسم ، ولكنه وثيق الصلة أيضا بحالة الضعف أو المناعة لدى الجسم ذاته .

الأمر الثاني ، ان تأثير التدهور والانحطاط لايصيب جانبا دون الآخر ، وانما يمتد ذلك الأثر ليشمل الواقع بمختلف اطرافه وعناصره، وبالتالي فان التدهور الفقهي مرتبط بالتدهور الثقافي العام . والاثنان وثيقا الصلة بحالة التراجع الشاملة ـ سمها الانحطاط ان شئت ـ التي يعاني منها الواقع

ان العلاقة بين الشريعة والناس تصبح متينة وحميمة ، وتتبدى في أكثر أطوارها صحة وايجابية ، في مراحل الازدهار العقلي ، بينما تتعقد تلك العلاقة وتصاب بالجفاف والتيبس وربما الضمور أيضا في عصور الجزر والانحسار .

من هنا فلعلنا لانجاوز الحقيقة كثيرا ، ان قلنا ان جمود الفقهاء يعد أحد اعراض المرض الذي يسري في جسد الأمة ، وليس سببا له خارج تلك الدائرة ، فلا أحد ينكر أن ثمة التباسا في التعامل مع الشريعة دخل على عقول كثيرين ، لاسباب متنوعة .

فالمصدر الالهي للشريعة ، صنفها البعض في دائرة منفصلة عن البشر ، أو فوقهم . وذهب عديد من المستشرقين الى اعتبار الشريعة أمرا مثاليا يعنى بالقيم الدينية والاخلاقية التي ترتجى في حياة الناس ، ولا تنطبق على الواقع بالضرورة . من هؤلاء المستشرقين جولد زيهر واندرسون وشاخت ولولسون ، الذين وضعوا الشريعة في مرتبة القانون الطبيعي ، الذي هو جماع المثل العليا والقيم الاساسية في حياة الانسان . فنحن نجد واحداً مثل المستشرق نويل ج . كولسون ـ استاذ القوانين الشرقية في جامعة لندن ـ يقرر في كتابه حول تاريخ القانون الاسلامي ان انقطاع الوحي بوفاة الرسول ﷺ جعل الشريعة الاسلامية بما تحقق لها من كمال التعبير والبيان ثابتة غير قابلة للتغيير . . واصبح على المجتمع ان يتطلع الى ما تمثله من معايير مثالية وصحيحة الى الابد . . وهو في كتاب آخر (التعارض والقضاء في الفقه الاسلامي) يخصص فصلا للتنازع بين النزعة المثالية والنزعة الواقعية في مسيرة الفقه الاسلامي ويبرز الوجه ذاته .

وهذا المعنى نجده في كتابات العديد من الباحثين والمثقفين العرب،الأمر الذي دعا احد كبار فقهاء زماننا ـ الشيخ الدكتور محمد مصطفى شلبي الذي كان يرأس قسم الشريعة في جامعتي الاسكندرية وبيروت ـ الى محاولة نقض هذه الفكرة في كتاب مهم بعنوان : الفقه الاسلامي بين المثالية والواقعية .

وربما أسهم في الالتباس أيضا الفهم الخاطىء الذي حملت به القاعدة الشرعية القائلة بأن « الشريعة حاكمة لامحكومة » الامر الذي دعا البعض الى استقبالها باعتبارها « قانونا » يقضي بأن الشريعة لاعلاقة لها بالواقع ، فهي تحكمه وتمضي قرارها فيه بصرف النظر عن ظروف ذلك الواقع . ساعد على شيوع ذلك الفهم ان هناك ممارسات تمت منطلقة من ذلك الاعتبار . تطبيق النص الشرعي بتجاهل تام لحقائق الواقع ، مما قدّم الشريعة في صورة المتحكمة لا الحاكمة،وليست بعيدة عن أذهاننا ـ على سبيل المثال ـ تجربة تطبيق حد السرقة على ذوي الحاجة والجياع في بعض مجتمعاتنا الاسلامية الفقيرة . الأمر الذي لايقره نقل ولا عقل .

وغني عن البيان أن تلك القاعدة التي نحن بصددها يقصد بها أن تكون الشريعة هي الحكم والفيصل فيما يختلف عليه ، أو يستجد من أمور ، اعمالا للنص القرآني « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » (النساء ـ ٥٩) . . ومن الخطأ الجسيم أن تقرأ العبارة بحسبانها دعوة الى تطبيق الأعمى للنصوص الشرعية دون نظر أو اعتبار للزمان أو المكان أو أعراف الناس أو عوائدهم واحوالهم .

ولا نستبعد أن يكون لتأثير التراث الكنسي الغربي دوره في هذا الصدد . حيث التفرقة قائمة بين اللاهوت والناسوت . وحيث للدين رجال ومؤسسة وبابوية ، ومدارج ليست في متناول كل الناس ، الأمر الذي استمر على النحو الذي يعرفه الكثيرون في العصور الوسطى ، حيث استقر في اليقين العام ان مفاتيح السماء بأيدي رجال الدين . الذين باشروا سلطانا تراوح بين تلقي اعترافات المذنبين الى صكوك الغفران في الآخرة .

المناقشة

ان الناس هم موضوع الشريعة ، ومدارها ووعاؤها ،والتكاليف ليست« فرامانات » أو مراسيم الهية لايملك المتلقون ازاءها الا الانصياع والامتثال ، أيا كان الأمر ، والطريق الموصل بين الشريعة والناس يعد من أوسع الابواب وأكثرها ثراء في الفقة الاسلامي،حتى عرف الفقيه الحق بأنه من أدرك النصوص، وادرك الواقع ، وانزل كلا منهما على الآخر ، واشترط في المجتهد اضافة الى العلم العريض معرفة الناس . حتى ذكر ابن القيم في « اعلام الموقعين » أن المجتهد اذا افتقد هذا الشرط ، فإنه يفسد أكثر مما يصلح . وذهب الى أن معرفة الفقيه بالناس ينبغي أن تتجاوز الأحوال والعوائد الى معرفة « مكر الناس وخداعهم وحيلهم » ـ ونبه القرآن في « الأحكام » الى اهمية أن يكون الفقيه محيطا بلغة العامة ومصطلحاتهم ، حتى يصبح أقرب ما يكون الى خطابهم .

وما كان لهذا الفقيه أن يقطع شوطه البعيد في ذلك الاتجاه دون سند قوي من نصوص القرآن والسنة ودون معرفة عميقة بمكنون الشريعة ومقاصدها . واذا كان القرآن قد بدأ بحمد الله في فاتحته فانه اختتم بسورة « الناس » في منتهاه . وهذا المحور الاساسي (الله ـ الناس) كان له مردوده وانعكاساته العديدة على ساحة الفكر الاسلامي ، يدخل في ذلك مختلف القواعد الشرعية التي انبنت على التوجيهات القرآنية الداعية الى التيسير على الناس ورفع الحرج والمشقة عنهم ، واجتهاد الاصوليين في مسألة المصالح ، وذهاب البعض الى تفضيلها على النصوص ان حدث التعارض بينهما ، وتقدير قاعدة تغير الاحكام بتغير الأزمنة والأمكنة وعوائد الناس ، ثم ذلك الدور الهام الذي يلعبه « العرف » في التشريع الاسلامي .

هذه العناوين ـ التي نرجو أن تتاح لنا فرصة الغوص وراء كل منها ـ ظلت موضوعات للاجتهاد والجدل الخصب بين أجيال الفقهاء وطبقاتهم قرنا بعد قرن ، حتى تكونت لدينا في صددها حصيلة معرفية ضخمة ، أغنت علم أصول الفقه ، ووضعت بين أيدي الباحثين المسلمين مفاتيح بالغة الاهمية للاستدلال والاستنباط ، مما يبعث دفقا مستمرا في العلاقة بين الشريعة والناس .

حسبنا هنا تأمل « العرف » ، الذي يجسد تلك العلاقة الحميمة في أجل صورها ، اذ به لاتصبح الشريعة مجرد تلقين هابط من السماء وانما تستمد بعض منابعها من الأرض . ويتجاوز الناس دور المستقبل (بكسر الباء) والمتلقي ، الى دور المرسل والمؤثر ، مما يدحض مقولات الزاعمين بانفصال الشريعة عن الخلق ، وتحليقها في آفاق المثالية المجردة .

ولا يخلو كتاب لأصول الفقه من مبحث حول العرف ، بعدما أخذ مكانه ضمن مصادر التشريع الاسلامي . يستقل حينا ، ويتداخل مع المصلحة والضرورة في حين آخر . وربما كتاب الشيخ محمد مصطفى شلبي الذي أشرنا اليه هو من أفضل الكتابات المعاصرة التي تناولت هذا الموضوع « بتفصيل وافاضة . يليه في ذلك كتاب استاذنا الشيخ عبد الوهاب خلاف « علم اصول الفقه »

ففي سورة « الاعراف » آية جامعة موجهة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (١٩٩) .. والعفو يطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده . وقيل خذ الفضل من أموال الناس (قبل نزول آية الزكاة) ، والعرف المعني هنا هو ما تعارفه الناس من الخير .

وأخذا بهذه القاعدة . فقد وجدنا لرسول الله احاديث نهى فيها عن أشياء نهيا عاما ، ولما وجد لقومه عادات تخالفها في بعض أفرادها ، استثنى موضع العادة ورخص فيه . من ذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان قد نهى عن بيع ما ليس عند الانسان في قوله : (يا حكيم بن حزام لاتبع ما ليس عندك) ، ولما قدم الى المدينة ووجدهم يتعاملون « بالسلم » وهو نوع من بيع ما ليس عند الانسان اقرهم عليه بعد أن نظمه . ويذكر البخاري عن ابن عباس أن النبي عندما وجدهم في المدينة يسلمون في

الثمار السنة والسنتين أقر ذلك ، واشترط ان يتم « في كيل معلوم ، ووزن معلوم الى أجل معلوم » .

على هذا النهج مضى الصحابة الذين عاشوا رحلة الفتوحات واختلاط المسلمين بغيرهم ، فأقروا الصالح من أعراف الأقوام الأخرين وأفادوا منها ، ومن هذا الباب تم تدوين الدواوين التي كانت معروفة في بلاد الروم وفارس ، وضربت النقود وتم التأريخ بالهجرة ، وطبق نظام الخراج والجزية الذي كان يعمل به كسرى أنو شروان ملك فارس .

ولهذا قال العلماء ، العرف شريعة محكمة . والمعروف عرفا كالمشروط شرطا والثابت بالعرف كالثابت بالنص . والف ابن عابدين رسالة سماها : « نشر العرف فيما بني على الاحكام من العرف » . واستدل العلماء في ذلك بالحديث النبوي : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » (رواه أحمد في مسنده) .

وقد بنى الامام مالك كثيرا من أحكامه على عمل أهل المدينة وذاع هذا النهج عن المالكية ، حتى ظهر في الاندلس والمغرب « فقه العمل » ، وعرف العمل الفاسي (نسبة الى فاس) ، والسوسي نسبة الى (سوسة) . وعند الاحناف احكام كثيرة مبنية على العرف . فالعرف هو الحكم اذا اختلف متداعيان ولابينة لاحدهما ، واذا لم يتفق الزوجان على المقدم والمؤخر والمنقول يصح وفقه اذ جرى به العرف . وللشافعي مذهبان قديم وجديد ، من جراء انتقاله من بغداد الى مصر وتغييره لبعض الاحكام لتغير العرف في البلدين .

وغني عن البيان أن العرف المعتبر هنا هو « الحميد » الذي لايتعارض مع النظام العام ، وبالتعبير المعاصر ، وهو العام وليس الخاص ، وهو ما لايهدر النصوص الشرعية الاساسية . □

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

ماذا يقول العرب في الماء ؟

● يقول الثعالبي في كتابه فقه اللغة وسر العربية : « إذا كان الماء نتنا لا يشربه أحد فهو (آسن) ، وإذا اجتمعت فيه الملوحة والمرارة فهو (أجاج) ، وإذا كان فيه شيء من العذوبة ويشربه الناس فهو (شريب) ، أما إذا كان دون ذلك في العذوبة ولا يشربه الناس إلا عند الضرورة أو قد تشربه البهائم فهو (شروب) ، وإذا كان الماء عذبا فهو (فرات) ، وإذا كان سهلا سائغا متسلسلا في الحلق من طيبه فهو (سلسل وسلسال) ، وإذا جمع بين الصفاء والعذوبة والبرودة فهو (زلال) . وهذا قليل من كثير مما أورده الثعالبي في باب الماء .

مفهوم غريب للجهاد !

بقلم : الدكتور محمد عمارة

« ليس الجهاد هو تكفير الناس ، واكراههم بالعصي والخناجر ، فالجهاد كما شرعه رب العزة ، وأوضحه ديننا الحنيف ، وشيوخ فقهنا ، يتسع لمعان أكثر نبلا وفهما ، لجوهر الدين ، ومعناه ، وغايته » .

لأمر ما - وهو ليس عبثا - توجد في لغتنا العربية المصدر والأصل في « الجهاد » و« الاجتهاد » ، فكلاهما يعني بذل أقصى الجهد ، واستفراغ الوسع في تعيين الموقف الحق ، ونصـرتـه بمختلف السبـل والأدوات الحقة ، وفي مختلف الميادين ، وعلى جميع الجبهات .

واذا كان ذلك واضحا ، وشهيرا ، ومتفقا عليه في بـاب « الاجتهاد » ، فـانـه صحيـح أيضا في تحـديد الاسلام للمراد من مصـطلح « الجهاد » ، رغم مـا يثيره البعض حول هذا المصطلح من غموض ، وابهام يقف به ، عند معنى « القتـال » ، أو يعطيـه أبعادا تدخل به نطاق « العدوان » !

في (التعريفات) للجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦هـ - ١٣٤٠-١٤١٣م) نجد معنى « الجهاد » هو الدعاء الى الدين الحق ، أما (معجم الفاظ القرآن الكريم) فانه يذكر أن أكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مرادا به بذل الوسع في نشر الدعوة الاسلامية والدفاع عنها .

لاقهر ولا اكراه

ولقد ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية ، عندما كان « الاجتهاد » ابداعا حضاريا شـاملا ، وعنـدما كان الجهاد « اجتهادا » ، بكل السبل والأدوات ، وعلى مختلف الجبهـات ، لحمايـة هذا البنـاء الحضاري ، وتمكينه من الاشعاع ، كي يكون المنارة الجاذبة الهادية الى صراط الاسلام المستقيم .

والذين يدركون ما يعنيه مصطلح « الايمـان » في فكر الاسلام ، وكيف أنـه تصديق بـالقلب يبلغ مرتبة اليقين ، يعلمون أن ثمرة هذا « الايمان » لابد أن تكـون « القدوة » التي تجتـذب الغير الى هـدى الاسلام ، وأن القوة والقهر والاكراه قد تضيـف الى الأمة المؤمنة « منافقين » ، لكنها لايمكن أن تضيـف الى هذه الأمة « مؤمنا » يعمر قلبه بالتصديق البالـغ اليقين ، ولذلك قال شارع الاسلام في كتابه المبين : (لاإكراه في الدين) .

وهـذه « القـدوة » ، التي هي ثمـرة « الايمـان »

وترجمانه ، كما تكون سلوكا فرديا سويا ، تكون تحضرا وابداعا حضاريا ، يترجم عن السلوك الجماعي للامة في ميادين الابداع المختلفة ، فيفعل في عقول الآخرين وقلوبهم مالا تفعله أدوات القهر ، ووسائل القسر ، وعتاد الحرب والقتال ، لاسيما والمطلوب هو الاقتناع والايمان ، وليس استسلام المنافقين ، وطاعة المقهورين .

والذين ينظرون في مبحث الجهاد في تراثنا العربي الاسلامي ـ وخاصة في عصر ازدهار حضارتنا العربية الاسلامية ـ سيجدون هذه المعاني واضحة ، وليس عليها اختلاف كبير .

لكن عصر التراجع والتخلف والجمود قد اغلق باب « الاجتهاد » ، على حين كانت السلطة والدولة في المجتمع الاسلامي قد غدت احتكارا للترك والمماليك ، فاختل التوازن ما بين « القلم » و « السيف » ، وبين « العقل » و « القوة » ، وعندما غاب الاجتهاد وبقيت « القوة » التي سميت خطأ « الجهاد » ، شاعت في ذلك العصر تلك المفاهيم التي وقفت بفريضة الجهاد الاسلامية عند « الحرب » و « القتال » ، فانفتح على المسلمين باب الانحراف في فهم المضمون الحقيقي لفريضة « الجهاد » .

مفهوم عجيب غريب

وفي عصرنا الحديث ، اذا نحن ذهبنا نتصفح مذاهب اعلام اليقظة الاسلامية في معنى « الجهاد » وجدنا للاستاذ أبو الاعلى المودودي (١٣٢١-١٣٩٩هـ-١٩٠٣-١٩٧٩م) في هذا الامر مذهبا « جديدا » ، بل لانغلو اذا قلنا انه مذهب « غريب » و « عجيب » ، والأغرب والأعجب هو شيوع هذا المذهب لدى كثير من فصائل المد الاسلامي المعاصر ، وخاصة في صفوف الشباب .

الاستاذ المودودي يتفق مع جمهور علماء الأمة على أن نشر الاسلام « كعقيدة »لاسبيل له الا الحكمة ، والقدوة الطيبة ، والحجة القوية ، والموعظة الحسنة فالايمان بالاسلام ـ كما قدمنا ـ تصديق بالقلب ، يبلغ مرتبة اليقين ، ولاسبيل لقيامه وتحصيله بأي سبيل من سبل الاكراه ، على الاخص اذا كان هذا الاكراه قتالا باسم الجهاد ، واذا كانت الآية الكريمة (لااكراه في الدين) تعني التشريع الالهي الأمر بذلك ، فاننا نفهم منها أيضا تقرير حقيقة استحالة تحصيل الدين والتدين بالاكراه .

في هذا الموقف الذي يرفض قتال الكفار كي يؤمنوا ، يتفق الاستاذ المودودي مع جمهور علماء الاسلام لكنه ـ وان أنكر قتال « الشعوب » غير المسلمة كي تؤمن بعقيدة الاسلام ـ يدعو الى قتال كل « النظم والحكومات » التي تحكم البلاد غير المسلمة ، لتحرير بلادها وشعوبها من طغيانها وطاغوتها ، وازالة قيود هذه النظم والحكومات عن حرية شعوبها في الاختيار الحر بين عقيدة الاسلام وعقائد الديانات الأخرى،ذلك هو جوهر المذهب الغريب العجيب.

انه يرى في ضوء هذه النظم والحكومات غير الاسلامية تكريسا لحكم الطاغوت ، ودعما للحاكمية غير الالهية ، فيضع أمام المسلمين مهمة الجهاد وفريضته في صورة مجاهدة كل نظم الدنيا وحكوماتها ، بكل الوسائل المناسبة واللازمة والمتكافئة ـ بما فيها القتال المسلح ـ وذلك من أجل الاستيلاء على هذه الحكومات ، واقامة حكم الشريعة الاسلامية في كل اقطار الأرض ، ثم ترك حرية الاعتقاد للشعوب ، تتدين بالاسلام أو تظل على عقائدها بعد تحريرها من طاغوت النظم والحكومات غير الاسلامية ، أي أنه ـ باختصار ـ يوجب على المسلمين ـ بفريضة الجهاد ـ السعي لحكم العالم ، وجعل كل الحكومات بيد المسلمين ، دون اكراه الشعوب غير المسلمة على اعتناق الاسلام ! . .

أما أفكاره ونصوصه التي صاغ فيها هذا الرأي،ولم يسبقه اليه أحد من أعلام الصحوة الاسلامية فكثيرة ، منها :

* « ان الاسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة ، وإن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم ، بل الاسلام فكرة انقلابية ، ومنهاج انقلابي ، يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ، ويأتي ببنيانه من القواعد ، ويؤسس بنيانه من جديد ، حسب فكرته ومنهاجه العملي

* « ان مجرد وجودنا لابد أن يكون تحديا صريحا لأية حكومة غير اسلامية ، سواء تحملت وجودنا هذا أو لم تحمله ، وسواء أمكن التعامل والتعاون مع غير

المسلمين أو لا ، واذا كان نظام الاسلام وحده هو الحق وكل نظام سواه باطل فلا مفر على الاطلاق من تعميم نظامه ، وتغليبه في الأرض ، وتقويض النظم الاخرى والاطاحة بها

* ان غاية « الجهاد في الاسلام » هي هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه واقامة حكومة مؤسسة على قواعد الاسلام في مكانها ، واستبدالها بها ، وهذه المهمة - مهمة إحداث انقلاب اسلامي عام - غير منحصرة في قطر دون قطر ، بل ما يريده الاسلام أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة ، الا أنه لامندوحة للمسلمين أو « أعضاء الحزب الاسلامي » عن الشروع في مهمتهم ، باحداث الانقلاب المنشود ، والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها ، أما غايتهم العليا وهدفهم الاسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل ، فالاسلام يتطلب الارض ، ولايقنع بقطعة أو بجزء منها ، انما يتطلب ويستدعي المعمورة كلها ، وتحقيقا لهذه البغية السامية يريد الاسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لاحداث انقلاب عام شامل ، ويسمى هذا الكفاح المستمر « الجهاد » .

هجوم ودفاع

« إن ما اصطلحوا عليه اليوم من تقسيم القتال إلى الهجومي والدفاعي لا يصح إطلاقه على الجهاد الاسلامي البتة ، وإنما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية الوطنية فقط ، أما الجهاد الاسلامي فهو هجومي ودفاعي معاً ، هجومي لأن الحزب الاسلامي يضاد ويعارض الممالك القائمة على المبادىء المناقضة للإسلام ، ويريد قطع دابرها ، ولا يتحرج في استخدام القوى الحربية لذلك ، وأما كونه دفاعيا فلأنه مضطر إلى تشييد المملكة وتوطيد دعائمها ، حتى يتسنى له العمل وفق برنامجه وخطته المرسومة » .

* « والاسلام لا يريد من وراء تقويض النظم والحكومات غير الاسلامية ، ومن إحلال نظامه وحكومته محلها أن يكره من يخالفه في الفكرة على ترك عقيدته ، والإيمان بمبادىء الاسلام ، وإنما يريد الحزب الاسلامي أن ينتزع زمام الأمر ممن يعتقدون بالمبادىء والنظم الباطلة ، حتى يستتب الأمر لحملة لواء الحق ، ولا تكون فتنة ، ويكون الدين لله،إن غاية القتال ليست رجوعهم مؤمنين واتباعهم دين الحق ، بل القضاء على نفوذهم وسطوتهم ، فلا يكونوا حكاماً وأولي أمر في الأرض ، لأن سلطان الحكم والقيادة ومقاليد نظام الحياة على وجه الأرض يجب أن تكون في أيدي المؤمنين وحدهم الذين يتبعون دين الحق ، أما من هم دونهم فيعيشون تابعين لهم ومطيعين ، إن (لا إكراه في الدين) معناها أن الاسلام لا يكره أحداً على قبول عقيدته كرهاً ، كما أنه لا يفرض عليه عباداته جبراً ، لأن العبادات لا معنى لها دون إيمان متين بها ، فالاسلام يعطي كل انسان الحرية في هذين الأمرين ، لكن الأمر الذي يرفضه بشدة أن تكون قوانين المجتمع التي يقوم عليها نظام الدولة مستمدة من مصدر آخر سوى شريعة الله ، وإن كان لا محالة من تدخل أي الفريقين في دين الآخر ، فإن المسلمين إن لم يتدخلوا في دين الكفار فإن الكافرين سوف يتدخلون حتماً في دينهم ، وتكون النتيجة أن مذهب الكافرين سوف ينشر مظلته على قطاع كبير من حياة المسلمين ، ولهذا يطالب الاسلام أتباعه أن يتقدموا ويستولوا على مقاليد نظام الحياة ، بدلاً من أن يحدث ذلك من جانب الكافرين ، ثم يشرعوا بعد ذلك في معاملة غير المسلمين ، في ميدان العقائد والعبادات ، بما تقتضيه آية (لا إكراه في الدين) » .

تلك هي نصوص المودودي وصياغاته ، المعبرة عن أفكاره الرئيسية في قضية « الجهاد » .

١ - فالصراع بين الكفر والاسلام حتمي ، وإذا لم يتدخل الاسلام في دين الكفر ، تدخل الكفر في دين الاسلام ، فعلى الاسلام أن يبادر بالتدخل .

٢ - والاسلام فكرة انقلابية عالمية تطلب كل الأرض وكل الأقطار وجميع الحكومات .

٣ - وعلى المسلمين بناء دولتهم الاسلامية ، ثم الانطلاق مجاهدين بكل الوسائل ، وبجميع أسلحة القتال ، لإزالة كل حكومات الدنيا ونظمها ، وإقامة الحكومات الإسلامية ، وحاكمية الشريعة الإسلامية ، في كل أرجاء الدنيا .

٤ - أما عقيدة الإسلام وعباداته فلا يجبر عليها أحد ، لأنه (لا إكراه في الدين) .

وباختصار، فالجهاد الإسلامي دفاعي وهجومي، بكل السبل والوسائل، وغايته أن يحكم المسلمون العالم بشريعة الإسلام، مع ترك التدين بعقيدة الإسلام والتعبد بعباداته للحرية والاختيار. ! . . .

نقد وليس محاكمة

لا نود محاكمة رأي الأستاذ المودودي في هذه القضية إلى آراء الفقهاء المسلمين، في «دفاعية» الجهاد الإسلامي أو «هجوميته»، وفي نطاقه من حيث «العالمية»، أو ما هو دون «العالمية»، وذلك لأسباب ثلاثة، أولها، أن اجتهادات الفقهاء القدماء ليست هي منطلق الأستاذ المودودي حتى نحاكم أفكاره هذه إلى تلك الاجتهادات،وهو يصرح ـ ومعه الحق ـ بأن هذه الاجتهادات القديمة غير ملزمة للاحقين، وثانيها: أن الجهاد فريضة سياسية إجتماعية، والاجتهاد فيها وثيق الصلة بالزمان والمكان والملابسات، ومن ثم فإن الطبيعي والأوفق هو محاكمة فكرها، والاجتهاد فيها، إلى «مصلحة الأمة» في الزمان والمكان والملابسات التي يتم فيها هذا الاجتهاد، وثالثها: أن الأستاذ المودودي قد صاغ فكره هذا في ظروف سياسية وحضارية محددة، عاشها الرجل وجماعته الاسلامية. وهذه الظروف هي التي لعبت ـ مع طبيعته في الصياغة لأفكاره ـ الدور الأول في مجيء أفكاره هذه على هذا النحو.

أ ـ أقلية إسلامية، تتعرض قوميتها لخطر السحق والتشويه من قبل القومية الكبرى للهندوك.

ب ـ غياب وحدة الإدارة والتنظيم عن هذه الأقلية الإسلامية، الأمر الذي يزيد مخاطر ذوبان قوميتها الحضارية في بحر الأغلبية الهندوكية.

جـ ـ وهيمنة عالمية للاستعمار الغربي وحضارته المادية على مقدرات المسلمين، وأوطانهم، وعزل لنسقهم الفكري عن أن تكون له الحاكمية في الدولة والمجتمع، وطرائق المعيشة وفلسفة الحياة.

وأمام هذا الكابوس الرهيب لجأ الأستاذ المودودي إلى تكثيف الطاقة التي يشحن بها الأمة، حتى تستطيع تجاوز اليأس القاتل، ومواجهة المهام الصعبة، والصمود في وجه التحديات الجسام.

هذيان الضعفاء

لكننا نعتقد أن الأستاذ المودودي قد تجاوز النطاق «المشروع»، والمفيد» بهذه الصورة الغريبة التي رسمها لمهام الجهاد الإسلامي، ففي ظل الواقع الملموس، وعلاقات القوى الراهنة، وما لدى «حكومات الكفر» من أسلحة الدمار الشامل، والجيوش الجرارة، والطاقات الصناعية والزراعية، ووسائل التجسس، قد ينظر بعض الناس إلى تكليف المسلمين بهذا «الواجب» على أنه نوع من «هذيان الضعفاء»، أما نحن فنقول: إن الأستاذ المودودي قد أراد أن يشحن عزائم الأمة بالكبرياء التي تتكفل بإحياء روحها الخلاقة، وتفجير طاقاتها المبدعة، كي تصمد للتحديات، وتجعل من إسلامها طوق النجاة من المخاطر التي تهددها بالمسخ والنسخ، والتشويه، فالغاية نبيلة، والهدف مشروع، لكن الرجل قد أخطأ الطريق، وذلك لأننا نعتقد أن تجديد الفكر الإسلامي بالعقلانية الإسلامية المستنيرة التي تعيد عقد القران بين أصول الشريعة ومبادئها ومقاصدها، وبين الواقع الجديد الذي تعيشه الأمة، وصياغة المشروع الحضاري الاسلامي الذي يتكفل بنهضة هذه الأمة، وإحيائها نداً للنماذج التي صاغت نهضتها وفق فكرية الحضارة الغربية.

إن تجسيد الاسلام السياسي والحضاري في دولة اسلامية قوية ومتقدمة ينهض كمنارة للجهاد الإسلامي الدائم، تجذب الشعوب الاسلامية أولاً الى ساحة الجهاد الأكبر، المتمثل في النهضة والتقدم وفق روح الإسلام، ومقاصد شريعته، كما سيكون هذا «النموذج الإسلامي المتحضر» مركز جذب لكل شعوب الدنيا، يعلن رجحان كفة «البديل الإسلامي» في «حوار الحضارات»، وعلينا أن نتأمل ونتمهل ونحن نجيب عن هذا السؤال:

أي السبيلين سيجذب الشعوب الأخرى إلى الإسلام: أن يحارب المسلمون حكومات هذه الشعوب؟ أم أن يقف المسلمون بجهادهم عند تحرير بلادهم، وحماية أوطانهم، وضمان الحرية لدعوتهم ودعاتهم، وبناء «بديلهم الحضاري»، الذي يغري الآخرين بما يمثل من ميزات؟ . . .

حكمة التعددية

إن شن الحرب على الحكومات الأخرى - حتى لو حلمنا وتخيلنا إمكان حصوله - سيجلب على الإسلام وأهله ودوله عداء شعوب تلك الحكومات ، الأمر الذي سيباعد بينها وبين سبل التفكير في الإقبال على عقيدة الإسلام ، فليس غير سبيل تحرير الأوطان الاسلامية ، وتحويلها - بالاسلام المتجدد - إلى منارة حضارية ، يحميها الجهاد الإسلامي ليصل إشعاعها إلى كل أرجاء المعمورة ، عبر العقول والقلوب ، بواسطة الحرب والقتال ، ليس غير هذا السبيل سبيلاً لإمامة الإسلام الحضارية التي ينشدها الإسلاميون ،

ثم لماذا تغيب عنا حقيقة أن حكمة الله وإرادته قد شاءت للإنسانية « التعددية » ، وليس « وحدة النموذج والاعتقاد والشريعة » ؟ ! (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات) .. (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين) ... إن مفسري القرآن الكريم ، قد أدركوا - في وقفتهم أمام هذه الآيات وأمثالها - أن حكمة الله وإرادته هي في « التعددية » ، فسعيد بن جبير (٤٥ - ٩٥هـ ، ٦٦٥ - ٧١٤م) ، ومجاهد بن جبر المكي (٢١ - ١٠٤هـ ٦٤٢ - ٧٢٢م) ، والحسن البصري (٢١ - ١١٠هـ ٦٤٢ - ٧٢٨م) ، ومقاتل بن سليمان (١٥٠هـ ٧٤٤م) ، وعطاء بن دينار (١٢٦هـ ٧٤٤م) ، والقرطبي (٦٧١هـ ١٢٧٣م) - صاحب (الجامع لأحكام القرآن) يقولون في تفسيرها : « ان الشرعة والشريعة هي : الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة . والمعنى أن الله جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا في الشرائع والعبادات ، والأصل التوحيد لا خلاف فيه ، ولقد جعل الله الشرائع مختلفة للاختبار ، فهو سبحانه للاختلاف خلقهم » .

ولقد يكون مفيداً أن نُذكّر ، في هذا المقام ، بما قاله الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) عن أهداف الجهاد الإسلامي ، في ذات العصر والظروف التي عاش فيها المودودي ، قال :

« لقد فرض الله الجهاد على المسلمين ، لا أداة للعدوان ، ولا وسيلة للمطامع الشخصية ، ولكن :

* حماية للدعوة .
* وضماناً للسلم .
* وأداء للرسالة الكبرى التي حمل عبئها المسلمون ، رسالة هداية الناس إلى الحق والعدل » .

وأن الإسلام كما فرض القتال أشاد بالسلام ، فقال تبارك وتعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) ... » .

فحماية الدعوة الإسلامية ، وضمان السلم لأوطان الإسلام ، وحرية الدعاة في ابلاغ صوت الإسلام إلى عقول الناس وقلوبهم هي مهام القتال في سبيل الله ، إن « الفكر الإسلامي » الخلاق وتجسيد هذا الفكر في « الدولة الإسلامية النموذج » هو الجهاد الأكبر للمسلمين في هذا العصر الذي نعيش فيه ، وتحقيقاً لهذا الهدف للمسلمين ، عليهم أن يسلكوا كل السبل الملائمة سلماً كانت تلك السبل أو قتالاً .

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى رسوله ﷺ ، ديناً لا ترقى إلى مقام حكمته وعقلانيته واتساق عقيدته وشريعته أي من الديانات التي حرفها الأحبار والرهبان ، ثم طلب إليه أن يقول لمخالفيه : (لكم دينكم ولي دين) .. فعلينا أن نجاهد لإقامة الوطن الإسلامي الذي يفوق أوطان الآخرين في القوة والحضارة والتقدم والاستنارة ، ثم نقول لهؤلاء الآخرين : لكم دولتكم ، ولنا دولتنا ، وليكن الابداع والعطاء الحضاري ، والتنافس في سبل التقدم الإنساني هي معايير الترجيح بين النماذج الحضارية ، كما هو الحال بين الشرائع والأديان ، (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) □



حكايات شرق وغرب

عندما بكى القاضي



كان والده هو مثله الأعلى ، شأنه في ذلك شأن أي طفل آخر ، فهو لايمكن أن يخطىء ، ولايمكن أن يرتكب شيئا .. ولكن الأب في واقع الأمر كان لصا كبيرا .. لقد انفصل الوالد « أرنستو سري » عن زوجته وأم طفله « دانيل » بالطلاق ، وحمل الرجل ابنه ليعيش معه ، لأن بينهما صداقة قوية دفعت الطفل الى التعلق بأبيه ، ورفض أية محاولة للتفرقة بينهما ولو لبضعة أيام ، عندما كانت الأم تحن لرؤية ابنها ..

حتى عندما طردهما صاحب البيت بعد عجز الأب عن دفع الايجار ، رفض الطفل أن يفترق عن أبيه ، وفضل أن ينام معه في سيارته ، على أن يعود الى أمه ، وكان يقول كلما ألحوا عليه بالذهاب الى بيت والدته : « ان الحياة جميلة طالما انني أعيش مع أبي !

ورأى الأب أن ينتقل هو وابنه للحياة في مدينة أخرى ..... الى مدينة فلورنسا بايطاليا ، بعيدا عن مدينة كاليجاري التي كان يعيش فيها مع ابنه من قبل ، والتي كانت مسرحا لجرائم السرقة التي كان يرتكبها ، دون أن يقع مرة واحدة في قبضة رجال البوليس .

ولكن الأب ما لبث أن اكتشف أن المال يعوزه حتى بعد أن باع سيارته ليسدد بها ديونه ، فقرر أن يعود الى السرقة ولو لمرة واحدة ، حتى يستطيع أن يدفع ثمن تذكرتي القطار الى فلورنسا .

وشاء سوء حظه أن يقع في أيدي البوليس هذه المرة ، وقدم للمحاكمة ، وصدر الحكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر .. وسمع الطفل « دانيل » الصغير القاضي وهو ينطق بالحكم ، فأسرع يتجه الى منصة القضاء ويقول وهو يبكي بحرقة ، : « لقد كنت مع أبي وهو يسرق .. أنا أيضا سرقت ، ولابد أن تحكموا علي بالسجن مثله .. انني أريد أن أكون معه في أي مكان .

وبكى القاضي وهو يستمع الى حديث الطفل البرىء ، واغرورقت عيناه بالدموع ، ثم نظر الى الأب ، وقال : « غدا سنعيد النظر في هذه القضية » !

وامتلأت قاعة المحكمة بالحضور في اليوم التالي ، وجاء دور قضية أرنستو ، ونطق القاضي بالحكم الجديد : « وقد رأت المحكمة وقف تنفيذ الحكم ، ووضع الأب تحت المراقبة !

ومن وراء القضبان ذهب الطفل وأبوه في عناق طويل ..

أرخص طريقة للرحيل

احتدم الخلاف بين الزوجين ، ونشبت بينهما معركة ، مالبث أن ترك الزوج على أثرها البيت ، وهو لايدري على وجه التحديد أين يمكن أن يمضي الليلة في هذا الجو البارد الذي هبطت فيه درجة الحرارة الى عشرين درجة تحت الصفر !

وراح الزوج يضرب في شوارع مدينة فيينا عاصمة النمسا على غير هدى .. وأخيرا استقر به المطاف في احدى الحدائق العامة ، وغلبه النعاس ، فقرر أن ينام فوق احدى الأرائك ، ولكنه قبل أن يفعل ، امسك بقلمه وراح يسجل بضعة سطور في مفكرته الصغيرة ، ثم ما لبث ان أغمض عينيه واستسلم للنوم ! وهطلت الثلوج بغزارة حتى غطت جسمه كله ، وعندما جاء الصباح عثر عمال الحديقة على الزوج وقد تجمد من البرد وفارق الحياة .. وعندما بدأوا يبحثون في جيوبه عن شيء يمكن أن يقودهم الى معرفة شخصيته ، عثروا على المفكرة التي سطر فيها بعض كلمات قبل أن يذهب في نومته الأخيرة .. كتب يقول : انني مفلس ، وقد وجدت أن هذه هي أرخص طريقة للرحيل عن هذه الدنيا !!



□□□

طفل للبيع

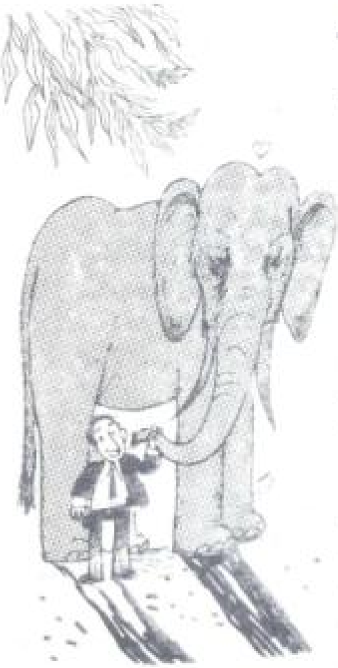
في الدانمارك

أثارت سيدة دانمركية عاصفة من الاستنكار ، عندما وضعت اعلانا صغيرا في صحف كوبنهاجن تعرض فيه بيع طفلها الذي لم يولد بعد ، بمبلغ يوازي عشرة آلاف جنيه استرليني !!

ولكن السيدة وتدعى « هيلا نلسون » لم تبال بأصوات الاستنكار ، ووقفت في تحد تقول : « نعم انني أريد أن أبيع طفلي .. انني لست أول أم تبيع طفلها .. لقد شاهدت مسلسلا في التلفاز بعنوان « دابستي » تبيع فيه احدى الأمهات طفلها .. ولكن الواقع ان الفكرة طرأت لي حتى قبل أن أشاهد هذا المسلسل ، أو عندما اكتشفت أنني حامل ، فقد فكرت في بادىء الأمر في القيام بعملية اجهاض للتخلص من الجنين .. فأنا أم لثلاثة أطفال ، أكبرهم في السادسة ، وأصغرهم لم يكمل عامه الأول بعد .. لقد بحثنا الفكرة أنا وزوجي مايكل ، ووصلنا في النهاية الى هذا القرار ، وهو أفضل بكثير ، كما ترون ، من التخلص من الطفل قبل أن يكتمل نموه ! انني لاأبحث عن المال بقدر ما أنا حريصة على أن ينشأ طفلي بين أبوين يمكن أن يقدما له كل الحب والرعاية .. ان هناك الكثير من الزوجات اللواتي حرمن من الانجاب ، وقد رزقني الله بثلاثة أطفال ، فلماذا لاأقدمه لاحداهن .. أنا أعلم أنه سيكون طفلا جميلا ، وسوف يصل في شهر ابريل المقبل !

ترى ما هو حكم القانون الدانمركي في تصرف هذه الأم ؟ لاشيء ، فقد أعطى القانون الآباء الحرية التامة في تصرفاتهم ازاء المواليد !!





« باتير » يتكلم

ويبحث عن عروس »

منذ ثلاث سنوات حملت الصحف السوفيتية خبرا عجيبا نشرته على صفحاتها الأولى تحت عناوين عريضة تقول : « باتير يتكلم ! وباتير هو الاسم الذي اختاروه لفيل صغير جاء من الهند ليسكن في حديقة الحيوان باحدى مدن جمهورية كازاخستان .

ولم يصدق الناس الخبر في البداية . لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا الحقيقة عندما بدأوا يتوافدون على الحديقة ، ويستمعون الى « باتير » وهو يتحدث مع السيدة يلينا بيلوسوفا المشرفة على قسم الحيوانات بالحديقة ، ثم ينصتون الى روايتها وهي تحكي لهم كيف سمعت صوت « باتير » وهو يحدثها لأول مرة - بالروسية طبعا - طالبا جرعة من الماء ! قالت يلينا : لقد خرجت كلماته بوضوح أذهلني ، فأسرعت أحمل اليه الماء ليروي ظمأه .

وكانت يلينا تجد متعة في الحديث عن حياة باتير الذي بلغ العام السادس عشر من عمره الآن ، فتمضي في رواية قصته لكل من يجيء الى الحديقة سائلا مستفسرا . لقد أشرف حراس حديقة الحيوان على تربيته منذ أن حملوه اليها بعد ولادته في الهند ، وكانوا يتحدثون معه وهم يقدمون اليه الغذاء ويغسلون جسمه بالماء ، ولايفوتهم بعد ذلك أن يداعبوه ويمزحون معه ، الى أن جاء اليوم الذي بدأ فيه باتير يتكلم ، وكان ذلك منذ ثلاث سنوات . ومازال الكلام يخرج من فمه حتى اليوم ، وهو يضع خرطومه في فمه ثم لايلبث أن يخرجه ، ومع خروج الخرطوم تخرج الكلمات التي حفظها « باتير » على مدى السنوات التي عاشها بين أصدقائه الذين يقومون بحراسة الحيوانات ورعايتها ، ان صوته عندما يتكلم أشبه ما يكون بصوت الانسان الذي يضع على فمه فنجانا !

ولكنه قليل الكلام ، ولذلك فقد رأت ادارة الحديقة أن تضع جهاز تسجيل قريبا منه ، ليسجل كل كلمة يقولها عندما يخلو بنفسه بعيدا عن عيون الزائرين ، لكنه قرر في احدى المناسبات أن يخرج عن صمته أمام الناس ويتكلم ، وكان الزائرون مجموعة من الأطفال الذين جاءوا في صحبة والديهم الذين ما كادوا يستمعون الى حديثه القصير حتى استبد بهم الذهول !

المهم أن باتير الآن يبحث عن « رفيقة » تشاركه حياته في الحديقة ، وتستمع اليه وهو يتكلم ، وقد بدأ البحث بالفعل عن انثى رقيقة تؤنسه في وحدته ، ولكن لابد أولا من تخليصه من الآلام التي يعاني منها بسبب التسوس الذي أصاب أحد نابيه ، سوف يتصل المسؤولون بموسكو - على بعد ألفين وخمسمائة ميل - لارسال اختصاصي بيطري في علاج الاسنان ، وهو في حاجة الى مخدر حتى لايشعر بالألم وهم يحفرون نابه الكبير لحشوه بالبلاتين !

حيلة وحيلة!

بقلم : الدكتور عبدالسلام العجيلي

طويت الصحيفة التي كنت أقرؤها وأنا أبتسم ، فقال لي صديقي :

- كأنك قرأت ما سرّك وأضحكك ، هل في الصحف هذه الأيام ما يدعو الى الابتسام ؟

قلت : كنت أقرأ تحقيقا عن السرقات في فرنسا في العام الفائت ، فأضحكتني حكاية سرقة منها ، نكاد نغتفر أحيانا للسارق جرمه لطرافة أسلوبه في ارتكاب هذا الجرم .

قال : هذا اللص الذي أعجبك أسلوبه في السرقة ماذا فعل ؟ ارو لي حكايته ، فقد أعطيك الحق فيما تقول .

قلت : ليس لصا واحدا ، بل مجموعة لصوص على ما يبدو . والحكاية يرويها ضحيتها لرجال الشرطة الذين جاءوا يحققون في سرقة منزله ، قال لهم : أسكن أنا وزوجتي وحيدين ، في هذا المنزل في هذه الضاحية من ضواحي باريس ، منذ أربعة أيام خرجنا أنا وامرأتي في الصباح من دارنا لنتجه إلى مقر عملنا في قلب العاصمة ، ففوجئنا بأن سيارتنا الخاصة ليست حيث تركناها في الشارع أمام الباب ، سرقت ، اضطررنا الى التوجه إلى عملنا بسيارة أجرة أوصلتنا الى أقرب محطة مترو ، أبلغنا البوليس بالسرقة ، وعدنا في المساء الى بيتنا « بالمترو » ثم بسيارة أجرة ، كان ذلك أمرا مزعجا ، على الرغم من علمنا بأن خسارتنا فيه ستكون محدودة ، لأن شركة التأمين ستعوضنا عنها ، وماكان أشد دهشتنا حين خرجنا من الدار في صباح اليوم التالي ، فوجدنا سيارتنا نفسها أمام الباب في موقفها المعهود ، تفقدناها فاذا هي في أحسن حال ، نظيفة المقاعد ، لم ينقص منها برغي واحد ، ورأينا على المقعد الأمامي ، في مكان جلوس السائق مظروفا فتحناه فوجدنا فيه ورقة مكتوبة بهذه الكلمات : نشكرك أيها السيد ، ونعتذر إليك عن اضطرارنا لاستخدام سيارتك لليلة





واحدة ، نحن شباب من الضاحية القريبة ، وكنا نحتاجه إلى سيارة تنقلنا إلى حفلة يقيمها أصحاب لنا في قرية تبعد قليلا عن مساكننا ، كانت حفلة رائعة ، ما كان في إمكاننا أن نستمتع بها لولا استعارتنا لسيارتك . تعويضا عن إزعاجنا لكما انت والسيدة زوجتك ، نرجو أن تتقبلا منا هاتين البطاقتين لحفلة الباليه في أوبرا باريس مساء الأحد القادم . معذرة مرة أخرى ، وتمنياتنا لكما بسهرة طيبة . . .

قال الرجل في افادته لرجال البوليس : من قبل نسينا انا وزوجتي ، عفونا لأولئك الشباب ازعاجهم لنا في سرقتهم أو استعارتهم سيارتنا ، ولو لم نغفر لهم لعباراتهم المهذبة في رسالتهم لكان علينا أن نفعل لفرحتنا بالحصول على مقعدين في الأوبرا لباليه تعرض في باريس في عز موسمه ، من يستطيع أن يحصل على مثل هاتين البطاقتين إذا لم يقم بحجزهما قبل شهرين أو ثلاثة من موعد الحفلة ؟ وهكذا تركنا منزلنا في الضاحية منذ عصر يوم الأحد ، وقصدنا حتى الأوبرا في سيارتنا هذه المرة ، مرتدين أنا وزوجتي ثياب السهرة التي تناسبها مقعدانا المحجوزان لنا في صفوف الصالة المتقدمة . كانت حفلة رائعة ملأت متعتنا بها نفسينا امتنانا لهؤلاء الشباب الذين اتحفونا بها . تناولنا وجبة عشاء مابعد الحفلة في أحد المطاعم الجميلة على ضفاف السين ، قبل أن نستقل سيارتنا من جديد عائدين الى هذه الضاحية ، وبلغنا منزلنا ، وأدهشنا أن نجد بابه غير مقفل ، وكنت متأكدا من أني أقفلته حين تركناه عند الأصيل . وكانت دهشتنا أكبر ، وكان ارتياعنا كذلك ، حين اشعلنا الأنوار فوجدنا دارنا على ما ترونها أيها السادة بأعينكم الآن . . . قاعا صفصفا !

تلك كانت حيلة أولئك الشباب . استعاروا سيارة الرجل المسكين ، ثم اعتذروا اليه ، وعوضوه عن إزعاجه ببطاقتين للباليه في أوبرا باريس ! ففي الفترة التي كان فيها الرجل وزوجته في نشوة تمتعهما برقصات نجوم الباليه ، كان أولئك الشباب إذا كانوا حقا شبابا متهمكين في نقل محتويات المنزل برمتها من أثاث وتحف فنية وأجهزة ثمينة ، مطمئنين الى أن رب البيت وربته لن يعودا من سهرتهما قبل منتصف الليل في هذه الضاحية البعيدة القليلة السكان ، بطاقتا سهرة ثمينتان حقا ، إلا أن مردودهما على السارقين كان أثمن منهما بما لا يقاس . . .

قال صاحبي معقبا على ما رويته له :

ـ لصوص أذكياء لاشك في هذا ، مغنمهم من الأثاث والتحف الثمينة يتناسب مع ما يملكونه من وسائل في عالمهم المتقدم . نحن هنا كذلك لانعدم لصوصا ظرفاء ، لهم اساليبهم الذكية التي تسوق الابتسامة الى الشفاه ، ويكاد أن يغتفر لهم معها خروجهم على القانون وعن الخلق المستقيم .

قلت : كأنك تعرف حكاية شبيهة بهذه التي أسمعتك اياها .

قال : بل حكايات ، أقص عليك واحدة من احسنها ، والقياس مع الفارق . ضحية هذه الحكاية القديمة رجل من القرى المحيطة ببلدنا الصغيرة اسمه موسى . قصد موسى في ذات يوم المدينة الكبيرة ، فباع فيها صوف نعجاته وسمنها في الخان ، ثم انحدر الى السوق ليشتري حاجياته قبل أن يعود الى القرية . كانت المعاملات آنذاك بالليرات العثمانية الذهبية . قال له عميله التاجر بعد أن استوفى منه اربع ليرات ذهبية أخرجها من صرة في عبه : احذر النشالين في هذه السوق ياموسى . . . أيديهم خفيفة وحيلهم كثيرة ، فما إن تلتفت عنهم حتى تخرج الليرات من عبك فتحملها لتختلس مابقي عندك منها دون أن تشعر . قال موسى : لاخوف علي . . . لم يبق عندي غير ليرة ذهبية واحدة هذه هي . . . سأخفيها في مكان لاتصل إليه يد سارق . . . انظر ! ووضع الرجل الليرة العثمانية الوحيدة التي ظلت في حوزته في فمه وأطبق شفتيه عليها .

ماقاله التاجر لموسى كان واقعا معروفا عند كل باعة السوق ، وحقا كان هناك نشال واحد ، بل نشالان حدثتهما وقفة القروي على دكان عميله ، ومنظر الليرات الذهبية التي دفع منها ثمن مشترياته ، سمعا تحذير التاجر كما سمعا جواب موسى وتصرفه ، فجر أحدهما رفيقه من يده هامسا له : لافائدة ، فقد أطبق عليها فمه ! قال له الآخر : أتراهن على أني أسلبه الليرة التي أطبق عليها شفتيه ؟ سأله الأول : كيف ؟ فأجابه بقوله : تنتظرني هنا ريثما أعود . . . لاترفع عينك عن الرجل ، واحجزه في السوق إذا اراد الذهاب ، ولن أغيب أكثر من خمس دقائق . . .

ولم يغب النشال المتكلم أكثر من تلك الدقائق

الخمس . عاد بعدها فوقف في زاوية قريبة منتظرا انصراف موسى ، وحين تحرك هذا من مكانه وأخذ طريقه في السوق العتيقة الضيقة جاء النشال متعجلا من زاويته وصدم القروي صدمة اثنى لها نصفين ، وكاد يقع منها أرضا ، إلا أنه تماسك وأراد متابعة طريقه ، عند ذلك تمسك النشال به وصاح : لا تتحرك ! قال هذا وأشار الى الأرض تحت قدميه حيث كانت تلتمع أربع ليرات ذهبية أفلتت من يد النشال . لم يفهم موسى ماذا يريد منه هذا الرجل الممسك بثيابه فحاول التملص ، الا أن النشال قال له بصوت مرتفع : لا تتحرك قبل أن أجمع ليراتي التي تطايرت من يدي حين صدمتني . . . خمس ليرات عثمانية ذهبية ، هذه أربع منها فأين ذهبت الخامسة ؟

في هذه الاثناء لحق النشال الأول برفيقه متظاهرا بأن لا معرفة بينهما ، وراح يستفهم عما جرى أمام من اجتمع عليهما من المارة وأصحاب الحوانيت المجاورة . قال صاحب الليرات : كانت في يدي خمس ليرات ذهبية فصدمني هذا الرجل صدمة اطارتها من يدي . . . هذه أربع ليرات منها على الأرض ، ولن أتركه يتحرك قبل أن اعثر على الخامسة ! وهنا قال رفيقه : مادمت قلت هذا فان عندي شهادة لله اريد أن أؤديها . . . كنت قريبا منكما حين صدمك هذا الرجل . . . رأيته يتناول شيئا من الأرض ويدسه في فمه ، افتح فمك يا من لا تخاف الله !

ولك أن تتصور الآن ماذا أصاب موسى الذي كان يطبق شفتيه على ليرته الذهبية الوحيدة أمام هذه الواقعة التي لم تكن تخطر له على بال ، لم يفتح فمه ، غير أن غريميه المحتالين أخذا يصيحان به مرددين فمك ! وانضم اليهما في الالحاح عليه بأن يفتح فمه المتجمهرون حوله من أهل السوق ، بل ان أحدهم أمسك برأسه بين يديه ضاغطا على فكيه بقوة ، وفتح المسكين فمه في النهاية ، فسقطت الليرة الذهبية في يد النشال الذي ما لبث أن انسحب مسرعا يتبعه زميله ، تاركا صاحبنا القروي لأيدي المتجمهرين الذين انهالوا عليه صفعا وركلا ، ثم نتفا لشعر ذقنه وشاربيه . . .

جاء دوري في الضحك من حكاية المحتالين التي رواها صديقي . قلت له :

ـ لولا ما تعرض له ذلك القروي المسكين من اعتداء الجمهور عليه لهتفت إعجابا بمهارتهما ، لم يحتاجا الى كل تعقيدات اللصوص الباريسيين للحصول على مبتغاهما ، ذكيان حقا ، ألست معي في أن طرافة الأسلوب في السرقة تشفع في خروج هؤلاء على القانون وأحكامه ؟

قال : هذا ما لاأوافقك عليه ، انا لا اؤمن بالأسباب المخففة مهما كانت طبيعتها ، القانون يجب أن يطبق على جميع الناس بصرامة ، وأن ينفذه ذوو السلطان على الخارجين عليه دون هوادة ، وعلى الرغم من إعجابي بحيلة ذينك النشالين ، وحيلة اللصوص الفرنسيين قبلهما ، فالسارق يظل في نظري سارقا أيا كان أسلوبه ، لماذا تبتسم هكذا ؟

كنت في الواقع أبتسم للهجته المتشددة في تجريمه للصوص ، ولخاطرة قفزت من اعماق ذاكرتي عندما أشار إلي ذوي السلطان الذين عليهم أن يطبقوا القانون دون هوادة ، سألته :

ـ هل سمعت بعمرو بن عبيد ؟

قال : ما أظنني أعرفه ، من يكون ؟

قلت : هو أحد أئمة المعتزلة ، ومن أشهر الزهاد والوعاظ في مطلع العصر العباسي . مرّ هذا الفاضل بجماعة وقوف على رجل فسأل عن الأمر ، قالوا له : هؤلاء رجال السلطان يقومون بقطع يد سارق ، فقال : لاإله إلا الله . . . سارق العلانية يقطع سارق السر !

وهنا سكت صديقي لحظة كأنه كان فيها يتمل من كلمة عمرو بن عبيد ، وما لبث ان ترك لهجته المتشددة وقال :

ـ هذا كلام لا ينطبق على زماننا ، سارقو العلانية في هذه الأيام هم تاج رؤوسنا ، والمتفضلون علينا بخيرهم ، لولاهم لما صح لنا ان نأكل ونشرب ونتنفس الهواء من مناخرنا ، ولو أنه هواء مشحون بدخان مراكبهم المطهمة ، وبفضلات ترفهم وتسلياتهم ، اسكت عن هذا الموضوع يرض الله عليك ، واترك ما قاله الأولون لزمانهم الأول . . .

ولما كنت أعرف أن لصاحبي سوابقه في التعامل مع من ذكرهم عمرو بن عبيد ، وكنت أعرف أن من تلدغه الحية يخاف من قطعة الحبل الملقاة أمامه ، فقد اكتفيت من التعليق على كلامه بمتابعة الابتسام ، وأطعته فسكتّ . □

فواصل من دفتر الأرض

شعر : الدكتور محمود الشلبي*



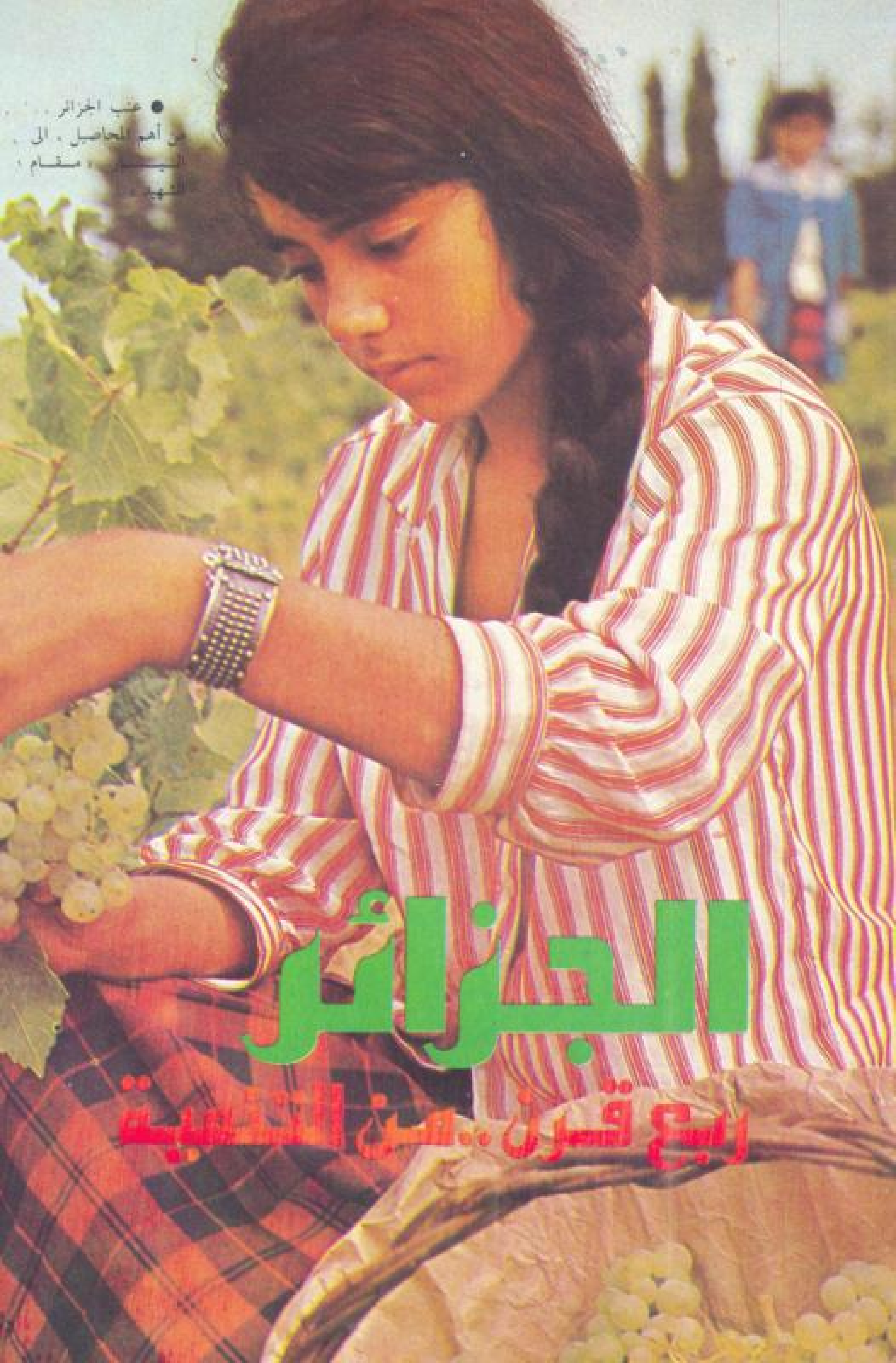
قَبْلَ لغْوِ العَصافيرِ ،
والفجرُ متشحٌ بالندى والضَبابْ .
كانَ طَيْفٌ يجاورني . . . .
وأنا ماثلٌ بين نَبْضِ المدى ،
واشتعالِ الترابْ .
يومَها . . . .
كانتِ الأرضُ تنهضُ مِنْ صَحْوِها ،
ترْتدي ثوبَها القرمزي ،
المطرزَ بالآسِ ،
والزعفرانِ المُذابْ .
قالت الأرضُ للشمس ،
والشمسُ تغرقُ في نزْفِها المشرقيّ ،
وتصعدُ في سُلَمٍ من سرابْ :
ليت لي شعرَكِ الذهبيّ ،
الموزَّعَ بينَ السَماء ،
وأبعدِ ما ترتضيه الحرابْ .
ليت لي أنْ أجابْ . . . .
فأنا أشتهي صورةَ الموتِ في الحُبّ ،
ينقلُها الموجُ للشجرِ الغضِ .
والشجرِ الغضِ ينقلها للسحابْ .
انني الأرضُ سيفٌ وغمدٌ :
فأنا الارضُ غِمْدٌ لسيفِ الشهيدِ ،
وسيفٌ لِغمْدِ الشموسِ ،
ولي منزلٌ في الكتابْ .
انني الأرضُ أسْلَمْتُ
كُلَ الفُصولِ لصوتي ،
وأذارَ للريحِ تزرعُ أنفاسَها ،
في بطونِ الهضابْ .
أيُها البَشرُ الغارقونَ بهذا الخرابْ .
انني الأرضُ قلبي يفجّرهُ الرّفضُ . .
والرفضُ طقسُ الشهادةِ ،
والنارِ ،

* شاعر وكاتب ، وأكاديمي في وزارة التعليم العالي ـ من القطر الأردني .

والطلقةِ ،
الكلمةِ ،
الحجرِ ،
الوردِ
والرفضُ تأشيرةٌ لِلْعُبابْ .
انني الأرضُ قلبي يُفَجِّرُهُ الرفْضُ ،
ياأيها النائمونَ على حُلُمٍ مِنْ يبابْ .
انـزلـوا ، مصْعَدُ اللهـو في نـاطحـاتِ
السحابْ
انزلوا واحداً واحداً . .
واشهدوا غَضَبَ الأرضِ ،
أوْ فاتركوا لَحمَكُمْ للكلابْ .
كانتِ الأرضُ تنهضُ مِنْ صَحْوِها
رَحْبَةَ الصَّدْرِ ،
في يدها سلةٌ من ضُلوعِ النَّخيلِ ،
بها برتقالُ السهولِ ،
وطيرٌ على غُصْنِ داليةٍ ،
من كُرومِ الخليلِ .
كـانَ مـرجٌ من القمـحِ في وجهها . .
والعيونُ .
أخذَتْ شكْلَ زيتونِها . .
في الترابِ الأصيلِ .
كانَ في هذهِ الأرضِ ذاكرةٌ ،
منْ عذابٍ نبيلْ .
صعَدَتْ طَرْفَها لفضاءٍ ،
منَ النّومِ والحُلْمِ ،
واهتزّتِ الأرضُ لما دعتها الخيولُ
قالتِ الأرضُ للشمسِ ،
والأرضُ محفوفةٌ بالقيودْ :
جئتُ ، هل ألتقي بالبنودْ ؟ .
قُمتُ كي أستقرَّ على راحةٍ ،
للشهيدِ الجديدِ ،
المُسافرِ نَحْوي ،
على فَرَسٍ مِن رعودْ .
قالتِ الشمسُ للارضِ ،
والأرضُ تنثرُ أبناءَها
ثمراً داميَ الخدِّ .
هذي الحجارةُ طلقاتُهمْ ،
والأناشيدُ تعبرُ بابَ العمودْ .

* . * . * . * . *

امنُدي حُلُماً أخضرَ اللونِ ،
أوْغُصْناً مِنْ دمِ اللونِ ،
أوْ غُصْناً مِنْ دمِ الكونِ ،
أوْ صَحْوةً مِنْ شهيقِ المدائنِ ،
ثُمَّ اتبعيني . .
الى قمة « الكرمل ـ اليوم ـ
أو رأسِ « عيبال » ،
و « الطور »
كي تمتطيني .
لكِ اللهُ أيتها الأرضُ ،
يا جَسَداً من دمٍ ،
غارقاً في حنيني .
لكِ اللهُ أيتها الأرضُ ،
يا حَجَراً رافضاً ،
أشْعَلَ الصَّمْتَ ،
والوقتَ ،
في شارعِ للجُنونِ ،
فاسكبيني . . اسكبيني ،
على قببِ القُدْسِ ،
وانتظري فرحةَ العُرْسِ ،
قادمةً كالنهارِ المضيءِ
على بَيْرَقٍ في جبيني .


● عنب الجزائر ..
من أهم المحاصيل .. الى
مقام
الجزائر
ربع قرن .. من التنمية

استطلاع :
أبو المعاطي أبو النجا
تصوير :
فهد الكوح





تلك هي الجزائر .. ويرتعش القلب .. فأنت لا تملك أن تكون محايدا في زيارتك الأولى للجزائر !

لاشيء ولا أحد سوف يمنحك هذه الفرصة ، على الاقل في الساعات الأولى ، أو في الأيام الأولى

صحيح ان الجزائر دولة تنتمي الى العالم الثالث ، مثله عانت من الاستعمار ، ومثله دفعت ثمنا غاليا للحرية ، ومثله بدأت رحلة البناء من الصفر تقريبا ، ومثله واجهت مشاكل البحث عن هويّة،ومشاكل التنمية دون امتلاك كل أدواتها ، ومشاكل الحيرة بين أهل الثقة وأهل الخبرة ، ومشاكل البحث عن صيغة للديمقراطية ، توفر قدرا من الحرية والمساءلة والمشاركة في صنع القرار مع المحافظة على الوحدة الوطنية ، ومع توفير القدرة على الانجاز السريع في بلد يبدأ من الصفر .

صحيح كل ذلك ، ولكن صحيح أيضا أن استعمار فرنسا للجزائر كان يختلف عن أي استعمار آخر لأي بلد آخر . فقد كان استعمارا استيطانيا لا يرضى بأقل من الالتهام ، يكفي انه دام ١٤٠ عاماً ، وانه احتاج لاقتلاعه حرباً دامية شرسة ، شاركت فيها كل طبقات الشعب الجزائري وفئاته ، قرابة ثماني سنوات متصلة وعاصفة ، بعد عشرات الثورات والانتفاضات المتفرقة عبر سنوات الاحتلال الطويلة المظلمة !

وترتب على ذلك أن سلطة الثورة في الجزائر ، كانت من الحالات القليلة في العالم الثالث التي لم تصل الى الحكم بانقلاب عسكري مفاجيء ، تحتاج بعده الى جهد ووقت ، لإثبات شرعيتها وحسن نواياها وكفاءتها ، بل هي سلطة خرجت من غبار كفاح مرير ، وتعمدت كل عناصرها بالدم والعرق والتضحيات والدموع ، ونتيجة لذلك شهدت سلطة الثورة في الجزائر أقل قدر من التقلبات ، بالنسبة لغيرها من السلطات التي حملتها رياح الثورة الى الحكم في العالم الثالث ، مما ضمن للجزائر فرصة أفضل وأطول للانجاز والعمل المستمر والمكثف ، وصحيح كذلك أن الجزائر تمتلك موقعا فريدا في القلب من الشمال الافريقي ، والمغرب العربي ، وحوض البحر الابيض المتوسط ، واكبر مساحة لدولة عربية بعد السودان وأرضا غنية بما فيها من معادن وقابلية للزراعة ، وكثافة بشرية تصل الى عشرين مليونا من السكان ، فكيف لا يرتعش القلب ، وهو يخطو خطواته الأولى فوق ارض المليون ونصف المليون شهيد .؟!

مقـــام الشـــهيد :

كان الوقت صباحا ، حين وقفنا ـ زميلي المصور وانا ـ أمام نصب مهيب شامخ يطل على ميناء الجزائر ، نستمع الى السيد / حسن مزيعي وهو يشير الى جهة الشرق قائلا :

« هنا في غابة الاقواس على مقربة من هذا النصب انعقد اول اجتماع سري للتحضير للثورة ، وهناك في جهة الغرب اقام المستعمرون مركزا لتعذيب المجاهدين ، الذين يتمكنون منهم ، لذلك اختير هذا المكان بالذات لاقامة هذا النصب الذي بني على شكل نخلة طولها ٩٢ مترا ، وحولها تلتقي هذه الشُعَب الثلاث المصنوعة من البازلت ، وهي ترتفع من الأرض في شكل أقواس مفتوحة الى الخارج ، يتعانق انحناؤ ها الى الداخل مع النخلة في نقطة واحدة عند ارتفاع ٤٥ متراً ، وهذه الشُعَبُ الثلاث ترمز الى الثورة الصناعية والثورة الزراعية والثورة الثقافية ، وبينما انهمك زميلي المصور في التقاط صوره كان السيد حسن مزيعي يستطرد قائلا :

وكما ترون فان هذا النصب المعروف بمقام الشهيد قد انشيء في ساحته وعلى بعد خطوات منه ذلك المجمع الثقافي الضخم الذي تتعدد طوابقه تحت الأرض وفوقها ، وقد افتتحه بالأمس الرئيس الشاذلي

ابن جديد ، ولذلك فسوف تتاح لكم فرصة زيارته ، وهو يحتوي العديد من المعارض الحديثة التي تقدم لكم لمحات عن الجزائر بعد حوالي ربع قرن من الاستقلال ، لكن قبل أن تزوروا هذا المجمع الثقافي اقترح عليكم أن تزوروا المتحف الخاص بمقام الشهيد الموجود اسفل هذا النصب .

ميراث الغضب :

هبطنا الدرج ، لفت نظري طابور من تلاميذ المدارس تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة تقريبا ، يتجهون في نظام بديع الى داخل المتحف ، انهم طلائع الاجيال الجديدة التي اصبحت الثورة بالنسبة لهم حكايات يرويها الآباء والمدرسون ، واقتربت منهم اسألهم عن مدارسهم واسمائهم وماذا يدرسون ؟ ولأول مرة اسمع لغة عربية خالصة لا تختلط بأي كلمات فرنسية .

في صالة المتحف استقبلتنا شابة ذات شخصية قوية متميزة . .

- اسمي عائشة .. أهلا بكم . .

● السيدة عائشة هي التي تقود الزوار في رحلة حية رائعة عبر ١٤٠ سنة من تاريخ الجزائر . . هي كل تاريخ الاحتلال ، وأيضا تاريخ مقاومة الاحتلال . !! كنا نتنقل عبر صالات المتحف الرائعة التنسيق نستمع الى السيدة عائشة ، وهي تتحدث ، وهي تشير الى الصور والرسوم والوثائق والاسلحة والمعدات ، والملابس ، والنماذج المجسدة ، كل صالة تختص بمرحلة ، بموضوع ، بحادثة أو احداث بترتيب التاريخ ، « الكثير من هذه الوثائق تم الحصول عليها بعد اتفاقيات تبادل الأرشيف مع فرنسا ضمن اتفاقيات « إفيان » بعد الاستقلال » .

هذه صورة الأمير « عبدالقادر » رسمها فنان فرنسي اعجب بكفاح الامير ، وقد ظلت هذه الصورة في متاحف فرنسا حتى اهداها « فاليري جيسكار ديستان » رئيس الجمهورية الفرنسية الى الرئيس « هواري بومدين . . » ثم تستطرد في الحديث عن الامير عبد القادر « لقد قاوم الفرنسيين سنين طويلة ، وحرر داخل الجزائر دولته المستقلة ، واقام بداخلها مدينة عسكرية سماها « الزمالة » ، ولم يكن



● خريطة الجزائر

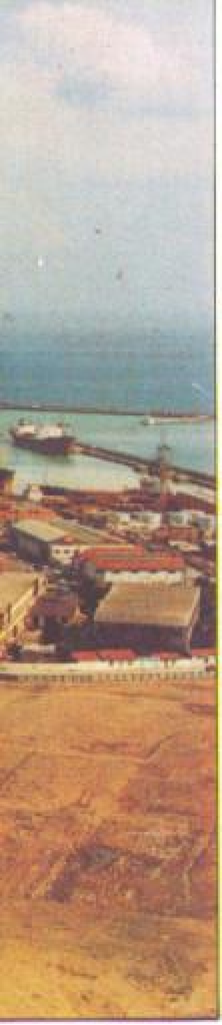
لهذه الدولة مكان ثابت ، فخلال حربه الطويلة ضد الاحتلال الفرنسي كان يتنقل بدولته بين الاقاليم والغابات والجبال ، يتنقل بجنوده وأسلحته وقوانينه ونظمه ونقوده التي سكها باسمه ، ليتعامل بها مواطنو دولته ، كانت دولة تقوم على القيم الاسلامية والتقاليد الجزائرية ، التي تقدس الجهاد والتضحية والتعاون ، ولم يسلم الامير إلا بعد ان قبض عليه بالخديعة من الفرنسيين ، ونفي الى باريس ثم الى دمشق » .

واتطلع الى وجوه الأولاد والبنات ، وهم يستمعون الى دراما التاريخ الهائلة ، بعضهم يكتب في دفتر صغير وبعضهم ينصت ، وبعضهم تشده الصورة والرسوم والمجسمات والأسلحة ، وبعضهم يتحدث الى زميله في همس ، وأتساءل في صمت ماذا يمكن حقا أن تعني هذه الكلمات لهؤلاء الصغار ؟

وما الذي يمكن أن تصير إليه تضحيات الرجال ، وآلامهم وعذاباتهم ؟ سنين قاسية حين تتحول الى كلمات تتردد في صمت متحف فاخر أنيق لتلاميذ صغار !!

وأفيق من تساؤلاتي على صوت السيدة عائشة وهي تشير الى احدى الصور المعلقة :

● هذه الصورة للمظليين الفرنسيين ، وهم يفتشون أهالي المنطقة لعزلهم عن ثوار جبهة التحرير ،









● في أعلى الصفحة الى اليمين .. «حديث الذكريات .. على الرصيف» وفي الوسط الأغنام ترعى في سهول سطيف أسفل مواسير لنقل مياه الشرب للجزائر العاصمة .





● في أعلى الصفحة الى اليسار .. «مدينة الجزائر بمينائها على البحر المتوسط» ، أسفل قرية اشتراكية في ولاية تيبازا .

وهم هنا يعتقلون فتاة مجاهدة اسمها « ملكة سحنون » وهي ما زالت على قيد الحياة ، وأما لطفلين بمدينة « وهران » .

ومرة أخرى تستغرقني التساؤلات : كيف تحيا الآن مثل هذه السيدة ؟ انها ليست في شهرة جميلة بوحريد ، أو غيرها من الجميلات ، كانت يوما ما بطلة ، انه حتى الابطال لا يمكن أن يعيشوا على بطولاتهم طوال العمر ، عليهم أن يتناسوا هذه البطولة ، وفي مرحلة جديدة ، ربما كان عليها أن تذهب الى أحد مراكز « التكوين » بالجزائر ، لتتعلم مهنة جديدة ، فالتضحية حتى بالدم لا تصلح مهنة دائمة ، ربما كان عليها ان تقف في طابور لتشتري ما تحتاجه أسرتها ، وهذه بطولة من نوع آخر ، هذا الجيل كله .. عاش حياته بين ضرورتين ، ضرورة أن ينسى ، وضرورة أن يتذكر ، فالاجيال الجديدة لا يجب أن تنسى ثمن ما تنعم به من حرية ، ولكن هذه الاجيال الجديدة ذاتها هي التي تفرض على الأباء أن يتعلموا مع ابنائهم منطق مرحلة جديدة من الكفاح والبناء ، تمنح فيها أوسمة البطولة ، لمن يعرف كيف يحرث الأرض ، ويقود الجرار ، ويصنع الآلة ويصونها ، ويبني السدود ، وبالتالي فعليهم ان يتعلموا النسيان ايضا !!

وأتذكر كلمات قرأتها في رواية « نهاية الامس » للاديب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة : وهو يصور مصرع الشيخ حمودة « أيتها الأرض ، حدثي من يمر من الأجيال أن الثمن كان باهظا ، وأن وجهك الأخضر كان ذات يوم احمر قانيا بدماء الابرياء ، حدثي من يأتي من الاجيال القادمة أنك شربت من دماء أبنائك البررة ، ما لايدع العطش يمتد الى عروقك أبد الأبدين » .

الوجه الآخر لمقام الشهيد :

المسافة التي مشيناها من مقام الشهيد الى المجمع الثقافي لا تستغرق سوى دقائق معدودة ..

ولكن هذه المسافة بمعنى آخر تنقلنا قرابة ربع قرن من الزمان ، بين نهاية الرحلة التي صحبتنا فيها السيدة عائشة ، وبين بداية الجولة التي يصحبنا فيها الأخ محمد الغزالي مرافقنا الدائم .

● كل هذه المعروضات التي ترونها في واجهات هذه المحال ، هي من إنتاج وصناعة الجزائر ، أقمشة ، ملابس جاهزة ، حقائب جلدية ، أحذية ، لعب أطفال ، مفارش ، أثاث ، أدوات مطبخ ، أجهزة كهربائية ، أدوات تجميل الخ ..

هكذا بدأ الأستاذ الغزالي حديثه ، ونحن معه نتفرج ونستمع الى موسيقا حديثة تنبعث من بعض المحال التي تبيع اشرطة التسجيل ، الصالات فسيحة ، تتخللها مقاعد للاستراحة وأحواض زهور ، ونوافير مياه ، شبان يرتدون الجينز ، وفتيات يرتدين البنطلونات ، ورجال ونساء من مختلف الاعمار بملابسهم الوطنية او الافرنجية ، يتنقلون ويستمتعون بالشراء أو الفرجة ووجدتني أسأل الاستاذ الغزالي لماذا سميتموه المجمع الثقافي ؟؟

انت لم تر كل شيء بعد ! هناك مكتبة عامة للجمهور ، وهنا قاعات للعروض الموسيقية الحديثة ، وللعروض السينمائية ، ومسرح ، وثمة قاعات للتدريب على أجهزة الإعلام الآلي لمختلف المستويات بأجور رمزية .. و ..

ونمضي ونشاهد ، ونسأل :

هل الدولة هي مالكة كل هذه المعارض والمحال ؟ الدولة سمحت للقطاع الخاص بأن يقوم بدور في هذه المجالات . ويعرفنا الاستاذ الغزالي بصاحب قاعة صغيرة للسينما في المجمع .

لقد عاش الرجل في فرنسا اكثر من عشرين عاما ، واصبح لديه رأس مال ، وعاد اخيرا مع اسرته ليعيش ويستثمر امواله في وطنه الجزائر ، وكان استئجاره لهذه الصالة هو البداية ، ويحدثنا الرجل عن السينما في الجزائر .

انها حديثة نسبيا ، لكنها قطعت شوطا كبيرا في تطورها ، لدينا مخرجون لهم أسلوب متميز ، وحصلوا على جوائز عالمية ، ويستطرد وهو يفرجنا على القاعة التي تتسع بالكاد لحوالي ٣٠٠ متفرج .

« ستكون لعرض أفلام متميزة جزائرية أو عالمية للجمهور الخاص الذي يحب هذه النوعية من الافلام ، الهدف ليس تجاريا بحتا ، ولكنه يتسق مع أهداف المجمع الثقافي »



● رابح قدور مدير التخطيط بوزارة الفلاحة

يا له من عالم مختلف :

في هذا المجمع الفخم يتعايش القطاع العام والخاص ، تتعايش التجارة والثقافة ، تلتقي أجيال الجينز وأجيال العباءات والموسيقا الحديثة والموسيقا التقليدية ، هل لهذا كله معنى ودلالة ؟

لا يجب أن نقفز الى النتائج ، لقد جئنا لنتعرف على رحلة الجزائر مع التنمية بعد قرابة ربع قرن من الاستقلال ، فلماذا لا نبدأ من حيث ينبغي ان تكون البداية ؟

ونتذكر ان لدينا في الغد موعدا في وزارة الصناعة الثقيلة ، فلا نتردد في قبول دعوة الرجل المضياف صاحب دار السينما الى فنجان قهوة في (كافتيريا) مجاورة يديرها لحسابه أيضا في المجمع .

مدينة جميلة جميلة :

لا اليوم الأول ولا الثاني ولا الثالث في مدينة الجزائر يمكن أن يقلل من إحساسك بأنك في واحدة من أجمل المدن التي رأيتها في حياتك ، وبأنك مأخوذ بسحر هذه المدينة الذي يتحداك أن تمسك به ، أو أن تتحرر منه ، أو تألفه ، من أين يأتي هذا السحر ؟

هل هو سحر التاريخ الذي تراه في طرز المباني الرومانية والعثمانية والعربية والأوروبية ؟! أم سحر المكان حيث تنتشر المدينة بعمائرها وقصورها فوق مجموعة الهضاب العالية التي تطل على البحر الابيض المتوسط ، وعلى منحدراتها وسهولها وسط غابات وأشجار كثيفة الخضرة عميقة الظلال ؟!

أم سحر الشوارع التي تشعر انها لا يمكن ان تكون اكثر سعة او استقامة أو استواء ، انها طرق معبدة حقا ، ولكنك تشعر ان عمرها من عمر هذا الجبل الذي ترتفع معه وتنخفض ، تستقيم وتلتوي ، كأنها تجاعيد الزمن على وجه مدينة .

دائما كنا نسعد بالطريق الطويل من الفندق الى أي مكان نذهب لزيارته ، وفي هذا اليوم كنا في الطريق الى وزارة الصناعة الثقيلة .

الصناعة أساس كل تنمية :

في وزارة الصناعة الثقيلة استقبلنا السادة / استنبولي ابراهيم نائب مدير العلاقات الدولية ، « وعلاوي الزبير » « وبن عزو الياس » من قسم التعاون بالوزارة - ورحبوا بمجلة العربي في الجزائر ، كانت الساعة تقترب من الرابعة بعد الظهر ، ويوم العمل في الجزائر يستمر حتى الخامسة ، قلت لهم :

- يعني أمامنا ساعة ! قالوا ، لا خذ من الوقت ما تحب ، ويبدأ الحوار .

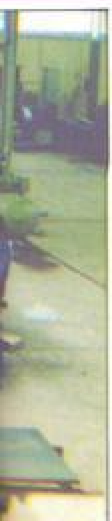
● من الملاحظ ان خطط التنمية في الجزائر منذ بداية الاستقلال وحتى اوائل الثمانينيات كانت تركز على الصناعة الثقيلة ، كانت نسبة الاستثمار في الصناعة ٢٠٪ مقابل ٣٪ للزراعة في المرحلة الأولى ، كما تشير بعض المصادر ، مع ان الجزائر في الاساس بلد زراعي فما اهم دواعي هذا التوجه ؟

***

- كان ترسيخ قاعدة الاستقلال الاقتصادي هو اهم الاهداف ، كنا خارجين من حرب التحرير ، وكنا مدركين ان الاستقلال السياسي لن يكون له معنى الا بالاستقلال الاقتصادي .

« من الصناعة الثقيلة يمكن أن نتطور لخلق نسيج صناعي متكامل يبدأ من الصناعة الثقيلة الى التحويلية الى الخفيفة .

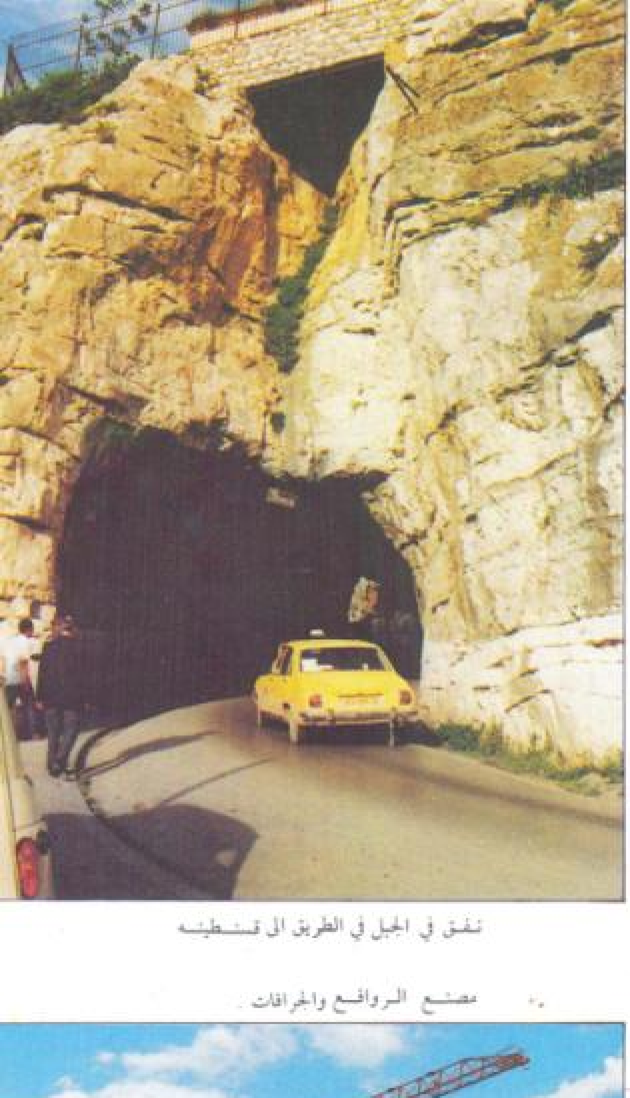




● في أعلى الصفحة : في مركب المحركات والجرارات بجوار قسنطينة ، في أسفل الصفحة الى اليمين : وشباب جزائري في مركز تكوين مهني ،

الى اليسار : صفائح لصناعة مواسير مياه الشرب .





نفق في الجبل في الطريق الى قسنطينه



مصنع الروافع والجرافات .





« من ناحية أخرى فإن إيجاد مثل هذا النسيج الصناعي المتكامل كان يحتم علينا ان نعمل على إعداد آلاف من الايدي العاملة في مختلف مستويات العمالة ومختلف مجالات العمل ، مما يعني اننا سنخلق ثروة بشرية هائلة ، يمكنها ان تواصل تطوير الصناعة في البلاد ، في الوقت الذي كانت فيه مثل هذه الآلاف من الايدي تنتظر فرصة عمل منتج كريم في الجزائر الاشتراكية المستقلة . . » .

● من ناحية ثالثة فان مثل هذا النسيج المتكامل ضروري لتطوير التنمية الشاملة في كافة القطاعات الاخرى ، كالبناء والري والزراعة والمواصلات وغيرها ، ويتصل هذا باشارتك الى ان الجزائر بلد زراعي ، هذا صحيح ، لكن تنمية الزراعة على أساس تقني حديث كان يحتاج الى مثل هذه القاعدة الصناعية ، التي تمدنا الان بكل ما يحتاجه قطاع الزراعة من جرارات وآلات حرث وغرس وحصاد ، وأنظمة حديثة للري ، حيث يعتمد الري في الجزائر على اقامة السدود ، ومد شبكات الانابيب . . فليست لدينا انهار ، فالسدود ضرورية لاحتجاز مياه الامطار التي تسقط على الهضاب العالية ، والانابيب ضرورية لنقل هذه المياه الى الاراضي الزراعية ، واجهزة الضخ والرش ضرورية لري المرتفعات أو السفوح أو جذب المياه الجوفية .

صعوبات على الطريق :

● من الملاحظ ان عملية التنمية الصناعية في الجزائر مرت بمراحل متعددة ، وواجهت بعض الصعوبات ، ربما بسبب ضخامة انجازاتها ، وفي اطار الاعداد للخطة الخمسية الاخيرة التي بدأت في عام ۱۹۸۳/۸۲ ، جرت مناقشات واسعة لهذه الصعوبات ، واسفرت عن تبني تطويرات جديدة في الصناعة في الجزائر ، هل يمكن ان تلقوا الضوء على اهم هذه الصعوبات ؟ ثم على أبرز ملامح السياسة الجديدة في قطاع الصناعة ؟

- الصعوبات التي واجهتنا كانت هي صعوبات البداية من الصفر ، ومع ذلك ففي المرحلة من ٦٧ الى ۱۹۷۸م امكننا ان ننشيء ونطور عدة مؤسسات صناعية كبيرة في قطاعات : « المناجم » ، « الحديد والصلب والألمنيوم » ، « الصناعات الميكانيكية » ، « الصناعات الالكترونية » « الكهرباء » .

السمة العامة لهذه المرحلة هي انها كانت مرحلة نشر وتكثيف للمؤسسات الصناعية ، صحبها جهد مكثف لتوفير عناصر بشرية مدربة ، وخلق تقاليد صناعية .

أهم صعوبات هذه المرحلة هو اختلال التوازن بين انشاء المصانع بسهولة نسبية ، وفرتها فوائض البترول والغاز ، وصعوبة اعداد العناصر البشرية المدربة ، القادرة على ادارة وتشغيل وصيانة كل هذه المصانع بالكفاءة المرجوة ، وكان من الطبيعي نتيجة لهذا ان تظهر مشكلات تتعلق بمستوى الانتاجية ، والتحكم في التقنية ، وحسن استثمار التجهيزات الصناعية التي أصبحت متوفرة .

أيضا برزت صعوبة التضخم في حجم ومسئوليات هذه المؤسسات ، الأمر الذي أدى الى شيء من النقص في تحقيق التكامل بالصورة المأمولة بين هذه المؤسسات وبعضها من ناحية ، وبينها وبين بقية القطاعات الاخرى التي تتعامل معها من جهة ثانية .

هذا ما يتعلق بالجزء الأول من سؤالك عن أهم الصعوبات ، أما فيما يتعلق بالجزء الأخير ، عن اهم ملامح السياسة الجديدة .

● قبل ان ننتقل الى الجزء الاخير من السؤال لدى سؤال يتصل بالصعوبات : يقال : إن رغبة الدولة في توفير فرص عمل للجزائريين والجزائريات أثقل كاهل قطاع الصناعة بعمالة قد لا تكون كلها منتجة بالقدر المطلوب ؟ وزاد من التكلفة ، إلى أي حد يعتبر هذا الكلام دقيقاً ؟

- ربما حدث شيء من هذا بالنسبة للوظائف الادارية أو في قطاعات الخدمات ، لكنك لا تستطيع ان تضع أمام الآلة شخصا غير مدرب ، جميع العاملين في مجال الانتاج تم تكوينهم ، لكن جوهر المشكلة ان المستوى المطلوب قد لا يكون بالاعداد المطلوبة ، وإعداد العامل بالمستوى اللازم يحتاج الى وقت وامكانات ، لا تتوفر بين يوم وليلة » .

سياسة جديدة في الصناعة :

● اذن ما اهم ملامح السياسة الجديدة في قطاع الصناعة ؟

قال السيد علاوي الزبير :



● قادر محمد
مسئول الزراعة بولاية تيبازا



● مسعود ناره
مسئول مشروع تزويد العاصمة بمياه الشرب

« ان السياسة الجديدة نبعت من دراسة الصعوبات التي واجهتنا في المراحل السابقة .

فلمواجهة مشكلة « تكوين الأيدي العاملة » بشكل جذري ، وهي واحدة من أهم المشكلات التي تواجه الدول النامية ، تم إنشاء وزارة التكوين المهني لتكون رديفا مناسبا للتعليم العام ، وللجامعة ولوحدات التكوين التابعة لوزارة الصناعة ، وليتم تكوين الايدي العاملة على مستوى الوطن لمختلف القطاعات الأخرى كالزراعة والري والانشاءات الخ .

ولمواجهة ظاهرة التضخم في حجم ومسئولية المؤسسات الصناعية ، وما يؤدي اليه من نقص في التكامل أو في مستوى الانتاجية أو التحكم والمتابعة ، تمت إعادة هيكلة المؤسسات الصناعية (وجدير بالذكر ان عملية اعادة الهيكلة ، لم تكن مقصورة على قطاع الصناعة ، بل شملت الزراعة والري والانشاءات . . الخ) كما انها لم تكن ذات طابع فني او اداري فحسب ، بل كانت لها ابعاد اجتماعية وسياسية .

من اهمها :

● دعم الاتجاه نحو اللامركزية ، واعادة توزيع المؤسسات الصناعية وغيرها على كامل التراب الوطني وفق اعتبارات منها :

● توفير فرص العمل في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية .

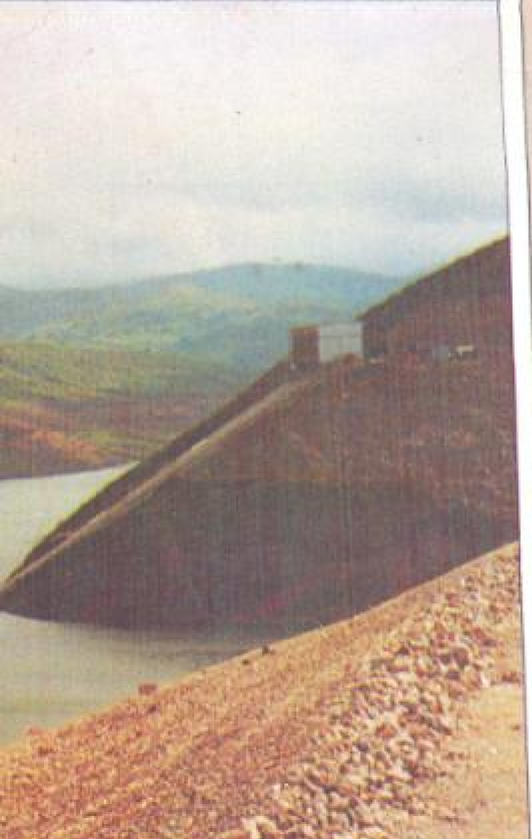
● أن يساعد هذا التوزيع على تحقيق التوازن والتكامل بين المؤسسات الصناعية من جهة ، وبينها وبين القطاعات الأخرى ذات العلاقة من جهة اخرى ، والجماهير ذات المصلحة .

● بالاضافة طبعا الى ان تركيز كل مؤسسة على فرع معين من الصناعة يؤدي الى زيادة التحكم في التسيير ، والارتفاع بمستوى الانتاجية كما وكيفا ، وكفاءة استخدام التجهيزات الصناعية .

وفي هذا الاطار ، وكمثال ، اصبح قطاع المناجم يضم ٥ مؤسسات ، وقطاع الحديد والصلب يضم ١٤ مؤسسة الخ . وباختصار لدينا الآن في وزارة الصناعة الثقيلة ٤٧ مؤسسة،منها ١٤ مؤسسة خاصة بالدراسات ومتابعة الانجاز ، ويبلغ عدد العمال الآن في قطاع الصناعة الثقيلة حوالي ٤٢ ألف عامل . . !

● اذا كان الهدف الاساسي لأي صناعة هو تلبية حاجات السوق الوطني ، فان آلية التطور الصناعي تحتم العمل من اجل التصدير ، فأين تقف الصناعة في الجزائر بين السوق المحلي والخارجي ؟

مازلنا دون القدرة على تلبية حاجات السوق المحلي









● في أعلى الصفحة الى اليمين / بيت من الطراز القديم أسفل / حديث على مهل بين عجوزين لا أحد يستعجلهما - في أعلى الصفحة / سد قدارة بالجزائر حيث تشكل السدود نظاما متكاملا للري - في الوسط / في مدينة برج بوعريرج .. نصب للشهيد - الى اليسار / شارع في نفس المدينة يظهر فيه التأثير الأوربي







في بعض المجالات ، مثل الجرّارات وبعض الادوات الفلاحية ، وذلك نظرا للامكانات الكبيرة لتطوير الزراعة في الجزائر ، لكن لدينا امكانات التصدير ، في مجالات صناعية اخرى مثل :

« مقطورات السكك الحديدية لنقل البضائع ، عدادات الماء والكهرباء والغاز ، الانابيب غير الملحومة ، الجرافات والروافع ، الحديد المسطح والعريض ، والصفائح ، والمقطورات الخاصة بالشاحنات بجميع انواعها ، والمكيفات .

وفي نهاية الحوار يقول : السيد / استنبولي ابراهيم : قل للاخوة في منطقة الخليج بعامة،وفي الكويت بخاصة،اننا مستعدون للتعاون معهم في كل ما يمكن ان يخدم التنمية في عالمنا العربي ، ونرحب بهم في اي وقت .

قسنطينة .. مدينة فوق صخرة :

الى الشرق من الجزائر العاصمة ، قطعنا اكثر من اربعمائة ك . م لنصل الى مدينة قسنطينة ، لنزور مركب المحركات والجرارات بجوارها .

جمال الطبيعة الذي تركناه في الجزائر يتسلل وراءنا عبر جبال « جرجراء » التي كانت تغطي قممها الثلوج في اوائل شهر مايو ، طريق السيارة يمضي احيانا على حواف المرتفعات ويخترق احيانا أنفاقا قصيرة في الجبل ، ولكنه في النصف الاخير من المسافة ، يمضي في سهول ولاية « سطيف » المليئة بالمراعي الخضراء وقطعان الضأن والبقر .

إن مقام الشهيد الذي زرنا نصبه الشامخ في مدينة الجزائر يرافقنا هو الاخر في هذا الطريق الطويل ، ففي كل موقع جرت فيه معركة ، وسقط فيها عدد من الشهداء ، يرتفع نصب صغير ، بتصاميم مختلفة في الحجم ، وبخط اسود منحوت في قلب الحجر تقرأ اسماء الشهداء ، ومعلومات عن المعركة التي استشهدوا فيها ، وتاريخ الاستشهاد .

بعد رحلة استغرقت اكثر من ست ساعات بدأت تلوح لنا مدينة « قسنطينة » فوق صخرتها الشامخة ، وننزل في فندق « سيرتا الكبير » والفندق يحمل الاسم القديم لمدينة قسنطينة« تشير بعض الوثائق الى ان هذه المدينة ظهرت الى الوجود سنة ٢٠٣ ق . م وظلت « سيرتا » عاصمة للملوك النوميديين مثل « صفاقس » وماسينيسا »ويوغرطة » « ودمينيوس » ، وفي عهد هذا الاخير قامت ثورة ضد مظالمه تصدى لها الملك قسطنطين الأكبر سنة ٣١٣م الذي اخمد هذه الثورة ، ومنذ ذلك التاريخ اصبح اسم المدينة « قسنطينة » وهو النطق العربي لاسم ذلك الملك ، ويبلغ أقصى ارتفاع للصخرة التي تقوم عليها المدينة ٥٣٤مترا في الشمال،وتتدرج الصخرة في الانخفاض جنوبا ، وتتكون من ركام صخري من أصل كلسي ويحيط بها وادي الرمال الفسيح الذي يشير الى ان المنطقة كلها كانت تغطيها في عصور سحيقة مياه البحر المتوسط ، ولعوامل جيولوجية فان الصخرة الهائلة تنشق بشكل طبيعي ، مخلفة في وسطها واديا ضيقاً حاداً يتدرج عمقه ، بتدرج ارتفاع الصخرة ، وتربط ضفتي الصخرة مجموعة جسور تحكي أساليب بنائها المختلفة ملامح الأزمنة التي بنيت فيها ، وفي العصور الاسلامية برز في قسنطينة عدد من أشهر العلماء منهم « ابن الخطيب » المؤرخ ، و« ابن حمزة » الطبيب ، و« ابن الفكون » الشاعر ، كما اصبحت قسنطينة مركزا علميا في عهد الحفصيين ، واثناء الاحتلال الفرنسي برزت في قسنطينة جمعية العلماء المسلمين التي اسسها الامام عبد الحميد بن باديس ، واستطاعت هذه الجمعية أن تنشيء رغم وجود الاحتلال أربعمائة مدرسة حرة لتدريس علوم الدين الاسلامي واللغة العربية وآدابها ، لمواجهة سياسة الفرنسة ، وبعد ان استقلت الجزائر فان قسنطينة قد اصبحت مركزا لأول جامعة اسلامية حديثة هي جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية ، كما انشئت بها جامعة عصرية تضم مختلف التخصصات في الآداب والعلوم الانسانية والعلوم البحتة .

رؤية عن قرب :

حين وصلنا الى موقع المركب في وادي حميمين « جنوبي قسنطينة استقبلنا السيد / دريد مبروك مدير المركب ، وخلال جولة في انحاء المصنع الكبير بدأ حديثه بقوله : :

انشيء هذا المركب في ابريل سنة ١٩٦٩ وهو اول وحدة ميكانيكية انشئت في الجزائر،ومهمته تصنيع المحركات والجرارات ، وهو يصنع جميع المحركات التي تستخدم في الجزائر ، فمثلا نحن نصنع المحرك

الذي يستخدم في الجرار الذي نصنعه هنا أيضا ، والمحركات التي تستخدم في الجرافات والروافع في مركب « عين سمارة » والمحركات التي تستخدم في آلات الحصاد التي تصنع في سيدي بلعباس ، وباختصار:جميع المحركات التي يحتاجها أي موقع تصنيع ، وتحديدا فان هذا المركب يصنع ٢٨ نوعا من المحركات،ونستعد الان لتصنيع ٦ أنواع جديدة ، وعن جملة الطاقة الانتاجية للمركب قال : اننا ننتج حاليا ١٣ ألف محرك سنويا ، ونستعد قريبا لتوصيلها الى ١٨ ألف محرك ، وهناك خطة تحت الدراسة لانتاج ٢٥ ألف محرك .

وعن الجهة التي تحدد حجم الانتاج أوضح : ان تحديد حجم الانتاج يتم في اطار الاتفاق بين وزارة التخطيط ووزارة الصناعة وادارة المركب ، وهناك تنسيق بين كل هذه الجهات .

● هل يتم تصنيع جميع أجزاء المحرك هنا ؟

ـ نعم ، لكن هناك انواعاً من الخام التي تدخل في صناعة المحرك تأتي من الخارج .

كنا قد بدأنا نقترب من خط تركيب الجرارات .. فأشار الى أن المركب ينتج نوعين من الجرارات ، جرار صغير وقوته ٤٥ حصاناً ، ومتوسط وقوته ٦٥ حصاناً ، وان الانتاج الكلي في السنة يبلغ ٧٥٠٠ جرار ، ٧٠٠٠ من النوع المتوسط و٥٠٠ من النوع الصغير ، وطبعا لكل نوع استعمالاته ثم قال : لدينا برنامج جديد لانتاج جرار قوته ٣٥ حصاناً للعمل في الاراضي التي تزرع زراعة محمية ، وآخر قوته ١٢٠ حصاناً للاراضي الصلبة ، وهناك تخطيط للارتفاع بالانتاج الكلي للجرارات الى عشرة آلاف ، و٢٠٠ جرار في السنة لتلبية امكانات التطور في مجال الزراعة .

● هل روعي في اختيار هذا النموذج مواصفات معينة ؟

يمتاز هذا النموذج بأنه لا يحتاج الى عناية كبيرة من المستهلك ، لأن محركه يبرد بالهواء ، كما انه يستعمل في أصعب الاستعمالات الصناعية .

● كم عدد المهندسين في المركب وعدد التقنيين وعدد العمال في المركب ؟

يوجد ٣٥ مهندساً و٨٠٠ تقني ، و١٤٠٠ عامل من مختلف المستويات ، وهناك حوالي ٣٨٠٠ يعملون في مجالات غير الانتاج .

● هل توجد عمالة أجنبية بالمركب ؟ وما نسبتها ؟

الان جميع مستويات العمالة في المركب جزائرية ، أقصى عدد من الأجانب كان لدينا هو ١٧٢ في السنوات من ٧٦ الى ١٩٧٩ ، الآن لدينا فقط اثنان ، لا يحملون المركب أي تكاليف مالية ، ووجودهم في نطاق العلاقات الاقتصادية .

الزراعة ...

في طريقنا الى وزارة الفلاحة والصيد البحري ، كنا نحمل العديد من الملاحظات والتساؤلات التي نبعت من خلال الرحلة والقراءة والاستماع والمشاهدة :

تقول الملاحظات :

كانت فرنسا قبل احتلال الجزائر واحدة من خمس دول اوروبية تستورد القمح من الجزائر .

كانت فرنسا في ذلك الوقت أيضا مدينة للجزائر بقرض قيمته خمسة ملايين من الفرنكات الذهبية .

مساحة الأرض الصالحة للزراعة في الجزائر حوالي « ٧,٥ مليون » هكتار ، ما يزرع الآن منها بالفعل هو « ٤,٦ مليون » هكتار .

هبط متوسط عدد السكان من الفلاحين في الهكتار الواحد من ٦٣٪ عام ١٩٦٧ الى ٣٦٪ عام ١٩٨٢ بسبب النزوح المستمر من الريف الى المدينة .

بلغت قيمة جملة واردات الجزائر من المنتوجات الغذائية سنة ١٩٨٠ حوالي « ٧,٤ مليار » دينار جزائري ، بنسبة ١٩٪ من جملة الواردات .

الجزائر تشتري من الخارج ٦٥٪ من حاجتها من الحبوب ، و٨٥٪ من الخضراوات المجففة ، و٧٥٪ من البيض .

كان هدفنا من الزيارة استطلاع رحلة التنمية في قطاع الزراعة في الجزائر ، ووضعنا جملة هذه الملاحظات والتساؤلات امام السيد/ رابح قدور مدير التخطيط في وزارة الفلاحة والصيد البحري فتفضل سيادته قائلا :

لكي نرى بوضوح مسيرة ومشكلات التنمية في قطاع الزراعة بالجزائر ، لابد ان نعود الى الوراء قليلا (بشيء من التركيز) وبخاصة انكم عدتم الى الوراء ايضا في ملاحظاتكم



● أحد المساجد بمئذنتين ويظهر الطابع الجزائري في البناء

أثناء الاستعمار كان الفرنسيون يمتلكون ويستغلون السهل الخصيب ، في شمال الجزائر ، ويزرعونه بطريقة تقنية حديثة ، وبرحيلهم اعطت الدولة هذه الأراضي لمن كانوا يعملون فيها من الفلاحين وبعض المجاهدين ، ولم يكن من الممكن آنذاك استمرار زراعتها بالطريقة الحديثة ، فلم يكن في الجزائر كلها في ذلك الوقت سوى عشرة مهندسين زراعيين ، باختصار كان العجز في الاطر الفنية والآلات الزراعية شبه كامل .

التسيير الذاتي آنذاك فرض نفسه كأسلوب للزراعة ، يدير الوحدة الزراعية من يزرعونها ، من خلال لجنة التسيير المختارة من بين العاملين ، ومعهم شخص من قبل الدولة ، لم يكن مديرا ، بل هو شخص له خبرة بالسياسة والفلاحة ، ليقدم وينظم المساعدة التي توفرها الدولة في حدود الممكن ، من الحبوب والسماد والآلات . الوحدات الزراعية آنذاك لم تكن تقوم على أسس علمية ، واقتصادية ، بعضها كان يقوم على مائة هكتار أو ٦٠ هكتارا ، الآن الوحدة الزراعية تقوم على ٥ آلاف أو ٦ آلاف هكتار .

المرحلة الثانية :

كانت هناك مرحلة ثانية بدأت في أوائل السبعينات بتأميم الأراضي التي كانت لكبار الملاك من الجزائريين انفسهم ، وفق قواعد محددة ، لم يكن من الممكن أن تستمر علاقات انتاج في المجتمع تسمح بالاستغلال ، وخاصة للفلاحين الذين تحقق الاستقلال للجزائر بفضل تضحياتهم في حرب التحرير ، بالاضافة الى ان نسبة من استفادوا من العمل في الارض التي كان يملكها الفرنسيون لم تتجاوز ٢٠٪ من اصل ٩٤٠ الف عائلة ريفية ، ظلوا في مستوى الاجراء .

لم تتجه الدولة في المرحلة الأولى أو الثانية لتمليك الاراضي ، سواء التي كانت للفرنسيين أو لكبار الملاك ، لمن كانوا يزرعونها من الفلاحين ، لأن هذا التوجه لا يتفق مع الزراعة بالطرق التقنية الحديثة ، بل كان التوجه ـ وخاصة في المرحلة الثانية ـ الى تقسيم هذه الاراضي الى وحدات زراعية تعاونية تدار بطريقة التسيير الذاتي وعائدها لهم .

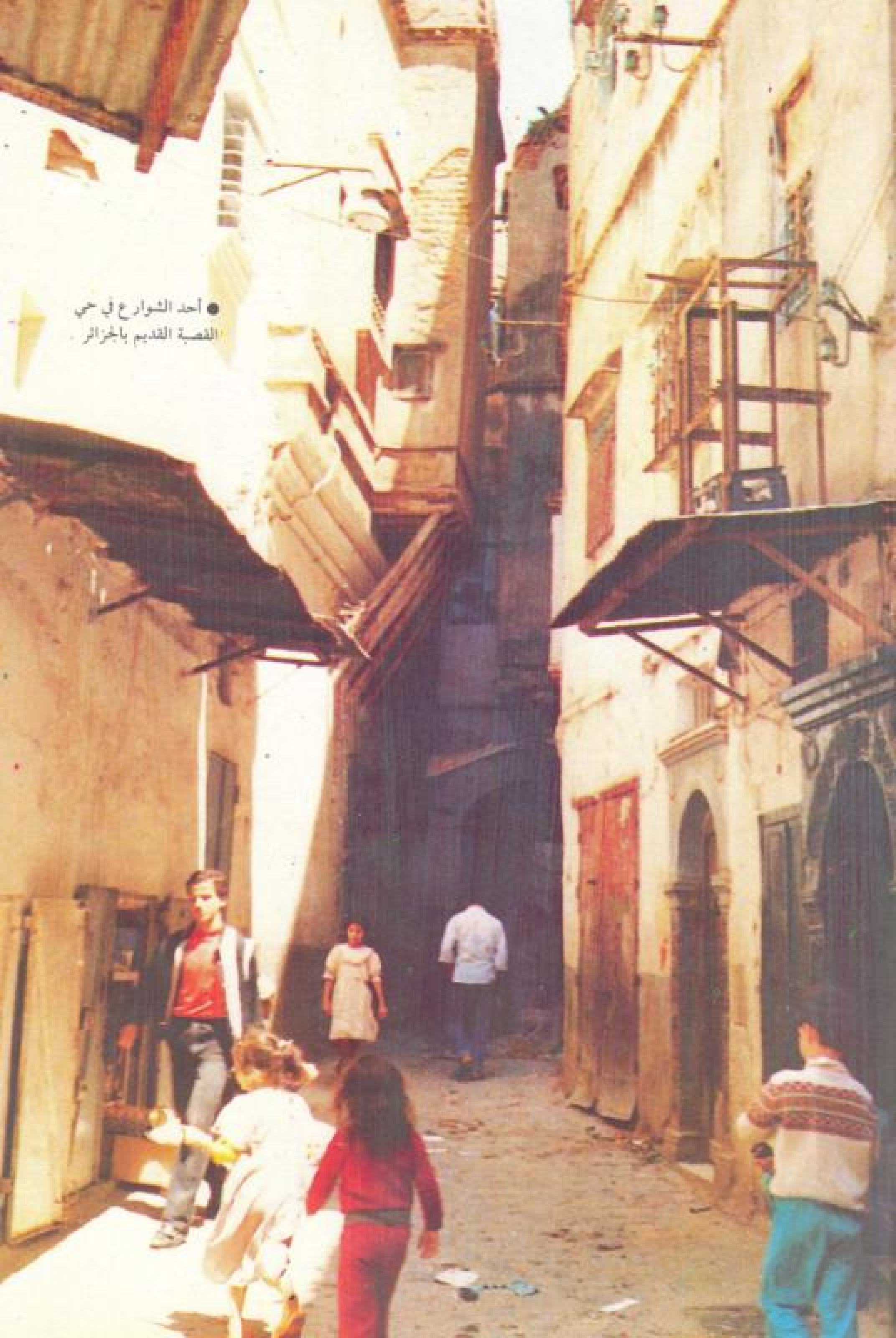
الهدف كان توفير ظروف افضل لاستثمار الارض لصالح جماهير الفلاحين ، ولربط الفلاح بأرضه من خلال علاقة انتاج افضل ، ولدعم هذا الهدف انشأت الدولة في هذه المرحلة القرى الاشتراكية ، التي يتوفر فيها الماء والكهرباء وتضم الى جوار البيوت المناسبة جميع المرافق الحيوية من مدرسة ومسجد ومستشفى وسوق وناد ووحدة بيطرية الخ . . كما كانت جهود الدولة (بفضل عوائد البترول والغاز وبفضل التطور الصناعي قد بدأت تؤتي بعض ثمارها في مجال توفير الآلات الزراعية ، وتكوين الاطر البشرية المناسبة للعمل في قطاع الزراعة » .

« لكن كل هذه الجهود كانت دون مستوى التحديات التي واجهتنا في هذه المرحلة ، فمشكلة الري كانت ولا تزال واحدة من اهم الصعوبات التي تواجهنا ، ان بناء السد الواحد يحتاج من ٣ ـ ٥ سنوات ، لقد بنينا ، ولا يزال امامنا ان نبني الكثير من السدود الصغيرة والمتوسطة والكبيرة .

طبعا كانت هناك مشكلات التكيف مع اسلوب العمل الجديد في الوحدات الزراعية التعاونية ، التي كانت تحتاج الى وقت والى تفهم ووعي ليحقق هذا النظام اهدافه .

المرحلة الثالثة :

هي مرحلة الثمانينيات ، وهي المرحلة التي شهدت اسلوب اعادة الهيكلة في القطاع الفلاحي . .



● أحد الشوارع في حي
القصبة القديم بالجزائر.

وغيره ، إعادة الهيكلة بالنسبة لهذا القطاع تهدف ـ ضمن أشياء اخرى ـ إلى تقليل التعقيدات البيروقراطية بين الوحدات الزراعية ، وبقية الاجهزة الحكومية التي كانت تتعامل معها .. حيث انشئت ادارة قطاع خاصة بكل مجموعة من الوحدات الزراعية ، تكون مهمتها ان تمد هذه الوحدات بحاجتها من الاطارات الفنية والالات الفلاحية والسماد وغيرها .

طبعا هذه المرحلة شهدت تطورات كبيرة سواء من ناحية توفير الاطر الفنية بعد انشاء وزارة التكوين المهني ، وتوزيع معاهدها ومراكزها على سائر التراب الوطني . أو توفير الآلات الفلاحيه بصورة افضل ، أو التكيف مع اسلوب العمل في القرى الاشتراكية التعاونية .

وقد انعكس هذا على مستوى الانتاج في الموسم الفلاحي ٨٤/٨٥ ، فقد ارتفع انتاج الحبوب من ١٤ مليون قنطار ، الى ٣٠ مليون قنطار ، أي زاد بنسبة ١١٤٪ ، كما ارتفع انتاج البطاطا من ٤١٥ الف طن الى ٧٢٤ الف طن ، أي بزيادة نسبتها ٧٤٪ وهذه مجرد امثلة .

* * * *

شكرنا الاستاذ رابح قدور على هذه الخلفية المهمة التي تفضل بها عن تطور تنمية الزراعة في الجزائر ، وشاركناه تصوره بأن التحدي الجديد ليس هو مجرد زيادة الانتاج عن العام الماضي ، بل هو زيادة الانتاج لتلبية حاجة السوق الوطني ، ومواجهة النمو السكاني المتزايد ، وكان لابد لنا من رؤية عن قرب لتجربة القرى الاشتراكية في الجزائر .

رؤية من قريب لقرية اشتراكية :

هذه المرة اتجهنا الى الجنوب الغربي من مدينة الجزائر ، حوالي ٧٠كم نحو ولاية « تيبازا » التي تضم العديد من القرى الاشتراكية ، وفق التقسيم الاداري الاخير ١٩٨٥ ، فالجزائر تضم ٤٨ ولاية ، وتنقسم الولاية الى عدة بلديات ، وفي ولاية تيبازا ٤٢ بلدية .

وتتميز ولاية تيبازا بطابعها الفلاحي والسياحي ، فهي تمتلك عدة شواطيء بالغة الروعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وتقول الاحصائية التي معنا من وزارة الفلاحة ، ان المساحة الاجمالية لتيبازا ٩٥٠٧٠ هكتاراً ، ومساحة الأرض الصالحة منها للزراعة ٧٥٠٣٠ هكتاراً ، يتبع القطاع العام منها ٥٦٣١٨ هكتاراً تنقسم الى ٢٦٦ وحدة زراعية ، والقطاع الخاص يمتلك ١٨٧١٢ هكتاراً ، الحد الاعلى منها لملكية الفرد الواحد هكتارين ونصف هكتار من الارض المسقية ، وأكثر قليلا من الأرض غير المسقية .

في مركز ادارة القطاع استقبلنا المهندس « قادر محمد » وصحبنا الى اقرب قرية اشتراكية هي قرية « تثالا الساحلية » ، وهي قرية لا علاقة لها بأي ساحل ، فهي تقع في قلب سهل اخضر من مزارع القمح وان كانت تحتل هضبة مرتفعة قلب السهل .

قلت للمهندس قادر :

● أود ان اعرف صلاحيات لجنة التسيير الذاتي في الوحدة الزراعية التعاونية ..؟ ما هي الامور التي تقررها ؟ وما الأمور التي تحددها الدولة ؟

* * * *

الاتجاه الاساسي في عملية التسيير هو تأكيد استقلال الوحدة الانتاجية من خلال لجنة التسيير المنتخبة من بين عمال المزرعة الدائمين .. في اتخاذ جميع القرارات التي تتصل بالعمل في المزرعة .

لكن هذا لا ينفي ان الدولة تتخذ قرارات بشأن أمور اخرى محددة .. فمثلا كمية ما تزرعه ولاية من المزروعات الاستراتيجية كالقمح والبطاطا والكروم ، الدولة هي التي تحددها ، لانها تأخذ في اعتبارها اشياء مثل سياسة التصدير أو حاجة السوق الوطني لسلعة معينة ، أو صلاحية بعض الاراضي ، أو حالة المناخ في بعض المناطق .

أيضا الدولة تحدد سعر بعض المزروعات الاستراتيجية التي يقوم القطاع العام بتصديرها ، كالكروم ، او بتوزيعها على السوق الوطني بسعر مناسب مدعوم لصالح الجماهير .

على ان الدولة حين تتخذ مثل هذه القرارات تستند في دراستها الى الآراء التي تصلها من جهات متعددة ، منها الوحدات الزراعية التعاونية .

فيا عدا ذلك اللجنة تقرر كل شيء ، فالمزروعات

الأخرى غير الاستراتيجية كالفواكه والخضر وغيرها ، لجنة التسيير هي التي تحددها وتحدد اسعارها ، وهناك تفاوتات في الاسعار حسب الجودة والطلب وغير ذلك .

● كيف يتقاضى العاملون في الوحدة الانتاجية اجورهم ، وما أسلوب تقدير هذه الاجور ؟

في اطار الوحدة الانتاجية هناك عامل دائم ، مستقر في القرية الاشتراكية ، له بيت ، وله كل حقوق العامل الدائم مثل الترشيح للجنة التسيير ، والانتخاب ، وحق الالتحاق ببرنامج للتكوين المهني مرة كل سنتين لاكتساب خبرة ، أو لتطوير خبرته ، مما يؤدي الى ترقيته ، فيكون مسير حوامض أو كروم أو تربية دواجن او سياقة أو صيانة الجرار .. الخ .

والعامل الدائم هو الذي يعمل ٢٠٠ يوم عمل في الموسم الفلاحي ، ويوم العمل له أجر محدد يختلف من مجال عمل لآخر ، فمثلا اجر يوم عمل لحارس ٥٥,٤٠ ديناراً جزائرياً في اليوم ، ولعامل بسيط ٦٧,١٠ ديناراً جزائرياً ، ولعامل ماهر يصلح الجرار ٩١,٨٠ ديناراً ، ولعامل تربية نحل ٨٥,٤٠ ديناراً ، ملحوظة (الدولار = ٤,٥٠ دنانير جزائرية) بالسعر الرسمي .

طبعا هناك عامل مؤقت يأتي من أي مكان للمشاركة في الأعمال الموسمية ، كالحصاد وغيره ، وهذا يتقاضى أجراً لعمله يومياً ، لكن ليس له ما للعامل الدائم .

● هل هذا الاجر هو كل ما يتقاضاه العامل الدائم ؟

لا .... العامل الدائم له الحق اولا في سلفة وتسمى « تسبيقة » في بداية الموسم ، وتختلف من منصب لآخر ، ثم لجميع العمال في نهاية الموسم نسبة في الربح عند بيع المحصول ، حيث يوزع (حسب ايام عمل كل منهم) ٥٠٪ من الربح العام للمحصول .. فالتفاوت قد يحدث بحسب ايام العمل ولكنهم جميعا من الحارس الى المدير يتفقون في نصيب يوم العمل من هذه الـ ٥٠٪ .

● ما اجر المدير ؟

ـ المدير غالبا مهندس زراعي ويعين من قبل وزارة الفلاحة وهو يمثل الدولة في الولاية ، وهو غير رئيس لجنة التسيير الذي ينتخب من اللجنة ، وبداية مرتبه اربعة آلاف دينار في الشهر .. والتقني ٣ آلاف دينار في الشهر .

قرية بدون سكان :

مع الاقتراب من قرية تالا الساحلية ، كنت بدأت ادرك معنى ما قاله لنا الاستاذ « رابح قدور » في وزارة الفلاحة عن صعوبة انتقال الفلاحين من القرية الاشتراكية الى مواقع العمل ، فالأراضي التي تضمها أي وحدة زراعية مترامية ، اذ ليست كل الاراضي الصالحة للزراعة متصلة ، فقد كنا نمر بجوار حقول القمح الشاسعة ثم تقطعها هضبة عالية تدور حولها ثم تبدأ أراض كبيرة وهكذا ..

القرية بديعة ، منسقة ، بيوتها من طابق واحد تقريبا لكنها تبدو وكأنها بدون سكان ، كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة صباحا ، أين الأهالي ؟

الآن هم يعملون في الحقول ؟

ويضحك مرافقنا المهندس قادر محمد : سنجد من نلتقي بهم .

وحول نادي القرية ومسجدها وسوقها نلتقي بالشباب والناس ..

اسمي معمر مختاري ، اعمل سائق جرار ، كان هذا عملي من قبل ، أجري ٨٥ ديناراً في اليوم .

● هل يكفيك هذا الاجر ؟

ـ شوية [يكاد يكفيني] ..

فارس الطيب .. في الصف السادس من التعليم الاساسي ..

اعمل في غير اوقات الدراسة كعامل بسيط .

اجري ٧٥ ديناراً في اليوم .

اتدرب في مركز التدريب المهني على العمل على آلة تصوير .

سمارة عبد العزيز ..

توقفت عن الدراسة في السنة الثانية الاعدادية .

● لماذا لم تلتحق بمراكز التكوين بعد ذلك ؟

ـ بلغت سن التجنيد فدخلت الجيش .

ترى هل ينجح المسئولون في دولة الجزائر وفي وزارة الفلاحة وفي كل الولايات والبلديات والقرى الاشتراكية في رهانهم على ألا تبقى التنمية الزراعية هي الجناح المهيض للتنمية في الجزائر ؟ □

قصة قصيرة

السلطان

بقلم : قصي الشيخ عسكر

انفرج الستار، وكان المسرح خاليا. انتظر الجمهور، غير أن وقتا غير قصير مر ولم يظهر الممثلون. كل ما وقعت عليه الأعين، عرش ذهبي يتوسط خشبة المسرح.

أخيرا أطل المخرج، رجل بدين قصير أصلع، دقيق الأطراف. كان يبدو ضجرا الى درجة الاعياء، يشغله شيء، يشل ارادته، تمعن في الجمهور، ثم أخذ يذهب ويجيء وتوقف في المنتصف.

أيها السادة... قال هذه العبارة متنحنحا ثم واصل: أنتم ترون العرش الآن، ان ما يمنع البدء هو خلو المسرحية من الملك، من منكم يقبل أن يؤدي الدور؟

ظن الجمهور أن المخرج يمثل أو أنه يخفي بكلامه السابق مفاجأة من لعب المسرح. طال الانتظار.

تطلع أفراد الجمهور في وجوه بعضهم البعض فقال المخرج بيأس:

أيها السادة لا تعتقدوا اني أمزح. أنا بحاجة الى ممثل يؤدي دور الملك. نزل عن الخشبة تاركا العرش خلفه. توقف في الممر. تفرس بأحد الوجوه:

- هل توافق أيها السيد؟

- كلا.

انتقل الى سيدة تجلس قرب الجدار:

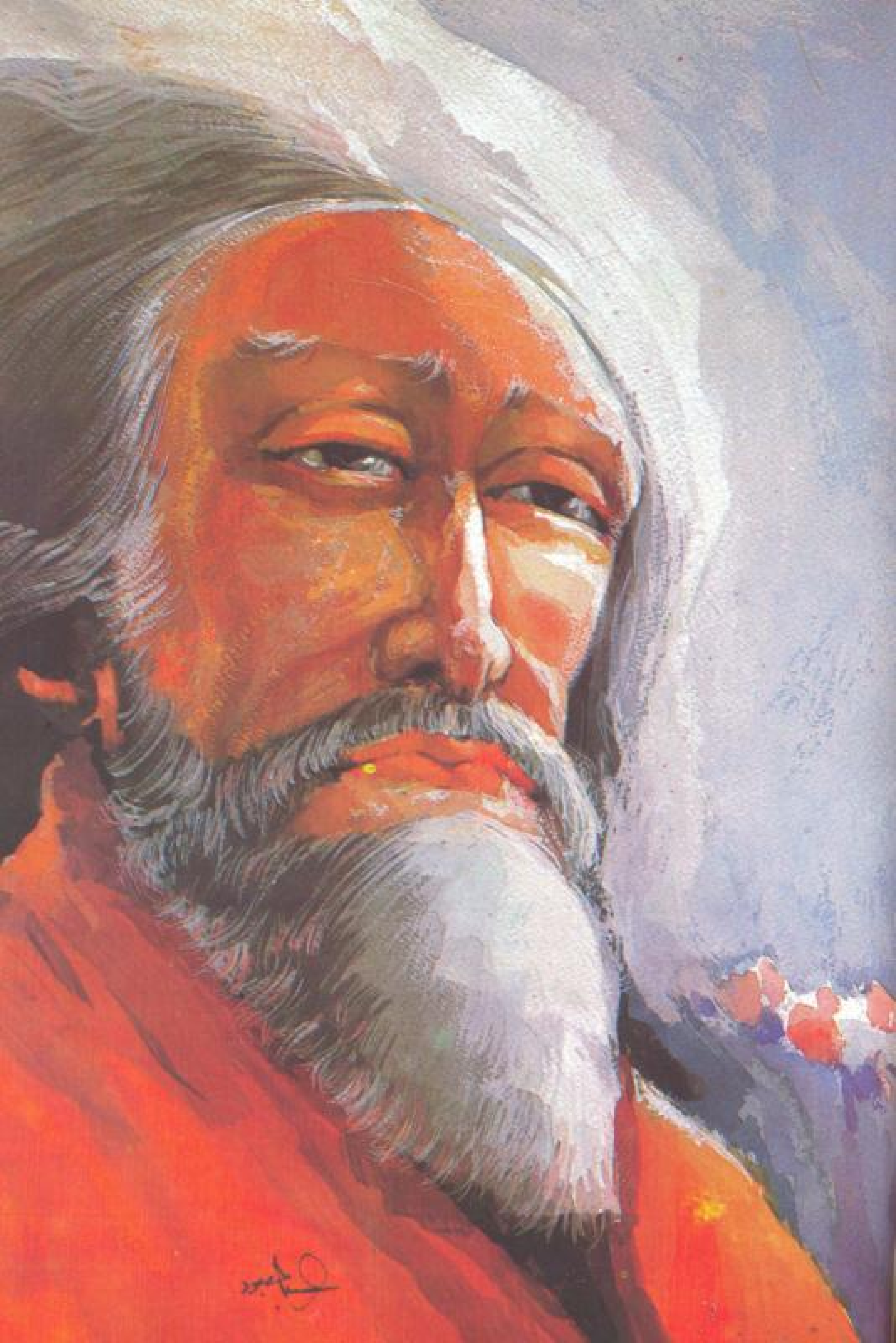
سيدتي سأغير الملك الى ملكة أتقبلين؟

- كلا.. كلا

مر على الصفوف. ضجر الجمهور. بدأ يرغو تراجع المخرج خائفا الى خشبة المسرح، قال بصوت حزين:

- أيها السادة لا أعتقد أننا يمكن أن نؤدي المسرحية





الليلة بدون ملك،لكن الدور لا يتطلب أي مجهود . . الملك هو شخص يجلس على العرش ، ويصدر الأوامر فقط . توقف عن الكلام . ارتفعت أصوات من القاعة . قال المخرج :

من حقكم أن تقولوا يسقط المخرج ، لكني أقول لكم الحقيقة . الممثل الملك مات الليلة ، هذا ما لم أكن أتوقعه .

توقف عن الكلام ثانية ليرى تأثير عباراته على الجمهور . عاد الهدوء الى القاعة،واصل الكلام :

لا أحد يستطيع أن ينجو من الموت . الحل الوحيد لبدء العمل هو أن يتطوع أحد الحاضرين ليؤدي دور الملك .

استغل الحاضرون صمت المخرج ، فعادت الضجة من جديد . . ومن آخر الصف ارتفع صوت : أنا ، أنا . .

في هذه اللحظة تغيرت ملامح المخرج ، وانقلب اليأس في عينيه الى أمل حقيقي .

قال : حسنا ما عليك الا أن تصعد على الكرسي الذهبي .

عندما اقترب الشاب من حافة الخشبة ، بانت ملامحه تحت الأضواء للجمهور ، في الثلاثين من العمر ، ذو نظرة غامضة ، طويل القامة يرتدي بدلة رمادية .

يعلو الصفير والهتاف وتصيح الحناجر بنبرة رتيبة .

سلطان ، سلطان ، سلطان .

يرتد الشاب الى الخلف ويتمتم:سيدي كانت مزحة مني . لقد دفعوني الى هنا ، يقع المخرج في حيرة . إنه أمام وجه جاد القسمات لا يصلح لأن يؤدي مزحة ثقيلة . مهما حدث فهو بحاجة الى شخص يؤدي دور الملك .

يعلو الصفير والهتاف ثانية ، وتصيح الحناجر .

سلطان ، سلطان . .

اسمي سلطان بن الوالي لذلك صدرت مني المزحة ، ودفعتني الأكف الى هنا . . يصمم المخرج على التعامل مع هذا الوجه الذي يجيد المزاح وهو صارم ، فكل من في القاعة يرفض .

أنت قريب من الخشبة واسمك سلطان ؟

لكن الشاب قاطع بلهجة صارمة .

ان لي شرطا قبل أن أصعد على العرش الذهبي .



لا بأس سنتفق حين تذهب الى غرفة الملابس .

ما زال الشاب واقفا لا يتحرك . وضع المخرج يده على كتفه ، لكن الشاب لم يتحرك قال : ما دمت سأرجع الى التاريخ فلدي شرط !

هل تظنني أرفض .

حسنا والجمهور ؟

توجه المخرج الى الجمهور ، حك صلعته . قال : أتحبون أن نبدأ التمثيل ؟

حدثت ضجة ـ هتف الحاضرون بالموافقة . قال الشاب : شرطي أن توافقوا على كل شيء آمر به .

كان الجمهور متحمسا لبدء التمثيل . ترنموا . صفقت الأكف،ملأت القاعة -.سلطان موافقون ، سلطان موافقون !! . .

توجه الشاب الى غرفة الملابس . كان يبدو وقورا صامتا ، وهو يجلس على العرش بملابس قديمة ، كأن التاريخ تراكم على جسده،يحيط به جنود يحملون الحراب ، وخلف عرشه حارسان يمسكان سيفين . كل شيء في اللوحة يرمز الى حدث كبير . الملك صامت . الجنود مستعدون ، الحارسان متهيئان لأي أمر مفاجيء ، بقي الملك صامتا ، والممثلون ينتظرون الأوامر بفارغ الصبر . طال الانتظار . ضجر الجمهور .

بعد لحظات تحرك الملك . نهض من كرسيه . اقترب من حافة المسرح ، سبقه الجنود وبقية الحرس . أخيرا نطق : أيها السادة ما دمتم قد وافقتم على شرطي فأنا أحكم عليكم بالاعدام !!

استدار أحد الحارسين نحو المخرج ، أما الجنود حاملو الحراب فقد انتشروا بين المقاعد ! □



الجنوبي المسافر

شعر : الدكتور عبده بدوي

شاهدته .. مستغرقاً ومفكراً — آناً يطلُّ ، ومرةً مستغبرا
ضحكتْ عليه من النساء جميلةٌ — وتمايلتْ فغدا المطارُ مثرثرا
كانتْ مواطنةً تعذّبُ نفسَها — فعلى الجبينِ ترى الجنوبَ الأسمرا
.. لكنّني من مقعدي أبصرتُه — يستحضرُ القسماتِ من إحدى القرى
شاهدتُه والأمُّ تمسحُ دمعَه — وتقولُ : لا تحزنْ فلستَ مخيّرا
ورأيتُ زوجتَه تقدّمُ طفلَها — ليرى أوائلَ وردِه مخضوضرا
كانتْ تودُّ عناقَه ، لكنها — خجلتْ ، فغطّتْ خاطرينِ استعبرا
ومضتْ فرجلٍ في الطريقِ تقودُها — بيْنا يسيرُ القلبُ سيرَ القهقري
يامَنْ يرى حزنَ الغريبِ بأرضِه — متشابكاً في حزنِ من غدِ السُّرى !

**

وهنا تُطِلُّ حكايةٌ مسكينةٌ — عن قصّةِ الكدحِ الذي لن يُقترا
وعن الثمارِ ، وقد رعاها بذرةً — حتى استدارَ الخصبُ ، ثم تكوّرا
وعنِ الوجوهِ ، وقد غدت معروقةً — وعنِ الشحوبِ امتدَّ ، ثم تأخّرا
لكنَّ خوفاً قابعاً في نفسِه — يمتصُّ نضرتَه ، ويمضي مُدبِرا
.. وهنا تموتُ بشاشةٌ موقوتةٌ — فغدا يضيعُ بهجرةٍ لن تثمرا
ولقد تجودُ بفرحةٍ قد رفرفتْ — لكنْ غربتُه تشوّهُ ما يرى

**

صرخَ : ارجعوني نحو أرضٍ في دمي — مالي وللطيرانِ في أعلى الذُّرا
فتضاحكَ الجمعُ الذي من حولِه — لكنَّ هذا الضحكَ صارَ مؤثِّرا
فلقد أحسّوا أنّهم هذا الذي — ضحكوا عليه ، وأوسعوه تحيّرا
.. ومضَوا . ولكنْ كانَ في أعماقِهم — وطنٌ ينوحُ !! وحفنتانِ من الثرى !!

القتلة البيض

بقلم : الدكتور محمد نبهان سويلم

حين اكتشف صيدلي ألماني مركبا كيماويا يبعث عند تناوله نشوة مؤقتة ، وتأخذ المرء في أحلامه بعيدا عن عالم الواقع ، لم يجد له اسما أنسب من اسم إله الاحلام اليوناني « اورفيوس » ومنها كان المورفين .

لكن النشوة المؤقتة والأحلام تتحول عند الادمان الى سموم قاتلة وأمراض فتاكة ، تعاني منها المجتمعات المتقدمة على وجه الخصوص . فما هو المورفين ؟ ،وكيف انتشر تعاطي مركباته الأخرى من السموم البيضاء القاتلة ؟

عرف صمغ الأفيون منذ عهد بعيد ، يسبق زمن الميلاد بآلاف السنين ، فهناك داخل متحف العلوم البريطاني بلندن ، تعرض آنية فخارية وأخرى خزفية صنعت في قبرص ، وتعود تاريخيا الى العصر البرونزي المتأخر في حدود عام ١٥٠٠ق . م ، تزخرفت جدرانها بأشكال زهرة نبات الخشخاش ، وكانت تعبأ بمحلول صمغ الأفيون مع الماء أو الخمر ، وتصدر الى دول العالم القديم شرقه وغربه وشماله او جنوبه ، ويتلقاها كهنة المعابد ومزاولو الطب والسحر ، يعالجون بمحلولها الالام ، ويخففون اوجاع المرضى ، وبذا يهيمنون بسلطانهم الدنيوي ويثبتون سطوتهم . كما ذكر في الأوديسا أن هيلين طروادة عالجت نفسها من الاكتئاب والحزن والقلق الذي اجتاحها بعد حصار المدينة بنفس المحلول،كما قدمته شرابا لحاشيتها يبث في نفوسهم السرور ، ويدخل على قلوبهم البهجة،ويبعث فيهم الأمل بعد أن ظهرت بوادر الهزيمة ولاحت في الأفق . نفس المحلول استخدمه أبو قراط في القرن الرابع قبل الميلاد ،



النبات يصنع السم داخل خلايا أوراقه



ثم يدفعها الى حوصلة بذوره



بعدها تخدش ويستحلب صمغ الأفيون

نبات مبهج ، وحوصلته تحمل العلاج والموت .. الحياة والدمار

وعالج به الطبيب ديسكوريدس مرضاه ، كما استخدمه جالينوس كأحد أدويته وعقاقيره المميزة .
ويقال أن شراب صمغ الأفيون قدم للمسيحيين الأوائل سرا حتى يخفف عنهم تعذيب الرومان لهم ، وفي عام ١٥٣٠ م طرحت في الأسواق صبغة الأفيون فاكتسحت ماعداها من أعشاب طبية وأدوية مهدئة .

وعن الأفيون سجل داود في تذكرته بأنه يشتق من نبات الخشخاش المعروف في مصر بأبو النوم ، وهو أبيض ـ وهو أجوده ـ وأحمره أعدله ، وأسوده أشد فاعلية ، وهو يزهر اصفر ويخلف هذا الزهر رؤوساً مستديرة غليظة ، يجمع آخره قمعا يشبه الجلنار ، يستخرج منه الأفيون بالشرط ، وقشره اذا دق كان جالبا للنوم ، مجففا للرطوبة وللسعال وأوجاع الصدر الحارقة .

مصدر أفيون العالم

ونبات الخشخاش هو مصدر أفيون العالم ، واحد نباتات حديقة الطبيعة التي اتسعت وترامت أطرافها حتى شملت سطح الأرض اليابس ، وقيعان البحار والمحيطات ، وضمت قرابة نصف مليون نوع من النبات ، بينها الراقي والبدائي ، ومنها ربع مليون نبتة مزهرة تعطي ازهارا وثمارا وبذورا فضلا عن مئات الآلاف التي انقرضت وتلاشت ولم يبق منها سوى ذكرياتها .

ونباتات حديقة الطبيعة تروى بماء واحد ، تسقط عليها أشعة شمس واحدة ، يغلفها غطاء جوي متماثل ، إذ لاخلاف بين نبات ينمو في الزقازيق وآخر في طوكيو وثالث في الهند أو بنجلاديش أو اليمن أو الصين ، ورغم هذا ، قدمت الحديقة طرحا متنوع الأشكال والألوان ، تتراوح بين الغذاء والكساء ، والدواء والسموم ، هذا قطن وذاك قمح أو شعير ، وهذا أفيون أو كوكايين .. الخ . ويكمن سر هذا التمايز في شفرة وراثية وبرنامج عمل يتحكم ويحكم اداء خلايا كل نبات ، ويجعلها تعزف منظومة واحدة تؤدي دورها المرسوم والمسطور في كتاب الكون العظيم دون خلل او انحراف ، ولا تأتي بما يخالف سنة عملها وشرائع شفرتها ، فإذا بكل نبات يحيل مصادره المتاحة من غذاء وماء وطاقة الى توليفة

كيميائية خاصة ، نبات قصب السكر يعطي من مفردات الماء وثاني أكسيد الكربون وطاقة الشمس نفس المفردات التي يتلقاها نبات الخشخاش ، فإذا الشفرة والبرنامج يضعان المفردات بجوار بعضها البعض وفق أسلوب آخر ، فتجد في نهاية المطاف الأفيون .. ولا غرابة ولا عجب .. وهل يختلف الأمر عما بين يديك الآن ، فهذه المجلة سطرت بالأبجدية والأرقام العربية ، ومع هذا تقرأ مقالا أدبيا وآخر علميا وقصة أو قصيدة أو أخبارا أو تحقيقات او رسائل القراء ومناقشات عن الاقتصاد والمال والتجارة .. فرغم توحد المفردات صاغها كل فكر وفق ما هوى .

ونبات الخشخاش واحد من مجموعة نباتات يستحيل الاستغناء عنها تماما ، كما يستعصى تقبلها تقبلا تاما بلا حدود أو قيود مثل الذرة والقمح أو القطن فهو المصدر الطبيعي الوحيد لانتاج خامة صمغ الأفيون ، أساس صناعة مادة المورفين والكودين . والمورفين رغم اثارة الوخيمة ، اذا أسيء استخدامه مادة طبية استراتيجية لا يخلو منها مستشفى مدني أو عسكري ، وتوضع حقن المورفين بالأمر داخل حقائب اسعاف الجنود قبل ارسالهم للحرب،وتدرج الدول المورفين على قائمة مخزونها السلعي ، وتراقب وفرته مثلما تراقب كميات الملح والسكر واللحوم ، تحسبا لأي طارىء يستجد ، أما الكودائين فهو مادة كيميائية طبية من أهم أدوية تخفيف الآلام والسعال ونزلات البرد والجراحات البسيطة ، وكانت محوراً أساسياً وقاسماً مشتركاً أعظم ، في ٨٥ وصفة طبية أمريكية خلال عام ١٩٨٥ ، كما وصفها آلاف الأطباء لملايين المرضى خارج الولايات المتحدة .. لكن من الأفيون تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فهو أيضا خامة انتاج مخدر وسم الهروين .. أحد أخطر أنواع المخدرات البيضاء ، وسوط عذاب الناس في كل مكان ، وكأن نبات الخشخاش باعث صحة ومرض ، وبشير خير ونذير شر .. يحمل السعادة والدمار .. أو انه نبات شيطان وقديس .

وهو بذلك يتفرد عما سواه من النباتات ، ولعله النبات الوحيد في العالم الذي أشعل نار حرب استمرت سنوات طوال بين بريطانيا والصين في واحدة من الحروب ذات الدوافع المتعددة ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية .. اذ كان منطق الاستعمار .. كيف يترك قوة الصين البشرية الهائلة تجاور قواته المتمركزة في الهند ، دون أن يصدر اليها أفيونا تنتجه شركة الهند الشرقية ، فيحيلهم الى كتلة بشرية هامدة يتكسب منهم ، ويفرض تجارته عليهم ، ويأمن جانبهم ، ويقتطع بعضا من ارضهم .

نبات بريء المظهر

ونبات الخشخاش بريء المظهر ، بهي الطلعة مشرق يبعث منظره سرورا . له اوراق صغيرة نوعا ، سميكة الى حد ما ، وسيقان منتصبة ، واذا ازهر اشاع في الحقول بهجة ملونة ونثر على المسطحات الخضراء زهورا تتراوح ألوانها بين الأبيض والأحمر والأصفر والأرجواني ، تضفي على التلال والسهول لمسة فنية بارعة ، وتضيف اليها بعدا جماليا فريدا وكأنه قوس قزح ، امتد بين الأرض الخضراء والجبال الشواهق والسماء الزرقاء .

هذا المشهد الطبيعي المدهش يخفي أنواعاً من القتلة « بشرا ذوي شراسة يحرسون الزراعات ، فان اقتربت وجهوا اليك فوهات بنادقهم الآلية ، وصبوا عليك موجات رصاصهم . يحرسون القاتل الأبيض الذي يتخفى وراء الخضرة والأزهار ، وداخل خلايا النبات ، وينضج على مهل حتى يحين وقت جمعه ، فقد مرت الأوقات الصعبة منذ ألقيت البذور في الأرض وامتصت ماء الرى ، وانتفخت ونمت البراعم والسيقان ، وحلت أوراقها ، وتلاقت الأوراق مع ضياء الشمس ، وبدأت الشفرة والبرنامج عموما ، وقامت الأوراق بحل الشفرة وتنفيذ الأوامر ، وجرت داخلها صناعات كيميائية دقيقة ، وصنعت مواد نيتروجينية من فصيلة أشباه القلويات ، ضختها الاوراق ضخا الى خلايا النبات ، حيث تم تخزينها ليوم معلوم ، يوم تسقط التيلات وتبدأ حوصلة البذور نموها ، وتسحب العصارة وتنمو وتتضخم ، ويصبح القاتل الأبيض معدا اعدادا كاملا . بعدها يشطرون أو يخدشون الحويصلات بمشارط حادة ، وعلى الجدران ينزف سائل أبيض اللون ، لزج القوام ، ويتبخر بعض مائه ، ويقتم لونه ، ثم يجمع في الصباح المبكر بسكاكين حادة على شكل كتلة لونها

بني . . انه صمغ الافيون أو الافيون الخام ضاما اليه تشكيلة كيميائية غريبة ومتنوعة . . بعدها تبدأ سلسلة صراع مسلح ضد القانون لتهريب السموم وتوزيعها . .

أشباه القلويات

ولأن الألمان تستهويهم بحوث الكيمياء ، ويعشقون لعبة التحاليل واستخدام الدوارق والانابيب ، وكشف اغوار المواد الكيميائية ، وصولا الى جوهرها وتحديد تركيبها الحقيقي ، فقد قدموا للعالم الجديد والمثير في هذا المجال ، مثل ابتكار الأسبرين ، وتحويل الفحم الى بترول ، وصناعة السماد من الهواء والماء . . الخ . . .

منذ عام ١٨١٥ م جذب صمغ الافيون اهتمام الصيدلي الألماني ف . سير تيرنر ، فبدأ مع المادة رحلة بحث شاقة ، وحاول بما يعلم التوصل الى ما لايعلم ، استخلص مكوناتها تارة بالاذابة في الماء ، وأخرى في الكحول ، وثالثة مع المذيبات العضوية ، وحلل عناصر كل مستخلص ، وقدر الأوزان الجزيئية ، وحل معادلات حسابية كانت عويصة آنذاك ، اذ أن المواد الطبيعية ذات الصفة العضوية سيان النباتية أو الحيوانية ، ليس لها تركيب كيميائي شامل ، جامع مانع ، واحد لاسواه ، انما هي مجموعة مواد مختلطة ببعضها بعضا ، والعالم والباحث الكيميائي القدير من سيطر على أدواته ومناهج بحثه فلا يضل طريقه اليها ، وقد كان للرجل هذه القدرات ، واذا به يفصل أول المواد الفعالة ، ووجد أن أقل قدر ممكن منها يحمل خصائصها الكيميائية والفيزيائية . . . يتشكل من سبع عشرة ذرة كربون ، وتسع عشرة ذرة هيدروجين ، وذرة نيتروجين واحدة ، وثلاث ذرات أوكسجين $C_{17}H_{19}No_3$ وتبلغ نسبتها في صمغ الأفيون ٢٣٫٣٪ وحار الرجل في تسمية المادة ومنحها شهادة الميلاد العلمية ، وكعادة العلماء آنذاك ونسبتهم مسميات ما يبتكرون أو يكتشفون الى مسميات يونانية ، تحمل قدرا من خصائصها ، وجد ان انسب مسمى هو اسم إله الأحلام . . أورفيوس . . فأطلق على المركب الكيميائي اسم المورفين ، فالمركب الكيميائي يبعث نشوة مؤقتة وتخديرا ، ويبث أحلاما لمن يشاء حظه العاثر تعاطيه أول مرة . وعليه فان اسم إله الأحلام هو أفضل الأسماء .

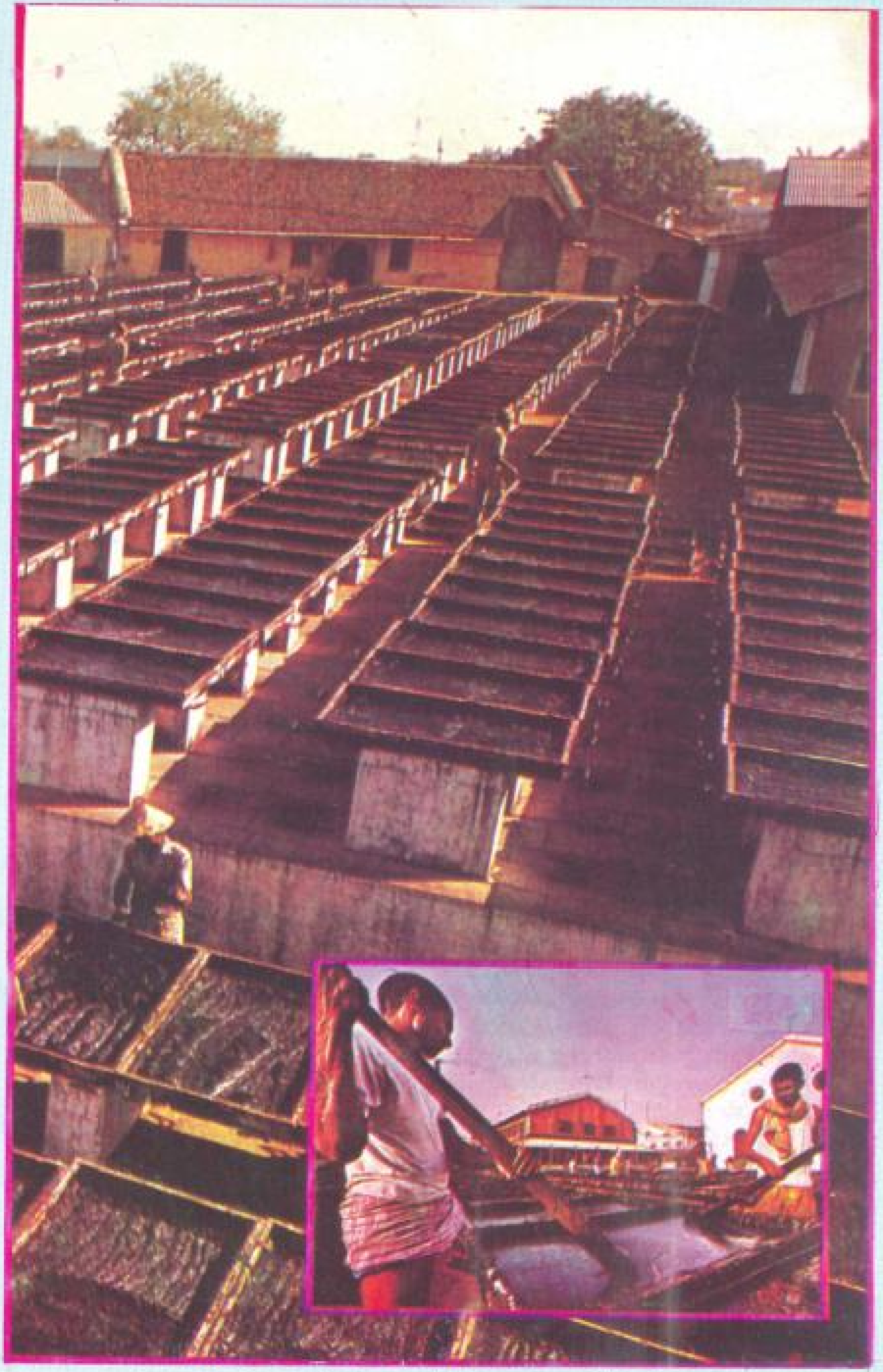
بعد ذلك تم فصل الكودين $C_{18}H_{19}No_3$ ، وتتراوح كميته بين ٣٪ حتى ٢٪ ، والناركوتين $C_{22}H_{23}No_3$ ، وتتراوح نسبته بين ٧٥٪ الى ٩٪ والثيابين $C_{19}H_{21}No_3$ بنسبة ٦٥٪ كما تم اكتشاف مواد ومركبات كيميائية أخرى مثل الخشخاشين واللودانومين والهيروين ، الى جانب عدد آخر من المركبات ذات القدر المحدود جدا والسمية البالغة .

حكومات تصدر الأفيون

ويتم اعداد صمغ الأفيون للتصدير داخل مصانع أنشأتها شركة الهند الشرقية عام ١٨٢٠ ، وآلت ملكيتها وادارتها للحكومة الهندية ، ويقوم على زراعة وجمع المحصول قرابة ١٧٠ ألف أسرة ، تعداد أفرادها حوالى مليون شخص موزعين على ٦٠٠٠ قرية ، ويحصدون من كل ثلاثة آلاف كبسولة قرابة ١٫٦ كيلوجرام ، وفي المصانع توضع العصارة داخل علب خشبية . معرضة للشمس والهواء ، ويقلب الصمغ كل ساعة ، ويبقى على حالته اثني عشر يوما ، بعدها يتحول الى عجينة سوداء لامعة ، تقطع قطعا ، وزن الواحدة خمسة كيلوجرامات ، وتغلف وتعبأ . وتشحن تحت حراسة مشددة الى الدول المستوردة .

المهم أن عمال المصنع يستحمون اجباريا ويوميا بعد انتهاء العمل ، ويفحصون طبيا مرة كل أسبوع ، ولا يسمح لأي منهم بالخروج بحذائه أو أدواته ، منعا للتهريب ، واحكاما للسيطرة .

ومادامت هناك سيطرة ورقابة وهدف طبي من الصيانة ، فلا مانع ولا ضرر أو ضرار . . لكن الأرباح الطائلة من التجارة المحرمة ، ومناعة مناطق الزراعة ، جعلت عصابات دولية تمول الفلاحين والوسطاء والمهربين ، وتمدهم بالأموال والسلاح ، فاذا أضفنا الى ذلك سهولة تحويل الصمغ كيميائيا الى مورفين ثم الى هيروين ، وتقطيره تقطيرا بدائيا ، داخل أوعية حديدية صدئة ، في مواقع داخل الزراعات أو الغابات ، يتوافر عندها مصدر ماء جار ، ومصدر طاقة حرارية ، جعل تجارة الهروين تجارة رائجة رغم كل المشاق والصعاب ، لذلك



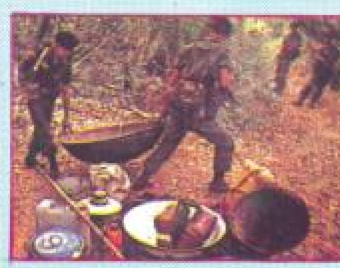
مصنع انتاج خام الأفيون الحكومي بالهند ، وقد أنشأته شركة الهند الشرقية عام ١٨٢٠ ، وكان أحد أسباب حرب الأفيون بين الصين وانجلترا .



نبات الخشخاش والمواد المستخلصة منه .. صمغ الأفيون .. ومركز قش النبات ، ومنها يستخلص المورفين الذي يمكن تحويله كيميائيا الى دواء الكودين ، أو الى مخدر المورفين



الدمار يدخل الى الدم مباشرة



مصانع الهيروين البدائية بعد أن اقتحمها رجال الشرطة

تحولت منطقة المثلث الذهبي التي هي أكبر منطقة تصدير للسم القاتل في العالم، رغم وجود مناطق انتاجية أخرى في كل شرق آسيا تقريبا حتى اليابان، وانتشر ادمان السم القاتل، وأصبح مرضا خطيرا يدفع أفراد المجتمعات دفعا صوب ارتكاب الجرائم،

ويكفي قولا أن ٧٥٪ من جرائم السرقات وحروب الشوارع داخل مدينة نيويورك دافعها الأساسي جيوب خاوية وجسد مدمن، وعقل مدمر لا يفكر ولا يتدبر، سوى الحصول على المال لشراء المخدر، وكل مرة يلقم جهازه الحيوي قدرا فاذا به صوب حاجة أشد

من سابقتها، وكأن خلاياه غول مفترس لا ترتدع أو تشبع، لا تقنع ولا تقاوم، ويزداد المتعاطي استسلاما، ويضع زمام قيادته تحت امرة طاحونة مرعبة، عبر عنها الشاعر الانجليزي توماس دي كوينزي أصدق تعبير، في مؤلفه اعترافات مدمن:

«كنت أشعر بالموسيقا مثل العطر، أحس انني أحيا مئات السنين خلال يومي أو ليلتي. السعادة تملأجوانبي، ثم أصحو من أحلامي فأصاب بالرعب المدمر، بعدها أمضي يوما طوله ألف سنة داخل كفن حجري، تحاصرني تماسيح تنهش لحمي وتدق عظامي»

ولو قدر للعالم النمساوي «فرويد» ـ أشهر مدمن مخدرات بين العلماء ـ قراءة ما كتبه الأديب الانجليزي بتمعن، فربما تردد أو أحجم عما سطره عن المخدرات، شارحا خلال كتاباته المستفيضة خصائصها، والانتشاء والنشوة واللذة والشعور بالحيوية الخارقة، نتيجة استثارة الأجهزة العصبية والجنسية والحسية، ومهد الناس لتلقي سوط المخدرات والسموم البيضاء بعد الخمور والأفيون.

ابتكارات في تعاطي المخدرات

وتعاطي السموم البيضاء لها طرق وأساليب وابتكارات، منها الشم والمضغ والتدخين، وأخطرها ما استحدث عام ١٨٥٣ فور ابتكار الحقنة، اذ استخدمت في ادخالها مباشرة الى الدم ليظهر تأثيرها بعد ثلاث دقائق. وان ركز المدمنون على الشم فلأن



ورقة القنب الهندي

تجويف الأنف يحتوي على شبكة أوعية دموية هائلة، ممتدة داخل منطقة رطبة ساخنة، تساعد على سرعة امتصاصها، والواقع أنها مثل كل الطرق تؤدي الغرض نفسه.. فكلها تفضي الى فقد الاحساس، والانتشاء المؤقت، وهبوط دقات القلب، وانخفاض ضغط الدم، وقد يصل الى حد النوم العميق فيما يشبه الغيبوبة، ومع استمرار التعاطي والانتقال صوب الادمان القاتل يبدأ ضمور خلايا المخ رويدا رويدا، ويصاب الجهاز العصبي كله بالوهن، ويتداعى اداء القلب والجهاز الدوري، وتنشب أمراض الجهاز الهضمي، زد على ذلك أن الشمامين يعانون التهاب الحلوق والعيون، وتتحول أنوفهم الى حنفيات يتدفق منها ماء غزير، كما تثقب عظمة الأنف مع سعال مستمر، كما ثبت من تجارب معملية على الفئران داخل المركز الطبي بجامعة ديوك الأمريكية، تلف خلايا الكبد، وموت الخلايا العصبية، وظهور علامات الارهاق والتعب مما أدى الى وفاتها.

والموت نتيجة حتمية للادمان، ولعلنا نعود بالذاكرة الى حادثة الموت المفاجيء لنجم كرة السلة الأمريكي ليونارد باياس في أوائل يوليو ١٩٨٦، وظل اهله ذاهلين غير مصدقين قرابة أسبوعين، حتى بدد الدكتور جون سريلان الشكوك، وسحب الذهول باعلانه أن سبب الوفاة كان نتيجة شم اللاعب للمخدرات البيضاء، ولم يصدق أحد ما أعلنه وأمطرته وسائل الاعلام بأسئلة لا نهاية لها، فاضطر الى تفسير الأمر.. لقد أغلقت جزيئات المخدر نقاط

الاتصال العصبية داخل خلايا المخ ، وحوصر قلبه ، فلم يستقبل أي اشارة ، ومن ثم فشل وارتبك وتوقف عن العمل ، وانتقل اللاعب الى رحمة مولاه رغم شبابه وعضلاته المفتولة وعوده الغض ، وما عرف عنه من استقامة ، وقد يكون اللاعب القتيل تناول الكوكاكين وهو مادة شبه قلوية ، ذات خصائص مخدرة ، ولها درجة سمية عالية ، وينسحب عليها ما ينسحب على الهيروين والمورفين وما شابه من سموم بيضاء ، حيث لا ينفع معها شباب أو فتوة أو لياقة بدنية .

حدود الموت

وعلى حد قول الدكتور جيفري آنسر ، أستاذ امراض القلب ، في بحث نشره بمجلة الأكاديمية الطبية ، لايستطيع احد في العالم تحديد الجرعة القاتلة ، اذ تتوقف على عوامل تخص جسم المدمن نفسه ، فالجرعة القاتلة لشخص قد لا تكون كذلك بالنسبة لآخر أو لنفس الشخص في تاريخ سابق أو يوم الوفاة ، اذ تختلف خصائص وقدرة الجسم يوما عن يوم وساعة عن ساعة ، فأجسامنا ليست آلة حديدية صماء ، بل عدة أجهزة حيوية وعصبية ، تتشابك معها مؤثرات نفسية واجتماعية وسيكلوجية ، قد يتكامل أداؤها الوظيفي في لحظة ، ولا يتكامل في لحظة أخرى ، ومعنى هذا أن متعاطي السموم البيضاء مثل رجل حشا بندقيته رصاصا وصوبها الى صدره ، وأخذ يلعب بزنادها ظانا أن الرصاص لن ينطلق ، وحتى اذا أفلت المدمن من الموت المفاجىء ، فان ادمانه يجره جرا صوب تعاطي المهدئات والمسكنات والخمور والكحوليات ، مما يضعه تحت رحمة ثلاثة شياطين مردة يلهبون ظهره بالسياط دون رحمة أو هوادة ، والنتيجة خلل اجتماعي واقتصادي تحتمله الآن بعض الدول أو بعض الأفراد ، لكن للاحتمال حدوداً ، ومازاد عن حده انقلب الى ضده .

ولعل الاحصائيات الأمريكية أكثر الاحصائيات الدولية صدقا ووضوحا ، فقد ذكرت أن عدد المدمنين يتراوح بين أربعة وثمانية ملايين فرد ، ينفق الواحد منهم اسبوعيا مئة دولار لشراء جرام واحد .. أي ينفقون حوالى ٢١ بليون دولار سنويا تلقي في بالوعة المخدرات ، كما ذكرت بأن جميع طلبة الجامعات والمعاهد العليا مارسوا لعبة تعاطي السموم البيضاء بشكل أو بآخر ، تحت وهم أنها مواد منشطة ومنبهة ، في حين ربط الذين أدمنوا بينها وبين سعادتهم الأسرية .

وقد أرجع تقرير نشرة فرانك جاوين ، الأستاذ بجامعة ييل الامريكية ، سبب الادمان الى رغبة المدمن تحقيق قدر من السعادة لا يمكنه تحقيقها داخل الاطار العام للمجتمع ، فاذا واكب هذه الرغبة رغبة في العزلة والانطواء على النفس ، ينظر للمجتمع على أنه مجتمع رمادي اللون ، لا يجمله ويلونه ويبهجه سوى تعاطي المخدرات ، مثلما تلون زهور الخشخاش المزارع الخضراء ، وتخفي عن عين الزائر البؤس الشديد الذي يعاني منه المزارعون .

محاولات للعلاج

وتكشف بعض أسرار الادمان بفضل توافر معدات وأجهزة حديثة ، وأساليب جراحية متطورة تجاوزت مرحلة التسجيل الى مرحلة توضيح فسيولوجية الأعضاء ووظائف الخلايا العصبية ، وانطلقت البحوث والدراسات من لمحة ذكية أدركها أطباء المخ والأعصاب ، اذ تيقنوا ان أدوية الاحباط ، مثل الاميرامين لها خصائص قوية في كبح رغبة المدمن تعاطي السموم بنسبة ٩٠٪ خلال أسابيع ثلاثة يبقى المدمن خلالها تحت الاشراف الطبي الكامل ، فإن واكب العلاج الكيميائي استثارة المدمن نحو الشفاء برأ وشفي مما ألم به ، وان ارتد على عقبيه ساءت حالته يوما تلو يوم ، حتى يفارق الارض الى السماء .

والواقع أن تناول أداء الخلايا العصبية موضوع يحتاج تفصيلات كثيرة لا مجال لها ، لكن اذا نظرنا للخلايا على أنها تشبه البطاريات الجافة،اذ رصت خلف بعضها البعض وأغلقت الدائرة اضاءت مصباحا صغيرا أو انطلقت راديو ترانزستور ، وان عزلت عن بعضها فما نطق راديو ولا أديت وظيفة ،

وما دمنا نتحدث عن خلايا عصبية ، فلا محل للاتصال المعدني أو السِّلْكي ، بل يتم اتصال الخلايا داخل منطقة التقاء عصبي تتصل ببعضها عن طريق سائل لزج رقيق للغاية ، وكما في البطاريات الجافة ، هناك باعث للالكترونيات ومستقبل لها ، فان لكل خلية باعثا ومستقبلا ، وكل مستقبل من خلية يواجه باعثا من الأخرى ، فان أرادت خلية عصبية بث اشارة تنبيه ، أو امرا بأداء وظيفة ، أطلقت نبضة كهربية تترجمها الخلية الى شفرة كيميائية ، تطفو فوق سائل الاتصال ، الى حين تصل الخلية التالية ،

وتتكرر العملية حتى تصل الاشارة العضو المطلوب أو الخلية المقصودة ، معنى ذلك انه يمكن فصل الاتصال ، اما باستعادة مادة الشفرة الكيميائية من فوق سطح السائل ، أو جعلها تتفاعل مع مادة أخرى تغير خصائصها تماما ، وتجعل وصولها الى الخلية المستقبلة عديم الجدوى .

ونلقي نظرة على أسباب الاحباط ، لنجد انه ينجم عن تحرك انزيمات خاصة داخل الخلايا عبر السائل الاتصالي ، وفور تناول المريض الأدوية ، يمنع الانزيمات من استكمال مسيرتها ، فيشعر المريض بأنه منتعش ومسرور .

هذا تماما ما تقوم به مواد الهيروين والكوكايين ، اذ تحيط جزيئاتها بالانزيمات ، فتنطلق مادة الدوبامين والنورالدين ، وتبقى طافية فوق سطح سائل الاتصال مدة أطول .

لكن مع استمرار تعاطي المخدرات البيضاء تستهلك وتستنزف الباعثات العصبية ، ويسحب الخمول ظلاله فوق خلايا المخ كلها مما يسبب انهيارا عصبيا أشد ، ويشعر المدمنون باحباط أشد وطأة مع تزايد القلق والتوتر والخمول والجوع الشديد ، لذلك يحتاجون كميات مخدرات ذات جرعات أكبر فأكبر .

ولأن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولحكمة لا يعلمها سواه ، وجد الأطباء أن أدوية الاحباط لا تسبب ادمانا أو استنزافا عكس السموم البيضاء ، لهذا بدأت الدراسات الجادة نحو وضع منهج علمي محض لعلاج المدمنين بأدوية علاج الاحباط أو الشلل الرعاش ، أو أدوية الشلل العصبي ، وما زالت كلها اجتهادات وخطوات على الطريق ، سوف تتبعها آلاف الخطوات .

والعلم يسعى ويكثف العلماء جهودهم . والحقيقة انه مهما حاول العلماء ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فلا علاج حاسم وناجع لمشكلة القتلة البيض دون ايمان مطلق بالله سبحانه وتعالى ، واتباع أوامره والبعد عما نهى . . وصدق رب العزة القائل « لايغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ☐

محجات الجاهلية

● تشير النصوص السريانية واليونانية واللاتينية القديمة إلى وجود الحج عند العرب قبل الاسلام ، غير أنها لم تشر إلى ، وجود بيت واحد كان يحج إليه العرب جميعا . يقول الهمداني : إن العرب كانت لهم محجات متعددة ، منها بيت اللات ، وكعبة نجران ، وكعبة شداد الايادي وكعبة غطفان ، كما يذكر ابن الكلبي بيوتا أخرى ، كبيت ثقيف . ويشير الزبيدي الى بيت ذي الخلصة الذي كان يدعى الكعبة اليمانية . ويذكر الدكتور جواد على بيوتا أخرى ، مثل كعبة ذي غابة ، وكعبة ذي الشرى ، ويقول إن الحج إليها في يوم ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) من كل عام .



أدب الرحلات في حياتنا الثقافية

دكتور سيد حامد النساج

شغلت الدراسات الأكاديمية والنقدية العربية ، بدراسة فنون الأدب ، من قصة قصيرة ورواية طويلة ومسرح وشعر ، لكنها لم تلتفت ـ طويلا ـ الى لون أدبي نثرى ، شهد عددا من التآليف فيه . وأقدم على الكتابة فيه عدد لا بأس به من الكتاب الأعلام . . . ذلك هو أدب الرحلات،فما هو موقعه من حياتنا الثقافية ؟ .

يستطيع الباحث المدقق أن يظفر بمئات الكتب في « أدب الرحلات » . أي ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعا ، أو بمعنى آخر : الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري متميز ، وفي لغة خاصة ، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة .

اذا كان المستشرقون الروس يرجعون هذا اللون من الكتابة الى القرن العاشر الميلادي ، فان المكتبة العربية تؤكد أنه ظل ممتدا ومستمرا حتى عصرنا الحديث ، بل انه ازدهر وشهد تطورا في الموضوع ، والرؤية ، والهدف منه ، واللغة التي يكتب بها ، إذ من الملاحظ أن عددا كبيرا من الكتاب المعاصرين ، يحرصون بين لحظة واخرى ، على ان يدونوا رحلاتهم ومشاهداتهم ونقلاتهم هنا وهناك وهنالك ، وذلك في كتب مستقلة لها طابعها الخاص .

القديم والحديث

يساعدهم في ذلك أن وسائل الاتصال الحديثة ، والعلم والتقنية ، قد يسرّا الانتقال الى أقصى الأرض ، بل بعيدا عن الأرض ، حيث يوجد القمر ، وهم يستعينون في كتاباتهم لرحلاتهم بالصور ، والمعلومات ، والوثائق ، والتشويق ،

والترغيب، والمقارنة، والخبرة، والثقافة، والرؤية، وهي بالتأكيد كتابات تختلف كثيرا عن تلك الكتابات التي خلفها الأعلام الرواد، مثل ابن خرداذبة، واليعقوبي، والبلخي، وابن حوقل، وياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وأبي دلف مهلهل الشاعر في «عجائب البلدان»، والمسعودي في «مروج الذهب»، وأبي الريحان محمد البيروني في «تاريخ الهند»، وأبي عبيد البكري الاندلسي في «المسالك والممالك».

ان الذي يقرأ كتابات الدكتور حسين فوزي التي تدور حول الرحلة، مثل «سندباد مصري» و «سندباد في رحلة الحياة» و «سندباد في سيارة» و «سندباد عصري» و «سندباد الى الغرب» و «سندباد عصري يعود الى الهند» و «حديث السندباد القديم». أو يقرأ كتب محمود تيمور «أبو الهول يطير»، و «شمس وليل»، و «جزيرة الحبيب» و «الأيام المائة». وكتابات أنيس منصور المتنوعة في هذا الجانب: «حول العالم في ٢٠٠ يوم» و «اليمن.. ذلك المجهول» و «بلاد الله خلق الله» و «أطيب تحياتي من موسكو» و «أعجب الرحلات في التاريخ» و «غريب في بلاد غريبة» و «انت في اليابان» وكذلك كتابات أحمد حسين «من وحي الجنوب» وأحمد محمد حسنين «في صحراء ليبيا». وطاهر أبو فاشا «وراء تمثال الحرية» وأمين الريحاني «المغرب الأقصى» ومصطفى محمود «مغامرة في الصحراء» و «الغابة» وعبد الفتاح رزق «مسافر على الموج» و «رحلة الى شمس المغرب». وخيري شلبي «فلاح مصري في بلاد الفرنجة». وصبري موسى «في الصحراء» ومحمد كامل حتة «في ظلال الحرمين». ومفيد فوزي «جواز سفر انسان».

أقول ان الذي يقرأ هذه الكتابات، وغيرها كثير مما لا سبيل الى حصره، سوف يلاحظ تطور هذا اللون من الكتابة النثرية الأدبية.

دراسات نقدية

وهذا هو الذي يدعو الى ضرورة أن تتجه الدراسات النقدية الى هذا الأدب، لدراسته، وتحليله، وبيان فائدته، ودوره، وأهميته إن كانت له اهمية، من حيث هو عمل أدبي وفني، وليس من أية زاوية أخرى، والى أي حد أفاد من فنون الأدب النثرية كالقصة والرواية، والشعر أيضا، اذ ليس يكفي أن نقف عند الحديث عن أدب الرحلة عند ابن بطوطة، وابن خلدون، وابن جبير، ورفاعة رافع الطهطاوي في العصر الحديث.

ولا يعني هذا أنه لا توجد دراسات حول أدب الرحلة، هناك كتاب (أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي) لأحمد أبو سعد. و (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) لكراتشقوفسكي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، و(الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) لزكي محمد حسن، و (الرحلات) للدكتور شوقي ضيف، و (أدب الرحلة عند العرب) للدكتور حسني محمود حسين،

الذي درس هذا اللون من الأدب منذ الفتح الاسلامي حتى العصر الحديث، وبالتحديد وقف عند القرن التاسع عشر، من خلال عرضه لرحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة، وكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ورحلة رفاعة رافع الطهطاوي الى باريس، ورحلة أحمد فارس الشدياق الى مالطة وبريطانيا وفرنسا.

وفي هذا الكتاب اقترب الدكتور حسني محمود حسين من عالم كل رحالة، وحاول اعطاء صورة عامة عن الظروف التي أحاطت بالرحلة، وبكاتبها، وبالكتاب نفسه، ثم انه عرض الرحلة عرضا وافيا، أفاد فيه بنصوص من كتب الرحلة ذاتها، وكان له اهتمام ملحوظ باللغة التي كتبت بها الرحلة، كما حرص على أن يبين الى أي حد تختلف رحلة ابن جبير عن رحلة ابن بطوطة مثلا، وكذا الرحلات التي قام بها أصحابها في القرن التاسع عشر، بمعنى أنه فاضل بين رحلة وأخرى من حيث الرواية، والاسلوب، والاقتراب من السيرة الذاتية.

وهو من هذه الجوانب، اختلف كثيرا عن غيره ممن كتبوا عن أدب الرحلة عند العرب، أولئك الذين اعتبروا الرحلة عملا جغرافيا وليس ابداعا أدبيا، درسوا الرحلات من حيث هي تسجيل لجولات قام بها اصحابها، ودونوا فيها ملاحظاتهم ومشاهداتهم،

وحاولوا أن يتلمسوا الدوافع الى الرحلة وأسبابها ، ونتائجها ، كما حاولوا تفسير بعض ملاحظات الكتاب ، وشرح كلماتهم التي تستعصي على الفهم .

اتجاهات مختلفة

وفي تصوري أن دراسة أدب الرحلة تستلزم البحث في كل رحلة على حدة من حيث هي بناء فني ، وابداع أدبي ، له أسسه الخاصة ، وملامحه الذاتية ، التي تميزه من غيره من فنون الأدب الأخرى ، التي قد تشترك معه في بعض الخصائص والسمات ، هذا هو المنطلق الذي ينبغي أن تنطلق منه أية دراسة موضوعية لهذا اللون من الأدب ، فنحن عندما نتعامل مع هذا الأدب باعتباره « شكلا » فنيا خاصا ، خير ألف مرة من التعامل معه باعتباره تسجيلا جغرافيا ، مما يخرجه من دائرة الأدب .

وهذا يتيح لنا فرصة استكناه كل عمل ، وجلاء ما يتميز به ، وما أضافه ، كما يسمح بالمقارنة بين الأعمال المختلفة ، بل انه يكشف عن الاتجاهات المتباينة لأدب الرحلات ، وفقا لما تتضمنه كل رحلة ، فهناك رحلات ذات اتجاه ديني ، وأخرى ذات اتجاه جغرافي ليس غير ، وثالثة ذات اتجاه حضاري ، ورابعة كتبت بقصد تدوين الرحلة في حد ذاتها ، وهكذا ، وهو ما يستدعي تصنيفا موضوعيا للرحلات ، ودراسة فنية لها في ضوء هذا التصنيف ، وهنا سوف يدع الباحث جانبا ما أشيع من أن معظم ما كتبه العرب في هذا الجانب أدب جغرافي ، كما قال بذلك الباحثون الروس ، وغيرهم من الباحثين العرب ، وهذا المصطلح تلزم دراسته ، وتحديد مفهومه ودلالته ، والانتهاء من تحديد موقف علمي منه ، من قبل كل من يتعرض للكتابة عن أدب الرحلة .

وعندما ينتهي الدارس أو الباحث من تحديد موقفه من المصطلح ، يبدأ في تحديد رؤية الكاتب الرحالة ، ثم ما كان يستوقفه ويلفت نظره ، ويقف عنده طويلا ، هل كانت تشغله المعالم الحضارية كالآثار ، والمعابد ، والمتاحف ، والمساجد ، والكنائس ، والأماكن التاريخية ، فيصفها وصفا مطولا ، ويستطرد في ذكر كل ما يتصل بها ، من تواريخ ، وأعلام ، ووقائع ، أم كان همه الأوحد هو وصف الأماكن من حيث موقعها الجغرافي ، وما تتسم به ، وفيم تتشابه وفيم تختلف ، وتأثير العوامل الطبيعية فيها ؟

وهناك من كان يستهدف الاتصال بالسلطان أو الحاكم . فيشغل به عمن عداه ، وهناك من كان يحرص على لقاء العلماء ، ورجال الدين ، ومجالس العلم ، في البلدان التي يمر بها في رحلته ، وكان هذا يستغرق كل وقته ، فيعطيه مساحة كبرى داخل نص الرحلة ، ومسألة موقف الكاتب - الرحالة من الطبقات الاجتماعية ، ومن الناس العاديين الذين كان يصادفهم ، نظرته اليهم ، دراسته لأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية ، اقترابه من فهم أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ومعرفة وسائل معيشتهم ، وطرق حياتهم اليومية ، والعلاقات الاجتماعية بين الطبقات وما شابه ذلك ، هذه مسائل تلزم دراستها عند التصدي لموضوع الرحلة في الأدب العربي .

وقد يتبع هذا بيان عنصر الصدق في الرحلة ، وجلاء الحقيقة ، أين تكون ؟ . أحداثا ووقائع وأماكن وأناسا . وما هو دور الخيال ، اذ ربما تكون الحقيقة جانبا هامشيا ، وتترك الخيال كي يلعب أهم الأدوار .

بداية ونهاية

ويلعب مدون الرحلة أو راويها دورا هو الآخر ، فصاحب الرحلة - في بعض الأحيان - لم يكن يقوم بكتابتها بنفسه ، اذ كان يمليها أحيانا ، أو يرويها لمن يقوم باملائها أحيانا ، وفي الحالين هناك كاتب للرحلة ليس هو صاحبها بطبيعة الحال ، ومعروف أن السلطان أبا عنان سلطان فاس وفر لابن بطوطة محررا أدبيا من كتاب ديوانه هو « ابن جزي » ليقوم بتدوين رحلة ابن بطوطة .

وهذا يقتضي تحليلا معمقا لبيان دور كاتب الرحلة أو مدونها ، واستخلاص خصائص أسلوبه ان كانت له بصمات واضحة ، وذلك لتحديد سمات وملامح أسلوب صاحب الرحلة الأصلي ، ولن يتأتى ذلك الا بدراسة نقدية لكتابات كل منهما ، في ميادين أخرى .

أما من حيث البناء الفني للرحلة ، أو معمارها الأدبي ، فان أحدا من الدارسين السابقين لم يلتفت اليه ، فلكل رحلة « بداية » و « نهاية » كيف جاءت « البداية » ، وكيف وفق الكاتب الى « النهاية » . وهل هي نهاية فنية ، أم أنها نهاية تقليدية ، حكمها عنصر الزمن ، والفترة المحددة للرحلة ، هل هي نهاية طبيعية ، أم مفتعلة ، وعنصر التشويق في كل من « البداية » و « النهاية » ، وسيلة الدخول الى موضوع الرحلة وطريقة الانتهاء منها ، لغة « البداية » ولغة « النهاية » .

ولا شك أن كل رحلة حفلت بعدد وافر من الشخصيات ، من مستويات اجتماعية وفكرية وثقافية مختلفة ، كيف تعامل كاتب الرحلة مع هذه الشخصيات ، وأي نوع من البشر حرص على تقديمه في رحلته ، وكيفية معالجته هذا الجانب ، وصفه للشخصية ، تحريكه لها ، دور الخيال في هذه المعالجة ، هل كل الشخصيات في الرحلة مستمدة من الواقع الذي رآه ، وعاشه ، واحتك به ، وتعامل معه ، أم أنه اكتفى ببعض من صادفهم ، ثم صور من وصفوا له ، أو سمع بهم ، من قبل آخرين ، بمعنى أن الشخصيات عنده نبعت من مستويين مختلفين ، المستوى الأول واقعي ناجم عن رؤية ومعايشة ، والمستوى الثاني مستمد من معايشة الآخرين ، ومن السماع ليس غير ، والى أي حد انعكس ذلك في تقديم الشخصيات ، كذلك الحال بالنسبة لوصف الأماكن ، وتدوين الوقائع والأحداث .

دور الشعر

وللشعر في معظم الرحلات التي بين أيدينا وجود ملحوظ ، وبخاصة تلك التي كتبت في العصور المتقدمة ، أما الرحلات التي كتبت في القرن العشرين فان الشعر لا يلعب فيها دورا على الاطلاق .

وهي ظاهرة تلفت نظر الدارس ، مما يدفع الى الوقوف عند « الوجود الشعري » في الرحلة ، بقصد دراسته ، ومعرفة مصدره ، والى أي حد جاء « الشعر » منسجما مع بقية العناصر الفنية في الرحلة ، بحيث يأتي البناء الفني الكلي للرحلة مستقيما ومتماسكا .

وثمة تساؤل ينبغي على الدارس الاجابة عنه : هل « الشعر » الموجود من تأليف كاتب الرحلة وصاحبها الأصلي ، أم أنه من تأليف غيره ؟ ولماذا استشهد به ؟ وكيف كان الاستشهاد ؟ وهل كان موفقا فيه أم لا ؟

الى غير ذلك مما يثيره « الشعر » كعنصر موجود في البناء العام للرحلة ، استشرافا للحكم على « الوحدة العضوية » للرحلة ، عملا أدبيا فنيا .

ولا يفوت دارس هذه الكتابات الأدبية التي تدور حول « الرحلة » جانب « المقارنة » : مقارنة أساليب الكتاب ، واتجاهاتهم ، ووسائلهم الفنية ، وأدواتهم التي استعانوا بها ، وصولا الى تبين الملامح الفنية الأساسية لهذا اللون من الكتابة الأدبية ، وبحثا عن مواضع التأثر والتأثير المتبادل ، وبيانا للمراحل الفنية التي مر بها هذا الشكل الأدبي ، وكشفا للملامح الجديدة ، ومعرفة الاضافات التي أضافها الكتاب المحدثون .

ان هذا اللون من الأدب العربي أصبح يشكل جانبا مهما في مكتبتنا العربية ، منذ تلك الرحلة التي قام بها « أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير » الكناني الأندلسي ، ليحج بيت الله الحرام ، في الثامن من شوال سنة خمسمائة وثمان وسبعين للهجرة ـ ثلاث وثمانين ومائة بعد الألف ميلادية ـ وهي الرحلة التي استغرقت سنتين وثلاثة أشهر ونصفا .

لقد فتحت هذه الرحلة الباب لكثير ممن جاءوا بعده من الرحالة والجوابين ، كي يقدموا على كتابة رحلاتهم بشكل أدبي ، وقد كانت الحصيلة مكتبة كاملة ، تراثية ومعاصرة ، لأن الأدباء المعاصرين في كل الدول العربية أسهموا ـ بشكل أو بآخر ـ لتدعيم هذه المكتبة ، وللاضافة الى هذا اللون من الأدب .

ومن ثم كانت دعوتنا لدراسة هذا الشكل الأدبي المتميز ، في ضوء تلك الملاحظات التي أبديناها وحددناها . □

دورة الحياة والموت النباتية

هل تؤدي إلى فك أسرار الشيخوخة الانسانية ؟

بقلم / بدور عبد الكريم

اذا كان الانسان قد بدأ يفتح ـ بفضل تطوير تقنيات استكشاف الفضاء ـ مغاليق الكون الخارجي والكواكب السيارة ، واذا كان بفضل كرة الغوص التي ابتكرها البروفيسور « كوستو » قد بدأ يفتح مغاليق أعماق البحار وقيعانها ، فان هناك عالما أقرب منالا ، لم يكشف الانسان بعد عن مغاليقه ، ولم يسجل على صعيده أي فتوحات علمية ، إنه العالم الذي يرقد تحت أقدامنا ، أي عالم التربة المباشرة ، هذا مع ان اتجاهات العلم الحديث تفترض أن مفتاح لغز دورة الحياة والموت الانسانية يكمن في دورة الحياة والموت النباتية في التربة ، وهكذا في خط مواز لذلك ، تتجه الابحاث الهادفة الى فهم ظاهرة الشيخوخة ، ومحاولة الحد من تأثيرها في الجسم الانساني الى دراسة ظاهرة الذبول والجفاف الموسمي ، لأوراق من الشجر وسقوطها على الأرض .

ذلك انه اذا نثرت ريح الخريف أوراق الشجر الجافة على الأرض ، لتتحلل وتتحول الى هباء منثور ، فان كل ورقة تقع على الأرض وتتلاشى هي في نظر علم البيولوجيا ، تمثل الدورة الكاملة للحياة ، كما أنها تمثل عملية التغذية المستمرة للحياة بمقومات الصمود والاستمرار .

المعروف أن أوراق النباتات التي تنتج الشطر الأعظم من الكائنات الدقيقة ـ المستعصية على الرؤية الا عبر المجهر الالكتروني ثلاثي الابعاد ـ انما تؤمّن في الوقت ذاته المواد اللازمة والجوهرية من أجل النمو النباتي بالذات .

ومع أن الحياة في التربة المباشرة لم تزل مجهولة

نسبيا ،ويحيط بها الكثير من الغموض مما يتحدى الذكاء الانساني والقدرات العلمية ، فانها على مايبدو لم تستقطب بعد الاهتمام العلمي اللائق بها ، الا مؤخرا وبشكل نسبي ، بعد أن أصبحت ظاهرة الامطار التي يتخللها حامض الكبريت وحامض الكربون مصدرا كبيرا للقلق ، كجائحة وباء بيئي يفتك بالقدرة الانباتية في التربة ، ويميت كل حياة فيها ، ويطرح على العلماء سؤالا لم يزل دون جواب قاطع :

كيف تحدث عملية تشبع ابخرة السحب بحامض الكبريت ، وكيف يمكن تجنب أخطار الأمطار المشبعة بها ؟

ردا على هذا السؤال يتفحص العلم بشكل متعمق ظاهرة تحلل وتعفن أوراق الشجر الجافة ، وبشكل يبشر بقرب افتتاح آفاق وكشوفات جديدة ومثيرة على صعيد علم « الأحياء الجزيئية » أى المخلوقات المتناهية الدقة ،وعلى هذا الصعيد فان (النيماتودات) أى الديدان المجهرية الأحادية الخلية التي يعج بها باطن التربة ، هي في طريقها الى أن تصبح سلالة جديدة من فئران المختبرات ، بل سلالة ثمينة فعلا .

ولما كانت دورة حياة هذه الديدان قصيرة جدا ، لاتتجاوز أياما معدودات ، فان علماء البيولوجيا يركزون على استخدامها في سلسلة لا متناهية من التجارب الهادفة لفك مغاليق لغز من أكثر الألغاز تحديا لعلم الكائنات الحية ألا وهو : سر التباين في تركيب الخلايا . . اى الطريقة التي يستطيع فيها كائن دقيق متعدد الخلايا أن يختلف عن غيره في السمات والخصائص ، انطلاقا من بويضة أثناء عملية تكون يرقته ونموها .

ولكن على هامش ذلك فان ظاهرة تساقط أوراق الشجر لاتزال تؤلف الأفق الذي يستقطب علماء البيولوجيا الراغبين في احراز فتح علمي يؤمّن لهم قهر الشيخوخة في الكائنات النباتية ، ثم الحيوانية والانسانية ، ذلك أن هذه الظاهرة ليست الا نموذجا لشيخوخة سنوية متكررة ، أو لمرحلة من الهدم تؤدي الى موت الأوراق .

ولكن لم هذا الموت الجماعي الذي يحدث بشكل نظامي منضبط العمليات تقريبا ؟

لقد حاول البروفسور السويدي لينارت نيلسون



● قراءة مجهرية من نوع آخر . وهو نوع يعشش في التربة وفي الغبار في زوايا البيوت ، وبين ثنايا أسرة النوم ،وفي هذه الصورة تراها تدب على بقايا ورقة شجرة التهمتها البكتريا . ذلك أن مهمتها ان تلتهم مخلفات البكتيريا وما يتناثر من رقائق الجلد من جسم الانسان خلال عملية التجديد الدائم التدريجي للبشرة الانسانية .

ان دور القراويات كبير في دورة الحياة والموت الانسانية ، ولكن لها دور سلبي في الحياة الانسانية ، اذ تؤلف عاملا رئيسيا من عوامل الاصابات بالربو .

بأساليبه الخارقة في التصوير عبر المجهر الألكتروني ، أن يضع تحت ايدي العلماء وبخاصة زميله نيلزنيلفست مجموعة رائعة من الصور المكبرة الملتقطة عبر عدسة المجهر الألكتروني الذي يمكنه من خلالها تكبير الأحياء المتناهية الدقة حتى ١٦٠٠ مرة ، بل حتى ٢٥٠٠ ، وأحيانا حتى ٥٣٠٠ مرة .

وتلعب هذه الصور دورها المهم في توضيح بعض غوامض التحولات الخفية التي تحدث باستمرار في باطن التربة ، وتحت أقدامنا مباشرة ، دون أن نشعر بها بالطبع .

ولعله يجب التذكير أن نيلسون قد حقق فتحا رائعا

عندما استنبط وسائل فنية معقدة ومتقدمة ، مكنته من تصوير الجسم الانساني من الداخل ، وبشكل دفع الى الامام أساليب معالجة أمراض القلب وتصلب الشرايين ، واستكشاف الخلل في وظائف الأجهزة الحيوية ، مثل الكلية والكبد والمرارة الخ .

وتكريما له اختارته جامعة اوبسالا السويدية استاذا فخريا .

هذا ويضطلع ، والبروفيسور ريتشارد هاردويك ـ أحد الباحثين في مشتل الأبحاث النباتية في ويلزبورن (بريطانيا) ـ بنظرية جديدة ، يرد فيها سبب تساقط الاشجار في شكل موت جماعي ، الى أن الشجرة تنتج في مواسم معينة هرمونات الهرم والشيخوخة كدعوة الأوراق التي اكتملت حياتها من أجل أن تغادر الدنيا بموجب قانون الانتخاب والانتقاء الطبيعي القائم على أساس مبدأ الحياة للأقوى .

وبالطبع فان ذلك يعود بأذهان الباحثين الى سر مغلق لم تزل الأجوبة عليه في حكم النظريات الاختيارية غير القاطعة ، إنه اللغز الماثل في هذا السؤال ، « ما هو أصل الشيخوخة ؟ » .

المتعارف عليه بشكل تقليدي أن الشيخوخة هي ببساطة : نتاج مرور الزمن والتقدم في السن ، وكذلك حاصل تراكم أخطاء ترتكبها الكائنات الحية ذات الخلايا المتعددة ، ونتيجة للشيخوخة تتوارى هذه الكائنات من الحياة ، لكي تترك المجال لأنسالها ذات المعالم الوراثية المتماثلة مع معالمها .

ان هذا التفسير يبدو منطقيا على صعيد دراسة دورة الحياة النباتية ، ذلك لأن موت الأوراق لا يؤدي لموت النبتة بالذات ، فالأوراق الذاوية المتساقطة على الأرض تسهم وتشارك ضمن التربة في دورة الحياة الكونية ، وتقدم بالتالي للكائنات النباتية الغذاء على شكل آزوت وأحيانا على شكل منغنيز .

في هذا السياق يقول البروفيسور هاردويك ان الأوراق الميتة تستطيع على صعيد تغذية بعض الأنواع والفئات النباتية أن تلعب دورا في تنافس هذه الانواع والفئات مع أنواع وفئات نباتية مجاورة ، ومن ناحية أخرى فان تلاعب الريح بها بما يؤدي الى انتشارها هنا وهناك ، يمكّن من تجنب التركيز المخطر للمواد الثقيلة السامة في النباتات .

وهكذا . . فان الأشجار أو الكيانات النباتية لم تعد في نظر العلم مجرد كيانات آلية بسيطة توجهها بيئتها ، انما هي بالأحرى أجهزة وتكوينات متوائمة ومعقدة ، تخضع لقانون التطور (النشوء والارتقاء) وبالتالي فان لشيخوختها سببا حياتيا .

وكما هو الحال في شيخوخة المخلوقات البشرية ، والكائنات الحيوانية ، يجابه علم الأحياء تحديا جديدا له وللطب ، الا وهو التحدي الكامن في ايجاد تفسير قاطع لظاهرة الشيخوخة الموسمية التي تجر الى موت أوراق الشجر .

عند هذا الحد تستقطب التربة اهتمامنا بقدرتها الانباتية ، وبما يذكرنا بقول حكيم المعرة .

خفف الوطء ما أظن أديم الا
رض الا من هذه الأجساد

لقد أجرى البروفسور السويدي نيلز تيلفيست ـ الاخصائي العالمي الشهرة في دراسة التربة الذي يقوم بأبحاث رائدة ـ الاحصاء الطريف التالي :

مئات المليارات من البكتريا . . ملايين الفطريات النباتية والجرثومية ، أكثر من ٢٠٠ الف من الديدان العنكبية،أكثر من مئة ألف من فئات الحشرات الفروية بالاضافة الى ما يتراوح بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ من ديدان التربة العادية ، والآف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية الدقة والفراديات من كل الفئات المعروفة ، بما فيها الكائنات الدقيقة التي تنتسب الى فئة الخلد . . »

الأرقام السابق ذكرها انما هي احصاء تقريبي لعالم الأحياء الذي ينطوي عليه المتر المربع الواحد من التربة التي ندوسها !

إنه عالم يؤلف مصنعا للحركة الدائمة ، ويقوم بمهمات قد تكون أكثر مهمات الكائنات الحية غموضا واستغلاقا ، ولكنها بالتأكيد من أكثر المهمات فائدة للحياة الانسانية والكونية .

لكي نفهم هذا الوضع الذي يمكن أن يثير ذهولنا ، يجب أن نعي باستمرار حقيقة أن كل ماناكل يأتي بشكل مباشر أو غير مباشر من النباتات الخضراء ، فهي التي تستخدم (عبر عملية التحليل والتمثيل الضوئي) الطاقة الشمسية وغاز الفحم والماء ، لكي تقوم بانتاج وتكوين الغذاء الكوني العام ، أي المواد العضوية التي تستهلكها الكائنات الحيوانية والنباتية التي نأكلها ، ولكننا مع ذلك لا

تستخدم الا شطرا يسيرا جدا من المواد العضوية التي تنتجها الكائنات النباتية ، اذ ان الشطر الأعظم ينتهي الى حالة التحلل الحتمي .

ولكن ذلك لايؤلف هدرا كبيرا في الواقع ، نظرا لأن تحلل المواد العضوية على يد الجماهير الشرهة من الكائنات المجهرية الكامنة في التربة يؤمن انتاج المواد التي تستخدمها النباتات في نموها عبر دورة الحياة .

وكما يقول البروفسور نيلز نيلفست فان سقوط أوراق الشجر على الأرض في الخريف لا يؤلف خاتمة نهائية لكيان الورقة الذاوية ، انما يؤلف في الوقت ذاته بداية لمرحلة جديدة من مراحل استمرار الحياة وتطورها ، فلا تكاد عملية الدمار تقضي على أغشية الخلايا في الورقة الذاوية المتساقطة ، حتى تدب مليارات الكائنات المجهرية في جثمان الورقة الذابلة ، لكي تهيء أسباب تسهيل مهمة فئات أخرى من « المستهلكين الكبار والصغار » تلك التي يستهويها الغذاء الأكثر عفنا وفسادا .

هذه الفئات تؤلف جماهير (دافني الأموات) وينطوي تحت لوائها مختلف أنواع البكتريا والفطريات المجهرية .

انها فعلا جحافل غفيرة .. ذلك أن غراما واحدا فقط من تراب التربة ، وبخاصة اذا كان مسمدا ، يحتوي على عدة مليارات من وحدات البكتريا ، ومنها بكتريات تشبه ـ عبر عدسة المجهر ـ العصيات ، وبعضها يشبه الكريات ، وبعضها الآخر يشبه اللوالب ، وبعضها يحتاج الى أوكسجين ، وبعضها لايحتاج اليه ، وبعضها عار ، وبعضها الآخر مكسو بأهداب اهتزازية تمكنها من التنقل .

هذه البكتيريات هي كذلك جزء أساسي من دورة الحياة ، ذلك أن كائنات أكبر منها تنتسب الى فئة « احاديات الخلايا » ـ وهي أيضا فئات لاترى الا بالمجاهر الالكترونية ـ تقوم بالتهامها ، لتتحول هي الأخرى بدورها الى مادة غذائية لبكتريا أخرى .

وفي الوقت ذاته تؤمن عملية التنفس للتربة ، ولما فيها من نباتات ، مئات من الديدان العادية والحشرات التي تعيش في التربة الباطنة التي تقدم المأوى حتى لبعض الحيوانات اللبونة (الخلد مثلا) ، وهي في الغالب تتغذي ببعضها بعضا ، وتفتح في بحثها عن فرائسها الانفاق الباطنية التي يتسلل اليها الهواء بما يؤمّن التنفس للنباتات ، وفي الوقت ذاته فإن هذه الحشرات والكائنات تفصل بين المواد المهترئة في باطن التربة ، وتهيء المجال في المتر المربع لمئات المليارات من جماهير القوى العاملة من البكتريا التي تحتوي افرازاتها على كائنات أدق منها حجما ، أي أحاديات الخلية التي تدعم عملية التعفن والتحلل التام

ان أنواع أحاديات الخلية التي ليس بينها وبين الديدان شبه كبير ، يمكن أن تعد بالملايين ، وبعضها يأكل البكتيريا وبعضها يعيش طفيليا على النباتات والخضار ، على أن أكثر أحاديات الخلايا تواجدا هي فئة الاحاديات العنكبية ، ذلك أن المتر المربع من التراب الخصب يمكن أن يضم ٢٠٠ ألف واحدة منها ، ولكن الغالب أن المتر المربع من الأراضي المستثمرة استثمارا زراعيا التي يكثر فيها استخدام السموم والمبيدات ، لا يضم أكثر من ١٠ آلاف واحدة منها ، وتقل هذه النسبة كثيرا في التربة ذات الطين الصلصالي .

أما ديدان الأرض فهي تشارك بقسط كبير في انتاج السماد الطبيعي ، حيث تلتهم التراب وما فيه من بقايا نباتية ، كما تستهلك البقايا التي أمنت تحللها الكائنات المجهرية ، ومن ثم تفرز هذه المواد بعد هضمها على شكل سماد ، وترمي ما يستعصى هضمه على شكل صلصال لزج ومتين يشبه الاسمنت .

هذا ويضرب لنا تشارلز داروين ـ الذي قد لايعرف الكثيرون انه وضع مؤلفا مستفيضا عن ديدان التربة ـ مثالا حيا على دور هذه الديدان في تمهيد التربة وتغيير معالمها ، عندما تابع بالملاحظة مدة خمسة عشر عاما مساحة من الأرض الصلصالية الصفراوية التربة ، ليجد أن سطح هذه المساحة من الأرض قد خسف ٧ سم نتيجة نشاط الديدان في باطن التربة .

ان كل ما تقدم يرسم صورة مثيرة ، تبشر بفتوحات علمية رائعة على عتبة القرن الحادي والعشرين ، اذ أن هناك اجماعا في الاعتقاد بأن الأبحاث التي تجرى على دورة الحياة والموت النباتية ستفتح الكثير من مغاليق أسرار دورة الحياة الانسانية . □

اقرأ في العدد القادم من العربي

أول فبراير ١٩٨٧

عدد خاص

مؤتمر القمة الإسلامي

عيد الكويت الوطني

- الصندوق الكويتي للتنمية "ربع قرن من العطاء والنماء"
- هكذا كانت الحياة ..

المسلمون إلى أين؟
د. أحمد كمال أبو المجد

عروبة أم إسلام؟
د. محيي الدين عميمور

الإسلام والأرض
د. أحمد علبي

استطلاعات ملونة :

القدس المكان والانسان
سليمان الشيخ

أوغندا لؤلؤة أفريقيا
محمود عبد الوهاب

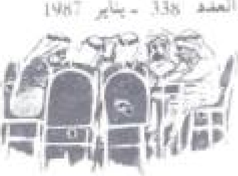
العرب في أمريكا الحلم والوهم المغترب
صلاح حزين

واقرأ

- الإرهاب .. من زاوية عربية — د. فؤاد زكريا
- رحلة إلى حافة الكون — م. سمير شعبان
- تولستوي والعرب — د. جابر الحي جابر
- وجهاً لوجه .. عبد الحميد بن هدوقة و أبو العاطي أبو النجا
- كتاب الشهر / السياسة الدولية والشرق الأوسط — د. أديب نصور

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - محمد إبراهيم أبو سنه - مصطفى طيبة - د. محمد عبد الله المشاري
فهمي هويدي - منذر الأسعد - د. محمد محمد منصور - د. محمد المخزنجي



منتدى العربي

قضية

الاكتفاء الذاتي والإرادة القومية

بقلم : الدكتور فهد الفانك

لم يعد الغذاء مجرد سلع تجارية ، فقد تجاوز هذا المعنى الضيق للتبادل وأصبح سلعة استراتيجية تخضع للسياسة ولرغبة محتكريه ، وفي وطننا العربي امكانات كبيرة لانتاج الغذاء ، ورغم ذلك فاننا نقنع باستيراده معرضين سيادتنا وأوطاننا للخطر » .

ليس هناك خلاف بين المفكرين وصناع القرار العرب على أن الغذاء الذاتي العربي في خطر ، وأن هذا الخطر يتزايد عاما بعد آخر ، بحيث يصبح العرب أكثر اعتمادا في غذائهم على الاستيراد ، وما يعنيه ذلك من عدم التأكد من توافر المواد الغذائية في المستقبل أو أسعارها .

لقد أمكن التغطية على المشكلة المتفاقمة ومنعها من الوصول الى حد الأزمة والمجاعة (الا في السودان والصومال وموريتانيا) نتيجة لتوافر العملات الأجنبية في العقدين الماضيين ، مما مكن الدول العربية من شراء احتياجاتها من الخارج . ولكن ، ماذا يحدث اذا هبطت أو تلاشت موارد الدول العربية من العملة الصعبة وتبخرت الاحتياطيات العربية من العملات الأجنبية كما تدل كل المؤشرات الحالية ؟

لن نركز على الأرقام والاحصاءات ، فليس من المهم اثبات ان الانتاج العربي من القمح قد هبط الى ٤٠٪ أو ٣٠٪ من الاحتياجات القومية ، فالاجراءات والسياسات المطلوبة لا تختلف في الحالتين . وهناك اجماع على أن الوطن العربي يعاني من نقص حاد في السلع الغذائية الاستراتيجية ، وفي مقدمتها الحبوب واللحوم الحمراء والسكر والزيوت .

ولقد لمسنا فعالية سلاح النفط في عام ١٩٧٣ ، عندما استخدم بشكل جزئي ولفترة قصيرة ولأهداف محدودة ، ومع ذلك فقد هز العالم من أقصاه الى أقصاه . وفي خلال عقد واحد تمكنت الدول الصناعية من ابطال هذا السلاح المحتمل ، وتحويله الى سلاح موجه الى صدور العرب أنفسهم ، ونقطة ضعف في جبهتهم الاقتصادية والسياسية .

وسلاح القمح ليس اصطلاحا غريبا ، فقد ذكر صراحة كرد على سلاح النفط . واذا كان في الوقت الحاضر غير فعال كما دل استعمال أمريكا له ضد الاتحاد السوفياتي قبل أكثر من ست سنوات ، فان السبب في ذلك يعود الى استعمال هذا السلاح في وقت كانت السوق الدولية تشكو فيه من فائض انتاج

القمح . ولكن ، ماذا يحدث عندما يزداد الطلب العالمي على القمح لدرجة تزيد عن كل المعروض من القمح ؟ سيبدأ تصاعد الأسعار والتحكم في الجهات التي يسمح لها بالحصول على احتياجاتها من هذه المادة الغذائية الأساسية .

ولو كانت المشكلة عالمية أو شاملة لقلنا ان قدر الأمة العربية أن تتعرض لجميع المشكلات التي تواجه الدول النامية ، ولكن الحقيقة خلاف ذلك . فالأزمة تنحسر عاما بعد آخر في كل انحاء العالم تقريبا،ولكنها تتفاقم في منطقتين فقط هما الوطن العربي ، وأفريقيا السوداء ، وفيما عدا ذلك فان معظم حكومات الدول النامية حزمت أمرها على تحقيق قدر أكبر من اكتفائها الذاتي في مجال الغذاء . وحتى الدول المكتظة بالسكان كالهند والصين ، التي كانت مرشحة للمجاعات ، تمكنت من انتاج ما تحتاجه لاستهلاكها الداخلي وتحولت الى التصدير ، كما أن ٣٠ دولة في العالم انتقلت من مجموعة الدول المستوردة للقمح الى مجموعة الدول المصدرة له . وهذا الوضع الجديد خلق وفرة كبيرة في القمح المعروض في السوق العالمية لدرجة جعلت العرب لا يشعرون بالأزمة الزاحفة عليهم .

واذا كانت كل هذه الدول ، وفي مقدمتها الهند والصين ، قد استطاعت عن طريق اتباع السياسات الزراعية الملائمة أن تحقق اكتفاءها الغذائي ، فالمهمة اذن ليست مستحيلة ، خاصة اذا كانت الامكانيات موجودة بشكل أراض زراعية شاسعة تعادل ثلاثة أرباع مساحة الأراضي الزراعية في الولايات المتحدة ، ولكن لا يستغل أكثر من ربعها ، ولا يروى سوى ٥٪ منها .

وذلك رغم توافر المياه التي يذهب معظمها الى البحر ، وكثافة عدد السكان الذين يمارسون الزراعة ويقاربون نصف السكان ، وكثافة القوى العاملة الزراعية التي لا تقل عن خمس القوى العاملة العربية بأسرها .

عوامل الانتاج المتعارف عليها (موارد طبيعية وقوى عاملة ورأسمال) موجودة ، فما ينقصنا إذن هو العنصر الرابع من عناصر الانتاج وهو الادارة والتنظيم ، أو فن الجمع بين عوامل الانتاج الأخرى بالنسب الملائمة للانطلاق في الانتاج ، أو السياسة الزراعية العربية المناسبة .

من هنا فان مهمة راسمي السياسات وصانعي القرارات العرب ، والتحدي الذي يواجههم ، هو كيف يقومون بهذه المهمة ، مهمة توظيف عوامل الانتاج المتوافرة ووضعها في نمط انتاجي تصاعدي وديناميكي ، وكيف يمكن للاقاليم العربية أن تتكامل في سوق زراعية عربية واحدة ، تحل مشكلة التسويق ، وتجمع بين أزمة الفوائض في بعض الأصناف وأزمة النقص لذات الأصناف في دولة عربية أخرى .

وهذا يتطلب الاتفاق على استراتيجية جديدة للأمن الغذائي العربي ، قابلة للتطبيق ، وبعيدة عن الاعتبارات السياسية المتقلبة بين قطر عربي وآخر .

استراتيجية للاكتفاء الغذائي العربي

قبل ست سنوات ـ وبالتحديد في ٢٦/١١/١٩٨٠ ـ انعقد في عمان مؤتمر للقمة العربية هو مؤتمر القمة الحادي عشر . واتخذ قرارات واضحة باستراتيجية اقتصادية عربية شاملة ، توجت بخمسة بلايين دولار تعهدت بها الدول العربية المصدرة للنفط لتمويل الخطة . وقد اشتملت الاستراتيجية العربية على المنطلقات والأهداف والاولويات والبرامج والآليات .

وكان للغذاء موقع متميز فقد جاء في الفقرة الرابعة من اطار الاولويات نص على « تحقيق الأمن الغذائي بتوفير أقصى قدر ممكن من الاستقلالية في اشباع الحاجات الغذائية الأساسية في تطورها وذلك بدعم العمل العربي في ثلاثة اتجاهات هي :

ـ توفير الشروط الأساسية اللازمة لزيادة الانتاجية وتوسيع طاقات الانتاج الغذائي .

ـ القضاء على صور التبديد في المراحل المختلفةمن الانتاج الى التخزين والتوزيع ، الى نمط الاستهلاك .

ـ تحسين شروط تبادل المواد الغذائية بين الأقطار العربية من ناحية وبينها وبين العالم الخارجي من ناحية أخرى ، على النحو الذي يحمي المستهلك من التضخم المتزايد في أسعار المستوردات وعدم الانتظام في حجمها .

وقد أعدت المنظمة العربية للتنمية الزراعية دراسات خاصة ببرامج الاكتفاء الغذائي العربي تجسّد النصوص المقررة في مؤتمر القمة العربي ، وممكنات تطوير الموارد الأرضية والمائية ، وبرامج تطوير الحبوب والبذور الزيتية ، والسكر ، والانتاج الحيواني ، والاسماك وأخيرا المخزون الاستراتيجي على مستوى الوطن العربي .

ولأننا لا نريد أن نبدأ من نقطة الصفر في كل اجتماع اقتصادي عربي ، فالقرارات العربية تم اتخاذها على أعلى المستويات السياسية ، والدراسات الفنية وضعت على أفضل الأسس العلمية والمؤسسية ، والتنمية الزراعية ليست من الأسرار المغلقة ، وكل ما يلزم هو توافر الارادة القومية .

لكن هذا لا يجوز أن يقف بنا عند الصورة الكلية التي لا خلاف عليها ، فلا بد من الانتقال الى السياسات والاجراءات المطلوبة ، بحيث تقاس كفاءة العمل بعد ذلك بمقدار تطبيق هذه السياسات وتحقيق الأهداف التي ترمي اليها .

الامكانيات والعقبات

وللحقيقة فان عملية وضع استراتيجية عربية للاكتفاء الغذائي العربي هي عملية سهلة وصعبة في الوقت ذاته . فهي سهلة زراعيا واقتصاديا من حيث توافر الامكانيات والموارد . وهي صعبة سياسيا من حيث عدم الالتزام بالقرارات ، والتقلب في المواقف ، فضلا عن التبعية وضعف الارادة القومية .

أما عن توافر الامكانيات والموارد فيمكننا أن نشير الى الحقائق التالية :

١ ـ يملك العرب نحو ٢٠٠ مليون هكتار صالحة للزراعة ، يزرع منها ٥٠ مليون هكتار فقط ، ويروى منها ١٠ ملايين هكتار لا غير .

٢ ـ ان بالامكان مضاعفة الأراضي المستغلة زراعيا أكثر من ثلاث مرات . كما يمكن وضع مساحات شاسعة تحت الري .

٣ ـ ان الموارد المائية العربية هائلة ولكن جزءا مهما منها متروك اما للبحر أو للسطو الاسرائيلي .

٤ ـ ان رأس المال اللازم متوافر ، وتستطيع الدول العربية أن تمول أضخم المشاريع الزراعية اذا ثبت أنها مجدية وعملية .

٥ ـ ان الطاقة البشرية العربية هائلة ، وتشكو من البطالة الظاهرة والمقنعة ، وبالامكان رفع مستواها وزيادة انتاجيتها عن طريق منح الحوافز المناسبة .

٦ ـ ان العرب يستوردون مواد غذائية ببلايين الدولارات سنويا ، مما يعني أن السوق موجودة ، وكذلك الطاقة الاستيعابية فيما لو تم توصيل الانتاج العربي للأسواق العربية بيسر وحرية .

٧ ـ ان هبوط أسعار النفط وتعرض موازين مدفوعات أغنى الدول العربية للعجز يدل على أننا لا يمكن أن نعتمد على الاستيراد الى مالا نهاية ، ولا بد من سد العجز في الموازين التجارية .

٨ ـ تنوع الاقاليم العربية من حيث المناخ والتربة والموقع يجعلها قادرة على انتاج كل أو معظم المواد الزراعية ، مع قدر من التخصص في بعض البلدان العربية وفق المزايا النسبية التي تتمتع بها لانتاج الخضار أو الفواكه أو الحبوب أو الزيوت أو اللحوم الخ .

وأما عن الصعوبات فهي تظهر بأقسى صورها للذين صدمهم تعثر العمل العربي المشترك . فنحن نتفق بسهولة على الأهداف النهائية الكبيرة ، ونعتقد أنها قد تتحقق لمجرد اصدارنا بيانا جماعيا حولها

نحو سياسات وقرارات عملية

والواقع أن الاكتفاء الغذائي العربي ليس بحاجة فقط الى أهداف كبيرة لا خلاف عليها ، بل هو أشد حاجة الى المنطلقات والأولويات والآليات والبرامج والمشاريع المحددة بوضوح ، وليس هناك عيب في الاختلاف حول هذه التفاصيل؛لأن للاختلاف حلولا وتسويات لتحقيق الحد الأدنى لجميع الأطراف،ولكن العيب كل العيب في التظاهر بالموافقة ثم تجميد كل شيء .

من هنا فانه يهمنا أن لا تكتفي المؤتمرات الاقتصادية العربية باصدار بيان يكرر الأهداف العليا ، ويؤكد أهمية الاكتفاء الغذائي العربي ، ويحذر من المخاطر التي تتهدده . على العكس من ذلك فانه يهمنا أن تتخذ قرارات تطبيقية تشمل جميع النقاط

المثارة في مجال تنمية الانتاج الزراعي مثل :

١ ـ فيما يخص المشاريع العربية المشتركة التي طرحت ودرست حتى تم (قتلها) بحثا ، أي من هذه المشاريع لها الأولوية ومستوفية للشروط ؟ ، ومتى يبدأ تنفيذها ؟ ، وما هي الأموال اللازمة لذلك وما مصادرها ؟ ، والجدول الزمني لتنفيذها ؟ ولعل تقرير الخبراء حول تطور العمل في مشروعات الأمن الغذائي العربي سيضيء النور على هذا الموضوع ويساعد في اتخاذ القرارات بحيث يدخل بعض المشاريع مرحلة التنفيذ ، وتتقدم مشاريع أخرى الى مرحلة دراسة الجدوى الاقتصادية النهائية ، وتتحرك مشاريع أخرى الى مرحلة الدراسة وجمع المعلومات وهكذا .

٢ ـ في حقل التبادل الزراعي العربي ، هل يمكن الاتفاق على سوق زراعية عربية مشتركة ، تتمتع فيها المنتجات العربية بالأولوية ، ولا يسمح باستيراد المواد التي يتوافر أو يمكن أن يتوافر فائض عربي منها .

٣ ـ في مجال السياسات الداخلية ، هل نستطيع الغاء مبدأ التسعير الاجباري الهادف لخدمة المستهلك في المدينة على حساب المنتج في الريف . مما يشكل حافزا سلبيا للمنتج الزراعي واساءة اضافية لتوزيع الثروة بين فئات المجتمع .

٤ ـ هل نستطيع اقامة شركة تسويق عربية مشتركة تنظم عملية التبادل الزراعي التجاري ، وتؤمن تسويق الانتاج العربي في الأسواق العربية على أسس اقتصادية سليمة تفيد الدول العربية المنتجة والمستهلكة على السواء .

٥ ـ وهل نستطيع اقامة صناعة قومية للتصنيع الزراعي ، تتولى صنع وتوفير الأسمدة والمبيدات الحشرية وعمليات الحفظ الكبيرة .

٦ ـ وهل نستطيع ايجاد بنك زراعي عربي يقوم بتمويل النشاطات الزراعية القطرية والمشتركة بقروض طويلة الأجل على أسس مالية سليمة بما في ذلك عمليات المتابعة لحسن التنفيذ .

٧ ـ وعلى المستوى القطري هل نستطيع :

ـ أن نعطي القطاع الزراعي أولوية أعلى في خططنا الاقتصادية والانمائية ؟

ـ وأن نقوم بالاستثمارات اللازمة في مجالات الري والطرق وباقي متطلبات البنية الأساسية .

ـ وأن نعلن ونطبق سياسات سكانية من شأنها تنظيم الأسرة ورفع مستوى الانسان وعدم نشر الفقر .

ـ وأن نضمن الاستقرار القانوني فيما يخص ملكية الأرض وعلاقة المالك بالمستأجر والحدود القصوى والدنيا للملكية الزراعية حسب نوعية الأرض .

ـ وأن نوقف الهجرة من الريف الى المدن عن طريق تحسين نوعية الحياة الريفية وزيادة فرص العمل في الريف .

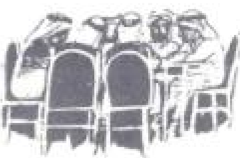
ـ وأن نجد طريقة لحماية المنتج الزراعي المحلي من حبوب المساعدات والدعم الاستهلاكي الذي يجعل الانتاج المحلي غير مجد .

في تصوري أن كل هذا ممكن اذا توافرت الارادة القومية ، وبدأنا العمل من اليوم قبل أن تدركنا المجاعة ، ويفقدنا الاحتياج الى الغذاء الاستقلال والسيادة .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

مزقوها

● رفع صاحب الخبر إلى الخليفة العباسي المأمون كتابا جاء فيه : إنا أصبنا ـ يا أمير المؤمنين ـ رقاعا فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهديد ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظ إلى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره : « فكتب المأمون إلى صاحب الخبر رسالة جاء فيها : « هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع خرقه علينا ، فمر أصحاب أخبارك متى وجدوا مثل هذه الرقاع أن يمزقوها ، قبل أن ينظروا إليها ، فإنهم إذا فعلوا ذلك لم يظهر لها أثر ولا عين » .



منتدى العربي

تعقيبات

تعقيب على "مرض عربي اسمه الطاعة"

بقلم : كمال محمود على

تناول الدكتور فؤاد زكريا في عدد يونيو ١٩٨٦ ،وهو العدد رقم ٣٣٢ من مجلتنا العربي ، وفي موضوعه الموسوم بـ « مرض عربي اسمه الطاعة » قيمة اجتماعية نعتز بها ، وفضيلة من الفضائل التي تبقى على بنياننا الاجتماعي السليم ، وبالصورة التي نرجوها ، غير انه نظر اليها من زاوية مخالفة لزوايا كثير من الناس ، ونشأ عن ذلك رأي له في هذه القيمة عجيب ، حيث يصفها قائلا « انها بغير تحفظ رذيلتنا الأولى ، وفيها تتبلور سائر عيوبنا ونقائصنا » .

والحق أن الدكتور فؤاد قد طرق موضوع الطاعة بصورة مستعجلة ، اذ كان من المفترض قبل الولوج في حديث مسهب عن الطاعة ، أن يحدد مفهوم الطاعة عنده ، ذلك أن الطاعة لفظة معنوية ، والالفاظ المعنوية كما يدرك جمهور المثقفين وغير المثقفين لا تتفق بشأن مدلولاتها وما تحمل من المعاني كل العقول والأذهان .

« فالحرية » مثلا لفظة يرفعها الجميع شعارا لحركاتهم ، ولواء ينضوون تحته ، وتحدث الصراعات وتشتد وتتأزم الأوضاع وتتوتر ، وتسيل الدماء ويعم الخراب والدمار ، كل هذا باسم الحرية ، فهل يكون معقولا أن تمتلك اللفظة - اعني لفظة الحرية - دلالة واحدة عند كل الأطراف المتنازعة .

الجواب جلي وواضح ولا يحتاج الى شيء من التعليق .

وعلى هذا الأساس فإني أرى أن الدكتور فؤاد قد اقحم لفظة لم يكن ليريد التحدث عنها اطلاقا ، فالملاحظ أن الحديث ظل سائرا باتجاه واحد لا غير ، ذلك هو اتجاه الحديث عن الانصياع لا « الطاعة » ، وفرق بعيد بين اللفظتين .

فالطاعة هي الانقياد ، ولكن مع القدرة على اختيار البدائل ، وهي طريق يلتجيء اليه المرء طواعية ، أي أن ارادته لا تستلب ، واستقلاليته لا تتعطل ، وشخصيته لا تلغى .

تلك هي الطاعة فما تراه يكون الانصياع ؟

الانصياع يختلف في تعريفه اختلافا جوهريا عن الطاعة ، فهو الانقياد مع عدم وجود القدرة على الاختيار ، وهو طريق يدفع اليه المرء دفعاً ، ويسير فيه مرغما دون اقتناع ، وبالتالي فان ما يجري على الطاعة يجري عكسه تماما على الانصياع . فاذا ذهب أحدنا الى طبيب ما لتلقي العلاج ، وكان أن أمره الطبيب باتباع نظام غذائي مثلا ، فانه يمتلك حرية أن يختار بين أن يتبع نظامه الغذائي الخاص به ، أو أن يتبع ما

أملاه عليه الطبيب من أنواع الطعام وأصنافه ، وبالطريقة هذه أو تلك ، انه اذا ما أطاع طبيبه وانقاد له حرصا على صحته وايمانا منه بطبيبه المعالج ، يكون قد دخل باب الطاعة .

لكن هذا الفرد عينه ، لو اقتيد الى قسم الشرطة لسبب أو لآخر ، وأمر ضابط الشرطة بحجزه على ذمة التحقيق ، كما يقولون ، فانه يكون ملزما بدخول زنزانة قسم الشرطة رغما عنه ، لاخيار له في تنفيذ الأمر أو عدم تنفيذه ، انه ينصاع للأمر انصياعا ، فالرفض أمر لا قبل له به .

وعلى هذا فان الطاعة قد تكون بين ندين لا سلطة لأحدهما على الآخر .

ومن الجائز فيها ـ وهذا ما تؤكده الملاحظات والشواهد على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة ـ أن ينقاد الرئيس للمرؤوس ، والأضعف حجة وسلطة للأقوى حجة والأسطع رأيا .

ولقد حفظ لنا تراثنا العربي والاسلامي بعضا من هذه المشاهد الدالة على الطاعة بالمعنى الذي نفهمه ، حيث قام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الناس ، وخطب فيهم قائلا : اسمعوا وأطيعوا . فانبرى له أحدهم قائلا « لا سمع ولا طاعة حتى يتبين لنا من أين لك هذا الثوب . وقد كانت حصة عمر من القماش لا تكفي لأن يخيط لنفسه منها قميصا ، فلما بدد عبد الله بن عمر الالتباس ، وأزال الشبهة عن أبيه ، قال الرجل « الآن نسمع ونطيع » .

هي الطاعة اذن مع وجود الارادة والاستقلالية ، وامتلاك الشخصية .

نخلص مما تقدم الى تشخيص المرض تشخيصا آخر غير الذي قدره الدكتور فؤاد وراح يدافع عنه . ان الداء الذي يشكو منه الناس في كثير من بلاد الدنيا هو داء التسلط من جهة القوي ، والانصياع من جهة الضعيف .

وعليه فإننا نثبت خطأ ما ذهب اليه الدكتور فؤاد ، ونعيد للفظة الطاعة قدرها ومنزلتها التي تفتخر بها ، ونعتز ونرى انه لولا الطاعة لاختلطت الأمور في المجتمع ، وعمت الفوضى بين أفراده ، وتداخلت المهام ، وسار المجتمع ان عاجلا أم آجلا الى التفكك والانحلال ، وانتهى الأمر الى ما لا تحمد عقباه . □

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

تعقيب
للدكتور فؤاد زكريا

لا أملك الا أن أشكر الأخ الكريم على اهتمامه بالموضوع واجتهاده في عرض وجهة نظر أخرى في هذه المسألة الهامة ، غير أني لا أملك أيضا إلا أن أبدي دهشتي من محاولته التمييز بين الطاعة والانصياع ، وتأكيده أن ماقلته في مقالي السابق ينطبق على الانصياع لا الطاعة . فرأيه هذا يواجه صعوبتين أساسيتين :

الأولى : هي أن الوضع الصحيح للمشكلة على عكس ماذهب اليه ، ففي حالة الانصياع ، بمعنى أن يضطر المرء الى الاذعان دون أن تكون لديه أية قدرة على الاعتراض ، لاتكون هناك مشكلة ، فحين يقهر المرء على شيء ، وحين تكون إرادته مسلوبة تماما ، لا يكون من حقنا أن نلومه على شيء ، لسبب بسيط هو أن هذا الشخص قد فقد قدرته على الاختيار ، ولو كانت لديه هذه القدرة لكان من الجائز جدا أن تسير في الاتجاه السليم . وعلى ذلك لايمكن أن يوصف الانصياع بالمعنى الذي حدده الأخ الفاضل ، بأنه رذيلة أو مرض ، بل ينبغي استبعاده من موضوعنا لأن أشد الناس تمردا يمكن أن ينصاع إذا أرغم على ذلك بقوة قاهرة .

أما الصعوبة الثانية فهي أن التمييز بين الانصياع بمعنى الانقياد مع عدم القدرة على الاختيار ، وبين الطاعة التي « تكون بين ندين لاسلطة لأحدهما على الآخر » هذا التمييز كثيرا ما يكون وهميا . فالأخ الكريم يضرب مثلا بطاعة المرءوس لرئيسه ، أو تناول المريض للدواء ، بوصفها

حالات للطاعة مع القدرة على اختيار البدائل !! ولكن هل هذا صحيح ؟

اذا كان الرئيس يمسك في يده بمفاتيح رزق المرءوس ، وإذا كان قادرا على تجويعه وتشريده حين يفصله من العمل ، فهل تسمى هذه « طاعة بين أنداد » ؟ واذا كان المريض يعاني من داء عضال ، أو آلام جسدية ونفسية مبرحة ، فهل تكون لديه حرية الاختيار بين تناول الدواء أو رفضه ؟

واذا كان الزوج يهدد زوجته بالطلاق وبحرمانها مع أولادها من المورد الذي يعيشون منه ، فهل نسمي إذعانها لأوامره طاعة أم انصياعا ؟

من الواضح اذن أن هناك حالات غير قليلة يصعب فيها التفرقة بين المعنيين ، وفي هذه الحالات يبدو ظاهريا أن المرء يطيع بملء إرادته ، بينما هو في الواقع مرغم على ذلك .

إنني حين وصفت الطاعة بأنها « مرض عربي » كنت أعني بالفعل أنها داء متأصل فينا يتفشى بيننا على أوسع نطاق ، وكنت أدرك أن معظم القراء لن يرتاحوا الى هذا التشخيص ، وأن كل انسان تمنحه « الطاعة » امتيازا على غيره ، أو سلطة عليه ، سيعترض على ماكتبت . ولكني أعود مرة أخرى فأقول : من المستحيل أن يفكر عاقل في دعوة الناس الى الفوضى الشاملة ، أو الخروج على كل القوانين ، ولكن مقدار الولاء الذي نبديه ، في ثقافتنا العربية ، لقيمة الطاعة ، يزيد بمراحل عما تعرفه معظم الثقافات الأخرى ، وكل ما أهدف اليه هو أن يراجع القارىء مسلماته ويختبرها من جديد ، ويفكر قليلا في عبادة الطاعة السائدة على كل المستويات . فالأنبياء وكبار المصلحين لم يكونوا مطيعين لسنن آبائهم وأجدادهم ، والمكتشفون والمخترعون الكبار لم يكونوا مطيعين لقوانين العلم الموروثة في عصورهم ، والشعوب التي ثارت وتمردت على أوضاع جائرة لم تكن مطيعة لظلم الظالمين ، والفنانون والأدباء المبدعون لم يكونوا مطيعين لتراث الفن أو الأدب كما تلقوه من الأجيال السابقة ، وهلم جرا . . . وفي هذه الحالات كلها كان الانسان الذي تمرد على الظلم أو الجمود أو الخطأ أو الركود قادرا على أن يطيع ، وربما كان قد أراح نفسه ، وجعل حياته أقل تقلبا وتعرضا للخطر لو فعل ذلك ، ولكنه لم يفعل ، وآثر المخاطرة ، واستطاع بفضلها أن يغير نفسه ويغير الاجيال المعايشة له والآتية من بعده الى الأفضل . . .

هذا ماكنت أدعو اليه في مقالي ، وتظل المسألة ، بعد هذا كله ، اختيارا حرا للقارىء : فقد تكون الطاعة في بعض الاحيان طريقا للسلامة ، ولكن التمرد بالقطع ، ليس في جميع الأحوال طريقا للندامة . □

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

كتب الحب عند القدامى

● اهتم أدباؤنا في العصور القديمة والحديثة بموضوع الحب . ففي العصور القديمة تناول أسلافنا هذا الموضوع الانساني ، ودرسوا هذه العاطفة دراسة متأنية دقيقة شاملة . وتعد هذه الدراسات محاولات مبكرة لما يعرف اليوم بعلم النفس .

من هذه الكتب كتاب في العشق والنساء للجاحظ ، وكتاب طوق الحمامة في الالفة والآلاف لابن حزم الأندلسي ، وكذلك رسالته في تهذيب الأخلاق ، ثم الرسالة السابعة والثلاثون من رسائل إخوان الصفا ، ثم كتاب مصارع العشاق لابن السراج ، وكتاب ذم الهوى لابن الجوزي ، ثم كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية .

يصدر في ١٥ يناير ١٩٨٧

كتاب العربي

الرابع عشر

المسلمون والعصر

بأقلام

د. عبد العزيز كامل — د. أحمد كمال أبو المجد
د. يوسف القرضاوي — خالد محمد خالد
د. ادريس الكتاني — د. محمد عمارة
د. محمد جابر الأنصاري — د. محمد سلام مدكور

وآخرين

كتاب العربي مرآة العقل العربي



أيها المرضى "لا مبرر للخوف"

بقلم : الدكتور ابراهيم أبو طاحون

لا مبرر للخوف المبالغ فيه في مواجهة الحوامل والمصابين بارتفاع الضغط وأمراض القلب والسكر . لا داعي لحيرة طبيب الأسنان فيمكنه بعد اتخاذ الاجراءات المناسبة تقديم العلاج المطلوب في كل حالة ، ففي القرن العشرين لا يمكن عزل هؤلاء المرضى وحرمانهم من علاج أسنانهم بلا مبرر مقنع .

كثيرا ما يقف طبيب الأسنان حائراً أمام مريض يعاني من حالة مرضية عامة في فمه ، ولا يمكنه بالطبع ترك مريضه فريسة سهلة للخوف المبالغ فيه ، ويجب أن يكون تحفظه في اطار الواقع الذي له ما يبرره .

وسنقصر حديثنا على بعض الحالات الأساسية الأكثر شيوعا ، التي يكثر الحديث عنها بشكل يومي .

ارتفاع الضغط

يشكل ارتفاع الضغط في أحيان كثيرة عرضاً عاماً وجوهرياً،أو سببا مرضياً لمجموعة حالات مرضية اخرى . ولا يمكن تحديد نقطة فاصلة وواضحة بين القيم الطبيعية للضغط وتلك الزائدة ، وبالتالي فالشكل المتعارف عليه بعبارة ١٤٠/٩٠ملم لا يعتبر دقيقاً اذا لم تتم مقارنته وربطه بنوعية الفرد ، ومن

معينة ، ووضع نفسي اعتيادي .

وإذا كان ارتفاع الضغط يسبب في بعض الأحيان مجرد مضايقات خفيفة فقد يؤدي أحياناً أخرى الى عواقب وخيمة .

ويختلف الضغط باختلاف سن المريض ووزن جسمه ووضعه النفسي ، من حيث الاجهاد والراحة ، والقلق والخوف الخ .

وتستدعي الحالات المرضية الخطيرة التي يسببها الضغط وهي : ضيق التنفس ، والجلطة ، وتخثر أو نزيف الأوعية الدماغية ، اهتماماً كبيراً من طبيب الأسنان المعالج،لاحتمال ظهورها أثناء قيامه باجراء العلاج على المريض في عيادته، وهكذا فالتعرف على ضغط المريض من قبل طبيب الأسنان يهدف الى الوقاية من الاصابات الحادة التي ذكر بعضها مسبقا .

وأول اجراءات الوقاية الاتصال بالطبيب المعالج المختص لتحديد درجة الخطر في العلاج الذي سيقدمه طبيب الأسنان لمريضه ، ولتحديد المجال الذي يمكن أن يتراوح خلاله النشاط العلاجي في فمه .

ومن النقص أن يعجز طبيب الأسنان عن امكانية قياس ضغط مريضه عند الحاجة ، ومسئولية النقص لا تقع على عاتقه بل على برنامج التدريب الدراسي الذي لا يمنح له فرصة تعلم ذلك لتطبيقه عند الحاجة ، وقولنا هذا يستدعي وجود جهاز لقياس الضغط داخل كل عيادة أسنان .

وتتراوح المعدلات الطبيعية الكبرى لقياس الضغط عند البالغين بين ١٢٠ ـ ١٤٠ملم زئبقي، أما الطبيعة الصغرى فتتراوح بين ٧٠ ـ ٨٠ ملم زئبقي، وهنالك قانون يطالب بأن تصل الصغرى في حالة الضغط المنخفض الى نصف الكبرى +١٠٠ أي ١٤٠/٨٠ .

وأما في حالة الضغط العالي فالصغرى تصل الى نصف الكبرى +٢٠٠ أي ٢٦٠/١٥٠ ، ويعتبر فرق هذا الضغط عنصراً مهماً لتقدير خطورة الحالة ، ورغم ان هناك قواعد تسمح لنا بتجنب الأخطاء خلال القياس إلا أن طبيب الأسنان لا يحتاج بالضرورة لاستنفاد كل هذه التفاصيل من أجل اجراء عملية القياس .

ويعتبر قياس ضغط المرضى المسنين ممن سيتعرضون لأعمال صعبة في أفواههم ضرورياً من أجل اتخاذ الاجراءات الوقائية أو حتى تأجيل المواجهة العلاجية اذا دعت الحاجة الى ذلك . فاذا كان الضغط يقع تحت مستويات ١٤٠/٩٠ ملم زئبقي فيمكن مواجهة مثل هؤلاء المرضى بلا خوف أو تردد ، بشرط أن تكون هذه المستويات ثابتة لفترة زمنية طويلة،وتتعلق بأفراد تزيد أعمارهم عن ٣٥ سنة .

واذا وصلت مستويات الضغط هذه الى ١٦٠ ـ ٢٠٠/١٩٥ ـ ١١٠ملم زئبقي (ارتفاع ضغط طفيف) فيحتم قبل القيام بأي عمل في فم المريض أن يسبقه قياس ضغطه ، واتخاذ الاجراءات الوقائية اللازمة (تسكين ألم تام أو عمليات قصيرة وغير متعبة) بشرط أن تكون استجابة المريض طبيعية خلال اللقاءات السابقة،ذلك لأن الاتصال الأول مع مرضى يعانون من نفس مستويات الضغط هذه وهم في سن صغيرة نسبيا ـ يتطلب اشرافا متطبا قبل القيام بأي عمل في أفواههم .

الضغط المتوسط

وبخصوص المرضى المصابين بارتفاع الضغط الذي تتراوح مستوياته بين ١٦٠ ـ ٢١٠/١١٥ ـ ١٢٥ملم زئبقي(ضغط متوسط) والذي تتم السيطرة العلاجية عليه،فمن الضروري تكرار القياس ٢ ـ ٣ مرات خلال العمل،عدا عن قيامنا باجراء ذلك قبل بدئه .

أما المرضى الذين وصلت معدلات الضغط لديهم حتى ٢١٠ ـ ٢٦٠/١٢٥ ـ ١٤٠ملم زئبقي فيحتم التفاهم المسبق مع الطبيب المعالج ، فمواجهة الحالات الطارئة عند مثل هؤلاء المرضى تتم بتحويلهم للعلاج داخل أحد المستشفيات في اطار اشراف طبي أعم . وحتى في مثل هذه الحالات فمعدلات الضغط التي تحدثنا عنها ذات موضوعية نسبية لأنها ترتبط بالضرورة مع عمر المريض ، والفترة الزمنية لمعاناته من هذه المشكلة .

والمواجهة العلاجية لارتفاع الضغط تشكل إحدى مهام الطبيب المختص ، ولا تعدو مهمة طبيب الأسنان معرفة مقدار الأدوية المقدمة في مثل هذه الحالة والتي لا يُعدُّ اعطاؤها لهم ـ في حالات محدودة

للغاية - تجاوزاً خطيراً .

لذلك فمن الضروري في حالات الضغط العالي استخدام المحاليل المخدرة المحتوية على الأدرينالين ، حيث لا يعتبر التخدير الموضعي كافياً إذا لم يكن يحتوي على ذلك ، ويسبب في مثل هذه الحالة زيادة ألم المريض وارتفاع ضغطه .

وأما الأدوية التي تعطى في هذه الحالة فهي ترتبط بالمرض الذي يشكل ارتفاع الضغط عرضاً له .

مواد تسبب الانقباض

وقد اثبتت أبحاث جرت مؤخراً أن الخوف والقلق يعملان على افراز مثل هذه المواد طبيعيا في جسم الانسان ، بشكل يفوق بكثير الكمية التي تضاف عادة الى محاليل التخدير . وهكذا فعلى طبيب الأسنان توخي الحرص لأن احتمال انتهاء تأثير المخدر وظهور ألم المريض قبل انتهائه من انجاز عمله بسبب الافراز الطبيعي هذه المواد مع كل ما يحمله ذلك من خوف عن المرضى الذين يعانون مثل هذه المشاكل .

ان أنصار هذه النظرية يشددون على ان كمية هذه المواد في المحاليل المخدرة يجب ان لا تتجاوز ٠٤, ملغم للجلسة الواحدة،ويبقى الاساس في التفاهم مع الطبيب المختص . كذلك يجب عدم استخدام مثل هذه المواد لايقاف النزيف وبخاصة بعد حالات القلع لمرضى القلب بسبب الدخول السريع هذه المواد وبكمية كبيرة في الدورة الدموية للمريض .

ولا يمكن اخضاع مثل هؤلاء المرضى - ممن تعرضوا لوعكة قلبية - للقيام بأعمال في أفواههم قبل انقضاء ستة أشهر على الأقل من تاريخ تعرضهم للوعكة ، وبعد التفاهم على ذلك مع طبيبهم المعالج . واذا كانت الحاجة ملحة لمواجهة احدى الحالات الطارئة في أفواه هؤلاء المرضى - مثل الالتهاب الحاد - قبل استكمال هذه الفترة ، فيجب ان يتم تحويلهم لأحد المستشفيات للاشراف المباشر على حالتهم ولمواجهتهم بشكل أتم وأشمل .

وجدير بالذكر أن ابسط عمل يمكن القيام به في الفم - مثل تنظيف الأسنان - يمكنه أن يسبب حالة دخول الميكروبات مؤقتا في دورة المريض الدموية والتي تبقى في الدم حتى انتهاء العملية ولفترة وجيزة بعدها .

وتستطيع المقاومة الحيوية في الأفراد الطبيعيين التغلب على النشاط الضار لهذه الظاهرة التي يمكن أن تصبح خطيرة في المرضى الذين يعانون من نقص في مقاومتهم (مثل المصابين بأمراض القلب والسكري الخ) والوقاية من ذلك تتم باعطاء جرعات عالية من البنسلين أو أحد المضادات الحيوية الأخرى قبل وخلال وبعد العملية .

وتتمثل الوقاية الأهم في الحرص على تطبيق قواعد صحة الفم لحماية الأسنان من التسوس والقلع الذي لا مبرر له .

السكري

مرض شائع بين سكان الكرة الأرضية،تكمن خطورته في أن الكثير من المصابين به يتجولون بيننا دون معرفتهم أنفسهم بذلك . ولا يمكن السيطرة على الأعراض التي يسببها وبخاصة أمراض اللثة مادام المرض في مرحلة التطور وغير خاضع للسيطرة .

ويسعى طبيب الأسنان المعالج لمعرفة مستوى السكر في الدم والذي يجب ان لا يزيد على ١٨٠ملغم / ١٠٠سم³ قبل البدء في أي عمل من خلال فحص حديث لدم وبول المريض من أجل العمل - في حالة التأكد من اصابته - على تغطيته بالمضادات الحيوية القوية الواسعة النشاط مثل الامبسلين ، قبل القيام بأي علاج في فمه .

وفي الحالات الحادة مثل دمل الأسنان فيتوجب على الفور وبعد الفتح وتصريف القيح - تغطية المريض بمثل هذه المضادات تحت مراقبة واشراف طبيبه المعالج المختص ، ويتقرر استكمال العلاج بالقلع أو العلاج الجراحي على ضوء معطيات الفحص الميكروبولوجي حيث يمكننا ذلك اذا كانت نسبة الجلوكوز تتراوح تحت ١٨٠ - ٢٠٠ملغم ٪ مع ضرورة تغطية المريض بالمضادات الحيوية .

ويعتقد بعض الباحثين بأن ازدياد نسبة السكر في الدم عن ٢٠٠٪ ملغم لا تعني مانعاً مطلقاً أمام القيام

بالعمليات الصغيرة بشرط ان تتم المواجهة العلاجية للمريض داخل أحد المستشفيات،وتحت سيطرة قوية بالمضادات الحيوية .

وبالطبع فالخوف الذي يعتري اطباء الأسنان من مواجهة مرضاهم المصابين بالسكري له مايبرره ، لكن يجب ان لا يصل الخوف بهم الى حد يعذب المريض في الوقت الذي استطاع فيه الطب الحديث تنظيم حياة مثل هؤلاء كي تكون طبيعية بشكل قريب من حياة الأفراد الأصحاء .

والسعي الحثيث بلا شك يهدف الى وقاية المريض من المضاعفات الحادة المباشرة للمرض والتي قد لا يكون لها تأثير على قلبه ، الامر الذي يكتسب أهمية خاصة لدى من يجهلون اصابتهم به .

مشـــاكل الحمــــل

رغـم معاناتها من أعراض الحمل والقيء وتعكير المزاج الخ ، فالمرأة الحامل تعتبر طبيعية وصحية . وهي قد تجد نفسها مرشحة للقيام بعمل ما في فمها خلال أي من مراحل الحمل المختلفة ، ويواجه طبيب الأسنان في هذه الحالة شركاً ، وبخاصة ان الكثيرين من أطباء النساء والولادة يحرضون مريضاتهم على عدم زيارة طبيب الأسنان خلال فترة حملهن حتى وان لم يكنّ يعانين من مشاكل مرضية مهمة . وهكذا فالتحفظ في مواجهتها له مايبرره .

ويمكننا من الناحية العملية مواجهة مشكلة الحمل من ثلاثة جوانب .

(١) التأكد مما اذا كان هنالك احتمال التأثير على الحالة العامة للمرأة بتأثير عمل طبيب الأسنان في فمها (السكري ، فقر الدم ، امراض الكلية الخ) :

(٢) التأكد مما اذا كان هنالك احتمال الحاق الضرر بالجنين في حالة العمل المجهد،أو إن دعت الحاجة لاجراء تخدير عام .

(٣) التأكد مما اذا كان هنالك احتمال نشوء مضاعفات صعبة في منطقة العلاج داخل الفم بعد مواجهة إحدى المشاكل (قلع احدى الأسنان) .

ويواجه طبيب الأسنان عادة ثلاث حالات من هذه الحوامل :

(١) الحوامل اللاتي سبق لهن الحمل والانجاب لأكثر من مرة في الماضي .

(٢) الحوامل اللاتي يحملن لأول مرة .

(٣) الحوامل اللاتي تعرضن لاجهاضات مسبقة خاصة خلال الثلاثة اشهر الأولى لحملهن .

أما الحالتان الأولى والثانية فيمكن مواجهتها على انها طبيعتان للغاية ، وبالتالي تقديم كل علاج مطلوب لها مع مراعاة اجراءات الوقاية الكلاسيكية حسب طبيعة ونوع وشدة الحالة التي دعا طبيب الأسنان لمواجهتها . واذا كانت هذه النساء في شهري حملهن الاخيرين ولم يكنّ يعانين رغم حساسيتهن لأي من المشاكل الطارئة ، فمن المفيد تأجيل العلاج لما بعد الوضع .

وبخصوص حالات الحمل الثانية (الحمل لأول مرة) وبخاصة للنساء ذوات العمر المتقدم ، فمن الصواب التحفظ على اجراء العمليات المطولة الشاقة وبخاصة إذا كان الحمل ما بين الشهر الثاني والرابع .

أما الحالة الثالثة فحتى أبسط الاجراءات التي يمكن القيام بها في فم الحامل المريضة يمكنها أن تكون ملفتة للانتباه بسبب احتمال تحميل طبيب الأسنان مسئولية انقطاع الحمل لو تم ذلك لأي سبب كان من قبل الحامل أو أهلها لأسباب نفسية .

والمرأة التي تعاني من كثرة مرات الاجهاض التي تعرضت لها مسبقاً وبخاصة خلال أشهر الحمل الثلاثة الأولى بسبب مشاكل في رحمها أو اضطرابات هرمونية ، فمن الطبيعي ان تتأثر بجو العيادة الذي يشكل منبعاً حقيقياً للتوتر ، وان تعزى مسئولية أي اجهاض يعد ذلك للطبيب الذي قام بعلاج أسنانها .

والخلاصة أنه من الحكمة بمكان تجنب ـ ليس فقط العمليات الشاقة بل وحتى البسيطة (مثل القيام بالحشوة)لمثل هؤلاء النساء وتأجيل ذلك لحين انقضاء الستة أشهر الأولى للحمل . أما فيما يتعلق بالحالات الطارئة التي تتطلب مواجهة عاجلة مثل دمل الأسنان،فمواجهتها تتم كلاسيكياً باعطاء المسكنات والمضادات الحيوية التي لا تؤثر على الحمل مع الفتح وتصريف القيح ، والتشاور مع الطبيب المختص المعالج . □



الانتشار الثقافي

حصان طروادة جديد!

بقلم الدكتور فهمي جدعان

منذ أن تحققت البلدان « المتخلفة » من هزيمتها أمام العلم والتقنية والسيطرة الغربية ، ومنذ أن أشرعت هذه البلدان أبوابها لتنفذ منها قوة الغرب الطاغية ، وانجازاته المعرفية والتقنية ، وقيمه الاجتماعية والسياسية والأخلاقية ، ومثقفو هذه البلدان يضعون الأسئلة حول مسألة الثقافة ، والثقافة الدخيلة ، ويجيبون عنها جواب الآخذ أو الراد أو الحائر !

يمكن للقضية في حدودها البسيطة بطبيعة الحال أن ترتد مرة واحدة الى مسلمة خلدونية تقول : «ان المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب» يأخذ عنه معارفه ، وصناعاته ، وعاداته ، وأساليب معاشه ، وأخلاقه ، بيد أنه من الممكن أيضا صياغة التساؤل التالي : هل هناك حقا انتاج ثقافي مصنوع ابتداء لكي يحقق أهدافا مخصوصة خارج حدود صانعيه ؟ وهل هناك قصدية « في ثقافة الغزو » تهدف ابتداء الى احتلال أرض الدماغ والنفس عند المغزو ، وتبديل فكره بفكر آخر ، وثقافته بثقافة أخرى بحيث يكون الغزو الثقافي بديلا للحرب فعلا ؟ ان الأصوات تعلو وتعلو في أيامنا هذه لتنبهنا الى الخطر الماثل أمام أعيننا ، بسبب هذه الثقافات الدخيلة التي تغزو مدينتنا لتحطم في حرب حقيقية ـ غير معلنة ـ ذاتنا الأصلية وقيمنا ، تحت شعار الفائدة الفنية ، أو المتعة الجمالية ، أو الحاجة الاستهلاكية ، في صورة كتب ومجلات وأفلام سينمائية أو تلفزيونية ، وعلب (فيديو) ، وموسيقا صاخبة ، وأغان شرسة ، من

شأنها جميعا تحويل العقل والذوق والنفس والذات عن مجراها الطبيعي الى مجرى آخر مماثل لمجرى الثقافة الغازية وقيمها . انها تصرخ عاليا حذار حذار من هذا (الحصان) الجديد ، حصان طروادة الذي يريد أن يتخذ من الثقافة ومنجزاتها وسيلة جديدة لالحاق هزيمة أخرى بنا ، بأن يجردنا من عقولنا وارادتنا وذاتيتنا ، بعد أن يئس صانعوه من ذلك بأساليب الحرب التقليدية ، حذار حذار ان الهدف الجديد يتمثل في تحويل وجودنا عن مساره الذاتي ، ودمجه في (الأنا) الغازي ، وانه ليس لنا من سبيل الا أن نعلن الحرب على ثقافة الغزو وحضارته ، بأن نعض على التراث و قيم التاريخ بالنواجذ .

الوجه الآخر للحرب

ليس ثمة شك في أن صرخة الفزع هذه تعكس نمطا من المحاكمة ، أو التأثر ، يمكن أن يكون له بعض الوجاهة . ولا ينبغي أن ينظر اليها باعتبارها مجرد وهم خالص من أوهام الاتباعيين ، فالحقيقة هي أن التاريخ قد علمنا أن الغاء (الآخر) لايمكن أن يتم الا باحدى العمليات الاتية ، اما الاعدام المادي الجذري بالحرب ، أو بالعنف الجماعي ، أو بالحصار الكامل حتى الموت ، أو بالتفكك الداخلي العميق ، أو بالدمج الحضاري أو الثقافي الذي يفضي الى تحويل (الآخر) المباين أو المعادي أو المخالف الى الـ (نحن) المتجانس المجانس . لكن أين الغزو الثقافي أو الحرب الثقافية من الحرب نفسها ؟ وما هي الحرب أصلا ، حتى يكون في امكاننا الزعم بأن الغزو الثقافي أو الفكري يمكن أن يكون بديلا عنها ، أو صورة من صورها ؟ لاشك أن التعريف الذي يقدمه (كلاوزفيتش) هو أفضل التعريفات التي قدمها لنا (الاستراتيجيون) حتى الآن : « الحرب فعل للقوة ، تهدف القوة به الى الزام الخصم بالخضوع لارادتنا » ، وبتعبير آخر : « هو فعل عنيف ، ينشد فيه كل واحد من الخصمين الزام الآخر بالقانون الذي يريده هو ، فيرتب ذلك على كلا الخصمين اللجوء الى الأطراف (الحلول) القصوى ، بيد أنه اذا كانت الأهداف القصوى للحرب أهدافا سياسية محضة ، والحرب هي أولا وآخرا أداة للسياسة ، ومطية لها ، فانه قد يكون من الحكمة اللجوء الى حرب غير مادية ، وغير عنيفة ، من أجل الأهداف نفسها التي تنشد تحقيقها الحرب العنيفة ، وكل ذلك بخسائر أقل ، وكلفة أدنى ، ولعلنا نستطيع بمثل نضربه من التاريخ العربي أن نقرب هذه المسألة للاذهان ، ذلك أن بعض الروايات التي يتناقلها الكتاب العرب بصدد تعليل مسألة نقل التراث اليوناني الى العالم الاسلامي في القرن الثاني للهجرة تقول ان بطارقة بيزنطة يئسوا من دحر الفاتحين العرب المسلمين ، ومن رد هجمتهم على العالم النصراني آنذاك بالوسائل الحربية العسكرية ، فعقدوا اجتماعا لهم أو مجمعا وتداولوا فيه أمر أصحاب هذا الدين ، وفي الاساليب الناجعة لدحرهم ، فارتأى بعضهم تنفيذ عملية من نوع خاص جدا وهي أن ترسل الكتب والمصنفات الفلسفية والعلمية اليونانية الى بغداد دار الخلافة لتكون نتيجة ذلك أن تغرق هذه المصنفات عقول المسلمين وتضللهم عن دينهم ، وأن تحدث في البنية الثقافية والاجتماعية والسياسية للمسلمين الفشل والتوزع والتفكك ، بما يمكن أن تولده من تفرق وانشقاقات و(هرطقات) تزعزع الاسلام من جذوره ، ويكون فعلها شبيها بما تولد عن ادخال (الحصان) الى طروادة . تقول الرواية ان بطارقة القسطنطينية قد نجحوا فعلا في ادخال المصنفات الوثنية الى دار الخلافة ، أما الاتباعيون المسلمون فمازالوا يؤكدون حتى يومنا هذا ـ من حيث يدرون أو من حيث لايدرون ـ أن الخطة قد نجحت ، ويؤكدون أن انحطاط حضارة المسلمين هي نتيجة هذا «التلوث» الذي نجم عن دخول علوم أهل الكفر الى عالم المسلمين ، وهم يعززون وجهة النظر هذه بكلمة ابن مسعود (رضي الله عنه) :

« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » ، أو بأن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد نهى المسلمين عن أن يأخذوا علومهم عن النصارى ، أو بألا يتحرجوا من التهمة الجائرة التي زعم أصحابها أن عمر نفسه قد وجه أوامره الى فاتح مصر بأن يحرق مكتبة الاسكندرية ، لما تنطوي عليه من علوم الكفار ، (وذلك على الرغم من أن ما نهى عنه عمر ـ حقيقة ـ هو الرجوع الى كتب النصارى في الأمور الدينية الخالصة ، لأنه يعتقد أن مالدى المسلمين من دينهم

يكفيهم ، وعلى الرغم من أن مكتبة الاسكندرية لم يكن لها وجود حين فتح العرب مصر) ، وليس هنا مكان النظر والتحقيق في هذه الاقوال ، لكن من الثابت أن دخول التراث اليوناني الى العالم الاسلامي لم يتم اطلاقا على النحو الذي تصوره هذه الرواية الخيالية ، بيد أن تصديق هذا كله يتولد عنه عمليا الموقف التالي : اذا كان الفكر الغربي الغازي صورة من صور الحرب التي تهدف الى قهرنا وارغامنا على الخضوع لارادة الخصم ، فان من الحكمة أن نغلق الأبواب والنوافذ في وجه كل عناصر الغزو ، وأن نعلن حربا شعواء على التلوث الفكري والغزو الثقافي ، وأن تكون الحرب الشاملة على كل الانجازات الثقافية التي تصدر عن الآخرين ، ثم نرتد الى حدود عالمنا الخاص وذاتنا التاريخية .

قوة الوجود

ان هذا النمط من المحاكمة لايتفق مع ما يحدث في الواقع ، والغزو الثقافي نفسه لايتم على هذا النحو ، فالواقع هو أن الثقافة الغازية ، لم تصنع أصلا من أجل أن تغزو الآخرين ، وانما صنعت من أجل الاستجابة لحاجات ابنائها قبل كل شيء ، أي من أجل أن تستهلك محليا ، والمنتجون لها يتوخون المنفعة ، أما مبدعوها فانهم سيتوقفون عن الابداع في اللحظة التي لاتلاقي بضائعهم القبول والرضا ، وتكف عن ادرار الربح المرغوب . والحقيقة أن سمة الغزو التي يمكن أن تكتسبها هذه المنتجات تأتي من شيء آخر تماما ، هذا الشيء هو (قوة الوجود) في هذه الثقافة ، وقدرتها على الانتشار الكوني في المواطن التي تقابل فيها (قوة وجود) أخرى ضعيفة أو متداعية . لاشك أن هناك منتجات ثقافية (مثل الأفلام أو الكتب) عدائية أصلا ، أو فاسدة أخلاقيا ، تهدف الى الطعن في الآخرين ، والحاق الأذى بهم ، كما هو حال كثير من الأفلام الامريكية ، لكن ليس هذا هو أصلا مضمون ثقافة الغزو على وجه التحديد ،لأن ثقافة الغزو هي تلك التي تستطيع أن تتسرب بشكل سلمي وادع تحت ستار الغرابة والامتاع الى عقر دار (الآخر) ، وتنجح بمقادير متفاوتة في تحويله نفسيا وثقافيا الى ثقافة تلك المبدعات ، دون أن تعلن أي هجوم صريح مباشر على القواعد الاجتماعية والاخلاقية والفكرية للارض المغزوة ، والمنجزات الصريحة في عدائها ، الشرسة في أذاها ، تخضع عادة لقرار الرقيب بالمنع أو الاتلاف أو تحديد التداول أو غير ذلك من الاساليب .

فاذا كانت ثقافة الغزو تتسرب بفعل (قوة الوجود) المحركة لحضارة الغزو أو ثقافته فمن الطبيعي اذن ألا يكون الارتداد الى الذات والتاريخ ، والاعتصام بها ، طريقة ملائمة من أجل تجنب الكارثة ، كما أن اغلاق الابواب واعلان الوطن منطقة (حراما) ، وتسويره باجراءات شكلية أو مصطنعة ، لن يكون وحده كافيا من أجل تجنب الآثار المترتبة على ذلك الغزو ، لأنه كي تتم عملية من هذا النوع على نحو كاف ينبغي أن تكون التضحية تضحية كاملة بحرية المعرفة وحرية الاتصال والانتقال ، وحرية التفكير بوجه عام ، وليس هذا هو الثمن الأفضل ، لأن الحقيقة هي أن المسألة برمتها ترتد في ذاتها الى ما يمكن أن أتفق مع باول تيليش على تسميته « مواجهات قوى الوجود » من ناحية ، وقوة الوجود التي نرتد اليها ونعول عليها من ناحية أخرى ، فاذا كانت (قوة الوجود) هذه قاصرة ماديا وتقنيا ، وواهنة فاترة ثقافيا وأخلاقيا ، فان مسألة رد الهجوم لن تجد لها حلا في عملية الارتداد الى ذات غير فاعلة ، والى تاريخ غير حي ، والى تراث غير ماضي التأثير ، وفضلا عن ذلك فان أي كلام على ثورة « ثقافية » في ظروف الحصار التاريخية الراهنة لن تزيد المسألة الا بلبلة واضطرابا ، لأن (قوة الوجود) الواهنة المعطوبة المفرغة من ذاتيتها الحية لن تستطيع انتاج شيء فاعل ، ولن يقدر لها النجاح في مجابهة (قوة الوجود) الحائزة على جميع أسلحة الغلبة والقهر .

البحث عن مخرج

ما المخرج اذن ؟ انه بكل تأكيد لايكمن في أن نلقي بأنفسنا في أحضان قوة الوجود الغالبة ، وفي الانصياع لمنطقها الطاغي ، ولا هو يتمثل في أن ندير ظهورنا للغالب ، اذ أن الغالب لن يتيح لنا هذه الفرصة ، وسيقول لنا دوما أننا في حاجة اليه لكي يحمينا من أعدائه (الآخرين) ، فضلا عن أنه بمنطق غلبته لن يرضى بأن تفلت من يده ثمار غلبته . فما

الذي يتبقى اذن ؟ الذي يتبقى هو المجابهة فحسب ، والمجابهة تعني اعادة بناء (قوة الوجود) الذاتية ، أو ـ على نحو مباشر ـ بناء (قوة وجود) حقيقية تقوى لاعلى المقاومة والصمود فحسب ، وانما على الاندفاع والملاحقة والفعل المؤثر .

أما في حالة الصراع المباشر المشخص فان ما يقوله كلاوزفيتش هو الصواب : « من أجل أن تتغلب على الخصم لابد أن نفحص مدى التناسب بين جهودنا وكفاياتنا من جهة ، وبين قدرته على المقاومة من جهة أخرى ، أما القدرة على المقاومة ، فانها نتاج عاملين لاانفصال بينهما : حجم الوسائل المتوافرة ، وشدة العزم » وان شئنا أن نستخدم مصطلحا يفصح عن المسألة على نحو آخر يكون أثيرا لدى باول تيليش ؛ أوردنا مصطلح (قوة الوجود) الذي يعني في نهاية التحليل « التأكيد الذاتي للحياة في دينامياتها المتجاوزة لذاتها » ، وأن الوجود في النهاية هو يمثل قوة الوجود التي تتجلى في غمار التطور الذي تتحقق فيه ، وفي مجابهتها لقوة وجود أخرى ، وكل مواجهة بين شخص قوة وجود وبين شخص آخر يمثل قوة أخرى تفترض معرفة (كم) القوة المتجسدة في كل منها وهي معرفة لايمكن أن تتكشف الا بالمواجهة الفعلية التي تتخذ أشكالا مختلفة وعلاقات متباينة ، مثل علاقات الاندفاع ، والانسحاب ، والاستيعاب ، والرفض ، والتوحيد ، والانفصال أو مثل مقولات التحدي ، والاستجابة ، والانسحاب التي شهُر بها توينبي ، والواقع في رأيي ، أن مسألة « الغزو الثقافي » ـ وهو ما أميل الى تسميته « الانتشار الثقافي » لقوة الوجود ـ لايمكن أن تفهم فهما حقيقيا نيرا الا ضمن « علاقات المجابهة » هذه ، وهي علاقات لاتحدث بين الأفراد فحسب ، وانما أيضا بين الانسان والطبيعة ، وبين الافراد والجماعات ، وبين جماعات وجماعات .

أهمية المجال

ويمكن أن نعبر عن واقع المسألة بصيغة أخرى أكثر تبسيطا ، فنقول ان قضية الافكار الدخيلة أو الوافدة أو المستوردة لايمكن أن ينظر اليها الا من حيث أنها صورة من صور صراع الأفكار والمجابهات الثقافية المجتمعية ، وهي صراعات ومجابهات لامفر منها ، طالما أن ساحة الوجود ستظل مرتعا لقوى الوجود المتجابهة ، ومن بين جميع علاقات المجابهة تبدو علاقتا الاستيعاب من جهة والتوحيد والانفصال من جهة ثانية علاقتين يمكن التعويل عليهما ، بشرط أن يفهم من علاقة الاستيعاب الدمج والتجاوز ، ويفهم من علاقة التوحيد والانفصال الضم والتوحد بالعناصر « الوافدة » والانفصال عن خصوصياتها الاصلية ، والتميز بالخصوصيات الذاتية للانسان « الموحد » أو للثقافة الموحدة ، وذلك في عملية تشبه عملية التأصيل والحداثة في الآن نفسه .

بيد أن للمسألة وجها آخر لاينبغي اغفاله ، وهو أنه اذا كانت مسألة الغزو الثقافي أو الفكري هي صورة من صور المجابهة الثقافية المجتمعية بين قوتي وجود متقابلتين أو أكثر ، عجزت احداهما عن ارغام الأخرى على الرضوخ بالقوة المادية ، فلجأت الى الارغام قصدا أو طبعا « بقوة الانتشار الثقافي » ، فانه ينبغي أن نلاحظ أن هذه المجابهة مرتبطة ارتباطا وثيقا جوهريا بما يسمى في الفكر الاستراتيجي (المجال) .

ونظرية المجال على الرغم من قدمها النسبي تظل صحيحة مفيدة ، على الأقل فيما يخص تحليل المسألة التي ننظر فيها هاهنا ، والأصل الذي يقرره (الاستراتيجيون) يرتد الى القول أن أساس قوة الجماعة بأسرها يتمثل في ذلك المجال أو الفراغ الذي ينبغي أن تتيحه لذاتها ، فالوجود القوي يعني امتلاك المجال ، أو بصورة أدق افساح المجال أو الفراغ لذات المرء أو الدول أو جماعات القوة ، وذلك هو سبب الأهمية الفائقة للمجال الجغرافي ، وللقتال من أجل حيازته من جانب كل جماعات القوة ، والأمثلة هاهنا كثيرة صارخة ، لعل أقربها الينا ذلك القتال الذي تشنه الصهيونية ، بعد أن امتلكت مجالها الخاص في فلسطين ، وجسدت قوتها في « دولة « اسرائيل » التي مالبثت أن أفصحت عن قوة وجود بالغة الشدة والخطورة في ذاتها ومن حولها . ان ضرورة حيازة المجال تضرب جذورها عميقة في طبيعة قوة الوجود التي تستند اليها ، أما الهدف الحقيقي في اجتياز المجال فانه يكمن عموما في جذب المجال الى مجال قوة أكبر ، وحرمان (الآخر) من قوته الوجودية الذاتية ، بارغامه على الانضواء في مجاله الخاص الذي يتطلع على الدوام الى تعزيزه وترسيخ جذوره في الأرض .

ليس المجال الجغرافي هو وحده الذي يضفي القوة على وجود ما ، ويعزز هذه القوة ، فثمة ايضا المجال الاقتصادي والمجال الثقافي ، وفي حالة هذا المجال الأخير تتبلور قوة الوجود في التوسع الفني ، ونشر العلوم والأفكار والرموز الحضارية والتقنيات ، وفي بعض الحالات القصوى تتخذ الأمور شكل حالة (الاستعمار) الطاغي ، ونحن لسنا في حاجة الى بصيرة نافذة من أجل أن نتبين أن المثل الامريكي في أيامنا هذه يفقأ الابصار في اعلانه عن هذا الطغيان ، وعن هذه الغطرسة المتعطشة الى احتواء العالم والهيمنة عليه عسكريا وثقافيا في الآن نفسه مما يعكس نزوع المجال الى حالة (الاستعمار) الصريح .

وما (الحلم الأمريكي) الذي يريد أن يري الكون كله خاضعا لمملكة « الرب » الأميركية ـ قد خلصته ملائكة الرحمة التي ينشرها في كل مكان من شروره ، وآثامه وبربريته ـ الا صورة لمدى تطلع المجال الامريكي الى ضم المجالات الأخرى اليه ، وممارسة ضرب من السيادة الالهية على الأرض ، ومنذ أن هتف تيودور روزفلت في عام ١٨٩٨ قائلا :

« قدَرُنا أمركة العالم » والرياح الأمريكية تعصف بالعالم ، عسكرا وتقنية وثقافة ، وليس يقف في وجه هذه الرياح الا رياح أخرى ، على سبيل المنافسة والتحدي من أجل انتصار (ايديولوجية) مضادة تنشد هي بدورها المجال الخاص لقوة وجودها الذاتي ، وهذا أمر طبيعي ، لكن ما ليس طبيعيا هو أن تسقط القوى الواهنة من حسابها شروط وجودها الذاتية ، وتحاول أن تتقوى بعمليات تقمص كامل غير مشروط لهذه الثقافة أو تلك

خلاصة

ما الذي يمكن أن نرتبه على ما مر من تحليلات ؟ هناك عدة أمور :

أولها : ان مفهوم (قوة الوجود) يستحق أن يتصدر كل المفاهيم الأخرى في ساحة الحياة ومسارها ، وقد يجوز لنا أن نتبين تجسيدا صريحا لهذا المفهوم في الاندفاعية التاريخية للاسلام نفسه ، وذلك حين تحددت قوة الوجود الاسلامية في دفع (الروح) الدينية للقوى العربية ، وفي تعزيز هذه القوى بما استوعبته في حركتها التاريخية الحية ، من قوى وجودية أخرى مادية وثقافية ، يونانية وفارسية وهندية ، وبما انفصلت به عنها وتميزت من خصوصية وذاتية .

ثانيها : ان مسألة الثقافة والثقافة الدخيلة تجد لنفسها الوضع المناسب في هذا المنظور ، وذلك أن قوة الوجود المندفعة الى الأمام ليس لها أن تخشى المباين أو الدخيل أو الوافد ، فهي تستوعبه وتتميز عنه في الوقت نفسه فتتجاوزه ، أي تدمجه في ذاتها وتتوحد به وتتخصص ، وقوة الوجود الواهنة المحكومة بعلاقات الانسحاب والرفض هي وحدها التي تنتابها (فوبيا الغزو الثقافي) فتتوجس خيفة من كل غريب ، وتأباه ، وتتكره وتفزع منه ، وتعتبره غزوا خارقا ، بينما هو في الحقيقة صورة من صور انتشار قوة الوجود لدول أو جماعات أو حضارات صاعدة . ان صرخة الفزع من « الغزو الثقافي » علامة على حال أناس يحتضرون ، أو يتوقعون أن ساعة احتضارهم قد أزفت، أما القوى الصاعدة الحية ، فانها تعلن عن صرخة الدهشة والفرح بالجديد ، وتتأهب لاستيعابه ، وتنقيته وتجاوزه .

ننظر الى مواقف الأوائل مثل الكندي وابن رشد ، والى مواقف الأمم والثقافات المغايرة أو المباينة ، فنشعر أننا أمام حضارة واثقة مطمئنة، يحركها الأمل والرجاء ، وننظر الى مواقف معاصرينا من الاتباعيين الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى غيرهم ، فنحس أننا أمام ثقافة ترتعد فرائصها خشية الغرق أو الموت .

ثالثها : ان قوة الوجود المندفعة « المنتشرة » ستصل بسهولة أيسر الى غايتها ، أي ستتحقق تحققا أيسر وأكمل اذا ما لقيت أمامها حالة استلاب ثقافي كف الانسان فيها عن التفكير والعمل بدءا بالمعطيات الذاتية المشخصة لأوضاعه ، واختار أن ينظر في أموره وقضاياه بأفكاره ، ومقولات ومناهج هي نبات لأوضاع أخرى غير مماثلة .

آخرها أن حالة قوة الوجود المرابطة ، لايمكن أن تتشخص بعيدا عن ثقافة متميزة بنظرتها الخاصة الشاملة الى العالم،ونظرتها هذه نشطة حية متحدرة في التطلعات العميقة الأصيلة لاصحابها ، و فاعلة مشحونة بارادة الوجود ، وبالوعي الأخاذ بأن الحياة أمر تشتهيه نفوس الافراد والأمم على نحو أصيل،وبأن هذه الحياة تستحق فعلا أن تعاش على نحو فذ متفرد . □

الجديد في العلم والطب

علاج الأمراض العصبية .. بات قريبا

نجح علماء اليابان في تحديد بنية أهم البروتينات ذات الصلة بالاعصاب .. ورسائلها أو اشاراتها ..

ومعنى هذا أن البحث عن العقاقير الفعالة للاعصاب ولشبكات رسائلها سينشط كثيرا ، ويبشر بنتائج ايجابية يحرزها في مستقبل غير بعيد .

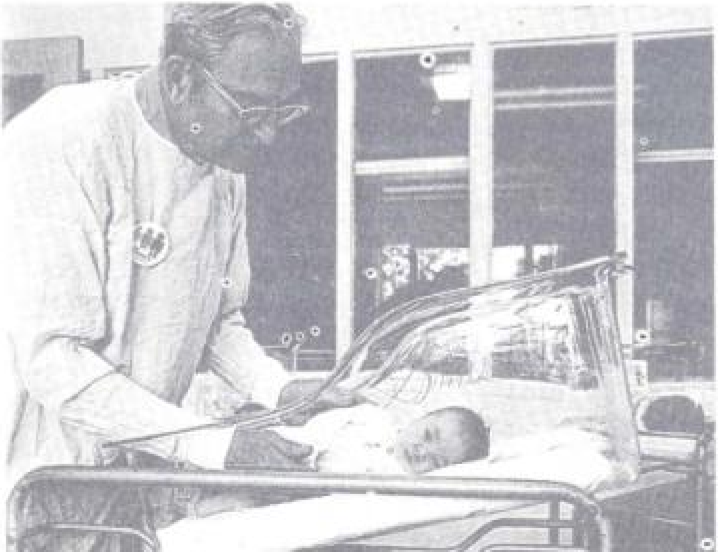
جاء ذلك في تقرير مفصل نشرته مجلة ناتشر في شهر اكتوبر ١٩٨٦ لفريق من العلماء اليابانيين يعملون في أربع مؤسسات علمية مختلفة ، وقد وصفوا في تقريرهم هذا المتقبل المسكراني muscar-inic receptor التابع لمادة الكولين الأسيتيل وهي المادة المنتشرة في المخ وفي الجهاز العصبي المركزي .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

كحل العيون سم في الدسم

درج العرب على كحل عيون أطفالهم منذ القدم ، فقد وجدوا في العيون الكحيلة جمالا حظي بإعجاب الشعراء والأدباء في كل زمان ومكان ، واعتقدوا أن في الكحل شفاء . يقول لسان العرب : الكحل هو ماوضع في العين يشتفى به .

وجاء العلم الحديث ليصدر حكما في ذلك ، بل قل ليثبت أن في الكحل سما لاشفاء ، فهو يحتوي على مادة (الجالينا) اللماعة ، ومادة (الجالينا) هذه لاتعدو كونها رصاصا ، أي أنها من أخطر الملوثات السامة التي عرفها الإنسان في تاريخه الطويل ، وحسبك أن سقوط الامبراطورية الرومانية نفسها يُعزى لأسباب مختلفة كان من بينها التسمم بالرصاص ، فقد استعمل أباطرتها ونبلاؤها الأواني الرصاصية لشرب النبيذ ، فما لبث أن انتشر الرصاص في أجسامهم ، وكانت مقاديره الضئيلة كافية



الدكتور جوثري وبين يديه أحد الأطفال الذي حرص أبواه على كحل عينيه ، قدما له السم في الدسم .

لإحداث اختلال في تصرفاتهم ، فضلا عن تقصير أعمارهم .

حقا لم يعرف عن الرصاص أنه ملوث سام إلا في السنوات الأخيرة ، فقد اكتشف العلماء أنه يسبب البطء في التفكير ، والاختلال في السلوك ، واتخاذ القرارات ، وأنه قد يؤدي الى الموت في بعض الأحيان ، واكتشفوا أيضا أنه أسرع وأعمق أثرا في الصغار منه في الكبار ، وأنه يتسرب إلى دم الإنسان من حيث لايدري ، فقد يأتيه من أواني الرصاص التي تستعمل في الأكل أو الشرب ، وقد يأتيه أيضا من الأصباغ التي صبغت بها جدران المنزل ، والتي يدخل الرصاص في صناعاتها ، وقد يأتيه كذلك من أنابيب الماء الجاري ، فقد كانت تصنع من الرصاص حتى قرروا حظرها ، وحظر الأصباغ . إن في الكحل الذي يكحلون به العيون من أجل جمالها وسلامتها سما قاتلا وبخاصة للأطفال الصغار ، إنهم يقدمون السم في الدسم لأولئك الأطفال الأبرياء عندما يزينون عيونهم بالكحل .

الدكتور جوثري بروفسور طب الأطفال في جامعة نيويورك بمدينة بوفالو ، صاحب الفضل الكبير في استكمال فحوص الرصاص في الولايات المتحدة ، يقول : (لقد أجرينا الفحوص والتحاليل الخاصة بتحديد مقادير الرصاص الموجودة في الدم ، وقد أجريناها على عدد كبير من الأطفال من أبناء بلدان جنوب آسيا والشرق الأوسط ومن ضمنها الكويت ، فوجدنا ارتفاعا ملحوظا في نسبة ما يحتويه الدم من الرصاص في أولئك الأطفال) .

ويدعو الدكتور جوثري إلى اتخاذ كافة الاجراءات الكفيلة بالقضاء على عادة كحل العيون ، ثم استدرك وفطن الى أنها عادة راسخة الجذور ، وأن لاسبيل الى استئصالها والقضاء عليها نهائيا إلا بالإرشاد والتعليم والتوعية على المدى البعيد .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

المادة العلاجية في الديكة

من المعروف أن عرف الديك يحتوي على مادة فعالة تجدا في معالجة عدد من الأمراض ، تعرف باسم حامض (هيالورونيك) ، ومن المعروف أيضا أن المقادير التي يحتويها عرف الديك من الحامض المذكور ضئيلة جدا ، لا تتعدى غراما واحدا في كل خمسة كيلوجرامات ، وهذا المقدار في عرف ديك يبلغ من العمر ستة أشهر . لهذا كان غلاء حامض (الهيالورونيك) الفاحش ، فإن ثمنه ١٥ مليون دولار للكيلوجرام الواحد ، ولهذا أيضا كانت الصعوبة التي تحول دون الاستفادة من هذا العلاج بالقدر الكافي ، وتجدر الإشارة إلى أن حامض عرف الديك يوجد طبيعيا في سائل العيون وسائل العظام ، كما يوجد أيضا في المفاصل والجلد والحبل السرّي وقد استعمله جراحو العيون حيثما



يظهر عرف الديك فوق رأسه كالقبعة .

وجدوه ، واستعمله أطباء البيطرة لحقن ركب خيول السباق التي تعاني من التهاب المفاصل . إن أمراضا أخرى عديدة يمكن معالجتها لو أصبح في الإمكان توفير حامض (الهيالورونيك) بكميات كافية من فوائده معالجة الجروح ، والشفاء السريع من الحروق ، فهو يمنع البكتريا من التسرب إلى الحرق ، لكنه يسمح للاوكسجين بذلك ، والأوكسجين ضروري لشفاء الجلد كما لا يخفى ، والبكتيريا ضارة به . والحامض المذكور مرطب ، جاذب للماء ، يحول دون جفاف الجلد حين تعالج به الحروق ، نافع في علاج الجلوكوما وغيرها من أمراض العيون ، . . يمكن استعماله كحامل للمستحضرات (الكورتيزونية) وغيرها ، قادر على التغلغل بها إلى داخل المفاصل لتحد من آلام التهابها .

لا عجب إذن إن كانت الشركات الصناعية في سباق للحصول على حامض (الهيالورونيك) بطريقة أو بأخرى .

نجحت شركتان في تصنيع هذا الحامض بمقادير كافية بواسطة أساليب الهندسة البيولوجية ، إحدى هاتين الشركتين انكليزية ، وهي شركة (فرمنتك) ، والأخرى أمريكية ، وهي شركة (دياجنوستك) التي ظفرت مؤخرا بترخيص من وكالة الغذاء والدواء لإنتاج الحامض السالف الذكر بأساليبها الخاصة ، وباستعماله في الجراحة تحت اسم (فسكوت) .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

النقاهة ضرورية

أجرى مستشفى كولمبس للاطفال (في اوهايو) دراسة للمضاعفات التي تعقب عمليات استئصال اللوزتين ، لاسيما في الأطفال . . وقد أثبتت الدراسة التي استغرقت سنتين ، والتي شملت ٢٩٤٤ طفلا كانوا من الذين اجريت لهم العملية ، أثبتت أن الكثير من تلك المضاعفات (١٤٪) كان سببها تعجّل الخروج من المستشفى ، وأن في الامكان تجنب تلك المضاعفات لو لم يسمح للأطفال بمغادرة المستشفى في نفس اليوم الذي اجريت لهم العملية فيه . . وأثبتت الدراسة أيضا أن (٢٠٪) من الأطفال فقط يستطيعون مغادرة المستشفى في يوم اجراء العملية بالذات . . أما الباقون (٨٠٪) فيستحسن بقاؤهم في رعاية الأطباء يوما آخر في أقل تقدير .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

حبوب شبه مثالية لتحديد النسل

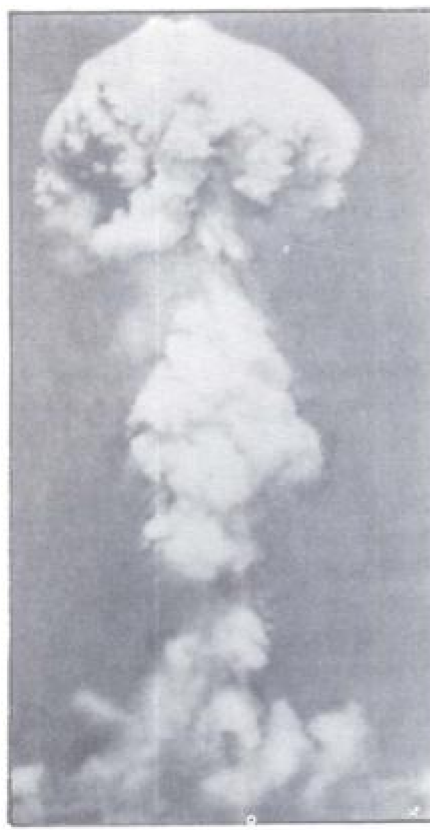
أحرز العلماء الفرنسيون نجاحا كبيرا في تطوير حبوب جديدة لمنع الحمل ، تفوق كثيرا كل ما عرفته النساء من حبوب قديمة . جاء هذا الخبر في تصريح للدكتور برزلاتو ، أحد كبار المسؤولين في منظمة الصحة العالمية الذي أكد أن الحبوب الجديدة ستنزل إلى الأسواق في غضون سنة ، أي قبل الخريف المقبل سنة ١٩٨٧ .

تتميز الحبوب الجديدة بأنها تبطل الحمل حتى إذا تم ، فحبة واحدة منها كفيلة بإتلاف البويضة الملقحة ، وإحداث الطمث ، وهي كفيلة أيضا بتنظيم دورة الطمث الشهرية ، وإعادتها إلى طبيعتها ، خلافا للحبوب القديمة التي تسبب كثيرا باضطراب تلك الدورة ، وعدم انتظامها . أضف إلى ذلك أن الحبوب الجديدة لا تفقد فاعليتها إذا تناولتها المرأة بعد الجماع . لكن ليس لهذه الحبوب اسم تعرف به حتى الآن سوى الرمز (٤٨٦) .



سلامة البشرية في سلامة البيئة

التعرض للغبار الذري يسبب الاصابة بالسرطان



انفجار القنبلة الذرية يسبب سحابة من الغبار الذري

شاع الاعتقاد بين العلماء أن التعرض للغبار (أو الاشعاع) الذري يؤدي الى الاصابة بالسرطان .. ولكن هذا الاعتقاد الذي افتقر الى دليل علمي ما لبث أن تحول الى حقيقة علمية مؤكدة ، تمخضت عنها دراسة ميدانية واسعة .. وكانت مصلحة الوقود النووي في بريطانيا هي التي كلفت نخبة من المتخصصين بالقيام بهذه الدراسة التي شملت (١٤٠٠) نسمة يعملون في محطات توليد الطاقة النووية في سلافيلد في بريطانيا . والتي استغرقت نحو ٣٠ سنة (١٩٤٧ - ١٩٧٦) .

لقد أثبتت هذه الدراسة أن التعرض للاشعاع الذري يضاعف احتمالات الاصابة بامراض سرطانية ثلاثة هي :

سرطان الدم (اللوكيميا) ، وسرطان المثانة ، وسرطان نخاع العظام .

طبقة الاوزون في خطر

يبدو أن الفجوة أوالفتحة التي اكتشفها العلماء في طبقة الاوزون في جو القطب الجنوبي آخذة في الاتساع .. لقد اكتشفوها سنة ١٩٧٩ وهم يؤكدون أن تفاقمها ينذر بمخاطر قد يتعرض لها جنوب الارجنتين عما قريب .

فقد تتسع الفتحة المذكورة بقدر يسمح للاشعة فوق البنفسجية بالتسرب بمقادير كبيرة قد تهدد بالخطر سكان الارجنتين في مناطقها الجنوبية القريبة من القطب الجنوبي .

ومما يذكر أن فتحة طبقة الاوزون هذه تظهر بوضوح في شهر اغسطس من كل عام . . ثم تأخذ بالاتساع في شهور الخريف حتى اذا حل شهر نوفمبر انكمشت واختفت وكأن شيئا لم يكن .



عودة الى الوحش الأسطوري . . نسي

ما زال البحث جاريا على قدم وساق عن (نسي) وحش بحيرة نس في اسكتلندة . . فالعلماء واثقون من وجود هذا الوحش في أعماق البحيرة ، وقد التقطت له أكثر من ٣٠٠٠ صورة منذ بداية الاهتمام به سنة ١٩٣٣ . . ولكنهم عجزوا حتى الآن عن صيد الوحش أو حتى عن اقامة الدليل العلمي القاطع على وجوده . . .

نقول حتى الان ، لان أجهزة السونار الجديدة التي بدأوا يستعملونها في حملتهم الجديدة (حملة أو مشروع مورار) تبعث على الشعور بأن الوحش المخادع لن يفلت من أيدي العلماء هذه المرة .

المبيد الأصيل

اكتشف العلماء الباحثون في وزارة الزراعة الأمريكية ، مبيدا فعالا وآمنا يضمن القضاء نهائيا على الصراصير . . اكتشفوه بل اكتشفوا خامته الأولية في رؤوس الصراصير نفسها . فالمواد الكيماوية الطبيعية التي عثروا عليها في رؤوسها تشمل مادة لها أثران ، أثر المبيد وأثر تحديد النسل ، أما المادة التي نجحوا في تطويرها من تلك الخامة فقد ثبتت قدرتها على الفتك بالصراصير وقتلها على الفور . . وتجدر الاشارة الى أن العالم الذي تسنى له اكتشاف الخامة ، ومبيد الصراصير الفعال قد أمضى نحوا من ٢٢ سنة في دراسة الصراصير، واسمه بنيامين كوك .



الرياض

مدينة زرقاء اليمامة

استطلاع : صادق يلي

من زار الرياض قبل ثلاثين سنة ، ثم زارها في الآونة الأخيرة ، يدهشه التطور الكبير الذي حققته المدينة ، والنهضة العمرانية الملفتة للنظر ، وأكثر مايثير الاعجاب هو أن يتم ذلك كله في هذه المدة القصيرة من الزمن . . .





قد تكون الرياض ـ عاصمة المملكة العربية السعودية ـ إحدى العواصم العربية التي ليس لها تاريخ قديم ، كما هو الحال بالنسبة لعواصم عربية أخرى ، مثل بغداد ، أو دمشق ، أو القاهرة ، تلك المدن التي لعبت دورا بارزا في التاريخ العربي الاسلامي ، فالرياض مدينة حديثة لم يتجاوز عمرها الزمني قرنا ونصف قرن من الزمان ، منذ أن اتخذها الامام تركي بن عبدالله بن سعود ، مؤسس الدولة السعودية الثانية في عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) عاصمة لمملكته ، ومع ذلك فإن كتب التاريخ والرحلات حينما تتحدث عن منطقة نجد ، أو منطقة اليمامة ، تورد لنا قصة تلك الفتاة العربية التي تدعى زرقاء اليمامة ، التي يضرب بها المثل في حدة البصر ، ورؤية الأشياء من مسافات بعيدة ، وتشير هذه الكتب إلى أن منطقة اليمامة (وعاصمتها مدينة تدعى حجر) هي الآن نفس المنطقة التي تقع فيها الرياض اليوم ، وقد كانت هذه البقعة مكانا ملائما للاستيطان البشري ، من حيث المناخ ، ووفرة المياه ، والموقع (الاستراتيجي) عند ملتقى واديين ، هما وادي حنيفة ، ووادي البطحاء . وقد نبه الرحالة الفارسي ناصر خسرو ـ في كتابه (سفرنامة) ـ إلى وجود مدينة حصينة ، محاطة بأسوار دفاعية ، تضم مسجدا جميلا ، وسوقا كبيرة ، تدعى مدينة حجر ، ثم أتى الرحالة العربي ابن بطوطة ، وتحدث عن هذه المدينة ، ووصفها بأنها خصبة ، ذات مياه وفيرة ، ونخيل يانع ، أما العلامة السعودي الأستاذ حمد الجاسر فيذكر في كتابه « مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ » أن اسم الرياض بدأ يحل تدريجيا محل اسم حجر في القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد ضمت هذه المدينة الجديدة البقية الباقية من المدينة القديمة ، والأراضي المحيطة بها ، وحدائقها .

الرياض مركز ثقل

شهد التاريخ المدني في شبه الجزيرة العربية تبدلات ، وتغيرات ، في مراكز الثقل البشري ، فقد كانت مدن ساحلي البحر الأحمر والخليج العربي هي الأكثر نشاطا ، والأقوى جذبا في الماضي ، وبخاصة تلك التي تحاذي البحر الأحمر ، مثل مدينة جدة التي كانت عاصمة سياسية للمملكة ، لكن نظرا لتعاظم دور الرياض في خلق وحدة المملكة السياسية ، بفضل موقعها الجغرافي المركزي ، ثم العوامل التاريخية ، والسكانية ، فقد عززت اختيارها عاصمة للمملكة ، أضف إلى ذلك أنها احتفظت بمكانة خاصة في تاريخ الأسرة السعودية ، ومآثر موحدها الملك عبدالعزيز بن سعود . فالرياض اليوم تحتضن مؤسسات الحكومة ، والادارات الكبرى ، ومراكز المؤسسات المالية ، والتجارية ، والصناعية الرئيسية ، وقد أدى ذلك إلى منحها المكانة العليا في نظام المواصلات ، حيث ارتبطت بشبكة طرق ، وخطوط مواصلات جوية ، وبرية ، وبفضل تلك الانجازات الكبيرة أصبحت ملتقى جميع المدن ، والتكتلات السكانية التي تؤلف بنية المملكة المدنية ، ولقد أولاها المسؤولون اهتماما كبيرا ، مما جعلها المدينة الأولى في المملكة . في عهد الملك الراحل سعود بن عبدالعزيز أنشئت فيها مباني الوزارات والدوائر الحكومية ، وفي عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٥م تم نقل الوزارات إليها ، ثم نقلت إليها وزارة الخارجية من مدينة جدة ، ثم تم نقل السفارات والهيئات الدولية والاقليمية إليها تباعا . .

إن السمات الجديدة لمدينة الرياض أكثر من أن تحصى ، فنسب النمو المتزايدة التي تحققت في مرافق البلاد ، تغطي كافة مجالات الحياة المدنية ، والتجارية ، والاسكانية ، والتعليمية ، والخدمات الهامة وغيرها .

من جدة إلى الرياض

بقيت مدينة جدة تحتضن وزارة الخارجية والبعثات الدبلوماسية منذ أن توحدت المملكة العربية السعودية تحت قيادة الملك الراحل عبدالعزيز آل سعود ، وقبل سنتين تم نقل وزارة الخارجية إلى الرياض العاصمة .

مبنى وزارة الخارجية يقع على مساحة مقدارها ٨٤ ألف متر مربع ، ويعكس تصميم هذا المبنى ـ بشكل حديث ـ الفن المعماري الاسلامي التقليدي ، مع مراعاة تحقق الهدف الرئيسي من إنشائه ، ويحيط به كثير من المعالم مثل بوابة العاصمة ، وقاعة المؤتمرات ، كما روعي في التصميم الداخلي أن يكون

ملائما لكل جهاز إداري من أجهزة وزارة الخارجية ، ويضم المبنى - بالاضافة لأجهزة الوزارة - معهد الدراسات الدبلوماسية ، وقاعة الاستقبالات الرئيسية ، وغرف الاجتماعات ، وقاعة مجلس التعاون الخليجي ، وقاعة محاضرات لأغراض عديدة ، ومكتبة كبيرة تحتوي على الوثائق والكتب والمخطوطات المهمة ، ذات الصبغة التاريخية .

ولم ينس المسؤولون بعد انتقال وزارة الخارجية إلى الرياض الحاجة الملحة لبناء مجمع سكني لموظفي الخارجية ، وقد بوشر ببناء حي سكني يستوعب ٣٦٠٠ نسمة ، موزعين على ٦١٢ وحدة سكنية ، منها بيوت مستقلة ، وأخرى متلاصقة ، وعمارات متعددة الأدوار ، كما روعي في المباني توفير المتطلبات الاجتماعية ، والثقافية ، المناسبة للسكان على اختلاف فئاتهم الوظيفية ، مع إبراز الملامح البيئية العربية ، وتوفير أسباب الرفاهية العصرية . وبالاضافة إلى المباني السكنية هناك مرافق عامة ، ومساحات خضراء ، ثم شبكة طرق .

الحي الدبلوماسي

بوشر في بناء حي سكني للسفارات ، والهيئات الدبلوماسية ، أطلق عليه اسم (الحي الدبلوماسي) ، يقع على مساحة مقدارها ٧ ملايين متر مربع ، ويتسع لاسكان حوالي ثلاثين ألف نسمة ، ويقع على هضبة ذات طابع مميز ، تشرف على وادي حنيفة بجماله الطبيعي ، وعلى الصحراء الفسيحة التي تقع خلفه ، أما أجزاء الحي فترتبط بشبكة من الطرق المعبدة التي يبلغ طولها حوالي ٤٨ كيلو مترا . ومن المقرر أن تكتمل منشآت هذا الحي سنة ١٤١٠/١٩٨٩م ، وسيضم ما يقرب من ٨٠ سفارة ، ويستوعب ١٢٠ بعثة دبلوماسية ، بالاضافة إلى العديد من المؤسسات الاقليمية ، والعالمية ذات الأوضاع المتميزة ، مثل مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، والمعهد العربي لانماء المدن ، وغير ذلك من المؤسسات التي حرصت الرياض على احتضانها ، كما يضم مرافق تعليمية ، وصحية ، واجتماعية ، وغير ذلك من المرافق الضرورية .

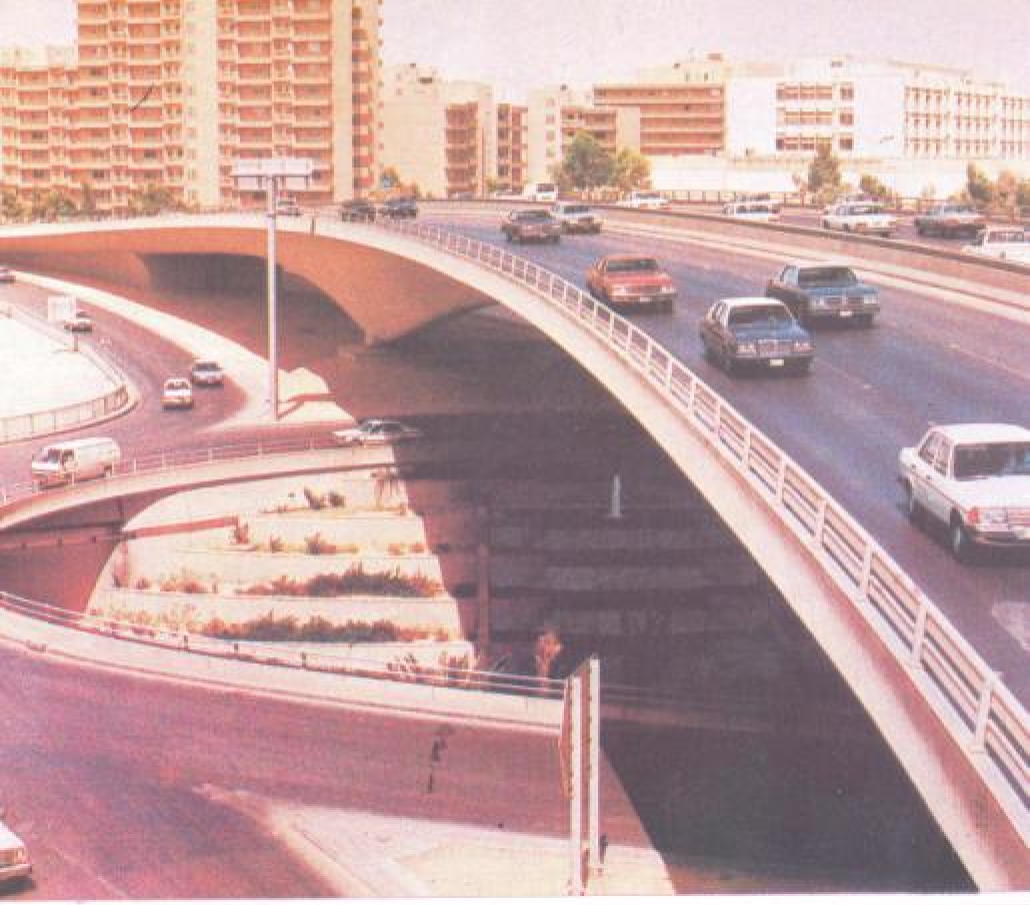
مطار دولي

نتيجة لاتساع مدينة الرياض وازدياد سكانها أصبحت الحاجة ماسة لبناء مطار دولي ، يستوعب هذه الزيادة المطردة ، بدلا من مطارها القديم الذي كان يقع بالقرب من وسطها ، ولم يعد صالحا لاستقبال الطائرات العملاقة التي تشهدها حركة الطيران العالمية في الوقت الحاضر . في المملكة الآن ٢٤ مطاراً ، اثنان منها من أرقى المطارات تطورا في العالم ، هما مطار الملك عبدالعزيز الدولي بمدينة جدة ، ومطار الملك خالد الدولي بالرياض ، ويعد مطار الملك خالد الدولي إحدى الواجهات الحضارية للمملكة ، فهو مجهز لخدمة نحو ١٥ مليون راكب سنويا ، وروعي في تصميمه واختيار موقعه أن يكون ملائما لبيئة المملكة ، وطبيعتها ، يبعد عن العاصمة بنحو ٣٥ كيلو مترا ، مما يجعل الضوضاء والتلوث بعيدين عن المناطق السكنية ، أما تصميمه الهندسي فيعكس التقاليد الاسلامية الأصيلة في فن البناء ، ومن حيث المساحة يأتي في المرتبة الثانية بعد مطار الملك عبدالعزيز الدولي ، كما يمتاز بالكفاءة ، وسهولة الوصول إليه عبر الطرق السريعة المؤدية إلى صالات القدوم والسفر ، ووجود مواقف رحبة للسيارات ، وسلالم متحركة ، وأنفاق خاصة لعبور الركاب من الطائرات وإليها .

يحتل المطار مساحة قدرها ٢٢٥ كيلو مترا مربعا تقريبا ، ومن مرافقه ثلاث صالات كبيرة ، خصصت الأولى للرحلات الداخلية ، والثانية للرحلات الدولية ، والثالثة صالة ملكية لكبار الضيوف ، وهناك مسجد يتسع لخمسة آلاف مصل ، ومدرجان متوازيان للاقلاع والهبوط ، ومواقف للسيارات تتسع لنحو عشرة آلاف سيارة ، ومخازن لشركات الطيران الدولية ، ومبان سكنية ، وفندق كبير . ومن الجدير بالذكر أن تكاليف إنشاء المطار قد بلغت ١١ بليون ريال سعودي .

طرق وجسور وأنفاق

قد أدرك المسؤولون في المملكة أنه من الصعوبة بمكان تحقيق التطور الحضاري والتنموي الشامل مالم









جسر الخليج أحد المظاهر الجمالية في مدينة الرياض ، يبلغ طوله نحو ٢٢٠٠ متر ، ويضم نفقا بطول ٨٠٠ متر . الى اليمين اعلى ـ جامعة الملك سعود أبرز المؤسسات الثقافية في مدينة الرياض الى أعلى ـ وزارة الخارجية آخر المؤسسات الحكومية التي انتقلت من مدينة جدة إلى الرياض العاصمة الى اليمين ـ الحي الدبلوماسي أحد الأحياء السكنية المخصصة لسكن الدبلوماسيين

تكن هناك شبكة من الطرق الحديثة، تربط مناطق المملكة بعضها ببعض، وتسهل إمكانية انتقال المواطن بين المدن والقرى، وكافة أنحاء المملكة.

فكان من بين ما تم إنجازه شبكة طرق حديثة في مدينة الرياض وحولها، منها طرق خارج المدينة، مثل الطريق الدائري الذي يحيط بها، وهو يعطي الفرصة لفك الاختناقات المرورية، ونقل الحركة حول المدينة، وطريق الملك فهد، وجسر الخليج الذي يعتبر من المظاهر الجمالية الرائدة، وهو جسر مزدوج من (الخرسانة) المسلحة المسبقة الاجهاد. يبلغ طوله ٢٢٠٠ متر، وعرضه ٣٧,٥ مترا، ويضم نفقا بطول ٨٠٠ متر، وهذا الجسر يساعد على انسياب حركة المرور في المدينة، كما يقدم خدمات لعدة أحياء منها، ويربط مداخل شبكة الطرق السريعة، وهو يمثل جزءا من الخط الدائري الممتد من الشرق إلى الغرب. على هيئة طريق سريع، يؤمن حركة سير مستمرة عبر وسط العاصمة، ويعد جسر الخليج من المشاريع العملاقة، بالاضافة إلى أنه معلم حضاري كبير، وطريق ديراب الذي نفذ على أحدث النظم في إنشاء الطرق والجسور، وطرق داخلية قامت أمانة مدينة الرياض بتنفيذها، بلغ إجمالي أطوالها ٦٥٠,٥ كم.

جامعة الملك سعود

على الرغم من أن التعليم الجامعي بالمعنى العصري حديث العهد في المملكة العربية السعودية، إلا أن فكرة التعليم العالي كانت متوافرة منذ فترة ليست بالقصيرة، فكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة بدأت في عام ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٩م، وتعد هذه الكلية أول صروح التعليم العالي، أما الآن ففي المملكة سبع جامعات، موزعة على المدن الرئيسية، وهي الرياض، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة، والدمام، والظهران، وجدة، أما الرياض ففيها جامعة الملك سعود التي افتتحت في ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٨م، وقد بدأت بأربع كليات هي الآداب، والعلوم، والتجارة، والعلوم الادارية، ثم أضيف إليها كلية الصيدلة، ثم ألحقت بها كليتا التربية والهندسة، ثم كليتا الزراعة والطب ومعهد اللغة العربية لغير الناطقين بها، وبعد سنوات قليلة افتتحت كليات طب الأسنان والعلوم الطبية المساعدة، ثم كلية الدراسات العليا في عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠.

كان عدد الطلبة عند افتتاح جامعة الملك سعود لايجاوز ٢١ طالبا، أما الآن فقد أصبح عدد الطلبة ٢٢٥١٣ طالبا، يدرسون في ١٤ كلية. وقد حظيت الفتاة بنصيب لا بأس به من التعليم الجامعي، ففي عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٦م أتيح لها الانتساب لكليتي الآداب والعلوم الادارية، وفي عام ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٥م تم إنشاء مركز الدراسات الجامعية للبنات، يتولى الاشراف على الدراسة وتنظيمها، ويقوم بالتدريس للفتيات مدرسات ومدرسون مؤهلون، عن طريق شبكات تلفزيونية مغلقة، وقد بلغ عدد الطالبات اللاتي يتلقين دراساتهن في رحاب الجامعة نحو ٥١٢٩ طالبة، موزعات على مختلف التخصصات.

وبالاضافة إلى جامعة الملك سعود هناك جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية التي تعنى بالعلوم الاسلامية، وعلوم اللغة العربية، فضلا عن علوم أخرى مثل العلوم الاجتماعية، والتاريخ الاسلامي، وتهتم بالبحوث الاسلامية فتقوم بترجمتها ونشرها، وكذلك تعنى بالدراسات الشرعية، والبحوث الفقهية، والقانونية المقارنة. وتضم الرياض كذلك عددا آخر من الكليات العلمية المتخصصة، والمراكز والمعاهد العلمية، مثل دارة الملك عبدالعزيز، لخدمة تاريخ المملكة وآثارها وآدابها، والمركز الوطني للعلوم والتقنية، لتحقيق أهداف التنمية والعلوم، وكلية الملك فهد الأمنية التي تهتم بتخريج المؤهلين لخدمة وزارة الداخلية، وكلية



قامت أمانة مدينة الرياض بترميم بعض البوابات والقصور القديمة حفاظا على المعالم الأثرية للعاصمة .

الملك عبدالعزيز الحربية ، وكلية الملك فيصل الجوية ، لتخريج الطيارين ، ثم كلية الملك خالد العسكرية .

ترميم معالم الرياض الأثرية

إيمانا من أمانة مدينة الرياض بضرورة المحافظة على الآثار ، لما لها من أهمية تاريخية ، ورغبة في إبراز التراث الوطني ، فقد قامت الأمانة بعمل الدراسات اللازمة ، للابقاء على بعض معالم المدينة القديمة ، وإحياء ما تهدم منها ، وقد قامت بترميم قصر المصمك وهو أحد القصور القديمة التي تقع في قلب المدينة ، وهو بناء مرتفع على شكل قلعة ، مبني بالحجر والطين ، وله أربعة أبراج في جوانبه الأربعة ، وبوابة كبيرة ، إنه بناء ذو طابع حربي ، يمثل العمارة المحلية التي انتشرت في حقبة معينة من تاريخ الجزيرة العربية ، ومن المعروف أن هذا القصر شيد في عهد الامام عبدالله بن فيصل بن تركي عام ١٢٨٢هـ/١٨٨٥م . كما قامت أمانة مدينة الرياض بالتعاون مع الادارة العامة للآثار والمتاحف بعمل دراسات ،


بسم الله الرحمن الرحيم

لتحويل قصر الملك عبدالعزيز المعروف بالقصر المربع إلى متحف وطني ، وهذا القصر شيد أيضا بنفس أسلوب البناء المحلي ، وهو مبني من اللبن والطين ، مع تحلية بعض جدرانه بالجص ، كما تم ترميم بعض بوابات الرياض القديمة ، مثل بوابة الثميري التي تقع في الجهة الشرقية من العاصمة ، وهناك بوابات أخرى مثل بوابة آل سويلم ، وبوابة المذبح ، وبوابة الشميسي التي ما زالت تعد لها دراسات لترميمها وتقويتها ، ومن المعروف أن مدينة الرياض كانت في الماضي محاطة بسور مبني من الطين واللبن ، أقامه الملك عبدالعزيز بن سعود بعد استيلائه عليها سنة ١٣١٨/ ١٩٠٠م ، وقد استغرق بناؤه أربعين يوما

مسح جوي

سوف تقوم أمانة العاصمة بمشروع المسح الجوي لمدينة الرياض ، وهو مشروع كبير ومتطور إلى أبعد الحدود ، بل لعله من أهم المشاريع العالمية الرائدة . يقول الأستاذ عبدالله العلي النعيم أمين مدينة الرياض في حديث له عن هذا المشروع : إن مشروع المسح الجوي لمدينة الرياض من أهم مشاريع أمانة العاصمة الحضارية ، فهو أول مشروع من نوعه في منطقة الشرق الأوسط ، وسوف يتم فيه استخدام أحدث أساليب التقنية العلمية ، وأكثرها تطورا ودقة . سوف يتم إعداد الخرائط ، وحفظها على أشرطة ممغنطة رقمية ، مما يتيح إمكانية إعداد خرائط خاصة ، توضح المعالم التي يراد ابرازها على الخريطة ، لعمل دراسات معينة ، مما يتيح إضافة بيانات عديدة على تلك الأشرطة مما لا يلزم وجوده على الخرائط ، ويمكن تحديث هذه الخرائط بإضافة المعلومات الجديدة إليها عن طريق الحاسب الآلي ، مثل إضافة الشوارع أو المباني أو مرافق الخدمات الجديدة دون الحاجة إلى إنفاق مبالغ طائلة ، واستغراق وقت طويل للقيام بمسح جوي جديد لتحديث الخرائط التي سبق إعدادها . ويضيف الأستاذ النعيم قائلا : إن هذه التجربة ـ بلا شك ـ ستشجع الدول العربية وبخاصة الخليجية على السير في هذا الدرب ، والاستفادة من أساليب التقنية العلمية التي استخدمناها في إعداد الخرائط المختلفة لأحياء مدينة الرياض بأكملها . .

أما المهندس الأستاذ سعود الشتوي فقد تحدث عن هذا المشروع قائلا : إن هذا المشروع على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لمدينة الرياض التي شهدت حركة عمرانية هائلة في السنوات العشر الماضية ، نظراً للطفرة الاقتصادية الهائلة التي تحققت في المملكة ، وقد صاحب هذه النهضة العمرانية اتساع المدينة ، حتى بلغت الآن نحو ١٦٠٠كم مربع . ولما كانت الخرائط الجوية التي تم إنجازها ترجع إلى سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٥م ، ولا تشمل إلا منطقة صغيرة من المدينة الحالية ، أصبحت الحاجة ماسة للقيام بمشروع المسح الجوي ، نظرا للتطور العمراني الكبير ، والتوسعات الأفقية الهائلة ، ويضيف المهندس الشتوي قائلا : وتأتي أهمية المشروع في الحصول على خرائط حديثة لاستخدامها في الأعمال التخطيطية ، وللتنسيق بين أجهزة الخدمات والمرافق العامة المختلفة ، فأي مشروع سيقام في المدينة يحتاج إلى هذه الخرائط لتحديد إمكانية القيام بالخدمات المرادة له ، وربطها بغيرها .

والمشروع سيتضمن القيام بأعمال التصوير الجوي للمدينة ، وسيغطي مساحة تزيد عن ٣١٠٠ كيلومتر مربع ، وذلك حتى يمكن توفير خرائط للمناطق التي تجري فيها التنمية ، أو التي ينتظر أن تصلها خلال العقدين القادمين ، ليوفر خرائط متنوعة ، بمقاييس رسم مختلفة ، تخدم متطلبات النمو الحضاري ، وتوفر المعلومات الضرورية للقائمين على أعمال التخطيط ، ولاعطاء فكرة واضحة عن هذا المشروع يقول المهندس الشتوي : إن هذه الخرائط تفيد في تخطيط المدينة ، وتحديد شبكات المياه ، والمجاري ، والهواتف ، والطرق ، والكهرباء ، كما تسهل أعمال الصيانة لهذه الشبكات ، ويستفاد منها في أعمال تسمية الشوارع ، وترميم المساكن ، وكذلك يمكن عن طريقها توزيع مرافق الخدمات على أسس مدروسة وسليمة ، مثل المدارس ، والمساجد ، والحدائق ، وملاعب الأطفال ، والأسواق التجارية ، ويستفاد منها أيضا في عمل سجل عقاري دقيق ، ونظام متكامل لنزع الملكية ، وهذا المشروع يعتبر النواة الأساسية لمركز المعلومات الحضرية الذي يعد ضرورة حضارية للمدينة الحديثة □

قصـــــة مترجـــمة

التجربة الأخيرة

للكاتب الامريكي المعاصر جون كيفافر

ترجمة : ابراهيم عبد الله العلو

لقد كان غياب الضجيج سبب انزعاجه . واضطره الهدوء التام في الغرفة المظلمة العازلة للصوت ، أن يقوم ببث أصواته الخاصة خلال الساعات الأولى من اقامته هناك . لم يتأثر بالظلمة وبطريقة ما لقد أعجبته . لقد فعل ذلك مرات عديدة عندما كان يغمض عينيه ، ويغوص في أحلام اليقظة ويستغرق في ظلام خاص مرت أيام وهو في هذه الغرفة الخالية الا من سرير ، وبعض علب الطعام المحفوظ وأواني الماء ومرحاض .

تلك الغرفة التي لا تتجاوز سبعة أقدام ارتفاعا وتسعة أقدام طولا وسبعة أقدام عرضا ، رافقه أحد علماء النفس الى هنا . ابتسم له وصافحه ثم تركه وحيدا في الهدوء المظلم .

في البداية تذكر الحوادث التي مرت به خلال الأيام والأسابيع القليلة الماضية والتي أدت الى حضوره هنا . كالعادة كانت أفكاره متعلقة بالاصوات . صوت الرقيب الذي أخبره أن يجهز ثيابه قائلا : « ستخبرك عن ماهية التجربة عندما تصل هناك » ، ولكن انتظار المجند « نيف نلسون » لم يدم طويلا .

كان نيف قد أنهى فترة التدريب العسكري الأساسي مؤخرا ، خلال أيام قليلة نقل نيف مع أربعة وعشرين مجندا آخرين بالشاحنة الى زاوية منعزلة من المواقع ، بعد اتمام اجراءات السكن في الثكنة تم استجوابهم من قبل اثنين من علماء النفس ، تذكر نيف بشكل خاص صوت أحدهم ، كان صوتا رتيبا وناعما بنفس الوقت ، أخبره أنه تم اختيارهم ليكونوا عناصر في تجربة مهمة في البحث الانساني ، وأن سبب اختيارهم هو تمتعهم بصحة جيدة وذكاء يفوق المعدل ، كان هدف التجربة هو اكتشاف آثار الوحدة والرتابة على الفعالية البشرية ، ماذا يحدث للانسان عندما يعزل تماما عن المجتمع لساعات أو أيام ؟ ماذا يحدث عندما تختفي كل المناظر والاصوات المنبهة ؟ هذا السؤال طرحه العالم النفسي ذو الصوت الناعم . « هذا ما نسعى لاكتشافه ، الى أية درجة يستطيع الانسان القيام بمهمات معينة في حالة كهذه » .

تحاول الادارة المختصة في الجيش الأمريكي تطوير اختبارات تمكنها من تعيين نوعية الرجل المؤهل للقيام بمهمات معينة مثل الاشراف على رادار أو قاعدة صواريخ أو محطة ارصاد جوية في منطقة منعزلة ، أو أي عمل آخر ربما في الفضاء الخارجي في حاجة الى ابقاء رجل ما وحيدا ، وقيامه بعمل رتيب في عزلة تامة .

شرح العالم النفسي للمتطوعين ما هم مقدمون عليه . سيقوم الفنيون بتسجيل كل الأصوات الصادرة عن الغرف من غرفة التحكم المركزية .

« ربما يسألونك عدة أسئلة من خلال الميكرفون » . تذكر نيف أن « ربما » تكررت مرات عديدة . سوف تقارن أجوبة كل متطوع وانطباعاته مع تلك التي سجّلها قبل دخوله الغرفة . وسوف يتم اختباره مرة أخرى بعد انتهاء اقامته هناك .

« من خلال تلك المقارنة » ، اضاف العالم النفسي « سوف يكون بامكاننا عزل أية فوارق ناتجة عن التجربة » وأضاف بصوت هادىء « أن باب الغرفة لن يكون مقفلا ، وبامكان أي من المتطوعين أن يخرج من الغرفة متى شاء ، ولكن بعد ذلك لن يسمح له بالاشتراك في التجربة مرة ثانية » . فان عناصر التجربة لم يعلموا بمدتها لأن ذلك سيجعلها عديمة الجدوى .

« هل تحب أن تكون عنصرا في هذه التجربة ؟ » هذا السؤال وجه الى كل واحد منهم ، تذكر نيف نبرة صوته عندما أجاب بكل حماس « نعم » ، لقد تذكر ذلك بوضوح لأن ذلك الأمر لن ينساه أبدا ، لقد كان يعلم أنه مقبل على عمل ربما يؤدي به الى الجنون ، وبدأ يعزي نفسه « لاأعتقد أن الحال ستصل بي الى أن أقضي بقية حياتي في مستشفى المجانين » ، لقد عاش حياته كلها على « الصوت » ، لقد كان غياب الصوت لفترة قصيرة يقلقه . أي ضجة ولو كانت خفيفة تكفي ، ربما صوت تنفس رجل آخر أو حتى الصوت الذي يحدثه الكلب عندما يمشي فوق السجادة .

استشار بعض المختصين منذ زمن ولكن لم ينجح أحد منهم في مساعدته ، لقد حاول مرارا التخلص من هذه العادة ، وعندما سنحت له الفرصة من خلال الاشتراك في هذه التجربة لم يتردد أبدا ، كان يمني نفسه « اذا استطعت الصمود الى نهاية التجربة فسوف أتخلص من هذه العادة الى الابد ! »

عندما كان في طريقه الى الغرفة كان « دماغه » يسجل ويخزن كل صوت في تلك اللحظات الأخيرة ، لقد تذكر وقع أقدام زملائه الذين سبقوه عندما دخل المبنى الذي يحتوي على غرفة التجربة ، قبل دخول كل رجل الى غرفته يصافحه أحد العالمين النفسيين ويعطيه التعليمات الأخيرة ، كانت غرفة نيف آخر الغرف في البهو ، دخلها متبوعا بالعالم النفسي ذي الصوت الناعم ، كانت صغيرة جيدة التهوية وذات حرارة ثابتة ، بيضاء تماما كغرفة في احدى المستشفيات ، في احدى الزوايا كان هناك مرحاض،وفي الزاوية الأخرى ثلاجة متخمة بالماء والطعام . كان هنالك سرير ووسادة وغطاء ، ذلك كل شيء .

كان العالم النفسي رجلا طويلا منحني الكتفين ، صافح نيف وتمنى له حظا سعيدا مضيفا « تذكر أن الباب ليس مقفلا وبامكانك الخروج في أي وقت تشاء ، ولكن اذا فعلت ذلك فسوف تكون فرصتك الأخيرة » وغادر قائلا : « سوف يطفأ الضوء بعد دقائق وكذلك ضوء الممر » .

* * *

أحس نيف بوحدته فبدأ يحاول الاستماع الى خطوات العالم النفسي وهو يغادر الممر ، ولكنه لم يسمع شيئا ، لقد كانت الغرفة عازلة للصوت !!!

لقد بدأ نيف حياة جعلته يتلمس الطريق في الظلمة ، يبحث عن الطعام والماء ويغتسل بمناشف معاملة بمواد كيماوية خاصة ثم يستلقي على السرير ، لم يكن هناك أي شيء آخر ليفعله ، لم يكن لديه برنامج أو ساعة يد ، كان يرتدي ثيابا شبيهة « بالبيجاما » ، ويستطيع النوم متى يشاء في هدوء لايمكن للضجيج اختراقه ، وفي ظلمة حالكة غطته كالدثار . كان عليه أن ينتظر في هذا العالم عديم الصوت ، كانت أفكاره مركزة حول الاصوات ، كانت حياته دائما مزيجا من الأصوات ، والآن لا يوجد أي صوت !!!

وضع رأسه تحت الوسادة وضغطها حول أذنيه آملا أن يصله صوت ما عندما يرضها مهما كان ذلك الصوت ضئيلا ، حاول مرة واثنتين وثلاثا ولكنه لم يحس بأي فارق ، كان الشيء الوحيد الذي يستطيع سماعه هو دقات قلبه ، ولكن هذا الصوت من صنعه هو ، صوت داخلي كالصوت الناتج عندما يدق باصبعه على الحائط أو الأرض ، كان بحاجة الى صوت خارجي ، شيء ما . أي شيء ليخبره بأن العالم الخارجي موجود .

بالرغم من أن الظلمة لم تزعجه ، ولكنها زادت من عزلته وجعلت انعدام الصوت أشد وطأة ، بالاضافة الى أنه لم يسمع شيئا فانه لم ير أي شيء أيضا ، لم يكن يستطيع رؤية الحائط أو الثلاجة حتى عندما كان أنفه على بعد أصابع منهما . كانت الطريقة الوحيدة للتعرف على أي شيء هي اللمس





بعد ساعات من دخوله الغرفة ذهب الى الباب وفتحه بهدوء ثم أغلقه ثم فتحه ثم أغلقه لمرات عديدة مستمعا بشغف الى الصوت الناتج من جراء ذلك ، ولكن ذلك الصوت بقي من صنعه هو وكانت حاجته الى صوت خارجي ، كان الممر مظلما كغرفته ، في البداية تذكر الأصوات التي صاحبت قدومه الى هذا العالم عديم الصوت ولكن تلك الأصوات تلاشت بسرعة ، ثم بدأ يتذكر أحداث حياته ، ظل في بحث دؤوب عن أصوات سمعها من قبل ، كان يتخيل تلك الأصوات ثم يكررها محاولا أن يمتص كل ضجة بشراهة ، خاصة عندما امتدت اقامته في تلك الغرفة من ساعات الى يوم ، الى أيام عديدة ! غاص في أعماق تجاربه عائدا الى القديم ناظرا ومستمعا .

عاد الى هدير محركات الطائرة التي سمعها عندما كان في طريقه الى الموقع ، الى صوت الكرة في مباريات المدرسة الثانوية ، الى هتاف المشجعين ، الى دقات ساعته ، الى « تفحيطات » عجلات سيارته ، الى صوته المدوي عندما سقط من شجرة ، الى صوت المنشار الذي استخدم لازاحة « الجبس » عن قدمه عندما كسرت ، الى صوت الطباشير على السبورة ، الى صوت اخته في الجانب الآخر من المنزل .

ولكن تفكيره الآن تعلق بصوت أفزعه في البداية . انه صوت الفئران القاضمة ، ذلك الصوت الذي سمعه في تمثيلية اذاعية عندما كان طفلا ، انها قصة الفئران الجائعة التي شقت طريقها شيئا فشيئا الى رجل مروّع . كان ذلك الرجل يعمل في منارة لهداية الملاحين ، مئات الفئران أخذت طريقها الى جزيرته في قارب مهجور ، نظر الرجل فرأى الفئران تنحدر من القارب الى ساحل الجزيرة ، لقد رأى الفئران تندفع نحوه في المنارة ، أقفل الباب في الطابق الأرضي ، ولكن الفئران الهائجة قضمت الخشب في أسفل الباب ، تذكر نيف بوضوح صوت الفئران وصوت الرجل المذعور ، عندما وصلت الى قمة المنارة ببطء مخيف قاضمة الخشب في طريقها ، كان الرجل يصعد طابقا تلو الآخر ولكن الفئران كانت تتبعه ، لقد كان ينتظر في كل طابق الى أن يرى الباب الخشبي يتشقق فيصعد الى الطابق الأعلى وصراخه يسبقه ، يغلق الباب بعنف ولكن الفئران لا تزال تتبعه ، لقد أصبحت الفئران تمضي بسرعة أكبر وكأنها تتذوق الوجبة القريبة منها ، لقد وصل الرجل الى الغرفة العلوية المحاطة بالزجاج ، كانت أرضية الغرفة مصنوعة من المعدن ، تذكر نيف ، لقد أوقفت الفئران لفترة ، ثم أقبل سكون مطبق للمرة الأولى منذ أن اقتحمت الفئران الباب الأرضي ، لم يكن هناك أي صوت ، ظن الرجل أن الأرضية المعدنية أوقفت الفئران وأنه نجا ، تذكر نيف خيبة الأمل التي أحس بها والتي يحس بها الآن لانه فقد ذلك الصوت الذي صحبه للحظات مشوقة ، ثم تذكر نيف صوت الفئران وهي « تخردش » فوق سطح الزجاج في غرفة الرجل ، ثم سمع صوتها وهي تغادر ، لقد عادت الفئران الى القارب خائبة ، كان ذلك الصوت هو المهم وعندما اختفت الأصوات اختفى البرنامج من ذاكرته ، هنا في سكون الغرفة الضائع كانت قصة التمثيلية أكثر واقعية من أي وقت مضى ، لقد استرجع حوادثها مرات عديدة في ذاكرته ، لقد عادت اليه حتى عندما أحس أنه سمعها بما فيه الكفاية ، لقد كانت الأصوات « المخردشة » في المنارة تعود اليه مهما حاول أن يغير تفكيره كانت الاصوات تعود الى السطح وتبدأ من جديد الى النهاية ، اضطجع نيف على سريره وحاول أن ينام ولكنه لم يستطع ، بعد ذلك حاول أن يتحسس طريقه الى الثلاجة ، حاول أن يأكل ويشرب ، اغتسل مرة بعد أخرى حتى أصبح



جلده طريا جدا ، وبالرغم من كل ما فعله كان يحس بأصوات الفئران حوله ، لم يستطع ابقاءها خارجا ، لقد أصبحت تلك الأصوات جزءا من حياته ، لقد كان بحاجة الى صوت ما ، وعندما عادت الى ذاكرته أصوات التمثيلية رحب بها . أحس بالتدريج أنه كان خائفا من اختفاء تلك الأصوات ، ابتسم واستلقى على فراشه مغمضا عينيه ومصغيا ، لقد ملأت الأصوات تفكيره ، وكأن الفئران هناك بالفعل ، لقد أحس بالسعادة وكان على ثقة من أن تلك الأصوات هي من صنع خياله وان بامكانه التخلص منها متى شاء ، أتساءل - كان يحدث نفسه - هل بامكاني ايقاف تلك الأصوات ، واذا حاولت ، واذا أردت ، واذا احتجت لذلك ، هل أنا قادر على تخفيض تلك الضجة ، وفي تلك الحال ما نتائج ذلك ؟ يجب على أن اعرف الجواب !!!

الآن بدأ يركز على ابعاد تلك الأصوات . لقد اختفت ببطء . لاصوت ... لاصوت .... لاشيء . كتلة مريعة من انعدام الصوت . لم يكن هناك أي ضجيج ليعطيه توكيدا بأن العالم الخارجي لايزال موجودا .

* * *

لاصوت ، صرخ تفكيره ، لقد حاولت التركيز على احضار الفئران ، « عودوا .. » بدأ يقول بصوت عال للمرة الأولى منذ دخوله الغرفة « أيها الفئران : « عودوا» ، أحس بعودتهم لوهلة ولكن بعد ذلك تلاشى كل صوت ، لقد كانت الأصوات تتلاشى وكأنها وحدات منفردة قادرة على المغادرة والحضور كما تشاء ، لم تعد تلك الأصوات في متناول يده ، لاشيء ، لم يكن هنالك أي صوت سوى دقات قلبه وصوت الشراب الذي كان في أشد الحاجة اليه وصوت تنهداته التي لم يستطع اخفاءها .

لقد اختفت الفئران ، لقد اختفت بارادتها الخاصة ، بدأت الكلمات تلوح في خياله وكأنها ومضات متكررة ، ثم أدرك سبب ذلك التكرار ، اذا كانت الفئران قد اختفت بارادتها فبامكانها العودة اذا شاءت ، لم يستطع خياله صنع الأصوات التي كانت الفئران تصنعها ، اذا كان هناك فئران في الغرفة فحتما سوف تقوم بصنع بعض الأصوات وسيكون بامكانه الاستماع اليها اذا كانت هناك ، أصغى للحظة ، سمع صوتهم في زاوية الغرفة بجانب سريره . كانت تلك الأصوات تعطيه بعض الأمان ، ابتسم واستراح ، لقد كانت الأصوات في خياله وكان كل شيء كما يرام في عالمه ، جلس على الفراش ينظر جهة الضجيج ، حتى في تلك الظلمة الموحشة كان يرى بعض الفئران في زاوية الغرفة على الأرضية البيضاء ، أحس وكأن خنجرا من الألم طعنه ، أحس وكأن قطعا من دماغه قد تطايرت ، أراد أن يرفس ، أن يصرخ ، ثم أدرك أنه من غير الممكن أن يرى الفئران ، اذ أن الظلمة شديدة لدرجة أنه لايستطيع رؤية الجدار ، لقد كان يتذكر شكل الجدار عندما كانت الغرفة مضاءة حين دخوله ، وبشكل أو بآخر كان يتذكر الفئران ، بالطبع فان صوت الفئران كان من وحي خياله كما كان حال الأصوات الأخرى .

استراح قليلا على الفراش ولكن بدلا من أن يغمض عينيه وينصت كان يحدق في السقف ، بدأ يحس بشيء من الالم والقلق ، أحس بالحاجة لعمل شيء ما ، قال بصوت عال « أريد أن أتأكد ما اذا كان هنالك فئران أم لا » ولكنه لم يفعل ذلك ، بقي مستلقيا على فراشه متسائلا « هل أتجنب الزاوية لانني خائف من وجود الفئران هناك أم من عدم وجودها ؟ »

لقد بقي نيف مستلقيا على فراشه لساعات وهو يستمع الى أصوات الفئران ، لقد ملأت الضجة الغرفة ، بدأ يدلي قدمه ليرى ، ما اذا كانت الفئران ستقضم أصابع قدمه ولكنه أحس بخيبة الأمل عندما لم يحدث شيء ، « أيها الهوام » بدأ يقول « الا تعرفون

ماذا جلبتم علي » ، لم يحس بالحاجة الى الطعام والشراب والاغتسال ، لم يكن يفكر في العالم الخارجي أو كم مضى من الوقت على وجوده هناك . لم يكن يفكر في ميعاد الخروج ، لقد بدأ يحس بسعادة غامرة في ذلك العالم المظلم المليء بالاصوات ، صوت الفئران الرقيق كسجع أم حنون ، بدأ نيف بالتحدث الى الفئران بشكل طبيعي الآن ، لقد كانت علاقة حميمة ، احدى افضل علاقاته ، وكل ذلك من صنع خياله ، لقد فعل ذلك ، كان يظن !!! لقد كان لديه الكثير بالمقارنة مع الآخرين ، من يستطيع أن يقضي أسبوعا في غرفة مظلمة كهذه ومع ذلك لديه هذه الصحة ؟

لقد كان خياله يقوم بفعل ذلك ، بدأ يردد ، وذلك تحت تحكم كامل : « انني رجل مبدع » بدأ يحدث نفسه : « ربما أقرر أن أعيش في غرفة كهذه البقية الباقية من حياتي . سوف أفكر في ذلك ثم أعلمهم فيما بعد » .

ـ « ما رايكم في ذلك أيها الفئران » بدأ يقول :

❊ « لانحب تلك الفكرة » أجاب أحدهم !!!

ضحك نيف . لقد كانت المرة الأولى التي سمع فيها جواب أحدهم ، المرة الأولى التي سمع أحدا يتكلم ، لقد كان ذلك شيئا رائعا ذلك العقل الذي يمتلكه ، ذلك العقل الذي يجعل الفئران غير الموجودة تتكلم .

❊ « لانريد أن نسكن مع مجنون » قال آخر :

ـ « أوه . لانريد !! » « أجاب نيف مبتسما » « حسنا » « أنا لاأحبك أيضا » .

❊ « نحن لانمزح . انك تضيع عقلك » .

❊ « تعني أنه أضاعه » أجاب آخر .

❊ « انه يتحدث مع الفئران . لقد أضاع عقله » .

ـ « اصمتوا » قال نيف « تعلمون أنني ابتكرت كل ذلك » .

❊ « نعم » قال اثنان منهم « بالطبع . . . » لم تعجبه تلك النغمة . لم تعد الفئران في متناول يده . « أنا الآمر هنا » قال نيف :

بدأت أصواتهم الساخرة تملأ الغرفة .

ـ « يا للعنة » جلس حانقا . « عندما أريد أن أتحدث الى الفئران فانني أقوم بذلك . وعندما أريدكم أن تجيبوا فانني أجعلكم تقومون بفعل ذلك » .

❊ انه يضيع عقله . لقد أضاع عقله بدأت الفئران تغني .

ـ « اخرسوا ، أيتها الأفاعي القذرة » .

❊ ـ « انه مجنون . انه مجنون » .

ـ « لست مجنونا » وكأنها صرخة .

❊ « مجنون . مجنون » بدأت الاصوات بالارتفاع . مئات من الاقدام الصغيرة تجوب الغرفة في رقص هامس . « مجنون . مجنون . الجندي المجنون » .

ـ « لا . لا . لا . . . . » كانت اللاء الأخيرة صرخة مدوية عبرت الغرفة مترددة من حائط لآخر .

❊ ❊ ❊

بدأ الضوء يعبر الغرفة من الممر . لم يدرك المساعدون الفنيون في غرفة التحكم المركزية أن فئران التجارب قد خرجت من الاقفاص من خلال بعض الفتحات في « الشباك » ولم يكونوا ليعرفوا ذلك الى وقت الاطعام لولا صراخ نيف . لقد سجل الرجلان صوته منذ البداية ، ولم يظنوا أن ذلك غريب ، لقد اعتادوا على سماع أصوات غريبة في مثل تلك التجارب ولكن عندما بدا لهم أن نيف بدأ يفقد توازنه وعندما بدأ يصرخ مرتعدا حضروا من غرفة التحكم الى غرفته ، وخلال مسيرتهم لاحظوا أن فئران التجارب كانت خارج الاقفاص ، لقد ظنوا أن الفئران سوف تكون في الممر ، فتحوا باب الممر العازل للصوت ثم أضاءوا الممر وغرفة نيف مسرعين الى غرفته ، لقد شاهدوا الباب مفتوحا بعض الشيء ، عندما دخلوا الغرفة وجدوا العديد من الفئران في الغرفة وفي الممر . وكان نيف يصرخ بوجه الفئران الأخرى في الزاوية . كانت تلك المخلوقات الصغيرة ترتعش من الخوف .

أدرك أحد الرجلين ماذا حدث ؟ عندما هربت الفئران من القفص مشت في الممر وعندما وجدت باب غرفة نيف مفتوحا قليلا دخلت هناك ، لقد فتح ذلك الباب عندما دخل نيف الغرفة في البداية ونظرا لانعدام الضوء في الممر فانه لم يعرف بأن الباب كان مفتوحا ولو قليلا .

ولكن المساعد الفني لم يعرف لماذا بقي نيف يصرخ . لقد بقي نيف يصرخ « لا . لا . لا . » لأن الفئران التي تحدث اليها وراها كانت سوداء والفئران التي يراها الآن بيضاء !!!! □

جمالية الخط الكوفي

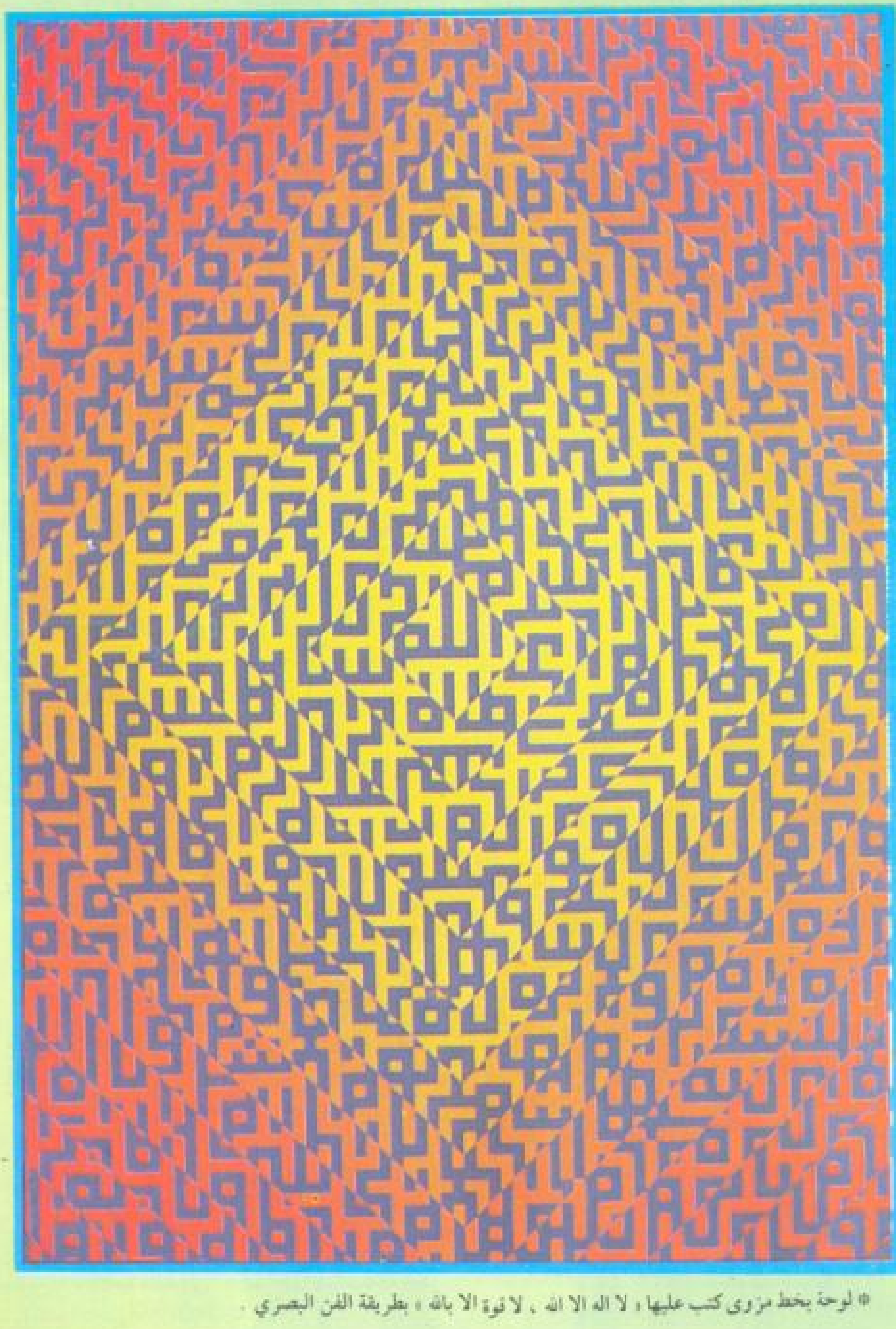
بقلم : عبد اللطيف هاشم

البحث عن الجذور الحضارية للتاريخ العربي واجب أخلاقي ، ومطلب إنساني ، أما التحدث عن فن عريق له أصالة قومية ، وانتماء عربي ، فهذا يخدم القضية المصيرية لشعب يحفل ماضيه بكل أشكال العلم والفن والإبداع ، وهنا محاولة لإلقاء الضوء على الخط العربي .



* حروف عربية بخط كوفي مزوى وفي الوسط لفظ الجلالة « الله » بطريقة الفن البصري .

في سنة ١٧هـ (٦٣٨م) خطّت مدينة الكوفة على يد سعد بن أبي وقاص ، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ، على مقربة من موضع الحيرة ، في رملة تخالطها حصباء ، وكل رملة تخالطها حصباء ، تسمى عند العرب كوفة . وقد نقل العرب القادمون من المدينة خطهم الذي عرفوه إلى هذه المدينة الجديدة ، وما لبث هذا الخط أن تطور ، وأدخل عليه التحسين ، ثم صار يسمى بالخط الكوفي . والشائع أن الخط الكوفي هو الخط اليابس ، أي غير المدور الذي تكون زواياه قائمة غير مستديرة ، وهو نفس الخط العربي المتطور الذي عرف في شمال الحجاز ، لكن التحسينات الفنية التي خضع لها صبغته بمسحة جديدة من الهندسة والإتقان ، إذن فهو وليد الصنعة والفن المقتبسين عن حضارة سابقة ، وقد



* لوحة بخط مزوى كتب عليها « لا اله الا الله ، لا قوة الا بالله » بطريقة الفن البصري .

ساعد مركز الكوفة العسكري والسياسي والعلمي على ازدهار هذا النوع الجديد المحسن من الخط، وانتشاره.

كيف نكتب الخط الكوفي؟

يعتبر الخط الكوفي من أجمل الخطوط العربية والأجنبية، لخروجه عن المألوف وظهوره بمظهر متميز. فالجمالية تكمن في ألفاته الواقفة، وسطوره المستقيمة المشوقة، وحروفه الملتفة أو المستديرة التي تنم عن حركة في تكوينها، وانسجام في أشكالها، وارتباط بعضها ببعض، وعندما يريد الخطاط أن يكتب بالخط الكوفي فإنه يعتمد على المراحل التالية:

● يخط سطراً أفقياً موازياً للورق، ثم يلحق به سطراً آخر يكون البعد بينه وبين سابقه سبعة أضعاف عرض الألف بالنسبة لطولها، فاذا كان عرض الألف سنتيمترا واحدا يكون البعد بين السطرين (٧) سم، والنسبة هي ٧/١، قريبة من نسبة طول رأس الإنسان إلى طول قامته، وهذا المقياس تقريبي، كان المثالون الإغريق يعتمدون عليه (أمثال فيدياس وبولكليت).

● ـ يتم رسم الألف مباشرة بالمسطرة والمثلث القائم الزاوية، حيث نحصل على خطوط متوازية أفقية وعمودية على اللوحة، بواسطة مسطرة الرسم الهندسي «T».

● ـ وبعد أن نحصل على ارتفاع الحرف الأول وحجمه تتم ـ مباشرة ـ عملية إيجاد السطر الأسفل، والحصول على سماكة الحرف السفلي، وعلى هذا السطر ترتكز كافة الحروف، ويعطي للكتابة المتانة والاستقرار، ومنه تنحدر الحروف إلى أسفل وترتفع إلى أعلى.

● ـ بعد أن حصلنا على السطر الأساسي الذي تنطلق الحروف جميعها منه، نصنع سطراً آخر في الأسفل للحروف المنحدرة، كالجيم والراء والميم النازلة، الخ.

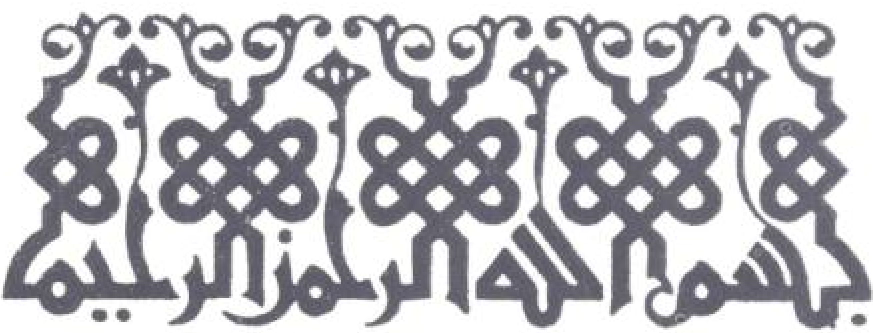
● ـ ثم نصنع سطراً في الأعلى يماثل السطر السفلي، وهو السطر الذي ترسم فيه رؤوس الحروف الصاعدة، مثل رأس الجيم والدال والكاف الأولية والطاء، وبذلك يساوي حجم الحروف المرتفعة عن السطر حجم الحروف النازلة عنه، وهذا الصعود والنزول، له قيمة تشكيلية، وجمالية، والمحافظة على أشكال الحروف يجعلها متناسقة مقروءة، متشابهة في الحجم.

● وعندما يريد الكاتب أن يوصل الحروف بعضها ببعض تظهر البراعة في اختيار الوصلات التي تجعل الكلمة كلا متماسكا، لها شكلها المميز، ومن الضروري المحافظة على الرسم الأولي للحروف، فلا يبدل فيه، ولا يشوه معالمه، وعليه أن يبذل قصارى جهده بالتغيير والتبديل والإضافات وحذف غير الضروري، ودراسة الأحجام والأشكال، والابتعاد عن الفراغ المعيب، والحشو الكثير.

الكوفي المزهـــــر

الكتابة المزهرة نوع من أشكال الخط الكوفي الذي يعتمد على ملء الفراغات والأرضية بزخارف نباتية، مشتقة من أغصان الأشجار، وسوق الكرمة، ونبات «الأكانتوس»، وهذه الزخارف تكون بألوان أفتح من لون الكتابة، لكنها قريبة منها، ونستطيع أن نخفف اللون الأساسي بمزجه باللون الأبيض، لتظل الألوان المشتقة منه متقاربة لا تنافر بينها أو تضاد، فإذا أردنا تلوين بعض الزهرات بألوان حارة، فعلينا أن نطفيء اللون المطلوب بقليل من اللون الأبيض أيضاً حتى لا يصير اللون صارخاً. أما ملء الفراغات فيجب أن يكون بتقنية عالية أثناء الرسم، وعلى الكاتب أن يمرن يده على حركة الأغصان بخطوط لينة منسابة، وأن يختار الشكل السهل المحور إلى أبعد درجات التحوير، ويختصر الزوائد في الوريقات والزهرات.

وعند استعمال الورق الشفاف «زبدة ـ كالك» ترسم الزخارف بقلم الرصاص، ثم يأخذ الكاتب بالتحوير ودراسة الأشكال حتى يحصل على التصميم النهائي لزخارفه، ثم تتم عملية نقل الزخارف من الورق الشفاف إلى اللوحة بواسطة تحديد الخطوط من الجانب الآخر، ثم الضغط بقلم صلب فوق الزخارف مرة ثانية لتطبع على الورق، وبعد ذلك يأخذ بتحديدها وتلوينها بالطريقة التي يجدها مناسبة، كأن يستخدم أقلام التحبير «رويبدوغراف» أو فرشاة السمور الدقيقة التي تصلح للألوان الترابية



● خط كوفي معقود الحروف العلوية

« الغواش » التي تذاب بالماء .

ويمكن وضع ألوان ذهبية أو فضية خاصة (معبأة في أنابيب أو علب عادية) قابلة للذوبان بالماء ، تعطي بريقاً كلون الذهب أو الفضة ، على الكاتب أن يستخدمها في تحديد أطر الحروف والكلمات والزخارف . ويستعمل « الترلين » في تحديد زوايا الحروف وأطرها ، ويفضل أن يكون اللون ممزوجاً بدقة ، حتى تحصل على سطح ملون نظيف خال من الشوائب . وتعتبر الكتابات الموجودة في غرفة السلطان حسن بمصر من أشهر الكتابات بالخط الكوفي المزهر .

وهناك نوع آخر منها هي الكتابات الكوفية المزهرة الدائرية التي يعتمد الكاتب فيها على الفرجار لرسم دوائر منتظمة ، مركز كل دائرة يبدأ من تماس محيط الدائرة المجاورة ، وترتبط الدوائر جميعها بوحدة منتظمة ، ثم ترسم الزخارف في الفراغات ، مرتبطة بالدائرة ، منطلقة منها ، وهذا التكرار في وحدة الدائرة يعطي الاستقرار للسطر الذي يمتد عبر شريط على جدار مصنوع من حجارة ومحفور بالرخام أو الخشب ، وقد يكون الشريط هذا عبارة عن إطار داخل زخرفة أحد اللوحات المخطوطة .

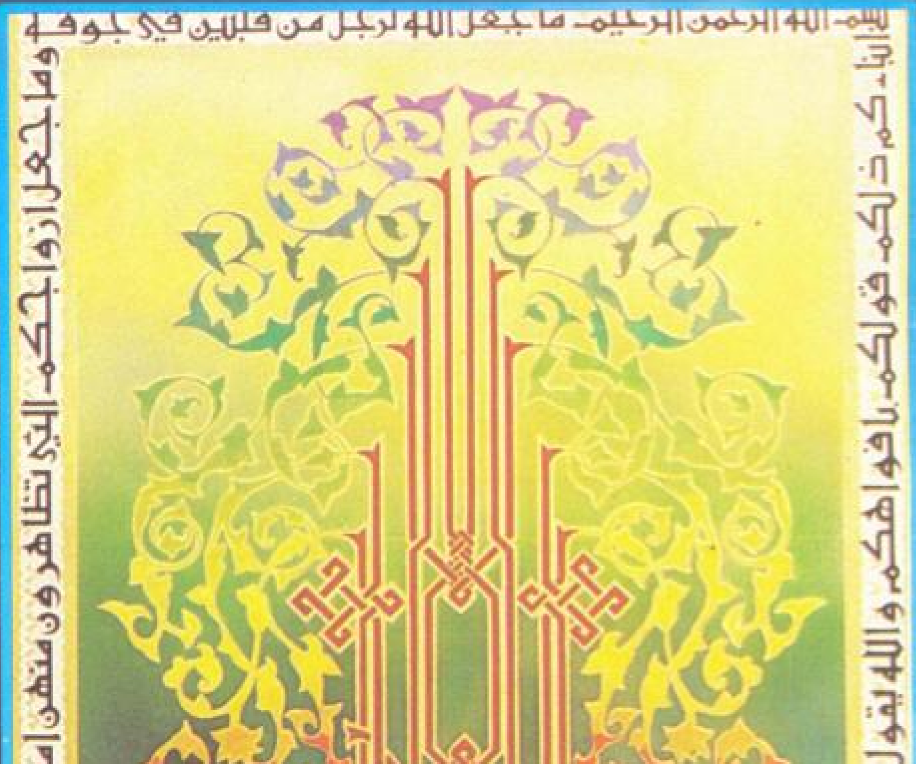
المورق والمشجر المضفر

الخط المورق هو الذي ترسم في نهاية حروفه وريقات مأخوذة من تحوير أوراق الأشجار ، والعنب ، و « الأكانتوس) شوكة اليهود ، وهذه الوريقات ترتبط بنهاية الحروف دون أن تؤدي إلى صعوبة قراءتها ، أو المساس بشكل الحرف الأولي ، فيظل الحرف محتفظاً بشكله ، ولا تشوه معالمه فتصعب عند ذلك قراءته ، أو يفقد قيمته الجمالية .

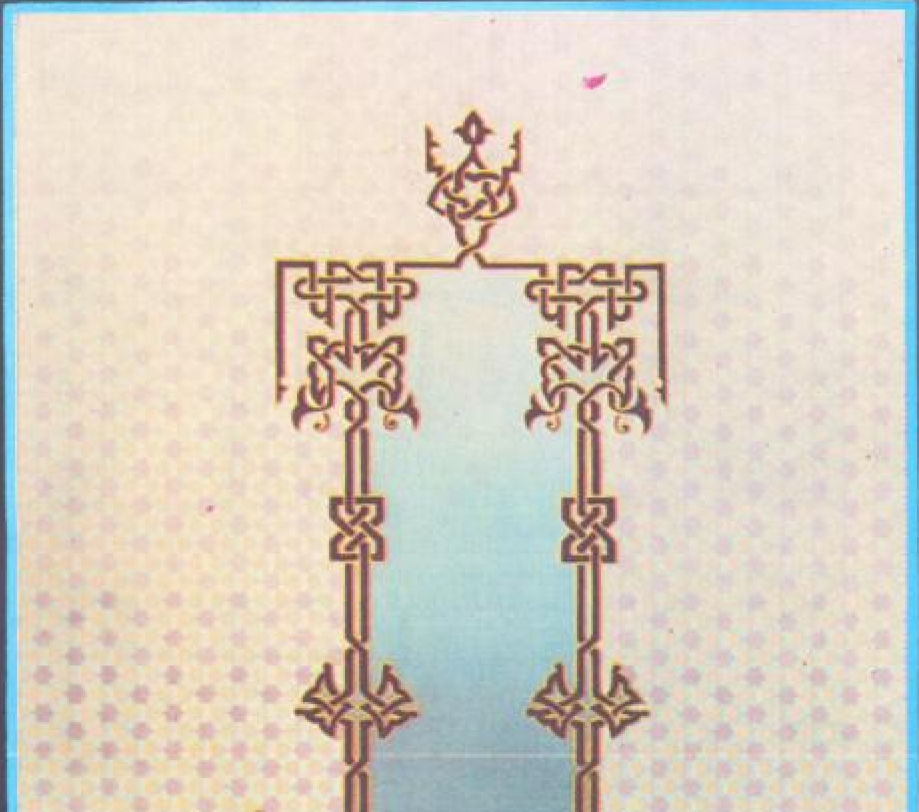
ومن أشهر أمثلة الكوفي المورق كتابات « آمد » في ديار بكر ، وجامع ابن طولون . أما الكوفي المشجر فهو الكتابة التي يكون في نهاية حروفها العلوية أشكالاً تشبه أغصان الأشجار ، ترتبط الحروف المتشابكة الأغصان،وتعطي شكلاً مميزاً أشبه بالشجرة الوارفة الأوراق والظلال .

والأغصان الملتوية الملفوفة مشتقة من سوق شجرة العنب ، ووريقاتها ، وبراعمها ، أو من نبات لبلاب الحقول بأشكاله المنسابة ، وأوراقه الملتفة ، وبراعمه الناعمة ، وأزهاره الدقيقة ، وهذا النبات كثيراً ما يلتف ، وينطاوى ، ويتلوى على النباتات القريبة منه ، فاذا لم يجد نباتاً قريباً فإنه يلتف حول نفسه ، ويشكل ما يشبه الكتلة الخضراء إلى أن تتم دورة حياته . وعندما نستعير شكل اللبلاب لنستفيد منه في تزيين الحروف الكوفية الصاعدة ، يظل الحرف الكتابي شيئا مجردا ، والزخارف والزهرات والأوراق أشياء محورة عن الطبيعة .

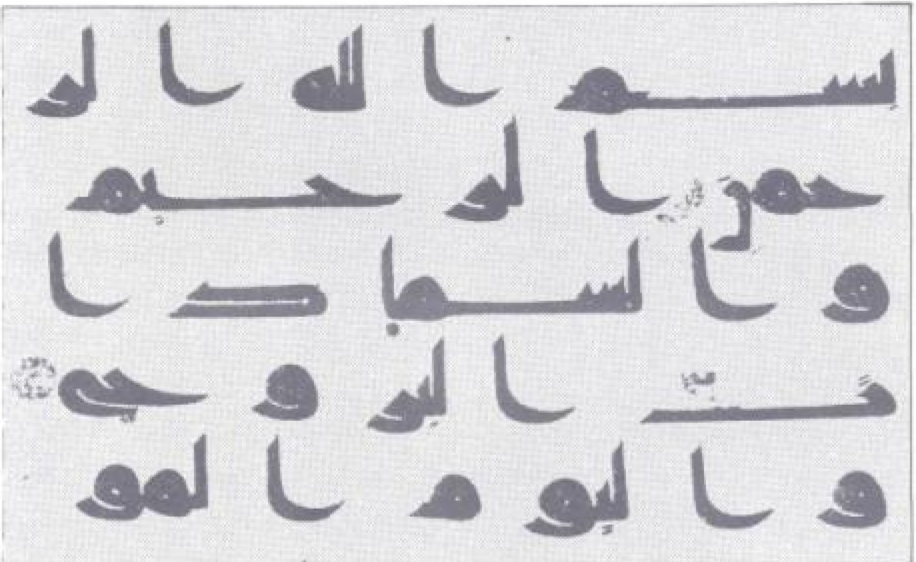
أما الخط الكوفي المضفر فهو خط معقد جداً الى حد يصعب معه التمييز بين العناصر الخطية والعناصر الزخرفية ، ويعتمد على تضفير الأحرف العالية والمرتفعة ببعضها لتصبح كضفيرة شعر فتاة ، أو أن يكون التضفير في شكل الحرف الأساسي ، ومهما يكن



* لوحة كتب عليها « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » بخط كوفي معقود مترابط مزهر ومشجر ومورق .



● معرض الخط الكوفي بخط مضفّر ، وخلفية زخرفية متناغمة



* الخط في حياتنا العربية والاسلامية له قصة حياة . من سكونيته الجامدة .. الى حرية مزهرة اغتنت بالاضافات الجمالية التي جعلته يكتسب أشكالا وأبعادا جديدة .

فإن الضفائر تخدم الناحية الجمالية أو التشكيلية للحرف ، في حين تصعب قراءة الحروف المضفرة لتشابك الخطوط المتداخلة ، وربما يكون الترابط فيما بينها مقبولاً لكن التشابك الكثير لا يزيد الخط إلا تعقيداً وتداخلاً .

ومن أمثلته ، خطوط قلعة رادكان ، ومسجد الزيتونة ، ومسجد القيروان ، ومسجد قلاوون ومسجد الست رقية ، وجامع سيدي أبي الحسن في تلمسان ، ومنه أيضاً كتابات الكزار « قصر بناه العرب في أشبيلية باسم (دون بدرو) في القرن الثالث الهجري » .

الخط الكوفي الهندسي

الكوفي الهندسي هو الخط الذي تستعمل فيه المسطرة والمثلث القائم الزاوية ، من أجل تسطير الورق وجعله مربعات متساوية الأبعاد بخطوط عمودية وأفقية . وينقسم إلى قسمين : الكوفي المزوى ، والكوفي المربعي .

فأما الخط الكوفي المزوى فتتم كتابته ضمن المربعات والخطوط المستقيمة ، تحسب المربعات وترسم أشكال الحروف الهندسية . وتحقيق الجمالية فيه أن يكتب بالمربعات المتساوية لتعطي أشكال الحروف الحادة تآلفا بين اللونين الأسود والأبيض ، وهو يصلح للكتابة على السطوح الكبيرة ، والجدران ، والمباني العامة لتناسبه مع هندسة البناء ، وحركة العمارة ، وأشكالها النحتية ، ولإعطاء البناء الجمال والبهجة ، وهو لا يحتاج إلى كثير من التمرين ، بل إلى صبر وأناة في حساب المربعات ، وتسطيرها ، وحفظ أعدادها .

وأما الكوفي المربعي فتتم كتابته على زاوية كل مربع والمربع الذي يليه ، بحيث تترك فراغاً بين الأشكال التي ترسم ، لتتألف أشكال كثيرة من هذا المربع « الوحدة الأولى لشكل الحروف الأولى » .

والمهارة هي في المحافظة على الشكل الأولي للحرف ، وربط الحروف ببعضها ، بالاضافة إلى الاستفادة من الفراغ الأبيض الذي تخلفه بقية الحروف والكلمات ، إذ يجب أن يكون هناك أشكال لمربعات خالية ، هي التي تعطي الحرف شكله اللائق به .

ونستطيع أن نطور الحرف فنضع الألوان الفاتحة والغامقة ومشتقاتها ، بحيث تحدث تناغم أو تضاد بينها ، كأن تكون الكتابة بلون بارز وغامق ،

والأرضية بلون أفتح من مشتقات ذات اللون ، أو بلون مضاد له كاللون الأزرق مع البرتقالي . أو الأزرق الغامق مع الأزرق الفيروزي الفاتح ، وهكذا .

أما عندما تغير أحجام المربعات بتسلسل منطقي أو غير منطقي ، مع المحافظة على الوحدة الأصلية لشكل المربع الأولي فإنه يحدث معنا نوع من الخداع البصري ، وهو المعروف بالفن الحديث « الأوب أرت » الذي يعتمد على جذب النظر بواسطة الألوان الحديثة التي تحاكي بعضها ، متقاربة أو متداخلة ، متضادة أو متآلفة ، فاستعمال اللون الأخضر يحتاج إلى لون حار كالأحمر ، واللون الليلكي مع البنفسجي يحتاج إلى لون أصفر ، والنيلي الأزرق يحتاج إلى برتقالي .

لاحظ أن هذه الألوان متناقضة ، أما إذا استعملنا الأزرق مع مشتقاته ، فإن العين سترتاح إلى الألوان المتآلفة ، كاستعمال الألوان الحارة مع الباردة المطفأة بقليل من الأبيض . والعمل الفني هنا يعتمد على جذب النظر بواسطة الألوان ، وحركة الأشكال ، فيبدو المسطح كأنه مجسم ، أو دائري ، أو أسطواني ، وعندما ننظر إلى لوحة من هذا النوع ، نراها تنبض بحركة أشكالها المجردة ، وإن كنا نتعامل مع حروف صماء فليس من الفن أن نأخذ موضوعاً عظيماً ، أو ملحمة تاريخية ونجسد ذلك بشكل هزيل وبلوحة لا تمثل ما نريد التعبير عنه ، لكن الفن أن نأخذ شيئاً بسيطاً ، بل من أبسط الأشياء ، ونصنع منه عملاً عظيماً ، فالمربع ، والنقطة ، والدائرة هي أشياء بسيطة ، تبدأ الخطوط والأشكال الهندسية كلها منها .

واللوحة التي نتحدث عنها ، ليس فيها التكرار الممل ، بل حركة دائمة ، وجذب للنظر الذي ألف الأشكال الرتيبة ، والعين التي قد سئمت رؤية المسطحات الصماء ، ما تلبث أن تنبهر برؤية ألوان حديثة كل الحداثة ، وشكل محير في تكوينه ، وبنائه . فاللوحة ، واللون ، والسطح ، كلها تؤدي دوراً هاماً في بث روح النشاط والحركة في إنسان هذا العصر ، وفي القديم كان لهذا التكرار نوع من القداسة ، عبر عن فلسفة الصوفيين الذين ألحوا على آيات الذكر الحكيم ، فالله هو كل شيء ، ومنه يستمد كل شيء وليس كمثله شيء . والفنان العربي يشبه الفيلسوف الصوفي الذي يهيم في سحر الإله وسره ، وتكرار لفظة معينة يحس عند ترديدها بهاجس في داخله ، ونشوة عارمة تجلل كيانه .

الخط الكوفي الحديث

الخط الكوفي الحديث هو الخط المبتكر من أجل الإعلام الحديث في القرن العشرين ، بعد أن أصبح للملصق الجداري مكان مرموق في الإخبار عن أشياء لترويجها ، وإعلام أكبر عدد ممكن من الناس من خلال المعارض والندوات واغلفة الكتب وعناوين الصحف وأسماء السلع والمحلات ، فيجب أن يكون الخط الحديث متناسباً مع التصميم الإعلاني لا دخيلاً عليه ، ليؤدي دوراً تشكيلياً بالإضافة إلى أنه خط مقروء وجميل ، وتكون أشكال حروفه سهلة متناسبة في أحجامها ، وأن تسير على وتيرة واحدة برباط منطقي بينها .

وعندما تستخدم التقنية الحديثة وتظلل الحروف ، تجعلها بشكل نافر ، أو مجسم ، أو تستطيل الحروف العالية ، أو تستدير الحروف النازلة ، يظل الشكل المنطقي منطقياً ، والحروف مقروءة .

لقد اهتم الفنان الغربي بتجسيد الطبيعة بشكلها الحي ، ورسم الإنسان ، وكل ما هو كائن في الواقع أو الخيال ، واهتم بمواضيع مختلفة عبرت لا شك عن عبقرية فنية ، أتت بكبار الفنانين منذ العهد اليوناني ، وحتى عصر النهضة ، والعصر الحديث .

لكن الفنان العربي أخذ منحى آخر واتجاهاً مختلفاً ، محرماً التشخيص والتمثيل ، مختاراً الشكل المحور ، طارقاً باب التجريد ، فارتاحت النفوس إلى الزخارف ، وهفت القلوب إلى آيات الذكر الحكيم ، وسعى بعض الناس لاقتناء المخطوطات المزخرفة والمزوقة ، فانبرى الخطاط إلى الاندماج بعمله الذي يحصل منه على أجرين في الدنيا والآخرة ، لذا قد تجد لوحة امتلأت بزخارف ملونة بألوان متآلفة متآلفة ، كالفيروزي ، والأزرق ، والذهبي ، والأخضر ، والأحمر ، وألوان أخرى .

إن الفن العربي بما فيه الخط الكوفي يرتكز على أساس صوفي حركي ، وهو يختلف عن بعض اتجاهات التجريد الحديث التي تقوم على أسس مكانية ساكنة وجامدة . □



حضارات سادت ثم بادت ..

اعداد : يوسف زعبلاوى

حضارة كنسوس في كريت



إناء من أواني حضارة مينوس في كريت .

حضارة كريت هي أولى الحضارات الأوروبية جميعا .. سبقت حضارة أثينا بنحو ألف عام .. ولم تول الكتابة كبير اهتمامها .. ولم تقبل كذلك على الحروب .. ولكنها بلغت مستوى مرموقا في شتى ميادين الحضارة .. وبخاصة في ميدان البناء والعمران .. وضمنت لأبنائها حياة هنيئة مرحة .

غير أن قصة كريت مرت بمراحل ثلاث ، بدأت الأولى فيما بين سنة ٧٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق . م ، حين جاءها شعبها على حين غرة ، ومن حيث لا يدري أحد .. وبدأت المرحلة الثانية فيما بين سنة ٣٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق . م حين غمرتها موجة من المهاجرين جديدة .. لعلهم جاءوها من الأناضول .. حيث كان الحيثيون ، فقد حملوا معهم معالم حضارة العصر البرونزي ، وانشأوا المدن ، ومارسوا صناعة التعدين والزراعة ، وشقوا الطرق ، وأقاموا الجسور ، ومدوا مجاري المياه .. وعرفوا العربات ذات الدواليب ، وفجأة تعرضت الجزيرة سنة ١٧٠٠ ق . م لزلزال مدمر عنيف .. فهدم الكثير من منازلها وقصورها ، دون أن ينال من عزيمة أهلها ، أو يحد من شغفهم



قاعة داخلية من قاعات القصر ، وصلها ضوء الشمس بفضل الهندسة المعمارية المحكمة

رسم يصور قصر كنسوس العظيم الذي أقيم على رقعة من الأرض تبلغ مساحتها ١٠,٠٠٠ متر مربع . يبلغ طول المبنى وعرضه ٦٠ مترا × ٣٠ مترا



بالحياة ، وحرصهم على العمل والبناء .. فما أسرع ما انصرفوا الى بناء منازلهم وقصورهم من جديد .. فكانت المرحلة الثالثة من حضارة كريت أهم تلك المراحل وأشهرها بلا منازع .. فهي المرحلة التي ظهر فيها عصر مينوس الذهبي .. وازدهرت فيها كنسوس العاصمة وتألقت بقصرها الملكي العظيم ..

المدينة الكبرى

بلغ عدد سكان كنسوس - عاصمة كريت - نحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، هذا هو التقدير الذي أقره أكثر المؤرخين ، ولو صح هذا التقدير لكانت كنسوس - وهي في أوجها - المدينة الكبرى في جزيرة كريت نفسها وبين مدن البحر المتوسط جميعا ، ويعجب المرء للسرعة الكبيرة التي تمت فيها كنسوس وازدهرت .. فقد ظهرت أول ما ظهرت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وتزامن ظهورها وظهور غيرها من مدن كريت ، مثل فايستوس وماليا وزاكرو ، ولكنها ما لبثت أن بزت غيرها من مدن الجزيرة ، ومن مدن حوض المتوسط بلا استثناء .

الحياة اليومية :

لعل أول ما يلفت النظر الثياب التي ارتداها أهل كنسوس ، فقد كانت ضيقة عند الخصر ، لدى النساء والرجال ، وكانت مكشوفة عند الصدور للمرأة والرجل على السواء ... وشاعت الأحذية الجلدية بينهم ، بل بين الطبقات العليا منهم ، وقد تجلى التمييز بين الطبقات في مجتمع كريت في الأواني التي استعملوها للأكل والشرب وغير ذلك .. فاختلفت بين أوان فخارية ونحاسية ، تبعا للاختلاف بين عامة الشعب والخاصة .. ولعلهم تساووا في طهي الطعام ، وقد استعملوا المطابخ المتنقلة .. أما المنازل والبيوت فقد اختلفت كثيرا ، فمنازل العامة التي لم يبق لها أي أثر بنيت في الغالب من طين ، ومنازل النبلاء وقصور الملوك شيدت بالحجارة والآجر والخشب ، وغير ذلك من أفخر مواد البناء المتاحة آنذاك .

قصر كنسوس العظيم :

انه مُجمَّع قصور لا قصر واحد .. ومجمع أبنية لا بناء واحد .. لقد كان بمثابة مدينة مصغرة ، شملت مراكز الصناعة والمخازن ، ومراكز الحياة الادارية والدينية في المملكة ، وشمل القصر فوق ذلك المنازل .. هذا الى جانب القاعات والممرات والساحات المكشوفة ، والمتاهات والأدوار العلوية .. فهو بحق البناء المعقد الذي تدل عليه لفظة (لابرينث) المنتشرة في شتى لغات الغرب ، والمشتقة من أحد الرسوم التي ازدانت بها جدران القصر .. رسم الفأس المقدس ذي الرأس المزدوج وقد سموه (Labyros) ، ويؤكد الكثير من علماء الآثار أن قصر كنسوس العملاق ، لم يبن بالتدريج ، وعلى مر السنين والأجيال كما بنيت أكثر قصور المنطقة الشهيرة ، وانما بني دفعة واحدة ، ووفق مخطط مسبق وتصاميم مفصلة .. وفي هذا دليل على عبقرية هندسية معمارية رفيعة المستوى .

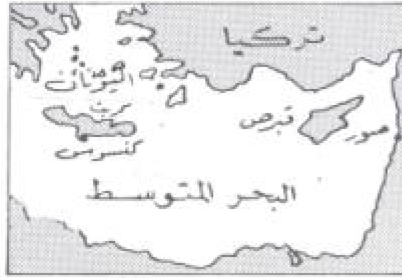
ولسنا هنا بصدد وصف هذا القصر وصفا شاملا .. فهذه مهمة عسيرة ، بل قل مستحيلة بالنظر الى ضيق المكان المتاح ، وحسبنا الاشارة السريعة لابرز معالم القصر وأهم مميزاته .

نذكر من ذلك الأسلوب المتطور في الافادة مما يعرف في الهندسة بعبارة bays and wells بحيث يتسرب ضوء الشمس الى داخل القصر ويغمر شتى غرفه وممراته .

ونذكر الحمامات الكثيرة المتسعة التي توزعت في القصر ، والتي اشتملت على أحواض للاستحمام عميقة ومعقولة ومزينة أحيانا برسوم ولوحات ..

ونذكر أيضا المراحيض التي جهز بعضها بمعدات لضغط الماء ، ضمنت لها النظافة التي لم تعرفها أوروبا في العصور الوسيطة ، ولا حتى في العصور الحديثة الأولى ..

ونذكر كذلك المناهيل المغطاة والمجارير التي ما زالت تفتقر اليها عواصم ومدن كثيرة في قرننا العشرين .. ويؤكد الكثيرون أن منجزات كنسوس في هذه المجالات وفي أعمال السباكة بصورة عامة يفوق كثيرا منجزات الرومان فيها .. والرومان هم أسياد صناعة جسور المياه وما اليها من صناعات ...



الجانب الشرقي من البحر المتوسط ، تظهر فيه بوضوح جزيرة كريت وعاصمتها كنسوس .

ويعجب المرء بعد هذا كله كيف غفل أهل كريت عن صنع الحنفيات التي تضمن تدفق الماء لدى تحريكها ، لقد افتقروا اليها ، واضطروا الى صب الماء صبا حين التغسيل والاستحمام ، كذلك غفلوا عن المصارف التي تجري المياه القذرة وتنصرف عبرها ومن ثم عبر الأنابيب الخافية المتصلة بها .

الدين والعبادة .. والفن :

تختلف حضارة كريت عن سائر حضارات الشرق الأوسط بأنها أولت الدين اهتمامها دون أن تصبح حضارة دينية قلبا وقالبا كغيرها من الحضارات .. فالموت في نظرهم حق ، ولكنه لم يغلبهم على أمرهم .. والأرواح الشريرة حقيقة لم ينكروها ، ولكنهم لم يحفلوا بها كما فعل أهل مصر وما بين النهرين . والغيب .. أقروا بوجوده ولكنهم وجدوا في الطبيعة والحياة الانسانية ما استأثر بجل تفكيرهم ومشاعرهم ..

أما محور معتقداتهم وعباداتهم فكانت الالهة الأم التي كثيرا ما عبروا عنها بالزهور والثعابين والطيور .. حقا ظهرت عبادة الاله الذكر الفتي في العهد المنوي ، ولكنها لم تبلغ عبادة الالهة الأم ..

وتجدر الاشارة الى الثور .. فقد كان محورا من محاور عباداتهم ، ولكن العلماء لم يستطيعوا تحديد العلاقة بينه وبين الالهة الأم .. على أن الثور كان قوام الألعاب العديدة المختلفة التي شغف بها أهل كنسوس كل الشغف .

وتكاد تكون هذه الألعاب البهلوانية المعقدة مستحيلة الأداء على أبطال رياضة الجمباز وأمثالهم في هذه الأيام ... وقد يكون السر في ذلك المدلول الديني العميق الذي انطوت عليه هذه الألعاب في نظر أهل كريت .

الكتابة والقتال :

لا جدال في أن أهل كريت عرفوا الكتابة ، وكانت كتابتهم تصويرية هيروغليفية في بادىء الأمر .. ثم تحولت مع الأيام حتى استبدلت الرموز التي دلت على الأشياء ككل بالخطوط والمنحيات المجردة .. أو إن شئت الحروف ، وصنفت الكتابة في مرحلتها الثانية صنفين ، صنف ا (Linear) وهو الأقدم وقد ظهر في القرن (١٧) ، وصنف ب (Linear) وقد تأخر ظهوره حتى القرن (١٤) ق . م .

ومهما يكن من أمر فان أكثرية السكان كانوا أميين ، لا يقرأون ولا يكتبون ، وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة لا يولونها مثل الاهتمام الذي ظفرت به عند غيرهم من الشعوب .

وتجدر الاشارة الى أن لامبالاة أهل كريت بالكتابة قد اقتربت من لا مبالاتهم بالحرب والقتال .. فمدنهم كانت بلا أسوار .. وسيوفهم كانت بدائية وقليلة على كل حال ... ودروعهم وخوذ رؤ وسهم صنعوها من جلود الثيران .

ويتساءل العلماء والمفكرون : ترى هل كان لولع أهل كريت بالطبيعة والعمل وشغفهم بالمرح واللعب ، علاقة بعزوفهم عن الكتابة والحروب .. أم أن السر في ذلك يعود الى رجحان كفة المرأة في مجتمعهم .. كما تدل على ذلك معتقداتهم الدينية التي اتخذت من الأم محورا لها .. وكما تدل عليه أيضا رسومهم الفنية ولوحاتهم التي آثرت الأحجام الصغيرة الدقيقة ، وهي الأحجام التي غالبا ما يتمخض عنها ابداع النساء ....

بقي أن نذكر أن التاريخ أسدل ستاره على حضارة كريت سنة ١٤٥٠ ، وذلك نتيجة ثورة أحد البراكين ثورة عنيفة ، وتبعا لظهور الاغريق وتمكنهم من احتلال الجزيرة . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ ترويض الإرادة بين اتهامات التسلط أو التنازل

■ المضادات الحيوية سلاح ذو حدين



ترويض الإرادة

بين اتهامات التسلط أو التنازل

اعداد : ريم الكيلاني

خلف الأبواب المغلقة ، ووراء جدران المنازل ، يعيش كل زوجين حياة لايعرف حقيقتها أحد ، تدور بينهما محاولات التوصل الى صيغة حياة مقبولة رغم اختلاف الرغبات والآراء ، لكن المجتمع والناس لايغفرون أبدا للزوجة اذا حققت ما تريد .

انتهت حفلة الزفاف ، وغلق عليهما باب المنزل . انتهى عهد الدلال والمجاملة . وبدأت الأمور في الظهور على حقيقتها ، وعادت عجلة الحياة الى الدوران دون تزاويق ، وبلا أقنعة .

ويبدأ الاحتكاك الحقيقي بالحياة والناس والمجتمع ، ومع بداية هذا الاحتكاك تبدأ الخلافات والصراعات في الظهور ، بسبب عدم التوازن الفكري ، والتباين الاجتماعي والبيئي ، ومع المعركة الأولى بين رغبتين متناقضتين يبدأ السعي الحقيقي لكسب المعركة ، وتحقيق الأهداف ، وفرض الشخصية .

منذ اليوم الأول للزواج يسعى كلا الزوجين لاجتياز التجربة بنجاح ، ولما كان الزواج كأي علاقة اجتماعية بين اثنين مشحونا باختلاف ارادتين ورغبتين ، ظهر الاختلاف الحقيقي بين شخصين يتباينان في التفكير وفي وزن الأمور مع وقوع أول خصام .

يقول عبد المنعم الزيادي في كتابه الزواج السعيد : « ان للذكاء دورا رئيسيا في التغلب على كثير من المشاكل ، وتسيير أمور الحياة بشكل هادىء وطبيعي » ، وهو يحمل المسئولية للمرأة قبل الرجل لأنها مدرسة تربي عناصر اجتماعية ، وتعلمها وتؤهلها لتكون بناءة أو هدامة .

لابد لنجاح الحياة الزوجية من امرأة ذكية واعية ، توظف كل طاقتها لصالح زوجها وأبنائها قبل نفسها ، وتعرف متى تتحدث ، ومتى تلتزم الصمت ، ولا تفوتها صغيرة أو كبيرة مما يدور حولها ، فليس صحيحا أن الرجل يتضايق من ذكاء المرأة ، ومن قدرتها على



تصريف أمورها ، اللهم الا اذا كان هو نفسه ضعيف الشخصية ، فالرجل يسره أن يتفاخر بأن له زوجة ذكية ، طالما أنها توظف ذكاءها لصالحه ، وليس لصالح أنانيتها ، وتشعره ـ على الرغم من كل ماتتمتع به من ذكاء ـ أنها غير قادرة على الاستغناء عنه . انتهى رأي الزبادي في كتابه (همسات وأقاويل) .

كثير من الناس يتدخلون في هذا الأمر ، ويتحدثون،لكن لا أحد يستطيع أن تدير امرأة بيتها بعقلها ، ولاأحد يتفهم كيف يمكن لزوجة أن تعيد صياغة أسلوب زوجها وسلوكه .

همسات وأقاويل :

خلف جدران وأبواب مغلقة كانت همسات وتعليقات ترصد وتتحدث :

الجارة : انها امرأة متسلطة قوية ، تعرف كيف تأخذ حقها كاملا ، لتصل الى هدفها .

أم الزوج : مسكين ابني ، لم أكن أدري أنه بهذه السلبية ، فهو لايعترض أبدا ، بل يرضى بكل ما تقوله زوجته أو تفعله .

شقيقة الزوج : لم أر في حياتي رجلا ضعيف الشخصية أمام زوجته مثل أخي ، لو كنت أعرف ماذا تعمل له لاتبعت أسلوبها في ترويض زوجي .

أخت الزوجة : لاأدري لم تحمل اختي نفسها هذا الحمل الثقيل ؟ ليتها ترحم نفسها وتتركه وشأنه يفعل ما يشاء .

خادمة في بيت : مسكينة سيدتي ، كيف تحتمل هذه التصرفات ؟ وكيف تقدر أن تسيطر على أعصابها ؟ كل هذا من أجل بيت هادىء ؟!

صديق الزوج : لقد تغير صديقي منذ اللحظة الاولى لزواجه ، فهو لم يعد يسهر معنا ، أعتقد أنه لايخرج دون استئذان ، بل لعله يطلب منها مصروفه كما لو كان طفلا في روضة .

لايغمض المجتمع عينيه أبدا ، ولايغلق فمه ، ولايكف عن الحديث ، بل تنهال اتهامات وأقاويل عن جبروت أحد الطرفين وسيطرته ، وضعف طرف آخر ، لكن الحقيقة لاتزال ضائعة .

في أحد المنازل الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل ، يدخل الزوج بيته دونما مبالاة أو اهتمام ، فيغلق الباب ثم يرى وجه زوجته من بعيد ، قابعة في أحد أركان المنزل ، ويستعد لسماع أسطوانة اعتاد سماعها كل يوم في مثل هذا الوقت . في منزل آخر تتعالى أصوات أصدقاء الزوج في هرج ومرج ، تارة يصرخون لفوز في لعب الورق ، وتارة أخرى يقهقهون لدعابة ما ، وهي قابعة في المطبخ ، تقدم لهم الشاي ، والقهوة ، وكل ما قد يلزم هذه السهرة . في منزل ثالث تصرخ الزوجة كل يوم بسبب زيارات زوجها المتكررة لمنزل والده دون أن يصحبها معه ، تؤكد له في كل مرة أنها زوجته ، ومن حقها عليه أن يمنحها بعضا من اهتمام يعطيه لأهله واخوته .

في منزل آخر زوج يقدم كل ما يصل اليه من أموال لأهله ، فهو يدفع لهم بسخاء متناسيا واجباته تجاه منزله ، وان ثارت الزوجة أو نصحته اتهمها بالانانية والمادية .

ما الذي يحدث في كل منزل من هذه المنازل ، اذا كان الرجل يعتقد أنه حر في تصرفاته ، وليس لأحد الحق في السيطرة على سلوكه ، أو محاولة التدخل في كل صغيرة وكبيرة ؟ واذا كانت المرأة ترى أن هذا انتقاص من قدرها ، وهضم لحقوقها ، فهل يعني هذا استمرار الخلافات لنفس الأسباب ؟



ان هذا لن يجدي بل قد يزيد من حدة الخلافات ، مما يحدو بالرجل والمرأة للهروب من هذا القفص الذهبي ، بعيدا عن المشاكل ، وجو التوتر ، والمشاحنات . الدكتورة سهام أبو عيطة الاستاذة في كلية التربية بجامعة الكويت تقول رأيها في هذا الصدد « ان المرأة الذكية الناجحة في حياتها الزوجية ، التي استطاعت أن تتغلب على كثير من مشاكلها دون ضجيج ، امرأة توجه لها أصابع الاتهام ، وتنعتها بالقوة والتسلط ، ولن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل توجه الى زوجها وتتهمه بالسلبية وضعف الشخصية . لكنني أرى - من وجهة نظر شخصية - أن المرأة هي سكن الرجل ، فاذا ما استطاعت أن تفهم أبعاد شخصيته ، وكانت لها المواصفات التي يحلم بها ، تتمتع بقدر وفير من الثقافة ، قادرة على معاونة زوجها في اختيار قرارات حياتهما ، دون أن تشعره بأي تسلط أو عناد أو تحد من جانبها ، وتشعره في كل لحظة من لحظات الحياة - أنه الأفضل والأقوى والأذكى ، فهي امرأة قادرة على تصريف

أمور حياتها بنجاح . ولما كان هذا النجاح صعب التحقيق ، فقد اقتصر على الفئة التي تتصف بالذكاء والوعي في المجتمع ، مما يشكل - بدوره - غيرة عند هؤلاء اللواتي لايجدن فن التعامل في الحياة الزوجية .

فالزوج الذي اعتاد أن يزور أهله كل يوم ، أو هذا الذي لايتوانى لحظة عن دفع كل ما يطلب منه ، من مبالغ ضرورية وغير ضرورية ، يمكن بأسلوب من الود والتفاهم ، وبعيدا عن الالزام - خلق شعور لديه بضرورة متابعة الأولاد مثلا ، أو الاهتمام بمذاكرتهم ، و تكليفه بجلب بعض الاحتياجات الهامة للمنزل ،وان مثل هذه الالتزامات من شأنها زيادة ارتباطه بالاسرة والبيت ، وهو سيؤديها بمنتهى الرضا والسعادة ، مع مراعاة عدم تعدي الحدود الطبيعية ، وتقاليد المجتمع .

للزوجة الذكية دور بارز في تخليص زوجها من عادة السهر المتكرر كل يوم داخل المنزل أو خارجه بأسلوب هادىء بعيد عن الثورات العصبية . أما اذا شعرت الزوجة باستحالة القضاء على هذه العادة فعليها تقع مسئولية تهيئة الجو في المنزل ، بحيث تخلق رغبة في زوجها للبقاء في هذا البيت لمدة أطول ، وقد يمل الزوج - مع الوقت وعلى المدى الطويل - السهرات مع الاصدقاء .

ان كل ما يتم بين الزوجين من خلافات ، ومعارك باردة ، أمر طبيعي في بداية الحياة الزوجية ، وذلك بسبب وجود مفاهيم خاطئة مكتسبة من بيئتين مختلفتين . سرعان ما تبدد كل هذه الخلافات بعد أن يندمج كل منهما في شخصية الآخر . فالحقيقة أنه لايوجد رجل بامكانه احترام المرأة والاستمرار في حبها اذا كانت لاتتمتع بأي قدر - ولو ضئيل من الذكاء ، حتى لو جذبه اليها جمالها ، فهو لايلبث أن يملها اذا فشل في مخاطبة عقلها ، والمرأة القوية الشخصية قادرة على حسم الأمور والتغلب على المصاعب التي تعترضها في سبيل تحقيق ما تصبو اليه .

تنهي الدكتورة أبو عبطة حديثها قائلة : ان للنشأة الاجتماعية دورا بارزا في المحافظة على الحياة الزوجية ، فالمجتمعات المحافظة عادة ما تعزز فكرة المسايرة الاجتماعية بخاصة لدى الاناث . فالمرأة تربى على الخضوع والاستسلام ، وللرجل - عادة - دور مخالف هو دور الأمر الناهي ، وبالتالي تختلف التوقعات ، ويلعب كل من الذكر والأنثى دورين مختلفين في حياتهما الزوجية ، لدرجة أنه يعاب على المرأة الاعتراض حتى لو تزوج زوجها عليها . أما في المجتمع الحديث فالأمر يختلف على الأخص عندما تنادي المرأة بمساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات ، فهنا تصبح الحياة شركة يتساوى فيها كل من الزوج والزوجة بحكم التربية والقانون . هذا هو رأي المرأة وتصورها لحقيقة الحياة الزوجية . لكن ماذا يقول الرجل عن المرأة ؟

يقول الدكتور قاسم الصراف استاذ علم النفس التربوي بجامعة الكويت : ان للتصرف الحكيم دورا بارزا في حل المشاكل ومسك زمام الأمور ، وهنا يأتي دور المرأة ، لكن أية امرأة ؟ انها المرأة الواعية الذكية التي تتمتع بقدر واف من قوة الشخصية بحيث تنتزع احترام الآخرين لها ، الأمر الذي يجعل كل من حولها يوافقها في الرأي ، ويتأثر بأفكارها ، وسلوكها ، فوجود صراعات وخلافات في بداية الحياة الزوجية أمر طبيعي ، لعدة أسباب منها أن الزوجين عادة ينتميان الى فئة الشباب التي مازالت تتهرب من تحمل المسئولية الزوجية ، لقلة الخبرة وعدم النضج ، والحياة الزوجية تتطلب نوعا من التكيف النفسي مع معطيات الحياة الجديدة ، وهذا التكيف يعني تنازل كل منهما عن نمط حياته قبل الزواج جزئيا ان لم يكن كليا في سبيل ارضاء الطرف الآخر ، أما اذا تمسك الزوجان

بما اعتادا عليه قبل الزواج - كهذا الرجل الذي اعتاد السهر خارج المنزل أو داخله مع مجموعة من أصدقائه - فان الاصطدام واقع لامحالة ، نظرا لاختلاف الميول والاهتمامات والمواقف والعادات والاتجاهات والأمزجة ، لذلك فان الشباب في مرحلة ماقبل الزواج بحاجة الى الارشاد النفسي ، والتوجيه الصحيح ، للتغلب على المشاكل النفسية الطارئة .

القوة والضعف :

ويواصل الدكتور الصراف حديثه في تشخيص المشكلة فيقول :

ان فترة التعرف الحقيقي بين الزوجين تبدأ بعد الزواج ، حيث تنتهي فترة المجاملة ، ويبدأ كل منهما في محاولة التعرف على مواضع القوة والضعف لدى الآخر ، وبالتالي يحسب لذلك ألف حساب ، فيبدأ الصراع هنا بين الزوجين ، كل طرف يحاول بطريقته الخاصة فرض سيطرته على الآخر ، وقد تؤدي المعركة الى انفصال ، أو قد يحاول كل منهما أن يقنع الآخر بوجهة نظره دون التنازل عن رأيه ، وأيا كانت الأسباب فالمواجهة أول اختبار حقيقي لقدرة الزوجين على التعايش ، والتكيف مع الحياة الجديدة .

قد تشعر المرأة أنها غير قادرة - مثلا - على أن تجعل زوجها - بين عشية وضحاها - كريما ، وهو الذي عاش أكثر من ثلاثين عاما يخشى على أمواله ، ويفكر ألف مرة قبل أن يبددها ، ولا تستطيع أن تجعله اجتماعيا يحب الناس ، والاختلاط بالمجتمع ، وهو رجل انطوائي ، اعتاد البقاء في المنزل اطول فترة ممكنة ، انها اذا أرادت تغيير الحال فعليها التحلي بالصبر أولا كما يجب أن تعلم أن تغيير عادة استمرت مع الزوج عمره كله لن تذهب أو تتلاشى بالسرعة التي تتوقعها ، وعلى الزوجة أن تشعره أنها تفعل هذا من اجله ومن أجل وضعه الاجتماعي ، وليس لأنها انسانة مادية تحب المال ، أو لأنها تحب السهر والناس والحفلات ، فالرجل عنيد ، وأسلوب السيطرة والفرض يزيد من عناده ، ومن تمسكه بآرائه وتصرفاته .

ان عمليات اختبارات القوى هذه ليست جديدة ، انما وجدت منذ وجد آدم وحواء ، حينما حاولا أن يعيشا في الجنة ، لكنهما اختلفا في الرأي والمشورة ، فماذا كانت النتيجة ؟

ولعل الاسطورة التاريخية التي تقول بأن المرأة هي نصف الرجل ، وعند الزواج يكمل الرجل نصفه الآخر فيهاشيء من الحقيقة ، وعملية المزاوجة بين النصفين ليست سهلة دائما ، لأن كل نصف يعتبر غريبا عن النصف الآخر .

للرجل رأي :

يقول الدكتور الصراف : ان ما اريد قوله بصراحة ووضوح أنه على عاتق المرأة تقع المسئولية الكبرى ، فيجب أن تكون واعية ، تتصرف بحكمة وعقلانية حين يستدعي الموقف ذلك ، وتعطي لكل موقف حقه من الاهتمام ، وتضع الأمور في نصابها الصحيح ، دونما تجنٍ أو خلط في الأوراق ، ليتوفر جو الود والتفاهم بينها وبين زوجها ، فالزوجة التي تثير زوبعة عنيفة كلما صدر من زوجها تصرف لايلقى استحسانها - قطعا - مخطئة ، اذ عليها مجاراة الأمور دون السماح لعواطفها الجياشة بالتغلب على عقلها .

لكنها تستطيع :

قدر من الذكاء والصبر ، وقدر من نقاش لأفكار السيطرة والتسلط ، ومساحة حوار لتلاقي الأفكار تجعل المرأة تستطيع أن تقود سفينة الحياة ، وتحافظ على بيتها رغم كل الظروف ، والمرأة قادرة - أيضا - على أن تطمس معالم العبقرية عند زوجها ، أو أن تظهرها . □

مساحة ود

بحثاً عن حلم

جاء إليّ يودعني قبل سفره بساعات، في يده كتاب وجرائد وحقيبة صغيرة ، لم أشأ أن أعود به إلى حوارات طويلة دارت بيننا ، فقد كان قراره نهائيا ، وإرادته جازمة فيما يتعلق بالسفر ، أنهى كل ارتباطاته ، وظل طويلا ينتظر موافقة إدارة الهجرة الأمريكية ، وبعد أن وصلت إليه الموافقة بأيام قلائل حجز تذكرة سفر ، وحزم حقائبه ، وبدأ في وداع أهله وأصدقائه ومعارفه ، ولم أستطع أن أخلص نفسي من مشاعر الأسى التي انتابتني تجاهه ، فهو مهندس نابه ، يعشق مهنته ، وفي قمة سن العطاء والعمل ، دمث الأخلاق ، مهذب ، مجامل ، لكن تسيطر على عقله فكرة واحدة ، ويملأ حياته حلم أوحد ، وهو أن يصبح من أصحاب الملايين ، عمل فترة بعد تخرجه بالحكومة ، فوجد الطريق طويلا ، فترك العمل بالحكومة ، وعمل في القطاع الحر .

اكتشف أنه لن يستطيع أن يفرض أسعار خدماته كما يشاء لكي يصل إلى رقم المليون ، جرب كل الطرق ـ القانونية بالطبع ـ لكنها جميعا لم توصله إلى شيء ، فحزم إرادته ، واتخذ قرارا بالسفر إلى أمريكا ، بلد العجائب والملايين والثروات ، واشترى نسخة من كتاب « كيف تصبح مليونيرا ؟ » ، وحفظه عن ظهر قلب . دارت ـ وقتئذ ـ بيني وبينه مناقشات طويلة ، حاولت أن أقول له إن أمريكا والغرب ـ بشكل عام ـ لا يصنعان أصحاب الملايين ، وإن عصر الطموحات والانتصارات الفردية قد انتهى ، وإن في الغرب أناسا فقراء أكثر فقرا مما نتخيل أو نتصور ، وإن الحياة هناك ليست كما تراها في أفلام السينما ، حدائق وبيوتا رائعة ، ووجوها مبتسمة دائما ، ونساء جميلات ، وثروة طائلة ، إن خلف حضارة الغرب ـ مهما كان رأينا فيها أو ملاحظاتنا عليها ـ تكمن قيم أساسية ، وضمن تلك القيم تكمن قيمة العمل ، وضرورته كمحور أساسي ، والعمل وحده هو الذي يكفل لصاحبه حياة أفضل ، ومكانة اجتماعية طيبة ، أما حلم الثراء الحاد فهو يقتل صاحبه ، فالمال كالماء المالح ، لا يروي عطشا ، ولا يطفيء غليلا ، لكن الأحلام البسيطة التي تولدها قيم حقيقية أصيلة هي التي تمنحنا سلاما وراحة وطمأنينة لن تجدها أبداً في مهجرك . لم يسمع مني ، وها هو قد أتى كي يودعني ، ويذهب حاملا الكتاب السحري الذي أفسد حياته ، إنه على أمل أن يحقق مستحيلا .

محمود عبدالوهاب

المضادات الحيوية

سلاح ذو حدين

إعداد : وفاء طه ناجي

يلجأ كثير من المرضى إلى استخدام المضادات الحيوية في العلاج ، دون استشارة طبيب . والأمر غاية في الخطورة ، فقد يؤدي إلى ظهور « ميكروبات » جديدة مقاومة للمضادات ، وقد يصبح العلماء - في المستقبل القريب - في مواجهة « ميكروبات » لا تموت . .

يعتبر مركب السلفا بداية الانجازات الهامة في عالم المضادات الحيوية الواسع ، إذ أمكن عن طريقه القضاء على أمراض كثيرة مستعصية في وقت اكتشافه . كان ذلك في عام ١٩٣٥م ، وبعد ذلك بحوالي خمسة أعوام توصل « فلمنج بنسلين » إلى اكتشاف نوع من المضاد الحيوي ذى مفعول قوي في القضاء على كثير من البكتريا التي لم تتأثر بمركبات السلفا بصورة حاسمة ، ذلك النوع الذي عرف فيما بعد باسم « البنسلين » . ثم توالت اكتشافات عديدة لأنواع أخرى من المضادات الحيوية التي كانت تسهم إسهاما فعالا بارزا في معالجة أمراض كثيرة .

وفي بداية السبعينيات بدأت مرحلة جديدة من حياة المضادات الحيوية ، حيث ظهرت أنواع جديدة من الأمراض بسبب « ميكروبات » مقاومة للعلاج بالمضادات الحيوية ، مثل مرض الزهري والسيلان ، تلك التي ثبت أن نسبة عالية من حالاتها مقاومة للعلاج بالبنسلين .

وأصبح الأمر أكثر خطورة في بداية الثمانينيات ، عندما انتشرت بين الأطفال في بعض بلدان العالم الاصابة بنوع من الالتهابات الحادة في الحلق أو الجلد التي غالبا ما تؤدي إلى تسمم الدم ، وقد ارتفعت نسبة الوفاة بين الأطفال المصابين رغم علاجهم بالبنسلين ، مما جعل العلماء يهتمون بأسباب ذلك ، حتى لا يتهددنا جميعا خطر « الميكروبات » المتطاولة .

ما هو المضاد الحيوي ؟

كيف نحمي أنفسنا وصغارنا من ذلك الخطر ؟
وما هو المضاد الحيوي ، وكيف يعمل ؟
للاجابة عن ذلك التقى « البيت العربي » بالدكتور محمد مهدي ، الطبيب الاختصاصي في أمراض



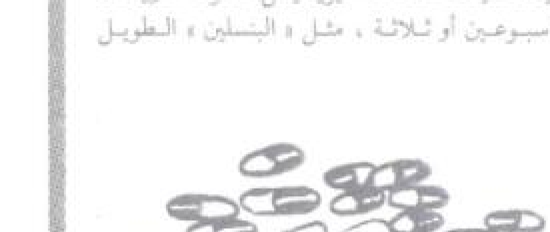
الأطفال ، في أحد مستوصفات الكويت . فقال :

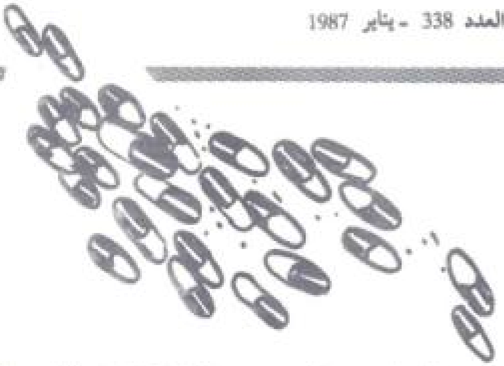
« في البداية أحب أن أوضح الوظيفة الأساسية للمضاد الحيوي في الجسم ، وهي تنقسم إلى قسمين حسب نوع المضاد نفسه ، فبعض أنواعه يقوم بوقف نشاط الخلية « البكترية » ، ويمنع تكاثرها ، وهو ما يساعد في القضاء عليها ، مثال ذلك مركبات السلفا ، وبعضها يقضي على « البكتريا » نهائيا ، إما عن طريق التأثير على جدار خليتها ، أو بالتسبب في انتفاخ خليتها وانفجارها ، أو بمنع تكوين مادة البروتين داخل خليتها ، والمضادات الحيوية كثيرة ، منها البنسلين ، والتراسيكلين ، والكورانفنيكول . ولما كان لهذه المركبات جميعا تأثير على الوظائف الحيوية لخلية « البكتريا » سميت « المضادات الحيوية » » .

متى يتناول المريض المضاد الحيوي ؟

يقول د. مهدي : ليس لأي مريض تحديد نوع العلاج الذي يتناوله دون الرجوع إلى الطبيب ، وإذا كان المريض يتناول « الاسبرين » عندما يشعر بصداع مثلا فالأمر مختلف عند تناوله للمضاد الحيوي ، فعندما يقرر الطبيب العلاج بالمضاد الحيوي فإنه يضع في الحسبان عمر المريض ، ومدى شدة المرض ، وكفاءة الكليتين ، والكبد ، وهي ـ كما نرى ـ أمور لايقررها إلا الطبيب الاختصاصي الذي تقع عليه مسئولية اختيار المضاد الحيوي المناسب ، وتقدير الجرعة ، ومدة العلاج اللازمة .

أما الالتزام بزمن محدد في تناول المضاد الحيوي فهو من أجل المحافظة على وجوده في الدم عند مستوى معين ، يكون له تأثير حاسم على « الميكروب » ، فعندما يبدأ مستوى المضاد الحيوي في الانخفاض في الساعات الأخيرة من زمن الجرعة ، ترفع الجرعة التالية هذا المستوى مرة أخرى إلى الحد المطلوب ، مثال ذلك أنواع « البنسلين » التي يبدأ مفعولها بسرعة ، ويستمر لمدة ثماني ساعات ثم يتلاشى المفعول في آخر تلك المدة، لذا وجب اعطاؤها كل ٦ ساعات ، وهناك أنواع تعطى للمريض كل ١٢ ساعة ، لأنها ذات فعالية تستمر أكثر من ١٢ ساعة ، وهناك أيضا مضادات حيوية يظل مفعولها ساريا لمدة أسبوعين أو ثلاثة ، مثل « البنسلين » الطويل





المفعول . والمهم هو أن يلتزم المريض بإرشاد الطبيب ، ولا يقدم على تناول مضاد حيوي من تلقاء نفسه ، بل يلجأ إلى أصحاب الاختصاص عند شعوره بأعراض أي مرض .

ارتفاع درجة الحرارة واستعمال المضاد الحيوي

ويواصل الدكتور مهدي حديثه قائلا :

« للأسف الشديد أن هناك سوء استخدام للمضاد الحيوي ، يصل في كثير من الأحيان إلى درجة الخطورة ، فالبعض يتناوله عند شعوره بأي أعراض مرضية ، وبخاصة عند ارتفاع درجة الحرارة ، وقبل استشارة الطبيب ، ظنا منه أن هذه الحالة مشابهة لحالة مرضية سابقة ، قرر لها الطبيب العلاج بالمضاد الحيوي ، ويكون هذا الأمر خطيرا جدا إذا كان المريض طفلا صغيرا ، فارتفاع الحرارة قد ينتج عن أسباب كثيرة ليس للمضادات الحيوية دور في علاجها ، وقد يكون ارتفاع درجة الحرارة نتيجة نقص سوائل الجسم ، أو نتيجة التعرض للشمس فترة طويلة ، أو لكون المريض في مرحلة الحضانة لبعض الأمراض التي تحتاج نوعا مختلفا من العلاج . لذلك يجب الاكتفاء بمخفضات الحرارة العادية كالكمادات وتناول « الاسبرين » إلى حين الذهاب إلى الطبيب ، فمعظم الأمراض الفيروسية لا تتأثر بالمضاد الحيوي .

الأعراض الجانبية للمضادات الحيوية

وعن الأعراض الجانبية للمضادات الحيوية يحدثنا د. ملهم حكم من مستوصف عبدالله السالم فيقول : « هناك ملايين من الذين كتب الله لهم الشفاء نتيجة استعمال المضادات الحيوية ، كما أن هناك كثيرا من المرضى يتعرضون لمشكلات جديدة بسبب استعمالها ، نتيجة لاصابتهم بحساسية شديدة من تناولهم مركبات السلفا أو البنسلين ، وهؤلاء يجب عليهم التوقف عن تناول المضادات الحيوية فور ظهور أعراض الحساسية .

وللحساسية مظاهر عديدة منها الهبوط المفاجىء ، أو الحكة الجلدية ، أو « الارتيكاريا » ، وهؤلاء المرضى يمنعون من استخدام هذا المضاد الحيوي طول العمر ، ونصيحتي للمصابين - أساسا - بأمراض الحساسية الأخرى أن يكون استخدامهم لتلك المركبات تحت إشراف طبيب » . ويتابع حديثه قائلا : « هناك أيضا أنواع من المضادات الحيوية لها تأثير على كريات الدم مثل « التراسيكلين » و « الكورافنيكول » ، وقد يؤدي استعمالها إلى عيوب خلقية في الجنين ، وبخاصة خلال الأشهر الأولى من الحمل ، لذا يحظر استخدامها في علاج الحامل . ويتحتم إجراء فحوص دورية للدم إذا لزم استمرار استعمالها لمدة طويلة .

ويسأل البيت العربي : يشكو كثير من المرضى من أن الاستجابة للعلاج تنخفض لديهم بتناولهم مضادا

حيويا معينا في كل مرة يصيبهم فيها المرض . ما مدى صحة ذلك وما السبب ؟

فيجيب د. ملهم قائلا : إن السبب في ذلك يرجع إلى أن « الميكروب » الذي لا يموت نهائيا رغم استعمال المضاد الحيوي يستعيد نشاطه ، ويكتسب مناعة ضد المضاد الحيوي الذي تناوله المريض ، وينتج ذلك عن سوء استعمال المضاد نفسه ، مثل تقليل الجرعة عن المطلوب ، أو عدم الالتزام بالمواعيد الخاصة بتناول الجرعة ، أو التوقف عن تناول العلاج قبل انتهاء المدة التي قررها الطبيب ، أو استخدام مضاد حيوي انتهت صلاحيته .

أهمية إرشادات الطبيب

ويسأل البيت العربي : ما هو الاستخدام الأمثل للمضادات الحيوية ؟

ويجيب الدكتور ملهم مؤكدا في البداية على أهمية أن يترك للطبيب وحده اختيار نوع المضاد المناسب ، وتحديد الجرعة ، وفترة العلاج ، ويتابع حديثه فيقول : على المريض بعد ذلك أن يتبع تعليمات الطبيب بمنتهى الدقة ، فإذا لم يلاحظ تحسنا واضحا في حالته رغم الالتزام بتعليمات العلاج عليه أن يراجع الطبيب ، ويخبره بذلك ، والطبيب هو الذي يقرر ، إما زيادة الجرعة ، أو تكرار العلاج ، أو التحول إلى نوع آخر من المضادات الحيوية . وأحب أن أؤكد أن استبدال مضاد حيوي بآخر أمر غاية في الخطورة ، ويجب ألّا يقدم عليه المريض .

ويختم حديثه قائلا : شيء آخر هام أود التأكيد عليه وهو ضرورة الاستمرار في تناول العلاج حتى نهايته ، برغم تحسن حالة المريض ، وذلك خوفا من تكوّن مناعة لدى بعض « الميكروبات » ضد الدواء ، أو حدوث نكسة للمريض ، كما يجب التأكد من صلاحية المضاد الحيوي للاستعمال ، وضرورة المحافظة عليه بعيدا عن الحرارة وبعيدا عن أيدي الصغار . □

قبعات ثلاث

● تزوجت إحدى السيدات الانجليزيات رجلا تجاوز العقد الخامس من عمره ، فلما دخل الرجل منزلها رأى ثلاث قبعات معلقة ، فلما سألها عن تلك القبعات قالت : هذه قبعة زوجي الأول الذي مات غرقا ، وهذه قبعة زوجي الثاني الذي مات محترقا ، أما هذه فهي قبعة زوجي الذي مات مقتولا ، فنزع الرجل قبعته عن رأسه وقال لها : خذي هذه القبعة وقولي هذه قبعة زوجي الذي هرب بجلده .

□□



هو..

خوفاً على ابنتي !

لن اتركه يفسد مستقبل ابنتي ، يكفي أن حظي قد تعثر معه ، وتكفي آراؤه وطريقة حياته ، ومبادئه التي ضيقت علينا الحياة ، رغم أنه كان يستطيع أن يجعل ايامنا رغدا وهناء .

ثلاثون عاما هي عمر حياتنا معا ، بدأنا من الحد الأدنى زوجين خريجي جامعة ، كانت تربطنا علاقة طيبة واهتمام مشترك ، بدأنا الحياة نبني معا ، نتعثر حينا ، ننطلق حينا ، نفشل احيانا ، تنجح احيانا اخرى ، ورزقنا الله بنت وولد ، ورغم أن الصورة من خارجها رقيقة ناعمة الا أن داخلها كان مليئا بأشياء كثيرة ، فالحياة ليست ناعمة والمطالب تزداد ، والأحلام تكبر والطموحات تشتد ، والأماني في تحقيق حياة أفضل لابنينا تلح علينا وتضغط على أعصابنا .

حاولت معه كثيرا كي يقبل البحث عن عمل بعد الظهر لكنه رفض ، في زمن مضى كان يرفض لأنه يريد أن يقرأ ويسمع الموسيقا ، ويجلس في البيت ، فابنانا كما يقول يحتاجان إليه ، ولابد أن يكون أمامهما ، وبعد ان كبرا صار يرفض لأن مركزه في عمله لا يسمح له بذلك ، فأقول له ان كثيرا من العملاء الذين يترددون عليه قد عرضوا عليه العمل معهم بعد الظهر لكنه يتشنج ويرفض ويقول : ان هذا العمل رشوة مقنعة ، وانه مهانة له وتحايل رخيص عليه ، قبلت ورضيت باتهاماته لي بأنني تغيرت ، وان ضغوط الحياة جعلتني اتنازل ، حتى تفجرت القنبلة التي يتوقعها كل أب وأم ، فقد تقدم شاب لخطبة ابنتي متعلم مثقف من اسرة طيبة ، لكنه لا يملك شيئا ، واسرته لا تملك الا جاها اجتماعيا اكتسبته من وظائف أفرادها وهم الأب والأخوة ، لم يكن الأمر بالنسبة لي يحتاج الى تفكير ، فرفضت على الفور ، فابنتي تستحق زوجا أفضل من هذا ، فقد رأيت زميلات وصديقات لها ، أقل حظا منها في الجمال والتربية يتزوجن من رجال أفضل ، ثم اننا لسنا مضطرتين ـ لا ابنتي ولا أنا ـ كي نقبل بزيجة تبدأ برحلة طويلة في البناء والكفاح والعمل ، فالوجوه الأخرى لكل المعاني اللفظية الجميلة التي يدعي بها زوجي هي الحرمان والاحباط والأحلام التي لا تتحقق ، وهذا كله ما عانيت منه أنا ، ولن أرضى لابنتي أن تقاسي مثله ولا ان تعانيه ، الكارثة ان زوجي وافق على الشاب ، بل تمسك به بحجة انه رجل مثقف ، ومن بيت طيب يمكن أن يطمئن في الاعتماد عليه ، وانه سيعامل ابنتنا بشكل متحضر ، لأن جذور تربيته ستجعله يصون ابنتنا وبيتها ، وأقول له ولكن هناك غيره من العائلات والاغنياء القادرين على اسعاد ابنتنا ، ثم ما فائدة معاملة طيبة وحرمان طويل لكنه يتشنج ويصرخ قائلا : دعيني احمي مستقبل ابنتي ، ولكنني لن استسلم .

هي



هي..

سياط الرغبات

لا أدري ماذا أصابها ؟ كانت احلامنا أكثر اتساعا من ان يعكرها عبء الحياة ، وكانت أمانينا تقتصر على بيت هادىء صغير ، نجلس معا ، نقرأ ونحلم ونفكر ، وكان عهدنا الا تقتلنا طموحات الحياة فقد كان اتفاقنا أن نربي أبناءنا على كل ما هو جميل وراق ورائع ، والا يكون الزمان سببا في ان نعلم ابناءنا التساهل ، أو أن نشوه ذوقهم أو ان نجعلهم يقبلون مما يجب ان يرفضوه ، لكن سنوات حياتنا الطويلة شهدت منها تراجعات كثيرة ، فلم تقو على الصمود طويلا ، هزمتها امنيات أخفقت ، واحلام تلاشت ، ورغبات لم تتحقق .

وتفجرت غضبا عندما تقدم هذا الشاب لابنتنا ، واغمضت عينيها عن كل ما هو ايجابي وجيد وهام ، ولم تر الا كل ما هو سلبي من وجهة نظرها ، فهي ترى انه فقير واقول لها ان الفقر ليس عيبا ولا خطيئة ، وان هذا الشاب ليس فقيرا في الواقع فالفقر ليس قلة مال ، ثم مالنا نحن بحالته المادية ؟ ان الزواج ليس ضمانا بصك مصرفي ، فكم من الرياء افلسوا وضاع مالهم أو بددوه ، فلم يبق لهم منه شيء ، والذي يجب ان نحرص عليه هو خلق الشاب وعقله ومعدنه ، فبهذا وحده يتحقق الضمان ، وبهذا وحده توجد السند لابنتنا ، ألسنا نحن الذين نصنع المال ؟ لكن المال لا يصنع منا انسانا ، ثم اقول لها : هذه افكار ورؤيا للحياة انقرضت ، ولم يعد الناس يرون الفقر سببا لرفض ترويج قليل المال ، لكنها لا ترى إلا صديقات ابنتنا اللاتي تزوجن سيارات فارهة ، وبيوتا وثيرة ، وتغمض عينيها عن اهم ما في الموضوع ، ان ابنتنا موافقة على هذا الشاب وتريده ، وهي على استعداد لأن تسير معه رحلة العمر بكل ما فيها .

ان ابنتنا لا تهتم بالملابس الغالية الثمن ، بل تعمد الى البساطة في الانتقاء ، ولا تتطلب شيئا غير ضروري ، ولا تلح على شيء اذا طلبته وانها ابنتي ، هي ثمرة علاقتي بالدنيا ، فقد حاولت ان انقل اليها منذ نعومة اظفارها رؤيتي للحياة ، وافكاري عن كل شيء فيها ، واصوغ عقلها بشكل يتواءم مع ما أؤمن به ، وأرى فيه انه المدخل الوحيد لكي يحصل الانسان على السلام والراحة الداخلية ، فلا يتعذب بسياط الطموح الحاد والرغبات المنهكة .. واحمد الله انني نجحت ، ولم تكتسب ابنتي من امها الا أدبها ورقتها وحنانها ، اما العقل وطريقة التفكير فهي مغايرة تماما فيهما ، ولذلك فلن اخشى من صيحات زوجتي وصراخها فمعي الورقة الرابحة .



هو

من الحياة

أين ولدي؟

بقلم : منير نصيف

عاشت له ، فلما فقدته أرادت أن تهب حياتها لكل الأطفال .. وعندهم وجدت السعادة التي كانت تبحث عنها .

مدت يدها الحنون تتحسس جبين الصغير الذي يرقد في فراشه قريبا منها ، ثم ما لبثت ان ارتدت الى الوراء مذعورة ، وهي تحاول أن تكتم صرخة كادت تفلت من شفتيها المرتجفتين ، لقد كان الصبي محموما .. اصابه برد الشتاء القاسي الذي يجيء بثلوجه في مثل هذه الأيام من كل عام .. وبحثت عن الدواء ، فلم تجد منه شيئا .. البيت الصغير الذي يقبع فوق قمة الجبل ، بدا هو الآخر وكأنه يئن تحت ثقل الثلوج التي تراكمت عليه ومن حوله ، فليس فيه اى شيء يمكن أن تشعله في المدفأة التي مضى عليها أكثر من أسبوع لم تشتعل فيها النار مرة واحدة ، وهي التي كانت لا تكف عن اشاعة الدفء في هذا البرد القاتل .. فهي لم تبرح البيت خلال الاسبوعين الأخيرين .. حتى الصغير .. ابنها الوحيد الذي عاشت له ومعه منذ سقط والده شهيداً في هذه الحرب المجنونة يرقد أمامها في هذه اللحظة ، لم يعد يذهب الى مدرسته .. فقد أغلقت المدارس في المدينة الجبلية الصغيرة التي ولدت وعاشت فيها مع أسرتها الكبيرة ، ثم أسرتها الصغيرة التي فقدت عائلها ..

واستبدت بها الحيرة والقلق ، وهي ترى ابنها يحترق تحت وطأة الحمى .. ماذا تفعل ؟ في البداية حاولت أن تستنجد بالجيران ، ولكنها لم تجد عند أحد منهم ما تبحث عنه .. استغاثت بالطبيب الوحيد الذي رفض أن يترك البلدة كما فعل زملاؤه هربا من قصف المدافع والقنابل ، ولكنها لم تجده ، فقد ذهب الى المستشفى الصغير الذي شيدوه في ميدان القتال الذي لايبعد كثيرا عنهم لاسعاف الجرحى والمصابين .. هكذا قالوا لها عندما اتصلت بهم هاتفيا من بيت جارتها العجوز ...

وعادت الأم الى حيرتها .. ولكنها في هذه المرة لم تطل ، وكانت ما تزال تقف هناك وسط غرفة جارتها التي كانت تتدثر بملابسها الثقيلة ، وتجلس بجوار المدفأة التي بدأت النيران تخبو فيها ، بعد أن أوشكت



الوقود على النفاد ، وخطر لها أن تحمل ابنها وتأتى به الى هذا البيت الذى احست فيه ببعض الدفء . . ولكنها ما لبثت أن طردت الفكرة فورا من رأسها ، انه محموم ، والثلوج فى الخارج ما زالت تتساقط بكثرة ، وقد تسوء حالته . .

وتحدثت الجارة العجوز أخيرا « لماذا لا تذهبين أنت الى المستشفى ، انه لا يبعد كثيرا عنا . . وسوف تجدين ما تحتاجين اليه من دواء ووقود . . ان الرحلة شاقة فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . ولكنك مازلت شابة وقوية . . اذهبى يا ابنتى والله يرعاك » .

ولم تنتظر لقد عادت الى بيتها مسرعة ، وأحكمت اغلاق الباب ، ووضعت جسمها المتعب داخل معطفها الثقيل ، وغطت رأسها لتقيها من الثلوج المتساقطة وذهبت . . .

كانت الرحلة شاقة مرهقة ، ولكنها استطاعت أن تصل فى النهاية . . والتقت بالطبيب الشاب الذى كان يقف وسط المصابين يضمد لهم جراحهم ، وحصلت على ما تبحث عنه من دواء ووقود . . وقفلت راجعة ، ولكنها لم تكد تخطو بضع خطوات بعيدا عن المستشفى الصغير الذى دخلته منذ لحظات ، حتى عاد القصف يدوى من جديد بعنف وقوة . . وراحت تجرى بقدر ما أسعفتها ساقاها المتعبتان . . لم تحاول أن تتوقف مرة واحدة ، حتى وهى ترى القذائف تنطلق من حولها . . ولم تنتظر

وراءها ، فقد كانت عيناها مسلطتين على الطريق الذي سلكته في رحلة الذهاب .. انها الآن عائدة الى بيتها والى طفلها تحمل له الشفاء ..

واقتربت من البيت أو كادت . وفجأة وجدت نفسها تسقط على الأرض مغشيا عليها ، وهي لا تدري ماذا أصابها .. ولاماذا حدث في تلك اللحظات القصيرة التي مرت قبل سقوطها على الأرض ..

ولكنها لم تبق طويلا تحت الثلوج التي كادت تغطي كل جسمها .. لقد تحاملت على نفسها ، ووقفت على قدميها ، وراحت تنفض الثلج عن ملابسها ، وكانت مازال تحمل الدواء في يدها وقد تشبثت به .. وبكل ما تبقى عندها من قوة ، راحت تكمل رحلتها الى البيت الذي تركت فيه منذ بضع ساعات مضت أعز وأغلى ما تملك في هذه الحياة التي كانت صورها تتلاشى تدريجيا أمام عينيها ...

ووصلت أخيرا .. ولكنها ماكادت تطل برأسها من فوق قمة التل القريب ، حتى صرخت في رعب وفزع : (ابني .. يا ابني) .

فلم يكن هناك بيت .. وانما كان هناك مجرد آثار للبيت الذي كان .. لقد أصابت احدى القذائف البيت الصغير فدمرته ، وحولته الى حطام وركام .. حتى بيت جارتها العجوز لم يعد له أثر .. كل بناء صغير أو كبير دمرته قذيفة الموت ودفنت تحته ما بداخله من أحياء .

وراحت الأم تقترب من الحطام وتقترب ، حتى وجدت نفسها تجلس عليه .. وفي صوت حزين يخنقه الألم راحت تناديه .. وكانت في كل مرة تنطق باسمه يخيل اليها انها سوف تسمعه وهو يرد عليها كما تعود أن يفعل دائما كلما غاب عن عينيها : (نعم يا امي .. انا قادم اليك) .

ولكنها لم تسمع شيئا .. كان زئير الريح وصوت



أوراق الشجر التي جفت تحت وطأة البرد وهي تصطدم بالأرض التي كستها الثلوج ، هو الشيء الوحيد الذي يملأ أذنيها في هذا الخواء الذي يسيطر على المكان .. بقيت في مكانها .. ومر يوم ويومان ، وهي هناك ترفض أن تتحرك .. كم تمنت خلال تلك الساعات الطويلة التي مرت بها لو أنها استطاعت أن تزيل هذه الأكوام من الركام والحطام بيديها ، لتصل الى حيث يرقد ابنها ؟

وجاءت فرق الانقاذ أخيرا ، وحملوا الأم المسكينة الى المستشفى ، لقد أصيبت بحالة هستيرية لم تعد قادرة معها على الحديث ... كان الاسم الوحيد الذي لا تكف عن ترديده في صحوها ونومها هو اسم ابنها الذي دفنته انقاض البيت الذي أطلق فيه صرخته الأولى ، واحتضنته طفلا وصبيا حتى بلغ الثانية عشرة من عمره .

وانقطعت صلتها بالناس ، وانقطع الناس عنها ، لا لأنهم لايريدون أن يروها ولكن لأنهم لا يدرون اين ذهبت ، ولا ماذا حل بها ! .

وتمضي بضعة أشهر ، وتتماثل الأم للشفاء ، وتخرج من المستشفى ، فتستقل أول سيارة ، وتطلب الى السائق أن يذهب بها الى بلدتها الصغيرة في الجبل .. الى البيت الذي يحتضن حطامه حبيبها الصغير .. وتصل وتقف أمام الأنقاض وتبكي .. ولكنها لا تلبث أن تعود الى السيارة بسرعة ، وكأنها

تذكرت شيئا مهماً فاتها أن تأتي به معها . إنه الشاهد الذي يحمل اسمه ويوم مولده ويوم رحيله .. وتعود مرة اخرى وتثبت الشاهد فوق هذا القبر الكبير .

وتنطلق السيارة عائدة بها الى المدرسة التي أمضت فيها طفولتها ، وتخرجت فيها منذ أكثر من عشرين عاما .. وتتقدم الأم الى مديرة المدرسة ، وتطلب اليها الحاقها باحدى الوظائف الخالية : (لقد حصلت على درجة لا بأس بها من التعليم تؤهلني لتدريس الأطفال .. المهم أن أكون قريبة منهم .. لقد فقدت طفلي الوحيد ، وأنا أريد أن أكون أما لكل الأطفال) . وتبدأ الأم عملها الجديد في المدرسة ، ثم تمضي الأيام ، وهي ترى في كل تلميذ من تلاميذها ، ابنها الذي فقدته .. كان كل واحد منهم يذكرها به ، وكانت تشعر بسعادة وهي قريبة منهم ، حتى انها كانت تتمنى أحيانا لو أن اليوم الدراسي لا ينتهي .

فقد كانت تعود الى وحدتها والى ذكرياتها الأليمة كلما أغلقت باب غرفتها عليها في بيت المدرسات .

وتمضي الحرب المجنونة تقتل وتدمر .. أكثر من عشر سنوات كاملة انقضت والبلد الصغير يئن من جراحه التي لا تريد أن تلتئم .. ويقترب القتل والدمار من كل ركن .. من كل مدينة وبلدة صغيرة وكبيرة ..

وتسقط قنبلة على المدرسة التي جاءت الأم لترى ابنها في كل ابن من تلاميذها .. وتصاب الأم بجراح خطيرة مع من اصيب من الأطفال الصغار .. وينقلون الى المستشفى ، ويقوم فريق من الأطباء بالاشراف على اسعافهم وتضميد جروحهم ، ولكن حالة الأم تسوء ، لقد فقدت كمية كبيرة من الدم ، وهي في حاجة الى عملية نقل دم سريعة ، ويبحثون عن فصيلة دمها النادرة ولكنهم لا يجدونها .. وأخيرا يجدونها عند طبيب شاب تخرج لتوه ، ويتبرع الطبيب بدمه لانقاذ الأم المصابة .

وتبدأ الأم تستعيد قواها تدريجياً .. وتسأل عن الدم الذي نقل اليها ، ومن كان صاحبه .. ويأتي الطبيب الشاب ويقول : (أناهو يا سيدتي) وتتطلع الأم الى صاحب هذا الوجه الذي وقف أمامها تحدثها وتسأله عن اسمه وتصرخ الأم وتمد ذراعيها اليه وتصيح : (ابني) .

ثم تذهب في غيبوبة قصيرة ، حتى اذا ما عادت الى وعيها ، وجدته واقفا بجوار فراشها ، وقد أمسك بيدها وانحنى يلثمها بشفتيه ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ..

- اين كنت .. ماذا حدث لك .. كيف نجوت من الموت ؟

- لا أدري ، ولكنني عندمافتحت عيني بعد أن فارقتني الحمى ، وجدت جارتنا العجوز الطيبة تجلس بجوار فراشي وتقدم لي الطعام ، لا تتصوري كم عانت المسكينة من أجل تعليمي وتربيتي ... لا شك أنك تذكرين أنها كانت سيدة رقيقة الحال .. ولكنها مع هذا لم تدخر جهدا في سبيل اسعادي .. لقد بحثت عنك طويلا ، ولما لم تعثر لك على أثر ، حملتني الى بيت أحد أبنائها ، وعشنا معه هو وزوجته واطفاله ..

- وأين هي الآن ؟

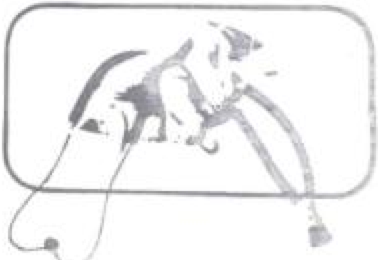
- لقد رحلت منذ عامين ، وكانت آخر كلماتها وهي تودعني أن أمضي في البحث عنك .. كانت تقول لي دائما : (انت ابن لأم عظيمة يا بني ، ابحث عنها ، لأني أشعر أنها ما زالت حية) .

وقبل أن ينتهي الابن من حديثه اقتربت فتاة جميلة من فراش الأم ، ورفعت يدها الى شفتيها لتطبع عليها قبلة ..

وسألت الأم : (ومن انت يا عزيزتي ؟)

ولكنها لم تجب ، واقترب الابن من الفراش ليهمس في اذنها ببضع كلمات ، ثم نظر الى الفتاة وقال : (أقدم لك حفيدة جارتنا العجوز .. انها ابنة الرجل الذي علمني معنى الحب .. انها صديقة طفولتي .. وزميلتي وخطيبتي يا أمي !!!) ☐

طبيب الأسرة



قضايا منزلية

من وحي الشتاء

الدفء والدفايات

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

يحكم تأقلم الانسان مع بيئته ثلاثة عوامل رئيسية هي :

١ - درجة الحرارة .
٢ - الرطوبة النسبية .
٣ - حركة الهواء .

ودرجة الحرارة الأنسب لقناعة الانسان وراحته هي ما اقتربت من درجة حرارة جسمه ، وعلى الأخص درجة حرارة طبقة الجلد الخارجية ، إذ ان حرارة الجسم من الداخل تصل ما يقارب ٣٧ درجة مئوية أو ٩٨ درجة « فهرنهايت » ، أما حرارة طبقات الجلد الخارجية فهي تقارب ٢٥ درجة مئوية ، تزيد أو تقل قليلا ، من هنا كانت أنسب درجات الحرارة الجوية المريحة هي ما بين ٢٠ الى ٢٥ درجة مئوية ، فإذا ما ارتفعت درجة حرارة الجو أو انخفضت تأقلم الجسم بما يملك من وسائل التأقلم ضمن حدود معينة .

أما الرطوبة النسبية فتعني - علميا - كمية بخار الماء العالق في الهواء ، وتعني - عمليا - نسبة كمية بخار الماء الذي يمكن أن يشبع الهواء عند درجة حرارة معينة ، حتى يمكن إتاحة الفرصة للغدد العرقية ، وتيار الدم في الجلد أن يؤديا دورهما الطبيعي في التأقلم ، والتغلب على تقلبات درجات الحرارة ، ولعل نسبة ٥٠ - ٦٠ بالمائة هي الأفضل لراحة الجسم ، باعتبار الرطوبة النسبية للجو .

وتتدخل حركة الهواء في عملية تأقلم الجسم مع الجو ، حيث يقوم الهواء بعمليات تبخير العرق في الجو

الحار ، ومن ثم يعمل على تبريد الجلد ، ثم تبريد تيار الدم الحار في طبقاته .

في فصل الشتاء المتميز بالبرودة في بلادنا تنخفض درجات الحرارة الى مستوى قد لا يطيقه الجسم ، ولا يقدر على التأقلم معه ، لهذا جاهد الانسان قديما لابتكار وسائل مصطنعة تعينه على اتقاء ما فشل الجسم في التغلب عليه ، فكانت الألبسة الصوفية ، والفراء ، والألحفة ، والدفايات بأنواعها . وهنا قد يحدونا البرد ولسعاته الى أن نطرح هذه القضية للنقاش ، ونرى مالها ، وما عليها .

الألبسة الصوفية : كثيرون من يتوهمون أن الأصواف والألبسة الصوفية تعطي الجسم دفئا ، ولهذا فالاكثار منه يزيد من امكانيات الدفء ، وهذا وهم لا يقوم على أساس علمي ، لأن الملابس والألحفة الصوفية مكونة من ألياف متخمة بالمسام المملوءة بفراغات مشبعة بالهواء ، ولما كان الهواء يعتبر عازلا جيدا للحرارة فإنه يمنع من تسرب حرارة الجسم الى الخارج ، ومن ثم يبقي على الجسم حرارته ، تماما كما يفعل « الميكروب » مع الأشربة الساخنة ، لكن الصوف يمكنه - أيضا - أن يقوم بدور معاكس ، أي حفظ الجسم من حرارة البيئة المحيطة ، أعني أنه يمكن لبس الصوف في الأجواء الحارة ، ليبقى الجسم باردا ، ومن هنا ينصح عمال الصناعة أمام الأفران بتوقي الحرارة العالية للفرن بلباس صوفي ، وهو ذات الحال مع البدوي في الصحراء الحارة الذي يلف نفسه بعباءته الصوفية ، ويتظلل تحت خيمته الصوفية ، فلا يحس بحرارة صيف الصحراء العالية .

الألحفة الصوفية تنضوي تحت هذا المبدأ ، ينسحب عليها نفس المنطق الذي ينسحب على الألبسة الصوفية ، ومن هنا يرجح الأطباء كفة استخدام الألحفة عند النوم للتدفئة ، لأنها تبقي الجسم دافئا في حدود درجة حرارته الطبيعية دون اسراف ، حتى لا نحول بين الجسم وعمليات التنفس ، وتبخر العرق غير المنظور ، لهذا يشعر الانسان عند الاستيقاظ براحة ، ونشاط ، عقب النوم تحت غطاء اللحاف الصوفي .

الدفايات : تقوم الدفايات على مبدأ مخالف لما هو عليه الحال مع اللحاف ، لأنها تعطي طاقة حرارية ، سواء عن طريق الاشعاع أو النقل أو تسخين الهواء ، وهنا يشعر الانسان بالدفء السريع باديء الأمر ، ثم يضيق بهذا الدفء ، وربما يتضرر في نهاية الأمر .

تنوعت الدفايات ، واختلفت باختلاف مصدر الطاقة الحرارية ، ولعل أشهر هذه الدفايات ما يلي :

أ - دفايات الفحم : وهي تقليد ذو طابع شاعري ، يرتبط بعاداتنا ، وتقاليدنا ، لكن طاقة الحرارة تعتمد على احتراق الفحم الذي يحتاج الى غاز « الأكسجين » ، وينتج عن الاحتراق غاز ثاني أكسيد الكربون ، فيشح الأكسجين في مكان محصور ، ويؤدي ذلك الى تصاعد غاز أول أكسيد الكربون ، وهذا غاز على خلاف شقيقه (ثاني أكسيد الكربون) ، لأن هذا الغاز غاز بلا لون ولا رائحة ، لكنه غاز سام قاتل خانق ، فلا غرابة أن نسمع في فصل الشتاء عن ضحايا الاختناق بغاز أول أكسيد الكربون ، ممن لا يدركون معنى تجدد هواء المكان ، فينامون برفقة دفاية الفحم ، في غرفة مغلقة ، طلبا للدفء ، فيتسرب اليهم ذلك الغاز الخانق برفقة الموت . لهذا لا بد من إخراج الدفاية الفحمية من الغرفة قبيل النوم ، بل وتجديد هواء الغرفة أيضا . لعل أول ضرورات الاسعاف الأولى عند مصادفة حالة اختناق وتسمم بأول أكسيد الكربون هو فتح النوافذ ، والأبواب ، لطرد هذا الغاز السام ، وتهوية المكان ، ونقل المرضى الى المستشفى فورا . تعتري المصاب بهذا النوع من الاختناق غيبوبة ويتحول لون جلده الى أحمر تشوبه الزرقة .

ب - دفايات الكهرباء : من الغريب أن يتوهم بعض الناس أن الدفاية الكهربائية تستهلك أكسجين الهواء ، متناسين أن احمرار السلك ليس الا نتيجة مقاومته للتيار الكهربائي ، ولا علاقة لهذا الاحمرار بهواء أو أكسجين ، لأنه ليس احتراقا ، وإلا تلف السلك ودمر .

لهذا فلا خطر من الدفاية الكهربائية ينتج عنه التسمم ، لكن خطرها في خفضها للرطوبة النسبية في الهواء ، مما يجعل الانسان يشعر بجفاف الجلد ، واحتقان الحلق ، والأنف ، مما يمهد الفرصة لفيروسات نزلات البرد لتقتحم الغشاء المخاطي الذي تتهاوى مناعته ، وبهذا تساهم الدفاية في انتشار أوبئة النزلات البردية ، وبخاصة مع تعرض الانسان لتقلبات درجات الحرارة بين الغرفة الدافئة والجو الخارجي البارد .

ناهيك عن احتمال الحرائق ، والاصابة بحروق الجلد ، والصعق الكهربائي ، ومن هنا يفضل تعليق الدفاية الكهربائية ، ووضعها في مكان مرتفع ، بعيدا عن الأطفال ، للوقاية من حدوث تلك الاحتمالات الخطيرة .

ينصح الخبراء بوضع الماء في إناء معدني بقرب الدفاية ، حتى يتبخر الماء ، ويعادل درجة الرطوبة النسبية التي انخفضت ، بل لعل بعض أنواع الدفايات الحديثة قد حرص صانعوها على استحداث موضع فيها للماء .

ويدخل في نطاق الدفايات الكهربائية ذلك النوع المعروف بدفايات الزيت ، وما هي الا شكل آخر للدفايات الكهربائية التي تستخدم الزيت لرفع درجة الحرارة .

جـ - دفايات الكيروسين :

تقوم على احتراق الكيروسين لانتاج الطاقة الحرارية ، وتتشابه مع دفايات الفحم في احتمالات الضرر ، واحتمالات الخطر ، لهذا لا بد أن نعامل ذات المعاملة .

د - دفايات المياه الساخنة .

غالبا ما تستعمل في أساليب التدفئة المركزية ، وتعتبر أقل أشكال الدفايات خطرا ، لهذا يمكن أن يقال فيها أنها أفضلها لقلة أضرارها . □

بريد طبيب الأسرة

فقر الدم المنجلي

● أرجو إفادتي عن كريات الدم المنجلية ، وعلاقاتها بفقر الدم ، وهل لها علاقة بفصائل الدم ؟

علي . ع . ع .
جدة - السعودية

يحتوي دم الانسان البالغ على ما يقدر بمعدل خمسة ملايين كرية دموية في كل مليمتر مكعب من الدم ، وهذه الكريات تعيش في تيار الدم مدة ١٢٠ يوما تقريبا ، ثم ينتج عوضا عنها كريات أخرى في نخاع العظام .

أساس كرية الدم مادة (الهيموجلوبين) التي تتركب من نواة ، من عنصر الحديد ، ترتبط بسلسلة من الأحماض الأمينية ، حتى يمكنها أن تؤدي

وظيفتها ، وهي حمل الأكجسين من الرئتين إلى أنسجة الجسم المختلفة . ولأمر ما ـ وراثي المنشأ ـ يختل تركيب الأحماض الأمينية ، مما يؤثر على سلامة تركيب (الهيموجلوبين) الذي يؤثر على تركيب الخلية وشكلها ، فتصبح معه مقوسة على شكل منجل ، ومن هنا جاءت التسمية بالمنجلية ، كما يصبح غلاف الكرية هشا ، قابلا للتمزق والانفجار ، مما يؤدي إلى حالة من فقر الدم ، لهذا سمي هذا المرض الوراثي باسم فقر الدم المنجلي أو الأنيميا المنجلية .

هذا المرض الوراثي شائع بدرجة كبيرة بين الزنوج ، وبدرجة أقل بين البيض ، لكن لطف الله جعل المعاناة والأعراض لا تصيب أكثر من ٢ بالمائة ممن ورثوا هذا العيب في دمائهم . وغالبا ما تداهم المصاب به نوبات من الألم في الأطراف ، وهبوط وضعف نتيجة تحلل الدم ، مما يجعله يحتاج الى نقل دم ، أو إلى استنشاق الاكسجين . لكن مضاعفات المرض الأخطر هي حدوث تخثر دموي في أوعية الدم المختلفة ، سواء في الرئتين أو الأطراف وما إلى ذلك ، مما يهدد حياة المصاب . ومن الجدير بالذكر أن نؤكد أن لا علاقة إطلاقا بين فقر الدم المنجلي وبين أي فصيلة من فصائل الدم المعروفة .

القولنج

القولنج على ما تذكر قواميس اللغة يداهم الأحشاء ، وهو مغص يصيب الأمعاء ، أوالحوصلة المرارية ، أو الكلية ، أو المثانة ، وما إلى ذلك ، ولاشك أن أطباء العرب القدماء قد استعملوا هذا الاصطلاح للتعبير عن آلام المغص بصوره المختلفة ، كالمغص الكلوي أو المغص المراري أو المغص المعوي وهكذا .

وإذا صح هذا التفسير فإن القولنج عرض ، وليس مرضا ، فمفاهيم الطب في ذلك الزمان الغابر كانت تتعامل مع الأعراض ، لقناعة من الأطباء أن الأعراض هي الأمراض ذاتها ، فيما يرى أهل الطبابة في زماننا أن الأمراض هي الأصل ، والأعراض هي مدلولاتها ومؤشراتها ، فهم يركزون جل اهتمامهم على المرض ، وأسبابه ، ومن ثم علاجه .

ولعل كلمة القولنج مشتقة من كلمة أعجمية ، يونانية الأصل ، أو لاتينية ، تقابل ما نستعمله اليوم في اللغة الانجليزية ، وهي كلمة كوليك (Colic) ، وهو المغص ، لفظوها بصورة محرفة ، فصارت قولنج . إن المغص يصيب الأعضاء المجوفة التي توجد في البطن ، إذ لا يستقيم مثلا أن يقال أصاب المغص رأس زيد ، ولا عانى عمرو من المغص في صدره أو ساقه ، ولا يصح ـ علميا ـ أن يقال ان فلانا مات من المغص ، وإنما هو مات من مرض ما ، كان المغص أحد أعراضه ، وما ظني بقولهم قديما أن هذا مات بالقولنج إلا خطأ وقعوا فيه ، لعدم معرفتهم بالحقائق العلمية على الصورة التي وصل إليها الطب في زماننا .

ردود سريعة

● السيد ص . ث . م ـ الكويت :

ـ لماذا لا تراجع الطبيب لاجراء فحص عام لتفحص سبب نحافتك ؟

● السيد سامر مهايني ـ دمشق :

ـ أنت ما زلت صغير السن ، وأمامك متسع من الوقت لتكبر وتزداد طولا ووزنا ، فلا تقلق ، ويحسن بك أن تمارس الرياضة المعتدلة كالسباحة والركض والألعاب السويدية وكرة السلة أو كرة الطاولة ، مع طعام غني بالحليب واللحوم والفواكه والخضراوات .

● السيد ص . ف ـ الجزائر :

ـ مشكلتك يحلها لك جراح مختص بالتجميل .

ل غ ة

جمال العربية

بقلم : محمد خليفة التونسي

إفتح ياسمسم

عنوان هذه الصفحة « افتح ياسمسم » هو كلمة السر في القصة الشهيرة « علي بابا والأربعون لصا » وهي قصة كنز ضخم حافل بالمعادن الثمينة والجواهر الكريمة ، لم يكن له مفتاح الا هذه الكلمة فاذا هتف بها قاصده تحرك بابه الحجرى فانفتح له الكنز تلقائيا .

وهذا العنوان نفسه قد اتخذته مؤسسة عربية هنا على خليجنا العربي ليكون عنوان مسلسل تلفزيوني حي يجرى الحديث فيه باللغة الفصيحة السهلة ليقدم للاطفال او الصبيان ، ويقوم بمعظم ادوار التمثيل فيه الصغار من بنين وبنات اعمارهم بين السادسة والثانية عشرة تقريبا ، كأنهم يزاولون اعمال المعيشة اليومية المختلفة من جادة ولاعبة ، ويعرض المسلسل صورا حية لأنواع شتى من الحيوانات والنباتات وعجائب الطبيعة ، وصورا مثلها لأنواع الزراعة والصناعة والسياحة في بلاد العالم الدانية والقاصية ، ولاسيما البلاد العربية ، لتعريف الناشئة وجوه النشاط اليومية في انحاء وطنهم ثم فيما عداه .

وقد حشدت المؤسسة لهذا العمل التربوي الرائد طوائف شتى من المربين والنفسانيين وخبراء التلفزة والتصوير الكرتوني ، واستعانت في هذا بمؤسسة ضخمة هي ورشة تلفزيون الأطفال في نيويورك ، فكانت حلقات المسلسل مائة وثلاثين حلقة ، وبعد نجاحها فيه أتبعته بمثله في ثلاثين ومائة حلقة ايضا .

وللمؤسسة - غير هذا - مسلسلان آخران يجرى الحديث والحوار فيهما ايضا بالفصيحة : احدهما عنوانه « قف » وموضوعه « الأمن والسلامة » ، وهو خاص بما ينبغي ان يلتزمه المارة في الشوارع من تعليمات مرورية سواء كانوا مشاة او ركاب سيارات أو دراجات .

والمسلسل الآخر عنوانه « سلامتك » في موضوعات صحية طبية شتى عن طريق تصوير مواقف حية ، بدءا من توقي مايضر بالصحة ومايسمى بالاسعافات الاولية عند وقوع الأخطار ، وتسهيل طريق المصاب او المريض لمكان العلاج ثم آداب عيادته . .

وهناك مؤسسات اخرى في بعض بلاد المشرق العربي قدمت اخيرا بعض افلامها ومسلسلاتها التلفزيونية في قصص من تاريخنا العربي ، تجرى المحادثة فيها باللغة الفصيحة .

وقد عمدت بعض المؤسسات الى مسلسلات اجنبية تجرى المحادثات فيها بلغاتها الاجنبية ،

فتترجمها إلى العربية الفصيحة بأصوات مناسبة من الجنسين .

وكل هذا دليل خير عظيم ، لأنه يشعرنا بغيرة في أوساطنا الفنية على لغتنا الفصيحة وباقبالهم عليها ولو على سبيل التجربة ، وبقدرة كثير منهم على حفظ أدوارهم وحسن أدائها بالفصيحة ، وقد أثبتت التجربة ان الاقبال على هذه الاعمال الفنية بالفصيحة ليس أقل من الاقبال على امثالها بلغة الشارع والسوق ان لم يكن اكثر ، بالاضافة الى ماتكسبها الفصيحة من الجلال او الاحترام .

وليست هذه التجربة حديثة ففي بداية هذا القرن وفيا قبله حين ظهر التمثيل المسرحي في بلادنا كانت التمثيليات المسرحية تؤلف أو تترجم باللغة الفصيحة بل المسجوعة أحيانا فكانت الجماهير تقبل على مشاهدتها مع ان الأمية كانت بينها أشيع ، بل كانت التمثيليات من مؤلفة او مترجمة لاتخلو من بعض القصائد التي كانت تنشد او تغنى - والشعر أسهل حفظا - فكانت الجماهير تحفظ ابياتا منها وترددها ، وقد سمعنا ذلك من بعض ثقات الجيل الماضي ومنهم استاذنا الكبير المرحوم عباس محمود العقاد ، اذ كان فيا اخبرنا به ، في هذا الصدد ان الجماهير كانت تحفظ وتغني بعض ماكان ينشد او يغنى الشيخ سلامة حجازى على مسرحه ، في تمثيلياته ومنها تمثيلية روميو وجولييت ، لشكسبير ، وتمثيلية صلاح الدين ومن هذه التمثيلية قصيدة على لسان صلاح الدين مطلعها :-

ان لم أصُنْ بمُهنَّدي ومُيَني
ملكي ، فلستُ إذنْ صلاح الدين

ونحن لايعنينا هنا الا الجانب اللغوى الفصيح لهذه الاعمال الفنية ، ولاسيما التي تقدم للصغار مثل مسلسل « افتح ياسمسم » ، فقد شاهدنا صغارنا يفرحون بهذه الاعمال ، ويلتصقون بها ، ويحفظون كثيرا من اقوالها ، ويلهون بترديدها ، والتحاور بها فيا بينهم تلقائيا وهم مغتبطون .

وكل اولئك مما يقطع العذر امام الذين يلجئون الى الحديث او الحوار في اعمالهم الفنية بلغة الشارع محتجين بسهولتها على الجماهير من جانب ، وصعوبة الفصيحة من جانب ، وهذه حجة داحضة دون شك ، لأن الحديث بالفصيحة مع التسليم بصعوبته على العامى ليس كذلك في فهم العامى له ، فضلا عن فهم المتعلم ، وماعلينا لإدراك هذا واقعيا الا ان ننظر الى مقدار مايستوعبه العامة جملة لاتفصيلا من معاني الخطب الدينية بالفصيحة في المساجد والكنائس ، ومن النصوص المقدسة بالفصيحة حين تسمعه في المجالس أو الاذاعة ، ومن الصحف والمجلات في الموضوعات العامة وكلها تكتب وتنشر بالفصيحة السهلة ، وليس علينا هنا الا أن نوازن بين الاثر النفسى لأحاديث الخطباء او الوعاظ حين يتصَوّنون ويتكلمون بالفصيحة السهلة وبين احاديثهم حين يتبذلون فيتكلمون بلهجة الشارع ، فإن السامعين ينظرون اليهم في الحالة الاولى نظرة جد واجلال ، ولكنهم ينظرون اليهم في الحالة الثانية نظرة استهانة واهمال ، ولقد بلغ من عمق ادراك بعض القساوسة لهذا الفرق بين النظرتين انهم يلجئون خلال بعض مواعظهم الى اقتباس بعض النصوص بلغتها الأصيلة الاجنبية كالقبطية والسيريانية واليونانية ليكسبوا مواعظهم هيبة وجلالا وان كان معظم السامعين او كلهم لايعرفون كلمة من هذه النصوص الأجنبية .

لابد لنا في الاقتدار على الكلام بالفصيحة من ان يتكرر على أسماعنا الكلام بها او بالفصحى ، وأن نحفظ ما استطعنا من نصوصها الادبية وان نتكلف الحديث والكتابة بها حتى تدرب عليها .

واذا كان في ذلك عناء - ولابد ان يكون - فلا غرابة فيه ، ونحن لانتعلم حرفة كصنع مايصلحنا ويصلح لنا من الطعام والكساء والبناء وسائر الفنون والمهن الا مع التدرب عليه والمثابرة . وفي ذلك العناء ما فيه ، واولى من ذلك اللغة المهذبة لانها ترجمان الفكر والذوق والشعور الرفيع .

ان لغتنا هي محور قوميتنا الاعظم ، فلاقومية للعرب بغير العربية ، هكذا كان الامر ، وهكذا هو اليوم وهكذا هو في المستقبل . ولا قومية لنا بين الامم اذا اهملنا حفظها كاعظم تراث ، فهى تحمينا بقدر مانحميها ، وتعظم مكانتنا بقدر مانحفظ مكانتها .

وليكن شعارنا في ذلك كله « افتح ياسمسم » لتتفتح لنا كنوز الفصيحة وندرب على الحديث بها ، فذلك مغنم لايقل عن كنز « علي بابا » وسواه مما فيها من معادن ثمينة وجواهر كريمة . □

جمال العربية

ش ع ر

هكذا غنى الآباء

الشريف الرّضيّ يرثي أمّه

الشريف الرضي من أشرف بيوتات العرب، وأعرقها حسبا ونسباً، فهو أبو الحسن محمد بن الحسين، من ولد موسى الكاظم بن جعفر الصادق الذي يمتد نسبه إلى علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم رضوان الله، ويمتد نسب أمه الى زين العابدين أيضا، كان ابوه يتولى نقابة الطالبيين والحكم فيهم والنظر في المظالم وإمارة الحج، ثم أسندها كلها اليه سنة ٣٨٨هـ، نشكره في إحدى قصائده ومدحه، وله في مدحه غيرها

كان عفيفاً ابياً نزوعاً الى المعالي لا يقبل فضل أحد، وقد بدأ نظم الشعر وهو في العاشرة، ويعد من أكبر شعرائنا وأشهرهم، وله ديوان كبير، وفي شعره فخامة وسلاسة، وتدفق شعور، وعمق فكر.

ونفسه فيه طويل فله عشرات من القصائد الطوال تبلغ كل منها عشرات، ومنها هذه القصيدة التي تبلغ ابياتها ٦٨، اجتزأنا منها بما يبين فجيعته في فقد أمه، وهي من مراثيه الكثيرة في آل بيته. ولد في بغداد سنة ٣٥٩هـ، وبها توفي ودفن سنة ٤٠٦هـ.

أبكيكِ لو نقع الغليلَ بكائي ... وأقولُ لو ذهب المقالُ بدائي[1]

وأعوذُ بالصبر الجميل تعزُيًا ... لو كان بالصبر الجميل عزائي

طورا تكاثرني الدموعُ، وتارة ... آوي الى أُكرومتي وحيائي

كم عبرةٍ موّهتها بأناملي ... وسترتها متجملاً بردائي[2]

أبدي التجلد للعدو، ولو درى ... بتململي لقد اشتفى أعدائي

ما كنت أذْخر في فداك رَغيبةً ... لو كان يَرجِعُ ميتٌ بفداء

لو كان يُدفع ذا الحمامُ بقوة ... لتكدست عُصَبٌ وراء لوائي

فارقْتُ فيك تماسكي وتجمُّلي ... ونسيت فيك تعزُّزي وإبائي

كم زفرةٍ ضعُفت، فصارت أنّةً ... تمَّمتها بتنفُّس الصُّعداء

لهفان. أنزو في حبائِل كُرْبة ... ملكت عليَّ جلادتي وغَنائي

وجرى الزمان على عوائد كيده ... في قلب آمالي، وعَكْسِ رجائي!

قد كنت آملُ أن أكون لك الفِدا ... مما ألَمَّ، فكنت أنتِ فدائي

وتَـفـرّقُ الـبـعـداءِ بـعـد مـودةٍ   صَعْبٌ ، فكيف تفرق القـربـاء !
أنـضَـيـتِ عيشـكِ عفـةً وزهـادةً   وطـرحـتِ مُشقِلةً مـن الأعبـاء(٣)
بصيـام يـومِ القيظِ تلهَبُ شمسُـه   وقـيـامِ طـولِ الـلـيـلةِ الـلـيلاءِ
لـو كـان مـثـلَكِ كـلُّ أم بَـرّةٍ   غَـنِيَ الـبـنـونَ بـهـا عـن الآبـاء
كيف السُّلوُّ ، وكـلُّ موقِـع لحظةٍ   أثَـرٌ لـفـضـلك خـالـدٌ بـإزائـي ؟
فـبـأيِّ كـف أسـتـجِـنُّ وأتـقـى   صَـرْفَ النوائب ، أم بـأي دعـاء ؟(٤)
ومـن المُمـوِّلُ لي إذا ضـاقـت يـدي   ومـن المـعـلِّلُ لي مـن الأدواء ؟
ومـن الـذي ان ساورَتْـنِيَ نـكـبـةٌ   كـان المُـوقِّـي لي مـن الأسْـواء ؟
قـد كنت آمـلُ أن يكـون أمـامَـهـا   يـومي ، وتُشفق أن يكـون ورائي
كـم آمـرٍ لي بـالـتـصـبـر هـاجَ لي   داءً ، وقـدَّر أنَّ ذاك دوائـي
آوي الى بـردِ الـظـلالِ كـأنـني   لـتـحـرُّقـي آوي الى الـرَّمـضـاء(٥)
وأهُـبُّ من طـيـبِ المـنـام تـفـزُّعـاً   فـزَعَ اللديـغِ نَـبـا عن الإغـفـاء .
لَهْـفِي عـلى الـقـوم الأُلَى غـادرتْهـم   وعـلـيـهـمُ طـبَـقٌ مـن الـبـيـداء
متـوسِّـدِين عـلى الخـدودِ ، كـأنما   كـرعـوا على ظمـأ من الصَّهْـبـاء(٦)
صـورٌ ضَنَنْتُ على العيـون بلحْظِهـا   أمسيتُ أوقـرُهـا من الـبـوْغـاء(٧)
ونـواظـرٌ كَحَـلَ الـتـرابُ جـفـونَها   قـد كـنـت أحـرسُـهـا من الأقـذاء
قـرُبَتْ ضـرائحُـهـم عـلى زُوّارهـا   ونـأوْا عـلى الـطلاب أيَّ تـنـاءِ
ولبئس مـا تَلْقـى بعُـقـر ديـارِهـم   أذْنُ المُصيـخ بهـا ، وعَيْنُ الـرائـي
مـعـروفُـكِ السامي أنيسُـكِ كلّما   ورد الـظلامُ بـوَحـشـةِ الـغَـبـراء
وضيـاؤهـا قـدَّمتِـه مـن صـالـحٍ   لـكِ في الـدجـى بـدلٌ من الأضـواء
لـو كـان يُبلغُـكِ الصفيـحُ رسائلي   أو كـان يُسمعُـكِ الـتـرابُ نـدائي
لـسمعتِ طـولَ تـأوُّهي وتفجُّعي   وعـلمْـت حُـسْـنَ رعـايـتي ووفـائي

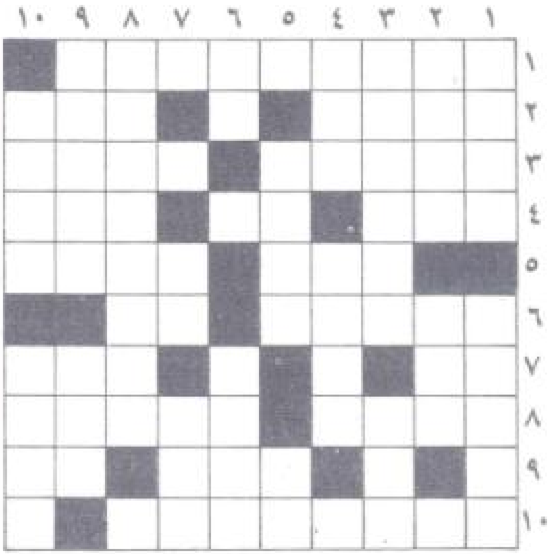
---

(١) الغليل / حرارة الجوف .
(٢) عبرة / دمعـة .
(٣) أنضيت / قضيت . الأعباء المثقلة / الهموم الثقيلة
(٤) استجن / استتر. صرف النوائب / تقلب الأحداث
(٥) الرمضاء / الأرض الحارة .
(٦) كرعوا الصهباء/ شربوا من الخمر .
(٧) ضننت / بخلت . أوقرها من البوغاء / اثقلها من التراب .
(٨) الصفيح / حجارة القبر .

الكلمات المتقاطعة

• يهدف هذا اللغز الى تسليتك ، وامتاعك ، بالاضافة الى إثراء معلوماتك،وارتباطك بتراثك الفكري والحضاري ، بتعويدك على البحث الجاد المثمر في المعاجم ، والموسوعات ، وغيرها من المراجع .

والمطلوب منك ايجاد اجابات هذه الشبكة ومقارنة اجاباتك بالحل الذي سينشر في العدد القادم .



كلمات أفقية

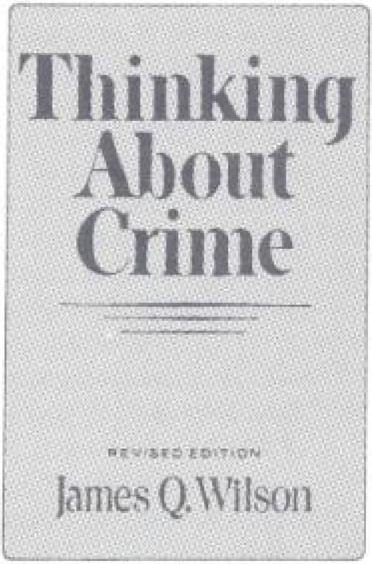
١ . قصة فلسفية لابن طفيل
٢ . طريق مختصر ، فصيح
٣ . زعيم المذهب الأيقوري ، مدينه ليبية اشتهرت في الحرب الكونية الثانية
٤ . كلمة للحث على الفعل ، تمنّى ، عكسها قاس .
٥ . مدخل ، جزء من الدرهم
٦ . أخذ شيء مكان آخر ، بمعنى منذ
٧ . عبد رقيق ، ظبي ناصع البياض
٨ . صاحب ومسامر ، قائد فرنسي خلف بونابرت في حكم مصر
٩ . فقدَ صوابه ، منارة
١٠ . ملك بابليّ دمّر القدس وسبى اليهود

كلمات رأسية

١ . صحابي جليل استشهد في أحد ، تحديد صارم
٢ . ينام ظهراً ، فصل أو فقرة (في وثيقة مثلاً)
٣ . من الأناجيل ، « وشى » مقلوبة
٤ . تجافى وتباعد ، جلد مدبوغ
٥ . مخترع الديناميت ، قطعَ أو كسَر
٦ . عكسها حَرّ ، مكان التواري والاختفاء
٧ . سائل أحمر قان ، تَغضّن في أعلى الجَفن
٨ . مؤرّخ عربي وصاحب كتاب « فتوح البلدان »
٩ . ورد أبيض عطر الرائحة ، يقبل بفرح
١٠ ذكر النعام ، مكان يؤمه الفلكيون

كتاب الشهر

تأليف :
جيمس ولسن
عرض وتلخيص :
د . محمود الذوادي



تأملات في الجريمة

منذ الستينيات من هذا القرن ، شارك مؤلف الكتاب في عدد كبير من البحوث واللجان حول ظاهرة الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومع أن بعض الأوساط الثقافية الأمريكية تتهم الكاتب بالمحافظة ، وبأن أبحاثه لا تقوم على تجربة علمية إلا أن لتأملاته في عالم الجريمة أهمية خاصة ، تتمثل في غزارة المعلومات ، والطابع الفلسفي الذي يغلب على أسلوبه ، فماذا تقول تلك التأملات ؟

كتاب الشهر

بدأ المؤلف كتابه بمناقشة علاقة ظاهرة الجريمة في المجتمع الامريكي بازدهاره اقتصاديا على الأخص في الستينيات ، وتبدو هذه العلاقة غريبة ، بالنسبة لوجهة النظر القائلة يومئذ بأن القضاء على الفقر ورفع مستوى التعليم وتحسين أوضاع المعيشة ، هي عوامل تؤدي - بالتأكيد - إلى انخفاض نسبة الانحراف والجريمة بالمجتمع الأمريكي ، وقد ساد هذا الاعتقاد بين المثقفين (الليبراليين) في عهد كندي وجونسون خاصة ، إلا أن احصائيات الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينيات كانت تناقض ذلك الاعتقاد ، فنسب الجريمة لم تزدد قليلا ، وإنما بلغت نسبا عالية ، لم يعرفها المجتمع الأمريكي منذ ١٩٣٠م .

ويتطرق (ولسن) إلى الزاد المعرفي الذي جمعه علماء الاجرام ، وباحثو العلوم الاجتماعية الآخرون ، ومازالوا يجمعونه حول ظاهرتي الانحراف والجريمة ، ففي رأي المؤلف أن وجهة نظر العلوم الاجتماعية القائلة بأن ظاهرتي الانحراف والجريمة تعودان أساسا - إلى عوامل الفقر ، والتمييز العنصري ، وغيرها من عوامل الحرمان ، لاتؤيدها معطيات واقع المجتمع الأمريكي المعاصر ، فنسبة الجريمة ازدادت في المجتمع الامريكي بدل أن تنخفض في فترة (١٩٦٣ - ١٩٧٠) التي تحسن فيها تحسنا ملحوظا مستوى دخل الفرد ، ومستوى مرافق المدرسة والمسكن لكل الفئات الاجتماعية الأمريكية تقريبا .

ومن ثم فعمل من يهتم بفهم ظاهرة الجريمة أو الانحراف عمل ذو مستويين ، أولهما تبيان كيف تتأثر الجريمة بعاملي البناء الاجتماعي والعمليات الاجتماعية ، أي كيف تتأثر الجريمة بالطبقة الاجتماعية ، وبالجيرة ، وبالكثافة السكانية ، ثم تفسير كيف أن الأفراد يتم جذبهم إلى ميدان الجريمة عن طريق التقليد الاجتماعي ، وتكوين المواقف ، والاختلاط التفاضلي .

ويعتقد (ولسن) بناء على تجربته الشخصية - كعنصر مستشار في عدة لجان أمريكية ، منها لجنة دراسة الجريمة - أن هناك قلة من أصحاب الاختصاص في العلوم الاجتماعية يميزون - عند غموض الأمور - بين مايعرفونه كعلماء وبين مايعتقدونه كمواطنين عاديين . وفي رأيه أن علماء العلوم الاجتماعية لم يقضوا وقتا كافيا في مناقشة العلاقة بين المعرفة العلمية والاعتقاد ، ومن هنا كان فشل حلول الجريمة التي نادى بها علماء الاجرام والاجتماع يعود - في الأساس - إلى كون تلك الحلول ذات أرضية (أيديولجية) لاعملية . ويعترف المؤلف أنه اكتشف - بعد فوات الأوان - أن علماء الاجرام وكل علماء الاجتماع - تقريبا - هم جزء من تقليد فكري ، لايملكون مناعة ذاتية ، تحميهم من مغبة التسرع في تحويل آرائهم إلى سياسة ، إذ أن محور اهتمامات هذا التقليد الفكرى تنحصر في تلك الملامح الاجتماعية التي هي - إلى حد كبير - خارج مجال السياسة العملية ، وخارج العلم نفسه .

دور الشرطة :

يقارن (ولسن) بين دور الشرطة في ضبط السلوك الاجرامي الانحرافي من جهة ، ودور الجيرة في ذلك من ناحية أخرى ، فالبحوث حول دور الشرطة في التخفيف من نسب الجريمة تفيد أن الشرطة المتجولة ليس لها أثر يذكر على انخفاض الجريمة . ويرى المؤلف أن وجودها يخدع المواطنين باعطائهم الانطباع بأنهم أكثر أمنا ، ومن ثم يناقش مفهوم المجتمع المحلي المنحل ، وعلاقته بانتشار ظاهرة الجريمة . وعلماء النفس الاجتماعيون والشرطة متفقون على المبدأ التالي : « إذا هشمت نافذة ما ، في عمارة ما ، وتركت دون إصلاح ، فإن مابقى من نوافذ العمارة سوف يلقى نفس المصير في القريب العاجل » ، فالنافذة المهشمة هي ذاتها رمز على أن ليس هناك من يهتم بسلامة الجيرة ، وفي هذه الحالة بإن تكسير نوافذ أخرى لايكلف شيئا ، وقد يصبح ضربا من المزاح عند بعض الناس . ويعتقد (ولسن) أنه في هذا

النمط من الجيرة غير المتضامنة ينتشر التخريب ، وروح عدم التدخل فيما يجري ، كما أن ظواهر الاجرام مثل تفشي المخدرات، وسرقة السيارات وتهشيمها، وانتشار ظاهرة الدعارة، تزداد في مثل هذا النمط من الجيرة ، وهروبا من جو عدم الأمن في هذا المحيط الاجتماعي يغادر كبار السن إلى أماكن أخرى ، بحثا عن أحياء أكثر طمأنينة ، وتظهر في مثل هذا المحيط المخيف أنماط سلوكية جديدة ، تجعل الناس يتحاشون بعضهم بعضا ، وهكذا تضعف وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية ، وهو عكس ماكان يتصف به المجتمع المحلي القديم الذي كانت له وسائله الخاصة في السيطرة على الجريمة داخل حدوده .

ويرى المؤلف أن عوائق عمل الشرطة في المجتمع الاميركي تعود ـ إلى حد كبير ـ إلى طبيعة علاقتها بالجيرة حيث تمارس عملها ، ففي الستينيات قيل بأن طبيعة هذه العلاقة كانت السبب الرئيسي لانتفاضات السكان السود ، وبسببها أطلق السود الأمريكيون عبارات مثل : جيش الاحتلال ، والخنازير على الشرطة ، وأطلقت الشرطة عبارات مثل : المشاغبين ، والفوضويين على المواطنين السود ، وعندما أجريت بحوث حول العلاقة بين الطرفين تبين أن ثلث المستجوبين السود كانوا ينتقدون بشدة شرطة المدينة ، ويعني هذا أن الأغلبية السوداء لاتعادي الشرطة . وتدل نفس البحوث أن العداء بين الشباب (البيض ، والسود ، والأغنياء ، والفقراء) والشرطة ظاهرة منتشرة ، لكن تفيد البحوث في النهاية بأن السود هم أكثر الفئات انتقادا للشرطة . ويرى (ولسن) أن نظرة الشرطة للمواطنين السود تغلب عليها السلبية ، ويرجع ذلك إلى كون اتصال الشرطة بالمواطن الأمريكي الأسود الفقير يفوق اتصالها ببقية فئات المجتمع ، فالشرطة تتدخل في المخاصمات العائلية في المناطق الفقيرة ، بينما تكون مثل هذه المخاصمات في الأحياء ذات الرفاهية إما ذات طبيعة غير تهديدية أو أنها تبقى مستترة عن الرأي العام .

البوليس والسود :

ويرجع صاحب الكتاب المشار* العلاقة بين السود والشرطة إلى عامل اللون ، وظروف الحياة في محيط السود .

يبدو أن الكراهية بين الجانبين تعود إلى الواقع الاجتماعي السائد بينهما ، وليس إلى صفات أو اتجاهات شخصية عند الطرفين ، وتتمثل بعض ملامح الوضع الاجتماعي هذا في تناقض توقعات المواطنين مع توقعات الشرطة ، ففي جريمة سرقة الممتلكات (كالتلفزيون مثلا) يود المواطن استرجاع بضاعته بينما يرى الشرطي صعوبة إمكانية ذلك ، والمواطن يتمنى أن تقوم الشرطة بالبحث السريع الصارم بينما تجد الشرطة نفسها لاتملك القدرة التي تسمح لها بالقيام بمثل ذلك البحث لعدم توفر الوقت والامكانيات .

وليس هناك في الحقيقة من عامل يثير العواطف ويقسم الآراء في المجتمع والجيرة أكثر من عامل لجوء الشرطة إلى قتل المواطنين أحيانا ، وللتخفيف من حوادث القتل التي تقوم بها الشرطة يرى صاحب الكتاب ضرورة اتخاذ سياسات صارمة بخصوص شروط إطلاق النار على المواطنين ، ومن ثم يدعو إلى تقييم السياسات الحالية ، فكل أقسام الشرطة تعترف بحق الشرطي في إطلاق النار على أي شخص إذا كان ذلك للدفاع عن نفسه أو عن الآخرين ، وصعوبة أخذ قرار حاسم وواضح في هذا الميدان ترجع إلى سببين :

١ ـ أي المعايير يجب استعمالها للتيقن بأن حياة الشرطي أو المواطن (المتفرج) في خطر ؟

٢ ـ هل ينبغي أن يسمح للشرطي أن يطلق النار على المتهم الفار ؟ وهل ينبغي التمييز بين الكهل والشاب ؟ وهل ينبغي التمييز بين الشخص الذي ارتكب جريمة باستعمال العنف ، وبين من ارتكبها بدون عنف ؟

ويرى المؤلف ضرورة تدريب الشرطة لتصبح أكثر كفاءة في أداء عملها ، بينما يعتقد الانسان العادي أن

كتاب الشهر

استعمال العقوبة في المجتمع يؤدي إلى انخفاض نسبة الجريمة فيه ، لكن علماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع يختلفون في ذلك ، فالاقتصاديون يتفقون مع المواطن العادي ، أما علماء الاجتماع فيرون أن هذا الاعتقاد خاطىء من الأساس ، إذ الجريمة في نظرهم لاتزداد بمجرد معرفة الناس أنهم لايعاقبون على ارتكابها ، ولا تنخفض بسبب اتخاذ المجتمع سياسة متشددة مع المنحرفين والمجرمين ، ورغم هذا التباين في وجهات النظر فإن ذلك لايعني أن آثار الترهيب منعدمة تماما على الأخص في التخفيف من ظاهرة الجريمة في المجتمع ، إذ أن الادعاء بأن سياسات الترهيب ليس لها أي أثر على ظاهرة الجريمة ادعاء يتناقض مع أبسط وقائع الحياة اليومية ، ودراسات العلوم الاجتماعية بهذا الشأن تفيد بأن الترهيب ينقص من نسب ظاهرة الجريمة .

وهناك من يرى أن الحل الأساسي لهذه الظاهرة يتمثل في توفير فرص العمل للمواطنين ، إذ أن ذلك يشجع الفرد على العمل ، ويشعره بمنافع السلوك السوي . ويسوق (ولْسِن) بعد ذلك أمثلة من مشاريع أمريكية كان هدفها التعرف على علاقة إيجاد العمل بظاهرة الجريمة ، وهو يرى أن مسألة الاصلاح ليست عملية بسيطة ، يؤدي فيها - بالضرورة - توفير العمل إلى انخفاض الجريمة ، فطالما تتدخل عوامل أخرى تجعل الوضع معقدا ، ويقول : « أعتقد أن أحكم السبل لاصلاح المجتمع هو محاولة زيادة كل من منافع السلوك السوي وثمن الجريمة في نفس الوقت » .

مؤسسة السجن :

يؤكد (ولْسِن) على اهمية المحافظة على مؤسسة السجن كوسيلة لضبط الجريمة للحالات الثلاث التالية :-

١ - الأفراد المعيدون للجريمة ، وهم يمثلون حسب الاحصائيات نحو ثلثي المساجين في السجون الأمريكية .

٢ - المنحرفون الذين لايؤدي سجنهم إلى تشجيع آخرين لممارسة انحرافاتهم ، فسجن السارق مثلا لا ينتج عنه بالضرورة استقطاب شخص آخر لتعويضه في جريمة السرقة ، إذ أن ظاهرة التعويض هذه طالما تحدث مايسمى بالجريمة المنظمة على أسس تجارية ، مثل جرائم المخدرات والدعارة .

٣ - أن لايصبح السجن مدرسة يصلب فيها عود إجرام السجين ، وليس هناك من أدلة مقنعة بأن هذا هو مايقع فعلا للسجين،فالبحوث حول دور السجون بخصوص التحقق من ظاهرة الجريمة تفيد أن النتائج إيجابية على العموم ، على الأخص إذا تم سجن المنحرفين الأكثر خطرا .

ونظرا لاشكالية التعرف بطريقة قاطعة على أخطر المنحرفين ، ينادي المؤلف بالحكم بمدد سجن قصيرة على المنحرفين الأقل ضررا على المجتمع ، ويعتقد أن ضرورة القيام بعملية انتقاء المنحرفين الذين يلزم سجنهم عملية مهمة لضبط الجريمة ، ويشكك في مدى أهمية حجة معارضي السجون على أساس أنها تزداد اكتظاظا كل يوم ، ويرى أن التساؤل الأكثر أهمية هو : أي المنحرفين ينبغي سجنهم ؟ وأي نوع من السجون أكثر ملائمة لطبيعة جريمتهم ؟ وأي مدة سجن ينبغي أن يحكم بها عليهم ؟ ويحذر من مغبة التبني الأعمى للمبدأ القائل ان أفضل طريقة لضبط الجريمة يتمثل دائما في إصدار أطول مدة سجن على الجاني .

الإعدام :

يرى مؤلف الكتاب أن الأمور اليقينية المتعلقة بتأثير عقوبة الاعدام على ظاهرة الجريمة يمكن حصرها في شيئين اثنين ، أولهما أنها تضع حدا لارتكاب الجريمة لدى الذين ينفذ فيهم الحكم ، وثانيهما أنه ليس لها أي أثر إصلاحي على الذين يتم إعدامهم ، أما التأثيرات الأخرى المحتملة لعقوبة الاعدام على نسبة الجريمة في المجتمع فهي غير واضحة ، ونحن لانعرف إذا كان لتطبيقها - كما مورست في المجتمع الأمريكي - أثر



رادع على الجناة القتلة ، وليس لنا علم أيضا إذا كان لهذه العقوبة أثر رادع أكبر من بعض العقوبات الأخرى ، مثل عقوبة السجن لمدة طويلة ، ولاندري إذا ماكان هناك تمييز عنصري في تطبيق عقوبة الاعدام في المجتمع الامريكي ، وفي رأيه أيضا أنه من غير المحتمل أن تتضح هذه الحقائق كاملة ، وفيما يتعلق بالتعرف على العامل الردعي لعقوبة الاعدام يذكر المؤلف أول دراسة بهذا الصدد ، وهي دراسة (ترستين سَلِن) الذي لا يؤيد عقوبة الاعدام ، ومن النتائج التي توصل إليها هو مع (دُفالد كامبيون) أن نسبة الشرطة الذين قتلوا في الولايات الأمريكية حيث تطبق عقوبة الاعدام لاتختلف عن نسبة قتلهم حيث تطبق هذه العقوبة ،ولقد انتقدت هذه الدراسات بسبب ضعفها المنهجي ، وتعريفها لمعنى تلك العقوبة ، وأحسن الدراسات لمعرفة تأثير تلك العقوبة هي مايسمى بالدراسات الطويلة المدى . ثم يذكر المؤلف دراسة (اسحاق اهرليش) التي حاول بها اكتشاف التأثير السنوي في اختلاف عدد الأشخاص المنفذ فيهم حكم الاعدام في المجتمع الامريكي بين (١٩٣٣) و (١٩٦٩) على نسبة جريمة القتل ، وتقول هذه الدراسة أن إعدام شخص إضافي سنويا أدى إلى انخفاض سبع أو ثماني جرائم قتل في العام .

ويتطرق المؤلف لمناقشة عامل التمييز العنصرى ، وعلاقته بتطبيق عقوبة الاعدام في المجتمع الأمريكي ، فيذكر بحوث العالمين (مارفن وولف جانج) و (انتوني امرستردام) التي وجدت أن إعدام السود المرتكبين لجريمة الاغتصاب كان أكثر من سبع مرات من إعدام البيض في الولايات الجنوبية الأمريكية .

الهيروين :

يرى المؤلف أن كثيرا من الاعتقادات السائدة حول مخدر الهروين لاتستند - في الحقيقة - على أرضية متينة ، ومن هذه الاعتقادات الخاطئة اعتبار بعض الناس أن استعمال مخدر (المِتْدون) يمكن أن يكون بديلا (للهروين) ، وأن سماح المجتمع بتعاطي (الهروين) يؤدي إلى انخفاض ملموس في جريمة النهب ، وأن تشديد القوانين على مستعملي (الهروين) ينتج عنه ارتفاع مهول في ثمن هذا المخدر .

ثم يتعرض صاحب الكتاب إلى أربع نظريات لتفسير ظاهرة تعاطي (الهروين) في المجتمع الأمريكي هي :

١ - ازدياد الدخل الفردي في فترة الازدهار في الستينيات .

٢ - تكاثر حركات الشباب المنادية بممارسة الحرية الشخصية على كل المستويات .

٣ - كون حرب فيتنام فرصة مناسبة للجنود الأمريكيين لتعاطي (الهروين) ، وذلك للتخفيف من حياة الملل والخوف وتدني المعنويات .

٤ - استمرار انهيار التركيبة الاجتماعية ، وخاصة للعائلات السوداء ذات الدخل المنخفض . وقد أدى هذا الوضع - في نظر المؤلف - إلى بروز ظاهرة «الشلل » كحل للفرد الذي تشكو بيئته من فقد التضامن الاجتماعي ، أما علاقة تعاطي (الهروين) بظاهرة الجريمة فيقول المؤلف فيها : « إننا لانعرف كثيرا عن هذه العلاقة ، والذي نعرفه - إلى حد ما - في هذا الميدان هو أن معظم جرائم مدمني (الهروين) تتمثل - أساسا - في جرائم بيع المخدرات ، والسرقة ، والسطو بقصد السرقة » . □

من المكتبة العربية

الشرقاوي.. ورؤية جديدة في كتاب عن خامس الخلفاء



بقلم : فاروق خورشيد

عبدالرحمن الشرقاوي اسم لمع وسط ضباب كثيف ، فبينما كان التعامل الشهرة والصيت يأتيان من الاستجابة للدعوة الى الكتابة عن السلف والاغراق في تمجيد أعمالهم ومثلهم وسلوكهم واحتذائها . كان الشرقاوي يتحدث عن المساواة ، وعن الام الطبقة العاملة ، وعن ثورة المظلومين المطحونين تحت سنابك الثروة والجاه والسلطة . وحين لم يعد طريق الشهرة والصيت يأتي إلا من الانتهاء الى قضايا الكادحين ، وثورة الطبقة العاملة ، وتبني الفكر المتطرف في الهجوم على الطبقات ، والدعوة الى الثورة واحلال الفكر التقدمي المجرد من كل ارتباط بقيم السلف وقيم الدين . خرج عبدالرحمن الشرقاوي الى عالم الكتب وعالم القراءة بمجموعة من الأعمال التي تستند في جذرها الى الدين ، وتتلمس المثل الأعلى في أنبل اتباع الدين عبر تاريخ الاسلام كله .

استطاع الشرقاوي أن يزيح من أمام فكره وعينيه كل ضباب ، واستطاع ان يهتدي الى قيمه ونفسه ورسالته ، ذلك انه عرف ان دعوة الحق تحمل معها دعوة المساواة ، وأن كلمة الاسلام تحمل أيضا كلمة العدالة ، وان الدين ليس تهجدا كله ، وليس تضرعا كله ، وليس تواكلا كله . وانما الدين هو العمل ، وهو الجهاد وهو الأخوة في الاسلام . فأعاد ترتيب ما قرأ من تراث دينه العظيم ، وأعاد أيضا ترتيب ما قرأ من جهد الانسانية العظيم . . وأحس ان العلاقة بين ما آمن به صبيا وشابا ورجلا ،

تتطابق تماما مع ما قرأه صبيا وشابا ورجلا ، فالدين هو الحرية ، ورجل الدين هو المثل الأعلى في السلوك والتضحية والعطاء من أجل أن يسود الانسان . . وما الانسان الا عطاء كل هذه القيم ، ووليد كل هذه النفحات الروحية ، يحملها سلوكا مرة وعملا مرة . . وحرية واخاء في كل مرة . .

وحين استقر قلب الشرقاوي على هذا المعنى رضيت نفسه ، ورضي عقله معا ، وعاد يغوص في أعماق تاريخ أمته ودينه . . هذه الأمة كيف سادت وقادت وحكمت . ؟ وهذا الدين كيف هدى ووجه وشيد ؟ . المحور الدائم في كل شيء هو الانسان . .

خامس الخلفاء

وقف الشرقاوي عند أعلام الفكر طويلا ، ووقف عند اعلام الكفاح طويلا ، ثم هاهو يقف عند علم من اعلام الملك

عند عمر بن عبدالعزيز يقف . . وهو من البداية يلخص كتابه عنه في سطور وجيزة . . فيقول :

« لم ينعم فتى قبلها أترف فيه كما نعم عمر بن عبدالعزيز ، ولم يستمتع شاب بزينة الحياة وبالطيبات من الرزق كما تمتع ، ولم يتمتع أحد بنعمة ربه كما حدث .

هكذا كان أمر عمر خامس الخلفاء كما يسمونه ، وكما أسماه من قبله كتاب مسلمون ومفكرون مسلمون ، أحبوا في هذا الأمير تحوله الكامل الى النسك حين غدا أميرا للمؤمنين . ويصف الشرقاوي هذا التحول قائلا :

« ولكن المسئولية أدركته على غير رغبة منه ، فاذا الأمير المترف المتنعم ، يتحول فجأة الى راهب متقشف . واذا ضحكاته التي جلجلت في ارجاء قصره تغيض في دموع غزيرة من خشية الله ، ومن هول ادراكه لمسئولية الراعي عن الرعية . . . واذا هو لا يستمع لصوت يتغنى بعد ، الا اذا انطلق بترتيل القرآن الكريم ، واذا هو يأمر بجمع كل ما يملك من ثياب ودواب وعطور وزينة ، فيبيعها جميعا ، ويضع ثمنها في بيت المال ، ولا يستبقي غير الكتب » . .

ويصف الشرقاوي هذا التحول نحو الاخرين ونتائجه بقوله :

« واذا هو ينتزع من أهله الأمويين الأمراء كل ما أترفوا فيه ، ليردوه الى أصحابه أو الى بيت المال ، وهكذا تحول أهله الى شر عدوه ، فلم يمهلوه . . وما لبثوا ان دسوا له السم ليتخلصوا منه ، وليستردوا ما سلبهم . . وهكذا لم يتح له ان يحكم الا ثلاثين شهرا ، ولكنه ملأ الدنيا خلالها عدلا ، بعد أن ملئت ظلما . .

ثلاثون شهرا من عمر الزمان صنعت هذا الاسم الذي خلد كواحد من أعدل وأنزه حكام الدنيا ، وكعلم من أبرز أعلام حكام المسلمين . . وما جاد الزمان بمثله بعده ، وما كان ليجود . . فالناس يزدادون خبثا وأنانية . يعشقون المثل العليا ، ولكنهم لايطيقون العيش في ظلها . .

كان عمر يتأسى بجده لأمه عمر بن الخطاب ، وبمثله الاعلى في السلوك والخلق علي بن ابي طالب . وكلاهما مات مقتولا ، وها هو يموت مثلهما قتيلا بيد غادرة تدس السم وتفسد بالمال الذمم ، وتحيل الخادم المخلص الى قاتل مأجور .

ويلخص الشرقاوي موقفه من السابقين له في الحكم وفي العدل وفي الزهد ، هؤلاء الذين نظر اليهم فاحتذى حذوهم فيقول :

« يبحث عمر بن عبدالعزيز عن سيرة علي وتشبه به في زهده ، وصدق عزمه ، ويبحث في سيرة الفاروق عمر ليتشبه به في عدله وحكمه ، ويبحث في سيرة أبي بكر ليتخذ منه الأسوة في حسن بلائه في الله ، ودرس تاريخ عثمان ليترسم خطاه في بذله وتقواه . . والأسوة الحسنة لعمر بن عبدالعزيز هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، هو امامه ومثله الأعلى ، ثم من بعده

الخلفاء الأربعة الراشدون ، وهم بالرسول وعلى آثاره مقتدون » . .

موقف من العصر

أوضح الشرقاوي بهذه العبارات الموجزة الدالة موقفه من صاحب السيرة التي يتعرض للحديث عنها ، كما أوضح موقفه من عصره كله . . فالعصر عصر اختلت فيه الموازين ، ونسيت القدوة ، وضاعت مناهج السلف ، والرجل رجل دنيا عرفها وأحبها ، ولكنه حين ولي السلطة غدا رجل مسئولية يعود الى كل شرائع الدين ، والى كل أسوة السلف الصالح . . وينجح الرجل ، ويفشل العصر . .

ويبدأ الشرقاوي رحلته مع بطل السيرة قبل مولده وقد ولد عمر بينما كان أبوه عبدالعزيز بن مروان والياً على مصر ، وعمه عبدالملك بن مروان هو الخليفة في دمشق ، ويقضي عمر طفولته في مصر ، ويجد الشرقاوي فرصته السانحة ليلقي الضوء على هذه الفترة من حياة الخلافة الاسلامية ، وما امتلأت به من مؤامرات ودسائس ، وما حفلت به من حروب وفتن ، ومنذ اللحظة الأولى يثب الحجاج ملقيا بظله الكثيف على العصر ، فهو قائد جيش عبدالملك بن مروان الذي هزم عبدالله بن الزبير في الكعبة ، وقضى على جيشه وقتله ، وأرسل رأسه الى الخليفة في دمشق ، بينما هدم الكعبة على رؤوس من لاذوا بأستارها ، ومن يومها والطفل يحمل عداوة لا تهدأ للحجاج السفاح ، عداوة تزداد مع الزمن حين يصبح الطفل صبيا يتلقى العلم على شيوخ المدينة وفقهائها ، يتلقى علوم الدين وعلوم اللغة والشعر الذي هو ديوان العرب . . وفي مجالس أبيه في مصر يلتقي بمجالس العلماء والشعراء يزداد منها حكمة ومعرفة ، ثم يموت أبوه فيرسل عبدالملك بن مروان الى عمر أن يلتحق به في دمشق ، حيث يقربه اليه ويعيش في كنفه ، ليشهد مصنع الأحداث ، وعنف سلطان عبدالملك بن مروان ، وامتداد الرقعة الاسلامية ، مع اضطراب المجتمع وعنف القيادة وكثرة المظالم . .

والشرقاوي يرسم العصر بتناقضاته ، ويرسم صور رجاله وشخصياتهم ، ويعكس لنا الروح السائدة فيه وهو ينتقل بنا مع بطل في مرحلة الشباب الى المدينة ، اذ غدا عاملا على الحجاز ، واستقر في المدينة التي يحمل لها كل الحب القديم ، والتي يأتيها بكل هذا الحب القديم ، ليكون لها مجلس شورى يساعده في عمله كحاكم اقليمي ، فقد عانت الحجاز من عنت الأمويين ما ضاقت به صدور أهلها ، ومن المظالم ما أثار حفيظتهم وحنقهم ، وبدأ الوالي الجديد بأن أطلق السجناء ، وانطلق ينشر ضوء الحرية والعدالة ، وأوقف سب عليّ وآله ، كما أوقف النيل من عمر وأبي بكر ، ووثق علاقته بسعيد بن المسيب أكثر الزهاد ورعا وحكمة ، يستشيره في أمره ، ويسأله فيما يشكل عليه من أحكام ، ويفيض الشرقاوي في أمر المدينة وأحوالها أيام عبدالملك ثم أيام الوليد بن عبدالملك ، ويفيض في أخبار أهلها من نساك ومن شعراء ومن أهل مجون ، اذ يسرت لهم الثروات الوافدة حياة الدعة واللهو ، ولكنه لا ينسى أن يضع أيدينا على الدسائس والمؤامرات ، وان يكشف لنا عن هذا العداء بين اتجاهين في الولاة ، أحدهما يمثله عمر بن عبدالعزيز والي الحجاز ، والثاني يمثله الحجاج والي العراق ، واحد يريد أن يرفع بالحب أمر المحكومين والحكام ، والثاني يريد بالقهر أن يذل المحكومين ، وأن يضع أموالهم ورقابهم تحت نعال الحكام . . والصراع يستمر حتى يقضي الوليد ويتولى سليمان بن عبدالملك الأمر ، وعمر قد نحى عن ولاية الحجاز ، وجاء يعيش في دمشق مشيرا بالمعروف على الخليفة في قصره وأمره وحكمه . فاذا ما أوشك سليمان أن يغادر الدنيا ولى بعده عمر بن عبدالعزيز ، ومن بعده يزيد بن عبدالملك ، لتهدأ الفتنة ولا تثور ، إن هو تخطى أولاد بن عبدالملك الى أولاد بن عبدالعزيز ، انها لحظة رؤية باهرة فضلت مصالح المسلمين ومصالح الدولة كلها ، واتجهت خالصة النية الى تولية أخلص الناس وأحكمهم وأسدهم وأكثرهم فهما لمعنى الحكم . .

وقد كان ، ما ان ولي عمر الأمر حتى ودع ترف الدنيا ولبس مسوح الزهد . . ودع المال والراحة والجواري ، وانصرف بكليته الى احلال العدل واحقاقه ، والعودة بالناس الى الكتاب والسنة ، فلا أمر الا للكتاب والسنة .

وغضب بنو أمية ، وغضب الوجهاء وأصحاب النفوذ والمال ، وغضب الشعراء والمداحون وأعضاء

الحاشية ، فقد نحى كل هؤلاء ليفسح مجلس أمير المؤمنين لأصحاب الحاجات والمظالم من أبناء الشعب في كل مكان من الرقعة المترامية للدولة الاسلامية التي كانت في أوجها في عهده . وعالج ما اقترفه العمال الظلمة في العهود التي سبقته ، فرد كل ما اغتصب الى أصحابه ، وعمر ما خرب ، وأعاد للناس أموالهم وأملاكهم ، وأمن الجميع على معنى العدل ، ومعنى الحق ، ومعنى الاسلام ، ويعقب الاستاذ الشرقاوي على هذا كله يقول : « والناس على دين ملوكهم ، ولقد كان الوليد صاحب بناء فاهتم الناس بالمباني ، وكان سليمان صاحب طعام وزواج فاهتم الناس بالطعام والنساء ، وجاءهم عمر صاحب فقه وتقوى فاهتموا بالدين » ويجيء تعقيب المؤلف ليؤكد صدق رؤيته للحدث وللشخصيات التي تتصدر الحدث وتؤثر فيه ، فعبدالرحمن الشرقاوي لا يعرض السيرة لمجرد عرض حياة صاحبها ، وانما هو يعرض هذه الحياة لتكون نقطة ارتكاز ينطلق منها لفهم العصر أو العصور التي أثرت في حياة الاسلام والمسلمين ، وفي ذهنه دائما محاولة للاجابة عن السؤال المهم . . كيف كنا ؟ ولماذا كنا ما كناه ؟ . . فاذا الأمر في النفوس التي ان صلحت بالدين فقد صلح أمر العصر ، وان فسدت بحب الحياة والاحتفال بها فقد قضى الأمر وفسد العصر ، وفسدت الأمة كلها . . ومن خلال الحدث تظهر الرؤية، ويخرج المؤلف بحكمه على الحاكم والمحكوم معا . . يرسم العوامل التي أثرت في بناء النفوس للناس وللحكام ، ثم يعود ليرسم النتيجة التي أفرزتها هذه العوامل ، لتؤثر من جديد في سلوك الناس وسلوك الحكام جميعا . . فاذا الرؤية واضحة ، اذ كان الطريق اليها الدرس الشاق لكل مظان الأخبار والأحداث ، والاختيار الذكي اليقظ من بين هذه التراكمات التي تمتلىء بها كتب الأخبار من أخبار وأحداث ، واعادة صياغة هذه الاخبار المنتقاة ، لترسم صورة العصر كما يراه ، ولترسم صورة الرجل كما وجده . . ولتبرز في الصورة كل عوامل الصراع وكل عوامل التناقض ، فاذا نحن على هدى من أمرنا ، نقرأ فتدب الحياة كاملة في عصر وراء عصر ، ونفهم ما نقرأ في يسر ، فتصخب هذه الحياة بالمعرفة والحكمة ووضوح الرؤية . . فالأمر في تاريخنا الاسلامي ليس هينا على من يحاول قراءته والتعرف عليه ، فتاريخنا الاسلامي هو تاريخ الحضارة الانسانية في لحظة امتزاج بين الشعوب التي دخلت الاسلام وارتضته دينا ، فجاءت تصب حكمتها وحضارتها لتمتزج في بوتقة واحدة هي الاسلام بمثله وشرائعه وأحكامه ، ليصح معنى الحضارة ، ولتصبح الأمم أمة واحدة تسعى لخير الانسان وتقدمه وازدهاره . .

وسيلة لرؤية الحياة

والكاتب ان لم يفهم حقيقة ما تحدثه هذه الحركة الحضارية،من صراعات ومعارك تؤثر لا في حدود الأقاليم وحسب ، وانما في الوجود الانساني أيضا ، كاتب لا يقدم لنا جديدا . . لقد نجح الشرقاوي في أن يجعل من عمر بن عبدالعزيز وسيلتنا لرؤية الحياة في تدفقها ، واستمرارها ، نجح في أن يضع أيدينا على معنى الحق والعدل وهو يصارع قوى الأنانية والشر ، فاذا هو ينتصر مرة ، واذا هو يهزم مرات ، ولكنه يظل خالدا بمعناه وقيمه ، يهدينا دائما الى أن صراع الحق من أجل الاستمرار والبناء ومن أجل العدالة والمساواة ، صراع دائم ومستمر ، مشرق برجاله وان هزموا ، مشرق بأعلامه وان تعرضوا للتآمر والاغتيال ، مشرق دائما لأنه أمل الانسانية ولأنه معنى الوجود والحق للانسان الحق . . وفي كل كتاب جديد لابد أن نسأل أنفسنا ، هل أضاف لنا جديدا ؟ أم أنه أضاف للمكتبة شيئا يوجد لينسى ، وفي هذا الكتاب وجود حي لا ينسى ، وجود نفس تواقة أحبت شخصية عمر الفذة ، فتدفقت حبا وفهما واشراقا ، ناقشت الرجل الذي أحبته في طموحه الى المثل الأعلى ، تاقت معه لتحقيق هذا المثل ، وخافت أن يهزمه الشر الذي يحكم ضمائر أصحاب المصالح والنفوذ ، وقلقت مثله على مصالح الناس ، وتألمت مثله مما يصيبهم من ضرر وتعاسة ، وفرحت معه وهو يحقق العدالة ويذب عن الحق ، ثم سقطت في هوة الحزن ، ففاضت دموعها شعرا وكلمات كالشعر حين سقط العلم ، وحين ذوى الأمل ، علها من هذا السقوط ترفع رؤوسا تتطلع الى نفس الحلم ، وتريد نفس المثل الأعلى ، وعلها من هذا الذي ذوى تصنع حلما جديدا . . وتهدي قلوبا حائرة . . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : (حرائق ودخان)
المؤلف : المصطفى اجماهري
الناشر : اتحاد الكتاب العرب بدمشق
عدد الصفحات : ١٣٠ صفحة من القطع الصغير

مجموعة قصصية ثانية لكاتب مغربي شاب ، استطاع العثور على لغة خاصة به ، يرسم بها أجواء المغرب المميزة ، راصداً الظواهر بدقة ، ومعريا الوقائع التي تحكي انتقال شرائح اجتماعية مغربية من طبقة الى أخرى . كل هذا قدمه الكاتب الشاب عبر إحساس فني متميز ، ووعي اجتماعي لا تخطئه عين .

تتوزع موضوعات القصص العشر التي تضمها المجموعة بين الحكاية المحلية التي أجاد الكاتب اختيارها ، والقصة الحالية التي تكسر إطار السرد التقليدي ، والقصة التي تتابع همّا ذاتيا بامتدادات فلسفية معمقة .

■■

الكتاب : عيون « اسرائيل »
المؤلف : عبدالكريم أبو الفدا
الناشر : منشورات القاعدة ببيروت
عدد الصفحات : ١٣٢ من القطع المتوسط .

عيون « اسرائيل » التي يتناولها الكتاب هي المخابرات الاسرائيلية - الموساد - التي ظلت إلى زمن قريب نسبيا حقلا مجهولا بالنسبة للكثيرين منا .

ولايكتفي المؤلف بتتبع النشأة التاريخية للاستخبارات الاسرائيلية قبل قيام الدولة الصهيونية بوقت طويل فحسب ، بل يتتبع كثيراً من أنشطتها ، ملقيا الضوء على علاقاتها مع أجهزة الاستخبارات الأخرى ، سواء كانت تلك الاستخبارات أمريكية أم غربية أم أجهزة رديفة لها ، تقوم بنفس الدور الذي تلعبه الاستخبارات الاسرائيلية على صعيد المنطقة والعالم ، مثل جهاز مخابرات نظام جنوب أفريقيا العنصري .

والمعلومات الواردة في الكتاب حصيلة قراءات حول معلومات سابقة ، بالاضافة إلى معلومات تم الحصول عليها مباشرة من خلال الصراع الذي تخوضه حركة المقاومة الفلسطينية ضد عدوها الصهيوني .

■■

الكتاب : عبقريات شامية
المؤلف : عبدالغني العطري
الناشر : مطبعة المنتدي بدمشق
عدد الصفحات : ٢٠٥ من القطع المتوسط

رغم مايدل عليه العنوان لا يتوقف مؤلف الكتاب عند الحديث عن عباقرة الشام أو سوريا ، بل يتجاوز ذلك ليتحدث عن بعض الأماكن ، وبعض العادات التي لا تخلو من طرافة ، مثل الفصل المعنون « دفتر النسوان الشامي » الذي يذكر فيه بعض المعتقدات الأسطورية التي تؤمن بها نساء الشام التقليديات .

والكتاب يتناول أيضا شعراء الشام الكبار في النصف الأول من هذا القرن أمثال خليل مردم ، وخير الدين الزركلي ، ومحمد البزم ، وشفيق جبري ، ويلقي ضوءا على أجواء السياسة والأدب والفن في دمشق على الأخص خلال تلك الفترة ، ويعيد إلى الأذهان فترة تختلط فيها العفوية والبساطة بمشاعر الوطنية التي يغلب عليها طابع (رومانسي) أصبح ذكرى من الذكريات .

الكتاب/ حرب السنبلة ـ شعر
المؤلف/ عصام ترشحاني
الناشر/ اتحاد الكتاب العرب بدمشق
عدد الصفحات/ ٧٨ من القطع المتوسط

هو الكتاب الشعري التاسع للشاعر الفلسطيني عصام ترشحاني ، يواصل فيه النسج الفني المميز ، بنفس أدواته التعبيرية ، ونفس مادته الشعرية التي تمتزج فيها أعشاب فلسطين وزهورها برائحة البارود ، ومتمرس الخنادق ، ورائحة دماء الشهيد .

تتراوح قصائد الديوان بين قصيدة موقف وقصيدة طويلة ذات نفس ملحمي ، وفي قصائد الديوان كلها تظل فلسطين حاضرة ، متمثلة بنيانها البري ، أو بأبنائها الذين لم تحطم الغربة والمذابح إرادة الحياة لديهم .

الكتاب/ العلاقات الألمانية الفلسطينية
المؤلف/ الدكتور علي محافظة
الناشر/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت
عدد الصفحات/ ٢٧١ من القطع الكبير

يتناول هذا الكتاب موضوعا ـ يعتبر إلى حد كبير ـ مجهولا بالنسبة لنا نحن العرب ، فبينما نعرف كثيرا عن العلاقات الفلسطينية مع دول أوروبا الاستعمارية تراثا لا نعرف سوى القليل عنها مع ألمانيا ، تلك العلاقات يتابعها المؤلف منذ كانت نشاطا تبشيريا على أرض فلسطين ، إلى أن تحولت إلى استيطان بعض الألمان ، وحتى في الحقبة النازية التي شهدت بعض العلاقات الفلسطينية الألمانية ، عبر شخصيات مثل رشيد عالي الكيلاني ، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين في ذلك الوقت . كما يبين الكتاب أن العلاقات بين ألمانيا النازية والحركة الصهيونية لم تنقطع .

وربما كان من أطرف فصول الكتاب وأمتعها الفصل الأخير الذي يتحدث عن العلاقات الألمانية الفلسطينية في الفترة من ١٩٣٣م إلى ١٩٤٥م .

عنوان الكتاب/ اسطرلاب يوسف المسافر
المؤلف/ يوسف رزوقة
الناشر/ دار الرياح الأربع بتونس
عدد الصفحات/ ١١٢ صفحة

الكتاب عبارة عن مجموعة شعرية رابعة ، للشاعر التونسي يوسف رزوقة ، تضم ٣٥ قصيدة ، كتبها بأسلوب جمالي متطور ، على الخط الذي جاءت فيه مجموعاته الأولى ، وهو يستعين في قصيدته بالتراث والأسطورة ، إلى جانب حرصه الدائم على تفجير بنية القصيدة . وموضوعات هذه المجموعة تتراوح بين الهم المحلي اللصيق ببلد الشاعر ، وبين الهم القومي ، كما في قصيدة « خريف الكلام » ، وقصيدة « اسطرلاب يوسف المسافر » .

ويوسف رزوقة هو أحد الأصوات المجددة في الشعر التونسي ، وهو متفرد وأصيل بقصائده ذات البعد الواحد ، وفي نزوعه نحو المغامرة .

الكتاب : نقد الصحوة الدينية
المؤلف : خليل علي حيدر
الناشر : شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت
عدد الصفحات : ٢١٤ من القطع الصغير .

كتاب جديد للكاتب الشاب خليل علي حيدر ، يواصل فيه دراساته التي نشر عددا منها في الصحف الكويتية ، وأخرى في كتب تتناول الحركات الدينية التي اكتسبت أرضا جديدة ، خلال عملها على الصعيدين الديني والسياسي .

وأبرز مايميز الكتاب ذلك الطابع السجالي الواضح عند تناول ما أصطلح على تسميته بأحزاب الصحوة ، فالكاتب لايكتفي بإلقاء ضوء على نشأة هذه الحركات ، والأحزاب ، بل يعرض فكرها من منظور نقدي ، ثم يدخل مع هذا الفكر في سجال تغنيه معرفة الكاتب بموضوعه ، وتكريسه له الحيز الأكبر من اهتمامه .

مسابقة العربي الثقافية

العـدد 338
يناير 1987

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى 50 ديناراً
الجائزة الثانية 30 ديناراً
الجائزة الثالثة 20 ديناراً
8 جوائز تشجيعية
قيمة كل منها 10 دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الاسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد 748 ـ الرمز البريدي 13008 الكويت ، مسابقة العربي العدد 338 ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو 15 فبراير 1987

1 ـ ترى ما عدد المسلمين في الهند ؟
- حوالى 25 مليون نسمة .
- نحو 50 مليون نسمة .
- اكثر من 90 مليون نسمة .

2 ـ هل تمطر السماء سمكا ؟ ومتى ؟

3 ـ لعلك تعرف ان النجوم ألوان وألوان . . فمنها الأحمر ومنها البرتقالي ومنها الأصفر . . هذا فضلا عن الأبيض و الأزرق والبنفسجي . . ترى ماهو لون أشد النجوم حرارة . . . وماهو لون أقلها حرارة . . . ؟

4 ـ الصحراء الكبرى هي أكبر صحارى العالم كما هو معروف . . . تبلغ مساحتها 9 ملايين كيلو متر أو تزيد قليلا . . ترى ماهي نسبة ماتغطيه الرمال من هذه الصحراء . . . ؟

- الرمال تغطي 90 ٪ من الصحراء الكبرى
- الرمال تغطي 50 ٪ من الصحراء الكبرى
- الرمال تغطي 10 ٪ من الصحراء الكبرى

5 ـ أي سلاسل الجبال التالية هي الأضخم ؟
- سلسلة جبال همالايا
- سلسلة جبال روكي
- سلسلة جبال الأنديز

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـدد
338

■ سلسلة جبال منتصف المحيط الاطلسي (المغمورة في المياه طبعا)

6 ـ ابتسامتك تحرك 17 عضلة من عضلاتك . . . ؟ **فكم عضلة يحرك عبوسك . . .**

■ نحو 40 عضلة
■ نحو عشرين عضلة
■ نحو 10 عضلات

7 ـ الألعاب الاولمبية ألعاب اغريقية قديمة كما هو معروف . . **ترى أي هذه الألعاب كانت خاصة بالنساء ؟**

8 ـ جبل كلمنجارو يقع في المنطقة الاستوائية البالغة الحرارة (في كينيا ـ افريقيا) ومع ذلك فانه مكلل بالثلوج صيفا وشتاء . . . . **ترى أي الجبال التالية تقع في المنطقة الاستوائية وتكلل الثلوج قممها . . في آن معا . . ؟**

■ جبل افرست (هملايا)
■ الجبل الأبيض (الألب)
■ جبل كينيا (في كينيا)
■ جبل اكستامسيوتها (في المكسيك)

9 ـ متى **تحرك كلا فكيك** . . حين التكلم أم حين الأكل ؟

10 ـ الأمواج العملاقة المدمرة التي تسببها الزلازل والبراكين ، والتي تنطلق من عرض المحيط الى الشاطئ بسرعة هائلة ، تتراوح بين 500 - 700 كم في الساعة . . **ترى ما الاسم الذي تعرف به هذه الامواج ؟**

■ تورنادو
■ تيفون
■ تسونامي

11 ـ ثمة صخرة هائلة يبلغ طولها 6 كيلومترات وارتفاعها 348 مترا . . وتعتبر صخرة (آير) هذه من عجائب الطبيعة نظرا لأنها تغير لونها بين ساعة وأخرى أثناء النهار . . فقد تراها ذهبية اللون ثم لاتلبث أن تراها برتقالية أو حمراء . . . **أين تقع صخرة آير هذه ؟**

■ في قاع المحيط الهادي
■ في القطب الشمالي
■ في استراليا

12 ـ «قلب له ظهر المجن»

مثل من امثال العرب يضرب للمحاربة بعد المسالمة . . **فما هي المناسبة التي تمخض عنها هذا المثل . . . . ؟**

حل مسابقة العدد 335

١ ـ حفلة شاي بوسطن لم تكن حفلة بالمعنى المفهوم ، ولم يقدم فيها شاي ولا قهوة .. فقد كانت بداية الثورة ـ أو الحرب ـ على الاستعمار البريطاني في العالم الجديد ـ الولايات المتحدة الأمريكية حالياً .

وتتلخص أحداث (الحفلة) بأن عدداً من الأمريكين تخفوا بزي الهنود الحمر ، وتسللوا الى السفينة البريطانية الراسية في ميناء بوسطن ، والمحملة بصناديق الشاي .. فألقوا بتلك الصناديق في البحر لأن الحكومة البريطانية كانت قد فرضت عليهم استيرادها ودفع ضريبة جمركية باهظة عليها ، وهكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥ ـ ١٧٨٣) التي انتهت باعلان استقلال أمريكا .

٢ ـ المثل هو (.. تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) أول من قاله النعمان لشقة ابن ضمرة .. اذ كان هذا يغير على مال النعمان .. ويطلبه النعمان فلا يقدر عليه .. وكان يعجبه مما سمع عنه من شجاعة واقدام .. فأمنه .. فلما راه استزرى منظره لأنه كان دميم الخلقة .. فقال مثله المعروف .. تسمع بالمعيدي خير من أن تراه .

٣ ـ العامل المشترك بين سقراط الحكيم و كليو باترة هو أنهما شربا السم وماتا تبعاً لذلك .

٤ ـ الحية تلدغ والعقرب تلسع .. والجدير بالذكر أن لفظ لدغ ولفظ لسع اقتربا من حيث المعنى حتى كادا أن يكونا مترادفين .. ولكن ثمة فرقاً أساسياً بينهما .. فاللدغ من فعل الفم ، واللسع من فعل الوخز .

٥ ـ يبلغ عمر الكون في اجتهاد أكثر الفلكيين ، ١٦,٧٠٠ مليون سنة ، وكانت البداية بانفجار هائل كما يقولون .

٦ ـ الصهر هو زوج الأخت .. وهو أيضاً زوج الابنة .. وجمعه أصهار .. ويقال أصهر بهم واليهم وفيهم : صار لهم صهرا .. ويعني اللفظ أيضاً القرابة .. مجرد القرابة .. فيقال أصهره أي قربه وأدناه وأصهر الجيش للجيش أي دنا بعضه من بعض ، وللفظ مؤنث (في اللغة) هو : صِهْرة ....

٧ ـ الدولة الأولى في انتاج الماس هي الكونجو

الدولة الثانية في انتاج الماس هي اتحاد جنوب أفريقيا .

الدولة الثالثة في انتاج الماس هي غانا .

الدولة الرابعة في انتاج الماس هي سيراليون .

فالماس اذن سلعة أفريقية خالصة تقريباً ، اذ يبلغ نصيب أفريقيا من انتاجه ٩٧٪ أما الباقي ٣٪) فيستخرج من البرازيل والاتحاد السوفياتي وبورنيو .. وهذه الأخيرة هي موطن الماس الأول ، وقد اكتشف فيها أول ما اكتشف سنة (٦٠٠م) أي قبل اكتشافه في أفريقيا بحوالي ١٢٠٠ سنة .

٨ ـ يقع معبد (كاراي ما) في مدينة بيكانر ويؤوي نحو ١٠٠,٠٠٠ فار أو يزيد ...

٩ ـ النُّمْنُم (بالضم) هو النمل الأحمر ، والنَّمْنَم (بالفتح) هو الثعلب أو الذئب .

١٠ ـ ثمة اعتقاد شائع بأن الشعر والأظافر تستمر في النمو بعد موت صاحبها ، وهو اعتقاد خاطيء ، ويعزي الى الانكماش الذي يطرأ على جلد الميت والذي يبعث على الظن بأن الشعر والأظافر تواصل نموها بعد موت صاحبها ، والحقيقة هي أن النمو في كافة مظاهره يتوقف تماماً

بتوقف الدورة الدموية . . اذ يعني توقفها ـ كما لا يخفى ـ توقف وصول المواد الغذائية الى شتى أعضاء الجسم ، بما فيها الشعر والأظافر ، ولا نمو على الاطلاق بدون مواد غذائية .

١١ ـ تبيض الدجاجات الست في سبعة أيام : ٢٨ بيضة . .

فهي تبيض ٦ بيضات في ١,٥ يوم .

فكم بيضة تبيض في ٧ أيام :

٦×٧÷١,٥=٢٨

١٢ ـ سبق السيف العذل . . هذا مثل شائع ، وقد قاله ضبة بن أد . . وكان ذلك في يوم من أيام الشهر الحرام ، كان يسير فيه ومعه الحرث بن كعب فأتى على مكان فقال له الحرث : أترى هذا الموضع . . فاني لقيت فيه فتى هيئته كذا وكذا فقتلته وأخذت منه هذا السيف . . وثبت لضبة أن القتيل هو ابنه سعد وان السيف سيفه . فقال : أرني السيف انظر اليه ، تناوله ، فعرفه ، فقال له : ان الحديث ذوشجون . . ثم ضربه به حتى قتله . . . فلامه الناس في ذلك وقالوا : اقتلت في الشهر الحرام ؟ قال : سبق السيف العذل . . فذهبت مثلا .

■■

الفائزون في مسابقة العدد 335 أكتوبر 1986

الجائزة الاولى : شميلة الصالح /حمص /مدرسة غازي وزوازي ـ سوريا .

الجائزة الثانية : عبد المجيد شرقي /قسم الضرائب /زنقة ريمس /الدار البيضاء ـ المملكة المغربية .

الجائزة الثالثة : فيصل حسن ياسين /كريتر /عدن ـ اليمن الديمقراطي .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ عبدالحميد الحمد الشح /بنغازي /جامعة العرب الطبية ـ الجماهيرية الليبية .

٢ ـ مسعد جليل دمعة /شارع المطران /طرابلس ـ لبنان .

٣ ـ محمد حسن صلاح /ثانوية عمارة رشيد /الجزائر العاصمة ـ الجمهورية الجزائرية .

٤ ـ مجدي محمود أحمد /المطرية /القاهرة ـ جمهورية مصر العربية .

٥ ـ عبدالله محمد سليمان /شركة ارامكو /الظهران ـ المملكة العربية السعودية .

٦ ـ عبدالقادر على النعيم /الخرطوم ـ جمهورية السودان .

٧ ـ سناء جودات خلف /شركة الكهرباء /عمان ـ الأردن .

٨ ـ محمد قال بن الطالب النافع /نواكشوط ـ موريتانيا .

معركة بلا سلاح



الشطرنج والطب النفسي

بدأ الطب النفسي يفرض نفسه بقوة متزايدة على الساحة الشطرنجية ، وبخاصة على برامج الدورات التدريبية والتنشيطية المتقدمة التي تعقد لكبار اللاعبين .

وينصح الأطباء النفسيون وعلى رأسهم الطبيبان اليكسيف و زمانوفسكي اللاعبين بأن يراقبوا ما ينتابهم من حالات التفاؤل والتشاؤم أثناء اللعب وعلى الأخص عند تعرّضهم للمواقف الحرجة إلى جانب مراقبة أنماط نومهم بعد انتصاراتهم أو هزائمهم . كما ينصح الأطباء النفسيون الأساتذة الكبار بالاسترخاء التام والاخلاد إلى السكينة بعد كلّ مباراة .

وما دمنا في معرض الحديث عن الأطباء وامتداد نفوذهم إلى رقعة الشطرنج ، فإن أحدهم ونعني به سيجبرت تاراش الألماني كان من كبار لاعبي النصف الأول من القرن الحالي وقد حقق من النجاحات على الرقعة في المباريات الدولية الكبرى التي خاضها ما وضعه في مصاف أكبر الأبطال في تاريخ اللعبة .

والدور التالي من الدفاع الفرنسي دليل واضح على قدراته الفذة في السيطرة على أكبر مساحة من الرقعة :

□ تاراش	■ شيفرز
١ . د ٤	هـ ٦
٢ . هـ ٤	د ٥
٣ . ح - جـ ٣	ح - و ٦
٤ . ف - ز ٥	ف - هـ ٧
٥ . هـ ٥	ح (و) - د ٧
٦ . ف × هـ ٧	و × هـ ٧
٧ . ح - ب ٥	ح - ب ٦
٨ . جـ ٣	أ ٦
٩ . ح - أ ٣	جـ ٥
١٠ . ح - جـ ٢	ح - جـ ٦
١١ . و ٤	جـ × د ٤
١٢ . جـ × د ٤	ف - د ٧
١٣ . ب ٣ مقيداً حركة الحصان	ر - جـ ١
١٤ . و - د ٢	ت
١٥ . ح - و ٣	و ٥
١٦ . ف - د ٣	ر - جـ ٧
١٧ . ت	م - حـ ٨
مبالغة في الحيطة ، تحرير الفيل كان أفضل	
١٨ . م - حـ ١ (هجوميّة)	ف - هـ ٨
١٩ . حـ ٣	ح - أ ٧

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد 335
اكتوبر 1986

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ م . باسم رأفت ـ الكويت
٢ ـ خـالـد نبهـان ـ القـاهـرة/ ج . ع م
٣ ـ عصام أحمد ـ اليمن الديمقراطية
٤ ـ النـاصـرى عبـدالـلطيف ـ مكناس/ المغرب
٥ ـ حـسـين عـبـدالـلاوي ـ الذويبات/ تونس

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حسن ارحيم ـ دمشق/ سوريا
٢ ـ أحـمـد خضـر ـ أم درمـان/ الـسودان
٣ ـ هيثم عبدالله ـ الرمثا/ الاردن
٤ ـ عبدالـسلام البقـالي ـ الـدار البيضاء/ المغرب
٥ ـ فتحي العكروت ـ طرابلس/ ليبيا

---

٢٠ . أ ٤	ح ـ جـ ٦
٢١ . ز ٤	ز ٦
٢٢ . أ ٥	ح ـ جـ ٨
٢٣ . ر ـ ز ١	ح (٣) ـ أ ٧
٢٤ . ر ـ ز ٣	و × ز ٤

نقلة متسرعة ف ـ ب ٥ أفضل بكثير

٢٥ . حـ × ز ٤	ف ـ ب ٥
٢٦ . و ٥	ف × د ٣
٢٧ . (البيدق) و ـ و ٦	و ـ هـ ٨
٢٨ . و × د ٣	ح ـ ب ٥
٢٩ . ح ـ ز ٥	ر ـ جـ ٣

شكل (١)

٣٠ . و × جـ ٣ (رائعة)	ح × جـ ٣
٣١ . ر × جـ ٣	حـ ٦
٣٢ . ر ـ حـ ٣	و ـ جـ ٦ (مضطراً)
٣٣ . ر × حـ ٦ +	م ـ ز ٨
٣٤ . ر × ز ٦	م ـ حـ ٨
٣٥ . ح ـ هـ ١	ح ـ هـ ٧
٣٦ . ر ـ حـ ٦ +	م ـ ز ٨
٣٧ . ح ـ ز ٢	و ـ جـ ٣
٣٨ . ر ـ هـ ١	ح ـ جـ ٦
٣٩ . ر ـ ز ٦ +	م ـ حـ ٨
٤٠ . ر ـ هـ ٣	و × هـ ٣
٤١ . ح × هـ ٣	يستسلم



مسألة العدد رقم 338
يناير 1987
مات 2

حل مسألة العدد 336
(نوفمبر 1986)

١ ـ ر ـ ز ٦ ++	م ـ حـ ٥ أو م × ز ٦
٢ ـ و ـ ز ٥ مات	

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء ..

عزيزى القارىء :

كل عام وانت بخير ، تعودنا فى بداية كل عام جديد ان تكون لنا وقفة معك فى هذا الباب .

فباب حوار القراء هو طريقنا لتلمس نبض القارىء ، والتعرف على خواطره ، وعلى صدى عملنا عنده ، وملاحظاتك ومقترحاتك - عزيزى القارىء - تكون دائما أمام أعيننا ، ونحن نفكر فى أى تطوير أو تغيير ، فنحن نقرأ بعناية كل رسالة ، سواء رددنا عليها أو لم نتمكن من ذلك ، ونهتم بكل ملاحظة أو اقتراح أو رغبة ، سواء تمكنا من تلبيتها أو كان لنا تحفظ عليها ؟

ونختار من بين هذه الرسائل ما نقدر ان فى نشره فائدة لأكبر عدد من القراء بشكل أو بآخر .

ولعل من المناسب ونحن فى بداية عام جديد أن نشير الى بعض الملاحظات التى قد تسهم فى تنظيم هذا الحوار بين المجلة وقرائها .

● هناك رسائل عديدة يطلب منا أصحابها أن نرسل اليهم - شراء أو هدية - بعض الكتب التى تقدمها المجلة ، سواء فى المكتبة العربية أو الأجنبية ، وطبعا هذا أمر خارج تماما عن دور هذا الباب .

ودور المجلة مقصور على التعريف بمحتوى الكتاب والتعليق عليه ، والتعريف بدار النشر والتوزيع ، والباقى من مسئولية القارىء .

● رسائل أخرى يتفضل أصحابها بتوجيه الدعوة لمجلة العربى لعمل استطلاعات عن مدنهم أو أوطانهم ، ويذكروننا بأن واقع هذه البلاد قد تغير كثيرا عن آخر مرة جرى فيها استطلاع للعربى عنها ، وبعض هذه الرسائل يتحدث أصحابها عن انحياز من المجلة لبعض البلاد أو لبعض المناطق ، ونود أن نطمئن هؤلاء الأخوة الى أن المجلة تضع رغباتهم فى الاعتبار ، وهى تخطط لاستطلاعاتها ، وتضع اولوياتها ، وأن المجلة لا تنحاز الا لما تتصور أن فيه فائدة أكبر للقراء فى اطار ظروفها أو ظروف هذه البلاد .

● رسائل يطلب أصحابها معلومات من النوع الذى يمكن الوصول اليه بجهد ميسور فى المراجع أو المصادر المتاحة ، أو معلومات خاصة قد لاتهم غيرهم ، أو لا تتصل بما ينشر فى المجلة .. وهذه المعلومات لا يكون من المجدى لجمهرة القراء ان تأخذ مساحة من هذا الباب .

● وأخيرا سنبقى دائما فى انتظار رسائلك ، نرحب بها ونتعلم منها ، ونتحاور معها ، ونسعد بما فيها من صدق ، مهما كان قاسيا ومقلقا ، فهى طريقنا لالتماس الصواب وانجاز التقدم .

حول تأخير مجلة العربي ورفع سعرها في جمهورية مصر العربية

○السيد الكتور محمد الرميحي :

تحية تقدير وعرفان لجهودكم في النهوض بمجلة العربي ، التي أصبحت بحق مجلة كل القراء العرب ، يترقبها كل أديب ومثقف في مطلع كل شهر ، وفي مطلع هذا الشهر اكتوبر سنة ١٩٨٦ تأخر وصول مجلة العربي لجمهورية مصر العربية لمدة عشرين يوما ، الأمر الذي أثار قلق القراء ، كما افسح الفرصة لاشاعات عديدة حول معنى هذا التأخر أو أسبابه . . . وفي يوم ٢٠ اكتوبر فوجيء القراء بنزول المجلة الى الأسواق والحق انها كانت مفاجأة سارة ، رغم أنهم لاحظوا رفع سعر المجلة من ٢٥٠ مليما الى ٣٠٠ مليم ، وقد وضعت شركة الأهرام للتوزيع على غلاف المجلة ورقة بالسعر الجديد كما هو مرفق بهذه الرسالة .

ونحن نسألكم هل هذه الزيادة بموافقتكم ، أم ان شركة التوزيع هي التي فرضت هذه الزيادة ؟ ولماذا ؟ واذا كانت بموافقتكم فنرجو وضع السعر الجديد على صفحة سعر النسخة بداخل المجلة ، ولكم خالص الشكر والاحترام .

د . علي الجندي
جامعة الاسكندرية

العربي

نشكر للأخ الكريم اهتمامه وتقديره ، ويسرنا أن نوضح أن هذه الزيادة قد تمت بعلمنا ، وسبب هذه الزيادة هو مواجهة ارتفاع أسعار الجمارك في مصر على المطبوعات المرسلة الى جهورية مصر العربية ، وقد تم وضع السعر الجديد في مكانه على الصفحة داخل المجلة ذاتها ، ولعل حرص شركة التوزيع على دراسة الموضوع من جميع جوانبه ، بينما كان العدد مطبوعا بالفعل ، هو الذي أدى الى تأخير توزيع العدد في شهر اكتوبر .

قارىء يلقى بمزيد من الضوء على الفرد نوبل

○قرأت في العدد رقم ٣٣٤ شهر سبتمبر سنة ١٩٨٦ من مجلة العربي في باب (مكتشفون ومخترعون) مقالا عن الفرد نوبل مخترع الديناميت ، لاجرم كان موضوعا رائعا ، ومن هذا المنطلق اسمحوا لي أن أضيف الى المعلومات القيمة التي قدمها الموضوع المزيد من التفاصيل التي تكتمل بها الصورة ، ولعل القارىء يجد فيها بعض الفائدة .

ـ اشار المقال الى أن (الفرد نوبل) أتقن خمس لغات ، وأضيف هنا أن هذه اللغات الخمس هي : السويدية ، الانجليزية ، الفرنسية ، الالمانية الروسية .

ـ ذكر المقال أن (نوبل) أطلق على مادة (النيتروجليسرين) الجديدة اسم (ديناميت) ، وأوضح هنا أن كلمة (ديناميت) مأخوذة من الكلمة اليونانية (ديناميس) ومعناها القوة .

ـ وجاء في المقال : (من هنا كان اقدامه (نوبل) على التوصية بتخصيص ما يعادل مليون جنيه استرليني من ثروته الكبيرة لتوظيف مردودها لمكافأة المتفوقين من العلماء سنة بعد سنة ، وجدير بالذكر أن المال المخصص في تقديري كان اكثر من ذلك ، فقد أوصى نوبل قبل وفاته بأسبوعين باستثمار ثروته التي قدرت بثلاثة ملايين جنيه ، وتوزيع أرباح هذا

حوار القراء..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

الاستثمار في شكل جوائز دولية تمنح للعلماء الذين أسهموا مساهمة فعالة في ميادين العلوم الطبيعية والأدب والسلم .

- لم يشر المقال الى أن ثروة (ألفرد نوبل) لا تعود فقط الى اختراعاته ومن أهمها (الديناميت) بل الى استغلاله مع أخيه لحقول البترول في مدينة (باكو) عاصمة اذربيجان احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، الواقعة في جنوبه .

- صحيح أن جوائز نوبل العالمية الشهيرة ظهرت عام ١٩٠١ ، لكن من المناسب أن نوضح أكثر أن اول من منح هذه الجائزة هو (رونتجن ١٨٤٥ - ١٩٢٣)لاكتشافه أشعة (اكس) ، وذلك في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠١ بمناسبة الذكرى الخامسة لوفاة نوبل .

عبد الله محمد حاج عبدو
حلب / الجمهورية العربية السورية

العربي

- تشكر القارىء الكريم على اهتمامه بتقديم هذه المعلومات التفصيلية حول موضوع (ألفرد نوبل) ومن المعروف ان مثل هذه الأبواب تقوم بتركيز أهم المعلومات حول موضوعها ، ليفتح الطريق أمام من يرغب في الاستزادة من المعرفة من القراء .

من انقذ باريس من الدمار ؟

○ لي تعقيب بسيط على مقال الدكتور عبد الوهاب حومد الذى نشر بالعدد رقم ٣٣٢ يوليو سنة ١٩٨٦ من مجلة العربي ، تحت عنوان (الجريمة تظل دائما جريمة) ، فقد أورد الدكتور أن القائد (فون كلوغ) أعلن باريس مدينة مفتوحة ليجنبها دمارا مؤكدا .

والحقيقة أن المارشال (فون كلوغ) قائد مجموعة الجيوش (ب) الذى تسلم القيادة بعد روميل . . كان قد اختفى فجأة وهو في طريقه الى مركز قيادته ، فما كان من هتلر الا أن عين بدلا منه المارشال (مورل) ولم يكد يظهر كلوغ ثانية ، حتى وضع تحت الرقابة النازية الشديدة ، لارتياب هتلر في تورطه في مؤامرة ٢٠ تموز ، وقد انتحر (كلوغ) بعد أن ترك لهتلر رسالة ضمنها رغبته في وضع حد لمهزلة الحرب .

وقد جرت كل هذه الأحداث قبل احتلال باريس بفترة زمنية .

أما قائد باريس فهو الجنرال (فون شولتز) الذى أعفي من قيادة الفيلق ٨٤ ، بسبب خطأ لم يرتكبه ، وعندما اشتد أوار المعركة حول باريس ، أمره هتلر بنسف الجسور ، وتحويل المدينة الى أطلال ، ولكنه لم يفعل ، وسجل له التاريخ هذه المأثرة ، وقد اقتيد هذا الجنرال من باريس الى دار البلدية حيث أملى عليه الجنرال (لوكلير) شروط استسلامه ثم نقل ثانية الى مونبارس حيث أبلغ نقاط ارتكازه أمرا بالقاء السلاح ، فأطاعت كلها الأوامر ، وانقذت باريس من الدمار . .

محمد ابراهيم دخيل
درنة / ليبيا

حول التعريب في جامعة حلب

○ تعقيبا على الحوار مع المفكر الجزائري (مولود قاسم) في العدد رقم ٣٣٥ شهر اكتوبر سنة ١٩٨٦ من مجلة العربي ، حيث جاء على لسانه أن العقدة (وهو يعني عقدة تدريس العلوم باللغة الاجنبية) تغلبت في جامعة حلب حيث تدرس العلوم باللغة الأجنبية .

وأود في هذا الصدد أن أوضح ما يلي :

جامعة حلب وكليات العلوم بها تدرس جميع موادها باللغة العربية ، لكن اذا كان الأستاذ مولود قاسم يقصد كلية الطب بجامعة حلب ، فان كلامه كان صحيحا لبعض الوقت ، ولمزيد من الايضاح حول هذه المسألة ، فان كلية الطب أسست بمساعدة من الأمم المتحدة ، ودرست فيها العلوم الاساسية لفترة باللغة الانجليزية ، لا بسبب العقدة التى تحدث عنها المفكر الجزائرى ، بل بسبب نقص الأطر القادرة على التعليم باللغة العربية ، وقد استعانت كلية الطب آنذاك باساتذة زائرين معظمهم من القطر المصرى الشقيق ، وهم الذين أصروا على التدريس باللغة الانجليزية كما تعودوا ، ولكن هذه المشكلة حلت منذ عدة سنوات حين عاد الهيكل التدريسى من الايفاد ، وأصبحت العلوم الأساسية تدرس باللغة العربية ، وجدير بالذكر أن كلية الطب بجامعة دمشق ومنذ أسست فى العشرينيات من هذا القرن كانت ولا تزال تدرس الطب باللغة العربية ، وأضيف هنا أن الدراسات التخصصية العليا فى كل من جامعتى دمشق وحلب تدرس أيضا باللغة العربية أيضا ، ومنذ نشأتها فى منتصف السبعينيات ، وهى تستطيع رفد أية كلية طب عربية بأعضاء هيئة تدريس يحملون شهادة الماجستير فى مختلف التخصصات ، وهناك جهود مستمرة لترجمة أمهات الكتب الطبية الى اللغة العربية ، لرفد المكتبة الطبية العربية بالمصادر الأصلية ، ولو كانت هذه الجهود على المستوى القومى لاثمرت بشكل أفضل ولتحقق لنا الكثير فى هذا المضمار .

د . سعد الله بليد

محاضر فى كلية الطب ـ جامعة حلب

العربى

ـ نشكر للمعقب الكريم توضيحه ، ونرجو معه أن تتضافر الجهود فى كل أقطار الوطن العربى ، لتعالج قضية تعريب العلوم على المستوى القومى ، وأن تعالج أيضا قضية البحث العلمى على المستوى القومى ذاته ، فهما قضيتان مترابطتان ، ولا يستطيع قطر عربى واحد أن يحقق الانجاز المأمول وحده . .

قارئة تسأل عن أهلها فى الكويت والعراق

○انى من قراء العربى منذ صغرى ، وأكتب رسالتى هذه ، ولى أمل كبير فى تلبية طلبى .

لى أهل أعزاء فى مدينة البصرة / العراق ، انقطعت أخبارهم عنا منذ سنتين تقريبا ، وقد بعثت اليهم عدة رسائل دون أن أتلقى ردا ، ولا أعرف شيئا عن مكان تواجدهم الحالى ، وفى الوقت ذاته لى أقارب آخرون مقيمون فى الكويت ولكن للاسف الشديد ليست لدى عناوينهم .

أرجو نشر رسالتى هذه لعل أحد أقاربى فى الكويت ، أو فى العراق يطلع عليها ، ويراسلنى بالضرورة على عنوانى الجديد المسجل بهذه الرسالة فى لبنان ، حيث دمرت الحرب عنوانى القديم لديهم .

ربما لا يكون هذا جزءاً من عمل (حوار القراء) ولكن لدى ثقة كبيرة فى أن تلبوا هذا الرجاء لقارئة قديمة لمجلة العربى ، ولكم خالص الشكر .

مها الجراح

الشقة ١٣٥ ، الطابق ٣ بناية الحمراء سنتر
شارع الحمراء / بيروت / لبنان

من مختارات القراء

○ قال سقراط : « النفس الفاضلة لا تطغى بالفرح ، ولا تجزع من الترح ، لأنها تنظر فى كل شيء كما هو ، لا تسلبه ماهو له ، ولا تضيف إليه ماليس منه ، والفرح بالشيء إنما يكون بالنظر فى محاسن الشيء دون مساوئه ، والترح إنما يكون بالنظر فى مساوىء الشيء دون محاسنه ، فإذا خلص النظر من شوب الغلط فيما ينظر فيه ، انتفى الطغيان والجزع ، وحصل النظام وربّع (دام) .

□

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يناير 1987 م

العملية الإبداعية في فن التصوير

تأليف:

د. شاكر عبد الحميد سليمان

500 فلس

الكتاب 109

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص. ب 23996 الكويت

★★★

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد 208 أول يناير 1987

جثة حية

تأليف : تولستوي
ترجمة وتقديم : د. فوزي عطية
مراجعة : د. سمية عفيفي



إغسلها
أكثر نظافة مع توشيبا
صنع باليابان
TOSHIBA
POWER TUB
VH-S450B
VH-3300B
VH-1300B
غسالة بحوضين
VH-S450B
غسالة بحوضين
VH-3300B
غسالة بحوضين
VH-1300B
غسالة أوتوماتيكية
كاملة
AW SX1E
TOSHIBA
TOKYO, JAPAN



جمادي الآخرة ١٤٠٧ هـ - فبراير (شباط) ١٩٨٧

العربي

القدس.. الإنسان.. والمكان

هكذا كانت الحياة في الكويت

أوغندا.. قبائل وعسكر ورصاص


SANYO سانيو
إحصل على صورة أكثر نقاءً
مسجلنا الفيديوكاسيت الجديد VHS لا يشبه أي شيء. فهو يعتمد الصورة HQ الأكثر نقاء ويستخدم نظاماً متطوراً لرفع إستقبال اللون الأبيض بمعدل ٢٠٪ لتصبح أطراف الأشياء أكثر صفاء على الشاشة ويخف التشويش. اللون الأبيض تراه حقاً أبيض
تماماً. أما مميزات التفاصيل فيظهر أدق التفاصيل كشعر الأرنب أو شعيرة دقيقة واضحة. بالفعل، التفاصيل والألوان الواقعية ستوفر صورة طبيعية لم تعهدها من قبل. إختبرها بنفسك. مسجل الفيديوكاسيت العالي الجودة VHS من سانيو
MULTI SYSTEM
VHS HQ
VHR 1700M
تعدد الإستعمال بفضل ٧ أنظمة عالمية.
VHR 1300M
VHR 1200PS

العدد ٣٣٩ السنة الثلاثون فبراير ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس : MITR 44041 KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL-ARABI

Issue No. 339 feb. 1987 P.O.Box: 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٢٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد



الصندوق الكويتي للتنمية
ص ٦٩



الشنفرى .. أسطورة الثأر
ص ٨٢



« الكوارتز » كنز في باطن الأرض
ص ١٢٠



عبدالحميد
بن هدوقة



أبو المعاطي
أبو النجا

استطلاعات ومقابلات

صورة الغلاف



ما زالت القدس في قلب الحصار ، وما زال الانسان العربي فيها يتشبث بالبقاء . على الرغم من كل ممارسات الصهاينة . فإلى متى ستقاوم العين المخرز ؟ (اقرأ ص ٣٦)



أوغندا لؤلؤة أفريقيا ص ١٠٠



العرب في أمريكا ص ١٦٤

المراسلات باسم رئيس التحرير والمجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر . والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء

أبواب ثابتة :

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

في فبراير من كل عام تحتفل الكويت بعيدها الوطني ، عيد الاستقلال ، ودخول مرحلة جديدة من تاريخها الطويل ، هذه المرحلة التي اتسمت بحشد الجهود نحو التنمية في جميع المجالات . وتحل المناسبة هذا الشهر كي تسجل سنة اخرى من التطور ، ويسجل معها حدث عربي إسلامي كبير هو انعقاد مؤتمر القمة الخامس للدول الاسلامية على أرض الكويت ـ هذا المؤتمر الذي اعتبر منعطفا هاما في العمل السياسي العالمي ، فما سبقه من تحضير وإعداد على مستوى وزراء الخارجية للدول الاسلامية وما لحقه من توافد كثير من رؤساء الدول الاسلامية ورؤساء المنظمات وقادة الرأي العالمي وممثلي الاعلام جعل من الكويت موطن إشعاع ومنارة إعلامية رائدة .

وتواصل العربي بهذه المناسبة الكبيرة إتمام الملف الذى قدمته في عددها السابق ـ يناير ١٩٨٧ ـ حول قضايا العروبة والاسلام الشائكة وبالغة الأهمية .

فهنا نقدم لك ـ عزيزي القاريء ـ ما حل بالمكان والانسان في موطن أولى القبلتين وثاني الحرمين ، القدس العربية . كما نقدم لك « المسلمون . . . على طريق المستقبل » كما يراه الدكتور كمال أبو المجد ، و « الاسلام والأرض » للدكتور أحمد علبي ، وغير ذلك من موضوعات إسلامية . . . بالاضافة الى تحليل ومناقشة موضوع « الارهاب من زاوية عربية » للدكتور فؤاد زكريا .

وتنقلك « العربي » الى أوغندا في استطلاع ملون عن هذه البلاد التي أنهكت الحروب شعبها . . ثم تنتقل معك « عزيزي القاريء » الى الولايات المتحدة الامريكية حيث تعرض لمحات من حياة العرب فيها .

وفي مجال العلم تنطلق بك العربي في « رحلة الى حافة الكون » كما تكشف لك المعدن العجيب الذى يسمى الكوارتز .

ومع مسيرة احتفالات الكويت بالعيد الوطني السادس والعشرين نقدم لك لمحات من حياة المرأة الكويتية في الماضي والحاضر ، ونستعرض دور الصندوق الكويتي للتنمية وانجازاته في مجال دعم جهود التنمية على الصعيدين العربي والعالمي .

المحــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

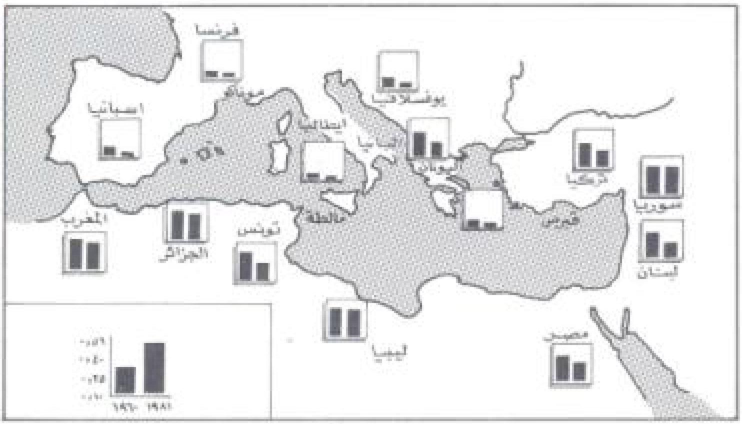
ضجيج الأرقام

بعض الأرقام تتكلم ، وكلام بعضها له ضجيج يكاد يصم الآذان ، خصوصا اذا كانت لهذه الأرقام علاقة بمشكلات المستقبل ، مشكلات السكان والبيئة والمشكلات الاقتصادية .

بعض الأرقام علقت في ذهني عندما حضرت في أكتوبر الماضي ندوة عالمية في مدينة « رميني » الواقعة على الشاطيء الأدرياتيكي الشرقي في ايطاليا ، التي يعتبرها البعض « فلوريدا الأوروبية » .

في تلك المدينة الساحلية ، وفي الخريف من كل عام ينظم معهد « بيامنزو » منذ سنوات طويلة ملتقى فكريا تطرح فيه المشكلات التي لها علاقة مشتركة بين اوروبا والشرق الأوسط والحوض الباسفيكي . وندوة اكتوبر المنصرم كانت بعنوان واسع هو « التحكم في المشكلات الكبرى » ، وكانت تتناول ثلاث مشاكل هي : النفط والصناعة والبيئة ،

مشكلات البيئة لاتتكلم فقط... لكن كلامها يصم الآذان



المعدل الإجمالي للمواليد بين عامي ١٩٦٠ - ١٩٨١ في دول حوض البحر المتوسط

وعن الأخيرة أتحدث لأن الأرقام التي قدمت ـ كما قلت ـ لا تتكلم فقط ، لكن كلامها يصم الآذان . . !

لماذا ؟

لأنها تتكلم عن مستقبل البيئة والسكان في حوض البحر الأبيض المتوسط ، هذا الحوض لايشترك في الاطلال عليه جنوب اوروبا من الشمال فقط ، بل بلاد عربية واسلامية أيضا ، تمتد من تركيا في الشمال الشرقي الى المملكة المغربية في أقصى طرفه الجنوبي الغربي ، مرورا بكل تلك البقع العزيزة من وطننا العربي التي تضم سوريا وفلسطين ولبنان ومصر وليبيا وتونس والجزائر ، واذا كانت السعودية والاردن والعراق وبقية أقطار الخليج لا تطل عليه ، وكذلك السودان،فإن ذلك لا يجعلها بعيدة كل البعد عن المخاطر البيئية الضخمة التي تواجه تلك البلدان ،

أي أن ما يحدث في البلدان المجاورة للبلدان المطلة على البحر الأبيض ، في شماله (اوروبا) أو جنوبه وشرقه ، التي تنتج أنشطتها الاجتماعية والاقتصادية نفايات ومخلفات تتزايد على مرور الزمن ، يجعل عدم التوازن البيئي يصل الى حد الأزمة ، بل الكارثة .

يتمثل أهم عامل لانعدام التوازن الذي تعاني منه مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط في تزايدها السكاني ، اذ يقدر أن عدد السكان سيبلغ بعد ثلاثين عاما من الآن من ٥٥٠ الى ٦٠٠

مليون نسمة تقريبا ، في حين أنه ـ في الوقت الحاضر ـ يقدر بحوالي ٣٥٠ مليون نسمة ، أي أن تزايد السكان في الثلاثين سنة القادمة سيبلغ حوالي ٦٤٪ من المجموع الحالي ، إلا أن هناك حقيقة أخرى بجانب الأرقام الاجمالية ، وهي أن هناك اختلافا كبيرا من حيث المساحة والكثافة السكانية ومستوى التنمية بين هذه البلدان ، وكذلك من حيث مستوى التحكم في البيئة .

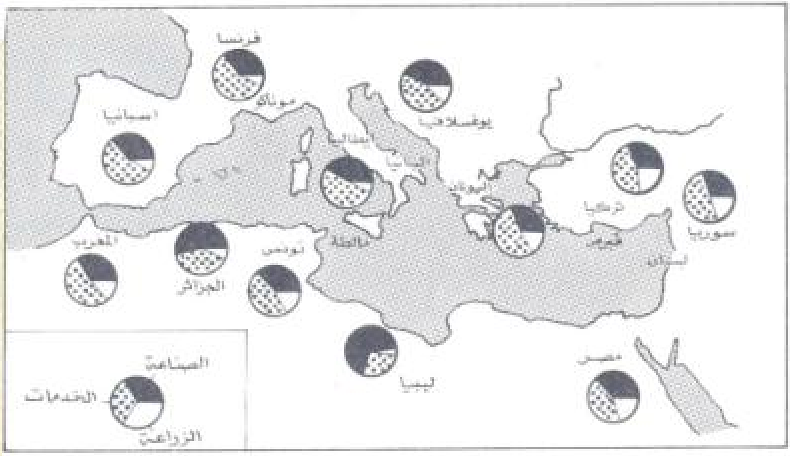
تبلغ المساحة الاجمالية للبلدان المشاطئة لحوض البحر الابيض ما يزيد على ٨,٥ مليون كيلومتر مربع ، ولكن اكبر المساحات هي في اقطار الجنوب (العربية) ، اذ أن أكبر بلاد البحر المتوسط مساحة هي الجزائر (٢,٤ مليون كيلو متر مربع) ، ثم ليبيا (١,٧ مليون ك م^{2}) ثم مصر التي تبلغ مساحتها حوالي مليون كيلو متر مربع . عدا المساحات ، فإن معظم الإيجابيات التنموية في حوض البحر المتوسط هي من خصائص دول الشمال الأوروبي التي تزداد قدرتها التنموية في ظل تزايد معقول في السكان ، في الوقت الذي تضعف فيه قدرات البلدان المشاطئة في الجنوب مع تزايد في عدد السكان .

حتى الآن ـ باستثناء مصر التي يبلغ عدد سكانها حوالي ٥٠ مليون نسمة ـ توجد الأعداد السكانية الأكبر في الدول المشاطئة الشمالية : ايطاليا وفرنسا وتركيا واسبانيا ، الا ان هذا التوجه سوف ينعكس في الثلاثين سنة القادمة . بذور هذا الانعكاس في التوجه موجودة ، فبينما شهدت دول الشمال المتقدمة خلال الثلاثين عاما المنصرمة (من ١٩٥٠ ـ ١٩٨٠) زيادة سكانية تبلغ نسبتها ٢٢٪ ايطاليا و٣٧٪ يوغسلافيا ، تضاعف عدد سكان الدول المشاطئة الجنوبية ، وقارب ثلاثة أمثاله في نفس الفترة ، بزيادة ١١٦٪ في الجزائر وتونس ، و١٢٥٪ في المغرب ، و١٥٧٪ في سوريا و١٨٩٪ في ليبيا .



هذه الأرقام تقول لنا إن الدول المشاطئة الشمالية الأكثر سكانا في وقتنا الحاضر يتزايد سكانها بمعدل أقل بكثير من معدل التزايد في الدول المشاطئة الجنوبية .

واذا أخذنا بعض المؤشرات الرقمية الأخرى كمعدل الوفيات ، ونسبة الخصوبة ، وتوزيع السكان بالنسبة للجنس والسن في كل من دول الشمال ، ودول الجنوب المشاطئة للبحر الأبيض ، نصل الى نتيجة هامة مفادها أنه في نهاية الثلاثين سنة القادمة سيصل عدد سكان هذا الحوض



إجمالي الناتج القومي في دول حوض البحر المتوسط عام ١٩٨٠

الى ما بين ٥٥٠ - ٦٠٠ مليون نسمة ، وستحتل المراكز الأربعة الأولى في عدد السكان دول الجنوب : مصر وتركيا (حوالي ١٠٠ مليون نسمة لكل منهما) ، ثم الجزائر والمغرب (حوالي ٦٠ مليون نسمة لكل منهما) ، وفي الوقت الذي ستكون البلدان الشمالية في وضع ثبات نسبي لعدد السكان لن تكون بلاد الجنوب - بعد ثلاثين عاما - قد وصلت الى الثبات السكاني النسبي ، ولن تصل اليه الا في الثلث الاخير من القرن القادم ، او في نهايته،وعند مستويات تقدر بين ١١٠ و١١٥ مليون نسمة في مصر وتركيا ، و١٢٠ مليون في الجزائر ، وبين ٧٠ و٨٠ مليون في المغرب،وطبقا لتقديرات البنك الدولي فان بعض البلاد ذات الاهمية السكانية النسبية الان في حوض البحر الابيض المتوسط ستزيد زيادة ملموسة ، ومنها مثلا سوريا التي يقدر عدد سكانها بحوالي ١٠ ملايين نسمة ، والذي سيصبح بعد ثلاثين سنة ٣٣ مليون نسمة ، وكذلك ليبيا التي سيرتفع عدد سكانها في نفس الفترة من ثلاثة ملايين نسمة الى ١١ مليون نسمة .

ماذا تعني كل هذه الأرقام ؟ هل تعني شيئا او هل تقول كلاما مستقبليا له معنى ؟ انها تتكلم ، وكلامها كما قلت له ضجيج .

تقول هذه الأرقام فيما تقول اننا سنشهد خلال العقود القليلة القادمة انعكاسا سكانيا مزدوجا لبلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، وهو انعكاس كمي ، حيث سينتقل الثقل من الشمال الغربي

عدد سكان حوض البحر المتوسط يتزايد خلال ٣٠ سنة بنسبة ٦٤٪

(اسبانيا ـ فرنسا ـ ايطاليا) الى الشمال الشرقي (تركيا) ، والى الجنوب (مصر ودول المغرب الغربي) ، اي الى الاقطار العربية ، وهذا التزايد السكاني لدى الاقطار العربية في الشمال الافريقي وغرب اسيا لن يعادله تزايد سكاني في (اسرائيل) ، اذ متوقع أن يبلغ عدد سكانها ٨ مليون نسمة في اواخر الثلاثين سنة القادمة .

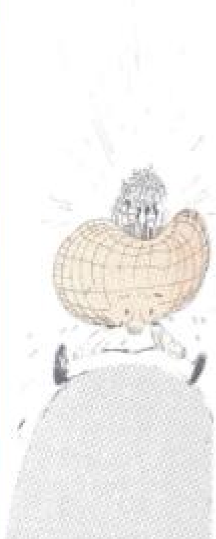
كما تقول لنا هذه الأرقام ـ من حيث الجنس والسن ـ إن انعكاسا نوعيا سيصيب التركيب السكاني لحوض البحر الأبيض المتوسط ، ففي الشمال ، سيكون هناك سكان أصابتهم الكهولة ، بينما في الجنوب سكان صغار بل صغار جدا ..

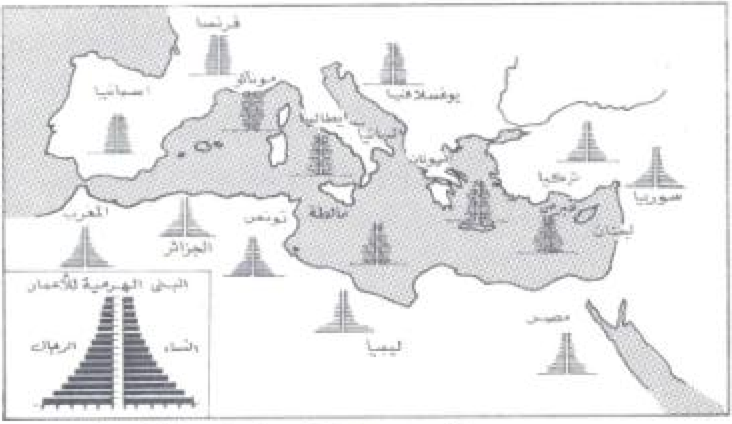
وسيكون هناك مشكلات المسنين في الشمال ، ومشكلات الصغار غير المنتجين في الجنوب .

لا يجب أن يذهب أحد منا ـ نحن العرب ـ إلى تفسير كل ذلك تفسيرا إيجابيا لصالحنا ، فهناك عنصر هام يدخل في تركيبة الموضوع ، ويجعل هناك فوارق في استخدام هذه الاحتمالات السكانية .. هذا العنصر هو معرفتهم ـ في الشمال ـ بالاحتمالات المختلفة ، وتحسبهم لها ، مع جهلنا النسبي بها ، وانعدام الخطط على المستوى الاقليمي ، للاستفادة ـ ايجابيا ـ من هذه التغيرات والسيطرة على مسارها .

مستوى المعيشة والبيئة :

□ تقاس التنمية ـ التنمية الحقيقية ـ بشقين ، إشباع مادي ، وإشباع معنوي لجماهير الشعب ، وفي موازنتنا بين شمال البحر الابيض وجنوبه نجد انه حتى في الشق الأول توجد فروق واضحة في متوسط الدخول للأفراد بين الشمال والجنوب ، ففي الشمال نجد متوسط دخل الفرد الفرنسي ١٠٥٠٠ دولار ، ودخل الفرد الاسباني ٥٣٧٠ دولارا في العام ، ودخل الفرد الايطالي ٤٧٨٠ دولارا (عام ١٩٨٣) ، بينما هي أقل من ذلك بكثير في مصر، اذ نجدها تبلغ ٧٠٠ دولار للفرد ، وفي المغرب ٧٦٠ دولارا للفرد . ومع تزايد عدد السكان في جنوب البحر الأبيض الذي لمحنا الى مؤشراته في السابق ، ومع تحديد أكثر لمستوى المعيشة بادخال متغيري المستوى الصحي والتعليمي اللذين يؤثران بدورهما في الانتاج من جهة ، والطلب الاجتماعي من جهة اخرى ، سنجد أن هذه المؤشرات تشير الى أن بلدان اوروبا المشاطئة للبحر الابيض يتوفر لسكانها





البنى الهرمية لأعمار السكان في حوض البحر المتوسط

حالة صحية معقولة ويبلغ متوسط عمر الفرد ٧٠ عاما ويوجد في أغلب بلدانها نظام تأمين اجتماعي يتكفل برعاية المرضى ، كما ان أنظمة حماية الاطفال والفئات الخاصة قد تطورت ، وتبحث السلطات بدأب عن نماذج جديدة لسير عمل المرافق الصحية لملاقاة الطلب على العلاج المتنوع .

كل ذلك في الوقت الذي تتزايد فيه الصعوبات أمام كثير من المواطنين في الدول المشاطئة الجنوبية ، رغم الجهود المبذولة للحصول على رعاية صحية أفضل وذلك بسبب التكلفة العالية لهذه المؤسسات الصحية الحديثة وانتشار الأمراض ، مما يؤثر في النهاية على ازدياد نسبة وفيات الأطفال من جهة ، وانخفاض متوسط العمر من جهة ثانية .

ماهي صورة المستقبل للملايين الجدد من البشر؟

وعلى الرغم من المؤشرات الهامة التي يقدمها مستوى العناية الصحية لأي قطر فإن الثراء بدون تعليم لا يكفل صحة جيدة ولا نموا صحيحا ، فما بالك اذا انخفض مستوى التعليم مع ضعف في الدخول الحقيقية . فهناك في الجنوب توجد بعض البلدان الثرية ، بمعنى ارتفاع مستوى الدخل الفردي الا أن انخفاض مستوى التعليم فيها يعني بقاء معتقدات وأساليب معيشية وعادات غذائية معطلة للتنمية ، أما إذا تواكب ضعف الدخل مع مستوى تعليمي متدن فإن ذلك يعني بيئة غير صحية ومساكن مكتظة ، واضطرابا اجتماعيا .

الأرقام الخاصة بالتعليم في دول شمال البحر الأبيض وجنوبه تقول لنا أشياء أخرى ، فالنسبة المئوية للأطفال المقيدين في المرحلة الابتدائية من

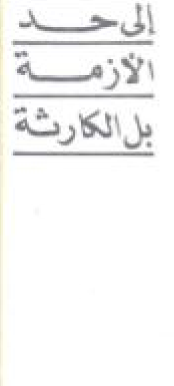
فئة السن المناظرة (وهي بشكل عام من ٦ إلى ١١ سنة) تبلغ ١٠٠٪ في بلاد شمال حوض البحر المتوسط ، مع مساواة شبه تامة بين البنين والبنات ، وفي بلاد جنوب الحوض كانت نسبة الأطفال المقيدين من الجنسين لعام ١٩٨٢ تبلغ بين ١١١٪ في تونس (أعلى من ١٠٠٪ بسبب تجاوز المقيدين فئة السن من ٦ - ١١ سنة) ، و١٠١٪ في سوريا ، مع رجحان طفيف للبنين في كل من تونس وسوريا ، و٨٠٪ في المغرب (٩٨٪ للبنين و٦٢٪ للبنات) ، و٩٣٪ للجزائر (١٠٥٪ للبنين ٨١٪ للبنات) ، و٧٨٪ لمصر (٩٠٪ للبنين و٦٥٪ للبنات) .

وعندما ننتقل الى نسب المقيدين في التعليم العالي من فئة السن (بين ٢٠ الى ٢٤ سنة التي لا تغطي طول مدة أغلب الدراسات العليا) فإن أهم ما يمكن ملاحظته ليس هو الاختلاف المتوقع بين دول الشمال حيث تبلغ نسبة المقيدين ٢٥٪ من ذلك السن والرقم الأصغر لدول الجنوب ، وإن ما يمكن ملاحظته أيضا هو التقدم الحثيث الذي أحرزته الدول المشاطئة الجنوبية في خلال عقدين من الزمان . . فبين عامي ٦٥ - ١٩٨٢ ارتفعت النسبة في مصر من ٧ الى ١٥٪ ، وفي سوريا من ٨ الى ١٦٪ ، وفي تونس من ٢ الى ٥٪ ، وفي المغرب من ١ الى ٦٪ ، وهذا يعني - مرة اخرى - ازدهار الوعي النسبي بالمطالب الاجتماعية .

عدم التوازن البيئي يصل إلى حد الأزمة بل الكارثة

على الرغم من أن الأرقام تعني شيئا الا انها لا تعني كل شيء اذا ربطنا التعليم والتربية بالبيئة ، فالأساليب المتبعة في التعليم تختلف من فئة إلى أخرى ، بل من مدرسة الى أخرى ، وربما من مدرس الى آخر . ولا يعنى بتدريس البيئة ومخاطرها في كثير من مدارس حوض البحر الجنوبي ، ففصول الطبيعة والمراكز الدائمة للتعرف على البيئة مازالت في أسفل أولويات كثير من مناهج الدراسة .

وأرقام أخرى :



☐ عندما أسر إليّ أحد الخبراء العرب منذ فترة بأهمية الالتفات الى الصراع المحتمل مع اوروبا على المصادر الأولية من غذاء وطاقة الذي سيولده تزايد السكان في جنوب البحر الأبيض المتوسط ، ومعظمه - ان لم يكن كله - عربي ، وما يمكن أن يجره ذلك الصراع على البيئة ، لم أكن مقتنعا كل الاقتناع بأولوية الحديث في الموضوع وقرع أجراس الخطر .

وعندما قرأت الوثائق المقدمة في - بيامنزو - وشهدت المناقشات أيقنت أننا

الصراع القاتل على الموارد الأولية يجبرنا أن ندق أجراس الخطر

حتى الآن لم نعط الأمر حقه من الالتفات ، وإليك بعض الأرقام الخاصة بالمواد الزراعية والغذائية ، فالاستهلاك من الحبوب يبلغ ١٨٠كجم للفرد في السنة في بلاد جنوب البحر المتوسط بينما يبلغ نحو ٨٠٠ كجم في الشمال ، والقمح يمثل حوالي ٥٠٪ من الحبوب التي يتم انتاجها ، و٨٠٪ من هذا القمح تنتجه بلاد شمال البحر المتوسط ، وإجمالا فقد بلغ انتاج الحبوب في بلاد البحر المتوسط ١٥٠ مليون طن في سنة ١٩٨٢ ، واحتلت فرنسا المكان الأول في الانتاج بفارق كبير حيث بلغ انتاجها نحو ٤٨ مليون طن ، وتليها تركيا (٢٦ مليون طن) ، وايطاليا واسبانيا (١٨ ، ١٣ مليون طن على التوالي) ، أما البلد الأول في الجنوب فهو مصر بإنتاج يزيد قليلا على ٨ ملايين طن ، ويليها المغرب (٤,٨ ملايين طن) والجزائر وتونس (١,٥ و١,٣ مليون طن) .

واذا اخترنا مؤشرا آخر هو انتاج اللحوم نجد أنه في عام ١٩٨٠ كان مجموع عدد رؤوس الماشية في حوض البحر المتوسط نحو ١٤٩ مليونا من الأغنام (١٣,٣٪ من الاجمالي العالمي تقريبا) و٤٣ مليونا من الماعز (٩,٣٠٪) و٦٩,٣ مليونا من الأبقار والجاموس (٥,٧٪) و٦٤٠ مليونا من الدواجن (١٠٪ من الاجمالي العالمي تقريبا) . الا أن العجز في اللحوم لدول البحر الأبيض بلغ ١,٢ مليون طن (٨٪ من انتاج البحر المتوسط) ، ويقابله واردات قيمتها (٢,٥ مليار دولار) .

في المقابل نجد أن اكثر البلاد المنتجة للحوم هي فرنسا تليها ايطاليا ثم اسبانيا ويوغسلافيا . أي أن دول شمال البحر الابيض المتوسط أنتجت من اللحوم في سنة ١٩٨٠ ما مقداره ١٢,٧ مليون طن في حين أن مجموع انتاج دول البحر الأبيض ـ بشماله وجنوبه ـ كان في ذلك العام حوالي ١٥,٧ مليون طن ، أي أن الجزائر والمغرب وتركيا ومصر وغيرها قد أنتجت من اللحوم فقط (٣ مليون طن) ، بينما أنتجت يوغسلافيا وحدها كمية قريبة من ذلك .

تلك الأرقام تتشابه تقريبا في قطاعات الصناعة والمواد الأولية والطاقة ، وتفرض علينا ـ شئنا أم أبينا ـ سؤالا مفاده : ما هي صورة



لابد من التحذير من البطالة والعنف وارتفاع مستويات التلوث

المستقبل لملايين من البشر سوف يوجدون خلال حوالي ثلاثين سنة قادمة ؟ ماذا سيأكلون وكيف نعتني بهم صحيا ؟ وهل هناك أمل لتعليمهم ؟ وبعض أسئلة ملحة أخرى .

اذا كانت فكرة التحكم في المشكلات الكبيرة فكرة لها أولوية قصوى ، كما أن التطلع الى التنمية هو تطلع مشروع ، فإن الموازنة بين الاثنين - بين الموارد المتاحة الزراعية والصناعية وبين الانقلاب السكاني - تجعل من المؤكد أن يؤدي كل ذلك-بعد ثلاثين سنة من الآن - وتحت تأثير التطورات الجذرية المتلاحقة وبخاصة في جنوب حوض البحر الابيض وشرقه-سواء فيما يتعلق بالسكان أو التوسع الحضري أو التصنيع أو الاستهلاك - الى بطالة وعنف وارتفاع مستويات التلوث ، وعلى ذلك فإن التنمية الاقتصادية سوف تصطدم سريعا بشكل مروع بحدود بيئية يصعب تجاوزها .

والتساؤل المطروح هو : كيف يمكن اعادة التوازن في حوض البحر المتوسط لصالح بلاد الجنوب التي يتكاثر سكانها وتقل قدرتها على الوفاء باحتياجاتها المشروعة في ظل التوازن القائم .

الأوروبيون يتخوفون من هذه المؤشرات ويعتقدون - إن عاجلا أو آجلا - أن (غزوا) بشريا سوف يأتيهم من الجنوب المكتظ بالسكان الأكثر فتوة وهم يحاولون - بطرقهم من الآن - من خلال الإعانات الاقتصادية وإعادة التوزيع الجغرافي لبعض الصناعات - ومعظمها مضر بالبيئة - الاطاحة بها وتطويقها في الجنوب ، مع تشدد مستمر في قوانين الهجرة والاقامة .

ولن تظل الأزمة محصورة في دول جنوب البحر الأبيض المتوسط ، اذ سوف تتعداها أيضا إلى الأقاليم المحيطة ، كالسودان والخليج والجزيرة العربية .

ورغم المحاولات العديدة للحوار في أكثر من اطار لملاقاة تلك المشكلات الملحة في وسط الطريق ، الا أن الجهود الاقليمية في البحر الابيض المتوسط - مثلها مثل كثير من المناطق الاقليمية - مازالت منطقة تتعامل دولها مع بعضها البعض من الباطن ، أو بمنطق البطالة البنيوية ، ومن ثم يتفاقم عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي الدائم الجيشان .

ألم أقل لكم ان بعض الأرقام لها ضجيج ؟

محمد الرميحي

أقوال



الشيخ صباح الأحمد



الرئيس حسني مبارك



الصادق المهدي

■ مشاكل العالم الاسلامي ليست سهلة ولا يسيرة ، واذا لم يتم حل هذه المشاكل في مؤتمر قمة بحجم القمة الاسلامية ، وبمستواه وزخمه ، فان التعقيدات ستزداد وسيصبح من الصعب حلها على أي مستوى آخر .

الشيخ صباح الأحمد

نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية ـ

الكويت

■ نحن في اليمن مع انعقاد القمة العربية ، ونشعر ان الظروف القائمة تتطلب انعقادها في أسرع وقت ممكن ، كما تتطلب ان ترتفع الدول العربية الى مستوى مسئولياتها الكبيرة وترتفع فوق الخلافات الثانوية والجانبية .

الرئيس أبو بكر العطاس

■ الأمم مثل الأفراد ، يخشى البعض منها قول الآخرين وحكمهم عليها ، ويستقبلها البعض الآخر بالفضول ويستفيدون من آراء الآخرين .

ميشيل جوبير

وزير الخارجية الفرنسي الأسبق

■ ان صندوق النقد الدولي لا يدرك الأبعاد النفسية والسياسية للشروط التي وضعها لمساعدة الدول التي تلجأ اليه ولم يستخلص العبرة مما حدث .

الرئيس حسني مبارك

■ الاعلام لا يخلق انتصارات ، انه انعكاس للحالة على أرض الواقع .

لطيف نصيف جاسم

وزير الاعلام والثقافة العراقي

■ ان الاعتقاد الديني قضية متروكة للضمير ، ولا بد ان تترك بحرية .

الصادق المهدي

رئيس وزراء السودان

■ تراثنا القديم مليء بثروات وكنوز هائلة من حيث الفكر والوصول الى أعماق الحقائق ، ولكن علينا ان نخوض أهوالا من أجل اعادة تبويبها ومراجعتها وتنقيحها واعادة بنائها واستبعاد ما لا يلزم منها واحلال ما هو جديد مكانه .

فتحي رضوان

كاتب مصري

المسلمون ..

على خريطة المستقبل

بقلم : الدكتور أحمد كمال أبو المجد

لا يستطيع مهتم بأمور المسلمين في هذا العصر أن يفلت من الاحساس الغامر بالحزن والأسى ، وهو يرى شعوب الدنيا من حوله تتسابق الى استخدام عقولها لكشف المزيد من أسرار الحياة،واتمام عمارة الكون بما ينفع الناس ، تغمرها الحركة الدائبة ، والتوجه الذي يتزايد يوما بعد يوم الى الاهتمام بأمر المستقبل والاعداد له .. وتصور البدائل المحتملة لصور الحياة الفردية والجماعية في ظله . . .

المسلمون . . . حيث هم ، يدورون حول أنفسهم ، ويتنازعون أمرهم بينهم ، ويلتمسون للفرقة والشقاق أوهن الأسباب . . ثم لا يواجهون واقعهم المر إلا بكلمات وشعارات ، متمنين على الله الأماني ، ومتحدثين ـ مع ذلك ـ عن نصر وعدوا به ، وعن صبح قريب ينتظرهم ، وعن ظن يحسنونه بالله الذي استخلفهم في الأرض ، « وكذبوا . . . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » . .

هذا كله يتردد على الألسنة سؤال كبير ، يتلجلج في الصدور ، ويحدث به الشباب المسلم بعضه بعضا . . أما لهذا الليل من آخر ؟ وهل ضاعت ـ حقيقة ـ فرص الاصلاح ، وآمال النهضة الإسلامية التي راودت أجيالا متعاقبة من المصلحين والمفكرين والساسة والمجددين ؟ هل طوى الواقع المر الذي يحيط بنا تلك الآمال الكبار التي كان يتحدث عنها رجال أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال ، وحسن البنا ، ومالك بن نبي . . . ؟؟ هل بلغت حضارة المسلمين مرحلة الشيخوخة التي تحدث عنها الفيلسوف المؤرخ اشبنجلر ومن قبله المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون وهما يتحدثان عن دورة الحضارات ؟

إننا حين نطرح هذا السؤال لا نريد أن نحرك الهموم ، أو نشيع روح اليأس وأسباب القنوط . . فإن عندنا جميعا من ذلك ما يكفينا . . وإنما نطرح هذا السؤال لنحرك الإحساس بضرورة « العمل السريع » لإنهاء حالة الضياع . . . والحيرة . . . والدهشة . . . التي تلف العالم الاسلامي . . وحالة الذهول عن الواقع القريب والبعيد . . وحالة الرتابة والكسل والجمود على الموجود التي مازالت تخيم على كثير من المسلمين أفرادا وشعوبا ، رغم ما حققته

الثورة في وسائل الاتصال من تقريب للمسافات ، وإسقاط للحواجز ، ووضع للمعلومات والمعارف على أطراف أصابع سكان المشارق والمغارب على السواء .

نعم . . إن المستقبل كله بيد الله . . وتقدير الغيب كله من أمره وعلمه سبحانه . . ولكن يد الله في دنيا الناس عدل ورحمة . ولذلك فهي لا تحاسب الناس ولا تحدد مستقبلهم بإرادة « كن فيكون » ، وإنما تضع الموازين للقسط للناس جميعا ، وترسي السنن الثابتة التي تضبط الكون كله والتي تحكم البيئة وسكانها . . لا تغيير لها ولا تبديل . . لهذا فإن ما تصنعه في حاضرنا هو الذي يحدد مكاننا على خريطة المستقبل . . وما نحققه في واقعنا من شروط النهضة وأسباب الانبعاث ، هو وحده الذي يفتح أمامنا آفاق الرجاء ويطرق بنا أبواب الأمل في التغيير .

استشراف المستقبل

والدارسون لعلوم التخطيط واستشراف المستقبل يقررون أن منهج هذا الاستشراف يمر بمراحل ثلاث :

الأولى : رسم خريطة الواقع ، وتحديد مكوناته ، وتحليل القوى المحركة لها . . وبيان الوزن النسبي لكل منها . .

الثانية : تصور البدائل الممكنة الوقوع ، إذا تركت مكونات الواقع تتحرك حركتها الذاتية . . أو تتأثر بمؤثرات خارجية توجهها مصالح « الآخرين » . .

الثالثة : تحديد الحركة الواجبة الاتباع في الحاضر ، لتوجيه التحرك الى المستقبل توجيها يحقق القدر الأكبر من أهداف الجماعة . . وهذه المرحلة الثالثة تتجاوز في الواقع مجرد التحليل والاستشراف لتدخل في نطاق « التوجه والتأثير » على صورة المستقبل . .

وعلى كثرة ما قيل ويقال في وصف حاضر المسلمين وتحديد مكوناته . . وعلى تعدد محاولات « تشخيص » الأزمة التي تواجه المسلمين المعاصرين . . فلا يزال مستقرا عندي أن تلك الأزمة ترجع - في جزء كبير منها على الأقل - الى علل ثلاث :

أ - سوء فهم وظيفة المسلمين في الدنيا ، والعجز عن إجابة السؤال الكبير . . ماذا يريد الاسلام من المسلمين ؟

ب - الحيرة التي لا تنقضي في محاولة التوفيق بين « طاعة الله » والنزول عند أوامره الواردة في نصوص الكتاب والسنة ، وبين « استخدام العقل » وإطلاق حريته في البت ، ورفع الحرج والتأثم عن محاولات بناء النهضة الاسلامية الحديثة بناء يستفيد من تجارب الناس والشعوب ، قديمهم وحديثهم ، المسلم منهم وغير المسلم .

ج - الاضطراب في تحديد الموقف العقلي والنفسي من الأبعاد الثلاثة لحد « الزمن » ، وهي الماضي والحاضر والمستقبل ، وانكفاء أكثر المسلمين على الماضي وحده ، وتعلقهم بما يسمونه « التراث » ، وهو ركام كبير متعدد العناصر ، وإصرارهم على إضفاء القداسة على كثير من عناصره التي لا ترتبط بالاسلام ، ولا تستحق كثيرا ولا قليلا من تلك القداسة . .

إن المواجهة الصريحة لهذه العلل الثلاث ، وتصفية موقف العقل المسلم والنفس المسلمة منها جميعا ، هي الخطوة الأولى على طريق الحركة السوية نحو المستقبل . . . وبغيرها تظل الأحاديث الطويلة المنمقة عن عظمة الاسلام . . مخدرا خطيرا تقنع به النفوس العاجزة . . وتستكين له الهمم الساقطة . .

١ - ماذا يريد الاسلام من المسلمين ؟

قد يكون من الغريب أن نعيد اليوم طرح هذا السؤال ، والمسلمون يستفتحون قرنهم الخامس عشر تحت راية الاسلام . . ولكن هذا الطرح لابد منه ونحن نرى حولنا ما نراه من نماذج السلوك المضطرب والموقف الحائر تجاه الحياة . . . آلاف من الشباب المسلم يقاطعون الدنيا ، ويركن بعضهم إلى عزلة تحاجز بينهم وبين تيار الحياة . . ويحتمون وراء أسوار من الرفض ، والإحساس بالغربة ، والانقباض . . ويتصورون أن كل ما عرفه الناس من الأفكار والمذاهب والنظريات . . فالاسلام خلافه . . !

إن الأمل المعقود على صحوة إسلامية مبصرة

ورشيدة رهن بسقوط هذه التصورات المريضة عن دور المسلم في الحياة . .

ان الجيل الذي يصنع الحضارة لابد أن يدرك أن المسلمين ناس كأمثال الناس ، وأن مهمتهم على هذا الكوكب مهمة بناء وتعمير ، وأن مقاطعة الحياة لايمكن أن تكون مسلكا إسلاميا مقبولا ، كما أن الإعراض عن الدنيا والتقاعس عن الضرب في الأرض لا يفضي إلا الى تراجع شأن المسلمين وهوانهم على أمم الأرض . . لا تحول دون ذلك دعاوي « التميز » ونداءات « العزة » التي للمؤمنين ، ووعود « الاستخلاف في الأرض » ، ذلك أننا نخبة المسلمين نعرف أن سنة الله في الناس لاتتخلف ، لا تعفي من حكمها أمة ولا شعبا .

كما نعرف أن وعده بالنصر والاستخلاف في الأرض وعد مشروط « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . . وأنه سبحانه قد كتب في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباده الصالحون . . وليس من الصلاح في شيء أن يعجز المسلمون وأن يتكاسلوا وأن يمضوا أعمارهم كلها يطحنون كلاما . . ويجترون ماضيا . . ويعتزون بأمجاد أمة قد خلت . . وقد علموا أنه من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه كما يقول النبي (ﷺ) .

إن معنى هذا كله ، بلغة العصر ، أنه لا مكان للمسلمين على خريطة المستقبل إلا إذا تابوا من خطيئة الكلام الكثير والعمل القليل . . وإلا إذا شمر كل واحد منهم عن ساعديه وتعبد لله في ليله ونهاره ، بالعمل الكثير الذي يعوض ما ضاع من عمر الأمة في الجدل العقيم ، وما ضاع من عمر الأفراد في محاسبة النفس ومحاسبة الآخرين على صغائر الامور ، وهم جميعا واقعون في كبائرها . . وإلا فهل ينفع الأمة أن يفنى شبابها عمره في بحث وجدل لا ينتهيان حول أمور يدخل أكثرها في باب آداب الزي أو آداب الزينة أو آداب العلاقة بين الرجال والنساء . . . والأمة كلها واقعة في خطايا من « الوزن الثقيل » . . خطيئة الظلم المتبادل بين الأفراد والجماعات . . وخطيئة ترك الشورى والاعتياد على تحكم الواحد في المجموع . . ومصيبة الاستخفاف بالعمل . . والغش في أدائه عند الاضطرار إلى هذا الأداء . . ؟!

نعم إن المهمة الكبرى للمسلمين إنما تتمثل في هداية الناس ، وترشيد حركة المجتمعات بقيم الحق والهدى والعدل والاستقامة على أمر الله . . ولكن الناس لا يستمعون الى هذه النداءات كلها إذا جاءت من كسالى عاجزين . . أو ارتفعت بها أصوات يكذب حالها مقالها . . وتختلف سيرتها عن شعاراتها . .

٢ ـ العمل بالشريعة ، وممارسة الاجتهاد العقلي لا يتناقضان . .

وتلك قصة لا تزال حية وقائمة حتى إذا خيل إلينا أحيانا أن الجدل حولها قد انقطع أو فتر أو شغل عنه الناس . . إذ لا يزال كثير من المسلمين يتصورون الإسلام كيانا جاهزا ، ويتصورون الشريعة مخلوقا ثابتا عليهم أن يستدعوه ، وأن يعلنوا الرضا به ، فيتصلح حال المسلمين بين يوم وليلة . . ولا يزال منهم من يتحدث عن « حاكمية الله » سبحانه كما لو كانت إعلانا بسقوط العقل ، وإلغاء دور الانسان ، وبطلان الدعوة الى الاجتهاد . . ولا يزال من عامة المسلمين وخاصتهم من لا يزال ينظر الى الثورة العلمية بوجل وإشفاق . . لا انتباها الى بعض آثارها الجانبية التي تقلق ـ بحق ـ سائر الأمم والشعوب ، وإنما اعتقادا بأن المسلم الصحيح عليه أن ينحاز للوحي . . دون العقل . . وللاحكام الواردة بنصها في الكتاب والسنة . . دون تلك التي يتحدث عنها علماء الطبيعيات وعلماء الانسانيات . . .

إن الخطر الداهم في هذا الفهم المغلوط يكمن فيما يؤدي إليه من تعطيل العقول أو شل ملكات الإبداع والسعي لاقتحام المجهول . . والميل بالجيل كله الى متابعة القديم ، والجمود على الموجود ، وطلب الحلول الجاهزة من أقوال الأقدمين . .

ونحن ـ من جانبنا ـ لن نمل أبدا من التذكير بوحدة خلق الله ، وبأن التعارض الموهوم بين العقل والنقل كارثة هائلة لا مكان لها إلا في بعض العقول الضيقة والصدور الحرجة . . وأنه لا أمل للمسلمين في استرداد مواقعهم التي خسروها بين الأمم والشعوب إلا إذا أدركت أجيالهم الجديدة أن كلمة الله المقروءة في كتابه المنزل على نبيه المرسل هي هي حكمته المبثوثة في الكون والأنفس والآفاق . . وإلا

إذا سلمت هذه الأجيال بأن « العقل » ، هذه النفحة الإلهية التي من بها على الانسان .. هي أداة فهم نصوص الكتاب ، وهي كذلك أداة فهم أسرار الكون الفسيح الذي يحيط بالانسان .

إن الذين لا يتصورون الاسلام ولا يعرفون عنه إلا أنه مجموعة من النصوص ، قد يأخذها بعضهم على ظاهرها ويعرض عن سياقها ، ثم يلقي بها في وجه كل مجتهد وكل صاحب رأي حريص على الفهم وتدبر آيات الله .. أولئك يحتاجون الى مواجهة لامداراة فيها ولا مجاملة .. حتى يذهب الزبد جفاء الى غير رجعة .. ولا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس ..

لقد جاء دور العقل المسلم لينتعش من جديد ، ولترتفع به رؤوس الأتقياء والصالحين ، ولتضرب به أمة الإسلام جنبات الكون ، في غير تهيب ولا وجل ، ولا إشفاق على النصوص والمقدسات .. وليدار ـ حول ظلاله الوارفة ـ حوار متصل حول قضايا الساعة وهموم الناس ... ذلك أن الفكر الموضوعي النافع عبادة أو كالعبادة ، لأنه استخدام لنعمة الله فيما أمر به الله ...

وتعالوا ندير أعناقنا نحو المستقبل ..

لقد التوت أعناق أجيال متعاقبة من المسلمين ، وهم مشدودون الى الوراء ... متكفئون على الماضي .. مشغولون بالذات .. وحجتهم في ذلك كله أن من يقطع صلته بما فات .. لا رجاء له فيما هو آت .. وتلك لعمري كلمة حق يراد بها باطل .. فإن أحدا من عقلاء المسلمين لا يقول بقطع الصلة بالماضي .. أو الإعراض ـ جملة ـ عن التراث ، ولكن .. أي ماض ؟ .. وأي تراث ؟ .. القرآن والسنة .. ؟؟

ان كلام الله سبحانه وهدي نبيه (ﷺ) لايستمدان قدسيتهما من ارتباط بماض قريب أو بعيد .. فتعالوا نسمي الأشياء بأسمائها ونقول أننا ملتزمون بالكتاب متبعون للسنة الصحيحة .. ولكن ما هذا ولتقديس آراء الرجال ، والتعبد بمتابعة الأقدمين .. وهي بدعة ممقوتة حكى لنا القرآن من أمرها ما حكى، وهو ينكر على أصحابها أشد الانكار ..

ثم إن الماضي ـ بكل ما فيه ـ ليس من صنعنا نحن ، وأمجاده لا فضل لنا فيها .. وإنما تتمثل أمجادنا الحقيقية فيما نفعله ونحققه نحن .. ثم إن الماضي ساحة هائلة امتدت في الزمن قرونا .. وفي المكان آلافا من الأميال .. شغلها الحق والباطل .. واجتمع فيها الهدى والضلال .. وتصارع فيها الاسلام مع الكفر والظلم والنفاق .. ورأى فيها الناس ألوانا شتى من الخطأ والصواب .. فماذا بقي ـ إذن ـ من أسباب هذا الانكفاء الشديد على أيام مضت وانقضت .. وفيم هذا الإعراض العقلي والنفسي عن مواجهة المستقبل والاعداد له .. والاحتفال بأمره .. ؟ ثم كيف يستطيع هذا الجيل من المسلمين أن يذهل عن السرعة الهائلة التي يتم بها التقدم العلمي بأشكاله وصوره التي لم يكن يخطر أكثرها على بال الأقدمين .. وكيف يعزلون عقولهم ووجدانهم عن الإيقاع السريع المتزايد السرعة لحركة الحياة من حولهم .. وهل يطمع جيل ثقيل الخطو ، مقيد العقل بالأغلال أن يكون له مكان على خريطة المستقبل والناس من حوله يتسابقون ويتدافعون ، ويقفزون قفزا للفوز بمكان على تلك الخريطة .. ؟!

والخطاب بعد ذلك لجيل الشباب .. أن تعالوا نرفع أصابعنا عن آذاننا ، ونزيل الغشاوة عن عيوننا .. ونشحذ الهمة لعمل كبير .. وجهاد طويل .. نمد فيه أبصارنا الى المستقبل ، ونرحل فيه بمشاعرنا عن الماضي الذي وقعنا في أسره ونحن نحسب أننا بهذا نتقرب الى الله .

أما إذا غفلنا عن ذلك كله .. فإن الحديث عن صحوة إسلامية ونهضة حضارية .. لا يكون إلا فرقعة لفظية .. ولغوا لا يصح به دين ولا تصلح حياة . □

■ لا يفترض فيك أن تحب جميع الامور ، وانما عليك أن تفهمها مجرد فهم .

■ الإنسان لا يقتل في الحرب الرجل الذي يود قتله .

ارنست هيمنجواي

اقرأ في العدد القادم من العربي

عدد مارس ١٩٨٧

بوتان

الحياة وسط المتناقضات

استطلاع: محمود عبدالوهاب

- المرأة العراقية تغزل الحياة في السلم والحرب .. وفاء طه ناجي
- فنون الهند .. أسرار وأساطير .. سليمان مظهر

الشخصية العربية في التلفزيون الأمريكي
د. جاك شاهين

أزمة السويس واستخدام القوة
أمين هويدي

مدرسة للحبور والفرح المبدع !
د. عبدالله عبدالدايم

- صفحات من التاريخ : أسير المنصورة — د. سعيد عبدالفتاح عاشور
- ملح ونفط وتلوث !! — د. سمير رضوان
- المستقبل السكاني في الوطن العربي — د. عبدالإله أبو عياش
- مضحكات الشدائد..! — د. عبدالسلام العجيلي
- العلاج الفيزيائي والتأهيل — د. وليد الباعي
- اكتشاف العقل الباطن — د. عبدالرؤوف ثابت
- وجها الوجه .. نيكولاخايتوف، وليد دسوقي

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - د. شذى الدركزلي - فهمي هويدي - صلاح دهني
د. سامي محمود علي - سليمان فياض - ابراهيم زعرور - بهاء الدين محمود

الاسلام والأرض



بقلم : الدكتور أحمد عُلَبي

« ما زالت قضية الملكية في الاسلام من القضايا التي لم يحسم حولها الخلاف ، والاجتهادات فيها لم تنته . وحول ملكية الأرض يدور حوار أكثر سخونة . هل الأرض من الملكية الخاصة ؟ أم أنها مشاع لكل المسلمين الذين يشتركون في الماء ، والكلأ ، والنار ؟ » .

بات في حكم الأمور التي لا يداخلها ريب ، أو لا يملك الباحثون لها دفعا ، أن الاقتصاد محرّك أساسي للتاريخ ، وعلى سيره ونمط تطوره تترتب نتائج اجتماعية ، بالغة الدلالة في النسيج العام للتكتلات البشرية ، ولهذا لم يعد المؤرخون يُعْنَوْن بسرد الأحداث السياسية ، والمعارك العسكرية ، بمقدار ما أخذ جهدهم ينصرف إلى اكتناه الخلفيّة الاجتماعية الاقتصادية التي حتّمت أن تأخذ الأحداث والمعارك مجراها على هذا النحو أو ذاك ، فصار المؤرخ شارحا ومفسرا ومعللا ، وصار التاريخ الانساني هو التاريخ الاجتماعي الاقتصادي لهذه الدولة أو تلك . في العصور الأولى للاسلام كان الانتاج الزراعي هو محور الحياة الاقتصادية لتلك العصور ، فترتبت على هذا النمط الانتاجي علاقات اجتماعية ، سادت دار الاسلام ، وغلبت على حياة المسلمين . لذا فإن موضوع مُلكيّة الأرض يتسم ـ في تاريخنا ـ بالأهمية والأولوية ، فالأرض منبع الخيرات ، ومنها شِبَع الناس ، واستمرار ديمومتهم ، وذلك في مجتمع مشرقي ، عماده الفلاحون على العموم .

أبو يوسف

إن هذا المدخل الذي ندبّجه حول مُلكيّة الأرض في الاسلام يدعونا ـ على الأخص ـ إلى مراجعة نقدية لكُتب الخراج والأموال . كان القاضي أبو يوسف (ت ١٨٢ هـ) رائدا في « كتاب الخراج » الذي وضعه استجابة لطلب هارون الرشيد ، ليستعين الخليفة بمعطياته في عملية جباية الخراج والجزية والعُشُور والصدقات ، وبما أن أبا يوسف كان يعالج أمرا جديدا فقد عمد إلى مناظرة أهل العلم بالخراج ، كما كاتب العارفين بالموضوع ، يستوضحهم الرأي عمّا درجت عليه الأحكام هنا أو هناك في صدد بعض أراضي الفتوح . إن أبا يوسف يتحلّى بالاستنارة

والرحابة في معالجة المسائل التي تثير الاختلاف ، نراه يسعى إلى الحلول التوفيقية خلال جدله مع أبي حنيفة حول تصيب الفارس عند قسمة الغنائم ، أو موقفه من إحياء الأرض المَوات ، وأنها حق للمحيي نظرا لما تكبّده من جهد وبذل أموال ، لكنه أغفل طلب الاذن في إحيائها من الامام . بيد أن القاضي أبا يوسف يقف محتارا حيال تقلبات الأسعار بين الرُّخص والغلاء ، عاجزا عن إدراك هذا الطلسم ، فيقول : « إنما هو أمر من السماء لا يُدرى كيف هو » .

ابن آدم وابن سلّام

هناك بعد أبي يوسف مشتغل آخر في الموضوع ، وهو يحيى بن آدم (ت ٢٠٣ هـ) صاحب « كتاب الخراج » . وكتابا أبي يوسف وابن آدم متشابهان الى حد كبير في موضوعاتهما المتعلقة بأحوال الأرض على أنواعها ، وما يطرأ عليها عَبْر الاستصلاح والرّي ، وما تنتجه من خيرات ، وما يتوجب فيها من الزكاة . ونلحظ أن كتاب ابن آدم مقصور بكامله على موضوعه لايعدوه ، في حين أن أبا يوسف أتى في آخر كتابه على موضوعات لا تمت إلى الخراج بصلة ، مثل كلامه على أزياء أهل الذمة وكنائسهم وبيعهم وصلبانهم ، وكلامه على المجوس وعبدة الأوثان ، أو حديثه عن الداعرين والمتلصصين والجناة ، ثم إن أبا يوسف يعمد في بعض المواضيع إلى الاقتضاب ، في حين أن ابن آدم يتناولها ببعض التفصيل في أحكامها . نذكر على سبيل المثال أن التحجير ـ وهو حيازة الأرض من غير الاقدام على إحيائها ـ يرد على نحو سريع عند أبي يوسف ، وتزداد معلوماتنا عنه لدى مطالعة ابن آدم ، ونأتي على مثال آخر وهو الأكيال ومقاديرها التي مرّ عليها أبو يوسف مرورا عابرا ، في حين أن ابن آدم انفرد بالتفصيل فيها ، ومع ذلك فإن الثاني لا يغني عن الأول ، لأن أبا يوسف الذي نعتناه بالاستنارة والعقلانية نعثر في عمله على أفكار مضيئة لا نجد ما يشابهها لدى ابن آدم ، كما أن أبا يوسف ـ بشخصيته العلمية المجتهدة ـ أكثر حضورا في كتابه من ابن ادم في كتابه . وهكذا فإن أحدهما يكمل الآخر ، ويزيدنا بالخراج خبرة ومعرفة .

أما المصدر النفيس حقا في موضوع الأرض ، والذي يحيط به من كافة جوانبه ، عبر عمل ضخم ، موسوعيّ الحجم ، غزير المعرفة ، فهو « كتاب الأموال » لأبي عُبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٢ هـ) ، وهو علاّمة ، قال فيه الجاحظ : « لم يكتب الناس أصح من كُتُبه ولا أكثر فائدة » . ترك ابن سلاّم تصانيف كثيرة في اللغة ، والشعر ، والأمثال ، والنَّسب ، وآداب السلوك ، والفقه ، والحديث ، والقرآن . لعل أشهرها كتابه « غريب المصنَّف » وهو في اللغة ، وكتابه « كتاب الأموال » من أحسن ما صُنِّف في الفقه وأجوده .

كان هذا العَلَم يحمل بين كتفيه رأسا مفعما بالعلم ، ولكي نتلمّس فضل هذا الانسان الفقيه ، الواسع الأفق ، المترامي المعرفة ، الجامع لعلم علماء زمانه وسابقيه ومعاصريه ، يكفينا أن نطالع كتابه في الأموال ، فهو بينة ساطعة على ما كان يتزود به ابن سلاّم من فقه ، وهو الذي ولي القضاء زمنا مديدا في طرسُوس بلغ ثماني عشرة سنة . إن الشخصية الفقهية لابن سلاّم تبدو لنا في كتابه عن الأموال حاضرة ، مائلة الرأي ، مقارعة بالحُجّة ، مبدية الاجتهاد ، وذلك عبر صفحات سفْره الجليل الذي زاد على الثمانمائة صفحة من القطع الكبير . إن الكثير من الأحاديث يظفر بتعليقات من ابن سلاّم ، والأصح القول ان أبا عُبيد لا يدع حديثا من غير أن يشفعه بتوضيح لغوي أو شرح تاريخي أو توسّع فقهيّ ، وذلك فيما يتعلق بالأحكام المتصلة بالنظام المالي في الاسلام ، وبعض هذه التعليقات يطول فيبلغ الصفحات ، وهذا ما يضفي على هذا الكتاب قيمة نقدية إلى قيمته التوثيقية ، لأنه ـ إلى جانب ما يحتويه من المعلومات الغزيرة ـ تتمثل فيه شخصية مؤلفه العلمية النيرة . ومن الطبيعي أن هذه التعليقات تتفاوت في قيمتها ، وقد يبدو بعضها متكلفا .

إقطاع الأرض

نضرب مثلا على هذا التكلّف بموقف ابن سلاّم من الأراضي الصالحة للاقطاع ، يعتقد ابن سلاّم أن حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « عاديّ الأرض لله ولرسوله ، ثم هي لكم » ، يوضح بمضمونه ما هي الأراضي القابلة للاقطاع ، فالعاديّ كل أرض قديمة باد صاحبها وصار حكمها بيد الامام . وكذلك

هو الحال في الأرض الموات التي لم يحيها أحد ، وليس لها مالك . فهذان النوعان من الأراضي يصلحان للاقطاع ، حسب رأي ابن سلام ، وهو رأي صائب مبدئيا . ومن وجهة نظر اقتصادية ، لكن الصحيح أيضا أن الاقطاع لم يقتصر على منح الأرض البُوْر ، وذلك في المسلك العملي وبحسب ما تنبئنا به مجريات التاريخ ، أن النبي يُقطع الزبير مهما كانت هذه الأرض . ويذهب ابن سلام في تفسيره وتسويغه أن النبي حر في إقطاع ما يشاء لمن يشاء ، ويبرر إقدام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على توزيع بعض الأراضي العامرة من أنه قام بتوزيعها على سبيل النَّفَل ، أي بشكل مسبّق قبل أن تفتح هذه الأراضي في الشام وفلسطين . والتهافت في منطق ابن سلام مبعثه أنه ينظر الى مصدر الاقطاع لا الى نتيجته الفعلية . فمن يجادل في أن النبي حر في تصرّفه ، وما هذه المداورة حول الأراضي العامرة من أنها نَفَل ، فهل هذا يعني أنها لم تعد عامرة إثر الفتح ؟ وكم كان أحد الباحثين مصيبا عندما قال : « على أن الاقطاع لو كان قاصرا على الأراضي الموات وحدها ، لما كان لتشريعه أية فائدة » ، خاصة بالنسبة إلى القائلين بإباحة الأرض الموات ، بحيث لا تحتاج إلى إذن الامام لاستقطاعها وإحيائها . إن التكلّف عند ابن سلام حول الأراضي الصالحة للاقطاع يبدو لنا مشروعا ، وذلك إذا أخذنا بالحسبان أن الانسان ـ مهما أوتي من العلم ـ يخطىء ويصيب عند الاجتهاد ، فكيف إذا كان يضع عملا كبيرا يحشد فيه واسع علمه وفيض آرائه .

بيد أن موقف ابن سلام يقودنا إلى إثارة نقطة منهجيّة نرى أنها أساسية وإشكالية ، وذلك في معاينة موقف الاسلام من موضوع الأرض ومُلكيتها وأحكامها . فإن ضرورات السياسة والحكم والتعاطي مع الناس في مجتمع متراكب البُنية تملي جبعها الاقدام ـ من حين الى آخر ـ على إجراءات عملية ، ومواقف مغايرة للنص ، وكم يجمل بنا أن ننبذ المثالية الجذّابة عند تعاملنا مع كتب الفقه على اختلاف منازعها ، وذلك لأن رجال الفقه الأجلاء كانوا يصدرون في آرائهم عن اجتهادات يحبّذونها ، ومطامح يتوقون إليها ؛ لكن القانون كما هو حاله في أيامنا أيضا ، وحاله في كل مجتمع سواء كان ماضيا أم راهنا ، هذا القانون لا يأتلف مع حركة الواقع إلا على نحو نسبي ، وإن الباعث على وجود القانون ، وعلى العمل به ، والتشدد بشأنه ، أن الناس يتحايلون ما وسعهم لتجاوزه ، وأن الحكام يقفزون من فوق بنوده عندما تعوزهم الحاجة أو المصلحة . ولو شئنا اليوم دراسة بعض المجتمعات ، وفق دساتيرها البرّاقة ، لحسبنا أن الجنّة الموعودة لا تقاس بما « أنجزته » بعض هذه المجتمعات حبرا أسود على ورق فاخر ، هذا كله ينبغي أن نأخذ ما يرد في مصادرنا عن أحكام الأرض في الاسلام بشيء من الحَيْطة ، لأنها تبلور النص النظري في تركيبه الفوقي الذي لا يطابق تماما الواقع العملي في تركيبه التحتي . من ذلك ـ على سبيل المثال ـ كلام الفقهاء حول طلب الاذن من الامام عند السعي إلى إحياء أرض موات . فقد اختلف هؤلاء الفقهاء في هذا الأمر ، فمنهم من أباح الاحياء من غير إذن ، ومنهم من تشدد في ضرورة طلب الاذن وإلا فقد المحيي حقه ، وحق للامام أن يسترد الأرض ، ومن الطبيعي أن العودة الى الامام واجبة وصحيحة ، لتستقيم الأحوال ، لكننا نستشف ـ من خلال الروايات الجمّة المتأتية عن الخلافات التي كانت تنشأ بين الناس حول الأراضي ـ أن طلب الاذن لم يكن مرعيا في الواقع لدى كثيرين . وليس المهم فقط أي الرأيين هو الصواب على الصعيد النظري ، إنما يتوجب علينا مطالعة حركة الواقع العملي ، والتعرف على مدى قرب النظريات من هذا الواقع ، أو بعدها عنه .

أراضي العَنْوة

نتناول مثلا آخر ، واضح الدلالة على أن معادلة النظرية الواقعية تتكيف وفق الظروف الحيّة ، وحاجات الناس ، وضرورات التطور ، فإن أراضي العَنْوة ـ أي التي استولى عليها المسلمون عَنْوة خلال حركة الفتوح ـ تعود من الناحية الشرعية إلى الذين استولوا عليها بالقتال فغنموها ، لذا كان يجب قسمتها بين القاتلين الغانمين ، بحسب ما تأمر به الآية ٤١ من سورة (الأنفال) ، من أن خُمس الغنائم لله وللرسول ولذي القربى ولليتامى وللمساكين ولابن السبيل ، أما أربعة الأخماس المتبقية فيتم توزيعها على المحاربين .

بناء على هذا كان بعض الصحابة والأنصار من

أمثال بلال بن رباح ، وعبدالرحمن بن عوف ، والزُّبير بن العوّام ، يلحّون على الخليفة عمر بن الخطاب بوجوب أن يقسم هذه الأراضي . وهذه الأراضي كانت ـ في الحقيقة ـ تشكّل الحلقة الكبرى في الفتوحات ، لأنها تشمل الجزء الأكبر من مُلكية الأرض ، لكن مصلحة المسلمين المادية والمعنوية ، كمجموعة بشرية ، وكدولة طامحة ، وكمستقبل منتظر لأجيال المسلمين التالية ، أملت على عمر التأمل ، والتأني ، وإعمال النظر ، واستشارة المهاجرين الأولين ، وقد أيده على رأيه ـ فيا بعد ـ عثمان وعليّ وطلحة . وانتهى عمر إلى إبقاء الأرضين للعاملين فيها ، ثم حصّل الخراج منهم ووزّع حينئذ على المسلمين وذراريهم .

واعتمد عمر في الحل الذي انتهى إليه على ما جاء في القرآن الكريم ، فقد جاء في سورة الحشر أن ما أفاء الله على الرسول يكون ماله لأصحاب الخُمس الذين تقدّم ذكرهم ، وللمهاجرين والأنصار ، وللذين جاءوا من بعدهم من المسلمين ، وهكذا ائتلف النص مع الواقع الجديد الذي عرفه العرب مع الفتوحات خارج الجزيرة ، في العراق والشام ومصر . لقد أقدم عمر بن الخطاب على ضرب من التأميم للأرض ، فجعلها وقفا على المسلمين ، ومُلكية جماعية لهم ، تتولاها الدولة الاسلامية عن طريق تحصيل الخراج ، وهو ما نرغب أن نسميه خراج الأجرة ، باعتبار أن ملكية الأرض للمسلمين كافة ،والخراج ههنا بمنزلة الكِراء المتوجب على المستثمرين للأرض . ثم إن عمر كان بمكنته أن يسترشد بالمثل الأعلى ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه عندما استولى على مركز أعدائه العتاة في مكة لم يعمد إلى تطبيق قاعدة الغنيمة عليها ، وهي التي أخذت عَنوة ، بل استثناها ، وعفا عن أهلها ، وقرّبهم منه ، وذلك لأن مصلحة الدعوة الناشئة كانت تملي عليه سياسة مرنة حيال ألدّ أعدائه .

كُتُب الخراج

إن كُتب الخراج المتخصصة تؤلف في مجموعها مكتبة صغيرة جدا ، وذلك لأن كثيرا من كتب الخراج ضاع على الأرجح ، أو ربما ما زال مخطوطا . يأتي ابن النديم (ت ٤٣٨ هـ) على ذكر عدد من كتب الخراج لرجال لم نعثر لغالبيتهم المطلقة على ترجمات في المصادر ، من أمثال حفصويه ، وابن عبد الكهم ، وابن الماشِطة ، وابن بشّار ، ومحمد بن خيار ، وابن سريح ، وكانوا ـ كما يظهر من كلام ابن النديم عنهم ـ من معاصريه ، أو القريبين من زمانه ، فابن عبد الكهم مثلا مات سنة ٢٧٠ هـ ، وابن سريح من مواليد سنة ٣٠٠ هـ ، وابن الماشطة كان حيا سنة ٣١٠ هـ . وعن حفصويه يذكر ابن النديم : « وكان من أفاضل كتّاب الخراج ، متقدما في صناعته ، وهو أول من ألّف في الخراج كتابا » ، فما مقدار الصّحة في هذه الرواية عند علمنا أن القاضي أبا يوسف هو صاحب أول كتاب في الخراج ؟ ومما يخالجنا أن أبا يوسف من المتقدمين ، وأن حفصويه من المتأخرين الدائرين في فلك زمن ابن النديم . ومما يخفف من أسفنا على افتقاد هذه الكتب في الخراج أن كتاب ابن سلاّم في الأموال يعود أولا الى زمن قديم نسبيا ، ما دام أن مؤلفه توفي في أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، ثم لأن كتاب ابن سلاّم عبارة عن دائرة معارف ثمينة في موضوع الخراج ، قد أفاد واضعها من السابقين عليه ، فهما له أصلان ، عنينا أبا يوسف وابن آدم .

وهناك كتب أخرى في الخراج متقدمة ومتأخرة ، لكنها لا تضيف شيئا كبيرا إلى معلوماتنا . من ذلك كتاب « نُبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » لقُدامة بن جعفر (ت ٣٢٠ هـ) ، وهذه النُّبذ التي وصلتنا جغرافية الطابع في معظمها ، فالفائدة المتحصّلة منها هي كالفائدة التي نجنيها من كتب المسالك والممالك ، وأهم ما اشتملت عليه هذه النُّبذ يتمثل في الجداول المالية .

بيد أن ما يستوقف النظر مليًّا أن الدارسين المحدثين الذين أكبوا على موضوع الاسلام وأحكامه الصادرة حول الأرض ، قد جنح كثير منهم الى موقف محافظ متزمّت ، فهم راغبون في إسلام يتفق وآراءهم التي لا غلوّ في نعتها بالتخلف ، فهذا أبو الأعلى المودودي ، الباحث الباكستاني ، صاحب « مسألة مُلكيّة الأرض في الاسلام » ، يقف عند أحاديث نبويّة تكاد تكون محور كتابه ، وتدور حول زراعة الأرض ، وخلاصة هذه الأحاديث التي عدنا اليها لنتحقق من نصّها ، تقول بشكل جليّ واضح

لا لَبْس فيه ، إنّ مَنْ كانت له أرض أو فضل أرض فليقم بنفسه بزراعتها ، فإذا عجز فليُعْطِها منحة لأخيه ، أو ليُعِرْها لآخر من غير أجر ، وإلا فليَدَعْها وليُمْسِكْها ، وهذا الموقف الأخير صادر عن النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التوبيخ . إن المودودي يجهد لاهثا لينفي صحّة أو معقولية هذه الأحاديث النبوية ، ولسنا الآن في صدد مناقشة الباحث ، والدخول معه في تشعّبات القضية ، لكننا نكتفي بأن نسجّل أن النبي على أي حال حضّ على منح الأرض بلا أجرة ، فنقل عنه ابن عبّاس قوله : « لأنْ يمنح الرجل أخاه أرضه خيرٌ له من أن يأخذ عليها خَرْجا معلوما » . والخَرْج والخَراج معناهما واحد . ولكن المودودي في هلع دائم من تأميم وسائل الانتاج ، أو المساواة في توزيع الثروة ، أو المسّ بالمُلكيّة الخاصة ، أو وضع القيود عليها ، وبالتالي فهو يطلب إسلاما يتلاءم ونيّاته ، ويتجانس ورغباته ، أما المسلمون فليأكلهم الدود ، والفقر ، والجوع !

الحسيني

وهو يرى أن الأرض الزراعية مُلْك شائع في الاسلام ، يملكها مَنْ يزرعها ، ويعوّل في إسناد رأيه على بعض الأحاديث النبوية حول منح الأرض والنهي عن كرائها ، وقدتقدّم بنا ذكرها لدى الكلام على المودودي ، لكن هذا الدارس يقع نظريا في تناقض ، إذ نراه حريصا على أن يظل الاسلام هو نفسه في دوام حقيقته ، « وهذا الدوام ينقص أو يفقد إذا جُعل هو تابعا لأوصاف ونعوت خاصة عارضة ، أي إذا قيل فيه انه يتصف بصفات التطور الزماني والمكاني » ، وذلك كما يقول بعد قليل : « ما دام من مبادئه تقدير الظروف أيا كان نوعها » ، إن « تقدير الظروف » يعني مراعاة فاعلية التطور على صعيد الزمان والمكان ، ومن رأي الباحث « أن التفاوت في قسمة الثروة بين أفراد الشعب راجع الى التفاوت الخُلُقي الموجود في قوى الأفراد المختلفة ، ومصدره مشيئة الله ، وليست المُلكية الخاصة » ، فالتفاوت بين البشر أمر غريزي عنده ، ولا سبيل الى القضاء عليه ، والمُلكية الخاصة لا مفرّ منها ، إذ بواسطتها تتحقق الحرية ، هذه الحرية التي تُورِّث بتوريث المُلكية الخاصة المكتسبة ، ويذهب السيد الحسيني إلى أن الاسلام شجّع المُلكية الخاصة للأرض من طريق الاقطاع والاحياء ، وهو بذلك ـ حسب اعتقاده ـ قد سبق النازية والفاشستية في هذا المضمار ، في حين أن الاسلام باعتباره الأرض المَوات غير العامرة بمنزلة مُلكية عامة للمسلمين قد تقدّم على الاشتراكية والشيوعية في هذا السبيل .

إن المقارنات العشوائية الساذجة التي أغرم بها الباحث ـ وقد أوردنا طرفا منها ـ تدل أولا على أن لا مجال إلى إهمال عامل التطور الزماني والمكاني ، وأن هذا العامل يفعل فعله في المسلمين ، بوعي منهم أو بغير وعي ، بحيث يحملهم على تفحّص آخر مبتكرات التطور الاجتماعي ، والابداع العقلي ، فينقادون بعدها الى عقد المقارنات بين تراثهم والمذاهب الاجتماعية الحديثة ، ليصلوا الى نتائج ، ليس المهم الآن القول بأنها صدقت أو أخطأت ، إنما المهم أنها تلغي ـ في قرارتها وبشكل منطقي ـ عقدة هؤلاء الدارسين الذين يتشبثون بالتراث على نحو جامد ، ويشوّهونه على صعيد النظرية ، مع أنهم يعيشون العصر فكرا ومسلكا ، ويتأثرون على هذا النحو أو ذاك بمكتسباته وأنواره ، وعلى هذا فمقارنات هذا الدارس تلتصق بالعصر ، لكنها تبدو أحيانا في غاية الركاكة ، وتنبيء بأنه متبحّر في ظواهر المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الحديثة دون بواطنها ، أنظره يعلّق على رأي أبي حنيفة الذي لا يسوّغ إحياء الأرض إلا بإذن الامام فيقول : « يوافق الرأي المذكور لأبي حنيفة في ترجيح إرادة الحكومة ، وهي التي يمثلها لدى الاسلام الامام ، على إرادة الفرد ، مذهبي النازية والفاشستية ، إذ كلاهما يقرران أن الحكومة أفضل من الأفراد التي تكوّنها ، وأن لها حقوقا تفوق حقوق الفرد » ، إن أي حكومة ـ مهما كان نوعها ـ مسؤولة عن أمور لا تُحصى ، تملي إرادتها فيها ، لكن هذا لا يبيح نعتها بالنازية والفاشية ، ثم إن هذا النعت هو اساءة بالغة تلحق بالاسلام ، وليس ـ بأي حال ـ مديحا له ، لأن الفاشية وصمة عار في جبين الانسانية ، وليست نظاما مستساغا كسائر الأنظمة الاجتماعية ، مهما كانت وجهة نظرنا في هذه الأنظمة . أوْلى بنا أن نفهم الاسلام في إطاره التاريخي ، لا أن نُسقط عليه صياغات عجيبة ، لا تتفق والدور الحضاري الذي نهض به . □

الإرهاب

من زاوية عربيّة

بقلم : الدكتور فؤاد زكريا

المقاييس الأخلاقية التي يصدر العالم على أساسها حكمه بأن هذا الفعل العنيف أو ذاك « إرهابي » أو « غير إرهابي » . . هي مقاييس تفرضها القوة والمصالح السياسية أكثر مما تفرضها مبادىء العدالة . . رغم ذلك فإنه لا يعفينا كعرب من اختيار الأساليب التي نحارب بها عدونا بما جبل عليه تراثنا ـ المقال وجهة نظر الكاتب وهي وجهة نظر تستحق في أضعف الايمان ـ أن تسمع وتقرأ .

لن أبدأ مقالي بمحاولة لتعريف « الارهاب » ، لأني أعلم أن مئات الصفحات قد كُتبت حول هذا الموضوع ، ومازال الجدل مستمرا . ولن أبدأه بتلك الاشارة ـ التي هي في رأيي مشروعة تماما ـ الى الاختلاف الأساسي بين طريقة استخدام الكلمة في العالم الغربي ـ الذي كان حتى عهد قريب استعماريا ـ وطريقة استخدامها في العالم الثالث ، وبخاصة حركات التحرر فيه ، لأن أطنانا من الأوراق قد دُوّنت حول هذا الموضوع ، ومازال الخلط بين طريقتي الاستخدام يولّد مغالطات لا أول لها ولا آخر ، وخاصة لدى أجهزة الاعلام الدولية الواسعة الانتشار . فأنا أعترف مقدما بأن نصف مشكلة الارهاب على الأقل ، يكمن في الاستخدام الفضفاض ، المتعدد المعاني لهذا اللفظ ، وأعترف بأن هذا التعدد والخلط ليس مجرد مشكلة لغوية ، وإنما هو يعكس وجهات نظر متضادة ازاء قضايا الشعوب ، ومشكلات التحرر ، وعلاقات القوة في العالم المعاصر ، وربما كان يعبر في نهاية المطاف ، عن موقف أساسي من قضية الانسان في هذه المرحلة من تاريخ البشرية .

ولكنني مع اعترافي الكامل بهذا كله ، لا اريد أن أبدد الوقت والجهد في المقدمات ، مهما كانت ضرورية ، وأود أن أدخل مباشرة في صميم الموضوع ، ومن هنا فإني سأتغاضى عن التحديدات اللفظية الدقيقة ، وأستخدم الكلمة بمعنى قد لايكون دقيقا ، وقد لا يوافق عليه الكثيرون ، لأن هناك قضايا أخرى أهم بكثير ، تحتاج الى معالجة تنفذ مباشرة الى لب المشكلة .

ان أعمال العنف التي تسمى ارهابا ، والتي تُنسب الى العرب ، في ربع القرن الأخير ، ترتكز على مجموعة من الحجج أو التبريرات الأساسية . وهدفنا في هذا المقال هو أن نناقش هذه الحجج واحدة تلو الأخرى ، لكي نصل في نهاية الأمر الى نظرة لموضوع الارهاب أعتقد أنها تكشف عن بعض العناصر غير المألوفة .

أولا : نفاق الأخلاق الشائعة :

الحجة الأولى التي يرتكز عليها المدافعون عن أعمال العنف ، أوما يسمى بالارهاب ، هي أن المعايير الأخلاقية الشائعة تنطوي على قدر كبير من النفاق ، حين تحكم على العنف الذي تمارسه دولة قوية ، على نطاق واسع ، بأنه مشروع ، وتستنكر العنف الذي يقوم به فرد أو بعض الأفراد ، في نطاق أضيق بكثير . فالتدخلات العسكرية وأعمال القمع والاضطهاد المخطط والمنظم (كمذابح صبرا وشاتيلا) ، وشن الحروب العدوانية على الدول الضعيفة (كغزو « اسرائيل » للبنان ، أو غزو أمريكا لجزيرة جرينادا) وتحريض عصابات من المرتزقة لتخريب مجتمع يحاول أن يبني نفسه في أصعب الظروف (كالدعم الامريكي الشامل لجماعة الكونترا في نيكاراجوا أو لمنظمة يونيتا في أنجولا) ، كل هذه نماذج صارخة للارهاب الذي تمارسه دول قوية على شعوب أضعف منها بكثير ، ومع ذلك ، فان الاخلاق الشائعة لاتُدين هذه الفظائع بوصفها إرهابا ، بينما تحمل بشدة على عمليات أضيق نطاقا بكثير ، وتهاجمها بكل قسوة .

هذه في رأيي حجة صحيحة كل الصحة ، وهي تؤدي في الواقع الى اعادة نظر شاملة لجوانب هامة من تاريخ العالم الحديث . مثال ذلك أننا اعتدنا نتيجة تأثرنا بوجهة النظر الغربية ، أن ننسب القوة والعنف خلال الحرب العالمية الثانية الى المعسكر المعادي للحلفاء ، ونسينا أن الحلفاء الغربيين بدورهم قد ارتكبوا أعمالا لاتقل وحشية عن أعمال هتلر ضد المدنيين الأبرياء ، كما حدث ، على سبيل المثال ، في الغارة التي محت فيها مدينة درسدن الألمانية من الوجود ، وراح ضحيتها مئات الألوف ، مع أن المدينة كانت خالية من أي هدف عسكري . كما نسينا أن كل فظائع اليابانيين ، طوال سنوات الحرب ، لاتساوى شيئا بالقياس الى القنبلتين الذريتين اللتين ألقتهما أمريكا في الشهر الأخير من تلك الحرب على هيروشيما ونجازاكي .

وهكذا فان الاعلام الغربي ، والأمريكي بوجه خاص ، يتحكم في الصورة التي تكَونها معظم شعوب العالم عن القسوة والوحشية والهمجية والارهاب على المستوى الدولي ، ويلونّ تلك الصورة باللون الذي يخدم مصالحه ، بحيث يكون الغرب دائما هو الراقي والانسان والمتحضر ، وخصومه هم دائما الوحوش والبرابرة والهمج . بل ان هذا الاعلام أفلح في طمس أكبر عملية ارهابية بُنِي عليها تاريخ الولايات المتحدة نفسها ، هي إبادة شعب كامل مسالم هو الهنود الحمر ، وجلب الزنوج كعبيد من أفريقيا ، واستخدامهم بالسخرة في تشييد أسس الرخاء والثراء الأمريكي . .

واذن فالمقاييس الأخلاقية التي يُصدر العالم على أساسها حكمه بأن هذا الفعل العنيف مشروع أو غير مشروع ، أخلاقي أو غير أخلاقي ، هي مقاييس مشوهة ومضللة أو متحيزة الى حد بعيد . هذه حقيقة لاشك فيها . ومع ذلك فان هذه الحقيقة لاتحدد لنا ، بوصفنا منتمين الى الأمة العربية ، نوع الأعمال التي نستطيع أن نسهم بها في الكفاح من أجل قضايانا . ان ما نستنتجه من مناقشتنا لهذه الحجة الأولى ، هو أن صورة العمل الارهابي أو غير الارهابي كما يرسمها الاعلام الغربي ، كثيرا ما تكون مشوهة ومغرضة . ولكن هذا الاستنتاج لايقدم إجابة شافية عن السؤال الأساسي المطروح ، وأعني به : مانوع الأعمال التي يكون من حقنا ، كعرب ، أن نوجهها ضد أعدائنا ؟ ذلك لأن إدراكنا أن الصورة التي يكوّنها العالم عن الارهاب مشوهة ، لايعطينا مبررا لكي نرتكب أعمال العنف كيفما اتفق ، وبغير تفكير أو توجيه . صحيح أن الأخلاق السائدة في هذا الموضوع ، يسودها قدر كبير من النفاق ، ولكن وجود هذا النفاق العالمي لايعفينا من أن نفكر بامعان في كيفية اختيار الأساليب العنيفة التي ينبغي أن تُستخدم ضد أعدائنا ، ونمتنع عن اختيار أساليب أخرى .

ثانيا : حرب الضعيف ضد القوي :

أما الحجة الثانية التي يرتكز عليها مبدأ العنف الارهابي ضد العدو ، فهي أن العربي ، والفلسطيني بوجه خاص ، يجد نفسه في موقف الضعيف ازاء العدو ، ولا يستطيع أن يواجهه بأساليب القتال التقليدية ، وذلك لأسباب عديدة لاسلطان له عليها . فقد تكفلت أقوى دول العالم : الولايات المتحدة وألمانيا الغربية وبقية الدول الصناعية

الرأسمالية الكبيرة ، بامداد « اسرائيل » بكل أسباب القوة العسكرية والاقتصادية والبشرية ، مما أتاح لهذه الأخيرة أن تقيم دولتها على أرض مسلوبة بقوة الحديد والنار . وقد أثبتت التجارب أن هذا المعسكر بأكمله على استعداد للوقوف بكل قوة وراء « اسرائيل » اذا ما تأزمت معها الأمور ، كما حدث بالفعل بعد هزيمتها في بداية حرب ١٩٧٣ ، عندما دخلت أمريكا بكل ثقلها لدعم الأداة العسكرية « لاسرائيل » .

فما الذي يستطيع الضعيف ازاء عدو كهذا ؟ انه لايملك الا أن يحاربه حربا غير نظامية ، ترتكز على عمليات مفاجئة غير متوقعة ، يقوم بها أفراد مدربون على التضحية بأنفسهم مثلما هم مدربون على حمل السلاح . ومهما بدا من قسوة هذه العمليات ، وذهاب بعض الأبرياء ضحايا لها ، فان هذا أمر لا مفر منه حين تفرض عوامل الضعف على أحد الطرفين رغم أنفه ، مع بقاء جذوة المقاومة والنضال مشتعلة فيه . وهكذا يتلمس الطرف الأضعف أية نقطة رخوة لدى العدو ، وأي هدف غفل العدو عن تحصينه أو حراسته ، لكي يوجه اليه ضربة سريعة ، وينهك العدو بالمفاجآت المستمرة التي تصيب أبعد أماكنه عن التوقع .

هذه بدورها حجة يستحيل الاعتراض عليها ، لأن الضعفاء الذين يرفضون الاستسلام ، وهم كثيرون في هذا العالم ، لابد أن يبحثوا لأنفسهم عن وسائل أخرى لمناوأة أعدائهم ، يتحقق لهم فيها قدر معقول من التكافؤ . ولكن يظل السؤال مع ذلك قائما : هل يلجأ الضعيف في هذه الحالة الى « أية وسيلة » ، أم أن عليه أن يختار ؟ لاجدال في أن مناوأة العدو لابد أن يكون لها هدف ، هو إنهاكه وتهديد مصالحه الحقيقية . وليست المسألة مجرد إثبات وجود فحسب : فخاطفو الطائرات المدنية مثلا ، يختارون أسهل الطرق ، أعني طريقا لا يحتاج الى كفاح حقيقي . بل انهم يبحثون لأنفسهم عن مزيد من السلامة بأن يطالبوا بانتقال الطائرة الى مطار دولة متعاطفة معهم . وفي مقابل ذلك فان هناك حركات أخرى ، ضعيفة بدورها ، تقض مضاجع أعدائها بعمليات شجاعة تمس صميم مصالحهم ، وتحتاج الى قدر كبير من التصميم والقوة المعنوية وروح التضحية .

وعلى ذلك فان وجود طرف ضعيف مظلوم أمام طرف قوي ظالم ، لايعني أن من حق الأول أن يضرب كيفما اتفق ، وبغير تفكير أو تمييز ، بل ان مشكلة الاختيار تظل قائمة ، ويظل السؤال الأساسي مطروحا : اذا كنتُ ضعيفا رغم إرادتي ، ولديّ إصرار على مواجهة عدو يتفوق عليّ تفوقا ساحقا ، فأي الاهداف ينبغي أن أختار ؟

ثالثا : لفت أنظار العالم الى القضية :

منذ اللحظة الأولى لظهور أعمال العنف التي شاع وصفها بالارهاب ، كانت هناك حجة أساسية تتردد على ألسنة مخططي هذه العمليات والمتعاطفين معهم ، هي : أننا نريد أن نلفت أنظار العالم الى قضيتنا . ولا جدال في أن عملية مثل خطف طائرة مدنية وتحويل مسارها وابقاء ركابها بين الحياة والموت ساعات طويلة أو أياما كاملة ، لابد أن تحتل العناوين الكبرى لصحف العالم ، والموقع الأول في نشرات الأخبار ، طوال فترة استمرارها . ومن المؤكد أن القائمين بهذه العملية ، لو أعلنوا عن قضيتهم خلال فترة التفاوض معهم على سلامة الركاب والطائرة ، سيرغمون العالم على التحدث عن هذه القضية على أوسع نطاق يمكن تصوره . ولما كانت الأجهزة والوكالات التي تتحكم في وسائل الاعلام الكبرى ينتمي معظمها الى المعسكر المعادي لقضايا الضعفاء في هذا العالم ، وبالتالي فانها لا تعير هذه القضايا ، في الظروف العادية ، الا آذانا صماء ، وتتعمد تجاهلها لكي يتناساها العالم ويدب اليأس الى نفوس أصحابها ، فاننا نستطيع أن نتفهم الأسباب التي تكمن من وراء هذه الحجة الثالثة ، والمنطق الذي يستند اليه أصحابها : ففي عالم أصم ينبغي أن تصرخ لكي يسمعك الناس . والصراخ في ساحة الصراعات الدولية ، يعني أن تقوم بعمل غير عادي من أعمال العنف ، يلفت انتباه الجميع ويشد أعصابهم .

ولكن فهمنا للأسباب التي ترتكز عليها هذه الحجة لا يمنع من مناقشتها .

فهناك سؤال أساسي ينبغي الاجابة عنه ، في كل مرة يلجأ فيها المرء الى حجة كهذه : مامعنى « لفت أنظار العالم » في هذه الحالة ؟ ان لص البنوك الذي يخرج ، عندما يحاصر ، محتميا بموظفة مذعورة يأخذها رهينة

تحت تهديد السلاح ، يلفت بتصرفه هذا أنظار الناس جميعا ، ولابد أن يحتل في اليوم التالي مواقع بارزة في الصحف ونشرات الأخبار ، ولكن نوع « لفت الأنظار » الذي سيحظى به من في هذه الحالة هو أن الجميع سيكيلون له شتائم وأوصافا من نوع « نذل » و « حقير » و « جبان » . وأنا لم أضرب هذا المثل الا لكي أبين أن لفت الأنظار ليس غاية في ذاته ، وانما المهم أن تلتفت الأنظار الى قضيتنا « بفهم وتعاطف » . ان عملية معينة يمكن أن تجعل العالم كله يتحدث عنا أياما متواصلة ، ولكن السؤال هو : أي نوع من الحديث ؟ في اعتقادي أن اختطاف طائرة مدنية ، أو قتل عجوز مشلول والقاءه في البحر من سفينة مخطوفة ، أو احتجاز مجموعة من الرياضيين ، ينتمون الى بلد الأعداء ، ويشاركون في حدث رياضي عالمي تتركز عليه كل الأضواء ، أو حبس رهينة وضربها حتى الموت كل هذه أعمال ستلفت الينا أنظار العالم ، ولكن بأسوأ صورة يمكن تخيلها ، وستجعل العالم يتحدث قطعا عن قضيتنا ، ولكنه سيكون حديث السخط والكراهية والاشمئزاز .

ولست أدعي أنني أول من أثار هذا الاعتراض ، فهناك كثيرون كتبوا من قبلي في هذا الاتجاه ، وفي جميع الحالات كان رد الفعل على كتاباتهم سيلا من الخطابات أو المقالات التي تدور كلها حول معنى واحد : ألا ترى مايفعلونه هم بالشعوب العربية ، وبالشعب الفلسطيني ؟ هل توازن حادثة كذا أو كذا بمذبحة ديرياسين أو صبرا وشاتيلا ، أو بتشريد شعب كامل من دياره ؟ هذا كله صحيح ، ولا أحد في وطننا العربي ينكره ، ولكن النقطة التي أود إثارتها هي التناقض الكامن في سلوك القائمين بأمثال هذه العمليات : فهم حين يعلنون أنهم يريدون لفت أنظار العالم الى القضية ، يصبحون ملزمين بمخاطبة هذا العالم باللغة التي يفهمها ، أما حين يستفزونه بمثل هذه الأعمال فلن يكون لذلك سوى معنى واحد : هو أننا لم نعد بحاجة الى لفت أنظار أحد ، وأننا استغنينا عن تعاطف الجميع .

ان الانسان العادي الذي يشاهد أخبار التليفزيون في المساء ، لن يتعاطف الا مع ركاب الطائرة المدنيين ، أما الخاطفون فسوف يكونون موضع سخطه واحتقاره ، بغض النظر عن قضيتهم . مثل هذا الانسان يتوحد قطعا مع راكب الطائرة ، ويتصور أنه كان يمكن أن يكون بداخلها في هذه الساعات العصيبة . وهكذا تكون الرسالة الوحيدة التي ينقلها اليه الخاطفون هي : كل واحد منكم مهدد أيضا . . . فكيف نتوقع تعاطفا في هذه الظروف ؟ بل ان التأثير السلبي لمثل هذه الأحداث يمتد طويلا ، حتى بعد انتهائها . ففي كل مرة يشعر فيها مسافر بالطائرة ، من بين مئات الملايين الذين يتنقلون بين مختلف أرجاء العالم ، بثقل وطأة الاجراءات الأمنية التي تزداد في كل يوم تعقيدا ، ينصبّ سخطه على العرب ، ونكسب بذلك ملايين الأعداء الجدد .

المستفيد والخاسر

وهنا نصل الى النقطة الأساسية التي لم أكتب هذا المقال - في الواقع ، الا لكي أؤكدها ، فنحن نسلم تماما بأن أعداءنا يمارسون ارهابا أشمل ، وأفظع ، وأوسع نطاقا بكثير - من كل ما تفعله هذه الجماعة العربية أو تلك . هذه قضية لا تحتاج الى مزايدة ، ولا الى أصوات تلقننا دروسا في الوطنية . ولكن المشكلة هي أن أعداءنا يستفيدون من ارهابهم ، بينما نمارس نحن الارهاب لكي نخسر ، ونعلم مقدما قبل أية عملية أننا سنخسر . ولن يخفف من وقع هذه الحقيقة الأليمة قول البعض إنك لا تستطيع التحكم في مشاعر شبان صغار رأوا شعبهم شريدا مطرودا ، ورأوا أهلهم يقتلون أمام أعينهم بأيدي الأعداء والأصدقاء . ذلك لأن معظم العمليات التي نشير اليها لم تكن رد فعل عفويا أو ارتجاليا ، وانما كانت عمليات مخططة بدقة ، ولم تُنفَّذ الا بعد إعداد طويل وتجهيز معقد وحساب لكافة الاحتمالات . فلماذا لم يضع أحد نتائج العملية في حسابه ؟ ان المنفذين المباشرين للعملية قد يكونون بالفعل ضحايا لظروفهم القاسية ، ولكن هل من المعقول أن يكون الذين يخططون لهم غير واعين بأنهم يقدمون لأعدائنا ، بمثل هذه العمليات ، دعاية مجانية لم يكن أحد منهم يحلم بها ، ويلحقون بقضايانا كلها ضررا يستحيل اصلاحه ؟

هذه المناقشة تحدد لنا معالم المعيار الذي ينبغي أن نقيس به أعمال العنف المشروعة ، من وجهة نظرنا

العربية ، وتلك التي ينبغي أن ندينها ونتبرأ منها ونفضحها على أوسع نطاق ممكن : فالمعيار السليم في هذه الحالة هو موازنة الفوائد والأضرار . أي أن العملية تكون مشروعة اذا كان الضرر الذي تلحقه بأعدائنا واضحا ، والفائدة التي تجلبها لنا مؤكدة ، وتكون غير مشروعة اذا لم نجن منها الا الخسارة ، بينما يجنى أعداؤنا كل المكاسب . وبهذا المقياس يسهل أن ندرج ضمن العمليات المشروعة ، من وجهة نظر الشعب الذي اغتصبت أراضيه ظلما ، عملية نسف مقر المارينز في بيروت ، أو ضرب المجندين في حائط المبكى ، بينما تنتمي عمليات مثل خطف السفن أو الطائرات أو قتل المسافرين في المطارات الأجنبية بالجملة ، الى ميدان الأعمال غير المشروعة ، لأن المخططين لها يعلمون منذ البداية أنها لن تجلب لنا الا الضرر ، ولأن هذا هو نوع العمليات الذي كان يمكن أن يفتعله أعداؤنا افتعالا ، لو لم يتطوع البعض منا لاسداء هذه الخدمة الجليلة اليهم .

النافع والضار

وهكذا فان مشكلة الارهاب ، اذا تأملناها من الزاوية العربية ، لا تعود مشكلة صواب أو خطأ ، ولا عدل وظلم ، وانما هي ببساطة مشكلة نفع أو ضرر . ففي مثل هذا المجتمع العالمي المنافق ، الذي يتشدق بأخلاق وقيم ومثل عليا يطبقها حين تخدم مصالحه ، ويدوسها بأقدامه حين تتعارض مع هذه المصالح ، ينبغي علينا أن نسأل أنفسنا قبل الاقدام على أي عمل عنيف ضد الأعداء ، هل سيعود هذا العمل علينا بالنفع وعلى أعدائنا بالضرر ، أم العكس ؟ أما أولئك الذين لا يكترثون بالنتائج ، ويندفعون الى العمل العنيف كالثور الهائج ، ويرغمون أبناء شعبنا في كل مرة على أن يعتذروا عنهم قائلين إن أعداءنا يفعلون ما هو أفظع من ذلك ، أما هؤلاء فلابد أنهم يعملون ، بصورة أو بأخرى ، لحساب أعدائنا ، ومن واجبنا ألا نتردد في فضح ارتباطاتهم الى أن تخلو الساحة من أمثالهم .

تبقى في نهاية الأمر حجة أخيرة ، لم أشأ أن أعالجها ضمن الحجج الثلاث السابقة ، لأن لها وضعا خاصا . تلك هي الحجة التي تقول : ليذهب الرأي العام العالمي ، وليذهب التفكير في الفوائد والأضرار ، الى الجحيم ! فنحن نعيش في عالم لاأخلاقي يسوده العنف ، ولا مفر من أن يسلك المظلوم طريق العنف بدوره كما يفعل الظالم . تلك هي الحجة التي تقول إن الخراب ينبغي أن يحل على الجميع ، مادام قد حل علينا من قبل .

مثل هذه الحجة ، في رأيي ، منطقية مع نفسها ، فليس فيها ذلك التناقض الذي تلمسه لدي أولئك الذين يسعون الى لفت أنظار العالم بأعمال يحتقرها العالم . ولكن الركيزة الأساسية لهذا الموقف هي مبدأ : عليّ وعلى أعدائي . وأنا لا أنكر أن الظلم الفادح الذي يسود العلاقات الدولية يمكن أن يؤدى بالبعض الى هذا النوع من التفكير . ولكن على من ينادي برأي كهذا أن يتحمل مسئوليته : فمعنى رأيه هذا هو أنه ببساطة ، قد أعلن الحرب على العالم ، ولم يعد في حاجة الى تأييد من أحد . ومعناه أن يكف عن المطالبة بالحق والعدل ، ما دامت القوة قد أصبحت عقيدته الوحيدة . ومعناه أن يقف وحده ، بقوته المحدودة ، أمام جبابرة العالم متحديا إياهم على ساحة العنف ، لا لاثبات أية قضية ، بل لمجرد الانتقام والمعاملة بالمثل .

انه كما قلت ، موقف متسق مع نفسه ، ليس فيه تناقض ، ولكنه موقف بائس ، بل هو أقرب الى أن يكون موقفا انتحاريا ، لايلجأ اليه الا من استغنى كلية عن العالم ، وقرر أن يقف منه موقف العداء السافر . ونهاية هذا الموقف معروفة مقدما ، وهي تكاتف الجميع على صاحبه، وتحالفهم ضده وتكاتفهم من أجل القضاء عليه . ولما كنت أعتقد أننا لم نصل بعد الى هذه المرحلة ، وأننا مازلنا بحاجة الى العالم ، ومازلنا نوجه اليه خطابنا ونستعين بقوى فيه يمكن أن تناصر قضايانا في وجه القوى المعادية ، فإني أعتقد أن هذا الموقف الانتحارى يمثل من وجهة النظر العربية ، خسارة لاتقل عن تلك التي يجلبها لنا من يعرفون ، عن وعي وسبق اصرار ، أنهم يقومون بعمليات تخدم أعداءنا،ولا تلحق بنا الا أشد الأضرار . □


رجب ١٤٠٧ هـ - مارس (آذار) ١٩٨٧
العربي
NATIONAL MUSEUM OF BHUTAN
بوتان
الحياة
وسط
المتناقضات

أسرع طريقة لتحسين المنزل. طريقة فيشر



FSJ5102MBK عصارة / خلاط

الشرحان مع القذف الأوتوماتيكي للتفليات تجعل العصر أسهل مما كان عليه سابقاً. وعاء زجاجي سعة ٨٠٠ملل، كأس عصير سعة ١٠٠٠ ملل وزجاجة ... هذا الخلاط - مهيئ بمنتخب فولتاج مزدوج (١٢٧/٢٢٠ فولت).



FSM8600CM خلاط / مطحنة قهوة

عملية بلمسة زر واحدة مع وعاء سعة ٢٠٠ ملل لعطيات الزجاجة التي تتوقعون، أما الأداة الإضافية لطحنة القهوة فهي إضافة خاصة. كلها في تصميم مدمج مُحكم خصيصاً ليوفر المساحة.



FHM20E مازج يدوي

ثلاث سرعات للمزج من أجل تعدد إستعمال أقصى وخفاقين من معدن لا يصدأ يخرج بكبسة زر الإضافة إلى حجرة التخزين سهل.



FJB500EK مصنع طعام

الشرحان مع وظيفة "فلاش" تجعل هذا الموديل ساحر الطبخ الحقيقي، وذلك يساعدك على العصر، الخلط، التمزيق، الفرم، الخفق والعجن كما تريدون. مهيئ بمنتخب فولتاج مزدوج (١٢٧/٢٢٠ فولت).



FKM1350EK جهاز لتحضير الطعام

محرك قوي يعمل التشريح والقطع وحتى العجن يتم بسرعة وسهولة في عملية تشغيل تدفق متواصل. أما الحجرة المبنية للملحقات فإنها تجعل التخزين سهلاً أيضاً. مهيئ بمنتخب فولتاج مزدوج (١٢٧/٢٢٠ فولت).



FGR903PGK طباخ غاز

مجموعة ديلوكس أعطر عرضاً بالإضافة إلى فرن كبير مهيئ بمؤقت، سيخ دوّار وضابط الحرارة لأي أسلوب في الطهي. مهيئ بمنتخب فولتاج مزدوج (١٢٧/٢٢٠ فولت).



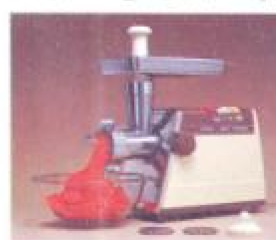
FSK1500 توستر أوتوماتيكي

ضابط تحميص بخمسة أوضاع وفتحات واسعة جداً من أجل قطع ... تصميم مدمج ... في التنظيف والتخزين أيضاً.



FGC8300P غاز طاولة

مشعلان مع شواية يمكن تحويلها إلى مشعل ثالث وتشغيل بزر الكهرباء، يحتوي على غطاء من معدن لا يصدأ لسهولة التنظيف، وعلى حامل يدوي.



FMG5500 مفرمة لحم

محرك قوي ١٢٠٠ واط وقاطع مبيّت للدائرة الكهربائية وأربعة قواطع إضافية - ناعم، متوسط، خشن وللكبة. مفتاح "فلاش" لراحة زائدة وعلبة للملحقات وشريط الكهرباء لتخزين أسهل.

فيشر

FISHER

The symbol of quality throughout the home

العدد ٣٤٠ السنة الثلاثون مارس ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 340 Mar. 1987 P.O. Box: 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص. ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس: MITR 44041 KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص. ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

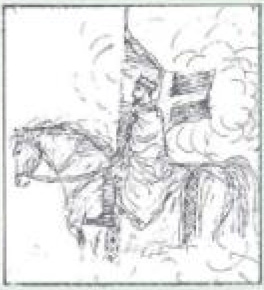
ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٢٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد



ملح ونفط وتلوث ص ٤٠



أسير المنصورة ص ٥٤



حوادث المفاعلات ص ١٠٢



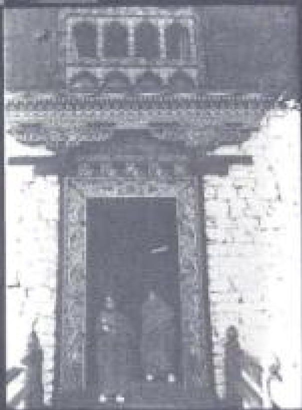
نيكولا
خايتوف



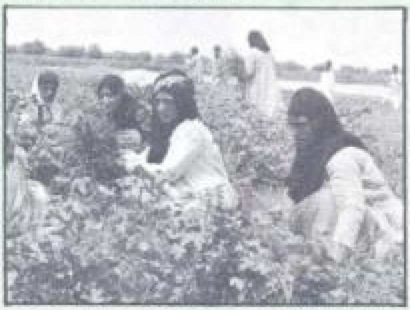
وليد
دسوقي

استطلاعات ومقابلات

صورة الغلاف



مملكةُ بوتان في قلب جبال الهملايا الحياة الهادئة ، وجيرة العمالقة ، وشعب شديد التدين مولع بالفنون .
(طالع ص ٦٨)



المرأة العراقية في السلم والحرب ص ٨٨



فنون الهند : أسرار وأساطير ص ١٣٢

المراسلات باسم رئيس التحرير .. والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر . والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء .

أبواب ثابتة :

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

إحدى القضايا المتعلقة بالنتاجات الثقافية من ناحية ، وجهات النشر من ناحية أخرى في أقطارنا العربية هي العلاقة بين المظهر والمخبر ، فنحن هنا في العربي نعاني ـ ولعل بعض المطبوعات الأخرى أيضا تعاني ما نعانيه ـ من اهتمام بعض الكتاب الذين يرسلون لنا كتاباتهم للنشر بأن ينسبوا إلى أنفسهم لقبا علميا لم يحوزوه .

والقضية على بساطتها تدلنا على إحدى الثنائيات المعلقة في حياتنا العربية ، فالبعض مازال يعتقد أن المهم هو اللقب العلمي والأكاديمي ، بصرف النظر عن محتوى ما يكتب ، ولعلنا مع غيرنا نؤكد من جديد أن هذه الثنائية غير مطروحة ألبتة لدينا ، فنحن ننظر إلى الموضوع من حيث جدته ، وإضافته للمعرفة العربية ، وطريقة كتابته ، وما إذا كان مناسبا ، ولم ننشر مثله في أعداد سابقة من « العربي » .

ولا يؤثر في اتخاذ قرارنا بالنشر أو عدمه كون الكاتب يحمل شهادة الدكتوراة أو الماجستير أو غير ذلك ! فنحن نعتقد ـ في « العربي » ـ أن اللقب العلمي لا يستطيع أن يصنع ممن لا يجيد الكتابة كاتبا ، كما أن عدم وجود اللقب لا يعني أبدا عدم الاهتمام بالموضوع .

إن الموضوع الذي يجد طريقه للنشر في « العربي » لا يقوّم بما لصاحبه من شهادات ، إنه ينشر لأنه جدير بالنشر فقط ، ومكتوب بطريقة مناسبة ، لا أكثر ولا أقل .

في هذا العدد ـ عزيزي القارىء ـ حرصنا على أن نقدم لك وجبة ثقافية متنوعة مع إطلالة الربيع ، فهناك دراسات مستقبلية نحرص في « العربي » على تضمينها في كل عدد تقريبا ، لما لها من أهمية في حياتنا .

وفي هذا العدد نقرأ عن المستقبل السكاني في الوطن العربي للدكتور عبدالاله أبو عياش ، وتصورا لمدرسة عربية جديدة كتبه لك المتخصص العربي في التربية الدكتور عبد الله عبد الدائم ، وصورة العرب في التلفاز الأمريكي ، كتبه متخصص في الاعلام هو الدكتور جاك شاهين ، أما الدكتور عبد السلام العجيلي فكتب عن مضحكات الشدائد .

وتذهب العربي في استطلاعها في هذا العدد إلى بوتان ، وهي أول مجلة عربية تذهب إلى تلك الأراضي ، وعن المرأة العراقية في ظل ظروف الحرب ننشر استطلاعا موسعا عن دورها في الصفوف الخلفية .

كل هذا مع مجموعة من الموضوعات الجديدة التي نرجو أن تسهم في إغناء الثقافة العربية .

وأنت عزيزي القارىء و « العربي » على طريق الجديد في كل عدد .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

العالم من حولنا يتغير..!

العالم من حولنا - نحن في العالم الثالث - في طريقه الى التغير ، فبعد مدة وجيزة لن يصبح كما عرفناه . ذاك أن القاعدة الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية - القُطْرية والدولية - قد تغيرت بالفعل ، كما أن النظريات التي أثرت في شؤون الحياة والناس لم تعد تلك التي خبرناها .

ذاك يعني أيضا أن المستقبل سيكون شيئا آخر ، مختلفا عن أكثر ما جنح له خيالنا من آفاق .

الأغرب من ذلك أن جذور مؤشرات التغير تلك ، لم تكن بعيدة في التاريخ المعاصر ، فهي قد بدأت منذ عقد من الزمان لا أكثر ، بل ان بعضها بدأ بعد ذلك بكثير ، الا أن تأثيراتها ستكون كبيرة وعميقة وجدية على العالم وعلينا أيضا .

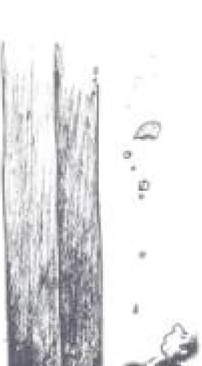
وإذا أردنا أن نسبر تلك المتغيرات فسنلاحظ أنها منصبّة في مجرى واحد ، هو المجرى الاقتصادي للشعوب والدول المتقدمة والسائرة في طريق النمو . والاقتصاد ـ كما نعلم ـ هو النشاط الانساني الأكثر تأثيرا على الأنشطة الأخرى والمؤثر في مسارها ، وبالتالي على حياة الناس وعلاقاتهم ومستقبلهم .

أما المجال الزماني والمكاني الذي يمكن ملاحظة تلك التغيرات فيه فيمكن حصره في ثلاثة : أولها ، الاتحاد السوفيتي ، وثانيها ، الصين الشعبية ، وثالثها ، في اطار الاقتصاد الرأسمالي ككل (الأمريكي ، الأوروبي ، الياباني) .

لقد حدثت تغيرات هامة ـ وما تزال تحدث ـ في الاطار الاقتصادي لهذه الشعوب الكبرى ، تقلب في بعضها ـ رأسا على عقب ـ نظريات اقتصادية وسياسية ، ظن العالم لفترة ـ غير قصيرة ـ أنها ثابتة ثبوتا لا يقبل الجدل ، وقسم العالم أيضا نفسه على هواها فترة من الزمن ، بل أكاد أقول انه ـ حتى يومنا هذا ـ هناك قطاعات واسعة من الناس تعتقد أنها ثابتة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها !

الاتحاد السوفييتي والواقعية الاقتصادية :

■ في الاتحاد السوفييتي يصادف هذا الشهر ـ مارس ١٩٨٧ ـ الذكرى الثانية لوصول جورباتشوف الى السلطة . انقضت سنتان فقط ، منذ أن عرفنا اسم جورباتشوف عالميا ، ولكن هاتين السنتين تبدوان أكثر من ذلك بكثير ، لأن الرجل منذ أن تولى سدة الحكم وهو يسعى دائما ـ بالخطب تارة وبالعمل المباشر وتغيير القيادات تارة أخرى ـ إلى « واقعية اقتصادية » جديدة من أجل أن يلحق الاتحاد السوفييتي بمجمل التغيرات التقنية والحضارية المعاصرة .



جورباتشوف هو الحاكم الثامن في سلسلة حكام الاتحاد السوفييتي في تاريخه الحديث ، وهو الشخص الثاني ـ كرئيس للدولة ـ الذي يحمل مؤهلا عاليا (في الحقوق) منذ لينين مؤسس الدولة ، الا أنه يمثل مخزون التطلعات الشابة المطالبة باصلاح المسار الاقتصادي ، وهو بجانب مهارته الاعلامية وكسبه الرأي العام مصمم ـ منذ أن تولى السلطة ـ على مهاجمة معاقل البيروقراطية السوفيتية والتصدي لأعقد المشكلات التي عطلت كفاءة البلاد الاقتصادية . وبعد ثلاثة أشهر من وصوله الى السلطة تحدث جورباتشوف في معهد « سمولين » في موسكو ، وكان حديثه دعوة قوية الى البداية الجديدة ، ومن بعض ما قاله : (ان علينا أن نغير أساليب عملنا ، من العامل الى

الاتحاد السوفييتي يبحث في إصلاحات جديدة لنظامه الاقتصادي

الوزير ، الى الأمين العام للحزب وزعماء الحكومة جميعا . وعلى الجميع أن يوفروا للكوادر الفرص ، ومن ليس على استعداد أن يفعل ذلك فعليه أن يخرج من الطريق ولا يتدخل) .

وما كاد العام الأول من حكم جورباتشوف يمضي حتى وضع قيادات جديدة في معظم مراكز السلطة السوفييتية ، مخرجا بذلك كل الحرس القديم ، الى درجة أن أحد المعلقين الصحفيين الألمان في موسكو علق على ذلك قائلا : (ان جورباتشوف قد حقق في السبعة أشهر الأول من حكمه أكثر مما حققه أسلافه في سبع سنوات) .

هذه التغيرات في الهياكل السياسية الداخلية للاتحاد السوفيتي ، وتطوير العلاقات الدولية والعالمية ، ليست دون هدف ، والهدف هو تطوير الاقتصاد السوفييتي ليواكب متطلبات الحياة الحديثة ، وكان لا بد من اتخاذ خطوات تجلت أكثر في خطاب جورباتشوف في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي في فبراير ١٩٨٦ . في ذلك الخطاب جعل جورباتشوف نفسه متحدثا باسم الجيل الجديد المطالب بالتغير والساعي اليه ، تحدث باسم المثقفين والأكاديميين والقوى الجديدة الكامنة في الشعب السوفييتي التي تعتقد أن لها دورا وثيقا في تطوير بلادها ، وقد تضمن خطابه وعودا بإزالة القيود الايديولوجية المقيدة للبحث العلمي ، كما تضمن الخطاب عودة للشكوى الظاهرة أو الخفية التي اشتكى منها الدارسون السوفييت كثيرا ، قائلا : « انه آن الأوان لنخرج من بوتقة الايديولوجية الى رحاب الواقع » .

رحاب الواقع تبدأ بدراسة علمية واقعية حول علاقة الانسان بالانتاج وتحت أي ظرف يمكن للانسان أن يعطي إنتاجا أفضل ، ترجع بعض الدراسات جذور حركة الاصلاح الاقتصادي التي تدعو لها القيادة السوفييتية اليوم الى تقرير اقتصادي قديم وضعه اقتصادي سوفييتي بارز هو (آبل آجانبيجبان) منذ أكثر من عشرين عاما ، وقد تسرب هذا التقرير الى الصحافة الغربية في يونيو ١٩٦٥ ، قال أجانبيجبان حينذاك : (ان معدلات النمو في الاقتصاد السوفييتي آخذة في التناقص في حين أن اقتصاديات الولايات المتحدة قد أحرزت تفوقا كبيرا ، وتوسعا ملحوظا في الصناعات التقنية الحديثة ، ويقابل ذلك أن قطاعات الاقتصاد السوفييتي كالزراعة والخدمات وتجارة التجزئة متخلفة ، وأن محاولة بناء الاقتصاد السوفييتي تتطلب وضع حد للسرية الرسمية في المسائل الاقتصادية) ، وقال (اننا نحصل على أرقام من الصحافة الأمريكية في وقت أقل من الوقت الذي يلزمنا للحصول عليها من ادارة الاحصاء المركزي) .

وإذا كان الحصول على الأرقام ـ منذ ذلك الوقت ـ قد أصبح أكثر سهولة ، فإن العقبات أمام تبادل المعلومات والبحث قد وجدت صداها في خطاب جورباتشوف السابق الذكر .

لقد مر تطوير الاقتصاد السوفييتي وتحريره من « الروابط الايديولوجية » بأكثر من مرحلة منذ أن أخذ بالتخطيط المركزي كتقديم الحوافز الاقتصادية التي لم تكن خالية أيضا من الآثار الجانبية الضارة .

إلا أن الاحباط والفشل والاخفاق في التطوير المطلوب جعل من موضوع الاقتصاد مجالا للجدل الفكري بين القادة السوفييت ، برز بوضوح في خطاب جورباتشوف أمام المؤتمر السابع والعشرين في العام الماضي ، الذي دعا فيه الى سلسلة من الاصلاحات الجذرية ، كالربط بين السعر وتكاليف الانتاج مع الأخذ بعين الاعتبار بدرجة وفاء السلعة بحاجات المجتمع .

بيت القصيد هنا أن الجيل الذي يحكم الاتحاد السوفييتي اليوم هو جيل التزم بأن ينقل الاتحاد السوفييتي الى مرحلة ما بعد الاقتصاد الصناعي ، ولا شك أن العقبات الاجتماعية والسياسية ليست بسيطة ، ولكن الملاحظ أن هذه النقلة تستلزم أولا تجاوز المقولات التقليدية في الاقتصاد الاشتراكي .

الصين الشعبية :

■ وإذا انتقلنا الى التجربة الأخرى وهي النظرة الاقتصادية الجديدة في الصين ، فسوف نرى أنها أقصر عمرا ، بدأت منذ عام ١٩٧٩ ، لكن تأثيرها الاجتماعي والسياسي بادي الوضوح .

المهم في هذه التجربة أنها تتوجه الى مقولات جديدة ، بل ومعاكسة لما قامت عليه الأفكار الاقتصادية الصينية منذ ثورة ماوتسي تونج في نهاية الأربعينيات .

لقد سمى الصينيون تلك الخطوات الاقتصادية « التحديث الاشتراكي » ـ في ذلك العام ١٩٧٩ ـ وكما يقول جياش رئيس المجلس الصيني لتطوير التجارة العالمية ـ : (أنه في ذلك العام بدأت الصين بناء هيكل اقتصادي جديد ، منطلقة من واقعها الاقتصادي ومستفيدة من خبرة دول أخرى في التطوير الاقتصادي ، وبدأت الصين تفتح أبوابها ، لقد تجاوزنا سياسات الأبواب المقفلة في بناء الذات) .

هذا هو ماقاله جياش في محاضرته في أكتوبر الماضي في أحد المعاهد الاقتصادية الغربية .



الصين تفتح مدنها الساحلية للاستثمار الأجنبي

هذه السياسة بدأها الصينيون منذ ثماني سنوات فقط عن طريق فتح أربع مناطق اقتصادية حرة من أجل تطوير التجارة الخارجية ابتداء ، ومن أجل الاستفادة من رأس المال العالمي بما فيه القروض والاستثمار المباشر ونقل الخبرة والتقنية الى الصين . وفي عام ١٩٨٤ قررت الصين من جديد توسيع التجربة عن طريق اعتبار أربع عشرة مدينة ساحلية أخرى مناطق حرة مفتوحة للمستثمرين الأجانب .

وفي نهاية سنة ١٩٨٥ أضيفت ثلاث مناطق جديدة كي تصبح إحدى وعشرون منطقة ومدينة ودلتا نهر مفتوحة للمساهمة في التجارة العالمية .

هذه السياسات مصممة للاسراع في التطوير الاقتصادي للمناطق الساحلية ، التي بدورها - كما يعتقد الصينيون - سوف تسهم في التطوير الاقتصادي للمناطق الداخلية في البر الصيني . وأصبح لهذه المناطق وحداتها الادارية الخاصة التي تقدم الحوافز للمستثمرين الأجانب . وأعلنت الصين كذلك أن أي مستثمر في هذه المناطق يرغب بالاستثمار في داخل الصين - بعيدا عن هذه المناطق - فهو موضع ترحيب .

من أجل أن تقوم الصين بهذا العمل ، ولخلق مناخ مناسب للاستثمار الأجنبي ، قامت السلطات الصينية باصدار ٣٤٠ قانونا وقرارا اقتصاديا لتنظيم هذا العمل خلال السنوات الثمان الماضية ، أكثر من خمسين منها لتنظيم العمل الاقتصادي مع الأجانب ، كما ان السلطات تفكر في تحديث قوانينها الاقتصادية السابقة حتى تتناسب مع السياسات الجديدة .

الانفتاح على الخارج وإعادة هيكلة الاقتصاد الصيني ، أهم مؤشرات الاصلاح الاقتصادي في الصين ، وهو ابتعاد كبير عن الاقتصاديات الماركسية التقليدية كما عرفها العالم . بل إن الاستراتيجية الموضوعة للاقتصاد الصيني الداخلي تتحول من الاعتماد على النمو في الانتاج الصناعي - خاصة الانتاج الصناعي الثقيل - الى مجالات لها عائد اقتصادي أفضل مثل الزراعة والصناعات الخفيفة ، وكذلك الاهتمام بتقدم العلوم والتقنية وتطوير التعليم والثقافة .

وفي نفس الوقت فان النظرة القديمة للاقتصاد ، وهي التشدد في التخطيط المركزي ، تتغير باطّرادٍ ليحل محلها التشديد على اقتصاد حيوي متحرك .

لقد بدأت الصين في الاصلاحات الاقتصادية الجذرية عن طريق مبادرات مثل (المقاولات الزراعية مع الأسرة) التي تشجع المبادرات الأسرية في العمل الزراعي في الريف . وفي الاقتصاد الحضري أعطت أصحاب المبادرات

الاقتصادية الفردية حرية أكبر في الادارة واختيار مجال الانتاج . كل ذلك من أجل خلق « اقتصاد سوق وسلع » وتخفيف السيطرة المباشرة للدولة تدريجيا على المشروعات الاقتصادية .

النتائج الاقتصادية المباشرة المحسوبة بالفلس والدينار - كما يقولون - واضحة المعالم ايجابيا على الاقتصاد الصيني ، ويبقى التحول الاجتماعي والسياسي المتوقع من جراء هذه الخطوات . الا أن الأمر في جميع الأحوال يعني أن هناك تغيرا جذريا في الموقف الايديولوجي الاقتصادي لاكثر الدول الاشتراكية سكانا على وجه الأرض .

الاقتصـــاد العـــالمى :

■ يقول أحد الاقتصاديين العالميين - وهو « بيتر . اف . دروكر » في مقالة مطولة له نشرت أخيرا في مجلة « الشؤون الخارجية الأمريكية » : ان الاقتصاد العالمي (أو ما يسمى بالاقتصاد الحر) ليس في طريقه الى التغير ، بل هو قد تغير بالفعل ، وان عدم احساسنا بهذا التغير ، وعدم التفاتنا اليه ناتج من أن الواقع يسبق المنظّرين في عصرنا السريع .

التغير في المسرح الاقتصادي العالمي - كما يراه دروكر - قد حدث في ثلاثة محاور رئيسية وبرز بوضوح خلال العقد الماضي :

× المحور الأول : ان الاقتصاد المتعلق بالمواد الأولية والأساسية لم يعد مرتبطا بالاقتصاد الصناعي .

× المحور الثاني : ان الاقتصاد الصناعي نفسه لم يعد الانتاج فيه مرتبطا بتشغيل اليد العاملة .

× المحور الثالث : ان القوة الدافعة للاقتصاد العالمي في مجال انتاج السلع وتقديم الخدمات أصبحت تعتمد على انتقال رؤوس الأموال وليس على الحركة التجارية وحدها .

لعل هذه التغيرات في إطار الاقتصاد الغربي الرأسمالي تفسر لنا بعض ما يحدث لدى العملاقين الاشتراكيين - الاتحاد السوفييتي والصين - كما لخصنا توجه كل منهما في السابق .



في اطار الاقتصاد العالمي التقليدي كانت هناك مقولة شبه ثابتة وهي أن المواد الأولية الأساسية للصناعة مرتبطة بشكل ما بالاقتصاد الصناعي ، ولقد أثبت التاريخ الاقتصادي الحديث - إن مدحا أو قدحا - للبحث العلمي المتطور ! ان هذه العلاقة لم تعد بذلك الارتباط ، بل ان بعضها قد ضعف الى درجة الاضمحلال .

أما انهيار أسعار المواد الخام (عدا النفط) فقد بدأ عام ١٩٧٧ واستمر بالهبوط ـ باستثناء عام ١٩٧٩ ـ حتى بلغ في العام الماضي (١٩٨٦) أدنى مستوى له سجله التاريخ الاقتصادي المدوّن ـ مقارنة بأسعار البضائع والخدمات ـ ولقد لوحظ هذا التدني خاصة في معدني الرصاص والنحاس . . ورافق هذا التدني في أسعار المواد الأولية والأساسية انحسار في الطلب ، وهو تناقض خارج عن مألوف النظرية الاقتصادية التقليدية .

حتى في المواد الغذائية ـ بعد صيحات نادي روما في وسط السبعينيات وبعض المؤسسات الأخرى التي حذرت العالم من نقص في الغذاء ـ جاءت الحقائق الاقتصادية بعكس ذلك . فقد زاد انتاج العالم من المواد الغذائية بمقدار الثلث بين عامي ١٩٧٢ ـ ١٩٨٥ ليصل الى أعلى مستوى بلغه حتى الآن ، في الوقت الذي تناقصت فيه اليد العاملة في القطاع الزراعي في البلدان المتقدمة وكذلك تناقصت نسبة مساهمة قطاع الزراعة في الدخل القومي ، عدا الاتحاد السوفييتي .

تغير الهيكل الأساسي للاقتصاد :

■ هذه الحقائق توصلنا الى القول بأن الاقتصاد القائم على المواد الخام ـ التي تنتج في الغالب في العالم الثالث ـ أصبح منفصلا عن الاقتصاد الصناعي في الغرب ، ويعتبر هذا تغيرا في الهيكل الأساسي للاقتصاد العالمي له آثاره الهائلة خاصة على العالم الثالث في الوقت الحالي وتتفاقم هذه الآثار في المستقبل .

فالنسبة بين أسعار المواد المصنعة وأسعار المواد الخام التي تستخرج من الأرض لم تعد مرتبطة ببعضها ، ولم تعد دول العالم الثالث المنتجة للمواد الأولية والأساسية قادرة على سداد ديونها عن طريق التبادل ، أو حتى الوفاء بحاجات التنمية عن طريق بيع منتجاتها بأسعار معقولة في السوق العالمي .

العلاقة تنفصل بين دول المواد الخام ودول الصناعة المتقدمة

ان الباعث على هذا التغير متعدد الجوانب ، فها هي صيحات التخويف التي أطلقت في السبعينيات قد حثت الدول المتقدمة على الاستثمار في الانتاج الغذائي تحسبا لحدوث نقص خطير في المواد الغذائية مثلما حذرت تلك الدراسات ، كما أن دولا مثل الهند والبرازيل وبيرو وأندونيسيا قد طورت من تقنياتها الزراعية حتى أصبحت قريبة من الاكتفاء الذاتي ، بل والتصدير .

الا أن الاكتفاء الغذائي يمكن ملاحظته بشكل أكبر في أوروبا التى ليس بها اليوم سوق يمكن أن نطلق عليه « سوق استيراد المواد الغذائية » ، فبعد

الازدهار الذي شهدته القارة الأوروبية في الانتاج الزراعي لم تعد بحاجة الى الاستيراد الكبير بل أصبحت مصدرة لبعض مواده .

ان الدولة الوحيدة الكبرى التي ما زالت تستورد المواد الغذائية هي الاتحاد السوفييتي ، وهذا ما يفسر لنا الجهود المتوالية لاصلاح السياسات الزراعية .

أما السلع الأساسية غير الغذائية فإن الطلب عليها قد بدأ يتناقص ، لأن التطور العلمي من جهة قد بدأ يزيد من كفاءة استخدامها الصناعي ، ومن جهة أخرى تم الاستغناء عن بعضها وتعويضها بمواد أخرى تؤدي نفس الغرض . من جهة كفاءة الاستخدام الصناعي في انتاج الوحدة الاقتصادية نجد أن الخبرة اليابانية في هذا المجال ملفتة للنظر ، فخلال عام ١٩٨٤ صارت اليابان تستهلك لانتاج الوحدة الاقتصادية الواحدة من الانتاج الصناعي حوالي ٦٠٪ فقط من المواد الخام التي كانت تستهلكها لانتاج نفس الوحدة في ١٩٧٣ أي أنها في خلال احدى عشرة سنة قد وفرت ٤٠٪ من المواد الخام لانتاج نفس الكمية من المنتجات !

أما من جهة الاستغناء الكلي فقد تم تعويض بعض السلع بسلع أخرى فاستخدمت خامات جديدة ، حيث يكفي اليوم مثلا أسلاك مصنوعة من (الفيبر جلاس) لا يزيد وزنها على (٥٠ ـ ١٠٠ رطل) لنقل مكالمة هاتفية كانت تحتاج الى ما زنته ١٠٠٠ جرام من النحاس في السابق ، ويجتهد العلم لينسحب هذا الوفر على الاستهلاك بما في ذلك السلع الاستراتيجية .

لذلك لا تلوح في الأفق أية بوادر تشير الى احتمال زيادة أسعار المواد الخام لتتناسب مع زيادة أسعار المواد المصنعة أو الخدمات التي تصدرها الدول المتقدمة بل إن التوجه العام هو أن تنخفض تلك الأسعار .

فك الارتباط بين الانتاج الصناعي وتشغيل الأيدي العاملة :

■ التغير الرئيسي الثاني في هيكل الاقتصاد العالمي ـ كما تقول النظرية الجديدة ـ هو فك الارتباط الذي كان قائما بين الانتاج الصناعي وتشغيل الأيدي التي تعمل بالصناعة ، ففي البلدان المتقدمة صارت زيادة الانتاج تعني التقليل من استخدام الأيدي العاملة ، ونتيجة لذلك فقد أصبحت تكاليف اليد العاملة لا تشكل سوى نسبة ضئيلة من التكاليف الاجمالية للمنتجات الصناعية تقل باستمرار ، ولم تعد عاملا بارزا في التنافس بين الشركات . وسقطت مقولة اقتصادية تمسك بها كثيرون في العالم الثالث للتدليل على إمكانية



المنافسة . . وهي (رخص اليد العاملة !) .

الحركة الصناعية في الدول الصناعية الكبرى تزداد باطّراد ، ولكن حجم اليد العاملة في الصناعة يقل باطّراد أيضا نتيجة سياسة التطور التقني السريع (الأتمته) ، وتحول اليد العاملة العالية التدريب الى العمل في قطاع الخدمات الحديثة .

هذا التطور يوقع بلدان العالم الثالث في مأزق آخر ، وهو أنه لم يعد ـ لرخص اليد العاملة ـ يمثل امتيازا نسبيا لديها خاصة مع تخلف في مستويات التعليم ونقص في امتلاك المهارات التي تحتاجها الصناعات الدقيقة ، وصناعة المعلومات ، أما صناعة الاتصالات والمعلومات والصناعات الدقيقة والبحث العلمي والمعرفة والتقدم التقني ومختبرات التطوير والأدوية ، فهي التي تأخذ النسبة الكبرى من اليد العاملة في البلدان المتطورة وتترك البقية للآلة لتقوم بالعمل من ألفه الى يائه .

الاقتصاد الرمزى :

■ التغير الرئيسي الثالث في هيكل الاقتصاد العالمي هو طغيان وشيوع ما يسمى بالاقتصاد (الرمزي) وهو انتقال رؤوس الأموال وتدفق الودائع والمضاربة في أسعار تبادل العملات والتجارة غير المنظورة ، هذا النوع من الاقتصاد ـ حتى فترة متأخرة ـ لم يكن الاقتصاديون التقليديون يعتبرونه اقتصادا حقيقيا ، فذلك عندهم هو الذي يعتمد على تدفق البضائع والخدمات ، الا أن وجود الاقتصاد الآخر (الرمزي) لا يخفى على أحد اليوم ، كما أن تأثيره واضح للعيان ، وأصبح سوق ما يسمى (الاقتصاد الرمزى) سوقا ضخمة تتداول فيها أموال طائلة . هذه الأموال قد يجري تداولها أكثر من مرة في اليوم الواحد منتجة لأرباح كبيرة .

الملاحظة الأساسية هنا ، هي أن تحركات رأس المال ليس لها ـ كما كان في السابق ـ علاقة بالتجارة العالمية بمعنى انتقال السلع والخدمات ، كما أنها

■ رأس المال يطوف العالم ويرسو في الأماكن التى تريحه ، ودول العالم الثالث حيرى وسط هذه التغيرات دون مراسٍ آمنة

ليست متصلة بها ، بل أصبحت هناك حركة مالية تتخطى الحدود ، وتغير من نظريات اقتصادية كاملة ، كأن يكون العجز في ميزانية الولايات المتحدة أكبر عجز في التاريخ ، ومع ذلك تستقطب أموالا وسيولة نقدية عالمية ، تجنبها ـ الى حين ـ مواجهة المشكلات الاقتصادية المعقدة .

هذا الاقتصاد الرمزي ، أهم ما يميزه أنه خارج القوانين الاقتصادية الوطنية ، يبحث عن أرباح حتى لو كانت في المناطق الحرة في الصين ! .

وفي نفس الوقت يضرب عرض الحائط بعناصر الاقتصاد المعروفة كدورة رأس المال ومعدل الربح ونوع النشاط وقضايا العمالة .

مؤشـــرات المســـتقبل :

■ قد يكون من السابق لأوانه التنبؤ بما سيكون عليه الحال الاقتصادي العالمي في المستقبل ، الا أن هناك مؤشرات واضحة المعالم تدفعنا ـ نحن في العالم الثالث ـ على التفكير الجدي ، فلا النظريات التقليدية الاشتراكية في الاقتصاد ثابتة ، بدليل المحاولات التي تمت في الاتحاد السوفييتي وفي الصين ، ولا عناصر النظريات الكلاسيكية في الاقتصاد الرأسمالي ثابتة أيضا . وأكبر المتضررين مما يجري هي دول العالم الثالث الفقيرة ، ذات المصادر الأولية غير المصنعة من المواد الخام .

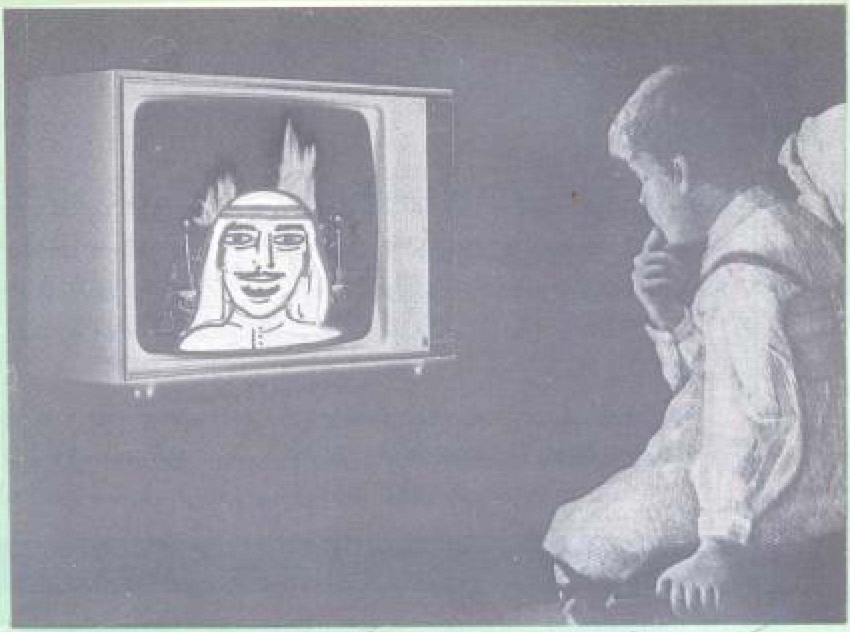
ولم تعد تلك المصادر الأولية أساسية للاقتصاد الصناعي حيث يقل الاقبال عليها عاما بعد عام ، كما لم يعد رخص اليد العاملة فيها ايجابيا للتنافس بعد (الاتمتة) مما يفاقم مشكلاتها الاجتماعية .

مسألة بهذا العمق لا يمكن الاجابة عنها ببعض العبارات التحذيرية أو التشجيعية . جوهر القضية هنا متعدد ، فهناك العلاقات الاقتصادية بين دول العالم الثالث بعضها ببعض والتي يجب أن تعدل ، فقد كان الجنوب تاريخيا سلة المواد الخام للعالم ، أليست المسألة معلقة على الاستغلال الأمثل لهذه المواد الخام ؟

وهناك أيضا حتمية النظر الى طرق جديدة وغير تقليدية لادارة التنمية واستغلال الموارد في هذا الجنوب وصولا الى تكامل حقيقي بين بلدانه .

وفوق ذلك كله فالمطلوب في حقيقة الأمر وضع سياسات اقتصادية جديدة ومناسبة تواكب العالم الذي يتغير من حولنا .





الشخصية العربية في التلفزيون الأميركي

بقلم : الدكتور جاك شاهين *

تتساءل باستمرار لم هذه النظرة الدونيّة الشوفينية من جانب الغرب للانسان العربي ، وكأنه المصدر لكل شرور الدنيا وآثامها ، والوريث الأوحد لأحقاد الغرب التاريخية . ان الكرامة الانسانية تبقى دائما فوق حملات الجهل مهما بدت عاتية قاسية .

لكن هل هناك بقية من أمل في تعديل هذه النظرة الزائفة الظالمة ؟؟

إن مفاهيمنا الخاصة عن شعب ما ، وعن قضاياه وتاريخه لاتأتي ـ للأسف ـ من خلال تجاربنا الذاتية المباشرة ، لكن من خلال تراكم المعلومات التراثية والشعبية التي وصلت الينا بطريقة غير مباشرة ، وهذه المعلومات تشكل ـ كما يقول الصحفي الأميركي الشهير « والتر ليبمان » ـ الحيز الأكبر من أفكارنا ، وتخلق في عقولنا تلك الانطباعات الراسخة الثابتة .

* استاذ وسائل الاتصال في جامعة جنوبي الينوي في الولايات المتحدة الامريكية .

ان هذا الاسلوب التعسفي للمعرفة يحد ـ حتما ـ من الرؤية الصحيحة الشاملة ، حيث تصبح تصوراتنا وانطباعاتنا قاصرة ناقصة ، أشبه ماتكون بتصورات ذهنية نمطية ، تمثل رأيا شعبيا ساذجا بسيطا ، وتتمثل خطورة هذه الانطباعات بسطوتها وتأثيرها على التفكير العقلي المجرد ، لأنها قد أصبحت أشبه بمسلمات مطلقة ، غير خاضعة للتعديل أو النقد ، وتزداد هذه الصور والانطباعات رسوخا كلما اتسعت المسافة بيننا وبين شعب لانعرف عنه كثيرا . ومن يشككون بهذه الصور المسبقة التي تعوزها الدقة والأمانة العلمية قليلون ، هذه المفاهيم السلبية ـ للأسف ـ تتحول تدريجيا فتصبح مقولات مقبولة ، وهكذا يتعرض هذا الشعب أو ذاك الى حملات التجريح والتعصب الأعمى والتحامل البغيض .

اللاسامية لم تمت

ان هذه الصور السلبية لدى الغرب عن الشرق والشرقيين هي التي أشعلت فتيل العنصرية ، وأدت الى الصراع ، ثم الدمار الذي لحق بالشعبين الأمريكي والياباني خلال الحرب العالمية الثانية . لقد دأبت السينما الأمريكية وكذلك الصحافة على تصوير الآسيويين كأشرار همجيين ، ولحسن الحظ أن هستيريا الخطر الأصفر قد زالت مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، لكن الصورة المغلوطة نفسها قد تحولت عن الرجل الأصفر الى الشخصية العربية ، وهذا ما نجده اليوم شائعا سائدا في الصحافة والرواية والتقارير الاخبارية والتلفزيون والسينما . صحيح أن هناك جاليات وأقليات كثيرة قد تعرضت لهذا المسخ الاعلامي لشخصيتها الوطنية كالزنوج والهنود الحمر والايطاليين والأمريكيين الجنوبيين ، لكن مع زيادة الوعي الاجتماعي بدأت هذه المفاهيم السلبية تنحصر تدريجيا لتتخذ شكلا أكثر توازنا ، وقد كان وراء هذا التحول المفاجيء حركة الحقوق المدنية التي اشتعلت في الستينيات فساعدت ـ فعلا ـ على تعديل النظرة الأمريكية ـ ولوبقدر متواضع ـ بالنسبة لمعظم الجاليات الأمريكية الأخرى .

وقد أعيد الاعتبار لكرامة هذه الجاليات ، ولم يعد اليابانيون أشرارا ، ولا الهنود الحمر متوحشين ، ولا الايطاليون جميعهم أعضاء في عصابات المافيا ، ولا الجنوبيون قطاع طرق ، بقيت اليوم الشخصية العربية وحدها تماثل الصورة القديمة البغيضة لليهودي الجشع في الاعلام الغربي ، لأن ذلك اليهودي الفوضوي الارهابي الكريه ـ كما صورته وسائل الاعلام الغربية في فترة ماقبل الحرب ـ قد احترقت صورته تماما في أتون المحارق النازية ، ولكن الصورة (الكاريكاتوربة) الاستفزازية القديمة عادت مرة أخرى ، ولكن بتعديل طفيف تم استبدال نجمة داود بالعباءة ، والقلنسوة اليهودية بالكوفية العربية . ان التعصب ضد السامية لم يمت اذن ، فلقد تم استبدال شعب سامي بشعب سامي آخر هو العرب .

ان تقديم الشخصية العربية في التلفزيون الأميركي على هذه النمطية المغلوطة يفصح عن نزعة لا أخلاقية ولا انسانية ، وان الجهل والخوف والتعصب قد تساعد على اذكاء هذا المفهوم والاستمرار فيه . قد تكون النوايا غير محوبة الجوانب ، وقد تكون الدعاية الحاقدة هي المحرك ، لكن النتيجة هي تحطيم الجانب الحقيقي للشخصية العربية في الوجدان الأميركي العام ، لأن المشاهد الأميركي العادي لايقوى على التمييز بين الصورة التلفزيونية والصورة الواقعية . وحول خطورة البرامج التلفزيونية العادية يقول البروفسور « أريك بارنو » ان ما اصطلح على تسميته بالبرامج الترفيهية التي يفترض أن تكون للتسلية والراحة النفسية ، والتي يفترض أيضا أن تزودنا بخبرة حيادية سلبية هي في حقيقة الأمر خبرة معقدة جدا ، فنحن نستوعب مايقال مع اغفال تام لاحساسنا التحليلي النقدي . كما أنني أعتقد أن السياسة في التلفزيون لاتعني بالضرورة مجموعة الخطب أو التصاريح ولكنها تعني الأعمال الدرامية ، فان الدراما التلفزيونية هي نوع من الدعاية لأمر ما ، وهي بعد ذلك نوع من السياسة ، وكما يقول الدكتور « جورج جيربنر » عميد كلية وسائل الاتصال في جامعة بنسلفانيا : « ان التلفزيون يقوم حاليا ـ أكثر من أي مؤسسة ثقافية أخرى ـ بتشكيل المعايير والقيم والسلوكية الأميركية ، وكلما زادت مشاهدتنا للتلفزيون زادت معتقداتنا السائدة

بما يقوله التلفزيون عن هذا العالم الخارجي ، على الرغم من أن معظم مايعرض هو محض افتراء ، أو تضليل اعلامي دعائي » .

وأي برنامج تلفزيوني ناجح في أميركا يشاهده في أثناء العرض الأول أكثر من ٤٠ مليون مشاهد ، ومع امكانية تكرار العرض قد يرتفع الرقم الى ١٥٠ مليون مشاهد .

العربي البشع « ماجو »

من خلال دراسة الصورة العربية في البرامج التلفزيونية الأميركية التي تم حصرها من عام ١٩٧٥ الى عام ١٩٨٥ م ، ورصد أكثر من ١٠٠ عمل تلفزيوني متنوع ، وقد تناولت تلك الأعمال جميعها الشخصية العربية ، وأبرزتها في برامج الأطفال ، والبرامج الدرامية ، والكوميدية ، ولعل أخطر هذه البرامج وأكثرها تأثيرا هي برامج الأطفال ، فإن معدل مايقضيه الطفل الأميركي أمام الشاشة الصغيرة يصل الى ثلاثين ساعة أسبوعيا ، كما تدل الاحصاءات الرسمية أن الشبان الصغار يقضون ١٠٪ أوقاتهم أمام جهاز التلفزيون . وعند تخرجه في المرحلة الثانوية يكون هذا الشاب الأميركي قد أمضى من عمره أمام التلفزيون ضعف ما أمضاه في فصول الدراسة ، وبالأرقام فان هذا الشاب قد أمضى ٢٢ ألف ساعة أمام التلفزيون ، مقابل ١١ ألف ساعة في حجرات الدراسة ، وحتى قبل السن التعليمية يستوعب الطفل كثيرا من هذه المفاهيم المغلوطة المتميزة ، ثم تنتقل معه انطباعاته الطفولية التي اكتسبها من خلال وسائل الاعلام الى مرحلة الشباب ، ثم الى مرحلة النضج والرشد . ونتيجة لهذه التعبئة الاعلامية المستمرة ضد العرب كشفت احدى الاستفتاءات مدى الجهل والافتراء المغروس في أعماق الشبيبة الأميركية ، حيث جاءت معظم تعريفاتهم للعرب أنهم شعب همجي وحشي مولع بالحرب والقتال ، واسع الثراء ، مستعبد للنساء .

قالت احدى المعلمات الأميركيات العاملات في الأردن عن انطباعها الأولي عن العرب بأن هذا الانطباع قد تكون لديها من خلال شخصية « ماجو » الشرير في احدى المسلسلات الكرتونية المستوحاة من قصص ألف ليلة وليلة . فلقد كانت هذه الشخصية بشعة وكريهة ، وهذا ماانطبع في وجدانها الطفولي عن العرب ، ولم تسعفها الذاكرة عن أي شخصية ايجابية عربية كانت قد شاهدتها أو سمعتها .

ان التلفزيون الاميركي يسعى دائما الى ابراز الشخصية العربية بعدة نماذج وهمية، فالعربي يعني للمشاهد الاميركي الثروة الخرافية الطائلة ، فالاحصاءات الدولية تقول ان معدل دخل الفرد العربي العادي يقارب ألف دولار سنويا ، والعربي يعني عندهم التطرف الديني ، وذلك على الرغم من أن الاسلام يدعو الى التعاطف والرحمة واحترام المسن والضعيف ، أما التطرف المزعوم فهو بعيد عن جوهره ومبادئه السمحة . كذلك يعني العربي بالنسبة للأميركيين الهوس الجنسي ، والولع بالرقيق الأبيض ، علما بأن معظم الرجال في وطننا العربي ليس للواحد منهم غير زوجة واحدة فقط ، كما تعتبر الأسرة في المجتمع العربي هي القاعدة الاساسية للمجتمع القائم على الدين والأخلاق ، أما الرقيق الأبيض المزعوم فهو جريمة في عرف القانون في كل أرجاء الوطن العربي .

أمة من القتلة

كذلك ينظر الأميركي الى العرب على أنهم مجموعة من البدو الرحل الشرسين المشربين بالروح العدوانية . وعلى الرغم من شظف العيش ومرارة المعاناة للحياة الصعبة للبدوي العربي فهو رمز باق للكرم والنخوة والشرف والقدرة على التحمل . والعربي في نظر الأميركيين أيضا يعني الارهاب على الرغم من ممارسته من قبل أقلية ، وقد عرفت الأرهاب أيضا معظم شعوب العالم في أوروبا وفي أميركا نفسها . يقول الصحفي « دافيد لامب » : « ان ذلك الزعم هو مجرد اجحاف وافتراء ، فقد ارتكبت في أميركا وحدها في سنة واحدة هي سنة ١٩٨٢م أكثر من ١٩ ألف جريمة قتل ، ولو قسنا ذلك بنفس المنطق المزعوم لكانت أميركا اذن أمة من القتلة والسفاحين » .

كما ينظر الأمريكي الى وطننا العربي كبؤرة للعنف الدموي ، رغم أن معظم المدن العربية الكبرى تنعم بأمن واطمئنان تحسدها عليه أي مدينة أو قرية أميركية

صغيرة ، والعرب أيضا في نظرهم فئة رأسمالية جشعة جاءت لتشتري أميركا ، وتستولي على خيراتها ، رغم أن التقارير الأميركية نفسها توضح أن الاستثمارات العربية في أميركا لاتكاد توازن مع غيرها من الفئات الأجنبية الأخرى ، كما أن الاستثمارات العربية تبدو متواضعة جدا أمام الرساميل اليابانية والكندية والألمانية والسويسرية ، ومع ذلك فهم يصرون على تسميتها « بالأموال العربية » ، بينما لايلاقي المارك أو الفرنك أو الين هذا الوصف التعسفي المقصود ، وعندما يشترى عربي عقارا ما في أميركا تتحول الصفقة التجارية الى فضيحة أخلاقية ، بينما تعتبر الصفقات التجارية الأخرى - غير العربية - استثمارات مضمونة سليمة ، وحين يشتري ثري عربي لوحة ثمينة ينظر اليه على أنه مثال للتخلف والانحطاط والتفسخ الحضاري ، أما اذا كان المشتري أوروبيا فهو مثال رائع للتمدن والتحضر والثقافة الرفيعة . كذلك يعتبر الأميركيون منظمة الأوبيك منظمة عربية ، علما بأن العرب يمثلون سبعة أعضاء فقط من بين ١٣ عضوا ، والجدير بالذكر هنا أن دولتين غير متسببتين الى منظمة الأوبيك - وهما المكسيك وبريطانيا - استطاعتا وحدهما عام ١٩٨٥ أن تنتجا من النفط أكثر مما أنتجته السعودية في نفس العام .

أصبحت عادة أن يرافق تقديم هذه الصورة المهزوزة للشخصية العربية كل ما يلزم من تزاويق وكماليات مظهرية كملابس الرقص الشرقي ، والحجاب ، والكوفية ، والعباءة ، والنظارة السوداء ، والبترول والسيارات الفارهة ، والجمال ، وتنحصر هذه النماذج العربية في أدوار الثري والارهابي الشرير .

السادية صناعة عربية

ان الطفل الأميركي يربى - منذ نعومة أظفاره - على كراهية العرب ، أو على الأقل احتقارهم ، فمن خلال برامج الأطفال الكرتونية المتنوعة في التلفزيون يشاهد الطفل أبطاله المحبوبين وهم يتصرون على هؤلاء العرب الأشرار ، وينقذون العالم من مكائدهم وشرورهم ، فهذا « وودي بيكر » يحشر جنيا عربيا داخل قمقمة ، و« بوباي » يستعرض عضلاته المعهودة في تأديب شيخ عربي يرتدي لباس الذئب ، وهذا « الرجل المطاطي » يقذف بيضة فاسدة في وجه أحد السلاطين العرب ، وهذا « بوركي بيج » يلقي بأحد العرب في برميل الشراب ، وهذان « لافيرن » ، « وشيرلي » يحبطان محاولة أحد الشيوخ العرب لغزو أميركا وتدمير العالم ، وهذان « لوريل » ، « وهاردي » ينقذان بطلة المسلسل من جناح الحريم المحجوزة فيه ، بينما يحجز المصريون « مورك » ، و « موندي » في احدى حجرات الأفاعي داخل الأهرامات ، وعندما يحاول ساحر عربي تحويل « سكوبي دو » الى قرد ينقلب سحره عليه فيتحول العربي نفسه الى قرد . ولعلنا نلاحظ أن جميع هذه المسلسلات الكرتونية - المعدة أصلا للأطفال - لاتخلو من تقديم هذه الشخصية العربية بشكل استفزازي ساخر ، وكأن الحماقة والبلاهة والخبث صفات عربية أصيلة . ان بذور الكراهية والاحتقار تنمو مع الطفل الأميركي ، وتنقل معه الى مرحلة الشباب ليلاقي هذا الأميركي في برامجه الجديدة - من مسلسلات اجتماعية وبوليسية وكوميدية - ما كان يشاهده وهو صغير عن تلك الشخصية العجيبة ، فهذا - مرة أخرى - « ستيف أوستن » أو « الرجل الحديدي » يجبر بالتهديد على تسليم بعض القنابل النووية الى أحد الدبلوماسيين العرب الذي يحاول في مؤامرة سياسية خلع ابن عمه عن العرش ، لكن مستر « اوستن » استطاع في اللحظة الأخيرة انقاذ البشرية من براثن هذا العربي الخطر . وفي أحد عروض المصارعة نفاجأ بأسماء عربية يطلقها هؤلاء المصارعون على أنفسهم مثل (أكبر) و (الشيخ الحديدي) ، وعندما يصعد هذا « الشيخ الحديدي » الى الحلبة يبدأ بالصراخ والهتاف لروسيا ، وشتم أميركا ، ثم ينهي تصريحه السياسي بالبصاق على الأرض ، وعلى الجماهير أيضا ، ومصارع آخر يبدأ العرض بالتهام دجاجة حية أمام الجمهور . انها صور مؤذية حقا لخلق الانطباع لدى الجمهور بأن من يمارس هذا العمل الهمجي هم العرب فقط ، ثم يأتي صوت المعلق من بعيد قائلا ان هؤلاء يمارسون المصارعة حبا في القسوة والتعذيب ،

وليس لأي هدف رياضي آخر ، وكأن السادية صناعة عربية خالصة !

لاعزاء للمشاهدين

أما الدراما التلفزيونية البوليسية وماتحويه من عنصري الاثارة والتشويق فتجذب لمشاهدتها الصغار والكبار معا . فما موقع الشخصية العربية داخل هذه المسلسلات الشعبية الناجحة ؟ في احدى حلقات « ملفات روكفورد » يبرز المسلسل أسرة عربية متحجرة القلب ، عديمة الرحمة والشفقة ، وحين يعلم روكفورد بوجود علاقة عاطفية بين صديقه « سيسن » وفتاة عربية متزوجة يحذره قائلا بأنه لايريد رؤيته معلقا رأسا على عقب ، و (العرب يتسلون بنكش أسنانه) ، وحين يكتشف الأب العربي هذه العلاقة يعقد مجلس العائلة محاكمة صورية عاجلة ، ويحكم بالموت على هذه الفتاة العربية ، ويشاهد أحد أفراد الأسرة ونسخة من القرآن الكريم أمامه وهو يصرخ قائلا يجب أن يكون التنفيذ في بلادنا وليس هنا ، وتدفع الأسرة الفتاة قهرا الى طائرتهم الخاصة ، لكن « روكفورد » ـ وبحيلة ما ـ يدبر اجراء تفجير متعمد تستطيع الفتاة على اثره الهروب مع « روكفورد » ، ويموت عند حدوث ذلك الأب بنوبة قلبية ، ولاعزاء له من المشاهدين . كذلك تحاول الدراما التلفزيونية تصوير الانسان العربي كأنه وحش جنسي مولع بشقراوات أميركا . ففي احدى حلقات فيجاس « يقوم الممثل « سيزار روميرو » باغواء الفتيات الأميركيات ، ثم تخديرهن ، وتسفيرهن الى الجزيرة العربية ، ويقول في احدى اللقطات مخاطبا احداهن : انك بالنسبة لي لاتساوين شيئا ، لكن هناك من سيدفع لهذا الجسد وهاتين العينين ٢٥ ألف دولار .

وتتكرر هذه القضية المزعومة في مسلسل آخر حيث يتصدى « ماكلاود » لمجموعة من المهووسين العرب الذي يختطفون احدى ملكات الجمال ، في أثناء احتفالات المسابقة ، لكن « ماكلاود » يحررها ومن معها من جناح الحريم التابع لذلك العربي البدين الذي يفضلهن شقراوات صغيرات ، وفي احدى حلقات « تشييس » نشاهد سائقا عربيا أرعن يحاول رشوة الضابط الذي حرر له مخالفة مرورية ، وحين يرفض الضابط باصرار ترى الشباب العربي يعلق مستغربا : « ان ذلك شيء عادي في بلادي » ، ثم لاننسى كيف استطاع « بونش » تأديب هذا الفتى العربي ، واعطاءه درسا في آداب المرور ، واحترام القوانين ، وبأن الصداقة شيء لايشترى بالمال .

نقطة بيضاء في محيط

أما المسلسلات الكوميدية الاجتماعية المثيرة فالحضور العربي فيها يعني حضور الغمز واللمز ، والسخرية من كل شيء عربي ، وفي أكثر من ثلاثين عملا تلفزيونيا من هذا النوع يبدو العربي انسانا غريب الأطوار ، ومن تلك الاعمال « الفريق الأول » و « دايستي » و « مات هوستون » و « السيارة العجيبة » ، والنماذج كثيرة لاداعي لحصرها ، لكن يبقى السؤال معلقا . الى متى هذه المهزلة الاعلامية ؟ لاشك أن الدور المطلوب من الجاليات العربية الأميركية يجب أن يكون أكثر عمقا وشمولا ، فمنهم المحامي والطبيب والعالم ، ولكونهم أولا وأخيرا ذلك العربي المهزوز الصورة الذي يطل عليهم من تلفزيونات بيوتهم ، في عقر دارهم ، ولأن الأقليات الأخرى استطاعت أن تعيد الاعتبار الى رموزها الوطنية الأصيلة ، فأصبح للزنوج أبطالهم الايجابيون ، ولأن بعض منتجي التلفزيون يقولون بأنهم لايضمرون عداء للشعب العربي انما هي فنية الأمور وسهولة العمل الكتابي ، واعجاب الجمهور ـ كما يزعمون ـ هو الذي يقف وراء هذا الاستمرار المشوه لتلك الصورة العربية النمطية التي آن الوقت لتغييرها . صحيح أن بعض حلقات « الناقر » قد قدمت شخصية عربية ايجابية ، وهي عبارة عن أب عربي وابنه العبقري في علم الجبر ، لكن هذا يبقى مجرد نقطة بيضاء صغيرة في ذلك المحيط المدلهم الواسع ، ان المطلوب هو مزيد من التوعية والادراك ونقل ذلك الى الآخرين ، فإن الرؤية الشاملة للأمور مطلب أخلاقي وانساني معا ، لهذا وعلى كتاب هذه الأعمال التلفزيونية أن ينظروا إلينا كشعب له كرامته ، وله شخصيته الانسانية الجديدة بكل احترام وتقدير . □

أزمة السويس واستخدام القوة

بقلم : أمين هويدي

مرت ثلاثون عاما على تأميم عبدالناصر لقناة السويس وما تلا ذلك من عدوان اشتركت فيه جيوش ثلاث دول : هي بريطانيا وفرنسا « اسرائيل » . ولا يعتبر الكاتب ما حدث في أثناء الأزمة درسا شاذا ، ولكنه يعتبر استخدام القوة ظاهرة حدثت في الماضي وتحدث في الحاضر وسوف تحدث في المستقبل . وأننا نعيش في نظام دولي يتعامل بالقوة أكثر من تعامله بالحق .

في الساعات الأولى من صباح الثلاثاء ١٥ ابريل ١٩٨٦ قامت مائة وعشرون طائرة حربية أمريكية من قواعدها في المملكة المتحدة ، ومن حاملات الطائرات المرابطة أمام السواحل الليبية بشن عدة غارات على أهداف مدنية ليبية ، محدثة خسائر جسيمة في الأرواح والمباني السكنية للمواطنين والأجانب المقيمين في ليبيا . وكان الغرض الأساسي من هذه العملية هو استخدام القوة الامريكية لاسقاط النظام الليبي رغم أن ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة .

كان هذا نفس ما حدث منذ ثلاثين عاما ، حينما بدأ العدوان الثلاثي بعملية قادش الاسرائيلية يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ والتي تلتها عملية موسكتير في الساعة ١٩٠٠ يوم ٣١/ ١٠/ ١٩٥٦ ، والتي بدأت بقيام القوات الانجلو ـ فرنسية بضرب المطارات المصرية ، وبعد ثمان وأربعين ساعة تمت عملية انزال بحرية للقوات الانجليزية الفرنسية في بورسعيد لاحتلال منطقة قناة السويس ثم التقدم غربا لاحتلال القاهرة . وكان الغرض من هذا العدوان الثلاثي ـ أساسا ـ استخدام القوات المشتركة لاسقاط نظام جمال عبدالناصر الذي يمثل دولة مستقلة ذات سيادة .

واذا أسقطنا الفوارق العديدة بين العمليتين ، فان جوهر الوسائل المستخدمة يبقى واحدا وهو استخدام القوة في ممارسة السياسة الدولية .

وبين الحدثين تمت عمليات كثيرة استخدمت فيها الدول العظمى قواتها المسلحة لفرض سياسات معينة ، كما حدث حينما استخدمت بريطانيا قواتها لاحتلال جزر فوكلند ، وكما استخدمت الولايات المتحدة قواتها العسكرية في عملية جرينادا ، وفي عملية انزال قواتها على سواحل لبنان ، بل يحدثنا التاريخ عن وقائع كثيرة لجأت فيها الدول الى استخدام قواتها المسلحة لفض المنازعات بينها ، الأمر الذي يجعلنا نتوقع تكرار ذلك في المستقبل وفي منطقتنا

بالذات ، حيث توارى القانون الدولي ، وتآكلت المنظمات الدولية والاقليمية التي ما عادت قراراتها تلقى احتراما أو تأييدا ، وحيث اختلطت الحدود السياسية بالحدود الامنية ، وحيث اعتدنا على قيام القوات المسلحة للدول باختراق الحدود رأسيا وأفقيا لغرض سياسات معينة .

وعلى ذلك فاهتمامنا سوف يتركز لا على الناحية التاريخية للأحداث ، ولا على صورة المعارك التي تمت على ساحة المعركة المترامية والتي شملت حوض البحر المتوسط وسيناء والجزء الأكبر من الدلتا ، ولكن جل اهتمامنا سوف يتجه الى تقييم استخدام القوة في المنازعات الاقليمية متخذين ما حدث في أزمة السويس كحالة دراسة لهذا التقييم .

الأزمات الاقليمية واستخدام القوة

الأزمة سواء كانت عالمية أو اقليمية ، تعني مجموعة من التفاعلات المترابة بين حكومتين أو أكثر لدول ذات سيادة ، تعيش في حالة صراع شديد ، ولكن بدرجة لا ترقى الى مستوى الحرب والمواجهة المسلحة ، مع الادراك بوجود احتمال عال لنشوبها ووقوعها . وهي تعني في نفس الوقت ادراك صاحب القرار بوجود موقف يهدد المصالح العليا للوطن ، ويتطلب وقتا قصيرا للبت في القرارات الجوهرية اللازمة للتعامل مع تغيرات الموقف .

وبذلك ، فالأزمة ليست بالضرورة صورة من الخلافات المستمرة في التعامل بين الدول . لأن الدول وهي تتعامل مع بعضها البعض انما تواجه بمواقف تتناقض فيها المصالح ، بحيث تعمل الأطراف على الوصول الى حلول وسط لحل الخلافات القائمة . وعادة ما تبدأ الاجتماعات بين الدول بخلافات واسعة لا ترقى الى مستوى الأزمة ، ولكن الحوار المستمر على أساس قاعدة (الارادات الناقصة) يضيق من الفجوات الموجودة حتى يمكن الوصول الى تفاهم يحقق الرغبات الأساسية للأطراف . ويعني ذلك أن الخلافات لا تصل بالضرورة الى سخونة الأزمة ، إذ أنها تكون على مواضيع لا تهدد المصالح العليا للوطن .

والأزمة مرحلة من مراحل الصراع . . والصراع هو تصادم ارادات وقوى خصمين أو أكثر ، يكون هدف كل طرف منها هو تليين - وليس تحطيم - ارادة الطرف الآخر حتى ينتهي الصراع بما يحقق الأغراض الرئيسية للاطراف المتصارعة .

وقد يصل الصراع في احدى مراحله الى درجة الأزمة التي لا ترتفع فيها الأمور الى حد استخدام القوات المسلحة ، أي ما يمكن أن نسميه بالموقف الثوري ، الذي عرفه (ميترنيخ) بأنه الموقف الذي لا يصلح لمواجهته الا استخدام القوة ، أي المعركة والتي هي احدى مظاهر الصراع ، شأنها في ذلك شأن الوسائل الأخرى سواء كانت اقتصادية أو عقائدية أو دبلوماسية ، ولكنها تكون بمثابة التصادم الأقصى ، أو بمثابة (أعلى درجة في سلم التصعيد) كما أطلقنا عليها في كتابنا (الصراع العربي الاسرائيلي بين الرادع التقليدي والرادع النووي) .

وعلى ذلك فالخلافات بين الدول أمر طبيعي لاختلاف مصالحها ، بل لاختلاف مصالح كل دولة بتغير الظروف الداخلية والخارجية التي تؤثر فيها ، أما الأزمات بين الدول فهي حالات طارئة اذا تمكنت الأطراف من تطويقها والتعامل مع أسبابها فانها تذوب ، واذا حدث العكس فان تراكماتها قد تؤدي الى الحرب .

وعموما فيمكن تحديد خصائص الأزمة بأنها :

* نقطة تحول في أحداث متعاقبة أصبحت تهدد الأهداف العليا للدولة .
* تتزايد فيها الحاجة الى التدخل الفعلي المؤثر لمواجهة ظروفها المتطورة .
* قرارات مواجهتها مصيرية ، اذ تشكل نتائجها تغييرا في مستقبل الأطراف .
* تتميز بدرجة عالية من الشك في الخيارات المطروحة .
* تحتم السيطرة على الأحداث ، حيث ان ادارة الأزمة تتم في محيط نقص من المعلومات وغموضها وتغيرها ، وتحت ضغط نفسي كامل .
* تسبب حالة عالمية أو اقليمية من التوتر بطريقة مفاجئة ، وتكون عاملا لجذب قوى أخرى للمشاركة بدرجات متفاوتة حسب تأثر مصالحها بتطورات الأزمة .

الخطر والفرصة

والأحداث التي أدت الى العدوان الثلاثي كانت أزمة في حدود المفاهيم التي أوضحناها ، فقد كانت احدى حلقات أحداث متعاقبة كانت تهدد المصالح العليا للأطراف . وكان لا بد لهؤلاء الأطراف من مواجهة التطورات الخطيرة التي كانت تتابع . كما اتخذت قرارات مصيرية توقف عليها مستقبل العلاقات بين الأطراف ، وكان الغموض يكتنف كل سبلها .

وأدت الى اهتزاز الاستقرار الاقليمي ، والتدخل العالمي في مراحلها النهائية . ولكن هناك سؤال هام لا بد من الاجابة عنه : هل كان تأميم الشركة هو السبب الحقيقي للعدوان الثلاثي ، أم أنه كان ذريعة للتدخل المسلح كما هو الحال مع عديد من أحداث التاريخ ؟ حدث هذا في سيراجيفو صيف عام ١٩١٤ ، والذي قتل فيه الارشيدوق (فرانسيس فردينانـد) ولي عهد النمسا والمجر بيد طالب صربي والذي تسبب في اندلاع الحرب العالمية الاولى . وينطبق هذا أيضا على حادث المشادة بين المالطي والحمّار في الاسكندرية صيف ١٨٨٢ ، والذي كان ذريعة لقيام الأسطول البريطاني بضرب الاسكندرية ، ثم احتلال مصر بعد ذلك احتلالا دام أربعة وسبعين عاما .. وحادث القاء باي تونس منديله في وجه السفير الفرنسي مما أدى لاحتلال فرنسا لبلاده بعد ذلك .. أو حادث مطار روما ثم مطار فيينا عام ١٩٨٦ ، والذي أدى لتدخل القوات الأمريكية ضد ليبيا وضرب موانئها ومطاراتها ..

سبب أم ذريعة ؟

كان التأميم علامة على طريق طويل شاق زرعت فيه علامات كثيرة خطيرة أقلقت الاستعمار ، وجعلت فكرة العدوان تختمر في ذهنه خوفا على مراكزه الوطيدة في المنطقة التي بدأت تهتز تحت ضربات الثورة المصرية الوليدة مما هدد مصالحه .

من معالم هذا الطريق معركة رفض الدخول في مناطق النفوذ ومقاومة حلف بغداد ، معركة حرب التحرير في قناة السويس ثم اتفاقية الجلاء ، معركة عدم الانحياز ، معركة كسر احتكار السلاح وعقد الاتفاقية الاولى مع تشيكوسلوفاكيا ، معارك القضاء على الرجعية والرأسمالية المستغلة والاقطاع .

كان كل من هذه الأحداث بمفرده كفيلا باستدعاء التدخل بالقوة بمفاهيم الفترة التي حدثت فيها ، وجاء التأميم ليكون القشة التي قصمت ظهر البعير .

وقد قام الاستعمار بمحاولات عديدة لاحتواء الثورة تارة بالوعود وتارة بالوعيد ، الا أن الثورة سارت في طريقها لا تلوى على شيء مما هدد مصالح الاستعمار . ولكن كانت معركة كسر احتكار السلاح وعقد الاتفاقية الاولى مع تشيكوسلوفاكيا الذريعة الأساسية لتدبير العدوان لأنها كانت عاملا يتعلق باختلال موازين القوى . اذ كان انشاء اسرائيل كجسم غريب في قلب الوطن العربي هو الوسيلة الفعالة ، للحفاظ على المصالح الغربية في المنطقة كعامل يحول دون انتشار الحركات الوطنية والمد القومي الذي كان يظهر بين وقت وآخر على شكل فورات لم تخطئها العين الاستعمارية ، وأخذت تعد العدة لاحتوائها .

وما كان يمكن للحظة أن تؤتي ثمارها الا عن طريق التحكم في موازين القوى بين اسرائيل والأقطار العربية . للحفاظ على الاستقرار الاقليمي في ظل النظام الجديد . فكان ما عرف بالاتفاق الثلاثي الذي تم بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة في مايو ١٩٥٠ ، والذي تعهدت فيه الدول الثلاث بالعمل المشترك ضد أي محاولة لاحتلال الارض في المنطقة باستخدام القوة ، وكانت هذه الدول قد عملت جاهدة على أن تظل « اسرائيل» محتفظة بالتفوق ضد القوى العربية . فاذا ما اختل هذا التوازن فان المصالح الغربية سوف تقع تحت تهديد مباشر ، وقد اتفقت الدول الثلاث على التشاور المستمر للتأكد من أن شحنات الأسلحة التي تنقل للدول المعنية ـ أي اسرائيل والعرب ـ لا تخل بالتوازن القائم ، وكان الأمل أن يتحقق ذلك بصفة مستمرة عن طريق مصادر السلاح الغربية ، والحيلولة دون اقتراب هذه الدول من السوق الشيوعية للسلاح .

ودون الدخول في أي تفاصيل خاصة باتفاقية السلاح بين مصر وتشيكوسلوفاكيا في أكتوبر ١٩٥٥ ، تذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية حاولت جهدها ايقاف اتمام الصفقة ، فقامت

الخارجية الامريكية بارسال جورج آلان الى القاهرة في محاولة يائسة انتهت بالفشل ، ويعلق ايزنهاور في كتابه "النضال من أجل السلام" على ذلك قائلا : (ان المحاولات الشيوعية لاحداث القلقلة أصبحت مستمرة ، وقد اقتنع الحمر بأن الشرق الأوسط يشكل طريقا يخترق العالم الحي ، ويوجد خلافات في التعاون القائم بين البلاد الغربية ، ولا يمكن للولايات المتحدة أن تقف مكتوفة الأيدي ازاء ذلك ، وفي الظروف العادية كان يمكننا أن نترك لبريطانيا اتخاذ المبادأة للحفاظ على المصالح الغربية ، أما وقد أصبح الأمر يتعلق بتهديد سوفيتي فان الولايات المتحدة لا يمكن أن تلتزم الصمت وعلينا أن نتصدى لهذا التهديد .

بين دالاس ومولوتوف

وفي الأسبوع الثاني من أكتوبر عام ١٩٥٥ ، تحدث فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة مع مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي في هذا الشأن ، منذرا بأن الصفقة التشيكية قربت من حدوث حرب في المنطقة ، وزادت من شعور الكراهية ضد الاتحاد السوفيتي لدى الامريكيين . بل قام ايزنهاور بكتابة رسالة الى الرئيس نيكولاي بولجانين قال فيها : (لقد تسلمت رسالتك في ٢٢ أكتوبر بخصوص صفقة السلاح لمصر ، والتي ذكرت فيها أنه لا داعي للقلق من هذه الصفقة ، ولكن على الرغم من ذلك وبناء على معلوماتي فان هذه الصفقة قد زادت من خطر انتشار أعمال العنف في المنطقة ، ولقد طلبت من دالاس أن يقوم بمزيد من المباحثات مع مولوتوف في جنيف بهذا الخصوص) . كل هذه الضجة كانت بسبب انفلات السيطرة على ميزان القوى .

وعلينا أن نضيف الى وجهة النظر الامريكية في هذه الصفقة وجهة نظر بريطانيا ، نعتمد فيها على المذكرة السرية التي أعدها (ايفلن سكاير) ، الذي كان نائبا لوزير الخارجية البريطانية لشؤون الشرق الأوسط في ذلك الوقت ، والتي قال فيها بالنص الحرفي : (لقد كنا نفترض حتى الآن أن الخطر السوفيتي في الشرق الاوسط إما أن يأخذ شكل العدوان المباشر أو الأعمال الهدامة بالنمط الشيوعي المألوف . وقد كان اعتمادنا على الرجال الاقوياء مثل نوري السعيد واللواء زاهدي والبكباشي عبدالناصر لاخماد النشاطات الشيوعية ، واعتمدنا أكثر على التنمية وتحسين مستوى المعيشة ، وما الى ذلك نتيجة الثورة الجديدة في الدول العربية . ولكن وجد الروس طريقة مختلفة تماما لاختراق المنطقة ، فقد اختاروا أقوى دكتاتور وأشد المقاومين للشيوعية في الشرق الاوسط ليؤيدوه وبغريزة تكاد تكون معصومة من الخطأ ، اختاروا ذلك الشكل من الاغراء الذي لا يمكن لمثل هذا الرجل أن يقاومه . والذي سيكون مضربا لكل الدول العربية الأخرى ، اذ أن تزويد الأسلحة يعني بالنسبة لأي جار لاسرائيل شيئا واحدا فقط ، هو زيادة قوته ضد اسرائيل . وفي الواقع ، فقد استطاع الروس أن يجدوا نقطة الضعف المركزية لموقفنا في المنطقة ، ألا وهي وجود اسرائيل كمحمية للغرب . وقد اتخذ الروس قرارا بتأييد العرب ، وهذه دون شك ضربة معلم ، وربما يعتمد مستقبل هذا البلد ومستقبل أوروبا الغربية على رد فعلنا ضدها ، واذا استطاع الروس اقناع الرأي العام العربي بأنهم مؤيدون للعرب ضد اسرائيل وأن القوى الغربية تقف الى جانب اسرائيل فانهم سينجحون نسبيا في انتزاع موطىء قدم .

وبتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٥٥ ، كتب المارشال (تمبلر) رئيس هيئة الدفاع عن الامبراطورية تقريرا مبدئيا قال فيه : إن الصفقة أدت الى انقلاب في هيكل الدفاع عن المنطقة في الشرق الأوسط ، وان الاتحاد السوفيتي قفز فوق حلف بغداد وأصبح له وجود سياسي مؤثر في قلب الشرق الأوسط ، أي في القاهرة للأسباب الآتية :

١ ـ ان صفقة السلاح مع مصر كبيرة ، وتتضمن تسليح ثلاث فرق مدرعة طبقا للمعلومات المتوافرة لدى ادارة المخابرات العسكرية البريطانية .

٢ ـ ان تسليح الجيش المصري على هذا النحو سوف يحدث خللا في موازين القوى الاقليمية ، وسوف يمكن مصر من ممارسة دور أكبر في الشرق الاوسط .

٣ ـ ان اتجاه مصر الى موسكو للحصول على السلاح يعني أنها لن تنضم الى حلف دفاعي غربي .

٤ ـ ان المثل الذي ضربته مصر سوف يغري آخرين بأن يسلكوا نفس الطريق .

٥ ـ سوف يؤدي هذا الوضع الى سباق تسلح في المنطقة ولا يستبعد أن تقرر«اسرائيل»أن تهاجم مصر قبل أن يتمكن الجيش المصري من استيعاب أسلحته الجديدة ، ولذلك فان مستقبل الاستقرار في المنطقة أصبح مستبعدا لفترة طويلة .

٦ ـ ان حلف بغداد والحزام الشمالي وخط المواجهة مع الاتحاد السوفيتي من تركيا الى باكستان مهدد بفقد فاعليته ، لأن الاتحاد السوفيتي قفز وراءه وطلب المارشال تمبلر بضرورة التنسيق مع الولايات المتحدة بقصد استعادة زمام المبادأة في المنطقة بما يحقق مصالح الغرب على المدى القريب والبعيد .

ومرة أخرى نجد أن توازن القوى في المنطقة كان حافزا لتشكيل السياسة البريطانية في المنطقة .

•

وأخيرا علينا أن نرجع الى أقوال موشيه دايان رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلي عام ١٩٥٦ فنجده يقول (رأت اسرائيل في صفقة الأسلحة التي تمت بين تشيكوسلوفاكيا ومصر في سبتمبر ١٩٥٥ ، الدلالة الحاسمة على الهجوم الأخذ في الاقتراب ، فقد حصلت مصر في هذه الصفقة على أسلحة حديثة في معظمها ، ورأت حكومة«اسرائيل»في هذا خطوة تمهيدية يقوم بها حكام مصر لتحقيق أهدافهم ضدها ، وافترضت كذلك أن توافر الأسلحة في أيدي العرب بدرجة تتفوق كثيرا من ناحية الكم والكيف عما في حوزة اسرائيل سوف يحفز العرب على استغلال هذه الأفضلية العسكرية ويحثهم على الهجوم . لقد اشتملت الصفقة ـ فيما اشتملت ـ على ٥٣٠ عربة مدرعة ، ٢٣٠ دبابة ، ٢٠٠ سيارة مدرعة ، ١٠٠ مدفع ذاتي الحركة ، حوالي ٥٠٠ مدفع من أنواع مختلفة ، ما يقرب من ٢٠٠ طائرة قتال وقاذفة قنابل وطائرات للنقل ، وكذلك أدوات بحرية حربية ، (مدمرات وطوربيدات وغواصات وما الى ذلك) ، وهذه الصفقة في ضوء ما اعتادت دول الشرق الاوسط أن تعقده من صفقات تبدو أكثر مما هو عادي،فضلا عن أن اضافة هذه الصفقة الى ما هو موجود فعلا لدى مصر قد سبب زيادة اضطراب ميزان القوة الذي كان مهتزا في الأصل بين «اسرائيل»والبلاد العربية . فقد كان لدى مصر عند عقد الصفقة ما يقرب من ٢٠٠ دبابة . وكان لدى اسرائيل مثل هذا العدد ، والآن أصبحت القوة المدرعة لمصر ـ عدا ما لدى العرب ـ ٤ أضعاف ما لدى اسرائيل . وحدث مثل هذا الخلل في القوات الجوية .

فكان لدى مصر نحو ٨٠ طائرة نفاثة في مقابل ٥٠ متيور واورتجان لدى « اسرائيل » . ولكن زادت الصفقة التشيكية عدد طائرات القتال النفاثة لدى مصر الى ٢٠٠ طائرة ، أي الى ٤ أضعاف ما لدى «اسرائيل»وحدث مثل هذا في المدفعية وفي القوات البحرية وفي القوات البرية ، وكان التفوق في الكم والكيف الذي حصلت عليه مصر عاملا حاسما في قلب كفتي ميزان القوة رأسا على عقب . فقد كانت طائرات الميج والاليوشن تتفوق على الاقل بدرجتين على الميتور والاورتجان كما أن الدبابات الروسية الحديثة ت ـ ٣٤ كانت أفضل الى حد كبير من دبابات الشيرمان القديمة م ـ ٣ التي لدى«اسرائيل». ومع زيادة القوة العسكرية المصرية زادت مكانة عبدالناصر وسط شعوب المنطقة ، وأصبح الزعيم البارز الذي له الصدارة في كل البلاد العربية . وفي ١٩/ ١٠/ ٥٥ أقيمت القيادة المشتركة للجيشين المصري والسوري ، ثم انضمت الأردن وأصبحت اسرائيل محاطة من جهاتها الثلاث ـ من الجنوب والشرق والشمال ـ بجيوش عربية خاضعة لقيادة واحدة . ولم تستطع حكومتها أن تغالط نفسها وأن تتجاهل الهدف الذي من أجله قامت هذه الوحدة العسكرية وهو الاستعداد للهجوم على اسرائيل .

نقطة الصعود القصوى

كان توازن القوى قد اهتز على المستوى العالمي وعلى المستوى الاقليمي الأمر الذي لم يكن في استطاعة القوى الاستعمارية السكوت عنه . . ولم يبق الا ايجاد المبرر أو الذريعة لاستخدام القوة لاعادة الأمور الى ما كانت عليه . وكان تأميم القناة هو الذريعة للعدوان الثلاثي على مصر،والغرض الأساسي له هو اعادة السيطرة على توازن القوى الاقليمي للمحافظة على مصالح الأطراف العالمية □



يافاتني

شعر : يعقوب السبيعي

على وَرْدِ ثغرِكِ عيني نَدَى
وصدري ربيعٌ ، وصبري فِدَى
وفي همسِ عطرِكِ لا ينتهي
شُرودِيَ بين الصَّدَى والصَّدَى
على مَسْقَطِ الضوء في مهجتي
تلألأتِ عِشقاً ، وصوتَ هُدَى
أُحبُكِ . . ! . . عفواً . . أنا فوق ذا
ولكنَّ طيراً بصدري شَدَا
يقولُ لوجهكِ : يا فاتِنِي
لقد نَضَّرَ الله فيكَ المَدَى
أراكَ ، فأذهَلُ . . لا أحتوي
على غيرِ خوفِيَ أنْ تبعُدا

***

على وَرْدِ ثغرِكِ حين انتشي
ملاكٌ ، يَمُدُّ لوصلي يَدَا
فَيَنسى إلى شفتيكِ دمي
ليشربَ مِنْ ثغركِ المَوْعِدَا
يُمازجُ - واهاً - رحيقَ المُنَى
ليَخْلُدَ ماشاء أنْ يَخْلُدَا

***



أحسُّ إذا شدّني خاطري
إليكِ ، وإنْ راحَ بي واغتدَى
كأنّي نسيجُ هوىً دافِءٍ
تناولني نابجي ، وارتدَى

***

لغيركِ ماامدَّ قلبي يدًا
ولا أوْشكَ العُمْرُ أنْ ينجُدَا
ولا سُقتُ هذا الضياءَ الذي
يرُش على ظلِّكِ العَسْجَدَا
ولا أذعنَ المستحيلُ الذي
قد استعبدَ الأملَ المُقتدَى
لقد كَشَفَ الوَصْلُ غَيْبَ الهوَى
فها .. كادَ يبدو لنا أوْ بدَا
وأهدَى إلى كلِّ يومٍ مَضَى
عِناقًا ، فما مرَّ يومٌ سُدَى
إذا كنتِ قربي فما همّني
أعيشُ غداً أو أموتُ غدَا



المستقبل السكاني في الوطن العربي

بقلم : الدكتور عبدالاله أبو عياش

يستشرف الوطن العربي المستقبل من خلال معدلات عالية من النمو السكاني، وزيادات كبيرة في أحجام تجمعاته السكانية ، وتبقى المشكلة السكانية - رغم تعدد وجهات النظر فيها - هي القضية التنموية الأولى التي تؤرق خواطر المنظرين والمفكرين في أرجاء هذا الوطن ، لا شك أن هناك إفراطا في معدلات النمو السكاني ، وافتقارا إلى السياسات السكانية ، والضوابط الكفيلة بالمحافظة على علاقات متوازنة بين موارد الوطن العربي وأعداد سكانه .

إن عدم القدرة على الدخول الحذر الواعي إلى المستقبل السكاني العربي سيؤدي إلى مزالق وعواقب واسعة ، ستترك آثارها السلبية على واقع هذا الوطن ، ومستقبله الاقتصادي ، والاجتماعي ، في الوقت الذي تتجه فيه الدول المتقدمة إلى وضع ضوابط وكوابح على النمو السكاني لتستقر معدلاته في حدود الصفر ، كما هو الحال في بعض الدول الأوروبية ، كسويسرا ، وألمانيا الغربية ، والسويد ، أما الزيادات السكانية في الوطن العربي فمازالت تتسارع بشكل مفرط ، وبدون حساب .

وتستمر ظاهرة النمو السكاني في الوطن العربي بشكلها التضخمي ، رغم أن الهياكل الاقتصادية وبرامج استغلال الموارد الطبيعية والبشرية فيه لم تحقق المستويات المطلوبة من النجاح ، على الرغم من ارتفاع مستويات المعيشة في العديد من الدول العربية ظاهريا ، إلا أنها لم تتطور إنتاجيا بشكل مواز لها ، مما يفرغها - في النهاية - من مضامينها ، وهذا يعني أن جزءاً كبيرا من الارتفاع في مستويات المعيشة كان مصطنعا ، ولم يرتبط بتحسن إنتاجية الفرد ، وعطائه ، وإن كان النفط قد أدى هو أيضا إلى تحسن

في مستويات المعيشة ، إلا أنها كانت ظاهرة موسمية ومرحلية ، ارتبطت بزيادة أسعاره وتدفق عوائده ، ومع أن للنفط آثاره الايجابية ، إلا أنه أفرز في نفس الوقت آثاراً سلبية ، امتدت إلى معظم أرجاء الوطن العربي ، وكان من أبرزها الخلل الذي شهدته خارطة التوزيع السكاني داخل دوله ، وعبر حدودها .

الهجرة إلى بلاد النفط

لقد أدت الهجرة إلى بلاد النفط إلى ارتفاع مستويات المعيشة مرحليا ، وتزايد الطلب على المنتجات الاستهلاكية والسلع الخدمية ، وإلى تزايد الاستيراد والنهم الاستهلاكي ، وقد صاحب ذلك تصاعد في الواردات من المنتجات الأجنبية من أطراف العالم الأربعة ، وفي نفس الوقت لم تتحسن إنتاجية الفرد ، لأن الجهود تركزت في قطاعات الخدمات والبنى التحتية بشكل رئيسي ، والأسوأ من ذلك كله أن الهجرة إلى بلاد النفط قد أدت إلى تفريغ أرياف الوطن العربي من أفضل قواه العاملة ، فتدنت المنتجات من الأراضي الزراعية ، وارتفعت تكاليفها ، وهجرت مساحات واسعة من الأراضي المنتجة ، ولم تقتصر الهجرات على الدول النفطية ، بل تعدتها إلى المدن الكبرى داخل الدول العربية ، حيث تركزت معظم الاستثمارات والانفاقات المصاحبة لتحويلات العاملين في البلاد النفطية .

إن الاشارة إلى النفط هنا ـ وإن بدت اعتراضية ـ تهدف إلى توضيح أن استمرار الزيادات السكانية التي أمكن استيعاب جزء جوهري منها في مرحلة الثورة النفطية سوف يكون من الصعب السيطرة عليها في فترات الهدوء النفطي ، وسيؤدي ذلك إلى حدوث اختناقات في أسواق العمل العربي ، وإلى تفاقم حدة البطالة في مرحلة التراجع النفطي ، والركود الاقتصادي المصاحب له ، ثم تعود المشكلة السكانية مرة أخرى إلى مسرح الاضواء باعتبارها إحدى القضايا الرئيسية التي ستواجه مستقبل الوطن العربي ، وتمثل الأرقام والتقديرات المستقبلية أفضل المؤشرات التي يمكن استخدامها للتدليل على حجم المشكلة ، وأبعادها . تقول تقديرات الأمم المتحدة إن عدد سكان الوطن العربي سيقفز من حوالي ١٩٣ مليون نسمة في عام ١٩٨٥ إلى حوالي ٢٨٨ مليون نسمة في نهاية هذا القرن ، وهذا يعني أن عدد السكان سيزيد خلال السنوات الممتدة بين هذين التاريخين حوالي ٩٥ مليون نسمة .

وستبقى مصر في ضوء هذه التوقعات مركز الثقل السكاني الرئيسي في الوطن العربي ، حيث سيزيد عدد سكانها من حوالي ٤٧ مليون نسمة في عام ١٩٨٥ إلى ما يقارب ٦٥ مليون نسمة في نهاية هذا القرن ، وستأتي المغرب بالمرتبة الثانية ، حيث من المتوقع أن يزيد عدد سكانها من حوالي ٢٤ مليون نسمة إلى حوالي ٣٦ مليون نسمة ، وذلك خلال نفس الفترة ، وسيتراوح سكان كل من السودان والجزائر بين ٣٠ إلى ٣٣ مليون نسمة . وتشير هذه الأرقام إلى جسامة المسئوليات الملقاة على عاتق هذا الوطن ، وهذا يقتضي ـ خلال السنوات القادمة ـ استيعاب أعداد ضخمة من السكان ، وتوفير الخدمات والمرافق الضرورية لهم .

ترجمة الأرقام

إذا ما ترجمت هذه الأرقام السكانية إلى احتياجات مستقبلية في مجالات الخدمات فإنها ستعني ما يلي :

١ ـ ضرورة توفير أكثر من ١٨ مليون وحدة سكنية حتى نهاية هذا القرن ، وذلك بافتراض أن حجم الأسرة العربية سيكون حوالي ستة أشخاص ، وإذا افترضنا أن متوسط تكلفة الوحدة السكنية سيكون في حدود ٣٠ ألف دولار فإن الاستثمارات المطلوبة لقطاع تشييد المساكن تقدر بحوالي ٥٤٠ بليون دولار حسب الأسعار الحالية . وتمثل هذه الأرقام التقديرية الحدود الدنيا ، إذ أنها لا تشمل المساكن المتداعية التي هي بحاجة إلى تجديد أو إعادة بناء ، كما أنها لا تتضمن الاحتياجات السكنية للجماعات السكانية التي لا تتوفر لها مساكن مناسبة . والمعروف أن هناك ملايين البشر في أرجاء الوطن العربي يعيشون في أحزمة الفقر التي تتناثر فيها مدن الصفيح والأكواخ .

٢ ـ سيشتد الطلب خلال السنوات القادمة حتى نهاية هذا القرن على خدمات التعليم ، خاصة بناء

وتجهيز المدارس الجديدة القادرة على استيعاب ما لا يقل عن ثلاثين مليون طالب وطالبة ، وهذا يعني أن الوطن العربي سيكون بحاجة إلى بناء ما يتراوح بين ٣٠ ألف إلى ٦٠ ألف مدرسة للمراحل التعليمية المختلفة ، وستتراوح الاستثمارات المطلوبة لهذه الغاية بين ٩ بلايين إلى ١٨ بليون دولار في حدودها الدنيا .

٣ـ سيزيد الطلب على الخدمات الصحية في أقطار الوطن العربي، حيث ستظهر الحاجة لبناء ما لا يقل عن ٢٠٠٠ مستشفى ، يتوفر فيها ما لا يقل عن ٧٥ ألف سرير ، وسيحتاج هذا الوطن إلى ما لا يقل عن ٥٠ ألف طبيب ، لتقديم الرعاية الصحية للسكان .

٤ـ سيؤدي استمرار النمو السكاني في أقطار الوطن العربي إلى زيادة الضغوط والطلب على المواد الغذائية ، مما يضاعف من حدة تبعيتها ، ويوسع مدى انكشافها الاقتصادي . والمعروف أن تكاليف المستوردات الغذائية للوطن العربي تزيد في الوقت الحاضر عن ٢٥ بليون دولار ، وتتركز المستوردات التي تقدر بأكثر من ٣٥ مليون طن من السلع والمنتجات الغذائية في الحبوب بشكل رئيسي ، باعتبارها عماد الغذاء اليومي للسكان في الأقطار العربية .

وإذا لم يستطع الوطن العربي زيادة قدراته الانتاجية من الغذاء فإن الطلب على المنتجات الزراعية والغذائية فيه سيصل إلى أرقام مدهشة ، تتجاوز ٥٥ مليون طن سنويا ، وستزيد تكاليف هذه المستوردات سنويا عن ٣٦ بليون دولار حسب الأسعار الحالية ، وهذا يعني أن التكاليف ستكون في المستقبل أكثر من هذا الرقم ، نظرا للزيادات المتوقعة في الأسعار خلال السنوات القادمة . إن هذا الأرقام المفزعة التي ستصاحب النمو السكاني ، المتعلقة بمستقبل الأمن الغذائي ، تقتضي أكثر من وقفة خاصة ، إذا ما علمنا أنه رغم كل المحاولات والجهود المبذولة ، والأساليب التقنية المستخدمة في القطاع الزراعي في الوطن العربي فإن انتاجية المساحة الزراعية فيه ما زالت تشكل ٥٠٪ فقط من مثيلتها في الدول المتقدمة .

المضحك المبكي

ليس هناك مجال للشك إذن في أن الأولوية الاستثمارية الأولى في الوطن العربي يجب أن تعطى لقطاع الانتاج الزراعي ، باعتباره العمود الفقري للأمن الغذائي العربي ، وأن الزيادات السكانية العالية التي تمت الاشارة إليها ستزيد من الأعباء الاستثمارية المطلوبة في هذه المجالات الحيوية ، ومما يضاعف من مسئوليات المستقبل ، أن الدول العربية تعاني من أعباء الديون الخارجية التي أخذت تثقل كواهل اقتصادياتها، فالمعروف أن الديون الخارجية على الدول العربية تزيد ـ في الوقت الحاضر ـ عن ١٠٠ بليون دولار ، والمضحك المبكي أن الدول العربية الرئيسية التي تتوافر فيها مقومات الأمن الغذائي ، وإمكانات الانتاج الزراعي ـ ممثلة بمصر والسودان والمغرب والجزائر وتونس وسوريا والأردن ـ هي الأكثر تحملا للديون الخارجية ، حيث تشكل ديونها حوالي ٦٨٪ من مجمل ديون الوطن العربي .

إن هذه الأرقام تعيد إلى الأذهان السؤال القديم



الحديث : هل الزيادات السكانية الكبيرة في مصلحة الوطن العربي ؟ وهل يمكن للوطن العربي استيعاب الأعداد السكانية الكبيرة المتوقعة حتى نهاية هذا القرن ؟ وهل في إمكانه توفير الاحتياجات الأساسية لهم ؟

وعلى الرغم من أن هناك آراء تعتقد بأن النمو السكاني في صالح هذا الوطن ، وأن المشكلة الرئيسية ليست في الزيادات السكانية ، وإنما في سوء التوزيع ، واستغلال الموارد ، والنقص في الاستفادة من التقنية ، إلا أن هذه الورقة تتبنى رأيا آخر يدعو إلى ضرورة ضبط النمو المفرط في سكان الدول العربية وتنظيمه ، والقضية الجوهرية هنا ليست مجرد زيادات كمية بقدر ما هي تطوير نوعية الانسان وتحسينه بحيث يتحول من مجرد آلة مستهلكة إلى فرد منتج ، قادر على تحقيق الاكتفاء الذاتي في مجتمعاته ، والحقيقة التي لا بد من تقبلها أن هناك فروقا شاسعة بين الأحلام والتمنيات من جهة ، والواقع وحقائقه من جهة أخرى . إن النظرة المتفائلة للزيادات السكانية يمكن أن تكون صائبة في الدول المتقدمة ، أما في الدول النامية فإن مثل هذه النظرة تبقى مجرد أحلام وردية .

أحلام وكوابيس

إن المستقبل الواعد لهذا الوطن لا يعتمد على مجرد الزيادات السكانية والتناسل غير المحدود ، وإنما على القدرة الدائمة في الملاءمة بين موارد هذا الوطن وقدراته البشرية ، وأعداد سكانه ، واحتياجاتهم ، وما لم تعالج الأمور السكانية من خلال نظرات سكانية واعية ومرنة فإن الأحلام يمكن أن تتحول إلى كوابيس مفزعة ، والتمنيات تصبح سرابا خادعا ، وتكون النتيجة ـ شئنا أم أبينا ـ مزيدا من شرائح الفقر وجيوبه ومآسيه ، وهي أوضاع تحتاج في النهاية إلى معالجات وعمليات جراحية ماهرة قبل أن تستفحل وينفرط عقدها ، فالتفاؤل (الرومانسي) والأحلام الوردية المنطلقة من التمنيات والأوهام تبقي الأوضاع في حلقات مفرغة .

وحتى الموارد التي يتحدث عنها المتفائلون تبقى محدودة ، ويجب أن يتميز استغلالها بنوع من الترشيد والعقلانية التي تبقي هذه الموارد في إطار التوازن البيئي ، وفي إطار القدرات التحملية التي لا تستطيع البيئات العربية تجاوزها ، وما عدا ذلك فإن استغلال الموارد يتحول إلى استنزاف مدمر ، يقود ـ في النهاية ـ إلى تخريب بيئة الانسان العربي وتدميرها ، وهي مصدر حياته وبقائه ومستقبله ، ولهذا فالترشيد والتقنين في استغلال الموارد وعدم هدرها واستنزافها يقعان في قلب عملية التنمية الواعية الهادفة إلى إدامة الموارد والثروات أطول فترة ممكنة من سنوات المستقبل ، وإن الاستغلال الأهوج ، المفرط ، المدمر للثروات ، عمل مخالف لأبسط مفاهيم التنمية .

لهذا فإننا نؤكد على القول بأن أولويات الترشيد والتقنين يجب أن تبدأ في عوامل النمو السكاني ، بحيث تؤدي إلى تباطؤ الزيادات السكانية ، وضبطها في المستويات التي تحقق الموازنة بين القدرات الانتاجية ، والاحتياجات الاستهلاكية في هذا الوطن ، وحتى يتحقق ذلك فإن المشكلة السكانية في الوطن العربي ستبقى على رأس همومه المستقبلية . □

في العدد القادم من العربي :

فتحي رضوان يكتب عن « الثقافة والشارع »

د. يحيى الجمل يثير قضية : تعالوا نتعلم كيف نختلف !

في سبيل مدرسة رائدها الحبور والفرح المبدع

المدرسة والمتع الثقافية!

بقلم : الدكتور عبدالله عبدالدائم

في جلبة الحديث الذي يسلط الأضواء على الطرائق والتقنيات التي تستخدمها المدرسة ، وفي حمّيا البحث عن دور المدرسة في تلبية حاجات المجتمع المختلفة ، ولا سيما حاجات القوى العاملة ، يكاد المربون ينسون المهمة التي لا تستقيم سائر المهمات بدونها ، وهي ما ينبغي ان تسعى اليه المدرسة من رعاية لمحتوى التربية ومضمونها ، وبوجه خاص من تعهد للثقافة بمعناها الواسع ، فكرية كانت أو أدبية أو فنية أو علمية أو غير ذلك .

قد يبدو من المكرور أن نقول إن على رأس مهمات المدرسة تزويد الناشئة بزاد ثقافي غني ، بل قد يظن بعضهم أن هذه المقولة بدهية تجاوزها الزمن ، وأنها مهمة تحققها المدرسة سهوا رهوا ، وأنها ليست في حاجة الى مزيد ، بمقدار ما هي في حاجة الى أن تربط بالأهداف الجديدة التي أولتها الدراسات الحديثة للمدرسة ، وعلى رأسها أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة .

أي ثقافة نعني ؟

وقد يكون هذا الظن صحيحا اذا أدركنا من الثقافة معناها الضيق المجدب ، نعني تزويد ذاكرة الطالب بكتلة من المعارف والعلوم . أما حين نضع الثقافة في موضعها الصحيح ونفهمها حق فهمها ، نجد أن المدرسة ـ في كثير من أنحاء العالم ـ قلما تضطلع بدورها الثقافي الحقيقي ، لا سيما بعد انتشار وسائل البث الجامعية وسائر ما يعرف باسم المدرسة الموازية .

أجل ، الثقافة التي تعرّف الناشىء بعصره وزمانه ، وتربط هذا العصر والزمان بالتجربة الثقافية الماضية ، وتجعله يرى العالم رؤية جديدة ، من خلال فهمه له فهما جديدا ، وتمكنه من تكوين نظرة متكاملة عن الأشياء بدلا من النظرة المبعثرة المجزأة ، وتحرّك عقله كما تحرّك وجدانه ولبّه ، وتعرف أن توقظ البراكين الخامدة في أعماقه ، وتستطيع بالتالي أن تثير لديه متعة المعرفة وما فيها من اشراق ووجد ، مثل هذه الثقافة قلما تعني بها مدارسنا ، وقلما يدرك الكثيرون من المربين آفاقها

وأبعادها الخلاقة . بل لقد أهمل شأن مثل هذه الثقافة ، وضاعت حين اختلط امرها بآفة مرذولة أنكرتها التربية الحديثة ، آفة الاقتصار على امتلاك المعلومات والمعارف ، وآفة التضخم المعرفي .

لقد وجهت التربية الحديثة جهدها منذ الربع الأول من هذا القرن حتى الآن الى أن تبتدع الطرائق التربوية القادرة على اثارة اهتمام الطالب ، وعلى ابتلاعه للمعرفة من غير تأب أو صد . وكأن الموضوعة الصريحة أو المضمرة التي انطلقت منها هي اعتبار المعرفة التي تقدم جرعات من الدواء المر ينبغي أن نسعى بالطرائق الناجعة الى أن نغلفها بالحلوى .

وليس المجال مجال مناقشة اتجاهات ما سمي بالتربية الحديثة ، كما أننا لا ننكر أثر الطريقة ، لا سيما في المراحل الأولى من الدراسة . غير أن ما ننكره هو اهمال المحتوى الثقافي للعمل المدرسي ، وعدم ادراك الدور الكبير الذي تستطيع أن تلعبه الثقافة الغنية البارعة في تحبيب المدرسة الى الطفل ، وفي تعلقه العميق بالعلم والمعرفة . بل نزعم أن « المتعة » التي يخلقها تذوق مثل هذه الثقافة العميقة هي المتعة الحقة التي ينبغي أن تبحث المدرسة عنها قبل سواها .

محتوى التربية قبل طرائق التربية :

ويزيد في أهمية هذا القول ما نجده من سيطرة وسائل البث الجماعية ، والمدرسة الموازية . ولسنا ممن لا يقدرون أثر تلك الوسائل وهذه المدرسة . إن شأنها كبير في أن تنقل العلم الى كل انسان ، وفي أن تفتح آفاقه أمام كل متطلع . وإن من مزاياها أنها تقدم تجربة معاشة حية ، وأن ما تعرضه من ثقافة يتسم بالحيوية والقدرة على التأثير . إنها تقدم ثقافة تستأثر بالحواس وتمتلك القدرة على تفجير صدمات فكرية وعاطفية الخ . .

غير أن أثر هذه الثقافة التي تبثها تلك الوسائل ـ على قيمتها وشأنها ـ أثر سطحي ـ كما أثبتت الدراسات الكثيرة ـ بل كثيرا ما يكون آنيا ينسى بعد حين . وفيها يختلط الواقع بالخيال ، وتأخذ الأمور شكل « مشهد » يراه الانسان ولكنه لا يعنيه أن يكون له شأن فيه . وهي فوق هذا وذاك معرضة في كثير من الأحيان الى أن تفقد معناها وسط مشاغل حياتنا .

الثقافة المتكاملة :

من هنا كان شأن الثقافة الناضجة المتكاملة التي ينبغي أن تقدمها المدرسة ـ في نظرنا ـ شأنا لا ينازعها فيه منازع . بل هو شأن يسد كثيرا من ثغرات التعرض للثقافات التافهة أو العارضة أو الملوثة أو الخداعة .

ولا نعني بمثل هذه الثقافة مجرد ما نعرفه ونألفه عادة في المدرسة وسواها من اطلاع على آثار المتقدمين والمحدثين في شتى فنون الثقافة . بل لا نعني بها كذلك مجرد الاهتمام « بالانسانيات الحديثة » التي طال الكلام عنها . نعني العلوم والتقنيات وسواها . بل نعني هذا كله وشيئا أعمق منه وأكثر تكاملا :

نعني الثقافة التي تحدثنا عن ثروات الماضي ، والتي تعرف أن تصل ذلك الماضي بالحاضر وتجعل هذا الحاضر حاضرا فعلا أمام المتعلم . نعني الثقافة التي تغني حياتنا اليومية عن طريق تعميق ادراكنا لكل ما فيها ، بل عن طريق جعلنا قادرين على الاستمتاع بجمال الأشياء من حولنا : بالأغذية الأرضية ، على حد تعبير «أندرية جيد» أو « بالعزاء الذي نجده حتى في حبة من تين أو كأس من ماء » على حد تعبير أحد الشعراء الفرنسيين المعاصرين . انها التي تجعلنا ندرك كذلك سحر الأشياء المصنوعة وما يقذف به المصنع والآلة من نتاج له طابعه الجمالي المتفرد ، بل له « ألحانه ورومانتيكيته » على حد تعبير « بريشت » . انها ترينا فيما ترينا « واقع المدينة المدهش » ، على حد تعبير بودلير . انها ترينا ـ بقول موجز ـ ما في امتزاج الانسان بالطبيعة من ابداع وجمال .

وهي ، فوق هذا كله ، تطلعنا على الحركة المستمرة المتصلة للتاريخ ، وتجعلنا نحب الحاضر حبا أعمق ونفهمه فهما أسلم حين نربطه بماض نستمتع بجماله وروعته كما يستمتع الانسان بذكريات طفولته .

وبعد هذا ، بل فوق هذا ، مهمة مثل هذه الثقافة أن تجعلنا نصل الى الادراك الكلي الشامل للأشياء ، بحيث تغدو منظومتها أمامنا مترابطة متسقة . انها تدمج ما نحياه ونعيشه ببنية أوسع وأشمل ، برؤية كلية تأخذ الأشياء الجزئية معناها من خلالها .

ومثل هذه الثقافة المتعددة الأبعاد والزوايا ،

المتكاملة الأثر ، لن تكون ثقافة عقلية محضة ، بل ستكون ـ حكماً ـ ثقافة تهز الأعماق ، أعماق المشاعر والانفعالات ، اذ لا ثقافة حقة ان لم يكن فيها ما يحرك الوجدان والقلب . ولعلنا لا نغلو ، ان نحن رددنا مع « بريشت » بأن هدف الثقافة « أن تتحول كلها الى متعة فنية » .

ولا يعني هذا أن مثل هذه الثقافة لن تكون عقلانية . فالوصول الى الحقيقة ، الى المعرفة الحقة ، في حاجة دوما الى وتر عاطفي وانطلاقة انفعالية .

ويطول بنا الحديث إن نحن مضينا في تعداد صفات الثقافة المرجوة التي ينبغي أن تكون موضوع عناية خاصة من قبل المدرسة . وكل ما قصدنا اليه ، حين قدمنا هذه الأوصاف المحدودة ، أن نبين أن ثمة عالما واسعا غنيا تستطيع المدرسة أن ترتاده ، هو عالم الثقافة العميقة المتكاملة الذي يتأتى من تضامن المواد والمعلومات والنشاطات التي تقدمها ، لا من عالم الثقافة العابرة أو المتناثرة . فمثل هذه الثقافة هي التي تكوّن الشخصية المتسقة والمتكاملة التي ذاقت طعم الثقافة الحقة فتاقت الى المزيد .

نقائص النظرة المدرسية الى الثقافة

أما مضمون هذه الثقافة ووسائل بثها في النظام المدرسي ، ولاسيما عن طريق بث معانيها وأهدافها لدى المعلمين ، فأمر يطول الحديث عنه ، ولا يتسع المجال له هنا . وحسبنا أن نقول ان المدرسة في هذا المجال تخطىء غالبا في أمور ثلاثة أساسية :

ـ الأمر الأول هو التريث عند أهمية الطرائق التربوية دون النظر أولا في محتوى التربية .

ـ والأمر الثاني الظن بأن « المتعة » في التعليم هي وليدة تجويد الطرق التربوية وحدها ، في حين أن ثمة « متعة » لا تعلو عليها متعة يمكن أن تتأتى عن طريق العناية بتقديم مضمون ثقافي حي وجذاب بمحتواه ذاته .

ـ والأمر الثالث هو اعتقاد بعض النظم التربوية الحديثة أن توفير بعض شروط الحياة المدرسية الجديدة ـ من مثل حرية الطالب ، ومشاركته في العمل المدرسي ، واللجوء الى التقويم الذاتي ، الخ . . . ـ يستطيع وحده أن يتصدى لمسألة العلاقة بين المدرسة والطالب ، وفي مقدوره أن يوفر للطالب فردوسا مدرسيا ، يعرف فيه المتعة والحبور .

الثقافة الحقة و « المتعة »

وفي رأينا أن هذه الحلول كلها سوف تظل عاجزة عن أن تجعل المدرسة ـ ثم الحياة من بعد ـ « مصدر متعة ولذة » ان لم يمتزج بها مطلب أساسي ، وهو التوسل بالثقافة الحقة وبقدرتها على تفجير الطاقات العقلية والعاطفية والحسية ، من أجل أن تصبح المدرسة حقا مصدر « متعة » عميقة لأنها مصدر « ثقافة » حقة . وهذا يشترط ، كما قلنا ونقول ، أن نُحكم صياغة مثل هذه الثقافة الرفيعة التي نتحدث عنها ، وأن ندرك الارتباط الوثيق الذي ينبغي أن يقوم بينها وبين ما هو حي ، بينها وبين ما هو جميل وما هو خير وما هو حق .

وبدهي أن هذه الثقافة التي ندعو اليها لا تقتصر ـ كما سبق أن قلنا ـ على مجرد معرفة آثار المتقدمين والمتأخرين من أدباء وفنانين وعلماء ومفكرين ومكتشفين وسواهم ، كما لا تقتصر على تقديم معرفة علمية وتقنية تربط الطالب بالعصر . انها تضم هذا كله وتتجاوز هذا كله ، مكونة ، عن طريق النظرة الشاملة والحية ، روحا مبثوثة عبر مواد الدراسة كلها والنشاطات المدرسية جميعها ، قاسمها المشترك فهم العالم والكون فهما متكاملا ، جماله في اتساقه وترابطه ، ومتعته في عمقه وابداعه وكشفه لحجب الحقائق . انها تأليف عميق مبتكر بين نظرة الشاعر والأديب ورؤية العالم والمبدع ، وأخيلة الرسام والنحات ، وعطاء الصانع والمبتكر ، وتأملات المفكر والمنظر .

هل الثقافة الحقة أمر ممكن في المدرسة ؟

وقد يتساءل سائل : وهل غرس مثل هذه الثقافة العميقة المتعددة في أبعادها ، المتكاملة في رؤاها ، أمر ممكن في اطار المدرسة ؟ وجوابنا الموجز : الأصل أن تعي المدرسة الهدف ، وعند ذلك لا تعدم الوسيلة ، فهي دوما من جنس الغاية . يضاف الى هذا أن ما يمكن ويجب أن تقوم به المدرسة هو غرس بذور مثل هذه الثقافة تدريجيا ، وتعهدها يوما بعد يوم عبر مراحل الدراسة المختلفة ، وترك الأمر للمجتمع الكبير بعد ذلك يتعهدها ويرعاها . والشيء الهام هو

أن تسلك المدرسة الطريق المجدد والسبيل الأمَمَ منذ البداية ، وأن تجتنب الشعاب الملتوية التي قد تقود الى الضياع . وادراكها لأهمية بث مثل هذه الثقافة العميقة اللذة ، يجعلها تضع هذه الثقافة على رأس أهدافها ، وتدفعها الى أن تصوغ كل شيء في مناهجها وطرائقها صياغة تؤدي الى ذلك الهدف الذي تندرج تحته ، وتنبثق منه في رأينا سائر الأهداف ، من اجتماعية وتنموية وسواها . فنحن لا نستخرج من الأشياء الا ما نضعه فيها . ولن نستخرج من الدراسة ثقافة حقة بالمعنى الذي قصدنا اليه الا اذا وضعنا ذلك في أهدافها ومنطلقاتها منذ البداية . ولعل غياب مثل هذا الهدف هو الذي يفسر ظاهرة خطيرة كظاهرة العزوف عن الثقافة وعن التعلم ، أو اتخاذهما حلية وزينة ، أو الاضطرار الى اصطناعهما بوصفهما السبيل المؤدي الى الرزق ، فالانسان طُلَعَةٌ بطبعه ، ولا يثنيه عن التطلع الى المعرفة وارتياد مظانّها الا سوء الزاد .

أما الحديث عن مقومات مثل هذه المدرسة الساعية الى الثقافة الحقة وعن مناهجها وطرائقها فأمر يلتهم أكثر من سفر .

الثقافة وتفجير طاقات الانسان

وبعد ، فان ثروات الانسان التي لا تنضب هي القادرة دوما على مغالبة الصعاب وتجاوز العقبات ، حين نعرف أن نمتاحها ونجزل عطاءها . والجهد الذي يتطلبه أي تحصيل للمعرفة ، ويستلزمه اتقان موضوعات الدراسة ، جهد لذ حين يرافقه بلوغ أغوار الثقافة العميقة ، وانبلاج رؤيتها المشرقة ، وانبعاث طاقتها المحركة . انه جهد لا يكاد يكون جهدا ، لأنه غدا مطلب حياة عقلية أيقظنا لديها - بفضل قوة الثقافة ودينامكيتها - روح التساؤل والدهشة والتطلع والفهم . وإنه مطلب حياة انفعالية لامسنا لديها وتر القلق الثر والشوق المؤرق ، الشوق الى قراءة الكون قراءة عميقة والى ادراك معاني الجمال والخير والحق فيه . ومثل هذه الحياة العقلية حين تستيقظ لا تنطفىء شعلتها ، ومثل هذه الرعشة الانفعالية حين تسرى لا ينضب ابداعها . وهذا هو المعنى العميق لذلك الهدف الذي طالما تحدث عنه المربون : أن يحقق الانسان ذاته عن طريق التربية ، و « أن يكون من هو » مقتبسين تعبير « نيتشه » ، وأن يتجاوز ذاته باستمرار محققا مقولة « ديوي » : ليس من هدف للتربية الا المزيد من التربية . ان الفنون الثقافية ، من فكر وفلسفة ، ومن علم وتقنية ، ومن أدب ورسم ونحت وموسيقا ، وسائل لرؤية الكون والأشياء رؤية مشاركة ومعايشة ، بحيث يمتزج الانسان بالطبيعة وتمتزج الطبيعة بالانسان ، وبحيث يستلقي المرء في أحضان الطبيعة يسألها أسرارها ويستكنه قوانينها ويعمل على تسخيرها . وهذا التفاعل بين الانسان والكون مصدر « متعة » خلاقة ، فضلا عن أنه مصدر فهم متزايد من شأنه أن يزيد قدرة الانسان على التأثير في ذلك الكون . انه مصدر « الأفكار القوى » ، ومنطلق السيطرة على الطبيعة ، عن طريق الخضوع لها ، أي عن طريق فهمها العميق ومعرفة قوانينها ، على حد قول « أوغست كونت » .

ولعل غياب هذه « الوقدة » الثقافية في نظمنا المدرسية سبب أساسي فيما نشكو من تقصير هذه النظم عن أن تكون الانسان المبدع المنتج المسهم في تنمية مجتمعه . وقد يكون في تذكرها ، بعد أن طال نسيانها ، وفي تحديد معالمها وسماتها ووسائلها ، ما يفتح الطريق واسعا أمام توليد نظم تربوية فيها « متعة » الابداع والابتكار ، وفيها ابداع « المتعة » وابتكارها . أو ليس مما يثير التساؤل العميق أن تخرّج نظمنا المدرسية غالبا أناسا « فرحين » بخلاصهم من أعباء المدرسة ، يزداد الفراق بينهم وبين ما نهلوا من ثقافة يوما بعد يوم ؟ وهل يرجى لمثل هذه النظم أن تكون المحرك الفعال لتقدم المجتمع ؟ أو ليس من المفارقات التي غدت معروفة أن كثيرا من رواد الثقافة الحقيقيين وقادة العلم والابتكار لم يكونوا من نتاج النظم المدرسية ؟ أجل ان الثقافة الحقة لابد أن تحرك وتدفع وتثير . والبحث عنها واحكام أمرها لابد أن يغدو سبيل النظم المدرسية نحو تكوين طاقات انسانية محركة مغيّرة مبدعة . لاسيما أن سن الشباب هي سن الأفكار الكبيرة والقيم الرفيعة ، ولن يهزهم بالتالي الا ثقافة ترقى الى المستوى الجدير بالانسان ورسالته . □

بقلم : محمود المراغي

حين تجف الآبار !

طوال السنوات الأخيرة ارتبط كل من النمو والتنمية في الوطن العربي بالثروة النفطية .. زادت العوائد بشكل ملحوظ اعتبارا من عام ١٩٧٣! ، وتحولت الزيادة الى أنماط جديدة للاستهلاك ، والى خطط طموحة للتنمية ، ومستوى متقدم من التسليح وتعزيز قدرات الدفاع .. وبينما كان الهدف المشترك لكل الدول العربية المنتجة للنفط هو الاستفادة من الدخل الجديد في تحسين مستوى المعيشة ، والوصول الى الرفاهية في بعض الأقطار .. تفاوتت اتجاهات بناء الاقتصاد والتنمية ..

فقد عمل البعض على تنويع أنشطة الاقتصاد وتنويع مصادر الدخل القومي .. وعمل آخرون على الاستفادة من الميزة النسبية ، وهي امتلاك خام النفط لاستكمال سلسلة هذه الصناعة : من تكرير وتصنيع ونقل .. في نفس الوقت اكتفت بعض الأقطار في الجزء الأعظم من نشاطها على تنمية ما يسميه الاقتصاديون بالبنية الأساسية وقطاع الخدمات .. فمدت الطرق والجسور ، وتوسعت في انشاء المدارس والمستشفيات ، كماتوسعت في تقديم الخدمات المجانية .

و .. خلال ذلك حدث تطور نوعي مهم ، فبينما تتجه معظم الأقطار العربية الى نظام الاقتصاد الحر ، فقد أصبحت الدولة - في ظل الحقبة النفطية - هي أكبر صاحب عمل ، وأصبح القطاع العام المملوك للدولة هو القطاع الأكبر والأهم .. كما أصبحت ميزانية الحكومة هي الفيصل في الانتعاش أو الركود .. هي المفتاح الذي يدفع بالدم الى شرايين الاقتصاد .

ولكن ...

وحين أصيب العرب بصدمة الانخفاض الحاد في الأسعار ، والتراجع الكبير في العوائد ، والارتباك الشديد في اعادة الحسابات ، حتى تتوازن النفقات التي زادت زيادة شديدة مع الموارد التي انخفضت بشدة أيضا .. حين حدث ذلك أثير السؤال الكبير : وماذا بعد النفط ؟ .. أليس النفط - كما يقول رجال الاقتصاد والجيولوجيا - ثروة ناضبة .. لها عمر موقوت ؟ .. أليس المخزون في باطن الأرض الذي يطلقون عليه اسم الاحتياطي له أمد وله نهاية ؟ واذا كان انخفاض الأسعار أحدث تلك الهزة فما بال الموقف حين يتوقف الانتاج تماما ؟

لقد تكونت الثروة النفطية في العالم عبر ملايين السنين .. ولكن عندما اكتشف البترول في الوطن العربي ، وكان ذلك في مصر منذ مائة عام(١٨٨٦) . وعندما بدأ الاستخدام بشكل تجاري في تاريخ لاحق .. عندما حدث ذلك - ولعشرات السنين - أكل الانتاج الجزء الأعظم مما كونته الأرض عبر السنين الطويلة ، كان معدل الاستهلاك متجاوزا أي معدل للتكوين الطبيعي .. فالموازنة غير قائمة ، وان كانت الموازنة واردة بين ما نسميه : احتياطيات مكتشفة واستهلاك متوقع .

باقٍ من الزمن ٨٦ عاما :

في ذلك المجال ووفقا لندوة دولية أقامها مركز الدراسات العربية في لندن في منتصف عام ١٩٨٥ فإن العمر المتبقي للنفط العربي حسب تقديرات ١٩٨٤ : ٨٦ عاما فقط .. أي أن النفط العربي

ينضب تماما عام ٢٠٧٣ . . وذلك اذا أخذنا المتوسط العام .

ولكن خارج هذاالمتوسط الذى لا يعبر تماما عن الموقف ، تأتى الأرقام الفعلية لكل قطر التى تعبر عن العلاقة بين الاحتياطى المكتشف والاستهلاك المتوقع ، وبعبارة أخرى تحدد الأرقام : كم بقى من الزمن ليجف نفط العرب .

و . . فى ذلك المجال فان هناك اقطاراً مهددة بفقدان نفطها قبل نهاية هذا القرن . . أى بعد ثمانى أو تسع سنوات . . . و . . هناك بلدان يمتد عمر نفطها الى بدايات القرن الثانى والعشرين .

الموقف الحرج :

وهى مدة كافية لتعدل أوضاعها سواء فى مجال الاعتماد على النفط كمورد مالى واقتصادى أو كمصدر طاقة رئيسى . . اذا كان الأمر كذلك بالنسبة لخمسة بلدان عربية ، فان الصورة تختلف بالنسبة لسبعة بلدان يقل فيها عمر النفط عن خمسين سنة . . .

فى المقدمة تأتى دولتان : مصر والبحرين ،

فى المقدمة تأتى دولة الكويت التى يقدر الخبراء عمر المتبقى لنفطها بـ (٢٢٧) سنة . . أى أن النفط ينفد ـ وذلك اذا لم تتم اكتشافات ضخمة غير معروفة ، واذا لم يهبط الاستهلاك بشكل كبير ـ عام (٢٢١١) . . كان التوقع عام (١٩٧٣) ان تكون النهاية عام (٢٠٣٦) ، لكن تلك النهاية زحفت ـ بفضل الاكتشافات الجديدة وهبوط الانتاج ـ بمقدار ١٧٥ عاما كاملة . وكان لنقص الانتاج الذى تقرر فى الثمانينيات الفضل الأكبر فى اطالة عمر النفط . .

وينتهى نفط السعودية ـ طبقا لتوقعات ١٩٨٤ أيضا ـ فى تاريخ سابق هو عام ٢٠٨٥ ، وهو نفس العام الذى ينتهى فيه نفط العراق . . أى انه باق من الزمن نحو مائة عام . . وهو وضع أفضل مما كان متوقعا أيضا عام ١٩٧٣ ، ولنفس الأسباب السابقة : قدر من الاكتشافات الجديدة . . وقدر أكبر من تخفيض الانتاج . بعد ذلك يأتى دور بلدين يتراوح عمر النفط فيهما بين خمسين ومائة عام وهما : الجماهيرية الليبية ودولة الامارات .

وتذهب توقعات عام ١٩٨٤ الى أن نفطها سوف ينضب عام ١٩٩٥ . . . وقد تحسن الموقف فى البحرين عما كان قبل ذلك ، حيث كان المتوقع عام ١٩٧٣ أن ينفد النفط عام ١٩٨٩ ، بعد عامين من الآن . . ورغم انه لم تتم اكتشافات خلال الفترة موضوع الأرقام ، فان تخفيض الانتاج مد فى عمر النفط البحرينى ستة أعوام . . وربما ـ مع التخفيض الأخير المستمر ـ يتعدل الموقف للأفضل .

فى مصر كان التوقع عام ١٩٧٣ ان يمتد عمر النفط الى عام ٢٠٣٥ لكن تراجعاً حدث بسبب الافراط فى الانتاج . . فقد زاد الاحتياطى ، ولكن زادت كميات المنتج بشكل أسرع ، مما صنع ذلك التدهور الذى يجعل الثروة النفطية على أبواب النهاية . . وان كان ذلك قد تعدل ـ طبقا لما أعلنته المصادر النفطية الحكومية فى مصر ـ فأصبح الاحتياطى المعروف فى نهاية ١٩٨٦ ، وبفضل ١٩ كشفا جديدا : (٤,٣) مليارات برميل ، مقابل ثلاثة مليارات فقط فى التوقع الأول . . وبالطبع ، ومع تخفيض الانتاج الذى فرضته ظروف تخفيض الأسعار ، فسوف يجرى تصحيح واسع يمد عمر النفط المصرى الى القرن الواحد والعشرين ، وان كانت المعضلة ـ ومصر هى أكبر تجمع سكان عربى يضم خمسين مليونا ـ كيف يمكن ضبط الاستهلاك المحلى حتى لا تضطر السلطات النفطية أن تستنفد مالديها فى وقت قصير ، تلك هى المعضلة ، أما البحث عن مخرج سريع فيأتى عبر مصدر آخر للطاقة يطيل عمر النفط ويدخر الاحتياط للمستقبل .

نفس الموقف السابق تتعرض له سوريا التى هبطت التقديرات بالنسبة لها بسبب زيادة الانتاج . . وقد يجرى تصحيح كذلك بسبب ضبط الانتاج فى الآونة الأخيرة . وخلال هذه القراءة يتضح حجم الخطر ، انه ليس انخفاض الاسعار ـ وهو الموقف الراهن ـ وانما مستقبل النفط وبطء معدل الاكتشافات التى بلغت صفرا فى بلدين هما : قطر والبحرين خلال السنوات العشر (٧٣ ـ ٨٣)

فى كل الأحوال : تبرز الأرقام أهمية وجود سياسة نفطية تنظر للمستقبل ، وقد يكون انخفاض السعر وتخفيض الانتاج فرصة لالتقاط الأنفاس ، وتعديل السياسات ، واعطاء النفط عمرا أطول . □



ملح ونفط وتلوث !

بقلم : الدكتور سمير رضوان

« يوشك العالم أن يغرق فى طوفان من مواد كيميائية استحدثتها الثورة العلمية والصناعية ـ هذه المواد تستعصى على الهضم والتحلل ، فتتراكم فى بيئتنا مسببة التلوث الكيميائى . فهل يقف العلم ازاء هذه المشكلة عاجزا ؟ »

ما التلوث الكيميائى الا الوجه المظلم لثورتنا العلمية والصناعية الحديثة ، وعلى الرغم من أن أخطاره الجمة لم تعد خافية على أحد من المختصين أو غير المختصين الا انه لا يوجد اليوم من يجرؤ على الدعوة لتجميد التقدم العلمى الصناعى بحجة التصدى لمشكلة التلوث . ذلك لأن مثل هذه الدعوة فى الواقع لن تعدو أن تكون سباحة ضد تيار التطور الجارف ، ولن يكتب لها النجاح بحال ، ومع ذلك فالعلم الذى يتحمل مسئولية تضخم هذه المشكلة هو وحده الذى يحمل على عاتقه اليوم مهمة البحث عن حل لها . ولكن دعونا ـ أولاً ـ نتابع قصة التلوث من بدايتها .

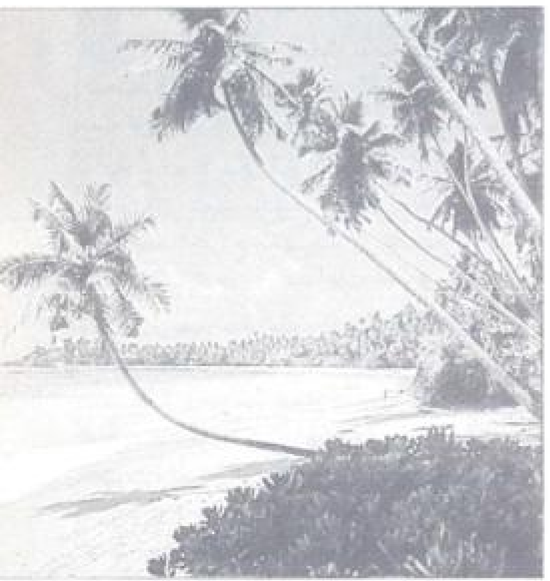
متى نشأ التلوث الكيميائى على كوكبنا ؟

ليس صحيحا أن قضية التلوث الكيميائى لم تبرز الى الوجود الا مع النهضة الصناعية الحديثة ، بل الصحيح هو أن حجم هذه المشكلة لم يبلغ مابلغه الا نتيجة لهذه النهضة ، ولنذكر عند البدء أنه عندما قتل ابن آدم اخاه بعث الله اليه غرابا يُريه كيف يُوارى جثته فى التربة . وبقاء الجثث على سطح الارض بعد الكوارث الطبيعية من زلازل وحروب وغيرها تنجم عنه مشاكل خطيرة للتلوث وانتشار الأوبئة . وقد كان من ضمن أدعية المصرى القديم عندما كان يحضره الموت أن يتقرب من الخالق بقوله : انه لم

يلوث ماء النيل ، ولا يستهان بمثل هذا « الدعاء » فى موقف يودع فيه المصرى القديم حياة الدنيا ، ويقبل فيه على حياة تفرض عليه عقيدته الايمان بـأنها حياة الخلود ، وَغَنِىٌّ الانسان اذن بمشكلة التلوث حمله معه منذ جاء الى الارض .

مشكلة التلوث الكيميائى

وهنا يلح على الأذهان سؤال : لماذا ومتى أصبح التلوث الكيميائى مشكلة بهذا القدر من التعقيد الذى نشهده اليوم ؟ وتعود بنا الاجابة عن هذا السؤال الى ما بدأنا به هذا المقال : (مشكلة التلوث الكيميائى هى نتاج الثورة العلمية ـ الصناعية الحديثة ، فمن خلال هذه الثورة أقحم العلم على كوكب الارض طوفانا من مواد كيميائية مستحدثة لا عهد له بها من قبل . وهنا مكمن الخطورة ، ولنتفق أولا على أن تلوث البيئة الكيميائى ينشأ أساسا من تراكم مواد كيميائية غير قابلة للهضم أو التحلل خلال أنشطة ميكروبات هذه البيئة ـ وتستوى فى ذلك المركبات الغازية والسائلة والصلبة . وأخطر الملوثات هى التى تستعصى تماما على الهضم الميكروبى ، وليست هناك مادة عضوية تقليدية تنتجها أحياء الارض لا تقوى الميكروبات على هضمها ، وقد ينشأ التلوث من مثل هذه المواد التقليدية مثل مكونات البراز الآدمى مثلا ـ ومثل جثث الحيوانات والانسان ، الا أن التربة والمياه الطبيعية تحتوى على أعداد لانهائية من ميكروبات مفيدة قد تعودت على مثل هذه المواد الكيميائية عبر ملايين السنين ، فأصبحت تغتذى بها فتخلص البيئة منها باستمرار ، ولكن مع الثورة العلمية والصناعية الحديثة صنع الانسان مواد كيميائية جديدة تماما وطرح كميات كبيرة منها ـ وما زال يطرحها للاستعمال ، هذه المواد لم يسبق لميكروبات البيئة أن صادفتها أبدا عبر رحلة تطورها التى بلغت بلايين السنين فوقفت حيالها عاجزة لا تستطيع لها هضما . مثل هذه المواد الكيميائية (الاصطناعية) التى لم يعرفها كوكب الارض إلا خلال العقود القليلة الاخيرة من عمره المديد الذى امتد ٤,٥ بلايين سنة هى التى تتراكم يوما بعد يوم فى البيئة المحيطة بالانسان على هيئة مواد صلبة وسائلة وغازية ، وتوشك أن تغرق البشرية فى طوفانها . أيعنى ذلك أن الصناعات الكيميائية لم يعرفها الانسان الا بعد الثورة العلمية ؟ كلا ـ بل كانت معروفة منذ قديم الزمان ، وللتدليل على ذلك نذكر على سبيل المثال محاولات قدامى الكيميائيين من العرب وغير العرب لتحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . على أن هذه الدراسات والصناعات لم تكن تستخدم فيها الا مواد كيميائية تقليدية تعودت الميكروبات عبر بلايين السنين على هضمها متى أتيحت لها فى البيئة ، وعلى ذلك لم تكن مشكلة التلوث الكيميائى على أى قدر من الخطورة فى ذلك الوقت .



ما أحلى الطبيعة العذراء التى لم ينل منها دنس التلوث الكيميائى .

كانت البداية بملح الطعام

قد تنتاب القارىء بعض الحيرة وهو يقرأ عنوان هذه الفقرة ـ ذلك لأن ملح الطعام بالتأكيد مادة كيميائية تقليدية ، موجودة فى بحار الأرض حتى قبل أن تنشأ برمتها ، ومن ثم فلا يمكن اعتبارها مادة ملوثة للبيئة ، وهذا كله صحيح ، اذ يستخلص ملح الطعام بتعريض مياه البحر للبخر فى أحواض خاصة تعرف بالملاحات . الا أن هناك أيضا مخزونا من ملح الطعام فى مناجم نشأت بعد انحسار بحار قديمة فى

أزمنة جيولوجية سحيقة القدم نتيجة لتقلبات القشرة الارضية ، وتراكمت فوق الملح الناتج عن البخر طبقات أرضية أزاحها الانسان الحديث ليكتشف مناجم الملح . وهناك العديد من مناطق العالم التى ما زالت تعتمد عليه فى تغطية احتياجاتها ، ونذكر على سبيل المثال بعض قبائل المغرب العربى التى ينقل تجارها الملح المنجمى فى صورة قوالب ثقيلة الوزن على ظهور الجمال عبر الصحارى القاحلة فى رحلات شاقة وخطرة ، وتجارة مثل هذا الملح مربحة اذ انه سلعة غالية السعر نسبيا . ولقد استعمل الانسان الملح فى طعامه ، وفى صناعات حفظ الأغذية منذ أمد طويل ، كما استخدمه قدماء المصريين فى حرفة التحنيط فى المرحلة الاولى التى كانت تشمل انتزاع الماء من خلايا الجثة وتجفيفها ، ولو اقتصرت استخدامات الانسان لملح الطعام على ذلك لما نشأت عنه مشاكل تتعلق بالتلوث . ولكن العلم الحديث سعى بعد اختراع الكهرباء إلى تصنيع الصودا الكاوية التى تدخل فى صناعات أخرى عديدة ، وذلك بتعريض ملح الطعام لعملية يطلق عليها اسم التحلل الكهربى وتجدر الاشارة هنا الى أن جزىء الملح يتكون من ذرة صوديوم وذرة كلور ، وعند تحليل هذا الجزىء كهربيا فى وسط مائى ينفصل شق الصوديوم ليدخل فى تركيب الصودا الكاوية بينما يبقى شق الكلور طليقا . وتقدر كمية ملح الطعام التى يستهلكها العالم اليوم فى صناعة الصودا الكاوية بحوالى ٦ ملايين طن سنويا . وليس ثمة ضرر محسوس من الصودا الكاوية على البيئة ، فهى مادة تقليدية شأنها شأن ملح الطعام على وجه التقريب .

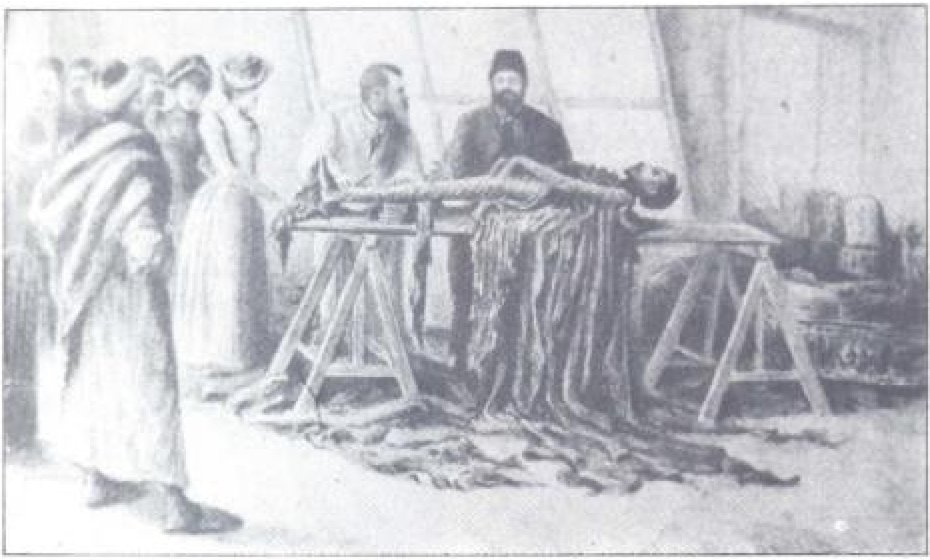
ولكن الضرر ينشأ من غاز الكلور الطليق الناتج عن تحليل ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) كهربيا .

ذلك لأن الكلور هنا مادة طارئة لا وجود لها أصلا فى جو الارض ، وغاز الكلور سام للانسان والحيوان والنبات والميكروبات . أى أن ضرره لا يقتصر على أنه يسمم الانسان فحسب ـ بل انه أيضا يقتل الميكروبات النافعة التى تهضم الملوثات الاخرى فى البيئة . ولقد تنبه العلماء لذلك منذ البداية . وكانوا لا يسمحون لهذا الغاز بالتصاعد فى الجو أثناء تحلل الملح كهربيا ، بل كانوا يتخلصون منه بأساليب مكلفة الى حد ما . ولقد ظل الامر كذلك حتى اكتشف النفط .

النفط وغول التلوث

ظن العلماء ـ بعد اكتشاف النفط انهم توصلوا الى حل مثالى لمشكلة الكلور الناشئة عن تصنيع الصودا الكاوية، بل وأثبتوا إمكان الافادة من الغاز السام وذلك من خلال ربطه ببعض مكونات النفط لانتاج مواد اصطناعية جديدة ، متعددة الفائدة . ولفهم هذا الامر لا بد لنا من التعرض بايجاز شديد لتركيب النفط الكيميائى . والنفط فى الواقع عبارة عن خليط من مركبات عديدة تتشابه جميعا فى انها مكونة من كربون وهيدروجين فقط ، ومن ثم فهى تعرف كيميائيا باسم الهيدروكربونات ، وكل مركب من هذه المكونات عبارة عن سلسلة مفتوحة أو حلقية من ذرات الكربون تتصل بها من جميع الجوانب ذرات الهيدروجين .

ويكمن الاختلاف بين هذه المركبات اساسا فى أطوال سلاسلها الكربونية . والمركبات ذوات السلاسل شديدة القصر منها غازية ـ وهى تمثل معظم الغازات التى تصاحب ضخ النفط . والمركبات ذوات السلاسل متوسطة الطول سائلة ، وهى التى يتكون منها الوقود المستعمل فى السيارات . اما المركبات ذوات السلاسل المفرطة فى الطول فهى اما شديدة اللزوجة أو صلبة ، ومنها يتكون القار والأسفلت وما شابهها . ومن الواضح أن مركبات تتكون اساسا من الكربون (الفحم عبارة عن كربون خالص) والهيدروجين (وهو غاز شديد القابلية للاحتراق) تصلح كوقود مثالى . وهنا تكمن قيمة مشتقات النفط كمصادر للطاقة . ولا شك أن هناك سؤالا يجول فى ذهن القارىء : هل مكونات النفط مواد تقليدية أم انها طارئة من نوع المركبات التى تستعصى على المضم الميكروبى ؟ الحقيقة انها مواد تقليدية منتشرة فى شتى أحياء الارض ، وليس مصدر النفط فى الواقع سوى أحياء قديمة تحللت جزئيا الا أن مكوناتها من الهيدروكربونات تسربت الى طبقات ارضية بعيدا عن الأكسوجين الجوى اللازم لتحللها ، وعلى ذلك ظلت بلا تحلل فى مخازنها ملايين



برع قدماء المصريين في حرفة التحنيط ، وكانت العملية تبدأ بمعالجة الجثة بالملح لتجفيفها على مدى ٤٠ يوما-يقال إن المصرى توارث منذ ذلك الحين تقليد الاحتفال بذكرى الاربعين بعد الوفاة،واستخدام ملح الطعام في هذه الحرفة ومثيلاتها لم يكن ينجم عنه أى تلوث كيميائى للبيئة .

السنين حتى ضخها الانسان مرة أخرى الى سطح الارض . هل معنى ذلك أن للميكروبات قدرة على هضم مكونات النفط بعد أن استخرج ، والاجابة عن هذا السؤال : (نعم) ، وقد أثبتت الدراسات ذلك بالفعل ، على ان السلاسل الكربونية شديدة الطول ، تستغرق زمنا طويلا من الميكروبات كي تهضمها تماما . ولو قدر لهذه المركبات أن تتجمع في بيئة ما بكميات تفوق قدرة الميكروبات على هضمها ؛ فان مشاكل بيئية تنشأ نتيجة لان هذه المركبات الثقيلة تعزل احياء البيئة عن الاكسوجين ، وتعوق حركتها فتنفق الاسماك والطيور والنباتات خنقا . الا أن معظم الآثار الضارة لمشتقات النفط المستعملة كوقود يكمن في انها غالبا ما تحتوى على الكبريت ، وغالبا ما تخلط بالرصاص لاسباب هندسية بحتة . اما الكبريت فيتصاعد في الجو كأكسيد حمضى ، وينزل مع المطر الذى اطلق عليه تبعا لذلك اسم المطر الحمضى ، واما الرصاص فيتصاعد هو الاخر في الجو في أثناء الاحتراق ويتسبب هذان العنصران في أخطر المشاكل البيئية . ولعل القارىء قد سمع عن غابات اوروبا التى بدأت تموت أشجارها واقفة من جراء هذين العنصرين . ثم إن الرصاص بالذات قد يصل الى مواد يأكلها الانسان نباتيه . . وحيوانية فتكون له اسوأ الاثار على الصحة . ومع ذلك فمشتقات النفط نفسها قابلة للهضم الميكروبي طال الزمن أم قصر . على أن المشتقات التى تستعصى حقا على الهضم تلك التى استحدثها العلم الحديث من خلال معالجة مكونات النفط بالكلور ، وظن انه حل بذلك مشكلة غاز الكلور الناتج عن تحلل ملح الطعام كهربيا . وتعرف هذه المركبات الاصطناعية الجديدة باسم الهيدروكربونات المكلورة ، ولقد استبشر العلماء خيرا عندما نجحوا في استحداث هذه المواد الاصطناعية ـ ذلك لأن صفاتها الطبيعة تؤهلها لأن تحل محل منتجات اخرى طبيعية غالية السعر كالاصواف والاقطان والورق وغيرها ، والكثير من المنتجات النباتية والحيوانية . وقبل أن نتطرق الى ذكر أمثلة قليلة لمجالات استخدام هذه المواد الاصطناعية ينبغى أن نشير هنا الى أن وجود ذرات الكلور ـ وهى كبيرة نسبيا ـ مغلفة للسلاسل الكربونية ، يحول دون وصول الميكروبات بأنشطتها الى السلاسل نفسها مما

يجعل المركبات هذه مستعصية على الهضم الميكروبى ، خاصة اذا تذكرنا أن للكاور سمية كما اشرنا . وعلى ذلك فالصناعة تنتج يوما طوفانا من هذه المواد التى تتراكم فى البيئات الارضية مسببة ما آلت اليه مشكلة التلوث من خطورة فى عصرنا الحديث .

عظيمة النفع شديدة الضرر :

تتناول أسطورة (بجماليون) الشهيرة قصة فنان نحت من الحجر تمثالا رائعا لامرأة ، ومن شدة افتتانه بهذا الجمال ظل يضرع الى الآلهة لكى تدب الحياة فى تمثاله حتى تحقق له ما أراد ، ولكنه شقى بحبه للمرأة التى صنعها بنفسه ، فسعى الى تدميرها تدميرا . وأحسب أن القارىء قد فطن الى علاقة هذه الاسطورة بموضوع هذا المقال . فقصة الانسان مع المواد الاصطناعية المستحدثة شبيهة بهذه الاسطورة . لقد استحدث العلم هذه المواد التى لم تكن موجودة من قبل ، وربط الانسان حياته بها ربطا وثيقا ، لكنه بات يشقى بها أيما شقاء .

هل يستطيع القارىء أن يتصور حياتنا بدون أدوات التغليف الحديثة وبدون الخيوط والأنسجة الاصطناعية وبدون الرقائق التى تدخل فى صناعات السيارات والطائرات والسفن وسفن الفضاء ، وبدون مبيدات حشرية ، ومبيدات فطرية ، ومبيدات اعشاب وبدون اصباغ ومواد دهان وأدوات تجميل وبدون . . . وبدون ؟ بامكاننا أن نسترسل هنا لسطور عديدة ، وكل هذه أمثلة جد قليلة لمنتجات جد وفيرة تصنع من الهيدروكربونات المكلورة ولها فوائد جمة الا انها تتراكم فى البيئة ملوثة اياها . ولنتناول هنا بكثير من الايجاز امثلة ثلاثة فقط ، أظنها تكفى لتفهم حدة التناقض الذى يعيشه انسان اليوم من جراء هذه المواد الاصطناعية .

من اشهر المبيدات الحشرية التى صنعها الانسان من مشتقات النفط بعد معالجتها بالكلور مبيد مشهور تحت اسم (د . د . ت) وترجمة هذا الاسم هى ثنائى كلورو ثنائى فينيل ثلاثى كلورو الايثين ، ومن ثم وجب أن تكون ترجمة الاسم المختصر (ث ث ث) وقد كان لاستحداث هذه المادة بأثرها المضاد للحشرات وقع الاحساس ببداية ثورة علمية وصناعية كبرى فى مجال المبيدات الحيوية بصفة عامة .

وبالفعل صنعت كميات كبيرة من هذه المادة فى البداية واستعملت فى الحقول والمخازن والمنازل للقضاء على الحشرات والآفات ، وهى للحق كانت مذهلة فيما يختص بأثرها القاتل لهذه الاحياء . ولكن الذى لم يكن فى حسبان العلماء هو أن الحشرات سرعان ما تعودت على هذا السم القاتل وتولدت منها سلالات بفعل الانتخاب الطبيعى لم تعد تتأثر به . وليت الامر اقتصر على ذلك ، لقد تراكمت هذه المادة ـ التى لا تقوى الميكروبات على هضمها ـ فى التربة والمياه وتسللت الى خلايا النبات ومنها الى اجساد الحيوانات والانسان وتجمعت بالذات فى



الالبان لقابليتها الشديدة للذوبان فيه وهددت حياة الرضع من البشر وغير البشر . لذلك لم يكن هناك بد من منع استخدامها منعا تاما .

أما المثال الثانى فيختص بالرقائق الاصطناعية التى يطلق العامة عليها تجاوزا اسم البلاستيك ـ وماهى ببلاستيك . وما نقصده هنا هى المواد المستخدمة فى التغليف وتلك التى تعمل منها حقائب حمل المشتريات الشائعة فى معظم المحال والدكاكين . وتصنع هذه الرقائق من مادة تعرف علميا باسم (كلوريد البوليفينيل) .

وقديما كان الورق هو الذى يستعمل فى كل هذه الاغراض . وحينما كان يتخلص منه بعد اداء مهمته كانت ميكروبات التربة تهضمه عن آخره بلا أية مشاكل بيئية . أما اليوم فمشكلة المشاكل هى أن هذه الرقائق تستعصى على الهضم الميكروبى ، ومن ثم فقد أصبحت تتراكم منها تلال توشك أن تغرق البشرية فيها . ولو فكر الانسان فى حرقها لكان خطرها أعمق ـ اذ ينجم عن حرقها حمض الهيدروكلوريك الضار اضافة الى مركبات اخرى شديدة السمية .

أما المثال الثالث الذى نسوقه هنا فهو لأدوات الدهان والاصباغ الاصطناعية الحديثة وكلها مواد تستعصى على الهضم الميكروبى ، ولا يمكن التخلص منها بعد انجازها لمهماتها ، ومن ثم فهى تتراكم فى البيئة كملوثات ، وقديما كان الانسان يحصل على الاصباغ ومواد الدهان من أصول نباتية ـ أى أنها كانت موادا تقليدية تحللها الميكروبات .

هل من سبيل الى حل ؟

ينبغى أن نشير هنا إلى ان التلوث الكيميائى الناجم عن مشتقات النفط والكلور لا يمثل إلا نوعا واحدا من انواع عديدة لا مجال هنا لتناولها . أى أن هناك ملوثات كيماوية أخرى ربما تناولناها فى مقال آخر . ولقد أردنا بهذه الاشارة أن ننبه القارىء إلى أن حجم التلوث الكيميائى على الأرض أضخم بكثير مما قصرنا حديثنا عليه فى هذه المقالة الموجزة . ولقد كان العلم هو الذى أعتق غول التلوث من قمقمه ـ عن غير قصد سىء بالطبع ـ وعلى العلم وحده أيضا تقع مسئولية اعادة هذا الغول الى قمقمه . وعلى الرغم



النفط هو الذى أعتق غول التلوث من قمقمه

من أن هذه المهمة فى غاية الصعوبة الا أن العلماء قد شمروا بالفعل عن سواعدهم وشرعوا فى إنجاز مهمتهم موقنين بأن هذا قدرهم . وهناك فى شتى ارجاء الارض من الباحثين جنود مجهولون يثابرون على بحوثهم فى جد وجلد ، ولا يتسع المجال هنا للافاضة او التفصيل ، على أن الايجاز لا شك يكفى للالمام بجوانب هذه المجهودات .

تأخذ هذه الدراسات بعين الاعتبار أن التطور لا سبيل الى الوقوف فى وجهه أبدا أو دفعه الى الوراء . ولم يعد فى مقدور البشرية أن تستغنى عن كل ما استحدثه العلم من مواد اصطناعية لها فوائدها التى لا شك فيها ـ وما دام الامر كذلك فلتنصب الدراسات على انتاج مواد اصطناعية كهذه فى صفاتها ولكنها قابلة للهضم الميكروبى ـ وذلك كى لا تتراكم فى بيئة الارض . ولقد حقق العلماء أنصبة متفاوتة من النجاح فى هذا المضمار . لقد اتضح فى سياق حديثنا من قبل أن كل ما تنتجه أحياء الارض من مواد

عضوية هو في الواقع مواد تقليدية قابلة للهضم الميكروبي ، أما ما يستحدثه الانسان من مواد اصطناعية فهو الذي يقاوم التحلل ويسبب التلوث . لذلك كان من الطبيعي أن يسعى الباحثون الى حث بعض الاحياء على انتاج مثل هذه المواد الجديدة . وكما هي القاعدة في مثل هذه الحالات كانت الميكروبات والبكتيريا منها على وجه الخصوص هي أول ما خطر بفكر الدارسين من اجل انجاز هذه المهام الصعبة . وذلك لان الميكروبات تمتاز بتباين ومرونة وسرعة كبيرة فيما يختص بأنشطتها الحيوية ، ومعدلات تكاثرها متى توفرت لها الظروف المناسبة . وتعتمد طريقة انتاج المواد الجديدة على زراعة هذه الميكروبات في أوساط غذائية تحتوى على مواد أولية يمكن للميكروبات تحويلها الى المادة الصناعية المرغوبة . وغنى عن الذكر أن تحقيق ذلك يقتضى دراسات مضنية تتعلق بانتقاء الميكروب المناسب ودراسة حاجاته الغذائية وانشطته المختلفة وما الى ذلك . ومن خلال أساليب الهندسة الوراثية يمكن برمجة العوامل الوراثية في الميكروبات واستنباط سلالات منها ذات انتاجية مرتفعة . وسوف نتناول بالوصف هنا مثالا واحدا يغنى عن امثلة كثيرة في التعريف بهذا الاتجاه البحثي الجديد . وتجرى البحوث التي نحن بصدد وصفها في (مؤسسة الصناعات الكيميائية الامبراطورية) بانجلترا حيث وضح الباحثون هناك أن احدى سلالات البكتريا التي عزلت لاول مرة في جامعة جوتنجن بالمانيا الغربية بامكانها تحويل السكر الى بوليسترات .

ولقد بدأت هذه الدراسات في هاتين الدولتين فور حدوث ازمة البترول الشهيرة عام ١٩٧٣ م . وتشبه مادة البوليستر البكتيرية في صفاتها الطبيعية مادة PVC التي أشرنا اليها من قبل الى حد كبير . كما أثبت الباحثون امكان التحكم في صفات البولستر البكتيرى وذلك من خلال اضافة أو ازالة مواد معينة في الوسط الغذائي التي تنمو فيه البكتيريا . وما زالت هذه الدراسات تجرى على قدم وساق بهدف اكساب المنتج افضل الصفات الطبيعية الممكنة التي تؤهله لاحتلال مكانة مادة PVC في صناعات التغليف وما اليها ، وبما ان هذه المادة الجديدة هي في الواقع نتاج كائن حي (البكتيريا) فهي اذن قابلة للهضم الميكروبي .

ولقد أثبتت الدراسات صدق ذلك . فعندما دفنت هذه المادة في عينات من التربة تحللت تماما بعد فترات مشابهة للفترات اللازمة لتحلل الورق مثلا . وهذه هي الميزة الكبرى التي تمتاز بها المنتجات البكتيرية على قريناتها الاصطناعية ، ولأن هذه المادة البكتيرية الجديدة تتحلل ايضا داخل الجسم البشرى فلقد شرع العلماء في دراسة امكان استخدامها لانتاج الخيوط الجراحية وما اليها .

والعبرة الرئيسية من مثل هذه الدراسات تكمن في أن العلم قد بعث املا جديدا يتعلق بامكان انتاج مواد بديلة للمواد الاصطناعية ، ولكنها مواد طبيعية قابلة للهضم الميكروبي . وبإحلال هذه المواد محل المواد الاصطناعية بالتدريج يمكن التخلص من مشكلة التلوث الكيميائي بالتدريج . وقديماً قالوا : (من سار على الدرب وصل) . □

بكة أو مكة

● يتفق الباحثون على أن بطليموس هو أول من أشار الى اسم مكة ، وأوردها باسم (مكربا) ، ومن سرده يتضح أنها كانت بلدة عامرة في القرن الثاني للميلاد ، وأن نبع زمزم هو السبب في نشوء هذا المركز المقدس .

ويقال ان الاصل في اسم مكة هو لفظ بكة أو بك السامية الأصل ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن القرآن سمى مكة باسم بكة « إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ للّذي بِبَكّةَ مباركا وهدىً للعالمين » ، ومن المعروف انه يمكن ابدال الباء ميماً في اللغة العربية ، وكذلك العكس ، فمثلا اسم معبد (بعلبك) في لبنان كلمة مركبة من مقطعين ، (بعل) هو اسم معبود كنعاني قديم ، و(بك) تعني (بيت) ، وقد أطلق على المدينة التي فيها بيت البعل ، أي بعلبك ، وهذا نفس ما حصل لاسم مكة .

جدى عبدالوهاب

قصة بقلم : سليمان فياض

الوقت فجر ، وذلك الآخر ، في داخلي ، لم ينم ، يحلم لي ربما لأظل راقدا ، وربما ليحكم سيطرته عليّ ، حين أصحو من النوم .

سمعت جرس الباب يدق ، وعيت أن الكل في البيت نائم . وهممت بالنهوض لأفتح الباب ، لكنني ظللت ممدداً ، لا أقدر على الجلوس ، ولا الوقوف .

عاد جرس الباب يدق ، ووعيت أن الكل في البيت ما يزال نائماً . وعاد جرس الباب يدق ، ويلح في الدق ، حتى صار رنينه مستمرا ومزعجا ، فنهضت من نومي مسرعا إلى الباب . فتحته ، فرأيت اثنين من القرية ، أعرفهما : « شعبان » و « أمين » ، ابنا جدى عبدالوهاب ، اندهشت لمرآهما في هذا الوقت بين الليل والنهار ، وابتسمت لهما . وهممت بالتنحي لهما عن مدخل الباب ، لكنني رأيت خلفهما عربية « حنطور » ، واقفة في الشارع ، تحمل على مقعدها الخلفي شخصا ممدداً ، مثنى الركبتين . قال لي أمين دون تحية :

ـ افتح الضلفة الأخرى .

رحت أفتحها ، بينما هما عادا إلى ذلك الشخص ليحملاه إلى شقتنا . خطر لي أن ذلك الشخص ، هو جدى عبدالوهاب ، وأحسست بالحزن والاكتئاب .

وهما يدخلانه وقد حملاه فيما بينهما ، تحرك مصراع الباب إلى الخلف، فوقعت زهرية كانت موضوعة خلفه ، وانكسرت ، وأوقفني كسرها عن الانحناء على جدى عبدالوهاب لأقبله ، وأبكي على صدره .

تشاءمت من كسر الزهرية وفكرت أن جدى عبدالوهاب مريض ، وسيطر عليّ يقين أنه سيموت ، فالزهرية قد انكسرت . رغبت في البكاء بحرقة ، لكنني صحوت من نومي حزينا ، ومحبطا . وشعرت بالراحة لأني كنت أحلم ، لكن الحزن سيطر عليّ ، وأحسست بدموع حبيسة تترقرق في عيني . فالحلم كان واضحا ، كانت رؤيا الحلم قد حدثت بعيد الفجر ، وخشيت حقا أن يكون جدى عبدالوهاب مريضا مرض الموت . حين كنت طفلا أحببت جدى



عبدالوهاب أكثر من حبي لأبي ، وجدى علي . ولم يكن عبدالوهاب جدى حقيقة ، كان فقط شقيقا لجدى علي ، وكان يعيش في بيت متواضع في قلب الحارة ، وكنت أعيش مع أبي وجدى علي في بيتنا ، بيت الأسرة الكبير ، في الشارع الرئيسي الدائري حول القرية . في كل ليلة من ليالي رمضان ، أحس وأنا نائم على خدى بملمس رطب ، يشيع في روحي الغافية شعورا ما بالرضا . وفي الصباح حين أستيقظ ، أجد في حضني قطعا من الحلوى ملفوفة بورق ملون ، فأسأل عمن أتى بها ، فيقال لي :

ـ البركة . بركة رمضان .

فأصدق ، وأصدق ، حتى ترصدت ذات ليلة ، ذلك الملمس الرطب ، ففتحت عيني ، ورأيت وجه جدى عبدالوهاب ، منحنيا علي ، مبتسما ، يقبلني ، ويقول لي :

ـ نم جيدا يا أبا داود .

عانقته ، وقبلته ، وسهرت معه تلك الليلة أضحك من قلبي . لكنني ظللت أسأل ، متغابيا ، وسعيداً في كل صباح ، وأنا أقبض بين كفي على الحلوى ، عمن أتى بهذه الحلوى . ويأتي إليّ الجواب الضاحك الذي أتوقعه :

ـ البركة . بركة رمضان .

وحتى ، بعدما انتهت ليالي رمضان ، ظل جدى عبدالوهاب يأتي إليّ في الصباح ، حاملا في حجره ثمرات طازجة ، من الجوافة ، أو البرتقال ، ويتركها تنزلق من حجر ثوبه أمامي على الحصير ، وينحني ضاحكا يقبلني :

ـ صباح الخير يا أبا داود .

أدركت الآن ، وأنا على فراشي أترقب معنى الحنان بباله طفل من شخص عزيز ، ويحمله في قلبه ، ينتظر مدى عمره أن يعطيه دائما للصغار والكبار .

كم مضى عليّ مع هذه الذكريات ، في شريط من الصور والأصوات ؟ أحسبها لم تستغرق معي سوى ثوان ، وانتهت سريعا .

على غير توقع ، انتبهتْ كل ذرة فيّ ، فجرس الباب الخارجي للبيت أسمعه يدق الآن ، وما يزال الكل في البيت نائما . وجرس الباب يعود للدق . تملكني رعب جارف ، وغمرتني رعدة شاملة ، لكنني نهضت من فراشي مسرعا نحو الباب .

فتحت الباب . رأيت شعبان وأمينا ، وخلفهما العربة الحنطور واقفة في الشارع ، وبهما ذلك الشخص الحبيب ممدداً ، مثني الركبتين . أوشكت أن أصرخ ، لكنني سمعت صوت أمين يقول لي بحسم :

ـ افتح الضلفة الأخرى .

رحت أفتحها ، وعادا إلى العربة ، ثم عادا يحملان بينهما جدى عبدالوهاب إلى داخل الشقة . وهما يدخلان تذكرت الزهرية ، انتفضت منتبها : لو وقعت لمات . أسرعت اليها لأنقذها لكن الباب كان قد تحرك إلى الخلف والزهرية كانت قد وقعت بالفعل قبل أن أصل إليها ، وانكسرت ، وغمرني شعور بأن جدي عبدالوهاب سيموت ، وأنه مريض مرض الموت ، لأن الزهرية انكسرت ، ولأن الحلم قال ذلك . وتذكرت حبه لي ، وحنانه ، وتراءت لي حبّات « الجوافة » رطبة ومنعشة ، لم تغسل بعد ، وأحسست برائحتها ، ومذاقها المحترق ، ولحمها الأبيض والأحمر ، وانفجرت في البكاء بعيدا عنه . ووجدتني أطحن أجزاء الزهرية لأنها كانت نذير شؤم ، وأكره الأحلام لأنها كانت نذير شؤم .

وجاءت عربة سوداء ، تحمل جثمان جدى عبدالوهاب ، وكان وجهه قد تجمد كالقناع . □



● حلمي عبدالوهاب





العلاج الفيزيائي

عرفه الإنسان منذ أقدم العصور

بقلم : الدكتور وليد السباعي

العلاج الطبيعي ، أو الطب الفيزيائي والتأهيل أو المعالجة الالكترونية هي تسميات مختلفة لعلم واحد هو العلاج الفيزيائي والتأهيل وأصل الكلمة اليوناني هو «فزيكو تيرابيو» ويعني العلاج بالعوامل الفيزيائية التي عرفت منذ أقدم العصور . ما هي قصة العلاج الطبيعي وكيف بدأت ؟

لاقت المعالجة الفيزيائية نجاحا منقطع النظير الا أنها في الوقت ذاته لاقت لوما وهجوما عنيفين ، فقد لاقت النجاح ، لأن بعض الأمراض الصعبة التي كان علاجها مستحيلا قد أمكن علاجها أو تخفيف وطأتها الشديدة بهذه الطريقة من العلاج ، وعلى سبيل المثال عواقب شلل الأطفال ، أو الفالج الشقي أو شلل الأطراف أو شلل عصب الوجه ، أو بعض الأمراض العظمية والروماتيزمية ، أو بعض حالات العقم عند النساء .. الخ .. ولاقت اللوم والهجوم نظرا لأن بعض القائمين بها ليسوا أطباء اخصائيين أو لأنهم لا يمتون إلى الطب بصلة !

ونتيجة لذلك فانهم لم يستطيعوا تقديم أفضل المساعدة للمريض ، أو لأن البعض عالج بواسطتها أمراضا لاتدخل ضمن نطاقها وبالتالي لم تقدم العون الكافي لهذا الانسان ، ونحن نعلم أصلا أنه لايوجد دواء لكل الأمراض ، والا لاختل نظام الحياة البشرية على وجه الأرض ، وجَلّ من بيده المرض أو الشفاء .

عموما فان هذه المعالجة أصبحت جزءاً لايتجزأ

من الخدمات الطبية بصورة عامة ، ولا غنى لأي مجتمع عن الخدمات التي تقدمها ، والتي يمكن أن تقدمها فيما لو استغلت وطوّرت كما يجب .

علم قائم بذاته

والمعالجة الفيزيائية والتأهيل هي علم طبي قائم بذاته ، ككل العلوم الطبية الأخرى الجراحية أو الداخلية ، ذلك انها تستخدم للوقاية وللعلاج ، وتتميز عن العلوم الطبية الأخرى بما نسميه التأهيل ، أي تأهيل المرضى أو المصابين ليستأنفوا حياتهم العملية والاجتماعية والعائلية .

واذا كان الطب الداخلي بكل فروعه يعتمد بصورة أساسية على الدواء ، والطب الجراحي بكل فروعه يعتمد على الجراحة والدواء ، فان المعالجة الفيزيائية تعتمد أيضا على العلاج بالعوامل الفيزيائية والالكترونية وحدها أو مع العلاج الدوائي

والمعالجة الفيزيائية بمفهومها الواسع تعني معرفة تأثير العوامل الفيزيائية على الجسم البشري في حالة الصحة ، وفي حالة الاصابة أو العجز ، وتسخير هذه العوامل للعلاج أو للوقاية أو التأهيل .

ونحن نعلم أن العوامل الفيزيائية تنقسم الى نوعين :

- عوامل طبيعية مثل الشمس والهواء والماء .. الخ
- عوامل تكنولوجية مثل الطاقة الضوئية والطاقة الحرارية والطاقة الكهربائية وفوق الصوتية ... الخ .

وما بين هذين العاملين يدخل علم المداواة بالحرمان « أصلها يوناني معناها حركة ومعالجة »

وبصورة عامة فان مايؤلف المعالجة الفيزيائية هو : المعالجات الالكترونية بأنواعها العديدة جدا ، المعالجات الضوئية ، المعالجات المائية ، المعالجات الحرارية ، المعالجات الحركية ، المعالجة الاستنشاقية ، المعالجة الطبيعية ... الخ .

منذ ما قبل التاريخ

لايمكن بالضبط معرفة التاريخ الذي بدأ فيه الانسان بمعرفة العوامل الطبيعية وتأثيرها على صحته لكن ذلك قد حصل حتما منذ زمن غابر جدا ، في فترات ما قبل التاريخ ، ان أول نص مكتوب حول معرفة الانسان للعوامل الطبيعية كالشمس والهواء والماء والصواعق .. الخ .. وتأثيرها عليه نراه في كتاب (كنك فو) أو التجارب الانسانية وقد كتب في حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وهو يشرح المداواة بواسطة التفريغ الجسدي ، وفي الهند يوجد كتاب فيدي « ٢٨٠٠ ق . م » مشروح فيه عن الحركات الفاعلة والمنفعلة والمساج والرياضة الاستنشاقية ، أما عند الأشوريين والبابليين فقد كان يوجد إله للشمس واعتقاد بقوة أشعة الشمس على شفاء بعض الحالات ، وفي مصر القديمة ولأول مرة في التاريخ عولجت أمراض المفاصل والعظام بواسطة حمامات شمسية وحمامات الطين ، وهكذا ... مرورا بالعرب القدماء واستعمال الكي والفصم ، والصينيين القدماء وطريقة الوخز بالابر ومشتقاتها واليونانيين القدماء « هيبوقراط ٤٦٠ ـ ٣٧٥ ق . م » الذي كان يعمل حمامات شمسية وتمارين وتدليكا ، وهو أول من أوجد الجرعة ، أي ما نسميه اليوم بالجرعة الدوائية التي هي أهم اكتشاف في تاريخ الطب على الاطلاق ، ومرورا بالدولة الرومانية وحتى العالم غالين « ١٢٩ ميلادي » الذي يعتبر أول مؤسس لما نسميه اليوم بطب العمل .. وهكذا تطورت المعالجة الفيزيائية من أشكالها البدائية الأولى ، حتى وصلت الى انجلترا وفرنسا وألمانيا والسويد ، ومنها ابتدأ مايسمى بالحركات السويدية التي أوجدها العالم (لينك) الذي أسس أول معهد للرياضة في ستوكهولم ، وتطورت اكثر لتصبح في فرنسا معالجة تجميلية ، وفي ألمانيا رياضة الأجهزة .

لكن أكبر تطور طرأ عليها هو التطور الهائل الذي حصل لها بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا ، حتى أصبحت كما نراها عليه اليوم في الدول المتطورة ، حيث توجد المشافي الخاصة بها ، والمصحات والمستوصفات المتخصصة ، وأصبحت تدرس في الجامعات كمادة ضمن برنامج دراسة الطب ، ومن ثم كاختصاص مدته ثلاث سنوات بعد الانتهاء من دراسة الطب العام ، وتحضر بها الدراسات العليا والدكتوراة بدرجة استاذ ...

بداية العلاج الالكتروني

أما فيما يتعلق بتاريخ القسم الثاني منها ، أي

العلاج الالكتروني ، فأيضا يعود الى عهود سحيقة جدا ، حينما استعمل الانسان أول أشكال الكهرباء في التاريخ ، الذي ظهر عند اليونانيين القدماء والرومانيين ، حينما استعملوا الصواعق والأسماك الكهربائية « السمك الهزاز » وذلك عن طريق التماس بينها وبين جسم الانسان ، لكن ذلك كان بدائيا طبعا ، ولم يكن يسمح بضبط الشكل ولا الجرعة ولا الزمن .

ان أول بدايات المعالجة الألكترونية قامت في ألمانيا عام ١٧٧٤ على شكل حمامات كهربائية سالبة وموجبة ثم نوعية ، وأول كتاب طبع حول المعالجة الألكترونية كان في أمريكا عام ١٨٠٢ ـ ١٨٠٩ و ١٨١٧ ، وأول جهاز استعمل للعلاج الألكتروني كان في أحد مستشفيات باريس ١٧٤٦ ولندن ١٧٦٧ ، ويجب الا ننسى فضل العلماء غلفان وفولط وفارادى ونيقولا تسلا وتياراته ذات التوتر العالي وهكذا حتى الحرب العالمية الثانية ، وتسمى هذه الفترة بعصر المعالجة الألكترونية ، وحتى عام ١٩٥٤ حينما بدأ استعمال موجات ما فوق الصوت في التشخيص لأمراض القلب ، ثم ١٩٥٦ لأمراض العيون . . وحتى يومنا هذا .

المعالجة الفيزيائية والتأهيل

هنالك بعض الأخطاء الفادحة التي شاعت ، والتي تعتبر المعالجة الفيزيائية ضربا من ضروب « المساج » أو الرياضة أو اعتبارها علاجا ليس ذا شأن كبير يمكن تطبيقه فقط في بعض حالات أمراض العظام والمفاصل والعضلات ، أي الجهاز الحركى فقط عند الانسان ، وهذا خطأ فادح ، فليست المعالجة الفيزيائية نوعا من الرياضة أو المساج ، وهي لا تهتم فقط بالجهاز الحركى عند الانسان ، وانما هي نوع طبي كامل قائم بذاته لايشكل المساج والرياضة منه أكثر من واحد بالمائة ، وهو علاج متنوع ، يتفرع كثيرا ليتدخل في العديد من العلوم الطبية الأخرى ، اضافة الى انه الوحيد في بعض الحالات .

ان من أهم تطبيقات المعالجة الفيزيائية هي معالجة الألم والأمراض الروماتيزمية والشلل بأنواعه وتخفيف العجز الوظيفى الناتج عن الأمراض والاصابات ، وتقصير زمن الاستشفاء بصورة عامة الى حدوده الدنيا ، أي في كثير من الأمراض اذا استعمل الدواء فإن الاستشفاء يستغرق زمنا أما باستعمال الدواء « والدياترمى » مثلا فإن زمن الاستشفاء يكون أقصر بكثير ـ واعادة وظائف بعض الأعضاء المعطلة أو شبه المعطلة ، وتحسين اللياقة البدنية والحركية ، وتدريب المصابين على استعادة صحتهم وأمنهم ومكانهم في المجتمع والعمل على تدريبهم للقيام بأعمال العناية الذاتية كالطعام والعمل واللباس والاتصال بالناس ، كما انها تعمل على الوقاية من التشوهات الجسمية واصلاحها ، وتخفيف الألم ، وتحسين امكانية الترميم ، والتدريب على استعمال العكاكيز والأطراف الصناعية ، ووسائل العناية الذاتية الأخرى كأفضل ما يمكن .

وحتى تتضح الصورة أكثر يجب تصنيف مجالات المعالجة الفيزيائية ، ولنبدأ بأمراض الجهاز الحركى واصاباته التي أهمها ازالة الألم الذي يعاني منه المرضى والأمراض الروماتيزمية والشبيهة بالروماتيزمية والآفات المفصلية ، كالتهاب المفاصل والفقرات وتنكسها العظمي أو الغضروفي ، والمناقير العظمية ، والديسك ، وأوجاع المفاصل والظهر ، واصابات العضلات والأوتار والرضوض ، وتطبق في امراض النورون الحركى كشلل الأطفال ، والفالج الشقى ، والشلل النصفى ، وداء ليتك ، وأوجاع الرأس والشقيقة ، ثم شلل أعصاب الوجه ، أو التهاباتها وأوجاعها ، أو فقدان الاحساس في مكان ما . . .

في الأمراض الداخلية والجراحية ، كالتهاب الأوعية الدموية ،وازالة الاحتقان والتجمد ، والدوالى والجلطة الطرفية ، وأمراض الربو ، وضيق الصدر ، والتهاب القصبات ، وتساعد في أمراض المعدة كالقرحة والوهن الهضمي والامساك المزمن وأوجاع المرارة ، وذلك بالتشاور مع الطبيب المختص بهذه الأمراض .

في أمراض الأنف والأذن والحنجرة : كالتهاب اللوزتين والجيوب والأذن اضافة للدواء في حالة عدم القيام بعمل جراحى وفي حالات طنين الأذن التي أحيانا يعجز أي دواء عن علاجها في الأمراض الجلدية ، كالتليف الجلدى والتدوب بعد الجروح ، والحروق والدمامل وإزالة النمش والشعر . . الخ .



ممرضة تقدم علاجاً طبيعياً لطفل

في أمراض الأطفال : كتبول الأطفال الليلي،في أمراض الجهاز البولي : كالالتهابات المثانية والكلوية والمجارى البولية والبروستاتا في الأمراض النسائية : بعض حالات العقم ، التهاب المبيض ، التهاب الأبواق والقنالات والتصاقاتها والتهاب الثدى .

في العيوب الوراثية أو المكتسبة : اعوجاج الرجلين ، تسطح القدم ، انحناء الظهر ، بروز أو انخفاض عظمة الصدر .

في بعض الأمراض العصبية : كالشقيقة وبعض حالات القصور السمعي..الخ .

وقد تمكنا من علاج احدى حالات ضمور عصب الرؤية ، وقد تحسنت حالة المصاب جدا بعد اجراء الفحوص قبل وبعد العلاج . . الخ .

من هنا نقول ان المعالجة الفيزيائية والتأهيل هي علم طبي قائم بذاته ، ولا يمكن أن تتم الا باشراف طبيب مختص بالمعالجة الفيزيائية ، أي طبيب عرف اضافة الى العلوم الطبية كلها : كالفيزيولوجيا والتشريح بنوعيه العادى والمرضي وعلم الأدوية والجراثيم ، والأمراض الداخلية والجراحية والنسائية الخ أن يلم أيضا بالالكترونيات والأجهزة والمائيات والوسائط والطرق والأجهزة المذكورة ، اى يجب وجود طبيب اخصائى بالمعالجة الفيزيائية اضافة الى معالج فنى مختص بالمعالجة لينفذ مارسمه الطبيب المختص الذي فحص المريض وخطط وقرأ الصور والتحاليل الخ ، ثم وضع التشخيص الصحيح ورسم خطة العلاج فيزيائيا ودوائيا ، فلا يمكن للطبيب غير المختص أن يفعل ذلك بصورة صحيحة ، ولا يمكن للفنى أن يشخص أو يكتب الدواء..الخ .

عموما في الدول الراقية وفي المصحات المخصصة لهذا العلاج ، يوجد فريق متكامل يقوم بالعمل على أفضل وجه ، يتألف الفريق من .

طبيب اخصائى بالمعالجة الفيزيائية وممرض فنى لتطبيق العلاج،وممرض اخصائى بالعلاج المهنى « نجارة » ، « حدادة » ، « خراطة » يعلم المصاب ويدربه على مهنته أو مهنة قريبة منها . وعالم اجتماعي يحلل ويدرس الحالة الاجتماعية للمريض في وسط عائلته وعمله ، ومختص علم نفس يدرس نفسية المريض ويساعده ليتأهل للحياة من جديد . واستشارى لانتقاء نوع العمل الذي يجب أن تؤهل المريض أو المصاب له .

فاذا ما وجد فريق بهذا المستوى وهذه الخبرة ، كان العمل صحيحا ومدروسا ، وعندها تكون النتائج جيدة ، وتؤتى المعالجة الفيزيائية ثمارها المرجوة . □

صفحات لم يُعن بها التاريخ



لويس التاسع .. أسير المنصورة

بقلم : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

بالاضافة الى ما للتاريخ من فوائد ومزايا عديدة ، أبرزها أنه يمثل مدرسة واسعة الآفاق يستفيد فيها اللاحقون من الدروس والتجارب التي مر بها السابقون . . . فان استرجاع قصص التاريخ فيه لذة كبيرة للدارس والقارىء والمستمع ، لما يحفل به من مفاجآت ونوادر ، منها مايعبر عن الغرائز البشرية ، ومنها مايلقي أضواء على عادات الجماعات والأمم والشعوب . . . وغير ذلك من ضروب المعرفة التي لاتخلو من فائدة وطرافة ومتعة . .

الملاحظ في دراسة التاريخ أن غالبية المؤرخين يعنون في المقام الأول بالتاريخ السياسي بكل مايحفل به من أحداث ترتبط بسقوط حاكم وقيام آخر ، أو بغزوة أو حرب أو هجرة أو فتنة . . وغير ذلك من تطورات تنصب أساسا على تعاقب الدول والحكومات ، أما ما عدا ذلك من اتجاهات تعبر عن الحياة الاجتماعية بآفاقها الرحبة ، أو الحياة الخاصة للافراد ـ وبخاصة صناع التاريخ ـ وطبيعة المسرح الذي عملوا عليه وتأثروا به ، والظروف التي أحاطت بهم ، وانفعلوا بها ، وأثرت في سلوكهم . . فان هذه جوانب قد تبدو في نظر غالبية الباحثين ضروبا من الاستطراد ، رغم مالها من أثر في تشكيل الأحداث السياسية ، فضلا عما فيها من متعة ، انها أشبه باللحم الذي يكسو العظام ، ليعطي التاريخ

شكله الحقيقي الجذاب ، ويكسبه طعمه ومذاقه .

ومن أمثلة ذلك حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر سنة ٦٤٧ هـ ـ ١٢٤٩ م ، وهي الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية السابعة ، فالمتعارف عليه في كتب التاريخ أن هذه الحملة مدخلين تقليديين ، فاما أن يأتي ذكرها في سياق التاريخ الفرنسي في القرن الثالث عشر للميلاد ، وإما أن يأتي ذكرها بوصفها حلقة من حلقات الحروب الصليبية في ذلك القرن ، ولكن لو حاول المؤرخ أن ينظر الى هذه الحملة من خلال شخصية لويس التاسع نفسه ، ونشأته وتكوينه الخلقي من ناحية ، ومن خلال المسرح الذي عمل عليه لويس التاسع ورجاله في الشرق ، وعقلية الناس الذين احتك بهم من ناحية أخرى لاكتشف أن لهذه الحملة مذاقا آخر شيقا لايخلو من جديد .

فتاريخ لويس التاسع ملك فرنسا (١٢١٤ ـ ١٢٧٠) تأثر الى حد بعيد بنشأته التي أسهمت بدورها في تشكيل شخصيته وفي سلوكه وتصرفاته ، ذلك أن أباه لويس الثامن توفي سنة (٦٢٤ هـ . ١٢٢٦ م) تاركا ابنه قاصرا في الثانية عشرة من عمره ، فشب تحت وصاية أمه الملكة بلانش القشتالية ، وقد اتصفت هذه الملكة بالحزم في معالجة الأمور وقوة الشخصية والصلابة ، مع التدين الشديد ، مما مكنها ـ بمساعدة رجال الكنيسة ـ من الصمود في وجه كبار الأمراء الاقطاعيين ، حتى تم تتويج ابنها ملكا على فرنسا عقب وفاة أبيه مباشرة .

غير أن سيطرة الأم وقوة شخصيتها جعلتا الابن يشب تحت وصايتها في جو مشحون بالكبت ، كما أن نشأته الدينية في كنفها أثرت تأثيرا واضحا في شخصيته وسلوكه ، فاتصف بالهدوء المفرط من ناحية ، وبشدة التقوى والاخلاص للكنيسة ورجالها من ناحية أخرى ، والواقع أن لويس التاسع لم يفتقر الى الثقة بالنفس ، ولكن تغلب شخصية الأم جعله يبدو أمامها ـ حتى وفاتها سنة ١٢٥٢ ـ مسلوب الارادة ، وفيما عدا ذلك-أي بعيدا عن دائرة نفوذ أمه ـ فانه اتصف بامتلاء الشخصية ، وقوة الارادة والاعتزاز بكرامته وكرامة منصبه ـ بوصفه ملكاً على فرنسا ، حتى أنه وصف في المصادر الأوروبية بأنه كان ملكا في طلعته وسلوكه ، أما المصادر العربية المعاصرة ، فقد وصفته بأنه كان « أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأسا . . . وكان متدينا بدين النصرانية مرتبطا به » .

قصة النذر

خططت أم لويس لتزويجه من الأميرة مرجريت ـ ابنة برنجر الخامس أمير بروفانس ـ وكان هدفها من تلك الزيجة كسب امارة بروفانس القوية الى جانب الملكية الفرنسية ، في حلبة الصراعات بين فرنسا والقوى المجاورة في غرب أوروبا ، وتم الزواج فعلا سنة ١٢٣٤ ، ولكن شعور الغيرة ونزعة السيطرة جعلا الملكة الأم تشدد وطأتها على الملكة مرجريت ، رغم أن الأخيرة كانت لاتقل عن الأولى حيوية ونشاطا وطموحا ، ولم يستطع الملك لويس التاسع أن يخالف أمه ، حتى في مشاعرها نحو زوجته ، فاتصف سلوكه نحوها في كثير من الأحيان بالفتور والبرود .

وعندما اصيب لويس التاسع بمرض خطير في أواخر سنة ١٢٤٤ ، نذر ـ ان هو أبل من مرضه ـ أن يقوم بحملة صليبية لاسترداد بيت المقدس ومحاربة من أسموهم أعداء الصليب ، ويبدو ان استحكام النزاع بين البابوية والامبراطورية المقدسة في تلك المرحلة حال دون وفاء الملك لويس بنذره فور شفائه ، فاضطر الى تأجيل مشروعه الصليبي بعض الوقت ، حتى اذا ما قرر لويس التاسع القيام بحربه المقدسة ، اختيرت مدينة دمياط ـ على مصب الفرع الشرقي للنيل ـ هدفا لتلك المغامرة ، وكان الصليبيون يعتقدون دائما أن الاستيلاء على بيت المقدس يجب أن يبدأ بضرب مصر بوصفها قلب العالم الاسلامي النابض ، وبخاصة بعد أن أثبتت الحوادث أن مصر كانت الركيزة الأساسية التي اعتمد عليها صلاح الدين في تحقيق انتصاراته عليهم ، وفي استرداد بيت المقدس منهم .

ولم تكن المرة الأولى التي يقرر فيها الصليبيون مهاجمة مصر عن طريق دمياط ، اذ سبق أن اتجهت الحملة الصليبية الخامسة الى دمياط سنة ١٢١٩م ، وبعد أن استولى عليها الصليبيون ، شرعوا في الزحف على داخلية البلاد ، ولكن مشروعهم انتهى الى الفشل والهزيمة ، وكانت دمياط في ذلك العصر ميناء مصر الأول على البحر المتوسط ، ومركز

الاتصالات البحرية مع الموانى الاسلامية في الشام وشرق البحر المتوسط من ناحية ، ومع موانى غرب ذلك البحر من ناحية أخرى ، وبحكم وقوعها في شرق الدلتا صارت مصدر تهديد للموانى الصليبية بالشام ـ وبخاصة عكا وخطوط مواصلاتها البحرية مع غرب أوروبا .

السرية والمباغتة

مهما يكن من أمر ، فان تقوى لويس التاسع وشدة ولائه للكنيسة ، وقوة ارتباطه برجالها ، أمور أثرت في مصائر حملته الصليبية التي أبحرت من شواطئ جنوب فرنسا في أغسطس ١٢٤٨ ، وكان لويس التاسع بحكم تقواه يقف بمشاعره الى جانب البابوية في نزاعها المرير مع الامبراطورية ، ولكنه تظاهر بالوقوف على الحياد بين الطرفين ، حتى يضمن لحملته الصليبية جوا هادئا نقيا ، ومع ذلك فان الامبراطور فردريك الثاني في صقلية أحس بموقف الملك لويس غير المعلن ، فبادر بارسال افادة الى السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب) يعرفه بوصول الفرنسيس اليه ، وهو طالب لثغر دمياط وقد ادعى الامبراطور في رسالته أنه بذل جهدا ليثني الملك الفرنسي عن عزمه . . . قال « واجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده ، وخوفته ، فلم يرجع لقولي ، فكن منه على حذر » ، حسبما جاء في رسالة الامبراطور فردريك الى السلطان الصالح أيوب .

وكان من الطبيعي أن يأخذ السلطان تحذير الامبراطور على محمل الجد ، بحكم ما كان هناك من علاقات ودية بلغت حد تبادل المراسلات والهدايا والسفراء بين السلطان الكامل الايوبي ـ والد الصالح أيوب ـ والامبراطور فردريك الثاني ، ويعبر أحد المؤرخين المعاصرين عن تلك العلاقات الطيبة بقوله ان الامبراطوور فردريك كان مصافيا للملك الكامل « أبيه » ، فكذلك له (للصالح أيوب)

وهكذا فقدت حملة لويس التاسع عنصري السرية والمباغتة ، وهما عنصران لابد منها لضمان نجاح أية ضربة حربية ، فأتى السلطان الصالح أيوب من الشام الى مصر مسرعا ، واستطاع ـ رغم مرضه الشديد ـ أن ينظم الاستعدادات الضرورية للدفاع عن البلاد ، فشحن دمياط « بالذخائر والأقوات والزرد خاناه وآلات الحرب » ، وذلك استعدادا لحصار طويل ، وأرسل الى نائبه بالقاهرة ـ الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ـ يستحثه في بناء السفن بدار الصناعة ، وأمره بأن « يعمرها بالرجال والعدد ، ويسيرها اليه أولا بأول » ، كما ذكر المؤرخ المعاصر ابن واصل ، وقد توقع المسلمون أن ينزل الصليبيون على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط ـ مثلما فعلوا قبل ذلك بثلاثين عاما في الحملة الصليبية الخامسة ـ لذلك أمر السلطان الصالح أيوب أحد أمرائه وهو فخر الدين يوسف بن الشيخ بالوقوف على راس قوة من الجند على هذه الضفة ، تحسبا لخطر العدو ، وفي تلك المرحلة اتخذ السلطان الصالح أيوب من بلدة أشموم طناح ـ على الترعة المعروفة باسم بحر أشموم جنوب دمياط ـ مقرا له ، يكون بمثابة غرفة عمليات يوجه منها دفة المعركة المرتقبة .

خيوط رئيسية

لانريد أن ندخل في التفاصيل الحربية لحملة لويس التاسع على مصر ، فأخبارها وردت مفصلة في كتب التاريخ . يكفي أن نشير الى خيوطها الرئيسية بالقدر الذي يوضح ما ذهبنا اليه من القاء أضواء على الجوانب التي أهملها المؤرخون في تأريخهم لتلك الحملة ، ومن هذه الخيوط أن لويس التاسع اختار أن يتجه أولا الى جزيرة قبرص ، حيث أمضى بضعة أشهر في تجميع قواته وسفنه التي بعثرتها الرياح في البحر ، فضلا عن اجراء عدة اتصالات مع بعض القوى المعادية للمسلمين في الشرق ، مثل المغول والصليبيين بالشام .

وكانت تصحب لويس التاسع زوجته مرجريت ، التي أصرت على مرافقته في حملته الصليبية ، ربما لتخلو به بعيدا عن رقابة أمه الملكة بلانش ، وقد حذا مرجريت عدد من زوجات الأمراء المشاركين في الحملة ، مما أضفى عليها طابعا اجتماعيا واضحا .

ومن الملاحظ أن أصحاب المشاريع الصليبية في ذلك العصر كانوا ينصحون الصليبيين دائما بأن تكون هجماتهم على المسلمين في يوم جمعة ، وقت الظهيرة ، والمسلمون في المساجد ، وفعلا ظهر الأسطول الصليبي بقيادة الملك لويس التاسع أمام

دمياط ظهر الجمعة لتسع بقين من صفر سنة ٦٤٧هـ ، الموافق ٤ يونيو ١٢٤٩ م .

ويبدو أن لويس التاسع كان يجيد أسلوب الحرب النفسية ، فبادر بارسال رسالة قوية الى السلطان الصالح ايوب يذكره فيها بان المسيحيين ضربوا المسلمين في الاندلس ، « واخذنا النساء والعذارى ، وفرقناهم على ملة النصارى ، وجعلنا رجالهم أسارى ، ونساءهم عليهم حيارى » ، وطلب لويس من السلطان الاستسلام فورا ، والا حل بالمسلمين على يديه ما لاتحمد عقباه « فلا نرحم عزيزاً أو ذليلاً (كذا) ، و لاتجد الى نصرتهم من سبيل !! » .

واختتم لويس التاسع رسالته الى السلطان الصالح أيوب ببضعة أبيات من الشعر ، جاء فيها :

ستعلم لبلى أي دين تداينت
وأي غريم للتقاضي غريمها

ويروى المؤرخ ابن أيبك الدواداري أن الصالح أيوب بادر ـ رغم مرضه الشديد ـ بالرد على الملك الفرنسي ، متوعدا اياه اذا جرؤ على النزول بأرض الاسلام ، واختتم رسالته بشعر جاء فيه :

الا يامليك الروم هل أنت سامع
وهل أنت عما في ضميرك راجع
تروم بلاد القدس بالسيف عنوة
ودون بلاد القدس دينك ضائع
لقد حفظ البيت المقدس عصبة
كما حفظ الكف اليمين الأصابع
فلا أنت ترجو البعض مما قصدته
ولا من أتى مستنصرا لك راجع
أتطمع من ليلى بوصل وانما
تضرب أعناق الرجال المطامع

وما كاد الملك لويس يتسلم هذه الرسالة ، حتى أمر رجالة بالنزول الى البر ـ على الضفة الغربية لفرع دمياط ـ حيث ضربت للملك خيمة كبيرة حمراء اللون ، وعندما أدرك الأمير فخر الدين قائد القوة المرابطة على الضفة الغربية للنيل خطورة الموقف أرسل على أجنحة الحمام ، الى السلطان يشرح له الأمور ، ولكنه لم يتلق ردا ، فظن أن السلطان مات لأن الجميع كانوا يعرفون سوء حالته الصحية ، ولذا بادر بالانسحاب الى الضفة الشرقية التي عليها دمياط ، ولم تلبث حامية دمياط هي الأخرى أن شعرت بكشف ظهرها نتيجة للانسحاب المفاجيء للأمير فخر الدين ورجاله ، فانسحبت حامية دمياط هي الأخرى تاركة أبواب المدينة مفتوحة « ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان » ، وهكذا عبر الصليبيون النيل ، ودخلوا دمياط بسهولة في ٦ يونيو ١٢٤٩ .

وكان أن أمر السلطان الصالح أيوب بمعاقبة بعض الفارين من حامية دمياط ، ولكن يبدو أن « الوقت كان لايحتمل الا الصبر والاغضاء عما فعلوه » لذلك نقل السلطان المريض مقره من أشموم طناح الى المنصورة ، على الضفة الشرقية للنيل ، عند بحر أشموم من فرع دمياط ، ولم تكن المنصورة حينئذ مدينة سكنية بمعنى الكلمة ، وانما كانت « منزلة » أنشأها السلطان الكامل الأيوبي ـ والد الصالح أيوب ـ ونزل بها عندما هاجم الصليبيون مصر قبل ذلك بثلاثين عاما في الحملة الصليبية الخامسة ، وكان أن أمر السلطان الصالح أيوب بتحصين المنصورة ، لتصبح خطا دفاعيا يحمي داخلية البلاد والقاهرة ، فجددوا أسوارها وتحصيناتها ، ونزح اليها عدد كبير من المتطوعين والعربان ، فضلا عن أعداد من العربان والحرافشة ، ثم ان السلطان الصالح أيوب نقل الى المنصورة فرقة من مماليكه الأتراك الذين كان قد جلبهم صغارا ،وعني بتربيتهم وتنشئتهم ، حتى صاروا فرسانا أقوياء يضرب المثل بشجاعتهم .

بعد سقوط دمياط

أما الصليبيون ، فكانت فرحتهم عظيمة بالاستيلاء على دمياط بتلك السهولة ، وسرعان مادخلوها « فوجدوها صفرا من الناس وأبوابها مفتحة ، فملكوها صفوا عفوا ، واحتووا كل مافيها من العدد والأسلحة والذخائر والأقوات والمجانيق » على قول المؤرخ المعاصر ابن واصل الذي عايش الأحداث ، ورأى بعضها بعينيه ، وسمع عن البعض الآخر من شهود عيان ، على أن لويس التاسع ورجاله لم يستفيدوا سنة ١٢٤٩ من الأخطاء التي وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة قبل ذلك بثلاثين عاما ، وبدلا من أن يستفيد لويس التاسع من حالة الفوضى والفزع التي عمت الجبهة الاسلامية ،

نتيجة لسقوط دمياط ، ويحاول أن يباغت أعداءه قبل أن يفيقوا من الصدمة ، اذا بالصليبيين يضيعون الفرصة ويستسلمون للاسترخاء في دمياط بضعة أشهر وكأنهم في نزهة حربية بين ربوع الشرق فاستمرأوا الحياة في دمياط ، وانغمس معظمهم في اللذات ، ولا أدل على احساس الملك لويس نفسه وزوجته مرجريت بأن الجو قد صفا لهما في دمياط بعيدا عن سطوة الملكة الأم بلانش وسيطرتها ، من أن مرجريت حملت من زوجها في تلك الفترة ـ وعلى أرض دمياط ـ وسنرى أنها وضعت حملها بعد تسعة أشهر في دمياط في أثناء أسر أبيه .

وأما بالنسبة للمسلمين ، فان سقوط دمياط جاء « مصيبة عظيمة لم يجر مثلها » ، وحدث ذلك في وقت ساءت حالة السلطان الصالح أيوب ، وأخذ « يتزايد مرضه ، وقواه تضعف وتتلاشى ، والأطباء ملازمون له ليلا ونهارا ، وقد وقع يأسهم من عافيته » . ولم يلبث ان توفي السلطان الصالح أيوب في ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ م (١٤ شعبان ٦٤٧هـ) ، وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها زوجته شجرة الدر لاخفاء خبر وفاة السلطان لحين حضور ابنه « توران شاه » الذي كان متغيبا خارج مصر ، الا ان الشك في حياة السلطان قد تسرب الى نفوس المواطنين والأعداء جميعا

ومهما يكن من أمر ، فان وفاة السلطان الصالح أيوب ، واكبت زحف الفرنج من دمياط متجهين جنوبا بحذاء الضفة الشرقية لفرع دمياط ، وكان خروج الصليبيين من دمياط « بفارسهم وراجلهم ، وشوانيهم (سفنهم) في البحر تحاذيهم . . . » ومرة أخرى أثبت الصليبيون أنهم لم يتعلموا شيئا من دروس الماضي ، لأن التجارب أثبت أن أسوأ الطرق لغزو مصر هو طريق النيل بقنواته وترعه ومياهه التي تشكل عقبات طبيعية صعبة في طريق الغزاة .

وهكذا ما كاد لويس التاسع يتقدم على رأس جنوده بحذاء النيل جنوبا ، حتى أنزل المسلمون سفنهم خلف خطوط المواصلات الصليبية ، ليقطعوا على أعدائهم الطريق الذي يربطهم بقاعدتهم في دمياط ، هذا في الوقت الذي شن المسلمون نوعا من حرب العصابات على الصليبيين في أثناء زحفهم فتخطفوا منهم وقتلوا كثيرا » ويروي المؤرخ المقريزي أن أحد المسلمين أدخل رأسه في بطيخة وغطس في الماء بحيث لم تظهر سوى البطيخة على السطح ، فظنه الصليبيون بطيخة تطفو فوق الماء ، ونزل أحدهم ليظفر بها ، وعندئذ جذبه المسلم ، وعام به حتى قدم به الى المسلمين . . . . !! » .

الملك الأسير

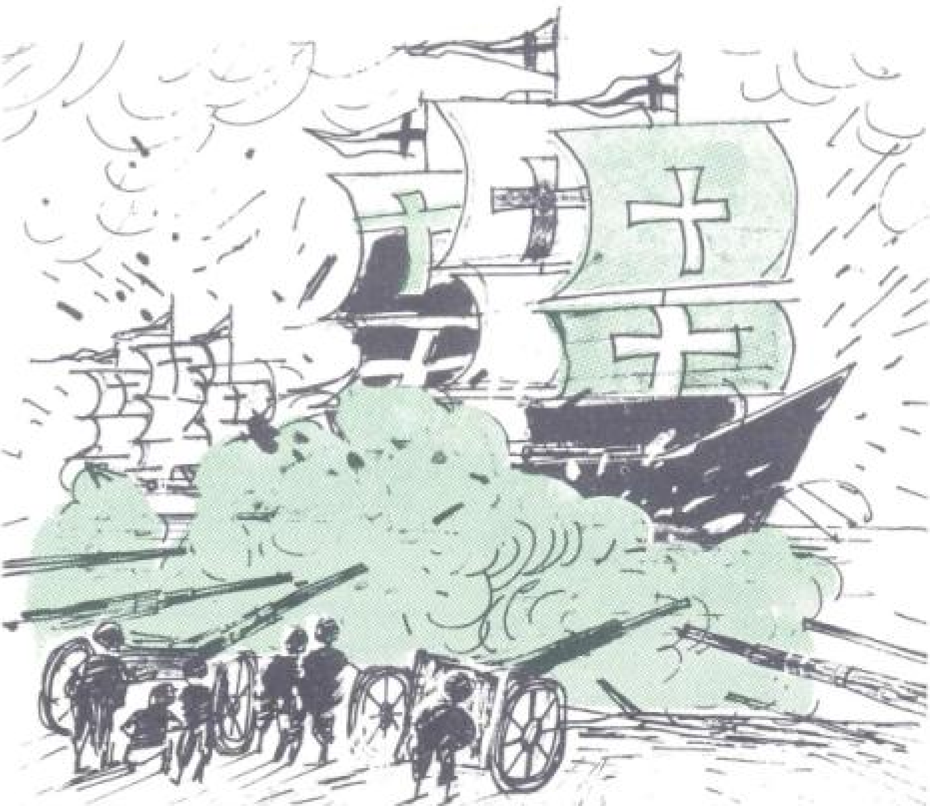
وعندما نجح الصليبيون في عبور بحر أشموم الى المنصورة ، تعجلت مقدمة الجيش الصليبي في اقتحام تلك المنزلة ، ليكون لها شرف السبق في الاستيلاء عليها ، وكان عدد أفراد هذه الفرقة من الصليبيين قرابة ألف وأربعمائة فارس ، ماكادوا ينتشرون بين دروب المنصورة وطرقاتها حتى انقض عليهم المماليك البحرية ـ الترك ـ وحملوا على الفرنج حملة منكرة ، فبددوا شملهم يمينا وشمالا . . . فلم تكن الا ساعة ، واذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين

وسرعان ما أحدثت هذه الكسرة المفاجئة التي ألمت بمقدمة الجيش الصليبي خلخلة في بقية صفوف الجند ، فعم الهرج وبادر الجميع بالتراجع والانسحاب ، وكان المسلمون قد قطعوا الجسور فأخذت المياه تكسو الأرض ، وألفى الصليبيون أنفسهم لايقوون على الحركة وسط الطمى والأوحال ، في الوقت الذي أخذ الصيف يزحف تدريجيا بحرارته ورطوبته ، وصحب هذا وذاك تفشي الوباء وانتشار الحمى ، مما جعل العملية ليست مجرد انسحاب بالمعنى المعروف في فنون القتال والحرب ، وانما كانت ـ كما اسماها المؤرخون المسلمون المعاصرون ـ عملية « فرار » الى دمياط ، وفي الوقت الذي أخذ الصليبيون يتراجعون في بطء شديد « ركب المماليك أقفيتهم » أي ساروا خلفهم يطاردونهم مطاردة عنيفة محكمة ، بسبب دراية المسلمين بطبيعة الأرض والبلاد .

وتتحدث المصادر المعاصرة عن أفواج الأسرى الذين كانوا يرسلون الى القاهرة أولا بأول ، حيث يزفون في الشوارع والطرقات وسط زغاريد النساء وصياح الصغار والكبار . وزاد من رفع الروح المعنوية عند المسلمين في تلك المرحلة ، وصول توران شاه ، وكان قد نودى به في طريقه الى مصر سلطانا خلفا لأبيه الصالح أيوب .

أما الملك لويس التاسع الذي سبق أن أرسل الى سلطان مصر يعيره ويذكره بما أصاب المسلمين في الاندلس من هزائم على أيدي المسيحيين . فقد أمسى في حالة سيئة صحيا ونفسيا ، وعند فارسكور - شمالي المنصورة - كان الاعياء قد بلغ منتهاه بالجيش الصليبي . في حين ارتفع منسوب المياه وعجز الصليبيون عن الحركة بعد أن غاصت سيقانهم وسيقان خيولهم في الوحل . كما أحاط المسلمون بالجيش الصليبي الذي سقط بأكمله بين قتلى وأسرى (ابريل ١٢٥٠) . ويؤكد المؤرخ ابن تغرى بردى أنه كان باستطاعة لويس التاسع الفرار الى دمياط ، وأنه « لو أراد الفرنسيس أن ينجو بنفسه لخلص على خيل سبق أو في حراقة (سفينة) ، لكنه أقام في الساقة (مؤخرة الجيش) يحمي أصحابه » وكان أن لجأ لويس التاسع ، ومعه « خمسمائة فارس من أبطال الفرنج » الى قرية قريبة تسمى منية أبي عبد الله ، حيث أرسل الى المماليك يطلب « الأمان على نفسه ومن معه » . ولكن الفرسان المرافقين له لم يرتضوا الاستسلام ، وقاوموا « فأحدق المسلمون بهم ، وبقوا يحملون عليهم حملة بعد حملة ، حتى أبيدت الفرنج ، ولم يبق سوى فارسين ، فرموا نفوسهم بخيولهم الى البحر فغرقوا . . . »

وهكذا وقع الملك الفرنسي أسيرا في قبضة المسلمين . فاستحضروا له على الفور طبيبا أشرف على علاجه ، وضربت له « خيمة كبيرة أنزلوه بها » . ثم نقل الى سفينة حملته في النيل الى المنصورة ، ومعه جماعة من كبار أمرائه الذين أسروا معه ، من جملتهم أخواه كونت أنجو وكونت بواتيه ، ويمكننا أن نتصور هذه السفينة وهي تحمل ذلك الصيد الثمين ، تتهادى فوق مياه النيل الهادئة ، تحف بها مئات السفن الاسلامية من كل جانب ، تنفخ الأبواق وتدق الطبول ، وعلى شاطىء النيل الناس يهللون ويصفقون ، فعلى البر الشرقي



العسكر سائر منصور مؤيد ، والبر الغربي فيه العربان والعامة ، في لهو وتهان وسرور بهذا الفتح العظيم » ، وما أن وصل الموكب النيلي الى شاطىء المنصورة حتى سيق الأسرى جميعا الى دار القاضي فخر الدين بن لقمان ، حيث وضعت القيود في أيديهم وأرجلهم ، وشددت الحراسة عليهم .

ولاتزال دار ابن لقمان قائمة بالمنصورة بجوار جامع سيدي عبد الله المواقي ، وهي مشيدة باللبن ، وقد اختيرت فيها غرفة صغيرة بالطابق الأرضي لحبس لويس التاسع تحت حراسة الطواشي صبيح المعظمي الذي وصفه المؤرخون المعاصرون بأنه « خادم فظ غليظ » ، ويبدو ان تصرفاته مع الملك لويس اتسمت بالقسوة والغلظة ، حتى ضاق الملك به ذرعا ، وقال للأمير حسام الدين بن أبي علي نائب السلطنة « سألتك بدينك ، الا ماقتلتموني (كذا) وأرحتموني من حس هذا الخادم ونظره ، فانه أصعب علي من كل ما أنا فيه !! » .

الاتفاق والجلاء

مع ذلك ، فان مصادر التاريخ المعاصرة أجمعت على أن لويس التاسع عومل معاملة طيبة في أثناء أسره ، وانه ظل « مكرما غاية الكرامة » وان الأمير حسام الدين بن أبي علي كان يجالسه ويلاطفه ويحاوره ، ومن جملة المحاورات التي دارت بين الرجلين ان الأمير حسام الدين قال للملك الفرنسي :

أنت رجل عاقل ، وملك عظيم الرأي ، رزين الرأس ، وفعلت بنفسك مالايفعله المجانين .

فسأله الملك الفرنسي : « وكيف ذلك ياحسام الدين ؟ »

وأجاب الأمير حسام الدين قائلا « غررت بنفسك وأموالك وجيوشك ، وركبت البحر المهلك وتأتي الى مثل هذا الاقليم العظيم الذي فيه هذا العالم الكثير ، فان سلمت من البحر وغرقه لم تسلم من هذه الطوائف العظيمة ، ونحن في ملتنا ان أي من ركب البحر مرة بعد مرة لايقبل الحاكم له شهادة ! فضحك ملك فرنسا الأسير ورفع رأسه الى الأمير حسام الدين متسائلا : « وكيف لايقبل شهادته ؟ »

ورد الأمير « فانه يكون ناقص العقل ، ومن كان ناقص العقل لاتقبل شهادته ! » فاستغرق الملك في ضحكه ثم قال : والله لقد صدقت ، ولقد صدق هذا الكلام من قبلك » .

وجدير بالذكر أن لويس التاسع أظهر عفة نفس واعتزازا فائقا بكرامته أثناء أسره ، من ذلك ان السلطان توران أرسل اليه ـ والى من معه في الأسر من كبار أمرائه ، وكانوا نيفا وخمسين ـ خلعا يلبسونها . فارتدى كلهم الخلع ماعدا الملك الفرنسي الذي أبي وقال : « ان بلادي بقدر بلاد صاحب مصر . كيف ألبس خلعته ؟ » .

ومرة أخرى أقام السلطان توران شاه ـ غداة موقعة فارسكور ـ دعوة حافلة للملك الفرنسي الأسير وكبار أمرائه ، فرفض الملك لويس قبول الدعوة ، وامتنع عن حضورها وقال : « انا ما آكل من طعامه ، وما يحضرني الا ليهزأ بي عسكره ! ولاسبيل الى هذا !!! »

وقد سبب بقاء دمياط في قبضة الصليبيين قلقا كبيرا للمسلمين ، لاسيما وان الملكة مرجريت زوجة لويس التاسع حرصت على تحصينها والتمسك بها ، بوصفها الورقة الأخيرة التي يمكنها أن تساوم بها على اطلاق سراح زوجها لويس التاسع . وربما عرقل المفاوضات بين الطرفين مقتل توران شاه في أوائل شهر مايو سنة ١٢٥٠ (المحرم سنة ٦٤٨هـ) ، ولكن زوج أبيه شجرة الدر اعتلت كرسي السلطنة ، وتزوجت من قائد الجيش الأمير المعز أيبك ، الذي لم يلبث ان صار « حاكما على الملكة شجرة الدر » على قول ابن تغرى بردى .

ومن الطريف أن الملك لويس التاسع عندما سمع وهو في محبسه خبر مقتل السلطان توران شاه ، فانه توهم أن المسلمين ربما عرضوا عليه عرش مصر ، من ذلك أن المؤرخ الفرنسي جوانفيل ـ صديق لويس التاسع ومدون سيرته ـ يحكي أن الملك استشاره فيما اذا كان يقبل عرش مصر اذا عرضه المسلمون عليه ، فأشار عليه جوانفيل بألا يفعل ذلك ، لأن المسلمين سيطلبون منه في هذه الحالة الدخول في الاسلام ، فضلا عن أنهم « لا أمان لهم بعد أن استحلوا دماء سلطانهم الذي ثبت في الدفاع عنهم » ، ونحن لانستبعد ان يكون أحد المحيطين بالملك في أسره قد أوحى اليه بهذه الأفكار على سبيل المزاح والتندر .

وكان أن تم الاتفاق مع لويس التاسع على اطلاق سراحه مقابل الجلاء عن دمياط ، ودفع فدية كبيرة من المال ، وعندئذ أركب الملك الفرنسي « بغلا » وسيق الى دمياط في حراسة الجيوش الاسلامية ، ويلاحظ أن ترحيل الملك على بغل أمر مقصود ، تأكيدا لوضعه المتدني بعد هزيمته وأسره ، لأن ركوب الفرس فيه من مظاهر البطولة والرفعة مالايتفق مع وضع الملك الفرنسي في تلك المرحلة ، وما أن اقتربت الجيوش الاسلامية ـ وبصحبتها الملك الفرنسي الأسير ـ من دمياط ، حتى اتضح ان المسلمين كانوا قد استولوا فعلا على المدينة وأن من كان بها من الصليبيين « هربوا الى المراكب » . وعندما رأى الملك لويس ان المسلمين اعتلوا أسوار المدينة بالتكبير والتهليل « أيقن أن المسلمين لن يطلقوا سراحه » فخاف الفرنسيس واصفر لونه » .

هذه هي النهاية

والواقع ان الملك الفرنسي كان على حق في مخاوفه ، لأن الأمير حسام الدين بن أبي علي ماكاد يتأكد من أن دمياط غدت في قبضة المسلمين ، حتى قال للمعز أيبك : « هذه دمياط قد حصلت لنا ، وهذا الرجل في أسرنا ، وهو عظيم النصرانية ، وقد اطلع على عوراتنا ، والمصلحة ألا نطلقه » ولكن المعز أيبك رد عليه قائلا « ما نرى الغدر »وهكذا أبى المسلمون الا الوفاء بالعهد ، فأطلقوا سراح لويس التاسع عصر يوم السابع من مايو ١٢٥٠ ، وتم جلاء الفرنسيين عن دمياط بعد أن احتلوها أحد عشر شهرا وتسعة أيام ، ولحق لويس التاسع بالسفينة التي عليها زوجته ليرى لأول مرة طفلة الوليد الذي وضعته أمه على أرض دمياط أثناء أسر أبيه ، وعندما اطمأن الملك الفرنسي الى انه غدا في مأمن من بطش أعدائه ، أرسل الى أمراء المماليك يقول :

« ما رأيت أقل عقلا ولادينا منكم أما قلة الدين فقتلتم سلطانكم (توران شاه) بغير ذنب ، وأما قلة العقل فكذا : مثلي ملك البحر وقع في أيديكم ، فبعتموه بأربعمائة ألف دينار ، ولو طلبتهم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص !! »

وبعد أن قضى لويس التاسع أربع سنوات بالشام ينظم أمور المجتمع الصليبي فيه ، عاد الى فرنسا حيث عاوده التفكير في القيام بحملة صليبية جديدة تشفي حماسته ـ الدينية ، وقد تسربت أخبار نشاط ملك فرنسا الى المسلمين ، فقال الصاحب جمال الدين يحي بن مطروح : ـ

قل للفرنسيس اذا جئته
مقال ذى نصح وقول صحيح
آجرك الله على ماجرى
من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها
تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم
بنحس تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لاترى منهم
الا قتيلا أو أسيرا جريح
وفقك الله الى مثلها
لعل عيسى منهم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا
فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان اضمروا عودة
لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشي صبيح

ولم يهدأ لويس التاسع حتى خرج على رأس حملة صليبية نزلت بأرض تونس سنة ١٢٧٠م ، وهناك أدركه الموت فحمل رجاله جثمانه عائدين الى فرنسا ، وقبل وفاته بأيام توفي على أرض تونس أيضا ابنه يوحنا الحزين ، وله من العمر عشرون عاما ، وهكذا قدر لهذا الابن أن يولد على أرض عربية في أثناء حملة صليبية قام بها أبوه على مصر ، وأن يموت على أرض عربية في أثناء حملة صليبية قام بها أبوه على تونس .

وفي سنة ١٢٩٧ اعتبرت الكنيسة الغربية لويس التاسع شهيدا وقديسا ، فصار لقبه في التاريخ « القديس لويس » ، ويحتفل بقداسته في كل عام يوم الخامس والعشرين من أغسطس ، وهو يوم وفاته . □

العربي - العدد ٣٤٠ - مارس ١٩٨٧

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

نعم: لتحقيق المصالح
لا: لإهدار الشريعة

هل يجوز نقل صلاة الجمعة إلى الأحد ، رعاية للمصلحة ، ؟!

هذا السؤال طرحه أحد المشتركين في ملتقى الفكر الاسلامي السابع عشر في الجزائر ، بعدما شرح للمجتمعين أن بعض المساجد المقامة في الولايات المتحدة الأمريكية لا تحظى بالعدد الكافي من المصلين يوم الجمعة لانشغال الجميع بأعمالهم ، وهي مشكلة يمكن حلها إذا أقيمت صلاة « الجمعة » يوم الأحد ، حيث يتاح للجميع فرصة أدائها ، وأبدى المتحدث ميلا إلى قبول الفكرة . فقال إنه يمكن الاستناد في إجراء هذا التحول إلى رأي الإمام نجم الدين الطوفي في « المصلحة » الذي دعا فيه إلى تغليب المصلحة على النص إذا ما تعارضا .

ومؤخرا قرأنا لأحد الباحثين قوله : هل يطبق النص القطعي ، ولو فيه إضرار بمصالح المسلمين ؟ وفي سياق حديثه فهمنا أنه يعني حد السرقة وتحريم الربا بوجه أخص ، ويدعو الى تغيير الحكم الشرعي بشأنها لعدم الملاءمة ، وأراد أن يستخلص في دعوته مبدأ جديدا ، بناء على السؤال التالي : هل يعني التسليم بالتدريج في اكتمال الحكم التسليم أيضا بالتدريج في إبدال الحكم بحكم آخر أكثر ملاءمة لمصالح المسلمين ؟

قال صاحبنا : إنه بمقتضى رأي الإمام الطوفي فإن الرد على هذا السؤال يكون بالإيجاب !

هذا الكلام الذي يردده بعض المثقفين يعكس التباسا شديدا في فهم قضية المصلحة في الفقه الإسلامي ، وقد يعكس التباسا آخر في قراءة رأي الإمام الطوفي ، وهو أمر يمكن أن يقود إلى إهدار الأحكام الشرعية ، باسم الاجتهاد في « المصلحة » .

وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا بأن مبدأ « المصلحة » عانى كثيرا من عسف الخلف والسلف معا ، فبينما ذهب بعض الخلف بعيدا في توسيع المصلحة ، مضى بعض السلف في الاتجاه المعاكس ، حيث ضيقوا منها أو تجاهلوها ، ولم يعطوها حقها وهي جديرة به ، ولا يغير من ذلك أن الخلف أرادوا بالتوسع تجاوز النصوص والتحلل من أحكامها وضوابطها ، وأن

السلف اتخذوا موقفهم ذلك دفاعا عن حق الله ، وانحيازا للنصوص وأحكامها ، ومع ذلك فنحن نجد بين هؤلاء وهؤلاء قلة كانوا للمصلحة منصفين ، وعلى شريعة الله وتعاليمه قابضين وثابتين .

ولأن الأمر كذلك فإننا نظل بحاجة لأن نحاول وضع المصلحة ودورها التشريعي في إطارها الصحيح ، بعيدا عن دعاة التطرف في التوسع أو التضييق ، لكن لا تستطيع أن نكتم استغرابنا إزاء حفاوة بعض مثقفينا - من غير أهل الفقه - بموقف نجم الدين الطوفي الذي شذ برأي لم يقل به أحد من قبل ومن بعد ، فضلا عن مزالق إهدار الشريعة التي يضعنا على حافتها ، ذلك أن مثل هذه الآراء الشاذة تلقى هوى عند هؤلاء ، من حيث أنها تمثل في حقيقة الأمر انخلاعا من الإلتزام بالشريعة ، فبينما هم يتلقفونها بترحاب وحماس ، ويبالغون في تقديمها ، حتى يصوروها نقطا مضيئة في سجل الفكر الاسلامي ، وعلامة من علامات التحرر والإستنارة والتقدم ، على نحو ما فعل هؤلاء مع كلام الشيخ علي عبدالرازق في كتابه المعروف « الإسلام وأصول الحكم » الذي ادعى فيه أن الخلافة أو الإمامة لا أصل لها في الدين ، فهللوا لكتابه ومقولاته ، لمجرد أنها تؤيد وجهة نظر الداعين إلى تقليد الغرب في فصل الدين عن السياسة ، في حين أن هذا الرأي الذي نقضه كثيرون ، وهدموه بالبرهان الساطع ، يمثل شذوذا غير مسبوق ولا ملحوق ، ولاينبغي أن يحمل على أكثر من كونه نموذجا لشذوذ الأفكار التي طرأت خلال مسيرة العقل الإسلامي طوال الأربعة عشر قرنا التي انقضت ، وطفت على السطح في غفلة من الزمن ، لكنها مالبثت أن ذهبت جفاء ، وبقي الذي ينفع الناس ويرضي الله .

يسري ذلك على كلام الشيخ علي عبدالرازق ، بقدر ما يسري على اجتهاد نجم الدين الطوفي ، ولئن أثار كلام الأول عاصفة من الاعتراض والاحتجاج ، أدت الى سحب شهادة عالمية الأزهر منه ، وإخراجه من زمرة العلماء سنة ١٩٢٥م ، فإن الطوفي لم يسلم من التجريح والتعنيف ، حتى طعن البعض في ورعه ودينه ، واتهموه بالإلحاد والخروج من الملة .

أين يقف الطوفي ، وماذا يقول ؟

لقد ألف الرجل كتابا في شرح الأربعين حديثا النووية ، لكنه وقف طويلا عند الحديث الثاني والثلاثين الذي يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار » ، وأسهب في شرح هذا الحديث وأفاض ، حتى تحول الشرح إلى بحث أصولي في أدلة الشرع على الأحكام ، ومنزلة رعاية المصلحة من هذه الأدلة . توفي فقيهنا الحنبلي في سنة ٧١٦هـ ، بينما ذاع أمر رسالته التي أصابه الكثير بسببها في الشام والحجاز ، إلى أن استخلص أحد علماء دمشق - الشيخ جمال الدين القاسمي - هذه الرسالة من شرحه للأحاديث النووية ، ونشرتها مجلة « المنار » كاملة في عام ١٩٠٦ .

لقيت رسالة الطوفي اهتماما من بعض الباحثين ، حتى أعد أحدهم رسالته للدكتوراه في موضوعها ، وهو الدكتور مصطفى زيد الأستاذ بكلية العلوم بالقاهرة . بينما أستند إليها آخرون في دعاواهم إلى التغاضي عن النصوص الشرعية ، وتجاوزها ، بحجة تقديم اعتبار المصلحة .

وقد نشر أستاذنا عبدالوهاب خلاف نص رسالة نجم الدين الطوفي في كتابه « مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه » (الصفحات من ١٠٦ إلى ١٤٤) ، وخلاصة ما ذهب إليه في رعاية المصلحة أن فرق في شأنها بين العبادات والمعاملات ، وقال إن العبادات لا مجال للعقل في فهم معانيها بالتفصيل ، ولتحقيق ذلك يرجع إلى نصوص القرآن والسنة والإجماع (أخطأ صاحبنا الذي دعا إلى نقل صلاة الجمعة إلى الأحد ، استنادا إلى اجتهاد الطوفي ، لأن الرجل أخرج العبادات من الدائرة التي اجتهد فيها) .

أما المعاملات والسياسات الدنيوية التي للعقل مجال في فهم معانيها ومقاصدها فإن المعول عليه فيها - عند الطوفي - هو المصلحة ، أي جلب النفع ، ورفع الضرر ، فإذا لم يكن هناك حكم شرعي في شأنها جرى الحكم بما يحقق المصلحة ، وإذا كان هناك حكم يحقق المصالح التي تدركها عقولنا نفذنا ما جاء بالنص ، وإذا كان حكم نص الشارع أو الإجماع لا يتفق والمصلحة التي تدركها عقولنا ، ولم يمكن الجمع فالمعول عليه هو المصلحة ، وفي ذلك قال ما نصه : « وإن تعذر الجمع بينهما ، قدمت المصلحة على

غيرها ، لقوله صلى الله عليه وسلم: « لا ضرر ولا ضرار » ، وهو خاص في نفي الضرر المستلزم لرعاية المصلحة فيجب تقديمه » .

* * *

بصفة أساسية قد استند الطوفي إلى أدلة ثلاثة هي :

* ماورد عن الشارع من نصوص وتعليلات أحكامه الدالة على أنه ما قصد من تشريعه الأحكام إلا تحقيق مصالح الناس ، فإذا سكت عن حكم واقعة في معاملات الناس فقد أحالهم إلى عقولهم ، يستنبطون بها الأحكام التي تحقق مصالحهم .

* حديث النبي عليه الصلاة والسلام « لا ضرر ولا ضرار » يقطع بنفي كل ضرر ، فإذا دل نص على حكم يستلزم ضررا ، كأن يفوت مصلحة أو يجلب مفسدة ، استثنيت الواقعة من حكم النص ، أو قيد النص بحيث لا يسري عليها . وفي هذه الحالة فإن التعارض لا يكون بين النص والمصلحة ، لكنه يصبح بين نص ونص آخر هو : لا ضرر ولا ضرار ، وكأن الشارع لما شرع أحكامه في المعاملات والسياسة الدنيوية قيد تنفيذها بما لا يؤدي إلى الضرر ، ودل الحديث النبوي (لا ضرر ولا ضرار) على ذلك التقييد .

* إن النصوص والإجماع ومختلف الأدلة الشرعية ما هي إلا وسائل لتحقيق مصالح الناس ، فإذا غلبنا المصلحة في مواجهة الدليل الشرعي فإننا نعمل بدليل راجح في مقابلة دليل مرجوح ، لأن المصلحة هي المقصودة ، والمقاصد واجبة التقديم على الوسائل .

وجاء أهم نقض لموقف الطوفي في كتاب الدكتور عبدالوهاب خلاف ، إذ قال إن الاحتجاج بالمصلحة فيما لانص فيه ، وفيما فيه نص ، قد فتح بابا للقضاء على النصوص ، وجعل حكم النص أو الإجماع عرضة للنسخ بالرأي ، لأن اعتبار المصلحة ما هو إلا مجرد رأي وتقدير ، وربما قدر العقل مصلحة ، وبالروية والبحث قدرها مفسدة ، فتعريض النصوص لنسخ أحكامها بالآراء وتقدير العقول خطر على الشرائع الإلهية ، وعلى كل القوانين ، ثم إنه سلم بأن العبادات لا مجال للاستصلاح فيها ، وكذلك الأحكام الكلية التي شرعت لحفظ الضروريات والحاجيات ، لأنها متفقة دائما مع المصلحة (بحكم شمولها) ، ولم يورد أي مثال لجزئية ورد نص بحكمها وعارض هذا الحكم المصلحة ، ليتبين مقياس المصلحة في رأيه ، وعلى أي ضوء يقدرها .

وفي نقد اجتهاد الطوفي كتب الشيخ مصطفى شلبي يقول : إنه « ركب متن الغلو في بعض المواقف ، حتى ألجأه ذلك إلى الاستدلال أحيانا بما لا يسلم له ، أو بما لا يفيد . فهو يقول بصدد تقديم المصلحة على الإجماع : إن منكري الإجماع قالوا برعاية المصالح ، فهي إذا محل وفاق ، والإجماع محل خلاف ، والتمسك بما اتفقوا عليه أولى من المختلف فيه » . وبصدد تقديم المصلحة على النصوص يقول : « النصوص مختلفة متعارضة ، فهي سبب الخلاف في الأحكام المذموم شرعا ، ورعاية المصلحة أمر متفق في نفسه لا يختلف فيه ، فهو سبب الاتفاق المطلوب شرعا ، فكان اتباعه أولى . . إلى غير ذلك مما يبعد عن سنن الاستدلال » .

* * *

لم يعد أحد يجادل في اعتبار المصلحة كإحدى مصادر التشريع ، فقد استقر الأمر على نحو بعيد لصالح المصلحة وترجيحها ، حتى شاعت مقولة « حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله » ، ولا نحسب أيضا أنه لا يزال هناك مكان للجدل حول ما إذا كانت المصلحة تتقرر بحكم الشرع أو بحكم العقل ، بمعنى: هل المصلحة هي فقط ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، أم يضاف إلى ذلك ما دل عليه العقل أيضا ، وإن لم يرد في كتاب ، ولم ينعقد في شأنه إجماع ؟.

يكفينا في اعتبار المصلحة ، وفي توسيع نطاق الاستدلال إليها بما يتجاوز الكتاب والسنة أن نستند إلى آيتين اثنتين من القرآن الكريم ، وحديث نبوي واحد ، الآية الأولى تتمثل في قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » (النحل - ٩٠) . وقد وصفها العز بن عبدالسلام

بأنها : « أجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها ، والزجر عن المفاسد بأسرها » .

والآية الثانية موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، يقول فيها الله سبحانه وتعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ـ (الأنبياء ـ ١٠٧) ، وجوهر الرحمة هو الاذن للناس في جلب المصالح ودفع المفاسد ، لأن المصالح تتجدد ، ولو وقف الأمر عند المنصوص عليه فقط لوقع الخلق في الحرج الشديد ، وهو مناف للرحمة ، وإذا ضممنا الآيتين وما شابههما إلى تنبيهات الآيات الأخرى الواردة في المصالح الجزئية ثبت ـ بيقين ـ أن الشارع أراد بها (المصالح) واعتباره إياها ، وإن لم ينص عليها .

أما الحديث النبوي ـ لا ضرر ولا ضرار ـ فهو الذي استدل به نجم الدين الطوفي وغالى في تأويله .

وإذا استقر الأمر على ذلك النحو فإن ما لفت أنظار بعض الباحثين حقا أن مدونات مذاهب أهل السنة غمطت المصلحة ، بحيث لم تعطها نصيبها الذي يتناسب مع مكانتها الجليلة في الشريعة ، ومنزلتها عند الأئمة أنفسهم ، فلا باب عقد لها ، ولا فصل شيدت فيه أركانها كالقياس والإجماع مثلا ، بل كل ما وقف عليه عبارة عن كلمات مجملة وعبارات مبهمة ، ودعاوى كثيرة بأن الأئمة لم يعملوا بها ، وأن الذي أعطاها قسطا غير قليل هو إمام دار الهجرة مالك بن أنس-رضي الله عنه-، بيد أن من أتباعه من ينكر هذه النسبة أو يضعفها ، برغم تواترها واشتهارها على ألسنة العلماء جيلا بعد جيل » :

وقد حمل الإمام الشافعي وصحبه على دعاة المصلحة التي اتخذت مسميات مختلفة مثل الاستحسان أو الاستصلاح ، وقال الشافعي بعدم جواز الاستحسان ، ونقل عن الإمام الغزالي قوله : "من استحسن فقد شرع"، وارتكزت وجهة نظر الشافعية على أن ما شرعه الله ليس بحاجة إلى ما يكمله ، وفي الكتاب والسنة والإجماع ما يكفل مصالح الناس ، فضلا عن أنهم خشوا من أن يؤدي فتح ذلك الباب إلى الزلل ، وتغليب الهوى .

ولا ينكر أحد أن تلك الحملة التي أحدثت أثرها ، حتى تغالى الفقهاء المتأخرون في التضييق على الناس في أمور معاشهم ومعاملاتهم ، فحصروا أنفسهم في النصوص ، حتى لو كانت ضعيفة ، بدلا عن النظر في مجموع مصالح المسلمين ، وقرروا أن « للفقيه أن يأخذ بالقول الضعيف في حق نفسه ، ولا يجوز له الإفتاء به » ، فصاروا بذلك مضرب الأمثال بين الناس ، وتوسع بعضهم وجعل يفتي به لنفسه وصديقه ، من ذلك ما نقل عن ابن قيم الجوزية :

« إن الذي لصديقي عليّ إذا وقعت له حكومة أو فتيا أن أفتيه بالرواية التي توافقه » !

لقد أدى التضييق وعدم العناية باعتبار المصالح إلى تحريم أشياء بأدنى شبهات ، حتى روي أن الإمام السنوسي المغربي أفتى بتحريم القهوة بدعوى الإسكار (وهو غير موجود) ، والضرر بالبدن (وهو الذي لا يصل إلى حد الحرمة) ، وكان مما احتج به أيضا أن القهوة لم تكن في الصدر الأول للإسلام !

***

وإذ لم يعد مبدأ المصلحة محل جدل ذي بال فإن حدودها وضوابطها وشرائطها هي مما ينبغي إيضاحه ، واستجلاء اللبس فيه ، وسيظل من المهم ـ مثلا ـ أن يكون مدار الحديث أو الاجتهاد حول مصالح حقيقية لا وهمية ، ومصالح عامة تهم كل الناس أو جلهم ، لا خاصة تعود على فرد بذاته ، أو جماعة من الناس دون غيرها ، ويظل من المهم أيضا أن نكرر التنبيه على أن الكلام منصبّ على المعاملات دون العبادات ، وأن تجاوز النص في الأخيرة قد يقبل من باب الاستثناء الذي تفرضه الضرورة ، وليس من باب المصلحة ، باعتبار أن الضرورات تبيح المحظورات .

وربما كان مفيدا كذلك الانتباه إلى أنه لا مشكلة في حالة ما إذا طرأت مصلحة محكومة بدليل من الشرع ، أو اتفقت المصلحة مع الدليل الشرعي ، لكن المشكل الذي هو مثار الجدل يتمثل في افتراض تعارض المصلحة مع الدليل الشرعي ، ذلك أن الأغلبية الساحقة من الفقهاء المعتبرين تعارض رأي

الطوفي في تغليب المصلحة في المعاملات على الدليل الشرعي على الإطلاق ، أي بغير ضابط ولا رابط ، وإنما نحسب أن ذلك التعارض بين المصلحة والنص ـ إن وقع ـ يمكن معالجته بالمنطوق التالي :

١ ـ إن الحكم الشرعي في المعاملات إذا ثبت بنص قطعي أو بإجماع صريح يطمأن إليه لا يعدل عنه إلى حكم غيره إلا في حالتين ، إحداهما إذا كانت المصلحة المستفادة من النص أو الإجماع مما يتغير في معاملات الناس ، وأخراهما إذا قضت بهذا العدول ضرورة ، لأن مواضع الضرورات مستثناة بالنص ، أما النصوص التي لا تتغير مصالحها ، كنصوص حل البيع والإجارة والرهن وحرمة الربا والغصب ، فلا عبرة بالمصلحة المظنونة في مقابلتها .

٢ ـ إن الواقعة في وقائع معاملات الناس التي لم يثبت فيها حكم بنص قطعي ولا إجماع صريح إذا أمكن الحكم فيها بالقياس كان بها ، وإذا تعذر ذلك يحكم فيها بما يحقق مصلحة الناس ، أي بما يدفع عنهم ضررا أو يجلب لهم نفعا .

٣ ـ إن تقدير الضرورة التي يعدل بها عن حكم النص في الحالة الأولى ، وتقدير المصلحة التي يبنى عليها الحكم فيما لا نص فيه في الحالة الثانية ، يجب أن يكون من اختصاص الجماعة التشريعية في الأمة ، المكونة من العدول ذوي البصيرة النافذة بأحكام الشريعة ومصالح الدنيا .

ولايوكل أمر واحد منها إلى فرد أو أفراد ، فإن الهوى قد يغلب على العقل ، فيقدر الكمالي ضروريا ، ويقدر المتوهم قطعيا ، ويقدر المفسدة مصلحة ، والخوف من هذا هو الذي حمل بعض العلماء على إنكار طريق الاستصلاح ـ سدًا للذريعة إلى المفاسد والمظالم ، فإذا أمنا هذا الخوف بوسائل الاحتياط ممن يستصلحون ، فهو طريق الحق والسداد ، ومسايرة مصالح الناس . □

فانوس رمضان ما قصته ؟

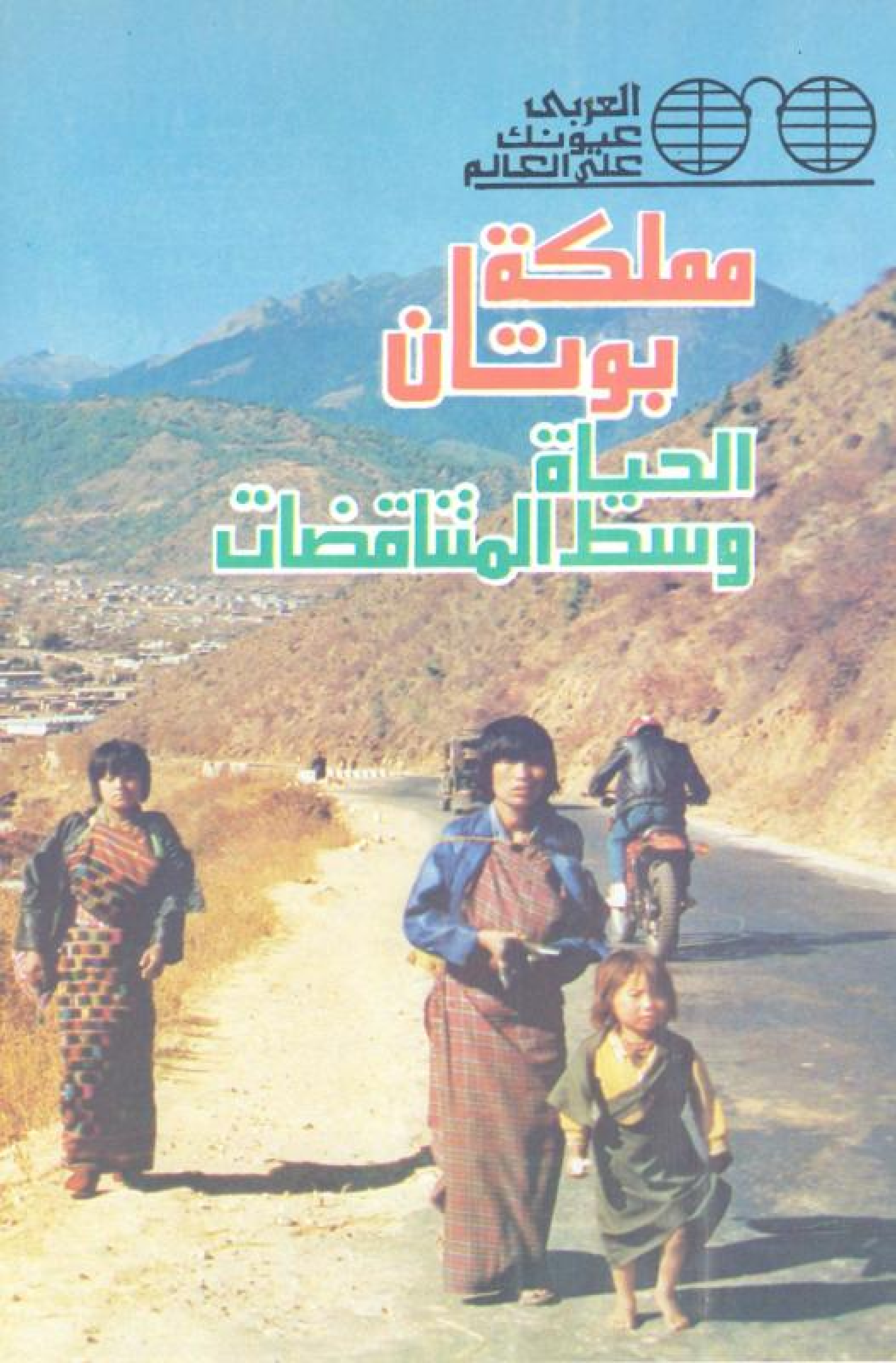
● يقال ان فانوس رمضان ظهر في مصر حوالي عام ٩٧٣م ، فقد كان المصريون يحملون الفانوس وهم يستقبلون المعز لدين الله الفاطمي الذي جاء عن طريق الصحراء الغربية ، ووصل الى القاهرة دون أن يمر بمدينة الفسطاط سنة ٩٧٣ م .

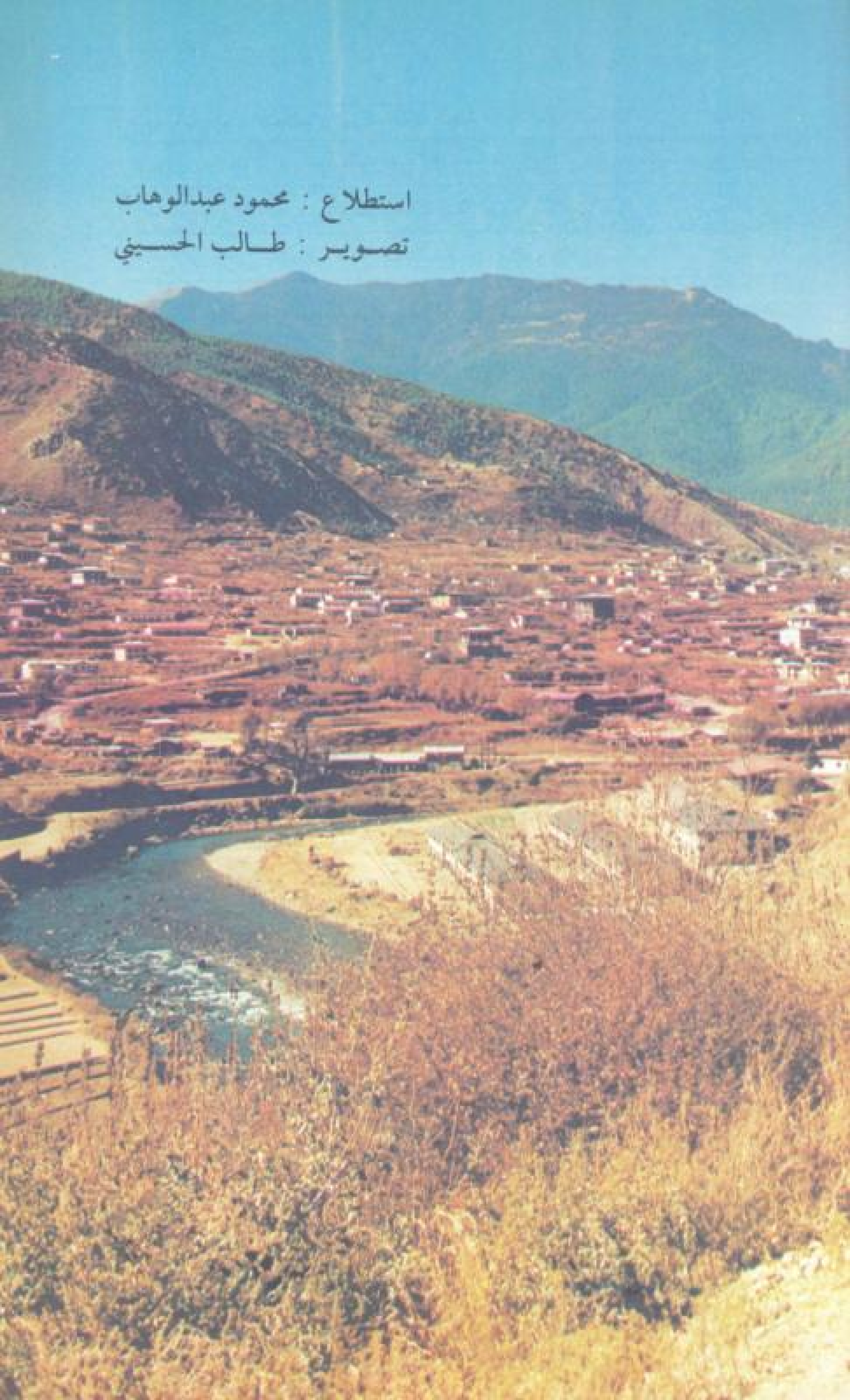
ثم صدر قانون يحتم على كل ساكن أن يشترك في كنس الشارع ، وأن يعلق فانوسا مضاء فوق بيته ، منذ ساعة الغروب الى حين بزوغ الشمس ، طوال شهر رمضان ، ثم استخدمت فوانيس صغيرة الحجم لاضاءة الطريق ، كما صنعت فوانيس أصغر من أجل الأطفال الذين يشاركون في السهر حتى الفجر في ليالي رمضان .

وكانت النساء تسهرن الى وقت متأخر من الليل ، حيث يتجمعن حول احدى المسنات يستمعن الى القصص والحكايات الطريفة ، وفي طريق عودتهن الى بيوتهن كان التابع يتقدمهن بحمل فانوس كبير من النحاس ، يضيء الطريق ، ولم تكن الشموع قد استخدمت بعد ، فقد كان الزيت هو الوقود المستخدم في اضاءة الفانوس .

العربي
عيونك
على العالم

مملكة بوتان
الحياة وسط المتناقضات





استطلاع : محمود عبدالوهاب

تصوير : طالب الحسيني

« في قلب جبال الهملايا ، ورغم ذلك خضرتها دائمة . شمالها وجنوبها عملاقان ، الصين والهند ، ورغم ذلك فهي حريصة على لعبة التوازن ، سكانها فقراء ، ورغم ذلك شديدو القناعة ، ومنازلهم لوحات فنية زاهية . مساحتها صغيرة ، ورغم ذلك فهي مثال لكل بوذيي العالم على شدة التمسك بالدين ، وصرامته ! »

الساعات الأولى لصباح يوم شديد البرودة في شهر ديسمبر . مطار كلكتا ، وطائرة مروحية صغيرة تقل ثمانية ركاب . قبل السفر كانت حيرتنا شديدة ، زميلي المصور وأنا وموظفة الحجز في شركة الطيران ، ولم يكن أحدنا يدري كيف الوصول إلى (ثمبو) عاصمة مملكة بوتان ، حتى أسعفنا أحد موظفي سفارتها ، وقال لنا : لا طريق إلى بوتان إلا من كلكتا أو دكا ، لكن خطوط الطيران مع الهند أكثر انتظاما .

في أثناء انتظار الطائرة دخلنا إلى السوق الحرة ، فزميلي المصور يريد أن يشتري نوعا معينا من البطاريات الخاصة (بفلاش الكاميرا) ، وأنا أريد أن أسأل عن بعض أنواع التبغ ، وفوجئنا بموظف السوق يقول لنا : إن المسافرين إلى بوتان ليس لهم الحق في الشراء من السوق الحرة ، وأنهم كالمتنقلين من ولاية هندية إلى ولاية أخرى . علينا إذن أن ننتظر الوصول إلى بوتان ونشتري من هناك .

وانطلقت الطائرة ، ومعنا وفد يضم ثلاثة من كبار رهبان البوذية بالاتحاد السوفيتي ، وفي أثناء الرحلة قال لي المترجم المرافق لهم : إنهم شديدو السعادة لزيارتهم بوتان ، فبوتان ـ بالنسبة لكل معتنقي البوذية ـ مثال رائع على قوة الإيمان ، وعلى مكانة رجال الدين ، وأهميتهم في الدولة والمجتمع .

واختزن عقلي الوقائع ، وأصبحت أكثر اهتماما لأن أجد لها إجابة عندما أصل إلى المملكة .

بين العمالقة

تقع مملكة بوتان في قلب جبال الهملايا ، تحدها شمالا الصين ، العملاق الأصفر ، وتحدها جنوبا الهند ، ورغم كل التوترات السياسية التاريخية بين الصين والهند ، ورغم وقوع بوتان في منطقة الأطماع التاريخية لكل من تلك القوتين ، فإن بوتان ـ لأسباب تاريخية كثيرة ـ ترتبط بالهند بعلاقات أكثر من وثيقة ، وبعد أن استعادت الصين التبت في عام ١٩٥٩م ـ وفي أكثر من مناسبة بعد ذلك ـ أعلنت حكومة الهند مرارا أن الهجوم على بوتان هو هجوم على الهند .

كانت بوتان تحت حكم مهراجات الهند حتى عام ١٨٦٥م عندما احتلتها القوات البريطانية ، وعقدت معاهدة مع ملكها ، تعهدت فيها بريطانيا العظمى بدفع مبلغ من المال سنويا للمملكة ، مقابل عدم معارضة السياسة البريطانية ، وفي عام ١٩٠٧م تولت أسرة وانجشوك الحكم في البلاد ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام فقط عقدت المملكة معاهدة أخرى مع بريطانيا ، أصبحت بموجبها بريطانيا مسئولة عن علاقة بوتان مع العالم الخارجي ، وبعد أن استقلت الهند في عام ١٩٤٧م حلت محل بريطانيا في معاهدات مع بوتان ، ومن أجل توثيق العلاقة وقعت الهند في عام ١٩٤٩م معاهدة أخرى مع مملكة بوتان تمنعها فيها من اتخاذ أي قرار بشأن علاقاتها الخارجية إلا بعد استشارة حكومة الهند ، ورغم استقلال بوتان وسيادتها وانضمامها إلى الأمم المتحدة في عام ١٩٧١م إلا أن هناك تنسيقا يكاد يكون كاملا مع الهند ، في كل ما يتعلق بسياستها الخارجية .

وعلى الجانب الآخر ، ولموازنة العلاقة الخاصة مع الهند نتيجة للظروف التاريخية السابقة ، فإن بوتان أكثر ما تكون حرصا على إقامة علاقة متوازنة في نفس الوقت مع الصين الشعبية ، ومن أجل فهم أكثر لإدارة لعبة التوازن ، وسياسة العلاقات مع العالم الخارجي ، ألقيت بكل تساؤلاتي أمام وزير الخارجية ، أسأله عن سياسة المملكة ، وعلاقاتها ، قال الوزير : « عشنا عصورا طويلة دون علاقات مع العالم الخارجي ، وقد بدأنا نتفتح على العالم منذ ٢٧ عاما فقط ، ونحن ندرك ـ في بوتان ـ أننا دولة

صغيرة ، وأننا ـ بموقعنا الجغرافي ـ بين عملاقين في قارة آسيا ، وندرك أيضا أن الدخول في لعبة القوى العظمى لن تثمر إلا حرق أصابعنا ، فنحن دولة صغيرة ، تريد أن تتطور ، وتنمو ، لكننا لا نريد أن نفقد ثقافتنا ، ولا ديننا ، ولا قيمنا ، ولهذا كان علينا أن نفكر طويلا ، فالاقتراب من القوى العظمى خطر ، ولذلك نحن ننظر بحذر إلى علاقتنا معها ، لكننا ـ في نفس الوقت ـ جزء من مجموعة كبيرة ، هي العالم الثالث ، إذن علينا أن نختار علاقتنا ، وننتقي البلد الذي سنقيم معه علاقة ، ويقوم بيننا وبينه تعاون ، ونحن لنا علاقات مع ١٢ دولة تقريبا ، ونحاول أن نتقدم ، ونتطور بالتدريج ، في ظل الخطوط الأساسية التي تحكم علاقاتنا الخارجية ، ولإيماننا بأننا جزء من العالم الثالث فإن مواقفنا مبدئية في قضايا كثيرة ، وذلك رغم أننا نعرف أن السلام العالمي حلم مستحيل ، لكن علينا ـ في إطار المنظمات الدولية والإقليمية ـ أن يكون رأينا واضحا ، محددا ، فنحن مع حق الشعب الفلسطيني في أرضه ووطنه ، ونحن لا نقيم علاقات مع « اسرائيل » ، بل نرفض زيارة أي « اسرائيلي » للمملكة حتى لو كان سائحا ، ونحن نضم صوتنا إلى أصوات الدول المنادية بضرورة وقف حرب الخليج بين العراق وإيران فورا ، لما تمثله من تهديد لسلام وأمن منطقة (استراتيجية مهمة) للعالم كله ، وندين سياسات التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا ، وهكذا فإن مواقفنا قائمة على أسس من قيم السلام والحق والعدل .

وفي حقيقة الأمر فإننا نرى أن هناك تماثلا بيننا وبين دولة الكويت ، فكلانا دولة صغيرة ، وسط جيران أقوياء ، وكما نجحت الكويت في كسب احترام كل دول العالم ، وأقامت علاقة طيبة ، متوازنة مع كل القوى ، فإننا نأمل أن ننجح في ذلك التحدي ، وربما لإحساسنا بهذا التماثل أصبحت العلاقات بيننا وبين الكويت وطيدة ، وفضلا عن ذلك فالكويت ممثلة في الصندوق الكويتي للتنمية تقدم لنا مساعدات وتمويلا لعدد من المشروعات الاقتصادية المهمة ، كما أن الصندوق يقدم لنا خبرة مجانية ، تتمثل في الخبرة الفنية ، ودراسات الجدوى الاقتصادية للمشاريع ، وتقييم المشروعات التي



ـ خريطة مملكة البوتان . . بين العمالقة !!

تغنينا عن التعامل مع البنك الدولي ، وتساعدنا في التعامل مع المنظمات الاقتصادية العالمية ، ونحن نعتبر علاقتنا بالكويت مهمة جدا ، ولذلك لدينا سفير لدى دولة الكويت ، رغم أن كل عدد سفاراتنا في العالم خمسة سفراء فقط ، وهم : مندوبنا الدائم لدى الأمم المتحدة ، ومندوبنا في المقر الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف ، وسفيرنا في الهند ، وسفيرنا في الصين .

انتهى تفسير وزير خارجية مملكة بوتان ، وقد كان تعبيره صادقا عن مخاوف الذين يحيون بين العمالقة ، ويخافون على أصابعهم من الحريق .

مساحة ضائعة

يبدأ التاريخ المكتوب لبوتان مع دخول البوذية إليها في القرن السابع الميلادي ، فقبل ذلك التاريخ لم يكن معروفا عن هذه المنطقة من جبال الهملايا سوى أنها مجموعات من الناس ، تسكن منطقة خصبة من ذلك الجبل ، وتحيا على الزراعة ، ورعي بعض أنواع الماشية ، وقد ظلت هذه المساحة من الأراضي التي تعرف حاليا باسم بوتان مساحة (ضائعة) ، فلا هي من التبت ولا هي من الهند ، رغم أن سكان

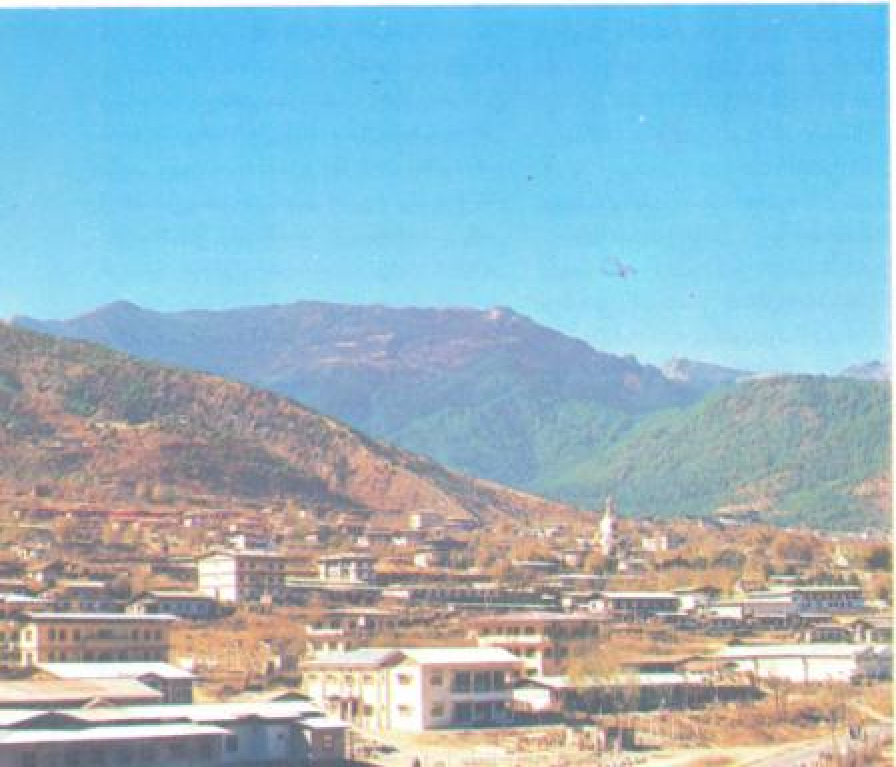
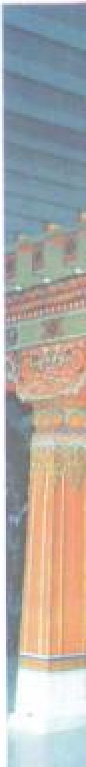




● صاحب الجلالة .. ملك بوتان رؤية خاصة لادارة شئون مملكته



● الفن واحد من مفاتيح الحياة في (بوتان) ، فالرقص الشعبي يؤديه الناس في كل المناسبات ، ويرتدون له أزياء زاهية . وإلى اليسار صورة عن قرب ، توضح شغف أهل بوتان بتلوين ورسم المباني ، وفي أقصى اليسار صورة عامة للعاصمة .

المنطقة ينتمون ـ حسب لون بشرتهم وملامحهم ـ إلى ما يعرف بالجنس الأصفر .

كان الاسم القديم للمملكة (لون مون كاشي) ، ومعناه (بلاد جنوب المَنّ) والمَنّ مصطلح عامي ، يستخدم للدلالة على الجماعات التي تسكن الهملايا ، لكنه لا يدل على أنهم من التبت أو من الهند ، أما اسمها الحالي (بوتان) فأصله مجهول ، لكن أقرب التفسيرات تذهب إلى أنه مشتق من الكلمة الهندية (بوتانتا) ومعناها نهاية التبت .

وقد شهدت أرض بوتان على مدى التاريخ وصول عدد من القديسين والدعاة البوذيين ، وكان كل قديس يصل إليها يؤسس معبدا ومدرسة ، حتى أصبحت بوتان أرضا للمعابد ، ومجالا خصبا لحركات التبشير البوذية بفرقها المختلفة ، وبدأ نسيج من الأساطير الدينية والقداسة ينسج كجزء من تاريخ المملكة .

الدولة في بوتان ـ بمعنى الكيان التنظيمي ـ لم تعرف إلا في عام ١٦١٦م ، عندما وصل إليها « شاب دورنج » ، وهو رجل دين في التبت ، وابن لإحدى الأسر الحاكمة ، اختلف مع أهله فهرب إلى بوتان ، وكان يتمتع بقدر من « الكاريزما » الفطرية ، وهو في كل التاريخ البوتاني لا يذكر اسمه إلا مقرونا بوصفهم له بأنه « الرجل الذي يُخضَع له » ، وقد قام « شاب دورنج » بتوحيد بوتان ، وخاض حربا في عام ١٦١٩م ضد أهل التبت الذين لاحقوه وانتصر عليهم ، ثم بدأ بعد ذلك مرحلة تثبيت دعائم حكمه في الداخل ، فوحّد رجال الدين ، وابتدع نظام الحكم الذي ركز السلطة في يده ومعه رئيس الرهبانية ، وجعل الحكومة تتكون من عدد محدود من الرهبان . وظل الحال مستقرا في بوتان على هذا المنوال حتى ذهب « شاب دورنج » إلى كهف في الجبل يتعبد ، ومات داخل الكهف ، فكتم رئيس الرهبانية والرهبان خبر موته مدة خمسين عاما ، حتى يستطيعوا أن يجدوا خليفة له ، واستمروا في حكم البلاد . وخلال هذه الفترة توصل رئيس الرهبانية والرهبان إلى نظرية « التناسخ الثلاثي » التي تقول بإمكانية حدوث التناسخ على مستويات ثلاثة ، عضوي ، ولفظي ، وعقلي ، وبموجب هذه (النظرية) قدم الكهنة تبريرا دينيا مقدسا يبيح لهم حكمهم البلاد باسم « شاب دورنج » بعد موته ، فالتناسخ قد حدث على كافة المستويات ، بدءا بالحركة العضوية ، فالنطق ، فالحديث ، وانتهاء بالتفكير ، وعلى هذا فهم مجرد أداة للإعلان عن إرادة « شاب دورنج » العظيم ، ونفاذها .

ثم واجهت بوتان فترة قلاقل واضطرابات ، بدأ خلالها ظهور حكام إقليميين ، واشتعلت الحروب الأهلية فيما بينهم ، وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بدأت قوة جديدة في الجنوب تمثل تهديدا لبوتان ، فالبريطانيون في الهند قد بدأوا يمدون أبصارهم نحو التبت ، وعندما ثار نزاع حول الحدود في منطقة (DUAR) ، ديور ، وهي عبارة عن ممر حيوي ـ ضيق في أسفل جبال الهملايا ، لكنها تتحكم في تلك الجبال ، ثار ذلك النزاع بين البريطانيين وأهل بوتان ، وذلك في عام ١٨٦٤م ، واشتعلت الحرب ، لكنها لم تدم طويلا ، وانتهت بمعاهدة بين بريطانيا وبوتان ، تقضي بسيطرة بريطانيا على الممر الحيوي ، مقابل جزية سنوية تدفعها بريطانيا ، واستمر هذا الوضع في المنطقة حتى يومنا هذا ، إلا أن الهند قد حلت محل بريطانيا بعد استقلال الهند عن بريطانيا في عام ١٩٤٧ م .

وعقب المعاهدة مع بريطانيا عادت النزاعات بين حكام الأقاليم في بوتان ، واستمرت النزاعات والحروب طوال القرنين الماضيين ، وعندما بدأت بريطانيا تتحرك نحو التبت كان لابد لها من حليف قوي في بوتان ، فهي الفناء الخلفي للتبت ، وفي وسط النزاعات الأهلية الدائرة كان سهلا أن تجد بريطانيا صديقا في بوتان ، وهو أحد حكام الأقاليم ، وبعد مشاورة مع رئيس الرهبانية قام (يوجين وانجشوك) ـ مؤسس العائلة المالكة الحالية ـ بتقديم المساعدة لبريطانيا ، وقام بالتوسط بينها وبين التبت ، وساندته بريطانيا ، وبمؤازرة من رئيس الرهبانية والرهبان تُوِّج (يوجين وانجشوك) ملكا على بوتان في عام ١٩٠٧م على أن يكون الحكم وراثيا في عائلته .

وظل الحكم في بوتان مشتركا بين سلطتين ، سلطة الملك وسلطة الرهبان ، حتى اختيار لون العلم كان تعبيرا عن هذا المزج ، فاللون الأصفر هو سلطة الملك ، واللون البرتقالي هو سلطة الرهبان ، ومن

هذين اللونين اللذين يتقاسمان العلم يتحدد تاريخ بوتان وحاضرها ، ويكتب .

أصحاب الغبطة

تعد مملكة بوتان من أكثر بلدان العالم التي تدين بالبوذية ، وتتمسك بها ، وقد حقق رجال الدين بها مكانة مرموقة ، فهم يمثلون أحد أركان السلطة والاستقرار في المملكة ، إذ أن رجل الدين (لاما) يتمتع بقداسة غير عادية ، ويكفي مرور رجل دين أمام أي شخص كي يبادر بالانحناء واضعا يده على فمه وأنفه ، كي لا تؤذي رائحة أنفاسه (اللاما) ، وتعبيرا عن منتهى الخضوع والطاعة ، وعندما يلمس (اللاما) رأس شخص بأطراف أصابعه تنفرج أساريره ، ويستبشر وجهه من فرط السعادة ، ثم ينسحب إلى الخلف بظهره احتراما وتوقيرا .

المجتمع البوتاني ـ كبنيان اجتماعي وكما يقول أحد كبار المسؤولين ـ مجتمع ديمقراطي بلا طبقات ، بيد أن هناك درجتين اجتماعيتين متميزتين هما الأسرة المالكة ورجال الدين الذين يشكلون الدرجة الثانية مباشرة في المجتمع ، وما عدا ذلك فكل أفراد المجتمع سواسية ، وكما يشكل رجال الدين الدرجة الثانية في البنيان الاجتماعي فإن كبير (اللاما) الذي يلقب « جيكهينو » هو الرجل الثاني ، وهو مصدر قوة أساسية في المملكة ، وفي المقر المركزي للحكومة يوجد مقر رئيسي له ، به مكتبه ، وسكنه ، و (سكرتارية) خاصة به .

وإلى رجال الدين يعود الفضل الأكبر في غرس السلام والقناعة والرضا في نفوس أهل بوتان . ويتزعم رجال دين بوتان الفرقة الدينية البوذية (ماهينا) ، وهم فرقة من اثنتين ، انشقت إليهما دعوة البوذية ، فقد ظهرت البوذية كدعوة إصلاحية في القرن السادس (ق.م) على يد (غاوتاما) ، الأمير الهندي الذي أصبح يطلق عليه بعد ذلك لقب (بوذا) ، أي الإنسان المستنير ، وقد دخلت هذه الديانة إلى بوتان في القرن السابع الميلادي ، ويعتبر محور البوذية الاعتقاد بأن الاستنارة والهداية تتمان عن طريق معرفة أن الحياة شيء أليم ، وأن هذا الألم ناجم عن شغف الإنسان بإشباع عواطفه وشهواته ، ولهذا فإنه لا يمكن وقف الآلام إلا عن طريق وقف هذه الشهوات ، وانتهاج الاستقامة الخلقية ، وعندئذ يصل الإنسان إلى مرحلة « النيرفانا » التي هي السعادة التامة ، والتحرر الكامل من عبودية الحياة .

وقد وضع (بوذا) تعاليمه في كتاب يتكون من (١٠٨) مائة وثمانية أجزاء ، يسمى « كاجور » ، ووضع أتباعه التعليقات عليه في ٢٢٥ جزءا ، تسمى « تينجور » ، وحول كل هذا يتفق كل البوذيين ، لكن الخلاف الذي نشب بينهم كان في الطريقة والمنهج ، فانقسما إلى فريقين : أحدهما (الماهينا) ، ومنهم أهل بوتان ، وبعض مناطق التبت ، وهم يرتدون الزي الأحمر ، وغطاء الرأس الأحمر ، والآخر (الهينا ينا) وهم الذين يرتدون غطاء رأس أصفر .

يقول فريق (الماهينا) إن طريق الإنسان للخلاص يبدأ بمحاولته لمساعدة الآخرين ، فهو بمساعدة الآخرين يساعد نفسه ، ويطهرها ، ثم يحاول مساعدة كل كائن حي ، أما (الهينا ينا) فيقولون إن على الإنسان أن يبدأ بنفسه ، فعندما يساعد نفسه ، ويصبح إنسانا جيدا سيساعد الآخرين ، لكن عليه في أثناء تخليص نفسه ألا يؤذي الآخرين . حول هذا اختلف البوذيون ، وحول تفرعات صغيرة في المحور ذاته .

وما يعنينا هنا أن بوتان هي قبلة البوذيين (الماهينا) ، وعدد من أتباع الفرقة الأخرى ، يزورون بوتان ، وينظرون إليها كنموذج لنجاح طبقة رجال الدين في غرس جذور الدين ، وتربية أتباعهم من ناحية ، وقوتهم في الدولة من ناحية أخرى ، وأهل بوتان عامة شديدو التمسك بالدين والإيمان بقوة وتقديس ، ففي داخل كل بيت ـ مهما كان وضع صاحبه المادي ، فقيرا أم ثريا ـ هناك غرفة يخصصها رب الأسرة للعبادة والصلاة ، بها تماثيل (بوذا) ، وموقد نار لا تنطفيء أبدا ، وسبعة آنية صغيرة ، مملوءة بالماء ، رمزا للصلوات السبع التي تؤدى في اليوم الواحد ، وفي هذا المعبد الصغير يستطيع الإنسان ـ في أي وقت ـ أن يخلو بنفسه ، ويناجي (بوذا) ، ويطلب منه المساندة ، ومنحه مزيدا من الرضا والقناعة .

والانخراط في سلك رجال الدين متاح لأي إنسان ، إذ عليه فقط أن يقرر ذلك بعد أن يكون قد







● الرمي بالقوس هي الرياضة الأولى في بوتان ، يمضي بها الشباب والكبار وقت فراغهم ، وتنظم لها المسابقات .

وإلى اليمين (الصورة العليا) قصر الحكومة المركزي ، ومقر كبير الرهبانية ، أما الصورة (الوسطى) فطلبة في فترة راحة ، أثناء امتحانات آخر العام ،حيث تبدأ العطلة الشتوية في ديسمبر وحتى الربيع . وإلى أسفل شوارع العاصمة لاضجيج ولا زحام .



تجاوز الحادية والعشرين من عمره ؛ ليكون قراره بشأن مستقبله نهائيا وحقيقيا ، وعليه في هذه الحالة أن يذهب إلى (لاما) المعبد الموجود في منطقته الذي يكلفه بأعمال معينة ، ويضعه تحت اختبارات طويلة ، ثم يسلمه (اللاما) هذا إلى (لاما) آخر أعلى درجة منه ، وهكذا كلما اجتاز اختبارا ومرحلة انتقل إلى مرحلة أخرى ، حتى يصبح في النهاية ـ وبعد سنوات (لاما) ـ ضمن رجال الدين ، وضمن رابطة أصحاب الغبطة ، وفي بوتان مابين (٨) آلاف إلى (١٠) آلاف رجل دين ، يعيشون في معابدهم أو بالقرب منها ، وداخل كل معبد يوجد وعاءان للتبرعات ، واحد للمعبد والآخر للكاهن ، والمواطن المؤمن الصالح يتبرع لمعبده ولصيانته ، ويتبرع لرجل الدين من أجل معيشته اليومية . تجمع كل التبرعات الخاصة بالمعبد وترسل إلى مكتب (اللاما) الأكبر الذي يقرر بنود إنفاق هذه التبرعات ، لصيانة المعابد ، وتجديدها ، أو بناء معابد جديدة ، وبالإضافة إلى هذا المورد المنظور فإن (اللاما) عندما يذهب إلى السوق لشراء حاجاته ، أو للتسوق ، يرفض البائعون بإصرار أن يتقاضوا ثمن مشتريات الراعي المقدس ، ولذلك فإن الأسرة التي يجتاز فرد من أفرادها اختبارات اختياره كرجل دين تقيم الأفراح ، وتتلقى التهاني ، وتسعد بذلك سعادة بالغة ، فقداسة (اللاما) نابعة من وضعيته حسب المفهوم الديني للبوذيين ، فهم يقولون ـ ببساطة ـ إن الشمس تذهب إلى منازل الفقراء والأغنياء سواء بسواء ، ووسيلتها في ذلك هي أشعتها ، و (اللاما) هو الشعاع ، أو قناة الاتصال بين المعبود والبشر ، ورغم ذلك فالأفراد كلهم متساوون ، وأي فرد منهم يستطيع أن يصبح « بوذا » ـ أي أنساناً مستنيراً ـ وتلك مرحلة أسمى في مفهوم الديانة كلها ، لكن لابد أن يمر بمراحل ودرجات ، وواحدة من هذه المراحل أن يكون (لاما) ، أي شعاع شمس يمنح الدفء ، والخير للناس كما أوصاه الإله ، وكما ينفذ هو تعاليمه بشكل أكثر دقة والتزاما من غيره من البشر .

بجانب القداسة التي يتمتع بها رجال الدين فهم داخل سلطة الإدارة ، إذ أن التنظيم السياسي للمملكة يتكون من جلالة الملك ، وهو على رأس المملكة ، ثم من سلطتين ، تنفيذية وتشريعية ، والسلطة التنفيذية على رأسها الملك الذي يساعده مجلس استشاري ملكي ، يتكون من ثمانية أعضاء ، يختارهم الملك من أعضاء الجمعية الوطنية ، ثم مجلس وزراء ، يتكون من خمسة وزراء فقط ، ولرئيس الرهبانية دور هام ، مؤثر ، فهو واحد من مستشاري الملك .

أما السلطة التشريعية فتتكون من الجمعية الوطنية التي تتألف من (١٥١) عضوا ، تنتخب مائة منهم من رؤساء القرى والمقاطعات ، والباقون منهم وهم يمثلون (٥١) مقعدا فللحكومة ولرجال الدين وللعسكريين .

تعقد الجمعية الوطنية اجتماعاتها مرتين في العام ، ما لم يوجه الملك دعوة انعقاد غير عادية ، وقد كان من حق الجمعية الوطنية إقصاء الوزراء والملك ، إلا أن الجمعية أسقطت حقها في إقصاء الملك ، وبقي دورها في مناقشة القرارات التي يتخذها الملك ومجلس الوزراء .

وتقسيم المهام داخل الجهاز التنفيذي يتفاوت ويختلف ، فنجد أن هناك قطاعات لها وزارة ، وقطاعات أخرى لها إدارة ، أي جهاز تنظيمي ، فالوزارات في بوتان هي وزارات الخارجية ، والشئون الاجتماعية ، والديانة والثقافة ، وشئون البيت (وهي وزارة تهتم بالهجرة والعمل والشرطة) ، أما الشئون المالية فتدار بواسطة شقيقة الملك ، والزراعة تديرها شقيقة أخرى ، بينما يشرف الملك بنفسه على شؤون الدفاع وقطاع التخطيط ، وبجانب ذلك يوجد مسئولون للتجارة والتعليم .

بهذا الجهاز التنفيذي تدار مملكة بوتان ، فتشكيل الجهاز التنفيذي بهذه الكيفية كان مقصودا ، يقول جلالة ملك بوتان في تفسيره لتشكيل الجهاز التنفيذي : « المهم أن نتساءل ماذا نريد من الحكومة ؟ وكيف تستطيع الحكومة أداء أعمالها ؟ فهذان سؤالان هامان ، لابد من الإجابة عنهما قبل أن نقرر شكل الحكومة ، وطريقة أدائها لأعمالها ، إذ ليس منطقيا أن نطبق شكلا لهيكل الحكومة كما تطبقه الدول الأخرى ، ونتغاضى عن خصوصية المملكة وظروفها ، فما جدوى وجود هيكل حكومي كبير بلا مهام ؟ أو هيكل حكومي لا تتوفر له الكفاءات

الوظيفية لشغل مناصبه ؟ وفي تصوري أن هيكل الحكومة في المملكة هو الشكل الأنسب لها ، وذلك لتحقيق هدفنا الرئيسي ، وهو إدارة المملكة ، وتنفيذ خطط تنميتها ؟؟

ثروة كامنة

تعد بوتان واحدة من البلدان التي تهتم كثيرا بفرض قيود على الاتصال بالخارج حماية للثقافة القومية ، والتقاليد ، والدين ، والمجتمع ، وبوتان بلا محطة تلفاز ، لكن بها محطة إذاعة واحدة ، تبث ساعات محدودة ، وجريدة أسبوعية واحدة ، تطبع سبعة آلاف نسخة ، وفي العاصمة دارا سينها ، تعرضان الأفلام الهندية ، وبعض الأفلام العالمية المختارة .

وفي إطار فرض الحماية على المواطنين نجحت المملكة خلال مشروعات الخطط الخمسية التي بدأت منذ ١٩٦١م ، ومازالت مستمرة حتى اليوم ، وسوف تنتهي الخطة الخمسية الخامسة في العام الحالي ١٩٨٧ ، ليبدأ تنفيذ الخطة الخمسية السادسة ، أقول نجحت هذه المملكة خلال الخطط السابقة في الوصول إلى توفير علاج مجاني ، وتعليم مجاني ، وتنفيذ مشروعات طرق لربط أجزاء المملكة بطرق ممهدة ، برغم التكلفة العالية لهذه المشروعات ، إذ أن الطرق تشق في بطن الجبل ثم تمهد .

يبلغ عدد سكان بوتان (١,٣) مليون نسمة ، موزعين على مساحة ٤٧ ألف كيلو متر مربع ، منهم ٣٠ ألف كيلو متر غابات . يعمل أكثر من ٨٥ بالمائة من السكان في الزراعة ، موزعين على ٢٠٠٠ قرية ، تنتشر في أنحاء المملكة ، والزراعة هي النشاط الاقتصادي الرئيسي ، إذ أن ما يزيد قليلا عن نصف مليون نسمة من الذين هم في سن العمل (١٥ ـ ٥٠) يعملون على الأغلب في قطاع الزراعة .

واستكمالا لمشروعات رعاية السكان أقامت المملكة عددا من المستشفيات والمدارس ، موزعة على مدن المملكة ، تحتوي المستشفيات على ٨٣١ سريرا وهو عدد معقول وجيد بالنسبة لعدد السكان خاصة في بلد نام مثل بوتان ، وبها ١٦٦ مدرسة ابتدائية ومتوسطة وثانوية ، بالإضافة إلى مدرسة تدريب مهني وتقني ، ومدرسة إعداد معلمين ، ومدرسة للصم والبكم . وتتولى الحكومة الإنفاق على الطلاب ، فتمنح سكنا داخليا للطلاب الذين يسكنون أماكن بعيدة عن مدارسهم ، كما ترسل بعض الطلاب في بعثات خارجية لاستكمال الدراسة على نفقتها ، وأكثر البلدان التي ترسل إليها الطلاب هي الهند ، وبنجالاديش ، وأستراليا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة ، ونيوزلندا ، وبالاضافة إلى هذه المدارس هناك ١٤ مدرسة دينية ، تتبع المعابد ، يدرس بها قرابة سبعمائة طالب ، وهي تعنى ـ أساسا ـ بتدريس العلوم الدينية إلى جانب المعارف والعلوم العامة .

جزء من مشكلة التعليم في بوتان ـ شأن كل بلدان العالم الثالث ـ هي ظاهرة التسرب من التعليم ، حيث يفضل الأهالي عمل أبنائهم في الزراعة ، ليكونوا مصدر دخل للأسرة بدلا من الجلوس على مقاعد الدراسة ، ورغم عدم وجود إحصائيات تبين حجم الظاهرة إلا أن المسؤولين يؤكدون بأنها ظاهرة موجودة ، تمثل عائقا في طريق انتشار التعليم ، وقضية التعليم في بوتان قضية أساسية ، حيث تشكو بوتان من عجز حقيقي في القوى العاملة الفنية ، الأمر الذي يضطرها إلى الاستعانة بالعمالة الوافدة ، وما تجلبه هذه العمالة من خطر على الحياة الاجتماعية والتقاليد والثقافة القومية ، وهو أمر يزعج المسؤولين عن شئون الهجرة . يقدر عدد العمالة الوافدة في بوتان بحوالي ٦٩ ألف وافد ، من مدرسين وأطباء ، ومهندسين ، وعدد من العمالة الفنية في مجالات التقنية والمشروعات الصناعية .

ويزيد وكيل وزارة شئون البيت الأمر وضوحا فيقول : « إن جزءا من مشكلتنا هو العجز في العنصر البشري كيفا ، ونحن نحاول علاج هذا العجز من الجذور ، وذلك بالاهتمام بمداخل العملية التعليمية ، وفي محاولتنا للقضاء على ظاهرة التسرب أو على الأقل تقليل حجمها ، نقدم كثيرا من الرعاية للتلاميذ في القرى البعيدة ، مثل كوب حليب لكل طفل ، ووجبة غذائية ، وكتب دراسية ، وكل ذلك نقدمه مجانا ، وفي بعض الأحيان نقدم الملابس مجانا أيضا ، فنحن شديدو الاهتمام بهذه القضية لأننا ندرك الآثار الجانبية للعمالة الوافدة ، ونحن بدون هذا العدد من الوافدين نستطيع أن نحقق الاكتفاء الذاتي في مجال الغذاء ، وإذا كان من الممكن أن يوصف







● يتفنن أهل بوتان في أداء أنواع الفنون المختلفة، وأثناء الممارسة يستغرق الفنان في لحظة روحية، ويبدع مزيجا من التشكيل والألوان، لا يتمثل فيه بشر أو كائن حي، لكنه يعبر عن إحساس روحي عارم.



مجتمع ما بأنه بلا جريمة فهو المجتمع البوتاني ، لولا بعض الجرائم الصغيرة في المدن ، التي يقوم بمعظمها العمال الوافدون في المدن الكبيرة ، لأن المدن مكان مفتوح للهجرة والحركة » .

ورغم هذه المشكلة في العنصر البشري الكفء تملك بوتان ثروة كبيرة من المصادر الطبيعية ، فلديها غابات كبيرة ، نجحت في إقامة مصانع لتصنيع الأخشاب المنتجة منها ، ولديها زراعة جيدة تسمح لها بتصدير التفاح والبطاطس والفطر والذرة والبرتقال ، وبعض الخضراوات ، كما أقامت عددا من الصناعات التي تعتمد على الزراعة ، مثل صناعة العصير والمربيات ، بالإضافة إلى بعض الصناعات الكحولية ، لكن ثروتها الكبرى تكمن في المعادن المتوفرة فيها ، واستغلال الماء كمصدر (هيدروليكي) للطاقة ، مما يسمح لها بتصدير فائض الطاقة إلى البلدان المجاورة ، وصناعة السياحة .

خطوة خطوة

عند نهاية الخطة الخمسية السادسة في عام ١٩٩٢م ستكون بوتان قد استكملت إنشاء مصنع للاسمنت بشرق بوتان ، يقدر إنتاجه بحوالي ١٥٠٠ طن يوميا ، وستكون قد أكملت إنشاء مصنع لصناعة البيوت الجاهزة الذي سيبدأ بتشغيل وحدة إنتاج الأثاث السهل في الفك والتركيب ، كما سيزيد إنتاج الجبس والحجر الجيري والفحم ، وستوجه الفوائض نحو التصدير .

فبوتان لديها من الاكتشافات المؤكدة في المعادن (١٠٠) مليون طن (دولوميت) ، و (٥٠) مليون طن من الجبس ، بالإضافة إلى الجرافيت والزنك والاسمنت والنحاس والتنجستين ، وعدد من المعادن تحت التحقيق والاكتشاف ، وتأمل الحكومة في بوتان أن تتمكن من استغلال المعادن الموجودة ، وتصديرها دون الاضطرار إلى مساهمة شريك أجنبي في هذا المجال ، ولذلك فهي تعمل خطوة خطوة ، يساعدها في هذا الصبر وعدم القلق أن ٨٥ بالمائة من تجارة المملكة مع الهند ، وأن نشاطها التجاري منظم باتفاقيات كثيرة ، وأن الهند تمنحها امتيازات كبيرة ، كما تعطيها قدرا من الحماية ، ولذلك فالإدارة ليست منزعجة من ميل الميزان التجاري لصالح الهند بحوالي (٦) ملايين دولار ، فالهند بالنسبة لهم ليست دولة أجنبية ، والمستقبل يحمل آفاقا كثيرة للثروة والرخاء ، كفيلة بأن تعدل الميزان التجاري لصالح بوتان ، ولعل هناك سببا آخر أكثر أهمية لانتهاج سياسة الخطوة خطوة هو عدم الرغبة في الاستدانة لتمويل مشروعات التنمية ، فتطوير إنتاج المعادن وتصديرها يحتاج إلى تمويل ، والتوسع في مجال الصناعات الغذائية المعتمدة على المنتجات الزراعية يحتاج إلى تمويل ، وتطوير قطاع الزراعة بتوفير السماد والآلات الزراعية الحديثة والتقاوي الجديدة يحتاج إلى تمويل أيضا ، بل إن كل عمليات التطوير هذه تحتاج إلى تمويل ، والقفز إلى كل هذه المشروعات مرة واحدة ، بدون تأن وتخطيط كفيل ـ من وجهة نظرهم ـ بأن يوقعهم في أخطاء كثيرة ، ولذلك فهم حريصون تماما على عدم التسرع ، ومؤمنون بضرورة التدرج في استغلال الثروة ، وتأهيل السكان في نفس الوقت لهذه المرحلة ، كي لا يهبط الثراء ، وتضيع ثقافة الناس ، وإيمانهم ، وقناعتهم ، وسلامهم .

صاحب الجلالة

سمة لا تخطئها عين منذ اللحظة الأولى ، هذا الأدب الجم والتواضع المفرط الذي يميز أهل بوتان ، فوسط الشوارع تلمح ابتسامات الناس الودودة وهم جالسون أمام منازلهم .

في بداية ديسمبر يبدأ الشتاء ، وتبدأ إجازات المدارس حتى أول مارس ، حيث تبدأ مرحلة الثلوج والبرد الشديد ، ولا يبقى للناس من برنامج يومي إلا العمل صباحا للذين يعملون في مصانع أو دواوين ، أو يقومون بزيارات عائلية بعد الظهر ، وتمضي بهم الحياة هادئة مغرقة في السلام والرضا ، وتظل الخضرة التي تكسو الجبال ، والبيوت الملونة الجميلة مصدر راحة لعيونهم ، وبهجة لقلوبهم ، ولأن لغتهم هي الدرزنكية ، وقليل منهم يتحدث الانجليزية فإنه يصعب عليك أن تقترب منهم اقترابا حميما ، وأما الذين يتحدثون الانجليزية منهم فإنهم يقيمون من أدبهم الشديد حاجزا أمامك كي لا تقتحم عالمهم .

وفي صباح اليوم الأخير من زيارتنا للمملكة أخطرنا مكتب صاحب الجلالة ملك بوتان أن جلالة الملك قد عاد إلى العاصمة من جولته التي كان يقوم

بها ، وأن موعدنا معه بعد ساعة واحدة ، في المقر المركزي للحكومة . يقع مكتب الملك في جناح من المبنى الذي يقع في جناح آخر منه مكتب رئيس الرهبانية ، وهو عبارة عن غرفة متسعة ، والأرائك حول أطرافها ، وفي الوسط مقعد الملك الكبير ، كان الملك ينتظرنا ، وهو شاب لا يتجاوز الثانية والثلاثين ، هادىء ، حاد الذكاء ، يرتدي الزي الوطني .

أصر الملك أن يجلس معنا على الأريكة ، فهو ـ كما يقول ـ لا يفضل الجلوس على مقعد الملك الواسع الكبير إلا في المقابلات الرسمية ، ومن اللحظة الأولى يسهل اكتشاف أنه شديد البساطة ، يتحدث بهدوء . يقول خلال اجاباته عن نقاط متعددة : « جولتي التي كنت أقوم بها جولة اعتيادية ، فأنا أؤمن بأهمية اللقاء بالناس بشكل مباشر وبضرورته ، والاستماع إليهم مباشرة ، لأن أحلامي كبيرة ، وإمكانياتنا التي وهبتنا إياها الطبيعة كبيرة أيضا ، وأنا أتولى بنفسي الإشراف على قطاع التخطيط ، وأمارس العمل في هذا القطاع بشكل يومي كمسئول ، وهذا يستهلك جزءا كبيرا من وقتي ، بالإضافة إلى متابعة أعمال السلطة التنفيذية ، سواء على مستوى الوزارات أو المقاطعات ، وأنا أرى أن بيننا وبين الكويت تماثلا في أشياء كثيرة ، كلانا بمساحة صغيرة وعدد سكان محدود ، ونستعين بالعمالة الوافدة ، ونحرص على حماية ثقافتنا القومية ، وكلانا لديه ثروة طبيعية ، ففي الكويت النفط ، ونحن لدينا الغابات والمعادن الطبيعية ، ولذلك فأنا مهتم بدراسة تجربة الكويت .

في بداية حياتي أرسلني والدي للتعليم في بريطانيا ، لكنني لم أمكث هناك طويلا ، إذ سرعان ما أعادني والدي إلى بوتان فأكملت تأهيلي وتدريبي بها ، وعندما توفي والدي أصبحت ملكا وذلك في عام ١٩٧٢م ، وأستطيع أن أقول إنني في (١٤) عاما قد حققت أشياء كثيرة لشعبي ، ومازالت لدي أحلام كثيرة ، فعلى المستوى الشخصي آمل أن يتم قريبا زواجي .

وأنا أعرف وأدرك جيدا معنى أن يكون الإنسان على رأس دولة ، فهناك قيود ومهام تشغل الإنسان ، وتمنعه من أن يمارس حياته كأي مواطن عادي ، له صداقات وأصحاب وهوايات ، لكن ذلك هو ثمن المسئولية التي أحملها لرعاية شعبي ، والسير به نحو الرخاء والتنمية والرفاهية » .

وسار معنا حتى باب مكتبه ودودا ، بسيطا ، إنسانا ، رغم أننا لم ننس أننا في حضرة صاحب الجلالة ملك بوتان .

فنانون بالفطرة

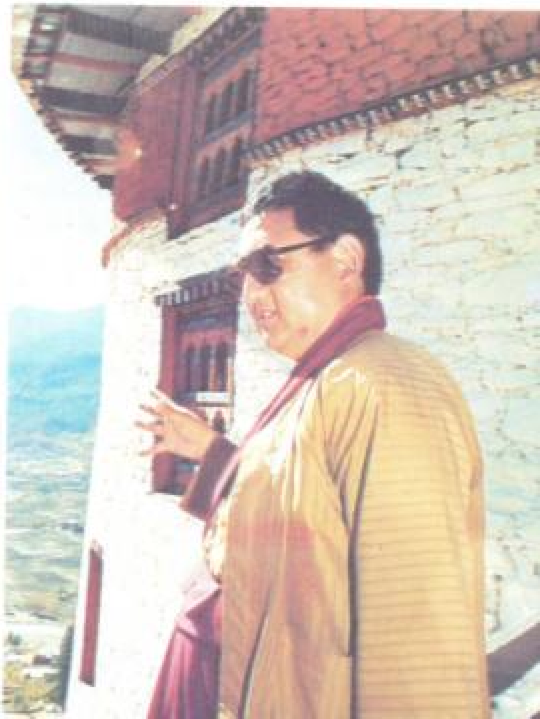
ساهمت عوامل كثيرة في صنع الثقافة الاجتماعية لشعب بوتان ، وكان التأثر بالجيران والثقافات المجاورة شديد الوضوح في الصياغة الحالية للثقافة الاجتماعية ، كما أسهمت البيئة والتراث الديني بشكل بارز أيضا في هذه الثقافة ، ويستطيع الزائر لبوتان من أول لحظة أن يدرك عمق الإحساس الفني ، ويرى إبداعات زخرفية جمالية تنتشر على واجهات كل المباني بلا استثناء ، حكومية أو أهلية ، للفقراء والاغنياء ، فكل المباني بلا استثناء مزدانة بالزخرفة والألوان المبهجة ، وبعد وقت يستطيع المرء أن يحدد سمتين أساسيتين للفن والزخرفة إحداهما الوحدة ، أي تكرار نفس السمات الأساسية ، وغلبة الأثر والتراث الديني في الرسوم ، فعناصر الزخرفة والرسم هي العموميات الثابتة ، وأخراهما بعض الرموز الدينية مثل التصور الديني البوذي لعجلة الحياة اليومية ، وبوذا في صوره المتعددة ، والأتباع الستة عشر ، ومفهوم العالم من وجهة نظر الفلسفة البوذية .

والعمل الفني في بوتان عمل مشرف ، يمنح صاحبه شرفا ومكانة خاصة ، وهو مصدر فخر واعتزاز . وأول من نقل الفن والزخرفة إلى بوتان هم القديسون البوذيون الأوائل الذين توافدوا عليها في القرن السابع ، فقد كان كل رجل دين يحل في بوتان يقيم معبدا ومدرسة ، ويمضي الساعات الطوال في زخرفة مبنى المعبد والمدرسة ، ومن هنا اكتسبت المهنة شرفها وقيمتها . وقد ابتكر إنسان بوتان أدوات عمله الخاصة ، فصنع من شعر الحيوانات الموجودة في البيئة (فرش) الرسم . وأوجد ألوانا من صبغات محلية ، يصنعها من مصادر الألوان المتاحة مثل الخضراوات والأعشاب .

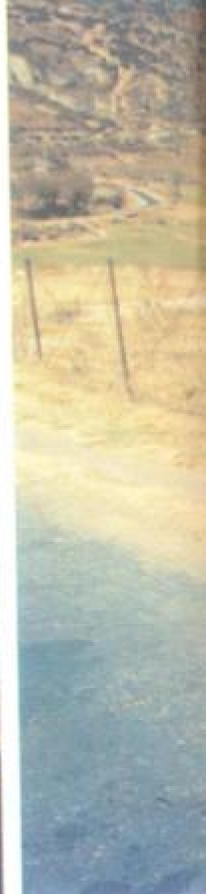
هذا المزج في مصدر الفن هو الذي أكسب الفنون











● لايمكن فهم مجتمع بوتان دون فهم قوة رجال الدين بها . إلى اليمين (فوق) صبية صغار لم ينخرطوا في سلك الرهبانية لكنهم في مرحلة الاختبارات والتعليم حتى سن الرشد . وإلى أقصى اليمين أحد رجال الدين أمام المتحف الوطني ، ومنظر عام لأحد المعابد . وإلى اليسار زاهد من رجال الدين بمسبحته

البوتانية التأثير المستخلص من الفنون الصينية والهندية والتبتية ، لكن تم تطوير ودمج في أكثر هذه الروافد ، لتخرج في النهاية صياغة جديدة مختلفة للفن البوتاني ، تظهر فيه آثار الثقافات المجاورة ، وأثر التراث الديني ، ويتضح أثر هذين العاملين أيضا في الأعمال اليدوية ، مثل النحت على الخشب ، وأشغال الإبرة ، والرسم على النسيج .

وبرغم روح التجديد التي تهب على بوتان نتيجة الانفتاح النسبي الحالي على العالم فإن المحافظة على طابع الأعمال الفنية أمر لا تخطئه عين ، وقد أقامت الحكومة ـ ممثلة في وزارة الديانة والثقافة ـ خمسة مراكز للأشغال اليدوية ، موزعة على أنحاء بوتان ، يلتحق للعمل بها الموهوبون في هذا المجال ، فتمنحهم المراسم الخامات والأدوات ، ورواتب شهرية ، فيتفرغ الفنانون تماما للإنتاج . وفي كل الأحوال ، سواء كان الفنان ينتج في المرسم أو يعمل لحسابه الخاص فإن لحظة العمل لحظة روحية مقدسة ، يجب على الفنان عندما يعمل أن يدرك أنه يؤدي تدريبا روحيا ، ويفكر أثناء ذلك في أشياء روحية خيالية . وتعد أرقى مهارات الفن اليدوي ـ بجانب زخرفة المباني ـ زخرفة الأثاث والرسم على النسيج ، فأساس هذا الفن هو العبادة والتراث الديني ، وما كانوا يصنعونه من أجل العبادات والمعابد هو الذي شجع أعمال النحت والرسم ، وخاصة صناعة الأقنعة والأشكال التي تمثل الآلهة ، والوجوه الآدمية ، والحيوانية التي تستخدم في الاحتفالات والرقص .

تعد العمارة في بوتان شيئا مميزا تماما ، ومختلفا عن كل ما في منطقة الهملايا ، فهي نموذج لتطوير أهل بوتان لتأثير الثقافات المجاورة ، فكل منطقة التبت تبني منازلها بجدران مائلة ذات ألوان بيضاء ، وسقوف منحدرة ، ونوافذ كبيرة مستطيلة ، أما البوتانيون فلظروف بيئة كثيرة المطر طوروا هذا النموذج ، فجعلوا جدران البيوت مستقيمة ، والأسقف مائلة ، لتسهيل ذهاب مياه الأمطار عن سطحها ، والنوافذ ذات قمم ثلاثية ، وجعلوا الجدران ملونة ، مزخرفة . هذا الحس الفني ، وهذا التذوق للجمال الذي غرسته المشاعر الدينية ، وساهمت في تنميته ، هو الذي جعل من كل مبنى في بوتان قطعة فنية جمالية ، حتى تحولت منصات رجال المرور في التقاطعات الرئيسية إلى لوحات فنية مزخرفة . ولم يقتصر أثر التراث على الجزء المعنوي في الثقافة الاجتماعية فقط ، بل امتد تأثيره إلى مفردات الحياة اليومية ، وطقوسها .

الميلاد . الزواج . الموت

لا يقتصر الوجود القوي للمؤسسة الدينية في بوتان على توازن الحكم والسلطة فيها ، والمزج بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية ، بل يتعدى ذلك إلى كل مفردات الحياة ، وقد ساهم في ذلك أن معنى الاستقرار وبدايته تمّا على أيدي الرهبان ، مما مكنهم من غرس قداسة المشاعر الدينية في نفوس البوتانيين ، ثم خلق منهم شعبا شديد التدين ، عميق التمسك بتعاليم دينه ، فلا يمكن لواحد من مفردات الحياة اليومية أن يتم دون مشاركة رجل دين ، ومشاركته لا تتم مجانا بل بمقابل ، ويتوقف حجم مشاركة رجل الدين من حيث درجته في سلم الرهبانية ، ومن حيث عدد المشاركين ، على مكانة الأسرة الاقتصادية وإمكانياتها .

كانت الطريقة التقليدية للزواج هي الخطبة في الطفولة ، إذ يقرر الآباء مقدما أن هذا الطفل سيتزوج هذه الطفلة التي غالبا ما تكون من أسرة صديقة ، وعندما يكبران ، وتظل مشاعرهما طيبة تجاه بعضهما فإن هذا الزواج يتم ، لكن مع تطور المجتمع لم تستمر هذه الطريقة ، بل أصبح الزواج يتم وفق الاختيار الإنساني الحر للطرفين .

أما حفل الزواج فهو عبارة عن عدة احتفالات في احتفال واحد ، يبدأ الاحتفال في ساعة مبكرة بعد الظهر باحتفاء أصدقاء العريس به واصطحابهم له إلى بيت العروس ، وهناك يحتفي أهل العروس بوصول العريس الذي يصطحب عروسه إلى بيته في ساعة معينة ، يحددها لهم (اللاما) المنجم الذي لديه علم بالحظ والسعد ، وحسابات النجوم ، وفي الوقت المحدد يصطحب العريس عروسه بصحبة صديقاتها وأهلها ، وتسير خلفه أفواج من الراقصين الذين يؤدون الرقصات الشعبية ، وعندما يصل الموكب إلى

منزل العريس يستقبله أهل العريس بإناءين في أحدهما ماء ، وفي الآخر لبن ، رمزا للامتلاء والخصوبة ، ثم يبدأ العروسان في تلقي هدايا الأهل ، وكل هذا قبل أن يجتازا عتبة بيت العريس ، ثم يدخل العروسان ويجلسان متجاورين ، ويجلس أمامهما (اللاما) يتلو تراتيل الزواج ، ثم يشربون النبيذ ويتبادلون الأنخاب ، ثم يقوم (اللاما) ويشهر إعلان الزواج ، ويعطيهم ثمانية أشياء مقدسة ، لكي تحفظ حياتهم وتحميها ، ثم يبدأ الضيوف والأصدقاء في تقديم الهدايا لكلا العروسين ، فيقدم لكل منهما ٣ أو ٥ أو ٧ قطع من القماش ، ووشاحا أبيض ، ثم يقدم للضيوف الأرز والنبيذ ، ويبدأ الرقص والغناء حتى آخر ساعة من الليل ، ويترك العروسان ليستقبلا معا الساعة الأولى في يوم جديد .

طقوس الولادة

يبقى الطفل بعد ولادته مدة ثلاث سنوات كاملة لا يراه أحد إطلاقا غير أمه ، ثم يدعى (اللاما) لإجراء احتفال لتنقية روح الطفل ، وبعد الاحتفال يتوافد الأهل والأقارب ، ويقدمون الهدايا ، وتقام الولائم ، ثم يستشير الأب والأم (اللاما) المنجم لكي يختار اسما لطفلهما ، ويكشف لهما عن طالعه ، فإذا رأى مصاعب أو عوائق في طريقه أخبر الوالدين بالعلاج اللازم الذي غالبا ما يكون تبرعات أو نذوراً ، ومن العادات الشائعة أن يذهب الوالدان ـ بعد أن يبلغ الطفل سن السابعة أو الثامنة ـ ويغيرا اسمه ، وذلك لأن الطفل قد واجه بعض الصعوبات في بدء حياته ، ولا يتم اختيار الاسم الجديد إلا بمعرفة (اللاما) المنجم ومشورته ، وبعد تقديم الهدية اللازمة .

طقوس الموت

الطقوس المصاحبة للموت أكثر تعقيدا ، فعند حدوث حالة وفاة يذهب شخص من عائلة المتوفى ومعه شخص آخر من أصدقائه إلى (اللاما) ، ويقدم قريب المتوفى أربع قطع من القماش هدية إلى اللاما المنجم الذي يضع هذه القطع على طاولة كبيرة ، ثم ينشر فوقها خرائط النجوم والأبراج والأفلاك ، ويسأل عن اسم المتوفى ، وساعة وفاته ، وأعوام عمره ، ولقب عائلته ، والمكان الذي توفي به ، وسن أكبر شخص في العائلة ، وبعد ذلك يحدد المغزى الروحي للموت ، ويحدد يوم حرق الجثمان وساعته الذي قد يكون القيام به عقب الوفاة مباشرة أو بعد فترة قد تصل شهرا ، ويتوقف اختيار الموعد على حسابات النجوم ، والطالع ، كلها يجريها اللاما المنجم ، وعند حرق الجثمان توجه أسرة المتوفى الدعوة لأكبر عدد ممكن من رجال الدين ، حسب مكانتها الاقتصادية ، فكلما قدمت هدايا أكثر كلما حضر عدد أكبر وأعلى في درجة الرهبانية .

ولا تبدأ مراسم الحداد في بيت المتوفى إلا في اليوم الرابع للوفاة ، ويجريها مجموعة من رجال الدين (اللاما) ، وذلك في اليوم الرابع والسابع والرابع عشر والحادي والعشرين والتاسع والأربعين ، وفي الفترة التي بين اليوم الواحد والعشرين والتاسع والأربعين يحظر إقامة أي نوع من الصلاة أو العبادة في البيت ، وفي اليوم الخمسين يأتي (اللاما) والأهل والجيران والأصدقاء ويقدمون الطعام والشراب والنبيذ ، ويبدأ اللاما في صلاة خاصة لإله السعادة والنقود ، لجلب الرفاهية إلى البيت .

الأخضر والأبيض

كانت السيارة تغادر شوارع تمبو العاصمة ، متجهة بنا إلى مدينة « بارو » حيث المطار الوحيد ، تهبط فيه الطائرات ومنه تقلع . كان الطريق يمتد ٦٥ كيلو مترا ، يصعد ويهبط ويتلوى في الجبل ، وكلما ارتفع بنا الطريق لاحت لنا بوادر الجليد والثلج الذي يتحرك تدريجيا ليكسو الجبال الخضراء ، فتصبح لوحة فنية رائعة من عناق الأخضر والأبيض ، وفي السفوح المنازل الزاهية الملونة بالأحمر والأزرق والأصفر . تصنع كل هذه المفردات جمالا فنيا أخاذا ، لبلد يحيا أهله برضا واستكانة ، رغم أنه في قلب المتناقضات . □



المرأة العراقية

تغزل الحياة في السلم والحرب

استطلاع
وتصوير :
وفاء طه ناجي

سبع سنوات ونيف من الحرب غيرت وجه الحياة الاجتماعية في العراق ، فبعد أن ذهب الرجال للدفاع عن الوطن تقدمت النساء لتؤدي مهام مزدوجة ، فالمرأة في كل المجالات تبذل أقصى طاقتها لتدفع عجلة التنمية ، وتقوم في بيتها بوظيفتي الأمومة والأبوة في آن واحد .



للوهلة الأولى ليس هناك مايدل على أن هذه المدينة ـ بغداد ـ عاصمة لبلد يخوض حربا هي الآن في منتصف عامها السابع . وما مطار بغداد الضخم ـ وهو أول ما تلقى وتشاهد ـ الادليلاً واضحاً على أن حركة العمران والتشييد مستمرة ، لم تقف الحرب حائلا دونها . أما في قلب المدينة ، فكنا ننتقل من دهشة الى دهشة ، شوارع واسعة ، جسور وأنفاق جديدة ، ومجمعات سكنية مبنية على أحدث طراز ، بعضها جهز للاستعمال بالطاقة الشمسية ، وهو على وشك الافتتاح ، وأسواق تغص بالناس في حركة يومية دائبة .

ان ملامح التغيير في بغداد واضحة ، حتى أنه من الصعب على الزائر أن يحصل على خرائط تفصيلية للمدينة الجديدة . فعمليات التحديث والتطوير لاتتوقف ، وكأن اصرار العراقيين على البناء قد تحول الى نظام حياة يصعب تغييره . خصوصا لدى النساء اللاتي زادت أعباؤهن حسب ما تقتضيه المتغيرات الجديدة .

الحرب ظرف استثنائي

ان حركة المرأة هنا ظاهرة تلفت الانتباه ، فهي تدير المهام الجديدة التي ألقيت على عاتقها بعد ما ذهب الرجل للدفاع عن شرف البلاد ، وهي تؤدي عملها بهمة وكفاءة تثير الاعجاب . قالت لي احدى الصحفيات العراقيات : « الظروف الاستثنائية يجب ألاّ تعطل الهدف ، ولا خيار لنا بين الحرب والبناء ، والا فلن يكون العراق كما نريد له أن يكون » .

هكذا تنظر المرأة الى دورها في زمن الحرب ، وهي تعمل في كل المجالات ليلا ونهارا ، فتجدها في المستشفيات ومراكز الجرحى والمعاقين طبيبة وممرضة ، وتراها في المصانع مهندسة وعاملة ، وهي موظفة في كل وزارات الدولة وشركاتهاالمختلفة ،

واذا كنت مدققا شديد الملاحظة ، فسوف تلمح في بعض الضواحي نساء يشرفن على عمليات بناء المنازل وأسوار الحدائق ، وينقلن الطوب والأسمنت في سيارات كبيرة أو صغيرة . قالت لي سميرة العامري :

أصرت أمي على الانتهاء من أعمال البناء والدهان في بيتنا الجديد ، وكان العمل قد توقف فيه منذ ذهاب أخي الى الجبهة ، فقد كان هو الموكل بمتابعته ، ولذلك كثيرا ما أنقل بعض أغراض البناء ، أو أحمل عددا من العمال في سيارتي الخاصة الى بيتنا ، ثم تتولى أمي بنفسها الاشراف على سير العمل ، وقد قارب البناء على الاكتمال .

ان ما يثير الاعجاب حقا هو تلك الروح العالية التي تتمتع بها النساء في كل مكان ، فهن يؤدين أعمالهن بهمة ودون كلل ، وقد رأينا مثالا على ذلك المرأة البسيطة التي تبيع العطور والمناشف والأدوات المنزلية في الأسواق القديمة . . انها تبدأ عملها في السابعة صباحا ولا تعود الى بيتها قبل الخامسة مساء .

تقول أم كريم : « ان الخروج الى العمل هو البديل الوحيد لغياب ولدي في الجبهة ، فالتجارة التي يشتغل بها هي مصدر رزقنا الذي يجب أن نحرص عليه » .

ولا شك أن لكل واحدة من اللاتي يعملن داخل تلك الأسواق قصة مختلفة ، ولكن المعنى لديهن جميعا واحد . . وهو أن الحياة يجب أن تستمر .

ان ما حققته المرأة العراقية كثير ، مما جعلها تقف جنبا الى جنب مع الرجل في كل موقع ، لكن ظروف الحرب غيرت وجه الحياة في العراق ، فأصبح عليها مواجهة الواقع الجديد الذي فرضته تلك الظروف . فبعد انصراف الرجال الى جبهة القتال ألقى عليها عبء سد مواقع العمل الشاغرة في الجبهة الداخلية ، من أجل استكمال خطة التنمية . لذلك تكون المهام المزدوجة التي تقوم بها النساء في ظروف الحرب هي نقطة التحول الحقيقية في واقع المرأة العراقية .

الأولوية للتنمية . . .

يمثل الحركة النسائية في العراق « الاتحاد العام لنساء العراق » وهو الجهة التي لعبت ـ وما زالت ـ تلعب دورا مهما في تطوير المرأة في كافة المجالات ، وبسبب الحرب تبذل المسئولات في الاتحاد النسائي جهودا مضاعفة من أجل اعداد المرأة العراقية لتحمل المسئوليات الاضافية في تلك المرحلة ، وتحدثنا منال يونس رئيسة الاتحاد النسائي العراقي فتقول :

المرأة الآن تعمل في ظروف صعبة ، فهي تقوم بعدة أدوار في وقت واحد ، وتقدم تضحيات اذا

قيست بالمقاييس العادية والانسانية فهي مرهقة وغالية لكن اذا وضعنا تلك التضحيات في ميزان بلد يخوض حربا من ناحية ، ويشهد تنمية شاملة من ناحية أخرى ، فلا بد أن ترجح كفة بناء الوطن .

لقد واجهت المرأة العراقية مرحلة الحرب والبناء بوعي وإدراك،فتقدمت لتسد الفراغ الذي أحدثه انصراف الرجال الى جبهة القتال ، ولعبت في الأشهر الأولى من الحرب دورا أساسيا ومهما في ترشيد الاستهلاك ، ومحاربة الشائعات التي قد تفسد تماسك الجبهة الداخلية ، وكان ذلك من أعظم الأدوار التي أسهمت بها في تعزيز الجبهة الداخلية وتماسك الأسرة ، ودفع عملية الانتاج قدما من أجل الوفاء بمتطلبات الحرب . . أما دور الاتحاد النسائي العراقي فيفرض علينا أن نعمل على توسيع مشاركة المرأة في شتى المجالات لذا بدأنا العمل في اتجاهين :

الاتجاه الأول/ ضرورة احلال النساء في مواقع الانتاج الشاغرة ، وقد اقتضى ذلك اعادة تدريبهن وتطوير كفاءتهن الانتاجية بما يحقق قوة الانتاج ذاتها حسب الخطة الأساسية للتنمية ، وقد تم ذلك بالفعل بتدريبهن في الورش التابعة لمؤسسات الدولة المختلفة .

أما الاتجاه الثاني/ فيهدف الى إلحاق النساء بأعمال جديدة لم يسبق لهن أن مارسنها ، مثل التحاقهن في صفوف الجيش الشعبي ، مما اقتضى تدريبهن على الوسائل الدفاعية وقيادة الدبابات لاستخدامها عند الضرورة .

المرأة في الجيش

وتستطرد منال يونس قائلة : أما انضمام المرأة للجيش فيرجع الى عام ١٩٧٧ ، بعد أن كان ذلك مقصورا على الرجال حتى ذلك الحين ، وقد منحت المرأة امتيازات العسكري ممن يماثلها في الرتبة والاختصاص والمهنة ، وفي عام ١٩٧٩ افتتحت أول دورة في كلية القوة الجوية (سلاح الطيران) وتخرجت في الكلية حتى الآن ثلاث دفعات من الضابطات اللاتي حصلن على شهادات الطيران العسكري . أما الأعمال التطوعية داخل العراق فكانت النساء أول من سارع لتأديتها فتطوعت كثيرات من غير الممرضات للقيام بالتمريض في أغلب المستشفيات لرعاية الجرحى والمصابين . ودعا الاتحاد النسائي بعد ذلك الى ضرورة أن تقضي المتخرجة في الجامعة عاما في الخدمة التمريضية ، قبل أن تتسلم عملها ، فلم تتخلف خريجة واحدة عن تلبية الدعوة . أما عدد النساء اللاتي تطوعن للقيام بأعمال الدفاع المدني فقد كان كبيرا مما حدا بالاتحاد أن يقدم لهن كل مساعدة ممكنة لتدريبهن وبخاصة في المناطق التي تتعرض للقصف ، وقد تم تدريبهن على أعمال اطفاء الحريق ، وقيادة سيارات الأسعاف وانقاذ المتضررين من القصف .

وفي الحياة الاجتماعية ، تقوم المرأة الآن بدور حيوي دقيق ، فهي تؤدي وظيفتي الأمومة والأبوة معا ، وبعد أن كان دورها مقصورا على توفير الخدمات اليومية لأبنائها ، أصبح عليها الآن أن تتابع التحصيل العلمي لأبنائها وبناتها من خلال اطلاعها على انجازهم للواجبات المدرسية ، وأن توجههم التوجيه السليم ، وتغرس فيهم قيم البطولة والفداء ، لتحميهم من سلبيات الظرف الحالي .

وقد اعتمد الاتحاد النسائي أساليب جديدة لتعزيز العلاقات الاجتماعية في المجتمع ، فهو ينظم زيارات لعائلات الشهداء والأسرى والمفقودين والمقاتلين ، لتفقد احتياجاتهم وعلى الخصوص في الأحياء السكنية التي تعرضت للغارات الجوية ، ويسهم في تهيئة أماكن ومخيمات لاسكان العائلات التي غادرت بيوتها الواقعة على الحدود بسبب ظروف القتال ، وبالاضافة الى ذلك ينظم الاتحاد زيارات مستمرة لابنائنا جرحى المعارك والغارات الجوية في المستشفيات،وكذلك المعوقين في مراكز العلاج الطبيعي ، حيث يتم توزيع الهدايا عليهم لرفع روحهم المعنوية .

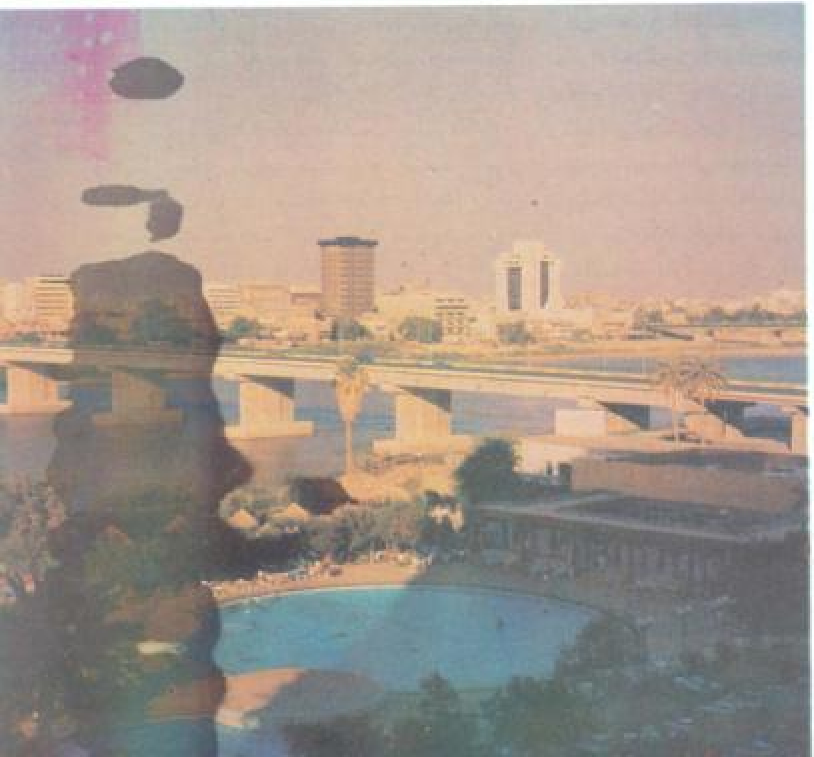
وتختم رئيسة الاتحاد النسائي العراقي حديثها قائلة ان ظروف الحرب ساعدت على تقبل المجتمع للوظائف الجديدة للمرأة ، وبخاصة الأعمال العسكرية والتدريب على السلاح . وقد سجلت الأعوام من ١٩٧٦ الى ١٩٨٥ تطورا ملحوظا في انضمام النساء الى الجيش الشعبي.

ليس جديدا على المرأة العراقية أن تتحمل شتى الأعمال وتنجح فيها ، فهي ـ بشكل عام ـ تحظى بمكانة اجتماعية مرموقة ، وقد أحرزت انتصارات









● أصبحت المرأة تحتل الكثير من أماكن العمل بعد أن أثبتت كفاءة عالية في تحمل المسؤولية، وبخاصة في زمن الحرب.

الى اليسار جسر ١٤ رمضان الذي تم انجازه منذ عامين فقط، ويربط بين حي «الأعظمية» وحي «العطيفية».

كثيرة لصالحها سواء في حقل التعليم ، أو في قوانين الأحوال الشخصية الذي عدل مؤخرا ليمنحها حق حضانة صغارها في حالة الطلاق ، ويقف القانون العراقي المنصف للمرأة رادعا للموروث من العادات الاجتماعية التي كانت سائدة من قبل ، مثل زواج الأقارب الاجباري ، كما أتاح للمرأة أن تشارك في انتخابات المجلس الوطني ، وقد شاركت ونجحت ، وهي الآن تشارك في مجلس الوزراء ، وتدلي برأيها في قضايا بلدها . والقانون العراقي يدعم الاتحاد النسائي كجهة تهتم بتطور دور المرأة لخدمة المجتمع . أما أعظم انجازات الاتحاد على الاطلاق ، فهو القضاء على الأمية بين النساء مما مهد لهن طريق التطور الحقيقي .

فبعد أن كانت نسبة الأمية بينهن ٦٩٪ قبل تسع سنوات تضاءلت الى ٧٪ فقط في منتصف الثمانينيات . وتؤكد المسئولات في الاتحاد النسائي العراقي على أنهن يضعن في الاعتبار القضاء التام على تلك النسبة بأسرع وقت ممكن .

وتحدثنا ساجدة الموسوي ، مسئولة أمانة الاعلام في الاتحاد النسائي عن المحاولات الأولى التي قام بها الاتحاد في مجال محو الأمية ، فتقول :

في عام ١٩٧٨ صدر قانون « الحملة الوطنية لمحو الأمية الالزامي » ليدعو كافة القطاعات والمنظمات الشعبية والجماهيرية للاسهام في القضاء على الأمية ، فبادر الاتحاد النسائي بافتتاح فصول لتعليم الكبار ، وكان أكثرها في الريف حيث توجد النسبة الكبرى من النساء الأميات ، ونظم حملات واسعة في كل محافظة ، توضح أهمية التعليم للمرأة ، وضرورته لتوفير مستقبل أفضل لها ولأسرتها ، كما سعى الجميع لتذليل العقبات أمام المنتسبات الى فصول محو الأمية ، بالاضافة الى ذلك أسهم الاتحاد النسائي في توفير الدراسة المهنية (في المدارس الشعبية) لاعداد عاملات مدربات ، واهتم بتوفير المحاضرات المناسبة ، واختيار أقدر المعلمات والمعلمين للقيام بتلك المهمة ،وكان نشاط الاتحاد كبيرا في متابعة نتائج التجربة أولا بأول .

وتنهي ساجدة الموسوي حديثها قائلة : لم يقف دور الاتحاد عند هذا الحد ، بل قدم أشكالا عديدة من التشجيع للدارسات ومنحهن فرصا تدريبية داخل وحدات التدريب في مراكز الاتحاد في كل المحافظات ، كما أعطى الأولوية في العمل للمتخرجات في « المدارس الشعبية » و « مراكز محو الأمية » ، ومن ناحية أخرى نظم القسم الاعلامي في الاتحاد حلقات نقاش شارك فيها خبراء واختصاصيون وأساتذة جامعيون بهدف توجيه المرأة التوجيه العلمي المناسب بعد انتهاءها من الدراسة .

مزارع النساء . .

ان واقع المرأة العراقية يؤكد أنها تتمتع بحقها في الفرص المتكافئة مع الرجل في كافة مجالات الحياة العامة ، وبخاصة في التعليم والعمل ، وتشير الاحصائيات التي أجريت عام ١٩٨٤ الى أن نسبة النساء العاملات في العراق بلغت أكثر من ٣٠٪ من قوة العمل ، وهي نسبة مرتفعة اذا قيست بما كانت عليه عام ١٩٧٥ ، حيث بلغت حوالي ١٧٪ من قوة العمل آنذاك ، ولم تشمل هاتان النسبتان قطاع الزراعة الذي قدرت نسبة المشتغلات فيه بحوالي ٤٣٪ عام ١٩٨٢ ، وقد ارتفعت هذه النسبة كثيرا بسبب ظروف الحرب حتى وصلت الى ٤٩٪ عام ١٩٨٤ .

ولنأخذ المرأة في الريف كمثال على مشاركة النساء في واحد من أهم قطاعات المجتمع،رغم أن إسهام المرأة العراقية في أعمال التنمية الريفية ليس جديدا ، فقد كان لها باع طويل في أعمال الزراعة وتربية المواشي والدواجن . ومثلما تطورت المرأة المدنية تطورت المرأة الريفية أيضا ، وكان لها نصيب وافر من الامتيازات التي تدفعها الى النجاح .

تقول ناهد طوشي ، وهي من النجف وتعمل في مجال تنمية المرأة الريفية : حصلت المرأة الريفية على حق امتلاك الأرض واستصلاحها وزراعتها ، كما فازت بحق الانتماء لعضوية الجمعيات التعاونية ، وقد كان لكل ذلك أثره الفعال في اقبال المرأة على العمل في المؤسسات التي تعنى بشئون الزراعة والاصلاح الزراعي بالاضافة الى الدور الذي تقوم به في حرث الأرض واعدادها للزراعة .

ان للعراق تجربة رائدة في مجال تنمية المرأة الريفية تتمثل في اقامة « مزارع للنساء » .

زارت « العربي » احدى مزارع النساء الواقعة في منطقة الشعلة جنوب بغداد ، وهي مزرعة يطلق



● منال يونس رئيسة الاتحاد العام لنساء العراق .



● منى بحري استاذة علم النفس في جامعة بغداد .



● أم نجم ... [illegible] وتجربة رائدة بمزرعة في الريف .

عليها اسم مزرعة أم نجم ، وأم نجم هو اسم امرأة عراقية في حوالي الخمسين من عمرها ، خريجة احدى المدارس الشعبية (محو الأمية ، فهي الآن تقرأ وتكتب وتدير كل شئون المزرعة . تقول أم نجم : حرصت على تلبية الدعوة الى محو الأمية ، وكنت أداوم على متابعة الدرس حتى تخرجت ثم التحقت باحدى المدارس الشعبية ، وتعلمت الكثير عن استخدام كل جديد في حقل الزراعة ، وتوليت بعد ذلك مسئولية استصلاح الأرض وفلاحتها هنا في المزرعة ، ونحن هنا كلنا من النساء نعمل في جميع الأوقات ، نربي الحيوان والدواجن ، ونصنع الالبان ، ونقوم بتوفير « الحطب » لاستخدامه كوقود ، بالاضافة الى أعمالنا في ادارة المنزل ، وتربية الاطفال . وبسبب غياب الرجال في الجبهة تعلمت النساء الأساليب الحديثة في الزراعة ، فأغلبيتهن الآن يقدن « التراكتور » وهو آلة حديثة من آلات الزراعة ويستخدمن موتورات المياه وآلات الحرث والحصاد بالاضافة الى صيانة تلك الآلات التي تستخدم في الأعمال الزراعية ، أما وقت العمل هنا داخل المزرعة فقد يمتد الى أكثر من ١٢ ساعة يوميا .

مزيد من الاهتمام بالطفل

يأتي الاهتمام بالطفل ضمن أولويات التنمية .

وكان « للعربي » لقاء مع الدكتورة منى يونس بحري استاذة علم النفس في جامعة بغداد لتحدثنا عن أهمية ذلك فتقول : ظروف الحرب فرضت علينا جميعا أن نعيد النظر في نوع الرعاية التي نوليها للصغار . فقد أصبح من الضروري اختيار ما يشاهدونه من أفلام تلفزيونية وسينمائية وما يقرأونه من كتب وقصص ومجلات ، لأننا في حقيقة الأمر نعد شبابا ، والشباب هم المستقبل ، فاذا لم تكن نفسيات الصغار مهيأة لاستيعاب ما يجري الآن من أحداث ومتغيرات ، فسوف تتعثر أدوارهم المستقبلية ، بل اننا قد نجد أنفسنا في مواجهة أنواع جديدة من المشكلات ، ولذلك يجب أن يعرف الأطفال السبب الحقيقي لغياب آبائهم واخوانهم ، على أن يتم ببطء تسبيبا وبعد دراسة متأنية ، لأن التسرع في قضية حساسة كقضية تنمية مدارك الطفل ، قد يعطي نتائج قاسية .

وتختتم د . منى بحري حديثها فتقول : « ان احراز نتائج ايجابية في اعداد نشء سليم ، يعتمد اعتمادا كبيرا على دور الامهات ، فالأم العراقية تدرك الآن دورها الجديد ، وتعلم أننا في مواجهة تحد سكاني ، وهو واحد من الآثار « الديموجرافية » للحرب .

والدولة الآن تمنح الأم التي تنجب أكثر من ٩ أبناء مخصصات مالية قد تفوق دخلها ودخل زوجها مجتمعين كنوع من التشجيع ، واذا كانت الدعوة الى زيادة النسل أمرا له أهميته القصوى ، فان اعداد ذلك النسل على أسس صحيحة هو الهدف الذي نسعى اليه . وقد تخلصت المرأة العراقية من قيود التخلف والنظرة المتدنية والدور السلبي في مجتمعنا ، لقد

وضعت في العراق أسس لتحرير المرأة تحريرا شاملا يضعها على قدم المساواة مع الرجل في القيمة الانسانية ، وفي اطار التوازن الموضوعي ، وفي الحقوق الاجتماعية ، مما يتيح لها فرصة القيام بدورها الايجابي في بناء المجتمع .

أما مظاهر الاهتمام بالطفل العراقي فتتمثل في وجود أكثر من نشاط يشمل كل الأعمار . وتحظى العناية بالقراءة بالنصيب الأكبر من الاهتمام ، فنجد في بغداد وحدها مكتبتين كبيرتين،واحدة في منطقة « الكرخ » تعرف بمكتبة « الطفل العربي » ، والأخرى في منطقة « الرصافة » وتسمى « مكتبة أطفال القادسية » ويصل عدد الكتب التي تضمها كل مكتبة من هاتين المكتبتين الى ٣٧ الف كتاب ، تعالج مشكلات وقضايا يهتم بها الصغار . ان أكثر تلك الكتب باللغة العربية ، ثم تليها اللغة الانجليزية بالاضافة الى لغات أخرى . وتوجد في كل مكتبة قاعة فسيحة للرسم وأخرى للعرض السينمائي وهي تعرض فيلمين أسبوعيا ، كما توجد قاعة للطعام .

قالت لنا احدى المشرفات : « تفتح المكتبة أبوابها من الثامنة صباحا وحتى السادسة مساء لتستقبل أكثر من ٥٠٠ طفل يوميا ، منهم أعضاء دائمون في المكتبة ومنهم زوار ، ونحن المشرفات داخل المكتبة نساعد الاطفال على قراءة ما قد يصعب عليهم قراءته

ومن المنشآت التي تعنى بشئون الطفل في بغداد . . « دار ثقافة الأطفال » ، وكان للعربي لقاء مع مديرها العام فاروق سلوم ليحدثنا عن دورها في خدمة الطفل يقول : « لم يعد أدب الاطفال قضية عابرة كما كان قبل ثلاثة عقود ، بل أصبح أمرا ذا شأن يتصدر أهم الحلقات الدراسية ، ويشغل بال المهتمين بتثقيف الاطفال ، وأدب الأطفال يحتاج الى لغة خاصة يكون مصدرها الطفل نفسه ، فهو مكتشف بارع لكثير من المترادفات على نحو يدهش اللغويين . وعندما يفاجأ شاعر أو كاتب بسؤال عن مصدر المامه بلغة الطفل ، فان جوابه لن يكون دقيقا متضمنا للحقيقة اذا ادعى أن المدركين هم مصدر لغة الطفل ، اذ الأصح أن يلم الشاعر والكاتب بلغة الطفل نفسه ويعرف المحصول اللفظي لكل مرحلة من مراحل الطفولة ، ويدرك أن العلاقة الخفية بين الأشياء الحميمة التي يهتم بها الطفل كاللعب ، والمكافأة على الجهد ، وزيارة الاصدقاء ، واهتمام الأهل ، هي « أدوات حب » تنعكس على سلوكه العام ، وهي وحدها كفيلة بأن تعطي للشاعر أو الكاتب المضامين التي تحظى بقبول الطفل

وينهي فاروق سلوم حديثه فيقول : « اننا نحرص على تقديم كل جديد ومناسب لصغارنا بما يتناسب مع المرحلة الحالية ، ونسعى الى تقديم تجارب جديدة في مجال كتابة القصة والحكاية التي يقرؤها الأطفال » .

. . دعوة مفتوحة للحياة

في الساعات الأخيرة لنا في عاصمة الرشيد ، وفي الطريق الى المطار وعبر الشارع والأسواق . . كانت تطل علينا ملامح التغيير في كل مكان ، فعلى الرغم من ظروف الحرب ، أقيم في منطقة « الكرخ » النصب الجديد للجندي المجهول الذي يعد مثالا لتطويع الهندسة المعمارية الحديثة في فن تجميل الميادين ، فتبدو قبته على شكل صحن كبير ، وتزن حوالي ٥٥ طنا من الفولاذ ، وقد انتهى العمل فيه عام ١٩٨٢ ، وصممه الفنان العراقي خالد الرحال . . وبالقرب من وزارة العدل يقف تمثال « حورابي » أبو القوانين ، شامخا مطلا على شارع حيفا وهو واحد من أحدث شوارع المدينة أيضا ، وقد تم انجازه منذ عامين فقط ، وهو يزهو بالمباني الحديثة على جانبيه ، والآن يسهم هذا الشارع في تخفيف عبء الزحام عن الشوارع القديمة الموازية في قلب العاصمة . كذلك تم إنجاز جسرين حديثين على نهر دجلة ، الأول هو جسر ١٤ رمضان ، الذي يقع داخل المدينة ويربط حي « الأعظمية » بحي «العطيفية » عند منحنى النهر ، والثاني هو جسر « الرشيدية » الذي يقع خارج مدينة بغداد ، ويربط منطقة « الرشيدية » الزراعية بحي « الأعظمية » وسط العاصمة .

وهكذا . . عبر الشوارع والطرقات . . كنا نلحظ في كل مكان أثرا جديدا وانجازا حديثا ، وعديدا من المشروعات قيد التنفيذ لتسهم في تجميل العاصمة . . وتخفيف عبء الازدحام فيها

وقبل أن تغادر السيارة قلب المدينة . . أرسلت ببصري تحية وداع لنهر دجلة العظيم . . أقرئه السلام وأشم في عبق مائه رائحة التاريخ والمجد العربي القديم . □

وجهاً لوجه





نيكولا خايتوف و وليد دسوقي

■ الكاتب لا يملك الحق في حياة سهلة ! ■ أبطالي لا يترددون في دفع حياتهم مقابل أغنية . ■ الشعراء ينضجون بسرعة كتفاح الصيف ، أما تفاح الروائيين فينضج متأخرا في الخريف . ■ ان حياتنا أقصر من أن تسمح لنا بأن نكون قرودا . ■ من لا يقرأ فانه يميل أكثر فأكثر لأن يكون متفرجا . ■ المجامع اللغوية العربية تقوم بتصفية للكلمات الغريبة ، أما نحن فلا نملك مثل هذا الجهاز . ■ آسف لعدم اطلاعي على الشعر العربي لكني أعلم أن الشاعر العربي فلسفة مختمرة .

عندما كان التلفزيون البلغاري يعرض مسلسل (كابتن فويفودا) كانت شوارع العاصمة تخلو من المارة ، وبهذا النجاح الكبير حصل نيكولا خايتوف على لقب عالمي . ونيكولا خايتوف هو كاتب بلغاريا المعاصر الأكبر ، أبطاله جاءوا من التاريخ القريب ، من الاحتلال التركي لبلغاريا ، وناضلوا من أجل استقلالها ، لكنهم مع ذلك رجال لكل الأزمنة ـ كما يقول ـ لأنهم يدافعون عن قيم الانسان الخالدة . فماذا يقول كاتب بلغاريا الشعبي الذي يشغل ـ اضافة لذلك ـ مكانة اجتماعية وسياسية مهمة ؟. يحاول استكشاف عوالمه وتقديمه لنا وليد دسوقي ، الكاتب الفلسطيني المقيم في أوروبا الشرقية ، منذ أكثر من عشر سنوات .

*** نيكولا خايتوف ، أنت أشهر من أن تُعرّف في موطنك بلغاريا ، فهل لك أن تقدم نفسك للقارىء العربي ؟**

ـ ولدت قبل ٦٧ عاما ، في قرية صغيرة في جبال « رودوبي » . الأب والأم فلاحان يملكان قطعة أرض لا تتجاوز مساحتها ١/١٠ من الهكتار ، الأسرة فقيرة متواضعة ، لكنها متعلمة ، ولا أزال أذكر والدتي تردد الأغنيات الشعبية بشكل جميل .

بعد أن أنهيت التعليم الأساسي في القرية ، دخلت دنيا العمل والحرف الشاقة ، حيث عملت « صبي فندق » وبائع فوارغ ، و « آيس كريم » ، كما عملت في تعبيد الطرق . . تنقلت بين ١١ حرفة مختلفة خلال ٤ سنوات ، الى أن علمت أن بامكاني متابعة الدراسة التي كانت قد انقطعت بسبب مرض والدي .

اكملت الدراسة بشكل خاص ، ثم انتسبت لجامعة صوفيا ، حيث كنت أعمل خبازا ثم اداريا في قسم هندسة الأحراج في الوقت نفسه ، وخلال هذه الفترة توفي والدي وأصبحت وحيدا تماما ، وعند التخرج مارست العمل كمهندس احراج لمدة ٨ سنوات ، فصلت بعدها من العمل ، حيث عانيت من البطالة لعدة أشهر ، وخلال هذه الأشهر بدأت الكتابة بالصدفة ، حين طلب مني أحد الاصدقاء كتابة موضوع عن أعمال التحريج للمجلة الثقافية التي كان يرأس تحريرها أحد كبار الكتاب البلغار عندئذ ، وقد أعجب بالمقالة ، وطلب مني كتابة مقالة ثانية وثالثة ، وهكذا اكتشفت أن بوسعي أن أكتب لأعيل نفسي ، ومنذ ذلك اليوم في عام ١٩٥٤ وحتى الآن ، كتبت نحو ٨٠ مقالة عن الغابات ، و٣٢ كتابا ، ورواية و ٧ مسرحيات ، و ١٢ سيناريو للسينما ، ومسلسلين تلفزيونيين ، بالاضافة الى ٧١ تمثيلية إذاعية وغيرها .

وأنا الآن عضو في اتحاد الكتاب البلغار ، وعضو اللجنة التنفيذية للاتحاد منذ ١٩٦٠ ، وسكرتير للاتحاد فيما بين ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨ ورئيس لصندوق الأمانة لمدة ٨ سنوات ، ومنذ عام ١٩٦٥ وأنا أرأس تحرير مجلة (رودوبي) التي تعنى بالثقافة ، وهي خاصة بمنطقة الرودوبي حيث ولدت ، وأنا الآن متزوج ولي ولدان وبنت صحفية .

الأدب والمعاناة

*** اذن ، فأنت كاتب جاء من حياة المعاناة والعمل المباشر ، كيف تنظر الى التجربة الحياتية باعتبارها موضوع الكاتب الأساسي ؟**

ـ إن الكاتب الذي لم يعان متاعب الحياة ليس كاتبا ، وفي اعتقادي أن لكل انسان الحق في أن يحيا

حياة سهلة ، الا أن الكاتب لا يملك مثل هذا الحق ، فهناك العديد من القضايا والقيم التي يجب على الكاتب الدفاع عنها ، مستفيدا من خبرته الحياتية، في أعمالي الابداعية أقوم بالدفاع عن قيم الانسان الايجابية ، وعن القوة الروحية للانسان الذي لا يساوم ضميره ، ولا يعقد الصفقات مع نفسه ، ولا يمكن أن ينظر بلا اكتراث لما يجري حوله ، هؤلاء هم أبطالي الذين لا يترددون في دفع حياتهم من أجل أغنية ، وهذا بالضبط هو موضوع احدى رواياتي التي تحولت الى فلم سينمائي بعنوان « نهاية الأغنية » ، وفي اعتقادي أيضا أن الحياة بدون قيم انسانية ليست حياة ، ومن هنا أومن بحقيقة أن التقدم الروحي أهم من التقدم التقني ، وان الدفاع عن القيم الخالدة للانسان أمر ذو أهمية استثنائية .

ومن هنا أيضا تأتي أهمية الدفاع عن اللغة باعتبارها أساس أصالة الشعب ، ودون أصالة اللغة القومية لبلغاريا ما كان للشعب البلغاري أن ينهض .

ومن هنا أيضا يأتي دفاعي عن البيئة والطبيعة التي تضمنا ، ان للانسان الحق في أن يتنفس هواء نقيا ، وأمام ما يصيب هذا العالم من تلوث ، فانني أعتقد أن احدى المشاكل الرئيسية لعصرنا تطرح من خلال التساؤل عم سنتنفس لا ما سنأكل .

هذه هي أحوالي ، وهذه هي قيمي والقيم التي يدافع عنها أبطالي .

لقد كانت حياتي قاسية بالفعل ، والى فترة قريبة كنت أعتبر نفسي سيء الطالع ، أما الآن فانني مقتنع بالعكس تماما ، فهذه الحياة القاسية التي عشتها هي جزء من رأس مالي .

*** تكتب في معظم الأنواع الابداعية : المقالة ، الرواية ، المسرحية ، السينما ، الأدب الوثائقي . . كيف ترى الفرق بين هذا الأنواع ؟ وكيف تختار أداتك الكتابية ؟**

ـ ان لكل نوع من هذه الأنواع افضلياته . فالمقالة الصحفية مثلا تسمح بالرد المباشر عن الأحداث والتفاعل معها ، أما المسرحية فيجب الاعداد لها لفترة أطول ، فهي الدفعية الثقيلة التي لا تصلح لصيد عصفور ، أما الرواية فبين هذين النوعين .

في المقالة تحتاج للحرارة والغضب والمزاج لمتابعة الحدث ، مهما كان ضئيلا ، فموت قطة في الشارع مثلا يمكن أن يثير ردود فعل عديدة ومختلفة ، وكل تأخير في الكتابة يفقدها أهميتها المباشرة ، أما الرواية فتحتاج الى الاسترخاء والعقلانية ، بينما تحتاج المسرحية إلى وجود موضوع كبير ، أو قضية مهمة .

تفاح الصيف وتفاح الخريف

*** بدأت الكتابة في سن متأخرة نسبيا ، كيف ترى العلاقة بين العمر والابداع ؟**

ـ لقد أثبتت تجربة الكتابة في العالم ، أن الشعراء يبلغون ذروة نضجهم في الثلاثين من عمرهم . لكن « والت ويتمان » استثناء كبير جدا في هذا المجال ، والأمر كله يتعلق بطبيعة الشعر الذي يرتبط عضويا بحماس الشباب . . عندما لا يعيق العقل المشاعر الانسانية ، أما الكتابة النثرية فتتطلب عقلا ناضجا تماما وقلبا يعاني ، الشعراء ينضجون كتفاح الصيف ، أما تفاح الروائيين فينضج في الخريف ، وبالنسبة لهم لا قيمة للعمر ، والأمثلة وضعها كثيرون : تولستوي ، وغوته ، وكاتبنا العظيم « ايفان فازوف » وآخرون ، أما الشعراء الذين نضجوا بعد سن الثلاثين فهم استثناء نادر ، وتلك طبيعة الأشياء .

*** تشغل مكانة اجتماعية وسياسية مهمة في بلادك ، أين يلتقي خايتوف السياسي بخايتوف المبدع وأين يفترقان ؟**

ـ لا انفصام بين خايتوف الفنان والسياسي ، وأنا لا أقسّم نفسي الى اثنين ، فلي وجه واحد وروح واحدة ووجدان واحد ، وعلاقة الفنان بالسياسي غير قابلة للفصل في الحياة ، وفي الكتابة ، وفي البرلمان ، وللأسف فانني لا أملك الآن الكلمة التي ألقيتها في الجمعية الشعبية (البرلمان) لتعرف أنني لا أقسّم نفسي ، ان حياتنا أقصر من أن تسمح لنا بأن نكون فرودا .

الناس يعانون من جوع للحقيقة والاخلاص ، وهناك كثيرون ممن يملكون الموهبة ، لكنهم ليسوا على استعداد لقول الحقيقة ، وذلك لحسابات خاصة بهم . اما أنا فلست من هؤلاء .

رجال لكل الأزمنة

*** للتاريخ مكانة خاصة في أعمالك الابداعية ، وهل هي قليلة قضايا وهواجس الانسان المعاصر ؟ هل لجوؤك الى التاريخ محاولة للهروب من الحاضر ، أم أنه محاولة لتفسيره واغنائه ؟**

ـ ليس هناك مجتمع بدأ من الصفر ، لذا فالتاريخ يعيش معنا ويسهم في حل مشاكلنا المعاصرة ، وكثيرا ما ألجأ الى التاريخ عندما أريد أن أخوض في موضوع معاصر ، وبالطبع فليس الجميع على استعداد للخوض في مواضيع معاصرة ، لأن هناك مقاومة من فئات مختلفة ، وفي فترة ما كان عليك أن تختار بين البطل الايجابي والأكثر ايجابية ، أما الآن فقد تجاوزنا هذه النواقص ، ومسرحيتي الأخيرة ، تعرض صراعا بين شيوعيين وشيوعيين ، ولكنه ليس صراعا تناحريا .

ان الناس بحاجة الى أناس مثل كابتن بيتكوفيفودا ، وهو بطل مسلسل تلفزيوني بهذا الاسم ، و (فاسيل ليفسكي) وآخرين ، بحاجة اليهم لكي نفرح بهم ونتعلم منهم ، فهم رجال لكل الأزمنة ، ومع ذلك فأنا لا أعتبر نفسي كاتبا للرواية التاريخية بالمعنى الحقيقي للكلمة ، فقد كتبت أخيرا مجموعة قصصية عنوانها « أشواك » ، وهي مجموعة ليست تاريخية ولا بوليسية ، بل نوع جديد من الأدب القصصي ، والقيمة الابداعية للعمل هي الأهم .

بالطبع هناك أنواع أدبية متدنية لها قراؤها ، ولا اعتراض على ذلك ، فالقراءة أساسا معيار لتقدم الانسان ، ومن لا يقرأ فانه لا يكون متوازنا ، حيث يميل أكثر لأن يكون متفرجا ، والفرجة دليل تراجع لا دليل تقدم كما هي القراءة .

اللغة ، مفتاح القومية

*** يعالج أحد كتبك موضوع نقاء اللغة ، كيف تفهم ذلك ؟ وكيف تنظر الى التعبيرات الجديدة التي تفرزها الحياة باستمرار ؟**

ـ اللغة هي مفتاح القومية ودرعها في الوقت نفسه ، بالنسبة لنا معشر البلغار ، عاش شعبنا مع الأتراك واليونان واليهود والأرمن ، كما دخلت لغتنا كثير من الكلمات العربية التي أتتنا عن طريق الأتراك ، ودخول كلمات هذه الشعوب والطوائف أمر طبيعي ، لأنها دخلت عن طريق الشعب الذي استخدمها بشكل خلاق فأصبحت لها جذور في اللغة ، ومنها الألفاظ والكلمات العربية التي هي الآن جزء من تراثنا اللغوي .

لكن هناك نوعاً آخر من الكلمات الأجنبية التي دخلت عن طريق الاعلام الغربي ، لتغطي حقولا مثل الرياضة ، والموسيقا ، والتقنية ، وغيرها .. وهي تشكل نحو ٤٠٪ من الكلمات في هذه المجالات ، واذا استمرت الأمور على هذا المنوال سنوات أخرى فان الأمر سيصل حد الخطر .

العرب أيضا لديهم مثل هذه المشكلة ، ولكن هناك المجمعات اللغوية التي تقوم بدور المصفاة للكلمات الجديدة ، حيث يقومون بتعريبها وتعميمها ، أما نحن فليس لدينا مثل هذه المجمعات ، اضافة الى أن اللغة العربية أغنى بكثير من اللغة البلغارية .

فلسفة مختصرة

*** بمناسبة الحديث عن اللغة العربية ، أين تضع الكاتب العربي من عملية الابداع العالمي ؟**

ـ لقد تحدث آخرون أفضل مني معرفة بهذا الموضوع ، وخاصة عن الشعر العربي الذي تطور قبل الشعر الفرنسي والأوروبي بكثير ، والشاعر العربي فلسفة مختصرة ، لكنني للأسف غير مطلع على الشعر العربي المعاصر ، وهذه خسارة كبيرة حقا ، فلم أقرأ سوى ٥ أو ٦ قصائد مترجمة ، وهو عدد لا يؤهلني للحكم على هذه المسيرة الطويلة . □

العربي الصغير

صدر العدد الجديد

من مجلتك

مارس ١٩٨٧



مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريره مع الفتيان والفتيات العرب نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

اقرأ في هذا العدد:

- أسواقنا الشعبية في الكويت.
- كوكب الأحلام الذاتية.
- همام .. نعامة واحدة تكفي.
- الجاسوس والعرش.
- ديزني لاند .. عالم كبير.
- حكايات شهرزاد الجديدة.
- من أساطير الشعوب: حكاية أفريقية.

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

- دائرة معارف العربي الصغير
- اسلاميات
- إصنع بنفسك
- صفحة الكمبيوتر
- صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة



٦٤ صفحة بالألوان

- نتيجة مسابقة العدد الحادى عشر
ومسابقة جديدة و ١٠٠ جائزة

خزين الأرض من الأشعة النووية وحوادث المفاعلات

بقلم : الدكتورة شذى الدركزلي *

لقد كان لحادث مفاعل (تشير نوبل) في ٢٦ نيسان (أبريل) ١٩٨٦ صدى واسع في كافة الأوساط ، وتصدى لمناقشة الحادث أطراف مناهضة كليا لاستخدام الطاقة النووية وأطراف متحمسة له . وكلا الطرفين استخدم حججا وبراهين على صحة رأيه ، وخطأ الآخر . فأين الحقيقة من كل ذلك ؟

في يوليو ١٩٨٦ تصدى بعض مناهضي استخدام الطاقة النووية بصورة « تطبيقية » للتأثير على الرأي العام ، فزرعوا كمية من المتفجرات في سيارة رئيس قسم الأبحاث والتطوير في شركة سيمنز الالمانية الغربية مهين بذلك التفجير حياة أقوى مناصري استغلال الطاقة النووية في الصناعة بصورة واسعة وغير محدودة .

أما المدافعون عن استخدام الطاقة النووية فيقولون : « ان الانسان يتعرض للأشعة النووية الطبيعية بمقادير تزيد على تلك التي يتعرض لها من المفاعلات » . وهذه المقولة صحيحة في الحالات الاعتيادية للمفاعل لكنها تحمل كثيرا من عدم الدقة في حالة تعرض المفاعل لحادث ما .

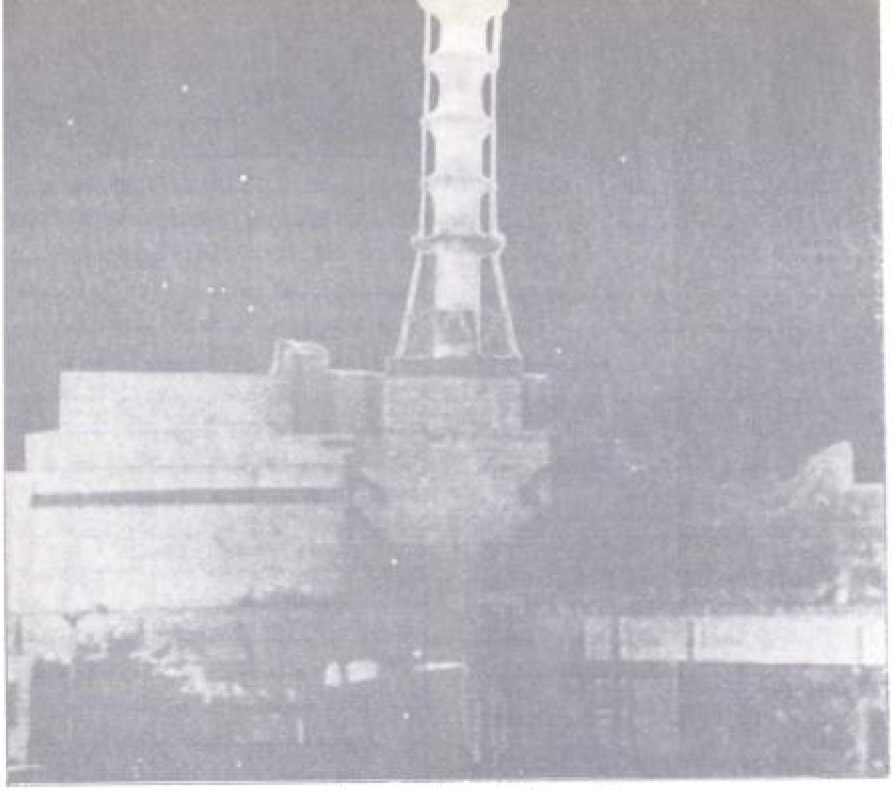
لالقاء نظرة حيادية (علمية) على الموضوع سنتطرق في هذا المقال الى خزين الأرض الطبيعي من الأشعة النووية . ومناطق تواجدها والجرعات التي يتعرض لها الانسان مقابلة بالجرعات الناتجة عن حوادث المفاعلات الكبيرة في (وينند سكيل) ، و (ثري مايل ايلاند) ، وأخيرا (تشير نوبل) .

الاشعاع النووي الطبيعي الأرضي

يوجد على سطح الأرض ، وفي باطنها ، كثير من العناصر التي تحتوي على نظائر ، بعضها مشع ، وبعضها مستقر . وكان اكتشاف النشاط الاشعاعي عام ١٨٩٦ على يد العالم (بيكرل) قد تحقق في خام عنصر اليورانيوم ، وفي الطبيعة حوالي ٣٤٠ نظيرا للعناصر المختلفة ، ٢٠٪ من هذه النظائر ذات نشاط إشعاعي ، ومعظم النظائر المشعة هي لعناصر ثقيلة ، فكل عنصر يزيد عدده الذري على الثمانين له نظائر مشعة .

---

* قسم الفيزياء / كلية العلوم / جامعة بغداد



تشرنوبيل أعاد فتح ملف تسرب الاشعاع

في بدء تكون الأرض كان هناك عدد أكبر من النظائر المشعة . ولكن مع مرور بضعة آلاف من السنين اضمحلت بعض النظائر المشعة . وفني بعضها الآخر بسبب قصر عمر نصفه (*) . فالنظائر المشعة الطبيعية الموجودة الى الآن على سطح الأرض لا بد أن يزيد عمر نصفها عن عمر الأرض الذي يقدر بحوالي أربعة آلاف مليون سنة . أو يقاربه . وتسمى بالنظائر المشعة الأساسية . أما النظائر المشعة الطبيعية التي يقل عمر نصفها عن عمر الأرض . ولا تزال موجودة في الطبيعة . فهي مشتقة من النظائر الأساسية . وتسمى بالنظائر المشعة الثانوية .

والنظائر الطبيعية المشعة أنواع منها النظائر المشعة المنفردة التي تصنف إلى نوعين حسب مصدرها . فالنوع الأول هو الناتج عن تفاعل الأشعة الكونية مع عناصر طبيعية مستقرة . وأشهر النظائر المشعة من هذا النوع هو (الكاربون ـ ١٤) . والتريتيوم . إن فيض الأشعة النووية الطبيعية الناجمة عن هذه المصادر قد تغير منذ بدء التفجيرات النووية فوق سطح الأرض . فقد بقي هذا الفيض مستقرا لمدة ١٥٠٠٠ سنة . إلى ما قبل عام ١٩٥٤ . عند ذلك لوحظت زيادة في (تركيز الكاربون ـ ١٤) في الطبيعة . وكذلك في تركيز التريتيوم . إن هذه الزيادة سببتها التفجيرات النووية في الخمسينات . ومن النظائر الأخرى من النوع المفرد الكوني نظائر البريليوم . والصوديوم . والسليكون . والفسفور . والكبريت . والكلور .

أما النوع الثاني فهو الذي من أصل أرضي . بعمر نصف أكبر من عمر الأرض أو يقاربه . وأشهر هذه النظائر (البوتاسيوم ـ ٤٠) . ويشترك (البوتاسيوم ـ ٤٠) مع (كاربون ـ ١٤) . والتريتيوم بخاصية مهمة . هي التواجد في كافة الكائنات الحية . وفي التربة . كما سيأتي ذكره في بند قادم .

وعندما نعرّف المادة المشعة فإننا نعني بذلك أنها

(*) يعرف عمر النصف للمادة المشعة بأنه الفترة الزمنية اللازمة لانخفاض النشاط الاشعاعي إلى النصف .

تتحلل إلى مادة ثانية بانبعاث أشعة نووية معينة ، فإذا كانت المادة الثانية مشعة أيضا فإنها ستتحلل إلى مادة ثالثة ، وهكذا حتى تصل الى مادة مستقرة ، عند ذاك نسمي المواد المشعة المتحللة على التسلسل بالسلسلة المشعة وهي النوع الثاني من النظائر الطبيعية ، ويوجد في الطبيعة الآن ثلاث سلاسل مشعة هي :

- سلسلة اليورانيوم .
- سلسلة الثوريوم .
- سلسلة الأكتينيوم .

إن معظم عناصر السلاسل الطبيعية يشع (الفا) و (بيتا) و (جاما) ، وتتميز السلاسل الطبيعية المشعة بصفات مشتركة ، أولها أن النواة الأم (التي بها تبدأ السلسلة) تكون ذات عمر نصف يزيد عن عمر الأرض أو يقاربه ، والصفة الثانية هي أن جميع السلاسل تنتهي بأحد نظائر الرصاص المستقر ، والصفة الأخيرة هي وجود غاز مشع في كل منها .

توجد سلسلة رابعة لم يعد لها وجود على سطح الأرض ، لأن عمر النصف للنواة الأم أقل من عمر الأرض ، وهي سلسلة (النبتونيوم) التي تبدأ بـ (النبتونيوم ـ ٢٣٧) ، والعضو الوحيد في السلسلة الذي لا يزال له وجود على الأرض هو (البزموث ٢٠٩) ، ولقد حضرت هذه السلسلة بكاملها في المختبرات .

والسلاسل الطبيعية تتواجد في الطبقة الأولى من قشرة الأرض ، ومعظم الطاقة المنبعثة منها تتحول إلى حرارة ، تمتصها المواد القريبة منها ، وأشهر هذه السلاسل وأهمها من ناحية استغلال طاقتها ، هي سلسلة اليورانيوم ، حيث يوجد في الأرض معدل ٤ مايكروغرامات من اليورانيوم في الغرام الواحد من الصخور ، أما مياه البحار فتحتوي على معدل ١.٣ مايكروغرام في اللتر الواحد .

النظائر الطبيعية المشعة

ذكرنا سابقا أن كافة الكائنات الحية تحتوي في تركيبها على الهايدروجين ، والكاربون ، والبوتاسيوم ، وغيرها من العناصر ، ووجود نظائر مشعة لهذه العناصر ـ ولو بنسب قليلة ـ يجعل الكائنات الحية تحمل الإشعاع النووي ضمن تكوينها .

إذ يوجد اليورانيوم في التربة ، وفي الصخور ، بنسب مختلفة في العالم ، حيث يوجد نوع من الصخور تزداد فيه نسبة اليورانيوم ، فصخور الفوسفات في فلوريدا (بالولايات المتحدة) تعتبر مصدرا تجاريا لليورانيوم ، أما صخور الفوسفات في أفريقيا فتحتوي على سدس كمية اليورانيوم الموجودة في صخور فلوريدا ، ووجود اليورانيوم في الصخور ، والتربة ، يؤدي (ضمن السلسلة الغذائية) إلى تواجده في غذاء الانسان ، فقد أثبتت البحوث أن الفرد في المملكة المتحدة يحتوي جسمه على معدل ١٠٠ ـ ١٢٥ مايكروغرام من اليورانيوم ، وباستيعاب يومي معدله مايكروغرام واحد .

ويوجد الراديوم في الصخور بنسب مختلفة حسب نوعيتها ، فتحتوي الصخور البركانية على نسبة للراديوم ، بخاصة صخور الحمم البركانية في بيرو ، كذلك يوجد بنسبة عالية في الغرانيت ، ويوجد تركيز

الجدول رقم (١)
النشاط الاشعاعي في الأغذية بسبب الراديوم

المادة الغذائية	النشاط الاشعاعي بالبيكوكوري* لكل ١٠٠غم
جوز البرازيل	١٤٠٠
الحبوب	٦٠
الشاي	٤٠
الكبد والكلية	١٥
الطحين	١٤
فول سوداني وزبدته	١٢
الشكولاتة	٨
البسكويت	٢
الحليب المجفف	١ ـ ٢
السمك	١ ـ ٢
الجبن والبيض	٠ر٩
الخضراوات	٠ر٧
اللحوم	٠ر٥
الفواكه	٠ر١

* [البيكو يعادل جزء من مليون المليون (١٠ ⁻ ١٢)]

متجانس للراديوم في مياه قعر المحيط . يعتقد أنه بسبب الترسبات . ويختلف تركيز الراديوم في المحيطات ، فتركيزه في المحيط الهادي يعادل ضعف تركيزه في المحيط الهندي والأطلسي ، وكذلك يوجد الراديوم في مياه الشرب لكن نسب تركيزه تختلف باختلاف بقاع الأرض ، فقد تصل في بعض المناطق إلى خمسة أضعاف الجرعة الاعتيادية . أما الأغذية فبسبب التشابه الكيميائي بين الراديوم والكالسيوم تمتص التربة الراديوم . وينتقل منها الى سلسلة الغذاء ، ثم إلى الانسان ، ولقد حددت البحوث نسبة تركيز الراديوم في بعض المواد الغذائية ، كما في الجدول رقم (١) .

ومن الملاحظ أن نسبة تركيز الراديوم في جوز البرازيل أعلى بألف مرة من معدل الأغذية الأخرى ، وقد فسر ذلك بسبب قدرة تلك الشجرة على امتصاص الباريوم الذي هو مجانس كيميائي للراديوم ، كذلك أشارت بحوث الأمم المتحدة إلى اختلاف نسبة تركيز الراديوم في الهيكل العظمي للانسان ، في مناطق العالم المختلفة ، كما هو في الجدول رقم (٢) .

ويتحلل (الرادون ٢٢٢) ، الموجود ضمن سلسلة اليورانيوم الذي هو غاز في الجو ، الى البولونيوم ٢١٠ ومن ثم الى الرصاص ٢١٠ . ان طول عمر النصف للرصاص يؤدي الى استقراره على سطح الأرض مع الأمطار والثلوج المتساقطة ، كذلك لوحظت نقطتان هامتان تؤديان الى ارتفاع نسبة الرصاص / البولونيوم في جسم الانسان . الاولى هي التدخين ، والثانية هي المناطق الشمالية من الكرة الأرضية . لقد لوحظ ارتفاع تركيز البولونيوم ٢١٠ عند المدخنين في الرئة والأنسجة الأخرى ، حيث سجل أحد الباحثين تركيزا مضاعفا للتركيز الموجود في الشخص غير المدخن وسجل آخر أربعة أضعاف التركيز الاعتيادي . أما النقطة الثانية فقد لوحظ ان سكان شمال فنلنده الذين يعتمدون في غذائهم على نوع معين من غزال الرنة ، تزداد نسبة تركيز البولونيوم في أجسامهم ١٢ مرة أعلى من التركيز الاعتيادي ، وقد عزى ذلك الى اعتماد غزال الرنة في غذائه على نبات خاص له قابلية عالية لامتصاص السيزيوم والبولونيوم من الجو .

الجدول رقم (٢)

تركيز الراديوم في مناطق مختلفة من العالم

المنطقة	النشاط الاشعاعي الكلي في الهيكل العظمي (بيكوكوري)
أ ـ منطقة عالية التركيز :	
ولاية كرالا (الهند)	٢٧٠
ولاية الينوى (أمريكا)	١٠٠
ب ـ مناطق اعتيادية التركيز :	
ولاية نيوانكلند } أمريكا	٣٩
نيويورك } أمريكا	٣٢
كاليفورنيا } أمريكا	٢٧
المانيا الغربية	٣٦
أمريكا الوسطى (بورتوريكو)	١٧

مناطق الاشعاع العالي

يتغير مقدار النشاط الاشعاعي الطبيعي في معظم أنحاء العالم ضمن حدود ضيقة . ولكن يزداد هذا النشاط في مناطق معينة زيادة عالية بسبب وجود تركيز عال غير طبيعي ضمن مواد التربة أو الصخور في المنطقة . ان أشهر المناطق ذات التركيز العالي للنشاط الاشعاعي هي مناطق المياه المعدنية ومناطق الرمال السوداء .

ففي مناطق الينابيع المعدنية ترتفع نسبة تركيز الراديوم والرادون . وقد أصبحت معظم مناطق الينابيع المعدنية مناطق سياحية تستغل تجاريا بدعوة شفاء المرضى . لكن الشفاء بسبب المياه المعدنية هو علاج نفسي أكثر مما هو علاج طبي ، ويشجع المرضى ليس فقط على شرب المياه أو الاستحمام فيها وانما على استنشاق الهواء الذي يرتفع تركيز الرادون فيه مليون مرة أكثر من الطبيعي . ففي بادكاشتاين في النمسا يوصف ٢٥ ألف حمام رادون للمرضى يوميا ، حيث يمر فيها سنوياً مليون زائر حسب احصاءات ١٩٨٠ . ان تركيز الراديوم في الماء المعدني أكبر عشرة

أضعاف من تركزه بمياه الشرب .

كما تحتوي الرمال السوداء على فوسفات السيريوم واللنثانوم . وتوجد في ريودي جانيرو في البرازيل وفي الهند . ففي سواحل الرمال السوداء لمدينة كواراباري في ولاية اسبيريتو سانتوس في البرازيل حيث يرتفع التعرض للاشعاع في المنطقة التي يتجول فيها السكان لاعتقادهم بفائدة ذلك صحيا . ويزداد معدل التعرض حتى في شوارع المدينة الى عشرة أضعاف معدل التعرض الطبيعي . ان سبب ذلك يعود الى استخدام رمال المونازيت في رصف الشوارع . أما ولاية كرالا في الهند فيتعرض سكانها الى ضعف معدل تعرض سكان كواراباري بسبب رمال المونازيت أيضا .

يتضح مما تقدم ان الفرد يتعرض للاشعاع النووي الطبيعي من داخل جسمه ومن الأغذية ومن المحيط الخارجي الذي يحيط به . لقد اتفق العلماء على مصطلح الجرعة الشعاعية بالنسبة للتعرض للاشعاع التي تتضمن النشاط الاشعاعي للمصدر المشع ونوع الاشعاع المنبعث وطاقته . والوحدة القديمة لهذا المصطلح هي الراد . أما الوحدة العالمية الجديدة فهي الجراي . أما اذا دخل التأثير البايولوجي للاشعاع في الحساب فان المصطلح يسمى بالجرعة المكافئة ووحدتها القديمة الريم والعالمية الجديدة السيفرت .

الجرعة المؤذية وغير المؤذية

في السنين الأولى لاستخدام الاشعاع ، استخدم العلماء مفهومي الجرعة المؤذية والجرعة غير المؤذية . وكان أسلوب تقدير الجرعة المؤذية يحصل بتعريض الجلد البشري للاشعاع حتى يحمر الجلد ، والجرعة المتراكمة عند ذاك تسمى بالجرعة المؤذية . أما في الوقت الحاضر فقد ثبت علميا عدم وجود جرعة غير مؤذية مهما قل مقدارها . ومن هذا المنطلق دأبت كافة المنظمات العالمية على نشر التوصيات في كافة أنحاء العالم لتقليل التعرض الاشعاعي الى أقل ما يمكن .

وتقاس جرع التعرض من الاشعاع الطبيعي بطرق مختلفة وفي كافة أنحاء العالم . ويبين الجدول رقم (٣) معدل الجرع المكافئة من المصادر المختلفة في عام ١٩٨٤ في المملكة المتحدة

الجدول رقم (٣)

معدل الجرعة المكافئة من المصادر المختلفة في عام ١٩٨٤ في المملكة المتحدة

المصدر	الجرعة المكافئة * (مايكروسيفرت)
أ ـ الاشعة الطبيعية	
١ ـ الكونية	٣٠٠
٢ ـ أشعة كاما الأرضية	٤٠٠
٣ ـ التشعيع الداخلي	٣٧٠
٤ ـ نواتج سلسلة اليورانيوم	٧٠٠
٥ ـ نواتج سلسلة الثوريوم	١٠٠
ب ـ الأشعة المصنعة	
١ ـ الاستخدامات الطبية	٢٥٠
٢ ـ المتساقط النووي من الأسلحة	١٠
٣ ـ الاستخدامات المهنية	٩
٤ ـ النفايات النووية	٢
٥ ـ مصادر أخرى	١١
المجموع	٢١٥٢

* [المايكرو يعادل جزء من مليون (10^{-6})]

ان المتحمسين لاستغلال الطاقة النووية يرون أن الرقم ٢٠٠٠ هو المقياس الطبيعي ، وأية زيادة في التعرض تسببها الحوادث في المفاعلات تنسب الى هذا الرقم . فحادث تشيرنوبيل مثلا ، قدر أن معدل الزيادة في الجرعة المكافئة في المملكة المتحدة هو ٧٠ مايكروسيفرت التي تمثل زيادة تقترب من ٤٪ . في حين أن الزيادة المقدرة بسبعين مايكروسيفرت يجب أن تقاس نسبة الى الاشعة المصنعة فقط أي الى الرقم ٢٨٢ مايكرو سيفرت الذي يعني زيادة مقدارها حوالي ٢٥٪ . وذلك بسبب كون الأشعة الطبيعية موجودة منذ خلق الأرض . أما الاضافات بسبب الأشعة المصنعة ، التي تعتبر أحد أسباب زيادة معدل الاصابة بمرض السرطان . فهي القياس الصحيح للزيادة . ومن جهة ثانية . فان الرقم ٧٠ مايكرو سيفرت هو معدل الزيادة في مناطق المملكة

المتحدة ، ففي الشمال قدر معدل الجرعة بحوالي ٤٠٠ مايكرو سيفرت مقابلة بالجرعة في الجنوب التي قدرت بأنها ٢٠ مايكرو سيفرت .

حوادث المفاعلات النووية

سجل تاريخ استغلال الطاقة النووية ثلاثة حوادث كبيرة ، والعديد من الحوادث المحدودة . والحوادث الثلاثة الكبيرة هي حادث مفاعل وندسكيل في المملكة المتحدة بتاريخ ٨/١٠/١٩٥٧ ، وحادث مفاعل ثري مايل آيلاند في الولايات المتحدة بتاريخ ٢٨/٣/١٩٧٩ ، وحادث مفاعل تشيرنوبل في الاتحاد السوفيتي بتاريخ ٢٦/٤/١٩٨٦ .

ونلخص أهم نتائج الحوادث الثلاثة . في أن الحادث الأول سبب اطلاق عشرين ألف كوري من اليود المشع ١٣١ الى الجو ، وسكبت في مياه الأنهار والبحار مليوني لتر من الحليب في مساحة تقدر بخمسمائة كيلو متر مربع .

أما الحادث الثاني فقد قدر بتعرض مليون شخص في دائرة نصف قطرها ٨٠ كيلو مترا لمعدل جرعة ١٥ مايكرو سيفرت (أقصى جرعة قدرت بحوالي ٨٣٠ مايكرو سيفرت) .

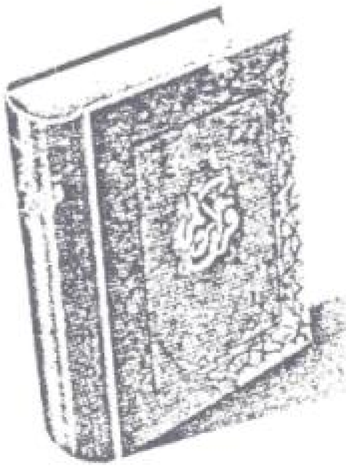
أما الحادث الأخير فلا تزال التقديرات تعتمد معظمها على نظريات لنماذج حوادث مماثلة ، وهذه التقديرات تخمن اطلاق ١٥ ـ ٢٠ مليون كوري من اليود المشع ١٣١ (أي حوالي ألف مرة أكثر من حادث وندسكيل) ، اضافة الى ١ ـ ٢ مليون كوري من السيزيوم المشع ١٣٧ . ولقد سجلت اجهزة قياس الاشعاع ، في كافة أنحاء العالم ، زيادة في جرعة التعرض العام ومنها ما ذكر سابقا بالنسبة للمملكة المتحدة .

ان خطورة الحوادث الكبيرة تكمن في امكانية انتقال المواد المشعة الى مسافات بعيدة جدا عن موقع الحادث ، عن طريق الجو ومصادر المياه ، والتربة وغيرها ، اضافة الى المدى الزمني البعيد لآثارها . أما الحوادث المتوسطة والصغيرة فهي محدودة التأثير بمنطقة الحادث مشابهة بذلك الكثير من الحوادث في استغلال الأنواع الأخرى من الطاقة . ان النظرة الحيادية لقضية استغلال الطاقة النووية يجب أن تأخذ بنظر الاعتبار الحسنات ، اضافة الى السيئات ، ولا يجوز تضخيم أي منها بصورة تؤدي الى القبول التام أو الرفض التام . لقد خلق البارىء (عز وجل) الانسان وخلق له الوسائل الكثيرة والمتنوعة لخدمته ، وكثير من الوسائل ان استغلت من قبل الانسان بصورة غير صحيحة فهذا لا ينفي امكانية حسن استغلالها ، وهذا ينطبق على استغلال الطاقة النووية ، فلكل أنواع الطاقات الأخرى لها مساوئها ولها مشاكلها ، وان كانت الطاقة النووية تتميز بطول عمر مساوئها (عندما يكون عمر النصف للمواد المشعة طويلا) ، فان ذلك لا يعني عدم امكانية استغلالها بصورة محدودة ، وعندما تفرض الضرورة استخدامها . كذلك لا يجوز موازنة جرع التعرض من الأشعة الطبيعية بجرع التعرض من حوادث المفاعلات ، فان ذلك يشبه موازنة عصير العنب الطبيعي بالخمر .

ان استغلال الطاقة النووية يجب أن يكون واقعيا أكثر مما هو تجاريا ، ومما يذكر أن الموازنة بين الطاقة النووية والطاقة الشمسية أصبحت تشبه بالفرق بين التفاحة (الطاقة النووية) والبرتقالة (الطاقة الشمسية) من ناحية الكلفة والطعم ، اضافة الى ما ترمز له التفاحة في الفكر الغربي من اخراج آدم من الجنة . ولعلنا في العالم العربي الآن ، حيث البترول لا يزال ـ والحمد لله ـ ينتشر في باطن أراضينا ، اضافة الى الطاقة الشمسية الكبيرة ، نكون أكثر تريثا في قضية استخدام الطاقة النووية التي تحتاج الى العدد البشري الكبير من المتخصصين ، اضافة الى مشكلة النفايات النووية التي تنتج من المفاعلات النووية ، هذا اذا لم نتعظ بعد من حوادث المفاعلات في الدول الكبرى . □

❁ الأرض مبسوطة ، والسماء مسقوفة ، وبين السماء والأرض عوالم مطرودة .

(د . زكي مبارك)



البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

قوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) الانفال ٥ و ٦

وصل الى سمع النبي (عليه الصلاة والسلام) أن قافلة لقريش يقودها أبو سفيان ، وتحمل من الأموال والسلع مايقدر بخمسين ألف دينار ، هي في طريق عودتها من غزة الى مكة ، فندب النبي (صلى الله عليه وسلم المسلمين اليها ، وحدثهم بما في القافلة من الأموال ، وبقلة عدد مرافقيها وحراسها ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا اليها لعل الله يُنفلكُموها .

غير أن بشرا كثيرا من أصحاب الرسول (عليه الصلاة والسلام) لم يستجيبوا لندائه ، وكرهوا الخروج ، وقالوا : « نحن قليل وما الخروج برأي » ، حتى كان في ذلك كلام كثير واختلاف كبير ، فلم يخرج مع النبي (صلى الله عليه وسلم) الى بدر غير نحو ثلاثمائة من المسلمين ، تحدوهم الرغبة في الغنيمة ، ولا يحسبون أنه سيدور بينهم وبين مرافقي القافلة قتال ذو شأن .

بيد أن الأمور تطورت بعد ذلك على نحو لم يتوقعه أحد ، فقد بلغ أبا سفيان أن المسلمين خرجوا من المدينة لاعتراض قافلته ، فأرسل الى قريش يحثها على الخروج بجيش لنجدته ، فاستجاب لندائه نحو تسعمائة وخمسين شخصا ، توجهوا بعيرهم وخيلهم وسلاحهم الى بدر ، أما أبو سفيان فقد حول مسار القافلة الى جهة الساحل ، تاركين بدْراً بيسار ، فتمكنوا بذلك من الافلات من الكمين الذي نصبه لهم المسلمون ، وقد أرسل أبو سفيان بعد أن اطمأن الى نجاة القافلة مَنْ أبلغ قريشا « ان الله نجى عيركم ورحالكم وأموالكم فارجعوا » . غير أنهم أبوا الرجوع ، اذ رأوها فرصة ، وقد خرجُوا بالفعل بهذا الحشد الضخم ، أن يسيروا الى بدر فتراهم العرب أو تسمع بمسيرهم وجمعهم ، فلا يزالون يهابون مكة أبدا بعدها ، ويفتر حماس المسلمين للتعرض لقوافلها ، متى علموا بما يمكن أن تحشده قريش ، وتفعله في سبيل حماية تجارتها ومصالحها ، غير أنهم ، هم أيضا ، لم يتوقعوا قتالا ذا شأن .

وأسفر التقاء الجمعين عن معركة بدر ، وهي معركة كانت نتائجها أعظم شأنا بكثير من أي كسب

مـادي كان سيعـود على المسلمين من وراء الايقاع بالقافلة .

لم تكن الموقعة أكثر من مناوشة محدودة ليس لها ـ في ذاتها ـ أهمية كبيرة . وهي معركة لم يكن ينتويها أي من الطرفين وقت خروجه من مدينته ، وربما لو كان قد علم باحتمال وقوعها ما تابع سيره اليها ، معركة لا يزيد عدد ضحاياها عن حادث عادي في وقت السلم ، أو عن شجار في سوق ،ومع ذلك فقد دعاها المؤرخون المسلمون بأعظم غزوات الاسلام ، « وليس في غزوات النبي (عليه الصلاة والسلام) كلها ما يعدل بها في الفضل » . وقد كان لها بالفعل من النتائج بعيدة المدى ما يفوق نتائج أي حدث آخر في تاريخ الاسلام .

لقد قاسى النبي (عليه الصلاة والسلام) وكُذِّب سنوات طويلة ، ولربما كان الشك قد بدأ يتطرق الى نفوس بعض أصحابه ، اذ لا يرى للدعوة ـ بعد أربعة عشر عاما ـ ثمارا ذات بال . وكان وضع المسلمين بالمدينة قد زاد حرجا خلال الأشهر السابقة على الوقعة ، حين بدا لأهلها أن الدين الجديد لن يحقق شيئا ، ثم اذا ببدر تأتي بأول نجاح حقيقي يحرزه هذا الدين ، فقد ألحقوا الهزيمة بمكة ، تلك المدينة المهمة في الحجاز التي لم تهزم منذ أمد بعيد ، واذا بصيت النبي (صلى الله عليه وسلم) يذيع ، وبسمعته تعزّز ، وبأصحابه وقد باتوا قوة في شبه الجزيرة يحسب حسابها ، فما عاد بامكان العرب الآن أن يتجاهلوا شأنهم .

ثم ها هي قريش تدفع فدية للأسرى مبالغ طائلة أغنت المهاجرين ، بعد أن كانوا عالة على الأنصار ، وبعد أن كان الأنصار قد بدأوا يضيقون بهم ، كذلك انحاز المترددون من أهل المدينة ـ كماهو مألوف في مثل هذه الحالات ـ الى جانب المنتصر ، وشرعت قبائل البدو المجاورة تعد نفسها لعرض صداقتها على محمد (صلى الله عليه وسلم) متى دعّم انتصاره هذا بانتصارات لاحقة ، وقد رأى النبي (عليه الصلاة والسلام) في انتصاره آية من الله واضحة ، فان كان قد ألحق الهزيمة بجيش أكبر من جيشه بكثير ، وان كان بين قتلى العدو الكثيرون من ألد خصومه وأكبرهم نفوذا ، فلا ريب أن يد الله كانت من وراء ذلك ، وأن ربه قد أمده بجيش من الملائكة ، بل ولا ريب أن الله هـوالذي قـدر وشاء وقـوع المعركـة ، رغم عزوف الفريقين عن الدخول فيها . لقد جاء هذا النصر دليلا حاسما على صدق نبوته ، كذلك الدليل الذي أعطى لموسى حين ابتلعت امواج اليم جند فرعون ، كان ذلك هو الفرقان لموسى وهارون ، وكان هذا هو الفرقان لمحمد (عليه الصلاة والسلام) فرق الله به بين الخبيث والطيب ، وبين أهل الشرك وأهل الايمان .

ثم أن هـذه الهزيمة التي ألحقها الله بقريش هي العقاب الالهي الذي طال انتظار نزوله بأهل مكة ، والذي كان أهل مكة يستعجلونه ساخرين ، وهو الدليل على فساد عقيدتهم ، ودليل كذلك على خطأ أعداء محمد (صلى الله عليه وسلم) في المدينة من المشركين ومن اليهود والمتعاطفين معهم ، وعلى أن الله على وشك أن يوقع بهم .

قد عاد الرسول (عليه الصلاة والسلام) اذن الى المدينة غنيا قويا كبير الثقة بنفسه ، اما عن أصحابه فقد قوّى النصر من ايمانهم بنبوته ، فبعد ما عانوه من اضطهاد بمكة ، وأشهر ثقيلة الوطأة بالمدينة ، جاءت الوقعة مبررا ومصدقا لايمانهم الذي كان عزاءهم الوحيد خلال محنتهم ، فقد رأوا في نصرهم يد الله ومعجزة من معجزاته ، واطمأنوا الى أن الله قد أسبغ عليهم رحمته وحمايته ، ومن يومها بدأت جماعة المسلمين بالمدينة تأخذ طابع الدولة ، فقدمنح القرآن النبي (عليـه الصـلاة والسـلام) الحق في خمس الغنيمة ، فارضاً عليه واجب رعاية اليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، داعيا المؤمنين الى التبرع والانفاق في سبيل الله ، فارضا زكاة الأموال ، وهو ما شكل نواة لبيت مال عام .

قد خرج فريق من المسلمين اذن الى بدر لاعتراض سبيل احدى القوافل والرجوع ببعض المال والسلع ، غير أن الله شاء أن يجعل من هذا الخروج واحدا من أهم أحداث التاريخ . □

كيف اكتشف العقل الباطن؟

بقلم : الدكتور عبد الرؤوف ثابت

أجمع المشتغلون بالعلوم الانسانية ـ ومنهم الأطباء النفسيون ـ أن العقل يتكون من منطقتين ، يفصل بينها حاجز غير محكم ، يدعى المقاومة أو الرقيب ، احداهما العقل الواعي أو الوعي أو الشعور ، والأخرى العقل الباطن أو اللاشعور . ولا أوافق ـ مع الاجماع ـ على اصطلاح اللاشعور ، لأن العقل الباطن له كل وظائف العقل الواعي ، بل أكثر منها بكثير ، وإن كنا لا نفطن الى عمله تفطنا واضحا بسبب ضوضاء الواقع .

وحجم العقل الباطن الى الواعي عظيم جدا ، حتى أننا الى الآن لايمكننا سبر غوره ، أو الالمام الماما تاما بكل قدراته . يصور البعض العقل بجبل الثلج في المحيطات الشمالية الباردة ، فما ظهر منه فوق السطح هو(الوعي) وهو ضئيل جدا اذا قيس بما خفي تحت سطح الماء ، وهو العقل الباطن .

والبعض يشبه العقل بمدينة كبيرة ، قد سلط عليها ضوء مصباح كاشف وهاج ، يدور فوقها في أثناء الليل ، فالجزء الشريطي الذي يظهره الضوء من المدينة هو الوعي ، أما بقية المدينة فلا ترى ، لوقوعها تحت جنح الظلام ، وهي العقل الباطن . وما وضح بالضوء من المدينة أو خفي في الظلام يزخر بالحياة والحركة ، وإن لم يتسن لنا رؤية ما يحدث في الظلام .

أولا : العقل الباطن في العصور القديمة

لم يكن الاهتداء الى العقل الباطن وليد صدفة ، ولا كان اكتشافه هدفا محددا سُعي اليه ، حدثنا التاريخ عن طريقين طويلين سلكهما الأقدمون معا حتى أديا بهم الى ما نعرفه الآن عن العقل الباطن .

أولهما أن السحرة والعرافين وأطباء القبائل ثم الكهنة ـ فيما بعد ـ كانو يعالجون المرضى بالقراءة والرقى والترغيب والترهيب ، لاستخراج القوى الخفية التي تسبب المرض ، وكانوا يسمونها بأسماء مختلفة ، تبعا لمعتقداتهم ، كما برعوا في تحضير الأرواح الطيبة والشريرة ، وهي أرواح الآباء والأعداء ، وأرواح غير الانسان ، وكانت الأرواح تنبئهم بنوع الداء ، فيصفوا له الدواء أو العمل ، وتشبه عمليات تحضير الأرواح هذه التنويم المغناطيسي الذي هو حقيقة علمية بمفهومها

الحاضر ، وما زالت هذه « العلاجات » تطبق حتى يومنا هذا في المجتمعات المتقدمة والنامية على السواء ، ومنها (الزار) وهو ما يسمى باستخراج الشيطان في الغرب .

وقد قام الأقدمون بمحاولات فهم تلك القوى الخفية المسببة للأمراض ودراستها ، وكانوا لذلك يدخلون في غيبوبة ، يقابلون أثناءها الأرواح ليفاوضوها لصالح المرضى ، هكذا كانوا يسافرون - في أثناء غيبوباتهم - الى عالم الأرواح ومدن الموتى . وعن طريق الدخول في غيبوبة توصلوا الى معرفة ظاهرة التنويم المغناطيسي،وليتقنوا صنعتهم قاموا بتدريب أنفسهم تدريبات شاقة طويلة على التفكير والاستقراء الداخلي والتأمل .

وكانت تدريباتهم في الواقع عبارة عن رحلات داخلية في أنفسهم ، حيث التأمل والتخيل والابداع ، وهذه الرحلات الذاتية هي التي أوحت لشاعر ايطاليا الأشهر « دانتي » بملحمته « الكوميديا الالهية » ، كما أوحت قبل ذلك الى شاعرنا أبي العلاء برسالة الغفران ، والى البابليين بملحمة « جلجامش » ومن بعدهم - على طول الطريق الحضاري - احتجب كثير من المفكرين والأدباء عن الناس ، وانفردوا بأنفسهم قبل أن يخرجوا على العالم ويدهشوه بانتاجهم الفكري المبدع الخالد .

ثانيا : العقل الباطن في العصور الوسطى

التأمل معروف ، ومُمارس منذ عهد البوذيين القدامى الى عهد متصوفي العصور الوسطى . وفي عهد النهضة العلمية الأوروبية في منتصف القرن الرابع عشر الى السابع عشر تأمل الفلاسفة - أصحاب الفكر المجرد - في الظواهر غير الملموسة ، كالمعرفة والنبوغ والالهام والارادة ، والأحلام والتنويم المغناطيسي ، الخ .

استند الفيلسوف آرثر شوبنهاور عام ١٨٣٠ في كتابه « العالم كإرادة وفكرة »على بحث تناول قوة خفية في الانسان أسماها « الارادة » فقال ان الارادة تتحكم في سلوك المرء دون أن يشعر ، كأنها رجل أعمى ، قوي البنية ، يحمل على كتفيه رجلا ضعيفا مبصرا ، ومما قاله أيضا في كتابه هذا : « إن الشاب الذي يقع في حب فتاة جميلة هو في الواقع - دون أن يشعر - يلبي غريزة المحافظة على النوع ودافعها الجنسي . » . ثم استبدل فون هارتمان عام ١٨٦٩م - بكلمة الارادة اصطلاح (العقل الباطن) ، ووصفه بأنه شيء عظيم الذكاء والمهارة والمقدرة ، وهو جوهر الانسان وخبيئته ، وأنه الأساس المكين لعالمنا الملموس ، الواعي .

وذهب نيتشة (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) بالتأمل شأوا بعيدا ، فبعد أن احتجب فترة من الوقت ، خرج على العالم بأنشودته العذبة ، المعروفة بين المثقفين ثقافة عالية « هذا ما قاله زرادشت » وما فعله نيتشه هو أنه تجول بفكره في عالم (اللاملموس) ، وهناك قابل من أسماه زرادشت ، وما قابل الا نفسه وأفكاره التي تتغلغل في عقله الباطن ، ثم أبدع ما أبدعه على لسان زرادشت ، وفي الواقع أن لسانه هو الذي عبر عن خبرات مخزونة في عقله الباطن . وفي مجال آخر أكد نيتشه - بصفة خاصة - طبيعة الانسان واستعداده لخداع نفسه ، فقال في معرض الخداع : « قد يعتقد المرء أنه منجذب الى الأمام وهو في الواقع مدفوع من الخلف ، وأن الانسان في مسايرته للتقليد والأعراف التي لاتتفق مع المنطق يخدع نفسه .

وهناك كتاب للفيلسوف صموئيل بتلر (عام ١٨٧٨) حذا فيه حذو نيتشه ، عنوانه « الانسان والعرف » .

عنى هولمهولتز عام (١٨٧٨) بظاهرة فحواها أننا أحيانا نتوقف عن التفكير في مشكلة ما عندما يصعب علينا حلها ، ثم يأتينا الحل - فيمابعد - فجأة دون أن نكون قد أعدنا التفكير فيها مرة أخرى ، واستدل من ذلك على وجود إدراكات وتفكير خفيين ، ومن ذلك عملية الاختيار ، فكثيرا ما يختار الناس بين أمرين ، غالبا ما يكونان متساويي النفع أو الرغبة ، يفعل الناس الاستخارة في المساء مع قراءات وطقوس ثم ينامون بعدها (في الواقع مجازا يناموا عليها) على اعتقاد أن الحل الأصلح سيأتيهم عند الصحو من النوم ، وغالبا ما يأتي الحل على هوى المستخير ، حكت لي سيدة أنها عملت استخارة تعينها على الاختيار بين خطيبين أيها الأفضل لها فتختاره ؟ وكان أن تنبهت مع الفجر على صوت هاجس ، يهمس في وضوح ، ستتزوجين من فلان . وكانت سعيدة

باستخارتها ، فتزوجته ، وهكذا يفكر . . أو يخدع . . أو يرتشي العقل الباطن . .

ابتدع جالتون عام ١٨٩٠ اختباره المشهور والمعروف باسمه بين طلبة كليتي الآداب والتربية « اختبار تداعي المعاني » وهو عبارة عن كلمات تلقى على العميل من الفاحص ، وعلى العميل أن يجيب دون أن يتردد أو يفكر بأول كلمة تخطر على باله ، بمجرد سماعه للكلمة « المفتاح » ، ويستند الاختبار على أن بعض الكلمات المجاب بها تأتي من العقل الباطن ، وقد يكون في الكلمة « المفتاح » معقدته وما يحتمل في عقله الباطن .

أراد باحث ماجستير في احدى العيادات النفسية أن يحصر مدلول بعض الكلمات عند عينة من مرضى العيادة ، وكان بين كلمات « المفتاح » كلمة « وردة » ، ولما جمعت الكلمات المجاب بها على كلمة وردة كانت كالآتي « بيضاء . . ربيع . . عروس . . قبر . . حب . . قرح جندي مجهول . . الجزائرية .

ثالثا العقل الباطن عند الأطباء النفسيين

اهتم الأطباء النفسيون في النصف الأخير من القرن الماضي بظاهرة قدرة العقل على التخيل ، وما سمي فيما بعد بالايحاء ، وقسموا الايحاء الى ذاتي وموضوعي (أي الايحاء الى النفس أو الغير) ، واعتقدوا أن الايحاء يسبب الأمراض النفسية ، وقالوا ان السحر نوع من الايحاء ، وأنه يسبب السيطرة والخضوع والمعتقدات الخاطئة (الهذاءات) والأحلام الصادقة أو المؤثرة ، والخوف المرضى والتجوال الليلي (المشي في أثناء النوم) .

فسر الأطباء الخوف المرضي تفسيرا منطقيا نوعا ما ، قالوا ان المريض يصاب به منذ طفولته المبكرة ، فمثلا اذا فزع طفل من قط ، فان خوفه من القطط قد يبقى منطبعاً في عقله الباطن طوال حياته ، مع أنه لايمكنه تذكر حادثة القط الذي أفزعه حينها كان صغيرا في مهده .

وقال الأطباء ان ظاهرة التجوال الليلي هي نفسها ظاهرة التنويم المغناطيسي ، وأمكنهم احداث حالة المشي في أثناء النوم في وسيط نوم تنويما مغناطيسيا ، وكان الوسيط المتجول في أثناء نومه دائم الاتصال وتحت سيطرة المُنوِّم ، وأهمية هذا الاكتشاف ـ العظيم في وقته ـ أن الأطباء أمكنهم بواسطة التنويم المغناطيسي استرجاع الذكريات المنسية من المرضى المصابين بمرض الهستريا خاصة ، وكان مرضا مألوفا ، أكثر منه الآن ، في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن خاصة من السيدات .

ونادى الأطباء باستعمال الايحاء الكلامي والعاطفي في علاج الأمراض النفسية ، وخاصة في أثناء خروج المريض من نومه المغناطيسي ، وكما أشرت قبلا ما زال التنويم المغناطيسي يطبق الآن من قبل بعض الأطباء النفسيين في بعض الأمراض والعادات الضارة ، كعادة التدخين ، بنجاح يشهد به المعالجون الذين يقومون بهذا النوع من العلاج .

ويعود الى المسمريين نسبة الى الطبيب فرانك مسمر (١٧٣٤ ـ ١٨١٥) فضل تقسيم العقل الى منطقتين : الوعي والباطن ، وان كلتا المنطقتين تعملان معا جنبا الى جنب ، وان كنا لانسمع أو ندرك عمل العقل الباطن نظرا لضوضاء الحياة وانشغالنا بها ، وبدهي أن العقل ينام مع الانسان ، وتتوقف وظائفه ، بعكس العقل الباطن الذي لاينام أبدا ، حتى أصبح واضحا ما للعقل الباطن من تأثير على الميول والأفكار والآراء والمعتقدات والعواطف ، وكان الاعتقاد السائد أن التفكير عملية شعورية واعية مائة في المائة ، الى أن أثبت أحد الأطباء أن أي تفكير انما هو خلاصة أو محصلة ما يدور في العقلين الواعي والباطن .

حوالي عام ١٨٥٠ ظهرت طريقة جديدة للاتصال مباشرة بالعقل الباطن ، وكان ظهورها أساسا بين الروحانيين ، ثم أخذها عنهم الأطباء النفسيون ، وأساسها أن ينوم المريض (عادة مريض الهستريا) مغناطيسيا ، ثم يعطى قلما وورقة ويطلب منه أن يكتب ما يعين له ، وكان المرضى يكتبون عن ذكريات نسيت أو كُبِتَتْ ، وتشبه هذه الطريقة الى حد كبير طريقة استحضار الأرواح المعروفة باستعمال الورقة والقلم في أثناء جلسة روحية في ضوء خافت ، وعادة ما يقوم بالكتابة أكثر حاضري الجلسة تأثرا بالموقف،فاذا ترجمنا هذا الى كلام علمي ـ قلنا أكثر حاضري الجلسة ايحاءً أو الوسيط .

العقل الباطن يدخل عصر التحليل النفسي

لكل زمان طابعه الحضاري الخاص ، كان طابع أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن هو التحرر من القيود والعادات والوهم ، باستعمال الفكر المجرد والتأمل الحر ، وهو الرومانسية ، أما طابع هذا العصر الذي نعيش فيه فهو الواقعية والتقنية . واستفاد الأطباء النفسيون ، ومازالوا يستفيدون من كلا الاتجاهين لصالح مهنتهم ، احتدم الجدل أثناء الاتجاه الأول بين المثقفين .. قال الفلاسفة ان البحث في العقل الباطن لا يدخل في نطاق العلم تماما ، بل يتعداه الى ما وراء الطبيعة .. وقال علماء النفس ان ظواهر العقل الباطن هي التفكير الخفي والذاكرة المنسية ، هي العواطف المكبوتة ، وهي ليست من اختصاص الاطباء ، وقالوا أيضا إن الفصام (وهو مرض عقلي) ليس بالمعنى المتعارف عليه في الطب ، ولكنه مفهوم من مفاهيم العقل الباطن) وليس للاطباء صنعة فيه ، ونادى البعض أن العقل شيء والمخ والأعصاب شيء آخر ، وأن العقل غير الكمبيوتر ، أو حصيلة عمل خلايا المخ .

الى أن جاء فرويد ـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٩ الطبيب النفسي الأشهر ، ودرس التراث الحضاري كله عن موضوع العقل الباطن ، ثم خرج على العالم بنظريته « الكبت » ، وقال ان الكبت يولد الانفجار ، ومعنى ذلك أن كبت الرغبات والأفكار ـ وخاصة الجنسية ـ تسبب الاضطرابات النفسية ، كان الوقت غير هذا الوقت ، والجنس مكبوت حتى ان الكلام فيه كان محرما ، قال فرويد ان الأمراض النفسية هي نتيجة الصراع بين الرغبات المكبوتة في العقل الباطن القوى الكابتة ، ومكانها بين العقلين الواعي والباطن ، ومن هنا تجيء المقاومة التي يبديها المريض لطبيبه خصوصا في المراحل الأولى للعلاج النفسي ، ويعمل الطبيب أول ما يعمل على مساعدة المريض على التغلب على المقاومة ، حتى يسهل عليه اخراج المحتويات المكبوتة . وأطلق فرويد على طريقته في العلاج « التحليل النفسي » ولم تكن معروفة قبله .

ومع فرويد جاء كارل جوستاف يونج (١٩٧٥ ـ ١٩٦١) ، وأضاف جديدا الى ما عرف عن العقل الباطن ، كان يونج فيلسوفا أكثر منه طبيبا ، على عكس فرويد الذى كان طبيبا أكثر منه عالما نفسيا ، فعل يونج ما فعله فرويد ، بأن درس التراث الحضاري في كل من الغرب والشرق ، وبخاصة في الهند ، ثم قال ان الدلائل تشير الى أنه يوجد عقل باطن عام الى جانب العقل الباطن الخاص بكل انسان ، وأسماه العقل الباطن الجماعي أو السلالي أو المشترك بين جميع الأجناس والسلالات على السواء ، وان محتويات العقل الباطن السلالي لم تكبت ولكنها موجودة (أي توارثت)وتعاقبت مع الانسان على طول نشأته وارتقائه ، قال يونج ان العقل السلالي يحتوي على رموز وقوى قديمة أسماها « الرموز الأولية » ، وان هذه الرموز لها طاقة وفاعلية تؤثر دائما في سلوكنا وحياتنا « دون أن نشعر بتأثيرها اطلاقا ، هذه القوى الخفية الرمزية هي : الصديق والحبيبة (أو الحبيب للمرأة) والأم والأب . وقال يونج ان هذه الرموز أو القوى الفعالة قد يكون تأثيرها على المرء ضارا أو نافعا ، فهناك الشرير الضار والنافع الخير ، وكذلك الأب المشتت والمقوم الحكيم.

كان والد يونج قسيسا فنشأ يونج نشأة مسيحية صالحة ، لذلك كان علاجه أقرب الى الروحانيات من الواقع الطبي ، وتعاليمه عامة غير مفهومة للغالبية من الاطباء ، وعلاجه يعود بالنفع أكثر على الشعوب الأكثر روحانية وأقل مادية ، ومع ذلك فأقواله عن العقل الباطن السلالي معترف بها ومقدرة من جميع الأوساط العلمية .

وهكذا أجمع الأطباء النفسيون في الآونة الأخيرة على أنه يوجد أنواع عديدة للعقل الباطن ، فهناك العقل الباطن الخازن للذكريات والخبرات ، والعقل الباطن « المنشق » ويحتوي على سبيل المثال على الأفكار والحوادث المؤلمة وغير المرغوب فيها ، ثم العقل الباطن « الملهم » أو « الخلاق »وتأثيره واضح في أعمال الأدباء والفنانين ، والعقل الباطن « الموروث » أو السلالي أو الجماعي ، ولاشك انه توجد عقول باطنة أخرى لم تكتشف بعد ، وسيؤدي اكتشافها مستقبلا الى اثراء معلومات الأجيال المقبلة القادمة عن ذلك « الشيء » العظيم المهارة والمقدرة كما تخيله فون هارتمان . □

مرثية للمساء الأخير

شعر : محمود مفلح



نقطةً من هنا ،
نقطةٌ من هناك ،
لنقطةَ من هنا ،
لنقطةَ من هناك ،
أموتٌ أم ملاكٌ ؟ !
أأنت من يدعي ، أم سواك ؟
ونقرأ في صفحة الماء كل الوجوه ،
ونقرأ كل الفصول ،
ونخطو على شفرة الموت ،
كي نستحمَّ بماء « البحيرة » ،
ندمن هذا العذاب المريرْ ،
وتحرقنا الشوق
تنبتنا القبّرات الحبيبة ،
وتبحر بنا العواصفُ ،
وتبني العصافيرُ أعشاشها في البنادق ،
ابتدأ زمانُ الشقائق
ونخطو ، ويسعفنا البرقُ ،
ونخطو ، ويصهرنا الشوقُ ،
وتسكننا الريحُ ، والزمهرير ،
ويزأرُ تحت الرمادِ السعيرْ ،

***

نقطة من هنا ،
نقطة من هناك ،
لنقطة من هنا ،
لقطة من هناك ،
وينفسحُ الأفقُ ،



وتلتمع العين ، والناب ،
وتكتمل الصورة ،
لنبصر هذا وذاك ،
ونضحك ملء القذائف ،
ملء الحجارة فوق الرؤوس الصغيرة ،
ملء السنابل والصخر ، ملء الهجير ،
ونكتب أغنية للصباح الجديد ،
ومرثية للمساء الأخير

***

ويمنحنا البحر عرقاً فريداً ،
ويمنحنا الجرح ورداً جديداً ،
ويمنحنا طلقة للنفير ،
فنصنع من جرح أيامنا النازفات قناطر ،
ونزرع فيها الزنابق ،
ونصنع منها الدوارق ،
ونسقي الورود التي جففوها ،
ونؤوي الطيورَ التي نفّروها ،
نعيدُ صياغةَ كلِّ الفصول ،
وكلَّ النصوصِ التي حرّفوها ،
ونعشق هذا الصباح المطير .
وردة للاخاء ،
وردة للرصاص الذي يدمغُ الزيفَ ،
حين تلوب القصائد تبحث عن صيغةٍ للرثاء ،
وردة للجذور التي رغم هذا الدجى
لم تزل تنجب الأوفياء .



منتدى العربي

قضيــة

معوقات وكوابح أمام فنون الإتصال العربية

بقلم : صلاح دهني

يتساءل المثقفون العرب : ما الذي اصاب الحركة الفنية في الاقطار العربية واحدا بعد الآخر ؟ قبل عشرين سنة او نحوها بدا وكأن السينما والتلفزة وكذلك المسرح والموسيقا ، ناهيك عن الادب ، مقبلة في الكثرة من الاقطار العربية ، في المشرق كما في المغرب ، على تطور كبير ، فما الذي ألمّ بها فأعاق اندفاعتها المباركة الاولى وحَدّ من انطلاقتها ؟

في كل مؤسسة وهيئة وفي كل دائرة كان ثمة مايشبه الفوران ، « كوادر » شابة محدودة العدد ولكن كبيرة المطامح ، كانت تعمل بجد واخلاص عظيمين ، وكانت تنتج وتكافح وتحس انها تبني مستقبلا فنيا وضاء قائما على اسس متينة من الموهبة وحب العطاء .

ما الذي حدث بعد انقضاء عشرين سنة ؟ تضاعفت الكوادر عدة مرات ، احيانا عشرة أو عشرين ضعفا عما كانت عليه في بداية النهضة الفنية ، غير أن نسبة الانتاج بقيت هي هي ، السينما لا تعطي أكثر مما كانت تعطي ، وانتاج المسرح لم يزدد ، ، وأعمال التلفزة لم تتقدم ، والموسيقا لم تتطور كما كان يؤمل منها ، ونحن الآن بلا « اوكسترا سمفونية » صغيرة في معظم اقطارنا تفي ـ على الاقل ـ بحاجات وسائل الاتصال الاخرى .

يقولون : الحركة الفنية تعاني من الأدوار التي تعاني منها المجتمعات العربية ، فمجتمعاتنا صارت استهلاكية مستسلمة لحضارة غيرنا وغارقة في طلب الكماليات والمتع الخفيفة ، وهذا سبب اساسي من اسباب انحسار الفن الحق . ولكن هل حجة التوجه

نحو الاستهلاك حجة حقيقية قادرة على الوقوف على قدمين لدى استعراض اسباب تخلف الفن ؟ انها في كل حال تهمة موجهة الى الجمهور اكثر منها الى الفنانين . فهل الجمهور حقا هو الذي تقع عليه الملامة الاصلية ؟

آتي هنا على مثال لبنان ، كيلا لا أذهب بعيدا ، فلبنان بلد استهلاكي نموذجي في عالمنا العربي ، ومع ذلك فالفن فيه ـ نسبيا ـ متطور ، تجاربه متنوعة ، بشكل ما مزدهر . وفي لبنان حركة ثقافية : طباعة متقدمة ، ونشر ، ومسرح ، وموسيقا .. كذلك هو شأن بلدان : اوربا وامريكا ، وكندا ، كلها بلدان استهلاكية ، الا أن هذا لم يحل دون تطور الفنون فيها ، على العكس هي رائدة في مجالات الفن . وعلى ذلك فالمشكلة لا تتلخص بكل سهولة في أن مجتمعاتنا العربية باتت استهلاكية ، وبالتالي سقط فيها الفن وتعثرت مسالكه . المشكلة في زعمنا أن المشاهد او المستمع العربي يبحث في الفن عن اغناء روحي ، عن متعة ، عن ارضاء حاجة جمالية ، عن تفسير للواقع . فهل يمنحه الفنان العربي هذا كله ، او هل الأسباب متاحة امام الفنان العربي ليعبر عن نفسه وعن فنه خير تعبير بحيث يكون قادرا على منح المشاهد والمستمع ما يطلب عبر اداته الفني ووسيلته التعبيرية ؟ ان فننا العربي ـ بل الفن في كل مكان ـ لا يكون ناجحا الا اذا كان اصيلا ، نقديا ، معبرا عن لحظة تاريخية محدودة ، ساعيا الى تطوير وسائله باستمرار ، لكي يخلق حاجات ومتطلبات جديدة لدى مشاهديه ومستمعيه ، مع السعي الدائم لاجتذاب رواده بما يرضي دون أن يسف ، وبما يثري ويعلّم دون أن يتعالى ، فلو كانت الانظمة العربية تريح الفنان وتبيح له حرية التعبير والانتقاد تلبية لحاجة الجماهير في سماع الكلمة المنصفة الحرة ، لما كان هذا الانحسار النوعي ، وحتى الكمي ، في الفن عندنا وفي معظم الاقطار العربية .

متطلبات الرقابة

ان القمع السلطوي في معظم دول العالم الثالث ـ وليس العالم العربي سوى جزء منه ، متنور نسبيا ـ هو الذي يجعل عامة الناس يأخذون ويتقبلون أسوأ ما لدى الشرق ، وأسوأ ما لدى الغرب على حد سواء ، وهذا لا يعيب ثقافة بلد بعينه ، او أمة بذاتها فحسب دون غيرها من أمم عالمنا الثالث ، بل هو يعيبنا جميعا سواء بسواء ، فيتعطل دور الفن او تتأخر مسيرته ، او ينحرف عن سبيله السوي . فالسينما تنتج التوافه او لا تنتج ، وبالتالي ـ حكما ـ ينفسح الطريق امام استيراد افلام غيرنا ، والمسرح يتعطل تعطلا شبه تام فلا يقوم بدوره ، ويعمل التلفزيون كما تعمل الاذاعة من حيث لا يدريان ، في الكثرة من برامجهما على تعليب أذهان الناس وتحويلهم الى قطيع ، وتعمل الدراما عموما على تخدير الجماهير وجعلها وحيدة البعد ، دون اطلاق ودون تنكر للجيد والمفيد والخير .

ان وحدانية البعد لدى الجماهير المتقبلة للخطاب الذي تحمله وسائل الاتصال انما تنجم عن النظرة الضيقة والاحادية الجانب الى الوسائل من قبل جل حكومات العالم الثالث المسيطرة عليها ، فالوسائل كلها من وجهة نظر السلطة يجب أن تعبر عن رأيها هي وفكرها هي دون غيرها ، لأن الجماهير في نظرها قاصرة وتحتاج دوما الى توجيهاتها ، والى أن ترضع من لبنها ، لذا تعاني الوسائل من رعاية الدول ، وتئن تحت وطأة عمليات الاحتضان التي تؤدي لا محالة الى الاحتواء والتدجين .

وإذا كانت الرقابات في اقطارنا العربية تداري احوالا معينة فلا تنشب مخالبها في كل مناسبة ، بل تغطي تلك المخالب بقفازات من حرير ، فقد صار الفنان ذاته ، كاتبا كان او مخرجا ، يمارس رقابة ذاتية ، وفي سبيل تسويق المسلسل الاذاعي او التلفزيوني او الفيلم السينمائي في ٢٢ دولة عربية ، يغلب ان يقوم الكاتب والمخرج ومعهما المنتج ـ دافع المال ـ بتطبيق بنود انظمة الرقابة المعمول بها في ٢٢ دولة عربية تتراوح قناعاتها مابين اليمين واليسار ، مع التشدد في الانصياع لمتطلبات الرقابة في الدول الاكثر سخاء والأقدر على الدفع ، بذلك يرى الوليد الجديد النور منصاعا مسبقا لحرمات الأقطار العربية كلها ، وبسبب هذا يغلب ان تبقى الموضوعات بلا طعم ولا رائحة ، وتدور حول قصص الحب والكراهية والزواج والطلاق والجريمة والتهريج الرخيص ، او انها تهرب بكل بساطة الى دار الامان : قصص وأساطير التاريخ .

وضمن هذا السياق تأتي الانتقادات القاسية التي كان الكاتب الروسي الشهير «غوغول» يوجهها الى مسْرحيي زمانه، فقد كتب في حوالي عام ١٨٣٠ هذه الكلمات التي ما تنفك حية وحارة إلى ايامنا هذه: «لقد أضحى الشاذ موضوع الدراما الحالية. فيجب دوما أن تحاك فيها حادثة جديدة كل الجدة، غريبة كل الغرابة، لم تعرف حتى الآن، ولم يسمع بها انسان: قتل، حريق، عواطف وحشية لم تعرفها نفس بشرية في عصرنا ـ الحديث». «ان ما تقصده مقطوعات اليوم هو التأثير المباشر قبل أي شيء آخر، أن تصفع النظارة على حين غرة ولو لفترة وجيزة، وأن تضع تحت انظارهم اكثر الامور تأثيرا في النفس: السجن، والاجرام، وكل ما يمكن ان يرعب ويهز، وتستشف منه ظلال أعواد المشنقة الداميات».

واخذ غوغول على المسرح ـ في كتابات تقطر مرارة ـ ابتعاده عن واقع المجتمع وصحيح ما هيته، فجعل يتساءل: «اين هي حقيقتنا؟ ونحن، اين نحن في اهواء هذه الايام وغرائبها؟ ايمكننا رؤية أية من صور حياتنا في مسرحنا؟ ان مسرحنا يكذب بقحة وبلا حياء..».

ان هذه المآخذ التي جرى بها قلم كاتب فذ قبل أكثر من قرن ونصف القرن قد تنطبق على فنون زماننا، فالخطاب الفني الشعبي الذي يعبر عن الواقع الحقيقي ويرسم له صورة صادقة نابضة بالحياة وتفوح منه نكهة الحدث المعاش غير مسموح به حتى في أكثر الدول العربية ادعاء بتمثيل الشعب، واذا وجد فحجب ولم يحظ بخدمات وسائل الاتصال والنشر والتوزيع، لأنها كلها في الوطن العربي قنوات رسمية او شبه رسمية، فلا يكفي ان المسرح والوسائل السمعية البصرية دخيلة على الوطن العربي عموما وليس لها تقاليد، ولا يكفي ان الانسان العربي لا يعتبر المسرح مثلا حاجة بسبب تراكمات حضارية، فإلى ذلك ـ وضعنا على ابالة ـ تمنع عند الانظمة أن يرى صورته في مسرح او فيلم شعبي اصيل قد ينبت هنا وهناك.

ثقافة النخبة

ان الاستثنائي من النتاج الثقافي له مكانته الخاصة وهو الاكثر اهمية، ويشيع في الناس، عامة الناس، وتتقبله نفوسهم. وبالطبع ثقافة النخبة لها وجودها ومكانتها لدى الامم جميعها، وثقافة النخبة في الاقطار العربية تلتقي بمثيلاتها في أرجاء العالم، ولكن ماذا عن ثقافة الجماهير الشعبية الواسعة «اولئك الذين نستنجد بهم في حل تناقضاتنا، ونهملهم او نقاطعهم او نروعهم حين يسألون عن مصيرهم ككتلة بشرية هي مُرتكز كل وجود اجتماعي، وهي صاحبة المصلحة في كل تغيير» كما يقول الكاتب المغربي عبد الكبير الخطيبي؟.

ان قراءة الاسم العربي تستند الى الفارق، والفارق اقرار بالتعدد، ويستحيل الوصول الى الكشف عن غور الاسم العربي الجريح دون اعطاء الاعتبار لتعدد اللغات التي تم بها صوغ هذا الجرح. والفارق ـ كما يقول الخطيبي ـ دوما هو الفاعل المحرك: هناك فارق طبقي، فارق لغوي، فارق تاريخي، فارق جغرافي، فوارق لانهائية عمدت وسائل الثقافة العربية الحديثة ـ كانت سائدة ام في طريقها للسيادة ـ الى قمعها.

وهذه الفوارق بالذات التي يعددها الخطيبي ويجعلها المصدر الاساسي للكشف عن غور الاسم العربي الجريح، وصولا ـ بالطبع ـ الى الهوية العربية الصحيحة، هي التي تتنكر لها وسائل الاتصال العربية ولا تأخذها في الحسبان، وبالتالي، تأتي اعمالها تغريبية تساعد على تغييب التعدد ونكران الفوارق، وتؤدي آخر الامر الى التعليب والى القولبة.

والجمهور العربي يتكون في أغلبه من شرائح غير متكافئة ثقافيا تسودها درجة عالية ومفزعة من الأمية وتوزع عليها ثقافة هي أهل لها ـ في اعتبار بعض السلطات التي تحرص على الامساك بوسائل النشر الجماهيرية وتوجيهها ـ ثقافة تليق بالمهمشين وهي نفسها مهمشة ومهشمة، والى ذلك فالجمهور الذي لاحول له ولا طول ولا يؤخذ له برأي، يعيش ثقافيا تحت وطأة أرضية موروثة مقدسة ومهيبة لا تتيح اية فرص حقيقية لاعادة دراستها وتقويمها خارج ما هو سائد من احكام وقيم ومسلمات ومحرمات. إلام تؤدي هذه الحال وهذا التجاهل حاجة الانسان الطبيعية الى التواصل؟ ينعكس ذلك اول ما ينعكس بالاساءة البالغة إلى الفنان الذي لا تتاح له

فرص عمل كافية . وهي حين تتاح فانها تحاصر . فالدولة - عمليا - رغم احتضانها له في الكثرة من الاقطار العربية لا تمنحه مرتبا مريحا وتعتبره في حكم الموظف العادي . وبالتالي فانه يسري الى وضعه الاجتماعي والمادي وهو بسوء اكثر فأكثر ، الامر الذي يضطره في نهاية المطاف الى أن يسعى راكضا وراء الاعمال التجارية الهابطة التي تحظى بالشيوع والانتشار ، وفي مقدمة تلك الاعمال ما أطلق عليه اسم « البترودراما » وهي المسلسلات التي تنتجها بعض الاستديوهات التجارية في مناطق خليجية معينة ، وتكرر الافلام المصرية التقليدية والهابطة في الاربعينيات والخمسينيات التي كان ينتجها بعض أغنياء الحرب وخلفاؤهم .

تعميم التزوير

واحد وجوه الاشكال الخطيرة أن مشاهدة الافلام السينمائية تلك كانت تقتضي التردد على دور السينما (حين تكون هذه الدور متوافرة) فيظل تأثيرها محدودا ، في حين ان المشهد البيتي الذي تشكله التلفزة يساعد على تعميم التزوير او الخطأ على ملايين الناس في آن واحد ، وبنحو ملحّ ، واذا كانت الفئات المستنيرة التي تشكلت لديها ملكة انتقادية من مستوى ما ، او تلك التي الفت مشاهدة الافلام تكابد بعناء من امثال تلك العروض التلفزيونية وتتحمل نتائجها وتأثيراتها ، فيجب أن يذهب تفكيرنا ايضا الى ما يكون لتلك العروض ذاتها من تأثير سلبي في عشرات الملايين من ابناء الدول العربية الأقل حظا في التقدم الذين انتقلوا بنحو مفاجيء من عصر جاهلية الصورة - حيث لاصور ولا مجلات مصورة ولا سينما إلا في الحالات النادرة المتباعدة جدا التي تمر فيها سيارة السينما المتنقلة - الى عصر الصورة الالكترونية مباشرة ، بكل ما تتضمنه هذه الصورة في جملة ما تتضمن ، من أوزار ومثالب ، وما تنطوي عليه من وجوه التضليل والاستلاب .

ثمة وجه آخر يرتبط بالسابق هو أن الحبكة القصصية التي كان يسردها الفيلم القديم في مدة ٩٠ دقيقة عرض ، باتت تمط في مسلسلات التلفزيون - بنحو يضرب عرض الحائط بكل القوانين الدرامية - على ١٣ حلقة تتكون كل واحدة منها من ٦٠ دقيقة واحيانا من ٩٠ دقيقة عرض .

جاءت التلفزة اذن تتابع في جانب من جوانبها الدور التخريبي الذي كانت السينما التجارية الرديئة تقوم به ، فتعمم على نطاق واسع القيم نفسها التي كانت السينما تنشرها على نطاق ضيق : الخمول الذهني ، التفاهة ، اللامبالاة الفردية . جرى ذلك على ايدي الكتاب أنفسهم الذين صنعتهم السينما التجارية وصنعوها ، وصنعهم المسرح التجاري وصنعوه،وتلامذة الأولين والاخرين ، وهؤلاء جميعا سرعان ما تحولوا الى الأداة الجديدة الاكثر ربحا والاقل تطلبا فكريا وفنيا ، والتي تطالب دوما بالمزيد من الانتاج لملء الـ ٦ الى ١٢ ساعة بث التي تقدمها التلفزيونات العربية في مختلف اقطارها كل يوم . وفي الاغلب ، حمل هؤلاء بضاعتهم القديمة المكرورة وأعادوا كتابتها مجددا للتلفزة على ١٣ حلقة هذه المرة ، بكل ما تنطوي عليه من قيم متخلفة وعلاقات سطحية مصطنعة وخواء فكري .

● ان النقاد والكتاب - ونحن منهم ونسير على طريقهم - إذ يسهمون في الكشف عن المعوقات والكوابح التي تحول دون قيام أدوات الاتصال الواسع بدورها الايجابي كاملا غير منتقص ، فانما ينهضون بجانب من واجبهم تجاه شعوبهم العربية والاسلامية ، يحدوهم الامل بالتحسين ورفع درجة الاداء ، ودفع المسيرة على طريق الرشاد . □

● العقول الكبيرة تبحث الأفكار ، والعقول المتفتحة تناقش الأحداث ، والعقول الصغيرة تتطفل على شئون الناس . .

(د . محمد حسين هيكل)

منتدى العربي

تعقيبات

هموم تربوية في ثلاث مقالات

في المقالات التي نشرتها مجلة العربي في عددها ٣٣٤ ، الصادر في سبتمبر ١٩٨٦م ، لكل من الدكتور محمد الرميحي ، والدكتور عادل عبدالكريم ياسين ، ويوسف ميخائيل أسعد ، نجد أنهم ألقوا الأضواء على نواح ، وجوانب تربوية ، تفتقدها وتفتقر إليها مؤسساتنا ، و « كوادرنا » العربية التربوية ، سواء على المستوى المحلي أو القومي ، فقد أجمعوا ـ بصورة أو بأخرى ـ على أن الثروة الحقيقية للأمة هي استثمار الموارد البشرية على أكمل وجه . وحتى يتسنى ذلك لابد لهذه الأمة من التقدم والرقي .

واعتمدوا ذلك لقناعتهم أن التربية هي طريق التفاهم المشترك حول عدد من القضايا المتداخلة ، وهي أيضا وراء كل عملية تنموية ، خاصة إذا ما تيسر لها هيئات قادرة على التخلص مما درجت عليه النظم التعليمية الموروثة في بعض بلادنا العربية ، وإذا كانت تتجه للتنمية حقا ، بهدف اللحاق بركاب الأمم المتقدمة ، الأمر الذي يحتاج ـ بالتأكيد ـ إلى تكثيف الجهود على مختلف المستويات ، لتوضع العملية التربوية والتعليمية وجها لوجه أمام التجديد ، والتحديث ، والتطوير ، من منظور الذات العربية الثقافية ، وضمن إطارها القومي في الافادة من تجارب الآخرين .

وقد أشار لهذا أيضا المؤتمر الرابع لوزراء التربية العرب ، المعروف بمؤتمر صنعاء ، في ديسمبر سنة ١٩٧٢ ، والمؤتمر الاقليمي الرابع لوزراء التربية ، والوزراء والمسئولون عن التخطيط الاقتصادي في البلاد العربية ، في (أبو ظبي) سنة ١٩٧٧م ، وقد قرر « أنه لابد للدول العربية من مضاعفة الجهود الرامية إلى تجديد التربية ، بهدف الاسهام في تعزيز الذات الثقافية ، وفي عمليتي التحديث والتنمية ، والعمل على إجراء تجديد حقيقي للنظام التعليمي برمته في الوطن العربي ، بتماشى مع روح العصر » .

ونحن في الواقع لسنا في عجالة بصدد مناقشة ما ذهب إليه كاتبو تلك المقالات ، وإنما نود الاشارة إلى أن مثل هذه الموضوعات قد أوضحت أن المشكلة ليست مجرد قضية تهم المدارس ، بل هي قضية أمة تود مواكبة متطلبات العصر حضاريا ، لتأخذ مكانها في عالم شديد التنافس ، يتميز بسرعة التغير ، وغزارة الانتاج ، في شتى مجالات الفكر والحياة ، خاصة بعد أن أصبح للتربية دور واضح في إعداد الانسان للاسهام حضاريا في مجتمعه المحلي والعالمي ، حتى يكون مؤثرا في تطور موكب الابداع ، ومستفيدا من محصلات الابتكار ، ومن جهة أخرى تؤكد تلك الموضوعات على مقولة « المهاتما غاندي » التي تقول : « يجب أن أفتح نوافذ بيتي لكي تهب عليه رياح كل الثقافات ، بشرط ألا تقتلعني من جذوري » .

فمن أجل غد أفضل يركز الدكتور محمد الرميحي على « خلق مجتمع دائم التعليم ، يستمر أبناؤه في الابحار في رحلة حياتهم ، مزودين بما تعلموا في بدايتها من أساسيات ، مع عدم الاكتفاء بنيل الشهادة ، لأنها لا تعني الاكتفاء من التعليم . وتطرق الدكتور عادل عبدالكريم ياسين في مقاله للفكرة ذاتها ، لكنها جاءت بأسلوب مغاير ، فقد طرح تجربة « ماتشادو » ، أول وزير للذكاء في العالم ، تلك التجربة التي تدعو إلى تعليم الذكاء لأمة نامية كالأمة الفنزويلية ، وذلك عن طريق إنماء الذكاء الانساني ، بإعادة النظر بشكل جذري في المناهج القائمة في المؤسسات التعليمية ، بدءا من مرحلة الرياض ، وانتهاء بالدراسات الجامعية العليا في تلك البلاد ، لتصبح تلك المناهج قائمة على تعليم التفكير ، إذ أن هذه خير وسيلة لانماء الذكاء ، فتعليم التفكير هو تعليم الذكاء .

وهذا يعني أن ما تشادو أعطى دوراً واضحاً كبيراً للذكاء المكتسب في تجربته ، بدليل أنه يصر على أن يخوض كل سكان بلاده تلك التجربة الرائدة ، الفريدة في عصرنا الحاضر ، متوقعا أن تتصدر بلاده الذكاء في العالم إذا نجح مشروعه .

والجدير بالذكر أن العالم « ألبرت اينشتاين » مؤسس النظرية النسبية الذي طبقت شهرته الآفاق قد عزا نجاحه إلى ما اكتسبه من مهارات وخبرات ومعرفة خلال حياته العلمية ، ولم يؤثر عن « اينشتاين » أنه اعتمد على ذكائه الموهوب في تجاربه وخبراته ، ويبدو أن لدى كاتب مقال (تجربة ماتشادو) رؤية واضحة ومعلومات كافية عن تلك التجربة ، ويتضح ذلك لمن يقرأ مقاله ، لذا كنا نتوقع منه توضيح أبعاد تلك التجربة ، مبينا سلبياتها ، وإيجابياتها ، ومردود العوائد المتوقعة الفعلية على مجتمع نام « كالمجتمع الفنزويلي » ، لأنها ـ في الواقع ـ تجربة جديرة بالدراسة ، لكونها تتجه إلى تنمية الانسان ، وتنمية قدراته ، وابتكاراته ، كي يستطيع مواكبة نمو المعارف ، وتطورها ، فيصبح مواطنا صالحا ، قادرا على تحمل المسئولية والتحدي ، في عصر يشهد انفجار المعلومات ، وتعدد مصادر المعرفة ، وفي زمن باتت فيه التنمية والتعليم من الظواهر المعقدة ، والأنشطة الموجهة ، فضلا عن جعل الانسان أكثر نفعاً وعطاء لمجتمعه ، وجعله قادرا على تحقيق ذاته ، ومبدعا في ابتكاراته .
والأستاذ يوسف ميخائيل يرى أيضا أن وجود أمة متفوقة في مجالات الحياة المتباينة يتطلب الأخذ بالمبدأ الذي ترتكز عليه الفلسفة التربوية الفارقية ، تلك الفلسفة التي تقوم على تقييم أبناء الأمة وتدريسهم حسب قدراتهم ، وعقلياتهم ، وميولهم .

وإن كانت لنا كلمة في هذا المجال فاننا تدعو المهتمين في الحقل التربوي إلى الوقوف على مثل هذه الآراء ، والتجارب ، وإخضاعها للتمحيص ، والتدقيق ، والدراسة ، للاستفادة من مردودها في النهوض بأوضاعنا التربوية ، والتعليمية ، والتنموية ، خاصة إذا عرفنا أن تجربة (ماتشادو) يجري تطبيقها في بلد نام ، تتشابه ظروفه المعيشية مع ظروفنا في أقطارنا العربية ، بل إننا لا نجانب الصواب إن قلنا أن هذه الظروف في بلادنا قد تكون أفضل من ظروف المعيشة في بلاد (ماتشادو) نفسه . وقد قيل « بأن الجهود الفكرية ملك عام ، يمكن لمن يريد أن يعتمد عليها ، ويقتبس منها ، وأن يخرج بالعبر التي تؤدي إلى الحركة والتقدم » فهل نحن فاعلون ؟ □

د . زهدي عبدالمجيد سمّور
الكويت

---

* صدقني أن نفوس الناس معادن ، ومن المعادن ما تعلو على كل صدأ ، ومن المعادن ما يعلو عليها كل الصدأ .

(د . طه حسين)

* رجال القضاء .. لا يملكون لأنفسهم رد القضاء .

(د . عبدالرزاق السنهوري)

يصدر في ١٥ أبريل ١٩٨٧

كتاب العربي

الخامس عشر

من أسرار الحياة والكون

بقلم: د. عبدالمحسن صالح

كتاب العربي مرآة العقل العربي



الأكزيما الاحتكاكية (التلامسية) ويظهر الالتهاب مكان حافة الصندل أو الحذاء .

الأكزيما

تعددت الأسماء والمرض واحد

بقلم : الدكتور سامي محمود علي

الجلد ، ذلك الغشاء الرقيق الذي يغطي جسمنا كله ، هو بمثابة خط دفاع أول ضد كل الجراثيم والميكروبات وسواها من وسائل العدوى ، إنه - بحق - البوابة الحصينة التي تتكسر على أعتابها كل موجات الغزو التي تريد أن تفتك بالجسم وتهدم قواه ، ولعلنا - بداية - نتساءل عن هوية ذلك الستار الكثيف الذي يستر ما يدور في أعماقنا فيجعله أمراً شديد الخصوصية ، نتساءل عن هوية تركيبه . فما هو الجلد ؟

إنه - كما قلنا - غشاء له خلايا مسطحة ، يتداخل بعضها ببعض ، فتصبح كأنها صفائح متداخلة ، ملتحمة كل واحدة في الأخرى ، والجلد يتكون من طبقات كثيرة ، طبقة فوق أخرى ، في نظام غريب مدهش ، حيث إن أي شيء لا يمكن بأي حال أن ينفذ من خلال الجلد دون أن يكون الجلد قد تمزق أو شق بجرح ، والجلد غشاء مرن ، يتحمل الضغوط اليومية ، ويعوض ما يستهلك أو يموت منه باستمرار ، فهو في حالة نمو وتجدد مستمرين . إن سيمفونية الحياة والموت تتكرر كل ثانية في موت خلايا من الجلد وبناء أخرى مكانها .

وبنظرة سريعة على قطعة من الجلد ، نجد أن الموت والحياة يقفان جنباً الى جنب ، فسطح الجلد خلايا ميتة أو شبه ميتة ، لا نكاد نلمح فيها شعيرات دموية أو أليافاً عصبية ، وتحت هذه الطبقة مباشرة توجد خلايا حية ، وكلما تعمقنا داخل الجلد نجد أن الخلايا تزداد نشاطاً باستمرار ، حتى نصادف طبقة تتكون من عدة صفوف من الخلايا ، وهي التي ينمو فيها الجلد ، ويندفع إلى أعلى بدلاً من تلك الخلايا التي فقدت بالاستهلاك أو بالاستعمال ، وفي أعماق

الجلد نجد قنوات،في كل واحدة منها شعرة تظهر على سطح الجلد ، وتلمح غدداً عرقية وغدداً دهنية ، ومستقبلات عصبية تتأثر بمختلف الأحاسيس مثل الألم والبرودة والحرارة والضغط . هذا هو الجلد ، عالم يموج بالحياة والنشاط ، لكل شيء على سطحه معنى ، ومدلول ، فلون الجلد وملمسه ودرجة حرارته كلها مؤشرات تعكس ما يدور في طوايا الجسم من صحة ومرض . والآن ماذا عن الأكزيما ، هل هي ـ حقاً ـ مرض كلنا عرضة له ؟

وهل الأكزيما مرض وراثي ؟

قد يبدو السؤال غريباً لأنه ليس شائعاً أن يقال إن الأكزيما وراثية ، لكننا نسأل ـ بداية ـ ما هي الأكزيما ؟

الأكزيما هي التهاب جلدي ، يصيب الطبقة الخارجية من الجلد ، ويكون هذا الالتهاب مصحوباً بإفراز مائي وقشور ، أو قد يكون الإفراز صديدياً في حالة العدوى بميكروب ، هذا إذا كان الالتهاب حاداً ، إلا أن خلايا المنطقة المصابة تتكاثر وتتقرن ، فتبدو كما لو كانت متورمة ، هذا في حالة الالتهاب المزمن ، والأكزيما في الحقيقة ترتبط بالأسباب المؤدية إلى الحساسية ، لذلك فإن الأعراض تتعدى ـ في أحوال كثيرة ـ التهاب الجلد إلى أعراض عامة ، كالحمى والأزمة الصدرية ، وغير ذلك من أعراض الحساسية العامة . والآن نعود إلى السؤال : هل الأكزيما مرض وراثي ؟

ولحسن الحظ أن كل أنواع الأكزيما ليست وراثية ، لكن ما يمكن أن نسميه بالأكزيما العائلية ، هي تلك الأكزيما التي تظهر في أفراد العائلة الواحدة ، وتظهر أعراض هذا الالتهاب في سن مبكرة من الحياة ، أي خلال الشهور الأولى من العمر ، لكنه لا يحدث عند الولادة ، وتبدأ إصابة الطفل به بظهور قشور وبثور في منطقة الخدين ، ثم ينتشر ليشمل انثناءات الجلد في الذراع والركبة ، ولعل السبب في ظهور العدوى في سن مبكرة ، هو انتقال الأجسام المسببة للحساسية من الأم إلى الجنين عبر المشيمة ، وفي الغالب يكون أفراد هذه العائلات مصابين بأمراض حساسية كالربو الشعبي ، أو حساسية الغشاء المخاطي للأنف أو ملتحمة العين ، ويمر المرض ـ بعد إصابته للطفل في شهور عمره الأولى ـ بمراحل من الكف والشفاء والظهور ، ثم يختفي في سن البلوغ ، ليظهر بعد وقت ليس طويلاً لكنه يكون التهاباً موضعياً على الجلد ، ويلاحظ ذلك ـ بكثرة ـ على النساء اللاتي يستخدمن منظفات المنزل الصناعية ، فتصاب أيديهن بالأكزيما .

الأكزيما وحرارة الجو والجفاف

شدة الحرارة والجفاف يؤثران بشكل مباشر على جلد من لديهم قابلية الإصابة بالمرض ، فتؤدي الحرارة والجفاف إلى جفاف « كيراتين » الجلد وتشققه ، مما يدفع المريض إلى الحكة ويجعله عرضة لحدوث جروح تؤدي إلى الإصابة بالأكزيما ، وفي الحقيقة أن العوامل النفسية قد تؤدي إلى ذلك أيضاً ، أي تدفع المريض إلى الحكة والهرش ، لأن الذي لديه القابلية للمرض يحاول أن يخفف من حدة توتره بحك جلده والآن نتساءل عن أعراض هذا المرض . ومن خلال ما ذكرناه عن ظهور المرض وأسبابه يمكن أن نحدد الأعراض بتلخيص شديد ، هي ظهور قشور تشبه ـ إلى حد كبير ـ جلد السمك ، ورغبة في حك الجلد مستمرة مع شعور بالهرش ، ويبدو هذا الهرش



الأكزيما المزمنة ويلاحظ حدوث العدوى الميكروبية

على شكل بقع كبيرة ، ويؤدي الهرش إلى سهولة الإصابة بعدوى ميكروبية ، ثم يظهر الطفح الجلدي مصحوباً بأعراض عامة كالحمى والأزمة الصدرية ،

وفي حالات نادرة يصاب المريض بالمياه البيضاء في عينيه كما قد تحدث بعض اضطرابات النمو دون

تفسير واضح معروف ، ولعلنا الآن نلاحظ أن هذا النوع من الأكزيما مرض عام أكثر منه مرض جلدي ، محددة أعراضه بإصابة الجلد .

الأكزيما الاحتكاكية (التلامسية)

هذا نوع آخر من الأكزيما التي تصيب الجلد ، وهو يصيب أي شخص ، حيث يحدث نتيجة التهيج الموضعي للجلد ، بفعل مادة تثير حساسية الجلد ، كجلدة الساعة ، أو الجواهر والحلي ، أو الأحذية المطاطية ، أو الصنادل أو غيرها ، فعند تلامس الجلد مع احدى هذه المواد ، وتكرار الاحتكاك يحدث الالتهاب ، ويؤدي - أيضاً -

استعمال بعض المواد الكيميائية إلى حدوث هذا النوع من الأكزيما ، لذلك عند تشخيص المرض يلجأ الطبيب إلى المواد المرجح أنها السبب في الإصابة ، ويضع جزءاً منها على الجلد ، ويثبته بمادة لاصقة ، ويتركه لمدة تتراوح بين ٤٨ إلى ٧٢ ساعة ، ثم يرى مدى التغير الذي يطرأ على الجلد في مكان الاختبار .

ومن الجدير بالذكر أن أشعة الشمس أيضاً قد تسبب حدوث الأكزيما الاحتكاكية ، وذلك عند التعرض لها لأوقات طويلة ، بصورة مستمرة .

الأكزيما الدهنية

يصيب هذا النوع من الأكزيما فروة الرأس ، وأماكن انثناءات الجسم ، ومنطقة الصدر والظهر . وقد جاء اسم هذا المرض من ازدياد الإفراز الدهني في مكان الإصابة ، وتحدث الإصابة بهذا المرض في الرجال أكثر من النساء . . ويظهر مكان الإصابة - بفروة الرأس - مليئاً بالقشور ، ثم يصيب المرض بعد ذلك منطقة الصدر ، فيظهر طفح أحمر دهني الملمس .

الأكزيما الدائرية (القرصية)

تأخذ الإصابة هنا شكل طفح دائري ، يتراوح نصف قطره بين ١٠ - ٤٠ ميلليمتراً ، وتكون الإصابة مسطحة ، ومغطاة بالقشور أيضاً لكنها قد

ترتفع قليلاً فوق سطح الجلد ، وذلك إذا تلوث مكان الإصابة بعدوى ميكروبية . وتكثر الإصابة بالأكزيما الدائرية في اليدين والقدمين ، وذلك نتيجة

التلامس بمادة مهيجة ، مثل مادة أكسيد الحديد ، والكروم المعروفة بالكروميت .

الأكزيما المزمنة

تندرج الأنواع السابقة كلها تحت ما يمكن أن نسميه بالأكزيما الحادة ، بيد أن تكرار الإصابة

واستمرارها يؤديان إلى إصابة المريض بالأكزيما المزمنة ، وهذه تتخذ صورتين : الأولى يزداد فيها

الجلد في مكان الاصابة سمكاً ، فيبدو كما لو كان متورماً ، وذلك بفعل الحكة المستمرة التي يقوم بها المريض ، وقد يتقرن الجلد ، فيتخذ ملمساً خشناً ،

أما الصورة الأخرى فتتميز بوجود حويصلات صغيرة منتشرة تثير المصاب فيحكها ، وتعتبر هذه الحكة مشكلة المصابين بالأكزيما المزمنة .

ما يمكن أن يفعله المريض والطبيب

علاج هذا النوع من التهاب الجلد يعتمد بصورة كبيرة على المريض الذي يعرف أن هناك مواد معينة ، تسبب له تهيج الجلد ، فيتجنبها ويبتعد عنها . وفي حالة الأكزيما العائلية التي يتعرض لها الأطفال حديثو الولادة ، يجب على الأبوين أن يستخدما حمامات الزيت ، ودهن جلد الطفل الصغير « باللوسيون » والدهون لمنع تشققه . ويأتي دور العلاج في المرتبة الثانية من الأهمية لشفاء الأكزيما ، وتعتبر

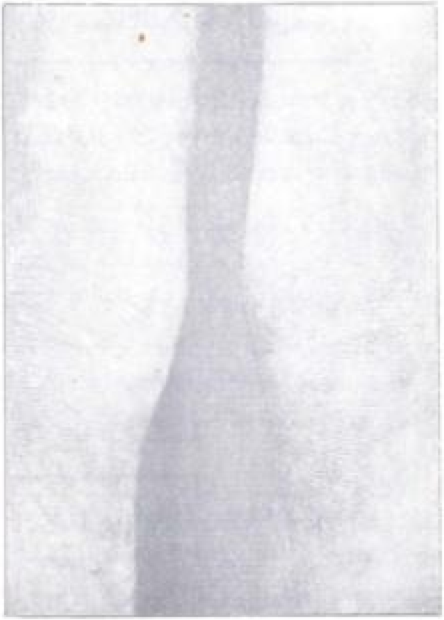
مستحضرات الكورتيزون هي الدواء الأمثل في العلاج . ويلاحظ استخدام الكورتيزون بنسب مخففة في علاج الأطفال حتى لا يؤثر على نمو الطفل ،

وفي بعض الأحيان يضاف القطران إلى الكورتيزون ، وفي أحيان أخرى يكون لزاماً استخدام مراهم المضادات الحيوية لعلاج عدوى الميكروبات ، وقد يصف الطبيب أقراص أو حقن المضادات الحيوية ، وذلك في الحالات الشديدة من

الالتهاب . أما في حالة التهاب الأكزيما الدهنية فإن المريض يستعمل (شامبو) لغسيل فروة الرأس يحتوي على مادة القطران والكورتيزون إضافة إلى أي مادة مطهرة من الجراثيم لغسيل فروة الرأس .

وصفات شعبية

هناك وصفات شعبية استخدمها الناس لمعالجة الأكزيما ، وتناقلوها جيلاً بعد جيل ، ولأثرها الفعال سجلوها ، وهي لا تزال حتى يومنا هذا علاج العامة من الناس ، وتتلخص تلك الوصفات الشعبية في استعمال مسحوق بذور الفاصوليا الخضراء ، ونثرها فوق المنطقة المصابة من الجلد ، ومن المعروف أن بذور الفاصوليا تحتوي على عدة فيتامينات ، إضافة إلى مادة (التريجونلين) ، كما يفيد ذر مسحوق زهور شيح البابونج فوق المنطقة المصابة لعلاجها ، وتذكر كتب الطب الشعبي أن لبخة الحلبة تشفي الأكزيما وبخاصة المصابة بعدوى ميكروبية ، ومن الوصفات المعروفة لبخة الحلبة وهي من أنفع الوصفات لعلاج الدمامل والخراريج ، ولا يوجد ما هو أفضل منها في هذا الباب ، ويتلخص عمل اللبخة بوضع كمية من مسحوق بذور الحلبة في وعاء به كمية من الماء ، ويقلب المزيج حتى يصبح كالعجين الرخو ، ثم ينقل هذا الوعاء ويوضع في إناء آخر أوسع منه به كمية من الماء في درجة الغليان تصل الى ثلثي ارتفاع الإناء ، ويستمر في تحريك المزيج لمدة عشر دقائق وعندما يصبح لونه غامقاً وقوامه كالعجين المرن تكون اللبخة قد أصبحت جاهزة للاستعمال ، واستخدامها يكون بفردها ساخنة على المكان المصاب من الجلد وتغطيته بقطعة قماش نظيفة ، ويكرر ذلك في اليوم مراراً . □



اكزيما عائلية أصيب بها بالغ . ويلاحظ الطفح الأزرق للالتهاب خلف الركبتين .



الأكزيما الدائرية (القرصية)

الجديد في العلم والطب

مادة جديدة ، ذات فوائد صناعية عجيبة

توصل علماء المجر إلى اكتشاف خصائص فريدة ونافعة جدا في مادة (بيتاسكلو دكسترين beta cyclodextrin) ، وأول شيء اكتشفوه فيها أنها ليست سامة ، وقد ساد هذا الاعتقاد منذ التجارب الأولى التي أجراها عليها العالم النمساوي فرانز شاردنجر سنة ١٩٠٣ . وثاني شيء اكتشفوه هو أساليب تضمن إنتاج هذه المادة بتكاليف قليلة نسبيا . ثم أصبحت الأسواق في بودابست وغيرها ملأى بالأطعمة والأدوية والبهارات التي دخلت في صنعها مادة البتا سيكلودكسترين ، فمن خصائص هذه المادة أنها تحد من تبخر الزيوت الطيارة ، مما يطيل في عمر كثير من المواد الغذائية والصيدلانية ، ويحافظ عليها ، ويقيها شر التقلبات الجوية .

أما السر في هذه المادة فيكمن في بنيتها ، لأن ذراتها تبدو كسدادات المطاط المجوفة (انظر الرسم) ، وتتميز هذه الذرات بأن سطحها من الخارج وبطانتها من الداخل على طرفي نقيض فيما يتصل بالماء والرطوبة ، فالسطح صديق الماء والبطانة عدوته . ولو أضفنا المادة المطلوب تصنيعها إلى محلول البتاسيكلودكسترين لوجدنا أن ذرات هذه المادة لا تلبث أن تطرد ذرات الماء لتحل محلها ذرات المادة المضافة . وما أسرع ما تتبلور ذرات (البتاسيكلودكسترين) مرة ثانية ، آخذة معها ذرات المادة المضافة ، لتحافظ عليها من التبخر أو التلف .

لعلك تتساءل عزيزي القارىء عن الفوائد العملية التي تنتجها مادة



ذرات المادة المراد حفظها

(١) تنفر من الماء وتطرد ذراته من حولها .
وقبل مثل ذلك في باطن ذرة البتاسيكلود كسترين .

(٢) فهو يطرد الماء أيضاً خلافاً لغلاف الذرة المذكورة .

(٣) وهكذا تختبىء ذرات المادة المراد حفظها في داخل ذرات البتاسيكلود كسترين .



الثوم ، والبصل ، وماإليها من التوابل ذات الزيوت الطيارة .. وذات النكهة القيمة .. يمكن حفظ هذه الأعشاب وأمثالها بواسطة المادة الجديدة البتاسيكلود كسترين .

البتاسيكلودكسترين ، فالحديث عن المنافع التي يجنيها الانسان فعليا أقرب إلى الأذهان من الحديث النظري عن السر الكامن وراء تلك المنافع ، وتتجلى أكثر تلك المنافع في المواد الغذائية وصناعتها ، فالألوان الطبيعية والنكهات التي نحرص عليها في الأطعمة ، والتي كثيرا ما تفقدها هذه الأطعمة عند التسخين أصبح في الامكان تثبيتها في المواد الغذائية ، والحيلولة دون فقدانها . وقل مثل ذلك في الفيتامينات التي تحتوي عليها المواد الغذائية ، والتي سرعان ما تفقد فاعليتها لدى تعرضها للضوء والهواء .

أما البصل والثوم المثقلان بالفوائد الصحية فقد أصبح في الامكان الحصول على فوائدهما ، دون التعرض لرائحتيهما اللتين طالما نفرتا كثيرا من الناس منهما ، وذلك بإدخال مادة البتاسيكلودكسترين في تصنيعهما ، وتصنيع الأطعمة التي تحتوي عليهما ، ويصدق هذا أيضا على الكراوية وعلى توابل أخرى ذات نكهة طيبة مثل الشبت والشمشق .

ولو تطرقنا إلى صناعات أخرى لوجدنا لهذه المادة منافع كثيرة مفيدة ، ففي صناعة الأدوية أصبح في الامكان دمج أدوية كانت متنافرة حتى الآن ، وجعل أدوية أخرى أكثر قابلية للذوبان في الماء ، ثم جعلها أكثر سرعة في الوصول إلى مجرى الدم ، والقضاء على الطعوم الكريهة في بعض الأدوية .

وفي صناعة العطور أصبح في الامكان التحكم بمدى تصاعد رائحتها ، وضمان بقاء رائحتها كامنة حين تتعرض لمؤثرات مثل الدفء والرطوبة .

أما في صناعة معالجة الفضلات والقاذورات وتحويلها إلى ماء وأسمدة فإن مادة البتاسيكلودكسترين تقي الميكروبات وتحميها من السموم التي طالما فتكت بها ، واستوجبت إضافة كميات من الماء العذب ، لتسهيل قيامها بدورها في معالجة الفضلات والقاذورات .

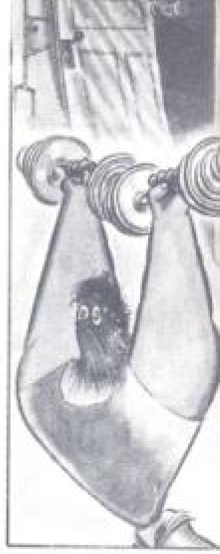
وتجدر الاشارة إلى أن الترخيص الرسمي باستعمال مادة البتاسيكلودكسترين في مختلف الصناعات قد صدر عن الجهات المختصة في المجر واليابان وهولندة ، وهو قيد النظر حاليا في بريطانيا والولايات المتحدة .

□□

رائحة العرق الكريهة ضرورية ومفيدة

لم يغفل العلماء عن وجود « الفرمونات » وأثرها في حياة الحيوان والنبات ، وقد عرفوا أن هذه الفرمونات مواد كيماوية ، يفرزها كائن حي ، فيؤدي افرازها الى التأثير على سلوك كائن آخر ، من نفس الجنس والفصيلة ، وبخاصة في العلاقات الجنسية ، ولم يخطر ببال أي منهم أن هذه « الفرمونات » موجودة أيضا في الانسان ، وأنها ذات أثر بالغ في حياته الجنسية ، لاسيما في تنظيم حياة المرأة الجنسية ، وما أكثر النساء اللواتي يعانين من عدم انتظام العادة الشهرية ، ومن مضايقات سن اليأس المزعجة ، حين يبلغن ذلك السن .

لاحظ العلماء أن تلك المشاكل وهذه المضايقات أكثر انتشارا بين النساء غير المتزوجات ، وبين اللواتي لايتعمن بحياة جنسية سوية من المتزوجات ، وانطلقوا من هذه الملاحظة لاجراء الأبحاث والتجارب الخاصة بأثر الفرمونات التي ينفرد بافرازها الرجل ، لاسيما افرازات إبطه ، وافرازات العرق الكريهة الرائحة التي غالبا ما يفرزها في



للرجال رائحة عرق كريهة .. ولكنها مفيدة للنساء وضرورية .

ذلك الموضع ، وشملت تجاربهم سبعة رجال وسبع نساء .

وقد وضعوا تحت ابط كل رجل مخدة خاصة لمدة (١٨ ـ ٢٧) ساعة اسبوعيا ، واستمروا على ذلك مدة ٣ شهور ، ثم اعتصروا افرازات الرجل (العطرية) ، ومزجوها بالكحول ، ومسحوا بمحلولها شفاه تلك النساء فانتظمت العادة الشهرية لديهن بسرعة ، وكن قد ذقن الأمرّين من عدم انتظامها ، فبعد أن كانت العادة لاتعود الى بعضهن الا بعد حوالي (٤٠) يوما ، أو بعد ١٥ يوما ، أصبحت تعود اليهن جميعا بعد مضي ٢٩,٥ ، وقد كان ذلك ـ بلا ريب ـ نتيجة مسح شفاههن بالافرازات الكريهة الرائحة التي يفرزها ابط الرجل ، تقول « بلا ريب » لأن العلماء حالوا بين النساء السبع اللواتي كن موضع التجارب ، وبين الاتصال الجنسي من أي نوع كان ، ولم يطرأ عليهن تغير الا بعد أن مسحوا بالفرمونات شفاههن . ويختلف العلماء حول ما اذا كانت الفرمونات قد تسربت الى أجسام النساء امتصاصا عن طريق الجلد أو استنشاقا عن طريق الأنف . ومهما يكن فهم متفقون بأن تناول الفرمونات كسائل يشرب أو حبوب تبلع ، سيكون أكثر فاعلية من مسحها على الشفاه .

لاعجب اذن أن تنطلق المصانع المختلفة تتنافس في صنع المراهم والعطور على أساس فرمونات الذكور ، وقد تقدم بعضها بطلب الترخيص لمثل تلك المنتجات التي لاأمل في ظهورها في الأسواق قبل مضي (٣-٥) سنوات .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

لقاح جديد للجذام

تقول منظمة الصحة العالمية ان لقاحا جديدا ضد الجذام سيظهر في الأسواق في مستقبل غير بعيد ، فهو الآن قيد التجارب الميدانية الواسعة النطاق ، في ملاوي وفنزويلا ، والأمل معقود على أن يثبت اللقاح المذكور من الفاعلية ما يمكن الناس من الحد من الوباء الخطير ، بل ربما من القضاء عليه أيضا في وقت لاحق . وتفيد الاحصاءات أن مجموع الذين يعانون من الجذام في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يزيد على (١٠) ملايين .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

عودة المطاط الطبيعي

نجح العلماء في بريطانيا وماليزيا في تطوير المطاط الطبيعي ، وتصنيعه بما يكفل له التغلب على المطاط الصناعي ، في صنع اطارات السيارات الخاصة ، فمع أن اطارات سيارات الشحن الكبيرة واطارات الطائرات والتراكتورات كانت وما زالت تصنع من المطاط الطبيعي ، الا أن اطارات سيارات الركاب الصغيرة تحولت منذ زمن عن المطاط الطبيعي الى المطاط الصناعي الخالص ، أو الممزوج بالطبيعي ، ويعرف المطاط الطبيعي الجديد باسم E. N.R ، وسينزل الأسواق في منتصف هذا العام (١٩٨٧) .



سلامة البشرية في سلامة البيئة

إحصائية ذات دلالة



من ضحايا حوادث السيارات في الولايات المتحدة

نشرت مجلة نيوزويك هذه الاحصائية، للموازنة بين عدد قتلى الارهاب في العالم وعدد قتلى العنف في نيويورك، فهذا العنف هو إرهاب لاريب، وإن كان رئيس الولايات المتحدة لايقر بذلك، وتشمل الاحصائية عدد ضحايا حوادث الطرق وسواهم.

٤٣,٥٠٠ ضحايا السيارات وحوادث الطرق في الولايات المتحدة سنة ١٩٨٥م

١,٣٨٤ ضحايا العنف في نيويورك سنة ١٩٨٥م

١٥٠ عدد الذين ماتوا في أثناء الاستحمام في حمامات بيوتهم سنة ١٩٨٤م

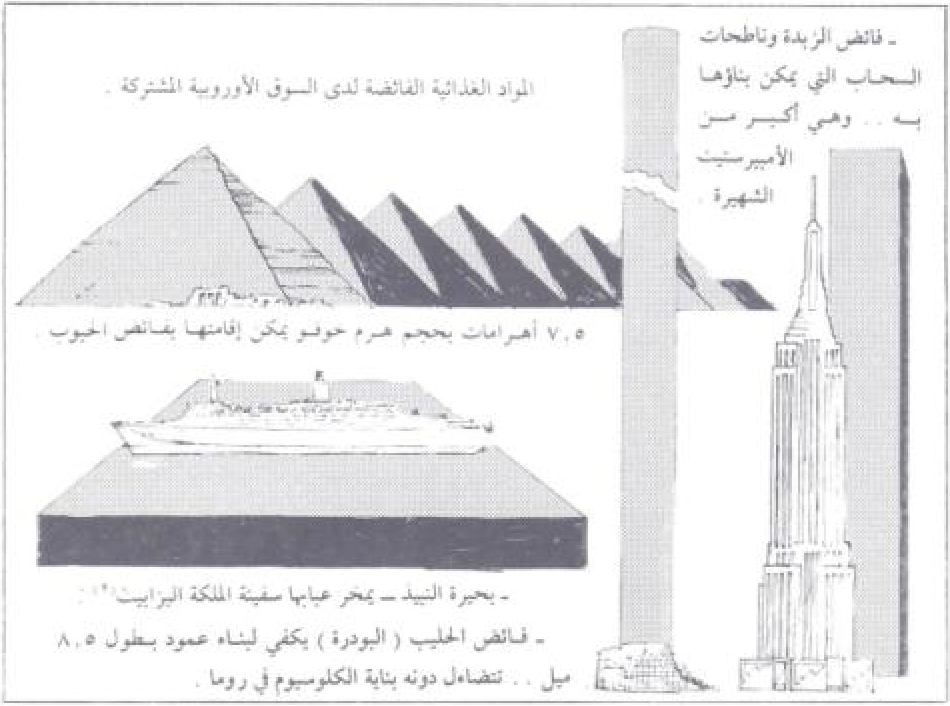
١,٠٦٣ ضحايا حوادث القوارب في البحار سنة ١٩٨٤م

٣,١٠٠ عدد الذين ماتوا اختناقا بالطعام سنة ١٩٨٤م

٢٥ عدد ضحايا الارهاب العالمي سنة ١٩٨٥م

العالم مجنون مجنون

تأمل الرسم الايضاحي المعبر الذي نشرته مجلة نيوزويك في عددها الصادر في ٨ ديسمبر ١٩٨٦م، إنه يمثل فائض الأطعمة المتراكم لدى السوق الأوروبية المشتركة، ففائض القمح فقط يكفي لبناء عدة أهرامات، وبالتحديد يكفي لبناء ٧,٥ من الأهرامات الكبرى (بحجم هرم خوفو في الجيزة)، وفائض الزبدة بكميات يمكن أن تشيد بها ناطحة سحاب كناية (الامبيرستيت) المعروفة، وفائض الحليب المجفف المسحوق لو استعمل لبناء صرح شاهق لبلغ ارتفاع ذلك الصرح ٨١/٢ أميال، ولتضاءل دونه مبنى (الكلوزيوم) الضخم في روما، ناهيك عن فائض النبيذ، فهو بحر هائل



يسهل على السفينة المعروفة باسم ـ الملكة اليزابث الثانية ـ أن تعوم على سطحه وتمخر عبابه .

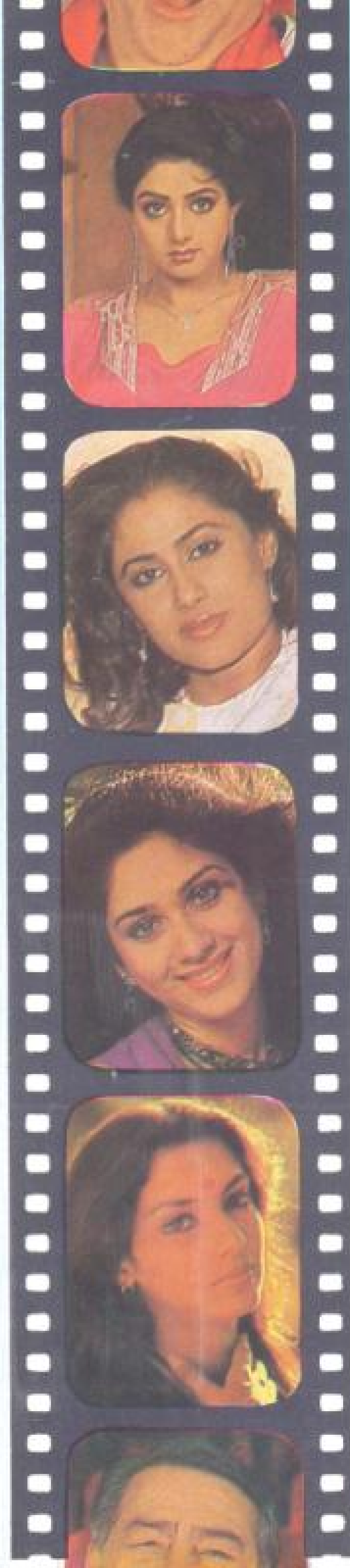
ولو ذكرنا بعض التفاصيل لما عجبنا لهذه الصروح الضخمة من مخزون الأطعمة الأوروبية ، فقد بلغ ازدياد فائض حليب البودرة ٥٠٪ سنويا ، وأصبح مخزون الزبدة ضعفي حجمه السابق ، وتراكمت الحبوب الفائضة حتى بلغت ١٦ مليون طن ، وحدث مثل ذلك في لحم البقر الذي بلغ فائضه ٦٤٥٠٠٠ طن ، وفي النبيذ أيضا الذي بلغ مخزونه (٣٧٥) مليون جالون .

على أن هذا الفائض إن كان ثمرة طيبة للنجاح المنقطع النظير الذي أحرزته السياسة الزراعية للسوق الاوروبية المشتركة فانه كان ـ أيضا ـ باعثا على استياء الأوروبيين لا على سرورهم ، وذلك لأنه أصبح عبئا يثقل كاهل الأوروبيين ، ويهدد السوق المشتركة بالافلاس ، فقد تحولت النعمة إلى نقمة ، والسبب هو أن دول أوروبا الغربية لم تفشل بل نجحت نجاحا باهرا في تطبيق سياستها الزراعية المشتركة ، المعروفة بسياسة الحصص . لكن أي عبء هذا ؟ ؟ إنه عبء التخزين ، فقد بلغت رسوم التخزين بمجملها ٥,٢ ملايين دولار في اليوم الواحد ، وستبلغ بعد خمس سنوات (٣٠٠٠) مليون دولار سنويا ، حينما يصبح مجموع الفائض (٨٠) مليون طن .

ويتساءل المرء لم لا يصدرونه ، ويبيعونه بأسعر مخفضة ؟ والجواب إنهم لا يريدون مزاحمة الولايات المتحدة ، ولأن كثيرا من الدول المستوردة للحبوب حققت في المدة الأخيرة اكتفاء ذاتيا إن لم تصبح في عداد الدول المصدرة للقمح . ويتساءل المرء ثانية لم لاتتخلص أوروبا من عبئها أو فائضها بشحنه إلى أفريقيا ، وغيرها من المناطق التي ضربها القحط والجفاف ، علما بأن تلك المناطق المحتاجة ـ على اتساعها ـ ستعجز عن استنفاد الفائض الأوروبي بكامله ؟ !

ولعل الجواب على هذا التساؤل ـ إن كان ثمة جواب ـ ينبغي أن يأتي من دول السوق الأوروبية المشتركة .

فنون الهند أسرار وأساطير



استطلاع : سليمان مظهر
تصوير : سليمان حيدر

الرقص في الهند عبادة .. والموسيقا
قيثارة السماء ..
والغناء ترانيم الأرواح ..
والملاحم أساطير الآلهة ..
والتمثيل حب ورمز وحياة ..
ولكل لون من الفنون حكاية ..
ومسيرة .. وأسرار ..



كان « أميتاب باشان » أحد ألمع نجوم السينما في الهند ، يرقد في حالة خطيرة بمستشفى العظام في بومباي ، وكانت الكسور التي حطمت عظامه ناتجة عن مشهد سينمائي لمعركة عنيفة في فيلم كولي (العامل) ، صمم أن يؤديه بواقعية كاملة .. والتف حوله أطباء العظام يبذلون جهودا جبارة لانقاذ حياة النجم السينمائي الشهير .. معبود الجماهير .

كان المشهد المحيط بالمستشفى وردهاته أعظم من أي مشهد آخر قام باشان بالاشتراك فيه طوال حياته .

ولم يكن أحد من كتاب السينما ليستطيع أن يصور حقيقة هذا الذي كان يجري حول المستشفى ، زحام لا يتصوره عقل ، ولا محط لقدم بين آلاف المعجبين الذين يتزاحفون ليل نهار للاطمئنان على نجمهم الكبير .. بينما العناوين الرئيسية للصحف الصباحية والمسائية تحمل آخر تقارير الحالة الصحية لباشان .. والمعابد تستقبل طوابير المصلين المبتهلين إلى إله السماء لانقاذ معبودهم على الأرض .. وفي نفس الوقت كان أحد الشبان يواصل قطع ثلاثمائة ميل سيرا إلى الخلف تنفيذا لنذر قطعه ، من أجل أن يشفى الاله نجمه المفضل .. !

ولعله من خلال روعة هذا الحب الجماهيري ، ناضل النجم نضالا رهيبا كأحد أبطال الأساطير لينتصر على الموت . وربما كانت السماء قد استجابت لدعوات الملايين .. !

وعاش أميتاب باشان ...

ولكن الأطباء كانوا قد قرروا ألا يسمح للممثل الكبير بأداء أي دور يميل الى العنف ..

وكان ذلك أقسى قرار يتلقاه النجم البطل ، واعتبره أسوأ أيام حياته .

ولم يكن باشان يدري أن القدر قد كتب له شيئا آخر ، فقد استطاع راجيف غاندي رئيس الوزراء أن يقنعه بالتحول من السينما الى السياسة ، فأضواء (البلاتوه) واحدة .. والممثل السينمائي القدير يستطيع أيضا أن يكون قديرا في ساحة التمثيل السياسي .. كل ما يتغير هو فقط كاميرات التصوير .. !

ولم يكن غريبا أن تحقق جماهيرية باشان النصر على منافسه السياسي الحزبي المخضرم ، « باهوجانا » الذي احتجب عن الميدان .

والطريق الى السياسة عبر السينما ليس جديدا ، فقد عبره أيضا الرئيس الامريكي ريجان . ولكن ريجان عندما ترك التمثيل ، خاض تجارب عديدة في الساحة السياسية الحزبية ، قبل أن يصبح حاكما لولاية كاليفورنيا ثم رئيسا للجمهورية .. ولكن الممثل باشان أصبح رئيسا لوزراء مقاطعة « تاميل نادو » ـ كما حدث مع زميله الممثل راما راو الذي أصبح رئيسا لوزراء « اندرا براديش » ـ حين تحول النجمان الى السياسة من خلال جماهيريتهما كنجمين سينمائيين ، كان هذا التحول دون أية تجارب سابقة ، وقد فازا بأغلبية أصوات الناخبين لأن تعلق الجماهير بهما أزال الفارق بين الخيال والحقيقة . فقد امتلأت عيون الجماهير بصورتيهما اللتين طالما شاهدوهما على شاشات التمثيل الخيالي ، كبطلين يقودان العربة السماوية المقدسة .. ! فتصورتهما قادرين أيضا على أداء نفس الدور على مسرح التمثيل الواقعي .

بين الواقع والخيال

خلال زيارتنا لبومباي التقينا بالمنتج راندير المعروف باسم دابو ، الذي يدير استوديوهات أبيه راج كابور ، أحد قدامى النجوم الكبار . قلنا له :

الا ترى أن أفلام السينما الهندية تبدو بعيدة عن الواقعية مغرقة في الخيال ، فيما تصوره من خوارق ومعجزات وتضحيات وعواطف تتجاوز ما يشهده واقع الحياة ؟

أجاب دابو :

إن ذلك الرأي في الحقيقة يظلم السينما الهندية . فأفلامنا تتجه اتجاها أخلاقيا واضحا . وهي تحاول إبراز الصورة الأخلاقية المثالية كما تتمناها الجماهير . فالأغلبية العظمى من الأفلام عبارة عن حكايات وقصص أخلاقية تدعم القيم والفضائل التقليدية وتهدي إليها . وهي تبرز جوهر الخير عند الفقراء ، وتفوق الولاء العائلي ، وأهمية الايمان والثقة بالآلهة .. وهي كلها فضائل ترتبط بأعماق الفقراء والطبقات الوسطى مهما اختلفت دياناتهم ، وهي بالتالي قريبة إلى قلوبهم وموضع آمالهم ..

هذه الفضائل من جانب آخر قد لا تكون مادة للترفيه والتسلية ، ولكن السينما الهندية تحل هذه المعضلة عن طريق التركيز على التناقض مع هذه الفضائل . وهكذا يقدم الفيلم بوجه عام ملامح الغني الذي لا يؤدي حق الفقير ويستغله أبشع استغلال ، ويعرض صورة الشاب المستهتر الذي يخدع الفتيات ويفقدهن نقاءهن بلا أي وازع من

ضمير ، ويكشف حقيقة الطاغية الذي يسيطر بطغيانه على أهل القرية ويسرق أقواتهم فيزدادون فقرا ليتخم الأغنياء ، ويعري أسرار الارهابي الذي يستخدم العنف والقوة لتحقيق مآربه الفاسدة وأهدافه الباطلة . .

وينتهي الفيلم عادة بانتصار الخير على الشر ، وتحقيق انتقام السماء ، على أيدي الأبطال والشجعان والأنقياء والأطهار .

أمنا الهند

من أروع الأمثلة في هذا المجال فيلم « امنا الهند » الذي شهدناه مرة ثانية في بومباي .

قال لنا مخرجه الشهير « موغموهان ديساي » حين التقينا به في الاستوديو ، ان الهدف الذي أراد تحقيقه هو تأكيد الانسجام والتآلف والتوافق في حب الوطن بين أصحاب المعتقدات المتباينة في الهند . .

تحكي مقدمة الفيلم قصة إخوة ثلاثة فرقتهم الأحداث في طفولتهم ، كما فرقت بينهم وبين أبويهم . وتبنت كل صغير منهم عائلة تدين كل منها بإحدى الديانات الرئيسية في الهند : الهندوكية والاسلام والمسيحية . وحمل الأطفال الثلاثة أسماء قمر ، وأكبر ، وأنتوني .

وتتوالى بعد ذلك أحداث الفيلم من خلال سلسلة من المغامرات والأغنيات بعد أن أصبح الاخوة الثلاثة فتيانا ، وقد جمعتهم قصص حب وفتوة وتضحية ، لتربط بينهم صداقة متينة عبروا عنها في أغنية الفيلم الرئيسية التي تقول إنهم يشعرون أنهم إخوة حتى ولو كانوا مختلفي الآباء والأمهات .

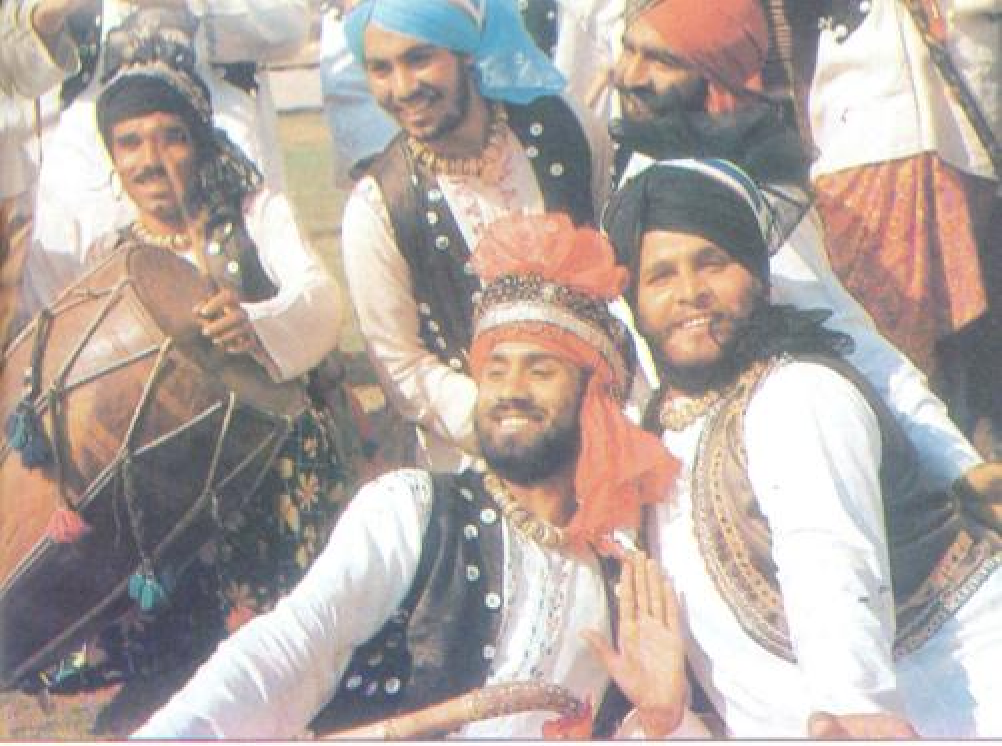
وحين تصل الى خاتمة الفيلم نجد الفتيان الثلاثة وقد تلاقوا يدا واحدة في مواجهة الطاغية الشرير في معركة رهيبة ، وبعد أن حققوا الانتصار عليه انهاروا إعياء بعد أن نزفت منهم كميات كبيرة من الدماء . وحين نقلوا الى المستشفى كانوا في حاجة إلى عمليات نقل دم عاجلة لانقاذهم من الموت . ووجد الأطباء أن فصيلة دمهم واحدة . . ولكنها نادرة . وبينما هم يبحثون عبثا عن متطوع يحمل نفس الفصيلة ، وجدوه في امرأة عجوز تطوعت على الفور لنقل دمها إليهم . وتشاهد وهي راقدة على السرير وقد امتدت من شرايينها أنابيب مطاطية تنقل دمها مباشرة إلى شرايين الفتيان الثلاثة . . ونكتشف أن العجوز إنما هي الأم التي فقدوها . . وتبتعد الكاميرا لتظهر تيترات الخاتمة . . « إنها أمنا الهند » .

الغناء . . ترانيم الأرواح

يندر من الأفلام الهندية ذلك الذي يخلو من الغناء والرقص ، فهما بعض اللوازم المصاحبة للعرض السينمائي . حتى ليصل عدد الأغاني والرقصات إلى ما يتجاوز العشر في الفيلم الواحد . . وأغلب الممثلين والممثلات يرقصون ويغنون ، وإذا كانت بعض الأصوات غير مؤهلة للغناء فإن اللحن يجري على شفاههم فقط بطريقة التسجيل على شرائط من مغنين محترفين . . ومن أشهر من استخدمت أصواتهم في أغاني الأفلام المغني « كوشور كومار » والمغنية « مانجشكار » ويقولون إن هذه المطربة قدمت حوالي ٢٥ ألف أغنية حتى الآن حصلت عن كل أغنية منها على ٣٠ ألف روبية (حوالي ٣٠٠٠ دولار) . ولأن المنتجين يدركون أن عددا كبيرا من المشاهدين يحضرون لسماع الأغاني ، فقد أصبح الغناء من اقتصاديات صناعة الفيلم الهندي . وإذا كان عرض الأفلام وحدها لا يحقق عائدا مربحا لأكثر من ٢٥٪ من هذه الأفلام ، إلا أن تحقيق الربح بعد ذلك يأتي من تسجيل وبيع أغاني الفيلم التي تجد سوقا رائجة .

إن ميزانية صناعة السينما في الهند تصل الى حوالي ألفي مليون دولار ، ويعمل فيها حوالي ٣٠٠ ألف من العاملين المتفرغين ، بالاضافة الى عدة آلاف من غير المتفرغين . وقد بلغ متوسط عدد الأفلام المنتجة خلال ثلاث سنوات الواقعة بين (١٩٨٢ - ١٩٨٥) حوالي ٨٣٣ فيلما ، منها ١٦٥ فيلما في استوديوهات بومباي ، و ١٧٠ في حيدر أباد ، و ١٤٨ في مدراس ، و ١٢١ في كلكتا . . وليس هناك أي بلد في العالم ينتج نصف هذا العدد من الأفلام في سنة واحدة .

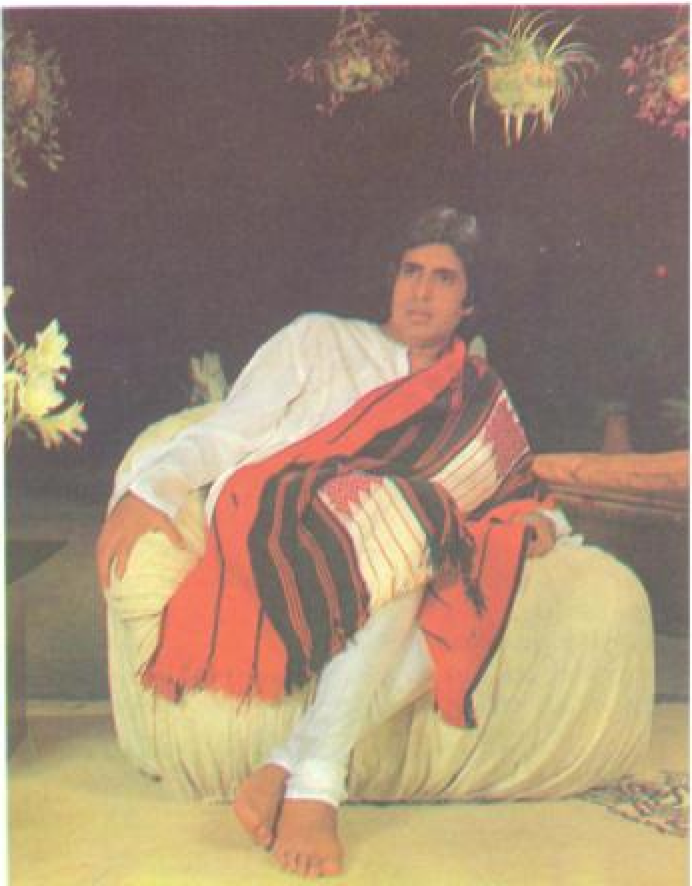
هذا العدد الكبير من الأفلام ينتجه عدد من المنتجين الأغنياء ، وأفلامهم تتسم بالطابع التجاري . إلى جانب ذلك فان وزارة الثقافة والاستعلامات الهندية تقدم مساعدات مادية للسينمائيين ، كما تقدم أيضا مثل هذه المساعدات للجمعيات الفنية التي يكونها السينمائيون ، ومن بينها اتحادات السينمائيين في عواصم السينما بالهند التي تشرف على الأنشطة السينمائية . والأفلام التي تنتجها الوزارة هي أفلام لا تهتم بالناحية التجارية وشباك التذاكر . . وهي غالبا أفلام مهرجانات ، أفلام جادة وأفلام تسجيلية ووثائقية ، تتناول كل معالم الهند التاريخية والطبيعية . وقد أنشأت الحكومة هيئة





தீர்ப்பு
விதி





● أفلام السينما الهندية تبدو بعيدة عن الواقعية مغرقة في الخيال عامرة بالرقص والغناء .. ولكن اميتاب باشان انتقل بسبب تمثيله الواقعي من بلاتوه السينما الى بلاتوه السياسة .

مركزية للاشراف على صناعة وتوزيع الأفلام وتداولها في المدارس والمعاهد التعليمية والثقافية .

مشكلة لغة السينما

واجهت صناعة السينما الهندية مشكلة اللغة منذ قيامها . فاللغات واللهجات داخل البلاد متعددة .. مما يصعب معه أن يكون الحوار بإحدى هذه اللغات فقط . وأدى هذا إلى توزع مراكز الانتاج في أكثر من مدينة أبرزها بومباي ومدراس وكلكتا .. ولنفس السبب كانت اللغة « الهندية » التي أخذت صيغتها الموحدة بعد الاستقلال هي التي اعتمدت في الحوار السينمائي بصفتها أكثر اللغات انتشارا وفهما ، بالاضافة الى ذلك فان بومباي التي بدأت فيها صناعة السينما ، كان لديها إمكانات كثيرة من ناحية الاستوديوهات والبلاتوهات والتجهيزات والفنيين المدربين ، مما أتاح لها أن تكون صاحبة المركز الأول للانتاج باللغة الوطنية الهندية .. بينما اتخذ الانتاج السينمائي في مدراس أكثر من لغة من اللغات المنتشرة في جنوب الهند بما في ذلك لغة التاميل ، والتلمو ، والكانادا ، والمالوية ، مما أتاح لها كمية من الانتاج تبلغ ضعف عدد أفلام بومباي . أما كلكتا فقد تخصصت في إنتاج الأفلام ذات الحوار باللغة البنغالية ، وتنتج حوالي ثلث ما تنتجه استوديوهات بومباي .

ولكن أهمية صناعة السينما الهندية لا تقتصر على التوزيع داخل البلاد .. فقد اكتسب الفيلم الهندي شهرة وترحيبا واسعا في الخارج ، حيث استطاعت أفلام كثيرة أن تحصل على جوائز دولية في مهرجانات السينما .. وكان أبرزها من أعمال مخرجين بارزين مثل راي ، وديساني ، وسين ، ونجوم لامعين من أبرزهم كومار شاهاني وماني كول وشيام تنيجال .

وقد اكتسب عدد من ألمع نجوم السينما الهندية شهرة جماهيرية عالمية بلغت الذروة .. ولا يكاد أحد يجهل أسماء نجوم مثل راج كابور وديليب كومار وأشوك كومار وديف أناند ونرجس .

ولا شك أن راج كابور على سبيل المثال يعتبر أحد عمالقة السينما ، وهو أحد نجوم عائلة كابور ذات الشهرة الواسعة في صناعة السينما ، وأولهم وكبيرهم برثفيراج الأب ، والأبناء راج كابور وشاشي كابور الأصغر ، وثالثهم شامي كابور الذي حقق نجاحا كبيرا كمنتج ومخرج ، بالاضافة الى نجاحه كممثل . ومن ألمع أبناء العائلة السينمائية أيضا راندير المعروف باسم دابو وهو أكبر أبناء راج كابور الذي يلعب دورا كبيرا في إدارة الاستوديوهات التي أنشأها والده ، كما لمع أيضا في ميدان الانتاج .

وخلال زيارتنا لاستوديوهات راج كابور في بومباي قال لنا أشوك كومار أحد قدامى النجوم الكبار :

لقد بدأت مسيرتي في عالم التمثيل منذ عام ١٩٣٢ واستطعت أن أحقق نجاحا أوصلني الى أدوار البطولة .. وكان من الطبيعي مع تقدمي في العمر أن أؤدي أدوارا تتفق مع سني ، ولكني احتفظت أيضا بالبطولة في دور الأب . والآن أصبحت أقوم بأدوار البطولة فقط عندما يكون الدور ملائما لي كجد .. وأقولها بصراحة أن تكرار تمثيلي لهذا الدور يجعلني قادرا على التعبير بالحوار المطلوب حتى لو خرجت على النص ، فأدوار الجد تكاد تكون واحدة .. ! »

وابتسمت النجمة المخضرمة نرجس وهي تضيف : إذا سألتني فسأقول إن أفلامنا قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه في البداية . ففي عام ١٩٤٢ كانت النظرة الى الممثلات أقل احتراما مما يتمتعن به اليوم .. ولم نكن نلقى الترحيب الاجتماعي اللائق .. ولكن بعد أن ارتفع المستوى الثقافي في مجالات العمل السينمائي سواء بين الممثلين أو العاملين في الميدان أو المشاهدين ، فقد أصبحت الممثلات موضع الاحترام والتقدير . وأحب أن أقول بهذه المناسبة أن كثيرات من الممثلات الجدد كل همهن الوصول السريع الى النجومية ، بدون أن يثبتن أقدامهن في ميدانهن الذي أصبح يمتلىء بأصحاب الوجوه الجميلة دون إبداع في الفن .

فما أسهل أن تأتي بعرائس ووجوه يصنعها المكياج ، ولكن ما أصعب أن تحصل على فنان .

الأطـلال

إلى جانب السينما الاستعراضية الغنائية في الهند ، هناك أيضا أفلام الواقعية الجديدة التي ظهرت في أوائل الخمسينات .. وهي سينما تعبر عن واقع المجتمع ، وكان أحد رائديها هو « ساتيا جيت راي » أبو السينما الواقعية في الهند ، والذي أخرج فيلم « الأب بانشالي » وحصل على أكبر جوائز عالمية في مهرجان كان وبرلين وسان فرانسيسكو وكندا ومانيلا .. أما الرائد الثاني للواقعية السينمائية التي يمزجها بالخيال فهو المخرج العالمي الواقعي « ميرنال سينج » الذي شاهدنا له فيلم « الأطلال » الفائز بعدد كبير من الجوائز العالمية . ونجمة الأطلال هي

« تشابانا عزمي » أشهر ممثلة في كلكتا . والأطلال فيلم يعتمد في بدايته على الخيال ويسجل صراعات البشر والمصير الحتمي . وهو يصور معركة تترتب عليها علاقات معقدة . خيانة واخلاص . . هروب وتورط . . كل ذلك وسط حطام مفعم بالمأساة . . ومرارة الحياة . . والقصة تحكي عن ثلاثة أصدقاء يذهبون في اجازة لمدة يومين هربا من صخب حياة المدينة للاستمتاع بهدوء الأطلال التي كانت ذات يوم دارا يمتلكونها . هناك يفاجأون بالدار وقد أقامت فيها أسرة مكونة من أم وابنتها . . الأم مشلولة وعمياء . . تعيش على أمل عودة ابن شقيق لها ، كان غائبا وقد وعد أن يحضر ذات يوم ليتزوج ابنتها . لكن الأمر كان على غير ما تشتهي . فهذا الشاب كان قد نسي وعده القديم وتزوج وأقام في المدينة مع زوجته . وتعرف الابنة الحقيقة لكنها تحتفظ بها لنفسها دون أن تخبر أمها .

وعندما يدخل الزائرون يجدون أنفسهم في وضع غريب ، مما اضطرهم الى تمثيل مسرحية صغيرة تعطي الأم العمياء أملا جديدا . وعندما يستعد الأصدقاء الثلاثة للرحيل عائدين الى المدينة يدور حوار بينهم وبين الفتاة التي تتحدث عن الذعر والحزن والوحدة التي ستعاودها مع أمها التي ستعرف الحقيقة يوما ما . .

وتمضي الحياة . . !

على أن من أشهر أفلام الواقعية ما يتناول المجاعة والفقر مثل فيلم « البحث عن مجاعة » . إنه فيلم يمزج الماضي بالحاضر ويعبر عن نظرة غضب الى الوراء حتى لا يتكرر الماضي البغيض مرة أخرى . صرخة قوية في شكل كوميدي ساخر . . تدور أحداثه عام ١٩٤٣ حيث قتل خمسة ملايين من السكان في ولاية البنغال . . وان المشاهدين لهذا الفيلم ليشعرون بالصدمة وهم ينظرون الى بشاعة الماضي وكيف سيزحف الحاضر إليه . . فالفقر والجوع ما زالا موجودين .

وأفلام الواقعية من ذلك النوع ليست عادة للتصدير . . لأنها تناقش مشاكل المجتمع المحلي حتى النخاع . . حيث العذاب اليومي من أجل مواصلة الحياة . سينما الواقعية تعبر عن حياة المجاعات المفزعة وهي تعتبر دراسة علمية في شكل سينمائي لظروف الفقر التي تقتل كل شيء . . الحب . . العواطف . . والحياة نفسها . . الحياة المؤلمة في الشارع الهندي . . بدون محاولات للتجميل الخادع كما يحدث دائما في معظم الأفلام الهندية الغنائية الاستعراضية التي ما زالت تتكلم عن « هند » أخرى غير الهند الواقعية . . !

رقص وموسيقا وغناء

الرقص والموسيقا والغناء ترافق كل أنواع الحياة في الهند . وهي تبعث البهجة والسرور في الاحتفالات والمهرجانات ، وتجدد ثقة الناس وايمانهم بقيمة تقاليد تراثهم ونبلها .

وتستمد فروع الفنون حياتها من جذورها التي تقدمها أسفار « الفيدا » المقدسة ، كتب المعرفة التي تؤدي طقوسها من خلال التراتيم والدعوات والرقي السحرية وصيغ القرابين . ويشرح كتاب « ناتيا شسترا » كيف أوعزت الآلهة إلى براهما « الخالق » أن يضيف الى أسفار الفيدا الدينية الأربعة سفرا خامسا عن الفنون يكون تعلمه بسيطا ومقبولا لدى الجميع . وهكذا كان هذا الكتاب « ناتيا فيدا » الذي يقدم للناس مختلف الفنون من عمارة وزخرفة ونحت ورسم وملاحم ورقص وموسيقا وإنشاد وغناء .

وفي الهند لا تنفصل العقائد والفلسفة والأساطير في أشكالها الفنية . ويرتبط الرقص والموسيقا بكل أنواع الاحتفالات . . أفراح وأعراس وأعياد ميلاد وحفلات تتويج واستقبال ضيوف وتقديم طقوس ومهرجانات حصاد .

وللموسيقا والرقص في الهند أساطير وأسرار . . فمنذ العصور القديمة ، خلع الهنود على نغماتهم الموسيقية صبغة مقدسة ، لا بد لمن يعزفها أن يراعي حرماتها ، لأنها صور من الغناء أداها الاله شيفا نفسه . وهناك أسطورة تقول : إن العازف « نارادا » لم يكن يهتم بالراجات (أي النغمات) المحددة ، وأنشدها في إهمال وقلة اكتراث . ولم يشعر العازف الا والاله فشنو قد أخذه والقى به في نار الجحيم . وهناك أطل العازف أمامه فشاهد رجالا ونساء يكون على ما تحطم من جوارحهم وعواطفهم . وأشار الاله فشنو الى هؤلاء الرجال والنساء وقال وهو يتميز غيظا : هؤلاء هم الراجات والراجينات التي شوهتها ومزقتها وحطمتها بعزفك المستهتر . وهنا بكى نارادا وأقسم بين يدي الاله فشنو أن يكون دائما في فنه أكثر اتقانا . . وأروع احتراما وتقديرا . . !

في قاعة الاحتفالات بهلتون التاج القريب من تاج محل . . شاهدنا عرضا موسيقيا رائعا يصحب غناء



● الرقص والموسيقى والغناء ترافق كل أنواع الحياة في الهند . . . حيث لا تنفصل العقائد والفلسفة والاساطير عن أشكال الفنون . . بعد أن خلع الهنود على نغماتهم الموسيقية صبغة مقدسة . . وتدرجت الرقصات من الحركات الدينية في المعابد الى الاسلوب القصصي والرمزي الذي يعبر عن أهواء الطبيعة ومزاج الانسان وتقلبات الحياة .





مطربة هندية من الجنوب .

ولاحظنا أن نغمات السلالم الموسيقية تكاد تكون متشابهة . . ولكن الأنغام تباينت حين أتاح قائد الفرقة لكل عازف أن يعزف على آلته الموسيقية المميزة لحنا منفردا لإظهار براعته . . وكان مما يلفت النظر بين هذه الأدوات قدر فخاري متواضع يسمى « الكاتام » يقوم العازف عليه بعزف نماذج من الأنغام الساحرة ، وحينما يصل الى قمة وروعة أدائه فإنه يقذف بالقدر فجأة في الهواء ويمسك به ثانية وبدون أن يفقد دقة واحدة في تسلسل الأنغام . .

سر الأنغام

والموسيقا هي روح الرقص . . وهما يرتبطان معا برباط وثيق . وفي مركز الفنون بمدينة مدراس وخلال العرض الموسيقي الراقص على مسرح كالاشترا كنا نسمع كلمة « راجا » على كل لسان من المستمعين الهنود ، وتصورنا انهم يقصدون بعض المهراجات القدامى الذين يحضرون الاحتفال . . ولكننا عندما سألنا مرافقنا عرفنا أن كلمة « راجا » هنا لها معان أخرى لا تمت للماديات بصلة قط . . ولكنها نغمات عاطفية تتكون من ستة موضوعات أساسية لكل منها خمس صور تسمى « راجيني » ، وكلمة راجا نفسها معناها لون أو عاطفة أو حالة نفسية . وأضاف مرافقنا قائلا إن الموسيقي الهندي عندما يريد أن يعرف شيئا من الموسيقا فإنه يختار نغما واحدا من هذه الراجات ولا بغيره . وذلك النغم يختاره الموسيقي من الحالة النفسية التي يريد الايحاء بها وهي ترافق تصويره للفجر أو الربيع أو جمال المساء أو النشوة . كما يجب أن يختار الراجا أو النغمة المرتبطة بالزمن الذي يعزف فيه . . فلكل راجا زمن معين من اليوم أو السنة . . حتى ليقال ان أسطورة هندية تؤكد ما لهذه الراجات من قوة روحانية فتقول ان راقصة من البنغال أزالت مجاعة وقحطا عندما غنت إحدى الراجات . . وهي المسماة « منع مالار » أي نغمة استنزال المطر . . !

كانت الفرقة التي تؤدي العرض الموسيقي الراقص على المسرح تتشكل من عدد قليل من العازفين إذا قيس عدد أفرادها بالعشرات الذين تضمهم أي فرقة موسيقية في أي بلد آخر . كان بعض الموسيقيين يعزفون على طبول ذات أشكال وأحجام غريبة . وكان البعض يستعمل مزامير مزخرفة كالفلوت وأبواقا ملتوية كأنها الثعابين . . أما الآخرون فيعزفون على مجموعة منوعة من الآلات الوترية تبدو عليها علامات الاتقان والبراعة والدقة في الصناعة كما كان بعضها مرصعا بالجواهر والأحجار الكريمة .

وكان أحد الموسيقيين يعزف على احدى الطبول التي يسمونها « مريدانجا » ، وهي تشبه البرميل الصغير ، في كل طرف من الطرفين شد غشاء جلدي رقيق يمكن تغيير درجة نغمته بجذبه أو بارخائه بواسطة مفاتيح صغيرة من الجلد ، وبين الغشاءين غشاء ثالث أضيف إليه شيء من مسحوق المنجنيز ومرق الأرز وعصير التمرهندي لكي يحدث نغمة فذة غريبة في نوعها . . ويقدم الطبال وحده عروضا في الطبل . ويؤدي دوره دون أن يستعمل شيئا سوى يديه . . يخبط براحته أحيانا ، وبأصابعه ، أو بأطراف أنامله أحيانا أخرى .

وتتبعنا عزف صاحب (التمبورة) . . وهي قيثارة لها أربعة أوتار طويلة تبعث نغماتها موصولة بغير انقطاع ، وهي بذلك كأنها البطانة العميقة الهادئة المصاحبة لموضوع القطعة الموسيقية .

أما آلة « الفينا » فهي مرهفة الحساسية لدرجة تميزها عن غيرها من الآلات . . محددة الأصوات تحديدا واضحا ، وأوتارها مشدودة فوق عارضة رقيقة من المعدن ، وفي أحد طرفيها طبلة خشبية يغطيها غشاء من الجلد وفي طرفها الآخر قرعة جوفاء تردد الصدى . وكانت تلك الأوتار دائمة الذبذبة بواسطة مضرب صغير في يمين العازف بينما يسراه تغير النغمات بأصابع تتحرك في براعة من وتر الى وتر .

والواقع أن الاستماع للموسيقا في الهند فن وحده . وهو يتطلب تدريبا طويلا للأذن والروح . وقد لا يفهم المرء ألفاظ الغناء نفسه ، ولكنه مع ذلك يتوه بين المعاني الغريبة وهو يستمع الى الموسيقا كما لا يوجد خلاف حول الأغنية وبأي لغة تغنى ، وما أكثر ما يتذوق المرء الموسيقا ، والغناء الهندي فيستمع الى الغناء ولو لم يكن يفهم معناه .

الرقص الهندي

وهذا هو بالضبط ما يحدث عندما نرى الرقص الهندي . . ويمكن مشاهدة أساليب الرقص مصورة في أوضاع يصعب تحليلها ، وفي خطوات مثيرة رائعة لرقصات « بهاراتاناتيام . . وكاتاكالي » وكشيبودي .

رقصة بهاراتاناتيام تراث قديم جدا ، يعود تاريخه الى ألفي عام ، شاهدناها في أفضل صورها وأشكالها ، وفي جميع فنونها الكلاسيكية الساحرة في « كالاشترا » . . ورأينا جميع الأساتذة الكلاسيكيين

من الرجال ، لا يرقصون بأنفسهم ، بل يقدمون تعليماتهم الشفوية بحركات من أيديهم . والراقصة تتطلب من الراقصة التحلل التام من الروابط الدنيوية ، والسمو النفسي في الفن الالهي . . وهي ديناميكية الحركة وتقوم على توزيعات موزونة للأوضاع الجثمانية للساقين والقدمين ، وتتيح للأيدي أن تتقاطع في خطوط مستقيمة وتأخذ أوضاعا تعزز الأداء الجمالي للتكوين الجسدي . .

ورقصة كاتاكالي . . بأزيائها الرفيعة المستوى وزينتها الأنيقة . . رقصة درامية ساحرة متقنة ، وفي أداء تقليدي يقام في الميادين والساحات العامة . ويصحب الرقصة التي يؤديها الرجال نقر على الطبول لاغراق المشاهدين في جو سحري . والراقصون يضعون على رؤوسهم أقنعة وأغطية رأس ويرتدون تنانير غريبة ويلونون وجوههم بمكياج يتوافق مع الأنواع المتباينة من الرقصات . ويصحب الرقصة رواد يتحاورون وهم يعيدون إلى الحياة تفاصيل الحكاية الأسطورية .

ورقصة كوشيبودي . . رقصة الدراما الساحرة . . وقد نشطت وانتعشت في الأزمان السابقة ، وتؤدى بحركات نشطة مفعمة بالحيوية .

الى جانب ذلك فهناك رقصات « نادراتري » وتستمر تسع ليال . . وأكثر الرقصات حيوية ونشاطا تسمى « ديبوالي » وتقدم في مهرجان الأنوار ، والذي يحتفل به في جميع أرجاء جنوب الهند بتقاليد رائعة زاهية ، وهي احتفالات الحصاد وتستمر لمدة ثلاثة أيام في تاميل نادو . .

وقد يبدو الرقص الهندي لبعض العيون دعوة فاجرة . . غير أنه في الحقيقة فن رائع بعيد كل البعد عن هذه النظرة التي ينظر الآخرون بها إليه . وقد استمر طوال قرون طويلة من التاريخ لونا من ألوان العبادة ، وعرضا رائعا لجمال الحركة والايقاع ، وتكريما وإجلالا للآلهة ، وليس فيه عرض للجسد بقدر ما يعنيه من إعطاء صور للكون في دوراته المتوافقة والتغير في ظواهره ، وقد كان الاله شيفا نفسه إله الرقص . . وكانت رقصته ترمز لحركة العالم نفسها . . !

وما أجمل فن الرقص الذي قدمته الراقصة المحترفة التي عرضت علينا رقصاتها في قاعة فندق تاج محل ببومباي . .

لقد قدمت فنا تدل كل حركة فيه ـ وخاصة حركات الرأس والعينين وانثناءات الجسم وتموجات الأصابع واليدين ـ على معان لطيفة دقيقة ، كما تدل على رشاقة في التثني مما لا يعرفه الرقص الغربي وجزء كبير من الرقص الشرقي .

الرقص له مفاهيم

التلقائية والبديهية والقدرة على بعث البهجة في النفوس هي كلها روح الرقص ، ومطلب كل راقصة وهي تسعى الى التعبير من خلال حركات الجسد والأطراف والعيون بما يحقق أقصى درجات الكمال ويشد الذهن الى أقصى درجات الاستمتاع الفني .

قالت لنا روكميني دايفي الرائدة صاحبة الشهرة العالمية في مجال هذا الفن في الهند ونحن في قاعة « تاج محل » :

ان مفتاح الفن الجيد ليس في القدرة على توصيل الرسالة الى مشاعر المشاهد . . وتحقيق البهجة والمتعة لديه . . إنما هو في القدرة على تبليغ هذه الرسالة الى روح الفنان والمشاهد في آن واحد . .

وفي الهند أكثر من شكل لفن الرقص الكلاسيكي وكل من هذه الأشكال تخصصت فيه مناطق معينة في البلاد ، وهي تمثل نوعية الثقافة والروح الشعبية وتحدد بصماتها الفنية . واذا كان من أبرز هذه الأشكال والأكثر شعبية في الوقت الحاضر رقصة « بهاراتاناتيام » في تاميل نادو ورقصة كاتاكالي في كيرالا وكوشيبودي في أندر برادیش ، فإن هناك أشكالا للرقص الكلاسيكي تتداخل مع أشكال أخرى من الرقص الشعبي نصف الكلاسيكي يقدم مصحوبا بالتمثيل الاسطوري . . وفي الوقت الحاضر فإن الأشكال الرئيسية تقدم في كل أنحاء البلاد وليس فقط في منابعها . وهي كلها تقدم بألوان متباينة من الأزياء والشعر والأنغام مع تباين في الآلات الموسيقية المصاحبة لها .

وأوضحت لنا ديفي تفاصيل وأشكال الرقصات فقالت : إن الرقص الهندي يعتمد على مفاهيم وأفكار تقليدية أو عقائدية أو حكايات وأساطير دينية ، فرقصة « ميريتا » غاية في النقاء ، وهي حركات تجريدية مثالية تعبر عن مفهوم الجمال وتؤدي بإيقاع متزن معبرة عن النشوة الانسانية ببساطة شديدة . أما رقصة « النيريتيا » فهي تعبيرية تمثل فكرة قصيرة محدودة .

وتؤدي الراقصة رقصتها بتعبيرات وجهها وإيماءات يديها ، وكل إيماءة تمثل كلمة أو جملة أو فكرة ، وترتبط الايماءات والتعبيرات بنغمات الموسيقا









● الجورو هو معلم جميع الفنون .. وهو يخضع تلاميذه لقواعد الشكل الفني ويحرص على التناسق البدني وخاصة في ما يتفق مع فن الرقص .. وتعود العلاقة بين المعلم والمتعلم الى الملامح الرئيسية للثقافة الهندية .

المصاحبة حيث تنشأ لغة جديدة يستطيع المشاهد أن يرى كلماتها وهي تتطاير حوله من خلال حركة عينيها وحلاوة الابتسامة على شفتيها . وهذه القدرة في التعبير هي ملامح رائعة للرقص الهندي الذي تصاحبه نغمات الراجا التي تتفق مع الحالة النفسية والمزاجية والعاطفية للراقصة كما تنقلها الى المشاهدين . والراجا غير « التالا » التي تعتبر نبضة القلب للأغنية والتي تضبط رتم الايقاع المتناغم المتناسق . .

أفكار وخيالات

أشكال الرقص الهندي تأخذ أفكارها وموضوعاتها من الميثولوجيا الهندية الغنية بالأساطير والخيالات . . فالاله فشنو « الحافظ » في تجسداته العشر ، هو أكثر آلهة الهندوس شعبية في عالم الرقص الكلاسيكي ، ومعه زوجته لاكشمي إلهة الجمال والثروة ، التي تظهر للناس في هيئة الاميرة سيتا رفيقة الأمير راما ، الذي يتجسد فيه أيضا الاله فشنو في أسطورة « الرامايانا » إليادة الهند . . وهما معا مصدر واسع لأفكار الرقص الهندي . . وهو ما يحدث أيضا عندما تقدم حكايات راقصة تأخذ أفكارها من « المهابهاراتا » أوديسة الهند ، حيث يتجسد فشنو في جسد كريشنا وتكون رفيقته لاكشمي في هيئة رادها . . ومن خلال حكايات طفولة كريشنا تقدم صور من الأخلاقيات الخالدة والقيم الرائعة في مختلف أشكال الرقص الهندي . . بالاضافة الى تصوير المشاعر العاطفية



الراقصتان الشهيرتان كمالا ورادا
تقدمان عرضهما على مسرح كالا شترا

والانجذاب الروحي بين الرجل والمرأة مع تباين الحالة النفسية والمزاجية الانسانية .

شاكونتالا والمسرح الهندي

لعل السر في النهضة السينمائية والتمثيلية هو أن الهند من أقدم بلاد العالم وأكثرها شغفا بالتمثيل . وهي أشبه في ذلك باليونان . . أرض الاغريق الأقدمين التي اشتهرت برواياتها التمثيلية الرائعة . . ولم تكن المسارح القديمة في الهند مقصورة على المدن ، بل كانت متغلغلة في القرى . . حيث يجتمع أهل القرية في المواسم الدينية والأعياد لمشاهدة المسرحيات التي تقدمها الفرقة التمثيلية للقرية حيث تمثل قصصا وروايات مبسطة مستمدة من صميم حياة القرية نفسها ، بكل معتقداتها وعاداتها ، وقد ظل المسرح الهندي متعثسا الى أن كان القرن الثامن عشر والتاسع عشر حين أصابه الركود ، ثم ما لبث أن أخذ يستعيد نشاطه وقوته في أوائل هذا القرن . وزاد نجاحه حتى أصبح في الهند اليوم مسرح قومي ، كما أنشئت أكاديمية وطنية للتمثيل والرقص والموسيقا .

وليس هناك بين المثقفين في الهند من لا يعرف مسرحية « شاكونتالا » أروع المسرحيات الهندية القديمة التي كتبها « كاليداسا » والتي تعتبر بحق قمة المسرح الهندي القديم . . حتى أن « جيته » ـ وهو أقدر أدباء الغرب على التسامي فوق حدود الاقليمية وحواجز القومية ـ اعتبر شاكونتالا من بين أهم ما صادفه في حياته من عميق التجارب ، فكتب عنها معترفا بفضلها : « أتريدني أن أجمع لك في اسم واحد ، زهرات العام وهو في ربيعه الناشيء . . وثماره وهو في خريفه المنحدر الى فنائه . . وأن أجمع كل ما عساه أن يسحر الروح ويهزها ويغذوها ويطعمها . . بل أن أجمع الأرض والسماء نفسهما في اسم واحد . . إذن . لذكرت اسم شاكونتالا . . وبذكره أذكر كل شيء دفعة واحدة . . كأروع ما يكون » .

على المسرح في مدينة مدراس عاصمة الفنون والتمثيل والموسيقا شاهدنا عرضا قدمته طالبات معهد « كالاشيترا » للرقص والموسيقا .

فما هي قصة . . مسرحية شاكونتالا . .

لم تكن شاكونتالا تدري أنه الحب ، فقد عاشت حياتها كلها في داخل هذه الصومعة الصغيرة على طريق الغابة منذ تبناها « كنوى » كبير الرهبان البراهمة . ولم تكن تدري حين راحت تدور مع صاحبتها بين الأزهار والورود ، ومن بين شفتيها



آلة « الفينا » بين يدي الرئيس الراحل جمال عبدالناصر وهو يتلقاها هدية من كبار الموسيقيين خلال زيارته للهند . وفي الخلفية صورة المهاتما غاندى . . روح الهند الحية .

ينطلق نغم رائع يملأ أفئدة السامعين حبوراً ان الملك دثيانتا قد قادته قدماه الى هذا المكان - إذ ابتعد عن رجاله وهو في رحلة صيده متخللا الشجيرات - لينصت في لهفة وشوق الى هذا الصوت الملائكي ، وليمد بصره متسللا ليشهد أجمل ما رأت عيناه .

ولم يكن من الصعب على الملك أن يجد الوسيلة ليخرج من مخبئه ، ويقترب من الفتاة التي اهتزت وكادت تسقط من فرط الاضطراب بين يدي صاحبتها . ولم يكن بد أيضا من أن تلتقي العينان ويتألف القلبان ، وأن يسقط الاثنان في غمرة حب جارف ، بعد أن تتوالى أيام الصبر والملك لا يبرح مكانه بجوار صومعة الراهب الغائب ، وفي انتظار أن يعود لينال بركته على زواجه من ربيبته الرائعة . . شاكونتالا .

ولكن الأيام تمضي والراهب لا يعود ، والقلبان الوالهان لا يجدان ما يمنعهما من الاقتران بعد أن اشترطت شاكونتالا على الملك أن يظل الأمر سرا ، وألا تسافر معه إلا بعد عودة الراهب كنوى ، واستئذانه والحصول على بركته . . وإذ تتأخر عودة الراهب وترفض الفتاة أن تنطلق مع زوجها بدون إذن أبيها ، يجد الملك نفسه مرغما - تلبية لنداء جاءه من عاصمة ملكه - أن يغادرها ، بعد أن وضع في إصبعها خاتمه الملكي ، وأن يطلب منها انتظاره حتى يعود ، ليأخذها لتزين قصره الكبير . .

وتتوقف الحياة في قلب شاكونتالا . في انتظار أن يجيء يوم اللقاء وتمضي الأيام الوالهة بالفتاة ، وفي قلبها اضطرام وجودي ، وإذ هي مستغرقة في أحلامها وسرحتها ، لا تنتبه الى الناسك « دروشة » وقد جاء يدق بابها . فلم ترد عليه إلا بعد وقت طويل . وعندما فتحت الباب آخر الأمر بعد انتباهها وتصورها ان زوجها الملك قد عاد ، إذ بها تفاجأ بالناسك يطلب طعاما . وإذ أخرجها ذلك من فرحتها ، امتلأت بالناسك ضيقا وتبرما . . فردته وصفقت من ورائه الباب .

وارتفعت لعنة الناسك رهيبة مرعبة :

« لك الويل بالعينة بما جرؤت أن تستخفي بضيف مثلي . . فلينساك ذلك الذي شغلت به ولا يذكرك أبدا . . ولينكرنك حتى آخر الحياة » . .

وتسمع رفيقتا الفتاة دعاء الناسك ، فتأخذ بهما صفعة مرعبة ، فهما تدركان أن اللعنة ستحيق بالفتاة

فينساها حبيبها الذي مضى ولم يعد بعد .. وتنطلقان الى الناسك تستغفرانه وتستعطفانه غضبها وتشرحان له أمرها .. وإذ يرق قلبه يكون جوابه :

« كلمتي لا تبطل .. ولكن أثرها يزول عندما يرى من نسيها خاتم الزواج » .

قال هذا ومضى . واستردت الفتاتان أنفاسهما ، فقد كانتا تعرفان أن الملك كان قد جعل خاتما يحمل اسمه في أصبع شاكونتالا ، وان هذا الخاتم رقية تذكر من يصيبه النسيان .

في هذا الوقت يكون الراهب كنوى قد عاد من حجته المقدسة . ولا يجرؤ أحد على إبلاغه بقصة زواج ربيبته بالملك . غير أن الراهب يسمع صوتا كأنه يهمس في أذنه ويقول له :

« إن في بطن ابنتك جنينا .. أبوه هو الملك دوشيتنا .. فأبشر » .

ويبارك الراهب ابنته . ويأمر بعض أتباعه بأن يكونوا على أهبة الرحيل للسير الى حيث قصر الملك ، ومعهم عروسه التي يباركها ويرسلها إلى زوجها مكرمة معززة .

وينطلق الركب في الطريق الى العاصمة .

وفي القصر ، بينما دشيانتا في قاعة الحكم ، يبلغه الحراس بقدوم نساك حاملين رسالة إليه من الراهب البراهمي كنوى .. واذ يستقبلهم الملك وهم يدخلون متقدمين شاكونتالا التي غطت وجهها بحجاب ثوب الزفاف ، يطيل الملك اليهم النظر في حيرة ، وهو يتساءل عن رسالة الراهب العجيبة . ويتقدم إليه كبيرهم فيقول :

« ان الراهب الأعظم أمرنا أن نبلغك انه صادق على الزواج الذي عقدته على هذه السيدة سرا .. وهو يبلغك أنه يبارك ولدك الذي هي حبلى به » .

ويفتح الملك عينيه في دهشة واستغراب :

ـ زوجة .. وقران ؟ وولد أيضا ؟ ما هذا الذي تقولون ؟

وتصعق شاكونتالا ، ويزداد بها الرعب وهي تسمع الملك يقول :

ـ من قال انني تزوجت هذه المرأة ؟

ويقول رسول كنوى في حيرة : أيجمل بملك أن يحيد عن سبيل الحق ، ويخلف العهد ؟

ويصرخ : سؤال قائم على إفك وبهتان .

ويكشف الرسول الحجاب عن وجه شاكونتالا المصعوقة ليذكر الملك بزوجته .. غير أن دشيانتا لا يذكر شيئا ، وتحاول شاكونتالا أن تذكره بنفسها فتحكي كيف تعارفا وتزوجا .. ولكنه يهز رأسه وهو ينكر كل ما قالته ويتساءل عن الدليل على صدقها .. وتمد شاكونتالا إصبعها لتعرض على الملك خاتمه .. وتكاد تسقط على الأرض .. لقد كان إصبعها خاليا .. لا خاتم فيه .. ! فقد سقط منها وهي في الغسل حيث تعبدت في حوض « ساكي » المبارك قرب المدينة .

وتلقى شاكونتالا الهون ، ويتحطم رجاؤها ، فترفعها معجزة الى أجواز الفضاء ، حيث تطير إلى غابة أخرى بعيدة عن الجميع .

هناك .. تلد شاكونتالا ولدها « بهاراتا » العظيم الذي كتب على أبنائه من بعده أن يخوضوا معارك « المهابهاراتا » .. أودية الهند ..

ومضت الأيام ..

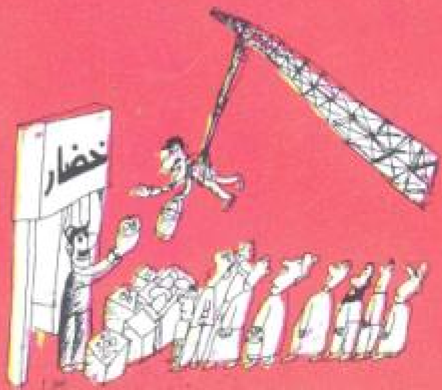
وذات يوم كان أحد السماكين يشق بطن سمكة اصطادها : فلمعت لعينيه جوهرة عبارة عن فص خاتم ذهبي .. وكان الخاتم هو نفس خاتم الملك دشيانتا .. وعليه اسمه الملكي ..

واقتيد الصياد الى الملك .. ولا يزال الخاتم الذي حاول أن يبيعه في السوق بين أصابعه .. وما كادت عينا الملك تقع على خاتمه ، حتى دارت رأسه .. وإذا بذاكرته تعود اليه . وصرخ الملك : ابحثوا عن شاكونتالا .. إنها لم تكذب .. إنها زوجتي .. وأم ولدي .

ويعود الحب صاعقا عارما الى قلب دشيانتا .. وينطلق في جنون يبحث عن الحبيبة التي فقدها . ويقسم ألا يعود الى قصره إلا ومعه شاكونتالا .

وذات يوم .. والملك على قمة الهيمالايا يواصل رحلة البحث ، إذ بطفل صغير يلعب غير بعيد منه أمام صومعة صغيرة منعزلة على السفح ، وينحني يداعب الطفل وهو يبكي إذ تذكر أن له ولدا لا يعرفه .. وفجأة يسمع صوت من داخل الصومعة .. صوت الأم تنادي ولدها بهاراتا ..

وتخرج شاكونتالا من الصومعة .. إنها هي حبيبة قلبه بلحمها ودمها وجمالها الملائكي الرائع إلا من مسحة من حزن وأسى . ويجثو الملك عند قدميها . ويلتمس عفوها . وبعد تردد تستجيب الفتاة لاستعطافه وقدعاد حبها أقوى مما كان فتعفو عنه ، ويعود ثلاثتهم في الطريق الى القصر ، بينما ترتفع أصوات الموسيقا .. موسيقا حالمة حانية كأنها تهبط من السماء .. ويرقص الجميع مع انسدال الستار على مسرحية .. شاكونتالا .. □



مضحكات الشدائد

بقلم : الدكتور عبدالسلام العجيلى

الشهر رمضان ، والوقت بعد صلاة العصر . ومن عادة الشيخ بعد أن ينتهي من إلقاء درسه في زاوية من المسجد ، وأحيانا قبل أن ينتهي من إلقائه ، أن يسند ظهره الى السارية خلفه ، ويترك للمتحلقين حوله أن يتحدثوا اليه ، والى بعضهم ، في أمور الدنيا بعد أن حدثهم هو في أمور الدين . دار حديثهم في هذا اليوم على العسرة التي تطبق على الناس فيما يحتاجون اليه من مأكل ومشرب وعلاج ، وفي حاجتهم إلى ماهو غير ضروري لعيشهم في الأصل ، ولكن ملتزمات الحياة العصرية جعلته ضروريا . قال الشيخ :

ـ هذه حكمته جل وعلا في صيام رمضان : أن يدرك من شبع حاجة من يجوع ، ويدرك من وجد حاجة من لايجد .

قال أحد الحضور : المشكلة ياشيخي أن الذين يجدون ـ إن صاموا قل أن يحسوا بحاجة الذين لا يجدون .

قال الشيخ : لماذا تقول هذا الكلام يا بني ؟ كل من أعرفهم من ذوي المال يؤدون فريضة الصوم والحمد لله .

قال المتكلم : المال وحده لم يعد يكفي لكي يجد الانسان مايريده ، في هذه الأيام لابد لك من شيء آخر لكي تفيد من مالك : شيء تستطيع أن تسميه الجاه ، أو السلطة ، أو اسما آخر من هذا القبيل . . .

فتحسر الشيخ . أدرك مايريد مخاطبه قوله فأدار الحديث الى وجهة أخرى قائلا :

ـ سيجعل الله من بعد عسر يسرا يا ولدي . . لايمكن لشدة أن تدوم ، وما من شدة إلا ولها وجهة خير ، لماذا تصرون على التطلع الى الوجه العابس للشدائد ، ولا تبحثون عما تسوق إلى الفكر من عظة أو تفتح البصر عليه من جمال ؟

قال مستمع آخر : أو ماتثيره من ضحك ، أنا مع سيدنا الشيخ في أن للعسر الذي نشكو منه بعض المحاسن ، أستطيع أن أروي لكم منها حكاية تضحككم إذا سمح لي بذلك .

قال الشيخ : تفضل واحك ما تريد .

قال الرجل : انها واقعة شهدتها بعيني أمس ، ولم يروها لي أحد ، كلما عاد منظرها الى تصوري ضحكت .

قال الشيخ : أضحك الله سنك ، ماذا رأيت أمس ؟

قال المتحدث : أمس صباحا وقفت في الطابور أمام فرع مؤسسة الخضار في حارتنا ، أنتظر دوري في الحصول على ما أوصتني عليه أمّ عيالي من مؤونة هذه الأيام ، الطابور كان طويلا ، ولكن كلا منا نحن الواقفين كان يلازم مكانه في صبر منتظرا وصول الدور اليه . بالمناسبة الناس في حيّنا متقيدون بالنظام ، ولا ترى في طوابيرهم ما تراه من هرج ومرج أمام المؤسسات التموينية والأفران في الأحياء الأخرى ، ربما رجع الأمر في هذا إلى أن ذوي الجاه والسلطان الذين تكلم عنهم أخونا أحمد أفندي قليلون في حارتنا ، فالناس فيها سواسية لا أفضلية لأحد منهم

على آخر . وربما . . .

وهنا قاطع الشيخ المتكلم ، ليحول بينه وبين الاسترسال في الحديث عن مزايا حارته ، فقال :

ـ لم ترو لنا الواقعة يا أستاذ خالد . . .

قال الأستاذ خالد ، وهو المتحدث : لا تؤاخذني على الاستطراد يا شيخي . المهم أننا كنا طابورا طويلا من المنتظرين ، مطمئنين إلى أن أحدا لن يخرق نظام الدور ، فصفنا كان كالبنيان المرصوص لامجال للنفوذ بين لبنتين منه ، كذا نتحلى بالصبر الجميل ، وأمنية كل منا أن يبلغ منصة البيع عند باب المؤسسة . قبل أن ينفد ما في مستودعها من خضار ، إلا أن شيئا لم يكن بحسباننا قد حصل ، فقد وقفت الى جانب صفنا إحدى رافعات مصلحة الكهرباء التي تعرفونها ، رافعة لها ذراع طويلة منتهية بسلة ، هي التي يستقلها العامل الذي يصلح المصابيح المعطوبة في الشوارع ، أقول توقفت تلك الرافعة وأطلقت ذراعها بسلتها التي كان يمتطيها أحد العمال فوق رؤوسنا المصطفة في الطابور ، وتخطت الطابور كله ، ثم حطت السلة بمن يمتطيها وراء منصة البيع في مدخل المؤسسة . ورأينا بأعيننا أرطال البندورة والخيار والبرتقال تُعبّأ في تلك السلة الى أن امتلأت . حينئذ ارتفعت الذراع واستدارت ، مارة فوق رؤوس صفنا الطويل ، الى حيث أفرغت سلتها في غرفة سائق الرافعة التي كان محركها يهدر كأنه يهزأ من صبرنا وانتظارنا المهذب . . .

قال أحد السامعين : وسكتم على هذا ؟

أجابه الأستاذ خالد : لو أن أحدا زاحمنا على دورنا في الأرض لكان من الممكن أن لا يسلم منا ، اما هذا المزاحم من الجو فقد أخذنا به على غير انتظار ، لعلنا اغتفرنا له تجاوزه على حقنا لطرافة حيلته في التجاوز ، من ناحيتي لم أملك غير أن أضحك ، وضحك معي آنذاك كثيرون ، ولو أننا لم نضحك ماذا كان بإمكاننا أن نفعل ؟ يقول المثل : اذا أُكِلَ زادك بغير رضاك رحّبْ عليه . ومثل ذلك أقول اذا سلب حقك ولم تملك له ردا ، اضحك منه . . .

قال الشيخ : هذه سعة صدر منكم ، أنتم الذين رأيتم هذا وصبرتم عليه ، تشكرون وتؤجرون ان شاء الله . . .

قال رجل آخر من حضور حلقة الشيخ : ما دمنا في هذا الحديث فدعوني أقص عليكم واقعة مضحكة أخرى يا اخوان ، لم تجر لي شخصيا ، وانما سمعتها من ربة بيت كريم زرته في المدينة الكبيرة منذ أيام .

قال الشيخ : هاتها يا أستاذ بدر الدين .

قال الرجل : كنت في زيارة ذلك البيت فحدثتني سيدته ، وهي لاتشكو قلة المال ولا حتى نقص الجاه ، بهذه الواقعة التي جرت لها نفسها ، جرت لها هذه الواقعة عندما كانت في طريقها لحضور جلسة في الجمعية الثقافية التي هي عضو فيها ، وهي جمعية نسائية معروفة ، المشتركات فيها من صفوة سيدات المجتمع ، قالت : توجهت وصديقةلي الى مقر جمعيتنا ، وفي طريقنا لفت انتباهنا في مرورنا في أحد الشوارع تجمع غير عادي لجمهور من الناس ، سألت عن الأمر فقال لي أحد الوقوف ان صنفا من الزبدة النباتية مفقود من الأسواق منذ زمن ، يجري توزيعه في مخزن مؤسسة التموين في هذا المكان ، قلت لرفيقتي آنذاك انها فرصة أتيحت لنا ، فلننضم إلى المنتظرين لعل كلا منا يحصل على علبة من هذا الصنف الذي نبحث عنه ، فلا نقع له على أثر ، وهكذا وقفنا في الدور . وأحسب أن باعة المخزن عاملونا بأفضلية منحنا اياها مظهرنا اللائق ، وكوننا امرأتين بين مجموعة من الرجال ، إذ لم يطل انتظارنا ، فحصلنا على علبة زبدة لكل منا ، وتابعنا سيرنا فلحقنا جلسة الجمعية وهي لاتزال في بدايتها . . .

وسكت الأستاذ بدر الدين هنا قليلا فقال أحد الحضور :

ـ ليس في هذه الواقعة ما يضحك يا أستاذ ، ربما كانت فيها دلالة على تواضع السيدة ذات المال والجاه في وقوفها في الطابور مع الكادحين والفقراء المحتاجين .

قال الأستاذ بدر الدين : أهو تواضع أم حاجة لم ينج من الافتقار اليها ذوو الجاه ، والمال ، ولا السيدات ذوات المكانة في المجتمع ؟ لم تسمع بعد بقية الحكاية كما روتها لي تلك السيدة ، قالت انها حضرت الاجتماع في اوله فتطلعت اليها رئيسة الجلسة قائلة في عتب : تأخرتما ، وأبحاث جلستنا اليوم ذات أهمية خاصة ! ابتسمت صاحبتنا وأخبرت الرئيسة على مسمع من الحاضرات بما أخرها ورفيقتها في طريق

مجيئها ، مشيرة الى علبتي الزبدة في زاوية القاعة ، وهنا حدث ماهو مضحك في الحكاية ، قالت السيدة : ما فرغت من كلامي حتى تعالى صوت الحاضرات ، إذا لم يكن كلهن فالكثرة منهن ، متسائلات : زبدة نباتية ؟ ! في أيّ مخزن ، وفي أيّ مكان ؟ فلما سميت لهن المكان الذي ماكان بعيدا عن حيث كنا رأيت الكثيرات يسرعن في مغادرة القاعة ، ويخرجن متجهات الى المخزن الذي أشرت إليه ، تاركات مقر الاجتماع قاعا صفصفا . . .

ضحك بعض الحاضرين لما انتهت به حكاية الأستاذ بدر الدين ، بينما تبسم الشيخ وقال :

ـ لاتلوموا هؤلاء السيدات ، صفوة المجتمع ، على ما أضحككم من تصرفهن ، يجب أن نعترف بأن لهذه الحكاية مغزاها المشجع ، مهما كانت المرأة من علو المنزلة الاجتماعية ومن الثروة فهي لاتتخلى عن هموم البيت التي هي ربته والمسؤولة عن أحواله . . .

وهنا تدخل في الحديث المعلم مصطفى ، وهو سائق سيارة في احدى المصالح الحكومية ، قال :

ـ ليسمح لي سيدي الشيخ برواية واقعة جرت لولدي طالب ، لاادري كيف تصنفونها ، كل من رويتها له ضحك منها ، بينما بكى منها ابني بكاء طويلا .

قال الشيخ : أخبرنا يا مصطفى بهذه الواقعة ، وليحكم عليها اخوانك الحاضرون .

قال المعلم مصطفى : ابني طالب ، كما يعرف بعض الاخوان ، تلميذ داخلي في معهد صناعي في المدينة الكبيرة ، قضى اجازة نصف السنة عندنا ، وحين عاد الى معهده زودته أمه بزوادة من الكبة الحلبية ، كبة دراويش كما يسمونها ، كان الصبي فرحا بهذه الزوادة ، فهي تصمد أياما طويلة ، ويقدر أن يلوّن بها وجبات غذائه حين لايعجبه طعام المعهد ، في رحلته إلى المدينة توقف الأوتوبيس الذي أقله أمام أحد الحواجز المألوفة ، ورقى اليه عسكرى لتفتيش الركاب وما يحملون ، وصل ذلك العسكرى إلى طالب وأمره بأن يفتح الجعبة اليدوية التي كانت أمامه ، ففعل ، وحين وقعت عين العسكرى على محتوى الجعبة رفع كفه وأهوى بها على خد الصبي بصفعة حادة وصاح به منتهرا : كبة ؟ . . وكبة دراويش ؟ ! ثم نزل من السيارة حاملا بيده تلك الزوادة ، منهيا بأخذها تفتيشه ، قال لنا طالب حين عاد الينا بعد عدة أسابيع : بكيت كثيرا يومها ، لم نتعلم في المعهد أن الكبة الدراويش من صنف الديناميت ، لماذا ضربني ذلك العسكرى ؟ كان يمكنه أن يأخذ كيس الكبة دون أن يهينني . ومادام قد ضربني ، لماذا لم يترك لي كيس الكبة ؟

أنهى المعلم مصطفى حكاية ابنه بتساؤله هذا ، وعلى الرغم من لهجة الحزن التي كان يتحدث بها ، فقد انطلقت الضحكات من بعض الحضور ، والشيخ نفسه لم يملك غير أن يبتسم ، وإن كانت ابتسامته مصبوغة بالأسى ، قال بصوت خفيض كأنه كان يحدث به نفسه :

ـ وما لاترى مما بقي الله أكثرُ . . .

قال المعلم مصطفى ، وهو كما ذكرنا سائق سيارة قليل الحظ من الثقافة :

ـ لم أفهم ياشيخي .

قال الشيخ : هذه حكاية قديمة يا معلم ، قرأناها في كتب الأولين ، فقد روينا من أكثر من طريق أن عبدالرحمن الأوسط ، أمير الأندلس ، كان في بعض الأسفار ، فعثرت به دابته وكاد يكبو لوجهه ، فتمثل قائلا : وما لاترى مما بقى الله اكثرُ . هذا الكلام هو عجز بيت شعر لم يكن الأمير يحفظ صدره ، أعني شطره الأول ، فسأل عمن يحفظ بيت الشعر هذا كاملا فجاؤوا اليه بفلان الزجالي الذي كان يروي البيت بتمامه ، وهو :

ترى الشيء مما تُتقى فتهابه
وما لاترى مما بقي اللهُ أكثرُ

وهذا يعني ، يا ابني يا مصطفى ، أن علينا أن نحمد الله على ما يصيبنا بالغا مابلغ ، ما جرى لابنك طالب يبكي ويضحك في آن واحد ، ولكن الغيب مملوء بما يبكي دون اضحاك ، فلنسأل الله أن يعيننا على ما نراه ، وأن يقينا مما لانراه ، ولا ننس أن أكثر ما نشكو منه هو جزاء سوء عملنا ، أما كفانا ما تحدثنا به في مشاغل هذه الدنيا الفانية يا أبنائي ؟ لنعد اذن الى مايهمنا من تعاليم ديننا ، إلى أين وصلنا في الكلام عن زكاة الفطر ياشيخ قاسم ؟

ورجع الشيخ بهذه الجملة إلى بحث أمور الدين بعد أن روّح عن نفسه قليلا بالحديث عن أمور الدنيا . . . □

قصة قصيرة

الرُّوَاق.. النَّاس

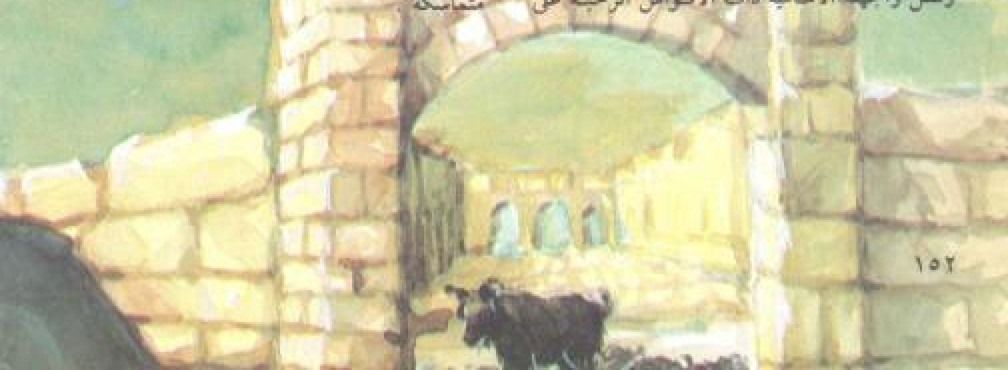
بقلم : ابراهيم زعرور

اليوم ماتت (أم التايه) ، أسبلت عينيها على صورة تاريخها المنقوص ، نشرت الاصابع النحيلة فوق الحشا ثم ماتت ، غار فيها عرق الحياة ، لكن الموت لم يستطع أن يطمس ذلك الغموض المتكهف في عتمة محاجرها ، فظل وجهها البيضاوي الشاحب مجلوا بلون كركمي باهت ، ينضو بصفاء نوراني صريح ، وفيض من تسامح صاف . ماتت أم التايه قبل أن تكتمل صورة تاريخها المجيد .

ورث أبو التايه عن أبيه ، عن جده ، عمن لا علم لنا بهم ، داراً فسيحة ، ذات سور عظيم ، يقف الجمل في ساحتها فلا يظهر منه شيء . سور من كتل حجرية ، مرصوصة بسمك باع ، شيده الجدود الأقدمون ، وتحصنوا وراءه ، يلتف حول ساحة تنحدر بميل طفيف للجهة القبلية ، حيث يجثم رواق مستطيل عملاق ، يستند أحد أركانه إلى الجدار ، وتطل واجهته الأمامية ذات الأقواس الرحبة على فضاء الساحة ، إنه صرح عملاق بثلاث بوابات عريضة جهمة ، تفتح أشداقها في وجه الساحة ، لكنها عارية من الأبواب .

ترتفع جوانب البوابات على عمد مربعة منيعة ، تتحول عند قمتها إلى أقواس تنعقد شاهقة بطول قامتين أو أكثر . وداخل الرواق بهو رحب ، تنهض في جنباته أعمدة ضخام ، شيدت قواعدها من كتل (غرانيتية) سميكة ، مصعدة رأسيا بطول القامة ، يبدأ الانحناء بعد هذا الارتفاع تدريجيا ، في الاتجاهات الاربعة ، ليقوم على تقاطع منحنياتها ، تشكيل متآلف من القباب والعقود ، كأنها أهلة تتدلى من السماء ، انه بهو جهم تفوح منه رائحة القدم .

وهنا وهناك تآكل الملاط لطول العهد ، وتساقط ، فتعرت الجدران العتيقة من بطانتها ، وبرزت هياكل ، وهي من قطع حجرية كلسية كما برزت ريش التقويس على هيئة رقاقات حجرية ، متماسكة





في منتصف الرواق تقوم مصطبة متوسطة ، تعلو الأرض بارتفاع أربع درجات ، يشغلها أبو النايه وزوجه ، وتحتل الأغنام بقية الرواق .

رجل وامرأة وقطيع من الأغنام الرابضة ، ودبيب تاريخ سحيق ، يتمطى في جوف الرواق ، وينبض في جوانب الدهاليز ، هذا هو كل ما هناك .

يمضغ الرجل طعام عشائه ببطء ، على ضوء قنديل أنهكته عتمة تقبض النفس ، وينحني جذع المرأة الواهن على شيء أمامها ، وهي محزونة كسيرة القلب ، ويداها الناحلتان تتراقصان بتناسق وأدب ، وتتألقان بحركة رشيقة خليقة براهب تتبع أصابعه حروف كتاب .

وليس ثمة شيء سوى أنفاس الأغنام الثقيلة ، الروائح الكريهة التي تعبق في جو الرواق الرطب ، وبعض الأغنام الصغيرة تجول باحثة عند أمهاتها ثم تتعرف عليها من روائحها ، وأمهاتها رابضة تجتر أيامها على مهل ، ودبيب التاريخ المنقوص في قلب المرأة ، وأثقال السنين الجاثمة على وجه الرجل .

تراخى جسده لهدهدة النعاس ، واستسلم بدنه المهدود لخدر لذيذ ، فهجع ، وسقطت لحيته على صدره ، ثم نام . وهنا تركت المرأة أشياءها ،



وقامت إليه ، فمددته على جنبه ، ثم سحبت فوقه لحافا ، وابتدأت رحلة التحرر من سطوة عذاب التعب ، فأخذت الدوائر الروحانية تتداح إشراقات مضيئة مضيية لعالم نوراني زاه .

فرأى الرجل نفسه صبيا يعلق من قدميه بسلسلة تتدلى من سقف الرواق ، ورآه حائرا وقد ضاعت عنه السخال في نزوة لهو طفولية ، ورأى السخال وهي تعيث في الزروع ، وتشوّف التسامح الشفيف وراء قناع الغضب الكاذب على وجه والده .

رأى نفسه صبياً يسرح بالسخال ، ثم يافعا يرعي الغنم ، ورأى نفسه شابا يوم تفشى المرض في الماعز فنفق معظم القطيع ، وحلم بالسنين العجاف التي ذهبت بوالده وبالبقية الباقية من الغنم .

وأخيرا رآه ملوذا بخبال قنوط على مرأى من أغنام - لا يملكها - راحت تتحداه وتهز في وجهه أذنابها ، تتقافز أمامه .. وعرفها بالواحدة .. هذه لفلان وهذه لعلان هذه ل ..... كان يسوق قطيعا لا يملكه ، يتجمع بين يديه في الرواق بالرأس ، والرأسين من سائر بيوت القرية ، يرعاه (على الدور) في مقابل وجبتي حليب القطيع في يوم الجمعة من كل اسبوع .

تاريخ سحيق يمتد بعمق خمسين عاما أو يزيد ، عبرها الرجل راعياً لا يعرف غير الماعز والمراعي وتقلبات الفصول .... عوالم لا تتوقف عن الدوران في رحلة أبدية .. شموس تبزغ ، وشموس تغيب ، قطيع سارح وقطيع عائد ، ورجل لا يعرف التوقف ولا يعرف الراحة ، ولو ليوم واحد في حياته .

وحتى في اليوم الأول من أيام العيد الكبير ، لم يكن يحظى بأكثر من ضحوية راحة ، يمر بها على ولاياه بقروشه القليلة ، ثم يعود مسرعا ويسرح بالقطيع .. فالغنم لا تتوقف عن الجوع في يوم العيد أيضا !

ظل يسرح طفلا ، ويسرح صبيا فيافعا وشابا ثم كهلا .. يسرح مريضا محموما ويسرح سليما معافي ، يفرح الناس فيسرح ، ويحزنون فيسرح ، تعيش القطعان في خلاياه وتنز مسام جلده فصولا ومراعي ، يسمي الأغنام مثلما يسمى الناس والأشجار والشموس ، يدعوها فتهرع اليه ..

تهرع أولا القطاه ثم الجفـراء ، والترعـاء ، والقتلاء ، والعفراء ، والكحلاء ، والجربـاء ، ويهرع الثني والربعي والفحل والفطيم . . وتهرع الأعشاب والأغصان والجبال والشوارع والينابيع والنجوم .

ويوم تجد احدى الجفراوات نفسها تتسكع حوله على المصطبة في أثناء تناوله العشاء ، لم تكن تنجو من التأنيب طبعا !

كما لم يكن ممكنا أن تقضم رغيف الخبز دون أن تتعرض للتقريع أيضا .

يدفعها عنه قائلا (روحي الله يرضى عليك بلا دلع . . . . . حيلي مهدوم) أو يقول لها :

(ألا تتركيني حتى أكمل اللقمة يا كافرة ؟ !)

وهنا ، تدرك العنزة المتسكعة ان هناك حدودا لما يمكن أن تحصل عليه .

من هذا الكل المتآلف بدأ ينمو على أصابع المرأة عمل عظيم .

مريم أو فاطمة أو عائشة أو خميسة أو أي اسم آخر لم يعد يشكل فرقا ، فقد نسيت الأجيال اللاحقة اسم المرأة الحقيقي تماما ، وصاروا ينادونها أم التايه .

فبعد بضعة أشهر من زواجها بدأت تشتهي الأشياء الغريبة في غير موسمها ، ثمرة « سريس » ، محمرة ، عنقود بطم[1] ، شنار مشوى ، فقالت النسوة الأكبر سنا : انه الوحام ، وبشرنها بالحمل المبكر .

فرحت المرأة ، وراحت تتحسس خصوبة بطنها المبكر وتتوه بين الأسماء ، وسرعان ما بدأت التساؤلات الفضولية المضطربة تدغدغ مسامعها .

ـ ماذا ستسمي بكرك يا فاطمة ؟

ـ والله ما أنا عارفة ، مازلت تايهة .

ـ ماذا ستسمون الولد يا فاطمة ؟

ـ لا أعرف حتى يأتي الصبي تصلي على النبي .

ـ ألم تهتدي الى اسم بعد ؟

ـ محتارة والله . . (وتايهة) بين الأسامي .

وظل الأسم تائها على الألسنة . .

ومر العام الأول ثم تبعه الثاني فالثالث والرابع الى أن بلغ الحمل ثلاثين حولا لا تنقص ، دون أن تنضج الثمرة أو يحين أوان القطاف .

فاستحكم اليأس في الخصاب ، وجف العود ، وانطوى الحشا على نذر أمضّه طول انتظار الوفاه . . ولكن اسم (التايه) التصق بالمرأة مع الأيام ، فصارت أما لولد لم يولد قط ، وطغى اسم (أم التايه) على اسمها القديم الذي نسيته الأجيال اللاحقة تماما .

ودفنت المرأه أحزانها في نسج البسط ، وراحت تتلمس تاريخها المنقوص في خيوط النسيج ، في الليل تغزل الخيوط ، وفي النهار تنسجها في قطع جميلة مدهشة .

وفي السنوات الأخيرة ، وجدت نفسها غارقة في قطعة نادرة ، دقيقة التعريق ، لطيفة الحواشي ، فأخذت تعيش نسيجها على مهل . . لم تكن تنسج ، وانما كانت توقع أحزان أيامها على البساط .

تنثني أصابعها السحرية النحيلة ، وتتراقص كمناقير دقيقة تلتقط الحب ، فيحسبها الرائي تعزف على وتر أو تتحسس وجه وليد .

كان الممكن الوحيد لحياتها هو هذه الحياة الموزعة بين البساط والرجل والرواق ، فأقبلت عليها بسخاء عارم ، وشوق تبوح به أصابعها النحيلة ، في علاقتها السرية بالخيوط .

وتجسدت سنوات الشوق في خطوط وتعاريق ، فبدأ الرواق على النسيج أكثر رواء . . الواجهة الأمامية ذات الأقواس والبوابات المرفوعة على عمد ركينة ، والرقاقات الكلسية التي حملتها النمنمات الدقيقة بثقل الأيام .

ومن الزاوية اليسرى يشع النور المتدفق من شق في سماء اللوحة الرمادية على الخلفية المعتمة . . وتطل من الجهة اليمنى عينان شائهتان في وجه موزّع الضياع بين الطفولة والكهولة . . الادغام التام لعالم الوهم بالحقيقة . . عالم سحرى نسجته المرأة ـ الاصابع بصبر عبقري .

وفي منتصف اللوحة ، تشمخ الأعمدة والقباب ، وتتوزع بين جلال النور وعظمة الظلال ، وفي البهو المسكون بالصمت الملغز تجول سخال حائرة بين الأعمدة ، وتتزين الطاقات الدائرية في جانب الرواق بأفاريز تبرز من حافاتها رموز وحشية لحيوات

---

(١) ـ اشجار البراري والجبال



أسطورية .. تلبست المرأة حالةً من الوعي المفرط بفوضى كون غامض وخاص ، راح ينساب من رؤوس أصابعها شلالات ونوازع ورموزا .

فكان الرجل .. وكان الرواق .. وكان البساط .. وتكونت امرأة .

وقبل أن تكتمل اللوحة وينطوي البساط ، نطح الفحل الأنقط أُمّ التايه ، بينما هو ينهد على فحل آخر في نوبة من جنون النطاح .

وكما يجدر بالفلاحة الفقيرة كتمت المرأة آلامها عن الرجل ، وباتت ليلتها في ألم لا ينفع فيه قول .

وفي الصباح سرح الرجل كعادته منذ خمسين عاما ، وفي الضحى قذف الرحم الماحل بمضغة دموية قدر الكف ماتت لها المرأه .... تمددت على المصطبة وغنت الخاتمة .

اليوم ماتت أُمّ التايه . أسبلت عينيها على تاريخها القتيل ، وفردت الأصابع النحيلة على الحشا .. ثم ماتت .. غار فيها عرق الحياة .. ولكن الموت لم يستطع أن يطمس ذلك الغموض الوثني المتكهف في عتمة محاجرها ، فظل وجهها البيضاوي الشاحب مجلوا بلون كركمي باهت ، ينضو بصفاء نوراني صريح ، وفيض من تسامح صاف .. ماتت أم التايه قبل ان تكتمل صورتها .

(ثم شيء في وجهها أقوى من الموت) هتف شيء في أعماق أبي التايه عندما عاد في المساء ، أخذته الصدمة .. هزها .. وربت وجنتيها ، جس النبض ، وتحسس الجسد ، ولكن الأصابع النحيلة تهدلت كالفرع الذابل ، ثم تثنت بتراخ ، وتساقطت الى جانبها بصراحة مرعبة ، فأيقن الرجل أن المرأة أكثر موتا مما يظن .

وكان الفحل الأنقط مأخوذا بتجليات الغريزة ، يتشمم السوائل المثيرة في أنثاه ، ويبعبع محموما بشهوة (الضراب)

وفجأه .... انقض الرجل فخطف الفحل ونتره فوق رأسه ثم حطمه بالأرض . وفي نوبة هذيانه راح يمزق شعر الحيوان المهشم « أنت السبب يا كافر ... أنت السبب » ، وأمام رعب التساؤل الغريزي الذاهل في عيون البهائم المذعورة ، خمد الاعصار في صدر الرجل ، فارتمى على المصطبة الى جانب المرأه ، ثم غرق في النشيج .

عندما كان الرجل يسوى قاع القبر ويفرش البساط تحت الجسد ، كان المؤذن يدعو الناس لصلاة الظهر .

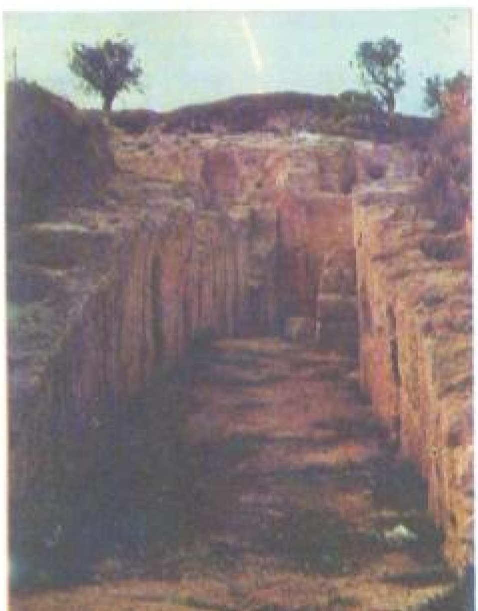
ولأول مرة منذ خمسين عاما ، يتأخر الرجل عن موعده كل هذا الوقت ، قبل أن يخرج بقطيعه الى المرعى ... □



حضارات سادت ثم بادت ..

اعداد : يوسف زعبلاوي

حضارة الاتروسكان
أسلاف الرومان



ـ الطريق إلى المقابر التي حرص الاتروسكان ، على أن تكون في باطن الأرض .

ازدهرت حضارة (الاتروسكان) في ايطاليا طوال أربعة قرون ، فيا بين القرن الثامن والرابع قبل الميلاد ، ومعنى ذلك أنها عاصرت قرطاجة ومدن اليونان ، وعاصرت كذلك روما في بداية عهدها ، ولعل قصتها مع روما ـ اعتبارا من بداية القرن السادس وحتى بداية القرن الرابع قبل الميلاد ـ هي بمثابة الفصل الأخير من حياة (الاتروسكان) وحضارتهم .

أصول الاتروسكان مازالت طي الغموض ، فبينما يؤكد (هيرودوتس) انحدراهم عن أهل ليديا في آسيا الصغرى ، ويروي قصة نزوحهم عن الدويلة الغنية التي كان من ملوكها الملك قارون الشهير بكنوزه ، وبقصته مع صولون ، حكيم اليونان ، يذهب المؤرخ (ديونيزيوس) إلى أن الاتروسكان ايطاليون أصلاء ، ولعل المؤرخ المذكور أجدر بالثقة في هذا الصدد ، فقد ظهر في بلدة (هليكارناسوس) الايطالية ـ جارة بومبي ، وشريكتها في مصير الدمار الذي حل بها ، بسبب ثورة بركان فيزوفيوس ـ وظهر أيضا في القرن الأول ، وليس في القرن

الخامس (ق . م .) ، أي في القرن الذي ظهر فيه (هيرودوتس) .

ويتضاعف الغموض الذي يكتنف أصول الاتروسكان ، فلو حاولنا الرجوع إلى كتاباتهم التي تلاشى أكثرها مع ألواح الشمع التي كتبت عليها ، ومع ملفاتها ، ولم يبق من كتبهم ودواوينهم إلا النزر اليسير ، وقد حاول المؤرخون استنطاقه فاستعصى على التحليل ، لأن لغة الاتروسكان بقواعدها اللغوية وبمفرداتها تكاد تكون فريدة في نوعها ، إذ لايشبهها شيء من لغات العالم القديم ، فهي تختلف عن اللاتينية ، لغة الرومان ، وتختلف أيضا عن لغة اليونان ، وهي اللغة التي أخذ الاتروسكان عنها حروف الهجاء ، وهي الحروف الفنيقية . ومهما يكن من أمر فقد تبين لعلماء الآثار أن لغة الاتروسكان محدودة بقدر قلة مفرداتها ، وذلك خلافا للغتي اليونان والرومان .

لاعجب إذن إن كانت الآثار والأطلال ـ لا النصوص والكتابات ـ هي المرجع الأول الذي يروي لنا قصة الحضارة الرائعة ، أما المرجع الثاني فهو ماكتبته الشعوب المعاصرة عنهم . ترى ماهي الصورة التي نخرج بها من هذين المرجعين عن حياة الاتروسكان وحضارتهم ؟



خريطة حضارة الاتروسكان

ترقينيا أهم مدن اتروريا :

عاش الاتروسكان في أواسط ايطاليا وعلى ساحلها الغربي ، واتروريا هو اسم المنطقة التي ظهروا فيها ، وسادوا ، وترقينيا هي المدينة الأولى بين مدنهم التي انتشرت في المنطقة ، والتي قد بلغ عددها ١٢ مدينة في القرن السادس قبل الميلاد . ولو ذكرنا أن يترايبنوس هو البطل الاتروسكي الذي وضع حجر الأساس للوجود الاتروسكي في المنطقة لما استغربنا تسمية المنطقة باسم (اتروريا) نسبة إليه ، وقل مثل ذلك في (ترقينيا) التي أسسها بطل آخر من أبطالهم هو طرخون في القرن التاسع ق . م ، على مرتفع صخري ، يعلو تربته رماد البراكين ،

وكان لترقينيا ميناء يقع على الشاطيء الغربي ، يعرف باسم (جرافيسكا) ، وكان لموقعه الاستراتيجي المسيطر على طرق الملاحة البحرية أثر كبير في ازدهار ترقينيا ، غير أن أكبر الأثر في هذا الازدهار يعود إلى عاملين اثنين ، أولهما سخاء الطبيعة في المنطقة ، حيث مياه الأنهار الوفيرة ، والتربة الخصبة التي ضاعف عطاءها الرماد البركاني الذي غطاها ، وثانيهما المعادن ، فقد كانت اتروريا غنية بالمعادن التي نجح أهلها في استخراجها من المناجم ، وفي صنع شتى السلع المعدنية منها ، علاوة على تصديرها .

الحياة مرح وحبور :

كان الاتروسكان واقعيين بالفطرة ، فما دامت هذه الحياة الدنيا تفتح أمامهم طريق السرور والسعادة فلم لايمضون على هذا الطريق المغري الجذاب ؟ ولم يختارون الطريق الآخر ، وهو طريق البؤس والكآبة ، مادامو مخيرين بين الطريقين ؟ لهذا كانت الرسوم واللوحات التي زينت بها جدران قبورهم ذات ألوان زاهية منعشة . الغريب أن هذه الألوان لم تبهت رغم مضي القرون ، أو لعله ليس بغريب ، لأنها في معزل عن ضوء الشمس .

واختلفت المشاهد التي حوتها تلك الرسوم ، فقد ضمت مشاهد الولائم والرقص والموسيقا ، ومشاهد



صيادون .. منهم من يصيد الطيور ، ومنهم من يصيد الأسماك . لعل في ألوان هذه اللوحة وفي الحركة الدائبة التي تكاد تنطق بها مايدل على روح الاتروسكان ، وحبهم للحياة ، ونزعتهم إلى المرح والسرور فيها .

صيد الطيور وصيد الأسماك ، ومشاهد المباريات والرياضة بأنواعها ، وشملت كل الالعاب الرياضية التي عرفها الاغريق ، كمصارعة الأسود ، أو إن شئت فسمها مصارعة الموت ، وهي الرياضة التي أخذها عنهم الرومان ، وأولوها جل اهتمامهم .
وعلى اختلاف تلك المشاهد في التفاصيل فقد جمع بينها حب الحياة ، والحرص على الاستمتاع بها ما أمكن ، وجمع بينها أيضا تكريم المرأة ، بل قل مساواتها بالرجل تماما ، بخلاف الاغريق الذين شاب نظرتهم إلى النساء شيء من الانتقاص إن لم نقل الاحتقار .

المعتقدات الدينية :

ويعجب المرء لاعتقاد الاوترسكان بالبعث بعد الموت ، وبالخلود ، ويعجب أيضا لجمعهم بين هذا الاعتقاد وبين تعلقهم بالحياة الدنيا ، وبلذاتها ، ومسراتها . لقد آمنوا بأن الموت ليس فناء ، وإنما هو مجرد تحول أو انتقال من حالة إلى أخرى ، لذلك لم يجد الاتروسكان في الموت ما يخيفهم .

أضف إلى ذلك أنهم اعتقدوا بالقضاء والقدر ، فالآلهة هي التي ترسم مسبقا حياة كل فرد من سكان هذه الأرض بتفاصيلها لا بخطوطها العريضة فحسب ، فالانسان في اعتقادهم مسير تماما لامخير ، ولهذا أقبل الاتروسكان على العرافة واستشفاف الغيب إقبالا لم يضاهيهم فيه أحد من شعوب العالم القديم ، فقد روت أساطيرهم قصة الفتى تاجس الذي خرج من حرث أحد الفلاحين حاملا معه فن التنبؤ بالمستقبل .

أما الطرق التي سلكها هذا الفتى فشملت مراقبة البرق ، ودراسة الطيور في طيرانها ، وشملت أيضا فحص الكبد ، لاسيما كبد الاضاحي ، وجمعوا أشتات فن العرافة في كتاب عرفه الرومان وسموه



بعض أزياء الاتروسكان التي شاعت في القرن السادس ق . م . ماعدا زي الرجل الشبيه بالأزياء اليونانية الذي شاع في ترقينيا وسواها في القرن الخامس قبل الميلاد .

المنهج الاتروسكي وقد أولوه تقديسهم ، واعتمدوا عليه كثيرا في حياتهم ، إلا أن الاتروسكان فاقوا الرومان من حيث تقديرهم للعرافة ، واعتمادهم على العرافين .

البناء والعمران :

وحسبك أنهم كلفوا العرافين بمهمة اختيار المواقع المناسبة للمدن التي أنشأوها ، وتحديد المواعيد المناسبة لمباشرة أعمال البناء ، وفيما عدا ذلك فقد التزم الاتروسكان بالمخططات الدقيقة المفصلة في بناء مدنهم ، فقد وضع مهندسوهم المدنيون الخرائط الخاصة بالشوارع ، والخرائط الخاصة بتصريف المياه ، وبالتمديدات الصحية في تلك الشوارع ، وتميزت شوارعهم بعرضها ، وحسبك أيضا أن الرومان ـ عباقرة العمران في العالم القديم ـ قداقتفوا أثر الاتروسكان في هذا الميدان .

ومن طريف ما يذكر أن الرومان أخذوا عنهم شعارهم المعروف ، وهو عبارة عن رزمة من قضبان شدت لحول فأس ، ورأس الفأس بارز من أحد جانبي الرزمة ، والأطرف من ذلك أن موسوليني وحزبه الفاشيستي قد تبنى ذلك الشعار أيضا .

ترقينيا وروما

لم تزد المسافة بين المدينتين على ٧٠ كيلو متراً ، ولعل المسافة الحضارية بينهما كانت أقل من ذلك بكثير ، فقد اعتلى عرش روما في عهدها الملكي القديم ملكان اتروسكيّان ، أحدهما ترقينيوس برسكوس (٦١٦ ـ ٥٧٩ ق . م) ، وآخرهما هو آخر ملوك روما ، ترقينيوس سوبربوس (٥٣٤ ـ ٥١٠ ق . م) ، إلا أن سوبربوس هذا طرد طردا ، تحت ضغط الجماهير من الرومان ، وذلك لأن ابن الملك اعتدى على إحدى فتيات نبلاء الرومان (لوكريشا) ، فانطلقت جموع الرومان الحاقدة الناقمة تجوب الشوارع بمظاهرات عارمة ، وظلت على ذلك حتى تم طرد الملك ـ والد الفتى المعتدي ـ وبذلك انتهى عهد الملكية الرومانية ، وبدأ عهد الجمهورية .

ومنذ ذلك الحين مضت روما في صعود السلم ، ومضت ترقينيا في نزوله ، حتى كانت سنة ٣٩٦ ق . م ، فإذا باحدى مدن الاتروسكان تسقط في أيدي الرومان بعد حصار طال أمده (١٠) شهور ، ثم تساقطت مدنهم الأخرى بسرعة الواحدة بعد الأخرى ، وكأنهم استسلموا لقدرهم دون مقاومة □



البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

المرأة البحرينية
وحلم المشاركة
في صنع الغد !

أمراض نسائية
غامضة ..

المرأة البحرينية
وحلم المشاركة في صنع الغد

بقلم : ريم الكيلاني

لم يعد الحديث عن المرأة في البحرين يحمل في طياته ما كان يحمله بالأمس ، ولم يعد الناس ينظرون إلى المرأة على أنها مجرد وعاء يحتوي الأجنة ، فقد حققت المرأة إنجازات كثيرة في ميادين الحياة المختلفة .

كانت البداية منذ خمسين عاما ، سارت خلالها المرأة البحرينية في طريق طويل شاق ، وهي تضع نصب عينيها هدفا واضحا جليا ، وهو بناء مجتمع متطور ، تشارك فيه المرأة كالرجل تماما ، وعلى الرغم من صعوبة الطريق الذي بدأ عام ١٩٢٨ بفتح أول مدرسة لتعليم الفتاة ، استطاعت أن تحقق جزءا كبيرا من طموحاتها ، لكن ماذا كان قبل عام ١٩٢٨ ؟

كفاح من أجل البقاء

لا يمكن فصل دور المرأة عن البيئة التي تعيش فيها ، فالظروف الاجتماعية والاقتصادية تؤثر - سلبا وإيجابا - على دور المرأة وتطورها ، وقد كان لخصوصية المجتمع البحريني أثر في دفع مسيرة تطور المرأة وتقدمها .

عن سمات مراحل تطور المرأة البحرينية تحدثنا الشيخة نَيلة على الخليفة مديرة إدارة التراث والمتاحف فتقول :

« لقد فطرت المرأة البحرينية على الكفاح ، ومشاركة الرجل في المعيشة ، فقد كانت في مرحلة الغوص تقوم بدورها في الأسرة في أثناء غياب الزوج في رحلات الصيد ، وجلب اللؤلؤ ، وذلك بتدبير شئون بيتها كاملة . بعض النساء كن يعملن في بيوت الأغنياء ليعلن اسرهن ، كما كانت تقوم بجلب الماء الصالح للشرب من المصادر الطبيعية كالعيون والآبار التي تبعد مسافات طويلة عن مكان السكن كما شاركت الزوج في الزراعة والفلاحة وبيع الأسماك التي يصطادها ، وعملت في تربية الدواجن ، بالاضافة الى بعض الاعمال اليدوية التي ما رستها : كالحياكة ، وصنع السلال ، وموائد الطعام من سعف النخيل .

ولم تكن حتى ذلك الوقت قد نالت الشيء الكثير من العلم ، فانصب جل اهتمامها على تربية أطفالها ورعايتهم ، وكانت هي الأم والأب في أثناء فترة غياب الزوج في البحر التي قد تمتد لمدة شهور ،



ـ برغم التطور الذي حققته المرأة ، فهي ما تزال تحتفظ بذكرى الماضي وبتقاليده العريقة .

ولقد كانت برغم الحياة البسيطة التي تعيشها تثبت وجودها في كل لحظة داخل البيت وخارجه » .

وتستطرد الشيخة نَيْلة : « وبعد اكتشاف النفط ، وجدت المرأة أبواب العلم مفتوحة أمامها ، فدخلت منها لتخرج للحياة الحديثة في ثوب جديد ، لا يتنافى مع عادات وتقاليد مجتمعها المحافظ ، وانما يواكب مسيرة النهضة والتطور .

وبدأت في الصعود درجة درجة من مدرّسة الى ممرضة ثم مهندسة فطبيبة ، وفي البحرين اليوم المرأة الغواصة والباحثة والعاملة . ولم يعد هناك مجال حكرا على الرجال فقط ، فقد عملت مبرمجة للكمبيوتر ومضيفة ومحامية ، وترتب على ذلك أن حققت استقلاليتها الاقتصادية ، وأصبح لها كيانها المستقل في المجتمع ، وتغيرت بذلك نظرة المجتمع لها ، من كونها تصلح للأعمال المنزلية وتربية الاطفال،فقط الى الايمان بضرورة مشاركتها للرجل في عملية التنمية .

لقد كانت نظرة المجتمع للمرأة ترى عدم انخراط المرأة في الاعمال المهنية أو الصناعية ، واعتبارها أعمالا مقتصرة على الرجال ، ونحن في حاجة لنساء يسرن بخطوات جريئة ليقتحمن هذا المجال ، ويعملن في المجالات الحرفية والمهنية ، وقد خطت بعضهن فعلا خطوات سريعة ، فعملن في المصانع كمهندسات وفنيات ، وقد يزيد الاقبال على هذه الأعمال مع افتتاح مصانع وطنية،وفتح فروع للتعليم الصناعي والمهني للفتيات ، مما قد يتيح لهن الفرص للتفوق » .

مزاحمة أم منافسة ؟

تمثل النساء جماعة متميزة عن غيرها ، حيث ان لها خصائص فيسيولوجية وحضارية تخضع لعدم المساواة ، كما أن التنشئة الاجتماعية للمرأة تنمي لديها الشعور انها عضو في جماعة هامشية ، وتجعلها تتقبل دورا خاصا بها يميزها عن الرجل في المجتمع .

السيدة زهرة التناك المشرفة على الأسر المنتجة بوزارة الشئون الاجتماعية والعمل تقول : « قد يعتبر الرجل أن دخول المرأة الى ميدان العمل ، ومحاولاتها المتعددة لاثبات قدرتها على العمل والانتاج ، مزاحمة له في ميادين العمل التي هي أساسا حكر على الرجل فقط ، خصوصاً أنها بدأت فعلا تصل بنجاحها وانجازاتها لكثير من المراكز المهمة والحساسة .

ولكنني أرى من وجهة نظر شخصية ، أن مشاركة المرأة وعملها في المجتمع حق رئيس لها ، فعملية بناء المجتمع لا تعني فقط انشاء بنيان أو تشييد جسر أو تنفيذ مشروع ، ان البناء الحقيقي وهو بناء الفرد تنشئة وتربية بأسلوب تربوي متقدم، والأم كما هو معروف مدرسة ، وهي التي تعلم وتزرع القيم والمبادىء ، وهي التي تغرس الخير أوالشر في النفوس ، وهي التي تخلق انسانا واعيا قادرا ، أو فردا ناقصا يصبح في المستقبل عالة على المجتمع ، فكيف يمكن اذن ـ والمرأة تؤدي كل هذه الأدوار ـ أن ينمو فرد ويتطور مجتمع نصفه الأساسي معطل ؟

ان عملية البناء تتطلب اشتراك جميع أفراد المجتمع ، ولا بد من أجل مجتمع أفضل أن تناط مسئولية التنمية بكل الفئات والأجناس ، وألا تبقى حكرا على فئة أو جنس معين .

ان ايماننا بكل ذلك جعلنا نسعى للتطور داخل الجمعيات والمنظمات النسائية ، ومن خلال الوسائل الاعلامية ، حتى تمكنا من تحقيق منجزات خاصة بناء تثبت من خلالها للرجل أننا قادرات على العمل والانتاج من أجل بناء البحرين » .



ـ هكذا تعمل النساء في مركز الأسر المنتجة

المرأة والعمل

وتستطرد السيدة التناك فتقول : « تتفق نساء البحرين على ضرورة العمل لاكتساب خبرات ومهارات جديدة للمستقبل وهي تعمل من أجل تحقيق اتصالها بالعالم خارج نطاق الأسرة، والتعرف على أناس وأصدقاء خارج هذا النطاق .

اننا كمجتمع خليجي لا نستطيع انكار سيطرة العادات والتقاليد بقوة ، ويذكرنا هذا بنظرية « دوركايم » بعلم الاجتماع التي تقول : « ان الفرد نفسه لا قيمة له داخل المجتمع ، ولكن العرف والتقاليد بصفة عامة هي التي تحدد للأفراد مسارهم »

وفي البحرين حيث تبدو التقاليد قوية ، فإن الذي يعطى للمرأة مركزها الاجتماعي ليس ماتقوم به من عمل ، وانما هو على العكس من ذلك ، فان اقترانها بزوجها هو الذي يحدد نوع المركز الاجتماعي .

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن تلاقي المرأة صعوبة في الخروج للعمل وصعوبة في تبوء المراكز الحساسة ، خصوصاً بعد أن اعتاد الرجل أن يكون هو السيد في كل شيء ، ولكن الوضع اليوم تغير ، فهي اليوم ترفض إلا أن تكون عضوا أساسيا وفعالا في كافة المجالات ، ولم تعد تقنع بأن هناك بابا يمكن أن يوصد في وجه طموحاتها .

من هذا المنطلق بدأت الحركة العملية للمرأة في البحرين ، ! ان احساسنا بعظمة المسئولية الملقاة على عاتقنا ، من تنشئة للأجيال واعدادهم كمواطنين اعداداً تربوياً متكاملا ، جعلنا نسعى دوما - كأمهات - الى تأمين راحتهم وتوفير احتياجاتهم .

ولما كان دور المرأة في المجتمع فعالا وبناء فقد كان لا بد من وقوفها مع الرجل تشاركه وتسانده في حمل أعباء الحياة الحديثة .

ولكن ، كيف لامرأة أن تعمل خارج المنزل ، وتغيب عن واجباتها نصف يوم تقريبا ، دون أن تجد راعيا أو مهتما بشئون أطفالها ؟.

كانت بداية الحركات النسائية في البحرين تعمل من أجل راحة المرأة ، دون اهدار حقها في العمل والانتاج ، وبدأت بعدها المشاريع والأهداف تخرج الى حيز الوجود واحداً تلو الآخر .

وقل اعملوا

« أتمت جمعية رعاية الأمومة والطفولة في البحرين خمسة وعشرين عاما من العمل التطوعي الاجتماعي وفي اكتمال ربع قرن من العمل المتواصل للجمعية ، دليل واضح على التوجه السليم والتصميم الأكيد على مواصلة الخدمة الاجتماعية التطوعية ، التي هي اليوم مقياس لتطور الشعوب ونهضتها » .

هكذا قالت السيدة سلوى العمران نائبة رئيسة جمعية رعاية الطفل والأمومة وأضافت « بدأت الجمعية بنخبة من السيدات بلغ عددهن حينذاك ٣٠ سيدة ، كن يجتمعن في بعض البيوت لتقديم الخدمة المطلوبة منهن لأي فرد في المجتمع ، وذلك بعد أن تعرقلت فكرة اقامة ناد للسيدات ، هدفه عمل الخير وتقديم المساعدة للمحتاج ، وتوجيه الأسر . بعدها قمت ومجموعة من زميلاتي برفع رسالة للمسؤولين ، بخصوص طلب رخصة للجمعية ، وتمت الموافقة على رسالتنا ، وافتتحت الجميعة في ٢٠ يونيو ١٩٦١ ، وكانت الأماني في ذلك الوقت معلقة على انجازات الجمعية التي وضعت لنفسها منهاجا خاصا لا تحيد عنه .

لقد سعينا أولاً لمساعدة الأمهات على الارتفاع بمستواهن المعيشي والثقافي والاجتماعي ، ليكن امهات صالحات ، يحسنَّ تنشئة الجيل الصاعد ، والأخذ بأيديهن نحو تطبيق مبدأ التضامن الاجتماعي علميا ، والمشاركة الايجابية في خدمة الوطن ، الى جانب اهتمامنا برعاية وتنشئة الأطفال في سن ما قبل المدرسة ، وتهيئتهم للمرحلة الابتدائية .

ولم يكن الاهتمام مقصورا على هذه الفئة من المجتمع ، بل تم الاهتمام بالأطفال المعوقين سمعيا وعقليا ، وأخيرا ، تأهيل وتوعية الفتيات والأمهات في الريف ، ورفع مستواهن المعيشي والثقافي والاجتماعي .

الحياة أمل

ونكمل مع السيدة العمران حديثها فتقول : « تأسس معهد الأمل عام ١٩٨٢ - وهو امتداد لمدرسة بيت الأمل التي تأسست عام ١٩٧٧ - ليسد حاجة ماسة للخدمة التربوية المتخصصة في مجالات التربية الخاصة ، وكان المعهد نتيجة طبيعية نابعة من ادراكنا كأمهات لضرورة رعاية المعوقين ، وايمانا منا بقدرة تلك الفئة على اكتساب المهارات المختلفة التي تساعدها على تنمية قدراتها ، وتحقيق معايير الاستقلالية الشخصية .

قامت على هذا المشروع مجموعة من نساء

البحرين المؤمنات بضرورة الاهتمام بهذه الفئة من الأطفال حتى لا يكونوا عالة على المجتمع أو على افراد أسرهم ، وقد أيدت وزارة الشئون الاجتماعية والعمل هذه الفكرة فقدمت لنا كل مساعدة ممكنة ، وقد قمنا بوضع برنامج تربوي فردي قدمناه للمعوقين في المعهد من أجل تطوير قدراتهم الى أقصى حد ممكن ، وتطوير المهارات وانماط السلوك التي يحتاجها المعوق في حياته اليومية ، ومحاولة تنمية القدرات التي تجعله يعيش بأسلوب أقرب ما يكون الى الحياة العادية .

وتحرص المشرفات والمربيات العاملات في مجال رعاية هذه المجموعة من الأطفال ، على مساعدتهم في تنمية المهارات التي من شأنها مساعدتهم على مواجهة متطلبات حياتهم اليومية ، بأكبر درجة ممكنة من الاستقلالية والكفاية الشخصية ، ولم تغفل الوزارة ضرورة عمل دورات تدريبية ، وتشجيع البحوث والدراسات المتعلقة بهذا الشأن التي سيكون لها دور في رفع مستوى الخدمات المقدمة للأطفال المعوقين .

ويقدم المعهد أيضا خدمات طبية متخصصة للأطفال المعوقين عقليا ، بالتعاون مع وزارة الصحة ، وبعض العيادات الخاصة ، بهدف توفير الأجواء المناسبة صحيا للأطفال ، وكذلك بهدف التغلب على بعض الصعوبات التي تتدخل في عملية تعلم الطفل لكثير من المهارات .

وهناك نية لزيادة عدد الأطفال المستفيدين من الخدمات المقدمة للمعوقين عقليا وسمعيا في المستقبل .

أم لكل الأطفال

من أجل مساعدة المرأة والنهوض بمستواها الاجتماعي والعملي ، اعطيناها حقها في العمل ، وهي واثقة من أن طفلها يتمتع برعاية كاملة في دور الحضانة .

وقد افتتحت أول روضة أهلية في البحرين عام ١٩٦٥ ، ثم تلاها رياض أخرى ، والهدف من هذه الرياض ودور الرعاية مساعدة الأم في تربية وتنشئة أطفالها ، والارتفاع بمستواها المعيشي ، وتربية الأطفال في جو تتوفر فيه الصحة والرعاية الخلقية والدينية والاجتماعية ، ويتوفر في رياض الأطفال هذه مدرسات تخصصن في مجال رعاية وتربية الأطفال ، وهن يعملن على ابراز شخصية الطفل باعتباره كائنا له شخصيته المستقلة ، وعالمه وأحاسيسه الخاصة ، فيجب مراعاة هذه الشخصية وملاحظتها ، لتنمو وتستقيم ، وهم لا يقيمون في دور الحضانة بعيدا عن أية مشاركة اجتماعية ، بل يشتركون في كثير من المناسبات الوطنية والاجتماعية والدينية والأعياد ، كما يقومون بزيارات ميدانية للاطلاع على معالم بلادهم ، وتعمل المشرفات على حل مشاكل الأسر اذا دعت الحاجة ، وذلك مراعاة لحالة الطفل النفسية .

وما زالت المرأة البحرينية تسعى لتوفير مناخ مناسب وملائم للأطفال ، لا يشعرون معه بالغربة والبعد عن الأم ، وقد تم بناء على ذلك وضع مناهج تربوية حديثة في تربية الأطفال تعتبر دليلا للمربية وتتضمن ارشادات وخبرات ووسائل تربوية ، ومفاهيم وأنشطة تعليمية هادفة .

نحو عمل تطوعي

ان اسهام المرأة البحرينية في بناء مجتمع أفضل لم يقتصر على رعاية الأطفال والاهتمام بهم فحسب ، بل هي ما تزال تسعى وتمد يد العون للأسر محدودة الدخل التي لا تجد لها معيلا ، وهي بذلك تحاول أن تجعل كل فرد في المجتمع قوة انتاجية لا تنتظر احسانا من أحد بل تعمل لكفاية نفسها .

هكذاتعود السيدة زهرة التتاك لتؤكد على نجاح مسيرة المرأة في البحرين .

« لقد كان مشروع الأسر المنتجة من أجل رعاية الأسرة ، والوصول بخدمات الرعاية والتنمية الى مواقع أقرب ما تكون للمستفيدين من المواطنين ، ومساعدة الفرد والأسرة لاكتساب المعرفة والمهارات



ـ ابتسامة الأطفال وفرص اللهو المتاحة لهم خير دليل على نجاح مشروع رياض الأطفال .

العملية ، ومساعدتهم في تنمية مواردهم ، وهو أيضا ينمي المشاركة الأهلية من قبل المواطنين بصورة فعالة ، لضمان تحقيق احتياجات الأهالي الفعلية .

يتضمن هذا المشروع أربع مشرفات ، يقمن بالاشراف على اربعة مراكز ، يتخللها هذا المشروع ، وهي : المحرق ، المنامة ، والرفاع ، ومدينة عيسى ، يقدمن للفرد وللأسرة المساعدة لاكتساب المعرفة ، والمهارات العملية ، والمساعدة على تنمية الموارد .

بدأ تنفيذ فكرة المشروع بعد عمل دراسات استطلاعية لرأى الأهالي الذين تخدمهم المراكز ، وذلك بهدف تحديد احتياجاتهم الفعلية والأنشطة التي يجب أن تتم من خلالها ، كذلك فقد قمنا بعمل دراسة لبعض الخامات المتوفرة في البيئة لتحديد أوجه الخدمات التي سيقدمها كل مركز في هذا المجال .

وتضيف السيدة زهرة قائلة : « وهذا المشروع لن يرفع من مستوى معيشة الأسرة فقط ، بل سيغير من شكل وطبيعة المساعدات التي تحصل عليها الأسرة من وزارة الشئون ، وذلك عن طريق نشر وتدعيم الصناعات البيئية والمنزلية ، مثل صناعة السجاد والسلال الكبيرة التي تستخدم لحفظ الملابس والموائد التي يوضع عليها الطعام ، واقفاص الدجاج ، الى جانب صناعة الغزل والنسيج ، وعمل قطع كبيرة من الأقمشة تستخدم في عدة مجالات ، كما توفر امكانية تسويق منتجاتها عن طريق انشاء معارض لبيع هذه المنتجات » .

ولكن . هل هذا هو كل ما حققته المرأة البحرينية . . .

إنَّ طموح المرأة في البحرين لم يتوقف ، ففي البداية كانت تتحرك بدافع تحقيق المساواة بينها وبين الرجل ، وحين منحت هذا الحق بدأت تسعى الى التفوق العلمي والثقافي والاجتماعي ، ولم يعد هناك مجال لا وجود فيه للمرأة . □



هو..

عاطفة ساذجة

سوف يفسد أبناءنا بطيبته ، وعجزه عن الحزم ، فالتدليل الزائد والطيبة المفرطة لا تؤديان الا الى مزيد من التهاون والاهمال لدى أبنائنا . دائما أقول له ان هناك قواعد في التربية ، وأن الحسم هو محور كل هذه القواعد ، وأشرح له وجهة نظري في أن الحسم لايتعارض مع الحب ، وأن القسوة ليست معناها الكراهية ، وبالنسبة لي - أنا بالتحديد - فأرى أنه لا يمكن أن يدور بذهن أحد أن هناك أما تكره أبناءها ، وكثيرا ما كنت أقول له ان التدليل يمكن أن يكون له مجاله ، وأوقاته ، لكن هناك أشياء لايمكن التدليل فيها ، والا فسد الأبناء فسادا لا يمكن تداركه . نصف خلافاتي معه حول مذاكرة الأولاد ، ونتائجهم في المدارس ، فمنذ اليوم الأول لالتحاق الأبناء بالمدرسة وأنا أعلمهم لكي أخلق عندهم الاعتياد أن هناك واجبا منزليا ، وأن هناك اعدادا لدروس الغد ، وأن هناك ساعات للجلوس على المكتب للمذاكرة ، حتى



في الأيام التي لايطلب منهم أساتذتهم أداء واجبات معينة أجلس معهم لكي ترسم وتلون ، غايتي أن يعتاد الطفل منذ أول عام له في الدراسة أن هناك وقتا للعمل ، وأن هناك أداء مطلوبا منه ، وأن عليه أن يبذل جهدا في التحصيل . واجتزت بهم السنوات الأولى ، وبلغ الأبناء مرحلة الامتحانات الشهرية ونصف السنوية ، ورغم أنهم ما زالوا في مرحلة الانتقال التلقائي من فصل الى فصل الا أنني أولى امتحاناتهم ونتائجهم اهتماما شديدا ، وقد وضعت نظاما للثواب والعقاب ، وكما يتدرج الثواب فان العقاب يتدرج أيضاً وهنا تثور ثائرته ويحتج ويتوسط للعفو عنهم ، أو يجلس معهم يصالحهم ان لم أكن موجودة ، ويدللهم ويهون المسألة كلها ، بدءا من سبب العقاب وانتهاء الى جنس العقاب نفسه ، ويبادر كثيرا الى اثابة المخطىء والمقصر منهم أحيانا بقدر يفوق ما منحت المجيد منهم من ثواب ، وهنا تثور ثائرتي ، فيقابلني هو ببرود شديد ، ودعاوى غريبة من مشاعره وحبه لهم ، وعدم استطاعته لرؤيتهم وهم يعاقبون ، فأصرخ وأثور ، وأقول له إنك في لحظة عاطفة ساذجة ، تفسد ما أفعله ، والعاطفة ليست مشاعر بلهاء ، تتدفق بلا معنى ، لكنها تحتاج الى قدر كبير من العقل والتوجيه ، وهذا لصالحهم هم ، ولمستقبلهم ، ولكن دون فائدة .

هي



..هي

فرط حب

دائما تبالغ في تقدير الأمور ، وفي الاهتمام بالأشياء ، ودائما أقول لها إن المطلوب منا قدر من التوازن ، فاذا شد أحدنا طرف الخيط في معاملة الأولاد فعلى الثاني أن يرخيه ، والا فإن الشدة المستمرة ستدفع أبناءنا الى نتائج أكثر خطورة من تقديرنا ، لكنها تمارس معهم كل مشاعر الأمومة وحنانها ، الا في موضوع الاستذكار والمدرسة ، أحاول أن أفهمها أن هذه الصرامة قد تجعل الأبناء يكرهون العلم والتعليم ، لكنها تقول المهم أن يعتاد الأبناء احترام العلم ، والحرص عليه ، والاهتمام بواجباتهم . أتناقش معها ، وأقول لها انهم ما زالوا في المرحلة الابتدائية ، ومازالوا في مرحلة النقل التلقائي من فصل الى فصل ، وأن الأبناء عندما يكبرون سيشعرون بأهمية التفوق ، وأهمية الاهتمام بالمدرسة ، وأن مستقبلهم مهدد اذا لم يلتزموا ، ويأتي ردها على كل هذا المنطق أن هناك أشياء هامة في التربية تبنى ـ أساسا ـ على الاعتياد ، وأن الطفل اذا لم يتعود منذ الصغر على قواعد عامة في تنظيم يومه فانه سيكبر وسلوكه اليومي غير منتظم ، وليس صحيحا ـ هكذا تقول ـ أن تترك الأبناء لهواهم ، يلعبون وقت ما يشاؤون ، ويستذكرون حين يشاؤون ، بل عليهم أن يتعلموا أن هناك وقتا محددا للعب ، ووقتا محددا للاستذكار ، وهذا الاعتياد هو الذي يغرس في نفوسهم النظام ، واحترام قيمة الوقت ، وتعلم حسن تدبير ساعات العمل . وأمام منطقها هذا الزم الصمت ، ولكن قلبي لايطاوعني ، ولا يتحمل رؤية أحدهم يبكي لحرمانه من شيء ، أو لمجرد أنها غضبت منه . والذي لا أفهمه أن الأطفال رغم كل هذا أكثر تعلقا بها مني ، فما أن تلوح بغضبها حتى تسود الدنيا في وجوه أطفالي . . على العكس مني تماما،واذا لوحت لهم ـ ولو بضحك ـ أنني غاضب فانهم يسرعون الى أمهم ، وينفطر قلبي كلما رأيتهم يحبونها كل هذا الحب وهي تقسو عليهم كل هذه القسوة ، وتعاقبهم ، فأبدأ في مصالحتهم ، واللعب معهم ، وأغدق عليهم الحلوى والنقود والوعود بنزهات كثيرة ، لكنهم رغم كل هذا لايبتسمون الا اذا ابتسمت هي ، وهي لاتبتسم ، بل تثور في وجهي ، وتنتقد طريقتي هذه ، وتصرخ ، لكنني مهما كانت ثورتها لااحتمل أن أرى أطفالي حزانى .

هو



أمراض نسائية غامضة

بقلم : الدكتور على مبارك *

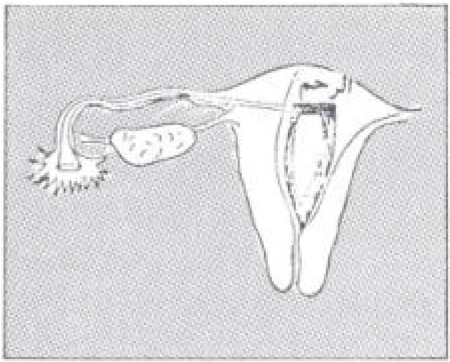
قد تفاجأ المرأة بأن نسيج خلايا بعض المواضع في جسدها من نفس نسيج بطانة الرحم ، وتبدأ الشكوى من حالات النزيف أو التجمع الدموي . . . غير مدركة أن هذه الخلايا تؤدي وظائفها ـ كما هي في الرحم ـ مستمرة بظاهرة الدورة الشهرية

في القاموس الطبي العربي الكثير من المصطلحات والتراجم الطبية التي يصعب على القارىء المتبع أن يستسيغها لفظا ومعنى، وهي بالتأكيد قد تكون من أعماق لغتنا العربية الأصلية . ولذلك استسهل المترجمون والأطباء استعمال المصطلحات العلمية كما هي .

ومصطلح « انتباذ بطانة الرحم » قد يبدو غريبا للكثيرين من ممارسي الطب ، وقد لاتعرف الغالبية منهم أنها تعني المرض النسائي « اندوميتريوسز » فما هو هذا المرض ؟

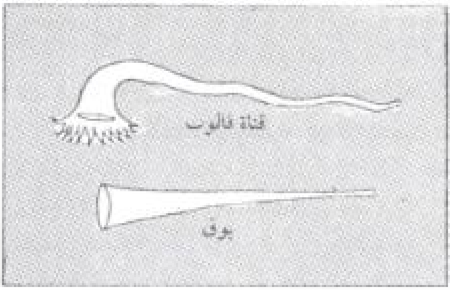
قبل أن نخوض بطبيعة هذا المرض لابد من شرح مبسط لتشريح وظائف الرحم ، فالرحم من الأعضاء التناسلية الداخلية عند المرأة السوية الطبيعية الخلق ، وواجباته الأساسية هي استضافة البويضة الملحقة بالحيوان المنوي لتتطور الى جنين ، خلال فترة الحمل الطبيعية البالغة (٢٨٠) يوما أو (٤٠) اسبوعا رحميا ، أما خلال فترات ما بين الحمل فالرحم هو المصدر الاساسي لافرازات الحيض المتكونة من أنسجة بطانة الرحم المتهتكة ، مخلوطة بالافرازات الدموية والمخاطية وبعض الخلايا من عنق الرحم وجدران المهبل ، وهذه الظاهرة الطبيعية تحدث بانتظام دوري كل (٢٨) يوما ، وفي بعض

* طبيب أول استشاري رعاية الأمومة ـ بوزارة الصحة ـ الكويت .



شكل (١)

رسم تخطيطي للرحم وبطانته وقناة فالوب



شكل (٢)

رسم تخطيطي يقارن بين شكل قناة فالوب والبوق

النساء كل ٢١-٢٦-٣٠-٣٥يوما ، ويكون المحرض الرئيسي لها الهرمونات الأنثوية التي يفرزها المبيضان ، وبدورة دقيقة متظمة ومتناسقة .

ان افرازات الحيض هذه تشمل بطانة الرحم التي هي عبارة عن نسيج اسفنجي القوام ، سهل الانفصال عن جدار الرحم العضلي القوي الذي يشكل القاعدة الاساسية التي لايصيبها مثل هذا التهتك النسجي في فترة الحيض ، بل تبقى المصدر الرئيسي لاعادة بناء البطانة دوريا ، وبانتظام أيضا خلال فترة الـ ٢٨ يوما ، هذا التسلسل الدوري يسمى « الدورة الشهرية» ويمكن - لغرض دراسي - تقسيمها الى ثلاث مراحل متلازمة مستمرة ، فالمرحلة الأولى هي مرحلة الحيض التي تستمر من يومين الى سبعة أيام ، وعند انتهائها تبدأ بطانة الرحم بالتكون مجددا خلال الأيام العشرة التالية ، بتأثير أحد هرموني المبيضين ، ويكتمل نضوج بطانة الرحم تحت تأثير هرمون آخر من المبيضين أيضا ، ويقصد بالنضوج هنا هو ازدياد وتغيير في عدد وطبيعة الأوعية الدموية واللمفاوية والافرازية التي تحتويها بطانة الرحم ، استعدادا لحمل متوقع في كل دورة شهرية ، وعند عدم حصول هذا الحمل تتهتك هذه البطانة كما أسلفت ، وتخرج على هيئة افرازات الحيض ، وهكذا تتكرر هذه الدورة بهذا الانتظام الدقيق .

ولاتمام الصورة التشريحية لابد من الكلام عن البوقين أو « قناتي فالوب » ، نسبة الى من وصفهما في البداية ، فهاتان القناتان تسميان بالعربية بالبوقين نظرا لشبه الواحدة منها بالبوق ، فتنفتح كل واحدة منها في التجويف الرحمي في الزاوية العليا لجانب الرحم ، أما طرفها الآخر الذي يشبه نهاية البوق فينتهي بزوائد تشبه الأصابع تلامس المبيض المجاور ، وتكون فتحتها مقابلة له أيضا ، وواجباتها هي احتواء البويضة المتحررة من المبيض في منتصف كل دورة شهرية ، واحتضانها لكي تقابل الحيوان المنوي الصاعد لها من المهبل ، لاتمام عملية التلقيح في الثلث الأول منها ، حيث تبدأ البويضة الملقحة مسيرتها باتجاه التجويف الرحمي ، لتقطع هذه المسافة بحوالي (٦) أيام ، وتنتهي داخل التجويف الرحمي ذي البطانة المهيأة ، كما ذكرت آنفا لاحتضان واستضافة الجنين .

ان القصد من هذه المقدمة هو تثبيت حقيقتين مهمتين :- الحقيقة الأولى التي يجب التأكيد عليها ، أن نسيج بطانة الرحم هذا يتمتع بخاصية فريدة لايتمتع بها أي نسيج آخر ، وهي الاستجابة لتأثير هرموني المبيضين بالصورة المذكورة آنفا ، ومعنى هذا أن أية قطعة من هذا النسيج مزروعة في أي مكان من

الجسم البشري تتأثر بمفعول هذين الهرمونين ، فتحدث فيها التغييرات الفسيولوجية الدورية المشروحة في البداية ، بما فيها النزف الدموي الذي ينزل على صورة الحيض ، والحقيقة الثانية أن البوقين مفتوحان الى داخل التجويف البطني من جهة ، والى التجويف الرحمي من الجهة الثانية ، ومعنى هذا أن بعض افرازات الحيض قد تتسرب من داخل التجويف الرحمي الى داخل التجويف البطني ، وتستقر بقاع الحوض ، وعلى أي من الأعضاء الموجودة فيه .

ما هي ظاهرة (انتباذ بطانة الرحم) ؟

ان انتباذ بطانة الرحم حالة مرضية نسائية تتميز بزرع قطع نسيجية من بطانة الرحم في أي مكان من جسم المرأة بدون استثناء ، واستمرارها بظاهرة الحيض المشابه لما يجري في بطانة الرحم أصلا ، ونتيجة لهذه العملية يحصل تجمع دموي قد يتكيس ويكبر ، وعندما ينفجر ينتشر في المنطقة المحيطة ، لتزيد الحالة سوءا ، ومن ثم تؤدي الى تحولات بعد أن يتحلل هذا السائل الدموي ، لينتهي بتكوين التصاقات نسجية متليفة قد تحد حرية حركة الأعضاء المجاورة ، أو قد لايحصل هذا التكيس ، بل يستمر النزف الدموي في الفراغات المحيطة ، ويؤدي أيضا الى نفس النتيجة .

أين يحصل الزرع ؟

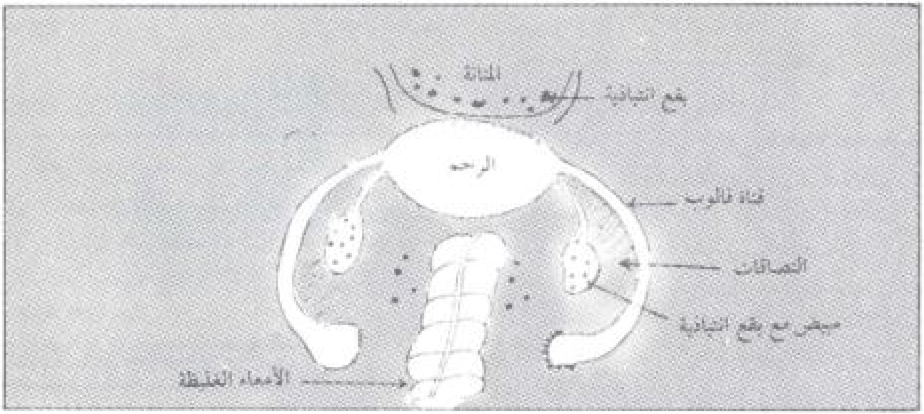
من الأماكن التي تحصل فيها هذه الظاهرة أنسجة وجدران الميضين نفسها ، وهي المكان الأكثر شيوعا ، حيث تبلغ نسبة الاصابة حوالي ٥٠٪ من الحالات ، كذلك جدران الرحم العضلية ، وقاع الحوض والأربطة النسيجية المحيطة بالرحم ، الا انها قد تحصل في أي مكان كما ذكرت ، حتى في العينين أو راحة اليد أو جدران البطن والسرة وجدران الأمعاء والحالبين ، ولكن كيف يحدث الانتباذ في تلك الأماكن البعيدة التي ليس لها اتصال مباشر مع الرحم أو البوقين أو حتى فراغ الحوض ؟ هذا ما تحيرت فيه النظريات العديدة المطروحة ، منذ أن اكتشف هذا المرض أول مرة من قبل الدكتور « روكيتانسكي » في عام ١٨٦٠ ، فبعض النظريات تقول انه نتيجة لتسرب بعض افرازات الحيض المحتوية - كما ذكرت - على بعض انسجة بطانة الرحم خلال البوقين ، والاستقرار في قاع الحوض ، ثم النمو كنسيج مشابه لبطانة الرحم .

والبعض الآخر منها يذكر أن بعض هذه الافرازات والأنسجة قد تدخل الى الأوعية اللمفاوية ، أو حتى الأوردة الدموية ، ثم تنقل خلاها لتستقر في أماكن بعيدة .

في حين تقول نظريات أخرى انه نتيجة لبعض التحولات في طبيعة خلايا بعض الأنسجة التي تنحدر أصلا من نفس مصدر أنسجة بطانة الرحم ، وبهذا التحول فانها تجاري بطانة الرحم في ظاهرة النزف الدموي في أثناء فترة الحيض ، وتسبب أكياسا دموية أو أوراما مليئة بالدم الذي تغيرت طبيعته على مر الزمن ، وأصبح على شكل سائل كثيف لزج بني غامق اللون .

ولكل نظرية من هذه النظريات براهينها وحالاتها ، الا أن أية واحدة منها قد لاتفسر وجود الانتباذ في أماكن أخرى ، ومن هنا استمر البحث والتقصي لتفسير هذه الظاهرة حتى عام ١٩٨٠ ، حين ظهرت نظريتان جديدتان :

النظرية الأولى تقول بخضوع هذه الظاهرة لعوامل توارث عائلية ، أولها جوانب متعلقة بعوامل نقل الصفات الوراثية أو الصبغيات ، وكان صاحب هذا الرأي هو مجموعة الدكتور سمبسون المنشورة في المجلة الأمريكية لأمراض النساء والولادة ، في عددها المرقم ١٣٧ لعام ١٩٨٠ ، وقد أجريت دراسة تحليلية على مجموعة من النساء المصابات بهذا المرض فوجد أن الاصابات تنحصر في الامهات وبناتهن بنسبة أكبر من اصابات الأقارب ، كما أن دراسة مماثلة أجريت في اليابان قد أظهرت أن النساء اليابانيات



(شكل ٣)

رسم تخطيطي يوضح الرحم والمثانة والأمعاء الغليظة والأنابيب والالتصاقات بينها والبقع الانتبادية .

معرضات للاصابة بالمرض أكثر من سواهن ! ومن هذه الدراسة أضيفت وجهة نظر جديدة تشير الى العامل العنصري كمؤثر لحصول هذه الظاهرة .

أما النظرية الثانية الحديثة التي طرحت في نفس العام من قبل مجموعة أخرى تابعة للدكتور شنايدر ، والمنشورة بنفس العدد من المجلة المذكورة ، فتفسر الظاهرة على أساس تغيرات مرضية (باثولوجية) ذاتية

والتفسيران ليسا أكثر من كونها وجهتي نظر فقط ، ولا تزال الظاهرة هذه خاضعة لمختلف التحليلات والتفسيرات من قبل الكثير من الباحثين.

التأثيرات السيئة والمضاعفات

وبعد أن استعرضنا طبيعة هذا المرض لا بد من التطرق الى التأثيرات والمضاعفات السيئة التي يخلفها أو يتسبب فيها اذا ما استقر ، ويهمنا من كل هذا جانب واحد ، هو علاقة المرض بالعقم عند المرأة المصابة .

فمن الشروحات السابقة عرفنا أن المرض يُسبب التصاقات بين الأجهزة والأعضاء في تجويف الحوض بشكل خاص ، ومنها قناتا فالوب (البوقان) والمبيضان ، وقد ينمو في جدرانها مما يسبب انسداد البوقين ، ومن ثم عرقلة مرور البويضة الداخلة اليها من أحد المبيضين ، أو مرور الحيوانات المنوية للالتقاء بهذه البويضة لتلقيحها ، وتشير الدراسات التي أجريت بهذا الخصوص الى أن حوالي ٢٠ ـ ٣٠٪ من حالات العقم عند النساء يكون هذا المرض مسببا فيها ، هذا اذا لم تظهر مضاعفات هذا المرض قبل الزواج ، وخصوصا الآلام الحادة في أثناء فترة الحيض ، وفي أثناء التبرز ، كما أن ما تقاسيه السيدة من آلام أيضا أثناء الملامسة الجنسية ، قد يضطرها لاستشارة الطبيب المختص حول هذه الحالة ، وحينئذ قد تكتشف الاصابة ، وفيما تشير اليه هذه الدراسات وهو أن التأخر في الحمل والانجاب قد يعطي فرصة لهذا المرض أن يتطور ، ويلاحظ أيضا أن بعض الشعوب التي تبكر فتياتها بالزواج والانجاب لاتعرف مثل هذا المرض بين سيداتها ، وهذا هو الحال أيضا عندنا نحن العرب ، الا أن الحضارة والمدنية قد غيرت كثيرا في طبيعة بعض القطاعات في المجتمع العربي ، مما أدى الى ظهور متزايد لهذه الظاهرة المرضية .

وماذا عن علاقة الانتباذ بالسرطان ؟

كأي نسيج في جسم الانسان معرض للاصابة بنوع معين من السرطان ، تكون هذه الجزر والبقع المزروعة في أماكن مختلفة معرضة للاصابة بنفس نوع السرطان الذي يصيب بطانة الرحم ، الا أن نسبة حدوثه نادرة جدا .

كيف اذن يعالج مرض انتباذ بطانة الرحم ؟

فكما تستمر الآراء والنظريات المختلفة في محاولاتها لتفسير نشوء هذه الظاهرة ، كذلك يستمر اختلاف الأراء في الطريقة المثلى لعلاجها والقضاء عليها ، وفي الحقيقة يعتمد نجاح العلاج على عدة عوامل منها : الاكتشاف المبكر ـ ولو بالصدفة لهذا المرض ، ومعالجته رغم أن بعض الباحثين لايؤيد هذا ، بل ينتظر ظهور الأعراض التي توجب التدخل ، وأهمها الآلام الحادة التي تصاحب الحيض أو التبرز أو الملامسة الجنسية ، وأخيرا العقم ، فيرد قسم آخر من الباحثين بالقول ان الحالة عندما تصل الى ظهور أعراض كهذه ، تكون قد قطعت شوطا بعيدا في التغلغل والانتشار ، مما يصعب آنئذ استئصالها ، وقد تنجح محاولات العلاج في الحالات الثلاث الأولى ، الا أن علاج العقم قد يبوء بالفشل نتيجة لما يخلفه هذا المرض من تخريب ودمار في البوقين ، وخاصة اذا تأخر الحمل الأول بعد الزواج ولذلك ينصح هؤلاء الباحثون المتزوجة بالحمل المبكر .

وتأثير الحمل على هذا المرض والقضاء عليه يعود الى ان فترة الحمل هذه بامتدادها الى تسعة شهور تقطع حصول الحيض الذي ـ كما أشرت اليه يحصل أيضا في نفس المواضع التي ينمو فيها المرض ، وبانقطاع الحيض فيها تذبل وتضمحل فتموت وقد لاتنمو مرة أخرى ، وعلى هذا الأساس بنيت كافة نظريات العلاج بالعقاقير حيث يعطى العلاج بصورة مستمرة لاتقل عن التسعة شهور أو سنة لايقاف الدورة الشهرية والحيض ، فتموت هذه البقع خلال هذه الفترة من العلاج ، ولكن قد يقضي العلاج على البقع فقط ، أما التأثيرات والمضاعفات التي خلفها كالتليف والالتصاقات وبقايا الدمار فقد تبقى كما هي .

هل للجراحة مكان في العلاج ؟

ليست العقاقير والأدوية وحدها هي العلاج المؤثر كما أنه ليس الحمل وحده أيضا ، لكن التدخل الجراحي أيضا له أهميته في استئصال الأنسجة التالفة ، واصلاح ما خربه هذا المرض ، فأبسط هذه العمليات الجراحية هي الكي وحرق هذه البقع ، وأما أصعبها فهو استئصال الأجزاء التالفة،ربما يتطلب أيضا استئصال الرحم والبوقين والمبيضين أحدهما أو كليهما والتضحية بهذا والقبول بعدم الانجاب ثمنا للشفاء من الآلام المبرحة التي تتعرض لها السيدة بين الحين والحين . □

■ إنني أرثي لحال هذا الأب ، فهو بطل في عيون الغرباء وغريب في عيون أطفاله !

« ابراهام لنكولن »

طبيب الأسرة



قضايا منزلية

نزلات البرد

ليس هناك أكثر ظلماً للحقيقة مما جرى عليه اجماع عامة الناس من اتهام البرد بتهمة هو منها بريء ، عندما اتهموه ظلماً وعدواناً بجملة من الأمراض تتشارك بعدة أعراض وعلامات ، تتميز بالحمى والسعال وسيلان الأنف والاجهاد والتوعك العام ، حتى انهم أطلقوا عليها ـ عن قناعة تامة ـ اسم نزلات البرد التي يتصدرها الزكام والانفلونزا .

لقد جرى الأطباء على درب هذه القناعة زمناً طويلاً حتى كان عام ١٧٤٣ عندما أصاب المرض طبيباً انجليزياً اسمه هكسمان فكانت الاصابة شديدة منهكة لم تقنع الطبيب المريض باتهام البرد وحده بل توهم أن للبرد شركاء في الأمر لا بد أن يكونوا من طائفة الشياطين لشدة أذاهم ، ومن ثم أطلق عليها اسم انفلونزا دي فيريدو وهي كلمة ايطالية تعني التأثير،قناعة منه أن هذه النزلة الحادة كانت من تأثير البرد والشياطين معاً .

ولكن الفرنسيين ساروا عبر درب آخر في تسميتهم اذ أطلقوا اسم جريب بمعنى القبضة لأن قناعتهم ذهبت الى أن الشياطين تقبض على عنق ضحيتها وعلى صدره طمعاً في كتم أنفاسه .

وعلى شاكلتهم ذهب الروس في التسمية ولكن على أساس أن جريب تعني بلغتهم البحة وهي ما تصيب مريض الانفلونزا .

أما الاسبان فقد ذهبوا في تسميتها الى اسم فلو .

هكذا اختلفت الأقوام على الاسم ، ولكنهم اتفقوا على الجوهر ، وهو أن نزلة البرد اذا كان للبرد حقاً نزلة فلن تصل شدتها الى شبه قساوة نزلة الشيطان .

وقد حسم الطب هذا الموقف المتشابك وانتهى الى فك الارتباط بين نزلة البرد والانفلونزا عندما اكتشف علماء الأحياء الدقيقة عام ١٩٣١ ان المتهم الحقيقي في قضية الانفلونزا هو فيروس صغير . . لا بل وصلوا مؤخراً الى أنها ثلاثة أشكال من الفيروسات،فيما وجدوا أيضاً أن نزلة البرد العادية سببها أيضاً فيروس آخر متخصص يتشكل بمائة وجه أو هي مائة من الفيروسات المتشابهة أطلقوا عليها اسم فيروسات الزكام ، بل حدد بعضهم اسم المرض بدقة فقالوا مرض التهاب الأنف الحاد ، فيما سموا الانفلونزا باسم النزلة الواحدة ، ومن هنا لا يصح في العرف الطبي أمر الخلط بين مرض الانفلونزا أو النزلة الواحدة،وبين الزكام أو نزلة الأنف الحادة ، لأنها

مرضان مختلفان متباينان لا تربطهما أية صلة اذا ما استثنينا بعض الأعراض المشتركة .

فالانفلونزا مثلا مرض حاد شديد الوطأة ربما يشيع في فصل الشتاء ولكنه قد يداهم في الصيف أيضا ويتميز بارتفاع شديد في درجة الحرارة ، وانهاك عام للجسم ، ولكن لا يصاحبه نزلة أنف وانما صداع وبحة صوت وسعال جاف ، وقد تمضي النوبة بسلام أو قد تتيح الفرصة لهجمة من الميكروبات أو الفيروسات الضارية التي تمثل أخطر مضاعفات الانفلونزا والتي كانت السبب في وفاة عشرين مليون ضحية عقب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ بسبب الالتهابات الرئوية الحادة .

فيما تكون هجمة الزكام خفيفة الوطأة تصاحبها حمى خفيفة وجريان أنف وهي لا تنهك القوى لدرجة تمنع صاحبها عن العمل كما هو الحال مع الانفلونزا .

هذا الى أن مضاعفات نزلات الزكام محدودة الخطورة ، غير قاتلة ، لا تتعدى أقساها التهابات الأذن أو التهابات الجيوب الأنفية .

وتتشارك الانفلونزا مع الزكام فيما تتشابه مدة الحضانة التي تتراوح ما بين يوم وثلاثة أيام ، وكذلك في طرق العدوى التي أهمها الزحام والاختلاط المباشر بين المريض والسليم .

هذا الى عدم توفر العلاج النوعي الحاسم لاي منهما ، حيث لم يوفق الطب بعد الى اكتشاف عقار شاف للأمراض الفيروسية التي تتحصن داخل خلايا الجسم لا خارجها كما هو الحال مع الميكروبات العادية .

وعلى هذا يعتمد الطب على الراحة التامة والاكثار من السوائل لتعويض الجسم ما يفرزه منها مع العرق الغزير ، أما العقاقير التي يصفها الطبيب أو يجتهد البعض في تناولها سواء منها فيتامين ج أو الأقراص المسكنة فما هي الا لمعاونة الجسم وتقوية مناعته وتسكين آلامه ولاشفاء فيها اطلاقا .

بريد طبيب الأسرة

الانترفيرون

● سمعت عن عقار جديد اسمه الانترفيرون ، وقرأت عنه أنه أحدث ما وصل اليه الطب من كشف علمي يمكن أن يكون ذا نفع في أمراض الفيروسات ، وخصوصا مرض الايدز المخيف .

هل لي أن أعرف شيئا عن هذا الانترفيرون ولكم الشكر والتقدير .

سلامة سالم
الحديدة - اليمن

- منذ عهد قديم لاحظ الاطباء أن عدوى الانسان بمرض فيروسي يولد لديه قدرة مناعية ضد كثير من الأمراض الفيروسية الأخرى .

قال بعضهم انها الأجسام المضادة التي يولدها الجسم دفاعا عن نفسه ضد المرض الفيروسي ، ولكن هذه الاجسام المضادة للفيروسات ثبت أنها نوعية ، بمعنى أن الجسم المضاد للجدري لا يفيد الا في اتقاء مرض الجدري ولا غير ، وكذلك الحصبة أو النكاف وما اليه ، وهذا ليس هو الهدف الذي نبحث عنه .

غير أن رجال البحث العلمي في معهد الابحاث البريطاني وصلوا عام ١٩٥٧ الى مشارف الحل لهذا اللغز الطبي ، اذ وجدوا أن الخلية المصابة بمرض فيروسي تفرز مادة مجهولة يبدو أنها زلالية التركيب

(بروتينية) تتسرب الى السائل بين الخلايا ، حتى تصل الى الخلية السليمة ، فتثيرها وتنبهها الى غزو مقبل قادم ، مما يحفز الخلية السليمة ويهيئها لمواجهة أي غزو من أي فيروس غريب ، وهذا ليس شأن الأجسام المضادة النوعية ، والتي يتشارك فيها كثير من الأحياء .

لقد وجدوا أن هذه المادة التي أطلقوا عليها اسم الانترفيرون هي خاصة بكل نوع من الأحياء ، حيث ان الانسان لديه انترفيرون بشري ، والحصان يولد انترفيرون خاص بالخيول ، وكذا شأن البقر ، وهكذا ، ولكن هذا الانترفيرون الخاص بأنواع المخلوقات هو من الجهة الأخرى عام ضد كافة الأمراض الفيروسية . لقد سعد الأطباء بكشفهم هذا ، قناعة منهم أنهم وضعوا أيديهم على علاج حاسم للأمراض الفيروسية ، أو من أجل وقاية منها على أقل تقدير ، وقد جربوا هذا الانترفيرون حقنا فأعطى لسوء الحظ مضاعفات جانبية تشبه أعراض الانفلونزا ، من صداع وحمى وارهاق وآلام عضلية ومفصلية . لهذا احتاروا في قرارهم،هل الانترفيرون الذي تفرزه الخلايا عند غزو فيروس الانفلونزا هو السبب في أعراضها ، وهل لو عطلنا هذا الانترفيرون فإننا نجرد الانفلونزا من الاعراض التي يعاني منها ضحية المرض ؟

ان الاتجاه العام لدى الأطباء هو قصر استعمال الانترفيرون على العدوى الشديدة بفيروسات ضارية فقط ، دون استعماله على الأمراض الخفيفة ، عملا بالحكمة القائلة بدفع الضرر الأكبر بضرر أصغر .

لم يصل العلم الى أبعد من هذه الحدود في معرفته عن الانترفيرون ، وعسى أن تحمل لنا الأيام نصرا جديدا في حقول العلاج بواسطة الانترفيرون بإذن الله .

الوقاية وضغط الدم المرتفع

والذي يعاني من ارتفاع ضغط الدم ، وقد علمت أن هذا المرض يمكن أن يورث وينتقل من الآباء الى الأبناء ، وحيث انني قلق من هذا الأمر فهل هناك سبيل للوقاية تدلوني عليه ولكم وافر الشكر والتقدير

ي . ج . م الدوحة

الوقاية بمعناها الدقيق المباشر تبدو أمرا صعبا بالنسبة للاصابة بارتفاع ضغط الدم ، حيث لا تعرف الاسباب الحقيقية المباشرة لاصابة بعض من الناس دون غيرهم ، وهذا ما يدعونه بارتفاع ضغط الدم الأساسي الذي يشكل ٩٠٪ تقريبا من الحالات المرضية ، هذا بالاضافة الى دور الوراثة في الامر ، مما يصعب التحكم فيه في الوقت الحاضر .

غير أن هناك عوامل مساعدة تهيء من لديهم الاستعداد للمرض ان تظهر عليهم أعراضه في وقت مبكر ، وبالتالي تكون المعاناة أشد والمضاعفات أكثر احتمالا ، ومن هذه العوامل المتفق عليها في العرف الطبي :-

أ - البدانة : ان زيادة الوزن عن الحدود المقررة للعمر والجنس تهيء للاصابة بارتفاع ضغط الدم في عمر مبكر ، وبصورة أشد ، مما لو كان الانسان نحيفا أو معتدل الوزن والبنية .

ب - الافراط في ملح الطعام والأطعمة المملحة ، حيث يتفق الأطباء أن الصوديوم وهو الشق المعدني في تركيب ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) له دور أساسي في الاصابة بضغط الدم المرتفع وشدتها ، ومن هنا تعتبر مدرات البول أحد عناصر العلاج ، كما يعتبر تفادي ملح

الطعام والأطعمة الغنية بالصوديوم أحد الأسس الأولى في العلاج والوقاية معا .

ج ـ مراعاة الاقلال من الأطعمة الدهنية ، حيوانية المصدر أو ما يدعونها بالدهون المشبعة ، نظرا لغناها بالكوليسترول والأحماض الدهنية ، التي تؤدي الى تصلب الشرايين ، وينطبق هذا على الأطعمة الأخرى الغنية بالكولسترول كالبيض والكافيار وما اليه .

د ـ الراحة الجسدية والنفسية والبعد عن الاجهاد الجسدي والتوتر العصبي .

هـ ـ ممارسة الرياضة الخفيفة كالمشي والسباحة وما اليه .

و ـ الاقلال أو الامتناع اذا أمكن عن التدخين والكحول ، لما ثبت أن الافراط فيهما يقود الى أمراض القلب والشرايين ، وبالتالي الى شدة المعاناة من ضغط الدم المرتفع .

ز ـ الفحص الدوري والكشف المبكر ، حيث ان ضغط الدم المرتفع لا أعراض له تدل عليه ، حتى يبدأ الانسان معها علاجا مبكرا ، فان قياس ضغط الدم بين حين وآخر هو من قواعد الوقاية الرئيسية .

هذا هو شأن الوقاية بالنسبة للاصحاء ، أما بالنسبة للمرضى فان الوقاية لها مفهوم آخر ، هو حماية المصاب من مضاعفات ضغط الدم المرتفع الخطيرة ، وأهمها نوبات القلب ونزيف المخ ، أو أمراض العيون والكلى ، حيث ان ارتفاع ضغط الدم لا يؤدي الى معاناة تعيق المصاب ، وانما الخوف كله من مضاعفاته الخطيرة التي تداهم على حين غرة .

ومن هنا تصبح الوقاية أساسها التزام العلاج والتحكم في ضغط الدم وضبطه في الحدود الطبيعية علما بأن ارتفاع ضغط الدم لا يشفى تلقائيا ، وانما يحتاج الى موالاة العلاج على المدى الطويل ، مع مراعاة الاطمئنان على مستواه بالقياس الدوري والالتزام بالقواعد الطبية التي يشير بها الطبيب المختص . □

ردود سريعة

● السيد أحمد محمد سيد ـ اسيوط ـ ج . م . ع :

ـ ننصحك بممارسة الرياضة والحرص على التغذية الجيدة .

●السيدة حناوي الفضل ـ ادلب ـ سوريا :

ـ نعتذر عن جهلنا بالمراكز المتخصصة في أطفال الأنابيب في البلاد العربية ، فهذا يحتاج الى متخصصين ، واستعدادات خاصة متوفرة في البلدان الأوروبية .

● السيد ن . ي . ـ طرطوس ـ سوريا :

ـ نأسف أن نقول إن نمو الطول يتوقف بعد سن العشرين تقريبا ، كما لا ينفع قص الشعر لمنع تساقطه ، لأن الأمر غالبا وراثي ، الا اذا كان هناك مرض ما ، وهنا ينفع علاج المرض في وقف ظاهرة سقوط الشعر .

● الاخ عصام احمد عباس ـ الحصاحيصا ـ السودان :

ـ تبدو أن مشكلتك برمتها (والصداع على وجه الخصوص) تعود الى معاناة نفسية تحتاج الى مراجعة اخصائي في الامراض النفسية ومباشرة العلاج معه .

ضعف الحيوانات المنوية

● السيد ن . ج ـ حلب ـ سوريا

ـ لاتأثير للتدخين أو الكحول على قضية الضعف واكتشاف السبب يحتاج الى تحليل وفحص من الطبيب المختص ليكون العلاج المناسب للداء.ومستقبل الانجاب مرهون بدرجة الضعف ونجاح العلاج .

مساحة ود..

« ريكشا » !

توقفت فى كلكتا يوما وليلة ، وانتهزت فرصة الزيارة القصيرة الخاطفة لرؤية واحدة من المدن الكبرى والمهمة بالهند ، الزحام خانق ، والشوارع تمتلىء بالبشر ، والسيارات والأوتوبيسات والباعة ، ونظرا لضيق الشوارع وعدم تمهيدها بدرجة كافية ، فإن السير بها يحتاج الى صبر وبطولة ، وفى وسط هذا الزحام والضجيج رأيت عربات « الريكشا » تسير فى الطريق فى ممر خاص مخصص للنقل البطىء ، ووقفت فى الشارع .. تسمرت قدماى وأنا أتابع سيلا من العربات يسير بعضها بلا زبائن ، والبعض الآخر به ركاب .

نحن الآن فى نهاية القرن العشرين ورغم ذلك فما يزال الانسان يعمل أعمالا يعتمد فيها على الانسان لا على الحيوان ، رغم كل التقدم فى وسائل المواصلات وكثرتها ، ومع ذلك فالعربة الخشبية التى يجرها انسان عارى الظهر والصدر مازالت وسيلة انتقال البعض ، ولقد قرأت كثيرا عن عربات « الريكشا » فى الأدبيات الأوروبية التى انبهرت بالهند ، واستذلت انسانها فترة من الزمن ، وظل تصورى أن هذه الوسيلة غير الآدمية قد انتهت بانتهاء فترة الاستعمار ، ولكن مفاجأتى الحقيقية لم تكن فى بقاء « الريكشا » ، ولكن فى زبائن الريكشا أنفسهم ، كلهم مواطنون ، أو هذا ما رأيته ، وما أن يستقل الشخص منهم العربة ، ويرفع سائقها ذراعيها ، ويتهيأ للجرى بها ، حتى يضع الراكب ساقا على ساق ، وتنتفخ أوداجه ، ويتيه برأسه ، ولقد كان منطقيا أن يكون كل هذا التيه لو أن « الريكشا » وسيلة نقل مميزة أو غالية ، ولكنها ليست كذلك ، فهي أرخص وسائل النقل كلها ، فما الذى يدفع ركابها لكل هذا التيه والخيلاء ؟ انها أحط مشاعر الانسان عندما يستيقظ ويجد متعته فى استعباد انسان آخر .. ويتملكه شعور السيادة على البشر ، احساسك بأنك تستذل انسانا آخر مساويا لك ، هذه المشاعر الدونية والأحاسيس المريضة التى جرمتها كل الأديان السماوية والرسالات المقدسة ، وادانتها كل الدعوات الاصلاحية ، وحاولت اقتلاعها كل مبادىء الأخلاق ، ولكنه الفقر هو الذى أبقى على سائقى « الريكشا » ، وأتاح الفرصة لكل المشاعر المريضة أن تنمو وتترعرع ، وتضيع كل أفكار وكتابات المفكرين والكتاب على مدى مشوارهم الطويل من أجل الحرية والاخاء والمساواة .. والانسانية ، فيا أيها الانسان ما أشد ظلمك لأخيك الانسان .

محمود عبد الوهاب

الموت فوق صدرها

علي عبدالقيوم *

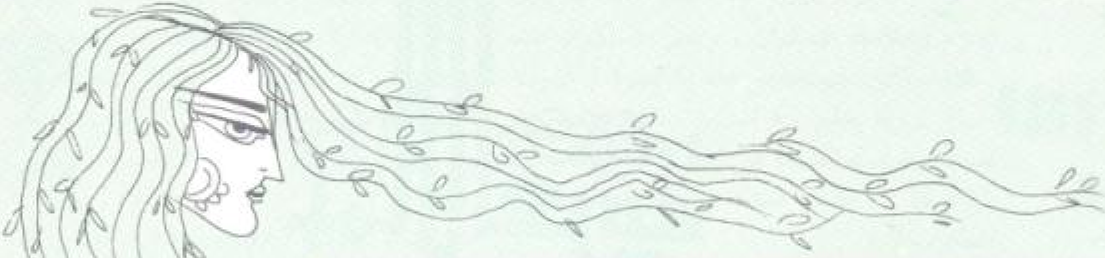
حين تنفرد الريحُ بالخشبِ المتآكلْ
تستعيرُ الشبابيكُ صوتَ النساءِ الثواكلْ
وتنام المصابيح قبل اليتامى
فَإلامَ تسهرين مع الريح والبرد مرهقةً
على مغزل الانتظار . . . إلاما ؟ !
ثم تفلت عن كفكِ الراعشة
راعشات الخيوط
تنسل عبر الجدار . . . إلاما ؟ !
فتقومين محمومة دائخة
تصلحين غطاء الصغار . . . إلاما ؟ !
ايه يا زوجة في انتظار قتيل بعيد . . .
إلاما ؟ !
كان في علمه أنها بانتظار المخاض . . . . إلاما ؟ !

*** ***

حين تفلت تلك الخيوطُ الملونةُ الراعشة
ويروي على الماء والرمل والصخر
صوت ارتطام الحقيقة بالحلم
والفعل بالعجزِ
واليأسِ بالشوقِ والرغبة القاتلة
والمودةَ بالافك والبسمة السافلة
أتماسكُ يا طفلتي الناحلة !
أتماسكُ أم يا ترى



* شاعر من القطر السوداني ، يعمل في معهد الكويت للأبحاث العلمية .





يهبط الماءُ عن جثةٍ
شوهتها دمو ُع التماسيح دون أنيابها !

*** ***

سأغني بصوت الملايين
فلتفتح الأرض أبوابها :
إنَّ موتي عميق
ولكنَّ صحوك أغلى وأعمق
سأموت كما ترغبين معلق
من فؤادي الذي ....
إيهِ لكن فؤادي ممزق

*** ***

سأصلي صلاة فدائك مرتفعاً
قبل أن ينحروني
حين أركع
أركع مستقبلاً وجهك المنتصر
حين أسجد
فلتذكري
أن وجهي جريح ، عفيف ، مدمى
غاص ـ كالشمس في الماء ـ
بين نهديك ، كما ....
غاصَ في عنقي خنجر صدىء منكسر

ل غ ة

جمال العربية

بقلم : محمد خليفة التونسي

سُؤالان وَجَوابان

١ ـ بين التنوين والاضافة

في رسالة من السيد / أحمد عبدالله حمدان العوريفي (الزرقاء ـ الأردن) يورد أسئلة ، نلخص اثنين منها هنا ، ونجيب عنها فيما يأتي :

س ١ ـ « الموفون نذورهم . المقيمين الصلاة . المؤتون الزكاة » الكلمة الأولى في كل من هذه العبارات الثلاث اسم فاعل ، وجمع مذكر سالم ، فلماذا ثبتت النون فيها مع أن النون تحذف بالاضافة ؟ ومتى نكتب هذه النون ؟ . ومتى نحذفها كما في قولنا « مُدَرِّبُو الرياضةِ ، ومُعَلِّمُو الحسابِ ؟ » .

ونشير بدءا الى أن الأولى أو الصحيح أن تقول في كل من هذه الكلمات وما إليها إنها « صفة فاعل » لا اسم فاعل كما هو المشهور ، لأن الاسم يدل على مسمى (ذات ، أو معنى) ، والصفة تدل على وصف لموصوف(١) ، وهذه الصفات الثلاث هنا تسمى « صفات محضة »(٢) لأن كلا منها يجري على فعله في العمل وفي الدلالة على حدث وزمن ، ومن أجل ذلك يسميها بعض النحاة الكوفيين « فعلا » ، و « أل » في هذه الصفات موصولة ، والصفة بعدها صلة لها توضحها(٣) ، فالموفون .. تعني : الذين يوفون .. وهكذا .

والصفات يلحقها التنوين كما يلحق الأسماء ، ولكن تنوين الاسم يدل على تنكيره ، وتنكير الصفة يدل على زمن معين هو المستقبل ، كقوله تعالى : « ولا تقولَنَّ لشيء إني فاعلٌ ذلك غدا » والفرق بين قولنا : « هو كاتبُ الرسالةِ » بالاضافة دون تنوين(٤) ، وبين قولنا « هو كاتبٌ الرسالةَ » بالتنوين هو أن الجملة الأولى تدل على أنه كتب الرسالة ، والثانية تدل على أنه سيكتب الرسالة .

فاذا ثنّينا الصفة أو جمعناها جمع مذكر سالما لحقتها نون بدل التنوين في المفرد ، فتقول : مقيمان (أو مقيمَينْ) ومقيمون (أو مقيمينَ) ، وهذه النون تثبت عند إعمال الصفة عمل الفعل فتنصب مفعولا كالأمثلة المذكورة في البداية :

« الموفون نذورَهم ، المقيمين الصلاةَ ، المؤتون الزكاةَ » فاذا أضيفت الصفة هنا الى ما بعدها حذفت النون(٤) فيقال : « معلما الحساب ، ومعلموه ، وقاطنا البيت وقاطنوه » ويلاحظ هنا أن الصفة بعد « أل » تدل على الأزمنة الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، كما يرى معظم النحاة .(٥)

٢ ـ التخلص من التقاء الساكنين

س ٢ ـ يجزم المضارع اذا سبق بأحد حروف الجزم وعلامته السكون ، ويلغى السكون عند التقاء ساكنين فيستعاض عنه بالكسرة ، كقوله تعالى « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » فلماذا وضعت الفتحة على الميم في الفعل « يتمّ » من قولنا : « مضت سنتان ولما يتمّ تحصيل المبلغ المطلوب ؟ »

ـ هذه قضية صوتية أخرى ، فلغتنا تأبى التقاء ساكنين في وصل الكلام ، غالبا حين يكون آخر كلمة ساكنا وأول الكلمة التي تليها ساكنا أيضا ، فاذا قلنا : « قالتِ العرب ، وغربتِ الشمس » كسرنا أول الساكنين نطقا وهو تاء التأنيث ، للتخلص من التقاء الساكنين أي لتخفيف الجهد على جهاز الصوت في نطقهما معا ، وتحريك الأول بالكسر ليس مطردا ، لكنه الأكثر ، وان كان بعض نحاتنا قد عده الأصل ، فقد يكون التخلص بالفتح كما في قولنا « لما يتمّ[٦] تحصيل المبلغ » للتمييز بين هذا الفعل ونحوه في حالة الجزم وحالة الرفع . (هكذا تكلمت العرب) .

ويكون التخلص بالفتح أيضا اذا كان الأول نون « من » الجارّة ، كقولنا : نستمد الماء منَ النهر « والسكر منَ القصب » ، وقد يكون التخلص بحذف الأول لفظا لا كتابة اذا كان حرف مد (ألفا ، أو واوا أو ياء) مثل : أولي الألباب ، وفي البيت ، ومثل : اكرما الجار ، وكلا الأمرين ، وعلى الأرائك ، وكلتا الجنتين » ومثل : أولو الأمر ، عبدوا الله ولم يؤخروا الزكاة . ومثل : في الجنة ، علمي ابْنك ، وقد يحرك الساكن الأول بالضم ، مثل عليكمُ السلام وعليهمُ السلام ، وقد يحرك بالضم أو الكسر اذا كان في قافية مطلقة مضمومة أو مكسورة ، مثل : كُلِّهُمُ ، وكلِّهِمِ ، وبعض العرب يفك الادغام في مثل « يتمّ » فيقول : لم يُتْمِم الخطة ، (وفعل الأمر في كل ذلك كالمضارع) فيقال : أتمِم الخطة ، فيحرك الساكن الأول بالكسر ، كما في رسالة أبي بكر لخالد بن الوليد حين أرسله من العراق الى الشام « أتمِمْ يُتْمِمِ الله عليك »[٧] .

---

١ ـ ٢ تراجع « صفحة لغة » عنوانها « بين الأسماء والصفات » العربي / العدد ٣١٢ (نوفمبر سنة ١٩٨٤) ، وقد تنتقل الصفة الى الاسمية حين لا تجرى مجرى فعلها في دلالته على حدث وزمن ، ولا تعمل عمله في نصب المفعول ، كقولنا : الناظر ، القائد ، المهندس ، المجاهد ، وتسمى الصفة حينئذ « صفة غالبة » فالصفات نوعان : « محضة » تعمل ، و « غالبة » لا عمل لها .

٣ ـ تراجع صفحة لغة عنوانها « أل : معرّفة وموصولة » العربي / العدد ٣٣٦ (أكتوبر سنة ١٩٨٦) .

٤ ـ لا تجتمع الاضافة مع التنوين ولا مع النون ، ونلاحظ وحدة الأصل بين التنوين والنون ، وكلاهما ينطق في وصل الكلام ، وان كان التنوين لا يكتب ، والنون تكتب ، وهذه قضية رسم خاصة بلغتنا ، ومعلوم أن اللغات أصوات تنطق ، قبل أن تكون حروفا ترسم .

٥ ـ اذا كان الفعل يتعدى الى مفعولين جاز أن تضاف صفة الفاعل الى أحدهما ، وينصب الثاني ، كقوله تعالى « جاعلِ الملائكة رسلا » .

٦ ـ يلاحظ أن الميم المشددة في « يتم » هنا حرفان في النطق ، أولها ساكن أصلا ، والثاني ساكن أيضا بالجزم ، ولكنه حرك بالفتح .

٧ ـ يلاحظ أن العرب خصصوا علامة لما يسميه النحاة حالة « الرفع » في الأسماء (والصفات) والأفعال ، وجعلوا علامة مشتركة بين حالتين من بقية الحالات الثلاث : النصب والجر والجزم ، فالضمة خاصة بالرفع كقولنا : « تشرقُ الشمسُ » والواو والنون للرفع كقولنا : « المؤمنون ينتصرون » وعلامة مشتركة بين النصب والجر في المثنى وفي جمع المذكر السالم ، هي الياء والنون ، فالمثنى كقولنا : زودت الرجلين بحصانين ، وجمع المذكر السالم كقولنا : ألحقت الأوروبيين بالأمريكيين ، وحذف النون علامة مشتركة في حالتي النصب والجزم في الفعل المضارع اذا كان من الأفعال الخمسة ، كقولنا : المجتهدان لم يفشلا ، ولن يفشلا . والكسرة علامة النصب والجر في جمع المؤنث السالم ، كقولنا : ان للمدرساتِ حجراتٍ خاصة . والفتحة علامة النصب والجر في الممنوع من الصرف ، كقولنا : شاهدت في بغداد مساجدَ كثيرة .

جمال العربية

شعر

هكذا غنى الآباء

عتاب صديق

لابن الرومي

في العدد ٣٢٧ (فبراير شباط سنة ١٩٨٦) نشرنا في هذا الباب أبياتاً لشاعرنا ابن الرومي في « وصف جمال مغنية ، وأشرنا الى بعض مزايا شعره ، وهي ماثلة في أبياته هناك وأبياته هنا ، ونزيد على ما قلنا انه كان تعيس الحظ في حياته لأنه كان مختل الأعصاب ، فضره ذلك في معيشته ونفعه في شعره . كان شديد التشاؤم اذ كان يتوجس شراً من المخاوف التي يختلقها خياله وأوهامه ، وكان كثير من الناس يتشاءمون منه ، وقد يسخرون ، مع اعجابهم بشعره ، وما زال كثير كذلك حتى الآن ، وكان يشكو ضيق رزقه ، لأنه صاحب أسرة وكان قليل الحيلة في الأحوال المختلة المحيطة به ، وكان لتعثر حظه كثير الشكوى من زمانه وخلطائه .

وهذه الأبيات جزء من قصيدة مشهورة أبياتها ٧٨ يعاتب فيها صديقاً يسمى أبا القاسم الشطرنجي ويمدحه ، اجتزأنا منها هنا أبيات العتاب .

يَا أَخِي أَيْنَ عَهْدُ ذَاكَ الإِخَاءِ … أَيْنَ مَاكَانَ بَيْنَنَا مِنْ صَفَاءِ

كَشَفَتْ مِنْكَ حَاجَتِي هَنَوَاتٍ … غُطِّيَتْ بُرْهَةً بِحُسْنِ اللِّقَاءِ(١)

تَرَكَتْنِي وَلَمْ أَكُنْ سَيِّءَ الظَّنِّ … أَسِيءُ الظُّنُونَ بِالأَصْدِقَاءِ

يَا أَخِي هَبْكَ لَمْ تَهَبْ لِيَ مِنْ سَعْـ … ـيِكَ حَظًّا كَسَائِرِ الْبُخَلَاءِ

أَفَلَا كَانَ مِنْكَ رَدٌّ جَمِيلٌ … فِيهِ لِلنَّفْسِ رَاحَةٌ مِنْ عَنَاءِ ؟

أَجَزَاءُ الصَّدِيقِ إِبْطَاؤُهُ الْعُشْـ … ـوَةَ حَتَّى يَظَلَّ كَالْعَشْوَاءِ(٢)

تَارِكاً سَعْيَهُ اتِّكَالاً عَلَى سَعْـ … ـيِكَ دُونَ الصِّحَابِ وَالشُّفَعَاءِ

كَالَّذِي غَرَّهُ السَّرَابُ بِمَا خَيَّـ … ـلَ حَتَّى هَرَاقَ مَا فِي السِّقَاءِ

يَا أَبَا الْقَاسِمِ الَّذِي كُنْتُ أَرْجُو   هُ لِدَهْرِي قَطَعْتَ مَتْنَ الرَّجَاءِ
لاَ أُجَازِيكَ عَنْ غُرُورِكَ إِيَّا   يَ غُرُوراً وُقِيتَ سُوءَ الْجَزَاءِ
بَلْ أَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ وَمَا ذَا   كَ لِبُخْلٍ عَلَيْكَ بِالإِغْضَاءِ
أَنْتَ عَيْنِي وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي   غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الأَقْذَاءِ
مَا بِأَمْثَالِ مَا أَتَيْتَ مِنَ الأَمْـ   ـرِ يَحُلُّ الْفَتَى ذُرَا الْعَلْيَاءِ
بَذَلَ الْوَعْدَ لِلأَخِلاَّءِ سَمْحاً   وَأَبَى بَعْدَ ذَاكَ بَذْلَ الْعَطَاءِ
فَغَدَا كَالْخِلاَفِ يُورِقُ لِلْعَيْـ   ـنِ وَيَأْبَى الإِثْمَارَ كُلَّ الإِبَاءِ[3]
لَيْسَ يَرْضَى الصَّدِيقُ مِنْكَ بِبِشْرٍ   تَحْتَ مَخْبُورِهِ دَفِينُ جَفَاءِ
لَيْسَ لِلْمُكْثِرِ الْمُنَغَّصِ عَيْشٌ   إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهَنَاءِ
يَا أَبَا الْقَاسِمِ الَّذِي لَيْسَ يَخْفَى   عَنْهُ مَكْنُونُ خُطَّةٍ عَوْجَاءِ
أَتَرَى كُلَّ مَا ذَكَرْتُ جَلِيّاً   وَسِوَاهُ مِنْ غَامِضِ الأَشْيَاءِ؟
ثُمَّ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيُّ صَدِيقٍ   رُبَّمَا عَزَّ مِثْلُهُ بِالْغَلاَءِ؟
لاَ لَعَمْرُ الإِلَهِ لَكِنْ تَعَاشَيْـ   ـتَ بَصِيراً فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءِ[4]
ظَالِماً لِي مَعَ الزَّمَانِ الَّذِي ابْتَـ   ـزَّ حُقُوقَ الْكِرَامِ لِلُّؤَمَاءِ
ثَقُلَتْ حَاجَتِي إِلَيْكَ فَأَضْحَتْ   وَهْيَ عِبْءٌ مِنْ فَادِحِ الأَعْبَاءِ
وَقَضَاءُ الإِلَهِ أَحْوَطُ لِلنَّا   سِ مِنَ الأُمَّهَاتِ وَالآبَاءِ
غَيْرَ أَنَّ الْيَقِينَ أَضْحَى مَرِيضاً   مَرَضاً بَاطِناً شَدِيدَ الْخَفَاءِ
مَا وَجَدْتُ امْرَأً يَرَى أَنَّهُ يُو   قِنُ إِلاَّ وَفِيهِ شَوْبُ امْتِرَاءِ
لَوْ يَصِحُّ الْيَقِينُ مَا رَغِبَ الرَّا   غِبُ إِلاَّ إِلَى مَلِيكِ السَّمَاءِ
وَعَسِيرٌ بُلُوغُ هَاتِيكَ جِدّاً   تِلْكَ عُلْيَا مَرَاتِبِ الأَنْبِيَاءِ
وَعَزِيزٌ عَلَيْكَ غَضِّيكَ بِاللَّوْ   مِ وَلَكِنْ أَصَبْتَ صَدْرِي بِدَاءِ
أَنْتَ أَدْوَيْتَ صَدْرَ خِلِّكَ فَاعْذِرْ   هُ عَلَى النَّفْثِ إِنَّهُ كَالدَّوَاءِ
قَدْ قَضَيْنَا لُبَانَةً مِنْ عِتَابٍ   وَجَمِيلٌ تَعَاتُبُ الأَكْفَاءِ
وَالَّذِي أَطْلَقَ اللِّسَانَ فَعَاتَبْـ   ـتُكَ عَذْبِيكَ أَوَّلَ الْفُقَهَاءِ
وَأَنَا الْمَرْءُ لاَ أَسُومُ عِتَابِي   صَاحِباً غَيْرَ صَفْوَةِ الأَصْفِيَاءِ
ذَا الْحِجَا مِنْهُمُ وَذَا الْحِلْمِ وَالْعِلْـ   ـمِ وَجَهْلٌ مَلاَمَةُ الْجُهَلاَءِ
إِنَّ مَنْ لاَمَ جَاهِلاً لَطَبِيبٌ   يَتَعَاطَى عِلاَجَ دَاءٍ عَيَاءِ

---

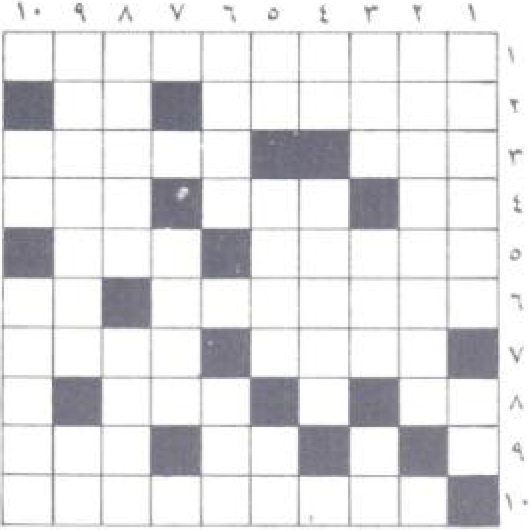
١) هنوات : صغائر ، مفردها : هنة ، والمعنى أن طلباتي الصغيرة كشفت حقيقة ضميرك التي كنت تغطيها بحسن لقائك لي .

٢) العشوة : النهار ، والعشواء : الناقة الضعيفة النظر ، أي أنه أضله ولم يرشده .

٣) الخلاف : شجر الصفصاف ، حسن المنظر ، بلا ثمر .

٤) تعاشيت : تظاهرت بعدم الابصار .

الكلمات المتقاطعة



يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالإضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع والمطلوب منك أن تجد إجابات الشبكة التالية ثم الرجوع الى الحل المنشور في مكان لاحق من هذا العدد للتأكد من صحة إجاباتك .

الكلمات الأفقية :

١ ـ إمام فرقة كلامية إسلامية ظهرت في أواخر القرن الهجري الأول .

٢ ـ من كبار مفكري التاريخ عاصر المأمون ولقب بفيلسوف العرب ، مودّة .

٣ ـ يقع في الجلد مقلوبة ، من أتباع أحد الأديان السماوية .

٤ ـ تجدها في تمتع ، الجزء السائل بعد تجلّط الدم ، أراد .

٥ ـ مقدمة الجيش ، جهنم .

٦ ـ عملية لتعويض الدم المفقود ، ضمير جمع .

٧ ـ تضحت ، يضم .

٨ ـ أكثر من الكلام دون طائل ، سال الدم من أنفه .

٩ ـ عاشق ولهان ، غير محترف .

١٠ ـ فرقة اسلامية ظهرت في نجد تأخذ بصريح الكتاب والسنّة .

الكلمات الرأسية :

١ ـ عاصمة صغيرة لدولة عظمى ، بالغ في الإلحاح .

٢ ـ قصائد جاهلية خالدة .

٣ ـ تراجع معكوسة ، تصير أو حليف معكوسة ، حاد عن السّبيل .

٤ ـ حرف نصب ونفي ، حديث .

٥ ـ حيوان قطبي معكوسة ، (الخيل) اطلقت صوتاً ، اسم فعل بمعنى اسكت .

٦ ـ معدن قاس فضي اللون ، الفائدة أو الربح الفاحش على المال .

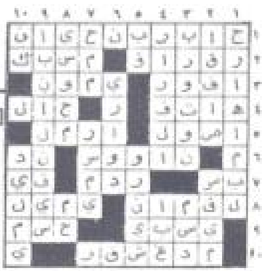
٧ ـ من أسماء الله الحسنى .

٨ ـ قبائل من البربر تعيش في الصحراء الافريقية شفوي .

٩ ـ اخرهم ، من أحرف العطف .

١٠ ـ بحر ، قائد بحري بريطاني هزم الفرنسيين في موقعة الطرف الأغر .

حل مسابقة العدد الماضي فبراير ١٩٨٧

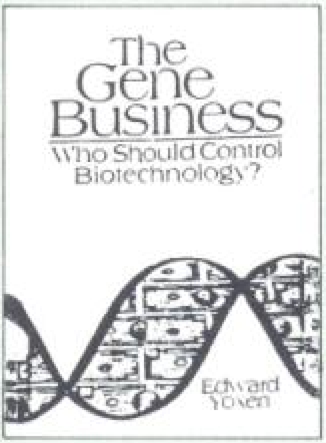




مكتبة العربي

كتاب الشهر

تأليف : ادوارد يوكسن   عرض : بهاء الدين محمود



تجارة الجينات

من يجب أن يتحكم فى التقنية الحيوية؟

الجينات هي الوحدات المتحكمة في نقل الصفات الوراثية في الكائنات الحية . ومنذ السبعينيات حدث ما يمكن اعتباره ثورة في عالم الهندسة الوراثية . ومع أن هذا العلم كما يقول المؤلف يعود الى الزمن الذي صنع الانسان فيه أول قطعة من الجبن ، إلا أن آثاره المستقبلية يصعب التكهن بها . والكتاب بحث في هذا العلم وتحذير من تحويله الى تجارة . . .

يبدأ المؤلف كتابه بقوله : « إن ثمة شيئا ما يحدث هذه الأيام وهو الثورة التقنية ، والتي من خلالها يتم الاعداد لهجوم شامل من شأنه أن يغير اقتصاد الدول المتقدمة والنامية على حد سواء » ـ ثم يمضي المؤلف في تحليله لهذه الثورة التقنية فيذكر أن لهذه الثورة من الأصول البعيدة ما تمتد جذوره في تربة التاريخ عبر آلاف السنوات حينما استطاع الانسان الأول صنع قطعة الجبن الأولى من عملية تخمر اللبن ، كما استخدم الانسان العمليات الحيوية في الكثير من الصناعات كصناعة الغذاء ، والأصباغ ، والأدوية، والوقود، والورق . . . وفي غضون سبع أو ثمان سنوات تحولت التقنية الحيوية Biotechnology من مجرد أبحاث أكاديمية إلى ثورة صناعية ، وإلى موجة جديدة من الاستثمار وكذلك إلى تجارة . ثم يمضي المؤلف تحت عنوان غريب وهو « الثدي الآيل للزوال » فيفجر قضية هامة ، فيذكر أن لبن الأم ما هو إلا خليط من الدهون، والبروتينات والأجسام المضادة ، ويتميز لبن كل جنس من الأجناس الحيوانية بمميزات خاصة به ، كما يقوم كل مكون من مكونات لبن الأم بوظيفته المنوطة به من بناء للجسم ودفاع عنه . . . إلخ . على أن العلماء قد استطاعوا مؤخرا أن يصنعوا بعض مكونات هذا اللبن داخل بعض أنواع البكتريا وذلك بواسطة علم الهندسة الوراثية ، وأبسط تفسير لما يحدث الآن هو أن العلماء قد توصلوا إلى كيفية التحكم في عملية انتاج هذه المكونات ، وتعتبر هذه الأبحاث من أهم الأبحاث التي تعنى بها كبرى شركات إنتاج الألبان في العالم وهي شركة (نستلة) الشهيرة ، وهذا مثل بسيط على خطورة علم التقنية الحيوية . ويشمل هذا الحقل التجريبي مجالات أخرى مثل معرفة كيفية تكوين الدم ، الدموع ، العرق ، وامكانية تكوين هذه المواد صناعيا داخل بعض البكتريا المبرمجة والتي تعطى لها التعليمات لتكوين مثل هذه المواد وبكميات وفيرة ، ثم يمضي المؤلف قائلا « إن علم الوراثة يملك القدرة على صنع الكثير وإننا ـ إلى هذه اللحظات ـ قانعون ومسرورون بما حققناه في مجال الانتاج الحيواني والنباتي . ولكن المؤلف لا يلبث أن يعود فيذكر تحت عنوان « الثورة التقنية وإنحلال المجتمع » : إننا يجب أن نضع الضوابط الاجتماعية المناسبة قبل تحقيق أهداف الثورة التقنية وذلك حتى لا نضلَّ الطريق بما قد يكون فيه عواقب وخيمة على البشرية جمعاء .

الكائن الحي والآلة المعقدة

في الفصل الثاني يذكر المؤلف أن الكثير منا مازال يتذكر فترة دراسته الأولى وذلك التعريف الأولي عن الخلية الحية بأنها قادرة على التغذية ـ الانقسام ـ التنفس ـ إلى آخر هذه الصفات . ولا يستطيع أحد منا أن يعترض على مثل هذا التعريف البدهي الذي مكَّنَ العلماء من تحليل طريقة عمل الخلايا وبالتالي من العمل في حقل العلوم الحيوية وبخاصة علم الوراثة .

وهذا ما دعا بعض العلماء الى القول عن أي كائن حي يريد إجراء التجارب الوراثية عليه : « دعونا نتعامل مع هذا الكائن كما لو كان نوعا معقدا من الآلات » . وقد تعامل بعض العلماء بعد الحرب العالمية الثانية مع بعض الكائنات الحية على هذا الأساس وساعدهم في ذلك علماء الحيوية الجزيئية فكانوا يحللون ويتوصلون إلى كيفية عمل الجينات ولهذا فإن علماء الحيوية الجزيئية عرَّفوا الحياة بأنها ما تفعله الجينات،ولا يمكن أن ننسى عام ١٩٤٤ حين إكتُشِفَ تركيب الجينات من الحمض النووي الديوكسي ريبوزي (DNA) ، وهنا برز السؤال الهام للعلماء : إذا كنا نعلم ممَّ تتركب الجينات فكيف يتم ترتيب هذه المواد لتنقل الصفات الوراثية ؟ ثم جاء عام ١٩٥٣ حين رسم عالمان من جامعة كامبردج هما واطسون وكريك أنموذجاً لتركيب هذا الحمض النووي (DNA) وهو عبارة عن حلزون ثنائي

وحصل العالمان على جائزة نوبل بموجب هذا العمل عام ١٩٦٢ ، ثم يذكر المؤلف أن علم الحيوية الجزيئية قد أضحى في أواخر الستينيات من أهم علوم الحياة كما ازداد إهتمام الدوائر العلمية والتجارية وازداد دعم الحكومات له،وربما كان يعزي مثل هذا التأييد لهذا العلم إلى إرتباط أبحاثه بأبحاث مقاومة السرطان ، كما استطاع العلماء في أواخر الستينيات أن ينقلوا بعض الجينات من بعض الخلايا إلى أخرى ، وقطع بعض الجينات من خلية وتركيبها في أخرى ، وقد سميت هذه الأبحاث بـ « أبحاث إعادة إتحاد الحمض النووي الديوكسي ريبوزي » .

وفي عام ١٩٧٣ أعلن بعض العلماء الأمريكيين عن خطط لوصل جينات من كائنات حية مختلفة بعضها بالبعض ، وقد حازت تلك الفكرة الاهتمام الكبير ، بيد أن أحدا لم يستطع التنبؤ بالنتائج التي ستترتب على مثل هذه التجارب المثيرة مما دعا العلماء في مؤتمر لاحق عام ١٩٧٣ إلى وضع بعض القيود على مثل هذه الأبحاث بحيث تحقق للبشرية النفع الكبير ، وتضمن في الوقت ذاته الأمان للعاملين في مثل هذه التجارب . ثم يمضي المؤلف إلى جزء آخر فيتحدث عن دخول التجارب العلمية لبعض العلماء إلى حقل التجارة والسوق إذ اتخذت بعض الشركات الصناعية من التجارب المعملية أداة للكسب مستخدمة في ذلك أسس الهندسة الوراثية بوصف هذا العلم مجال تنافس كبير بين الهيئات العلمية والشركات . كما يقدم هذا العلم في الوقت ذاته توقعات أكبر للحياة المستقبلية كما حدث في بعض العلوم الأخرى مثل العلوم الألكترونية وعلوم الفضاء والأقمار الصناعية .

وفي الباب الثالث يعرض المؤلف أسس علم الهندسة الوراثية وتركيب الخلية الحية وطريقة عملها كما يعرض فكرة عمل الشفرة الوراثية The Genetic Code ويُشْفِقُ المؤلف على القارىء من عرضه لمثل هذه المعلومات المُملة التي ربما تكون غير ذات أهمية للقارىء غير المتخصص .

ثم يعرض المؤلف تجربة مثيرة عن كيفية تكوين كرية دم حمراء داخل جسم الانسان وكيف أن ذلك يحتاج إلى (٢٦٠ مليون جزيء من مادة الهيموجلوبين) اللازمة لمثل هذا التكوين وكيف يتم وضع هذه الجزئيات الدقيقة جدا معاً ، ثم تصدر التعليمات الوراثية المتتالية لانجاز مثل هذه الكرية في وقت قياسي . ثم يتعرض المؤلف لمثال آخر وهو تكوين جزيء هرمون الانسولين داخل البنكرياس وهو الهرمون المستخدم في علاج مرض السكر وكيف أن هذا الهرمون كان يُستخرج في الماضي من بنكرياس الحيوانات ، واستطاعت أبحاث علماء الوراثة أن تنتجه بكميات وفيرة باستخدام أساليب الهندسة الوراثية مما حقق للبشرية الخير الكثير .

بيع مستقبل طبي

يستهل المؤلف بابه الرابع بهذا العنوان متحدثا عن تطبيقات علم التقنية الحيوية في مجال الصحة ومقاومة الأمراض وكيف أننا سوف نلتقي عند نقطة الالتقاء الهامة وهي أن هذا العلم سوف يقلل بدرجة كبيرة من معاناة الانسان ، ويذكر المؤلف أن حوالي ثلثي سكان العالم يتمتعون بخدمات صحية جيدة تكفلها لهم شركات صناعة الدواء في هذه المناطق من العالم ، غير أن الثلث الباقي سوف يستطيع أن يتخطى حاجز التجاهل أو الاهمال في هذا المضمار باعتماده المستقبلي على علم التقنية الحيوية ـ ثم يعدد الكاتب بعض المجالات التي يساهم فيها هذا العلم برفع المستوى الصحي للبشرية جمعاء مثل مجال إنتاج اللقاحات والأمصال وإنتاج مادة الأنسولين ـ كما ذكرنا من قبل ـ ثم أخيرا عقار الانترفيرون الذي عُلِّقَتْ عليه الآمال لفترة كبيرة لعلاج السرطان ، كما فكر بعض العلماء في استخدام الانترفيرون في علاج بعض الأمراض الفيروسية مثل الحصبة ، الأنفلونزا ، الهربس ، لأن مثل هذه المادة تمكن الخلية من حماية نفسها من الاصابة مرة أخرى ، ثم فتر الاهتمام بمادة الانترفيرون في منتصف الستينيات لبعض الصعوبات في إنتاجها وإستخدامها ، ثم ينتقل المؤلف إلى جزء آخر ليتحدث عن هرمونات النمو ويضع لهذا الحديث عنوانا مثيرا هو « هرمونات النمو تُلَطِّخ السوق » ويعرض فيه كيفية إستخراج تلك الهرمونات واستخداماتها ، ثم يتساءل في ثنايا سطوره عن سر هذا الطلب الهائل على هرمونات النمو وعن سر الحاجة إليها وهل سيبقى الطلب عليها في إزدياد مطرد

وما الداعي لهذه الزيادة ؟ ثم ينهي المؤلف هذا الباب فيعلن أن إنتاج الجديد من العقاقير سوف يفتح آفاقا جديدة لعلاج الكثير من الأمراض ، وضرب مثالاً على ذلك بنجاح العلماء في إنتاج المزيد من عوامل التجلط باستخدام علم التقنية الحيوية داخل بعض أنواع البكتريا ، ذلك العمل الفذ الذي سوف يُنهي آلام الكثير من مرضى الهيموفيليا . ويوجه المؤلف أخيرا نداء إلى الشركات المنتجة لمثل كل هذه العقاقير بألاّ يشغلوا أنفسهم بالربح الكثير عن أهدافهم في إنهاء معاناة البشر .

زيادة إنتاج النباتات

ثم يتحدث المؤلف عن العلاقة الأزلية بين البشر ومهنة الزراعة فيذكر أن هذه المهنة من أول النشاطات التي عرفتها البشرية ، ثم يقرر الكاتب أن كثيرا من الهيئات العلمية في جميع أنحاء العالم تهدف في المقام الأول إلى زيادة الانتاج الزراعي ، ومن ثمّ فقد استطاع العلماء إستنباط أنواع جديدة من النباتات المألوفة مثل النبات الهجين بين الطماطم والبطاطس الذي سماه العلماء "POMATO" (بوميتو) ، وهذا النبات ينتج أوراقا فوق سطح التربة تعطي ثمار الطماطم ، وجذوراً داخل التربة تعطي ثمار البطاطس ، وليتصور القارىء معنا إلى أي مدى يصل العلم بالانسان لانتاج مثل هذا النوع من النباتات ، كما تمخضت أبحاث العلماء عن إنتاج أنواع من البطاطس قادرة على مقاومة الأمراض ، على أن المؤلف لا يخفي اعترافه بأن زيادة إنتاج المحاصيل تسبب إرهاق التربة مما يتطلب معه المزيد من الأسمدة التي دخلت هي الأخرى مجال التصنيع على نطاق واسع يفي بمثل هذه الاحتياجات ، ثم يذكر المؤلف الأهمية الاستراتيجية للحبوب الزراعية ، فالأمم التي تنتج غذاءها تملك استقلالها ، ولهذا فقد تحدث المؤلف عن هذا الموضوع في إحدى فقرات الباب الخامس تحت عنوان : (الحبوب : المفتاح الجديد إلى الاستقلال) ، فيذكر كيف أن الشعوب على مختلف أجناسها تحاول أن تفي باحتياجاتها من الحبوب لتضمن استقلالها وعدم تبعيتها لدول بعينها ، ويختم المؤلف هذا الفصل بدعوته العالم الثالث للدخول في سباق إنتاج الحبوب باستخدام نظام التقنية الحيوية والهندسة الوراثية للحفاظ على إستقلالها .

المال لا ينمو على الشجر

ويتحدث المؤلف عن مجالين رئيسيين هما : الكيمياء ، والطاقة . ويتساءل في ثنايا حديثه قائلا : هل سيكون علم التقنية الحيوية الحل الأوحد لمشاكل هذا العالم ؟ ثم يجيب المؤلف عن هذا التساؤل قائلا :

أولا : يجب على الشركات الكيميائية أن تبذل جهودا أكبر لزيادة إنتاجها وبخاصة في مجال الطب مثل الصناعات الدوائية وصناعة المواد المستخدمة في التشخيص المعملي .

ثانيا : من الممكن أن يقوم علم التقنية الحيوية بحل مشاكل الغذاء في جميع أنحاء العالم ولنبدأ ذلك على سبيل المثال بالمصادر الرخيصة من المواد الكربوهيدراتية مثل السليولوز والبكر والتي من الممكن تكسيرها إلى جزئيات أصغر وإعادة تجميعها إلى جزئيات أكبر تفي بالسعرات التي يحتاجها الجسم البشري .

ثالثا : من الممكن أن يفتح علم التقنية الحيوية آفاقا جديدة لامكانية العمل في درجات حرارة وضغط أقل تساهم في إجراء المزيد من الأبحاث التي لا يقدر علم الهندسة الوراثية على إستيعابها في الوقت الحاضر .

كما يدعو المؤلف إلى الاهتمام بالفحم بوصفه - على حد اعتقاده - البديل الغذائي لبني البشر في

المستقبل ، وربما يزول تعجب القارىء حين يعلم أن الفحم يتكون من عناصر الكربون ـ الهيدروجين ـ الاكسجين وهي نفس العناصر المكونة للمواد الكربوهيدراتية ، ولذا فإن المؤلف يدعو إلى الاهتمام بالفحم وتكسير جزيئاته وإعادة دمجها لتكوين جزيئات أكبر،وإضافة بعض العناصر الأخرى اللازمة لجسم الانسان لهذه الجزيئات،ليحتل الفحم مثل هذا الدور المنتظر لحل مشكلة الغذاء .

ثم يذكر المؤلف تحت عنوان « المال لا ينمو على الشجر ، إنما ينمو داخله » : أنه من الممكن الاستفادة من بقايا الأشجار ومخلفات الغابات وقصب السكر وقشر الأرز وغيرها من المواد ذات الأصول النباتية لانتاج ما اصطلح على تسميته بالـ "BIOMASS" (بيوماس) وهو بديل الطاقة المستقبلي للتغلب على مشكلة زيادة أسعار البترول ومشتقاته ، ثم يورد المؤلف تجربة رائدة اتبعتها الصين خلال الحرب العالمية الثانية بأن استخرجت مركبات طيارة من بعض الزيوت النباتية لاستخدامها كبديل للبترول ، كما ظهر إتجاه جديد خلال الأيام الأخيرة لاستخدام بديل آخر للبترول بمزج (زيت فول الصويا ـ وزيت زهرة عباد الشمس ـ وزيوت بعض البذور النباتية الأخرى) وكانت لهذه التجارب النتائج المشجعة على الاستمرار فيها .

وهكذا ينتقل بنا الكاتب من مثال لآخر ليبرهن على ما سبق أن ذكره من قبل من أن المال لا ينمو فوق الأشجار بل يسري داخلها إنما هو حقيقة لا وهم .

إلى أين نتجه من هنا ؟

يحاول المؤلف في الباب الأخير أن يتلمس الطريق مع القارىء ، فيتساءل : إلى أين نتجه من هنا ؟ ثم يذكر المؤلف أنه من الصعب على المرء أن يؤلف كتاباً مثل هذا الكتاب دون أن يحاول التخمين والتنبؤ بما سوف يحدث في المستقبل ، وإننا الآن وضعنا أيدينا على إتجاهات معينة ربما تكون خاطئة في حينها ولكنها ربما تصبح الفكرة المهيمنة والصحيحة خلال عشر سنوات قادمة على سبيل المثال لتوضيح الرؤية الغائبة . ثم يتحدث المؤلف عن أمله في أن يشمل علم التقنية الحيوية قطاعات أكثر من الناس وذلك لقدرة هذا العلم على إحتواء وحل معظم مشاكل المجتمعات البشرية ، ثم يدعو المؤلف إلى المزيد من التأييد لمثل هذا العلم من جانب الدوائر المالية ، الصناعية ، والسياسية في شتى دول العالم ، كما يدعو المؤلف قراء هذا الكتاب إلى التفكر فيما سوف يحدث في المستقبل وإلى أن يسألوا أنفسهم : ماذا سيقدم علم التقنية الحيوية للبشر من خدمات في الوظائف ، في أساليب العمل ، في الأنشطة المدنية ، في مجال الصحة ، في البيئة المحيطة بالانسان ، وفي مجال الطاقة ، إلى آخر مثل هذه الأنشطة الانسانية ، ثم يضرب المؤلف مثلاً على ذلك في علم الكيمياء،فقد غيرت الكيمياء الصناعية من أسلوب التعامل مع (عملية التخمر) خوفاً من أخطار التعرض للكائنات الدقيقة مثل البكتريا التي ربما تُعَرِّض القائمين على إتمام مثل هذه العملية لبعض الأمراض ، ثم يذكر المؤلف مثلاً آخر وليكن (قمامة المنازل) فلو أصبحت سلعة ذات قيمة في ظل علم التقنية الحيوية للاستفادة منها فمن يستطيع التنبؤ بالمتغيرات التي سوف تحدث لعمال النظافة ؟ وهكذا يحاول المؤلف أن يُشْرِكَ القارىء في التنبؤ بما سوف يكون عليه المستقبل وما يحمله علم التقنية الحيوية في جُعْبَتِهِ .

ثم يتساءل المؤلف في آخر كتابه عن إمكانية تصور المستقبل ويدعو القراء إلى اتخاذ موقف إيجابي تجاه ما يتمخض عنه العلم من إبتكارات ، كما يدعو إلى مناقشة العلماء مناقشة موضوعية،وأخيراً إلى المشاركة في صنع مثل هذا المستقبل عن طريق قنوات الاتصال المتاحة في هذا العصر الذي نعيشه الآن من الجرائد ، الملصقات ، الكتب ، المجلات ، الراديو ، التليفزيون ، السينما ، والفيديو . □

■ إننا لا نحب المرأة لما تقوله ، ولكننا نحب ما تقوله لأننا نحبها !

« اندريه موروا »

من المكتبة العربية



من آثارنا في بيت المقدس

تأليف : كامل جميل العسلي عرض : حمودة زلوم

المكان لايضيع بعكس الزمان ، قد يغتصب ، وقد يزال ، لكنه يبقى أثرا باقيا أو دارسا ، أو يظل وصفه مسجلا في الكتب والخرائط وفي الأذهان ، والقدس هذه المدينة العظيمة التي تعاقب عليها الغزاة والمغتصبون ، تعرضت للكثير من عمليات التغيير والهدم ، لتناسب تاريخ آخر المغتصبين .

لكن أبنية المدينة وحاراتها وأسبلتها تعلن أنها مدينة عربية .

هذا الكتاب تتمة لثلاثة كتب وضعها المؤلف ، حول التراث الاسلامي في القدس ، وقد تناول في الكتاب الأول « معاهد العلم في بيت المقدس » ، وتناول في الكتاب الثاني « مخطوطات فضائل بيت المقدس » ، وتناول الكتاب الثالث « أجدادنا في ثرى بيت المقدس » ، أما كتابه « من آثارنا في بيت المقدس » الذي نحن بصدد عرضه : فهو دراسة لبعض آثار بيت المقدس ـ التي لم تتناولها الكتب الثلاثة السابقة ـ مثل تكية خاصكي سلطان الشهيرة ، وخانات القدس ، ومصادر المياه ومنشآتها من العيون والآبار والبرك والقنوات والحمامات والأسبلة .

وقد قام المؤلف بالقاء المزيد من الضوء على جانب من تراثنا العظيم في القدس ، وبخاصة التراث الأثري ، ولاشك انه بذل جهدا كبيرا ليقدم مادة جديدة غير مكرورة وغير معروفة نسبيا .

خاصكي سلطان

وزع المؤلف كتابه ، على خمسة فصول ، أفرد الفصل الأول عن (خاصكي سلطان) وهي أكبر مؤسسة خيرية في فلسطين في العهد العثماني ، وقد استمرت في القيام بخدمات جليلة مختلفة للفقراء والمحتاجين والمسافرين لمئات السنين ، وذلك بفضل

مؤسستها (خاصكي سلطان) التي أنشأتها سنة ٩٥٩هـ ، و (خاصكي سلطان) هي جارية من جواري السلطان (سليمان القانوني) أعظم سلاطين بني عثمان (٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ) ، كانت روسية الأصل ، نحيفة ، ذات شعر أشقر ، اختطفها التتر من بلدة « روجا تينو » الروسية ، وباعوها في استانبول لوكلاء السلطان ، ويسميها المؤرخون الغربيون « روكسيلانة » أو « روسلانة » ، ولكن خازن بيت الكسوة في القصر السلطاني أطلق عليها اسم « خرم » ومعناه الضاحكة أو المرحة ، اذ كان لها أسلوب مرح في الغناء ، افتتن السلطان بها فأصبحت (خاصكي سلطان) ، أي محبوبة السلطان ، وذلك بعد أن أنجبت أول مولود له ، ويبدو أنها استولت على مشاعره تماما ، فخرج على تقاليد البلاط ، وتزوجها بعد أن أعتقها من الرق ، واستطاعت بما لديها من تأثير على السلطان ان تضمن لابنها « السلطان سليم الثاني » فيما بعد العرش .

كانت (خاصكي سلطان) شغوفة بأعمال الخير ، فقد بنت في استانبول جامعا ، وفي أدرنة جامعا آخر ، وبنت في استانبول مدرستين هما « خاصكي خرم » و « قاهرية » ومستشفى وحمامين وتكية ، وأقامت في مكة المكرمة قرب الكعبة المشرفة تكية أيضا ، وكذلك قامت بوقف « تكية خاصكي سلطان » بالقدس ، التي كانت من أهم المنشآت في المدينة على الاطلاق ، وقد بدأ العمل بها سنة ٩٥٩هـ ، واستقدمت لذلك عددا من معلمي البناء والنجارين والفنيين من مدينة دمشق ، وتتألف هذه الوقفية من مسجد ذي أروقة وقبة ، ويقوم على أعمدة عالية ، وعمارة تحتوي على مطبخ وفرن وبيت مؤونة ، ومبان عالية مسقوفة ، وخمس وخمسين حجرة بنيت حول المسجد وقفتها « للمجاورين من صلحاء المؤمنين وأتقياء الموحدين » وكذلك خان واسع وقفته على عامة أبناء السبيل وأصحاب السفر والرحيل .

ولكي تضمن (خاصكي سلطان) لهذه المؤسسات البقاء والاستمرار في أداء خدماتها ، وقفت عليها أوقافا كثيرة في أربعة (سناجق) في سورية وفلسطين ، وهي سناجق غزة ، والقدس ، ونابلس ، وطرابلس ، وتتضمن هذه الأوقاف قرى ومزارع وخانات ودكاكين وطواحين وحمامات .

والجزء الأهم من تكية (خاصكي سلطان) كان المطبخ الذي تقدم فيه الوجبات المجانية ، حيث ظل يقدم الطعام المجاني طوال ذلك العصر وبعده ، أما الفرن فكان يخبز يوميا ألفي رغيف . وفي أيام الجمع وليالي رمضان والأعياد كانت تقدم الأطعمة الفاخرة .

خانات القدس

ويفرد المؤلف الفصل الثاني للحديث عن « خانات القدس » موضحا أن « الخان » كلمة فارسية ، معناها الأصلي « مخزن البضائع » ثم أصبحت تعني « الفندق » سواء كانت في المدن أو خارجها على خطوط المواصلات القديمة ، فقد انتعشت الخانات في القرن السابع الهجري ، لا كمنزل للمسافرين فحسب ، بل كمكان لقضاء الأعمال التجارية ، وأصبحت أهمية المدن التجارية تقاس بعدد الخانات الموجودة فيها . .

وتحتوي الخانات على غرف للمسافرين ، ومخازن للبضائع ودكاكين واسطبلات للحيوانات ، كما كان فيها حمامات ومصليات ، ولما زار الرحالة التركي (أوليا جلبي) مدينة القدس في القرن الحادي عشر الهجري ، ذكر أن فيها ستة خانات فقط ، ولا شك أنه يقصد الخانات التي كانت تستقبل الزوار عند زيارته تلك . والواقع ان في المدينة ستة عشر خانا ، أشهرها : خان السلطان ، وخان الغادرية ، وخان القطانين ، وخان الفحم ، وخان الزيت وخان العنابة . . ألخ ، والجدير بالذكر ان خانات القدس كانت مؤسسات وقفية ، حيث تؤجر وينفق ريعها في أوجه البر ، ووجود هذا العدد من الخانات يؤكد ما لمدينة القدس من مكانة اقتصادية وسياحية : لوجود أكثر هذه الخانات في منطقتي باب القطانين وباب السلسلة ـ وهما متقاربتان ـ مما يدل على أنهما كانتا قلب المدينة التجاري في العصور الوسطى .

أما الفصل الثالث فهو عن (مصادر المياه ومنشآتها) في القدس ، ويشير المؤلف أن نقص المياه كان من المشاكل الكبرى التي واجهت سكان المدينة منذ آلاف السنين ، وفي القديم كانت القدس

تعتمد على المطر وعيون الماء الموجودة في وادي سلوان ، لهذا كان من الطبيعي أن تكون القدس الكنعانية بنيت على سفح جبل (أوفل) الذي ينتهي بوادي سلوان ، حيث كانت العين الرئيسية ، ومع ذلك فقد أتى على المدينة ردح من الزمن لم تعد فيه مياه الينابيع ومياه الأمطار كافية لازدياد عدد السكان وتوسع المدينة ، لذلك سحب الماء الى المدينة في قناة تبدأ من وادي العروب الكائن بين القدس والخليل .

ومع ذلك فقد كانت تمر على سكان المدينة فترات كرب شديدة تشح فيها المياه لسبب أو لآخر .

عيون سلوان .

وتعتبر عيون سلوان وقنواتها أهم مصادر المياه في المدينة ، فقدكانت المورد الوحيد ، الذي ورده آباؤنا في القدس ، وتزود السكان بما يتراوح بين ٧٠٠ و ٤٠,٠٠٠ قدم مكعب من المياه يوميا ، وتبعد هذه العين حوالي ٣٠٠ متر عن الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم ، ومن هذه العين حفر اليبوسيون نفقا الى داخل مدينتهم على جبل (أوفل) ، لتأمين المياه أوقات الحصار ، وفي العصر الروماني (ابتداء من القرن الاول ق . م) كانت القدس تعتمد على مياه الأمطار ، لأن عين سلوان الأصلية كانت قد سدت ، ولم يكن مكانها معروفا ، الا أن القناة التي كانت تنقل مياهها الى بركة سلوان القديمة ، كانت معروفة ، وتقول التقاليد المسيحية ان المسيح عليه السلام استعمل هذه المياه لشفاء الرجل الأعمى (يوحنا ٩ : ٧) ، ولذلك أصبح المكان مقدسا عند المسيحيين ، وقد بنت الامبراطورة (يودوكيا) البيزنطية كنيسة ومستشفى فوق البركة .

وفي العهد الاسلامي ، كانت عين سلوان معروفة ومشهورة ، وقد أشار اليها عدد من المؤرخين والرحالة المسلمين ، أمثال المقدسي ، وناصر خسرو ، والادريسي ، وياقوت الحموي ، وشيخ الربوة الدمشقي ، ومجير الدين الحنبلي ، وقد قال فيها أبو العلاء المعري في اللزوميات .

وبعين سلوان التي في قدسها
طعم يوهم أنها من زمزم

وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ابان الحروب الصليبية قدس النصارى عين سلوان باعتبارها المكان الذي غسلت فيه السيدة العذراء ملابس الرضيع عيسى المسيح عليه السلام ، ولذلك سموها (عين العذراء) .

ومن مصادر المياه في القدس أيضا (بئر أيوب) التي تقع أسفل وادي سلوان ، وهي بئر كبيرة يتفجر ماؤها بغزارة أيام الشتاء ، وهي منسوبة الى النبي أيوب عليه السلام الذي قيل أنه استحم بها وشفي بإذن الله .

البرك والحمامات

ومن مصادر المياه في القدس (البرك) التي يوجد منها عدد كبير ، غار معظمها ، وبعض تلك البرك كان ذا أهمية دينية أو تاريخية ، ومن أشهرها (بركة السيدة مريم) التي تقع قرب باب الأسباط ، خارج السور ، وهي جافة الآن ، و (بركة الحج) التي كانت خارج سور المدينة الشمالي ، وليس لها أثر في الوقت الحاضر (وبركة السراي) التي كانت تسمى (بركة بني اسرائيل) . ويقول الهروي عن أصل هذه التسمية . « وشمال الأقصى بركة بني اسرائيل ، يقال ان بختنصر (نبوخذ نصر) ملأها من رؤوسهم ، و (بركة الغنم) و (بركة السلطان) و (برك سليمان) التي تقع بين القدس والخليل ، حيث كانت مياهها تصل الى القدس عبر قنوات مسقوفة .

والفصل الرابع يفرده المؤلف عن (الحمامات الاسلامية في القدس) فيؤكد أن الحمام منشأة حضارية ، عرفها المسلمون منذ القرن الأول للهجرة ، واهتمام المسلمين بالحمامات راجع الى أسباب صحية ودينية ، وتدل البقايا الأثرية على أن الأمويين اهتموا بالحمامات اهتماما خاصا ، كذلك رأينا الاهتمام بها يظهر في العصر الأيوبي والمملوكي والعثماني ، وتمدنا المصادر التاريخية بمعلومات ذات شأن عن الحمامات الاسلامية في العصور الوسطى ، حيث ازداد عددها زيادة كبيرة ، ففي القرن السابع الهجري كان في دمشق (١١٧) حماما ، وفي حلب (١٧٤) حماما ، وفي فاس (١٠٠) حمام ، وفي استانبول (١١١) حماما ، وفي القدس (١٣) حماما .

ولا عجب اذا كان الحمام مركزا من مراكز الحياة الاجتماعية في العصور الوسطى ، لأن كثيرا من المناسبات المهمة ، في حياة الناس ، كانت مرتبطة به ، فالعروس كانت تذهب الى الحمام لتستحم وتزين نفسها ، والعريس كذلك ، والنساء كن يستعملنه كصالون للتجميل ، وكانت الحمامات تستعمل كمنشآت صحية للعلاج من الأمراض المختلفة .

أما حمامات القدس ، فقد كانت المرافق العامة المعروفة في المدينة منذ القدم ، فقد شاد (هيرود) في القرن الأول قبل الميلاد ، عددا من الحمامات ، وفي القرن الرابع الهجري ، كان في القدس عدة حمامات ، يؤكد ذلك المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم » ، وفي القرن العاشر الهجري كان في القدس ثلاثة عشر حماما ، أشهرها (حمام الشفا) و (حمام العين) و (حمام باب الأسباط) و (حمام العامود) و (حمام السيدة) و (حمام السوق) و (حمام الصخرة) . وقد ذكر الرحالة التركي (أوليا جلبي) في القرن الحادي عشر الهجري ستة منها في كتابه (سياحتنامة) .

وعلى الرغم من أن حمامات القدس ، كانت تتفاوت في الاتساع وفخامة البناء ، الا انه لا يمكن موازنتها بالحمامات الأموية من حيث فخامة البناء ، ولا بالحمامات الكبرى في استانبول والقاهرة ودمشق من حيث الاتساع .

أسبلة القدس

والفصل الخامس يفرده المؤلف عن (أسبلة القدس) والأسبلة جمع سبيل ، وهو في اللغة الطريق بمعنى حقيقي أو مجازي ، ولكن في أصل اللغة الفعل أسبل ، وأسبل الماء بمعنى صبه ، وقد يغري وجود الفعل على استنتاج أن السبيل بمعنى (عين الماء) مشتق من هذا الفعل ، غير انه استنتاج غير صحيح ، والأرجح أن استعمال كلمة (سبيل) لعين الماء ، جرى على الألسنة ، لأن اقامة السبيل أو الأسبلة كانت عمل خير في (سبيل الله) ، وسبيل الله ، كلمة أطلقها المسلمون ، على كل فعل يقصد به وجه الخير ، ومنها تيسير الماء لمن أراد الحصول عليه .

وكلمة سبيل بمعنى عين ماء ، بدأ استعمالها في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجري ، وكان ذلك في عصر المماليك ، أما الكلمة التي كانت تستعمل قبل ذلك فهي (سقاية) أو (مسقاة) أو (صهريج) ، كما تؤكد ذلك النقوش الموجودة في مدينة القدس وسواها .

والسبيل يقام عادة عند (حانوت) يخصص لوضع الأواني المعدة له ، وكان يجلس في الحانوت (السقاء) الذي كان يقوم على خدمة قاصدي السبيل .

ومما هو جدير بالذكر ، انه كان يلحق بالأسبلة ـ أحيانا ـ ما يدعى بمكتب السبيل لتعليم الأطفال ، وقد اقيمت في البلدان الاسلامية الألوف من هذه السبل ، ففي القاهرة وحدها كان هناك حوالى مائتي سبيل ما بين عامر وخرب في القرن الماضي ، وقد انتشرت هذه السبل بوجه خاص في الأماكن الحارة والقليلة الماء ، وانشاء السبل عادة معروفة عند كل الملل في جميع الأجيال ، الا أنها عند المسلمين أكثر ، فكثيرا ما يحفر أهل الخير آبارا في الطرق بين البلاد ، كما بين بلاد الشام وبلاد العرب وبين مكة والمدينة ، وقد يبنون بجوارها بيوتا تأوي اليها المارة وأبناء السبيل ، وأبنية السبل كانت تتفاوت فيما بينها تفاوتا كبيرا ، فمنها ما كان آية من آيات الهندسة كسبيل (قايتباي) في القدس ، ومنها ما كان غاية في التواضع مثل سبيل باب حطة .

ويوجد في القدس ثمانية وعشرون سبيلا ، آثارها جميعا موجودة الى الآن ، منها خمسة أقيمت في العصر الأيوبي ، وسبعة في العصر المملوكي ، وأربعة عشر في العصر العثماني ، واثنان لا يعرف تاريخهما ، وأشهر هذه السبل سبيل قايتباي ، والكاس ، وتنكز ، والقرمي ، والواد ، والسلسلة ، وسليمان ، وستنا مريم ، وباب الخليل ، وباب خان الزيت ، وغيرها .

ان هذه الدراسة أشبه ما تكون بكرة ملتهبة تلقى في كهف مظلم ، لتدحض المزاعم الصهيونية ، ولسوف تعود القدس مدينة عربية مزدهرة بالحرية والسلام والحضارة ، مهما فعل الصهاينة ، ومهما قالوا ، لأنهم لن يستطيعوا تغيير الحقائق الكبرى للتاريخ . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب/ شعر أحمد السقاف
المؤلف/ أحمد السقاف
عدد الصفحات/ ٤٢٨ من القطع الصغير

في هذا الديوان جمع الشاعر الكويتي أحمد السقاف أشعاره الكاملة التي تغطي فترة غنية من فترات النهوض العربي ، كما تغطي فترات أخرى كثرت فيها الأحداث المأساوية .

تعود بعض قصائد الديوان إلى بدايات الأربعينيات ، وبعضها إلى الخمسينيات ، وتغطي فترة تمتد حتى الثمانينيات ، وإن غلب على قصائد الديوان الطابع التقليدي بشكله العمودي وجرسه وموسيقاه ، إلا أن الديوان قد ضم بعض القصائد الحديثة التي اعتمدت التفعيلة الواحدة .

■■

الكتاب/ وسمية تخرج من البحر ـ رواية
المؤلفة/ ليلى العثمان
الناشر/ شركة الربيعان للنشر والتوزيع ـ الكويت
عدد الصفحات/ ١١١ من القطع الوسط
سنة النشر/ ١٩٨٦

تعود ليلى العثمان في روايتها الثانية ـ بعد رواية المرأة والقطة ـ إلى عالمها الأثير ، عالم الكويت القديمة ، بالأزقة الضيقة وبيوت الطين ، وعالم الغوص ، والبحر القاسي الساحر في نفس الوقت .

قصة حب بسيطة بين فتاة ثرية وابن (دلالة) تقدم لأهل تلك الفتاة بعض الخدمات ، لكن هذا الحب يصطدم بالعادات والتقاليد ، والفروق الاجتماعية ، ثم يحتوي البحر وسمية في جوفه ، فيصبح البحر في نظر (عبدالله) ـ العاشق ـ الذي فقد وسمية،مكمناً للموت ، ومبعثا للألم .

■■

العنوان/ كتاب السياب النثري
المؤلف/ حسن الغرفي (جمع وتقديم)
الناشر/ دار البلابل للنشر ـ فاس ـ المغرب
الحجم/ ٢٢٠ صفحة من القطع الصغير
سنة النشر/ ١٩٨٦

الشاعر العربي بدر شاكر السياب معروف بآثاره الشعرية ، لكن الجانب الآخر في السياب ظل غير معروف ، وهذا الجانب هو مقالات السياب في قضايا عامة ، تتعلق بالأدب والفن إلى جانب المقدمة التي وضعها لديوان « الأساطير » ، ومقدمته لمختاراته الشعرية ، وكذلك حواراته وندواته ورسائله .

وتوقف النقاد عند أهمية هذا الكتاب فقالوا : إنه سيسهم في إلقاء الضوء على كثير من الجوانب الابداعية في شعر السياب ، وسيوجه البحوث والدراسات التي تتناوله كشاعر وجهة جديدة .

■■

الكتاب/ التطور العقلي لدى الطفل
المؤلف/ جان بياجيه
ترجمة/ سمير علي
الناشر/ دار ثقافة الأطفال ـ بغداد
عدد الصفحات/ ١٣٨ من القطع الصغير
سنة النشر/ ١٩٨٦

هذا الكتاب ـ بحجمه الصغير ـ عبارة عن ترجمة لمقالتين ، كان العالم السويسري الشهير « جان بياجيه » قد كتبهما في أواخر أيامه .

في الفصل الأول عرض عالم (علم نفس الطفل) الشهير لقضايا التكوين النفسي والتطور العقلي لدى الطفل منذ ولادته ، وفي الفصل الثاني تعرض « بياجيه » إلى سيكولوجية الذكاء ، ومفهوم التوازن الذي يعطيه أهمية كبرى في دراساته ، ليقدم بعد ذلك دراسة حالة لطفل ينتقل من حالة غير مستقرة إلى حالة متزايدة من الاستقرار .

■■

الكتاب/ قاموس الكمبيوتر العربي (انكليزي ـ عربي)
المؤلف/ الدكتور محمد فريد غنايم
الناشر/ دار النشر العالمية المحدودة ـ دالاس ـ تكساس الولايات المتحدة
عدد الصفحات/ ٧٧٠ من القطع الكبير
سنة النشر/ ١٩٨٦

أول قاموس (انكليزي ـ عربي) لمصطلحات الكومبيوتر ، ذلك العلم الذي أصبح يكتسب اهمية متعاظمة في حياتنا . يقوم المؤلف في هذا العمل الجريء بمهمتين في نفس الوقت ، فهو يترجم إلى العربي ما يراد باللغة الانجليزية ، كما يقدم شرحا يسهم في توضيح التعريف الذي اختاره المؤلف .

■■

الكتاب/ قصص اولى(مجموعة قصصية)
المؤلف/ هاشم غرايبة
الناشر/ دار الأفق الجديد ـ عمان ـ الأردن
عدد الصفحات/ ١٣٦ من القطع الوسط
سنة النشر/ ١٩٨٥

هذه المجموعة الأولى من القصص لهاشم غرايبة هي في الواقع مجموعته الثالثة ، وقد ضمت قصصا من مجموعتيه الأولى والثانية إلى جانب قصص أخرى جديدة للكاتب نفسه .

تصور قصصه . أجواء الريف الأردني بطابعه المميز الذي يجمع إلى الفلاحة والارتباط بالأرض شيئا من حياة البداوة والخشونة التي تقترب من أجواء الصحراء القاحلة،بقيمها المختلفة قليلا عن قيم مجتمعات الفلاحين .

لكن هذا المجتمع الريفي ليس مجتمعا ساكنا ، بل تجرى تحت سطحه الصامت الخشن تحولات مهمة ، يقوم بها الأولاد الذين يتحدون المختار ، وتقوم بها البنات المتمردات على قيود الأهل ، وتحدث فيه قصص حب سرية ، قد تصدع السطح الهادىء لهذا المجتمع .

■■

العنوان/ معجم المصطلحات الأدبية
المؤلف/ ابراهيم فتحي
الناشر/ المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ـ تونس ـ بيروت
عدد الصفحات/ ٤١٦ صفحة من القطع الوسط
سنة النشر/ ١٩٨٦

يقدم هذا الكتاب تعريفا وشرحا موجزين لكل المصطلحات التي لها علاقة بدراسة الأدب ، مرتبة ترتيبا هجائيا ، من حرف الألف إلى الياء ، ويقدم شرحا لكل المدارس والنزعات النقدية والشعرية ، مثل التجريبية ، والتصويرية ، والواقعية المبتذلة ، والوجودية ، والنزعة التعبيرية التعليمية ، والعاطفية ، والمستقبلية ، كما يتعرض لبنية النص الأدبي ، ومصطلحات دراسة الأدب القديم ، ومصطلحات المسرح ، وفنون الشعر العربي القديم ، ومصطلحات فهم الشعر الاغريقي ، وأسماء الآلهة ، وأنواع الصور البلاغية، كالاستعارة وغيرها ، كما يقدم الكتاب تعريفا مكثفا بمختلف أنواع الكتابة الأدبية ، مثل السيرة الذاتية ، والمذكرات ، والرواية ، واليوميات .

---

* العمل ينقذنا من ثلاث مساوىء كبيرة : الملل واستراق النظر والحاجة .
(فولتير)

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٣٩
فبـرايـر ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة اسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي - صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 - الكويت . . « مسابقة العربي العدد ٣٤٠ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ ابريل ١٩٨٧ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـدد ٣٤٠

١ - تتحدث كثيرا عن الكعب . فما الذي يدل عليه اللفظ في الفصحى على وجه الدقة ؟
* العقِب (بكسر القاف) .
* الرُسغ (بضم الراء) .
* الكاحل .

٢ - يصاب المرء بالدوار (الدوخة) اذا هو أكثر من الدوران حول نفسه . لماذا ؟

٣ - لماذا يبكي المولود لحظة ولادته ؟
* ليتمكن من مباشرة التنفس .
* لأنه جائع ، ويريد أن يرضع .
* طلبا للحركة والنشاط لأن بكاء المولود أشبه مايكون بالحركات الرياضية التي يؤديها المرء حين استيقاظه .

٤ - طعم الحلاوة وطعم المرارة : تذوق أحدهما بمقدمة اللسان ، وتذوق الآخر بمؤخرته ، فأيهما أدركته بمقدمة اللسان ، وأيهما بمؤخرته ؟

٥ - جوزة العنق يسميها الانكليز تفاحة آدم . ترى ماهي وظيفتها ؟
وما الذي تحفظه
* الغدة الدرقية ؟
* الغدة النخامية ؟
* الحبال الصوتية ؟

٦ - أي القلوب أسرع نبضا : قلب المرأة أم قلب الطفل أم قلب الرجل ؟



رتب هذه القلوب الثلاثة حسب سرعة نبضها ، الأسرع فالأقل سرعة .

٧ ـ هل تقع طبلة الأذن في الأذن الداخلية أم في الوسطى ؟

٨ ـ متى يتميز جنس الجنين فيعرف أنه ذكر او انثى ؟

* حين تكوّنه في بداية الحمل .

* يبدو الجنين غير محدد الجنس ، حتى يبلغ من العمر (٥ ـ ٧) أسابيع

* يتميز جنس الجنين فتظهر ذكورته أو أنوثته حين يبلغ من العمر (٨ ـ ٩) أسابيع .

٩ ـ تفرز المعدة أحماضا هاضمة ، وتبلغ هذه الأحماض من القوة والفاعلية مايمكنها من اذابة معدن الزنك ، لكنها لاتستطيع اذابة بطانة المعدة . لماذا ؟

* لأن بطانة المعدة تفرز مادة قلوية تحيّد الحوامض .

* لأن الأحماض لاتمس بطانة المعدة ، بل تصب في الطعام مباشرة بعد افرازها .

* لأن خلايا بطانة المعدة تتجدد باستمرار وبسرعة لا تسمح للأحماض باذابتها .

١٠ ـ عظم الانسان والاسمنت المسلح قويان ، وشديدا الاحتمال ، لكن أحدهما أقوى من الآخر بأربع مرات . فأيها الأقوى ؟

١١ ـ من المعروف أن الجسم البشري يحتوى على الحديد وغيره من المعادن بمقادير محددة . ترى ماهو مقدار مايحتويه جسم رجل واحد من الحديد ؟

* مايكفي لصنع ابرة طولها ١٠ مليمترات .

* مايكفي لصنع مسمار طوله ٢٥ مليمترا .

* مقدار الحديد الذي يحتوي عليه جسم رجل واحد ضئيل ، لا يسمح بصنع أي شيء .

١٢ ـ أين يقع القفا (بفتح القاف) من جسم الانسان ؟

في أعلى الظهر (خلف العنق) .

في أسفل الظهر (فوق الساقين) .

حل مسابقة العدد ٣٣٧

١ ـ « حكاية مملة » هي القصة التي كتبها أنطون تشيكوف (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) ، والتي نشرت عام ١٨٨٩ (راجع عدد يونيه ١٩٨٦ صفحة ١٢١) .

٢ ـ يعيش الانسان الثلجي الوحشي في مناطق جبلية مختلفة في العالم ، وعلى وجه التحديد في اقليم نيبال على سفوح جبال هملايا ، ويسمى (يتي) أو (جيتي) عند أهل نيبال ، وهو ذو جسم ضخم ، يغطيه شعر كثيف ، ويسير معتدل القامة ، وله أظفار كمخالب الوحوش وذلك حسبما يؤكده النياليون .

(راجع عدد يناير ١٩٨٦م صفحة ٣٨)

٣ ـ اسم كتاب التاريخ الذي وضعه ابن خلدون ومهد له بمقدمته الشهيرة هو : (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) .

(راجع عدد يناير ١٩٨٦ م صفحة ١٠١)

٤ ـ ترتب الدول الأربع المذكورة في السؤال من حيث اعتمادها على الطاقة النووية في محطات توليد الكهرباء فيها كالتالي :

بلجيكا ٦٠٪ ، فالسويد ٥٠٪ ، فالولايات المتحدة ١٧٪ ، فالاتحاد السوفياتي ١١٪ .

(راجع عدد سبتمبر ١٩٨٦م صفحة ١٧)

٥ ـ المستكشف الذي قتله (لابو لابو) بطل الفلبين هو فرديناند ماجلان ،وكان ذلك في معركة (ماكتان) التي وقعت في مياه شواطىء الفلبين يوم ٢٧ ابريل سنة ١٥٢١م .

(راجع عدد ابريل ١٩٨٦م صفحة ٧٨)

٦ ـ الأخوان رايت مدينان للصقور في تطوير اختراعهما للطائرة ، فقد انطلق أحدهما وهو (ولبور) يراقب الصقور في طيرانها يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، حتى أدرك السر في قدرة الطيور على الاحتفاظ بتوازنها في الهواء ، وكان ذلك سنة ١٨٩٩م .

(راجع عدد يناير ١٩٨٦ صفحة ١٤٤)

٧ ـ « حكم الشعب لصالح الشعب من أجل الشعب ذلك هو الديمقراطية » . قائل هذا القول هو : ابراهام لنكولن (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥م) .

(راجع عدد يونيو ١٩٨٦م صفحة ٤٢)

٨ ـ النحل هو الأشبه بحمام الزاجل ، من حيث قدرته على العودة الى وطنه .

(راجع عدد فبراير ١٩٨٦م صفحة ١٥٤)

٩ ـ اسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم ـ سموه بالطلاء لاتقانه فن التجميل ، ومايتطلبه من عقاقير ودهون ومساحيق ، ولاعجب ، فقد كان شيخ الكيماويين في القيروان في القرن التاسع الميلادي .

(راجع عدد مارس ١٩٨٦م صفحة ١٠٩)

١٠ ـ نفق الشهيد أحمد حمدي يربط بين ضفتي قناة

السويس الغربية والشرقية ، وهو يمتد تحت مياه القناة ، من مكان يبعد عن مدينة الاسماعيلية نحو (٨٠) كيلومترا ، وقد بدأ العمل في بنائه في أوائل عام ١٩٧٧م ، واستمر حتى عام ١٩٨٢ ، وبلغت تكاليفه حوالي ١٢٠ مليون جنيه ، ويبلغ طوله كيلومترا ونصف كيلومتر .

(راجع عدد يونيو ١٩٨٦ صفحة ٨٦)

١١ ـ المحطة الاذاعية الأولى في الاعتماد على الطاقة الشمسية هي محطة اذاعة بريان ، في ولاية أوهايو الأمريكية ، وقد بدأت بثها الاذاعي في ٢٩ آب ١٩٧٧م .

(راجع عدد مارس ١٩٨٦م صفحة ٥٢)

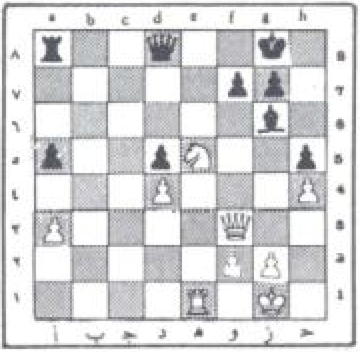
١٢ ـ كتاب « تهافت الفلاسفة »لأبي حامد الغزالي « وكتاب « تهافت التهافت » لابن رشد .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٣٧ ديسمبر ١٩٨٦

الجائزة الاولى : حسن محمد أبو نعسة / مدرسة وادي الحوارث / البقاع / لبنان .
الجائزة الثانية : سليمة حاجي /طارق بن زياد / الجزائر .
الجائزة الثالثة : مسرور أحمد الأعظمي / الهند

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ أحمد عبدالله عبدالرحمن / طرابلس / ليبيا
٢ ـ محمود حسن محمد رباع / عمان / جبل الجوفة / الأردن
٣ ـ القصاب حسن / زنقة الشبانات / الصويرة / المغرب
٤ ـ نبيه ابراهيم اسماعيل / محافظة المنوفية / شبين الكوم / جمهورية مصر العربية
٥ ـ عبدالله أحمد محمد العلي / الأحساء / المملكة العربية السعودية .
٦ ـ صفوان بو عصيدة / صفاقس / تونس
٧ ـ فخري رمضان محمد الأغا / دبي / دولة الامارات العربية المتحدة
٨ ـ عقيل عبده محمد الأغبري / صنعاء / الجمهورية العربية اليمنية .



معركة بالسلاح

الدور الحاسم في مباراة الثأر

انتهى الجزء الثاني من مباراة الثأر ، المنعقدة في مدينة لينتغراد السوفيتية ، بين بطل العالم الحالي جاري كاسباروف (٢٣) ، ومواطنه الروسي بطل العالم السابق أناتولي كاربوف (٣٤ سنة) ، بفوز الأول واحتفاظه بلقب البطولة ، وكانت نتيجة المباراة في الأدوار الأربعة والعشرين التي لعبها البطلان على مرحلتين ، الأولى في مدينة لندن العاصمة البريطانية ، والثانية في مدينة لينتغراد السوفيتية ، وهي كما يلي ، ويبدأ اللعب فيها كاسباروف .

المباراة :

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
نتيجة المرحلة الأولى	½	½	½	١	صفر	½	½	١	½	½	½	½
نتيجة المرحلة الثانية	½	١	½	١	صفر	صفر	صفر	½	½	١	½	½

والنتيجة هي (١٢,٥ - ١١,٥) لصالح بطل العالم الحالي . اتصف الجزء الأخير من المباراة بالحماسة والاثارة البالغة ، فقد كاد المتحدي أن ينتزع البطولة باقتدار بفوزه ثلاثة أدوار متتابعة ، هي الخامس والسادس والسابع ، وهو أمر نادر في مباريات البطولة المكونة من أربعة وعشرين دورا ، لم

الدور الذي اخترناه لكم في هذا العدد من مباراة لينتغراد هو الدور الثاني والعشرون الذي حسم الصراع بين البطلين ، وهو من افتتاحية جامبيت الوزير المرفوض .

□ كاسباروف	■ كاربوف
١ . د ٤	ح - و ٦
٢ . جـ ٤	هـ ٦
٣ . ح - و ٣	د ٥
٤ . ح - جـ ٣	ف - هـ ٧
٥ . ف - ز ٥	حـ ٦
٦ . ف × و ٦	ف × و ٦
٧ . هـ ٣	ت
٨ . ر - جـ ١	جـ ٦
٩ . ف - د ٣	ح - د ٧
١٠ . ت	د × جـ ٤
١١ . ف × ج ٤	هـ ٥
١٢ . حـ ٣	هـ × د ٤
١٣ . هـ × د ٤	ح - ب ٦
١٤ . ف - ب ٣	ف - و ٥
١٥ . ر - هـ ١	أ ٥
١٦ . أ ٣	ر - هـ ٨
١٧ . ر × هـ ٨	و × هـ ٨
١٨ . و - د ٢	ح - د ٧
١٩ . وزير - و ٤	ف - ز ٦
٢٠ . حـ ٤	و - د ٨
٢١ . ح - أ ٤	حـ ٥

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد ٣٣٧
ديسمبر ١٩٨٦

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ خالد الدالي ـ الجيزة/ ج . م . ع .
٢ ـ رنا السيروان ـ دمشق/ سوريا .
٣ ـ صلاح شعيب ـ الدمام/ السعودية .
٤ ـ سامي يوسف ـ عمان/ الأردن .
٥ ـ اسماعيل الميرغي ـ مزده/ ليبيا .

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ منيره يعقوب ـ قابس/ تونس .
٢ ـ مراد صالح ـ البيضاء/ المغرب .
٣ ـ تيمور داغستاني ـ السعودية/ حفرالباطن .
٤ ـ محمد النبهان ـ سورابايا/ أندونيسيا .
٥ ـ منى السيد ـ مدني/ السودان .

---

٢٢ .	ر - هـ ١	ب ٥
٢٣ .	ح - جـ ٣	و - ب ٨
٢٤ .	و - هـ ٣	ب ٤
٢٥ .	ح - هـ ٤	ب × أ ٣
٢٦ .	ح × و ٦ +	ح × و ٦
٢٧ .	ب × أ ٣	ح - د ٥
٢٨ .	ف × د ٥	جـ × د ٥
٢٩ .	ح - هـ ٥	و - د ٨
٣٠ .	و - و ٣ ! (الشكل ١)	ر - أ ٦
٣١ .	ر - جـ ١	م - حـ ٧
٣٢ .	و - حـ ٣ !	ر - ب ٦
٣٣ .	ر - جـ ٨	و - د ٦
٣٤ .	و - ز ٣ !	أ ٤
٣٥ .	ر - أ ٨	و - هـ ٦
٣٦ .	ر × أ ٤	و - و ٥
٣٧ .	ر - أ ٧	ر - ب ١ +
٣٨ .	م - حـ ٢	ر - جـ ١
٣٩ .	ر - ب ٧ (لمنع و - ب ١)	ر - جـ ٢
٤٠ .	و ٣	ر - د ٢
٤١ .	ح - د ٧	ر × د ٤
٤٢ .	ح - و ٨ +	م - حـ ٦
٤٣ .	ر - ب ٤ !	ر - جـ ٤
٤٤ .	ر × جـ ٤	د × جـ ٤
٤٥ .	و - د ٦ !	جـ ٣ (لمنع و - د ٢ +)
٤٦ .	و - د ٤	يستسلم



مسابقة العدد (٣٤٠) مارس ١٩٨٧
مات ٤
مهداة من القارىء محمد قربي

حل مسابقة العدد ٣٣٨
يناير ١٩٨٧
مفتاح الحل : و - هـ ٥

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

رسالة من مدير المركز الدولي الإسلامي للبحوث السكانية

● أسعدنا الاطلاع على خريطة «المسلمون في العالم» الموزعة مع عدد يناير ١٩٨٧ لمجلتكم (العربي)، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي على أرض دولة الكويت، ولاشك أن توزيعها بهذه المناسبة السعيدة هو خير هدية تقدم للمسلمين رؤية علمية واضحة عن حاضرهم ومستقبلهم.

ويسرني أن أحيطكم علما بأن المركز الدولي الإسلامي للدراسات والبحوث السكانية سيعقد مؤتمره السابع في الفترة من ١ ـ ٦ مارس سنة ١٩٨٧، وموضوعه «السكان في العالم الإسلامي»، وقد دعي إليه عدد كبير من العلماء المتميزين من البلاد الإسلامية، وممثلي المنظمات الدولية، وسيناقش في جلساته قضايا: «الإسلام والتنمية البشرية»، و«سكان العالم الإسلامي»، و«الموارد البشرية في العالم الإسلامي» و«هجرة السكان في العالم الإسلامي»، و«التعليم والسكان في العالم الإسلامي» إلخ.

وستوزع خلاله مطبوعات المركز التي تتضمن أنشطته العلمية في مجال السكان والتنمية، وفي اعتقادنا أن توزيع خريطتكم بما فيها من معلومات علمية وإحصائية، تعتبر مرجعا علميا جديرا بأن يتداوله أكبر عدد من المشاركين سيسهم في إثراء المناقشات والتوصيات.

وكلنا أمل أن نحصل منكم على أكبر عدد من هذه الخريطة الثمينة لتوزيعها أثناء انعقاد المؤتمر، كما نرحب بكل من يريد الاشتراك.

مدير المركز الدولي الإسلامي
أ. د. فؤاد الحفناوي

العربي

ـ نشكر للسيد مدير المركز الدولي الإسلامي رسالته الكريمة المعبرة عن اهتمامه وتقديره لهدية مجلة العربي التي قدمناها باعتبارها جزءا مكملا للرسالة التي يحملها العدد الممتاز بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي الخامس في دولة الكويت، ويسرنا بهذه المناسبة أن نذكر بأننا أرسلنا عددا مناسبا من الخريطة للمركز الدولي، تلبية لرغبتهم، ولتوزيعها على المشاركين في المؤتمر في أثناء انعقاد جلسته في التاريخ المشار إليه، ونتمنى لهذا المؤتمر التوفيق والنجاح في المهام التي يتطلع إلى إنجازها لمصلحة الأمة الإسلامية.

حول حضارة الأنباط مرة أخرى

● نظراً لأهمية حضارة الأنباط، وتعميما للفائدة، أود أن أضيف بعض المعلومات عن هذه الحضارة إلى ما ورد في باب «حضارات سادت ثم بادت» للأستاذ يوسف زعبلاوي في العدد رقم ٣٣٥ شهر اكتوبر سنة ١٩٨٦ من مجلة العربي.

سكن الأنباط العرب المنطقة التي تقع جنوب الأردن وفلسطين، أي في أرض الأدوميين، واعتمادا على ما خلفوه من آثار حضارية يمكن القول

بأنهم قبائل عربية ، استخدمت الأبجدية الآرامية المتأخرة ، وطورتها إلى شكل عرف باسم الخط النبطي الذي يعتبر أصلا انحدرت منه الأبجدية العربية التي نكتب بها .

وتذكر الألواح الآشورية كثيرا من تلك القبائل ، منها نبطو أو نبيط ، وربما يعني هذا الاسم قبيلة الأنباط ، إلا أن أقدم وثيقة تاريخية تذكر الأنباط بصورة لا جدال فيها هي نقش يوناني يذكر الحملة التي جردها القائد اليوناني « انتياس » في عام ٣١٢ ق . م للهجوم على البتراء عاصمة الأنباط .

واستنادا إلى ما تم العثور عليه من نقوش وقطع معدنية استطاع علماء الآثار وضع قائمة بأسماء ملوك الأنباط ، تبدأ بالحارث الأول الذي بدأ حكمه عام ١٩٦٩ ق . م وتنتهي بنهاية حكم الملك النبطي رابيل الثاني عام ١٠٦م ، أما بالنسبة للعاصمة فقد أطلق على عاصمة الأنباط في التوراة تسمية سلع أو سالع ، وتعني الشق في الصخر ، أما المصادر (الكلاسيكية) (اليونانية الرومانية) فتذكر هذه العاصمة باسم (بترا) أي مدينة الصخر ، في حين نجد أن المصادر العربية المبكرة تذكر هذه المدينة باسم الرقيم ، والرقيم هو حفر البيوت والقبور في الصخر ، ومن أهم آثار الأنباط أيضا بناء ضخم ، يبلغ عرضه نحو ٥٠ مترا ، ويصل ارتفاعه إلى ٤٥ مترا ، ومعظم آثار البتراء تدل على تأثر فن البناء النبطي بالفن الهلنستي ، أما النقوش الكتابية النبطية فقد عثر عليها في مناطق مختلفة ، مثل حوران وسيناء ، مما يدل على امتداد نفوذ الأنباط إلى هذه المناطق .

فيصل خليل الغورين
الجامعة الأردنية / كلية الآداب
عمان ـ الأردن

العربي

ـ نشكر للقاريء الكريم ما تفضل به من معلومات ، تعتبر إضافة إلى ما سبق نشره حول حضارة الأنباط ، وجدير بالذكر أنه وصلتنا رسائل أخرى من قراء أفاضل ، تحمل إضافات الى المعلومات التي نشرت حول هذه الحضارة الهامة ، وقد وجدنا أن ما تحمله رسالة هذا القاريء يغطي كثيراً مما جاء في بقية الرسائل . فللجميع الشكر على المتابعة .

استطلاع لقاريء عن « مشكلة القات في اليمن »

● ما يزال القات يمثل أكبر الأخطار على أبناء اليمن :

من الناحية الصحية : يقول الدكتور عباس الحملي : يؤدي القات إلى التسمم في بعض الأحيان لدى المدمنين ، كما يضر بالرئتين والشرايين والقلب ، وبالنسبة للنساء الحوامل فإن المادة المائية في القات ترخي البطن ، وتؤثر على الجنين ، وتؤدي إلى تشوه الوليد .

من ناحية الوقت : يستعد المدمنون على تعاطي القات في اليمن لتناوله ابتداء من الساعة الواحدة بعد الظهر تقريبا ، فبعد تناول الغداء عادة يذهبون الى السوق لشراء القات ، ثم يذهبون إلى المقيل (مكان تجمع مدمني القات) ، حيث يستمرون في تعاطيه مدة خمس ساعات ـ على الأقل ـ يوميا ، وهذا وقت يضيع كل يوم هدرا ، وتضيع معه إمكانية الإفادة من مثل هذا الوقت في العمل أو الراحة .

من الناحية الاقتصادية : إن الأسعار الباهظة للقات التي يحصل عليها المزارعون تشجعهم على التوسع في زراعة القات ، وزيادة إنتاجه ، فإنتاج بستان لا تزيد مساحته على هكتار ونصف يباع بثلاثمائة ألف ريال يمني . والفرد المدمن للقات ينفق في الشهر الواحد لاشباع هذه الحاجة مايعادل ٥٠٠ دولار شهرياً .

ولو أدركنا نسبة من يتعاطون القات من الشعب اليمني البالغ تعداده تسعة ملايين لأدركنا حجم الخسارة التي تصيب الاقتصاد اليمني نتيجة لهذه العادة الخطيرة .

حوار القراء..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

ولو تخيلنا مساحات الأراضي التي تزرع الآن بالقات وهي مزروعة بالفاكهة والحبوب والبن الذي تجود زراعته في اليمن لأدركنا الوجه الآخر للفوائد الضائعة على هذا الاقتصاد.

ناصر احمد قائد

الجمهورية العربية اليمنية

العربي

ـ بعث إلينا القارىء الكريم حديثا مطولا عن مشكلة القات في اليمن، وكأنه نوع من الاستطلاع تنقصه الصور، ولقد اخترنا منه ما يتسع المجال لنشره.
فشكرا للقارىء الكريم وعذرا للاختصار.

عديدات الأرجل ليست من الحشرات

● قرأت في العدد رقم ٣٣٧ ديسمبر سنة ١٩٨٦ من مجلة العربي مقالا للاستاذ حسن محمد بدوي بعنوان «عالم السماد الوحشي» في صفحة ٩٥، في الفقرة الثالثة قبل الأخيرة ورد مايلي:

«قد يأخذك العجب عندما ترى هذه الحشرة وهي تزحف بألف رِجْل، في اتساق عجيب» والصواب أن ما ذكره الكاتب ليس حشرة، لأن طائفة الحشرات تتميز بأنها بست أرجل، ولذا تسمى Hexapoda، أما ما ذكره فينتمي إلى طائفة عديدات الأرجل، أي ذوات الألف رِجْل Diplopoda، لذا لزم التنبيه.

كما ورد خطأ مطبعي في الفقرة التالية «ومثل حركة المد والجزر فإن التركيبات العضوية للسماء تعلو وتنخفض في نظام غريب»، والصواب هو (للسماد) وليس (للسماء) كما ورد.

فيصل صيفان علي

اليمن / صنعاء

أشباه العناكب ليست من الحشرات أيضا

● قرأت المقال المنشور في العدد ٣٣٧ ديسمبر سنة ١٩٨٦ من مجلة (العربي) على الصفحة ١٠٤ بعنوان «الجرب تنقله حشرة تبحث عن الدفء» بقلم الدكتور محمد عبدالله المشاري، وأرى أنه قد يكون من المفيد نشر التوضيح التالي:

«إن المسبب والناقل للمرض (وليس الناقل فقط) هو من أشباه العناكب Mites، تختلف هذه عن الحشرات بصفات كثيرة، أهمها أن لها ثماني أرجل وللحشرات ستا، وأجزاء جسمها الثلاثة (الرأس، والصدر، والبطن) ملتحمة في قطعة واحدة، بينما هذه الأجزاء منفصلة في الحشرات.

ومن حيث التصنيف العلمي فإن أشباه العناكب Mites تتبع Class ARACHNIDA order Acarina والحشرات insects تتبع Class INSECTA لذلك فإن المسبب للجرب هو من أشباه العناكب، وليس من الحشرات فوجب التنويه مع الشكر والتحية.

د. خليل حسن الشبول

الشجرة / الأردن

قضية تكفير المسلم، وغيرها

● في العدد رقم ٣٣٥ شهر اكتوبر سنة ١٩٨٦ من مجلة العربي قرأت ما كتبه الدكتور محمد عمارة تحت عنوان «حول قضية تكفير المسلم»، وقد أعطانا كاتب المقال صورة حية لنهج الداعية الإسلامي الأستاذ أبي الأعلى المودودي إزاء تحرجه من تكفير المسلم، وكنا بحق نتطلع إلى رأي كاتب المقال نفسه في هذه المسألة التي أصبحنا نسمعها كثيرا من بعض إخواننا الشباب في السودان، ومن بعض أساتذة وعلماء مرموقي المكانة، ويهمني أن أضيف إلى ما ورد في مقال الدكتور محمد عمارة ما أورده الإمام

النووي رضي الله عنه في رياض الصالحين في باب « تحريم قوله لمسلم يا كافر » . عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : « إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما ، فإن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه » . متفق عليه ، وعن أبي ذر رضي الله عنه انه سمع رسول الله (ﷺ) يقول : « من دعا رجلا بالكفر ، أو قال عدو الله ، وليس كذلك إلا حار عليه » ، (حار عليه أي رجع عليه) . متفق عليه .

فإلى مزيد من إلقاء الضوء على هذه القضية الهامة والله المستعان .

حمود أحمد سعيد

الخرطوم / السودان

العربي

- تهتم مجلة العربي بمختلف القضايا التي تهم الأمتين العربية والإسلامية ، سواء في جوانب العقيدة أو المصالح القومية ، أو الجوانب الثقافية . ومتابعة موضوعية لأعداد « العربي » في الأعوام الأخيرة يتأكد حرص المجلة على مشاركة صفوة من أصحاب الأقلام في كل هذه المجالات ، كما يتأكد حرص القراء على المتابعة الإيجابية الواعية .

التدخين هذا المبيد البشري

● في العدد ٣٢٠ يوليو سنة ١٩٨٥ من مجلة « العربي » في مقال الدكتور بدوي بدران ، وهو بعنوان « التدخين هذا المبيد البشري » قرأت في صفحة ١٢١ مايلي :

« والسبب غير المباشر الذي يجعل المدخنين يولعون بالتدخين هو شعورهم بالانتعاش ، ويأتي هذا الشعور نتيجة لتوسع شرايين الدماغ ، بسبب تأثير النيكوتين الموسع للشرايين ، وبعد فترة وجيزة تعود الشرايين للانقباض » الى نهاية الفقرة .

وفي ص ٢٢ في فقرة أخرى من المقال إشارة الى « أن التدخين يؤدي الى تقلص الأوعية الدموية ، ويسبب تصلب الشرايين » .

وفي العدد ٣٢٨ مارس سنة ١٩٨٦ في مقال الدكتور رياض العلمي بعنوان « ومن بعض الغذاء داء » ص ١٦٦ ورد مايلي : « يمتاز النيكوتين بأنه قلوي سائل .. كما يضيق الأوعية الدموية » .

ولعلكم ترون بوضوح أن ثمة تناقضا في المعلومات ، فكيف يؤدي التدخين الى توسيع الأوعية الدموية وتضييقها في آن واحد ؟

خالد مرعي

حماة / سوريا

العربي

- نضع ملاحظة القارىء الكريم أمام كاتب المقال الدكتور بدوي بدران . ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى أن الشعور بالانتعاش الذي يحدثه التدخين إنما يحدث للمدخنين الجدد ، أما المدخنون القدامى فلا يشعرون بذلك الانتعاش إلا عند تدخين السيجارة الأولى في صباح كل يوم ، ثم يختفي هذا الشعور مع مواصلة التدخين .

والتعلق بالتدخين لا يعزى الى هذا الشعور إنما يعزى إلى النيكوتين الذي يؤدي انخفاضه في الدم إلى نوع من التوتر يزول بالتدخين ، ومن المعروف أن النيكوتين يصل إلى المخ في غضون سبع ثوان من بدء التدخين ، ولا يحتاج لأكثر من ٢٠ ثانية للوصول إلى أصابع القدمين ، لكنه لا يبقى في المخ أكثر من نصف ساعة ، يشعر المدخن بعدها بالحاجة إلى التدخين .

والنيكوتين سم قتال أيضا ، فقطرة واحدة منه تكفي لقتل رجل ، حتى لو لم يبتلعها واكتفى بوضعها فوق لسانه ، وإن كان نيكوتين التبغ لا يفتك بالمدخنين فورا فما ذلك إلا لأن مقاديره في التبغ محدودة غير مكثفة ، لكنه أيضا يتلف الأعصاب ، ويضيق الأوعية الدموية ، وهناك أيضا غاز أول أكسيد الكربون الذي يحول بين دم المدخن والأوكسجين ، ثم هناك القطران ، وهو أخطر سموم التبغ جميعا ، وهو المسئول عن كثرة تعرض المدخنين لبعض أنواع مرض السرطان . □

■ أعظم الأعمال في هذه الدنيا .. تبدأ دوما بشخص واحد .

(رالف إمرسون)

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مارس ١٩٨٧ م

قلق الموت

تأليف: د. أحمد عبد الخالق

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١١

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص. ب ٢٣٩٩٦ الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

دعوة للترشيح لجوائز
المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية
المقدمة من
مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

تشجيعاً للبحث العلمي في مجال إنجازات الحضارة العربية الاسلامية في حقل الطب وفروعه. ومجال التطبيق لذخائر هذا التراث على ضوء التمحيص العلمي التجريبي وفق منهاج العصر الحاضر والنظرة الفاحصة إلى أحكام الاسلام ذات الصلة بصحة الفرد والمجتمع وأخلاقيات الممارسة الطبية، تعلن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عن تخصيص جائزة كل سنتين في كل من المجالين الآتيين:

(١) مجال الممارسة مبنية على التجربة المختبرية أو السريرية المحكومة بالضوابط العلمية المرعية.

(٢) مجال الفقه الطبي وتحقيق التراث وفق أصول فن التحقيق.

شروط الترشيح للجائزة:

١ ـ يشترط فيمن يحصل على إحدى الجائزتين أن يكون انتاجه منشوراً وذا أهمية في حقل العلوم الطبية الاسلامية ووافياً بالمنهاج العلمي العصري.

٢ ـ تقبل ترشيحات الجامعات والمؤسسات العلمية والهيئات العالمية، وكذلك ترشيحات الشخصيات المتخصصة لنفسها أو لغيرها.

٣ ـ ترسل الترشيحات إلى العنوان الآتي:

السيد مدير عام
مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
ص.ب (٢٥٢٦٣) الصفاة
الكويت 13113
تلكس: ٤٤١٦٠ ـ كيفاس

وتقبل، مشفوعة بالسجل الذاتي والانتاج العلمي للمرشح في الفترة من ١٩٨٧/٤/١٥ ولغاية ١٩٨٧/١٠/٣١.

٤ ـ لا يعاد الانتاج المقدم الى مرسله سواء فاز بالجائزة أو لم يفز ولا تقبل الاعتراضات على قرارات لجنة التحكيم.

تتألف الجائزة من مبلغ وقدره (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف دينار كويتي ودرع المؤسسة وشهادة تقديرية.

وسوف تشكل لجان تحكيم من متخصصين لدراسة الترشيحات واختيار الفائزين وسيدعى من يفوز بالجائزة للحضور إلى الكويت لاستلام جائزته في حفل يقام لهذا الغرض.

وحري بالبيان أن المقصود بالانتاج بحث علمي عميق ودقيق وموثق لمسألة محددة ذات صلة واضحة بالطب الاسلامي على مستوى المتخصصين وليس تناولا عاماً من قبيل الثقافة العامة.

من المسرح العالمى

سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

٢١٠ أول مارس ١٩٨٧

الأرض الحرام

تأليف : هارولد بنتر
ترجمة وتقديم : الشريف خاطر
مراجعة : محمد الحديدى



إسمعها
أكثر نقاءً مع توشيبا
صنع باليابان
TOSHIBA
RT-SX85
RT-SF75
BOMBEAT SX85
DOUBLE REVERSE
• مكبرات صوت مزدوجة قابلة للفصل •
ترجيع أوتوماتيكي مزدوج • تحكم منطقي
IC بمحركين • غرافيك اكوالايزر ٥ موجات
• دبلجة بلمسة زر واحدة لسرعة عادية/
سريعة • لتشغيل بواسطة الريكل • نظام سريع
لإختيار الموسيقى • قوة بث ٥٠ واط
(P.M.P.O.)
BOMBEAT SF75
DOUBLE REVERSE
• كاسيت مزدوج طراز ميدي • ترجيع أوتوماتيكي مزدوج • دبلجة
بلمسة زر واحدة لسرعة عادية/سريعة • تشغيل بواسطة الريكل • تحكم منطقي
IC بمحركين • نظام سريع لإنتقاء الموسيقى • قوة بث ٦٠ واط (P.M.P.O.)
RT-SX55
RT-SF55
RT-675S
RT-170S
RT-75S
BOMBEAT SX55
• مكبرات صوت مزدوجة قابلة للفصل
• دبلجة سريعة وتشغيل بواسطة
الريكل • نظام تحكم مزدوج •
تحكم منطقي IC بمحركين • غرافيك
كوالايزر ٥ موجات • قوة بث ٥٠ واط
(P.M.P.O.)
BOMBEAT SF55
• كاسيت مزدوج موديل ميدي • ٤
مكبرات صوت باتجاهين • نظام دبلجة
سريعة • دبلجة بلمسة واحدة •
قوة بث ١٨ واط (P.M.P.O.)
BOMBEAT 675
AUTO REVERSE
• وإعادة بث أوتوماتيكية
• ٤ مكبرات صوت
باتجاهين • قوة بث ١٢
واط (P.M.P.O.)
BOMBEAT 170
AUTO REVERSE
• تسجيل وإعادة بث
أوتوماتيكي • ٤ مكبرات صوت
باتجاهين • قوة بث ١٠ واط
(P.M.P.O.)
BOMBEAT 75
• تسجيل بلمسة زر
واحدة • مكبرات صوت
قوية (١٠ سم) • قوة بث
١١ واط (P.M.P.O.)
• كلها متوفرة مع راديو ٤ موجات (MW/SW1/SW2/FM) ونظام فولتاج مزدوج • دولبي هي علامة تجارية مسجلة لمختبرات دولبي.
TOSHIBA
TOKYO, JAPAN

شعبان ١٤٠٧هـ - ابريل (نيسان) ١٩٨٧

العربي



الأقصر..

الحياة موت والموت حياة

العدد ٣٤١ السنة الثلاثون ابريل ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 341 Apr . 1987 P.O. Box: 748
Postal Code No. 13008
Kuwait . A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس: MITR 44041 KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

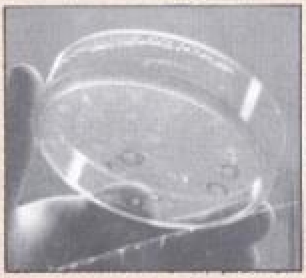
الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد


عزل جينات السرطان ص ٩٣


أعجوبة المعادن ص ١٣٠


حسناء باريس ص ١٤٠



د. بدرو مارتينيث



د. حامد أبو أحمد

استطلاعات ومقابلات

صورة الغلاف



في طيبه .. مدينة الأقصر المستلقية في أقاصي مصر - المدينة ذات المائة باب - عاشت « العربي » في عمق التاريخ المصري القديم منذ عهود الفراعنة وحتى العصر الحديث .

(طالع ص ٦٨)

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□





أبواب ثابتة :

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

« التحرير الفني » فن خاص ومتقدم ، منتشر في الصحافة المعاصرة وبخاصة الغربية .

أما في الوطن العربي فانه لم يصل الى المرتبة المتقدمة المرجوة حتى الآن .

« والتحرير الفني » كما عرف عالميا يقتضي تحديد الأفكار بالفقرات والانتقال السلس من فقرة الى أخرى ومن فكرة الى أخرى . وكذلك تحديد المعنى بأكثر ما يكون من الدقة ، دون إطناب يضيع القارىء معه في متابعة الفكرة من جانب ، ودون اختصار من جانب آخر يؤدي الى نفس النتيجة .

هذا التحرير ذو المستوى الرفيع هو ما نحاول في « أسرة العربي » أن نقدمه ، وفي بعض الأحيان نقسو على أنفسنا في تقديمه دون تسامح .

ففي الاجتماعات الشهرية التي تقوم بها أسرة العربي لتقييم ما تم نشره ، نفحص المجلة من ألفها الى يائها محاولين استقصاء نقاط الضعف في التحرير وفي الطباعة على أمل أن نقوم هذا الضعف في الاعداد التالية ، ويتحول لقاء أسرة العربي الى نقد موضوعي للعدد بصرف النظر عن مسؤوليات أعضاء هيئة التحرير الشخصية في العدد نفسه والهدف من ذلك هو أن تكون موضوعات المجلة متقاربة من حيث الصياغة والتحرير بحيث تبدو في مستوى واحد .

من خلال هذا العمل الدؤوب نستطيع أن نقول للقارىء إن مستوى التحرير عندنا يسير جنبا الى جنب مع المستوى الفني والثقافي ، وهي ثلاثية ترتكز عليها المطبوعة ، أية مطبوعة جيدة ، ونحن في العربي نسعى الى هذه الجودة بوعي كامل .

ومن أجل مزيد من هذه الخدمة الثقافية ينضم إلى أسرة كتاب « العربي » الكاتب الكبير فتحي رضوان ، ليكتب لك في هذا العدد عن « الثقافة والشارع » ، ويكتب الدكتور يحيى الجمل مقالة بعنوان « تعالوا نتعلم كيف نختلف » ، كما تجد ـ عزيزي القارىء ـ مجموعة من المقالات لكتاب العربي منها « العقلانية الاسلامية » للدكتور محمد عمارة ، « وطه حسين وثقافة العصر » للدكتور احمد علبي ، و« الفصل بين الطب والفلسفة » للدكتور عادل البكري ، بالاضافة الى موضوعات اخرى طبية وعلمية ، منها « الالومنيوم . أعجوبة معادن القرن العشرين » ، « واعجاز علمي في عزل جينات السرطان » ، « وسر العلاقة بين المرض والكهربائية » .

وحين نقدم لك بعض مادة هذا العدد فاننا نقول إن الكمال لله وحده ، لا يستطيع بشر أن يدعيه ، وأننا نحاول ـ فقط نحاول ـ تقديم تحرير راق ممتاز وموضوعات جديدة تضيف إضافات ايجابية لحصيلة المثقف العربي العلمية .

المحـــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمّد الرميحي

المثقفون العرب
بين الحسرة والأمل

■ لو أردنا أن نحصر الكتابات العربية الحديثة التي كان لفظ « المثقف » أو « المثقف العربي » طرفا فيها ، لربما احتجنا الى سفر ضخم ، ولو أردنا أن نحدد مفهوما قاطعا مانعا للمثقف لاحتجنا أيضا لمثل ذلك السفر . . فلقد أصبح « المثقف » في كتاباتنا العربية ـ مفهوما أو دورا ـ من الموضوعات المحببة التي يعود اليها الكتاب بين فترة وأخرى ، يبحثون عن دور لهذا المثقف في مجتمعهم وأمتهم .

وهذا النقاش حول دور المثقف ـ على كل حال ـ ليس ظاهرة خاصة بنا نحن العرب ، فقد سبقتنا ـ وربما سوف تلحقنا ـ أمم أخرى طرحت ، وسوف تطرح ، نفس الاشكالية في ظروف تطورها للبحث عن دور لأبنائها الواعين .

ولعلنا ـ في الوطن العربي ـ قد حمّلنا « المثقف » أكثر مما يحتمل لحل المشكلات المعقدة الوطنية والقومية ، وعقدنا الندوات تلو الندوات لفهم دوره وتطلعاته ، ورفض بعضنا الاعتراف بأن المثقف هو نتاج لمجتمعه وظروف تطوره أكثر منه قائدا فكريا يشير بالحلول في المشاكل المعلقة فتحل عقدتها .

ولعل التشتت العربي البادي للعيان ، والحرائق الملتهبة في شكل حروب قُطرية أو حدودية أو أهلية ، على امتداد مساحة الوطن العربي ـ سواء كانت نار تلك الحرائق بارزة ملتهبة أو مختفية تحت الرماد ـ لعل ذاك التشتت وتلك الحرائق تجعل بعضنا يعود الى التساؤل من جديد :

ما هو دور المثقفين العرب لتبصير الأمة بكل تلك المخاطر التي لا تهددها الآن فقط ، ولكن تهدد بقاء أجيالها القادمة ، وما هي المخارج المعقولة لهذا الضياع الكبير ؟

نظـــارة المثقفـــين :

■ أبلغ تعبير عن القصور الذاتي لبعض المثقفين العرب ، هو ماقرأته في احدى الدراسات التي تقول ان كلا منهم يلبس نظارة زجاجها من لون معين ! وانني أسارع بالقول بأن هذا التعبير قد يكون عاطفيا أكثر منه موضوعيا . الا أن النتيجة العلمية متقاربة ، وهي الاختلاف الشديد بين المثقفين في رؤ ية الموضوعات المتعلقة بالأمة ، بواقعها ومستقبلها وبأولوياتها المبتغاة والمرغوبة .

واذا كان الاختلاف في الرأي ـ في حدود المنطق ـ ظاهرة صحية ، الا أن التناقض الى درجة العداء والتعطيل والتحزب الضيق ، والخروج على مصالح الأمة للدعوة الى مصالح أعدائها ، فيه تعويق ضار بمسار الوطن والأمة .

وبعيدا عن الدخول في متابعة مدرسية لتحديد من هو المثقف الذي نعنيه فيما اذا كان متخصصا في موضوع محدد أم ملما بموضوعات شتى . . فإن مايعنينا أن للمثقف دورا اجتماعيا يتخذ من خلاله موقفا واعيا يربط الانسان بوطنه ومجتمعه وأمته ، دورا تنويريا في أساسه وريا‌ديا في طرحه لموضوعاته .

فالمثقف العربي ينتمي الى أمة ذات شخصية تاريخية ، وذات طموح مستقبلي ، ومهددة من أعداء شنوا عليها الحرب تلو الحرب ومازالوا يفعلون . .

من هنا فإن المثقف العربي مسئول عن الدفاع عن شخصية هذه الأمة وتراثها الروحي والمعنوي والمادي ، حيث ان هذا الدفاع له علاقة بشرف المواطنة وشرف الكلمة أيضا ، فوجب عليه أن يبحث عن مواطن تخفيف

المثقف العربي نتاج لمجتمعه وظروف تطوّره

نحن في طور الانتقال من ثقافة الذاكرة إلى ثقافة الإبداع

مواضع الألم »، والدعوة الى رص الصفوف في مواجهة الأعداء المشتركين .

والمثقف مسئول أيضا عن تجاوز ارباكات الوضع السياسي الظرفي ، وعدم رهن المواقف الثابتة بمواقف متحولة ، لأن الوقوع في ذلك يعني خسارة بناء أرضية مشتركة للمثقفين العرب ، وخسارة تكوين جبهة ثقافية واحدة أو متقاربة ، تحدد فيها الأولويات الوطنية والقومية التي يمكن ان تفرض بعد ذلك خطوات حقيقية وملموسة على صناع القرار .

ان أحد الأخطاء الخطيرة لأي مثقف أن يجاري ارباكات الوضع السياسي القطري ، أو أن يتعامل مع الآخرين ممن هم خارج القطر من موقف « المعلم » على أساس أن هذا الموقف سهل وغير مكلف ، بل قد يكون له في بعض الأحيان مردود ايجابي ! ان فعل ذلك يقع في اطار المزايدة أكثر منه عملاً في اطار الاصلاح والتنوير .

وقد يكون لبعض المثقفين خارج الوطن العربي مواقف اكثر حدة - فهم على البعد - يتعاملون من منظور مثالي بعيد عن الواقع ، غير ملمين بالامكانات المتاحة والواقع المعاش فيضرون أكثر مما ينفعون .

●●●

قيمة الكلمة ودور الثقافة ، هو أنها تستطيع التأثير في الناس وفي الحياة ، وتدفع الى واقع أفضل ، وهي لن تستطيع أن تفعل ذلك اذا فقدت موضوعيتها .

ان مسئولية المثقف هي في الدراسة الموضوعية لهذا التشتت ، وفهم اسباب الحرائق ، وتجاوز الارباكات القطرية الى منظور قومي يتجاوز الخلافات الصغيرة ويتفق على الغايات .

والسؤال الذي يجب طرحه :

هل هو من قبيل المصادفة حقا اغراق الوطن العربي في لجة من الحرائق الصغيرة والكبيرة ، وتعميق تشتت أقطاره وتطويقه بتناقضات وفتن داخلية ؟ وما هو دور المثقفين العرب - على اختلاف اجتهاداتهم - في تفسير ذلك ، والتنويه عنه ، ورسم مخارج حقيقية لتجاوزه ؟

اتفاق على الأسباب فقط :

■ رغم التباين الشديد في التيارات الفكرية والثقافية العربية اليوم ، بين سلفية ومعاصرة ، وتراثية وحديثة ، وقومية وقطرية ، ورغم التشتت في البناء الفكري العربي العام الذي نلمسه بوضوح ، الا أن الجميع - مهما تعددت



الاجتهادات ـ مدرك أن هناك (محنة) مظاهرها واضحة جلية ، أما كيفية تجاوز هذه المحنة .. فهنا تبدو الاجتهادات واسعة بل متباينة ، بعضها تغلب عليه الحسرة وأخرى مفعمة بالأمل . وقد طفق المجتهدون والمثقفون العرب في السنوات العشرين الأخيرة (أي منذ ١٩٦٧) ، وبعد سقوط مسلمات عربية ظلت ثابتة نسبيا الى ذلك التاريخ ، طفق المثقفون العرب ـ في مجابهة قاسية مع الذات تذكرنا بالنقد الذاتي القاسي الذي يحدث بعد أن تفشل أمة في تحقيق ذاتها كما حدث مرارا في التاريخ الحديث ـ يبحثون عن اسباب لهذا الواقع المؤلم .

وهنا اتجهت مجموعة من المثقفين العرب لنقد المجتمع العربي ، انها مجموعة تغمرها الحسرة ، شككت في كل ما يمكن ان ينسب الى الأمة العربية من قدرة ، بل ان بعضهم ذهب الى اتهام الشخصية العربية بأنها شخصية (ثنائية) تحمل الشيء ونقيضه في نفس الوقت ، وكأنها خارج السياق الانساني ، كما ان البعض استعار تشبيهات استشراقية فيها اتهام مباشر للعقل العربي بأنه « جامد وساكن » . وظهرت كتابات تقارن بين الشخصية العربية والشخصية الصهيونية ! وروج الاعلام الصهيوني العالمي لهذا المنحى



من المقارنة ، فأطلق حملة من أمثلتها كتاب للكاتب الصهيوني جون لافين فيه اكاذيب مقذعة حول (العقل العربي) أردفه بكتاب عن « العقل الاسرائيلي » المتطور !

وشهدت السبعينيات وبداية الثمانينيات ، تفشي النقد الذاتي القاسي لدى طائفة كبيرة من المثقفين العرب مما شكل بحد ذاته ظاهرة ثقافية مازالت منتشرة في الوطن العربي .

وفي المقابل فقد بحث آخرون - في الواقع العربي - من منطلق الأمل - وظهرت تيارات فكرية آخذة في التبلور لتمثل حالة معاكسة للنقد القاسي بالنقد العلمي ، فكتابات الدكتور محمد عابد الجابري - المفكر العربي المغربي - في « الخطاب العربي المعاصر » وفي « تكوين العقل العربي » مثال للنقد الذاتي المستنير حيث نجد دعوة مكررة لفهم « العقل العربي » ومحاولة دفع مفاهيم جديدة ونقد ماهو مسلم به من مفاهيم سائدة واعطاء بدائل ، قد لا تكون مقبولة اليوم ولكنها تفتح آفاق النقاش على مصراعيها .

ولعل آخر ما أثاره هذا التيار من قضايا للمناقشة هي قضية « الهوية العربية » وقد طرحها الجابري في ابريل الماضي - وفي مقال مطول حول المثقف العربي وإشكالية النهضة - فيطرح مسألة « الهوية العربية » على أنها مجموعة من الثنائيات : عروبة واسلام ، دين ودولة ، أصالة ومعاصرة ، وحدة وتجزئة . وفي الموضوع الأخير (وحدة وتجزئة) يأتي الجابري بمحاولة غير تقليدية من مثقف عربي حيث مازالت الفكرة السائدة لدى الغالبية من المثقفين العرب

■ ماهو دور المثقف لتبصير الأمة بما يحيط بها من أخطار؟

تقول : (ان الوحدة هي اهم الطرق الناجعة لتجاوز محنة العرب) .

يقول الجابري في ثنائية الوحدة والتجزئة (إننا أمام تعميم لمظهر اقليمي عربي على باقي الاقطار العربية ، لقد اعتدنا القول ان التجزئة التي لحقت بالوطن العربي هي بسبب عامل خارجي هو الاستعمار ، وهذا صحيح بمعنى ، ولكنه غير صحيح بمعنى آخر) .. يعترف الجابري بأن التجزئة في بعض المناطق العربية من جراء الاستعمار ، ولكن الجابري يستطرد فيقول : (ان القول ان الاستعمار هو المسئول الأول والأخير عن وجود الدولة القطرية

صوت الأمل في مستقبل أفضل.. أصبح هو الهدف

هذه أو تلك انما يعني ان البلاد العربية قبل الاستعمار كانت موحدة . . وهذا في نظرنا غير صحيح ، ذلك لأنه اذا كانت معظم أقطار الوطن العربي قد « توحدت » تحت الحكم العثماني ، فانها كانت غير موحدة قبل ذلك) .

إن انتماء الجابري كمثقف الى العروبة لا يحتاج الى كبير اثبات كما يقول وكما نعتقد ، ولكنه يطرح (كلاما لم يعتد سماعه الكثيرون) .

من هذا المنطلق يبحث الجابري في موضوع الوحدة من منظور جديد ، فهو يعتقد أنه (لا معنى للقول مثلا ان الوحدة بين بلدين عربيين ـ مهما كان نوع الوحدة بينهما ـ محاولة تعرقل الوحدة الشاملة . بل يجب تشجيع كل المحاولات التي تؤدي الى التضامن ، والى نوع من العمل المشترك الذي يؤدي الى اتاحة الفرصة للقاء أبناء الأمة العربية والحد من اختلافهم واحتكاك بعضهم ببعض في كافة المجالات) وهذا يعني ان ثمة طريقا آخر للتضامن العربي ـ ان لم يكن انجاز الوحدة الشاملة كما تصورت في الستينيات ـ فلا يجب التفريط في وحدات اقليمية ان أمكن ذلك .

الجابري يتعجب من طرح ثنائية (العروبة / الاسلام) ويقول :

(اننا لم نشعر يوما ـ نحن المغاربة ـ بأن هناك فرقا بين الاثنين أو أن هناك مشكلا في الاختيار بين العروبة والاسلام) . ويضيف الجابري (أستطيع أن اؤكد اننا عندما نقرأ كتابات مشرقية حول مشكل الاختيار أو المفاضلة بين العروبة والاسلام فاننا نجد أنفسنا امام كتابات لاتنفذ بما تريد أن تقوله الى وجداننا وعقولنا . ان المشكل هو ـ اساسا ـ مشكل محلي وليس مشكلا عربيا) التعارض كما يرى الجابري بين العروبة والاسلام تعارض محلي واقليمي في بعض المناطق العربية ، ولكنه ليس موجودا في كثير من المناطق العربية الأخرى .

قضيتان يحاول الجابري كمثقف طرحهما مساهمة في اطفاء بعض الحرائق الناتجة عن سوء فهم لهما : الأولى قضية الوحدة التي يجب قبولها متدرجة وخضوعا لواقع معاش ، وذاك يترتب عليه احلال التضامن والوفاق والبحث عن هوامش مشتركة دون القفز الى مثاليات ، والانطلاق منها ، مما يسبب تعويق الفهم المشترك بيننا واضعاف لحمة التضامن المطلوبة .

والقضية الثانية هي العروبة والاسلام التي لا يرى أغلب العرب تناقضا بينهما ، وحيثما وجد هذا التناقض وجب احلال التسامح والتوافق محل العداء والتنافر لأن الجميع يشترك في ثقافة معظم عناصرها متسقة .

يبقى هناك من يقول بأن هذه الخطوط من التفكير معقولة ومقبولة ومنطقية . . كما يبقى آخرون يرونها غير ذلك ، الا انها محاولة جادة لمعرفة الذات وطرح أمل جديد .

المجتمع العربي :

■ فئة أخرى من المثقفين العرب تنسب عجز فاعلية المثقف العربي في مجتمعه الى أسباب موضوعية قابعة في المجتمع نفسه . هذه الأسباب هي التي تعوق أيضا الوقوف أمام هذا التشتت والضياع العربي ، وتتيح فرصا مناسبة لاشتعال الحرائق ، فالعجب من هزيمة جيوش المثقفين العرب - كما يقول الطاهر لبيب (مفكر تونسي) - هو عجب لا مبرر له في الواقع ، باعتبار أن أغلبية أهل المعرفة مرتبطون نشوءا ومصيرا بمراحل تطور مجتمعاتهم التي توظفهم في تلبية حاجاتها ، وان المجتمعات العربية ضعيفة التناقض الاقتصادي / الاجتماعي ، وهذا الضعف في معظم المجتمعات العربية حال دون بروز تيارات فكرية قوية وشبه سائدة حتى بصرف النظر عن محتوى هذه التيارات ، ويعود آخرون بجانب الطاهر لبيب لهذا الموضوع ، مثل أحمد مجدي حجازي (في المستقبل العربي ٨٥/١١) فيربط تخلف دور المثقف في المجتمع العربي بتخلفه الاقتصادي / الاجتماعي ، ولا يجب أن نتوقع - كما يقول حجازي، وآخرون - دورا للمثقف العربي خارج المجتمع الذي ينتمي اليه ويبرز بين جنباته .

إلا أن أحد المثقفين العرب البارزين - هو هشام شرابي - حاول أخيرا أن يفهم اشكالية الشتات والتنافر العربي من منظور فهم المجتمع نفسه ، فكان أن طرح الأمر في ندوة (المفكرون العرب في المهجر التي عقدت في باريس في ديسمبر الماضي) يقول شرابي انه كي نفهم الآخرين علينا ان نفهم انفسنا ، واننا نستطيع ان نفهم أنفسنا من خلال نماذج معرفية ثلاث يعتقد هشام شرابي،





أنها تشكل الوعي العربي الحالي ، ومن خلالها يمكن فهم المجتمع . هذه النماذج هي :

النموذج التقليدي (البطركي) ـ وهو مفهوم بحد ذاته معقد بعض الشيء ويعني بشكل عام (النظرة الأبوية التسلطية المطلقة في النظر الى الأمور وإدارتها) ، والنموذج الثاني هو (البطركي الحديث) ، أما الثالث فهو (النموذج النقدي) .

يتميز الوعي في النموذج الأول ـ كما يقول شرابي ـ بمفاهيم الوصفية والسردية وتأكيد القيم ، وهي لا تعرف الذات نفسها الا من خلال اختلافها مع الآخرين ، فالآخرون نفي لها او تهديد . هذا الوعي يتميز بالرفض المطلق للاختلاف ، ويرى في أية اختلافات تناقضا كليا معه .

أما الوعي (البطركي الحديث) فهو لدى شرابي وعي للتوفيق بين التراث والحداثة ، بين الماضي والحاضر ، ولكنه ينقد هذا الوعي حيث ان منهجيته لا تختلف عن منهجية الوعي الأول في الوصفية والسرد وتأكيد الماضي ، ويعود شرابي الى نقد نموذج الوعي هذا بقوله (ان الهرب من الواقع والتراجع نحو طفولة مستحيلة ضرب من ضروب الخلل النفسي في الأفراد ، أما في الجماعة فهو ظاهرة تخفي فوضى فكرية واجتماعية تهدد المجتمع بأسره ، هذا الوعي يخترع الحقائق ويبني النماذج كما يريد .. تارة يستمدها من منظور تراثي يفسره على هواه .. واخرى يصنعها من نسيج ينتقيه كما يحلو له ..) .

ويلاحظ الكاتب في النموذج النقذي ان هناك وعيا ثالثا ، أو نموذجا ثالثا للوعي ، وهو ما يسميه « بالنقد العربي الحديث » ـ الذي برز في السبعينيات ـ خاصة في المغرب العربي وفي اوساط المثقفين العرب في الخارج كما يعتقد ، ومازال هذا الوعي ذو النزعة الاستقلالية والثورة على التبعية الثقافية في مرحلة التطور والنضوج .

ويحدد هشام شرابي أولويات عمل المثقف العربي ـ بصفته من المثقفين العرب المهاجرين ـ بأن المشكلة التي تشكل اليوم خطرا مباشرا (هي الهجمة الشرسة التي تشن على العرب والاسلام في الغرب على مستوى الفكر والممارسة .. وتظهر في ثلاثة أشكال متنوعة : اعلامي وسياسي وثقافي) .

هذه النماذج من الكتابات تنظر الى أن تعويق عمل المثقف العربي ناتج من أسباب موضوعية موجودة في مجتمعه ، وتعطل جانبا كبيرا من وعيه لذاته وللآخرين ، ولكنها أيضا نظرة أمل للمستقبل ، لأن الوعي الصحيح ـ ولو كان وعي القلة ـ يتشكل باطّراد .



من ثقافة الذاكرة إلى ثقافة الإبداع :

■ محصلة كتابات المثقفين العرب - باجتهاداتهم المختلفة - هي أننا في طور الانتقال من « ثقافة الذاكرة » - ان صح التعبير - الى « ثقافة الابداع » ، صحيح أن الأغلبية ما زالت تحن لثقافة الذاكرة ، ولكنه صحيح ايضا وبنفس القوة أن ثقافة الابداع بدأت تظهر وتأخذ لها مكانا معقولا في الكتابات الحديثة ، ولم تعد مفاهيم فكرية مثل الحقيقة والعلم والعقل تبدو كمفاهيم خارجة عن الزمان والمكان العربيين ، أو مفاهيم تقع في اطار الثنائية التي تعود عليها بعضنا فترة طويلة ، بل أصبحت للطليعة المثقفة مفاهيم تدافع عنها ، وتتقبلها فئات اجتماعية تتسع تدريجيا .

ولم يعد الخوف من المستقبل انطلاقا من الواقع السلبي الذي نعيشه هو الهاجس والمثير ، بل أصبح صوت الأمل في مستقبل أفضل من خلال معرفة الواقع معرفة علمية هو هدف المثقف العربي .

ان معرفتنا - كعرب - لمصالحنا المشتركة وأهدافنا القريبة والبعيدة ، بل ولفهمنا لمقاصد أعدائنا فينا ، كلها قضايا لها أهميتها . ؟ مناقشة كل تلك القضايا وتوضيحها وجدولة أولوياتها وتحديد مسارات الاستقلال الاقتصادي والتنمية الشاملة والتعاون هي مهمات المثقف العربي اليوم ، وهي مهمات لا يستحسن قبول العزاء فيها .

محمد الرميحي

أقوال


الشيخ جابر الأحمد


الرئيس حافظ الأسد


خافير بيريز دي كويلار

■ الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا هي « اسرائيل » أفريقيا ، و « اسرائيل » هي جنوب أفريقيا العنصرية المغروسة في الوطن العربي والعالم الاسلامي » .

■ إن مواجهة التحدي الحضاري المعاصر هي الميزان الأمثل لارادتنا وقدرتنا .

■ إننا ندعو إلى تعاون عالمي ، لتأمين الانسانية أفرادا ومجتمعات من أخطار الارهاب الطائفي والعنصري والدولي ، وما يرتبط به من تهديد وابتزاز ، مع التفرقة الأمينة بينه وبين الحق المشروع في الدفاع الشريف عن الأوطان واستعادة الحقوق السليبة » .

من خطاب الشيخ جابر الأحمد

أمير دولة الكويت في المؤتمر الاسلامي الخامس

■ لقد بات لزاما على المجتمع الدولي بأسره أن يضع نصب عينيه ضرورة التوصل إلى طريق محدد لانهاء الحرب العراقية الايرانية التي طال أمدها .

خافير بيريز دي كويلار

سكرتير عام الأمم المتحدة

■ إذا ما ضربت « اسرائيل » دمشق بقنبلة ذرية فإن آثارها سترتد عليها ، ولن تسلم من مضارها .

الرئيس حافظ الأسد

■ يجب التفريق بوضوح بين أعمال الارهاب الاجرامية الظالمة التي يرتكبها الأفراد أو الجماعات أو الدول وبين النضال الوطني المشروع للشعوب المستعمرة والمقهورة ضد الاحتلال الأجنبي أيا كان نوعه .

من قرارات مؤتمر القمة الاسلامي الخامس

■ إن ما تطالب به الشعوب الاسلامية ليس مجرد بيان لتحكيم العقل ، وليس مجرد دعوة للسلام فقط ، بل ما تنتظره من قادتها هو العمل الجاد والموحد الذي يهدف إلى تحكيم كتاب الله بين الجارتين المسلمتين المتحاربتين ، العراق وايران » .

عبدالعزيز الصقر

رئيس غرفة تجارة وصناعة الكويت



الثقافة والشارع

بقلم : فتحي رضوان

الكاتب العربي الكبير فتحي رضوان يقدم منظوره الابتكاري حول مفهوم الثقافة . وهو يضع أمام قارىء « العربي » خبرته الطويلة في هذا الاطار الحيوي الذي اختلفت حوله الأقلام العربية .
ترى من هذا المثقف في رأي الأستاذ فتحي رضوان ؟

قد يبدو عنوان هذا المقال محتويا على تضارب ، فالوهم الشائع يقول ان الثقافة والشارع متنائيان ، بل متناقضان .

فالثقافة غايتها ترقيق الشعور وإرهاف الحس والنظرة الى الأشياء والأشخاص بحب ولطف ، والوقوف أمام العناصر والألوان بتسامح ، ومحاولة فهم وهيام بالفن وبالجمال ، بتسام يان عن الغلظة والجفوة .

والشارع ضجيج لا يهدأ ، وتدافع من أجل الكسب والسبق لا ينقطع ، وما يشبه الشجار يتجدد ، وميل للأثرة والهيمنة لا يخف . فكيف يلتقي النقيضان ، ويتجاور الضدان ؟!

ولكن في الطبيعة والحياة ، تتجاور النقائض وتتلاصق حتى يبدو النقيضان شيئا واحدا . ألم يمزج الله البحرين ، هذا ملح أجاج وذاك عذب فرات ، ولكن لا يبغي أحدهما على الآخر ، ولا يجعل



الأضخم منها والأوسع نطاقا ، من الأصغر والألطف تابعا ، أو يمحو وجوده ؟

والثقافة تيار متجدد أشبه شيء بالكهرباء لا نراها ، ولا نشم لها رائحة ، ولا نعرف لها حجما ، ولكنها موجودة وفعالة ومؤثرة . لا ندري من أين نبعت ولا إلى أين تذهب ، حينما نطفىء المصباح الكهربي ، أو نوقف المحرك الدوار ، أو نعطل جهازا من أجهزة الاذاعة ، سواء كانت مرئية أو مسموعة . وتشبيه الثقافة بالكهرباء ، تشبيه سليم وصحيح . فالثقافة تدفع وتحرك ، وهي تضيء وتنير ، وهي تدفىء وتمنح القوة . . وكذلك الكهرباء .

الثقافة والشعب

ولقد انتهى الرأي عندي ان الثقافة لها مزايا تغاير بينها وبين العلم ، فهي أولا شعبية ، وهي ثانيا تلقائية ، وهي ثالثا معارضة .

فالثقافة تعيش في أحضان الشعب ، وبين ظهراني الجماهير ، تصدر عنه وتعبر عن خوالجه ، وإحساساته ، وتصور أدبه وفنه ، ومن ثم فلا أحد يعرف صاحبا لمنجزاتها ، ولا مؤلفا لها ، ولا راسما لصورها ، ولا واضعا لألحانها ، ولا منسقا لأحداث تاريخها ، ولا مبتكرا لألغازها وأحاجيها ، ولا مفتنا لقصصها ولا (لحواديتها) التي تروى للأطفال قبل النوم ، فهي تنبثق وحدها ، وتتطور على مر الأزمان ، وتنتقل من قرية الى قرية ، ثم من جيل الى جيل ، وتتشكل حسب البيئات ، وحسب الأزمان وحسب الأذواق ، ومع ذلك تبقى محتفظة بقالبها الأصلي ، وبأكثر سماتها وأظهر خطوطها .

وهي حين تؤدي دورها بميلادها ثم بتنقلها ، ثم بذيوعها وانتشارها ، تدخل في سجل التراث الشعبي ، وتبقى فيه ، وبعضها يبدو أنه اندثر ثم تمر قرون ، فاذا به يعود سيرته الأولى ، حيا معروفا ، ممتعا للسامعين وللرواة . فمن أين ينبثق ، وفي أية ظروف يولد . هل تلده المصائب الشعبية ، والملمات العامة ، والأحزان المشتركة ؛ كذلك مع انبثاق البطولات ، وظهور الأبطال ؟ هذه هي حقائق ميلاد هذه الثقافة الغزيرة المتدفقة المتنوعة التي تكون (موالا) و (فزورة) و (حدوته) ، و (قصة طويلة) ولحنا عذبا سهلا سريع التنقل .

ولكن الذي يستوقف النظر أن خفاء اسم صاحبها ومبدعها ، وناقلها وموزعها ، هو سمة الثقافة الأصيلة التي تميزها عن أشياء أخرى مثل (العلم) أو المعرفة (العقلية) أو الأدب المدروس في المعاهد والجامعات ، والثابت في صحائف الكتب ، مشروحا ومعلقا عليه ، هذا كله شيء والثقافة شيء آخر .

فالذين قالوا في وقت ما - وربما في العصور المتقدمة - ان الثقافة أخذ من كل شيء بطرف ، فهذا الذي يأخذ من كل شيء بطرف ليس مثقفا ، ولا اتصال له بها ، فقد يكون سمير مجالس يجلس في حلقات الأثرياء الأماثل الذين يحبون أن يتزينوا بزي المثقف ،وأن يزدان مجلسهم بواحد يروي الشعر ، وثان يروي الطرائف ، وثالث يتلو بعض آي الذكر الحكيم ، أو بعض ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ويحسب الجاهلون الذين يغشون هذه المجالس ، ويسمعون فيها أقوالا مصقولة ، وأبيات شعر جيدة النظم ، رقيقة الحاشية ، وقصصا قصيرة سريعة تروي أشياء من حياة الخلفاء والملوك والسلاطين ، كما تروي نوادر الادباء شرقيين وغربيين ، وقد يندس في هذا الكلام بعض أسماء أجنبية ، وعبارات بالانجليزية والفرنسية ، هذا كله ليس ثقافة .. لا القائل مثقف (بالكسر) ولا السامع مثقف (بفتح القاف) إنما هذا كله لون رقيق من إزجاء الفراغ ، قد يرتفع قليلا أو كثيرا عن سمر مجالس أخرى ، يسعى المحدثون فيها الى ما يجرح الحياء ، ويحرج الفضيلة ، وهو أمر يساق في قوالب وصيغ لا يمكن أن تصدر عن الادباء والشعراء وأهل الرأي .

الثقافة ليست عدوا للعلم

ويخطىء الذين يتصورون أن الثقافة ليست أخذا من كل شيء بطرف فقط ، بل يصرون على أن (العلم) عنصر من عناصر الثقافة ، وأن المثقف لا يكون كذلك إلا إذا رفع رأسه الى السماء فرأى الأجرام ، فشغل بعض الوقت بحركات النجوم ومسار الأفلاك ، وعرف السدائم والمجرات ، وأدخل في حديثه إشارات الى الكواكب التي عرفها الانسان الآن . وقد يتصورون ان المثقف لا يكون كذلك إلا اذا أجال بصره في كتب تتحدث عن الحيوانات وأنواعها ، والبلدان ومواقعها . الى آخر ما يدخل في نطاق (العلم) . الواضح أن الثقافة ليست عدوا للعلم ، ولا تنفر منه ، ولا تقطع صلتها به ، ولكنه ليس عنصرا من عناصرها ، لأن الثقافة تصدر من الوجدان وتمضي الى الوجدان ، والعجيب ان الثقافة فيما تصل الى أعلى مراتبها ، تصقل العقل ، وتوسع ميرائه ، وتزوده بوقوده ، وتجدد حيويته وتبعث نشاطه ، وتدفع به الى مجالات على اتساع الفضاء ورحابته .

ثقافة معارضة

ولننتقل الى سمة أخرى من سمات الثقافة ، فهي بعد تلقائيتها ، وعدم الوقوف على صانعها ومبدعها ، ومع تجددها المستمر مع الزمان والمكان ،

هي (معارضة) أنشأها الاحتجاج ، ووسع نطاقها الاعتراض على ما يجري ... لا في دنيا الحكم والسياسة ، ولا في نطاق الاجتماع والتقاليد المرعية فحسب .. بل هي في الوقت نفسه شكوى واستغاثة .

فالانسان الذي يولد في هذا العالم ، أعزل من كل ما يدافع به عن نفسه ، تحيط به ظلمات متكاثفة .

فلا يعرف من أين أتى ولا إلى أين يذهب . ويرى أقوياء يطغون ، وأصحاب سلطة يفعلون ما يشاءون ، ويرى الى جانب هذا كوارث بغير سبب ،

وجوائح بغير مقدمات . وجهلا مطبقا بالقواعد التي يعمل على أساسها عقله وبالدوافع التي تحرك بدنه ، بل يرى أينما ذهب ظلمات متكاثفة ، ويرى علما ناقصا ، وادعاء متزايدا ، وأخطاء تسمى حكمة ، ثم تنكشف عن ويلات ومصائب .

ودعاوى يقننها القانون ويحميها السلطان ، ثم يظهر أنها كذب في كذب وتضليل في تضليل .

هنالك يصرخ الانسان طالبا العون ، طالبا الملاذ ، طالبا الرشاد ، خائفا على نفسه من تصر يزيده في الظلمات ضياعا ، ويأس يضاعف آلامه وأوجاعه . هذه الشكوى وهذا التخبط ، وهذا الاصرار على المعرفة في مجاهل التيه ، وانقطاع السبل ، هو المراد الأول للثقافة . ولذلك فقد انبثقت شكوى ملتهبة ، تكاد تشبه قذائف النار : جريئة ، صارخة ، تكره القيود ، تكره الموروث ، تكره السلطان ، تكره القبول والرضا ، وتدعو الى الثورة والسخط والتمرد ، ثم تتقن الثقافة أساليب

الشكوى ، فيجلس مؤلفها المجهول ، ويصوغ مواويل شاكية باكية ، وحكاية ساخرة هازئة ، وألغازا معقدة متحدية ، ويقول للفلاسفة والمفكرين ، والأصوليين والمشرعين : أنا الأب الشرعي ، لكل ما قلتم ، وما أخرجتم من كتب تفلسف الكون ، وفلسفات تغير الزمان والمكان ، وتدعو الى عالم جديد والى دنيا ليس فيها ماقي دنيا الانسان ، ثم يبدو أن هذا كله عبث لا نفع منه ولا جدوى فيه . . .

ثقافة شعبية

ولكن لا يزال للثقافة سمة أخرى ، فهي بعد أن عرفنا أنها تلقائية وأنها معارضة ، فهي شعبية .

وهي في هذا الجانب من سماتها تجمع النقائض ، فهي بقدر تواضعها ، وبساطتها هي مدعية وفخورة ومتأهلة . . .

فهي شعبية تسير في أسمال المتسولين ، ولكنها ترفع رأسها شامخة . . فالنكتة تراها أحلى مذاقا وأحر طعما على ألسنة العامة في الأزقة ، وعلى المقاهي حيث تفوح رائحة عرق الجالسين على مقاعد مهتزة تكاد تسقط ، والخمر الرخيص يثير في سماء المقهى المتواري ، سحابا ثقيلا ، يزهق الأنفاس ، وتضيق له الصدور .



تقال الملحة جافية غليظة ، تذكر الأسماء النابية ، وتشير الى مواضع الجسم المستورة ، ويضج الجالسون بقهقهات مصحوبة بسعال عنيف ينقطع ليتجدد ، وقهقهة لا نعرف أهي ضحكة أم هي حشرجة .

هذا البعض من الأدب الساخر والنقد الهازىء ، والهاتك للحرمات ، يقوله أناس كادوا يفقدون أبصارهم لكثرة ما نظرت عيونهم في أماكن اختنقت بالتبغ الرخيص وغيره من وسائل الترفيه والتخدير . وهم يروون ملحهم وفكاهاتهم ويضحكون ، يخيل اليك أنهم يخافون حتى الارتعاد من أي إنسان يلبس ثوبا نظيفا ، ويحمل عصا ولو كانت رفيعة ، ولكنهم إذا اطمأنت نفوسهم وأخذ ينتطق لسانهم بالملح والفكاهات والتعليقات ، يخيل اليك أن كلا منهم يحسب نفسه سيد الكون ، فهو يسخر من السلطان والحاكم والفلاسفة والمفكرين ، ويصورهم بأقبح الصور ، ويعريهم من مظهرهم الوقور ، ويكشف سترهم طبقة بعد طبقة وثوبا بعد ثوب .

والآن وقد عرفنا أن الثقافة تلقائية لا يعرف مبدعها ولا موزعها ، وأنها معارضة خلقها أصلا الاحتجاج والاعتراض ، وخلقتها أصلا الشكوى والتمرد ، والسؤال الغاضب ، فهي أخيرا شعبية تصدر من الشعب ، وتتوجه الى الشعب ، وهي لا تسكن القصور بل هي تعيش وتنمو ، وتزداد سلاطة لسان ، في الحارات والأزقة ، تتغذى بطين الأرض ، وتعاشر هوامّ الفقر ، ومع ذلك فهي متكبرة مترفعة ، لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب ، فتسخر من الجاهل ، والمضطرب ، كما تسخر من الفيلسوف والمفكر ، وتريد شيئا ما مجهولا ، ولكنها لا تكف عن طلبه والسعي وراءه والالحاح في معرفته ، بقي أن نعرف ماهي رسالتها : أهي سخرية وغضب وتمرد فحسب ، وهل هي تراث ماض لا يتجدد أم أنها تصنع من جديد ، وتضيف الى

الموروث أشياء لم تقل من قبل ، وترسم صورا لم يبدعها رسام ولم تخرجها ريشة .

هي كذلك . . هي قديمة وجديدة ، ولا تكف عن الاهابة والاثارة ، والتهييج . ولكن من الذي يصنعها الآن ؟

في الأغلب الأعم أناس هم أقرب الى الأمية لم يذهب أكثرهم الى مدرسة ، وإن ذهب بعضهم الى الكتاب والمعهد ، فيا أسرع تركهم لمقاعد العلم والدراسة ، وإن كان منهم متعلمون .

أناس قد ترى في القرية رجلا منهم ، يحفظ شيئا من موروث الشعر ، وبعض القرآن ، ولكنه يمتاز بصفتين ، الأولى : وجدان متقد ، يتذوق الجمال ، في القول وفي الآدميين نساء ورجالا ، ذرب اللسان طويله ، لا يبحث عن الرزق ، ولا يهمه المال ، ويرتاد المجالس ، ثم يتحدث فتنصت له القلوب ، والآذان ، ويحفظ الناس ما يقول ، وترسخ في ذاكرتهم ملحه وقصصه وأساطيره .

في الماضي كان (هوميروس) الشاعر الأعمى الأمي ، هو مثقف اليونان ، وكان شعراء الجاهلية العربية هم المثقفون ، وفي الحاضر نجد مثقفين لم يتموا تعليمهم ، ولكنهم قالوا شعرا ونثرا وزجلا ، لا يبلى - وسخروا فيه من الملك والحكومة والمجتمع : كان بيرم التونسي أحدهم ، وكان بديع خيري في مثل تأثيره ، وكان عبدالله النديم زعيما من زعماء الثقافة الحديثة .

وكان من نفس الصنف - وإن لم يكن في نفس التأثير - سعيد عبده ، وإن كان طبيبا إلا أن حملاته الثقافية كانت زجلا بالعامية ، وكان محمود رمزي نظيم شاعرا بالفصحى ، وزجالا بالعامية ولكنه مات مزويا .

وكان من أكبر المثقفين أيضا محمود مختار المثال الذي لم يتم تعليمه ، وإن كان قد ثقف نفسه فكان مثالا ورساما وشاعرا .

فالثقافة هي شحن الوجدان ، وملء النفس بالحركة ، وبالتطلع الى التجديد ، وبالرغبة في الابداع المحموم ، والابتكار المشتعل . . . وهي خالية من العلم ولكنها تدفع الناس اليه ، وتحبيبهم فيه ، وفي الحرية أيضا .

ولذلك فالثقافة والشارع صديقان متحابان ، وليسا شيئين متعادين أو متناقضين . □

بين القلب والعقل

● اشتهر جورج ولز الأديب العالم بأنه كان من الكتاب القلائل الذين جمعوا بين التفكير العلمي والأسلوب الأدبي في أعماله ومؤلفاته ، وقد سألوه يوما ما هو العلم ، وما هو الأدب ، وما هو الفرق بين الاثنين ؟ فقال ولز : العلم عقل ، والأدب قلب ، وكما أن الانسان لا يستطيع أن يعيش بأحدهما ، فهو ميت لا محالة عندما يتوقف قلبه ، وهو حي ميت عندما يتوقف عقله عن العمل ، كذلك الكاتب لا يمكن أن يكتب بقلبه وحده ، ولا يمكن أن يفكر بعقله وحده ، بل لا بد للعقل والقلب أن يمتزجا في كل رأي .

عدد مايو ١٩٨٧

اقرأ في العدد القادم من العربي

رمضان كريم

استطلاعات

- مآذن لها تاريخ ... — سليمان مظهر
- الشاشان والأنغوش من المنفى إلى حياة جديدة .. — سليمان الشيخ

العمل الإسلامي وترتيب الأولويات	ردم الهوة والخيار الصعب	الصحوة الإسلامية بين الجسور والعقبات
د. كمال أبو المجد	د. شاكر مصطفى	د. عبدالعزيز كامل

- ولكم في القصاص حياة ! — د. عبدالوهاب حومد
- مرض الفصام .. جنون فرد أم جنون مجتمع ! — د. حلمي نجم
- رمضان في ربوع القدس القديمة — د. صبحي غوشه
- الصوم .. وحكمة تدبير الحياة — د. محمد فتحي الدريني
- كتابة الشعر بين التجربة والإلهام — د. عبدالعزيز المقالح
- الأرض بلا ميكروبات .. كوكب ميت — د. سمير رضوان
- هل يمكن أن يلد الرجال ؟ — د. احمد محمد الكباريتي
- وجهاً لوجه .. عبدالوهاب البياتي وجليل العطية

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - د. عبدالحميد يونس - فتحي رضوان - فهمي هويدي

جمال وردة - د. كافية رمضان - د. خالد نعيم - يوسف عبدالعزيز

العقلانية الإسلامية

بقلم : الدكتور محمد عمارة

أيها أجدر بالتقييم والاهتمام العقل أم النقل ؟ حول هذه الثنائية دارت معارك المفكرين المسلمين - وقد شارك فيها الساسة أيضا ، وانقسم الرأى بين مؤيد لهذا الموقف ومشايع لذاك ، فهل وصل الفريقان الى يقين ؟

في الحضارة اليونانية القديمة . . وكذلك فى صورتها الحديثة - الحضارة الغربية المعاصرة انحاز الفلاسفة الى « العقل » و « براهينه » بوصفهما أداة وحيدة لادراك الحقيقة فى الظواهر والأشياء . . ففى المجتمع اليونانى ، كانت السيادة للوثنية . . ولم يكن هناك « وحى » الهى ، ولا « نقل » دينى ينافس « العقل » أو يزامله فى ميادين التفلسف والتأمل والتفكير . . .

ولأن النهضة الحضارية الغربية - رغم تبلورها فى مناخ مسيحى - كانت علمانية الروح والجوهر والطابع . . وبسبب رفض اللاهوت المسيحى - كما تبلور فى الكنيسة الكاثوليكية الغربية - اعتماد « العقل » سبيلا الى « الايمان » - فقد جاءت هذه النهضة الحضارية الغربية الحديثة امتدادا للموقف اليونانى القديم ، فى الاعتماد على « العقل » وحده أداة للتفلسف والتأمل والتفكير . .

تلك قسمة تميزت بها الفلسفة والابداع الفلسفى فى الحضارة الغربية ، منذ اليونان وحتى عصرنا الحديث . . فالعقل ، وحده ، هو أداة الفلسفة والتفلسف . . و « الوجدان » . . والنقل » وحدهما ، السبيل الى التدين والايمان ! . .

موقف الفلاسفة الاسلاميين

واذا كان هذا الموقف قد عرف طريقه الى شريحة من شرائح تيار الفلسفة والتفلسف فى تراثنا العربى الاسلامى . . فان القطاع الأعظم من تيار الفلسفة الاسلامية قد اتخذ من هذه القضية موقفا متميزا ومغايرا . . فالتيار العقلانى فى حضارتنا العربية الاسلامية - وفرسانه « المعتزلة » بخاصة ، و « أهل العدل والتوحيد » ، بعامة - قد انطلقوا ، على درب التفلسف والابداع الفلسفى ، من « النقل » ، أى القرآن الكريم الذى أعلى مقام العقل ، واستفادوا من اقتصاد الاسلام فى الحديث عن « الغيبيات » ، فصاغوا - قبل ترجمة الفلسفة اليونانية الى العربية ، وربما للمرة الاولى فى تاريخ الفكر الفلسفى - صاغوا « علم الكلام الاسلامى » - « علم التوحيد » - فلسفة اسلامية مؤسسة على الوحي الالهي ، فيها تزامل « العقل » و « النقل » ، وتآخت « الحكمة » و « الشريعة » ، وجاورت « العقليات » السمعيات وشد التوحيد فى الألوهية من أزر « الطبائع والسببية » . . واستطاعوا بهذه العقلانية الاسلامية المتميزة النهوض بمهمة مجادلة الفلاسفة واللاهوتيين من أبناء الملل الأخرى ، فوظفوا الفلسفة - للمرة

الأولى فى التاريخ - سلاحا بيد الدين ، وكان لهم ، فى هذا الميدان ، فضل نشر الاسلام فى البلاد التى ازدهرت فيها الأبنية الفكرية التى استرشدت بميراث اليونان الفلسفى والمنطقى فى المناظرة والجدال . .

صنع هذا التيار العقلانى قسمة العقلانية الاسلامية فى حضارتنا ، تلك التى أدهشت مفكرى الغرب من تميزها بالتدين ، فكتب الفريد جيوم يقول : « ان قوة الحركة الاعتزالية مردها . . اقامة علم الكلام الاسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة ، مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية . . مع وجوب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية . . »

وعلى عكس المسيحية وحضارتها الغربية ، التى وقفت فلسفتها عند « العقل » - فى معاداة « للنقل » - ودعا دينها الى أن يؤمن المؤمن بما يلقى الى قلبه دون نظر عقلى على حد قول القديس أنسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩ م) - جعل المعتزلة « النظر » أول واجبات الانسان لأن النظر العقلى هو سبيل معرفة الله والايمان به ، وعليهما يترتب الايمان بالرسالة والرسل والوحى والكتاب . . ومن هنا جاء اعتمادهم على « العقل » مع الكتاب والسنة والاجماع . . بل تقديمه عليها ، لا تقديم تفضيل ، وانما تقديم ترتيب فقالوا ان « الادلة : أولها : دلالة العقل ، لأن به يميز بين الحسن والقبيح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والاجماع ، وربما يتعجب من هذا الترتيب بعضهم ،فيظن أن الأدلة هى : الكتاب والسنة ، والاجماع ، فقط ، أو يظن أن العقل اذا كان يدل على أمور فهو مؤخر ، وليس كذلك ، لأن الله تعالى لم يخاطب الا أهل العقل ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة وكذلك السنة ، والاجماع ، فهو الأصل فى هذا الباب ، وان كنا نقول : ان الكتاب هو الأصل من حيث أن فيه التنبيه على ما فى العقول ، كماأن فيه الأدلة على الأحكام . . . ومتى عرفنا ، بالعقل ، الها منفردا بالالهية ، وعرفناه حكيما ، نعلم فى كتابه أنه دلالة ، ومتى عرفناه مرسلا للرسول ، وعميزا له ، بالأعلام المعجزة ،من الكاذبين ، علمنا أن قول الرسول حجة . واذا قال صلى الله عليه وسلم : « لا تجتمع أمتى على خطأ[١] وعليكم بالجماعة[٢] » ، علمنا أن الاجماع حجة . . .

فاعتماد العقل هنا ، وتقديمه ، ليس غضا من شأن « النقل » بل مؤازرة ومؤاخاة وتأييدا ، فهم لم يقولوا بانفراد العقل بالمعرفة ، وانما اعتمدوه دليلا لمعرفة الأصول الشرعية ، فعندهم - كما يقول الماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) - : أن « السبب المؤدى الى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئان : أحدهما علم الحس ، وهو العقل ، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول ، اذ ليس تعرف الأصول الا بحجج العقول . . فالعقل : أم الأصول . . وثانيهما معرفة لسان العرب ، وهو معتبر فى حجج السمع خاصة . . »

هكذا . . وعلى هذا النحو . . وفى مواجهة كل « الثنائيات » . . صاغ التيار العقلانى القسمة العقلانية لحضارتنا العربية الاسلامية ، فوازنوا - « بالوسطية » - وجمعوا وألفوا بين ما يمكن جمعه وتأليفه من المتقابلات والأقطاب ، التى عُدّت فى الحضارات الأخرى نقائض لا يمكن تعايشها ، فضلا عن الجمع والتأليف بينها . . . ثم هم قد كانوا فلاسفة ودعاة الى الدين . . وعلماء ورجال دولة ، . وفرسان العلوم النظرية والعلمية معا ، يبحثون فى الالهيات ويجرون التجارب على النباتات والحيوانات . . فلقد كان فيهم من « أشراف أهل الحكمة » مشتغلون بعلم الحيوان ، يجرون فيه التجارب والملاحظات والاستقراءات ، ويقولون فى شرفه وقدره : « ان هذا العلم يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجللة ، والكهول العلية ، وحتى ليختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل ، وقراءة القرآن ، وطول الانتصاب فى الصلاة ، وحتى ليزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد ، وفوق كل بر واجتهاد . . ؟ ! » - على حد قول الجاحظ فى (كتاب الحيوان) . . .

---

١ - لفظ الحديث لابن ماجة : « ان أمتى لا تجتمع على ضلالة » .

٢ - رواه - بألفاظ متفاوتة ، مع اتحاد المعنى - : البخارى ومسلم والترمذي والنسائى وابن ماجة .

قداسة النص

كان الامام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م) يمثل في بغداد العباسية النقيض الصريح لفكرية التيار العقلاني الاسلامي .. فعداؤه المفهوم للفلسفة اليونانية قاده الى معاداة علم الكلام الاسلامي وتجريح جميع المتكلمين .. ونفوره من العقلانية وقف به عند النصوص وحدها .. بل عند ظواهر النصوص .. ولم يكن الامام أحمد بداهة فيلسوفا ولا متكلما .. بل لم يكن في الحقيقة فقيها، وإنما كان محدثا، جمع واحدا من أكبر مسانيد الحديث النبوي الشريف .. وصاغ أصول «المنهج النصوصي»، المعتمد على الأخبار وحدها، والرافض لما عدا النصوص من أدوات التفكير والبحث والبرهان ..

فأركان منهجه الخمسة - كما يحددها الامام السلفي ابن القيم (٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) تجعل محوره الأوحد - تقريبا - هو النصوص .. «فالأصل الأول: النصوص ... والأصل الثاني ما أفتى به الصحابة «- وهي نصوص - ...» والأصل الثالث: اذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم .. «نصا من النصوص -» والأصل الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف» وهي نصوص يقدمها - مع ضعفها - على غيرها من سبل الاستدلال - .. «والأصل الخامس: القياس للضرورة، اذا لم يكن عنده في المسألة نص، ولا قول الصحابة، أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو ضعيف ..»!

لقد كان معاديا «للرأي» وأصحابه، ينهى عن سؤال أصحاب الرأي، ويقول: ان «ضعيف الحديث أقوى من الرأي»!.

بل لقد صاغ الامام أحمد بنفسه منهجه النصوصي هذا .. صاغه شعرا فقال:

دين النبي محمد آثار
نعم المطية للفتى الأخبار
لا تخدعنّ عن الحديث وأهله
فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى
والشمس طالعة لها أنوار

فالدين عنده «نصوص» .. بل و«ظواهر هذه النصوص» .. فقط!..

وهذه» النصوص - وحدها - هي «العلم» أيضا ... ووفق الصياغة الشعرية لواحد من أعلام هذا التيار كما وردت في كتاب «اعلام الموقعين»، فإن:

«العلم: قال الله قال رسوله
قال الصحابة ليس خُلْف فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة
بين النصوص وبين رأي سفيه
كلا ولا نصب الخلاف جهالة
بين الرسول وبين راي فقيه
كلا ولا رد النصوص تعمدا
حذرا من التجسيم والتشبيه
حاشا النصوص من الذى رُميت به
من فرقة التعطيل والتمويه!

فالنصوص وحدها هي العلم، ولا عبرة بالرأي، ولا مدخل له فيها حتى لو أدت ظواهرها الى «التجسيم والتشبيه» في حق الذات الالهية؟!..

وتبعا لهذا «المنهج النصوصي»، رفض الامام أحمد «الرأي» و«القياس» - الا عند انعدام النصوص ولو الضعيفة، وبشروط تجعله معدوما - ورفض «التأويل» و«الذوق» و«العقل» و«السببية» .. وكل ما عدا ظواهر النصوص من أدوات الاستدلال ..

ولقد كان هذا المنهج النصوصي يستقطب قطاعا من «العامة»، بحكم القصور الفكري الذي يقف بهم عند المحسوس، وظواهر النصوص .. فلما اقترف نفر من المعتزلة - وليس تيار المعتزلة كما يظن كثيرون - خطيئة استخدام سلطة الدولة في الضغط على الامام أحمد كي يقول بقولهم في «خلق القرآن»، وأبى الرجل ذلك، وتحمل في بسالة المجاهدين ما نزل به من الاضطهاد في عهود الخلفاء الثلاثة الذين كانوا على مذهب الاعتزال: المأمون - والمعتصم .. والواثق ... اكتسب الرجل تجلة واعظاما لدى قطاعات عريضة من جمهور العامة وكثير من المفكرين والعلماء ... فأضفت محنته على مذهبه الفكري ما لم يكن يجتذبه ولا يكتسبه بغير هذه المحنة وهذا الاضطهاد.

محنة العقلانيين

حدث الانقلاب التركى المملوكى . . وتعسكرت الدولة . . وكان هؤلاء الترك المماليك عسكرا جفاة ضيقى الأفق ، لا دربة لهم ولا قدرة على استيعاب العقلانية الاسلامية . . اذ كانت مداركهم وأحلامهم أدنى من مستوى العامة فى هذا الميدان . . ثم هم كانوا بحاجة الى تأييد العامة فيما اعتزموا من تغيرات ، وما دخلوا فيه من صراعات مع التيار العقلانى ، الذى كانت له السيادة والهيمنة حتى ما قبل عهد المتوكل العباسى . . . لكل ذلك ، وجدنا هؤلاء ـ الترك المماليك ينتزعون أئمة التيار العقلانى من مواقع القيادة والتأثير ، الفكرية والسياسية ، ويزجون بالكثيرين منهم فى السجون ، أو ينفونهم من الأرض . . ويأتون بمضطهدى الأمس ، أقطاب التيار النصوصى ، يملأون بهم هذه المراكز للتوجيه والتأثير والتنفيذ ، لقد كان انقلابا فكريا كاملا . . غدت فيه مقولات التيار العقلانى فكرا محرما ومجرما يلاحقه الاضطهاد . . وغدا فيه أئمة هذه العقلانية موضع التنديد ، وأسرى للملاحقة والسجن والاضطهاد .

وها هو شاعر هذا الانقلاب ـ على بن الجهم (٢٤٩ هـ ، ٨٦٣ م) ـ المقرب من الخليفة المتوكل يسب المعتزلة ويتحدث عن انتصار حزب المتوكل على « الواثقية » ـ نسبة الى الخليفة المعتزلي « الواثق » . . الذى حدث الانقلاب على فكرية عهده وتوجهاته . . ها هو على بن الجهم يصور لنا هذا الذى حدث فيقول :

تضافرت الروافض والنصارى
وأهل الاعتزال على هجائى
وعابون وما ذنبى اليهم
سوى علمى بأولاد الزناء ؟ !
انا المتوكلى هوى ورأيا
وما « بالواثقية » من خفاء

فهو انقلاب واضح وجاد ضد التيار العقلانى . . أخرج « المحدثين » ، أصحاب بضاعة « الاسناد » من السجون ، ليحل محلهم فيها القائلون بالعدل والتوحيد .

ونحن لن نتحدث عن تصاعد الاضطهاد الذى أصاب أئمة التيار العقلانى . . فقط نود ان نشير الى ان اضطهاد فكرهم قد بلغ فى عهد الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٣هـ ، ٩٩١ ـ ١٠٣١ م) الى الحد الذى اجتمع فيه أئمة التيار النصوصى ، بتشجيع من الخليفة ، فأصدروا مرسوما سمى « الاعتقاد القادرى » ، حرموا فيه فكر التيار العقلانى ، وحرموا فيه فكرية العدل والتوحيد ، على نحو يشبه المراسيم الكنسية الغربية عن روح الاسلام ، والنادرة الحدوث فى تاريخ المسلمين . . وفى هذا الاعتقاد صدرت أوامر الخليفة :

١ ـ بمنع تدريس علم الكلام والمناظرة فى مسائله ، وخاصة الاعتزال ومقالات أهله ، وأنذر المخالفين بالعقوبة والنكال ، نفيا وسجنا وقتلا ! . .

٢ ـ وبلعن المعتزلة على منابر المساجد ، حتى يصير ذلك سنة من سنن الاسلام !

٣ ـ وبتحريم قول المعتزلة في « التوحيد » وفي « خلق القرآن » . .

٤ ـ كما يحرم قول المعتزلة فى « العدل » . . ويتحدث عن أن الخلق لاقدرة لهم ، بل « كلهم عاجزون » !

٥ ـ ويحرم قول المعتزلة فى « المنزلة بين المنزلتين » . . ويقرر مذهب « المرجئة » فى هذا الموضوع . .

ولقد صدر هذا « المرسوم الفكرى » باعتباره « اعتقاد المسلمين » ، ومن خالفه فقد فسق وكفر » ؟ ! . .

نعم . . حدث هذا ، رغم امتياز الاسلام وحضارته بالتأكيد على أن الاجتهاد فرض كفاية ، أى فريضة اجتماعية ، أكثر أهمية وآكد فى التكليف من فروض العين ، يقع اثم التخلف عنها على الأمة جمعاء ، ورغم اتفاق أئمة الاجتهاد في الأمة على مشروعية « التعددية » الفكرية عندما قرروا ان اجتهاد المجتهد غير ملزم للمجتهدين الآخرين ! . .

وعلى الذين تحيرهم معرفة الأسباب والبدايات والملابسات التى أصابت ابداعنا الحضارى فى الصميم بماعرف بـ « اغلاق باب الاجتهاد » . .

عليهم أن يمسكوا بخيوط هذا التحول ، الذى أحدثه هذا الانقلاب ، ففيه تكمن البداية ، ومنه بدأ التراجع والجمود والتخلف والانكسار ! □

الطريق إلى يافا

(مقاطع مختارة)

شعر : يوسف الخطيب



آه يا أيتها الأسلاب من يافا
أقام الليل أزمانا ، وأربى
والعيون ارتسمت وحلا
- من الرّعي الى أذن -
وأشواكا . . وعشبا . .
تبت الرعيان ملء الارض
تب الكلأ المسموم
تب الوشم . . تبا
ثم حانت لفتة أعلى
فكان الله
أضواءً على الكون ، وشهبا
أترعي يا أنْهُرَ الضوء ، روابينا
وهزي باطن التربة ، شعبا
علمينا مرة
كيف نشد الرأس
تنفك من المِذوَد . . نأبى ! !

***

هل يشت البال
عن قرميدك الوردي يا يافا
وفي أية دنيا ؟ ؟
ان نغب عنك . . فكي نلقاك . .
حتى في رؤى الجنة
ايذانا . . ورؤيا
نحن ، يا يافا ، ارتقابُ الصبح
لا اجفاننا تسهو
ولا نلمح شيا . .
وقذفنا في يد الدرب الأدِلاءَ
فلم ترجع لنا الآفاق أيّا . .
أم ترانا
شبعت أقدامنا العرجاء . .
عن قنديلك الراصد نأيا ؟ ؟
لم نزل ، يا أم . .
نستهدي لك الابواب
أدمتنا بيوت الناس سعيا
كيف نأتيك . . ومن أين ؟

دعي نجواك تهبط
في دجى الغربة وحيا . . .

***

يوم غاب الضوء عن يافا
اختبأنا الليل
وانسدت على السلب المغارة
كل ذي سوط على مدخلها المرجوم
نخاس . .
وها نحن التجارة
واغتربنا في المدى الأسفل
نفثات العمى
تلطأ في درع المحاره
نحن من أغمض في الصبح ،
من استمهل ،
من نام على الدرب نهاره
نحن أبحرنا على القطران
أوغلنا . .
انتجعنا الليل . .
خيمنا قراره . . . .
وارتخى مجدافنا في القعر
وانهدت صوارينا
على حلم المناره
قبلنا . .
لم تلق حرا نقيت كفاه
(كي يقبع في السجن) الحجارة . . .
قبلنا . .
لم تلق سجانا خليَّ البال
قد أعلى من الوهم جداره
« نحن يا يافا ، ارتقابُ الصبح
« لا أجفاننا تسهو
« ولا نلمح شيا . .
« كيف نأتيك . . ومن أين ؟
« دعي نجواك تهبط
« في دجى الغربة وحيا . .

ثم حانت لفتة أعلى
فكان الله في الظلمة
مشكاة البشاره
دربنا من كوة الوطواط
يمتد على التاريخ . .
من باب المغارة . .
دربنا . .
أضيق من قلع
خلال الصخرِ ، والزلزال . .
دربُ الأقوياء . .
دربنا . .
نهر اقاع
فائرُ اللجة بالرغوة
درب الشهداء
دربنا
تجربةُ الشيطان
فوق الجبل المنسي
درب الأنبياء . . . . .





طه حسين وثقافة العصر

بقلم : الدكتور أحمد عُلَبي

لانجد حرجاً في القول بأن طه حسين في ذاته ظاهرة ثقافية فريدة ، فهذا الرجل النابه خرج الى الدنيا وهو لايراها ، إذ كان عمره بضع سنوات عندما أغلقت النوافذ التي يطلّ منها على الكون وسحره ، عرف الحياة بأذنيه ولم يدركها بعينيه ، وحصّل العلم والثقافة بسمعه وبصيرته ولم يطالعها ببصره الذي أسدلت عليه ستائر الظلام الى الأبد ، فلم يتوسل القلم سبيلاً الى تدوين ذلك التراث الكتابي المنوع الحافل الذي تركه ومضى مرتحلاً عن دنيانا ، وإنما أملاه على أناس عمدوا الى تسجيله ، فأيّ موهبة جيّاشة كانت تحتبس في إهابه النحيل ؟!

أحسب أن الكلام على طه حسين مثقفاً أو رجل ثقافة - كما يقول الفرنسيون - يتشعّب بنا ويستفيض ، لأن صاحبنا الجليل بلغ من العمر عتياً كما نقول ، إذ كان لدى وفاته في ١٩٧٣ ، عام العبور ، قد قارب الخامسة والثمانين (١٨٨٩ -١٩٧٣) . وليس يعنينا العمر البيولوجي لهذا الرائد في ثقافتنا العربية النهضوية الحديثة ، فكم من أديب خفت صوته وانقضى تغريده قبل ربع قرن من انقضاء أجله ، ولكن طه ظل ذلك الفارس الذي يمتطي صهوة الكلمة ، ويرمي بالصوت عالياً صادحاً مسؤولاً ، ولم يترجل الا مكرهاً ، وذلك في سنواته الأخيرة ، عندما ألحّت عليه وطأة المرض . وتشعّب الحديث عن طه حسين - رجل ثقافة - يأتي من أنه غطى الساحة الفكرية حوالى نصف قرن ، كان خلالها مالىء الدنيا المصرية والعربية ، وشاغل جمهور الأدب ، والصوت الجَهْوَريّ المثير الذي لا يعلوه آخر في جرأته وتقحّمه وطليعيّته ، وذلك بالتحديد في المرحلة المترامية بين ثورتين ، عنينا ثورة ١٩١٩ التي تزعمها الوفد عبر سعد زغلول وثورة يوليو ١٩٥٢ ، التي وقف على رأسها جمال عبدالناصر ممثلاً للضباط الأحرار ، بين سعد وجمال كان طه حسين فارس الحلبة يصول ويجول ويقرع الأذهان بآرائه وكتبه ومحاضراته ، ويستثيرها بمواقفه السياسية والاجتماعية وإصلاحاته التربوية ، فالثقافة ليست ترفاً نخبويا مجانياً ، كما أنها ليست طلاء خارجيا زاهياً خادعاً ، والمثقف الحقيقي ليس من يلوذ هارباً من

العاصفة والمسؤولية ، فالثقافة بحد ذاتها التزام ، وطه في رأينا كان نموذجاً للمثقف العربي الذي يمتشق سلاح الموقف يتحصن به ويقارع ، لأن الثقافة في نهاية المطاف موقع في الصراع الاجتماعي وموقف .

واذا كان الكثيرون من كتابنا العرب يختلقون هذه الشنشنة بين الأدب والسياسة ، طه حسين كان المثال المتقدم على أن التعارض بينهما خط أحمر وهميّ ، لقد كتب طه ، بالاضافة الى تراثه الأدبي والفكري والتربوي في السياسة ، وتمرّس بها وزيراً للتعليم ، يقتنص الفرصة السلطوية لتمرير مطامحه التربوية في مجانية التعليم ونشره غذاء لملايين الفقراء ، كان رجل الثقافة طه حسين متمسكاً بالسياسة ، خائضاً في شجونها ، فلم يصرفه العلم والأكاديمية وطلب المعرفة عن أن يكون له موقف وطني وموقع سياسي ، وكان منخرطاً لزمن في حزب الأحرار الدستوريين عقب عودته من فرنسا ، حتى اذا ما آنس لديهم فتوراً وطراوة حيال القضايا الوطنية والاجتماعية انتقل عام ١٩٣٣ الى صفوف حزب الوفد ، في مرحلة كان الوفد خلالها يعاني اضطهاداً قاسياً وإرهابا يكيله له إسماعيل صدقي ، وظل طه على وفديته حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ . وهذه النقلة في الموقع السياسي قام بها طه حسين طلباً للاتساق بين موقفه الفكري وموقفه الاجتماعي ، فللأحرار الدستوريين أرستقراطية فكرية عقلانية مستنيرة في تاريخ مصر ، وقد نادوا بضراوة بالحرية الفكرية ، بيد أنهم كانوا أعداء طبقيين للحرية الاجتماعية ، وأدرك طه أن الحريتين لاتنفصمان ، فانحاز الى حزب الجماهير في ذلك الوقت.والسياسة لدى طه جزء من تركيبته كمثقف طليعي كان دائما يحرص على إعلاء القيم ، قيم الأدب والفن والحقيقة والنزاهة الفكرية والنفس المبدعة ، إن الاهتمامات التي شغلته ، على تنوعها ، كانت تتلاقى في بؤرة توحد بينها ، إذ ان هذا المثقف الكبير كان يشع على شتى الموضوعات ، برغم تباينها ، من خلال شخصية ثقافية متجانسة متكاملة لا اختلاط فيها ولا تشتت .

عقل « متأورب »

إن كلامنا المقتضب ههنا على طه رجل ثقافة سيتوسل نَقَدات طائر وليس ضَرَبات إزميل ، ولا يداخلنا ريب أن الدور الثقافي المهم الذي نهض به طه ، وتفوق فيه على الكثيرين من أبناء جيله اللامعين من أمثال أحمد أمين وعباس محمود العقاد ، وتوفيق الحكيم ، وغيرهم ، يعود في حيز كبير منه الى ما أحببنا أن نُطلق عليه في كتابنا « طه حسين ، رجل وفكر وعصر » (دار الآداب ، بيروت ١٩٨٥) « تغربية » طه ، أي الرحيل بفكره شطر الغرب ، يقبس منه الآراء الجديدة والمنهج وثمرات الحضارة والأسلوب العلمي والفكر العلماني . ليس طه حسين أول من « اغترب » بعقله أو « غرب » ، فلقد سبقه على الدرب آخرون طرقوا أبواب هذه الحضارة الغربية ، ليتعلّموا ويتشبّعوا بإنجازات الطبقة البورجوازية الأوروبية ، والبورجوازية الفرنسية منها بشكل أخص ، مفجرة الثورة الفرنسية الكبرى ، وذلك في ميادين العلوم والصناعات والفنون . إن بونابرت جاء مصر غازياً ، بيد أنه اصطحب معه بعثة علمية لافتة من العلماء والمستشرقين والتقنيين ، ولا يملك المرء إلا أن يدهشه عددها ، مائة واثنان وعشرون ، وإلاأن يعجب بالسِفْرْ النفيس الذي أطلعته وهو « وصف مصر » وفعل السحر فعله ، فبعد ربع قرن ، أي في عام ١٨٢٦ على وجه التحديد ، أرسل محمد علي الى فرنسا بعثته الأهم التي كانت تتكون من أربعين طالباً للعلم ، وعلى رأسهم إمام للبعثة قُدِّر له أن يكون بعدها أبرز رجالاتها وأبعدهم أثراً وصيتاً وهو رفاعة رافع الطهْطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، واتبهوا الى تاريخ هذه البعثة التي وردت الغرب ، إنه عام ١٨٢٦ ، في حين أن اليابان التفتت الى العلم في الغرب لتفيد منه عام ١٨٧١ فأرسلت بعثه ايواكارا التي غادرت في عهد الامبراطور فيجي الى أوروبا والولايات المتحدة ، لتمضي عامين ، ونجحت اليابان وأخفقنا نحن ولهذا كلام يطول في غير هذا الموضع ، وحبذا لو يخوض فيه المهتمون .

وامتاز طه حسين على معاصريه وسابقيه في أن موقفه من الغرب والثقافة الغربية كان جازماً باترا قاطعا ، لا جَمْجمة فيه ولا لجلجة ، ومن غير تحفّظ أو تحوّط ، رفاعة وغيره من المفكرين العرب من أمثال أحمد فارس الشدياق وخير الدين التونُسي وجورجي زيدان انتهَوْا ، بِنِسَب متفاوتة ، الى عملية توفيقية

بين الاسلام والوحي والتراث والمعتقدات والتقاليد من جهة ، وبين الغرب وعلومه وعقلانيته وإيمانه المطلق بحرية البحث والمعتقد وعلمانيته من جهة أخرى ، كانوا جميعاً يسترشدون بحديث شهير للنبي « صلعم » : « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أهل الشِرْك » وقد أخذوا من الغرب بعض حكمته ، لأنهم كانوا في خوف على الهوية ، في حين أن الأزهري طه فتنته حكمة الغرب ، ومضى مصعداً الى ينابيعها المتمثلة في اليونانية واللاتينية،رأى طه أن حكمة الغرب هذه لاتقسَّمُ ولا تُجتزأ ، فإما أن تنهلها قاطبة وإما أن تدعها ، فصمم على أن يكون طالبا لها على الكمال والتمام ، وبلغ الأمر بطه أن امتد طموحه ، ما دمنا في رأيه ، نفكر شأن الأوروبيين ونتعلم ونقرأ ونعيش ونتزيا ونخطط حياتنا ونشاطنا الاقتصادي والسياسي ، الى أن يرى في كلمة الخديوي إسماعيل ، في أن مصر جزء من أوروبا ، حقيقة بدهية حاول طه أن ينظر لها في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » الذي صدر عام ١٩٧٨ في زعم طه أن مصر كانت دائماً متوسطيّة العقل والثقافة ، وأن هذا الأبيض المتوسط شدها على الدوام الى أوروبا ، ولولا الاحتلال العثماني لمصر الذي قطعها لقرون ثلاثة عن ذاتها الأوروبية لكانت لها مشاركة في النهضة العصرية التي عرفتها أوروبا ، ولقد بلغ الشطط بطه الى أن يقول في كتابه المتقدم الذكر : « نحن إذن مدفوعون الى الحياة الحديثة دفعاً عنيفاً ، تدفعنا اليها عقولنا وطبائعنا وأمزجتنا التي لاتختلف في جوهرها قليلا ولا كثيراً منذ العهود القديمة جداً عن عقول الأوروبيين وطبائعهم وأمزجتهم » .

وظلت « المتوسطية » فكرة راسخة في تكوين طه حسين الثقافي ، برغم كر الأحداث وانقلاب الظروف في مصر بالذات ، حتى أنه ليجاهر بها قُبيل وفاته ، وهذه المتوسطية كانت سلاح الداعين الى القومية المصرية ، وذلك في مقارعتهم التيار الأسلامي العثماني والتيار العروبي معاً .

الوطني المصري

كانت ثقافة طه حسين مشدودة الى مصريته ، متفتحة في نطاقها ، طامحة فوق ضفاف النيل لا تعدوه ، يرى طه أن الحضارة المصرية استمرت مشتعلة الجذوة ، وأن الأمة المصرية الخالدة طبعت كل وافد عليها بطابعها فاتحاً كان أو فلسفة أو ديانة ، واستوعبته ومصرته ، مصر منذ الفراعنة حتى ثورة يوليو ظلت ، في رأي طه هي إياها : تصمد للغزاة وتكافحهم أو تهضمهم وتستولي عليهم ، ولم يشذ العرب المسلمون في ذهنه عن هذه القاعدة ، طموح طه الثقافي منجذب الى الشخصية المصرية التي ينبغي في ميدان التعليم والتربية أن يكون سبيل تكوينها مرتكزا على عناصر ثلاثة : العنصر المصري القديم ، والعنصر العربي الممصر ، والعنصر الأجنبي بمختلف روافده وأزمانه . ولكن مصرية طه لم تقد خطاه الى نبذ العرب وتجاهل دورهم الحضاري المبدع ، والى مواجهة ما هو مصري بما هو عربي ، كما فعل بعض الغلاة من أمثال توفيق الحكيم وحسين فوزي وسلامه موسى ، ولقد كانت جريدة « السياسة » الناطقة باسم الأحرار الدستوريين ، حزب البورجوازية المصرية الكبرى - هي المنبر الاعلامي والايديولوجي الذي حمل أفكار دعاة القومية المصرية ، على أن طه حسين ، برغم اعتداله وتبصره بدور العرب التاريخي ، كان على المستوى السياسي معادياً لفكرة العروبة ، وللوحدة العربية ، مصر هي مصر ، والمصري فرعوني وسيبقى وينبغي أن يبقى ! وهكذا فالمشروع التربوي الذي دعا اليه طه ، والرسالة الثقافية التي ندب نفسه لتأديتها ، كلاهما صب في بوتقة الوطنية المصرية ولم يستشرف على العموم الأفق العربي ، ولكن هذه القوقعة لم تحل ، موضوعيا وتاريخيا ، دون الاشعاع العربي لطه حسين ، ذلك أن مصر لعبت باستمرار دورا قياديا في الوطن العربي . ولهذا فان العُزلة التي حلت بها ، عقب اتفاقيات كمب دافيد ، قد أضعفت مصر كثيراً ، لأنها على المستوى الجغرافي السياسي « الجيوبوليتيكي » فقدت دورها التاريخي العظيم ، إن زعامة عبد الناصر العربية المدهشة منبعثة من وعيه المرهف لهذا الدور الاستراتيجي .

كانت ثقافة طه الأوروبية تتمحور حول الفرنسية ، والقوم الذين فتن بهم هم الفرنسيون النزاعون الى الحرية ، وعاصمة الحضارة في العالم الحديث هي في رأيه باريس بلاريب أو منافسة،وهي تشغل ما شغلته أثينا في العالم القديم ، وهو يتحدث

عن باريس في انجذاب وقدسيّة حديث العاشق الولهان المتيم ، إن عقل طه الأوروبي تشكل في فرنسا خلال سنوات الدراسة الخمس (١٩١٤ - ١٩١٩) ، وكاد صاحب هذا العقل المتأورب المتفرنس أن يغدو منحازاً لكل ما هو فرنسي أدبا وعلما وفلسفة ، فطه ربيب الثقافة الفرنسية ، وظل حتى آخر حياته متشبعاً بدورها الريادي وأصالتها الحضارية .

ولنا أن نعتقد أن تغربية طه حسين التي استقطبتها باريس ، إبان سنوات الطلب ، كان لها خط مصيري في حياته ، إذ تكون عقله وتم خياره الثقافي في فرنسا ، ولهذا نجد طه في حياته يدبج المقالات الوافرة التي لا يحصرها عد في رجالات الأدب الفرنسي وفي كتاب المسرح هناك ، إذ لم يكن طه مجرد « قارىء » لهذا الأدب يتذوقه ويسيغه ويعرضه لمواطنيه ، بل كان أيضا « مشاهدا » له برفقة زوجته سوزان ، وذلك عبر زياراته المتوالية ، وخصوصا في العُطل الصيفية ، لفرنسا وعاصمتها وجبالها وقراها ، وكم كتاب من مؤلفات طه الشهيرة أملاه خلال الصيف هناك ، نظير « مستقبل الثقافة في مصر » و « الأيام » و « الوعد الحق » . وجمعت الصداقة أو المعرفة الوطيدة بين طه وبعض أدباء فرنسا الكبار ، مثل أندريه جيد وبول فاليري وأراغون ، ودفعه احتفاله بالأدب الفرنسي الى نقل بعض روائعه الى العربية ، إذ الترجمة تؤدي دائماً دورا حيويا في التواصل الحضاري ، وهكذا نقل طه الى العربية « أندروماك » لراسين (١٩٣٥) و « زاديج أو القَدَر » لفولتير وأوديب « لجيد (١٩٤٧) ، وعندما أشرف طه على دار الكاتب المصري تدفقت منها الكتب المترجمة تنقل الى العربية آثار موروا وموزياك وميريميه وستندال ودوديه ودو سانت إكسويري . . . وبهذا جسد طه دور الجسر الثقافي بين باريس والقاهرة . وكانت مجلة « الكاتب المصري » التي رأس تحريرها طه حسين مثالا لهذا التواصل مع الثقافة الفرنسية ، ولقد تُرجمت على صفحاتها دراسات رصينة في نظرية الأدب ، كما أن المجلة ، وهذا هو الأهم ، كانت بلا ريب نموذجا أوروبيا ناضجا وحدثاً ثقافيا في تاريخ الصحافة الأدبية عندنا .

العلمي والعلماني

ولئن قادت الرحلة الأوروبية طه حسين ومجايليه الى خيارات غربية ، فان ظروف مجتمعهم حملت جُلهم على أن يطوعوا مقارباتهم الفكرية لضرب من التوفيقية ، بين ماضيهم الذي غدا محافظاً وحاضرهم المتطلع الى الحداثة والعقلانية ، إنهم يبحثون في الاسلام عن نقاط تشابه مع هذه الخيارات وعن مرتكزات لها ، فيغدو الاسلام لدى بعضهم دينا تقدميا ، ويصبح أبو ذر الغفاري أول اشتراكي في الاسلام ! وهذه التوفيقية تزايدت عند معظم مجايلي طه حسين ، في حين أن طه كان نابذاً هذه التوفيقية ، ساعيا الى العلم الخالص من غير مراعاة أو مجاملة أو تقية ، وبقي طه غربيا مثابرا على خياره ، شأن أستاذه أحمد لطفي السيد ، في حين أن معظم الذين خاضوا معه تجديد الفكر العربي عادوا الى شرقيتهم ، وأسقطوا من حسابهم المنهج النقدي والاستشراف العقلاني ، إن طه لم يتخل عن موقفه الغربي ، ولم يرتض التوفيقية منهجا له ، وعندما عمد الى كتابة إسلامياته فلم يكن هذا لديه هروبا من الساحة وراء الماضي يستتر به «لقد التفت الى هذا الماضي عبر مفاهيم غربية ، متوسلا المنهاج الحديث يسعى به الى الحقائق التي يفضي اليها البحث العلمي الحر ، وهكذا كان أيضا شأن العقاد والحكيم وهيكل في إسلامياتهم فقط ، في حين أنهم في الميادين الثقافية الأخرى جنحوا الى التوفيقية أو المصالحة .

. رفض طه حسين التوفيقية ، وقاده هذا الرفض الى أن يكون علمانيا . ولئن كان مسبوقا في علمانيته بأعلام من أمثال فرح أنطون ، يعقوب صروف ، وشبلي شميل ، فلقد ابتعد عن الخوض في المسألة الدينية ، لاعتقاده أن الدين والعلم يختلفان في طبيعتهما وجوهرهما وتوجههما ، وانبرى بالتالي لأمور عملية ، واذا كان علي عبدالرازق طرح في كتابه الشهير « الاسلام وأصول الحكم » (١٩٢٥) مسالة الحكم ، ودعا الى الفصل بين الدين والدولة ، واذا كان عبدالرزاق السنهوري في مجلداته القانونية آلف بين التشريعين الاسلامي والغربي ، فان طه التفت الى القضية التربوية من منظار علماني صرف ، ويتبدى هذا بوضوح في كتابه « مستقبل الثقافة في

مصر » (١٩٣٨) وعبر خطواته التطبيقية في الادارة والسلطة ، وسبق لنا أن أطلقنا على كتاب طه تعبير « مانيفستو العلمانية في مصر » لأن « مستقبل الثقافة في مصر » صياغة منظمة لرسالة التعليم المدني الذي ينبغي أن تنهض به الدولة ، وعليها أن تشرف أيضا على التعليم الأجنبي والتعليم الأزهري ، إن العلمانية التي كانت مدا عاليا في مصر ، إبان العقود الأربعة الأولى من هذا القرن ، سرعان ما انتكست وهوى حملتها الى منهج التقليد ، أو لاذوا بالانزواء ، أو طووا صفحة العلمانية ، شأن منصور فهمي ومحمد حسين هيكل ، لقد عادوا الى توفيقية الشيخ محمد عبده التي سعت الى المصالحة بين الاسلام والحداثة ، هذه التوفيقية التي مازالت طافية على الفكر العربي المعاصر بمختلف اتجاهاته .

الليبرالي الراديكالي

بيد أننا نخدع أنفسنا اذا اعتقدنا أن طه حسين أضحى مثقفا أوروبيا ، أو فرنسيا بالتحديد ، ولم تعد تجمعه جامعة بالثقافة العربية ، طه في صميمه ابن العربية ، منها عب وتكون وجدانه ، وعبر حروفها الجميلة ترك آثاره الباقيات ، ومن تراثها البديع ارتوت روحه وتشبعت ، ولئن رمى طه العمامة في البحر ، وهو يعبره الى أوروبا ، فلقد بقي الرأس ، رأسه ، بين كتفيه لم يبرحها ، أتاتورك نزع عن رؤوس مواطنيه الطربوش وألزمهم البيريه ، فهل صارت رؤوسهم كما أمل وسعي ؟ لم يفد طه على فرنسا أرضا قاحلة لم تتمخض عن شيء من الاثبات الثقافي ، فلقد وردها وهو يحتقب الثقافة الأزهرية ، برغم نقمته عليها ، وكان قد عاصر الجامعة المصرية ، الأوروبية النمط ، منذ نشأتها عام ١٩٠٨ ، وهو أول دكتور يتخرج فيها ، وأنجز لنيل هذا اللقب أطروحته « تجديد ذكرى أبي العلاء » وهكذا فطه عرف الثقافة الغربية ناضجا ، ولم يدركها خالي الوفاض ، لذا كان أخذه لها أخذ إنسان حر قدير متمرس ، وعندما سئل طه عن مذهبه كان في جملة ما قاله : « وأخاصم في نقل المناهج الغربية الحديثة لأفرضها على دراسة الأدب والتاريخ في مصر » بيد أن هذا « النقل » الذي اشتملت كتابات طه على أصداء منه ، لم يكن البتة مجرد صدى بليد فاتر حرفي ثم إن المنهج الفكري يتكيف مع الموضوع المعالج ، زد أنه حظ إنساني مشاع لعقول الناس جميعا ، بحيث إن البلد نفسه الذي أطلقه ليس بوسعه أن يدعي « مُلكيته » .

إن التطلع نحو أوروبا أو الغرب الثقافي لم يكن طه حسين فيه بدْعاً ، فهو أمر تلقائي مابرح مطروحا على مثقفينا اليوم ، وما زال يستثير الجدل حوله في كل حين ، وخصوصا مع صعود الأزمات وتوالي النكبات ، إن المثقفين والسياسيين المصريين الذين عاصرهم طه كانوا في غالبيتهم يتطلعون باعجاب وذهول الى منجزات الحضارة الأوروبية ، ويأملون بتطبيق معالمها ونُظُمها ومؤسساتها على أرض الكنانة ، فمن خبز الفكر الليبرالي البورجوازي الأوروبي اغتذوا ، من تراث أعلامه استلهموا القدوة والطموح وربما كان طه حسين من أوفر أبناء جيله إخلاصا لهذا التراث الليبرالي الوافد ، وحرصا عليه ، وتبنيا له ووفاء ، وذلك أن ليبرالية طه حسين لم تكن شكلية تقليدية ، وإنما صاحبُها مدفوع الى العمل واستنهاض الجماهير لنصرة قضاياها ، فغدت ليبرالية راديكالية .

أليس طه صاحب « المعذبون في الأرض » ؟ وطه حسين أبو مجانية التعليم الوطني ، وأبو الجامعات ، ورائد الثورة التعليمية في مصر ، والليبرالية في وسط شرقي متخلف ، يشوبه الاستبداد والحكم الملكي الفردي ، معلم لا يستهان به بتاتاً . إنها الثورة في مستنقع الشرق . □

■ إنك لا تستطيع أن تمنع طيور الأسى من أن تحلق فوق رأسك ، بيد أنك تستطيع أن تمنعها من أن تعشش فيه .

كونفوشيوس

الاستخدام التآمري للقوة

« نموذج حرب السويس »

بقلم : أمين هويدي

« كان تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ أزمة بكل المعاني التي يتفق عليها دارسو السياسة والاستراتيجية ، واذا كان لكل أزمة نقطة صعود كبرى ، فان هذه النقطة كانت معركة كسر احتكار السلاح ، لأن هذه المعركة تعلقت بموازين القوى في الشرق الأوسط ، أي أنها مست بؤرة الصراع في المنطقة » .

في أي عمليات مشتركة تستخدم فيها الدول قواتها المسلحة ضد أي دولة أو أكثر ، تنشأ قيادات مشتركة للقيام بالتخطيط والتجهيز وادارة العمليات ، ولكن لم يكن الأمر كذلك في العدوان الثلاثي على مصر ، لأمور كثيرة لا داعي للخوض فيها ، كانت الاجراءات التي اتبعت في تلك الأزمة اجراءات غلبت عليها النواحي التآمرية .

كان من الطبيعي أن تغلف السرية تحضيرات الحملة التعسة ، فهذا مبدأ من مبادىء الحرب ، ولكن لم تكن السرية هي العامل الأساسي ، بقدر ما كان الجهد لابعاد أي شبهة عن جماعية العمل المشترك بين أطراف العدوان .

كانت هناك قيادة مشتركة بين القوات البريطانية والفرنسية ، ولكن لم تكن اسرائيل الطرف الثالث في العملية ـ ضمن هذه القيادة ـ بل كان البريطانيون مثلا يخافون من مجرد الاجتماع بالاسرائيليين وقت الاعداد للمؤامرة التي شهدت « سيفر » ـ بالقرب من باريس ـ مسرح نشاطها ، وحينما تم الاتفاق أصر « بن جوريون » رئيس وزراء اسرائيل على أن يوثق هذا الاتفاق في وثيقة كتابية أعدت من صور ثلاث ، احتفظ بها كل طرف في ملفاته « سري للغاية » أو كما يقول « كريستيان بينو » : « مازالت تفصيلات مؤتمر « سيفر » لا يعلمها إلا عدد ضئيل للغاية من الأحياء الى يومنا هذا ، فلم يتم تحرير أي محاضر لهذا الاجتماع ، بل تم تدمير كل النسخ الأصلية للاتفاق المكتوب بعد العدوان الثلاثي بقليل ، ولم تعد هناك سوى صور نادرة للغاية من نص الاتفاقية ، عند بعض الذين أتيح لهم حضوره . » ولقد استمعت بنفسي الى « كيث كلاين » رئيس المعهد البريطاني الملكي ، أو ما يطلق عليه « شاتهام هاوس » في ندوة أقامتها اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأسيوية الافريقية ، أنه استمع الى مدير مكتب بن « جوريون » في ندوة أقامها الاسرائيليون في بئر السبع ، وهو يعترف باحتفاظه باحدى صور الاتفاق ، وسوف يقوم بنشرها في كتاب سيصدره عن حرب السويس .

دوافع مختلفة

وبالرغم من تسرب الأنباء عن المؤامرة بعد العدوان ، إلا أن المشتركين فيها أصروا على الانكار ، الى الحد الذي أصدر فيه « موشيه دايان » كتابه « يوميات معركة سيناء » خلوا من قصة المؤتمر الذي عقد في سيفر ، وحضره مع بن جوريون وشمعون بيريز ، وان اعترف فيه بالتعاون مرات ومرات مع الدولتين الأخريين ، بل تجد أن روبرتس هنريكس في كتابه « ١٠٠ ساعة الى السويس » ، والعميد الامريكي « مارشال » في كتابه « انتصار سيناء » قد أغفلا ذكر أي شيء عن المؤامرة ، إلا أن بعض الكتاب الليبراليين بدأوا يكشفون عن المؤامرة في كتب متتابعة ، فقد أشار اليها الأخوان برومبرجر في كتابهما « أسرار الحملة على مصر » .

وأشار الى أدوار الدول في التآمر المعلّق السياسي ج . ر . ثورنو في كتابه « أسرار الدولة » الذي أصدرته مكتبة بلون في باريس ، كما أشار اليها الدكتور ميخائيل باروزهار في كتابه « جسر على البحر المتوسط » الذي أعده أصلا كبحث لنيل درجة الدكتوراة في العلوم السياسية ، وقد أكد الباحث بأن مسألة الجزأين هي التي ألفت بفرنسا في أحضان اسرائيل ، وان بريطانيا عرفت من فرنسا في منتصف ١٩٥٦ ان اسرائيل تستعد للهجوم على مصر ، وان الحلف الفرنسي - الاسرائيلي قد مر بمرحلة مباحثات استغرقت شهري أغسطس وسبتمبر ، وان الاتفاق وقع في ١٠ اكتوبر ١٩٥٦ ، وينص هذا الاتفاق على أن يقوم الفرنسيون والاسرائيليون بعمل مشترك ضد مصر ، وانه في يوم ١٦ اكتوبر ١٩٥٦أخطر بن جوريون بأنه يستطيع الاعتماد على البريطانيين ، فان الفرنسيين قد نجحوا في اكمال اضلاع المثلث .

كانت اتفاقية كسر احتكار السلاح حافزا لاسرائيل للتحرك المحموم ، لاستعادة التوازن غير المستقر ، ولم يكن أمامها الا فرنسا ، وفي نفس الوقت كانت رئاسة أركان حرب شاحال لا تكف عن تقديم اقتراحاتها لبن جوريون ، للتصديق لها على القيام بعمليات تعرضية للاستيلاء على قطاع غزة ، بحجة اتخاذه قاعدة للعمل الفدائي ، والتحضير لاحتلال شرم الشيخ ، لكسر حظر مرور السفن الاسرائيلية في خليج العقبة ، ولكن كان من رأي بن جوريون عدم التسرع والانتظار للظروف الأفضل .

تفاصيل المؤامرة

وبدأت عمليات نقل السلاح من فرنسا في ابريل ١٩٥٦ ، محدودة في أول الأمر ، فتم نقل بعض طائرات المستير لتتصدى لطائرات الميج ، كما بدىء في نقل بعض الدبابات AMX ، أما بريطانيا فقد أمدت اسرائيل ببعض طائرات الميتور المقاتلة الليلية ، وبعض دبابات الشيرمان ، وقد تسبب عن نقل السلاح الفرنسي أزمة وزارية داخل وزارة جيموليه بين وزيري الخارجية والدفاع ، اذ كان من رأي كريستيان بينو ايقاف عملية الأمداد في انتظار حل سياسي لمشاكل المنطقة ، إلا أن رئيس الوزراء انضم الى مورسين بورج مانوري وزير الدفاع ، مؤيدا استمرار عملية الأمداد ، وكانت عملية نقل السلاح هذه السبب في توطيد الاتصالات بين الجانبين الاسرائيلي والفرنسي ، إذ كان موشيه دايان يقوم بزيارات متعددة الى باريس ، هو وشمعون بيريز ، للتغلب على بعض الصعاب أو للاشراف على اتمام عقود جديدة ، وحينما أعلنت مصر عن تأميم القناة ، تقدم موشيه دايان يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٦ - أي في اليوم التالي للتأميم - باقتراح الى بن جوريون للقيام باحدى العمليات الثلاث الآتية : احتلال سيناء ، والسيطرة على القناة ، أو احتلال شرم الشيخ ، أو الاستيلاء على قطاع غزة ، كما ورد في مذكرات دايان عن تاريخ حياته .

وفي نفس الوقت كلف « انتوني ايدن » - رئيس وزراء بريطانيا - رئاسة هيئة أركان الحرب المشتركة بدراسة امكانية القيام بحملة عسكرية ضد مصر ، وفعلا تم وضع الهيكل العام للخطة (٧٠٠) التي كانت تقضي باحتلال الاسكندرية ، ثم التقدم الى القاهرة لاحتلالها ، لاسقاط نظام عبدالناصر ، ولم يكن لدى بريطانيا قوات متاحة تحت يدها لاتمام العملية بمفردها ، الا بعد اجراء تعبئة عامة ، الأمر الذي يتناقض مع الرغبة في اتمام عملية الغزو الخاطفة ، الا ان ضغط كل من اليمين واليسار في فرنسا على حكومة جي موليه للقيام بعمل عسكري ضد مصر ، دفع رئيس الوزراء بالقيام باتصالات مع زميله البريطاني ، أدت الى الاتفاق على القيام بعملية مشتركة ضد مصر ، واتفق على تسمية العملية بالاسم الكودي « هاميلكار » ، كما تم الاتفاق على تعيين قيادة مشتركة لتنفيذ العملية قائدها الجنرال « تشارلس كيتلي » ، كما عين الجنرال

« هيوستوكويل » قائدا للقوات البرية المشتركة ، وكان نواب القادة من الفرنسيين ، وكان أول عمل يقوم به الجنرال ستوكويل هو تغيير الاسم الكودي من هاميلكار الى موسكتيرا ، ولعلنا لاحظنا أن الاتصالات حتى الآن كانت ثنائية بين لندن وباريس ، وان قاعدة الغزو أو رأس الكوبري سوف يكون ميناء الاسكندرية ، لقربها من قبرص ومالطة ـ القاعدتين البريطانيتين ـ ولقربها من القوات البريطانية الموجودة في ليبيا .

وبدأت اسرائيل تدخل في العملية من الباب الخلفي نتيجة للأصوات التي بدأت ترتفع في وزارة الدفاع الفرنسية ، من ضرورة اشراك اسرائيل ، فوصلت برقية عاجلة جدا يوم ١/ ٩/ ١٩٥٦ من الملحق العسكري الاسرائيلي في باريس ، موجهة الى دايان ، يخطره فيها بالنوايا البريطانية الفرنسية ، ويضيف اليها أن الادميرال « بارجو » قائد الاسطول الفرنسي يرى وجوب دعوة اسرائيل للاشتراك في العملية ، ووافق بن جوريون على التعاون الفوري من ناحية تبادل المعلومات ، اما اذا كان التعاون يعني اشراك القوات الاسرائيلية ، فان الأمر يحتاج الى قيام دايان رئيس أركان الحرب بزيارة باريس للاتفاق على التفاصيل ، وبعد عديد من الاتصالات سافر وفد اسرائيلي ، مكونا من جولدا مائير وزيرة الخارجية ، وموشيه كارمل وزير النقل ، وشمعون بيريز مدير وزارة الدفاع ، وموشيه دايان رئيس الأركان ، ليجتمع بالفرنسيين ، اذ أخذت لندن في التردد في الاشتراك في العملية ، الا أنه بعد أن حزم أنتوني ايدن أمره بالتدخل ، بدأ الاتفاق الثلاثي يتكون ، ليؤدي في النهاية الى عقد معاهدة سيفر السرية .

ونترك لكريستيان بي ، يحدثنا عن « محادثة تليفونية مفاجئة تلقيتها بعد ظهر يوم ٢١/ ١٠/ ٥٦ من رئاسة مجلس الوزراء ، طلب مني محدثي أن أذهب وحدي الى فيلا في ضاحية سيفر ، حيث سألتقي بشخصيات اسرائيلية حضرت الى فرنسا في سرية تامة ، وكان اختيار سيفر بسبب قربها لمطار فيلا كوبليه العسكري المحظور على الصحفيين ، فأخذت سيارتي الخاصة ، وبعد أن ضللت الطريق بعض الوقت ، اهتديت الى العنوان المطلوب ، وأدخلني أحد معاوني وزير الدفاع الى حجرة الطعام ، حيث وجدت مجموعة من الأشخاص يحتسون الشوربة ، كان الجالسون بن جوريون وجولدا مائير ودیان وبيريز الى جانب وزير الدفاع الفرنسي ، وقد أدركت أن هناك قرارات خطيرة لا رجعة فيها سوف تتخذ خلال هذا اللقاء ، وبعد قليل لحق بنا جيموليه ، ولم يحضر هذا اللقاء الأول ممثل للحكومة البريطانية ، فأخذ بن جوريون الكلمة فقال : ان اسرائيل قررت الهجوم على مصر ، ونحن دولة صغيرة ، يقع قلبها على مقربة من حدودها ، ولا مجال أمامنا للتراجع ، اذ نحن مهددون بالاختناق ، بسبب الخطر المصري الذي يمنع وصول البترول الينا ، وسوف نصل الى شرم الشيخ على أقل تقدير ، ونطالب بتأمين غطاء جوي ، لأننا نخشى الطيران المصري ، لأنه تحت سيطرة السوفييت ، إلا أننا علمنا بعد ذلك أن هذه المعلومة غير صحيحة .

وتساءل بن جوريون هل أنتم على استعداد للضغط على البريطانيين لمشاركة السلاح الجوي في الدفاع عنا ؟ اننا في حاجة الى اجابة واضحة خلال ٤٨ ساعة » ويستطرد بينو . . . وافق جي موليه على الفور وتحمس وزير الدفاع للفكرة ، أما أنا فقد كنت ضد فكرة الحرب الوقائية ، ولكني وافقت بعد ذلك على مساندة الطيران الفرنسي للجيش الاسرائيلي ، وسافرت صباح اليوم التالي الى لندن ، واجتمعت صباح ٢٢/ ١٠/ ١٩٥٦ بمجلس الوزراء البريطاني بالكامل ، لأروي لهم ما حدث مساء اليوم الماضي ، وكان ايدن على علم بما اتفقنا عليه في اتصال تليفوني تم معه بعد نهاية اجتماعات أمس ، وفاجأني ايدن بالموافقة على تدخل الطيران البريطاني ، وبإنزال قوات بريطانية وفرنسية لاحتلال ضفتي القناة ، لمنع الجيش المصري والاسرائيلي على حد سواء من عبور القناة ، وكان من الواضح أن الوزراء ـ وبخاصة سلوين لويد وزير الخارجية ـ موافقون على هذه الفكرة ، واتفقنا على أن يذهب لويد وباتريك دين سكرتير وزارة الخارجية البريطانية الى سيفر لنقل وجهة النظر البريطانية ، واعترض بن جوريون ـ عند الاجتماع به ـ على الأفكار الجديدة ، الا أنه عاد ووافق عليها .

الاتفاق

ونتيجة لهذه اللقاءات تم توقيع بروتوكول سيفر يوم ٢٤/ ١٠/ ٥٦ من ثلاث صور ، وقد تضمن البنود الآتية :

١ ـ اعلان قرار اسرائيل بشن هجوم واسع النطاق على مصر يوم ٢٩/ ١٠/ ١٩٥٦ ، بهدف الوصول الى منطقة قناة السويس .

٢ - تصدر حكومتا فرنسا وبريطانيا نداء مزدوجا الى الطرفين المتحاربين ، تطلبان من مصر وقف العمليات العسكرية وانسحاب قواتها لمسافة ١٠ أميال ، من غرب القناة ، وقبول امتلاك القوات البريطانية والفرنسية القناة بصفة مؤقتة لتأمين حرية الملاحة .

٣ - اذا رفضت مصر مقترحاتنا نشن يوم ٣١/ ١٠ عمليات عسكرية ضد القوات المصرية .

٤ - بوسع اسرائيل ارسال قوات لاحتلال الجزء الغربي بين خليج العقبة وجزر تيران وصنافير لتأمين حرية الملاحة لسفنها في الخليج .

٥ - تتعهد اسرائيل بعدم الهجوم على الأردن .

٦ - يبقى الاتفاق سريا .

٧ - ضرورة موافقة الحكومات على الاتفاق .

وفي نفس اليوم وقع وزير الدفاع الفرنسي بورجيس مونوري اتفاقا ثنائيا بين فرنسا واسرائيل ، يقضي بتعهد فرنسا بتأمين حماية المجال الجوي الاسرائيلي ، وذلك بارسال سرب مدعم من طائرات مستير الى اسرائيل ، ما بين ٢٩ - ٥٦/١٠/٣١ ، وارسال سفينتين حربيتين الى الموانىء الاسرائيلية في نفس الفترة .

وتم ادخال تعديلات جوهرية على الخطة موسكيترا الى موسكيترا المعدلة الى موسكيترا المعدلة نهائيا ، واستبدلت فيها الاسكندرية كمنطقة انزال لقوات الغزو بمنطقة بور سعيد - بور فؤاد ، وأصبح الهيكل العام لخطة الغزو كالآتي :

١ - تقوم اسرائيل بتنفيذ خطة « قادش » كمجهود ثانوي بغرض :

أ - خلق حالة صراع مسلح على مشارف القناة ، تكون ذريعة لشن الهجوم .

ب - استدراج أغلب القوات المصرية نحو شرك مدبر يجهز لها في سيناء للقضاء عليها بضرب أجنابها ومؤخرتها .

جـ - تحاول اسرائيل القضاء على القوات المصرية في مواقعها في المنطقة رفح - العريش - جبل لبنى ، وتصل الى مسافة ١٠ أميال شرق القناة ، لتأمين الجناح الأيسر للقوات البريطانية أثناء تقدمها لاحتلال القناة ، وعليها بعد ذلك تطهير قطاع غزة وساحلي العقبة والسويس .

٢ - المجهود الرئيسي تقوم به القوات البريطانية والفرنسية بعد ضربة جوية مركزة ، بالتقدم على الاتجاه العام لقناة السويس بغرض :

أ - الاستيلاء على منطقة قناة السويس .

ب - الاستيلاء على رأس الشاطىء في بور سعيد ، ثم تطور هجومها للاستيلاء على الاسماعيلية ، ثم استغلال النجاح حسب تطور الموقف من الجهة الداخلية المصرية ، إما في اتجاه السويس للاستيلاء عليها ، استكمالا لسيطرتها على منطقة القناة ، أو صوب القاهرة للاستيلاء عليها لحسم الحرب ، ولا داعي للخوض في تفاصيل الخطط اذ يخرجنا ذلك عن الغرض الأساسي للموضوع .

الجانب القريب من التل

في الجانب الآخر من التل كان التآمر لاستخدام القوة يجري على قدم وساق ، وفي الجانب القريب من التل كانت المعركة السياسية على أشدها ، وكان توقع العدوان قائما في الأيام الأولى للتأميم ، ولكن أخذ يتضاءل بطول المدة ، فعلى الرغم من أن الصراع العربي الاسرائيلي في نظر القيادتين السياسية والعسكرية في ذلك الوقت له صفة الاستمرارية لوجود أسبابه إلا أن احتمال قيام اسرائيل بالعدوان بسبب تأميم القناة كان مستبعدا ، ولو انه كان دائما في الحسبان ، كما كان احتمال قيام بريطانيا وفرنسا باستخدام قواتها المسلحة قائما عند تأميم قناة السويس ، ولكن أخذ هذا الاحتمال يتضاءل لدى القيادة السياسية للأسباب الآتية :

١ - فقد كان هناك تصور انه بعد موافقة مجلس الأمن على النقاط الست ، فان المشكلة أصبحت في طريقها للحل السياسي .

٢ - تم تحديد موعد لقاء وزير خارجية مصر ووزير خارجية بريطانيا وفرنسا في جنيف ، بحضور داج همرشولد سكرتير الأمم المتحدة ، وحدد يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ - وهو يوم بداية العدوان - موعدا للقاء .

إلا أن استبعاد العدوان لم يكن واردا لدى القيادة العامة للقوات المسلحة ، فقد ورد في تقريرها للموقف العسكري في شرق البحر المتوسط ، الصادر في سبتمبر ١٩٥٦ ، ترجيحا لقيام فرنسا وبريطانيا بالهجوم على مصر ، وذكر التقرير انه من المحتمل أن يوجه الهجوم ضد منطقة الاسكندرية ، لاستدراج قواتنا المدرعة الى غرب النيل ، وبذلك تهيأ فرصة للعمل من منطقة القناة بنجاح ، وعموما فلن يكون الفاصل الزمني بين العمليتين كبيرا ، ثم



منظر لقناة السويس أثناء العدوان

حاول التقرير اعطاء صورة للعمليات المنتظرة كالآتي :

١ ـ القيام بعمليات جوية بغرض شل قواتنا الجوية ، والتمهيد للعمليات البرية والبحرية .

٢ ـ توجيه القوات البرية من قاعدة ليبيا ومالطة ضد الاسكندرية ، للاستيلاء على الميناء ، واستدراج قواتنا المدرعة الى الغرب .

٣ ـ توجيه القوات المنقولة جوا من قاعدة قبرص ضد منطقة القناة ، لاحتلال مجموعة المطارات بها ، وتعزيز هذه القوات بعناصر مشاة ومدرعة من قبرص للسيطرة على منطقة القناة .

٤ ـ قد يصاحب هذه العمليات قيام اسرائيل بعمليات تعرضية على الجبهة الشرقية ، لاحتلال القواعد المتقدمة بها ، وقد توجه هذه العمليات ضد العريش خاصة ، لعزل قواتنا في قطاع غزة .

٥ ـ استخدام قاعدتي القناة والاسكندرية لحشد قوات اضافية للانطلاق نحو القاهرة في هجوم مزدوج .

ثم عادت القيادة العامة للقوات المسلحة في تعليمات العمليات الحربية التي أصدرتها للدفاع عن جمهورية مصر ، بناء على تقديرها للموقف لتحدد الآتي :

١ ـ من المحتمل أن تقوم الدول الغربية بأعمال عدوانية ضد مصر ، وكرد فعل لتأميم القناة .

٢ ـ من المحتمل أن يتم الهجوم كالآتي :

أ ـ الاستيلاء على منطقة القناة بعمليات جوية بحرية .

ب ـ الاستيلاء على قاعدة الاسكندرية بعمليات جوية بحرية .

جـ ـ الهجوم على القاهرة بعد ذلك .

٣ ـ القيام بعمليات انزال جوي في منطقة الدلتا .

٤ ـ ألا يغفل ما قد تقوم به اسرائيل في مثل هذه الظروف .

٥ ـ توضع النقاط الخاصة التالية موضع الاعتبار :

أ ـ حرمان العدو من الاستيلاء على منطقة القناة بأي ثمن .

ب ـ اتخاذ الترتيبات لمراقبة منطقة بير عديب على البحر الأحمر ، وتعطيل أي عمليات انزال بها ، والقضاء على أي قوات تتقدم منها شمالا أو غربا (لأن الطريق من بير عديب يوصل الى القاهرة في الغرب) .

جـ ـ منع أي قوات معادية نزلت في بور سعيد من التحرك جنوبا الى الاسماعيلية .

د ـ اتخاذ الترتيبات للقضاء على أي قوات معادية تهبط جوا بالمنطقة .

هـ ـ السيطرة على المنشآت المصرية بالمنطقة ، وتأمين المعابر على القناة ، مع وضع خطط النسف الضرورية لتدمير الأغراض المتفق عليها ، على ان يعتبر بدء انزال أي قوات معادية على منطقة القناة أمرا بتنفيذ هذه العمليات .

وفي تلك الفترة الحرجة صدرت التعليمات بتعزيز قوات الحرس الوطني ، وكنت أعمل لفترة قصيرة أركان حرب لهذه القوات ، تحت قيادة السيد كمال الدين حسين ، وأنشئت القوات ، وسلحت في كافة المحافظات ، خصوصا المحافظات المحتملة للعدوان .

خطة الدفاع

وبعد ذلك - وبصفتي أركان حرب قوات الدفاع عن القاهرة - قمت بوضع خطة كاملة للدفاع عن العاصمة شرق النيل ، متخذين الخط المار من مرتفعات طريق السويس الى جبل المقطم ، الى وادي حوف ، خطا أماميا للدفاع من الشرق ، وخط أبورواش خطا أماميا للدفاع من الغرب ، مع الدفاع عن العاصمة من داخل قطاعات محددة ، والقتال من منزل الى منزل ، ومن الطريف انه عند التحقيق معي فيا عرف بقضية ١٥ مايو بعد موت عبدالناصر ، كان المحقق يركز على خريطة عقد المواصلات التي عثروا عليها عند التفتيش والاستيلاء على أوراقي ، وأوضحت له الموقف بأن هذه الخريطة كانت معدة للدفاع عن القاهرة ضد العدوان الخارجي ولم توضع بأي غرض آخر !!

أما عن التوزيع الاستراتيجي للقوات المصرية فقد اتسم بالحكمة في تلك الفترة ، اذ وزعت فرقة معززة على الحدود للدفاع عن منطقة العريش وأبو عوجيله ، أما باقي القوات بما فيها القوات المدرعة فكانت في الخلف بل وغرب القناة ، وكان هذا التوزيع سائدا من أول الثورة ، وقبل الدخول في معركة الاستقلال ضد القوات البريطانية في القناة ، اذ كان تصورنا في قسم الخطط بالعمليات الحربية كالآتي :

١ - يواجه الجيش عدوين في وقت واحد : بريطانيا في منطقة القناة ، واسرائيل على حدودها الشرقية .

٢ - لا يمكن نجاح المفاوضات المقبلة مع بريطانيا الا بمساندة القوات العسكرية ، على أن يعطي الثقل الأكبر لاستخدام القوات الفدائية .

٣ - لا يمكن لمصر خوض أي معركة عسكرية ناجحة سواء كانت دفاعية أو هجومية ضد اسرائيل ، طالما ظلت القوات البريطانية في منطقة القناة تهدد خطوط مواصلاتنا نحو الشرق .

٤ - العدو الرئيسي في الوقت الحالي هو بريطانيا في القناة ، والعدو الثانوي هو اسرائيل .

٥ - لابد من اخلاء سيناء من قواتنا العسكرية ، حتى لا تكون عامل ضغط علينا .

عند بدء العمليات الفدائية ، اذ يمكن للقوات البريطانية منع مرور الامدادات والذخائر من كوبري الفردان ، أو من أي معابر أخرى على القناة ، وتتخذ من ذلك ورقة ضغط في يدها .

وتم سحب أغلب قواتنا بعد موافقة القيادة السياسية على ذلك ، وتمت خطة الاخلاء تحت اشرافي وبسرية كاملة ، ولم يبق في سيناء الا قوات رمزية ، عززت بعد انتهاء المفاوضات المصرية البريطانية بعقد معاهدة ١٩٥٤ ، ولكن احتفظ بالجزء الأكبر من قواتنا في غرب القناة ، وكان من ضمن الترتيبات الجيدة التي ساعدت على تنفيذ الخطة بنجاح كامل الآتي بعد :

١ - كان يسمح بعودة نصف الجنود فقط الذين ينزلون في الاجازات الى وحداتهم بسيناء ، ويبقى النصف الآخر في أماكنه الجديدة غرب القناة .

٢ - بدىء في تخفيف المعدات في ليال متتابعة بالقطارات التي تخترق القاعدة البريطانية ، واتخذت ترتيبات هائلة للتمويه والخداع .

٣ - كان يحجز من كل قطار يصل الى العريش أو رفح عدد محدود من عربات السكة الحديد ، وأحيانا القاطرات ، واحتاج ذلك الى حسابات دقيقة معقدة للتوفيق بين حجم ونوع الأحمال المراد نقلها ، وبين سعة ونوع وسائل النقل المتاحة .

٤ - واتخذت بعض الترتيبات لارسال بعض الوحدات الى سيناء نهارا ، لاظهار نيتنا في تعزيز قواتنا في الشرق ، على أن تعود هذه الوحدات ليلا على فترات .

٥ - استمرار ارسال معدلات المواد التموينية دون نقصان ، حتى لا يشعر البريطانيون بتخفيف القوات .

٦ - منع تداول المكاتبات بخصوص الاخلاء .

وفي الوقت المحدد فوجئت القيادة البريطانية بسيل من القطارات تعبر كوبري الفردان الى مواقعها الجديدة غربي القناة .

الانسحاب تفاديا للفخ

وهناك سؤال يصح أن نطرحه : هل كان هناك عند قيام اسرائيل بالعدوان يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ ، والقائها بقوات المظلات على مدخل ممر متلا من

الشرق احساس قاطع لدى القيادة السياسية المصرية بالتواطؤ الثلاثي ؟ ويمكن للانسان أن يقطع بأن هذا الاحساس لم يكن موجودا ، بدليل صدور الأوامر لقواتنا في مواقعها الدفاعية ، بالقرب من حدودنا الشرقية ، وعلى الأخص في منطقة أبو عوجيله بالدفاع عن مواقعها كالخطة الموضوعة ، ثم دفعت قواتنا ليلة ٢٩/ ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ لملاقاة العدو عند ممر متلا كما دفعت الفرقة الرابعة المدرعة صباح ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ لاتخاذ مواقعها في منطقة بير روض سالم في سيناء ، بل فكر في ليلة ٣٠/ ٣١ اكتوبر في اسقاط قوات المظلات المصرية غرب منطقة الكونتلا ، لقطع أي اتصال بين أي قوات برية معادية وبين قوات المظلات المعادية في الاسماعيلية وقد حملت بنفسي هذه التعليمات الى القيادة الشرقية في منطقة الاسماعيلية ، وكانت قوات المظلات مستعدة في مطاراتها لتنفيذ العملية ، إلا أن تطور الأحداث حال دون اتمامها ، ثم هناك دليل آخر هو اعطاء الأوامر للمدمرة ابراهيم[1] للقيام بعملية ضرب حيفا من البحر ، وقامت المدمرة بمأموريتها التعسة ، وتم أسرها بتعاون أساطيل دول العدوان .

اذن فيمكننا أن نقطع بأنه في يومي ٢٩ ، ٣٠ اكتوبر لم يكن هناك احساس قاطع لدى القيادتين العسكرية والمدنية بوجود تواطؤ ، إلا أنه حينما قامت طائرات الكامبرا البريطانية في الظهور فوق مسرح العمليات ، ثم توجيه الانذار البريطاني الفرنسي ، تولد الشك الذي أصبح يقينا .

وعلى أثر ذلك عقد جمال عبدالناصر اجتماعا في القيادة العامة للقوات المسلحة بكوبري القبة ، حضره بعض أعضاء مجلس الثورة ، وحينما أثير موضوع التواطؤ كان من رأي عبدالناصر سحب قواتنا فورا من سيناء ، لانقاذها من الفخ الذي نصب لها قبل فوات الأوان ، وكان عبدالحكيم عامر يعارض الانسحاب من الناحية العاطفية ، إلا أن عبداللطيف بغدادي يذكر في مذكراته ـ وكان حاضرا داخل غرفة الاجتماع ـ « ان عبد الحكيم عامر كان يرى ان استمرار القتال سيدمر البلاد ، والشعب سيكره النظام ، وهو يفضل ترتيبا على ذلك ايقاف القتال ، وان صلاح سالم أيد ذلك ، مضيفا أن على عبدالناصر اعلان وقف القتال والاستسلام ، على أن يسلم جميع أعضاء مجلس الثورة انفسهم لتريفليان السفير البريطاني .

وسرعان ما اعترف صلاح سالم بخطئه بعد أن هدأت أعصابه الثائرة ، وتطوع لقيادة منطقة السويس ، وقد رأيته بنفسي ، وكنت موجودا في غرفة الخرائط الملحقة بالغرفة التي تم فيها الاجتماع ، وهو يخرج مباشرة من الحجرة حاملا سلاحه ، متوجها الى مقر قيادته الجديدة ، واجتمع عدد من رجال الأحزاب المنحلة ، وقرروا تشكيل وفد لمقابلة ناصر لاقناعه بقبول الانذار ، إلا أن ناصر رفض المقابلة ، وأنذرهم بضربهم بالرصاص لو أصروا على موقفهم ، وفي تلك الظروف الصعبة كانت استراتيجية مصر كالآتي :

١ ـ عدم قبول الانذار ، وكان ذلك أول صدمة لأطراف العدوان .

٢ ـ سحب قواتنا من سيناء ، على أن تقوم قواتنا بالقرب من الحدود بالدفاع الى آخر طلقة ، وآخر رجل ، حتى تتيح الوقت لاتمام عملية انسحاب القوات الرئيسية ، وتمت عملية الانسحاب بأقل خسائر ممكنة .

٣ ـ تجنب اشراك قواتنا الجوية ضد القوات الجوية المعادية .

٤ ـ الدفاع عن مدن القناة ، وعدم اخلاء أي مدينة تحت أي ظرف من الظروف ، وتمركزت القوات المسلحة تحيط بها قوات جيش التحرير والفدائيين على طول القناة وفي المدن ، استعدادا للمقاومة الشعبية ، ووزعت الأسلحة دون قيد على أفراد الشعب .

٥ ـ تعطيل الملاحة في قناة السويس ، فنسفت بعض السفن المحملة بالأسمنت ، والمعدة من قبل ، وغرقت الى القاع ، وأصبحت القناة غير صالحة للملاحة .

وصمدت الجبهة الداخلية والتفت حول قيادتها ، ولم يحدث ما توقعته قوات الغزو ، وأفلتت قواتنا المسلحة من الفخ الذي أعد لها في سيناء ، وتحولت مدن القناة مناطق دفاعية متينة ، وأغلقت القناة ، وأصبحت غير صالحة للاستخدام ، وخرج الشعب العربي من المحيط الى الخليج في مظاهرات عارمة تؤيد مصر وقائدها . □

---

(١) أعادت البحرية الاسرائيلية اصلاح المدمرة ابراهيم وضمتها الى قواتها البحرية تحت اسم المدمرة ايلات التي اغرقناها في مياهنا الاقليمية بعد عدوان ١٩٦٧ ، راجع (أمين هويدي ـ اضواء على نكسة ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف) .

سنان حساني



من الدين إلى السياسة عبر الرواية

بقلم : الدكتور محمد موفاكو

ليس من النادر أن يكون القادة شعراء ، فالثوار الكبار شعراء كبار كما يقال ، لكن سنان حساني ، الرئيس اليوغسلافي ، ليس شاعرا ، بل روائيا كبيرا . فكيف قطع حساني رحلته نحو الرواية ؟ .

بعد وفاة الزعيم تيتو (أيار/ مايو ١٩٨٠) لم يعد هناك كثير مما يثير الصحافة خارج يوغسلافيا ، فما يجري كل سنة من انتخاب رئيس جديد ليس فيه سوى الإشارة إلى رقمه المتسلسل ، كأن يقال الرئيس الأول بعد تيتو ، والرئيس الثاني بعد تيتو ، وهكذا ، لكن في هذه السنة اختلف الوضع مع « الرئيس الثامن بعد تيتو » ، وهو السيد سنان حساني ، لأن الصحافة قد وجدت فيه ما يميزه عن الآخرين ، وقد ركزت الصحافة حينئذ (أيار/ مايو ١٩٨٦) على ما هو جديد ومثير في هذا التغيير ، وبالتحديد ركزت على كون السيد حساني أول ألباني يصبح رئيسا ليوغسلافيا ، وثالث ألباني يصل الى الحكم في البلقان ، بعد كنعان ايفرين في تركيا ، ورامز عليا في ألبانيا .

فوصول سنان حساني الى هذا المنصب كان له مغزاه فعلا ، هذا بالاضافة الى أن حساني كان معروفا منذ ربع قرن كروائي في يوغسلافيا ، ووصوله ـ كروائي ـ الى هذا المنصب يشكل حدثا لم يألفه الناس ، سواء في الداخل أو الخارج . وقد كان وصوله الى هذا المنصب بعد أن نشر ثماني روايات ،

ترجمت الى عدة لغات في يوغسلافيا ، وقد حول بعضها الى أفلام ومسلسلات معروفة ، ولذلك فان اسمه أكثر ارتباطا بشهرته كروائي أصيل من ارتباطه به كرئيس عابر في تاريخ يوغسلافيا ، وانطلاقا من هذا يبدو لنا أنه من حق هذا الروائي ألا يبقى مجهولا لقراء العربية ، خاصة بعد أن صدرت أهم رواية له في اللغة العربية (*) .

في الكتّاب

ولد سنان حساني سنة ١٩٢٢م ، في قرية بوجران التي تقع في جنوب يوغسلافيا ، وبالتحديد في إقليم كوسوفا . عائلته ألبانية مسلمة ، وسط محيط قروي فقير ، وعلى الرغم من أن حساني قد ولد بعد عقد من نهاية الحكم العثماني في هذه المناطق (١٩١٢ - ١٩٢٢) إلا أنه أدرك شيئا من بقايا العهد العثماني الطويل ، من الكتاتيب ومدارس اللغة العربية والقرآن الكريم ، وقد كانت تلك الكتاتيب حتى ذلك الوقت تستوعب أقران سنان حساني ، سواء في قريته أو في مدينة جيلان القريبة منها . وهكذا انضم حساني الى أحد هذه الكتاتيب في سن مبكرة ، حيث بدأ يتعلم مبادىء اللغة العربية وبعض سور القرآن الكريم بالأسلوب القديم الذي كان يعتمد على الاستظهار أكثر من الفهم ، ثم ذهب الى المدرسة الابتدائية ليجمع بين تعلم اللغة العربية في الكتاب وتعلم اللغة الصربية في المدرسة ، وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية بسنواتها الأربع ، وبعد فترة من التردد رجحت كفة اللغة العربية والقرآن الكريم في نفسه فذهب الى مدينة سكوبية القريبة وتابع دراسته في المدرسة الإسلامية « غازي عيسى بك » ، التي افتتحت أبوابها في سنة ١٩٣٦ .

كانت هذه المدرسة فريدة من نوعها ، تجمع بموادها بين الطابع العربي الإسلامي وبين بقية المواد العلمية التي كانت تدرس حينئذ في المدارس الرسمية الأخرى . كان الطلاب في هذه المدرسة يتعلمون اللغة العربية بنحوها وصرفها وقواعدها الأخرى بالإضافة الى التجويد والحديث والفقه والعقائد الخ . وقد وجدنا في وثائق هذه المدرسة ما يفيد أن الطالب سنان حسانوفيتش (كما كان يسمى حينئذ) قد نجح - مثلا - بتقدير جيد جدا في السنة الدراسية ١٩٣٨ - ١٩٣٩ .

لقد كانت تلك المدرسة بوابة تفصل بين عالمين بالنسبة للطالب الفتى القادم من القرية الصغيرة إلى المدينة الكبيرة ، وكانت ملتقى للشباب التقدميين والساخطين على الاضطهاد الاجتماعي القومي السائد في البلاد ، وكان من مفارقات هذه المدرسة أنها خرجت نخبة دينية ، وأخرى ثورية ، وبهذا لعبت دورها في تغير الوضع بعد ذلك .

في سنة ١٩٤١ حدث الانعطاف الأهم في حياة سنان حساني ، ففي ربيع تلك السنة تخرج في هذه المدرسة الاسلامية ، وكان يفترض به أن يكون أحد (الكوادر) الدينية في منطقته ، لكن القدر طوح به في اتجاه آخر ، فقد انهارت في نفس الوقت - مملكة يوغسلافيا ، بعد أن تعرضت للغزو الالماني ، وأغلقت أبواب المدرسة ، فعاد حساني إلى قريته ، وانضم فورا إلى حرب التحرير الشعبية التي انطلقت تحت قيادة الحزب الشيوعي ، وفي السنة اللاحقة انضم حساني إلى الحزب ، وأصبح مفوضا سياسيا لاحدى فصائل الأنصار المسلحة ، وبقي في موقعه هذا - في الكفاح المسلح - إلى أواسط سنة ١٩٤٤ ، حين اعتقله النازيون ، ونفوه إلى معسكر للاعتقال قرب فيينا ، فبقي فيه أسيرا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ثم أطلق فعاد إلى جمهورية يوغسلافيا التي ولدت خلال وجوده في معسكر الاعتقال .

في خريف ١٩٤٩ ، برز اسم سنان حساني - لأول

* صدرت « الرياح والبلوط » عن مؤسسة الابحاث العربية ضمن سلسلتها المعروفة « ذاكرة الشعوب » في اواخر ١٩٨٦ .

مرة ـ خارج يوغسلافيا ، لكن هذا لم يكن يرتبط بالادب أو السياسة بل بالدين ، ففي تلك السنوات كانت صورة يوغسلافيا قاتمة في العالم الاسلامي ، بعد المحاكمات التي جرت في نهاية الحرب لبعض زعماء المسلمين ، مما دفع القيادة اليوغسلافية إلى تشكيل وفد ديني لتوضيح الصورة عن يوغسلافيا في العالم الاسلامي ، وليقوم في الوقت نفسه بأداء فريضة الحج ، كإشارة إلى رغبة السلطة الجديدة في يوغسلافيا بالسماح للمسلمين اليوغسلاف بالذهاب إلى الحج ، وقد تشكل الوفد ـ حينئذ ـ برئاسة رئيس العلماء المسلمين في يوغسلافيا فائق أفندي ، ودخل في عضويته سنان حساني ، بالاضافة إلى ثلاثة شيوخ ، وقد توجه الوفد إلى بيروت ثم إلى القاهرة ، حيث قام هذا الوفد بدوره في توضيح الصورة، سواء في لقاءاته مع الصحافة ، أو مع علماء الأزهر ، ثم استعدوا للسفر إلى السعودية ، ويذكر حساني في مذكراته أنه لبس مع أعضاء الوفد ملابس الاحرام في مطار القاهرة ، وسافروا محرمين إلى جدة ، ثم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج . وتجدر الاشارة هنا إلى أن أعضاء هذا الوفد تلقوا ـ خلال وجودهم في مكة المكرمة ـ دعوة من الملك الراحل عبد العزيز بن سعود الذي استضافهم في أحد الأيام مع غيرهم من أعضاء وفود البلاد الاسلامية ، وبعد انتهاء الحج ذهب أعضاء الوفد إلى دمشق ، ثم غادروا المنطقة إلى يوغسلافيا .

بعد عودة هذا الوفد الديني إلى يوغسلافيا تخلف سنان حساني عن رفاق الطريق نتيجة لالتزاماته الحزبية الجديدة ، فبعد عودته من مكة والمدينة أوفده الحزب إلى بلغراد للالتحاق بمدرسة العلوم السياسية المخصصة (للكوادر) الحزبية ، وبقي هناك إلى أن تخرج سنة ١٩٥٢ . وبعد عودته إلى الجنوب بدأ يرتقي سلم المناصب السياسية ، فأصبح سكرتيراً للاتحاد الاشتراكي في إقليم كوسوفا ، ثم رئيسا له ، ثم مديراً للمؤسسة الصحفية ودار النشر « ريلينديا » ، وبعد ذلك انتخب نائبا لرئيس مجلس الشعب في جمهورية صربيا ، وفي أوائل السبعينيات عين سفيرا ليوغسلافيا في الدانمارك ، وبعد عودته انتخب نائبا لرئيس مجلس الشعب الفدرالي . وبعد هذا الانقطاع عن الجنوب عاد في أوائل الثمانينيات إلى منطقته ليتولى رئاسة الحزب فى أقليم كوسوفا إلى أن أنتخب أخيرا عن هذا الاقليم في مجلس الرئاسة الفدرالى ، وفي أيار / مايو انتخب نائبا للرئيس ، وأخيرا انتخب رئيسا ليوغسلافيا في أيار / ما يو ١٩٨٦ .

لقد برز اسم سنان حساني بقوة في الخمسينيات ، لكن ذلك لم يكن في مجال الدين أو في مجال السياسة بل كان في مجال الرواية ، فبعد عدة محاولات نشر سنة ١٩٥٧ روايته الأولى « بدأ العنب ينضج » التي استقبلت باهتمام كبير ، ثم تابع بعدها إبداعه الروائي فأصدر روايته الثانية « ليلة عكرة » سنة ١٩٦١ ، فالثالثة «حيث يتفرع النهر » سنة ١٩٦٣ ، فالرابعة ، ـ وهي الوحيدة التي كتبها للأطفال ـ سنة ١٩٦٧ بعنوان « الولد حامل الوسام » ، ثم الرواية الخامسة « الرياح والبلوط » سنة ١٩٧٣ فالسادسة « طفولة جون فاترا » سنة ١٩٧٥ فالسابعة « للخبز الابيض » سنة ١٩٧٧ ، وأخيرا الرواية الثامنة « النهر الفائض » سنة ١٩٨٠ . وبهذا الانتاج الروائي أصبح حساني ـ بحق ـ من أغزر الروائيين إنتاجا في الأدب الألباني بشكل عام ، سواء في ألبانيا أو في يوغسلافيا . وربما يبدو هنا من الضروري أن نوضح أن الألبانيين كانوا قد انقسموا في مطلع القرن العشرين ـ بشكل متساو تقريبا ـ بين الدولتين الجديدتين ، أي ألبانيا ويوغسلافيا ، مع الفارق طبعا في حجمهم في كل دولة ، ففي ألبانيا يشكل الألبانيون الغالبية العظمى ، بينما يأتون في يوغسلافيا في المرتبة الثالثة بعد الصربيين والكرواتيين ، وما يهمنا هنا هو أن نوضح أن الأدب/الألباني يتألف من هذين الفرعين الرئيسين ، اللذين يفصل بينهما خط

الحدود بين الدولتين ، بالاضافة إلى بعض الغصون الصغيرة الممتدة في الدول المجاورة .

لقد حظيت روايات سنان حساني في الواقع باهتمام متواصل ، سواء في المحيط الألباني أو اليوغسلافي بشكل عام ، فقد أعيد طبع معظم رواياته مرتين أو ثلاث مرات في اللغة الألبانية ، وترجمت أيضا إلى لغات أخرى في يوغسلافيا ، ومن بين هذه الروايات حازت رواية « الرياح والبلوط » - التي ترجمت الى العربية - على شهرة واسعة في يوغسلافيا ، بعد أن تحولت إلى فيلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني خلال عام ١٩٧٩ . ولا بد أن نذكر هنا أيضا أن حساني قد حصل في ذلك الوقت - ١٩٧٨ - على أعلى جائزة في يوغسلافيا ، وهي جائزة أفنوي ، تقديرا لانجازاته الروائية .

كان حساني قد بدأ تجربته الروائية تحت تأثير الواقعية الاشتراكية التي تربى عليها في نشأته ، الا أنه سرعان ما تحرر من القَوْلَبة (الأيديولوجية) في رواياته اللاحقة بفضل التغيرات التي حدثت في هيكل السلطة في يوغسلافيا ، وحسب هذا الاتجاه تعتبر رواية « الرياح والبلوط » أهم محطة روائية في تجربة حساني ، وهي التي أثارت - كرواية وكفيلم وكمسلسل تلفزيوني - كثيراً من الاهتمام . وفي الواقع أن هذه الرواية تعبر في ذاتها عن مدى تأثير الحرية في الابداع الفني ، فقد كتب المؤلف هذه الرواية ، ونشرها بعد أن سقطت - سنة ١٩٦٦ - الدولة الأخطبوطية لمراكز القوى في يوغسلافيا التي كان الكتّاب في ظلها - كما قال أحدهم - يزنون كل كلمة يكتبونها بميزان الصيدلي .

لقد كانت هذه الدولة الاخطبوطية الخفية قد بدأت تتشكل في أعقاب القطيعة بين يوغسلافيا والدول الاشتراكية سنة ١٩٤٨ ، حين كان لأجهزة الأمن دورها الكبير في حماية يوغسلافيا من المحاولات الكثيرة التي بذلت في الخارج لقلب نظام الحكم فيها ، إلا أن هذا الدور الكبير لأجهزة الأمن تحول بعدئذ إلى دور أكبر بكثير ، فتمكن من السيطرة على كل الدولة ، وقد بينت الوثائق الأخيرة التي كشفت خلال ١٩٨٤ مدى الازدواجية الغريبة التي كانت تتحكم بالواقع اليوغسلافي ، فهذه الدولة الأخطبوطية المركزية المسلحة بأيديولوجية معينة تتعارض تماما مع الأيديولوجية المُعْلَنة للدولة الفدرالية (التسيير الذاتي) ، وهذه الازدواجية الغريبة كانت خافية تحت السطح بالنسبة للناس البسطاء الذين كانوا يكتفون بقراءة الجرائد اليومية التي كانت - خلال ١٥ سنة تقريبا - تسهم فقط بتثبيت الأوهام بأن كل شيء على ما يرام .

إن رواية « الرياح والبلوط » تتعرض بل تشرّح بجرأة هذا التحول الغريب الذي أصاب التجربة اليوغسلافية ، والذي كاد أن يقود إلى كارثة لولا سقوط هذه الدولة الأخطبوطية في صيف ١٩٦٦ ، وعلى هذا فإن هذه الرواية لها قيمة كبيرة في الأدب الاشتراكي ، سواء في يوغسلافيا أو في دائرة أوسع بكثير ، وهي وثيقة فنية لصيرورة هذا « التشوه » - وهو التعبير الرسمي عما حدث - الذي لحق بالتجربة اليوغسلافية التي كانت تهدف من رفضها للستالينية أن تبني بديلا لكل ما هو ستاليني في الاشتراكية .

الثالوث الصعب

في حالة حساني يمكن أن نقرر أن التردد بين الثالوث الصعب - الدين و الأدب والسياسة - يفرض على صاحبه عدم الاستقرار وسط التجاذب بين أقطاب هذا الثالوث . وقد لا تكون هذه اللحظة مناسبة ، لكن يمكن أن نقول - ولدينا ما يبرر ذلك -

إن حساني قد بدأ في الدين ، وأبدع في الأدب وصمت في السياسة ، تحت تأثير الظروف الطارئة ، فقد نشر آخر رواية له سنة ١٩٨٠ ، أي في السنة التي توفي فيها تيتو ، وبعد أقل من سنة كان الوضع قد انفجر في الجنوب (كوسوفا) ، ثم في الشمال (صربيا) ، كردة فعل وبرز هنا وهناك التعصب

القومي الذي صاحبه نبش الماضي كتعبير عن الحنين إليه ، وبذلك دخلت البلاد ـ بأسرها ـ في نفق لا نهاية له ، وفي هذه الظروف بالذات جاء صعود حساني السياسي منذ عام ١٩٨١ كرمز للمعتدلين بوجه المتشددين . في الستينيات والسبعينيات كان اسم حساني لا يظهر في الصحف إلا في مناسبات ، مثل صدور رواية جديدة له ، أو نشر مقال عن إحدى رواياته ، بينما أصبح اسمه في بداية الثمانينيات يتردد بكثرة بمناسبة الاجتماعات الحزبية المختلفة التي كانت لا تنقطع ، وحتى بعد أن توفر له الوقت ، وبعد أنْ أصبح عضوا في مجلس الرئاسة ، فضل حساني أن يصرف كثيراً من وقته في الكتابة الروائية ، وأن يتوجه للكتابة المباشرة ، التاريخية والسياسية ، للمساهمة في معالجة الوضع ، فأصدر سنة ١٩٨٥ كتابه الأخير « كوسوفا ـ الحقائق والاكاذيب » الذي أراد منه أن يكشف بشكل نقدي عن الأساس التاريخي لجوهر التعصب القومي في يوغسلافيا لدى الألبانين والصربيين ، وكان من الطبيعي ألا يعجب الكتاب المتشددين في هذا الطرف أو ذاك ، بل إن حساني قد تعرض لنقد شديد خلال أمسية سياسية لرابطة الكتاب في بلغراد في ربيع ١٩٨٦ ، مع أنه كان حينئذ يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية .

كان حساني كرواتي يتمتع بموقع يسمح له أن يعرف ماذا يجري في أروقة السلطة ، وأن يتعرض من حين إلى آخر إلى ما يتشوه في هذه السلطة ، لكن بعد أن وصل إلى قمة السلطة وجد نفسه بعيدا عن عالمه الروائي ، بل في تناقض مع عالمه الروائي أحيانا ، فلقد اشتهر حساني كرواتي برائعته « الربيع والبلوط » ، التي تعتبر نقدا مرا لمرحلة ما قبل ١٩٦٦ في يوغسلافيا . ومن المفارقات المرة الآن أن يتصادف وجود حساني في منصب الرئيس مع تصاعد الحنين إلى الماضي في يوغسلافيا ، وبالتحديد الحنين إلى مرحلة ما قبل ١٩٦٦ التي تحولت ـ بقدرة قادرة ـ إلى مرحلة ذهبية في تاريخ يوغسلافيا .

ففي أيلول ١٩٨٦ انعقدت ندوة عن الوطنية اليوغسلافية في مدينة ايفان غراد ، وهناك اعتلى المنبر الكاتب بارتريش بوفانوفيتش ، وأثار تصفيق المشاركين عندما ذكر أن سبب المشاكل في يوغسلافيا الآن يعود إلى الانعطاف الذي حدث خلال ١٩٦٦ ، وأن فترة ١٩٦٦ ـ ١٩٨١ ـ التي ترمز الآن إلى تفرد تيتو بالسلطة ، هي صفحة سوداء في تاريخ يوغسلافيا .

إن هذا الحنين إلى الماضي الذي له مغزاه الكبير في يوغسلافيا ، ليس في الواقع إلا أحد جوانب الحملة على تيتو التي بدأت تتضح أبعادها وقواعدها منذ خريف ١٩٨٦ . وهكذا فقد كتب على سنان حساني ، وهو الذي شهد مختلف التغيرات والتقلبات في يوغسلافيا ، أن يكون شاهدا من هذا الموقع الحرج على الانطلاقة العلنية للحملة ضد تيتو .

ليس من السهل على الروائي أن يصمت في هذه الظروف ، لكن حساني اضطر أخيرا إلى أن يعترف بأن مسؤولياته كعضو في مجلس الرئاسة (منذ ١٩٨٣) ـ وبخاصة الآن كرئيس للجمهورية ـ لم تترك له الوقت ولا المكان لكي يتعاطى الأدب □

الخير كله

● عن الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : جمع الخير كله في ثلاث خصال : النظر والسكوت والكلام ، فكل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو ، وكل سكوت ليس فيه فكرة فهو غفلة ، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو ، فطوبى لمن كان نظره عبرا ، وسكوته فكرا ، وكلامه ذكرا ، وبكى على خطيئته ، وأمن الناس شره .

تعالوا نتعلم

كيف نختلف !!

بقلم : الدكتور يحيى الجمل

الدكتور يحيى الجمل ـ من القطر العربي المصري ـ شغلته كما شغلت جيله هموم الأمة العربية ـ وهو السياسي والمحامي واستاذ القانون ـ فطفق يبحث عن أسباب المشكلات العالقة بدلاً من البحث عن ظواهرها فقط .
ولعل مناقشته هنا تنطلق من موقف حضاري شُغِلَ عنه المختلفون .
إن الاتفاق على الاختلاف فعل حضاري راق يبدأ الكاتب بتناوله في هذا المقال ، وهو أول مساهمة له في « العربي » .

كوننا لانعرف كيف نتفق أصبح أمرا شائعا ، ولكن المشكلة الحقيقية أننا لا نعرف أيضا كيف نختلف . واذا كان اتفاقنا على كثير من الموضوعات أصبح أمرا صعبا فان اختلافنا ـ وما أكثر ما نختلف ـ هو أبعد مايكون في وسائله عن التحضر .

وأزعم أن المتحضرين هم الذين يعرفون كيف يختلفون،وكيف يوظفون هذا الخلاف لكي يصبح بداية الاتفاق ، ذلك على حين أننا في الوطن العربي ـ وأخشى أن أقول في العالم الاسلامي كله ـ لانعرف كيف نختلف .

وهذه دعوة أطلقها من على صفحات « العربي » الينا جميعا : أفرادا وجماعات ، حكومات وقادة ، لكي نقف ونقول لأنفسنا : اذا كان قد عز علينا الاتفاق فلنتعلم كيف نختلف .

وأسباب الخلاف بين المتحضرين في عالمنا المعاصر أعمق وأشد حدة من أسباب الخلاف بيننا ، ومع ذلك فهم يواجهون خلافاتهم على نحو مغاير تماما لما نواجه به خلافاتنا ، ويصلون عادة الى ما لانستطيع الوصول اليه وهو جعل الخلاف بداية لنقطة من نقاط الالتقاء ثم الاتفاق .

لماذا ؟

كنه الداء وبداية الدواء :

علينا أن نعرف كيف يديرون خلافاتهم وكيف ندير خلافاتنا ، لعلنا بذلك نضع أيدينا على كنه الداء وبداية الدواء . ونقطة البدء عند المتحضرين جميعا ـ من غرب أو من شرق ـ أن الاختلاف في الرأي أمر

طبيعي ، وأن الاختلاف في الرأي لايعني بذاته أيضا أن أحد المختلفين على صواب كامل وأن الآخر على خطأ كامل ، وأن الحقيقة المطلقة لايستطيع أحد أن يدعي أنه وحده هو الذي يلم بها ويملكها وأن غيره محروم منها تماما . هذه هي القضية الاولى التي يجب أن نقتنع بها تماما اذا كنا نريد حقا أن نتعلم كيف نختلف كما يختلف المتحضرون ، وأن نجعل من الخلاف بداية للالتقاء ثم الاتفاق .

علينا أن ندرك بوضوح أن الاختلاف أمر طبيعي ، وأنه لا أحد وحده يملك الصواب ، وأن هذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها . ومن ثم فاننا نستطيع أن نقول ان حق الخلاف في الرأي هو من الحقوق الاساسية لبني الانسان .

فاذا وقر في أذهاننا أن هذه حقيقة من حقائق الوجود الانساني،وتقبلناها وتعاملنا معها على هذا الأساس ، فاننا بالضرورة وبناء على ما تقدم سنتحرز أن يتهم بعضنا بعضا عند الاختلاف بالخيانة والعمالة والجهالة . وهي أوصاف بشعة ولكنها سهلة علينا الى حد أنه يندر أن نجد أحدا لم يتهم أحدا بهذه الاوصاف،سواء بين الساسة أو بين المفكرين في هذا الجزء المنكوب من العالم .

اذا وقرت هذه الحقيقة في أنفسنا وأذهاننا - أن الاختلاف في الرأي والتوجهات أمر طبيعي - فان الشيء البديهي بدلا من تراشق الافتراءات أن نسأل : لماذا نختلف أو ماهي أسس الخلاف وأسبابه ؟ كذلك يتعين علينا أيضا أن نسأل : من يختلف مع من ؟

وعلى ضوء إجابتنا على هذين السؤالين نتقدم خطوة أخرى لنسأل : ثم ماذا بعد ؟

ولست هنا بصدد بحث أسباب الاختلاف في مواقفنا نحن العرب - أفرادا كنا أم جماعات - ولكنني بصدد اقتراح منهج لادارة الاختلاف على نحو مايدير المتحضرون اختلافاتهم حتى لاتكون خلافات عقيمة .. وحتى تصل الى بر الأمان .

حق الاختلاف :

نقطة البدء اذن هي الاقرار بحق الاختلاف وبأنه من طبائع البشر ، ثم بعد ذلك البحث وراء أسباب الاختلاف ودواعيه ، ثم تحديد من هم المختلفون فيما بينهم . وبعد ذلك تبدأ محاولات التغلب على الخلاف .

واذا كان الذي يعنينا هنا ويحزننا أيضا هو مايدور في وطننا العربي من خلاف بين ساسته وأولي الأمر فيه - خلافات تبدو وكأنها مستعصية على كل حل - فاننا لابد وأن نواجه تلك الظاهرة التي نعتقد أنها من الظواهر المرضية ونحاول أن نشخصها من أجل معالجتها .

لماذا يختلف الناس عموما . ولما نختلف نحن ؟

يختلف الناس عموما لأسباب تستعصي على الحصر ، ولكن أبرزها سببان :

- اختلاف المصالح .
- اختلاف المكونات الحضارية والثقافية ، مما يؤدى الى اختلاف النظرة العقلية الى الامور .

ولاشبهة في أن اختلاف المصالح بين فرد وفرد ، أو بين جماعة وجماعة أدبية ، أو بين دولة ودولة ، تأتي في مقدمة أسباب الاختلافات بين هذه الكيانات وبعضها . وأغلب صور الصراع في العالم - سواء كان ذلك الصراع سلميا أو كان صراعا عسكريا - هي صراعات حول مصالح مختلفة .

ولاشبهة أيضا أن اختلاف التكوين العقلي والنفسي وما يؤدي اليه من اختلاف حضاري بين شعب وشعب ، يعكس نفسه بدوره على العلائق بين الشعبين ، فاذا اختلفت المصالح كان الاختلاف الحضاري مدعاة لحدة الخلاف وعنفه وصعوبة حله ، وعلى عكس ذلك فان الاختلاف في عنصر من العنصرين والاقتراب من العنصر الآخر ، يجعل الخلاف أقل حدة وعنفا ، ويجعل امكانية التغلب عليه أكثر منالا .

هناك خلافات بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي :

وهناك خلافات بين المملكة المتحدة - بريطانيا - وكثير من دول القارة الأوروبية .

وفي الصورة الاولى - بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي - فان الاختلاف يشمل الأمرين معاً : اختلاف المصالح الى أبعد المدى واختلاف التكوين العقلي والنفسي الى درجة بالغة الاتساع . ومن هنا فان الاختلافات بين هذين القطبين تبدو بالغة الحدة بالغة العمق ، وتتعدى دائرة الاختلاف لتدخل دائرة الصراع .

أما في الصورة الثانية - بين بريطانيا ودول القارة - فان ثمة خلافا في المصالح وخلافا في المزاج النفسي . ولكن الخلاف هنا في عنصريه على السواء لايبلغ من الحدة والعمق ما يبلغه الخلاف في الصورة السابقة ، ولذلك فإن إمكانية تطويقه والتعامل معه والتغلب عليه قائمة وموجودة .

وفي الصورتين معاً - صورة الصراع في الحالة الاولى والاختلاف في الحالة الثانية - فلا أحد يتهم أحدا بالخيانة أو العمالة أو الجهالة وانما هي أمور محسوبة ، دواعيها واضحة وطرق التصدى لها أيضا معروفة .

والتصدى للخلافات يأخذ صورة من ثلاث وفقا لحدة الخلاف ومداه :

- الحوار .
- التعايش .
- الحرب .

وكل واحدة من هذه الصور تتسع لكثير من الظلال والأطياف .

أما الحوار وهو الوسيلة الأولى والأكثر أهمية وتنوعا وتعددا في عالمنا المعاصر، فانه يبدأ كما قلت بالتسليم بأن الاختلاف طبيعي نظرا لاختلاف المصالح واختلاف النظرة العقلية لدى الشعوب المختلفة ، ثم يبدأ المتحاورون التسليم بهذه المقدمة في حصر نقاط الاختلاف ونقاط الالتقاء بين هذا وذاك ، وطرح البدائل المختلفة من استمرار الخلاف الى تضييق هوته الى غير ذلك من البدائل .

المهم أن يبدأ الحوار وهدفه الأساسي هو الوصول الى نوع من التعايش بين المختلفين يحقق لكل منهم - وفقا لامكانياته ووفقا لما تتيحه له ظروفه الموضوعية - أكبر قدر من الفائدة له وأقل قدر من الضرر لغيره .

ويتولى الخبراء تحويل ذلك كله الى معادلات وأرقام واتفاقات .

ويعلم كل واحد منذ البداية وحتى النهاية أنه لن يكون الرابح على طول الخط ، ويعلم كل واحد أيضا أن هدف الطرف الاخر هو تقليل خسارته الى أبعد قدر ممكن .

وعلى هذا الاساس ومن هذا المنطلق يؤمنون بالحوار ويباشرون الحوار .

وقد يجدى الحوار ويوصل الى صورة أفضل من التعايش بين المختلفين ، وهذا هو الغالب .

وقد تنسد مسالك الحوار ، وهنا يواجه المتحاورون ذلك بوضوح ، ويرجئون الحوار الى جولة أخرى أو جولات . وفيما بين ذلك تتحقق صورة من صور التعايش . قد يكون تعايشا حذرا وقد يكون مترقبا لايخلو من توتر ، وكل من الطرفين « يعمل » من أجل أن يزيد من أسباب قوته وأن يقلل من أسباب ضعفه ، حتى اذا بدأت جولة ثانية من الحوار كان في مركز تفاوضى أفضل مما كان عليه من قبل .

وقد تبلغ حدة الخلاف الى المدى الذي تصل فيه الى صورة الصراع .

وحتى الصراع في عالمنا المعاصر لم يعد أمرا يمكن تركه للانفعالات .

وعلى أي حال فان ادارة الصراع - وهو مايطلق عليه أحيانا التناقض العدائي - غير ادارة الحوار .

أضواء على واقعنا :

واذا انتقلنا الآن من التعميم الى التخصيص فماذا سنجد ؟

اذا انتقلنا من العالم الفسيح الى وطننا العربي ، فماذا سنرى ، وماذا سنجد ؟

هل هناك اختلاف حقيقي في المصالح بين قطر وقطر ؟

وهل هناك اختلاف في المزاج العقلي والنفسي لشعوب هذه الاقطار

سنتجرد أو نحاول أن نتجرد ـ ونحن نطرح هذين السؤالين ـ من انتماءاتنا الفكرية ولانجعلها يفرضان علينا اتجاها معينا للاجابة . اننا نرى أقطاراً غنية ، فوائضها تزحم خزائن المصارف في العوالم المختلفة ، ونرى أقطارا تئن من وطأة الدين وذل السؤال .

ونرى أقطارا مزدحمة بالبشر وأقطارا يندر فيها البشر . وأقطارا أرضها صحراء وأخرى تجري فيها ومن تحتها الانهار . وأقطارا أخذت من أسباب حضارة العصر وعلمه بنصيب مهما كان محدودا وأخرى تحاول جاهدة أن تربط أسبابها بهذه الاسباب .

هذا كله واقع . وهو واقع يرفضه أمثالنا من القوميين . ولكن رفضنا له لن يغير من حقيقة هذا الواقع شيئا أبدا . ان مجرد الرفض هو موقف سلبي يحمل من العقم أكثر مما يحمل من الفائدة والجدوى .

ولكن هذا الواقع يقول أيضا ان هذه الاقطار جميعا تعيش على بقعة واحدة متصلة من الارض ، ويقول ان هذه الاقطار وحدودها قد اصطنعت اصطناعا لم تشارك فيه ارادة الشعب العربي . ويقول أيضا ان هذا الشعب عاش حقبة طويلة من تاريخه في ظل احساس حقيقي بوحدة الوجود ووحدة المصالح . ويقول أيضا ان الحقبة الاستعمارية أولا والنفط ثانيا كانت وراء هذا الواقع الذي يرفضه بعضنا ويقبله آخرون ، ولكنه واقع لابد من التعامل معه على أي حال . وفي هذا الواقع اختلفت بعض مصالح الشعوب والاقطار على المدى القريب .

وأنا أقول ان هذا الاختلاف في بعض المصالح على المدى القريب لاينفي وحدة هذه المصالح على المدى المتوسط بله البعيد .

ان عالم اليوم هوعالم التكتلات الضخمة وليس عالم الشظايا المتناثرة هنا وهناك . وهذه التكتلات أو الكيانات الكبيرة لاتتكون اعتسافا وانما تقوم على أسس من التقارب الموضوعي .

دول أوروبا الغربية على كل ما بينها من اختلافات في المصالح وفي المزاج النفسي وفي اللغة ، ومن ثم في الثقافة ، تقترب كل يوم خطوة جديدة ـ حتى وان كانت صغيرة ـ من بعضها البعض.وليس لها من وسيلة لتحقيق ذلك غير جولات الحوار . وبعيدا أيضا عن كل الانتماءات الايديولوجية فان أقطار الوطن العربي يجمع بينها ، الى جوار وحدة اللغة ومن ثم وحدة الثقافة التي لايستطيع أحد أن يختلف بشأنها ، وحدة الجغرافيا ووحدة التاريخ ووحدة المصير . وهذه كلها عوامل لابد وأن تؤدي ـ رغم بعض الاختلافات التي لاننكرها ـ الى ضرورة الحوار توطئة لمزيد من التقارب والالتقاء .

لماذا اذن مع هذا كله لانحسن لغة الحوار ؟

ولماذا اذن مع هذا كله يقترب المختلفون اختلافا حقيقيا من بعضهم ، على حين تتسع بيننا نحن شقة الخلاف ؟

لماذا ؟ هل هي لعنة من لعنات الفراعنة أو من لعنات الجاهلية الاولى

لا هذا ولا ذاك .

وانما هي أسباب واضحة ظاهرة للعيان .

من هم المختلفون :

ولعل السؤال الثاني الذي طرحناه في البداية ولم نعرض له حتى الآن يمهد لنا الطريق لمعرفة هذه الأسباب .

والسؤال الثاني هو الذي يقول : من هم المختلفون ؟

هل تختلف شعوب الامة العربية مع بعضها اختلافات حقيقية وجادة وعميقة لاتجدي معها لغة الحوار ، وانما تجدى معها لغة الاتهامات والقذائف الكلامية وما يشبه الصراع ؟

أي مراقب موضوعي قد يرى بين هذه الشعوب بعض الاختلافات ، ولكنه يرى بينها من أسباب الالتقاء ماهو أكثر بكثير جدا من أسباب الاختلاف .

وأي مراقب موضوعي يرى أن هذه الشعوب تتكلم لغة واحدة ، وأنها ذات مزاج نفسي وعقلي متقارب في أغلبه الى حد بعيد ، وأنها رغم ما فعله الاستعمار وما أدت اليه الحقبة النفطية العارضة في حياتها لاتوجد بينها اختلافات بعيدة وعميقة في المصالح ، وأن عكس ذلك هو الصحيح .

اذن ما هذا الذي نسمعه على السطح من ضجيج وانفعال ومهاترات وقذائف من حمم الالفاظ ؟ وممن نسمعه ؟

هل هي من الشعوب أم هي من بعض حكام هذه الشعوب وأجهزة اعلامها ؟

الشيء الطبيعي في الاختلاف بين الشعوب والدول والاقطار أن تكون هذه الخلافات بين هؤلاء جميعا من ناحية ، وهؤلاء جميعا من ناحية أخرى ، ذلك بافتراض أن الأصل في الحكام أنهم يمثلون شعوبهم ويتحدثون باسمهم ويعبرون عن مصالحهم هم . هذا هو الشيء الطبيعي . ولكن الشيء غير الطبيعي أن تلتقي مصالح الشعوب وأن تلتقي لغة الشعوب وأن تتقارب الطبائع والأمزجة بين الشعوب ـ وأكرر بعيدا عن كل انتماء أيديولوجي ـ ومع ذلك لاتستطيع تلك الاقطار أن تلتقي على كلمة سواء .

لابد وأن تكون العلة هي فيمن يتحدثون باسم هذه الشعوب أو في بعض هؤلاء الممثلين على الأقل .

لابد وأن تكون العلة كامنة في أن بعض هؤلاء الممثلين لايمثلون شعوبهم حقيقة ، ولايعبرون عن شعوبهم حقيقة ، حتى وإن كانوا أعلى الناس صوتا في ادعاء هذا التمثيل وذلك التعبير .

ولابد وأن يرتفع ذلك التناقض أولا بين الشعوب ومن يحكمون الشعوب .

وقد انتهت الانسانية من خلال تجارب كثيرة ومريرة الى رسم الطرق التي تؤدي الى أن يكون الحكام ممثلين حقيقيين لشعوبهم .

لا سبيل الى ذلك الا بالارادة الحرة والرأي الحر والتعبير الحر والايمان الصادق بحق الاختلاف .

الخطوة الاولى اذن أن تستقر حقوق الانسان في كل قطر عربي وفي كل أقطار العروبة . وأن يكون واضحا أن حقا أساسيا من هذه الحقوق هو أن يختلف الناس في آرائهم وفي كيفية التعبير عن آرائهم وفي الدفاع عن هذه الرؤى والاتجاهات .

ولابد وأن يترتب على ذلك كله أن يكون حكام هذه الأمة معبرين عن رؤى هذه الأمة ومصالحها ، وليسوا فقط معبرين عن رؤاهم هم ومصالحهم ومواقفهم هم ، وأن يدرك هؤلاء ، وهؤلاء جميعا أنهم جزء من تاريخ هذه الأمة ، وليسوا هم تاريخ هذه الامة بماضيها وحاضرها ومستقبلها كما يتصور البعض ـ عندئذ سنعرف جميعا كيف نختلف . . . وكيف نتحاور . . . ثم كيف نتفق . . والأمر كله ـ من قبل ومن بعد ـ لله .

ثم للشعب العربي اذا كان مايزال يريد أن يصبح جزءا فاعلا في حضارة بني الانسان . □

---

* استخدام المال : هو الميزة الوحيدة لامتلاكه . (بنيامين فرانكلين)

يصدر في ١٥ أبريل ١٩٨٧

كتاب العربي

الخامس عشر

من أسرار الحياة والكون

بقلم: د. عبدالمحسن صالح

كتاب العربي مرآة العقل العربي

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

ماحقيقة الربا؟

سؤال يفجره كتاب جديد حول الاجتهاد

أحدث ما أخرجته المطابع العربية في قضية الاجتهاد ـ فيما نعلم ـ كتابان ، أحدهما صدر في القاهرة بعنوان « الاجتهاد » للشيخ الدكتور عبدالمنعم النمر ، وهو من علماء الأزهر المعاصرين ، وعضو مجمع البحوث الاسلامية ، وقد كان وزيرا سابقا للأوقاف قبل عدة سنوات ، وآخرهما صدر في الكويت بعنوان مماثل تقريبا ، هو « الاجتهاد في الشريعة الاسلامية » للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ، عميد كلية الشريعة في جامعة قطر ، وواحد من أشهر فقهائنا المعاصرين .

وصدور الكتابين خلال فترة زمنية وجيزة ، وفي ذات الموضوع ، يعكس اهتماما بمسألة الاجتهاد ، نحسبه في مكانه ، فضلا عن أنه يعد استجابة لواحد من متطلبات المرحلة ، خصوصا في ظل المشاعر الاسلامية المتنامية التي تفتقر إلى وعي متنام بنفس القدر .

ذلك أننا إذا عددنا العناصر المطلوبة لترشيد المسيرة الاسلامية ، وتحقيق الاحياء الاسلامي ، فسوف تحتل قضية الاجتهاد رأس قائمة تلك العناصر ، ولاينبغي أن ينكر أحد أن تعطيل الاجتهاد والتقاعس في ممارسته ، يعد أحد الأسباب الأساسية لتعثر التطبيق الاسلامي ، إضافة إلى الأسباب الأخرى ، المتمثلة في دور القوى الاستعمارية ، وحرصها على قطع الصلة بين هذه الأمة وبين شريعتها .

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر لم يقف فقهاؤهم فيه عند حد الاعراض عن الاجتهاد والاصرار على التقليد ، لكنهم ذهبوا إلى حد اتهام عنوان الاجتهاد ذاته ، واعتباره نوعا من الضلال ، وسبيلا للتحايل على النصوص ، والانخلاع عن الدين . وحتى زماننا هذا ، فإن كلمة الاجتهاد في الشمال الافريقي مازالت محملة بهذه الشبهات ، ربما تأثرا بظروف تاريخية واكبت الاحتلال الفرنسي ، أسيء فيها استخدام عملية الاجتهاد ، ووظف ذلك الباب لنقيض الغرض منه .

لاتخل خصوصية ذلك الظرف بحقيقة هي أن الاجتهاد هو المصدر الثالث للشريعة الاسلامية ـ بعد القرآن والسنة ـ باتفاق الأصوليين ، وأن ممارسة ذلك

الاجتهاد على نحو واسع ـ ومسئول بطبيعة الحال ـ شرط أساسي للاحياء الاسلامي المنشود ، ومن هنا فإن أي حوار جار حول الاجتهاد يكتسب أهمية بالغة ، فضلا عن أنه يعد علامة على اتجاه المسيرة الاسلامية في الطريق الصحيح .

لسنا بحاجة إلى أن ندلل على أهمية الاجتهاد ، وجدواه أو ضرورته ، فضلا عن أننا لسنا بحاجة لأن نكرر على الأسماع في كل مرة يطرق فيها الموضوع أو يفتح ملفه ، أن الأولين اجتهدوا ، لأني أحسب أن المطلب يظل قائما ، ولأننا مدعوون إليه ، سواء اجتهد الأولون أو لم يجتهدوا ، فتلك مرافعة زائدة في قضية محسومة ، ومحاولة لاثبات ماثبت بالدليل والتجربة .

أقول ذلك لأن كثيرين ممن تعرضوا للموضوع استهلوه بمثل تلك المقدمة التي تحرص دائما على أن تبرهن على أن « الاجتهاد ضروري ، ومشروع ، ومسبوق ، وهذا هو المدخل الذي لجأ إليه الدكتور عبد المنعم النمر ، واستغرق أكثر من ٥٠ صفحة في شرحه وإثباته بمختلف الأدلة والبراهين الشرعية والتاريخية .

إن الأمر الذي يعنينا الآن بقدر أكبر هو ممارسة الاجتهاد في قضايانا المعاصرة ، وليس فقط الدعوة إليه ، والتنبيه إلى أهميته ، ولذا فقد يهمنا أن نتفق ابتداء على مجالات الاجتهاد التي يكاد يجمع الباحثون ـ وبينهم الشيخان النمر والقرضاوي ـ على أنها تدور في حدود المعاملات وليس العبادات ، وأن الهدف منها إما استنباط حكم شرعي جديد في أمر لم يكن معروفا من قبل ، أو مراجعة حكم انتهى إليه فقهاء السلف ، لكنه لم يعد محققا للمصلحة المرجوة منه في زماننا .

يورد لنا الشيخ النمر نماذج من اجتهادات الفقهاء التي ينبغي أن يتغير فيها الحكم ، وتتغير بصددها الرؤية ، بعدما تغيرت الأزمنة والأعراف ، فاذا قال أحد الفقهاء ـ قبل عدة مئات من السنين ـ إن الزوجة الاولى لاتتضرر من الزواج عليها ، فذلك قول ينبغي ألا يؤخذ بحسبانه « قضية مسلمة » ، نستشهد به على حال النساء في زماننا ، ونحكم عليهن بمقتضاه ، متناقضين مع الواقع القائم . أيضا ينبغي ألا نحكم بأن أكثر مدة الحمل سنتان أو ثلاث ، أو أربع أو خمس أو سبع ، بناء على أن الأئمة قالوا بذلك (ص ٣٦٧) « وإذا جاء في كتب الأحناف أن زوجة المفقود تظل على ذمته ، حتى يموت آخر أقرانه ، أي حتى تصل إلى سن اليأس والشيخوخة ، ثم لها أن تتزوج بعد ذلك ، فلا يليق أن يتمسك حنفي بهذا القول ، لمجرد أنه ورد في كتب السابقين » .

« وإذا جاء مثلا في كتاب فقهي ، أن الزوجة التي فارقها زوجها بعد كتاب العقد مباشرة ، ولم يختل بها ، أو كان العقد بوكالة وهو بعيد ، ولم يلتقيا ، هذه الزوجة إذا جاءت بولد بعد مدة الحمل أثناء غياب الزوج في أقصى المغرب ، وهو في أقصى المشرق ، نحكم بانتساب الولد إلى هذا الزوج الغائب ، لأنه ربما يكون من أهل الولاية ، وأهل الخطوة » . إذا جاء مثل هذا في كتاب فقه ـ يضيف الشيخ النمر ـ فمن الغياب العقلي أن نلتزم به ، ولابد أن نبعد حكاية « أهل الخطوة » هذه في أحكامنا الشرعية » .

وإذا جاء إنسان وأفتى بما في كتب الشافعية من أن نبش الأذن بعود لاخراج بعض الرواسب منها يفطر الصائم ، لأن العود وصل إلى الجوف ، ثم أثبت علم التشريح أن الأذن ليس بها فتحة إلى الحلق ـ كما في الأنف والعين ـ يمكن أن توصل للمعدة ، لم يجز لنا علميا أن نتعلق بهذا القول ، ولايجوز أن نفتي به (ص ٣٦٨) .

وإذا جاء في بعض كتب الفقه عدم الثقة بحساب المنجمين وأقوالهم في ثبوت هلال رمضان ، فمن غياب العقول ، أن نأتي بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر ، ونطبق ذلك الآن على علماء الفلك الذين وصلوا في دقة حساباتهم الفلكية إلى اطلاق مراكب

الفضاء ، وإنزالها في مكان يحددونه ووصلوا إلى تعيين وقت الخسوف والكسوف ، ومكانها . (ص ٣٦٩) .

يعقب الشيخ النمر ، على هذه النماذج قائلا إنه : « إذا كان الأئمة لم يقبل بعضهم الأخذ بفتوى الصحابي قضية مسلمة . وقالوا نأخذ منهم ، ونرد عليهم ، وقال الامام مالك : « كل يؤخذ منه ويرد عليه ، إلا صاحب هذا القبر » ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليس لنا أبدا أن ننزل كلام فقهاء في مسائل فرعية لاسند لهم فيها إلا اجتهادهم ، منزلة فوق منزلة كلام الصحابي وفتواه ، ونعلو بها إلى وضعها في مصاف كتاب الله وسنة رسوله .

في إطار المسائل المستجدة ، الجديرة بالاجتهاد ، يقول لنا المؤلف كلاما مهما في المعاملات الاقتصادية ، لعله أخطر ماورد في الكتاب وأجرؤه ، وينطلق موقف الشيخ النمر إزاء هذه القضية من رفض الاستناد إلى الحديث المنسوب إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي يقول : « كل قرض جرّ نفعا فهو ربا » ، كما ينطلق من فكرة ترجيح المصلحة على المفسدة ، المقدرة شرعا .

وعن صحة الحديث ينقل المؤلف عن الشيخ محمود شلتوت ـ شيخ الأزهر الأسبق ـ تشككه في صحته ، ودعوته إلى عدم الاستناد عليه . والشيخ شلتوت ومعه الشيخ النمر يذكران أن الحديث قد ذكره الحافظ بن حجر ، مؤلف « فتح الباري في شرح البخاري » ، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ الذي في متنه « بلوغ المرام » الذي جاء العلامة محمد ابن اسماعيل الصنعاني اليمني ، المتوفى سنة ١١٨٢هـ ، فشرحه باختصار ، وسمى شرحه « سبل السلام » .

ومن المهم أن نورد هنا ماجاء في المتن والشرح ، ونصه « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » كل قرض جر منفعة فهو ربا » ، رواه الحارث بن أبي أسامة ، وإسناده ساقط ، لأن في إسناده سوار بن مصعب الهمداني المؤذن الأعمى ، وهو متروك (وله شاهد ضعيف عن فضالة بن عبيد عند البيهقي) ، أخرجه البيهقي في المعرفة بلفظ « كل قرض جر منفعة فهو وجه من وجوه الربا » ، (وآخر موقوف عن عبدالله بن سلام عند البخاري) ، لم أجده في البخاري في باب الاستقراض ، ولم ينسبه المصنف في التلخيص إلى البخاري ، بل قال : « إنه رواه البيهقي في السنن الكبرى عن ابن مسعود ، وابن أبي كعب ، وعبدالله بن سلام ، وابن عباس ، موقوفا عليهم ، فلو كان في البخاري لما أهمل نسبته إليه في التلخيص . والحديث بعد صحته ـ أي إذا ثبتت صحته ـ لابد من التوفيق بينه وبين ماتقدم ، وذلك بأنه محمول على أن المنفعة مشروطة من المقرض ، أو في حكم المشروطة ، أما لو كانت تبرعا من المقترض ، فقد تقدم « أنه يستحب له أن يعطي خيرا مما أخذ » ـ انتهى . (ملحوظة : مابين قوسين هو من كلام ابن حجر ، وماعداه شرح الصنعاني) .

وقد عقب الشيخ محمود شلتوت على الحديث بقوله : حديث هذه حاله ، لايصح الاستشهاد به على معاملة ، ولايستخرج منه حكم لها ، لأنه غير صحيح ، وإسناده ساقط ، وراويه متروك . . الخ ، ولهذا أحب أن ألفت نظر الباحثين الفقهاء إلى هذا ، فلقد بلغ الأمر أن صار قاعدة عامة ، تبنى عليها الأحكام ، وهي قاعدة هشة كما ترى (هامش ص ٣٠٥) .

بمثل ذلك قال الشيخ النمر ، وعقب على الحديث بسؤال هذا نصه : « كيف يجري (مثل ذلك الحديث) مجرى الأحاديث الصحيحة المعتمدة ، ويجعلون منه قاعدة شرعية عامة ، يبنون عليها الأحكام ، على اعتبار أنها قاعدة ، قامت على حديث من أحاديث الرسول ، وهو كما ترى لم يصح عن الرسول ؟

ويحكمون بالحل أو الحرمة على معاملات بناء عليه ، مع أن التحريم مقام خطير ، لايجوز الاقدام عليه إلا عند التأكد من دليله ؟

بناء على هذا ينتهي الشيخ النمر إلى القول : « فإن من الأنسب والأليق بالعلماء ، وطالبي العلم ، أن يتركوا الاستشهاد به كحديث يبنى عليه التحريم ، ولنحصر عقولنا فيما ورد في القرآن والسنة الصحيحة ، لنبني أحكامنا على أسس متينة ومقبولة (ص ٣٥٣) .

لم يجادل أحد في حرمة الربا ، لا الشيخ النمر ولا السابقون عليه أو اللاحقون ، لكن السؤال الذي يطرحه مؤلف الكتاب يدور حول حقيقة ذلك الربا المحرم والملعون في مواضع عدة من السياق القرآني .

يطرح الشيخ النمر سؤاله : ماهو الربا ؟ وفي الاجابة يقول : روي عن عمر بن الخطاب قوله : « . . وددت لو أن الرسول لم يقبض حتى يبين لنا الربا بيانا شافيا . . » ، وقوله : « تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا » (ص ٣٧٥ من الكتاب ، والنص منقول عن المحلىّ لابن حزم جـ ٨ ـ المسألة ١٤٧٩ في الربا) .

ثم يضيف بأن الله سبحانه وتعالى عندما حرم الربا ونهى عنه ، كان معناه مستقرا في أذهان مسلمي العصر الاسلامي الأول ، لكن عمر كان يريد تحديدا واضحا من الرسول ، حتى لايترك الأمر لمفاهيمهم وأعرافهم . وكثير من المفسرين يقولون بأن « أل » في الربا للعهد ، أي الربا المعهود لكم ، المعروف لديكم ، وهو الزيادة في المال نظير الزيادة في أجل الدفع ، فبدلا من أن يكون السداد في أواخر العام مثلا ، يطلب المدين تأخيره للسنة المقبلة ، ويزيده في الربح ، لأنه عاجز عن السداد في الأجل المحدد ، وقد يتكرر هذا ، حتى يصل الدين إلى ضعفه أو أضعافه ، ويعجز المدين ، وتنزع أملاكه ، كما يحصل الآن بين الدائنين والبنوك .

أي أن الربا الذي كان معروفا هو « ربا النسيئة » الذي لاخلاف حول حرمته ، والمسمى عند الأصوليين « الربا الجلي » ، وهو الذي نزلت فيه الآيات : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » ، « وأحل الله البيع وحرم الربا » ، « اتقوا الله وذروا مابقي من الربا » .

ويقرر الشيخ النمر بعد هذا الايضاح ، وبعد نقضه لصحة الحديث المنسوب للنبي ، أن إطلاق الحرمة على كل زيادة على رأس المال يقف في وجهه أن الرسول كان يؤدي ويربي ، أي يعطي فوق ماكان وأحسن ، باعتبار أن هذا أحسن في القضاء . « وأحسنكم أحسنكم قضاء » ـ كما روى عنه عليه السلام ـ فليس مطلق الزيادة إذن ربا دائما ، بل لابد أن تكون زيادة لها ظروفها .

هنا يتبنى الشيخ النمر قول القائلين بأن الزيادة الممنوعة هي التي يفرضها الدائن الموسر مقدماً على المدين الفقير المحتاج ، حيث يفترض أن المدين قد استدان لسد حاجاته الضرورية ، أو ليربح من عمل ليكسب قوته الضروري ، ولذا فإنه يصبح من الاستغلال البغيض الذي يحرمه الاسلام بشدة أن يستغل المسلم الغني حاجة غيره فيفرض عليه زيادة نظير إمداده بمال لسد حاجته ، وهو أمر لاخلاف حوله أيضاً ، لكن هناك حالات يستدين فيها الانسان ، لا لسد حاجته ، ولكن للتوسع في نشاطه الاقتصادي ، وزيادة دخله ، ورفع مستواه ، كأن يستدين لاصلاح أرض أو إقامة مصنع أو تشييد بناء أو غير ذلك من مختلف مجالات الانماء . فهل هذه الحالات وأمثالها مما ينطبق عليها حالة المحتاج إلى مال يسد به حاجاته الضرورية ؟ وهل الزيادة على رأس المال التي يطلبها الدائن ـ سواء كان شخصا أو مصرفا ـ تعتبر ظلما واستغلالا في هذه الحالة ؟ وإذا لم يفرض المقرض شيئا على المقترض ، بل هو الذي حدد الربح من ناحيته للمقرض الدائن ، فهل هذا يسمى ربا ، وقد عرفنا في الربا أن الدائن هو الذي يفرض ؟ ـ (ص ٣٨٠) .

في نهاية الأمر يقرر المؤلف أن : استغلال حاجة المحتاج ، هو المعنى الكريه الذي حرم الله من أجله الربا والزيادة ، أما حيث لا يوجد هذا المعنى

الكريه ، فلا تكون الزيادة محرمة ، وعرض لبحث قدمه الشيخ عبدالجليل عيسى عضو مجمع البحوث الاسلامية في سنة ١٩٧٢م ، وذكر فيه أن من يستدين عشرة آلاف جنيه ليصلح أرضا تدر عليه وعلى الوطن وعلى الأسر إنتاجا ، وقال إن هنا أربع فوائد عارضتها مفسدة ، والقاعدة أن المفسدة إذا عارضتها مصلحة راجحة قدمت المصلحة ، ثم قال : فهل يمكن أن نقول ان هذه المعاملة حرام ؟ وما وجه حرمتها ؟ وقال : إنني لا أدرك سببا لتحريم هذا القرض لهذه الغاية ، بهذه الفائدة .

في الوقت ذاته أشار الشيخ النمر الى بحث قدمه الشيخ محمد عبدالله دراز الى أسبوع الفقه الاسلامي المنعقد في باريس سنة ١٩٥١ عن الربا ، وقال فيه : إن قضية الربا ليست قضية مبدأ ، لكنها قضية تطبيق ، وليس هناك مسلم على وجه الأرض يجيز الربا ، والا خرج عن الاسلام ، وإنما الخلاف حول بعض المعاملات الحديثة ، وما إذا كانت تنطوي على ربا أم لا ، وهو خلاف ثابت لدى السلف الصالح ، ولدى كبار أئمة فقهاء الاسلام ، وسيظل قائما ما بقيت الحياة باعتباره خلافا حول التطبيق » .

يجيز الشيخ النمر وغيره أرباح صناديق التوفير التي تعتمدها بعض الحكومات لتشجيع الناس على الادخار ، ويجيز أيضا شهادات الاستثمار المصرفية حيث يودع بعض الناس أموالهم ، ويحصلون على شهادات أو صكوك بقيمتها ، تحقق أرباحا أو جوائز بعد فترة زمنية معينة ، ويقول : إن مجمع البحوث الاسلامية وافق على بعض أنواع هذه الشهادات ، وإن لم يعلن ذلك رسميا ، وهو أيضا يجيز التأمين على الحياة ، ويورد آراء لفقهاء آخرين ممن يتفقون معه في الرأي ، وبنفس القدر يجيز القروض التي تمنح للمشروعات التعاونية ، وأصحاب المشروعات الاقتصادية الأخرى ، نظير فوائد أو أرباح سنوية .

لكن مؤلف الكتاب لم يقرر صراحة إجازة فوائد الايداع في البنوك ، وإن حام حول هذا المعنى بإشارات واضحة الدلالة ، وما إخراج هذه الفوائد من دائرة الربا إلا علامة على ذلك .

الأمر في النهاية يحتاج إلى بحث جاد ، ومناقشة فقهية ، تحدد ماهية الربا ، خاصة بعد نقض الحديث الذي يعتبر كل قرض جر منفعة ربا ، والتدليل على عدم جواز الاستدلال به ، وهي مناقشة حريّ بأهل الفقه والعلم أن يقصدوا إليها بوضوح ، لايحتمل اللبس ، ويبدد حيرة الحائرين ، ويجيب على أسئلة المتسائلين ، ذلك عن كتاب الشيخ عبدالمنعم النمر في الاجتهاد ، أما كتاب الشيخ يوسف القرضاوي فهو جدير بأن نخصص له حديثا آخر . □

أخلاق الصالحين

● سأل الخليفة هارون الرشيد أبا يوسف قاضي القضاة في عهده : « صف لي أخلاق أبي حنيفة » فقال أبو يوسف : « كان والله شديد الدفاع عن حرمات الله ، مجانبا لأهل الدنيا ، طويل الصمت ، دائم الفكر ، لم يكن مهذارا ولا ثرثارا ، ان سئل عن مسألة كان له فيها علم أجاب . وما علمته يا أمير المؤمنين الا صائنا لنفسه ودينه ، مشتغلا بنفسه عن الناس ، لايذكر أحدا الا بالخير » فقال الرشيد : « هذه والله أخلاق الصالحين » .

قصة مترجمة



ليس للبيع

بقلم : دوريس ليسنج* □ ترجمة : شوقي جلال

عاشت عائلة فاركرز سنوات دون انجاب ، ثم رزقت أخيراً بوليدها تيدي .... عمت الفرحة والسعادة الأسرة ، واشتد تأثرها بفرحة خدمها الذين هرعوا ليقدموا لسادة البيت الهدايا من الدجاج والبيض ، وليحتفلوا معهم بالوافد الجديد ، ويطلقوا زغاريد الفرح والبهجة فوق الرأس الذهبي الصغير الأزغب ، ذي العينين الزرقاوين . وتقدم الخدم لتهنئة زوجة السيد فاركرز ، وكأنها حققت انجازاً عظيماً لا يطاوله شيء ، وكان هذا هو شعورها الدفين حقاً ، الذي كشفت عنه ابتسامتها الدافئة الودود لضيوفها المعجبين من أهل البلد ، الذين أطالوا المكث ، وتباطأوا في الانصراف .

ومضت أيام وشهور ، وقص تيدي الصغير شعره للمرة الأولى . انحنى الطباخ « جيدون » ليجمع القصاصات الذهبية الناعمة من على الأرض ، وأمسك بها بين يديه في توقير واجلال ، وابتسم للصبي الصغير وقال :

« يا ذا الرأس الذهبي الصغير » ، وأصبح هذا هو اسم الطفل بين أهل البلد . وجمعت صداقة حميمة بين جيدون وتيدي منذ البداية . واعتاد جيدون كلما فرغ من عمله أن يرفع تيدي ويحمله فوق كتفيه ، ويتجه به نحو شجرة كبيرة ظليلة ، يلعب معه هناك ، ويشكلان لعباً صغيرة غريبة من أغصان وأوراق الأشجار ونصال الأعشاب ، أو يصنعان تماثيل لحيوانات من الطين . وبعد أن تعلم تيدي الخطو ، اعتاد جيدون أن ينحني أمامه ويقرقر بصوته يستحثه على المشي ، ثم يمسك به قبل أن يسقط الى الأرض ، ويحمله بين ذراعيه ، ويقذف به في الهواء حتى تتقطع أنفاسهما من شدة الضحك . وازداد اعجاب زوجة السيد فاركرز بالطباخ العجوز لولعه الشديد بطفلها .

لم يكن هناك طفل ثان ، وذات يوم قال جيدون : « آه يا سيدتي ، لقد رزقكم الله بهذا الابن الوحيد ، وان ذا الرأس الذهبي الصغير هو أجمل ما لدينا نحن في بيتنا » . عندما سمعت الأم لفظة « نحن » شعرت بنبضة حب دافئة تسري في دمها نحو طباخها ، ولهذا زادت أجره عند نهاية الشهر . لقد قضى في خدمتها شهوراً عديدة ، وهو الوحيد من بين أبناء البلدة الذي يصطحب زوجته وأطفاله معه في بيت الخدمة ، ولم يطلب أبداً العودة الى قريته التي تبعد بضع مئات من الأميال . ويحدث أن تقع العين بين الحين والآخر على صبي أفريقي يناهز تيدي عمراً ، يحدق بعينيه في رهبة من بين أفرع الأعشاب الطويلة بتفرس الصبي الأبيض ذا الشعر الأشقر الأسطوري .وفي عينيه

* أديبة بريطانية برعت في الوصف



الزرقاوين اللتين لا يرى مثلهما الا عند أهل الشمال . وقد يظل الطفلان يحدق كل منهما في الآخر بعينين واسعتين ، تفيضان دهشة واهتماماً . وحدث ذات مرة أن مد تيدي يده في فضول ولمس وجنة الطفل الأسود وشعره .

كان جيدون يرقب المشهد عن قرب ، وحين أبصر تيدي يفعل ذلك هز رأسه في تعجب وقال : « آه يا الهي ، هذان طفلان سواء ، سيشب احدهما ويكبر ليصبح سيداً ، بينما سيكون الآخر خادماً » .

وابتسمت الأم وقالت في حزن « نعم يا جيدون » ، هذا ما كنت أفكر فيه الآن .

وتنهدت . وتمتم جيدون بصوت خفيض « انه واقع الحال » كان جيدون مسيحيا ، اعتنق المسيحية على يد ارسالية تبشيرية ، وكانت عائلة فاركرز شديدة التدين ، وجمع هذا الشعور الديني في رابطة حميمة بين السادة والخدم .

وحين بلغ تيدي السادسة من عمره اشترت له أمه دراجة صغيرة ، واكتشف الطفل الصغير سحر السرعة ونشوتها . واعتاد الصغير أن يقضي سحابة نهاره يطوف بدراجته حول البيت يجري ويسرع بين أحواض الزهر ، وتهرع أمامه الدجاجات وهي تقأقيء في هلع ، وتهرب الكلاب مهتاجة ، ثم ينهي الصبي جولته بدفعة فورية سريعة على شكل قوس في اتجاه باب المطبخ . ويصيح بأعلى صوته : « جيدون ، انظر ... تعال لكي تراني » . ويضحك جيدون ويقول « عظيم جداً يا ذا الرأس الذهبي الصغير » . واعتاد أصغر أبناء جيدون ، وهو صبي يعمل الآن راعياً ، أن يأتي خصيصاً ليشاهد الدراجة الصغيرة . كان يتأملها بعينيه ويخشى الاقتراب منها ، ولكن تيدي يستعرض مهارته أمامه ويصيح به : « يا أفريقي ابعد عن طريقي » . ويسرع بدراجته يحوم بها في دوائر حول الطفل الأسود ، الذي يستبد به الخوف فيهرع خائفاً ليحتمي بالأشجار .

ويسأله جيدون بصوت فيه تأنيب مغيظ : « لماذا تخيفه ؟ » .

ويرد تيدي في تحد وقح « لا عليك ، انه صبي أسود ليس الا » . ثم يضحك عالياً بملء فمه . استدار جيدون ونأى عنه صامتاً مطرق الوجه .

وعندما رأى الصبي ذلك انسل مسرعاً الى داخل البيت ، وعاد يحمل برتقالة أعطاها لجيدون وهو يقول له :

« هذه لك » . لم يشأ الصبي الاعتذار أو ابداء الأسف له ، ولكنه أيضاً لا يحتمل فقدان جيدون وحبه له . أمسك جيدون البرتقالة في عزوف وعلى كره منه ، وندت عنه تنهيدة عميقة . وقال في ذهول : « قريباً جداً ستذهب عنا الى المدرسة يا ذا الرأس الذهبي الصغير ... وعند ذاك تكون قد كبرت » . ثم هز رأسه في هدوء وحسرة وقال في نفسه « وهكذا تمضي حياة كل منا » . وبدا وكأنه قد باعد بينه وبين تيدي ، وأضحت هناك مسافة تفصل بينهما ، لا استياء ، بل اذعاناً لقدر محتوم يرضى به صاغراً . ألقى الطفل بنفسه بين ذراعي جيدون وتطلع الى وجهه مبتسماً : كم من مرة تأرجح الصبي فوق كتفيه ، وكم من الساعات قضاها يلاعبه ويداعبه . ولكن جيدون الآن عازف عن أن يمس جسده جسد الطفل الأبيض . كان رقيقاً معه حقاً ، ولكن نمّ صوته عن جدية حزينة ، مما جعل الصبي يعبس وينأى عنه كسيفاً . وحدا هذا بالطفل الى أن يسلك معه سلوك السادة ؟ فقد أصبح مع جيدون ملتزماً بقواعد الآداب والسلوك ، يتعامل معه في إطار الرسميات والشكليات ، واذا حدث ودخل عليه المطبخ ليسأله شيئاً ، فانه يسلك معه سلوك السيد الأبيض مع خادمه الذي لا يتوقع منه غير الطاعة .

ولكن حدث ذات يوم أن أقبل تيدي يعدو ... دخل المطبخ مترنحاً ، ويداه فوق عينيه يصرخ من شدة الألم . ألقى جيدون بوعاء الحساء الساخن الذي كان في يده ، واندفع نحو الصبي وانتزع يديه من على عينيه وصرخ قائلاً : « أفعى .. » كان تيدي يجري بدراجته الصغيرة حتى أنهكه التعب ، وشاء أن يستريح ، فتوقف قليلاً ، واتكأ باحدى قدميه على طرف حوض مليء بالنباتات . واذا بإحدى أفاعي الأشجار قد التف ذيلها حول فرع الشجرة ، وتدلى رأسها ، فنفثت سمها الزعاف غزيراً في عيني الطفل مباشرة . أقبلت الأم تعدو في هلع عند سماعها الجلبة والضوضاء . أمسكت بطفلها تيدي وضمته الى صدرها ، واحتضنته بقوة وهي تبكي وتنشج :

« آه . . . سيذهب بصره . . . سيعمى يا جيدون . . » وهن بصر الصبي وقارب على التلاشي ، وانتفخت العينان وتورم الجفنان حتى أصبحا في حجم قبضة اليد ، وتشوه وجه تيدي الأبيض الصغير ، بعد أن غطته نتوءات ارجوانية ينز منها سائل غريب . وقال جيدون : « انتظري لحظة يا سيدتي سآتيه بدواء » . وانطلق يعدو ، وغاب بين الأحراش .

حملت الأم طفلها الى داخل البيت ، حيث غسلت عينيه بسائل « البرمنجنات » . انها لم تسمع بوضوح كلمات جيدون ، أو ربما لم تعبأ بها ، ولم تعرها أدنى اهتمام . ولكن حين فشلت وسائلها العلاجية ولم تحدث أثراً على الاطلاق ، طاف بخاطرها صورة بعض أهل البلد الذين فقدوا بصرهم ، لأن أفعى نفثت سمها في عيونهم . وهنا بدأت تتلهف الى عودة طباخها ، وقد تذكرت ما سمعته عن جدوى بعض الأعشاب البلدية . ووقفت الى النافذة ، وعيناها على الطريق تحدق في الأحراش ، وطفلها الباكي في هلع بين ذراعيها . ولم تمض دقائق حتى أبصرت جيدون مقبلاً يركض وفي يديه شجيرة .

قال جيدون : « لا تخشى شيئاً يا سيدتي . . . هذا العشب سيشفي عيني ذي الرأس الذهبي الصغير » . وانتزع أوراق الشجيرة ، حتى لم يبق منها سوى جذر أبيض غض صغير . وضع جيدون الجذر في فمه دون أن يغسله ، ومضغه بقوة الى أن امتلأ فمه بالمضغة واللعاب ، ثم انتزع الطفل من بين ذراعي أمه ، وأمسك به بين ركبتيه ، وضغط بابهاميه على العينين المتورمتين ، حتى صرخ الصبي من شدة الألم وصاحت الأم محتجة : « جيدون . . . جيدون » . ولكن جيدون لم يعبأ بصراخها ، وجثا فوق الطفل الذي يتلوى ألماً ، ورفع الجفنين المتنفخين الى أعلى ، حتى ظهرت العينان ، ونفث بعض ما في فمه بقوة مرة وثانية وثالثة في العين الأولى ، واتبع ذلك بالعين الثانية ، وأخيراً رفع الصبي في حنان من على الأرض ، ووضعه بين ذراعي أمه وقال : « ستتحسن عيناه » . ولكن الأم انخرطت في بكاء مر ، واستبد بها قلق وخوف ، وعجزت عن أن تشكره اذ كان من المستحيل عليها أن تصدق أن طفلها الوحيد سيحتفظ ببصره . وبعد ساعتين زال الورم وبدت عينا الصبي حمراوين ملتهبتين ، ولكن أصبح تيدي قادراً على الإبصار .

قصد السيد فاركرز وزوجته المطبخ حيث قابلا جيدون ، وأعربا له عن شكرهما . وكرر كل منهما الشكر مرات ومرات ، وأحسا بالعجز عن العرفان بالجميل ، وأنهما لا يملكان ما يعبر بحق عن مدى تقديرهما وعرفانهما . وقدما لجيدون الهدايا له ولزوجته وأطفاله . ونفحاه علاوة ضخمة زيادة على راتبه ، ولكن خيل اليهما أن كل هذا لا يساوي شيئاً بالقياس الى عيني تيدي اللتين شفيتا تماماً الآن .

ومن المألوف حين يقع حادث كهذا في القرية ، أن يشيع خبره ، وسرعان ما يتردد على ألسنة الناس ويحكيه كل شارد ووارد . لقد قص السيد فاركرز وزوجته القصة على جيرانهما ، وتناول الناس القصة بالتعليق ، وتناقلوها من حي الى آخر . ان الغابة مليئة بالأسرار . وكل من يفد الى أفريقيا ، أو يقصد الأجام على الأقل ، سرعان ما يعرف الحكمة القديمة المأثورة ، التي تتألف عناصرها من ورق الشجر والتربة وفصول السنة .

وبلغت القصة المدينة . ويبدو أن شخصاً ما حكاها أثناء حفل سامر ضم لفيفاً من الناس ساعة الغروب . وكان من بين الحاضرين طبيب سمع القصة ، ولكنه أنكرها وكذبها تماماً ، وتحدى أن تكون صادقة في قليل أو كثير . وعقب على ما سمعه قائلاً : « هراء . . . . . هذه أمور يبالغ فيها الناس كثيراً عندما يتناقلونها . واننا نحرص دائماً على تحري حقيقة مثل هذا النوع من القصص ، الا أننا لم نصل الى شيء أبداً » .

ولكن حدث على أية حال أن وصلت سيارة غريبة الشكل ، عبارة عن معمل متنقل ، وتوقفت أمام المنزل . وخرج من السيارة رجل يحمل حقيبة بها أنابيب اختبار ومواد كيميائية .

أحس السيد فاركرز وزوجته بمزيج من الحيرة والسرور والكبرياء . ودعوا الباحث الوافد لتناول الغداء ، وقصا على مسامعه القصة من جديد للمرة المائة . كان الصبي الصغير تيدي واقفاً هناك أيضاً ، عيناه تفيضان حيوية ، كأنهما يؤكدان للباحث صدق الرواية . وأوضح الباحث مدى الفائدة التي ستعود على البشرية لو أمكن استخلاص هذا العقار وبيعه

للناس . وسر السيد فاركرز وزوجته لهذا الاهتمام ، وأحسا بالغبطة اذ سيصبحان سبباً لاسعاد البشرية ، وانجاز عمل فيه خير الناس أجمعين ، وهو ما يتفق مع طبيعتها البسيطة العطوفة المحبة للخير . ولكن ما أن شرع الباحث في الحديث عن الأموال التي يمكن الحصول عليها من وراء هذا الكشف ، حتى انتابهما احساس بالقلق ، وأبديا عدم ارتياحهما . ذلك لأن شعورهما تجاه المعجزة (وكان هذا هو رأيهما فيما حدث) شعور قوي وعميق وديني ، مما يجعلهما يشعران بالاستياء عند التفكير في ربطها بالمال . لمح الباحث أمارات الاستياء على وجهيهما ، فتراجع وعاد الى الحديث من جديد عن خير الانسانية . ولعله لم يبال كثيراً ، فهذه ليست المرة الأولى التي جاء فيها وهو يتشكك في صدق السر الخرافي للأدغال .

وأخيراً وبعد أن فرغوا من الغداء استدعى السيد فاركرز جيدون الى غرفة المعيشة ، وأوضح له أن هذا السيد الموجود ضيفاً عليهما طبيب مرموق ، وعالم كبير ، وفد من المدينة الكبرى ، وأنه انما قطع هذا الطريق الطويل لا لشيء ، الا لكي يرى جيدون . استشعر جيدون بعض الخوف لسماعه هذا ، فهو يفهم المقصود . لمحت السيدة زوجة فاركرز طبيعة الشعور الذي ساوره ، فبادرت لتبين له أن السيد الكبير انما جاء بسبب تلك المعجزة التي حدثت على يديه وشفت عيني تيدي .

أخذت عينا جيدون تنتقل ما بين السيد فاركرز وزوجته ، ثم أخيراً الى الصبي الصغير الذي أبدى اهتماماً كبيراً بالموضوع . وأخيراً قال جيدون باستنكار : « هل يريد السيد الكبير أن يعرف الدواء الذي استخدمته ؟ » ونم صوته عن ريبة وقلق ، وكأنه لا يصدق أن الأمر يصل بأصدقائه القدامى الى حد خيانته والوشاية به . عاد السيد فاركرز ليوضح له مدى فائدة هذا الدواء الذي يمكن استخلاصه من الجذور ، وكيف يمكن طرحه للبيع في الأسواق ، وكيف يمكن أن يفيد آلاف البشر ، سوداً وبيضاً ، ومن أقصى أفريقيا الى أقصاها .

وساد صمت جديد بعد هذا التوضيح المسهب ، وأبدى جيدون لامبالاة إزاء كل ما سمع ، ثم قال انه لا يتذكر هذا الجذر النباتي . بدا عابس الوجه ، مقطب الجبين ، غاضب الملامح ، عدواني التعبير ، حتى وهو يرمق بنظراته السيد فاركرز وزوجته ، اللذين اعتاد أن يعاملهما كأصدقاء قدامى . وتسرب الضيق الى نفوس الجميع ، ومحا هذا الشعور الاحساس بالذنب الذي انبثق في باطنهم ، بسبب سلوك جيدون الذي ينطوي على اتهام لهم . وساورهم احساس بأنه انسان غير عاقل . ولكن سرعان ما زايلهم هذا الاحساس ، وأدركوا أنه عنيد لا يلين ، وأن العقار السحري ـ يظل في مكمنه خافياً مجهولاً ، لن يفيد به سوى القلة المتناثرة من الافريقيين العارفين بسره من أهل البلد ، العاملين هنا وهناك ، ربما في حفر الخنادق للبلدية بقمصانهم الممزقة ، وسراويلهم القصيرة المرقعة ، ولكنهم يولدون ليشفوا المرضى ، ويتوارثون هذه المهنة ، ومن يدري ، لعلهم من أقارب أو أبناء الأطباء السحرة القدامى ، اللذين اعتادوا في قديم الزمان تغطية وجوههم بأقنعة شوهاء ، واستعمال عظام نخرة وغير ذلك من خصائص السحر الشاذة .

بيد أن الجميع واصلوا الحاحهم والضغط عليه ومحاجاته ، مستخدمين كل ما يملكون من براعة وقدرة ، على الرغم من السخط الذي تملكهم . وظل جيدون على كلمته ، يردد قوله انه لا يتذكر ، أو انه لا يوجد جذور نبات من هذا النوع ، أو ان هذا ليس هو موسمه ، أو ان شفاء عيني تيدي لم يكن بسبب الجذر ذاته ، بل نتيجة اللعاب الذي نفثه من فمه . قال هذه الحجج الواحدة تلو الأخرى ، ولم يعبأ بما تنطوي عليه من تناقضات . بدا فظاً عنيداً ، حتى أنكره آل فاركرز ، فلم يروا فيه خادمهم العجوز الرقيق الهادىء المحبوب ، بل رأوا مواطناً من أهل البلد الأفريقيين ، أمياً عنيداً صلب الرأي ، يقف أمامهم مطرق الرأس خافض العينين مرتجف اليدين ، ويشد بأصابعه أطراف إزار المطبخ ، ويكرر ويعيد أي إجابة رافضة تطرأ على ذهنه .

وفجأة بدا وكأنه استسلم ـ رفع رأسه وسدد نظرة جامدة غاضبة ، طاف بها على الوجوه البيضاء المحيطة به ، وخالها حلقة من الكلاب النابحة تطوقه ، وتضيق عليه الخناق وتعوي وتطارده . . . ثم قال : « سأهديكم الى الجذر المنشود » .

ساروا خلفه فرادى صفاً واحداً . كان الوقت ظهراً والحر لافحاً ، والطقس هجيرا ، والسماء

ملبدة بسحب تنذر بأمطار ساخنة . كل شيء حارق كأنه الجحيم ، الشمس فوق رؤوسهم صينية من البرونز معلقة في السماء ، والهواء يسوده وميض أبيض ملتهب يغطي الحقول ، والأرض رمضاء تشوي الأقدام ، والريح مترية ساخنة محملة بذرات الرمال تلسع الوجوه . كان يوماً قاسياً مروعاً لا يفيد معه الا ان يستلقي المرء في استرخاء على أرض شرفة هاوية يترع المشروبات المثلجة ، وخاصة في مثل تلك الساعة التي خرجوا فيها .

وتذكر أحدهم يوم نهشت الأفعى تيدي ، وكيف عاد جيدون بعد عشر دقائق فقط ، حاملاً الجذر بين راحتيه ، وسأل في ضجر : « ألم تبعد كثيراً يا جيدون ؟ » ولكن جيدون أجاب في أنفة وصدود ، وفي صوته رنة أدب غاضب : « اني أبحث لكم عن الجذر يا سيدي » . والحقيقة أنه كثيراً ما حاد هنا وهناك يتحني على الأرض ويمد يده بين الأعشاب بحركة فيها فتور تنطوي على اهانه وتحقير . وسار بين الأحراش عبر ممرات مجهولة قرابة الساعتين ، وسط هذا الهجير والقيظ اللافح المهلك ، حتى تصبب العرق غزيراً على أجسادهم ، وتصدعت رؤوسهم ، ولكنهم لزموا الصمت التام : صمت آل فاركرز بفعل الغضب الشديد المكظوم ، وصمت الباحث لأنه وجد دليلاً جديداً يؤكد صدق شكوكه ، انه لا يوجد نبات من هذا النوع . وهكذا كان صمته لباقة لا غير .

وأخيراً وعلى بعد ستة أميال من البيت ، قرر جيدون أنهم قد نالوا كفايتهم ، أو ربما تبخر غضبه وزايله في تلك اللحظة . والتقط من بين الأعشاب حفنة من الأزهار الزرقاء ، دون أن يكلف نفسه عناء النظر اليها ، بل بدا وكأنه يأتي عملاً عفوياً عارضاً . والغريب أنها أزهار موجودة بوفرة ومنتشرة على طول الممرات والدروب التي سلكوها .

ناول الأزهار للباحث دون النظر اليه ، ثم استدار وقفل عائداً وحده ، تاركاً لمن معه أن يتبعوه اذا شاءوا .

وبعد أن عادوا جميعاً الى البيت قصد الباحث المطبخ ليشكر جيدون ؟ . . . . كان دمثاً شديد الأدب ، على الرغم من النظرة الساخرة التي تطل من عينيه . ولكن لم يكن جيدون هناك . وألقى العالم الأزهار باهمال فوق المقعد الخلفي للسيارة . وأدار الزائر المرموق محرك سيارته وعاد أدراجه الى معمله .

عاد جيدون بعد فترة الى المطبخ ليعد طعام العشاء ، ولكنه كان عبوساً متجهماً . تحدث الى زوجة السيد فاركرز حديث خادم كاره متمرد . ومضت أيام قبل أن يعود الود الى مجراه ثانية بينهما .

حاول آل فاركرز استقصاء حقيقة الجذر النباتي بسؤال العاملين في المزرعة . ولكنهم كانوا يتلقون أحياناً اجابات مشفوعة بنظرات استياء وامتعاض . وقال أهل البلد أحياناً أخرى : لا نعرف شيئاً عن هذا ، لم نسمع أبداً عن هذه الجذور » ولكن الصبي الذي عمل عندهما راعياً للبقر منذ زمان طويل ، وبات يثق فيهما بعض الشيء قال لهما : « اسألا خادمكما الموجود في المطبخ . إنه طبيب يعيش بينكما . انه ابن طبيب ذائع الصيت ، طبقت شهرته الآفاق ، اعتاد أن يعيش في هذا الاقليم ، ولا يوجد داء الا وله عنده دواء يشفيه » . ثم أردف قائلاً في أدب جم : « طبعاً انه ليس نداً للطبيب الأبيض ، نحن نعرف هذا ولكنه ملائم لنا نحن » .

ومضت أيام ، وبعد أن زالت الجفوة بين آل فاركرز وبين جيدون ، عادوا الى الضحك والمداعبة . وحدث أن سألت الزوجة ذات مرة جيدون : « متى سترينا يا جيدون الجذر الذي يستخدم ترياقاً لنهشة الأفعى ؟ » ولكن جيدون هز رأسه ضاحكاً وقال ، وفي نفسه بعض الضيق : « لقد أريتكم اياه ياسيدتي . هل نسيتم ؟ » .

ومضت سنوات وأصبح تيدي تلميذاً بالمدرسة ، واعتاد أن يدخل على جيدون المطبخ ، وقال له ذات مرة : « أنت يا جيدون ، أيها الصعلوك المتشرد ، هل تذكر يوم أن سخرت بنا جميعاً ، وجعلتنا نتبعك سيراً على الأقدام أميالاً عبر الأحراش بلا جدوى ؟ لقد كانت مسافة طويلة حتى اضطر أبي الى أن يحملني » . ولكن يتضاعف ضحك جيدون في أدب . وبعد طول ضحك ، انتصب واقفاً ومد قامته وفرك عينيه العجوزتين ، وتطلع في أسى الى تيدي ، الذي يبتسم له في خبث وقال : « آه يا ذا الرأس الذهبي الصغير . ها أنت قد كبرت ، وعما قريب ستصبح شاباً وسيداً يملك مزرعة خاصة به . . . . » □

الفصل بين الطب والفلسفة

بقلم : الدكتور عادل البكرى *

من الأطباء الذين يذكرهم التاريخ في العصر العباسي المتأخر ، طبيب خدم الحضارة العربية ، هو وعائلته التي ظهرت ببغداد لأول مرة خلال القرن الثاني الهجرى ، والتي أسهم أبناؤها من الأطباء في إرساء علوم الطب لفترة تجاوز الثلاثة قرون ، وشاركوا في حمل مشعل الحضارة التي أنارت للعالم سبيله ، وكانت أساسا لقيام النهضة الحديثة .

أما الطبيب فهو عبيدالله بن جبرائيل بن عبيدالله ، وأما عائلته فهي عائلة (بختيشوع) نسبة الى مؤسسها بختيشوع بن جورجيوس بن جبرائيل . وكان جورجيوس هذا أول من قدم من هذه العائلة الى بغداد ، وكان رئيسا لأطباء جنديسابور ، وله خبرة واسعة بالطب والمداواة ، وهو ممن عملوا على ترجمة الكتب اليونانية الى العربية ، وقد استدعاه الخليفة المنصور في سنة ١٤٨ هـ لاصابته بمرض في معدته ، بعد أن فشل أطباء بغداد في علاجه ، فلما وصل مدينة السلام ودخل على المنصور ، دعا له وحدثه أحسن حديث ، فتعجب المنصور من حسن مظهره ، ومن حديثه ومنطقه ، فأكرمه وأمر بتخصيص دار له ، وتوفير ما يحتاجه في اقامته ومعيشته .

وبقي في بغداد مدة أربع سنوات ، حتى أصيب بمرض ، فالتمس من المنصور أن يأذن له بالرجوع الى بلده واهله ، فأذن له المنصور بذلك ، ومنحه عشرة آلاف دينار ، وأنفذ معه خادما لمرافقته .

معاهد علمية

وجنديسابور التي جاء منها هذا الطبيب هي بلدة في خوزستان ، أي عربستان ، اشتهرت بمدرستها الفلسفية التي أوجدها الرهبان النساطرة الذين نزحوا اليها ، بعد أن طردهم البيزنطيون من بلاد الأناضول ، وقد سموا بالنساطرة نسبة الى

* كلية الطب - الجامعة المستنصرية - بغداد

نسطوريوس بطريك القسطنطينية الذي قال بناسوتية المسيح ، مما أثار حفيظة رجال الدين ، فأبعدوه هو وأتباعه من بيزنطة ، فصاروا يتنقلون من بلد الى آخر ، حتى توفي نسطوريوس منفيا سنة ٤٤٠ م ، ثم استطاع بعض اتباعه بعدئذ أن ينتشروا في غربي آسيا وفي سوريا وبلاد مابين النهرين ، ويبثوا أفكارهم بأقوال ومذاهب منتزعة من الفلسفة اليونانية ، كما نقلوا مع الفلسفة علوم الطب والكيمياء والفلك .

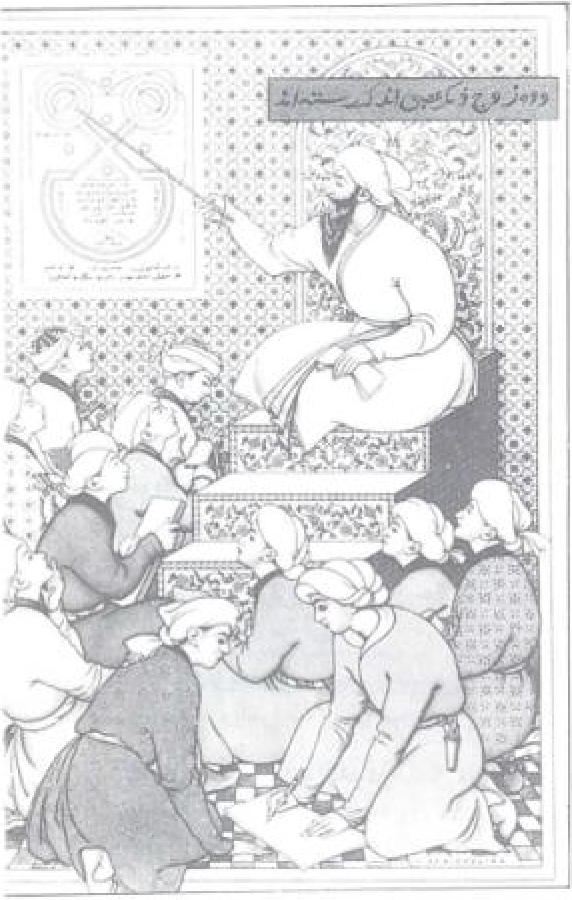
وأنشأوا في الرها ونصيبين وحران مدارس تدرس باللغات السريانية ، وكان لهذه المدارس شأن عظيم كمعاهد علمية في أواخر القرن الخامس الميلادي ، واشتهرت مدينة الرها ـ وهي مدينة أورفة التركية حاليا ـ بهذه العلوم أكثر من غيرها من المدن ، حتى دعيت (أثينا الشرق) ، وكان فيها جامعة تدرس العلوم الدينية والانسانية ، وكان أكثر اساتذتها من هؤلاء النساطرة ، غير أنه لم يطل مقامهم فيها ، حيث نزحوا الى جنديسابور البعيدة عن أراضي بيزنطة . غير أن العرب لم يلبثوا أن فتحوا بلاد فارس مع جنديسابور سنة ١٩ هـ ، فأصبحت هذه البلدة ومدارسها ومستشفياتها تحت اشراف العرب ورعايتهم .

وقد اعتنى العرب بهذا المستشفى وأنفقوا عليه أموالا كثيرة ، وكانت اللغة العربية مستعملة فيه الى جانب السريانية واليونانية ، حتى أن أساتذة المستشفى كانوا يتكلمون بها ، وقد عمل بعضهم على ترجمة الكتب اليونانية الى العربية .

عائلة من الأطباء

أما بختيشوع بن جورجيوس فقد اشتهر كأبيه بعلوم الطب والمعالجة ، وكان قد ولاه ادارة المستشفى مكانه عندما استدعاه المنصور الى بغداد ، وقدم هذا

الى بغداد أيضا في خلافة هارون الرشيد لمعالجة الخليفة من صداع لحقه ، واختبره الرشيد في أول مقابلة له معه ، وتأكد من غزارة علمه ، فأكرمه ووهب له مالا كثيرا ، وجعله رئيسا لأطباء بغداد ، وقد خلّف بختيشوع ولدا طبيبا اشتهر شهرة واسعة ، وهو جبرائيل بن بختيشوع الذى أصبح الطبيب الخاص للخليفة الرشيد ، وكان لايرد له



الطبيب بختيشوع يشرح درساً في الطب

طلبا ، وقال يوما من كانت له حاجة فليطلبها عند جبرائيل ، ثم صار بعدئذ طبيبا لكل من الأمين والمأمون ، مقربا اليهما ، كما كان في عهد أبيهما الرشيد ، وتوفي جبرائيل بن بختيشوع وترك عددا من المؤلفات الطبية ، كما ترك ابنا اشتهر بالطب ايضا وهو بختيشوع بن جبرائيل .

وقد نال بختيشوع بن جبرائيل هذا منزلة عظيمة عند الخليفة المتوكل ، وبلغ مالم يبلغه أحد من الأطباء آنذاك من المكانة والثروة ، حتى كثرت أمواله ، وصار يضاهي الخلفاء في مظهره ومعيشته . وهو أول من أوجد طريقة تكييف الهواء في المنازل صيفا

وشتاء ، ففى الأيام الشديدة الحر كان يجلس في غرفة ذات طاقات ، يدخل منها هواء مبرد ، بعد مروره على مواضع فيها ثلج مكبوس ، فيندفع الهواء من هذه الطاقات الى الغرفة التي يجلس فيها فيبردها ، أما في الشتاء فكان الهواء يمر على جمر من الفحم الذي يوقد في كوانين كبيرة ، ينفخ فيها غلمان بأجربة (مفردها جراب) من الجلد كتلك التي عند الحدادين ، فيدخل الهواء الحار الى الغرفة فيدفئها .

اما عبيد الله بن جبرائيل الذي خصصناه بالدراسة في هذا المقال ، فهو من أشهر أحفاد هذه الأسرة ، وكان قد قضى شطرا من حياته في بلدة (ميافارقين) ثم انتقل الى بغداد ليصبح من أشهر أطباء المستشفى العضدي ، ويقول عنه ابن أبي أصيبعة انه كان فاضلا في صناعة الطب ، مشهورا بجودة الأعمال فيها ، متقنا لأصولها وفروعها ، ومن جملة المتميزين من أهلها والعريقين من أربابها .

كما كان معاصرا للطبيب البغدادى ابن بطلان ، ويجتمع به ويأنس اليه وبينهما صحبة .

فصل الطب عن الفلسفة

وفي حديثنا عن عبيد الله بن جبرائيل لابد أن نذكر أنه أول من اعتبر الطب علما مستقلا ومنفصلا عن الفلسفة ، بعد أن ظل فترة طويلة مرتبطا بها وتابعا لها ، وقد أوضح ذلك بكتابه المسمى (وجوب النظر على الطبيب في الأحداث النفسانية) الذي نشره فيلكس فرانكه ببيروت سنة ١٩٧٧ ، والذي سمى الطبيب بموجبه عالما وليس صاحب مهنة ، وكان جالينوس لايعتبر الطب علما بل صناعة يدوية وحرفة ، أما ما يلحق بهذه الصناعة (أي صناعة الطب) من علم ومعرفة نظرية فهو جزء من الفلسفة وليس غير ذلك ، وهذا الرأى أخذ به بعض الأطباء العرب ، منهم علي بن رضوان المصرى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وكان هذا لايطلق اسم الطبيب الا على من يشتغل بالفلسفة ، وكان يقول ان الذي يريد أن يتعلم الطب يجب ان يحصل عليه من الكتب وليس من أفواه المعلمين ، وبذلك فهو يجعل الطب علما نظريا صرفا حاله حال الفلسفة والأدب .

وبمثل هذا الرأى قال أبو بكر الرازي الذي كان يعترض في كتابه المسمى (السيرة الفلسفية) على أولئك الذين يقولون ان الأطباء ليسوا فلاسفة ، لأنهم في تصرفهم ومعاشهم لايشبهون الفيلسوف سقراط في زهده وتقشفه ، وهو يعتقد أن في قولهم هذا نقيصة تستوجب مثل هذا الاعتراض ، فيقول دافعا عن نفسه تهمة كونه طبيبا بدون فلسفة : (ولم يظهر من أفعالي ما استحققت أن يقال انه ليست سيرتي سيرة فلسفية ، فاني لم أصحب السلطان صحبة حامل السلاح ، ولامتولي أعماله ، بل صحبته صحبة متطبب ومنادم يتصرف بين أمرين أما في وقت مرضه ، فعلاجه أمر بدنه ، وأما في وقت صحة بدنه ، فايناسه والمشورة عليه) .

ولذلك جاء عبيد الله بن جبرائيل لنقض هذا الرأى ، وليدعو الى القول بأن الطب هو غير الفلسفة ، وهو علم مستقل لا ارتباط له بالفلسفة ، الا بما يدخل في منطق الاستقراء والاستنتاج التي تتطلبها الفحوص السريرية والمتابعة العلمية ، كما دعا الى دراسة الطب بالممارسة والتجربة لا بالقراءة فقط ، ولهذا السبب صار عبيد الله بن جبرائيل الى جانب ابن بطلان في رأيه المعارض لابن رضوان المصرى الذي كان يدعو الى دراسة الطب بشكل نظري .

ان هذه الدعوة الى جعل الطب غير مقيد باتجاهات الفلاسفة وتأثيرهم الفكري ، جعل الطبيب ينطلق بمهنته ويعمل في مجال بحثه للتحرى عن أسباب الأمراض ، وعن الأدوية ، وتطبيق المعالجات بأسلوب واقعي دون الالتزام بنظريات اليونان ، الأمر الذي ساعد على تطور الطب العربي بعدئذ بشكل متميز ، ولذلك يعتبر الكتاب الذي وضعه عبيد الله بن جبرائيل في هذا المجال دعوة الى تطوير الطب ، كما انه في الوقت نفسه دعوة الى اخضاع الاضطرابات النفسية للمعالجة الطبية ، وفيه رد صريح على من يقول ان الطبيب يجب الا يعالج الحالات النفسية ، كما انه يؤكد أن الألم النفساني يولد أمراضا جسمانية ، وهذا مايؤكده الطب الحديث .

وليس هذا كل مافي الأمر ، فان لهذا الطبيب آراءه الخاصة التي تعكس فلسفته في المسائل الطبية التي

يعرضها في كتاب آخر من كتبه المهمة هو كتاب (الروضة الطبية) وكان قد بدأه بمقدمة يقول فيها (الفاضل من الناس من اختصه الله تعالى بثلاثة : عقل يعرف به ذوات الأشياء وحقائقها ، وأدب يهتدي به الى أسنى الأمور وأفضلها ، ودين ينحاز به عن المآثم ويجتنبها) ويحتوى الكتاب على عدد من المسائل تتراوح بين القصر والطول في مواضيع طبية متنوعة ، هي الجنس ، والنوع ، والطبيعة ، والمزاج ، والروح ، والنفس ، والعقل ، واللذة ، والحس ، والفكر ، والغضب ، والحركة ، والزمان ، والمكان ، والمعرفة ، والقياس ، والبرهان ، والعلة ، والنوم ، والرؤيا ، والصحة ، والغذاء ، وغيرها من المواضيع .

يقول عن العضو انه جزء من بدن الانسان ، ينحاز بحيز خاص ، وأعد لفعل ما . . أي انه يجب أن يكون له كيان محدود ذو ابعاد ، بحيث يشغل جزءا خاصا ، فلا يمكن أن يكون العضو شيئا معنويا وغير ملموس ، وهو يقسم الأعضاء الى بسيطة ومركبة ، والمركبة منها يقسمها الى رئيسة ومرؤوسة ، والأعضاء الرئيسة هي التي تسيطر على الأفعال الحيوية في الجسم ، وتقوم بالنمو والمحافظة على الوجود ، وهي أربعة : الدماغ الذي تنشأ منه الأعصاب وتنتشر في سائر البدن ، وتقوم بأعمال الحس والحركة ، ثم القلب الذي تنشأ منه العروق ، فتعطي البدن الحرارة والحياة . ثم الكبد الذي له أهميته في توصيل الغذاء الى أقسام البدن ، فيكون منه النمو والتعويض عما يتحلل منه ، ثم الأعضاء التي مهمتها القيام بالتكاثر والمحافظة على النسل ، أما الأعضاء البسيطة فهي المتشابهة الأجزاء التي كل جزء منها يشابه العضو الكامل ، كالعظام والغضاريف والأعصاب والعروق والشحم واللحم وما يشبه ذلك . اما الحس فيقول عنه انه قوة للنفس مدركة للمحسوسات .

النفس والبدن

والحس يكون من اعتدال الطبائع ، وتشترك فيه النفس والبدن معا ، فالنفس تمثل قوة الحس ، أما البدن فهو آلته ، وعدد الحواس خمس هي البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، فالنظر يحس الألوان والأشكال والأعداد ، والسمع يحس الأصوات بما فيها النغم والطنين والدوى ، والشم يحس الروائح ، والذوق يحس الطعوم ، واللمس يحس الأشكال والخشونة والملاسة والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

ويقول عن الصحة انها حال للبدن بها تتم الأفعال الجارية المجرى الطبيعي ، وهي تقال على وجهين : الصحة على الاطلاق ، وهي الصحة الكاملة التي هي غاية الكمال وهذا الضرب غير موجود .

ثم الصحة التي لها عرض ، وهي الموافقة للمزاج والهيئة ، أي التي توافق مزاج الانسان ، حتى لو كان في غير تمام الصحة كأن يكون ضعيف الكبد ولكنه يكون صحيحا . وبالاجمال فان الأطباء يسمون كل من كان يقدر أن يفعل أفعاله الطبيعية صحيحا ، ويكون حفظ الصحة بملاحظة الأسباب الستة الضرورية للحياة وهي : -

(١) الهواء المحيط بنا (٢) مايؤكل ويشرب (٣) النوم واليقظة (٤) الحركة والسكون (٥) الاحتقان والانبعاث (٦) الأحداث النفسانية .

فمتى حافظ الانسان على هذه العوامل الستة دامت له صحته ، ومتى اضطربت وجرت على غير تقدير جلبت له المرض ، وان الدواء من شأنه أن يغير طباعنا (أي طباع الجسم الذي أثر فيه المرض ، فيرجعه الى طبيعته الأولى) .

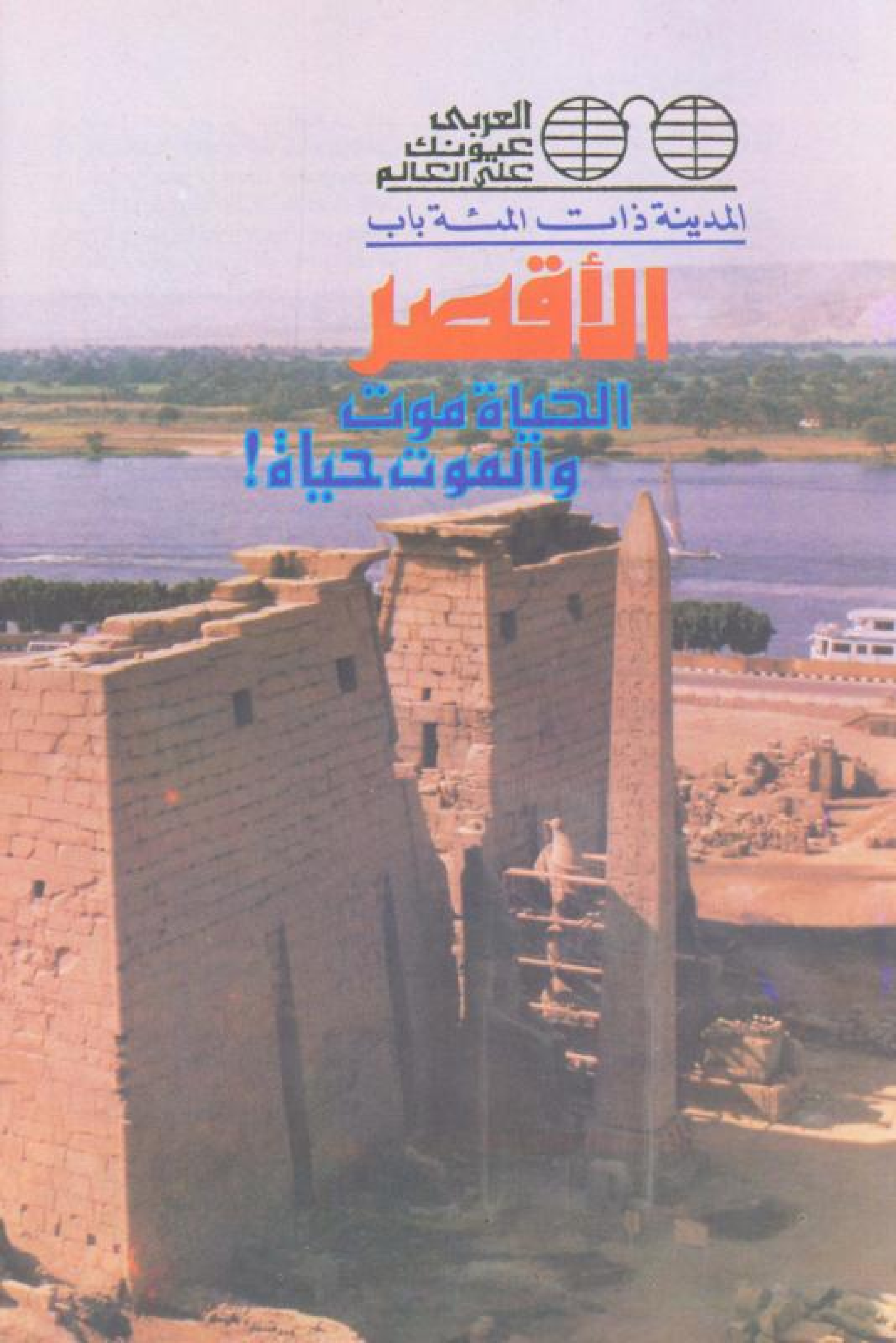
وقد توفي عبيد الله بن جبرائيل سنة ٤٥٠ هـ ، وترك مؤلفات طبية غير ما ذكرناه ، منها كتاب (مناقب الأطباء) وقد ذكر فيه شيئا من أحوالهم ومآثرهم ، وكان قد كتبه سنة ٤٤١ هـ ، وكتاب (طبائع الحيوان وخواصها) ألفه للأمير نصير الدولة وكتب غيرها ، الا انه لم يترك من الاولاد والاحفاد ما يجدد بهم تاريخ الأطباء الكبار من أسرة بختيشوع ، فكان هو خاتمة الأطباء الذين ينسبون الى هذه الأسرة العريقة ، والذين نذكرهم كلما ذكرنا تاريخنا الزاهر في عصر الحضارة العباسية . □

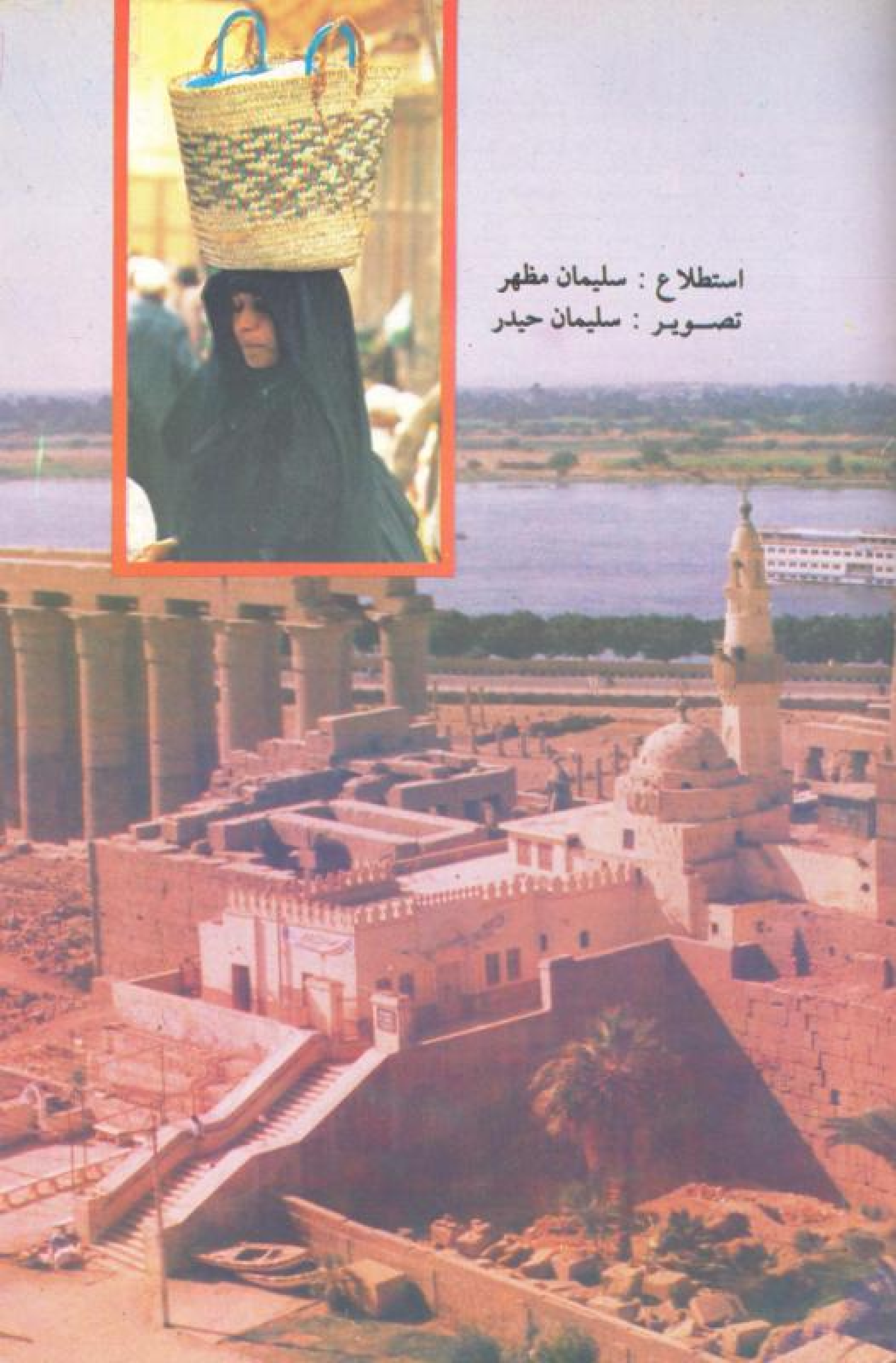
العربي
عيونك
على العالم

المدينة ذات المئة باب

الأقصر

الحياة موت والموت حياة!





استطلاع : سليمان مظهر
تصـوير : سليمان حيدر

« إن طيبة . . هي أعظم كلمة في أية لغة من لغات الأرض . . وإن الانسان لتأخذه الحيرة والدهشة من جمال آثارها وسموها وبهاء صنعتها . . وما من شك في أن شعباً من الشعوب العريقة في الأرض لم يستطع أن يسمو بفن العمارة سمو المصريين القدماء . . كأنهم لم يكونوا بشراً مثلنا . . كأنما كانت لهم قامات العمالقة » .

« شامبليـــون »

في طيبة . . مدينة الأقصر المستلقية في أقاصي صعيد مصر . . رأينا مشهداً عجباً !

رجال ونساء وأطفال يتزاحمون وهم يسيرون ببطء في موكب طويل مهللين مكبرين ، ومن جوانب الطرق تتدافع كل طوائف الشعب لتشارك في المسيرة ، ومن الأفواه ترتفع آيات الحمد والشكر والثناء ، ومن الصدور تنطلق دعوات الرجاء والابتهال تشق طريقها نحو السماء . . . !

ونتأمل في دهشة قلب الموكب . . . .

زورق مذهب في شكل قارب فرعوني يحمله الناس على المناكب والأكتاف ، بعد أن أخرجوه من خزانته عند جدار مسجد « سيدي أبو الحجاج » القائم في فناء معبد الأقصر . . وكانوا قد أجروا عليه عمليات الدهان والترميم ثم اتجهوا ليضعوه على عربة مكشوفة بين التهليل والتكبير ، قبل أن ينطلقوا في موكب مهيب ليدوروا به في شوارع المدينة بين معبدي الأقصر والكرنك وطريق الكباش ، وهم يحملون الزورق على أكتافهم بين الحين والحين ، ومن خلفه زورقان آخران أصغر منه . وعندما ينطلق الموكب على الجانب الشرقي للنيل تتجه الأنظار جميعاً الى الضفة الغربية حيث مدينة الموتى . . ثم يواصل الموكب سيره وسط الدعاء وآيات الحمد ليعود مرة ثانية الى فناء المسجد . . وهناك يتجمع الناس يتقدمهم محافظ المدينة وأحفاد سيدي أبي الحجاج والرسميون والعسكريون ، لاستكمال احتفالهم بمولد سيدي أبي الحجاج الأقصري . . الذي يعتبرونه ولياً من أولياء الله الصالحين .

ونتذاكر ما شهدناه من رسوم نقشت قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة على جدران معبد الأقصر المطل على النيل .

من خلال النقوش على الجدار رحنا نتتبع المراحل التفصيلية لاحتفالات « أوبت » الدينية .

تبين النقوش أنه حين كان أبناء طيبة يحتفلون بعيد آمون خلال الشهر الثاني من فصل الفيضان وبعد انتهاء موسم الحصاد وجني الكروم ، كان تمثال الإله آمون يخرج من معبد الكرنك في زيارة خاصة لزيارة « حريمه » في معبد الأقصر . . موطن حياته الزوجية الخاصة ، حيث يقضي أحد عشر يوماً مخصصة لخروجه الإلهي في عيد « أوبت » الكبير . . ويتجلى على طول الطريق لأتباعه المؤمنين به المتحمسين له . . . وكان الكهنة يحملون على مناكبهم محراب آمون في زورقه القدسي الفخم المتوهج ببريق الذهب . . ويسيرون به - ومن خلفه زورقا زوجته موت وابنه خونسو - في موكب مهيب يتقدمه حملة البيارق واللافتات والأبواق لافساح الطريق لموكب الإله . . فيستقبله الناس بالحمد والتهليل والدعاء . . وحين يبلغ مطلع الموكب مرفأ النهر - وهو ما زال قائماً حتى الآن - يرفع محراب آمون فوق زورقه ليتهادى على مياه النيل . . ويسير الزورق من الشمال الى الجنوب ضد التيار حيث يجدف رجال عراة الصدور في زوارق السحب بكل قواهم يساعدهم رجال آخرون يشاركون في السحب بالحبال من جانب النهر . . بينما قارعو الطبول والضاربات على الصنوج يصاحبون بحركاتهم موكب الزوارق المقدسة التي تصحبها سفينة الملك وسفن أخرى مكدسة بكل أنواع الهدايا والقرابين من مباخر فاخرة ، وآنية بديعة ، وصناديق وأدوات للزينة ، وعطور وبخور يحملها خدم عديدون . وعلى الشاطيء يخر الناس احتراماً كلما مر بهم الموكب في سفنه المقدسة تتهادى على صفحة المياه . فاذا وصل معبد الأقصر نحرت الذبائح وقدمت القرابين وتقاطر الناس أفواجاً للاشتراك في هذا العيد العظيم . فاذا مارست السفن على رصيف معبد الأقصر ، حمل الكهنة حملهم المقدس على الأعناق مرة أخرى ، ودخلوا المعبد بين الدعوات والأهازيج حتى يصلوا الى المقاصير المقدسة ، حيث تودع تماثيل الآلهة الثلاثة في أماكنها من قدس الأقداس . . .

لقد استمرت الأقصر تشهد ذلك الموكب الديني لمئات من السنين . وحين دخل المصريون في دين الاسلام استمر أهل المدينة المحدثون يمارسون في

احتفالهم الديني بمولد سيدي أبي الحجاج نفس ما كان أجدادهم القدامى يفعلونه ، ولكن بعد أن أضافوا الى موكب الولي المسلم سفينة آمون المقدسة . وكانوا وهم يفعلون ذلك يدركون أنهم إنما يحافظون على تقاليدهم ويتمسكون بتراثهم .

المدينة ذات المائة باب :

والأقصر مدينة تمتد على ذراع النيل على طول الضفة الشرقية .. وتقع على مسافة حوالي ٦٧٠ كيلومتراً جنوب القاهرة ، وتبتعد عن أسوان والسد العالي بحوالي مائتي كيلومتر .

وقد كانت ذات يوم بعيد قلب اقليم من أقدم أقاليم مصر ، حين اتخذ أهله ـ رمزاً لهم ـ شعاراً يسمى بلغتهم « واست » ومعناها القوة والصولجان .. وهو لفظ عرف به الاقليم منذ أقدم العصور .. ثم أطلق على عاصمته اسم طيبة .. وتعني مدينة الإله الكبرى . أما تسميتها الحديثة فقد كان ذلك على يد العرب الذين تخيلوا معابدها قصوراً سموها الأقصر ، وازنوا بين واحد من معابدها وبين قصر النعمان بن المنذر الذي كان يسمى « الخورنق » فسموا المعبد بذلك الاسم الذي حرف الى « الكرنك » . أما المؤرخون فقد عرفت المدينة لديهم باسم « المدينة ذات المائة باب » لاتساعها الهائل ولتعدد ابواب معابدها التي كانت تشغل المساحة التي تحيط بالكرنك وتمتد ضواحيها حتى تشمل معبد الأقصر .

ومنذ اللحظة الأولى لوصولنا الى الأقصر أحسسنا أننا نغوص في عمق التاريخ ، وكان الهواء الذي نتنسمه مختلطاً بعبق مصر القديمة ، يحمل الينا همسات زاخرة بألوان كثير من الأحداث ومظاهر العادات والتقاليد ، عاشها المصريون لعدة آلاف من السنين . وما زال الناس في الأقصر يواصلون الحياة على بقاياها وذكرياتها ومنابع كنوزها حتى اليوم ..

دخلنا معبد الأقصر .. ويسمونه « معبد الحريم » نسبة الى ذلك الوصف التفصيلي الذي شهدناه محفوراً بالنقوش على جدران المعبد لمشاهد احتفالات أعياد الإله آمون ورحلته من معبد الكرنك الى معبد الأقصر لزيارة زوجاته .. كما تنطبق التسمية أيضاً على المعبد بالنسبة للغرض الرئيسي الذي شيده من أجله الملك أمينوفيس الثالث (امنحتب) .

بدا لنا ذلك الغرض واضحاً حين وقفنا في « قاعة الولادة » ومعنا مرافقنا الأثري أحدنوبي ، وهو



● خريطة تبين موقع الاقصر .. والبر الغربي

يشرح لنا تفاصيل النقوش المحفورة على الجدار الغربي من القاعة التي أمر الملك بتسجيلها بالتفصيل .. قال لنا :

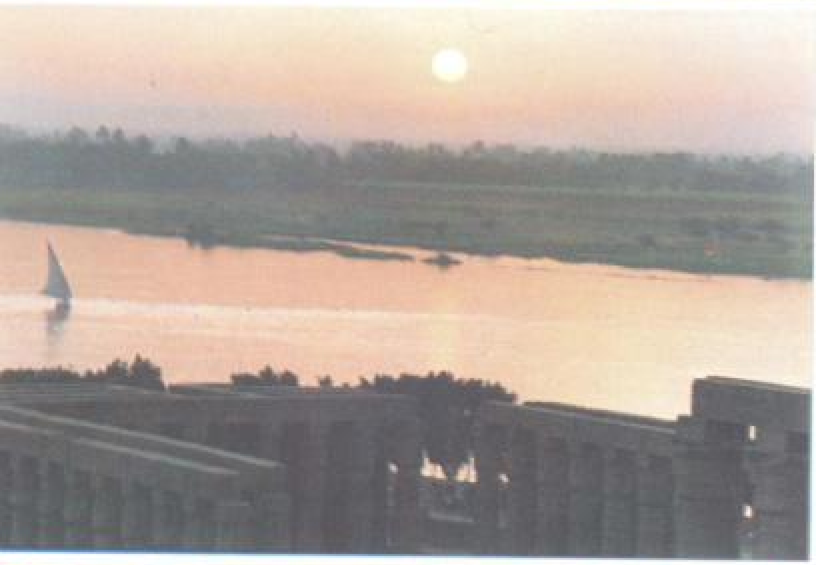
لم يكن من حق أي ملك أن يتوج فرعوناً إلا إذا كان من دم ملكي . ولكن أمينوفيس كان يفتقر الى هذا الحق لأن أمه كانت ابنة أمير أسيوي . وقد كان أحد الحلول هو أن يتزوج من أخت مصرية من دم ملكي خالص فيكون من حقه أن يتوج فرعوناً ، وإذ لم يستطع أن يفعل فقد اهتدى الى طريقة أخرى تحقق له هذا الشرط ، وذلك بأن يشيد هذا المعبد ويقيم فيه « حجرة الولادة » التي يذكر فيها ـ كما هو مبين في النقوش الهيروغليفية المكتوبة ـ أن الإله آمون رع قد ضاجع والدته فحملت منه ليكون هو مولودها من الإله .. !

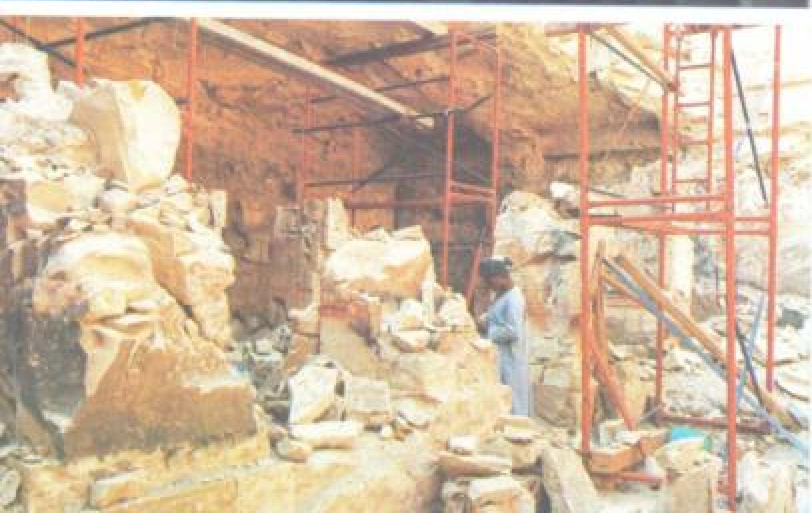
المعبد يعتبر نموذجياً ، شارك في تأسيسه بصفة أساسية أمينوفيس الثالث ورمسيس الثاني ، بينما هناك إضافات من فراعنة آخرين ، وبعض إضافات من العصر الروماني ثم من العصرين المسيحي والاسلامي بعد الفتح .

المدخل الرئيسي هو الصرح الأول الذي شيده رمسيس الثاني .. بينما الصرح الثاني هو ما شيده









● تمثال رمسيس الثاني يتصدر واجهة معبد الأقصر وبهو أعمدته (الى اليمين) بينما يبدو المعبد نفسه الى اليسار وقد احتل فناءه مسجد سيدي أبو الحجاج وأمامه القارب الذي يحملونه في عيد مولده تشبها باحتفالات « أوبت »

● (في الصور الوسطى) يجري النيل مخترقا طيبة الأحياء « بالشرق » وجبانة الملوك والملكات في البر الغربي .. حيث تجري عمليات الترميم في مقابرها كما يبدو في الصورة السفلى .

أمينوفيس حيث ترى الهيكل وقد تهدم معظمه وأخفته أعمدة الفناء المحزومة وأعمدة أخرى على شكل البردى .

ثالوث طيبة وتعدد الآلهة :

في الفناء الذي يلي الصرح الأول نجد أحد الفراعنة قد شيد مقصورة لثالوث طيبة المقدس . .

ثالوث طيبة يتكون من الإله آمون ، ممثلاً أحياناً بصورة آدمية ومتجسداً أحياناً في هيئة كبش . ثم زوجته موت في صورة أنثى العقاب . . ثم ابنهما خونسو الذي يرمز الى القمر ويتمثله المصريون على هيئة إنسان أو إنسان برأس صقر يحمل على رأسه الهلال يعلوه قرص .

أما آمون إله طيبة فقد بدأ يحتل مركزه في عهد الدولة الوسطى ، ثم زادت سطوته وأخذ ينافس رع رب هليوبوليس . . فلما أراد كهنة طيبة أن يجعلوا من معبودهم إلهاً عاماً لا منافس له بمصر أضافوا اليه اسم رع فصار « آمون رع » .

على طول الشاطىء في طيبة . . الأقصر القديمة . . حيث مدينة الأحياء على الشاطىء الأيمن للنيل . . كانت القصور والمنشآت ودور الوزارات والسفارات وبيوت الأمراء والموظفين تبدو رائعة غاية في الجمال ، أرضها مزدانة برسوم أزهار اللوتس ، وجدرانها مزخرفة برسوم ملونة لأسراب الطيور ، وكانت أروقة القصور والبنايات واسعة عامرة بكل ما هو فاتن ورائع وجميل . . . .

ولكن ديار هؤلاء البشر كلها كانت منشأة من اللبن الهش . . لأن المصري القديم لم يكن يهتم ببقاء مبانيه السكنية بقدر اهتمامه بمعابد الآلهة ومقابر الموتى . . لهذا فإن مباني المدينة لم تستطع أن تواجه مرور الأزمان فتبددت وذهبت أدراج الرياح . . بينما كانت المعابد وديار الآلهة مقامة من الحجر فبقيت شاهداً على عظمة المصريين القدماء على مدى التاريخ .

ذلك ما سمعناه من الأثري المصرولوجي الدكتور محمد الصغير مدير آثار مصر العليا . . وأضاف « ومع ذلك فقد اكتشفنا أخيراً أجزاء من المدينة القديمة أعطتنا فكرة عن حياة الناس وطرق معيشتهم داخل بيوتهم . . ونحن نواصل الآن عمليات الحفريات حيث نتوقع كشف ضاحية هامة من ضواحي طيبة . . ونعمل حالياً على استكمال كشف طريق الكباش الممتد بين معبدي الأقصر والكرنك .

« الانسان الجديد »

قبل أن ننطلق الى الكرنك . . . لا بد أن نلتقي بالانسان الجديد في طيبة . . . بعد أن تحول اسمها الى الأقصر . . .

هنا في الأقصر . . على الضفة الشرقية من النهر - سوق دائمة تفترش جوانب الطرق حيث تعرض الخضراوات والفواكه والمأكولات والثياب والقلل القناوي ومشغولات الألبستر . . وتمر عربات « الكارو » و « الحنطور » والعجلات التي ما تزال لها سوق رائجة برغم امتلاء الشوارع بالسيارات من كل نوع . . وعلى العربات ما تزال نسوة محجبات ببراقعهن يغطين بها شعرهن الأسود يقعدن القرفصاء بينها بنات باسمات في عمر الزهور يغنين ويصفقن في ثياب ملونة فاقعة الألوان . . أو ينطلقن محجبات في سرايلهن الزرقاء في الطريق الى مختلف معاهد التعليم .

أما الرجال والأطفال فلهم شأن آخر . إنهم في الغالب يختلفون كثيراً عن أمثالهم في الجانب الغربي من النهر . فمع وجود السياح وجولاتهم في الشوارع أو في مناطق الآثار ، يعمل الرجال تراجمة ومرشدين ، وإن كانوا لا يعرفون من اللغات إلا كلمات تعلموها من كثرة التقائهم بالأجانب . . أما الباقون فهم إما موظفون في تفتيش الآثار أو في الفنادق ، وإما عمال أو إداريون أو كتبة أو صيارفة . . أما من يعجزون عن أن يكونوا شيئاً من ذلك فهم إما حراس أبواب أو سائقو عربات أو باعة مأكولات وخضراوات أو عاديات عتيقة مقلدة . .

وإذا أتيحت لك فرصة مشاركة الناس في جلسة شعبية فستحس أنك لم تبتعد كثيراً عن عادات وطبائع ظلت تشكل حياة الناس لآلاف من السنين ، لم يطمسها توالي العصور ولا اختلاف العقيدة ولا مضي السنين والأزمان . . . وقد أحسسنا بذلك ونحن ندور بين الباعة والدلالين في سوق الجمال . . وسمعنا مثله ونحن نتأمل المزارعين في مزارع القصب وفي حقول الخضراوات وحدائق الفاكهة . . وكان الحديث معهم إذا اقترب من ذكر موعد زراعة أو حصاد أو فترة زمنية قريبة أو بعيدة لم نكن نسمع سوى أسماء الشهور بالتقويم الذي نسميه اليوم بالشهور القبطية ، وهي فرعونية الأصل حيث كان التعامل مع الزرع والأرض ومواسم العمل والانشاء يرتبط برصد النيل ومواعيد فيضانه ومواسم ري الأرض وزرعها .

ومهما تحدثت إلى أي فلاح في الأقصر وما حولها من أقاليم الصعيد فلن يجيبك بغير هذه الشهور ، ولن يتعامل مع أرضه إلا بهذا التقويم الذي ساير موكب الحضارة المصرية لأكثر من ستة آلاف سنة .

الكرنك .. آية المجد :

وننطلق الى الكرنك .. المدينة المقدسة .

عند مدخل الكرنك الكبير وبين صفين من الكباش يصحبنا مفتشا آثار الأقصر والكرنك عبد النبي حسن وأحمد شوقي .

ونقف عند الواجهة الرئيسية للكرنك قبل أن نلج بابه الكبير .. ننصت ونسمع ..

هذه المدينة المقدسة التي يلفها الآن الصمت لم تكن لعبادة الإله آمون وحده فحسب .. ولكنها كانت خلية دائبة وعالما حافلا بالعمل ليل نهار ..

هناك بردية من عهد رمسيس الثالث تروي أن الكرنك كان يضم أكثر من ثمانين ألفاً من الرجال كلهم في خدمة آمون ، موزعين بين ١٢٥ فئة ، وقد وكلت اليهم العناية بحوالي نصف المليون من الدواب وأكثر من ٤٠٠ حديقة ، وحقل مساحته نحو ألفين ونصف الألف من الكيلومترات المربعة .. و ٨٣ زورقاً و ٤٦ معملاً و ٦٥ نجعا .....

وكان هناك عمال يحترفون أعمالاً متواضعة تبعاً لاحتياجات الحياة .. كالعناية بالحظائر والحيوانات والحدائق ومكابس ورق البردى .. وكانت هنا أيضاً أعمال جليلة وحرف ومهن من بينها صياغة الذهب والفضة ونحت الأواني الخشبية والنقش على الحجر ..

ولكن كانت هناك قبل كل أولئك وهؤلاء الأجهزة المذهلة لتنظيم الكون وحركة حياة الناس .

على الشرفات كهنة من علماء الفلك يرصدون مسارات النجوم وعندهم حساب شروق الشمس وأطوار القمر .. وآخرون عاكفون على لوحاتهم يرسمون خريطة الأمبراطورية المصرية وفق آخر حدود لها .. وخريطة أخرى أشد تعقيداً للحياة الثانية ... ومن وراء هؤلاء جميعاً أشباه لهم يعملون أمام أنواع معينة متقدمة من الأفران وقد ملكوا سر مزج الذهب والفضة بوسيلة علمية تسمى اليوم « الألكتروم » . ويصنعون من هذا المزيج رقائق لامعة يكسون بها وجوه المسلات . وكان من علماء الكرنك من همهم حساب الزمن ، وقد قسموا السنة الى اثنى عشر شهراً والشهر الى ثلاثين يوما ، كما قسموه الى ثلاث عشرات ، وبقيت من السنة في نهايتها خمسة أيام لم تدخل حساب السنة أطلق الناس فيها من قيد الزمن حتى لا يحسبوا مر العمر ... ! أما اليوم فقد قسموه الى ٢٤ ساعة في الصيف والشتاء على السواء .. ذلك أن ساعات الليل في الصيف قصيرة أما في الشتاء فتطول ، مما كان يحتم على هؤلاء العلماء أن يتابعوا في دورات من العمل المتصل حول الساعات المائية التي تسجل الدقائق واحدة فواحدة بقطرات الماء .

ثم ... نخوض في غمار أبهاء الكرنك ...

قبل آلاف السنين :

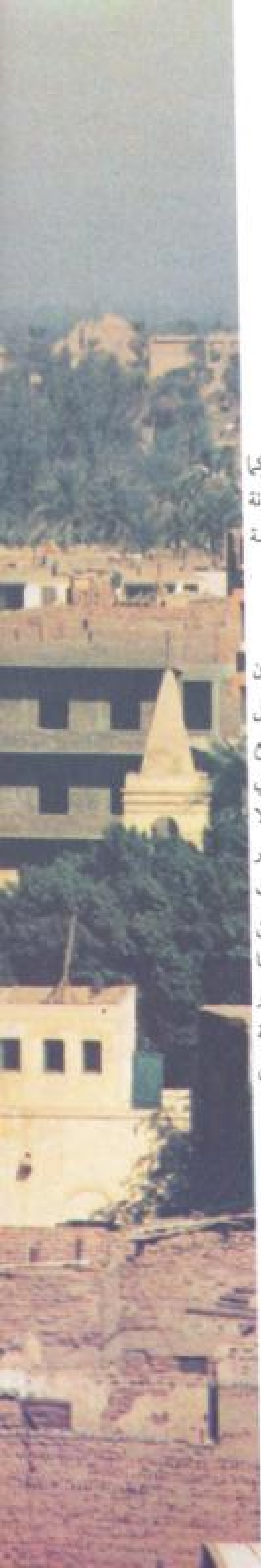
عندما نكون في قلب معابد الكرنك لا بد أن نسرح بخيالنا الى ثلاثة آلاف سنة مضت ... لنتصور كيف كانت صورة المعابد في ذلك الزمن البعيد .. ونقارن بينها وبين الأطلال الباقية .

لنتصور أنفسنا في تلك الأيام أمام المعابد في زمن بهائها ومجدها حينما كان يؤمها الآلاف من الناس . وحينما نمر في طرق المدينة الضيقة بين معبد الأقصر ومعابد الكرنك نجد أنفسنا نسير في طريق فسيح عبر مئات من الأمتار وعلى كلا جانبيه صف طويل من تماثيل على هيئة أبي الهول لبعضها رءوس بشرية ولكن معظمها برءوس كباش أو بنات آوى .

وإذ نصل الى المدخل الرئيسي نشهد برجين عاليين يرتفعان وبينها باب مرتفع ، وكلما انتقلنا من معبد إلى معبد وجدنا أنفسنا أمام مسلتين عاليتين من الجرانيت المنقوش بالهيروغليفية والمصقول كالمرآة . كما نجد بجانب المسلات تماثيل ضخمة للملك الذي أمر بتشييد المعبد وهو واقف أو جالس على عرشه لابس تاج مصر المزدوج الأبيض والأحمر .

ونقف أمام الباب المصنوع من خشب الأرز المجلوب من لبنان . ولكننا لا نرى الخشب لأنه مصفح بالفضة ومصور بأجمل الرسوم . ونمر من الباب فنجد أنفسنا في فناء فسيح بين بناء أشبه بالدير تحمل سقفه عمد من الحجر منقوش عليها أعمال فرعون العظيم وعطاياه المقدمة الى إله المعبد ، وفي الوسط مرصع بالعقيق واللازورد والأحجار الكريمة .

ثم نسير الى قدس الأقداس فلا نرى أثراً لضوء النهار ، ونجد الغرفة صغيرة يضيء ظلمتها مصباح ضئيل يحمله تابع الكاهن الذي يقف الى جانب الهيكل والغرفة مغلقة الأبواب مصفحة بالذهب وفيها تمثال لإله مزين وبين يديه المأكولات والمشروبات والرياحين ويقوم جيش من الكهنة كل





● مدينة الأقصر كما تبدو من فوق مئذنة أعلى مساجد المدينة (الى اليسار)



يمارس الانسان الجديد حياة كل يوم .. بالبيع والشراء في الأسواق .. وهو لا ينسى أن جذور مدينته قد بدأت تنفض الزمن عن نفسها من خلال ما تم كشفه من آثار طيبة القديمة (الصور الى اليمين) .





يوم بخدمته ويلبسونه ويزينونه ويقدمون له القرابين وينشدون ترانيم في مديحه ..... !

كان المعبد في الأصل عبارة عن مبنى صغير أقيم في الدولة الوسطى . وأول من وسعه بشكل ملحوظ الملك تحتمس الأول عام ١٥٣٠ ق.م . ويوجد الآن بداخله معابد متعددة بخلاف البحيرة المقدسة . وهو يحتوي على ست بوابات وأحواش متعددة . ويؤدي المدخل الى قناه يوصل بالتالي الى بهو أعمدة أقامه سيتي الأول ورمسيس الثاني ، يحمل السقف بواسطة ١٣٤ عموداً في ١٦ صفاً يبلغ ارتفاعها حوالي ٢١ متراً ويبلغ قطرها ٣,٥ أمتار . وللأعمدة تيجان بعضها بشكل زهرة البردي والبعض الآخر ناقوس بشكل زهرة اللوتس . وتتم الإنارة عن طريق فتحات في فرق المنسوب في الارتفاع حيث أن الممرات الجانبية أقل ارتفاعا ، ويصل ارتفاع العمود بها حوالي ١٢,٥ مترا ويقطر حوالي مترين ونصف المتر وله تاج بشكل زهرة البردي المقفلة . ويعطي الفراغ الداخلي الشعور بوجود غابة من الأعمدة وأنه فراغ بدون نهاية أي فراغ غير محدود . والأعمدة والسقف مزينة بكتابات ونقوش وهي كلها تثير في النفس الاحساس بالعظمة .

مسلة حتشبسوت بالكرنك :

ونقف متأملين مسلة حتشبسوت - المسلة الباقية من مسلتين كلفت الملكة مهندسها سنموت بتقطيعها من محاجر أسوان احتفالا بذكرى التتويج ، وأمرت بإقامتها للإله آمون في ساحة الأعمدة التي تتوسط الصرحين الرابع والخامس من معابد الكرنك .

المسلة ترتفع الى حوالي ٣٠ مترا على قاعدة مربعة طول ضلعها حوالي مترين ونصف المتر ويبلغ وزنها حوالي ٣٢٣ طنا ، وكانت قمتها المحدبة مكسوة برقائق الذهب والالكتروم . وقد سجلت حتشبسوت على قاعدة المسلتين قصة قطعها والسبب الذي أقيمتا من أجله . يقرأ لنا مرافقنا الأثري ما سجلته على القاعدة بالهيروغليفية :

« أقيم هذا الأثر لأبي آمون رع ، رب عروش الأرضين الكائن في طيبة . وقد أقيمت له المسلتان من الجرانيت الصلب من الجنوب (أي من محاجر الجنوب في أسوان) ورأس كل منها مغطى بالالكتروم من أطيب الأنواع في كل البلاد ، ويمكن رؤيتهما من جانبي الوادي ، وتنتعش الأرض لروعتها ويرتفع قرص الشمس من بينهما حين تشرق من الأفق . لقد قمت بذلك العمل من قلب مفعم بالحب لأبي الاله آمون . وكنت أفكر في خالقي حين حفزني قلبي الى أن أقيم له هاتين المسلتين من الالكتروم واللتين تطاولان السماء . إن قلبي دفعني الى أن أفكر فيما سيقوله الناس ، فأنتم يامن سترون هذا الأثر على مر السنين وسوف تتحدثون عما فعلت . احذروا أن تقولوا نحن لا نعرف لماذا أقيمت هذه الأشياء . ان هاتين المسلتين هما لأبي آمون حتى يبقى اسمي مخلدا في هذا المعبد للأبد . إن كل مسلة قطعت من حجر واحد من الجرانيت بدون وصلة أو انقسام وقد تم العمل فيها في المحجر في سبعة شهور فقط » .

المسلة في الواقع تطورت فكرتها عند المصريين القدماء من أحد الرموز المقدسة التي عرفت في مدينة هليوبوليس ، وهو عبارة عن حجر ذي قمة مدببة يعرف باسم « بن بن » .. وفي الأسرة الخامسة بدأت المسلة تقوم بدور هام في معابد الشمس وأصبحت هي الرمز الحقيقي لاله الشمس رع . وكانت المسلة التي تشبه قمتها الحجر المقدس « بن بن » تقام في مؤخرة المعبد المكشوف ترتفع فوقه قاعدة هرمية . وعندما تسقط أشعة الشمس المشرقة على قمة المسلة المغطاة برقائق الذهب تعكس أشعتها المتوهجة وتبدو من بعيد كقرص الشمس ، مما أدى الى الاعتقاد بأن المسلة نفسها هي مسكن الاله ومركزه ورمزه المقدس .. !

الحياة موت والموت حياة

اذا كان هذا هو الحال في طيبة على الضفة الشرقية من النهر ، فماذا هناك في الغرب ، عندما نعبر النيل وننتقل الى الضفة الأخرى ، حيث وادي الملوك ووادي الملكات ، وحيث الجبل الهرمي الشكل الذي كان يقدسه قدماء المصريين ويسمونه « قمة الغرب » أو « القمة الكبرى » أو « جبانة طيبة » .. وهو الجبل الذي يعيش سكانه الأحياء الآن على تراث الموتى من الأجداد ..

احتل سكان الجبل مدافن الضفة الغربية وخاصة فوق مقابر الأشراف ، ومدوا منطقتهم من أعلى الجبل حتى أعمق شعاب الأودية المجاورة . وعلى مدى سنين طويلة وحتى اليوم قامت حياتهم على التجوال في أرجاء التلال ، والخوض في كل مسالكها وتعرجاتها ، والحفر في كل منطقة يقعون عليها ويستشعرون انها يمكن أن تؤدي الى أحد القبور ليقيموا عليها مساكن جديدة لا تكلفهم شيئا ، ويجعلوا من الجدران ساترا وهم يحفرون ليخترقوا

بطن الجبل الى القبر ويستخرجوا منه ما تقع عليه أيديهم . ويحرص كل صاحب مسكن من مساكن الجبل على ألا يخرج من الكنز الذي يعثر عليه إلا ما يتناسب مع مطالبه وما يسهل حمله وبيعه ، مع مواصلة الحفاظ على بقية الكنز كرصيد احتياطي له ، فلا هو يسمح لأحد باختراقه ، ولا هو يستولي على كل ما فيه .. فهو يعتبره وكأنه صندوق توفير أو مخزن بترول يسحب منه بالقدر المطلوب للاستهلاك والبيع ، وعلى قدر ما تستوعبه احتياجاته .

ولكن .. ليس كل سكان الجبل قادرين - وفي ظل القوانين والرقابة الصارمة - على ممارسة هذه المهام بالسهولة التي كانت تحدث من قبل .. من هنا فإن بقية سكان القرية والقرى المجاورة غير القادرين على نبش القبور أو العاجزين عن العثور على دفائن جديدة ، يعيشون على أعمال ومهن أخرى يمارسونها .. الترجمة والدلالة والخفر والحراسة ، كما يعمل البعض منهم في صناعة الأواني المرمرية والتماثيل والعاديات المقلدة بقدرة متميزة ، حيث أقيمت مصانع خاصة تنقل إليها صخور الألبستر لتصنع وتباع للسياح أو تصدر الى الخارج . في أحد هذه المصانع الصغيرة بقرية العساسيف وقفنا نشاهد ونتابع صناعة التماثيل والآثار التي يبرعون في تزييفها لبيعها للسياح . طريقتهم في ذلك بسيطة لا تعقيد فيها .. فهم يصنعون تماثيل من الطين شبيهة بما تعودوا أن يجدوه في المقابر وما يستثير شهية السياح . وبعد أن يحرقوا التماثيل المقلدة يدفنونها في الرمال الساخنة ، وقد يدفنون بعضها في البرسيم ليكسوها اللون الأخضر ، كما يدفنون بعضها في روث الحيوانات ، وذلك للتغلب على مشكلة الزمن . وتترك هذه الدفائن المقلدة لعدة سنوات قد تصل الى عشر . وخلال تلك الفترة تتحول التماثيل وكأنها مغرقة في القدم بفعل الأحماض الموجودة في الروث أو البرسيم ، ولا تستطيع أن تفرق بينها وبين التماثيل الأثرية الحقيقية حيث تباع للسياح وكأنها « انتيكات » أو من الآثار المكررة .

على أن أبرز ما يتقن فيه أهالي القرنة والقرى الغربية هو نشر الرسوم المحفورة على جدران القبور . وهي تشكل لهم موردا ماليا كبيرا .. وبخاصة أن كل الخفر والحراس من أهل القرنة نفسها .. هم الآباء والأعمام والاخوة والأبناء ... !

وأهل القرنة بالذات هم أول من يعرفون أن بطن الجبل مايزال عامرا باللقيات والكنوز والمومياوات ، وإن كانوا يتظاهرون دائما بمساعدة رجال الآثار ، بل يدلونهم في بعض الأحيان على اكتشافاتهم وبخاصة التي يكون من الصعوبة بالنسبة لهم استخراجها لما يتطلبه ذلك من تكلفة أو جهد لا تحتمله مجهوداتهم الفردية والجماعية .

حكاية القرنة النموذجية

طبيعة أهالي المنطقة بحكم موقعهم وإقامتهم فوق التلال وتنقلهم المستمر للاقامة فوق القبور والمدافن المحفورة ، هم أقرب الى البدو .. وهم لهذا لا يقبلون الاستيطان على الطريقة الحضرية .. فما البال إذا كان توطينهم في مناطق أخرى سهلية يحرمهم من الكنوز المخبوءة في باطن التلال ؟

وقد كان ذلك هو السبب الرئيسي لرفضهم الانتقال الى قرية القرنة النموذجية .

زرنا هذه القرية التي أقيمت في السهل المنخفض تحت التلال . وجدنا أن مساكنها مشيدة على الطراز الصعيدي الذي استوحاه مشيدها المهندس المعماري حسن فتحي من المساكن النوبية القديمة .

القرية كما شهدناها تتكون من منتجع كامل سكاني وإنتاجي وتسويقي . فالسكاني يضم البيوت ودار العمودية ، والانتاجي يضم محلات للصناعات اليدوية والبيئية مثل الكليم والفخار والخشبيات والأواني الحجرية ، أما السياحي فهو مسرح مكشوف لأهل القرية وللضيوف .. الى جانب ذلك هناك مدارس لتعليم الحرف ومدرسة لصناعات النسيج والصياغة المنتشرة حول المنطقة في اخميم ونقادة والاقصر .. وقد أقام المهندس حسن فتحي بين ١٩٤٨ و ١٩٥٢ المدرسة الصناعية والسوق المفتوح والسوق المغطى لبيع السلع السياحية

وفجأة وقع حادث أوقف استكمال تنفيذ المشروع ، فقد هاجمت مياه الفيضان موقع القرية ، فتساقطت بعض الجدران وتشققت المباني .. وبدأ المشروع يعاني من وجهات النظر المضادة التي استغلت توقف العمل ونجحت في إبعادمنشيء المشروع عن إتمام العمل .

سمعنا وجهة نظر المهندس حسن فتحي فيما حدث .. قال :

كان الأهالي وراء المؤامرة على المشروع ، فقد قاموا بكسر الجسر والحاجز الطيني بين النهر والسهل ، مما جعل القرية تغرق في مياه الفيضان ،

وذلك حتى لا يضطروا الى السكن فيها وترك مصدر رزقهم من نبش القبور في بطن الجبل .

وقد أسهم في تنفيذ المؤامرة من جانب آخر المهندسون والقائمون على التخطيط المعماري المعارضون للمشروع ، فهم يفضلون المباني سابقة التجهيز أو المقامة بالخرسانة المسلحة ولا يفهمون أو يقدرون قيمة مباني الطين . .

الآن . . كيف تبدو قرية القرنة النموذجية ؟ البيت الكبير تحول الآن الى مركز للشرطة ، والبيوت التي كانت معدة لاقامة أهالي القرنة تستغل الآن للاسكان الاداري في المحافظة وتأجيرها للعمال القادمين من خارج الأقصر .

وتوقف انتقال الأهالي من تلال القرنة . . واستمروا يمارسون حياتهم فوق الجبل في الظاهر ، وفي باطن الجبل في حقيقة الأمر . . .

قصة المومياوات الملكية

على أن القوانين الرادعة التي تفرض على من يريد الحفر أن يحصل على ترخيص مسبق ، كما تلزم أي مكتشف للقيات بأن يسلمها للسلطات مقابل أن يحصل فقط على نسبة محدودة مما يعثر عليه من الآثار المكررة . هذه القوانين تقف حائلا دون ممارسة هذه الأعمال إلا فيما ندر ، وما يزال البعض لا يستطيع أن ينسى حدثين مهمين لهما تأثير كبير على أعماق أهالي القرنة .

ولكل حدث من الحدثين قصة مثيرة . .

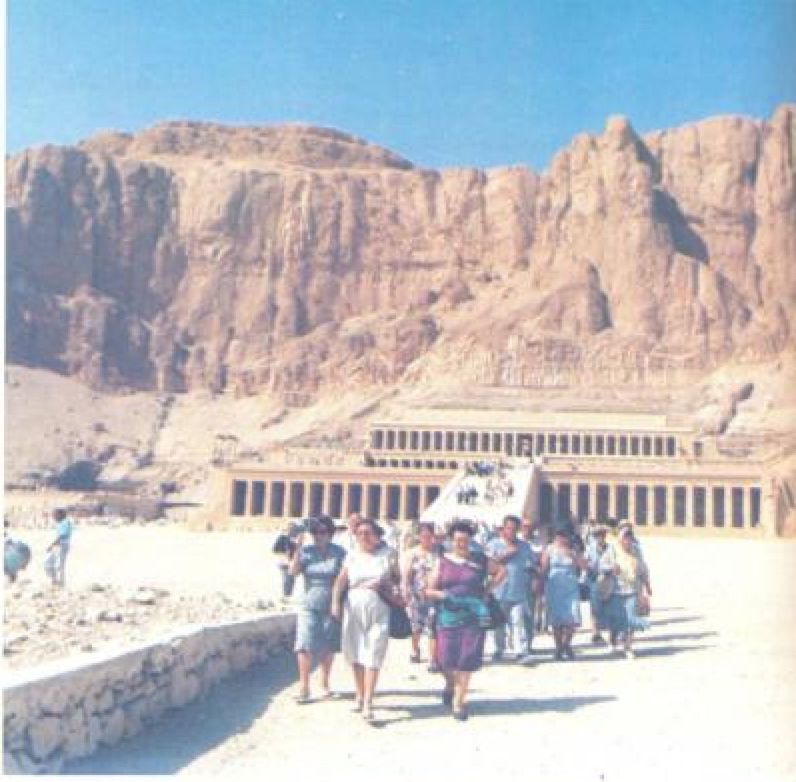
أما الأول ـ وهو قصة المومياوات أو الخبيئة الملكية ـ فيمكن أن يتصورها الذين شاهدوا فيلم « المومياء » الذي أخرجه الفنان الراحل شادي عبدالسلام ، وتناول فيه تفاصيل الكشف الذي حدث قبل حوالي مائة سنة ، وإن قام بتغيير بعض الأحداث وتعديل أسماء بعض الأبطال . . فالأب سليم لم يكن سوى عبدالرسول الذي رد ولده محمد عبدالرسول إلى مصر مومياوات حوالي أربعين من عظماء أجدادها ـ سواء كان ذلك عن قصد أو غير قصد ـ حين أفضى لعالم الآثار المصري أحمد كمال بسر خبيئة القبو الجنائزي في الدير البحري .

كانت هناك أسباب خاصة جعلت حوالي خمسين مومياء ملكية تبقى سليمة . ففي عهد الملك سيامون في زمن الأسرة الحادية والعشرين عمل الكهنة على وضع خطة محكمة ونفذوها بدقة . فقد نفذوا إلى كل قبر ملكي عرفوه فأخرجوا سرا كل مومياء ملكية . فنقلوا ١٣ منها إلى قبر أمنحوتب الثاني السري . أما السبعة والثلاثون الباقية فقد حملت في موكب سري إلى بئر عميقة في الشمال الغربي من ساحة الدير البحري ، يؤدي اليه ممر طويل ينتهي بحجرة دفن كانت تشغلها من قبل ملكة نصف منسية هي « أنجعبي » . وكانت الحجرة عبارة عن مقصورة طولها ثمانية أمتار وعرضها سبعة أمتار . وقد استطاع الكهنة أن يفعلوا كل ذلك بثقة بعد أن أحسوا أنهم لم يعودوا قادرين على كفالة حراسة أجدادهم في مقابرهم ، ذلك أن الحلي الذهبية والمقتنيات الأخرى الثمينة كانت قد اختفت منذ زمن بعيد . . ولم يكن باقيا لانقاذه سوى التوابيت والجثث المحنطة التي يحمل بعضها تحت اللفائف بعض المتعلقات الذهبية دون بقية الكنوز التي تم سرقتها . وكان من بين المومياوات جثث أعظم فراعنة مصر : امنحتب الأول وتحتمس الثاني وتحتمس الثالث ورمسيس الأول وستي الأول ورمسيس الثاني ورمسيس الثالث وسقنن رع وولديه كاموسي واحمس محرر مصر من الغزاة الهكسوس .

ظل هذا المخبأ مختفيا مدة ثلاثة آلاف سنة حتى عثر عليه ذات يوم من شهر فبراير ١٨٧١ . وكان أحمد عبدالرسول من شيوخ سكان القرنة يعتمد في معيشته على بيع الأشياء المنوعة التي يجدها نتيجة لحفريات غير مشروعة . وفي ذلك اليوم قرر أن يزيد من جرأته فأتى بأخيه محمد عبدالرسول وربطه وأنزله بواسطة حبل الى دهليز عميق غامض كان قد هداه اليه أبوه عبدالرسول ، بعد أن عرف شيئا عن هذا المكان ، وقام ببعض العمليات الاستكشافية الصوتية ، وذلك برمي الصخور في الحفرة . وحين أصبح محمد في الداخل كان مجبرا أن يقتحم حائطا جداريا حجريا . وعندما قام بذلك وجد نفسه أمام المومياوات فصرخ وطلب أن يسحبوه إلى أعلى . . ونزل أخوه أحمد . .

وبرغم الذعر والهلع ، إلا أنه راح يجوس المكان . وعند ذلك شعر أن المومياوات كانت ما تزال تلبس المجوهرات بما فيها رمز الصل (الافعى) وهو علامة السلطة عند ملوك مصر ، وهكذا عرف أنه اكتشف أحد قبور الفراعنة .

لم يكن بوسع أحمد عبدالرسول أن يبوح بالسر إلا لشخص واحد فقط ، كان يشتري منه طوال عشر سنوات مما يعثر عليه من أشياء ثمينة ويصرفها في أوروبا هو القنصل مصطفى أغا . وأثارت مثل هذه اللقطات الثمينة إعجاب الخبراء ، ولكنها لفتت في



● معبد الدير البحري .. حيث تملأ حتشبسوت دائما أنظار العالم .. من خلال الابداع الذي صنعه مهندسها سينموت مستغلا الخلفية الجبلية الصخرية لتكون سندا لمعبد الملكة التي يبدو تمثالها ومسلتها في قلب الكرنك برغم كل محاولات التشويه والتدمير والانتقام .





الوقت نفسه ارتياب ماسبيرو مدير الآثار في الحكومة المصرية الذي قدر أن أحدا ما قد توصل إلى قبور فراعنة من الأسرة ٢١ . وتأكد له ذلك حين عرف من تحرياته أن مصطفى أغا وراء هذه العملية ، ولكن لأنه كان يتمتع بالحصانة الدبلوماسية فقد قبض على أحمد عبدالرسول وحده . وأنكر هذا كل شيء رغم ما تعرض له من ضرب مبرح فلم يكشف عن أسراره . ولكن حدث بعد أن أطلق سراحه أن وقعت مشاجرة بينه وبين أخيه محمد عبدالرسول . . الذي كشف للسلطات عن مكان خبيئة المومياوات الذي عثر عليه أخوه .

ونقلت المومياوات الملكية الى المتحف المصري . . وفقد آل عبدالرسول وأقاربه من أهالي القرنة ذلك الكنز الثمين . . !

ذلك هو الحدث الأول الذي أكد تفاصيله الشيخ علي عبدالرسول حفيد محمد عبدالرسول الذي أبلغ السلطات عن الدفينة . . وكنا قد التقينا به في فندقه الذي يسمى مرسم الأقصر بالقرنة . . وقد توارث الشيخ علي عن جده أسرار القرنة ومقابرها ومواقعها وما تحتويه من لقيات مدفونة .

أما الحدث الثاني . . وهو إيقاف العمل في كشف كنز الملك سيتي . . فتلك قصة أخرى روى لنا تفاصيلها الكاملة الشيخ علي وهو الذي يرتبط باسمه ذلك الحدث . . وما صحبه من مشكلات . . .

قال لنا :

بعد سنوات من كشف خبيئة المومياوات الملكية التي دل جدي محمد عبدالرسول السلطات على مكانها . . . جاء . . من يسمونه عالم الحفريات الايطالي جيوفاني بلزوني الى أسوان في مغامرة للبحث عن منابع النيل . وعندما مر بالأقصر وشاهد المقابر في بطن الجبل قرر أن يمارس هواية المغامرة في وادي الملوك الذي كان في ذلك الوقت (حوالي عام ١٨٠٠) نهبا « سداح مداح » للمغامرين وليس به غير خفيرين اثنين للحراسة ولا يبيتان فيه بالليل .

كانت الأمور « سايبه » وكل من يعرف مقبرة « يكحت » وما يعثر عليه يقسم بالنصف بينه وبين الحكومة . وفي الواقع كان هذا التسيب هو سبب الخلاف الذي قام بين جدي محمد عبدالرسول وإخوته أحمد وعبدالرحمن وموسى بعد كشف خبيئة الملوك ، لأنه عندما أراد أن يبلغ في أول الأمر رفضوا قائلين له ان الحكومة لن تعطيهم إلا النصف . وتقلوا أربع صفائح ملأوها بما كانت تتزين به المومياوات من مجوهرات وباعوها . وعندما اختلفوا بعد ذلك ذهب جدي فأبلغ السلطات عن الخبيئة . المهم عندما جاء بلزوني وأخذ يمارس حفرياته بإذن الحكومة كان جدي يشتغل معه رئيسا لعمال الحفر . وفي حفرياته الأولى وصل بلزوني إلى دهليز ضيق طوله حوالي ثمانية أمتار ، وفوجىء في نهايته بمئات من المومياوات متراكمة بعضها فوق بعض . .

في الحقيقة لم تكن هذه المومياوات للملوك بل كانت للعمال والفلاحين وأزواجهم وأولادهم وحيواناتهم أيضا . . غير أن أهم ما حققه بلزوني في حفرياته قبل أن يغادر مصر كانت مقبرة الفرعون سيتي الأول .

البحث عن الكنز

المقبرة كانت تملؤها وتسد سراديبها الأتربة ، ولا تصدقوا من يقول انه فتح المقبرة لأنها كانت معروفة ولكن الأتربة كانت تردم مدخلها .

كان العمال تحت إشراف محمد عبدالرسول يشتغلون في رفع الحجارة المتراكمة في السرداب الداخلي . وكان المعروف أن الفراعنة يحفرون في المقبرة أكثر من سرداب للتضليل . في هذا السرداب بالذات وبعد إزاحة الحجارة عن درجات سلم دخل جدي بعد أن لفت نظره المدخل الحجري الذي يعرف بحكم خبرته في حفر القبور أنه باب الدخول الى الكنز المخبوء . وأدرك أنه توصل إلى كنز سيتي . فطلب من العمال أن يعيدوا الحجر إلى مكانه ويردموا فوقه قائلا لهم :

« أول ما ييجي الخواجه تطفو السراج وما تشتغلوش في السرداب اللي فيه السلم وعليه الحجر » . وفعلا عندما جاء بلزوني أطفأ العمال السراج وبدأوا الضجة والهيلاهوب وأثاروا الغبار . . وعندما هدأ الغبار أحاط العمال بتابوت المرمر الذي اكتشف في وسط القاعة ، وقال له جدي إن هذا هو أقصى ما وصلوا إليه .

ولما لم يجد بلزوني غير التابوت المرمري فارغا ، عمل على نقله وباعه بحوالي ٢٠٠٠ جنيه ونقل بعد ذلك الى لندن . . وسافر بلزوني بعد ذلك ولم يعد .

المهم هنا أن جدي لم يعش كثيرا بعد ذلك . وقبل أن يموت كشف سر كنز سيتي لأبي عبدالرسول ، وأوصاه أنه لو جاءت حكومة « زينة » فليشتغل والحكومة ستقسم معه الكشف مناصفة . وحسب وصية جدي ظل أبي ينتظر . فلما جاءه الموت حكى لي قصة كنز سيتي ووصية أبيه له .

واصل الشيخ علي حديثه فقال : بعد أن قامت

ثورة عبدالناصر ووجدت الأمور تسير بشكل يتفق مع وصية جدي كتبت الى الحكومة وأبلغتها بأني أعرف مكان أحد كنوز الفراعنة في أحد مقابر وادي الملوك .

وجاءت لجنة يرأسها العالم الأثري الدكتور أنور شكري وشخص آخر من الحكومة ، وسألني هل أنت علي عبدالرسول ؟ قلت له : ايوه . وأنا في الحقيقة كنت « واعر » معهم . . وعندما سألوني عن التفاصيل قلت لهم ان المقبرة في وادي الملوك ولم أحددها ، وكانوا يعرفون طبعا أن هناك حوالي ٧٥ مطلعا للمقابر . طلبوا مني أن أقابلهم وأذهب لأدلهم على المكان . فقلت لهم لا . . أنا كتبت لكم أني سأدفع الفلوس للعمال الذين سيحفرون معي ، ومصلحة الآثار تعين العمال . وستقوم بالعمل تحت إشراف مهندسين من مصلحة الآثار حتى لا تقولوا أني أحضرت لصوصا ليسرقوا . وعندما يصدر هذا القرار بشكل رسمي وباسمي سأدلكم على المكان . وحاول الدكتور أنور شكري إغرائي بأنه سيعينني « باش ريس » . فأجبته : حتى لو عينتني وزير . .

في النهاية لم يكن أمامهم إلا أن يتفقوا معي . وصدر التصريح وهو الذي يعطيني الحق كما هو متبع في الحصول على نصف ما يتم العثور عليه من الآثار المكررة . . وتم دفع التأمين لأجر الأنفار على حسابي ، بينما تكاليف العربات التي تحمل الرديم ومصاريف المقاطف والفئوس على المصلحة .

كان العمل قد بدأ في ١٠ رمضان من حوالي ٢٢ سنة . وفجأة في يوم ٣٠ رمضان وكنا قد أعددنا حفر السرداب ووصلنا إلى درجات السلم والواجهة المثبتة بالجير والجبس القديم والتي تؤكد أن الاكتشاف قد تحقق ، صدر الأمر بإيقاف العمل وقفل السرداب وإعادة ردم مدخله .

وكان السبب الذي قالوه في رسالة مازالت محفوظة عندي أن التأمين الذي دفعته انتهى ، وأن المصلحة ستقوم في وقت آخر بتحمل المصاريف ماليا وعلميا . وطلبت منهم الاستمرار وعرضت استعدادي لدفع أي تأمين آخر حتى لو بعت كل ما أملك ، فقالوا انه بالنسبة لما يخص المصلحة من تكاليف « فالبند لا يسمح » . واستمر ايقاف العمل بالمقبرة .

واستمر هذا التوقف أكثر من ٢٢ سنة . . !

إن هدفهم الذي أتصوره ألا ينسب الكشف لي ، وهم يتصورون أنني وقد تجاوز عمري التسعين سأموت وتصبح المصلحة هي صاحبة الحق بعدي . . ولكني أقول لهم إن الأعمار بيد الله وأنا لن أموت إلا بإذن الله ، وسيظل الكشف مرتبطا باسمي حتى لو اشتغلوا لأني سأظل صاحب الحق طالما عشت . ولدي من المراسلات والخطابات الرسمية ما يؤكد هذا الحق وقد نشر عنها في الكتب والصحف في المانيا وفرنسا وانجلترا . .

طريق الخلود . .

ونتطلق لزيارة قبور الأشراف ووادي الملوك ووادي الملكات ومعابدهم الجنائزية . . لنشهد . . ونسمع . . ونرى . .

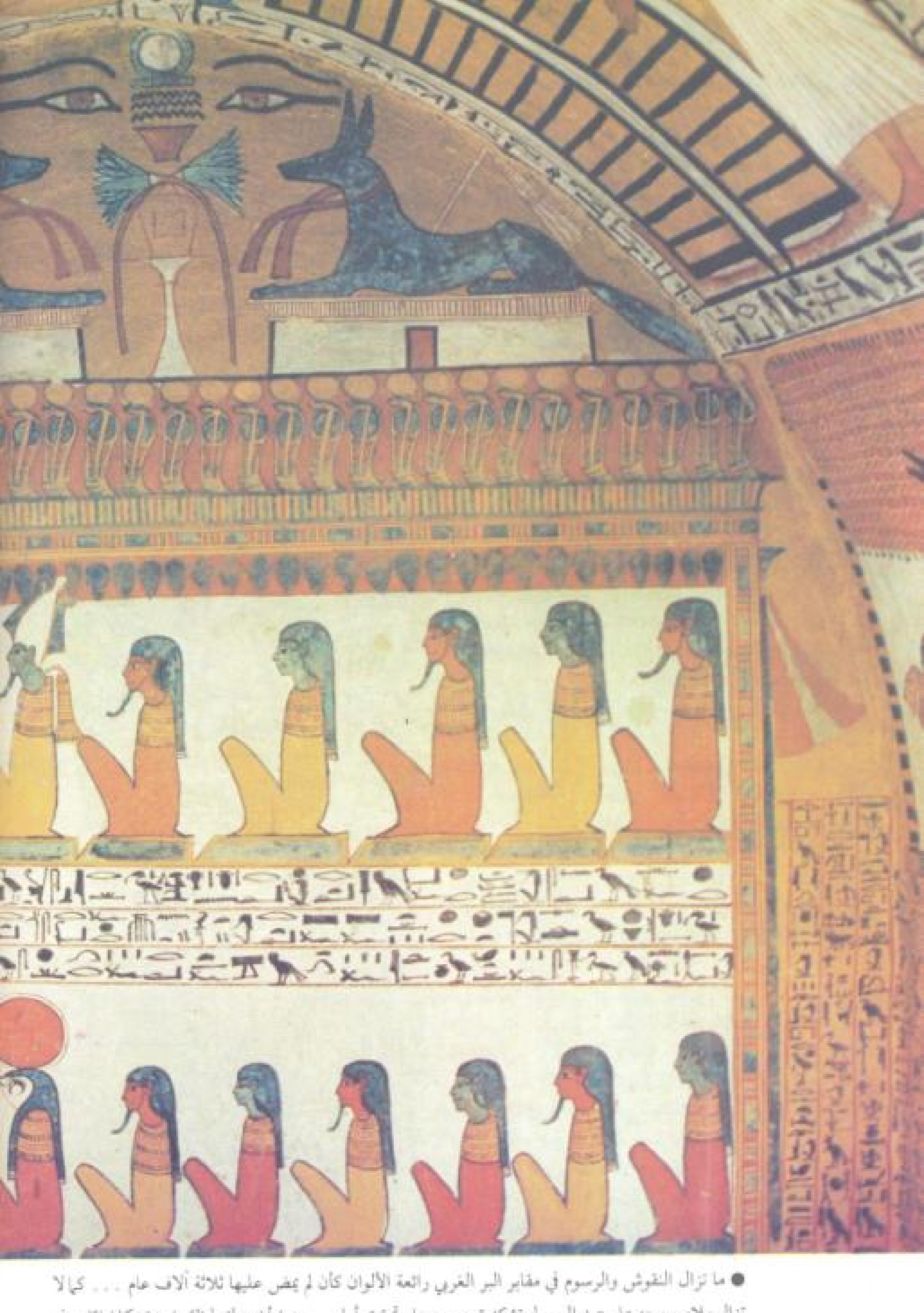
انتخب المصريون القدماء هذه البقعة الصحراوية على الشاطىء الأيسر للنيل مكانا لجبانتهم العظيمة لأسباب عدة . . أهمها مواجهتها لطيبة الأحياء ، ثم الجفاف الذي يكفل خلود الأجساد . كما ان الغرب لديهم هو الجهة المقدسة لاعتقادهم أنه الطريق الى جنة الخلود .

وقد اختار الملوك أحد وديان « قمة الغرب » ليحفروا فيه مقابرهم ، وهو الذي تدعوه بوادي الملوك ، حيث يضم ٦٢ مقبرة بينها مقابر ملكية منحوتة في الصخر ، كل منها تزيد على أكثر من مائة متر منقوشة وملونة ، وتحتوي على مناظر عديدة من عدة كتب دينية مثل « كتاب الموتى »

هذه المقابر الملكية تلف منها الكثير تلفا تاما بفعل لصوص المقابر في العصور الماضية . وقد كان الملوك الأقدمون أنفسهم يخشون هؤلاء اللصوص الذين لم يتورعوا حتى في زمن الفراعنة عن نبش قبورهم وسرقة كل ثمين من محتوياتها . لذلك اتخذ الملوك طرقا خاصة للمحافظة عليها ولتضليل اللصوص عن حجرة الدفن ، فحفروا آبارا في سراديب المقبرة . . وسدوا الأبواب الأخرى المؤدية اليها . ثم عينوا الحراس يقومون بالمراقبة ليل نهار حول هذا الوادي . وتعاقبت الأجيال واللصوص دائبون على انتهاك حرمة المقابر للحصول على مابها من كنوز .

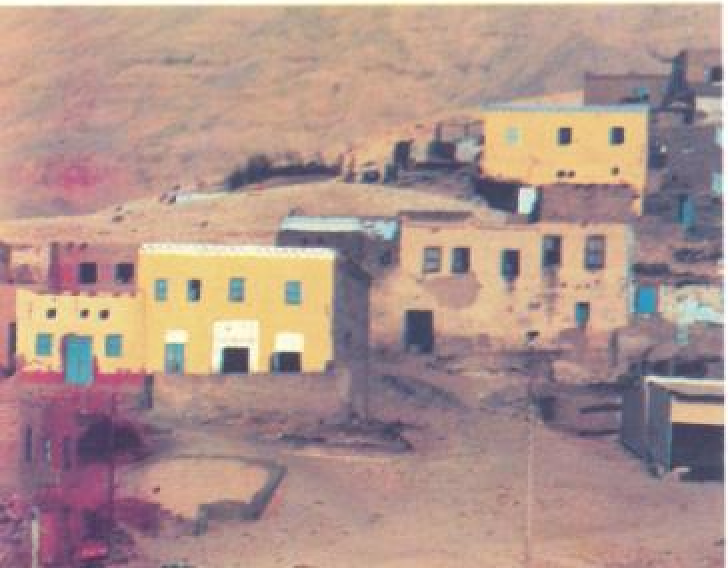
والصورة العامة التي شهدنا عليها مقابر الملوك هي أنها متشابهة في تصميمها . . وتتكون من عدة سراديب متتابعة ، ومن حجرات جانبية أعدت لوضع الأثاث الجنائزي والأدوات الخاصة بالميت . وفي نهاية السراديب عادة رحبة تؤدي الى قاعة ذات أعمدة هي حجرة الدفن حيث يوضع التابوت في قسم منخفض منها ، ويكون عادة من الحجر الصلب وبداخله توابيت أخرى تحتوي على مومياء الملك .

لعل أبرز ما زرناه في وادي الملوك مقابر توت عنخ



● ما تزال النقوش والرسوم في مقابر البر الغربي رائعة الألوان كأن لم يمض عليها ثلاثة آلاف عام . . . كما لا تزال ملامح وجه علي عبد الرسول تؤكد تصميمه على تحقيق أمله . . دون أن يترك لحظة واحدة مكان اقامته في بيوت القرنة التي طالما أخرجت من بطن الجبل كنوز الاقدمين .





آمون .. ورمسيس السادس .. ومقبرة سيتي .. الممنوع زيارتها حاليا لاجراء الترميمات إلا بتصريح خاص.

المقبرة كانت أول ما اكتشف من قبور الفراعنة في وادي الملوك .. وتعد أجمل المقابر قاطبة من ناحية النقوش والاتقان والمهارة في دقة النحت والحفر ..

البعث .. والعالم الآخر

انحدرنا من ممر الى آخر، ومن قاعة الى أخرى .. حتى وصلنا الى القاعة الرابعة - والمسماة بيت أوزوريس الذهبي - وتنحدر حوالي ١٤٠ مترا عن المدخل الخارجي. خلال مرورنا بالقاعات كنا نجد أن كل قاعة منقوشة ومنحوتة بالكتابات الهيروغليفية، وتبدو على الأعمدة صور الملك وهو يقدم القرابين للآلهة التي ترحب به .. أما الرسوم على الجدار فتمثل رحلة قارب الشمس في العالم السفلي والأخطار والمصاعب التي تصادفها الروح. فثمة مسوخ وأرواح شريرة تطاردها، وثمة أفاع وخفافيش وتماسيح تنفث نارا وتحمل سهاما، فمن وقع في قبضتها عذبته بكل أنواع التعذيب والتنكيل، فتمزق قلبه وتقطع رأسه وتغلي أطرافه في آنية، أو تعلقها فوق بحيرات النهر. أما الروح التي تتجاوز تلك الأخطار فتمر في الحقول المقدسة حيث يعيش المختارون في نعيم يزرعون ويحصدون.

في جانب من الجدار توجد رسوم لأعداء الشمس .. وقد ألقي بهم في الجحيم، مرموزا إليه بشكل أفران تشتعل بها النيران ممثلة بنقط حمراء، وقد وقف إلى جوانبها آلهة يقذفون من أفواههم الحمم، ويحملون في أيديهم سيوفا قصيرة لقتل من يتسرب من الجحيم من هؤلاء الأعداء. ومن المناظر الرمزية المهمة رسم لأعداء الشمس وهم يعدمون حيث تمثل أجسادهم وهي تحترق في فرن وأرواحهم على هيئة طيور تحترق في فرن آخر وظلالهم بشكل مراوح في فرن ثالث .. ورؤوسهم في فرن رابع .. !

قريب من هذه المشاهد ما رأيناه في مقبرة رمسيس السادس .. حيث نقشت على جدارها مشاهد قصة الحساب والبعث. فقد اعتقد قدماء المصريين أنه بعد موت الانسان وتحنيط جثته ومواراتها في القبر، تذهب روحه الى أبواب قصر أوزوريس في العالم الآخر، حيث توجد «قاعة الحق» التي تحاكم الأرواح. ولا بد للروح من معرفة الأسماء السحرية للأبواب قبل ولوجها، بحيث اذا لفظت تلك الأسماء فتحت الأبواب ودخل الروح. ويوجد في قاعة الحق ميزان كبير يقف بجانبه الاله تحوت يسجل نتيجة المحاكمة بينما يجلس حول القاعة اثنان وأربعون قاضيا من الآلهة لهم سلطة معاقبة الآثمين.

وتعترف روح الميت أمام القضاة بأخطائه وبعد أن يكمل اعترافه يؤخذ قلبه ويوزن في كفة تقابلها ريشة يرمز بها لربة الحق «معت» فإذا رجحت أخطاؤه حسناته كان الرجل كاذبا ويلقى قلبه إلى وحش هائل نصفه بشكل تمساح ونصفه الآخر بشكل عجل البحر، وهو جالس وراء الميزان ليلتهم قلوب الفاسدين، أما اذا كان القلب صالحا فإن حورس ابن أوزوريس يأخذ الرجل من يده ويقوده الى حضرة القاضي أوزوريس فيحكم له بالحق ويخول له الدخول الى السماء ..

وبعد أن تجتاز الروح قاعة المحكمة تمر بمسالك وعرة وأخطار عظيمة، حتى تصل الى الأرض النضرة الجميلة في مكان بعيد من الجهة الغربية، وهناك يحيا الميت ويعيش خالدا في سلام أبدي وسعادة دائمة يزرع ويحصد ويلعب ويستريح.

عند مدخل القاعة الأخيرة التي كانت من قبل مقبرة للملك رمسيس الخامس ثم استغلها لنفسه الملك رمسيس السادس كعادة الفراعنة .. يلفت النظر مشهد فني دقيق يمتد بين الجدارين الجانبيين ويشمل المدخلين ... المشهد يمثل بقرة وقد رسمت على بطنها نجوم وفوقها تسبح سفن .. وهي تمثل السماء المرفوعة على كفي اله الهواء «شو».

مقبرة توت عنخ آمون

برغم الشهرة العريضة لآثار الملك توت عنخ آمون التي عثر عليها هوارد كارتر عام ١٩٢٢ والمعروضة الآن في المتحف المصري حيث أصبحت احدى مفاخر مصر وهي تجوب أنحاء العالم في رحلات مستمرة .. الا أن المقبرة حسبما شهدناها هي أصغر مقابر الملوك .. ولعل صغر حجمها ووقوعها في أسفل نقطة في الوادي، وتحت مقبرة رمسيس السادس حيث أزيلت الأتربة والانقاض التي استخرجت من مقبرته، هو الذي حماها من عبث اللصوص، وحفظها حتى ظهرت بكل مافيها من محتويات.

ويظهر أن موت الملك شابا في عمر لم يصل الى العشرين كان وراء دفنه في تلك المقبرة الصغيرة التي يرجح أنها كانت معدة لرئيس وزرائه «آي» الذي خلفه على العرش.

هبطنا مدخل المقبرة الى سرداب مستطيل ومنه الى حجرة متسعة كان بها عند الكشف معظم الأثاث الجنائزي الذي شهدناه في قاعة توت عنخ آمون بالمتحف المصري حيث كان هناك تمثالان من الخشب المدهون بالقار يمثلان الملك ، يقف أحدهما يمينا والآخر يسارا متواجهين كأنها حارسان لحجرة الدفن . . أما حجرة الدفن فكان بها أربع مقاصير متداخلة صنعت من خشب أرز لبنان السميك مغطاة سطوحها من الداخل والخارج بصفائح من الذهب ، نقشت عليها نصوص ومناظر جنائزية ، وبداخلها تابوت من حجر الكوارتز . أما المومياء فقد كانت ملفوفة في ست عشرة طبقة من اللفائف ، وقد وضعت فوق الرأس والكتفين صورة لتوت عنخ آمون على شكل قناع من الذهب المطروق ، ووضعت المومياء مع قناعها داخل تابوت من الذهب الخالص حلي بنقوش بديعة ، ثم وضع التابوت الذهبي داخل تابوت ثان مغطى سطحه بصفائح الذهب وطعم بزجاج متعدد الألوان . ووضع هذا الأخير بدوره داخل تابوت ثالث يشبه التابوت الذهبي لكنه صنع من الخشب وغطي بالذهب . وكانت هذه التوابيت الثلاثة داخل التابوت الحجري الذي شهدناه حيث ما زال متروكا بالمقبرة مع التابوت الثاني وبداخله مومياء الملك بعد أن جردت من لفائفها الأصلية والجواهر التي كانت تحيط بها وأعيد لفها في لفائف جديدة ، وقد رفع الآن غطاء التابوت الحجري وغطي بالزجاج حتى يمكن مشاهدة التابوت الثاني الذي يمثل الملك لابسا لحيته المستعارة وعلى جبهته رأسا العقاب والصل رمزا الوجهين القبلي والبحري ، وهو يحمل في يديه صولجانين أحدهما يمثل الحكم والحق والثاني يمثل القوة والسلطان .

تحلي جدران حجرة الدفن رسوم أتمها النقاشون في عجلة إذ هي مرسومة بالألوان فقط على الحجر بعد أن طلي بالجبر . . ففي الجدار الأيمن منظر رمزي لموكب جنازة الملك حيث يبدو الناووس الذي به توابيته موضوعا على زحافة يجرها الكهنة . ويلي ذلك في الجدار المواجه منظر لرئيس الوزراء « اي » يلتحف جلد نمر ، ممثلا الكاهن الأعظم وهو يقوم بعملية « فتح الفم » لتمثال الملك وهي من الطقوس الدينية اللازمة للمتوفى كي يستطيع أن يتلو التعاويذ .

ويظهر مشهد آخر يمثل الملك يقدم التوابيت للآلهة وقد سار خلفه قرينه (كا) الذي رمز إليه بانسان بذراعين مرفوعين فوق رأسه .

قبور وادي الملكات

قبل أن نذهب الى وادي الملكات حيث دفنت الملكات وأولادهن الذي يحتوي على أكثر من ١٥ مقبرة للملكات وأمراء . . نسمع من الأثري محمد نصر مفتش آثار القرنة أخبارا جديدة عن مقبرة الملكة نفرتاري زوجة الملك رمسيس الثاني ، التي ما تزال مغلقة في وجه الزيارة منذ حوالي أربعين سنة .

كانت الملكة نفرتاري أحب زوجات الملك إليه ، وكانت من أجمل نساء عصرها . ومقبرتها تعد أجمل المقابر الأثرية على الاطلاق . .

إن أجمل النقوش التي تبرز جمال الملكة ـ كما شهدناها من قبل ـ صورتها وهي تقف في عظمة مرتدية ملابس تكاد تكون من طراز عصرنا الحالي . فحلية رأسها الذهبية على شكل عقاب ، وقرطها يتدلى من أذنيها بشكل ثعبان ، وضفيرتا شعرها تتدليان على كتفيها من تحت التاج الذي يعلو رأسها وقد صممت أطرافها بحلية من الذهب . . وما ترتديه من لباس شفاف مصنوع من الكتان تظهر من تحته تقاطيع جسمها ، وهناك حزام يلتف برشاقة حول خصرها وقد تدلت أطرافه المزركشة بالذهب . . أما أكمامها القصيرة فتظهر من تحتها محاسن ذراعيها وتبدو أظافرها مصقولة لامعة كأنما عولجت « بالمانيكير » . .

هذه المقبرة التي ما تزال ألوانها زاهية براقة رائعة تعاني الآن من مشكلة الأملاح ولهذا منعت زيارتها لسوء حالة نقوشها وألوانها وخوفا من تعرضها لمزيد من الأخطار قبل إجراء الترميم والعلاج اللازم لتثبيت الألوان والنقوش ، وكذلك لأن الحرارة والرطوبة تؤثران على المقبرة بما في ذلك أنفاس الانسان داخلها مما يؤثر على حالتها .

الجهود مبذولة الآن لعلاج مشكلة الأملاح بالتعاون مع معهد جيته الامريكي . وقد جاء الخبراء الامريكيون ومعهم نتائج تحليل العينات التي سبق أن أخذوها من ألوان ونقوش وأحجار وسيتم اجراء التجارب عليها لصيانتها وعلاجها .

ونزور مقبرة « أمتحبشف » في وادي الملكات ، وهو أحد أبناء الملك رمسيس الثالث وقد مات في الثانية عشرة من عمره . المقبرة تتميز بما فيها من نقوش جميلة محفوظة ألوانها وبما تبرزه من العطف الأبوي إذ نرى الملك يقدم بنفسه ولده المتوفى إلى الآلهة في العالم الآخر . . !

على الجدار الذي يقع الى اليسار نشهد منظرا يمثل الملك رمسيس الثالث يحتضن الآلهة ايزيس التي





● توت عنخ آمون يرقد آمنا في مقبرته بوادي الملوك .. بعد أن نقلت كنوزه الى المتحف المصري .. (فوق) بينما تمثالا ممنون يقومان كأنهما يحرسان مدينة الموتى .. (الى اليمين) ويبدو الانسان الجديد في الصفحة المقابلة وهو يرمم آثار أجداده في مقبرة نخت حيث أروع ما أبدعه الفنان المصري القديم .



ترحب بقدومه ، وقد سار خلفه الاله تحوت . ويلي ذلك منظر يمثله وهو يقدم عطورا للاله بتاح في مقصورته . وقد تبعه ابنه الأمير حاملا ريشة هي رمز الامارة .. ونلاحظ هنا اختلاف ملابس الملك وهو يقدم ابنه الى الآلهة المختلفة .. فهو مرة بملابس قصيرة وأخرى بملابس كاملة وهو يلبس تارة تاجا ملكيا وتارة تاجا من نوع آخر .. والملابس التي يرتديها الملك وابنه جميلة جدا وزاهية الالوان بينما يتميز الأمير الشاب بخصلة الشعر التي تتدلى بجانب رأسه وهي رمز الشباب والامارة .

عند نهاية السرداب توجد حجرة صغيرة في زاويتها يوجد هيكل عظمي لجنين لم يكتمل نموه يبدو محنطا ، وقد جرد من تابوته وأكفانه مما يؤكد براعة المصريين في فنون التحنيط التي شملت حتى الأجنة .. !

حتشبسوت والدير البحري

قبل أن ننتقل الى مدينة الأشراف ومقابرهم نمر على أبرز المعابد الجنائزية القريبة من الجبانة .. وهي معابد كانت بالنسبة للملوك أمرا ضروريا ، إذ أنها تعد مكملة لحاجيات الفرعون المتوفى ، حيث نقرت مقابر الملوك في الصخر بحيث لم يكن من المستطاع تشييد المعابد بجوارها ، لذلك شيدها الملوك على حافة الصحراء وأصبحت منفصلة عن المقابر وهمزة الوصل بين عالم الأموات في الجبانة وعالم الأحياء على الشاطىء الآخر للنيل .. ولم يكن لدى الملوك من بأس في إبعاد معابدهم الجنائزية عن مقابرهم جريا وراء فكرة إخفاء المقبرة وابعادها عن أيدي اللصوص .. فالعقيدة الراسخة هي أن روح المتوفى تحوم داخل مقبرته ولكنها لا تلازمها بل تبرحها حرة الى حيث تشاء .. فترحل مع الشمس « رع » في رحلاتها لتتجدد حياتها كل يوم كما تتجدد الشمس ... والروح قادرة - مهما بعد المزار أو المعبد عن المقبرة - على الذهاب إليه لتنتفع بالقرابين والصلوات المقدمة اليها ..

ومن أهم المعابد الجنائزية التي ما تزال قائمة على أطراف الصحراء معابد القرنة والرمسيوم ودير المدينة ومدينة هابو .. ثم أشهر هذه المعابد معبد الدير البحري .. للملكة حتشبسوت .. أشهر ملكات مصر .

ان معبد الدير البحري متفرد في طرازه .. ولا يوجد بين المعابد المصرية ما يشابهه .. إذ أنه بني من ثلاث طبقات تعلو إحداها الأخرى ... وقد قام بتشييده سنموت أحد مهرة المهندسين في ذلك العصر .. وقد كرس المعبد لتقديم العبادة والقرابين الى الملكة وأسلافها ، غير أنه كان مكرسا أيضا لتسجيل إثبات أن أمها أنجبتها من الالة آمون دعما لحقها في الملك كما سجلت على جدرانه رحلة اسطولها الى بلاد بونت (الصومال) ومن سوء حظ هذا المعبد أنه تحمل كثيرا من نتائج الاختلاف بين حتشبسوت وأخيها تحتمس الثالث الذي بذل كل جهده لتشويه صورتها وازالة اسمها من على جدران المعبد ومن على كل أثر من آثارها بما في ذلك مقبرتها وتماثيلها بالكرنك .

رسوم من الحياة الدنيا

تعال بنا ننتقل الى المقابر الخاصة .. مقابر الأشراف والنبلاء . لقد اتخذ هؤلاء من سلسلة التلال الممتدة بين الوديان والأرض الزراعية مقابر لهم . فنرى مئات من مقابرهم منتشرة في قرى ذراع أبو النجا والعساسيف وشيخ عبد القرنة وقرنة مرعي ودير المدينة والمناطق الأخرى .. وكل هذه المقابر تحتوي على مناظر من الحياة اليومية مثل مناظر الزراعة والحرث والبذر والحصاد ومناظر الحفلات وتقديم الزهور ، وهي جميعها ملونة وألوانها ما زالت باقية زاهية منذ أكثر من أربعة آلاف سنة .. والمناظر المرسومة على الجدران جنائزية محضة وهي خاصة بالحياة الدنيا .. وكان القصد من تصويرها أن يتمتع صاحب المقبرة في الآخرة بما كان يتمتع به في الدنيا ، إذ كان الاعتقاد أن تلك الرسوم تحتوي على أشياء حية حقيقية يتمتع بها المتوفى ، ويحدث ذلك بمجرد تلاوة صيغ جنائزية وتعاويذ سحرية نقشت على الجدران .

لقد وجد من هذه المقابر عدد كبير يبلغ حوالي ٤٢٠ وكلها مفتوحة ، الا أن المحفوظ نقوشها منها لا يتجاوز الأربعين .. وأبرز أمثلتها مقبرة « نخت » التي صحبنا إليها الأثري محمد نصر مفتش آثار القرنة .

المقبرة من أجمل مقابر الجبانة وهي صغيرة محفورة في الصخر . وقد غطى سقفها وجدرانها بالملاط ونقشت فوقه الصور والرسوم . وكان صاحبها نخت كاتبا للمخازن ومنجما للاله آمون في عهد تحتمس الرابع . جدران الحجرة مزينة بصور رائعة الجمال زاهية الألوان وفي سقفها رسوم هندسية بديعة ..

وتتابع الرسوم الرائعة على جدران المقبرة .

من أجمل الرسوم منظر وليمة يجلس خلالها نخت

مع زوجته وولدهما يقدم اليهما القرابين .. بينما تقوم ثلاث فتيات بالعزف على آلات موسيقية ، فتلعب الأولى على أوتار عود ، والثانية العارية ترقص وقد حملت ربابة ، والثالثة تنفخ في مزمار مزدوج ..

وجلست السيدات المدعوات على حصير يتحدثن ويتبادلن الزهور .. وهناك خادمة تصنع عقدا من الزهر حول عنق إحدى السيدات ، بينما يبدو عازف أعمى يعزف على عوده . ويلفت النظر تحت مقعد نخت رسم لقط يلتهم سمكة ..

في مشهد آخر يبدو المتوفى وزوجته وأمامهما مائدة تكدست فوقها كمية من القرابين من بينها ثور مذبوح .. وتوجد صفوف من مناظر زراعية وقد جلس نخت تحت مظلته يراقب الأعمال كما كان يفعل في الدنيا . وفي صف ثان مشهد لحرث الأرض بعد تمهيدها وقطع مابها من الأشجار وتكسير القطع الكبيرة من التربة ثم بذر القمح ، ويرى أحد العمال يشرب من قربة من الجلد معلقة في شجرة كي يبرد مابها من ماء .

في الصف الأوسط مشهد لحصاد القمح وحزمه في شباك لنقله . ويلاحظ رجل يشد عقدة الشبكة ، وهناك امرأتان تنزعان سيقان الكتان .. كما يرى في الصف الأعلى ذرى القمح وكيله وحصر مقداره ، ونلاحظ طيور السمان المعلقة من أرجلها . في أحد المشاهد يبدو نخت وزوجته جالسين تحت مظلة بينما يقدم الخدم القرابين أمامهما .

هكذا يرممون الآثار

ونستمع الى مفتش آثار القرنة الذي صحبنا الى المقبرة ..

ان مقبرة نخت هي واحدة من مجموعة من المقابر نقوم الآن بعمليات ترميمها .. ومشروع ترميم هذه المقبرة تشارك فيه السويد ، وهو يقضي بعمل سطح زجاجي للمقبرة حتى يمكن المحافظة على نقوشها من احتكاك الزائرين ومن الاضرار بها .. وخاصة أنها من أجمل النقوش التي وجدت في المقابر المصرية

ونستمع الى أخبار جديدة حول أعمال الترميم : التركيز الآن ليس على الاكتشافات الجديدة ولكن على الحفاظ على ما هو موجود حاليا ، ونحن نقوم بترميم وصيانة الآثار الموجودة في المنطقة فخلال ثلاث سنوات قمنا بترميم ٧ مقابر من أكبر مقابر وادي الملوك هي مقبرة رمسيس الرابع ورمسيس الثالث التي افتتحها الرئيس ميتران ومقبرة مرنبتاح ومقبرة حورمحب ومقبرة سيتي الثاني ومقبرة تا أوسرت ومقبرة رمسيس الأول .

ثم قمنا بترميم آخر بالنسبة لمقابر الأشراف في مقبرتين : مقبرة بجوار رعمسوس تسمى (خاختمات) ومقبرة (بابازا) وهذه كانت مقبرة سقط فيها العديد من الأحجار الأثرية وكانت مليئة بالرديم تم تنظيفها وبناء جدرانها وصرحها العلوي وهو مبنى من الطوب اللبن ، وقد أمكن لنا بناء وضرب الطوب اللبن محليا بنفس الحجم الذي كان مستخدما ، وأمكن إعادة ترميم الصرح والجدران الخارجية ، كما أمكن لنا ترميم وتركيب أكثر من ٥٤٠ قطعة أثرية منقوشة أعدنا تركيبها في مكانها الأصلي . هذه العملية ليست سهلة لأن كل حجر لابد من دراسته وتحديد مكانه من خلال دراسة نقوشه وعمل موازنات بين هذه المقبرة ومقابر أخرى حتى يمكن معرفة المكان الصحيح لهذه القطعة أو لهذا الجزء .

هناك مقبرة أخرى ضخمة نقوم بعمل ترميمات بها هي مقبرة « منتمحات » ، وهي كبيرة جدا وبها الآلاف من القطع المنقوشة التي تحتاج الى ترتيب وقد تم تنظيف المقبرة ومعرفة المدخل الحقيقي لها وتنظيف الحجرات الجانبية والآبار ، وتم إضافة فناء آخر مفتوح بأعمدته حسب الرسم أو التخطيط المعمول للمقبرة من قبل ، وحاليا نقوم بتركيب الأحجار الساقطة فيها وقد أمكن تركيب حوالي ٢٠٠ حجر أثري الى مكانه الأصلي ومازلنا نواصل العمل في المقبرة حتى الآن .

ان هناك جهودا ضخمة مبذولة في ترميم الآثار للمحافظة على الموجود منها .

ونحن الآن نعمل لادخال إضاءة حديثة الى المقابر حتى لا تتأثر ، ولكي تتضح الرؤية أمام الزوار بطريقة أفضل دون أن تؤثر الحرارة أو الاضاءة على أي نقوش أو أي ألوان .

آثار لم تكتشف

ومن الأثري محمد نصر نسمع خبرا جديدا آخر .. هناك مقابر لم تكتشف بعد وهي موجودة أسفل البيوت التي يسكنها أهالي الجبل الآن ، ولو أمكن نقل الأهالي وازالة هذه البيوت وتنظيف الموقع ، فستكتشف مقابر جديدة . والدليل على ذلك أنه منذ ثلاث سنوات اكتشفت المقبرة رقم ٣٤٩ وهي أسفل أحد البيوت ، بجرد المدخل خارج البيت ولكن المقبرة تحت البيت ، وهذا دليل على وجود



● المهارة بلا تقنية .. في صناعة الالبستر في وادي القرنة .

مقابر أخرى عديدة لم تكتشف ، ويمكن الكشف عنها لو أمكن تنظيفها .. ونحن نخطط الآن لاقامة قرية ينقل اليها الأهالي والبيوت في بحر القرنة .. وهي غير القرية النموذجية التي أقامها المهندس حسن فتحي من قبل ..

وقد تم اختيار الموقع وتم جسه واخلاؤه من الآثار ، وأعطى التكليف لكلية الهندسة جامعة الاسكندرية لوضع تخطيط لهذه القرية ، حتى يمكن نقل الأهالي وبناء مساكن لهم جديدة عبارة عن وحدات متناسقة ومتشابهة ومتفقة مع البيئة . وسيكون في هذه القرية أماكن لمصانع الالبستر وأماكن للسياح لشراء ما يلزمهم من الهدايا التذكارية . وهكذا نتخلص من عمليات النبش غير القانوني لآثار البر الغربي

قبل أن نمضي .. قال لنا فتى من أبناء القرنة : لقد زرتم آثار الأقصر ومقابر الفراعنة ومعابدهم الجنائزية ، وشاهدتم عن قرب حياتنا ، وعرفتم كيف نعمل آباؤنا وأجدادنا .. ومع ذلك فإننا على مدى الأجيال متهمون بأننا لصوص مقابر وسارقو مومياوات وناهبو آثار .. ولكن من الذي صنع كل ذلك الذي رأيتم . ألسنا نحن ؟ ألسنا الورثة الحقيقيين لما أقامه آباؤنا وشيده أجدادنا .. ؟ ألسنا الأحق بالأسماء التي تطلق على كل أثر من الآثار ؟ أنتم تعرفون ما شيد باسم خوفو وخفرع وسيتي وتحتمس ورمسيس .. ولكن أين اسم جدي الذي حفر ، وأبي الذي بنى ، وعمي الذي نقش ، وخالي الذي حمل ، وأخي الذي ضحى بحياته وهو يشارك في اقامة البناء الشامخ ويموت تحت أنقاضه ويختفي داخل سراديبه ؟

أليس هؤلاء هم العمالقة الحقيقيين الذين صنعوا كل شيء بأيديهم وعقولهم وجهدهم وعرقهم ودمائهم .. ثم ضحوا بالأرواح حين كان بعض الفراعنة يدفنونهم موتى أو أحياء بعد الانتهاء من حفر القبور وإخفاء الكنوز ودفن الملوك ، حتى يختفي السر معهم فلا يبوحوا به للمنقبين والمعتدين والمتقمين واللصوص ، وحتى لا يخطر ببالهم لو ظلوا أحياء أن يستعيدوا لأنفسهم ما أخفوه أو يطمعوا فيما دفنوه ؟ هؤلاء هم في الحقيقة من صنع كل هذه المعجزات التي عاشت آلافا من السنين ... وليس من صنعها هم الملوك والفراعنة .. والذي يملك أن يأمر ويغدق الذهب والمال ويستخدم السياط ووسائل الترهيب والترغيب .. ليس كمن يصنع ويبدع ويشيد ويقيم ..

الذين يذكرهم التاريخ ويتحدث باسمهم المؤرخون في كل زمان ومكان هم الملوك والفراعنة .. أما الناس الذين يصنعون المعجزات بأيديهم فلا يذكرهم التاريخ ويروحون في غياهب النسيان .. هؤلاء يحيون وهم موتى .. أما نحن فنموت ونحن أحياء ... ! □



عزل جينات السرطان .. إعجاز علمي ..

بقلم : عبد الرحمن حربتاني

الخلية الحية ابداع مذهل وممتع ومحكم .. والاسرار وعظائم الأمور ما زالت تظهر لتوحي لنا بحقائق الوجود وكنه الأشياء .

لا عبث .. ولا صدف .. ولا خطأ في الحساب أو التقدير مهما تناهى الأمر في الصغر والا لاختلط الأمر وضاع في مراد دنيوي أراد الله (جل جلاله) أن يكون له مبتدى وأن يكون له منتهى ..

هناك جينات مفردة تسبب السرطان ، وجدها العلماء أولاً في الفيروسات . وبتتبع التاريخ التطوري للحياة ثبت بأن خلايا هذه الفقاريات كانت تمتلك هذه الجينات غير السوية ، وان هذه الجينات كانت تحدث النمو السرطاني في تلك الأزمان الغابرة التي مضت .

ولكن ! بعد كشف جينات السرطان هل نستطيع القول بأن آلية السيطرة في الخلية السرطانية قد عرفت ، وأنه بات من السهل على العلماء والباحثين التحكم في آلية هذه الخلية السرطانية وبالتالي التحكم في السرطنة ذاتها متى أرادوا ؟

قبل هذا قد نتساءل . . هل استطاع العلم بكل تقنياته أن يقدم لنا تفسيراً شاملاً لكل ما يجري في الخلية الحية العادية من عمليات ؟ وبالتالي هل استطاع العلم وبكل امكانياته الهائلة أن يشرح لنا كيف تستطيع الخلية العادية أن تسيطر على عملية نموها ؟ .

لقد حقق العلم والعلماء انجازاً عظيماً في حقل أبحاث السرطان ، وقدمت فرق الباحثين للبشرية أهم بداية للكشف الكامل عن آلية السرطنة المعقدة التي تصيب الخلية العادية والأسباب التي تؤدي الى النمو السرطاني .

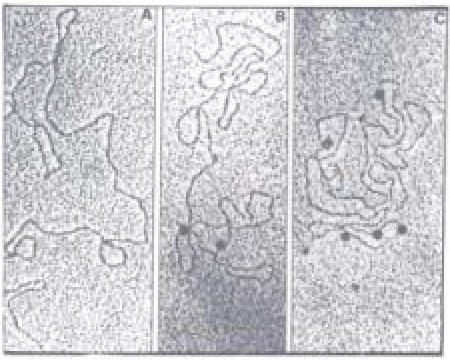
أبحاث متحمسة :

بدأت أبحاث وتجارب العلماء على الفيروسات التي تسبب الأورام في الحيوانات . ثم تبعتها أبحاث متحمسة على الفيروسات التي تسبب الأورام في الانسان،وذلك لتعيين مكان التشويش الأساسي في كروموسومات الخلية حيث تكون بداية انطلاق النمو السرطاني الذي لا يتوقف . . كشف العلماء عن هذه الأمكنة وحددوها . . ثم كشفوا عن نوعية وتركيب الانزيمات التي تحفز النمو السرطاني . . ثم كشفوا الجينات التي ترسل بالشيفرات الوراثية

لاصطناع هذه الأنزيمات البروتينية ثم عزلت الجينات المتحولة في الفيروسات الارتكاسية فتوضحت بنية ونوعية العمليات الكيميائية والتفاعلات المؤولة عن احداث النمو السرطاني . وكان كشف الفيروسات الارتكاسية قد قدم فهماً متكاملاً للجينات المتحولة .

ثم تم الكشف عن الجينة (SRC) في ورم سرقوم ، وهذه الجينة لها القدرة على نقل الخلايا الى الحالة المتحولة التي يحدثها السرطان بعد تصنيعها لبروتين معين اكتشف هو الآخر وسمي بـ (PP 60-V-SRC)، وهو الذي يقوم بتحويل الخلية العادية الى خلية سرطانية ، والأبحاث المتعمقة أثبتت بأن الجينة في الفقاريات ومنها الانسان تظل لفترات طويلة في المسلك التطوري دون أي تبدل رئيسي ، وهذا ضروري للجنس البشري ليحافظ على استمراريته ودوامه . واعتبر العلماء الجينات المتحولة جزءا من شبكة التوازن والتنظيم الدقيق الذي يسيطر ويتحكم « في عمليات نمو وتطور واستقرار الخلايا العادية ، وان النشاط المفرط لواحدة من تلك الجينات المتحولة يستطيع الاخلال بذلك التوازن وجعل الخلايا تتجه في طريق النمو السريع والمستمر الذي لا يتوقف حتى يسبب السرطان وان الجينات المتحولة تنتقل وراثيا .

بحوث بالمئات وعلماء بحاثة بالمئات عملوا في مئات المخابر ومراكز الأبحاث السرطانية لعشرات السنين ، ليقدموا هذا الفهم غير المتكامل لآلية السرطنة في خلية واحدة هي التي يبدأ بها شكل من أشكال السرطان المائة . . ويرى البروفسور (روبرت أ. واينبرغ) أعظم علماء السرطان ان الطريق الحافلة بالوعود المثمرة هي طريق البحث الأساسي عن آلية السرطنة وكيف تتم » كما يقول البروفسور ميشيل بيجلر وربما أصبحنا بكشوفنا هذه على وشك الوصول الى نهاية الطريق .



تجربة من تجارب كثيرة لاظهار قدرة مادة على احداث السرطان بعد احداثها تحولات في DNA البكتريا . .

قامت ثلاث فرق مستقلة من الباحثين الأميركيين بعزل جينات خاصة من خلايا تستطيع أن تحول الخلايا العادية الى خلايا سرطانية ومعظم هذه الجينات المعزولة من سرطانات بشرية .

واعتبر عمل فرق البحث الثلاث المكونة من عشرات العلماء البارزين أعظم انجاز طبي في تاريخ البشرية ، ونصر كبير اخترق به العلماء حصون هذا الداء الخبيث . . ولتتمكن من أن تلم بهذه الأبحاث والتجارب الهامة سنشرح بعض أساسيات علم الخلية وتركيبها وهو شيء لا بد منه للقارىء العادي .

الخليـــة الحيـــة :

الخلايا هي وحدات الحياة الأساسية واللبنات التي تبنى منها جميع أجسام الكائنات الحية والنبات ، وجسم الانسان يتكون من (١٠٠) مليون خلية تقريباً يتشكل من تجمعاتها بالآلاف والملايين جميع أنسجة الجسم وأعضائه . . وتظهر الخلية في أبسط حالاتها ككرة يحيط بها غشاء خارجي رقيق ، وفي وسطها نواة أصغر منها وأكثر كثافة تحتوي على الكروموسومات التي تحتوي على المعلومات الوراثية منذ بدء الخليقة حتى آخر مخلوق بشري .

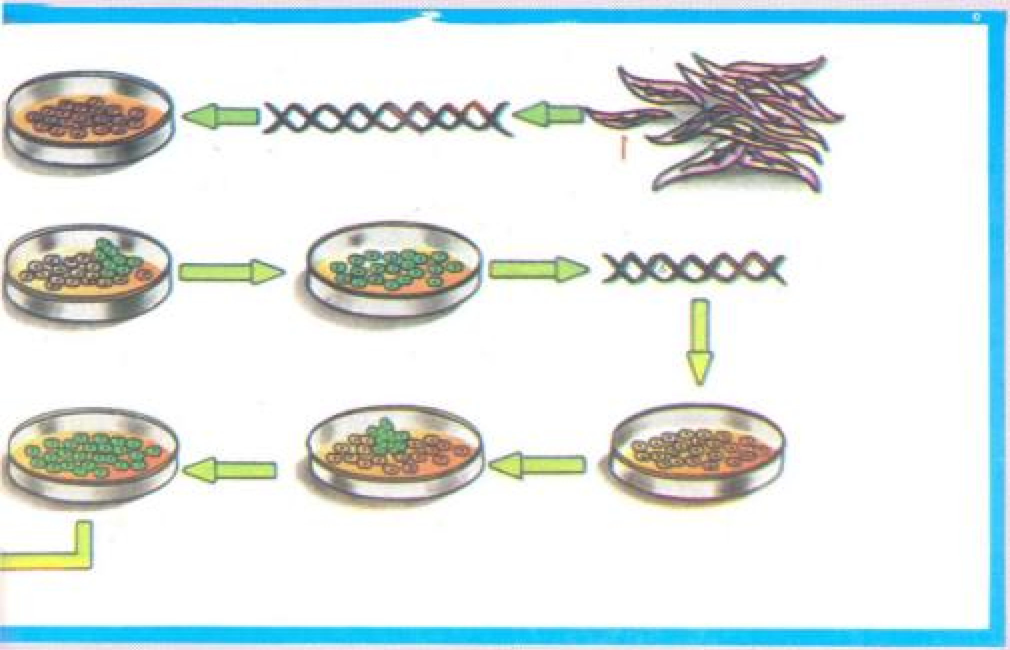
ويقدر علماء الوراثة انه لو امكننا ترجمة التعليمات الوراثية في خلية انسانية واحدة الى اللغة الانجليزية فانها ستملأ (١٠٠٠) مجلد من دائرة المعارف ، علماً بأن الترتيب«النكليوتيدي» لمعظم كروموسومات الانسان ما زال مجهولا . . والنكليوتيدات شيفرات وراثية مبرمجة لتكون هذا المخلوق الذي يختلف عن غيره من المخلوقات ، ولتعطي هذا المخلوق صفات ومسلكاً تطورياً يختلف عن غيره من المخلوقات . . وأخيراً فان هذه الشيفرة الوراثية تحدد بدقة وبأنماط متغايرة بداية المخلوق ونهايته فهي بالأحرى شيفرة معلومات الكون والوجود والموجودات . . وفيها يكمن السر الكبير الذي يجسد عظمة الخالق سبحانه .

الطفـــــرات :

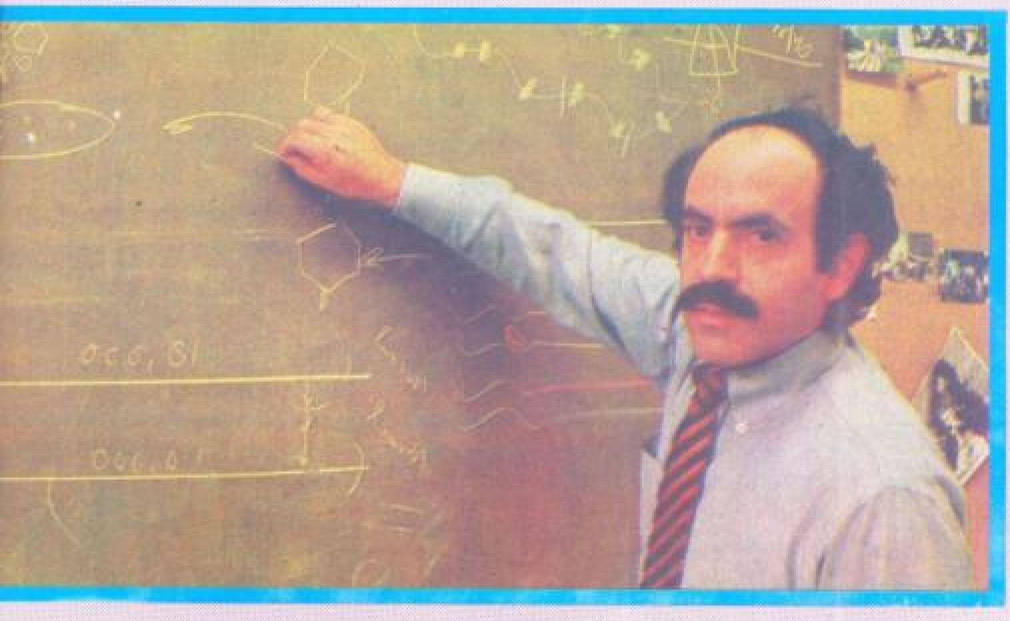
إن عملية توارث الأشكال والصفات بين الأجيال المتعاقبة تجري أحياناً بنفس النمط والتتابع السهل ، ولكن في أحايين كثيرة تظهر خصائص وصفات تطورية جديدة لا تشابه تلك التي تميز الأجيال السابقة ، وهذه هي التي ندعوها علمياً بالطفرة ، والطفرة أو التحول الجيني أو (تغير الجينات) هي أساس التغير في الكائن الحي ، ونشوء الطفرات عملية مستمرة لا تتوقف خلال مراحل تطور الكائنات الحية جميعاً ، وإن كان حدوثها قليلا ومتباعداً زمنياً في الكائنات الحية الراقية بينما تحدث بكثرة وبأزمان متقاربة في الكائنات الحية الدقيقة كالبكتريا والفيروسات والفطريات،والانسان يوجد في خلاياه أهلية استعداد لحصول الطفرة والتغير ، ولكن لا يحصل التغير فجأة كما في الجراثيم . وما الطفرة والعبور بين الكروموسومات والانقسام الاختزالي الا ملامح للمسالك التي يتغير بواسطتها السلوك الوراثي للكائن الحي .

ومنذ سنوات قليلة فقط أصبحنا على معرفة أكيدة بأن بعض أنواع السرطان يسببها تشويش ملحوظ في أحد الكروموسومات ، لكن لما كان للانسان (٢٣) زوجاً من الكروموسومات في كل خلية وكل زوج من هذه الكروموسومات يحتوي على آلاف الجينات فقد وجب علينا أن نحدد هذه الجينات غير السوية التي تسبب هذه الأنواع من السرطانات من بين آلاف الجينات التي تنتظم في الكروموسوم ، ذلك أن فك رموز الجينة السرطانية وتحديدها من بين السياق الذي يشكله تتابع الجينات على الكروموسوم سيسمح لنا بمقابلتها بأي جينة سوية لا تسبب السرطان ، وهذا بالتالي سيمكن العلماء من تحديد الكروموسوم الذي تنتمي اليه . . وهذه عملية هامة جداً لفرز الكروموسوم المشوش من بين (٢٣) زوجاً . . ولأن الداء القاتل يكمن بين جينات هذا الكروموسوم ينتظر الفرصة للظهور ولتدمير الكائن الحي . . والعطل هنا ليس على مستوى جينة واحدة بل انه على مستوى الكروموسوم بأكمله والذي يحتوي على آلاف الجينات .

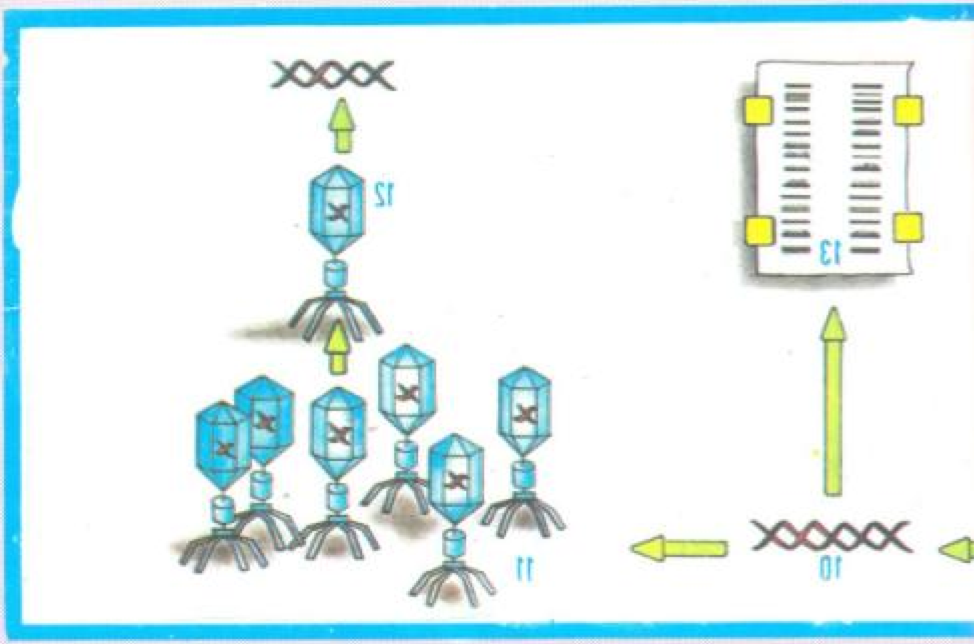
ومؤخراً قام عالم الأحياء المجهري الأميركي البروفسور جورجي يانس بعمل فذ وانجاز كبير حين استعمل تقنية جديدة في مجال الفحص المجهري لكروموسومات سحبت من نواة خلية انسانية ثم لونت لكي يميز فيها أشرطة وراثية مستعرضة أكثر عدداً من تلك التي كانت بتميز من قبل ، واستطاع العالم جورجي بمهارة أن يفصل ويميز (١٥٠٠)

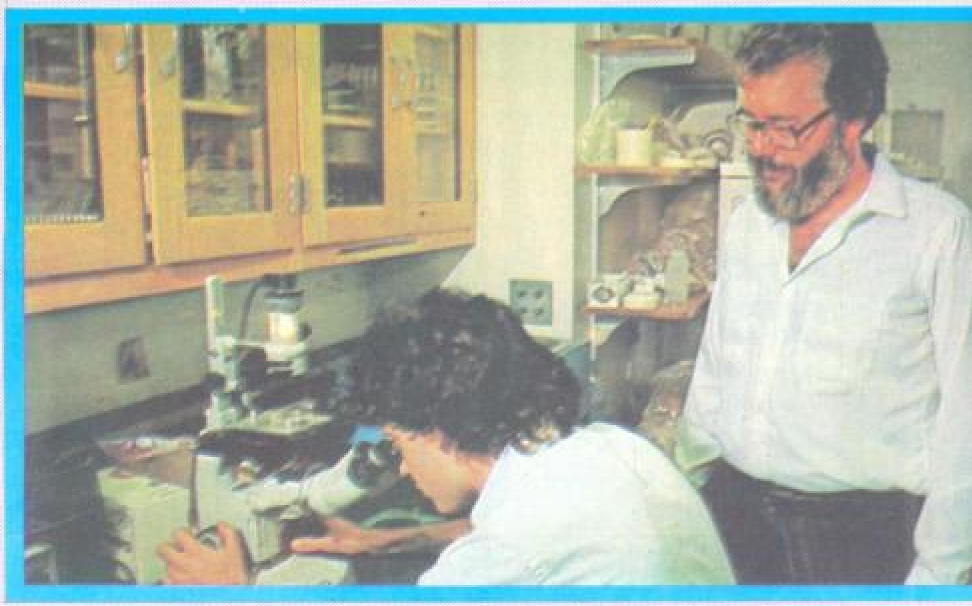


مراحل التجارب الكثيرة التي أجراها البروفسور وايشرغ وفريقه لعزل (جينات السرطان) .



البروفسور روبرت أ. وايبرغ في مركز ابحاث السرطان في MI.



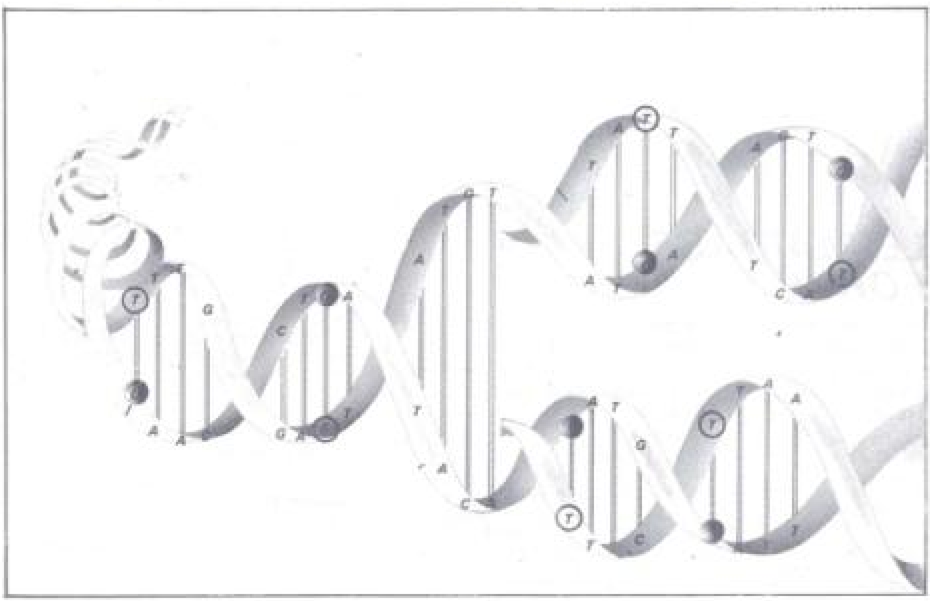


البروفسور جيوفري كوبر (الواقف) في معهد سيدني فاربر للسرطان في مدينة بوسطن .

شريط وراثي مستعرض ، وهذا يعني أن ما يحتويه كل من هذه الأشرطة الـ (١٥٠٠) المذكورة ما معدله (٢٠) جينة وسطياً فقط ، ذلك لأن العدد الكلي للجينات في خلية الانسان هو حوالي (٣٠) الف جينة تنظم في (٢٣) زوج كروموسوم . . وكان انجازاً مهماً سهل الكثير من عمليات البحث على علماء الوراثة ، ذلك أن متابعة القليل من الجينات على الشريط الوراثي أسهل بكثير من متابعة الكثير منها ، والعلم للآن لم يتمكن من متابعة الا العدد المحدود من تتالي الجينات على الكروموسوم ، ويوم يتمكن من متابعة الكثير منها يصبح الانسان ورقة مفتوحة بكل أحواله وآماله وأمراضه .

جينات غير سوية :

ثمة جينات غير سوية مسؤولة عن إصابة الانسان بأنواع عديدة من السرطان ، بمعنى أن هذه الجينات السرطانية إن وجدت في خلايا فرد ما فستجعله عرضة للاصابة بالسرطان ، بل أكثر عرضة للاصابة بنوع معين من أنواعه العديدة . . هذا الكشف البارز تحقق بفضل جهود عشرات العلماء الباحثين الأميركيين الذين عملوا في ثلاث من فرق البحث المستقلة . واستطاع كل فريق عزل جينات معينة من خلايا بشرية ، لها القدرة على أن تحول الخلايا السوية الى خلايا سرطانية ، وتتأتى معظم هذه الجينات من سرطانات بشرية. والحقيقة أن هذا الاكتشاف العظيم قد يقدم الدلالة على ان بعض أنواع السرطان تكمن في التغير الاحيائي أو الطفرة التي هي عبارة عن تعديل مفاجيء طاريء يتم في الكروموسوم على جينة واحدة . . وتبعاً لهذا يأمل العلماء وعلى المدى القادم في استحداث وسائل جديدة يكون بمقدورها تشخيص أنواع السرطان مبكراً ومن ثم علاجها . وهذا يؤمن الوقاية المسبقة بعد اجراء مسح شامل للأفراد المعرضين للاصابة بالسرطان . وربما ، وهذا أمل بغد متفائل ، يستطيع العلماء وضع المضاد السرطاني بجاهزية الاستعمال المسبق لظهور المرض . وبعد هذا الكشف الهام الذي دلنا على



نموذج لجزئي الـ DNA اللولبي المزدوج في كل خلية حية . . ونشاهد فيه كيف أن المادة المسرطنة قد غيرت الاعلام الوراثي وجعلت الحرف t يقابل الحرفين GA في الحالة العادية ودائماً الحرف A يقابل الحرف G والحرف T يقابل الحرف C . . وأثناء تناسخ الـ DNA كما نشاهد ينتقل الاعلام الوراثي المغير هذا بحيث يبقى الحرف G المسرطن مقابل الحرف T في الشريط الجديد الذي يشكل خلايا سرطانية تحدث الورم (السرطاني) .

وجود جينات السرطان بعد عزلها يبقى على العلماء متابعة بحوثهم الهامة لزيادة معرفتنا بجينات السرطان هذه،وبآلية عملها التي تحدث بها السرطان المعين . . وعندها ربما نعلم لماذا يتعرض بعض الأشخاص للاصابة بالسرطان أكثر من غيرهم . . بل لماذا يتعرض بعض الأشخاص للاصابة بهذا النوع من السرطان دون غيره . . وربما استطاع العلماء في وقت قريب أن يشرحوا لنا التكتيك الوراثي الذي تتبعه السرطانات الوراثية التي تتواصل في عائلة واحدة ، وتصيب جيلاً من بعد جيل . . وكذلك فان كشف وعزل (جينات السرطان) سيفتح الأفاق أمام العلماء لاعداد البحوث الأكثر دقة لتحديد ما اذا كانت مادة ما هي فعلاً التي تثير جينة ما لتسبب نوعاً من السرطان .

نعلم منذ ستين عديدة أن الخلية العادية تتحول الى خلية سرطانية اذا ما حصل تغير احيائي (طفرة) في الحامض النووي (DNA) لتلك الخلية والـ (DNA) هذا الجزيء الطويل المزدوج اللولبة والذي يشكل شيفرة مصغرة عليها الاعلام الوراثي الذي يمثل تراث البشرية الى يومنا هذا يشكل ـ مادة الجينات والكروموسومات في نواة الخلية مع بعض البروتينات ، ولقد انطلق العالم الأميركي (بروس إمس) من مبدأ استقراء الطفرات التي تسببها مواد مثيرة لظهور السرطان ، فأعد اختباراً يسمح باظهار قدرة إحدى هذه المواد على احداث هذه التغيارات التي تسبب السرطان ، وأحضر المادة المعنية وادخلها في زرع للبكتريا من نوع السالمونيلا ، وبعد انقضاء دور الحضانة لهذه البكتريا أي الفترة بين العدوى بالمرض وظهور أعراضه بحث عن بكتريا أحدثت تحويلاً في حامضها النووي الـ (DNA) فوجدها فعلاً . . وكان معنى هذا أن المادة موضوع التجربة قابلة لاحداث البدل (الطفرة) في البكتريا ولكن . . هل هذه المادة التي أحدثت التغير (الطفرة) في الحامض النووي الـ (DNA) قادرة على احداث التغير في خلية حيوان ثديي .

إن هذا الاختبار الهام لا يستطيع أن يجيبنا عن تساؤلنا ولذا كان لا بد من الذهاب في الأبحاث السرطانية الى أبعد من ذلك بكثير . . وهذا فعلاً ما حصل .

أبحاث مجهرية :

منذ أكثر من سنتين تقريباً قام عالم الأحياء المجهري البروفيسور الأميركي (روبرت أ. واينبرغ) على رأس فريق عمل في مركز ابحاث السرطان وشعبة علم الأحياء في معهد ماساسوشوستس للتكنولوجيا الشهير في مدينة كمبردج قرب بوسطن بسلسلة أبحاث وتجارب هدفها البحث في خلايا سرطانية عن جينة أو عدة جينات طرأت عليها تحولات مفاجئة من شأنها أن تسبب الأورام السرطانية وقامت هذه التجارب على مبدأ بسيط . ولكن في البداية انتهى البروفسور واينبرغ وفريق بحثه (من زرع) خلايا سرطانية بشرية واستخلصوا من هذه الخلايا السرطانية الحامض النووي (DNA) بكامله ، وبعد أن عزل واينبرغ وفريقه هذا الـ (DNA) الذي يفترض بأن فيه جينة السرطان أدخلوه في زرع لخلايا ليفية من فأرة ولم يدخلوه في زرع خلايا انسانية لأن هذه الأخيرة ترفضه ثم وضعوا هذه الخلايا الفأرية والـ (DNA) البشري في علب (بترى)الضفافة بحيث تغطي طبقة واحدة منها الوسط الغذائي وتغدو قابلة للفحص بالمجهر البصري . . وبعد أن اندمجت الخلايا الفأرية في الـ (DNA) المعزول كما نعلم من خلايا سرطانية بشرية تسرطنت هذه الخلايا وبدأت في التكاثر بشكل غير منضبط وبسرعة أكبر مما تتكاثر به الخلايا العادية ، وبعد حوالي (١٥) يوماً على هذا الزرع لوحظ وبشكل واضح جداً وبالعين المجردة ظهور (انتفاخات) صغيرة على شكل دوائر رمادية اللون تكونت على سطح الزرع في علب (بترى) على يسار الطبق . وتبين لدى فحصها بالمجهر بأنها (خلايا سرطانية) وللتأكد مما اذا كانت تحتوي على (جينات بشرية) عزلت هذه الخلايا السرطانية وحدها وأخضعت هذه الخلايا السرطانية لسلسة متعاقبة من عمليات الزرع المكثف وثبت للعلماء وجود الـ (DNA) البشري في وسط الـ (DNA) الفأري مع مجموعة خلايا سرطانية . ومنها استخلص الـ (DNA) الجديد الذي أصبح يتضمن بلاشك عدة جينات سرطانية مركزة ، ثم أعاد واينبرغ وفريقه زرع هذه الجينات السرطانية المركزة في زرع خلايا ليفية جديدة لفأر جديد . فحصلوا ثانية على انتفاخ جديد على شكل ورم سرطاني مكون من خلايا

سرطانية أكثر تركيزاً من الزرع الأول ثم عزلوا هذه الخلايا السرطانية المركزة لوحدها . وأخضعوها لعمليات زرع جديدة مكثفة على اعتبار أن جميع هذه الخلايا تحوي جينات سرطانية ولكنها جينات بشرية ممزوجة بجينات فأرية .

ألوان من السرطان :

بهذه الطرق المعقدة المتشابكة استطاع فريق بحث البروفسور وابنبرج أن يحدد هوية (عدة جينات سرطانية) مختلفة تسبب الاصابة بسرطان المثانة وسرطان القولون وأحد أنواع سرطان الدم ، وتمكن فريق بحث الدكتور جفري كوبر من عزل جينة سرطان الدجاج . أما فريق البروفسور ميخائيل ويغلر فقد توصل الى عزل الجينة التي تسبب سرطان المثانة والجينة التي يبدو أنها مشتركة وتسبب سرطان الرئة وسرطان المستقيم . وقد سبقت تجارب عزل جينات السرطان من الخلايا السرطانية البشرية تجارب وأبحاث كثيرة على الحيوانات ومنها الفئران والأرانب ، ودلت نتائج هذه التجارب المبدئية على أن هناك جينات مختلفة تسبب أنواعاً مختلفة من السرطان .

واذا كان الباحثون الأميركيون قد أحاطوا تفاصيل عزل جينات السرطان بالكثير من الحيطة والسرية ، الا أنهم أفاضوا في تبيان النتائج المرتقبة لاكتشافاتهم هذه ومدى أهميتها في المستقبل القريب . . وبحسب ما يذكره البروفسور وابنبرغ فان هذه الجينات السرطانية المعزولة ليست جزءاً من التراث الوراثي العادي للانسان ، بل انها جينات حصل فيها تغير أحيائي نتيجة لاصابتها بعوامل مسببة للسرطان كأن يكون فيروس مثلاً أو مادة كيميائية أو شعاع . . وعلى هذا فان الجينة المتحولة كانت جينة عادية غير مسببة للسرطان . . فأثر عليها عامل خارجي فحولها الى جينة سرطانية وبحسب رأي البروفسور وابنبرج فان هذه الجينة العادية تنقلب الى جينة سرطانية إما لأنه حصل فيها تحول لم يعد يعطيها القدرة لتتحكم في اعطاء الشفرة الوراثية لتصنيع المادة المطلوبة منها لمنفعة الخلية ، أو لأن الجينة بعد أن أصابها التحول بعامل ما قد بدأت في صنع (مادة جديدة) غير معروفة لا تلزم الخلية وقد تكون هي السبب في تسرطن الخلية ومن الممكن أيضاً في رأي الدكتور كوبر أن الخلية تتسرطن وتسبب السرطان لأن الجينة المتحولة أعطت أوامرها بتصنيع المادة الجديدة بكميات كبيرة تزيد عن حاجة الخلية .

ويرى البروفسور وابنبرغ أن الطريق الحافلة بالوعود والآمال هي طريق البحث في آلية السرطنة ، أي بمعنى كشف جميع العلائق الفيزيائية والكيميائية التي تؤدي الى ظهور السرطان فهناك حوالي (١٠٠) نوع من السرطانات البشرية يقابلها عدد أقل من الجينات السرطانية قد تكون (٢٠) أو (٣٠) أو ربما (٤٠) جينة عانت من تحولات أصبحت بتأثيرها مسببة للسرطان ، وهذه التحولات نتجت عن الانسجة الضامة التي اصطنعت عند فأرة بوساطة أربعة منتجات كيميائية مختلفة . . وكان التساؤل هو . . هل أن أشكال السرطان الأربعة سببتها جينة سرطان واحدة بعد أن طرأ عليها التحول في كل مرة . أم أن التحول أصاب أربع جينات مختلفة سببت كل جينة شكلاً من أشكال سرطان النسيج الضام ؟ . والجواب كان : أن الجينة نفسها تحولت في كل شكل من أشكال سرطان النسيج الضام بشكل مختلف بالطبع . . لكن الجينة هي نفسها . . رغم استخدام العلماء لمواد مختلفة تسبب السرطان . . ونفس الأمر انطبق على سرطان الدماغ عند الفأر وهكذا فان لسرطان الدماغ جينته الخاصة ولسرطان الأنسجة الضامة جينته الخاصة به أيضاً . . ولكل نوع سرطان جينة خاصة به .

والمرحلة القادمة للبحوث ستكون المعرفة الدقيقة لكيفية التغير الذي تحدثه الجينة في أيض الخلية التي تحويها ، والأيض هو مجموعة العمليات الكيميائية التي ترتبط ببناء المادة الحية وهدمها في الخلية وبما تؤمن الطاقة الضرورية للعمليات والنشاطات الحيوية .

وبعد . . فان السرطان كما كل شيء في هذا الوجود آلية محكمة وترتيب مقدر ونظام معجز وليس خللاً أو عارضاً أو عشوائية تصيب الخلية فتضطرب أو يصيبها الجنون كما توصف . . وما كان بهذا الضبط والاحكام والنظام لا يكشف الا بضبط وأحكام ونظام يماثله . . وحين تكشف آلية السرطان بكل دقائقها فان سراً من أسرار الوجود يكون قد اكتشف . □

وجهاً لوجه





د. بدرو مارتينيث و د. حامد أبو احمد

■ بعض الأدباء في الوطن العربي جديرون بالحصول على جائزة نوبل اكثر من الذين حصلوا عليها بالفعل . ■ **المجتمع العربي مازال في مرحلة انتقال وأزمة . . وكذلك الأدب .** ■ يعيش العرب في هذه المرحلة صراعا ضد عدو غير ظاهر هو « الزمن » ! ■ **ليس كل ما يأتي من الغرب سيئا . . وبنفس الوقت ليس طيبا أيضا !** ■ النقد الذي يرتكز على المادة اللغوية فقط يتناسى البعد الرئيسي للنص وهدفه وقيمته .

المستعرب الاسباني الدكتور بدرو مارتينيث مونتابيث يعمل حاليا رئيسا لقسم اللغة العربية بجامعة مدريد « اوتونما » ، وقد عمل من قبل عميدا للكلية ثم رئيسا للجامعة ، التقاه الدكتور حامد ابو احمد الذي يحمل دكتوراه في الأدب الاسباني الحديث من جامعة مدريد منذ سنة ١٩٨٣ .

ومن أعمال الدكتور مونتابيث المنشورة في مجالي التأليف والترجمة : « القصيدة فلسطين : فلسطين في الشعر العربي المعاصر » (١٩٨٠) و « كتابات حول الأدب الفلسطيني (١٩٨٤) ، و « مختارات من الشعر العربي المعاصر » بالتعاون مع كارمن رويث برافو وروسا إيزابل مارتينيث (١٩٨٥) و « وكتاب عرب واقعيون » (١٩٧٠) .... « واكتشافات في الأدب العربي الجديد (١٩٧٧) و « مدخل الى الأدب العربي الحديث » الطبعة الثانية ١٩٨٥ . و« أغانٍ عربية جديدة لغرناطة (١٩٧٩) ... الخ

ومن الخصائص المهمة التي يتميز بها الدكتور مونتابيث عن غيره من المستعربين الأوروبيين أن كل من يلتقى به أو يتعامل معه يحس وكأنه عربي فهو يدافع بحرارة عن قضاياهم ، ويتحدث عن مشاكلهم بوضوح وصدق ، وكأنما يحس في أعماقه بأن العرب مؤهلون لأن يكونوا أفضل بكثير مما هم عليه الآن

* قلت للدكتور مونتابيث انت أحد المستعربين القلائل المتخصصين في الأدب العربي الحديث ، ولك أبحاث كثيرة وترجمات منشورة في هذا المجال من أهمها كتابك .. « مدخل الى الأدب العربي الحديث » ، فما هي ـ في رأيك المنجزات التي حققها الأدب العربي خلال الأربعين عاما الأخيرة ؟

ـ لاأدرى بالضبط هل تعنى بسؤالك هذا المنجزات التي حققها الأدب العربي نفسه أو المنجزات التي تحققت بوساطة حركة الاستعراب في مجال دراسة الأدب العربي الحديث ، وأظن أنك تعنى النقطة الأولى .

ومن ثم فاني سوف أقصر حديثي عليها في ايجاز ، وعندما نتحدث عن المنجزات نقسمها قسمين : « منجزات داخلية وأخرى خارجية » .

وفيما يتعلق بالقسم الثاني فان الأدب العربي الحديث معروف حاليا أكثر مما كان عليه منذ أربعين عاما ، لاشك في هذا ، والترجمات منه الى اللغات العالمية الكبرى مثل الاسبانية والانجليزية والفرنسية والروسية .. الخ أصبحت أكثر أهمية ، على الرغم من أنها مازالت حتى الآن أقل بكثير مما يستحقه ـ بموضوعية ـ هذا الأدب .

ولاشك أنه لابد من مواصلة هذا الطريق لنشر هذا الأدب ، ولكن مع محاولة تجنب بعض الأخطاء التي يشيع ارتكابها : فمثلا تترجم بعض النصوص التي لاتستحق الترجمة ، ولاتعنى في الواقع شيئا في نطاق الأدب العربي المعاصر ، على الأقل بالنسبة للجوانب المتعلقة بالأصالة ، والقيمة ، وحسن التمثيل لحركة هذا الأدب . وهناك ترجمات كثيرة تتم بوساطة علاقات الصداقة ، أو المواءمة على أي نحو كان أو ربما لجهل المترجم أو الناشر بالوضع الحقيقى للأدب العربي ، وهذا على أية حال ، يضر أكثر مما ينفع ، لأن الترجمة هي أيضا ، اختيار ، ولكى تختار يجب أن تعرف جيدا الاطار الشامل . وكما قلت لك فان هذه النظرة تخطىء أحيانا ، وكذلك فانه ليس علينا أن نترجم فقط ، وبشكل يحافظ ـ قدر الامكان ـ على دقة الترجمة وبراعتها ، وانما علينا أيضا أن ندرس هذا الانتاج الأدبي بعمق .

وفيما يتعلق بحركة الاستعراب الغربية فان الأدب العربي المعاصر لم يدرس حتى الآن الا على نطاق ضيق ، أو تتم دراسته فقط في دوائر مازالت محدودة ، وهذه معركة لابد من كسبها أيضا ، وتجربتي الشخصية في هذا المجال أظهرت لي أنه ليس من السهل ادخال هذا الأدب العربي في الوسط الغربي ، لأسباب من بينها أن الغرب قليل التأثر بهذا الأدب ، ولولا ذلك لحدث شيء له صدى عالمي ضخم ، مثل منح جائزة نوبل ـ مثلا لكاتب عربي ، حيث أن هناك في الوطن العربي من هم أكثر جدارة بها من بعض الذين حصلوا عليها بالفعل .

وفيما يتعلق بالمنجزات الداخلية ، فلا شك أن الأدب العربي مازال يمر حتى الآن بمرحلة انتقال وأزمة في محاولة للتكيف مع العالم المعاصر ، ولكن هذا في رأيي أمر له مايبرره ، ولاشك أنه أكثر مدعاة للأمل على عكس مايتصور الكثيرون ، والحق أنه لم يكن هناك مفر من ذلك ، لأن المجتمع العربي نفسه ، بأجمعه ، مازال في مرحلة انتقال وأزمة بحثا عن هذا « التكيف » . والأدب هو أيضا « حدث اجتماعي » فضلا عن أنه « حدث جمالي » وعندي فان أحد الانجازات المهمة هو أن يتضاعف عدد الكتاب العرب المجيدين ، وهم سواء كانوا داخل الوطن العربي أو خارجه ، يزدادون يوما بعد يوم وعيا بهذا الواقع الانتقالي وبالأزمة ، وهم يحملونها على عاتقهم ، ويحاولون ايجاد طرق واشكال مناسبة لتجاوز هذا الواقع ، ومن ثم فقد تجنبوا الدخول في عمليات جدل صغيرة وثانوية ، عبثية ، بيزنطية ،

وزاد لديهم الوعي الأكثر نصاعة بالمهمة الحقيقية للكاتب ، ومن الواضح أن هؤلاء الكتاب مازالوا حتى الآن أقلية ، وكثيرون منهم يضطرون للعيش والكتابة خارج بلدهم نفسه ، أو حتى خارج الوطن العربي ، ولكن هذه الظاهرة « للوعي الجديد » وهي ظاهرة شخصية وتضامنية في الوقت نفسه ، مشجعة ، على الرغم من أنها مازالت حتى الآن أقل تطورا مما يجب أن تكون عليه .

الحداثة . . كيف . . وإلى أين ؟!

● من الموضوعات المطروحة على الساحة الثقافية العربية الآن موضوع « الحداثة » وهي تطرح من منظورات ووجهات نظر مختلفة ، وفقا لثقافة كل كاتب أو متحدث ، فكيف ترى ـ بصفتك مثقفا غربيا ـ هذه الظاهرة ؟ وهل تعتقد أنها مجرد « موضة » عابرة أم أنها ضرورة حياة وشكل من أشكال مواجهة الواقع ؟

ـ فعلا ، فمنذ فترة وموضوع « الحداثة » يمثل « موضة » في الوطن العربي ، تدور حوله مناقشات وتعقد له اجتماعات عديدة ، وندوات ومؤتمرات ، بالاضافة الى رواسب كثيرة من الكتابات حول هذا الموضوع ، ولاشك أننا يجب أن نعترف بأن جزءا كبيرا من كل هذا الاهتمام الظاهر يمثل « موضة » بالمفهوم السيء للكلمة بمعنى أنه في الأساس مجرد اجابة عن مصالح شخصية ، أو صادر عن جماعات ضغط ، أو . . . لأهداف تجارية ، وحتى يأتي أحيانا لأسباب سياسية أو انطلاقا من توجهات ثقافية خاطئة ، لكن هذا لايعني أن الاهتمام الأصيل أيضا لايوجد ، وذلك لأن الكثيرين من العرب أصبحوا يهتمون بشيء هو قدرتهم على أن يواجهوا ، من منطلق اجتماعي ثقافي ، المتطلبات الانسانية ، (ولا أتحدث عن شيء غير هذا ، لأن كل ماعدا ذلك خارج نطاق الضرورة) للعالم الراهن ، وللحظة الحالية التي يعيشها ، حيث يبدو هذا العالم كل يوم أصغر مما كان عليه بالامس ، ومن هنا تتراكم التحديات والأخطاء ، وتصبح فروق التخلف أكبر بكثير ، أي أن صور التخلف تتضاعف . والمؤلم أن هذه المناقشات حول الحداثة طويلة جدا معقدة ، بينما

يبدو أن علينا في عالم اليوم أن نفعل كل شيء بسرعة وبطريقة آلية ، وهذه المناقشات أيضا ، لابد وأن تكون على نحو ما نظرية ،وتتطلب جهود التنظير في العادة الكثير من الصبر والأناة ، وإلا تبوء بالفشل ، أو لاتسفر الا عن صيغ سهلة ومتسرعة تكون بمنأى عن المجال الذي أنشئت من أجله ، ومن ثم لايتولد عنها الا الكثير من الاحباط .

أنا أعرف أن العرب ـ وليس العرب فقط في عالم اليوم ـ يعيشون الآن نوعا من « الصراع ضد الزمن » ، وهذا الصراع من أسوا أنواع الصراعات ، لأن العدو في هذه الحالة غير ظاهر ، وغير محدد ، وغير مدرك . ولكن لابد أن يكون هناك اقتناع بأنه لايمكن احراز النصر في هذا الصراع الا بالدأب والارادة مع المعرفة الدقيقة للأهداف النهائية التي نمضي وراءها ، دون أن نصاب باليأس أو بالتعجل العقيم ، ويتطلب هذا أيضا الوصول الى درجة كبيرة من تحديد المفاهيم ، أي أن علينا أن نعرف بدقة ماذا تعني المصطلحات التي نستخدمها ، بل كل واحد من هذه المصطلحات التي نستخدمها ، وأي مراقب لأوضاع الوطن العربي حاليا يظهر له بوضوح شديد ، أن هذا التحديد للمفاهيم نادر جدا ، فالمفاهيم تمتد أو تنكمش وفقا لرغبة أو مصلحة من يستخدمها ، حتى تخدم بشكل صارم طروحاته الجزئية ، وهي بذلك تصبح مثل « قطعة اللبان » . وحتى نفس مصطلح الحداثة الذي يمكن أن نطلق عليه المعاصرة يطلق على أشياء شديدة الاختلاف فيا بينها ، ويستخدم بمفاهيم شديدة التنوع ، حتى ليأتي أحيانا بدون مضمون ، وكل هذا عملية طويلة جدا ، وصعبة ومعقدة كما ذكرت من قبل ، ولابد أن نفسح الوقت للقيم العليا الجديدة حتى تذاع وتنقى ، انها ليست معركة فكرية فقط ، لأن المعارك الفكرية لم توجد أبدا وحدها بشكل صارم ، وبخاصة في عالم اليوم ، ولكن الذي يجب أن نطلبه من المثقفين والفنانين والعقول المبدعة هو أن يكونوا في حالة تأهب وفي حالة يقظة مطلقة ، حتى يستطيعوا التمييز بين المعاني الحقيقية والزائفة ، ويعملوا بمقتضى ذلك ، فالمثقف والفنان لايمكنهما أن يتنازلا عن ذلك ، وبهذا يؤدون رسالتهم الاجتماعية ، وبهذا يكونون عونا لشعوبهم ، وبهذا ينزعون الأقنعة من على وجوه بعض حامليها في مجال الكلمات والأفكار ، وفي هذا الحوار حول « الحداثة » يجب على العرب أيضا أن يتجنبوا الوقوع في خطأ البحث عن صيغ لاتزيد عن كونها تقليدا للآخرين « صيغ مستوردة » فليس كل مايأتي من الخارج ـ من الغرب مثلا ـ سيئا ، كما أنه ليس كل ما يأتي منه طيبا ، وانما لابد أن نتعرف على الأشياء بعمق ، نقيمها ثم نختار بناء على هذا التقييم ، حتى نأخذ مايصلح لنا ونرفض ماليس بمفيد ، أو مافيه ضرر ، ومما يثير الغرابة أن من يتابع موضوع الحداثة يتأكد له أن كل مادار من مناقشات حولها خلال السنوات الأخيرة في الوطن العربي لاتزيد عن كونها مجرد اعادة صياغة أمينة لمناقشات حامية دارت حول نفس الموضوع في القرن الماضي وفي بدايات هذا القرن . ويبدو أن العرب محكوم عليهم بأن يظلوا في مناقشات متواصلة حول الحداثة ، دون أن يصبحوا محدثين بأي حال من الأحوال ، ونحن الاسبان لدينا أيضا تجارب في مثل هذه المناقشات الممزقة وغير النافعة .

أجيال من الشعراء الجدد

* اذا تركنا موضوع « الحداثة » وتناولنا الأعمال الابداعية ، وبالأخص في مجال الشعر ، نرى أنه كان لكم منذ فترة طويلة دور بارز في متابعة أجيال الشعر الحديث في الوطن العربي منذ عقد الخمسينيات حتى الآن ، وآخر كتاب أصدرتموه في هذا المجال هو « مختارات من الشعر العربي المعاصر » ، ويضم مختارات

شعرية مترجمة الى الاسبانية لخمسة وثلاثين شاعرا عربيا محدثا يمثلون فترة زمنية تناهز الأربعين عاما ، أي منذ أواخر الأربعينيات حتى الآن .

فما هو تقييمكم لانتاج الأجيال الجديدة من الشباب في الوطن العربي ؟

ـ منذ ثلاثين عاما ، ومجال نشاطي المهني الرئيسي يتمثل في معرفة الأدب العربي المعاصر ودراسته وبخاصة الشعر ، وأعتقد أني منذ فترة من الزمن أقرأ في الشعر العربي أكثر مما أقرأ في الشعر الاسباني ، مثلا ، على الرغم من أني في الواقع أقرأ شعرا من كل الأساليب والاتجاهات ، والشعر يمثل مجال قراءتي الرئيسية والمفضلة ، وأظن أيضا أن لدي معرفة متوسطة بهذا الأدب العربي المعاصر ، والسنوات تسمح لي أن أتحدث وأحلل من منظور تاريخي بشكل عام ومفصل وبانورامي ، بحيث أركز حديثي على عملية التطور المتواصلة ، وفكرتي في هذا الصدد حازمة وواضحة : فخلال سنوات الخمسينيات والستينيات ظهر بشكل عام ، وبخاصة في مجال الشعر ، أكثر الانتاج قيمة وأهمية في كل ما أنتجه الأدب العربي المعاصر ، وانتشرت أكثر الاتجاهات ثراء وتجديدا وهي تحمل طابعا عالميا واضحا ، دون أن تفقد طابعها العربي الأصيل . وأنا لا أتحدث هنا بمفهوم الجيل أو المدرسة ، لأني أعتقد أن هذه المصطلحات تستخدم بسهولة شديدة ودون مطابقة كافية ، والحق أنه كان ثمة انسجام تام في هذا الموضوع ، لأن تلك الفترة (الخمسينيات والستينيات) كانت هي الفترة التاريخية التي كان للوطن العربي فيها نوع من الأمل ، شيء هكذا يشبه المشروع الجماعي ـ الذي لم يكن واضحا بشكل كاف ولا ناضجا بلاشك لكنه كان موجودا .

وكان الوطن العربي في ذلك الوقت قد أوشك أن يعرف بدقة المكان الذي يشغله في الزمان وفي الكون ، ولاشك أن هذا المشروع أو بالأحرى « شبه المشروع » قد تقهقر ، وذلك بسبب أخطاء داخلية كبيرة ارتكبها المسئولون العرب ـ ليس السياسيين فقط ، وان كانوا هم في المقام الأول ـ سواء في الحسابات أو في الطروحات أو في الأهداف ، ولكن المؤلم أن يتحقق المرء من أن هذا المشروع لم يحل محله مشروع آخر يستحق الذكر ، وبالفعل فإن الوطن العربي يخلو تماما من أي مشروعات جماعية محددة وممكنة منذ حوالي عشرين عاما ، وهذا شيء فظيع ، فمن قبل كان هناك قدر من الوضوح ، ليس كثيرا ، ولكن بعضه على الأقل ، ولكن الظلام الآن يبدو مطبقا ، فكيف لاينعكس هذا على الأدب ، سواء فيما يعرف عادة « بالشكل » أو « العمق » ، وسواء في مجال التعبير أم مجال المضمون » ؟ وبهذا لا أريد أن أقول انه لم تحدث فيها بعد محاولات ذات أهمية ، أو لاتوجد أسماء لها قيمة ، وانما على العكس يوجد هذا وذاك ، ليس فقط في مصر ، وانما في أقطار عربية أخرى ، سواء في المشرق أو المغرب ، ولكنها حسب رأيي شواذ تؤكد القاعدة أو الاتجاه العام ، أي أنه ـ في رأيي ـ قد وجد بصورة عامة خلال سنوات الخمسينيات والستينيات مستوى أكثر ارتفاعا ، وقدرة كبيرة على التجديد ، ومواقف واضحة وثابتة ، سواء على المستوى الأخلاقي ، أو على المستوى الجمالي ، وكانت الاهداف والتطلعات مرسومة بشكل أفضل ، وضمن هذا الاطار العام برز عدد كبير من الأفراد المتفوقين تفوقا واضحا ، وبعد ذلك وجد الأفراد أيضا وبرزوا ، ولكن داخل اطار أو بانوراما أكثر تذبذبا واضطرابا ، مع نزعة عدوانية عقيمة وهائلة تخفي كثيرا من صور الاحباط ، وفي مستوى واضح التدني ، أما التجديدات الجزئية التي حدثت أيضا خلال هذه السنوات الأخيرة ـ والتي لاشك في حدوثها وبخاصة في مجال القصة والتي تظهر بشكل خاص في الجانب الشكلي وفي جانب التكتيك ، هذه التجديدات لايمكن أن تخفي هذا الهبوط في المستوى .

البنيوية والنقد الأوروبي

* هل تابعتم الاتجاه النقدي الأخير في الوطن العربي الذي يدور حول البنيوية وعلوم اللغة ؟ لقد شاع هذا الاتجاه خلال عقد السبعينيات وحتى الآن في النقد العربي ، ورغم شيوعه الا أن جمهرة القراء والكتاب أيضا يحسون حاليا بأن النقد العربي يمر بأزمة خطيرة ، وليس النقد فقط ، بل الثقافة العربية بكل فروعها . وقد أعطى البنيويون العرب ـ على الرغم من أنه لم يفهمهم أحد حتى الآن ـ انطباعا بأن النقد البنائي هو الاتجاه الوحيد الموجود في الغرب حاليا ؟ فهل ترى ـ بصفتك كاتبا وناقدا أوروبيا ـ أن هذا صحيح ؟ واذا لم يكن هذا صحيحا فما هو وضع النقد الأوروبي حاليا ؟

ـ إن النقد الأدبي مجال يدور حوله دائما كثير من الجدل ، وتكتنفه صعوبات في التشكيل والنمو ، ومن المستحيل عمليا أن يبلغ النقد الأدبي مرحلة واضحة ، أو مستوى متميزا في اطار مجتمعات درجة التنمية الاجتماعية والثقافية فيها ، بكل مظاهرها ، ليست على نسق واحد ، وليست متقدمة . وبالفعل فانه يمكن أن تظهر نماذج رائعة من الانتاج الأدبي في مجتمعات قليلة النمو ثقافيا ، ولكن من المستحيل عمليا أن يبلغ النقد الأدبي في هذه الظروف مستوى عاليا ، وأعود هنا الى فكرة عرضتها من قبل : وهي بطء عمليات التنظير ، وضرورة تحديد المفاهيم ، وبالاضافة الى ذلك فعادة ماتسيطر على مجال النقد الأدبي ، اتجاهات شديدة التطرف ، قاعدية (دوجماطيقية) وصارمة بحيث تتناول دراسة وتقييم شيء بالغ التعقيد والخصوبة ، مثل العمل الأدبي من منظور واحد في التحليل والتفسير ، ويبدو لي أن هذا خطأ شنيع ، وسواء كانت هذه الطريقة أو تلك ، فان النتيجة هي تقليل قيمة العمل الأدبي وأهميته : وعندئذ يصبح وكأنه مجرد منظر لامجال للتأمل والتفكير فيه ان اللجوء الى أشكال مختلفة للاقتراب من النص أمر ضروري وبخاصة بعض المعهود من حياة الناس والشعوب التي تصبح فيها الأشكاليات أكثر كثافة وتأزما وتراكما ، واذا كنا لانستطيع أن نضع الأدب ـ وهو الشيء الجوهري ـ في قالب واحد ، أو نوجزه على صورة واحدة ، فاننا لانستطيع ايضا أن نضع النقد في قالب واحد أو نوجزه على صورة واحدة ، وهذا مترتب على ذاك بدرجة كبيرة ، وبشكل مبدئي ، فان أي اتجاه أو مدرسة نقدية تكون لها قيمتها بصفتها منهجا ، ولكن من الواضح أنها لاتكفي لاعطاء التفسير النهائي والشامل ، وهذا الأمر بالطبع ينطبق على البنيويين ، وعلى أي نوع آخر من النقد الذي يرتكز أساسا على المادة اللغوية ولاشك أن هذه دعامة رئيسية ـ أو على الأقل احدى الدعائم الرئيسية ـ للنص الأدبي ، ولكنها ليست الوحيدة ، وفي معظم الأحيان لاتعكس البعد الرئيسي للنص ولاهدفه أو قيمته ، واذا طبقت آراؤهم ومناهجهم بطريقة وحيدة وقسرية (دوجماطيقية) ، كما أقول ، فإن التحليل النهائي الذي يقوم به الناقد لابد أن يؤدي الى « تكسيح » النص وتمزيقه وخنقه ، وعادة فان بعض النقاد يمارسون بصرامة مايمكن أن نسميه « النقد الكيميائي » وهو نقد تجريدي تماما في كل مظاهره تقريبا ، ولكن يجب أن أوضح بأن هذا الخطأ يمكن أن يقع فيه البنائي وغير البنائي ممن يتخذون قاعدة دوجماطيقية في النقد كما ذكرت من قبل .

ومن العجيب أن يتحقق المرء من أن الغالبية العظمى من النقاد الغربيين ذوي القيمة في الوقت الحالي ، يتجهون من جديد الى ممارسة مايمكن أن نسميه « النقد الكامل أو الشامل » ، ولاشك أن هذا أيضا ليس بالامر السهل ، لأن النقد في هذه الحالة أيضا يمكن أن يقتصر على الطلاء أو عنصر الحكاية ،

ولكن اختيار هذه « اللوغاريتمات » ، حتى ولو طبقت جيدا ينتهي أساسا بالطابع الآلي الذي يكون في العادة قليل الاحترام للنص الادبي نفسه ، وهذا مايحدث في اتجاهات كالتي أشرت اليها أنت ، ويجدر بنا أيضا أن نشير الى أن جزءا كبيرا من هذا النقد الذي تدينه ، والذي يمارس الى حد غير معقول في الوطن العربي منذ عدة سنوات هو أيضا « نقد مستورد » ، وقد حاولتم أن تنقلوه الى الوطن العربي ، والى الأدب العربي دون أن تقوموا بعملية تفكير مسبقة ، وعملية اختيار وتكييف كافية ورصينة ، وهذا يشبه مايحدث في أشياء أخرى كثيرة ، حيث يلاحظ في جميع المجالات سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو أدبية ، أنكم تتبعون « الموضات » في تقليد أعمى ، وهذا لايؤدي الى حدوث اضطراب في مجال النقد فقط ، وانما ـ وهذا هو الأسوأ ـ في الانتاج الأدبي نفسه . فكثير من الكتاب ، قبل أن يكتبوا ، يفكرون ببساطة فيما يمكن أن يقال عنهم ، وكيف سيتم الحكم على عملهم ، وهذا ليس في صالح الخلق الأدبي على الاطلاق ، الذي يجب أن يكون قبل أي شيء ، حرا ومستقلا ، ان الاضطراب النقدي يزيد ويساعد بدون أدنى شك على الاضطراب الابداعي ، وأنا لا أنحاز بالطبع الى النقد الانتقائي ـ الذي لايقل ضررا ـ ولكني أرفض تماما أي نوع من النقد الدوجماطيقي (القاعدى) القسري ، الذي يتعامل عادة مع النص بشكل اعتسافي ، بحيث يختفي النص وتختفي معه كل اشكالياته الفنية ، ولافرق عندي بين أن يقوم بذلك هذا أو ذاك ، أيا كانت المنطلقات التي يستخدمها كل منهم .

حركة الاستعراب

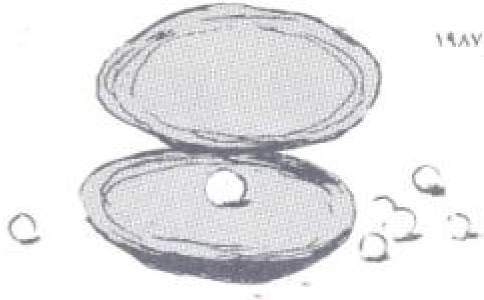
* وأخيرا أود أن تحدثنا عن حركة « الاستعراب » في اسبانيا ، وعن المدرستين الموجودتين حاليا وهما مدرسة الدراسات العربية القديمة ، وبخاصة الاندلسية ، ومدرسة الدراسات العربية المعاصرة التي أنت زعيمها أو أبرز ممثليها .

ـ ان الحديث عن حركة الاستعراب الاسبانية الحالية ، بكل مايمكن أن تعنيه أو يكون لها من قيمة لايجب علينا أن نخوض فيه نحن المستعربين الاسبان ، وانما يقع ذلك على عاتقكم أنتم ، ومن جهة أخرى فانه لايروق لي أبدا أن أتحدث عن مدرستين ، وأعتقد أنها طريقة خاطئة في طرح المسألة وتبسيطها ، أو وضع قناع لها ، وعندي فانه ليس هناك الا حركة الاستعراب التي تجيب أو لاتجيب عن المتطلبات الفكرية والعلمية والانسانية لعصرها ، والتي تنسجم أو لاتنسجم مع حاجات واهتمامات الفرد والمجتمع ، وكلا الأمرين يمكن حدوثهما ، سواء انصب اهتمامنا على القديم أو على الحديث ، إن التسلسل التاريخي هنا لايعني شيئا ، إن حركة الاستعراب « مثل أشياء أخرى كثيرة إما أن تكون عملا فكريا وعلميا وه إنسانيا » ـ وأركز بالخصوص على هذه الصفة الأخيرة ـ يطرح بشرف ودقة تاريخيين من جانب من يقوم به ، وإما أن تكون عملا لاقيمة له على الاطلاق ، إن حركة الاستعراب فيها أيضا إجابة عن جماع مفهوم الحياة والوجود ، والمرء يكون مستعربا بنفس المقياس الذي يكون به انسانا ، وهذا هو السهل الممتنع في آن واحد . □

* أعظم الرجال شأنا : هو الذي يقف ـ ولو وحده ـ بجانب عقيدته .

(هنريك إبسن)

العربي ـ العدد ٣٤١ ـ ابريل ١٩٨٧



استخراج اللؤلؤ في الشعر الجاهلي

بقلم : الدكتور حسين عطوان *

ذهب بعض الدارسين إلى أن ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي يكاد يخلو من ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر فيه فذكر يدل على الجهل . ومن غريب الأمر أن هذا الزعم شاع بين كثير من الناس ، حتى ظن فريق منهم أنه حكم قاطع ، لا نزاع فيه ، لكن واقع الشعر الجاهلي ينفي هذه التهمة !

إن السبب فيا ذهب إليه بعض الدارسين من أن الشعر الجاهلي يكاد يخلو من ذكر البحر هو أنهم لم يستقصوا دواوين الشعراء الجاهليين ، ولم يراجعوا غيرها من المصادر المختلفة ، ككتب الحماسة والمختارات ، وكتب الأدب ، وكتب التراجم والطبقات ، وكتب البلدان ، وكتب النحو واللغة والمعاجم ، وما على بعض هذه الكتب من شروح واستدراكات ، ففيها غير قليل من القصائد والمقطوعات والأبيات النادرة .

الشعراء وصفات البحر :

الصحيح أن الشعراء الجاهليين عرفوا البحر ، واستمدوا منه كثيراً من معانيهم ، وصورهم ، فوصفوا اصطناع العرب له في الملاحة ، واستخراجهم اللؤلؤ منه ، لكن معرفتهم به ، واستلهامهم له ، وتصويرهم لمظاهر الحياة فيه ، لاتعدل معرفتهم بالصحراء ، واستلهامهم لها ، وتصويرهم لمظاهر الحياة فيها ، بل هي ذلك وأقل .

قد أكثر الشعراء الجاهليون من تشبيه الظعن

* أستاذ الأدب بالجامعة الأردنية

المرحلة في الصحراء بالسفن العظام التي تسير في عرض البحر ، وكرروا هذا التشبيه بألفاظ وتراكيب متطابقة أو متقاربة ، وراوحوا في تكرارهم بين الإيجاز والتفصيل ، وذكر بعضهم البحر وأمواجه ، والسفن وأشكالها ، وأجزاءها وحركاتها ، والملاحين وأصولهم وأجناسهم ، وبلدانهم ، وألوانهم ، وملابسهم ، وأعمالهم ، ورؤساءهم ، واستخدام الكلمات والمصطلحات البحرية التي تليق بذلك كله ، وتعبر عنه تعبيراً دقيقاً ، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى .

الرحلات البحرية التجارية :

وصف بشر بن أبي خازم الأسدي الرحلة البحرية التجارية وصفاً رائعاً ، أوله قوله :

أُجالِدُ صَفَّهُم ولَقَد أراني
عَلى قَرْواءَ تَسْجُدُ للرِياحِ

وقد أحاط في وصفه لها بطريقة صنع العرب لسفنهم ، وصلاتهم التجارية ببلاد الهند ، والبضائع التي كانوا يجلبونها منها ، كالطيب والمسك والعطر والسلاح .

وشبه بعضهم كثرة قومه ، وقوتهم ، بأمواج البحر العاتية المتصلة ، وأشار بعضهم إلى تنازع القبائل على سواحل البحر الطيبة ، وحرص كل منها على أن تكون خالصة لها دون سواها ، وذكر بعضهم الضرائب التي كان يدفعها الملاحون إلى الجباة في الموانىء التي كانوا يرسون سفنهم فيها ، ويعرضون بضائعهم للبيع بها .

شعراء البحرين واللؤلؤ :

وأهم موضوع سبقوا إليه وجوّدوا فيه هو وصف استخراج اللؤلؤ من البحر ، وكان هذا الموضوع مقسوماً بين الشعراء الجاهليين على اختلاف منازلهم ، أما الشعراء الذين كانوا يستوطنون بوادي نجد ، ومدن الحجاز وقراها البعيدة عن البحر ، فقد جاء وصفهم له موجزاً لا يجاوز البيت الواحد ، لأنه لم يكن لهم معرفة به ، أما الشعراء الذين كانوا يسكنون أرض نجد القريبة من سواحل البحرين ، أو الذين كانوا يسكنون نواحي الحجاز المشرفة على بحر القلزم (الأحمر) فجاء وصفهم له وسطاً بين الطول والقصر ، لكنه لم يكن وافياً متماسكاً ، بل مقطعاً مفككاً ، لأنه كان لهم علم قليل به ، وأما الشعراء الذين كانوا يعيشون في بلاد البحرين واليمامة وسواحلها وجزرها فجاء وصفهم له طويلاً مفصلاً ، كاملاً متلاحماً ، متقناً محكماً ، لأنه كان لهم بصر واسع به ، وقد تميز بذلك منهم شعراء بكر بن وائل ، من أهل البحرين واليمامة ، إذ كان في البحر المطلّ على ديارهم وفي جزرهم أشهر مواطن استخراجه ، وأكبر أماكن بيعه . واتخذوا ـ جميعاً ـ تشبيه المحبوبة بالدرة وسيلة إلى وصف استخراج اللؤلؤ من البحر .

ومثال التشبيه الموجز للمحبوبة بالدرة قول امرىء القيس بن حجر الكندي :

خَـدَلَّجَةٌ رَوْدَةٌ رَخْصَةٌ
كَدُرَّةِ لُجٍّ بأيدي الخَوَلْ

وقول النابغة الذبياني :

قامتْ تَراءَى بينَ سِجْفي كِلَّةٍ
كالشمسِ يومَ طلوعِها بالأسْعُدِ
أو دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غَوّاصُها
بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلَّ وَيَسْجُدِ

وقول قيس بن الخطيم الأوْسيّ :

كأنَّها دُرَّةٌ أحاطَ بها الـ
غَوّاصُ ، يَجْلو عَنْ وجهِها الصَّدَفُ

فهؤلاء الشعراء الثلاثة اقتصر كل واحد منهم على تشبيه المحبوبة بالدرة المضيئة ، المتوهجة في حسنها ، وروعتها ، وعزتها ، ومنعتها ، وعرض للغوّاص الذي استخرجها من أغوار البحر السحيقة المخيفة ، ولم يزد أي واحد منهم على ذلك شيئاً ، لأنهم جميعاً لم يكونوا ذوي خبرة بالغوص والغواصين ، حتى يمدوا الوصف ويعنوه ، وينقحوه ويحكموه .

ومثال الوصف المتوسط قول المخبل السعدي :

كعقيلة الدُّرِّ استضاء بها
محرابَ عرشٍ عزيزُها العُجُمُ
أغلى بها ثمناً ، وجاء بها
شَخْتُ العظامِ ، كأنّه سَهْمُ
بلبانِهِ زيتٌ وأخرجها
من ذي غوارِبَ وَسْطَهُ اللُّخُمُ

فهو يشبه صاحبته بدرة كبيرة نادرة ، اشتراها ملك من الفرس بثمن مرتفع ، وزين بها صدر مجلسه ، فكانت تتألق فيه ، وتسطع سطوعاً قوياً ، ينير جوانبه وأركانه ، وتتلألأ فيه ، وتبرق بريقاً شديداً يخطف الأبصار ، ويخلب الألباب ، ثم يشير إلى بعض صفات الغواص الذي استخلصها وأدواته ، فيذكر أنه دقيق العظم ، رقيق الجسم ، كأنه السهم في نحوله وخفته ، ومضائه وسرعته ، وأنه كان يمج الزيت في قاع البحر ليضيء له ، وأن أثر الزيت كان عالقاً بصدره ، بعد أن غاص عليها ، وانتزعها من بحر هائج مائج ، فيه وحوش البحر المفترسة التي تلتهم الغواصين .

مهنة الغوص :

أما وصف المخبل السعدي فكان مختصراً قصيراً ، وسهلاً يسيراً ، وأما وصف أبي ذؤيب الهذلي فكان أطول منه بقليل ، لكنه كان معقداً عسيراً ، فيه طائفة من الألفاظ الغريبة المهجورة ، وفيه عدة من التراكيب الصعبة الوعرة التي اختلف شراح الشعر وعلماء اللغة فيها ، ولم يتفقوا على معانيها .

يلوح في وصفي هذين الشاعرين بدايات الأسلوب القصصي الساذج الذي يقوم على السرد المباشر ، إذ فيه حدث بسيط لا ينمو ، ولا يتفرع ، ولا يتأزم فيه بطل ، أصم كالصخر ، لا يشعر ، ولا يتأثر ، ولا يثور في نفسه حوار ولا صراع ، وفيه خطر يحيط بعمل البطل ، يتمثل في الأسماك المتوحشة ، أو في الأمواج العاتية ، لكن هذا الخطر لا يزداد ولا يكبر ، ولا يتعاظم ولا يتفجر ، ولا يكاد يلحق الأذى بالبطل . كما أن وصفهما لا يتسلسل تسلسلاً منطقياً ، يفرضه التصور النظري للبناء الفني ، أو التطور الواقعي للحدث ، بل هو أبيات مفردة متناثرة ، وأجزاء متباعدة مبعثرة ، لا يضبطها شيء محدد ، ولا ينتظمها سوى أنها معانٍ شتى في موضوع واحد ، هو استخراج اللؤلؤ .

كأنها دُرَّةٌ زهراءُ أخرجها
غوّاصُ دارينَ يخشى دونها الغرقا
قد رامها حِجَجاً مُذْ طَرَّ شاربُهُ
حتى تسعسعَ يرجوها وقد خفقا
لا النفسُ تُونِسُهُ منها فيتركها
وقد رأى الرُّغْبَ رأيَ العينِ فاحترقا
ومارِدٌ من غُواةِ الجنّ يحرُسُها
ذو نِيقَةٍ مُسْتَعِدٌّ دونها ترقا
ليست له غفلةٌ عنها يُطِيفُ بها
يخشى عليها سُرى السارين والسَّرَقا
حِرْصاً عليها لَوَ انَّ النفسَ طاوعها
منه الضميرُ لبالى اليمَّ أو غرقا
في حَوْمِ لُجّةِ آذيٍّ له حَدَبٌ
مَنْ رامها فارقته النفسُ فاعتُلِقا
مَنْ نالها نالَ خُلداً لا انقطاع لَهُ
وما تَمَنَّى فأضحى ناعماً أنِقا
تلك التي كَلَّفَتْكَ النفسُ تأمُلُها
وما تعلّقتَ إلّا الحَيْنَ والحَرَقا

يشبه الأعشى صاحبته بالدرة المشرقة ، ثم يمضي إلى الكلام على استخراجها ، فيفيض في وصف رغبة الغواص فيها ، ومعاناته في سبيل الحصول عليها ، فقد أولع منذ أن كان غلاماً يافعاً بها ، وظل يصبو إليها حتى صار شيخاً كبيراً ، وكان في أثناء ذلك يغالب نفسه ، وينهاها ، لعلها تقصر عن النزوع إليها ، وتنساها ، لكن نفسه لم تكف عن إغرائه بطلبها ، ناصحة له أن يتجمل بالصبر ، مهونة عليه

الأمر ، مادة له في الأمل ، مقربة له بلوغ المراد ، وكانت لا تتوانى عن تشجيعه ، حاثة له أن يقلع عن التردد ، حاضة له على أن لا يرهب البحر ، محرضة له على أن لا يهاب الخطر ، مزينة له أن يغوص على الدرة ، فإما أن يسلم ويغنم ، وإما أن يغرق ويهلك ، فكان يزداد حيرة على حيرة ، إذ كان شغفه بها لا يضعف ، لأنها درة نفيسة ، إن حازها فاز بأمنيته في الحياة ، وأقبلت عليه الدنيا ، لكن خوفه من الموت لم يبارح خاطره ، فتلك الدرة عزيزة المنال ، في قعر بحر عميق ، متراكب الأمواج ، يحميها مارد جبار ، آناء الليل وأطراف النهار ، يدور حولها ، ويسهر عليها ، ولا يفارقها ولا يسهو عنها ، يمنع الغواصين من التقاطها ، فإن غاص عليها ، ودنا منها ، تصدى المارد له وقتله . لم يزل موزع العاطفة ، مقسم الفكر ، لا يستقر على حال ، ولا يدري ما يصنع ، هل يصغي إلى هوى نفسه ، ويتصاع له ، ويعمل به ؟ أو يصم أذنيه عن سماعه ، وينفر منه ، ويزورّ عنه ؟ وبعد ترددٍ لم يلبث أن جمع أمره ، وعقد عزمه ، فغاص على الدرة ، وتناولها .

ويسجل الأعشى صورة تاريخية للغوص في الجاهلية ، فيعرض لبعض أمكنته وأدواته ، وموسمه ومدته ، أما أمكنته فيسمي منها (دارين) ، وهي فرضة بالبحرين ، أي محط للسفن فيها ، بينها وبين الساحل مسيرة يوم وليلة بسفر البحر ، وهي (أوال) [بضم الهمزة وفتحها] ، وهي جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين ، وهي دولة البحرين اليوم .

كانت البحرين القديمة أكبر من ذلك بكثير ، فهي اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان قصبتها (هَجَر) ، وربما عدَّ بعضهم اليمامة من أعمالها . والصحيح أن اليمامة عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين ، بينها وبين البحرين عشرة أيام ، وهي من نجد ، وقاعدتها (حَجْر) . وبحر فارس وبحر البحرين وعمان واحد ، على ساحله الشرقي بلاد فارس ، وعلى ساحله الغربي بلاد العرب ، وفي هذا البحر مواضع كثيرة للغوص على اللؤلؤ ، أشهرها (خَارَكُ) وقطر وعمان وسَرَنْديب .

ويذكر الأعشى من أدوات الغوص السفن الطويلة التي كان الغواصون يستخدمونها ، ويجوبون بها أرجاء البحر ونواحيه ، حتى يبلغوا أقاصيه ، بحثاً عن مواضع اللؤلؤ ، كما يذكر المراسي الثقيلة التي كان الغواصون يرمون بها في البحر ، فتهوي فيه حتى تصل إلى قاعه فتستقر ، وتمنع سفنهم من السير ، وكذلك يذكر الحبال التي كان الغواصون يستعينون بها حفظاً لأنفسهم من الضياع والهلاك .

فإن الغواص يغوص بحبل معه طرفه ، وطرفه الآخر مع صاحبه على ظهر السفينة ، ولم يفت الأعشى ذكر الزيت الذي كان الغواصون يسكبونه في قاع البحر ، لينير لهم فيمكنهم من رؤية اللؤلؤ ، وكانوا يمسكون الزيت في أفواههم ، ويصبونه منها .

ومعنى ذلك أن وصف الأعشى لاستخراج اللؤلؤ له قيمة تاريخية كبيرة ، لما يتضمن من دلالات اجتماعية وحضارية كثيرة .

صاغ الأعشى وصفه صياغة ناصعة صافية ، لا التواء فيها ، ولاخفاء ، إذ اختار له الألفاظ السلسة المألوفة ، وبنى منها جملا قصيرة دقيقة ، فكانت معانيه قريبة معروفة ، فزاد ذلك وصفه رشاقة ورقة ، وجعله أكثر لطافة وطرافة . □

* الكلام ممزوج بالصدق والكذب ، أما الصمت فصدق لاغشَّ فيه .

(ميخائيل نعيمة)

أسرار احتكار الفضة وخسارة العرب!

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

في السبعينيات من هذا القرن ظهر كتاب اسمه « مليار دولار شيء أكيد » للكاتب بول ايردمان بيعت منه ملايين النسخ ، وفيه يحكي عن المضاربات في الذهب - قبل أن تحصل فورة الذهب بسنوات . وفي هذه الرواية تدور عمليات مضاربات ومؤامرات يكون الخاسر الرئيسي في نهايتها هم العرب الذين استكثر العالم عليهم ثروتهم البترولية المتناقصة . . !

تعتبر عائلة هانت من أكثر العائلات الأمريكية ثراء ، حتى انه ليقال : « انهم لو أرادوا أن يفلسوا وعملوا على ذلك ما استطاعوا » . وكبير هذه العائلة هو نيلسون بنكر هانت ، ومركز شركاته الرئيسي في مدينة دالاس (تكساس) . وتذكرنا المغامرات المالية لهذا الرجل بمسلسل « دالاس » المشهور ومايقوم به بطله جي آر من أمور تعتبر يسيرة جدا أمام مايقوم به نيلسون بنكر هانت .

تقول كارولين هانت زوجة هذا الرجل : « لست أدري لماذا ينظر الناس الينا على أننا مختلفون عنهم ، فغدا سأذهب مع بنكر الى باريس لحضور سباق الخيل الذي تشترك فيه فرسنا « داليا » ، ثم ننتقل بعدها الى غينيا الجديدة حيث سيقوم بنكر ببعض الأعمال المتعلقة بشركته البترولية ، بينما سأحاول أن أدرس هناك عادات قبائل صيادي الرؤوس البشرية . ثم سننتقل بعد ذلك الى مونتريال لمتابعة سباق خيل آخر تشترك فيه بعض جيادنا ، ألا ترى أننا أناس عاديون جدا ؟ » .

وبنكر هانت - رغم ثروته الطائلة ، يعيش عيشة متوسطة بسيطة (بالموازنة مع أنداده الأثرياء وليس بالموازنة مع حياتنا نحن) - . فهو لايشرب الخمر ولايدخن ، ويندر أن يقيم الحفلات أو يحضرها .

هو يدير امبراطورية كبيرة تضم أكبر شركة بترول مستقلة في أميركا ، وأكبر مصانع السكر فيها ، اضافة الى مئات المطاعم ، ومساحات شاسعة من أغلى الأراضي في ولاية تكساس . كما أن لديه مايزيد على ألف حصان سباق أصيل ، وشقيقه الاصغر لامار يعتبر نفسه رياضيا ، اذ يمتلك فريق كرة قدم كاملا في مدينة كانساس سيتي .

أما ثروة هذه العائلة فقد جمعها أبوهم هارولد سون لافاييت هانت ، وكان ابن جندي في جيش الجنوب في الحرب الاهلية الامريكية ، ورث عام ١٩٢٠ خمسة آلاف دولار ، استطاع أن يجعلها أضعافا مضاعفة من خلال ارباحه في لعب القمار (البوكر) وفي اكتشافه آبار بترول غنية ، حتى وصلت هذه الثروة الى ملياري دولار عام ١٩٥٤ .

ولم يقتصر نشاط هذا الرجل على تنمية ثروته بل شمل كذلك انجاب الاولاد .

فقد أنجب من زوجته الأولى ليدا بنكر ستة أولاد (أحدهم متخلف عقليا) وبعد وفاتها عام ١٩٥٥ تزوج من سكرتيرة سابقة له اسمها روث راي كان قد أنجب منها قبل الزواج أربعة أولاد آخرين ، ثم بعد وفاته عام ١٩٧٤ تبين أنه كانت له علاقة مع سيدة اسمها فراين تاي أنجب منها أربعة آخرين ، بحيث أصبح مجموع عدد أولاده اربعة عشر ولدا مابين ذكر وأنثى .

ومن الأقوال المأثورة عنه : « لقد أبطلت التدخين لأني وجدت أنني أضيع سنويا من وقتي مايساوي (٣٠٠) ألف دولار في فك أغلفة « السيجار » « واشعاله » .

أما أشهر مغامرات ابنه بنكر هانت المالية فكانت محاولته مع شقيقه هربرت احتكار فول الصويا في أواخر السبعينيات ، ثم محاولة احتكار الفضة في أوائل الثمانينيات . . . بمشاركة بعض الأثرياء العرب .

محاولة احتكار الفضة :

يختلف معدن الفضة عن الذهب في أن استعمالات الذهب الصناعية محدودة على عكس استعمالات الفضة الواسعة .

وقد بدأ اهتمام بنكر هانت بالفضة في السبعينيات عندما تبين له أن انتاج العالم من الفضة يقارب (٣٠٠) مليون « أونصة » سنويا بينما تزيد الحاجة اليها على (٥٠٠) مليون « أو نصه » . أما الفارق بين الانتاج والاستهلاك فكان يأتي من بيع المدخرات التي تملكها الولايات المتحدة وكندا والمكسيك والهند وبعض دول الشرق الأوسط .

وبدأ بنكر وشقيقه هربرت بشراء الفضة ، فابتاعا وتسلما (٢٥) مليون أونصة منها بسعر (٣) دولارات للواحدة ، وبهذه الصفقة بدأت عملية شراء منظمة .

وأدى ذلك الطلب على الفضة الى رفع سعرها الى (٦,٧٠) دولارا ت « للاونصة »ولكن هذا الرقم انخفض بعد أن أغرى ارتفاع ثمن الفضة المكسيك فكان أن أنزلت الى السوق (٥٥) مليون أونصة . وبقيت عائلة هانت محتفظة بمشترياتها حتى جاء عام ١٩٧٩ وكان السعر قد بلغ حوالي (٦) دولارات .

وأخذ هانت يشترى عقودا مستقبلية للفضة ، ويتم ذلك بأن يدفع المشترى جزءا هامشيا من ثمنها يقدر ب (٢٥٪) ، على أن يتسلمها في تاريخ معين ويسدد باقي الثمن . فاذا ارتفع السعر في ذلك التاريخ يكون قد ربح ، بينما اذا هبط يكون خاسرا ومثل هذه العقود المستقبلية تشمل بضائع كثيرة تباع وتشتري عادة دون أن يكون هنالك تسلم فعلي لها (ومثل هذه الصفقات محرمة حسب الشرع الاسلامي) .

وفي صيف عام ١٩٧٩ ارتفع سعر أونصة الفضة الى (١١) دولارا وكان من أسباب ذلك اقبال هانت على الشراء . وخلافا لما جرت عليه العادة في أسواق العقود المستقبلية فقد طالب هانت بأن يتسلم فضته ، وقد كان ، مما جعله يخزن مقادير هائلة منها ، وسرت شائعات قوية أن هانت في سبيله الى احتكار معظم الفضة الموجودة في العالم .

وأخذ هانت ينصح بعض معارفه الخلص ـ ومعظمهم من أثرياء العرب ـ بشراء عقود مستقبلية للفضة ، وكان سعرها آنذاك (١٦) دولارا للاونصة . وأخبرهم أنه يتوقع أن يرتفع هذا السعر الى (٢٥) دولارا ، وقد كان . ثم أبلغهم أنه سيصل فيما بعد الى (٧٥) دولارا .

سر مساهمة العرب

يقول الخبراء والمراقبون ان هانت لم ينصح العرب بذلك عن محبة ومودة ورغبة في أن يزيد ثرواتهم ، انما نصحهم بذلك لانه كان بحاجة الى

أموالهم كي يزيد الطلب على الفضة التي يمتلك منها الكثير ، وكلما زاد الطلب ارتفع السعر . وبدون مساهمة العرب لم يكن ممكنا وصول سعر الفضة الى ماوصلت اليه فيما بعد .

وخلال خريف عام ١٩٧٩ استمرت الاسعار في تصاعد مستمر ، بحيث ان هانت وشركاءه ومعظمهم من العرب ، أصبحوا يملكون مابين فضة فعلية وعقود مستقبلية مايزيد على (٢٠٠) مليون أونصة ، وبحيث ان ربح هانت وحده زاد على سبعة مليارات دولار . وقارب سعر الفضة وقتها (٥٠) دولارا للاونصة . وكثر المال بيد هانت فأخذ يستثمره في شراء العقارات والبحث عن البترول . وفجأة انقلب الوضع ، وكان سبب الانقلاب وضع قوانين جديدة وأنظمة حكومية من قبل الدوائر المسؤولة في أميركا للقضاء على محاولة احتكار الفضة .

فقد كان العرف في العقود المستقبلية أن يدفع المشترى (٢٥٪) من القيمة فقط ، فرفعته الحكومة الامريكية الى (٣٥٪) .

كما حدد المسؤولون عن تنظيم هذه الامور المقادير من الفضة التي يمكن للمشترى أن يتسلمها فعليا بـ (٢,٥) مليون أونصة سنويا .

كما حرمت الأنظمة الجديدة على أي كان أن يحتفظ بعقود مستقبلية تزيد على حد معين وأضيف الى ذلك أن رفع مجلس الاحتياط الفيدرالي سعر الفائدة على الدولار ، فكان أن انتقل الكثيرون من شراء الفضة وعقودها المستقبلية الى ادخار أموالهم في البنوك . وهبط سعر الفضة الى (٢٠) دولارا للأونصة .

وأخذت بيوت المضاربات المالية تطالب هانت وشركاءه بدفع الاموال المتوجبة عليهم لتغطية الزيادة في القيمة الهامشية من (٢٥٪) الى (٣٥٪) .

ولم يتمكن هانت شركاؤه من دفع هذه المبالغ الطائلة التي تبلغ مئات الملايين ورفضت البنوك أن تقرضهم لان الاقراض للمضاربة أمر ممنوع .

وكان أن قرر هانت وشركاؤه نقل عملياتهم الى أسواق أوروبا ، واصدار سندات تعتمد على مايملكونه من فضة وهي تزيد على (٢٠٠) مليون أونصة ، وظن بعض الناس أن الاقبال على هذه السندات سيكون كبيرا . ولكن العارفين ببواطن الامور كانوا يعلمون أن الغاية من عرض هذه السندات انما هي الحصول على المال لدفع ماترتب على هانت وشركائه من التزامات . فكان أن أخذ الناس يقبلون على بيع الفضة مما أدى الى انهيار سعرها حتى بلغ (٤) دولارات للأنصة الواحدة .

وكان أن أفلست بعض دور المضاربات الصغيرة . وأخذ مكتب المضاربات المشهور : باخ ـ هالس ـ ستيوارت ـ شيلد (ومعظم المسيطرين عليه من اليهود) يطالب هانت بمبالغ تزيد على مليار دولار، وتبعته في ذلك بقية مكاتب المضاربات وأخذت هذه وتلك تبيع أسهم هانت التي تحتفظ بها لتغطية هذه المبالغ . . . بينما أبى هانت أن يبيع الفضة بهذا السعر المنخفض ، ونتيجة ذلك ارتفع السعر الى عشرة دولارات للأونصة الواحدة .

وطالبت مكاتب المضاربات والدور المالية ايقاف التعامل بالفضة حتى تتجلى الاوضاع وتستقر الامور .

وفي النهاية وبعد أن ترك السوق في انهيار لعدة أيام قررت الحكومة اتاحة الفرصة للمصارف كي تقرض مكاتب المضاربات التي كادت أن تفلس ، وعاد سعر الفضة الى حوالي (١٢) دولارا للأونصة ، واستقر على هذا السعر أو قريبا منه منذ ذلك الوقت وحتى الآن مع تموجات يسيرة فيه .

عند تحليل هذه المقامرة ومحاولة احتكار الفضة ، هناك اجماع على أن أكبر الخاسرين فيها هم أثرياء العرب الذين اشتركوا في ذلك . فعائلة هانت مازالت تملك كثيرا من مدخرات الفضة ، بينما كانت مشاركة العرب بعقود مستقبلية غدت غير قابلة للتسليم بعد أن تغيرت أنظمة اللعبة .

ثم ان هانت بدأ بالشراء يوم كان سعر أونصة الفضة (٣) دولارات بينما بدأ العرب بالشراء عندما أصبح سعرها خمسة أمثال ذلك المبلغ . وعندما وصل سعر الفضة الى عشرين دولارا توقف هانت عن الشراء بينما استمر العرب في ذلك حتى بلغ السعر (٤٠) دولارا .

وهكذا فان خسارة العرب بلغت مليارات الدولارات . وان كان لايمكن معرفة حقيقة هذه الخسارة تماما . □



قضية

العام والخاص في الأدب الفلسطيني

بقلم : أحمد المصلح

ليس هناك من يزعم أن الأدب الفلسطيني أدب فريد متميز ، لكن تعقيدات القضية الفلسطينية وتداخلاتها العربية تجعل من هذا الأدب جزءا متميزا من الواقع الثقافي العربي الشامل . فأين ينتهي الوطني الفلسطيني ، وأين يبدأ القومي العربي في هذه العلاقة الوثيقة بين هذين المستويين ؟

تثير مسألة الأدب الفلسطيني اشكالية مزدوجة ، تتلبس قطبي المشروع الحضاري العربي المعاصر : القطب الثقافي والقطب التاريخي .

فهي من جهة تضع الدارس أمام مقولات تنشد البرهان ، مثل مشروعية التحرك ابداعيا داخل الزمن الثقافي العربي بهوية أدبية فلسطينية .

كما يزداد الأمر تعقيدا حينما نضع الفعل الفلسطيني الثوري في اطاره القومي الواسع ، إطار المواجهة الحضارية العربية مع نقيضها الصهيوني الامبريالي .

وهي من جهة أخرى تفترض انقطاعا ، سواء على مستوى الخطاب الادبي أو على مستوى الخطاب التاريخي ، وذلك حين تركز على قطاع ثقافي تاريخي محدد ، وهو القطاع الفلسطيني .

من هنا فان اختبار الاشكالية في ضوء المعطيات الواقعية للمسألة برمتها يعيد صياغة المسألة وفق رؤية تركيبية جديدة .

ضمن هذه الرؤية نستطيع أن نتبين ثلاثة مستويات أو ربما أربعة مستويات في الحركة الثقافية الفلسطينية الحديثة . ففي سنة ١٩٤٨ خلق واقع خاص سواء على المستوى الديمغرافي او الثقافي ، اذ اقتطع القسم الاكبر من فلسطين لتقام عليه « اسرائيل » ، في الوقت الذي تحول فيه العرب الفلسطينيون الذين بقوا في أراضيهم الى عرب دولة « اسرائيل » ، بينما انخرط الجزء الباقي من فلسطين

فيها بعد جغرافيا وبشريا في وحدة عضوية مع شرقي الاردن في اطار المملكة الاردنية الهاشمية ، وأدارت الادارة المصرية قطاع غزة .

وقد شهدت هذه الفترة نمطين ثقافيين فلسطينيين ، الأول هو ما عرف بأدب الارض المحتلة ، والآخر تكيف مع الوضع الجديد في اطار المشروع الثقافي العربي العام .

ومن المؤسف ان النمط الأول من الثقافة الفلسطينية كان غائبا أو مغيبا عن صنوه الذي ادغم في القومي العام الى ان التفت اليه الأديب الشهيد غسان كنفاني فأذاعه على الناس .

وفي سنة ١٩٦٧ استكملت « اسرائيل » وحلفاؤها من المعسكر المعادي عملية الاستيلاء على الأرض الفلسطينية بكاملها . فأصبحت فلسطين جغرافيا وبشريا موحدة تحت قبضة الاحتلال . وفي هذه الفترة انفتحت الثقافة الفلسطينية في عموم الوطن الفلسطيني على بعضها البعض ، وهذا أسهم في تعزيز تلاحم النموذج الثقافي من جهة ، وفي تعزيز فاعلياته المقاومة على المستوى الثقافي الحضاري من جهة أخرى . وتعتبر قصيدة فدوى طوقان التي قالتها حين اجتمعت بشعراء الارض المحتلة بعد ١٩٦٧ « لن ابكي » التي جسدت من خلالها تحولا جذريا في مسارها الشعري تعزيزا لهذا الاستنتاج :

أحبائي مسحت عن الجفون ضبابة الدمع الرمادية .
لألقاكم وفي عيني نور الحب والايمان
بكم بالارض بالانسان

وبعد نكبة ١٩٦٧ ، صار واضحا أن هناك تعزيزا جديدا لنمط ثقافي فلسطيني بدأ منذ سنة ١٩٤٨ ، وهو المسمى بأدب المنافي الفلسطينية . وبدأ هذا النموذج يتطور مع تطور حركة النضال الفلسطيني المتمثل بالثورة الفلسطينية في اطار مؤسسته العامة منظمة التحرير الفلسطينية التي اكتسبت صفة مستقلة داخل المشروع القومي العربي العام في سنة ١٩٧٤م .

ويمكن أن نضيف مستوى آخر وهو حصار بيروت والخروج من لبنان والتوزع على مناطق جغرافية متعددة،وما تلا هذا الخروج من أبعاد سواء على المستوى الخاص أو العام .

وبديهي أن هذا المستوى أفرز ابداعا أدبيا متميزا داخل اطار ادب المنفى بشكل أو بآخر ، ونشير هنا على سبيل المثال لا الحصر الى قصيدة محمود درويش مديح الظل العالي والى غيرها من قصائد شعر المنفى الفلسطيني .

* * * *

من هنا يصح القول ان تداخل الثقافي بالتاريخي على نحو جدلي فاعل يتيح لنا أن نقرأ أحدهما في ضوء الآخر بيسر .

ومن هذا المنطلق نرى أن المسألة الفلسطينية أرضا وشعبا،أيديولوجيا وابداعا تتشكل باستمرار ، تشكلا يمتزج فيه الملموس بالمتخيل،والواقع بالحلم فتستحيل الثورة وطنا والوطن ثورة ، ذلك أنه « في الوقت الذي يحاولون فيه الفصل بين القضية والثورة ، يكون الانتماء للثورة هو المعيار الوحيد للمواطنة ، فالثورة في غياب الوطن هي الوطن » كما كتب الشهيد « حنا مقبل » ، في جريدة المعركة التي كان يصدرها الكتاب الفلسطينيون في اثناء حصار بيروت .

كما تصبح القصيدة جواز سفر أحيانا ومبررا للوجود أحيانا أخرى ، يقول محمود درويش بهذا الصدد « لاوطن لنا ولامنفى . هذه اعجوبة أخرى في مسلسل عجائب الشعب الفلسطيني، منذ طرد من أرضه وهو محروم حتى من المنفى . لامنفى ولا وطن ، لكن هناك شيئا لايستطيع أحد حرماني منه وهو القصيدة ، وهي معنى اقامتي على أية أرض وفوق أي بحر »

ومن هذه الرؤية نفسها تتكشف أمامنا جدلية العلاقة بين قرية الشجرة في فلسطين المحتلة وبين حي المريسة في مدينة بيروت . وهذه العلاقة التي بمقدورها الآن كما كانت دائما أن تجيب عن السؤال حول معنى استشهاد الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود قبل رفيقه الشاعر علي فودة بأربعين سنة تقريبا .

كما تجيب هذه العلاقة أيضا عن هذا الموت الفلسطيني الذي يلون خارطة العالم بقصائد راشد حسين وقصص ماجد أبوشرار ، وروايات غسان كنفاني .

من جانب آخر فان الثقافي التاريخي الفلسطيني لم يكن يتحرك بمعزل عن حركة الكل الثقافي العربي .

يقول الدكتور رضوان السيد في دراسة له بعنوان « المثقفون العرب والاجتياح الصهيوني للقضية الفلسطينية »

« فما من مثقف عربي كبر أو صغر ، الى اليمين اتجه أو الى اليسار ، لم تكن له علاقة ما بشكل ما بفصيل او اكثر من فصائل المقاومة الفلسطينية العاملة في نطاق منظمة التحرير الفلسطينية ، ولاشك ان خصوصية القضية الفلسطينية داخل القضايا المتشابكة للوطن العربي ، وضمن قضايا التحرر بالعالم ، لعبت دورا كبيرا في شمول الاهتمام بهذه القضية لكن الصلات بمنظمة التحرير الفلسطينية لاتعود لضخامة هذه القضية فقط ، بل لأن منظمة التحرير نفسها كانت درعهم الواقي ووطنهم المعنوي طوال مايزيد على العقد من السنين .

ولعل أشد مظاهر هذا التداخل الثقافي التاريخي في المشروع الحضاري العربي الراهن كثقافة واضاءة هو ذلك الذي قدمته لنا الاجابات الطالعة من شظايا السؤال - البيان الذي أفرزه الصمود الاسطوري الذي جسدته بيروت في عام ١٩٨٢ في مواجهة الغزو الاسرائيلي للبنان ، وذلك على لسان تجمع الكتاب والأدباء والصحفيين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب في بيروت الحصار ، بيروت الموت المتمرد على الموت ، في حرب الثمانين يوما . يقول البيان :

« لاخيار سوى المعركة ، ليس وراءنا الا البحر أو الصحراء ، وليس أمامنا سوى النصر ، ولاشيء غير النصر ، ومن هنا من هذه القلعة ، قلعة الخلاص والصمود ، تنادي الدم العربي المحبوس في العروق من المحيط الى الخليج ، للاسهام في ولادة هذا الفجر ، الذي تجبل به جراح مقاتلينا وثقوب أحذيتهم الشريفة . فهنا المحك ، ولعله المحك الأخير في هذه الحقبة من الزمن ، محك المعادن البشرية ، ومحك جدوى حياتنا من هذه المعركة ، وفيها يصاغ كل شيء من جديد .

لاخيار سوى المعركة ، لان ماعداها انتحار ، ومن دخان سيطلع النهار ؟؟ »

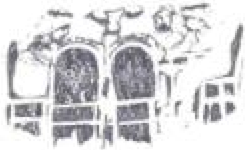
من هنا تأخذ الاشكالية التي تثيرها مسألة الادب الفلسطيني ، بالتكشف التدريجي ، فاذا الذي كان خاصا أصبح عاما ، واذا القومي يتلبس الوطني ، واذا الانقطاع يصير اتصالا .. واذا نحن أمام حقيقة عبر عنها الكاتب المغربي نجيب العوفي بقوله :

« اذا كان التاريخ المعاصر يتحرك في زي عسكري كما يقال ، فان التاريخ العربي يتحرك بامتياز في زي فلسطيني . لقد أصبحت ذاكرة هذا التاريخ مسكونة الى حد الدوار بالهاجس الفلسطيني ، وأصبحت كل مدارات هذه الذاكرة تتمحور حول هذا الهاجس وأشد مايكون التباسا وتماثلا له . ونعمم مدار الابداع هنا جغرافيا ليشمل الابداع العربي برمته ، كما نعممه اصطلاحا ليشمل الانواع الادبية والفنية برمتها ، لقد أصبحت فلسطين هي نار القرى التي تتسامر حولها الكلمة العربية مشرقا ومغربا »

في ضوء هذه الحقائق مجتمعة نخلص الى ان النص الادبي الفلسطيني نص متحول ، يمتزج فيه التاريخي بالثقافي والخاص بالعام والوطني بالقومي ليصبح بالتالي نصا ابداعيا يعيد ترتيب الأشياء ، ويعطي للمشروع الحضاري العربي الراهن امكانية الدخول في الزمن .

الصحافة قديمة

● ثبت من فحص بعض أوراق البردي ، المحفوظة في متحف اللوفر بباريس ، أن الفراعنة كانوا أسبق الناس الى الصحافة ، ففي هذه الأوراق صفحات انتقادية ، كانت تصدر في سنة ١٧٥٠ ق . م ، وكان لدى أهل بابل في العراق سجلات يثبتون فيها الحوادث العامة يوما بعد يوم ، كما كان الرومان يصدرون صفحات يلصقونها على جدران وأبواب المتاجر والميادين العامة ، كإعلانات متضمنة آخر الأنباء ، وبعض القصص والمعلومات العامة .



منتدى العربي

تعقيبات

ملاحظات تربوية

بقلم : الدكتورة أمل المخزومي *

قرأت موضوع «توازن القوى مناورة يتعلمها الطفل من أمة» للسيد راجي عنايت في مجلة العربي الغراء ، صفحة ١٦٢ العدد ٣٣٣ الصادر في اغسطس ١٩٨٦ .

يسرني أن أسرد جملة من الملاحظات للنقاط التي ذكرها السيد عنايت ، والتي جاءت في عرض الموضوع .

١ ـ إن مناورة توازن القوى يتعلمها الطفل في العائلات المفرطة التساهل ، في معاملتها للأطفال ، سواء كان الأب أو الأم أو كلاهما مصدراً لذلك التساهل ، ويدرك الطفل هذا التساهل في المعاملة رغم صغر سنه ، ويجعل سلوكه قائماً على مناورة توازن القوى . وهناك نماذج كثيرة من تلك العائلات ، يستوعب وصفها صفحات ، لكن لا أريد الاسهاب في ذلك .

٢ ـ تعتبر شخصية الطفل حصيلة تفاعل الوراثة مع البيئة ، ولا يمكن الفصل بينهما ، كما يصعب التمييز أيهما أقوى أثراً من الآخر في حياة الطفل .

٣ ـ إصرار الأم على التزام الطفل بالحدود المعقولة التي وضعتها ، وهذا الاصرار ذاته نقطة خلاف بينها وبين طفلها . فإن أدرك الطفل تلك الحدود المعقولة التي تصر أمه عليها وتلزمه بها ، فإنه سيلتزم طوعيا بدون إكراه ، وهذه الطوعية في الالتزام ستصبح جزءاً من شخصيته الحالية والمستقبلية ، لأنها جاءت عن اقتناع ، وبدون إجبار .

ثم أتناول الطريقة الثانية في المعاملة التي طرحها السيد عنايت ، وسماها الطريقة المثلى ، وأبين الملاحظات التالية حولها :

يحب الطفل الذي سماه هشام لعب الكرة في الحديقة ، وهذا شيء طبيعي ، لأن اللعب حركات يمارسها الفرد في جميع الأعمار ، وتأخذ هذه الممارسة الوقت الطويل من الطفل ، لأنها جزء من حياته وشخصيته وتربيته ، ولأنها بمثابة تدريب له لحياة المستقبل من ناحية ، وتفريغ لطاقته من ناحية أخرى ، أما إجبار الطفل على التخلي عن هذه اللعبة

---

* الأستاذة المساعدة في علم النفس الاجتماعي ، جامعة أنقرة ـ تركيا .

أو تلك وهو منهمك في ممارستها هو الخطأ بعينه ، لأن قطع متعة الطفل وهي في أوجها يضر بالطفل ، ويؤدي به إلى صراعات نفسية مختلفة في المستقبل . إذن ماذا تفعل تجاه هذا الطفل الذي يمارس لعبة الكرة في الحديقة في الوقت الذي تريد منه الأم أن يدخل البيت ويغسل يديه ووجهه ؟ في مثل هذه الحالة على الأم اتباع المباديء التالية :-

١ - أن تعتمد الأم في معاملتها وتربيتها للطفل على الاقناع لا على الاجبار والتحدي .

٢ - إعداد لعبة أخرى يفضلها الطفل ليلعب بها في البيت ، كأن تعد له عربات تناديه ليدخل البيت وهي تلوح له بها ، فالمحتمل أنه يأتي راكضاً متخلياً عن الكرة وهو سعيد ، ونعطي احتمالاً آخر وهو ألا يستجيب الطفل لذلك ، وفي هذه الحالة نتبع طريقة أخرى لاقناعه ، كأن تطلب الأم منه أن يأتي ليلعب معها لعبة أخرى يفضلها حيث سيأتي لأنه شعر بأن الأم ترغب في اللعب معه .

٣ - عدم جذب الطفل من ذراعه لغسل وجهه ويديه ، بل على الأم أن تحبب إليه غسل اليدين والوجه بالطرائق المختلفة ، وذلك بذكر الأحاديث الشريفة وحكايات القصص المسلية عن الطفل النظيف ، وما إلى ذلك ، فهذا الموقف سيؤدي إلى أن تصبح النظافة لدى الطفل عادة يمارسها بدون قسر أو إجبار . و على الأم أيضا أن تمتنع عن تقبيل طفلها وهو متسخ الوجه واليدين ، وأن يكون تقبيلها له عادة وهو نظيف ، أو بعد أن يكون نظيفا ، لأن التقبيل بمثابة التعزيز للطفل ، وهو يؤدي إلى تكرار السلوك المرغوب فيه وتقويته .

٤ - عدم تعويد الطفل على ممارسة البكاء والاستمرار عليه ، فإن دفع الطفل للذهاب إلى حجرته ليبكي ما يشاء أمر غير مقبول لأبسط قواعد التربية ، فعلى الأم أن تبعده عن عادة البكاء مهما كلف الأمر ، وعليها مثلا أن تعده بالحلوى إن سكت وغسل وجهه من آثار البكاء ، فالحلوى تعزيز له أيضا . ونعلم بأن الطفل يحب الحلوى ولا يرغب بالبكاء بديلاً لها .

٥ - يجب أن يكون مركز الأم لدى الطفل لا يختلف عن مركز الأب ، وهذا واجب يقع على عاتق الأم ، فعليها أن تحيط طفلها بالرعاية والطمأنينة والحب الذي يؤدي إلى التعاطف والتفاعل الايجابي بينها وبين طفلها ، كما تعطي المعاملة المتوازنة مؤشرا بمكانة الأم وشخصيتها ، على أن لا تختلف عن مكانة الأب وشخصيته لدى الطفل .

٦ - لماذا ندع الطفل في موقف حيرة من أمره ؟ إن ما يجب علينا هو أن نطلعه على نتائج البكاء والعناد والصراخ ، ونجعله يدرك بأن هذه المواقف لا تؤدي إلى الايجاب ، وإنما تؤدي إلى إيذاء نفسه وتعذيبها ، وأن عليه التخلي والابتعاد عن الألم ، واتباع الطرائق التي توصله إلى اللذة والتعزيز .

٧ - إن مقابلة السلوك غير المرغوب فيه الذي يصدر من الطفل بسلوك غير مرغوب فيه أيضا لايؤدي إلا إلى تعقيد العلاقة التي تربط الطفل بالأم .

٨ - لقد ورد في مقال السيد عنايت بأن الطفل يتعلم مناورة توازن القوى من أمه ، وهذا يعني أن الأم كانت متساهلة في معاملتها مع الطفل سابقا ، وأن هذا التساهل قد خلق لدى الطفل عدم الاهتمام بالأوامر التي تصدر عن الأم ، وهذا صحيح ، على أن تصحيح الأمر بالقسوة في المعاملة يؤدي إلى العناد لدى الطفل . لأن من أساليب المعاملة الخاطئة التساهل في المعاملة والقسوة فيها أيضا ، وهما على طرفي نقيض ، والأشد منهما هو التذبذب في المعاملة . فكيف يحق لمرب أن يطلب من الأم أن تكون متذبذبة في معاملتها مع طفلها ؟ أرجع مرة أخرى لكي أقول إن المعاملة المثالية هي اللطف في المعاملة مع توضيح للأسباب بأسلوب يمكن إقناع الطفل به بما هو صحيح ، على أن الأمر إذا تطلب الحزم فليكن الأبوان حازمين ، مع عدم الخروج عن مبدئها الأساسي . □



يبحث عن المتفرج العربي

بقلم : رؤوف توفيق

في كل يوم تعقد المهرجانات السينمائية في بلدان عربية مختلفة ، يشاهد خلالها النقاد أفلاما من بلدان عربية أخرى ، ثم يغادر المخرجون بأفلامهم الى مهرجانات قادمة .

أما المتفرج العادي العربي ، فلا يكاد يشاهد الأفلام العربية سوى نسبة ضئيلة موازنة بالافلام الأجنبية .. لماذا ؟ وكيف ؟ وما هي الطريقة التي يجد بها الفيلم العربي متفرجه العربي ؟ .

أمر يدعو للأسف ، قبل أن يدعو للدهشة .. تلك الحدود الوهمية التي تعطل انتشار الفن العربي داخل الاقطار العربية نفسها،وأوضح صورة لذلك .. ما يحدث في السينما العربية،فمن المعروف أن فرص العرض والتنقل بين الأسواق العربية .. ما زالت محدودة جدا لكثير من الافلام العربية ، كتلك الافلام التي تنتجها الجزائر والمغرب وتونس وسوريا والعراق .

والنتيجة الطبيعية لهذا الوضع .. هو الدوران البطىء جدا لعجلة الانتاج السينمائي في تلك الاقطار .. ففي كثير من الأحيان لايزيد الانتاج عن ثلاثة أفلام في العام ، وقد ينخفض الى فيلم واحد فقط !!

يستثنى من ذلك السينما المصرية ، التي يتراوح انتاجها ما بين ٦٠ الى ٧٠ فيلما في العام .. وذلك نتيجة لتاريخ السينما المصرية وانتشارها في الأسواق

العربية واستمرارية الانتاج وتدفقه بغزارة عاما بعد عام .. وأيضا لحجم الفنانين والفنيين العاملين في هذا المجال .

وقد حرص مهرجان قرطاج السينمائي (١٤-٢٥اكتوبر٨٦) أن يعقد ندوة لمناقشة « المسالك الجديدة لتوزيع السينما » في محاولة للوصول الى صيغة مناسبة لتلك الأزمة التي تعيشها السينما العربية والافريقية .

ومثل كل الندوات الثقافية والفنية .. تفرعت المناقشات ودخلت في تفاصيل كثيرة ... وألقيت بداخلها كل هموم السينمائيين ، ابتداء من مشاكل الانتاج والتمويل ، إلى مشكلة انصراف الجمهور عن دور العرض السينمائي ، والاكتفاء بالجلوس أمام التليفزيون ، الى مشكلة تناقص دور العرض نفسها .. وخطورة الاكتفاء بمشاهدة الأفلام عن طريق أجهزة « الفيديو » . وفي هذه الندوة طالب السيد حمادي بوعين ، الاستاذ المساعد بالجامعة التونسية ، بضرورة اسهام التليفزيون في انتاج الافلام ، وبث الحماس في الجماهير لتأصيل عادة الذهاب الى السينما .. وكذلك ضرورة الاستخدام السليم لشبكات الفيديو .

ومن تونس أيضا تحدث السيد رضا التليلي ، مدير مركز الدراسات والتوثيق للتنمية الثقافية .. وتساءل عن سبب عدم اقبال الشباب التونسي على دور العرض السينمائي . وأجاب عن تساؤله بقوله ..



● لقطة من الفيلم السوري « التقرير » لدريد لحام

ان هذا الجيل الذي ولد مع التليفزيون .. تحول الى جيل تلفزيوني لايعرف السينما كممارسة ثقافية إلا بشكل هامشي .. و بالتالي لم يعد الذهاب الى دور السينما ، أحد تقاليد المتفرج التونسي !

جزء من الحقيقة

ورغم أن هذه المقولة تحمل جزءا من الحقيقة .. الا أنها لاتعبر عن الحقيقة كلها . فقد أثبتت الدراسات والاحصائيات ـ وحتى ملاحظات العين المجردة ـ أن الغالبية العظمى من جمهور السينما الآن ، سواء في أوروبا أو أمريكا أو الاقطار العربية ، هم من الشباب ... وبالذات من سن١٧الى٢٥عاما .. باعتبار أن أصحاب هذه السن لايميلون كثيرا الى الجلوس في منازلهم لمشاهدة الافلام عبر شاشة التلفزيون ، أو من خلال أجهزة الفيديو .. وانما يخرجون للذهاب إلى السينما في صحبة أصدقائهم .. على الأقل كنوع من التغيير لروتين يومهم وارتباطاتهم الدراسية .

سوق عربية مشتركة :

ونعود لندوة مهرجان « قرطاج » في البحث عن منافذ جديدة لتوزيع الافلام .. ونستمع الى رأي الناقد السينمائي السوري « صلاح دهني » الذي طالب بانشاء سوق عربية مشتركة تقوم بتنشيط عملية توزيع الفيلم العربي الجيد ، والفيلم الاجنبي الجيد ، بكل وسائل النشر المتاحة .

وهذا الرأي .. يؤكد ما سبق أن قيل مرارا في ندوات سابقة ، أو بين كتابات النقاد السينمائيين العرب ، الذين طالبوا بحماية الفيلم العربي داخل بلاده .. بقيام المؤسسات المشتركة بين الأقطار العربية برعاية الانتاج السينمائي العربي ، وكفالة توزيعه بطريقة لائقة وذلك كحل ضروري لتدعيم الفكر السينمائي العربي وكذلك الفنانين العرب .. بدلا من تركهم يمضغون البطالة ، ويهدرون طاقاتهم وابداعاتهم في الانتظار الطويل . وقد يلجأون ـ أحيانا ـ مضطرين الى الهجرة بذواتهم الى أوروبا .. أو الهجرة باحلامهم وراء المشاركة في الانتاج والتمويل من جانب فرنسا (خصوصا بين مخرجي السينما الجزائرية والتونسية والمغربية ، بحكم



● لقطة من الفيلم التونسي « صبرة والوحش »

الارتباط الثقافي وسهولة اللغة) . . مما قد تكون نتيجته الاهتمام بارضاء ذوق المتفرج الأوروبي وفكرة ، . على حساب المتفرج العربي !وما أكثر نماذج التورط السينمائي مع البريق الأوروبي

ولم تنته الندوة التونسية في البحث عن منافذ جديدة لتوزيع الافلام . . الا بمزيد من الكلام والحماس والتوصيات ، التي غالبا ما ستجد مكانا بجوار زميلاتها في الندوات والمؤتمرات السابقة . . مجرد مساحة جديدة في أحد الملفات بأحد الادراج !وتظل المشكلة كما هي ، تبحث عن الخلاص الحقيقي .

ولاشك أن اللغة المنطوقة في الفيلم العربي ، تمثل أحد عوائق الانتشار داخل مختلف الاقطار العربية . . وذلك لاختلاف اللهجات ومعاني الكلمات . . وصعوبة فهم وتتبع حوار الافلام .

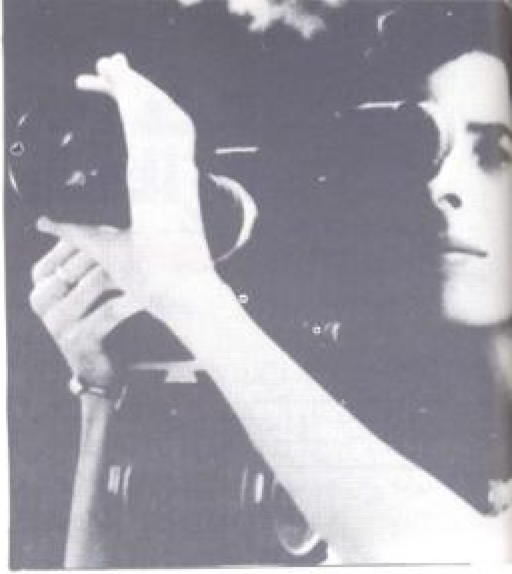
أحبك «برشه»

وقد نشرت مجلة « الفن السابع » التي تصدر في تونس (عدد ابريل ٨٦) مقالا اختار كاتبه أن يناقش مشكلة اللغة المنطوقة في الفيلم التونسي . . فضرب مثلا طريفا قال فيه :

« تمثلوا معي مشهدا عاطفيا ، يكون فيه البطل الوسيم في خلوة مع حبيبته المراهقة فوق سطح العمارة ، وعلى البطل أن يقول لحبيبته « أحبك كثيرا يا حياتي »

(وليكن الآن الفيلم مصريا سيقول البطل بحبك . . أوي . . أوي . . يا حياتي) ولاشك أن هذه الجملة ـ بغض النظر عن موقعها الدرامي في المشهد ـ تستيغها الأذن التونسية الى حد الاندماج والمشاركة .

ولكن ـ يستمر الكاتب في مثاله ـ فلنجرب هذه الجملة مع بطل تونسي ، في فيلم تونسي فسيقول : « أنا أحبك برشة برشة يا حياتي » ولاشك أن هذه الجملة ينقصها نوع من القبول كما كان الحال مع البطل المصري . وهنا سيسارع المخرج الى الاستغناء عن كلمة « برشة برشة » لأنها غير موسيقية . . وكذلك كلمة « يا حياتي » لأنها كلمة لاتنسجم مع الواقع اللغوي في مثل هذه المواقف . وسيستعيض عنها بجملة أخرى : مثل « نموت عليك يا عزيزتي . . ! والنتيجة تكاد تكون دائما واحدة . ويصل صاحب المقال في تحليله الطريف ، الى عدة حلول للتغلب



● المخرجة مي المصري في أثناء تسجيل اللقاءات في الفيلم اللبناني « زهرة القندول »

على مشكلة اللغة ، وهو يقنن الحلول كالآتي:

« اعتماد اللهجة المصرية في أفلامنا التونسية ، والأمر بلا شك مدعاة للضحك .

○ أو اللغة العربية ، وعندئذ نسقط من الفيلم واقعيته وسيتحول حاضرنا ومستقبلنا الى ماض .

أو اللغة الفرنسية ، وتلك لعمري هزيمة .

أو القيام بحملة توعية شاملة في السينما (أشبه بحملات محو الأمية) لتعليم أبجدياتها . وذلك ضرب من البله .

وأخيرا في اعتقادي بأن هذا هو الحل الأمثل - الاكثار من الانتاج ومن فرص العمل وفرص سياسة التعامل بالمثل لحماية انتاجنا وقناتينا . »

ونسي كاتب ذلك المقال .. ان يذكر الحل الميسور والأسرع .. وهو اللجوء الى اللغة الثالثة ، مثل اللغة التي هي خليط ما بين المحلية الدارجة ، واللغة العربية الفصحى ، والتي تأخذ من المفردات اللغوية ما هو أسهل واكثر قبولا وفهماً .

وأمامنا تجربة الحوار السينمائي للشاعر محمد الماغوط والفنان دريد لحام في فيلميها « الحدود » .. و « التقرير » .

وكلنا يعلم مدى ثراء اللغة العربية ، وعذوبة موسيقاها .. فقط المسألة تحتاج لبعض الجهد والتأني .. والحب .

حينئذ تفصح اللغة عن أسرارها الجميلة !

● الفيلم العربي يبحث عن المتفرج العربي

وكل ما يكتب أو يقال في هذه المؤتمرات واللقاءات السينمائية يعكس مدى أزمة السينما العربية في الوصول الى جمهورها .

وأوضح تعبير عن هذه الأزمة .. أن عشاق السينما لايتعرفون على السينما العربية الا من خلال المهرجانات السينمائية التي تقام في بلادهم وعلى هذا .. فقد كان مهرجان قرطاج السينمائي .. فرصة للتعرف على أهم ملامح السينما العربية الجديدة .

من الجزائر .. عرض فيلم « الطاحونة » للمخرج أحمد راشدي والفيلم يحمل معالجة جريئة وجديدة لموضوع السلطة والجماهير ، من خلال ما حدث في فترة التأميمات بالجزائر ، وحيث يختار المخرج احدى المدن الجزائرية « تبيسه » ليصور علاقة رئيس مجلس المدينة بسكانها .. تلك العلاقة الحميمة القائمة على الاحترام المتبادل والمشاركة .. الى أن يأتي خبرلمسئول الحزب في المدينة ، بأن الزعيم - رئيس الدولة - سيزور المدينة ولابد من أن تتقدم له المدينة بهدية والهدية بالتأكيد هي مصنع ، أو مكان يطبق عليه التأميم ! ويبحث رئيس المدينة مع زملائه عن أي شيء يصلح للتأميم ، فلا يجدون .. فالمدينة فقيرة وأهلها يعانون من مشاكل قديمة ومستعصية .

ولكن هذا الوضع لايعجب مسئول الحزب ، ويبدأ مع زملائه أعضاء الحزب في البحث عن مكان يصلح للتأميم .. فلا يجدون غير طاحونة « مسيو فابر » .. وهذه الطاحونة مجرد آلة بدائية فقيرة ، يعمل عليها هذا الفرنسي العجوز الذي رفض العودة الى بلاده . وقرر أن يستكمل حياته في هذا المكان مع زوجته .

يستطرد الفيلم من هذه الفكرة الذكية ، وبأسلوب ساخر ليطرح كل المفاهيم المتصارعة بين محاولة ارضاء السلطة ، ومحاولة التعبير الحقيقي عن آلام وأحلام الجماهير .

ويلعب الفنان عزت العلايلي دور البطولة في هذا الفيلم - كرئيس لمجلس المدينة الذي يرفض تزييف الواقع .. وينطق طوال الفيلم باللهجة الجزائرية وأحيانا بالفرنسية ويشاركه أيضا النجم المصري حسن مصطفى ، مع عدد كبير من نجوم السينما الجزائرية .

ولا يقلل من قيمة هذا الفيلم ، سوى فقدان وحدة الاسلوب الفني ، والسقوط في فخ الايقاع البطيء أحيانا ، واللهث أحيانا أخرى ، والدخول في تفصيلات جانبية ، ومناقشات كلامية كثيرة ..

سوريا والعراق وتونس

ومن الجزائر أيضا .. يأتي فيلم « سنوات التويست المجنونة » ليقدم أيضا فكرة جريئة وجديدة عن الثورة الجزائرية .. ولأول مرة تظهر على الشاشة تلك النماذج من الشباب والعجائز الذين وقفوا من الثورة موقف المتفرج .. وأحيانا موقف الساخر الذي يجدها فرصة للهو والضحك .. وأحيانا موقف المتخاذل الذي يهرب من المواجهة الحقيقية مع المستعمر ويكتفي بسماع نشرات الأخبار « سرا .. ولكن بفضول » .. والفيلم ينتهي تلك النهاية المنطقية ، بأن الثورة تستقطب الجميع ، حتى الذين هربوا منها ، وذلك عندما يصل المستعمر داخل بيوتهم ، ويهددهم في حياتهم وكرامتهم !

والفيلم شديد الجاذبية والتماسك .. وملء باللمحات الفنية الموحية عن سيناريو واخراج « محمود الزموري » ، وبطولة « ماليك الأخضر حامينا » ابن المخرج الجزائري محمد الأخضر حامينا .. بالاشتراك مع مصطفى العتق .

ومن الواقع الساخن في الاراضي العربية .. تقدم العراق فيلم « العاشق » للمخرج منير فنري .. ليرمز به للروح الوطنية التي ترفض الاستسلام للمعتدي .. سواء أكان هذا المعتدي هو الاستعمار .. أم الاقطاع .. أم أدعياء الدين .

ومن لبنان الملتهبة .. يخوض المخرج جان شمعون والمخرجة مي المصري تجربة سينمائية مثيرة .. فقدما فيلما وثائقيا يحمل شهادات سكان جنوب لبنان إزاء الاعتداء الاسرائيلي الوحشي .. وهذه الشهادات الصوتية والمرئية للمكان والانسان تفوق أي خيال درامي .. فالواقع هنا بكل قسوته وبكل صلابة الانسان بتعبيراته الصادقة الممزوجة بالالم والاصرار .. تصل مباشرة الى وجدان المتفرج وعقله ـ مهما كان موقعه فالواقع هنا أكثر تأثيرا وجاذبية وصدقا .. خصوصا أن الجراح كلها ما زالت مفتوحة ، ولهذا السبب ـ الالتزام بالواقع الحي ـ كان هذا الفيلم « زهرة القندول » أكبر تأثيرا من الفيلم اللبناني الآخر « انفجار » لمخرجه رفيق حجار .

وفيلم « انفجار » يحاول ـ بطريقة تقليدية ـ تجميع بعض الأخطاء في المجتمع اللبناني التي أدت الى انفجار الوضع الأمني .. والحرب الطائفية .. والغزو الاسرائيلي .

ومن سوريا .. يتقدم المخرج « سمير زكي » بفيلمه الجديد « وقائع العام المقبل » وقد وقف في دار العرض بالمهرجان ، ليهدي الفيلم الى روح الفنان شادي عبد السلام الذي عاش يحلم باخراج فيلمه « أخناتون » .. ومات والحلم لم يتحقق ..

وبطل فيلم « وقائع العام المقبل » .. هو ذاك الشاب العاشق للموسيقا .. والذي درس علومها في الخارج وعاد الى بلده دمشق يدرب تلاميذه .. ويحلم بانشاء فرقة موسيقا أوركسترا .. ويظل طوال رحلته مع أحداث الفيلم .. وراء هذا الحلم بين كل المعوقات الروتينية .. وأيضا المعوقات الشخصية مع الفتاة التي أحبها .

والفيلم يقدم العديد من المشاهد السينمائية الجيدة .. ولكن مايعيبه هو التطويل الزائد .. والتفريعات الكثيرة .. واعجاب المخرج ببعض اللقطات التي لاتخدم التسلسل الدرامي .. بل تدعو الى التشتيت والملل ، ولو اختصر منه ثلث ساعة على الأقل لكان فيلما متميزا .

وقد فازت ممثلة الفيلم « نائلة الاطرش » بجائزة أحسن ممثلة من مهرجان قرطاج .. ومن السينما التونسية .. لايمكن أن تخطىء العين فيلم « ريح السد » لمخرجه « نوري بوزيد فالفيلم ينبض بالحيوية وروح الفن .. لولا أن مخرجه تورط في بعض مشاهد الفيلم باعلان الحنين والاعجاب بأيام اليهود وذكرياتهم الجميلة (!!) .. وكان بهذا يرضى السينما الأوروبية ويطلب منها صك الاعتراف بفيلمه .. في نفس الوقت الذي أثار فيها غضب كثير من المتفرجين العرب واستياءهم .

وهكذا تموج السينما العربية بالمحاولات الفنية .. ولكن ما يدعو للأسف أن تظل هذه المحاولات محبوسة داخل الحدود الاقليمية دون أن تتاح لها فرصة الحركة والتنقل والتنفس بين الجماهير العريضة . □



الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

الاهتمام بتشريح جثث الموتى مجددا

أحد العلماء الداعين للعودة إلى تشريح الجثث .



منذ زمن والاتحاد الطبي الأمريكي يناقش موضوع تشريح جثث الموتى ، بالتعاون مع معهد الطب الأمريكي في الولايات المتحدة ، فهذا التشريح الذي يحدد أسباب الموت الحقيقية شاع في القرن الماضي ، وفي مطلع القرن العشرين ، حتى بلغت نسبة الجثث التي شرحوها في مستشفيات الولايات المتحدة قبل حوالي ٤٠ عاما ٥٠٪ من جثث الذين ماتوا في تلك المستشفيات .. أما الآن فلا تزيد تلك النسبة على ١٣ ٪ ، من هنا كان قلق الهيئتين الطبيتين السالفتي الذكر .. ذلك أن تشريح الجثث لا يفيد في تحديد أسباب الموت الحقيقية فحسب ، ولكنه مصدر لايستهان به من مصادر المعرفة الطبية .

فتشريح الجثث هوالذي أثبت العلاقة الوثيقة بين التدخين وسرطان الرئة .. وهو الذي ساعد على اكتشاف مواطن الشذوذ في أمراض القلب ، أضف الى ذلك أنه يحدد مدى الضبط ، او عدمه ، في التشخيص والعلاج الذي تلقاه صاحب الجثة ، والذي قد يكون سبب موته قبل الأوان ، فتشريح الجثث اذن يكشف عن الأخطاء التي يرتكبها الأطباء ، والتي قد تكون قاتلة .. فهو اذن يعرض أولئك الأطباء للقضاء والمحاكمة ، لا عجب اذن أن قلت حماسة الأطباء والمستشفيات لاجرائه ، حتى لم يعد يجرى الا في النادر .

وثمة أسباب أخرى للعزوف عن تشريح جثث الموتى ، فظهور أساليب التصوير الحديثة مثل cat Scan وسواها ضمن المزيد من الضبط في التشخيص ،

وأغنى بالتالي عن ذلك التشريح ، أضف الى ذلك الكلفة ، فتشريح الجثة الواحدة يكلف ما بين ـ/ ١٠٠٠ دولار و ـ/ ٣٠٠٠ دولار ، وبرامج التأمينات الصحية لاتشمل هذه التكاليف ، اضف الى ذلك أن الكثيرين يرون في تشريح الجثث تدخلا في خصوصيات أصحابها ، وعدوانا على حريتهم ، وهذا لا يجوز مطلقا حتى بعد موتهم ..

وأغرب ما في الأمر أن الجامعات والكليات ومعاهد الطب في الولايات المتحدة ألغت مادة التشريح في برامجها التعليمية .. فالأسباب التي قد تبرر الغاءه في المستشفيات لا يمكن أن تبرر الغاءه من برامج تدريس الطب في الجامعات .. فقد كان قوام درس التشريح ، وما زلنا نذكر كيف عدل بعض طلاب الطب عن المضي في دراستهم بسبب تشريح الجثث في السنة الاولى من دراستهم ، لأنهم لم يتحملوا منظر جثث الموتى ، ناهيك

بتشريحها الـذي كثيرا مـا سبب لهم الاعياء .

ولعلك تسأل عن كيفية تشريح الجثث في المستشفيات لـدى مـوت أصحابها مباشرة ، واليك موجزا بذلك :

١ ـ يشق الجراح الجثة من أعلاها الى أسفلها على شكـل (Y) بحيث يصل الضلعان العلويان الى الابطين ، وينتهي الثالث الى أسفل البطن .

٢ ـ يأخذ الطبيب عينات من الدم والبول وسوائل الجسم الأخرى .

٣ ـ يخـرج الـطبيب أعضـاء الميت الداخلية ، ويتفحصها من حيث اللون والملمس والحجم ، ويستطيع الجزم بأن الميت كـان مدمنا اذا كان كبده شاحب اللون ذابلا .. او انه كان معتل القلب اذا كـان قلبه منبعجـا أو مترهـلا أو متضخما .

٤ ـ ثم يزن الطبيب أعضاء الميت كلا على حدة .. فهو يستطيع استنتاج الكثير على أساس وزن تلك الأعضاء واختلافها عما ينبغي أن تكون عليه .

ويرجح البعض أن المناقشة التي تجري حاليا في أمريكا ستنتهي بـالعودة الى تشريح الجثث كثيرا أو قليلا .

□□□

تلسكوبات المرايا السائلة



الجزء العلوي من التلسكوب الجديد

طمـوح العلم والعلمـاء لايقف عند حد .. ويصدق هذا أكثر ما يصدق عـلى علماء الفلك .. وعـلى التلسكوبات التي ابتكروها وما زالوا يبتكرونها لمشاهدة المزيد من السماء ، ومعرفة المزيد من حاضرها وماضيها . . .

ففي سنـة ١٩٤٨ استكملوا انشـاء تلسكـوب (هـل) عـلى قمـة جبـل (بـالومـار) .. ويبلغ قـطر مرآة هـذا التلسكوب ٢٠٠ بوصة ، وشعر النـاس بأن من المستحيل صنع مرآة أكبر من مرآة تلسكـوب (بـالـومـار) ، وان هـذا التلسكوب هو بلا ريب نهاية المطاف بالنسبة الى الفلكيين .

وجاءت سنة ١٩٧٤ ، واذا بـالاتحاد السوفياتي يقيم مـرصدا عـلى قمة جبـل سميرودريكي وقد بلغ قـطر مرآة هـذا التلسكـوب ٢٣٦ بـوصـة ، فهـو اذن أضخم من تلسكوب (بالومار) بحوالي ٢٠٪

وتوقف العلماء عن صنع مـرايا أكبر حجما من هذه ، وقد ثبت لهم أن المرايا الأكبر حجما ليست غير ممكنة فحسب ، ولكنها غير مـرغوبـة أيضا . فـالظاهـر أن قطر ٢٠٠ بوصة هو قطر ذروة النفع والفاعلية ، وان المرايا التي يزيد قـطرها على ذلك يقل نفعها بنسبة كبرها .

لـذلـك عمـد العلماء الى ابتكـار التلسكوب المتعدد المرايا ، فـأقاموا على جبل (هوبكنـز) في ولاية (اريـزونا) تلسكوبا بمرايا ست ، وعـلى صغر تلك المرايا وسهولة حملها ونقلها وتركيبها .. فانها تستطيع تجميع الضوء ، وكأنها مرآة بقطر ١٧٦ بوصة .. وذلك تبعا لوضعها في الأمكنة المناسبة التي تضمن بالانعكاس والانحراف وما إلى ذلك طاقة مضاعفة



الجزء السفلي من التلسكوب وقوامه الزئبق وقد انعكست على سطحه صورة المخترع .

لتجميع الضوء .

وجاءت سنة ١٩٨٦ واذا بأحد العلماء يبتكر تلسكوب المرآة السائلة ، ويضمن لها قوة تجميع تفوق قوة تلسكوب بالومار بحوالي ٥ أضعاف .

أما المخترع فهو (إرماندو بورا) عالم الاستروفيزياء في جامعة لافال في كويبك بكندا .. غير أن هذا العالم يصر بانه ليس المخترع ، ويؤكد أن اسحق نيوتن عرف أسرار السوائل الدوارة ، وبنى بالفعل أحد التلسكوبات العاكسة الرائدة ، ويؤكد أيضا أن روبرت وود ، من جامعة هوبكز ، بنى سنة ١٩٠٨ تلسكوبا بدائيا على غرار تلسكوبه .. ولو اتيحت لوود هذا مثل الوسائل التكنولوجية المتاحة حاليا ، لنجح في صنع التلسكوب السائل قبل أكثر من سبعين عاما .

وأما التلسكوب المبتكر الجديد فقوامه اناء خشبي بقطر ٤٠ بوصة ، وبعمق قليل نسبيا ، وممتلىء بالزئبق السائل ، ويدور الاناء على قاعدة دوارة ببطء شديد ، ولكن بانتظام محكم دقيق .. ويكمل دورة واحدة كل ٦ ثوان بالضبط ، ويرتفع الزئبق بلطف تبعا لذلك الدوران ، ولكنه لا يتجاوز حافة الاناء ، بل يرتد الى وسط الاناء تماما ، كما يحدث للشاي الذي تحركه بالملعقة وهو في الفنجان .. ، ويأخذ الزئبق شكل القطع المتكافىء وفقا لقوانين الفيزياء ، وهو نفس شكل المرايا الصلبة في التلسكوبات التقليدية ..

تُرى هل سيستطيع العلماء بوساطة التلسكوب السائل مراقبة الكون كما كان قبل أن يخلق ويصبح كونا ؟! .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

هرمون طول العمر

نجح العلماء لأول مرة في الربط بين التعمير وبين ارتفاع مقدار ما يحتويه الدم من هرمون دهياس (Dheas) أو ان شئت اسمه بالكامل : (Dehydro-pian Drosterone Sulfate) ومعنى هذا أن في استطاعة العلماء اطالة عمر الراغبين في العمر المديد ، وذلك باعطائهم المزيد من ذلك الهرمون ، ولكن هل هذا ممكن حقا ؟ ! .

فالعلماء يجهلون كيف يعمل الهرمون على اطالة العمر .. وكيف يحد من احتمالات الموت لا سيما في مرضى القلب .. هذا على الرغم من انه مجرد هرمون ستيرويدي تفرزه غدة الادرينال .. بل أكثر هذه الهرمونات وفرة في الجسم .

* الصديق كائن تعطيه مفتاح عقلك وقلبك معا ـ وأنت آمن ـ ليرى فيهما كل شيء .

(أحمد لطفى السيد)



سلامة البشرية في سلامة البيئة

خامة جديدة لصنع الورق

من المعروف أن الورق يصنع ـ في الغالب ـ من الخشب ، ومن المعروف أيضا أن صناعة الورق اعتمدت على ثلاثة أنواع من الخشب ، أو الشجر ، للحصول على الخامة المناسبة لصنع منتجات الورق المختلفة ، غير أن أشجار تلك الأنواع الثلاثة ـ وهي الخشب القاسي والخشب الطري وخشب الكينا ـ كانت تستغرق وقتا طويلا لكي تنضج وتصبح جاهزة للقطع ، وما زالت كذلك . فأشجار الخشب القاسي تحتاج إلى نصف قرن ، وأشجار الخشب الطري التي تعتبر سريعة النمو تحتاج إلى ٢٥ عاما ، لكن شجر الكينا ـ وهو من الأشجار القاسية الاستوائية ـ يتميز على كلا النوعين المذكورين في أنه لا يحتاج إلى أكثر من ٧ سنوات لكي ينمو ويصبح صالحا لاستخدامه في صناعة الورق .

لا عجب إذن إن درجت بلاد السويد ـ وهي شهيرة بصناعة الورق وبالغابات أيضا ـ على استيراد خشب الكينا من مواطنه الاستوائية بكميات كبيرة لا تقل عن ٥٠,٠٠٠ طن سنويا ، أما اليابان فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما وظفت مبالغ ضخمة ـ تزيد على ١٧٠ مليون دولار ـ من أجل زراعة شجر الكينا في البرازيل لصالح صناعة الورق اليابانية ، وهي صناعة ناشطة جدا كسائر الصناعات في اليابان .

فاجأنا العلماء مؤخرا باكتشاف شجرة أخرى تتفوق على شجرة الكينا تفوقا مطلقا ، إنها شجرة (الكِنَاف) ـ واسمها العلمي (Kenaf Hibicus) التي تنمو ويصبح طولها ١٥ ـ ٢٠ قدما في أقل من نصف سنة وبالتحديد في ١٥٠ يوما ، وهي وفيرة المحصول ، فالفدان الواحد من شجر الكِناف يعطي ٦ أطنان من الخشب سنويا ، وفوق هذا لا تختلف شجرة الكِناف ـ موطنها شرق أفريقيا الاستوائية ـ عن سائر الأشجار الاستوائية من حيث حاجتها إلى خصوبة التربة ، والدفء ، وماء الري ، وضوء الشمس ، لكنها أشد حاجة إلى ضوء الشمس من سواها ، فقد ثبت أن الظل يؤذيها .

بادرت وزارة الزراعة الأمريكية إلى إجراء البحوث المخبرية والميدانية على شجر الكِناف على أوسع نطاق ممكن ، وقد أنفقت على تلك البحوث والتجارب مالا يقل عن ١٠ ملايين دولار ، وذلك حتى منتصف عام ١٩٨٦ ، ولعل تلك المبالغ لم تذهب هباء ، وحسبك أن تلك البحوث والتجارب قد كشفت عن مزايا في خشب الكِناف لم تكن في الحسبان ، فالورق الذي يصنع من عجينة الكِناف الخالصة أو الممزوجة بعجينة عادية أقوى من ورق عجينة الكينا وغيرها ، وأقل حاجة إلى الحبر ، وهذه ميزة هامة جدا بالنسبة إلى ورق الجرائد ، وورق الجرائد ـ كما لا يخفى ـ في طليعة أنواع الورق رواجا .

ثم إن ورق الكِناف لا يصفر إلا قليلا ، بخلاف



الشجر الرفيع الذي اكتشفوا فيه خامة لصنع الورق

الورق المصنوع من الكينا وسائر الخامات الأخرى ، وتتجلى هذه القابلية للاصفرار أكثر ما تتجلى في ورق الجرائد ، ويعزى ذلك إلى مادة لجنين (Lignin) البلاستيكية التي توجد في خامات الورق التقليدية ، ولا توجد في عجينة الكتاف إلا بكمية محدودة . أضف إلى ذلك أن شحن خشب الكتاف أسهل بكثير من شحن الأصناف الأخرى ، فهو يضغط في بالات ، ويخزن بعيدا عن الرطوبة .

والجدير بالذكر أن علماء وزارة الزراعة الأمريكية نجحوا مؤخرا في عزل خمائر معينة من شأنها أن تقضي على مادة (اللجنين) ، وتغني صناعة الورق عن استعمال مواد كيماوية سامة قد اضطرت لاستعمالها لتخليص الورق من مادة (اللجنين) . وتعرف هذه الخمائر باسم علمي هو (Phanerchaet Chrysosporium)

السخّام فى القطب الشمالى

اكتشف علماء البيئة السخام أو الهباب Soot حول القطب الشمالي نفسه . . وقد عثروا عليه في بعض البقاع بكميات لا تقل عن كمياته في المناطق الصناعية في الولايات المتحدة الامريكية .

ومعنى هذا ارتفاع فى درجة الحرارة ومعناه أيضا التلوث الذى اخذ ينتشر حتى فى المناطق النائية .

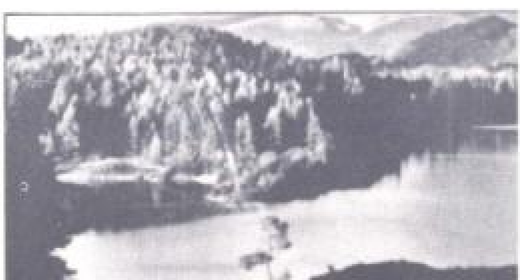
ومن شأن السخّام المذكور أن يرفع حرارة المنطقة بقدر يبعث على قلق العلماء . . فهو يملأ الجو بطبقة لا يقل سمكها عن ٥٠٠ متر ويعمل على تصعيد الحرارة الآتية من الشمس والمنعكسة من سطح الجليد الى فوق . . .

فى مجاهل الأمزون

أعلن العلماء الانكليز عن بعثة علمية سيقومون بها هم وعلماء آخرون من البرازيل الى بعض مجاهل الامزون . . وذلك بقصد دراسة بيئية جامعة تشمل دراسة الأحياء النباتية والحيوانية ودراسة التربة واعادة الحياة الى الغابات علاوة على الامراض الاستوائية . . وستبدأ البعثة اعمالها فى مطلع هذه السنة وتستمر بها حتى نهايتها . .

أما الموقع الذى اختاره العلماء لهذه الدرسات الشاملة فهو جزيرة ماراكا غير المأهولة الواقعة فى مجرى نهر (اوراديكوريا) فى أقصى شمال البرازيل وتبلغ مساحة هذه الجزيرة ٦٠ × ٢٥ كيلو مترا . . .

وتضم البعثة ٦٠ عالما نصفهم انكليز و ٢٠ منهم برازيليون . . والبقية من دول أخرى مختلفة وستقوم بأعمالها تحت رعاية الجمعية الملكية الجغرافية (الانكليزية) .



الألمنيوم

أعجوبة معادن القرن العشرين

بقلم : محمد علي النقي*

منذ خمسة آلاف سنة اكتشفت مركبات الألمنيوم ضمن الطين الذي استعمل في صناعة الخزف بوادي الرافدين ، واستخدم المصريون مركباته في صناعة الأدوية ، لكن سبب تأخر البشرية في معرفة الألمنيوم كمعدن منفصل هو خاصيته المميزة في سرعة التفاعل والاتحاد مع المعادن والمواد الأخرى . فما هي قصة هذا المعدن القديم الحديث ؟

رغم أن مركبات معدن الألمنيوم استعملت منذ آلاف السنين في منطقتنا العربية إلا أنه لم يعرف بشكل محدد ومنفصل إلا مع بداية عصر الأبحاث والتجارب ، عصر النهضة الصناعية ، وحتى في هذه الفترة كانت كمياته قليلة ، وأسعاره باهظة تفوق سعر الذهب ، رغم أنه يشكل ٨٫٠٪ من القشرة الأرضية .

وبعد أن تطورت وسائل الفصل والاستخلاص ، وتزايدت كمياته المعروضة ، أصبح الألمنيوم أحد العوامل الهامة في تطور الصناعة ، فهو يدخل في كثير من أوجه التصنيع في الصناعات الدقيقة والصناعات الثقيلة ، وكذلك الصناعات الخفيفة التي تشمل اللوازم اليومية لحياة الإنسان .

وقد ساعد على انتشار هذا المعدن وتنوع استخداماته ماله من خواص ومميزات مفيدة ، تجعل بالإمكان توظيفه في عدة مجالات ، وهذه المميزات هي خفة الوزن ، وسهولة التشكيل ، وقوة التحمل ، وإمكانية صقله بألوان ، وكونه موصلاً جيداً للحرارة ، ومقاوماً للصدأ ، وعاكساً للكهرباء والنور .

ومن الجدير بالذكر أن الأحجار الكريمة كالياقوت الأحمر والأزرق ، والزمرد ، وغيرها هي أنواع من

* نائب رئيس مجلس ادارة شركة ألمنيوم الكويت

بلورات أكسيد الألمنيوم .

وقد اشتق اسم الألمنيوم من الاسم اللاتيني لأحد مركباته (حجر الشب) وهو (ألومين) ، وقد أطلق العالم البريطاني السير همفري ديفي عليه - بداية - اسم الومبيوم ، وما لبث بعد فترة (أي في سنة ١٨٠٧م) أن أطلق عليه اسماً جديداً ، هو ألمنيوم ALUMINIUM ، فلم يلق هذا الاسم القبول من العلماء والمختصين ، لكن هذا الاسم سار على ألسنة الناس واشتهر هذا المعدن به .

كان للعالم البريطاني السير همفري ديفي اهتمامات واسعة بمركبات هذا المعدن المجهول وأكاسيده ، وكان مقتنعاً أن للألومينا أساساً معدنياً ، لذلك بدأت محاولاته لاستخلاص هذا المعدن ، لكن محاولاته باءت بالفشل .

كمية بحجم رأس الدبوس :

انضم إلى قائمة المكتشفين العالم الدانمركي هانز كريستان أوستيد ، وقد تمكن من إنتاج الألمنيوم لكنه ممزوجاً بالزئبق ، لذا وصفه بأنه معدن ثقيل ، يشبه القصدير في لونه ولمعانه . وبعد عشرين سنة تمكن فريدريك فوهلر - وهو عالم فيزيائي من جامعة كوتنكن - من استخلاص الألمنيوم نقياً ، فكان أول من شاهد الألمنيوم بكمية بحجم رأس الدبوس ، وكان ذلك في عام ١٨٤٥م ، وقد استخدم فوهلر طريقة العالم الدانمركي هانز كريستان اوستيد ، وهي طريقة بسيطة ، تعتمد على التفاعل بين مزيج الزئبق بالبوتاسيوم مع كلوريد الألمنيوم ، ومن مزايا هذه الطريقة أنها مكنت فوهلر من تحديد مزايا هذا المعدن وصفاته ، وقد كانت مزايا إيجابية مشجعة ولكن عيبها أنها باهظة التكاليف . وبعد ذلك استطاع العالم الفرنسي هنري سانت كلير - بعد نجاح تجاربه التي أجراها في معامل جافل الكيميائية في فرنسا - أن ينتج معدن الألمنيوم على هيئة قضبان عرضت على العامة لأول مرة في عام ١٨٥٥م في معرض باريس .

استخدامات الألمنيـــوم :

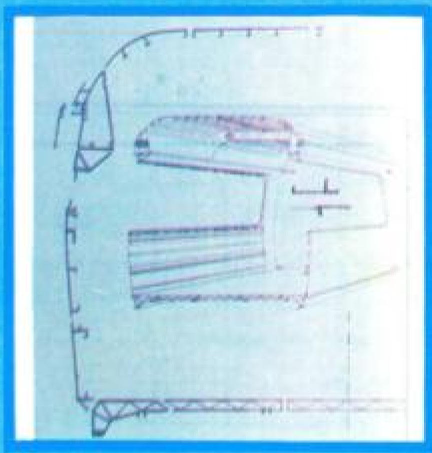
منذ ذلك العام عرف العالم الألمنيوم كمعدن باهظ الثمن ، ذي صفات مميزة ومغرية ، تستعمله الطبقات الراقية ، فقد كان نابليون الثالث امبراطور فرنسا يتباهى باستخدام الألمنيوم في صناعة أواني مائدته ، كما تباهى أمير آخر بأن (خشخاشته) مصنوعة من الألمنيوم . وفي عام ١٨٩٣م صنع تمثال ايروس من الألمنيوم النقي ، ووضع في ميدان بيكاديللي في لندن ، كما صنع من هذا المعدن الشكل الهرمي لقمة النصب التذكاري في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي ربيع عام ١٩٨٦م خرجت العاصمة الفرنسية بأزياء نسائية للسهرة مصنوعة من الألمنيوم .

وقد أثارت مزايا هذا المعدن - كخفة الوزن وعدم التآكل والصلابة - اهتمام الامبراطور نابليون الثالث خاصة بالنسبة لاستعماله في صناعة المعدات العسكرية ، فأخذ يمد العالم الفرنسي هنري سانت كلير بالأموال الطائلة لإجراء تجارب اكتشاف وسائل تخفض من تكاليف الإنتاج ، وانخفضت التكلفة بالفعل ، لكن رغم هذا ظلت استعمالاته - آنذاك - محدودة جداً .

ثم بدأ الألمنيوم يدخل ساحات الحروب من خلال الآليات والمعدات الحربية ، حتى بات يشكل النسبة الكبيرة في صناعة الطائرات الحربية ومهابط الطائرات ، حيث تبلغ نسبة استعماله في ذلك ما يقارب ٩٠٪ كذلك في الطرق المؤقتة ، والجسور ، والعبارات التي تكاد تكون كلها من الألمنيوم ، وحتى المتفجرات دخل في صناعة آليتها أجزاء من الألمنيوم ، وقد كانت حرب فيتنام أكبر ساحة حرب استعمل فيها معدن الألمنيوم ، فعندما انتهت هذه الحرب المدمرة انخفضت أسعاره خلال فترة زمنية معينة .

هكذا سار هذا المعدن بثبات ، نظراً لخواصه ومزاياه العديدة ، يزاحم المواد والفلزات الأخرى ،





الصورة العلوية من المملكة المتحدة - هيكل باص ضخم يعمل في المواصلات الداخلية في لندن - استعمال الألمنيوم .
الصورة الوسطية من فرنسا، عربات سكة حديد مصنوعة بالكامل من المنيوم .
الصورة السفلية من المانيا الغربية ثلاث عربات مفصلة مع بعض للمواصلات السريعة - الهياكل من الألمنيوم .



صورة جوية لمصنع شركة المنيوم البحرين « البا » .



طائرة تورناندو ٩٠٪ منها المنيوم



هيكل سيارة خفيف الوزن مصنوع كاملا من الالمنيوم



فارشة الطرق المؤقتة وبفعالية سريعة للاستعمالات العسكرية .

ويحل محل واحد منها بعد آخر ، إلى أن شاع استعماله في المنازل في الأواني المنزلية ، وعلب المعلبات الغذائية والمشروبات ، وكذلك في المعارض والمكاتب وغرف النوم ، حيث أصبح جزءاً من الأثاث المكتبي والمنزلي . شاع أيضاً في الشوارع والأزقة والأحياء ، فأصبح يغطي واجهات المباني والنوافذ والأبواب وغيرها ، وفي وسائل المواصلات كالطائرات والسيارات والزوارق وعربات القطارات والحافلات وعلامات الطرق وإشاراتها ، وفي مجال الطاقة الكهربائية كأبراج نقل الطاقة ، وأسلاك الكهرباء وقضبانها ، وأعمدة النور ، ولم يعد هناك موقع عمل ، أو مسكن أو متنزه إلا وفي أجزاء من تكويناته معدن الألمنيوم ، بل لقد دخل هذا المعدن في صناعة هوائيات الارسال والاستقبال ، والمدرجات ، والكراسي ، والحواجز ، والأجهزة الكهربائية ، والألكترونية ، بل والأقمار الصناعية ، وسفن الفضاء ، ومعدات غزو الفضاء .

مصادفات القــدر :

يعد حدث اكتشاف طريقة فصل الألمنيوم الذي كان لها أكبر الأثر في انتشاره ، وانخفاض سعره ، من عجائب القدر ، ومصادفات التاريخ غير المعقولة ، ففي عام ١٨٦٣م ولد طفلان على ضفتي المحيط الأطلسي ، هما بول هيرو في فرنسا ، وتشارلز مارتن هول في الولايات المتحدة ، وعندما أصبحا رجلين استطاعا أن يكتشفا طريقة واحدة لاستخلاص معدن الألمنيوم ، تعتمد على نفس الأسس العلمية ، وهي طريقة إنتاج معدن الألمنيوم بالتحليل الكهربائي . ولا زالت هذه الطريقة مستخدمة إلى يومنا هذا ، وتسمى طريقة هول هيرو . وقد تقدم العالمان في نفس الوقت ـ كل واحد منهما في بلده ـ ليسجلا براءة اختراعهما ، فثارت زوبعة بسبب تشابه الاختراعين ، لكن هيرو وفق إلى تسجيل براءة اختراعه في ٢٣/ ٤/ ١٨٨٦م في فرنسا ، أما هول فاضطر للانتظار مدة تقارب ثلاث سنوات حتى تمت إجراءات تسجيل براءة اختراعه في ٢/ ٤/ ١٨٨٩م ، لكنه لم يقف مكتوف اليدين ، بل سعى جاهداً حتى عرف اختراعه ، وقدرت أهمية ذلك الاختراع . ولكي يستمر حدث الاكتشاف في غرابته ، شاء القدر أن يتوفى هذان العالمان سوية سنة ١٩١٤م ، وهما لم يتجاوزا الثانية والخمسين من العمر .

وفي عام ١٨٨٨م أوجد الكيميائي الألماني النمساوي كارل جوزيف باير طريقة متطورة لإنتاج معدن الألومينا النقي من خامات البوكسايت المحتوية على نسبة قليلة من السيليكا ، وتعتمد طريقة باير ـ أساساً ـ على الطاقة الحرارية العالية أكثر من اعتمادها على الطاقة الكهربائية ، وبذلك لا تحتاج هذه الطريقة إلى الكميات الهائلة من الطاقة التي تمتصها المصهرات ، لكنها معقدة التطبيق . لهذا تعتبر طريقة (باير وهول هيرو) أفضل طريقة .

وفي عام ١٩٠٧م توصل الكيميائي الألماني (فيلم) إلى اكتشاف عملية تقنية أمكن بواسطتها تطوير سبائك الألمنيوم ، بحيث تكتسب صلابة مماثلة للحديد ، مما يساعد على استخدام هذا المعدن الجديد في الاستعمالات المعمارية . وفي سنة ١٩٠٩م تم اكتشاف (دورا لومين) ، وهي سبيكة خليط من الألمنيوم والنحاس والمغنيسيوم والمنغنيز . ولهذا كان لاكتشاف (هول) و (هيرو) و (باير) أهمية كبيرة في استخلاص معدن الألمنيوم ، وإنتاجه بأسعار مناسبة وتجارية .

والألمنيوم معدن غير قابل للاحتراق ، صحي ، غير سام ، خفيف الوزن ، قابل للسحب والطرق ، مقاوم للتفاعلات الكيميائية ، موصل جيد للحرارة والكهرباء ، يتميز النقي منه بالمتانة ، وقد تطورت أساليب صناعته ، وتطورت استعمالاته ، واستخداماته ، ولهذا اتفق على تسميته معدن العجائب للقرن العشرين .



تشارلز مارتن هول
ـ أمريكي .



بول لزيس توسانيت
ـ فرنسي .

عرض وطلب :

كان لاكتشاف (هيرو) و (هول) تأثير فوري على انخفاض سعر الألمنيوم إلى ١/٣ السعر السائد قبل الاكتشاف وذلك خلال بضع سنوات ، كما ارتفع بالانتاج العالمي بثبات من ١٧ طناً عام ١٨٨٦م إلى أكثر من سبعة آلاف طن في عام ١٩٠٠م ، وفي عام ١٩٣٩م وصل الانتاج العالمي إلى (٧٥٠٠٠٠) سبعمائة وخمسين ألف طن ، وفي عام ١٩٤٥م وصلت الطاقة الإنتاجية العالمية إلى مليوني طن ، لكن الطلب بدأ يقل على الألمنيوم بعد الحرب العالمية الثانية ، حتى سنة ١٩٥٣ م

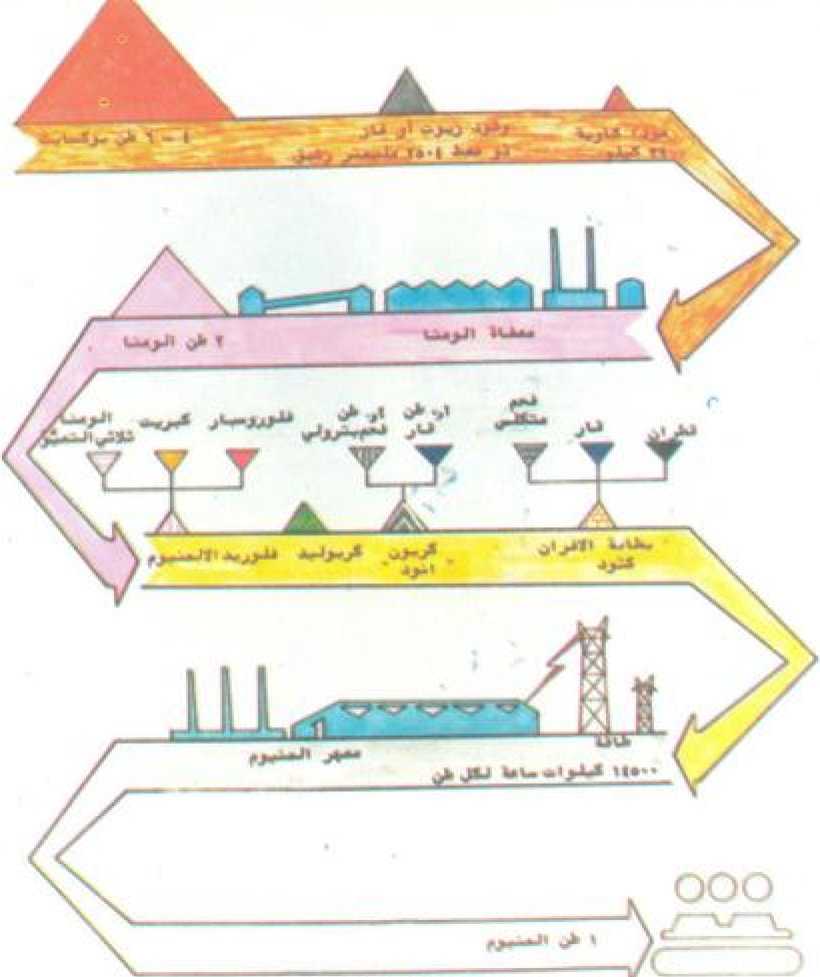
وفي الوقت الحاضر وصلت الطاقة الانتاجية الفعلية العالمية للألمنيوم الأولي إلى ما يزيد على خمسة عشر مليون طن ، عدا إنتاج الدول الاشتراكية ، هذا إضافة إلى أربعة ملايين طن من الألمنيوم (الخردة) المعاد تصنيعه .

ومن هذه الكمية ينتج الوطن العربي في البحرين ودبي ومصر كمية تقارب ستمائة ألف طن سنوياً ، كما أن لدى هذه الأقطار خططاً للتوسع . وهناك مشاريع في المملكة العربية السعودية والعراق والجزائر لدخول هذا المجال ، في حين أن ليبيا قد تعاقدت منذ بداية عام ١٩٨٥م على انشاء مصهر للألمنيوم في منطقة (وارة) ، ويشمل المشروع محطة لتوليد الكهرباء ، ومصنعاً لفحم الكوك ، وميناءاً بحرياً ، إضافة لمصهر الألمنيوم ، وتكلفة هذا المشروع تبلغ بليوني دولار ، وتعاقدت إمارة (أم القيوين) في دولة الإمارات العربية المتحدة على انشاء مصهر ألمنيوم سمي «شركة ألمنيوم أم القيوين» وذلك في بداية عام ١٩٨٦م .

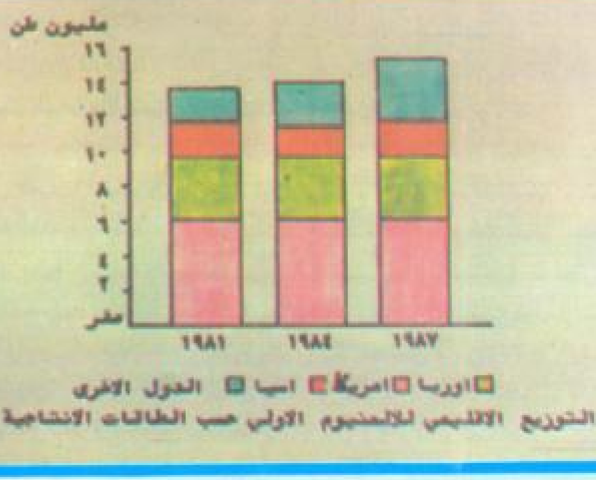
الألمنيوم في الوطن العربي :

كان لاستخراج النفط والغاز الطبيعي في منطقة الخليج في وطننا العربي أثر كبير في التوجه نحو صناعة الألمنيوم ، حيث أن هذه الصناعة بحاجة إلى كميات هائلة من الطاقة ، ولأن مصادر الطاقة ومنابعها تعد قوى جذب وإغراء لتوطين هذه الصناعة ، وكذلك كان لمشروع السد العالي العالمي أثر كبير للتفكير في إنشاء مصهر الألمنيوم .

كانت وزارة المالية الكويتية في بداية الستينيات من هذا القرن هي أول جهة عربية أعدت دراسة لمشروع مصهر الألمنيوم في الوطن العربي ، عندما كان صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد أمير الكويت وزيراً للمالية حينذاك ، وذلك للاستفادة من الغاز الطبيعي الذي كانت الاستفادة منه في ذلك الحين محدودة . وعندما أنشئت هيئة الشعيبة الصناعية أعد لمشروع مصهر الألمنيوم الكويتي موقع في ميناء الشعيبة البحري ، إلا أن المشروع تأجل لأسباب من ضمنها سببان مهمان ، أولهما التلوث البيئي الذي يمكن أن يسببه المشروع ، والثاني الكثافة العمالية والفنية التي يحتاج إليها المشروع ، لكن البحرين كانت مستندة إلى أوضاع السوق العالمي للألمنيوم ، وإلى توفر الطاقة ، وتوفر العمالة المحلية ، عندما أجرت الدراسات ، وأقرت إنشاء مصهر البحرين للألمنيوم ، ثم صدرت في انشائه براءة أميرية في ٩/٨/١٩٦٨م . وقد كانت القطر الأول في الوطن العربي الذي بدأ إنتاجه في مايو ١٩٧١ . وشركة مصهر البحرين للألمنيوم ـ حالياً ـ تملك منها الحكومة البحرينية ٧٥,٩٪ ، وتملك منها حكومة المملكة العربية السعودية ٢٠٪ ، أما الباقي فمساهمات



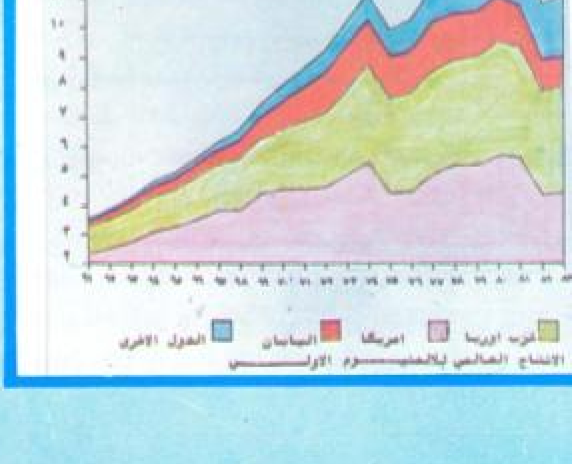
العمليات والمراحل اللازمة لانتاج طن واحد المنيوم

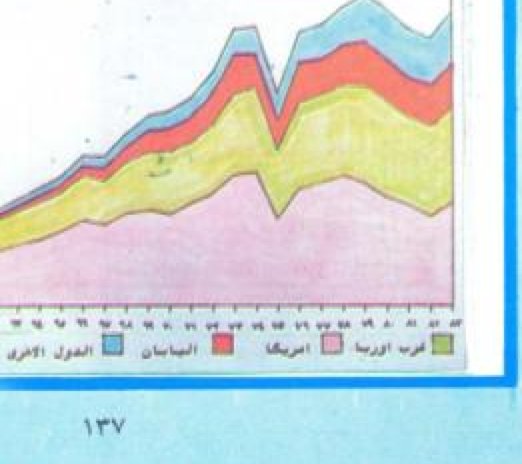


التوزيع الاقليمي للالمنيوم الاولي حسب الطاقات الانتاجية للمصاهر



صورة من قسم السبك في شركة مصر للألمنيوم .





لشركات عالمية . وقد تجاوزت الشركة طاقتها الإنتاجية المقدرة ، وطورت مصانعها في مراحل مختلفة ، وهي ـ في الوقت الحاضر ـ تخطط لزيادة طاقتها الحالية لتصل مع نهاية ١٩٨٧م إلى مائتين وعشرين ألف طن . وللشركة ميناء بحري خاص ، إضافة إلى محطة توليد الطاقة ، ومعمل الكربون لإنتاج كتل الوقود .

ثم تلت مصر البحرين ، فقررت إنشاء مصهر المنيوم في منطقة نجع حمادي القريبة من مصادر الطاقة المتولدة من مشروع السد العالي ، وهذا المصهر يستهلك كمية كهرباء تزيد عن ٣,١/٢ ثلاثة مليارات ونصف كيلوات في الساعة سنوياً ، وهذه الكمية تشكل ثلث كمية الكهرباء المنتجة من مشروع السد العالي . وقد كان المشروع ـ أساساً ـ بالتعاون الفني مع الاتحاد السوفيتي ، ثم أجريت توسعات على مراحل مختلفة لزيادة الإنتاج وتطويره ، حتى بلغت الطاقة الإنتاجية للمصنع ١٧٠ ألف طن . ويبلغ إجمالي (الكوادر) البشرية ١٠٤٠٥ من مختلف فئات المجتمع المصري . وللمصنع ميناء نهري بنجع حمادي ، وميناء بحري على البحر الأحمر في سفاجا ، ولشركة مصر للألمنيوم مدينة سكنية متكاملة من جميع النواحي ، تشتمل على الأنشطة الاقتصادية والتعليمية والصحية والزراعية وغيرها ، ثم أنشيء ثالث مصهر في الوطن العربي ـ وهو الثاني في خليجنا العربي ـ في دبي (الإمارات العربية المتحدة) وقد بلغت طاقته الإنتاجية ـ بعد التوسعات التي أجريت ـ ١٧٠ ألف طن متري سنوياً . ويعتبر من أحدث مصاهر الألمنيوم .

أما بالنسبة لخامات هذا المعدن فقد أثبتت التجارب أن في وطننا العربي مناجم لخاماته ، منها مثلاً ما أعلنته وزارة البترول والثروة المعدنية بالمملكة العربية السعودية عن الاكتشافات التي تمت في منطقة الزبيرة ، والتي ما زالت الدراسات تجري للتأكد من الجدوى التجارية للمشروع ، خاصة أن المنطقة التي اكتشف بها خام البوكسايت بحاجة إلى طرق للمواصلات ، وإلى المتطلبات الأساسية للمشروع . وبالنسبة للألمنيوم نصف المصنع (الألمنيوم الثانوي) كان لبنان هو القطر العربي الأول في الوطن العربي الذي بدأ صناعة (البثق) بالتعاون مع شركة (بتشينيه) الفرنسية التي انتشرت منتجاتها على الساحة العربية دون منافس ، فترة زمنية تعدت عقداً من السنين ، ثم تلتها مصر التي حصرت إنتاج مصنعها لتلبية حاجات مصانعها الحربية .

الكويت والألمنيوم :

أما الكويت فكانت الثالثة من حيث إنشاء مصانع البثق ، لكن الإنتاج تأخر لأسباب إدارية ، فسبقتها البحرين في إنتاج قطاعات الألمنيوم من مصنع بثق الألمنيوم ، ثم تلتها المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة ، ثم العراق ، وسوريا ، ومصر ، والأردن ، وتونس ، والمغرب .

ومنذ بداية العقد الحالي بذلت جهود مكثفة من جهات مختلفة في أرجاء وطننا العربي للم شمل القائمين على صناعات الألمنيوم ، منها منظمة الخليج للاستشارات الصناعية التي دعت سنة ١٩٨٠ المصنعين في الدول الأعضاء في المنظمة إلى ندوة لاستعراض استراتيجية صناعة الألمنيوم ، وندوة الأواني المنزلية في ديسمبر ١٩٨٤ ، ومنها أيضاً الجامعة الأمريكية في مصر التي دعت سنة ١٩٨٠ الصناعيين في جمهورية مصر العربية إلى مؤتمر الألمنيوم المصري ، أما شركة ألمنيوم الكويت فبالتعاون مع غرفة تجارة وصناعة الكويت والاتحاد العربي للصناعات الهندسية ومنظمة اليونيدو الدولية أقامت المؤتمر العربي العالمي الأول للألمنيوم الذي انعقد في ٢٣/١٠/١٩٨٣م ، وقد دعي إليه جميع مصنعي الألمنيوم في الوطن العربي ، وعدد من الاتحادات والهيئات والشركات ذات الاختصاص ، وقد لاقى المؤتمر نجاحاً عالمياً ، وكان أول لقاء على المستوى العربي ، كما كان بمثابة تظاهرة عربية . وفي نهاية

المؤتمر اتخذ قراراً بانعقاده كل سنتين ، وقد تم انعقاد المؤتمر العربي الثاني للألمنيوم في اكتوبر ١٩٨٥م في القاهرة في جمهورية مصر العربية ، وسينعقد المؤتمر الثالث في ٢٣/ ١٠/ ١٩٨٧م في مدينة دبي (الإمارات العربية المتحدة) .

الآن قد انقضى قرن كامل على اكتشاف بول هيرو وتشارلز لأسس صناعة الألمنيوم ومقوماتها ، وبأسلوبها المتطور الحديث ، ذي التكلفة المتدنية ، وانتشرت هذه الصناعة عالمياً ، وتطورت استعمالاتها ومجالاتها . وبالرغم أنه لم يمض ربع قرن منذ أن تعانقت هذه الصناعة بوجهها الجديد مع مرابعنا الخيرة فقد أصبحت هذه الصناعة لدينا حقيقة واقعة ، وعلى مستوى الوطن العربي باتت تشكل ثاني أهم صناعة بعد صناعة البترول ومشتقاته « البتروكيماويات » . أفلا يحق لنا أن نفخر بذلك ؟

لكن أين نحن من هذا المطاف الصناعي ؟ هل انهيناه أم لا زلنا نسير فيه ؟ وإلى أين المسار ؟

ستظل هناك تساؤلات تطرح على صناعة الألمنيوم ، سواء الخليجية منها بخاصة أو العربية بعامة .

إن منطقتنا التي تنتج ٫/ ٣١٪ من الإنتاج العالمي للألمنيوم الأولي ـ وبغض النظر عن البرامج التوسعية ، والتوقعات المستقبلية لمضاعفة هذه النسبة ـ هي بذاتها تعكس مدى أهميتها عالمياً . فما هي العناية والرعاية التي تحظى بها هذه الصناعة لدينا ؟

ـ هل يتناسب النمو العمودي لصناعة الألمنيوم القائمة حالياً مع النمو الأفقي لمجالات صناعات الألمنيوم ؟ وهل النمو الأفقي مجد ، أم هو بحاجة لمضاعفة الدعم والتشجيع ؟

ـ هل يستحق الاتحاد العربي للألمنيوم أن يرى النور ليقف في مصاف اتحادات الألمنيوم الإقليمية والعالمية ؟ ومن أي مربع من مرابع العروبة سيبزغ نوره إلى الوجود ؟ □



ابراج الكويت

استخدم فيها خمسون طنا من الالمنيوم ، بلغ مجموع قطاعات الالمنيوم المستخدمة في انشاء ابراج الكويت عشرين قطاعا من النوع المفرغ ومدعمة بجسور داخلية والانودة كانت باللون الفضي وبسماكة ٢٥ مايكرون .

أما وحدات الالمنيوم فهي على هيئة مثلثات بأحد عشر قياسا مختلفا . . . . . مع العلم بأن طريقة وصل زوايا المثلثات كانت باللحام المستمر مع اسلاك المنيوم .

عدد الأبراج ثلاث

- الاصغر . . . . . للانارة
- الاوسط . . . . . في منتصفه كرة تستعمل كخزان مياه
- الاكبر . . . . . حجما وارتفاعا (١٨٧ مترا) ويتخلله كرتان :

السفلية : وهي اكبر الكرات يستخدم نصفها العلوي كمطعم وصالة استراحة ، ونصفها السفلي كخزان مياه .

العلوية : هي اصغر الكرات حجما وفيها استراحة دوارة

والكرات الثلاث مكسية من الخارج بأقراص مطلية بثلاث طبقات من الميناء الملونة ويبلغ عددها ثلاثين الف قرص بسبعة ألوان مختلفة ما بين الأزرق والاخضر والرمادي وبثلاثة أقطار بطول ٤٠ سم ، ٣٠ سم ، ٢٣ سم .

من روائع
الإبداع العالمي

حسناء باريس

بين الفن والسياسة

بقلم : جمال قطب



« كانت حسناء زمانها ، وفي صالونها نجوم العصر في الأدب والفن والسياسة ، بينما كان الفنان يرسم صورتها لمح صورة أخرى لها ، قد رسمها تلميذه ، فجمع فرشاته وألوانه ، وترك لوحتها قبل أن تتم » .



لوحة دافيد التي رسمها لمدام ريكامييه واهتم فيها باضفاء الذكاء والرصانة على شخصيتها .

باريس عاصمة فرنسا ومدينة النور . . . لها تاريخ ذو شئون وشجون مع الفن والفنانين والثقافة الانسانية بصفة عامة ، ولا يمكن لأي باحث في مجال الفنون الجميلة إلا أن تكون باريس محورا لاهتماماته ، وذلك منذ أفول عصر النهضة الايطالي بأساطينه العظام في القرن السادس عشر ، لكن معظم الآثار الفنية ذات القيمة التي ظهرت في فرنسا خلال القرون الثلاثة التي سبقت الثورة الفرنسية كان إما مستوردا أو مسلوبا باعتباره من غنائم الحرب .

ومنذ أن استقدم الملك فرنسيس الأول في عام ١٥١٦ رسام عصر النهضة الايطالي الأشهر « ليوناردو دافنشي » لتزين البلاط الفرنسي بإبداعاته أصبح الاهتمام بالفن وإكبار شأنه من التقاليد المتوارثة بين رجال الحكم في فرنسا ، فلما حل القرن الثامن عشر - وهو قرن الصحوة الفنية والوعي الثقافي في عواصم العالم المتحضر آنذاك - وجدنا أن البلاط الفرنسي قد استقطب خيرة الرسامين الذين أنجبتهم البلاد ، فوجدوا أنفسهم متسابقين إلى إرضاء تلك الطبقة الارستقراطية المترفة ، فبالغوا في إظهار الجماليات المثالية ، والابهارات البصرية ، بكل ما تنطوي عليه من الانغماس في البهرجة والرونق والبريق الزائف ، حتى صارت أعمالهم الناعمة الحالمة أقرب إلى الخيال الوردي من تجسيد الواقع ، وكانت تقوم أساليبهم على الزخارف والأقواس الملتفة في انحناءات لينة ، كأنها قواقع تلتف حول بعضها ، ولذلك عرف هذا الأسلوب في تاريخ الفن باسم « الروكوكو » **Rococo** ، وهو اسم مقتبس من الكلمة الفرنسية **Rocaille**، ومعناها النقوش القوقعية الشكل ، كما أطلق على هذا النوع من الفن اسم (فن البلاط) .

وهنا يختلف الأمر بين جدية الأبحاث الفنية والمضامين الرصينة التي رأيناها في فن عصر النهضة الايطالي في القرن السادس عشر ، وبين هذه الابهارات الشكلية المترفة التي غرق فيها فن البلاط (الروكوكو) الفرنسي في القرن الثامن عشر .

فالأول فن عبقري ، ذو قيم عبقرية مبدعة ، والثاني فن زخرفي ، يقوم على إرضاء متطلبات البذخ و (الارستقراطية) وكما هو معروف ، فإن لكل فعل رد فعل ، وبقدر التطرف في الأمور تكون ردود أفعالها متطرفة ، فقد حدث في عهد لويس الخامس عشر أن كشفت الحفريات التي كانت جارية حينذاك في ايطاليا عن أطلال وتماثيل وصور فنية رومانية ، تحاكي في رصانتها الفن الاغريقي القديم (وهو أصل الفن الروماني) ، فكانت هذه المكتشفات بمثابة بعث جديد للروح الوطنية في نفوس الشباب الأوروبي كله ، ووجد فيها الفنانون متنفسا للتحليق في آفاق الأصالة والتراث العريق ، وتمردا - في الوقت ذاته - على فن الرفاهية الزائف (الروكوكو) ، وأصبح هذا الشعور الدافق بالوطنية الشعبية يمثل حركة فنية مستعرة ، تزعمها رسام شاب ، قدر له - بعد ذلك - أن يصبح فنانا عظيم الشأن والنفوذ ، هو (جاك لويس دافيد) . كان نهج دافيد في الفن هو الغوص في التاريخ الروماني ، ليتنقي منه المواقف البطولية ، والموضوعات الوطنية ، ويصيغ منها لوحاته ، ولا سيما بعد قيام الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ ، والتهاب الشعور الفرنسي العام ، وتحوله إلى تيار جارف ، ينادي بالحرية في الشعوب الأوروبية كلها ، وقد دعمت الثورة فنانها (دافيد) بانتخابه عام ١٧٩٢ عضوا بالجمعية الوطنية ، وعضوا بمحكمة الثورة الفرنسية كذلك ، فأصبح زعيم المصورين في فرنسا ، يسير بأمره كل ما يتعلق بشئون الفن ، فقضى بقبضته الحديدية على كل أثر لمذهب (الروكوكو) ، وفرض مذهبه الجديد المرتكز - أساسا - على العودة إلى الجذور ، وإلى الكلاسيكية الاغريقية القديمة ، تلك التي تتميز بالجمال الهادىء ، وبالأسلوب الرصين البارد المتزن ، ذي الخطوط القوية المستقيمة ، وقد سمى هذا الاتجاه

باسم الكلاسيكية الجديدة ، أو الكلاسيكية العائدة . وإذا كان (دافيد) قد جعل الرسامين في عصره يحسون بأن المقصلة في انتظار رقابهم إذا لم يهتفوا في لوحاتهم بسقوط (الروكوكو) ، وبحياة الكلاسيكية الجديدة ، فلا شك أن هذا هو السبب الرئيسي في انهيار مدرسته بعد أفول نجم الثورة الفرنسية التي نصبته حاكما للفن ، وبذلك ضرب مثلا صارخا للاستبداد الفكري في التاريخ .

نفي دافيد إلى بروكسل عام ١٨٢٥ ، عقب انكسار نابليون ، ونفيه إلى (سانت هيلانه) ، وبقي دافيد في منفاه حتى وافاه الأجل وإن كانت أهدافه الفنية وطنية خالصة ، قد تم بها تحرير الفن الفرنسي من ميوعة الأداء ، والانغماس في الزخرف السقيم ، إلا أن (دكتاتوريته) الطاغية لم تترك أدنى قسط للفنانين ـ في عصره ـ من الاختيار ، أو الاقتناع بحرية ، بدلا من إلزامهم برهبة متسلط جبار .

يذكر تاريخ الفن لدافيد نفسه ـ كفنان ـ أنه أحد العباقرة العظام عبر قرون التاريخ ، فله إبداعات رائعة كثيرة ، يزدان بها كثير من المتاحف داخل فرنسا وخارجها ، من أهمها رائعته الشهيرة « مدام ريكاميه » ، التي رسمها عام ١٨٠٠ ، وهي إحدى تحف متحف اللوفر المميزة ، يقف أمامها زوار المتحف الكبير مشدوهين ، يبحثون عن شيء ما ، ثم تتركز عيونهم على أسفل اللوحة من جانبها الأيمن ، فيدركون أنها لوحة لم تكتمل ، ولهذا قصة سنعرفها بعد أن نستعرض معا حياة صاحبة اللوحة ، الفاتنة الفرنسية مدام ريكاميه .

حسناء العصر بين الفن والسياسة

كانت أجمل نساء ذلك العهد المليء بالمتغيرات والتحولات والحركة والحيوية والحروب والثورات ، كما كانت مصدر إلهام للفنانين في عصرها من رسامين وشعراء وأدباء وسياسيين . يذكر التاريخ أنها قادت تحولا عظيما في مفاهيم الطبقات المثقفة ، وارتدت



صالون مدام ريكاميه : كانت تتصدره صورتها التي رسمها لها جيرار

بالذوق الفرنسي ـ في وقت العنف والثورة ـ إلى سابق عهده من الرقة والشاعرية ، كان اسمها (برنار) ، وهي فتاة رائعة الحسن ، آسرة الجمال ، رشيقة القوام ، ساحرة اللحاظ . وعلى الرغم من هذه الفتنة الصارخة التي يتبض بها جسدها الرشيق ظل أبوها لا يطمح إلا إلى زواجها من رجل مناسب ، من طبقته الوسطى التي ينتمي إليها ، وساق القدر إلى طريقها أحد الأثرياء البارزين في المجتمع الفرنسي ، وهو (جاك ريكاميه) الذي ما أن وقع بصره عليها حتى أسرع إلى والدها الطبيب يطلب يدها ، ورغم أن فارق السن بين ريكاميه وبرنار كان كبيرا ـ كان أكبر من والدها ـ إلا أن سلطان المال قد أذاب كل الفوارق ، فهو أحد رجال المال والبنوك المرموقين في باريس .

تم زواجها وهي لم تزل في الخامسة عشرة من

عمرها ، وحملت الاسم الذي عرفت به في التاريخ ، وهو مدام ريكامييه . كانت هذه الفاتنة متوقدة الذكاء ، ذات تطلعات طموحة ، وآمال عراض ، كرست فكرها وأعدت نفسها لبلوغ غايات كبيرة ، فأقبلت على الاطلاع ، وتعلم اللغات ، واكتساب الثقافة ، وقد أتاح لها ثراء زوجها أن تقيم صالونها الشهير لرجال الفن والأدب والسياسة ، يؤمونه كل مساء ، ملتفين حولها ، وكانت بينهم كالنجمة المتألقة ، تتنقل في رشاقة من مكان إلى آخر ، كالفراشة المبهجة ، يتأملها الفنانون والشعراء ، فيبادرون إلى إفراز انطباعاتهم فنا وشعرا ، ينير وجه الحياة .

كان ريكامييه يعرف ـ تماما ـ أن زوجته فاتنة ساحرة آسرة ، وأنها مطمع لهذا الجمع الراقي الذي يلتف حولها في الليل والنهار، لكنه كان يتباهى باقتنائها، كما يتباهى باقتناء التحف النادرة والدرر الثمينة ، فهذا يكفيه . . !

كان ذلك الجمع نخبة ممتازة من رجالات الدولة ومفكريها وفنانيها ، ومن العجب أننا رأينا مسيو ريكامييه يفخر في أحاديثه بجمال زوجته وبعشاقها ـ أيضا ـ من هؤلاء الرجال العظام ، والمعروف أن المعايير في أخلاقية العلاقات آنذاك لم تكن بنفس مقاييسنا التي تحكمها القيم والنخوة والفضيلة ، ومن هؤلاء الكبار الذين أوقعتهم في حبائلها وهم من رواد صالونها الشهير لوسيان بونابرت ، والبرنس اوجستاس ، وشاتوبريان . وقد حظي شاتوبريان (وهو من أعظم الساسة والأدباء في فرنسا) بمنزلة خاصة لدى مدام ريكامييه ، فقد كان يقاربها في السن ، حيث كان من مواليد عام ١٧٦٧ بينما كانت من مواليد عام ١٧٧٧ ، ولهذا أسفرت هذه العلاقة الوطيدة بينهما عن أعمال خالدة لشاتوبريان ، تعتبر من آيات الأدب العالمي .

على الرغم من مآثر هذه الفاتنة على الفن والفنانين يجد الفنان نفسه أمامها بين شقي رحى ، يبدع فنا



نابليون بونابرت : صار دافيد في عهده زعيما للفن في فرنسا ، كما انتهى بنهايته كذلك ، أما بالنسبة لمدام ريكامييه فقد أمر بنفيها من باريس بعد تزعمها الحركة المناهضة للثورة في عهده .

ويحلق في نور الهامها ، أو يحترق بنارها في بعض الأحيان ، كما حدثنا بذلك تاريخ الفن في قصص كثيرة عن ضحايا الملهمات الفاتنات ، وإذا كان صالون مدام ريكامييه منتدى من أهم صالونات الفكر والفن في باريس وكان يؤمه صفوة من العظماء في جميع المجالات ، إلا أن الرجل هو الرجل في كل مكان وزمان ، وليس من المعقول أن يرى امرأة فاتنة ذات جمال أخاذ ويستطيع أن يقاوم سحر أنوثتها الطاغية ، ولذلك وجدنا أن هذه الحسناء قد لعبت بعقول كثيرين ، وعبثت ما طاب لها العبث بأفئدة الرجال ، حتى تألقت في المجتمع الفرنسي ، وصار لها من النفوذ السياسي ما جعل نابليون بونابرت يأمر

بنفيها عن فرنسا . كان طموحها قد دفعها إلى أن تتزعم أنصار الملكية المناهضين لسياسة نابليون ورجالات الثورة ، وفي عام ١٨٠٥ نكب زوجها بخسائر مالية جسيمة أتت على ثروته ، وانفض الجميع من حولها ، ولم يبق منهم إلا صديقها المخلص أديب فرنسا المرموق شاتوبريان ، وقدكان - في واقع الأمر - هو سيد القصر بلا منازع . عاشت مدام ريكاميه حتى الثانية والسبعين من عمرها ، وماتت عام ١٨٤٩ ، بعد أن فارق الحياة رفيق عمرها شاتوبريان قبلها بعام واحد .

ولم تكتمل اللوحة

ذكرنا أن لوحة دافيد للملهمة الفاتنة لم تكتمل في بعض جوانبها ، وقلنا إن لذلك قصة ، فقد أقبل الفنان (زعيم فناني فرنسا) على رسم اللوحة مبهورا بجمال مدام ريكاميه ، وشخصيتها ، وجاذبيتها ، وتوالت الجلسات ، حتى أشرفت اللوحة على الانتهاء ، لكن الفنان اكتشف في ركن قصي من أرجاء البهو الكبير الذي كان يرسم فيه أن هناك لوحة أخرى للفاتنة ، يرسمها لها تلميذه جيرار ، ولم يكن جيرار بالفنان السهل ، فقد شب عن الطوق ، وأخذ ينافس أستاذه في رسم كبار الشخصيات ، بل لقد رسم نابليون نفسه ، وعندما فوجيء دافيد بمنافسة جيرار له في رسم حسناء باريس ، وفي ذات الوقت الذي يرسم لها صورتها ، وفي نفس المكان من قصرها ، عزم على أن يتوقف عن العمل عند هذا الحد ، وعندما أكملت الفاتنة زينتها ، ودخلت البهو لتأخذ جلستها أمام الفنان دافيد لم تجده ، بل وجدت ورقة قد كتب عليها : « إني أعلم أن للغانيات هوى في نفوسهن ، ولكن للفنان أيضا كرامته التي إذا تنازل عنها ضاع منه كل شيء - فاسمحي لي أن أتوقف عن العمل بلوحتك عند هذا الحد ، ويكفيك أن إحدى اللوحتين ستكون مكتملة تماما ، وأنا لا أنتظر منك شكرا وبالرغم من أن لوحة دافيد قد حظيت بالنصيب الأوفر من الشهرة والتقييم الفني كانت مدام ريكاميه تعتز أكثر بلوحة جيرار ، لأنه أضفى عليها جمالا وحيوية أكثر من لوحة أستاذه



● الفنان الفرنسي جاك لويس دافيد (١٧٤٨ - ١٨٢٥)

دافيد ، كما أنه قد اقتطع من سنها عدة سنوات ، فبدت في لوحته (التي انتهى من رسمها عام ١٨٠٢) كأنها لم تبلغ العشرين بعد . والمرأة هي المرأة دائما .

أما دافيد - وهو صاحب مذهب الكلاسيكية الجديدة ذات الجمال البارد الرزين - فقد افتقر في تعبيره إلى السخونة ، والاثارة التي كانت أهم ما تحرص عليه حسناء باريس ! وعندما ننظر إلى الصورتين نرى أن جيرار قد نجح في إضفاء هذه المعاني على ملهمته العابثة اللعوب !

هكذا كانت مدام ريكاميه ذات جمال وطموح وذكاء متقد ، ولذلك سيطرت على عقول الرجال وقلوبهم ، فليس بالجمال وحده ، ولا بالذكاء وحده ، تتربع حواء على عرش التألق في دنيا الرجال . □

بقلم : محمود المراغي

انفجار الترمومتر!

قديما، كان العالم مدينا للعرب بالكثير في مجال العقائد السماوية و المعارف الانسانية على السواء.

حديثا، أصبح العرب مدينين للعالم المتقدم.. مرة في مجال العلوم والتقنية، ومرة في مجال المال والاقتصاد.

وقد استغرق ذلك فترة زمنية طويلة.. لكن ايقاعا مختلفا كان في الفترة الأخيرة، فاعتمادنا على الخارج يتزايد.. سواء في مجال العلوم.. أو مجال المال، والأخير يستوقف النظر..

الكثيرون يتحدثون عن حقبة الرخاء التي شهدتها المنطقة العربية بعد ارتفاع أسعار النفط في بداية السبعينيات.. ويتحدثون عن وفرة تجاوزت دول الفائض الى دول العجز، نتيجة التعاون الاقتصادي، وانتقال العمالة، كما يتحدثون عن الأموال عابرة القارات التي فاضت عن الحاجة اليومية للوطن العربي في بعض اللحظات.

ولكن..

وعندما خيمت على العالم أزمة جديدة اسمها: أزمة المديونية.. وعندما تهدد الموقف الاقتصادي في كثير من البلدان الدائنة والمدينة على السواء وخيّم شبح الافلاس والتوقف عن السداد.. برزت المنطقة العربية كواحدة من المناطق التي تتفاقم فيها المشكلة.

.. كم.. وأين؟

تختلف المصادر حول مديونية الوطن العربي.. وتزداد الحيرة اذا حدث اقتراب من منطقة مهمة اسمها القروض العسكرية.. و.. مع ذلك فالأرقام المعلنة تضع مؤشرا واضحا للمشكلة.

تقول بيانات أولية أذيعت في ندوة أخيرة بمدينة عمان أن ديون العرب المدنية ـ غير العسكرية وغير القصيرة ـ قد بلغت (٤, ١٥٤) مليارا من الدولارات في اكتوبر ١٩٨٦.

يلفت النظر في الرقم الذي أذاعته مصادر مصرفية العديد من الأمور:

الأمر الأول: وفقا للأرقام المتاحة، زادت مديونية العرب غير العسكرية (٢٠) مليارا من الدولارات في الشهور العشرة الأولى من عام ١٩٨٦.. بمعدل مليارين كل شهر.. أو ما يقارب السبعين مليونا كل يوم!.. وعلى هذا النحو فقد زاد

حجم المديونية من (١١٩,٥) مليارا في نهاية ١٩٨٤ .. الى الحجم الجديد (١٥٤,٤) مليارا في اكتوبر ١٩٨٦ .

الأمر الثاني : أن الديون لم تستثن أحدا على وجه التقريب ، فعدد الدول المدينة (١٩) دولة ، ولم تفلت غير دولتين : السعودية والكويت .. وان كان آخر تقرير لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية الصادر في ديسمبر ١٩٨٦ يضيف الدولتين في بند آخر ، هو بند الديون التجارية التي تقترضها المصارف والمؤسسات التجارية ، وبحجم كبير بلغ (١٣,٤) مليارا بالنسبة للسعودية ، وتسعة مليارات بالنسبة للكويت في عام ١٩٨٥ .

ويشير نفس المصدر الى تحول خطير في هيكل المديونية العربية ، فبينما كان الاقتراض في معظمه منذ سنوات من مصادر رسمية كالحكومات والمؤسسات الدولية ، وبينما كانت هذه المصادر تعطى بشروط ميسرة وآجال طويلة .. تزايد في الأونة الأخيرة الاقتراض من المصارف التجارية بشروط صعبة وفوائد عالية .

بتحليل الأرقام أيضا ـ وهو الأمر الثالث : نجد أن درجة من التركز قد حدثت ، فهناك ست دول هي : مصر ، والامارات ، والجزائر ، والمغرب ، والعراق ، والسودان ، قد بلغت مديونيتها المدنية وحدها (١٠٩) مليارات ، أي بما يعادل ثلثي قروض العرب على وجه التقريب ، و .. بينما بلغت أكبر مديونية لمصر (٤٢,٦) مليار دولار .. هبطت مديونية ثلاثة بلدان الى تحت المليون ، وهي البحرين ، وقطر ، وجيبوتي ، وتشير الأرقام الى أن القروض لم ترحم دولا نفطية أو غير نفطية .. فمن المجموعة الأولى (دول النفط) تبرز مديونية الامارات العربية (١٣,١) مليارا ، كما تبرز الجزائر (١٦,٣) مليارا ، وفيها أيضا وبكميات أقل سلطنة عُمان وليبيا والعراق .

.. هل من تفسير ؟

تكتمل الصورة اذا أضيفت أعباء الدفاع ، فالمنطقة طبقا للاحصاءات الدولية من أكبر مستوردي السلاح .. وتكتمل الصورة اذا وضعنا أسباب ارتفاع المديونية بالترتيب :

تسليح أكثر ـ استهلاك أكثر ـ مشروعات تنموية أكثر .. وقد شاع ذلك في كل البلدان العربية على وجه التقريب ، وبدت آثاره واضحة في بعض الأقطار فى عبء الديون التى وصلت مقدار فوائدها ثلاثة اضعاف الدين الأصلى وتمتد الى القرن الواحد والعشرين .

ولا يجهل أحد الآثار المترتبة على ذلك ، فمعظم الصادرات في البلدان ذات المديونية القليلة تذهب لسداد الديون .. بما يهدد التنمية ، بل يهدد القدرة على استيراد سلع الاحتياج اليومي ..

أيضاً ، وفي سلسلة النتائج نجد ما يشير له تقرير مجلس الوحدة الاقتصادية العربية من شروط صندوق النقد الدولى ، ونادي باريس ، مما يمس السيادة ، ويدفع للمزيد من الأزمة .

هي اذن حالة متفاقمة ، تتسم في الوقت الراهن بأنها تكاد تصبح مرضا مزمنا ، يعبر عن حالة من اللاتوازن في الاقتصاد العربي .

وقد يكون السؤال : ما المخرج ؟

وقد تكون هناك اجابة واحدة : نمط آخر من العمل الاقتصادي والتنموي ، نمط آخر من الاستهلاك ، نمط آخر من العلاقات الدولية ، نمط آخر من العلاقات العربية ـ العربية .. وبما يساعد على أن يستعيد الوطن توازنه الاقتصادي ، وحينذاك لن يمد اليد للآخرين ، ولن تظل الأنظار شاخصة وقلقة الى أين يصعد ترمومتر الديون .. ففي نقطة معينة ينفجر الترمومتر .. □

قصة قصيرة

مقبرة الأربعين

بقلم : الدكتور محمود موعد

لم تكن ندرى ، حين كنا صغارا ، أو لم نسأل أنفسنا : لم حملت مقبرة الأربعين هذا الاسم ؟ وعرفنا ، حين كبرنا ، أن أربعين شهيدا يرقدون فيها رقدتهم الأخيرة .

ولقد احتلت مقبرة الأربعين حيزا كبيرا من عالمنا الطفولى ، كانت مرتعنا فى النهار ، نمارس بين قبورها كل ما يخطر على بال الأطفال ، نلعب (بالدحاحل) تسحرنا ألوانها الخلابة وفنون ألعابها . نلعب لعبة المربعات ، وكنا نسميها (الحجلة) نلعب (طوح شبار) ، نلعب (الزقطة) بمكعبات الحصى الصغيرة ، نلعب (عسكر وحرامية) ، نلعب (حضر) ، نلعب (الغميضة) نلعب (جمال





ياجمال) ، نلعب (طاق .. طاق .. طاقية) ونتخذ أحيانا من القبور أحصنة كانت تحملنا الى آفاق بعيدة ، كنا نجري ، نقفز ، نتدحرج ، نتسابق ، نتصارع ، نحفر أوكارا وأقنية ، لا يصدنا عن كل ذلك برد الشتاء ولا مطره ، ولا وهج الصيف ولا غباره . ولكل فصل ألعابه المفضلة .

وكنا لا نكاد نذكر علاقة القبور بالموت حتى يحمل اليها نازل جديد ، فنشارك بحماسة ، في طقوس الدفن ، ننضم الى الموكب المهيب ، نحمل حزم الآس الخضراء الطويلة ، نرحل مع المؤذن ، الذى يقود الموكب بصوته الحنون ، الى عالم غريب ، ننتشق رائحة عطر غريب حاد مسكر ، نرى حين نصل المقبرة ، بقلوب واجفة «الكفن الأبيض اللامع الذى يلف الميت ، ينتقل من التابوت الخشبي الى القبر وسط أصوات التهليل والتكبير ، نشارك في احضار الحجارة لسد الثغرات التى تتركها الصخرة البيضاوية من جوانب القبر ، وفي نقل الطين واهالة التراب ، وأخيرا نجلس خاشعين مع الجالسين اذا زاره الملكان أنكر ونكير بعد انفضاض الناس .

ولكن المقبرة ، ومن عجب ، قد حفرت في أعماقي دروبا من الهول والرعب حين كان يجن الليل ، فاذا اضطررت وقلما أضطر ، الى المرور الى جوارها ليلا ، فقد كنت أجرى قبل الوصول اليها ، كالريح لا ألوى على شيء ، لا ألتفت ناحية القبور ، ولا ألتقط أنفاسي حتى أكون قد دخلت في الزقاق الجانبي ، وحتى تكون القبور قد غابت عني ، كانت تستيقظ في رأسي وقلبي كل الحكايات عن عالم الجن والعفاريت والأشباح ، وتصحو لدى كل هاتيك القصص التي سمعتها عن الأموات الذين ماتوا ظلما ، يقومون ليلا بين القبور يعلنون عن الظلم الذى لحق بهم ، وعن الأولياء الصالحين ، طوال القامة دائما ، مكتنزي الجسم ، يرتدون الأبيض من قمة الرأس الى القدمين ، يخرجون من القبور يطوفون بينها ، يسبحون بحمد الله ، ثم يعودون آخر الليل الى قبورهم الكبيرة المتميزة التي أحيطت بجدران طينية ، ذات نوافذ حديدية خضراء ، يرتعش فيها دائما نور شموع لا يدرى أحد متى وضعت ، ومتى أضيئت .

وحين أصبح والدى من نزلاء مقبرة الأربعين بعد أن دفن في قبر جدى ، كنا قد انتقلنا الى حى جديد مجاور ، وكنت قد دخلت مرحلة جديدة ، وغادرت عالم الطفولة ، ولكنى ، مع ذلك ، لم أتعلم المشى في الليل قرب المقبرة دون احساس بالرهبة والتحفز والخوف ، اذ تستيقظ الأصداء العميقة البعيدة في نفسي . وكنت ، في النهار ، أنحرف عن طريقي الجديد الى الطريق القديم في أوقات متباعدة ، وأعرج على المقبرة باحثا بين القبور الطينية المتشابهة عن قبر والدى ، لاقرأ ذاهلا الفاتحة على روحه وروح جدى ، كنت في هذه اللحظات أدخل عالما مسحورا غريبا ، لا أخرج منه حتى أستأنف طريقي ، وتأخذني من جديد أمور الحياة اليومية المستعجلة دوما .

غبت عن المدينة سنوات ثلاثا ، حملت فيها مدينتي وشوارعها وروائحها وهمومها معي ، وذات يوم عدت اليها ، وكان لا بد لى أن أعود ، واقتادتني طريقي الى درب مقبرة الأربعين ، قلت في نفسي : لأقرأ الفاتحة على روح والدى وجدى بعد هذا الغياب الطويل ، وقفت مصعوقا ، وخيل الى في بداية الأمر أنى أخطأت الطريق ، فقد ارتفع مكان المقبرة ثلاث عمارات متماثلة ، شاهقة ، تناطح السماء ، وتجثم ثقيلة كما تخيلت ، على صدور الأموات ، وبينهم والدى وجدى والأربعون شهيدا ، والمظلومون والأولياء الصالحون ، ولما صحوت من هول المفاجأة بسطت كفى بغير وعى وقرأت الفاتحة ، وانسللت هاربا .

وانقطعت هذه الأيام عن سلوك الطريق القديم الى المقبرة ، فمن بعيد أرى - سواء أكنت ماشيا أم راكبا - العمارات المتماثلة ، الثقيلة ، الشاهقة تناطح السماء ، فأبسط كفى ، وأقرأ الفاتحة على روح والدى وجدى والأموات جميعا ، وعالم طفولتي الذى كان يوما . □

* لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه .

(ابن الزبير)

مرضك هل له علاقة بالكهربائية؟

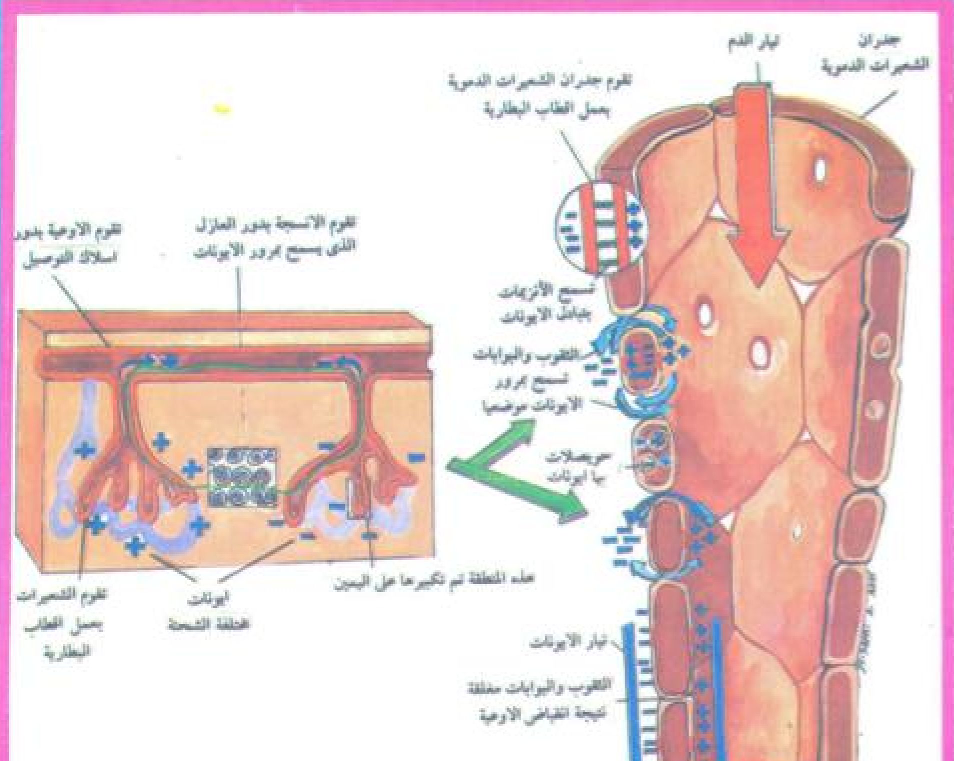
بقلم : الدكتور سامي عزيز

يؤكد الدكتور « نوردنشترم » - أستاذ العلاج والتشخيص بالأشعة بسويسرا - أن الإصابة بالسرطان تحدث اختلالا في كهربائية الجسم ، وأن العلاج بالتيار الكهربائي غير المتردد يساعد الوسائل الدفاعية للجسم على التخلص من السرطان . فما هي تطبيقات هذا الاجتهاد ؟ وما هي النتائج في هذا المجال ؟

يستحق اكتشاف الدكتور « نوردنشترم » أن نسميه اكتشاف هذا العصر . فلأول مرة نجد كتابا طبيا يحدثنا بالتفصيل عن ارتباط الكهربائية بالمرض ، رغم معرفتنا منذ أكثر من ٢٠٠ سنة بالتأثير المغناطيسي الكهربائي على الجسم البشري ، وقد ذكر ذلك في الكتاب الذي أصدره سنة ١٩٨٣م ، وهو يقع في ٣٥٨ صفحة ، ويشتمل على أفكار علمية ، تعرض لأول مرة ، لم نكن نعلم عنها شيئا من قبل . عنوان الكتاب « دوائر كهربائية حيوية » ، وهو كتاب (إكلينيكي) عملي ، ونظري ، يؤكد فيه مؤلفه الدكتور « بجورن نوردنشترم » أنه تعرض فيه - بعد تجارب استمرت أكثر من عشرين عاما - الى عالم مجهول من النشاط الكهربائي ، يمكن من خلاله تفسير التغيرات المرضية التي تحدث لنا على أسس علمية ، وبرؤية مختلفة عن نظرتنا السابقة .

سبق للمؤلف أن قدم لنا عديدا من الابتكارات الطبية في فترة الخمسينيات ، خاصة في مجال الاستخدامات (الاكلينيكية) للأشعة ، وقد أصبحت أفكاره حاليا من الأمور المؤكدة المتبعة في مختلف مستشفيات العالم .

ومع بداية الستينيات تم تعيينه في أكبر المناصب في مجال تخصصه ، فأصبح رئيسا لقسم التشخيص بالأشعة في معهد (استوكهولم كارولينكا) ، ثم أصبح واحدا من أبرز رواد البحث (الراديولوجي) في العالم . وفي سنة ١٩٨٥م تم تعيينه رئيسا للجنة جائزة نوبل التي تقوم باختيار المرشحين لجائزة نوبل في الطب . وتعتبر البحوث التي نشرها مؤخرا والتي هي موضوع مقالنا هذا من أحدث ما قدم للطب وأهمه .



الجسم البشري أشبه بالبطارية التي تولد الكهرباء ، فالشعيرات الدموية تؤدي عمل أقطاب البطارية ، والأوعية الدموية بمثابة أسلاك التوصيل ، وبلازما الدم تقوم بمهمة الموصل الجيد للكهرباء .

الجسم والدوائر الكهربائية

طبقا لنظرية « نوردنشترم » يمكن تشبيه كهربائية الجسم بالبطارية ، ففي البطارية تكتمل الدائرة الكهربائية بعزل (الأيونات) المختلفة الشحنة عن بعضها ، وعند غلق الدائرة يمر التيار خلال سلك التوصيل نتيجة لمرور (الأيونات) داخل البطارية بين القطبين ، أما في أجسامنا فتوجد دوائر كهربائية مشابهة ، فعند تعرضنا للإصابة أو العدوى أو ظهور ورم في مكان ما تتراكم (الأيونات) ذات الشحنة الموجبة في الأنسجة المصابة ، وتبقى الأنسجة السليمة القريبة من مكان الإصابة محملة (بالأيونات) ذات الشحنة السالبة ، ونتيجة لهذا العزل والتباين في (الأيونات) ينشأ جهد كهربائي ، يمر تياره خلال الشرايين والأوردة وجدران الشعيرات الدموية ، مما يؤدي الى انتقال كريات الدم البيضاء من تيار الدم إلى مكان الإصابة ، أما مواد الأيض المتخلفة فتمر في الطريق المضاد (من مكان الاصابة الى تيار الدم) ، وهذا النظام الكهربائي ـ كما يؤكد نوردنشترم ـ يهدف الى إيجاد توازن بين أعضاء الجسم الداخلية ، وفي حالة الاصابة يمثل النظام الكهربائي أساسا علميا لعملية الالتئام ، وهذا الأساس الكهربائي ـ في مفهوم نوردنشترم ـ لا يقل أهمية عن الدورة الدموية ، وانتظام مرور الدم عبر أعضاء الجسم المختلفة ، لذلك فأي اضطراب في هذه الشبكة الكهربائية ـ بحسب نظرية نوردنشترم ، يساهم بقدر

كبير في نشوء السرطانات والأورام ، وغيرها من الأمراض .

والواقع أن معرفتنا للعلاج بالكهرباء ترجع الى فترة بعيدة من الزمن ، فمع بداية هذا القرن أنكر العلماء استخدام التيار الكهربائي المغناطيسي كدواء عام ، وأكدوا ان هذا الاتجاه يذكرنا بطب العصور الوسطى . ومنذ ذلك الوقت ظل العلاج بالكهرباء شيئا من الممنوعات علميا .

لكن بظهور كتاب « نوردنشترم » يبدو أن الأمور ستتغير كثيرا ، فالكتاب يقدم لنا عددا من الدلائل والبراهين على الدور الذي تقوم به الكهرباء في العلاج ، ويؤكد أن الإصابة بالسرطان تنتج عن اختلال كهربائي في موازين الجسم الداخلية .

معرفتنا الحالية بكهربائية الجسم

الواقع ان الطب التقليدي الذي نمارسه حاليا لا ينكر - بصورة قاطعة - القوى الكهربائية الموجودة في أجسامنا ، فهناك التفاعلات الكيمائية المختلفة التي تشارك فيها الهرمونات ، والأنزيمات ، وغيرها من العوامل المساعدة ، كما توجد بعض القوى الطبيعية ، مثل ضغط الدم الحادث على الشرايين والأوردة ، والضغط الداخلي للعين ، وغيرها ، والأهم من هذا كله معرفتنا للتغيرات الكهربائية التي تحدث بطول الليفات المكونة لجهازنا العصبي ، والتي تنتج مع كل حركة نقوم بها ، أو حتى مع أي انقباضة بسيطة لعضلاتنا ، والواقع أيضا أن الحياة - بجملتها - لا يمكنها الاستمرار بدون هذا الفيض الهائل من الأيونات التي تمر عبر أغشية الخلايا ، والتي تصاحب كل عملية حيوية . وتظهر معرفتنا لكهربائية الجسم بوضوح في رسام القلب الكهربائي ، ورسام المخ الكهربائي ، وغير ذلك من وسائل الفحوص التي تعتمد في جوهرها على أسس علمية طبيعية وكهربائية .

ورغم كل ذلك يؤكد « نوردنشترم » أن هذه الصورة غير مكتملة ، وأن فهمنا للقوى الكهربائية المتولدة في أجسامنا ليس بالقدر المطلوب ، فالبحوث الطبية - مثلا - قدمت لنا خلال المائة سنة الماضية آلاف الآراء التي تناقش الجانب الكيميائي والفيزيقي والكهربائي للعمليات الحيوية التي تحدث في أجسامنا ، إلا أنها - مع الأسف - عجزت عن إيجاد تفسير شامل ، يبين العلاقات التي تنشأ فيما بينها

ويرى « نوردنشترم » أن معرفتنا بالدوائر الكهربائية البيولوجية ستتيح لنا - دون شك - تفهم بعض العمليات الحيوية الهامة ، كما ستقدم لنا التفسير العلمي لبعض سبل العلاج المستخدمة حاليا ، كالابر الصينية ، والعلاج الكهرومغناطيسي مثلا . وللتأكيد على ان نظرياته ليست مجرد انطباع (أكاديمي) بحث قدم لنا وسائل علاجية جديدة ، تعتمد في جوهرها على الاستخدامات الكهربائية ، مثل علاج سرطان الرئة واورام الثدي بالكهرباء ، وعلى الرغم من أن بحوثه مازالت في سنواتها الأولى فقد حققت نجاحا غير متوقع .

إبرة العينات :

ولد « نوردنشترم » في قرية صغيرة ، بمنتصف السويد ، تسمى (روجندا) ، سنة ١٩٢٠م ، ثم انتقل منها الى مدينة (بوللناز) التي عاش فيها أجداده مدة تزيد على مائتي سنة . وفي جامعة (ابسالا) أكمل تعليمه الجامعي ، وقضى فترة تدريبه بعد التخرج بمستشفيات (استوكهولم) ، وبعد الحرب العالمية الثانية التحق بجمعية الصليب الأحمر بالسويد ، حيث شارك في تطعيم أطفال الملاجيء ضد مرض الدرن ، بمنطقة جنوب النمسا

وفي ربيع سنة ١٩٥٦ عاد الى (استوكهولم) ، ومرة اخرى فاجأنا بابتكار جديد في تشخيص أورام الرئة ، وامكانية تحديد ما اذا كانت اوراما سرطانية أو حميدة ، بدون أي اجراء جراحي ، والواقع ان طريقته اتسمت بالبساطة والعملية والبعد عن التعقيدات ، فبمساعدة التصوير الاشعاعي أمكن

تحديد مكان الورم في الرئة ، وباستخدام ابرة رفيعة تم رشقها في جدار الصدر ، ووصل طرفها الأمامي الى قلب الورم ، أمكن أخذ عينة من أنسجة الورم ذاته لدراستها تحت (الميكروسكوب) . وعلى الرغم من أن زملاءه في البداية قد ترددوا كثيرا في الاقتناع بهذه الطريقة ، بل وأكدوا خطورتها الا ان « نوردنشترم » لم يتوقف ، بل زاده موقفهم حماسا ، واستمر في بحوثه ، الى أن اعترفت بها مستشفيات الطب وكلياته في الولايات المتحدة ، وذلك بعد أكثر من ٢٠ عاما من البحث والتطوير المتواصل ، وبذلك استحق أن يلقب برائد التشخيص بابرة العينات . وهذه الطريقة الجديدة قد تم بالفعل تطبيقها بنجاح في عدد من مستشفيات العالم ، في مجالات طبية مختلفة ، بالاضافة الى اورام الرئة .

مفهوم جديد للكهربائية :

ترجع نظرية « نوردنشترم » في كهربائية الجسم الى ملاحظة بسيطة ، لفتت انتباهه ، وظل يسعى لتفسيرها مدة تزيد على عشر سنوات ، فقد لفت انتباهه وجود هالة من الضوء ، تحيط بحافة بعض أورام الرئة عند تصويرها بالأشعة ، ولأن المنظر كان يذكره بأشعة الشمس المحيطة بقرصها المضيء سمى ذلك (الهالة) ، وعند مراجعته لآلاف الأشعات تبين له أن القليل منها يُظهر هذه الهالة المحيطة بالورم ، بينما الأورام الأخرى التي تحتل نفس المكان من الرئة وبنفس الحجم والشكل تبدو بدون هذه الهالة ، ، والمحير أيضا أن بعض أورام الرئة ظهرت بهالة فترة ، ثم اختفت الهالة عند اعادة تصويرها ، وعندما عرض « نوردنشترم » هذه الأشعات التي التقطها على عدد من زملائه أنكروا وجود هذه الهالات ، وقالوا بأنها ليست بذات قيمة ، وأنها لأسباب اصطناعية ، قد تكون تصاحب التصوير (الراديولوجي) ، بدليل أنها قد تظهر ثم تختفي ، وتعجبوا لأنه اهتم بملاحظة هذه الأشياء عديمة القيمة .

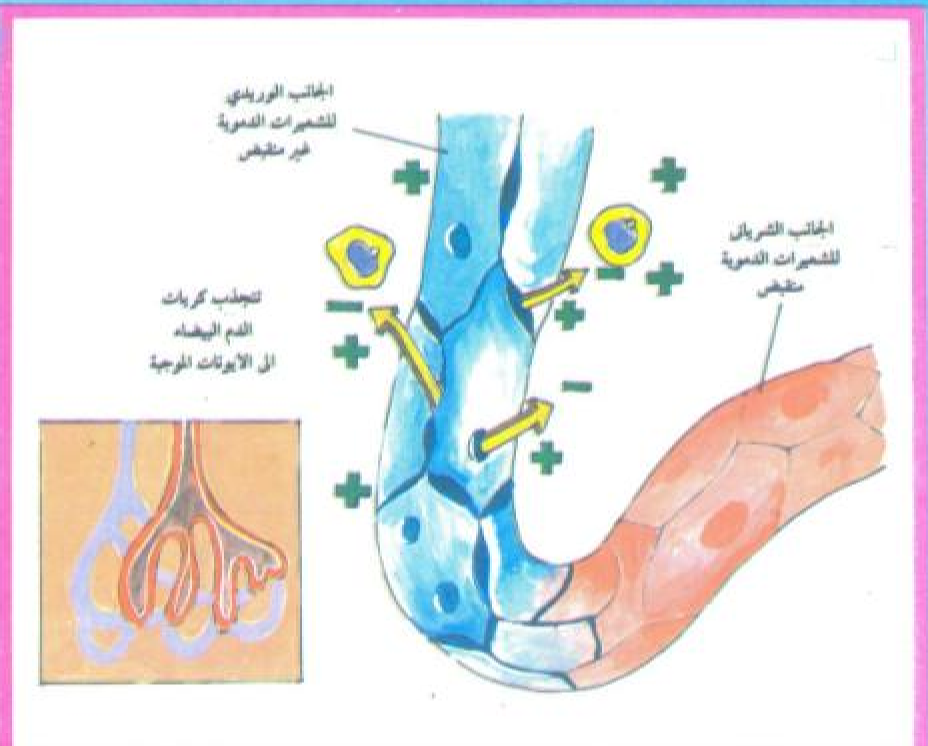
لكنه استمر في البحث عن سبب هذه « الهالات » ، بيد أنه رغم ابتكاره لابرة العينات ، وتمييزه للأورام الحميدة من الأورام السرطانية ، عجز عن ايجاد تفسير واضح لهذه الهالات ، وأسباب ظهورها ، واختفائها ، وفي سنة ١٩٦٥م بدأ في دراسة كهربائية الأورام ، والواقع أن اتجاهه هذا جاء أيضا بطريق المصادفة ، فلم يكن أمامه وسيلة اخرى لدراسة الأورام ، اللهم الا اذا حاول فحصها خارج الجسم البشري ، وهذا امر غير ممكن ، ومن جهة اخرى فإن تجاربه على السرطانات في الآدميين تحتم عليه أن ينهج طريقا في البحث ، لا يعرض المريض الى أي مضاعفات .

بدأ « نوردنشترم » يفكر في ابتكاره الخاص بابرة العينات لتشخيص اورام الرئة ، وكان لابد من ابتكار طريقة جديدة ، تقدم مزيدا من المعلومات ، وقد تفسر في نفس الوقت اسباب هذه الهالات التي تحيط ببعض الأورام . ثم قام بتحويل ابرته الى قطب كهربائي ، وأصبحت بحوثه تهتم بدراسة أنسجة الورم ، وبالصفات الكهربائية له ، وخلال دراسته للجهد الكهربائي للورم ، وبمقابلته بالانسجة المحيطة به ، تبين ان الأورام ذات (الهالة) غالبا ما يصاحبها وجود جهد كهربائي ، كما لاحظ ان الخلايا المكونة لقلب هذه الاورام غالبا ما تكون في حالة تحلل ، نتيجة لعدم وصول القدر الكافي من الدم اليها .

لكن ما هو الجهد الكهربائي للأورام ؟

وكيف توصل « نوردنشترم » إلى نتائجه الحالية ؟

لقد بدأ بحوثه بدراسة كهربائية الدم ، لأن الدم هو الشيء الوحيد الذي يمكن اجراء التجارب عليه خارج الجسم ، دون حدوث أي اضرار أو مضاعفات للمريض ، وأول الملاحظات التي سجلها « نوردنشترم » ان الجهد الكهربائي للدم عند تحلل خلاياه يكون موجبا ، ثم يتحول الى سالب ، وخلال يومين يأخذ في التذبذب بين الموجب والسالب ، حتى



رسم مضخم لمقطع من الشعيرات الدموية ، يوضح كيف تخرج كريات الدم البيضاء الى منطقة الاصابة .

يحدث تحلل تام لجميع خلايا العينة ، وهذه النتائج تفسر لنا ما توصل اليه هذا العالم عند دراسته لأورام الرئة التي اشتق منها الأساس الذي بنى عليه نظريته الآتية :

اولا : « إن أي إصابة في الجسم تحدث جهدا كهربائيا ، يأخذ في التذبذب بين الموجب والسالب ، حتى يصل في النهاية الى حالة من الاتزان ، يعتقد « نوردنشترم » أنها فترة الإلتئام » .

ثانيا : « مصدر الطاقة الكهربائية (أو البطارية) لهذه الدوائر الكهربائية التي تحدث في الجسم ناتج عن موت الخلايا الموجودة بقلب الورم » .

ثالثا : « تقدر المقاومة الكهربائية لجدران الشرايين والأوردة بأكثر من ٢٠٠ مرة لمقاومة الدم للكهربائية . ولهذا يمكن اعتبار الأوعية الدموية بمثابة أسلاك توصيل معزولة كهربائيا ، وأن الدم الذي يجري فيها بمثابة موصل جيد للكهربائية بين الورم والأنسجة المحيطة به » .

رابعا : عند مرور تيار كهربائي عبر قطبي دائرة كهربائية ، يصل طرفي القطبين منها في أحد الأوعية الدموية ، تتجه كريات الدم البيضاء ذات الشحنة السالبة إلى القطب الموجب ، كما تتكون بعض الجلطات الدموية نتيجة مرور التيار الكهربائي في الوعاء الدموي ، والواقع أن تجربة « نوردنشترم » هذه والنتيجة التي توصل إليها تفسر لنا - على أساس علمي - السبب في خروج كريات الدم البيضاء من الأوعية الدموية ، وانجذابها إلى مكان الإصابة » . وهذه الظاهرة معروفة منذ أكثر من مائتي سنة ، لكن التفسير العلمي لها غير معروف حتى الآن .

خامسا : « تتمثل في الجسم البشري المكونات الأساسية للدائرة الكهربائية . ومما يؤكد على دور الكهرباء عند حدوث الإصابة بالسرطان :

- موت الخلايا المكونة لقلب الورم الذي يمثل مصدرا للطاقة الكهربائية والبطارية .

- الأوعية الدموية تمثل أسلاكا معزولة كهربائيا .

- الدم الذي يمر في هذه الأوعية يمثل موصلا جيدا للكهربائية ، كما أن للسائل البين خلوي نفس صفة الدم ، وهو بذلك يكمل الدائرة الكهربائية .

- الانزيمات الموجودة في الشعيرات الدموية تمثل أقطابا كهربائية .

نظرات في نظرية نوردنشترم

يؤكد العلماء أن سبب رفضهم لأفكار « نوردنشترم » يرجع إلى تكتمه ، وعدم عرضه لبحوثه ، طوال هذه المدة الطويلة التي زادت على العشرين عاما ، فهو لم يهتم بنشر بحوثه هذه في الدوريات العلمية المعروفة ، ورغم أنه كتب ما يقرب من ١٤٠ مقالة وبحثا علميا في مجالات التشخيص بالتصوير الإشعاعي وغيرها ، إلا أن بحوثه المنشورة في كهربائية الجسم لم تتعد ثلاثة بحوث ، نشر أولها سنة ١٩٧١م ، ثم نشر ثانيها سنة ١٩٧٤م ، وأخيرا نشر ثالثها سنة ١٩٧٨ .

ويرد « نوردنشترم » على هذه الاتهامات بقوله : « إن بحوثي الثلاثة التي نشرتها خلال فترة السبعينيات لم تحرك ساكنا ، وقد نشرت فيها معظم أفكاري ، وتحدثت كثيرا مع زملائي في هذا الموضوع ، لكنهم جميعا لم يفهموا ما أقول ، بل لم يهتموا بدراسته ، أو حتى البحث في صحته ، لقد اتهموا أفكاري بالتطرف ، والبعد عن المنهج العلمي ، وللأسف لم يقدموا أي دليل علمي يهدم نظرياتي » ، ثم يواصل حديثه فيقول : « أما مرجع تعجلي في نشر الكتاب على نفقتي فهو خوفي أن تصبح بحوثي وأفكاري في طي النسيان ، فقد فاجأتني نوبة قلبية سنة ١٩٧٩ ، وشعرت نتيجة للضغوط الشديدة التي أرهق بها جسمي أنه ينبغي نشر الكتاب ، ليكون مرجعا لكل مهتم بهذا المجال الجديد » .

أما الدكتور « ميلفن فيجلي » أستاذ علم الطب الإشعاعي بجامعة واشنطن ، رئيس تحرير « مجلة الطب الإشعاعي الأمريكية » - وهي واحدة من أهم الدوريات في العالم في هذا المجال - فيعلق على كتاب « نوردنشترم » بقوله : « الأفكار المطروحة تستحق التقدير والدراسة ، لكنها قدمت بطريقة غير مألوفة لما اعتدنا عليه في تناول البحث العلمي » ، والواقع أن تقييم نظرية « نوردنشترم » قد يوجب الأخذ برأي خبراء الطب الكهرومغناطيسي الذين يمكنهم في نفس الوقت - بحكم تخصصهم في مجال مقارب لاهتمامات « نوردنشترم » - أن يحددوا - بالضبط - مدى الاستفادة من هذه النظرية الجديدة . أما الدكتور « روس » - وهو من مستشفى « ف.أ » بمنطقة (لاماندا) بكاليفورنيا - فقد قام مؤخرا بإعداد مراجعة قيمة عن كل جديد في الاستخدامات الكهرومغناطيسية هذه في « مجلة العلوم الأمريكية » ، إلا أنه - مع الأسف - لم يشر إلى نظرية « نوردنشترم » ، وعندما سئل عن ذلك أجاب بأنه لا يستطيع في الوقت الحالي أن يدلي بأي رأي في هذه النظرية ، وأنه قد اشترى نسخة من كتاب « نوردنشترم » ، لكنه - حتى الآن - لم يدرسه .

علاج السرطان بالكهرباء

نشرت مجلة « ناشيونال اينكويرر » منذ عدة سنوات مقالا « لنوردنشترم » ، يؤكد فيه إمكانية علاج السرطان بالكهرباء . ومنذ ذلك الوقت أدرك « نوردنشترم » أهمية الاستخدام العملي لنظرياته ، فقد تلقى عقب نشره للمقال مباشرة آلاف الرسائل والمكالمات الهاتفية التي تستفهم عن العلاج الجديد ، وإمكانية الاستفادة منه ، ومدى فعاليته . ثم تغير اتجاه « نوردنشترم » ، وبدأ يفكر في كيفية الاستفادة

من النتائج التي توصل إليها ، والعمل على ابتكار وسيلة علاجية جديدة للسرطان . ولا شك أن علاج السرطان يثير اهتمام عامة الناس ـ وبخاصة المرضى وذويهم ـ بالأطباء والعلماء والباحثين المهتمين بالسرطان .

يشير « نوردنشترم » في كتابه إلى الحالات التي عالجها فعلا بهذه الوسيلة الجديدة ، وأول هذه الحالات بدأ في علاجها في شهر يونيو سنة ١٩٧٨ ، وكانت مريضة تبلغ من العمر ٦٦ عاما ، تعاني من انتشار سرطاني بالرئتين ، نتيجة سرطان بالمبيض ، وبعد ادخال قطب رقيق جدا إلى نسيج الرئة ـ حيث الانتشار السرطاني ـ وإمرار التيار الكهربائي تكونت بعض الأنسجة الليفية حول الورم خلال الشهر الأول ، وبعد سبعة شهور بدأ الانتشار السرطاني في الاختفاء ، وبهذا تم علاج هذه السيدة بجلسة علاج واحدة ، لم تتجاوز مدتها ساعة ، ولم تمكث في المستشفى بعد العلاج ، بل أمكنها العودة إلى البيت مباشرة . وقد ظلت بصحة جيدة مدة تزيد على خمس سنوات ، دون عودة الورم إليها .

والحالة الثانية كانت فتاة تبلغ من العمر ١٩ سنة ، وجد برحمها نوع من الأورام النادرة ، وبعد إزالة الرحم جراحيا ظهر الانتشار السرطاني في الرئة على الناحيتين ، وبلغ قطر أكبرهما ٤ سنتيمترات ، ولم تستجب للعلاج بالأشعة ، ورفض فريق الجراحين إجراء أي تدخل جراحي لها ، نظرا لتأخر حالتها ، وتم علاجها بالعقاقير المضادة للسرطان ، لكن الورم استمر في النمو ، وتدهورت حالتها ، وفي النهاية لجأوا إلى « نوردنشترم » الذي عالجها باستخدام الأقطاب الكهربائية ، وخلال أربع جلسات أمكن استكمال العلاج اللازم لها ، وبدأت الأورام في الاضمحلال ، وتحسنت حالتها ، وعاشت مدة تزيد على سبع سنوات بعد ذلك . ولكن كيف تستطيع الكهرباء علاج السرطان ؟

يفسر « نوردنشترم » هذه الظاهرة معتمدا على الأسباب الآتية :

أولا : بما أن كريات الدم البيضاء (المهاجم القاتل للخلايا السرطانية) تحمل شحنة سالبة وجب جذبها إلى منطقة الورم السرطاني ، حتى ينجح العلاج بالكهرباء ، ويمكن تحقيق ذلك برشق القطب الموجب في منطقة الورم ، حتى تنجذب كريات الدم البيضاء إليه .

ثانيا : على الرغم من أن الخلايا السرطانية تنقسم بطريقة أسرع من خلايا الجسم الطبيعية فهي قابلة للاضمحلال . والواقع أن فكرة العقاقير القاتلة للخلايا السرطانية تعتمد ـ في أساسها ـ على تغير العوامل الخارجية ، حتى تقتل الخلايا السرطانية ، دون المساس ـ بقدر الامكان ـ بخلايا الجسم الطبيعية ، وكذلك باستخدام المجال الكهربائي يتم خلق نوع من التغيرات الخارجية في محيط الورم ، وحول القطب الكهربائي المرشوق فيه ، مما يساعد على قتل الخلايا السرطانية .

ثالثا : يؤدي التفاعل الحامضي حول القطب الكهربائي المرشوق في الورم إلى تحلل خلايا الدم الحمراء الموجودة بالقرب من الورم ، ثم يحدث تغير كيميائية (هيموجلوبين) الدم ، مما يعرقل نقل الأوكسجين اللازم لنمو الخلايا السرطانية ، ويؤدي إلى هلاكها .

رابعا : يعمل المجال الكهربائي على جذب جزيئات الماء إلى خارج الخلايا السرطانية ، مما يسبب انتفاخا في الخلايا المحيطة بالورم ، ثم يؤدي إلى زيادة الضغط الحادث على الأوعية الدموية المغذية للورم ، وإلى قلة الدم الوارد إليها .

خامسا : التفاعلات الكيميائية التي تحدث حول القطبين يتخلف عنها بعض الغازات التي تتجمع في قلب الورم ، وينتج عنها ضغوط (ميكانيكية) على خلايا الورم ، مما يعجل بقتلها .

ويتضح من الأسباب السابقة التي ذكرها « نوردنشترم » أن التغيرات التي تصاحب العلاج

بالكهرباء (ميكانيكية العلاج بالكهرباء) مقبولة ، ومقنعة ، وتتفق مع ما نؤمن به من وسائل لعلاج السرطان ، إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة ، فمازالت الفروض التي طرحها « نوردنشترم » تثير بعض الجدل والمناقشة في الأوساط العلمية .

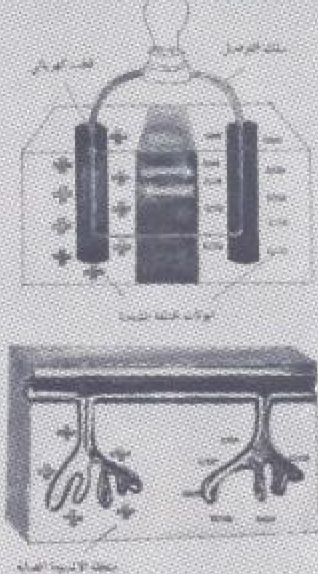
نظرة للمستقبل

يؤكد « نوردنشترم » أن الحالات التي عالجها ـ بعد موافقة لجان العلاج بالمستشفى ـ كانت حالات سرطانية متأخرة للغاية ، وفي وضع سيء ، أو هي حالات لم تستجب إطلاقا لأي علاج آخر ، وكل هذه الحالات كانت في مرحلة الانتشار السرطاني العام ، لذلك حتى لو نجح في تحطيم سرطان الرئة فيها لابد أن يموت المريض بسرعة ، ولهذا يطالب « نوردنشترم » تلك اللجان أن تسمح له بمعالجة الحالات السرطانية في المراحل الاولى التي لم يظهر بها أي انتشار سرطاني بعد .

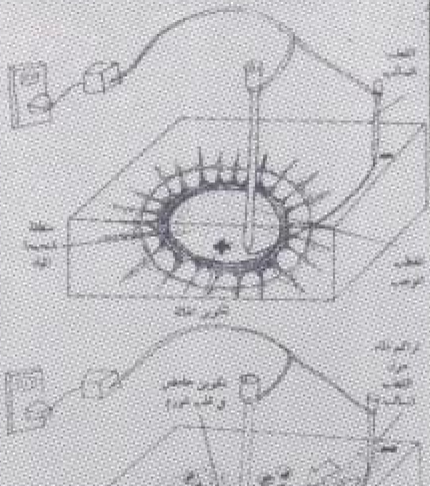
لا شك أنه مع الحالات السرطانية في مراحلها الأولى سيحقق نجاحا أكيدا ، فالثابت الآن أن العلاج بالكهرباء ناجح بدرجة أكبر في التخلص من الأورام ذات الحجم الصغير التي يقل قطرها عن ٤ سنتيمترات . ويعبر « نوردنشترم » عن ذلك بقوله : « إنه وسيلة علاجية ، وليس نوعا من المعجزات ، حتى نتوقع نتائج أفضل من هذه » . لكن من يدري كيف ستكون الحال بعد عشر سنوات ، فربما تتحقق المعجزات .

وعلى الرغم من ذلك لم يحقق « نوردنشترم » ـ على الصعيد العالمي ـ الشهرة التي يرجوها في هذا المجال

. . . وبعد ، فنحن الآن أمام علم جديد ، لا نعرف حدوده ، فربما تكون البحوث التي بدأها « نوردنشترم » في كهربائية الجسم فتحا جديدا ، لتغير مفهومنا عن (فسيولوجيا) الجسم ، و (ميكانيكية) حدوث الأمراض ، بل قد تكون انقلابا جذريا في موازين العلاج الحالية . □



كيفية توليد الكهرباء في البطاريات وفي الجسم البشري



كيفية معالجة الأورام السرطانية بالكهرباء . . . بوضع القطب الموجب في قلب الورم والسالب في الأنسجة السليمة . . . وتكوين الوسائل الدفاعية المضادة



البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

- اكتشاف الطرف الآخر سبيل الى السعادة الزوجية

- الغذاء الصحي بعد بلوغ سن الخمسين





اكتشاف مزايا الطرف الآخر سبيل إلى السعادة الزوجية

بقلم : راجي عنايت

كان النقاش ساخنا بين الزوجين ، كل منهما يعدد للآخر نواقصه ، ساردا بالتفصيل الأخطاء التي تشيع المتاعب في حياتهما الزوجية . طلبت منهما التوقف ، وعرضت عليهما أن يقوما بتجربة صغيرة ، يعودان بعدها إلى حربهما الكلامية ، قلت : « أريد أن يقضي كل منكما خمس دقائق في الحديث عن الأشياء التي تعجبه في الطرف الآخر » . وكان شرطي الوحيد ألا يستخدما (الاستدراك) في حديثهما .. من طراز « هو كذا ولكن ... » و « الحق أنها كذا ، إلا ... » . فجاءت نتيجة هذه التجربة أو اللعبة المفيدة مثيرة لدهشة الزوجين .

يقول أحد خبراء المشاكل الزوجية : عندما يتبادل الزوجان ذكر ما يعجب كلا منهما في الآخر فإن هذا ـ في حد ذاته ـ يدخل بسرعة تطورا إيجابيا في حياتهما الزوجية ، وذلك لأن كل طرف منهما سيتبين عددا من الجوانب الإيجابية في الطرف الآخر ، كان يتجاهلها أو يتناساها ، وغالبا ما يسمع أحد الطرفين من الطرف الآخر عن جانب من جوانب إعجابه ، لأول مرة في حياتهما الزوجية .

ويقول الخبراء ان القاعدة الأساسية في هذا هي أنه متى أظهر الطرفان تقديرا لبعضهما ، وبدأ كل منهما في استكشاف النواحي الإيجابية في الطرف الآخر ، أصبح الطريق سهلا أمام نمو العلاقة نموا صحيا متزايدا . والخطوة الأولى في هذا السبيل هي معرفة كل طرف بالآخر ، معرفة أصدق وأدق ، أما الوسيلة الأفضل في التعرف على الطرف الآخر فهي أن تسأل وتنصت ، حتى لو كان زواجكما قد مضى عليه أكثر من عشرين عاما ، وعليكما معاً أن تتجاوزا الأحاديث السطحية التي غالبا ما نعتمد عليها كبديل للحوار الحقيقي .

الأعذار الجاهزة :

نحن أميل إلى أن نتحدث بأمانة وبصراحة عن أنفسنا ، عندما نجد من يسمعنا فعلا ، فكل منا لديه حاجة إلى أن يتبادل مكنونات نفسه مع الآخرين ، ونحن أقدر على كشف مشاعرنا الأعمق ، عندما يتوفر لنا الأليف الموثوق به ، القادر على التقبل والتفهم .

والملاحظ أن كثيراً من الناس يقاومون رغبتهم الطبيعية في الانفتاح على الآخرين ، ولديهم في هذا عدة أعذار جاهزة منها :

- الأفضل أن تترك للطرف الآخر مجالا للتخمين .
- إذا ما كشفت نفسي للطرف الآخر فان العلاقة بيننا تفقد كثيراً من الإثارة .
- من الصعب أن تكون حبيبا وصديقا في نفس الوقت .
- أمي كانت تقول لي دائما لا تكشف كل أوراقك للآخرين .
- لن يسيء الطرف الآخر أن يجهل عني بعض أشياء .

يقول خبير العلاقات البشرية جيري جيل : إن كثيراً من الناس يخشى البوح بأسراره وخفايا نفسه ، لاعتقاده بأن هذا سيفقد الطرف الآخر لذة الاستكشاف ، مما يشيع الملل في العلاقة . وهو يرى أنه على العكس من ذلك ، عندما يعمد الزوجان المتآلفان إلى توسيع شبكة الاتصال والتفاهم المتبادل بينهما وتعميقها ، فإن هذا يؤدي إلى اتساع آفاق العلاقة بينهما .

كشف الخفايا :

في بداية العلاقة غالبا ما يتجنب الطرفان الدخول في أسئلة حول المسائل الحساسة ، كما يعمد كل طرف إلى رسم صورة جذابة لنفسه عندما يتقدم إلى الطرف الآخر ، وهو يحرص أن تعكس هذه الصورة كل المعلومات السارة عن مركزه المالي ، وأخلاقه ، وخلفيته العائلية ، ودرجة تحصيله العلمي ، وعلاقاته الاجتماعية ، ومكانته العملية . ومثل هذه الصور المرسومة بدقة قد تطمئن الطرف الآخر ، لكنها تعطل تحقق الألفة .

يعمد الرجل والمرأة في بعض الأحيان ، وعند مرحلة التعارف الأولى إلى تجنب تبادل المعلومات الشخصية ، بهدف الحد من تورطهما ، وفي أحيان أخرى يستبعد الأزواج جانبا واسعا من مجالات النقاش والتفاهم ، وهم بهذا يخدعون أنفسهم إذا ظنوا أنهم نجحوا في إقامة علاقة طيبة ، واتصال وثيق .

مثال ذلك السيدة سعاد ، متزوجة منذ تسع سنوات ، تقول : كزوجة حديثة العهد بالزواج كنت أقضي معظم وقتي مع طفلي الصغير ، وأشعر طوال الوقت بالوحدة ، وبأنني غير مفهومة ، وكان أكثر ما يسيئني هو إحساسي أن زوجي لا يشغل باله بأحاسيسي وبوحدتي ، ويتصور أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان . كنت أحاول أن أطمئن نفسي وأريحها قائلة : « هذا هو الزواج على أي حال ، وأين هو الإنسان الذي يشعر بالسعادة ؟! كنت أفعل هذا حماية لبيتي وأسرتي ، وحتى لا أتهم بنكران الجميل ، ولم أجد في نفسي الشجاعة يوماً لكي أطرح

مشكلة وحدتي على شريك حياتي ، ولعل مرجع ذلك إلى أنني نشأت على عقيدة مفادها أنه كلما قل الكلام عن شيء سهل إبعاده عن حياتنا . ولما كنت أبذل كل جهد ممكن لإخفاء تعاستي ظل زوجي سنوات طويلة يظن أنني أشعر بنفس السعادة التي يشعر بها .

وكان هو الذي شعر أولا بأن حياتنا يمكن أن تحمل لنا ما هو أكثر ، فبدأ يسألني عن شعوري الحقيقي والعميق ، وكان هذا بداية لانفتاحنا الكامل على بعضنا ، وبداية للثقة المتبادلة بيننا ، وبالطبع كانت عملية إخراج خفايا نفسي إلى الضوء عملية مؤلمة ، لكننا وجدنا في آخر الأمر المفتاح السليم للثقة الكاملة ، والارتباط العميق المتبادل . وهكذا بدأت السعادة تغمر حياتي .

مأساة نابليون الثالث :

لكن هناك من الأحاديث ما يسيء أشد الإساءة للعلاقة الزوجية ، ويضر بها أبلغ الضرر ، ذلك هو حديث الشكوى المتواصلة ، فالشخص دائم الشكوى يخلق لدى الطرف الآخر حالة عدوانية ، مما يؤدي إلى انفصام العلاقة ، وخير دليل على هذا تلك الأمثلة التاريخية التي يسوقها ديل كارنيجي .

وقع نابليون الثالث ، ابن أخ نابليون بونابرت ، في حب ماري أوجيني ، أجمل امرأة عرفها التاريخ ، وتزوجها ، وعندما قال مستشاروه إنها لا تزيد عن كونها ابنة كونت اسباني غير ذي مكانة كان يرد عليهم بقوله : « وماذا في هذا ؟ » . لقد وقع أسير شبابها وجمالها وسحرها ، قال في حديث رسمي للشعب الفرنسي : « لقد فضلت أن أرتبط بامرأة أحبها وأحترمها على أن أرتبط بامرأة لا أعرفها » .

تمتع نابليون الثالث وعروسه بالصحة والثراء ، والقوة والشهرة ، والجمال والحب ، وبكل مؤهلات العلاقة الكاملة ، لكن - للأسف - سرعان ما خبت نار ذلك الحب المشتعل ، وتحولت إلى رماد . كان بإمكان الامبراطور نابليون أن يصنع من أوجيني امبراطورة ، لكنه بكل سلطانه وبكل قوة حبه لم يستطع أن يضع حدا لإلحاحها الدائم بالشكوى .

فقد استولى عليها شيطان الغيرة ، واشتعلت داخلها نيران الشك ، فسخرت من قراراته ، وأنكرت عليه كل محاولة للاختلاء بنفسه ، وكانت تندفع إلى مكتبه أثناء انهماكه في شئون الدولة ، وتقاطع أهم اجتماعاته ، كانت تخشى أن تتركه بعيداً عنها ، فيقضي وقته مع امرأة أخرى . ولم تمكنها المكانة الملكية ، ولا الجمال ، من الابقاء على حياة الحب ، عندما تسلطت على حياتها الأبخرة السامة للشكوى الدائمة الملحة .

تعاسة ابراهام لنكولن :

يواصل ديل كارنيجي حديثه فيقول إن المأساة الكبرى في حياة ابراهام لنكولن كانت زواجه ، وليس اغتياله ، فعندما أطلق بوث الرصاص عليه مات على الفور ، ولم يتعذب ، لكنه بقي مدة ٢٣ سنة يحصد أشواك نشوز زوجته . فقد كانت زوجته دائمة الشكوى ، كثيرة الانتقاد له ، ولم يكن فيه ما هو معقول أو مقبول في نظرها ، كانت تقول إنه يمشي وقد انحنت كتفاه ، وهو يخطو بطريقة سخيفة ، ويحط قدميه على الأرض بفلاظة ودون أي رشاقة ، كما لم يكن يعجبها خروج أذنيه عن رأسه في زاوية قائمة ، وكانت تقول له دائما إن أنفه ليس مستقيما ، وأن شفته السفلى بارزة إلى الأمام بطريقة مضحكة ، وكانت تسخر من التناقض بين ضخامة كفيه وقدميه وصغر رأسه .

فهل أدت هذه الشكوى الدائمة ، والانتقادات الجارحة إلى أن يتغير شيء في لنكولن ؟ إن الشيء الوحيد الذي تغير هو شعوره نحوها ، فقد أصبح نادما على زواجه التعس بها ، بل لقد صار يتجنبها بقدر ما تسمح به الظروف .

إذا أردت أن تعرف مدى قدرتك على إدراك مزايا الطرف الآخر ، ومدى إدراكه لمزاياك ، وجوانبك الإيجابية ، أجب عن هذه الاسئلة :

* ما الذي يعجب كلا منكما في الآخر ؟
* ما هي المشاكل السابقة التي أمكنكما معالجتها بنجاح ؟
* ما هي الخبرات الطيبة السعيدة التي مرت بكما ؟
* ما الذي يعجبك في العلاقة القائمة مع الطرف الآخر ؟
* ما هو النشاط السار المشترك الذي تستمتعان به ؟
* ما الذي يفعله كل منكما طوال يوم لإظهار اهتمامه بالطرف الآخر ؟
* ما الذي يجب أن يفعله الطرف الآخر لك كي تشعر بأنك محبوب عنده ، وحائز على تقديره ؟
* ما أحلامكما المشتركة للمستقبل ؟

بإمكان طرفي علاقة التآلف أن يؤكدا على مزايا كل منها ، ويضاعفا إدراكها ، وتقدير كل منها لذاته ، وذلك عندما يلتزم الطرفان بالفهم والتقدير والاهتمام ، وسيشعران بالحيوية والتجدد ، وبأن ارتباطهما قد أصبح وثيقا .

الجداول المتبادلة :

قد ندرك أهمية الاتصال المتبادل بين الطرفين ، لكن صعوبة ذلك تظهر عند التطبيق ، فالمجتمع يقدم نماذج جاهزة للأحاديث الاجتماعية اليومية السطحية التي يتبادلها الناس ، والمفروض أن يتجاوز طرفا علاقة التآلف هذا إلى حوار أكثر عمقا وإحساسا ، ويتبادلا خلاله التعرف على مشاعرهما ، وتوقعاتهما ، وآمالها ، ومخاوفهما ، واحتياجاتهما الشخصية .

وكخطوة أولى يمكنك أن تجرب مع الطرف الآخر



التدريب التالي :- أكتب عن بعض المجالات في علاقتكما التي يتحقق فيها الاتصال والتفاهم الجيد ، ثم اكتبا عن بعض المجالات التي يكون فيها الاتصال ضعيفا ، ثم أعطيا نفسيكما ساعة لمناقشة ماكتبتما ، وعلى كل طرف أن يحاول الاستماع والفهم ، وأن يعلن عن مشاعره ، ويسعى إلى الفهم لا إلى اللوم ، أو الدفاع عن النفس .

اختبار الزواج السعيد :

في دراسة حول وسائل الاتصال والسعادة الزوجية توصلت ليسلي نافاران إلى أن الذي يميز بين الزواج السعيد والتعيس هو موقف العلاقة من النقاط التالية ، وبترتيب أهميتها :

١ - المزيد من الحديث المتكرر حول الأحداث السارة التي جرت خلال عام .

٢ - الشعور الغالب بأن الشخص مفهوم من الطرف الآخر ، وأن الحوار النفسي متصل .

٣ - الإكثار من مناقشة الأشياء التي تقع في دائرة الاهتمام المشترك .

٤ - ضعف احتمال تبدد التفاهم أو قطع الاتصال أو كبته باللجوء الى مط الشفتين إظهارا لعدم الرضا .

٥ - تبادل الأحاديث عن المشاكل الشخصية بشكل متكرر ودائم .

٦ - الإكثار من استخدام بعض الكلمات التي لها معناها الخاص بينهما .

٧ - الاشتراك غالبا في الحديث عن معظم المسائل .

٨ - إحساس كل طرف بمشاعر الطرف الآخر ، ومحاولة كل من الطرفين التكيف مع مشاعر الطرف الآخر ، وأخذ هذه المشاعر في الاعتبار عند الحديث .

٩ - قدرتهما على المناقشة الحرة في الموضوعات الحميمة ، بلا قيود أو حساسيات .

١٠ - القدرة على معرفة ما مر بالطرف الآخر خلال يوم ، دون الإلحاح بالسؤال عن التفاصيل . □



الغذاء الصحي بعد بلوغ الخمسين

بقلم : الدكتور ابراهيم فهيم *

تبدأ أعراض الشيخوخة غالبا في سن الخمسين ، إذ تحدث عندئذ تغيرات فعلية في كيمياء خلايا الجسم ، وقد ثبت أن معظم هذه التغيرات ينشأ عن سوء التغذية ، وليس المقصود بسوء التغذية قلة الغذاء فقط ، لكنه يشمل أيضا عدم توازنه ، وسوء اختياره ، أو كثرته بالنسبة لاحتياجات الجسم الفعلية .

يبلغ متوسط العمر في عالم الحيوان تسعة أضعاف عمره قبل البلوغ ، وبتطبيق هذه القاعدة يتجاوز متوسط عمر الانسان مائة عام ، لكن الواقع يقول ان متوسط العمر في أرقى الممالك لا يتجاوز ٧٠ عاما . وقد ألقى علم التغذية الحديث ضوءا كبيرا على هذا الموضوع ، إذ أثبت أن الغذاء الصحي من حيث النوع والكم يطيل العمر ، ويزيد النشاط والحيوية .

يجب أن يتطور الغذاء في مختلف مراحل العمر ، ليمد الجسم بالوقود الملائم لأوجه نشاطه ، وبناء أنسجته ، والمحافظة على حيويته ، غير أنه في هذه السن المتقدمة تتضاعف أهمية الغذاء المناسب لصيانة الآلة البشرية ، فلا شك أن هناك فارقا كبيرا بين وضع الفحم للآلة الميكانيكية دفعة واحدة في اليوم وبين وضعه لها على فترات،وكذلك بين استعمال قطع كبيرة واستعمال مسحوق ناعم ، فقد نخسر وقودا قيما إذا أتخمنا الموقد ، إذ لا يكتمل الاحتراق في هذه الحالة ، كما أن جدران الموقد تتآكل سريعا إذا لم نضمن حسن التهوية ، فالتوازن إذن بين الطعام واحتياجات الجسم أمر يتوقف عليه شيء كثير .

المعمرون والغذاء

إن قبائل الهانزا التي تقطن جبال الهملايا تمتاز بكثرة عدد المعمرين عن قبائل هندية مجاورة لها لا

* استاذ بكلية الطب بجامعة عين شمس .



لا تقل أهمية الغذاء وضرورة اختيار نوعه للكبار عن أهميته للصغار .

تختلف عنها في شيء سوى طرق التغذية ، فالقبائل المعمرة تتغذى بلبن الماعز والفاكهة والحبوب والمشمش ، بينما تتغذى القبائل المجاورة على الحبوب والبقول والأطعمة الدهنية الدسمة .

ولعل أكثر أخطاء التغذية شيوعا بين المتقدمين في السن هي كثرة الأكل التي تؤدي إلى البدانة ، وما يصاحبها من أمراض القلب وارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين ، مع أن احتياجات متقدمي السن للغذاء كوقود محدودة ، إذ تبلغ الحاجة الوقودية ذروتها في سن ٢٥ ، وتقل تدريجيا بعد ذلك ، وعلى كل حال ففي جميع مراحل العمر يجب ان يكون هناك توازن بين ما نتناوله من غذاء وما نقوم به من نشاط .

الضروري من الغذاء

ما يحتاج إليه متقدمو السن فعلا هو الاكثار من البروتين اللازم لحيوية الأنسجة ، إذ أن الجسم لا يختزنه ، ومن هنا يجب أن نمده به يوميا ، لكن الشيوخ يعزفون عن ذلك ، لأن معظم الأغذية البروتينية صعبة المضغ ، ولا تلائم أسنانهم التالفة أو المستعارة . وأغنى المصادر الغذائية بالبروتين هي اللحم والجبن والسمك والبيض واللبن والجوز واللوز والبندق .

كما يجب عند تقدم السن الحرص على مد الجسم بكميات كافية من الكالسيوم للمحافظة على صلابة العظام ، والكالسيوم متوفر في اللبن والجبن والكرنب والفول الأخضر والجزر ، ومده أيضا بكميات كافية من الحديد اللازم لبناء كريات الدم الحمراء التي تحمل الاكسجين إلى مختلف الأنسجة ، كي يتم احتراق الأغذية الوقودية ، فالحديد عنصر ضروري لحيوية كل خلية ، والمصادر الغنية به هي صفار البيض والكبد والخضراوات والسبانخ والخبز والحبوب واللحم والقراصيا والزبيب والبلح ، ومما يجب أيضا الاكثار منه في هذه السن الفيتامينات على الأخص ، كما يستحسن عدم الاكتفاء بمصادرها

الغذائية الطبيعية وحدها ، بل تدعيمها بتناول حبة أو اثنتين يوميا من المستحضرات الصيدلية التي تحتوي على مجموعة كاملة من الفيتامينات المركزة .

احذر الملح

وتنصح متقدمي السن بالاقلال من ملح الطعام بقدر المستطاع ، إذ أن المزيد من الملح يحتفظ بسوائل زائدة في الأنسجة ، بطريق الضغط الأسموزي ، مما يلقي مزيداً من الأعباء الثقيلة على القلب .

كما تنصح متقدمي السن أن يقللوا من تناول المشويات ، مع العناية بزيادة نضج الأطعمة عن المعتاد ، أما الخضراوات فيجب أن تغلى في كمية قليلة من الشوربة ، وتقدر الاحتياجات اليومية من الماء بستة أكواب ، يدخل من ضمنها القهوة والشاي بكميات قليلة ، وعصير الفاكهة بكميات مناسبة ، وتحذرهم من تناول المشروبات الكحولية ، وتنصحهم أيضا بألا يملأوا معداتهم بالطعام ، بل يمكنهم توزيع الكمية اليومية على وجبات صغيرة بالطريقة الآتية على سبيل المثال :

الساعة ٦ صباحا - كوب شاي خفيف باللبن .

الساعة ٨ صباحا - كوب عصير فاكهة ، وبيضة مسلوقة واحدة ، وقطعة بقسماط ، وكوب شاي خفيف باللبن .

الساعة ١٢,٣٠ ظهرا - طبق شوربة خضار ، وطبق سمك مسلوق ، وقطعة من الجبن ، وفاكهة ، وبطاطس مسلوقة ، وفنجان من القهوة أو الشاي الخفيف .

الساعة ٦ مساء - شوربة عصير طماطم ، وصدر دجاجة مسلوق ، أو ثلث رطل لحم بقري مسلوق ، وفاكهة .

الساعة ١٠ مساء - شوربة وبقسماط ، لبن زبادي منزوعة منه القشدة .

وتعتقد أن هذا النظام الغذائي المبني على الاكثار من البروتين والكالسيوم والحديد والفيتامينات ، والاقلال من النشويات والدهنيات وملح الطعام ، هو أصلح نظام غذاء بعد سن الخمسين ، إذ أنه يقلل من الاصابة بتصلب الشرايين ، وضغط الدم ، ويعمل على إطالة العمر ، والاحتفاظ بحيوية الشباب وفتوته .

تجرى بحوث كثيرة في الوقت الحاضر على الأغذية الغنية بالبروتين والفيتامينات والمعدنيات ، المحتوية على نسبة ضئيلة من النشويات والدهون ، الخالية من الملح تماما ، لمعرفة أثرها في إطالة العمر ، والاحتفاظ بفتوة الشباب وحيويته . □

■ لا أريد لبيتي أن يكون مستورا من جميع الجهات ، ولا أريد أن تكون نوافذي مغلقة ، أريد أن تهب على بيتي ثقافات كل الأمم ، بكل ما أمكن من حرية ، لكني أنكر على أي منها أن تقتلعني من جذوري .

غاندي

■ المرأة تبقى طفلة الى أن تصبح أما .

« يونج »



طبيب الأسرة

قضايا منزلية

الخطأ والصواب في الإسعاف الأولي المنزلي

في البدء علينا أن نتفق على أن الاسعاف الاولي ليس ضربا من ضروب التمريض ، ولا هو أحد فنون الطبابة ، وانما هو حماية المصاب من تضاعف اصابته ، والحفاظ على حياته ، ومحاولة التخفيف من آلامه الجسدية والنفسية في غياب الطبيب .

وأي فهم آخر للاسعاف الاولي هو بداية السير على درب الخطأ ، والاسعاف الاولي فن قائم بذاته ، يعتمد العلم والخبرة والتدريب حتى يمكن اتقانه ، ومع هذا فما اكثر الذين يتطوعون لهذه المهمة دون علم أو خبرة أو تدريب ، مما قد يعود بالضرر على المصاب ، ويؤدي الى مضاعفات كان المريض في غنى عنها ، ولا يعني الاسعاف الاولي أن نقدم دائماً وبالضرورة على تصرف ما ، بل قد يكون الاسعاف الاولي احيانا هو الامتناع عن أي تدخل لاصلاح ماقد نتوهمه ضررا وما هو بالضرر . وفيما يلي بعض التصرفات الخاطئة في حقل الاسعاف الاولي مما قد يضر بالمصاب اكثر مما ينفعه .

أولا : الحروق

الحروق نوعان : إما أن تكون حروقا جافة كما هو الحال مع النار أو الأحماض الكاوية ، واما حروقا مبللة كما هو شأن الماء الساخن ، وكلاهما يؤدي الى تمدد شديد في الأوعية الدموية ، وتلف لطبقات الجلد وتدمير لأطراف الاعصاب .

والحروق درجات متفاوتة ولكن البعض قد يسارع الى اسعافها باستعمال المراهم ، بل إن بعضهم قد يضع معاجين الاسنان قناعة بفائدتها ، والاولى هو استعمال كمادات الماء البارد فورا لأنها تقبض الاوعية الدموية ، وتسكن الالم ، وهذا هو المطلوب حتى يصل المريض الى المستشفى .

واذا ما ظهرت بعض الفقاقيع فقد يلجأ البعض الى ثقبها ، وهذا اخطر ما في الامر لانه تلويث متعمد للاصابة ، والاجدر تركها على حالها ليتصرف معها الطبيب المختص كما يجب .

ثانيا : الرعاف :

الرعاف هو نزول الدم المفاجيء من الانف مما قد يلجأ معه البعض الى احناء الرأس الى اسفل ، والنفخ من الانف لازالة الدم ، وهو التصرف المعاكس للمطلوب ، لان الاسعاف الصحيح هو رفع الرأس الى أعلى مع فتح الفم والتنفس منه ودون نفخ

الانف ، كما يستحسن وضع كمادات الماء البارد على الجبهة والانف مع سد الانف والضغط عليه بالاصابع لوقف نزيف الدم .

ثالثا : صبغات اليود والميكروكروم

فيما مضى كان للناس قناعة تامة في جدوى صبغتي اليود والميكروكروم لتطهير الجروح ، غير أن التجربة والعلم اثبتا أن تطهير الجرح من التلوث يحتاج الى زمن أطول من مجهود مسحة عابرة ، وهذا الزمن كفيل ايضا بتدمير انسجة الجرح المصابة مما يؤثر على عملية الالتئام ، لهذا اوقفت السلطات الصحية في اغلب الدول استعمال هذه الصبغات ، واكتفت بغسل الجروح بالماء الجاري والصابون ، فهذا أفضل للالتئام ولم يثبت له ضرر اطلاقا كما يتوهم بعض الناس .

رابعا : الاذن واعواد القطن

ما اكثر الناس الذين يعمدون الى تنظيف آذانهم باعواد القطن أو باية اداة مشابهة وقد ثبت أن هذه الوسيلة تدفع بالمادة الصمغية الدهنية أو اي مادة اخرى داخل الاذن امامها حتى تلتصق بغشاء طبلة الاذن مما يسبب الاذى دون أن تخرجها ، والحل الاسلم هو استشارة الطبيب المختص للتصرف سواء بالغسل أو ازالة المواد الغريبة بطريقته الخاصة .

خامسا : تدفئة المريض

التدفئة في عرف الطب لا تعني زيادة درجة حرارة المريض وانما المحافظة على درجة حرارته الطبيعية وهي ٣٧ درجة مئوية ، لهذا فمن الخطأ ان تعمد الى استعمال الدفايات بشتى انواعها لانها تزيد حرارة الغرفة ، وانما الأصوب هو استعمال الأغطية المناسبة كالبطاطين الصوفية ، التي تعمل على حفظ درجة حرارة المريض من أن تتسرب كما هو الثيرموس .

سادسا : الكمادات

هناك نوعان من الكمادات هما الباردة والساخنة وعند اصابة المفاصل أو العضلات بالتواء أو كدمة يسرع البعض الى استعمال الكمادات الساخنة دون ادراك ان ما حدث هو جرح داخلي ، وتمزق يصاحبه نزيف وارتشاح داخلي ، لابد من وقفه وهذا ما تؤديه الكمادات الباردة ، لهذا ينصح عند الاصابة بالتواء أو كدمة باستعمال الكمادات الباردة فورا . اما الكمادات الساخنة فهي تستعمل مع الاصابات القديمة ، ولتنشيط الدورة الدموية .

سابعا : التسمم بالكيروسين

يشيع التسمم بالكيروسين بين الاطفال الذين يشربونه عن طريق الخطأ ، وهذا أمر خطر شديد السمية ، مما يدفع بالبعض لمحاولة اجبار المصاب على التقيؤ دون ادراك للمضاعفات ، لان الكيروسين سريع التطاير والتبخر ويؤدي تسربه الى القصبة الهوائية والرئتين الى التهاب حاد وقاتل .

لهذا فلا يجدر بالمسعف أن يعمل على تقيؤ المريض بل نقله الى المستشفى باسرع وقت ممكن ، ومحاولة اعطائه بعض زيت البرافين .

ثامنا : الكسور

من المبادىء الرئيسية في اسعاف الكسور عدم تحريكها الا للضرورة القصوى ، ومع هذا فقد يعمد البعض الى تعديل العظم المكسور او تحريك المصاب دون عناية مما قد يؤدي الى قطع الاعصاب وخاصة في حال كسر العمود الفقري ، أو تخزين الانسجة واتلاف الاوعية الدموية ، وهي مضاعفات كان المصاب في غنى عنها ، ويفترض نقل المصاب مع تثبيت العظم بجبيرة مناسبة دون تحريك ليتولى امره الطبيب المختص حتى لا تؤدي الى شلل سببه الاسعاف الخاطىء .

تاسعا : الصرع

يبدو للمشاهد ان نوبة الصرع أمر مثير مما يدفعه الى أي تصرف مهما كان ، وخاصة محاولة ايقاف حركة المريض وتشنجاته ، وهذا أمر غير مرغوب فيه ، بل يترك المريض دون تدخل اللهم سوى محاولة وضع شيء ما بين الاسنان حتى لا يقطع المصاب لسانه ، مع نقله الى موضع آمن مناسب اذا كان هناك خطر من

بقاء المريض في مكانه ، مع انتظار زوال النوبة ومراقبة المريض فقط .

عاشرا : أقراص الاسبرين

يستعمل الاسبرين مسكنا ومخفضا للحرارة ، ولكنه في الاصل مادة حامضية تسمى حامض الساليسيليك ؛ تؤذي أغشية الجسم المخاطية ، لهذا يحظر تعاطيه والمعدة خالية من الطعام ، كما يمنع وضع الاقراص على الاسنان عند الالم ، قناعة بمفعولها الموضعي ، لانها تؤدي الى احتراق أنسجة اللثة وليس تسكين الالم . فالاسبرين عقار للاستعمال الداخلي فقط . هذه بعض من التصرفات البعيدة عن المنطق السليم في الاسعاف الاولي ليست من باب الحصر وانما هي من باب الاستشهاد على سوء التصرف دون علم أو خبرة . □

د . حسن فريد ابو غزالة

بريد طبيب الأسرة

جاما جلوبيولين
Gamma globulin

● أصيبت طفلتي بمرض الحصبة ، واشتد بها المرض حتى وصلت الى حال خاف معها الأطباء من مضاعفات لا تحمد عقباها ، فأمروا بحقنها بما يسمى بالجاماجلوبيولين ، مما أنقذها من خطر محدق كان سيودي بحياتها .

هل لي أن أعرف ما هو معنى جاماجلوبيولين ، ولكم وافر الشكر والتقدير ؟

سالم أ . أ

دير الزور - سوريا

يتميز الدم بوجود زلاليات أو بروتينات معينة ، ذات وزن جزيئي عالٍ ، أهمها ما يسمى بالألبيومين والثاني هو الجلوبيولين ، وهذه الأخيرة ترتبط ارتباطا وثيقا بالأجسام المضادة التي يخلقها الجسم لتقوم بوظيفة الدفاع عنه أمام غزو الأمراض ، التي صنعت من أجلها ، لهذا قد يطلق على مجموعة الالبيومينات التي تخصصت في التعامل مع الأجسام المضادة ، وحملها عبر تيار الدم باسم الجاما جلوبيولين او جلوبيولينات المناعة .

ان هناك خمسة أنواع من الجاما جلوبيولين ، يرمز لها بالأحرف الانجليزية Ig وقد اعطيت حروفا لتمييز بعضها عن بعض هي Ig ، IgA ، IgM ، IgE ، IgD وتعتبر الثلاث الاولى منها هي المتخصصة في قضية المناعة ، بل هي تشكل ٩٥٪ بالمائة من الالبيومينات .

ان الجاما جلوبيولين IgG هو الأوسع انتشارا والأهم ، لأنه يمثل ٧٥ بالمائة من هذه الجلوبيولينات المناعية ، وهو الوحيد القادر على اختراق حاجز المشيمة في رحم الأم الحامل ، والذي يمكنه أن يحصن الجنين بحصيلة من الأجسام المضادة ، التي تقيه عبر رحلة العمر الأولى ضد الحصبة والنكاف وما اليه من أمراض الطفولة الأولى .

اما زميله IgA فقد نجده في سوائل الجسم كاللعاب والدموع وافرازات الامعاء والمخاط .

غير أن IgA وجدوه بوفرة في أحوال الحساسية ، لهذا فهو لا يتولى أي دور مناعي محدد ، أما IgE فلم يتوفر للأطباء من المعلومات ما يكفي للاستدلال على مهمته ، وربما كان له دور في حصار الأورام

السرطانية ، وعليه نجد ان الجاما جلوبيولين أو جلوبيولينات المناعة ، وعلى وجه التحديد ، IgG يستخلصونه من دم بعض الحيوانات التي تم تحصينها ضد مرض ما ، أو سموم معينة على هيئة مصل مشبع بجلوبيولينات المناعة ، ليحقن به مريض يعاني من فوعة مرض لا يمتلك له في جسمه رصيدا كافيا من الأجسام المضادة ، ومن هنا يصبح الجاما جلوبيولين ذا نفع كبير مثلا عند الاصابة بشلل الأطفال ، مع الخلو من الحصانة (بسبب اهمال التطعيم) كما قد يستعمل في علاج الحصبة ،أو ربما التكاف ، وما اليه من أمراض على سبيل ما يعرف بالمناعة السلبية أو المؤقتة ، الى أن يبني الجسم أجسامه المضادة الذاتية فيما يعرف بالتحصين الايجابي (أو التطعيم) وفي أحوال معينة قد يحتاج الطبيب الى جاما جلوبيولين بشري ، تفاديا للحساسية التي يسببها استعمال مصل حيواني ، فيلجأ الى دم انسان سبق تحصينه أو اصابته بمرض معين ، يستخلص منه الجاما جلوبيولين المتوفر في مصل هذا الانسان ، ليحقن به المصاب طلبا لحمايته من هجمة مرض معين ، قد يودي بحياته في احوال فقر المناعة الذاتية .

« الايدز » A.I.D.S.

● لقد اصبح مرض الايدز حديث الساعة ومع هذا لايعرف احد له اصلا ولافصلا ، واحيانا نقرأ اسم مرض الايدز،فأين الحقيقة في هذا المجهول الذي هبط من على البشر ، ليرعبهم في الظلام من حيث لايحتسبون .

ص . ع
الكويت

ـ الايدز على ماعرف عنه حتى الآن مرض فيروسي قاتل يتخذ من الخلايا المناعية المعروفة باسم خلايا « تي » (T) مسرحا لتكاثره ونموه ، فيدمرها ويتلفها وهو بهذا يعجزها عن اداء وظيفتها في انتاج اجسام مضادة للامراض مما يسلب الجسم قدرته على التصدي لأي مرض آخر مهما هان شأنه أو عظم ، ومن هنا أطلقوا على هذا المرض اسم ظاهرة فقدان المناعة المكتسبة Acquired Immune deficiency Syndrome

ولما وجدوا في الاسم طولا يصعب حفظه فقد اختصروه باتخاذ الحرف الاول من كل كلمة فيه رمزا فأصبح يلفظ على هذا النحو AIDS أو الايدس وقد يلفظه البعض بالايدز فالامر سواء .

ان اول بادرة لهذا المرض الغريب ظهرت عام ١٩٧٩ في امريكا،ولكن بداية موجته تعود الى عام ١٩٨١ ثم شاع بعدها وانتشر حتى انهم يقدرون عدد ضحاياه في الولايات المتحدة وحدها عام ١٩٨٠ بحوالي ١٢ الفا .

ولما كان هذا المرض غامضا يتشابه في طريقة عدواه مع مرض التهاب الكبد الوبائي من حيث انتشاره عن طريق الحقن الوريدية ونقل الدم ، والاتصال الجنسي الشاذ ، بينما في أعراضه يتشابه مع احد انواع السرطانات الجلدية النادرة المسمى كابوسي Kaposi فقد اجتهد جمهور العلماء في البحث عن مصدره،وتتجه اصابع الاتهام الى نوع من القرود الافريقية الوحشية تدعى بالقرود الخضراء تعيش في غابات اواسط افريقيا يقال أن فيروس هذا المرض يصيبها دون أن يؤذيها وقد ينتقل الى الانسان عن طريق عض هذه القرود المصابة .

وصادف في اواسط السبعينيات وجود مهاجرين من جزيرة هايتي عاشوا في دولة زائير يبدو انهم أصيبوا بهذا المرض ونقلوه عند عودتهم الى الولايات المتحدة غير أنه استشرى وانتشر بطريق آخر غير عض القرود

ان اكتشاف الفيروس بوساطة العلماء الفرنسيين في معهد باستير بفرنسا فتح باب الامل واسعا في الوصول الى دراسة شاملة قد تقود الى طريق الوقاية والتطعيم ان لم يكن العلاج الحاسم ايضا .

والأمل أن تنحسر موجة هذا المرض الضاري الغازي وان تعود الطمأنينة الى قلوب الناس □

مساحة ود..

لا نسمع ولا نرى !

ليلة واحدة أمضيتها في احدى مدن العالم الثالث ، وفي صباح يوم مغادرتي لها ، استيقظت مبكرا ، فقد كان أمامي بعض أوراق ورسائل أود قراءتها والانتهاء منها قبل مغادرتي المدينة ، وعندما مددت يدي أزيح ستائر النافذة . . فوجئت بمنظر لم أنسه حتى الآن . . عشرات الأسر ، رجال ونساء وأطفال رضع ، وصبية وفتيات يرقدون على رصيف الشارع . . في مشهد مؤلم وموجع . . خلف الفندق العريق ، وفي الشارع الخلفي يرقد عشرات البشر . . ولم يقف ذهني أمام شكل التناقض البسيط رغم وضوحه ، ففي مساء الليلة السابقة كانت مطاعم الفندق . . ومقاهيه وحاناته تزخر بالرواد قاطنين وغير قاطنين . وفي نفس الوقت كان هؤلاء البشر يعدون الأكياس القديمة ويصنعون منها أغطية ووسائد لكي يناموا . . لم أقف كثيرا عند هذا التناقض الصارخ ، فقد قفز عقلي الى خريطة وطننا العربي . . الى أقطار كثيرة به ، ومدن كثيرة ، وأحياء كثيرة . . تعاني من ذات الأزمة ونفس الألم ، وأعترف أنني سمعت كثيرا عن بشر بلا مأوى ، وعن سكان المقابر ، وسكان العشش والخيام ، ورأيت في ليال كثيرة بشرا ينامون في الحدائق العامة ، أو أسفل الجسور ، أو عند محطات القطارات ، ولكن ما سمعته لم يكن كافيا كي أدرك حجم ومعنى المأساة ، وما رأيته كان محصورا في تصور انها حالات فردية لبعض الأشقياء والمتشردين الذين تزدحم بهم مدن العالم الثالث ، ولكن رؤية أسر كاملة تنام وتمضي ليلها على هذا النحو . . كان رؤية جديدة لم تتح لي من قبل ، وتوالت التساؤلات على ذهني . . أيهما أكثر الحاحا وأهمية : أن توفر للانسان رغيف خبز أم توفر له سكنا ؟ وأيهما أكثر آدمية : أن يبيت الانسان جائعا أم يبيت مستورا ؟ وأعترف أنني لم أصل الى اجابة حاسمة ، فكلا الخيارين مؤلم ، والأكثر ألما أن هناك من يبيتون جوعى وهم نيام في عرض الطريق ، ولكن الذي لا جدال حوله ، أننا نحيا أزمة حقيقية ، وأن الأزمة امتدت الى نخاع العظم في مجتمعاتنا ، وأنها ليست أزمة ضرورات أساسية ، بل تتجاوز آثارها هذا المعنى لتصل الى كل قيم المجتمع ونظامه الاجتماعي من علاقات وانماط سلوك ، ومازلت أذكر شكوى فتاة عربية في احدى الصحف كانت تقول إنها كانت تنام في غرفة واحدة مع سبعة أشقاء وأب وأم ، وإنها سمعت ورأت مالا يليق بفتاة في العشرين أن تسمعه وتراه ، ويبدو أننا أيضا في انشغالنا بأشياء أخرى لا نسمع ولا نرى ما ينبغي أن نسمعه وأن نراه . □

محمود عبدالوهاب



هو..

تحت رعايتى

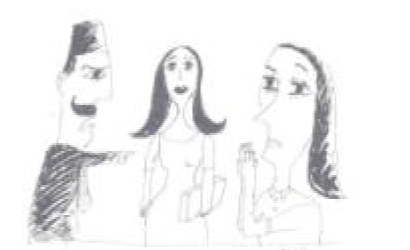
لم أخطىء فى تفسير كل الملاحظات التى استوقفتنى فى أرقها، وتفكيرها وانشغالها الدائم، وخروجها المستمر، والتلفونات الكثيرة التى لا يجيب فيها أحد لو رددت عليها، وعندما أصبحت ملاحظاتى تمثل حالة قلق عندى.. جلست معها ذات مساء وحدنا.. قلت لها كل ما رصدته وكل ما أتصوره، واعترفت هى أيضا.. بأنها تعرف شابا كان زميلها فى الجامعة وسبقها فى التخرج بعام، وأن كل ما بينهما هو حديث و«دردشة» وأحلام.. ولكنهما يشعران بشىء خاص يجعلهما يخبئان هذا السر داخلهما، ولأننى أعرف ابنتى جيدا، فقد صدّقتها، وفتحت لها صدرى كى تتحدث وتحكى لى.. وتجيب عن أسئلتى وتساؤلاتى، وعندما ذَهَبَتْ الى غرفتها لتنام.. ظل عقلى يقظا يفكر فى حل، وطريقة نحمى بها ابنتنا، ونرعى بها هذه العلاقة، بحيث تكون تحت سيطرتى وتحكمى، عندما عاد أبوها فى نفس الليلة رويت له كل ما لاحظته، وكل ماقالته ابنتى.. وأخذت أرقب ملامح وجهه وهى تتغير وتتلون.. ومعدل اشعال سجائره المرتفع، وختمت حديثى بأن طرحت عليه اقتراحا يريحنا جميعا، كان اقتراحى ببساطة هو أن نفتعل مناسبة ما، ثم أحث ابنتى لكى تدعو هذا الشاب الى البيت، وبعد ذلك نحاول أن نضعه دوما فى دائرة علاقتنا.. ونسمح له بزيارتنا.. زيارة مقننة وفق مواعيد محددة، أو تدعوه ليجلس معنا ومع آخرين من أصدقاء ابنتنا فى أماكن عامة، وقلت له إننى بذلك أضع ابنتى تحت عينى وأحميها من الخطأ، وأكسر دائرة الغموض والخصوصية التى تحيط بالعلاقة، فينطفىء بريقها وضغطها على مشاعر ابنتى، وبالاضافة الى ذلك فاننا ـ بحكم السن والخبرة، وبمشاركته لنا ـ ستتمكن من توجيه العلاقة والتحكم فيها، وخصوصا أن بينى وبين ابنتى وبين هذا الشاب اختلافات متباينة فى السلوك، وطريقة التفكير، وستشعر مع الوقت أن الأمر برمته كان مجرد فوران وجدانى بلا معنى.. سرعان ما ينطفىء. والأهم من ذلك كله أننى سأوثق جسور الثقة بينى وبين ابنتى.. وستشعر معى بأمان أكثر، وسوف تتيقن ـ عندما ترى الأمر كما سأصوره لها ـ.. بأننى أساعدها وأقف بجوارها وأصون أسرارها، ولكنه لم يتفهم كل هذا المنطق.. وثار وأرغى وأزبد.. وأخذ يتحدث عن التقاليد والعادات والاحترام.. قلت له إننى فى سبيل الدفاع عن ابنتى مستعدة لأن أواجه أى شىء وكل شىء... ولكننى لست مستعدة أن أضع قيودا على حريتها وتصرفاتها بشكل يجعلنى أفقد ثقتها، وأن الاحترام ليس أن يكذب الأبناء على الآباء ولا أن يخافوا منهم، ولكن الاحترام أن يكون الأبناء أكثر صدقا مع آبائهم.. واكثر ايمانا بأن عليهم حقا يجب أن يلتزموا به.. ولكنه أصر.. وثار.. رغم أن ابنتى فى خطر....

هيَ

هي..

نبدأ بالعقل

وضعتنى بين المطرقة والسندان ، وأورثتنى القلق والخوف البالغ ، ليس عندى فى هذه الدنيا أغلى من ابنتى ، وكان ظنى دوما أنها ستمضي فى مشوار عمرها بلا مشاكل ولا مصاعب ، ولم يكن يدور بخلدى انها ستفجر هذا الاختلاف في وجهات النظر بينى وبين أمها حول مشكلة من مشكلات حياتها ، كنا طوال عمرنا متفقين دوما حول كل مايتعلق بابنتنا من حيث تعليمها .. ومستوى تحصيلها الدراسى .. وعلاقاتها بأصدقائها .. واختيارهم .. واختلاطها بصديقاتها ، والى أى حد ومدى تتطور علاقاتها بزميلاتها .. حتى أوصلتنا هى الى هذا الحائط الذى اصطدمنا به . تقول أمها إنها بمقترحاتها تحمى ابنتها ، وإننا معا سندبر المسألة ونتحكم فيها .. وسأبدو أنا كمن لايعرف ، بينما أكون شريكا فى السر مع أمها فى التخطيط والتفكير والتحكم في العلاقة ، هكذا تتصور اننا مضطرون أن نتخفى عن ابنتنا ونتدارى عنها ، قلت لها إننى ضد هذه الفكرة كلها .. لأننا بذلك نسقط كل حواجز الهيبة والخشية ، وخير لنا أن تظل ابنتنا فى قلق دائم



خوفا من أن نعرف ونلحظ ، من أن تسقط كل الهيبة ، وتطمئن الى أننا نعرف ونقر .. فإن عاقبة ذلك أسوأ من كل النتائج التى من الممكن أن تتوصل اليها أمها باقتراحاتها ، فسوف تستسهل ابنتنا الأمر ، وقد نجدها بعد أسبوعين تقول ان الأمر كله كان وهما كما تتوقع أمها ، ولكنها بعد أسبوع ثالث قد تأتى وهى ترقص وتهلل فرحا لأنها تعرفت بشاب آخر ..

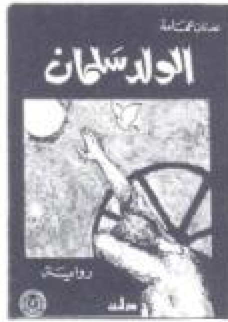
ومن هنا فقد تعبت في ايضاح فكرتى لأمها .. ان دورنا هو أن نُفهِمَ ابنتنا بالعقل والاقتناع أن هذه العلاقات لسيت الا لهو صغار ، وأن الأكثر أهمية أن تلتفت الى دروسها ومحاضراتها ، وان علاقة الصداقة يجب أن تظل فى اطار الصداقة ، وفى نفس الوقت نبدأ فى تخليص ابنتنا من أوهام الحب .. والأحلام الرومانسية ، ونحاول أن نجعلها تدرك بواقعية عبء الحياة وقيمتها وخططها لمستقبلها .. ونبدأ معها مناقشة أفكارها عن المستقبل والارتباط و .. وان نفعل هذا بعفوية .. أو نتعمد ان تكون هكذا .. ونفعله وسط صديقاتها وأصدقائها .. فى جلسات عائلية .. وتدير الحوار كأننا ننظم مسابقة .

بهذا الشكل التربوى أتصور أننا قادرون على أن نتجاوز بابنتنا أزمتها .. ولكن أمها لم تستوعب ما أقول ، وسفهت كل آرائي ، وتشنجت وتمسكت بأفكارها التى ـ على مايبدو ـ أفسدتها أفلام السينما الأمريكية وغيرها .. وتركت ابنتنا في أزمتها وحدها .

هو

قــراءة في روايــات

عدنان عمامة



دراســة الــواقــع ونـقــد الـتـجربــة المــرة

بقلم : وليد أبو بكر

بسبب الظروف العربية عامة ، وظروف ما يحدث في بيروت خاصة ، ضاعت الفرصة على كثير من الكتاب والكتابات ، فلم تنتشر بالقدر الذي تستحقه ، خصوصا حين يجيء التوزيع فيها بحجم النشر ، لذلك فان التعرف على بعض الكتابات الجديدة ، يدخل في باب الاكتشاف الذي يستحق التنويه به بعد ذلك .

اذا تجاوزنا ديوان (السجين - ٦٥) الذي أصدره الكاتب الفلسطيني عدنان عمامة عام ١٩٧٧ ، باعتباره المحاولة الأولى للتعبير (وهي غالبا ما تكون شعرا) فسوف تلاحظ أنه دخل عالم الكتابة الروائية بنجاح بعد ذلك ، حين استوحى حنينه وذكرياته من الأرض التي غادرها طفلا ، وسجلها في روايته الأولى (الخزعندار) التي أصدرها عام ١٩٧٩ ، ليصور روح المقاومة التي قادها الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني ، بامكاناته القليلة ، التي لم تمكنه من الدفاع عن الأرض ، رغم ما بذل في ذلك من دم ، فاضطر الى الرحيل ، ليموت في الغربة ، تاركا مهمة التحرير للأجيال التي أنجبها .

رواية (الحومة) التي صدرت عام ١٩٨٢، تميزت عن كثير من الروايات الفلسطينية في الغربة ، بأنها عايشت المجتمع الذي يعيش فيه الفلسطيني ، مكانا وتناقضات فهي لم تختر المخيم الفلسطيني ، كما فعلت بعض روايات الشهيد غسان كنفاني ، ولا موقع المقاوم الفلسطيني كم فعلت بعض قصص وروايات يحي يخلف ورشاد أبو شاور ، ولا اختارت التجمع الفلسطيني المعزول ، وانما اختارت الفلسطيني داخل مجتمع الشام ، حيث يعيش ، وتعيش معه تجمعات متنوعة .

والحومة اسم حي قديم في الشام ، تملكه الأوقاف ، وتتجمع فيه العائلات الفقيرة من الفئات المختلفة أصولا : من الفلسطيني الى المغربي والأرمني .. وهو حي قريب من مناطق السكن الرخيصة التي تعيش فيها عائلة أحمد سلامة ، المناضل القديم ، سائق الشاحنة الحالي ، الذي يحافظ على كبريائه ، ويقاوم بها ، كما تقاوم زوجته ، لكن لا يفلح في تربية ولده الكبير (خليل) الذي يثير فضائح كثيرة ، وينتهي في الحومة ، بلا عمل ، مع زوجته وأولاده .

والحومة ، كمكان ، هي الاطار الذي تدور حوله أحداث الرواية ، باعتبارها حيا مهددا بالهدم ،

ككثير من الأمور الأخرى التي يلاحظها عرفان أحمد سلامة ، شخصية الرواية الرئيسية ، فتؤثر في اتجاهاته النضالية ، وتقوده الى اختيار الاتجاه الذي يرى فيه سبيلا الى تحرير بلاده ، ثم يقوده هذا الاتجاه الى السجن .

والسجن ، بالنسبة لعرفان ، مراجعة حسابات ، وذكريات ، اضافة الى أنه تعطيل للقدرة على الفعل ، حتى وان كان مؤقتا . والذكريات تتجه الى الحومة ، لأنه وجد فيها مكانا صالحا لنشر فكره ، فأتى بعض ثماره ، ولأنه ـ وهو يتردد على أخيه ـ أحس في الحومة حياة طبيعية ، تتمثل في علاقات الناس ، وقناعاتهم المتجانسة ، كما وجد فيها حبّه الأول في حياته ، الذي تمثل في الفتاة التونسية ـ شبه العامية ـ صالحة ، التي تحلم بالرحيل الى جذورها في القيروان .

هذه الذكريات تنسجم مع واقع عرفان في اتجاهات ثلاثة : تبدأ بالحلم الذي يبدو مستحيلا حيث توجه ، فحلم عودته تعطله أوضاع محيطة ، لا تسمح بالنضال الحقيقي في اتجاهه ، لأنه يتناقض مع واقعها ومصالحها ، وحلم صالحة يبدو مستحيلا أيضا ، تعطله الحاجة الى المال ، ولكنه حين يجد سندا من عرفان (بدوافعه الداخلية) يتحقق ، ثم يموت بمجرد أن يصل ، فصالحة ، التي عايشت مناضلا ، لم تستطع مقاومة الانسجام مع مظاهرة شاهدتها لحظة وصولها ، فكانت رصاصة ما كافية لقتل ما تحقق من الحلم .

وصالحة ، بالنسبة لعرفان ، نوع من الحب المستحيل ، ينجذب اليها حياة ، وتنجذب ، لكنهما ، رغم حميمة اللقاء لا يلتقيان ، لأن حلم العودة ، بالنسبة لكل منهما ، يظل الهاجس الأساسي الذي تدور من أجله كل التجارب (الحسنة والسيئة) وتنتهي عند حده كل العلاقات .

هناك تشابه ما بين صالحة وعرفان ، حتى وان اختلفت بهما السبل ، وهناك ما يوحي بالتشابه في النهاية : العودة ، وحتى وان كانت طريق الموت ، أو كان الموت طريقا لها .

وبقية شخصيات الرواية تغذي هذا الاتجاه : خليل ـ الذي لم يعرف طريقه ـ أضاع كل طريق ، وغيره من سكان الحومة يتسلى بغيره ، أو بالشعوذة والسحر ، أو بالسرقة . لكن عندما يحين وقت الجد ، تلتقي الأيدي دفاعا عن الحومة ، وهذا اتجاه آخر في تصوير واقع الحومة عبر الذكريات ، والحومة ، بالنسبة للرجال من سكانها خاصة ، ليست نهاية المطاف ، والفكر الذي زرعه عرفان ، كان له أثره ، فحين تلوح فرصة للفعل يتجه الرجال اليها ، فيسعون الى الانضمام للمقاومة ، وتفرغ الحومة ممن يدافع عنها ، فتحين ساعة الهدم ، ليكون الاتجاه الثالث في الذكريات ، صورة يمكن أن تستعاد بالنسبة لما حدث ، على مستويات أوسع .

عرفان يخرج من السجن ، وقد فقد الكثير مما اطمأن اليه في واقعه : صالحة رحلت ثم ماتت ، والحومة هدمت وبرز في مكانها شيء جديد . . .

عرفان لابد له من خطوة مختلفة ، لكنه لا يقوم بها ، وانما الذي يقوم بها نيابة عنه هو (الولد سلمان) في آخر روايات الكاتب ، التي صدرت عام ١٩٨٤ ، وحملت هذا الاسم .

الولد صار رجلا :

تبدو الخزعندار والحومة نوعا من تفريغ الشحنة الانفعالية التي يشدها الحنين الى مكان ، استعدادا للغوص في تجربة أكثر ارتباطا بالنضال الفلسطيني ، وهو الأمر الذي فعله الكاتب في (الولد سلمان) .

هذه الرواية تقدم قراءة عميقة لتجربة المقاومة الفلسطينية خلال جيلين يفصلهما عام ١٩٧٠ ، الجيل الأول هو الذي أسس ، وكانت له تجارب فكرية وحزبية حاول أن يقدمها للمقاومة ، وهو يرى أنها قادرة على أن تعطيها قدرة على الاستمرار ، وتجاوز كل العقبات التي تواجهها ، هذا الجيل لم يكتف بحمل السلاح ، واتقان استخدامه ، وتعليم ذلك للآخرين ، ولكنه حاول أن يقدم (تنشئة فكرية) للثورة ، تحفظها من الزلل ، ولم تحقق محاولاته النجاح المطلوب ، وتم اجهاضها نهائيا عام ١٩٧٠ ، فتخلى هذا الجيل عن مهمته ، وفقدت المقاومة كثيرا من العقليات المفكرة التي تفرغت لها من أقطار عربية مختلفة ، يستطيع القارىء أن يتعرف على عدد منها ، حين يدقق في الأسماء والصفات ، اضافة الى الأسماء الفلسطينية الكثيرة التي اختارت (التقاعد) ، مما يذكر بتجربة رشاد أبو شاور في (البكاء على صدر

الحبيب) .

لكن رواية عدنان عمامة لا تقف عند حدود البكاء ، وانما تتخطاه الى حدود البحث عن أسباب الموت المجاني ، في جيل تال ، دخل المقاومة حماسة لها ووطنية . برزت عند الحد الفاصل ، وان كانت قد مهدت دوافع أخرى أول الأمر .

رواية (الولد سلمان) قد تكون (حتى الآن) أهم رواية عن بيروت الثورة وبيروت الغزو الصهيوني ، والرحيل ، اذا تذكرنا أن كثيرا مما كتب ، لم يلمس الجرح كما يجب أن يلمس ، الروايات سبقت الحدث الكبير ، ولن تحسن التعامل معه (بيروت بيروت لصنع الله ابراهيم) أو تعاملت معه من خلال صورة سابقة شكلتها (نشيد الحياة ليحيى يخلف) أو كادت أن تلمس ، فتفرعت كثيرا (بيروت - البكاء ليلا ، ميشيل أو الأقوى لشوقي عبدالحكيم) أو صورت الجرح بعد أن نزف (الرب لم يسترح في اليوم السابع لرشاد أبو شاور) .

رواية (الولد سلمان) عايشت الجرح منذ كان خدشا حتى صار قاتلا ، بل عادت الى الجلد قبل أن يخدش ، وهي تتذكر (الجزعندار) الذي قاوم في كل اتجاه ، قبل أن تضيع بلاده من يديه ، ويضيع .

الولد سلمان لا يروي ، ولكن أخاه الكبير هو الذي يروي عنه ، وعن تجربته الشخصية أيضا ، وهذا الأخ امتداد لعرفان صاحب الفكر في الحومة ، وهو ابن رجل رحل من أرضه بعد احتلالها ، وسكن الشام ، وعمل سائقا لشاحنة .

هذا الأخ ، بعد الاحباط الذي أصاب الأمة في حزيران ، وجد طريق النضال في المقاومة ، فذهب الى الأردن ، حيث بدأت تتجمع منذ البداية ، وكان معه رفاق ، حاولوا أن يعملوا ، وكان حولهم ما يثير الشجن ، ويعطل الطاقات ، وينتهي الى الخروج عام ١٩٧٠م .

التجربة الأولى لا تحاورها الرواية كثيرا ، وان كانت تنقد بعض جوانبها ، الرواية تركز على ما جاء بعد ذلك : في الشام ، حيث صار تجمع المقاومة ، بدت سلبياتها بوضوح ، حين لم تستفد من التجربة الأولى ، وبدأت تخسر العديد من مفكريها ، الكاتب لا يروى تاريخا في روايته ، وانما يروي أحداثا تدخل في البناء الروائي ، لكنها تشبه التاريخ ، انه يروي عن محاولات جادة لاعادة التوازن الى فكرة الثورة وفعلها ، ويروي كيف أحبطت هذه المحاولات ، فأحبط أصحابها واحدا بعد الآخر .

ثم بدأت التجمعات تتخذ من بيروت مركزا ، وبسبب اغراء الحياة في بيروت ، صار الانضمام الى « الفدائية » اغراء ، وكان مفاجئا أن ينضم الولد سلمان الى الفدائية ، وخصوصاً أنه كان ولدا أزعر ، يضايق بنات الجيران باستمرار ، الولد سلمان لم يستشر أخاه ، ولم يستشر أحدا ، أرسل ليبلغ والدته رسمية ، سيدة البيت المطلقة ، انه راحل الى بيروت لينضم الى الفدائية ، وأخوه حاول أن يناقشه من خلال تجربته ، فسمع الجواب المثير : بيروت أجمل وبالنسبة للولد سلمان ، وكل ولد أغرته بيروت ، كانت الحياة شيئا مختلفا ، فالولد سلمان يرسل صديقاته الى أمه ، بدلا من الرسائل ، لكن بيروت لم تكن هذه الحياة وحسب ، ففيها من يقاوم وجود الولد سلمان ، والوجود الفلسطيني والعربي كله ، والولد سلمان يدخل في تجربة قاسية ، حين يسقط تل الزعتر ، وهي تجربة تكاد تعلمه ما تعلمه أخوه من قبل ، فيرحل الى قبرص ، وهنا تبدأ رحلة الأخ المجرب في البحث عن الولد سلمان ، البحث عن الثورة بجسدها الجديد ، وروحها الجديد ، وهو البحث الناقد الذي أرادته الرواية ، حيث توزع جسد الولد سلمان على كل البقاع .

حركة ونقد :

هذه الرحلة ، رحلة في المكان والزمان . تبدأ في بيروت ، في مخيماتها ، في مكاتب فصائلها ، الكل يعرف الولد سلمان حينما يكون السؤال عنه ، ولكن الولد سلمان لا يكون موجودا في المكان الذي يتم فيه السؤال ، انه ، بعد أن أحس بخطر الغزو الصهيوني ، ثم واجهه في غزوه الثاني ، يسأل عنه أخوه فيقال له في الرشيدية ، حين يصل يقال له في مكان آخر . وهكذا ، فالولد سلمان موجود في كل مكان ، الا المكان الذي يصل اليه أخوه ، محاولا أن يسترجعه .

وحين يجيء الغزو الأخير ، يقاومه الولد سلمان في كل مكان ، لكنه لا يظهر الا عبر الصفات التي يعرفها الجميع (الولد جدع) ، والولد أيضا تغير ،



فبعد تجربة تل الزعتر ، صار يرسل المكاتيب بدلا من البنات ، وصارت مكاتيبه تثير دهشة أخيه ، لأنه أصبح واعيا ، ويريد أن يعيد تنظيم الأمور ، لكن الوقت لم يعد معه ، الغزو يقترب من بيروت ، والولد سلمان يقاوم في الدامور ، والغزو يقترب ، والولد سلمان يقاوم في المطار ، وأخوه يقاوم في الناحية الأخرى ، وتكاد دبابة للعدو أن تسحقه ، لولا أن ولدا مثل الولد سلمان استطاع أن يحميه .

الولد سلمان في الثورة يتقن الفعل ، لكن الغزو يحركه من مكان إلى مكان ، وحتى تجيء لحظة الرحيل ، والولد سلمان لا يظهر .

حين يستعد أخوه للرحيل ، في البناية التي تطل على صبرا من دورها السادس ، يخيل اليه أنه يرى الولد سلمان في الشارع ، وأنه يكبر ويكبر ، حتى يصبح عملاقا بحجم شارع صبرا وشاتيلا ، ويستلقي على ظهره ويغمض عينيه . . . ومن جهة شرق بيروت ، يظهر مائة رجل في أيديهم السكاكين والبلطات والبنادق . . « اقتربوا من الولد ، أوقفوه ، وراحوا يضربونه بالسكاكين والحراب ، وأفرغوا بنادقهم في عيونه ، قطعوه قطعا صغيرة ، كل قطعة بحجم باب أو نافذة » في صبرا سال الدم ساقية صغيرة ، تركوه هكذا وراحوا » وأنت تكاد تسأل : ما الذي جعل الولد سلمان ينام ؟

القدرة على تصوير الناس في الأمكنة ، أسلوب حياة ، وحركة ، وعلاقات هي ما يميز روايات عدنان عمامة ، فمن خلال (الخزعندار) تتعرف على الحياة في طبريا ، ومن خلال (الحومة) تحس بنكهة الشام وحياة الناس في أحيائها القديمة ، ومن خلال (الولد سلمان) ترى الشام ، وبيروت ، في عيون الذين أحبوها وعانوا منها ومن أنفسهم ، فالمكان بطل في هذه الروايات ، مثلما هي شخصياتها التي تحتل مساحات حدث ، والتي لا تحتل ، لأن الكاتب يهتم بالشخصية العابرة ، اهتمامه بالشخصية الأساسية ، فلا يترك احدى شخصياته ، دون أن يوصلها الى موقع جديد ، يختلف عن الموقع الذي ظهرت فيه أول الأمر .

لكن هذا لا يشكل أهم السمات في روايات عمامة ، لأنه قد يشكل عاملا مشتركا لدى كثير ممن يكتبون ، والسمة الأساسية التي يتميز بها هذا الكاتب ، تكمن في الأسلوب الخاص الذي يكتب به ، حتى قيل انه صاحب « صوت متميز في الرواية الفلسطينية ، فله أسلوبه الخاص ولغته الخاصة » ، وهو أمر لا يغيب عن قارئه ، منذ السطور الأولى . انه يكتب ، وكأنه يتحدث ، ولكن بلغة عربية سليمة (قد يشوبها القليل من الأخطاء النحوية) ، ومع ذلك ، فهي تبدو مثل حديث حميم ، من صديق الى صديق ، وبلهجة فلسطينية حميمة ، وبذلك يقترب من قرائه ، حتى درجة الهمس ، وكأنه يبوح لهم بأسراره الخاصة ، رغم المنحى الجديد الذي يتخذه في شكله الروائي .

ولعل أبرز سمات هذا الأسلوب ، هو الاقتصاد في اللغة ، فالثرثرة غائبة ، حتى في السرد والوصف ، والكلمات لا تزيد عما تريد أن تقول ، كما أن الأحداث تسير في الاتجاه ذاته ، لتكون بالقدر الذي تريده الفكرة ، أو الذي يرسم الصورة المطلوبة .

وعلى الرغم من أن الروايات الثلاث ، تحكي عن أحداث من الذاكرة ، الا أن قدرتها على النقد توحي بما يفترض أن يكون عليه الفكر والسلوك ، في المستقبل ، وتفتح بابا لهذا المستقبل . لا يقفله أي احباط .

واذا كانت الخزعندار والحومة تمهيدا لكتابة (الولد سلمان) ، فان الرواية قد كتبت بالفعل ، لتكرس كاتبها واحدا من كتاب الرواية القادرة على أن تكون فعلا حقيقيا . □

كان طيفه حقل عنب

شعر : محمد البقلوطي*

مَرَّبي
مورقاً عِند بابِ المساءِ ،
عاجَلَتْهُ النهاياتُ ،
عانقني ، ومشى .

***

كان طَيفُهُ حقلَ عِنبٍ ،
كان قلبُهُ عنقودَ خمرٍ ،
وتُفاحةً مِنْ لَهَبْ .
كان كفّهُ مِدفأةً للفَراشِ ،
ومروَحةً للتعَبْ .
وأنا
كنتُ حينَ أراهُ أفِرُّ إليهْ .
كان يحملُ « قرطاجَ » في ضِفّتيهِ ،
ويرحل في المنتهي ،
كلّما فزعت موجَةٌ ،
أو تعثّر نَجمٌ لنا ،
قال : ها أنذا .
كيف لا ؟ !
هو ذاكَ الذي أنجبَتْهُ الصّباحاتُ ،
فاستنشقَتْهُ الحُقولُ ،
وصارتْ تقول لهُ ما تقولُ ،
فَيمضِي ،
وبين الضلوع سماءٌ ، وماءٌ .
يؤسسُ بُعْدَ الكلامِ ،
ويَرسُم شكْلَ المدَى للمدَى .
مرة قال للرّيح :
يا ريحُ ، من أين تأتِي العواصفُ ؟
كيف تجيء ؟
إنني طافحٌ بجنونٍ ،
وأنت رفيقةُ هذا الجنونِ الشّذِيِّ ،
إنني راحلٌ ،
والنوارسُ قد أينعتْ في خلايا الجسَدْ ،
وارتقتْ جبهتِي ،
قال ما قال للرّيحِ ،
ثم جرَى مورقا في دمِي
كيف لا ؟
هو ذاكَ الذي
كان طيفه حقلَ عِنبٍ ،
كان قلبه عنقودَ خمرٍ ،
وتفَاحةً من لهَبْ .

***

هو عانقَني ، وافترقْنا ،
ولَمّا تزلْ ذكرياتٌ لنا ،

* شاعر وكاتب من تونس



تَبْتنِي الآنَ أعشاشها في الفؤادْ .
هو عانقني ، واحترقنا ،
وكالحُلمْ عادْ .
قلتُ لهُ :

أيها العابرُ من دَمِي لِدَمي ،
أيها الطالعُ الآنَ مثل بنفسجةٍ
مَنْ عذابي ، ومن عَدَمي ،
يا رفيقي ،
إلى أينَ تمضي ، وأنتَ رفيقي ؟
الى أينَ تمضي ،
وأنشودةً كالحريقِ تُضيء خُطاكَ ،
تَذُرُ شذاكَ ، هُنا ، وهُناكَ ،
تُوحّدُ بِكْ ،
تَحتسي في المساء خَريرَ رؤاكَ ،
وتَرقصُ لَكْ ؟
ثم في الليلِ تسألني ،
هل أراكَ !
أقولُ : بَلَى
هُو ذاكَ الذي . .
كانَ طَيفهُ حقلَ عَنَبْ ،
كانَ قلْبُهُ عنقودَ خَمْرٍ ،
وتفاحة مِنْ لَهَبْ .

ل غ ة

جمال العربية

بقلم : محمد خليفة التونسي

سُؤالان وَجوابان

في صفحتنا اللغوية السابقة (العربي/ العدد/ ٣٤٠/ مارس سنة ١٩٨٧) أجبنا عن سؤالين من خمسة أسئلة وجهها الينا السيد/ أحمد عبد الله حمدان العوريفي (الزرقاء / الاردن) ، وهنا نلخص سؤالين من الاسئلة الباقية ، ونجيب عنهما .

إعراب كلمة

س ٣ - ما اعراب « كلمة » في الآية القرانية « كبرت كلمة تخرج من أفواههم »

- هي تمييز منصوب .

المسند والمسند اليه

س ٤ - طلب مني أحد الدارسين الجامعيين استخراج آيات من القرآن كأمثلة على المسند والمسند اليه ، وهو باب أراه جديدا في قواعد اللغة العربية ، فسألته ان كان يريد بكلامه المضاف والمضاف اليه ، فلم يجب لانه هو ايضا لا يعرف ، وانا اسألكم هل التسميتان لمسمى واحد أم غير ذلك ، وان كان الاخير فأرجو افهامي معنى المسند والمسند اليه .

- للعلوم - على اختلاف مجالاتها - لغاتها الخاصة التي تتمثل في مصطلحاتها ، ويكاد كل علم ان يستقل بمصطلحاته ، ويتوقف فهمه على فهمها كما يحددها أهله ، لا بمعانيها الشائعة في اصل اللغة كما يتداولها المتكلمون ، ولهذا درج كثير من علمائنا عند الشروع في كتابة موضوع ما أن يعرفوه لغويا ، ثم يوضحوا معناه اصطلاحا (أي اصطلاحهم الخاص) .

فنحن نقول مثلا : هذه حجرة لها أربع نوافذ وباب ، ولا نقصد بالكلمات « الحجرة ونوافذ وباب » معانيها اللغوية ، بل نقصد بكل منها معناه الخاص ، فليست الحجرة أيَّ مساحة محجرة أو محجورة أو محدودة بأي حد ، بل هي بناء خاص ، وليست النافذة أي فتحة أو ثقب ، بل فتحة خاصة في جدار ، وليس الباب أي مسلك بل موضع للدخول

أو الخروج ، أو أداة تفتح وتغلق على وفق الحاجة ، وهذه هي معاني الكلمات في علم الريازة (العمارة) والباب في العمارة غير الباب في تقسيم مؤلَّف،وغير الباب في علم كعلم النحو والصرف . والاشتباه أو الاشتباك بين المسند والمسند اليه ، وبين المضاف والمضاف اليه،مصدره التوقف عند ظاهر المعنى اللغوى العام وهو نسبة المسند إلى المسند اليه ، ونسبة المضاف الى المضاف اليه ، ففي كلا الجانبين منسوب ومنسوب اليه بضم كلمة تدل على المنسوب الى كلمة تدل على المنسوب اليه .

وينحسم الاشتباه أو الاشتباك بين الجانبين اذا عرفنا ما يدل عليه كلا المصطلحين في كلا الجانبين ، فعرفنا العلاقة بين كل مصطلح وصاحبه في كل جانب ، وأهم ما ينبغي فهمه في اي كلام بأي لغة هو معرفة علاقات كلماته بعضها ببعض في سياقها وهذه العلاقات من اهم الخصائص التى تميز لغة من لغة ، ومعنى جملة من معنى جملة مهما تتشابه الفاظها .

والعلاقة بين المضاف والمضاف اليه تخالف العلاقة بين المسند والمسند اليه كما يختلفان وظيفة وترتيبا في سياق الكلام . فالمضاف غالبا اسم يُضم الى مثله ليتعرف به أو يتخصص به ، فاذا قلنا مثلا : عاصمة مصر ، أو كتاب هذا ، أو مفتاح الحجرة ، أو أبي ، فكل من الكلمات : عاصمة ، وكتاب ، ومفتاح ، وأب ، كانت نكرة فلما اضيفت الى الكلمة التى تليها والتى هي معرفة صارت معرفة ، واذا قلنا : مفتاح سيارة ، أو حجرة دراسة ، أو كوب لبن ، فكل من الكلمات : « مفتاح ، وحجرة ، وكوب » ، نكرة تخصصت باضافتها الى الكلمة التى تليها ، والكلمة الأولى في كل كلمتين مزدوجتين تسمى مضافا والثانية تسمى مضافا اليه ، ولابد ان يتقدم المضاف على المضاف اليه في ترتيب الكلام ، وقد يكون المضاف صفة لا اسما مثل طويل القامة ، وحسن الرأي ، طيب القلب ، والوصف هنا مضاف الى معموله وهذه الاضافة لفظية لا تفيد تعريفا ولا تخصيصا . وقد يكون المضاف اسم زمان والمضاف اليه جملة كقوله تعالى : هذا يوم ينفع الصادقين صدقُهم .

ويختلف الاسناد بين المسند والمسند اليه عن الاضافة،فكل جملة تتكون غالبا من ركنين:مسند ومسند اليه فاذا قلنا مثلا : طلع القمر - فلفظ « طلع » مسند ، لانه يفيد اسناد الطلوع الى القمر ، ولفظ القمر مسند اليه لانه يفيد ان الطلوع منسوب اليه ، فالمسند هو المحكوم به أو المخبر به او المتحدث به ، والمسند اليه هو المحكوم عليه او المخبر عنه أو المتحدث عنه ، وهذه النسبة أو هذا الاخبار أو هذا التحديث يسمى « إسنادا » والمسند يفيد الحكم على المسند اليه ثبوتا أو نفيا فاذا قلنا « الله واحد لا شريك له » كان حكمنا يفيد ثبوت « أحدية الله » ويفيد نفى الشرك له . ومن أمثلة المسند خبر المبتدأ ، مثل « الله احد » والفعل التام ، مثل:طلع القمر، واخبار النواسخ (كان واخواتها وان واخواتها) .

ومن أمثلة المسند اليه المبتدأ مثل : « زهير شاعر » وفاعل الفعل التام ، مثل «قد أفلح المؤمنون»ونائب الفاعل : كوفىء المجتهد ، واسماء النواسخ (كان وأخواتها ، وان وأخواتها) .

ويسمى المسند اليه في علم المنطق « موضوعا » ، لأن الانسان يضعه أمام فكره ليضيف اليه من الاحكام مايراه ، ويسمى المسند « محمولا » لأن الانسان يحمله على الموضوع الماثل امامه أويسنده إليه .

وباب الاسناد و المسند اليه ليس من جديد عصرنا ، بل هو قديم ، ولكن علماء القواعد لا يتعرضون له في كتب النحو بهذه المصطلحات ، بل في كتب البلاغة عند بداية كلامهم على « علم المعاني » ومن أشهر من بحث هذه العلوم البلاغية عبد القاهر الجرجاني (٤٧١) هـ ولبعض من سبقوه إشارات الى موضوعاتها ، ولبعض من لحقوه توسع فيها ومنهم السكاكي (٦٢٦ هـ) صاحب كتاب « المفتاح » . □

شعر

جمال العربية

هكذا غنى الآباء

بين التدلل والتذلل

لأبي فراس الحمداني

اسمه الحارث بن سعيد بن حمدان ، أبوه من قبيلة تغلب ، وامه رومية ، كناه ابوه بأبي فراس (كنية الأسد) فكان فارسا كما أمّل فيه ، وقد اشتهر في الشعر بكنيته ونسبه (ابو فراس الحمداني) ، وكان الحمدانيون اهل فروسية ورياسة ، وقع بأسهم بينهم طمعا في السلطة ، وحين كان شاعرنا في الثالثة قتل ابوه ، قتله ابن اخيه ناصر الدولة لتزاحمهما على ولاية الموصل ، والملك عقيم . تربى ابو فراس في رعاية أمه ، وكان بها بارا طول عمره ، وقد ضمه اليه سيف الدولة ابن عمه وزوج اخته الذي كان امير حلب في الشام ، فأحسن تربيته على ايدي علماء في الادب والعلم والفروسية ، وكان يحبه لقرابته وصهره وشجاعته ونبله ، وعندما كبر شاركه في حروبه مع الروم . وولاه منبج ، وفي موقعة حولها حاصره جيش رومي فأصيب بسهم في فخذه وأخذ اسيرا الى القسطنطينية ، وبقي هناك الى ان افتدته امه واميره سيف الدولة ، وقد عاش بعده ، ثم قتل وهو شاب (٣٢٠ - ٣٥٧هـ ٩٣٢ - ٩٦٧م) على يد قائد لابن سيف الدولة .

وهذه الأبيات هنا من مقدمة قصيدة وصف فيها اسره وجلادته ، وقد غنت بعضها مغنيتنا الكبيرة السيدة أم كلثوم ، والقصيدة ٥٤ بيتا ، وله ديوان مطبوع يضم مقطوعات وقصائد كثيرة ، منها قصيدة تبلغ ٢٣٠ بيتا .

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصبرُ … أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ

بلى أنا مشتاقٌ ، وعندي لوعةٌ … ولكنَّ مثلي لا يذاعُ له سرُّ[1]

إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى … وأذللتُ دمعاً من خلائقه الكِبرُ[2]

تكادُ تضيءُ النارُ بين جوانحي … إذا هي أذكتَها الصبابةُ والفكرُ[3]

معلِّلتي بالوصلِ والموتُ دونه … إذا متُّ ظمآناً فلا نزلَ القطرُ

حفظتُ وضيّعتِ المودّةَ بيننا … وأحسنُ ، من بعضِ الوفاءِ لكِ ، العذرُ

وما هذهِ الأيامُ إلا صحائفٌ … لأحرفِها ، مِنْ كفِّ كاتبِها ، بِشْرُ[5]

بِنَفسِي مِنَ الغَادِينَ فِي الحَيِّ غَادَةٌ ... هَوَايَ لَهَا ذَنْبٌ ، وَبَهجَتُهَا عُذْرُ(٦)

تَرُوغُ إلى الوَاشِينَ فِيَّ ، وَإِنَّ لِي ... لأُذْناً بِهَا ، عَنْ كُلِّ وَاشِيَةٍ ، وَقْرُ(٧)

بَدَوْتُ ، وَأَهلي حَاضِرُونَ ، لأنَّنِي ... أرَى أنَّ دَاراً ، لَستِ من أهلِهَا ، قَفْرُ(٨)

وَحَارَبْتُ قَوْمي في هَوَاكِ ، وَإِنَّهُمْ ... وَإِيَّايَ ، لَوْلا حُبُّكِ ، المَاءُ وَالخَمرُ

فَإِنْ يَكُ مَا قَالَ الوُشَاةُ وَلَمْ يَكُنْ ... فَقَد يَهدِمُ الإيمَانُ مَا شَيَّدَ الكُفرُ(٩)

وَفَيتُ ، وَفي بَعضِ الوَفَاءِ مَذَلَّةٌ ، ... لإِنسَانَةٍ في الحَيِّ شِيمَتُهَا الغَدْرُ

وَقُورٌ ، وَرَيْعَانُ الصِّبَا يَسْتَفِزُّهَا ؛ ... فَتَأْرَنُ ، أحْيَاناً ، كَمَا أرِنَ المُهْرُ(١٠)

تُسَائِلُنِي : مَنْ أنتَ ؟ وَهْيَ عَلِيمَةٌ ، ... وَهَلْ بِفَتًى مِثْلِي عَلى حَالِهِ نُكْرُ

فَقُلتُ كَمَا شَاءَتْ وشَاءَ لَهَا الهَوَى : ... قَتِيلُكِ ! قَالَتْ : أيُّهُمْ ؟ فَهُمُ كُثْرُ

فَقُلتُ لَهَا : لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتِي ، ... وَلَمْ تَسأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكِ بِي خُبْرُ !(١١)

فَقَالَتْ : لَقَد أزْرَى بِكَ الدَّهرُ بَعدَنَا ، ... فَقُلتُ : مَعَاذَ اللهِ بَل أنتِ لا الدَّهرُ(١٢)

وَمَا كَانَ لِلأحزَانِ ، لَوْلاكِ ، مَسلَكٌ ... إلى القَلْبِ ؛ لكِنَّ الهَوَى للبِلَى جِسرُ(١٣)

وَتَهْلِكُ بَيْنَ الهَزْلِ وَالجِدِّ مُهجَةٌ ... إذا مَا عَدَاهَا البَيْنُ عَذَّبَهَا الهَجْرُ(١٤)

فَأيْقَنْتُ أنْ لا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقٍ ؛ ... وَأنَّ يَدِي مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ(١٥)

وَقَلَّبْتُ أمْرِي لا أرَى لِيَ رَاحَةً ، ... إذا البَيْنُ أنْسَانِي ألَحَّ بِيَ الهَجْرُ

فَعُدْتُ إلى حكمِ الزَّمَانِ وَحكمِهَا ، ... لَهَا الذَّنْبُ لا تُجْزَى بِهِ وَلِيَ العُذْرُ

١ـ لوعة : حرقة

٢ـ أضواني : أضعفني . . بسطت يد الهوى . . . : تخاذلت واستسلمت

٣ـ جوانحي : ضلوعي . أذكتها : أشعلتها . الصبابة : الشوق

٤ـ معللتي : مطمعتي . القطر : المطر ٥ـ البشر : محو الكتابة

٦ـ الغادة : الفتاة الناعمة اللينة . بهجتها : جمالها ، وهذا يدعو الى مسامحتها

٧ـ تروغ : تميل . الواشي : ناقل كلام السوء . وقر : ثقل : المعنى أنها تسمع لقالة السوء عني ، وأنا أسد أذني

٨ـ بدوت : سكنت البادية ، حاضرون : يسكنون الحاضرة ، القفر : الخلاء ٩ـ لم يكن : لم يصدق

١٠ـ وقور : رزينة . ريعان الصبا : بداية شبابها . يستفزها : يستخفها ويحركها . تأرن : تمرح

١١ـ لم تتعنتي : لم تعاندي وتسألي للمغالطة . الخبر : العلم

١٢ـ أزرى بك : أصابك بالعيب ١٣ـ الجسر : القنطرة ، والطريق

١٤ـ عداها البين : جاوزها الفراق ١٥ـ صفر : فراغ ، أي فارغة

---

* أكثر الناس تزدهيهم الأماني ، ويعبث بعقولهم الاغراء ، فإذا هم من صرعى الغرور ! .

(د . طه حسين)

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك ، وامتاعك ، بالاضافة الى إثراء معلوماتك ، وربطك بتراثك الفكري والحضاري ، بتعويدك على البحث الجاد المثمر في المعاجم ، والموسوعات ، وغيرها من المراجع . والمطلوب منك ايجاد اجابات هذه الشبكة ومقابلة اجاباتك بالحل الذي سينشر في العدد القادم .

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
■										٢
			■							٣
■		■					■			٤
		■								٥
	■			■				■	■	٦
	■				■	■				٧
										٨
		■	■				■			٩
						■				١٠

الكلمات الأفقية :

١ . خطة عامة
٢ . من أمهات المعاجم العربية للزبيدي
٣ . يتبغن ، مجلس القوم
٤ . أكثر من الكلام ، يصدر صوتا حاداً
٥ . أحمر اللون ، جلد رقيق يكتب فيه
٦ . جمع رمّة ، تألم
٧ . فضل الكلام ، شقّ بالمبضع
٨٧ . قصاص مصري معروف
٩ . ما يدخل العروة ، رافعة مقلوبة ، أعمى
١٠ . صلف مقلوبة ، النخبة المختارة

الكلمات الراسية :

١ . من كبار غزاة التتار ، صحابي يلقب بأسد الله ورسوله
٢ . فيلسوف وجودي ، منسوب لمدينة في حضرموت
٣ . تجدها في تجارة ، من جموع جرم
٤ . مادة مشعة من اكتشاف مدام كوري ، بمعنى وشوش
٥ . انقسام الشخصية ، اقترب
٦ . توبّخن ، عذراء
٧ . إرواء مقلوبة ، منها ما هو ذهني وما هو بدنيّ
٨ . خليج صغير ، خيرات
٩ . يأخذ بالرأس ، من الحروف العربية
١٠ . عملية يستخرج بها الجنين

حل مسابقة العدد الماضي مارس ١٩٨٧

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ء	ا	ط	ع	ن	ب	ل	س	ا	و	١
■	د	و	■	ي	د	ن	ك	ل	ا	٢
ي	ب	ا	ت	ك	■	■	ن	م	ش	٣
م	ا	ر	■	ل	ص	م	■	ع	ن	٤
■	ر	ق	س	■	ه	ع	ي	ل	ط	٥
ن	ه	■	م	د	ل	ا	ل	ق	ن	٦
ل	م	س	ي	■	ت	ص	و	ا	■	٧
س	■	ف	ع	ر	■	ر	■	ت	ل	٨
و	ا	ه	■	ب	ص	■	ص	■	ع	٩
ن	و	ي	ب	ا	ه	و	ل	ا	■	١٠

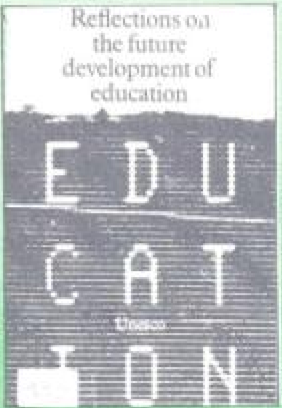


مكتبة العربي

كتاب الشهر

تأليف : مجموعة من المختصين التربويين

عرض وتحليل : ياسر الفهد



تأملات في مستقبل تطور التربية

يزداد الطلب على التعليم ازديادا هائلا في جميع أنحاء العالم ، مما يعني الحاجة الى مزيد من النفقات في وقت لانشهد فيه الا تراجعا اقتصاديا ، وتضخما نقديا عالميا ، فاذا استمر التطور الحالي للاوضاع فان معنى ذلك أن التربية تقف على أبواب أزمة اقتصادية حادة .

ويحاول هذا الكتاب الجديد أن يرسم ملامح المستقبل التربوي ، ويحدد اتجاهاته ومساراته ، منيرا أمامنا الدرب ، ومقترحا بعض الحلول الممكنة .

كتاب الشهر

صدر هذا الكتاب برعاية اليونسكو ، باللغة الانجليزية ، في باريس عام ١٩٨٥ م وهو يحلل الاتجاهات التربوية الأساسية في العالم منذ الستينات ، منطلقا بعد ذلك الى سبر أغوار المستقبل ، وتقصي العوامل الرئيسية التي يمكن أن تؤثر في التربية حتى نهاية القرن الحالي ، ومعنى ذلك أن الكتاب الذي يعتمد على نتائج ندوة دولية سبق أن عقدت في باريس في بداية الثمانينيات ينظر الى الوراء والى الأمام في آن واحد ، واضعا الماضي والحاضر والمستقبل في منظار البحث والتقصي ، وقد اشترك في تأليف الكتاب لفيف من كبار المختصين التربويين العالميين ، منهم (ايفان بيرند ، وتورستن هوزن ، وجين بليا ، وشابور راسخ ، وانجريد ايد ، ولويس سوتو ، ودنيس أوزبورن ، وغيرهم)

نظرة إلى الوراء

يبدأ الكتاب بتسليط بعض الأضواء على ماضي التربية ، مبينا أن جذور التعليم النظامي نشأت في أوروبا ، في العقود السابقة للثورة الصناعية ، وقد استمر تطور التعليم الأولي والالزامي في عدة بلدان أوروبية ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، أما التعليم الثانوي والعالي فظل محصورا ضمن صفوة من الناس . وهذه الحال تمثل المرحلة الأولى من تطور التربية ، كما يراها الكتاب ، وتشمل المرحلة الثانية الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، فخلال هذه الفترة التي رافقها بدء انطلاقة التقنية أحرز التعليم الثانوي توسعا ملحوظا ، بينما لم يحقق التعليم العالي تقدما مماثلا ، وفي المرحلة الثالثة التي تبدأ في الخمسينيات ، مع انبثاق الثورةالعلمية والتقنية والنمو الاقتصادي السريع ، أخذ التعليم في مختلف مراحله الأولية والثانوية والعالية ينتشر بشكل لم يسبق له مثيل ، وخلال الستينات والسبعينات ارتفعت الأصوات تنادي بالتعليم من أجل الجميع ، بدلا من تعليم الصفوة ، ويبرز مبدأ ديموقراطية التعليم ، ليحل محل الاتجاه نحو تعليم الاقلية ، ونتيجة لذلك ازداد عدد المسجلين في مدارس العالم منذ عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٨٠ بمقدار الضعفين تقريبا ، فارتفع من زهاء (٤٣٦,١) مليونا الى (٨٤٥,٣) مليونا ، وكان معدل التوسع الكمي في أعداد المتعلمين أكبر في الدول النامية ، من الدول الصناعية ، اذ بلغت نسبته ١٢٢٪ تقريبا عند الأولى ، مقابل ٧٨٪ عند الثانية .

ولهذا الارتفاع أسباب عديدة ، منها النمو « الديموغرافي » ، وحاجة الثورة الصناعية الى « كوادر » مؤهلة ، ودور « اليونسكو » في تشجيع التعليم .

والى جانب التوسع الكمي في أعداد المتعلمين - خلال العقدين السابقين الذي صاحبه توسع مماثل في أعداد المعلمين - حدثت تطورات تربوية نوعية هامة ، ترمي الى اصلاح التعليم وتحديثه ، من بين هذه التطورات : إدخال العمل في التعليم ، وربط التربية بالحياة اليومية وبالبيئة المحيطة ، والتوسع في التعليم المهني ، وازدياد الفعاليات التعليمية خارج المدرسة ، وربط مضمون التعليم بقيم المجتمع ، كاحترام الآخرين ، والشعور بالمسؤولية ، والدفاع عن السلام والعدالة ، وتبني المبادىء الأخلاقية .

ومن الملاحظات الهامة ذات المغزى التي يقدمها (ايفان بيرند) - أحد مؤلفي الكتاب - أن التطور التربوي هو شرط ضروري للتطور الاقتصادي والاجتماعي ، والدليل الملموس الذي يسوقه على ذلك أن التقدم التربوي الكمي والكيفي هو الذي فتح الباب على مصراعيه أمام الثورة الصناعية في أوروبا ، حيث أن التعليم هناك هو الذي مهد لامتصاص المعرفة التقنية الجديدة ، ويؤكد (بيرند) أنه بدون متعلمين لن يكون هناك أي تقدم صناعي ، أو تغيرات اجتماعية واقتصادية في أي قطر .

مشكلات تربوية معاصرة

بعد هذه الوقفة مع الماضي - لاسيما مع العقدين الأخيرين - ينتقل الكتاب الى رسم صورة عن الواقع التربوي الراهن ، ، من خلال عرض أهم المشكلات التربوية المعاصرة التي تعاني منها الدول المتقدمة والدول النامية على السواء بدرجات مختلفة ، وبقدرات متباينة على مواجهتها ، ومن بين هذه المشكلات الطلب الهائل المتزايد على التعليم الرسمي ، ناهيك عن التفجر التربوي المتمثل ببقاء مزيد من المتعلمين في المدارس والجامعات فترات أطول مما كان عليه الحال في الماضي ، حتى لقد أصبحت هذه المؤسسات التعليمية جزءا من الحياة اليومية للافراد مدى الحياة . ويذكر الكتاب أيضا مشكلة تقصير الأسرة في واجباتها التعليمية ، وما يترتب على ذلك من زيادة الاعباء الملقاة على عاتق المدرسة ، مما يجعل التقسيم المناسب للمهام بين المدرسة والأسرة من تحديات المستقبل البارزة . وهناك أيضا - مشكلة مجاراة المتعلم للمعلومات الجديدة ، وضرورة لحاقه بها ، فالمعلومات في عالمنا المتغير المتقدم تقنيا تعتق مع مرور الزمن ، مما يوجب على المدرسة أن تزود الطالب بمعلومات صالحة مدى الحياة ، ولما كان هذا غير ممكن دائما فان الطالب يظل بحاجة الى تجديد تعليمه ، حتى يواكب التقدم ، ويلحق بركب المعلومات المتغيرة باستمرار . ولم ينس المؤلفون المشكلة الناجمة عن استعمال التقنية في التعليم ، ففي حين نجد معظم الكتابات تصفق وتهلل لهذا الاستعمال ، وتدعو الى التوسع فيه ، يحذرنا الكتاب من أن هذا ينطوي على مشكلة هامة ، وهي مشكلة انعدام التفاعل بين المعلم والتلميذ ، وغياب الفرص لبناء جسور الثقة بينهما . ولم يغفل المؤلفون - أيضا - عن مشكلة ضعف الاتصالات الشخصية بين صانعي القرار التربوي وبين المنفذين ، وذلك بسبب توسع النظام التعليمي وازدياد الوحدات الادارية . ويشير الكتاب - كذلك - الى مشكلة انعدام التوافق بين الكم والكيف التربويين في البلدان النامية ، فقد أدى الضغط من اجل الالتحاق بالمدرسة الى التضحية بالكيف لحساب الكم ، مع كل ما يعنيه من تدهور في مستوى التعليم . وهناك أخيرا مشكلة الهدر الناجم عن التسرب والرسوب .

تحديات المستقبل

بعد القاء الأضواء على ماضي التربية ومشكلاتها الحاضرة تأتي الى الموضوع الرئيسي الذي يتمحور حوله الكتاب الذي يتعلق بمستقبل تطور التربية . يتم هذا التطور بعملية معقدة للغاية ، لأن التربية ليست قطاعا مستقلابذاته ، بل انها تتفاعل بصورة مستمرة مع قطاعات أخرى في المجتمع ، كالاقتصاد والسياسة والثقافة وغيرها . يبين المؤلفون أن دور التربية سيزداد تعقيدا في المستقبل ، لان عليها أن تتعامل مع موضوعات جديدة ، نابعة من مشكلات المجتمع المعاصر ، لم تكن تتعامل معها في الماضي ، منها موضوعات نزع السلاح ، وحفظ السلام ، والقضاء على العنف والفقر والبطالة ، وحماية البيئة والغاء الفوارق بين الدول الغنية والدول الفقيرة والسيطرة على التقدم العلمي والتقني ، ومواجهة مشكلات الطاقة ، وغير ذلك . ولعل أهم ما يعالجه كتاب (تأملات في مستقبل تطور التربية) عرض العوامل التي يتوقع أن تؤثر في تطور التربية حتى نهاية القرن الحالي . وتأتي على رأس هذه العوامل التغيرات « الديموغرافية » ، فاحصاءات الأمم المتحدة تشير الى أن سكان العالم سيزدادون بين عامي (١٩٨٠)و(٢٠٠٠) بنسبة ٤٠٪ ، أي أن عددهم سيصل الى ٦,٢ آلاف مليون نسمة في نهاية القرن الحالي ، وسيؤدي ذلك الى ارتفاع أعداد من هم في سن التعليم ، ثم ازدياد أعداد المسجلين في المدارس ، مع ما يستلزمه ذلك من نفقات وأماكن ومعلمين .

ويذكر الكتاب بعد ذلك العوامل الاقتصادية ، فقد أدى الكساد الاقتصادي العالمي الى البطالة ، والتضخم ، وازدياد الطلب على الوظائف ، وكذلك أدى الى وضع قيد على الانفاق على التعليم ، وهذا كله يقتضي تخطيطا تربويا جديدا لمواجهة الاوضاع المذكورة ، لاسيا في الدول النامية .

ولم ينس المؤلفون عامل العلم والتقنية ، فازدياد

دور هذا العامل في حياتنا اليومية يجعل الانسان بحاجة الى التعرف على التقنيات العلمية المحسنة باستمرار ، ولاشك أن السنوات القادمة الممتدة من الآن حتى نهاية القرن العشرين سوف تشهد تقدما كبيرا في علوم الطاقة النووية والالكترونيات و« السيبرناطيقا » و« الأتمتة » وغيرها ، مما يؤدي الى ضرورة ادخال تغييرات في المناهج لاسيما مناهج العلوم ، كما يستلزم اعداد المتعلمين لمواجهة التغير ، ومواكبة التطورات الجديدة ، والتكيف بفعالية مع البيئة .

وهناك أيضا العوامل البيئية ، فالاستثمار غير المعقول للمصادر الطبيعية ، والاستعمال غير المنظم للتقنية الملوثة ، أديا الى الاخلال بتوازن البيئة ، والى اثارة التساؤل حول علاقة الانسان بالطبيعة ، وهذا الوضع يلقي على عاتق التربية مهمة ادخال مواد خاصة بحماية البيئة ، ومحاربة التلوث الى المناهج .

ويذكر الكتاب أيضا العوامل الاجتماعية ، كالقيم والمعتقدات الدينية ، ونماذج السلوك ، والفقر ، والفوارق الاجتماعية ، وعدم تكافؤ الفرص ، وكذلك الفراغ الناجم عن زيادة الانتاجية ، والتقدم التقني ،وما يرافق هذا الفراغ من الاكثار من أوقات العطل والنشاطات الترفيهية ، خاصة في الدول المتقدمة . ونوقع أن يكون لكل هذه العوامل - كما يقول الكاتب - تأثير في مسار تطور التربية ، وكذلك الأمر بالنسبة للعامل السياسي ، وعلى الأخص في دول العالم الثالث ، فالتربية في هذه الدول تعتمد على المؤسسات المستقرة ، وعلى التزام قوي من جانب الدولة ، لذلك فان تزعزع الاستقرار الناجم عن استمرار التمزقات الداخلية في الدول الصغيرةسوف يؤثر سلبيا في أوضاع التربية ، ومن جهة ثانية فان العامل السياسي كثيرا ما يكون حصيلة قوى اقتصادية واجتماعية ، لها - هي نفسها - تأثير في التطور التربوي .

ويؤكد المؤلفون أيضا أهمية العامل الدولي ، فاذا تحقق نزع السلاح ، وساد السلام العالم ، فان كثيرا من الاموال المخصصة للسلاح والاقتتال ستكرس للانفاق على المشروعات التربوية .

مقترحات وحلول :

يقدم لنا الكتاب كثيرا من المقترحات والحلول لدفع عجلة التربية نحو التقدم ، على الرغم من الأوضاع العصيبة التي يتوقع أن نمر بها ، فالمؤلفون يشددون على ضرورة ربط التعليم بالتطوير ، وتكييف نظام التعليم ومحتواه مع التقدم العلمي والتقني ،ومع حاجات السوق والعمالة ، كما يدعون الى توزيع أكثر عدلا وانصافا في الخدمات التعليمية ، الى تحقيق توازن أكبر بين التعليم الأولي ، من جهة ، والتعليم الثانوي والعالي من جهة أخرى ، وينادي الكتاب بتوجيه التعليم نحو أهداف جديدة ، -مثل محاربة العنف والجنوح ، وتدهور البيئة ، -مع الاهتمام بالاستثمار الزراعي ، خصوصا في البلدان التي يهدّدها القحط والمجاعة ، أما في مجال الدوام فيقترح المؤلف توفير مرونة أكبر في الدوام المدرسيّ ، سواء بالنسبة لسن الالتحاق أو عدد أيام الدوام الفعلي للطالب ، في اثناء السنة الدراسية ، كما يوصي بالعناية بالدوام الجزئي ، والتعويض عن الدوام الكامل الطويل بتحسين نوعية التعليم . ومن الاقتراحات الأخرى للكتاب إعادة تقييم دور المعلم في التعليم ، فهناك ازدياد هائل في تكاليف الموظفين ، يقابله نقص في اعداد المعلمين المؤهلين بشكل جيد ، وهذا يجعل من الضروري ايجاد الوسائل الكفيلة بالافادة من وقت المعلم بطريقة اقتصادية ، ومن بين هذه الوسائل التوسع في استعمال وسائل وتقنيات جديدة في التعليم .

ومن الموضوعات التي يوليها الكتاب اهتماما بالغا مسألة النفقات ، اذ أن مستقبل التربية برمته يعتمد -

الى حد كبير ـ على النواحي المالية والاقتصادية .

وقد بين إحصاء أجري في عام ١٩٧٨ أن متوسط ما تنفقه الدول النامية على التعليم يبلغ ٤,١٪ من دخلها القومي العام ، يقابل ذلك ٥,٩٪ في الدول المتطورة ، واذا كان تكاثر السكان يوجب توسيع التعليم ، فان الكساد الاقتصادي لم يسمح بزيادة الانفاق على التعليم بدرجة تكفي لمواجهة التوسع المرتقب ، لذلك يقترح المؤلفون ترشيد الانفاق على قطاع التربية بدلا من زيادته ، مبينين أن الدول يمكن أن تتبع عدة طرق لتحقيق الترشيد ، من ذلك تحسين الكم التربوي ، على حساب الكيف ، مع المحافظة على معدل النفقات ؛ وهذا سيؤدي الى زيادة أعداد التلاميذ بالنسبة لكل معلم ، ورفع قدرة استيعاب الابنية المدرسية للتلاميذ ، وخفض أعداد الموظفين الاداريين ، وتقليص استخدام الوسائل التعليمية ، أما خيار تحسين الكيف على حساب الكم فيؤدي الى عكس ذلك تماما ، أي تخفيض نسب التلاميذ الى المعلمين ، وتحسين نظم الادارة والتفتيش ، والتوسع في استخدام الوسائل التعليمية ، الخ ، والسياسة التربوية لكل قطر هي التي تحدد اختيار الاتجاه الكمي أو الاتجاه الكيفي ، وقد بينت الدراسات ـ كما يقول المؤلفون ـ أن معظم دول العالم قد اختارت الخيار الكمي .

ومن الحلول المطروحة في الكتاب تعديل الهرم التعليمي ، فنحن نجد اليوم في الدول النامية مثلا أن التعليم الثانوي والعالي أكثر توسعا من التعليم الأولي ، مع أنه أكثر كلفة منه ، ويقترح الكتاب تقليص التعليم الثانوي والعالي لصالح التعليم الأولي الأقل كلفة ، وذلك توفيرا للنفقات ، وصرفها في مجالات تربوية أخرى . ومن مقترحاته أيضا التوسع في التدريب المهني ، نظرا لأن لهذا التدريب مردودا ماليا بعيد المدى لصالح الاقتصاد القومي .

ويدعو المؤلفون أيضا الى السعي لرفع كفاية النظم التربوية ، والعمل على انقاص أعداد المتسربين والراسبين ، وعلى الرغم من أن هذا ينطوي على زيادة في النفقات على المدى القصير ، فانه يؤدي الى تقليصها على المدى البعيد .

وثمة حل تلجأ اليه بعض الدول مثل كوبا ونيكاراغوا ، يتمثل بالافادة من المتطوعين بدون أجر ، أو الذين يتقاضون أجورا ضئيلة في التعليم . ومعظم هؤلاء لايحملون شهادات ، لكنهم قادرون على التعليم ، لاسيما في مجالات محو الأمية وتعليم الكبار ، ومما يقترحه الكتاب أيضا زيادة الضرائب على بعض السلع الاستهلاكية ، لانفاقها على برامج التعليم .

اهتم المؤلفون بموضوع العلاقة بين التربية ووسائل الاعلام (المذياع ، والتلفاز ، والصحافة ، والسينما) ، ودعوا في فصل خاص من الكتاب الى اعادة النظر في هذه العلاقة ، واحلال التعاون بينها محل الصراع والتنافس . ويتهم المربون مؤسسة الاعلام ـ عادة ـ بالمبالغة في التأكيد على التسلية والامتاع ، على حساب الحقائق العلمية ، ويعتقد مؤلفو الكتاب أن وسائل الاعلام تستطيع أن تساعد التربية ، وتخفف عنها الأعباء ، لأن بإمكانها أن تنقل الرسالة التعليمية نفسها بملايين النسخ ، فان هناك اليوم حاجة لتعليم المزيد من الناس ، وكذلك لتعلم المزيد من المواد والموضوعات الجديدة ، مما يزيد الأوزار الملقاة على عاتق التربية .

ولم يغفل المؤلفون عن صعوبة التعاون بين حقلي التربية والاعلام ، وهم يعتقدون أن هذا التعاون محكوم الى حد بعيد بتقدم التقنية،لاسيما الحاسوب (الكومبيوتر)لأن هذا من شأنه أن يوفر فرصا جديدة لاستخدام وسائل الاعلام في المهام التعليمية .

ملاحظات

تبقى لنا بعض الملاحظات على هذا الكتاب أولها أن هذا الكتاب ـ على الرغم من أهميته البالغة ـ لايمكن أن يندرج ضمن الكتب التي تستند الى علوم المستقبل ، فما عرضه المؤلفون بخصوص احتمالات مستقبل التربية انما هو تأملات وتصورات ، لادراسات مستقبلية منهجية ، كما أنه من جهة ثانية ، لايقدم لنا صورة واضحة عن مستقبل التربية ، ومساراتها القادمة ، بقدر ما يلقي الاضواء على العوامل التي ستؤثر مستقبلا في تطور التربية ، ومع ذلك فان الافكار المستقبلية التي يعرضها الكتاب تعد على درجة كبيرة من الاهمية والقيمة العلمية ، لأنها تساعد المخططين التربويين على استباق الاحداث ، وتطويق الأزمات التربوية القادمة قبل استفحالها .□

من المكتبة العربية

عروبة الجزائر عبر التاريخ



عرض : رشيد خشانة

تعرضت بلدان المغرب العربي أكثر من أي جزء آخر من الوطن العربي الى حملات منهجية لتشويه شخصياتها الوطنية ، وضرب انتمائها التاريخي والحضاري ، ولا جدال في أن الجزائر عانت أكثر مما عانى سواها من هذا المخطط الاستعماري ، بسبب اصرار ما كان يسمى « بالامبراطورية الفرنسية » على ضم الأرض الجزائرية الى التراب الفرنسي ، واعتبارها جزءا منه ، وليس مستعمرة عادية مثل تونس أو السنغال أو المغرب . . لذا قدم الجزائريون أكثر من مليون شهيد ليحصلوا على استقلالهم .

لم يكن جلاء الاستعمار عن أقطار المغرب العربي ، وعن آخر قلعة له فيه ، وهي الجزائر ، ليعني انتهاء وجوده الثقافي ، واقتلاع تأثيره الفكري في العقول ، خصوصا في النخبة المثقفة التي تربت على قيم فرنسا وتاريخها وثقافتها . لذلك ، ظهرت في العقود الأخيرة دعوات تتزعمها تلك النخبة(الفرنكوفونية)،وتنادي بفصل المغرب العربي عن المشرق ، وبمراجعة انتمائه الى الحضارة العربية ، وتصدى لهذا التيار المعادي للعروبة مثقفون وكتاب قوميون ، انكبوا على دراسة تاريخ أقطار المغرب العربي ، ليثبتوا أنها تشكل كلا حضاريا متجانسا نما وتطور في قلب المجرى الكبير للثقافة والحضارة العربيتين ، ولم يترك مجالا لظهور « أمم أو كيانات قومية » متمايزة عن العروبة كما يزعم ذلك دعاة الفرنسة والانعزالية .

ولعل أحد أهم الردود على مزاعم هؤلاء كتاب الأديب عثمان سعدي الصادر عن « الشركة الوطنية للنشر والتوزيع » (الجزائر) تحت عنوان « عروبة

الجزائر عبر التاريخ » . ومؤلف الكتاب مناضل وطني ، انخرط في أحزاب الحركة الوطنية الجزائرية ، ثم انضم الى جبهة التحرير الوطني الجزائري ، وعمل في مكاتبها بالمشرق العربي خلال سنوات الثورة المسلحة ، وكان سعدي من الذين هجروا المدرسة الفرنسية بعد أحداث ٨ مايو (ايار) ١٩٤٥ الدموية ، اقتناعا منه بأن اللغة الفرنسية هي التي قتل على عباراتها وأنغامها خمسة وأربعون ألف جزائري وجزائرية في ثلاثة أيام ، فدخل مدرسة التهذيب الأهلية العربية بتبسة ، وعندما افتتح المعهد العربي الأهلي معهد عبدالحميد بن باديس بقسنطينة سنة ١٩٤٧ ، كان من طلبته ، وتخرج في أول دفعة له ، ثم كان ضمن أول بعثة طلابية توفدها الحركة الوطنية إلى المشرق العربي ، فدرس في جامعة القاهرة عام ١٩٥٢ ، وحصل منها على الليسانس في الآداب العربية عام ١٩٥٦ ، ثم حصل على الماجستير من جامعة بغداد عام ١٩٧٩ ، عن رسالة حول « الثورة الجزائرية في الشعر العراقي » وتقلد منذ عام ١٩٦٢ عدة مناصب دبلوماسية وسياسية .

بربر و عرب

يعرف عثمان سعدي كتابه بأنه « دراسة تاريخية تثبت عروبة هذا الجزء من الوطن العربي منذ العصور التاريخية السحيقة في القدم ، ومنهم البربر ، ومؤلف هذا الكتاب واحد منهم ، فهو كتاب « يرد على المشككين في عروبة الجزائر والمغرب العربي الذين يؤلفون حزب(الفرنكوفونية) بدول المغرب العربي « الأربع » ، ومن هنا نرى المؤلف يضعه في سياق المعركة الفكرية بين العروبة وأعدائها ، يقول : « تدور في هذه السنوات بالجزائر وبقية أقطار المغرب العربي مناقشات تشكك في عروبة هذه المنطقة من الوطن العربي ، وعروبة المغرب أصيلة منذ فجر التاريخ ، فسكانه القدماء ينتمون الى السلالة السامية ، كما ينتمون حضاريا وثقافيا الى المنطقة الممتدة من ساحل عمان شرقا الى شواطىء المحيط الأطلسي غربا ، وهذا هو الذي يفسر لماذا فشل الرومان والوندال والبيزنطيون ، في دمج المغرب بالمجموعة الأوروبية وبالثقافة اللاتينية ، على الرغم من استمرار حكمهم في السيطرة على المغرب أكثر من ثمانية قرون ، وهو الذي يفسر لماذا اعتنق البربر الاسلام ، واندمجوا في الثقافة العربية في نصف القرن الأول من الفتح الاسلامي للمغرب » .

إن الذي يدهش في هذا الكتاب هو أن الدفاع عن العروبة صادر عن نبض بربري فخور بعروبته ، اذ يقول المؤلف في السطور الأولى من الفصل الأول : الهدف من هذه الدراسة اثبات الأصول العربية للبربر ، وأنا أتكلم في هذا المجال بلا عقدة ، فأنا من الذين يقال عنهم بربر ، أنا من الشاوية ، من منطقة الكاهنة ، وصومعة الكاهنة المشهورة تقع على مرمى حجر من منزلي في دوار ثازبنت ، وبئرها التي كانت تشرب منها جيوشها تقع في مغارب القبيلة التي أنتمي اليها ، وكسيلة وبوغرطا وتاكفاريناس وغيرهم من منطقتي ، أي من جبال أوراس . (اللمامشة) . . لكن الفرق بيني وبين بعض المنتمين الى البربر من دعاة النزعة البربرية ، هو أنني درست اللغة العربية ، وتتلمذت سواء في المدارس الثانوية أو في الجامعة ، على يد أساتذة عرب وقبائل (أي بربر) ، مسلمين ووطنيين ، فتحوا عيني على حقيقة أصول البربر العربية ، بينما تتلمذ ذوو النزعة البربرية على أساتذة مستعمرين ، وبطريقة أوضح ، على يد الآباء البيض ، والآباء البيض في تاريخ الجزائر لم يكونوا يحملون تحت جلابيبهم البيضاء الدعوة المسيحية ، وإنما كانوا يحملون الأفكار الاستعمارية التي تعمل على غرس الوجود الفرنسي الاستعماري بالجزائر » .

وطنية ذلك العصر

يعود عثمان سعدي الى الفترة التي سبقت الاسلام ليبرهن على ، العلاقة بين الساميين والحاميين ، ويستعرض الهجرات البشرية التي تمت من المشرق نحو شمال افريقيا كما يتوقف عند آراء طائفة من المؤرخين الأوروبيين حول هذه المسألة ، وكذلك آراء المؤرخين العرب من أمثال الطبري والمغربي السلاوي وابن خلدون لينتهي الى أن سكان شمال أفريقيا الأصليين - أي - البربر - اندمجوا وتفاعلوا مع الفينيقيين ، واعتبروا أنفسهم وإياهم دائما من أصل واحد ، فتحالفوا معهم ضد الرومان ، كما أن

قرطاجة كانت تعتبر امبراطورية مشرقية افريقية في جنوب المتوسط ، في مواجهة امبراطورية روما شمال البحر ، ولذا كانت الوطنية المغربية في ذلك العصر تتمثل في التحالف مع قرطاجة ضد روما ، وبسبب وضع البربر للرومان في خانة الدخلاء ، رغبوا عن اعتناق ديانة الكنيسة ، لأنها جاءت من أوروبا وحملها مستعمرون ، بخلاف وضع الكنيسة في المشرق العربي .

ويشير سعدي الى أن المؤرخين الأوربيين النزهاء شهدوا على تناقض البربر مع الرومان ، وعدم اندماجهم بحضارتهم ، من ذلك أن محرري مادة « بربر » في دائرة المعارف يونفرساليس كتبوا يقولون « لم تخضع القبائل البربرية للرومان ، بل استمرت في تمردها ضدهم ، فالحضارة الرومانية لم تدمج في بوتقتها البربر ، كما أن الحضارة الرومانية لم تؤثر الا على قلة قليلة جدا من المغاربة » .

هذه القطيعة مع الغزاة استمرت ايضا عند غزو (الوندال) وهي القبائل الجرمانية التي اجتاحت شمال افريقيا في القرن الخامس الميلادي ، وتكررت الظاهرة نفسها مع البيزنطيين ورثة ممتلكات روما ، فلم يكد يمضي عامان على احتلال البيزنطيين للمغرب ، حتى اندلعت ثورات البربر ضدهم لكن ما أن جاء الاسلام ودخل العرب المغرب العربي مرة أخرى حتى استجاب ، ولم تكد تمر فترة تقل عن خمسين سنة ، حتى وجدنا المغاربة وقد صاروا جميعا مسلمين عربا يتحدثون العربية ويكتبونها ، ويخطبون بها بفصاحة تندر حتى بين خطباء الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ، ويرد عثمان سعدي سبب هذا التفاعل السريع الى « التشابه » الكبير بين حياة البربر والعرب ، وبين تراثهم الحضاري والثقافي والفني ، أي أن البربر عندما دخل العرب بلادهم تصوروهم غرباء عنهم مثل الرومان ، فتصدوا لهم بمقاومة شرسة ، وما ان احتكوا بهم في القتال حتى اكتشفوا في العرب أصولهم .

ويتوقف المؤلف عند قصتي الكاهنة وكسيلة - وكلاهما قاد المقاومة المحلية ضد الفتح العربي - ليكتشف التشويه الذي ألحقه المؤرخون الغربيون بهذه الفترة التاريخية ، وكيف استغل أعداء انتماء الجزائر العربي من ذوي النزعة البربرية الاستعمارية قضية كسيلة استغلالا مغرضا رغم أن هذا الزعيم البربري لم يقاوم العرب انطلاقا من ايمانه ببربريته ضد غزو اجنبي عربي ، وانما بدافع رد الفعل على أخطاء ارتكبها عقبة بن نافع ، قائد الفتح العربي ، في حقه ، بدليل أنه دخل الاسلام في البداية ثم ارتد بعد هذه الأخطاء .

أصول اللغة البربرية

ومن دلائل عروبة البربر أيضا لغتهم ، فمحررو دائرة المعارف(يونيفرساليس)يرون أن اللغة البربرية ذات أصل حامي سامي ، ويؤكدون أن « أكثر طريق مؤكد الى الحقيقة هو نسبة اللغة البربرية الى الاصول الحامية السامية ، التي تجمع في بوتقة واحدة البربرية والمصرية القديمة والكوشية والسامية » . وتورد دائرة المعارف ان « روسلر المستشرق الألماني يذهب الى الحد الذي يدخل فيه البربرية في اللغة السامية التي تعتبر العربية فرعا منها » ، كما يقر محررو دائرة المعارف نفسها بأن « اللغة البربرية في استعمالها الحالي هي امتداد لصيغ اللغة العربية ، ويضيف المؤلف الى كل هذه الشهادات تحليلا تفصيليا للأبجدية التي يستخدمها البربر ، مبرهنا على أصولها الفينيقية ، ثم يعرض السمات المشتركة بين البربرية والعربية من خلال الألفاظ ، وصيغ الاشتقاق والتأنيث والضمائر الخ . .

في الفصل الثاني من الكتاب الذي يحمل عنوان « البعدان الوطني والقومي للثقافة الجزائرية » يحلل المؤلف الترابط بين البعد المعادي للاستعمار والبعد العربي القومي فيقول « اذا استعرضنا تاريخ الجزائر خلال المرحلة الاستعمارية ، وجدنا أن الاستعمار الفرنسي عمل طوال وجوده على تدمير الثقافة القومية للبلاد ، وحقق نجاحات لم يتمكن من تحقيقها في ميادين أخرى ، لأن الاستعمار عمل على تدمير الثقافة بواسطة النفس الطويل المخطط له سلفا ، ومن أكبر العقول الاستراتيجية التي كانت تفكر للاستعمار الفرنسي بالجزائر ، وذلك بافراغ الشخصية الجزائرية من مضامينها الوطنية والقومية ، واحلال مقومات الشخصية الفرنسية في الفراغ

الثقافي الذي يوجدونه في الذات الجزائرية ».

ويتابع المؤلف تحليله منتقلا الى الطرف النقيض، أي الى المقاومة الوطنية، فيقرر أن «المجتمع الجزائري استطاع بوساطة أحزابه ومنظماته الوطنية التصدي للمسألة السياسية وللمسألة الاقتصادية وللمسألة اللغوية، لأنها مسائل واضحة منظورة، لكن هذه الأحزاب عجزت عن مواجهة الخطة الاستعمارية الثقافية، لاحتوائها مضامين خافية عن العين المجردة، وقبل ان يخوض في هذه المضامين يطرح عثمان سعدي سؤالا جوهريا هو الآتي: من نحن؟ ويجيب فورا: «نحن عرب نقيم في جزء لا يتجزأ من وطن كبير اسمه الوطن العربي، نحن أفراد في شعب اسمه الشعب الجزائري الذي هو جزء لايتجزأ من أمة هي الأمة العربية، تعمل الامبريالية الدولية الآن، ومنذ أكثر من قرن، على نهب خيراتها، وتستعمل أقوى سلاح ضدها، وهو تجزئتها، مع الاصرار على الحفاظ على هذه التجزئة وتكريسها، ضمانا لنهب الخيرات العربية المتمثلة في البترول العربي والبترودولارات العربية، وأنا لا اتصور ثقافة جزائرية اذا لم يكن لها بعد قومي، أي عربي، ودون أن ترتكز على القيم الاسلامية، ويضيف «إن أخطر ما ورثناه عن العهد الاستعماري هو تشويه المفاهيم تشويها يتناقض مع التاريخ، ومع المنطق والعلم»، ويشير في هذا السياق الى أن صفتي «وطنية» بمعناها الاقليمي، «وقومية» بالمعنى العربي الواسع توجدان بقاموس اللغة العربية، بينما لا توجد بالفرنسية الا كلمة «وطنية» للدلالة على الصفتين.

الأمة والوطن والقومية

ويتناول المؤلف مفاهيم الأمة والوطن والقومية في أوروبا بمختلف مدارسها ومراحلها التاريخية ويستنتج المؤلف من عرضه لتجارب الوحدة الأوروبية، ومن نقده لفكر النخبة المثقفة في المغرب العربي خلاصة مؤداها انه «لا مبرر لنا كجزائريين أو تونسيين أو موريتانيين أو مغاربة أن نعمل على تكريس التجزئة وبقائها، وانما ينبغي علينا أن نجعل من أهدافنا الاستراتيجية تحقيق الوحدة العربية، لأنه حتى الاشتراكية التي تنشأ في كل قطر عربي على حدة، سوف تكون ناقصة، لن تكتمل أو تنجز الا مع تحقيق الوحدة العربية، خصوصا ونحن نعيش في عصر التكتلات العظمى والقوى الأعظم، عصر السوق الأوروبية المشتركة، وعصر الكوميكون، وعصر التجمع الاقتصادي الأمريكي، والتجمع الياباني.

ومن هذا المنظور نراه يوازن بين المرحلة الراهنة ومرحلة التحرر من الاستعمار الفرنسي، فيقرر أنه كان هناك مبرر قوي قبل استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ لرفع شعار «الأمة الجزائرية» للرد على الفرنسيين الذين كانوا ينكرون على الجزائريين الهوية الجزائرية المنفصلة عن الهوية الفرنسية، لكن بعد أن حصلت الجزائر وبلدان المغرب العربي الثلاثة الأخرى على استقلالها، لم يبق مبرر في استمرار رفع هذا الشعار.

ويضيف الكاتب الى هذين الفصلين فصلين آخرين، يتمثل الأول في مناقشات جرت على صفحات جريدة «الشعب» الجزائرية بينه وبين مثقف آخر حول موضوع «الشخصية الوطنية الجزائرية»، أما الثاني فهو ورقة قدمت الى ندوة نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، وكانت بعنوان «دور الشعر الجزائري في بث الوعي القومي»، وفي هذين الفصلين يتوسع المؤلف في مناقشة بعض القضايا الفرعية التي لم يتوقف عندها طويلا في الفصلين الأولين من الكتاب.

- وجملة القول أن كتاب الأستاذ عثمان سعدي هو أحد المعالم التي تنير الطريق الى خلع الرداء الأوروبي الاستشراقي الذي حمله طائفة كبيرة من المثقفين في المغرب العربي، سواء انتموا الى «المدرسة الفرنكوفونية» أو إلى «المدرسة البربرية». ومن ثم فهو لبنة أولى لصياغة رؤية عربية صافية لتاريخنا القديم والحديث والمعاصر، اذ أن احدى المهمات الثقافية الكبرى التي تأخر الشروع في انجازها هي اعادة كتابة تاريخ المغرب العربي وتخليصه من شوائب المستعمرين وتحريفاتهم، وارجاعه الى نهر التاريخ العربي، وهذه ليست مهمة المؤرخين وحدهم - بالمفهوم الضيق - وانما تتطلب من النخبة المثقفة على اختلاف مشاربها الفكرية حالة من النهوض القومي لانجاز هذه المراجعة الشاملة والتصحيح □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : الليل .. الرحم ـ مجموعة قصصية

المؤلف : محمد روميش

الناشر : دار الهلال ـ القاهرة

عدد الصفحات : ١٣٦ من القطع المتوسط

سنة النشر : ١٩٨٦م

الطبعة الثانية من قصص محمد روميش التي نشرت في طبعة محدودة منذ سنوات ، وقد أضيفت الى المجموعة الأولى قصص أخرى ، تلقي ضوءا على النتاج الأخير لهذا القاص الذي يعتبر من أفضل كتاب جيل الستينيات في مصر ، وإن لم يكن من أكثرهم شهرة .

الريف المصري الذي تناوله كثير من الكتاب نراه هنا في صورته الحقيقية ، وبشخوصه النابضة بحياة تجمع بين الوداعة والفظاظة ، والشجاعة وحياة الفطرة الأولى .

وأهم ما يميز هذه المجموعة القصصية أنها تقدم صورة الفلاح من الداخل ، بهواجسه وأحلامه ونظرته الى الحياة والعالم ، وليس عبر وصف خارجي ، يمس قشرة الحياة الفلاحية .

■■

الكتاب : هذا الفلسطيني فاشهد ـ شعر

المؤلف : طلعت محمود سقيرق

الناشر : دار المختار للطباعة ـ دمشق

عدد الصفحات : ٨٨ من القطع الصغير

سنة النشر : ١٩٨٦م

في كتابه الشعري الرابع يواصل الشاعر الفلسطيني طلعت محمود سقيرق أغنياته لوطنه ، بلغة لا تخلو من نفس خطابي ، وعاطفة واضحة .

وقصائد الديوان في معظمها سجل للأحداث الدامية ، وللمجازر ، والمآسي التي تعرض لها الفلسطينيون في صبرا وشاتيلا ، أو في الضفة الغربية المحتلة ، أو في ذلك الجزء من فلسطين الذي احتل عام ١٩٤٨م ، والذي تساوى فلسطينيوه في مجازرهم مع فلسطيني المنافي .

■■

الكتاب : تلك الرائحة ـ رواية

المؤلف : صنع الله ابراهيم

الناشر : دار شهدي للطباعة والنشر ـ القاهرة

عدد الصفحات : ١١٨ من القطع المتوسط

سنة النشر : ١٩٨٦م

حين نشرت هذه الرواية الصغيرة في منتصف الستينات أثارت ضجيجا عاليا على أكثر من مستوى ، على الرغم من أنها لم تنشر كاملة آنذاك ، كما لم تنشر كاملة في طبعتين تاليتين في القاهرة وبيروت .

لكن هذه الطبعة التي صدرت في القاهرة أخيرا تحتوي على النص الكامل للرواية ، بالاضافة الى مجموعة من القصص القصيرة التي كتبها الروائي في مراحل مختلفة من تطوره الفني ، فقد استهل صنع الله الكتاب بمقدمة ، شرح فيها « حكاية » الرواية ، وألقى ضوءا على المرحلة التي كتبت فيها ، والملابسات التي رافقت نشرها في المراتب الثلاث السابقة .

وبصدورها كاملة أتيح للقارىء العربي الاطلاع على نص هو من أكثر النصوص الأدبية أهمية ، والمؤلف يعتبر من أبرز الروائيين العرب .

■■

الكتاب : الوجه الآخر للطب ـ الجزء الأول

المؤلف : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

الناشر : مطابع الرسالة ـ الكويت

عدد الصفحات : ١٩٣ من القطع المتوسط

سنة النشر : ١٩٨٦م

في هذا الجزء من الكتاب ينحو الدكتور حسن فريد ابو غزالة منحى جديدا في طريقة يقدم بها المعلومة الطبية ، تجمع بين الطرافة والمتعة ، فتأتي المعلومة في إطار مشوق ، قد يكون طرفة أو مثلا أو اسما لامعا .

ورغم أن هذا الكتاب لا يغني عن الكتب الطبية العميقة إلا أنه مفيد للقارىء العادي الذى يلتمس المعلومة الخفيفة المسلية المفيدة في آن واحد .

■■

الكتاب : المطبوعات الحكومية في المملكة العربية السعودية

المؤلف : الدكتور محمد ناصر السويدان

الناشر : دار المريخ ـ الرياض ـ السعودية

عدد الصفحات : ٦٧٣ من القطع الكبير

سنة النشر : ١٩٨٦م

في هذا العمل يحاول المؤلف مواكبة حركة الطباعة والنشر التي اتسعت وتشعبت بشكل كبير في الوطن العربي أخيرا ، وذلك من خلال ضبط هذه المطبوعات والدوريات والكتب ضبطا « بيليوغرافيا » كما يقول .

وقد كرس المؤلف عمله هذا لتقديم ترتيب « بيليوغرافي » للمطبوعات والدوريات التي صدرت في المملكة العربية السعودية ، والتي لاحظ المؤلف أنها اتسعت بشكل باتت معه بحاجة إلى من يفهرسها ، فكان هذا العمل الذى بذل فيه جهداً واضحاً .

■■

الكتاب : الفاجوميات

المؤلف : أحمد فؤاد نجم

الناشر : دار الجليل للطباعة والنشر ـ دمشق ـ ومكتبة ابن رشد ـ الخرطوم

سنة النشر : ١٩٨٥م

إنه الكتاب النثري الأول لشاعر العامية المصري المعروف أحمد فؤاد نجم ، سجل فيه بأسلوب بسيط وسهل مجموعة من الذكريات والملاحظات والآراء الشخصية ، خلال فترة شهدت عدداً من التقلبات والتغيرات السياسية والاجتماعية .

والشخص الفاجومي ـ كما يصفه نجم ـ هو الشخص غير المدجن ، الرافض لمحاولات التطويع والاذلال .

■■

الكتاب : مقدمة في مسرح الأطفال

المؤلف : حسب الله يحيى

الناشر : دار ثقافة الأطفال ـ بغداد

عدد الصفحات : ١١٨ من القطع الصغير

سنة النشر : ١٩٨٥م

يحاول المؤلف في هذا الكتاب الصغير الحجم أن يقدم فهمه الخاص لمسرح الطفل ، وللطريقة التي يمكن بها للفنانين أن يدخلوا الطفل الى هذا العالم الذي يجمع السحر والفن والمتعة في آن واحد .

وفي محاولته هذه يستشهد المؤلف بأقوال مسرحيين كبار ، وبأمثلة تدعم أفكاره وفهمه لهذه العلاقة الاشكالية . □

العربي - العدد ٣٤١ - ابريل ١٩٨٧

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٤١
ابريل ١٩٨٧



(عالم الحيوان)

١ - ما الفرق بين اللِّحية (بكسر اللام) وبين اللَّحى (بفتح اللام) ؟

٢ - أي الحيوانات التالية أقدر على التمييز بين الألوان :

* الثور . * الحصان . * الكلب .

٣ - أي اللسعات أشد وأكثر أذى : لسعة النحلة الأنثى ، أم لسعة اليعسوب ، أم النحلة الذكر ؟

٤ - أي الحيوانات التالية أكثرها انجابا وتكاثرا . . . :

* الأرنب . * القطة . * الكلب .

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

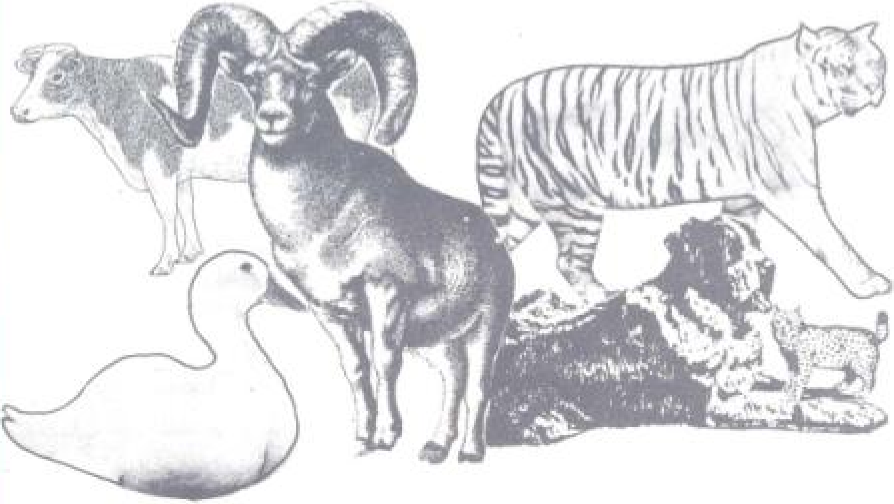
الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٤١ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ مايو ١٩٨٧ .



أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٤١



٥ ـ الفئران من القوارض كما هو معروف ، تُرى أي الأطعمة التالية تفضل الفئران أكلها . . . :

* الأجبان . * اللحوم . * الحبوب .

٦ ـ تستطيع الطيور كلها الطيران الى فوق والى تحت والى الجانبين . . أما الطيران الى الخلف فلا يستطيعه الا طير واحد فقط . . أي طير هذا ؟

٧ ـ أي الحيوانات التالية أقرب الى جسم الانسان ، فيما يتصل بزرع الأعضاء ، بحيث لو زرع أحد أعضاء ذلك الحيوان في الجسم البشري لما رفضه هذا الجسم ، أو لكان رفضه له أقل من رفضه فيما لو كان العضو المزروع منتزعا من حيوان آخر . . . :

* القرد . * الجمل . * الخنزير .

٨ ـ أي الحيوانات التالية لبنها أقرب الى لبن المرأة الأم . . . :ـ

* الناقة . * البقرة . * الأتان .

٩ ـ الزرافة هي أطول الحيوانات عنقا . . فأي الحيوانات هو صاحب أطول أنف بينها . . . ؟

١٠ ـ هل كانت الديناصورات كلها ضخمة ، أم أن بعضها كان صغير الجسم ، بحجم الخروف أو الكلب . . . ؟

١١ ـ أي الطيور لا يصنع عشا لبيضه . . بل انه يحتفظ ببيضه فوق قدمه وكأنه العش ؟

١٢ ـ ما المقصود بلفظ هامة ؟

* القامة . * الصدر . * رأس أي شيء .



حل مسابقة العدد ٣٣٨

١ - يبلغ مجموع المسلمين في الهند ٩٤,٥٧٢,٠٠٠ نسمة ، أي ١٢٪ من مجموع السكان البالغ (٧٨٨,١٠٠,٠٠٠) نسمة ، وذلك وفق أرقام منتصف عام ١٩٨٥ ، وتستطيع احتساب عدد المسلمين في شبه القارة الهندية الآن ، أو في أي وقت تشاء ، اذا علمت أن نسبة الزيادة السكانية بين الهنود تبلغ ٢,٢٪ . . .

٢ - قد تمطر السماء سمكا في أعقاب الاعصار . . اذ قد يبلغ الاعصار من القوة والسرعة ما يمكنه من شفط الأسماك من البحار وقذفها الى السماء . . ولا تلبث هذه الأسماك أن تتساقط الى الأرض مع الأمطار . . وقد حدث ذلك بالفعل مرات ومرات ، نذكر منها أمطار سنة ١٨١٧ في بلدة (أبين) في اسكتلندة ، وأمطار عدد من مدن انكلترا سنة ١٩٠٠م .

٣ - أقل النجوم حرارة هي النجوم الحمراء ، وأشد النجوم حرارة هي النجوم الزرقاء والبيضاء . . .

٤ - الرمال لا تغطي من سطح الصحراء الكبرى الا ١٠٪ فقط . . أما بقية مساحتها فجبال أو صخور أو أرض حجرية . . أو واحات .

٥ - سلسلة جبال منتصف المحيط الأطلسي هي الأضخم . . بل انها أضخم من السلاسل الثلاث الأخرى مجتمعة . .

٦ - ابتسامتك تحرك ١٧ عضلة من عضلاتك . . أما عبوسك فيحرك ٤٣ عضلة . . هل من مبرر لتبديد طاقتك بعد الآن ؟ لم لا تبتسم بدلا من أن تعبس ؟!

٧ - الاغريق لم يخصّوا النساء بأي من الألعاب الأولمبية ، بل انهم ذهبوا الى حد حرمانهن من مشاهدة تلك الألعاب ، فضلا عن الاشتراك فيها ، وذلك تحت طائلة العقوبة .

٨ - جبل كينيا وجبل اكتاسيهوتل (في المكسيك) يقعان في المنطقة الاستوائية ، وتكلل قممهما الثلوج . . أما جبل افرست والجبل الأبيض فلا يقعان في المنطقة الاستوائية ، وإن كللت قممهما الثلوج . . .

٩ - انت لا تحرك الا الفك الأسفل في كل الحالات ، أما الفك الأعلى فثابت لا يتحرك .

١٠ - تسونامي هو الاسم الذي يطلق على الأمواج العملاقة المدمرة ، ونذكر من هذه الأمواج تلك التي أحدثها بركان كراكوتا في أندونيسيا ، وذلك حين ثار ثورته الكبرى سنة ١٨٨٣ ، فقد بلغ ارتفاع تلك الأمواج ٣٦ مترا ، وذهب ضحيتها (٣٦٠٠٠) نسمة ، ونذكر أيضا الأمواج التي أحدثها الزلزال الذي ضرب الاسكا سنة ١٩٦٤ . . فقد بلغت سرعتها لدى اقترابها من الشاطىء (٨٠٠) كيلومتر في الساعة ، وبلغ ارتفاعها ٦٧ مترا . .

١١ ـ صخرة آيرز العجيبة توجد في استراليا ، وتقع في أواسطها ، بالقرب من جبل أولجا . . ويذكر أن بالامكان رؤية هذه الصخرة من على بعد ١٠٠ كيلومتر .

١٢ ـ « قلب له ظهر المجن » هذا مثل يضرب لمن كان لصديقه على مودة ورعاية ، ثم تغير وحال عن العهد ، ويضرب أيضا للمحاربة بعد المسالمة ، لأن مُمسك المجن اذا جعل ظهره خارجا لم يكن الا ليتقي به ، ولا يفعل ذلك الا المحارب .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٣٨ يناير ١٩٨٧

الجائزة الاولى : محمد مصطفى السمري / الابراهيمية / الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثانية : رزان الميداني / دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

الجائزة الثالثة : فاطمة المناوي أحمد الحضيري / سبها ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ جمان علي كاظم القتال / كربلاء ـ الجمهورية العراقية .

٢ ـ فطيمة البقالي / فاس ـ المملكة المغربية

٣ ـ اسماعيل أحمد بدري / المعهد الثانوي / سيد بوزيد ـ الجمهورية التونسية .

٤ ـ أحمد محمد عمر بن شعيب / المنصورة / عدن ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

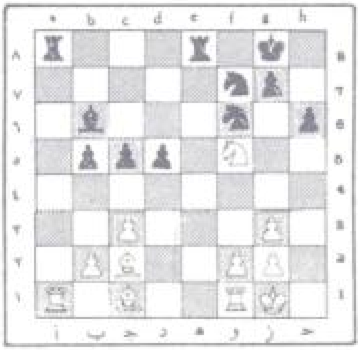
٥ ـ شاهرة طلعت زيتون / الجامعة الأردنية / عمان ـ المملكة الأردنية الهاشمية

٦ ـ بثينة علي محاسنة / الرياض ـ المملكة العربية السعودية .

٧ ـ محمد أيمن أبو التوت / قونيا ـ تركيا

٨ ـ لارا زهير الرمحي / ضاحية اليرموك ـ دولة الكويت .

معركة بالسلاح



أولمبياد الشطرنج السابع والعشرون

افتتح في قاعة المركز التجاري في دبي في الرابع عشر من شهر نوفمبر الماضي أولمبياد الشطرنج السابع والعشرون وهو أول حدث شطرنجي دولي يعقد على أرض عربية ، وقد شارك في هذا المهرجان الضخم ١٠٨ دول وذلك يعتبر رقما قياسيا ، وقد توزعت في أرجاء المدينة قطع شطرنجية ضخمة احتفاء بالمناسبة ، من أبرزها قطعة تمثل حصانا بارتفاع عشرة أمتار ثبت خارج قاعة اللعب . وقد جرى تتويج بطل العالم السوفيتي جاري كاسباروف ومواطنته مايا شيبوردانذر بطلة العالم للسيدات رسميا في حفل الافتتاح .

وقد تمكن الفريق السوفيتي من الاحتفاظ ببطولة العالم للمرة الرابعة على التوالي برصيد ٤٠ نقطة ، وتلاه الفريق البريطاني ثم الأمريكي . أما بالنسبة لفرق السيدات فقد فاز الفريق السوفيتي بالمرتبة الأولى وتلاه الفريق المجري ثم الصيني . وقد تصدرت العراق الفرق العربية (٣٠ نقطة) وتلتها مصر ثم لبنان وتونس .

ومن أبرز أفراد الفريق السوفيتي في هذا الأولمبياد البطلان ارتور يوسوبوف والدربه سوكولوف . وقد اخترنا لكم الدور السابع من المباراة التي جرت بينهما في مدينة ريغا السوفيتية في أواخر العام الماضي والتي تأهل سوكولوف بموجبها لملاقاة بطل العالم المهزوم أناتولي كاربوف في شهر فبراير من هذا العام ، وسيلاقي المنتصر منهما بطل العالم الحالي في شهر سبتمبر من نفس العام والدور من طابق « روي لوبيز » .

□ سوكولوف	■ يوسوبوف
١ - هـ ٤	هـ ٥
٢ - ح - و ٣	ح - جـ ٦
٣ - ف - ب ٥	أ ٦
٤ - ف - أ ٤	ح - و ٦
٥ - ت	ح × هـ ٤
٦ - د ٤	ب ٥
٧ - ف - ب ٣	د ٥
٨ - د × هـ ٥	ف - هـ ٦
٩ - جـ ٣	ف - جـ ٥
١٠ - و - د ٣	ت
١١ - ح (ب) - د ٢	و ٥
١٢ - هـ × و ٦ (بالتجاوز)	ح × و ٦
١٣ - أ ٤	ف - و ٧
١٤ - ح - ز ٥	ح - هـ ٥
١٥ - و - ز ٣	و - د ٦
١٦ - ف - جـ ٢	حـ ٦ ؟

ف - ز ٦ كانت أفضل

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد ٣٣٨ يناير ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ سميرة بو سعيد ـ خنيس/ تونس
٢ ـ طارق مدثر ـ الخرطوم/ السودان
٣ ـ مؤيّد وحيد ـ بغداد/ العراق
٤ ـ طارق محمد عيسى ـ الاسكندرية/ ج.م.ع
٥ ـ نوّار طيان ـ بيروت/ لبنان

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ هند القطان ـ الخالدية/ الكويت
٢ ـ حاتم نجم ـ الرياض/ السعودية
٣ ـ عبدالله منصور ـ بني وليد/ ليبيا
٤ ـ عبيدة شبخاني ـ القامشلي/ سوريا
٥ ـ ازحاف عبدالعزيز ـ سيدي قاسم/ المغرب

---

١٧ ـ ح × و ٧	ح × و ٧
١٨ ـ ح ـ ب ٣	و × ز ٣
١٩ ـ حـ × ز ٣	ف ـ ب ٦
٢٠ ـ ح ـ د ٤	جـ ٥
٢١ ـ ح ـ و ٥	ر (و) ـ هـ ٨
٢ ـ أ × ب ٥	أ × ب ٥ (الشكل)
٢٣ ـ ح ـ هـ ٧ +	م ـ و ٨
٢٤ ـ ح ـ ز ٦ +	م ـ ز ٨
٢٥ ـ ر × أ ٨	ر × أ ٨
٢٦ ـ ف ـ هـ ٣	د ٤
٢٧ ـ جـ × د ٤	جـ ٤
٢٨ ـ ب ٣	ح ـ د ٦
٢٩ ـ ب × جـ ٤	ح × جـ ٤
٣٠ ـ ر ـ ب ١	ح ـ أ ٣
٣١ ـ ر ـ أ ١	ب ٤
٣٢ ـ ف ـ ب ٣ +	م ـ حـ ٧
٣٣ ـ ح ـ هـ ٧	ر ـ هـ ٨
٣٤ ـ ح ـ جـ ٦	ح ـ ب ٥
٣٥ ـ ف ـ جـ ٤	ح ـ جـ ٣
٣٦ ـ ح × ب ٤	ح ـ ز ٤
٣٧ ـ ف ـ د ٣ +	م ـ ز ٨
٣٨ ـ ر ـ جـ ١	ح × هـ ٣
٣٩ ـ و × هـ ٣	ر × هـ ٣
٤٠ ـ ر × جـ ٣	ر ـ هـ ١ + (ثم يستسلم)



مسألة العدد ٣٤١ ابريل ١٩٨٧

مات ٢

مهداة من القارىء بشار محمد (الكويت)

حل مسألة العدد ٣٣٩

فبراير ١٩٨٧

مفتاح الحل هو ترقية البيدق إلى حصان ثم الكش بالنقلة التالية .

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء ..

تحية من معلم بالعام الجديد

● السيد الفاضل / رئيس التحرير

« العربي » جامعة ثقافية لايستغنى عنها قارىء متتبع لنبض الثقافة في الوطن العربي ، ولقد أعطت المجلة أسلوبها وطريقتها لكل المجلات التي جاءت بعدها .

ولقد أحسنتم باخراج « كتاب العربي » الى حيز الوجود ، ثم بتقديم « العربي الصغير » مجلة مستقلة متكاملة للفتيان والفتيات العرب .

وأسعدني بخاصة أن أجد أن كثيرا من الأمور التي كتبت لكم بشأنها وربما كتب لكم غيري ، تخرج الى حيز التنفيذ في العربي الصغير ، فباب « اصنع بنفسك » الرائع يسد النقص الكبير في مجال المعرفة التطبيقية ، فبينما نجد في الصحافة الأجنبية ذلك الثراء في المعرفة التطبيقية التي تعلم التلميذ كيف يصنع المقعد أو الراديو أو آلة التصوير البسيطة ، لانكاد نجد مجلة متخصصة في العربية تعنى بهذا الشأن ، كما أن المقالات التي تؤكد على التعريف بالكمبيوتر ، وعلى أهمية دوره في شتى نواحي الحياة المعاصرة ، بدأت تتتابع أيضا على صفحات العربي ، وكم أسعدني أن تخصصوا بابا ثابتا للكمبيوتر في العربي الصغير .

لقد أمتعتنا العربي بتجوالها بين فروع المعرفة ، كما أسرتنا بقصصها العربية والمترجمة ، واستطلاعاتها التي تجعل العالم بين يديك .

ومع بداية العام الجديد ، فإننا نهنىء العربي على جهودها ، ونأمل كالعادة في المزيد من الجهد والعطاء .

ولابد أن نشكر جهود كل العاملين ، بدءا برئيس التحرير ، وانتهاء بالعامل الذي يساعد في ايصال العربي الى كل أنحاء المعمورة .

وبهذه المناسبة آمل من العربي أن تولي قضية المعلم اهتماما خاصا ، فتشرع في عمل متكامل ، يتناول المناهج الدراسية ، علوم العصر ، التعليم الذاتي ، وكل ما من شأنه أن يساعد المعلم على القيام بدوره الخطير في هذا العصر ، سواء أخرج هذا المشروع في كتاب العربي ، أم في سلسلة مقالات في مجلة العربي .

ان مثل هذا المشروع انما هو خدمة لاتنسى للأجيال القادمة ، لن ينساها كل من يعمل في حقل التعليم فلا يزال العلم والتعلم هما السبيلان الوحيدان لردم الهوة بيننا وبين الدول المتقدمة .

مصطفى ياسين
مدرسة القادسية / سكاكا
المملكة العربية السعودية

العربي

ـ نشكر للقارىء الكريم تحيته الطيبة للعربي ، ومع أننا نسعد بمثل هذه الرسائل التي نعتبرها من أجل دوافعنا للمزيد من الجهد والعطاء ، الا أننا في العادة لانشير اليها في حوار القراء ، وقد آثرنا في هذه المدة أن نختار هذه الرسالة من بين رسائل عديدة تحمل ذات المشاعر لأنها تنطوى الى جوار التحية على دعوة نثق في أهميتها ، وهى التركيز على دور المعلم ، ونشر كل ما يسهم في معاونته على تحقيق هذا الدور ، وفي الواقع ، فان مجلة « العربي » تحرص ضمن تقاليدها على ابراز كل ما هو جديد ومهم في حقل التربية والتعليم ، باعتبار أن التعليم الجيد والتربية القويمة هما الثورة الدائمة والمستمرة من أجل التقدم .

ونعد القارىء الكريم بمواصلة هذا التقليد في اطار توازن الموضوعات في العربي أو كتابه ، ولعل الجهود المبذولة في نشر الفكر التربوى تكون حافزا للمسئولين في الأقطار العربية على اعطاء قضايا التعليم والمعلم ما تستحق من دعم تتناسب مع أهميتها ، فقد لايكون القصور في هذا المجال هو قصور في توافر الفكر التربوي الجديد والجيد ، بل في توفير الدعم المالى المناسب لترجمة هذا الفكر الى امكانات مادية وبشرية مناسبة ، وهذا لايجيء الا باقتناع المسئولين بخطورة دور التربية والمعلم في هذا العصر .

حول استعمال الأرقام الأجنبية في العربي

● وصلتنا رسائل عديدة من القراء بين العتاب والاستنكار والتساؤل والدهشة لاستعمال مجلة العربي في العدد الممتاز يناير سنة ١٩٨٧ للأرقام الأجنبية في ترقيم صفحاتها .

منها رسالة من القارىء عبدالرحمن ديردي من حلب / سوريا يتساءل فيها :

كيف تلجأ العربي لاستخدام هذه الأرقام ، وهي المجلة التي تنادي بتعريب التعليم الجامعى ، وتخاطب كل العرب باللغة العربية ؟

ورسالة من القارىء عبيد الوكاع من الحسكة / سوريا ، يقول فيها :

فوجئت بهذا التعديل في كتابة الأرقام بمجلة العربي ، وهو تعديل لامبرر له ولا معنى ، ولا تظنوا أنه مجرد تعديل في الشكل ، بل هو تعديل يمس المضمون ، فكيف نستسيغ ترقيم مجلة العربي التي تصدر للوطن العربي ولكل من يقرأ العربية في العالم بأرقام أجنبية ؟

اما القارىء جورج ابراهيم حداد من بيروت ، فقد رأى من واجبه أن يعلق على استخدام مجلة العربي للأرقام الأجنبية بالقاء الضوء على كيفية وصول هذه الأرقام الينا ، فأشار الى كتاب « السندهند » الذي أخذ عنه العرب الأرقام الهندية ، التي سميت فيا بعد بالأرقام العربية ، وقد قسمت الأرقام في هذا الكتاب الى قسمين : هوائية وغبارية

والأرقام الهوائية هي الأرقام التي تسمى الآن العربية ، وهي ١ ـ ٢ ـ ٣٠٠ ، أما الأرقام الغبارية فهي الأرقام الاجنبية .. 1-2-3 وهي مرتبة على أساس عدد الزوايا لكل رقم ، فكل رقم يحمل عددا يوازيه من الزوايا .. ثم يضيف : ان الارقام الهوائية ، أي العربية هى السائدة في دول المشرق العربي ومصر والسودان ، أما الأرقام الغبارية ، أي اللاتينية فهي السائدة في دول المغرب العربي ، بالاضافة الى دول أخرى من العالم .

حوار القراء..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

العربي

ـ اننا اذ نشكر لقراء العربي غيرتهم وحماسهم للغة العربية ، نود أن نوضح لكل من كتب الينا أن المسألة لاتعدو انه كان هناك اقتراح من الجامعة العربية ، وزع على مختلف الجهات والأقطار العربية ، باستخدام الأرقام الأجنبية لتوحيد استعمال هذه الارقام بين المشرق العربي والمغرب ، ولاعتبارات تتعلق بتوحيد مصطلحات الرموز البريدية العالمية ، وقد حاولنا أن نضع هذا الاقتراح موضع التجربة لعدة أشهر ، تمشيا مع مقترح الجامعة العربية ، وتعرفا على النتائج العملية لمثل هذه التجربة .

ردود خاصة

● السيد / نوري سيدو ـ سوريا / حلب :

ـ بالنسبة لدعوتك الرقيقة لمجلة العربي لعمل استطلاع في سوريا فيسرنا أن نخبرك بأنه حين ينشر هذا الرد ستكون بعثة مجلة العربي قد قامت بزيارة القطر السوري العزيز في اطار خطتها لاستطلاعات الوطن العربي ، أما بقية اقتراحاتك حول أبواب جديدة في مجلة العربي فثق أننا نأخذ بعين الاعتبار هذه الاقتراحات في مجلس التحرير ، مع كل الاقتراحات الأخرى التي يتفضل بها القراء الأعزاء .

● السيد / عبدالكريم حمزة ـ سوريا ـ حلب :

ـ بالنسبة لاقتراحك بأن تقوم مجلة العربي بدعوة المسئولين عن التربية في الوطن العربي لاقامة مؤتمر لمناقشة قضايا التربية ، بهدف الوصول الى نوع من توحيد المناهج التربوية في الأقطار العربية باعتبار أن ذلك هو الركيزة القوية للوحدة العربية المنشودة ، فمع تقديرنا لما وراء الاقتراح من نية طيبة ، نود أن نشير الى أن مثل هذه المهام لاتدخل في نطاق مسئوليات مجلة العربي ، لأن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية تقوم فعلا بهذا الدور .

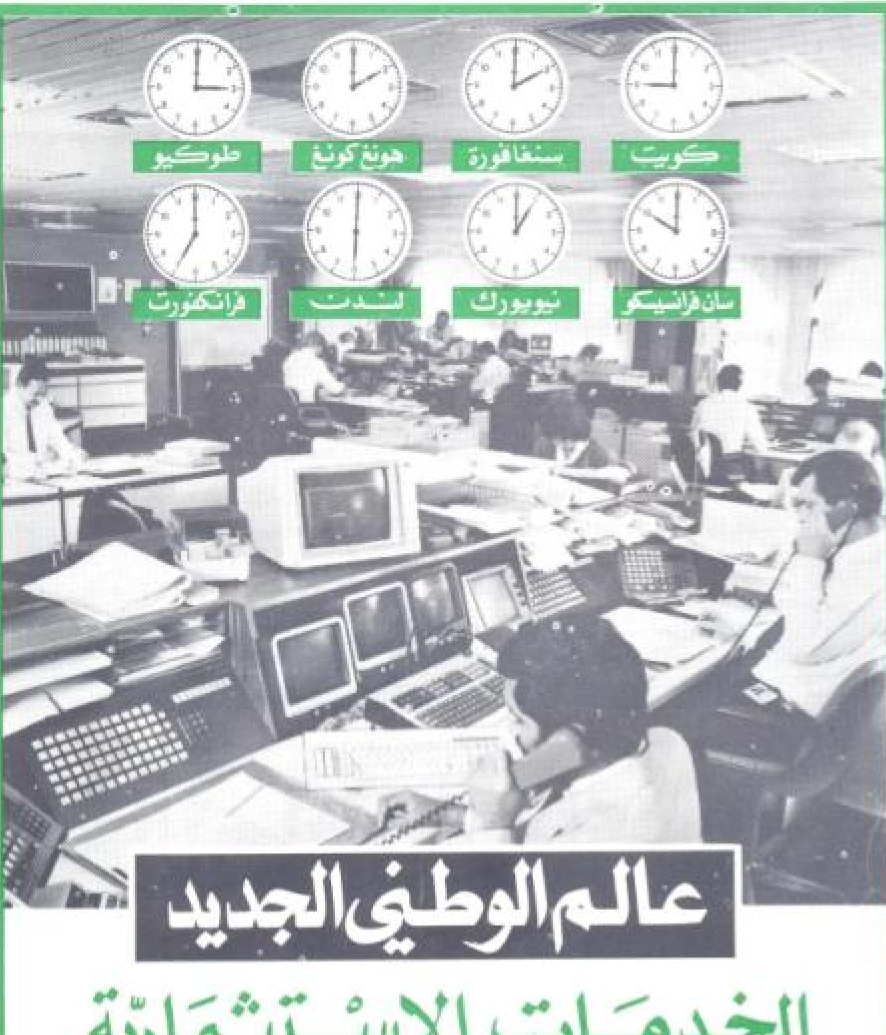
● السيد / أحمد الشقيرى ـ المغرب / اليوسفية :

ـ بالنسبة لملاحظتك عن غياب العنصر النسائي في باب « وجها لوجه » ، وتساؤلك عما اذا كان لا يوجد لدينا أديبات يمكن أن يظهرن في هذا الباب ؟

نقول أن ملاحظتك لاشك صحيحة ، ونود أن نوضح أن هذا الموقف ليس مقصودا ، وبالتأكيد لدينا كاتبات جديرات بالحوار معهن في هذا الباب ، ونرحب بأي حوار مع أي أديبة أو كاتبة عربية ، مادام في مستوى ما ينشر في هذا الباب ووفق منهجه ، وهو أن يكون الحوار بين كاتبتين ، أو كاتب أو كاتبين ، لها نفس الاهتمام ، ويفضل أن يكونا من جيلين مختلفين .

● السيد / حسين أبو بكر العيدروس ـ حضرموت/ اليمن

ـ بالنسبة لاقتراحك اضافة باب شهري يعنى بالنواحي الفنية ، وبخاصة الفن التشكيلي ، للتعريف بما وصل اليه هذا الفن من تطور عبر العصور ، وبأشهر الفنانين ، وبأهم أعمالهم ، ومتابعة المعارض والندوات الفنية في الوطن العربي وفي الخارج . . فاننا وان كنا نرى أن مثل هذا الباب يناسب أكثر مجلة فنية متخصصة ـ الا أن العربي تنشر عادة في اطار سياستها مقالات تناقش أو تتابع ابرز الأعمال الفنية في مختلف المجالات ، ومع ذلك فستجد اعتبارا من هذا العدد بابا شهريا جديدا يقدمه الفنان التشكيلي الأستاذ جمال قطب يلبى من خلاله رغبات القراء المهتمين بالفنون التشكيلية □



عالم الوطني الجديد

الخدمات الإستثمارية

• استثمر أموالك الفائضة أو مدخراتك في محافظ استثمارية تتناسب مع احتياجاتكم الشخصية من خلال شركاتنا الاستثمارية في لندن وجنيف.
أو في صندوق الوطني للاستثمار في السندات وهي أداة استثمار ملائمة للمدخرات الصغيرة.

• اتصل بدائرة الخدمات المصرفية الشخصية
على هاتف رقم ٢٤٢٩٤٤٦.
أو بخدمة الوطني الممتازة
على هاتف رقم ٢٤٣٥١٤٦ أو ٢٤٦٣٧٥٢
أو اكتب إلى: دائرة الخدمات المصرفية الشخصية
ص. ب ٩٥ الكويت الصفاة 13001
وسيزورك مندوبنا لبحث الخدمة الاستثمارية التي تناسبك.

• عالم الوطني يوفر لك خبراته في الاستثمارات المالية من خلال فروعه وشركاته الاستثمارية المنتشرة في أهم المراكز المالية العالمية.

بنك الكويت الوطني

بنك تعرفه وتثق به منذ عام ١٩٥٢

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

أبريل ١٩٨٧ م

العلم والمشتغلون بالبحث العلمي
في المجتمع الحديث

تأليف: د. جون ب. ديكنسون
ترجمة: شعبة الترجمة باليونسكو

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١٢

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢١١ أول أبريل ١٩٨٧

مذنبون بلا ذنب

تأليف : الكسندر استروفسكي
ترجمة وتقديم : د. عبد الرحمن السيد عطية
مراجعة : د. فوزي عطية



الصحراء، أو التي تعرف بالأرض غير المضيافة، هي من أصعب بقاع العالم سواء للعيش أو للعمل.

منذ أقدم العصور، عاش العرب في تلك الأصقاع واعتادوا على الإقامة والعمل فيها وحوّلوها للأرض المضيافة التي أصبحت بفضل كرمهم وشجاعتهم، أوّل منطقة صحراوية آهلة بالسكان في العالم أجمع، والتي إستفاد العالم بأسره من خيراتها.



في تلك البقاع القاحلة، التي تحوّلت بفضل جهودهم الدائبة وفي أقسام كثيرة منها إلى حدائق غنّاء، كان العزم والمثابرة والإصرار أهمّ الصفات التي ساعدتهم على العيش في تلك الظروف الصعبة.

في الأزمان الماضية كان العرب يعرفون الوقت بواسطة علم الفلك، أي بواسطة النجوم والشمس والقمر. أما اليوم، ومع التطوّر التكنولوجي فقد قدّمت لهم رولكس أفضل آلة توقيت يمكن الإعتماد عليها في حرارة الصحاري اللاهبة أثناء النهار، أو البرودة الفائقة أثناء الليل، ساعة لا يدخلها الغبار والرمال إطلاقاً وذلك بفضل علبة الأويستر وقفل السلامة المثبت بإحكام على هيكل الساعة الصلد المصنوع من كتلة معدن واحدة سواء من الذهب عيار ١٨ قيراطاً أو من الفولاذ الذي لا يصدأ.



رولكس داي ديت، ذاتية الملء، من الذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطاً مرصعة بالماس.

ROLEX

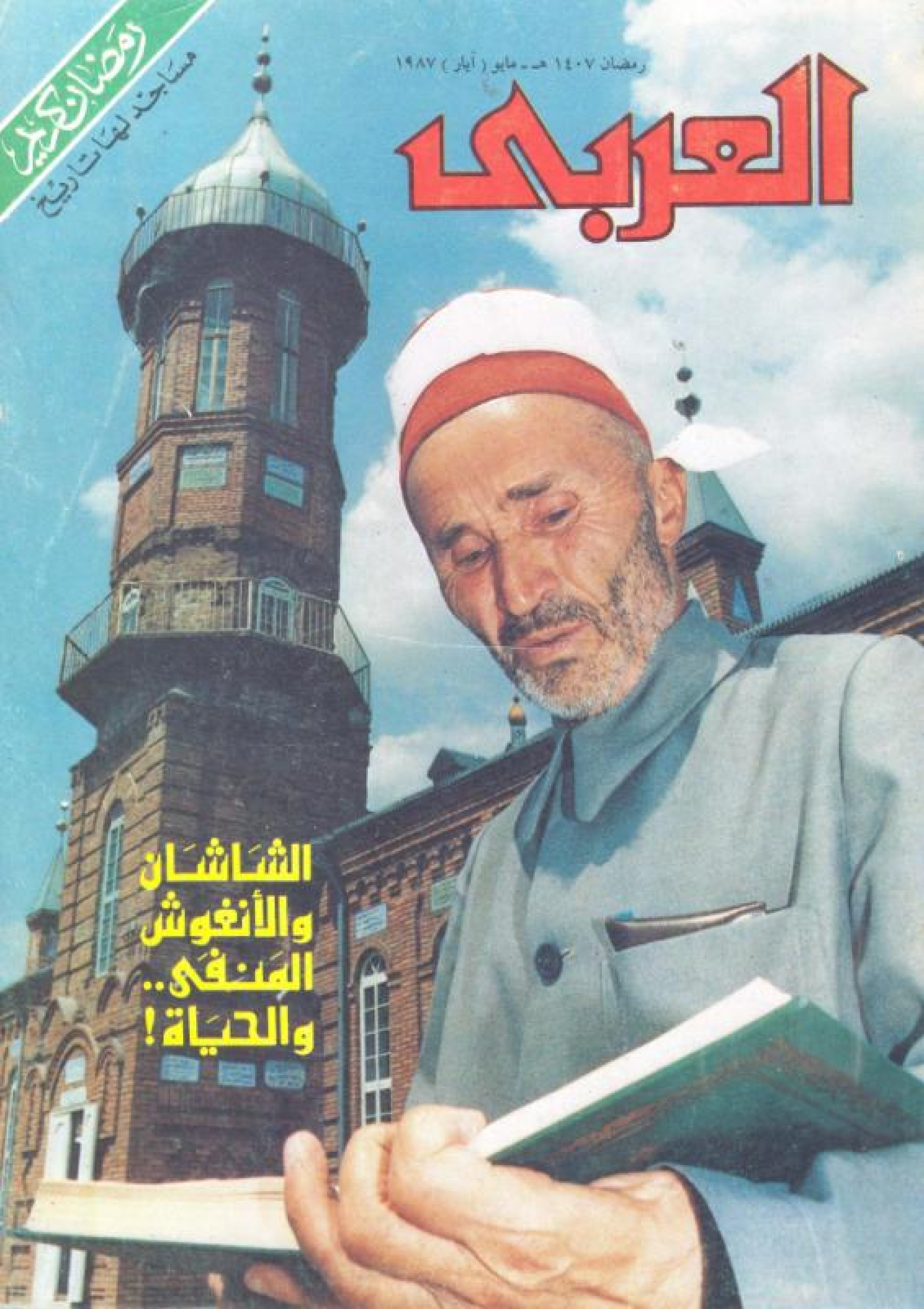
رولكس

رمضان ١٤٠٧ هـ - مايو (آيار) ١٩٨٧

العربي

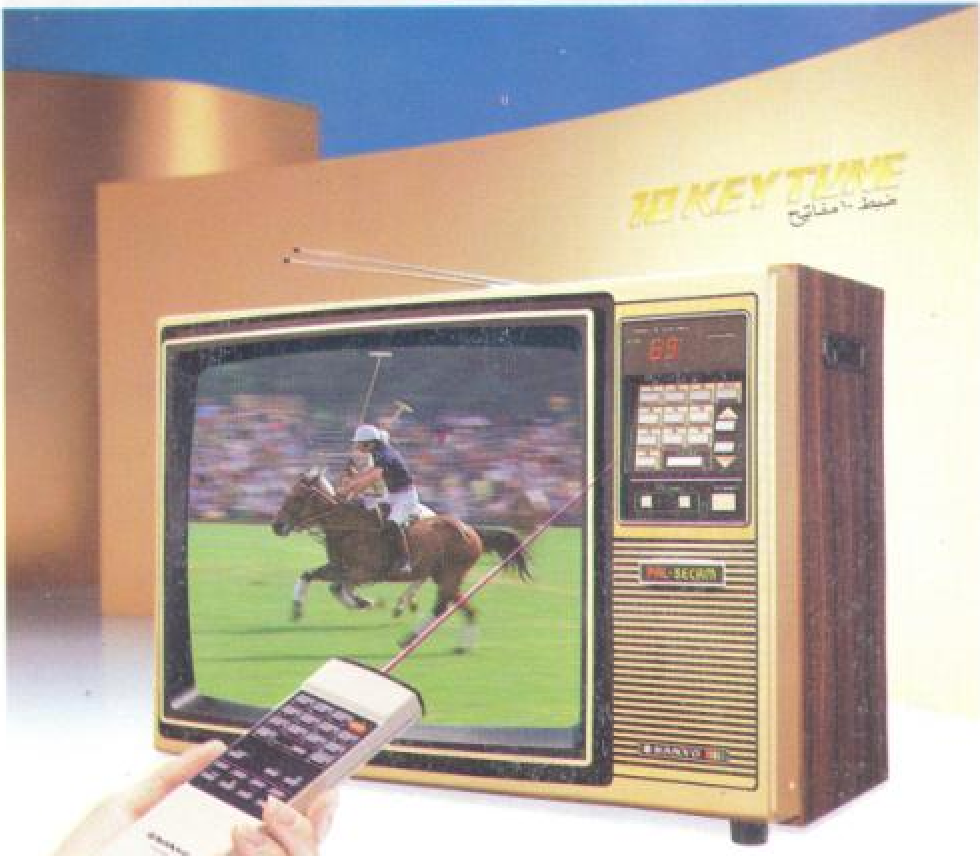
رمضان كريم

مساجد لها تاريخ



الشاشان والأنغوش المنفى.. والحياة!

SANYO سانيو



إحصل فوراً
على المحطات وبدون ضبط مسبق

نظام "ضبط ١٠ مفاتيح" الجديد من سانيو سهل الإستعمال ولا يتطلب الضبط المسبق - خال من الخطوات المعقدة التي يتوقف عليك إتباعها، والقطع المتحركة التي قد تتلف. فقط إختر رقم المحطة التي تريد، إضغط على مفتاح "الإدخال" ENTER وفوراً ستحصل على صورة جميلة عالية الجودة. وبإمكانك الحصول رأساً على جميع أقنية VHF و UHF ولا تروم أبداً الضبط الدقيق. نظام "ضبط ١٠ مفاتيح" السبّاق سهل الإستعمال وحتى ومتفرد به سانيو في التلفزيون الملون: إنشاء CMD 6036 RG PAL/SECAM.

ومن بين الميزات الإضافية وحدة تحكم عن بعد بالأشعة تحت الحمراء ١٦ وظيفة مع مؤقت للتوقف الأوتوماتيكي والاختيار أوتوماتيكي للتوقيت. أما موديل CMD 6036 فيأتي بدون وحدة تحكم عن بعد.

العدد ٣٤٢ السنة الثلاثون مايو ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس: MITR 44041KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL-ARABI

Issue No. 342 May 1987 P.O. Box: 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

الإعلانات

يُتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أوشيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

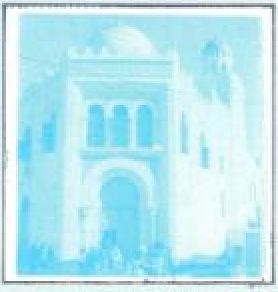
ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أوجنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد









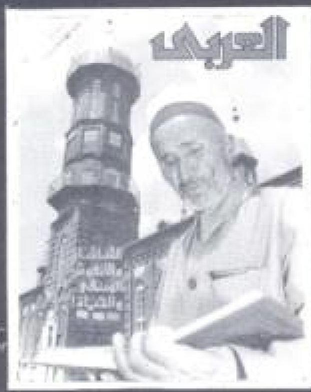
عبدالوهاب
البياتي



د. جليل
العطية

استطلاعات ومقابلات

صورة الغلاف



● في بلاد الشاشان بالاتحاد السوفيتي قرآن ومسجد وشيخ .. وحياة جديدة بعد المنفى.

(اقرأ ص ١٣٢)



مآذن لها تاريخ ص٦٨



رمضان في ربوع القدس ص٩٦

المراسلات باسم رئيس التحرير .. والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر .. والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء.

أبواب ثابتة :

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

احدى فوائد شهر رمضان الكريم علينا نحن المسلمين أنه تجديد سنوي للجسم والنفس ، وعودة سنوية أيضا للتفكير في الانسان كمخلوق خلق كي يعمر الأرض ، ويسعد نفسه ، ومجتمعه ، وفي هذا العدد من « العربي » حشدنا مجموعة من المقالات ذات الصلة الوثيقة بهذا الفرض العظيم الذي يحث على الزهد والتنسك من جهة ، والذي يحقق المساواة بين المسلمين من جهة أخرى .

كتب لنا الدكتور محمد فتحي الدريني عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق عن الصوم وحكمة تدبير الحياة ، وطاف بنا الدكتور صبحي غوشة في رحاب القدس واحتفالات مواطنيها بمقدم الشهر الكريم ، ومن منظور أوسع شارك الدكتور كمال أبو المجد بمقال حول العمل الاسلامي وترتيب الأولويات ، وناقش الدكتور عبدالعزيز كامل موضوع الساعة الذي اختلف واتفق حوله كثيرون وهو الصحوة الاسلامية بين الجسور والعقبات » .

ونظرا لما للمسجد من مركز ديني إسلامي كبير ، من حيث هو مدرسة ومكان للاجتماع والعبادة ، قدمنا لك استطلاعا تاريخيا ملونا عن المآذن والمنارات في البلدان الاسلامية ، يتعرض لأصولها ، وكيف تطورت فنيا ومعماريا .

ومن جهة أخرى نقدم لك في هذا العدد رحلة إلى بلاد الشاشان والأنغوش ، فما هي تلك البلاد ، وما قصة شعبها ؟

كما تنقلك إلى « سبتة ومليلية » المدينتين العربيتين المغربيتين اللتين تجاهدان لنيل استقلالها عن الاستعمار الاسباني والعودة إلى الوطن الأم .

ومن الموضوعات الأخرى ما كتبه لنا الدكتور شاكر مصطفى حول ردم الهوة والخيار الصعب !

ونكمل ذلك بكثير من الموضوعات الطبية والثقافية ، والأبواب الثابتة .

إنها مائدة حافلة ، وغنية بالألوان الثقافية والعلمية ، تماما كمائدة الافطار الرمضانية المتنوعة والمفيدة .

« وكل عام وأنتم بخير »

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

التفكير في غير المألوف!

■ يعتاد الناس والمجتمعات في معظم الأوقات نمطاً من التفكير ، وطرق العمل ، ونظاماً من المعاملات ، ثم تصبح تلك الأنماط عادة ، بغيرها لا تستقيم الحياة لديهم ، أما التفكير بشيء يخالفها أو ينقضها فذلك جريمة لا غفران لها .

وإذا كانت تلك العادات وطرق التفكير سليمة ، بمعنى أنها تخضع للمحاكمة العقلية بين فترة وأخرى ، فيقبلها العقل ، وتستقيم مع المنطق السليم ، فلا غبار على ذلك ، إلا أن المشكلة هي عندما تصبح تلك الطرق من التفكير وأنماط العمل وأشكال المعاملات كأنها شيء مقدس يجب أن لا يمس ولا يقترب منه ولا ينقد ، وقتها تصبح الأفراد والمجتمعات التي تكبلها تلك الطرق من التفكير أسرى العادة عاجزة عن مسايرة العصر ، بل ضعيفة الى درجة عدم القدرة على مقاومة أي مرض خارجي سياسياً كان أو اجتماعياً .

■ ولقد فكرت ملياً في هذه الاشكالية ، بعد أن جمعتني الصدف مع أحد الأساتذة الخريجين حديثاً من إحدى الجامعات الغربية ، وذلك عندما اشتركنا معاً في محاضرة لنخبة من الدارسين ، حول السلوك الإداري والمجتمع ، فوجدت الزميل الكريم ـ ربما على غير قصد منه ـ يطيل في شرح ما اعتقد أنه سلوك اجتماعي غير سوي ، مؤثر على الإدارة ، لكن أمثلته جلها ـ ان لم تكن كلها ـ مأخوذة من ذاك النظام السياسي الاجتماعي الذي تعلم في ظله ، وعرف الأمثلة من خلاله ، وهو مجتمع غربي .

وقد بدا لي أن الدارسين لم يستطيعوا المتابعة ، أو الربط بين واقع عملهم ووجهة نظر ذلك الزميل ، في كيفية حل المشكلات التي تصادفهم .

منذ تلك الحادثة وأنا أراقب مراقبة مقصودة ـ كما يقول أهل الذكر ـ هذه الظاهرة ، وهي تتلخص في عدة أسئلة أضعها أمام القارىء حتى يصير هضمها ، والوصول إلى ما أبتغيه منها ، سهلاً ميسوراً وواضحاً . من بين تلك الأسئلة المتعددة : « هل يقدم علماؤنا العرب حلولاً لمشكلاتنا ؟ » ، وأنا أعني هنا مشكلاتنا الواقعية ، لا ما يتخيلونه من مشكلات ، نتيجة تعليمهم الغربي ، أو ما قرءوه من تلك المشكلات على أيدي أساتذتهم أو في كتب موضوعة . وبمعنى آخر هل يحصل طلابنا على معلومات ومهارات معرفية نابعة من تحليل لمشكلاتنا التنموية الشاملة أم أن أكثر ما يحصلون عليه من « علم ومعرفة » هو من خبرة المجتمعات الأخرى ، والقليل القليل من خبرة مجتمعاتهم التي يعيشون فيها ويتمنون النهوض بها ؟

وإذا أردنا أن نبسط الأمر أكثر قلنا : هل يقدم مهندسونا ـ مثلاً ـ حلولاً لمشكلات السكن والطاقة والطرق والتصنيع ، بحيث تكون لهذه الحلول علاقة بما نواجهه من مشكلات ؟ .

وبنفس المنطق نقول : هل يقدم اقتصاديونا حلولاً لما نواجهه من مشكلات اقتصادية في نقص الماء ، وضعف الزراعة ، وتدني التصنيع ، وتبعية التجارة . . ؟ وهل يقدم اجتماعيونا ـ بالمثل ـ حلولاً لمشكلاتنا الاجتماعية الخاصة بالمرأة ، والشباب ، والطائفية ، والعرقية ، ومشكلات فقراء المدن والريف ؟ وبنفس السياق أيضاً نتساءل : هل يقدم علماء السياسة والإدارة عندنا حلولاً لمشكلات الحكم والادارة التي تواجهنا نحن ، لا التي ننقلها من الآخرين ؟

معادلة جديدة تبرز في العالم بين المعرفة والثروة!

في مجموع تلك الأسئلة وأمثالها يكمن ـ في رأيي ـ أسلوب طرح المشكلة التي أود عرضها ، وهي : هل نقدم لطلابنا على امتداد الوطن العربي في الجامعات والمدارس معلومات لها علاقة بواقع مشكلاتنا البيئية ، سواء أكانت اجتماعية أم مادية ؟

أميل الى الاعتقاد بأننا ـ في الأغلب الأعم ـ لا نفعل ذلك ، والأسباب كثيرة ، يعرفها كل من اشتغل بالتعليم من قريب أو بعيد ، أو على الأقل يعرفها أغلبهم ، وخاصة من حاول منهم الوصول إلى فهم العملية التعليمية في بلداننا ، من منطلق ابتكاري ، لا من منطلق نقلي .

شمار النقل .. جهل بواقع الحياة

■ إذا استنجدنا بالشواهد فهي ـ أيضاً ـ كثيرة ، فالطبيب الذي يتخرج في إحدى كليات الطب في جامعاتنا ربما يعرف عن أمراض متفشية في المجتمعات الغربية أكثر مما يعرف عن أمراض التراخوما ونقص الغذاء والبلهارسيا والملاريا وغيرها وهي من الأمراض التي تنتشر بكثرة في بيئتنا .

وأزعم أن مهندسينا المعماريين يعرفون كيف يواجهون متطلبات السكن والمواصلات في البيئات الباردة أكثر من مواجهة مشكلات البيئات الحارة ، وعلماء السياسة عندنا لا يخرجون عن هذا المنوال ، فهم يتحدثون عن « الديمقراطية الانجلوسكسونية » وحقوق الرئيس في النظام الأمريكي ، وربما عن أشكال حكم الحزب الواحد ، لكن عطاءهم الابتكاري في هذا المنحى الهام من شئون الحياة العامة لدينا قليل ، بل نادر .

ويتبع هذا الطريق علماء الإدارة والاجتماع ، ولا يكاد المرء يستثني أي قطاع علمي في العلوم البحتة والتطبيقية* أو العلوم الاجتماعية الا النزر اليسير الذي يمكن أن يشار إليه بأنه مساهمة حقيقية وواقعية لمواجهة المشكلات التي نشكو منها ، أو نريد تخطيها .



يعرف كل من درس القانون في بلادنا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أن معظم الأمثلة التي يلتقطها ـ وهو طالب ـ في كتب القانون أمثلة تبدأ بالقول (ففي حكم محكمة الاستئناف في ليون في فرنسا في عام كذا في دعوى تتلخص وقائعها .. الخ) وان لم تكن ليون فهي لندن أو باريس .

---

* هذا التعميم بحد ذاته جزء من البنية الثقافية والعلمية للمجتمعات المتقدمة وهو كمن يحاول الفصل بين الثمار والجذور في الشجرة الواحدة .



معاهدنا التقنيـة تخـرج فنيـين يحمون سياراتهم الأجنبية بتعويذة!

وفي كليات الزراعة عندنا قد تأخذ دراسات نباتات الزينة وترتيب الحدائق أولوية على الاهتمام بالغذاء وتنمية الثروة الحيوانية .

هذا التوجه يحمل أكثر من معنى ، فهو يعني أننا حتى الآن لم نراكم من المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ما يكفي كي يصبح ذخيرة للتحليل ، واستخراج مفاهيم عامة منه ، ترقى الى فرضيات معقولة ، يمكن الاستعانة بها ، وتدريسها لطلابنا ، لربط النظرية بالواقع ، كما أن هذا التوجه يعني - أيضاً - أننا خلطنا خلطاً عجيباً بين المنهج العلمي الذي يكون صالحاً في معظم الأوقات والأماكن إذا استخدم استخداماً صحيحاً ، وبين المحتوى الذي يختلف - ويجب أن يختلف - بين شعب وآخر وثقافة وأخرى ، بل بين إقليم وآخر حتى في نفس البلد إن كان امتداده شاسعاً .

هذا الخلط بين المنهج والمحتوى نشأ عنه أن كليات العلوم والزراعة والطب والادارة . . . الخ يعتمد معظم التدريس فيها على الرواية بدلاً من الدراية ، فينقل فلان عن فلان ويتم الاستشهاد بالمرجع العلمي كما يتم الاستشهاد ببيت شعري ، أو مثل شعبي لحسم النقاش سواءً بسواء ! وتخرج معاهدنا التقنية فنيين يحمون سياراتهم الأجنبية الجديدة بتعويذة !

هل هي تبعية ؟

■ إن ما يقلقني هو أن ما نشاهده يبدو وكأنه شيء من التبعية العمياء ، فعندما تحدث في بلادنا انتخابات عامة ، نجد أكثر من صاحب رأي يكتب في الصحف مطالباً بأعلى صوته أنه يجب أن يكون لدينا مؤسسات لقياس الرأي ! ويشير الكاتب الى (جالوب) كمثال يمكن أن يحتذى ، وينسى البيئة الاجتماعية التي يتحدث عنها ، وينسى كيف يتعامل الناس في بلاده مع الأسئلة الخاصة ، لا سيما إن جاءت من غرباء ، وينسى ـ أيضاً ـ أشياء أخرى كثيرة . وحتى في بلاد الغرب نجد أن هذا النوع من (قياس الرأي) ـ وأنا أسوق ذلك على سبيل المثال لا الحصر ـ غير دقيق ، وأذكر أنه قد نشرت مرة بهذا الخصوص مفارقة لا تخفى على اللبيب ، في كتاب كان عنوانه (ترتيب الفئات الاجتماعية في بريطانيا) فقد سئلت زوجات العمال ، نعم العمال : « في أي فئة تضعين نفسك في المجتمع ؟ » فأجاب ستون بالمائة منهن بأنهن من « الطبقة المتوسطة » ! هذا ما حدث في بريطانيا ، فما بالك لو طرح مثل هذا النوع من الأسئلة في ظروف عادية على أحد مواطنينا ! ؟

***

وعلى هذا القياس فإننا نشاهد ما ينقله علماء الإدارة ، فتارة عندما تصبح الصيحة « الإدارة بالأهداف » تصبح لدينا كذلك ، وعندما تكون الصيحة « الإدارة بالاستراتيجية » أو « بالحوافز » تصبح لدينا كذلك أيضاً ،

□ كليات الزراعة تهتم بتدريس نباتات الزينة وترتيب الحدائق أكثر من الاهتمام بالغذاء والثروة الحيوانية !

وينسى بعضنا أن الادارة في العالم الثالث ، وفي وطننا العربي لها مواصفات وظروف تختلف كلياً عن الإدارة في مجتمع رأسمالي صناعي متقدم ، فإدارتنا معظمها حكومي ، يشكل الدافع الاجتماعي والسياسي في التوظيف فيها الضغط الأكبر ، وكذلك هي مجال للتوظيف من أجل توزيع الثروة أو خلق فرص عمل أكثر منها ادارة للانتاج حسب معناها في تلك المجتمعات . ولقد ثبت أن ثلث العاملين أو ربعهم في الادارة العامة في كثير من دول العالم الثالث ليس هناك حاجة إليهم .



فمشكلاتنا الحياتية تحتاج اذن لحلول مبتكرة وربما غير مسبوقة لايقاف هذه التبعية العمياء في النقل والتلقين ، وبالتالي توجيه طلابنا والدارسين المهتمين في المجتمع ككل إلى إيجاد الحلول المبتكرة المبتغاة ، وحتى يتحقق ذلك فلا بد من دراسة البيئة بمعناها الواسع ، الاجتماعي ، والاقتصادي ، والنفسي ، والمادي .

أما استمرار متابعة الصيحات الجديدة التي تبدو ـ لأول وهلة ـ مبهرة تأخذ بالأنفاس ، ثم نقلها لطلابنا على مقاعد الدراسة دون أن يكون بينها وبين حياتهم في المجتمع رابط حتى لو كان متخيلاً ، فذلك انقطاع وفصل بين ما هو متعلم في الفصل الدراسي ، وما هو واقعي ملموس ومشاهد .

قد تكون إحدى بدايات هذا الانقطاع هو ما نلمسه في بيئات عربية عديدة في الآونة الأخيرة ، من ضعف الدافع الاجتماعي ـ على أقل تقدير ـ لقبول المتعلمين أصحاب الشهادات . بل لقد أصبح تعبير « صاحب شهادة » يثير الابتسام المخلوط بسخرية مبطنة أكثر مما يثير الإعجاب ، لأن واقع الأمر قد أظهر للناس أن صاحب تلك الشهادة ليس لديه حلول لمشكلاتهم ، أو لديه حلول نظرية منقطعة ومعلقة في الهواء .

والأزمة المقلقة لكثيرين منا أننا في مجتمعات تحتاج إلى العلم ، أكثر من أي شيء آخر ، لمساعدتها في تجاوز عنق الزجاجة التنموي ، والعلم بمعناه الصحيح هو الطريق الوحيد لاجتياز ذلك ، وعندما يصبح هذا (العلم) بكل تخصصاته المتعددة علماً منفصلاً عن المجتمع ، منظوراً إليه من الجموع الكبيرة كشيء لا ضرورة له في النهاية ، لأنه لا منفعة منه ، عندئذ تصل الأزمة الحضارية إلى الحلقوم .

أمثلة شتى .. والداء واحد

■ هذا الانفصال وتلك التبعية يمكن أن نرصد لهما بعض الأمثلة ، ففي بداية الستينيات صدر كتاب لأحد الاختصاصيين النفسيين في جامعة هارفارد ـ ذاع صيته بعد ذلك ـ عنوانه (مجتمع الانجاز) ، وكان محاولة عجيبة من الكاتب للاجابة عن سؤال اختلقه ، مفاده : لماذا تشجع بعض الثقافات (المجتمعات) ـ أكثر من غيرها ـ أبناءها على الانجاز ، أي على النجاح في المشروعات العامة والخاصة .

وقد اختار الكاتب مجموعة من الظواهر الاجتماعية التي تبدو في الظاهر مقنعة لدراسة أسباب الانجاز .

تلك الظواهر استمدها من المجتمع الأمريكي بالطبع ، فدرس الكاتب أهازيج الأمهات لأطفالهن في المهد ، وقصص الأطفال والقصص الشعبية ، وقنوات عديدة يتم توصيل القيم الاجتماعية خلالها بشكل واع أو غير واع . وفي النهاية وجد الكاتب أن الثقافة الأمريكية تحث على النجاح ، وأن عامل النجاح الذي سماه « ن » يوجد مضاعفاً في المجتمع الأمريكي !

فالنجاح في المجتمع الأمريكي ـ كما يقول الكاتب ـ غير مرتبط بالصدفة أو الحظ (فالرجل يصنع حظه) ، هذا بعكس ثقافات أخرى تحث أبناءها على قبول الحظ والصدفة ، والمكتوب ، وتضع أفرادها أمام صعوبات قدرية ، خارج حدود الإدارة الإنسانية ، لا تستطيع أن تتخطاها .

• لقد كان الانحياز في ذلك الكتاب واضح المعالم لا تخطئه عين ، ومع ذلك ترجم إلى لغات عديدة ـ منها العربية ـ بل وُدِّرس لطلابنا !

ولا يحدث هذا في الكتب فقط ، بل اننا في بعض الأوقات ـ كما هي الحال اليوم ـ نجد أنفسنا وقد استعرنا أشكالاً من التعليم كاملة ، كما حدث على سبيل المثال في تدريس (الخدمة الاجتماعية) التي نشأت وتطورت في المجتمعات الغربية الصناعية ، واستعارها الرواد في الوطن العربي كما هي وعلمناها لطلابنا بقضها وقضيضها كما يقال ، الى أن انتبهنا أخيراً لخطأ ذلك النقل فأخذنا نتحدث عن (توطين الخدمة الاجتماعية) ، وأعتقد أننا ما نزال عن ذلك بعيدين .

الحلقة المفقودة بين مقاعد الدراسة ورحابة المجتمع .. أين هي ؟

إنني لا أقصد هنا أن فكرة أو فلسفة تدريب بعض مواطنينا على الاهتمام بأشكال الرعاية الاجتماعية هي فكرة أو فلسفة خاطئة ، ولكنني أقصد أن الطرق والمناهج التي درسناها لطلابنا فترة طويلة في هذا الموضوع ـ ومثلها في ذلك مثل كثير من برامج التدريس ـ إنما نقلناها دون توطين ، ولا تكييف ، فجاءت أصداؤها في عقول طلابنا غريبة ، غير مفهومة .

وإذا كانت الخدمة الاجتماعية ـ كمثال ـ أصبح نقدها مطروقاً نسبياً ، فاننا أمام أخطر موضوع مطروح اليوم ما زلنا عاجزين عن توطينه ، وأقصد به دراسة الإعلام والاتصال ، صحيح أننا نستخدم وسائل الاعلام الحديثة ، كالمذياع والتلفاز والصحافة ، لكن دراستها كعلم مُوطن له علاقة بالواقع ما زالت بعيدة عن التحقيق ، وكل من كتب في الموضوع أو قرأ فيه يعرف أن هناك كثيراً من البحوث والدراسات المتوفرة أساسها غربي ، أما الدراسات



العربية فهي قليلة ، بل نادرة ، ولعلي أشير إلى واحدة من المعضلات في ذلك ، فكتاباتنا العربية تنقد الصحافة المؤممة في بعض بلادنا نقداً مراً ، كما تنقد الصحافة المملوكة لأفراد من جهة أخرى بنفس المرارة ، فماذا تريد ! !

أين تكمن الأسباب ؟

■ موضوع مثل ما نطرقه اليوم وهو محتوى ما نقدمه لطلابنا ، وهل هو قريب من الواقع مخاطباً له ، وسلاح بيد أبنائنا لمواجهة مشكلات اليوم والغد ، ليس بالموضوع الهين ، كما أنه موضوع لا تجدي فيه التمنيات ، فتاريخ العلم الحديث في الوطن العربي تاريخ ليس بالبعيد ، ولم نستطع حتى الآن ـ لأسباب كثيرة ـ أن نراكم ثروة من المعلومات والمعارف في المجالات المختلفة تؤهلنا للانطلاق الى تعميمات معقولة ، حيث ان ثروة البحوث العلمية البحتة

والتطبيقية والاجتماعية ما زالت مزدهرة لدى الشعوب المتقدمة ، وإذا أردنا أن نفسر ذلك سوف نجد أن معظم ما تنفقه شركات الأدوية مثلاً على بحوثها ، ومن ثم على انتاج الأدوية ، يذهب الى الأدوية التي تعالج أمراضاً معروفة في الغرب ، أما في العالم الثالث - ونحن منه - فلا معرفة الا بالأدوية العامة . أما أمراضنا المستوطنة فلا تصرف عليها تلك الشركات شيئاً يذكر ، هذا مثال لواقع حال البحوث العلمية في مجال حيوي كالدواء والعلاج ، وهو واقع قائم نتيجة لعدم فهمنا وإدراكنا ، ان البحث العلمي مجال يمكن أن ننفق عليه كثيرا من المال اليوم كي ينبت في الغد ويورق ، وقد لا يحتاج إلى أشهر معدودات وإنما إلى سنين طويلة حتى يؤتي ثماره ، وكل هذا يحتاج إلى عقلية تفهم ذلك وتعيه . فالناس على قدر عقولهم .

ابتكاريون لاحرفيون

■ ومن أسباب المشكلة التي تحدثنا عنها أن استخدامنا للمنهج العلمي ما زال استخداماً غير مرن ، فالعلم أساسه الشك والابتكار ، والتفكير في غير المألوف له تطبيقات وصور عديدة ، كما أن العلم يحتاج إلى (ابتكاريين) ، وليس الى (حرفيين) من ذوي التفكير الآلي الميكانيكي ، فالعلم الاقتصادي الغربي - مثلاً - إن ظل في إطار النظريات التقليدية لن يقدم لنا شيئاً يذكر لحل مشكلاتنا المستعصية ، وكذلك أيضاً العلم الاجتماعي والعلم البحت .. ولا يوجد مجال اليوم نشهد فيه صراعاً أكثر سخونة من الصراع في مجال العلم بين ثقافة الحرفيين والآليين ، وثقافة المبادرين بالابتكار .

واذا ظلت مدارسنا وجامعاتنا تصر على الاحتراف والنقل بدلاً من الابتكار ، انفصمت العلاقة بين ما يدرس ويقرأ ، وبين الحياة برحابتها ، وتولدت علاقة آلية (ميكانيكية) بين المدرسة وبين الوظيفة ، تزيدنا تخلفاً على تخلف .

ان صيحة العصر هي المزاوجة بين العلم والمجتمع ، واستخدام التقنية الحديثة في كثير من المجالات ، فقد تغيرت المعادلة القديمة عما كانت عليه عندما كانت ثروة الأمم وسلطتها تعتمد على مصادرها الطبيعية ، واستثمارها المالي ، وأصبح الميزان يرجح بكفته بوضوح الى الاستثمار في البشر ، والمعرفة كمصدر (استراتيجي) للتقدم ... فهل نحن فاعلون !؟



محمد الرميحي

اقرأ في العدد القادم من العربي

عدد يونيو ١٩٨٧

استطلاعات

- باكستان .. سنوات الصراع والأحلام / محمود عبد الوهاب
- النوبة .. أرض الذهب وشعب المأساة / سليمان مظهر
- صناعة الألبان .. والتوجه للاكتفاء الغذائي / ريم الكيلاني وثريا البقصمي

ابن خلدون مفكراً اقتصادياً
د. ابراهيم عويس

انكسار الثلاث الماسي
د. شاكر مصطفى

حقك في أن تكون ذكياً ..
د. عادل عبد الكريم ياسين

- هل أدب العبث .. عبث؟ / فتحي رضوان
- في مجمع الخالدين / عبد الرزاق البصير
- هل دخل السرطان مرحلة الإحتضار؟ د. عماد شمسي باشا
- طابور الجياع يتقدم / فوزي الفيشاوي
- الجامعة المفتوحة أو التعلم عن بعد! / توفيق أبو بكر
- انطونيو غاودي عبقري العمارة الإسبانية / طارق الحجي
- الكسب الحرام في الاسلام / د. توفيق محمد شاهين
- خبر من طرف الآخرة! / أبو المعاطي أبو النجا
- وجهاً لوجه .. رسول حمزاتوف وسليمان الشيخ

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - د. سعيد السماحي - فهمي هويدي - يوسف حلاق
فاروق خورشيد - محمد عبد الملك - فاروق شوشة - د. نجم عبد الواحد

العمل الإسلامي

ومسألة ترتيب الأولويّات

بقلم : الدكتور أحمد كمال أبو المجد

من أعقد المشاكل التي تواجه حركات التغيير الاجتماعي تحديد نقطة البداية في هذا التغيير ، وترتيب الأولويات في برامج الاصلاح ، ذلك أن الزعماء والمصلحين يبدأون مسيرتهم في أكثر الأحيان وهم يحملون فكرة أو عقيدة أو مذهبا في الاصلاح ، يطرحونه على الناس ، ويدعونهم إلى اعتناقه والالتفاف حوله ، مرجئين حديث البرامج العملية ، وترتيب الخطوات المتعاقبة للحركة إلى مراحل تالية من مراحل عملهم السياسي والاجتماعي .

الواقع الاجتماعي لا يلتزم دائما بتقديرات القادة والزعماء ، وقد يفاجئهم بالتفاف الناس حولهم ، واستجابتهم لدعوتهم ، واجتماعهم حول قيادتهم ، فإذا بهذه الجموع تسأل - في استعجال - هانحن قد جئنا ، ولبينا ، فماذا نفعل الآن ؟ وإذا بالأتباع والخصوم - على السواء - يطالبون بتحديد مراحل الحركة ، وأولويات العمل ، والقيادات ما تزال - بعد - تبحث عن أطراف الخيوط ، وتجتهد في تمييز ما يحتاج إلى العمل السريع ، وما يحتمل الإرجاء والانتظار ، وإذا طال بها أمد هذا البحث أو عجز اجتهادها عن تقديم الجواب فإن جماهير المؤيدين والأتباع لا تجد مفرا من أن تمارس هي ذلك كله على مسئوليتها ، وتجتهد فيه بحسب مزاجها ، وبمقدار نصيبها من المعرفة والحكمة ، وما تتمتع به من حنكة وبصيرة وفهم لأصول العمل الاجتماعي ، وهي في اجتهادها هذا تتعرض للخطأ والصواب ، كما تتعرض لتفاوت النقد واختلاف الآراء ، فإذا بها تستظل بمبدأ واحد ، وترفع راية منهج واحد في الإصلاح ، ومع ذلك تتنازع أمرها بينها ، وتتفرق بها سبل الحركة وزوايا النظر إلى الأولويات .

ترتيب الأولويات

والحركات الاصلاحية التي تسعى إلى بناء النهضة على أساس إسلامي ليست مستثناة من هذه الظاهرة ، ولا هي معفاة من مخاطرها ومحاذيرها ، بل لعل مشكلتها في ترتيب أولويات العمل أن تكون أشد وأكبر ، ذلك أن ترتيب الأولويات في إطار عمل إسلامي تتنازعه اعتبارات مختلفة ، وتتوزعه معايير عديدة ، فهو ليس قائما على تقدير الأهم والمهم من حيث المصلحة الاجتماعية العامة فحسب ، وإنما يتداخل في تحديده عنصران متميزان :

أولهما : ترتيب القيم في إطار التصور الاعتقادي الشامل الذي يقوم عليه الاسلام ، وهو ترتيب قد يتفق وقد لا يتفق مع الترتيب القائم على رعاية المصلحة الاجتماعية كما يقررها الناس .

العنصر الثاني : ملاحظة درجة الثبوت « وقطعية » المصدر الذي يستند إليه الحكم محل البحث ، فما ثبت بدليل قطعي يكون أوفر نصيبا من الطلب والالحاح في برامج الاصلاح ، بينما تتراخى في الترتيب أمور أخرى إذا لم يحمل دليل ثبوتها درجة اليقين التي تحملها نصوص أخرى ربما كانت تعالج أمورا أقل أهمية ، أو أقل اتصالا بالمصلحة الاجتماعية الظاهرة .

ولا نحب بهذا الحديث أن نزيد مسألة ترتيب الأولويات تعقيدا وصعوبة أمام العاملين تحت لواء حركة النهضة الاسلامية ، وإنما لابد أن نذكرهم ، ونسلم معهم كذلك بأن عليهم في سعيهم لترتيب أولويات العمل أن يلاحظوا حقيقتين كبيرتين :

الأولى : أنهم لا يستطيعون أن يغفلوا الواقع الاجتماعي الذي يعملون في إطاره ، وأن يضعوا لحركتهم أولويات خاصة بها ، منعزلة تماما عن حاجات الناس في الأزمنة المختلفة والأمكنة المختلفة ، مستندين في هذا المنهج إلى أن الاسلام حاكم لا محكوم ، وأن على الناس أن يعيدوا ترتيب حياتهم على أساس « الأولويات » الاسلامية ، كما يحددها لهم أولئك المصلحون والدعاة ، (ذلك أن رعاية المصلحة أصل إسلامي ثابت ، والسياسة الشرعية كما يقول ابن قيم الجوزية قسم من الشريعة ، أي جزء من أجزائها ، وليس قسيما لها ، ولا بديلا عنها ، وهي - كما يعرضها ابن عقيل - فعل ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد . .) .

الثانية : أنهم لا يستطيعون - مع ذلك - ترك الأمر كله « للواقع الاجتماعي » ، يحدد لهم أولويات عملهم على أساس المنفعة الاجتماعية وحدها ، ذلك أن كل ترتيب لأولويات المنافع الاجتماعية لابد أن يحمل في ثناياه رؤية معينة ، تعكس قيما محددة ، والاستسلام الكامل للواقع الاجتماعي يعني التخلي عن الدور الأساسي في توجيه المجتمع .

كذلك لا تستطيع الحركات الاسلامية أن تتخلى عن ممارسة اجتهاد متجدد ، لتحديد أولويات عملها ، في ضوء الواقع الذي يتجدد ويتغير كثير من عناصره ، ولهذا يغدو التواصل مع المجتمع ، وفهم قوانين حركته ، والتفاعل المستمر مع قواه المختلفة شرطا ضروريا لممارسة الاجتهاد في ترتيب الأولويات ، بغيره يتعرض العمل الاسلامي لمخاطر الحركة ضد تيار التاريخ ، ولاحتمالات الخطأ الفادح في رصد مشاكل المجتمع ، وتحديد المصالح الحقيقية لأفراده وفئاته مجتمعين ومتفرقين .

مداخل متعددة

وفي ضوء التسليم بهذه الحقائق ، وفي ضوء استقراء الواقع الاجتماعي والسياسي للعرب والمسلمين نستطيع أن نقدم اجتهادا جديدا لأولويات العمل الاسلامي المعاصر ، مقررين أن على رأس هذه الأولويات أمورا ثلاثة ، كل ما عداها يأتي بعدها في سلم الأولويات .

الأولوية الأولى : المشاركة مع القوى السياسية والاجتماعية الأخرى في دفع أخطار التبعية السياسية والاقتصادية عن العرب والمسلمين .

ووضع هذا الأمر في المرتبة الأولى من سلم الأولويات يرجع إلى أسباب عديدة ، منها أنه لا قيمة - اليوم - لجهد يبذل في إصلاح المسار الداخلي للمجتمع إذا كان كيانه كله يتعرض للخضوع والتبعية لقوى دولية كبرى ، وهو نوع من التبعية جديد في صورته ، فريد في حجمه ، مخيف مفزع في آثاره ونتائجه ، ولا يجوز - بحال - قياسه على صور الاستعمار القديم أو الجديد حيث كانت الدول المستعمرة (بفتح الميم) تحتفظ بكيانها الداخلي في أكثر الأحيان ، وتظل تنتظر لحظة تاريخية مواتية ، يتخلص فيها الشعب من مستعمريه ، ويستأنف مسيرته من جديد .

أما التبعية الجديدة فإن مداخلها متعددة ، أولها

الضعف العسكري للدول العربية والاسلامية، واتجاه كثير منها إلى طلب الحماية من الدول الكبرى في وجه أخطار أقلها حقيقي ، وأكثرها مصطنع وموهوم ، وثانيها الاعتماد ـ شبه الكامل ـ على عدد محدود من الدول الكبرى في تزويد الشعوب العربية والمسلمة بالجانب الأكبر من غذائها وكسائها ودوائها ، وهو اعتماد متصاعد ، يحمل في ثناياه أسباب استمراره ، واستقراره كصورة ثابتة للعلاقات بين الدول الدائنة والدول المدينة ، وهي صورة من شأنها وضع استقلال الدول المدينة ـ بجوانبه المختلفة ـ تحت رحمة الدول الدائنة ، ومن شأنه ـ كذلك ـ تصاعد حجم التبعية مع زيادة حجم المديونية ، وانتقالها من ميدان إلى ميدان ، ومعنى هذا أن الدول الدائنة المتبوعة سوف يكون لها ـ بالضرورة ـ قول ورأي في أخطر الشئون الداخلية للدول التابعة وأدقها ، ومن هنا يغدو مصير حركات النهضة والانبعاث ، وتحديد المصادر الأساسية لتلك النهضة داخلا بدوره في دائرة نفوذ الدولة المتبوعة ، متأثرا برغبتها ، وأهداف سياستها ـ ولهذا تغدو مشاركة الحركة الاسلامية لقوى المجتمع الأخرى في دفع أخطار تلك التبعية جديرة بموقع الصدارة بين أولويات العمل الاسلامي ، وهي مشاركة من شأنها ـ فوق ذلك ـ أن تبنى جسورا عديدة مع تلك القوى ، وأن تفتح أمام الحركة الاسلامية أبوابا للمشاركة في سائر ميادين العمل الاجتماعي ، غير منعزلة ولا مقطوعة عن التيار الرئيسي لحركة المجتمع.

تشخيص أزمة الانسان المعاصر

الاولوية الثانية : لفت الأنظار إلى ما يحمله الاسلام لانسان هذا العصر من وسائل فعالة ومجدية في علاج الآثار الجانبية المسيئة للثورة العلمية والتقنية : وتلك ـ في الحقيقة ـ مهمة شديدة الطموح ، بالغة الصعوبة ، كما أنها مقيدة بشروط عديدة ، وإلا كان الحديث عنها أحلاما في اليقظة ، وإسرافا في الخيال والتمني .

والمدخل لفهم هذه الأولوية مدخل ثلاثي :

أ : فهو يقتضي أولا تحريك الوعي لحقيقة « العالمية » في ظواهر هذا العصر ، ذلك أن دوائر الولاء والانتماء الوطني والاقليمي والقومي لم تعد قادرة على فرض نفسها على أشد الظواهر المعاصرة خطورة وتأثيرا على الحياة المادية والمعنوية للناس ، فلقد قضي الأمر ، وتحول العالم إلى « قرية واحدة صغيرة» ، نتيجة للثورات العلمية والتقنية ، خصوصا في مجال الحركة والانتقال ، ومجال تبادل المعلومات والاتصال . إن أخطر الأوبئة الجديدة لم تعد تعرف حدود الأوطان والقوميات ، كما أن أخطار التلوث بالاشعاعات الذرية وبالكائنات الدقيقة العضوية لم تعد ـ هي أيضا ـ تحترم حقائق التاريخ أو الجغرافيا ، بل إن المشروعات الاقتصادية الكبرى قد صارت ـ هي أيضا ـ متعددة الجنسيات ، مخترقة لحدود القوميات ، حتى الارهاب والعنف المنظم وضعت في أيدي أصحابه وسائل تدبير وتدمير حولته ـ أيضا ـ إلى ظاهرة عالمية . ومن هنا يحتاج « المسلم المعاصر » إلى أن يعترف بهذه « العالمية » الجديدة ، وألا يقيم بين نفسه وبين العالم نفس العلاقة المعقدة التي أقامها بينه وبين الغرب أزمانا طويلة ، تردد خلالها بين الرفض الكامل والقبول غير المشروط ، فاقدا ـ في الحالتين ـ قدرته على النظر الموضوعي ، والانتقاء الواعي الذي لا تتدخل فيه الهواجس والمخاوف ، كما لا تتدخل فيه مشاعر نقص الثقة والاحساس بالضعف .

ب : وهو يقتضي بعد ذلك تشخيص أزمة الانسان المعاصر ، وهو تشخيص لم يعد المسلمون وغيرهم يختلفون فيه كثيرا ، وخلاصته أن إطلاق قوى العقل ونشاطها الهائل في ميادين السيطرة على المادة وتسخيرها لمنفعة الانسان قد صنع حضارة « شيئية » ، بدلا من « الحضارة الانسانية » ، فأصبح الانسان المعاصر يجد أنه ـ أو هكذا يظن ـ في حيازة

ألوان وأعداد لا آخر لها من الأشياء ، وتراجعت ـ تدريجيا ـ حرارة علاقته بالآخرين من الناس ، وترتب على ذلك انتشار سعار المادية والأنانية ، وانتشار ألوان المنافسات الوحشية على حيازة الثروة ، وزادت معها العلاقات الانسانية فتورا وبرودة وضعفا ، وعلى سطح هذه الحضارة « الشيئية » طفحت الجريمة واستشرى العنف الفردي والجماعي ، وأصبحت الانسانية ذات يوم لتكتشف أنها قد استغرقها الموضوع على حساب الذات ، وتراجع عن ساحتها الأنس الحقيقي الذي يستمده الانسان الفرد من علاقته الحميمة مع سائر الناس .

ج : ولا يمكن أن يكون للمسلمين إسهام حقيقي مبدع وفعال في علاج هذه الآثار الجانبية المدمرة إلا إذا جددوا فهمهم للاسلام ، وتجاوزت أبصارهم وبصائرهم حدود التفسيرات التي فرضتها ظروف لم تكن تحمل ما يحمله هذا العصر من تحديات هائلة ، تعترض مسيرة الانسان من وراء كل الحدود ـ (حدود اختلاف الألسنة والألوان والمعتقدات) .

أبعاد الفهم

والفهم الذي نتحدث عنه تتجلى فيه الخصائص التالية :

١ ـ أنه فهم إنساني ، يرتفع بالعقل والوجدان ـ معا ـ فوق حواجز اللون واللسان والانتماء القومي ، ويرى في البشرية أمة واحدة ، يخاطبها الوحي ، وتحتاج في مسيرتها إلى هداية الحق .

٢ ـ أنه فهم يتحرر من الالتصاق بالماضي وحده ـ ويتوجه إلى الحاضر والمستقبل ، ويرى عظمة الاسلام الحقيقية في انعتاقه من نسبية الزمن ، وفي تجدد وتعدد الصيغ الاصلاحية التي يقدمها لمواجهة عالم متحرك دائم التجدد والتغير .

٣ ـ أنه فهم مدرك لوظيفة الانسان على هذه الأرض ، وهي وظيفة تبدأ بالبناء والتعمير ، وتتوج بالهداية وإشاعة الحق والعدل ، فلا مكان ـ بعد اليوم ـ في معسكر المسلمين للعاجزين والهاربين من الحياة ـ ولا مكان فيه كذلك للذين استعبدتهم زينة الحياة ، وشغلتهم عوارض الطريق عن دورهم الرائد الذي اصطفاهم له الله خلفاء في أرضه ، وحملةلأمانته ، ودعاة إلى الخير وإلى الرحمة التي جاء بها رسله ، والتي أنزلها في كتبه .

٤ ـ أنه فهم مستوعب لحقائق التأثير والتأثر في دنيا الناس يعرف أن الناس لا تأخذ بالحكمة ولا تقبل بالنصيحة من الضعفاء والعاجزين ، وأن المسلمين ـ لذلك ـ لا يستطيعون أن يكونوا هداة لغيرهم ، إلا إذا صلح أمرهم بينهم ، ولذلك فإن التعجيل « بالنهضة الداخلية » للمسلمين هو تعجيل ـ في الوقت ذاته ـ بأداء المسلمين لدورهم المنتظر في رد البشرية إلى التوازن الذي ضاع بين مطالب « المادة » في الانسان ومطالب الروح فيه ، وبين دواعي الأثرة والأنانية وتوكيد الذات ، ودواعي الايثار والعطاء والعفو وتقديم الفضل للآخرين .

نماذج التمزق

الأولوية الثالثة : جمع شمل المسلمين ، وتصفية المعارك الداخلية بين روافد التيار الاسلامي .

ونحن هنا لا نخلط بين التمزق الذي نخشى عواقبه وبين التعدد في الآراء والأخطار الذي هو سنة من سنن الله في خلقه ، والتمزق الذي نريد « للعمل الاسلامي » أن يتخطاه تمزق مزدوج :

أ : فهو تمزق على مستوى الأقطار والدول والأنظمة .

ب : وتمزق على مستوى روافد التيار الاسلامي التي تلتقي على ساحة الاصلاح ، ولا تستطيع ـ مع ذلك ـ أن توحد صفوفها ، أو أن تجتمع على مواقف ، أو أن تضم جهدا مبذولا إلى جهد ، ووجه الخطر في التمزق الذي تغشانا ـ نحن المسلمين سحابته السوداء القائمة أنه تجاوز دائرة الاجتهاد والنظر ، واقتحم مجال العمل ، ووضع العاملين للاسلام في هذا العصر على طرق متقاطعة متنافرة ، يهدر بعضهم

جهد بعض ، ويحول ـ لو استطاع ـ دون نجاحها ، وأنه ـ فوق ذلك ـ يتم في غياب منهج معقول للاختلاف ، يحفظ به الود ، وتصان به مشاعر الانتماء المتبادل ، ويثق به الجهد المبذول قل أو كثر .

إن استمرار هذا التمزق على مستوى الحركات الاسلامية لا يغلق الباب في وجه كل أمل مشروع في مستقبل المسلمين فحسب،وإنما هو يضع الآخرين في حيرة لا آخر لها إزاء التيار الاسلامي بكل روافده ، إذ كيف يتأتى لأحد أن يعرف الحقيقة وسط هذا المهرجان الصاخب الذي يتبادل فيه الجميع الاتهامات ، ويصر فيه كل أحد على أنه وحده يحمل الحقيقة كاملة ، وأن الصورة التي يعرضها هي وحدها الصورة الصحيحة للاسلام ؟

شروط النهضة

ويخرجنا من هذا الضياع أمران :

١ ـ أن يستوعب الجيل المعاصر من المسلمين حجم الأخطار القادمة ، فإنها طوفان لا عاصم معه من أمر الله « إلا من رحم » ، وأن يستوعبوا ـ كذلك ـ حقيقة استحالة استقلال قطر مسلم واحد بدفع هذه الأخطار عن نفسه وعن سائر المسلمين .

٢ ـ ان يعلم الجيل كله أن اختلاف الرأي سنة من سنن الله في الناس ، وأن المسلمين الأوائل الذين بعث فيهم رسول الله (ص) قد اختلفوا فيما بينهم ، وقد اختلف الصحابة واختلف التابعون واختلف من جاء بعدهم ، وأن القضية اليوم ليست ألا نختلف ، وإنما هي أن نتعاون على الخير حتى حين نختلف .

على أن هذا التعاون يطرح سؤالا بالغ الأهمية ، ولابد له من جواب ، وهو هل تستطيع روافد التيار الاسلامي المتعددة والمختلفة فيما بينها أن ترتفع فوق حزازات ما بينها من خلاف ، وأن تتجاوز ذلك كله ، استشعارا لحجم الأخطار القادمة أم أن الأمر يحتاج إلى تسويات وتصفيات ، ترتفع فوق عبارات المجاملة ، والتستر على المشاكل في مواجهة الآخرين ؟

ذلك سؤال تصعب الاجابة عنه ، ولكننا نقول لروافد الحركة الاسلامية إن التاريخ لن يتوقف حتى تسوى خلافاتها،وان الجماهير التي أقبلت على روافد تلك الحركة لصبرها حدود ولسعة صدرها آخر وأن التعاون بينها ما يزال ممكنا وميسورا إذا ميزت في مظاهر خلافاتها بين الأمور العارضة التي تحتمل الاتفاق والاختلاف ، والأمور الأساسية التي لا يجوز الخلاف حولها ، ولو فعلت ذلك لقربت مسافة الخلف بينها ، ولفتحت للتعاون أبوابا ، هي عينها أسباب القوة وأسباب النهضة .

ولقائل بعد ذلك كله أن يقول :

وأين ـ في سلم الأولويات ـ قضية تربية الجيل المسلم ، وقضية القيم الغائبة من حياة المسلمين المعاصرين كقيم العدل والحرية واحترام العقل؟ وجوابنا أن ذلك كله داخل في أولويات العمل في الجبهة الداخلية للحركات الاسلامية ،ولكن هذه الجبهة الداخلية تقف اليوم كلها على مفترق طرق ، وعلى شفا جرف ، والأولويات التي تحدثنا عنها هي أولويات تفرضها « العالمية » الجديدة ، كما تفرضها ضرورات خروج الحركات الاسلامية من عزلتها ، واغترابها عن العالم من حولها ، وهو الخروج الذي يحمل في طياته بوارق الأمل للحركات الاسلامية ، وللمسلمين ، وللدنيا كلها . □

---

* المؤمن : لا يضيع في الكون .. وانما يضيع الكون في المؤمن .

(محمد اقبال)



ردم الهوة والخيار الصعب

بقلم : الدكتور : شاكر مصطفى

قل أي نبوءة مستقبلية واسكت ، اذن تنهمر حلقة الأصدقاء جميعها حولك بالنبوءات وأحاديث النبوءات . المستقبل بما يحمل من مجهول ، مثير ، محير ، يمتلكنا ، ما من انسان لا يفكر فيه . لا يتوق لمعرفته ولو في دجل العرافين وثرثرة قارئة الفنجان . . .

على الرغم من أن « الرجم بالغيب » تجاوز على علم الله ، فالناس يحاولونه ، وهم يعلمون عبث المحاولة ، وقديما كان الناس لا يأبهون للغد الدنيوي العاجل . الغد الأخروي الآجل هو الأهم . الدنيوي قبل الموت ، غيب مجهول مفتوح لارادة الله يطرح فيه جميع الاحتمالات على الأرض . أما الأخروي بعد الموت ، فمعلوم كله . انه يوم الحساب . والناس يعرفون انه يتفق كل الاتفاق مع أعمالهم في الدنيا ، فالعدل الالهي لا يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

الآية في العصر الحاضر صارت معكوسة ، أضحى العالم « يخطط » ، يضع السيناريوهات للمستقبل الدنيوي العاجل . نحن نضعه بأيدينا لبنة لبنة ، كما كنا دوما نضع من قبل دون أن ندري وبشكل فوضوي غير نظيم ـ وأما المستقبل الأخروي فهو المتروك الآن لله يدبر أمره كيف يشاء .

المنظوران في الحالين مختلفان يستندان الى أيديولوجيتين متناقضتين .

أيديولوجية السكون والسلبية والهرب الى الماضي ، ودوران التاريخ في حلقة يرتبط آخرها بأولها ، والتحذير بترك الأمور لله : « لا تفكر ، الله يدبر » و :

دع المقادير تجري في أعنتها
ولا تبيتن إلا خالي البال . . .

وأيديولوجية الحركة والايجابية والاقدام على المستقبل ، وسير التاريخ في خط مستقيم يتقدم باستمرار ، والعمل على تغيير الشرط الانساني بواسطة الانسان نفسه . . .

وما التناقض هو الذي يهمنا هنا ، ولكن التواكل لم يعد يطعم خبزا . وترك الأمور تجري في أعنتها غالبا ما ينتهي بالكوارث التي لا تعدم من يراها قادمة ويحسب حسابها بالفكر المنطقي وبالورق

والقلم ! . . . والناس اليوم ، ولو ظلوا على الانصراف لراحة البال وترك التفكير ، يتقبلون أيديولوجية التخطيط في مختلف نواحي الحياة . هذه الصيحة العالمية التي ترن في كل مكان كأجراس العيد ، ترتبط بالمنظور الآخر الى المستقبل ، منظور « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ! فالايمان يزداد يوما بعد يوم بأن المستقبل أكثر شأنا من الحاضر (الذي لا وجود له في الواقع) ، ومن الماضي الطويل الذي يجره الانسان وراءه ليرى فيه كالمرآة مدى ابتعاده عن أيام الكهف الأولى وعن الوحش الكامن فيه . فهو يتجه لهذا وذاك أكثر شأنا وأخطر من أن يترك سدى . . . وان التخطيط لما سوف يأتي سمة من سمات الفكر العلمي الحديث وشرط من شروط الحياة الحديثة . . . .

أن نكون أو لا نكون

على اننا نمضي خطوات أخرى فنقول ان علم المستقبل أضحى مذهبا فكريا كاملا له مدارسه وعلماؤه ومهندسوه ومؤتمراته وكتبه ومخططاته . وخطوة أخرى فنقول ان الوطن العربي على شفا انقلاب بنيوي جذري ، وخطوة ثالثة فنقول ان قضية التخطيط المستقبلي أضحت مسألة بقاء بكل معنى البقاء . « ان نكون أو لا نكون » هو الرهان العربي المقبل المتعلق بالتخطيط . ما يسمونه بالتحديات للوطن العربي » بتنظيمها ، بتحديد قوتها ومدى خطرها ، بتوضيح أولياتها ، باعداده لمواجهتها هنا مجاله الأوسع . أعرف ان الوطن العربي اليوم ينزف اقتصاديا . لا يخدعنا البترول ودخله . اننا منه أشبه بوارث يبيع قطعا من الأراضي التي ورث لينفق . الانتاج الحقيقي « الزراعي والصناعي » ، يتضاءل . ونحن نستورد ٧٥٪ ـ ٨٠٪ من موادنا الغذائية في انتظار أن نصل لاستيراد ٩٠ أو ٩٥٪ منها عن قريب . وللخلاص لابد من فهم معطيات النظام الاقتصادي العالمي المقبل المبني على التقنية الجديدة وانشاء مجموعة اقتصادية عربية « ديناميكية » فعالة متجاوبة معه . . . .

وأعرف اننا على التبعية السياسية . كل أعمالنا ردود فعل . وكل نظمنا تنظر ، قبل أي خطوة ، فيما اذا كانت الخطوة ترضي هذه الجهة أو تلك . وكلنا سجناء أفلاك تدور حول هذه الشمس السوداء أو تلك الحمراء . ودون الخلاص من هذه التبعية أهوال . . . من بينها التعاون العربي الفعال والسيطرة على انتاج السلاح والاستناد الى قاعدة اقتصادية متينة . . . .

وأعرف الى هذا وذاك اننا على الأمية الحضارية في مجال العلم والتقنية . لم تشرب جموعنا المبادىء الأولى في هذا ولا تلك . ثورة العلم التي وصلت الى هندسة « الجينات » الوراثية بين ما وصلت ، وثورة التقنية التي أوصلت الانسان الى القمر والأفلاك ، والثورة في مجال المواد الجديدة ، وثورة « الالكترونيات » الدقيقة بما تبعها من ثورة المعلومات وثورة الاتصال ، كل هذه الثورات مازال تجري في كوكب آخر نحن غرباء عنه حتى الرثاء . . . القادة لا ينظرون الى تشجيع العلم والتقنية على انها قوام كل أمة في الغد ، ولكن على انها « ديكور » للدولة والا فلماذا لا نجد للبحث العلمي في بلادنا ما يزيد على ٠٣ ، ٪ من الدخل القومي ونجد له ٣٪ ـ ٤٪ من الدخل أي عشرة أضعاف الى ١٢ ضعفا في أي أمة أخرى ؟ ولماذا تنفق ٥ ، ٥٪ ـ ٦٪ من دخلنا القومي على التسلح أي أكثر من ١٦ ـ ١٨ مرة مما تنفق على العلم ؟ .

وأعرف أخيرا ـ الى هذا ـ ان التنمية الشاملة انما تبدأ بالتخطيط للخلاص . وان هذا التخطيط يبدأ من الذات وينتهي بالذات .

لكني أريد أن أقف فقط عند جذر هذه المتحولات كلها . عند المنبع وأقصد التخلف الثقافي . والتخطيط للخلاص من هذا التخلف . ها هنا في اعتقادي مربط العنز ومن هنا نبدأ . . . .

ردم الهوة المتزايدة في السعة والعمق انما يبدأ بتغيير المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الفكر . عبثا

نصطنع « العلم » ان لم نؤمن مسبقا انه الطريق . وان المعرفة هى القوة كما يقول باكـون . وعبثا نحـاول الديمقراطية ومانزال ننتظر « الدكتاتـور العادل » ، فـلا يمكن اصطيـاد عصفـور واحـد وعـلى العينين عصابة ـ كما يقول ماو تسي تونـغ . وعبثا نصـرخ لاصلاح الاقتصاد ومايزال ثلاثة أربا ع غذائنا اليومي مستوردا ، فإن الناس لا يتخلصون من البؤس بمجرد الهتاف للثورة ـ على حد قول ميرلو بونتي .

ولن ألح كثيرا في الوقوف عند عقبة العلم والتقنية انها الأساس في ثقافة الغد . والحـديث عن العلم ومكانه الخطر في هذه الثقافة ، وعن التقنية ودورها في النقلة الحضـاريـة ، دفـع لأبـواب مفتحـة عـلى مصاريعها .

ان مـا نشهـده اليـوم من آلاء التـراكم العـالمي الهائل . يضعنا بالرغم منا على أبواب عصر مختلف . لقد تغيرت صـورة الكون بـين لانهايتيه الصغـرى والكبرى . وانقلب التوازن العلمي والتقى القديم كما ونوعا وسرعـة وبخاصـة في « الالكترونيـات » الـدقيقة وتـطبيقاتـهـا » ، وفي المضادات الحيـوية وفي هندسة المكونات الوراثية وفي تكييف الحياة العقلية بالعقاقير، وفي أبحاث الذرة وتطبيقاتها، وفي أبحـاث الفضـاء وتقنية الصـواريخ ومـركبات الفضـاء وفي « الأتمتة » الذاتية، وفي أبحاث الاتصـال، وفيما يسمى بثورة المعلومات . وامتد هذا الانقـلاب كله الى ما وراء العلوم البحتة » والبيولوجية » والتطبيقية ليمس العلوم الاجتماعية والانسانية والاقتصادية . . . كل ذلك في مدى زمني لا يزيد على نصف قرن ! ولـو افترضنا ان الانسان موجود منذ خمسين ألف سنة ، وقسمنا هذه الفترة الى أعمار متصلة كل منها خمسون سنة لكان كل هذا الذي تم من الثورة انما تم في العمر رقم ١٠٠٠ !! أغريب بعد هذا أن نفكر بالمستقبل ونخطط له ؟

واذا كان الفكر المستقبلي علميا بالضرورة . فان هذه المقولة تعني الكثير . انها تعني :

أولا :

ان من يملك العلم في المستقبل أي يملك المعلومات وتقنية استخدامها يملك العالم . . . .

ثانيا :

ان اقامة العلم كقوة حية نشـطة في المجتمع هي جزء من مشكلة التحول من الأمية الحضاريـة الى التنمية الشاملة وذلك لا يكون بنقل العلم ولكن بنقل المنهج والطريقة .

ثالثا :

ان تغير الثقافة العربية نوعيا ، شرط ضـروري لقيام الحركة العلمية على قاعدة متينة واسعة من الفكر والفهم والاستيعاب للعصر .

رابعا :

ان هذا التغير لا يكون الا بثورة ثقافية ، أي بربط الثقافة العربية مع العصر عن طريق العلم والتقنية . ان العلم ليس معرفة ولكنه أسلوب في الفكر ينقله من تجريد الطبيعة الى تجريبها ومن سكونية الوجود الى حركية الوجود ومن الغيبية الى السببية .

خامسا :

ان عمليـة كسب الـعـالم ونقـل الـتقنيـة لا تكفي . لأن هذين النشاطين ليسـا ثابتين ولا كمّين انهما في حركة دائمة متطورة التطور السريع الرهيب من جهة، ويحتاجان الى توفر مجتمع علمي مواز يستطيع المتابعة لهما والمشاركة فيها والاسهام في الابتكار من جهة أخرى .

سادسا :

ان نفقات كسب العلم ونقل التقنية ، والثورة الثقافية لمسـاندتها ، تتجاوز القدرات المادية لأي دولة عـربيـة ، وان المستقبـل للتكتـلات البشـريـة الـواسعة . . . وان تغيير المسار الفكري العربي يفرض هنا التكتل المادي والبشري بفرض التـوحد والا ظللنا على ترك مزاريبنا تصب في الأقنية الغربية وظللنا على الشرب من تلك الأقنية .

مقابل هذه التحديات المصيرية نلاحظ ان الهوة بين ثقافتنا التي نحيا وبين الثقافة العالمية تتسع بازدياد رهيب . قدر اتساع الهوة الاقتصادية بين الشمال والجنوب . الكتاب الاحصائي لليونسكو سنة ١٩٨٥ يكشف المؤشرات الخطرة . ففي البلدان النامية ـ وليست البلاد العربية بأحسنها ـ هناك ١٢٥ باحثا علميا لكل مليون نسمة ، في حين تقدم البلاد الصناعية المتقدمة ثلاثة آلاف . وان نصيب البلدان النامية من عدد الباحثين العلميين لا يجاوز كثيرا ١٠٪ من المجموع ، وان ما تنفقه على البحوث والتنمية لا يشكل الا ٦٪ من اجمالي ما ينفق عليها على المستوى العالمي أي انه لا يجاوز ١٢,٥ مليار دولار من أصل ٢٠٨ مليارات دولار !

في حين تنفق الدول النامية على « أحقادها » الصغيرة التي تخلقها لها الدول الكبرى وتلهيها بها ١٥٠ مليار دولار ثمنا للأسلحة القديمة ولافراغ مخازن هذه الدول منها لاستقبال أسلحة أحدث . . . .

ان اقتصاد الغد ، ومؤشراته ظاهرة في اقتصاد اليوم . وسوف يقوم كثقافة الغد سواء بسواء على التقنية الحديثة التي تتطلب انتاجا كبيرا وأسواقا كبيرة . اقتصاد الخمسينيات انتهى والتحدي لم يعد قضية علمية ـ ثقافية فقط ولا قضية سياسية ولكنه مسألة « بقاء » . . . .

حاجات الغد

من هنا صار التفكير في المستقبل العربي ككل يفرض نفسه فرضا واذا لم نشأ ان ندخل في التخطيط الشامل اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وفضلنا ان نتركه لأهله واختصاصييه ، فان ذلك لا يمنعنا من التفكير في الوسائل وفي الأسس الأولى للتحرك . المخططون لا يمكن أن ينطلقوا من فراغ . ولابد من التخطيط لوسائل الوصول بقدر التخطيط لأهداف الوصول . كما لابد من النظر في الأسباب والأهداف على ضوء التغيرات المستقبلية المتلاحقة وحاجات الغد . فهل ترانا نستطيع اقتراح بعض الخطوط ؟ قد يكون بعضها معادا نضعه لاكمال الصورة أما بعضها الآخر فمشتق من رؤية للغد مرعبة . وهل يجدي الرعب وحده . اننا أمام أعمال جبارة أولية من ملامحها :

١) سد منابع الأمية : ليس بالمعنى الالفبائي ولكن بالمعنى الحضاري أيضا . أمية الوطن العربي تضعه في أسفل السلم . انه يكاد يكون آخر مناطق العالم تحررا منها ، رغم كل الجهود التي تبذل ، ورغم التزايد المادي في الانفاق والتزايد الانتاجي في الأعداد المتعلمة . تصل الأمية في الوطن العربي الى ٥٤,٦٪ في حين انها في مجموع القارة الافريقية لا تجاوز ٥٣٪ ، وهي في أسيا وأمريكا اللاتينية أكثر انخفاضا بكثير ، فهل نأمل في تقدم الى الغد ، وقيود الأمة كتل من الرصاص في الأرجل ، والمحيط هو المحيط ؟

٢) اتخاذ جميع السبل لتكثيف الثروة البشرية العلمية وربطها لا بالأرض فقط ، ولكن بالثروة المادية للأرض وبالمشاكل الاقليمية المتوطنة . لابد من اتساع القاعدة العلمية التقنية وبمختلف الدرجات قبل انتظار النبوغ في بعض ميادينها . ثروتنا البشرية مهدورة وما يتفتح منها هو العصافير المهاجرة .

٣) دعم خبرات الترجمة وتقنية الترجمة بلى ! انها لم تعد عملا يقوم به كل من عرف القفز بين لغة وأخرى . لقد صارت علما وقواعد وفروعا وأنواعا . وصار لكل علم لغة ، ولكل ترجمة (من فورية وأدبية وشعرية وطبية وفيزيائية وسياسية . . . .) خصوصها وتقنيتها ، والعاملون في الترجمة سيكونون جزءا متمما لعلماء المستقبل . انك لا تستطيع الاعتماد على اللغة الأجنبية وحدها . لا يتفاعل الفكر معك بعمق ووضوح الا في لغتك . لغتك أنت . الترجمة هذا « العلم المهمل » يجب أن تدفع به جامعاتنا الى المقدمة بقوة ، تنظيما وتقنية واختصاصا . انه الجسر الوحيد الى الابداع .

٤) الاتجاه الى تقنية المعلومات . لقد وصلت ثورة المعلومات الحد الذي لابد معه من التعامل المباشر مع

تقنياتها المتقدمة . وبلادنا تصنف ضمن البلاد الجائعة معلوماتيا . لم يعد الكتاب كافيا ولا المكتبة . « المعلومة » أضحت رأسمال الغد . وطرائق الحصول على المعلومات أضحت سبيل العلم الأول . نظم المعلومات هي العلم المساند لكل العلوم في المستقبل ، والعلم الذي يسد الفجوات القائمة بين العلوم . تقنية المعلومات تقيم الحوار والتواصل بين مختلف قطاعات العلوم في انسيابية كاملة وبلغات أرقى وأيسر . ومعالجة أقدر وأسرع ، وذاكرة أضخم وأذكى ، واتصال أوسع وأغنى . . . كل ذلك من أجل محاكاة بعض خصائص الذهن الانساني . وعمل بنوك المعلومات ، انها تدرس خواص المعلومات ومتغيراتها والعوامل التي تحكم تدفقها ووسائل تجهيزها للافادة القصوى منها ، كما تشمل انتاج المعلومات وبثها وتجميعها ومعالجتها التحليلية التركيبية وتنظيمها واختزانها واسترجاعها وتفسيرها ثم بثها من جديد . انه علم لا يتصل بمختلف العلوم من طبيعية « وبيولوجية » وانسانية واجتماعية فحسب ، ولكنه يقوم أيضا على الرياضيات والمنطق وعلم اللغة وعلم النفس وتقنية الحاسبات « الالكترونية » وبحوث العمليات وفنون الطباعة والاتصالات و . . . أخيرا علم المكتبات والادارة - العالم كله يتحول من المجتمع الصناعي الى المجتمع المعلوماتي أفلا يستحق هذا كله الاعداد له ؟

٥) الاتجاه الى تقنية الاتصال والاعلام . فثلاثة أرباع ثقافة الغد سوف تأتينا عن طريق وسائل الاتصال . ولابد من السيطرة على عمليات الاتصال والاعلام لتكوين القاعدة الثقافية التحتية الضرورية ، ولمساندة العملية العلمية ، والرسالة الاعلامية هي النقطة المركزية في عملية الاعلام . ودورها في التنمية الثقافية انما يحدده مقدار ما تحمل من المضمون الثقافي المستقبلي . والسيطرة على وسائل الاتصال من الأقمار الصناعية والشبكات الفضائية الى أنظمة البث الاذاعي والتلفزيوني « والكابلوفيزيوني » وما سوف يستحدث منها بالاضافة الى الوسائل التقليدية من صحيفة وكتاب ووكالات أنباء ومسارح وقاعات موسيقا ومحاضرة ومطابع . . . كل ذلك يقتضي وجود الأجهزة البشرية التقنية بجوارها ووجود الانتاج الجذاب الآسر الذي يبعد منافسة وسائل الاتصال الأخرى ، ويوقف تدفقها الوحيد الطرف حتى الآن . . . بدون هذه الأجهزة وذلك الانتاج تكون الثورة الثقافية النوعية التي نرجو عبثا في عبث . ما نبنيه في سنة يهدمه السيل في لحظات ! . . . و

متى يبلغ البنيان يوما تمامه
اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

إنها تدور بالفعل !

لقد طال الحديث وما ذكرنا الا بعض الخطوات الأولية الضرورية للبدء بأي تخطيط للغد . ولكنها ملامح نقتطفها على الطريق . ثورة العلم والتقنية وضعتنا برغمنا أمام التحدي الجذري . الأرض كلها تنقلب تحت أرجلنا وتدور ونحن لا نشعر . هل نشعر بدوران الأرض ؟ ولكنها تدور بالفعل ، وتدور معها قوى العلم الدوران الرهيب . ولا سبيل الا ادخال الرأس في هذا الدوران لنستطيع اجتياز عتبة القرن الواحد والعشرين - وهي جد قريبة - دون أن يصيبنا الدوار العاصف ونسقط على الهوامش البعيدة الانسانية .

ليس من عودة الى عقلية التواكل القديم ولا الى الاعتماد على التدخل الالهي للانقاذ . فقد جعل الله لكل شيء سببا . وقال : « وقل اعملوا . . . » ، كما قال : « فاذا عزمت فتوكل على الله » ، وقال : « نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » . ولم يقل أبدا تواكلوا وأنا الكفيل بكم . ردم الهوة هو الخيار الوحيد ، وان يكن الخيار الصعب . ولكن هل من سبيل غيره ؟

هل من سبيل ؟ □

الاختيار



يا رفيقاً وَقفَ العُمْرُ على بابك يوماً
لم يفارقْ ،
وقف العمرُ على بابك مصلوباً
يُعانقُ
أملاً يَخْبو ويصْحُو ،
والحقائقُ
خنجرٌ يُدمي فؤادي ،
بيَدَ أني أحرقُ العُمْرَ على بابك ،
مرحى يا حرائقُ .

*****

يا رفيقاً زارَ أيامي على غير اختيار ،
فانتشت أيامي الكسلى ،
وغابَ الليلُ من يومي ،
وصار الكونُ موصولَ النهار ،

شعر : الدكتورة كافية رمضان

غرّدتْ أطيارُ أفكاري بشدوٍ عبقريٍّ ،
لَمْ يكُنْ شَدْوِيَ قبلَ الحبّ
غيرَ الهمّ ، والشكوى وطولِ الانتظار .

* * * * *

جاءني طيفُك يدعوني ، فلبّيتُ النداء ،
وانتشى زهرُ الرّوابي ،
وانحنى نجمُ السماء ،
قبلَ الطيفَ الذي يدعو حبيباً للقاء

* * * * *

لم يكنْ عُمْرِيَ قبْلَك
غيرَ أيامٍ سقيمة ،
يركبُ الهمُّ حصانَ الوهمِ في أرضي العقيمة ،
لم أكنْ غيرَ نباتٍ عَوْسجيٍّ ،
أصْفَرَ الأوراقِ ، يذْوي
للثّرى ، يشكو همومَه ،
جاءني حبُّك أمطاراً رحيمة ،
أحْيَتِ الأرْضَ ، فصار العوسجُ اليابسُ زهراً ،
كيف غيَّرْتَ رسومَه !؟

* * * * *

ها أنا أعبرُ أيامي وعمري ، أحملُ الحبَّ الوليدَ ،
أمتطي زهرَ الروابي الخُضْرِ ، والحظُّ السعيدِ ،
ويَمُرُّ اليومُ إثْرَ اليومِ ، عيداً إثْرَ عيدٍ ،
ويمرُّ العامُ بعدَ العامِ
جذلاناً يغني الحبُّ موصولَ النشيدِ

* * * * *

يا رفيقاً زار أيامي على غير انتظارٌ
غيّرَ الرؤيةَ والرؤيا وصار الاختيار

الصحوة الإسلامية

بين الجسور والعقبات

بقلم : الدكتور عبد العزيز كامل

عندما كنت أجمع نقاط هذا المقال ، وأتصور خطوطه العامة ، وضعت القلم ، وتخيلت موقعي مركز دائرة ، وأفكار المقال وخطوطه منتشرة على سطحها ومحيطها . . .

وأقصد هنا الموقع المادي أو الجغرافي . .

١ - رحلة المكان

كان من قدري أن أعيش في التقاء مجموعة من خطوط التماسّ :

نافذة مسكني تطل على خليج الكويت في رأس السالمية . وأمامي الميناء البحرى إلى جزيرة فيلكا . وخط الأفق الشرقي لا يكاد يخلو من سفينة مقبلة على الخليج أو صادرة عنه . وفي الليل - اذا كان الجو صافيا - تبدو أنوار الجزيرة زهورا مضيئة أو نجوما باسمة جاءت تزور الارض .

والى الغرب قبلة الصلاة والارض المقدسة . وما زال أهل الكويت يميزون في المدينة القديمة بين الشرق والقبلة .

هذا خط التماسّ الاول بين البر والبحر .

يأتي بعد هذا خط التماسّ الثاني بين القطاعين العربي والآسيوي من العالم الاسلامي ، وتشتد قوة هذا الخط إذا ضممنا اليه الروابط الافريقية ، وهي قديمة مع الخليج برا وبحرا . .

وعندما أراد خيالي أن يسبح شرقا في العالم الاسلامي الآسيوي ، استوقفه أخدود من الدم وحرائق أشعلتها الحرب العراقية الايرانية . وكيف يستطيع الخيال الجريح ، كسير الجناح أن يطير ؟

ومن مسكني ليلا - وأحيانا نهارا - تصل الى سمعي رعود القذائف . . ومع كل قذيفة روح تزهق ، أو بنيان يتحطم ، أو سفينة تصاب ، أو غصون خضراء تتكسر ، وأحقاد تتزايد .

والكل مسلمون . لهم نبي واحد . وقبلة

واحدة . وقرآن واحد .

فلنتابع الرحلة شرقا لنرى إخوة في أفغانستان ، عاشوا قرونا يتنفسون الحرية . هم أبناء جبال كأنها في ارتفاعها وشموخها صورة كبرياء الأرض ، وتنحدر من ثلوجها النقية أنهار تحمل في تدافعها وهدوئها الخصب والنماء ، ترعاها سواعد قوية وقلوب نقية .

رأيت هذه الوجوه الشماء من قريب في بشاور (نوفمبر ١٩٨٦) . غير بعيد من حدود بلادها . عزيزة في هجرتها مع تصميم على العودة . واستمعنا الى بطولات حرب وصمود . وشاهدنا شبابا من الكويت ومن أقطار العالم الاسلامي ، وبعض المؤمنين بكرامة الانسان في الغرب ، وهم يبذلون الجهد الطبي والاجتماعي والاقتصادي لعون اللاجئين حتى ترتد موجة الهجرة عودة ، يخلو بها ويصفو وجه أفغانستان لأبنائها .

ولك أن تتابع الرحلة شرقا لترى تأثير هذه الحروب على القلق السكاني في الأقطار المجاورة . . . ثم ترى النشاط التبشيري المنتظم في الأطراف الشرقية للعالم الاسلامي ، ونحن عنه ساهون . حتى الكلمات أصابها التشويه : تخريب العقائد أصبح تبشيرا ، كما سموا الاحتلال ونهب الثروات من قبل « استعمارا » ؟

وفيما بين الموقع الذي أحدثك منه ، والأطراف الشرقية لعالمنا الاسلامي ، قامت حروب الطوائف والعقائد والعنصريات ، كأنها « مرض الايدز » السياسي والاقتصادي . . طاعون جديد لم نستطع حتى الآن أن نتخذ له مصلا واقيا .

فلنترك الشرق الى حين ، ونتجه غربا في عالمنا العربي . . وسنقف عند النواة التي تفجرت منها أكثر من حرب .

سنقف عند القدس الشريف والمسجد الأقصى وفلسطين . ولك أن تربط بها أكثر ما حدث في جميع الأقطار العربية حولها دون استثناء ، من حروب مباشرة في ميادين القتال مع اسرائيل ، الى حروب داخلية عربية عربية ، هي عند اسرائيل أحد الآمال المنشودة : أن يقتل العربي العربي ، وأن تتحول بعض الخلايا الطبية في الجسم العربي الى خلايا سرطانية جشعة تتغذى على الجسم الذي يؤويها .

ولو تابعت الرحلة غربا ستجد في كل قطر عربي مايشغله بنفسه أو مع جيرانه العرب أو الأفارقة المسلمين . .

ثم هناك عبر الصحراء هذه الحرب الصامتة : الجيش الغازي يتكون من حبات الرمل ، وفرسانه الرياح السافية ، وضحاياه الأرض الزراعية والمراعي ، ومن بعدها سكان الارض ، التي سادها الموت واتسعت بها مملكة الخراب . .

هذه الحرب ممتدة في العالم الاسلامي الافريقي على جبهة تبدأ من مشارف البحر الاحمر حتى المحيط الاطلسي . .

أليست هذه الحرب أولى أن نخوضها من حرب الأشقاء والجيران . . أو ما يطلق عليه بعض المحللين الغربيين « حرب الأغنياء الذين يشترون الموت بالمال . . »

والآن : هل كنت أمينا مع القارىء عندما وضعت كلمة « الصحوة الاسلامية » في عنوان المقال ، ثم رأى نفسه يسير معي في أرض الدم والدمع ؟ . .

نعم : هذا بعض الحق . وكان الحديث عن العقبات . فماذا عن الجسور والمعابر ؟ فلنتركها الى حين . ولنحاول أن نقوم معا برحلة أخرى عبر الزمان ، وقد كانت رحلتنا الأولى عبر المكان . وبهذا تتكامل الصورة ، ويبدو موقع الصحوة الاسلامية زمانا ومكانا ، تنظر منه إلى مشارف المستقبل .

٢ ـ رحلة الزمان

لقد لقي الاسلام في مساره صنوفا من التحديات ، وتجلت حيوية أجياله في قدرتها على مقابلة هذه التحديات ، فتجعل من عقباتها معابر إلى

آفاق أوسع ، ولنمر عليها مسرعين :

أولا : كان التحدي هو « الدعوة » . أن يصل الاسلام الى الآذان والعقول والقلوب . وأن يتحمل المسلمون مسئولية ذلك . ونالهم من الأذى البدني والاجتماعي والاقتصادي والفكري الكثير ، وهاجروا الى الحبشة ، وحوصروا في شعب بني هاشم .. ولكنهم استطاعوا تكوين « القاعدة البشرية » التي تستطيع حمل هذه الأمانة .

ثانيا : كان عليهم تكوين « قاعدة أرضية » . من أجل ذلك جاءت الهجرة الى المدينة ، وتكونت دولة الاسلام الأولى ، حيث الأرض والبشر والتنظيم في وحدة إسلامية جامعة . وكان على هذه القاعدة أن تنمو داخليا ، وأن تكون ذاتها خارجيا . وكأن مجالات التحدى اتسعت .

ومرت حياة المدينة في مرحلتين أساسيتين : أولاهما قبول التحدي من مشركي العرب ومن فيهم من اليهود في خط من الحصون تمتد من المدينة الى تيماء مرورا بوادي القرى وخيبر وفدك .

والثانية : قبول التحدي من دولتي الفرس والروم . وبعض هذا التحدي مازال مستمرا حتى الآن .

ثالثا : مرحلة الكوفة : وقد استغرقتها الحروب الداخلية بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومعاوية بن أبي سفيان ، وبدت فيها بعض الثمار المرة لفتنة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وسالت فيها دماء ما زالت رطبة حتى الآن .. دماء نبعت منها دماء جديدة ، وثارات ولدت ثارات .. ورغم هذه الصراعات في عهد الخليفة الراشد الرابع ، فقد أرسل جيشا فتح السند (٣٩ هـ/ ٦٦٠ م) وأبرز عناية الخليفة بهذا الوجه من آفاق الفتح الاسلامي .

رابعا : كان التحدي في عهد بني أمية أكثر اتساعا ، ورغم هذا حاولت دمشق أن تمسك بالمبادرة في يدها . وتمثلت التحديات في آفاق ثلاثة رئيسية :

(١) الصراعات الداخلية بين القوى الاسلامية

(٢) تنظيم وتحديث الدولة وضبط التوازن بين الأصالة الاسلامية والعربية وبين الحضارات التي لقيها الاسلام ،وبخاصة ما كان في الدولة الرومية

(٣) حماية الدولة الاسلامية برا وبحرا ومد حدودها . ومن أجل هذا خاضت حروبا امتدت شرقا الى الاطراف الغربية للصين ، وشمالا حتى القسطنطينية ، وغربا حتى المحيط الاطلسي ، وعبرت جبل طارق حتى أدركت السهول الجنوبية في فرنسا ، هذا مع المحافظة على نواة عربية إسلامية تحمل المسئولية العليا والقيادات متعاونة مع الشعوب التي قبلت الاسلام دينا .

خامسا : صورة التحدي في العهد العباسي أصابها تعديل جديد ، برز فيه الوجه الحضاري ، وحوار الحضارات حوارا كان عقلانيا أحيانا ، عنيفا داميا أحيانا أخرى . وشهد العالم الاسلامي تمزق وحدته السياسية ، وبرزت خطورة سيطرة العناصر التركية المجلوبة على الجيش ، وسيطرة أسر عربية وغير عربية على أجزاء من الدولة ، وأصبح مضمون الخلافة رمزا أكثر منه حقيقة واقعة ، وانعكس هذا استغلالا للمنتجين الحقيقيين في الزراعة والصناعة والتجارة ، وثورات وتطلعات الى السلطة في أقطار الدولة ، مما مهد الطريق أمام زوال الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م على يد التتار .

سادسا : ومع بروز مراكز بديلة لبغداد في قيادة أجزاء من العالم الاسلامي، إلا أن أكبر التحديات في هذه المرحلة كان عسكريا . وأبرز ما فيه الخطران : التتاري والصليبي . وقد استطاعت المراكز البديلة صد الهجمات والاحتفاظ بالوجود الاسلامي وإن تعددت فيها القيادات ، ولو صحب التعدد تعاون لاستطاع أن يثمر للاسلام خيرا ، ولكن الصراع الذي حدث بينها امتص الكثير من طاقة الاسلام .

سابعا : ولعل أخطر ما حدث هو سبق دول غرب أوروبا إلى كشف العالم الجديد ، والطواف حول

افريقيا وحول العالم . وبهذا أمكن تطويق العالم الاسلامي والضغط عليه واختراقه وتمزيقه في قطاعاته الآسيوية والافريقية والعربية . وأصبح التحدي الكبير هو كيف تحافظ الدول الاسلامية على استقلالها . وأكثرها عجز عن ذلك .

ثامنا : وجاءت تباشير الصحوة الاسلامية مع القرن العشرين على مستوى وطني . ولكل قطر شأن يغنيه ، واستطاع بعضها أن يستعيد استقلاله ، وقويت الموجة بعد الحرب العالمية الأولى ، وعلت بعد الحرب العالمية الثانية ، وإن استطاع الاستعمار أن يغرس خنجرا غائرا في جسم العالم الاسلامي ، بدأ بوطن قومي لليهود ، أفرخ قيام اسرائيل كقاعدة استيطانية توسعية ، تتلقى المدد الدائم ـ البشري والمادي والمعنوي ـ من عدد من الدول الكبرى ، وتمثل تهديدا دائما للعالمين العربي والاسلامي ، ولها تعاونها المنتظم مع قاعدة مناظرة في جنوب افريقيا .

تاسعا : ومع ثورة الاتصال المعاصرة ، وتوافر موارد اقتصادية في بعض أجزاء العالم الاسلامي كالنفط ، ومزيد من الاحساس بالأصالة من ناحية ، والرغبة في التكتل الواعي من جهة اخرى ، وقوة الاحساس بالأخطار المحدقة بالعالم الاسلامي ، ظهرت الحاجة الى تنظيم تجمع جديد . تبلور في إنشاء « منظمة المؤتمر الاسلامي » بعد المحاولة الآثمة لحريق المسجد الأقصى في عام ١٩٦٩ .

ولم نكن وحدنا في هذا الاتجاه التجمعي ـ العرب ، الأفارقة ، كتلة عدم الانحياز ـ مجموعات ترجو أن تتعاون دون تداخل أو تعارض . .

والآن ، وبعد رحلتي الزمان والمكان ، ما صورة التحدي المعاصر ؟

٣ ـ التحدي المعاصر

لك أن تقول انه « التحدي الشامل »

وإذا رجعنا ـ كمثال قريب ـ الى مقررات مؤتمر القمة الاسلامي الخامس الذي شهدته الكويت في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧ جمادى الاولى ١٤٠٧هـ ـ لرأينا صورة هذا الشمول الذي يضم الآفاق السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتربوية . . ثم هو ينطلق من نقطة مركزية هي المسجد الأقصى والقدس الشريف وفلسطين ، لتتداح دوائره حتى تضم العالم الاسلامي كله والجاليات الاسلامية في مهاجرها الجديدة . . وهي مقررات تعنى بالبشر ، كما تعنى بالأرض التي يعيشون عليها ، وتربط بين الأصالة والنظرة المستقبلية ، وتنظر الى التراث ككيان له نموه وحيويته المتجددة .

وهنا يطرأ سؤال :

ما العلاقة بين حجم القدرات وحجم الآمال ؟

وكيف نقيم الجسور بين الواقع والأمل فوق أخاديد الطريق ، ورغم العقبات ؟

إن رصد الآمال بعض الطريق . ونحن في حاجة الى ما يمكن أن نسميه « الامل والعمل » ، أو « الكلمة والعمل » . . الكلمة الحية القادرة على أن تكون عملا ، مصداقا لقوله الله تعالى :

« وقل اعملوا » . . وإذا انقطعت الكلمة عن أصولها أصابها اليتم . وإذا انقطعت عن العمل أصابها العقم . وإذا ظلت تتردد من لقاء الى لقاء عاشت في طفولة لا تبلغ رشدا ، ولا تعطي ثمرا .

ولو نظرنا الى التحديات في تعاقبها الزماني وامتدادها المكاني ، رأينا أن لكل منها « خصوصية » ، تتفرد فيها بصفات ، وتتشابه مع غيرها في أخرى . فنقل التجربة ـ أي تجربة ـ بحرفيتها وإسقاط العوامل الزمانية والمكانية غير وارد .

وتصوير العصور أو الاقطار الذهبية في الحضارة الاسلامية ، كنماذج تحتذى جملة وتفصيلا غير وارد .

فالزمان في تغير ، يحدث بطيئا أحيانا وسريع أحيانا .

ولو تشابه الزمان والمكان فكيف ندرك قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف

ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » (الروم : ٢٢) ، وقوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد : ١١) . والحياة حوار بين عوامل الاستمرار والتغير ، بل إن الاستمرار هو تغير بطيء ، والتغير استمرار قصير الأمد .

ودراسة الأحداث للعبرة والذكرى . والله يقول « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١)

ولكل مشكلة دراستها الخاصة التي تفيد من التجارب السابقة والعلم الحديث ، والعوامل الطبيعية والبشرية لموقع المشكلة زمانا ومكانا وتكوينا .

٤ ـ الطريق

ويفرض هذا على العالم الاسلامي المعاصر « تشكيل عقلية اسلامية » قادرة على الاحاطة بهذا كله . وهو عمليا فوق طاقة فرد أو جماعة محدودة .

بين هؤلاء جميعا قدر مشترك من الايمان بالله والاخاء وحب العلم ونكران الذات والصبر ، ولكل مجموعة روح فريق تتعاون به ، وللكل تنظيم إسلامي ، يضع الخريطة العامة التي تتوزع بها المسئوليات ، عابرة الحدود السياسية والعصبيات الضيقة ، والتوترات الاقليمية .

هذه العقلية تحتاج في تشكيلها إلى رعاية دائمة . فهي لا تبدأ من فراغ ولا تعيش فيه . وتشكيلها حوار متصل يستهدف مزيدا من الوعي بمشكلات العصر ومسئولياتنا في عالمنا الاسلامي ، كحضارة متفاعلة مع المسيرة العالمية .

ونود أن تصبح هذه العقلية تيارا قويا قادرا على امتصاص كثير من الطاقات التي تبددها الصراعات الضيقة والطائفية والاهتمامات الجزئية الانعزالية ، لتتوجه جميعا إلى مقابلة التحدي الحضاري المفروض على العالم الاسلامي ، ذلك التحدي الذي رأينا امتداده المكاني وتغيراته الزمانية وتشابكاته الموضوعية .

يضاف إلى هذا : أننا اذا كنا نتجه إيجابيا نحو هذا الهدف ، فهناك من يحاول صرفنا عنه ، وتبديد طاقاتنا في مسارب جانبية . وهذا يفرض علينا مسئولية مضافة ، وهي مقاومة العقبات التي يضعها الآخرون في طريقنا : فكريا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا .

وكنموذج لهذا الصراع والهجوم المنتظم على الاسلام والعروبة في العالم الجديد ، أشير الى كتاب « بول فندلي : من يجرؤ على الكلام : اللوبي الصهيوني وسياسات أميركا الداخلية والخارجية»،وقد صدرت طبعته الاولى الانجليزية والعربية عام ١٩٨٥ .

وبول فندلي ظل اثنين وعشرين عاما عضوا في الكونجرس الامريكي من ولاية ألينوى . وعندما اتصل بالعرب مباشرة ، وأخذ يعلق رأيه الصريح في وجوب أن تستمع الولايات المتحدة إلى كل الأطراف بتوازن ، حاربه اللوبي الصهيوني حتى تمكن من أن يحول بينه وبين إعادة الانتخاب عام ١٩٨٢ . وتوفر فندلي على هذا الكتاب الذي يسد ثغرة واسعة في المكتبة الامريكية والعربية .

فالطريق طويل . والعمل فيه محتاج الى تنسيق على الصعيد الاسلامي العالمي ومبدؤه : الانسان المسلم في قطاعاته الاربعة : العربي والافريقي والآسيوي وجاليات المهاجر الجديدة . وفي اهتماماته المتكاملة .

وأولى الهيئات بشئون تنظيمه ومتابعته هي : منظمة المؤتمر الاسلامي .

والأمل كبير في أن تقوم الكويت في هذه الدورة الخامسة لرئاسة المؤتمر ، بدور رائد نحو هذا الهدف المنشود . □



الأرض بلاميكروبات
كوكب ميّت..

بقلم الدكتور سمير رضوان

أكثر الميكروبات التي تعمر الأرض مسالم وديع ، بل إن الحياة بصورتها التي عهدناها على كوكبنا مرتبطة ارتباطا وثيقا بأنشطة هذه الميكروبات . ترى ما الذي يطرأ على هذه الصورة لو أننا عقمنا كوكب الأرض تعقيما كاملا ؟ الرد على هذا السؤال هو محور هذا المقال .

في منتصف السبعينيات أصدرت احدى دور النشر بلندن كتابا في الثقافة العلمية، ترجمة عنوانه « حلفاء غير مرئيين » . ولقد قصد المؤلف الميكروبات على كوكب الأرض بهذا العنوان . ومازلت أذكر أن محتوى الكتاب قد راقني على الرغم من أن تحفظات أساسية على عنوانه المذكور قد ظلت تلح على خاطري منذ قرأته أول مرة ، فقد كنت ـ ومازلت ـ أرى أن وصف ميكروبات الارض بأنها مجرد حلفاء للانسان فيه قدر كبير من تسطيح قيمة هذه الأحياء وشأنها في الحياة عامة ، فقصارى أمر الحليف أنه يشد من أزر حليفه ساعة الضيق ، وربما عاونه في الدفاع عن حياته إذا تعرضت للخطر ، ثم إن التحالف ينجم عنه في الواقع منافع متبادلة بين الحليفين ، أما علاقة الميكروبات بالانسان فتختلف عن ذلك كثيرا ، فهي ليست مجرد صورة من صور التحالف .

بل واقع الأمر أن حياة الانسان وغيره من الأحياء الراقية ليست ممكنة أصلا لولا الميكروبات ، أما حياة الميكروبات فمستمرة حتى لو بادت الأحياء الراقية جميعها . وهذا ما أهدف إلى إيضاحه على الصفحات القليلة التالية .

الميكروبات أحياء وديعة

أود في البداية أن أدعو القارىء إلى نبذ الاعتقاد الشائع الذي مفاده أن الميكروبات ليست سوى تلك الأحياء الضارة التي يثير اسمها الذعر في النفوس ، لارتباطه بكثير من الأمراض والأوبئة ، إذ ليست هذه في الحقيقة إلا نسبة يسيرة للغاية من هذه الأحياء ، أما مجمل الميكروبات من بكتريا وفطريات وطحالب فكائنات مسالمة وديعة ، دقيقة التركيب ، سريعة القدرة على التكاثر ، شديدة النشاط ، تقطن جميع البيئات المحيطة بنا من تربة ومياه وهواء وأغذية ، وكثيرا ما تقترب منا اقترابا لصيقا دون أن نشعر بها ، ودون أن نملك لها دفعا ، فتتعايش معنا في وئام وسلام ، ملتصقة بجلودنا ، أو متخللة أجوافنا كأجهزتنا الهضمية بأعداد لا تحصى ولا تعد . ولقد استنبط العلماء طرقا لعزل هذه الأحياء ، وفصلها في صور نقية ، بغية دراستها والتعرف عليها ،

واستأنسوا كثيرا منها وروضوه بعد أن باح لهم بأسراره ، وسخروه من أجل فائدة الانسان ، تماما كما استأنس أجدادنا الأقدمون الحيوانات ، والنباتات البرية ، وانتقلوا خلال ذلك من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة والاستقرار . وتشير الاتجاهات البحثية الجديدة إلى أن إنسان المستقبل سوف يزداد اعتماده على الميكروبات في إنتاج غذائه ودوائه وكسائه ، وفي الحصول على الطاقة اللازمة لبعض صناعاته .

نادرا ما يتذكر الانسان أنه أحدث ظاهرة حياتية على الأرض ، بمعنى أنه أحدث الأحياء على الاطلاق . ونظرا لأن الله قد سخر له شتى الأحياء



لم يحتفظ جثمان لينين بقوامه كل هذه السنين (منذ سنة ١٩٢٤) الا لأنه معقم تماما ومعزول عن ميكروبات الجو

الأخرى فإنه كثيرا ما يعتبر نفسه الأصل على كوكب الأرض ، وما عداه من أحياء جاءت ضيوفا عليه . والثابت لدى العلماء أن البكتريا - على وجه اليقين - كانت هي أولى الأحياء التي ظهرت على كوكب الأرض ، وهي التي عمرتها حينها لم تكن أحياء أخرى سواها قد خلقت ، كما أن هناك من الأسباب القوية ما يدفع العلماء إلى الاعتقاد بأن جميع أحياء الأرض قد تطورت عن البكتريا ، على أن الثابت ثبوت اليقين هو أن البكتريا هي أصل المادة العضوية التي تتشكل منها أجسام أحياء الأرض بما فيها الانسان ، كما أنها هي مصدر الأكسجين الذي تتنفسه هذه الأحياء .

الميكروبات أصل المادة العضوية

لكي نقرب هذا الموضوع من ذهن القارىء لابد لنا أن نوغل - معا - في الماضي السحيق حقبة مقدارها أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة ، وهي مقدار العمر الذي حدده العلماء لكوكب الأرض ، ولم يقدر العلماء هذا العمر جزافا ، إنما حسبوه بمقاييس علمية ، على درجة كبيرة من الدقة ، لا يسمح المجال هنا بالتعرض لها .

كانت الأرض في ذلك الحين كرة ملتهبة ، وكانت

بالطبع خالية تماما من المواد العضوية ، وهي المواد التي تتكون منها أجسام الأحياء ، وأهمها البروتينات والسكاكر والدهون ، ومع درجات الحرارة المرتفعة التي كان عليها كوكب الأرض في البداية،لا يتصور وجود هذه المواد التي نعلم أنها تحترق بالحرارة وتتحلل . إذن لم تكن الأرض مكونة إلا من مواد غير عضوية ، وهنا يلح علينا سؤال منطقي ، وهو متى نشأت المادة العضوية التي تتكون منها أجسام الأحياء وكيف ؟

لقد ظلت الأرض ـ بعد نشأتها ـ خالية تماما من المادة العضوية حقبة من الزمن ، يقدرها العلماء ـ بناء على حسابات دقيقة ـ بحوالي بليون ونصف بليون سنة ، ومن الخطأ استبعاد هذه الحقبة الزمنية من عمر الحياة على الأرض ، لأن تغيرات طبيعية وكيميائية لا تحصى قد حدثت خلال هذه الحقبة ، ممهدة لنشأة المادة العضوية ، ومن ثم نشأة الأحياء ، وتتضمن أهم التغيرات الطبيعية التي تمت في هذه الحقبة برودة القشرة الخارجية للكرة الأرضية وتصلبها ، ثم تكثف بخار الماء وتجمعه في تقعرات نشأت عن تقلص حجم الكرة ، مكونا البحار والمحيطات القديمة ، وكان هذا التغير الأساسي في جو الأرض وتركيبها خطوة أساسية ممهدة لنشأة المادة العضوية ، ونشأة الخلايا الحية التي نعلم اليوم ـ بالتأكيد ـ أنها قد ظهرت لأول مرة في المياه التي كانت على درجة معقولة من البرودة ، تسمح ببقاء المادة العضوية ثابتة ، وإن كان جوف الأرض مايزال ملتهبا ، وتذكرنا البراكين بحممها المستعرة بذلك بين الحين والحين . ولقد احتدم الجدل زمنا بين العلماء حول «مصدر المادة العضرية على الأرض ، فهناك من كان يرى أن مصدر هذه المادة ـ في الأصل ـ الفضاء ، وهذا قول يسهل استنباط مواطن الخطأ فيه ، إذ من المعلوم اليوم أن النيازك التي تصلنا من الكواكب الأخرى لابد أن تخترق طبقة الهواء محتكة به ، فيتولد عن ذلك قدر من الحرارة لا يمكن لأية مادة عضوية أن تبقى ثابتة معه .

إذن لابد من أن المادة العضوية التي تشكلت منها الأحياء الأولى قد نشأت على سطح الأرض من المواد المتوافرة في ذلك الزمن القديم . واختلف العلماء ـ أيضا ـ حول المادة العضوية الاولى هل تكونت أولا ثم تشكلت منها خلايا الأحياء الاولى ، أم أن الأحياء الاولى قد نشأت أولا ، ثم من تحللها بعد موتها تراكمت المادة العضوية . ولا يستلزم الأمر إلا قليلا من التفكير لكي يتوصل المرء إلى أن الافتراض الأول هو الأكثر قبولا ، إذ يستوجب قبول الافتراض الثاني أن نفسر من أين جاءت المادة العضوية التي تشكلت منها الخلايا الأولى ، والمقبول لدى أصحاب الاختصاص الآن هو أن التغيرات الطبيعية والكيميائية (والضوء كيميائية) التي قد حدثت في جو الأرض ـ أثناء الحقبة الاولى من عمرها التي امتدت بليونا ونصف بليون سنة ـ قد أدت الى تحول بعض المواد غير العضوية المتوافرة بكثرة إلى مواد عضوية معينة ، تدخل في تركيب الخلايا الحية ، كما يعتقد العلماء أن هذه المواد العضوية قد تراكمت في مياه المحيطات ـ بالذات ـ على مدى ملايين من السنين ، حيث لم تكن هناك بعد أحياء تتغذى بها ، وقد بلغت وفرتها حدا جعل علماء اليوم يطلقون على مياه البحار القديمة ـ بما فيها من مواد عضوية ـ اسم « الحساء العضوي » . وليس الأمر ـ كما قد يتبادر إلى الأذهان ـ مجرد تخمينات ، بل هي أفكار موضوعية ، مؤيدة بالتجربة العلمية التي لا يتسع المجال هنا للتعرض لها تفصيلا ، على أنه من المفيد أن نذكر أن العلماء ـ في تجاربهم هذه ـ قد حاولوا تقليد هذه الفترة من تاريخ الأرض ، من الناحيتين الكيميائية والطبيعية ، فجمعوا مواد غير عضوية ـ لاشك أنها كانت موجودة في جو الأرض القديم ـ ثم وضعوها تحت ظروف شبيهة بالظروف القديمة ، منها الحرارة والاشعاع والكهرباء وغيرها من مصادر الطاقة العالية ، ولما حللوا الناتج كيميائيا ثبت لديهم احتواؤه على اخلاط من مواد عضوية ، تدخل في

تركيب الخلية الحية ، كالأحماض الأمينية والسكاكر والدهون وغيرها ، ثم لابد من أن الخلايا الحية الأولى قد نشأت من مكونات هذا « الحساء العضوي » ، ولا يمكن لمثل هذه الخلايا إلا أن تكون مشابهة في صفاتها لبعض أنواع البكتريا التي تعيش على سطح الأرض اليوم ، ثم لابد أن هذه البكتريا قد عاشت تتغذى على المادة العضوية المذكورة ، وظلت تتكاثر فيها بنشاط حتى استهلكتها أو أوشكت .

وربما يسأل سائل : وهل كان لهذه الأحياء قدرة على تحمل الظروف البيئية القاسية في ذلك الوقت كالحرارة العالية ونقص الاكسجين وغير ذلك ؟

نعم ، إن أحفادها تعيش بيننا اليوم ، وهناك من البكتريا مجموعة تفضل درجات الحرارة التي تقترب من درجة غليان الماء ، ومنها ما يتحمل الاشعاع الذي يقتل سواها ، ومنها أيضا ما يعيش بمعزل عن الأكسجين . ثم إن هذه الأحياء لابد أنها كانت تحتمي من الاشعاعات الشديدة الخطورة بالمعيشة في طبقات عميقة نسبيا من مياه المحيطات ، ويقدر المتخصصون ـ بناء على حسابات على درجة مرضية من الدقة ـ أن مثل هذه البكتريا الأولى قد ظهرت منذ حوالي ثلاثة آلاف مليون سنة ، ولما نضب المحتوى العضوي للحساء حولها اضطرت إلى التطور في أنشطتها ، كي تستطيع أن تصنع بنفسها غذاءها العضوي من المواد غير العضوية المتوافرة بكثرة ، وذلك من خلال ما يعرف بعملية التمثيل الضوئي ، وعمليات أخرى مشابهة مازالت تقوم بها إلى اليوم أحفاد بكتيرية لم تتطور كثيرا منذ ذلك التاريخ .

ونوجز ما ذكرنا فنقول إن المادة العضوية التي تشكلت منها الأحياء الأولى لابد أنها قد نشأت من خلال تفاعلات كيميائية محضة ، ولكن هذه المادة سرعان ما استهلكت كغذاء لهذه الأحياء التي اضطرت للتطور منتجة المادة العضوية بنفسها من المواد غير العضوية ، وهذه المادة العضوية الجديدة هي التي تغذت بها كائنات أخرى لاحقة ، وشكلت منها أجسامها ، وتطورت ، حتى أصبحت أشكالها على ما نراه اليوم حولنا .

الميكروبات أصل الاكسجين

ظل جو الأرض ـ من قبل ظهور الحياة وإلى ما بعد حوالي ألف مليون سنة من ظهور أوائل البكتريا ـ خاليا من الاكسجين ، وغني عن القول أن جميع أنواع البكتريا التي تطور بعضها عن بعض خلال هذه الحقبة كانت لا هوائية في تنفسها ، ومازال هناك ـ كما ذكرنا ـ أحفاد لهذه البكتريا إلى اليوم ، باقية بلا تطور يذكر في هذه الصفة . وقد حدد علماء الأحياء خطى التطور بدرجات متفاوتة من الدقة ، ورغم اختلافهم فيما بينهم في كثير من التفاصيل إلا أنهم متفقون تماما على قفزات تطورية محددة لا يجادلون فيها أبدا ، ونشأة الاكسجين في الجو هي إحدى هذه القفزات التطورية المتفق عليها ، إذ أن نشأة الاكسجين في الجو مرتبطة بظهور أنواع من البكتريا ، تعرف بالبكتريا الخضراء المزرقة التي تطورت عن البكتريا الأولى ، وكانت أولى الأحياء على الاطلاق التي أنتجت غاز الاكسجين كناتج ثانوي عن عملية التمثيل الضوئي . ومن المثير حقا أن أنواعا من هذه البكتريا التي بقيت على حالها منذ زمن بعيد تستطيع أن تنتج الاكسجين ، رغم أنها لا هوائية ، مما يجعلنا نتصور أن أسلاف مثل هذه الأنواع هي التي أنتجت أول أكسجين في جو الأرض ، وأن تجمع الاكسجين في الجو هو الذي قلب ميزان الحياة على الأرض تماما ، ومهد لتطورها بأسلوب أدى إلى ما آلت إليه اليوم ، فلولا البكتريا الخضراء المزرقة لما تكون اكسجين ، ولظل جو الأرض لا هوائيا،ولسلك التطور وجهة أخرى ، ولنشأت كائنات أخرى لاهوائية راقية ، لا تتفق في صفاتها مع كائنات اليوم .

ولا تقتصر أهمية الاكسجين من الناحية التطورية على ما ذكرنا ، بل إن دوره أعمق من ذلك بكثير ،

فمن المعروف أن هذا الغاز إذا عولج بطاقة عالية تحول إلى غاز الأوزون الذي يتميز بقدرة فائقة على امتصاص الاشعاعات الكونية ، وقد تجمعت مع الزمن طبقة من الأوزون الذي تنتج من تعرض اكسجين الجو للاشعاع ـ هذه الطبقة موجودة الآن على ارتفاع يصل في متوسطه الى ٢٥ كيلو مترا عن سطح البحر ـ تغلف جو الأرض بإحكام ، مكونة سياجا يحمينا من إشعاعات الكون القاتلة التي تنهال على كوكب الأرض بصفة مستمرة . وتراود المعنيين بسلامة البيئة مخاوف شتى من أن تحدث الملوثات الغازية فجوات في طبقة الأوزون هذه ، مما قد يعرض الحياة على الأرض للخطر ، وهي مخاوف لها ما يبررها بالتأكيد ، كما أن عوامل التجارب النووية ، ودوي الطائرات التي تخترق حاجز الصوت ، وصواريخ الفضاء ، ربما تكون لها نفس الآثار على هذه الطبقة . نستخلص من هذه الفقرة نتيجة جديدة ، مفادها أن الميكروبات هي التي كانت السبب الأول في تكوين الاوكسجين الجوي ، ولولاها لما تكون غاز الأوزون بكميات تشكل الطبقة التي تحمي الحياة الآن ، ولظلت الأشعة الكونية تضرب سطح الارض بلا هوادة ، مهلكة الحياة ، وكأننا في حرب نووية دائمة .

ماذا لو عقمنا كوكب الأرض؟

رأينا أن الميكروبات هي أصل الحياة على كوكبنا ، وهي التي مهدت لتطورها ، حتى صارت إلى ما هي عليه الآن . فهل يا ترى انتهت أهميتها عند هذا الحد ؟ وهل يمكن للحياة الكائنة على الأرض اليوم أن تستمر بلا ميكروبات ؟ ولكي نرد بإجابة موضوعية عن هذين السؤالين دعنا ننظر في شأن الحياة على الأرض لو أننا عقمناها ، ويحسن أن نجيب أولا عن سؤال يأتي بالتداعي ، وهو : هل بامكاننا حقا أن نعقم الأرض ؟ ودون الخوض في التفاصيل هذا مستحيل ، لأن جميع المعالجات سوف تفضي أولا إلى



هكذا سوف تصبح تربتنا الزراعية ـ جدباء فقيرة .. لو أننا قتلنا الميكروبات في الأرض .

هلاك الأحياء الأخرى ، قبل أن تصاب الميكروبات بسوء ، ومع ذلك فما لا نستطيع إدراكه بالتجربة العلمية نستطيع محاولة إدراكه بالاستنباط العلمي ، وإليك بعض ما يمكن أن ينجم عن تعقيم كوكب الأرض ، وهو ليس محض خيال ، بل واقع علمي منطقي .

عندما يموت الانسان ويوارى جثمانه في الثرى ترتفع روحه إلى بارئها ، أما جسده « فيفنى » ، وواقع الأمر أنه يصبح غذاء لميكروبات التربة ، فتهضم مكوناته وتحللها ، كما نهضم ـ نحن ـ اللحم ونحلله ، وتعيد المادة العضوية في الجسد إلى سيرتها الأولى ، أي إلى مادة غير عضوية ، وما ينطبق على الانسان ينطبق على شتى الأحياء ، وعملية التحلل هذه حلقة أساسية في دورات العناصر الطبيعية على كوكب الأرض ، فكميات العناصر في النهاية ثابتة لا تتغير ، لكنها تظهر في صور مختلفة . ولنأخذ أحد أهم هذه العناصر وهو الكربون الذي يمثل عاملا مشتركا في جميع المواد العضوية ، فعندما تحلل الميكروبات المادة العضوية في أجسادنا يتحول الكربون إلى غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يتصاعد

إلى الجو ، ولاكتمال الدورة تقوم النباتات الخضراء بتحويل هذا الغاز مرة أخرى إلى الصورة العضوية خلال « التمثيل الضوئي » ، موفرة بذلك غذاء لأجيال جديدة من البشر ، فالكربون الذي في أجسادنا - نحن - كان في أجساد من سبقونا ، وسوف يظهر في أجساد من يأتون بعدنا ، ويتضح من ذلك أن تعقيم الأرض معناه تجميد دورات العناصر عند مرحلة المادة العضوية الكائنة في الأجساد الحية الميتة ،

وعاجلا أو آجلا سوف تتجمد كل المادة العضوية على هذه الصورة ، وعندئذ لن تجد الأجيال مادة عضوية تبني منها أجسادها ، وإذا أبى القارىء إلا أن نبرهن له على ذلك بالتجربة العلمية فليقم بزيارة الكرملن في موسكو ، وليشاهد جثة لينين مثلا ، فكأنه مات الآن ، وقد احتفظت الجثة بقوامها كل هذه السنين لأنهم عقموها ، وحفظوها داخل صندوق كامل الاحكام معقم ، ولولا ذلك لحللت الميكروبات هذا الجسد كما تحلل غيره من أجساد خلق الله .

سوف نغرق في مخلفاتنا

سوف يستغرق الأمر بعض الوقت بالطبع ثم تتوقف عجلة الحياة تماما ، وفي أثناء ذلك لن تتوقف الآثار السلبية لتعقيم كوكب الأرض ، ومن ذلك أن جميع مخلفات الانسان والحيوان والنبات سوف تتراكم منذ اللحظة الاولى ، يوما بعد يوم ، حتى تصبح تلالا ضخمة ، وسوف تشمل هذه المخلفات إفرازات الانسان الطبيعية ، كالبراز والبول ، إضافة الى المخلفات الناتجة عن أنشطتنا اليومية ، وعن الصناعة ، وستزيد المخلفات عن ملايين الأطنان يوميا لمدينة متوسطة الحجم ، وسوف تتراكم المخلفات الغازية الناتجة عن احتراق وقود السيارات والطائرات ، وكذلك الغازات المصاحبة للنفط التي تتغذى بها أنواع كثيرة من البكتريا .

لن يجد الجيل الأخير من البشر ما يقتات عليه ، وسوف يموت الناس جوعا ، فاللحوم التي يأكلها الانسان ليست سوى إنتاج مباشر للميكروبات في أجواف الحيوانات المجترة ، أما التربة فستصبح جدباء ، لا حياة فيها ، لأن ميكروبات التربة هي المسئولة - مسئولية مباشرة - عن خصوبة التربة ، فهي التي تحول شتى العناصر إلى صور متاحة كغذاء لنباتات المحاصيل ، وسوف يعاني الانسان من نقص شديد في كثير من الفيتامينات ، فقد أصبح من المعروف أن بكتريا معينة - تقطن جهاز الانسان البشري - هي التي تفرز فيتامينات ، وتوفر حاجة الانسان من هذه المواد ، وما هذه إلا بعض الأمثلة لما قد يحدث على كوكب الأرض إذا عقمناه .

خلاصة القول أن الحياة برمتها على سطح كوكبنا ما كان لها أن تنشأ - أصلا - لولا الميكروبات ، ولو أننا استطعنا أن نلغي وجود الميكروبات من الأرض - ولن نستطيع - فنحن سنحولها - ببساطة - إلى كوكب ميت تماما .

فهل يحق لنا بعد ذلك أن نقول بأن الميكروبات خلفاء غير مرئيين للانسان ؟ كلا ، وأحسب أن القارىء قد أصبح يتفق معي على أن ما يمكن أن يقال في شأن هذه الأحياء هو شيء من قبيل العنوان بهذه المقالة .

لي كلمة أخيرة تتعلق بموضوع هذه المقالة ، فكثيرا ما يضيق الانسان السوي بوجود الشرور على الأرض ، ويتساءل المؤمن مستغفرا : أما كان من الأجود أن يخلق الله الحياة بلا شرور ؟ ولعل القارىء قد تبين مما كتبناه أن مثل هذه النظرة قاصرة جدا في الواقع ، بل هي وليدة خطأ عام ، ينزلق إليه الانسان كلما حكم على جزئية بمعزل تام عن الأمر ككل ، فالذي يضيق صدره بميكروبات الكوليرا والسل وغيرها لاشك أنه يصبح أكثر قبولا لوجودها على كوكب الأرض حينما يدرك أن رفض الميكروبات بمجملها له أوخم النتائج ، فسبحان الذي خلق الخير والشر ، كلا لا يتجزأ ، وقدر لكل دوره في الدنيا . □

الردع وتوازن القوى

دروس حرب السويس

بقلم : أمين هويدي

« تظل حرب السويس واحدة من الحروب التي تعد مادة جيدة للدراسة والتحليل ، فقد تشابكت في الحرب وحولها كل قوى العصر ، إقليمية ودولية ، ومازالت هذه الحرب إلى يومنا هذا نموذجا لدراسة استخدام القوة الساخنة والباردة (ديناميكيا) ساخنا و (استاتيكيا) باردا .

لم تبدأ حرب السويس يوم ٢٩ اكتوبر عام ١٩٥٦ ، لكنها بدأت قبل ذلك بأشهر طويلة ، وقد تدرجت البدايات حتى وصلت إلى نقطة الصدام الساخنة يوم بدء العمليات العسكرية ، وبينما أخذ الصراع الاقليمي يشتد وترتفع درجة حرارته بين مصر وأطراف المثلث التآمري - « اسرائيل » وبريطانيا وفرنسا - وفق توزيع الأدوار الذي تم بين المتآمرين، كان هناك مستوى آخر لادارة الأزمة ، يقوم به اللاعبون الكبار ، وإذا كانت صورة المواجهة العسكرية هي ما يمكن أن نسميه « الاستخدام (الديناميكي) المتحرك للقوة » فإن إدارة الأزمة من قبل اللاعبين الكبار (السوفيت والأمريكان) كان من نوع الاستخدام البارد (الاستاتيكي) للقوة ، ويقصد به استخدام القوة في حالة الثبات .

ويعد الانذار السوفيتي الذي وجهه بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي يوم ٦ نوفمبر عام ١٩٥٦ درسا (كلاسيكيا) تقليديا لاستخدام القوة في حالة الثبات .

لهجات مختلفة

كان الانذار عبارة عن أربع رسائل موجهة إلى كل من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا و « إسرائيل » ، وكانت بتوقيع بولجانين رئيس الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت .

وكان الانذار بلهجات مختلفة ، فبينما كانت اللهجة حاسمة تشجع على أخذ موقف مشترك إلى ايزنهاور أصبحت لهجة حاسمة فيها تهديد باستخدام الصواريخ لكل من أنطوني إيدن ، وجي موليه ، لكنها حملت الازدراء والتحقير لبن جوريون .

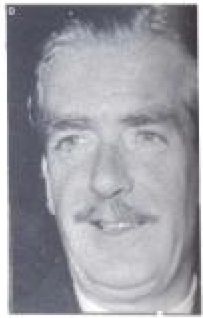
وقد دار حوار كبير - ومازال - عن حقيقة رد الفعل الذي أحدثه هذا الانذار . لكنني سأكتفي بنقل رد

الفعل على لسان كل من المرسل إليهم .

يقول دوايت ايزنهاور في كتابه « النضال من أجل السلام » ما نصه : « لقد كتب إلي بولجانين مقترحا إرسال قوة مشتركة لبلدينا إلى مصر ، لوضع حد للقتال ، إذ أنه مالم تتوقف الحرب الجارية فإن الموقف يمكن أن يتطور إلى حرب ثالثة » ، « وقد عقدت اجتماعا لاصدار بيان على رسالة بولجانين ، وقلت للمجتمعين إن البيان يجب أن يشمل تحذيرا واضحا وهو أن أعضاء الأمم المتحدة - ومن ضمنهم الولايات المتحدة - سوف يعارضون أي محاولة لافشال خطة الأمم المتحدة لفرض إيقاف إطلاق النيران بالقوة ، ثم قلت للمجتمعين إن السوفييت وهم يرون فشلهم في دول الكتلة الشرقية قد يقدمون على أي مجازفة شرسة ، كما فعل هتلر في أيامه الأخيرة ، فليس هناك أخطر من (دكتاتورية) تجد نفسها في مثل هذه الظروف » ، ثم يستطرد في موضع آخر من كلامه فيقول : « اجتمعت بهيئة الأركان المشتركة ، وقدمت اقتراحات عديدة بخصوص حالات الاستعداد التي يجب علينا اتخاذها ، ووافقت على بعضها ، وأمرت باستدعاء الجنود من إجازتهم كعلامة للروس على استعدادنا لمواجهة التهديد ، واتصلت بإيدن هاتفيا ، وقلت له إن من الحكمة أن يتمشى مع قرارات الأمم المتحدة الآن دون شروط ، لأن هذا سيحرم السوفييت من أي فرصة لخلق المتاعب ، ووافق ايدن قائلا إنه لو أمكنه الاحتفاظ بمركزه كرئيس للوزراء حتى الصباح فإنه سيتصل بي » .

وقال كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا في ذلك الوقت ، عن تهديد بولجانين ما نصه : « أرسل بولجانين أربع رسائل ، الأولى موجهة إلى ايزنهاور ، وثلاث رسائل موجهة إلى كل من جي موليه ، وايدن ، وبن جوريون . يمكن تلخيص الرسالة التي تلقيناها في أنه سيكون للحرب التي تشنها فرنسا وانجلترا - مستخدمتين في ذلك « اسرائيل » - عواقب وخيمة على السلام العالمي ، وأجد من واجبي - كما يقول بولجانين - أن أبلغكم أن الحكومة السوفيتية عاقدة العزم على استخدام القوة لسحق المعتدين ، وإعادة السلام إلى منطقة الشرق الأوسط ، وتنتهي الرسالة بدعوتنا إلى التعقل وضبط النفس ، أما الرسالة الموجهة إلى إيدن فأكثر عنفا ، إذ كانت تحمل تهديدا مباشرا باستخدام الصواريخ السوفيتية ضد بريطانيا ، ومن المؤكد أن هذه الرسالة أثرت على إيدن ، لكنها لم تفعل التأثير الحاسم الذي يدفعه إلى إيقاف القتال ، فالعامل الحاسم كان - بلا جدال - تهديد ايزنهاور بضرب الجنيه الاسترليني ، وكانت قد بدأت بالفعل مضاربة ضد العملة البريطانية في وول ستريت ، ووراء هذه المضاربة البنك المركزي الأمريكي ، ولو استمرت تلك المضاربة لأدت إلى كارثة محققة للاقتصاد البريطاني .

كانت الولايات المتحدة بمساندة شركات البترول الكبرى تشن هجوما على بريطانيا في مجال يعتبر نقطة قوة لأمريكا ، ونقطة ضعف لبريطانيا ، والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة وإن كانت لم تبلغ عبر القنوات الرسمية بنوايا فرنسا وبريطانيا و « اسرائيل » إلا أنها كانت تعلم أننا سنقوم بالهجوم عن طريق بعض الاتصالات ، كذلك فقد أفسح الأسطول السادس الأمريكي المجال في البحر المتوسط لقوات الانزال الفرنسية والبريطانية ، وأؤكد أن ايزنهاور ضغط على حلفائه حتى يتجنبوا المواجهة مع السوفييت ، ولا نعلم - بالضبط - ماذا دار من حديث عبر الهاتف بين ايزنهاور وإيدن ، لكن رئيس الوزراء البريطاني كان يبدو منكسرا تماما ، وقد ناقشته طويلا - فيما بعد - في هذا الموضوع ، فأكد لي أن تهديد ايزنهاور للجنيه الاسترليني كان العامل الحاسم في قرار وقف القتال ، والانسحاب الذي تم بعد ذلك » . لكن لم يذكر (بينو) شيئا عن الحافز الذي دفع ايزنهاور إلى شن الحرب الاقتصادية على بريطانيا .


أنتوني إيدن


جي موليه


بن جوريون


أيزنهاور

قوى الاقتصاد أيضا

يقول إيدن في مذكراتـه : « الضغوط استمـرت علينا طوال يوم ٥ نوفمبر لوقف النيران وقبول وجود للأمم المتحدة ، لكننا لم نوافق ، إذ ما فائدة وجود القائد ممثلا في الأمم المتحدة ودون جنود ؟ وفي الليل وصلتنا رسالة بولجانين التي أذاعها قبل أن نتسلمها ، والتي أعلن فيها أن الحرب على مصر يمكن أن تتطور إلى حرب عالمية ثالثة ، وهدد بأن موسكو ستلجأ إلى القوة . ثم بدأ تدهور الاسترليني في الأسواق العالمية بسرعة تنذر بتعريض مركزنا الاقتصادي كله لكارثة شديدة ، وقد هبط فعلا احتياطنا من الذهب والدولارات ما مقداره ٢٧٩ مليون دولار ، وهذا يمثل ١٥٪ من الاحتياط » . ثم يقـول : « وحينما اجتمعنا في السادس من نوفمبر لم نتأثر بأي من هذه الاعتبارات في اتخاذ قرارنا ، مادام القتال قد توقف بين المتحاربين ، ولذلك فقد انتفى مبرر التدخل » .

ومما لا شك فيه ـ وكما يظهر مما كتب إيدن ـ أن ذكر الحقيقة كان عبئا كبيرا عليه فتجاهلها . أما عن رد الفعل عند « اسرائيل » فأنقل من كتـاب « حياتي » لجولدا مائير مـا نصه : « لقـد حققنا أغـراضنـا من الحرب ، لكن خسرت بريطانيا الحرب ، وكـذلك فرنسا .. كان مصدر الضغط الرئيسي هو الانذار السوفيتي الذي لم يكتف بمشاهدة الهزيمة المصرية ولا بتسميم الجو بتدخله في المجر ، لكنه أخـذ يصيح معلنا أن هناك تآمرا على مصر ، وهدد بالتـدخل ، وبذلك أصبح ظاهرا أن العالم كله أصبح ضدنا » ، ثم تنقل عن موشيه دايان قوله : « في مساء ٥ نوفمبر أصدر رئيس الوزراء بـولجـانين تهـديده للدول الثلاث . وفي رسالته إلى « اسرائيل » تدد بالعدوان الاسـرائيلي ، والأعمـال الامبريـالية ضـد مصـر ، وطلب منا إيقاف العمليات الحربية في الحال ، والانسحـاب من الأراضي المصريـة ، وقـال إن الحكومة الاسـرائيلية وهي تتصـرف بإجـرام وبلا مسئوليـة تلعب بمستقبـل السـلام ، بـل بمستقبـل شعبهـا ، وهـذا سينعكـس عـلى مستقبـل استمـرار « اسرائيل » كدولة ، وإن الحكومة السوفيتية تتخذ في هذه اللحظة إجراءات لمنع استمـرار العدوان ، ولإيقاف الحرب ، ثم ختم رسالته باستدعائه للسفير السـوفيتي ، وبطلبه من « اسرائيل » أن تفهم الرسالة جيدا وتقدرها . وحينما رأيت بن جوريون أدركت أنـه على الـرغم من إعطائـه أهمية كبـرى للمـوقف السـوفيتي وعدم تجاهله لمغزاه العميق لم يتصـرف تصرفات تنم عن ارتعاش المفاصل ، ولم يسيطر عليه الخوف ، بل كانت الرسالة دافعا له إلى المقـاومة ، لكن الأمر الذي أغضبـه هو الفـوارق بين لهجـات الرسائل ، وأن عبارات الرسالة التي وصلت إلينا تنم عن الاحتقار والازدراء .

ومن دراسة قام بها « مايكل بريشر » أحد كبـار أساتذة العلوم السياسية في الولايات المتحدة نورد ما

جاء بعنوان « عملية صنع القرار في السياسة الخارجية « الاسرائيلية » : « سألت عددا من أبرز شخصيات « اسرائيل » ، ومن المتصلين بعملية صنع القرار السياسي فيها عن السبب الذي دعا بن جوربون إلى اتخاذ قرار بقبول الانسحاب من الأراضي المصرية ، وكانت ردودهم ـ كما سجلها في الصفحة ٢٩٠ من المجلد الثاني من دراسته ـ على النحو الآتي :ـ

جولدا مائير : إنني مقتنعة بأنه تصرف كرد فعل للتهديد السوفيتي .

شمعون بيريز : تسألني عن السبب في هذا القرار ؟! إنه التهديد السوفيتي .

ابا ايبان : الأنباء الخطيرة التي جاءت مساء ٧ نوفمبر وطوال يوم ٨ نوفمبر عن استعدادات سوفيتية لاستخدام القوة .

بن جوريون : لم يكن يهمني ما قاله بولجانين ، أو ما يحتمل أن يفعله ، بل كان اهتمامي كله بموقف الامريكيين ، فقد كنت أعلم شدة وطء وسائل ضغطهم علينا ، مما يجعلنا نرضخ لطلبهم بالانسحاب » .

لكن رد بن جوريون هذا جاء مناقضا لخطابه الحماسي في الكنيست الذي أعلن فيه ضم سيناء وقطاع غزة إلى « اسرائيل » ، فبعد ٣٦ ساعة وصله الانذار السوفيتي ، فألغى كل ما صرح به ، ووافق على الانسحاب .

صور متعددة للقوة

ليس في نيتنا مناقشة كل هذه الأقوال بل سنجعل حديثنا عن القوة ، فالقوات متشابكة بعضها ببعض على المستوى الاقليمي ، وباستخدام القوات المسلحة ، لكن على المستوى العالمي كانت وسائل القوة الأخرى تتحرك وتتفاعل :

● فالوسيلة السياسية تتحرك في اتصالات ثنائية وجماعية ، وفي مناقشات في المنظمات الدولية ، وفي مجلس الأمن على وجه الخصوص .

● وسائل حربية بالتهديد باستخدام القوة ، واتخاذ الاجراءات الفعالة التي تساند التهديد ، حتى تكسبه المصداقية ، وهو ما نعبر عنه بالردع .

● وسائل اقتصادية ، كمحاولات الولايات المتحدة لضرب الاسترليني ، وكلها وسائل يستخدمها الكبار في التأثير على مجريات الأمور ، حينما يتقاتل الصغار ، لأن المواجهة المباشرة بين القوى الكبرى مستحيلة في ظل ميزان الرعب النووي .

الحصاد

الاستراتيجية العظمى للدولة هي استغلال كافة إمكانياتها السياسية والاقتصادية والحربية ، لتحقيق أهدافها ، وعلى هذا الأساس يمكن تقييم نتائج هذا الصراع الذي دار فترة شهور متتالية ، استخدمت فيها كل وسائل الصراع،كان الغرض النهائي الذي اتفقت عليه دول العدوان هو إعادة السيطرة على قناة السويس ، عن طريق إسقاط حكم عبدالناصر ، وإعادة توازن القوى إلى إطاره السابق ، إلا أن هذا الغرض لم يتحقق ، فقد خلصت القناة لمصر ، وانسحبت « اسرائيل » من سيناء وقطاع غزة ، وبقي نظام عبدالناصر ، بل ازداد شعبية في الوطن العربي ، في الوقت الذي سقط فيه انتوني إيدن ، واعتزل منصبه في ١٩٥٦/١١/٢٠ ، كما سقطت وزارة جي موليه في ١٩٥٧/٥/٢١ ، وكان ذلك تمهيدا لسقوط الجمهورية الرابعة ، وتولي ديجول الحكم ، ومعنى ذلك انتصار كامل لمصر . وعلاوة على ذلك فقد تم الآتي :

١ ـ في ٥٧/١/١ صدر القرار الجمهوري بقانون رقم ١٩٥٧/١ بانقضاء اتفاق ١٩ اكتوبر ١٩٥٤ في يوم ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ ، وهو تاريخ العدوان البريطاني على القناة ، وبذلك ألغيت المعاهدة التي عقدت مع مصر ، وصادرت مصر كل محتويات القاعدة ، معدات ومخازن ومنشآت .

٢ ـ صادرت مصر أموال رعايا بريطانيا وفرنسا وممتلكاتهم ، وفرضت الحراسة عليها ، وتم تمصير المؤسسات التجارية والمالية والبنوك .

٣ ـ ارتفع شأن مصر في العالم ، إذ أعطت مثلا لكافة الدول الصغيرة على أن إرادتها الذاتية كفيلة باستعادة حقوقها .

٤ ـ تم بناء السد العالي .

٥ ـ تم كسر احتكار السلاح ، وبدأ سباق التسلح في المنطقة الذي استمر حتى الآن ، وقد انتهى الصراع بتحولات خطيرة في موازين القوى ، على الصعيدين العالمي والاقليمي .

فعلى الصعيد العالمي دار الصراع الاقليمي منذ أزمة السويس على أساس ثنائية الأقطاب ، وليس على أساس القطب الواحد ، إذ كان الاتفاق الثلاثي عام ١٩٥٠ قد حدد إطار توازن القوى في المنطقة ، إلا أن كسر احتكار السلاح عام ١٩٥٥ كسر هذا الاتفاق ، وفتح الباب على مصراعيه لازدواجية سوق السلاح ، وبدأ الاتحاد السوفيتي يتواجد في المنطقة عن طريق تبادل المصالح بينه وبين بعض الدول في مجالات متعددة ، وأصبح الاستقطاب أهم وسائل إدارة الأزمات الاقليمية ، كما كانت أزمة السويس سببا في تغير طبيعة العلاقات داخل التكتل العربي ، إذ حلت الولايات المتحدة بصفة نهائية محل بريطانيا وفرنسا ، محاولة سد الفراغ ، يقول دوايت ايزنهاور في الصفحة ١١٥ من كتابه « النضال من أجل السلام » : كان هناك سبب آخر لدعوة الملك سعود لزيارة واشنطن في ٣٠ يناير ١٩٥٧ ، ففي ذلك الوقت ـ وبعد تجربة السويس ـ لم يكن عبدالناصر يحاول تعديل موقفه للعمل مع الكرملين فحسب ، لكنه كان يتطلع إلى زعامة العالم العربي الذي يمثل في حقيقته اتحادا إسلاميا ، كان يأمل في توحيده ، لتحقيق مطامعه الأخرى . وللقضاء على هذه النوايا أردنا استكشاف إمكانية بناء الملك سعود للقضاء على زعامة عبدالناصر ، وكان اختيار الملك اختيارا معقولا للقيام بهذا الدور ، فهو ضد الشيوعية ، ويتمتع بمركز خاص بين الدول الاسلامية ، ولذلك لم تكن دعوتي للملك مجرد تكريم له ، لكنها كانت لغرض هام آخر ، صممت على تحقيقه » .

هذا عن إحدى محاولات الولايات المتحدة للدخول إلى المنطقة ، عن طريق فكرة الحلف الاسلامي ، بزعامة الملك سعود ، وقد سبق ذلك محاولة أخرى ، هي محاولاتها لفرض مشروع ايزنهاور ، فقد تقدم الرئيس ايزنهاور في ١٩٥٧/١/٥ إلى الكونجرس بمشروعه الذي عرف بعد ذلك بمشروع ايزنهاور ، وقد كانت ظروف وملابسات هذا المشروع سببا جعله موضع رفض وارتياب في المنطقة ، فقد أذيع هذا المشروع بعد فشل العدوان الثلاثي مباشرة ، وقبل إزالة آثاره ، وقد افترض المشروع أن المنطقة تعاني من الخطر الشيوعي ، في حين أن العدوان كان مجسدا في « اسرائيل » والمعسكر الغربي ، ورمزه العدوان الثلاثي ، كما افترض أن الفراغ الناجم عن سقوط بريطانيا وفرنسا لا يملؤه إلا النفوذ الأمريكي ، متجاهلا أن الدفاع عن المنطقة يجب أن ينبثق من داخلها .

تسببت أحداث القناة في إيجاد جفوة في العلاقات الفرنسية الأمريكية ، وكانت أحد الأسباب الرئيسية التي دعت الجنرال ديجول إلى ترك البنية العسكرية لحلف الأطلنطي ـ فيما بعد ـ وبالتحديد في بداية عام ١٩٥٩ ، كما استخدم ديجول ذلك حجة سياسية حاسمة في ذلك الوقت ، لم يجهر بها علنا ، لكنه استخدمها في الحوار الذي دار آنذاك حول هذه القضية ، فقد قال ـ المصدر هنا كتب ، ومصادر عديدة ، وأقوال كريستيان بينو كذلك :ـ إنه إذا انفجرت الحرب في أوروبا فلا يمكن الاعتماد على التدخل الأمريكي لصالحنا ، والدليل على ذلك أن تدخلهم في أزمة السويس كان تدخلا مضادا لنا ، ومن ثم اتخذ قراره الشهير ببناء القوة النووية

الفرنسية المستقلة ، أو ما سمي قوة الردع الفرنسية المستقلة .

لكن أهم النتائج التي تخلفت عن إدارة أزمة السويس بالنسبة للصراع الاقليمي بين العرب و « اسرائيل » كان زرع أسباب حرب ١٩٦٧ ، إذ ظل توازن القوى هو العامل الحاسم في تحقيق الاستقرار ، ولم يكن هذا التوازن قائما على الصعيد العالمي ، فالوجود السوفيتي في قلب المنطقة ، وهي مصر ، لم يكن أمرا مرضيا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، وسياستها الكوكبية ، وكان لابد من القضاء على هذا الوجود ، أو تحجيمه على أي تقدير ، ولم يكن التوازن مرضيا من ناحية الصراع الاقليمي ، إذ تزايدت قوة مصر بحصولها على السلاح السوفيتي ، ودخلت دول أخرى مثل سوريا والعراق ـ مشترية ـ سوق السلاح الشرقي ، وكان هذا أمرا لا يمكن السكوت عنه ، ثم كان هناك خلل في التوازن بين نظم الثورة ونظم الثروة ، الأمر الذي كان يقلق بال الادارة الأمريكية .

وكما ذكرنا من قبل فإن افتعال الأزمة الاقليمية أمر جائز في عملية الصراع ، لاصلاح توازنات النظام العالمي الاقليمي ، وكان افتعال الأزمة بين سوريا و « اسرائيل » وتصاعد الأصوات بطريقة صاروخية ، وتغذية أسباب الأزمة وتعميقها ، وعدم استغلال الامكانيات المتاحة لحلها سلميا ، كل ذلك كان بغرض التمهيد لعدوان ١٩٦٧ ، لاعادة إصلاح موازين القوى في المنطقة .

القوة في العلاقات الدولية

لعلنا رأينا وضع القوة العسكرية في العلاقات الدولية على المستوى العالمي والمستوى الاقليمي ، ورأينا كيف أنها أصبحت ـ كما كانت من قبل ـ وكما سوف تكون في المستقبل ـ وسيلة لتغيير الأمر الواقع ، أو الأمر الراهن ، وهذا أمر خطير ، لكنه ـ للأسف الشديد ـ أمر واقع ، في ظل التطور الخطير للأسلحة ، أو ما يمكن أن يعبر عنه بوحش التقنية .

فالقوة بما لديها من صفة تدميرية قادرة على السيطرة ، وهي قوة القهر ، وقد أصبحت القوة العسكرية في النظام الدولي تمثل علاقة مستقرة بين الدول ، وتسمح لحكومة ما بأن تجبر حكومة أخرى على التصرف بطريقة ما ، لم تكن لتلجأ إليها لو تركت وشأنها ، والقوة يمكن أن تؤدي أغراضها وهي في حالة السكون إذا عرف الجانب الآخر مقدارها ومدى تأثيرها عليه لو استخدمت ، وهو ما يعرف بالردع ، كما يمكن أن تؤدي أغراضها وهي في حالة الحركة ، أي ما يعبر عنه بالقتال ، ويفشل الردع إذا بدأ القتال .

وكما رأينا فإن القوات المعتدية حاولت الضغط بالتهديد باستخدام القوة لردع مصر عن الاستمرار في سياستها ، ولما فشل الردع كان القتال ، ورأينا أيضا كيف أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ـ كل بطريقته الخاصة ـ نجحا في ردع العدوان ، فأوقف القتال . أي حينما يفشل الردع تبدأ الحرب . وحينما ينجح الردع يستبعد العدوان ، وهذه القاعدة هي التي تجعل الحفاظ على السلام أغلى من تفقات الحرب ، وتجعل من خلل التوازن في منطقة ما حافزا على قيام الأقوى بالعدوان ، وتحفز نوازعه العدوانية على محاولة كسب الأراضي ، واختراق الحدود .

فالاستقرار العالمي أو الاقليمي لا يمكن أن يتم تحت تهديد نووي ، أو بردع تقليدي ، أو بضم الأراضي ، وطرد السكان ، لأن مثل هذا الاستقرار استقرار رديء ، حتى لو أدى إلى اتفاق سياسي ، أو معاهدة تنظيم للعلاقات ، وهو اتفاق رديء لأنه أسس على توازن قوى الموقعين عليه ، لكن الاستقرار الحقيقي هو الذي يؤسس على توازن المصالح بين أطراف النزاع ، فالنظام الاقليمي العالمي الذي لا يقوم على أساس توازن المصالح هو نظام مؤقت ينتهي إلى صراع دام في اللحظة التي تتغير فيها موازين القوى . □

الفصام



جنون فرد .. أم جنون مجتمع ؟

بقلم : الدكتور حلمي نجم*

لا يزال الفصام أحد الأمراض المستعصية على التشخيص النهائي ، رغم المحاولات العديدة لفك مغاليقه واقتحام أبوابه ، وللدكتور ر . د . لانك آراء جريئة ومبدعة في هذا المجال ، مما جعلها مادة لا ينتهي الجدل فيها .

في هذا المقال عرض لأبرز آراء الدكتور « لانك » حول هذا المرض الذي لم يكتشف بعد .

تعتبر أعمال « ر . د . لانك » ثورة في الطب النفساني . فقد ظهر هذا الطبيب في أوائل الستينيات ، داعيا لا لاعادة النظر بأصول هذا العلم ، بل لدحضها من الأساس . وأنشأ لنفسه مدرسة سميت فيما بعد بالمدرسة « المضادة للأطباء النفسانيين» ولعل كتابه الأول « فصام النفس » من الكتب الفريدة التي أحدثت ذلك التأثير الذي لا يمكن أن يمحوه الزمن . .

ولد « لانك » في « غلاسكو » في عام ١٩٢٧ ، وتخرج في جامعتها عام ١٩٥١ . واشتغل بعد تخرجه طبيبا نفسانيا في الجيش بين عامي ٥١ ـ ١٩٥٣ ، ثم طبيبا نفسانيا في مستشفى غلاسكو الملكي ، وفي قسم الطب النفسي في جامعتها حتى عام ١٩٥٦ .

وهو يعمل الآن طبيبا ومحللا نفسيا في « أدنبرة » ولا يزال عاكفا على تحسين نظريته في مرض الفصام ، والعلائق المضطربة في العائلة .

* اختصاصي الأمراض العصبية والنفسية في مستشفى رويال ـ ليفربول في المملكة المتحدة .

مـرض الـفـصـام .. اضـمـحـلال الشخصية :

ولعل من المفيد هنا أن نتعرض ولو بشكل مختصر الى مرض الفصام ، والرأي النفسي التقليدي بهذا المرض ، كي يكون القاريء الكريم على بينة منه عندما يقرأ رأي « لانك » فيه .

لقد عرف القدماء أمراضا ذهانية وصفوها في كتبهم ، وهي تشبه الى حد بعيد ماهو متعارف عليه اليوم بمرض الفصام (الشيزوفرينيا) لكنهم لم يطلقوا عليها هذا الاسم . وكان « كريبلي » هو أول من وصف هذا المرض بدقة ، وأطلق عليه اسم مرض الخرف المبكر ، ولخص أعراضه بالهلاوس وفقدان الاهتمام بالعالم الخارجي ، واضطراب الأفكار ، وفقدان البصيرة في السلوك وفي المحيط ، والأوهام ، وجمود العاطفة ، وأول من أطلق مصطلح مرض الفصام على هذا المرض هو « بلويلو » عام ١٩١١ ، لاعتقاده بأن الاضطراب الأساسي في هذا المرض هو انقسام أو انشطار العمليات العقلية عند هؤلاء المرضى .

ومرض الفصام في معظم حالاته مرض مزمن ، يبدأ بانعزال المريض تدريجيا وتقوقعه على نفسه ، واهماله مظهره وسلوكه الاجتماعي .. وتبدأ شخصيته بالاضمحلال والتلاشي من خلال فقدان الحواجز بين الذات والموضوع . حيث تذوب الأنا في المحيط ، وتبدأ الهلاوس والأوهام ، فيتوهم المريض أنه لاشيء (الأوهام العدمية) أو يتوهم أنه عظيم (أوهام العظمة) ويفتقد قابليته على معايشة المجتمع والمحيط تدريجيا ، ويعيش في عالمه الحلمي الخاص ... فيتيه فكريا وجسديا ..

ولعل من المعضلات الكبرى التي تواجه الطب النفسي هي عدم استطاعة الفحص الطبي الدقيق ، وجميع الأجهزة العلمية المتطورة اكتشاف خلل عضوي رئيسي في هذا المرض ، ورغم اكتشاف بعض الاضطرابات الكيماوية في أجسام وأدمغة هؤلاء المرضى ، الا أن الدليل على أنها هي السبب في مرضهم يسير جدا .. ولهذا تبقى علامات الاستفهام منتصبة تتراقص ساخرة من كل من يدعي أنه اكتشف السبب .. ولهذا يظل الرأي المقبول علميا الآن هو أن مرض الفصام ماهو الا نتيجة لاجتماع أسباب متعددة عضوية ونفسية واجتماعية في مريض واحد .

انفصام النفس .. ابحار في المجهول :

كان كتاب فصام النفس هو أول كتاب « للانك » ظهر في الستينيات ، يقول لنا الكاتب في مقدمته أن هدفه الأساسي من هذا الكتاب هو جعل عملية الجنون مفهومة .. كما يقول بالحرف الواحد انه لم يحاول أن يضع نظرية شاملة لما يدعى بمرض الفصام (الشيزوفرينيا) ، كما لم يحاول أن يكشف عن المناحي البنيوية والعضوية من مرض الفصام ، ولم يحاول أن يصف علاقته بمرضاه الذين ذكرهم في كتابه ، أو يحاول شرح طرقه في علاجهم .

ويكشف الكاتب عن دينه للفلسفة الوجودية وتراثها ، ولايأتي هذا الدين كعلاقة بين كاتب غارق في الفلسفة الى حد الانغلاق وقاريء جاهل فلسفيا ، اذ أنه لا يستخدم مصطلحات فلسفية معقدة الا لماما ، بل يلجأ الى استخدام مصطلحات مبسطة مثل (الانغماس والتحجر) وهذا مايميزه عن الكتاب الآخرين ، ويجعله أقرب الى ذهن الانسان العادي .

ان المريض مضطرب كليا في معرفته لطبيعة تجربته التي يمر بها (وجوديا) ، كما أنه مشغول البال بحفظ نفسه أكثر منه اشتغالا باسعادها أو ارضائها ، ويبدو أن ظروف الحياة العادية تعدل بشكل مستمر معدل استقراره النفسي المنخفض نسبيا ، وبهذا لا يستطيع الاستمرار مع نفسه المضطربة الا بعد فقدانه الشعور الطبيعي بوحدة النفس ، وهذا لا يكون الا بانفصامها ، انها تنفصم الى النفس المتجسدة



والنفس المتعفنة، وبهذا يصبح شاعرا بجسده كجسم مغمور مع مجموعة أجسام بعيدة عنه مغمورة في هذا العالم. لكنه يستطيع مراقبته بنفسه الداخلية التي تصبح نواة « النفس الوهمية » التي تعيش في المحيط الخارجي، والتي يمكن تمييزها بواسطة النفس الحقيقية المنعزلة عن هذا العالم. وبهذا تصبح النفس الحقيقية كثيرة الوعي والنقد، بينما تتكون النفس الوهمية من عدة أجزاء غير مخلصة ومطيعة لرغبات الأشخاص المحيطين بالمريض.

وتعريف « لانك » للعقل مشهور جدا اذ يقول: « يقاس الجنون أو العقل بدرجة التشابه أو الاختلاف بين شخصين، عندما يكون أحدهما عاقلا من وجهة نظر المجتمع والرأي العام ». ويبدو هذا صحيحا للمرضى وأصدقائهم الذين يرغبون بازالة العار والانتقاص الذي لحقهم، بعد اعتبارهم مرضى نفسيين. فحق الطبيب في تقرير العقل من الجنون حق غير مكتسب وراثيا من خلال دوره الذي يلعبه وشهاداته العلمية، وانما هو حق مكتسب منح له باتفاق متبادل بعقليته المتميزة.

الذهان الداخلي :

ويستعمل « لانك » مصطلحي الجنون والذهان بصورة متكررة، وبشكل لا يختلف كثيرا عن استعمال الأطباء النفسيين للتعبير عن افتقاد الارتباط مع العالم الخارجي، وفقدان المنطق لدى المريض، لكنه يوضح عدم الاختلاف بين السلوك الذهاني والسلوك الفصامي، بوصفه الذهان الداخلي فيقول: « قد تكون بداية مرض الفصام في بعض الأحيان درامية ومفاجئة، وأعراضها ساطعة الوضوح، بشكل لا يفسح المجال للتشكيك بالتشخيص، ومع هذا لا توجد البداية النوعية المفاجئة في سلوك المريض في معظم الحالات، ويحدث التغير تدريجيا على مدى سنوات بحيث لا يمكن الجزم عند نقطة معينة ببداية الأعراض الفصامية » وتعتبر هذه الاشارة اشارة رئيسية قدمها « لانك » على شيوع الذهان الداخلي الذي يختبيء طويلا عن العالم الخارجي، وأن النوع الحاد من السلوك المضطرب ماهو الا ظاهرة مضللة للمراقب الذي يبدأ عندما يتخذ المريض قرارا بالكف عن السلوك الطبيعي في العالم الخارجي. وهذا يبدو الانتقال من السلوك الفصامي الى السلوك الذهاني الواضح أقل عنفا عندما يصفه « لانك » مقارنة بوصفه من قبل الاطباء النفسيين الآخرين. وذلك لفرضيته الأساسية من أن هناك ظلا من المفهومية لهذه العملية، حتى عندما تكون مغلقة، تبقى في سطوره محجوبة الرؤية بغلاف « سميك » شفاف.

ويمضي « لانك » في وصفه عملية تطور مرض الفصام فيقول: طالما تسمع بتسلسل (الجيد الرديء المجنون) حيث ينشأ الطفل معتمدا على أمه عندما لا تسمح له بالاستقلال في تجربته الحياتية عنها، وتعتبره طفلا مثاليا لمطاوعته لها، وغالبا ماينمرد هذا الطفل في مرحلة المراهقة عليها، وبهذا يسلك سلوكا غير جيد من وجهة نظرها، ومن ثمة يعتبر رديئا،

ولايوجد علاج ناجع له في معظم الأحيان ، لأن أسباب هذا السلوك باقية ، فهو رد فعل للعلائق غير الصحية في العائلة يتضاعف بثورة الوالدين عليه . . ويأتي تشخيص الطبيب لمرض الفصام في الابن كتفريج لكربة الوالدين ، واعفاء هذا الشخص من مستلزمات السلوك الاجتماعي المقبول ، ولايفهم الوالدان حتى بعد توضيح الطبيب لها من أن ابنهما موجود مستقل عن ذواتهم ، سلوكه هذا تعبير عن هذا الوجود المستقل (حيث انهما اما ان يكونا جاهلين أو مشدوهين في هذا العالم) .

ويقدم لنا « لانك » تعليلا مقنعا للأصوات التي يهلوس بها هؤلاء المرضى ، على أنها آتية من نفوسهم التي انشطرت ، حيث تضمحل النفس في مرض الفصام المزمن الى عدة بؤر ، يكون لكل منها حس أنوي مستقل ، وتدرك البؤر الاخرى كذوات مختلفة أو خارجة عنها ، وبهذا تدرك الفكرة الآتية من « النفس الأخرى » على أنها آتية من العالم الخارجي طالما أنها تدرك بالنفس المدركة على أنها ليست نتاجا لتخيلها أو جزءاً منها ، وبهذا تكون النفس الأخرى هي مصدر الهلوسة ، وبهذا يجعل « لانك » من السلوك المتكلف(والكريكتوري)في بعض الأحيان مفهوما ، وتصبح المصطلحات الغريبة واللغات الجديدة تعليقات مختفية لافكار منطقية في نفس مريض الفصام ، ويضرب لنا مثال الشابة التي تقول « انها جرس يقرع » وتعني بذلك « ان نفسها مملكة (بفتح اللام) وهو تعبير مفعم بالمعاني والمنطق بالنسبة لها فقط .

لقد جاهد « لانك » وعلى مدى مائتي صفحة في شرح وتوضيح أعراض مرض الفصام ، وجعلها مفهومة ومنطقية للقارىء العادي والطبيب النفسي ، وكان يصرخ محتجا في أماكن كثيرة من الكتاب ، مناصرا أولئك الضحايا الذين غبنوا حقهم في الحياة السعيدة ، فعاشوا معذبين رغم امتلاكهم مقومات الحياة النفسية السعيدة ، بل ربما كانوا أفضل من الناس الطبيعيين . . . انه يقول « لقد اختار المجتمع والعائلة بالخصوص هؤلاء الأشخاص ككبش فداء بعد وصفهم بالجنون ، تبريرا لاخفاقها في بلورة علائق عائلية طبيعية .

تأثيرات « لانك » :

كانت بداية « لانك » بكتاب « انفصام النفس » بداية حسنة ، حيث سلط الضوء على كتب وساهمات « لانك » اللاحقة التي تمثلت « بالعقل والجنون والعائلة » و « سياسة الخبرة » وكتب أخرى ، لقد تغيرت الأفكار على مدى السنين ، وأصبحت اكثر تطرفا (راديكالية) وعاطفية ،كما أن مسحة روحية وصوفية بدأت تتضح في كتاباته التي تلت والتي انتقدت بشدة ،فقد استنكر البعض حتى في خارج وسط علماء النفس نزعته لتمجيد مرض الفصام في كتبه الأخرى « ليس الجنون اضطرابا بالضرورة ، بل قد يكون اختراقا وسبراً للأغوار ، انه حرية وتجدد ، كما انه استعباد وموت وجودي » . وفي تعبير آخر « هل نستطيع أن لا نرى ان هذا الابحار هو مالا يجب أن نعالج منه ، وانه طريقة طبيعية لعلاج حالتنا المستغيثة من الغربة والتي تدعي بالسلوك الطبيعي ؟ ! » .

ترى هل استطاع الكاتب أن يفي بغرضه ، وان يقنع الآخرين بامكانية فهم مرض الفصام ؟ لقد تابع الأطباء النفسانيون آراءهم في الستينات ودرّسوا تلاميذهم على أن مرض الفصام مرض ذاتي خال من أية أسباب نفسية أو عوامل بيئية ، وقد بدا للكثير في مرات عديدة أن الجنون ماهو الا عدم استطاعة الفرد الاستمرار بالحياة ، وأصر سليتر وروث في كتابهما الرائد « طب نفسي سريري » حتى في طبعته الأخيرة عام ١٩٨١ على عجز العوامل البيئية في احداث مايدعى بمرض الفصام ، بينما تحفظ الكثير من المؤلفين مثل (موراي ، هل ، ثورلي) في كتابهم « طب

نفسي للدراسات العليا » عندما ذكروا « لانك » دون تعليق .

وقد تعرض « كلير » في كتابه « طب نفسي محترم » الى « لانك » عدة مرات مؤكدا كرهه لطريقة تشخيص المرضى بشكل تقليدي ، مذكرا « لانك » بوجوب تحديد وتعريف الحالة قبل الخوض بتحليل معانيها وأسبابها ، مشيرا الى أن أطباء النفس قد ذكروا تأثير العوائل على المرضى قبل « لانك » ولكن لاكما فعل هو ، لقد كان « كلير » صائبا رغم أن انتقاداته بقيت عائمة خالية من فقرة تلخيصية لآراء « لانك » ، بينما أهمل بعض المؤلفين « لانك » كليا ، ولم يذكروا ولو عبارة واحدة عنه ، الا أن أثره بدا واضحا في معظم الكتب المقررة ، مما يدل على أنه غيّر بشكل أو بآخر نظرة الأطباء النفسيين الى مرض الفصام .

وقد ذكر بعض المؤلفين آراءه دون الاشارة اليه مثل « مايرسم » حيث قال : « قد نتفق عموما على أن أعراض مرض الفصام ليست خالية من معنى ، وأن مرض الفصام ماهو الا شكل من أشكال رد الفعل لأولئك المعوقين نفسيا وجسديا » ويؤكد « هندرسين » « وكلاسبي » في كتابهما في طبعته الأخيرة على أن أعراض مرض الفصام ماهي الا نتيجة لتفاعل شخصية المريض مع المجتمع والحياة ، ولكنهما يختتمان فصلهما قائلين « ان الفصام مرض أو مجموعة من الأمراض تكون مسبباتها عوامل عضوية متوارثة » .

ويتعرض كتاب « الرفيق للدراسات النفسية » الحديث نسبيا في طبعته الأولى ١٩٧٠ من تأليف « ايلي ، فورست ، أفليك » للانك وينتقده لاستخدامه مصطلح « الابحار الروحي » ، كما يؤكد على أنه لم ينصف الآباء عندما اتهمهم واعتبرهم أساس المرض ، كما ناقش كل من « كارستير » و « كندي » أعمال « لانك » ، واستنتجا ان أهم ماقدمه « لانك » هو دفاعه عن مرضى الفصام ، واحترامه لهم ، ومعاملته لهم نداً لند ، لقد طلّق « لانك » النزعة التقليدية التي تستصغر من شأن هؤلاء المرضى أو تنعتهم بالعار ، ويبقى السؤال هو اصرار « لانك » على عدم اعتبار مرضى الفصام مرضى ، بل اعتبرهم بطريقة أو بأخرى أرفع مستوى من الناس الطبيعيين ، لأنهم لم يستطيعوا أن يصلوا الى نتيجة مع مايسمى بالسلوك الطبيعي ، اذ أنهم لم يرتضوه ، وتبقى هذه القضية معلقة قد تساعد مرضى الفصام ، أو من يحاول أن يمد لهم يد العون في اكتشاف فهم أوضح لهذه الحالة .

بحث (فون/ ليف) :

لقد استحثت أعمال « لانك » العاملين في معهد الدراسات النفسية في جامعة لندن ، فأجريت بحوث على هؤلاء المرضى وعوائلهم ، وتمخضت نتائج بحث (ليف ، فون) عن أن هذه العوائل تمتاز بما يطلق عليه المستوى العالي من الانتقادات العاطفية .

ولم يقتصر تأثير « لانك » على نظرة أطباء النفس الى مرضى الفصام ، بل امتد التأثير الى الطرق العلاجية ، حيث استخدمت أفكاره في بعض الملاجيء والجمعيات ، وضم عدد من مرضى الفصام الى مايسمى بالمجتمعات العلاجية ، كما استخدمت نتائج بحيث (فون ، ليف) لايجاد طريقة علاجية تقلل من الانتقادات العائلية لهؤلاء المرضى ، من هنا يتضح تأثير « لانك » في الطب النفسي ، ونظرته الى مرضى الفصام وعلاجه ، ورغم أن هذا التأثير بدأ تدريجياً ،الا أنه أخذ يتسع مع السنوات وآن الأوان له كي يؤتى ثماره ، ورغم أن « لانك » أنحى باللائمة على الوالدين والعائلة مما جعله يبدو غير عادل في بعض الأحيان الا أن مساهمته عظيمة في الطب النفسي ، اذا أخذنا جانبا واحدا من تأثيراتها المتعددة ، ألا وهو اثارة الأطباء النفسانيين كي يتفحصوا ممارساتهم وآراءهم التي توارثوها على مدى طويل واعتبروها كمسلمات . □



مستودع الأفكار

بقلم : فتحي رضـــوان

كنت أتحدث مع السيد الصادق المهدي في الخرطوم ذات مساء فقال ... اننا في حاجة الى « ثنك تانك » Think Tank أي مستودع للأفكار ، تدعو له عدداً من كبار المفكرين عندنا ، الذين تخصص كل منهم بشكل واضح في جانب من حياتنا الفكرية ، بعضهم علماء طبيعة ، وكيمياء ورياضة ، وبعضهم أساتذة تاريخ لا يؤرخون فحسب ، بل يفلسفون تاريخنا ، ويستنبطون معانيه ويستخرجون دلالاته ، والبعض الآخر أساتذة قانون لا يشرعون ولا يعلقون على ما يصدر من تشريعات في بلاد العرب أو في بلاد المسلمين ، بل وينقبون على دوافع تشريعاتنا بعيدة وقريبة ، وما يعتريها من قصور في البناء أو عجز في التعبير ، أو نقص في مواجهة المشكلات ، وأخيراً منهم علماء اللغة الذين لا يقنعون بإقرار قواعد اللغة ونحوها وصرفها ، وهي القواعد الجارية والمعمول بها فعلا ، بل إحداث ثورة فيها لا تخرج اللغة عن خصائصها القومية ولا صفاتها الموروثة ، بل تطور وتعدل فيما اطمأننا إليه بحجة أنه من أصل اللغة ، وهو في واقع الأمر تحجر وجمود .

وراقتني الفكرة ، وأدرتها في رأسي أياما . وقلت في نفسي اننا لو سلمنا بهذه الدعوة ، وعملنا على إنجاحها في شجاعة وتجرد صادق مكلف ومضن ، وجب أن تنزعنا الظاهرة الغريبة ، وهي ما درجت عليه بعض صحفنا من أن تخص بعض الذين يكتبون لها بصفة المفكر .

وقد سمعت كاتباً كبيراً يعلق على هذه العادة .

في اعتقاد هذا الكاتب أن الذين يكتبون في صحفنا صنفان ، صنف يكتب ولا يفكر ، أو يكتب قبل أن يفكر ، وهناك آخرون يفكرون ، والأوائل يكتبون كلاماً جيداً منسقاً منمقاً مؤثراً بارعاً ، ولكنه لا يقول

شيئا جديداً ، أو لا يقول شيئا على الاطلاق ، إنما هو هذا الكلام الدارج الذي يشبه ما يتجاذب أطرافه المثقفون عندما يجتمع بعضهم ببعض فيثرثرون ثرثرة ترد فيها أسماء الكتاب والمؤرخين والقراء ، أو بعض ماكتبوا ، دون أن يرد في الحديث معنى ذو أهمية ، أو رأي ذو خطر ، أو اقتراح ذو قيمة . . هو كلام أساتذة تائهين يعلو على التوافه ، ولكنه لا يسمو إلى كبار الحقائق فلا يهز فكراً ، ولا يحرك خاطراً . ولا يدعو الى نقاش يتعمق في مسألة ما . وما يزال يدور حولها ، ويغوص في أعماقها حتى يخرج بجديد . هؤلاء المفكرون في كل اتجاه وفرع يجب :

أولاً : أن يفرغوا للبحث والتفكير والانتاج الذهني . . المتصل . . .

ثانياً . . يجب أن تضمهم هيئة أو نظام يجعل عمل أحدهم مكملاً ومتصلا بعمل الباقين .

ثالثاً . . يجب أن تزود هذه الهيئة بثلاثة أجهزة حسنة الاعداد تقوم (أ) بالاحصاء ، (ب) بالترجمة ، (جـ) بالتنسيق والتبويب .

وهذه الهيئة يجب أن تكون محلية أولاً ، وقومية ثانياً .

محلية أي تقوم في كل قطر من أقطار الوطن العربي ، وتعمل في ظل نظام ، وتشتغل أولا بظروف وعيوب ونقائص مجتمعه الفكري ثم بحثها بصفة عامة .

وقومية ، يجتمع أعضاؤها المحليون أو مندوبون عنهم في مؤتمر كل ثلاث سنوات أو أكثر أو أقل ، يتناقشون في كل دورة لانعقاده في فكرة واحدة مؤثرة ومهمة في المجتمع العربي .

ولكن قبل أن نستكمل الحديث في هيئة « ثنك تانك » أي مستودع الأفكار ، وكيف يتكون ، ثم كيف يعمل ، وكيف يستفاد منه على مدى الأعوام ، يجب أولا وقبل كل شيء أن نلقي نظرة على بدايات حياتنا الفكرية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر ثم بدايات القرن العشرين وحتى اليوم .

حقيقة اليقظـــة

لاشك في أن القرنين:الثامن عشر وقبله السابع عشر كانا يمثلان عصر التناقض والاضطراب ، والفتوة والتحرك . كانا باختصار فترة ما قبل النهضة ومقدماتها .

في القرنين السابع عشر والثامن عشر ضعفت الحواجز بين المنطقة العربية والعالم الخارجي ، ولكنها لم تسقط تماما من جهة ، ولم يكن سقوطها مبشراً باليقظة التامة ، بل كان نذيراً بالغزو الاستعماري الذي أخذ شكل الفتح العسكري والسياسي والهيمنة الفكرية والروحية .

استيقظ العرب على طرقات الغزاة القائمين على الأبواب ، واقتحامهم للثغور وتسللهم الى الحكومات ، وإغراء العرب بالتغيير والتجديد ، مع تخويفهم منه ورفضهم له وتعثرهم في الأخذ به والبعد عنه .

كانت يقظة أشبه ما تكون بيقظة من كان يعاني كابوساً مروعاً زاهقاً للأنفاس ، فلما استيقظ بقي الكابوس يطارده ، وبقيت رؤاه وأشباحه تروح وتغدو أمامه ، فما يدري أهي حقيقة يلمسها باليد ويراها بالعين ويسمعها بالأذن ، أم هي تهيؤات وتصورات يعدو وراءها فتختفي . ويسكن في مكانه فتركبه ، وتشد جسمه ووجهه ذات اليمين وذات اليسار .

ولا نطيل الحديث في وصف هذه المحنة . . محنة القرنين الممهدين لليقظة ، وندلف الى القرن التاسع عشر ، فإذا النهار قد استفاضت سحبه ، واذا الغيوم انقشعت والأشباح اختفت ، وحقائق الحياة الصادقة كالأسياخ المحماة ، تكوى العين والجبهة ، وتؤكد للعربي انه فقد استقلاله وبات أسيراً تابعاً . . ثقافته تحللت ، وإرادته تفككت وطاقاته تبعثرت وطريقه الى النهوض والوثبة طويل مليء بالعقبات .

وإذا تركنا الجوانب المتعددة لحياتنا في هذه الفترة، وقصرنا القول على الجانب الثقافي، رأينا أن أول ما طالعنا من أسباب النهضة والتحرر (الصحافة). فقد صدرت في مصر صحف أنشأها وأشرف عليها اللبنانيون الذين تعلموا في الكليات المسيحية في سوريا ولبنان، وهاجر هؤلاء الذين قرأوا الكتب الحديثة بالفرنسية في الأغلب الأعم وبعض الانجليزية، فشغلت الصحافة القراء العرب، وألهمتهم وأوحت اليهم بأفكار جديدة سمع بها العالم حديثا ولم يسمع بها العرب مطلقا، كل المذاهب والمبادىء المثيرة عرضت نفسها على العرب بدءا من القومية ومروراً بالاشتراكية والعلمانية والديموقراطية، وبداروين ومذهب النشوء وبقليل من فرويد وأقل مذاهبه التصوير الحديث. فماذا كانت النتيجة؟

السطحية والجزئية

النتيجة إصابة الثقافة ولاسيما في مصر بمرضين خطرين:

أولهما.. السطحية، وثانيهما الجزئية.

دعت الصحافة اليومية والمجلات الاسبوعية الكُتّاب الى الكتابة السريعة التي تتطلبها المطبعة، وتقتضيها الصحيفة. فالدراسات الطويلة التي تستنفد من الكاتب الأيام والشهور لا تطيقها الصحيفة والمجلة، فأصبحت المقالات فصولا سريعة غاية السرعة، تتلطف للقاريء ولا ترهقه، فكانت السطحية، ثم كانت تجزيء الكتاب الى أجزاء صغيرة تتناول فكرة محددة كل يوم، وألف القاريء العربي الكتب التي تضم فصولا عديدة كل فصل يعطي القاريء لمحة قد تزيغ لها الأبصار وتَمَلّ منها الأفهام. فكانت أشهر الكتب في مصر: حصاد الهشيم، قبض الريح، صندوق الدنيا للمازني، أوقات الفراغ، وتراجم شرقية وغربية لهيكل، وساعات بين الكتب، ومطالعات في الكتب والحياة للعقاد، وفي الصيف وحديث الاربعاء لطه حسين.. فصول متفرقة أسماؤها تدل على بساطتها وقلة عمقها، فمن ساعات بين الكتب الى أوقات الفراغ، ومن حديث الصيف الى حصاد الهشيم، وقبض الريح. ولا أحد ينكر أن هذه الكتب معارض تقدم للقاريء عشرات من الأفكار والصور والخواطر، سريعة ومتلاصقة وخفيفة ولطيفة، ولكنها لا تشبع رأياً، ولا تعمق مذهبا، ولا تطيل الوقوف أمام شخصية،وتكاد تتطابق بعضها مع بعض. فكانت النتيجة أن بقي القاريء العربي واقفا على شاطيء الفكر يرى أمواجه ويسمع تلاطمها، ويرى امتداد البحر، ولكنه لا يهبط بقاربه الى الماء ولا يحمى من دوار البحر، ولا يعالج من غثيانه. فكانت النتيجة الأكيدة أن الفكر العربي عاش النصف الأول من القرن العشرين يتناقش ويجادل فصائله بعضهم البعض، ويختلفون أشد الاختلاف، ويتصارعون كأعنف مايكون الصراع، دون أن يحلوا مشكلة، ولا أن يلتقوا على رأي، ولا أن يهتدوا الى عقيدة. فالعقاد وطه.. والمازني.. وهيكل وعبدالرحمن شكري،لاهم من أهل اليمين ولا هم من أهل اليسار، وكل مشكلة على حالها، وكل مذهب كأي مذهب آخر يتحاوران ولا يغلب أحدهما الآخر.

والنتيجة الثانية.. التي هي ثمرة هذه السطحية والجزئية والاقتناع بها والاكتفاء بحلولها.. أن جميع البديهيات قلبت رأساً على عقب.

أيها الصحيح؟

مثلا، بقينا في مصر لا نعرف هل كان الغزو الاجنبي والاستعمار الغربي هو سبب تخلفنا، أم أن تخلفنا هو الذي استدعى هذا الغزو وذلك الاستعمار؟ كما بقينا نعتقد أن عدم اتحادنا واتفاقنا هو سبب تدهورنا وضعفنا، في حين أن العكس هو الحقيقي، فنحن قد تدهورنا أولا.. ودب فينا

الضعف وبالتالي تفرقنا وتبعثرت وحدتنا ، فتاريخ الأمم يؤكـد أن الضعفاء لايتحـدون ، وأن أول ثمرات القوة هو الاتحاد . وظننا أن فكرنـا الديني تجمد لأننا لا نجتهد ، وفي واقع الأمر اننا كنـا قد توقفنا عن الاجتهاد ، لأن صلاتنا بتراثنا الثقافي انقطعت تماماً ولم نعد نقوى على الاجتهـاد ، ولا نعرف سبله ، ولا ندفع ضرائبه ، وليست هذه الأمثلة قليلة لما انقلب في حياتنا من أمور فـوضعنا الحصان وراء العربة ، أو وضعنا العربة أمام الحصان ،لا يهم ، وأضعنا وقتا طويلا في . . هل الفرخة أتت بالبيضة . . أو البيضة فقست منها الفرخة ؟ . واستمررنا في هذا الطراز من الجدل الى أن أصبحنا مثلما . . كان أهل بيزنطة يغزوهم المسلمـون وهم يمسكـون بتـلابيب بعضهم بعضا لخلافهم حول . . هل الملائكة ذكور أم اناث . . !!

المهم . . أننا في حاجة الى مستودع أفكار يحضره لنا علماء من أعلى طراز ، يحضرون الأفكار على أعلى درجة من الوضـوح والنقاء والشمـول . نعم . . الوضوح والنقاء والشمول . . .

لا يهمنا ما يصلون إليه من نتائج مهما كانت موانع الأخذ بها ، يعني سواء كانت موانع من العقيدة أو المذهب أو من التقليد والانحياز ، أو من دواعي الكسل أو إقصاء الخلاف مع الغير ولا سيما الأقـوياء ، ولابـد أن نضفي على هؤلاء حصانة فـلا يفصلون ولا يعـانـون . . ولا يحقق معهم ولا يتطاول عليهم متطاول . □

خطبة للنبي(صلعم)في فضل شهر رمضان

● روي أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في آخر جمعة من شعبان ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، إنه قد أقبل إليكم شهر الله تعالى بالبركة والرحمة والمغفرة ، شهر هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات ، وهو شهر قد دعيتم فيه إلى ضيافة الله ، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله ، أنفاسكم فيه تسبيح ، ونومكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ، ودعاؤكم فيه مستجاب ، فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة ، وقلوب طاهرة ، أن يوفقكم لصيامه ، وتلاوة كتابه ، فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم ، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه ، وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم ، ووقروا كباركم ، وارحموا صغاركم ، وصلوا أرحامكم،واحفظوا ألسنتكم ، وغضوا عما لايحل النظر اليه أبصاركم ، وعما لايحل اليه الاستماع أسماعكم ، وتحننوا على أيتام الناس ، يتحنن على أيتامكم ، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم ، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم ، فإنها أفضل الساعات ، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده ، ويجيبهم إذا ناجوه ، ويلبيهم إذا نادوه ، ويستجيب لهم إذا دعوه .

أيها الناس : إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ، ففكوها باستغفاركم ، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم ، فخففوا عنها بطول سجودكم ، واعلموا أن الله أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين ، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين . »

بقلم : محمود المراغي

في قاعات الجامعة

ماذا نتعلم ؟

سؤال يبدو ساذجا ، فالمعرفة قد أصبحت عنصراً أساسياً في عالمنا المعاصر ، ولكن إذا دخلنا في التفاصيل وتساءلنا قائلين : ماذا نتعلم ؟ فإن الأمر يختلف باختلاف حاجة كل مجتمع ، ودرجة تطوره ، وفلسفته في التطور . لكن كل المجتمعات متفقة على أن قدرا أساسيا من التعلم قد أصبح ضروريا . ولهذا دخلت فكرة الالزام بعض المراحل التعليمية . لكن الأمر يختلف كلما تقدمت مراحل التعليم ، ففي الجامعات . أو ما يسمى التعليم العالي يبدو التفاوت شديدا ، فالشرق غير الغرب ، والفقراء غير الأغنياء . والدول الصناعية غير الدول الزراعية . وبالتالي فإننا إذا طرحنا سؤالاً نقول فيه : من يذهب إلى التعليم العالي ؟ ولماذا ؟ وجدنا إجابات مختلفة أشد الاختلاف .

لقد حاولت منظمة اليونسكو أن تحدد عدد الذين يتلقون تعليما عاليا أو جامعيا في مختلف البلدان ونسبهم . وذلك لمرحلة من العمر تتراوح بين عشرين وأربعة وعشرين عاما . وفي عام محدد هو عام ١٩٨٣ . وبصرف النظر عن دقة اختيار هذه السن كمؤشر على أعداد طلاب التعليم العالي فإن الأرقام التي أذيعت والتي نشرها تقرير « التنمية في العالم » ذات دلالة كبيرة .

فأهم الأرقام يدل على أن التفاوت صارخ بين الفقراء والأغنياء في أقل البلدان نموا . ففي جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا تبلغ نسبة الشباب الذين يدخلون في مرحلة العمر المذكورة (١٪) ، بينما تبلغ النسبة في الولايات المتحدة الأمريكية (٥٦٪) ، وبين النسبتين تقف مختلف البلدان والمجموعات الدولية .

وعند القاع تقف المجموعة التي يسميها البنك الدولي ذات الاقتصاديات المنخفضة الدخل ، وهي ٣٦ بلدا ، يقل فيها متوسط دخل الفرد عن (٤٠٠) دولار أمريكي في العام ، وتبلغ نسبة التعليم العالي في هذه البلدان (٤٪) ، ثم تليها الدول ذات الدخل المرتفع المصدرة للنفط (١٠٪) ، فالدول ذات الدخل المتوسط التي يبلغ عددها (٦٠) بلداً ، وتبلغ فيها نسبة التعليم العالي (١٢٪) ، ويلي كل تلك الدول في الشرق والغرب الدول الصناعية الغربية (٣٧٪) ، ودول أوروبا الشرقية (٢٠٪)

المدينة لاتكفي

هذه الأرقام تطرح سؤالا : لماذا يكون التفاوت كبيرا على هذا النحو ، رغم أننا نعيش في عالم متواصل ، تنتقل فيه المعرفة في لحظات ، كما تنتقل

أنماط المعيشة والاستهلاك بشكل غير مسبوق ؟

يبدو أن مستوى الدخل ، أو النشاط الاقتصادي هو السبب الأول ، فتوفير فرص التعليم حتى لو توافرت الرغبة أمر مرهون بالامكانيات المادية ، فالجامعة والمعمل والكتاب والأستاذ أمور يتم اختزالها في النهاية برقم للانفاق ، يستطيع المجتمع أن يقدمه أو يعجز عن تقديمه ، ويستطيع الفرد ـ في بعض الحالات ـ أن يتحمله أولا يستطيع تحمله ، فالمستوى الاقتصادي عنصر حاسم ، سواء بالنسبة للانفاق على التعليم ، أو بالنسبة لقدرة الأفراد ، أو بالنسبة لحاجة سوق العمل ، فاحتياجات مجتمع صناعي متقدم تختلف عن احتياجات مجتمع زراعي أو رعوي .

وفي المجتمعات الفقيرة يتراجع كل ذلك : القدرة على الانفاق والرغبة في الانفاق ، فسوق العمل له طبيعته وقد يكون الخروج المبكر إلى العمل ، أو قد يكون اشتغال الأطفال هو المقابل والنقيض الذي نلحظه في المجتمعات الفقيرة . إذن العنصر الاقتصادي هو العنصر الحاسم ، لكن ليس كل شيء هو ، والدليل ما يحدث في أكثر من مكان في العالم .

الشرق والغرب ودول أخرى

في داخل دائرة الغرب يبدو التفاوت كبيرا ، فالنسبة في الولايات المتحدة الأمريكية ٥٦٪ ، وفي كندا ٤٢٪ ، لكنها في بريطانيا واليابان ٢٠٪ ، فالفلسفة هنا غير الفلسفة هناك ، ودرجة الاعتماد على التقدم التقني مختلفة عندما نعبر المحيط من أمريكا الشمالية إلى أوروبا ، ونفس الشيء إذا اتجهنا أكثر فأكثر إلى الشرق ، حيث تسجل بلدان أوروبا الشرقية الثمانية نسبة متواضعة هي (٢٠٪) فقط .

وهنا ـ في حالة أوروبا الشرقية ـ نلحظ أمرين :

الأول هو التفاوت الكبير مع الغرب ، حتى تكاد نسبة المترددين على التعليم العالي أن تكون نصف من يترددون عليه في الدول الغربية .

تراجع النسبة بالقياس لتاريخ سابق أبرزته الاحصاءات وهو عام ١٩٦٥ . لقد كانت النسبة في هذه البلدان (٢٦٪) ، فأصبحت (٢٠٪) فقط ، وكانت النسبة في كبرى هذه البلدان وهو الاتحاد السوفيتي (٣٠٪) ، فأصبحت (٢١٪) .

وقد يفسر التطور التقني الفرق في الحاجة لخريجي التعليم العالي في كل من الدول الصناعية الشرقية والغربية . ولكن تراجع النسبة عما كانت عليه في الستينيات يحتاج إلى تفسير آخر ، الأرجح أنه تقارب الدخول ، فعندما يزداد التقارب ، وعندما يحصل العامل الفني على راتب يفوق راتب المهندس ، أو يتساوى معه ، أو يقترب من ذلك، فإنه لا يوجد حافز كبير لتعليم عال يستغرق عدداً كبيراً من السنوات ، وقد نضيف تفسيرا ثالثا وهو أن الدول الاشتراكية خاضعة لخطة شاملة ، تقدم من الخريجين بقدر الحاجة ، بينما يختلف الأمر في الدول الغربية . وقد تكون هناك البطالة التي تعلو نسبتها وتنخفض .

على أي حال ليس التعليم في الشرق والغرب وحده هو الذي يلفت النظر ، فهناك دول متوسطة الدخل ارتفع فيها التعليم العالي حتى بلغ (٣٥٪) ، ممن هم في السن المذكورة ، كما حدث في اكوادور ، وفي كل من السعودية والهند ، فقد بلغت النسبة (٩٪) ، وفي ليبيا بلغت (١١٪) ، وفي الكويت بلغت (١٤٪) وهي أعلى نسبة في دول نفطية ، وقد شهدت الدول النفطية قفزة كبيرة ، فبينما كانت النسبة (١٪) عام ١٩٦٥ م تضاعفت عشر مرات عام ١٩٨٣ م ، ولكن بقيت رغم إمكانياتها المالية وراء النسب التي سجلتها الدول الصناعية . وهنا نعود لقضية سوق العمل ، وقضية أخرى هي قضية المرأة ، وهل تتعلم حتى النهاية ، أم تلازم المنزل ؟ وهل تعمل أم لا تعمل ؟ وبينما تلعب الحاجة الاقتصادية دور الحافز لتعليم المرأة في المجتمعات الفقيرة فإن الوفرة قد تلعب دورا عكسيا ، تدعمه التقاليد الموروثة . □

مواقف انسانية



«ولكم في القصاص حياة»

بقلم : الدكتور عبد الوهاب حومد

هناك من الناس من تأخذهم رأفة بالمجرمين ، فيطالبون بإلغاء عقوبة الاعدام ، لما تنطوي عليه من قسوة ، لكن ماذا عن الضحايا الذين قتلوا غدرا ؟ وماذا عن المجتمع الذي يتربص به المجرمون فيفسدون عليه هدوءه ، ويهددون وحدته وتماسكه ؟ .

لا أعرف كيف يختار الأدباء مواضيع رواياتهم ،ولا الطريقة التي يحركون بها أبطالها ، ليصلوا إلى الهدف الذي رموا إلى تحقيقه ، ونشره بين الناس .

لكنني أقدر تقديرا أنهم فريقان ، فريق تسترعي انتباهه واقعة من وقائع الحياة ، بطرافتها ، أو غرابتها ، فيعمل فيها فكره ، ويتدبر ما تتركه في نفسه من انطباعات ، تبدأ جوالة في أرجائها ، غامضة في مدلولها ، إلى أن تلقحها العاطفة ، ويرويها الخيال برحيق الابداع ، فتأخذ بالتكون الرخو ، ثم التماسك ، حتى تتخذ لوجودها شكلا من هيكل أدبي ، يعجبه ويرضى عنه ، وبعد ذلك يستقطر نسائم الالهام ، ليصوغ موضوعه شعرا أو نثرا ، ويدفعه إلى القراء متعة أو عظة ، لكن المتعة

الكبرى من نصيبه هو ، لأنه قد مارس ذاته ، وأمتع عاطفة الابداع في نفسه .

وفريق ينطلق من قناعة اقتنع بها ، من منطلق غير واقعي ، فتصبح له عقيدة وشرعة ، يلتزم بها ، ويبشر بها في الناس ، أسطورة أو فلسفة « مسبقة الصنع » ، ومن رجال هذا الفريق ونسائه المصلحون ، والثوار ، ومرضى الفكرة الثابتة .

وأشعر أن الأولين يتأدبون للأدب ، إشباعا لعاطفتهم ، وإمتاعا للقارىء ، وإبهاجا لنفسه ، في حين أن الآخرين ملتزمون بفكرة ، احتلت كل فراغ في قلوبهم ، فاتخذوها عقيدة ، ومنهاجا .

وحين تكون القناعة التي ينطلق منها الكاتب الملتزم خاطئة فإن هيكل الصرح الذي يبنيه يصبح مشيدا على أسس فاسدة ، لا يلبث أن ينهار حين يعرض على عقل بصير ، ومنطق سليم ، أو حين يصطدم بالأحداث ، فيتبدد أيدي سبأ .

كاتبان ملتزمان

وفي ذهني من هؤلاء الملتزمين اثنان من الكبار ، هما ابن طفيل الأندلسي ، وفيكتور هوغو الفرنسي ، فكل واحد منهما جانبه الصواب في أطروحته ، لأنه تنكب عن رؤية الثوابت ، وأغفل منطق الوقائع ، فالفيلسوف الاشراقي ابن طفيل الذي تفتحت عيناه للدنيا على جمال وادي آش ، في أكناف غرناطة المسلمة ، آمن - من أجل غايةسامية - بأن العقل المطلق قادر وحده على اكتشاف أسرار الطبيعة ، وحل معضلات المسائل الالهية ، وبخاصة وجود الله ، حتى ولو كان منقطعا عن البيئة والحياة الاجتماعية .

وأما الثاني فهو الشاعر فيكتور هوغو ، وشاعرية هوغو كانت - خلال القرن التاسع عشر - حديقة عبقر ، استنشق ريحها العبق عشاق الفن السامي في وطنه ، وفي العالم المتحضر ، وأصبحت قصائده لواعج وَجْدٍ في قلوب الذين تشجيهم الكلمة المعطرة ، وتسحرهم القافية الشادية ، والايقاع المتوازن .

لكن هذه الشاعرية الفذة المترفة جمحت بصاحبها الخالد ، حين نقلها إلى موقع هي فيه غريبة ، فكانت له جوادا حرونا ، ما لبث أن قذف به في حلبة من حلبات الزيغ والضلالة .

الجريمة ودور المجتمع

عالج هوغو في « بؤسائه » قضية نصيب المجتمع من المسئولية عن الجريمة التي يرتكبها الفرد ، حين يقف هذا الفرد في مواجهة مجتمعه ، ودولته ، معتديا ، وظالما ، وانتهى به تفكيره إلى إلقاء المسئولية - بكل ثقلها - على المجتمع ، واعتبار الفرد الأثم ضحية بريئة ، ما كان في طوقه ولا قدرته إلا أن يسقط في الحمأة ، حتى لو لم يكن ينوي السقوط ، أو يريده ، لأنه لا يعدو أن يكون أكثر من أداة مادية ، تدفعها وتسيرها مجموعة منسقة من العوامل الاجتماعية ، تألبت عليه ، فقهرته ، ودفعته في الطريق الذي رسمته له .

اخترع مؤلف البؤساء شخصية « جان فالجان » الذي ترك له أخوه المتوفى أرملة وستة أطفال ، وتركة ثقيلة من الفقر والحرمان ، فوجد نفسه ملزما بإعالتهم ، وبرد غائلة الجوع عنهم ، فقام بواجبه حسب توفر العمل له ، لكنه أصبح ذات يوم بلا عمل يدر عليه أجرا ، فعجز عن تحمل رؤية الصغار جياعا ، فانتظر حتى أرخي الليل سدوله ، وتسلل إلى فرن البلدة ، وكسر واجهته ، وسرق رغيفا من الخبز لصغاره ، غير أن رجال الأمن المتربصين لأمثاله كانوا أسرع منه ، فألقوا القبض عليه ، وانتهى به التحقيق إلى محكمة الجنايات ، بتهمة ارتكابه سرقة جنائية موصوفة ، لاجتماع ظرفين من ظروف التشديد ، هما الليل والكسر . حكمت عليه المحكمة بالأشغال الشاقة خمس سنوات ، لكنه لم يكن قانعا بعدالة الحكم ، فتمرد عليه ، وحاول

الهرب من السجون عدة مرات ، وفي كل مرة كان يفشل ، فتزداد عقوبته تطبيقا لأحكام القانون ، حتى بلغ ما أمضاه في السجن ـ من أجل هذا الرغيف ـ تسعة عشر عاما . ثم ابتسمت له الظروف ، فنجح في اجتياز القضبان ، واستقر في بلدة صغيرة نائية ، واتجر ، فأصاب مالا وفيرا ، وتصدق وأحسن ، حتى صار عمدة البلدة ، إليه يفزع أهلوها للفصل في خلافاتهم ، ومنه يستمدون الرأي في تصريف أمورهم . وتبنى طفلة يتيمة « كوزيت » ، فأحسن تربيتها ، وأصهرها بيت كريم ، لكن القانون لم يتركه في توبته واستقامته ، وحياته الأسرية الهانئة ، فألقي القبض عليه حين اكتشفت حقيقته ، وأعيد إلى السجن لاستيفاء مدة العقوبة ، بعد أن أصبح شيخا متهدما ، إلا أنه نجا بنفسه ، ومات ميتة مؤلمة مؤثرة .

تجنيه على القضاء

أول ما يؤخذ على المؤلف تجنيه على التشريع الجنائي ، وعلى القضاء أيضا فكأنه لا يعرف أن « حالة الضرورة » مؤسسة راسخة في كل قلب ، وهي ليست في حاجة إلى أن تُقنن ، وقديما قال المفكرون ، « ليس للضرورة قانون » ، وسرقة جان فالجان حالة صارخة من حالات الضرورة ، كما أنه لا يعقل أن يحكم قاض ـ في أي زمان أو أي مكان ـ بهذا الحكم القاسي الجائر على عاطل عن العمل سرق رغيفا ليسد به رمق جياعه ، ويضاف إلى ذلك أن المؤلف تجاهل مبدأ التقادم الجنائي حين أطلق رجال الشرطة في أعقابه ، للقبض عليه وسجنه .

الخيال يعين الأديب على معالجة مواضيع شعرية أو نثرية فنية ، لكنه لا يصلح لحل مشاكل إنسانية واجتماعية معقدة ، ومن هذا المنطلق أستطيع أن أنعت المطالبين بإلغاء عقوبة الاعدام ـ في أيامنا هذه ـ بالحالمين والشعراء ، لأنهم ينطلقون من منطلقات نظرية ، لا تجد لها سندا مقنعا على أرضية صلبة من الواقع .

ومن عجب أن العمل على إلغاء هذه العقوبة في التشريع الوطني أصبح التزاما دوليا ، تمليه المادة السابعة من المعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق المدنية والسياسية[1] ، فقد نصت هذه المادة على أنه « لا يجوز التذرع بأي نص من نصوص هذه المادة لتأخير أو لمنع إلغاء عقوبة الاعدام ، من قبل دولة عضوة في هذه المعاهدة » ، كما أن (البروتوكول) السادس لاتفاق جنيف الخاص بحقوق الانسان قد أقر وجوب إلغاء هذه العقوبة في وقت السلم ، وقد أصبح نافذا منذ أول آذار (مارس) ١٩٨٥ م .

نحن وعقوبة الاعدام

الأقطار العربية أعضاء في هيئة الأمم المتحدة ، وقد وقعت على المعاهدة المذكورة ، فالتزمت دوليا بأحكامها ، وكان عليها أن تتحفظ على هذه الفقرة ، طالما أنها لا تنوي التقيد بمضمونها ، وليس سرا أنها فقرة تصطدم بقاعدة شرعية إسلامية ، تتبنى مبدأ القصاص ، ومبدأ القصاص ـ علاوة على موقعه العقيدي ـ يلبي حاجات المجتمع لا ريب ، وينشر الطمأنينة في الناس ، ويحقق مبدأ من مبادىء العدالة المطلقة ، قد وقف إلى جانبه عدد من أساطين الفكر قديما وحديثا . ولست أذكر من القدماء إلا جان جاك روسو الذي نادى باجتثاث كل من يخل بالعقد الاجتماعي الذي أبرمه مع المجتمع « حين يكون عاصيا » وخائنا للوطن ، باعتباره عدوا عاما ، ومونتسكيو الذي يريد إبقاء عقوبة الاعدام ، وقصر تنفيذها على القتلة وحدهم ، (وهذا هو القصاص) ، لأنها دواء للمجتمع المريض » ، كما لا أذكر من المعاصرين إلا الفقيه العالمي غارو ،

(١) أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم ٢٢٠٠ م بتاريخ ١٦ ـ ١٢ ـ ١٩٦٦

والأستاذ دوفابر . تقوم نظرية الأول على الاحتفاظ بهذه العقوبة في القانون ، لكن لا تنفذ إلا في الجرائم الخطيرة - وليس هناك جريمة أخطر من قتل الأبرياء - وقد شبهها باقتناء السلاح ، يحتفظ به المرء خشية أن يحتاجه يوما ما . وهذا هو ما يفعله - عمليا - كثير من الدول . فعقوبة الاعدام ماتزال نافذة في عدد من الولايات الأمريكية المتحدة ، لكنها لا يكثر استعمالها ، ويوجد الآن في سجون هذه الدولة نحو ١٦٠٠ شخص محكوم عليهم بالاعدام ، ويعيشون في « أروقة الموت » منذ سنين .

هذا كان قرار دول السوق الأوروبية المشتركة بإلغاء هذه العقوبة في بداية هذا العام ، باعتبارها عقوبة قاسية ، منافية للطبيعة الانسانية ، تمثل انتهاكا لحق البقاء ، مجافيا للعدل وللمنطق .

وهذه العقوبة تمثل في جوهرها العدل المطلق ، وتنسجم خير انسجام مع الطبيعة الانسانية ، إذ ليس أحب إلى هذه الطبيعة من إذاقة القاتل ما أذاقه للبريء الذي أزهق روحه بغيا وعدوانا ، ثم إنها تحافظ - عمليا - على « حق البقاء » بإخافتها للذين تسول لهم أنفسهم ارتكاب الكبائر ، وتجتث عضواً فاسداً برهن على أنه لا يصلح للعيش في وسط المجتمع .

ولأن للوقائع العملية منطقا كمنطق الأرقام اخترت من أوراقي هذه الجريمة القطيعة التي يحمل ملفها رقم ٦١ لعام ١٩٥٨ ، أعرضها عرضا لا يجرح المشاعر الحساسة ، ولا يخالف الأمانة العلمية ، لتكون نموذجا على ما يمكن لبعض المجرمين أن يرتكبوه من جرائم . وقد تحتم عليّ أن اتخذ فيها موقفا ففعلت ، وإني به لقانع .

مثال من الواقع

في قرية وادعة كان يعيش رجل تقدمت به السن مع زوجة مريضة، وولد في مقتبل الصبا ، وكانت لها ابنة ، تزوجها قريب في قرية ليست بعيدة كثيرا عن مسكنهم ، ولم تكن الأرض التي تتعيش منها هذه الأسرة معطاء ، لكثرة ما فيها من صخور سوداء ، تنبيء عن الطبيعة البركانية للمنطقة ، وتمنع استنبات الزرع فيها بوفرة . كان على هذه الأسرة أن تعيش على الكفاف ، لضآلة المورد ، وأن توفر لفتاها ما يصلح من شأنه بين رفقاء المدرسة والحي .

ذات صباح انطلق صوت الناعي ، ينعى الأم المريضة ، ووارى الأهل والجيران الجثمان ، وانكفأ الوالد على نفسه يجترّ أحزانه ، ويتدبر أمر بيته وخدمة ولده ، وكانت مهمته شاقة ، بسبب طبيعة العمل ، وضرورة رعاية الأرض .

وأدركت اخته ما يعانيه فنصحته بأن يختار له زوجة ، تحمل عنه عبء البيت ، فتردد ، ثم كلفها بالبحث عن امرأة ، تقبل بحالته ، ولم يطل بها البحث كثيرا ، فقد وقفت إلى فتاة يتيمة الأبوين ، تعيش في كنف قريبة ، تؤويها مقابل ما تقوم به من عمل في البيوت .

كان سبب اعتراض الأب على هذه الخطبة أنها دون العشرين من عمرها ، وأنه الآن في عمر يزيد عن عمر أبيها ، لكنه رضي مع ذلك على اعتبار أنها مقطوعة الجذور ، وقد يعجبها أن تصبح ربة بيت . وتزوجها ، وهي مرتاحة النفس ، وهو منقبض الصدر ، كأنه كان يستشف حجب الغيب ، فيرى أن هذا الزواج ليس فأل خير . ومرت الشهور الأولى ، وهي تحمل في أحشائها بذرة الشر المختمر . وأصبح ابنه الفتى كثير الغياب عن المدرسة ، وكان يتذرع كل يوم بذريعة ، حتى أخذت الألسنة تسلق الأسرة بتلميحات حينا ، وتصريحات حينا آخر ، وأخذ رذاذ الاشاعات ينفذ إلى آذان الأب ، فراح يرهف السمع ، ويفتح العين ، حتى تيقن أن بيته يعيش في مأساة حقيقية ، ثم افتعل شجارا مع ابنه انتهى بطرده إياه من البيت ، لكن عاطفة الأبوة عادت ، فتغلبت على كل الاعتبارات الاجتماعية حين عرف حالة الضياع التي يعيشها وحيده ، فاستعاده حسيرا كسيرا ، غير أن جذوة الشر عادت

فتأججت في شرايين الفتى وزوجه أبيه ، فاتخذا قرارا بيتاه وهو الخلاص من العقبة . ومن المحزن أن المناسبة لم تتأخر ، فقد وضعت البنت المتزوجة وليدها الأول ، وجاء الرسول بخبر الفرحة ، فأصبح لزاما على أفراد الأسرة أن يتوجهوا إليها ، ليزجوا إليها التهنئة .

كانت الشمس تدلف نحو الأفق ، حين توجه الثلاثة إلى القرية الأخرى، هربا من الحر الشديد ، وطمعا في نسمات عليلة من نسمات الأمسيات التي اعتادت أن تتبختر كل مساء في مثل هذا الفصل .

كان الشيخ يركب حماره ، وأمامه يسير ابنه ، وخلفه تتحرك الزوجة ، وكانت خطوات القافلة متثاقلة ، تتناغم مع قرع حوافر الحمار على الحجارة في طريق ترابي ، لتدخل إلى سكون الظلمة والوحشة شيئا من الحركة والصوت ، وبين حين وآخر كان النوم يرش على عيني الشيخ قطرات من الخدر ، فيسلم نفسه إلى أذرعة مورفيه (إله النوم في الميثولوجيا اليونانية) فيسقط رأسه على صدره ثم لا يلبث أن يصحو ليعاود النوم مرة أخرى ، كأنه طفل لفّه الليل بثوبه ، فاستسلم إلى أحلامه .

أنس الولد إلى وحشة الهدوء ، وانقطاع السابلة ، فأخذ برسن الحمار ، وانحرف به عن الطريق ، ثم تركه على هواه ، وانتقى حجرا أملس صلدا ودانى والده ، وعن قرب ضرب به رأسه بكل ما في زنده من قوة ، فانطلقت من الأب صرخة مدوية ، وتهاوى مترنحا ، فدفعه الظالم وألقاه على الأرض ، وانهال على رأسه بحجر يضربه ، ولم تثنه استغاثات أبيه وهو يلفظ أنفاسه ، ثم حمل حجرا ضخما ، هشم به هذا الرأس الذي لم يعد في حاجة إلى ضربة أخرى ، لتنطلق روح هذا الوالد إلى الذي لا تغفل عينه ، تشكو إليه العقوق والغدر .

جر المجرمان الجثة إلى حفرة ، وهالا عليها التراب والحجارة ، واستأنفا سيرهما ، لاتمام واجب التهنئة ، فقدماها ، وزعما أن الوالد سوف يحضر بعد أيام حين يبلّ من مرض ألم به .

وعادا بعد الزيارة إلى البيت ظانين أنهما أنجزا الجريمة الكاملة ، وأشاعا أن الولد غادر إلى الحاضرة في سفر قد يطول ، لكن القدر كان أسرع من كيدهما ، إذ دلت الطيور الجارحة عين العدالة على موضع الجثة، وهتكت الأستار .

تبادل الأثمان التهم ، ثم أنهت التحقيقات والاعتراف وتقرير الطبيب الشرعي مهمة المحكمة ، وصدر حكمها بإعدام المجرم وحبس المجرمة مدى الحياة ، وبهذا الحكم المخفف على المرأة تكون المحكمة قد ظلت وفية لتقليد يكاد يكون عالميا ، وهو الاقلال من أحكام الاعدام على النساء ما أمكن ، غير أن هذه النظرة عرف تعاملي ، درجت عليه المجتمعات ، وليس حقا قانونيا أو مكتسبا ، فكثيرا ما سمعنا عن نساء ، من أرقى الأوساط الاجتماعية ومن أدناها طوّقت المشانق أعناقهن الجميلة .

كان المرسوم الجمهوري المتضمن تصديق الحكم أمامي ، أقرؤه ، وأعيد قراءته ، متفكرا مستعبرا ، ثم أقرأ تقرير مدير السجن عن تحسّن سلوك المجرم خلال فترة وجوده في السجن .

لكن الجريمة كانت من الفظاعة بدرجة سدت عليّ أبواب كل تفكير ، فأصدرت الأمر إلى النيابة العامة لتوقظه في صباح اليوم التالي ، مع أنفاس الفجر في زنزانته ، وتتلو عليه الحكم والتصديق ، وتسأله عما يوصي به ، ثم ليلف الجلاد حبلا من قنب على رقبته ، ويسحب الكرسي من تحت قدميه ، لينتفض عدة انتفاضات في الهواء ، ثم يهمد كل شيء ، ويخيم السكون جزاء وفاقا .

وسبحان العادل الذي قال : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » . □

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

استدعاء الفقه إلى قلب العصر

كتاب الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي حول الاجتهاد في الشريعة الاسلامية ، يمثل محاولة متميزة لنقل الفقه الى قلب العصر ، على الصعيدين النظري والتطبيقي ، وفضلا عن ذلك ، فانه يتضمن أول نقد علني من داخل الحركة الاسلامية لأخطر مقولات الاستاذ سيد قطب ، التي تنسب الى واقعنا المعاصر وصف « الجاهلية » . وهي المقولة التي شاعت بين أوساط شباب المشتغلين بالعمل الاسلامي ، حتى باتت تشكل احدى الركائز الفكرية لعديد من الفصائل الاسلامية النشطة في زماننا .

من هنا ـ ولأسباب أخرى سنمر بها ـ فان كتاب الشيخ القرضاوي يضيف الى رصيدنا الفكري الكثير مما يستحق منا أن نعرضه ونفصل فيه قدر الامكان .

ابتداء ينبهنا الشيخ القرضاوي الى أن الفقيه ليس من حفظ الفروع الفقهية ، وتمكن مما قاله السابقون أو نقله عنهم اللاحقون ، ولكنه « من أتقن مبادىء الفقه بحيث يقدر على استخراجه من القول الى الفعل » ، بمعنى أن العبرة في الفقيه ليست بما حفظه وحصله ، ولكنها بقدرته على استنباط الاحكام الشرعية ، وتمكنه مما يسمى بآلة الاجتهاد .

وفي شروط المجتهد ـ وفي مقدمتها العلم بالقرآن والسنة والعربية والأصول والاجماع ـ فانه يضيف شرطين ، أحدهما لم يكن محل اتفاق الأصوليين ، والثاني لم يقل به أحد من قبل .

أما الشرط الأول فهو العلم « بمقاصد الشريعة » ، وهو الذي نبه اليه الامام أبو اسحاق الشاطبي الغرناطي (المتوفى سنة ٧٩٠هـ) في كتابه الشهير الموافقات ، وكان أول من دعا اليه ، والشاطبي هو أفضل من صاغ مقاصد الشريعة ، ورتبها طبقا لأهميتها في مراتب ثلاث : « ضرورية » لاتستقيم حياة الناس بدونها ، مثل حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال ـ و « حاجية » مما يلزم الناس لليسر والسعة ، واحتمال مشاق التكليف وأعباء الحياة ـ و« تحسينية » مما تقتضيه المروءة ومكارم الأخلاق .

اهتم الامام الشاطبي بالمقاصد حتى جعلها سبب

الاجتهاد لامجرد شرط له ، اذ جعل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين : أولهما فهم مقاصد الشريعة على كمالها ، وأنها مبنية على اعتبار المصالح برتبها الثلاث - والثاني هو التمكن من الاستنباط بناء على فهمه هذا .

ويعقب الشيخ القرضاوي على رأي الشاطبي - مؤيدا ومعززا - فيقول : لهذا كان العلم بمقاصد الشريعة في غاية الأهمية ، حتى لايغلط عليها الغالطون ، ويجروا وراء الأحكام الجزئية مهملين المقاصد الكلية ، فيخلطون ويخبطون .

ويبرر الدكتور القرضاوي كون فقهاء الأصول لم يشيروا الى هذا الشرط ، بقوله انهم ربما يكونون قد اكتفوا بما ذكروه من وجوب الرسوخ في معرفة القرآن والسنة ، مما يؤدي بدوره الى معرفة مقاصد الشريعة ، ثم انهم أشاروا الى أهمية معرفة القواعد الكلية للشريعة ، وان لم يفردوها بالذكر .

الشرط الثاني الذي أضافه الشيخ القرضاوي داعيا الى ضرورة توفره في المجتهد هو : معرفة الناس والحياة ، لأنه لا يجتهد في فراغ ، بل في وقائع تنزل بالأفراد والمجتمعات من حوله ، وهؤلاء تؤثر في أفكارهم وسلوكهم تيارات وعوامل مختلفة نفسية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية ، فلا بد للمجتهد أن يكون على حظ من المعرفة بأحوال عصره ، وظروف مجتمعه ، ومشكلاته وتياراته الفكرية والسياسية والدينية » .

لقد أشار الفقهاء في مواضع عدة إلى أهمية معرفة الناس لمن يتصدى لأمور الفتوى ، وقال ابن القيم إن المفتي أو الحاكم الذي يفتقد هذه المعرفة « كان ما يفسد أكثر مما يصلح » . ولكن الأصوليين لم يدرجوا هذا الشرط فيما ينبغي أن يتوفر في المجتهد ، وإذ يؤكد الشيخ القرضاوي على اعتبار ذلك الشرط ، فانه يقول بأنه مطلوب « ليكون الاجتهاد صحيحا واقعا في محله » . وهو يذهب الى ضرورة أن يكون المجتهد - أيضا - ملما بثقافة عصره ، حتى لايعيش متعزلا عن المجتمع الذي يعيش فيه ويجتهد له - ويصنف تحت هذا العنوان علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ . . .

ونلاحظ هنا أنه يدعو أيضا الى احاطة الفقيه ببعض المعارف العلمية الأخرى ، مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات ، ويبدو أن الدكتور القرضاوي قد عدد تلك المعارف وفي ذهنه صورة الفرد أو المجتهد المطلق ، وهي صورة وان كانت مثلى ، الا أنها صارت متعذرة في زماننا ، أي في ظل تعدد المعارف والعلوم بالصورة التي يعجز بشر فرد عن الالمام بها فضلا عن استيعابها ، وقد أدرك ذلك الشيخ القرضاوي ، حيث دعا في موضع آخر من الكتاب الى أن يتم الاجتهاد من خلال فريق أو مجمع فقهي ، بعدما صار محققا أنه لم يعد بمقدور مجتهد فرد أن يتصدر للفتيا العلمية لهم ، مما يمكنهم من تحديد الحكم الشرعي في كل حالة ، خصوصا في الأمور الطبية والاقتصادية المعقدة ، التي لايطالب أهل الأصول بالاحاطة بها .

لذا ، فاننا اذ نشكر للدكتور القرضاوي ابرازه لأهمية معرفة الفقيه لأحوال الناس والحياة ، وللواقع الثقافي العام ، فاننا نحسب أنه ذهب بعيدا في دعوته الى ضرورة احاطة الفقيه بقدر من المعارف العلمية ، التي تمكنه من الافتاء في قضايا الاجهاض وقتل الجنين أو التحكم في جنسه (على حد تعبيره) - ونفضل أن يكون الاجتهاد الفقهي في تلك القضايا الدقيقة معتمدا على رأي أهل الاختصاص العلمي وبمشورة منهم .

يؤيدنا الدكتور القرضاوي بطريق غير مباشر ، عندما يعالج في موضع آخر من كتابه فكرة « تجزؤ الاجتهاد » ، بمعنى أن يتمكن الباحث من فرع معين : القانون أو الاقتصاد أو الطب . لكي يصبح قادرا على أن يجتهد فيه بحيث « يستطيع استاذ الاقتصاد المتمكن اذا درس ما يتعلق به في الفقه والمصادر الاسلامية أن يجتهد في هذا الباب

لابتعداء ، ومثل ذلك استاذ القانون الجنائي أو الدستوري أو غيرهما .. كل في اختصاصه » .

لكن اشترط لذلك شرطين : أن يكون الباحث مؤهلا للفهم والاستنباط ، وأن يدرس موضوعه أو مسألته دراسة متعمقة ، تمكنه من الاحاطة بجميع جوانبها ، حتى يستطيع أن يجتهد فيها .

ونفهم من السياق أنه يقر هذا النوع من الاجتهاد ، الذي نحسب أن له شأنه في واقعنا المعاصر ، حيث باتت الحاجة ملحة الى التخصص الدقيق في مختلف فروع المعرفة .

وفي تناوله لمسألة الاجتهاد ، فان الدكتور القرضاوي يقف في قلب العصر ، عندما يحاول القاء ضوء كاشف على اثنين من المجالات التي حدث فيها تطور ضخم في العصر الحديث ، وهما مجالا الاقتصاد والطب .

عن الاقتصاد يقول ان كثيرا من معاملاته جديد مائة في المائة ، وبعضها شبيه بالقديم ، أو مركب من القديم والجديد ، وهناك من يذهب الى الرفض أو التشديد فيها من باب التحوط ، لكنه يتحفظ على هذا النهج ، مستندا الى قول الامام سفيان الثوري : « انما الفقه الرخصة مع الثقة ، أما التشديد فيحسنه كل أحد » !

هو أيضا يحذر من « فتح الباب على مصراعيه لكل جديد ، واباحة كل ما هو واقع ، بدعوى المصلحة حينا ، وبدعوى الضرورة حينا ، وبتخريجات واهية متكلفة حينا آخر » .. وفي نهاية الأمر ، فانه يدعو الى اخضاع هذه الأعمال والمؤسسات الجديدة للبحث الجاد ، من جانب أهل التخصص الفقهي لاستنباط الحكم اللائق بها في ضوء الأدلة الشرعية .

يضرب الشيخ القرضاوي مثلا بالنقود الورقية التي أصبحت عماد التعامل في هذا العصر ، ويتساءل : ألها حكم النقود المعدنية ، التي جاءت بها النصوص الشرعية من الذهب والفضة ، في كل شيء : في وجوب وحرمة الربا ، وقضاء الديون ـ وغيرها ؟

يضرب مثلا آخر بالعملات التي تتدهور قيمتها باستمرار ، وحكم من كان عليه دين قديم من هذه العملات ، ويريد أن يوفيه اليوم بعد هبوط القدرة الشرائية هبوطا غير عادي ؟ .. هل توفى القيمة ذاتها فيضار الدائن ، أم تزاد فتحل شبهة الربا ؟

في غير النقود ، هناك مسائل البنوك وشركات التأمين ، التي عقد في شأنها عديد من المؤتمرات ، وعالجها البعض في بحوث مختلفة ، وتم الاتفاق حول أشياء ، والاختلاف حول أشياء ، والتعليق حول بنود أخرى ، ومع ذلك فالتفاصيل بغير حصر ومجال الاجتهاد يحتاج الى مزيد من جهود الباحثين والمتخصصين .

المجال الثاني الذي يلفت الأنظار الى قدرة الاجتهاد فيه هو ميدان الطب الحديث ، ورغم أن قضايا هندسة الوراثة والأجنة وأطفال الأنابيب تطرح تحديات مثيرة أمام أهل الفقه والاجتهاد ، الا أنه ضرب مثلا بالأسئلة التي تثيرها عملية زراعة الأعضاء ، وقد أحيلت اليه من قبل جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وكانت منظمة الطب الاسلامي في جنوب أفريقيا هي التي توجهت بتلك الأسئلة ، ومنها :

ـ هل يجوز زرع أعضاء الحيوان لانقاذ حياة الانسان أو لتحسين أنشطة بعض أعضائه ، حتى لو كان الحيوان خنزيرا ؟

ـ هل يجوز للمسلم الموافقة على نزع أعضاء من جسمه وهو حي ، لاستعمالها في الزراعة لمصلحة طفله أو أحد أبويه ؟

ـ هل يجوز زرع الأعضاء فيما بين المسلمين وغير المسلمين ؟ .. وهل يجوز للمسلم أن يتبرع بجسمه بعد الوفاة ؟

ـ متى يجوز الاعلان عن وفاة الانسان ، اذا توقف قلبه أو توقف المخ ؟

هذه الأسئلة مثارة في حياة المسلمين الذين يبحثون عن حكم شرعي صحيح لكل حالة ، في هذا الموضوع ، وفي غيره مما يحتاج الى جهد فقهي كبير لملاحقة مستجداته ومتغيراته .

والشيخ القرضاوي ، اذ يسترعي الانتباه الى تلك القضايا الحيوية ، يرى أيضا أن الاجتهاد لا ينحصر في دائرة المسائل الجديدة « بل له مهمة أخرى مع التراث الفقهي ، لاعادة النظر فيه على ضوء ظروف العصر وحاجات الناس ، لاختيار أرجح الآراء وأنسبها بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق ، بناء على قاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والانسان . . ويضيف قائلا : ليس صحيحا أن الأول لم يترك للآخر شيئا ، بل الصحيح ما قاله أهل التحقيق : كم ترك الأول للآخر ، بل كم فاق الأواخر الأوائل !

هنا يقرر : ينبغي أن يكون الاجتهاد في عصرنا اجتهادا جماعيا ، في صورة مجمع علمي يضم الكفايات الفقهية العالية ، ويصدر أحكامه في شجاعة وحرية ، بعيدا عن كل المؤثرات والضغوط الاجتماعية والسياسية . . ومع هذا لا غنى عن الاجتهاد الفردي ، الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي .

يرى الدكتور القرضاوي أن الاجتهاد المطلوب لعصرنا نوعان : انقضائي يقوم على الترجيح بين أحد الآراء المنقولة في تراثنا الفقهي ، وانشائي ، يستهدف استنباط حكم جديد في مسألة من المسائل التي لم يعرض لها أحد من السابقين .

التصوير من نماذج الاجتهاد الانشائي ،وهو ما حسمه منذ أكثر من نصف قرن الشيخ محمد بخيت المطيع ـ مفتي مصر الأسبق ـ في رسالة شهيرة له بعنوان : « القول الكافي في اباحة التصوير الفوتوغرافي » . اذ قال في صدد الاباحة ، ان علة التحريم هي مضاهاة خلق الله ، وهذا التصوير ليس مضاهاة من ذلك النوع ، انما هو خلق الله نفسه انعكس على الورق ، كما تنعكس الصورة في المرآة . واستطاع الانسان بالعلم أن يثبتها بوسائط معينة .

يتصل بذلك ما أشار اليه الشيخ القرضاوي في شأن « التماثيل » ، عندما تعرض في موضع آخر من الكتاب لما أسماه « مزالق الاجتهاد المعاصر » . وهو ينتقد من أباحها استنادا الى أن التصوير حرم في الاسلام لقرب العهد بالوثنية ، وما كان فيها من صور تعبد من دون الله ، في حين أن العقول تحررت في زماننا ، ولم يعد ثمة مجال لأن يعبد انسان القرن العشرين صورة أو تمثالا .

وفي رده على ذلك يقول : ان التأويل مردود كله ، فالنصوص التي حرمت التصوير قد نصت على علته ، وهي مضاهاة خلق الله ، وليس مشابهة الوثنية ـ أما تحرر العقول في القرن العشرين « فليذهب صاحب هذا الكلام الى الهند وبلاد كثيرة في آسيا وأفريقيا ، ليرى أن الوثنية لازالت معششة حتى في رؤوس كبار المتعلمين » .

واذا نقدر لشيخنا الجليل رأيه ، لكننا نحسب أن مضاهاة خلق الله ليست تامة في التماثيل التي هي بلا روح ، فضلا عن أن المضاهاة ليست منهيا عنها لذاتها ، ولكن لأنها قد تفتن الناس في دينهم ، الأمر الذي قد يغري بالعودة الى الوثنية ، ولئن رد الدكتور القرضاوي على تحرر العقول في القرن العشرين وبعدها عن الوثنية ، باشارته الى معتقدات بعض البلاد الآسيوية ، فربما أصبح الكلام أضبط وأدق لو أنه حرم التماثيل ان كانت تفتح الباب لشبهة التعبد بالأوثان ، في مثل تلك الدول ، وهو أمر لا يسري بحق في بقية ارجاء الكرة الأرضية .

وربما كان اجتهاد فقهاء الشيعة بمثابة حل وسط لذلك المشكل ، من حيث انهم يبيحون التماثيل غير المكتملة ، المنحوتة في الخشب أو الحجر ، التي لا تتحقق فيها شبهة المضاهاة ، من حيث انها تبرز جزءا فقط من جسم الانسان ، ولا تصوره كله .

وبعد أن يعرض عديدا من محاولات الاجتهاد المعاصر ، فان الشيخ القرضاوي يحدد لنا ٩ ضوابط لاجتهاد معاصر وقويم : وهي :

لا اجتهاد بعد بذل أقصى الجهد في تتبع الأدلة ، لا محل للاجتهاد فيما ثبت بالدلالة القاطعة في القرآن ، مثل فرضية الصيام أو تحريم الربا والخمر ولحم الخنزير ، لا يجوز التشدد في الأمور الظنية ، وتحويلها الى قطعيات بحجة الاجماع أو غير ذلك ، ضرورة الوصل بين الفقه والحديث ، باعتبار أن أكثر المشتغلين بالحديث لا يهتمون كثيرا بالدراسات الفقهية والأصولية ، والحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع بتبرير كل شيء بدعوى المعاصرة ، وأهمية الترحيب بكل جديد نافع والتخلي عن موقف مقاومة كل جديد ، طالما أنه لا يغير من الأصول شيئا ، وألا نهمل روح العصر وحاجاته ، والانتقال من الاجتهاد الفردي الى الجماعي ، وافساح الصدور لخطأ المجتهد .

في الجزء الأخير من كتابه يتصدى الشيخ القرضاوي لرأي الأستاذ سيد قطب الذي يعتبر المجتمع الراهن لا يجدي معه اجتهاد أو استنباط ، « فذلك عبث أو هزل ، لأننا نعيش مجتمعا جاهليا ، يرفض حاكمية الله تعالى ، وبالتالي فعليه أن يسلم أولا وبعد دخوله الى الاسلام لنا أن نجتهد لحل مشكلاته في رحابه » ، هذا الرأى أثبته لنا الاستاذ قطب في تفسيره للقرآن « في الظلال » ـ وفي كتابيه « معالم في الطريق » و « الاسلام ومشكلات الحضارة » .

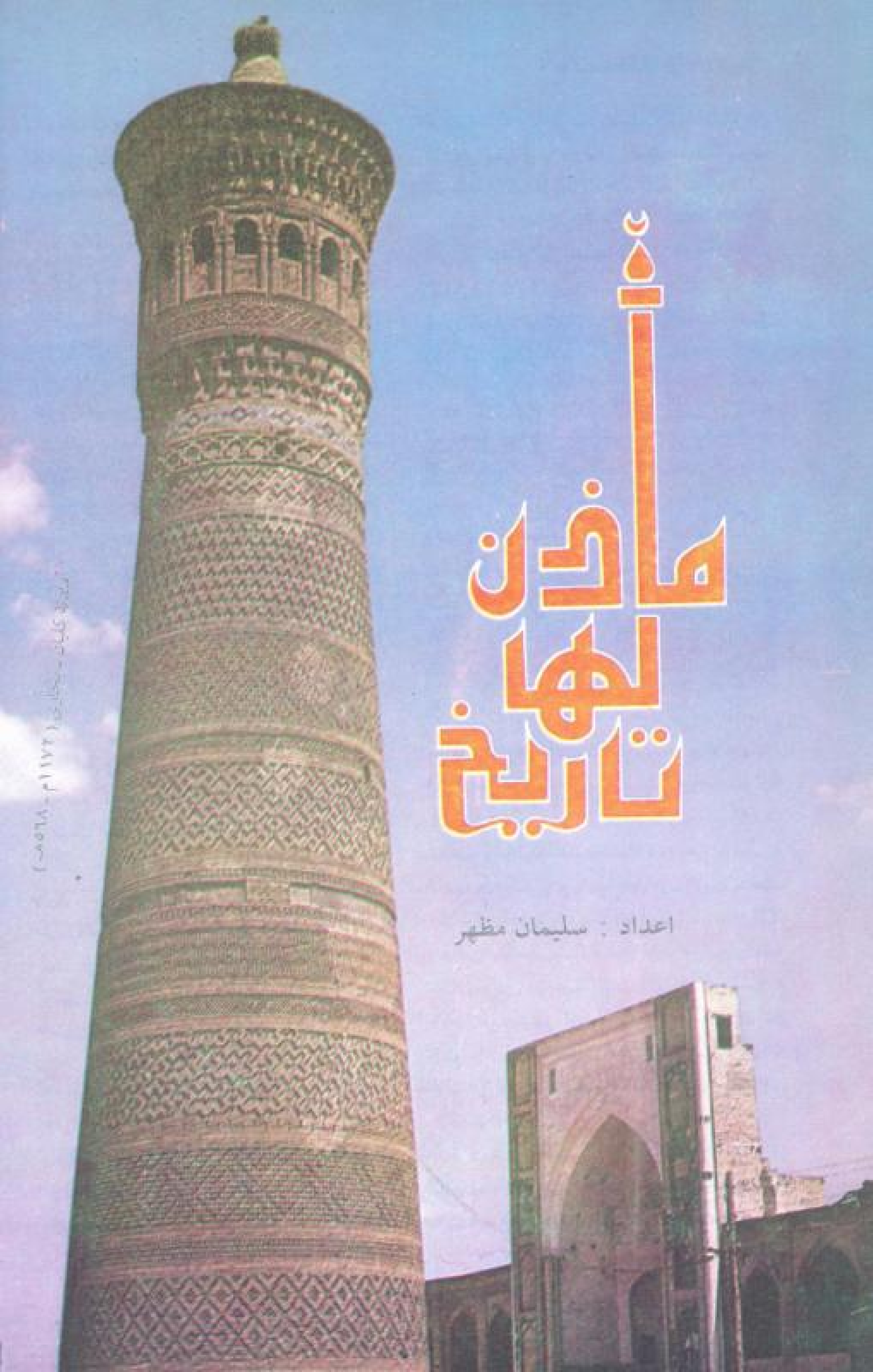
وفي رده على هذا الرأي فان الشيخ القرضاوي يقول : انه لا مقارنة بين مجتمعنا الراهن والمجتمع الجاهلي في مكة ، الذى دعاه الرسول عليه الصلاة والسلام الى الاسلام ، ذلك مجتمع وثني كافر ، وفي مجتمعنا ناقصو دين وبلا دين ، ولكن الأكثرية الساحقة مؤمنة وملتزمة بالاسلام وبشعائره على المستوى الفردي ، « ولهذا يكون من الاسراف والمجازفة الحكم على هؤلاء جميعا بأنهم جاهليون » .

يضيف أن ثمة شريحة من أبناء الثقافة الغربية يحاولون الفصل بين العقيدة والشريعة في الدين ، ويتحازون للأولى دون الثانية ، لكن ذلك ينبغي أن يحمل باعتباره تدينا منقوصا ، وليس جاهلية تقتضى دعوة صاحبها الى الاسلام من جديد .

في نقضه لرأي الاستاذ قطب ، فان القرضاوي استشهد ببعض كتابات المشتغلين بالدعوة الاسلامية ، من أمثال الاستاذ عبد القادر عودة في رسالته « الاسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه » ، وفيها اشارة واضحة الى أن اهمال تحكيم الشريعة الاسلامية في بعض شئون الحياة العامة ، لم يكن تحديا لسلطان الله ، وانما هو ناشيء عن عدم ادراك حقائق الشريعة والهيمنة الغربية ، التي حرصت على ازاحة الشريعة عن التطبيق منذ بسطت سلطانها على العالم الاسلامي .

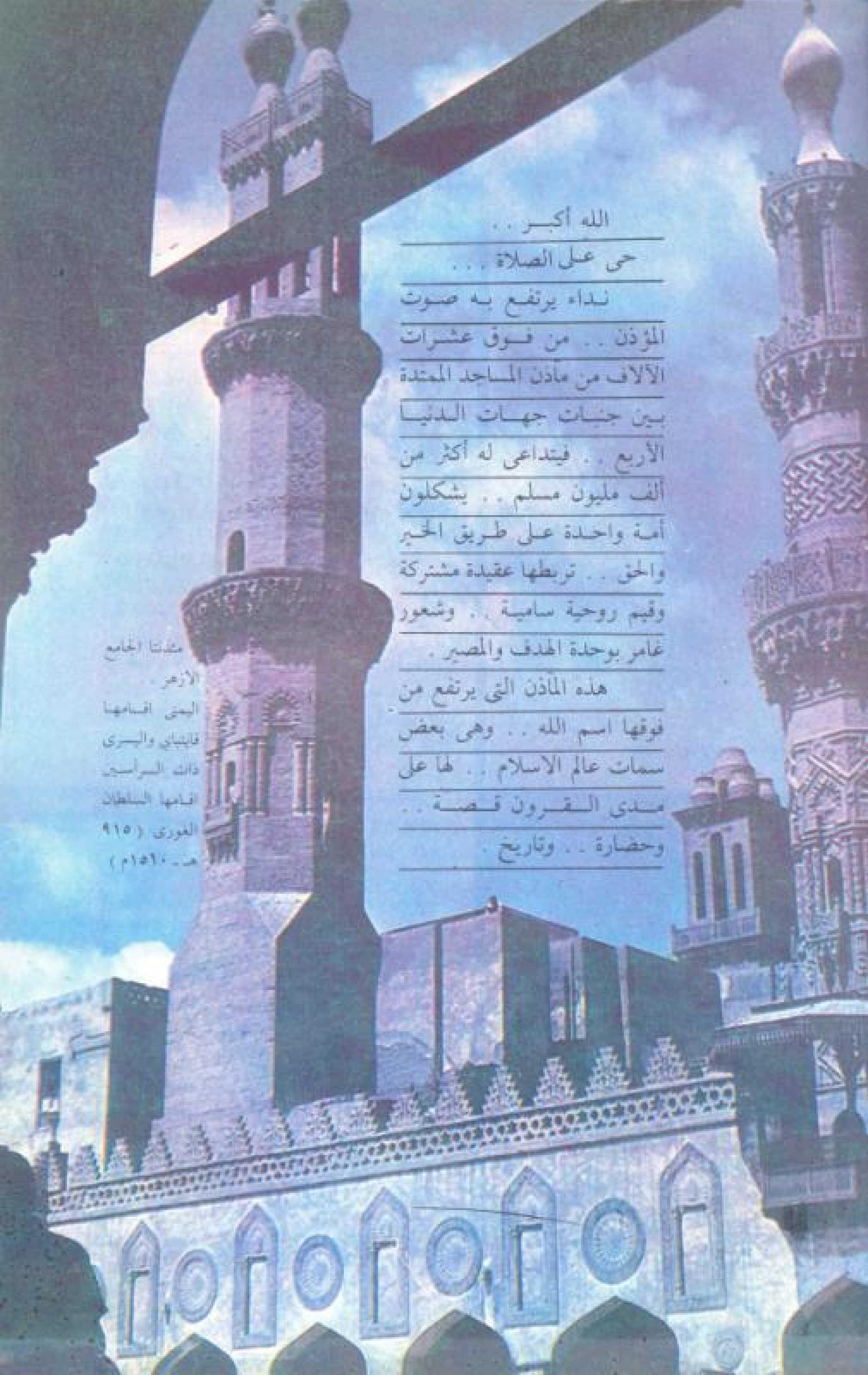
لقد اشترط الأستاذ قطب لممارسة الاجتهاد ـ بالاضافة الى الشروط المعتمدة ـ شرطين هما : مزاولة العقيدة والمنهج في الحياة العامة ، ومزاولة العقيدة والمنهج في الحياة الخاصة للشرع ، وهو ما سلم به الشيخ القرضاوي في شقه الثاني دون الأول ، حيث قال « أما الشرط الأول : فلا أعلم له سندا ، ولا أعرف أحدا قال به ، ولا أجد مانعا يحول بين الفقيه المسلم وبين الاجتهاد السليم لبيان رأي الشرع الاسلامي في واقع المجتمع اليوم ، خصوصا وأن أكثر المشكلات الجديدة ليست وليدة المجتمع الجاهلي ، وانما هي وليدة التطور الاجتماعي والتقدم التقني الحديث » .

وفي ختام رده يقول الدكتور القرضاوي ، ان « قطب » صاحب « العدالة الاجتماعية » أقرب الى السداد من « قطب » صاحب « المعالم » . !□



مآذن لها تاريخ

إعداد : سليمان مظهر



الله أكبـر . .

حي على الصلاة . . .

نداء يرتفع به صوت المؤذن . . من فوق عشرات الآلاف من مآذن المساجد الممتدة بين جنبات جهات الدنيا الأربع . . فيتداعى له أكثر من ألف مليون مسلم . . يشكلون أمة واحدة على طريق الخير والحق . . تربطها عقيدة مشتركة وقيم روحية سامية . . وشعور غامر بوحدة الهدف والمصير .

هذه المآذن التي يرتفع من فوقها اسم الله . . وهي بعض سمات عالم الاسلام . . لها على مدى القرون قصة . . وحضارة . . وتاريخ .

مئذنتا الجامع الأزهر . اليمنى اقامها قايتباي واليسرى ذات الرأسين اقامها السلطان الغوري (٩١٥ هـ ـ ١٥١٠م)

تبدأ القصة .. مع بزوغ شمس الاسلام ، ومنذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام .. حين كان الناس يجتمعون اليه للصلاة بغير دعوة . وكما يقول ابن هشام فى السيرة : ان النبى (ص) همّ أن يتخذ بوقا كبوق اليهود الذى يدعون به لصلاتهم . ولكنه كره ذلك ، وأمر باتخاذ ناقوس يدعى به المسلمون للصلاة كما يفعل المسيحيون . ولكن أخبره عبد الله بن زيد بن ثعلبة أن طائفا طاف به ليلة فى منامه ، وزين له الدعوة الى الصلاة بالأذان ، فأقره النبى على ذلك ، وأمر مولاه بلال بن رباح أن يؤذن به داعيا الى الصلاة .

ومهما يكن من شيء فإن بلالا كان يؤذن من فوق سطح بيت عال عند مسجد النبى .. وكان هو بذلك أول مؤذن فى الاسلام .

والواقع ان المساجد الاولى لم تكن لها مآذن ولا منابر .

ولم يكن هناك بناء قائم يؤذن من فوقه للصلاة ، بل إن أول ذكر للمنارات فى الاسلام هو ما رواه « البلاذرى » من أن زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق ، بنى لجامع البصرة منارة من الحجر عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ م ، وذلك عندما هدم الجامع الأول وأعاد بناءه بالحجر على نحو يتناسب مع ما وصلت إليه البصرة فى ذلك الوقت من اتساع وعمران وزيادة سكان .. إلا أن أول مآذن المساجد هى تلك التى شيدت فى جامع عمرو بن العاص ، الذى أقيم فى فسطاط مصر سنة (٢١ هـ / ٦٤٢م) فقد شيدت مآذنه الأربع بمعرفة مسلمة بن مخلد والى مصر لمعاوية بن أبى سفيان ، الذى أعاد إنشاء المسجد وجعل له مآذن فى أركانه عام (٥٣هـ / ٦٧٢م) .. وكانت عبارة عن أبراج صغيرة مربعة سميت بالصوامع . وأمر بأن تبنى منارات فى معظم مساجد الفسطاط الأخرى ، كما كلف مؤذنى جامع عمرو بن العاص بأن يبدأوا الأذان للصلوات ، ثم يتبعهم المؤذنون من فوق المنارات .

وقبل الخوض فى حديث المآذن فإننا نلاحظ أن اسم « المنارة » أطلق على المآذن أول ما ظهرت فى العمارة الاسلامية . ويمكن القول ان المآذن نشأت عن الأبراج والصوامع والمنابر ، ثم امتزجت طرزها معا فظهرت مآذن المساجد التى مازال بعضها باقيا حتى اليوم . وتفرق بعض النصوص بين الصوامع التى بنيت فى أركان جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، وبين المنارات التى بنيت فى المساجد الأخرى . وكانت الصوامع أقرب الى الأبراج فى ضخامة الهيئة ، وأما المنارات فكانت أقل حجما وربما أقل ارتفاعا . واستعمال لفظ « منارة » يدل على أن المنارات كانت هيئات معمارية مقتبسة من المنارات التى كانت تنشأ على السواحل أو على قمم الجبال

وكان استعمال الحجر أو الطوب فى بناء المآذن يتوقف على مادة البناء المستعملة فى الأقاليم . ففى أسبانيا استعمل الحجر ، وفى المغرب غلب استعمال الطوب ، وفى مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى وبلاد الجزيرة استعمل الحجر ، بينما استخدم الطوب فى العراق . وقد غلب استعمال الطوب فى إيران وأفغانستان ، بينما استعمل فى الهند الحجر والطوب على السواء .

كانت جميع المآذن فى العالم الاسلامى فى العصر المبكر تتبع بشكل عام تكوينا معماريا مشتركا .. وينحصر الاختلاف فى النسب المعمارية للقواعد وطبقاتها العالية أو أبدانها ، وذلك من ناحية طول ضلعها ان كانت مربعة المسقط ، أو قطرها ان كانت مستديرة بالنسبة لارتفاعها ، ومن ناحية عمل جوسق أو عمامة فى نهايتها . وفى جميع الحالات كان الجوسق العلوى (رأس المئذنة) يغطى بقبة تتبع الأسلوب المحلى السائد فى المنطقة أو الاقليم . وغالبا ما كانت الشرفات تغطى بمظلة من الخشب وذلك فى الأقطار التي تكثر فيها الأمطار حتى تحميها وتمنع ماء المطر من التسرب الى السلم الحلزونى داخلها . ولقد أضافت المآذن بشتى أشكالها الى المساجد جمالا ورونقا ورقة .

الساحة الآسيوية الشاسعة الأرجاء . وقد اعتمدنا فى ذلك على مجموعة من المراجع التاريخية والاسلامية مع مشاهدات شخصية وتحقيقات صحفية خلال استطلاعات العربى فى « عالم الاسلام » .

وننتقل بين مآذن المساجد فى مختلف بقاع العالم الاسلامى .. بادئين بالقلب والأقاليم الوسطى حيث مهبط الاسلام وبداية انتشاره .. ثم بالجناح الغربى حتى المحيط الاطلسى ... ثم الجناح الشرقى فى الساحة الآسيوية الشاسعة الأرجاء .

منارات المساجد المباركة

المسجد الحرام أقدم مساجد الاسلام وأوسع مساجد الدنيا ، وترجع هيئة الحرم ـ قبل التجديدات الاخيرة ـ الى أيام المماليك ثم العثمانيين حيث تشبه عمارة المسجد الحرام مساجد القاهرة ومساجد تركيا . وفى صدر الاسلام كانت الكعبة يحيطها جدار اقل من القامة وغير مسقوف . ولم يفكر أحد من



مئذنة مسجد قباء أول مسجد بني على التقوى في المدينة (اقيمت المئذنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٥م)

الخلفاء الراشدين في تزيينه . . لكن بنى أمية أخذوا يعملون على تطوير عمارة المسجد الحرام فأمر عبد الملك بن مروان عام ٧٥هـ برفع جدرانه ، وأضاف الوليد بن عبد الملك توسعة جديدة . ولكن أول مئذنة أقامها أبو جعفر المنصور . وفي سنة ٩٤٤هـ (١٥٨٦م) بنيت للحرم مآذن كبراها مستديرة على الطراز العثماني ذات ثلاث شرفات للأذان ، وتحت هذه المئذنة الكبرى التي عرفت بمئذنة الخليفة أنشأ السلطان سليمان القانوني مدرسة للفقه سميت بالسليمانية . . وكان عدد المآذن حول الحرم قد بلغ ست مآذن ، ثم أضاف اليها السلطان أحمد العثماني مئذنة سابعة عندما اعترض رجال الدين على اتخاذه ست مآذن لمسجده باستانبول ، وهو عدد لا يسمح به إلا للكعبة الشريفة ، فاضطر أن يأمر ببناء مئذنة سابعة للحرم المكي .

وقد أصلح محمد على والي مصر مآذن الحرم عندما قام بإعادة بنائه كله سنة ١٨٢١ . وتم التجديد الكامل لمباني الحرم وعمارته على الهيئة التي تبدو عليها اليوم منذ عام ١٩٥٨ في عهد الملك سعود تحت إشراف أخيه (الملك) فيصل . وفي العمارة الجديدة أقيمت مآذن على نمط جديد يبلغ عددها الآن سبع مآذن بعد أن أزيلت المآذن القديمة التي كانت تقع في وسط المطاف الحالي . والمآذن الجديدة نمط حديث تتكون من دورين ، كل دور عبارة عن فانوس مضلع الشكل يقف على بدن مرتفع له ظلة مائلة الى الخارج على شكل نصف الجمالون ، والقاعدة مربعة حتى ارتفاع مباني عمارة المسجد ، وبداخلها درج وشبابيك لإنارة السلم وتهويته . أما الجوسق فوق مظلة الدور الثاني فعبارة عن شكل الكمثري يعلوه شكل اسطواني ثم عمود الهلال الذي تتخلله أشكال كروية . والبدن به نوافذ تحت الفانوس العلوي للتهوية والاضاءة .

اما المسجد النبوي في المدينة فإن قبته الخضراء ومآذنه الأربع تعتبر آية من آيات فن العمارة . وقد أعيد بناء المئذنتين على الواجهة البديعة التي عرفت بواجهة الملك عبد العزيز ، وارتفاع كل منهما ٧٥ مترا ، وهما متشابهتان كل واحدة منها تقوم على قاعدة مربعة حتى ارتفاع مباني المسجد . وتنتهي بشرفة مربعة يقوم فوقها البدن المضلع ، ثم تجيء ثلاثة أدوار أخرى تتصاعد كلما ارتفعنا نحو القمة التي يعلوها جوسق يقف على أعمدة رشيقة صغيرة ، وفوقه هلال ، وبين الجوسق والهلال شكل بيضاوي ، وتتخلل البدن في الدور الثاني فتحات دائرية للتهوية والاضاءة .

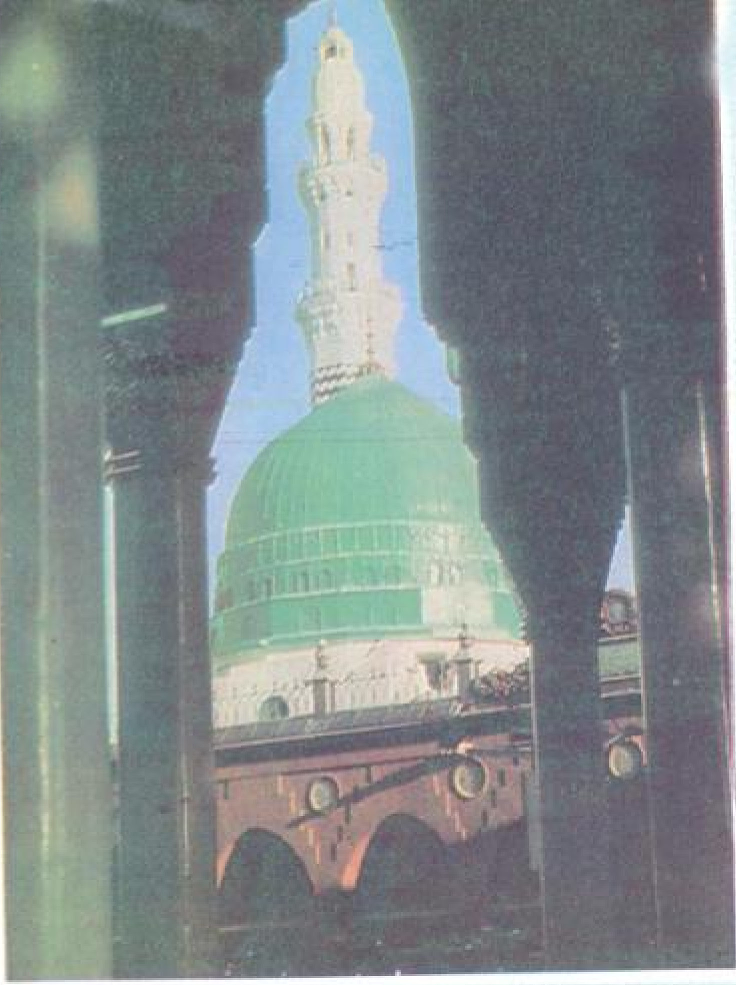
وكان الحرم النبوي قد احترق في رمضان عام ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م ولم يسلم منه سوى القبة . وفي عهد الظاهر بيبرس حاكم مصر المملوكي - وبعد صد الغزو التتاري - أرسل الصناع من مصر الى المدينة حيث أعادوا بناء المسجد على ذات الهيكل وأضيفت اليه مئذنة عالية .

وقد قام السلطان العثماني عبد المجيد بعمارة كبرى في المسجد ، وكان من بين ما قام به تشييد المئذنة المجيدية على طراز رائع .

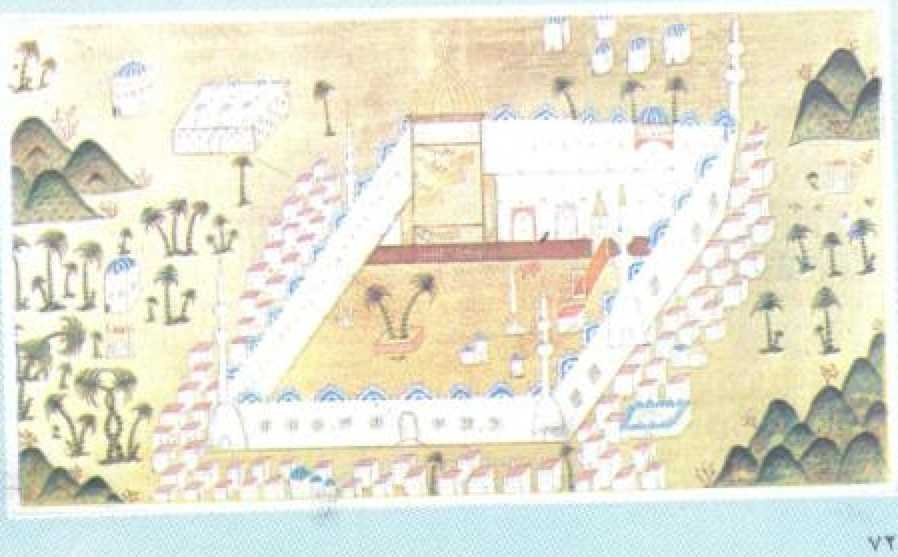
وذكر الرحالة برتون الذي زار المدينة عام ١٨٥٣ ووصف المسجد النبوي ان عدد مآذن المسجد في ذلك الوقت بلغ خمس مآذن بينها منارتان بشكل بيضاوي صلب .

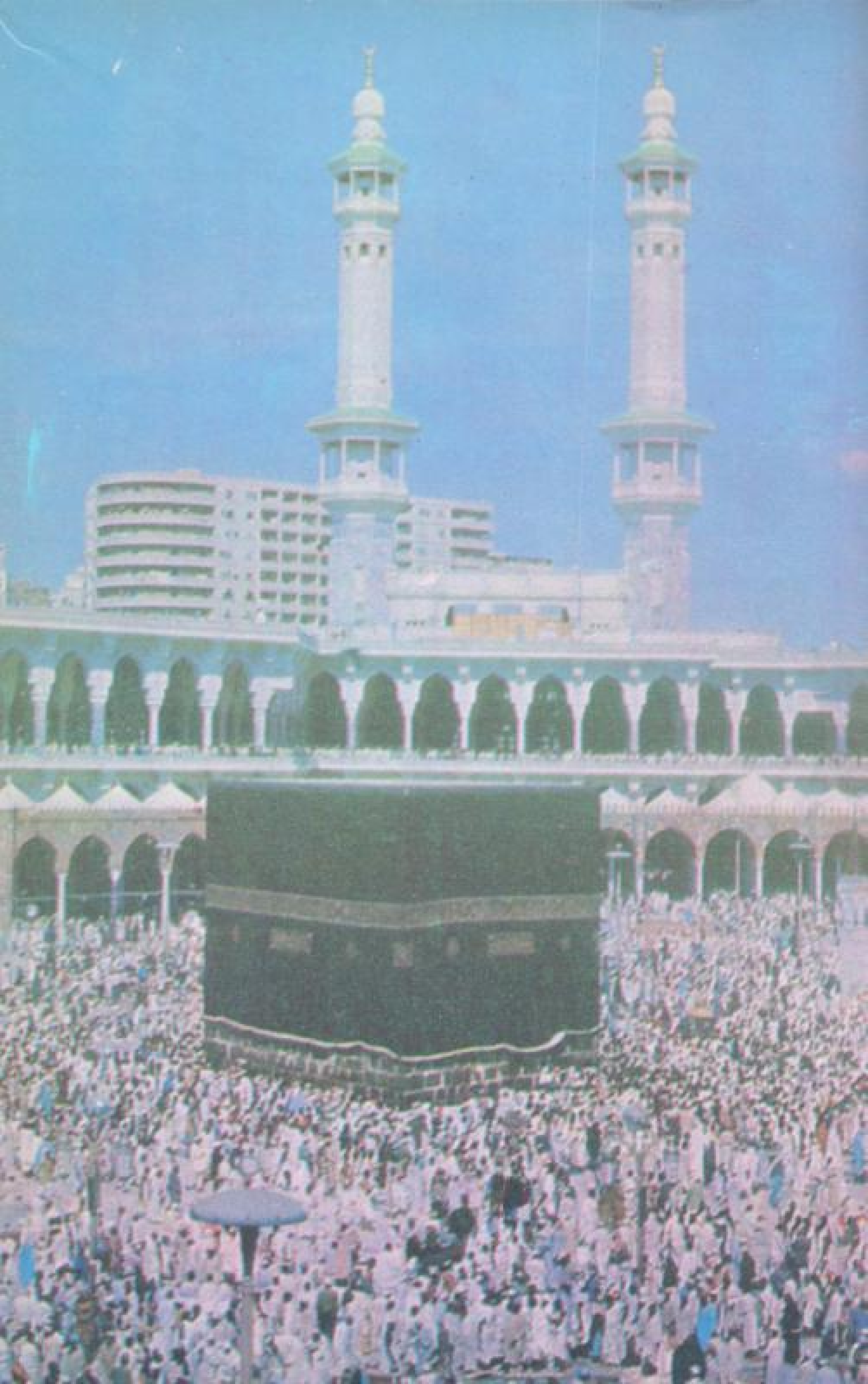
وبعد التجديد الحديث للحرم . أصبح عدد المآذن الموجودة أربع مآذن .

أما مسجد قباء فترجع مئذنته الى العصر العثماني في عهد السلطان محمود الثاني ١٢٤٥هـ / ١٨٢٥م قام بها محمد على والي مصر . وقد كانت أول مئذنة له قد أقيمت عندما جدده عمر بن عبد العزيز .



إحدى مآذن المسجد النبوي الشريف .. وإلى أسفل لوحة نادرة تبين تخطيط المسجد الشريف (٧٠٩م - ٩١ هـ) وتظهر مآذن المسجد الخمس على الأسوار كما تبدو الروضة الشريفة والمنبر النبوي .. وفي الصفحة المقابلة مئذنتان حديثتان للحرم المكي بعد تجديده .





المآذن فى مساجد مصر

وفى مصر ـ حيث جامع عمرو بن العاص الذى يبلغ عمره أربعة عشر قرنا ، ومايزال قائما حتى الآن ـ تقوم مجموعة من المساجد القديمة المعرقة فى التاريخ ، وخاصة فى القاهرة التى تحمل اسم المدينة ذات الألف مئذنة .

ومن أقدم المساجد ذات المآذن الأثرية البديعة فى مصر جامع احمد بن طولون (٢٦٥هـ) . ومئذنة تتكون من أربع طبقات ، الأولى قاعدة مربعة ، والثانية مثمنة ، والثالثة والرابعة على نفس الهيئة وهى اسطوانية الشكل . وأما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزونى ، والمئذنة مشيدة بالآجر ، وتمتاز على غيرها من المنارات باتساع عرضها ، وقد أقيمت على نسق منارة المسجد الذى بناه الخليفة المتوكل فى مدينة سامرا والمعروفة « بالملوية » . ومئذنة ابن طولون تعتبر ثانية مئذنتين ذواتى سلم حلزونى وهى أكثر تناسقا وانسجاما وتقوم عند الجدار الخلفى للمسجد كله .

على أن أبرز المآذن فى مصر هى مآذن الجامع الأزهر ، الذى تمت عمارته سنة (٣٦١هـ ـ ٩٧٢م) . وقد أنشئت عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح له فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها فى أوقات الصلوات الخمس وفى ليالى رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ، وكان يعرف الأوقات بالنظر فى المزولة التى ماتزال قائمة حتى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر . وكانت المساجد فى القاهرة تتبع فى الأذان أصوات المؤذنين فى الأزهر .

وترجع المئذنة الرئيسية الى عصر المماليك حيث أقامها السلطان قايتباى على يمين الباب الواقع بين مدرسة الطيبرسية والمدرسة الأقبغاوية ، وبنيت من حجارة منحوتة بقى منها الآن مداخلها . الى جوار هذه المئذنة توجد مئذنة ذات رأسين أقامها سنة (٩١٥هـ ـ ١٥١٠م) السلطان الغورى ، وهى منارة ضخمة ماتزال باقية حتى اليوم ، وتمتاز بتلبيس القاشانى ببدن طابقها الثانى ، كما تحتوى على درجين فيما بين طابقيها الأول والثانى ولا يرى الصاعد فى أحدهما الآخر . أما المنارتان الأخريان خلف المحراب القديم فأقامها الأمير عبد الرحمن كتخدا وهما يقومان أمام الجانب الكبير الذى يطل الآن على ميدان الأزهر .

والواقع أنه نتج عن إضافات كتخدا أن صار للجامع الأزهر ست مآذن اذا أضيفت الى الجميع مئذنة أقامها الأمير علاء الدين أقبغا فى زمن السلطان الناصر بن قلاوون . وقد هدمت المنارة التى كانت تقع الى يمين باب المزينين فبقى من المآذن خمس .

أما جامع الحاكم ، الذى شيده الخليفة العزيز بالله ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله الفاطمى (٤٠٣هـ ـ ١٠١٣م) فيمتاز بأن على طرفى واجهته الشمالية مئذنتين من الحجر يتوسطهما مدخل الجامع . وقد تهدمت أجزاء من المئذنتين على الرغم من أن ركيزة هرمية بنيت حول قاعدة كل منهما لتدعيمها . واحدى المئذنتين أسطوانية على قاعدة مربعة والأخرى مثمنة فوق قاعدة مربعة أيضا . ولكن قمتى المئذنتين سقطتا بسبب زلزال عام ٧٠٢هـ فأعيد بناء القمتين فى السنة التالية وصنع هذا العوض على شكل قبة . فبدت كأنها (مئذنة قبة) . . . !

الطابع الفاطمى والمملوكى

فى مقدمة الآثار الاسلامية المتبقية فى حى الأزهر جامع محمد أبى الذهب ، ويمتاز بمنارته الحجرية ذات الخمسة الرؤوس ، وبقبيه الضخمة ذات الشبابيك القنديلية .

أما المسجد الحسينى فلم يبق فيه من آثار العصر الفاطمى والأيوبى سوى الباب الأخضر والمنارة التى تعلوه وهى حافلة بالزخارف الأيوبية البديعة .

ويلاحظ فى مساجد مصر ابتداء من العصر الفاطمى ، أن الاتجاه كان يسير نحو تصغير بدن المئذنة مع الاهتمام باحكام بنائه وصقل أحجاره حتى يكون ذلك عونا على المحافظة على ثبات المئذنة برغم ضيق قاعدتها وارتفاعها .

وشرع المعماريون فى نفس الوقت فى تحويل القاعدة من مربع الى مسدس ، ومثمن ثم الى هيئة اسطوانية أحيانا . وقد نجحوا فى ذلك نجاحا كبيرا بحيث نجد أن المآذن الفاطمية ثم المملوكية تتطور تطورا سريعا نحو هيئة المآذن المصرية التقليدية المعروفة حتى اليوم . ومن المساجد المملوكية مسجد السلطان الغورى فى الغورية بمئذنته ذات الرؤوس الأربعة . بخلاف مئذنته ذات الرأسين فى الجامع الأزهر .

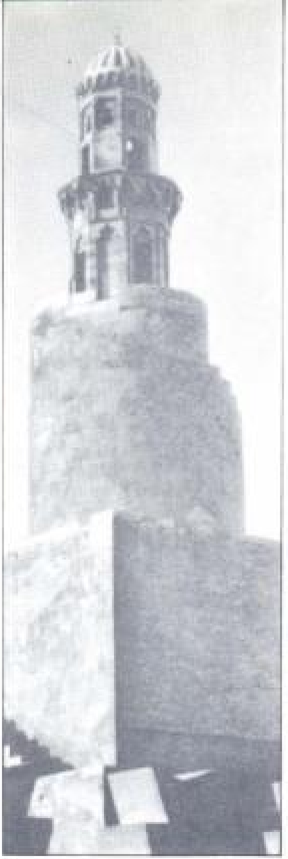
أما مجموعة السلطان قلاوون ومسجده ، فتطل عليها أضخم مئذنة بنيت فى مصر ، وهى وحدها



مئذنة مدرسة السلطان قلاوون - القاهرة (١٢٩٦م - ٦٩٦هـ)



مئذنة الجامع الأزرق - القاهرة (١٣٤٦م - ٧٤٧هـ)



مئذنة جامع ابن طولون - القاهرة (٨٧١م - ٢٥٨هـ)

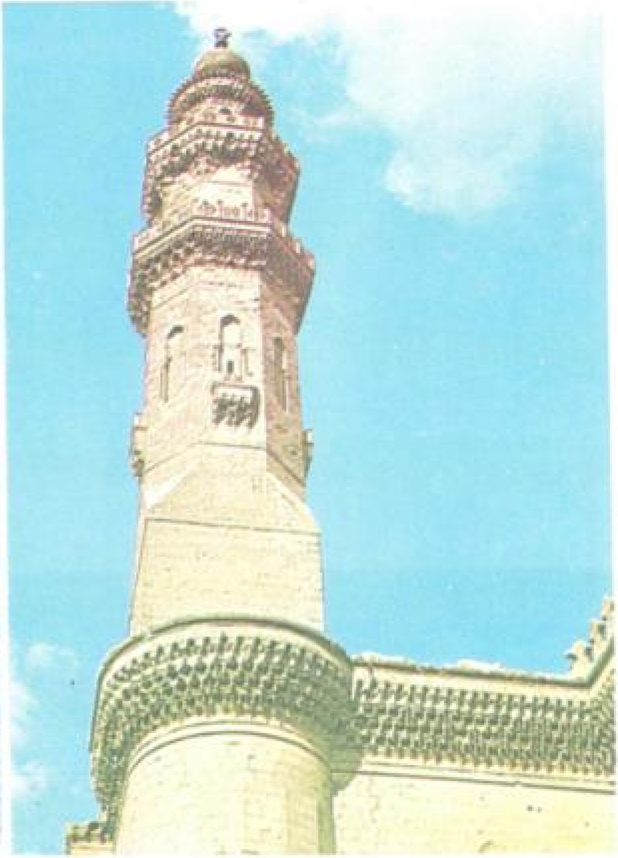
مبنى قائم بذاته يضم ملامح كثيرة من المآذن المغربية . فبدن المئذنة بناء ضخم مربع يرتفع فى الجو حوالى عشرين مترا حتى شرفة الأذان الأولى ، وهى شرفة واسعة أنيقة . وبعد الشرفة يستمر بدن المئذنة صاعدا نحو ثمانية أمتار أخرى . وهنا نجد الشرفة الثانية يحيط بها سياج حديدى ، ويعلو ذلك كله جوسق ضخم ارتفاعه ستة أمتار من الحجر المزخرف ، وأعلى الجوسق مظلة من الحجر تقوم فوقها عمامة المئذنة . وجدران المئذنة الأربعة مزينة بنوافذ كبيرة تقوم على عقود مدببة . وهذه النوافذ تضىء داخل المئذنة وسلمها العريض .

ومن أعظم المآذن المنارتان العظيمتان لمسجد السلطان حسن (٧٦٤هـ - ١٣٦٣م) وهما تقومان فى الجانب القبلى الشرقى . ويبلغ ارتفاع كبراهما ٨١ مترا . وكان المقصود فى البداية أن يكون للمسجد أربع مآذن ، ولكن لما سقطت المئذنة الثالثة بعد إتمام بنائها قنع السلطان بالمئذنتين .

وقد امتازت المآذن فى الطراز المملوكى برشاقتها واعتدال ارتفاعها ، وأن معظمها ذو قاعدة مكعبة يعلوها بدن مثمن فدورة علوية اسطوانية الشكل .

والواقع أن المعماريين المصريين تألقوا فى زينة جدران المآذن وشرفاتها بالزخارف المنقوشة فى الحجر . وكان ذلك يضفى على ذلك الطراز من المآذن جمالا ورقة . ومازالت المئذنة المصرية متميزة بهيئتها النحيلة الطويلة وتوازنها التام . فالنسب دائما محفوظة بين بدن المئذنة وارتفاع شرفاتها . وكما هى العادة كان يرتفع داخل المئذنة سلم حلزونى متقن .

وهذا السلم يصل الى أعلى البدن حيث الشرفة الأولى . وقد يرتفع سلم آخر داخل امتداد المئذنة طولا حتى يصل الى الشرفة الثانية . ولكنه لا يكون فى هذه الحالة حلزونيا بل مجرد درج هدفه تمكين الناس من الوصول الى أعلاها لاصلاح أى عطب يصيب أجزاءها العلوية



مئذنة مسجد السلطان حسن بالقاهرة ١٣٦٣م - ٧٦٤هـ



مئذنة المسجد الجامع - (الأموى) - دمشق (٧٠٥م - ٨٦هـ) .

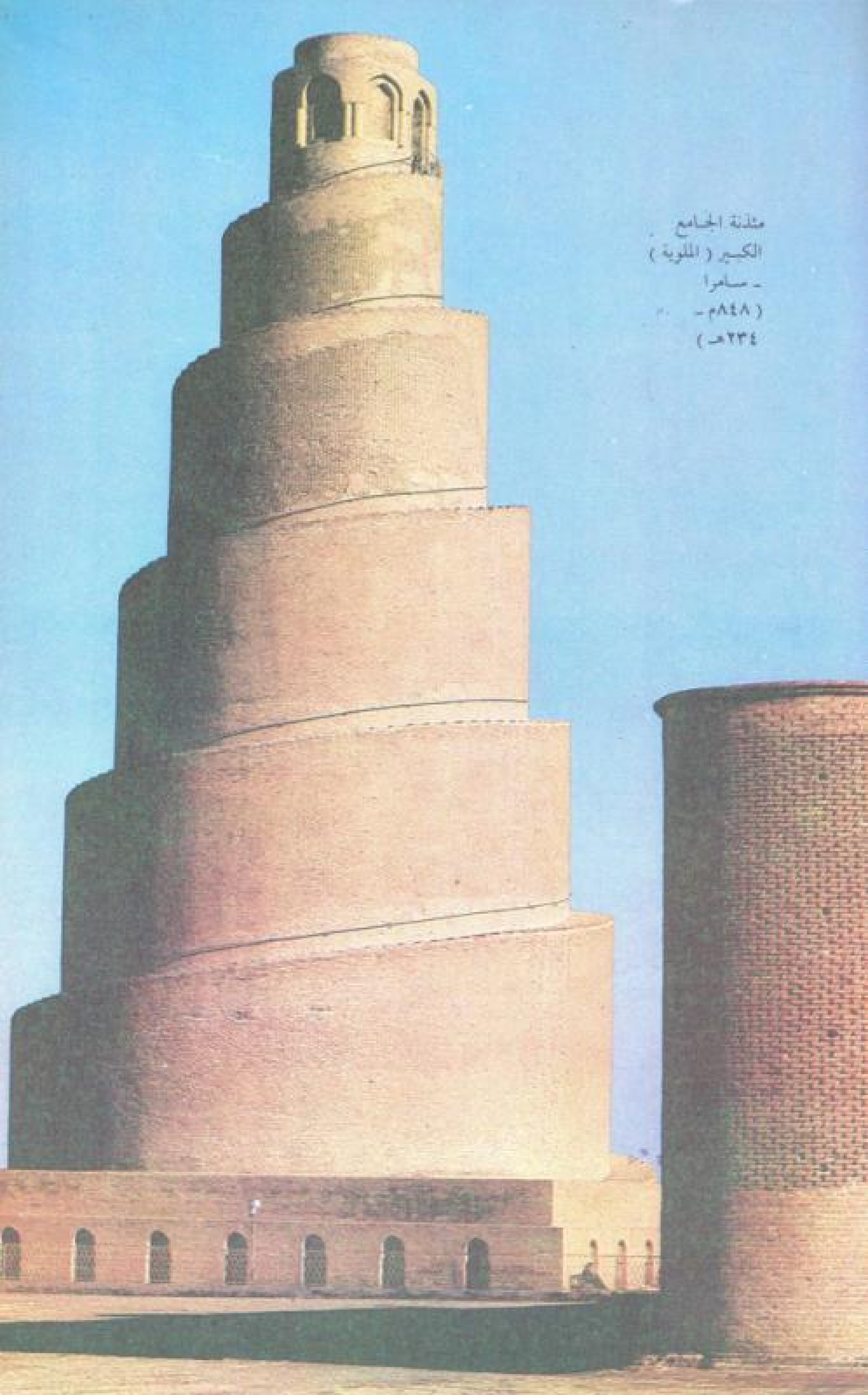
مآذن فلسطين والشام والجزيرة

في فلسطين لم يكن هناك طراز خاص في بناء المآذن . وكان التأثر بالأساليب المصرية ظاهرا ، وذاع بناء المئذنة المربعة ثم المثمنة الأضلاع على قاعدة مربعة . أما المسجد الأقصى فقد أصبح بصورته وحجمه الحاليين بأمر الخليفة المهدي العباسي ، وكانت بداياته ترجع الى عمر بن الخطاب الذي أمر باقامة مسجد في الحرم القدسي غير بعيد من موضع الصخرة التي بنيت عليها القبة .

أما المسجد الجامع (الأموى) بالشام فقد كان إنشاؤه في منطقة بها معبد وثني قديم ، كان له برج مربع في كل ركن من أركانه الأربعة ، وقد استعملها المسلمون للأذان ولاتزال احداها قائمة في الركن الجنوبي الغربي .

وكان المسجد قد أنشىء أيام معاوية بن أبي سفيان على أنقاض المعبد الروماني بعد أن كان قد تحول الى كنيسة . وانتفع المسلمون بالبناء وحولوه الى مسجد جامع . وبعد سنوات رفعوا فوق الأبراج ظلات خشبية تقوم على عمد يستظل بها المؤذنون عندما يرفعون الأذان . فلما جدد عبد الملك بن مروان منارة الجامع الأموى وأعطاه صورته الحالية جدد أيضا ظلات المآذن ولايزال بعضها باقيا حتى اليوم .

وتعتبر مآذن الجامع الأموى أول محاولة لإقامة المآذن في الشام . والبناء الحالي لمآذنه يعود الى العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية . والمئذنة الغربية فيها



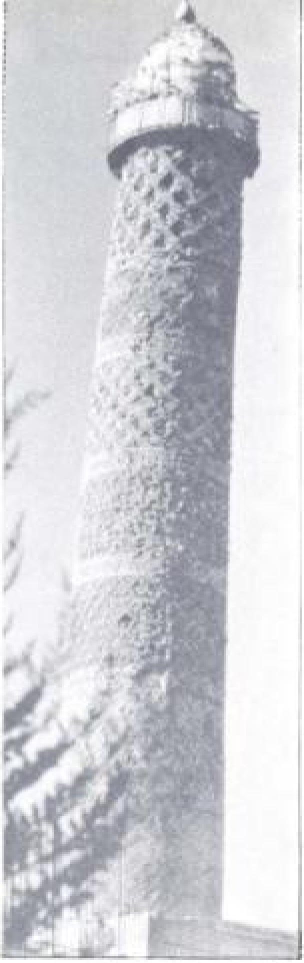
مئذنة الجامع
الكبير (الملوية)
- سامرا
(٨٤٨م -
٢٣٤هـ)



مئذنة مسجد الكاظمية ـ بغداد (ق١٥م ـ ق٩هـ)



مئذنة مسجد زكريا الكبير ـ حلب (١٠٩٠م ـ ٤٨٣هـ)



المئذنة المائلة ـ النورى ـ الموصل (١١٧٢م ـ ٥٦٨هـ)

أجمل وارشق وقد بنيت زمن السلطان قايتباى .

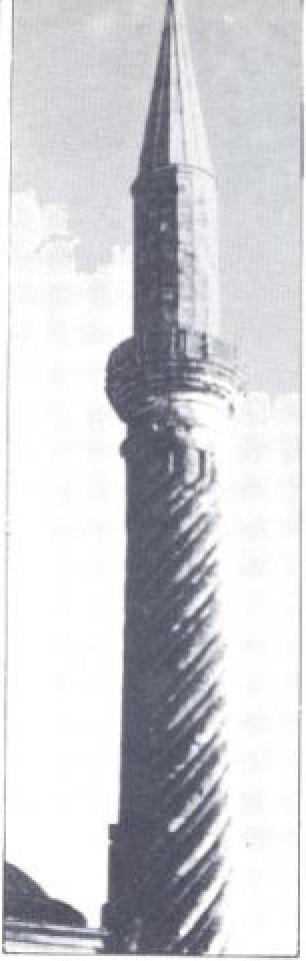
وأقدم منارة أقيمت فى بلاد الشام بخلاف أبراج المسجد الأموى ليست مئذنة ، وإنما هى منارة مازالت قائمة بين اطلال قصر الحير الشرقى ، وتم إنشاؤها حوالى ١١٠هـ/٧٢٩م ،وهى عبارة عن برج مرتفع أنشىء فى وسط القصر ليدل عليه من بعيد . وتشبه هذه المنارة فى ذلك منارة (مجصة) التى ترجع الى نفس العصر الذى بنى فيه قصر أخيضر التاريخى المشهور وهى اسطوانية الهيئة مبنية بالآجر .

وكانت وظيفتها الأخرى الدلالة على القصر الذى يقوم فى منطقة صحراوية كثيرة التلال العالية التى تحجب القصر .

وقد سارت مآذن الشام على خطة البدن المربع وظلت دائما على هيئة البرج . ولهذا قل أن تصل الى ارتفاعات عالية . وفى العادة تكون شرفة الأذان فوق البدن وتعلوها ظلة خشبية لتحمى المؤذن وتسمى الجوسق .

وفى العراق وبلاد الجزيرة عرف المعماريون طرزا مختلفة من المآذن ، فشيدوا مئذنة سامرا (الملوية) ومئذنة « أبو دلف » ، وقد ظلتا مع منارة احمد بن طولون فى مصر فريدتين فى العمارة الاسلامية . . كما شيدوا أيضا المآذن المربعة والمثمنة والاسطوانية .

والمسجد الجامع فى سامرا شيده المتوكل العباسى بين عامى ٢٣٤ و ٢٣٧هـ . ومنارته (الملوية) حلزونية ترتفع فى الجو خمسين مترا فوق القاعدة المربعة .



مئذنة مدرسة شفت منار ـ الاناضول (١٢٧١م ـ ٦٧٠هـ)



مئذنة جامع شاهزاد ـ استانبول (١٥٤٨م ـ ٩٥٥هـ)



مئذنة جامع اوشيريفيلي ـ ادرنة (١٤٤٧م ـ ٨٥١هـ)

ومن المنارات المميزة أيضا منارة الجامع النورى فى الموصل ، وتمت عمارته الأولى حوالى ٥٤٣هـ (١١٤٨) م فى عهد نور الدين محمود الاتابكى .

وهذه المنارة ماتزال قائمة حتى اليوم وتعرف فى الموصل باسم (الحدباء) ويزيد ارتفاعها على خمسين مترا وهى مشيدة بالآجر . وتتألف من قاعدة مربعة

وبدن اسطوانى يضيق تدريجيا فينقص قطره من نحو ثلاثة أمتار فى البداية الى أكثر قليلا من مترين قبيل

القمة التى تشبه الخوذة . وهذه المئذنة غنية جدا بزخارفها الهندسية المؤلفة من إختلاف وضع الآجر .

والحق ان بلاد الجزيرة عرفت أنواعا طريفة من المآذن ومن بينها منارة فى مدينة بطس بين حلب والرقة

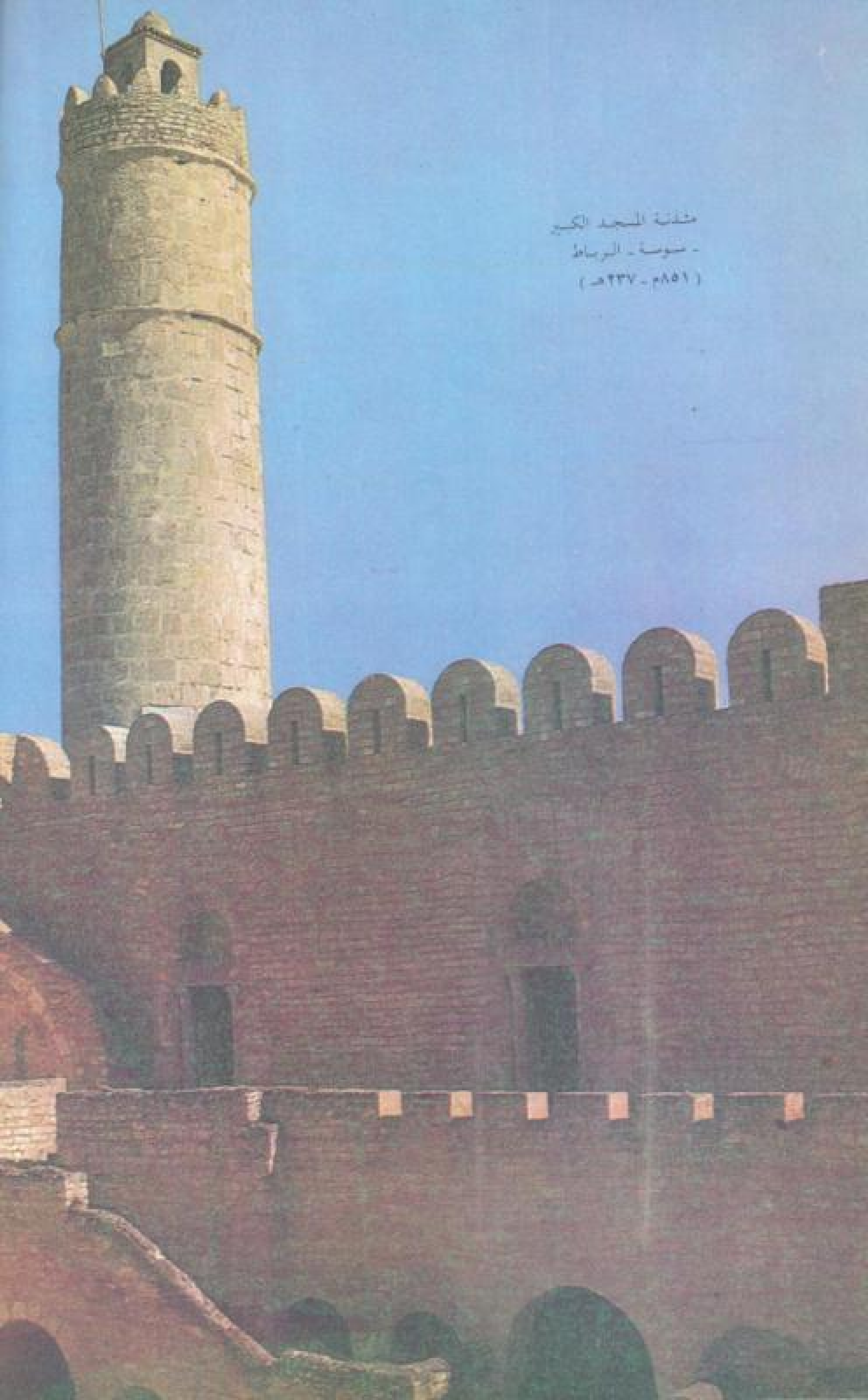
امتازت بارتفاعها وبشكلها المثمن الأضلاع .

ويلاحظ ان المآذن فى العراق والجانب الشرقى من عالم الاسلام يغلب عليها ان تكون القاعدة على شكل دائرى ، ويتبع ذلك أن تكون الشرفات العلوية

مستديرة أيضا . وتعتمد هذه المآذن فى بنائها على قطع كبيرة من الحجر المنحوت ، وقد تجعل هذه الأحجار على هيئة فصوص من الخارج . وكانوا يلجئون أحيانا

الى توسيع مساحة سطح البدن فى الشرفة الأولى بخرجات تؤيدها كوابيل . وتعود المئذنة الى الارتفاع مرة أخرى فى صورة اسطوانية ملساء أو

مزينة بالنقوش ، وقد تنتهى المئذنة عند هذا الارتفاع الثانى بشرفة يعلوها جوسق يختم المئذنة من اعلى .



مئذنة المسجد الكبير
- سوسة - الرباط
(٨٥١م - ٢٣٧هـ)



برج حسن بالرباط ـ المغرب (١١٩٥م ـ ٥٩٢هـ)



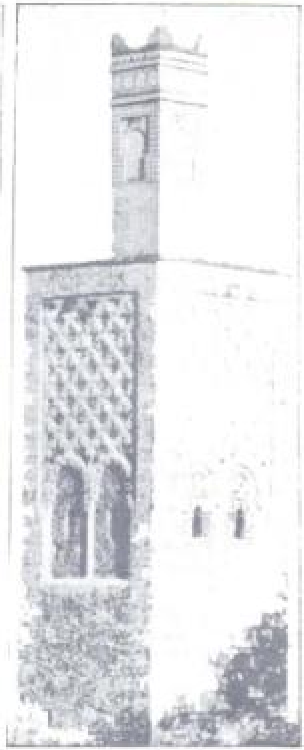
مئذنة جامع القيروان ـ تونس (٨٣٦م ـ ٢٢٢هـ) .

ابراج وصوامع

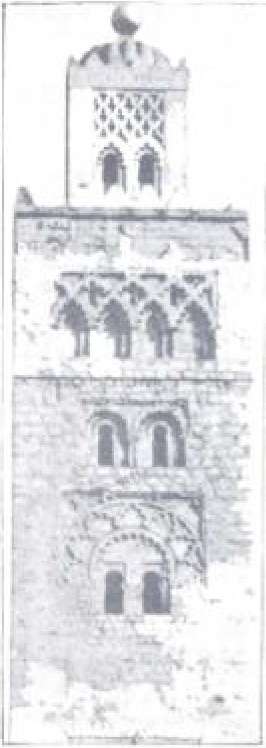
اذا اتجهنا نحو الجناح الغربي للعالم الاسلامي نجد أن مسجد عقبة بن نافع في القيروان هو أبو المساجد ، وأنه نقطة البداية لتاريخ المآذن وتطورها .

وأعمدة الجامع مجلوبة من آثار قديمة حيث أقيم عام (٥٠هـ ـ ٦٧٠م) . أما مئذنته البرجية الشكل فقد أنشئت أول مرة على يد بشر بن صفوان عامل هشام بن عبد الملك الأموي عام ١٠٥هـ/ ٧٢٤م فهي على ذلك من أقدم المآذن الباقية حتى اليوم . وتتكون مئذنة عقبة بن نافع من جزأين . البدن أو القاعدة وهي بناء مربع سميك الجدران يرتفع من أسفل حوالي ١٩ مترا وترتفع الطبقة الثانية خمسة أمتار والثالثة سبعة أمتار ونصف وبذلك يكون الارتفاع الكلي للمئذنة حوالي ٣١ مترا . في داخل المئذنة سلم يؤدي الى سطحه مقتبس من البرج القديم . والمنارة التي تقوم على هذا البرج هما الطبقتان الثانية والثالثة فهي اذن برج ومنارة في آن معا . وكان الأذان يرفع من سطح البدن أو البرج الأسفل . والدخول الى المئذنة من باب ذي عقد يقود الى سلالم رئيسية تنتهي عند الشرفة . أما الصعود الى المنارة نفسها فيكون عن طريق سلم صغير خشبي يبدأ من عند سطح البدن أو البرج ، وينفذ الضوء داخل المئذنة من شبابيك فوق الباب ذات عقود بهيئة حدوة الحصان . وتتكون هذه الشبابيك من جدران القاعدة الاخرى . وقد أنشىء فوق البرج والمنارة جوسق هو رأس المئذنة .

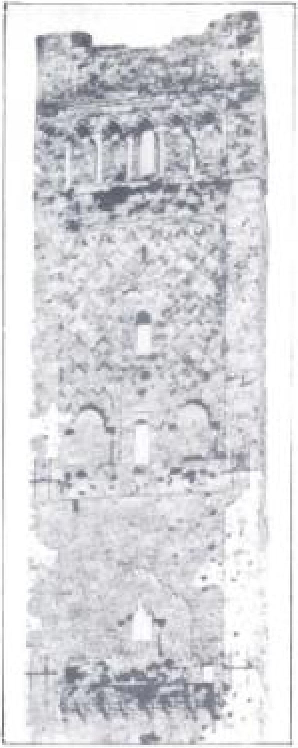
وقد حافظت مآذن المغرب الاسلامي بصورة عامة على هيئة المئذنة في جامع القيروان ، فاحتفظت بهيئة



مئذنة جامع شيلا ـ
الرباط (١٣١٠م ـ ٧١٠هـ)



مئذنة مسجد الكتبية ـ
مراكش (١١٢٥م ـ ٥١٩هـ)



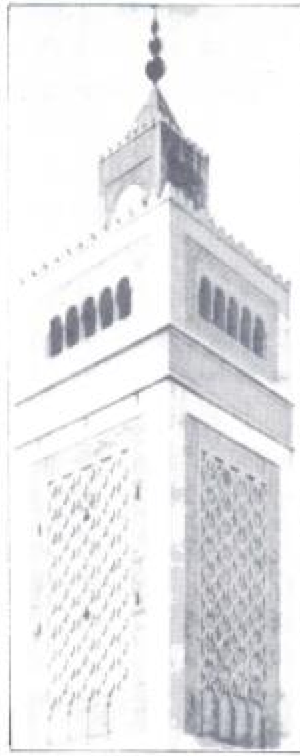
مئذنة جامع المنصورة ـ
تلمسان (ق ١٤م ـ ق ٨هـ)

الأبراج . وقد استعملت كثيرا لأغراض الدفاع العسكرية ، ولهذا فقد جعلت دائما عند الجدار المقابل لجدار القبلة أي في مؤخرة المسجد ، ويكون الدخول اليها من داخل الصحن أو من خارج الجامع . وهي في العادة عبارة عن بدن ضخم يقوم عند منتصف جدار الصحن . وقد يرتفع هذا البدن في هيئة مستطيل ضخم يصل ارتفاعه الى ما يزيد على عشرين مترا أحيانا . ويبنى داخل هذا البدن بدن آخر ، أصغر منه ، ويكون السلم أو الدرج المتحدر بين البدنين . حتى اذا وصلنا الى الشرفة الأولى يرتفع البدن الداخلي وحده بجدارين واحد منهما داخل الآخر ، وهما يحصران بينهما السلم حتى سطح الشرفة الثانية . ثم يرتفع الجدار الداخلي وحده حتى تصل المئذنة الى أقصى ارتفاعها . ونظرا للارتفاع الشاهق للبدن الأصلي فإنهم كانوا يقسمونه في العادة الى أدوار ينتهي كل دور ببسطة تدور مع البناء وتفتح فيها النوافذ . ثم يعود السلم أو الدرج الى الارتفاع مرة أخرى وهكذا .

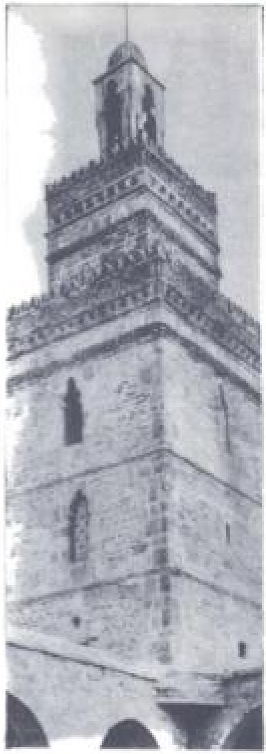
وفي بعض مساجد المغربين الأوسط والأقصى يغطى بدن الصومعة بمربعات القاشاني الزخرفي ، كما يكسب الصومعة كلها منظرا فريدا ، كما نرى في صومعة مسجد القرويين ومسجد فاس في نفس المدينة .

في جامع القرويين بنيت المئذنة التي مازالت تستوقف الأنظار بارتفاعها الشامخ وخطوطها الهندسية الرائعة . وقد أعيد بناؤها عند توسعة المسجد عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م ، فأصبح كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة أمتار وارتفعت في الجو عشرين مترا ، وكسيت بالقاشاني وزين رأسها بتفاحات صغيرة موشاة بالذهب . وعلى الرغم من أن المئذنة يضيق اتساعها بعد الشرفة الأولى إلا أن السلم الداخلي يتصل حتى قرب قمتها . وقد أعيد العمل في هذه المئذنة الجميلة عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م فأتقنت كسوتها ونوافذها وكسيت بالجص والقاشاني وزينت شرفاتها بشرفات على هيئة الأهرام . وأقيمت على رأسها قبة صغيرة . وهكذا اتخذت هذه المئذنة شكلها واستقامت مشرفة على فاس من علو شاهق بعد ان صقلت حتى أصبحت كالمرآة .

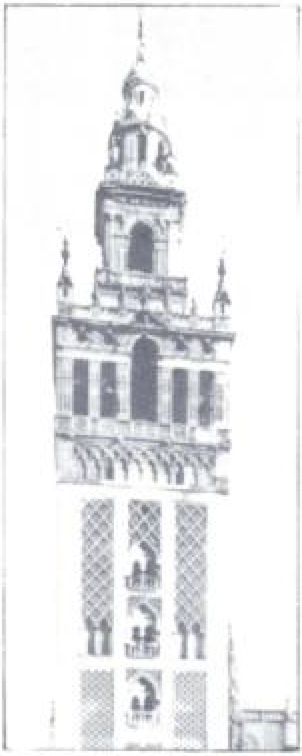
أما جامع الكتبية في مراكش فمئذنته هي أجمل ما يتميز به . وهي دون شك أروع مآذن المساجد الباقية . فارتفاعها في الجو يصل الى ٦٧ مترا ومركزها أو قاعدتها بناء ضخم من ستة طوابق فيها



مئذنة مسجد الزيتونة ـ
تونس (٩٩٠م ـ ٣٨٠هـ)



مئذنة مسجد كبير ـ
صفاقص (ق٩م ـ ق٤هـ)



برج خير الدا ـ الجامع الكبير
الأندلس (١١٧٢م ـ ٥٦٨هـ)

غرف كثيرة ، حتى اذا وصلنا الى شرفة الأذان انطلقت بقية المئذنة مستقيمة فى الجو كأنها سهم مارق الى السماء ، وجدرانها كلها مغطاة بأفاريز متوالية من الزخارف . والنوافذ ذات عقود من كل صنف .

وهذه النوافذ منسقة على هيئة تتمشى مع السلم الداخلى الذى يصل الى أعلى هذه المئذنة السامقة .

لم يتأثر الطراز المغربى بغيره من الطرز الاسلامية تأثرا كبيرا وكان تطوره بطيئا بالنسبة الى تطور سائر مآذن الطرز الاسلامية . وكانت أهم المراكز الفنية فى هذا الطراز فى الاندلس بأشبيلية وغرناطة وقرطبة .

وكانت المنارات تبنى فى معظم الأحيان من الآجر على شكل برج مربع تعلوه شرفات كأسنان المنشار ثم برج أصغر منه حجما . وفى جوانب البرج أو المنارة صفوف من النوافذ ذات الحليات المعمارية الجميلة . وكانت المنارة تشيد عادة فى وسط الجهة المقابلة لإيوان القبلة ولكنها كانت تقوم بجوار جدار المحراب فى جامع « تنمل » .

ومئذنة مسجد اشبيلية الجامع (المسماة بالخير الدا) هى الباقية من ذلك المسجد . تبلغ أدوارها ستة حتى الشرفة الأولى ، وقد صنعت النوافذ فى هيئة زخرفية جميلة . وغطيت المسافات بينها بهيئات نوافذ وأبواب صماء وعقود زخرفية جعلت من جدار البدن آية من آيات الابتكار الزخرفى . وكان البدن الداخلى يرتفع بعد ذلك دون نوافذ نحو سبعة أمتار أخرى تنتهى بالشرفة الثانية . ثم تختم المئذنة بجوسق تزينه من أعلى كرات مطلية بالذهب . وقد تهدم ذلك الجزء الأعلى كله بعد أن تحولت الصومعة الى برج للنواقيس المسيحية وعوضت بجوسق حجرى يقوم على أعمدة رخامية تحمل النواقيس .

وعلى هذا الطراز نجد بقية المآذن فى الأندلس .

وكثير جدا من هذه المآذن التى ظلت تسمى بالصوامع مبنية بالآجر من الطوب المحروق . أما صومعة مسجد قرطبة الجامع فكانت مبنية بالحجر على أسلوب يقارب مئذنة جامع اشبيلية .

ويتميز جامع قرطبة بأن مئذنته تقع فى أقصى جدار الصحن وجعلت على هيئة برج ضخم ذي شرفتين للأذان ، ويصعد اليها بسلم من الداخل . وهذه المئذنة مازالت باقية حتى اليوم وإن كانت قد حولت أيضا الى برج للنواقيس .



مئذنتا مدرسة شيفت منيفلي ـ
الأناضول ١٢٧١م ـ ٦٧٠هـ

جولة في الجناح الشرقي

ونعود الى مآذن الجناح الشرقي من العالم الاسلامي . فمنذ القرن السادس الهجري (١٢ م) عمّ استعمال المآذن السلجوقية الاسطوانية الشكل الشاهقة الارتفاع وانتشرت في ايران خاصة . وكان المؤذن يؤذن فوق سطح المسجد ولا يؤذن فوق المئذنة لارتفاعها العظيم

وكانت المآذن الاولى في إيران معظمها مثمن الشكل ثم غلبت المآذن الاسطوانية منذ القرن الخامس الهجرى (١١ م) وأصبحت تجمل بالزخارف الهندسية في الطوب المشيدة منه أو بكسوة من القاشاني . وكانت المئذنة الايرانية دقيقة الطرف قليلا وتنتهي في أعلاها بزخرفة تقوم على دلايات أو مقرنصات وتكسبها شكل الفنار . وقد أصبح لمعظم المساجد الايرانية منذ القرن ٩هـ (١٥ م) مئذنتان تحفان بالمدخل . وتختفي قاعدة كل منها خلفه إلا في بعض المساجد ، فانها ظاهرتان وتزيدان المدخل ضخامة وارتفاعا .

وفي آخر العصر السلجوقي كانت المآذن ذات ثلاثة أقسام يصغر كل قسم منها عن الذي بأسفله . وكانت هذه المآذن تزين بنقوش من الآجر متكررة الوضع تغطي الجسم كله أحيانا أو تغطي مناطق منه . ويستخدم الآجر في الكتابة عليها بصورة بارزة كما استعمل القاشاني في تزيين المآذن في آخر ذلك العصر . ومن السمات البارزة في العهد السلجوقي أن القسم العلوي من المئذنة كان يغطى باللون الغامق .

وتختلف المآذن السلجوقية في إيران عن سائر المآذن الشامية والمصرية والمغربية في أنها لا طبقات لها ولا نوافذ . فالمئذنة بناء شاهق مبني لذاته . وليس فيها درجات تقود الى ردهات أو دورات يسير فيها المؤذن . وفضلا عن ذلك فإن المئذنة الاسطوانية الشكل والشاهقة الارتفاع قد عمّ استعمالها في ايران ، بينما ظلت المآذن في القسم الغربي من العالم الاسلامي موكولة الى ذوق الافراد . فكانوا يتصرفون في تشييدها بعض التصرف في حدود الطرز السائدة في كل إقليم

ومن أبرز المآذن في إيران مآذن « مسجدي شاه » في اصفهان . وهو يعتبر مجموعة مبان في مبنى واحد .

وبوابته تقوم على جانبيها مئذنتان تعتبران أثرا فنا كاملا قائما بذاته . وهما مستديرتان تنتهي كل منهما بجوسق تعلوه اسطوانة وعمامة .

والمسجد الجامع في شيراز يمتاز ببواباته البديعة المبنية بالحجر الرملي وهي مزينة بالقاشاني وتحف بكل منها مئذنتان قصيرتان لكل واحدة منها جوسق وعمامة .

اما في آسيا الصغرى فقد بدأت المآذن على يد السلاجقة ايضا حيث قنع المعماريون الأول أن تكون المئذنة اسطوانية متوسطة الارتفاع هي البدن حيث الشرفة الاولى . ثم يرتفع البناء مرة أخرى دون سلم خارجي حتى تصل المئذنة الى الارتفاع الذي يراه المعماري مناسبا لها ثم ينهيها بمخروط

أما بقية المآذن من الطراز السلجوقي بآسيا الصغرى فاغلبها مستدير رأسها ما هو مضلع أو مسننة



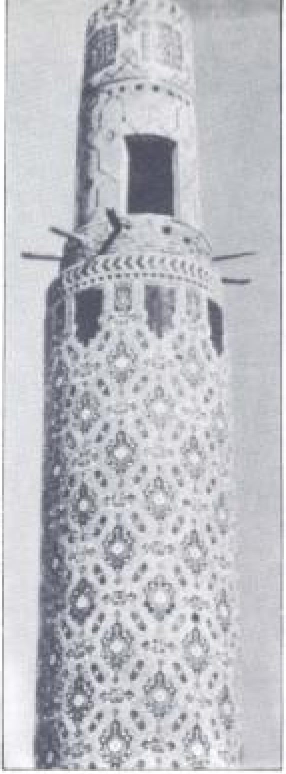
المآذن الأربع لمدرسة شارمنار
- بخاري (١٨٠٧م - ١٢٢٢هـ)



مئذنة مسجد الجامع ـ هراة
(ق١٥م ـ ق٩هـ)



مئذنة مدرسة شيردور ـ
سمرقند (١٦٤٦م ـ ١٠٥٦هـ)



مئذنة مسجد الشاه ـ مشهد
ـ ايران (ق١٥م ـ ق٩هـ)

أو ثمانية أضلاع . ويتفنن المعمارى في التضليع ، ولا يكون للمئذنة في معظم الأحيان الاشرفة أذان واحدة في نهايتها . وكل المآذن من الحجر المنقوش بالزخارف أو من الآجر الزخرف من ألوان متعددة . وقد تزين وتغطى تماما بالخزف أو بمربعات القاشاني أو فسيفساء الخزف .

وقد تطور الأسلوب السلجوقي في آسيا الصغرى على أيدى المعماريين العثمانيين حتى أصبحت المئذنة التركية أشبه بقلم رصاص مسنون أوسهم ذاهب الى السماء . وفي أحيان كثيرة لم يكتف المعمارى بمئذنة واحدة بل أنشأ اثنتين على طرفى الواجهة ، مما أكسب المسجد العثمانى جمالا بديعا ، وأبرز الأمثلة مسجد السلطان بايزيد الثانى . كما استعان المعماريون الاتراك بالقباب في إكمال الصورة الجمالية للمسجد .

ومن المساجد العثمانية التى تشهد بتأثير المهندس المعمارى الشهير سنان في تطور العمارة العثمانية مسجد السلطان أحمد باستانبول . وهو مثال طيب للمساجد العثمانية . ومن أجمل مساجد الأستانة وأفخمها .

وللمسجد ست مآذن عالية ممشوقة . ويقال ان السلطان أحمد كان يريد أن يبز مسجده ، أيا صوفيا ، وكما سبق القول اضطر أن يأمر ببناء مئذنة سابعة للحرم المكى حين اعترض رجال الدين على اتخاذه ست مآذن لمسجده . وهو ما لم يكن مسموحا به إلا للحرم المكى .

أما مسجد أيا صوفيا . فبعد الفتح وتحويل الكنيسة الى جامع صلى فيه السلطان محمد الفاتح صلاة الجمعة ، أمر بتحويلها ، وبنى لها منارة خشبية في الزاوية الجنوبية ، ثم بعد مدة أزيلت المنارة الخشبية وشيدت محلها منارة رفيعة من القرميد ، وفي عهد السلطان بايزيد الثانى أضيفت اليها منارة من الحجر . أما المنارتان الواقعتان في الغرب فإنهما قد بنيتا أيام السلطان سليم الثانى .

وفي أدرنه يوجد جامع ذو ثلاث شرفات ، وله أربع منارات اثنتان منهم في زواياه الامامية والأخريان في زواياه الخلفية . وهي ذوات شرفات مختلفات في العدد . والمنارة ذات الشرفتين تسمى المنارة الماسية والمنارتان اللتان لكل واحدة منهما شرفتان تسميان بالمنارتين ذواتى الاخاديد الحلزونية .

وأما ثالثة المنائر فهي ذات ثلاث شرفات وهي سبب تسمية الجامع (أوج شرفلي) أي الجامع ذي الثلاث شرفات .

ومثل ذلك جامع السليمية في أدرنة وله أربع منارات من ذوات الثلاث شرفات ويبلغ ارتفاع الواحدة منها ٦٨ مترا .

الطراز الهندي والمغولي

نشأ الطراز الهندي الاسلامي وقوامه الأساليب الفنية الهندية القديمة وما دخل عليها من أساليب فنية في العصر الاسلامي . ولم تكن طرز المعابد الهندية القديمة وما يليها شرقا تعرف وسائل للنداء على الصلاة فكانت المئذنة عنصرا جديدا في عمارتها . ولهذا اجتهد المعماريون المسلمون في ابتكار أساليب خاصة لبنائها . ولأن المساجد الأولى في الهند كانت مجرد ساحات مسورة بأسوار عالية يقام فيها بيت صلاة وقبلة ومحراب ، ولأنها كانت تستخدم أيضا كحصون يحتمي بداخلها السلاطين والحراس فقد اتخذت المئذنة في الغالب شكل برج للحراسة والمراقبة .

ومن أبرز أمثلة المآذن « قطب منار » في دلهي - ويرجع تاريخها الى عام ١١٩١ م - وهي ضمن مسجد « قوة الاسلام » وسميت بذلك الاسم نسبة الى قطب الدين ايبك اول سلاطين مماليك الهند . وهي أشبه بنصب تذكاري رفيع الذرا ارتفاعه ٧٢ مترا وقطر قاعدته يزيد على ١٥ مترا ثم تضيق المئذنة في صعودها شيئا فشيئا حتى يصل قطر قمتها الى ثلاثة امتار .

والمئذنة مضلعة تبدو أضلاعها وكأنها أعمدة متلاصقة . وللمنارة ثلاث شرفات للأذان تقوم كل شرفة منها على مقرنصات بالغة الجمال ، وهي أضخم مئذنة في عالم المساجد ، وقد كانت المنارة مكونة من سبع طبقات لكن الموجود منها الآن خمس فقط ، بنى كل منها أحد السلاطين . وفي كل طابق نقش حول المنارة آيات من القرآن الكريم . وبعض مكاتيب كل سلطان .

والمنارة مقامة من الحجر الأحمر ولكنها تختلط في أعلاها بالمرمر مع الحجر الأحمر . وكانت الطبقة السادسة ترتفع حوالي أربعة أمتار ولكنها سقطت بسبب زلزال عام ١٨٠٣ ثم أعيد بناؤها ، ولكنها أزيلت نهائيا خوفا من خطر سقوطها .

وهناك نماذج بارزة في الهند مثل مسجد السلطان « اتحاد الدولة » بمآذنه المضلعة ، وضريح محمود عادل شاه في بشاور بمنارته العالية الطبقات .

أما مسجد « فاتح بورسكري » الذي أقامه شاهجهان ١٦٤٤م فله مئذنتان على طرفي واجهة المسجد التي تطل على الصحن ، وهذا في ذاته وضع غاية في الغرابة للمآذن . والمئذنتان رفيعتا الذرا ترتفعان في الجو أكثر من أربعين مترا وتنتهي كل منهما بجوسق ثم عمامة بصلية الشكل .

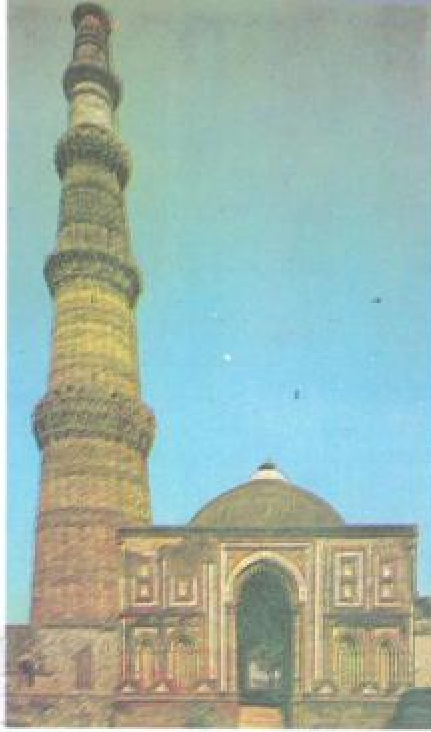
أما مآذن « تاج محل » فهي إحدى العجائب ، فالمبنى العام يأخذ شكل مصطبة واسعة مربعة ، أقيم البناء في وسطها وبقي حوله من جميع الجهات فضاء . وفي كل زاوية من زوايا المصطبة الأربع قامت منارة عالية ارتفاع كل منها حوالي ستين مترا ومكسوة بالمرمر ومدهونة بخطوط متعرجة ثابتة ، المعجزة الهندسية في بناء المنارات الأربع أن كلا منها يميل الى الخارج من طرفه الأعلى بمسافة معينة . والحكمة من ذلك أنه إذا حدث وتعرضت إحدى هذه المنارات للسقوط بسبب أي طارىء مثل الصواعق والزلازل أو عوامل التعرية والزمن ، فإن المنارة تسقط بعيدا عن مبنى الضريح !

المناطق الاسلامية بالاتحاد السوفيتي

عندما نتجه الى مساجد مناطق ما وراء النهر والموجودة الآن في المناطق الاسلامية بالاتحاد السوفيتي ، نجد أن طراز المآذن من الحجر المنقوش بالزخارف أو من الآجر الزخرفي من ألوان متعددة . وتوجد نماذج بديعة في خط يبدأ من طشقند في التركستان ويمتد الى سمرقند وبخاري وشهرسياز فيما وراء النهر وفي بلخ وكابل وغزنة وهراط في أفغانستان .

في مدرسة شيردار في سمرقند نجد الواجهة عبارة عن باب داخلي يرتفع عرضه أكثر من خمسة عشر مترا . وعلى جانبي هذا الباب الداخلي مئذنتان طويلتان بطنتا بالقاشاني . وقد قيل ان المئذنة التي تقع على اليمين كانت على وشك السقوط فأعادوا ترميمها كأثر تاريخي . . وأما المئذنة التي تقع على اليسار فتبدو وكأنها فصلت أو بترت من قاعدتها دون أن تتفتت أجزاؤها فربطت بالسلاسل القوية حتى لا تسقط ، وقيل انه كانت هناك مئذنة ثالثة اختفت الآن .

أما مدرسة « أولوج » التي بناها أولوج بك سنة ١٤١٢م فلها أربع منارات دقيقة الصنع مبطنة بالقاشاني . وقد دفن تيمورلنك في مقبرة هذه المدرسة .



مئذنة قطب منار ـ دلهي
(١٢٠٠م ـ ٥٩٧هـ)



برج مسجد مسعود الثالث بغزنة
ـ أفغانستان (١١٤١م ـ ٥٣٦هـ)

ومسجد الجمعة في بخارى شيد في القرن السادس عشر ، وتمت إقامة مسجد آخر مكانه هو القائم حتى الآن ويسمى مسجد كلبان . ومئذنته المعروفة والقائمة حتى الوقت الحاضر يرتفع برجها فوق بنايات المدينة الأخرى ، ويبلغ ارتفاعها ٤٦ مترا برغم أن جزءها السفلي مغروس في الأرض بسبب ارتفاع مستوى الساحة المجاورة . وقد زينت المئذنة من أسفلها حتى أعلاها برسوم بالطوب المزخرف بمهارة رائعة .

وهناك مئذنة أنيقة في « وابكنت » أقيمت عام ١١٩٦ وهي قريبة من مئذنة كلبان بأسلوبها المعماري .

ويتميز تصميم شكل المئذنة في « جرقورغان » بالأصالة . وقد أقيمت عام ١١٠٨ وهي تقع على مقربة من مدينة ترمذ . وبرج المئذنة عبارة عن حزمة من ست عشرة مادة مربوطة في أعلاها بنطاق كتبت عليه الآيات القرآنية . وكانت المئذنة أعلى مما هي عليه الآن بكثير ، ولكن القسم العلوي منها تلف . ومع ذلك فإن المرء يمكنه أن يتصور أن أجزاءها الأصلية كانت في البداية متناسقة جدا ، إذا أخذ في الاعتبار تلك الطلة التي ترتفع بها المئذنة في السماء حتى في حالتها الحاضرة .

في سمرقند نجد مسجد بيبي خانم وهو عبارة عن مجموعة منشآت تحيط بها أسوار على شكل مستطيل وبوابة المدخل الرئيسي للمسجد على جانبيها مئذنتان . وقد ارتفعت المآذن في أركان الأسوار التي تحيط بالمجموعة . وتتصف بوابة المسجد والمئذنتان الملتصقتا الأضلاع المجاورتان لها بكثرة مواد التزيين والزخارف وهي من رخام وأحجار منقوشة وفسيفساء الترابيع . وقد تخربت قبة المسجد الخارجية والجزء الأعلى للبوابة والمئذنتان بسبب زلزال عنيف عام ١٨٩٧م .

وفي جمهورية أذربيجان بلغت الحياة مستوى عاليا من التطور ، وقد حفز انتشار الإسلام على تشييد بنايات دينية جديدة من مساجد ومآذن وأضرحة وتعتبر مئذنة مسجد محمد في باكو (١٠٧٨م) من أقدم المنشآت الباقية سليمة حتى الآن . وهذه المئذنة تسمى (سينق قلعة) . وتعود المئذنة بأشكالها الهندسية إلى نماذج المآذن في مناطق أذربيجان الشمالية . وقد شيد برج المئذنة الأسطواني من الحجر . وفي قسمها العلوي يوجد مسطح دائري بارز يحيط به حاجز حجري مزين بزخرفة محفورة هندسية الشكل . ويبدو برج المئذنة الضخم الثقيل وحاجز الشرفة المطل كأنه حصن دفاعي .



مئذنة مسجد الدولة الكبير بالكويت (١٩٨٦ - ١٤٠٦هـ) .

مسجد الدولة في الكويت

قبل أن نمضي ، نلقى نظرة أخيرة على واحدة من أحدث مآذن بلاد الاسلام .. إنها مئذنة مسجد الدولة بالكويت ، الذى افتتحه أمير الكويت الشيخ جابر الاحمد الصباح في الأول من شوال ١٤٠٧هـ ٨ يونيو ١٩٨٦ في صلاة عيد الفطر . والمسجد مقام على مساحة كلية تبلغ حوالى ٤٥ الف متر مربع ، ومساحة رواقه الكبير حوالى ٥٣٠٠ متر مربع ، وهو قطعة فنية رائعة يتجلى فيه الفن الاسلامى الأصيل .

مئذنة المسجد أندلسية الطراز يبلغ ارتفاعها حوالى أربعة وسبعين مترا من سطح الأرض ، وبداخلها مصعد كهربائي يؤدى الى الشرفة المضلعة والمزينة بنقوش جميلة وإضاءة بديعة . وشرفة المئذنة تتوسط البدن الذى يرتفع القسم الثانى منه بشكل أصغر نسبيا من القسم الاول أسفل الشرفة . وقمة البدن يعلوها هلال بينما تتخلله نوافذ للتهوية والاضاءة وزخارف بسيطة تعطيها رشاقة وجمالا . وتعطى الاضاءة الداخلية والخارجية للمسجد والمئذنة منظرا رائعا في ساعات الليل .

إن هذه المئذنة هى العليا بين كل مآذن مساجد الكويت القديمة والحديثة . وقد كانت المآذن ذات نمط معمارى مميز ، رغم أنها كانت ذات بدن قصير نسبيا ، مع تكامل عناصرها من البدن الى الشرفة وحتى القمة الدائرية أو المدببة أو البصلية أو الكمثرية المضلعة من الخارج في شكل فصوص طولية أو ملساء ، ويعلو قبة المئذنة هلال من المعدن فوق عمود معدنى قصير تزينه بعض الاشكال الكروية أو الكمثرية .. وهى كلها مآذن لمساجد مازال اكثرها قائما حتى الآن .

***

. قال أبو الدرداء لابنه : يا بنى .. ليكن المسجد بيتك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المساجد بيوت المتقين فمن يكن المسجد بيته يضمن الله له الرَّوْح والرحمة والجواز على الصراط الى الجنة » .

وعن ابن عباس قال: المساجد بيوت الله تضىء لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض .

ولقد كان بناء المساجد من الضرورات الاساسية لأى مجتمع اسلامى ، حيث يلتقى المسلمون ويؤدون الصلوات معا في أوقاتها ويتظمون شئون حياتهم الدينية والاجتماعية ويتلقون الوعظ في أمور دينهم .. وكانت هذه الحاجة الوظيفية أساسا لأشد الابتكارات العربية الاسلامية أصالة في اقامة بيوت الله .. وارتفاع مآذنها ليرتفع من فوقها نداء المؤذن ... الله اكبر .. حي على الصلاة ... □

قصة قصيرة

رائحة الأشياء

بقلم : محمد كمال محمد

فاضت مياه البحر منسرقة في عاصفة الليل ، وغطت الشوارع الرملية المشبعة بماء المطر ، وتدفقت في الطرقات المعبدة منتشرة في بحيرات تحاصر مداخل المدينة .

وكنت أعبر النهر بالقارب من قريتنا المقابلة ، والصباح يخترق الأفق الأسود عبر البحر عند مصب النهر .

كان الشارع الممتد حتى شاطىء البحر الشرقي خاليا كعادته في الشتاء . من بعيد كان صوت (جبْروني) العجوز يشرخ السكون باللعنات ، وكان يقف في وسط الشارع بين أقفاصه وأرففه الخشبية التي جرفتها المياه من على رصيفها المقابل ، وخلفه على مسافة كانت عشته البوصية التي سقط أحد جدرانها .

علقت على كتفي مخلاة كراساتي ، وخضت في المياه باتجاه (جبروني) ، صاح فيّ وأنا أحمل معه الأرفف والأقفاص :

ـ لا تعطل نفسك يا تلميذ ! اذهب الى مدرستك .

وظللت ألقي بالقش المبلل خارج الأقفاص ، وأرصها فارغة إلى جوار العشة فوق بعضها ، وجبروني ينظر إليها في أسف ، فسوف تبقى خالية أياما ، فلن يأتي من قريتنا ببضاعته حتى تخف الأمطار ، وتعود الأرجل القليلة التي تنقطع عن مدينة المصيف في الأيام الشتائية .

ـ حلق في السماء السوداء وقال :

ـ فاتت الأربعينية ، وبقيت التسعينية .

ثم نظر إليّ بامتنان ، وهمهم ونظرته تنحدر إلى حذائي ذي الرقبة الطويلة ثم قال :

ـ ينفعك في المطر هذا الحذاء ، وأكثركم يلبسه في القرية ، فالوحل فيها حتى الركب .

كان جبروني يأتي من قريتنا ، تسبقه أقفاص الخضر والفاكهة مع ولادة شمس الصبح ، لأحملها له على مؤخرة القارب حتى الشاطىء المقابل ، وكان يمشي متمهلا بخطواته الزاحفة ، ويحيط رأسه وكتفيه بكيس قديم مفتوح الجانبين كأنه بابا (دولاب) ، ويدلي قدمه بحذائه العسكري الواسع من فوق المرساة الخشبية ، فيحطها على مؤخرة القارب ، ويجول في الجالسين عيناه الضيقتان كثقب مفتاح ، ويومىء بذقنه للفراغ مسلما ، وينحط منزلقا وسط أقفاصه ، بينما الصمت الغامض المألوف برائحته التي بلا اسم يلف القارب ، وحفيف الأنفاس مسموع في السكون الموغل في عرض النهر .

ـ ولد ، يا تلميذ ، هل ستجيء لتقيد لي



الحساب ؟ !

يخاطبني وأنا أنحني لأربط حبل القارب بوتد المرساة . وينتصب واقفا ، ويخرج يديه من جيبي معطف الشرطة الأصفر الذي غاب لونه خلف طبقة قاتمة . ويتطوح في القارب المتأرجح بحركة الأرجل المتعجلة . ثم يحمل قفصا يلقي به على خشبة المرساة . وتتصادم ساقاه ببعضهما فيدمدم بالشتائم ، ويعقد ذيل جلبابه الطويل مزمجرا :

ـ ساعدني يا تلميذ !

وأنقل معه الأقفاص . وأرصها بجانب فتحة السور الحجري ، فتنبسط ملامحه ، ويقول في مودة :

ـ لماذا لا أراك هنا كل يوم ؟

يرد الولد الذي يرافقني متنزها في القارب ، إني لا أشتغل في غير أيام الجمع والاجازات . ويلتقط جبروني برتقالتين من القفص ، ويدفع بهما الى صدري كأنه يضربني بهما قائلا :

ـ بدمه ، سيعجبك !

يغمزني الولد بعينه ، لأطلب له برتقالا . بينما يطلق جبروني السباب على من يسميه الأحدب الذي يشتري منه بضاعته :

ـ يغالطني ، ولا أعرف كيف أحاسبه ، ستجيئني وأنت راجع من المدرسة ؟ سأنتظرك يا تلميذ !

ويلمح الولد وهو يختطف البرتقالتين من حجري ، فيلوي رقبته إليه ناهرا :

ـ مسعور ، تلميذ مدارس أنت ؟ !

ويقذفنا بحزمة من الجزر الأصفر .

* * *

كان يحتدم غضبه عندما يساومه أحدهم في الشراء :

« جاحدون . لا تساومون حين أجيء لكم بالأشياء ، من غيري يتعب نفسه بلا فائدة في هذه المدينة الخراب . هل أكسب كثيرا منكم ؟ سوف ينتهي الشتاء ، وبعده لن أريكم وجهي ! »

ويدير ظهره الى أقفاصه ، ويجرجر من جانبها حجرا ، ويجلس عليه بعيدا ، ويدس يديه في حجره ، ويهز رأسه مطأطئا : « سأعود الى بلدي » .

في بداية الصيف كان يجيء رجال البلدية ، فيحملون أقفاص جبروني ليلقوا بها في مقلب القمامة ، ويخلوا مكانه أمام دكان البقالة المغلق في الشتاء ، فينزوي خلف مبنى المطافىء متداريا بقفصين من الطماطم والبطاطا تحت شجرة قليلة الأغصان ، بينما يمتلىء المصيف بالناس ، وتفتح الدكاكين التي تبيع كل الأشياء ، ولا يعود جبروني يرى الوجوه التي تشتري منه في الشتاء ، يوزع على جيرانه عساكر المطافىء درنات البطاطا وهو يخاطب نفسه مرددا : « سأعود إلى بلدي ، لماذا أبقى ؟ سأعود إلى بلدي » . ويظل هكذا حتى يجيء شتاء آخر .

في الأيام المشمسة كان جبروني يسحب كيسه من عشته ، تاركا أقفاصه ، ليتربع على الرصيف المقابل ، مفترشا الكيس ، مسندا ظهره على باب المقهى المغلق ، ويمد ساقيه أمامه لدفء الشمس ، ويناديه أحدهم ليبتاع منه ، فيرخي جفنيه مخاطبا الأرض بصوت غليظ ، طالبا من هذا المشتري أن يزن لنفسه ما يريد من أشياء ، وأن يجيء له بالنقود ، ثم يرفع وجهه للشمس منتشيا ، ويقول :

«كنت أشتغل حمالا في معسكر الانجليز، منذ زمن، قبل أن يجيء أبوك إلى الدنيا. هل مات منذ زمن؟ ولم يترك لكم شيئا؟ لقد أخبرني بذلك صاحب السفينة الذي تشتغل عنده. هل يعطيك نقودا كافية؟ لا أظن. فأهل قريتكم يحبون اكتناز الفلوس، مع أنهم يكسبون كثيرا من البحر».

ثم يصمت طويلا، يمصمص شفتيه ثم يقول:

- «يابا كنت أنا، كنت أخرج (القرش) من فم العفريت، وأنتش عنه بين حجرين»!

ويلف سيجارة ويبلل في بطء طرفي ورقتها بلسانه الداكن، ويحك ساقيه، فتخمش أظافره جلده بصوت مسموع، ويقول:

«كنت في المعسكر، أحمل كتلة من الخشب لا يقدر على حملها ثلاثة رجال، كنت أترك كل شيء هناك، وأتسلل إلى مكان مكشوف لأشمس، حينذاك كانت الدنيا لا تساوي شيئا عندي».

كان يحكي لي كثيرا، وكنت أقترب منه أكثر.

كانت الممرضة الانجليزية الجميلة تأتي إلى هناك، بعد انتهاء نوبتها بخيمة المعسكر، لتحادثه، وتتأمل قعدته في دفء الشمس، لم يعد برد ولا مطر، «أبدو؟» تناديه بعينيه، ويهز رأسيا في أسف عندما يجيبها أن نوبة الحموضات لم تأت بعد. وتقول له جئت لشمسكم الدافئة احتضنها يا عينيه، وأود عندما يعيدوني إلى بلادنا لو أسرقها منكم، وأحملها معي ... أبدو ... تنتقل الشمس الصغرى. كنت هنا في الشتاء الماضي أبدو، متى تجيء الشمس الكبرى ... أبدو؟ ... ويبتسم لعينيها الزرقاوين قائلا: تستعجلين الربيع سيدتي؟ فتقول له: بلادكم الخضراء في الربيع ساحرة يا عينيه، ثم تفترش الرمال الساخنة بجواره، وتقول: «أنت رياضي أبدو؟»، فيقول لها: لا أعرف الرياضة، لقد ولدت - لا أدري - هكذا قويا، وتتحسس بيدها الناعمة عضلات ذراعه، فيهرب من هذه اللحظة بثني ذراعه مطبقا على أصابعها الطرية متظاهرا بمداعبتها، فتصرخ: «أوه، متوحش أبدو».

أضحك، فينفتح لضحكتي فم جبروني بابتسامة واسعة، تكشف عن بقايا أسنان كحصيات في الفحم.

• • •

نادته المرأة السمينة وهي تزن الفول الأخضر، فحملق جبروني بها، ثم اتجه ناحيتها في قعدته على الرصيف المشمس، وقام إليها مسرعا.

كانت تجيء له من قريتنا، بعد أن تشتري السمك الذي تبيعه الجمعية في الشارع المجاور أحيانا، حيث المشترين في الشتاء أقل زحاما، وكان يزن لها الفاكهة والخضر، ويرد إليها نقودها، بعد أن تلقي بها وسط نقوده في قعر القلة المشروخ الذي يضعه بين الأقفاص.

كانا يتحادثان بابتسام، وكانت تضع ما تأخذه من جبروني تحت ملاءتها، وتشده بذراعيها على صدرها العريض، فتبدو الأشياء كأنها جزء من جسدها السمين، ويبقى كفيها فقط تطلان من تحت صدرها لتشير بهما وهي تتكلم.

كنت أقول لجبروني متسائلا لماذا تشتري المرأة منه، وقريتنا تمتلىء بذات الأشياء، فلا يرد.

وكانت تناديني باسم أبي، وتوصيني وهي تغادر بشمسة بجبروني، وكان جبروني يخبط كتفي بلمعة عينيه المتوهجتين كطرف سيجارة مشتعل، ويقول:

- احمل بوصية أم ونس!

ويرمقني بنظرته المتشممة خلفها وهي تطرقع (شبشبها) على الأرض الرملية اليابسة في دلال، ثم يقول:

- «كان في مثل سنك، وكان يقرأ لي حكايات السندباد، وكان يحلم بتلك البلاد البعيدة».

فقلت:

- هل مات؟

ثم انتابني الندم للكلمة المتسرعة، فأطرقت خجلا، و(بربش) جبروني بعينيه، وحول رأسه



للشارع الممتد عميقا ، ثم قال :

ـ قلت له « لا تهاجر » .

وارتعشت ضلوعه بآهة كالأنين وهو يقول :

ـ لو أنه يكتب لي مرة واحدة !

والتفت إلي بوجه ينتشر في أحاديده ضوء إشراقة :

ـ سأرد عليه ، سأقول له ـ سوف تكتب إلي ـ وسأقول له إن الشوكة التي تدخل في قدمه هناك أحسها في عيني أنا هنا ، قل له لو أني سلخت جلدي لأبيعه وأعطيه ثمنه ليعود فلن يكفي ، إني أريد أن أراه .

ثم تراجع بظهره إلى الوراء ناظرا إلى البعيد وقال :

ـ « كانت أمه أخت صديق . أحببتها من أجله » .

عندما سكن المدينة الكبيرة ، كان يقابله بمسجد الحي القديم في صلاة الجمعة ، كان يذهب إلى هناك منذ الصباح ، ليحصل على مكان بجانب كرسي الشيخ رفعت ، ليستمع إليه عن قرب ، وكان صديقه يسبقه دائما ليزاحمه في مكانه ، فقد كان مثله يعشق الصوت الآتي من السماء ، وهناك تصاحبا .

مضى يحملق فوق رأسي مزموم الشفتين ، يحملق في السماء التي كانت تمر بالمطر منذ قليل ، وأطلت نجمتان تحتضان ، وخلفها ظهرت الثريا التي قرأت عنها في كتاب . كان جيروني يقول هناك في الصيف شهر تتساقط فيه النجوم ، وثمة نجم يسقط فيبرد الهواء الحار ، وفي تلك الليالي تسري في النوم روحه ، تطوف بالأشياء ، ويتنشق عبق الرائحة ، ويصحو بدموع تغرق وجهه .

لقيني جيروني بلهفة قائلا :

ـ هل رأيت بيتها ؟

وكنت قد ذهبت الى أم ونس بلفافة اللحم التي اشتراها لها من قريتنا ، وواصل كلامه :

ـ ما شكل البيت . . هه ؟

قلت له : إنه بيت متطرف ، على شط البحيرة ، تسكن أم ونس وولدها الكبير حجرتيه .

وطوق كتفي بذراعيه وقال :

ـ دافىء بالتأكيد ، ونظيف ؟

ثم ضم معطفه على صدره ، وأدخل الزرار الوحيد في عروته ، وقال :

ـ ستتزوجني ، لقد رضيت بي .

ولف رأسه بكوفية قاتمة ، وفرك يديه ، ونفخ فيهما بدفئهما :

ـ قريتكم كبيرة مليئة بالرجال ، متقدمة كمدينة ، لكنها بقيت عشرين سنة في هذه القرية بغير زوج ، كنت قد رأيتها مرتين تغافل جيروني وتسرق التقوى من قعر القلة ، ولهذا قلت له مترددا :

ـ لكنها تمد جدها إلى تقودك .

فحملق في وجهي ، ثم قلت له إنها في موسم الصيف تتكسب من غسل المفروشات في فنادق المصيف ، وفي الشتاء تشتري (ملاءات اللفف) من المدينة المجاورة ، وتبيعها لنساء قريتنا ، فلماذا تسرقك ؟ !

فظل صامتا ثم قال :

- طلبت منها أن تأخذ النقود لتشتري لنا .. نسيت اسم ذلك الشيء !

هززت رأسي مبتسما لكذبته ، فلكز كتفي بكوعه وقال :

- لا يهم !

وفي الصباح كان يلملم أشياءه الصغيرة ليخلي العشة ، وألقى بقعر القلة الفارغ بين القش والأقفاص الخالية ، بعد أن أفرغها القروش في جيب معطفه المتآكل ، وقال :

- سأبيع الفاكهة على طريق البحيرة هناك ، طلب مني ذلك لأكون قريبا من البيت ..

كنت قد جئت له بجلبابه (الطحيني) الجديد من خياط قريتنا ، ففرده بين ذراعيه ، وسبحت عيناه العمشاوين في صدره ، يتأمله بإشراقة لونت تجاعيد وجهه ، وجلس على قفص ، وطرح الجلباب على ركبتيه ، يملس بيديه المشققتين على (قبطانه) البني ، ونظر محملقا في الفراغ وقال :

- بقي أن أستحم .. قلت لي مرة ..

* * *

سرت الى العوامة الراسية في النهر ، وجبروني من خلفي ، لأسخن الماء له ، كي يستحم ، وكنت سرقت مفتاحها من صاحب السفينة (المعدية) التي كان يحرسها لصاحبها في الشتاء حتى يعود صاحبها في بداية الصيف .

كان يهتز بوهن وهو يدعك عظام صدره البارزة ، ويغمغم في غن قائلا :

- ما أحلى عافية الصبا !

ويهمهم وأنا أقف عند نافذة الحمام أرقب الطريق :

- ستزورني عندها دائما ؟

ثم قال بامتنان وتلذذ وهو يصب على جسده الماء الساخن :

- سوف أدعو لك ..

ثم قال بصوت مرتفع :

لقد أخذت حماما منذ زمن في هذا النهر عندما جئت هنا ، كنت لا أعرف أن مياهه مالحة ، تأتيه من البحر ، ومنذ ذلك اليوم لم أنزل فيه .

وملأ (الليفة) بالرغوة المعطرة ، ودس الصابونة في طياتها كأنه يحشوها ، وعاد يغرف الماء بالكوز من الصفيحة التي يرتفع بخارها كثيفا فوق الموقد ، ويضرب صدره بالماء ، فاتحا فمه في نشوة ، وضاما ركبتيه بتلذذ .

وابتعدت عن النافذة ، وانتزعت صوتي من حلقي قائلا :

- كان عندها رجل ، إنه زوجها الجديد .

فعلقت يده في الهواء وهي قابضة على (الليفة) ثم استدار نحوي بوجهه محملقا ، وهمهم في حشرجة :

- زوجها ؟ .. متى !

فقلت له :

- كانت معه أشياء ، أحضرها من سفره على المراكب ، ليغري بها المرأة التي يريد أن يتزوجها .

وانفرجت ركبتاه متأرجحتين ، وتصادمتا ، وأفلتت من يده (الليفة) ، وأسند رأسه إلى الحائط ، وانغلقت عيناه ، وتركت يده الكوز الفارغ ، وظلت كتفه متكئة على ماسورة المياه الباردة .

وارتجفت أرض العوامة تحتنا ، بمرور سفينة بهدر محركها وهي تعبر بجانبنا متجهة إلى مدخل البحر ..

وفتح جبروني عينيه ، ومال بجسده ، ومرغ رأسه على الحائط وقال :

- سأعود إلى بلدي ..

وهبطت ذراعه إلى جانبه ..

وانسلت من صدره آهة واهنة كالتثاؤب . □

رمضان في ربوع القدس

بقلم : الدكتور صبحي غوشة*

مع سكوت آخر طلقة مدفع في حرب ١٩٦٧ كانت القدس قد سقطت ودخلت مرحلة جديدة من تاريخها الحافل بالمآسي، وبدأت سلطات الاحتلال بتغيير جغرافية المدينة المقدسة ، واختفت تلك الأماكن التي شهدت أطفال القدس وهم يجولون في حاراتها بفوانيسهم وأناشيدهم الجميلة وأصواتهم العذبة .

في ربوع القدس كان لرمضان حضور مميز يقدمه لنا الكاتب الذي عاش تلك الأيام القديمة الرائعة .



طقوس احتفالات دينية قديمة يقوم بها مواطنون فلسطينيون .. بريشة غوستاف باور نفيند

* الدكتور صبحي غوشة : طبيب فلسطيني ولد بالقدس



كان الشعور بالاختلاف والتغير هو أول ما لفت نظري الى شهر رمضان . فبعد أحد عشر شهرا من الحياة العادية ، يأتي هذا الشهر المبارك لتتغير مواعيد الطعام والشراب والخروج من البيت والعودة اليه . وبالنسبة لنا نحن الاطفال في ذلك الوقت ، كانت حياتنا أيضا تتغير مع كل ما يتغير من حولنا . ولذلك لم نجد صعوبة في صيام رمضان منذ الصغر ، فقد كان كل أفراد العائلة الذين يكبروننا سنا يصومون رمضان وكان علينا لذلك أن نصوم حسب اقتدارنا وحسب أعمارنا ، فبدأنا بصعود « درج الصخرة » أو « درج المئذنة » وهي تعبيرات استعملها أهلنا لتحديد أوقات الصيام ، حتى الظهر أو العصر ، لاشعارنا بأن هذه المراحل لابد أن يمر بها الصغار قبل وصولهم السن التي تسمح لهم بالصيام الكامل . وقد شد انتباهي في ذلك الوقت المبكر ارتباط درجات الصيام بدرجات الصخرة المقدسة التي ارتاحت منذ مئات السنين تحت قبتها القديمة العظيمة .

كنا نتحمس لصيام رمضان كثيرا ، ولكن حماسنا الأكبر كان للسحور فقد كان الاستيقاظ ليلا لتناول وجبة السحور متعة ومغامرة ولذة وكسرا لروتين الحياة اليومية في باقي شهور السنة ، وكذلك كنا كأطفال نحاول أن نتأخر في تناول السحور وكنا نوقت مواعيد الافطار والامساك حسب المدفع أو حسب ما نسمعه من المؤذن في جامع الشيخ جراح أو حسب إنارة المئذنة بالكهرباء وقت مدفع الافطار .

وكان صوت « المسحر » أو المسحراتي معلنا حلول موعد السحور متعة اضافية بالنسبة لنا نحن الاطفال لذلك كنا دائما نترقب مروره والاستئناس في وحشة الليل بصوته وصوت طبله بايقاعها المنغم الجميل .

المسحراتي والثورة

كان « مسحراتي » الحارة هو الشيخ أدهم الذي تعودنا على مروره المنتظم في حارات القدس ضاربا طبله ومرددا كلماته المعتادة التي أخذت نغما مميزا يتناسب مع ايقاع الطبلة الذي كان يشق سكون الليل :

يا نايم وحد الدايم   يا نايمين وحدوا الله .

يا عبادا الله وحدوا الله

وكثيرا ما سمعنا عن نشاطات أخرى للشيخ أدهم الذي كان يجيد تغيير صوته وسحنته أثناء الكلام . فقد كان له دور مهم في نقل الرسائل بين القيادات الوطنية الفلسطينية اثناء ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ ، وكذلك بين القيادات في الداخل وبعض القيادات التي هربت من بطش الانجليز الى دمشق وبيروت وبغداد . لكن لذلك قصة أخرى .

وكثيرا ما كان الارهاق يصيبنا من جراء الصوم خاصة عندما يصادف قدوم الشهر المبارك في فصل الصيف ، وهو موعد امتحانات المدرسة ، ومع ذلك كنا نصر على اكمال الصيام ، متحملين الارهاق والتعب ، وبالنسبة لي أنا وبعض زملائي ممن كانوا تلاميذ في مدرسة المطران بالقدس كان للصيام معنى آخر هو التحدي والتمسك بالهوية الوطنية ، فقد كان في المدرسة عدد كبير من الطلاب اليهود . وكان اعلان الصيام بمثابة اعلان للهوية الوطنية بالنسبة لنا نحن العرب المسلمين . ومع ذلك فقد كان الاغراء بالافطار بالنسبة لنا كبيرا اذ كان لكل منا نحن الاطفال جيب خاص من القماش نربطه حول وسطنا فوق الملابس ، نجمع فيه ما يتوفر لنا أثناء النهار من حلويات ومكسرات وفواكه ، ونحتفظ بها حتى نأكلها بعد الافطار ، لكنها كانت بالنسبة لنا عامل إغراء لايقاوم في بعض الأحيان .

لم يكن هناك أيام طفولتنا راديو أو تلفزيون وقليلون منا من كانوا يمتلكون ساعات ، فكان توقيت افطارنا يتوقف على مدفع رمضان الذي كان منصوبا في مقبرة « باب الساهرة » ، أحد أبواب القدس القديمة ، وهو مدفع تركي قديم يقوم على خدمته « طوبجي » عجوز كان يحشوه بالخرق والبارود ويطلقه حسب أوقات معينة مسجلة لديه . وقد جدد شباب هذا

المدفع في أواخر أيام الانتداب ، ولذلك كنا نقف خارج البيوت في انتظار سماع صوت المدفع ، أو سماع المؤذن من فوق مئذنة جامع الشيخ جراح .

كان ذلك يتم غالبا بعد الذهاب الى السوق لشراء بعض المأكولات المرتبطة لدينا بقدوم رمضان مثل الحمص الذي كنا نشتريه من « الحمصاني » ، حيث كان الاطفال يذهبون اليه ومعهم الليمون الحامض والثوم ، وأحيانا « الطحينة » ويعودون بأطباق الحمص مزينة بالبهارات الحمراء وحبات الحمص والفول والفلفل الاخضر ، وفي الطريق الى المنزل كنا نشتري « الخروب » و « السوس » أو « العرقسوس » و « التمر الهندي » من البلدة القديمة ، حيث كان محل الحاج رشيد قليبو في مدخل باب العامود أو بوابة دمشق كما يشار إليها في المراجع التاريخية . وكان الحاج رشيد يكشف عن براعة خاصة في عرض بضاعته ، خاصة اذا صادف حلول رمضان في فصل الصيف . حينئذ كان يصف زجاجات العرقسوس والخروب المعرقة من شدة برودتها فوق الواح الثلج ، أو في أوعية كبيرة مليئة بالثلج المكسر ، فتبدو منعشة رطبة لذيذة . ولم يكن يعرضها للبيع الا قبيل الافطار بساعة فقط حتى تحتفظ المشروبات بطعمها اللذيذ الطازج ونكهتها القوية .

وبالرغم من وجود الانتداب البريطاني ، ووجود عدد من اليهود في الاسواق نادرا ما كان هناك في الشوارع من يجهر بافطاره ، حتى بعض العائلات المسيحية التي كانت تسكن بين المسلمين ، كانت تمتنع عن الأكل والشرب في الأماكن العامة احتراما للشهر وقدسيته لدى اخوتهم المسلمين .

سمير « والحواية »

كان لرمضان في القدس في الثلاثينيات بهجته المميزة ، وخاصة في البلدة القديمة حيث الشوارع الضيقة و « الأحواش » المظلمة و « القناطر » المتعددة ـ وحيث الدور المتلاصقة والأبواب الصغيرة التي تعلوها النوافذ المغطاة بشبك الخشب ـ كانت هذه الشوارع مظلمة أو قليلة الانارة ليلا فكانت تضفي على أيام رمضان روعة وهدوءا وطمأنينة تتناسب مع قدسية الشهر المبارك .

وكان الاطفال ينتشرون ليلا في هذه الحارات والأزقة وهم يحملون الفوانيس الورقية الملونة ، وفي كل منها شمعة صغيرة تنير حيزا صغيرا من الظلام المحيط ، بينما كان البعض الآخر من الاطفال يستعملون فوانيس مصنوعة من البرتقال الكبير الحجم حيث كانت تقطع في قشوره فتحات على هيئة شبابيك أو أبواب صغيرة ، ثم يفرغ ما في داخل البرتقال من لب وتوضع داخلها شمعة فتصبح فانوسا جميلا ورخيصا ، وكان الاولاد الصغار يجتمعون في حلقات ثم يدورون على المنازل « للحواية » أي لجمع ما يتيسر لهم من سكان الحي وهم ينشدون . لهذا كان يطلق على هؤلاء الأطفال اسم « الحواية » الذين كانوا يقسمون أنفسهم الى فريقين فريق ينشد : سمير لينا فيرد عليه الفريق الآخر : يوحيا

وكويسة . . يوحيا،وعربسه . . يوحيا

مثل القمر . . يوحيا

ولا بدر . . يوحيا.

لولا سمير ما جينا

حلو الكيس واعطونا

اعطونا حلوانا

صحنين بقلاوة

جاى علينا جايه

نطرد الحواية

وطبعا ، فان سمير وام سمير ، وأبو سمير يقومون بتوزيع الحلوى كالبرازق والملبس أو غيرها من الحلويات على الأولاد الذين كانوا يجمعوها في كيس من قماش يحملونه معهم وبعد ذلك يقومون بتقاسمه . ويستمر الأولاد في جولاتهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، فالوالد عادة ما يكون خارج البيت اما للتعبد أو لقضاء سهرة رمضانية في احدى

المقاهي . وهي فرصة لا تعوض للاطفال ليكتشفوا ليل القدس العابق برائحة التاريخ .

كان الرجال يذهبون للتعبد في المسجد الاقصى ، أو تحت قبة الصخرة ، حيث كانت تنتشر الحلقات الدينية التي يقيمها عدد من رجال الدين للوعظ ولمناقشة أمور الدين والدنيا . فقد كانت الأوضاع السياسية غير مستقرة مما جعل هذه الحلقات متنفسا لتزويد المواطنين بشحنات وطنية ضد الانتداب البريطاني وضد الحركة الصهيونية . ومن واحدة من حلقات المساجد هذه خرج الشيخ الشهيد عز الدين القسام وغيره من رجال الدين الثوريين في فلسطين .

وكانت هذه هي السلسلة الثانية من الحلقات . فقد كان هناك حلقات دينية أخرى تتم في الأقصى يوميا ويقوم بالتدريس فيها عدد كبير من العلماء الأجلاء ـ وكان لكل واحد منهم يوم معين .

ويبقى المواطنون يتدارسون بين صلاتي الظهر والعصر . وبين صلاتي العصر والمغرب أي ساعة الافطار . كان المقرئون يتلون الآيات القرآنية بأصواتهم القوية الجميلة . وبخلاف المقرئين المحليين كانت مصر ترسل ثلاثة مقرئين في كل رمضان ليرتلوا الآيات في الاقصى . وأذكر من هؤلاء صديق المنشاوي و مصطفى اسماعيل والشيخ محمد عبد الباسط عبد الصمد الذي كان في أواخر عهد الانتداب مقرئا ناشئا .

أما في الليل فيبقى هؤلاء لاداء صلاة التراويح التي كانت تستمر حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعض الناس كانوا يواصلون التعبد حتى صلاة الفجر . وكثيرا ما كان يحضر الى القدس لقضاء العشر الأواخر من رمضان بجوار الأقصى المبارك ، مسلمون من أماكن بعيدة من فلسطين أو البلاد العربية الأخرى ، وبعض قناصل الدول الاسلامية في فلسطين وأذكر منهم الصادق المجددي (الأفغاني) الذي كان قنصلا لافغانستان في فلسطين والذي كان يواظب على الاعتكاف في الأقصى في أيام رمضان الأخيرة .

« كراكوز ـ عواظ »

كان بعض الرجال يقضي سهراته الرمضانية في المقاهي لسماع الشاعر الشعبي ، أو « الحكواتي » ، وهو يقرأ على السامعين قصص الزير سالم ، وتغريبة بني هلال ، ومغامرات عنترة ، بأسلوب مشوق جميل ، وبحركات تمثيلية تسهم في تكملة العرض المسرحي البسيط الذي كان يقدمه من على كرسيه الذي وضع فوق طاولة ، ليشرف على الجميع ، ليلهب حماس الجمهور الذي كان يصل التعصب والخلاف بين أطرافه أحيانا حد التشابك بالأيدي .

ومن أشهر المقاهي التي كانت تقدم هذا النوع من الترفيه ـ مقهى الباسطى ، ومقهى زعترة ، ومقهى منى ، ومقهى صيام في مدخل باب العامود . وكان أشهر « الحكواتية » الشيخ صالح خميس .

أما القسم الآخر فكان يذهب لمشاهدة « كراكوز ـ عواظ » ، أو فن الفرجة المعروف باسم « خيال الظل »

وهو عبارة عن قطعة كبيرة من القماش الأبيض تسلط من خلفها قوية لتلقي ظلال الدمى الورقية على الشاشة البسيطة.ويقوم بتحريك هذه الدمى شخصان يحاولان تقليد صوتي كراكوز وعواظ اللذين يناقشان مشاكلها العائلية مثل ظلم الزوجة وغيرها من المشاكل . وتستمر السهرة ساعات متأخرة من الليل ، ومن المقاهي التي كانت تعرض هذا اللون مقهى علون في باب حطة . ومقهى الباشورة ، ومقهى باب المغاربة .

مع اقتراب شهر رمضان من نهايته كانت دفقة جديدة من النشاط والحيوية تدب في شوارع القدس ، فينشط باعة الحلوى ويعرضون الكنافة والبقلاوة والمشبك على « بسطات » صغيرة أعدت لهذا الغرض . وكان أبناء القرى المجاورة للمدينة يحضرون لشراء منتجات المدينة ، بعد أن ظلوا طوال

العام يبيعون فيها منتجاتهم الزراعية . ويظهر دور القدس كمركز تجاري الى جانب كونها حاضرة دينية مقدسة .

وكان هؤلاء يصحبون أولادهم وبناتهم ليشتروا لهم تجهيزات العيد من ملابس ولوازم أخرى فيختلطون بعائلات القدس الفقيرة الذين كانوا يصحبون أطفالهم لشراء الملابس الجديدة ، أو لتعديل ملابس إخوتهم الكبار بحيث تناسب من هم أصغر سنا وحجما أو لاصلاح هذه الملابس والأحذية ليعاد لبسها من جديد في تلك المناسبة .

وتختلط نساء القدس بالنساء القرويات بأثوابهن الجميلة يجبن الأسواق لشراء الأقمشة والحرير لخياطة ثياب جديدة أو لتعديل الفساتين والثياب القديمة .

وأكثر الفئات نشاطا في أيام الاستعداد للعيد بعد التجار والخياطين وباعة الاحذية كان الحلاقون الذين كانت « صالوناتهم » تشهد اقبالا استثنائيا بحيث كانوا يسهرون حتى ساعة متأخرة من الليل قبل الانتهاء من قص شعور زبائنهم .

وكان هذا الاقبال الكبير يشكل فرصة لبعض الحلاقين المتجولين الذين كان بعضهم يحضر من خارج القدس يحمل كل منهم كرسيا أو « صفيحة » فارغة وعدة الحلاقة البسيطة وينصبها في الأسواق العامة وخاصة في باب العامود،وهو المدخل الرئيسي للمدينة القديمة ، أما المرآة فأمرها بسيط اذ يمكن للزبون أن يحملها بيده وينظر الى ما تصنعه يد الحلاق بين حين وآخر .

ولم تكن ساحة الحرم المترامية الأطراف مكانا للصلاة فحسب بل كانت مكانا للقاء أيضا،وكانت الساحة الخارجية الملاصقة لسور الحرم الشريف قرب باب حطة مكانا للاحتفالات الشعبية . وفي الأيام الأخيرة من رمضان كانت الحياة تدب في هذه الساحة ويبدأ أصحاب المراجيح بنصب مراجيحهم والتهيئة للألعاب الاخرى ، ويتوافد باعة الحلوى والمخللات « والسندويشات » ليستفيدوا من هذا التجمع الكبير



أطفال وباعة ومشترون في أسواق القدس القديمة

رمضان والاحتلال الأول

بقيت الأحوال هكذا حتى عام ١٩٤٨ ، وقيام الكيان الصهيوني فوق أكثر من نصف فلسطين ، حيث بدأت بعض ملامح رمضان القديمة تختفي تحت وطأة عوامل عدة . والبهجة التي كان يثيرها شهر رمضان بدأت تخف تدريجيا . وأثقلت الناس هموم القهر والشعور بالهزيمة والاحباط ، وتفرق شمل كثير من الأسر ، وعانت عائلات كثيرة من الاملاق والفقر نتيجة فقدان موارد رزقها أو بسبب سفر رب العائلة سعيا وراء الرزق .

حتى الأطفال خف حماسهم وقل تجوالهم ، والحكواتية لم يعودوا الى مقاعدهم في المقاهي الا نادرا ، واختفى « كراكوز ـ عواظ » مع دخول الراديو ثم التلفزيون ولأسباب أخرى . حتى الندوات الدينية قل عددها . ودور المسحراتي فقد

الكثير من رونقه ، وفقد الكثير من حماسه وفقد بعضا من حرية حركته ، فقد قامت اعتراضات من بعض الفنادق والمؤسسات تشكو « ازعاجه » للنزلاء في منتصف الليل . لذلك « انكمش » دور الشيخ أدهم ولم يعد يتجول إلا في مناطق محددة من القدس .

وحتى حلقات الذكر التي كانت تقام في الجوامع تقلص عددها حتى كادت تتلاشى . لم يعد أحد يعتمد على صوت المدفع ، فقد جاء الراديو ثم التلفزيون ليطغى على صوت المدفع وصوت المؤذن وهو ينادي من فوق المئذنة . ولم يعد هناك حمص من « الحمصانية » ، فقد أصبحت كل عائلة تطحن حمصها بنفسها ، وبارت تجارة الحاج رشيد قليبو مع انتشار الثلاجات التي أصبحت تقوم بالتثليج والحفاظ على السوس والخروب أياما طويلة . وهكذا فقدت شوارع القدس وحاراتها وأزقتها طابع الهدوء في ظل الانارة الخافتة . وعلت الأصوات والجلبة والضوضاء ، ولكن هذا لم يمنع زحف المواطنين الى المسجد الأقصى لأداء صلاة الجمعة ، فكانت باحات الحرم القدسي تكتظ بالمصلين القادمين من كل أنحاء ما تبقى من فلسطين ومن الضفة الشرقية لنهر الأردن بحيث عوضت بعض ما فقدته القدس من طابع مميز خلال الشهر المبارك .

القدس بلا حكواتي

وجاءت الضربة القاصمة حينما احتلت القوات الصهيونية باقي أرض فلسطين في ٥ يونيو(حزيران) ١٩٦٧ ، ودخلت القوات الغازية مدينة القدس ودنست المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة المشرفة ، وهدمت حارة المغاربة وعددا آخر من البيوت والمساجد . وعاثت قواتها فسادا في المدينة ، واكتظت شوارعها بالمستوطنين وجنود الاحتلال ومجنداته وبالسياح والمتسكعين ، فأفقدت المدينة المقدسة ما تمتعت به من هدوء وروعة وقدسية خلال القرون الماضية . وخفت صوت الأذان وتوقف الأطفال عن التجول في الشوارع والانشاد ، وحل الفوانيس ، وأصيب كل شارع وحاره وحوش وقنطره وزقاق برذاذ من الارهاب الذي أتى به الاحتلال .

ولكن ، بالرغم من كل هذا القهر والاحباط ، بالرغم من كل ما يعانيه أبناء شعبنا ، فانهم باقون على العهد - عهد الأجداد الأوائل - الذين حافظوا على القدس عبر القرون الغابرة - صامدين يتحدون سلطات الاحتلال الصهيوني بعزيمتهم وحجارتهم وخناجرهم ، وحيدين في بحر عربي واسلامي واسعين .

يتمسكون بأرضهم وبايمانهم وحقهم في الحياة الكريمة . يقومون بعباداتهم رغما عن العدو - ويؤمون المسجد الأقصى - الذي حاول الصهاينة احراقه واقتحامه عدة مرات - باعداد متزايدة . ويقيمون صلاة الجمعة وخاصة في رمضان بشكل لم تشهد البلاد له مثيلا بحيث يغطي المصلون ساحات الحرم الواسعة وخارجها . وكأنهم يقولون للعدو الصهيوني - هانحن منغرسون في أرضنا وباقون فيها الى الأبد أما أنتم فطارئون عليها .

لقد عبر الشاعر الياس قنصل عن المأساة بقوله :

سيذكر العار أن العرب دمرهم
يوم الكريهة مجهول ومرذول
وليس يبرأ من اثم الونى أحد
فكلنا عن ضياع القدس مسؤول

كلنا مسؤول عن ضياع القدس ، ولذلك علينا أن نكون مسؤولين عن تحريرها وعودتها الى أصالتها وقدسيتها وروعتها ، وعودة المؤذن ليرتفع صوته عاليا ، وعودة ليالي رمضان وصلاة التراويح والمسحراتي . وعودة الأولاد « الحواية » الى الشوارع غير المدنسة ، وعودة « الحكواتي » ليروي تغريبة بني فلسطين وعودتهم الى أرض الوطن . ولنفرح جميعا ونحن نستمع الى « مدفع » رمضان وهو يطلق قذائفه احتفالا بالتحرير والعودة والنصر . . □

وجهاً لوجه





عبدالوهاب البيّاتي و د. جليل العطية

■ كتبت القصيدة الأولى في درس الرسم ! ■ لغز دار المعلمين العالية فى بغداد ! ■ حصاد طوافي فى العالم شعر لا غير ! ■ الإبداع ليس حكرا على لون أدبي أو فنى . ■ المرأة واقع ، ورمز ومثل أعلى . ■ أرشح نجيب محفوظ لجائزة نوبل ، لأنه مخلص ومبدع وأمين . ■ قصيدتى تولد « من قبل أن تولد » !

عبد الوهاب البياتي لا يحتاج الى بطاقة تعريف ، إنه شاعر الفقر والثورة ، حمل هموم الإنسان وعذاباته منذ أن وعى وجوده ، وطوف فى الآفاق ، وأبحر فى أساطير الشرق ، ثم ألقى عصا الترحال فى مدريد ليتنفس عبير رائحة الأندلس .

فى مقهى باريسي يطل على كنيسة عتيقة ـ كانت آخر معاقل ثوار « كومونة باريس » التاريخية ـ وفى حفل سري أطفأ البياتي ستين شمعة من عمره المكدود ، فقد دب هذا الشاعر على كوكبنا الحزين ، ودرج مدة ستين عاما ، أربعون عاما منها كتب فيها الشعر للناس ، وغنى للحرية .

فما هو حصاد كل هذه الرحلة ؟

يجيب عن هذا السؤال البياتي فى حوار أجراه معه بهذه المناسبة الدكتور جليل العطية .

● فى حياة كل إنسان نقطة تغير مجرى حياته ، فما هى ؟ ومتى تم ذلك ؟

ـ التحول الكبير فى حياتي هو عالم الكتب !

كنت فى الخامسة عشرة ـ والمفكرة تشير الى سنة ١٩٤٠ ـ وكان العالم يغرق فى تنور الحرب عندما وجدت فى الكتب الدينية والكتابات الرومانسية مفاتيح أبواب بعض الواحات التى كانت تنتظرني ، ولكن كنت أمر بها عجولا ، وقد توقفت قليلا عند جبران ، ثم تنقلت بين الكتّاب واحدا فواحدا ، كالعقاد والمنفلوطي ، وطه حسين ، وكان كل واحد منهم يظللني زمنا قصيرا تحت خيمته ، لكن سرعان ما أشعر بالاختناق فأغير ، وهكذا .

القصيدة الأولى

● قصيدتك الأولى ماذا تتذكر منها ؟

ـ فى أحد أيام عام ١٩٤٢ كتبت قصيدة فى درس الرسم ، وكنت طالبا فى الإعدادية المركزية ببغداد ، وكان مدرس الرسم آنذاك الفنان عطا صبري ، وعندما بدأ بفتش دفاتر الرسم وجد أنني لم أرسم شيئا ، بل كتبت قصيدة فى الورقة البيضاء ، وعندما قرأها سألني باستغراب : هل كتبت هذه القصيدة ؟

وحين تأكد أنها لى راح يتحدث عنها باعجاب ، تاركا دفاتر الطلاب ، وموضوع الرسم جانبا ، لكن حديث الأستاذ لم يفرحني قطّ ، بل لقد شعرت بالغصة والعذاب ، لأن القصيدة لم تعجبني ، ولهذا عرضتها على مدرس اللغة العربية الأستاذ الراحل صادق الملائكة ، والد الشاعرة نازك الملائكة ، فأعجب بها وطلب منى أن أتركها معه ، ثم جاء فى اليوم التالى ، وقرأ القصيدة أمام الطلاب باعجاب ، وعندما انتهى من قراءتها قال : إن هذه القصيدة من نظم عبد الوهاب أحمد ، فشعرت بالخجل الشديد ، وتواريت وراء الكتاب الذى كان أمامي .

وبعد أيام ظهرت القصيدة نفسها فى (مجلة الحائط) الخاصة بالمدرسة ، فقرأها معظم الطلاب ، وصرت معروفا بينهم لكثرة ثناء المدرسين على موهبتي الشعرية المبكرة .

العلاقة مع السياب

● ارتبط اسمك باسم السياب ـ فمتى تعرفت عليه ؟ وما هى انطباعاتك عنه ؟

ـ فى اليوم الأول لدخولى دار المعلمين العالية ـ كلية التربية فيما بعد ـ ببغداد التقيت ببدر شاكر السياب فى

الحديقة ، وكان ذلك في خريف عام ١٩٤٤م ، وكان لقاؤنا مجرد صدفة ، بادرني السياب بالسلام مقدما الي نفسه ، وكان معروفا في الوسط الطلابي ببغداد ، حيث كان يلقي بعضا من قصائده الوطنية والسياسية في الاحتفالات والتظاهرات الطلابية .

في ذلك اليوم بدأت صداقتنا ، وأصبحنا نلتقي كل صباح ، فنجلس قرب بائع الشاي الذى يحتل احدى الغرف الصغيرة في الكلية ، وغالبا ما كان حديثنا يمتد فيبتلع الدرس الأول كله .

كان كل واحد منا يقرأ قصائده للآخر ، وكان هو يشعر بتفوقه علي ، لأنه معروف أكثر مني ، لكني لم أكن أشعر بالغيرة على الإطلاق ، لأنني أحس في أعماقي أنني أعد نفسي لسنوات طويلة قادمة ، أي أن روحي كانت تسكن في المستقبل . كنا نشترى بعض الكتب بنقودنا القليلة ، أو نستعير بعضها أحيانا من الأصدقاء ، أو من مكتبة الدار ، وأبدأ أنا بقراءتها أو يبدأ هو ، وكان النقاش يدور بيننا حول ما ينشر من قصائد وأشعار ، سواء في الصحف العراقية ، أو العربية التي كانت تصدر في تلك السنوات ، وبخاصة الأدبية منها .

وقد لمست فيه منذ الدقائق الأولى ذلك الجنوح الرومانسي العنيف ، إذ أن روحه كانت مسكونة بالنور الأبيض ، والطبيعة التي لم تدركها الشيخوخة ، وكان يحلم دائما بطبيعة غسلها المطر ، طبيعة أخرى غير التي نراها ونعيشها في الواقع .

واستمرت هذه الصداقة الى أن تخرج قبلي بسنة ، وافترقنا ، ولم نلتق بعد ذلك إلا بالصدفة ، وقد رأيته في بغداد بعد التخرج مرات ليست كثيرة ، وقد كنت في مدينة وكان هو في مدينة أخرى ، ورأيته مرة في بيروت ، وكان المرض قد بدأ يدب في جسده ، وكان لقاء خاطفا في إحدى دور النشر ، ورأيته مرة أخرى في دمشق في أحد المقاهي ، وكان لقاء عابرا أيضا ، وقد غادرت دمشق بعد ساعات من ذلك اللقاء .

يتصور كثيرون أن هناك خلافات حادة بيننا ، لقد كان هناك خلافات ، لكنها لم تكن قط خلافات شخصية ، بل كانت خلافات بين اتجاهين .

دار المعلمين

● لدار المعلمين العالية ببغداد نصيب وافر في رفد الثقافة العربية بأسماء لامعة ، مثل نازك الملائكة ، وسليمان العيسى ، وشاذل طاقة ، وغيرهم . وكنت مع السياب في طليعة المجموعة ـ فما سر تلك الدار ؟

ـ لا أدري ، أحيانا تتجمع الجداول الصغيرة أو الأنهار الصغيرة فتكون نهرا كبيرا ، وذلك النهر الكبير هو دار المعلمين العالية ، فقد كانت مجمعا بشريا ، وكان الذين يدرسون فيها يأتون من جميع أنحاء العراق ، من القرى ، ومن المدن البعيدة والقريبة ، ومن شمال العراق ، ومن جنوبه ، ومن وسطه ، بل ومن بعض الأقطار العربية ، كما أن الأساتذة الذين كانوا يدرسون فيها في تلك السنوات من خيرة الأدباء والكتاب الذين اشتهروا في تلك السنوات على مستوى العراق والوطن العربي ، وكانت هناك حركة ، وهناك نار تشتعل ، ومن خلال اشتعال هذه النار البطيئة ، أو السريعة أحيانا ، كانت تظهر بعض المواهب التي ذكرتها ، وهناك أسماء أخرى كثيرة غير ما ذكرت .

وكانت دار المعلمين العالية بؤرة صراع بين عالم يموت وعالم لم يولد بعد ، وكان الشاعر الذى يريد أن ينطلق خلافا للتقاليد الأدبية والشعرية في ذلك الوقت يشعر أن العالم الذى يقابله عالم أشبه بالميت ، لكنه ـ أي الشاعر ـ هو الوحيد الذى لم يمت بعد .

الشاعر والنحلة

● أنت مسافر ، وعاشق للسفر ، بل إنك تعتبر السفر قناعا للموت والميلاد ، فبماذا خرجت من كل هذه الأسفار ؟

ـ تسألني عن حصاد هذه الأسفار وجوابي بعجز بيت سائر لأبي نواس ، يقول :

فإذا عصارة كل ذاك آثام !

ياصديقي عصارة كل ابحاري شعر يشبه النحلة التي تطوف بالبساتين والحدائق وتحلق بها وتطير ، وتحط على آلاف الزهور ، ذات العطور المختلفة ، والألوان المتباينة ، لكنها في النهاية تجني عسلا .

لقد استفدت ـ طبعا ـ من جميع الشوارع التي مررت بها، ومن جميع الكتب التي قرأتها ، ومن جميع الأصدقاء الذين التقيت بهم ، فأحيانا قد ألتقي بصديق صدفة في شارع ، أو في مدينة من مدن العالم ، وقد يسلم على صديق ، أو يقول لي جملة بسيطة ، لكن هذه الجملة البسيطة لا تلبث أن تتحول الى قصيدة شعرية ، وربما يحدث ذلك بعد يوم واحد ، وربما بعد عشرين سنة !

هكذا هي نفس الشاعر ، تتجمع فيها الغيوم والأحزان والدخان والكلمات والذكريات والعطور والألوان والموسيقا ، وتتحد في بوتقة واحدة ، وتتحول الى قصائد .

وفي النهاية يبقى الألم الإنساني هو المحرك ، وهو الدافع في كل هذه المدن التي مررت بها ، فقد رأيت بشرا يتعذبون ، ويضحكون ، ويتألمون ، ويسيرون في طريقهم ، وكنت أتوقف أحيانا في هذا الشارع أو ذاك عندما أجد إنسانا غريبا ، يجري مسرعا ، وكنت أود أن استوقف هذا المسرع في مشيه وأسأله الى أين أنت ذاهب ؟ وكنت أجيب أحيانا قبل أن يجيب هو عن سؤالي ، لأنه لا يدري !

وتلك هي حيرة البشر ، وعذابهم في مسيرتهم الكبرى نحو المستقبل ونحو اليوم التالي ، فحركتهم ـ داخلية كانت أو خارجية ـ ورحلاتهم ، وهجراتهم مع الأبجدية والحروف والكلمات هي التي كانت تحركني . فلم أكن مسافرا « سائحا » ، يبحث عن المتعة ، بل كنت مسافرا أبحث عن الحقيقة ، وعن النور ، مثلي مثل السندباد الذي كان يخرج في أسفار بعيدة بحثا عن الكنز ، لكنه اكتشف في نهاية عمره أن الكنز مدفون فيه ، أو تحت عتبة داره !

قصيدة النثر

● قصيدة النثر صيحة ، مايزال بعضهم يصر على أنها لون شعري ـ فما رأيك ؟

ـ لست ضد الألوان الأدبية ، إنما ضد اللونين واللاّفن واللاّشعر ، فعندما يكون الإنسان مبدعا فإنه يبدع بأي لون من الألوان ، وله الحرية المطلقة في ذلك ، لكن بعض الشعراء العموديين يتحدثون عن قضية الشكل ، وتفضيل هذا الشكل أو ذاك ، علما بأن الإبداع ليس حكرا على لون ، بل هو مرتبط بمبدعه ، الإنسان المبدع يكون مبدعا ، حتى عندما يصرخ أو يبتسم أو يقول لا ، وهناك فرق بين صرخة هذا المبدع وصرخة من ليس كذلك .

● المرأة ماذا تعني عندك ؟

ـ هي عنصر أساسي ومهم ، إنها قوة من قوى الإبداع في شعري ، وأنا لا أتوجه إليها مباشرة في شعري ، بل اتخذت من حبها وسيلة وغاية ، للوصول الى وسائل وغايات أبعد منها ، فأنا منها وإليها ، وهي واقع ورمز ومثل أعلى . ولا أفصل في شعري بين هذا الواقع والرمز والمثل الأعلى .

ولادة القصيدة

● لكل شاعر طقوس معينة في كتابة أشعاره، فهل لنا أن نعرف كيف تكتب قصيدتك ؟ وكيف يهبط عليك الإلهام الشعري ؟

ـ تخطيط القصيدة يتم في مخيلتي بصمت ، فأنا لا أكتب قصائدي على الورق ، بل أكتبها ابتداء في ذاكرتي ، وأمحو وأضيف وهي في ذاكرتي أيضا ، وبعد أن أنتهي من كتابتها في الذاكرة أضعها على

الورق ، أى أن ماهية القصيدة فى ذهنى ووجودها بأتيان مرة واحدة متداخلين متحدين ، دون أن يكون لأحدهما سبق على الآخر ، وقد أكتب بعض قصائدى ثم أكتشف ماهيتها أو ملامحها ، فهى كما يقول المتصوفة : « تولد قبل أن تولد » ، وعندما تولد تكون مكتملة ، وتكون ماهيتها متناسقة ، بحيث أشعر أننى لا أستطيع إضافة أى شيء إليها أو حذف أى شيء منها ، وكل ما أقوم به بعد كتابة القصيدة هو أننى أتوقف أحيانا عند كلمة أو تعبير ، هنا أو هناك ، فأشعر مثلا أن هذه الكلمة قلقة فى مكانها ، مثل شعور المهندس المعمارى بوجود حجر غير مستقر فى مبنى كاتدرائية « كبيرة » مكتمل البناء ، فأرفع هذه الكلمة ، وأضع كلمة ملائمة مكانها ، بحيث لا تلبث أن تصبح هذه الكلمة جزءا عضويا فى بناء القصيدة الكلى ، أما عن العبارات أو الجمل الشعرية فقد أتوقف أحيانا عند هذه الجملة أو تلك ، فأرى مثلا أن هذه الجملة ناقصة التكوين ، وعلي أن أضيف إليها بعض الكلمات ، لكى تكتمل ملامحها ، أو أرى أن الكلمات أكبر فى المعنى أو الصورة التى تكتنز بها القصيدة ، أو أرى أن المعنى أو الصورة غير واضحين بالنسبة لقارىء لا أعرف من هو ، فأحاول إعادة صياغة مثل هذه الجمل الشعرية ، دون الإخلال بمكانها ، وبموقعها من السياق العضوى للقصيدة ، أى أننى أستبدل بها جملة شعرية أخرى ، أكثر نصوعا من الجملة الأولى ، دون أن تكون نقيضا لها .

أما متى تأتى لحظات الإلهام الصادقة فتلك قضية ، يصعب شرحها،لكننى أعتقد أن الوحدة بين ماهيتها ووجودها قبل كتابتها هى العلاقة الوحيدة التى يحسها قلب الشاعر .

هل هو زمن الرواية ؟

* يقال إن عصر الشعر قد انقرض ، وبدأ زمن الرواية ، فما رأى البياتى ؟

ـ هذه مقولة لا يتحمل مسؤوليتها إلا قائلها ، لكنها قد تصح عليه ، أو على أحد ما، أو على ظاهرة ما ، إذ ليس هناك مواسم للقصة أو للرواية ، إنما هناك متسع للإبداع فى كل أنواع الفنون الأدبية فى كل العصور ، وازدهار الرواية الأمريكية اللاتينية ـ على سبيل المثال ـ لم يمنع ازدهار الشعر هناك ، بل إنه ربما تفوق على هذه الرواية بكثير من نماذجه ، إذا لم نقل إنهما يسيران فى خطين متوازيين ، ويتقدمان معا .

أما الرواية العربية فأعتقد أنها حققت إنجازات مهمة ، لا تقل عن إنجازات الشعر ، وبخاصة الروايات التى لامست الإنسان العربى ، وكينونته ، واخترقتها بعيدا عن الظرفية المتغيرة ، ومن ذلك روايات نجيب محفوظ ، والطيب صالح ، ويحيى حقي ، وعبد الرحمن منيف ، وفؤاد التكرلي فى روايته الوحيدة التى ترجمت مؤخرا الى الفرنسية ، ويتميز منيف بأن معظم رواياته تدور حول القضية التى تتوهج فى داخله ، ولهذا فإنها صادقة فنيا وواقعيا ، وهذا الرأى ينطبق على أعمال بقية زملائه ، وهى أعمال ـ بالرغم من اختلاف الأزمنة والأمكنة والحيوات التى تتمحور حولها ـ تعتبر إشراقة مبشرة فى أدبنا العربى ، بجانب أعمال نجيب محفوظ التى فتحت الطريق أما تطور الرواية العربية ، نظرا لتاريخه الطويل ، وإبداعاته التى حققها ، بدءا بالثلاثية ، ومرورا « بشلة الحرافيش » . وإننى أرشح نجيب محفوظ لجائزة « نوبل » لأنه مخلص وأمين فى الكتابة ، ولأنه من أكثر الأدباء العرب تعبيرا عن البيئة العربية ، ولأن انتاجه يرتبط بالأرض والإنسان ، كما أن بعض انتاج يوسف إدريس يؤهله لمثل هذا الترشيح . □

الصوم وحكمة تدبير الحياة

بقلم الدكتور محمد فتحي الدريني*

شُرع الصوم في الاسلام عبادةً روحيةً خالصة ، وعلى نقيض ماتقتضيه الفطرة الانسانية مادياً ، مما هو من لوازمها ، بل ومقوماتها حياةً وبقاءً .

وليس لهذه العبادة مظهر إيجابي يمكن الاستهداء به لادائها ، كما هو شأن سائر العبادات والشعائر ، لأن قوامها كف النفس عن مشتهياتها الحلال ، فكانت عبادة سرية بين العبد وربه ، تمثل سريتها عنصر المراقبة المستكن في ضمير المؤمن ، لله تعالى !

لانرى فيما ذهب إليه بعض المتفقهة في تفسير الحكمة الغائية للصوم ـ على أساس من فلسفة الجوع والحرمان ـ تعليلا كافيا ، لادراك الصلة التي تربط الصوم ـ بما هو مجاهدة نفسية واقعية ـ بالحياة الانسانية ، يدبر أمرها ، بما يصلها بالمعنى الحق الذي يتفهم الصائم من خلاله كنه بشريته تجاه مقام الألوهية ، فيؤدي به ذلك إلى تجرد روحي ، يستشعر معه سلطان الله تعالى على نفسه ، بما يغرس خشية الله في قلبه .

فليس التجويع أو الحرمان ـ في حد ذاته ـ بما يورث خوراً في الجسم ، وانهاكا للقوى مما يصح أن يعتبر ـ في الشرع الحنيف ـ غرضا مقصودا لله تعالى أصالة ، لأن هذا بالعقوبة أشبه منه بالعبادة ، وماعهد في شرعة الاسلام أن تقام العبادات الخمس المفروضة على معنى العقوبات ، غاية ومقصدا .

صحيح أن الجوع يورث وهنا في الجسم ، نتيجة أو أثراً لازما لانقطاع مصادر الغذاء عنه في فترات متتالية تستغرق شهرا كاملا ، لكن هذا معنى تبعي

* عميد كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

ـ فيما نرى ـ لايرقى إلى مستوى الحكمة الالهية المقصودة أصالة من هذه العبادة الروحية الخالصة ، بما يستشفها الباحث مما ورد في آية الصوم نفسها ، موصولة بالتقوى في معناها الكلي الذهني المجرد ، الأمر الذي يستوجب أن تفسر موصولة بالهدى القرآني نفسه ، وهدفه العام ، إذ لا تجد جزئية في هذا التشريع ـ حكما أو مقصداً .

ولاتنحصر هذه « الحكمة » أيضا فيما يردده بعضهم من تقوية الارادة ، وقوة الاحتمال والمجالدة ، وإشعار ذوي اليسار بوطأة الحرمان ، ومرارته على النفس في تجربة عملية واقعية ، ليحملهم ذلك على تقدير ما يعانيه الفقراء المكدودون ، إذ لو كان الأمر كذلك ، لكان تشريع الصوم خاصا بهم ، لانحصار هذه الحكمة فيهم ، وليس الأمركذلك بالبداهة ، بل هو تشريع عام ، قد كتب علينا ، كما كتب على الذين من قبلنا ، لوحدة النفس البشرية ، ووحدة مايستهدفه من مقصد عام يدبر به أمرها في حياتها ، وأجيالها المتعاقبة .

وبيان ذلك أن الصوم شرع لاشعار الانسان ببشرية كيانه التي تتسم بالحاجة الضارعة إلى الطعام والشراب ، ومن لوازمها الفناء ، تجد هذا بيّنا في تأكيد القرآن الكريم على بشرية الرسل ، كي لا يتخذوا آلهة من دون الله ، في مثل قوله تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صدّيقة ، كانا يأكلان الطعام » ، وليس هذا من لوازم الألوهية ، لأنه ـ سبحانه ـ يُطعِم ولا يُطعَم ، وأكد القرآن الكريم هذا المعنى في الرسل جميعا : « وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ، وماكانوا خالدين » ، فالطعام والشراب والفناء ، من لوازم البشرية ، فجاء الصوم إيقاظا لوعي الانسان لكنه بشريته ، ليعرف قدره ، فلا يستعلي على مقام الالوهية ، ولا يظلم ولايطغى ، فالحكمة الغائية للصوم موصولة ـ كما ترى ـ بأصالة عقيدة التوحيد ، وما يستوجب ذلك من الايمان بعقائد الاسلام ، وبالقيم التي تنبع منها ، وامتثال أمر الله تعالى في كل ماشرع ، مما يتعلق بصلاح الفرد نفسه خاصة ، وما يتعلق بالأمة ، بل والمجتمع البشرى عامة .

ويؤكد هذا ويوضحه ، أن مفهوم «التقوى» الذي أشار إليه القرآن الكريم ، غاية للصوم ، رجاء أن يحققها الصائم عملا فيما فصله القرآن الكريم من عناصرها ، أو أن يعد نفسه إعداداً كافيا عن طريق الصوم للنهوض بها ، كما يؤكد هذا ما رسمته الحياة الواقعية للرسول ﷺ في هذا الشهر المعظم ، أقول : إن مفهوم « التقوى » قد فصله القرآن الكريم ، والسنة العملية المطهرة تفصيلا ، بحيث يعتبر منهجا عمليا لتحقيق مفهومها الذهني المجرد ، وقد فصله في آية البر ، وآية والبر والتقوى ـ في هذه الآية الكريمة مفهومان كليان جامعان ، متطابقان في مدلوليهما ، لقوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ، ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

مجاهدة النفس

أشار القرآن الكريم إلى أنه أنزل في شهر الصيام « هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان » .

أما كونه هدى للبشر كافة فيشعر بأنه من اليسر والوضوح بحيث يسعهم أن يعقلوه ، ويدركوا معانيه ومراميه ، مصداقا لقوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدّكر » ، وقوله عز شأنه : « بلسان عربي مبين » ، فالهدى معنى قريب مشترك فهمه بين الناس كافة

أما « البينات » فهي أدق وأخص معنى ، لأنها شواهد ودلائل إقناع ، تحمل في طياتها أصول برهان قضاياها ، وعناصرها عقلية تنهض بحقيقتها ، من دقيق المعاني الذي يتضمنه هذا الكلم الالهي المقتدر البليغ المعجز ، وهذا يفتقر - بلا ريب - إلى طاقات عقلية ، وفضل اجتهاد ، وبحث يقوم على التفكير المتعمق من أهله ، لتبينها واستبطانها ، وتمثلها ، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم في الجمع بين « العقل والوحي » .

والصوم مجاهدة نفسية واقعية تؤول إلى تجرد روحي ، وتفتح عقلي ، وإشراق نفسي ، وقد اتخذه الله تعالى وسيلة فعالة لتمكين العقل والنفس من اجتلاء تلك « البينات » التي قوامها شواهد وأدلة إقناعية وتمثلها - مفهوما وغاية - تنهض بالحقائق الكبرى في هذا الوجود ، وعلى رأسها الايمان بالخالق البارىء جل وعلا ، وما يفيض عنها من القيم العليا ، والمثل الخالدة : من الحق ، والعدل ، والحرية ، والمساواة في الاعتبار الانساني ، والرحمة ، والاحسان ، والفضل ، والتضحية والجهاد ، لتأصيلها وإعلائها ، والايثار وانكار الذات ، وغيرها مما يمثل في مجموعه مثلا عليا للانسان ، ويعتبر « فرقانا » فاصلا بين الحق والباطل ، أوفيصلا حاسما بين عهود جاهليات قد زالت وانقضت ، وبين حياة إنسانية فضلى قد ابتدأت بنزول هذه النعمة الكبرى على البشر كافة : « وبينات من الهدى والفرقان » .

ولا مرية أن للظروف - ولا سيما الروحية الخالصة - تأثيراً بالغا على الملكات والقوى المعنوية في النفس الانسانية ، فالمشاعر ترهف وتتقد ، والنفس تصفو وتشرق ، والعقل يشحذ ويتفتح ، فينبرى للتفكير والامعان والتأمل ، ويغدو بصفاء النفس والروح ، ويصبح أقدر على اجتلاء أسرار هذا البيان الالهي المعجز ، وما كان يسهل عليه النفاذ إليها - حقيقة وغاية - لولا هذا الظرف المتجرد ، مما ينطلق فيه الروح من أغلال المادة وأوضارها ، ليحلق في أفق رحب من المعاني ، والحقائق ! والقيم ، فيتقوّى ، ويرقى إلى استشرافها ، ليقتدر على أن يوجه السعي لرغائب هذا الروح ، ويتخذ من الجسد مطية ذلولا لتحقيقها بحكم سلطانه عليه ، ولاريب أن « قوة الروح » هي الكنز المعنوي للانسان ، به تتحقق إنسانيته ، أنى كان ، والصوم من أقوى روافده ، بما يمده من القوة التي يعلو بها عن المشتهيات المادية ، ومنازع الهوى ، وشره « الانانية » الرابضة في أعماق النفس البشرية ، وليس هذا قولا منا نزعمه ، أو نتخيله ، أو نبدعه ، وإنما هو الواقع الحيوي الذي كان يحياه الرسول نفسه - ﷺ - في شهر الصيام خاصة وفي كل عام ، ليضرب للبشرية في أحقابها المتطاولة ، مثلا واقعيا حيا فيما يدبر الصوم من أمر الانسان تدبيرا يؤثر على كيانه ، جسداً وروحاً وعقلاً ونفساً وارادةً ، حيث كان - ﷺ - في شهر رمضان يهجر النوم إلا قليلا ، ويجتزىء بما يقيم الأود من الطعام ، ويرتقي الجبل « غار حراء » ليستعين بالصوم والتجرد ، على التفكير ، استجلاء للحقيقة الالهية العليا ، في هذا الجو الروحي النقي الخالص ، وكان ﷺ لاينى - في هذا الشهر المعظم - يرسل الفكر عميقا أيضا في ملكوت السموات والأرض ، بما يثير فيه وعياً كونياً فضلاً عن وعيه الذاتي الاعتقادي ، تجاه مقام الألوهية ، حتى إذا أخذ منه التأمل والفكر كل مأخذ ، انعطف على العبادة خشوعا ، إعداداً للنفس ، وتهيئة لها ، لتبليغ الرسالة .

معراج إلى الكمال

وليس رفع الانسان بالآيات إلا لكونها معراجاً للارتقاء به إلى المستوى الانساني الفاضل ، وما نظن أن غير الاسلام قد خبر أبعاد الطبيعة البشرية كلها ، وقدرها ثم أقامها - على ضوء من حقيقتها الكاملة - في مثل هذا المقام الرفيع ، نأيا بالانسان عن مصادر الذلة وأسباب الهوان ، وهو ماعبر عنه القرآن

الكريم ، بالاخلاد إلى الأرض ، واتباع الهوى ، على أن الارتقاء إلى هذا المستوى الانساني الرفيع - بما هو خليق بالبشرية أن تعمل جادة على بلوغه - لن يتأتى - على مايوحي به البيان الالهي - إلا بالأمور الآتية :

أولها - بينات الهدى - عقائد وعبادات ومبادىء وقيما ، وهي عناصر مضمون التقوى .

ثانيها - العقل المتفهم المدرك لدقائق تلك البينات ، ودلائلها ومراميها .

ثالثها - التجرد الروحي الذي يستلزم التفتح العقلي - ضرورة - تهيئة للنفس ، وإعدادا لها ، لتقبل هذا الهدي السماوي وبيّناته ، ثم أدائه ، وإنفاذه رسالة ، عن قناعة واختيار ذاتي وهو مانهضت به عبادة الصوم تفسيرا معقولا ومقنعا للوجود الانساني كله على وجه هذه الأرض ، ، مما يذهب بالحيرة التي تنتاب الفلاسفة - منذ القدم - في تفسير هذا الوجود ، منشأ ومصيراً !! .

وإعداد النفس ، وتهيئتها لتقبل الهدى وبيناته ، ثم أدائه وإنفاذه ، رسالة عن اختيار ذاتي ، ومرضاة لله تعالى ، وهو الحكمة الغائية من الصوم المعبر عنها بقوله سبحانه : « لعلكم تتقون » إذ كلمة « لعل » كما تكون للرجاء ، تكون للاعداد والتهيئة أيضا ، على ماذهب إليه كثير من المفسرين ، وماضربه الرسول - ﷺ - من مثل حي في التجرد والاعداد في شهر الصيام مما يؤكد هذا المعنى .

رابعها - أن الانسان يعجز بالعقل وحده - مجرداً عن « البينات » - أن يتولى قيادة نفسه ، فضلا عن أن يملك القدرة على قيادة غيره ، إذ غالبا ما يفقد المرء - بحكم سيطرة الهوى الغالب المتبع - الهيمنة على مركز القيادة في نفسه ، وهو « العقل » ، وذلك إما بتعطيل أحكامه ، أو العبث بسلامة منطقه ، أو لقصوره عن إدراك الحقائق العليا في الوجود الانساني ، ولا سيما حقيقة النفس البشرية ذاتها ، لتعقدها . تلك الحقائق العليا التي قامت « البينات » على أساسها ، وحيا ، مبرأة من دوافع الأنانية ، وبواعث الهوى ، والعصبية ، أيا كانت صورها .

ولاجرم أن تلك الحقائق الكبرى التي نهضت بها بينات الهدى في الاسلام ، هي ماتقتضيه الفطرة الانسانية نفسها ، إذا برئت من العوارض التي يلتاث بها نقاؤها ، وسلامتها ، لقوله تعالى : فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » .

اختلال التوازن

إن « المشكلة الحقيقية » التي واجهها الاسلام في « الانسان » هي « الأنانية » ، وما تستتبع من الهوى ، ترى ذلك بينا في توجيهات رسالته ، تشريعا ، فضلا عن عقائده ، وعباداته ، لما « للأنانية » من أثر في اطراح القيم ، والاستخفاف بالمثل العليا ، لسبب بسيط ، هوأن « الأناني » أو العنصري وأضرابها - والعنصرية ضرب من الأنانية الحادة المسرفة - يشعر أن الدنيا كلها قد خلقت من أجله هو أو يعتقد ذلك ، وأنه هو محورها ، وأن ليس ثمة من غرض يسعى إليه في حياته إلا تحقيق مصالحه الذاتية المباشرة ، ويشيع هذا المعنى في الشعب الأناني العنصري فيحمله على الاعتقاد أنه شعب الله المختار ، وهْما وخرافة ، وأن غيره من شعوب الأرض دونه ، حتى في جوهر الانسانية ، وأن تلك الشعوب ذات الأعراق المختلفة ، إنما خلقت - في وهمه - مسخرة لمصالحه الخاصة ، بل وللهيمنة عليها ، إلى آخر ماتمليه هذه العقيدة ، والفكر المتعنصر الضال الذي هو بالأساطير أشبه ، ومن هنا ، كان الانسلاخ عن « البينات » - في نظر الاسلام - تدنيا وهبوطا سحيقا عن المستوى الانساني الذي عبر عنه القرآن الكريم بالاخلاد إلى الأرض ، واتباع الهوى ، وفيه من الفساد في الأرض مافيه !! □

فتى دير الغصون

شعر :
يوسف عبد العزيز

. . . أخيراً
ها تركتَ البحرَ في قفصٍ ،
وجئت ،
تُراكَ تهجسُ بالنّهارِ الأزرقِ الفتّانِ ؟

□

مثلكَ ما اكتوى بدموعِ نرجسةٍ ،
ومثلكَ ما رأى شجراً ،
يصفّقُ للطّيورِ ،
مشقّقَ الكفّينِ ،
يا ابنَ الماءِ ،
والقمرِ الذي يحبو على الحيطانِ ،
أين أضعْتَ قلبَكَ ،
واقترفتَ الشّعرَ ؛
حتّى جمّعْتَ أمواجَها بنتُ النّشيدِ ،
وَفضْتَ بالنّيرانِ ؟؟

□

أينَ أضعتَ قلبكَ ؟
أيُّ زهرٍ خاسرٍ يبكي على الشّرفاتِ أنتَ ،
وأيُّ طيرٍ ينقرُ الصّوّانَ ؟!
في هذا المدى النّاريِّ
ليسَ لقبّراتِ الحقلِ أفقٌ ،
حيثُ تنتشرُ الطّواويسُ الكثيرةُ ،
والجرادُ يهبُّ من جبلٍ بعيدٍ نابحاً ،
ويمزّقُ الرّمانَ .
ما أبهى غبارَكَ أيّها القرويُّ ، مثلي ،
أيّها الضّلعُ المطاردُ في زوايا الصّدرِ ،
يا زيتونةً ،



● دير الغصون : قرية فلسطينية ، تقع في قضاء مدينة طولكرم المحتلة .

منهوبةً ،
ترثُ
السُّدى .
حدّثتنى عن (دير الغصونِ) المقيمةِ عندَ بابِ البحرِ ،
وهي تضيء بالزّيتِ المقدّسِ في المساءِ سراجَها ، وتنامُ ،
عابقةً بطعمِ اللّوزِ ، تاركةً وعولَ الارضِ تهذي في البراري ،
والنّسورَ تصيحُ في أبراجها .
حدّثتني
عن رجفةِ النّعناعِ في منديلها البريِّ ، حين تمسُّهُ النّسماتُ ،
عن حَجَلٍ (يبرجمُ) في سهوبِ الغيمِ محتشداً على
أكمامها ، وحجارةٍ مكسوّةٍ زغَباً ، يفيضُ حليبُها
في الصُّبحِ حين يشبّبُ الرُّعيانُ .

□

أينَ أضعتَ قلبَكَ ؟
أيُّ شيطانٍ جحيميٍّ يقودُ خطاكَ
نحوَ ضلالكَ الآتي ؟
فتتركُ (دير الغصون) الجميلةَ عند بابِ البحرِ ،
تسألُ حارةَ الزّيتونِ
عن ظبيٍ ، تسيلُ يداهُ ورداً ،
عن شقيٍّ راحَ يطلبُ مهلكًا .
مهلاً ،
ستخدعُكَ القصيدةُ ،
والسّماءُ الناعمة ،
وتشيبُ روحُكَ في ضبابِ الحبِّ ،
يا غصناً من الليمونِ أخضرَ ،
يا شريكاً في القصيدةِ
مُشركًا .





دروسٌ مُستفادة في: إدخال تقنية الفضاء

بقلم : حمدي قنديل

ان عملية نقل التقنية أبعد من شراء المعدات مصنعة وجاهزة ، ولابد أن تكون مسبوقة بدراسة شاملة لقدرات المجتمع الذاتية ، وامكانيات تطويع هذه التقنية لابتداع وسائل خاصة بهذا المجتمع تسهم في تعزيز كافة فروع التنمية .

مرت الآن سنتان على إطلاق القمر الصناعي العربي ، ولم تأت الشبكة الفضائية حتى الآن بالنتائج المرجوة منها . ولسنا هنا في معرض تقييم هذه التجربة ، بل ان المراقب الحريص عليها يود أن نغمض العين عن مثالبها في الوقت الذي تتولى فيه زمام الأمر في المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية ، ادارة جديدة لها مكانتها ، ورثت عن سابقتها تركة مثقلة ، وفي الوقت الذي تحاول فيه المؤسسة تبني طرق جسورة جديدة ، من بينها فتح الباب أمام الجهات غير الحكومية للمشاركة في العمل الاذاعي . وهو درب غير مألوف في دنيا الاعلام العربي ، سوف تكون له عواقب هامة تتوقف على مدى كفاءة تلك الجهات ، وأمانتها وجديتها . كل ما نريده الآن هو أن نطرح وراءنا تحقيق مشروع القمر العربي في حد ذاته ، في الوقت الذي نستخلص منه العبرة التي تفيدنا عند ادخال أي تقنية جديدة ، خاصة اذا كانت هذه التقنية في مجال الاتصال والاتصالات وما شابهها .

ونقل التقنية من الدول الصناعية الى الدول النامية قضية خطيرة طال الحديث عنها . ولكن الأخطاء التي ارتكبت في الماضي في طول العالم وعرضه ما زالت تتكرر هنا وهناك . وما زال العالم الثالث أبعد ما يكون عن استيعاب الدروس المستفادة . ويبدو أننا لم ندرك بعد أن نقل التقنية عملية متكاملة ، وليست نقلا لبضاعة أو استيرادا لمنتجات جديدة . ومعظم ما نراه الآن في الدول النامية يكاد يثبت لنا قول باحث الفضاء الهندي الشهير (باش بال) من أن ما نراه ليس نقلا للتقنية ، فهو لا يعدو أن يكون صفقات ومعاملات تجارية ليس لنا فيها فضل أكثر من قيامنا بسداد المال مقابل حصولنا على السلعة . وربما انطبق

هذا القول على صفقة القمر العربي ، التي يمكن أن نستفيد منها بخبرات متعددة يمكن اجمالها في هذا العرض .

تطويع التقنية

إنه من الضروري - على حد قول تقرير لليونسكو حول سياسات الاتصال في الأقطار العربية - ان نربط بين مفهوم اقتناء نتاج الدول المتقدمة صناعيا ايا كان وبين تطويع التقنية ، اذ أن التقنية لا تنقل كما هي ، بل تمر بمجموعة من المراحل المتكاملة تعتمد أساسا على تجميع المعلومات ثم تحليلها لاستنباط قرار معين . وهذه المراحل تبدأ بالوقوف على التقنيات الأجنبية البديلة ، ثم تقييم لمدى نجاح أو فشل تطبيق كل من هذه التقنيات ، وبعد ذلك الوقوف على الظروف البيئية الخاصة بنا ، ثم دراسة واختيار أفضل التقنيات في ضوء ادائها الفعلي ، ومدى تواؤمها مع البيئة ، وأخيرا تطويع التقنية المختارة لتصبح قابلة للتطبيع في بيئتنا العربية . وعلى سبيل المثال ، فقد كنا مفتونين في بداية تفكيرنا في مشروع القمر الصناعي العربي بالنظام الفضائي في كندا ، والامكانات التي يتضمنها للبث التلفزيوني الى التجمعات السكانية المتناثرة في المناطق النائية ، فاستعرنا منه فكرة ادخال قناة غزيرة الاشعاع على القمر ، يمكنها أن ترسل البث الى البيوت مباشرة . ولم نأخذ في الاعتبار الظروف السياسية التي تحول دون استخدام هذه القناة في بث برنامج واحد الى كل الأقطار العربية التي تسيطر حكوماتها على وسائل الاتصال بشكل مباشر أو غير مباشر .

تحديد الاحتياجات

ان تحديد الاحتياجات بدقة ، خطوة هامة لابد أن تسبق القرار بالاختيار التقني . وربما لا تكون هناك حاجة على الاطلاق لأي تقنية جديدة . ولابد من خبرة مكثفة لمعرفة ما اذا كان من الأنسب لبلد أو مجموعة من البلدان أن تحصل على أحدث التقنيات ، أم تكتفي بالحصول على معدات أكثر تواضعا . ولا يعلم أحد تماما ما اذا كانت الاكتشافات التقنية الحديثة تجعل المعدات أقل أم أكثر كلفة . وفي بعض الأحيان تخصص مبالغ ضخمة لمعدات أكبر قدرة أو أكثر تعقيدا مما هو ضروري . وهكذا فقد يلجأ البعض الى الأقمار الصناعية بداع أو بغير داع ، أو الى أقمار أكثر تعقيدا مما نحتاجه فعلا .

إن ادخال التقنية يعتمد أساسا على تطوير القوى البشرية ، والخبرات الفنية المتعلقة باستخدامها . وقد أعطت الجزائر نموذجا كافيا لابد من احتذائه عندما استخدمت أقمار « انتلسات » الدولية في عام ١٩٧٤ إذ اهتمت اهتماما خاصا بتدريب الفنيين والمهندسين الذين قاموا بالمشاركة في تنفيذ وإنجاز المشروع . ولكننا نجد أن هذا التخطيط غائب في حالة القمر الصناعي العربي . وعندما طلبت مؤسسة « عربسات » من هيئاتها الأعضاء أن ترشح لها عددا من المهندسين للتدريب على تشغيل الشبكة اعتذر الكثيرون عن تلبية هذا الطلب لندرة المهندسين المؤهلين لهذا العمل . واحتياج الهيئات التي يعملون بها اليهم . وهكذا جددنا للسنة الثالثة على التوالي عقد الشركة الأجنبية التي تشرف على مراقبة التشغيل .

تطوير المعارف والعلوم

إن ادخال التقنية الحديثة لا يعتمد فقط على تدريب القوى البشرية المتخصصة في هذا المجال أو ذاك ، ولكنه يستلزم تطويرا عريضا للمعارف والخبرات والمهارات في كل الميادين ، ابتداء من محو الأمية حتى أكاديميات البحوث ، ومن جهود تبسيط العلوم للمواطنين العاديين الى الحد من استنزاف الكفاءات العلمية ، وهجرتها الى الدول الصناعية .

ويستلزم من الجامعات أن تطور مناهجها بحيث تتضمن مناقشة التقنيات الجديدة ، وخاصة تلك التي تعني أكثر من غيرها بلدا بذاته أو منطقة معينة . فكم

كان لدينا يا ترى من الجامعات التي تدرس مناهج الفضاء ، وكم كان لدينا من مراكز بحوث الفضاء في الوطن العربي ونحن نعد للشبكة الفضائية . وهل يمكن أن تنبت تقنية كهذه مثل النبات الشيطاني في بيئة لا تحترم العلم ولا العلماء الاحترام الكافي ؟

إن الاختيار التقني أمر يعبر عن الاختيار السياسي والاجتماعي للمجتمع ، الذي يشكل الأرضية الرئيسية لاتخاذ قرار دون غيره . فهل ستقوم وسيلة تقنية معينة بخدمة المحرومين من السكان أم يستفيد بها أهل الصفوة وحدهم ؟ وهل سنعزز بها الحوار والتواصل بين فئات الشعب المختلفة وبينها وبين السلطة ، أم نستخدمها لبث المعلومات والتوجيهات والارشادات في اتجاه واحد من الحاكم الى المحكوم ، ومن العاصمة الى الاقاليم ، وبذلك نعني بوضع محطة رئيسية واحدة للارسال الى جانب كرسي الحكم ، وكل ما عداها محطات للاستقبال والتلقي ؟ وهل نضع التقنية في يد القطاع الخاص لأننا نؤمن به كأداة للانتعاش الاقتصادي ، أم نخضعها لمشيئة الدولة ولرعاية الدولة ونؤكد بها سيادة الدولة ؟

إن قرار ادخال تقنية معينة لا يتعلق فقط بالمعدات ولكنه يتعلق بالرسالة التي تحملها هذه المعدات . ومن أكبر المآخذ على مشروع القمر العربي فيما يتعلق باستخداماته الاذاعية والتلفزيونية أنه عني بمعدات الشبكة أكثر من عنايته بالبرامج التي سوف تنقلها . وكان الكثيرون من الاذاعيين يأملون أن تقوم الأقطار العربية - التي أنفقت ما يزيد على اربعمائة مليون دولار على الشبكة الفضائية بأقمارها الصناعية ومحطاتها الأرضية - برصد واحد أو اثنين في المائة من هذا المبلغ على البرامج التلفزيونية التي يمكن تبادلها وبثها . ولكننا كعادتنا مغرمون بالشكل لا بالمحتوى ، وبالمغلف لا بالرسالة .

إن قرار ادخال التقنية يجب ألا يقتصر فقط على ادخال المعدات ذاتها حتى ولو تم تطويعها بما يتناسب والبيئة والظروف المحلية . فالذي يحدث عادة هو اننا نضع في مرتبة ثانية تشغيل المعدات وصيانتها ويتساءل محمد عبده يماني : « ماذا يكون من أمرنا اذا أدخلنا (كمبيوتر) بالغ الحداثة ثم حجب الصانع عنا وسائل الصيانة وقطع الغيار ؟ » ويروي لنا المهندس الاردني اسامة عصفورة من خلال تجربته العلمية كيف أن « عدم التزام قسم من الشركات الصانعة بتوفير قطع الغيار اللازمة لتشغيل أجهزتها للمدة الزمنية المتفق عليها قبل الشراء يؤدي الى عدم الاستفادة منها بالكفاءة المطلوبة . هذا بالاضافة الى أن العديد من الشركات الصانعة تحجب كثيرا من المعلومات الهندسية والرسومات لبعض الدوائر الالكترونية التي تساعد مهندسي الصيانة والتشغيل على القيام بأعمالهم . لكن الشركات تقول بضرورة استبدال القطع غير الصالحة كلها مثل الألواح الالكترونية على سبيل المثال ، وارسالها للشركات الصانعة لاصلاحها . وهذا يعني بالاضافة الى ارتفاع كلفة التشغيل وطول فترة الاصلاح عدم تمكين مهندسي التشغيل والصيانة من معرفة تركيب الأجهزة التي لديهم بالتفصيل المطلوب » .

التنسيق بين القطاعات المعنية

إن الاختيار التقني في مجال الاتصال يجب أن يتم بتنسيق وثيق بين الأجهزة الاعلامية وهيئات الاتصالات . وقد رأينا كيف أن التخطيط لمشروع القمر الصناعي العربي يمكن أن يتخذ نموذجا للاسلوب الذي لابد من تحاشيه . فقد كان رجال الاتصال يعملون في واد ورجال الاتصالات يعملون في واد آخر . وتاريخ الاعداد للمشروع يعكس الشد والجذب بين الطرفين اللذين يبدوان كما لو كانا زوجين أنجبا طفلا ثم افترقا ، وفي حين أن أحدهما يدعي الأحقية برعاية الطفل فان الآخر قد أخذه في حوزته ، وحتى قبل أن يبدأ التفكير في مشروع القمر العربي ، أو يبدأ التعامل مع الأقمار الصناعية على اطلاقها في المنطقة ، نجد أن خطط الاتصالات لم

تأخذ في اعتبارها مصالح أجهزة الاعلام في أحيان عديدة ، على النحو الذي لاحظناه مثلا بشأن الشبكات الأرضية التي تمد دون أن تحتوي على مكانات للنقل التلفزيوني .

الخطة الشاملة

مهما كان لهيئات الاتصالات والاعلام معا من علاقة تبدو أوثق اتصالا بالقرار الذي يتخذ بشأن الاختيار التقني في مجال الاتصال ، إلا أن هذا القرار لا يعنيها وحدهما ، وإنما يعني قطاعات عديدة من المجتمع . أقربها الى الذهن في حالة « عربسات » قطاع التربية . والكل يعلم أن قرار اقامة الشبكة الفضائية تم بمعزل عن التربويين . والأدهى من ذلك أنه تم تبرير القرار الى حد كبير بدعوى أن المشروع سوف يساند العمليات التربوية وسيعين على محو الأمية ، وسيقوم بتدريب المعلمين وسيبث برامج تعليمية واحدة في وقت واحد في المدارس العربية . كما أن القطاعات الأخرى المعنية بالتنمية كانت غائبة عند اتخاذ القرار أثناء عمليات التخطيط . ولا يدري اليوم أحد - بعد اطلاق القمر بسنتين - ما اذا كان في نية الهيئات الطبية - على سبيل المثال - أو في نية الجامعات أو غيرها من المؤسسات في المجتمع ، استخدام القمر العربي لخدمة أنشطتها . كما أن أحدا لا يعلم على وجه التحديد - اذا ما سقنا مثلا آخر - على أي نحو تستفيد بنوك المعلومات بالقمر ، أو هل هي في حاجة اليه أساسا ؟

التعريف بالتقنية الجديدة

واذا كان قد فاتنا أن نشرك كافة الهيئات المعنية في التخطيط لادخال التقنية الجديدة ، فلا أقل من تعريفهم بها حتى يتبينوا اذا ما كان يمكنهم استخدامها . وهكذا فلابد من توفير المعلومات الكافية عن هذه التقنية والتوعية بشأنها . وهو واحد من المجالات التي لم تقم فيها الادارة السابقة لعربسات ، بأي جهد حتى من قبيل الترويج التجاري للاستخدامات المختلفة للقمر العربي .

وقبل أن يطلق القمر بعامين دعا عبدالعزيز الرواس وزير اعلام عمان الى اصدار الكتب والكتيبات والشرائح والافلام ونشرة دورية للمعلومات تعرف بالمشروع . وقال ان عربسات - كأي مشروع استثماري - يحتاج الى ترويج والى مندوبي مبيعات .

وأضاف ان هناك هوة كبيرة في المعلومات بين هؤلاء الذين يصممون للقمر ، ويخططون لاستخدامه ، وبين اولئك الذين يتوقع منهم أن يتخذوا القرارات العملية بشأن الاستخدامات المختلفة .

المساواة بين المصالح المختلفة

إن الاختيار التقني في مجال الاتصال أمر يتعلق بوسائل الاعلام جميعا ، وليس بواحدة منها على حدة . ويجنح كثيرون عند اتخاذ قرار بهذا الشأن ، الى أن يفكروا في أكثر هذه الوسائل بريقا وهي التلفزيون ، ويبحثون عن مصالحه دون غيرها أو قبل غيرها ، باعتبار أن العناية بشئون الوسائل الأخرى أمر ثانوي ، أو أمر يسير يمكن إيجاد حلول له دون عناء . وقد رأينا كيف ينطبق ذلك على القمر الصناعي العربي كما انطبق على غيره من نظم الاتصالات في الماضي . رأينا كيف أن مصالح الاذاعة الصوتية على سبيل المثال اختفت في الظل ، وكيف أنه لم توضع خطط لانعاشها بواسطة القمر . كما أنه في الوقت الذي تزداد فيه حركة المواطنين العرب بين الأقطار العربية ، ويزداد اهتمامهم بشئون بعضهم البعض ، وتزداد أعداد قراء الصحف بينهم ، وتزدهر الصحف في بعض البلدان ، ويرتفع في الوقت ذاته أجر نقلها بوسائل النقل التقليدية مثل الطائرات ، لم يتم اجراء دراسة حول امكان الاصدار الآني لطبعات من الصحف العربية في بلدان عربية أخرى . ويجمل القول أن التعامل مع التقنية يجب أن يتم في ضوء سياسة اتصال شاملة ، يشارك في وضعها الاعلاميون جميعا . □



هل يمكن أن يلد الرجال ؟

بقلم : الدكتور أحمد محمد الكباريتي*

ليس من المستبعد أن تتم الأبحاث قريبا لتقلب المعايير المألوفة لدينا بشأن الحمل والولادة ، وقد يكون من الممكن في القريب العاجل أن يقدم العلم لنا .. الرجل الحامل ، ولنذكر انه منذ عشر سنوات فقط كان من المستحيل التفكير في مواضيع مثل أطفال الأنابيب والأجنة المثلجة والقلوب البلاستيكية وغيرها ، مما أصبح الآن مألوفا لنا واعتدنا على حدوثه !

تقدم الجراح وفتح في بطن المريض الراقد أمامه في غرفة العمليات فتحة طولها ٥ سم ، ودس فيها كيسا يحوى رحما به بويضة ملقحة ، وأنهى عمله بطريقة تجميلية ، حتى لا يترك ندبة كبيرة بعد التئام الجرح ، وانتظر فريق الأطباء .. هل يلفظ الجسم هذا الرحم الغريب المزروع فيه ؟! ولما لم يحدث ذلك ، تنفس الأطباء الصعداء ، وظهرت عليهم علامات الرضا والنجاح ، فقد بدأ الجسم الغريب في النمو ، وكون مشيمة ، وبدأ في امتصاص غذائه من الأمعاء ، ولا عجب فقد كانت تلك تجربة تحدث لأول مرة ، فان المريض الراقد على منضدة العمليات كان رجلا زرع في جسمه لتوه رحم انثى به بويضة ملقحة ، وسيتم الرجل الحمل ، ويلد جنينا صحيحا معافى ، وسيتمكن العلماء كذلك من حمل البشرى له ان كان المولود ولدا أو أنثى قبل الولادة ، ان ذلك ليس من تخيلات العلماء ، بل من المستطاع حدوثه ، ولا توجد عقبات كبيرة في سبيل تحقيقه ، ولكن هل

---

* استاذ علم الوراثة - كلية العلوم - جامعة الكويت



هناك ما يدعو لذلك ؟ هل هناك ما يدعو الرجل أن يحمل ويلد تماما كالأنثى ؟

ليس كل الحالات

لقد أصبح هذا الموضوع الشغل الشاغل لبعض العلماء ، فيما يسمونه بالبلدان الصناعية المتقدمة ، ولا حديث للمجلات - سواء كانت علمية او شبه علمية - الا مناقشة هذا الموضوع ، كأن العلم قد انتهى من حل كل مشاكله ، ولم يبق الا أن يلد الرجل . قد يكون ذلك ترفا علميا ، ولكن تعالوا معنا لنرى وجهات النظر التي تناولها العلماء بالبحث والمناقشة بالنسبة لهذا الموضوع ، قد يكون من المطلوب أن يلد الرجل في الحالات الآتية :

١ - الحالات الشاذة من الجنس (الخنثى) التي يتكون فيها أعضاء تناسلية مذكرة ومؤنثة ، والتي أصبح الآن - مع تقدم الطب - أمر معرفة سببها ممكنا ، وكذلك اجراء جراحات تصحيحية لبعض منها ، وتحويلها الى ذكر ظاهريا ، بعد استئصال ما يكون بها من أجهزة مؤنثة .

٢ - في حالات اللواطيين ، فقد يكون من المرغوب في هذا النوع من الشذوذ أن تلبي رغبات دفينة لديهم ، في أن يكونوا إناثا بالفعل ، ولعل الحمل والولادة من الأمور التي تلبي رغباتهم النفسية الدفينة ، وفي هذه الحالة لا ينقص مثل هذا الزوج شيئا الا بويضة ملقحة ، حتى يتحقق له تكوين أسرة وجو عائلي كامل !!

٣ - أليس ذلك رغبة ما يسمى بالجنس الثالث ؟ فهم يتعاطون الهرمونات المؤنثة ، ويصرفون الكثير من الجهد والمال حتى يبدوا كالنساء ، فاذا حملوا وولدوا حقق لهم ذلك كبرى الأمنيات التي تصبو نفوسهم اليها .

٤ - ومن أجل الانصاف فان العلماء الآن ليسوا متحمسين لاجراء مثل هذه التجارب على الرجال ، على الأقل في الوقت الحاضر ، فهم في شغل عن ذلك بما هو أهم ، اذ يجد العلماء انه يمكن مساعدة الاناث اللاتي حكم الزمان عليهن باستئصال ارحامهن ، وقد تكون عملية زرع رحم جديد به بويضة ملقحة ، من الأماني الكبيرة التي يمكن تحقيقها لهن .

تجارب مستمرة

ولنرجع مرة ثانية الى كيفية اجراء تجارب الحمل والولادة للرجال ! اكتسب العلماء خبرات كبيرة من ظاهرة الحمل خارج الرحم التي تحدث في بعض الاناث ، حيث تستقر البويضة الملقّحة في النسيج الدهني الغني بالشعيرات الدموية ، وتبدأ البويضة الملقحة في الانقسام مكونة المشيمة التي لها القدرة على امتصاص الغذاء من جسم الأم ، لتنمو وتكون جنينا ، ولدينا الآن ٢٤ حالة معروفة لأمهات تم استئصال الرحم لديهن ، ومع ذلك فقد تمكن من الحمل ، وولادة أطفال أصحاء ، بزرع بويضة ملقحة في بطونهن ، وتثبت هذه الحالات أنه ليس هناك عائق في أن يحدث مثل هذا في الرجال .

أجرى أحد العلماء تجربة على نوع من القردة ، فزرع في ذكر من هذه القردة بويضة ملقحة في تجويف البطن ، وحدث فعلا الحمل ، غير أن هذا العالم انهى الحمل بعد أربعة أشهر ، بعد أن استنفذ البحث أغراضه ، فلم يكن الغرض من هذه التجربة أن يثبت هل يمكن أن يحمل الرجال ، بل كان الغرض اثبات مدى اعتماد الجنين على نفسه في حالة نموه في منطقة خارج الرحم .

ان اجراء مثل هذه العمليات ـ بالطبع ـ ليس بهذه السهولة التي ذكرناها في أول المقال ، فمن المعروف أن كثيراً من حالات الحمل خارج الرحم قد تنتهي وتفشل في الأشهر الأولى من القيام بها ، بسبب النزيف الدموي ، وقد يلزم في حالة الرجل ، أن يبقى في المستشفى راقدا في الفراش ، وتحت الرعاية الطبية طوال شهور الحمل التسعة ، كي يستقبل وليده المنتظر ! وليس ذلك فقط ، بل ان هذه العملية محاطة بكثير من المخاطر ، أقلها أن الرجل بعد هذا الحمل سيفقد المقدرة على ممارسة الجنس السوى ، اذ يفقد العضو التناسلي لديه القدرة على الانتصاب .

العلماء منقسمون على أنفسهم في موضوع حمل الرجل ، فالبعض يرى أن حمل الرجل عمل معيب لذلك لن يقوموا بإجراء التجارب عليه ، والبعض الآخر ـ كالعادة ـ يتحمس لاجراء مثل هذه التجارب ، تماما شأن أي اكتشاف علمي جديد ، والطريف أن فريق العلماء المتحمسين لاجراء مثل هذه التجارب يتنبأ أن تقل نسبة الجرائم في العالم إن حمل الرجال ، حيث أن ذلك سيغير من الأمور المألوفة ، وسيصبح الرجل هادئا غير ميال للعنف .

هل يقوى الرجل على ذلك ؟

ويحتدم النقاش بين العلماء ، هل يلد الرجل أم لا ؟ ويتدخل المناصرون للمرأة ويقولون لا ؟! فقد يتخلص الرجل من عقده النفسية ، فعندما يحمل ويلد سيتخلص من عقدة النقص انه أقل شأنا من النساء !! .

ويرى البعض أن الرجل يحصل على كل ما يطلبه ويبغيه ، فلم يبق أمامه شيء سوى أن يحمل ويلد ، وبالتأكيد فان الرجل سيحصل على هذا المطلب كذلك مادام قد وضعه ضمن اهتماماته ، تماما كما حدث في العصور السابقة .

هل يعتبر الحمل والولادة من الأمنيات التي يجب الرجل أن يحصل عليها ؟ انني لا أعتقد ذلك ، فالحمل والولادة عمليتان مجهدتان مصحوبتان بالآلام والتوجعات التي لم يخلق لها الرجل ، فآلام الحيض الشهرية التي تأتي للمرأة ، وتمر دون أن يلاحظها أحد في معظم الأحيان ، فإذا افترضنا أنها جاءت للرجل ، فانه لابد أن يرقد بسببها طريح الفراش ، ثلاثة ايام أو أربعة شهريا ، فما بالك بآلام الوضع ؟ إنني لا أظن أن الرجل بتكوين جسمه الضعيف بيولوجياً .. سيتحمل كل هذه الآلام . ربما يتبادر الى الذهن أن الرجل اذا حمل فلن يلد ولادة طبيعية ، فليس هناك فتحة مهبل ، ولا عنق رحم ، بل سيجرى له عملية قيصرية ، فاذا سلمنا بذلك ، فهل يقوى جسم الرجل ويستوعب كل هذه التغييرات الفسيولوجية التي تصاحب عملية الحمل والولادة ؟ وهل ستقوى عضلات بطنه على حمل هذا العبء الثقيل في شهور الحمل الأخيرة ؟ هل هناك في فراغ البطن وعظام الحوض متسع لهذا الكم الهائل في الوزن والحجم للجنين الكامل ؟

انني أتصور أن الرجل لا يقوى على حمل جسمه في الشهور الأخيرة ، والجنين في بطنه يبرز أمامه عشرات السنتيمترات ، ولنترك الحمل للنساء اللواتي خلقن لذلك ، وليفكر الرجال في شيء آخر أفضل لهم وأجدى من هذا .

وصدق الله العظيم حين يقول : « ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » □

قضية

الشعر بين التجربة والإلهام

بقلم : الدكتور عبدالعزيز المقالح

هل الشاعر إنسان قادر على التذكر والتركيز ، فيتولد عن ذلك التذكر وعن ذلك التركيز عالم من الظل والضوء ، ترى فيه العين العادية من الصور والايحاءات ما لاحصر له ولا عد ؟

أم أن الشاعر إنسان ملهم ، يأتيه فيض تلقائي من الخيال ، وتنثال عليه الصور والمعاني من عالم مجهول ؟ وهل يستطيع المبدع أن يبدع من الفراغ ، وأن يوجد ما ليس موجودا ؟وكيف يتلقى المبدع ذلك الابداع ، ومن أين ؟ وهل الشعر جوهر مكثف لمجموعة قديمة من الخبرات ، استوعبها العقل ، واختار منها ما يشاء في لحظة من اللحظات ، وأضاف إليها من نشاطه الابداعي ما جعلها عملا فنيا مكتملا ؟ وما دور الحلم والتخيل في صورة الواقع ، هل يسلبانه واقعيته ، أم يقويان من هذه الواقعية ، ويزيدانها وضوحا وجمالا ؟

لحظة الاشراق

تواردت هذه الأسئلة إلى ذهني بعد حوار عميق وطويل ، دار في ملتقى أدبي ، ضم عددا من الأدباء اليمنيين ، في حضور إخوة لنا وزملاء من أدباء الكويت الشقيق وشعرائها ، وكان الحوار يدور حول لحظة الابداع أو لحظة الاشراق في الفن ، وعن دور التجربة والالهام في عملية الابداع الأدبي والشعري على الأخص . وقد تضاربت الآراء وتأرجحت حول اتخاذ هذا الموقف أو ذاك ، وبالرغم من أن الاتفاق كان تاما تقريبا حول حقيقة أن العمل الأدبي لايعبر عن الواقع المحسوس فقط ، وإنما يعبر كذلك عن واقع آخر روحي نفسي ، وأن العمل الأدبي كما يكون تعبيرا عن الواقع فإنه يكون كذلك تعبيرا عن الحلم . أقول بالرغم من الاتفاق التام

حول هذه الحقيقة فإن لحظة الاشراق واللقاء بين الشاعر وقصيدته ، وبين الرسام ولوحته ، وبين الموسيقي وموسيقاه ستظل موضع بحث لا ينتهي ، وستبقى تلك اللحظة سرا يستعصي على الكثيرين.

ولأن المبدعين يختلفون في حجم مواهبهم ، ومن ثم في حجم ثقافتهم ، كما يختلفون في نوعية الاستقبال ، ثم في نوعية الارسال واختلافهم كذلك في درجة الانفعال والاستجابة ، ولأن الأمر كذلك فإن من الصعب الحديث عن تجربة محددة ، أو عن مجموعة من التجارب ، باعتبارها قاعدة عامة ، يمكن تطبيقها على بقية المبدعين ، وقد أثبتت الأحاديث العابرة لبعض الشعراء الذين ضمهم الملتقى القصير أن كل شاعر منهم يتفرد بأسلوبه ، وبطريقة كتابته للقصيدة أو تقليصها ، وقد كان الصديق خالد سعود الزيد وهو من كبار الشعراء في الكويت ، أسرعنا ـ جميعا ـ إلى تقديم نماذج من استجابات شديدة التميز والخصوصية في كتابة الشعر ، وهي استجابات متنوعة ، وغنية الأساليب ، لم يتسع الوقت إلا لعرض ثلاثة نماذج منها :

أولا : الاستجابة البطيئة .

ثانيا : الاستجابة الواقعية التي تتوقف على تجربة ما .

ثالثا : الاستجابة الفورية ، وليدة الإلهام المسبوق برغبة ملحة .

وقد بدأت الاستجابة البطيئة مع أول تجربة له في كتابة الشعر ، وتعود معه إلى سنوات الصبا ، عندما رأى ذات ليلة الامام علياً كرم الله وجهه يزوره في المنام ، فاستيقظ وهو يريد أن يقول شيئا ، يعبر به عن فرحته بتلك الزيارة الكريمة ، وقد ظلت صورة ذلك الزائر الجليل تطوف بمخيلته الصغيرة ، يستنير منها حتى بلغ الثامنة عشرة ، ويومئذ كتب أبياتا ثلاثة ، توقف بعدها التدفق الشعري ، وعادت الاشراقة بعد أعوام ليكتب بيتين آخرين ، ثم توقفت إلى ما بعد زيارته للنجف الأشرف،حيث كتب هناك عدداً من الأبيات،ضمها الى سابقاتها،ثم توقفت الاشراقات الشعرية بانتظار لحظات أخرى ، يكون الاستعداد فيها أحسن ، والدفقة الشعرية مواتية أكثر ، وبذلك فإن القصيدة لن تكتمل في وقت محدد ، بل سوف يستمر تكونها طول العمر ، وهي تجربة فريدة ، ومثيرة ، وتكاد تكون ـ فيما أعلم ـ الأولى من نوعها .

تجربة الحبب

انتقل الشاعر خالد الزيد الى الحديث عن استجابة أخرى ، ذات أسلوب مختلف ، فقد رأى عندما كان في اسطنبول ـ كما يذكر ـ رجلا في مقهى ، يشرب (بيرة) ، وقد شد انتباهه الحبب الذي يتصاعد إلى فم الكأس بعد كل مرة يقوم الشارب فيها بإفراغ جزء من محتوى الزجاجة إلى الكأس ، وكان الحبب يعلو ويتصاعد إلى فم الكأس ، ثم تبدأ فقاعاته في الهبوط والتلاشي ، كأنها تسكن في قرارة الكأس ميتة خامدة غير منظورة ، راعه هذا المنظر البسيط ، وأراد أن يكتب قصيدة ، يصور بها هذا الصراع السريع الزوال ، لكن خالد الزيد بسبب نزعته الصوفية وعمق تدينه لا يشرب الخمرة ولا يعاقر ما يتصل بها من مشروبات (روحية) ، ومع ذلك فقد ذهب تحت تأثير المنظر واشترى صندوقا كاملا من زجاجات البيرة ، وحمله معه إلى حيث يسكن ، وبدأ يعيد تجربة رجل المقهى ، يسكب من الزجاجة الى الكأس ، ثم ينظر إلى الحبب وهو يعلو ثم ينخفض ، ثم يهبط إلى قاع الكأس ، وبعد أن يتلاشى المنظر يريق محتواه على الأرض ، وهكذا استغرقته التجربة ، وراعه كيف يبدأ الحبب كبيرا ، ثم يتناقص ، ويخبو نهائيا ، مخلفا بعض النقط الصغيرة قبل أن تندمج نهائيا في السائل الذي يفرغه فيما بعد في جوف التراب ، ولم يتوقف الشاعر ـ كما حكى ـ إلا بعد أن أهرق ما في ذلك الصندوق من زجاجات ، وكان في كل ذلك العمل الطفولي يحاول احتواء المنظر ، وامتلاك تجربة تؤهله لكتابة قصيدة .

الاستجابة هنا استجابة واقعية صرفة . قد خرج منها الشاعر بقصيدة مبتكرة ، جديرة بالغناء ، وهي على صغر حجمها قطعة فنية ، تعبر عن معاناة الشاعر أثناء عملية الخلق والبناء الفني ، لم يفقدها الوصف الخارجي ومحاولة النقل عن الواقع المباشر وهج الابداع أو جمال التخيل ، كما لم يمنع المحتوى عن أن يكون للقصيدة بعد أو مدلول آخر ، يكشف عن علاقة جديدة لفهم الأشياء . وهذه هي القصيدة :

خَببٌ قَدْ سَاقَهُ خَبَبٌ
مَابِهِ أَينٌ و لا تَعَبُ
والنَّبُ والكَاسُ يَحْضُنُهُ
وبِهِ مِن قَاعِهَا قُبَبُ
يتَعَالَى وَهُوَ مُنحَدِرٌ
مَادرى أن الذُرا عَطَبُ
فَكأَنَّ الأرْضَ ثَائِرَةٌ
فَهْيَ مِنْ أعمَاقِهَا تَثِبُ
يتَنزَّى مِثلَ ذِي أَلَمٍ
جَرَحَت أعمَاقَهُ النُّوَبُ
وَيُوالي دَفعَ أولِهِ
آخِرٌ في القَاعِ مُلتَهِبُ
هُوَ رَوحُ الخمرِ إنْ سُكِبَتْ
فَلَهُ في صُنعِهَا عَجَبُ
مَا أرى الصَهبَاءَ مُغْرِيَتِي
لَو يُجافِي كَأسَهَا الحَبَبُ

القصيدة الصنعائية

ومن تجربة الواقع ومعطياته الحسية إلى معطيات الالهام . في نموذج آخر لخالد الزيد ، قد قدم له بحديث طريف ، بسحر الألباب ، ولا أقول يعبث بها ، وهو يكشف عن الطريق والمكابدة إلى قصيدة صنعاء التي حملت فيما بعد عنوانا جميلا هو (تحية لوالدة المدن العربية صنعاء) ، فكيف وصل خالد سعود الزيد إلى هذه القصيدة ؟ وأين التقى بها جاهزة ومغسولة بنور إشعاع العشق ، ومتسربلة بصدق انفعالات الوجدان ؟ كشف الشاعر خلال حديثه التلقائي عن مستوى آخر من مستويات الكتابة الشعرية ، وكيف تتكون الاشراقة الأدبية فجأة ، وتبرق في الذهن دون مقدمات ، وذلك عندما كان في طريقه مع بقية الأدباء من الكويت الشقيق إلى اليمن بشطريه ، وقد حاول قبل السفر ان يستدعي ما استطاع اليه من الشعر ، وأغمض عينيه أكثر من مرة بانتظار صوت الحلم ، إلا أن التعبير استعصى ، وفي عدن - وكانت المحطة الأولى للقاء - أعاد المحاولة دون جدوى ، لكنه قبل أن يغادر عدن بساعات ذهب لزيارة مقام (العيدروس) ، وهو واحد من مشاهير الصوفية ، وضريحه من أشهر الأضرحة التي تزار في الجزيرة العربية بعد ضريح الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تناقل بحارة الخليج أخبار العيدروس وكراماته ، وكانت نذورهم السخية تنهال عليه أثناء العواصف وفي الساعات التي يضطرب فيها الخليج ، أو تضطرب الأمواج في بحر العرب .

ذهب الشاعر إلى مقام (العيدروس) ، وألقى برأسه الخاوية على كتفه العريض المورق ، وطلب اليه قصيدة عن صنعاء ، وماكاد يبارح المقام العيدروسي إلا والقصيدة تورق وتزهر في نفسه ، ثم تكتمل وتظهر كأجمل ما تكون الأشعار أسلوبا ومعنى ، وقد أملاها كاملة على زميله في الحياة ورفيقه في الرحلة الدكتور سليمان الشطي الذي يؤكد أن الشاعر قد أملاها عليه دفعة واحدة ، وكأنه كان يقرؤها من الذاكرة ، ولا يكتبها ابتداء ، وهذه هي القصيدة :

أفديكِ يا كأسَ النديمِ
وصورةَ الحسنِ المُخبّا
رُحماكِ لستُ أنا الملومِ
إذا حَبَبتُ إليكِ حبّا

هذا أديمي من أديمك
شق ، ثم أن ولبّى
ومشى قدمي فوق أرضك
حاملاً عبداً وربّا
رضوان يشهد أنّ لي
قدما مضى ، ومكانُ قربِ
لو فتحتْ أبوابها
لدخلتها جسداً وقلبا
وضممتُها حتى تكون
هي المُلبّي والمُلبّى
صنعاء يا كأس النديم
تدبّ في الأعضاء دبّا
أوّاه كم نهلتْ ضلوعي
منك ، فاكهة وأبّا
رحماك لستُ أنا الملوم
إذا مشيتُ إليك صبّا
نشوان يحملني الهوى
قلبا ويدني منك قلبا
لا سرّ ما بيني وبينك
فارفعي للحب نخبا
طهران قد مُزجا فما
تدري متى شربا وعبّا
لم أدر منذ لقائنا
من ذا هوى ، ومن استتبّا

شرارة الالهام

أمامنا الآن ثلاثة أنماط ، أو ثلاثة أساليب لحالة الابداع ، وهي تخص شاعرا واحدا ، وتخص بالتحديد النماذج الثلاثة من أعماله الشعرية المختلفة التي تؤكد أن لكل نموذج حالة استجابة خاصة .

وبعد أن أعدت النظر في هذه الاستجابات وجدت أنها تصور أهم حالات الابداع ، وأن معظم الحالات قد لا تخرج كثيرا عن هذه الاستجابات ، وهي حالة الابداع عبر مراحل زمنية طويلة ، مصحوبة بإعادة النظر والحذف والاستبعاد والاضافة .. الخ ، وحالة الابداع من خلال التجارب الحياتية الواقعية التي تشبه إلى حد كبير حالات التجريب العلمي ، وهي تسعى إلى استخلاص صور وتعابير شعرية ، تقترب من الواقع ، أو تعيد تكوينه بطريقة أدبية ، ثم أخيرا حالة الابداع الفوري ، وهي في حالة تجربة الصديق الشاعر خالد سعود الزيد - مع تقديري لما ارتبط بها من تفسيرات روحية - لم تأت فجأة ، ولم تهبط من الفراغ ، لكنها جاءت عن استعداد ذهني كامل ، وعن احتشاد مسبق ، ورغبة جارفة ، ساعدت على تلك الاستجابة الفورية ، وليس في تفسير أي رفض لمفهوم الالهام . وفي رأيي أنه ليس ثمة تنافر بين التجربة الواقعية والالهام ، وأن الالهام يلعب دورا كبيرا في المنجزات المادية ، وتكاد معظم الفروض العلمية تبدأ بالشعر ، أو بشرارة تقدح في الذهن ، كأنها إضاءة قادمة من سماء الالهام ، تعبر الذهن ، وتستحوذ على المستقبل بعد استحواذها على الماضي ، ولهذا فكل عمل إبداعي - في الشعر خاصة - هو مزيج من الحقيقة والحلم ، ومن الواقع والخيال .

إذا كان الحديث قد انزلق بنا تلقائيا دون أن ندري فانه قد يدفعنا الى تلمس بعض الاساليب والطرائق عن الكتابة الشعرية عند بعض الشعراء الأوروبيين ، وسوف نتوقف باديء ذي بدء عند شاعر ، يتخذه الواقعيون دليلا لهم ، وهو يفخر - في أحايين كثيرة - أن شعره واقعي حتى العظم ، هذا الشاعر هو (ستيفن سبندر) الذي حدثنا عن تجربته في نظم الشعر ، وكأنه عالم كيميائي في مختبر ، سجل ملاحظاته الدقيقة عن المعلومات التي توصل اليها ، وهو يكاد ينظر إلى الابداع باعتباره نشاطا إنسانيا ، يتعلق بالمعاناة ، وبالجهد المبذول في التركيز والتذكر ، وبالاحساس العميق بالأشياء ، وبالرغم من كل ذلك فهو لا ينكر دور الايمان ، ثم دور الالهام

في الشعر . وهو يرى أن إيمان الشاعر يتجلى أولا في تعلقه الصوفي برسالته ، وثانيا في إيمانه بحقيقته ، إضافة إلى إخلاصه لمهمته . والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون ثمة إيمان - أبدا - أعظم من ثقة المرء بأنه يبذل أقصى جهده لكي يحقق غاية ما يتمناه . وهذا هو - بالضبط - ما كان يقف وراء إلهام كافة الشعراء العظام ، وفي نفس الوقت فإن هذا الايمان يقترن بتواضع شديد . لأن الشاعر يعلم أن القرار - أخيرا - ليس بيده ، بل كل ما يستطيع فعله هو أن يعري نفسه ، وأن يقدم كل ما تستطيعه امكاناته وقدراته . مدعومة بكل ما لديه من مهارة استطاع اكتسابها . ومن ثم يقف بانتظار حكم الزمان وقراره .

الايمان بالشعر

كان (سبندر) قبل أن يتحدث عن الايمان في دراسته التي خصصها للحديث عن تجربته في كتابة الشعر أو في (نظم الشعر) كما ظهر بعنوان الترجمة ، أقول كان ذلك الشاعر قد أسبق حديثه عن الايمان بحديث مطول عن الالهام سوف أعود إليه في صفحات تالية . وقد قدمت الحديث عن الايمان على حديثه عن الالهام ربما لأن الايمان - في تصور الشاعر نفسه - يسبق الالهام ، فقد دفعه الايمان بالشعر إلى الشعر ، وأكدت سطور كثيرة من تجربته أن الايمان بأهمية الشعر قد سبق الكتابة الشعرية ، وسبق مرحلة الالهام . ومن ذلك قوله : (وبوسعي من خلال تجربتي أن أوضح طبيعة هذا الايمان كل التوضيح . فعندما كنت في التاسعة ذهبت إلى منطقة البحيرات . حيث كان يقرأ لي والدي بعض قصائد (وورد زورث) . حينذاك بدأ إحساسي بقدسية مهمة الشعر . وبت أشعر دائما أن مهنة الشعر هي مهنة مقدسة تماما ، كأعمال القديسين) .

وفي مجال حديثه عن الايمان والشعر يسعى الى توضيح أثره في الشعراء ، وكأنه بذلك يدافع عنهم ، أو يدفع التهم التي لحقت بهم وما تزال . فهم أنقياء وأسوياء بفضل الشعر الذي لابد أن يغسل نفوسهم . ومن خلال لحظات الابداع التي تتخلل حياتهم ، وتضيء حوالك أيامهم . وعلى الرغم من صحة المقولة بأن الشعراء مغرورون وطموحون ، الا أن غرورهم وطموحهم هو من أنقى نوع يمكن بلوغه في هذا العالم . لأن القديس ينكر الطموح ، وانهم يطمحون لأن يقبلهم الآخرون كما هم . وطبقا لما تبينه في شعرهم تجاربهم الذاتية الصميمة ، ومدركاتهم الحسية الأدق . ومشاعرهم الأعمق ، واحساسهم الأشد بالحقيقة . فهم لايستطيعون المخادعة حول هذه الأشياء . لأن ماهيتهم الحقيقية لاتتجلى في العواطف النبيلة التي يعبر عنها شعرهم وحسب ، بل أيضا في الحساسية والتحكم في اللغة ، والقافية والموسيقا ، والأشياء التي لايمكن الحصول عليها . وبما أنه لايمكن أن يكون ثمة خداع ، فإن الشاعر شأنه شأن القديس ، يقف في كل عمل من أعماله أمام منصة يوم الحساب الأبدي ، وصحيح أن النجاح قد يدغدغ غروره ، لكن حتى النجاح قد يساهم في ادراكه ، وبأن الشعبية لاتؤمن له (تقديرا) مناسبا في كل العصور ، ذلك التقدير الذي يسعى من أجله . اذ ماذا يعني أن ينال المديح والثناء من عصره الغارق في الجرائم والغباء اذا كانت العصور المقبلة الأفضل من عصره ستنظر اليه باعتباره التعبير النموذجي عن جرائم هذا العصر وغباوته ؟ . □

* لولا حب الوطن لخرب بلد السوء . (عمر بن الخطاب)

منتدى العربي

تعقيبات

ملاحظات على مقال

دورة الحياة والموت

نشرت العربي في العدد الممتاز الذي صدر في ربيع الثاني ١٤٠٧ ، مقالة تحت عنوان : « دورة الحياة والموت النباتية هل تؤدى إلى فك أسرار الشيخوخة الانسانية ؟ » بقلم بدور عبدالكريم . ولي عدة ملاحظات على المقالة المذكورة ، فقد ورد في هذه المقالة : « المعروف أن أوراق النباتات التي تنتج الشطر الأعظم من الكائنات الدقيقة ـ المستعصية على الرؤية إلا عبر المجهر الالكتروني ثلاثي الأبعاد ـ إنما تؤمن في الوقت ذاته المواد اللازمة والجوهرية من أجل النمو النباتي بالذات » . وسأركز الكلام على الأخطاء العلمية التي وردت فيها ، فلا أعتقد أن أي عالم معاصر يوافق على أن أوراق النباتات تنتج الشطر الأعظم من الكائنات الدقيقة . . ! وقد تبين منذ أيام (باستور) أن الكائنات الدقيقة لا تنتج من المواد المستهلكة ، وإنما تنتج هذه الكائنات من تكاثر نوعها ذاته ، والتكاثر من صفات الحياة وليس من صفات الأوراق الميتة . ثم ما هي هذه الكائنات الدقيقة المستعصية على الرؤية إلا عبر المجهر الالكتروني ثلاثي الأبعاد ؟ يكفي المجهر الضوئي لفحص الغالبية العظمى من وحيدات الخلية ، ويكفي المجهر الالكتروني الثنائي الأبعاد لفحص الكائنات الدقيقة حتى الفيروسات . أما المجهر الالكتروني الثلاثي الأبعاد فيستخدم عادة لفحص السطوح والأغشية الخارجية للكائنات الحية والمواد المختلفة .

ثم جاءت المقالة بتعريف علمي جديد : « النيماتودات أي الديدان المجهرية الأحادية الخلية » في حين أن النيماتودات هي الديدان الأسطوانية الخيطية ، وهي حيوانات معقدة التركيب من عديدات الخلايا وليست « أحادية الخلية » .

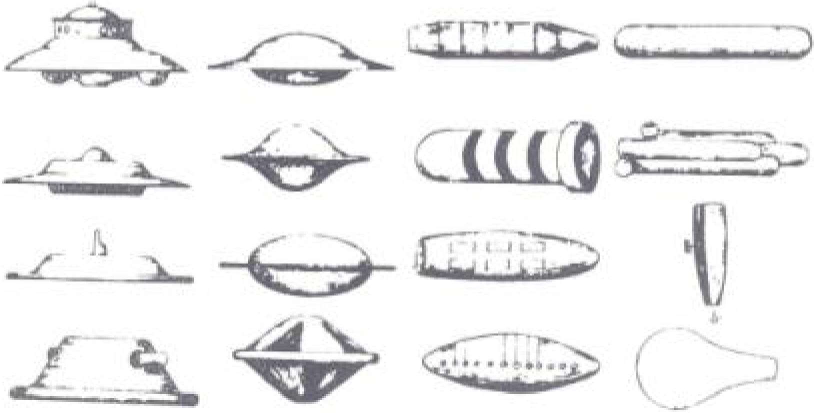
وجاء في المقالة مبالغات لا تستند إلى معرفة بحقائق الأمور : « البروفسور السويدي لينارت نيلسون بأساليبه الخارقة في التصوير عبر المجهر الالكتروني . . يمكنه من خلالها تكبير الأحياء المتناهية الدقة حتى ١٦٠٠ مرة بل حتى ٢٥٠٠ مرة ، وأحياناً حتى ٥٣٠٠ مرة » . ولنعلم أن المجهر الضوئي العادي يمكن أن يكبر الأشياء ١٠٠٠ مرة ، وأن المجهر الالكتروني الذي صمم في جامعة تورنتو في كندا سنة ١٩٣٨ يمكن أن يكبر الأشياء ١٠٠,٠٠٠ مرة ، وأن المجاهر الالكترونية الحديثة يمكن أن تكبر الأشياء ٤٥٠,٠٠٠ مرة .

وفي معرض الحديث عن البكتريات ذكرت المقالة : « . . . ذلك أن كائنات أكبر منها تنتسب إلى فئة أحاديات الخلايا ـ وهي أيضاً فئات لا ترى إلا بالمجاهر الالكترونية . . . » وتكرر القول هنا بأن أغلب أنواع البكتريا ووحيدات الخلية يمكن رؤيتها بالمجهر الضوئي العادي . ثم تقول المقالة : « . . . البكتريا التي تحتوى إفرازاتها على كائنات أدق منها حجماً ، أي أحاديات الخلية . . » والبكتريات هي بذاتها من الكائنات الوحيدة الخلية ولا تحتوى إفرازاتها على « كائنات أدق منها حجماً » . □

د . عامر شيخوني ـ الدوحة

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي



رسم يبيّن بعض الأطباق الطائرة كما ظهرت على صفحات مجلة نيوسيانتست

الأطباق الطائرة ثانية

يذكر المرء من الظواهر الخارقة مثلث برمودا ، والوحش الاسطوري في بحيرة نيس، ويذكر أيضا رجل الثلج الذي يظهر ويختفي في مناطق أواسط آسيا ، في نيبال بوجه خاص ، وتبقى ظاهرة الأطباق الطائرة أعجب تلك الظواهر وأبعثها على الدهشة وحب الاستطلاع .. وما ذلك الا للصلة التي يتحسسها المرء بين تلك الاطباق أو « الأشياء الطائرة المجهولة الهوية » وبين عوالم وحضارات أخرى قائمة في الفضاء الخارجي ، وتتفوق على حضارتنا تفوقا مطلقا .

لاعجب اذن أن استعصى تفسير هذه الظاهرة على علمائنا فذهب بعضهم الى أنها من نسيج الوهم والخيال ، وأكد بعضهم الآخر أنها حقيقة واقعة ولكن تفسيرها ضرب من المستحيل ..

من هنا كان حرص العلماء جميعا على تتبع أخبار الصحون الطائرة حيثما ظهرت وعلى التركيز على دراسة كافة التفاصيل التي تتمخض عنها زياراتها لأرضنا ، ومن هنا كان الاهتمام البالغ الذي أولوه لظهور أطباق طائرة في سماء ألاسكا في أواخر السنة الماضية (١٩٨٦) وفي ١٧ نوفمبر منها على وجه التحديد .

يقول قائد الطائرة وهو ياباني يبلغ من العمر ٤٧ سنة : « كان طبقا ضخما .. أضخم من طائرة الجمبو بمرتين .. وكان على شكل الجوزة .. وكان ثمة شيئان

آخران على جانبي الطبق .. وكأنهما صحون حراسة ... »

على أن أهم ما يذكر عن لقاء ألاسكا هذا هو أنه ظهر على شاشة الرادار .. وقد رآه المراقبون الجويون ، العسكريون والمدنيون ، في مراكز المراقبة على الأرض .. غير أن أشرطة ذلك الرادار التي تسجل عادة كل ما يظهر على شاشته ، لم تسجل شيئا من ذلك اللقاء .. وكأن يدا سحرية مسحت شريط التسجيل مسحا ...

وأغرب ما في الأمر أن الطيار الياباني الذي كان يقود طائرة شحن تابعة للخطوط الجوية اليابانية ، في رحلة من ريكيافيك عاصمة ايسلندة الى انكوراج في الاسكا ... هبط بطائرته الى ارتفاع ٣١٠٠٠ قدم بقصد تحاشي الطبق الطائر الذي التقى به وهو على مستوى ارتفاعه الأول (٣٥٠٠٠ قدم) ذلك بعد موافقة المراقبين الجويين ولكن الطبق الطائر هبط هو وحارساه الى مستوى ارتفاعه الثاني .. وبقي مواكبا للطائرة اليابانية بنفس سرعتها وعلى بعد ثمانية أميال منها .. حتى اذا اقتربت الطائرة من انكوراج في الاسكا اختفى الطبق الطائر والصحنان المرافقان بسرعة مذهلة .

والجدير بالذكر أن سلطات الطيران المدني أخضعت الطيار الياباني ورفيقيه لفحوص طبية ونفسية مختلفة .. ثم استجوبتهم .. حتى ثبت لها أنهم كانوا يتمتعون بكامل وعيهم أثناء اللقاء .. ويؤكد الطيار أن كل ما رآه من شكل الطبق وأضوائه وسرعته يثبت بما لايقبل الشك أنه من صنع حضارة متفوقة من حضارات الفضاء الخارجي .

مختبر علمي يشفي من السرطان .. ولكن بثمن

أصيب الدكتور نلسون الجراح المتقاعد (٥٧سنة) بسرطان الرئة .. وتفشت الأورام الخبيثة حتى بلغت الرئتين والعظام .. وأصبح موته العاجل في حكم المؤكد ، ولكن نلسون بقي حيا رغم مضي الشهور .. وشفي من أورامه تبعا للمعالجة التي تلقاها في بلدة فرانكلين في تنسي بالولايات المتحدة وفي شركة أو مختبرات المعالجة بالهندسة البيولوجية على وجه التحديد .. حقا لقد دفع مبلغا كبيرا - ٣٥٠٠٠ دولار .. ولكنه اشترى بذلك المبلغ حياته ...

وتجدر الاشارة الى أن الدكتور روبرت أولدهام مؤسس الشركة المذكورة كان من كبار الباحثين في معهد السرطان الأمريكي وذلك طوال أربع سنوات .. ولكنه ما لبث أن انفصل عن المعهد وأسس شركته الجديدة الفريدة في نوعها سنة ١٩٨٤.

نقول فريدة لأنها تختلف عن الشركات العادية اختلافا كبيرا .. فهي مختبرات للأبحاث الطبية والعلمية ، ولكنها لاتعمل بالمجان كمختبرات معهد السرطان وسواها .. وانما تضع حصيلة بحوثها العلمية في خدمة من يريد من المرضى لقاء المال ..

وتتخصص هذه المختبرات في الهندسة البيولوجية وفي استعمال ما يعرف في المصطلح الطبي باسم **Biological response modifiers** وتصنع للمريض مثل الاجسام المضادة التي يطلقها جسمه بالذات للدفاع عن نفسه .. وتتوصل الى ذلك عن طريق تفصيص تلك الاجسام ، وانتاجها بالكمية المطلوبة ، بواسطة أساليب الهندسة البيولوجية .. ولاغرابة أن تجحت تلك الأجسام المضادة في كبح السرطان والتغلب عليه .. فهي السلاح المضمون الذي تصنعه أجهزة المناعة في الجسم ، وتكبح بواسطته ما قد يتعرض له الجسم من أمراض ، ان لم تقض على تلك الأمراض وتشف الجسم من شرها نهائيا .

ومما يذكر أن عدد الذين اتصلوا بالشركة بقصد الاستفسار بلغ (٢٠٠٠) مريض .. كان أكثرهم من الأطباء .. وقد تمت معالجة ٢٠٠ منهم . كتب لهم الشفاء التام بعد أن كانوا ينتظرون الموت بين يوم ويوم ..

ولعلك تظن أن المعالجة بهذه الطريقة الجديدة تستغرق شهورا عديدة .. والحقيقة هي أن فترة العلاج في المختبرات الجديدة تبلغ أسبوعين فحسب .

ويأخذ الكثيرون على هذه الشركة الجديدة نزعتها المادية .. ومجافاتها للمشاعر الانسانية .. وحصرها الشفاء من الأمراض بالأغنياء .. ولكن آخرين يباركون أعمال الشركة ويرون في اثرائها السريع دليلا على نجاحها .. وحسبك أنها انتقلت مؤخرا من مقرها القديم الى مقر آخر جديد ، يبلغ ايجاره ٤ملايين دولار سنويا . □

● حدث الرسول صلى الله عليه وسلم في رمضان فقال :

« من فطر منكم صائما مؤمنا في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق رقبة ، ومغفرة لما مضى من ذنوبه »

فقيل : « يارسول الله ، ليس كلنا بقادر على ذلك . »

فقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ، ولو بشق تمرة ، اتقوا النار ولو بشربة من ماء . »

* * *

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن أبواب الجنان في شهر رمضان مفتحة ، فاسألوا الله ربكم أن لا يغلقها عنكم ، وأبواب النيران مغلقة ، فاسألوا الله ربكم أن لايفتحها عليكم ، والشياطين مغلولة ، فاسألوا الله ربكم أن لا يسلطها عليكم . »



سلامة البشرية في سلامة البيئة

قصة فراشة كندية .. في المكسيك

كثر الحديث عن تفاقم التلوث في (مكسيكو سيتي) حتى ظن الكثيرون أن حكومة المكسيك هي المسؤولة عن تدهور البيئة في العاصمة .. وأنها في الغالب لا تقيم وزناً كبيراً لسلامة البيئة .. وما أبعد ذلك عن واقع الحال كما يتبين من قصة الفراشة الملكة . . .

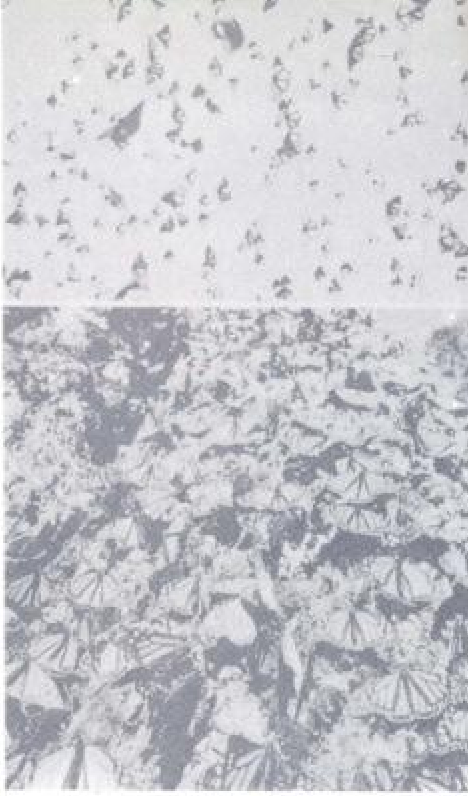
لقد درجت هذه الفراشة على أن تأتي الى المكسيك من كندا كل عام بالملايين ، وتقيم في غابات شجر التنوب (Fir) فيها .. وهي غابات منتشرة في المناطق الجبلية في البلاد .. لقد درجت على القيام بغزوتها هذه عقب شهر نوفمبر ، حتى اذا حل شهر مارس واستكملت الفراشة ما قطعت من أجله آلاف الأميال .. أعني طلب الدفء والتزاوج .. عادت أدراجها الى أصقاع الشمال .

ومع أن هذه الغزوات كانت مستمرة منذ أكثر من ١٠,٠٠٠ سنة .. الا أن العلماء لم يكتشفوا أمرها الا قبل أكثر من عشر سنين ، سنة ١٩٧٥ بالتحديد ، وفجأة اكتشف العلماء شيئاً آخر في مطلع الثمانينات وأواخر السبعينات .

اكتشفوا أن مساحات كبيرة من غابات التنوب أخذت تختفي .. وأن مهاجر الفراشة الملكة أخذت في التقلص ، ذلك أن فلاحي تلك المناطق الذين ألفوا تحطيب خشب التنوب من أقدم الأزمنة ، اقتربوا في تحطيبهم من البقاع التي تقيم فيها الفراشة ، وكادوا أن يأتوا عليها .. لولا أن اكتشف العلماء أمرهم ، وهبت الحكومة المكسيكية تسن قوانين الحماية ، وتتخذ اجراءات الانقاذ على أوسع نطاق ممكن ، حقاً لقد استهدفت من هذا وذلك وضع حد للتحطيب ، وانقاذ الغابات ، ولكنها استهدفته لا كغاية وانما كوسيلة .. ولم تكن الغاية سوى الحفاظ على المواقع التي هاجرت اليها ، وأقامت فيها الفراشة الملكة .. وسواء هذا أو ذاك ، فقد أثبتت الحكومة المكسيكية مدى اهتمامها بالبيئة ، وقد بلغ حد التضحية في سبيل فراشة كندية تزور المكسيك لبضعة شهور ثم تعود ..

وكان مرسوم سنة ١٩٨٠ أول تلك القوانين ، قوانين حماية الفراشة الملكة .. ولكن الحماية التي تحدثت عنها تلك القوانين بقيت أقرب الى التمني منها الى الواقع ..

من هنا كانت الاجراءات الصارمة التي اتخذتها حكومة المكسيك في شهر آب الماضي (١٩٨٦) ، فقد حددت تلك الاجراءات مواطن الفراشة الملكة ، واعتبرتها معازل بيئية محرمة .. ثم حظرت التحطيب حظراً تاماً في منطقة تحيط بتلك المعازل ، وتبلغ مساحتها ١١٠٠٠ فدان ، ولم تقف الحكومة المكسيكية عند هذا الحد ، بل حددت منطقة أخرى ثالثة تحيط بالمنطقة السابقة ، وتبلغ مساحتها ٢٨٠٠٠ فدان ، ووضعت شروطاً وقيوداً عديدة للترخيص



هذه الفراشات تزور المكسيك لبضعة شهور ثم تعود ..

بأعمال التنمية في هذه المنطقة .

ثم انصرفت حكومة المكسيك الى معالجة مشكلة الحطابين في تلك المناطق معالجة جذرية .. فالتحطيب هو مصدر رزقهم الوحيد ، ولا بد من ايجاد مصادر أخرى للرزق تحل محله .. من هنا كانت البرامج الواسعة التي بدأوا وضعها موضع التنفيذ ، وقد شملت فيا شملت انشاء البساتين ، وتحسين محاصيل المزروعات التقليدية ، وإقامة البيوت الزجاجية ، وأحواض زرع الأسماك .. وساهمت في هذه البرامج منظمة موناراكا ، وهي هيئة أهلية مكسيكية تسعى لحماية البيئة .. وساهم بها أيضاً صندوق الكائنات البرية العالمي ، وذلك عن طريق أحد أقسامه ، وهو القسم المختص بالبرامج الكاريبية واللاتينية الذي تبرع للحكومة المكسيكية مؤخراً بمبلغ ٢٢٠,٠٠٠ دولار .

بقي أن نشير الى مصدر رزق آخر أتيح لسكان المنطقة من حيث لا يدرون ، وعاد عليهم بمنافع أنستهم أعمال التحطيب السابقة وكل ما كانوا يجنون .. وما ذلك المصدر الا السياحة .. فقد تدفق السياح الأمريكيون على المكسيك في الشهور الماضية .. ٥٠,٠٠٠٠ سائح أو يزيد ودفع كل واحد منهم (٦٠) سنتاً ، وهو الرسم المطلوب لمشاهدة منظر الفراشات الرائع .. واشتروا الهدايا المختلفة التي رسمت عليها الفراشة الملكة بألوانها الزاهية ، ودفعوا أثماناً سخية فيها .. ولعل ما كسبه أهل المنطقة في موسم السياحة الشتوي الحالي يفوق ما كانوا يكسبونه من التحطيب .. ولعلهم يرددون في لغتهم ما يعنيه المثل العربي : « رب ضارة نافعة » .

ويتساءل المرء لا محالة : لم يهاجر الى المكسيك الجيل الخامس فقط من الأجيال التي تنجبها الفراشة الملكة في السنة وهي ٣ ـ ٥ أجيال ؟ ولم لا تتوقف الفراشات المهاجرة في المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة ، وهي تشبه كثيراً المكسيك من حيث الطقس والاقليم ؟ .. ثم كيف تهتدي هذه الفراشات الى نفس المواقع التي هاجر اليها أسلافها واستقروا فيها ... ؟

الطقس .. وبنية الشمس

قد تكون الشمس كالبصلة وقد تكون مكونة من عدة طبقات من الغاز متباينة ، وتدور الواحدة حول نفسها بسرعة خاصة بها .. هذا ما قاله مؤخراً علماء فلكيون من جامعة جنوب كاليفورنيا برئاسة الدكتور ادوارد رودس .

ومعنى هذا أن طقس الأرض يتأثر أكثر ما يتأثر بأي تغير قد يطرأ على حركات الشمس الداخلية .. فلو اختلت سرعة إحدى تلك الطبقات في دورانها حول نفسها .. اختلالاً ضئيلاً لا يزيد على ١٪ ، لكان في ذلك ما يكفي لتغير مناخ الأرض .. من مناخ جليدي ثلجي الى مناخ بالغ الحرارة ملتهب .. □

العربي
عيونك
على العالم

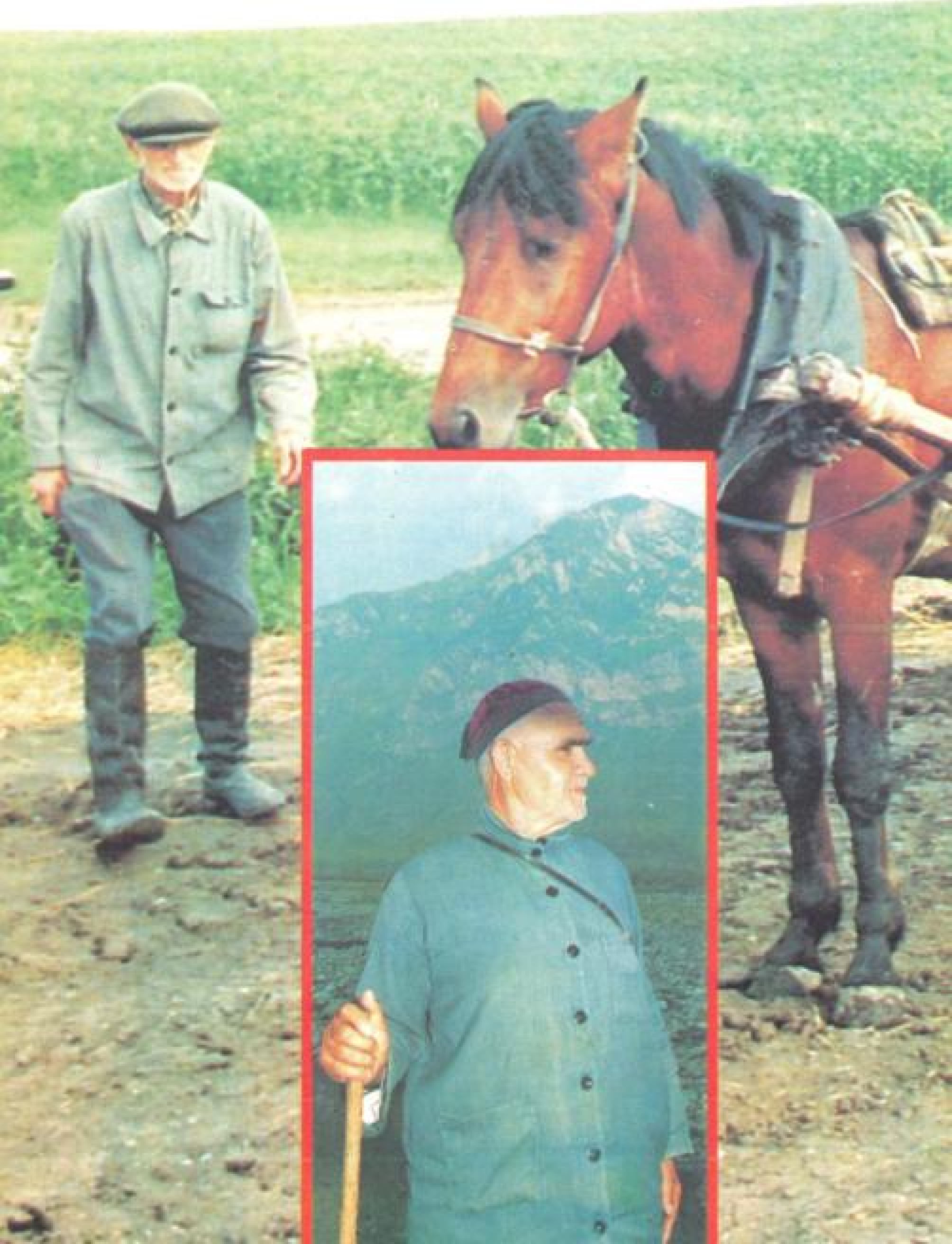
الشاشان والأنغوش

من المنفى إلى حياة جديدة!



استطلاع : سليمان الشيخ

تصـــوير : سليمان حيدر



إن الحكم بالنفي على فرد لأسباب ودواع معينة أمر يمكن فهمه وتبرير دواعيه . لكن الحكم بالنفي على شعب بكامله أمر يدخل في نفق الأسئلة ، وربما يدخل في دوائر عدم الفهم .

شعب الشاشان في الشمال القفقاسي نفي جميعه عن أرضه الوطنية أثناء الحرب العالمية الثانية ، فما هي الدواعي ؟ وما هي الأسباب ؟ وكيف يعيش الآن ؟

يختصر القفقاسي جوابه عندما تسأله عن بلاده ، فيجيبك :

« إنها بلاد الجبال العالية ، ويضيف قائلا : هي البلاد التي كتب عنها تولستوي ، وبوشكين ، وليرمنتوف » !

* فلماذا يكتب هؤلاء الأدباء البارزون في الأدب الروسي والأدب العالمي عن هذه البلاد التي أغرقتها القيصرية الروسية بالجهل واستنزفت خيراتها ؟

القفقاسيون الشاشانيون والانغوش يقولون ذلك ، ويضيفون قائلين : إن القمم العالية ، وشواطىء نهر « تيرك » قد تركت بصماتها على أدب هؤلاء الكتاب ، فجاءت طبيعتنا وطبيعة شعبنا مسجلة أدق تسجيل في أدب هؤلاء الكتاب الكبار .

والداغستانيون يقولون ذلك أيضا ، وكذلك البلكار والكباردين والاوسيت والشركس وهم شعوب قفقاسية ، فما الذي دفع بهؤلاء المشهورين إلى العيش في تلك البلاد ، في مرحلة شهدت فيها ثورات وتمردات عديدة (بداية القرن التاسع عشر) ؟

لقد كانت منطقة جبال القفقاس تعتبر من جنوب روسيا القيصرية ، بعد أن انتزعتها من الأتراك العثمانيين ، ومن ملوك الفرس ، وبعد أن قضت على بعض الامارات المحلية التي كانت قائمة آنذاك .

وفي منتصف القرن التاسع عشر وصل الزحف الروسي إلى ذروته في السيطرة على المناطق الجنوبية ، ومن ثم سيطر الروس سيطرة كاملة على تلك المناطق وتم انتزاعها من أيدي الدول الأخرى أو الامارات المحلية .

ان تخليد تلك المنطقة في نتاج الكتاب المشار إليهم يعود إلى سبب قهري ، تمثل في نفي بوشكين سنة ١٨٢٠ م إلى تلك المنطقة ، ثم نفي ليرمنتوف سنة ١٨٣٧ م إليها أيضا . ويذكر انه عاش سنوات قليلة من صباه فيها ايضا ، ويعتبر هذا النفي هينا إذا ماقيس بالنفي إلى سيبيريا .

وقد جاء هذا النفي بسبب انتقاد الشاعرين المذكورين للأوضاع التي كانت قائمة آنذاك ، والتحريض على مساوىء النظام القيصري ومباذله وظلمه الذي وزعه على الشعوب التي خضعت له .

أما تولستوي فإنه كان من النبلاء الاقطاعيين ، جذبه الجيش فعين فيه ملازما ، واشترك في الحرب التي كانت دائرة في القفقاس ، وأمضى هناك من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٥٥ .

شعبنا نحن :

يكتسب كلام سكان الجبال مصداقية عند من يقرأ بعض أعمال هؤلاء الكتاب ، كروايات الحاج مراد ، والقوقاز ، ونهاية حب ، وغيرها ، لتولستوي ، ومن يقرأ بعض أشعار بوشكين التي تحمل أسماء بعض المناطق في القفقاس ، ومن يقرأ رواية « بطل من هذا الزمان » لليرمنتوف .

يقول : أحمد ملساجوف في كتابه « شعب جبال القفقاس » المنشور بالانجليزية والصادر عن وكالة نوفوستي السوفيتية سنة ١٩٨٤ : « من يقرأ تولستوي فإنه يقرأ عنا » ، ويضيف قائلا : « هذا النهر القوقازي الشهير « تيرك » نال حظا أكثر من أي نهر آخر في بلادنا ، فقد تغنى به تولستوي ، وبوشكين ، وليرمنتوف ، وأثنوا عليه » .

ثم يقول : «إننا نفضل في بلادنا - الشاشان والانغوش - استعمال كلمة (ويناخ) ، وهذه الكلمة مؤلفة من مقطعين ، معناهما « شعبنا نحن » أو « قومنا نحن » ، وتطلق على شعبي الجمهورية « الشاشان والأنغوش » من أجل اختصار ثنائية هذا التكوين .

يقول الكاتب : انظروا ، إنهم يشبهوننا ، هكذا

يقول الشاشان والانغوش عن بعضهم بدهشة منذ زمن طويل ، نعم مثلنا ، فنحن نتكلم نفس اللغة ، ولنا نفس العادات » .

عزيزي القاريء ، على السفوح الشمالية لجبال القوقاز تقع جمهورية الشاشان والأنغوش ، مساحتها ١٩,٣٠٠ كم٢ ، يسكنها حوالي مليون وربع المليون نسمة ، لغتهم من عائلة اللغات القفقاسية أو القوقازية ، ويقطع بلادهم نهر « تيرك » الذي ينبع من جبال القفقاس في جمهورية جورجيا ، ويسير في عدة جمهوريات قفقاسية سوفيتية ، طوله حوالي ٥٠٠ كيلو متر ، ويمر فرع منه في العاصمة غروزني ، (يسمى فيها نهر سيلج) ويصب في بحر قزوين أي الخزر كما كان يسمى من قبل .

يقول السيد موسى حسين دوشو كييف مدير مصنع الملابس التقليدية في العاصمة غروزني : « أعتقد بأن اسم « الشركس » كان يطلق على كثير من مناطق القفقاس من قبل ، لأن الحدود السياسية بين القبائل والشعوب القفقاسية حديثة العهد ، لايتعدى عمرها مائة سنة تقريباً .

ويمكن الاشارة إلى أن الزي كان موحدا من قبل ، أو فيه كثير من التشابه ، وهو أقرب إلى الزي الشركسي الحالي » .

وقد أكد نفس الكلام السيد أصحب مكييف السكرتير الأول لمنظمة الحزب الشيوعي في منطقة نزاران « نظاران » ، فقال : « نحن جزء من العائلة الأثينية القفقاسية ، ويبدو أن (الشركس) كان هو الاسم الغالب على كثير من المناطق والأنحاء في الزمان القديم » .

في مؤلفات الأدباء :

يبدو الكلام السابق أقرب إلى الحقيقة عندما نقرأ أدب تولستوي وبوشكين وليرمنتوف ، إذ أنهم كثيرا ماكانوا يخلطون في أسماء الشعوب التي تسكن منطقة القفقاس ، فهم تارة يطلقون عليها اسم (الشركس) ، بل كثيرا ماكانوا يستعملون أسماء قبائل تنتسب إلى هذا الشعب أو ذاك من شعوب القفقاس ، وهذا يدل على أن المنطقة لم تكن بعد قد عرفت الحدود السياسية الثابتة المتعارف عليها حتى منتصف القرن التاسع عشر ، كما أن القبائل لم تكن قد استقرت تماما في مناطق سكناها ، لذلك فإن الخلط في إطلاق الأسماء والاماكن كان شائعا ، ويبدو أن الأمر مازال كذلك .

في رواية « نهاية حب » يذكر تولستوي أن الجيش الروسي نزل في قرية (نوفومبلينسكايا) في بلاد القفقاس ، ويستمر الكلام في الرواية عن القفقاس والقفقاسيين ، ولايحدد شعبا بعينه ، وتتكرر في الرواية أسماء مثل نهر « تيرك » ، و « ابريك وابركة » و« سكان الجبال » وغيرها ، وإذا مابحثنا عن تفسير لمعنى هذه الكلمات ، فإننا سنجد أن كلمة « الأبركة » ماهي إلا تعبير كان يطلقه الروس على سكان الجبال الذين حملوا السلاح وقاوموا الجيش الروسي .

وهذا يعني أن بعض سكان السهول قد خضعوا للجيش الروسي ، وتعاونوا معه ، في حين أن بعض سكان الجبال قد تمردوا عليه وثاروا . ولو نظرنا إلى المرحلة التي كتب عنها تولستوي لأدركنا أنها هي نفس المرحلة التي ثار فيها الشيخ شامل ، وشاركه كثير من شعوب القفقاس في ثورته ، وقد كان مركز تلك الثورة في داغستان ، إلا أنها كانت منتشرة في كثير من أنحاء القفقاس .

ومن الملاحظات الجديرة بالتسجيل في تلك الرواية أن تولستوي يذكر أن المنطقة غنية بالعسل ، وبنبات دوار الشمس ، كما أنه ينهي روايته بايراد اسم أمكن من خلاله الاستدلال على المنطقة التي كانت مسرحا لأحداث تلك الرواية ، فقد جاء في صفحة (١٣٦) من الرواية مايلي :

« أيشفى لوكاشكا ؟

ـ الله أعلم ، ليس في القرية طبيب ، وهم يلتمسون ذلك .

ـ وأين يمكن أن يلتمسوا ذلك ؟ في غروزنايا ؟ » .

وهنا ينكشف سر مسرح الأحداث ويصبح واضحا ، فإن غروزني هي عاصمة جمهورية الشاشان والانغوش الآن ، والقرية المشار إليها في الرواية قريبة منها .

والغريب أن هذه الجمهورية مازالت مشهورة إلى الآن بعسلها الجبلي الصافي الذي يعرض كثير منه على الطرقات للبيع كما يمكن رؤية حقول واسعة كثيرة مزروعة بنبات دوار الشمس .

ويبدو أن هذه المنطقة لم يكن قد انتشر فيها الاسلام ، لأن سكان القرية ـ حسب الرواية ـ كانوا من المسيحيين ، لكن هناك إشارات بأن بعضهم و بعض جيرانهم كانوا من المسلمين .

وهذا الكلام الوارد في الرواية يتفق مع الكلام الذي سمعناه في غروزني ، عاصمة الشاشان







● نموذج للمرأة الشاشانية الأنغوشية بلباسها الحديث وهي تعرض نماذج من الصناعات الشعبية ، (أقصى اليمين) .

● الآلة تدور والإنسان يبدع . (أعلى)

● يفصح الرقص عن هوية خاصة للناس في كثير من الأحيان،فتاتان أنغوشيتان ، ولباس أنغوشي ، ورقص الجبال الذي يجعل الأرض ترتج من دقات الأرجل عليها . (يمين)

والانغوش ، فقد قالوا بأن الاسلام لم ينتشر بينهم إلا منذ قرنين تقريبا على يد الداغستانيين والأتراك .

لمحة تاريخية :

تذكر بعض المصادر التاريخية أن مجموعة من الشاشان قد نزحوا عن بلادهم إلى بلاد الشام سنة ١٩٠٥ تقريباً ، وتذكر بعض الاحصاءات الرسمية أن عددهم في الأردن الآن يقترب من الخمسة آلاف نسمة ، كما يوجد بعضهم في منطقة الجولان السورية المحتلة أيضا .

وهذا النزوح لايعتبر الأول في حياة هذا الشعب والشعوب القفقاسية الأخرى» لقد كان شعب الشاشان شريكا للشراكسة في هجراتهم ونزوحهم زمن الدولة العباسية التي نازلت دولة اليهود الخزر التي كانت قائمة في منطقة القفقاس ، واستولت على أجزاء منها ، وقد استطاع بعض الشراكسة ومن بينهم الشاشان كما ذكر لنا السيد واحة ، مسؤول العلاقات الخارجية في نقابات مدينة غروزني ، أن يصبحوا حكاما لمنطقة الشرق العربي في جزء من الفترة التي أطلق عليها « فترة حكم المماليك » ، جاء في دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد السادس ما نصه :

وجيجن (أو الشاشان) من فروع الشركس كما في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي سنة ١٨٧٢ م) .

ويضيف السيد واحة قائلاً : كما أننا - الشاشان والانغوش - قد شاركنا في الثورات التي قامت في منطقة القفقاس ضد القوى التي تتابعت في احتلال بلادنا ، كالفرس والأتراك والروس وغيرهم .

وبسبب هذه الثورات فإن كثيراً منا قد تشتت ونزح ، أو قُضي عليه ، وقد أصبحنا جزءاً من الامبراطورية الروسية بعد القضاء على ثورة الشيخ شامل في منتصف القرن الماضي ، وقد تلت ذلك تمردات كثيرة ، منها تمردات وقعت في نهاية سبعينيات القرن الماضي ، ومنها في بداية هذا القرن (سنة ١٩٠٥ م) ، إلا أن الأوضاع استقرت فأصبحنا جزءاً من الامبراطورية الروسية حتى قامت الثورة سنة ١٩١٧ ، فأصبحنا جمهورية .

مع رئيس الوزراء :

قال لنا رئيس وزراء الجمهورية الشاشانية الانغوشية السيد موسى عبدالرحمن كريم عندما قابلناه في العاصمة غروزني : « لقد تأسست جمهوريتنا - أي الجمهورية السوفيتية الاشتراكية الشاشانية الانغوشية ، ذات الاستقلال الذاتي - سنة ١٩٢٢ م ، وقد احتفلنا بالذكرى الستين لاعلانها سنة ١٩٨٢ م .

ويضيف السيد رئيس الوزراء قائلا : إن جمهوريتنا ذات حكم ذاتي ضمن الاتحاد السوفيتي ، وشعبنا - في الأساس - يتكون من فرعين هما الشاشان والانغوش ، أضيف إليهما فرع ثالث ، والفرع الأول - الشاشان - هو الأكثر عددا ، إذ يصل عدده إلى مايزيد على نصف عدد السكان ، في حين أن الفرع الثاني - الإنغوش - يصل عدده إلى ربع عدد السكان ، أما الفرع الثالث فهم مواطنون سوفييت من قوميات أخرى سوفيتية ، ينتمون إلى حوالي ٤٠ قومية ، ويمثلون ربع عدد السكان تقريبا .

● بماذا يتفق الشاشان مع الانغوش وبماذا يختلفون عنهم ؟

- إن لغتنا واحدة ، وكذلك عاداتنا وتقاليدنا تقريباً ، والاختلاف الوحيد هو في اللهجة ، فهناك بعض الاختلافات البسيطة في تقديم بعض الحروف أو تأخيرها في بعض الكلمات .

وعلقت قائلا : إن الأمر يشبه حالنا - نحن العرب - من ناحية اللغة ، فلغتنا واحدة ، لكن لهجاتنا مختلفة .

فقال : أعتقد أن الأمر كذلك .

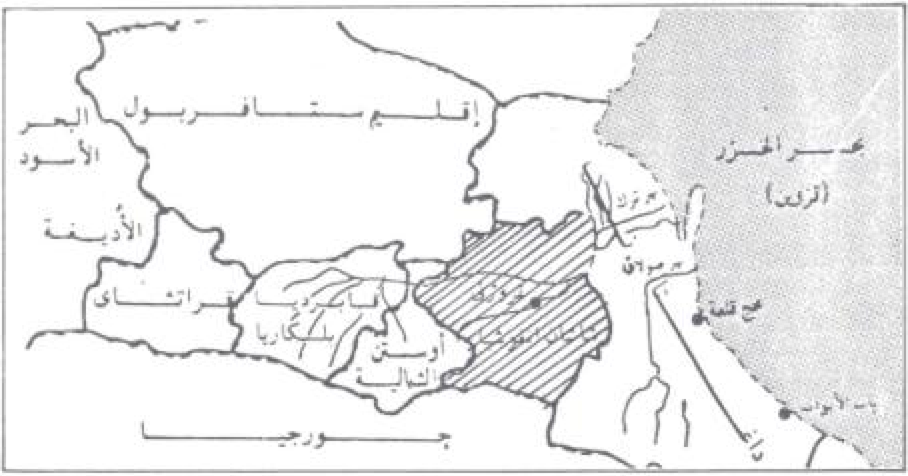
فقلت : ليسمح لي السيد رئيس الوزراء بذكر بعض المعلومات المتداولة والشائعة التي يقول بعضها بأن إعلانا ثانيا للجمهورية قد تم سنة ١٩٥٧ ، بعد صدور قرار من الحكومة المركزية السوفيتية بإعادة شعبكم من المنفى الذي كان فيه .

قال رئيس الوزراء باختصار : « إن الأمر من أخطاء الماضي ، ونحن الآن بصدد تطوير مجمل الخدمات لشعبنا ، وتوجهنا وخططنا تركز على خدمات الرفاهية للناس ، والاسراع في إنجازها » .

وقد ذكر لنا السيد أصحب الذي أشرنا إليه سابقا أن هناك أخطاء قد حصلت في الفترة الماضية ، وبخاصة زمن ستالين . فسألناه :

- ماهي هذه الأخطاء ؟

لكن السيد أصحب لم يشأ الاجابة بإضافة على هذا السؤال ، فبقي سؤالنا دون جواب شاف ، بيد أن رئيس الوزراء مضى يتحدث عن أمور الحاضر ، كالأمية التي تم القضاء عليها ، والمهارات العديدة



جمهوريات وأقاليم شمال القفقاس في الاتحاد السوفييتي من بينها جمهورية الشاشان والأنغوش ذات الحكم الذاتي .

التي أصبح يجيدها الناس (فبين كل ألف شخص هناك ٩٠٠ يحملون شهادات متخصصة) ، والجامعة وكلياتها العديدة ، والمعاهد التقنية التي وصل عدد الطلبة فيها مع طلبة الجامعة إلى ٢٨ ألف طالب ، والمطبوعات الكثيرة ، والمدارس التي وصل عددها إلى ٥٩١ مدرسة متوسطة وثانوية ، بالاضافة إلى المعاهد المتخصصة ، وواصل حديثه فتكلم عن العلاقات بين العرب والسوفييت ، ومشاكل منطقتنا ، والحروب القائمة فيها ، ثم أبدى تمنياته بالوحدة والتقدم لبلادنا .

لكن جواب السؤال المتعلق بنفي شعب الشاشان والانغوش بقي معلقا . .

المنفى :

قلت للسيد واحة ـ مرافقنا الانغوشي ـ بعد انتهاء مقابلتنا مع رئيس الوزراء :ـ « ياواحة » ، إن المعلومات المتوفرة تفيد بأنه نتيجة « لتمسك شعبكم بدينه عمدت السلطات الحاكمة إلى إقصائه إلى مجاهل سيبيريا (هكذا جاء نص المعلومات في كتاب « البلدان الاسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ») ، وجاء في الموسوعة الميسرة مانصه : « حل الاتحاد السوفييتي جمهورية الشيشان والأنغوش بسبب تعاونها مع الالمان في الحرب العالمية الثانية » .

ـ فقال : إن ذلك ليس صحيحا كله !

* فسألت : ماهي الحقيقة إذن كما تعرفها ؟

ـ قال : إن واقعة النفي صحيحة ، لكن ليس إلى سيبيريا فقط ، فبعض شعبنا قد نفي إلى جمهورية كازاخستان ، وهذا الاجراء اتخذه ستالين مع بعض الشعوب السوفيتية الأخرى التي تعاون بعض رجالاتها مع الالمان . لقد احتل الالمان كثيراً من أراضينا في الحرب العالمية الثانية ، بل لقد وصلوا إلى مشارف غروزني العاصمة ، وقصفوها بطائراتهم ، فتخاذل بعض الناس ، ومنهم بعض رجال الدين ، فتعاونوا مع الالمان ، فجاء رد فعل ستالين بنفي كل الشعب ، مع أن كثيرين منا كانوا ضمن الجيش السوفيتي ، وفي فيالق الأنصار . وكما قال لك السيد رئيس الوزراء ، فإن ماتم هو خطأ من ضمن أخطاء أخرى تمت في الماضي .

* قلت : وماهي الفترة الزمنية التي بقيتم فيها في « منفاكم » ؟

ـ قال : لقد بقينا من سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٥٦ ، وقد منح الناس في الجمهوريات التي نقلوا إليها البيوت ، ودخل الأطفال المدارس ، وتم تقديم كامل الخدمات .

* إن المعلومات تذكر أيضا يا (واحة) أنه قد تم تأليف فيلق « إسلامي » من بعض مواطنيكم ومن جمهوريات أخرى ، بل وقد أعلن هتلر قيام جمهوريات إسلامية في مناطقكم ، على أنقاض الجمهوريات السوفيتية ؟

ـ فأجاب واحة : إن هذه المعلومات صحيحة ،

لكن المقصود منها كان الدعاية الاعلامية ، وإظهار حسن النوايا لكسب الناس ، وكل ماكان يريده هتلر هو تأمين البترول من بلادنا ، لذلك فإنه أمر بإيقاف قصف آبار بترولنا ، على أمل أن يحتلها ، لكن هجومه أوقف على بعد حوالي ١٠٠ كيلومتر من غروزني .

* وبعد ذلك ما الذي تم .. ياواحة ؟

ـ انكسر الالمان ، وضاعت الدعايات الاعلامية المضللة سدى ، وعاد شعبنا إلى بلاده ، وتم الاعلان عن قيام الجمهورية السوفيتية ثانية سنة ١٩٥٧ م .

* لقد دفعتم ثمنا غاليا ؟

ـ لقد سقط على مذبح الحرب العالمية الثانية ٢٠ مليون إنسان من جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، ونالنا نحن نصيبنا من الضحايا والظلم الذي وقع ، بيد أن المهم هو الحاضر والمستقبل ، ووقف الحروب ، والبحث عن كل مامن شأنه توطيد السلام ، ودفع عجلة التقدم .

النفط الناضب :

التقارير العالمية المنشورة عن النفط تشير إلى نقص واضح في الانتاج من المكامن التقليدية في الاتحاد السوفيتي ، ومن بينها مكامنه في جمهورية الشاشان والانغوش ، ولنمتحن هذه المعلومات طرحنا الأمر على خاتشادروف مينا سوفيتش المدير العام لشركة النفط في العاصمة غروزني ، فقال :ـ

ـ إن شركة النفط في غروزني ومنطقتها من أقدم الشركات في الاتحاد السوفيتي ، فقد تأسست زمن القياصرة سنة ١٨٩٣ م ، ومنذ ذلك الزمان والبترول هو من أهم الثروات فيها ، وبعضه نوع من النفط الخفيف الخاص بالطيران . وقد وصل عدد العاملين في الشركة إلى حوالي ٢٤ ألف عامل وموظف ، وكثير من الفنيين العاملين في الشركة استعانت بهم شركات أخرى في الاتحاد السوفيتي ، وساهموا بجهودهم لتطوير الانتاج في الاماكن الجديدة ، كما حصل في جمهورية جورجيا ، وفي سيبيريا ، وغيرهما ، وشركتنا تقدم كثيراً من الخدمات ، من بيوت ودور استجمام ومميزات أخرى تتعلق بتسهيل الحياة على العاملين فيها .

* هل مازال الانتاج كما كان من قبل ؟

ـ لقد قل الانتاج عما كان عليه من قبل ، لأننا خلال ٩٠ سنة كنا نستخرج النفط من عمق يصل إلى ٤ آلاف متر ونصف تقريبا ، في حين أننا بدأنا بالحفر للوصول إلى أعماق تزيد على العمق السابق بألفي متر ، لذلك قل الانتاج في منطقتنا . إن النفط ثروة ناضبة ، يجب أن نعترف بذلك ونعلنه ، وكلما زدنا الضغط في الآبار أمكن أن يتحول النفط إلى غاز ، ونحن ننتج منه الآن حوالي مليار ونصف مليار متر ، في حين أن إنتاجنا كان أكثر من ذلك بكثير .

* المعلومات تقول إن إنتاجكم وصل في بداية السبعينيات إلى ٢٠ مليون طن من النفط سنويا فما مقدار إنتاجكم في هذه الفترة ؟

ـ إن إنتاجنا الآن حوالي ٥ ملايين طن نفط سنويا .

* ماالذي تم بالنسبة للعاملين في الشركة ؟

ـ مازالوا في أعمالهم ، وبعضهم التحق بالشركات العاملة في سيبيريا .

* إذن فنقص الانتاج في المناطق التقليدية السوفيتية حقيقة صحيحة ، فمن أين يعوض الاتحاد السوفيتي هذا النقص ؟

ـ من سيبيريا ، إنها بلاد واسعة كبيرة ، وعظيمة الامكانات ، فمنطقة واحدة منها هي (سيبيريا الشرقية) ينتج فيها مايزيد على ٣٦٠ مليون طن من النفط ، وسيبيريا مرحلة طويلة ، تحتاج إلى وقت ، وإمكانات ، ليتم استغلال كل الثروات فيها .

* هل يمكن القول أنه لاتوجد أزمة نفط في الاتحاد السوفيتي ؟

ـ يمكنك أن تقول ذلك بكل ثقة ، إننا مازلنا نصدر نفطنا إلى الأسواق الأوروبية الغربية ، إضافة إلى أسواق دول أوروبا الشرقية الشقيقة .

الزراعة والمزارع :

* تشتهر الجمهورية الشاشانية الانغوشية بالزراعة ، وبخاصة القمح والذرة والكرمة ونبات دوار الشمس والتفاح وأنواع من الخضار والفواكه الأخرى ، وبما أن الأرض ـ كل الأرض ـ في الاتحاد السوفيتي ملك للدولة فإنك ترى مساحات كبيرة وواسعة متخصصة بزراعة نوع واحد من أنواع الحبوب أو الخضار أو الفواكه ، بشبكة من المزارع الجماعية التي أقيمت في كل البلاد (الكولخوزات والسوفخوزات) .

زرنا إحدى المزارع المخصصة لتربية الحيوانات ، وقد صحبنا فيها السيد أصحب ، وقابلنا فيها مدير المزرعة السيد مراد ، وغيره من مسؤولين وإداريين .



● ساحة الجندي المجهول في غروزني ، يتولى حراستها صباح كل يوم شبان وشابات ، بحركات وطقوس منتظمة

● ساعة للعب ، وساعة للجد في إحدى روضات المزرعة القرية من مدينة نازاران .




السيد رئيس وزراء الجمهورية


السيدة فاطمة نائبة وزير الثقافة


السيد حسين دوشوكييف

قال السيد مراد : مساحة المزرعة حوالي ٢٢ ألف هكتار ، متخصصة في إنتاج اللحوم والحليب ، يعمل فيها ٧٥٠ عاملا ، وفيها حوالي ٥ آلاف من الحيوانات اللبونة ، من بينها ١٣٠٠ بقرة ، والعمال لهم بيوتهم في المزرعة ، وكل الخدمات متوفرة في المنطقة .

يوجد داخل المزرعة قريتان ، فيهما أربع مدارس ، ثلاث منها ابتدائية ، وواحدة ثانوية ، تتسع لحوالي ٧٥٠ طالبا ، والمدرسة الابتدائية الواحدة تتسع لحوالي ٤٠٠ طالب وطالبة ، وهناك عدة روضات للأطفال ، تابعة للمزرعة تتسع الواحدة منها لحوالي ٢٠٠ طفل وطفلة .

ويصل عدد السكان في المنطقة إلى حوالي عشرة آلاف نسمة ، ويتراوح عدد الأطفال في الأسرة مابين ٥ و ٦ أطفال ، وقد تأسست المزرعة سنة ١٩٥٧ ، ونحن نزرع فيها حبوبا وخضارا وفواكه أيضا . تبعد المزرعة بضع كيلومترات عن مدينة نزاران ، وفي المنطقة مستشفى ، وفي كل قرية عيادة مع فريق طبي .

* لقد رأينا بعض الظواهر التي نأمل أن نجد تعليقا عليها لديكم « هكذا علقت »

فقال السيد مراد : على الرحب والسعة .

* قلت : لقد وجدنا على الطرق ، وفي مداخل المدن والقرى بعض الباعة ، خاصة من النسوة الكبار في السن والأولاد والبنات ، وهم يبيعون بعض الغلال ، كالبندورة والتفاح والأجاص والبطيخ والعسل وغير ذلك ، فهل الباعة يبيعون هذه الغلال لحسابهم ؟ وكيف تجمعت لهم هذه الغلال ؟ .

- كما تعرف فإن الأرض تملكها الدولة ، والناس أجراء فيها ، لكن هناك استثناءات معينة ، إذ يتم منح قطع من الأراضي صغيرة المساحة في خارج المدن لكثير من الناس ، لاستغلالها لحسابهم ، فيبني الناس فيها بيوتا ، يقصدونها أيام العطل والاجازات ، وفي أوقات فراغهم ، ويزرعونها بمزروعات مختلفة ، نتاج هذه المزروعات يبيعونه لحسابهم الخاص طبعا ، وهناك مساحات صغيرة من الأرض ضمن مساحة البيت في المدن والقرى تتم زراعتها ، نتاجها يبيعه الناس أيضا لحسابهم الخاص ، كما أنه يتم صرف جزء من أجر العامل من محصول الأرض التي يعمل فيها في بعض الأحيان .

ويمكن القول بأن نظام المحاصصة مطبق جزئيا عندنا ، أي أن العامل الذي يجمع عشرة أكياس من البطاطا يوميا - على سبيل المثال - يحصل على كيس واحد منها ، إضافة إلى راتبه الشهري طبعا .

كما أن العائلات الكثيرة الأطفال تحصل على مساعدات من الدولة ، ومنها مساعدات عينية ، تلجأ إلى بيع بعضها للحصول على مقابل مادي .

* وكم هو المعدل الوسطي لأجر العامل أو الفلاح ؟

- المعاش الشهري للعامل أو الفلاح يصل إلى حوالي ٢٥٠ روبلا في الحالات العادية ، ويمكن أن يزيد على ذلك ، أما هذا العميد - عميد العمال أي

أمهرهم ـ بهاء الدين قد زويف فهو يحصل على حوالي ٤٠٠ روبل ، بسبب مهارته ، ومبادراته التي تأتي في كثير من الأحيان لصالح العمل . وتوجد في المزرعة مدرسة مهنية لزيادة مستوى أداء العاملين ، وهي تتبع نظام الدورات ، ويدرس فيها بعض عمال المنطقة وفلاحوها ، إضافة إلى غيرهم من مناطق أخرى .

حروف اللغة :

قبل الثورة سنة ١٩١٧ ، كان قليل من السكان يقرأون بالعربية ويكتبون بها ، وكانت منتشرة في الأوساط الدينية ، وما كان يتم تدريسه لهم لم يتعد بعض الدروس في اللغة والشريعة فقط ، لذلك كانت الأمية منتشرة انتشارا كبيرا في بلادنا . هذا ما قاله لنا السيد أصحب سكرتير اللجنة المركزية لحزب الشيوعي في منطقة نزاران .

وأضاف : إن لغتنا الخاصة كانت تكتب بحروف عربية من قبل ، لكن الأمر اختلف بعد الثورة ، فكتبناها بالحروف اللاتينية في البداية ، ثم تحولنا إلى الروسية .

* ولماذا تم تغيير الحروف من العربية إلى ماعداها ؟ هل هو موقف متكامل بدأ بالموقف من الدين وانتهى بحروف اللغة ؟

ـ التعامل مع الأديان نظمته القوانين ، ولا يوجد فرق في التعامل بين دين وآخر ، والفرد حر في معتقداته الدينية شرط أن لايخالف في أدائها قوانين البلاد ، أما بالنسبة للغة فإن الاجراءات التي اتخذناها أوصلتنا إلى القضاء الكامل على الأمية ، لقد كانت لغتنا تكتب بالحروف العربية ، وكانت بحالها آنذاك غير قادرة على استيعاب العلوم ، وتطورات الحياة التي تلاحقت ، فاضطررنا إلى تغييرها .

أما السيدة فاطمة نائبة وزير الثقافة في الجمهورية ، ومسؤولة الثقافة الجماهيرية فيها فقد قالت عندما وجهنا إليها السؤال المتعلق بتغيير الحروف العربية : أنا اختصاصية في اللغة ، ويمكن القول باختصار أن العلماء حاولوا في عشرينيات هذا القرن تطوير لغتنا المكتوبة بالحروف العربية ، كي تستوعب العلوم والتقنية الحديثة ، إلا أنهم فشلوا في ذلك ، فاتجهوا للاستعانة بالحروف اللاتينية مع الاستعانة بكثير من الموروث الثقافي الشاشاني الانغوشي ، ثم تم الاستقرار على استخدام اللغة الروسية مؤخرا .

إن السبب سبب علمي محض كما أرى .

الدين والعادات :

الكلام المتداول عن موقف السلطة السوفيتية ـ في بعض الأوساط ـ من الثقافة والفنون يركز على أنها تحاول زيادة الاهتمام ببعض الجوانب فيها ، على حساب جوانب أخرى ، خاصة المتعلق منها بالجوانب الدينية ، وتقول بأن ذلك الأمر يتم من أجل توفير البدائل التي تتوافق مع خططها وتوجهاتها .

على سؤال حول هذا الأمر سمعنا اجتهادات قالها السيد أصحب ، والسيدة فاطمة ، والسيد ستروفانوف انا تولى النائب الأول لوزير الثقافة في الجمهورية ، والسيد صوتصانف ميلكاليت مدير المسرح الوطني ، وقد تطابقت وجهات نظرهم الى حد كبير في هذا المجال وتلخيصها كالتالي : ـ

« إننا نهتم كثيرا بالعادات والتقاليد الشعبية ، ونحاول أن نعطي لها مكانتها في حياتنا ، لأن فيها جزءا من قسمات شعبنا المميزة ، وإننا نركز على الحي والحيوي الذي يمكن أن يطور الحياة ، ويغنيها ، ويعطيها دفعات تقدمية نحو الأمام ، اننا نستعين بما هو متوافق مع مانعتقد أنه ينقل شعبنا نحو آفاق التقدم . ونعتقد أن كثيرا من الشعوب تفعل مانفعل .

وبعض مافي التراث يعيق التقدم ، كالموقف من المرأة ، وعدم تعليمها على سبيل المثال ، وقد كان رجال الدين يغذون مثل هذا الاتجاه ، فهل يريد بعضهم منا أن نبقي على هذا التقليد ؟ انه تقليد رجعي ، هذا هو مجمل موافقنا من كثير من الأمور والقضايا .

اننا نأخذ بما يمكنه أن يخدم الحياة ، ويطورها ، ويتوافق مع الدستور والقوانين المرعية ، أما ماعدا ذلك فانه لايعنينا في شيء ولايلزمنا ، حتى لو كان جزءا من تقاليد شعبنا القديمة ، فاننا لانتعامل بقداسة مع التقاليد ، بل نتعامل بتفتح وادراك لما يمكنه أن يطور شعبنا ، ويفتح آفاقا للتقدم في حياته

* ماهي حقيقة « الصحوة الدينية » التي تتحدث عنها بعض الأوساط في بلادكم ، وألم تلاحظوا أو ألم تواجهوا في العشر سنين الأخيرة تحركات معينة ذات طابع ديني ؟

ـ عندما طرحنا هذا السؤال ووجهنا بعدة أسئلة ، واستفسارات ، لشرح معنى ما نريد أن نسأل عنه ومغزاه . ثم جاء الجواب :

ـ ليقل الاعلام الغربي والاعلام الذي يواليه في



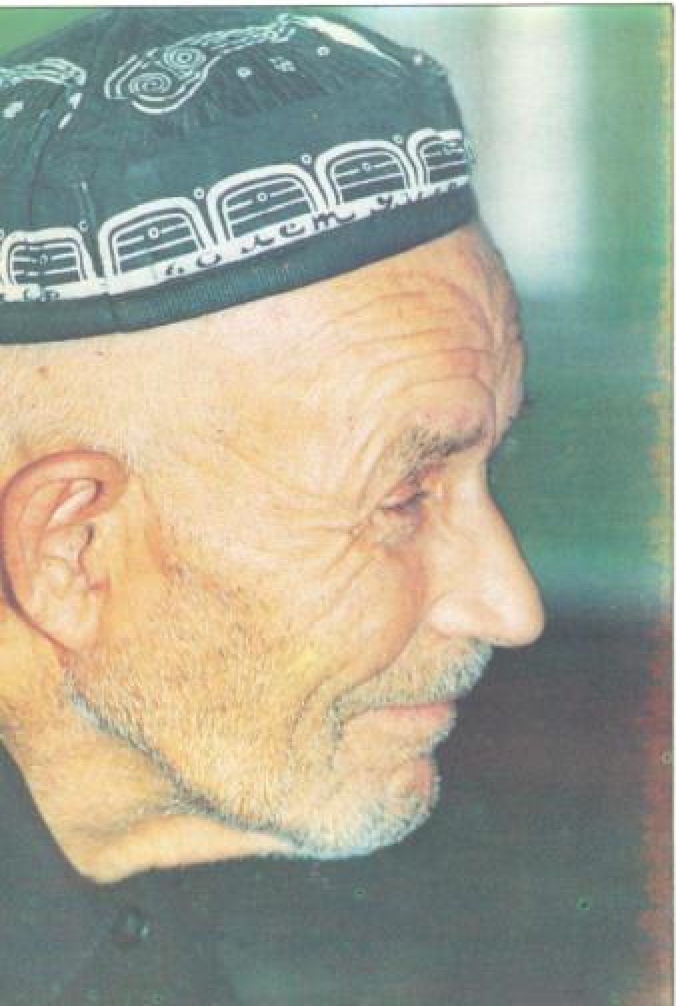
● مسجد مدينة
غودرمس ، تم
تجديده عدة مرات .







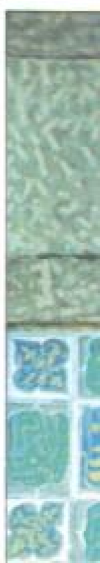
● هل تصدق أن الرجال الثلاثة هم الأمين العام للحزب الشيوعي في مدينة غودرمس ، وشيخ المسجد ، ومساعده ؟ نعم صدق ذلك ، وهم داخل المسجد أيضا وليس خارجه .



● وجه شاشاني ، وغطاء رأس ، علي نقوش مميزة ، يستعمل للصلاة في أغلب الأحيان .



● السيد جمال ليلى يقف مع صديقين من أصدقائه أمام بيته ، وبعض النساء يظهرن خلفهم .
(أقصى اليمين)



● آيات منقوشة بتكوين فني في مسجد مدينة غودرمس (يمين)

غير الغرب مايقول ، وليطلق الاشاعات ، لكننا نقول أن عجلة حياتنا تسير بوتيرة متسارعة ، لمواجهة مشاكل البناء التي تعترض طريق شعبنا ، ولايجاد وسائل الرفاه والتقدم له . وان ماتقول به بعض الأوساط ماهو الا أضغاث أحلام يحلمون بها ، ان المتدينين موجودون . لكنهم مواطنون يؤدون واجباتهم وأعمالهم مثل غيرهم من الناس . صحيح ان حياتنا لاتقوم حسب الشرائع الدينية ، لكنها لاتضيق بالمتدينين ، ولاتعترض على من يريد تأدية واجباته الدينية ، ان كان في المسجد أو الكنيسة أو الكنيس أو غيرها من أماكن العبادة أو في البيوت ، لكن بشرط الابتعاد عن اذكاء نار الحزازات والاختلافات الدينية ، أو مجابهة الدستور والقوانين السوفيتية .

التعامل مع الفنون :

وفي لقائنا الذي تم في المسرح الوطني مع السيدة فاطمة مسؤولة الثقافة الجماهيرية في البلاد سألناها عن الموقف من الثقافة ، وكيف يوظفونها ؟

- قالت : اننا ننظر للثقافة من منظور استراتيجي ، يؤكد على أهميتها كصناعة ثقيلة ، توفر الأرضية المناسبة للبنى الأخرى ، ونوفرها بصورة مجانية لجميع الناس لاسيما ماتعرضه النوادي الثقافية من مسرحيات درامية وعروض سينمائية ، وعروض فنية غنائية وغيرها .

ويوجد في الجمهورية ٣٨٠ ناديا جماهيريا ، ويصل عدد المكتبات العامة الى ٤٤١ مكتبة .

وهدف النادي الثقافي في الأساس هو التقاط المكونات الثقافية من بين الناس ثم اعادتها اليهم بصورة ثقافية فنية ممتعة ، وبواسطة هذا الأسلوب نحافظ على كثير من التقاليد الشعبية ، ويمكننا تطويرها أيضا ، فان الهدف الاساسي للنادي هو أن يكون وسيلة اشعاع ثقافي ، يتلقى من الجماهير ويعطيها ، يأخذ ماهو خام ويلتقطه ، ثم يبث الثقافة المغربلة المتطورة الموضوعة ضمن أسس علمية فنية .

- وأضاف مدير المسرح الوطني في غروزني الى كلام السيدة فاطمة قوله : ان المسرح الوطني قد تم تأسيسه سنة ١٩٣١ ، ويوجد في العاصمة ثلاث دور عرض مسرحية . تعرض مايزيد على (٥٠) مسرحية في السنة ، بينما مايزيد على ١٥ مسرحية من تأليف كتاب محليين ، والبقية يتم اختيارها من بين كتابات الكتاب السوفييت ، أو كتاب عالميين آخرين ، ويوجد مسرح خاص بالأطفال .

وأكد أن دور الفرق المسرحية لايقتصر على تقديم العروض في المدن فقط ، بل يتعداها الى تقديم العروض في ساحات القرى وميادينها ، وبعض عروض الفرق يتم تقديمها في مدن سوفيتية أخرى ، وقد وصل بعضها الى موسكو عاصمة البلاد كلها ، وأكد بأن العاملين في المسرح قد تخرجوا من معاهد فنية متخصصة .

ومادمنا نتكلم عن الفنون والفرق التي تقدمها فانه يجدر بنا الاشارة الى عرض الرقصات الفنية الذي شاهدناه في مسرح الفنون بمدينة نازاران ذات الأغلبية السكانية الانغوشية (عدد سكانها حوالي ٧٥ ألفا) ، وقد اعتمد على تقديم فقرات فنية للرقصات الشعبية المتنوعة ، منها محلية ومنها رقصات لشعوب أخرى من شعوب الاتحاد السوفيتي - قال لنا السيد بسلان مدير الفرقة وخريج قسم البالية من معهد موسكو الفني سنة ١٩٨٣ : ان عدد أفراد الفرقة يصل الى حوالي ٩٠ فردا ، بين عازف ومؤد وراقص وراقصة ، يقدمون رقصات هي عبارة عن مزيج من الفن التقليدي المحلي والفن المطور ، وبعضها يبقى عليه كما هو دون تطوير أو تحوير . وأضاف قائلا:ان الفرقة قد تم تأسيسها سنة ١٩٨٣ ، وقد قدمت بعض عروضها في عاصمة الجمهورية غروزني ، وفي موسكو أيضا ، وللفرقة برنامج سنوي لايقتصر على تقديم العروض في المدينة فقط ، بل يتضمن تقديم العروض على مسارح المصانع وفي القرى وميادينها . وقد اشترك في أداء الرقص مع الفرقة طفل عمره ٥ سنوات ، وقد أدى بعض الرقصات الفردية .

والرقص الشعبي في بلاد القفقاس عموما يعتمد على حركات عنيفة سريعة الايقاع ، تقتضي الوقوف على اصابع الارجل أحيانا ، والتوقيع المتتالي بواسطة الأرجل والأكف .

تقاليد حتى في الصناعة :

« يمكن ابراز المكونات الوطنية الخاصة في الصناعة أيضا » ، هذا ما قاله لنا السيد موسى حسين دوشكييف المدير العام لمصنع الملبوسات في مدينة غروزني . وأضاف : هناك انماط تقليدية من الملابس النسائية ، نصنعها أحيانا كما ورثناها ، وفي بعض الأحيان يضيف عليها بعض التطوير والتغيير مصمموا المصنع ، أما باقي المصنوعات فانها تخرج



السيد خانشادروف ميناسوفيتش



السيد موسى بينو



السيد اصحب مكييف

من النمط التقليدي الى التقشات والأساليب الحديثة .

صحيح أن مصنعنا مازال في أول شبابه (أنشيء سنة ١٩٧٦ بعد اندماج مجموعة من المصانع الصغيرة) لكنه يملك من الخبرات مايؤهله الى تغطية احتياجات الجمهورية ، بل والتصدير الى جمهوريات أخرى من جوريات الاتحاد السوفييتي ، ويعمل فيه حوالي ٢٥٠٠ عامل وعاملة ، معظمهم متخرجون من معاهد فنية صناعية ، وننتج حوالي ١٦٠ نوعا من الملبوسات بعد أن كنا ننتج ١٣ نوعا في البداية .

ومن الطبيعي أننا نواكب التطورات الحاصلة في مجالنا الصناعي ، لذلك فان التقنية الحديثة يتم ادخالها في كثير من محطات العمل . ويوجد ٩ أقسام أو على الأصح ٩ مصانع صغيرة قائمة في مدن وقرى الجمهورية الأخرى ، وهي عبارة عن فروع تابعة لهذا المصنع ، وقد اشتركنا في معارض دولية لصناعة الملابس ، وحصلنا على (ميداليات) ذهبية على تصاميمنا المتعلقة بملابس النساء .

واننا نراعي اجراءات السلامة بالنسبة للعاملين والعاملات في المصنع كما ترى ، في المصنع نقابة للعاملين فيه ، ولجنة حزبية ، ومركز تدريبي ، واستراحة للاستجمام ، ومن ضمن خططنا الطموحة بناء بيوت خاصة بالعاملين في المصنع ، وروضات خاصة بأطفالهم .

صحيح أن الدولة توفر كل ذلك الآن ، لكننا يمكن أن نساهم كادارة للمصنع ـ في التخفيف عن كاهل الدولة ، بايجاد بدائل مناسبة فيه ، وفوارق الأجور لاتتعدى الضعفين بين العامل المبتديء والعامل الممتاز الذي أصبح يملك خبرة طويلة في عمله ، والمعدل الوسطى للأجرة يصل الى حوالي ١٥٠روبل شهريا".

زائر المرة الأولى :

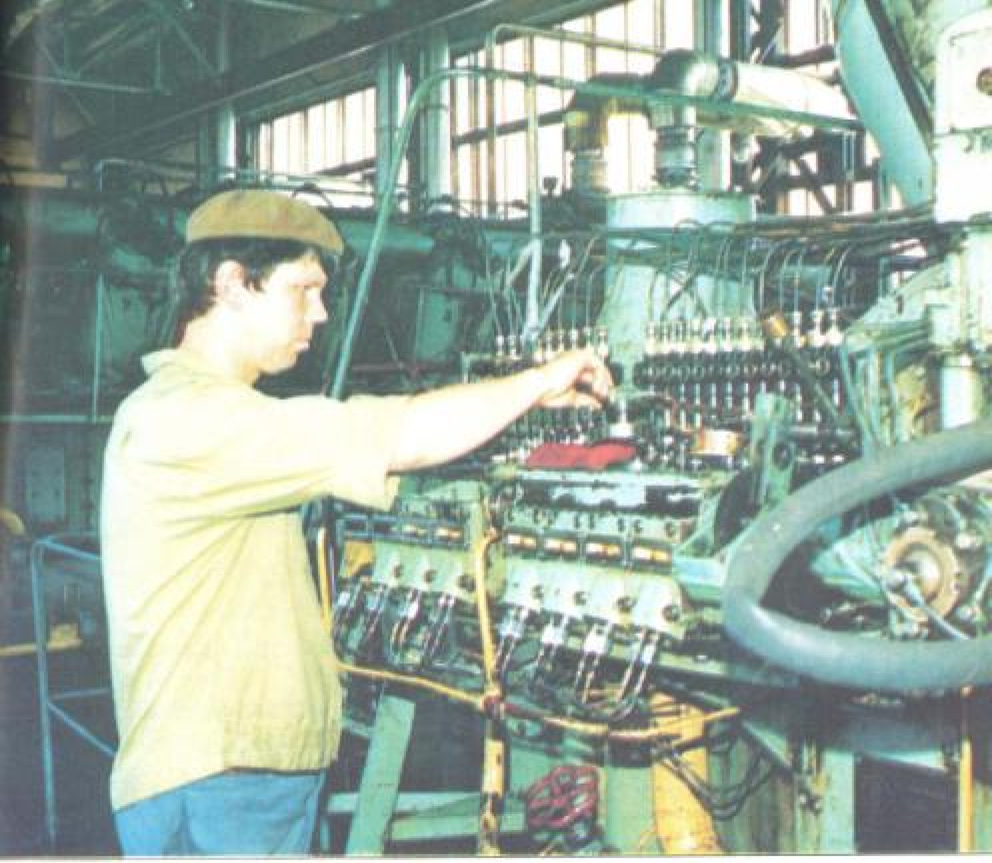
زائر المرة الأولى لاي بلد يحاول قدر الامكان الالمام بالصورة العامة للبلد الذي يزوره ، وبما أن زيارتنا لجمهورية (شيشانيا انغوشيا) كانت الأولى ، فاننا نسجل بعض الانطباعات العامة حول بعض مارأته العيون وسمعته الآذان :

ـ كأي بلد شرقي آخر ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، كان معتنقو الاسلام فيه هم الأكثر بالنسبة للديانات الأخرى ومازالوا كذلك ، فان بعض المظاهر التي لها دلالاتها مازالت حاضرة ، ومنها على سبيل المثال :

ـ تكوينات فنية ذات طابع شرقي واسلامي على شرفات البيوت والنوافذ ، كالتكوينات الهندسية وشكل الهلال ، وتكرار هذه التكوينات في عدة أشكال وعدة أوضاع .

ـ كتابة الأسماء والآيات القرآنية بالعربية ، أو باللغة المحلية ذات الحروف العربية على المقابر ورسم الهلال .

ـ استمرار ارتداء المرأة الشاشانية الانغوشية غطاء رأس يغطي رأسها ، وبخاصة النساء الكبيرات في السن ، أما الصبايا فان معظمهن يضعن منديلا أو



● عامل ومصنع لتكرير البترول بالقرب من غروزني .

شريطا على جزء من شعرهن
وتعرف أن هذه الفتاة (شاشانية انغوشية) في معظم الأحيان - من المنديل أو الشريط المتداخل بخصلات شعرها .

- بالرغم من أن عدد سكان العاصمة غروزني لايتجاوز ربع مليون نسمة ، وأن الأغلبية فيها من الشاشان ، فانك لاتجد فيها مسجدا ، بل تجد فيها كنيسة . وعندما سألنا مرافقتنا (واحة) أن يفسر لنا هذا الامر قال : -

- ان القانون عندنا - كما في جميع جمهوريات الاتحاد السوفيتي - يبيح لعشرين فردا فأكثر أن يتقدموا بطلب لبناء مكان عبادة ، والصرف ورعاية كل شؤونه ، فاذا ماوجدت السلطات الرسمية أن الطلب جدي ، وأن مقدميه يملكون الأهلية المناسبة منحتهم الاذن بذلك ، وعلى مايبدو أن هذا الأمر لم يتم في مدينتنا من قبل المؤمنين المسلمين .

علقت قائلا : لكننا رأينا مساجد خارج المدينة في بعض القرى المحاذية للطريق ، فهل يمكن ارجاع الأمر الى أن الريفيين مازالوا متمسكين أكثر من سكان المدينة بالأمور الدينية ؟

- أجاب واحة : لا أعتقد أن الأمر كذلك ، وكل ما أعرفه أنه يوجد من يصلي في المدينة أيضا ، لكنهم يصلون في بيوتهم .

لم تشف الاجابة غليل الأسئلة في نفسي ، فما كان مني الا أن بحثت عن اجابات مقنعة في الكتب فوجدت أن بعض المصادر تقول بأن مدينة غروزني (وتعني بالروسية المخيف أو الرهيب) قد بناها الروس عندما احتلوا كل منطقة القفقاس ، منذ مايقرب من قرنين من الزمان ، بالقرب من مكامن النفط والغاز ، بل وكان الروس فيها أغلبية حتى سنوات قليلة ، ومن الطبيعي اذن وجود الكنائس فيها ، وبخاصة أن الدولة القيصرية كانت تتبنى الديانة المسيحية الارثوذكسية . وأما المسلمون الذين كانوا يدينون بدين يلاقي رعاية أقل ان لم يكن محاربا في زمن القيصرية فان أغلبيتهم كانت تتمركز في الجبال ، وبخاصة أولئك الذين حملوا السلاح منهم



• بعض خيرات الأرض تباع على الطرقات لاحظ مناديل النساء .

وقاوموا السلطة ، وحين قامت السلطة السوفيتية سنة ١٩١٧ ابقت على حرية الاعتقاد الديني ، لذلك تم بناء بعض المساجد في غروزني وغيرها .

الا أن ماحصل أثناء الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة لمواقف بعض قطاعات الشعب الشاشاني الانغوشي المؤيد لهتلر ، (لاسيا مواقف بعض رجال الدين) دفعت القيادة التي كان على رأسها ستالين لاتخاذ رد فعل عنيف ، فأصدرت الأوامر بنفي الشعب كله الى المنافي ، فتم اهمال المساجد . وهناك محاولات جارية الآن لترميم بعضها وبخاصة في العاصمة غروزني .

ـ عندما زرنا المستشفى المركزي في مدينة (نازاران) قدم لنا الدكتور كتيف متيم محمد مدير المستشفى معلومات تفصيلية عن دور المستشفى ، والأقسام العاملة فيه (٢٨ قسما) ، وعدد العاملين ، واختصاصاتهم ، ونسبة الأطباء للمرضى (طبيب لكل ألف مريض وهي ـ حسب رأيه ـ من أفضل النسب عالميا) ، وذكر ملاحظة أثارت الاهتمام ، اذ أنه نفى وجود مدمنين على المشروبات الكحولية أو المخدرات ، وأنه لايوجد أي قسم في المستشفى يعالج هذه الحالات . بل أضاف بأنه لايوجد مثل ذلك في كل مستشفيات الجمهورية . وسألت عن أسباب ذلك ، وهل الأمر يتعلق بالاجراءات الأخيرة التي اتخذتها السلطة السوفيتية في كل الجمهوريات للحد من الاقبال على المشروب فجاء الجواب : « ان الأمر في بلادنا يعود الى ما قبل ذلك بكثير ، اذ أن المسكرات غير مقبولة ، وغير مستساغة حسب التقاليد التي ورثناها عن آبائنا ، وأن قلة نادرة من الناس عندنا تحتسي المشروب ، الا أنها تحاول أن تتستر على نفسها ، ولاتمارس ذلك علنا » .

فعلقت قائلا : ان الأمر لايخرج عن نطاق الموروث الديني الذي ينهي عن المسكر .

وسمعت تعليقا يقول : لقد أصبح ذلك جزءا من تقاليدنا وعاداتنا .

وأردنا أن نمتحن مصداقية معلومات عدم الاقبال

على المشروب ، فجلسنا في المقهى الرصيفي التابع للفندق الذي كنا ننزل فيه في مدينة غروزني ، وهناك تابعنا الرواد والرائحين والغادين ، وكانت حصيلة مالاحظناه التالي : ـ

من النادر جدا أن ترى امرأة تدخن ، ومعظم من يدخنون من الرجال (قلة قليلة ، ايضا) وهم من الشبان ، وأقل القليل منهم هو الذي يحتسي الخمر ، ومن النادر مصادفة السكارى التقليديين بترنحاتهم وأصواتهم العالية وضجيجهم في الطرق الرئيسية .

مسجد غودرمس :

تقع مدينة (غودرمس) على بعد حوالي ٥٠ كيلو مترا من مدينة (غروزني) ، وهي مدينة تتربع في سهل زراعي تجد عند مدخلها عشرات النساء والاولاد والبنات ، يبيعون العسل والفواكه والخضار ، عدد سكانها حوالي ٦٠ ألف نسمة غالبيتهم من الشاشان ، وقصدنا مسجدها الذي تملأ جوانب حيطانه الآيات القرآنية الكريمة المكتوبة بلغة عربية سليمة .

قال امام المسجد الشيخ أبو بكر عبد الرشيد الذي يتجاوز عمره ٧٥ سنة : ان طول المسجد ٣٨ مترا ، وعرضه ١٢ مترا ، ومبناه عبارة عن طابق أرضي واحد ، يتسع لحوالي ألف مصل ، وقد بني قبل سنة ١٩١٧ ، وكانت فيه مدرسة دينية ، أغلقت ، وأصبح على من يود دراسة علوم الدين أن يلتحق بمدرسة (مير عرب) في مدينة بخارى ، ونحن نقوم بتجديد البناء وترميمه بين فترة وأخرى . وحول صلاة النساء في المسجد قال الشيخ أبو بكر : « ان المذهب الشافعي لايبيح صلاة النساء في المسجد ، لذلك فانهن يصلين في بيوتهن ، وأضاف بأن من بين المصلين تجد الشيخ والكهل والشاب .

في بيت عائلة شاشانية :

استضافنا السيد جمال ليلى في بيته بمدينة غودرمس ، رجل تجاوز الستين من عمره ، له ولدان وبنت واحدة ، كلهم متزوجون ، فالفتاة تزوجت من رجل يقيم في اقليم ستفربول القريب (وهو يقع في الشمال الغربي من الجمهورية ، وتقع أوسيتا الشمالية في الغرب منها ، وفي جنوبها داغستان وجورجيا ، وفي الشمال منها داغستان واقليم ستافربول وجانب من أوسيتا الشمالية ، وفي شرقها داغستان) .

وقد أحيل هذا الرجل على التقاعد بعد بلوغه الستين ، فيما استمرت زوجته بالعمل ، وهو يعمل الآن لحسابه الخاص « سباكا » ، وكان آخر معاش حصل عليه هو ١٦٠ روبلا .

وعن بيته المبنى من طابقين قال : لقد بنيت البيت بعد أو وفرت مبالغ قليلة من عملي وعمل امرأتي ، وحصلت على قرض من البنك بمبلغ ألف روبل ، مدة سداده عشر سنوات ، بدون فوائد خلال السنوات الثلاث الأولى ، والفائدة السنوية في السنوات اللاحقة هي ٢/١ في المائة ، وقد حصلت على قرض آخر من بعض الأصدقاء ، كما ساهم بعضهم في البناء ، وهذه طريقة متعارف عليها في بلادنا ، نسميها (بلخي) ، حيث يساهم مجموعة من الأصدقاء في مساعدة بعضهم البعض في أية ضائقة تصيبهم أو احتياجات يحتاجونها . وبالقرب من بيتي بنى الولدان بيتهما بعد زواجهما ، أحدهما يعمل في مزرعة تعاونية ، ويتقاضى ٢٥٠ شهريا روبلا ، والآخر يعمل سائقا ويتقاضى ١٥٠ روبلا ، وزوجتاهما تعملان في التمريض ، أما أطفالها الصغار فان بعضهم مسجل في الروضات ، والكبار منهم في المدارس الابتدائية .

* وعن زواجه بواحدة قال انني متزوج امرأة واحدة فقد كانت القوانين السائدة قبل الثورة تبيح الزواج بأكثر من واحدة ، أما القانون السوفيتي فانه لايبيح الزواج بأكثر من زوجة واحدة .

وحول موضوع المواريث قال : ان الارث الآن يوزع على الابناء والبنات بالتساوي ، ومن عاداتنا أن البيت يؤول بعد وفاة صاحبه الى أصغر الأبناء ، ويزوره الأبناء الآخرون أو البنات بصفته بيت العائلة ، واذا لم يكن هناك أولاد أو بنات من صلب الرجل ، فان البيت يمكن توريثه بعد ستة أشهر من وفاة صاحبه الى أقرب الأقارب ، واذا كان غير موجود فانه يؤول الى الحكومة .

* هل تصلي ياسيد جمال ؟ (وانضم الينا في هذه اللحظة السيدان أحمد وعبد الوهاب برحجي) فقالوا جميعا : نعم نصلي ، لكن الدين لايتدخل في تسيير حياتنا ، والأبناء يمكن أن نوجههم نحو مانعتقد أنه مناسب لهم ، لكنهم أحرار في اتخاذ الموقف المناسب لهم « لا اكراه في الدين » .

* من هو صاحب القرار في البيت ؟

أجاب السيد جمال : طبعا الرجل .

ونظرت لأحد الأبناء وسألته : ماذا تقول ؟

فأجاب : ان الأمر يتم من خلال المشاورة

المداولة بين الزوج وزوجته ، مادام الأمر يتعلق بأشياء ومواقف تهمهما سويا ، ان للمرأة رأيها كما أن للرجل رأيه .

* كيف تنظرون الينا ؟ وماهي انطباعاتكم عن العرب ؟

قال الرجال الثلاثة بعد تمعن ولحظة صمت : أرضكم أرض مقدسة ، انها وطن الدين والاسلام ، ونتمنى لهذه الأرض السلام والصفاء ، وكل الخير والمحبة لشعبها .

- ملحق -

أثناء زيارة بعثة مجلة العربي لمدينة عمان ارتأت مقابلة بعض الشاشان فيها للاستيضاح عن بعض المعلومات المتعلقة بعاداتهم وتقاليدهم ، فكان لقاء بالسيد موسى بينو رئيس بلدية بلدة صويلح - القريبة من عمان - سابقا ، وبأخيه المهندس سعيد وزير الأشغال الأسبق وبعض أولادهم وبناتهم . قالوا : لقد جاء آباؤنا الى صويلح حوالي سنة ١٩٠٤م . - السيد موسى من مواليد سنة ١٩١٣ ، والسيد سعيد من مواليد سنة ١٩٢٧ - وقد جاء معهم ناس من الشاشان الى الزرقاء سنة ١٩٠٣م

وأضافوا : أصلنا من بلدة بينا - والألف تلفظ واوا عندنا - وهي تبعد حوالي ٨٠ كيلو مترا عن العاصمة غروزني من ناحية الحدود الداغستانية . وقد زار أناس كثيرون من شاشان المملكة الأردنية الهاشمية بلادهم الأصلية في كثير من المناسبات ، وبعض الطلبة الشاشانيين يذهبون للدراسة هناك ، وأشاروا الى احدى فتيات العائلة وقالوا بأنها مازالت تدرس هناك في جامعة مدينة غروزني .

وعن بعض العادات والتقاليد قالوا :

« فعلا ان المدخنين قلة نادرة في شعبنا ، واحترام الكبير واجب عندنا ، وعندما دخل السيد موسى وقف كل من كان موجودا في الغرفة احتراما له ، وهذا أمر تشترك فيه المجتمعات الاسلامية والشرقية . أما بالنسبة لصلاة المرأة - حسب المذهب الشافعي - فانهم أكدوا بأنها يمكن أن تصلي في المساجد .

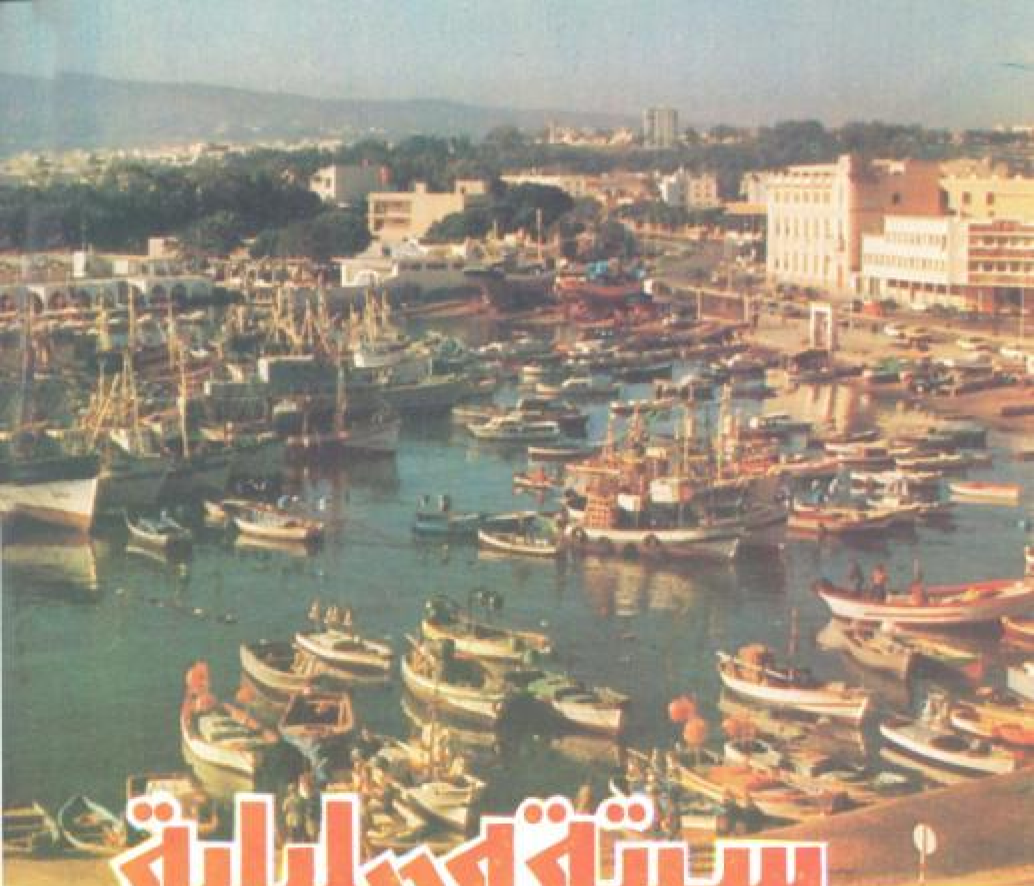
أما بالنسبة للعلاقة بين الأب والابن فقالوا اننا كمجتمع جبلي لانحبذ العاطفية الزائدة . وان الطفل اذا ما كبا وتعثر بحضور الجد أو الاب - على سبيل المثال - فان الأب لايمكن أن يقيله من عثرته ، بل يترك الأمر للمرأة ، كما أنه لايستحسن اصطحاب الرجل لأبنائه في رواحه وغدواته حتى ولو كان ذلك الى المسجد ، وان عالم الرجال عندنا عالم منفصل عن عالم المرأة والأولاد ، وانها بعض العادات التي مايزال بعضها مطبقا حتى الآن .

لاينتهي عند عتبة الباب :

آثرنا أن نتنقل بالسيارة بدلا من الطائرة عند انتهاء رحلتنا الى بلاد الشاشان والانغوش ، وقلنا ان الطريق البري يطلعنا على بعض المعالم في البلاد ، (تبعد غروزني عن أقرب نقطة حدود من ناحية داغستان حوالي ١٥٠ كيلو مترا) . وهكذا كان ، فرأينا الأرض الزراعية الشاسعة ، وخضرة الحقول المزروعة بالفواكه والخضراوات ترافقنا الطريق ، وأحيانا ترافقنا صفرتها بعد تمام حصاد القمح أو الذرة فيها ، وأحيانا أخرى يرافقنا منها الأخضر والأصفر معا وذلك إذا ما كانت الحقول مزروعة بنبات دوار الشمس ، فالحقول المزروعة به كثيرة .

اصر السيد واحة والسائق على توصيلنا الى مدينة محتشكلا عاصمة الداغستان ، على اعتبار أن ذلك هو أحد التقاليد المرعية في بلادهم وعلى نقطة الحدود التي لا يوجد عليها الا لوحة تشير الى ذلك استقبلتنا مجموعة من الرجال ، ورتبوا لنا جلسة ود بالقرب من مزرعة لكروم العنب وأصروا على أن نتناول بعض المأكولات والفواكه - قال لنا المرافق : ان ذلك تقليد ، ويجب أن تخضعوا لطقوسه ، ثم قالوا لنا كلمات مليئة بالحب والتعاطف والاخاء ، فأجبناهم بكلمات تقطر شكرا وعرفانا لانهم سهلوا مهمتنا ، وتبادلنا معهم الأمنيات برفاه كل الشعوب وتقدمها وسيادة السلام العادل لكل أقطار العالم .

وبرز الخنجر الفضي لامعا بيد مستقبلنا الداغستاني سلطان ، وقال : هذا تقليد جبلي داغستاني انه لكم ، نهديكم اياه ، وهو رمز للدفاع عن الوطن - فعبرنا له عن شكرنا وتقديرنا ، وكان لابد من وداع ، ولسان حالنا يقول قد نلتقي وقد لانلتقي ، لكننا أعطيناكم بعض مانعرف عن بلادنا وأودعتمونا بعض ماتعرفون عن بلادكم ونأمل أن تتسع جسور المعرفة بيننا،وفي تلك اللحظة تذكرت قولا للشاعرة الشاشانية السوفيتية رئيسة الحاتوفا ، تقول فيه : « منذ القديم والقرويون الجبليون في بلدي يعتبرون أن الوطن يبدأ دائما عند عتبة باب البيت ، واليوم يقولون ان الوطن يبدأ عند عتبة الباب ، لكنه ولأي سبب كان قد لاينتهي هناك » . □

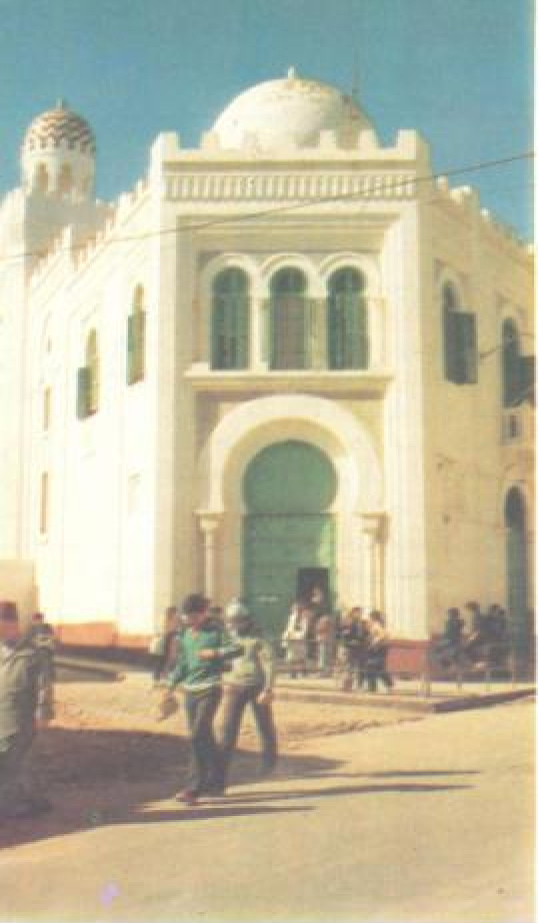


سبتة ومليلية
أرض عربيـة

بقلم : الدكتور خالد محمد نعيم

عـادت مشكلة سبتة ومليلية المغربيتين والواقعتين تحت الاحتلال الاسباني الى الظهور على سطح الأحداث ، ومع بداية العام الحالي بدأت حركة عصيان مدني تصحبها اشتباكات دامية بين قوات الاحتلال والسكان المغاربة الذين يتطلعون الى التخلص من نير الاستعمار .

أعلن الشيخ « عمر محمد دودوح » زعيم المسلمين المغاربة في مدينة (مليلية) المغربية ، الواقعة تحت سيطرة الاستعمار الاسباني في يوم ٨ فبراير من هذا العام (١٩٨٧) ـ بأن المغاربة في المدينة قرروا تنظيم حركة عصيان مدني ضد سلطات الاحتلال الاسباني ، وان العصيان سيشمل الامتناع عن دفع الضرائب ومقاطعة جميع المحال التجارية ، ووسائل النقل والأماكن العامة والخاصة في المدينة ، وان هذا العصيان سيستمر حتى يتم اطلاق صراح المسلمين (العرب) التسعة الذين اعتقلتهم



مسجد مليلة الوحيد .



البخوت وسفن الصيد تملأ الميناء .. ويحرم منها أهل البلاد المغاربة .

السلطات الاسبانية ، فى أعقاب حوادث العنف ، التى تصاعدت فى مليلية الاسبوع الماضى » .

وكانت مليلية قد شهدت ليلة ١٨ ديسمبر ١٩٨٦ اشتباكات دامية ، بين المتظاهرين ، من السكان المغاربة المسلمين ، وبين سلطات بوليس الاحتلال الاسبانى مما أدى الى اصابة سبعة من رجال البوليس وأحد المتظاهرين ، وكانت هذه المظاهرات قد تفجرت إثر اعتقال سلطات البوليس الاسبانى للشيخ عبد الرحمن محمد ، أحد الزعماء المسلمين ومعه ثمانية من رفاقه الذين يقودون فصائل حركة المقاومة الاسلامية ضد الوجود الامبريالى الاسبانى فى مليلية ، ووجهت اليهم جميعا تهمة تهديد أحد أصحاب المتاجر لرفضه الاشتراك فى اضراب عام كانت قيادات فصائل حركة المقاومة الاسلامية قد دعت اليه يوم ١٥ ديسمبر ١٩٨٦ .

ويعتبر الشيخ عبد الرحمن محمد ، امام المسجد الوحيد فى مليلية من أبرز الزعامات الدينية ، فى المدينة ، التى تناهض المحاولات المتكررة والمستمرة من جانب الكنيسة الكاثوليكية الاسبانية ، لتحويل المسلمين المغاربة الى النصرانية .

وبذلك عادت مسألة (بقايا المستعمرات الاسبانية فى الوطن العربى) لتحتل واجهة الصدارة فى اهتمامات وسائل الاعلام العالمية ، بعد غيبة طويلة ، وكانت وكالات الأنباء العالمية ، خلال شهر اغسطس ١٩٨٦ ، قد طيرت خبرا ، بأن الحكومة الاسبانية سوف تعين ـ فى وقت قريب جدا ـ مندوبا جديدا فى مدينة (مليلية) خلفا للجنرال الاسبانى (أندريه مورينوجويار) ، الذى تتهمه الأوساط الاسبانية المتطرفة (اليمين الاسبانى) بتعاطفه مع المغاربة المسلمين فى المدينة المحتلة ، هذا فى الوقت الذى ماتزال (مليلية) تعيش مضاعفات ـ ردود فعل ـ اغتيال المناضل المغربى (محمد احريقة) ، على

أيدي اثنين من رجال البوليس الاسباني ، في شهر يوليو ١٩٨٦ ، وسيطرت بوادر القلق والتوتر على جو العلاقات المغربية الاسبانية ، وخاصة بعد تطبيق (قانون الأجانب) على المغاربة أصحاب الأرض .

وأمام تصاعد عمل فصائل حركة المقاومة الاسلامية ، داخل مليلية ، حاولت الأوساط الاسبانية أن تحتوى الأزمة القائمة في المدينة « بأن أصدرت وزارة الداخلية الاسبانية في ٢ سبتمبر ١٩٨٦ قرارا بتعيين (الشيخ عمر محمدي دودوح) زعيم الجالية الاسلامية في مليلية ، مستشارا لوزير الداخلية الاسبانية ، لشئون الأقليات في محاولة من جانب حكومة مدريد لتفريغ المقاومة الاسلامية بالمدينة ، ويلاحظ ان هذا المنصب مستحدث ، وتعد هذه هي المرة الأولى ، التي يتم فيها تعيين أحد المسلمين المغاربة ، في مليلية ، بمنصب مهم .

وكان الشيخ عمر دودوح ، قد تزعم حركة احتجاجات عنيفة ، خلال الأشهر القليلة الماضية (يوليو أغسطس ١٩٨٦) ، للاعتراض على (قانون الأجانب) الذى عرّض معظم سكان مليلية ـ البالغ عددهم عشرين ألفا من المسلمين المغاربة ـ للطرد من المدينة ، وكان الشيخ عمر دودوح ، قد حصل على تعهد من حكومة مدريد ، بعمل احصاء دقيق للأفراد المسلمين ، المستحقين للجنسية الاسبانية . . !

ورغم أن الأحداث الأخيرة التي جرت تكشف بوضوح عن أنه لم يحدث أى تغيير في سياسة اسبانيا الاستعمارية تجاه الوطنيين المسلمين في مليلية ، وأن الأسباب التي فجرتها الأحداث مشابهة للأسباب القديمة ، غير أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام ، هي تزامن هذه الأحداث الأخيرة في مليلية ، مع انعقاد مؤتمر القمة الاسلامي في الكويت ، في أواخر شهر يناير ١٩٨٧ .

الأصول التاريخية لمسألة مليلية وسبتة

وترجع الجذور التاريخية لهذه المشكلة ، الى نهاية القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر ، حيث إن هذه السنوات قد شهدت مرحلة تطور وتحول خطيرين للبلاد المغربية ، وكانت سنوات النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، قد شهدت تطورات كبيرة ـ أيضا ـ في شبه الجزيرة الأيبيرية ، أثرت على مستقبل المغرب الكبير ، وعلى مستقبل سكانه ، ومستقبل المسلمين الموجودين فيه ، والمسلمين المغاربة في كل شمال افريقية .

واذا كان فرسان ونبلاء ـ العصور الوسطى ـ قد حاولوا التغلب على الأقطار العربية والاسلامية ، عن طريق البر ، فإن العصور الحديثة قد شهدت محاولات متصلة من جانب أبناء الطبقات الوسطى الأوروبية ، للسيطرة على الأقطار العربية الاسلامية ، بقوة السفن ، وبقوة رؤوس الأموال ، وبقوة التجارة ، وهي الوسائل العملية الجديدة ، في بداية العصور الحديثة .

لقد كان اتجاه (فرديناند وايزابيلا) الى توحيد اسبانيا ، يعني انتزاع السلطة من أيدى المسلمين في الأندلس ، ولذلك فقد كانت معركة دامية بين الاسبانيين وبين المسلمين ، حيث استخدم الاسبانيون فيها كل شدة ممكنة ، وكل تعصب يمكن تصوره ، وعندما حاولت القيادات الاسلامية الموجودة في شمال افريقية ـ في ذلك الوقت ـ ارسال بعض النجدات للمسلمين في الأندلس ، كانت هذه النجدات غير فعالة ، ولم تؤد الى نتيجة لها قيمتها ، حيث كانت القوى الكاثوليكية متفوقة في النواحي الاقتصادية والعسكرية . وفي الجانب الآخر ، كانت عوامل الضعف قد أخذت تعمل في الامارات الاسلامية في بلاد المغرب الكبير ، ونتج عن هذه العملية ، وعن القسوة والوحشية التي ارتبطت بها ، تدعيم نظام محاكم التفتيش في الأندلس ، وبشكل كان يجبر المسلمين على قبول التعميد ، أو الخروج من البلاد ، وفي فترات محددة وقصيرة .

أهداف تآمرية

وكان لقرب الامارات الاسلامية المغربية ، من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وارتباط المعركة بمسألة طرد (الموريسكيين) من الأندلس أن تبلور الصراع بين الصليب والهلال ، وحتى اذا كان هدف ملوك اسبانيا من وراء هذا الصراع ـ كما يدعون ـ توجيه الرأى العام بعيدا عن المشكلات الداخلية ، وخصوصا أمام عملية بناء سلطة الدولة الحديثة ، فان هذه العملية كانت توصل ـ في نفس الوقت ـ الى زيادة روح العداء بين المسيحيين والمسلمين المغاربة ، وتعمل بالتالي على استمرارية حالات التوتر بين الطرفين .

من هنا تجمعت الدوافع التي سيّرت العلاقات العربية الأندلسية أو الاسلامية الكاثوليكية صوب اصطدام مسلح ، وفي كل النقط التي يحدث فيها الالتقاء .

ولقد اشتملت خطة الاسبان والبرتغاليين ، على تطويق أقاليم المغرب الاسلامية ، ثم احتلال موانئه المطلة على البحر المتوسط ، وتحويلها الى المسيحية ، لقد ذهبت (الملكة ايزابيلا) الكاثوليكية الى أنها كتبت فى وصيتها ، « ضرورة قيام الكاثوليكيين بغزو بلاد المغرب ، وتحويل المغاربة المسلمين الى الدين المسيحى ، ورفع علم الصليب الاسبانى عليه ، بدلا من اعلام الهلال »

لقد قام البرتغاليون باحتلال بعض موانىء المغرب ، فاحتلوا (سبتة) عام ١٤١٦ ، ثم أخذ الاسبانيون فى احتلال (مليلية) فى عام (٨٧٦هـ - ١٤٩٦هـ) التى كانت جزءا من مملكة تلمسان ، وراح الاسبانيون ينفذون وصية (ايزابيلا) ، باحتلال شمال افريقية ، لتحويل مسلميه الى المسيحية ، فاحتلوا (المرسى الكبير) ، فى عام ١٥٠٥م ، وبعد أن سقطت البرتغال فى يد الاسبانيين ، أصبحت (سبتة) من ممتلكات التاج الاسبانى منذ عام ١٧٣٥م ، وهكذا غدا للاسبانيين عدة جيوب متناثرة على الساحل الغربى الممتد من المحيط الأطلسى حتى طرابلس الغرب .

موقع مليلية وجغرافيتها

ومليلية التى تسمى عند البربر (تامليلت) ، أى « البيضاء » مدينة تقبع على ساحل البحر المتوسط ، ويأخذ جانبها المحاذى للبحر شكل قوس نصف دائرى ، ومساحتها تصل الى ١٢,٣ كيلومترا مربعا ، ويقطنها - اليوم - حوالى ١٠٠ ألف نسمة ، وهى تبعد عن الحدود المغربية الجزائرية بنحو ١٢ ميلا ، وقد تحول أهلها الوطنيون الى أقلية ، ويصل عددهم فيها الى ٢٠ ألف نسمة من المسلمين المغاربة

ويصور (الحسن الوزان) المأساة التى حلت بمليلية يوم أن احتلها الاسبان فى عام ١٤٩٦ ، فيقول « بعث ملك اسبانيا أسطولا » بقيادة دوق (مرديناسيدونيا) ، لحصارها ، لكن السكان أخبروا به قبل وصوله ، فاستصرخوا ملك فاس ، إلا انه كان مشغولا بحرب القبائل .. فلم يبعث لهم الا بفرقة خفيفة ، مما جعل أهل مليلية - الذين كانوا على علم بضخامة الأسطول الاسبانى - يتوقعون العجز عن الصمود ، فأخلوا المدينة وفروا بأمتعتهم الى جبال (بطيوه) ، وأمام هذا الأمر أضرم قبطان الملك النيران فى جميع الدور ، وأحرق المدينة ، إما عقابا للسكان وإما نكاية بالغزاة ، ووصل الأسطول



خريطة تبين موقع كل من سبته ومليلة في المغرب .

الاسبانى بعد الحريق ، ووجم الغزاة ، ولكنهم عزموا على عدم التخلى عن المدينة ، وأقاموا منها حصنا ، وبنوا الأسوار من حوله ، واتخذوا منه قاعدة حربية للهجوم - بعد ذلك - على الشاطىء الافريقى ، ولضربه بالقنابل .

ومنذ ذلك التاريخ ومليلية تحت نير الاستعمار الاسبانى !!

المشكلة عبر التاريخ

ومنذ عام ١٦٨٥ ، ومحاولات المغرب لا تتوقف لاسترداد الأراضى المغتصبة ، غير أن معاهدة لشبونة فى عام ١٦٨٨ قد أقرت ملكية اسبانيا لمليلية وسبتة وملحقاتها ، ومع مرور القرون - على تلك الملكية - تصور البعض أنه كان من الصعب على المغرب استرجاع مليلية وسبتة ، وذلك لادعاءات المستعمر الاسبانى المتكررة بأنها أصبحتا أرضا اسبانية خالصة ، وبالتالى غدا الدفاع عنها دفاعا عن العمق الاستراتيجى لاسبانيا ، مع الأخذ فى الاعتبار ان المدينتين يمثلان من وجهة النظر السياسية والجغرافية - امتدادا طبيعيا للتراب المغربى ، خصوصا أن المغرب يمتلك من المبررات التاريخية ما يؤكد أحقيته فى استردادهما ، فى حين أن المستعمر الاسبانى يعتبر (مليلية) من وجهة النظر القانونية « منطقة اسبانية فى الجسم المغربى الأم » .

وكان المغرب - ومنذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر - يرغب فى تحرير مليلية ، ورؤية بقية

أقاليمه الأخرى محررة ، خصوصا أن هذه المستعمرات الاسبانية - قد تحولت الى قواعد استراتيجية ، لذلك فان حكومة مدريد كانت تقلل من هيبة الحكومة المغربية تجاه الأهالي ، بينما كانت اسبانيا ترى - وخصوصا بعد احتلال فرنسا للجزائر في عام ١٨٣٠م - ضرورة توسعها في الأقاليم الشمالية من المغرب كذلك ، والحصول على مركز متميز عن كل من فرنسا التي احتلت الجزائر ، وانجلترا القابعة في قلعة جبل طارق ، الأرض الاسبانية !!

الحرب الأسبانية المغربية

ولما كان من الصعب على اسبانيا أن تسترجع قلعة جبل طارق من انجلترا ، فانها حاولت أن تحصل على نجاح متميز في شمال المغرب ، قبالة جبل طارق ، يعوض فشلها في بلادها ، لذلك أخذت حكومة مدريد ، ومنذ عام ١٨٥٨ ، تهدد باحتلال المغرب ، ثم ساقت الظروف حادثة أسر رجال الريف المغاربة لاحدى السفن الاسبانية ، فاستغلتها مدريد ، وجعلت منها ذريعة أرسلت على أثرها أسطولها أمام طنجة ، كما أخذت ترسل الامدادات الحربية الى قواعدها في سبتة ومليلية .

وعلى الرغم من أن رجال الريف ، تركوا السفينة الاسبانية ومن عليها ، الا أن اسبانيا أعلنت الحرب على المغرب ، في ٢٤ اكتوبر عام ١٨٥٩ ، وأيدها في ذلك كل الرأي العام الأوروبي ، وانتشرت الحماسة مع روح صليبية في كل اسبانيا . وأخذ الناس يتبرعون بما يملكون للمساهمة في مواصلة نشر (الايمان الصحيح) - المسيحية الكاثوليكية - بين سكان شمال افريقيا ، وجددت الملكة (ايزابيلا الثانية) ما قامت به (ايزابيلا الكاثوليكية) ، من منح جواهرها ومصاغها (لهذه الحرب الصليبية) فقد كانت أياما مليئة ومشحونة بالعواطف والتعصب ، وعادت بكل من اسبانيا والمغرب الى نهاية القرن الخامس عشر .

وتحرك الأسطول الاسباني ، في شكل طابور من أربع عشرة سفينة حربية ، تم استئجار معظمها من فرنسا وبريطانيا ، على ظهرها ٤٤ ألف مقاتل ، قاصدا شمال المغرب ، فاحتل (تطوان) في ٦ فبراير عام ١٨٦٠ . ومع أن القوات المغربية ، بقيادة شقيقي السلطان ، لم تستسلم في هذه الحرب رغم الخسائر الجسيمة التي وقعت فيها ، فان توقف الحرب جاء نتيجة للضائقة المالية التي وقعت فيها كل من المغرب واسبانيا ، وهي التي حالت دون مواصلة العمليات الحربية .

تزايد نفوذ اسبانيا في مليلية

وعرضت حكومة مدريد الصلح على المغرب ، في ١٦ مارس ١٨٦٠م ، ووافق المغرب في ٢٥ مارس ، ووقعت بين الطرفين معاهدة ، كان من ضمن بنودها شروط خاصة بتوسيع أراضي القواعد الاسبانية في مليلية وسبتة ، والتنازل عن قطعة أرض بجوار (سيدي ايفني) ، والسماح لاسبانيا بارسال (رجال بعثات التبشير) الكاثوليك الى المغرب .

غير ان الموقف ازداد تعقيدا ، بين المغرب واسبانيا ، عندما علمت حكومة المغرب الاسلامية بتحويل الاسبانيين لأحد مساجد مليلية الى كنيسة ، وبطريقة تعطي للاحتلال الاسباني المؤقت للقواعد الشمالية المغربية شكلا دائما ، وظهر أن الطريقة الوحيدة أمام المغاربة هي الاستمرار في الحرب ، التي لم تكن في ذلك الوقت ، في صالحهم .

وأخذت حكومة مدريد ، تتودد للمغاربة ، لاحتواء أزمة الكنيسة ، بعقد معاهدة تجارية مع المغرب في ٢٠ نوفمبر عام ١٨٦٠م . وصل بها المغرب الى نقطة تحول خطيرة في تاريخ علاقاته باسبانيا . فقد كان من نتائج هذه المعاهدة تعيين عدد من الموظفين الاسبانيين في الموانىء المغربية للاشراف على ايرادات الجمارك ، كما عينت اسبانيا عددا من القناصل في الموانىء ، وأصبح هناك اتصال يومي بين هؤلاء الموظفين الاسبان الذين كانوا يتمتعون بحصانة دبلوماسية ، وبين الموظفين المغاربة ، في مليلية . وقد سمح وجودهم بمجيء جالية اسبانية كبيرة وأعقبها وفود جاليات أجنبية أخرى .

وتتالت الأحداث بسرعة ، بعد نشوب ثورة ١٨٦٨م في اسبانيا ، وأدت هذه الحوادث الى الاسراع في تقليل دور اسبانيا في المغرب ، وبشكل واضح ، غير أن اسبانيا حاولت جاهدة مع الدبلوماسية الفرنسية ، الابقاء على وجودها في مليلية وسبتة وملحقاتها ، ونجحت فعلا في ذلك ، ففي ٣ اكتوبر عام ١٩٠٤ تم توقيع الاتفاق الفرنسي - الاسباني ، بشأن المغرب ، احتفظت اسبانيا بمقتضاه ، بنفوذها غير منقوص في منطقة البحر المتوسط الشمالية . ومنذ ذلك الوقت غدت مليلية وسبتة وملحقاتها ، مناطق نفوذ اسبانية (مستعمرات اسبانية) معترف بها دوليا .



الوجه القبيح للوجود العسكري الاسباني امام قلعة مليلة .

المحاولات المغربية لاسترداد مليلية وسبتة

كان هذا الاتفاق قد صعد عمليات المقاومة داخل مليلية وسبتة ، اعتبارا من يوليو وحتى اكتوبر عام ١٩٠٩ ، فقد شن لفيف من زعماء الريف غارات منظمة على قوات الاحتلال الاسبانية فى مليلية ، وألحقوا خسائر بها ، ومع جسامة الخسائر فى الجانب الاسبانى لم تتوقف عمليات التوسع فى المنطقة المحيطة بمليلية ، ولكن روح الثورة انتشرت بين رجال الريف ، بمجرد أن بدأت السلطات الاسبانية تعمل على التوغل داخل المنطقة لحمايتها ، وأدى ذلك الى اصطدامات مسلحة .

لقد كان الاستعمار الاسبانى ، يميز بين نوعين من الاحتلال ـ عندما خيم على المغرب العربى النظام الاستعمارى ـ فالقسم الشمالى يعرف بمنطقة الريف ، وكان قد أخضع لنظام الحماية ، والمناطق الأخرى المتمثلة فى الجيوب الساحلية والصحراء بدعوى أن وجوده فى مناطق الحماية يستند الى معاهدات بين فرنسا ومدريد ، ولذا انسحبت اسبانيا من منطقة الريف فى مارس ١٩٥٦ ، وانسحبت كذلك ـ فى وقت لاحق ـ من مناطق طرفاية والصحراء ، أما القسم الثانى ، فقد اعتبره المستعمر الاسبانى أرضا اسبانية ، بدعوى طول الفترة التى مارست خلالها اسبانيا ادارة هذه الجيوب الساحلية ، التى احتلتها عن طريق (الغزو) ، وتعتبر مليلية وسبتة ـ فى رأى الاسبانيين ـ أرضا اسبانية لدرجة أن القارىء للدليل السياحى الاسبانى يقرأ ان « مليلية » هى أجمل المدن الاسبانية فى افريقيا .

والحقيقة أن المغرب لم يتخل عن اهتمامه وعزمه على استرداد مليلية وسبتة ، وملحقاتها ، حتى يحقق وحدة التراب المغربى ، وكان الاتفاق المغربى ـ الاسبانى فى عام ١٩٥٦ ، وما تلاه من مفاوضات ، بمثابة خطوة ايجابية فى طريق التحرر من الاستعمار الاسبانى الذى يجثم على انفاس المسلمين المغاربة فى مليلية وسبتة ، حدث ذلك فى عهد الدكتاتور فرانكو ، ولكن بعد أن تحولت اسبانيا الى الملكية الديمقراطية ، اخذ المتشددون وهم من انصار اليمين الاسبانى ، ينادون بعدم التخلى عن المدينتين ، ويطالبون بالتمسك بهما ، مع استمرار طمس كل ما

يتعلق بالتراث المغربي الاسلامي ، وبالهوية العربية ، وذلك تحسبا لأى تحكيم دولى يحتم اجراء استفتاء لسكان المدينتين ، لاختيار انتمائهم لأى من اسبانيا أو المغرب .

ولذلك بدأت ـ ومنذ عام ١٩٥٧ ـ بطريقة مكثفة ، عمليات توطين مستمرة من جانب الاسبانيين ، في محاولة لقلب الميزان السكاني في مليلية وسبتة ، وتغليب عدد الاسبانيين فيهما على عدد المغاربة المسلمين ، وفي المقابل تجرى عملية ترحيل دائمة أيضا ، من جانب السلطات الاسبانية لسكان مليلية وسبتة الى المغرب الأم ، بغرض تفريغ الهوية العربية الاسلامية ، وإحداث خفض جوهري في عدد السكان الأصليين ، لأن حكومة اسبانيا تدرك جيدا أن المغاربة المسلمين الحاصلين على الجنسية الاسبانية ، سوف يختارون الانتماء للمغرب العربي في أي استفتاء يجرى هناك ، وهذا الاعتبار هو الذى أوجد التوتر والقلق بين كلا الجانبين في مليلية . إن آخر المحاولات التى قام بها أبناء مليلية أنفسهم ، لتخليص المدينة من نير الامبريالية الاسبانية كانت في ابريل عام ١٩٧٥ ، وجاءت من داخل (المسجد) حيث التنظيم السياسى والديني الوحيد المسموح به لأبناء مليلية ، فالسلطات الاسبانية تحرم على المسلمين المغاربة هناك ، تنظيم أنفسهم في نواد أو نقابات أو أحزاب سياسية ، وعندما انفجرت قنبلة في أحد شوارع مليلية في أغسطس ١٩٧٥ ، وقتلت شخصا وجرحت عددا من رجال البوليس الاسباني ـ تعبيرا عن احتجاج الأهالي ، أخذت سلطات الاحتلال ، هذه الحادثة ذريعة لطرد عشرات من الأسر المسلمة المغربية من مليلية ، فطردت ٦٠٠ فرد ، واعتقلت السلطات الاسبانية ما يزيد عن ٤٠٠ مغربي من المقيمين بالمدينة ، وخيرتهم بين التجنس أو الطرد من مليلية .

هكذا يعيش المغاربة المسلمون في مليلية ، غرباء في وطنهم ، تحت تسلط الامبريالية ، محرومين من حقوق الممارسة السياسية ، والمشاركة الفعلية في ادارة مدينتهم ، لأنهم ـ أصلا ـ محرومون من حق المواطنة ، انهم مواطنون من الدرجة العاشرة ...

ان سكان مليلية يخضعون لقانون الأحوال الشخصية الاسلامي ، وهم في نفس الوقت ، مطاردون من سلطات الاحتلال ، حيث تطبق عليهم السلطات الاسبانية قوانين عديدة تجيز لهم (التنصير) ـ التحول عن الاسلام الى النصرانية ـ وتمنعهم من التنقل من منطقة الى أخرى ، فماذا نحن فاعلون من أجل اخواننا العرب المسلمين ، في الوطن العربي ؟

الأهمية الاستراتيجية لمليلية

لقد شكل قرب (سبتة) من قلعة جبل طارق ، الخاضعة لسيطرة بريطانيا ، أهمية خاصة ، فهي تعتبر نقطة انطلاق اسباني ، لمراقبة ساحل البحر المتوسط في أقصى الغرب ، وفي نفس الوقت ، تمثل قاعدة متقدمة تشرف على شمال المغرب ، ومعظم الجزر المتناثرة في حوض البحر المتوسط ، بينما تؤمن (مليلية) تغطية عسكرية لمنطقة غرب الجزائر من ناحية وهران ، وتشكل مع (سبتة) هلالا يحكم منه الاسبان مراقبتهم لمنطقة شمال افريقيا .

من هنا تعتبر مليلية وسبتة ـ اليوم ـ قواعد عسكرية اسبانية كبيرة ، وعلى درجة عالية من الأهمية الاستراتيجية ، بالنسبة لاسبانيا في مواجهة جبل طارق ، ولذلك لم تتوقف نشاطات السلطات الاسبانية عن تشييد الاستحكامات العسكرية في المدينتين ، وهي مستمرة في مضاعفة اعداد قواتها العسكرية هناك ، حتى أن بعض التقارير تذكر : « أن بمدينتي مليلية وسبتة ٣٠ ألف جندى اسباني » كما تتخذ الفرقة المدرعة الاسبانية ـ وهي أقوى قوة ضاربة من الجيش الاسباني ـ من المدينتين قاعدة لنشاطها العسكري وتدريباتها المتواصلة ، ويوجد الآلاف من أفرادها هناك ، وخلال ديسمبر عام ١٩٨٦ ، تم تزويد المدينتين بمعدات ثقيلة وأنظمة عسكرية متقدمة للرادار .

ان مليلية ، التي أدت دورا مهما خلال الحرب الأهلية الاسبانية عام ١٩٣٦ ، مدينة مغربية عربية اسلامية ، فعندما نشبت الحرب الأهلية في اسبانيا ، كانت الشرارة الأولى قد انطلقت من مليلية ، عندما تمردت الحامية الاسبانية فيها بقيادة الجنرال فرانكو ، ضد حكومة الجبهة الشعبية الجمهورية ، ومن مليلية انطلق فرانكو الى الحكم في اسبانيا وظل يحكم قرابة أربعين عاما ، لقد شارك عشرات المئات من أبناء مليلية المسلمين في هذه الحرب الى جوار قوات فرانكو الاسبانية ، وسقطوا بالمئات قتلى بسبب حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان عدد المغاربة الذين جندوا في قوات الجنرال فرانكو ، كان يزيد عن ١٤٪ من عدد سكان هذه البلاد ، فقد كان تعداد سكان منطقة

الريف يتجاوز المليون نسمة بقليل ، (حسب احصاء عام ١٩٣٤) ، وهذا العدد لا يمكن بأى حال من الأحوال ، أن يخرج من الرجال الجاهزين للقتال ، أكثر من ١٧٥ ألف رجل ، ولكن القيادة العامة لجيوش فرانكو ، كانت قد أصدرت بيانا في يناير عام ١٩٣٧ حددت فيه عدد الجنود المغاربة ، في كافة المواقع الحربية المختلفة داخل اسبانيا ، بـ ٥١٠٠ جندى فقط ، بالاضافة الى طابور كامل من الحرس الخليفي ، حرس خليفة صاحب الجلالة سلطان المغرب ، الذى كان يتألف من ألف جندى وضابط كلهم من المغاربة .

واستمر فرانكو فى تجنيد المغاربة ، حتى وصل عددهم فى جيوشه إلى ١٣٥ ألف جندى وضابط ، حسب احصاء يناير عام ١٩٣٨ ، وهذه الأرقام حقيقية ، لأنها مأخوذة من احصاءات الاسبانيين أنفسهم .

وتحدث كثير من الناس عن قبول المغاربة للتجنيد ، فى صفوف قوات الجنرال فرانكو ، وقالوا : « ان المغاربة يساعدون فرانكو رغبة فى تخليص بلادهم من الاستعمار الاسبانى ، اعتمادا على الثوار الاسبان فى هذه الغاية » فقد كان فرانكو قد وعدهم بالاستقلال اذا ما تولى هو السلطة فى اسبانيا ، ولم يحدث أن أوفى فرانكو بوعده ، فمازالت (مليلية) التى صنعت تاريخ اسبانيا خلال عقد كامل ، مستعمرة اسبانية ، وكأنهم يعاقبونها على سماحها لفرانكو أن يتحرك منها ، وبعديد من رجالها ، ليصنعوا التاريخ فى اسبانيا !!

لقد تحولت (مليلية) اليوم الى (واحة للهدوء) بالنسبة للاسبان ، ان مليلية وسبتة ، وجزيرة حجر باديس ، وجزيرة الحسيمة ، والجزر الجعفرية ، كلها أراض مغربية ، وسكانها من المسلمين ، أسهمت بقدر متفاوت فى صنع التاريخ الاسبانى فى خلال عقد من الزمن ، ومع ذلك لا تزال تعيش تحت السلطية الامبريالية الاسبانية ، انها آخر معاقل الاستعمار الأوروبى التقليدى فى الوطن العربى ، فمتى تتحرر وتحصل على استقلالها وتعود الى وحدة التراب المغربى ؟

ان العرب والمسلمين عامة ، وكذلك فرنسا ، يؤيدون (الحركة الوطنية الاسلامية داخل مليلية) ، ولكن التأييد وحده لا يكفي ، فهل من عمل ايجابى لتحرير هذه المستعمرات المغربية العربية الاسلامية ؟ □

مراحل محاولات استعادة سبتة ومليلية

لم ينقطع المغرب أبدا عن المطالبة باسترداد مدينتي سبتة ومليلية والجزر المحتلة .

في مارس ١٩٥٦ طالب المغرب باسترجاع الجيوب المحتلة ، وجدد طلبه رسميا عام ١٩٦٠ ، طالبا الدخول في مفاوضات مع اسبانيا . . وكان رد اسبانيا أن لها حق الملكية على الجيوب بحجة الاستيلاء عليها عن طريق الغزو أولا ، ثم تعزيز هذا الواقع بمعاهدات واتفاقيات مع المغرب ثانيا .

ادعاءات اسبانيا لا ترتكز على أي اساس قانوني ، حيث ان احتلالها للثغور هو احتلال استعمارى محض قام به البرتغاليون قبلها ، وحتى الاتفاقيات التى انتزعتها اسبانيا من المغرب بالقوة ، وفي ظروف صعبة من تاريخه لم تحترمها ، اضافة الى أن الأراضى المحتلة توجد داخل التراب المغربي ، وتكون الحدود الطبيعية لترابه الممتد على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

لا يمكن بأي حال اعتبار السكان الجدد الذين دفعتهم اسبانيا الى هذه المناطق لاستيطانها سكانا أصليين ، بناء على الفصل ٧٣ من ميثاق منظمة هيئة الأمم المتحدة .

تغيير الطابع العرقي للجيوب المحتلة ، سواء عن طريق الطرد ، أو تغيير الجنسية ، أو التنقل ، لا يمكن أن يشكل قاعدة لتطبيق مبدأ حرية تقرير المصير .

هناك اتجاهان متعارضان ، فبالنسبة للجانب المغربي يجدد التعبير في كل مناسبة عن مغربية المدينتين ، ويربط استعادتها على الصعيد الرسمي ، بموضوع استعادة اسبانيا لجبل طارق ، من انجلترا ، وتصفية الجيوب المحتلة يعتبرها المغرب حقا شرعيا ثابتا ضمن اطار الاراضى التى لم تزل خاضعة للاستعمار ، ويجب تحريرها تنفيذا لمبدأ استكمال وحدة التراب المغربي .

ابتداء من سنة ١٩٥٦ صدرت من القاهرة عدة بلاغات عن لجنة المغرب العربي تطالب اسبانيا برد مجموع الاراضى المغربية المحتلة .

أكد الملك محمد الخامس مرات عديدة أن المغرب متمسك باسترداد أراضيه التى انتزعت منه في أحوال

استثنائية ، أو بمقتضى اتفاقيات دبرت في الخفاء .

أول مطلب رسمي قدمه المغرب لاسترجاع ما تسميه اسبانيا باراضي السيادة ، يرجع تاريخه الى عام ١٩٦٠ ، حيث قام ممثل المغرب بالأمم المتحدة وطلب من المنظمة الدولية الاعتراف بحقوقه المشروعة حول مدينتي سبتة ومليلية والجزر التابعة لها .

في شهر سبتمبر ١٩٦١ صرح الملك الحسن الثاني في مؤتمر دول عدم الانحياز المنعقد في بلغراد « ان المستعمر الاسباني ما زال يحتل أقاليم كاملة بجنوب أرضنا وأراضي وقواعد بالشمال بسبتة ومليلية » وعلى اثر هذا التصريح قامت الدوائر الاسبانية بعدة اجراءات تعسفية ضد المغاربة المقيمين بالمدينتين ، وكذلك بحملات مسعورة ضد المغرب ، مما جعل حكومة المغرب تصدر بلاغا يوم ٢٩ يونيو ١٩٦٢ تؤكد فيه عزم المغرب القوي لاستعادة مدينتي سبتة ومليلية للسيادة المغربية .

بعد أن تيقن المغرب أنه لا مفر من اللجوء الى المجتمع الدولي ، رفع الى هيئة الأمم المتحدة شكواه ضد اسبانيا في فبراير ١٩٧٥ مطالبا اسبانيا بالتخلي عن أجزائه المحتلة ، وتابعها بمذكرة جديدة في ٧ مارس ، ليزيد بطلبه توضيحا وردا على محاولات اسبانيا قلب الحقائق وتزوير التاريخ .

وسط هذا الجو المتأزم أرسلت اسبانيا باخرتين حربيتين وباخرتين عسكريتين محملتين بالجنود الى المدينتين ، بالاضافة الى غواصات ومصفحات وطائرات هيلوكوبتر ، واستنكر الرأي العام المغربي هذه الأعمال الارهابية ، وصادفت هذه الأحداث انعقاد مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية بأديس أبابا ، حيث عرض وزير خارجية المغرب عرضا مفصلا لأعمال اسبانيا التعسفية ، وتدخل كل رؤساء الوفود مؤيدين وجهة نظر المغرب .

في أغسطس ١٩٧٥ تأزم الوضع بالمدينتين ، ووقعت مظاهرات وانفجارات خلفت عددا من القتلى والجرحى بمدينة سبتة ، وقامت سلطات المدينة باعتقال ٤٠٠ مغربي ، وخيرت قياداتهم بين اختيار الجنسية الاسبانية أو مغادرة المدينة ، وبالفعل تم طرد عشرات العائلات الذين لجأوا الى تطوان وضواحيها .

في الجلسة الثلاثين لاجتماع الأمم المتحدة في اكتوبر ١٩٧٥ ، طلب رئيس الوفد المغربي بفتح مفاوضات مباشرة بين مدريد والرباط ، قائلا ان اسبانيا لا يمكن أن ترفض هذا الحوار ، لا سيما أنها تطلب نهج نفس الطريق لايجاد حل لمشكلة جبل طارق .

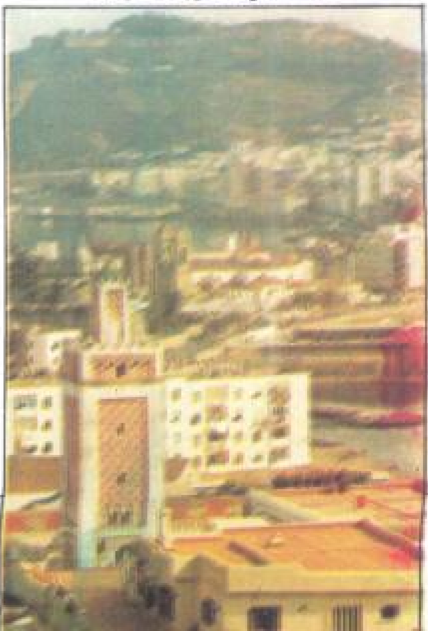
أكد الملك الحسن في مناسبات عديدة مطالبة المغرب باسترجاع سبتة ومليلية والجزر ، وصرح في ندوة بواشنطن في ١٥ نوفمبر ١٩٧٨ ، ردا على سؤال حول المدينتين : لا ، ان سبتة ومليلية مدينتان مغربيتان ، ويجب أن أتفاوض مع اسبانيا في جو ملؤه السلم والتفاهم وحسن الجوار والصداقة » .

انتقد وزير الدولة المغربي للشئون الخارجية أمام مجلس النواب في ديسمبر ١٩٨٠ زيارة رئيس الحكومة الاسبانية للمدينتين المحتلتين ، وقال « ان المغرب سيعمل للقضاء على رواسب الاستعمار بالوسائل السلمية ، وان المغرب لن يتخلى عن سبتة ومليلية مهما كانت نوعية التعاون الاسباني المغربي » .

قال الملك الحسن ردا على سؤال بتاريخ ٩ يناير ١٩٨٥ : « ان الحل لمشكلة سبتة ومليلية لا يمكن أن يكون الا حلا سياسيا ، والدليل على هذا أن المجموعة الأوروبية وضعت تحفظا فيما يخص قضية سبتة ومليلية عند دخول اسبانيا للسوق الأوروبية المشتركة ، ان الحل لا يمكن أن يكون الا حلا سلميا ، اللهم الا اذا كان للاسبانيين مبادرة غير سلمية ، أي مبادرة عسكرية ، وآنذاك سيضطر المغرب للدفاع عن نفسه » .

من أبرز تصريحات الملك الحسن ما أعلنه في ندوته الصحفية يوم ٧ مارس ١٩٨٦ حين قال « ان المغرب هو الذي يحرر بلده ، وان الأرض مغربية ، والمغرب هو الذي سيحررها .. ونؤكد أننا نريد أن نسترجع سبتة ومليلية بالطرق السلمية ، قبل أن يتطور الأمر الى أبعد من ذلك » .

مسجد سيدي مبارك الحصن الاخير في الدفاع عن سبته قبل ان يغزوها الاسبان .



البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



ذات الرّداء الأبيض

داء القطط أكثر الأمراض انتشاراً



ذات الرداء الأبيض

استطلاع : وفاء طه ناجى
تصوير : طالب الحسينى

على الرغم من أن التمريض جزء لا يتجزأ من حياة الأسرة في كل مكان من العالم . . وعلى الرغم من حاجتنا جميعا ـ عند المرض ـ الى يد حانية ترعانا . . وقلب عطوف . . يبعث فينا الأمل . . ويبشرنا بالشفاء ، إلا أن الممرضة مازالت تعاني ـ في مجتمعنا العربي ـ من النظرة السلبية الى دورها في خدمة المريض .

وفي الكويت مرت على مسيرة التمريض عشرون عاما أو تزيد ، لم يكن الدرب فيها ممهدا أمام الفتاة الكويتية التي اختارت ان تلبس الرداء الأبيض وتعمل في تلك المهنة النبيلة .

في بداية الستينيات . . لم يكن سهلا على الفتاة الكويتية أن تتقدم لدراسة التمريض ، فقد كان الاشتغال بتلك المهنة ـ لما فيها من اختلاط بالغرباء ، واضطرار للسهر في نوبات الخفارة ـ يعنى خروجا على التقاليد العربية المحافظة . وكانت معظم العائلات الكويتية تنظر الى العمل التمريضي على أنه سلسلة من المتاعب النفسية والجسدية ، فتشفق على بناتها من الالتحاق به . . أما اليوم فقد تغير الحال ، وتقدمت الفتاة الكويتية لتنهل من ينابيع العلوم والآداب ما شاءت ، وتشهد مقاعد الدراسة التمريضية أعداداً من الطالبات تزداد عاما بعد عام ، فالإقبال جيد إذا ما قورن بالوضع الذى كان سائدا منذ عشرين عاما ، وقد أصبح في الكويت الآن أكثر من مصدر لتخريج الكوادر التمريضية ، فبالإضافة الى معهد التمريض هناك قسم للتمريض في معهد العلوم الصحية للبنات يتبع التعليم التطبيقى ، كما أنشئت مؤخرا كلية للعلوم الطبية المساعدة تتبع التعليم الأكاديمى الجامعى ، ويدرس فيها طلاب من الجنسين .

وفي السنوات الأخيرة . . خصصت الكويت أسبوعا للتمريض ، تحتفل به في شهر مايو من كل عام ، مما يدل على زيادة الاهتمام بالعاملين والعاملات في هذا الميدان المهم من ميادين الخدمات الطبية .

فما هى قصة التمريض في الكويت ؟ للاجابة عن هذا السؤال ، قامت « العربى » بجولة في بعض المرافق الصحية ، وكان لنا أكثر من لقاء مع مسئولين عاملين في هذا الميدان .

معهد التمريض

في البداية . . كان لقاؤنا مع شيخة المذن مديرة معهد التمريض والحاصلة على درجة الماجستير في التمريض ، وهى أول مديرة كويتية للمعهد . . حدثتنا عن رحلتها مع المهنة والمعهد فقالت : « عندما أعلنت للأسرة عن رغبتى في دراسة التمريض ، لم تلق تلك الرغبة التشجيع الكافي ، فلم يكن مفهوم العمل التمريضي واضحا لدى الأهل في ذلك الوقت ، وظل أبى يردد على مسمعى المتاعب التى تنتظرنى بمجرد أن أتسلم العمل ، ثم مالبث أن وافق على التحاقى بمعهد التمريض ، وكان ذلك في عام ١٩٦٣ ، أى بعد عام واحد من انشاء المعهد . وتخرجت ضمن الدفعة الثانية التى لم يزد عدد الكويتيات فيها عن سبع فتيات خريجات .

وبعد أن قضيت فترة في العمل ممرضة في قسم الأطفال بمستشفى الصباح ، قررت استكمال دراستى ، وتغلبت على العقبة الأولى التى واجهتنى ـ حينئذ ـ وهى صعوبة الحصول على إجازة دراسية من وزارة الصحة،فاستقلت من عملى بعد سبعة أشهر فقط من بدايته ، أما العقبة الثانية فقد تمثلت في ضرورة اجتياز امتحان معادلة شهادتى بشهادة الثانوية العامة ، وبعد نجاحى في الامتحان سافرت الى مصر ، وحصلت على درجة البكالوريوس في التمريض من جامعة القاهره عام ١٩٧٤ .

وعدت للعمل ـ مرة أخرى ـ في قسم الأطفال في مستشفى الصباح بالكويت،ثم رغبت في اتمام دراستى العليا ، فغادرت الى الولايات المتحدة وحصلت على درجة الماجستير في التمريض سنة ١٩٨٠ . وعملت بعد عودتى نائبة لمديرة معهد التمريض لمدة أربع سنوات،ثم أنيطت بى ادارة المعهد في عام ١٩٨٤ .



الممرضة : « وجه مشرق ، وابتسامة صافية » .

وتسأل «العربي» شيخة المذن عن الدراسة في المعهد فتقول:

«... بالاضافة الى دراسة العلوم التمريضية، تدرس الآن موادا ثقافية عامة موازية للمواد المقررة في المدارس الثانوية العامة، مما يتيح لطالبة المعهد أن تعادل شهادتها بالثانوية العامة وتتابع دراستها الجامعية بعد التخرج. فتلك هي العقبة الوحيدة ـ تقريبا ـ أمام خريجات معهد التمريض المتوسط لاستكمال تعليمهن الجامعي ـ أما تلك المواد فهي: الاجتماعيات واللغة العربية، وعلم النفس وعلم الاجتماع والتربية الاسلامية، بالاضافة الى مبادئ الكيمياء والفيزياء. وستتخرج أول دفعة تتبع ذلك النظام في العام الدراسي ٨٨/ ٨٩، ونأمل ان تتمكن المتخرجة من الحصول على شهادة المعادلة مع الدبلوم فتكون بذلك مؤهلة للدراسة الجامعية دون صعوبات.

وتتابع الأخت شيخة حديثها قائلة: وبالنسبة للمواد التمريضية، فان برنامجنا التعليمي يقدم مواد دراسية على مستوى عال وبارز بين برامج التعليم التمريضي التي تدرس في منطقة الخليج العربي. وقد استحدثت مواد اختصاصية جديدة بدأ تدريسها منذ عام ١٩٨٤ وهي: التمريض الجراحي، وتمريض أمراض النساء والولادة، وصحة المجتمع التي تشتمل على برنامج تعليمي واسع في الطب الوقائي. أما بالنسبة للقبول في المعهد فالباب مفتوح لكل من أنهت دراستها الاعدادية. وهذا حسب قرار الأمانة العامة الصحية لدول الخليج العربي. وبعد اضافة المواد الدراسية التي تدرس للصف الأول الثانوي العام ـ التربية ـ أصبح من الممكن قبول المتقدمة من الصف الأول الثانوي في الصف الأول ـ تمريض ـ ويشترط المعهد عند القبول أن تتعهد الفتاة بعد التخرج بالعمل في الجهة التي تحددها لها وزارة الصحة، وحسب احتياجات المستشفيات والمستوصفات.

وتسأل «العربي» شيخة المذن عن أفضل وسيلة لتشجيع الفتاة الكويتية على دراسة التمريض بما يفي باحتياجات البلاد في هذا المجال الحيوي.

فتجيب: «ان أفضل طريقة لمضاعفة عدد طالبات التمريض تكمن في تعزيز ثقتهن بقيمة المهنة.. ونشر الوعي بأهمية الممرضة، وفتح المجال أمامهن للدراسة والتزود بالمعلومات التمريضية الحديثة. فكلما ارتفع المستوى العلمي والثقافي للممرضة، ارتفعت مكانتها في المجتمع، مما يدفع الكثيرات الى دراسة التمريض. أما من يعتقد في جدوى المكافأة المالية التي تمنح للطالبة الكويتية فهو مخطيء. وقد أثبتت التجربة ذلك، ان مهنتنا تحتاج لمن يحبها ويؤمن بها، ويطمح الى تطوير نفسه طوال مزاولته لها.

وفي نهاية لقائنا تحدثت شيخة المذن عن المشروعات الجديدة لتطوير الخدمات التمريضية، من خلال المعهد وتطبيقها في المستشفيات فقالت: ان مشاريع التمريض تنبع من متطلبات الخدمات التمريضية، ومن زيادة الاهتمام بصحة المجتمع، فنحن نعد مزيدا من برامج الطب الوقائي، للتوسع في هذا العلم الحيوي، هذا بالاضافة الى تعليم طالباتنا أحدث الطرق التمريضية وفق برامج متطورة يقمن بتنفيذها بعد التخرج. وتنتظم الخريجة الجديدة في دورة تدريبية قبل التحاقها بالعمل وقد أنشئت وحدة خاصة لهذا الغرض تتبع وزارة الصحة العامة.

وقبل ان نغادر المعهد الى الوحدة التدريبية قالت لنا احدى الطالبات الكويتيات: «رغم أنني الآن في السنة الثالثة بالمعهد، إلا ان والدي مازال يأمل أن اترك دراسة التمريض وأبدأ من جديد في إحدى المدارس الثانوية العامة». وهذا يؤكد أن المسيرة مستمرة رغم النظرة الباهتة التي ينظر بها بعض الأباء الى عمل الممرضة.

وحسب آخر الاحصائيات في المعهد فقد ارتفعت نسبة الكويتيات كثيرا في السنوات الأخيرة. ففي العام الدراسي ٨٦/ ٨٧ بلغ عدد الكويتيات حوالي مائة طالبة بعد أن كان لا يزيد عن ثماني طالبات عند افتتاح المعهد في عام ١٩٦٢.


الممرضة هي «أم» تمنح الصغير الأمان بلا حدود

«التدريب .... أولا»

وفي وحدة التدريب التمريضي حيث تضع الممرضة قدميها على بداية الطريق، التقت العربي بالآنسة عواطف القطان رئيسة الوحدة والحاصلة على الماجستير في التخطيط الصحي، لتحدثنا عن طبيعة عملها في التدريب فقالت: «... أنشئت الوحدة التدريبية في عام ١٩٧٦، بهدف أساسي هو اعداد الممرضة نفسيا للتعامل الأفضل مع المرضى، وتدريبها عملياً داخل المستشفى والمستوصف وفق برنامج - دقيق -، يختلف حسب نوع التخصص، بالاضافة الى محاضرات خاصة للتعريف بالبيئة الكويتية، وطبيعة أهلها وعاداتهم وتقاليدهم - وتعقد للممرضات غير الكويتيات - قبل تسلمهن العمل. فمازالت مهنة التمريض في الكويت تعتمد على نسبة كبيرة من العمالة غير الكويتية، ونحن نأمل - في القريب العاجل - أن نرى تزايداً في عدد الكفاءات الوطنية، وذلك لن يتم إلا بتشجيع من الأهل لبناتهم الراغبات في دراسة التمريض، وتفهم الزوج لطبيعة العمل التي تقتضي أحيانا بقاء زوجته خارج المنزل أثناء «الدوام» الليلي، فالأمر ليس معيبا ولكل عمل ضروراته الموجبة. ولو فكر كل منا في أن المريض قد يكون واحدا من ذويه، كأن يكون والده، أو والدته أو أي فرد من أفراد أسرته، فلابد حينئذ أن يشعر بالامتنان لمن يسهر على راحة مريضه. أما النظرة السلبية لدور الممرضة، فلا تعني إلا مزيدا من الاعتماد على الغير، هؤلاء اللاتي لا تربطهن صلة بعاداتنا وتقاليدنا، بل ولا يتكلمن لغتنا العربية التي تعد عاملاً أساسياً في خلق جسور الود والاطمئنان بين المريض والممرضة.

وتسأل «العربي» الأخت عواطف القطان عن أنواع التدريب داخل الوحدة فتجيب: «إن برامج تدريب الخريجات هنا تنقسم الى نوعين:

أولا: برامج تدريبية تشرح مبادىء العمل التمريضي، وحلقات نقاش يطرح فيها موضوع واحد - وهو غالبا ما يكون عن مرض بعينه - يشترك في مناقشته أطباء وممرضات، ويحاولون الإجابة عن الاستفسارات التي تثار بشأنه، ولا تزيد مدة تلك الحلقة عن يومين وتتكرر في العام الواحد حسب الحاجة. وقد بلغ عدد الذين اشتركوا في حلقات العام الماضي أكثر من ٥٠٠ ممرضة. ومن المنتظر أن يرتفع هذا العدد في العام القادم الى حوالي ٨٠٠ ممرضة.

ثانيا: برامج عملية تتدرب فيها الممرضات على طبيعة عملهن قبل ممارسته بشكل نهائي. ويتم ذلك بالتعاون مع المستشفيات والمستوصفات القائمة في أنحاء متفرقة من الكويت.

وتنهي عواطف القطان حديثها قائلة: «ونحن حاليا ننظم ندوات تنشيطية تخصصية بهدف تجديد معلومات الممرضة وتطويرها لكي تساير التقدم الذي يشهده العالم في هذا المجال. ولدينا من ناحية أخرى برامج لـ «الادارة الوسطى» مهمتها إعداد ممرضات لتقلد مناصب قيادية كمساعدات رئيسات، أو مشرفات فنيات أو مسئولات أجنحة. وهي أحدث برامج الوحدة - تقريبا - التي تنتظم فيها الممرضة قبل تسلمها العمل القيادي. وقد زودت قاعات



ابنة الكويت تتخطى « الحواجز » وتثبت كفاءتها .

المحاضرات والمختبرات في الوحدة بأحدث الوسائل البصرية والسمعية التي تساعد المتدربات على حسن الاستيعاب . ورغم ذلك فإن بعض الخريجات كن لا يصلن الى تلك القاعات ، ويمكثن في البيت بعد الحصول على الشهادة . قالت لي إحدى المتدربات : في مهنة « دستورها » العطاء بلا حدود : يتردد البعض في المسير ويسمي هذا العطاء الانسان « متاعب » .

همـوم الملائكة

وكان لابد أن نلتقي « بملائكة الرحمة » ونتعرف على شئونهن وشجونهن مع مهنة التمريض :

وفي المستشفى الأميري ـ أقدم مستشفيات الكويت تقريبا كان « للعربي » لقاء مع السيدة لطيفة الحمدان رئيسة الممرضات . التي عملت ممرضة في جناح الأمراض الباطنية (نساء) فترة من الزمن قبل تسلمها الادارة لتحدثنا عن بعض المتاعب التي صادفتها أثناء عملها فقالت :

« إن أكثر متاعبنا تأتي من الرؤية السلبية لدى الأهل في تقويمهم لعمل الممرضة،تلك الرؤية التي تنتقل عدواها الى الفريق الطبي أثناء العمل ـ أقول هذا رأيا على يقين من أن حالنا اليوم أفضل كثيرا مما كان عليه في الماضي ـ . وأحب أن أؤكد ان أخطاء البعض يجب ألا يعاقب عليها الكل . وهذا مبدأ ينطبق على كل المهن دون استثناء،فالحكم على المرضة ـ الذي قد يصل الى حد القسوة أحيانا ـ يدفع الكثيرات الى الانسحاب من العمل . . وهنا تتضاعف المشكلة،والنتيجة اننا نخسر العناصر الوطنية التي نَبْذُل الجهد الكبير من أجل انضمامها الى أسرة التمريض . وإن كانت لي أمنية في هذا المجال ، فهي أن تحظى الممرضة بالتقدير الكافي الذي يتيح لها ان تحقق الهدف النبيل لعملها في خدمة المرضى وخاصة ان الباب مفتوح امام بنات الكويت لتنمية قدراتهن والارتقاء بمستوى المهنة .

ويقول عبدالنبي حجي من المستشفى الاميري :

كثيرا ما يتعرض الممرض أو الممرضة الى مطالبة ملحة من المريض بملازمة فراشه دون باقي المرضى مهما كانت حجة الآخرين للرعاية . . فإذا لم يلب طلبه . . غضب وسخط ، وأذكر أني حملت مريضا على كتفي الى قاعة التصوير بالاشعة حتى أشعره بمدى اهتمامي به بعد ان تأخرت عليه بسبب استقبال مريض جديد .

اما الأخت صفيه عبدالله . . رئيسة ممرضات الفروانية فتقول : يطلب ـ احيانا ـ بعض اهالي المرضى امتيازاً خاصاً بزيارة مريضهم دون التقيد بمواعيد الزيارة الرسمية ، وكثيرا ما تحدث احتكاكات بسبب ذلك . قد يبدو الأمر في نظر البعض بسيطا ولكن بسبب اصرار مسئول الزيارة على الالتزام بالمواعيد ، يغضب كثيرون .

التمريض . . . والعلوم التطبيقية

ومن متاعب المهنة ، نعود الى مقاعد الدراسة مرة أخرى في قسم التمريض بكلية العلوم الصحية،وهو أحد الأبواب المفتوحة امام الفتاة الكويتية لخوض ميدان الدراسة العملية ، حيث التعليم الذي يجمع بين النظرية والتطبيق،ويشكل أولوية في خطة التنمية الحديثة التي تطمح إلى توفير أيد عاملة وطنية .

وتلتقي « العربي » بعميد الكلية د . عبدالرحمن المحيلان الحاصل على الدكتوراة في « فسيولوجيا الاجهاد الحماري » ليحدثنا عن أهداف ونظام الدراسة في القسم فقال : « أنشيء المعهد في عام ١٩٧٤ بهدف رئيسي لكل اقسامه وهو توفير الكوادر

الوطنية لسد حاجة البلاد في مجال الخدمات الصحية ، وفي عام ١٩٧٨ أنشئت شعبة التمريض ، لتقبل الطالبات الحاصلات على الثانوية العامة بقسميها العلمي والأدبي،ليتخرجن فيها ممرضات

قادرات على العمل في جميع المجالات الصحية في مرافق الدولة المختلفة . أما نظام الدراسة في القسم حاليا،فهو يعتمد تدريس المواد النظرية الاكاديمية والعلمية التطبيقية ، ويتم التدريب العملي للطالبات في مختبرات الكلية ، اما التدريب الميداني فيتم في المستشفيات والمؤسسات الصحية والغذائية .

وتحصل الخريجة على شهادة . . « دبلوم كلية العلوم الصحية » وهو أعلى من دبلوم معهد التمريض المتوسط التابع لوزارة الصحة العامة الذي يخرج كوادر تمريضية متوسطة . والدولة في حاجة ماسة للمستويين ، واذكر هنا ان خريجة معهد التمريض يمكنها الالتحاق بقسم التمريض في الكلية لاستكمال دراستها ، والحصول على مستوى أعلى .

وتسأل « العربي » ، د . المحيلان عن رأيه في تردد الفتاة الكويتية في الاشتغال بالتمريض ، وكيف يمكن التغلب على ذلك ؟ فيقول : علينا أن نلوم انفسنا أولا ـ كمجتمع يرى الممرضة في صورة باهتة ـ وكأن لها دوراً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه ، أو أن عليها ان ترضى بقدرها في أن تعمل دون تقدير لجهدها . اذا تغيرت تلك النظرة . . فلن تكون هناك مشكلة تردد الكويتيات في قبول العمل التمريضي .

وعن المشروعات الجديدة الخاصة بالتمريض في الكلية يقول : د . المحيلان نحن بصدد انشاء احدث شعبة في الكلية وهي « شعبة التمريض المدرسي » حيث تتضاعف الحاجة الى ممرضة أو ممرض المدرسة ، الذي يعد محورا اساسيا في مجال الخدمة الوقائية والعلاجية في محيط المدرسة ، كالتطعيم والاشراف الصحي على الطلاب ، وسوف يتم افتتاح هذه الشعبة بالتنسيق والتعاون بين الهيئة العامة للتعليم التطبيقي ووزارة الصحة العامة .



في التمريض . . « الحب » دستور المهنة .

وفي نهاية حديثه قال : د . عبدالرحمن المحيلان : « يبقى لدى طموح شخصي وهو أملي في أن يتم توحيد الجهد في مجال التعليم التمريضي ولن يكون ذلك الا بانشاء كلية واحدة متخصصة للتمريض ، تجمع بين مستويات التعليم المختلفة ـ المتوسط والثانوي والجامعي ـ ويكون على الممرضة بعد التخرج أن تحصل على اذن « بمزاولة المهنة يجدد بمدة معينة ، ولا يجدد لذلك الا اذا اضافت الممرضة

جديدا الى معلوماتها مما يسهم في تطوير عملها التمريضي . سواء كان ذلك الجديد هو الحصول على مؤهل أعلى أو حضور مؤتمر له علاقة اساسية بمهنتها .. أو اعداد دراسة حديثة ذات فائدة في مجال التمريض وهو حلم أرجو ان نتعاون لكي نجعل منه واقعا .

وقبل أن نترك الكلية .. لاحظنا ان معظم المتقدمات .. هن من الطالبات اللاتي لم يحصلن على درجات عالية في الثانوية العامة . وبعد أن اغلق التعليم الثانوي العام ابوابه .. امامهن . فتح لهن التعليم الصحي ذراعيه .. اكدت لنا مجموعة من الطالبات ان التمريض في كلية العلوم الصحية استقبلهن أحسن استقبال فأصبح حلم كل واحدة منهن ان ترد الجميل باستكمال دراستها والعمل بأقصى طاقتها في ميدانه . بعد ان تأكد لها من خلال الدراسة انه - أي التمريض - مهنة سامية ، تستحق ان تحرص كل فتاة على العمل بها .

امتيازات خاصة ..

وفي نهاية الجولة . كان « للعربي » حديث مع د. نائل النقيب وكيل وزارة الصحة ، عن دور الوزارة في اجتذاب العناصر الوطنية،وما يقدمه المسئولون لتطوير العمل التمريضي في الكويت فقال :

« اذا نظرنا الى واقع التمريض في الكويت اليوم سنجد انه مثل بقية الخدمات الصحية الاخرى - قد قفز قفزة هائلة على طريق التطوير مقارنة بما كان عليه الحال منذ عشرين عاما .. ومازالت امامنا على الطريق خطوات كثيرة حتى يكون للتمريض - بصفة خاصة - المكانة اللائقة به كمهنة لها اهميتها . أما ما تقدمه في وزارة الصحة اليوم فهو كثير . كالامتيازات المادية والمعنوية للفتاة اثناء الدراسة وبعد التخرج .. وأقصد بتلك الامتيازات المكافآت المالية التي تحصل عليها الطالبات في معهد التمريض ، والزيادة في اجور العاملات بالمستشفيات والمستوصفات في المناطق النائية ، اضافة الى الفرص التي تتيحها الوزارة للممرضات وللممرضين الكويتيين لاستكمال دراساتهم العليا في جامعات عالمية متخصصة ، وارسالهم لحضور المؤتمرات التي تبحث في موضوعات ذات علاقة وطيدة بمهنة التمريض .. اما ما يتردد احيانا من اقتراحات باعفاء الممرضة الكويتية من بعض الواجبات الوظيفية (مثل « دوام » الليل - أو العمل في المناطق النائية) كتشجيع لها على الانخراط في العمل بعد التخرج .. فهذا ما أرفضه تماما .. ان مهنة التمريض مهنة متميزة ، وللعمل فيها « طبيعة خاصة » ولا يجوز إلغاؤها أو حذف جزء منها .

والذي أتمناه هو ان يتقبل الناس في مجتمعنا العربي تلك المهنة السامية ويكفي ان الانسان - أشرف المخلوقات - محور العمل فيها .

ويمضي د . نائل حديثه قائلا : ويقع علينا - نحن المسئولين - عبء تطوير أية مهنة - والتمريض احداها - فاذا ركزنا جهدنا على اتاحة فرص التعليم حسب احتياجات الدولة وليس خضوعا لرغبة الاشخاص . عندئذ يكون الأمل كبيرا في تغيير النظرة نحو التمريض وتوفير الكوادر الوطنية اللازمة من الممرضين والممرضات .

بقي لنا ان نؤكد على ان التمريض في الكويت جزء اساسي من الخدمات الصحية التي تقدمت كثيرا في السنوات الاخيرة ، وأن الجهد الذي تقوم به الممرضة هو « توأم » لمهمة الطبيب - وقد أكد لي طبيب كبير أن نجاح عملية جراحية يصبح بلا قيمة اذا تعرض المريض للاهمال اثناء العناية التمريضية .

فاذا أقبلت الفتاة الكويتية على دراسة التمريض . فذلك ليس خروجا على التقاليد العربية الاسلامية المحافظة ، وانما هو استكمال للدور الذي لعبته المرأة المسلمة منذ عهد الرسول الكريم (ﷺ) . فقد كانت رفيدة الأسلمية أول مسلمة تضمد جراح المصابين في غزوة أحد ، وكانت نسيبة بنت كعب تسقي العطشى وتداوي الجرحى في معركتي بدر وأحد .

والفتاة الكويتية عندما تعمل اليوم بالتمريض فهي تكمل المسيرة وتدخل الميدان وهي مسلحة بالعلم والثقافة . فتشارك بوجودها في تنمية قطاع من أهم الخدمات في الكويت الحديثة .

الأسبوع الثالث للتمريض في الكويت ١٢ ـ ١٨ مايو

تحتفل الكويت في هذا الشهر (مايو) بأسبوع التمريض الثالث . وتشارك جمعية التمريض الكويتية في هذا الاحتفال بتكريم أوائل الممرضات في العمل التمريضي باعتبار الجمعية احدى الجهات التي ترعى شئون العاملين والعاملات في تلك المهنة . وقد كان « للعربي » لقاء مع مريم الرقم رئيسة الجمعية ـ وابنة الكويت التي تخطت الحواجز الاجتماعية وتخصصت في تمريض « النساء والولادة » بعد حصولها على « شهادة الدبلوم » من احدى الجامعات البريطانية سنة ١٩٧١ لتحدثنا عن الخدمات التي تقدمها الجمعية في مجال التمريض في الكويت فقالت : « تأسست الجمعية في سنة ١٩٧٤ واشترك في وضع نظامها الأساسي حوالي ١٦ عضوة من أوائل العاملات في التمريض ، وكان مقرها في مستشفى الصباح قبل أن يتم اشهارها في عام ١٩٨١

اما الهدف الأساسي من انشاء الجمعية فكان تطوير المهنة ، وحفظ حقوق العاملين فيها ، ونشر الوعي بأهمية العمل التمريضي لما له من أثر في تنمية المجتمع .

على سبيل المثال ، فقد قامت الجمعية ـ في الشهر الماضي ـ بحملة واسعة شملت منطقتي الصليبية والجهراء ـ وهما من المناطق النائية في الكويت التي يقل فيها الوعي الصحي ـ وقد ساهم في تلك الحملة عدد كبير من الممرضات المتطوعات ، فكانت كل منهن تقوم بتطعيم المتخلفين عن مواعيدهم التي حددتها وزارة الصحة . وتسجل في نفس الوقت ملاحظاتها عن سبب تخلفهم . وذلك تمهيدا لعقد عدد من المحاضرات التي توضح أهمية التطعيم في موعده ، وتدعو الى الالتزام بارشادات الطبيب ، ومراجعة المستوصف أو المستشفى اذا تعرض احد افراد الاسرة الى اية اعراض مرضية ، وبخاصة الاطفال . وقد تم تنظيم تلك الحملات بالتعاون بين الجمعية وادارات بعض المدارس في تلك المناطق ، على ان توجه ناظرة كل مدرسة الدعوة الى امهات التلاميذ لحضور المحاضرات .

وقد اعدت الجمعية كتيبا صغيرا لتوجيه الأم الى كيفية رعاية طفلها في عامه الاول ، بالاضافة الى إرشادها الى بعض الأمراض التي قد تصيب الطفل حتى سن ٦ سنوات .

وتتابع مريم الرقم حديثها قائلة : « ومن الجهود التي تبذلها الجمعية ايضا في مجال التمريض ، تلك الحملات التي تقوم بها العضوات داخل البيوت لنشر الوعي التمريضي بين المواطنين ، وتشجيع البنات على دراسة التمريض ، وتوضيح أهمية ذلك في بناء كويتنا الحبيبة . وقد اشتركت في تلك الحملات جهات رسمية عديدة منها وزارة الاعلام ووزارة التربية .

وتسأل « العربي » مريم الرقم ، عن دور الجمعية في حفل تكريم الرعيل الأول من الممرضات والممرضين الكويتيين فتجيب : « لقد وجدت الجمعية في احتفالات العالم بيوم الصحة العالمي واحتفالات الكويت بأسبوع التمريض فرصة مناسبة لتكريم أوائل الممرضين والممرضات الذين قدموا خدمات جليلة في ميدان المهنة ، وتم اعداد برنامج محاضرات يوضح أسس وقوانين المهنة ، وواقع الممرضة العربية وأهمية دورها في الخدمات الصحية ، وأهم مشاكل التمريض والحلول الممكنة لها ، ويشارك في تلك المحاضرات أطباء وممرضات وعدد من المسئولين .

كما سيحضر الاحتفال بعض العاملين والعاملات في مجال التمريض في دول الخليج العربي ، ونرجو أن تنجح مساعينا في ابراز الدور الجليل « لملائكة الرحمة » في الخدمة الصحية » .



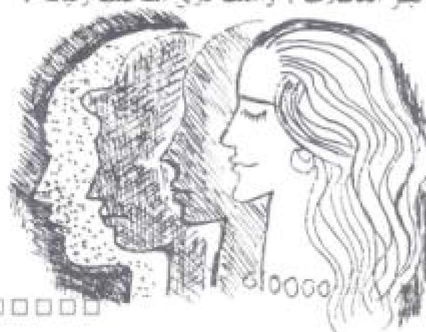
هو..

خيال

شيء رائع ومهم أن نتمتع بسعة الخيال ، وقديما قال أحدهم عبارة قرأتها يوما في احدى المجلات وما زلت أؤمن بها ، قال ان الانسانية تدين بتطورها لبشر ذوي خيال واسع وخصب .

وأنا قد منحني الله قدرا من سعة الخيال والذكاء ، لكن شأن كل الذين غيروا تاريخ الانسانية ، من أصحاب الخيال الواسع اصطدموا بجامدي العقول وكذلك ـ أعيش أنا ، فبيني وبين زوجي خلافات لا تنتهي بسبب ما أسميه سعة خيال.

عالمنا الذي نعيش فيه اليوم .. عالم يهتم بالمظاهر .. ويفتن بها ، ولأني أدرك هذه الحقيقة ، وأعرف أن الناس تمنح قدرا أكبر من الاحترام للذين تحيط بهم هالة كبيرة من المظاهر ، فقد حاولت بسعة خيالي أن أحيط أسرتي الصغيرة بهذا القدر الذي منحنا مكانة وهيبة لدى الناس ، فصار أقربائي من أكبر العائلات ، وأهلنا ذوي مناصب رفيعة ، وبعض أصحاب النفوذ أقارب لوالدتي .. وكثير من الاملاك والعقارات الشهيرة صارت ملكا لأقارب لنا .. ولأنني أقول هذا بثقة كبيرة وشديدة ، وأتعمد أن أدس حكاية ما هنا .. وواقعة طريفة هناك ، وأقحم فيها بعض الأسماء المعروفة والمشهورة ، فقد أصبحت هذه الحكايات التي ابتكرها خيالي الخصب حقيقة في حياتنا ، وأنا أدرك أن الناس تصدق بسهولة ، وأن أحدا منهم لن يذهب لشخص أو عائلة ندعي قرابتها ليسألها ، وبدأ كثير من أصدقائي يطلبون مني وساطات أو خدمات ، ولا أجد حرجا في أن أعتذر لهم جميعا ، فأقاربي لا يحبذون الوساطة ، بل ان أحدهم قد أحرجني يوما عندما طلبت منه أن ينقل شقيق صديقة لي من مكان ناءٍ الى قلب العاصمة ، فما كان منه الا أن نقله الى مكان أبعد ، ومن بعدها أقسمت أنني لن أحرج نفسي مع صديقة ، وبدلا من أن يستاء مني الناس والأصدقاء لخذلانهم .. فانهم يكبرون في هذه الصراحة .. وهكذا بقدر قليل من سعة الخيال وخصوبته ، تمتعت وسط أصدقائي بقدر من الثناء والاكبار ونظرات الاعجاب والانبهار الدائمة في عيونهم ، وتكالبهم على توثيق علاقاتهم بأسرة تنتمي الى فئة علية المجتمع .



هي



هي..

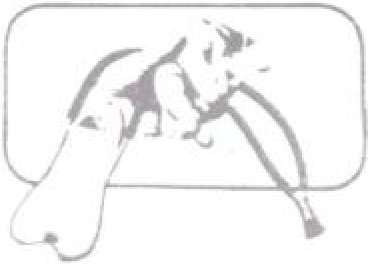
كَذِب

أسوأ ما يمكن أن يصيبنا أن نغير مسمى الأشياء لكي تنفي عن أنفسنا نقيصة الخطأ ، فنسمي النفاق مجاملة ، والكذب سعة خيال ، والأشد سوءا أننا نظل نمارس كذبنا حتى نصدق أنفسنا .

وتمارس زوجتي لعبتها هذه ، موهمة نفسها أن الأمر مجرد سعة خيال .. ونوع من اكتساب الوجاهة والجاه ، وحاولت كثيرا أن أقول لها ان هذا ليس الا كذبا ، وأن الكذب نقيصة تصيب كرامة الانسان ، وأننا عندما ننسب لأنفسنا ما ليس لنا فإننا ندين أنفسنا ، وكأننا نقول أن وضعنا الحقيقي به عيب ، أو اننا نشعر بالدونية تجاه أنفسنا ، وفوق كل هذا ، حاولت أن أشرح لها وأوضح هذا التغيير الذي حدث لمجتمعنا العربي ، وكيف أن الوجاهة الاجتماعية المستمدة من الانتماء للأسر لم تعد شديدة الأهمية ، وأن الثقافة الاجتماعية العربية بدأت أشكالا من الاحترام الاجتماعي لعائلات رصيدها سمعة طيبة أو مكانة علمية ، أو أخلاق عالية يتميز بها أفرادها ، وأن مظاهر الجاه المستمدة من الثراء فقدت بريقها ، خصوصا بعد أن ظهر عديد من المهن الهامشية التي أصبحت تثري وتحقق مالا وفيرا .. بأقل قدر من الجهد ، ولكنها لم تتفهم هذا أبدا .. ظلت أفكارها حبيسة الجاه الاجتماعي والوجاهة الاجتماعية ، الى أن حدث أن تزوج زميل لي في العمل .. ودعوته هو وعروسه الى العشاء في المنزل عندي احتفاء بهم .. وجاء العروسان وجلسنا معا ، وبدأت زوجتي تسرد على مسامع الضيوف قصصا وحكايات عن أقربائها الوهميين ، وعن أملاكهم من عقارات وأراض .. وتطرقت بالحديث الى التفاصيل التي يمدها بها (خيالها الواسع) ، فبدأت تسمي أسماء أشخاص رجال وسيدات ، وتنبهت الى أنني قد نسيت أن أقول لها ان العروس ابنة واحدة من العائلات الشهيرة التي تدعي زوجتي قرابتها ، وبدأت أحاول أن أثني زوجتي بلباقة عن الاستطراد في الحديث ، أو تغيير مسار الحديث ولكنها ـ كعادتها ـ لم تترك لي فرصة ، واستمرت في روايتها العجيبة .. وبدأت ألحظ علامات الدهشة على وجوه الضيوف .. وفجأة انفجرت العروس في ضحك هيستيري .. لم تقدم له سببا فيما بعد .. وبعد انصراف ضيوفنا .. قلت لزوجتي ما أعرف .. فثارت وبكت واتهمتني انني قد دبرت هذا المقلب ، لضيقي من سعة خيالها ، ولأن عقلي جامد وأفقي محدود .. ولم تقلع بعد .

هوَ





طبيب الأسرة

بقلم :
الدكتور حسن فريد أبو غزالة

قضايا منزلية

داء القطط

أكثر الأمراض انتشارًا

ربما كان اسم (التوكسلابلازما) غامضا على الناس ، غير مألوف في مسامعهم ، لكنه اسم لمرض من أكثر الأمراض انتشارا بين الانسان والحيوان على السواء . أما الاسم المتفق عليه في محافل اللغة العربية ومجامعها فهو (المصورات الذيفانية) . وقد أجري استقصاء في جواتيمالا بشأن هذا المرض ظهر منه أن ٩٤ بالمئة من سكانها مصابون بعدوى هذا المرض . كما ظهر من استقصاء آخر في بريطانيا أن خمسين بالمئة من المتبرعين بالدم الذين فحصت دماؤهم مصابون بعدواه أيضا ، وهو ينتشر بين عامة السكان بنسبة تتراوح بين ٢٠٪ و ٣٠٪ . وهو مرض غامض الهوية ، غير واضح المعالم ، نظرا لحداثة اكتشافه ، ولأنه ينتشر بين الناس دون أن يؤدي إلى أعراض ظاهرة للمريض أو الطبيب على السواء . ووجه الخطر فيه عندما يتسلل من الأم الحامل التي قد تصاب به خلال شهور الحمل الستة الأخيرة ، فيتسرب طفيل هذا المرض عبر حاجز المشيمة ، ليتوطن خلايا الجنين النامية ، فيدمرها وبخاصة خلايا العين أو المخ أو الكبد أو الرئتين ، مما يؤدي إلى مرض خلقي معوق خطير كالشلل الدماغي أو التخلف العقلي أو العمى أو ما إلى ذلك .

و (التوكسلابلازما) الذي كانت بداية كشف أسراره عام ١٩٠٨ عبارة عن طفيل من فصيلة وحيد الخلية ، أو مايعرف علميا باسم « البروتوزوا » ، وهو يشبه في تركيبه طفيليات الأميبا المسببة للدسنتاريا أو بلازموديوم الملاريا ، وشكل هذا الطفيل هلالي ، وحجمه صغير لايتجاوز ٢٤ ميكرونا طولا ، وسبعة ميكرونات عرضا ، (الميكرون = جزء من ألف من المليمتر) ، كانت بداية اكتشافه في حيوان أمريكي قارض يسمونه (جونداي) **Gondi** ، ولهذا اكتسب هذا الطفيل اسم **Toxoples Magondii** . وبملاحقة هذا الطفيل ثبت أنه يصيب أغلب الحيوانات

بالاضافة إلى الانسان ، إذ قد يصيب الكلاب والأغنام والأبقار والأرانب ، بل قد وجدوه في العصافير أيضا ، لكن الانسان يصاب به عبر الحيوانات ، وبخاصة القطط المريضة التي يعشش هذا الطفيل في أمعائها ، ويتوالد ، ويتكاثر جنسيا بالتزاوج ، ثم ينطلق مختلطا ببراز هذه القطط ، ولهذا سماه بعضهم (داء القطط) ، لأنها المصدر الأهم الذي ينقل عدواه إلى الانسان . لكن الانسان لايعدي غيره من البشر باستثناء الأم المصابة التي تعدي جنينها إذا ما كانت حاملا في فترة العدوى النشطة . وطفيل هذا المرض يدخل الجوف مختلطا بالطعام أو الشراب ، وسرعان مايتسلل إلى الدم ليعشش فيه مدة أسبوعين أو ثلاثة ، ثم ينفذ إلى داخل الخلايا الحية للأنسجة ، ويستقر داخلها ، ليتكاثر وينمو ، إلى أن يموت أو يبقى مدى الحياة ، فإذا ما مات فإنه يتكلس ويتحجر ، وإذا قدرت له الحياة فانه ينتقل الى خلية أخرى ليستعمرها ، ويدمرها ، وفي كلا الحالين يثير في الجسم حساسية ونزعة إلى مقاومته ، فتتولى الأنسجة المناعية المختصة إنتاج أجسام مضادة له ، هي السر في بلواه .

هذا المرض لايظهر أعراضا سريرية ، تدل عليه ، ولذا يصعب كشفه ، غير أن وجه الخطورة - كما أشرنا - هو عندما يداهم خلايا الجنين ، فيولد الطفل وهو يحمل أسباب العدوى،لكنه عند الولادة تبدو عليه أي أعراض واضحة ، بل تظهر أعراض



فيما بعد على صورة تبقعات دموية ، ونزيف تحت الجلد ، وهو ما يعرف باسم مرض الفرقرية (purputa) كما تتضخم الكبد ، ويبدو على الطفل اصفرار الجلد والعينين ، وهو ما يعرف بالبرقان ، ثم ينتهي الأمر بضعف البصر ، من جراء التهاب الشبكية ، أو ربما بضمور إحدى العينين ، وبعض الأطفال قد ينتهي به الأمر إلى ضعف عقلي ، أو شلل دماغي ، وربما تخشبات ونوبات صرعية ، غير أن الملامح الأولية التي قد يلاحظها الآباء والأمهات هي تأخر ظهور الاستجابات العاطفية عند الطفل ، مع نوبات من التشنج بين حين وآخر دون سبب أو مبرر .

ولسنا بصدد الحديث عن وسائل تشخيص المرض مخبريا ولا الخوض في أنواع العلاج ، لأن الأهم هو أسباب الوقاية منه ، وبخاصة أن أهل الاختصاص يؤكدون أن نسبة تتراوح بين ربع سكان العالم ونصفهم يقعون تحت رحمة هذا المرض دون إدراك .

ولما كانت القطط التي تعاشر الناس وتشاركهم أسباب حياتهم هي مصدر الخطر الأول والأهم في نقل العدوى ، كان من الأوجب تحاشي تربية القطط ، أو اللعب معها لأن المرض أكثر انتشاراً في المناطق التي تصحب فيها الحيوانات عامة والقطط خاصة الإنسان ، كما في الريف مثلا الذي تزيد نسبة الاصابة فيه عن المدن ، وكما في المناطق الحارة التي ينتشر فيها هذا المرض ، بينما يصبح نادراً عند سكان المناطق الثلجية كالاسكيمو مثلا ، وهكذا .

لقد أصبح مرض (التوكسلابلازما) في عرف الطب مبررا لاجهاض الحامل قانونا ، إذا ثبتت الاصابة به ، كما هو الحال مع الحصبة الألمانية ، وذلك احترازا من احتمال ولادة إنسان معوق ، يكون عالة على المجتمع ، لانفع منه ولا فيه .

بريد طبيب الأسرة

ردود سريعة :

● السيد ج . ع . أ ـ عمان ـ الأردن :
ـ لاعلاقة لارتداء النظارة أو العادة السرية أو الاسراف في القراءة بضعف البصر وهو أمر في الغالب خلقي أو موروث ننصحك باستشارة طبيب مختص ماهر في العيون .

● السيد ج . م ـ عمان ـ الأردن :
ـ الذكاء أمر موروث ، تصقله التربية ، وقد يؤثر عليه المرض الذي يصيب الدماغ مباشرة أو بطريق غير مباشرة ، وماعدا ذلك فلا قيمة له .

● السيد وهده احيدو ـ الخيمة ـ المغرب :
ـ لايتوفر أي علاج لما تسأل عنه فلا تشغل نفسك بالأمور التافهة .

● السيد س . هـ . هـ . ـ القاهرة ـ مصر :
ـ يبدو أنك مشغول بأمور جانبية بعيدة عن واجباتك التي تتناسب مع سنك ، وهذا سر معاناتك .

● الأخ المعذب ـ البقاع ـ لبنان :
ـ البواسير لها درجات متفاوتة ، ولكل منها علاج مناسب ، والطبيب الجراح هو المختص القادر على تحديد العلاج المناسب ، بعد الكشف على المريض ، ومن المؤكد أن العمليات الجراحية هي آخر المطاف في سلسلة العلاج ، وقد حققت نجاحا كبيرا في استئصال المشكلة .

● السيد ز . ش . ي ـ ادلب ـ سوريا :
ـ هناك معاهد ومراكز صحية لعلاج عيوب النطق ، ولا بد من فحصك بواسطة لجنة طبية مختصة لتقصي سبب المعاناة ، وبعد ذلك يسهل العلاج ، وتنتهي معاناتك بإذن الله .

● السيد ع . ن ـ القاهرة ـ مصر :
ـ قصر القامة أمر موروث غالبا ، ويتأثر بالحالة الصحية للطفل ، وبتوازن تغذيته ، ويتوقف النمو في الطول غالبا في سن العشرين .
وإن القول بأن الرياضة تزيد طول الانسان قول لايعتمد على أساس من الصحة .

● الآنسة ع . م ـ دمشق ـ سوريا :
ـ ربما كانت ظاهرة زيادة الشعر أمرا موروثا ، ونحن لانعرف له علاجا حاسما ، وإنما ننصح باستشارة طبيب الأمراض الجلدية مادام الافراز الهرموني طبيعيا .

● السيد جمعان مقبل بن كدة ـ حضرموت ـ اليمن الديمقراطية :
مرض السكر بدرجات متفاوتة ، لكنه مرض مزمن ، بينما التهاب الكبد مرض عابر ، والأفضل هو مراجعة طبيب السكر المختص لتنظيم الغذاء بما يتناسب درجة السكر وحدة إصابة الكبد ، وهذا أمر شخصي جدا .

● الآنسة الهام ـ المغرب :
ـ نأسف إذ لايوجد عقار لإزالة الشعر أبديا ، وننصحك بمراجعة اختصاصي الأمراض الجلدية ، فهم يلجأون إلى إزالة الشعر بالكهرباء بين حين وآخر .

● السيد / م . م . ع . ـ مصر :
ـ إن ما تعاني منه هو رد فعل نفسي ، ووهم ، لا علاقة له بأية عادة تمارسها أو مارستها من قبل . فاستشر طبيبا ، واطمئن ، فإن ماتعانيه عارض عابر .

مساحة ود..

الحب في زمن الكوليرا

أحبها وهو في التاسعة عشرة من عمره ، كان فتى فقيرا غاية الفقر ، يعمل في مكتب برقيات على جهاز لاسلكي ، وكانت هي في السابعة عشرة من عمرها ، طالبة بالمدرسة . أنفق أياما طوالا وهو يسير خلفها في رحلة الذهاب ورحلة الاياب ، وقضى أوقاتا طوالا أمام بيتها ، يرقبها وهو جالس تحت شجرة ممسكا في يده ديوان شعر . وعندما تمكن من أن يعطيها أول رسالة له فوجئت أنها تقع في سبعين ورقة ، ولم يتجاوز حبها هذا سوى تبادل الرسائل إلى أن علم والدها بالأمر ، فثار جنونه ، فقد كان حلمه دوما أن يزوجها زواجا يتحرك بها من طبقتها هذه إلى طبقة أخرى ، وتحققت أمنية والدها فتزوجت طبيبا من إحدى الأسر العريقة . ورغم كل العذاب الذي عاشه موظف « التلغراف » البسيط فقد أخذ على نفسه عهدا أن ينتظرها ، ممنيا نفسه بأن زواجها سيفشل ، أو يتوفى زوجها - موفور الصحة - قضاء وقدرا ، وظل ينتظرها خمسين عاما .

زمن الانتظار هذا هو نسيج الرواية الرائعة « الحب في زمن الكوليرا » ، آخر ما أبدعه (غابرييل جارسيا ماركيز) ، وقد قدم ماركيز خلال رحلة الخمسين عاما التي ظل فيها بطل روايته ينتظر القضاء والقدر - عرضا مذهلا في دقته ودفئه وصدقه عن الشوارع العفنة ، وأصداء رصاص الحرب الأهلية ، والتخلف ، والفقر ، وغاص في قاع المجتمع فقدم شرائحه ، وقصص حب لا تنتهي ، وعذابات لا آخر لها ، وأحلاماً ، وسلطة ، وتجارة ، وصمّم مشاعر أبطاله الذين نسجهم ببراعة فائقة إلى قمم الأمل ، ثم إلى قاع اليأس ، حتى لحظات الحزن الحقيقية عندما انتابت بطلة روايته بموت زوجها - بعد خمسين عاما - قدمها ماركيز بدقة جراح . قد تعامل مع المشاعر وفق القانون الانساني كيف بدأ حزنها عظيما ، وكيف أحست أن زوجها الراحل يقطن داخلها ، ثم شروعها في التخلص من حاجاته لكي تتخلص من مطاردته لها ، وكيف تأجج الحزن ليخمد ، ويورثها الوحدة والفراغ اللانهائي ، حتى مشاعرها عندما عاد ذلك الفتى الفقير الذي كان سيدخل حياتها من جديد كصديق لم يقدمها ماركيز بسهولة ليحل عقدة روايته .

الرواية في جملتها عمل إبداعي رائع ، ثري بالمشاعر والدفء ، فيه لوحة رائعة متكاملة عن الحياة في مجتمع أمريكا اللاتينية ، إنها شهادة صـ .قة على عصرها وزمانها ، وإبداع جديد يضاف الى رصيد روائع الأدب العالمي ، ويُفجر داخلنا أحاسيس ومشاعر رائعة ، وقدرا من المعايشة يصل بالقارىء الى حد يجعله يشعر أنه يتنفس في المكان ويراه ويمشي به .

سبق صحفي

قصة الكاتب التركي الساخر : عزيز نسين

ترجمة : عبد اللطيف عبد الحميد

اقتحم كلب باب هيئة تحرير أكثر الصحف شهرة في البلد . وبما أن العاملين لم يعتادوا على دخول الكلاب الى هيئة التحرير ، هكذا وبكل بساطة ، لذا فقد اندفعوا وراءه . أما الكلب فسرعان ما أدرك أنهم سيمسكون به ، ويقذفون به خارج الباب ، لذلك توقف وقال :

ـ دقيقة ، من فضلكم ياسادة .

انعقدت ألسنة المتعقبين وراءه ، فما الذي يمكن فعله مع كلب يتحدث بصوت انساني ؟ هل عليهم أن يتحدثوا معه كالكلاب ، أم بشكل انساني ، وباحترام . ؟ .

وعلى أي حال سألوا الكلب عما يريد ، فأجابهم بأنه يريد مقابلة رئيس هيئة التحرير .

ـ انه في الاجتماع .

ـ اذن مع صاحب الجريدة .

ـ هو الآخر في الاجتماع .

ـ اذن مع أحد الموظفين المسؤولين .

كان الجميع في الاجتماع الصباحي ، يناقشون العدد الأخير للجريدة . أعلن الكلب أن لديه خبرا خارقا وعاجلا ، وألح كي يسمحوا له بالدخول الى قاعة الاجتماع .

ودفع أحد المستخدمين الباب ، فدخل الى قاعة الاجتماع ، وقد جلس أعضاء هيئة التحرير ـ وعددهم أربعة عشر عضوا ـ حول طاولة ، وتوجه المستخدم لصاحب الجريدة قائلا :

ـ هناك كلب يرغب في الحديث اليكم ياسيدي .

فصرخ صاحب الجريدة مع أنه انسان متزن جدا :

ـ أي كلاب أخرى بعد !؟ . . .

أجاب المستخدم باحترام :

ـ لا أعرف من أي سلالة هو ، انه كلب جميل ، ذو شعر متجعد ، يحمل طوقا في عنقه ، وهذا يعني أن له صاحبا ، وهو من الجنس اللطيف ، هكذا بالضبط . . . أي أنه كلبة .

فضحك الجميع ماعدا صاحب الجريدة ، فقد حافظ على هيئته الجدية .

ـ أنت تعرف بأن لدينا اجتماعا .

ـ لقد شرحنا لها كل شيء لكنها تقول ان لديها خبرا هاما وخارقا ، وأنها ترغب في مقابلتكم بأسرع مايمكن .

ـ دعها تدخل .

فتح المستخدم الباب ، وأدخل الكلبة ، فقالت :

ـ اعذروني لهذا الازعاج ، لو سمحتم ، لقد جئتكم بخبر هام جدا .

وعند عبارة « خبر هام » استعد الجالسون ـ وكلهم صحفيون محنكون وبارعون في العمل الصحفي ـ للاستماع ، حتى أنهم نسوا دهشتهم من قدرة الكلبة على الحديث بصوت انساني . وسألها رئيس التحرير : ما هو خبرك ؟ .

ـ لقد عضني انسان !! .

وقهقه جميع الحاضرين ، بما فيهم صاحب الجريدة .



ـ يبدو أنك لا تعرفين لغة البشر وحسب ، بل وقوانين الصحافة أيضا .

واستدارت الكلبة الى الوراء ، وهي تشير الى أثر العض على فخذها الأيسر . وعلق رئيس التحرير :

ـ هذا معروف للجميع منذ أمد بعيد .

واندهشت الكلبة قائلة :

ـ ما المعروف ؟

ـ ان الجريدة يهمها واقعة عض الانسان للكلب ، لكن لايهمها عض الكلب للانسان .

ولم يسمح صاحب الجريدة للكلبة بأن تواصل حديثها ، بل قاطعها قائلا :

ـ مثل هذه الحيل لاتنطلي علينا ، فمن الواضح أنك تبحثين عن الشهرة ، ولعلك تحلمين بنشر صورتك في الجريدة ، لا جدوى من ذلك يابنيتي .

وعند قوله للكلبة « يابنيتي » أمام أعضاء هيئة التحرير احمر وجهه رغما عنه ، لأنه اعتاد أن يخاطب النساء العاملات في الجريدة بهذه الكلمة ، ثم تابع حديثه بعد لحظات من الارتباك :

ـ نعم ، هكذا اذن ، كفاك أن تنبحي كذبا ـ انسان يعض كلبه ؟! أي جريدة ستنشر مثل هذا الخبر ؟! . . . على أي حال باستطاعتك أن تنشري اعلانا اذا كان لديك نقود .

ـ انك تخطىء في ظنك بي تماما ياسيد ، فأنا لا أسعى اطلاقا الى الشهرة ، ولست متعطشة لاثارة ضجة ، صدقني من فضلك ، لقد عضني انسان فعلا .

ـ وما الذي تبغينه اذن ؟ .

ـ ألا يجوز أن يكون الانسان الذي عضني مسعورا ؟ وربما يعض كلابا أخرى ، فإذا نشرت الجريدة مثل هذا الخبر كان ذلك بمثابة تحذير للسكان من الخطر ، ومن عضات جديدة ، ثم ألا يجوز أن يكون هناك وقت كاف ليتم انقاذ ذلك الانسان ، وتقديم اللقاح له .

ـ وكيف نعثر عليه ؟

ـ انه صاحبي .

ـ صاحبك ؟ واعترت صاحب الجريدة الدهشة .

ـ نعم ياسيد .

ـ عجيب !! ، ومن سيصدقك ؟

ـ انني أقول الحقيقة ، وبإمكانك أن تجري اختبارا .

ـ يبدو أنك أغضبت صاحبك الى درجة لا يستطع معها تمالك أعصابه ، فعضك .

ـ لم يعضني وحدي فقط ، بل لقد عض زوجته أيضا .

وتوجه صاحب الجريدة بالكلام الى الجالسين قائلا :

- أعتقد ، أن من حق الانسان أن يعض زوجته ، أو أي امرأة تنوب عنها ، أليس ذلك صحيحا يا أصدقائي ؟ . .

ورد عليه أحد أعضاء هيئة التحرير على الفور قائلا :

- طبعا ، يمكن أن تحدث بين الزوج والزوجة أشياء أكثر تطرفا .

وسألها أحد الحاضرين قائلا :

- وهل عض صاحبك زوجته في غرفة النوم ؟

- لا ، بل بعد خروجها من (المرحاض) مباشرة .

وعلق صاحب الجريدة قائلا :

- هذه المسألة لاتخضع للزمان أو للمكان .

وقالت الكلب بلغة تنم عن التأكيد .

- لقد هجم عليها كالمسعور ، وعضها

وتابعت الكلبة حديثها .

- لكن لعابه قد سال .

وقال رئيس هيئة التحرير محاولا الاقناع :

- ان لعاب الانسان يمكن أن يسيل في مثل تلك الحالات .

ثم قال وهو يحاول حسم النقاش :

- لاياسادة ، لايمكن أن يكون هذا الخبر مادة صحفية ، فالجميع يعرفون .

وقاطعته الكلبة قائلة :

- أنا أدرك أن الناس مقتنعون بأن الانسان لايمكن أن يعض الكلاب ، وعندما يعض الكلب الانسان لايعتبر ذلك سوى ظاهرة عادية . لكن فكروا ، ألا يمكن أن يحدث العكس،لكن تلك من أندر الحوادث ، لكن أليس من الجائز أن يحدث ذلك فجأة ؟

- ماقصدك ؟

- أن يسعر الانسان ، ويعض الكلاب .

وابتسم صاحب الجريدة برفق وقال :

- كفاك خداعا .

وتدخل رئيس التحرير في الحديث قائلا :

- وهل تخافين أن تصبحي مسعورة بعد ذلك ؟

- انني لست خائفة على نفسي ، فصاحبي قد اهتم بي وأعطاني لقاحا ، ولن أصبح مسعورة ، لكنني خائفة على الكلاب الأخرى ، واذا كان الناس مثلكم لايصدقون بأن الانسان يمكن أن يصبح مسعورا ، ويعض الكلاب ، واذا كانوا مثلكم لايشكون بمعلوماتهم ، واذا كانوا واثقين من معرفتهم بكل الأشياء ، فإن أحوالنا - نحن الكلاب - ستكون سيئة ، كالعادة ، وستبدأ المعركة ضد الكلب ، ثم يقتلون الكلاب .

وبالرغم من تأكيدات الكلبة لم يرغب صاحب الجريدة بنشر الخبر وطرد الحيوان المسكين الى الخارج .

فاتجهت الكلبة الى جريدة أخرى ، ليست شهيرة ، لكنها رصينة ذات ميول فلسفية ، وقد قوبلت الكلبة بعدم فهمهم لها حتى في هذه الجريدة .

وطافت الكلبة بكل الجرائد والمجلات ، لكنها لم تتمكن من اقناع أحد ، بأن انسانا قد عضها ، بل لقد اتفق الجميع على رأي يقضي بأن الكلبة تريد أن تصبح مشهورة .

وبعد أن فقدت الأمل في ايجاد من يفهمها في عالم الصحافة ، توجهت كلبتنا الى مدير الاذاعة ، رغبة منها في انقاذ الكلاب من الهلاك ، لكنه لم يرغب حتى في سماع مالديها ، اذ أعلن فورا بأنه لم يسمع في حياته مايشبه ذلك ، ولهذا السبب فان أحدا لن يصدق خبرا عن انسان يعض كلبة . ولم تستطع الكلبة أن تبرهن له ، مع أن كل ماتريده فقط هو منع انتشار وباء الكلب .

وأخيرا فقد مدير الاذاعة صبره وصرخ قائلا :

- اذا كنت ترغبين بنشر خبرك ، فادفعي المال لقاء ذلك ، وليكن خبرك في قسم الدعايات ، لا في قسم الحوادث !! . . .

- وهل يصدق الناس الدعايات أكثر من الأخبار ؟

- لا ، طبعا ، لكن المستمعين سيعتبرون ذلك فكاهة ، والفكاهة تجتذب الناس دائما .

- فقالت الكلبة بحزن ومن أين لي بالمال ؟ المال عند الناس ، لاعند الحيوانات ، وهنا يكمن الفرق بين بني البشر والحيوانات ، فالانسان حيوان مالي .

أما رأي مدير التلفاز فكان : ان أحدا في البلد لن يصدق امكانية عض الانسان للكلب ، فالجميع يعرفون أن مايحدث عادة هو العكس .

واعترضت الكلبة قائلة :

ـ لكن ، لماذا أنتم ـ بني البشر ـ لاتشكون فيما تعتبرونه غير قابل للجدل ؟ ألا يمكن أن تكونوا مخطئين ؟ وهل من الصعب جدا أن تهتموا ببحث موضوع تعتقدون دائما ، أنكم تعرفونه جيدا ؟ .

ـ ولماذا تضيع الوقت في البحث أو الشك في مسألة ما ، خاصة اذا كنا نعرفها ؟ . . .

فكرت الكلبة طويلا بما يجب أن تفعله ، وفي آخر الأمر ذهبت الى وزير الصحة ، ولو لم تتمكن الكلبة من الكلام ، لما استطاعت الدخول الى الوزارة بأي حال من الأحوال ، وحدثت الكلبة الوزير بالتفصيل عن جوهر القضية ، وشرحت له كل شيء ، وأخبرته بأنه يجب اتخاذ اجراءات فورية ، والا فإن وباء الكلب سينتشر ، وستهلك كلاب لاذنب لها قطعا .

فابتسم الوزير بعد سماعه كلامها وقال :

ـ حتى أنت أدركت أن الواقعة بذاتها ـ وهي عندما يعض الانسان الكلب تعتبر سبقا صحفيا ؟ هل تعتقدين ـ ياترى ـ أن الناس أغبى منك ؟

وفجأة قطب الوزير حاجبيه بشكل مرعب وصرخ :

ـ انقلعي !! . . انقلعي من هنا ! . . .

لوت الكلبة ذيلها ، وقفزت الى الشارع ، وذهبت الى وزارة الثروة الحيوانية ، ثم الى الادارة المركزية للخدمات البيطرية ، والعيادات البيطرية بل لقد ذهبت حتى الى مستشفى المصابين بداء الكلب وفي كل مكان ، كانوا يقولون لها نفس القول :

ـ من قديم الزمان والجميع يعرفون ، ولن يصدقك أحد،وعادت الكلبة حزينة الى البيت ، وخلال ذلك الوقت انتشر وباء الكلب في المنطقة ، وأصبح من الصعب التمييز بين العاض والمعضوض ،وهل الناس عضت الكلاب ، أم الكلاب هي التي عضت الناس ، أم أن الجميع قد عض بعضهم بعضا . ؟ .

واتخذت السلطات الرسمية الاجراءات اللازمة فقامت بتلقيح الناس ، أما الكلاب فصارت السلطات تقضي عليها ، وأصبح بيت تلك الكلبة خاويا ، فصاحب البيت وزوجته لم يأخذا اللقاح في الوقت المناسب فمرضا ونقلا الى المستشفى .

وفي عتمة الليل هربت كلبتنا من المدينة ، محاولة ألا يراها أحد ، وفي الطريق صادفت الكلبة بيتا يسكنه عالم طاعن في السن ، وعند هذا العالم كلب حبيب مسن ،وبما أن هذا الكلب قد ترعرع في كنف صاحبه العالم ، فقد أصبح ذكيا ومشهورا وسط الكلاب،وقد كان يلقب بلقب (المفكر) بين تلك الكلاب

نظر الكلب (المفكر) عبر النافذة الى الطريق ، فرأى الكلبة ، وكانا يعرفان بعضهما سابقا ، ثم نبح مناديا اياها :

ـ الى أين تركضين ؟

ـ أريد الحصول على تأشيرة خروج للسفر الى الخارج !! . . .

ـ ألا يعجبك العيش هنا ؟

ـ وكيف لا ، انه وطني ، لكن من الغباء أن أموت بسبب حماقة لاشأن لي بها .

ـ اذا كنت تخافين من أن يصطادوك فإن كل شيء سينتهي تريبا ، وبإمكانك أن تنتظري اما في بيتك ، أو هنا .

ـ لا ، لست هاربة من الموت ولامن الخوف .

ـ ماذا اذن ؟ .

ـ المسألة هي أن الجميع هنا يعتقدون بأنهم يعرفون كل شيء .

ـ هذا يمكن أن يعني بأن أحدا لايعرف شيئا .

ونبح « المفكر » بتأمل وسأل :

والى أين ستذهبين ؟ .

ـ بودي ، لو أجد مكانا يكون فيه الناس لايعرفون كل شيء ، وما يزالون يشكون في معلوماتهم .

وانتعش (المفكر) وقال :

ـ لعلها مسألة مثيرة ، ان لدى صاحبي مكتبة جيدة ، تعالي نبحث في المعاجم والخرائط والمصورات عن مكان كهذا ، يسكنه أناس بمقدورهم أن يشكوا .

وبحثا طويلا في المكتبة ، لكنهما لم يجدا المكان المطلوب ، فقال المفكر وهو يغلق آخر مجلد للمعجم :

ـ لايوجد على الأرض مثل هذه الأماكن .

ـ وما العمل اذن ؟ .

ـ يبدو أنه يجب علينا أن نذهب الى أفراد سلالتنا ، واذا نجونا ننتظر بصبر تلك الأوقات التي سيبدأ الناس فيها بالشك في معارفهم المطلقة . □

جمال العربية

لغة

بقلم : محمد خليفة التونسي

أسئلة وأجوبة

في صفحتنا اللغوية السابقة (العربي/ العدد/ ٣٤١/ ابريل سنة ١٩٨٧) أجبنا عن سؤالين آخرين من خمسة اسئلة وجهها الينا السيد/ أحمد عبدالله حمدان العوريفي (الزرقاء/ الأردن) ، وهنا نلخص السؤال الأخير ، ونجيب عنه .

الأنانية والأنوية :

قرأت في مرجع لأحد الباحثين الضليعين عندنا في الاردن اعتراضا على استعمال كلمة « الانانية » التى يراد بها حب الذات وايثار النفس ، وصحّحها باستعمال كلمة « الأنوية » المأخوذة من « أنا » ، وقد خطّأ بشكل سافر التلفظ بـ (الأنانية) واعتبرها غريبة عن العربية ، فما وجه الصواب ؟

- ونسرع فنقول : الكلمتان « الأنوية » و « الأنانية » كلتاهما مصدران صناعيان فصيحان في النسبة الى «أنا» ، وينبغي ان نفرق معنىً بين كلمتين هنا ، هما « حب الذات » و« إيثار النفس » ، فحب الذات فطرة في كل كائن حي ، وهو قوامه في الحياة ومساكه بها ، فهو الذى يحفزه الى حفظ كيانه ، ويغريه بالتآلف مع نوعه ، بل غير نوعه في الأحياء الراقية ، وهو - لذلك - فضيلة حيوية طبيعية سوية ، ثم أخلاقية ، وقد أحسن حكيمنا المتنبي حين فسر بها النقيضين الأخلاقيين : شجاعة الشجاع وجبن الجبان معا ، وفطن بنفاذ بصيرته الى مالم يفطن اليه كثير من المثقفين المحدثين الذين يقفون عند المظاهر ، فقال :

اری کلنا يبغى الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهاما بها صبًا
فحبُّ الجبان النفسَ أورده التقى
وحبُّ الشجاعِ النفسَ أورده الحربا
ويختلف الرزقان والأمر واحد
الى أن يُرى إحسانُ هذا لذا ذنبا

ومن هنا نعرف أن كلمة « نكران الذات » كلمة « خنفشارية » لا حقيقة لها في الحياة ، حتى عند المنتحرين ، أو عند الفدائيين .

ولكن فطرة حب الذات قد تنحرف عن سوائها أو تختل لسبب ما ، فينشأ عن ذلك انحصارها في حدودها ، ويتعطل فيها الاحساس بالواجب الاخلاقي نحو الغير فيما يتنابه من نفع وضر ، أو خير وشر ، وهذه هي الأثرة ، وهي مرض أخلاقي أو حيوى يستحق العلاج ، ان كان ذلك في وسع الطب ، ولا سيما حين يكون واجبُ الفرد الأخلاقي واجبَ جماعته كلها كما هو الحال في الجماعات القبلية أو الريفية ، قبل ظهور الحقوق الفردية أو

الشخصية ثم انتشارها في المجتمع عند الأمم المتحضرة .

والأمر أسهل من ذلك لغويا في بيان فصاحة « الأنوية » و « الانانية » فكل كلمة ثالثها الف تقلب ألفها واوا عند النسب ، فيقال : أنا انوى وأنوية ، كما يقال : « نوى ونووى ونووية » ، واما زيادة النون مع الف عند النسب الى كلمة ، فكثيرة في لغتنا . وينبغى ان يلاحظ ان العرب توسعوا كثيرا في التصرف عند النسب فقالوا مثلا : روحية وروحانية ، وصمدية وصمدانية كما قالوا : برانية وجوانية ووحدانية . واذن فلا داعي للتعجل في رفض كلمة ومطاردتها لا سيما حين تكون عربية الأصل والصيغة . والمهم هو معنى الكلمة هنا وموضع استعمالها اصطلاحيا وقد وضحنا ذلك في صفحة لغوية عنوانها « الأنانية والأثرة » نشرت في العدد ٢٩١ (فبراير سنة ١٩٨٣) .

وجاءتنا اسئلة من السيد / فخري رمضان محمد الأغا (دبي / دولة الامارات العربية المتحدة) وهذان سؤالان منها ، ومع كل سؤال جوابه .

طاق وأطاق :

١ - « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ما معنى يُطيق ، وما الفرق بين « طاق وأطاق » .

هذا نص قرآني في موضوع الصيام ، ومعظم المفسرين يرون أن الآية نزلت في حق الشيخ الهرم والمرأة العجوز ، وقاس عليها الفقهاء الحامل ، والمرضع إذا خافت على نفسها أو رضيعها ، والله تعالى كما قال في الآية « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، ولذلك أباح الإفطار في الفريضة (صيام رمضان) للمريض والمسافر ، وأباحه للعاجز عنه بسبب الشيخوخة ، ولمن تخس أنه يضرها أو يضر صغيرها من حامل ومرضع . ولا شك أن الصيام مجهد لكل بنية حية على كل حال ، ولكن الصحيح المقيم يستطيعه وإن أجهده ، ولا يضره شيئاً وإن ضايقه .

والطاقة لغةً هي الاستطاعة أو الوُسع أو الإمكان ، ولكن هذه كلها نسبية ، ولهذا يرى بعض المفسرين أن الوسع يعني القدرة على العمل في سهولة ، والطاقة تعني القدرة عليه مع الشدة « المشقة » ، فالمراد في الآية من يقدرون على الصيام مع المشقة والعنت ، وهذا الرأي أدنى إلى القبول لاتفاقه مع اليسر دون العسر .

وقد فسرت « الفدية » في الآية بأنها « طعام مسكين » .

وهذا هو المختصر المفيد لمعنى هذا النص القرآني ، وهناك أكثر من قراءة له ، ثم إن للمفسرين كلاماً طويلاً في تفسيره يملأ صفحات (يراجع ذلك في موقع الآية من التفاسير الآتية :

(جامع البيان للطبري ، والتبيان للطوسي ، ومجمع البيان للطبري ، والكشاف للزمخشري ، والتفسير الكبير للرازي ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ، وروح المعاني للألوسي .)

ولا فرق في المعنى بين « طاق » و « أطاق » ، نقول : طاق الشيء ، يطوقه ، طوقا ، وطاقة ، كما نقول : أطاقه ، إطاقة - بمعنى قدر عليه □

رئيس ورئيسي :

٢ - متى نقول : « رئيسة » ومتى نقول : « رئيسية » ؟

هاتان الصفتان صحيحتان على سواء ، وإن كان بعض المتشددين من معاصرينا ينكرون الثانية بمعنى الأولى ، وقد كتبنا في تصويب ذلك « صفحة لغوية » ذكرنا فيها أكثر من خمسين شاهداً فصيحاً (العربي العدد ٣٠٧ / يونية سنة ١٩٨٤) .

جمال العربية

شعر

هكذا غنى الآباء

وصف زلزال

لحافظ ابراهيم

حافظ ابراهيم شاعر قومي ، كان يلقب « شاعر النيل » ولد نحو سنة ١٨٧٢، كان وحيد أبويه ، وحين كان في الرابعة توفي أبوه دون ثروة ، فذاق آلام اليتم والفقر ، وقد كفله مع أمه خاله . دخل في صباه بعض الكتاتيب ثم مدرسة ابتدائية ، وقبل ان يتم المرحلة الثانوية في المدرسة الخديوية اشتغل كاتبا عند بعض المحامين ، ثم دخل المدرسة الحربية،وعقب تخرجه فيها اشتغل في وزارة الحربية ثم الداخلية ، ونقل الى السودان حين كان الجيش المصري هناك ، فلما حدثت ثورة السودان سنة ١٨٩٩ اتهم فيها فأحيل على الاستيداع ، ثم المعاش ، واتصل عندئذ بالاستاذ الامام محمد عبده فنال كثيرا من عطفه وعلمه ، ثم عين مديرا للقسم الادبي بدار الكتب المصرية سنة ١٩١١ وبقي فيها الى ما قبل وفاته بشهور سنة ١٩٣٢ .

ترجم رواية « البؤساء » لفكتور هيجو ، وكتابا في الاقتصاد بمشاركة الشاعر خليل مطران ، وله ديوان طبع كاملا بعد وفاته عدة طبعات .

كان واسع الاطلاع على الادب العربي ، غزير المحفوظ من شعر القدماء ، كثير الاستشهاد به في احاديثه ، كما كان من أمراء النكتة والفكاهة بين معاصريه في مصر ، فكانت مجالسه موضع اعجاب وسرور من اخوانه « ومسينا » التي يتوجع الشاعر لها هنا - بلدة في جنوبي ايطاليا ، وقع زلزالها سنة ١٩٠٨ وقصيدته فيها ٥٩ بيتا ، اجتزأنا منها بما أوردناه ونلاحظ فيها رنة خطابية ، وقد كان شاعرنا من اجمل الناس القاء للشعر ، ومن الافضل أن تردّد الأبيات جهرا ، ولا تُعبرَ في صمت .

نَبِّئانِي إن كُنْتُما تَعْلَمانِ ... ما دَهى الكَوْنَ أيُّها الفَرْقَدانِ(١)
غَضِبَ اللهُ أم تَمَرَّدتِ الأر ... ضُ فأنْحَتْ على بني الإنسانِ ؟(٢)
لَيْسَ هذا سُبْحانَ رَبِّي ، ولا ذا ... كَ ، ولكنْ طَبِيعةُ الأكْوانِ
غَلَيانٌ في الأرْضِ نَفَّسَ عنه ... ثَوَرانٌ في البَحْرِ و (البُرْكانِ)
رَبِّ ، أينَ المفَرُّ والبَحْرُ والبرُّ على الكَيْدِ للوَرَى عامِلانِ ؟

مـا (لمتّـيـنَ) ؟ عُـوجِلَت في صِـبـاهَـا ... ودَعَـاهـا مـن الـرَّدَى داعـيـان
خَـسفَـتْ ، ثـم أغْـرِقَـتْ ، ثـمّ بـادَتْ ... قُـضِـيَ الأمْـرُ كـلُّه في ثَـوانِ
وأَتَى أمْـرُهـا فـأضْـحَـتْ كـأنْ لَمْ ... تَـكُ بـالأمْس زيـنـةَ الـبُـلْدَان
بَـغَـتِ الأرضُ والجـبـالُ عـلـيـهـا ... وطَـغَـى الـبـحـرُ أيّمـا طُـغْـيـان
تلكَ تَغْـلي حِـقْـداً عليـهـا فـتَـنْشَـ ... قُّ انْـشِـقـاقـاً مـنْ كَـثْـرَة الـغَـلَيـان
فـتُـجِـيـبُ الجـبـالُ رَجْـماً وقَـذْفـاً ... بـشُـواظٍ مـنْ مـارجٍ ودُخـان[3]
وتَـسُـوقُ الـبِـحـار رداً عـلـيـهـا ... جيشَ مَـوجٍ نـائي الجنـاحَـيْنِ دانِي[4]
فـاسْتَحـالَ الـنّجـاةُ ، واسْتَحْكَمَ الـيـأ ... سُ ، وخـارَتْ عَـزائـمُ الشُّجْـعـان[5]
وشَـفَـى المـوتُ غِـلّهُ مـن نُـفُـوسٍ ... لا تُـبـالِـيـه في مجَـال الـطِّـعـان[6]
رُبَّ طِـفْـلٍ قـد سـاخَ في بـاطـن الأرْ ... ضِ يُـنـادي : « أمي ! أبي ! أدركـاني ! »
وفَـتـاةٍ هَـيْـفـاء تُـشْـوَى عـلى الجَمْـ ... ـرِ تُـعـاني مـنْ حَـرِّه مـا تُـعـاني
وأبٍ ذاهـلٍ ، إلى الـنّـار يمْـشِـي ... مُـسْـتـمـيـتـاً تمُـدُّ مـنـه الـيَـدان
بـاحـثـاً عـن بـنـاتـه وبَـنـيـه ... مُـسْـرعَ الخـطو مُـسْـتَطِيرَ الجَـنـان[7]
تـأكُـل الـنّـارُ مـنـه ، لا هُـوَ نـاجٍ ... مِنْ لَـظاهـا ، ولا الـلّظى عـنـه وانِي[8]
غَـصّـت الأرضُ ، أتْخَـمَ الـبَـحْـرُ ممّـا ... طَـوَيـاهُ مِـنْ هَـذه الأبـدان[9]
وشَـكـا الحُـوتُ لـلـنُّـسـورِ شَـكـاةً ... رَدّدَتْهـا الـنُّـسُـورُ لـلـحِـيـتـان
قـد أغـارا عـلى أكُـفٍّ بَـراهـا ... بـارِئُ الـكـائـنـات لـلإتْـقـان[10]
كـيـف لم يَـرْحَمـا أنـامِـلَهـا الـلَّـ ... ـهْـفَ نَـفْـسي والـلَّـهْـفَ عـلـيـهـا
ـرُ ، ولَمْ يَـرْفُـقـا بِـتِـلْكَ الـبَـنـانِ ؟[11]
مُـولَـعـاتٍ بـصَـيْـدِ كُـلِّ جمـيـل ... مِنْ أكُفٍّ كـانـتْ صَـنَـاعَ الـزَّمـان[12]
حـافـراتٍ في الـصّـخْـرِ أو نـاقِـشـاتٍ ... نـاصِـبـاتٍ حَـبـائِـلَ الألْـوانِ[13]
مُـنْـطِـقـاتٍ لِـسـانَ كُـلِّ جمـادٍ ... شـائِـداتٍ رَوائِـعَ الـبُـنْـيـانِ
مُـلْهِـمـاتٍ مِـنْ دِقَّـةِ الـصُّـنْـعِ مـالا ... يُـلْـهِـمُ الـشِّـعْـرُ مِـنْ دَقِـيـقِ المَـعـاني[14]
فَـسـلامٌ عـلـيْـكِ يـومَ تَـوَلَّـيْـ ... ـتِ بمـا فـيـك مِنْ مَـغـانٍ حِـسـانِ !
وَسـلامٌ عـلـيـكِ يـومَ تَـعُـودِيـنَ كـما كـنـت جَـنّـةَ الـطُّلْيـانِ !

(١) الفرقدان : نجمان . (٢) أنحت على بني الانسان ـ جاءتهم بالعذاب . (٣) الشواظ : لهب لا دخان فيه والمارج الشعلة الملتهبة . (٤) نائي الجناحين : بعيد الجانبين : الداني القريب : (٥) استحكم : اشتد . خارت : ضعفت . (٦) الغل : الحقد . (٧) مستطير الجنان : ذاهب القلب . (٨) اللظى : حر النار . وان : بطيء . (٩) غصت : امتلأت . أتخم : امتلأ جوفه . (١٠) براها : خلقها . (١١) البنان ـ الأصابع . (١٢) الصناع : الماهرة في العمل . (١٣) الحبائل : الأشراك . (١٤) سواجع الأفنان : الحمائم المغردة فوق الأغصان . (١٥) اشتهرت ايطاليا بالبراعة في الفنون التشكيلية الجميلة المشار اليها هنا من رسم ونحت وعمارة .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك ، وامتاعك ، بالاضافة الى إثراء معلوماتك ، وربطك بتراثك الفكري والحضاري ، بتعويدك على البحث الجاد المثمر في المعاجم ، والموسوعات ، وغيرها من المراجع . والمطلوب منك ايجاد اجابات هذه الشبكة ومقابلة اجاباتك بالحل الذي سينشر في العدد القادم .

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
										٢
■							■			٣
			■	■		■				٤
■								■	■	٥
	■	■								٦
				■		■				٧
			■							٨
				■						٩
					■		■			١٠

الكلمات الأفقية :

١ . بلدة حدث فيها التحكيم بين الامام علي ومعاوية
٢ . من أسماء بئر زمزم
٣ . للنداء ، جحود او عناد
٤ . عامية بمعنى قوي أو شديد ، نقطة في القبة السماوية
٥ . جبان للنسوة
٦ . شاعر فارس عاصر المتنبي
٧ . رفع صوته بالبكاء مقلوبة ، حقير
٨ . انتشرت مبعثرة ، قدم وَوَرَدَ رسولاً
٩ . قطيطة ، مظلم
١٠ . ضمير إشارة ، من بني عامر

الكلمات الرأسية :

١ . مشي على اليدين والرجلين ، ملك يمني جاهلي
٢ . موافقة او مودّة ، قصير
٣ . علقم ، سلطنة شمال غربي بورنيو
٤ . مشى على غير هدى ، امتنع عما لا يجمل ، شقّ
٥ . اقليم عربي سليب
٦ . بمعنى لم ، اي معكوسة
٧ . تَنَقّل في البلاد ، كثير السمن ، تجدها في غاب
٨ . كن في عجلة من أمرهن ، هيام
٩ . تهيئة مقلوبة ، ينهى الصوم
١٠ . حرف مكرر ، صفة لنسيج فاخر

حل مسابقة العدد ٣٤١ ابريل ١٩٨٧

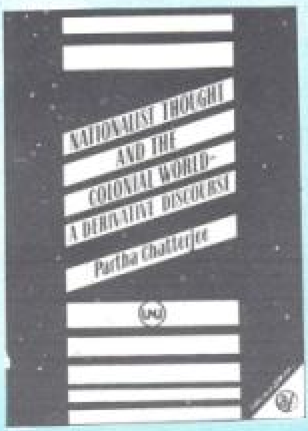
١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ه	ي	ج	ي	ت	ا	ر	ت	س	ا	١
■	س	و	ر	ع	ل	ا	ج	ا	ت	٢
د	ا	ن	■	ن	ق	د	ا	ر	ي	٣
■	و	■	ر	ق	ص	ي	■	ت	ل	٤
ق	ر	■	ي	ن	ا	و	ج	ر	ا	٥
ي	■	ن	ا	■	م	م	ر	■	■	٦
ص	■	ع	ض	ب	■	■	و	ش	ج	٧
ر	و	م	ي	ت	د	و	م	ج	م	٨
ي	ا	■	■	و	ن	ش	■	ر	ر	٩
ه	و	ق	ص	ل	ا	■	ت	ي	ه	١٠



مكتبة العربي

كتاب الشهر

تأليف : بارثا شاترجي   عرض وتعليق : جمال وردة



الفكر القومي والعالم الاستعماري

هل تجاوز الشرق كل مقولات الجدل بحثا عن هويته ، وعن طريق ثالث للحياة ؟ لقد مزج الحلم بالواقع والسياسة بالأخلاق ، والحكمة بالعلم ، وهي مهمة شائكة ، ولكن الكاتب يثبت أن جمع النقائض يبقى فنا شرقيا خالصاً ، وفضيلة شرقية بحتة ! .

كتاب الشهر

يقال ان جاليليو في أواخر أيامه ذكر أنه في حالة وجود عقبات بين نقطتين فان أقصر خط بينهما قد يكون متعرجا ، وهي مقولة فيها الكثير من المرارة والسخرية ، ولكن استعارتها بحذافيرها تبقى أمرا مقبولا في العلوم السياسية الدولية . ولكن هل تصلح هذه المقولة لقضايا حرجة أخرى ؟؟ والسياسة نفسها أليست تطبيقا لأهداف ومبادىء يفترض فيها الوضوح والمصداقية حتى لا تحتمل أي تفسير ثالث ؟

إن المبادىء دائما واضحة ناصعة ، ولكن تبقى النظريات شيئا والتطبيق شيئا آخر . حتى الأهداف النبيلة تتخذ في مسارها قنوات أخرى مغايرة تبدو نتائجها وكأنها النقيض تماما لتلك الأهداف والنوايا . قنوات يختلط فيها الحلم مع الوهم ، والمطلق والنسبي مع الحقائق وأنصافها . ويظل عالمنا المتناقض رغم ذلك سجلا لأهداف تتحقق ، وأنظمة تقام ، وقوانين تصاغ وقيم تكرس .

الطبقي والقومي :

في بداية هذه الدراسة عن أيديولوجية الفكر القومي في العالم الثالث ممثلة في التجربة الهندية ، يلمح المؤلف : بارثا شاترجي : الى صعوبة فهمها اذا استعملنا في تحليلاتنا الطريقة الرياضية البحتة ـ طريقة النقطتين الثابتتين والربط بينهما بخط مستقيم .

لقد عرف العالم نمطا طبقيا من الثورات ، كالثورة البرجوازية الفرنسية ، والثورة الروسية البروليتارية ، ولكن ماذا عن ثورات العالم الثالث من أجل الاستقلال والبناء الداخلي معا ؟ انها ثورة على جبهتين ، ضد الاستعمار من جهة ، وضد قوى التخلف من جهة أخرى . اختلف المفكرون والفلاسفة في تفسير ظاهرة نشوء القوميات ، بالرغم من مساوئها في الغرب حيث كرست معاني التنافس والصراع ومفاهيم العنصرية والشوفينية وصولا الى الاستعمار والامبريالية . وأدت بالتالي الى ظهور النازية والفاشية .

ولكن ماذا عن الشرق ؟ هل القوميات فيه مجرد تقليد أعمى لبدعة غربية ؟ أم ضرورة تاريخية وحتمية ؟ يقول : جون بلا متاز : هناك نوعان من القوميات . تبدو القومية في كليهما وكأنها ظاهرة فكرية ، ولكنها لا تلبث أن تتخذ طابعا سياسيا . النوع الأول هو ما يعرف بقوميات أوروبا الغربية عموما، والثاني قوميات آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . فمع التقدم السياسي والفكري والاقتصادي في بريطانيا وفرنسا بدأت الشعوب الأوروبية تنظر بعين الاعجاب ثم الحسد الى هاتين الدولتين . ثم تطور الاعجاب الى نوع من التعصب والشوفينية في مجال التنافس الدولي . لقد كانت مفاهيم التقدم الفكري والحضاري وراء انبعاث هذه الحركات الأوروبية . وبدأت كل أمة تفتش في تاريخها عن موطىء قدم صلب تستطيع الارتكاز عليه للانطلاق من جديد . وأصبح مفهوم التقدم شعارا عالميا لمعظم الحركات القومية في القرن التاسع عشر . أما القوميات الشرقية التي كانت حديثة العهد بالتقدم الحضاري فكان صراعها مزدوجا . فالجهل والتخلف يجب أن يتحولا الى مادة حضارية تساعد في عملية التحول السياسي والحضاري ، لأن العملية ليست تقليدية بحتة ، فذلك يعني طمس شخصيتها القومية المميزة تماما عندئذ .

يقول بعض الرافضين ان القوميات هي مجرد مذهب سياسي ابتدعته أوروبا في مطلع القرن التاسع عشر ولظروف اقتصادية بحتة ، وهذه الأفكار تبدو شاذة بالنسبة للعالم الثالث،وغريبة عن فطرتها وطبيعتها،وتبقى مجرد أفكار مستوردة تماما كغيرها من السلع الأوروبية الأخرى . ان المذاهب القومية في نظرهم ليست الا تكريسا للعنف والتعصب وسياسة العداء والكراهية للاخرين ، وممارسة لمفاهيم الاستعلاء والفوقية التي تدعيها كل أمة وكأنها هي الأفضل والأرقى من بين أمم الأرض وشعوبها . ولكن يبقى من الظلم ربط هذه العلاقة التعسفية بين قوميات نشأت على التنافس والتناحر الاقتصادي ، وانتهت بمحاولة تدمير العالم على يد النازية ، وبين قوميات تريد الحرية لشعوبها .

ان القوميات الغربية قامت من أجل مصالح الطبقات المالية التي أرادت توحيد مجتمعاتها سعيا وراء اقامة قوة سياسية مركزية لحماية أهدافها التجارية والمالية ، فهذه الطموحات الصناعية الكبيرة لا يمكن أن تقوم داخل مجتمعات مفككة مشتتة ، بل لا بد من ضم الصفوف لحماية هذه الطموحات ، ولكن القوميات في العالم الثالث كانت على عكس هذه المفاهيم تماما ، فقد كانت ضرورة الزامية وحتمية للتحرر الوطني ، وليس لاستغلال غيرها من الشعوب . فلا يمكن لأمة مشتتة مبعثرة أن تقوى على النهوض لمقاومة الاستعمار بغير توحيد أوصال هذا الجسد الممزق . فالدعوة التوحيدية كانت لأهداف نبيلة ، وليس من أجل استعمار الآخرين ونهب خيراتهم .

رحلة البحث عن الذات :

لقد انتهجت التجربة الوطنية في الهند طريقا جديدا للتحرر . فلقد بدأ العالم الثالث رحلة البحث عن الذات في أعماق تاريخه وتراثه وصولا الى الركائز الأيديولوجية الخاصة بهذه القومية أو تلك .

وتبلورت هذه النظرية الهندية عبر ثلاثة رموز فكرية وسياسية ، كان الرمز الأول لهذه الأيديولوجية القومية المفكر الهندي « بانكيم شاندرا » (١٨٣٨ - ١٨٩٤) والذي يعتبر بحق الأب الروحي للفكر القومي الهندي ، وعلى غرار المفكرين الاصلاحيين بدأ « شاندرا » يبحث عن أصل الداء لهذا الضعف الذي أصاب أمته ، وجعلها أمة مستضعفة مغلوبة على أمرها ، فقد بدأ بتفنيد المزاعم الغربية عن افتقار الأمة الهندية للقوة والشجاعة . فالقضية في رأيه أبعد من ذلك ، فهناك - حسب اعتقاده - سببان رئيسيان وراء تخلف الهند وضعفها : أولها افتقار الهنود الى الرغبة الجادة في التحرر ، ويعتبر « شاندرا » تاريخ الهند مجرد سلسلة من الصراعات - بين ملوك وأمراء - بعيدة كل البعد عن المشاركة الجماهيرية لتلك الصراعات ، ولا نستطيع القول ان الأمة الهندية قد هزمت في تلك المعارك ، لأنها لم تشارك أصلا فيها ، فلم تكن في يوم ما طرفا فاعلا في هذه الأحداث ، أما السبب الثاني فهو كثرة الانقسامات الطائفية والدينية داخل المجتمع الهندي الواحد . والسبب في خضوع الهند ليس افتقارها الى القوة « المادية » كما يقولون ، بل الى القوة الفكرية والثقافية . ان الفلسفة الدينية الهندوسية قامت اساسا على مبدأين خطيرين يشكلان معا الموقف السلوكي الرافض للقوة ، والمتمثل في مبدأ الايمان المطلق بالحياة الأخرى ، وهذا التخاذل والتكاسل والعزوف عن العمل الدنيوي يعزى الى هذا السلوك الديني المبالغ فيه . ثم مبدأ الجبرية والايمان الاعمى بالقضاء والقدر الذي يلغي أي دور انساني ولو بسيط لمعنى المسؤولية الشخصية . فكل شيء مقدر ولا خيار للانسان . وهذا المفهوم المتطرف أفقد الانسان الهندي معنى الالتزام وجرده من حق الرفض لمعاني القهر والاضطهاد،وهكذا أصبحت الهند بلا تاريخ بشري . فالاحداث تصنعها الآلهة ، والقوى الخارقة الأخرى ولا دخل للانسان فيها .

بريق الغرب المزيف :

ثم جاء « غاندي » ليكمل مابدأه « شاندرا » بمحاولة الاجابة عن نفس السؤال اللغز ، لماذا الهند أمة مستضعفة ؟ ولكن بتركيز اكثر على الضعف الهندي ، وليس فقط بوضع اللوم على الغزاة الفاتحين ، كما فعل سلفه « بانكيم شاندرا » .

يقول غاندي ان الانجليز لم يستولوا على الهند ولكن نحن قدمناها لهم ، بتمزقنا وبصراعاتنا الداخلية التي أنهكت قوانا ، وجعلتنا أمة مغلوبة على أمرها . فالتخلف وعدم التكيف الحضاري ليسا وراء هزيمتنا ، ولكنه ذلك الوهج الأوروبي الساطع الذي أعمى بصيرة البعض في الهند ، فانساقوا وراءه فاصبحوا خاضعين له . لقد كان غاندي رافضا لكل اوجه الحضارة الغربية ، وبكافة صورها وجوانبها ، وظل يعتبرها المصدر الرئيسي لكل ويلات العالم وشروره وآثامه .

يقول غاندي « حتى لو نجح هؤلاء في طرد الانجليز من الهند واصبحت بلادنا مستقلة فان الحكم سيبقى انجليزيا ، بفضل هؤلاء الغافلين المبهورين ببريق الغرب المزيف » . لقد رفض غاندي « كل المفاهيم الغربية عن التقدم والتمدن واعتبرها مصدرا لشقاء الانسان ، لأنها بدورها قد جعلت الانسان عبدا لشهواته ، وترفه ، واشباع رغباته الخاصة التي لن تنتهي ابدا ، فلقد حولته الى مجرد مستهلك جشع وأيقظت في داخله روح الوحش ، وذلك بتغذية مفاهيم التنافس والصراع وماسينتج عن ذلك من حروب ومعاناة وامراض .

إن هذه النظرة الاستغلالية قد فتحت الباب على مصراعيه للانتاج الصناعي الهائل الذي أصبح مصدرا للظلم الاجتماعي والاضطهاد الطبقي . لقد نظر غاندي الى الآلة كخصم بشع للانسان ، ورفض فكرة التصنيع الآلي فهي على حد قوله احدى أدوات القهر الطبقي والتدمير الانساني ، وقد بالغ غاندي في ذلك كثيرا ، منساقا وراء شفافية احلامه وبراءتها « انني ابكي كلما قرأت تاريخ الهند الاقتصادي ، ويعتصر قلبي ألما كلما فكرت فيه من جديد » لقد كانت الآلة وراء افقار الهند ، ومن الصعب تقدير الاضرار التي سببتها لنا « مانشستر » . لقد كانت مانشستر وراء انقراض الحرف اليدوية الهندية » فمن أجل الخلاص من هذه الشرور الاجتماعية للصناعات لم ينتقد غاندي سلبياتها وعيوبها فقط ، بل رفض الفكرة من اساسها ، ودعا بالمقابل الى تغيير شامل في المعايير الاخلاقية التي بدورها ستغير من مفاهيمنا الاستهلاكية ـ « يجب أن يكون هناك حدّ لجشع الانسان ونهمه » . ويعتبر غاندي الاستعمار وجها آخر لعملية الانتاج المتصاعد الذي أصبح يبحث عن اسواق جديدة لانتاجه ، والمواد الأولية لزيادة هذا الانتاج ، فليس الاستعمار مجرد حروب من اجل المجد الوطني والمغامرات والتباهي ، فلقد خضعت الأخلاق في العهد الامبريالي الى معايير اقتصادية بحتة . كما أن التصنيع سوف يفسد في النهاية هذا التوازن القائم بين القرية والمدينة ، وسوف يغير من طبيعة العلاقة بينهما . ولن يكون هذا التغيير لصالح القرية طبعا . إن المدينة ستفقد القرية استقلالها وتجردها من قدرتها الانتاجية«ويقول إن نهرو يؤيد فكرة التصنيع ، لأن التأميم سوف يحميها من شرور الرأسمالية ، ولكن هذه المساويء ستبقى صفات لازمة للصناعة ، مهما حاولت الاشتراكية القضاء عليها . ويرفض غاندي مايعرف بالمدنية

الحديثة ، وهو في الحقيقة رفض للمجتمع البرجوازي القائم على مبدأ الملكية الفردية ، ومبدأ الطبقية ، وعلى مبادىء وقوانين « ماندفيل » و « سميث » الاقتصادية .

أما الرمز الثالث فكان البانديت نهرو الذي كان أقل تطرفا من « شاندرا » في آرائه التراثية والأصولية كما كان اكثر عمقا ، وبعدا عن روحانيات غاندي ونزعاته العاطفية . لقد كان نهرو أول من ربط بين القضايا السياسية والاقتصادية للمجتمع الهندي . فاذا لم تكن الأهداف السياسية واضحة وحاسمة في اذهان الجماهير فأي محاولة اصلاحية لن يكتب لها النجاح ، وسيكون مصيرها الفشل ، ولقد اتسمت آراء نهرو بالنضوج السياسي والاجتماعي .

بدعة امبريالية :

وفي كتابه « تاريخ الهند » يقول : « ان الهند لم تركع يوما للغزاة الفاتحين عبر تاريخها الطويل بل كانت تقاوم ، تنجح مرة وتفشل أخرى ، وكانت مقاومتها ذات شقين : طرد من تستطيع طردهم واستيعاب من لا تستطيع » . كما رفض نهرو فكرة تقسيم العالم الى شرق وغرب واعتبر ذلك بدعة امبريالية صرفة ، فبعض مفكري الغرب ، حتى المحدثين منهم ، مازالوا يبشرون بهذه النظرية المجحفة ، معتبرين الفكر اليوناني القديم هو التراث العالمي الوحيد والأصيل للحضارة الغربية ، رافضين ومسفهين كل فكر آسيوي قديم ، رغم أن الحضارة الهيلينية كانت اقرب الى مثيلاتها في الهند والصين من أي بلد أوروبي آخر . فقد كانت لها جميعا نفس الرؤية الوثنية القديمة للامور من حب للطبيعة ومباهج الحياة ، وحب الفن والحكمة . ان الفرق الوحيد بين الشرق والغرب اليوم هو ان الغرب مجتمع صناعي ، والشرق مجتمع متخلف .

يقسم نهرو تاريخ الهند الى مرحلتين مهمتين اولها حضارة « وادي اندوس » القديمة التي استمرت حتى القرن الحادي عشر وتميزت بنهضة شاملة في حقول المعرفة كالفلسفة والآداب والفنون والرياضيات ، وكان للهند وقتها علاقات تجارية وثقافية مع معظم بلدان العالم . ثم بدأ الوهن والضعف تدريجيا ، وان كان اثره واضحا في الشمال اكثر من الجنوب ، اما المرحلة الثانية فتبدأ مع الفتح الاسلامي في القرن الحادي عشر ، وبلغت هذه المرحلة ذروتها ابان حكم الامبراطور المغولي « اكبر » . لقد بدأ في الهند في عهده مجتمع جديد قائم على تعدد الثقافات والأجناس من عربية وفارسية وتركية وافغانية ، وشهدت هذه المرحلة ازدهارا عظيما في الهندسة المعمارية والآداب والموسيقا وحتى في العلوم الفلسفية والدينية .

وقد تحقق الحلم الهندي القديم بتوحيد البلاد شعبا وحكومة ، ولأول مرة على يد الامبراطور « أكبر » ولكن هذه التعددية الثقافية الجديدة لم تستطع ان تغير الكثير من البنية الاجتماعية الهندية لأن هذا الحماس كان مرتبطا بشخص هذا الامبراطور الديناميكي الذي عادت الهند بعد وفاته الى جمودها وسباتها العميق ، فيما كانت اوروبا تشهد يقظة ثورية وجذرية في مجتمعها خلال هذه الفترة الزمنية نفسها . ان مايلزم الهند هو أن تتفهم روح العصر وتعايشه . فعلى الهند أن تتعلم من الحضارة الغربية ، ففيها الكثير ، وعلى الغرب أن يتعلم أيضا دروس الحياة ، فاوروبا ليست كل العالم . لقد كان نهرو كغيره من مفكري الشرق ـ يحلم بهذا التزاوج المثالي بين العلم والاخلاق ، بين الأصالة والتحديث بين الاقتصاد والديمقراطية ، وكان يرى في هذه الايديولوجية العلاج الشافي لكل أمراض الهند من فقر وجهل وطائفية . واذا كانت هذه الأيديولوجية الوطنية قد تحولت فيما بعد الى ايديولوجيات حكومية على يد بعض الطبقات الحاكمة فان مرحلة مابعد الاستعمار سوف تتجاوز حتما هذا النمط من التنظيرات الأيديولوجية ، بحثا عن طريق جديد آخر للحياة . □

من المكتبة العربية



الحكايات الشعبية الكويتية

بقلم :
الدكتور عبدالحميد يونس

أتيح لي أن أحضر ندوة خاصة بتجديد التراث القومي ، وأن أشارك مجموعة من المتخصصين في الفروع المختلفة ، التي تبرز ملامح تراثنا العربي . وأدركت مدى الاهتمام بالجانب الشعبي من هذا التراث ، الذي أصبحت له الآثار التي تعمل على جمع المواد ، التي حقق بها الشعب العربي ، على اختلاف ربوعه وأوطانه ، ملامح قومية ، عبر مدى العصور . وهي ملامح لها مرانها ومستوياتها للتطور ، وتنوعها في الوطن العربي بأسره .

وبقدر أفدت من تجربتي في مواجهة التراث الشعبي ، وأدركت مكانته من ذخيرة الحضارة الانسانية ، بصفة عامة ، والعربية ، بصفة خاصة . وكلما واجهت بيئة ، عملت على التقاء الشعوب اتضح لي قوة التشبث بالقومية ، بل وفطنت الى وجود فرص ومناسبات تجعل هذا التراث الشعبي يمثل الكثير من الزاد الثقافي ، الذي تثمره الأسفار والرحلات وما إليها . وهذه « الكويت » تكشف عن وجود المحلية والقومية والعالمية في تراثها الشعبي .

وأصبح المركز الخاص بتراثها الشعبي من أوضح الملامح التي تشخص هذه الظاهرة . واهتمامي بكتاب « الحكايات الشعبية الكويتية » لا يعود الى موضوعه فحسب ، وانما يعود الى أن مؤلفه صفوت كمال سار معي على الدرب نفسه ، فقد بدأت خطواتنا الأولى في الاهتمام بالتراث الشعبي . وكانت دراسته لعلوم الاجتماع والنفس ، والأنثروبولوجيا ، دافعا للتركيز على الأدب الشعبي ، باعتباره وثيقة عريقة وحية في تأكيد الجانب ، الذي يعنى بالفولكلور . وقد أوفدته الدولة الى بولندا للتخصص في مناهج البحث . وعاد ليعمل مشرفا على البحوث الميدانية في المركز . وواصل جهده في جمع وتسجيل وتصنيف ودراسة الفنون الشعبية . ثم أعير الى دولة الكويت عام ١٩٦٦ خبيرا للفنون الشعبية .

وقد أصدر عدة دراسات منها « مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي » ، وكتاب « الأمثال الكويتية » مع دراسة مقارنة بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ أحمد البشر الرومي . وقد صدر في أربعة مجلدات . وبعد

عودته الى مصر عام ١٩٨٤ عكف على تأليف كتابه عن « الحكايات الشعبية الكويتية » بعد أن عمل على جمع المادة من الرواة وتصنيفها ودراستها بالمنهج المقارن .

مركز لقاء حضاري

ومشاركتى مع صفوت كمال جعلتنى أشفق على اختياره للحكايات الشعبية الكويتية ، وجميع المتخصصين يكادون يجمعون على أن هذا التخصص فيه قدر من المجازفة ، لأنه يعتمد على المواجهة الواقعية من ناحية ، والرواية الشفوية ، من ناحية أخرى . والكويت دولة عربية لها سيادتها ومكانتها فى الوطن العربى . وموضعها الجغرافى جعلها كغيرها من البيئات التى تجاور شعوبا أخرى تختلف عنها ، تتشبث بانتمائها . . الى العروبة . ويعترف المؤلف ، وهو يكشف عن مقومات الحكايات الشعبية الكويتية بهذه الحقيقة ويقول : « فالبيئة العربية جغرافيا وتاريخيا ، كانت ـ ومازالت ـ مركز لقاء حضارى على مر العصور ، منذ أقدم حقب الزمان الى الآن ، سواء كان ذلك متمثلا فى حضارة الرافدين والنيل أو حضارة ديلمون واليمن . . أو حضارة فينيقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط أو حضارة جزيرة العرب والحضارة الاسلامية فى المغرب الكبير . . فقد ظلت تلك الحضارات فى تواصل ثقافى حى و تزواج بشرى ، بعضها مع بعض ، وبعضها مع غيرها من حضارات الهند وفارس واليونان ، وما انبثق عن تلك الحضارات من اشعاعات ثقافية وتتابع حضارى وتواصل ثقافى ، ظلت ذاكرة الشعوب تحفظها وتحافظ عليها » .

وتتسم الحكايات الشعبية فى العالم كله بغلبة الخيال على الواقع ، سواء أكان ذلك فى تتبع التاريخ ، أو تصور الطبيعة الجغرافية ، مع تنوع ظواهرها من بحار وسهول وجبال . ولعل البحر يعد من أبرز مقومات الخيال الشعبى فى الكويت ، ذلك لأن حياة الانسان على سطح البحر ، إنما يكتنفها الغموض وتصبح مجموعة من العجائب والغرائب . وتظل فيها ملامح أسطورية ، تعيش فى ذاكرته ، ويصدرعنها فى تصوراته ، وقد تتشابه فى آداب الشعوب ، على تباعد أوطانها ، وقد تنتقل من مكان الى آخر ، ويسجل المؤلف أن هذه التصورات لا تعتمد على تجارب الانسان الواقعية وإنما تعتمد كل الاعتماد على موروثه الثقافى ، وحسبنا أن نذكر شاهدين ، أولها حكاية « البحار الغريق » وهى من أقدم الحكايات المصرية ، ومدونة على بردية محفوظة الآن بمتحف ليننجراد . وثانيهما حكاية البحار الكويتى ، التى يذهب الرواة الى أنها حكاية واقعية حدثت بالفعل ، وكان لأبطالها وجود فى الواقع مثل أحداثها ، ومما يثبت أهمية الدراسة المقارنة ما نجده فى آداب الشعوب من أخيلة ، حفرت لها مكانا بارزا فى روائع الابداع الأدبى فى مجال القصص العالمية ، ففى المأثورات الشعبية موضوعات عديدة عن كائنات البحر ، سواء كانت من عرائس البحر التى نصفها من أعلى نصف حسناء ، ونصفها الأسفل سمكة أو غير ذلك من كائنات خرافية . كما تروى حكايات عن جنيات البحر وملكة البحور السبعة ، وعن عشق البحارة لجنيات البحر ، وعشق جنيات البحر وملكة البحر للبحارة والصيادين » .

ويرى الكاتب الكبير الأستاذ حسين فوزى أن القصة البحرية هى « حكاية يصور المؤلف حدوثها فى داخل البحر أو فوق سطحه ، أو على سواحله وجزائره ، يكون البحر حاضرا فى ذهن المؤلف والقارىء وأشخاص القصة كلهم أو بعضهم ، وللبحر أثر واضح فى حوادثها وعلى أشخاصها » .

البحث عن طائر مفقود

وليست هذه المجموعة المتنوعة والكثيرة من الحكايات الشعبية الا تركيزا لآفاق بعيدة ارتادها رحالة مغامرون ، ومن أهم المحاور التى لابد من

اكتشافها ، الاعراب عن الحياة عبر الزمان والمكان ، وهى الأسطورة والرمز والتشبيه ، عندما يواجه المرء العجب والاعجاب فى وقت واحد . وفى الخيال الشعبى رموز للحيوانات ، التى تصور سلوك كل جنس منها كالسبع والنمر والذئب وكالنسور والعصافير . وفى الحكايات الشعبية والكويتية نجد تشخيص عالم الحيوان ، لكى يشارك فى أحداث الحكايات ولكى يوجه الانسان التوجيه الأخلاقى المنشود ، ونجد فى هذه الحكايات ما يشبه المناظرة ، وما يستهدف الاختبار فى حياة الانسان . وهذه الظواهر موجودة عند كل الشعوب ، ويكفينا أن نذكر الأسفار الخمسة أو « البانجاتنترا » وكليلة ودمنة .

ولقد عرض صفوت كمال لهذه الظاهرة فى دراسته المقارنة بين الحكايات الشعبية كما سجلها فى الكويت ، وكما وازن بينها وبين ما اشتهر منها فى الأدب العربى بخاصة . ولم يكتف المؤلف بالمصادر والرواة ، ولكنه أفاد أيضا ممن قضوا فى الكويت فترة من الزمن وهو يسجل حكاية رواها له المرحوم الأستاذ زكى طليمات وكانت عن حكاية ديك . وانتهى الى أن هذه الحكايات الشعبية لها طابع انسانى فان « علاقة الانسان بطائر أو حيوان تدور حولها حكايات كثيرة ، فهروب طائر أو غيابه هو عنصر موجود فى أكثر من حكاية لأكثر من مجتمع . كما أن « البحث عن طائر مفقود » هو عنصر شائع أيضا فى كثير من الحكايات التى تدور أحداثها حول الطيور .. كما أن الديك يقوم بدور أساسى فى حكايات عديدة عالمية سواء فى انقاذ أهل الدار بتنبيههم عن قدوم لص أو انقاذ الغنم من ذئب يسعى للهجوم عليها ، أو تنبيه قوم الى قدوم أعداء لهم ، وغير ذلك من عناصر يلعب فيها الديك دور البطولة » . ولم يفت مؤلف « الحكايات الشعبية الكويتية » أن يفيد من هذه الأصول الشرقية المتنوعة ، وأن يتعرف على الملامح ، التى تدل على هذه الأصول فى التراث القصصى الكويتى .

وأكدت « الحكايات الشعبية الكويتية » أنها مثل مجموعة ألف ليلة وليلة لا تستهدف السمر ، ولا اجتذاب المستمعين لها بالغرابة والخروج على الواقع أو المعقول ، ولكنها تقصد أهدافا يتطلبها المجتمع . واستخلص المؤلف من دراسته التحليلية ما يمكن أن يصور « أنماطا من السلوك الاجتماعى للانسان » ... كما تقدم تلك الحكايات صوراً متنوعة من أنماط العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة ، سواء كان ذلك فيما ينشأ بين الأم (الحماة) وزوجة ابنها (الكنة) من أشكال الصراع النفسى والاجتماعى ، أو ما ينشأ بين الاخوة وبخاصة أخوات الزوج من الغيرة بينهن وبين زوجة الأخ .. أو ما يحدث بين الزوج وزوجته من سوء فهم نتيجة مكيدة تدبرها زوجاته الأخريات ، أو ما تزرعه امرأة عجوز فى نفس الزوج من سوء ظن وشك بزوجته .. كما تحمل تلك الحكايات أيضا مضامين اجتماعية ترتبط بأحكام القيم التى تسود أنماط السلوك الاجتماعى والأخلاقى » .

وأدبنا المعاصر ينزع الى الحداثة ، وينظر الى تأثير الأدب الغربى فى تحقيق هذه الغاية . ومن هنا نجد أن الكثيرين من النقاد ، عندما يعرضون لرواية أو قصة أو دراما تستهدف ظواهر أو مشكلات أجتماعية ، يتصورون أن ذلك إنما كان من تأثير الأدب الغربى ، مع أن تراثنا العربى يحفل بكل هذه القضايا . والتفت القليلون الى الأنماط الاجتماعية الشعبية ، فاستلهموها ، وكانوا بذلك يجمعون بين الأصالة ، من ناحية ، وبين الحداثة ، من ناحية أخرى .

الشطار

ويقول المؤلف ان هذه الحكايات تعتمد « فى وجودها الفنى والانسانى على فعل الانسان نفسه ، وما يضمره من دوافع خلف هذا الفعل » .

وفى الحكايات الشعبية العربية ما يشخص الحيلة

والبراعة فى تحقيق الهدف ، وعرفت هذه الحكايات بأنها تعرض لمن كانوا يعرفون باسم « الشطار » . وقد غلب هذا اللقب على كثيرين من الأبطال . واشتهر الكثيرون منهم فى بغداد والقاهرة ومن النماذج التى تتماثل فى حبكتها الفنية مع حكايات الشطار وخدعهم ، كما يقول صفوت كمال ، قصة « حرامى بغداد » و « الحماة والكنة » .

ومايزال للحكايات الشعبية هدف ايجابي وهو « العظة » لأنها كانت ، ومازال ، من أهم الأجناس الأدبية فى المأثور الشعبي . ونجد ذلك واضحا في الحكايات الشعبية الكويتية ، ويفرد لها الاستاذ صفوت كمال صفحات من كتابه . ويقرر ان « هذا النمط من القصص الوعظي ، الذي يعطى تصويرا للمقولات الدينية هو من أهم جوانب الحكايات الشعبية ، وكان له قصاصون متخصصون وقام بدور كبير في نشر التعاليم الدينية الاسلامية . . وقد ارتبط هذا الشكل من القصص أيضا بالوعظ ، فالواعظ هو القاص ، وكان لا يمكن تصور قصصي بغير وعظ ، حتى وان كان الوعظ مجرد تبرير للقاص ، كي يجمع الناس اليه ليقص عليهم » .

وهذه الدراسة ، التى سجلت جانبا من التراث الشعبي الكويتي ، عملت على التحليل الفني ، الذى كشف عن جانب مهم من جوانب النفسية الجماعية . ولقد عرض لظاهرة لها أهميتها في هذا الجنس الأدبي ، وهى أن معظم الحكايات الشعبية يعتمد على بطل واحد رئيسي ، حوله أو معه أبطال آخرون مساعدون له .

كما تتشكل أحداثها أيضا من أفعال هؤلاء الأبطال . . والابطال المساعدون في الحكايات الشعبية ، كغيرهم في الروائع العالمية المشهورة « قد يكونون من عالم الانسان أو من عالم الجان او عالم الحيوان . . . وقد تتحول عناصر الربط أو الأبطال المساعدون في بعض الحكايات الى عناصر أساسية والى أبطال أساسيين في حكايات جديدة تتداخل فيها عناصر ثانوية من حكاية أخرى » .

وهذا الجهد الكبير الذي قام به الاستاذ صفوت كمال في الجمع والتصنيف والدراسة المقارنة ، للحكايات الشعبية الكويتية لا يدل على الهواية والمثابرة وحدهما ، وانما يدل على التخصص الدقيق في مجال « الفولكلور » .

وليس يكفي أن نعرض له في مقال واحد ، لأنه يتطلب تأملا ، يستوعب المقومات الثقافية والاجتماعية والفنية ، لهذا الجنس الأدبي الحي المتطور . والمشكلة الاساسية التى أشار اليها المؤلف لابد من العناية بها في هذه المرحلة التى تحولت فيها الحياة الانسانية من التطور الى الطفرة وهذه المشكلة هي معاونة الشعب على تنقية تراثه من الشوائب ، ومن التشبث في الفكر بالخرافة وعما يثير السلوك بالانحراف عن مسايرة العصر . . ان الخروج على المعقول يجب أن يعنى لمتلقى الحكاية الشعبية أنه مجرد أسلوب فني . يضاف الى هذا كله أن يدرك ما في الحكايات الشعبية من رموز تتجاوز الخيال . . ومنهج الدارس المتخصص للتراث الشعبي أن ينقب عن التراث وأن يسجله وأن يجمعه ، كما يفعل دارس الآثار ، لاستكمال البنية الثقافية للمجتمع ، وأن يقدمه للنقاد وللمبدعين الذين يتخبون منه ما يستحق الاستلهام . □

* كل آمالي معقودة على أن أنسى الناس ، وأن ينساني الناس !

(شارلى شابلن)

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : آثار الأندلس
المؤلف : طارق خالد الحجي
الناشر : دار المنار للنشر ـ الكويت
عدد الصفحات : ١٥٨
سنة النشر : ١٩٨٥

يضم هذا الكتاب الى جانب مادته الفنية والتاريخية عددا كبيرا من الصور لآثار العرب في أسبانيا .

ورغم أن عنوان الكتاب يوحي بالحديث عن الآثار التاريخية الموجودة في منطقة الاندلس ، جنوبي اسبانيا الا أن مادة الكتاب لاتنسى الآثار العربية والاسلامية الأخرى ، سواء في وسط وشمالي أسبانيا أو البرتغال .

ويقدم الكاتب عرضا لأهم مراحل التاريخ العربي حتى خروج العرب من الاندلس ، ومعلومات مبسطة عن أهم المعالم الأثرية التي خلفوها .

■■

الكتاب : ساطع الحصري : رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي .
المؤلفة : تاتيانا تيخونوفا
الناشر : دار التقدم ـ موسكو
سنة النشر : ١٩٨٧

يتناول هذا الكتاب الصادر في الاتحاد السوفيتي باللغة العربية فكر المفكر القومي العربي الكبير ساطع الحصري وعمله ، وقد قامت الكاتبة بتأليفه ابتداء كأطروحة دكتوراة ، ثم نشرته ككتاب ، والكاتبة تعمل باحثة في معهد الاستشراق بموسكو .

وقد قدمت فكر ساطع الحصري (١٨٨٠ـ١٩٦٨) بمنهجية جديدة من منظور ما كان عليه الفكر الاجتماعي والسياسي في الوطن العربي في بداية هذا القرن ، كما ناقشت في فصول أربعة حياة هذا المفكر العربي وأعماله ، ومقومات الأمة كما يراها ، ثم فصل رائع في الوحدة والقومية بين النظرية والتطبيق ، ثم زاوية ساطع الحصري التي سمتها المؤلفة الزاوية الجديدة في المجتمع والثقافة .

ولا شك أن هذا الكتاب ـ ان لم يكن بمادته فبمنهجه ـ يبحث زاوية جديدة غير مطروقة في فكر ساطع الحصري وعمله .

■■

الكتاب : محمود بيرم التونسي في تونس ـ مدخل عام لحياته وآثاره
المؤلف : حساوي الزارعي
الناشر : على نفقة المؤلف (تونس)
عدد الصفحات : ١٦٠ صفحة
سنة النشر : ١٩٨٦

يبحث هذا الكتاب فترة مهمة من حياة محمود بيرم التونسي ، هي فترة اقامته الأولى في تونس من آب (أغسطس) الى كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩ ، وفترة اقامته الثانية فيها من كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٣٢ الى نيسان (ابريل) ١٩٣٧ ، ويبحث في الفصل الثالث عناصر « بيوغرافية » في حياة بيرم

بتونس الثلاثينيات ، أما الفصل الرابع الذي يحمل عنوان « الانتاج البيرمي فكرا وفنا » فيقدم حصرا للصحف التي نشر فيها بيرم ، ولآثاره الابداعية ، وتحديدا شاملا للمصادر والمراجع التي تناولت سيرته ، أو جوانب من فنه ، ويحلل المؤلف البيئة الثقافية والسياسية التي عاش فيها بيرم خلال فترتي إقامته ، الأولى والثانية ، أي فترة ما بعد الحرب الأولى ، وفترة الثلاثينيات ، ليستخلص أن بيرم التونسي هو فنان ملتزم بقضايا واقعه الاجتماعي والسياسي التزاما لا حد له ، ولأنه كذلك فان الانطباع الذي يظل دائما عالقا بأذهاننا هو أن آثار هذا الفنان تكاد تكون مرآة صافية الصورة لعصره بكل أصواته وظلاله ، ولشخصيته بكل تجلياتها وخفاياها » .

■■

الكتاب : نحو توازن بين السياحة والبيئة .

تأليف : أرتور هولو

ترجمة : عصام عسيران

الناشر : ادارة السياحة في وزارة الاعلام / الكويت

سنة النشر : ١٩٨٦

عدد الصفحات : ١٧١ من القطع الكبير

أصل هذا الكتاب رسالة جامعية حصل بها المؤلف على شهادة الدكتوراة ، بعد خبرة طويلة حصلها خلال سنوات عمله الطويل في مجال السياحة في بلده بلجيكا .

وخلال بحثه عن توازن بين السياحة والبيئة يدخل المؤلف في نقاشات وسجالات مع السياحة لمفهومها التقليدي ، ويحاول أن يرسي « علما » ، أو على الأقل الماما منهجيا بعناصر السياحة ، لتخليصها من المفهوم التجاري النفعي الذي التصق بها ، ويستحضر المؤلف كذلك عددا من الأمثلة التي لبعضها صلة بوطننا العربي ، مما يجعل نقله الى العربية اضافة مهمة الى أدبيات السياحة التي تشكو من نقص في لغتنا العربية .

■■

الكتاب : لقاح

المؤلف : رشيد بوجدرة

الناشر : مجلة آمال الجزائرية ـ الجزائر

سنة النشر : ١٩٨٦

رشيد بوجدرة روائي جزائري كبير معروف ، كتب رواياته باللغة الفرنسية ، ثم ترجمت الى اللغة العربية . وفي هذه المجموعة الشعرية التي تحمل عنوان « لقاح » ، والتي تضم ٤٧ قصيدة ينتقل بوجدرة من كتابة الرواية الى الشعر ، مؤكدا بذلك تمرسه بأساليب الكتابة ، وحذقه بأكثر من لون أدبي .

تحمل قصائد « لقاح » قيمة ابداعية متميزة ، فهي تنسجم مع الخط الواقعي النقدي الذي سار عليه في رواياته الناجحة ، لكنها تنفرد بأسلوبها الشاعري الصافي الذي يكشف عن شاعر كبير في ثوب ذلك الروائي الذي نعرفه .

■■

الكتاب : خطوات في التيه ـ مجموعة قصصية

المؤلف : محمد زنيبر

الناشر : دار النشر المغربية ـ الرباط

عدد الصفحات : ١٣٢ صفحة

سنة النشر : ١٩٨٦

مؤلف هذا الكتاب روائي ، وقاص مغربي معروف ، صدرت له عدة أعمال ، أهمها مجموعته « الهواء الجديد » ، وهو أيضا مؤرخ ، كتب عدة أبحاث ودراسات تاريخية . يؤكد محمد زنيبر في هذه المجموعة التي تضم سبع قصص قصيرة انتماءه الى المدرسة الواقعية في الكتابة القصصية ، وهو يلتصق بالبيئة الشعبية وبالنماذج البشرية الفقيرة المثقلة بالقلق والأسئلة حول واقعها اليومي ومصيرها . □

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٤٢
مايو ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة اسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الأجابات على العنوان التالي : مجلة العربي - صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 - الكويت .. « مسابقة العربي العدد ٣٤٢ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ يونيو ١٩٨٧ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٤٢

(الصحة والغذاء)

١ - يتردد ذكر الثريد في كتب الأدب العربي ، القديمة منها خاصة ، ترى ما المقصود بالثريد على وجه الدقة ..

* الحساء أو الشوربة
* فتة الخبز بالمرق
* فتة الخبز بالمرق - مع الارز

٢ - من المعروف أن تدخين السجاير قد يؤدي الى الاصابة باحدى مجموعتين من الامراض أو بكلتيهما .. مجموعة أمراض القلب .. ومجموعة أمراض السرطان .. ومن المعروف أيضا أن السجاير تحتوي على النكوتين والقطران .. ترى أي هاتين المادتين هي المسؤولة عن الاصابة بامراض القلب ، وأيهما المسؤولة عن الاصابة بامراض السرطان ؟

٣ - الليمون والجزر والبقدونس .. اي هذه الخضراوات هي الاغنى بالفيتامين أ وأيها الاغنى بفيتامين ج ، وأيها الاغنى بالحديد ؟

٤ - لم - ينصح الاطباء بأكل الجزر ؟

* لانه يشفى من آفة بعد النظر
* لانه يشفي من افة قرب النظر
* لانه يحسن القدرة على الرؤية في الظلام ، وقد يشفى مما يعرف بآفة عمى الليل .

٥ - الخبز الأبيض والخبز الأسمر .. أيها يفوق الاخر من حيث فوائده الغذائية .. ؟

* لا فرق بين الاثنين .
* الخبز الابيض فهو خال من الشوائب .



* الخبز الاسمر : فهو يحتوى على مزيد من الفيتامينات والحديد والالياف الهاضمة .

٦ ـ الحليب والجبن (الهولندي) : أيهما يحتوى على نحو خمسة اضعاف ما يحتويه الاخر من السعرات الحرارية ؟

٧ ـ بيض الدجاج والكستناء : أيهما يحتوي على نحو خمسة أضعاف ما يحتويه الأخر من السعرات الحراريّة ؟

٨ ـ الشاي والقهوة .. ايهما أكثر تنبيها ويحتوي على المزيد من المادة المنبهة (الكافيين) ؟

٩ ـ من المعروف أن الاسكيمو سكان اصقاع الشمال يكثرون من أكل لحوم الأسماك وشحومها ودهونها .. ولكنهم أقل الشعوب تعرضا للاصابة بأمراض القلب .. حسبما اثبتت البحوث العلمية الحديثة . ترى ما السبب في ذلك ؟

* البرد القارس هو الذي يقيهم شر اللحوم والشحوم التي يأكلون .

* الحركة .. فهم في حركة دائمة يبحثون عن الاسماك وحيوانات البحر .

* شحوم الاسماك لا تضر كشحوم الماشية وحيوانات البر .

١٠ ـ دلت الاحصائيات على أن سكان ولاية يوتا في الولايات المتحدة الامريكية اقل عرضة للاصابة بالسرطان من سكان سائر الولايات .. لماذا ؟

* لانهم ذوو بنى ضخمة وقوية .. ويتمتعون بمناعة فائقة .

* لانهم يسكنون مناطق جبلية .. ذات جو نظيف وبعيد عن التلوث

* لانهم يمتنعون عن التدخين والكحول .

١١ ـ مالفائدة التي يجنيها الجسم من الفيتامينات ؟

* تسهم في بناء الانسجة .

* تمد الجسم بالطاقة التي يحتاجها .

* تساعد الجسم على اداء وظائفه بصورة فعالة

١٢ ـ كان الفالوذج من الوان الطعام المحببة الى الكثير من السلف الصالح ترى هل كان من الحلويات ام من الوان الطعام الدسمة ؟

حل مسابقة العدد ٣٣٩

١ ـ القارات ليست ثابتة بل إنها تتحرك ولو ببطء .. إذ لاتزيد سرعتها على سنتمترين في السنة كلها . ومع ذلك فقد ترتب على تلك الحركة البطيئة أن انفصلت القارات الخمس بعضها عن بعض . حتى أصبحت في الأماكن التي هي فيها حاليا وذلك في غضون ٢٠٠ مليون سنة حين كانت كتلة واحدة ...

٢ ـ الزفت : مادة سوداء صلبة .. تسيلها السخونة . تتخلف من تقطير المواد القطرانية .

القطران : عصارة شجر الأرز والأبهل .. تطبخ ثم تطلى بها الابل ... شديدة الاشتعال .

مادة سوداء سائلة لزجة تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف . وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس . والحديد من الصدأ

القار : الزفت

٣ ـ كوكب الزهرة هو الأشد حرارة .. لأن غلافه الجوي يضاعف حرارته .. على نحو ما تفعل البيوت الزجاجية والبلاستيكية التي يستعملها المزارعون على سطح الأرض . وتبلغ درجة الحرارة على كوكب الزهرة حوالي ٤٧٥ درجة مئوية وهي كافية لاذابة بعض المعادن .. كالرصاص والقصدير والزنك .

٤ ـ لها يلهو لهوا ولهوا .. لها به : أولع .

لهي يلهى لهى عنه .. سلا عنه وغفل وأعرض .

٥ ـ الناشز هو برج بيزا المائل ، لأنه ليس من الصروح القديمة ولا من عجائب الدنيا السبع .

٦ ـ لا تستطيع أن ترى السماء بالعين المجردة أكثر من ٤٠٠٠ نجم ، ولو كانت الارض منبسطة لا كروية لتضاعف العدد ليصبح ٨٠٠٠ نجم ، أما بواسطة التلسكوب ، تلسكوب مرصد بالومار في كاليفورنيا مثلا ، ففي استطاعة العلماء ان يروا ويصوروا أكثر من ألف مليون نجم .

٧ ـ جبل أوليمبوس هو أعلى جبل عرفه الانسان .. وهو يقع على سطح كوكب المريخ لا الكرة الأرضية ولا كوكب الزهرة . ويبلغ ارتفاع جبل أوليمبوس هذا نحو ٢٩٠٠٠ متر او مايعادل ٩٥٠٠٠ قدم .. اي أنه يبلغ ٣ أضعاف جبل افرست ارتفاعا .

٨ ـ اسم أرض النار اطلقه على الجزر التي تقع في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية المكتشف فرديناند مجلان سنة ١٥٢٠ . فقد اتفق ان كانت النيران مشتعلة هنا وهناك فظنها مجلان نارا طبيعية او بركانية . ولم يخطر بباله أن أهالي تلك البلد هم الذين أشعلوها .. لذلك سماها أرض النار .. هذا الاسم المضلل الذي لا يتفق وبرودة المنطقة الشديدة .

٩ ـ ٣٠,٠٠٠ قدم أو بالضبط ٢٦,٩٠٠ قدم اي بارتفاع

فبراير ١٩٨٧

جبل افرست تقريبا حيث شاهد المتسلقون الطيور هناك . كذلك شاهد الطيارون الطيور على ارتفاع ٣٠,٠٠٠ قدم .

١٠ ـ من قصيدة للسموأل في الفخر .

١١ ـ ثمر الخبز .

١٢ ـ الزهرة (وأوراقها الخضراء بالذات) هي أغنى المواد المذكورة بالحديد . فهي تحتوي على ٤٠ ملغراما منه ، بينما لايزيد مقدار الحديد الذي يحتويه الكبد على ١٠,٣ ملغرامات . . اما السبانخ فمقدار الحديد فيه اقل من ذلك باستثناء السبانخ الصيني الذي يحتوي على ٢٥,٥ ملغم حديد .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٣٩ فبراير ١٩٨٧

الجائزة الاولى : السيد / سامي بن صالح / صفاقس / الجمهورية التونسية

الجائزة الثانية : يوسف محمد عبد الله العامر / الرياض / المملكة العربية السعودية

الجائزة الثالثة : محمد مصطفى السمري / الابراهيمية / الاسكندرية / جمهورية مصر العربية

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ محمد ادريس السندي / الجامعة الاسلامية ارشاد العلوم / سند / باكستان

٢ ـ ليلى اومولید / الحي المحمدي / مراكش / المملكة المغربية

٣ ـ محمد علي ابراهيم / الخرطوم / ادارة المحاكم المدنية / السودان

٤ ـ نبيل تللو / دمشق / الجمهورية العربية السورية

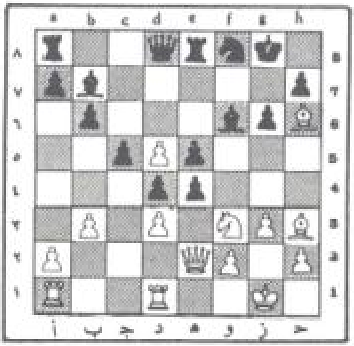
٥ ـ عبد السلام على صالح / محافظة الانبار / الجمهورية العراقية

٦ ـ جميلة احمد السيلاوي / عمان / المملكة الاردنية الهاشمية

٧ ـ نجاة بدر محمد البيلي / الرميثية / دولة الكويت

٨ ـ مريم محمد آل بن علي / الحد / دولة البحرين

معركة بالسلاح



بلغ عدد الدول العربية المشاركة في أولمبياد الشطرنج السابع والعشرين المقام في دبي ست عشرة دولة ، وقد أثبتت الدول العربية وجودها بجدارة في هذا المهرجان الدولي الهام .

وقد احتلت العراق المركز الأول بين الدول العربية برصيد ٣٠ نقطة ، وكان ترتيبها الحادية والثلاثين بين دول العالم البالغة ١٠٧ دول ، وفي المرتبة الخامسة بين الدول العربية .

واحتلت مصر المركز الثاني بين الدول العربية برصيد (٢٩,٥ نقطة) وقد كانت تحتل المرتبة الثالثة بين الدول العربية في الاولمبياد السابق ، وجاءت لبنان وتونس في المرتبة الثالثة (٢٩ نقطة) ، وسوريا والمغرب واليمن الجنوبي وفلسطين في المرتبة الخامسة (٢٧,٥ نقطة) ، والأردن في المرتبة التاسعة (٢٧ نقطة) ، وتليها الإمارات العربية المتحدة (٢٦,٥ نقطة) ثم الجزائر وليبيا والبحرين (٢٦ نقطة) ، فاليمن الشمالي فالسودان ، وجاءت قطر في المرتبة الأخيرة بين الدول العربية (٢٣ نقطة) واحتلت المرتبة ٩٩ بين دول العالم .

أما ترتيب الفرق العربية للسيدات بين الفرق التسع والأربعين المشاركة في المهرجان فقد جاءت الإمارات العربية في المرتبة الأولى بين الدول العربية (٢٠,٥) نقطة،وفي المرتبة التاسعة والعشرين بين دول العالم ، وفي المرتبة الثانية العراق (٢٠ نقطة) وفي المرتبة الثالثة سوريا (١٩,٥ نقطة) .

ومن الأبطال العرب الذين حققوا انتصارات مشرّفة على أبطال دوليين يفوقونهم في المرتبة والتصنيف الدوليين الاستاذ الدولي التونسي سليم أبو عزيز (٢٣٨٠ نقطة) الذي تغلّب على الاستاذ البرازيلي الكبير خاييمه سونييه (٢٥١٥ نقطة) ، والاستاذ الاتحادي السوري عزت قصبة (٢٢٨٥ نقطة) الذي هزم الاستاذ الدولي الصيني جي ليانغ (٢٤٢٥ نقطة) كما سنرى في الدور التالي :

□ عزت قصبة	■ جي ليانغ
٢٢ ـ د × هـ ٤	ف ـ ز ٧
٢٣ ـ ف ـ ز ٥	ف ـ و ٦
٢٤ ـ ف ـ حـ ٦	ف ـ ز ٧
٢٥ ـ ف ـ ز ٥	و ـ جـ ٧
٢٦ ـ ر (أ) ـ جـ ١	ف ـ جـ ٨
٢٧ ـ ف × جـ ٨	ر (أ) × حـ ٨
٢٨ ـ ح ـ هـ ١	و ـ ب ٧
٢٩ ـ ح ـ د ٣	ح ـ د ٧

الفائزون في
حل مسابقة
الشطرنج
العدد ٣٣٩
فبراير ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ محمد فكري ـ ج٠م٠ع
٢ ـ حسن محمد عمر ـ ليبيا
٣ ـ بلال أبوخضير ـ الامارات
٤ ـ فوزية العمران ـ السعودية
٥ ـ سليم عمر الرقم ـ القنيطرة / المغرب

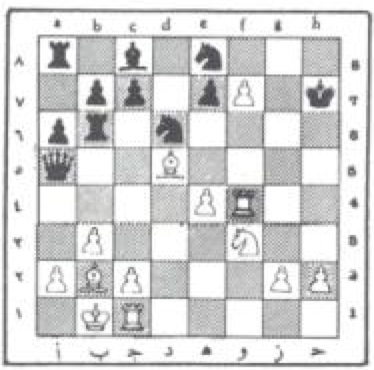
الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ محمد إمام ـ الصفاة / الكويت
٢ ـ عمر البارودي ـ منكيبو / الدنمرك
٣ ـ فراس فياض ـ معان / الاردن
٤ ـ محمد أيمن نصري ـ دمشق / سوريا
٥ ـ حسن ابراهيم محمد ـ الجيزه / ج٠م٠ع

---

٣٠ ـ ر ـ جـ ٢	ب ٥
٣١ ـ ر (د) ـ جـ ١	ف ـ و ٨
٣٢ ـ ح ـ ب ٢	أ ٦
٣٣ ـ ف ـ د ٢	ف ـ د ٦
٣٤ ـ حـ ٤	ح ـ ب ٦
٣٥ ـ أ ٤	ح ـ د ٧
٣٦ ـ أ × ب ٥	أ × ب ٥
٣٧ ـ حـ ٥	ر ـ أ ٨
٣٨ ـ حـ × ز ٦	حـ × ز ٦
٣٩ ـ و ـ ز ٤	م ـ ز ٧
٤٠ ـ ف ـ ز ٥	ر ـ أ ٣
٤١ ـ و ـ حـ ٣	ح ـ و ٨
٤٢ ـ ح ـ د ٣	جـ ٤
٤٣ ـ ب × جـ ٤	ر × د ٣
٤٤ ـ جـ ٥	ف ـ ب ٨
٤٥ ـ جـ ٦	و ـ جـ ٨
٤٦ ـ و ـ حـ ٦+	م ـ و ٧
٤٧ ـ جـ ٧	ف ـ أ ٧
٤٨ ـ ر ـ جـ ٦	ر ـ و ٣
٤٩ ـ ر × ز ٧	يستسلم

لو أخذ بالحصان لمات في نقلتين



مسألة العدد
مات ٢

مهداة عزام درويش (سوريا)

حل مسألة عدد مارس ٨٧
(العدد ٣٤٠)

١ ـ ر × أ ٧+	ف × أ ٧
٢ ـ ر × أ ٧+	ح × أ ٧
٣ ـ و ـ ب ٨+	ر × ب ٨
٤ ـ ح ـ جـ ٧ مات	

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء ..

صفحات جديدة لحوار القراء

عزيزي القارىء

لعلك لاحظت منذ بداية العام الجديد (١٩٨٧) أن باب «حوار القراء» قد أصبح أربع صفحات بشكل دائم، بعد أن كان يتراوح بين ثلاث وأربع صفحات في حركة مد وجزر مع صفحات الاعلانات.

وسوف تلاحظ ابتداء من هذا العدد (مايو سنة ١٩٨٧) زيادة جديدة في صفحات هذا الباب، لانريد أن نحددها سلفا بشكل نهائي، حتى يبقى الباب مفتوحا، لك ولنا، مرتبطا بجهدك وجهدنا.

إن الفضل في هذه الزيادة يرجع إليك أنت إذليس من الممكن أمام تطور إسهامك في الحوار الجاد مع مجلتك أن يبقى الباب محدود الصفحات، وأن تطول المسافة الزمنية أكثر بين المادة المنشورة والحوار الذي يدور حولها.

كان لابد أن نلتقي معك في منتصف الطريق، وأن نستجيب ـ في الوقت ذاته ـ لايقاع العصر الذي نعيش فيه، فنحن نعيش في عصر ثورة المعلومات، ونتطلع إلى آفاق جديدة لمفهوم الديمقراطية، فلم يعد الكاتب إنسانا من نوع خاص، يجلس في برج عاجي، ويرسل بفيض إلهامه إلى القراء، حيث لايملكون سوى دور المتلقي أو المتقبل.

إن الكاتب ـ كما قال (سارتر) في منتصف هذا القرن ـ هو صورة قارئه، ولا نبالغ إذا عممنا هذا القول على السياسي، والمفكر، ورجل الدولة، والفنان.

فلم يعد دور المجلة الثقافية مقصوراً على تقريب المسافة بين الكاتب والقارىء العادي ـ فحسب، بل تقريبها كذلك بين ذوي التخصصات المختلفة من المثقفين، بين الطبيب والمعلم والمهندس والزراعي والتقني، فمن ضمن معاني الثقافة تنمية القدر المشترك بين كل هؤلاء.

والمتابع لما ينشر في حوار القراء يمكن أن يلاحظ إلى أي مدى يجري تفاعل إيجابي بين كل هذه العناصر وبينهم، وبين كتاب المجلة ومحرريها.

وحين يكتب الكاتب وهو يعيش عمق هذا التفاعل فإن النتيجة الحتمية هي ارتقاء الكاتب والقارىء والمجلة جميعا.

رسالة من الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

● الأخ الفاضل / الدكتور محمد الرميحي المحترم

تحية أخوية

أهدي لك أحر التحيات .

وصلني العدد الأخير من مجلة العربي (فبراير ١٩٨٧) ، وعكفت على قراءته ، فوجدته حافلا بالبحوث والمعلومات والأخبار ، وقد شدني هذا العدد ، وشعرت بزهو عظيم وأنا أقلب صفحاته ، فلقد احتل مستوى رفيعا في عالم المجلات ، واستطعت أيها الأخ العزيز أن تنقل العربي إلى صحوة نوعية ، ستبقى محل اعتزاز القارىء العربي بك أولا ، وبمن يعاونك في إخراجها بهذه الحالة المتقدمة ، فبوركت جهودك . وثق أنني فخور بك ، وأقسم لك أنك أرجعت للعربي مكانتها ، بل وزدت عليها ، فلا يخسر قارئها وقتا يعطيه لها ، بل يخرج وهو جذل مما قرأ ، ماذا أقول لك أيها الأخ الكريم وأنت تنهض بهذه المجلة ، بهذه الطريقة ، في هذا الزمن الصعب الذي تردت فيه الثقافات ، وتدهورت منه الدوريات ، ورخصت فيه قضايا الأمة ، إني أهنئك من كل قلبي ، وباسم المؤرخين أشد على يدك داعيا من الله أن يحفظك ذخرا للكويت والعروبة والاسلام ، فلقد أثبتت الأيام أنك مخلص نقي طيب . حياك الله وحفظك ورعاك ودمت ذخرا للمثقفين .

الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

العربي

ـ لا تملك حيال هذه المشاعر الطيبة ، والسند المعنوي الكبير الذي يقدمه الأخ الكريم الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب لمجلة « العربي » وللعاملين فيها إلا أن نشعر بعمق المسئولية التي تضعها على عواتقنا مثل هذه المشاعر الكريمة ، فنواصل الطريق آملين أن نكون دائما عند هذه الثقة الغالية التي ستبقى من أجمل وأنبل دوافعنا للاستمرار والعمل .

قضية التعريب : الوجه الآخر

● وصلتنا رسالتان ، الأولى من السيد محمد بشار حاج قدور ، بكلية الطب البشري بجامعة حلب والثانية من السيد خليل بحري ، مدرس بترتيب ، في المغرب ، ومما جاء في الرسالة الأولى : « لندع العواطف جانبا ، ونفكر بواقعية ، فالتعريب في ضوء ظروفنا الراهنة سوف يؤثر سلبا على مستوى العلم في بلادنا ، ولسنا من الذين يتهمون اللغة العربية بالقصور والعجز ، بل بالعكس فإننا نثق في قدرة اللغة العربية على استيعاب التقنية الحديثة ، لكن المشكلة في ضوء الواقع الراهن تكمن في فقر مكتبتنا العربية في المراجع العلمية المترجمة ، فمدرس المادة في الكلية يقوم بترجمة حرفية لأحد المصادر الأجنبية في مادته ، أو يلجأ لتأليف كتاب معتمدا على خبرته واطلاعه وأحيانا تأتي تلك الكتب ناقصة ، أو تختلف ترجمة المصطلحات بينها ، مما يؤدي إلى بلبلة لدى الطلاب ، فتظهر ضرورة الاستعانة ببعض المراجع الأجنبية

العربي
ص. ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء..

ومما جاء في الرسالة الثانية :

« أين الطريق لطالب درس العلوم أو الطب باللغة العربية إذا ما أراد إكمال تخصصه ؟

صحيح أن هناك جامعات بها فروع عربية في إطار الدراسات العليا ، لكن هناك جامعات أخرى لا تضم مثل هذه التخصصات في أقسام الدراسات العليا ، ويطرح بعضهم الترجمة كحل ، لكن المتابع للكتب العلمية يدرك القصور الواضح في ترجمة كثير من الكتب الهامة الحديثة التي صدرت في مختلف المجالات العلمية ، وبخاصة الطبية منها . وهناك صعوبات حقيقية في ترجمة الكتب العلمية ، من أهمها عدم وضع المصطلحات العلمية المناسبة وعدم توافرها ، وعدم وجود تنسيق بين جهود المجامع العلمية العربية في وضع مثل هذه المصطلحات ، وعدم تشجيع الحكومات العربية لمثل هذا النوع من الترجمة ، إذن ليس عيبا أن ندرس العلوم بلغات أجنبية ، وبخاصة أننا نعرف أن الدول التي نقرأ هذه العلوم بلغاتها ترصد ملايين الدولارات لتطوير البحوث العلمية ـ الأمر الذي لانقدر على مثله في بلادنا ـ وبذلك يتاح لنا أن نتابع التطور العلمي في الخارج بدلا من أن نبقى بعيدين عنه ونبقى في الوقت ذاته عاجزين عن تحقيق مثله في بلادنا .

العربي

ـ لشعورنا بأهمية هذه القضية وخطورتها فقد أجرت « العربي » مناقشة جديدة حول هذه التساؤلات المطروحة في رسالتي القارئين العزيزين ، وغيرهما ، مع عدد من الأساتذة في جامعة دمشق ، وهي الجامعة التي تتبنى بقوة قضية التعريب ، وسينشر إن شاء الله هذا الحوار في عدد قادم من مجلة « العربي » ، ونرجو أن يجد القراء في نتائجه مايؤدي إلى الاقتراب من رؤية واضحة وموضوعية لهذه القضية ، فالعلوم في معظم أقطار العالم تدرس باللغة القومية السائدة في هذا القطر أو ذاك ، وعلينا أن نعمل لحل تلك الصعوبات لا أن نتخذ منها مبررات للاستمرار في غير الطريق الطبيعي .

أفران الغاز حقيقة أم أسطورة ؟

● في العدد ٣٣٩ من مجلة « العربي » الصادر في فبراير ١٩٨٧ لفت نظري مقال بعنوان « هل أفران الغاز النازية حقيقة مرعبة أم أكذوبة صهيونية » نشر في منتدى « العربي » بقلم منذر الأسعد ، وحين بدأت في قراءته شعرت أنه سبق لي أن طالعت مثل هذا الموضوع ، وللتأكد من صحة هذا الشعور سارعت بالبحث في مكتبتي ، فعثرت في العدد ٧٠ من مجلة « الدوحة » الصادر في اكتوبر ١٩٨١ في ركن « قضية الشهر » وتحت عنوان « رئيس المحاكمة التي هزت فرنسا » بقلم عبود عطية وعناوين جانبية منها : « عالم فرنسي يكشف أكاذيب الصهيونية » ، « وغرف الغاز أكذوبة تاريخية لا أساس لها من الصحة » .

وحين بدأت أعيد قراءة الموضوع لاحظت تشابها كبيرا في المحتوى ، بل حتى في بعض المفردات ، لكن هناك اختلافا في ترتيب المعلومات ، وطريقة معالجتها ، كما أن مانشرته « الدوحة » كان أكثر شمولا ، فالمقال عبارة عن رسالة من باريس ، ومتابعة حقيقية لمحاكمة البروفيسور الفرنسي « روبير فوريسون » ، وتطور القضية عبر الصحافة العالمية .

إنه يبدو لي أن كاتب المقال في مجلة « العربي » قد اطلع على ماصدر في مجلة « الدوحة » ، أو بعض ما كتب في الصحافة اللبنانية سنة ١٩٨١ ، ولا أدري لماذا انتظر مرور أكثر من خمس سنوات على تلك القضية ليتحدث عنها ، إن إعادة طرح الموضوع أمرمهم جدا ، وبخاصة أنه قد شمله تقييم إعلامي غريب لم يجد الصدى المناسب في الوطن العربي ، وقد كان الأجدر بالسيد منذر الأسعد أن يشير إلى المصادر التي اعتمدها ، ويضيف ما يمكن أن يكون قد ظهر بعد ذلك من معلومات جديدة عقب الضجة التي أثارتها محاكمة (فوريسون) سنة ١٩٨١ .

مصطفى بن علي الغريبي

صفاقس ـ تونس

العربي

ـ بالرجوع إلى مجلة « الدوحة » تبين لنا أن ما أشار إليه القارىء الكريم من وجود تشابه كبير بين الموضوعين صحيح في جملته مع وجود اختلاف واضح في طريقة التناول ، وبعض التفاصيل ، على أنه من المحتمل أن يكون الاستاذ منذر الأسعد قد اعتمد على كل المصادر التي استند إليها الاستاذ عبود عطية أو على بعضها وتبقى ملاحظة القارىء الهامة التي مفادها أنه كان من المفيد أن يضيف السيد منذر الأسعد ما يمكن أن يكون قد وجد بعد هذه القضية المثيرة من معلومات قد تناثرت بعد مرور حوالي خمس سنوات على هذه المحاكمة .

حول الصحراء المغربية

خطأ غير مقصود

● رسائل عديدة وصلتنا من إخوة أعزاء في المملكة المغربية الشقيقة ، تعلق كلها على ما ورد في خريطة العالم الاسلامي ـ وهي هدية العدد الممتاز ٣٣٨ يناير سنة ١٩٨٧ ـ لورود اسم « الصحراء المغربية » ضمن أقطار إفريقية ذات سيادة ، ونختار من بين هذه الرسائل رسالة السيد المحترم عبدالله الحريزي المدير العام للشركة الشريفية للتوزيع والصحف بالدار البيضاء بالمملكة المغربية ، لأنها ـ فضلا عن إشارتها إلى ما ورد في الخريطة ـ أشارات أيضا إلى ما وردفي العدد ٣٣٧ (في الصفحة ١٨١ في السؤال ١١ في المسابقة الثقافية) من تسمية الصحراء المغربية ـ وهي من أقاليم المغرب ـ باسم الصحراء الاسبانية .

ونود أن نوضح بعض الملابسات التي شابت ورود هذه التسمية بهذه الصورة ، ليس في مجال التبرير ، بل في مجال الاعتذار عن خطأ غير مقصود ، نأسف له ، وحتى تفهم الأمور في حجمها الطبيعي .

فبالنسبة لما ورد في الخريطة نود أن نشير إلى أن الخريطة لم تذكر البلدان أو المناطق التي يعيش فيها المسلمون باعتبارها دولا ذات سيادة ، بل بوصفها أقاليم ووحدات « ديموغرافية » ، لمعرفة أعداد المسلمين فيها ، بدليل أننا ذكرنا ضمن تلك المناطق « الضفة الغربية » «وغزة»، وهي مناطق محتلة كما هو معروف .

وبالنسبة لماورد في المسابقة ، فقد جاء في إطار الاشارة إلى مشروع شهدته الصحراء المغربية في مطلع السبعينيات ، حينما كانت هذه الصحراء تحت نير الاستعمار الاسباني ، أي قبل المسيرة المباركة ، هكذا كان اجتهاد المحرر ، وهو اجتهاد قد يخطىء وقد يصيب .

وكما أسلفنا فنحن لانقدم تبريرا ، لكننا نأمل أن يجد القراء العاتبون في هذا التوضيح ما يدل على حسن النية ، فالعربي التي من أعز أهدافها خدمة مشروع الوحدة العربية المأمولة لايمكن أن تقصد إلى شيء يكون ضداً للوحدة الوطنية أو للقومية ، وإذا كان ثمة خطأ فهو خطأ من يجتهد فيدرك التوفيق أو يجانبه ، والكمال لله وحده ونحن شاكرون لكل من كتب حول هذا الموضوع متابعته الكريمة .

حوار القراء..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

جهود في تعريب الطب

● نشرتم في باب « حوار القراء » حديثا عن تعريب الطب ، وبدايته ، وأود أن ألفت النظر إلى أنني أول من قام بتعريب الطب ، وذلك على النحو التالي :

« قمت بتعريب كتاب « التشريح العملي كننجهام » بأجزائه الثلاثة ، وهو كتاب عالمي ، يدرس بالسنتين الأولى والثانية بكليات الطب ، وقد ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٦١ ، والجزء الثاني عام ١٩٦٢ ، والجزء الثالث عام ١٩٦٥ ، وهو بالألوان الطبيعية وقد قامت بنشره مكتبة النهضة المصرية ، وقمت بعمل « قاموس خليفة الطبي » (انجليزي ـ عربي) ، وقد صدر عام ١٩٧٧ عن الهيئة العامة للكتاب ، ويحتوي على جميع المصطلحات الطبية العالمية باللغة العربية ، وهو بذلك يسبق أي إعداد آخر لتلك المصطلحات الطبية ، وقمت كذلك بعمل « قاموس خليفة التشريحي » وقد صدر أيضا عن الهيئة العامة للكتاب (انجليزي ـ عربي) ، ويحتوي على جميع المصطلحات التشريحية لجسم الانسان كله باللغة العربية .

وقد كرمتني الدولة لهذه الجهود التي وضعت أول أساس لدراسة الطب باللغة العربية ، فمنحتني وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ، في يوم الطبيب عام ١٩٨١ ، ويتبين من هذا أن تعريب الطب قد بدأ منذ أكثر من عشرين عاما في مصر ، وأني أول من سبق إلى تعريب الطب ، ومراجعه العالمية ، ولعل هناك كثيرين لايعلمون بذلك ، ولهذا فإني أضع الحقيقة أمامكم ، ليأخذ كل ذي حق حقه ، مع التحية .

د . حسين خليفة / جراح
مصر الجديدة ـ القاهرة

العربي

ـ ننشر هذه الرسالة لأنها تشير إلى جهود قام بها عالم فاضل وجراح ، في ميدان تعريب الطب ، أما مسألة أسبقية جهوده في هذا الميدان فهو يقدم فيها وجهة نظره ، وهذا حقه ، وإن كنا نعلم أن لمجمع اللغة العربية في القاهرة ، ولغيره من المجامع في الأقطار العربية جهودا سابقة بوضع بدايات لمعاجم متخصصة في مختلف العلوم ، وخصوصا في الطب ، ومايزال العمل في هذه المعاجم قائما ، يلاحق التطور ، وربما كانت هذه المعاجم لاتنشر بالشكل المطلوب على كل حال تبقى مسألة الأسبقية مطروحة ، وقد يملك غيرنا من وسائل القطع في هذه المسألة مالانملكه أثناء كتابة هذه السطور .

دول الكومنولث

● اسمحوا لي أن أسألكم عن منظمة الكومنولث ، ماهي ؟ وما الدول التي تنخرط فيها ؟ وماذا يربط بين هذه الدول ؟ إلخ .

هاني صيرفي
سوريا ـ حلب

العربي

ـ دول الكومنولث هي مجموعة دول تدخل مع بريطانيا في نوع من العلاقة القائمة على درجة من التنسيق بين هذه الدول وبين بريطانيا ، وخصوصا في السياسة الخارجية ، ومن هذه الدول : المملكة المتحدة ، وكندا واستراليا ، ونيوزيلنده ، واتحاد جنوب افريقية ، والهند ، وباكستان ، وسيلان ، واتحاد روديسيا ونياسالاند الفيدرالي .

والعلاقة بين هذه الدول لاتنفي أن كل واحدة منها تحكم نفسها حكما ذاتيا تاما أو جزئيا □

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مايو ١٩٨٧ م

الفكر التربوي العربي الحديث

تأليف: د. سعيد إسماعيل علي

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١٣

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص. ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

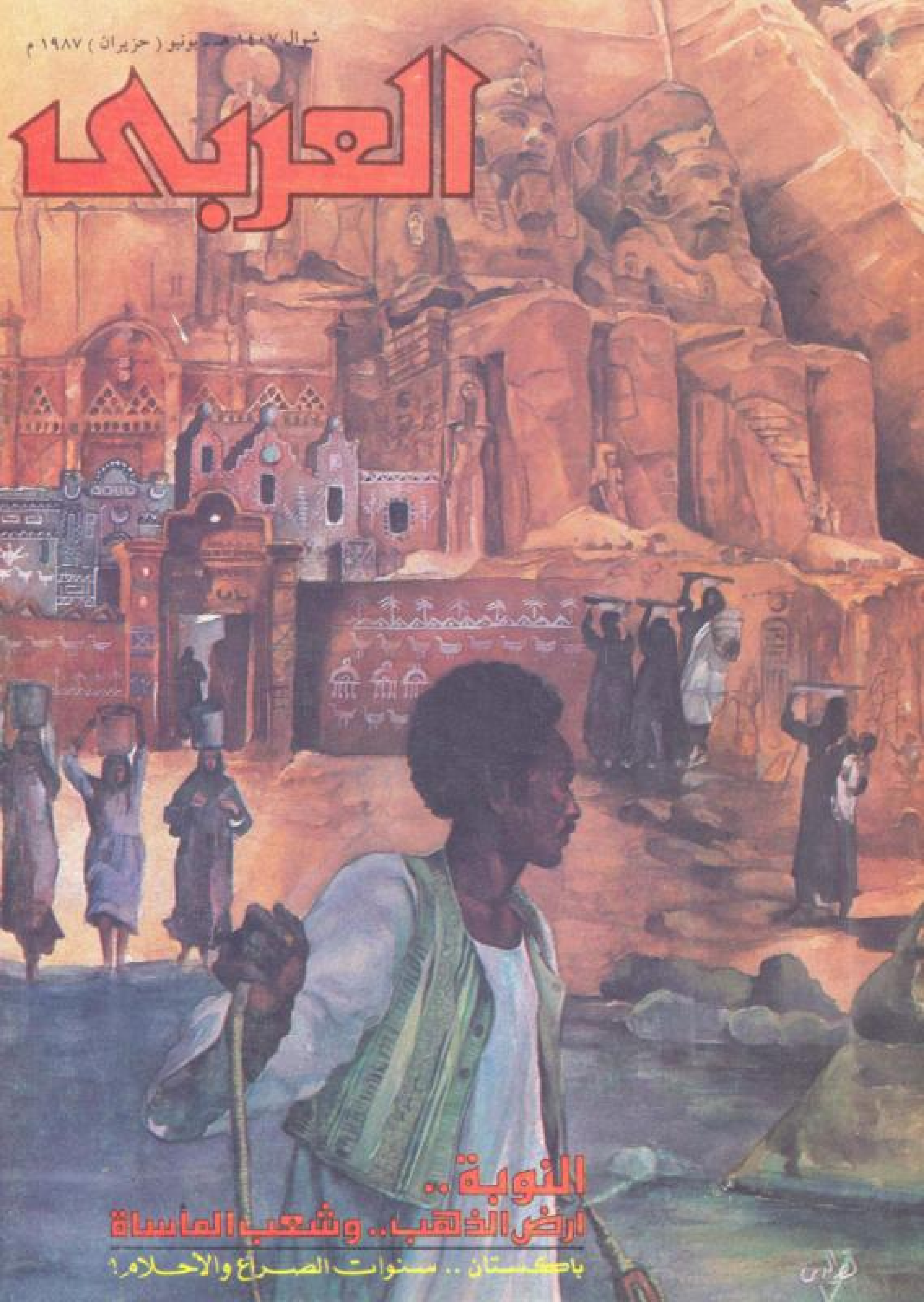
العدد ٢١٢ أول مايو ١٩٨٧

رحلة النهار الطويلة خلال الليل

تأليف : يوجين اونيل - ٤
ترجمة : عامر الزهير
مراجعة وتقديم : د. شوقي السكري

شوال ١٤٠٧هـ - يونيو (حزيران) ١٩٨٧ م

العربي



النوبة..
ارض الذهب.. وشعب المأساة

باكستان .. سنوات الصراع والأحلام؟

سانيو SANYO



إحصل فوراً على المحطات وبدون ضبط مسبق

نظام "ضبط ١٠ مفاتيح" الجديد من سانيو سهل الإستعمال ولا يتطلب الضبط المسبق. خالٍ من الخطوات المعقدة التي يتوجب عليك إتباعها، والقطع المتحركة التي قد تتلف. فقط إختر رقم المحطة التي تريد، إضغط على مفتاح الإدخال ENTER وفوراً ستحصل على صورة جميلة عالية الجودة. وبإمكانك الحصول رأساً على جميع أقنية VHF و UHF ولا لزوم أبداً للضبط الدقيق. نظام "ضبط ١٠ مفاتيح" السبّاق سهل الإستعمال ومتين وتنفرد به سانيو في التلفزيون الملون ٢٠ إنشاً CMD 6036 RG PAL/SECAM.

ومن بين الميزات الإضافية وحدة تحكم عن بعد بالأشعة تحت الحمراء ٢٦ وظيفة مع موقّت للتوقيف الأوتوماتيكي واختيار أوتوماتيكي للفولت. أما موديل CMD 6035 فيأتي بدون وحدة تحكم عن بعد.

العدد ٣٤٣ السنة الثلاثون يونيو ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 343 June 1987 P.O.Box : 784
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس : MITR-44041KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص. ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

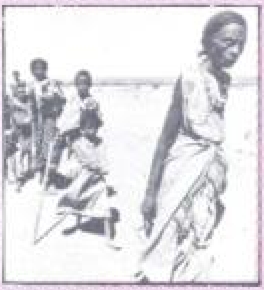
الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

العربي - العدد ٣٤٣ - يونيو ١٩٨٧

محتويات العدد



علاج قصر النظر ص٤٠



طابور الجياع يتقدم ص٥١



عبقري العمارة الاسبانية ص٨٨

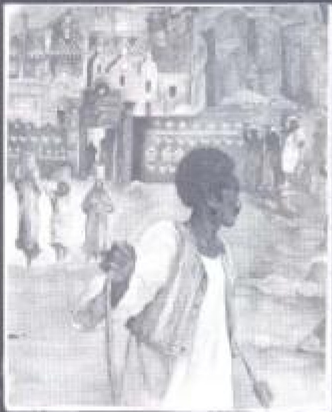


رسول حمزاتوف



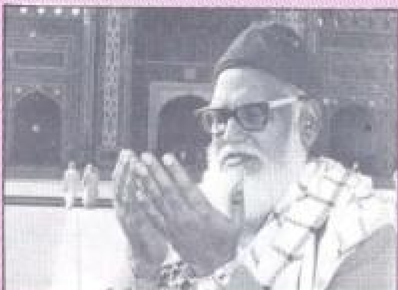
سليمان الشيخ

صورة الغلاف



على ضفاف النيل الخالد .. وعند بحيرة السد العالي في أسوان نقرأ سطور ملحمة خطها أهالي النوبة .. أرض الذهب وشعب المأساة . (طالع ص ١٣٢)

استطلاعات ومقابلات



باكستان .. سنوات الصراع والأحلام ص ٦٨



صناعة الألبان في الكويت ... ص ١٥٦

المراسلات باسم رئيس التحرير والمجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر .. والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء.

أبواب ثابتة :

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

هناك مفاهيم كثيرة خاطئة في صراعنا مع العدو الاسرائيلي ، فصراع العرب والمسلمين مع المغتصبين صراع حضاري ، وبمناسبة مرور عشرين عاما على هزيمة حزيران ، ١٩٦٧ ، والتطورات السريعة على الساحة العربية التي حدثت بعد ذلك ، يتناول « العربي » هذا الموضوع المهم في حديث الشهر .

وفي هذا العدد أيضا ذكريات مؤرخ وأديب ، هو الدكتور شاكر مصطفى ، عن مسيرة الثلاثي الماسي الذي ملأ آفاق الفن في وطننا العربي ، ثم جاءت لحظة انكسر فيها أحد أركان هذا الثلاثي ، بل وغاب عن الوجود ، إنه الثلاثي الرحباني .

كما يساهم الأستاذ فتحي رضوان بموضوع جديد ، قد يبدو غريبا ، وهو : هل أدب العبث عبث ؟

يعتقد الكاتب أن في جوانب الحياة كثيرا مما يمكن أن يسجل في خانة العبث ، فهل لو عبر الأدب عن ذلك يكون عبثا ؟

وعن مجمع الخالدين بالقاهرة الذي عقد اجتماعاته قبل فترة قريبة يكتب لنا الأستاذ عبد الرزاق البصير عما دار فيه من نقاش حول اللغة العربية ، ومواكبتها للعصر وأحداثه .

في الاستطلاعات تزور « العربي » جمهورية باكستان ، وتسجل بالقلم وبالصوره كثيرا من الوقائع والأحداث ، وسنوات الصراع والأحلام والطموحات .

كما تذهب « العربي » إلى أقصى الجنوب في جمهورية مصر العربية ، حيث أرض النوبة ، وشعبها الذي ما زال يعيش آثار مأساة التهجير والانتقال من موطن إلى آخر .

أما في الطب فإن « العربي » تطرح موضوعا يتعلق بمصير السرطان ، وهل دخل في مرحلة الاحتضار ؟ الدكتور عماد شمسى باشا يجيب باستفاضة عن هذا السؤال المصيري ، وفي الموضوعات العامة تنقل لك « العربي » بعض الوقائع والحقائق عن التعلم عن بعد أو الجامعات المفتوحة .

وتدخل « العربي » إلى بيت الشاعر السوفيتي الداغستاني الكبير رسول حمزاتوف في مدينة ماختشكلا ، وتحاوره حول كثير من القضايا الثقافية .

كما تنقل إليك ملخص تجربة مهمة من تجارب عالمنا الثالث ، تتمثل في حق كل إنسان بأن يكون ذكيا .

و « العربي » وهي تقوم بدورها في رفد الثقافة العربية بكل ما هو جديد ومفيد تقدم هذا العدد لقرائها ، وهي تستعد أيضا لتقديم باقة جديدة من الثقافة في فصل الصيف القادم . .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

عشرون عاماً على الهزيمة

نظرة إلى الخلف، وأخرى إلى الأمام

في هذا الشهر من هذا العام (يونيو ١٩٨٧) تمر على هزيمة العرب الكبرى في هذا العصر عشرون عاما بالتمام والكمال .

وخلال هذه الأعوام العشرين جرت مياه كثيرة في النهر العربي والنهر الاقليمي والدولي ، وأصبحت هزيمة حزيران - أو كادت تصبح - محجا للبكاء العربي ، كلما صادفت في التاريخ حلقة مفردة ، كعشرين شهرا وعشر سنوات ، وأخيرا عشرين سنة ، وأحسب أن هذا الموضوع سوف يعود اليه كثيرون بعد هذا التاريخ .

لا أريد في هذا الحديث أن أكرر ماحَفَّظْناه لأبنائنا - عن القضية الام - قضية فلسطين - لكنني أرجو أن أضع بين يدي القاريء العربي صياغة قد



سر "قرار الحرب" الاسرائيلي الذي كشف بعد العدوان بخمس سنوات

تكون جديدة لدروس تلك السنوات العشرين الماضية ـ كما راقبتها ـ محاولا الوصول الى نتائج أحسب أنها ستؤثر علينا جميعا عربا ومسلمين في القادم من السنين .

الهزيمة العربية في سنة ١٩٦٧ ـ في تقديري ـ كانت أكبر وأعمق من الهزيمة الاولى في ١٩٤٨ ، واذا كانت هزيمة ١٩٤٨ قد جرى حسم البحث عن أسبابها لدى كثيرين ، ووضعت على عاتق الأنظمة العربية حينذاك ، ثم جرى التخلص من كثير منها في وقت لاحق ، وجاءت الخمسينيات والستينيات لتقول إننا قد تجاوزنا الأسباب ، وهاهي ذي أنظمة جديدة تأخذ مكانها في الساحة العربية ، وتستطيع أن تقف بصلابة في وجه التحدي الاسرائيلي ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧ لتقول لنا أشياء كثيرة وعميقة أيضا ، وبعيدة عن التفسير المبسط .

فقد قالت لنا ان « اسرائيل » قد توسعت أكبر من ثلاثة اضعاف مساحتها قبل ١٩٦٧ ، وقالت لنا أيضا ان قضية المواجهة معها أكبر من تغيير نظام ، أو شكل علم ، أو معزوفة نشيد وطني .

مايحزنني حقا أننا ـ نحن العرب ـ قد طفقنا نبحث من جديد عن كبش فداء ، نلقي عليه أسباب تلك الهزيمة ، وتفرقت بنا السبل الاجتهادية و « الايديولجية » خلال السنوات العشرين الماضيه ، وأصبح بعضنا خصما لبعضنا الأخر ، يخاصمه حتى الموت على قضايا ـ هي في تقديري ـ جانبية ، وليست جوهرية ، ان دققنا فيها النظر ، وغلبنا المصلحة القومية ، وحسبناها بميزان مايضمر لنا الاعداء ويظهرون ، متحدثين بكثرة عن النيات ، ومتجاوزين الأعمال وقدرتها على المواجهة وتغيير الصورة .

وحتى لا آخذ القاريء في طريق يطول ، وتتشعب مخارجه ، أقول : ان هناك أربع حقائق جوهرية برزت منذ ١٩٦٧ وحتى اليوم :

● الحقيقة الاولى أن كثيرا مما نعانيه اليوم « نحن العرب » ، هو نتيجة لصراعنا مع « اسرائيل » وقدرتها على الاستمرار بالعمل « كقوة تشتيت » .

● والحقيقة الثانية هي أن العرب منذ ١٩٦٧ اتسموا بردود فعل ، لا بمبادرة وفعل .

● والحقيقة الثالثة أن العمل الفلسطيني ـ نتيجة للحقيقتين السابقتين ومدخلات أخرى ـ أصيب بكثير من العطل .

● والحقيقة الرابعة أن المستقبل العربي مرهون ـ شئنا أم أبينا ـ بمستقبل القضية الجوهرية وهي « القضية الفلسطينية » .

ولنعد الى تفصيل ما أوجزنا هنا .

أولاً : السياسة الصهيونية :

■ لعل بعضنا قد غفل عن حقيقة أساسية ـ في خضم خلافاتنا مع بعضنا البعض ـ هي أن « اسرائيل » ومن قبلها السياسات الصهيونية التي مهدت لها ، تسير نحو هدف محدد ، وهو أن تكون عامل عدم استقرار في المنطقة ماأمكنها ذلك وبأي الطرق الممكنة .

قبل قيام « اسرائيل » ، وبعد قيامها ، كانت هناك سياسات صهيونية واضحة المعالم تجاه العرب ، كل العرب ، وهذا ليس كلاما انشائيا أو عاطفيا ، ولاحتى تبريريا ، انه واقع بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى وتؤيده الوثائق . فالهدف المستمر والواضح « لاسرائيل » هو تغيير الحكومات والحكام ، واضعاف الأقطار العربيةالمحيطة بها ، والبعيدة عنها ، والتغلغل بنفوذها المباشر وغير المباشر للسيطرة على هذه المنطقة ، وضمان تحطيم عناصر مقاومتها .

وليس ضرب الطائرات الاسرائيلية في يونيو ١٩٨١ للمفاعل النووي العراقي الا علامة واحدة على ذلك ، وليس ضرب الطائرات الاسرائيلية لتونس في اكتوبر ١٩٨٥ الا علامة أخرى ، مرورا باجتياح لبنان فيما بين العمليتين . وعمليات أخرى ظاهرة وباطنة يشمل مسرح عملياتها كل منطقة الشرق الاوسط .

تلك علامات فقط ، فرغم الاختلاف في المسميات الحاكمة فإن الزعامات الاسرائيلية الحاكمة كانت دائما ـ مهما اختلفت المظلة السياسية التي تستظل بها ـ قد خدمت تحت هذا النظام الاسرائيلي أو ذاك سنوات طويلة ؛ سواء كانوا عسكريين أو سياسيين ، وقد مثلوا بهذه الصفة كل السياسات الاسرائيلية .

اتسمنا ببرد الفعل.. دون المبادرة والفعل؟!

اسحق شامير عمل لمدة ستة عشر عاما في الموساد (المخابرات الاسرائيلية) ، تحت قيادة (ليفي اشكول) ، و (بن جوريون) .

ايريل شارون ، رجل المذابح الشهير ، كان من المقربين من الأخير .

مناحيم بيجن الذي عاش في المعارضة فترة طويلة كان يعرف كل سياسات « اسرائيل » تحت حكم تحالف حزب العمل ، ويباركها ، بل المعروف أن (ليفي اشكول) قد أجرى تعديلا وزاريا قبل أيام قليلة من حرب ١٩٦٧ (في ١٩٦٧/٦/١) أدخل فيه موشي ديان ، ومناحيم بيجن ،

وكذلك يوسف سابير ، أي أدخل بيه المعارضة في حكومة تكتل وطني ، وذلك من أجل شن تلك الحرب على العرب .

سر «قرار الحرب» الإسرائيلي :

■ حرب ١٩٦٧ نفسها ـ كما تحدثت عنها المصادر الاسرائيلية بعد ذلك ـ كانت حربا قد خطط لها ثم شنت ضد العرب بتصميم سابق ، واستفادت القيادة الاسرائيلية من أخطائها في ١٩٥٦ عسكريا وسياسيا ، عسكريا بقيامها بالحرب دون شركاء ، وسياسيا بالظهور بمظهر المعرض للتهديد أمام العالم !

وقد اقدمت الحكومة الاسرائيلية على سابقة لانظير لها تاريخيا ، عندما أفرجت يوم الاحد ٤ حزيران ١٩٧٢ عن نص القرار الذي اتخذته قبل خمس سنوات وهو (قرار الحرب) .

يقول القرار (ان الحكومة الاسرائيلية ـ بعد أن استمعت الى التقارير التي رفعها كل من رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الدفاع ورئيس الأركان العامة والمخابرات العسكرية حول الوضع العسكري والسياسي ـ قررت اتخاذ الخطوات والاجراءات العسكرية اللازمة لتحرير « اسرائيل » من ربقة العدوان ، وتفوض الحكومة رئيسها ووزير الدفاع ، وهيئة الأركان ، صلاحية تعيين موعد البدء في العمليات العسكرية . . .)

حرب ١٩٦٧ لعبتها « اسرائيل » مدّعية أنها مهددة بالابادة من العرب ! والوثائق الاسرائيلية اليوم تؤكد لنا ـ كما أكد لندون جونسون الرئيس الامريكي وقتها بعد ذلك في مذكراته ـ أنه لاهو ولا وزارة الدفاع الامريكية اعتقدا جديا بالخطر العربي !

لقد قرر (عاموس ايلون) في كتابه الشهير « الاسرائيليون . . المؤسسون والأبناء » : ان قول الاسرائيليين عن اسباب حرب حزيران ١٩٦٧ بأنها كانت نتيجة تعرض « اسرائيل » (للإباده) هو خدعة ولدت ونمت بعد الحرب !

حقيقة الأمر أن هناك وفاقا بين الأطراف السياسية الاسرائيلية والصهيونية قبلها وبين حلفائهم تجاه الوطن العربي ، وقليلا مايختلف على هذا الوفاق أو يكون موضع تهديد . هذا الوفاق أحد مكونات قوة « اسرائيل » ، والهدف هو السيطرة على المنطقة ، وهذه السيطرة لاتظهر تجاه فلسطين أو الفلسطينيين فقط ، ولكنها تتوجه الى أبعد من ذلك ، الى مصر وسوريا والعراق والاردن ولبنان ثم الى مناطق عربية أخرى .



التاريخ المقيت للحركة الصهيونية :

■ وهذا هو تاريخ الحركة الصهيونية ، ففي العشرينيات ـ على سبيل المثال ـ ركز الجهد الصهيوني جل نشاطه في بريطانيا ضد الحركة الوطنية المصرية التي كان يقودها سعد زغلول وحزب الوفد ، يذكر لنا كرستوفر ماهيو ـ ومن الوثائق البريطانية ـ أن حاييم ويزمان وفليدمير جوبوتنسكي ، الصهيونيين العتيدين ، عارضا (التنازلات البريطانية للحركة الوطنية المصرية !) وايزمان عارض كل حركة عربية وقد فعل ذلك ببشاعة ، ودعا بشكل من أشكال العنصرية ضد العرب لدى أصدقائه البريطانيين . كتب وايزمان في ٣٠ مايو ١٩١٨ :

(العرب الذين يبدو أنهم أذكياء ظاهريا يعبدون شيئا واحدا ، وشيئا واحدا فقط ، هو السلطة والنجاح ، والسلطة البريطانية تعرف الطبيعة الغادرة للعرب ، وعليها أن تتابع نشاطهم بدقة ، حتى لايعطوا الفرصة لضرب الجيش البريطاني من الخلف ، فكلما أراد النظام الانجليزي أن يزداد عدلا أصبح العربي أكثر تكبرا) !

ولانستطيع ان نقرأ التاريخ الحديث إلا ونجد دلائل لاتقبل الشك على هذا الخط الاسرائيلي لإشاعة عدم الاستقرار ومايتبعه من نزع سبل المقاومة لدى العرب . ففي فضيحة لافون التي أصبحت مشهورة اليوم ، حاولت الاجهزة الاسرائيلية ضرب بعض المنشآت الاجنبية في مصر ، حتى يظهر المصريون بمظهر (الارهابيين) ، وهو المفهوم الذي وسعته أجهزة الدعاية الصهيونية بعد ذلك ويكاد اليوم أن يكون لصيقا بالعرب في كل مكان .

لوفا الياف ـ اعترف في سنة ١٩٧٢ أنه رأس مجموعة عمل بالتعاون مع الفرنسيين وبعض يهود مصر للقيام بانقلاب في ١٩٥٦ ، ولم توقف الخطة الا عندما اكتشف الانجليز أنها دبرت من وراء ظهورهم .

ونظام حسني الزعيم في سوريا (٤٩ ـ ٥٠) الذي كان يعتمد على قاعدة اجتماعية ضيقة قرر أن يحصل على دعم أمريكي للبقاء في منصبه ، وكانت الطريقة أنه اقترح استيعاب الفلسطينيين وتوطينهم بعيدا عن فلسطين . والخطة كانت سارية حتى سقط حسني الزعيم مقتولا ، في دمشق ، وتزامن ذلك مع وجود عضو من المخابرات الامريكية يمثل الاسرائيليين ، لاتمام التفاوض على الخطة ، فقد دخلت اسرائيل ـ كما هي دائما ـ على الخط للسيطرة على نظام ضعيف ، والملفت للنظر أنه عندما ظهرت وثائق هذه القضية من الارشيف الاسرائيلي ـ حسب النظام المعمول به باذاعة الوثائق بعد ثلاثين

عليـنا أن نـعي دروس المـاضي.. لنستخلص عـبر المستقبل

عاما ـ قامت حملة في الصحف الاسرائيلية ـ ربيع ١٩٨٥ ـ منتقدة بن جوريون رئيس الحكومة الاسرائيلية وقتها ومتهمة إياه أنه لم يتابع الموضوع متابعة جادة !

وقصة يهود العراق وخروجهم منه في أوائل الخمسينيات دليل آخر على تلك السياسة الاسرائيلية المستمرة ، ومن وثائق الأرشيف الاسرائيلي أيضا تأكد ماكان في اطار الاحتمال في السابق ، وهو أن هذا الخروج كان بالتعاون التام مع عملاء اسرائيليين كانوا وقتها في بغداد وتفاوضوا مع الحاكم العراقي الأقوى نورى السعيد ، وربما كان أحد أسباب سقوط النظام العراقي في ١٩٥٨ علاقته المريبة باسرائيل .

بعد مارس ١٩٧٩ ـ أي بعد اتفاقية السلام المصرية/ الاسرائيلية ـ بدأت « اسرائيل » حملة منظمة للتوسع في بناء المستعمرات في الضفة الغربية ، ولان الصراع العربي الاسرائيلي يدور حول الارض ، فان هدف الاسرائيليين هو خلق واقع جديد على الارض وإزاحة معالم قديمة ، وفي سبتمبر ١٩٧٩ اشتركت « اسرائيل » مع جنوب افريقيا في تجربة تفجير نووي في جنوب المحيط الاطلسي . وبعد ذلك بعامين تقريبا ـ في ديسمبر ١٩٨١ ـ أعلنت اسرائيل تطبيق القانون والسيادة الاسرائيلية على مرتفعات الجولان السورية ، وبعد أيام قليلة فقط من توقيعها لاتفاق أمني مع الولايات المتحدة .

وبين يوليو ١٩٦٧ وفبراير ١٩٨٦ ، تقول لنا الاحصائيات الاسرائيلية أن الجيش الاسرائيلي والأمن الاسرائيلي قد اقتلع من فلسطين (٢٠٦١) شخصا بما فيهم رؤساء بلديات وأعضاء اتحادات وسياسيين ، وقد سحب للتحقيق ٢٥٠,٠٠٠ شخص ، وهدم ١٤٢٥ بيتا لشكوك في أن سكانها لهم علاقة بالمقاومة . . ! وأحسب أن الأرقام الحقيقية اكبر من ذلك بكثير .

خلاصة الحديث أن اسرائيل طوال السنوات العشرين الماضية ، سائرة لتحقيق أهدافها في السيطرة على المنطقة بشكل مباشر أو غير مباشر . . إما بالطائرات العسكرية ، أو بالتوسع الاستيطاني ، مرورا بالاستفادة من أي صراع أو خلاف بين العرب وجيرانهم أو بين العرب بعضهم بعضا. إنها (قوة تشتيت) اقليمية بكل ما تعنيه الكلمة .

ردود الفعل العربية على هزيمة ١٩٦٧ :

■ عدم استيعاب (الخطر الصهيوني) بشكل علمي ومنظم على المستوى القومي ، وفهم دوره (كقوة تشتيت) يقودنا الى الحقيقة الجوهرية الثانية في حديثنا هذا ، وهو ردود الفعل العربية .



لقد استجاب العرب لفعل الصهاينة اليهود بردود فعل على مرحلتين ، مرحلة ما بعد ١٩٤٨ ، ومرحلة ما بعد ١٩٦٧ .

الظاهرة الاولى في فترة ٤٨ - ١٩٦٧ هي تنامي الموقف الدولي الغربي تجاه الصراع العربي الاسرائيلي ، ولعل التصريح الثلاثي الفرنسي البريطاني الامريكي في سنة ١٩٥٠ بتحجيم الصراع واحتوائه - إن أمكن - كان بدء الدخول في اللعبة الدولية ، وسرعان ما تنامت هذه اللعبة لتدخل في صراع الجبارين خاصة بعد ١٩٦٧ .

ردود الفعل العربية على الهزيمة الاولى كانت نظرة داخلية انتهت بمجموعة من التغييرات الداخلية - كما أسلفنا - على رأسها ما حدث في مصر . وبين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ شهدت الساحة العربية مجموعة من التغييرات الهيكلية في الحكم على امتداد معظم الساحة العربية ، وقدمت الوعود على أن المرحلة مرحلة انتظار فقط سرعان ما تنتهي بحل عادل ومشرف .

واختلطت أمور كثيرة في هذه المرحلة . . اختلطت مواجهة « اسرائيل » والقضية الفلسطينية من جهة بقضايا الصراع الاجتماعي والاقتصادي الداخلي ، واختلطت بقضايا مواجهة بقايا الاستعمار القديم وأشكال الاستعمار الجديد ، واختلطت أيضا بعقبة كأداء هي الخلاف العربي/ العربي ، فكانت مرحلة شديدة الاضطراب ، ويمكن الآن تبين الاختلاف بين الرؤية الاسرائيلية والرؤية العربية في تلك الفترة .

الرؤية الاسرائيلية - كما أسلفنا سابقا - كانت مكوناتها ثابتة : التوسع العسكري والنفوذ السياسي ما أمكن مع الاحتفاظ بالمبادرة دائما . وكانت الرؤية العربية - في تقديري - تجاه القضية متذبذبة آنية لم تحكمها استراتيجية محددة المعالم ، أي الاجابة عن سؤال : ماذا نريد بالضبط ؟ وما هي قدرتنا على تحقيق ما نريد ؟

■ الرؤية الاسرائيلية ثابتة تحتفظ بالمبادرة .. بينما الرؤية العربية آنية ومتذبذبة

وعندما جاءت الهزيمة الثانية ، وقعت وقع الصاعقة على النسج الاجتماعي والسياسي العربي ومازالت تفعل . .

والسبب في تقديري أن العلاقة العربية بالواقع الاسرائيلي لم تحسم نظريا على الأقل . فقد تتجمد ، وتتأزم ، وقد تنفرج قليلا ، ولكنها لم تحسم ،

والأطـراف العربيـة القليلة التي كانت لها رؤ ية واضحـة تغلبت تكتيكاتها السياسية الآنية على النظرة الاستراتيجية البعيدة فجاءت نتائج أعمالها كنتائج أعمال من افتقد الرؤ ية الواضحة .

حجر الزاوية هو تـوازن استراتيجي حضـاري وعسكري ، قـاعدتـه العربية الدنيا (توافق عربي) وهذا بالضبط ماهو غائب .

في غياب ذلك ـ وأحسب أن غيابه سيطول لفترة ـ سيظل المواطن العربي المفجوع بالهزيمة هائما على وجهه ، تتصيده الأطروحات النظرية هنا وهناك ، إما أطروحات مزايدة أو مغالية . . وتظل أهداف « اسرائيـل » ـ من خلال تعذر هذا التوافق العربي ـ محققة .

على الساحة الدولية ظل بعضنا يتأرجـح كبندول السـاعة تـارة غربـا وأخرى شرقا ، وفوتنا على أنفسنا أهم درس في ١٩٥٦ عندما اقتنع السوفييت من جهة والأمريكان من جهة أخرى بعدالة قضيتنا . الـدرس الذي وعتـه اسرائيل ومازالت تجاهد حتى لا يتكرر ، هو منع الوفاق الدولي .

تآكل حقوق الفلسطينيين :

■ يبدو أن الزمن أحد العناصر التي لا نحسب حسابها ، ففي سنة ١٩٤٨ وقعت ٧٨٪ من أرض فلسطين التاريخية تحت الاحتلال الاسـرائيلي ، ومن ضمن العـرب الفلسطينيين وقتها أصبـح ٦٠٪ من بينهم لاجئين ، إمـا في فلسطين نفسها أو في الأقطار العربية المجاورة . . كما اقتلع ما بين ٨٣٪ و ٩٣٪ من السكان العرب في المنطقة المحتلة في « اسرائيل » من أماكنهم وأبعدوا الى المنفى ، وفي ١٩٦٧ أصبح معظم الـلاجئين الفلسـطينيين لاجئين للمـرة الثانية .

وفي السنوات العشرين الماضية تبين ـ لأي مراقب منصف ـ أن أحد المكـونات الصعبـة في الصراع العـربي الاسرائيـلي هو مكـون الفلسطينيـين أنفسهم !

كيف ذلك ؟

لقد وقع الفلسطينيون في مرحلة من أصعب مراحل التقلصات والشد والجـذب بين (الشعـور القومي) والـواقـع (الاقليمي العـربي) . القضية الفلسطينية قضية قومية . . نعم . ولكن الدور العربي ليس موحـدا ، تلك حقيقة ، والأقطار العربية لها اجتهادات وتلك حقيقة أخرى . لذلك شهدت



كيف استمرت «إسرائيل» قادرة على العمل «كقوة تشتيت» للعرب؟

سنوات ما قبل ١٩٦٧ تنافسا بين الهيكل الرسمي الفلسطيني (منظمة التحرير بقيادة الشقيري كما اعترف بها مؤتمر القمة العربي الثاني في ديسمبر ١٩٦٤) والمنظمات الفدائية المتنامية والكثيرة (العمل الشعبي الفلسطيني) وأصبحت الهوية الفلسطينية تسير في مسارين متوازيين تقريبا ، أحدهما منظمة التحرير والثاني المقاومة الفلسطينية . وقد هيأت هزيمة ١٩٦٧ المناخ الموضوعي لنمو المقاومة ، وجاءت معركة الكرامة في أعقاب الهزيمة فزادت من شعبية المقاومة أضعافا مضاعفة ، وما أن جاء فبراير ١٩٦٩ حتى أصبح ياسر عرفات زعيم فتح كبرى حركات المقاومة رئيسا للمنظمة ، وتوحد الخطان المتوازيان ، ولكن ليس دون تقلصات جديدة .

أثرت هزيمة ١٩٦٧ أيضا على الحركةالسياسية العربية عموما وبالأخص الجناح الفلسطيني منها ، فتحول ذلك الجناح من حركة القوميين العرب الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وسرعان ما انشقت من جديد لتولد الجبهة الشعبية الديمقراطية .

أصوات فلسطينية عربية عديدة ارتفعت وقتها ـ ونتيجة لهول الصدمة ـ تدعو الفلسطينيين لتبني طريقة النضال الكوبي ، أو الطريقة الفيتنامية ، أو الجزائرية ، ولكن الجغرافيا السياسية ـ وان سمحت بسيطرة (المقاومين) على المنظمة ـ لم تسمح بأكثر من ذلك ، ونظر الى الفلسطينيين المقاومين على أنهم فروخ طائر « الوقواق » .

وتركبت منذ ذلك الوقت العلاقة المعقدة بين حرب عربية نظامية للتحرير وحرب مقاومة لم تولد شروطها بعد .

وتحولت تدريجيا على مدى السنوات الماضية المطالب اللاحقة لسنة ١٩٤٨ من التحرير الكامل ، الى تحرير الأرض المحتلة بعد ١٩٦٧ ، بأشكال الصياغات المختلفة .

المطالب قبل ١٩٤٨ التي كانت واضحة بسيطة يفهمها الجميع وغير قابلة للمزايدة أصبحت معقدة ، أما المطالب بعد ١٩٦٧ ولأنها ظهرت في ظروف موضوعية قاسية فقد اختلفت ، فاختلف فلسطينيو الخارج ـ على الأقل ـ عليها ، وأصبح الدم الفلسطيني مباحا بين الإخوة ، كما هو مباح للأعداء .

حرب ١٩٧٣ أضافت أبعادا أخرى دولية واقليمية على حركة الفلسطينيين وموقف الأقطار العربية منهم . . وكذلك معاهدة الصلح المصرية الاسرائيلية . لقد ظهر أن حقوق الفلسطينيين في الداخل أيضا بدأت تتآكل لشراسة الاحتلال الاسرائيلي .





مبادرة برجنيف ١٩٨١ وقرارات فاس (٢) في عام ١٩٨٢ حددت الاطار الذي يمكن أن يتحرك فيه الفلسطينيون سياسيا ، وبقي تحريك ما بداخل الاطار ، إلا أن الاجتياح الاسرائيلي للبنان عصف بالحدود الدنيا من الوفاق الفلسطيني / الفلسطيني الذى كان من الممكن ان يشكل أحد آليات دفع المقاومة الى الامام الا ان الخلاف الفلسطيني / الفلسطيني والعربي مرر خمس سنوات عجاف على العمل الفلسطيني المقاوم ، وعلى الجهد العربي السياسي ، واختلطت بمقدرات اقليمية بالغة الصعوبة ، ونزفت دماء فلسطينية وعربية غزيرة وعزيزة .

ووحدت فصائل المقاومة الفلسطينية نفسها في ابريل الماضي ، فهي تعود الى بعضها تدفعها الحاجة المشتركة للتقارب ، واذا كانت هذه الفصائل بعودتها الى منظمة التحرير لا تستطيع أن تهرب من أثقال الماضي بمرارته ، الا أنها تستطيع على ضوء دروس الماضي القريب أن تؤثر في المستقبل .

المستقبل :

■ دروس الماضي نذكرها كي نستخلص عبرا للمستقبل .

والدروس تقول لنا بوضوح شديد ان الصراع هو صراع حضاري فيه ثقل الماضي وشراسة الاستعمار الجديد ، وبدون تحديد الأولويات بدقة ومرونة ندخل في الحلقة الخبيثة .

وفي اعتقادي أن « اسرائيل » تعتبر أن أي قوة عربية خارج (نطاق أخضر) تقرره هي ، يجب ضربها في التو واللحظة ، وأن أي وفاق دولي عادل يجردها من طموحاتها ، وأن مقاومة صلبة ـ كما حدث في جنوب لبنان ـ توجعها . وأن أي وفاق عربي يخيفها ، وفوق ذلك أي تحرك داخلي لأهلنا العرب هناك يصيبها بالاضطراب . تلك حلقات منطقية في تقديري يجب أن يبنى عليها العمل المقاوم القادم ، ولا يعني ذلك أنه لا يوجد لاسرائيل خطواتها المضادة لتلك الحلقات ، ولكن يعني أن الصبر الطويل للجماهير العربية بعد عشرين عاما من هزيمة ١٩٦٧ ، وما يقارب الاربعين عاما من الهزيمة الأولى ، قد يفقدها الصبر الجميل الذي تلتحف به .

فهل نعي دروس التاريخ !

محمد الرميحي



ابن خلدون
مفكرًا اقتصاديًا

بقلم : الدكتور ابراهيم عويس*

هذه وقفة مع نزاهة البحث العلمي وأمانته ، ودعوة متواضعة لرد الاعتبار إلى الحقيقة بشأن شخصية علمية فذة ، كاد المؤرخ أن يهملها أو يظلمها .

كلنا نعرف شيئا كثيرا أو قليلا عن ابن خلدون كمؤسس لعلم الاجتماع ، لكن ماذا عن ابن خلدون المفكر الاقتصادي ؟ وما هو إنجازه في هذا الحقل ؟ المقال التالي اجتهاد خاص للكاتب في هذا المجال .

طرح ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) في مقدمته الشهيرة كثيراً من المباديء والأسس لكافة فروع العلم والمعرفة ، لكن أفكاره العظيمة في الاقتصاديات تجعله - بحق وبجدارة - أبا لهذا العلم ، لكن هذا اللقب التشريفي قد منح لآدم سميث ، ذلك المفكر الذي عرفه العالم بعد ابن خلدون بأكثر من ٣٧٠ عاما .

إن ابن خلدون لم يطرح البذرة الأولى لعلم الاقتصاد التقليدي في مجالات الانتاج والعرض والتكلفة فحسب ، بل إن أفكاره كانت رائدة أيضا في مفاهيم الاستهلاك والمنفعة والطلب التي تعتبر حجر الزاوية في نظريات علم الاقتصاد الحديث .

ومن المعروف أن بعض الفلاسفة الأقدمين قد تناولوا هذا الموضوع إلا أن أفكارهم كانت بسيطة ساذجة بدائية ، فقد تحدث أفلاطون - مثلا - عن مبدأ التخصص ، وتقسيم العمل ، واستطاع المصريون

* أستاذ الاقتصاد في جامعة جورج تاون

القدماء أن يطبقوا هذه المقولة عمليا في نحتهم للمسلات ، خصوصا في عهد الأسرة الثامنة عشرة قبل الميلاد ، وذلك برفعهم مستوى الانتاجية لساعة العمل الواحدة ، كما حاول ارسطو أن يعزف علم الاقتصاد ويحدده ، ويطرح بعض التحليلات في استعمال المال ومبدأ التبادل .

لكن ابن خلدون استطاع في نظريته الضرائبية أن يطور أفكار طاهر بن الحسين (٧٧٥ ـ ٨٢٢) التي كان قد كتبها لابنه ـ حاكم خراسان في ذلك الوقت ـ وأوصاه أن يعمل بها .

وقد كان لهذه النظرية أثرها البالغ على سياسة الاقتصاد المعاصر حتى داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، ولعل هذه الدراسة المتواضعة تكون مجرد محاولة جادة لرد الاعتبار لهذه الشخصية العربية الفذة التي كان علم الاقتصاد قبلها مجرد مجموعة من الأفكار المشتتة الساذجة المبعثرة التي حولها ابن خلدون إلى ثروة فكرية منظومة

ابن خلدون وفائض القيمة

باستثناء جوزيف سكوجيترا الذي اكتشف ابن خلدون مؤخرا فإن معظم مفكري الغرب الاقتصاديين ـ وعلى رأسهم جوزيف سبينجلر ـ يرجعون فضل اكتشاف نظرية القيمة إلى « آدم سميث » ، وإلى « دافيد ريكاردو » ، باعتبارهما أول من حاول تفسير ذلك اللغز المحير لمفهوم القيمة ، فقد ذكرا ـ كلاهما ـ أن القيمة التبادلية للأشياء يجب أن تكون مساوية للوقت المستهلك في إنتاجها ، ومن هذا المنطلق ذكر ماركس « أن أجور العمل يجب أن تكون مساوية لانتاج هذا العمل نفسه ، ثم خرج بمقولته الثورية القائلة بأن قيمة الفائض ليست إلا ثمنا استغلاليا ـ لايمكن تبريره ـ تكسبه الرأسمالية المستغلة على حساب عرق الكادحين من (البروليتاريا) .

في هذا المجال نستطيع القول أن ابن خلدون كان أول من اكتشف نظرية القيمة للعمل قبل كارل ماركس ، فالعمل بالنسبة لابن خلدون هو مصدر القيمة وأساسها ، وهو أول من فسر ذلك تفصيليا في الجزء الثاني من مقدمته ، وقد وجدنا ذكر هذا المفهوم لدى « دافيدهيوم » في محاضراته السياسية المنشورة سنة ١٧٥٢ . قال : « إن كل شيء في العالم يمكن شراؤه بالعمل » وقد ذكر هذا المفهوم آدم سميث قائلا : « إن ما يشتري بالمال أو بسلعة أخرى يمكن شراؤه بالعمل ، فالمال يحتوي على القيمة الفعلية لانتاج عمل ما،والقيمة يمكن استبدالها بقيمة أخرى مساوية لها من حيث الكم ، لأن قيمة أي سلعة يمتلكها إنسان ما،ولا ينوي الاحتفاظ بها أو استعمالها لأغراضه الشخصية ، لكنه يريد استبدالها بسلعة أخرى ، هي ـ في الحقيقة ـ مساوية تماما مقدار العمل المبذول فيها ، وهذا ما يمكنه فيها بعد من شرائها أو استحقاقها ، إذن فالمال هو المعيار الحقيقي للقيمة التبادلية بين السلع المختلفة .

ولو حللنا هذه العبارة المنشورة عام ١٧٦٦ م لوجدنا بذورها الأولية في الجزء الثاني من مقدمة ابن خلدون ، لكن ابن خلدون يجعل هذا الدخل المالي في فئتين اثنتين ، إحداهما الربح ، وهو الدخل الكلي الشامل ، وأخراهما الكسب ، وهو ما يفي بكسب معيشتنا وقوت يومنا . والربح يمكن أن يتخذ شكلا ماديا آخر عندما يعمل الانسان مستقلاً عن غيره ، ثم يبيع منتجاته للآخرين ، فالقيمة عندئذ تشمل المواد الخام والموارد الطبيعية الأخرى ، بينما الكسب هو الدخل المالي المكتسب حين يعمل الانسان لدى الآخرين لقاء أجر معين .

وابن خلدون هو أول من حاول تفسير ظاهرة الفروقات المالية في الدخل ، وعزاها إلى الفروقات النوعية في المهارة ، وحجم السوق ، والمكان ، والحرفة نفسها ، وعزاها أيضا إلى الطبقات القادرة ، باعتبارها القوة الاستهلاكية الوحيدة لهذه النوعية من

الانتاج ، فكلما زاد الطلب على سلعة ارتفع دخل صانعها ، لكن ارتفاع الدخل لمهنة ما يجذب ، بالضرورة ـ العديد لممارسة هذه المهنة ، ومن ثم الزيادة الملحوظة لمنتجات هذه المهنة ، ووفرتها في السوق ، مما يؤدي ـ حتما ـ إلى تقليص أرباحها فيما بعد ، وهذا ما انتبه له ابن خلدون في تحليلاته للتعديلات الطارئة على المهن والحرف من وقت إلى آخر ، ومن ثم التغيرات التي تحصل على طبيعة الحرفة الواحدة نفسها .

الاقتصاد الحر

كذلك سبق ابن خلدون « آدم سميث » باعتباره العمل وسيلة بناء ثروة الأمة وحضارتها ، وباعتباره زيادة الانتاج وزيادة التبادل التجاري هما الركنان الأساسيان لرفعة الأمة وازدهارها ، وأن أي هبوط في معدلات الانتاج يعني حتمية التقهقر والتخلف على المستويين الاقتصادي والمالي .

بالاضافة إلى إسهامات ابن خلدون في دراسة قيمة العمل وتحليلها قام بتحليل أدوات الاقتصاد الأخرى ، كالعرض والطلب والأسعار والأرباح ، فقد شرح كيف أن الطلب على سلعة ما يعني ـ أساسا ـ المنفعة المكتسبة من هذه السلعة ، وليس بالضرورة الحاجة إليها ، فالمنفعة إذن هي المحرك القوي للطلب ، وهي التي تخلق الحوافز الشرائية لدى المستهلكين . لقد كان ابن خلدون أول من طرح أسس هذه النظرية الحديثة التي طورها وتوسع فيها كل من « روبرت مالتوس » ، و « الفرد مارشال » ، و « جون هيكز » ، وآخرون وبما أن السلعة المرغوبة يعنى بها مستهلكون كثيرون فإن ذلك يؤدي إلى تصاعد حتمي في السعر وفي النوعية أيضا ، وبالمقابل فإن أي تناقص في الطلب على حرفة ما سيؤدي إلى هبوط مبيعاتها ، وذلك يعني تدني أسعارها .

إن هذه العلاقة الجدلية بين السلعة والحرفة قد انتبه لها ابن خلدون حين قال : « إن الحرف تنمو وتتحسن مع زيادة الطلب على منتجاتها ، وإن زيادة الطلب على حرفة ما يأتي من خلال زيادة الطلب على منتجاتها في الأسواق » . وكما هو معروف حاليا فإن نظرية الأسعار الحديثة تكشف لنا أن التكلفة هي العمود الفقري لنظرية العرض .

كما بين ابن خلدون أن هناك عوامل أخرى تؤثر على الأسعار أو الأجور ، منها درجة الانتعاش الاقتصادي وازدهاره في مجتمع ما ، ودرجة تمركز الثروة ، ثم سياسة الضرائب والرسوم التي تفرضها الجهات الحكومية ورعاياها من أصحاب الطبقة الوسطى وطبقة التجار . إن العلاقة بين الدخل والاستهلاك ـ كما قدمها ابن خلدون ـ قد مهدت الطريق أمام نظرية الاستهلاك الحديثة .

ثمن المخاطرة

لقد عرف الاقتصاديون ـ في أدبياتهم ـ الربح بأنه ثمن المخاطرة ، وقد أرسى قواعد هذه النظرية « فرانك نايت » في كتاباته المنشورة عام ١٩٢١ ، لكن ابن خلدون كان قد سبقه حين قال :

« إن التجارة تعني شراء البضائع والسلع ، ثم تخزينها بانتظار تقلبات السوق ، من أجل سعر أعلى لبضائعهم ، وهذا هوالربح بعينه . » وفي فصل آخر قال : « إن الأذكياء وذوي الخبرة من أهل المدن يعلمون بأنه ليس من الحكمة خزن الحنطة بانتظار سعر أعلى ، لأنهم بذلك سيخسرون كل شيء وبصفة عامة قد يكون الربح ثمنا لمخاطرة ما ، فقد يتعرض هؤلاء المغامرون للخسارة بدل الربح المتوقع ، وسواء كان ربحا أو خسارة فإن كليهما يكون نتيجة تكهنات أو حسابات خاصة ، يقوم بها هؤلاء المغامرون .

ونظرة ابن خلدون إلى الأسعار المتدنية جدا تماما كنظرته للأسعار الفاحشة جدا ، فكلاهما يشكل إرباكا وتخلخلا اقتصاديا خطيرا ، وينصح الحكومات بعدم التدخل العشوائي لابقاء هذه

الأسعار المتدنية ، وذلك عن طريق المساعدات المالية ، أو التدخلات الاقتصادية الأخرى ، لأن هذه السياسة التعسفية قد تكون كارثة بشكل أو بآخر ، لأن تطبيقها يعني اختفاء هذه السلع من السوق ، دون أي حوافز لدى الموردين لانتاجها ، لأن بيع المزيد منها وبهذه الصورة قد يؤثر على أرباحهم . وكذلك يلعب ارتفاع الأسعار الدور التخريبي نفسه ، لأن عدم البيع يعني التكديس ، والتأثير ـ بالتالي ـ على حركة السوق وتنشيطه .

إن التطور الاقتصادي ـ بموجب هذا المفهوم ـ يبقى رهن الجهود الانسانية « الاستثنائية » التي توفر ذلك الفائض المالي المحرك للتطور . وتلعب الحكومات الدور الأكبر في عملية الانماء والتطور الاقتصادي من خلال مصروفاتها الواسعة ، وخدماتها ، وسياستها الضريبية ، وإنفاقها العام ، فالحكومات هي التي بمقدورها خلق الحافز الوظيفي لدى المواطنين ، وخلق الانتعاش المطلوب لرعاياها ، وذلك بتهيئة الفرص الوظيفية ضمن برامجها السنوية ، وخططها الاقتصادية الدورية ، ومن هذا المنطلق نستطيع القول ان النظام القمعي التسلطي يحمل في أحشائه بذور الاجهاض لهذه الفرص المتاحة للعمالة المنتجة ، وهي أشبه ما تكون بالهزيمة الذاتية لذلك المجتمع على المدى البعيد . إن الانفاق الحكومي هو المحرك الأساسي للعملية الاقتصادية ، وذلك عن طريق زيادة الدخل الذي يقوم تلقائيا بالتأثر بعملية الانتاج نفسها والتأثير فيها ، فبالاضافة إلى المساعدات التي يجب أن توفرها لطبقة الفقراء والمعوزين والمعوقين يجب أن تقوم الحكومات بإنفاق ما تجنيه من ضرائب ورسوم لتحسين أوضاع مواطنيها ، ودفع الأذى عنهم .

ولعلنا نجد أصداء لما قاله ابن خلدون في رأي الرئيس الأميركي الراحل جون كندي الذي قال في إحدى المناسبات : « إن الاختيار الصحيح ليس بين تخفيض الضرائب من ناحية وتفادينا لعجز فيدرالي من ناحية أخرى ، فإن الاقتصاد الذي يتبناه نظام ضرائبي واهن لن يكون قادرا على توفير المبالغ اللازمة لمواكبة الميزانية الطموحة ، وهذا يعني بأنه لن يكون قادرا على توفير الوظائف المطلوبة أو الانتاجية الكافية » .

قال كندي هذه الكلمات ردا على بعض الأصوات المطالبة بتعليق قيمة الضرائب . وكأنه كان يردد نفس العبارات التي قالها ابن خلا[illegible] والتي مازال صداها يتردد منذ ستة قرون . يقول ابن خلدون : « بمقدور النظام الضريبي جباية مبالغ كبيرة من خلال الرسوم القليلة ، ولكنه سيتوفر له جباية قليلة من خلال الضرائب الكبيرة » ، وكأنه يريد أن يقول بأنه كلما زادت حدة الضرائب قلت العائدات ، وكلما قلت الرسوم وانخفضت زادت العائدات الضريبية ، فإن العائدات تزداد تلقائيا من خلال الازدهار التجاري ، ومن خلال تجنب الضرائب الفاحشة التي تعيق حركة الانسان وإبداعاته ، فكلما انخفضت الرسوم والضرائب تصاعدت الطاقات والرغبة في الابداع ، والعمل لدى المواطنين ، مما يساعد على نمو المشاريع ، واتساع حركة العمران المدني .

أما إذا كانت السياسة الضريبية في غير محلها ، وليست بناء على خطة مرسومة ، فإن النتائج تكون على حساب التقدم العمراني ، تكريسا لأسباب الانحدار التي تحرم ـ مستقبلا ـ الحكومة من عائدات إضافية ، كان بالامكان جبايتها والاستفادة منها . إن ابن خلدون ضد العشوائية في هذا الموضوع الحساس والحرج ، لكنه يدعو دائما إلى نظام مثالي موضوعي في قضية الضرائب ، ونستطيع القول ان نظرية « لافير » الضريبية ليست إلا تجمعا منسقا لأفكار وآراء وضعها ابن خلدون في القرن الرابع عشر .

الملكية الخاصة

لقد كان ابن خلدون من أنصار الملكية الخاصة للانسان ، يدعو دائما لعدم التعرض لها بأي شكل من الأشكال ، لأنه يعتبر ذلك إهداراً للحوافز الفردية ،

وخنقا لها ، مما يؤدي - في النهاية - إلى الانهيار التام للنظام ، كما يعتبر نزع الملكية أشبه بعملية انتحار ذاتي وجماعي للنظام نفسه ، لأن ذلك - حسب مفهومه - يعتبر شكلا من أشكال القمع والاضطهاد والتخريب الاقتصادي .

كما كان لابن خلدون أيضا إسهامات كثيرة في نظرية المال ، فالمال في نظره لايعني الثروة إطلاقا ، كما أنه ليس شكلا من أشكال الغنى ، بل مجرد أداة ، يستطيع الانسان بها اكتساب الكثير ، وكان ابن خلدون أول من عرف الوظيفة المالية كقيمة معيارية فقط .

إن (الليبرالية) الاقتصادية الحديثة التي تنسب إلى آدم سميث ماهي - في حقيقتها - إلا صورة مجددة لفلسفة حرية الاختيار التي نادى بها ابن خلدون قبل « سميث » بأربعة قرون ، والغريب أن آدم سميث لم يتطرق في كتاباته إلى ذكر اسم ابن خلدون كأحد الذين أخذ عنهم أو اقتبس منهم رغم أن كافة الشواهد التاريخية تقول بحتمية تعرفه عليه ، سواء أثناء عمله الطويل في مكتبة (اكسفورد) مدة ست سنوات ، قضاها باحثا منقبا ، وهي مكتبة حافلة بمنجزات الفكر الانساني القديم ، أو عن طريق أستاذه « فرانسيس هاتشسون » في جامعة « جلاسكو » ، - حيث تخرج سميث - وكان أستاذه متأثرا في « انتوني اشلي كوبر » أحد أعمدة حركة التنوير (الليبرالية) في القرن الثامن عشر التي قامت - أساسا - بطريقة أو بأخرى على أفكار ابن خلدون .

وقد يكون عذر آدم سميث أن العادة القديمة في النقل أو الاقتباس كانت تكتفي بذكر الأفكار دون نسبتها إلى أصحابها ، أو لعل الحروب الصليبية قد أحدثت تلك الجفوة أو العداء لكل اسم عربي مسلم . إنه من المستحيل أن يكون مفكر كآدم سميث جاهلا باسم ابن خلدون، أو لم يسمع به ولو مرة واحدة في حياته ، خصوصا بعد جولته الثقافية الأوروبية ، والتقائه برموز الثقافة العالمية آنذاك ، أمثال « كويسني » ، ذلك الفيلسوف الفرنسي الذي يذكر التاريخ مدى تأثره بأفكار ابن خلدون ، ويحق لنا التساؤل عن سبب عدم وصول اسم ابن خلدون إليهم خلال الهيمنة العثمانية على جنوب شرق أوروبا التي بلغت أوجها خلال القرن السادس عشر ، أو على الأقل من خلال الجسور الثقافية المعروفة بين أوروبا ومصر التي أصبحت جزءا من الامبراطورية العثمانية عام ١٥١٧ م .

وأخيرا بالرغم من أن آدم سميث لم يذكر اسم ابن خلدون من قريب أو من بعيد لكن أفكار ابن خلدون الاقتصادية تبقى هي الأسس الأولى لعلم الاقتصاد التقليدي ، والنظريات الاقتصادية الحديثة ، فقد كان ابن خلدون أبا لعلم الاجتماع ، وكان أيضا - كما يقول المؤرخ « ارنولدتوينبي» - الرائد الذي لم يسبقه أحد في الميدان الفكري ، فلقد استطاع ابن خلدون من خلال مقدمته لتاريخ العالم أن يدرك فلسفة خاصة لعلم التاريخ ويحددها ، وهي تعتبر - بحق - أعظم إنجاز فكري من نوعه في العالم ، لم يسبقه في هذا المجال أي مفكر آخر في أي زمان أومكان ، من خلال إحساسه العظيم ، ومن خلال معرفته الدقيقة بالتاريخ جنبا إلى جنب مع ملاحظاته المجهرية الدقيقة للرجال والأزمنة والأماكن ، فقد استخدم ابن خلدون أسلوبا تجريبيا ملهما في تحليله للأفكار الاقتصادية الأصيلة وصياغته لها ، وإن عمق إسهاماته النقدية لمفهوم القيمة وعلاقتها بالعمل ، وتحليلاته لنظرية التراكم الرأسمالي ، ومدى علاقتها بنهوض الأمم ، وانهيارها ، وآرائه الجادة في (ديناميكية) العرض والطلب والأسعار والأرباح ، ومعالجته لمواضيع المال ، والدور الحكومي المطلوب ، وكذلك نظريته الخاصة بالضرائب ، كل هذه المفاهيم الرائدة - كما يسجلها التاريخ - تجعل من ابن خلدون - بحق وبجدارة - أبا لعلم الاقتصاد أيضا . □

هل أدب العبث عبث ؟

بقلم : فتحي رضوان

ليس هناك نشاط انساني أكثر تفاعلا مع حياة الناس من الأدب بصنوفه ومختلف أساليبه ، فالأدب هو ثمرة انفعال بما يضطرب فيه الناس من آلام ومشكلات ، وما يخالج نفوسهم من آمال وأوهام ، وما يساور تلك النفوس من طموح وأشواق ، والأدب في الوقت نفسه مؤثر كبير الى أقصى الغاية في حياة الآدميين يحاول أن يصوغها ويغير فيها ، وهو إن نجح بقي أثره في عقول الناس وأفكارهم ، وإن فشل بقيت محاولاته تصاحب الانسان في نومه ويقظته ، توحي اليه ، وتهدي خاطره ، وتثير شجونه ، فالأدب امتداد للحياة وانعكاس لها وصدى لضوضائها .

وأدب العبث هو أدب من الأدب ، لا يختلف عن الأدب في كله وجزئه ، الرائج منه والكاسد ، والمحبوب والمرفوض ، والمعروف والمجهول . لكن ، هل هو أدب لأنه يصطنع أساليب الادباء ، وينهج مناهجهم ، ويحاول محاولاتهم ، أم لأنه يحتوي على مضمون الأدب ، ويضم بين دفتيه جوهره ؟

الأدب صورة الحياة

والأدب وإن اختلفت التعاريف ، هو صورة الحياة ، ومحاولة مضيئة للوقوف على سرها ، واكتناه حقيقتها ، وتفسير غوامضها ، وتبرير متناقضاتها ، وهو محاولة للاستزادة من قوة الحياة ، والنجاة من الميل لرفضها ، أو الاستهانة بها أو الاقرار بعدم جدواها ، وباستحالة فهمها . ولكنها محاولة مقترنة بالابتعاد للانصراف عنها وتبرئتها والتنكر لها ، واتهامها بالعبث والفوضى . والأدب بين الاتجاهين ، يخرج روائعه ، ويقدم للناس مفاتنه ، ويستحثهم للثبات والتشبث بالأمل ، كجذوة نار تتقد في يده وتشتعل في قلبه ، وهي نار تقوى ولا تضعف ، وتستحث الخطا ولا تُيئس ، وتدعو الى مزيد من التأمل والتفكر ، ولا تبعث على القنوط وحب الهزيمة .

ولكن ما الذي أفضى بنا الى (أدب العبث) ؟ هل اضطربت الصلة بين النفس الانسانية والأدب كوسيلة للتعبير عنها ؟ أم أن النفس الانسانية اضطربت فأصبح من العسير أن تصدر نتاجا يتسق مع القوالب الموروثة ، والصيغ المألوفة ؟ أم أن الدنيا دخلت في دور جديد ، يختلف تماما عن السابق من عصور دنيانا ، حتى أصبح كل ما ورثناه وانتقل الينا عن الآباء والأجداد لا يصلح لما خلق له ، ولا ينفع فيما عرفه وحفظه ؟

والجواب عن هذا السؤال ، ليس بالشيء السهل ، لأن له قصة طويلة صاحبت تاريخ الانسان منذ البداوة الاولى ، والانسان بعد لم يتحضّر ، وكان كل ما يصدر عنه قريبا مما يصدر عن الحيوان . فعيشه في كهوف شبيهة بكهوف الوحوش ، وكان عاريا يسترسل شعره حتى يلامس كتفيه أو يصل الى منتصف ظهره ، ويأكل طعامه نيئا . فلما خطا خطواته نحو بدايات الحضارة ، بدت الفوارق ، ولاحت بوادر المجتمع ومواصفاته . لقد كان الانسان الاول شاعرا بالغربة في هذا الكون الذي لا يكاد يعرف شيئا من ظواهره التي تدهشه حينا ، وتقذف في قلبه بالرعب والخوف أحيانا . فالوحش يخيفه ويتهدده ، والبرق والرعد والعواصف وسيول الأمطار ، كلها تؤكد له ضعفه وعجزه ، واستعصاء الطبيعة التي يعيش في جوفها عليه ، فكان الخوف أعظم مشاعره ، والرهبة من الكون أوضح احساساته ، وطلب الحماية والأمن ، أعظم حاجاته .

فلما تخلق المجتمع ، وبدت بوادر طبقاته ، كان أعظم نشاطه متجها الى إدراك مقتضيات هذه الطبقات ، ومضت قرون طويلة ، حتى تكامل المجتمع ، وأصبحت هذه الطبقات جزءا من نظامه ، وحاول الانسان أن يتحرر من تلك الطبقات ، وارهقت هذه المحاولة جوارح الانسان وأطلقت طاقاته ، وكلما ازداد ألفة مع الكون وخصائص الطبيعة ، زاد رغبة في التحرر من هذه الطبقات ، وخلق أوضاعا تزيد من قدرته على الحركة والابداع ، والتحكم في الطبيعة ، واخضاعها لارادته ، وظهر بداءة بعد شيوعه بزمن طويل ، نظام رأسمالي ، فبدأ الانسان يتكيف مع هذا النظام وينتفع بنتاجه الوفير ، وبما يمنحه الانسان من وسائل تخفيف خضوعه للطبيعة وتطويعها لارادته .

القانون وسيلة جديدة

توالت تطورات الاقتصاد الانساني وأنظمته المختلفة ، وازدادت حركة الانسان ، وتعاظمت ثروته ، وتأكدت سيادته وزادت الفوارق بين الطبقات ، ووصل بعض هذه الطبقات الى الثراء الفاحش ، والى الترف الباذخ ، وحاجته الى عمل عدد أكبر من أصحاب المهارات اليدوية ، والطاقات الجسمية ، وأصبحت عبودية الانسان لفريق من الناس عرف كيف يستزيد من القوة والثروة والنفوذ ،وظهر القانون وسيلة جديدة ترسم حدودا، لأناس بعينهم ، ونشأت الحكومات ، وازدادت قوتها وغلبتها ، وأصبح القانون وسيلة قهر تغني عن القوة البدنية التي لجأ اليها الانسان أول الامر ، ولم يعد القانون أمرا فرديا يصدر من انسان لانسان ، إذ اختفى الانسان الذي يصدره ولم يعد أحد يقابله ، أو يناقشه أو يستفسر منه عن غايات القانون وأهدافه ، وكأن القانون يخرج بفعل ساحر ، فالانسان يستيقظ في الصباح ، فيعرف أن هناك أشياء أصبحت محرمة ، وأشياء يحرم الانسان من الاستمتاع بها ، لسرّ غير معلن ، وسبب غير مفهوم . وأدرك الانسان أن هناك شيئا جديدا قد وصل اليه ، هو المدنية . وعرف أن أول ما أصابه من هذه المدنية هو خضوعه لقوى خفية ، أكثر سلطانا عليه من الطبيعة برعودها وبروقها ، وزلازلها وبراكينها ، وأنه لا يرى من حوله إلا أناسا مثله يخضعون لهذه القوى ، وإن كانوا يشكون من بطشها ، ومن خطئها ،

وتجاوزها للحدود التي أعلنت في السابق أنها حدود مقدسة ، وكان تجاوزها جريمة عقابها في أحيان كثيرة قطع الرقبة بالمقصلة ، أو إزهاق الروح على المشنقة .

وأدرك الانسان أن الحكم ضرورة لا غنى عنها ، وأن العيب ليس في فكرة الحكم إذ لا تستقيم حياته مع غيره من أشباهه وأنداده من البشر إلا بسلطة تعلوه وتعلو غيره ، لا لتبسط سلطانها ولا لتقود الناس كالاغنام بل لتوفر لهم الامن ، وتقوم عنهم بوظائف لا يمكن أن يقوموا بها جميعا ، اذ لا مفر من اختيار أناس للنهوض بها ، إنما العيب كامن في أن الذي يختار للحكم يسلح بسلطة ، وجهها ضد الناس ، حتى يألفوا الخوف منه والاذعان له ، وعندها يأخذ لنفسه أكثر مما يحتاج ، وبعد قليل يتصور هذا الحاكم أنه من طبيعة مخالفة لطبيعة المحكومين ، وأن السلطة ميزة يستحقها ، وعندها يبدأ كفاح طويل،الغاية منه الوقوف في وجه الحكام بوسائل عديدة ، وفي مواضع مختلفة ، وكان الادب أعظم أسلحة الانسان في هذا الصراع الدامي الطويل ، وما زالت المعارك تتوالى ويكتب فيها للانسان النصر حينا والهزيمة أحيانا ، والأدب يأخذ مكانا عاليا جدا في القتال ، فهو يسبقه ويمهد له طويلا ، ثم هو يذهب مع الانسان الى معارك هذا القتال ويبقى معه يثبته إذا ضعف ، ويزيد أمله إذا يئس ، ويبشره بالنصر إذا قاوم ، فإذا انتهت المعركة بفوز الانسان ، سجل هذا الفوز ، ولا يلبث حتى يعاوده الحنين الى القتال فيرى ان ما حصل عليه الانسان شيء قليل ، فيدعوه الى صراع جديد ، فيستعد له ، ويغريه به ، حتى يحسب الانسان حسابه ، ويرتدي درعه ، ويمتطي حصانه ، فيلازمه الأدب لا يدعه لحظة ، وبعد معارك طويلة ، مديدة ، متجددة ، قنع الانسان من حكامه بنظام أسماه (الديمقراطية) . وهي ليست نقضا كاملا للحكم ، ولا نسفا لقواعده ، ولكن هي قواعد مصنوعة من مادة لا هي من الحديد أو الصلب ، ولا هي من المطاط ، إنما هي شيء بين بين . متينة كالصلب لا تقتلع ، ومرنة تتسع لما يجد من الاوضاع والحاجات .

وظن الناس أنهم قد وصلوا الى الغاية وأنهم يستطيعون الاكتفاء بها .

ويعود القتال من جديد

ولكن الأدب لم يقلع عن عادته ، فهو لا يهدأ أبدا ، وكلما رأى الانسان راضيا قانعا ، لم يزل به حتى ينفره من الوضع الذي هو فيه ، ويكرهه في القواعد والانظمة التي ركن اليها . حتى يدفعه الى قتال ذي معارك . وفي هذه المرة تكون المعارك أكثر ضراوة ، والخسائر أعظم فداحة ، ذلك لأن المتقاتلين الجدد بعد عهدهم بالبداوة وبحروب السيف والخنجر والسهم والحربة ، فقد جدت صنوف جديدة من الاسلحة ، تبيد المدن ، وتدك الحصون ، وتقذف بأسباب الهلاك من السماء ، فإذا بمئات الالوف قد فارقوا الحياة ، ومئات الالوف صرعى أشبه بالموتى ، فقدوا قدرتهم على السير أو الحركة .

وكان حافز الانسان للقتال أنه اكتشف حقيقة مروعة ،وهي أن نظام الحكم الذي قاتل البشر من أجله أحقابا متوالية ، حتى ثبت له المقام ، لم يكن هو ما تمناه إذ تبين الناس أن الحرية التي منحها لهم هذا النظام البديع مفتوحة ، فالديمقراطية ، لا تمحو الفقر ، انما تساوي بين الناس ، ولا شأن لها بأرزاقهم ، فقد يتساوى الناس في الفقر ، وقد يكون لكل فرد في ظل هذا النظام الجديد صوت في إدارة بلاده ، ولكنه لا يمنح طعاما ، ولا يكسو عريا ، ولا يمحو جهلا ، ولا يشفي من علة ، ونشأت أنظمة جديدة حاولت أن تساوي الناس في الرزق ، وتوفر لهم مسكنا طيبا ، وعلاجا مضمونا ، ومدرسة بالمجان ، ولكن بقي الناس ، أشقياء ، ورأوا أن ما أخذ منهم لتشتري به الدولة مدافع وطائرات وتصنع به

مخلوقات عجيبة اسمها غواصات ودبابات ، هو أكثر مما ينفق على طعامهم وشرابهم ، وكسوتهم والترفيه عنهم .

وجاء الادب ـ كعادته ـ ليزهدنا في هذه الحياة الجديدة ، وليدعونا لان نلقي بالسلاح كله في البحر ، ونقيم حكما يجعل الحروب بين الشعوب ، بلا موضوع ولا جدوى ، ولكن فوجيء البشر ، أن الحرب التي كانوا يخوضون معامعها في الماضي قد استحالت،إذ ان الحرب أصبحت تسمى (نووية) ، وأصبح السلاح النووي قادرا على أن يمحو البشرية كلها في دقائق : قنبلة من هنا وقنبلة من هناك ، وتصبح الانسانية بمدنها وحضارتها وفنونها وعلومها أطلالا تنعق عليها الغربان والبوم دقائق ثم تموت بدورها .

استحالة التغيير

ماذا يفعل البشر إذن ؟ كانت الحرب وسيلتهم للتغيير ، وقد استحالت هذه الوسيلة ، فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة هي أن يبقى كل شيء على حاله . والتغيير لن يزيد عما يعرفه رجال الرياضة أي (محلك سر) !

كان الادب المتجدد الرغبة في التغيير لا ينقطع عن الكلام الجميل ، شعرا ونثرا وقصة ورواية وزجلا وخطبة ، لأنه لا يطيق الركود ولايحتمل الجمود . حتى الأشياء الجميلة لا يقنع أو يكتفي بها . فالجمال في رأي الادب وراءه جمال أعظم ، والأثر الرائع يمكن تجاوزه الى ما هو أروع وأعظم .

ولذلك كانت صدمة الادب هائلة حينما علم أن حالة جديدة نشأت اسمها توازن الرعب ، أو التوازن النووي . وان مؤدى هاتين العبارتين ، أن قوى التغيير لابد أن تسلم بالامر الواقع ، وأن تدرك ان عملية الاهابة والاستحثاث والتحريض أصبحت مستحيلة ، فليس وراء تحريض احدى القوتين الكبيرتين التي تملك قياد الأمور ، سوى حرب نووية ، وحرب نووية هنا معناها جولة سريعة غاية السرعة من التخريب والتدمير تجعل نصف العالم كما سبق القول اطلالا ليس فيها آدمي ، ولا مبنى من طوبتين ، ولا شجرة مورقة ، ولا زهرة يانعة ، ولا تمثال قائم على قواعد ، ولا نهر ولا بحر ولا جدول ، فالمسطحات المائية ستغرق ما حولها وما الى جوارها من عمران ، يصبح طوفان نوح جزءا من طوفان الحرب الذرية . ثم تأتي من الجانب الآخر قنبلة ذرية لا يطلقها آدمي ، بل تنطلق من تلقاء ذاتها ، كأن عفريتا من الجن بقي على قيد الحياة ، ليطلق القنبلة الاخيرة ثم يكون ختام الدنيا ونهاية البشرية .

الحرب الذرية والحرب المحدودة

اذن وصل الانسان الى طريق مسدود ، إذا ما ساورت خياله رغبة في تغيير هذا العالم ونقض قواعده .

فالحرب شبه الذرية التي وقعت بين البشر في سبتمبر سنة ١٩٣٩ واستمرت حتى مايو سنة ١٩٤٥ كانت آخر الحروب العالمية التقليدية ، وأصبح المتاح للانسان الذي كانت الحرب وسيلته المفضلة للتغيير ، وقد غير فعلا مرارا بهذه الوسيلة التي كانت أول الامر تجري خارج المدن ، وكأنها مباراة كرة قدم في ملعب ، ثم دخلت المدن في المجزرة البشرية الاخرى فكانت مأساة مروعة لم ينجح كاتب في وصفها ، فقامت أشرطة الصور المتحركة بتسجيل هذا الجنون البشري المروع ، ثم ختمت بقنبلتين نوويتين على مدينتين في مكان اعتبر نائيا يومذاك ، وهما هيروشيما ونجازاكي ، وقد كانتا مجرد نموذج (عينة) لما يمكن أن تكون عليه حرب القنابل الذرية والصواريخ حاملة الرؤوس النووية ، وأدرك الانسان معنى الموعظة وقرر الا تقوم حرب الذرة أبدا . اكتفاء بالحروب المحلية المحدودة النطاق ، وقد وقعت هذه الحروب كلها لسوء الحظ في الوطن العربي ، فكانت الحرب الايرانية ـ العراقية ، وحرب لبنان ، وتنهيأ

الآن حرب في أفريقيا هي حرب تشاد ؛ بعد ان قامت حرب البوليساريو .. ولك أن تحسب حرب الابادة الجهنمية التي تجري في جنوب أفريقيا هي أيضا من الحروب المحدودة النطاق .

ولكن للأسف هذه الحروب لا تحقق التغيير على الوجه الذي فعلته الحروب العالمية ، لا في السياسة وشئون الحرب فحسب ، بل في الجراحة والطب والصناعة والمستوى التقني ، بل في الأخلاق والتربية والفنون أيضا ، ولهذا كله سكت الادب .

استغفر الله ، لم يسكت الادب بل استمر يتكلم ، ولكن ماذا يقول ؟ لم تعد هنا لغة يمكن أن يفهمها الجميع ، كلغة الحرب التي تحدثت الى البشر مرات عديدة وكانت لغتها آية في البلاغة والاقناع والتأثير ، فقد تولى ترجمتها الادب الناطق قصة وقصيدة ، والفن الآخذ بالالباب لوحة أو بناء معماريا ، وأفكارا فنية لم تتجسد بعد .

نطق الادب باللغة التي تتناسب مع هذه الحقيقة التي تخرس الالسنة وتكتم الاصوات . النتيجة القاتلة : لا تغيير بعد اليوم ، فالعالم تحرسه الان وسائل الهلاك التي تحصد الدول والشعوب والمدن والقارات ، فماذا إذن يقول الادب ؟

لم يبق الا هذا الذي نحسبه عبثا . والذي يبدو في الفن التشكيلي فيما نسميه التكعيبية والقرمزية ، وما تلا ذلك في الفن بالطبيعة حتى دخلنا في مرحلة العبث .

هذا العبث هو لغة الادب اللائقة بالانسانية بعد الوصول الى مرحلة توازن الرعب ، أو توازن الذرة ، إنه كلام يتصور صاحبه الخراب الذي ينتظر العالم عند أول قنبلة تنطلق . فهو كلام الرعب المحكوم عليه بأن يبقى في القمقم ، الرعب الذي لن يبقى بعده قلم ولا ورق ولا صورة ولا تحفة ، بهذه اللغة التي نعدها هذيانا يعلم الله وحده هل سيفك طلاسمها ويحل غوامضها الجيل الذي قد ينجو من الحرب الذرية ؟ ولعله الجيل الذي سيبدأ من البداية . أنا لا أعني أدبا بعينه ، فليس في خاطري صمويل بكيت ، ولا يونسكو ، ولاكافكا ، ولا براندللو .. إنما هو أدب العبث ككل ، كظاهرة ، كتطور له أسبابه ودواعيه .. أدب كأخطر ما يكون الأدب ،وكأبلغ ما يكون التعبير ، ولكن الذي يعبر عنه غير مفهوم الآن ، وقد يبقى غير مفهوم إلى ان تقع الحرب الذرية وينجو منها حفنة من الناس .. فهل يحدث هذا ؟؟؟ □

برنارد شو وتعدد الزوجات

● في المقدمة التي كتبها شو لمسرحية الاستعداد للزواج ، وناقش فيها قضية الزواج من جميع وجوهها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والجنسية ، حاول شو أن يدلل على صحة نظرياته بقوله : ولو أن حربا ما قضت على ثلاثة أرباع الذكور في بلادنا ، لوجب علينا في تلك الحالة الأخذ بالطريقة الاسلامية التي تبيح للرجل الزواج من أربع نساء .. هذا اذا أردنا أن نقي أمتنا خطر الانحلال والفناء ، بينما على العكس لو قضت الحرب على ثلاثة أرباع النساء لوجدنا أنفسنا في مأزق حرج يهدد كياننا ووجودنا ، ومن هنا جاء مصدر النظرية الأساسية في عدم الزج بالنساء في ميادين القتال ، بدافع حفظ النسل لا بدافع من عواطف الشرف والفروسية كما يدعي عامة الناس .

عن الحب والحرية

شعر : فاروق شوشة

تبدأ الأشياء في حسباننا أصغر مما نتصور ثم
تمتد ، وتكبر ..
فإذا عيناك في الدنيا اتجاهاتُ شمالي وجنوبي ..
وإذا اللحظة فيما بيننا
عمرٌ من الأزمان يطوينا ،
ولا ندري بأنّا نتغير .
تبدأ الأشياء منك ،
ثم ترتد اليك ،
وأنا بين البدايات التى تصبح من بعد
ارتدادات ..
أترانا قد تجاوزنا حديث القيد والقضبان ،
والقهر وأحزان المدينة ..
واخترقنا الحاجز الماثل ما بين ارتعاش الظل ،
والنفس الحزينة ،
فإذا نحن صغيران ،
كبيران ، بحجم الكون .. نجتاز .. ونعبر .
ألأني حين أحببتك .. أحببت جناحين يطيران ،
فلا تجسر ريح أن تقاوم ..
لا ، ولا عاصفة مسكونة بالرعد يوما ، أن
تصادم ..
لا ، ولا قضبان هذا العالم المملوء جورا ، وقتامة
أن تزاحم .
ألأني حين أحببتك ،
واجهت جحيمي ، وتنفست نسيمي ،
سلما عمري إلى ريح الصبا ،
وشميم من عرار وخزامى .. ؟
فيك عانيتُ سمائي ونجومي
فتعرّى كل ما في الأرض من قبح كريه ودمامة
باحثا عن جلوة الحسن الذي يقطر من ذوب
ابتسامة
وعن الدفء الذي يكسو محياك وسامة .

عندما ينهل هذا الموكب الأسنى
فأنشق حجازا وتهامة ،
برزخي أنت ..
وفي دربك من عمري علامة .
كيف ألقاك هروبا وانهزاما ؟
وأنا الضارب في الأرض ،
بهذا الحب أقوى ،
بهذا الفيض أبقى ،
ساريا في عبق الطين دما ،
صاعدا في ألق الجو غمامة ،
ذائبا في النيل ، شطآه امتداداتي ،
نداءاتي موجاتٌ « سجينات » ،
وروحي في قيود الأسر ،
تحليقٌ مدمىً ، وارتطامه ،
داخلي ذرٌ من الصحراء ،
ممزوج بطمي النيل ،



مقذوف بهذا الكون . .
أحتاز ـ على كره ـ زحامه !

* * * *

وليكنْ . .
ما الذي يبقى من العمر
إذا ماكان هذا العمر سجنا ،
والمدى المسدود جبنا ،
والربيع الطلق حزنا ؟
وليكن . .

ما الذي تصنع بالحب اذا كان اغتيالا للخلايا ،
وانطفاء للذي يلمع في عين الصبايا ،
وانغماسا في سراديب الحكايا ؟

دون أن يرتجّ فينا كل بركان الحنايا ،
فنرى الميلاد في قلب المنايا ،
والمدى المنسوج من عزف الشظايا ،
والغد الطالع من عُرس النهار ،
ساطعا ، سِيّان ،
أو منكسرا فوق المرايا ؟

* * * *

ماالذي يجعل صحراء إذا امتدت حوالينا بساتين
فرح ؟

ما الذي يجعل هذا الأفق العاريَ ركبا من حكايا ،
ومويجات نغم
وعناقيد تلالٍ نسجتْ بُرْد التجلى ،
واستكنت في الحنايا
أمطرت في حبة العين مواعيد انعطاف ؟
ما الذي يطلق في وجهِ أعاصيرِ الطريق
عاصفا مشتعلا بالصبوات ،
يتخطى كلّ ذرات الرمال الهوج ،
مدفوعا الى عينيه ؟
غاصت فيها ومضة حب وانخطاف ،
تعبت أسئلتى . . فلتتوقف
إننى أعرف مابعد لماذا . .
ولهذا . .
كلما امتدت ذراعاى . . وأوشكتُ ،
تناءيتِ
تناءى الحلم ، وازداد الغد المأمول بُعدا .
آه لو تدرين آه ،
إن كيمياء الشرايين تزيد القلب صهدا ،
أمطرى ياغيمتى نارا وشهدا ،
إن لى في مقبل التاريخ وعدا ،
إن لى في فحمة النيران وقدا ،
وأنا المشدود كالأوتار ، كالاعصار ، كالتيار شدا .
ولقد قاربت جدا
إننى قاربت . . جدًا !

بمناسبة مرور سنة على وفاة عاصي الرحباني

هذا الثالوث الماسي الذي انكسر!

بقلم: الدكتور شاكر مصطفى

ماذا يقول الكاتب والصديق والمؤرخ .. عندما يفقد صديقه الفنان ... لنقرأ .. هذه التذكارات .. ففيها صوت وصدى أنغام ما زالت تغمر أرواحنا بالفرح أو ما يشبه الفرح .

عن عاصي الرحباني ، وكُرمى لعينيه اللتين غابتا الى الأبد ، أكتب .

وان كنت لا أستطيع أن أصدق . لا أجرؤ أن أصدق . هل غاب حقا ؟ ومنذ عام ؟ إن الثالوث الماسي فيروز ـ عاصي ـ منصور الرحباني ما يزال يعيش ، يتوهج ، يغني في كل بيت . على كل لهاة . عند بوابات المدن العتيقة ، وفي ساحة الضيعة الملفوفة بالغيم . فكيف ينكسر هذا الثالوث ؟ كيف يموت بعضه ؟ قد يكون الجسد هو الذي انكسر . ولكن هل تنكسر الروح ؟ ونظل لا نصدق الواقع ... حتى تنكسر الجباه على صخرة الواقع ! ..

وتعود بي الذكرى الى بعض أيام سنة ١٩٥٠ ... باقة من خمسة أو ستة أصدقاء في حلقة . الشعر يتطاير فيها كالفراش الملون ... والحديث المعجون بالغناء ، والضحك ملء الصدر ، ودندنة العزف . باقة أصدقاء باعوا أعمارهم كلها لقمرٍ مجروح وهمسة جمال . ويصمت الجميع فجأة . الفتاة من بينهم تغني . ما كان في جسمها المعروق ولا في وجهها الخجول الحزين ما ينم عن الصوت الملائكي الذي حين ينبعث منها يحولها الى كائن أثيري يشف . يشف . يشف حتى يكاد يغيب . صوت فيه كل عبير العليق البري والزعتر الجبلي والبلوط العتيق ورائحة التراب الحي ... وفيه ما لست تدري من جوقة


● فيروز


● عاصي الرحباني


● منصور الرحباني

الكناري والكروان والشحرور أم من همس السموات العلي ؟ أم صراخ الأرض . .

« وبتحس عاصوت الصدى الهربان

« وديان عم تركض ورا وديان . . . . » .

كل ذلك في أغنية مختصرة لأربع دقائق أو خمس . التماعة من النشوة كالبرق . . . وتنتهي الأغنية . دفقة من السعادة والوجد تصلك بسدرة المنتهى لحظة ثم تختفي . . . ! وكنا نبهت لينابيع الفرح الداخلي تغمرنا فلا نصفق . ولا نتكلم . ولكنا نتأمل في صمت . ولا ندري ما نقول ! أربعة أمور من تقاليد الأغنية الكلثومية كانت تتحطم مع هذه الفتاة الخجول : الطول ، والنغم التقليدي المكرر ساعات . والكلمات المألوفة : حبي ، قلبي ، العذاب ، والسقم ، وسلبية الحب ! وأخيرا الخروج من الغناء الطبقي ، غناء الآذان المخملية الى الغناء الشعبي للجميع ! طعم الأغنية كان جديداً كله !

وتحمسنا لهذا اللون الجديد الذي يُلتهم كالشطائر في قضمتين ، ويخلف من الفرح المتدفق ما لا ينتهي ! وكتبت يومها بحماسة عن القادمين الجدد ، ويبدو أننا لم نكن وحدنا الذين ننتظر هؤلاء القادمين . الوطن العربي كله كان ينتظر ! . . . ومن هنا انطلقت فيروز . . . لكنها لم تكن صنع نفسها . كانت ركنا في ثالوث ماسي :

منصور الرحباني يكتب الشعر ، ويشترك في اللحن . وأي شعر حلو ؟ !

عاصي الرحباني يصنع اللحن ويشترك في الشعر وأي لحن حلو ؟ !

وفيروز حداد تطلق الأغنية حتى الملائكة ! . . . وأي صوت ؟ !

المؤثرات الأولى

سلخ الثالوث نشأته الأولى بين الشوير وعين السنديانة وانطلياس . . . بلدات صغيرة تنتثر كالأزهار على السفوح الجبلية اللبنانية ذات الخضرة السوداء ! مطلة على زرقة البحر وزرقة السماء ولا شيء غير ذلك سوى ما تختزن الذات من الأسرار وعصف الجمال . لم ينبع الشعر ولا اللحن ولا الحنجرة الذهبية نبعا عفويا في هذا الثلاثي . قبل ان يجتاز الأخوان رحباني المستوى العام لشعراء وأصحاب الألحان ، وقبل ان يصقلا الصوت الفيروزي صقل الماس ، وقبل أن يقدما أي عطاء ، كانا قد قطعا أشواطاً بعد أشواط من المعاناة والتجربة والقراءة وحرق الأعصاب . لم يجاوزا الصفوف الثانوية الأولى في الدراسة . خصبهما الداخلي هو الذي دلّهما على الطريق . وسلكاه راكضين دون إخوتهما الآخرين . القسيس الذي علمهما ألف باء الموسيقا في الكنيسة علمهما معها أسرار الوتر . القراءات المكثفة التي عكفا عليها في الادب والشعر أعطتهما الاداة ، ولكنهما تعلما الشعر نفسه من الحسون والقنطرة العتيقة وأدغال العليق . اللحن

الشعبي الذي خالط منها الدماء والأعصاب علمها التمرد على الموال والعتابا والميجانا المكرورة . غير أن كل ذلك لم يشفع للأخوين عند أبيهما ، صاحب المقهى في فوار انطلياس الذي كان يتباهى ببطولة الجسد أكثر مما كان يهمه تثقيف أولاده ، ولم يشفع لهما لدى الحكومة حين كبرا . . . لم يظفرا منها بأكثر من وظيفة « جلواز » بلدية ، أي شرطي محلي لمراقبة القمامة وبروز الشرفات ومخالفات البناء ! . . وكانا يدندنان وهما يجمعان ضريبة الرصيف في انطلياس . . . وقد ينسيانها ان التقيا بصوت يطلق سحبة ميجانا من الصميم ! تمتد من الوادي الى البحر . وكان الشعر والنغم دانيين ومن حواضر البيت وقد عرفا بالحس الجمالي الرهيف الرائع ، ان غابات البلوط والصنوبر وحقول العصافير المملوءة « بالجلول » و « كبوش » التوت ما تزال تختزن مع الميجانا والعتابا لحونا أخرى ما تزال في ضمير الغيب ، تنتظر من يفجرها . . .

ومن رائحة « الطيون » وعلى ورق التين والحور العتيق كان الشعر يكتب ، والألحان توضع ، والأغنية تنطلق . تركض ، تعربد ، صَبِيّة تتوهج من بيت لبيت ، لتمشي فيما بعد في أزقة المدن العربية كلها ! . . .

مولد الحب بين قلبين

شبابا صغارا كنا في الخمسينيات الأولى ننتقل من دمشق الى بيروت لنحضر ميلاد كل أغنية . أي أغنية ، لنستمع الى أغنية من خمس دقائق . لكن كنا نتناقش فيها أياماً . وذات يوم كنا في بيروت في غرفة التسجيل تحت المسرح ، نستمع مع عاصي لأغنية جديدة . وانطلقت الأغنية . كانت فيروز تغني . ولكن عاصي قاطعها مرة واثنتين وثلاثا . . . وطلب الاعادة مرة ومرة ومرة . ومللنا . لم نجد فيها ما يستوجب الاعادة . وانفلت عاصي من غرفة التسجيل وصعد المسرح وأقبلنا نستمع . . . رق الصوت حتى أصبح له همس الملائكة ، ودبيب الربيع في الشرايين . فاجأتنا الروعة . . النغم كله رف رفيف الحرير ! . . كأن فيروز أخرى غير الأولى هي التي كانت تغني الآن ! وخرجتُ الى المسرح أنظر ما الذي تبدل ؟ فاذا عاصي أمام فيروز يلوح بعصاه الموسيقية . ينظر في عينيها وتنظر في عينيه . . . وهما في عالم آخر ! هكذا كانت تولد أغنيات فيروز والأخوين رحباني ! من مولد الحب بين قلبين !

طريق مسدود

وذات يوم من صيف ١٩٥٤ علم الرحبانيان أني في مؤتمر الأدباء الأول في بيت مرى . وجاءا عاتبين . واضطررت الى ترك المؤتمر مع أني أحد منظميه لأرافقهما الى بيروت . وجعا الفرقة التي ألفاها في تلك الفترة لتعزف سمفونية تجريبية يضعانها . وكنت في المسرح المستمع الوحيد . وتناقشنا في التجربة التي كانا يحاولان فيها طريقا جديدا . . . ولم نرض عن التجربة . كانت في بعضها تقليدا ، وفي بعضها الآخر محاولة توفيق ! ولم يعد الأخوان اليها بعد ذلك . غيّرا الطريق كله . طريق التقليد الغربي كان الطريق المسدود ! السمفونية لا جذور لها فينا ، ولن تؤثر . والصوت الأوبرالي الغربي صوت مصطنع . وانما يهزنا الصوت الذي يتردد بين القمم والوديان والذي « يتعمشق » كالأزهار البرية على السفوح للشمس والنور الضاحك . واكتفيا بالعَبّ من اللحن الشعبي العريق ! لا يأخذان من ألحان الدنيا الا ما ينسجم معه . . . هكذا كانت تولد لديهما الألحان بنت الأرض التي يعيشان عليها وصدى لفرح الناس .

على أن اللحن لم يطغ لديهما على الشعر . عرفا حتى الأعماق قيمة الحرف الموسق . أدركا قيمة الكلمة الشعرية ، وأنها بدورها متصلة بالأرض ، وبحياة الناس العاديين . وكانا يلتقطانها بموهبة عجيبة . عاصي يصطاد فكرة فيكملها منصور ويضع منصور شطرا ، فيكمله عاصي ويزيد عليه أشعارهما الأولى كالأخيرة ظلت مشتركة ومميزة

وكنا حين نستمع الى الصوت الماسي نعرف أننا نطرب معه للشعر الجديد . وقد نحار أي الأثنين أشد أسرا . واذا لم يعرف الناس عنها الشعر فلأن قوافيها « من لغو طفل ومن تغريد عصفور » كانت تذوب في الغناء ، وتعطي الصوت الفيروزي نكهته الخاصة ولون عينيه ! واقترح صديق ان نطبع هذا الشعر وتعهدت على الفور بالأمر . وجاءت المجموعة الشعرية أسرع مما تصورت . قرأت ما أدهشني . قضيت شهرين أتردد على الرسام المرحوم أدهم اسماعيل أناقشه في القصائد والرسوم . وكتبت مقدمة الديوان وأعطيته اسم : « سمراء مها » ، على اسم الأغنية التي كانت قد شاعت في تلك الأونة تحمل اسم فيروز الى كل قلب . . . وهكذا ولد أول وآخر ديوان شعر للأخوين رحباني ! وان كانا قبله وبعده شاعرين لا أحلى ولا أروع . . .

مرحلة الى القمة

وقبل أن يشيع التلفزيون في الستينات ، ويضع الرحبانيان جهدهما في المسرحية الغنائية كانا يفرغان جهدهما في الاذاعة المسموعة « أوبريت » مملوءة حنانا وانسانية وشعرا من الشعر . وكثيرون ما يزالون يحتفظون من ذلك العهد ببعضها . كانت أكثر عفوية وأبسط ألوانا من العروض المسرحية التي تلت ، وأقل تعقيدا في التوزيع الموسيقي . ولكنها كانت مرحلة من مراحل الأخوين في القفز الى القمة .

أهو تاريخ قديم كل هذا ؟ بلى ! قد يكون . ولكنها ملامح ضرورية لفهم هذه الظاهرة التي يسمونها بالأخوين رحباني . الربع الأول من هذا القرن كان فيه سيد درويش . الربع الثاني تألق فيه الثنائي عبدالوهاب وأم كلثوم . الربع الثالث احتله الثلاثي : « فيروز والأخوين رحباني » الذي حول الأغنية العربية من مجرد تطريب سكوني الى موقف فرح حي ، الى لحظة سعادة تضج في الشرايين ! قالوا عنهم أنهم ترجموا الموسيقا البيزنطية الكنسية الى العربية . . . ولكن متى كانت الموسيقا تنتمي لأي عصر ولأي شعب ؟ ومن ذا الذي قال إن الموسيقا البيزنطية القديمة ليست في جانب كبير منها بنت أرضنا وبلادنا وناسنا نحن ؟ أليست العبقرية في ان تجدد من خلال الاصالة التراثية ؟ في ان لا تترك القوالب القديمة « تقولب » التفتح الجديد وهي تغذّيه ؟ الموسيقا العربية ورثت الكثير عن الموسيقا السابقة لهذه الأرض . ولكنها تتعفن إن بقيت في الأكياس العتيقة . تموت ان بقيت في حدود « القدود » و « الموال » ومدائح الاذكار وموشحات ورندس السماح . . . صحيح ان الأخوين قد يكونان باعا الخمر القديمة في زجاجات جديدة ولكن هل سمعتم بقصة كولومبوس ؟ كشف هذا الرجل أمريكا وعاد تاركاً لأوروبا أنهار الذهب تتدفق عليها نتيجة هذا الكشف . وحسده الحساد . وذات يوم كان في الحانة وسمع قائلا يقول : وماذا فعل كولومبوس ؟ انه لم يزد على أن أبحر غرباً غرباً حتى وصل ! ولم يعر كولومبوس أذنه للاستهزاء المرير . ووقف على منضدته وقال : إنه تعلم في البلاد الجديدة لعبة وتحدى من يستطيعها . وأتى ببيضة وتحدى أحدا يستطيع ايقاف البيضة على أحد رأسيها . وحاول الجميع ذلك عبثا . حين فشلوا أخذ كولومبوس البيضة وضربها على وجه الطاولة فانكسرت ووقفت على قاعدتها . وصاح الجميع :

ـ ولكن هذا سهل ، كل انسان يستطيعه ! . . .

ـ قال حسنا ! ولكن هل فكر أحدكم فيه ؟

دستور العرب

الأخوان الرحباني حالة غنائية لأنها في الأصل حالة ايديولوجية . ولهما في التحليل الأخير فلسفتهما الفكرية . وموقفهما المميز . كانا يعتبران أن الأغنية أفضل حالة ايديولوجية ، وان الفنانين هم فلاسفة العرب . وان الأغنية دستور العرب الجامع . وكانوا يهدمون ويبنون الأفكار بمتفجرات من الألحان ، وبأفكار توغل مع الغناء لتحكي ما تريد للناس ،

وهي تركض عفوا على الألسن ، مقالب مختار الضيعة للاحتفاظ بمنصبه وسيطرته وبالمتملقين،أليست تحكى ، في قالب اللهو البريء ، قصة كل النظم ؟ وحين تغني فيروز :

« هالسيارة مش عم تمشي
بدها حدا يدفشها دفشة
بيحكوا عن ورشة تصليح
وما عرفنا وين هيّ الورشة !! »

أليس يحكي الأخوان في هذه الكلمات كل قصة الحيرة العربية ؟ وحين ينطلق صوت فيروز رقيقا كالنسيم حادا كالسيف ، مؤثرا حتى في الحجر :

ما في حدا لا تندهي ما في حدا
عتم ، وطريق ، وطير طاير هالهدا
بابهم مسكر والعشب غطا الدراجْ
شو قولكن . شو قولكن صاروا صدى . وما في حدا !

ألم يكن الاخوان يرسمان مبكرين حالة اليأس التي انتهى اليها الوطن العربي ؟ ما في حدا ! .

وهل بكى القدس احد ، بكاء الصلوات الخاشعة والأمل البعيد ، كبكائهم وصلواتهم وأملهم :

للقدس سلام دائم !
وبأيدينا سنعيد سلام القدس ! . . .

أجراس وضمائر

فيروز والأخوان رحباني نقلوا هموم المتعبين والمكدودين من الأزقة الى كل لهاة . حاولوا تسويق الهموم الكبرى من خلال هموم الوجوه المعروقة وهمس البسطاء ، كانوا واثقين من ان النذر التي أطلقوها في الأغاني ستظل تقرع الضمائر كالأجراس كلما تحركت الألسن بالأغنية ، وفي كل مكان . أليست هذه رسالة الفنان ؟

إنهم أكثر من هذا كانوا ينشرون بين الناس الفرح . يقولون : نحن نعاني . . نعاني من نقص في الفرح . يجب ان يستورد التاجر ، مع الرز والسكر والقمح بضعة أطنان من الفرح لتتوازن الحياة . ان في حياتنا من الهموم والبؤس أضعاف ما فيها من الأمل . ويجب أن ينتهي العذاب والسقم والضنا والصبر السلبي من الأغنية ليحتل محلها البهجة وثورة الحياة وعواصف القمم . . .

وأحب الأحاديث الى الأخوين ، والى عاصي بالذات ، حديث العدم والوجود والحياة والموت . كان يجد لذة خاصة في العودة مرة أخرى الى « الميتافيزيك » . كان يجد فيه ذاته وموسيقاه والشعر ، وما وراء الذات والموسيقا والشعر . وكان الزمن هاجسه الذي يركض في كل أغانيه ، وحين كان يتمايل كالقصبة الراعشة وهو يسمع الموشحات كانت الأزمان تختلط أمام عينيه . . . أيها السيد زرياب أنت مدعو للعشاء عندنا الليلة ! الأرموي سيكون أيضا معنا وسلامة ! لا تتأخر ! . . .

وهكذا اعتمد الثالوث الماسي في موسيقاه ثلاث قيم : الجمال أولاً والتراث والعصر . وعبّر عن ذلك من خلال ثلاثة محاور : فولكلور القرية ، قضايا الناس العاديين ، والشعر البسيط الزجلي في معظم الأحيان . أعطوا اللحن الشعبي القروي قيمة عربية . وزعوه على الأرض العربية كلها ، باعوه لكل العرب . وبذلك فهو ملك الجميع . حتى اللهجة العامية اللبنانية صارت لهجة عربية محبّبة مفهومة بوضوح في المغرب كما في السودان واليمن . كانوا يعبرون بذلك عن الرابطة الثقافية التي تشد الوطن العربي . بعضه الى بعض . . . ولم يكونوا يمثلون فترة الأوج في العطاء اللبناني ، ولكن فترة الأوج في وحدة المشاعر العربية . فترة عبدالناصر !* ولم يخلقوا لبنان آخر هو النقيض للبنان الحالي الذي ينتحر ولكن وطنا عربيا موحدا آخر تبنيه الأرواح الموحدة وراء هذا التمزق ، ورغم هذا الزمن الرديء ! ويستعينون على ذلك بكل المواهب ، سعيد عقل بثقله الشعري كان يرفدهم فترة من الزمن ، نصري شمس الدين بصوته الرجولي ، فيلمون وهبة

بهزله الموسيقي ، كانت الجماعة تبحث بكل مكان عن الكلمة الجميلة . الجملة الموسيقية الرائعة ، الحبكة الحلوة التي تربط رسالتها من الفكر والغناء . بهذه البضاعة دخلت فيروز كل مدن العرب وكل أريافه. صارت جزءا من عالم الغناء العربي ، خرجت من الظل الرمادي لتصبح فرحا ومجدا وبطولات حيث حط حافر المهر . وليصبح « المير » بشير و « المير » فخر الدين جزءا من التراث الثقافي للناس . . . .

وأهم ما في الأخوين رحباني على المستوى الانساني هي السجايا الرائعة .

انهما فنانان ، فيهما كل رؤى الفنان وسماحته وكرمه والعطاء . الاخلاق كانت ميزتهما ، كانا ينفقان ٩٠٪ من دخلهما الكبير على العمل الموسيقي . والباقي ينفقه عاصي في نسيان ذاته . كانا مثال « لبنان الكرامة والشعب العنيد » أنفقا على صقل فيروز الكثير ، وعلى الدعوات الكثير ، وعلى الفن الكثير . . . ويوم انفجر في عاصي الشريان الدماغي من كثرة العمل قبل ثلاث عشرة سنة لم يكن لديه شيء ، لم ينجده في المرض الا هبة شخصية من رئيس الجمهورية العربية السورية وصلت في حقيبة مسرعة .

حين انكسر الثالوث

يومها فجع الجميع لأنهم شعروا ان الثالوث الماسي انكسر . فقد قاعدته ! ومع ان عاصي أنقذ ، عاد جسدا يتحرك ويعمل . . . ولكنه وحده لم يدرك ان عاصي العبقري قد مات ، وهذا عاصي آخر . بقايا جسدية محطمة ، الذين حوله وضعوا أيديهم على قلوبهم ، وبكوا في صمت . وتابع الثلاثي العبقري الطريق ، ولكنه كان يعرج ، بحشرج حشرجة الموت . الثالوث كان وحدة واحدة يتمم جانب منها الجانب الآخر . واذا فقد أحد أركانه فقد كله . وحين كانت ذرة الدم المتجمدة تغلق شريان عاصي لم تكن تعلم أنها تغلق باب الفرح . تنهي عبقرية ، تختم عصرا من الغناء . وتطفيء القنديل الأخير !

عاصي في الواقع مات ثلاث مرات . جاءه الموت منجماً مقطعاً على مراحل .

مات منذ ١٣ سنة حين فقد الدماغ الذي يبتكر حيويته وآليته المبدعة . كل عشاق اللحن والشعر تابعوا لحظة لحظة عملية الانقاذ . وأنقذ الجسد لكن عبقرية اللحن ذهبت الى غير رجعة .

ثم مات مرة أخرى في مطلع السنة الماضية ، ووقف على عتبة العالم الآخر يتحول مع الغيبوبة الدائمة الى جثة تتنفس في غرفة بمستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت .

ثم مات مرة ثالثة يوم عبر المعابر المحرمة ، في بيروت من حاجز الى حاجز ، هو الذي عبرت ألحانه جميع الحدود العربية بدون حاجز ، ليصل الى انطلياس ثم الى المقر الأخير ! . . . .

واذا ظل منصور ، (أبو غدي) يبكي طويلا فلأنه كان أيضا يبكي نفسه ، كيف يعتاد الابداع المفرد وهو الذي ظل دهرا يكتب ويلحن وينظر في أعماق الصوت واللحن والشعر مزدوجا بأخيه ؟

وتوقفت فيروز . . . تعيش على أمجاد الماضي وخبز الماضي ، وبأي لحن تصدح بعد ان غاضت حولها الألحان !

أهو رثاء لعاصي ، هذه الكلمات ، أم رثاء للثلاثي كله ؟ لست أدري ولكني أقول لأخي منصور ، أيتها السنديانة الحبيبة الصامدة يا أبا غدي ، أنت قلت لي مرة : لست أنسى أنك أول من كتب كلمة طيبة عنا . اني سعيد أني لن أكون كاتب الكلمة الأخيرة . لا لأني لا أستطيع كتابتها فحسب ، ولكن لأنه ما من أحد يستطيعها ، إن الآلاف سيكتبونها .

لقد مضى عاصي في جنازة رسمية .

لا موسيقاه رافقته ولا الموسيقا الجنائزية ودعته الى مقره الأخير . وحدها رافقته القلوب الدامعة .

كانت تبكي الفرح الذي فقدته ! . . . . □

في مجمع الخالدين

بقلم : عبد الرزاق البصير

ليس من المبالغة في شيء إذا اعتبرنا مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق والأردن وبغداد من أهم المراكز التي تستحق كل ما ينفق من جهد معنوي ومادي في سبيلها ، لأنها هي القلاع الحصينة التي تحمي لغة القرآن من الضياع ، وهي المراكز التي تنمي اللغة العربية وتعززها . ولسنا في حاجة إلى القول بأن اللغة هي الركن الذي تعتمد عليه الأمة في حياتها الفكرية ، كما أن اللغة هي المرآة التي ينعكس عليها ما تصل إليه الأمة من رقي وملاءمة للعصر الذي تعيش فيه . وقد يسأل القارىء :

« لماذا تتعدد مجامع لغتنا ؟ أليس من الأفضل أن يكون لها مجمع واحد ؟ » ويأتي الجواب : إن طبيعة عمل المجامع تقتضي أن تتعدد المجامع ، لأنها بمثابة نهر عظيم ، له فروع تعمل جميعا لاغناء اللغة بما تتوصل إليه تلك الفروع من تعريب للمصطلحات الأجنبية ، ثم تتجمع كلها لتصب في أصل ذلك النهر ، وبذلك تزدهر لغة القرآن ازدهارا يجعلها قادرة على احتواء ما يجد في حياتنا المتسارعة من أسماء لا تحصى لما يكتشف في الطب والفلسفة والهندسة والاجتماع والمسرح ، وما إلى ذلك من فنون ومعارف وعلوم .

التعددية والقضية والواحدة

وتتمثل صحة ما ذكرناه في ذلك المقر الذي أطلق عليه «اتحاد مجامع اللغة العربية الموجود في القاهرة » فهذه التعددية في المجامع لا تعني الاختلاف في العمل ، إذ أن مجامع اللغة تعمل لقضية واحدة ، وهي تنمية اللغة العربية وتعزيزها ، لهذا نجد المشاركين في المؤتمر السنوي العام للمجمع ينتمون إلى مشرق الوطن العربي ومغربه ، ومهمة هذا المؤتمر عرض ما يتوصل إليه أعضاء المجمع في القاهرة على بقية الأعضاء ، لأخذ رأيهم في تلك المصطلحات .

فلا يعتبر أي مصطلح صالحا لوضعه في المعاجم التي يصدرها المجمع إلا بعد الموافقة عليه من جميع الأعضاء ، ولو أن جميع المؤتمرات العربية التي تعالج قضايا التربية والاقتصاد والاجتماع وغيرها من أمور تسلك مسلك مجامع اللغة العربية لأصبحت حال الأمة العربية أفضل بكثير مما هي عليه الآن .

لم يحدث في أي مؤتمر من المؤتمرات أن وجد اختلاف بين المؤتمرين ، يعود سببه إلى إصرار هذا العضو أو ذاك على رأيه ، ذلك أن كل فرد من المؤتمرين يعرف ما تبذله لجان المجمع من جهود مضنية في اختيار المفردات للمصطلحات التي تشمل العلوم النظرية والتطبيقية ، وقد شكلت في المجمع لجان من الأطباء لدراسة المصطلحات الطبية ، ولجان من المهندسين لدراسة المصطلحات الهندسية ، ولجان من الصيادلة تدرس المصطلحات الصيدلية ، ولجان من المتخصصين في المسرح لدراسة المصطلحات المسرحية ، ويقال مثل ذلك في بقية الفنون والعلوم والمعارف .

وهذا لا يعني أن مسيرة المجامع مبرأة من الأخطاء ، فإن الكمال لله وحده ، وان الذي لا يعمل

هو الذي لا يخطيء ، ويكفي أن نعرف بأن النيات صادقة ، والجهود مبذولة لتنمية اللغة العربية وتقويتها ، واللجان المختلفة في المجمع لا تقر أي مصطلح إلا بعد الدراسة المستفيضة الدقيقة ، لهذا قد يبدو لبعض الأعضاء أن خبراء اللجان يتمسكون بما توصلوا إليه ، وعلى كل حال فإن لآراء المؤتمرين كل الاعتبار في إقرار المصطلحات التي تشمل مختلف المعارف والفنون .

من هنا يتضح أن التعددية في المجامع ليست إلا كما قال الشاعر :

عباراتنا شتى وحسنك واحد
وكل إلى ذاك الجمال يشير

وربما يتصور الكثيرون أن جلسات المؤتمر السنوي للمجمع جلسات جافة خشنة ، لأنها مخصصة لدراسة المصطلحات اللغوية ، لكن هذا التصور بعيد عن الواقع ، فالمنظمون للمؤتمر قد أدركوا أن القلوب إذا كَلّت عميت ، وهذا يعني أن المؤتمرين ليس في إمكانهم أن ينفقوا قرابة نصف شهر في معالجة قضايا اللغة فقط ، لهذا نجد خطاب الدعوة إلى كل عضو لحضور المؤتمر يحتوي على طلب من العضو أن يكتب بحثا يعالج فيه قضية فكرية أو أدبية أو تاريخية ، وكثيرا ما يتطوع العضو بأن يكتب أكثر من بحث ، يتحدث فيه عما يهتم به من قضايا يبدي فيها آراءه وأفكاره ، ويجد الشعراء في هذا المؤتمر فرصة ، يعبرون فيها عن تقديرهم لأعمال المجمع ، أو يرثون من يرحل إلى الآخرة من أعضائه ، فأنت ترى من هذا أن المجال يضيق عن رسم صورة متكاملة لما يحدث من نشاط في المؤتمر السنوي للمجتمعين ، وأنا مضطر إذن أن أقتطف من ثمرات المؤتمر لهذه السنة ما يحتمله هذا المجال .

وجوب تقوية التواصل العربي :

أول ما أود أن أقف عنده في هذه الكلمة هو هذا البحث القيم الذي كتبه الأستاذ محمد الفاسي ـ عضو المجمع ـ وأشار فيه إلى أن « العلاقة الثقافية بين مشرق الوطن العربي ومغربه كانت أقوى مما هي عليه الآن ، فقد كان علماء المغرب عندما يقصدون البلاد المقدسة لأداء فريضة الحج يتوقفون في مدن العلم ومراكز الثقافة ، ويلتقون بالعلماء والأدباء ، ويأخذون عنهم ، ويستجيزونهم لهم ، ولمن طلب منهم ذلك من زملائهم الذين لم يتيسر لهم بعد القيام بأداء فريضة الحج ، وينقلون معهم ما استجد من تآليف المغاربة في شتى العلوم والفنون ، كما يأخذون معهم إجازات علماء المغرب لمن طلبها من أهل المشرق ، وعند الرجوع يقومون بهذه الاتصالات نفسها ، ويحملون مؤلفات المشارقة إلى المغرب ، وإجازات علمائه إلى من طلبها من أهل المغرب .

وهكذا كان التعارف تاما بين جناحي الوطن العربي ، إذ بمكة يلتقي المغاربة بمن يحج من علماء البلاد الاسلامية الأخرى ، وزيادة على ذلك أنهم كانوا ينتهزون هذه الفرصة الثمينة لزيارة بلاد الشام والعراق واليمن ، فكان العلماء في كل الأقطار الاسلامية بفضل هذه المؤسسة الاسلامية الفريدة ـ حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام ـ مطلعين على كل أحوال إخوانهم في كل ناحية من نواحي العالم الاسلامي،يعرفون بدقة أخبار الحركة العلمية . ويظهر هذا في كتب الطبقات التي كانت تؤلف بالمشرق والمغرب ، حيث كانت الوحدة الاسلامية حقيقة واقعة ، مما تضاءل شأنه في عصرنا هذا ، عصر السرعة والاتصال المباشر بواسطه الطيران ، فقَلّ الاتصال ، وضعف التعارف ، ولولا ما تتصف به الحضارة الحالية من تنظيم المؤتمرات والندوات واللقاءات لكانت القطيعة أعمق ، لكنها مع ذلك لم تقم تماما مقام السفر إلى الحج » .

هذه الفكرة الوحدوية التي شغلت أستاذنا الشيخ محمد الفاسي ـ المغربي ـ كانت في الوقت نفسه تشغل الأستاذ الدكتور ابراهيم الدمرداش ، ومن المحقق أنها تشغل كل عربي مثقف يؤمن بأن قوة اللغة العربية تكمن في وحدة الأمة العربية وتضامنها .

التضامن العلمي العربي :

فقد دعا في كلمته التي ألقاها بالمجمع إلى تضامن الأقطار العربية في الناحية العلمية التقنية ، والخطوة الأولى في طريق التضامن العلمي العربي هي أن يعقد مؤتمر للتضامن العلمي التقني نظريا وعمليا يضم وفودا من جميع الدول ، فإن هذا المؤتمر إن لم يسفر عن شيء سوى التعارف بيننا لكفى ، لما لهذا التعارف من فائدة في الحاضر والمستقبل في تبادل الرأي والمشاورة وجمع الشمل والمراسلة ، وإنك لتجد بين الكثيرين منا من يعرف زملاءه الغربيين ولا يعرف إخوانه العرب مع ما بيننا من روابط الجوار والتاريخ ، وما بين أيدينا في لغة القرآن الكريم من لسان عربي مبين ، يجمع شملنا أجمعين ، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن عالمنا اليوم عالم تقني ، تقوم حضارته على الانجازات العلمية والمهارات ، ومدنيته بلا شك مدنية صناعية إنتاجية ، فهل يا ترى نقبع في صفوف الأدباء ، ونقنع بتصيب النظارة الغرباء عن العلم الحديث وأهله ، ونتخلف عن الركب ، ونترك لغيرنا قصب السبق ؟ كلا ! بل لا بد لنا من الأخذ بأهداب العلم ، وأسباب المعرفة ، وأن نجيد الصنعة ، ونتقن الحرفة ، حتى نصبح قادة في ركب الحضارة قولا وفعلا وعلما وعملا إن شاء الله .

ويؤكد الدكتور أن جامعاتنا لا تصدر أدلة واضحة المعالم تهديك إلى نظمها ومناهجها وكلياتها وأقسام الدراسة والتخصص فيها ، وبيان أساتذتها ، وهيئة التدريس فيها إلى غير ذلك مما يظهر سنويا لكل جامعة أو معهد في البلاد الأجنبية ، فضلا عن أننا لا ننشر أبحاثنا بانتظام ، وليس لنا إلا النزر اليسير من المجلات العلمية والدوريات ، مع أنها لغة التخاطب بين العلماء والباحثين .

ويقول الدكتور الدمرداش : « إن الحقيقة التي لامرية فيها هي أننا نعيش في قطيعة علمية ، وكل ما في الأمر أن بعض الدول المتجاورة منا تركن لاستكمال ما تحتاجه لهيئة التدريس إلى جاراتها بطريقة مبتسرة واتصال فردي ، وكثيرا ما تستعين بالمنظمات الأجنبية في هذا السبيل ، فإذا ما قامت فينا هيئة كالتي ننشدها أمكنها مساعدة الطالب وتنسيق المطلوب ، كما يمكنها أن تسهم في تنظيم الزيارات العلمية والاعارات ، واستقدام الأساتذة الزائرين ، وتبادل الطلاب للدراسة والتدريب الفني إلى غير ذلك » .

ومن المؤسف حقا أن من المشاهد أن كل دولة منا تود أن تلحق وتسبق دفعة واحدة ، وليس هذا من شأن العلم الذي يقوم بنيانه على أساس متين ، ولا من طبيعة التقنية التي ترتكز على قواعد شتى ، وتحتاج إلى خبرة ودراية ومران ، وطموح مطلوب ، فالطفرة لا تحقق الهدف ، بل لا بد لتطور العلم والتقنية من تخطيط سليم ، وخطة محكمة ، ولا يتفق ذلك مع العجلة .

كيف تكون الدراسة عملية :

ويرى الدكتور الدمرداش أن المدارس الصناعية ينبغي أن تكون متوافقة مع إقامة المصانع ، لتكون المدارس الصناعية مدارس عملية لا مدارس نظرية ، بمعنى أن الطلاب إذا تخرجوا في مدارسهم الصناعية يجدون المجال الذي تخصصوا فيه ، كذلك تجد المصانع القوة البشرية التي تسير آلاتها ، أما إذا أقيمت المدارس الصناعية بغير مصانع فإن الاقبال على التعليم الفني يصبح ضعيفا ، وينصب الاقبال على التعليم العام النظري ، وهذا اتجاه لا يتفق مع حاجاتنا إلى الناحية الفنية ، وعند ذلك تزيد أعداد الجامعيين ، وتقل نسبة الفنيين والمهنيين ، وينقلب الوضع السليم . ولقد أفاض الدكتور الدمرداش في دعوته المخلصة إلى التضامن العلمي العربي في هذه الناحية،مشيرا إلى عدم التخطيط العربي في الناحية الفنية والمهنية . وإننا لنأمل أن تجد هذه الدعوة الصادقة آذانا صاغية من المسئولين عن اتخاذ القرارات في القضايا المهمة ، فإن كثيرا من الأدباء والمفكرين في مشرق الوطن العربي ومغربه قد رفعوا أصواتهم بالدعوة إلى التناسق العربي في مجال التربية والعلوم



أخذت هذه الصورة في مجمع اللغة العربية بالدورة ٥٣ لانعقاده

والفنون والاقتصاد ، كما رفعوا أصواتهم في وجوب تعريب التعليم في جميع مراحل الدراسة من الروضة حتى الجامعة ، وقد كتبوا في ذلك بحوثا كثيرة ، عالجوا فيها كل المعوقات ، وفندوا جميع حجج الذين يشككون في إمكانية التناسق العربي ، وما من مؤتمر من مؤتمرات المجمع إلا ويعالج بعض أعضائه هذه القضايا ، فضلا عن القضايا الأدبية والاجتماعية .

من هنا يتضح أن جلسات المؤتمر في كل عام جلسات خصبة ، يجد كل فرد من المؤتمرين في البحوث والمحاضرات ما تميل إليه نفسه .

تحية المجتمعين :

وقد يكون من الخير أن نختم هذه الكلمة الموجزة بأبيات من قصيدة ألقاها الأستاذ حسن القرشي ، سفير المملكة العربية السعودية في موريتانيا ، وقد نالت استحسان المجمعين .

يقول :

عيدٌ يحققكَ بَعْدَ عيد
يا موئلَ الفصحى العتيدْ
ومنارها أربى على الـ
خمسين وهو فتى جديدْ
مرّت عهودٌ وهو بل
ءُ القلبِ ذو العزم الشديدْ
نفضَ الغُبارَ عن الجوا
هرِ فهيَ كالحبِّ الحصيدْ
ونضا عن الذهبِ الرُّكا
مَ فرنَّ كاللحنِ الفريدْ
فرسانُه حملوا اللوا
ءَ وكلهم فذٌّ رشيدْ
واستبسلوا فإذا هُمُو
لظواهرِ العصرِ الشهودْ
لانَ الكلامُ لهُمْ كما
(داودُ) لانَ لهُ الحديدْ
مِنْ طارفٍ حيٍّ يُسا
وِقُ روعة الحيِّ التليدْ
قد ألهموا سِرَّ الدُّؤو
بِ وفنَّ ترصيعِ العقودْ
مرحى لما بذلوا وأهـ
ـلًا بالغطارفةِ الأسودْ
يا فخرَ أجدادٍ لنا
رسموا رسالاتِ الخلودْ
يا صرحنا المرموقَ شُيـ
ـدَ بالعقولِ فلنْ يميدْ .



علاج قصر النظر بالعمليات الجراحية

بقلم : الدكتور سعيد السماهيجي*

قطع علم أمراض العيون شوطا متقدما عن بقية علوم الأمراض بسبب تطور جراحة العيون وتقدمها ، خصوصاً على القرنية ، باستخدام الميكروسكوب والخيوط والإبر الدقيقة جدا ، وكذلك التطور الذي جرى في مجال تقويم القرنية والصلبة ، باستخدام المواد المنقولة من الجنين المتوفى ، أو من الميت ، أو المشيمة من المرأة الوالدة حديثا . وكل ذلك له قصة .

يعتبر قصر النظر العالي والمستمر وكذلك مضاعفاته على العين من الأسباب الرئيسية لقصور وكف البصر ، ويؤدي بالتالي لعجز الانسان عن العمل في مرحلة مبكرة من العمر ، وبالذات في مرحلة الشباب ، ولهذا السبب تضع الدول المتقدمة في أولوياتها - وعلى المستوى القومي - مهمة اتخاذ الوسائل الضرورية للحد من مضاعفات قصر النظر الشديد ، لما له من مردود سيء على التنمية والاقتصاد الوطني .

ان قصار النظر يرون الأشياء عن قرب شديد بدون استخدام النظارة ، والمسافة بين العين والكتاب لاتزيد عن بعض سنتمترات (عند الانسان السليم هذه المسافة لاتقل عن ٢٥ سم) بسبب كبر حجم العين ، بحيث يصبح طول محورها الأمامي

---

* اخصائي امراض وجراحة العيون .

الخلقي أكبر من الطبيعى ، وبذلك لاتصل الاشعة المنكسرة داخل العين للشبكية،وينتج عن ذلك أن الانسان لايرى الأشياء البعيدة الا بواسطة نظارة مناسبة ، وتستخدم لعلاج قصر النظر العدسة المقعرة التي تبعد بؤرة الأشعة الى الشبكية ، وبالعكس تستخدم العدسة المحدبة لبعد النظر التي تقرب بؤرة الأشعة الى الشبكية .

ثلاث درجات لقصر النظر

يختلف طول العين عند الأطفال باختلاف عمر الطفل ، فكلما كبر ، كبرت معه العين ، فنلاحظ أن أقصر طول للعين يكون عند المولود الجديد ، ويكتمل نمو العين في سن الثانية عشرة ، ويصبح طولها ٢٥ ملليمتراً بينما يكون طولها عند المولود ١٨,٥ ملليمتراً ، لذا نرى أنه لدى الأطفال تكون قوة تقارب العينين أقوى من الانسان البالغ ، ويتجلى ذلك عندما يريد الطفل رؤية الأشياء القريبة .

هناك ثلاث درجات لقصر النظر ، الدرجة البسيطة : اذا كان قصر النظر أقل من ٣ ديوبتر (د) والدرجة المتوسطة : اذا كان أقل من ٦ د.، والدرجة العالية : اذا كان أكثر من ٦ د . وكذلك هناك نوعان من قصر النظر : ثابت وبسيط ، فلا يحتاج المريض لتغيير نظارته دوريا وباستمرار وعند لبسها تصل درجة بصره الى المستوى الطبيعى ، والنوع الآخر قصر النظر المتقدم أو الشديد ، يحتاج فيه المريض لتغيير درجة نظارته ، ومع لبس النظارة فإن النظر لايصل الى المستوى المطلوب ، بسبب التغييرات المصاحبة التي تحدث في العين ، مثل الخلل في التغذية بالشبكية ، والتغييرات في عصب العين ، وتراجع العين الى الخلف وغيرها . وقد يصاحب تلك العين وجود أخطاء أخرى مثل اللابؤرية ، لعدم انتظام تحدب القرنية ، أو حَوَلٌ مرافق ، كما يلاحظ عند هؤلاء المرضى تكوين المياه البيضاء مبكرا .

العوامل الوراثية

وتلعب العوامل الوراثية دورا في استعداد الشخص لتطور المرض ، واستمرار درجته بعينه ، حتى أن هؤلاء ينصحون بعدم الزواج خصوصاً اذا كان الزوجان من الأقارب ، ونجد أن ١٥٪ من الأوروبيين مصابون بقصر النظر ، وترتفع هذه النسبة في اليابان الى ٨٥٪ للأسباب التي ذكرناها سابقا .

وقد تسهم ظروف العمل في الاصابة بقصر النظر ، وخصوصا العمل من قرب ، ولمدة طويلة في البنوك أمام شاشة الكمبيوتر ، ولو أن هذا ليس له سند علمى الى الآن . يتزايد قصر النظر في أغلب الأحيان في مرحلة النمو ، لذا من المستحسن استخدام النظارة في سن مبكرة ، حتى لايحدث حَوَلُ أو كسل بالعين ، ولانتقاء نظارة مناسبة يجب إزالة تشنج العضلات الهدبية وظاهرة الارهاق العضلى باستخدام قطور خاص لهذا الغرض يوسع حدقة العين ، وكذلك يستخدم هذا القطور لتقوية عضلات العين عند قصار النظر ، خصوصا عند الأطفال ، بممارستهم للألعاب الصغيرة والدقيقة ، مثل العمل بالابر والخياطة وغيرها .

أهمية العملية الجراحية

لايقاف تزايد قصر النظر يحتاج المرضى لاجراء عملية جراحية ضرورية تمنع تزايد حجم مقلة العين الى الخلف ، فاقترح العالم ليندز عام ١٩٥٠ ـ لايقاف تزايد قصر النظر ـ طريقة جذم الصلبة بتصغير حجم مقلة العين باستئصال جزء من بياض العين أو الصلبة ، حينما أعلن عن ٣ عمليات تسمى الجذم الثاقب لصلبة العين .

وكانت درجة قصر النظر في عملية العين الأولى « ١٩ ديوبتر » وكانت مصابة بالانفصال الشبكى ، لوحظ أن درجة قصر النظر انخفضت الى ١٢ د . اما

العمليتان الأخريان اللتان أجريتا كانت درجتها ٢٠ د . بدون انفصال الشبكية ، فانخفضت درجة قصر النظر بعد العملية الى ١٣,٥ د . ولكن هذه العملية لم تنل الانتشار الواسع بسبب صعوبة وخطورة اجرائها تقنيا .

وعلى الرغم من ان العالمين شابلاند وباتيك قد طورا عملية جذم الصلبة غير الثاقب عام ١٩٥١ الا أن لها مضاعفات كثيرة ، لذا فهي لم تنل الانتشار أيضا ، وأهم هذه المضاعفات اصابة الوريد الدوارى الذي يوجد داخل الصلبة في الجزء العلوى والذي يجمع الدم غير المؤكسد من العين ويصب في الوريد العام ، وعند اصابته تصاب العين بالالتهابات المزمنة مما يودى بحياة الانسان الى الخطر اذا لم تستأصل العين .

وفي عام ١٩٧١ طورا العالمان ايروشيفسكي وبانفيلوفا فكرة عملية الجذم الصلبة الى فكرة تقويم الصلبة ، باستخدام الصفائح الواسعة لعضلة الفخذ التي تغطى الجزء الخلفى من مقلة العين لايقاف تقدمه الى الخلف .

وأجرى البروفسور فلاديمير سير غيفيش بلياييف عام ١٩٧٤ التحسين على هذه العملية باستخدام الشريط الرقيق من صلبة (بياض) العين ، من المتوفى على شكل الحرفين اللاتينيين Y ، X وتم ذلك في مركز العيون للبحوث العلمية الذي يقوده البروفسور بلياييف منذ عام ١٩٦٦ ، ودافع في عام ١٩٦٥ عن رسالته للدكتوراه في البحث الذي أجراه موضحا فيه أفضلية استخدام قرنية الجنين أو المولود الجديد المتوفين لتقويم القرنية ، ويقوم هذا المركز بمعالجة ما يتصل بتقويم القرنية التي يجرى بين طبقاتها الرقيقة ، مستخدماً قرنية الجنين التي يحصل عليها بسهولة في معظم أقطار العالم دون استثناء ، وله ٧٠ بحثا مكرسا لعلاج أمراض القرنية بتقويم القرنية من الجنين وتصحيح درجة انحراف الأشعة الاكلينيكية بالعين ، وقد قدم مساهمة عظيمة وجبارة في بحث عن أمراض تأثير الجهاز العصبى للعين في نشوء امراض العيون المختلفة كما قدم بحثا عن أمراض السرطان في العين وكذلك علاج قصر النظر العالى الشديد وأمراض العيون في المناطق الحارة وغيرها،وهو يشغل حاليا منصب نائب الرئيس للمجلة العلمية التي تسمى « مبشر علم امراض العيون » ومحررا في قسم العيون للموسوعة الطبية السوفيتية الضخمة .

وقد تم اجراء ٧٠٠ عملية تقويم للصلبة بطريقة بلياييف في مركزه حتى عام ١٩٧٩ ، وكانت أعمار المرضى تتراوح بين ٨,٥ سنة و ٧١ سنة .

تقويم الصلبة

هناك طرق أخرى بسيطة جدا لاجراء نفس العملية باستخدام شريط واحد من صلبة العين للمتوفى ، ويبلغ طول الشريط ٤ سم ، ويدخل هذا خلف العين من جهة واحدة دون ربطه بالخط من الطرف الخلفى ، أو يستخدم شريطين من الجهتين أو أربعة أشرطة من الجهات الأربع .

وتجرى في نفس هذا المركز عملية تقويم الصلبة ـ الغضروف ـ التي اقترحها البروفسور بلياييف عام ١٩٨٢ ، وهذه العملية لاتزال تحت البحث العلمى حاليا . يؤخذ الغضروف من عظم الصدر للمتوفى ، أو غضروف أذن المريض ويطحن ويضاف اليه محلول مطهر ويجمع في ابرة خاصة،ويقذف به الى خلف كيس ملتحمة العين الذي يجهز قبل العملية ، ولاتجرى هذه العملية لعين درجة قصر نظرها أكثر من ١٢ ديوبتر .

كما تجرى في نفس المركز عملية تقويم الصلبة ـ المشيمة ـ التي اقترحها أيضا البروفسور بلياييف عام ١٩٨٣ ولا تزال كذلك هذه العملية تحت البحث العلمى في الوقت الحاضر ، وتستخدم مادة المشيمة على شكل الحرف اللاتينى (Y) بنفس طريقته التقويمية ، اعتقد أن هذه العملية تصلح لبلداننا العربية والاسلامية لتوفر وسهولة الحصول على

المشيمة للمرأة الوالدة ، لأن استئصال العين من المتوفى يتعارض مع الدين الاسلامي الحنيف والتقاليد الاجتماعية،ففي البحرين نحصل على العيون من بنك العيون في دولة سريلانكا لاجراء عملية تقويم القرنية الثاقب .

وأعتقد بعد تجاربي وممارستي العملية في هذا المجال أن عملية تقويم الصلبة أفضل وسيلة لعلاج قصر النظر العالي الشديد لما تعطيه من النتائج الجيدة لقيام العين بوظيفتها وتحسين جهازها العصبي وتعتمد عليها اعادة الأوعية الدموية بواسطة ادخال قطعة من الملتحمة مافوق الصلبة الى خلف العين ، وربطها في الصلبة المزروعة ، فتتكون أوعية دموية جديدة تنمو في صلبة العين للانسان من الخلف وتصل الى الشبكية أمام النقطة التي تصل اليها صورة العالم الخارجي ، مما يحسن نظر المريض،كما تجرى هذه العملية للانسان المصاب بمرض الاختضاب (الصباغ) الشبكي الخلفي كما يسمى بالعامية مرضى العشى الليلي الذي يضعف النظر مع غروب الشمس حتى شروقها وكذلك لأمراض سوء التغذية في الشبكية وغيرها .

أما العمليات الجراحية الدقيقة لتغيير حنية (تقوس) القرنية للتخلص من النظارة نهائيا ، فتسمى بتقويم القرنية بطريقة عدم تغيير سمكها . وذلك بتغيير حنية جميع طبقاتها فقط ، وهي التي اقترحها العالم الياباني ساتو عام ١٩٥٠ .

عملية شطب القرنية

في عام ١٩٧٩ قدم العالم فيودوروف بحثا عن ٦٧٥ عملية شطب للقرنية اجراها بطريقته حيث قسم المرضى الى فئتين وكان عدد المرضى في الفئة الأولى ١٣٠ مريضا ، ودرجة قصر نظرهم تتراوح مابين ١ - ٣ د . وقد أشارت النتائج أن عدد المرضى الذين تخلصوا من النظارة كان ١٠١ مريض تعادل ٧٧٪ كما حصلت عند ١٢ مريضا النتيجة العكسية ، حيث أصبحوا من بعاد النظر بدرجة مابين ١ - ٥ د . وبقيت لدى ١٦ مريضا درجة قصر النظر كما هي قبل العملية ، بل زادت عند بعضهم الى الضعفين ، وكان عدد المرضى من الفئة الثانية ٥٤٦ مريضا ، ودرجة قصر النظر تتراوح مابين ٣ - ٦ د . وأشارت النتائج بأن ١١٤ مريضا أي مايعادل ٢٠٪ قد تخلصوا من النظارة وحصلت لدى ٢٤ مريضا النتيجة العكسية حيث أنهم أصبحوا من بعاد النظر.أما عن البقية وهم ٤٠٨ مرضى قد عاد لهم قصر النظر ومن ضمنهم ١٩٣ مريضا عاد لهم قصر النظر بدرجة ٠,٥ د . ولدى ١٧٣ مريضا عاد اليهم قصر النظر بدرجة ١,٥ د ، والى ٤٢ مريضا بدرجة ٣ د .

ويقول البروفسور الياباني ناتاجيا في صدد مضاعفات عملية شطب القرنية ، في بحثه عام ١٩٧٩ عن النتائج البعيدة ! « بأنه منذ ٢٠ عاما أجريت في اليابان أكثر من ٢٨٠ عملية (شطب القرنية) بطريقة ساتو . . ومن ضمنهم أكثر من ٦٠ عينا في الوقت الراهن تعاني من عتامة القرنية ، وهي لاتستجيب للعلاج الطبيعي ، ولا للعملية الجراحية ، وذلك حسب ماقدمه من الدلائل والمعطيات الاكلينيكية والنسيجية ، وكما يبدو أن القرنية تفقد خواصها البيولوجية بعدم القدرة على التحام آثار الجروح ويعيش المرضى في حالة نفسية سيئة للغاية » .

وبعد قراءة النتائج التي حصل عليها العلماء لابد أن نشير لقصار النظر ، والى ضرورة اختبارهم ، بعد أن يستقر قصر نظرهم مدة لاتقل عن سنتين .

بحوث جديدة

يواصل مركز البحث العلمي لأمراض العيون الذي يقوده البروفسور كراسنوف بحوثه في هذا المجال من التجديدات التي اقترحها في عملية الشطب ، بوضع قطعة حديدية بحجم العدسة اللاصقة على الجفن بعد العملية ، وبقوة تضمد العين يومين ، فتحصل بذلك على حنية للقرنية اكثر

تسطحا وثباتا ، غير أن عملية الشطب لاتجرى لقصار النظر الذين لديهم درجة الابصار اكثر من ١٢ ديوبتر ، وتشير بعض النتائج الاكلينيكية لهذه العملية على أنها أفضل المحاولات التي تعطى الفرصة لقصار النظر للتخلص من نظاراتهم السميكة ، ولكن اعتقد أنها لايمكن أن تنتشر على المستوى التطبيقي الواسع اللهم الا اذا اثبتت نتائجها الجيدة بتجارب الباحثين الآخرين ، فمن المبكر جدا اعطاء الرأي الجازم بنتائجها لأسباب تتعلق بما يمكن أن تجره هذه العملية على العين وشبكيتها لاحقا .

طريقة جامعة

واقترح البروفسور بلبايف عام ١٩٨١ لعلاج قصر النظر العالي الشديد ، طريقة تجمع بين تقويم الصلبة واستئصال عدسة العين الشفافة وشطب القرنية ، ففي عام ١٧٧٥ اقترح ديزمونكوز فكرة جراحة استئصال العدسة الشفافة عن العين لعلاج قصر النظر العالي ، ولكنها لم تدخل في مجال العمل التطبيقي مدة اكثر من ١٠٠ عام لأسباب تتعلق بالالتهابات التي كانت تصاب بها العين في تلك الفترة .

الا أنه في الخمسينيات تشجع عدد من جراحي العيون لاجراء هذه الطريقة ، ولعل النجاح الذي لاقته في الخمسينيات جاء من التطور الذي طرأ لازالة المياه ، مما أدى الى تحسن النتائج وقلة المضاعفات الآنية وقت ازالة العدسة وعلى المدى الطويل .

واعتبر جيلبرت عام ١٩٥٠ أنه من المستحسن أن تجرى هذه العملية لقصار النظر العالي المستمر بدرجة ١٨ ـ ٢٠ د . ولقصار النظر العالي المستمر بدرجة ١٦ ديوبتر ، حيث تتحسن حدة النظر دون استخدام النظارة وكانت ازالة العدسة في السابق يصاحبها فقد السيولة الزجاجية التي خلفها ، بسبب التغيرات الناتجة من قصر النظر نفسه .

أما الآن فلا تزال عدسة كاملة ، انما الذي يُزال فقط الجزء الأمامي من محفظتها ومحتوياتها ، ويترك الجزء الخلفي من المحفظة ليمنع انسياب السيولة الزجاجية الى خارج العين ، واحتمال الانفصال الشبكي مستقبلا .

الا أن هذه العملية قد تؤدي الى تكوين التكيف بقاء العدسة مما يؤدى الى تدهور قوة الابصار بعد زمن ، الا أنه مع وجود الليزر فانه يمكن ازالة هذه العتامات من محور الرؤية دون التخدير ودون اللجوء الى الجراحة ، ويميل عديد من الجراحين في الدول الشرقية لاجراء عملية تقويم الصلبة قبل ازالة العدسة الشفافة ، أو عملية التشطيب التي تناولناها سابقا ، ومن هؤلاء العلماء البروفسور بلبايف عام ١٩٨٠ .

تغيير تقوس القرنية

وهناك طريقة اخرى للعمليات الجراحية الدقيقة لتغيير حنية (تقوس) القرنية للتخلص من النظارة نهائيا بتغيير سمكها ، تسمى تقويم الانحراف الاكلينيكي بين طبقات القرنية الرقيقة ، وهي عبارة عن نقل القرنية من المتوفى أو من الجنين والمولود الجديد المتوفين الى وسط طبقات القرنية الشفافة ، وبهذه الطريقة تغير درجة انحرافها الاكلينيكي للاشعة المنكسرة من الوسط الخارجي .

وتحفظ عيون المتوفين في الخزان المجمد تحت درجة حرارة تصل الى الصفر ، ولمدة تصل الى ٥ أيام في حالة عدم توفر العيون في المراكز بصورة مستمرة بسبب عدم وجود (مشرحة تتبع للمركز)،وفي حالة تواجد المشرحة للمركز فانه بامكاننا استعمال قرنية المتوفى مباشرة ، دون حاجتنا الى عملية التجميد والتخزين للعيون ، ويسمح باستخدام عين المتوفى للبحث العلمي والعلاج في البلدان المتقدمة ، بقرار وزارى من وزارة الصحة ، والمصدق عليه من مجلس

الوزراء ، حيث تقطع القرنية بسمك حسب احتياجات المريض لتصحيح درجة قصر النظر .

تجرى هذه العملية على مرحلتين : في المرحلة الأولى تنقل القرنية على شكل سالب الى جيب القرنية العامل لدى المريض وتوضع في مركز القرنية مقابل الحدقة ، وتثبت القرنية المزروعة بدون خيوط غير أنه لوحظ أن الطبقة السطحية للقرنية غير قابلة للتمدد ، وتكون مشدودة جدا وعكس ذلك فإن الطبقة السفلية تكون مرنة وقابلة للتمدد الى جهة الحجرة الأمامية ، وبذلك تفقد القرنية درجة الحنية وقوة الابصار التي انجزناها خلال العملية لذا تثقب بعد ٢ ـ ٣ أسابيع الطبقة العلوية للقرنية على حدود العضو المزروع على شكل دائري ، لتقليل الضغط على القرنية المزروعة من قبل الطبقة السطحية ، فتأخذ مكانها الطبيعي في القرنية للانسان .

وهناك عملية لنفس الغرض،حيث تستأصل طبقة القرنية السطحية ، وتجمد وتصقل حسب درجة الحنية المطلوبة،وتعاد الى قرنية المريض مرة ثانية وتنصح الذين يرغبون باجراء مثل هذه العمليات بما يلي :

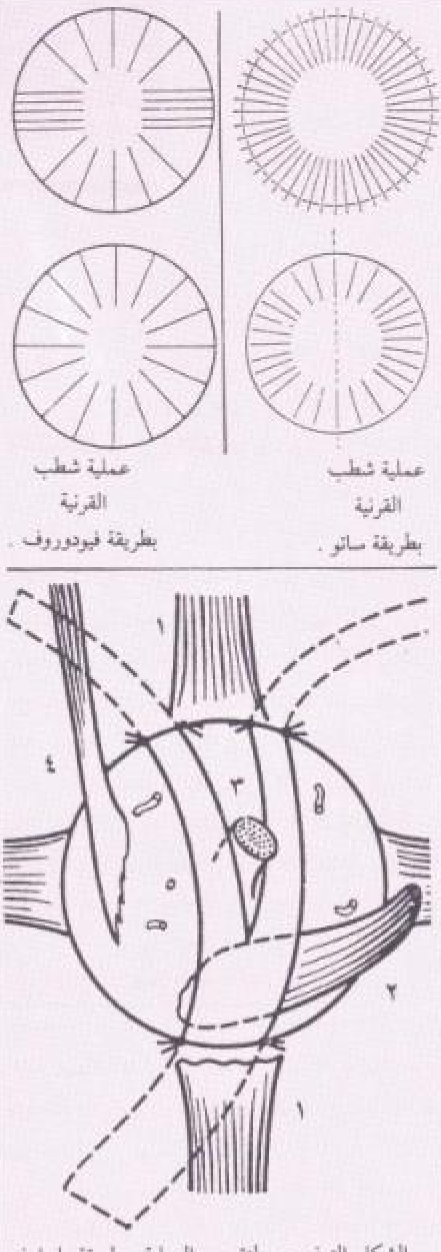
١ ـ أن يحرصوا على الاكتشاف المبكر لقصر النظر ، وعنايتهم بنظام الفحص المركز وخصوصا عند الاطفال قبل سن المدرسة وكذلك التلاميذ .

٢ ـ استعمال النظارة الطبية المناسبة .

٣ ـ خلق الظروف الصحية في الشغل (الانارة الجيدة المتساوية لأماكن العمل والدراسة) .

٤ ـ العمل على حفظ صحة الجسم باكتشاف وعلاج الأمراض والتشنجات المزمنة ، وكذلك الاحتفاظ بمعلومات كافية عن مقدار درجة التدهور خلال سنتين على الأقل،حتى يستطيع الاخصائي بعد الفحص أن يقرر صلاحيتهم للعملية .

٥ ـ تقليل الجهد البصري بحيث يتناسب مع العمل والراحة . □



الشكل التوضيحي لتقويم الصلبة بطريقة بليايف لقصر النظر العالي المستمر ١ ، ٢ ، ٤ ، عضلات العين ـ العصب البصري ـ الصلبة المزروعة .

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

التشدد يحسنه كل أحد !

لايحتاج التشدد إلى فقه أو عمق في المعرفة ، إنما الفقه الحق يكون في الترخص الأمين الذي ييسر على الناس ، ويرضي الله . وإذا استخدمنا منطوق إمام جليل مثل سفيان الثوري فقد نردد معه مقولته الذهبية : إنما الفقه الرخصة من ثقة ، أما التشدد فيحسنه كل أحد !

وهي كلمة صائبة ، جديرة بأن تبقى على مر الأزمنة ، معلقة على الجبين الاسلامي ، هادية للعقل المسلم ، ومرشدة لكافة أهل الدعوة والفقه ، في زمن اتسعت فيه دائرة التشدد والغلو الذي نراه اليوم ، وبات من المهم أن يستجلى هذا المعنى إلى أبعد مدى ، حتى تفتح صفحة الاعتدال واليسر التي طويت ، وكادت تطمس معالمها ، بفعل ادعاءات وممارسات عديدة ، وحتى نبريء تعاليم الاسلام من تلك القساوة والجهامة التي تنسب إليه ظلما وبهتانا .

نعم ، إن التشدد يحسنه كل أحد ، ممن ضاقت معارفهم ، أو ضاقت صدورهم ، فما أسهل الجنوح إلى المبالغة والتزيد باسم الحذر والحيطة ، وما أيسر المبادرة إلى الرفض والتحريم أخذا بالشبهات ، واحتجاجا بسد الذرائع . إنما التحدي الحقيقي ، والفقه الأصيل ، يتمثل إما في ضبط ميزان الاعتدال في العبادة والسلوك ، أو في ذلك الجهد الذي يفتح الأبواب على مصارعها لكل خير ممكن ، أو لأقل قدر من المفاسد والشرور ، ذلك أن كفاءة الفقيه لاتقاس فقط بقدرته على الاختيار بين الخير والشر ، لكنها تقاس أحيانا ببصره الثاقب في التمييز بين درجات متفاوتة من الشرور ، وقبول أقل قدر من المفاسد ، درءا لما هو أكبر ، وأملاً في تجاوز المفسدة إلى مصلحة في نهاية الأمر .

آيات بينات وأحاديث صريحة

صفحة اليسر في التفكير الاسلامي تقوم على عدد من التوجيهات القرآنية والنبوية التي لاتخطئها عين منصفة ، منها على سبيل المثال :

- « يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر » (البقرة ١٨٥)
- « فقل لهم قولا ميسورا » (الاسراء ـ ٢٨) .
- « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج » (المائدة ـ ٦)

- « وما جعل عليكم في الدين من حرج » (الحج - ٧٨)

- « يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا » (النساء - ٢٨)

- « فاتقوا الله ما استطعتم » (التغابن - ١٦)

ومن الأحاديث النبوية قوله عليه الصلاة والسلام : « يسروا ، ولا تعسروا ، وبشروا ، ولا تنفروا » ، ومما روته السيدة عائشة في هذا الصدد أن النبي صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما مالم يكن إثما ، وفي نهيه عن التشدد قال عليه السلام : « إياكم والغلو في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » .

وعندما أطال معاذ بن جبل القراءة وهو يؤم الناس أثناء الصلاة ، عاتبه النبي عليه السلام قائلا : أفتان أنت يامعاذ ؟ وكررها ثلاثا ، مما يوحي بأن مثل ذلك التشديد على الناس وأخذهم بالعزائم يفتح باب الفتنة عليهم ، ثم قال عليه السلام : « ان منكم منفرين ، فأيكم ماصلى بالناس فليتجوز ، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة » .

(وروي عن النبي عليه السلام قوله أيضا : « عليكم من الأعمال ماتطيقونه ، فإن الله لايمل حتى تملوا » ، وقوله : « إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى) .

وإزاء الأهمية الواضحة لهذا البعد في التعامل مع الأحكام الشرعية ، فإن الامام أبا اسحاق الشاطبي ، الفقيه الأصولي الكبير ، اعتبره أحد مقاصد وضع الشريعة للتكليف في كتابه الشهير « الموافقات » (جـ) ص ١٣٦) .

وفي هذا الصدد قال ما نصه : « إن الحرج مرفوع للمكلف لوجهين ، أحدهما : الخوف من الانقطاع في الطريق ، وبغض العبادة ، وكراهة التكليف . ويندرج تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه ، في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله ، ذلك أن الله وضع هذه الشريعة المباركة حنيفة سمحة سهلة ، حفظ فيها على الخلق قلوبهم ، وحببها إليهم بذلك ، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة لدخل عليهم فيما كلفوا به مالا تخلص به أعمالهم .

الأمر الثاني أن المكلف مطالب بأعمال ووظائف شرعية ، لابد له منها ، ولا محيص له عنها ، يقوم فيها بحق ربه تعالى ، فإذا أوغل في عمل شاق ، فربما قطعه عن غيره ، ولاسيما حقوق الغير التي تتعلق به ، فتكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعا عما كلفه الله به ، فيقصر فيه ، فيكون ملوما غير معذور ، إذ المراد منه القيام بالأعمال على وجه لايخل بواحدة منها ، ولا بحال من أحوالها .

رفع الحرج عن الناس

الدكتور محمد يوسف موسى - من فقهائنا المعاصرين - حدد أسسا ثلاثة للتشريع الاسلامي في كتابه « الاسلام وحاجة الانسانية إليه » . - (ص ٢١٢) . وأول هذه الأسس عدم الحرج ، ورفع المشقة ، وثانيها رعاية مصالح الناس ، وثالثها تحقيق العدل ، بل العدالة الشاملة .

بالنسبة للأساس الأول الذي يهمنا في السياق فإنه استعرض النصوص الشرعية التي ذكرناها ، وقال إن الله سبحانه خالق الكون الرحمن الرحيم ، العالم بتفاوت أحوال الخلق وقدراتهم ، قد رفع الحرج عن الناس ، ودفع عنهم المشقة ، مما نلمسه في أمور العبادات والمعاملات والعقوبات .

ففي العبادات نرى أولا عدم كثرة التكاليف التي جاءت بالقرآن ، حتى صار من اليسر القيام بها دون عنت أو مشقة ، كما نرى إباحة قصر الصلاة حال السفر ، والفطر للصائم إذا كان مريضا أو على سفر ، وإباحة التيمم بدل الوضوء للصلاة لمن لم يجد الماء ، أو كان في استعماله ضرر . وقد فرض الصيام شهرا واحدا في العام ، وأبيح الفطر لمن لا يحتمله ،

والحج قد فرض مرة واحدة في العمر ، ولم يكلف به إلا من استطاع إليه سبيلا ، والأمر كذلك في الزكاة التي لم تفرض إلا على القادر الذي يفيض ماله عن حاجته ، وفي ناحية المعاملات نجد اليسر شاملا ، فليس هناك إجراءات رسمية أو شكلية يجب اتباعها ليكون العقد صحيحا ، كما كان الأمر عند الرومان ، بل تكفي في هذا رغبة المتعاقدين فقط ، ومن ثم فلا نجد في القرآن في جواز العقود إلا شرط الرضا ، ومن باب التيسير في المعاملات أيضا ابتناء كثير من الأحكام على العرف الصحيح شرعا ، وفي باب العقوبات فإن التوجيه النبوي في شأن الحدود يحث المسلمين على الترفق والتيسير ، في مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » ، وفي بعض الروايات : « ادرأوا عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله . فإن الامام إن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة .

الشيخ عبدالعزيز جاويش صاحب كتاب « الاسلام دين الفطرة والحرية » يحدد أحدعشر أصلا للاسلام ، أولها الاجتهاد ، وثانيها القصد في الأعمال ، وإقامة ما لايشق على النفوس من التكاليف » . وقد كتب في هذا المعنى يقول : « فكل ماليس في وسع الانسان أن يقوم به فلا تكليف فيه . والمراد بالوسع في الآية : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » أن يكون العمل حيث لايجهد صاحبه ، ولا يوقعه في العناء والتعب .

ثم قال : « واعلم أن المتغالين في دينهم أقرب الناس إلى العجز في القيام به ، واحتمال تكاليفه » . وفي الحديث النبوي : « أحب الأعمال إلى الله أدومها ، وإن قلّ » (ص ٧١) . ومما ذكره الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه « الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف » في توجيهه لشباب الجماعات الاسلامية المعاصرة : « أن يتخلوا عن التشدد ، والغلو ، ويلزموا جانب الاعتدال واليسر ، خصوصا مع عموم الناس الذين لايطيقون ما يطيقه الخواص من أهل الورع والتقوى . ولا بأس بأن يأخذ المسلم في مسألة أو جملة مسائل بالأحوط والأسلم ، ولكن إذا ترك دائما الأيسر ، واتبع دائما الأحوط ، أصبح الدين في النهاية « مجموعة أحوطيات » لا تمثل إلا الشدة والعسر ، والله يريد بعباده السعة واليسر » .

ثم أضاف : « ولئن كان التيسير مطلوبا في كل زمن ، فإنه في زماننا ألزم ، وأكثر تطلبا ، نظرا لما نراه ونلمسه من رقة الدين ، وضعف اليقين ، وغلبة الحياة المادية على الناس ، وعموم البلوى بكثير من المشكلات ، حتى أصبحت كأنها القاعدة في الحياة ، وما عداها هو الشاذ ، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر ، وكل هذا يقتضي التسهيل والتيسير ، ولهذا قرر الفقهاء أن المشقة تجلب التيسير ، وأن الأمر إذا ضاق اتسع ، وأن عموم البلوى من موجبات التخفيف » .

الاعتدال في الفهم

ثمة أمر جدير بالانتباه هنا ، وهو أن التيسير المطلوب لايكون بتطويع الأحكام الشرعية ، لتكون في خدمة الواقع ، أيا كان ، بحيث يتم قبول كل ما هو قائم أو تبريره . . وإضفاء غطاء أو رداء شرعي له ، ذلك أمر مرفوض بطبيعة الحال ، ولا محل لمناقشته ، من حيث انه يفتح الباب للانخلاع من الشريعة تدريجياً ، لكن الذي نسعى إليه ، ونلح عليه ، هو أولا الاعتدال في فهم النصوص ، وتناولها بصورة لاتشق على الناس ، ولا تحملهم حرجا ، ولا عَنَتاً يفوق طاقتهم ، وهو ثانيا الاهتداء بالمصالح المشروعة في استنباط الأحكام الشرعية الجديدة ، انطلاقا من فهم رحب للنصوص القائمة ، والمقاصد المستهدفة .

وليس خافيا أن الاعتدال المطلوب في تعاطي النصوص الشرعية ينسحب على العبادات والمعاملات

في آن واحد ، أما استنباط الأحكام في ضوء متغيرات الواقع ومستجداته فينصب على المعاملات بالدرجة الأولى .

هنا نذكر بالقاعدة الشرعية التي تقول بأن الأصل في الأشياء الاباحة والحل ، وما لم يقم دليل شرعي على التقييد أو المنع فلكل مسلم أن يباشر مختلف التصرفات ، وهو آمن النفس ، مستريح الضمير ، وإذا كانت المقولة الشائعة تعتبر أن الناس أعداء ما جهلوا ، فان تعاليم الاسلام تحثنا على أن تتخلى عن ذلك الموقف المتحفظ أو المعادي ، وتقرر بوضوح أن الحكمة ضالة المؤمن ، حيث وجدها فهو أحق الناس بها . كما يقول الحديث النبوي الشريف .

وقد كان علم أصول الفقه الذي وضع أسسه العقل الاسلامي المنير منذ بداية المسيرة ، هو سبيل فقهائنا إلى التعامل مع مختلف مستجدات الواقع بثقة ويسر ، وفي إطار الالتزام المطلوب بنصوص الشريعة ومقاصدها .

وإذا دعونا إلى استبعاد منهج ملاحقة النصوص للواقع وتبريرها له ، فإننا نستبعد في الوقت ذاته موقف انفصال النصوص عن الواقع وانعزالها عن مختلف متغيراته ، لكننا ندعو إلى تفاعل صحي وإيجابي بين النصوص والواقع ، محكوم بأصول الدين ومقاصده ، ومستهدف تحقيق المصالحة الدائمة بين الدين والواقع ، بما يقرب ذلك الواقع إلى الاسلام كلما كان ذلك ممكنا .

أطباء الأديان والأبدان

وإن وجهت دعوة التيسير والاعتدال إلى عامة المسلمين ، إلا أن الخطاب موجه بشكل أخص إلى أهل الدعوة والفتوى ، بحسبان أنهم هم الذين يقودون جماهير المسلمين ، أو يرشدون عامتهم .

فلأجل هؤلاء كتب الشاطبي يقول في « الموافقات » : إن المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط ، فيما يليق بالجمهور ، فلا يميل بهم مذهب الشدة ، ولايميل بهم إلى طرف الانحلال ، فذلك هو الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة ، من حيث أن مقصد الشارع حمل الناس على التوسط ، من غير إفراط ، ولا تفريط ، وخروج المفتي عن تلك الحدود خروج عن مقصد الشرع » ، ولذلك كان كل ما خرج عن المذهب الوسط مذموما عند العلماء الراسخين .

ومما قال في هذا الصدد : « إن الخروج عن الوسط خارج عن العدل ، ولا تقوم به مصلحة الخلق ، أما طرف التشديد فإنه مهلكة ، وأما في طرف الانحلال فكذلك أيضا ، لأن المستفتي إذا ذهب به مذهب العنت والحرج بغض إليه الدين » (جـ ٤ ص ٢٥٨) .

وذكر ابن القيم في « إعلام الموقعين » أن : من فقه المفتي ونصحه إذا سأله المستفتي فمنعه منه ، وكانت حاجته تدعوه إليه أن يدله على بديل مباح ، فيسد عليه باب المحظور ، ويفتح له باب المباح ، وهذا لايتأتى إلا من عالم ناصح مشفق ، قد تاجر الله وعامله بعلمه ، فمثاله في العلماء مثال الطبيب العالم الناصح في الأطباء ، يحمي العليل عما يضره ، ويصف له ما ينفعه . فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان . في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « مابعث الله من نبيّ إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعمله لهم » . ونقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية أنه كان يتحرى ذلك في فتاويه ما أمكنه (جـ ٤ ص ١٥٩) . وحذر الامام القرافي صاحب « الأحكام » من أن يكون في المسألة قولان ، أحدهما فيه تشديد ، والآخر فيه تخفيف ، فيفتي للعامة بالتشديد ، وللخواص من ولاة الأمور بالتخفيف ، فذلك قريب من الفسوق والخيانة في الدين ، والتلاعب بالمسلمين ، ودليل فراغ القلب من تعظيم الله تعالى وإجلاله وتقواه ، وعمارته باللعب وحب

الرياسة ، والتقرب إلى الخلق دون الخالق ، (ص ٢٧) .

فهم الواقع وملابساته

يعد الاختيار بين درجات متفاوتة من المفاسد تحديا آخر ، يواجه الفقيه الحق ، إذ بوسع أي أحد أن يرفض المفاسد جملة ، مما قد يرتب حرجا أكبر ، أو مفاسد أعظم ، وحتى يحسم الفقيه ذلك الخيار فهو مطالب ليس فقط بالتمكن من الأدلة الشرعية ، ومعرفة أسرارها ، ولكنه مطالب أيضا بفهم عميق للواقع وملابساته . ولابن القيم - صاحب إعلام الموقعين - رأي سديد في هذا الأمر ، يقول فيه : إن النبي صلى الله عليه وسلم ، شرع لأمته إنكار المنكر ، ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله . فإذا كان انكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله ، فإنه لا يسوغ إنكاره ، وإن كان الله يبغضه ، ويمقت أهله .

ويضيف ابن القيم أن من تأمل ماجرى على الاسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل ، وعدم الصبر على منكر ، فطلب إزالته ، فتولد منه ما هو أكبر منه ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة ، وصارت دار إسلام ، عزم على تغيير البيت ، ورده على قواعد ابراهيم عليه السلام ، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه ، خشية وقوع ما هو أعظم منه ، من عدم احتمال قريش لذلك ، لقرب عهدهم بالاسلام ، وكونهم حديثي عهد بكفر .

ومن الأمثلة التي يضربها في هذا الصدد قوله : إذ رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب ، فإن نقلتهم إلى طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هوأعظم منه . وكما إذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها ، وخفت من نقله عنها إلى كتب البدع والضلال والسحر ، فدعه وكتبه الأولى .

ثم ضرب مثلا بموقف ابن تيمية في زمن التتار ، إذ مر وبعض صحبه على جند منهم ، يشربون الخمر ، فأنكر عليهم صاحبه ذلك ، ولكن ابن تيمية استنكر موقف صاحبه ، وقال له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال ، فدعهم على حالهم .

السكوت على عبادة العجل !

وفي القرآن الكريم يذكر الله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام أن أخاه هارون سكت على عبادة قومه للعجل الذي صنعه لهم السامرى ، وفتنهم به ، حتى يعود موسى ويفصل في الأمر ، وفي هذا يذكر القرآن حوار الاثنين كما يلي : « قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ، ألا تتبعن أفعصيت أمري ، قال يا ابن أمّ لاتأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي » (سورة طه ٩٢ - ٩٤)

ولم يعترض موسى عليه السلام على احتجاج أخيه بهذا العذر ، مما يدل على إقراره وموافقته ، وليس شيء أعظم من السكوت على عبادة عجل ذهب من دون الله (حفاظا على وحدة القوم) ، ولكنه سكوت موقوت ، لاعتبار مقبول ، وذلك من الحكمة وبعد النظر .

ومثل هذا العمق في التقدير والنظر لايتوفر لكل أحد .

* ما مات أحد في حب أمة حتى أحبته . (جمال الدين الأفغاني)



وجبة علمية خفيفة

طابور الجياع يتقدم!

بقلم : فوزي عبد القادر الفيشاوي

طابور طويل طويل من الجياع ، بين طفل غائر العينين ، قد شاب شعره ، وانبعج بطنه ، وبرزت عظام صدره ، ورجل عجوز ، يحاول جاهدا أن يشق طريقه عبر تلك الهياكل العظمية ، وقد مدت الأكف في تضرع صامت طلبا لحفنة من الدقيق أو كسرة من الخبز ، بينما راح الآخرون يحثون في التراب ، علهم يعثرون على بعض حبات القمح المتناثرة بين شقوق تلك الأرض الجدباء القاحلة التي اختلطت فيها رائحة الجفاف برائحة الموت ، ويتقدم الطابور ، ويتساقط ألوف من الضحايا .

مع طلوع أول شعاع للشمس يتساقط - كل يوم - أكثر من مائة ألف إنسان من الجوع ، كما يودع الحياة ما بين ثمانين ألفا ومائة ألف ، صرعى بأمراض سوء التغذية ، ولسوف يقضي بليون آخر من البشر حياتهم ، يتهددهم الضعف الجسماني والعقلي الناتج عن الجوع المزمن .

كما تتمثل مشكلة الغذاء بالنسبة لحوالي ٤٠٠ مليون نسمة في عدم حصولهم على القدر الكافي من السعرات الحرارية اللازمة للجسم .

وقد وصلت قمة المأساة في السبعينيات حينما تأثر أكثر من ٤٥٠ مليون إنسان بالمجاعة ، وقد ورد في تقرير أخير للجنة « برانت » عن الشمال والجنوب أن هناك ٨٠٠ مليون نسمة في العالم الثالث لا يجدون طعاما كافيا .

كما تؤكد مصادر الأمم المتحدة وجود حوالي ٥٠٠ مليون نسمة يعانون من نقص التغذية ، ومثلهم

يعانون من سوء التغذية،أي أن واحدا من كل أربعة تواجهه مشكلة الغذاء .

بؤرة الجوع

وتشير الدراسات إلى أن بؤر الجوع تتركز في العالم الثالث ، ففي أفريقيا قدر أن ستة من بين كل عشرة أفراد ينامون جوعى ، وفي آسيا ذكر أن هناك ٤٦٠ مليون نسمة لم يحصلوا على غذاء كاف عام ١٩٧٧ م .

وتفيد التقارير الرسمية أن في أفريقيا ستة وعشرين بلداً تعاني من نقص حاد في الغذاء ، ومن الممكن أن تصبح خمسة وثلاثين ، أي أكثر من نصف بلدان أفريقيا .

ولعل أخطر جوانب مشكلة الغذاء ، هو ما يتعلق بالأطفال ، حيث يترتب على عدم تناولهم كفايتهم من (البروتين) تلف في خلايا المخ ، وهي مأساة إذا حلت لا يمكن إصلاحها ، مما يعني الحكم على هؤلاء الأبرياء بقضاء البقية الباقية من أعمارهم أسرى للتخلف العقلي ، أو تجعلهم يقضون حياتهم في شبه غيبوبة ، أو أنصاف نائمين ، بحيث يعجزون عن التفكير السليم أو العمل المنتج ، وتعتبر الحياة بالنسبة لهم مجرد فترة انتظار للموت .

وقد توصلت التقديرات إلى أن نصف عدد الأطفال الأحياء اليوم لن يعيشوا إلى سن البلوغ ، كما وجد أن ٢٢ مليون طفل من أصل ١٢٢ مليون طفل في العالم الثالث يعانون من نقص ملموس في أوزانهم عند الولادة ، وذكرت منظمة (اليونسيف) أنه في كل صباح يموت أكثر من ٤٠ ألف طفل ، لم يحتفل بعد أي منهم بعيد ميلاده الأول . !!

إن طابور الجياع يتزايد سنة بعد سنة ، مما يجعلنا ملزمين بمواجهة أصعب مهمة ، ألا وهي توفير الغذاء لستة بلايين نسمة عام ٢٠٠٠ ، أي حوالي ضعف عدد الأفواه في عام ١٩٧٠ .

إن غياب بعض شروط الحياة لم يدفع الجماهير العربية إلى الاضراب والتذمر ، كما فعلت قرارات رفع أسعار الغذاء ، بل إن رفع سعر رغيف الخبز قرشا سوريا واحدا في الثلاثينيات قد أدى إلى إسقاط جمهورية تاج الدين الحسني ، حين سارت المظاهرات تطالب بإسقاطه ، وتندد بسياسته ، لأنه رفع سعر الخبز .

ولعل مكمن الخطر في الوطن العربي يتمثل في حاجتنا الملحة ـ إلى حد التبعية ـ للمواد الغذائية ، حيث تنخفض مستويات الاكتفاء الذاتي في إنتاج السلع الغذائية (دون استثناء) ، بحيث أصبحنا نستورد الآن نصف ما نستهلكه من الحبوب ، وثلثي استهلاكنا من القمح ، وثلاثة أرباع حاجتنا من السكر ، وحوالي ثلث استهلاكنا من اللحوم ، وما يقرب من نصف احتياجاتنا من الألبان ؛ وبذلك أصبحت الواردات الغذائية تمثل أعباء مالية باهظة ، حيث تستنزف كافة حصيلة مصر من صادراتها الزراعية أو غير الزراعية (حيث مثلت نسبة ٩٩٪ منها عام ١٩٨١) ، وتجاوزت ١٠٠٪ في اليمن الشمالي وجيبوتي ، وتراوحت بين ٤٥٪ ـ ٩٠٪ في كل من الأردن والمغرب والصومال والسودان ولبنان . ذكرت مجلة (نيوزويك) الأمريكية عام ١٩٨٢ أن مصر تستورد من الطعام ما قيمته ٨ ملايين دولار في اليوم الواحد .

وقد انعكست الأزمات الغذائية في الوطن العربي على مستويات التغذية لدى المواطن العربي ، فقد قدر أن ٣٨٪ من وطننا العربي يعاني من نقص غذائي بشكل أو بآخر .

المشكلة كيف ولماذا ؟

يرى المحللون الغربيون أن هناك عدداً من العوامل التي أدت بالعالم إلى مثل هذه الأوضاع المتردية ، ويمكننا تصنيفها في مجموعتين : أولاهما ، التغيرات الطارئة في المناخ والعوامل الطبيعية الأخرى التي أدت إلى ظاهرة الجفاف والتصحر .

ثانيتهما ، مسئولية المجتمعات النامية نفسها في تفاقم الأزمة الغذائية التي تتمثل في الحروب وقطع

الأشجار ، بالاضافة إلى فشل السياسات الاقتصادية في تلك الدول ، وسوء الادارة ، إلى جانب الانفجار السكاني الذي يعتبره الكتاب الغربيون من أهم العوامل المسببة لانتشار المجاعات في الدول النامية .

سوف نستعرض بعضاً من تلك العوامل على ضوء الدور الذي تلعبه الدول المتقدمة في تعميق وترسيخ هذه المفاهيم في العالم .

بداية نذكر أن التحليل العميق للمشكلة يؤكد أن ظاهرة الجفاف في العالم ليست جديدة ، فعلى مقربة من شلال النيل الأبيض يقف أول شاهد ، يسجل جذور المجاعة في التاريخ القديم ، حيث تقول كتابة باللغة (الهيروغليفية) : « أنا أبكي من فوق عرشي على المصيبة الكبرى ، لقد أخلف فيضان النيل مدة سبع سنوات ، مما أدى إلى اختفاء المحاصيل الزراعية ، وأصبح كل رجل لصا في نظر جاره ، والأطفال يصيحون من الجوع ، والكبار لا يستطيعون السير ، والمسنون نفوسهم منكسرة ، يجرون أرجلهم بصعوبة على الأرض ، والخزائن خاوية ، لقد فرغ كل شيء . »

كما استدل العلماء من دراسة التأخر في نمو حلقات الأشجار على حدوث موجات جفاف قاسية ، مرات عديدة على مدى القرون الثلاثة الماضية ، إلا أن التاريخ يؤكد أن الافريقيين قد اكتسبوا ـ عبر السنين ـ وسائل خاصة لمقاومة مثل هذه الموجات . ويبقى لدينا سؤال الآن وهو :

ماذا حدث لنظام تطور عبر قرون لمواجهة الجفاف الدوري ؟ ولماذا تحول الجفاف الأخير إلى كارثة ؟

إن تحليل ذلك الوضع يستلزم عرض الحقائق التالية :

إن ظاهرة الجفاف يصعب عزلها عن تدهور التربة أثناء الاستعمار ، نتيجة للزراعة الكثيفة للمحاصيل التي تخدم أهداف الاقتصاد الاستعماري ، وعندما تتدهور التربة يظهر التصحّر ، أي تختفي النباتات ، وتزحف الصحراء .

من الخطأ النظر إلى مأساة الجفاف والمجاعة كما لو كانت كارثة طبيعية مثل الزلازل والبراكين والأعاصير ، فالجفاف وزحف الصحراء لا يدخلان ضمن الكوارث الطبيعية ، بل يحدثان نتيجة لسوء استخدام الناس للطبيعة أو عجزهم عن التغلب على ظواهر قابلة للسيطرة .

إن الجفاف ليس السبب الرئيسي للمجاعة ، بل إن التخريب الاستعماري الاستعبادي الطويل هو السبب ، ولذا فمحاولة التركيز على الجفاف وحده ، مع تجاهل النظام السياسي والاقتصادي للاستعمار القديم لا يساعد على المواجهة الجادة لهذه المشكلة ، وسبر أغوارها .

استغلال الشمال للجنوب

في كتاب « كيف يموت النصف الآخر من العالم ؟ » تقول (سوزان جورج) : « إن الكوارث الغذائية في العالم الثالث ليست ـ كما يصور بعضهم ـ راجعة إلى ضيق مساحة الأرض ، كما لا ترجع إلى سوء المناخ ، وإنما ترجع إلى خضوع الغذاء لسيطرة الأغنياء ، مما يجعل الشعوب الفقيرة وحدها تعاني من هذه الأزمة » .

ويؤكد هذه النظرية (ادريس كوكس) في كتابه « النصف الجائع » عندما يؤكد أن هناك استغلالا واستنزافا حقيقيا من جانب الغرب لشعوب العالم الثالث ، مما يؤدي لاستنزاف ثروات « الفقراء » مرتين ، إحداهما باستيراد المواد الخام بأبخس الأثمان ، والثانية بتصدير السلع المصنوعة بأغلى الأثمان .

ويضيف (نيجيل هاريس) في كتابه « الخبز والمدافع » أن المجاعة في الدول النامية تحدث عندما تحافظ الدول المتقدمة على أسعار مرتفعة لصادراتها الغذائية . ومعنى ذلك أن للنظام الاقتصادي العالمي دورا لا يستهان به في تفاقم المجاعات في العالم الثالث ، حيث لا تجد تلك الدول مفراً من طلب

المساعدات والقروض من الدول المتقدمة فيقل اقتصادها بالديون التي قدرت عام ١٩٨٣ بحوالي (٦٠٠ - ١٠٠٠) مليار دولار . ولعل أطرف الأمثلة عما تفعله المعونات الخارجية هو قصة صندوق النقد الدولي مع مصر في الفترة من عام ١٩٧٨ إلى ١٩٨١ ، فقد كان هدف « الصندوق » المعلن هو إخراج مصر من أزمتها الاقتصادية ، بيد أنه - من واقع الدراسة التي أجراها معهد التخطيط القومي المصري - ظهر أن « الصندوق » دخل مصر عام ١٩٧٨ وهي مدينة بمبلغ ٨٠٠ مليون دولار ، وخرج منها عام ١٩٨١ وهي مدينة بأكثر من ١٨٠٠٠ مليون دولار ، أي أن كل مواطن مصري قد أصبح مدينا عالميا بحوالي ٤٤٢ دولاراً ، بينما دخل الفرد لا يتعدى ٤٦٠ دولار في السنة .. وهكذا تقفل الدائرة تماماً ، مما يزيد الأمر سوءا على سوء .

غذاء الكلب ، وغذاء الانسان

إن المتتبع لسيل الكتابات الغربية ، وكثير من الأقلام في العالم الثالث يلاحظ مقدار ما توليه تلك الكتابات لزيادة السكان في الدول النامية ، وعلاقة ذلك بالمشكلة الغذائية ، حيث يدعي (نيجيل هاريس) في كتابه « كيف نطعم البلايين الجوعى في العالم ؟ » أن الطريقة الوحيدة لايقاف المجاعة تكمن في منع الانجاب كلية ولو بالاجبار ، غير أن التحليل العميق ، يؤكد أن المشكلة السكانية ليست بهذا الحجم الذي تضخمه الكتابات الغربية ، كما أن هذا العامل ليس وحده مسئولا عن الأزمة الغذائية ، حيث تتداخل إلى جانبه عوامل أخرى ، بعضها قد يكون أكثر خطورة .

وفي ذلك يقول المفكر الفرنسي المعاصر (رجاء جارودي) : « من العار أن نسمع المؤتمر السكاني في (بوخارست) يقول فيما يتعلق بالسكان : ان الزيادة في عدد سكان العالم الفقير هي سبب مشاكل الجوع ، ونقص الغذاء ، وأن تحديدهم للنسل سوف يجنب العالم مشاكل الجوع في الوقت الذي نعرف فيه أن فلاحا باكستانيا أو هنديا يستهلك أقل مما يستهلكه زميله الأمريكي في (كاليفورنيا) بأربعمائة مرة ، وهذا يعني ببساطة أن عشرة آلاف من المواليد الأمريكيين أكثر خطورة على التوازن الغذائي العالمي من أربعة ملايين من المواليد الباكستانيين أو الهنود . والمسألة ليست في تحديد النسل كما طلب المؤتمر ، لأن الداء قائم في أسلوب النمو الاقتصادي الموجود في الغرب وغطه ، بينما يكمن الدواء والحل في ضرورة تغيير تصرفات العالم الغربي وأهدافه » .

وهاهي الدراسات تؤكد ارتفاع مستوى الوجبة الأمريكية مقارنة بغيرها في العالم ، بحيث لو أخذت هذه الوجبة الغذائية في الاعتبار لوجدنا أن كل مصادر الغذاء في العالم لا تكفي إلا لتغذية ثلث سكان العالم فقط .

وقد علق أحد علماء التغذية قائلا بأن ما يستهلكه ٢١٠ مليون أمريكي من غذاء يمكن أن يتغذى عليه « ١,٥ بليون » صيني ، حسب متوسط التغذية في الصين ، وليس بغريب عندئذ أن تتهم الدول المتقدمة بأنها لا تستخدم مصادرها الغذائية بالطرق الفاعلة ، فاستهلاك الأمريكي للحبوب يتمثل في تحويلها إلى ماشية ودواجن ، وقد وصل استهلاك اللحوم إلى درجة مرتفعة ، تزيد عن الاحتياج الجسماني ، ولعل الكاتب الانجليزي (نيجيل هاريس) في كتابه « الخبز والمدافع » يزيد هذه النقطة وضوحا عندما يقول : إن جزءاً واحدا من عشرين من كمية الحبوب التي أطعمتها الدول الأكثر نموا لمواشيها كانت كافية لانقاذ أولئك الذين هلكوا من الجوع في بلدان العالم الثالث .

والأغرب من هذا أن ما يأكله كلب عند عائلة أمريكية أو أوروبية مثلا يبلغ ثلاثة أضعاف ما يأكله إنسان في بعض نواحي الهند أو بنجلاديش ، وفوق ذلك يكون غذاء الكلب متزنا حاويا على جميع العناصر الغذائية ، بينما غذاء الانسان . فضلا عن قلة كميته - غير متزن في عناصره الغذائية .



والآن نستطيع - في ضوء هذا الاستعراض المبسط لجوانب المشكلة الغذائية - التوكيد على مجموعة من الحقائق المجردة :

لا شك أن واقع الجفاف والتصحر في الدول النامية يشير إلى فعل الظواهر الطبيعية ، إلا أنها من صنع الانسان سواء المتقدم المستغل أو النامي المقهور .

إن للمشكلة الاقتصادية العالمية دورا لا يمكن إغفاله ، وعندئذٍ يجب أن نسلم بالدور غير المنصف للدول المتقدمة .

لا يمكن أن نخلي أسلوب الادارة والحكم في بلدان العالم النامي من مسئولياته ، خاصة ما يتعلق بالتسليح .

لا نستطيع أن نهمل تماما دور الزيارة السكانية ، لكن دورها ليس بهذا الحجم الذي تضخمه الكتابات الغربية ، غير أننا يجب أن نعترف أن العالم يواجه أزمة غذائية حقيقية ، وأن على العالم أن يحقق زيادة في إنتاج الغذاء ، تصل إلى ١٥٠٪ في الدول المتقدمة و ٢٠٠٪ في الدول النامية من كمية الانتاج الحالي ، ومن ثم فإن زيادة عدد الهياكل العظمية الحية في العالم الثالث - في ظل الظروف الحالية من نقص الموارد الغذائية - يعتبر وضعا لا يمكن التعاطف معه على طول الخط - وبالتالي يصبح أحد الحلول المتواضعة ضرورة التركيز على نوعية البشر ، لتعويض خفض الأعداد ، على أن يتم ذلك عن قناعة دونما إجبار .

ضرورة الايمان - جديا - بدور العلم في مواجهة زحف الجياع .

وفي ذلك يقول « نيجيل هاريس » إنه على الرغم من أن العلم لم يسبق أن ووجه بمثل هذا التحدي ، لكننا من جهة أخرى نجد أن العلم لم يكن من قبل مسلحا بكل تلك الأسلحة التي أصبح من الممكن استخدامها لمحاربة الجوع ، وهو — بلاشك - التحدي الأكبر الذي يواجهنا ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بالادارة الجادة ، والعمل الدءوب المخلص .

وتلك هي المشكلة . . !! □



الخوف

قصة قصيرة بقلم : محمد عبدالملك

جاء الموظف هـ . م . ن الى العمل هذا الصباح وهو مضطرب للغاية .. تناول كوب شايه على عجل ، ووضع السيجارة من مقدمتها في فمه ، وأشعل عقبها ! .. ثم اعتذر ! .. وتمتم ! .. ولم يكن هناك أحد في المكان ! .. كان وحده يلفه صمت شتائي مبكر .. وكانت الغيوم تغطي السماء من خارج النافذة الزجاجية .. ومن ثم عاد وأشعل سيجارة أخرى .. وكان عليه أن يبحث قبل ذلك عن علبة الكبريت التي وجدها بعد بحث طويل ملقاة أمامه ! .. كان الموظف هـ . م . ن قد أمضى ليلة مضنية في فراشه ، يصغى الى نداء خفي مجهول ، وقد حدث نفسه طوال الوقت .. وكاد يوقظ زوجته عدة مرات ثم لم يفعل ، وكان على أمل أن يزوره النوم وتهرب من مخيلته تلك الخيالات المخيفة ..

وفي النهاية أدركه الصباح .. وأدرك هـ . م . ن أنه لم يمت الليلة الماضية كما توقع ، أو كما خيل له ذلك النداء . في الليلة ذاتها اعتقد هـ . م . ن أنه لو أغمض عينيه فانه لن يفتحها ثانية .. ورغم ذلك حاول النوم لكن دون جدوى ! .. ولم يعبأ بنداء زوجته التي طلبت منه ان يخلع « البيجامة » قبل ارتداء البدلة ! .. وان يمشط شعره بعناية قبل الخروج .. وان يعيد فرشاة الاسنان التي تركها فوق سريره الى الحمام ! .. وان يشرب كوب الشاي على

مهل فما زال الدخان يتصاعد منه ، والساعة مازالت قبل السادسة ، والدوام يبدأ بعد ساعة فما الداعي لكل هذه العجلة ؟! . . وفي صالة البيت المظلمة التي لا تزورها الشمس جلس هـ . م . ن يفكر . . تأمل بدلته الرمادية الوحيدة التي اشتراها ليلة عرسه قبل عشرة أعوام قبل أن ينتشله صوت زوجته : وهي تلقي عليه تحية الصباح .

وكانت تبتسم لتخفف من عبء الهموم التي أنبأتها عنها حدة عينيه واضطرابه ، وكان كل ما فعله هو التفاتة ، التفاتة صغيرة فحسب ، اذ لم يستطع حتى الآن أن يرتب تفكيره ، فمازال الوقت مبكرا . . لم يذهب الليل بالمرة ولم يأت النهار . . ثم انه بحاجة لاستعادة ماحدث الليلة الماضية ! وكانت زوجته تربت على كتفه فيقفز ثم يجلس ثم ينهض ويعيد نظارته الى مكانها ويتمتم ، وبالكاد يسمع صوت زوجته :

- هل تشعر ببرد ؟!

وفي اضطراب وهو يحاول أن يحتوي ارتباكه كرر عدة مرات . .

- أتظنين ذلك ؟!
- لست على مايرام !
- ابدا ! . . ابدا !
- جسدك في ارتعاش !
- لاأعلم ! . . ربما . . ! . . أرتجف ! . . أبدا

وفي الحال احضرت مقياس الحرارة فشعر بالخوف . . لم تكن أوهاما فحسب ! . . انها حقيقة تتحول وتتجول في رأسه وجسده في الليل والنهار . . وهي تنبه بالنهاية بأشكال مختلفة ! . . وحين نزعت زوجته مقياس الحرارة من فمه سمعها هذه المرة بوضوح تقول :

- أوه ! . . يجب ان تسترخي في السرير !

لكنه جمع قواه وقال :

- لابأس ! . . لابأس !
- هل ستداوم هذا النهار ؟
- بلا شك فالمدير الجديد صارم شأن المدراء الجدد . .

ثم انني لم أتغيب عن العمل منذ عشرين عاما .

حين لفظ « عشرين عاما » تذكر الاقسام التي تنقل عبرها ينشد الترقية دون جدوى . . رأى أترابه ينتقلون من مقعد خشبي صغير الى مقاعد جلدية كبيرة تدور . . من غرف عارية الى غرف مفروشة ومزروعة بالورود والرياحين . . أصبحوا مدراء ومراقبين ومشرفين من ذوى الأمر والنهي والوجاهة . .

وهـ . م . ن لم يتغير . . تحركت السنين ودارت الكواكب والافلاك والنجوم وهو لم يتحرك . . تغيرت المباني والازمان والبشر ، والطقس تغير ، واللغة ، والبحر ، والصحاري والمركبات تغيرت ، وهو لم يتغير . . دارت الحياة من حوله كما تدور الكرة الارضية حول الشمس ، وظل في محوره ينظر الى الدنيا الجديدة مدهوشا ويدور معها . . وفي دورانه كان رأسه يدور،فوتيرة دوران الحياة اسرع من حركته في المراقبة،حتى بات يشعر بالاعياء والسقوط في أي لحظة ! . . ظل هـ . م . ن . هو نفسه . . موظفا شديد الحساسية . . بالغ الخجل ، لا يدخن أمام النساء،لايضحك أمام غريب،ولايصدر أمره حتى للفراشين ، وذلك ما أساء الى سمعته في العمل ، عجزه عن الأمر ، تردده في اتخاذ القرار . . وخوفه . . وارتباكه . . وقد سمع بأذنيه هاتين رئيسه في العمل يقول لزميله ، هـ . م . ن ضعيف ! صحيح انه طيب الى أبعد حد . . صحيح انه مخلص في عمله ، لكنه شديد الخجل . . منطو ويرتبك لأتفه الأسباب ، والمراكز القيادية تحتاج الى الثقة والقوة والأوامر ! . . هكذا وجد هـ . م . ن . نفسه مأمورا منذ أن ولدته أمه ، وجاء الى هذا الكون ، حتى تزوج ، وحينما تزوج كانت زوجته تأمره . . في البداية انتظرت صدور الأوامر منه . . باتت تتمنى أمرا واحدا فحسب ، وحين يئست بدأت هي تصدر الأوامر . . وحتى أطفاله تعلموا كيف يصدرون الأوامر له هو نفسه ! . . لكنه لم يحرك ساكنا . . لم يغير طبعه ، وربما كان الأمر خارج ارادته ، فـ .

هـ . م . ن . كان منطويا ، وهو يحب الحيوانات ويرأف بحال الفقراء . . وحين يشاهد شحاذا في الطريق يذرف دموعا حقيقية تسقط على الأرض ! . . وفي هذه الحالة ، وقبل أن يمسح دموعه بكم معطفه القديم ، يكون قد أخرج كل ما في جيبه بما في ذلك القطع النقدية الصغيرة ، ومصاريف البيت ناسيا وعيد زوجته وتهديدها له بالطلاق على هذا العمل الأحمق !

وتيقن هـ . م . ن . هذه اللحظات بأنه في العمل ، وحاول ان يتذكر كيف قطع المسافة من البيت الى الوزارة غير عابيء بالأمطار والبرد ، وتذكر انه لم ينظف حذاءه المتسخ بالماء والطين ، وقد عبر الاشارة الضوئية الحمراء ! وكادت شاحنة ضخمة كبيرة تلتهمه في الطريق . .

وتذكر انه لم يرتبك من عبور الشاحنة السريعة ، كان مشغولا بالخوف ! . . الخوف الذي داهمه ليلة البارحة . . واستمر معه هذا الصباح . . وتابع خطاه الى الوزارة . . الخوف الذي توارثه منذ الولادة ، وفي عمر الشباب ، وربما ورثه عن أبيه وجد جده . . الخوف ذلك الكائن الذي لايمكن السيطرة عليه لصعوبة معرفته . . وسهولة مروره الى القلب كمرور الهواء في الرئة . . وركبته الهواجس . . وفكر كيف سيتعامل مع الأرقام والبشر والمعاملات وهو على هذه الحالة من الاضطراب ؟! . . وفكر أن يجيز نفسه من العمل هذا اليوم ، ولكن ماذا عن الأيام القادمة ؟! . . سينال جزاءه بالحتم ! . . اذن يجب ان يقطع دابر الخوف والهواجس من الأساس ! وقبل أن يتفاقم الأمر ، فمازال في البداية ! . . ولكن كيف ستمضي به الأمور وهو في قسم المحاسبة وأي غلطة صغيرة كفيلة بقطع راتبه ؟! . . ومن يعلم قد يكون في ذلك قطع رزقه ! . . واعترته الهواجس من جديد ! . . هل يعود ادراجه الى البيت وقد وقع ورقة الحضور ؟! هل يبقى في مقعده وقد حان موعد حضور الجميع ؟! . . وتمنى هـ . م . ن . ألا يأتي أحد . . أن يبقى وحده كما هو مع المقاعد والجدران والورق . . وحده بلا عين تلحظه أو رقيب يحسب حركته ، لكنه سمع وقع خطوات قادمة ، وتلقى أول تحية صباحية ردها على عجل ، ويفزع وكأنه يريد الخلاص من الحديث ، ثم طلب القهوة . . وفتح رباط عنقه ، وأشعل سيجارة بطريقة سليمة هذه المرة . . وتقاطر الموظفون ، وعمت الحركة ، ودارت فناجين القهوة ، وتبادلوا الحديث في الطقس والبرودة والمطر ، وتذكروا حر الصيف ومباريات كرة القدم وسباق الخيل ، وفتحوا راديو ترانزستور صغيرا واستمعوا الى اغنية هابطة ، ثم فتحوا لفافات الأكل واللب وعلب المشروبات الغازية ، وبدرت ضحكات خفيفة ، وهمسات . . وبدأوا يستقبلون الصباح بمرحهم المعهود . . وكانوا جميعا اصغر منه بأعوام ولم يمنعهم ذلك من التندر عليه . خاصة حين يرتبك أمام المدير في جولاته التفتيشية . . واحيانا كانوا يتحدثون عن معطفه ، وساعة جيبه ، وطريقة تدخينه ، وخجله أمام البنات وتيقن هـ . م . ن . أن لا مفر من مواجهة الموقف بحزم وارادة ! . . كل ما عليه هو النسيان . . والا يتذكر ماحدث البارحة وهذا الصباح . . والايفكر في المستقبل بالمرة . . وألا يوزع راتبه في عقله آلاف المرات . قرر هـ . م . ن . أن يعيش بعفوية وأن يجوع بعفوية . . وأن يموت بعفوية ! . . فقد يكون ذلك اجدى ! . . وقد تنتهي مشكلته . . وفكر هـ . م . ن . وقرر الايفكر ! وجاء الى القسم شيخ الفراشين ثاني خميس جمعة ، يحمل ورقة جمع تبرعات لعلاج موظف مريض فأخرج هـ . م . ن . كل ما في جيبه ، وكتب في جدول الأسماء فاعل خير ! . . وسحب سيجارة أخرى وطلب القهوة من جديد ، وبدأ يستقبل المتعاملين ويسلم أوراقا ويتسلم ، ثم نهض وقال نكتة ! . . وضحك وحده ! ثم ضحك عليه الجميع ! . . ثم ابتسم ابتسامة صفراء ، كان فمه

عاجزا عن الالتئام ، وكأن جرحا طريا قد ألم به . . كما كان عاجزا عن الاستمرار في الحديث ، لكنه افتعل اللامبالاة وضحك . . ضحك دونما سبب ظنا منه انهم مازالوا يضحكون ، فضحكوا من جديد عليه ، ضحكاً جماعياً ، همجياً ، منطلقا ، وكان معطفه يتدلى من الجانبين . . ولم يسعفه الوقت للجلوس أو التفكير حيث فاجأه ثاني خيس جمعة برزمة من الورق احتوت على فواتير الكهرباء والماء والهاتف مع انذار بالقطع ! . . واخطار عن اهمال في العمل ! . . ودعوة من المدير لحضوره الى المكتب على عجل . . وكشوفات آخر الشهر ! . . واضطرب من جديد ! استقر على مقعده ، وكاد يغوص في المقعد ، ارتخت مؤخرته على حافة المقعد ، وغاص رأسه في كتفه ، ودخل كتفه في صدره ، وسقط بطنه بين فخذيه ! كان هـ . م . ن . يبدو كعجينة متحركة الأطراف ! ثم عاوده الخوف . . الخوف ! . . وفكر دون أن يفكر : ماذا لو عبرت جسده الشاحنة الكبيرة هذا الصباح ومات ؟! ماذا لو توفى بالسكتة القلبية ؟! ماذا لو فصل من العمل ؟! وسمع هدير ضحك مجاور فاستيقظ ، ظن انهم يضحكون عليه ! . . وربما كان يفكر بصوت مسموع . . ثم ان هيئته في حد ذاتها مدرة للضحك ! . . ودخلت القسم فتاة في مقتبل العمر ، فتذكر يوم زواجه وكيف كان في غاية السعادة مليئا بالتفاؤل فلم يفكر كيف يدخر الفلس الأبيض لليوم الأسود ! . . وأي يوم أسود ؟! . . كانت الشمس ما تزال خلف الغيوم تلد السواد والحزن والسكون . . ورأى مطرا يضرب بهدوء وجه نافذته فتحسر على اشياء لايذكرها . . وشعر بانه سيغادر هذه الدنيا الجميلة . . وحاول ترتيب افكاره من جديد . . وأن يستعيد آماله الشاعرية التي كانت تحتويه بسعادة عند نزول المطر أول كل شتاء . . كان المطر مؤلما كالنزيف ! . . وكان هـ . م . ن . يدخن سيجارة عاشرة ، ويشرب كوبا خامسا من الشاي الأحمر ، ويزيح معطفه عن صدره رغم برودة الطقس ويفكر ! ثم مال لونه للاصفرار ، وازداد ارتباكه في العمل ، ورن جرس « التليفون » كان سكرتير المدير يستعجل حضوره ! . . ثم نال توبيخات بالجملة ! وانذارات متلاحقة ! وتكررت اخطاء كبيرة في الحسابات ! وازداد خوفه ، أصبح هـ . م . ن . يخاف الخروج من البيت بعد العمل ! ويخاف الذهاب الى البيت بعد العمل ! ويخاف مذيعي نشرات الانباء ، والفواتير المندسة تحت الباب ، ويخاف الخوف ! أصبحت الحياة خوفا في خوف ، توارثت نفسه الخوف ، أصبح الخوف يلازمه في كل مكان ، وفي كل خطوة فقد تزل قدمه وتبتلعه المجاري العميقة ، أو يتوقف نبض قلبه ، وربما تطارده الشاحنات الضخمة لتمر على جسده دون رحمة ! ، ثم رأى جسده مهروسا مع عظامه ، ثم رأى زوجته تنعاه . . ثم كان منقولا على نقالة ! ولم يكن ثمة وقت استراحة من الخوف . فكل خوف يجيء لخوف أكبر ! وكل لحظة تلد آلاف الاسباب للخوف . . أصبحت الحياة خوفا في خوف في خوف،بعد أيام نُقل هـ . م . ن . الى مستشفى الأمراض النفسية والعصبية . اعطوه رقما . . وسريرا ابيض باردا ، وشراشف بيضاء باردة وغرفة بيضاء باردة ، وارسل تقريره الطبي الى الوزارة مباشرة في ظرف سري يقول : السيد هـ . م . ن مصاب باكتئاب نفسي شديد نتيجة لضغوط متنوعة ، ولعدم شعوره بالأمان . . وسيكون تحت الرعاية الطبية الدقيقة . كما وان شفاءه رهن بزوال مسببات المرض ، وفي غرفته العالية السقف كان البلاط الابيض يشعره بفكرة طرأت له فجأة ، فبات يعتقد انه محاط بكفن ابيض فضفاض ! . . واستطاع معطفه القديم الداكن المركون على شماعة فقط اخراجه من هذا التصور ، فاستذكر كفاحه الطويل وسعيه المر في الحياة . .

ولم يأت أحد لزيارته باستثناء زوجته وأولاده . □

بقلم : محمود المراغي

المائدة العربية..
والأطباق متعدّدة الجنسيّة

تقول التوقعات ان الشرق الأوسط سوف يصبح أكبر مستورد للغذاء في العالم كله خلال سنوات قليلة ، أي أن بلدان العالم كلها ـ وبدرجات متفاوتة ـ سوف تصبح قادرة على توفير قدر اكبر من غذائها . . ويتخلف عن ذلك مجموعة أساسية هي : المجموعة العربية . . ويقولون : إن اخطار هذا الوضع قد لا تتمثل في العبء المالي المترتب على ذلك ،لكنها تتمثل في الأزمة التي تنشأ حين يقل المعروض من الغذاء بشكل عام وحين يصبح تداوله أمرا عزيز المنال ، ويدخل في باب الاستراتيجيات العليا التي تحدد : لمن نعطي . . . وعمن نمنع ، فيكون العطاء لدوائر تابعة لهذا المركز أو ذاك ، ويكون المنع عن الذين يرفضون التبعية .

المقدمات والنتائج تحوي قدراً كبيرا من الاثارة ، فالأرقام تقول إن استيراد البلدان العربية من المواد الزراعية قد تضاعف ثلاث مرات بين منتصف السبعينيات واوائل الثمانينيات . كان حجم الاستيراد (٨) مليارات دولار فأصبح (٢٣) مليارا طبقا لما اذيع في ندوة البحوث الزراعية التي عقدها اخيرا الصندوق العربي للانماء والمركز الدولي للبحوث الزراعية في المناطق الجافة .

الأرقام مثيرة ، فالاحتياجات تضاعفت ثلاث مرات في أقل من عشر سنوات . . والغذاء وحده يحتل ٥٦٪ من مجمل هذه الواردات ، واللحوم تحتل ثلث القائمة . . بينما تحتل الحبوب النصف .

في التحليل تقول إن الزيادة السكانية تلعب دورا ، لكنه دور محدود فالسكان لا يزيدون بهذا القدر ، بل إن زيادتهم لا تتجاوز الـ (٣٠ ـ ٤٠) بالمائة خلال عشر سنوات .

هناك اذن أسباب اخرى ، من بينها تزايد الأسعار ، و بينها تزايد الدخول والاستهلاك في المنطقة العربية ، وهو ما يفسر أن تحتل مجموعة اللحوم هذا المكان البارز في قائمة الاستيراد . . ثم . . وهو الأهم هناك ضعف الانتاج الزراعي . صحيح أن بعض المناطق العربية قد تعرضت للجفاف ، لكن هذه المناطق تشمل كل السنوات ، ولم تشمل غالبية البلدان .

إن عنصر الجفاف قائم لكنه ذو اثر محدود .

القضية اذن تتعلق بهيكل الاقتصاد العربي . . وماذا يفرز ؟ وماذا يقدم للمستهلك ؟ .

●● هذه الأولويات المختلة

طبقا لأرقام نفس الندوة فان المتاح زراعته حاليا في الوطن العربي لا يتجاوز ٤٪ من مساحة البلدان

العربية . . أي اننا نعيش في صحراء شاسعة تتخللها بقع خضراء ، وعند الحديث عن هذه البقع ـ وبخلاف المراعي والغابات نجد أن (١٦) بالمائة تقريبا تتوافر له نظم الري . . (٨٤) بالمائة يعيش على المطر .

نحن إذن نعيش الخطر ، ولم تستطع آلاف السنوات من الخبرة الزراعية ، ولم تستطع آلاف الملايين من الدولارات التي نجنيها من أنشطة اخرى أن تحدث التغيير المطلوب ، أو تزيد مساحة اللون الاخضر او تساعدنا على اللحاق بالنمو السكاني .

والوضع خطير لان جهدا لا يبذل لتخطي الأزمة ، والعودة للاعتماد على الذات في أبسط السلع : رغيف الخبز !

لقد تغنى شعراء العرب بوادي النيل ، ووادي الفرات ، والمروج الخضر في ربوع الشام واليمن ، وحدائق المغرب الغناء ، فهل اصبح كل ذلك دون المطلوب ؟

الاجابة بالأرقام : نعم

والاجابة بالارقام تضعنا على حافة الحقيقة دون الخوض في قلبها لان متغيرات القرن الواحد والعشرين ، والسباق الدائر بين الموارد وزيادة أعداد البشر ، وتراجع ظروف البيئة وأثره على الانسان والنبات والحيوان كل ذلك يصعب قياسه في الوقت الراهن ، لكن الأكيد أن السباق بين النمو الزراعي بشقيه : النبات والحيوان . . وبين النمو البشري بما يعنيه من زيادة في الاعداد ، وارتفاع في مستوى الاستهلاك . هذا السباق ليس لصالح الانسان العربي .

أما اذا سألنا عن السبب فسوف يقول الخبراء ندرة في الماء وندرة في الأرض الخصبة . . وسوف يزيدون أن اطراف المنطقة العربية ينحسر منها اللون الاخضر الذي عاش آلاف السنوات ، فالتصحر ظاهرة تسري وتبدي اثرها .

ولكن . . أليس من اسباب اخرى أكثر الحاحاً ؟

اظن أن السبب الرئيسي أو المتغير الرئيسي الذي نستطيع أن نتحكم فيه هو : سلم الأولويات العربية . . اننا نستورد من السلاح ما يزيد عن وارداتنا من الغذاء . . ننفق على بناء المدن اكثر مما ننفق على اقامة المزارع . . تتعجل الزيادة في الاستهلاك بأكثر مما تتعجل الزيادة في الاستثمار ، وانتظار عائده . نحن نفكر بعقلية اليوم ، وننسى في كثير من الأحوال احتياجات الغد .

وخلال ذلك تظهر التناقضات : بلدان عربية زراعية تستورد الغذاء . . حتى اصبحت المائدة العربية في كثير من الاحوال مائدة اوروبية امريكية ـ استرالية . . حتى التكامل العربي لم تنجزه لتصبح وارداتنا العربية البسيطة . . عربية ايضا . . يستوى في ذلك الفقراء والاغنياء ، بلدان الوفرة الزراعية وبلدان الندرة الزراعية فالكل يستورد . . مناطق الجفاف ، والمناطق التي كانت في موقع العطاء .

●● علم الاختيار

المهمة عاجلة . . علينا أن نواجه ذلك ، واولى خطوات المواجهة الرجوع الى البديهيات . . فاذا كان التخطيط هو علم الاختيار بعد التنبؤ،واذا كان القرار السياسي هو اختيار مصير امة وطريقة عيشها . . فان المهمة الاولى لمتخذي القرار في الوطن العربي أن تأخذ الزراعة وأن يأخذ الغذاء أولوية في الاهتمام .

بعد ذلك سوف تبقى معضلة اسمها : الريف والمدينة ، فحين يكون الاهتمام الاول بالمدينة ، وحين تشجع أنشطة الدولة نزوع الافراد للهجرة الى المناطق الحضرية ، وحين تكون الفروق في مستوى المعيشة ، ومستوى الرفاهية ، ومستوى الثقافة واضحة جلية بين القرية والمدينة ، بل وحين يضطهد الاقتصاديون الانتاج الزراعي ليأخذوا منه « الأكثر دائماً ويعطوه الأقل دائماً » في الأسعار والدعم والرعاية ، حين يحدث كل ذلك ، هل نتوقع حماسا واقبالا على العمل في قطاع الفلاحة ؟ □



رؤية فنية لما بعد الموت..

بقلم : ابو المعاطي ابو النجا

كانت « فكرة ماذا بعد الموت » ـ ولاتزال ـ تستهوي وتجتذب أقلام المفكرين والفنانين والأدباء منذ مختلف الأزمنة .

فالسؤال « ماذا بعد الموت » ؟ وكيف ؟ كامن في أغوار العقل الانساني كمون الحياة ذاتها ، تتحدث الأديان ، ويكتب الفلاسفة والمفكرون والعلماء ، ويتخيل الادباء ويرسم الفنانون ، لكل نقطة انطلاقه ، ولكل منهجه وادواته ولكل غايته ومتلقيه ، ورغم أوجه الاختلاف هذه ، فان جوهر الخبرة الانسانية التي يقتربون منها ، ويحاولون اكتناه سرها العميق ، واحد ، مثلما الانسانية واحدة ، فالذين يبحثون عن معنى الموت وماذا بعده ، انما يبحثون في الوقت ذاته عن معنى الحياة ، وماذا ينبغي أن تكون ؟ وهم ـ قصدوا أولم يقصدوا ـ متأثرون في بحثهم عن معنى الموت بفكرتهم عن معنى الحياة ، وخبرتهم بها ، بعمق هذه الفكرة وهذه الخبرة .

بعضهم قصد بتصوير مايجري بعد الموت مجرد التعليق على ماجرى في الحياة ، هناك من اختار أسلوب التهكم والسخرية والمفارقة ، وهناك من قصد التماس الحكمة والعبرة ، هناك من حلق بجناح الخيال والاسطورة،وهناك من استوحى الموروث الديني ليكون اطارا ينسج خلاله رؤيته الخاصة عن الحياة ، وكيف ينبغي أن تعاش وتمارس ، ومن هذا النوع الاخير عبد الحكيم قاسم في روايته الأخيرة « طرف من خبر الآخرة » .

عن الكاتب وتجاربه

عبد الحكيم قاسم روائي عربي من مصر قدم لنا في الستينيات روايته الاولى التي لفتت إليه الانظار بقوة ـ « أيام الانسان السبعة » ثم تابع بعدها ـ قبل وأثناء هجرته الى المانيا خلال السبعينيات لمدة عشر سنوات ـ تقديم رواياته « محاولة للخروج » و « المهدي » ،« وقدر الغرف المقبضة » بالاضافة الى مجموعاته القصصية ، ومن قرأ هذه الاعمال سوف يلمس في بعضها على الاقل ، وبخاصة في روايته الاولى تأثير التراث الديني والشعبي الواضح في اختيار الكاتب لمادة روايته،وهو تأثير يمتد الى روايته الأخيرة ، مع أن الرؤية التي تحملها هاتان الروايتان هي في صميمها رؤية عصرية عقلانية ، تنزع نحو الروح العلمي الا انه نزوع لاتضعف معه الصلات بين تلك المناطق المجهولة في الذات الانسانية ، والتي لانزال نعتمد في التعرف عليها على الحدس الفني ، وبين تلك المناطق التي يلقي عليها علم النفس الحديث،وعلم الطب النفسي الكثير من أضوائه ، ويكاد يخضعها للبحث والتجريب .

رواية أم مجرد نص أدبي

قد يختلف النقاد حول تحديد هوية هذا العمل الأدبي « طرف من خبر الآخرة » فيرفض البعض اعتباره رواية بالمعنى أو المعاني المعروفة للرواية ، ويقولون ان الطابع الفكري الحاد ، وشكل الحوار في الفصلين الثالث والرابع « الملكان » ، و« الحساب » يجعلان من هذين الفصلين ، حلقتين من حلقات الدرس والمناقشة اكثر من كونهما فصلين في رواية فنية ، وقد يتحدثون عن ضعف الصلة العضوية بين الفصول « الثاني ، والثالث،والرابع » من جهة ، وبين الفصل الاول « الموت » والاخير « النشور » من جهة اخرى . ومع ذلك فقد عقدت العزم على أن أفرح بهذه الصلة التي تبدو واهنة ، وان اعتبر هذا العمل رواية فنية ، فيها بناء وشخصيات ودراما ونسيج رقيق تتحرك فيه هذه العناصر في وحدة رائعة هي التي تجعل من الرواية رواية ، اصدر في هذا التوجه عن تقدير لطبيعة الخبرة الشائقة والشائكة التي يقترب منها الكاتب ، ولخوضه هذه المغامرة في ضوء مايريد أن يتلمس السبيل اليه ، في مناطق غير مأهولة ، وغير منزوعة السلاح ، لكن لماذا لا نبدأ من البداية ؟ .

بناء الرواية

يقوم بناء هذه الرواية على خمسة فصول ، يتوافق ترتيبها في الكتابة مع ترتيب وقوعها الزمني ، وهي « الموت » ، « القبر » ، « الملكان » ،« الحساب » « النشور » .

الموت

في هذا الفصل ، نلتقي بحفيد وجدّ ، الحفيد صبي يمكن أن نراه رمزا لطفولةأي انسان ، فهو ليس صبيا بعينه ، لكنه يحمل كل خصائص الطفولة ، فيه تلك الاندفاعة القوية الخصبة للحياة ، رغم أنه يعيش في قرية تشبه قرى الريف في مصر ، ملأى بمعوقات الحياة ، الا ان هذه المعوقات لم تفسد بعد رغبته البكر في أن يحس ويدرك ، ويعرف ويتعلم .

« الجد » عجوز متوحد يعيش في بيت منعزل رغم أنه في قلب القرية ، وكل الطرق تؤدي اليه ، دائما يعرف الحفيد طريقه الى بيت الجد مدفوعا بقوة غامضة لاتقاوم ، ويمكن أن نرى هذا الجد بدوره رمزا للماضي ، للتاريخ ، فإليه تنتسب كل عائلات القرية ، كل مايفعله الجد في عزلته هو أنه يقرأ كل كتب الماضين ، ويسجل في دفاتره وقائع الميلاد والموت ، الجد صامت غامض مشوه (ربما هكذا التاريخ) ولكن لا فكاك امام الناس في القرية من الرجوع اليه ، في لحظات الأزمة والخراب . والتواصل مع الجد ليس طريقه القرابة ، بل الحب والقراءة ، لكنه طريق قد يستغرق الحياة كلها(ربما

هكذا التاريخ) ، يكتشف الحفيد خلال محاولاته الاتصال بالجد أن ثمة امرأة ترعاه ، وتتفاهم معه دون لغة ، ربما بالنظر والتلامس ، فيتأكد له بأنه كان للانسان من الحواس ماهو قبل الحواس ، ومن اللغة ماهو قبل اللغة (ربما ذلك جوهر علاقة المرأة بالحياة ، ورعايتها لها حتى قبل اللغة .)

ثم يقع ذلك الحادث العادي دائما ، وغير العادي كذلك ، يموت أحد الناس في القرية ، ويعرف الحفيد أن عملا من أعمال الجد سوف يبدأ ، اذ لابد أن يسجل اسم الميت ، فيترك الجد ليقوم بعمله بمساعدة المرأة ، ويذهب هو الى دار الميت ، نرى من خلال عيني الحفيد طقوس الموت في القرية ، ونرى من خلال وعيه التشوف الى ادراك معنى أن يموت انسان ؟ وأن تتجاور قريتان ، قرية للأحياء ، وقرية للموتى ، « وفي البعد القليل بينهما يدور الناس دائخين محاولين في صبر استئناس العماء بسر التلاوة » .

ومعنى أن تتجاور في دفاتر جده أسماء من يولدون ، واسماء من يموتون ، وكأن الحياة والموت شيء واحد ، أو شيئان لاسبيل لأن يفهم احدهما دون فهم الآخر .

كان هذا التشوف هو ثمرة علاقة الحفيد بالجد ، وهي العلاقة التي ينضجها الفصل الاول من الرواية . وكأن وعي معنى الموت مرتبط بوعي فكرة التاريخ ، فالحيوانات لاتعي فكرة الموت لأنها لاتعي فكرة التاريخ

حين يعود المشيعون بعد دفن الميت ، يبقى الحفيد بجوار المقبرة وكأنه بهذا البقاء سوف يدرك مالا يدركه العائدون من أهل قريته وتبقى زوجة الميت ايضا ، وهي امرأة كانت تحنو على الحفيد حنوا رقيقا في حنان ، (هل هي حاجة كل انسان حين يتأهب لأمر خطير الى حنان امرأة ؟ وهل تكون هذه المرأة للحفيد مثل المرأة التي ترعى الجد ، وتتفاهم معه بلغة ماقبل الحواس ؟) .

القبر

في القبر ، نلتقي بصورتين للموت ، الصورة الظاهرة ، كما كان يراها اللحاد ، جثث بادت ، ينحي جانبا ماتبقى منها ليفسح مكانا لجثة في طريقها الى أن تبيد ، والصورة الخفية أو الحقيقية ، كما يراها الميت حين يتم تحرره من عنصر الجسد ، حينئذ يحضره عمره كله على ظهر الدنيا « كل الاشياء ، وكل الاوقات ، وكل الناس ، من مات منهم ، ومن لم يزل على قيد الحياة ، حضور مطلق ، لايثير دهشة ، ولايصنع فرحا ، ولايؤجج شماتة ولاندما ولاحفيظة ، وانما يكون معرفة . . . »

ها هو الميت يرى الآن ـ ونرى معه ـ أحداث حياته كلها ، في فيض هذه المعرفة الشاملة :

« كان جنينا في بطن أمه حين انفصلت أمه عن أبيه لخلاف بين والده وخاله ، فعاش مع أمه في بيت خاله ، عاش حياته كلها يكره هذا الخال لاعتقاده أنه هو السبب في حرمانه من العيش مع أبيه ، الآن يعرف أن خاله كان يحبه ، ويتمنى أن يتخذه ولدا لأنه حرم من الولد ، ويعرف أن الخلاف بين الأب والخال كان مسئولية الاثنين وانه لم يكن مما يصعب حله ، لقد دفع هو ، كما دفعت أمه التي ماتت كمدا ثمنا غاليا ، لهذا الخلاف ، لأن الاب والخال عجزا عن أن يدفعا الثمن الأقل ، عاش يحمل في جسده عجز أمه ورعبها ، وما بين أبيه وخاله من تمزق وضغينة . . .

هكذا يمضي الميت في رؤية أحداث حياته في لحظاتها الفاصلة فيدرك « أنه جاء الى الدنيا بتكوين عاجز شائه ، ولم تكن الدنيا بقادرة على أن تمرض هذا الكيان ، بل انها زادت من نقصه حدة ، وعليه فقد عاش دائرا بين عنف الحب وعنف الكراهية (وها هو يدرك الآن) أنهما عاطفتان جوهرهما واحد هو الخوف ، يختلف اتجاهه لكنه لايكون أبدا غيرة أو اثرة أو مراعاة . . . »

وهكذا حين يجيء الملكان في الفصل الثالث يبدو أن كل شيء قد انضج ذلك السؤال الكبير . . وفق أي معايير سوف يحاسب ذلك الانسان ذو التكوين العاجز والمعرفة الناقصة . . ؟

يجيء الملكان في صورة تستمد بعض ملامحها من التراث الديني ومن خلال الحوار الممتد بين الملكين والميت بغير لغة ، نتعرف على معايير الحساب ، وهي معايير تنأى عن كل مايتصل بنقص المعرفة بسبب قصور الجسد الانساني وعجزه ، وتقوم على أساس قديم جديد ، فحيث ان كل فعل انساني يتضمن بالضرورة حكمة منه ، فعلى الانسان أن يكون في حالة تمحيص دائم لأفعاله ، حتى يدرأ الاختلال بين

الفعل وحكمة الفعل . .

بأي وسيلة يتم هذا التمحيص ، ويتم تقدير الحكمة : بعقل الفرد ؟ أم بعقل الجماعة ؟ هكذا يسأل الميت :

ويرد الملكان :

« ليس عقل الفرد ولا عقل الجماعة ، فكلاهما يرد عليه شرط العجز،وليست الحكمة المطلقة بل هي حكمة فعل محدد ، في ظروف محددة ، وهي حكمة تتحقق نتيجة محاولة المرء استكناه الاتجاه الحقيقي لنبض الذات في حالة تحرره من الخوف أو الطموح أو الشهوة . واختيار الفعل أو الامتناع عنه ، الذي يؤكد وجود الفاعل ولا يخطر ترقّيه ، ويؤكد وجود الآخرين ولايحظر ترقيهم .

« هل يجعل الملكان الأمر اكثر صعوبة ؟

هكذا يبدو على الميت أنه يشعر ويجيب الملكان :

« ان الاختلال بين الفعل وحكمته يؤدي الى ابتعاد الفرد عن الانسان الحقيقي الى الانسان الدور أو الوظيفة ، وما يكون في ذلك من مسخ للفطرة ، ويتساءل الميت كمن وجد حبل نجاة ، من المهم اذن أن نعرف كيف نفهم الفطرة ؟

« انها رغبة كل كائن في البقاء والترقي بدءا من أكثر صور الحياة بدائية

« الا تؤدي هذه الرغبة الى المزاحمة حتى يكون شرط بقاء الواحد قتل الآخر .

« قد تكون المزاحمة هي الصورة البدائية للفطرة ، لكن الفطرة تتجه دائما لتصحيح ذاتها ، حتى يكون كمالها في الانسان الذي يكون شرط بقائه وترقيه بقاء الآخر وترقية كذلك ، فاستنكار كل صور القتل والاضرار هو جوهر كل شريعة .

« هل تكون الشريعة تعبيرا دائما عن الفطرة ؟

« الزمن الذهبي لكل رسالة حيث يكون الانطباق تاما بين الشريعة والفطرة ، كيف يحدث الاختلال بينهما اذن ؟

« تقوم المؤسسات بتجميد حركة الشريعة فلا تساير حركة الزمن بتاسه .

ويمضي الحوار بين الملكين والميت ، يتحدثان عن دور المؤسسات في ايجاد ذلك الهرم الاجتماعي ، الذي يكون القهر عنصرا لازما لتماسكه،ونوع الناس الذين يؤلفون قاعدته وقمته ، وكيف تحت وطأة ذلك الهرم الاجتماعي تتحول نزعة البقاء والترقي الى قانون البقاء للأصلح ويصبح ذلك القانون تبريرا للقتل في كل صورة من صوره ، ويصبح دور المؤسسات إعادة صياغة الفرد ليصبح لبنة في بناء هرمي ما ، تقليل حماسته لأن يكون بشريا ، واذكاء حماسته ليكون نمطا .

« كيف يستخلص الانسان نفسه من هذه القبضة ؟

« بأن يملك الواحد حياته ، تكون لوحة يرسمها لا خطة يبحث عن تفاصيلها في سفر من الاسفار .

« لكن الضجيج عال حتى لايكاد احد يسمع صوتَ داخله » مهما علا الضجيج لايسعه أن يكتم صوت الداخل .

ويبدأ الحساب وفق ذلك المعيار : في أي المواقف من حياة ذلك الميت أهدر صوت داخله ؟

الحساب

لقد اختار الملكان من طفولة الميت لحظة كانت فيها فعاله مطابقة لفطرته لاعتبارها ميلادا حقيقيا له .

قالا له : تلك اللحظة التي وقفت فيها في المحكمة أمام القاضي تجيب عن سؤاله : إن كان ذاك اباك ؟ وان كنت تريد غير مرغم ولامكره أن تعيش في كنفه فقلت بصوت قوى واضح : نعم .

لم يستطع كل ما كان حولك من جو غريب ، جهامة القاضي وصيحات الحاجب ، وعسف الحراس ، وغضب الخال ، وارتياع الاب والجدة أن يشوه رغبتك الحقيقية التي نبعت من اعماقك ، كان ذلك شيئا عظيما

واذا كانت تلك هي لحظة الميلاد لانسان ، فثمة لحظة أخرى كانت هي لحظة الميلاد للانسان الذي تخالف فعاله فطرته . . .

كانت تلك اللحظة حين هرب من المدرسة لأول مرة وعاد الى القرية ، كان رفضه للمدرسة رفضا صحيحا لنوع من التعليم لايهدف الا لتحويل الطفل الى كمية لينة من الطاعة والخضوع ، ولكنه أمام غضب أبيه عاد الى المدرسة التي لم يكن يحبها .

« نسألك الآن لماذا عدت ؟

« لم يسعني أن أخالف أبي

« لقد خالفت خالك في المحكمة ، وكانت سطوته

عليك أكبر من سطوة أبيك .

« ربما يرجع ذلك الى قوة أبي ، الى عرف الوقت الذي يجعل طاعة الأب واجبة» .

« تكون » لا « ممكنة في كل الاحوال ، لامبرر ابدا لأن يجحد الانسان صوت داخله .

مقبرة أم عيادة طبيب نفسي ؟

ويستمر الحساب عبر مواقف مماثلة في حياته كلها ، فلا تدرى أهو حساب ملكين في مقبرة أم حوار بين طبيب نفسي ومريضه في عيادة . . . فالحساب كله ارتياد شجاع لطبقات النفس الاكثر خفاء لاكتشاف تلك الخارطة المجهولة لما أسماه الكاتب .

« الاتجاه الحقيقي لنبض الذات في حالة تحرره من الخوف أو الطموح أو الشهوة»واختيار الفعل الذي يؤكد وجود الفاعل ولايحظر ترقيه»ويؤكد وجود الآخرين ولايحظر ترقيهم .

ويكشف الكاتب خلال تلك الرحلة عن أن لاتكون ممكنة دائما . . كما يحفر عميقا من خلال الحوار عن دوافع الاحجام عن نطقها ، على أن الكاتب هنا يوحي بأن بمقدور أي انسان ،بل ومن واجبه لو أحسن الاستماع لصوت داخله ، أن يصل الى معرفة الاتجاه الحقيقي لنبض ذاته .

النشور

في بداية الفصل الاخير ، نلتقي بالحفيد الذي تركناه في نهاية الفصل الاول بجوار المقبرة « لايدري منذ متى وهو جالس هنا تحت الشمس ، أتراه أخذته سِنة من النوم جنب الشاهد والصبارة ؟ وفي النوم طافت به الاحلام العجيبة » ؟

يبدو الحفيد هنا كأنه واحد من أهل الكهف ، يبعث من موت أو من نوم يشبه الموت .

يبدو الحفيد هنا وكأنه هو الذي يتحقق النشور من خلال يقظته،وكأنه كان هناك طول الوقت داخل المقبرة يرى ويسمع ، وكأن الكاتب يوحي لنا بأن التشوف للمعرفة ـ وهو هاجس داخل اصيل ـ مكافأته الوصول الى درجة ارقى من المعرفة ، وتلك هى العلاقة العضوية التي قد يراها البعض واهنة بين الفصل الأول والأخير ، وبقية فصول الرواية .

هل يكون هذا الفصل هو محاولة الحفيد ـ وقد وعى الدرس ـ أن يعيش الحياة الممكنة التي ينبغي للانسان أن يعيشها ؟

يوتوبيا عبد الحكيم قاسم

يذهب الحفيد ليتعلم فماذا يجري ؟

« إن وافق ميل نفسه ان يسمع في الفقه أو البلاغة أو الاصول ذهب الى شيوخ هذه العلوم ، وإن اطربه ان يشارك في تجارب الكيمياء أو علم الحيل مال حيث هوى نفسه »

(اعلاء لميول الفرد) ولكن هذا كله في النهاية لايروق لشيوخه فيرحل عنهم قائلا :

« بعد القراءة تكون » الرحلة ، انها السكتان للحب »

(امتزاج المعرفة بالخبرة) يقفل راجعا الى القرية ، يقرىء السلام»يفرح برد السلام ، واذا ماحل بامرأة طيبة أو رجل كريم ، جلس صامتا منصتا يسمع عن الارض والزرع ، عن البذار والحصاد ، عن نجاة المحصول وعن نزول الآفة ، يسمع عن البهائم التي هي صحبة الانسان ، يسمع عن خرسها ، وعن لغة شكاياتها الصامتة والمواجع . »

(تعلم جديد من الواقع المعاش ، اقتراب ودود متفاهم من الناس ومن الطبيعة) .

« جلس قدام دارهم يقرأ ، قال لأبيه يا أبت سأعمل بطعامي وبثمن كتبي هل تأجرني بشرطى ؟ »

(تطور علاقة البنوة من الاعتماد الى الاستقلال ، الأجير هو الذي يضع شروط عمله ، وهي شروط تعني الوفاء بالحاجات الأصيلة للانسان ، المحافظة على البقاء بالطعام وتحقيق التطور من خلال المعرفة) .

« لما مات أبوه ورث قطعة أرض ، قال في نفسه : ينبغي أن يعرف الزراعة ويتعلم من الزراعة (وكان الأباء في القرية قد دفعوا اليه بأولادهم ليعلمهم من علمه) ، ولما حسن المحصول اكثر ، جمع تلاميذه وسألهم ماذا يفعل فيه ؟ قالوا له لاتعط الفقراء شيئا بل أوقف مالك على المسجد ، انه مؤسسة صالحة ، انه الدار والمدرسة منذ الزمن الاول ، وان عليه أن يكون خادما للمسجد ، لا مالكا للارض »

يموت الجد ، بعد أن يبدو أن الحفيد قد استوعب خبرة الحياة والموت وحكمة التاريخ ، ليصبح الحفيد جدا وتمضي الدورة .

تقويم تجربة

تدخل هذه المغامرة الأدبية عالم الرواية من اوسع ابوابها فثمة تلك الوحدة الفكرية والروحية والنفسية - التي تجمع عناصر التجربة ، من الجد الى الحفيد الى المرأة الى الميت الى الملكين،وثمة،تلك الخلفية الواحدة من اهل القرية ، ودورها ، ومقابرها ، وحقولها واطياف المدن ، باختلاف درجاتها في وعي خبرة الموت والحياة وهو الاختلاف الذي يكشف عن منحنى التطور في وعي الفرد ووعى الجماعة .

وثمة وحدة التجربة ذاتها بمختلف مراحلها،تتنوع الادوار ولكنها تتكامل في النهاية كسمفونية يشترك في أدائها عشرات العازفين ، تبدأ بوعي فكرة الموت من خلال خبرة التاريخ ، وتمر بخبرة حياة الميت حين يمر بامتحان الموت والحساب ثم يأتي نشور الحفيد في الدنيا ليكتمل البناء ، ويتم استيعاب الخبرة .

على أن الوحدة العظمى هي تلك التي تنبع من لغة الرواية وهي لغة خاصة جدا ، اختار الكاتب فيها كل جملة ، وكل كلمة ، وكل حرف .

وهي مثل أي رواية ، رغم النزعة العقلانية في بعض فصولها تومىء الى اتجاهات اكثر مما تشير الى حلول ، فالحلول دائما تبقي مسئولية اصحاب المواقف في كل جيل ، وفق تقديرهم الخاص لواقع ظروفهم .

على ان الاتجاه الى ضرورة الانصات لصوت الداخل والاهتمام بالآخر ، والاقتراب الحميم من عالم الطبيعة ودفء الناس ، هو اكثر مانحتاجه في عصر المؤسسات العملاقة التي تسحق نبض الفرد ، وتعمل على تنميطه وصياغة حاجاته وفق حاجاتها .

مخاطر التبسيط

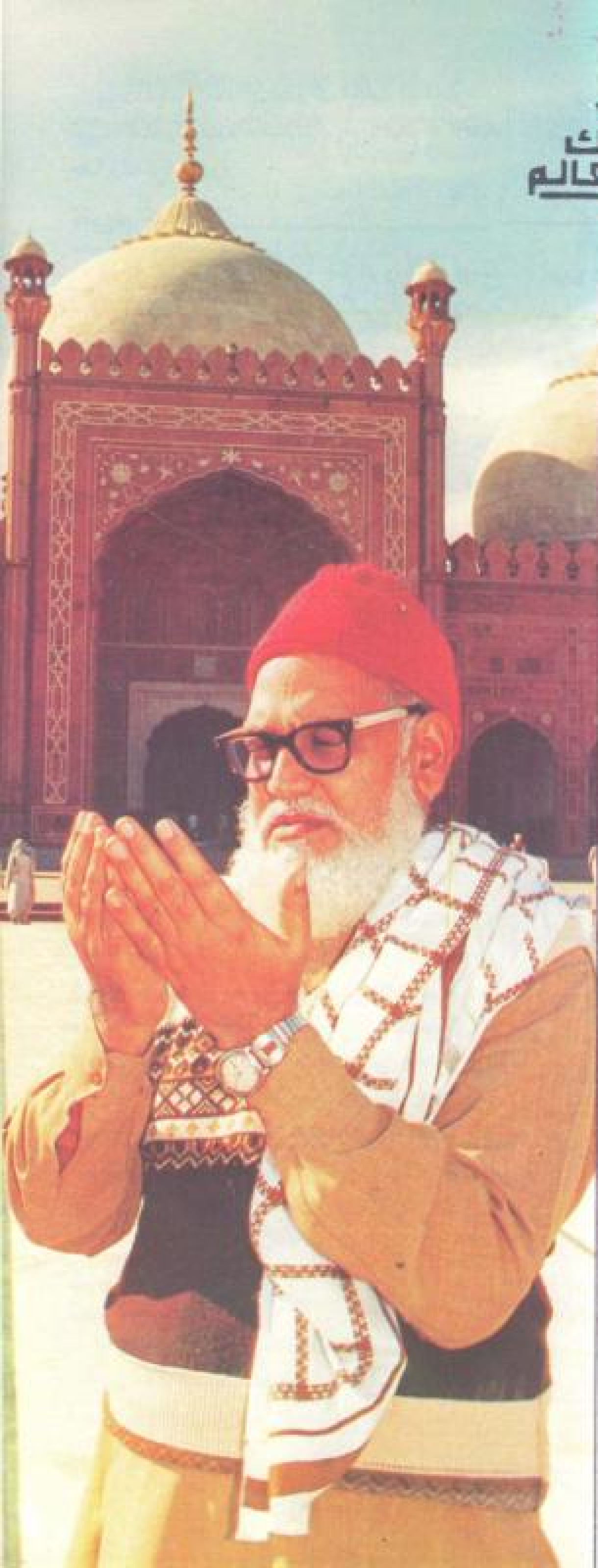
لكن يبقي السؤال إو الاسئلة : ألا تحمل مثل هذه الرؤى مخاطر تبسيط المعقد ، والنأى عن مواجهة تعقيدات الواقع ، وهي تتكلم بلغة الفن الموحية . .) ؟ .

فهل يمكن أن نتحدث عن صوت الداخل وكأنه صوت واحد نقي واضح يمكن الاستماع اليه دائما مهما علا الصخب والضجيج من حولنا او مهما اشتد به الوهن والضعف ؟

فالفطرة ـ بغض النظر عن أي تعريفات لها هي خامة الحياة الاولى ، ومصدر الطاقة والحيوية ، ومن هنا فهى تنطوى على كل متناقضات الحياة وشتى نوازعها ، وما يصدر عنها ليس ابدا صوتا واحدا بل هو جوقة هائلة من الاصوات ، فاذا كان ثمة صوت يخدم نزعة الارتقاء فهناك صوت يعبر عن الرغبة في الانسحاب والموت (فرويد) والكاتب نفسه يلاحظ ملاحظة هامة حول تطور الفطرة من مرحلة شائهة يكون فيها التعبير عن نزعة الارتقاء بقتل الآخر الى مرحلة يكون فيها ارتقاؤها مشروطاً بارتقاء الاخر ، فكيف يتم هذا التطور ؟ انه يتم عبر جدل طويل وعميق بين الداخل والخارج ، فالفطرة لاتتطور عبر منولوج داخلى ، بل عبر حوارها مع فطرة الآخر في الخارج ، وشرط تصحيح الفطرة لذاتها هو تصحيح تواصلها مع الخارج . . ومع الآخر في الخارج ، فمقابل الصوت الداخلي الصحيح صوت خارجي صحيح يدعمه ، ومقابل الصوت الداخلي الخاطىء صوت خارجي خاطىء يدعمه كذلك .

هل من المناسب ان نناقش عملا فنيا بهذه الطريقة ؟ ربما مادام ذلك العمل الفني قد اختار هذا المنحنى الصعب للسير فيه ؟ ومن هنا فاننا نستطرد في التساؤل : هل الصعوبة تكمن فقط في تبين صوت الداخل الصحيح الذي يخدم الارتقاء والتطور ، أم المشكلة أننا احيانا ندرك الصوت الصحيح ولكننا نحجم عن متابعته بسبب الثمن الغالي الذي يتطلبه لأنه ثمن التطور ؟ . الثمن الذي يدفعه البعض مرة ومرات ثم يحل به التعب فيستجيب لصوت الانسحاب والموت وهو ايضا يأتي من الداخل . . .

قد لايتسع المجال هنا لمتابعة الحوار مع هذا العمل الرائع مع كل جوانبه الثرية والخصبة ، وما تثير من تساؤلات وتبعث من افكار ، ولعل أخطر ما في هذا العمل أنه يجيء في وقت يعلو فيه ضجيج الأصوات الخاسرة ، فيبدو ، وكأنه صوتنا الداخلي الصحيح ، وما أجدرنا بأن نحسن الاستماع اليه والحوار معه . □



باكستان

سنوات الصراع والأحلام

استطلاع :
محمود عبد الوهاب
تصوير : طالب الحسيني

« أربعون عاماً انقضت منذ تأسست باكستان ، ومنذ ذلك اليوم وهي تعيش متناقضات التاريخ والثروة والسلطة والقوميات والانفصال ، ورغم ذلك فان الكثيرين يرون أن باكستان مؤهلة لتلعب دوراً أكثر أهمية من دورها الآن . وفي وسط ذروة من ذرا تصاعد الأحداث طارت بعثة العربي إلى هناك لتراقب وترصد وتنقل .



هبطنا مطار كراتشي في ساعات الصباح الأولى ، كانت صحف الصباح تحمل أخبارا عن حشود عسكرية على الحدود بين الهند وباكستان ، وفي برقيات وكالات الأنباء تأكيد يفيد أن الهند قد حشدت أكثر من ٨٠ بالمائة من قواتها العسكرية ووضعتها في حالة التأهب . . وأن إطلاق النار قد حدث بين دوريتين ، وفي نفس الصحف أخبار أخرى عن حالات شغب في منطقة بلوشتان ، ورغم كل هذه الأخبار فإن الحياة كانت تسير بشكلها اليومي ، لأن الباكستانيين - على ما يبدو - قد تعودوا على هذه الحالات منذ سنوات طويلة .

فور دخولنا الى مبنى المطار كان مرافقنا ينتظرنا ، تبادلنا التحية « السلام عليكم » بالعربية ، ثم انتقل الحديث الى اللغة الانجليزية ، أثناء انتظارنا للطائرة التي ستنقلنا من كراتشي الى العاصمة الجديدة (اسلام أباد) . . أخذت أرقب حركة المسافرين ورغم أن الساعة لم تتجاوز السادسة صباحاً فالمطار مزدحم ، وحركة الطيران بين المدن الباكستانية الكبرى لا تهدأ ، وبين كل فينة وأخرى يأتي صوت مذيعة المطار الداخلية ليعلن عن اقلاع أو هبوط رحلات بادئة إعلانها بالسلام عليكم ، ثم تذيع الاعلان باللغة الأوردية ، وفي نهاية الاعلان تتلو آية من القرآن الكريم . ثم تنتقل الى الاعلان باللغة الانجليزية ، ووسط لوحات الاعلانات التجارية الكثيرة والمتنوعة داخل المطار لوحات أخرى منقوش عليها آيات من القرآن الكريم وعبارات مأثورة تمجد الاسلام والمسلمين .

مدينـة السـلام

وصلنا اسلام آباد . . الشوارع متسعة . . الخضرة تكسو جوانبها . . المباني أنيقة . . نظيفة . . بيضاء ، وإسلام آباد هي العاصمة الجديدة،بدأ التخطيط لبنائها في عام ١٩٥٨ وأصبحت العاصمة الرسمية اعتباراً من العام التالي ، وقد صممت المدينة كمقر للحكومة المركزية وأجهزة الدولة ، بها مقر الرئيس ، والحكومة والبرلمان ، والوزراء والادارات المركزية ومساكن العاملين بهذه الأجهزة على جميع مستوياتهم الادارية بدءا من مناصب الادارة العليا وحتى الأعمال الحديثة ، ووسط كل مجموعة من المنازل التي تشكل حياً سكنياً سوق يضم العديد من المحلات للأغراض المختلفة ، ولذلك فان تعداد المدينة لا يتجاوز ٣٥٠ الف نسمة فقط ، على عكس كل مدن باكستان المكتظة بالسكان ، فكراتشي مثلا يقارب عدد سكانها ثمانية ملايين نسمة ، ويرجع سبب قلة عدد سكان إسلام آباد لكون المدينة بلا فرص عمل . . فإما أن يكون القاطن بها يعمل بالحكومة أو بالتجارة في بعض المحلات القليلة العدد ، أو بعض البائعين الذين يهبطون سوق المدينة يبيعون الخضار والفاكهة في يوم واحد من كل أسبوع .

وتعد إسلام آباد بذلك مدينة موظفي المكاتب (البيروقراط) ، وبرغم أن كثيرا من دارسي تخطيط المدن ينادون بأن تبدأ كل بلدان العالم الثالث المكتظة بالسكان في نقل العاصمة ، الى مكان جديد . . . مثلما فعلت باكستان والبرازيل من قبل ، ويرون أن النقل هذا يحل مشكلة الجذب نحو العاصمة والهجرة اليها ، الا أن بعض الساسة يرى أن نقل العواصم فيه ميزة أمنية ، حيث يمكن وضع الدولة (المؤسسات) تحت الحراسة المأمونة ويسهل في مدن جديدة وصغيرة أن يتم تأمينها ضد نزعات المغامرين .

ولأن وصولنا الى العاصمة كان يوم جمعة ، فقد صحبنا مرافقنا الى المسجد لأداء الصلاة، وطوال الطريق أخذ يحدثنا عن المسجد الجديد . . وعن روعة التصميم . . وجمال التشييد وفخامة التأثيث . . وكيف أن المسجد سيكون بمثابة مركز اسلامي به جامعة للدراسة . . ومكان للصلاة . . ووصلنا الى طريق المسجد . . . الناس يتوافدون اليه رجالاً ونساء وأطفالاً . . الباعة جالسون أمام الباب . . يبيعون رؤوس الفجل المغموسة بالفلفل والملح ، وأمام المسجد كانت المفاجأة فقد كان حديث مرافقنا غير دقيق ، فالمسجد لم يكن جميلا ورائعاً فقط . . بل كان تحفة معمارية لا يضاهيها في الجمال والروعة مبنى آخر .

المسجد عبارة عن مجمع إسلامي،يسع صحن المسجد وحده ١٥ الف مصل،و ١٥٠٠ مكان لصلاة النساء في مقصورة علوية،ولكن المنطقة المحيطة بالمسجد تتسع لحوالي ٣٠٠ الف مصل،أي أن

المسجد يسع كل سكان إسلام آباد ، ويعتبر صحن المسجد ـ كما قال لنا المهندس التركي الذي وضع التصميم ـ أكبر صحن مسجد في العالم بدون أعمدة على الاطلاق ، وحول المبنى الرئيسي من الخارج وضع المصمم قناة مفتوحة من الرخام ـ وفوقها على سطح القناة مباشرة فتحات تهوية بحيث يكفل جريان الماء في القناة مع فتحات التهوية تلطيف درجة حرارة المسجد وتهويته ، وكل ما في المسجد جديد ومبتكر ورائع ، المنبر من الرخام الفاخر ، ولا يزيد ارتفاعه عن خمس درجات فقط . ويمثل المنبر وحده قطعة تشكيلية واحدة ، المحراب قطعة فنية أخرى وهو عبارة عن لفظ الجلالة مكتوب بالفسيفساء على واجهة المحراب وبجواره ـ بحجم أصغر ـ مكتوب اسم النبي الكريم محمد ﷺ « وتعليقاً على شكل المحراب المبتكر قال المهندس التركي فيدات دالوكاي : « في كل المساجد يوضع على المحراب اسم الجلالة واسم الرسول ﷺ وأسماء عدد من الصحابة ، ومع تقديرنا للصحابة جميعاً ، رضوان الله عليهم ، ومع حبنا وتوقيرنا العميق للرسول الكريم . . إلا أنه لا أحد من هؤلاء جميعاً مساوٍ لله عز وجل حتى يقرن اسمه باسمه ، ولذلك فعند تصميمي للمحراب وضعت اسم الجلالة وحده ، وبعده يأتي اسم رسولنا الكريم » . وفي منتصف سقف المسجد تتدلى ثريا بالغة الروعة والدقة والبساطة ، وقد صنعت الثريا خصيصاً في ألمانيا الغربية ، وتزن قرابة ٦ أطنان ونصف ، وعلى يمين الداخل من الباب الرئيسي ، وفي المنتصف ، توجد منصة المقرىء وخلفه لوحة فنية رائعة مصممة على الرخام الملون ، مكتوب عليها الآية الكريمة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وقد بلغت تكلفة المسجد قرابة الـ ٤٥ مليون دولار ، وقد تقاضى المهندس ـ الذي فاز تصميمه في المسابقة العالمية التي أجريت عند التفكير في إنشاء المسجد ـ ٥ بالمائة من إجمالي التكلفة النهائية للمشروع .

أزمات الأرض الطاهرة

ظهرت باكستان في البدء كفكرة في عقل الشاعر الكبير محمد إقبال ، وباكستان ـ لغة ـ تعني الأرض الطاهرة ، ويبدو أن اختيار هذا الاسم كان مناسباً



● خريطة باكستان يتضح فيها الموقع والجيران

ومتناسقاً مع التي أعلنها الشاعر الكبير لأول مرة بشكل علني في خطاب عام له في مدينة الله آباد عام ١٩٣٠ فطرح في خطبته الشهيرة هذه فكرة تقسيم الهند ، لأن الاختلاف واضح بين المسلمين والهندوس من حيث الدين والمعتقدات ، ولأن المسلمين أمة منفصلة عن غيرها فانه يجب أن تتمتع بدولة مستقلة ، هذا هو جوهر فكرة إقبال التي تنبع جذورها من أفكار « الجماعة الاسلامية » التي كانت في ذلك الحين حركة تحديثية تستقي مبادئها من أفكار إقبال ، وسيد أحمد خان ، وشبلي نعمان ، وغيرهم من المفكرين الاسلاميين المحدثين ، وتحولت الفكرة إلى حركة سياسية قادها مؤسس الباكستان محمد علي جناح ، وسرعان ما لاقت الدعوة إقبالاً من كثير من المسلمين الذين كانوا يعانون افتقاد معنى العدل في ظل احتكار الهندوس للسلطة والثروة في الهند .

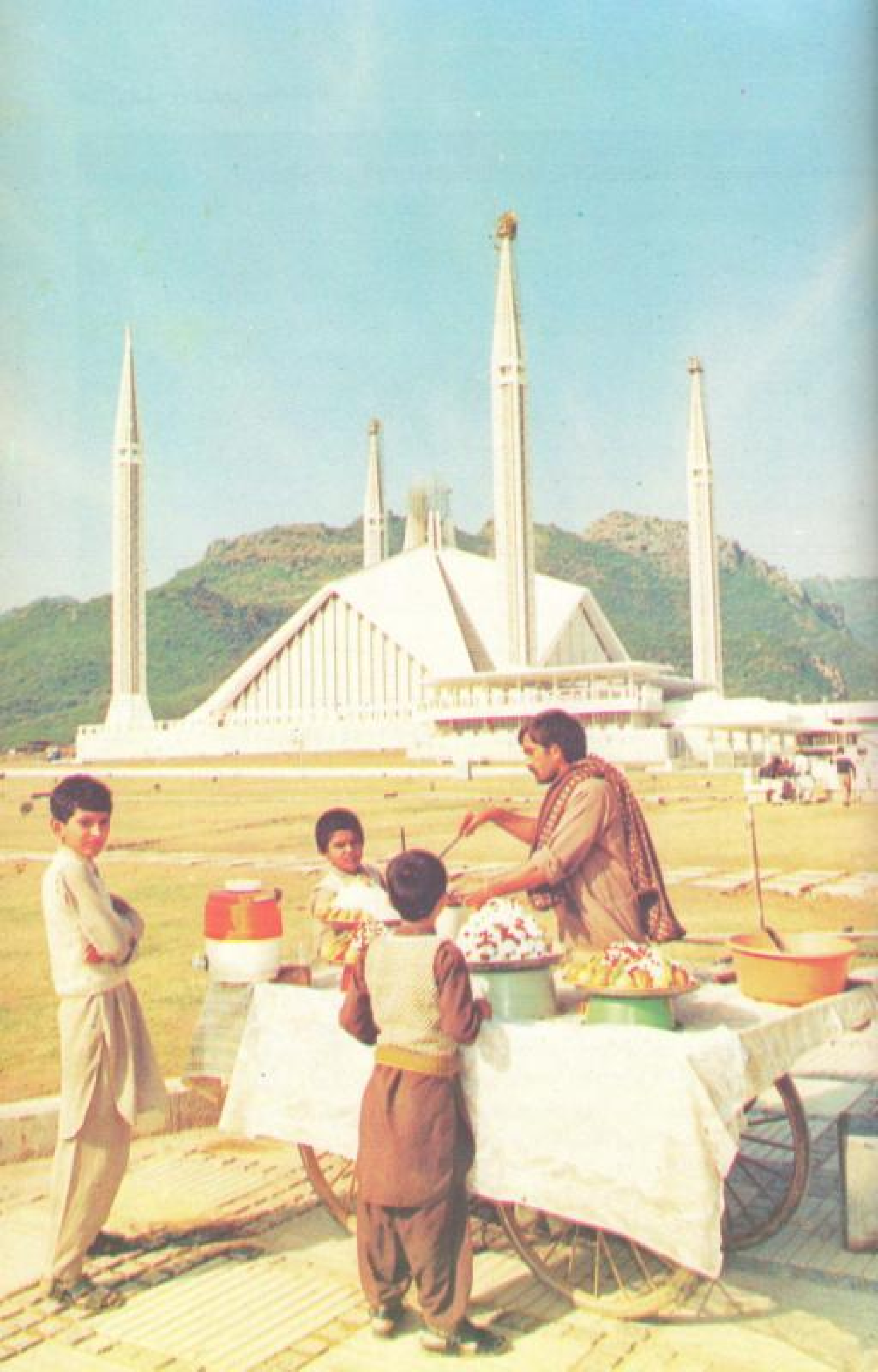
وشهدت الفترة من عامي ١٩٣٨ الى ١٩٤٤ تنامي الحركة الباكستانية من مجرد تكتل يعبر عن مصالح أقلية مسلمة الى حركة لأغلبية المسلمين تبحث في جوهرها عن المساواة الاقتصادية والاجتماعية ،



● الى أقصى اليسار منظر عام لمبنى الجامع الكبير في إسلام أباد ، والى اليمين بالترتيب من أعلى صحن المسجد ، والثريا الفاخرة ، ثم مستشفى الشيخ زايد في لاهور ، ثم فصل دراسي في مدرسة في عرض الطريق .. تناقضات







ولذلك فانه من الثابت تاريخياً أن بداية الحركة الاسلامية وانتصارها في أول معاركها كان في بنجالاديش (باكستان الشرقية سابقاً) حيث كانت السلطة والثروة في يد الملاّك الهندوس أما باقي المسلمين فهم فقراء مقهورون .

المهم أن البريطانيين - حكام الهند في ذلك الوقت - إستثمروا هذا التناقض ، وكانت حركة انفصال باكستان تقف في مواجهة دعوات غاندي ثم نهرو ، وحزب الرابطة الاسلامية يواجه حزب المؤتمر ، وفجأة أعلن البريطانيون استقلال الهند وإنشاء دولة باكستان في ١٥ أغسطس ١٩٤٧ . وتم رسم حدود الدولة الجديدة وفق الأقاليم التي بها أغلبية مسلمة . ولم يراع البريطانيون أية عوامل أخرى اقتصادية أو ثقافية أو جغرافية ، وهكذا ظهرت في نهاية الأربعينيات باكستان - بقسميها الشرقي والغربي - ولكنها منذ اليوم الأول وهي تحمل داخلها ألغام موقوتة تهدد بالانفجار .

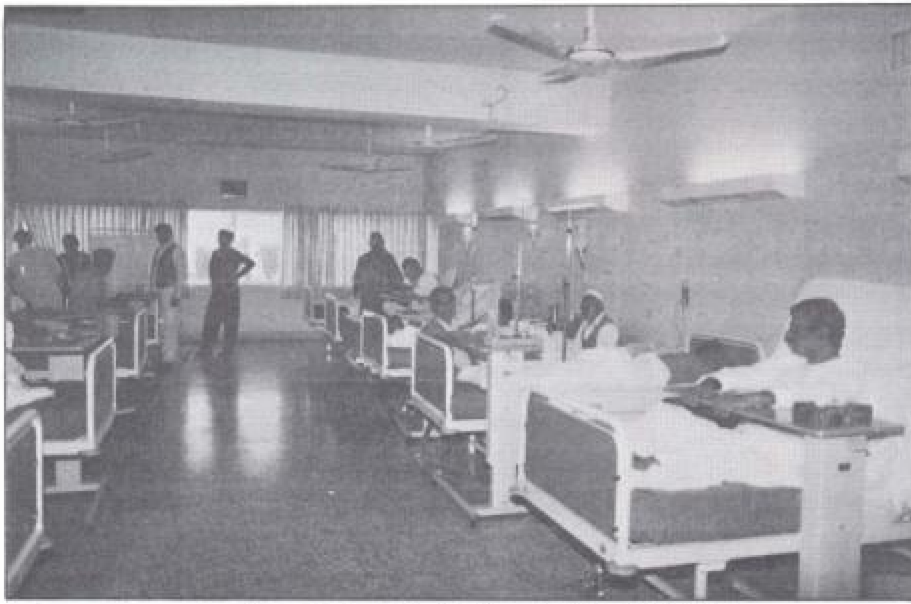
فمنذ الاستقلال وحتى الآن خاضت باكستان ثلاث حروب مع الهند منيت في الحرب الأخيرة ١٩٧١ بهزيمة عسكرية خسرت فيها شطرها الشرقي باكستان الشرقية (بنجالاديش حالياً) ، وأكثر من نصف سكانها،وأكثر من ٩٠ ألف ضابط وجندي وقعوا في الأسر ، وشهدت أيضاً ثلاث فترات من الأحكام العرفية ، وتم وضع خمسة مشروعات لدساتير صدر ثلاثة منها (١٩٥٦ ، ١٩٦٢ ، ١٩٧٣) ، بالاضافة الى عديد من أحداث التمرد والعصيان التي تتراوح فتراتها بين أشهر وأعوام ، وأشهرها العصيان القبلي الواسع في بلوشستان الذي حدث بين عامي ١٩٧٣و١٩٧٧ ، وقدر عدد الذين اشتركوا فيه الى ما يصل الى ٥٥ ألفاً من رجال القبائل في مواجهة قوة حكومية يصل قوامها الى ٧٠ ألف جندي .

وعلى مدى الأربعين عاماً-هي تاريخ باكستان-لم تشهد انتقالاً للسلطة بشكل سلمي وطبيعي الا مرة واحدة،حين تولى فيها ذو الفقار علي بوتو الحكم عقب انفصال بنجالاديش .

فعقب وفاة محمد علي جناح في عام ١٩٤٨ تولى السلطة رئيس الوزراء ياقوت علي خان،الذى اغتيل في أكتوبر ١٩٥١ ، ثم اندلعت الحرب الأهلية ، وفي أعوام ١٩٥٧ و ١٩٥٨ اشتدت الصراعات الاقليمية وتدهورت الأوضاع مما أدى بالجيش الى التدخل في ٧ أكتوبر ١٩٥٨ وسلم السلطة الى محمد أيوب خان ، واستمرت فترة حكم محمد أيوب خان قرابة عشر سنوات ، وفي عام ١٩٦٩ انفجرت المعارضة ضده على شكل أعمال عنف انتهت باستقالته في ٢٥ مارس من العام نفسه،واستيلاء الجنرال يحيى خان رئيس هيئة أركان الجيش على الحكم ، فألغى الدستور وفرض الأحكام العرفية ، ولكن الاضطرابات لم تهدأ وانتهت بانفصال (الجزء الشرقي) بنجالاديش بعد حرب تدخلت فيها الهند الى جانب بنجالاديش واستمرت اسبوعين . وعقب الحرب سلم العسكريون السلطة إلى ذو الفقار علي بوتو الذي بدأ في طرح شعارات شعبية،وحاول في مفاوضات مع الهند وضع حد للتوتر بينهما ، ولكن الاضطرابات الداخلية وعدم تحقيق بوتو ما وعد به بالاضافة الى المعارضة الاسلامية من جانب بعض الحركات الأصولية لأفكاره الاشتراكية أدت الى انفجار أعمال عنف بالاضافة الى الاضطرابات التي تفجرت في منطقة اقليم بلوشستان مما دفع بالجيش مرة أخرى الى الاستيلاء بالقوة على الحكم ، وأعلن الجنرال ضياء الحق في ٥ يوليو سنة ١٩٧٧ استيلاء الجيش على الحكم إنقاذاً للبلاد ، وأعلن الأحكام العرفية وألقي القبض على ذو الفقار علي بوتو ثم أعدم بعد محاكمته ! ! وتحت حكم الجنرال ضياء الحق ، بدأت باكستان تعيش حالة من الاستقرار النسبي حتى الآن ، وبدأت تدريجياً في العودة الى حكم دستوري تحت إشراف الجيش .

الجــذور

هذا التاريخ من الصراع والاضطرابات ليس وليد صدفة ولا نتيجة حالات مزاجية ، ولكن تعبيراً عن تناقضات اجتماعية واقتصادية تضمنها النموذج الباكستاني منذ اليوم الأول لتأسيس الدولة ، وكانت أكثر المشاكل التهاباً - وما زالت - مشكلة القوميات ، فبينما كان الجزء الشرقي من الدولة في ذلك الوقت (بنجالاديش حالياً) يمثل تجانساً قومياً حيث أن ٩٨ بالمائة من السكان من البنغاليين . وهم شعب ذو ثقافة قديمة عريقة،ولم يكن لديهم في الجزء الشرقي مشاكل



● جناح العلاج المجاني في مستشفى الشيخ زايد عناية فائقة ونظافة تامة .

قوميات تذكر، اذ لا يتجاوز عدد الأقليات القومية ٢٥٠ الف نسمة ، كانت مشكلة القوميات الحقيقة ـ وما زالت ـ في الجزء الغربي من الدولة عند التأسيس وهي ما يعرف حالياً بباكستان ـ موضوعنا في هذا الاستطلاع ـ فهي تحتوي على أربعة أقاليم أساسية وبعض الولايات . وكانت هذه الأقاليم تمثل قوميات مختلفة ومتمايزة ، وهكذا فقد أصبحت الدولة تضم أربع قوميات متباينة يمثلون سكان مناطق « البنجاب ، والسند ، والباختون ، والبلوش ، ومنذ قيام باكستان والبنجابيون هم المجموعة الأكثر سيطرة ، فهم الأكثر من الناحية العددية ، والمسيطرون من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، فهم يشكلون نحو ٦٠ بالمائة من إجمالي السكان بينما يشكلون ٨٠ بالمئة من القوات المسلحة ، وما يتراوح بين ٨٠ ، و ٨٥ في المئة من الوظائف الادارية العليا ، وحوالي ٨٠ بالمئة من فئة رجال الأعمال ، وهم أصحاب الثروة والسلطة . .

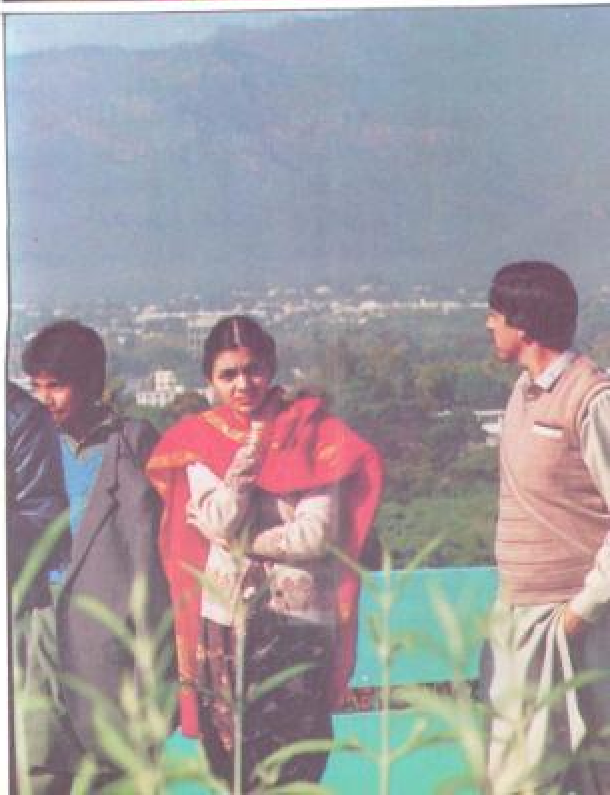
وبجانب البنجابيين هناك القومية الثانية من حيث العدد وهي السند ، ثم الباختون الذين يعيشون في منطقة الحدود الباكستانية المشتركة مع أفغانستان والاتحاد السوفيتي ، ثم أخيراً البلوش الذين يعيشون في منطقة بلوشستان .

وكما تقول دراسة دكتوراة أعدها جاهان مظفر وقدمت لجامعة ميامي . . عام ١٩٨٠ وتناول موضوعها سياسة تكوين المجالس الوزارية في باكستان (٤٧ ـ ١٩٧٧) فقد تعرضت الدراسة إلى وضع القوميات ومدى مشاركتهم في المناصب العامة فتقول : من بين ١٧٩ شخصاً تولوا مناصب وزارية في باكستان خلال ثلاثين سنة لم يكن منهم سوى أربعة فقط من البلوش، هذا على مستوى الوزارة المركزية ، أما على مستوى الحكومات المحلية في الأقاليم فقد ظل البلوش مستبعدين بصورة تكاد أن تكون كاملة عن مواقع اتخاذ القرار ، وعلى سبيل المثال تقول نفس الدراسة أنه في عام ١٩٧٢ كان في بلوشستان حوالي ٤٠ ألف موظف مدني ، وكان منهم الفان فقط ، أي ٥ بالمائة ـ من البلوش، وحتى هذا العدد الضئيل كان معظمه يعمل في وظائف متدنية .

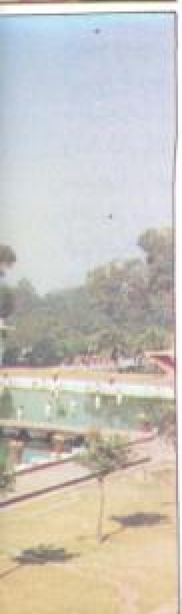
وقد كان من الممكن تفادي صدام الأقليات ، ولكن توالي الحكومات العسكرية وعدم وجود مجموعة من القيم السياسية المهيمنة ، ساعد



ابتسامة صافية لفتاة
من باكستان في يوم
عيد الزهور ،
وإلى اسفل
اسرة في نزهة .











* شارع في قلب الحي التجاري في لاهور . . زحام خانق وترهل المدينة يتضح من الوهلة الاولى ـ الى اسفل جانب من حدائق شاليمار التاريخية الشهيرة .

على انفجار الأزمات، خصوصا بعدما تلاشت أحلام السنوات الثلاث الأولى بعد التأسيس، والتي كانت تأمل بحياة عادلة تتسم بالمساواة والعدل والحرية . . وظلت التجربة الاسلامية منذ بدء الدولة وحتى عام ١٩٥٨ بلا مضمون اجتماعي أو اقتصادي، ولذلك فعندما جاء أيوب خان الى السلطة حاول انقاذ الموقف بطرح ما يمكن تسميته بقومية التنمية وبدأ يطرح أفكاره عن التنمية والنمو الاقتصادي ، وعند قراءة خطب أيوب خان الرسمية فسرعان ما تكتشف أنه يستشهد بفقرات مطولة من كتاب . . « مراحل التنمية لوالت روستو » الذي عمل مستشاراً لفترة مع الرئيس الأمريكي كنيدي .

ولم يكن تنازع القوميات وسوء المعاملة والحكومات العسكرية المتعاقبة وراء انفجارات الصراعات القبلية والعرقية ، فقد ساعد على ذلك أيضاً متاعب البداية الاقتصادية ، فعند تقسيم الهند وتأسيس باكستان لم يراع أحد - كما قلنا - الظروف الجغرافية والاقتصادية، وكان نصيب الدولة الجديدة أقاليم تتسم بالانخفاض الشديد في مستوى التطور الاقتصادي فكان ٨٥,٢ في المئة من سكان باكستان يعيشون في الريف . ولم يكن نصيب باكستان الحالية من المشروعات الصناعية الموجودة في شبه القارة الهندية الا ١٠٧٩ مشروعاً من بين (١٤٦٧٧ مشروعاً) ، وكانت المشروعات الصناعية الصغيرة التي وجدت في باكستان بعد التقسيم عاجزة عن توفير أبسط احتياجات البلاد من السلع الصناعية ، كما تأثر الوضع الاقتصادي للدولة على نحو سلبي من جراء ضرورة تخصيص عشرات الملايين من الروبيات سنوياً من ميزانيتها لتسدد لبريطانيا ثمن نظام الري والسكك الحديدية التي آلت الى ملكية باكستان بعد التقسيم ، وكانت هذه المدفوعات تزيد على ٥٥ مليون روبية سنوياً منها (٤٠) مليوناً سداداً للدين الأصلي و (١٥ مليونا) كفوائد ، وكان الانتاج الزراعي يتم بوسائل بدائية ، وكان توزيع الملكية في المجتمع معقداً فقد كان هناك (٦٠٦٠) من كبار الملاك يمتلكون من الأراضي أكثر مما تمتلكه « ٣,٣ مليون » عائلة من الفلاحين ، وكان أكثر من نصف الأراضي الزراعية تزرع بواسطة حائزين لا يتمتعون بأية حقوق على الاطلاق - كما تأثرت كثير من المحاصيل التي كانت قبل التقسيم تزرع في باكستان وتصنع في الهند ، مثل الجوت الذي كانت مساحة ما يزرع منه تزيد على مليون فدان بالاضافة الى نقص الطاقة الكهربائية ونقص العمالة الفنية المدربة، وتأثير استمرار الاحتكارات البريطانية في قطاعات المصارف والنقل البحري، والوكالات التجارية والتجارة الخارجية وغير ذلك من أفرع الاقتصاد الوطني .

لكل ذلك، لم تكن البداية سهلة ولا ميسرة بحيث يعوض النمو الاقتصادي مصاعب تعدد القوميات وافتقاد العدالة الاجتماعية ، وهكذا تفاعلت جذور عديدة سياسية واقتصادية وعرقية، لتصوغ حقل الألغام الذي سارت فوقه باكستان طوال أربعين عاماً مضت ، كانت قمته انفصال القسم الشرقي (بنجالاديش) عن الغربي (باكستان) .

بؤرة ساخنة

كأن ما في داخل باكستان لا يكفيها فيأتي موقعها الجغرافي وسط مجموعة من الجيران يمثلون نقاط التقاء ملتهبة ، فيحدها من الغرب إيران وأفغانستان ويمتد خط الحدود بين باكستان وأفغانستان ، حتى يصل الى أضيق مساحة له ، وهي نقطة الحدود المشتركة بين الصين وأفغانستان والاتحاد السوفيتي ، ومن الشمال الشرقي الصين الشعبية ، ومن الشرق الهند ومن الشمال الشرقي أيضاً ولايتا كشمير وجامو المتنازع عليهما بين الهند وباكستان .

وتبلغ مساحة باكستان حوالي (٨٠٤) آلاف كيلومتر مربع ، وعدد سكانها وفق آخر إحصاء (٩٣,٤) مليون نسمة ، ويبلغ إجمالي الناتج المحلي حوالي (٢٧٧٣٠) مليون دولار تمثل الزراعة منه ٢٤ بالمائة ، والصناعة ٢٩ بالمائة ، والصناعة التحويلية ٢٠ بالمائة ، والخدمات ٤٧ بالمائة .

وقد كان لحساسية موقع باكستان الجغرافي سبب في اهتمام كثير من القوى بها ، وبالفعل تمكنت باكستان من عقد علاقة ذات طبيعة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ومنذ عهد أيوب خان وكثير من المساعدات الأمريكية تقدم الى باكستان في مجالات مختلفة، وقد وضع أيوب خان أول خطوات بلاده على طريق الصداقة الأمريكية ، والف كتاباً

بعنوان « أصدقاء .. لا سادة » قال فيه ان بلاده تختار طريق المصالح المشتركة مع أمريكا وبالتالي فالبلدان تربط بينهما صداقة ومصالح مشتركة ، ورغم أن المساعدات المدنية الأمريكية لا تمثل أثراً بالغاً ، الا أن باكستان لديها مشروعات تطوير جيدة ـ وتغذي هذه المشروعات الحلم بغد أفضل .

تعد الطبيعة الباكستانية بيئة متنوعة ، فهي تضم الجبال الشاهقة والسهول الشاسعة ، والصحاري القاحلة والوديان الخصبة وتشغل الجبال وأشباه الصحاري جزءاً كبيراً من البلاد ، وكقاعدة فانه لا يمكن القيام بالزراعة دون وسائل ري صناعية ولأهمية الزراعة في الاقتصاد الباكستاني التقينا بوزير الزراعة وألقينا أمامه بتساؤلات عن موقف انتاج الغذاء والمشكلات الزراعية المختلفة ؟ قال الوزير :

تعد الزراعة هي المكون الرئيسي للاقتصاد القومي ، وتأتي الصناعة في المرتبة الثانية ، وقد ساعدتنا الطبيعة بأن منحتنا خمسة أنهار ،ورغم ذلك فان المشكلة الأساسية أن مياه الأنهار ، لا تصل الى كل الأراضي القابلة للزراعة ، ولذلك فنحن نفتح نظام قنوات الري،والذي يعيقنا أحياناً هو طبيعة الأراضي واختلافها ، لذلك فنحن لدينا الآن مثلاً أراض قابلة للزراعة ، ولكنها غير مزروعة ، لأن توصيل قنوات الري اليها يحتاج الى استثمارات كبيرة ، أما عن موقف الغذاء ، فنحن ننتج زراعات الأغذية في المنطقة الوسطى ، ومنذ عام ١٩٨١ ونحن نحقق الاكتفاء الذاتي من مواد الطعام،واستيرادنا في المواد الغذائية محدد بمواد معينة ، فنحن نستورد سكرا بعض الأعوام،وزيت الطعام والشاي والحليب المجفف ، وهذه السلع ترتبط بالسلوك الاجتماعي والثقافي للسكان،فاستخدام الزيت في الطعام والطهو عادة اجتماعية ، ونمط لا نستطيع تغييره في يوم وليلة ، وبذلك فان استيرادنا للزيت يتزايد عاماً بعد عام وكذلك السكر ، أما الحليب فانتاجنا ولسنوات طويلة ضعيف جداً .

وعلى مستوى آخر فنحن نصدر سنوياً سبعة ملايين بالة قطن ، كما نصدر كميات كبيرة من الأرز وكميات معقولة من الفاكهة .

وبرغم ذلك فنحن لدينا مشروعات لتنمية قطاع الزراعة مثل مشروع التغلب على أخطار المياه الجوفية،وذلك باتباع نظم صرف جديدة تهدف لامتصاص الآثار الجانبية للمياه الجوفية،ومشروع الأبحاث الزراعية كجزء من تنمية قطاع الزراعة ، ولدينا ثلاث كليات زراعية متخصصة أشهرها في فيصل آباد والثانية في السند والثالثة في شاور .

وجزء من مشكلتنا في قطاع الزراعة عدم وجود الكوادر البشرية أو ما نسميه بعنصر الارشاد الزراعي وعدم كفايته وكفاءته،بالاضافة الى معاناتنا شأن بلدان العالم الثالث من هجرة السكان من الريف الى المدن ، فالحياة لدينا في الريف مأساة كاملة ، ولذلك فنحن نحاول أن نقيم بعض الصناعات الصغيرة في القرى التي يسهل الاتصال بها عبر طرق المواصلات مثل صناعات الفاكهة وتعليب الخضروات أو أن نحول الريف الى مدن صغيرة ، ولكن كل هذه المشروعات تحتاج الى تمويل ضخم لأن الطبيعة الجغرافية لدينا في باكستان شديدة القسوة .

وبرغم ذلك فان الصورة ليست قاتمة تماماً وخاصة أننا في منطقة أمان نسبي من حيث تلبية الحاجات وعلى عكس كثير من بلدان العالم الثالث فإن معدل زيادة السكان لا يلتهم زيادة الانتاج ، فنحن نزداد سكانياً بمعدل ٣,١ بالمائة سنوياً ، بينما يزيد الانتاج الزراعي بمعدل ٥ بالمائة كل عام .

اعــداد للبشر

في مركز الأبحاث الزراعية يحدثنا الدكتور رحمن خان مدير المركز فيقول : «تأسس المركز عام١٩٧٥ ، والمركز يقدم التسهيلات العلمية والفنية ، كما يقوم بالأبحاث الخاصة بالزراعة والثروة الحيوانية . وفي المركز هنا لدينا أقسام وادارات مختلفة ، فلدينا معامل لدراسة التربة ، ومعامل استنبات للأصناف الجديدة ، ومعامل مختبرات لفحص الأمراض والآفات التي تصيب النبات ، كما لدينا مساحة من أراض تستعمل كمزارع نموذجية ، يجري فيها الباحثون تجاربهم وأبحاثهم ، ويستخدم المركز التقنية الحديثة،ومعظم التحاليل لدينا والمعامل تستخدم الكمبيوتر في التحليل وحفظ المعلومات .

كما لدينا بالمركز معهد تدريب للفلاحين والمرشدين الزراعيين ، فمنذ شهور مثلاً اشترى المركز آلات حرث جديدة ، وجمع ٦٠ مرشداً زراعياً



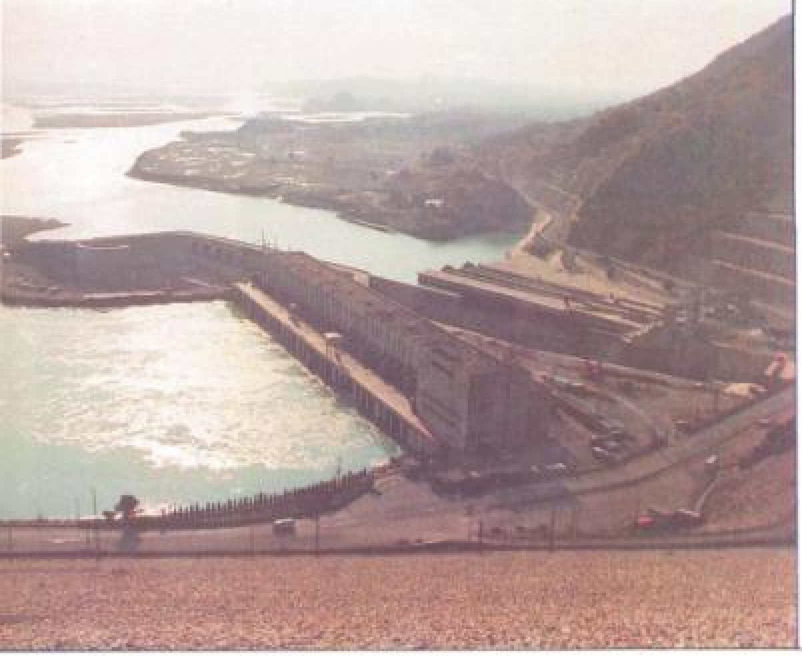
• في معمل بمركز الأبحاث الزراعية ، وتجارب استنبات معملية

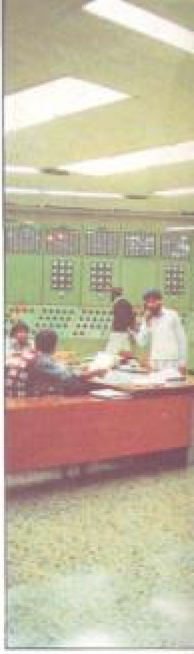


• غرفة تحكم لتوزيع الكهرباء ، احدى مشروعات استغلال مصادر الطاقة المائية .

• د . رحمن خان مدير مركز الأبحاث الزراعية أمام تجربة حقل نموذجي لزراعة عباد الشمس .







● سد ترابيلام احد المشروعات الكبرى لتنظيم استغلال المياه لضمان توصيلها الى الارضي الزراعية .

● ما زالت الزراعة تعتمد كثيرا على الايدي العاملة ،ومكننة الزراعة ستحقق نتائج أفضل ولكن المشكلة تكمن في التمويل .



محلياً تدربوا لمدة اسبوعين على استخدام الآلة ، ثم ذهبوا مع آلاتهم الى مختلف مقاطعات باكستان ولدينا مؤتمرات دورية وسنوية للمرشدين الزراعيين ، يأتي إليها المرشدون ليتحدثوا معاً عن تجاربهم ومشاكلهم ويدير الحوار معهم خبراء من أوروبا وأمريكا ومشرفون من المركز ، وفي مثل هذه اللقاءات يتم تبادل الخبرات ، أو تقديم أسلوب علمي جديد لحل مشكلة طارئة غير مألوفة لم يتمكن المرشد من حلها . وعلى مدى السنوات الماضية فقد نجح المركز في تدريب وإعداد ٣٣٠٠ مرشد زراعي .

ويثير نظام عمل مركز الأبحاث الزراعية وإعداده للكوادر حماسنا فنحاول أن نتعرف بصورة شاملة على نظام التعليم في باكستان .

وجمعنا أوراقنا وغادرنا إسلام آباد العاصمة الى لاهور ، وفي جامعة لاهور التقينا بالدكتور رفيق أحمد عضو مجلس الجامعة ، ومدير ادارة التعليم الآسيوي واستمعنا له :

« جامعة لاهور من الجامعات العريقة ، وقد قدمت خدماتها ـ وما زالت ـ للكثيرين من أبناء الهند وبنجلاديش ونيبال ، كما تخدم أبناء منطقة البنجاب في باكستان ، ويبدأ نظام التعليم في باكستان بالمرحلة الابتدائية ومدتها ٥ سنوات ـ وهي الزامية ـ ثم المتوسطة أربع سنوات،ثم العالية ١٠ سنوات ، بعد ذلك يصبح الطالب مؤهلاً للالتحاق بالتعليم الجامعي لنيل درجة جامعية ، وكل هذه المراحل مجانية عدا مرحلة التعليم الجامعي ، ورغم ذلك فهناك عديد من المنح تقدم للطلاب الفقراء والمحتاجين ، منح من البنوك ، ومنح من أموال الزكاة ، وهناك القرض الحسن الذي يمنح بلا فوائد للطلاب من أجل مصاريف التعليم ، ولا يسدد الا بعد التخرج والعمل ، وفي باكستان ٨٢ ألف مدرسة للتعليم الابتدائي يدرس بها ٧,٧ ملايين تلميذ وتلميذة ، وخمسة آلاف كلية وجامعة يدرس بها مليون طالب ، ونحن نطبق النظام البريطاني في التعليم وفي الدرجات العلمية . والتعليم كله باللغة الانجليزية ، رغم أن اللغة الأوردية هي اللغة الرسمية ، ولكن الانجليزية هي اللغة العالمية للعلوم والتقنية .

وبالنسبة لنا في جامعة لاهور فنحن لدينا ما يزيد عن ١٠٠ ألف طالب وطالبة ، والجامعة بها كافة التخصصات ، فلدينا كليات للطب والهندسة وكلية تربية لاعداد المعلمين ، وكلية قانون ، وصيدلة ، وتجارة ، وكلية شريعة إسلامية ومركز تعليم (كمبيوتر)، وتم مؤخراً إفتتاح قسم جديد في كلية الهندسة للطاقة الشمسية ، ومن أبرز نشاطات الجامعة نشرنا لموسوعة الاسلام التي تكونت من ٢٢ جزءاً ونحاول الآن ترجمتها الى العربية والانجليزية .

الجمال المختنق

غادرنا جامعة لاهور ، انطلقت بنا السيارة تجوب الشوارع والطرقات . . الزحام خانق ، المباني قديمة ، كل وسائل المواصلات بلا استثناء تحتشد في الطرقات وتريد كلها أن تسير في وقت واحد ، في احياء المدينة تلمس وجه الفقر والاهمال . . لاهور المدينة الكبيرة الجميلة الرائعة . . ترهلت وأصابتها الشيخوخة ، وهزمها الزمن ، فصارت مهملة فقيرة . . .

الطرق التي تقودك الى معالم لاهور التاريخية . . أصبحت أحياء مكتظة بالسكان شديدة القذارة . . فلا تصدق في النهاية عندما تصل الى قلعتها أو الى مسجدها الشهير أو الى حدائق شاليمار ان هذه الروائع في نهاية هذه الطرق .

لاهور . . مدينة التاريخ والامبراطوريات والأساطير . . من هنا انطلق الاسلام الى كل الهند . . وهنا كانت عاصمة الغزنويين وأمبراطوريات المغول . وبرغم تعدد آثار حضارة المغول الاسلامية في لاهور الا أن القلعة والمسجد وحدائق شاليمار هي أبرز ما يذكر من هذه الآثار التي تعد تحفة معمارية وفنية ما زالت قائمة وشاهدا حيا على حضارة سابقة .

وتعد لاهور قلب اقليم البنجاب ، وهي مدينة تتجمع بها صناعات عديدة ، وحول أطرافها تنتشر القرى ، وفوق ذلك فهي مركز تجاري مهم . وفي أسواق لاهور تلتقط عيناك كل شيء من الجرارات الزراعية المصنعة محلياً الى المشغولات اليدوية من تحف خشبية وسجاد .

وتعد لاهور عاصمة السينما الباكستانية ، ففيها

العدد الأكبر من استديوهات التصوير السينمائي في باكستان كلها ، وبها أكبر تجمع للسينمائيين في باكستان .

وتعد السينما مجال الترفيه الوحيد المتاح لسكان باكستان ، ففي مدينة لاهور وحدها يوجد ٧٥ دار سينما،وفي كل باكستان حوالي (٦٠٠) دار سينما ، وهو رقم كبير بلا شك ، وتمثل صناعة السينما كل سمات المجتمع الباكستاني ، فتنتج الأفلام باللغات المختلفة التي تمثل القوميات المتعددة ، كالاوردية ولغة الباشتو ، ولغات البنجاب والسند ، وأكبر أسواق السينما الباكستانية في بنجالاديش ونيبال ومانيلا وتايلاند وسريلانكا وتركيا .

والسينما الباكستانية ، رغم سنوات بدايتها القريبة ، الا أنها ازدهرت حسابياً وتعتمد قصصها على الميلودراما العنيفة ، وعلى التقابل بين الأضداد ، الخير ضد الشر ، والفقر ضد الغنى و .. وهكذا ، وكما يحدثنا غلام محي الدين الفنى الأول في السينما الباكستانية ، فان انتاج الفيلم وتصويره « لا يستغرق أكثر من شهر في حالة توافر التمويل والتسهيلات من حجز كاميرات واستديوهات » . ولذلك فلن نصاب بالدهشة اذا ادركنا أن استديوهات لاهور تنتج وحدها ١٢٠ فيلماً سنوياً ، وتبلغ تكلفة الفيلم في حدود ٣ ـ ٤ ملايين روبية ، ولكن عائد الفيلم من التوزيع الداخلي فقط يغطي تكاليفه ، دون الاعتماد على التسويق الخارجي ، ويساعد في ذلك كما أوضحنا كثافة عدد السكان ، وافتقادهم لوسائل الترويح ، ويبدو أن ادراك الحكومة لذلك هو السبب في فرض ضرائب تصل الى ٥٠ بالمائة على كل تذكرة تباع في السينما ، ورغم ذلك فأسعار التذاكر رخيصة تماماً ، ويعوض رخص ثمنها الإقبال الكبير والتردد المستمر ، الذي يحقق عائد بيع مرتفع يغطي رخص ثمن التذكرة .

ولذا فمن المألوف في بعض الأحيان أن يستمر عرض بعض الأفلام الجيدة لأكثر من عامين وثلاثة أعوام ، رغم أن كل دور السينما تقدم يومياً ٣ حفلات ، وفي أيام المناسبات والأعياد تقدم ما بين ٤ الى ٥ عروض يومياً ، ولذلك فان نجوم السينما



● مدير مستشفى الشيخ زايد



● وزير الزراعة

يمثلون شريحة خاصة في المجتمع ، ونتيجة ارتفاع أجورهم فان العمل في مجال السينما أصبح حلماً يراود كثيراً من أبناء الطبقة المتوسطة .

وفي أحد استديوهات التصوير وفي فترة راحة بين تصوير المشاهد ، سألت دوردنا رحمن واحدة من أشهر ممثلات السينما الباكستانية عن مستوى تحصيلها العلمي ، فوجئت أن النجمة البطلة لا تعرف كلمة واحدة من الانجليزية وتولى مرافقنا الترجمة ، فقال لنا انها هجرت المدرسة قبل أن تتم المرحلة المتوسطة ، وعندما سألتها عن دخلها مقارنة بدخل زميلاتها الذين كانوا معها بالمدرسة ؟قالت : انها تحقق دخلاً يفوق ما يمكن أن يحصل عليه زملاء فصلها كلهم ، حتى لو كانوا قد اتموا تعليمهم الجامعي .

واجهة مشرقة

وفي وسط الترهل الذي أصاب لاهور بفعل الزمن والأزمات .. يظل مجمع الشيخ زايد آل نهيان الطبي كواجهة مشرقة مضيئة ، وقد بني المجمع الطبي الشامل بتمويل يكاد أن يكون كاملاً من الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة ، كهدية منه الى شعب باكستان .. وكانت زيارتنا للمجمع بمثابة النهاية السعيدة ـ على طريقة السينما الميلودرامية ـ لرحلتنا الى باكستان ، فالمجمع وخدماته انجاز بالغ الروعة .

يحدثنا الفريق أول دكتور محمد أبو ظفر محيي الدين مدير المجمع فيقول : ـ

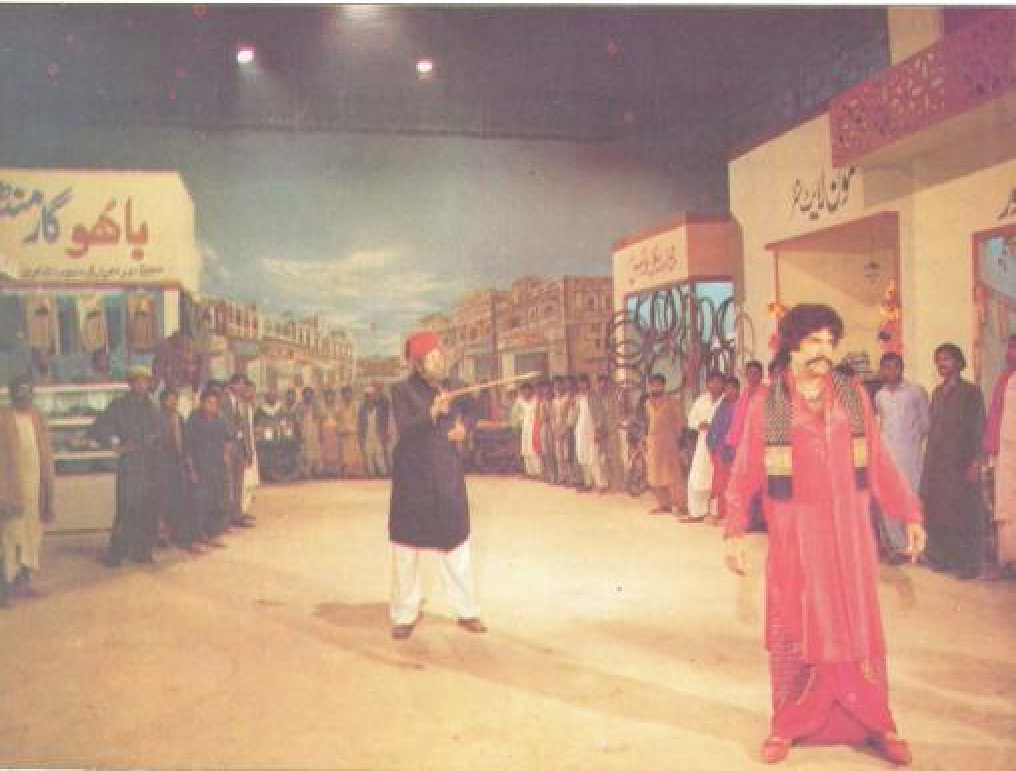




● السينما الباكستانية . .
وسيلة الترويح الوحيدة
الى اقصى اليمين (اعلى)
دودنا رحمن أشهر
ممثلات باكستان ،
ثم الياس كشيمر ممثل
مخضرم اثناء تأدية دوره ،
ثم مشهد اثناء التصوير .
والى اسفل الى اليمين
اعلانات الأفلام تملأ
الشوارع ، والى اليسار
مشهد في فيلم آخر
وازدهار صناعة السينما . .
جعل من الاستوديوهات
خلايا نحل تعمل
يوميا حوالى ١٤ ساعة
والاسبقية للحجز .









• مصنع أحذية في لاهور . . احد التوكيلات لشركة عالمية كبرى هو جزء من نشاطات القطاع الخاص .

« بنى المجمع على مساحة ٥٠ هكتاراً ، وهو يضم ثلاثة مجمعات ، الأول مستشفى الشيخ زايد ، والثاني معهد فيدرالي لدراسة الطب ، والثالث مركز بحوث اكلينيكية متطورة . ويقدم المجمع خدمات طبية متطورة وجديدة ، وما زلنا في المراحل الأخيرة من مشروع استكمال خدمات المجمع .

ونستطيع أن نقول اننا استكملنا كل الخدمات الأساسية ، سواء أقسام المرضى وكلية الطب أو مركز الأبحاث ، وتعمل كل هذه الأقسام وتؤدي خدماتها الآن ، ولكن هدفنا في هذه المرحلة هو تطوير وتوسيع نطاق هذه الخدمات .

فعلى سبيل المثال في المستشفى ٣٦٠ سريراً ، نأمل أن تصل الى ٥٠٠ سرير ، وكل مريض يأتي الى المستشفى هو مريض مهم ، ونقدم له الخدمات الطبية مجاناً ، فقط يقدم المريض ورقة يقول فيها أنه فقير ، ولا نتقاضى منه سوى رسم دخول لا يتجاوز خمس روبيات ، أي ما يعادل ربع دولار ، ونقدم له بعد ذلك كل الرعاية من فحص وعلاج ودواء وجراحة مجاناً ، باستثناء رسم القلب فيسدد عنه رسم مقداره عشر روبيات ، رغم أنه في كل باكستان يكلف هذا النوع من الخدمة ما بين حوالي ٥٠ - ٧٠ روبية .

وبجانب الخدمة الطبية المجانية لدينا عدد من الأسرة نتقاضى عنها رسوماً وذلك من القادرين ، وهي مائة سرير للعلاج الاقتصادي ، يدفع المريض ١٠٠ روبية في اليوم ، تمثل تكاليف إقامته وعلاجه كاملة ، ولدينا نظام غرف آخر مخصص له ٦٠ سريراً موزعة على غرف خاصة نتقاضى عنها ٣٠٠ روبية في اليوم ، وكل العلاج والاستشارات يدفع المريض تكاليفها . أي إننا نطبق نظاماً يدفع فيه القادرون كي نتمكن من علاج المحتاجين والفقراء وما أكثرهم .

وبجانب المستشفى فان الكلية تقدم التأهيل العالي ، وجميع أساتذة الكلية أطباء في نفس الوقت بالمستشفى ، ونخطط الآن لبدء مرحلة الدراسات العليا في الكلية لمنح الدبلوم والماجستير والدكتوراة .

أما مركز الأبحاث فهو يضم نخبة الباحثين في المجالات الطبية المختلفة والطاقم العلمي بأكمله مؤهل بأعلى درجات التأهيل ، وينقسم عمل المركز الى قسم يقدم خدمات البحث والتحليل للمستشفى ، وقسم بحوث علمية لديه خطط بحوث في مجال العلوم الطبية ، والقسم الثالث والأخير هو قسم الباحثين الجدد ، وفيه يتم تدريب الباحثين بعد تخرجهم ، أو تأهيل الطلاب المسافرين الى الخارج للحصول على درجات علمية ، بحيث يسافر الطالب بعد فترة تأهيل وتدريب مكثفتين ، لكي يحقق أفضل نتائج ممكنة في بعثته .

ولدينا خطط في المركز والمستشفى تشغل بالنا ،

مثل كيفية الاسهام في حل المشكلة الصحية في باكستان ، المتمثلة في انتشار الملاريا والتيفود في كل الريف الباكستاني ، وكيفية تقديم الخدمة الصحية المباشرة على مستوى الوحدات الصغيرة ، بحيث تصل الى كل تجمع سكاني ، وأتصور ان هذين المحورين - بالاضافة الى نشر الوعي الصحي - سيسهمان كثيرا في تخفيف وطأة المشكلة الصحية .

وقد ساعدتنا ظروف كثيرة في هذا المجمع ، فنحن لم نبدأ كمستشفى صغير ، بل منذ اليوم الأول ونحن نعمل بنظم احدث المستشفيات العالمية ، ونستخدم ارقى ما وصل اليه العالم من تقنية في الادارة والطب ، وهذا يسهل علينا كثيرا كل عمليات التطوير ، لأن الاساس متطور وقائم على قواعد علمية .

كاهـوتـا

رغم بطء نمو بعض القطاعات الاقتصادية والصناعية في باكستان ، وتخلف البعض الآخر ، فانلدى باكستان قطاعاً بالغ التطور والتقدم ، وتحيطه بكامل الرعاية الممكنة والسرية المطلقة ، ونعني به قطاع البرنامج النووي ، ويقع المفاعل النووي الباكستاني في منطقة كاهوتا ، وقد بدأ البرنامج منذ فترة زمنية طويلة قدمت فيها الولايات المتحدة الأمريكية في البداية مساعدات معقولة إلى باكستان ، ولكن الحكومات العسكرية المتعاقبة لم تعتمد فقط على الولايات المتحدة ، وانتهجت سياسات لتطوير برنامجها النووي ، بعيدا عن الاعتماد على مصدر واحد ، وكان الخيار الباكستاني مطلقا ، ففي تصور واضعي السياسة الباكستانية وخاصة من النخبة العسكرية ان امتلاك القوة النووية أمر لا يمكن التنازل عنه في مواجهة الهند بالدرجة الأولى ، وفي مواجهة جيرانها الأقوياء ، وتحسبا لدورها الاقليمي كما تتصوره .

ولذلك فقد أعلنت باكستان أكثر من مرة أن أي إعتداء من قبل الهند على منشآت برنامجها النووي يعني الحرب بين الجارتين .

ويظل موضوع الاعتداء على هذه المنشآت هاجس الباكستانيين الدائم ، ولكن بعد عودتنا بأيام قليلة تناقلت وكالات الأنباء خبرا عن بدء المحادثات بين الهند وباكستان للتوصل الى حل لهذه المشكلة وذلك عن طريق عقد اتفاقية عدم اعتداء على المنشآت النووية . بين الهند وباكستان .

أضغـاث أحـلام

بعيداً عن المدن بقليل تتناثر قرى الريف الباكستاني ، والحياة فيها صعبة قاسية ، في جولتنا حول المدن .. رأينا الطلاب يجلسون في الأرض العراء .. ومعهم المعلمون ، وعندما سألنا مرافقنا قال لنا ان هذه هي احدى مدارس الريف ، سألناه وماذا يفعلون عندما يهبط المطر ، قال بابتسامة عريضة تتوقف الدراسة ، كما تتوقف المواصلات .

وبرغم كل هذه الحياة التي يحياها ريف باكستان ، فانه يحمل داخله إمكانية للتطوير ، فالأراضي القابلة للزراعة في باكستان تقترب من ٢٢ مليون فدان ، يزرع منها الآن ما لايزيد عن ١١ مليون فدان ، ومتوسط غلة الفدان في محصول كالقمح تبلغ « ٢,٤طن » ، بينما المتوسط العالمي العادي يقترب من ٣,٥ أطنان ، وكما يقول أحد كبار خبراء الزراعة العرب ان زراعة جميع الاراضي في باكستان ، مع قدر من التطوير وتحسين أساليب وأدوات الانتاج الزراعي ، سيرفع معدل غلة الفدان الى ٣ أطنان ولو حسبنا انتاج جميع الاراضي القابلة للزراعة هناك لأصبح ما يقترب من ٦٠ مليون طن قمح ، أي ثلاثة أضعاف ما يستورده الوطن العربي كله من القمح .

وتذكرت ان تكاليف انشاء المسجد الكبير الفخم الضخم كانت قادرة ان تمول هذا المشروع ، او على الاقل تبني مدارس لهؤلاء الاطفال .. وتذكرت ان احلام الناس بالعدل قد ولت مع السنوات الأولى ، وأن تطبيق الحلول المثالية بدأ بالحدود ولم يبدأ بالكفاية والمشاركة ..

وهربا من كل تواليات الصورة فتحت أوراقي وأخذت أقرأ بعض أشعار الشاعر محمد إقبال - رحمه الله وغفر له - وبدأت أستعرض أحلام الشعراء وأفعال الساسة !!

وعندما انطلقت بنا السيارة إلى المطار .. أخذت أقطع الوقت بمحاولة قراءة الآيات القرآنية والشعارات الدينية المكتوبة بالعربية والأوردية وأحاول أن أكتشف الخطوط المتماثلة والمتشابهة بين الاثنين . □



انطونيو غاودي

عبقري العمارة الإسبانية

بقلم : طارق خالد الحجي

المدينة كالرجل ، لها شخصيتها ، وطابعها ، ومعالمها المميزة ، وإن كان صناع المدينة هم الناس العاديون فإن ملامحها ومعالمها المميزة يبنيها المعماريون والفنانون والعباقرة منهم ، المقال التالي محاولة لالقاء الضوء على علاقة فريدة ، جمعت بين رجل ومدينة ، الرجل هو انطونيو غاودي ، أما المدينة فبرشلونة .

يعتبر انطونيو غاودي أشهر مهندس معماري في اسبانيا ، بل إنه يعتبر من عمالقة الفن المعماري على المستوى العالمي ، وبالرغم من شهرة غاودي في بلاده ، خاصة في مدينة برشلونة ، حيث درس هذا الفن ، وعمل طول حياته ، فإن شهرته في البلاد الأخرى محدودة ، وذلك لأن غاودي نفسه كان يكره الشهرة ، ولم يندفع وراء مغرياتها ، وآثر الحياة البسيطة المتواضعة ، خاصة خلال الحقبة الأخيرة من حياته ، فقد توصل من هم أقل منه نبوغا وإبداعا إلى شهرة عالمية واسعة بسعيهم وراء تلك الشهرة ، وماتجلبه لهم من جاه وثروة ، أما غاودي فقد رفض بريق الشهرة والمال ، وكرس نفسه ووقته لأعماله المعمارية الرائعة التي لم يجاره فيها أحد ، لما فيها من أصالة وإبداع .

كان وراء تميز غاودي عن الآخرين عوامل وأحداث كثيرة ، شكلت تلك الشخصية ، وغذت



جذور تكوينها منذ الطفولة حتى الشيخوخة ، فقد عاش حياة مميزة ، وأنتج أعمالا معمارية فريدة بطابعها وأسلوب بنائها ، فانعكست فيها شخصيته ، وأفكاره ، وفلسفته في الحياة . وقد مر غاودي بمراحل مختلفة ، دفعته - فيما بعد - إلى الاهتمام العميق بالنواحي الدينية ، فكان كلما تقدم في السن ازداد زهدا ، حتى أنه عاش العقد الأخير من حياته كناسك فقير ، حيث نبذ كثيرا من المظاهر الدنيوية والنواحي المادية ، خاصة بعد أن فقد جميع أفراد أسرته على فترات متفاوتة خلال مراحل حياته .

ومما يزيد من اهتمامنا بهذا الفنان المعماري العظيم أنه استعمل في أعماله بعض العناصر المعمارية ذات الطابع العربي التي أضافت الكثير إلى أسلوبه المعماري .

نفس حزينة :

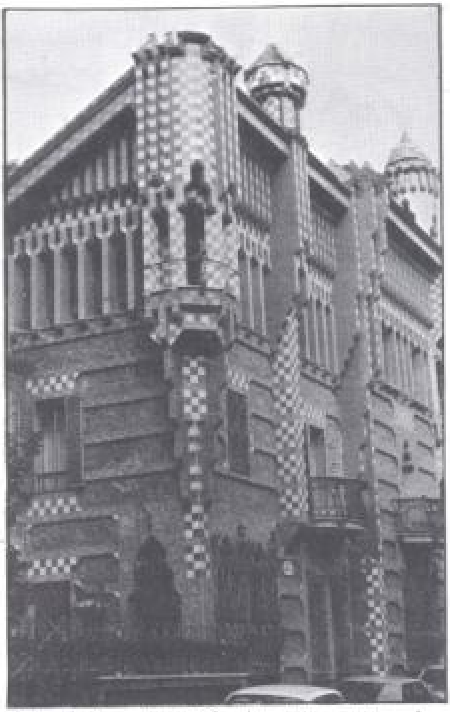
ولد انطونيو غاودي عام ١٨٥٢ م في أسرة متواضعة ، في قرية بالقرب من مدينة طرّقونة ، الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، إلى الجنوب من مدينة برشلونة ، في اسبانيا ، وبعد إتمام دراسته الثانوية انتقل إلى المدينة ، ليلتحق بكلية الفنون المعمارية ، وقد عاش في برشلونة بقية حياته ، وأصبح أحد أشهر أبنائها ، لما قام به من أعمال معمارية عظيمة فيها ، وفي مناطق أخرى متعددة .

اهتم غاودي بالفنون والفلسفة ، بالاضافة إلى أوضاع بلاده الاجتماعية والسياسية ، إذ كانت اسبانيا تمر بحالات من التوتر والخلافات الداخلية التي سبقت الحرب الأهلية الاسبانية في ثلاثينيات هذا القرن ، وكان النزاع قائما على أشده ، خاصة بين برشلونة عاصمة القطر الكاتالوني - ومدريد - عاصمة البلاد المركزية ، وكان غاودي من المتحمسين ضد سلطة مدريد المركزية ، كما كان حال معظم سكان كتالونيا .

ومن أهم الأحداث التي أثرت على شخصية غاودي خلال مراحل تكوينها وفاة والدته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وهو أصغر خمسة إخوة توفي بعضهم وهم صغار ، وتوفي الآخرون في سن الشباب ، ولم يبق له بعد ذلك في الدنيا غير والده وابنة أخته التي كانت بمثابة ابنته ، وقد رافقته ، وخدمته فترة طويلة من حياته العملية ، حتى توفيت وهي مازالت في مقتبل العمر .

كان لهذه الأحداث المحزنة أثر بليغ في نفس غاودي ، وتكوين شخصيته ، وقد ظهرت نتائجها فيما بعد ، فمن الواضح أن وفاة جميع أفراد أسرته بالاضافة إلى وفاة بعض أصدقائه المقربين قد أدى به إلى نبذ هذه الحياة بمظاهرها المادية ، فنبذ حتى الزواج ، وأخذ يهتم أكثر بالمعاني العميقة ، والنواحي الروحية في الحياة ، فكانت النتيجة أنه اتجه إلى الأفكار الدينية ، ليجد فيها الدواء ، لما كان يعانيه من حزن وأسى لموت أقاربه وأحبائه .

عندما بدأ غاودي أعماله المعمارية الأولى ظن بعضهم أنه مصاب بشيء من الجنون ، لما بدا في تلك الأعمال من غرابة في الشكل تخرج بها عن نطاق المألوف وماكان متعارفا عليه ، لكن ثقته بنفسه وعمله مكنته من الصمود ، وكسب تأييد بعض المعجبين بأعماله ، وكان من أبرز الشخصيات التي ساندته وشجعته على الاستمرار في شق هذا الطريق الجديد عدد من الأثرياء ، على رأسهم ثري يسمى (جيل) ، كان له نفوذ كبير في مدينة برشلونة . وقد طلب عدد من هؤلاء - وبخاصة ذلك الثري جيل - أن يقوم غاودي بتصميم مبان سكنية لهم ، أو بعض المشروعات المعمارية الأخرى ، تشجيعا له ولقدراته الفنية ، وذلك عندما بدأ نجمه بالظهور ، وقد أصبحت جميع هذه المباني - فيما بعد - من أهم معالم مدينة برشلونة المعمارية ، وهكذا دخل غاودي إلى عالم الشهرة الذي رفض منه جميع صور الثراء والترف ، فعلى الرغم من تعرفه على علية القوم -



أحد المساكن الخاصة التي يكثر فيها استعمال السيراميك على الجدران الخارجية .
(من أول المباني التي صممها غاودي)

خلال مراحل عمله ـ وارتباطه بصداقة بعض كبار الأثرياء آثر أن لايسلك مسلكهم ، وألايكرس نفسه لجمع المال والثروة ، بل إنه حول تطلعاته وآماله إلى النواحي الروحية والفكرية ، وكرس حياته للنبوغ بفنه المعماري .

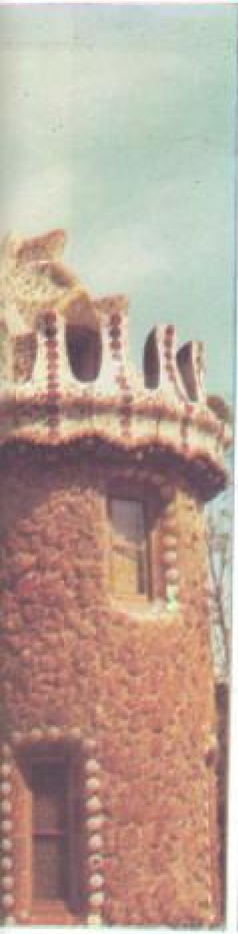
فن العمارة العربية :

استمد غاودي العناصر الفنية التي تكون منها أسلوبه المعماري من ثلاثة مصادر ، هي الطبيعة بكل مافيها من أشكال وألوان ، حيث استوحى منها عناصر كثيرة ، غذت نشاطه الابداعي ، وإنتاجه الفني ، :ون حدود ، كما استمد عناصر كثيرة من فنون العمارة الأوروبية (الكلاسيكية) منها والقوطية ، وصبغها بطابعه الخاص ، وخرج بها من قوالبها الجامدة ، والمصدر الثالث الأخير هو فن العمارة العربية التي ازدهرت خلال العصور الاسلامية في اسبانيا ، والتي مازالت آثارها موجودة في بعض مناطق اسبانيا حتى اليوم ، خاصة في جنوب تلك البلاد ، وقد استمد منها غاودي عناصر فنية مختلفة ، استخدمها في مبانيه الأولى ، لاسيما في تزيين الحجرات الداخلية ، بالاضافة إلى الأشكال الخارجية . وهكذا ابتكر غاودي طابعه المعماري الخاص به ، منذ البداية ، بحيث يمكن تمييز طابعه هذا عن سواه ، ثم تطور فأصبح أسلوبه هذا مدرسة جديدة في عالم فنون العمارة .

وقد أدت المواهب الفنية التي كان يتمتع بها إلى فهمه العميق لأصول التكوين والانشاء المتعددة في الظواهر الطبيعية وأساليبها ، بالاضافة إلى تعرفه على خواص مواد البناء من حجر وآجر وغيرها من المواد المختلفة ، وفهمه الكامل لحركة الضوء في الطبيعة ، وانعكاسه على الأشكال والسطوح الهندسية ، وعلاقته بالألوان ، ولأن جميع هذه الأمور تعتبر من الضروريات لعملية الابتكار والتصميم والبناء كان يتعامل معها جميعا ، ويطبقها عمليا ، وكأنها جزء من كيانه وفكره وروحه ، لأن مواهبه كانت تمكنه من أن يرى تلك الصلة ـ الخفية أحيانا ـ بين الانسان والطبيعة من حوله ، بكل أعماقها وتفرعاتها ، وتشابك تلك الفروع ، فتبدو أعماله المعمارية كأنها قطع فنية هائلة ، قامت بنحتها يد فنان مبدع ، بكل أناة وصبر ، وهذا مما أدى إلى تأثر بعض كبار فناني عصرنا الحديث بهذه الأعمال المعمارية البديعة ، وإن يستمد بعضهم الالهام لأعمالهم الفنية المختلفة منها .

معبد العائلة المقدسة :

أهم أعمال غاودي المعمارية كنيسة ضخمة في برشلونة ، تسمى « معبد العائلة المقدسة » ، بدأ العمل فيها قبل أكثر من مئة عام (١٨٨٢ م) ، ولم يكتمل بناء نصفها حتى الآن ، وقد يتطلب إنجازها







مثال عن بعض الأعمال التي قام بها غاودي في هذا المتنزه وهي من الحجارة الخالصة







بعض المباني الغربية
التي قام بتصميمها
انطونيو غاودي
عند مدخل المتنزه
التي استمدها من
العمارة الاسلامية
في الأندلس





العمارة السكنية التي صممها غاودي وقد أطلق عليها الناس اسم « مقلع الحجارة » لغرابة شكلها الخارجي .

قرنا آخر من الزمان .

لقد امضى غاودي أربعين عاما من عمره يعمل في هذا المشروع الضخم حتى يوم وفاته (١٩٢٦) ، وفي ذلك دليل على تفانيه في عمله ، وإخلاصه إلى أبعد الحدود ، وهذه إحدى الصفات النادرة التي تميز بها عن غيره من العاملين في هذا المجال ، سواء من معاصريه أو من الأجيال اللاحقة ، حيث تحولت هذه الأعمال إلى مجالات تجارية بحتة .

ومما يميز هذه الكنيسة الضخمة أبراجها العالية الغريبة الشكل التي يزيد علو بعضها على مائة متر ، وقد أنجز منها حتى الآن ثمانية أبراج ، وبعد تكامل البناء سيزيد عددها على اثني عشر برجا .

صممها غاودي على النمط القوطي الحديث ، وستكون من أضخم المباني في العالم بعد اكتمالها .

ومن مميزات أسلوبه المعماري أنه لم يكن يكتفي بتصميم المبنى والاشراف على بنائه فقط ، بل إنه كان في كثير من الحالات يصمم فيه كل صغيرة وكبيرة ، حتى قطع الأثاث في كل حجرة ، والنوافذ والأبواب بخشبها وزجاجها التي تصنع خصيصا ليتكامل التناسق والانسجام بين جميع الأجزاء بدون استثناء .

ولايمكننا هنا إلا ذكر بعض أعماله المعمارية ، فنذكر منها أشهرها وأكثرها غرابة ، ولأنه لايمكننا أن نعرض الأجزاء الداخلية من هذه المباني نكتفي بالأشكال الخارجية فقط .

المباني السكنية :

من أهم المباني السكنية التي صممها غاودي في برشلونة عمارة سكنية ، تسمى (كازا ميلا) ، وتسمى كذلك بما معناه « مقلع الحجارة » ، بسبب شكلها الخارجي الذي يجعلها تبدو كأنها جزء من جبل صخري ، نحتت جوانبه ، وهي عبارة عن بناية من الحجر المنحوت يدويا ، وتحتوي هذه البناية على شقق سكنية مكونة من جزأين ، لكل جزء منهما مدخل وبهو خاص به ، وقد بدأ العمل بها عام ١٩٠٥ وانتهى عام ١٩١٠ م .

ومن أعماله المعمارية الأخرى بناية تسمى بيت الشرفات (كازا باتيو) ، ويسميها سكان برشلونة « ذات الأقنعة » ، وذلك بسبب شكلها الخارجي ، ومافيه من شرفات صغيرة تشبه الأقنعة ، وقد كانت ـ أصلا ـ بناية قديمة ، قام غاودي بإعادة تصميمها عام ١٩٠٥ ، فكساها ثوبا مميزا لامثيل له ، وغير من شكلها الخارجي والداخلي ، فبدت كأنها بناية جديدة حلت مكان القديمة ، وهذا مثال آخر على مقدرته الفنية ، وموهبته التي تتعدى الحدود المألوفة ، بل قد تدخل إلى عالم الخيال والابتكار .

بالاضافة إلى المباني المختلفة التي صممها غاودي خلال حياته العملية طلب منه الثري (جبل) عام ١٩٠٠ أن يصمم له ضاحية ، خارج مدينة برشلونة ، فوق بعض المرتفعات المطلة على المدينة ، تتكون من منازل سكنية متباعدة ، تحيط بها الأشجار والحدائق ، داخل سور له بوابات متعددة ، فكرس غاودي سنوات طويلة من حياته لتصميم هذا المشروع ، والاشراف على تنفيذه ، ولظروف قاهرة اضطر صاحب المشروع إلى التخلي عن الفكرة الأولى ، والاكتفاء بجعل هذا المكان متنزها خاصا ، يحتوي على الحدائق الجميلة ، والممرات الملتوية ، والمباني ذات الأشكال الغريبة ، وقد تم بناء أهم أجزاء هذا المتنزه عام ١٩١٤ .

لقد أبدع غاودي في هذا المشروع ، وأطلق العنان لخياله الخصب ، وحاكى الطبيعة بلا قيود ، فالموقع خارج المدينة قد هيأ له المجال لتطبيق كثير من الأفكار والابتكارات التي طالما طافت بمخيلته ، ومكنه الفضاء الرحب أن يصمم ويشيد المباني التي تنبع أشكالها من فكره ووجدانه .

ومما يلفت النظر في هذا المتنزه الجميل الطريقة التي استخدم بها غاودي مواد البناء الطبيعية من حجر وغيره ، خاصة استعماله لقطع (السيراميك) الملونة التي كانت مخلفات مكسرة ، جمعها وكسا بها الجدران والمساحات الخارجية في كثير من أنحاء هذا المتنزه ، لاسيما الجزء الذي يتوسط الحدائق ، وهو عبارة عن مقعد حجري ملتوٍ ضخم ، يحيط بساحة واسعة مكشوفة للعب الأطفال ، وقد استعمل غاودي قطع (السيراميك) الملونة بأسلوبه الخاص في كثير من أعماله المعمارية بشكل مدهش ، مما جعلها جزءا من طابعه المعماري المميز .

والآن بعد أن توسعت مدينة برشلونة ، وأصبح عدد سكانها بالملايين ، فإن كثيرين منهم ـ إضافة إلى أعداد كبيرة من السائحين ـ يجدون متعة كبيرة بقضاء بعض الوقت في أحضان الطبيعة ، داخل هذا المكان الذي تحول إلى متنزه عام ، ويسمى الآن حديقة (جبل) ، نسبة إلى ذلك الثري الشهير .

حين فقدت برشلونة ابنها :

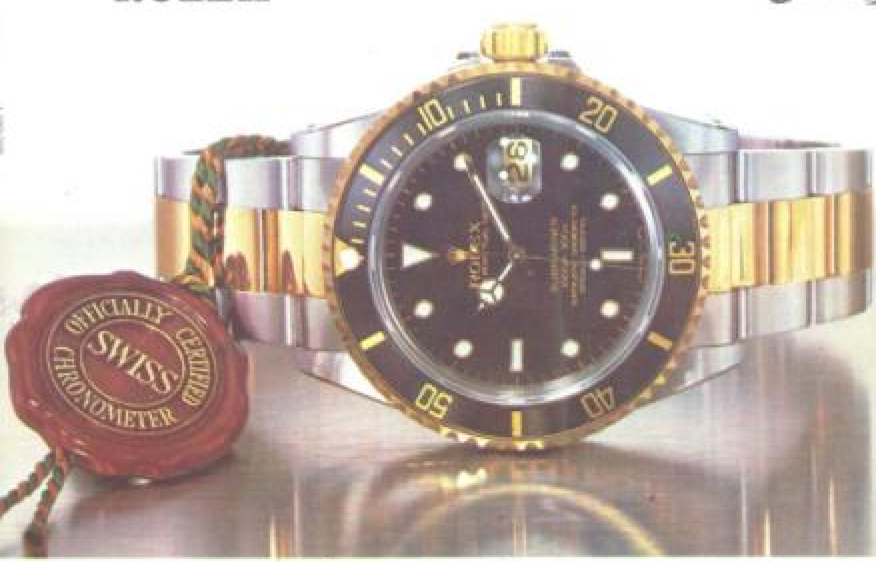
هذه بعض الأمثلة القليلة من أعمال غاودي المعمارية التي قد يجد فيها الفنان العربي مصدرا للالهام ، بعد فهم أسرارها وخفاياها التي تتطلب دراسة متعمقة وافية ، فوراء جميع تلك الأشكال الهندسية الظاهرة للعين تكمن أسس وقواعد ونظريات فنية ومعمارية وعلمية ، خرج بها غاودي بعد دراسة عميقة لأصول الانشاء والتكوين ، ولما في الطبيعة من ظواهر وأسرار ، أهلته مواهبه الفطرية لفهمها وتطبيقها . لقد غاص هذا الفنان إلى الأعماق الدفينة ، بينما ظل كثيرون من دعاة الفن في الغرب ينبشون القشور .

يعتبر هذا المهندس المبتكر قدوة لكل فنان ومهندس بعمله المواصل ، وتفانيه إلى أقصى الدرجات ، ليس طمعا في جائزة أو مال ، بل ليرضي نزعته ، وليضيف إلى تراث البشرية الكثير .

توفي انطونيو غاودي سنة ١٩٢٦ ، عن عمر يناهز الرابعة والسبعين ، في حادث دهس ، في أحد شوارع برشلونة ، فقد صدمه قطار كهربائي ، نقل على أثر ذلك إلى المستشفى دون أن يدري أحد أنه ابن برشلونة الشهير ، وذلك لأنه كان يلبس ملابس متواضعة جدا ، فحسبه الناس أحد الفقراء ، لكن أصدقاءه المقربين وجدوه في المستشفى بعد البحث والتدقيق ، وقد توفي بعد ثلاثة أيام من إصابته ، ودفن داخل الكنيسة العظيمة التي قضى أكثر من أربعين عاما يعمل على إنشائها ، وقد شاركت جماهير برشلونة كبار المسئولين في تشييع جنازته . وهكذا فقدت برشلونة ـ بل اسبانيا كلها ـ أحد أعظم أبنائها ، ذلك الفنان الذي خلف ثروة معمارية وفنية عظيمة ، لاتقدر بأي ثمن ، لكنها تحمل ذكراه إلى الأبد ، وتذكر الأجيال بفنه المميز الأصيل . □



K 18 47



OFFICIALLY CERTIFIED
SWISS
CHRONOMETER

وجهاً لوجه





رسول حمزاتوف و سليمان الشيخ

■ كل اللغات جيدة وعظيمة لشعوبها . ■ « ألف ليلة وليلة » كانت كتابا دائما على مائدة حياتنا . ■ كان أبي يكتب بعض شعره باللغة العربية . ■ لقد « أنسنت » الأشياء .. لأرد « دَيْنَ » بلدي عليَّ ! ■ اذا شدّ صديق طيب على يدك ، فان يدك لا تذوب في يده . ■ أحب بعض شعر المتنبي ودرويش وبسيسو والقاسم . ■ يحارب الرجال من أجل الوطن .. ومن أجل المرأة أيضاً . ■ « شملة » شامل كانت رمزاً للدفاع عن الأفكار الوطنية . ■ علاقة الشاعر بالناقد كعلاقة السائق بالشرطي ! ■ الشعر موهبة لا تنتقل بعدوى المعايشة .

« اللوتس » كانت آخر جائزة ينالها الكاتب الداغستاني السوفييتي رسول حمزاتوف ، وقد منحتها اياه منظمة كتاب آسيا وافريقيا في نهاية سنة ١٩٨٦م ، وتعتبر الجائزة من الجوائز المهمة على الصعيد الأدبي العالمي .

قبل ذلك كان حمزاتوف قد حصل على جائزة لينين ، وجائزة الدولة ، ولقب بشاعر الشعب الداغستاني .

له في الشعر والنثر حوالي ٥٠ كتاباً ، ترجمت الى الكثير من لغات بلدان الدنيا ، وقد صدر كتابه المشهور « بلدي » مترجما الى العربية سنة ١٩٧٩ ، وهو الكتاب الذي ضمنه خلاصة حكمة أهل بلاده وعاداتهم وتقاليدهم وتجليات حياتهم الثقافية .

ولو راجع أي متابع أعداد مجلاتنا الثقافية العربية خصوصاً الشهرية والفصلية منها، سيكتشف أن حظ نتاجات حمزاتوف في الترجمة والنشر أكثر بكثير من حظ نشر بعض نتاجات شعرائنا العرب .

وقد أجرى معه هذا الحوار سليمان الشيخ المحرر في « العربي » في « ماختشكلا » عاصمة داغستان .

رسول حمزاتوف شاعر شعب صغير في داغستان (يوجد في داغستان أكثر من ٥٠ لغة ولساناً) هو الشعب الافاري الذي لا يصل تعداده الى نصف مليون انسان ، ومع ذلك فان عشرات المجيدين في الشعر وفي غيره برزوا من بين أبناء هذا الشعب .

حمزة تسادسا ـ على سبيل المثال ـ والد رسول . . أطلقوا عليه لقب شاعر الشعب من قبل ، ونال جوائز كثيرة قبل ابنه رسول ، وبعض شعره كتبه بالعربية (توفي سنة ١٩٥١) وكذلك الشاعر محمود ، وغيرهما . . وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن كثرة الشعب أو قلته ليست معياراً وحافزاً لبروز أدباء مجيدين من بنيه .

رسول الشاعر الذي أخذ يدق أبواب الخامسة والستين من عمره ، زار معظم بلاد الدنيا ، ومنها بعض أقطارنا العربية ، ولكنه كان يغني بعد أن يعود :

« البلاد الأخرى جيدة جداً
لكن داغستان أغلاها على النفس »

هو من بلدة (تسادا) القائمة على رؤوس الجبال والوهاد قريبة من بلدة (غمرا) التي ولد فيها الشيخ « الأفاري شامل » الذي أشعل الثورة في الكثير من بلاد القفقاس ضد الهيمنة القيصرية الروسية ، اعتبارا من ثلاثينيات القرن الماضي ، واستمر فيها الى نهاية الخمسينيات من ذلك القرن .

له بيتان في ماختشكلا (هناك امتيازات خاصة لبعض كبار الأدباء في الاتحاد السوفيتي) عاصمة داغستان ، الجمهورية ذات الحكم الذاتي في الاتحاد السوفييتي ، احدهما لا يفصله عن معانقة شواطىء بحر قزوين الا طريق ضيق ، ذهبنا اليه في إحدى ليالي صيف العام الماضي ، كانت جوقة الليل تملأ المكان بغنائها وأصواتها ، الضفادع والحشرات وطيور الأشجار ، وأمواج البحر لا تكف عن

التناجي ، الأضواء خافتة ، ووقتنا الضيق يضيق خناقه علينا .

خرجت لنا . . فاطمة امرأة ذات شخصية قوية وجسم عفيّ تماما كجسم حمزاتوف ، انها زوجته ، قامت بالضيافة المعتادة ـ الشرقية ـ ثم اعتذرت عن الشاعر لكونه كان نائما ومتعبا ، اتفقنا معها على موعد في اليوم التالي ببيته في داخل العاصمة .

وجدناه في اليوم التالي حسب الموعد ببيته في ماختشكلا ، معه فاطمة زوجته ، وبعض البنات وبنات البنات (له ثلاث بنات هن : زريمة ، زهرة ، وفاطمة أيضا وصالحة) .

« بلدي » وألف ليلة وليلة

قلت : دعني في البداية أعبر لك عن التقدير الكبير الذي يكنه بعض المثقفين العرب لشخصك وتناجك ، ان شعرك ومواقفك يصلان الينا دائما ، وفيهما نجد الكلمة الصادقة ، والمواقف التي تراعي الحق والحقيقة . . فشكرا لك ألف شكر . .

ـ علّق : « ان أحد طموحات الشاعر هو وصول كلماته ومواقفه الى أكبر عدد من الناس ، وها أنت تبلغني أن كلماتي تصلكم أنتم العرب ، وهذا شيء أعتز به وأفخر ، وأشكر زملائي المترجمين عليه ، ولكنه لمزيد الأسف لا يصلني ، أو على الأصح ان قليله يصلني » .

* كتابك « بلدي » مترجم الى العربية .

ـ قاطعني وقال : « عندي نسخة منه » .

* قلت : ان اسلوب الكتابة فيه يشبه أسلوب القص في « ألف ليلة وليلة » فهل اطلعت عليها من قبل ، وتأثرت بها ؟

ـ علق : « ان قلت لك انني لم أقرأ « ألف ليلة وليلة » فانني أكون غير صادق معك . نعم قرأت « ألف ليلة وليلة » لقد كان هذا الكتاب على « طاولة » حياتنا ، وأبي كان يعرف العربية ويقرأها ، بل ويكتب بعض شعره بها ، ومع ذلك فانني أعتقد بأن تشابه الاسلوب بين كتابي وكتاب « ألف ليلة وليلة » هو تشابه مصادفة .

ان مادة الكتاب هي التي فرضت أسلوب المعالجة الذي جاء في الكتاب ، وهي مادة ابداعية ، لا هي من جنس الشعر بمفرده ، ولا من جنس النثر بمفرده ، بل تجمع كليهما » .

* ألم تعرف أنت العربية ، وهل تمنيت الكتابة بها ؟

ـ كل اللغات جيدة لشعوبها ، واللغة العربية كانت لغة علوم عظيمة ، وشعراء عظام ، وكنت أتمنى لو واتتني الفرص كوالدي لأتعلم العربية وأتحدث بها وأكتب ، لكنني في طفولتي نهلت من نبع اللغة الأفارية ـ لغة شعبي ـ وها أنا مازلت أتحدث وأكتب بها منذ أن وعيت على الحياة .

أنسنة الأشياء

* قلت مناكفا : يقولون عن أدبك انك « أنسنت » فيه الأشياء ، وأعليت فيه الحيوات الصغيرة ، ورفعتها الى مصاف ماهو عزيز وحبيب الى القلب ، أو ربما كأنه منتزع من القلب ، وها أنا في بلادك ، لقد رأيت سهولك وجبالك ووديانك وأنهارك وبحرك وناسك وشجرك وتربتك ، فوجدتها كلها تشبه الكثير مما هو موجود في بلاد الدنيا ، ان لم تفقها جمالا ، فعلام كل هذا الدفق والتسامي فيما يخص « داغستانك » ؟

ـ استقبل السؤال برد فعل عادي . . وعلق : « أفهم سؤالك جيدا ، لكنك تعرف انني داغستاني ، في هذه البلاد عشت طفولتي ، واغتنت ثقافتي البصرية والسمعية والعقلية والشعورية بكل مافي هذه البلاد من أشياء وقيم ورموز وتعبيرات ، لذلك فانني أعيد لبلادي بعض ما منحتني اياه ، واذا ماكنت غير مطلع على كتاب « بلدي » فانني أنصحك بالاطلاع عليه ، لأنه يحتوي على أجوبة كثيرة على سؤالك وأسئلة غيرك » .

* علقت : هي مناكفة ليس الا . . أردت من ورائها الاستزادة في هذا المجال ، واذا ما مثلت « ألف ليلة وليلة » زادا ثقافيا للجيل الذي سبق جيلكم ، فان كتاب « بلدي » هو زاد للكثير من مثقفي أقطارنا العربية .

ـ أعلن عن شكره وتقديره لما علقت به .

الوطني والقومي والانساني

* أنت تنتمي الى منطقة يسكنها شعب آفاري ـ وهو قليل عدديا ـ وهذه المنطقة موجودة داخل الجمهورية الداغستانية ، التي هي بدورها موجودة ضمن الاتحاد السوفييتي . فكيف توفق في التعبير عن هذه « الانتماءات » ؟ دون أن تجد تعارضا بينها ؟

ـ « دعني أتذكر كلمات شاعرنا الداغستاني أبي طالب : قال : « نحن لا نحول لغاتنا الى ذئاب ، وهي لا تتعارك ، غبي البيت يشنع على جيرانه ، وغبي القرية يشنع على القرى المجاورة ، وغبي قومية ما يشنع على البلدان الأخرى ، ان الذي يتناول بالسوء لغة أخرى لا يحسب عندنا انسانا » .

وأنا لا يسعني الا أن أعيد ما كتبت : « اللغة في بلادنا لا تعادي لغة أخرى ، والأغنية لا تقتل الأخرى ، ولأن بوشكين أتى الى داغستان ، فلا يجب على محمود ـ أحد شعراء داغستان ـ أن يغادر ربوعها ، ليس هناك من معنى لأن يحل ليرمنتوف محل باتيراي ـ أحد شعراء داغستان أيضا ـ اذا شد صديق طيب على يدك ، فان يدك لا تذوب في يده ، بل تصبح أكثر دفئا وقوة ، اللغات مصابيح حياة وعندي مصباحان : أحدهما كان ينير لي الدرب في نافذة بيت والدي ، كانت أمي هي التي أشعلته كي لا أضل الطريق ، اذا انطفأ هذا المصباح ، ستغرق حياتي في الظلمة ، حتى ولو لم أمت جسديا ، والمصباح الثاني أشعله بلدي العظيم ، وطني الكبير ، الاتحاد السوفييتي ، كي لا أتيه في طريقي الى العالم الكبير » .

الباقي والمستمر

* لك أصدقاء كثيرون من بين شعرائنا العرب ، فهل اطلعت على شعرهم ، ومن هو الأفضل من بينهم ؟

ـ « كما قلت لك . . أنا لا أعرف العربية ، لكنني أرتاح وأعجب بموسيقا شعركم ، وبخاصة الكلاسيكي منه ، وأرتاح لشعر المتنبي على سبيل المثال .

وعليَّ أن أقول بأن ما يترجم من شعركم لا يصلني بشكل مناسب ، انني أجد فيه قصورا ، مع ذلك فانني أجد أن بعض النتاجات الشعرية لبعض الشعراء الفلسطينيين هي الأفضل من بين ما يصلني ، أو على الأصح في مقدمة ما يصلني .

ان شعر محمود درويش ومعين بسيسو وسميح القاسم وغيرهم يستفيد من الحالة النضالية السائدة لدى قطاعات كثيرة من الشعب الفلسطيني ، ويحاولون اغناءه واشباعه بمضامين انسانية مؤثرة » .

* ألا تجد في بعض الشعر الذي قرأته للشعراء الفلسطينيين أولئك وغيرهم حالة تعبير مرحلية . . قد يتم تجاوزها لاحقا ؟

ـ « ما تقوله صحيح ، ومع ذلك فان بعض شعرهم يحمل نفسا نضاليا انسانيا يبقى ويستمرّ الى مراحل لاحقة » .

الشعر الوجداني

* قبل وصولنا الى (ماختشكلا) ، قابلنا في (غروزني) الشاعرة الشاشانية رئيسة احماتوفا ـ احد ـ وقد لفتت نظرنا الى أنك أصبحت تميل الى كتابة الشعر الغزلي ، والكتابة عن المرأة والحب . . الخ ، فهل ستستمر في هذه الاتجاه ؟ والى أين ستصل به ؟ وهل هو تعبير عن حالة معينة تعيشها ؟

ـ « ان مجمل شعري يركز على موضوعات أعتبرها مهمة ، من بينها : الوطن ، والمرأة والحب ، وطبعا

لا يمكن فصل هذه الموضوعات عن بعضها البعض ، فحب الوطن لا يمكن النظر اليه خارج نطاق حب الأم والحبيبة . . . الخ .

وعليَّ أن أعترف أن نتاجي الشعري فيه القليل عن المرأة ، لذلك فانني أجد نفسي مدفوعا للكتابة عن المرأة والطفل أيضا . . هناك قول داغستاني يفيد :

« يحارب الرجال من أجل الوطن ، ومن أجل المرأة أيضا » ولا أدري هل الضحايا الذين سقطوا من أجل الوطن هم أقل من ضحايا المنافسة على النساء أم أكثر ؟

اني بصدد كتابة كتاب عن هذا الموضوع ، وسيكون ككتاب « بلدي » متضمنا الكثير من دروس التاريخ والعادات والذكريات والحكم وغيرها ، الحب في الحياة كالملح في الطعام ، بدونه لا نحس بالطعم أو المذاق » .

ثورة شامل

* هناك اجتهادات متعددة ومختلفة حول ثورة الشيخ شامل في داغستان ضد السلطة القيصرية الروسية ، كيف تنظر وتقوِّم هذه الثورة بعد مضي هذه السنين عليها ؟

ـ « دعني أبسط الأمر قليلا ، لقد لبس شامل اللباس الوطني التقليدي ، وحمل معه الخنجر التقليدي الداغستاني .

الخنجر هو رمز الدفاع عن الوطن ، والشملة ـ غطاء الرأس ـ كانت رمزا للدفاع عن الأفكار الوطنية ، لقد كانت ثورته تتجه الى توحيد الشعب الداغستاني ، وتحقيق استقلاله عن شتى القوى » .

* والمناداة بإقامة حكومة دينية ترددت في بعض الأحيان ضمن ما كان يطرحه الشيخ . . كيف تنظر الى ذلك ، وماهو رأيك فيها ؟

ـ « ان تركيز الشيخ شامل على الاسلام ، كان نابعا من ادراكه لحقيقة معروفة للجميع ، تفيد بأن الاسلام كان منتشرا في جميع أنحاء داغستان ، كما ان الكثير من اللغات الداغستانية كانت تكتب بحروف عربية ـ لغة القرآن ـ وبما أن هذه البلاد يسكنها عشرات القوميات والشعوب ، لذلك فإن « الاسلام » هو ما كان يوحدها في تلك المرحلة ـ منتصف ثلاثينيات القرن الماضي ـ .

* والعامل الوطني والقومي . . . هل أغفله شامل ؟

ـ لا لم يغفله شامل ، بل هو باعتقادي كان سبب ثورته ، ان الثورة كانت تدعو لتوحيد الداغستانيين ضد الغزاة ، بغض النظر عن انتمائهم لقوميات وشعوب مختلفة ، وبغض النظر ان كان هؤلاء الغزاة من الروس أو الفرس أو الأتراك .

ثورة شامل لم تكن ضد المسيحية كدين ، بل كانت ضد الغزاة الروس وغيرهم ، لقد حارب شامل قبائل اسلامية وقفت بوجه الثورة أيضا .

صحيح ان النهاية كانت فاجعة لهذه الثورة وناسها وقائدها . . وصحيح أن الأهداف الاستراتيجية أصبحت غائمة في ذهن الشيخ شامل في أيامه الأخيرة قبل هزيمته واعتقاله ، ومع ذلك فان الثورة كانت ثورة وطنية ديموقراطية لتحقيق استقلال ووحدة شعوب داغستان .

الشاعر . . البحر . . والطفل أيضا

شُغل الشاعر بأمر طارىء ، فانتهزت الفرصة ووجهت بعض الأسئلة الى زوجته فاطمة :

* هل تواجهين صعوبات معينة من كونك زوجة لشاعر مشهور ؟

ـ علقت : لا شك في ذلك ، وكما أن للأمر محاسنه فان له سيئاته أيضا . ان زوجات الرجال الآخرين يواجهن مصاعب أيضا ، وواجبات الحياة كثيرة والطلبات لا تنتهي ، ونحن النساء علينا أن نقوم بأدوارنا في الحياة بصور حسنة ، الشاعر كالبحر وكالأطفال ، وامرأته عليها أن تتعامل مع هذا الوضع .

* تعنين أن الشاعر رسول مازالت فيه جوانب من عهد الطفولة ؟

- نعم فيه جوانب عديدة من عهد الطفولة .

* ألم تنتقل اليك عدوى الشعر ، بعد هذا العمر الطويل مع شاعر كرسول ؟

- انا لست شاعرة - الشعر موهبة لا تنتقل بعدوى المعايشة .

* هل غزتك الغيرة يوما بسبب وجود شخصية نسائية في شعر زوجك .. تعاطف معها ووصف محاسنها ؟

- سكتت للحظات .. تمعنت واستعادت بعض الذكريات .. ثم علقت :

لا أتذكر شيئا من ذلك قد حدث معي ، ومع ذلك فالانسان لا يخلو من ردود فعل عادية وفطرية .

* هل تقرئين قصائد زوجك قبل نشرها .. وهل يستمع الى ملاحظاتك حولها ؟

- انني أطلع على الكثير من قصائد زوجي قبل نشرها ، وأكوّن بعض الملاحظات حولها .. وأبدي رأيي فيها .

* هل يستمع لملاحظاتك ويعدل بالقصائد حسب ما تقترحين ؟

- ليس دائما ، يستمع نعم ، لكنه لا يأخذ بكل الملاحظات .

شرطة الأدب

عاد الشاعر .. فسألته : هل تعتبر زوجتك فاطمة الناقدة الأولى لشعرك ؟

ابتسم ابتسامة خفيفة وأجاب :

- ان علاقتي بالنقاد هي كعلاقة السائق بالشرطي .. هم يريدونني أن أتقيد « بالقوانين » حسبما يفهمونها ، وأنا أتفلت في الكثير من الأحيان من هذه القوانين .

لكل حالة قانونها عندي ، وهم يمكسون مساطر لا تتوافق أحيانا مع الولادات والمناخات الجديدة التي تولد بولادة القصيدة .

أما عن رأي زوجتي فاطمة ونقدها .. فهي تبدي بعض الانطباعات الأولية .. التي ربما آخذ ببعضها .. وربما لا آخذ ..

اضطررت الى طرح السؤال الأخير ... بعد أن لفت نظري مترجمنا المرافق الى أن موعد طائرة المغادرة قد أخذ يدخل في ساعاته الأخيرة والحرجة قلت :

* كيف تنظر السيدة فاطمة لعمل المرأة .. بعد مضي هذه السنين من صدور قوانين المساواة ؟

- لا شك ان الدستور السوفيتي قدم الكثير من المكتسبات للمرأة في مجتمعاتنا التي كانت تحسب على « الشرق » بما فيه من تخلف ، لقد انتهت الأمية في داغستان منذ زمن طويل ، وتساوت المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات .

لكنني أصدقك القول .. بأن ساعات الراحة أصبحت قليلة .

أنا أعمل مديرة للمتحف الوطني في ماختشكلا ، أحب عملي وأخلص له ، لكنني أشتاق لبناتي ولأولادهن .. والساعات التي أقضيها معهن أعتبرها قليلة .. يبدو أن لكل شيء ثمنا .. ومع ذلك فان وضعنا نحن النساء الآن أفضل بكثير مما كنا عليه في العهود السابقة .

أو لنقل .. انه لا يمكن المقارنة بين ما كنا عليه - كحريم - وبين ما نحن فيه الآن من مساواة واحترام .

قبل أن أطوي أوراقي .. سألت الشاعر رسول : ماهي القصيدة التي تحب ان تهديها للقراء العرب ؟

حك رأسه وأجاب بسرعة وحسم : « اللغة الأم » ، وهذه مقاطع منها :

قد تشفي بعضهم لغة أخرى ،
لكني لا أستطيع ان أغني بها ،
وإذا كانت لغتي ستضمحل غدا ،
فأنا مستعد أن أموت اليوم .

□

هل دخل السرطان مرحلة الإحتضار ؟

بقلم : الدكتور عماد شمسي باشا

« السرطان ! هذا الرعب الذي أقض مضجع الانسانية أجيالا طويلة ، هذه المعاناة التي عاش الناس منها فيما يشبه الموت قبل أن تحين ساعات الموت ، سواء في ذلك الضحية نفسها أو أهلها القريبون منها ، هذا المرض الخبيث الماكر الذي صال وجال في طيش وعنفوان ، هل آن الأوان ليختفي من حياة الناس ؟ وهل يقدر لجيلنا أن يشهد الساعات التي يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة ؟

رغم كل الانجازات المهمة ، والتطورات الكبيرة التي حدثت في السنوات القليلة الماضية في مجال علاج السرطان بمختلف أنواعه وأشكاله ، وبرغم كل الأسلحة التي استخدمها الطب الحديث في صراعه مع هذا المرض ، من علاج جراحي باتر ، إلى مداواة كيماوية معقدة ، إلى معالجة شعاعية مركزة ، إلا أن السرطان ما يزال مرضا سيء السمعة لدى كل من الطبيب والمريض على السواء ، ولقد أنفقت أموال طائلة ، وبذلت جهود مضنية ، وأجريت بحوث مطولة في هذا المضمار ، وما تزال هنالك أسئلة أساسية ومبدئية تبحث عن جواب يكشف الغموض ويبدد الحيرة ، لكن الليل لا يدوم سرمدا ، ولا بد للشمس أن تطلع من جوف الظلام ، فها هي بوادر جديدة مشجعة تبدأ في الظهور مبشرة بأمل طال انتظاره ، ألا وهو القضاء الكامل على هذا المرض الوبيل .

هذه البوادر الجديدة تتمثل في مفهومين حديثين ، تبين أن لهما أهمية كبيرة في مجال إدراك السبب في حدوث السرطان عموما ، وفي مجال التشخيص المبكر له ، ومن ثم في مجال المعالجة المجدية لأنواعه المختلفة . ولم يكن لهذه البوادر الجديدة أن تظهر لولا هذا التطور الكبير الذي حدث في مجال « البيولوجيا » الجزيئية ، وفي مجال التقنية المرتبطة بها ، ولقد عرضت هذه المعلومات الحديثة عن السرطان تشخيصا وعلاجا في المؤتمر السنوي السابع والعشرين للجمعية الأمريكية للسرطان الذي عقد مؤخرا .

هذه البوادر الجديدة التي تحمل الأمل وتلوح به تتلخص في نقطتين اثنتين ، أولاهما مفهوم مورثات

« جينات » الأورام « ONCOGENES » ، والثانية تتعلق بموضوع الأجسام المضادة وحيدة السلالة « Monoclonal-AB » ، وسأحاول في الأسطر التالية من هذا المقال أن أقدم فكرة كافية عن هذين الاكتشافين الحديثين ، وعن أهميتهما ، وعن الأمل المرجو من إدخالهما حيز التطبيق العملي .

مورثات الأورام

يعلم معظم من له اطلاع على علوم الحياة أن الصفات والوظائف التي تتميز بها الكائنات الحية عامة ، بدءا من أبسط الخلايا النباتية ، وانتهاء بالكائن البشري المعقد التكوين ، إنما تعود إلى وجود ما يسمى الجينات أو المورثات في خلايا تلك الكائنات ، وأن الجينات هي التي تستوعب السمات والمظاهر التي يتمتع بها أي كائن حي ، كما أنها هي التي تتحكم في انتقالها بصورة محكمة ودقيقة من جيل إلى آخر ، عبر سلالات متعاقبة لا محدودة ، وأن هذه الأجزاء المتناهية في الصغر التي نسميها « جينات » لا تعدو أن تكون جزيئات كيماوية ، متجاورة ، وفق ترتيب خاص ، اصطلح على تسميتها جملة حمض (D . N . A.) .

والآن ماذا يعني مفهوم مورّثات الأورام أو جيناتها ؟

الحق أن الأمر في حالة مورثات الأورام ليس على صورة التوارث السابق الذكر تماما ، إلا أنه يمت إلى هذه الصورة بصلة ما . فمورثات الأورام توجد في خلايا الانسان جميعها ، كغيرها من المورثات الأخرى ، وهي موجودة في هذه الخلايا منذ اللحظات الأولى لتشكله داخل الرحم ، إضافة إلى أن هذه المورثات تملك القدرة أو الامكانية على أن تحول الخلية الحاوية لها من خلية طبيعية سليمة ـ تنمو وتتكاثر ضمن نظام منضبط ـ إلى خلية أخرى ، لا يحكمها ـ في نموها وتكاثرها ـ أي نظام ، وبمعنى آخر تحولها إلى خلية سرطانية .

ظواهر ملفتة للنظر

من الظواهر الملفتة للنظر أن مورثات الأورام هذه تظل بلا فاعلية ، وبدون أي نشاط ، حتى يتوافر لها ما يبعث فيها الحيوية ، وما يوحي إليها بالانطلاق ، وحينئذٍ تطلق إشارتها الخبيثة إلى خليتها لتعلن عصيانها على الناموس المنظم لحركتها ، ولتبدأ تكاثرها السرطاني اللامحدود .

لقد بات كثير من العلماء في الوقت الحاضر يعتقدون أن مورثات الأورام تلعب دورا أساسيا مهما في كافة أنواع السرطان ، وأن كل الأسباب التي نعلم أن لها دورا في إحداث المرض كالتدخين والتعرض للاشعاع وبعض أنواع (الفيروسات) إنما يقتصر عملها وتأثيرها على تنشيط أو تشغيل تلك « المفاتيح » الخلوية المسئولة عن الأورام ، وأعني بها مورثات الأورام .

المفهوم الثاني في هذا المجال الذي ازداد الاهتمام بتطبيقاته في السنوات القليلة الماضية هو موضوع استخدام الأجسام المضادة كاحدى الوسائل الناجعة في علاج السرطان . والأجسام المضادة ما هي إلا مواد كيماوية حيوية ، يشكلها الجسم حين يتعرض لأي « غزو » خارجي على شكل عدوى جرثومية أو فيروسية ، وهذه الأجسام المضادة المتكونة تتميز بصفة مهمة وحيوية ، وهي صفة « الخصوصية » أو « الفردية » ، بمعنى أنها لا تهاجم إلا « العدو » الذي أنتجت للقضاء عليه .

هذا المفهوم السابق الذكر للأجسام المضادة شُرع في تطبيقه واستخدامه في مجال مكافحة الأورام وعلاجها مؤخرا ، إذ تبين أن للأجسام المضادة قدرة على مهاجمة الخلايا السرطانية الشاذة ، بنفس قدرتها على مهاجمة أي جرثوم أو فيروس ، لأن كل خلية سرطانية وكل جرثوم عبارة عن عنصر غريب عن الجسم في صفاته وخواصه وتركيبه ، ولذلك يستحق نفس الاستعداد ونفس التأهب للمهاجمة والصد ، فالأجسام المضادة لسرطان القولون مثلا تهاجم الخلايا

السرطانية فيه وحدها على الرغم من وجود خلايا قولونية سليمة مجاورة لها ، وهذه الخصوصية في الأجسام المضادة هي ما يعطيها أهميتها الكبرى في مجال كبح جماح السرطان وفي أن تكون واحدة من بوارق الأمل في القضاء عليه .

التكلفة باهظة !

على الرغم من أنه قد تم تحضير أجسام مضادة خاصة لعشرة أنواع من السرطان الأكثر حدوثا ، وأنها أصبحت جاهزة لادخالها حيز الاختبار السريري والتطبيقي على المصابين بهذه السرطانات ، إلا أن تحضير كميات كافية من هذه الأجسام المضادة التي تسمح بإجراء الفحوص اللازمة على عدد كبير من المصابين ما يزال بحاجة إلى وقت طويل ومال كثير ، ولقد قدرت تكاليف اختبار نوع واحد فقط من الأجسام المضادة تلك بحوالي ٢٠ مليون دولار ، كما أن جراما واحدا منها تبلغ تكاليف تحضيره مبلغاً لا يقل عن سبعة آلاف دولار ، فإذا علمنا أن تجربة عملية سريرية واحدة تحتاج إلى عدة آلاف من الجرامات أدركنا مقدار التكلفة الباهظة التي يواجهها العاملون في هذا المجال ، لكن يعتقد كثيرون أن هذه التكاليف ستنخفض بشكل ملموس حينما يشرعون بإنتاج تلك المواد الكيماوية بأساليب أخرى وكميات كبيرة ، وذلك بعد إثبات فاعليتها بشكل قاطع ، وبعد التأكد من أن أثرها في المعالجة أثر جذري . وعلى الرغم من ضخامة التكاليف المادية بدأ أحد المراكز الطبية المتخصصة بأبحاث السرطان وعلاجه في فيلادلفيا بتجربة الأجسام المضادة كعلاج لسرطان القولون الذي فشل فيه التدخل الجراحي ، وكانت النتائج المبدئية لهذه المعالجة مشجعة غاية التشجيع ، مما يبشر بخير كثير في مجال علاج السرطان .

من المشاكل الكبيرة التي تواجه الأطباء في مجال علاج السرطان عموما مشكلة التأثيرات الجانبية الشديدة للأدوية المستخدمة في العلاج ، فبعض هذه الأدوية يحدث تَقَيُّؤاً وإسهالاً شديدين ، وبعضها يسبب آلاما عصبية مستمرة ، أو يؤدي إلى تساقط شعر البدن ، ومنها ـ أيضا ما يوقف عمل نخاع العظم المسئول عن توليد كريات الدم الحمراء والبيضاء ، وغير ذلك من التأثيرات المختلفة ، وكثيرا ما تكون هذه الأدوية بالنسبة للمصابين مصدر معاناة تفوق بكثير معاناتهم من مرضهم الخبيث .

ومع تطوير أسلوب المعالجة بالأجسام المضادة أصبحت مشكلة التأثيرات الجانبية قليلة العبء على المريض ، إن لم تكن قد أخذت طريقها إلى الحل الكامل . فما حقيقة الأمر في ذلك ؟

إن معظم تأثيرات أدوية السرطان الضارة يعود إلى كونها تدمر خلايا سليمة إلى جانب تدميرها خلايا سرطانية ، فهي سلاح عشوائي أعمى يخرب كل خلية يصادفها ، بغض النظر عن هويتها ، وهذه التأثيرات الجانبية هي الثمن الفادح الذي يدفعه المريض من جسمه في سعيه للتخلص من آفته الخبيثة ، أو للتخفيف من آلامه المبرحة ، أما مع الأسلوب الجديد المطروح للمعالجة ـ وأعني به أسلوب المعالجة بالأجسام المضادة ـ فالأمر يختلف كثيرا ، إذ يمكن « تحميل » هذه الأجسام المضادة بالدواء المطلوب ، ثم إرسالها إلى داخل الجسم ، بواسطة الحقن الاعتيادي ، ثم تركها لتكمل المهمة بمفردها ، إنها عندئذ ستتجه ـ تلقائيا ـ إلى الخلايا الخبيثة ، وكأنها تبحث عنها بعين مبصرة ثم تفرغ حمولتها من الدواء عند تلك الخلايا دون سواها ، وكأنها صواريخ موجهة ، وبهذا تظل الخلايا السليمة في أجزاء الجسم الأخرى في منأى عن أثر ذلك الدواء المدمر .

ومن الجميل أن إمكانية « تحميل » تلك الأجسام المضادة الموجهة ضد السرطانات لا تقتصر على الأدوية وحدها وإنما يمكن توسيع المجال ليشمل النظائر المشعة ، وفي هذه الحالة يتم استبدال العنصر المشع بالدواء ، الأمر الذي يجعل أثر الاشعاع المخرب مقصورا على الخلية السرطانية دون سواها ،

وهذا ما تم تطبيقه بالفعل ، وأصبح إشراك النظائر المشعة مع الأجسام المضادة من الطرق المستخدمة حاليا في علاج بعض أنواع السرطان .

ومن ضمن الفوائد التي يمكن تحقيقها من إدخال طريقة الأجسام المضادة مجال التطبيق الواسع استخدامها في علاج الحالات المتقدمة من السرطان ، حيث تكون بذور المرض قد تغلغلت في أعضاء الجسم المختلفة ، إذ يمكن بواسطة تلك الأجسام المضادة المحملة بأسلحتها مهاجمة الخلايا الخبيثة أينما وجدت ، ومن ثم الفتك بها ، والقضاء عليها .

ولكي تكون الصورة المتعلقة بموضوع الأجسام المضادة تامة الوضوح لا بد لنا من التعرف على بعض العقبات التي ما تزال تواجه الباحثين في هذا المضمار ، فمن هذه العقبات مثلا أن الخلايا الخبيثة المسببة لنوع من أنواع السرطان قد لا تتماثل أو يتشابه بعضها ببعض مائة بالمائة ، بل قد يكون هنالك اختلاف بين بعض هذه الخلايا وبعضها الآخر ، وهذا فالأجسام المضادة المستخدمة تجاه « تركيبة » معينة من الخلايا قد لا تصيب هذه الفئة الشاذة المختلفة عنها ، وهذا يعني أن هذه الفئة ستنجو من الملاحقة ، ومن ثم تكون الفرصة سانحة أمامها لتبدأ هجمة جديدة شرسة ، إلا أن هذه العقبة ليست بالمشكلة المستعصية الحل ، إذ يمكن - نظريا - تطوير الأجسام المضادة أو تعزيزها بأجسام مضادة أخرى تكون قادرة على مجابهة هذه الفئة الضئيلة الشاردة من مجموع الخلايا السرطانية المعروفة .

ومن هذه العقبات أيضا عقبة تبدو كأنها نقيضة للعقبة السابقة ، أعني بذلك أن بعض الخلايا السليمة المعافاة تتشابه في تركيبها مع بعض الخلايا السرطانية ، ولذلك فالأجسام المضادة للسرطان سوف يلتبس عليها الأمر ، فتهاجم خلايا سليمة في نفس الوقت الذي تتجه فيه إلى تلك الخلايا السرطانية ، ومع اعتراف معظم العاملين في هذا المجال بما تسببه لهم هذه العقبات من تعويق وإحباط إلا أنهم يجمعون على أن المشكلة تظل - في نظرهم - أقل سوءا من المعالجة بالأدوية المعتادة ، أو بالنظائر المشعة ، بدون الاستعانة بالأجسام المضادة ، فالضرر الناجم عن مهاجمة الخلايا السليمة حين تطبيق الطريقة المعتادة أشد بكثير من الضرر الناجم عن استخدام الأسلوب الجديد في العلاج .

هذه العقبات وغيرها لابد من أن توجد لها حلول مناسبة من خلال التجارب الميدانية الواسعة التي تستعد لها المراكز الطبية المتخصصة المتعددة .

عودة إلى مورثات الأورام

على الرغم من التفاؤل الكبير الذي يرافق الأسلوب الجديد في المعالجة ، والذي يقوم على استخدام الأجسام المضادة المناسبة ، إلا أن الحل النهائي لمشكلة السرطان سيكون - فيما بعد - على أيدي علماء « البيولوجيا » الجزيئية ، وليس على أيدي الأطباء المعالجين ، فهؤلاء العلماء ينظرون بتجرد كبير إلى الخلية وأقسامها وجزيئاتها الكيماوية وتفاعلاتها ، ويحاولون الامساك ببداية الخيط الذي سيوصلهم - في النهاية - إلى غايتهم المنشودة ، وهي معرفة سر السرطان ، وكيفية تطوره ، ومن ثم التدخل للحيلولة دون هذا التطور أو التكامل ، اعتمادا على أسس خلوية وكيماوية بحتة .

ويبدو أن هؤلاء العلماء قد وصلوا إلى ما يمكن تسميته ببداية النهاية في هذا المضمار ، وذلك باكتشافهم مورثات الأورام ، تلك التي تحدثنا عنها في بداية المقال ، إلا أننا سنضيف هنا أن مورثات الأورام تؤلف نسبة ضئيلة جدا من العدد الكلي لمجمل المورثات التي تقدر بحوالي خمسين ألف مورّثة ، ويعتقد العلماء أن عدد مورثات الأورام قد قدر بخمسين مورثة تمّ الكشف عن عشرين منها حتى الآن .

وحتى وقت قريب كانت نظرية مورثات الأورام ودورها الأساسي في تحويل الخلية السليمة إلى خلية سرطانية شاذة تدور في مجال التصور والافتراض ،

إلى أن تمكن العلماء في العام الماضي من تشغيل تلك المورثات الكامنة ، الأمر الذي أدى إلى تحويل الخلية الطبيعية إلى خلية سرطانية بالفعل ، ثم جاءت التجارب لتؤكد صحة نظرية المورثات ، لا سيما التجارب التي أجريت في مختبرات جامعة (هارفارد) ، حيث أمكن نقل الاستعداد للاصابة بسرطان الثدي عند الفئران بنقل مورثات الأورام من سلالة مصابة بسرطان الثدي إلى سلالة أخرى سليمة ، ومن ثم رفع فاعلية هذه المورثات وتنشيطها بواسطة الهرمونات ، فكانت النتيجة إصابة الفئران السليمة بسرطان الثدي ، على أن دور مورثات الأورام لا يقتصر على كونها خطوة البداية في تشكل الأورام عموما ، لكن يبدو أن لعددها أهميته في هذا المجال ، فكلما ازداد عدد هذه المورثات في الخلايا كانت أكثر شراسة وعنفا ، وبالتالي فإن معرفة عدد المورثات الموجودة سوف تحدد طريقة العلاج الأمثل منذ البداية ، وهذا في الواقع ما نرجو تحققه في المستقبل القريب .

لا شك أن الحدث الأعظم في مجال مورثات الأورام سيكون في التوصل إلى طريقة ، يتم بواسطتها إعادة إيقاف فاعلية المورثات ، بعد أن تكون قد رفعت فاعليتها لسبب ما ، وحينئذ نكون قد وضعنا أيدينا على الحل النهائي لمشكلة السرطان ، وهذا يتطلب - بلا شك - مزيدا من التقدم في مجال تقنية « البيولوجيا » الجزيئية ، وما نظن أن العلماء ستفتر هممهم عن تحقيق هذا الأمل المنشود .

تفاؤل حذر

إن المتتبع للمراحل التي مرت بها عملية البحث عن سبب السرطان وعلاجه لابد أن يعتريه شيء من التفاؤل الحذر إزاء نظرية مورثات الأورام ، فقد مرت مسيرة البحث بمحطات كثيرة ، يعتقد أن كل واحدة منها هي نهاية المطاف في مأساة السرطان ، ثم يأتي الواقع ليقول إن الطريق ما يزال طويلا ، وأن الرحلة لم تنته بعد ، فمن مرحلة تميزت باكتشاف عديد من المواد الكيماوية المحدثة للسرطان ، إلى مرحلة برز فيها دور (الفيروسات) كعامل محتمل للاصابة ، إلى مرحلة ثالثة توجه البحث فيها ناحية المناعة ودورها حين تصاب بالضعف أثناء الاصابة بالسرطان ، اضافة إلى نظريات أخرى تحدثت عن أهمية مادة « الانترفيرون » **INTERFERON** في علاج أنواع مختلفة من السرطان ، لكن من المعتقد أن المحطة الجديدة مختلفة عن كل ما سبقها ، وأن موضوع مورثات الأورام سيكون هو الاطار الذي سيؤلف بين شتات « القصة » المتناثرة ، حيث يضع كل عنصر من هذه العناصر في مكانه الصحيح من هيكل « القصة » ، فالعوامل المختلفة التي تساعد على حدوث السرطان كالفيروسات والاشعاعات والمواد الكيماوية تؤثر - مجتمعة أو منفردة - على مورثات الأورام الكامنة - أساسا - في الخلايا ، وحين تتفاعل تلك المورثات تؤدي إلى تشكل مواد « بروتينية » خاصة ، تعمل - بدورها - على إحداث تبدلات أساسية في صفات الخلية ووظائفها ، وتحيلها إلى خلية أخرى مختلفة ، أي خلية سرطانية ، وهنا ينشط الجهاز المناعي السليم في الجسم لتشكيل أجسام مضادة تتصدى لهذه الخلايا المنحرفة ، فإن كانت له الغلبة تمّ القضاء على المرض في مهده ، وإن فشل في مهمته نما هذا « النبت الشيطاني » ، وأطل بوجهه القبيح سرطانا شرسا .

وفي ختام هذه الجولة التي تناولت نقطتين جديدتين مهمتين ، توجهت إليهما أنظار العلماء في الأشهر القليلة الماضية ، واعتبرتا نصرين حاسمين في حلبة الصراع العنيد مع السرطان ، أحب أن أقول إن شمس الأمل قد سطعت ، وان نهاية النفق المظلم قد قربت ، وإن كانت قد بقيت هناك معارك جانبية لابد من خوضها لتطهير الساحة تماما من فلول معتد مرعب ، أقض مضجع الانسانية أجيالا طويلة . □



التعلم عن بعد..
الجامعة المفتوحة

بقلم : توفيق أبو بكر

يواجه التعليم التقليدي في وطننا العربي تحديات كبيرة ، ليس أقلها ارتفاع نسبة الأمية في كافة افكاره فحسب ، بل في المهمات المستقبلية الجسيمة التي تتطلب معالجات تربوية مبتكرة ، بينها نظام التعلم عن بعد .

منذ وقت مبكر من هذا القرن لجأ عدد من دول العالم ـ المتقدم ، والنامي على حد سواء ، الراسمالية والاشتراكية ـ إلى استخدام أسلوب متطور في التعليم ، يعرف بالتعليم عن بعد ، وذلك لتحقيق مبدأين أساسيين ، الأول مبدأ الديمقراطية في التعلم ، وذلك لاتاحة الفرصة لأكبر عدد ممكن من المواطنين الذين فاتهم قطار التعليم ، أو انقطعوا عن الدراسة والتدريب للاستمرار في تلقي العلم ، والثاني مبدأ التحديث عبر استثمار أوسع في إنجازات العلم والتقنية التي يمكن الافادة منها في هذا الأسلوب التعليمي ، بدرجة أوسع مما يحصل في التعلم التقليدي .

ولذلك تنتشر اليوم في العالم أكثر من خمسمائة جامعة مفتوحة ، تقدم الخدمة التعليمية بأسلوب « التعلم عن بعد » الذي تقوم فلسفته ـ بشكل عام ـ على الانتقال إلى الدارس ، بدلا من التعلم المباشر الذي ينتقل فيه الدارس إلى الجامعة ، والذي تقوم فلسفته على تقديم كم من المواد التعليمية المكتوبة التي



يشترك في انتاجها فريق كبير من العلماء والمربين والفنيين والمحررين ، وليس عالما واحدا كما هو سائد في الجامعات التقليدية أو الجامعات التي تقبل الدراسة بالانتساب ، يشتركون فيه من البداية حتى النهاية ، وكذلك المواد التعليمية المسموعة ، عبر الأشرطة والاذاعة ، والمرئية عبر أشرطة (الفيديو) ، وبرامج التلفاز ، إضافة لوسائل أخرى ، كاستخدام الهاتف ، كما هو سائد في بريطانيا وأمريكا والسويد ، واستخدام مراكز الارشاد الفرعية في أماكن وجود الطلبة وأبنية الجامعات التقليدية مساء ، ومختبراتها ، والدورات الصيفية ، والدوام المباشر لمن يستطيع من الطلبة .

وقد أثبتت الدراسات التربوية أنه بالرغم من البعد بين الدارس والمعلم في التعليم المفتوح ، فإن توفير رزمة تعليمية متعددة الوسائط في أكثر من اتجاه يمكن أن تحدث تفاعلا بين المتعلم والمادة التعليمية ، موازيا لما يحصل في الجامعات التقليدية ، وإذا كان عدد من دول العالم قد لجأ لأسلوب التعلم عن بعد ، كنظام مؤازر للتعليم التقليدي ، يستجيب لعدد من التحديات السكانية التقنية ، لايستطيع أن يصمد في مواجهتها التعليم التقليدي بإنجازاته المحدودة ، فإن الوطن العربي أحوج مايكون لتبني هذا النظام ، لمواجهة نفس التحديات التي تتفاقم في بعض أقطاره سنة بعد أخرى .

نسبة أمية خطيرة

التعليم التقليدي في الوطن العربي يواجه عددا من التحديات القائمة والمستقبلية التي تتطلب الأخذ بنظام « التعلم عن بعد » ومن أهم هذه التحديات :

أولا : نسبة الأمية في الوطن العربي التي مازالت مرتفعة جدا رغم النجاحات النسبية البطيئة في مجال محو الأمية ، عبر مراكز تعليم الكبار ، بالأساليب التقليدية ، فالمتوسط العام للأمية حسب إحصاءات ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢ تبلغ نسبته ٦٩٪ في مجمل الوطن العربي ، لكن هذه النسبة تصل في الصومال مثلا إلى ٩٣,٥٪ ، وفي اليمن الشمالي ـ طبقا لما جاء في التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ١٩٨٥ ـ تصل نسبته إلى ٩١,٤٪ ، وفي المغرب ـ حسب تقرير اليونسكو لعام ١٩٨٤ ـ تصل نسبته إلى ٧٨,٥٪ ، وأكثر التقديرات تفاؤلا حول نجاح خطط محو الأمية في الوطن العربي تشير إلى أنه رغم ذلك سيكون هناك في عام ٢٠٠٠ م ١١٥ مليون أمي عربي . وهذه الأرقام المستقبلية مرعبة ، تتطلب ـ بالضرورة ـ أساليب تربوية جريئة لمعالجتها ، وإلا فإن التقدم العربي سيبقى محكوما عليه بالفشل ، وهذه النسبة العالية من الأمية تزداد في أوساط البنات في الأقطار العربية ، حيث تغادر الفتيات المدارس للزواج ، أو لأسباب اجتماعية مختلفة . تقول الاحصاءات ـ طبقا للمصادر التي أشرنا إليها سابقا ـ إن نسبة أمية الفتيات في بلد كسوريا وصلت إلى ٨٠٪ ، في وقت تنخفض فيه هذه النسبة إلى النصف تماما ، حين يتعلق الأمر بالذكور ، فنسبة أمية الذكور في سوريا في نفس العام هي ٤٠,٤٪ فقط ، والفجوة نفسها تتكرر في لبنان الذي بلغت فيه هذه النسبة ـ حسب إحصاء ٨٠/ ٨٢ لأمية الفتيات ـ مامقداره ٤٢,١٪ وأمية الذكور مامقداره ٢١,٥٪ أي النصف ، ونفس الفجوة موجودة بدرجات متفاوتة في الأقطار العربية الأخرى ، ففيها تزيد نسبة الأمية للاناث في المغرب والصومال واليمنين ، الشمالي والجنوبي عن ٩٠٪ ،

ومن البديهي أنه لايمكن لمجتمع أن يتقدم مادام نصفه يعيش الأمية الأبجدية ، بهذا الشكل الصارخ الذي يعبر عن تخلف حضاري مرعب . ولهذا فإن نظام « التعلم عن بعد » الذي لايشترط حضور الدارس للجامعة قد يكون أحد أهم الأساليب لانتشال المجتمع من أمراض الأمية المتفشية .

أمية المواكبة

إضافة لهذه الأمية الأبجدية المباشرة هناك « أمية المواكبة » ، وهو تعبير سمعته من أحد المشاركين في ندوة عمان « جامعة القدس المفتوحة والتعلم عن بعد » ، ويقصد به انقطاع المتخرج عن العلم تماما بعد تخرجه ، ودخوله سوق العمل ، فهناك كثيرون يؤرخون لتاريخ تخرجهم ، باعتباره النقطة الفاصلة - في نظرهم - بين حياة الدراسة والعلم والحياة العملية ، متجاهلين علاقة العلم المثمرة بالعمل

وهؤلاء الذين يصابون « بأمية المواكبة » يشكلون - مع مرور الزمن - « بطالة هيكلية » ، كما أنهم يسهمون في تخلف المجتمع العربي ، إذا كانوا عاملين في المجالات العلمية والتقنية على الأخص ، لأنهم لايتابعون الثورة الهائلة في هذه المجالات ، ولايفيدون منها لاختصار الهوة الواسعة التي تفصلنا عن العالم المتقدم ، وأنظمة « التعلم عن بعد » ، بما توفره من برامج لاعادة التدريب ، وللانعاش العلمي للعاملين أثناء عملهم دون حاجة للتفرغ . إنها فرصة ثمينة ، تسهم في زيادة الاستثمار في رأس المال البشري .

التحديات الديموغرافية

في الوطن العربي طفرة سكانية هائلة ، لايستطيع التعلم التقليدي أن يستجيب لتحدياتها ، وبخاصة

أن هذه الزيادة السكانية الهائلة تتركز في أوساط الفئة العمرية (٢٠ - ٢٤) ، والفئة العمرية للأطفال ، أي في أوساط الفئات التي تحتاج للدراسة والعلم .

وحسب الأرقام التي جاءت في دراسة للدكتور أحمد محمود الخطيب ، الخبير بمكتب التربية العربية لدول الخليج ، قدمت لندوة عمان ، فإن إحصاءات اليونسكو تشير إلى أن عدد السكان في الأقطار العربية قد بلغ عام ١٩٨٥ : ١٩٠ مليون نسمة ، وبلغ عدد السكان في الفئة العمرية (٢٠ - ٢٤) ١٧ مليون نسمة ، وتشير التقديرات الى أن عدد السكان في الوطن العربي سيقفزعام ٢٠٠٠ إلى ٢٨٨ مليون نسمة ، بزيادة سنوية تصل إلى ٣,٢٪ - وهي من أعلى النسب في العالم - فيما سيقفز عدد السكان في الفئة العمرية (٢٠ - ٢٤) إلى ٢٦,٥ مليون طالب وطالبة ، وإذا علمنا أنه يوجد في الوطن العربي الآن سبعون جامعة ، تضم مليوني طالب وطالبة ، فهذا يعني أن هناك جامعة لكل نصف مليون نسمة من الفئة العمرية السابقة الذكر ، وهي نسبة ضئيلة جدا رغم التقدم الكبير في مجال إنشاء الجامعات في الوطن العربي .

وهذه الفجوة - حسب الاحصاءات السابقة - ستزداد عام ٢٠٠٠ م كثيرا إن لم يتم تدارك الأمر بأساليب تعليمية غير تقليدية ، فمن المنتظر أن يكون عدد الطلاب الجامعيين في الوطن العربي عام ٢٠٠٠ ٦,٣ ملايين طالب ، يستهلكون ٢٦٪ من تكاليف التعليم العام في الوطن العربي ، بينما يستهلكون الآن أقل من ١٧٪ من النسبة العامة للتعليم العام ، وهذا يشير إلى التكاليف الاقتصادية الباهظة للتعليم العالي في وطننا العربي في العقدين القادمين ، وهذه التكاليف يمكن توفير جزء كبير منها بتبني أساليب « التعلم عن بعد » ، فحسب الأرقام التي نشرتها الجامعة البريطانية المفتوحة ، وهي أنجح الجامعات المفتوحة في العالم تبلغ تكلفة الطالب في التعلم الجامعي المفتوح ٢٦,٥٪ من تكلفة الطالب في الجامعة التقليدية حتى (البكالوريوس) ، و ٥٠٪ في مرحلة ما بعد (البكالوريوس) ، وتنخفض هذه النسبة مرة أخرى إذا ازداد عدد الطلاب في الجامعة

المفتوحة ، فيما يحدث العكس تماما في الجامعة التقليدية .

التسرب من المدارس

يترك ملايين من الطلاب العرب مدارسهم لأسباب مختلفة .

تقول الأرقام إن ٥٪ فقط من الطلاب العرب في المرحلة الابتدائية يدخلون الجامعة ، و ٣٧٪ من طلاب المرحلة الثانوية يدخلون الجامعة . وهذه نسبة متدنية جدا . ويشكل التسرب الجزء الأكبر من انخفاض عدد الطلاب في مراحل التعليم العالية ،

بالاضافة لعدم قدرة الجامعات العربية على الاستيعاب ، رغم أن تقدما كبيرا قد حصل في هذا المجال . تقول الاحصاءات التي أوردها د . منذر صلاح رئيس جامعة النجاح (المبعد) في ندوة عمان ـ سابقة الذكر ـ ونقلها عن دراسة الجدوى التي أعدتها اليونسكو لاقامة جامعة فلسطينية مفتوحة عام ١٩٨٠ : إن الجامعات العربية لن تستوعب أكثر من ٣٠٪ من الطلاب الفلسطينيين الذين يتخرجون من الثانوية العامة في فترة (١٩٨٥ ـ ١٩٩٠ م) . وفي بلد كالأردن فإن ٥٥٪ من الطلبة الذين حصلوا على الثانوية العامة يمكنهم الالتحاق بالجامعة إذا حددت نسبة القبول بمقدار ٧٠٪ كحد أدنى .

ونسبة ما تقبله الجامعات العربية لعدد السكان هو ٨٪ من الفئة العمرية (١٨ ـ ٢٣) ، وهي نسبة ضئيلة بكل المقاييس .

وحسب التوقعات التي أوردها د . تيسير عبدالجابر في دراسته المقدمة للندوة المذكورة وهي بعنوان « ديمقراطية التعلم وأنظمة التعلم عن بعد » فإنه سيكون هناك في عام ٢٠٠٠ م ١٨ مليون طفل عربي ـ من الفئة العمرية (١٦ ـ ١١) سنة ـ خارج المدارس ـ مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانية نجاح خطط محو الأمية في تخفيض النسبة إلى ٤٠٪ عام ٢٠٠٠ ، وهذه أكثر التوقعات تفاؤلا .

إن علاج الرصيد المتراكم من المتسربين لن يتم من خلال إجبارهم على العودة لنظام التعليم التقليدي ، فالأمر غير ممكن أصلا للاعتبارات السابقة ، بل من خلال أساليب جديدة ، يقف في مقدمتها « التعلم عن بعد » .

ديمقراطية التعلم

ولهذه الأسباب مجتمعة فإن « التعلم عن بعد » يسهم بقدر أو بآخر في تحقيق ديمقراطية التعلم ، حين يتيح المجال لمن فاتهم قطار التعليم من اللحاق به ، وحين يتيح مجال التدريب،وإعادة التدريب والتعلم لمن دخلوا قطاعات الانتاج قبل استكمال دراستهم في مراحل الدراسة المختلفة ، وللأطفال في سن التعليم الذين لم يلتحقوا بالمدارس لأسباب اقتصادية أو اجتماعية أو لقصور في النظام التعليمي ، وللاناث اللواتي لم يتعلمن على نفس المستوى الذي أتيح للذكور ، ولمن لم يدخلوا الجامعات بسبب سياسات القبول ، وعدم توفر المقاعد ، ولفئة كبار السن ، ولكل القوى العاملة في المجتمع التي تحتاج لاكتساب مهارات جديدة .

إن المجتمع العربي بحاجة لنظام « التعلم عن بعد » بمقدار حاجته للنظام التعليمي التقليدي ، إذ إن كليهما يدعم الآخر ويؤازره ، وليس بديلا منه ، وليس أي منهما بديلا عن الآخر .

كل هذه الاحترازات السابقة صحيحة إذا وضعت في إطارها الموضوعي ، لكن تقدم الأمم في مجالات متعددة لايتم بالتقدم في المجال الأول من الصفر حتى المائة ، ثم يبدأ المجال رقم (٢) وهكذا . إنه انطلاق في كل الاتجاهات، ومحاربة صبورة لكل عوامل التخلف ، لتحقيق الديمقراطية العامة في كل مجال ، وبمؤازرة المجال الآخر ، أو بالتقدم عنه خطوة ، أو التأخر عنه ببعض خطوات ، وكل ماعدا ذلك فهو هروب للأمام بالاختفاء وراء شعارات صحيحة ، وكثيرا مايقوم ببعض المثقفين في العالم الثالث بهذه العملية الهروبية . □

الكسب الحرام في الإسلام

بقلم : الدكتور توفيق محمد شاهين*

الإسلام دين يكرم الإنسان ، ويحثه على الاعتماد على النفس ، وكسب الرزق بطريق حلال . وقد أحل الله سبحانه الحلال وما أوسع دائرته ، وحرم الخبائث التي تضر الانسان في دينه ودنياه ، وهي قليلة . فماذا عن الكسب الحرام وكيف التعرف عليه ؟

العمل في الاسلام للقادر شرط لشرف النفس ، وكرامة الشخص ، ونفع الأسرة والإنسانية ، كما أن التعب في طلب الرزق الحلال يكفر ذنوبا ارتكبها الانسان ، كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام .

والنصوص في هذا كثيرة متوافرة في القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، منها : ـ

قول الله تعالى ، في طلب الرزق الحلال والأكل منه ، والتمتع به :

« فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » الملك / ١٥ » .

وقوله سبحانه :

« فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون » ـ النحل / ١١٤ » .

ويرشدنا الرسول ـ ﷺ ـ الى أن الله تعالى يحب المؤمن القوي في دينه ، وخلقه ، وماله ، وعلمه ، وجسده ، بقوله : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » .

وهذه النصوص من الآيات الكريمة والحديث الشريف تبين أن الله سبحانه يحب للإنسان ان يعمل ، وان يكسب رزقه حلالا ، وأن ينفع نفسه وغيره في هذه الحياة ، ومتى قصد بكل ذلك وجه الله تعالى كان عمله للدنيا وللآخرة معا ، وييسره الله بفضله وكرمه .

---

* المركز الاسلامي ـ اوتاوا ـ كندا

وقد سأل كثيرون من الإخوة والأخوات عن حكم الله تعالى في طرق كسب مشبوهة ، وغير مشروعة في الإسلام ، مثل :

(اليانصيب) ، و(اللوتر) ، والسباق ، ولعب الورق (الكارد) ، والقمار ، والربا ، والسحر ، والرهان ، والتجارة في الخمر ، والحشيش ، وكل أنواع المخدرات . . الخ .

ونود أن نفيد بأن كل هذا الكسب حرام ، وفيه أكل لأموال الناس بالباطل ، وهو سحت ، ومن الكبائر التي حرمها الله تعالى على عباده المؤمنين ، لأنها من الكسب الخبيث لا الطيب ولا الحلال ، وكل جسم تغذى منها ، وكل انسان انتفع بها قاصدا ، وكل إنسان تعود على ذلك ولم يتب إلى الله فله النار ، وهي أولى به .

والنصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهي تدل على تحريم ذلك الكسب الخبيث الذي لا يرضاه العقل السليم ، ولا تقبله الفطرة المستقيمة ، لأنه كسب حرام مشبوه ، أتى بطريق سهل ، وبالباطل لا بالحق .

يقول الله تعالى في تحريم هذا الكسب الخبيث :

« يا أيها الذين آمنوا ، انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » المائدة / ٩٠ ـ ٩٢ » .

ويقول الله تعالى :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون (أي بين يدي الله سبحانه يوم القيامة) إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ (أي كالمصروع) ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا » البقرة / ٢٧٥ » .

ويقول سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون » البقرة / ٢٧٨ ، ٢٧٩ » .

ويقول سبحانه : « إنما حَرَّمَ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » [أي لحمه وشحمه ودمه وكل شيء فيه] ـ البقرة / ١٧٣ » .

فقد حرم الله تعالى في هذه الآيات الكريمة :

« الميسر » وهو المقامرة بكل أنواعها ، ومنه لعب الصبيان بالجوز ، ولعب الورق وغيره ، وكذلك لعب الطاولة ، و« الأنصاب » حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، تقربا الى الأصنام ، و« الأزلام » لون من ألوان القمار ، وبقية الآيات واضحة المعنى .

وكل ذلك شر من عمل الشيطان ، ومباشرها ، والآكل منها بعيد عن رحمة الله ، ولا يفلح في الدنيا ولا في الآخرة ، ويعيش في غضب الله تعالى محاربا عاصيا أوامره ، وآكلا لأموال الناس بالباطل .

ولو استعرضنا بعض أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ في هذا الجانب ، لوجدناها مؤيدة وموافقة لآيات القرآن الكريم في حرمة ذلك ، حرمة لا شك فيها :

يقول الرسول ـ ﷺ ـ :

« مثل الذي يلعب بالنرد (أي الزهر والورق والكارت والطاولة وما أشبه ذلك) ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي »

وقال الرسول ـ ﷺ ـ :

« ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة : العاق لوالديه (أي العاصي والمؤذي لهما) ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى . ومن تاب تاب الله عليه »

ويروي معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

« ما تزال قدما عبد (أي لا تتحرك) يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن

شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن عمله ماذا عمل فيه » .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم وأن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه (أي غشه وظلمه) ، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره الا كان زاده الى النار . إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » . صدق رسول الله .

والآن ، ماذا يعمل من معه مال حرام

يقول العلماء في القديم والحديث ، بأن من معه مال حرام ، وأراد التوبة منه والبراءة ، فإن كان له مالك معين وجب صرفه إليه .

فإن كان لمالك لا يعرفه ، ويئس من معرفته (بأن حاول معرفته ولم يستطع) فينبغي أن يصرفه في مصالح المسلمين العامة كالقناطر (الجسور) والربط (أي حماية الثغور وحدود الدولة والدفاع عنها) وغير ذلك مما يشترك فيه المسلمون ، مثل :

إقامة المدارس ، والمستشفيات ، والمساجد ، والصرف عليها ، أو يتصدق به على فقراء أو لاجئين ، أو من نزلت بهم كوارث ، وله أن يصرف منه على نفسه وعياله ، إن كانوا في حالة فقر شديد ، وليكن الصرف في أضيق الحدود الممكنة ، بما يزيل الضرر والهلاك فقط ، فله أن يأكل منه فقط ، وليس له أن يشتري منه ما يركبه ، لأنه لا ضرورة في ذلك .

وهذا الذي ذكرناه قاله بعض علماء الشافعية ، ومنهم الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ، والإمام الغزالي نقل ذلك عن علماء السلف ، ومنهم : معاوية ، والإمام أحمد بن حنبل ، والحارث المحاسبي وغيرهم من أهل الورع . رضي الله عنهم أجمعين .

وقال بعض علماء الحنابلة : يجوز الصرف على المسجد من المال النجس . لأن المال الحرام لا يتعدى الذمتين : فهو حرام في اليد الأولى قطعا ، ولا ثواب ولا أجر للمتصدق بهذا المال ، لأنه حرام في الأصل ، ولكنا نرجو أن يتوب الله عليه اذا تاب توبة صادقة ، وندم على ما بدر منه ، ولم يعد إليه ثانية .

ولا يجوز إتلاف هذا المال ، أو رميه في البحر ، أو ترك الفائدة (للبنك) إن كان المال موضوعا بالفائدة ، وإنما يصرف في مصالح المسلمين العامة .

بذلك أفتت لجنة الفتوى بالأزهر ، ودار الفتوى في لبنان ، ويضيف سماحة الشيخ حسن خالد مفتي لبنان الأكبر - أطال الله في عمره - قوله :

(وعليه فإن على من بيده مال حرام ، ويئس من معرفة مالكه ، أن يتوب الى الله تعالى ، ويبرأ من هذا المال ، ويصرفه في مصالح المسلمين العامة ، كما ذكره الغزالي ، ونقله النووي عن الشافعية ، وعليه ان يسعى لكسب عيشه ، وعيش أهله من الحلال الطيب ، فإن كان مضطرا الى ذلك - كما ذكر - فإنه يمكنه الإنفاق منه في حدود دفع الضرر والهلاك عنه وعن عياله ، ويدفع الباقي في المصالح العامة . كما ذكر ، ولا يجوز له شراء ما يركبه من هذا المال ، ولا أن يعمل به في تجارة او غيرها . . وهذا كله متى قصد البراءة والتوبة ، وعدم معاودة الحرام ، والا فلا يحل له شيء من ذلك ، والله أعلم) . اهـ

وتذكر لجنة الفتوى بالأزهر : (أن الأئمة الأربعة - رضي الله تعالى عنهم - يرون أن الأموال التي تكتسب من غير الطرق المشروعة في الإسلام يجوز صرفها فيما يعود على جماعة المسلمين بالنفع العام ، مثل الصرف على المسجد ، والمدرسة ، والملجأ ، والمصنع . وجوز الإمام ابن تيمية ، وكذلك ابن القيم صرف هذه المبالغ أو بعضها للفقراء والمساكين متى تحقق فيهم شرط الفقر والله أعلم) . □

اقرأ في العدد القادم من العربي

عدد يوليو ١٩٨٧

استطلاعات

- اللاذقية موطن للجمال .. بين البحر والجبل — أبو المعاطي أبو النجا
- نيويورك .. تفاحة عسيرة الهضم ! — صلاح حزين
- السياحة في بلد حار — سليمان الشيخ

حطين أخرى قبل حطين !	الأبعاد الأربعة في نهج الإسلام	الانجاز الاقتصادي الياباني وأبعاده الثقافية
د. شاكر مصطفى	د. عبد العزيز كامل	وحيد عبد المجيد

- الدخول في دائرة الحداثة / د. عبد الرحمن ياغي
- حركات الاصلاح الحديثة / د. المنجي الكعبي
- الصليبيون في الشرق / محسن خضر
- بوكوك الانجليزي يكتب شعراً بالعربية ! / د. نبيل مطر
- ماذا جاء في "الاعتبار" ؟ / جمال الغيطاني
- الطيران حول العالم دون توقف / سعد شعبان
- نظرة على الفيلم الروائى المغربي / علاء الدين محسن
- وقفة مع الكحالين العرب / د. سرى سبع العيش
- وجهاً لوجه : نعمان عاشور وزينب الكردي

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي ـ د. محمد حسن عبد الله ـ د. علياء شكري ـ د. حسين العروسي
د. عبده بدوي ـ د. محمود الشلبي ـ د. جليل العطية ـ رجب سعد السيد



منتدى العربي

قضية

نحن والتراث

بقلم : فاروق خورشيد

في حديثنا عن التراث نسأل أنفسنا : هل نحن نتحدث عن شيء واحد مفهوم ، أم نحن نتحدث عن عدة مفهومات متغيرة ، قد لا تتكامل ، بل قد تتناقض في أحيان كثيرة ؟

فالكلمة تناولتها أقلام كثيرة ، ومفاهيم متعددة ، حتى غدا تحديد وجود متكامل لها شيئا مثيرا بالفعل .

ذهب كثيرون إلى أن التراث هو ماتركه السلف الصالح من عطاءات متراكمة لمعنى الأحكام والقياسات ، والاجتهادات الاسلامية القديمة ، حتى عصور النهضة الفكرية ، أي حتى القرن الرابع ، حيث انتهى التراث إلى اجتهادات واضحة صريحة لا لبس فيها ، وإلى هنا ينتهي التراث ، ولا شيء بعده ، ولا شيء يليه إلا التفسيرات والشروح والحواشي ، وكل ماعداه مدسوس مرفوض من حيث المبدأ ، ومن حيث الوجود نفسه . هذه النظرة إلى التراث حصرت حصيلتنا من عطاء الحضارة الاسلامية كلها في حدود المفاهيم الشرعية السلفية للدين ، وهي نظرة محدودة ، تعرف ما تريد ، وتفهم ماتجد ، ولا تتورع عن رفض كل ما لاترى فيه ما تريد ، أو ماتفهم من تراث .

ولسنا نريد أن ندخل مع هذا الاتجاه في جدل ، فهو صحيح وسليم في حدود رؤيته ومنهجه ورسالته ، لكنه شيء من أشياء .

التراث والدين

لكن الاشكال الأكبر أن كلمة التراث لاعلاقة لها بالدين ، ولا بمعطياته ، فهي أكبر وأشمل من كل

هذا ، وهي تتجاوزه إلى العطاء الانساني الرحب الذي لا يرتبط إلا بمعنى الانسان وفكره وثرائه الوجداني وعطائه العقلي في كل زمان ومكان .

فعلوم البحار وعلوم الجغرافيا وعلوم التاريخ ، وعلوم الطبيعة ، وعلوم الطب ، وعلوم الصيدلة تراث ، وكل مادوِّن فيها جزء من تراثنا ، وجزء من وجودنا الانساني العظيم .

ونستطيع أن نعمم نفس هذه المقولة على العطاء الانساني في الفنون عامة ، وفي فنون القول من شعر وقصة وملاحم خاصة .

وقد برع الانسان منذ اخترع الكتابة في تدوين حصيلته من المعرفة ، ومن الفن ، على السواء ، لينقلها من جيل إلى جيل ، ومن مكان إلى مكان ، ولعله كان يتحدى بهذا الفناء والمحدودية الانسانية ، فعن طريق هذه المعرفة المتوارثة لا يكرر الانسان نفسه ، وإنما يبدأ من حيث أنتهى كل من سبقوه ، ليتحقق بهذا معنى استمرار الحضارة ، ومعنى تطورها إلى الأحسن والأكمل بصورة متتابعة مستمرة ، وبهذا فإن مفهوم التراث عند حدود العطاءات والاجتهادات الدينية الموروثة مفهوم خاطيء ، أو هو على أقل تقدير مفهوم قاصر . . فكل الترجمات التي نقلناها في عصور النهضة العلمية غدت جزءا من تراثنا نحن . . وكل الاجتهادات في كل مناحي العلم والفن هي بالقطع جزء من تراثنا نحن بصرف النظر عن رضا البعض عن مضمونه أو عدم رضاهم . وقد كان أبناء هذه المنطقة حريصين كل الحرص على هذه المدونات المتوارثة ، فتناقلوها ، وظهرت مخطوطاتها في المكتبات العامة ، ومكتبات المساجد والمعابد والأديرة . كما اهتم الاثرياء باقتناء نسخ من كل مخطوط جديد يظهر إما مؤلفا في عصورهم ، واما مكتشفا عند أصحاب المكتبات الموروثة . وغدت مهنة الوراق من أهم المهن في حياة ابناء هذه المنطقة ، وغدا الزهو بحجم المكتبة التي يقتنيها كل ثري مجالا للتنافس والمفاخرة . .

وحين دخل المستعمرون بلادنا كان همهم الاول هو نهب هذه المخطوطات وغيرها من معالم الآثار الى بلادهم . . ولعل همهم الأول منذ العصور الوسطى كان تجريد هذه المنطقة من موروثها المدوّن . وحملت سفن قراصنة الغرب ، وحملت جيوشهم ، الآلاف المؤلفة من هذه المخطوطات لتهدى الى الجامعات والمكتبات ، ولتوضع تحت أيدي المترجمين والباحثين في كل فرع من فروع المعرفة الانسانية . وواضح أن هذا النهب المنظم هو سر النقلة الحضارية التي خرجت بها أوروبا من عصور الظلام الى عصور المدنية والنور . وواضح ان هذه المخطوطات كانت طريقهم الى التعرف على فكر الانسانية كله كما دونه العرب المسلمون ـ العرب لغة والمسلمون دينا ـ بعد أن أضافوا اليه عبقريتهم بابحاثهم الجديدة ، واجتهاداتهم الصادقة . وواضح أيضا أن أوروبا حرصت أن تنكر هذه الحقيقة تماما . . فبعض علمائهم ـ وبالذات بعض أهل الاستشراق منهم ـ يحسون بالحسد والغيره من هذا الدور الإسلامي الهام ، وبدلا من أن يرجعوه الى طبيعة تتابع الحضارات الانسانية ، وتلقائية أخذها وتفاعلها مع الحضارات السابقة ، دخل التعصب ليجعلهم يأخذون بإنكار ، ويقتبسون في تعال ، ويسرقون في تبجح يفوق الوصف . فليس في التاريخ كله سرقة كهذه السرقة ، ولا في التاريخ كله قرصنة كهذه القرصنة . .

غزتنا أوروبا بأساطيلها ومدافعها و (القنبر) ، والعلم العسكرى المتطور ، فهزمنا البرتغاليون في المحيط الهندي وحطموا أسطولنا ، وهزمنا الفرنسيون في مصر ودمروا فرساننا ، وهزمنا الانجليز في التل الكبير واجهزوا على معنى انتمائنا وثقتنا بأنفسنا ورجالنا ، واحاطت اساطيل كل دول العالم باسطولنا البحري في نفارين وفرضوا شروطهم الباغية وخضعنا ، واستدار التاريخ ليشهد دمارنا في ١٩٦٧ ، ونكسنا الرؤوس خجلا وحياء ونفورا من

مواجهة الحقيقة . .

ولكن كل هذا شيء ملموس مفهوم ومتوقع ـ جيوش حاربت ، وجيوش بذلت كل ما عندها ، لكنها هزمت . . من جيوش المهدى في السودان أمام غوردون ، الى جيوش عرابي في مصر أمام خيانة توفيق ، الى جيوش عبد الناصر في ٥٦ ، ٦٧ ، الى غزو بيروت ودمار الكرامة والتمزق في حيرتنا أمام لغز الحروب المستمرة الآن في المنطقة ، كلها أشياء مرة ولكنها اخر الامر مواجهات بين رجال ورجال ، وبين سلاح وسلاح ، وبين ذكاء وذكاء وبين مصالح ومصالح ، وبين أطماع وأطماع . .

مؤامرة على الوجدان

أما ماحدث لتراثنا فشيء آخر . . القوة الغاشمة تفعل فعلها لحظات في عمق التاريخ ، ثم تنحسر . . والمؤامرات الخبيثة تسود لحظات في وجود انسان العصر ، ثم تنكشف وتختبيء وتتوارى . . ولكن التآمر على عقل شعب ووجدان شعب ، شيء آخر تماما . .

جريمة ارتكبها الغزاة في وضح النهار وأمام كل شهود التاريخ . . وخرجوا منها بنقل عقل أمة الى أمة أخرى ، وبنقل وجود أمة الى أمم أخرى . . وصمت التاريخ وشوهت الحقائق ، ولم يتحدث أحد . .

لايستطيع دارس منا الآن أن يدرس شيئا في اللغة أو في التشريع الاسلامى ، او في المعاني الفلسفية للدين ، أو في الفلسفة الاسلامية أو في تاريخ حضارتنا كلها ، وأدبنا كله ـ الا اذا رجع الى مكتبات أوروبا ، والا إذا رجع الى المخطوطات المحفوظة في دور الآثار والكتب والجامعات الأوروبية .

ولا يستطيع دارس منا الآن أن يدرس الطب أو الهندسة أو العلوم الا بلغاتهم هم وبمناهجهم هم . . ومن كتبهم هم . . وكأنهم هم الذين أوجدوا هذه العلوم من عدم ، وكأنهم هم أصحاب الفضل الأول والأخير في البحث العلمى المنظم ، وفي التجريب الممنهج ، وفي تقديم حصيلة كل هذا الى البشرية خيرا وتقدما وحضارة .

والحقيقة التي غابت تقول انهم أقاموا علمهم على ماسبق أن أخذوه من علوم ، كما أقام العرب فكرهم وعلمهم على ماسبق أن ترجموه وأخذوه وطوروه في مرحلة من مراحل الحضارة الانسانية .

ولكن العرب اعترفوا بمصادر حضارتهم ، وأقروا بها ، ودفعوا أسماء أرسطو وبطليموس الى مرتبة الاستاذية ، وأسندوا لهم من الفضل ما هو حق لهم . . أما الغرب فقد سكت عما أخذ ، وأسند الكثيرون من أبنائه لأنفسهم الفضل في كل ما ترجموه ونسبوه الى أنفسهم من علم الاجتماع الى علوم البحار الى علوم الطب والكيمياء . . ثم ساروا في رحلة التطور الطبيعية التي يفرضها التقدم الانساني .

وكما خانت أوروبا الذاكرة خانت المسلمين وأصحاب الحضارة العربية ذاكرتهم أيضا ، فنسوا أنهم اشتغلوا بكل العلوم قبل غيرهم ، ونسوا أنهم أنشأوا المعامل والمستشفيات والمراصد ، والمصانع قبل غيرهم بكثير ، وساعدهم على النسيان شيئان رئيسيان :

الأول أن العثمانيين لم يرتبطوا بالمعنى العربي لانتمائهم واكتفوا بشعار الخلافة الاسلامية لما كان يضفيه على سيطرتهم على مقدرات المنطقة كلها من شرعية ، ونقلوا كل معالم المعرفة وكل رجالها الى الأناضول لتبدأ من هناك رحلة حضارية جديدة ، بينما تركت المنطقة لتخلفها التدريجي المتعمد ، واكتفوا بأن يتركوا لأهلها من كل تراثهم المعنى الديني وحده ، والدين في الاسلام عبادة وعمل ، وما التقوى وعمل الصالحات الا الاستمرار في الحفاظ على عقل الأمة ونمائها ، والاستمرار في العمل الصالح من أجل ازدهار الانسان المسلم وتحضره ، وتحت حكمهم انهار كل شيء الا معنى العودة الى الماضي ، والتدين المتخلف الذي أخذ يتجه تدريجيا

الى ماحاربه الاسلام من كهانة وأساطير وخرافات ، وممارسات الجهالة والجاهلين .

والثاني أن أهل الغرب أدركوا منذ الحروب الاسلامية الأولى أن وحدة هذه المنطقة تحت أي شعار تهديد حقيقي ومباشر للثروات المتدفقة من آسيا وأفريقيا ، وتهديد أيضا لاستمرار سيطرتهم على البحار الدافئة في الجنوب ، وعلى الأرض البكر في عمق أفريقيا والهند ، وتقاسم الاستعمار الغربي المنطقة لتتنافر في ثقافتها ، وفي مصادرها الجديدة للمعرفة ، ولتغير انتمائها الموحد الى انتماءات متعددة بتعدد الدول المستعمرة ، وتعدد اللغات الوافدة بموروثها الفكري والمعرفي المختلف ، وكان المستهدف في هذا كله انسان المنطقة نفسه ، فطالما ظل هذا الانسان معزولا عن ماضيه ، وبعيدا عن ممارسة أي نشاط موحد ، فهو أداة طيعة في يد الاستعمار الغربي ، وريث الروم والصليبيين أعداء المنطقة التقليديين . .

محاور على مر الزمن

وقد سار الاستعمار في تحقيق هذا على عدة محاور لم تختلف على مر الزمن وان تطورت في أشكالها وممارساتها . . ومن هذه المحاور الاستقطاب الثقافي الذي تحدثنا عنه ، ومنها تغير الهوية بمحاربة الثقافة القديمة التي وجدت وجمعت،ومن هنا كانت حملة التغريب أو محاولة محو اللغة العربية بكل تراثها من الوجود كمحور رئيسي في الاستمرارية الفكرية والعلمية الموحدة ، وغدت اللغة الفرنسية في الشام والمغرب اللغة الأم ، وغزت الانجليزية العراق ومصر ، واستقلت عرقيات بلغاتها القديمة ، فعاد الايرانيون الى الفارسية ، وعاد الأتراك الى التركية ، وتضاءل زحف العربية في الدول الاسلامية الآسيوية والافريقية ، لتحل محلها لغات محلية شديدة المحلية مع سيادة الانجليزية والفرنسية كلغة رئيسية ، بل وصل الأمر الى محاولة عزل المغرب العربي ، وبخاصة الجزائر عن جذورها اللغوية عزلا كليا . . فاللغة هنا ليست مجرد أداة تعامل ، وانما هي أداة تحضر وأداة معرفة وثقافة ، وموروث العربية منها هو كل موروث العالم قبل انهيار الامبراطورية الاسلامية في قمة عطائها الحضاري الرائد . .

ومن هذه المحاور أن يتغلق الانسان في المنطقة على انتماءاته الضيقة المحدودة بتشجيع الاقليات العرقية والمذهبية من ناحية ، وبالقفز بالفكر عند أبناء هذه المنطقة الى ماقبل توحدهم الاسلامي وتحقيقا للمقولة الأولى ظهرت مشكلات الأقليات القومية والعرقية والطائفية . . وتحقيقا للمقولة الثانية ظهرت قضايا الفرعونية والجزيرية واليمنية والفينقية والآشورية ، كما تحددت قضية الوطنية الضيقة في كل اقليم على حدة . . وهذه الولاءات الضيقة ترسب تدريجيا معنى الانفصال عن الولاء العام ، فلم يصبح التنافس من أجل قضية موحدة ، ولا في مواجهة عدو واحد ، ولا تحسبا لمؤامرة واسعة تشمل المجموع . . وانما غدا التنافس عاملا ممزقا لكيان ظل موحدا في عهود تفوقه ، وفي عهود اظلامه على السواء . . وفي عهود التفوق كان خطرا واضحا بارزا للعيان يمنع الغرب من ابتلاع الكيان العالمي كله ليخدم تفوقه وثراءه ، وفي عهود اظلامه كان خطرا كامنا يهدد باليقظة من حين الى حين ، ويردع عسكريا مرة بعد مرة ، ويردع بالتآمر عليه والتوحد ضده حتى من أعتى الاعداء الخصماء والذين ينسون في مواجهته كل خلافاتهم وصراعاتهم ليعيدوا المارد الى القمقم ، ثم يعودوا بعد هذا الى تصفية حساباتهم هم فيما بينهم .

فصل العقل العربي

ولكن أخطر هذه المحاور وأكثرها فعالية كان ومايزال هو فصل العقل العربي عن ماضيه وعن حاضره على السواء ، وذلك بأن يقر في ضميره بكل الوسائل من التعليم الى الاعلام الى الثقافة والأدب انه لا يملك من موروث الدنيا الحضاري الا ما يتعلق

بالدين واللغة ، كدين وكلغة بعيدا عن كل معنى حضاري وفلسفي وثقافي فيهما ، وانه مدين للغرب بكل معطيات العلم والحضارة ، وانه تابع لا اصل له في الوجود الانساني كله .

وقد نجحت هذه المحاور في فعلها ، وكان أخطرها نجاحا هو المحور الأخير لاشك ، وليس أدل على نجاحه من مقولة الغزو الثقافي أو الغزو الفكرى التي انتشرت بيننا فنحن ـ بحكم هذه المقولة ـ لا علاقة لنا بالعطاءات العلمية والفلسفية المعاصرة ، لأنها غريبة عنا وغريبة عن وجودنا وموروثنا ، فكل هذه العطاءات غربية وغريبة عنا ، ونحن ينبغي أن نبتعد عنها لأنها تمثل غزوا لعقولنا وغزوا لفكرنا . . والحقيقة أن هذه كلها بضاعتنا أخذت منا سلبا ، وأنسينا أصلها وحقيقتها ، وطوروها هم كما طورنا نحن في مطلع وجودنا الحضاري عمن سبقونا ، ويجب أن نعود اليها في صورتها الراهنة المتطورة ، كما يجب أن نعود اليها في جذورها الأولى التي حملت سماتنا وعقليتنا وطريقة تفكيرنا ، لنعيد من جديد احتواءها وتمثلها ، ثم لنقوم بدورنا الواحد في تطويرها والاضافة اليها ، ليكون لنا دور ما في الوجود الحضاري الانساني المعاصر .

إن هذا التراث الانساني في العلم والمعرفة في الفكر والفلسفة في الأدب والابداع . . ملك لنا بحكم أننا جزء من هذا العالم الذي أنتجه وأبدعه ، وهو ملك لنا بحكم أننا أصحاب كلمة هامة فيه ، في مرحلة نامت فيها البشرية ، وحملنا الأمانة فحملناها بكل صدق وشجاعة .

ان الاسلام لم يقدم لنا العبادات وحسب ، وإنما قدم لنا حين ساد ماحوله ، فكر وثقافة وعلم البشرية قبله . . والاسلام لم يحملنا امانة العبادات وحدها ، وإنما حملنا أمانة معرفة البشرية وعلمها،نطلبها ولو في الصين لتستكمل البشرية مسيرتها ، وقد فعلنا .

وآن لنا أن ندرك أن المقولات التي تسود بيننا حول التراث مقولات زرعها الاستعمار الذي سلبنا بلادنا كما سلبنا عقولنا ، ويريد أن يسلبنا حاضرنا ومستقبلنا معا . . كما آن لنا أن ندرك أن الفعل الثقافي هو الفعل الحقيقى ، فمنه تنبع قوة الانسان ، وقوة الأمة ، منه تنبع قوة الجيوش وقوة الأسلحة وقوة العقل ان أردنا معنى القوة . . كما آن لنا أيضا أن ندرك أن لعبة السياسة التي ننغمس فيها في إطار الاقليمية المحدودة ، والانتماءات الضيقة ، ومعارك الأقليات ليست شيئا طبيعيا جاءنا بالضرورة ، وإنما هي معارك تولدت عن فعل استعمارى منظم درس وفهم كل مناطق ضعفنا ثم دفعنا اليها دفعا بالتآمر المبني على أساس من العلم والمعرفة ، ولن يتوقف هذا كله إلا أذا فهمنا ان جيوشهم حين غزت أرضنا لم تكن تستهدف الأرض والثروة وحسب ، وانما كانت تستهدف الثقافة والعلم والمعرفة والفكر ، واننا حين سرقنا توقفنا ، وان لصوص التراث هؤلاء ساروا بما سرقوا خطوات خطيرة في تاريخ الحضارة الانسانية ، وأنهم يغرسون فينا من المقولات عن طريق المخدوعين البسطاء أو عن طريق العملاء والخونة معنى الدونية تجاه صرح حضارتهم المعاصرة ، ويغرسون فينا معنى التشرذم والاقليمية لنظل في تطاحن يستريحون اليه ويستهدفونه ، كما يغرسون فينا الخوف من المعرفة والنفور من العطاءات العلمية بدعوى أن لنا تراثنا ولهم تراثهم ، وماتراثهم هذا كله الا ما ترجموا وطوروا من اصل تراثنا نحن المسروق .

نحن حيث أرادونا من فهمنا للتراث ومن فهمنا لمكانتنا من المعرفة ، فهل نظل فيما نحن فيه ، أم عودتنا الى أصولنا تعني معرفتنا ان نتاج هذه الأصول هو تراث البشرية المعاصر كله ، وانه ملكنا نحن كما هو ملك الآخرين ؟

لو قفزنا على مرحلة التجهيل والتعصب والانانية وتضخم الذات ، ربما وجدنا الاجابة ، وعرفنا الطريق . □

منتدى العربي

تعقيبات

ملاحظات على مقال

الإسلام والتراث الإسلامي

بقلم : الدكتور عجيل النشمي*

في مقال الدكتور محمد أحمد خلف الله بعنوان (الاسلام والتراث الاسلامي) المنشور في العدد ٣٣٧ يناير ١٩٨٧ ، يمكن أن نصنف الموضوعات التي أثارها ورام الوصول اليها كنتائج علمية في الآتي :

● القضية الأولى : الاسلام شيء ، والتراث الاسلامي شيء آخر .

يفرق الدكتور بين الاسلام والتراث الاسلامي ، بطريقة خاطئة من الناحية العلمية ، حيث يذكر الدعوى ، ثم يستدل على صحتها من نفس ما ادعاه ؛ فقد وضع هو عنوان « الاسلام والتراث الاسلامي » ، ثم قال : إن العطف بالواو يقتضي المغايرة ، فهما عنصران متغايران ، وهذه مصادرة على المطلوب ، لا يصح بحال أن تكون الدعوى أو جزء منها دليلا على نفس الدعوى .

ثم يعرف الاسلام بالمعنى العام تعريفا سليما ، لكنه حين عرف التراث لم يصب السلامة حين قال : (والتراث الاسلامي هو ما ورثناه عن الأسلاف من نتاج عقولهم في تفاعلها مع الاسلام باعتباره ديانة سماوية) .

وهذا تعريف غير سليم في جملته ، فإن قيل إن كل ما خلفه فقهاؤنا ، وعلماؤنا ، وفلاسفتنا ، وكل ما خلفه غيرهم من علمائنا تراث فهذا صحيح ، لكن لا يصح وصف ذلك كله بأنه (نتاج عقولهم) ، فإن من ذلك الفقه الاسلامي ـ وسياق الكلام يعنيه ـ وهو لا يعبر عنه بهذا التعبير غير الدقيق (نتاج عقولهم) ، وإنما يعبر عنه بمثل : فهم الفقهاء للنصوص ، فهو كذا ، أو اجتهاد الفقهاء فهو كذا ، لأن قول الفقيه لا يرجع ـ في حقيقته ـ الى محض عقله وفكره ، بمعنى أن يكون من بنات أفكاره ، لأن النصوص الشرعية حاكمة على الفقيه وعقله ، وقد يوافق العقل ما يقتضيه الشرع ، وقد لا يوافقه ، بمعنى أن لا تظهر له الحكمة فيه ، ومع ذلك يسلم الفقيه بمقتضى الشرع ، ويكون الحكم له ، فهل يقال لهذا أنه من نتاج عقولهم ؟

ثم أراد الدكتور خلف الله أن يستدل على هذه التفرقة من جهة أن مصدر الاسلام يختلف عن مصدر التراث ، وقوة الالزام بينهما تختلف فقال : إن مصدر الاسلام هو المولى سبحانه وتعالى ، ومصدر التراث الاسلامي هو العقل البشري الذي تفاعل مع الاسلام

* عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية ـ جامعة الكويت .

باعتباره ديانة سماوية .

ونحن نقول : إن قوله بأن مصدر الاسلام هو الله تبارك وتعالى ، حق لا يماري فيه أحد ، ومن هنا كان التشريع ملزما ومقدسا .

لكن مناظرة ذلك ومقابلته بالدعوى الثانية غير مسلم به على إطلاقه ، لأن قول الفقيه المجتهد إذا كان كاشفا لمدلول النص وفق قواعد الاستنباط وأصوله بحيث لا يختلف فيه الفقهاء المجتهدون فهو ملزم ، لأنه ليس تشريعا جديدا ، ولا رأيا من بنات أفكار الفقهاء ، وإنما هو فهم سليم لمراد النص .

ثم انتقل الدكتور خلف الله الى قضية الالزام ، فقال : « الذي يملك قوة الالزام الديني هو ما يكون دينا ، هو ما يكون مقدسا . أما غير الدين فيملك قوة إلزام أخرى هو الالزام الأدبي » .

ونقول : إن قضية الالزام راجعة عند فقهاء المسلمين - دون شذوذ من أحد - الى النصوص الشرعية من الكتاب والسنة كأدلة متفق عليها ، ويلحق بهما - كأدلة متفق عليها أيضا - الاجماع والقياس ، ودور الفقهاء المجتهدين في ذلك بيان المراد من النص ، أو تحقيق أن القضية مجمع عليها ، وإثبات ذلك ، أو أن شروط القياس المعتبرة متحققة في الفرع تحققها في الأصل .

حتى في دائرة الفروع الفقهية لم يقل أحد أن إلزامية الأحكام فيها أدبي ، بل هو إلزام شرعي ، وغاية ما هنالك أن فيه سعة في التخير بين هذا الحكم عند هذا الفقيه المجتهد أو الحكم عند مجتهد آخر ، تبعا لقوة دليل كل منهما .

● **القضية الثانية : أن الشريعة ملزمة ، والتشريع غير ملزم .**

يميز الدكتور خلف الله بين الشريعة والتشريع ويفرق بينهما ، فيعتبر الشريعة هي ما كان من وحي الله وبيان النبي صلى الله عليه وسلم ، مما هو نص قطعي الدلالة ، وأما التشريع فيكون فيما لا نص فيه ، وهو محل الاجتهاد العقلي المحض ، وهذه تفرقة لم نعرفها في الفقه أو أصول الفقه الاسلامي ، بل إن المعروف عند الفقهاء الأقدمين والمحدثين أن المراد بالشريعة هو الأحكام التي سنها الله تعالى لعباده على لسان رسول من رسله ، وعلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي شاملة لما يدخل في دائرة الأفعال والعقائد والأخلاق .

واشتق من لفظ الشريعة كلمة (شرع) بمعنى أنشأ الشريعة أو سن الشريعة ، وإذا فهمنا كلمة الشريعة كما ذكر الدكتور خلف الله ، أي فيما هو نص صريح قطعي الدلالة ، فإن قسما كبيرا من القرآن الكريم ليس كذلك ، إذ أن دلالة ألفاظ القرآن قد تكون قطعية وقد تكون ظنية .

وقد اعتبر الدكتور الاجماع والقياس من قبيل مالم يرد به نص ، وبالتالي للعقل البشري أن يرد من الأحكام ما كان مستنده ودليله الاجماع والقياس ، باعتباره نتاج عقول بشرية .

والصواب في ذلك أن الاجماع والقياس دليلان مرجعهما إلى اعتبار الكتاب والسنة ، ولذا فهما بإجماع الأصوليين من الأدلة المعتبرة ، وتثبت بهما الأحكام الشرعية ، فما كان دليله لا يرد باعتباره نتاج عقول بشرية كما ذكر .

● **القضية الثالثة : تعديل النص والاجتهاد مطلق في المعاملات :**

ثم يتناول الدكتور خلف الله قضية دقيقة هامة ، وهي إمكان تغيير ما ورد فيه نص قطعي من القرآن الكريم أو تبديله ، وقد استخدم لهذا الغرض عبارة « تعديل » ، وهو تعبير غير موفق ، لما يحمله من افتراض وجود خطأ أو عدم ملاءمة أو اعوجاج في النص القرآن القطعي ، وأن دور العقل حينئذ هو تعديل ذلك النص .

وإذا أمكن القول بهذا ، فإنه لم يبق للنص مزية ، ولا حجية ، ولا قدسية . وأتى هذا بالنقض على أصل الأدلة الشرعية المعتبرة ، وهو القرآن الكريم . يقول الدكتور خلف الله : « لا حق لنا في إدخال أي

تعديل على الحكم الذي ورد فيه نص صريح قطعي الدلالة وارد مورد التكليف ، وهذا هو الأصل التشريعي . لكن هذا لن يحول بيننا وبين أن ندرس القضية على أساس آخر ، هو قدرة العقل البشري في إدخال التعديلات ، فهل يستطيع ذلك ؟ » .

● القضية الرابعة : إذا عارض النص المصلحة يؤخذ بالمصلحة ويقدم العقل على النقل .

ولقد أخطأ الدكتور خلف الله في هذه الدعوى في ثلاث قضايا علمية :

(١) في المراد بكلمة المصلحة في الشريعة الاسلامية :

فمما لا شك فيه ولا خلاف أن الشريعة الاسلامية في جميع أحكامها الكلية والتفصيلية قد راعت تحقيق مصالح العباد في أمور دنياهم وآخرتهم وهدفت إلى ذلك ، إلا أن ما ينبغي أن يعلم على وجه اليقين هو أن المصلحة ليست دليلا منفصلا ، أو مستقلا عن أدلة الشريعة الأخرى ، إذ لو كانت المصلحة دليلا مستقلا لكانت وحدها كافية في بناء الأحكام الشرعية عليها ، ولكان العقل مستقلا بتشريع الأحكام .

ولكي لا تكون المصلحة قضية عامة غير منضبطة فقد وضع لها الأصوليون الضوابط التالية :

١ ـ ألا تعارض المصلحة الكتاب الكريم أو السنة المطهرة .

٢ ـ ألا تعارض المصلحة القياس .

٣ ـ ألا تفوت المصلحة مصلحة أهم منها ، أو مساوية لها .

(٢) في معنى تغير الأحكام بتغير الأزمان ، وبالتالي تغير المصالح :

أما هذا الموضوع فقد فهمه الدكتور خلف على غير المعنى العلمي المراد منه ، فهم منه أنه مادامت الأحكام مربوطة بالمصالح ومنوطة بها ، والمصالح تتغير من زمن إلى آخر ، ومن مكان إلى آخر ، فان الأحكام تتغير حينئذ بتغير الزمن .

لقد قَعَّد علماء أصول الفقه هذا الموضوع ، ووضعوا له قاعدة مستقلة برأسها ، هي قاعدة (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان) .

وقد حدد الفقهاء وعلماء أصول الفقه الاطار العام لما تنطبق عليه هذه القاعدة أو لا تنطبق ، فاتفقوا على أن ما تنطبق عليه القاعدة هو القضايا الاجتهادية التي بنيت على أساس من القياس ، أو على أساس من المصلحة .

(٣) استناده إلى رأي (الطوفي) في تقديم العقل على النقل إذا عارضت المصلحة النص :

استند الدكتور خلف الله لتأييد رأيه في أن المصلحة مقدمة على النص إذا تعارضا إلى رأي نجم الدين سليمان بن عبدالقوي الطوفي .

وقد أجمع علماء الفقه والأصول على أن رأي (الطوفي) شاذ ، خرق به إجماع الأئمة ، والشاذ لا يبنى عليه رأي ، وقد ناقشه كثير من العلماء ، وردوا عليه ، وفندوا رأيه وأدلته ، وأصبح من المستقر عندهم أن قوله هذا لا يعول عليه .

وأما قضية أن العقل مقدم على النص فهذا قول من جنس سابقه ، والقول به يبطل الشريعة في نصوصها المحكمة قطعية الثبوت والدلالة ، وهذا مالا يقبل من أحد . يقول الامام الشاطبي : « لو جاز للعقل تخطي مأخذ النقل لجاز إبطال الشريعة بالعقل ، وهذا محال باطل » .

. ثم بدأ الدكتور خلف الله بذكر ثلاثة أمثلة للاستدلال على أن العقل يحكم بحكم الاستمساك بالنص قد يكون فيه إضرار بالصالح العام ، ولذلك ينبغي أن يقدم حكم العقل ، ويبطل حكم النص .

المثال الأول : ما ورد بشأن توزيع الغنائم في قوله تعالى : « واعلموا أنما غنتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

فيرى الدكتور أن نظام توزيع الغنائم نظام مناسب للزمن السابق ، حيث كان القتال تطوعيا ، أما الآن فالدولة هي التي تنظم هذا الأمر ، فينبغي تعديل الآية لذلك .

ونقول ردا على ذلك : إنه لا يمكن أن تكون النصوص القرآنية مصادمة لمصلحة حقيقية ، وحين يضع القرآن نظاما ما فإنه لا يضعه لزمن دون زمن ، ولا لمكان دون مكان .

وينبغي أن يعرف هنا : أن الشارع الحكيم قد راعى من وراء نظام توزيع الغنائم تحقيق مصالح فردية واجتماعية ، فجعل مصرف الخمس لمصلحة الدولة ، تنفقه فيما يعود عليها في مرافقها أو جيشها بالاصلاح ، أو القوة والمنعة ، وهذا معنى « فإن لله خمسه وللرسول . . . » فما كان لله ولرسوله فمرجعه إلى مصالح الدولة الاسلامية .

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اجتمع رأي الصحابة على أن يجعلوا سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسهم ذوي القربى في الخيل والعدة في سبيل الله .

وإعطاء الغانمين من الغنيمة راجع إلى أصل عظيم في الاسلام ، وهو أن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الدين .

وهذا المعنى الايماني إنما يناسبه التجرد من الأجر المادي في الدنيا ، وليس هو طريقا للتكسب ، وإنما هو طريق للجهاد .

المثال الثاني : أبطل الدكتور الآيات التي أنزلت بشأن الرق ، بدعوى أن الرق لم يعد موجودا الآن ، وينبغي أن تعدل الآيات التي تعتبر الرق كفارة عن بعض الأمور ، ويترتب على قوله هذا إبطال الآيات الواردة في سورة النساء آية ٩٢ ، وفي المائدة ٨٩ ، والمجادلة ٣ ، ٤ ، والبلد ١٢ ، ١٣ .

ولا شك أن تعديل أو تعطيل هذه الآيات دعوى لا يمكن أن تقبل من أي وجه كان . ذلك في المقاييس الاعتقادية الاسلامية .

والذي يثبته التاريخ أن الاسلام حين أطل على البشرية كان الرق يملأ طباق الأرض ، فبدأ بعلاج تلك البلوى العالمية بطريقة تدريجية ناجعة ، فعمل على تخفيف مصادر الرق ، وفي نفس الوقت وسع طرق تحرير الأرقاء وأكثرها .

والاسلام حين عالج قضية الرق راعى في علاجه وحكمه استمرار مطاردة الرق في كل زمان ومكان ، لعلمه تبارك وتعالى أن الرق لا ينفك منه البشر ، وهو موجود في كل زمان ، وإن انقطع في زمن ما - ولم ينقطع - فإنه يعود في زمن لاحق .

وأما كون العتق كفارة من الكفارات فليس في هذا إشكال مع عدم وجود الرق ، لأن العتق ككفارة إنما طلبه الشارع عند وجوده ، وجعل الأمر فيه راجعا إلى خيار من عليه الكفارة ، فإن لم يوجد أو لم يختره انتقل إلى غيره ، مما هو منصوص في الآيات الكريمة ، وليس هناك ما يستدعي تعديل أو تعطيل الآية لمجرد تغير الزمان ، وندرة الرقيق أو انعدامه .

المثال الثالث : بشأن الآيات الواردة في عقوبة جريمة الزنا قال الدكتور خلف الله : « إن جريمة الزنا لا يمكن إثباتها اليوم عن طريق الشهود الذين يرون العملية رأي العين » . ويترتب على قوله هذا إبطال الآية الثالثة من سورة النور في عقوبة الزاني غير المحصن وعقوبة الراجم للزاني المحصن ، الواردة في السنة .

لقد اعتبر الاسلام جريمة الزنا من أكبر الجرائم وأخطرها ، لأنها تدخل في دائرة الأعراض التي اعتبرها الاسلام إحدى الضرورات الخمس ، وهي الدين والنفس والمال والعرض والعقل ، ولكن لما كانت هذه العقوبة شديدة ناسبها أن يشدد الاسلام في طرق إثباتها .

ولا يعني تشديد الاسلام في وسائل الاثبات ترك الجريمة تستشري في المجتمع المسلم ، لكن اعتبر الجانب الوقائي في قضايا الأعراض أهم من الجانب العقابي لأن جريمة الزنا والجرائم الأخلاقية في جملتها جرائم خفية ، لا تقع إلا في أماكن آمنة كالبيوت التي لا يمكن دخولها لغير أهلها ، ولو تساهل في وسائل إثباتها - والحال هذه - لتناول أناس أعراض آخرين ، ولشاع فحش القول في المجتمع . ولذا اهتم الاسلام بالجانب الوقائي الناجع ، فسد الذرائع والطرق المؤدية إلى وقوع هذه الجريمة . □

النخب

قصة الكاتب الروسي : آ . كوبرين *

ترجمة : يوسف حلاق

أشرف عام مائتين من العهد الجديد على نهايته ، ولم يبق إلا خمس عشرة دقيقة حتى ذلك الشهر ،وذلك اليوم ، تلك الساعة التي قررت فيها ألمانيا - آخر بلد تقوم على أرضه دولة ، وأغنى بلاد الدنيا وأكثرها محافظة - التخلي عن وجودها القومي المتآكل المضحك والانضمام فرحة - والأرض كلها تهلل لها - إلى الاتحاد العالمي للناس الأحرار .

حسب التقويم الميلادي القديم نحن الآن على عتبة عام ٢٩٠٦ ، لم يستقبل هذا العام الجديد بمثل هذه الاحتفالات النابضة بالفخار والاعتزاز ، كما استقبل في القطبين الشمالي والجنوبي ، وفي المحطات الرئيسية بشركة الكهرباء المغناطيسية العظيمة .

لقد عمل على مدى ثلاثين سنة ماضية آلاف من الفنيين والمهندسين والفلكيين والرياضيين والمعماريين وغيرهم من الاختصاصيين على تحقيق أكثر أفكار القرن الثاني إلهاما وبطولة ، ألا وهي تحويل الكرة الأرضية إلى وشيعة مغناطيسية جبارة ، لفوها من الشمال إلى الجنوب (حلزونيا) بحبل فولاذي ، مغطى بعازل ، يقارب طوله أربعة مليارات من الكيلومترات ، ورفعوا في القطبين محطات استقبال ذات قوة خارقة ، وأخيرا ربطوا أطراف الأرض كلها فيما بينها بأسلاك لا عد لها ، ولم يكن أهل الأرض وحدهم هم الذين يتابعون بقلق هذه المغامرة المذهلة ، بل كان يشاركهم في ذلك كل من يقطن النجوم الأخرى التي يربطها بالأرض اتصال دائم ، ووجد كثيرون ، بعضهم ينظر إلى عزم الشركة نظرة عدم ثقة ، وبعضهم الآخر ينظر نظرة خوف ورعب .

لكن العام المنصرم كان عاما حافلا بالنصر الباهر للشركة على المشككين ، إذ حركت قوة الأرض المغناطيسية التي لا تنضب كل المعامل والمصانع وآلات الزراعة والخطوط الحديدية والبواخر ، وأضاءت كل الشوارع والبيوت ، وبعثت الدفء في المنازل ، فانتفت الحاجة إلى الفحم الحجري الذي

---

* الكاتب هو الكسندر كوبرين (١٨٧٠ - ١٩٣٨) أحد كبار كتاب القصة والرواية الروس في مطلع هذا القرن ، عرف بتعاطفه مع الانسان الصغير المسحوق ، وبسخطه على مشوهي هذا الانسان . ومن أعماله الروائية المعروفة « المبارزة » و « مولة » كما له عدد كبير من القصص القصيرة منها « النخب » التي نقدم لقراء العربي ترجمة لها .



تضبت مكانه منذ أمد بعيد ، وبحث من على سطح الأرض المداخن الكريهة المسممة للهواء ، فأنقذت الأزهار والأعشاب والأشجار ، هذه هي الفرحة الحقيقية للأرض ، فقد أمنت خطر الذبول والموات ، وأعطت أخيرا نتائج لم تسمع بها أذن قط في الزراعة ، إذ رفعت إنتاج الأرض في كل مكان إلى أربعة أضعافه تقريبا .

نهض أحد مهندسي المحطة الشمالية من مكانه وكان قد انتخب رئيسا ـ هذا اليوم ـ ورفع كأسه عاليا فخيم الصمت على الجميع وقال : أيها الزملاء ، إذا كنتم توافقونني فإني سأتصل فورا بمساعدينا الأعزاء الذين يعملون في المحطة الجنوبية ، فهم قد اتصلوا بنا منذ برهة وجيزة جداً .

كانت قاعة الاجتماع الضخمةالتي تترامى أطرافها الى البعيد في غير نهاية قاعة رائعة من البلور والمرمر والحديد ، يزين كل ما فيها أزهار نادرة ، وأشجار زاهية ، جعلتها أشبه ببستان منها بمكان اجتماع ، وفي الخارج كان أشبه بليل•قطبي ،ولكن بفضل المكثفات كان ضوء الشمس الباهر يغمر خضرة النباتات والطاولات ووجوه آلاف المحتفلين والأعمدة الرشيقة واللوحات الرائعة والتماثيل ، وكان ثلاثة من جدران القاعة شفافة أما الجدار الرابع الذي كان يدير الرئيس إليه ظهره فقد كان على شكل (شاشة) مربعة الزوايا من زجاج لامع وناعم جدا .

وبعد أن نال اقتراح الرئيس الموافقة لمس بأصبعه زراً صغيرا في الطاولة ، وفي الحال أضاء الشاشة نور داخلي ، يبهر الأبصار ، لكنه ما لبث أن تلاشى ليكشف عن قصر بلوري ، لا يقل عن الأول روعة وضخامة .

وفي الطرف الآخر ـ تماما كما في القاعة الأولى ـ كان يجلس وراء الطاولات أناس أقوياء ، وسيمون، ذوو وجوه مشرقة ، وهم يرتدون ملابس خفيفة لامعة ، وكان أولئك يتعرفون على بعضهم البعض من على بعد عشرين ألف فرسخ ، ويتسمون لبعضهم البعض ، رافعين كؤوسهم للتحية ، لكنهم لم يكونوا يسمعون أصوات أصدقائهم البعيدين ، بسبب الضحك والمتاقات .

نهض الرئيس من جديد وبدأ كلامه ، فصمت أصدقاؤه ومعاونوه على طرفي الكرة ، قال : إخوتي وأخواتي الأعزاء ، وأنتن أيتها النساء الرائعات ، وأنتن أيتها الأخوات اللواتي أحببتني قبلا ، إن قلبي مفعم بالشكر ، لكن ، اصغوا إلي ، فالمجد للحياة الشابة دوما ، الحياة الرائعة ، الحياة التي لا تنضب ،

والمجد للمسيطر على الأرض ، وهو الانسان ، فلتمجد أفراح جسده كلها ، ولتنحن أمام عقله الخالد ، هأنذا أتطلع إليكم ، عزيزين ، شجعانا ، متساوين ، فرحين ، فيشتعل قلبي بمحبتكم ! ولا حدود لعقلنا ، ولا حدود لرغباتنا ، فنحن لا نعرف الخضوع ولا السلطة ولا الحسد ولا العداوة ولا العنف ولا الخداع ، وكل يوم يحمل إلينا أبعادا لا حد لها من أسرار العالم ، ونحي كل يوم - وبسرور أكبر - مدى المعرفة وقدرتها ، وحتى الموت نفسه لم يعد يرهبنا ، فنحن لا نترك لهذه الحياة أن تشوهنا بالشيخوخة ، وبالرعب الوحشي في أحداقنا وباللعنة على شفاهنا ، بل إننا نغمض أعيننا في هدوء كأننا مسافرون تعبون ، فعملنا متعة ، وحبنا الخالص البعيد عن كل قيود العبودية والتفاهة يضاهي حب الزهور ، إنه حر ورائع .

أصدقائي ، أتفوه بأشياء معروفة منذ القديم ، لكني لا أستطيع غير ذلك ، فاليوم كنت أقرأ منذ الصباح وبدون توقف كتابا رائعا ومرعبا ، إنه تاريخ ثورات القرن العشرين ، وكثيرا ما كانت تراودني فكرة أنني أقرأ أسطورة ، فلقد بدت لي حياة أجدادنا الذين عاشوا قبلنا منذ تسعة قرون متوحشة وبلا معنى وغير حقيقية .

لقد كانوا ضعفاء ، قذرين ، سقيمين ، مشوهين وجبناء ، أشبه بحيوانات قذرة في قفص ، كان واحدهم يسرق قطعة الخبز من الآخر ، ثم يحملها إلى زاوية مظلمة ، ويرتمي عليها كي لا يراها غيره ، وآخر يغتصب المسكن والخشب والماء والأرض والهواء من أخيه ، أكوام من الشرهين ، والفاجرين ، يسعى لارضائهم المراؤون واللصوص والمخاتلون والمغتصبون ، كانوا يخيفون جمهورا من العبيد السكارى وجمهورا آخر من البلهاء ، وكانوا يعيشون طفيليين على صديد التفسخ الاجتماعي ، وكانت الأرض على رحبها وروعتها ضيقة بالناس كسجن ، وخانقة كمدفن .

ولكن حتى في ذلك الزمن رفع أناس عزيزون أنفون أبطال ذوو نفوس كريمة ، رءوسهم من بين هذه الحيوانات المستسلمة ، ومن بين هؤلاء العبيد الزاحفين على الأرض كالأفاعي ، كيف ولدوا في هذا العصر السافل الجبان ، لست أفهم ذلك ؟ كانوا يخرجون إلى الساحات وإلى مفارق الطرق صارخين : فلتحيا الحرية ، وفي ذلك الزمن الدموي المرعب حين لم يكن أي بيت يمثل ملجأ أمينا ، وحين كان الملوك يحكمون بالعنف والقتل والتعذيب ، كان هؤلاء الناس يهتفون في جنون مقدس : ليسقط الطغاة . لقد أغرق هولاء الناس الأرصفة بالدم الحار الزكي القاني ، وكانوا يموتون على أعواد المشانق أو رميا بالرصاص،وكانوا يمتنعون بملء رغبتهم عن كل ملذات الحياة إلا واحدة ، ألا وهي الموت في سبيل حياة حرة للانسانية العتيدة .

يا أصدقائي : أحقا أنكم لا ترون هذا الجسر من الجثث البشرية الذي يصل حاضرنا المشرق بالماضي المرعب ؟ ألا تشعرون حقا بنهر الدم الذي حمل البشرية كلها إلى هذا البحر الفسيح المشرق من السعادة العارمة ، لتبق ذكراكم إلى الأبد أيها الغائبون ، يا أيها الشهداء الصامتون ، فحين كنتم تصعدون أنفاسكم ، كانت ابتسامة تشع من عيونكم الثابتة الشاردة إلى أعماق القرون ، وكنتم ثروتنا ، نحن المتحررين الأقوياء المنتصرين ، وكنتم تبعثون إلينا ببركتكم في لحظة استشهادكم العظيمة . يا أصدقائي ، ليشرب كلنا بهدوء وخشوع كأسه تخليدا لهؤلاء الشهداء ، وليشعر كل منا بنظرتهم الوادعة المباركة إليه !

وشرب الجميع في صمت ، لكن امرأة خارقة الجمال ، كانت تجلس قرب الرئيس ، ألقت فجأة برأسها إلى صدره ، وبكت في صمت ، وحين سئلت عن سبب دموعها أجابت بصوت يكاد لا يسمع : ومع ذلك كم وددت لو أني عشت في ذلك الزمن معهم ، معهم ، معهم . □

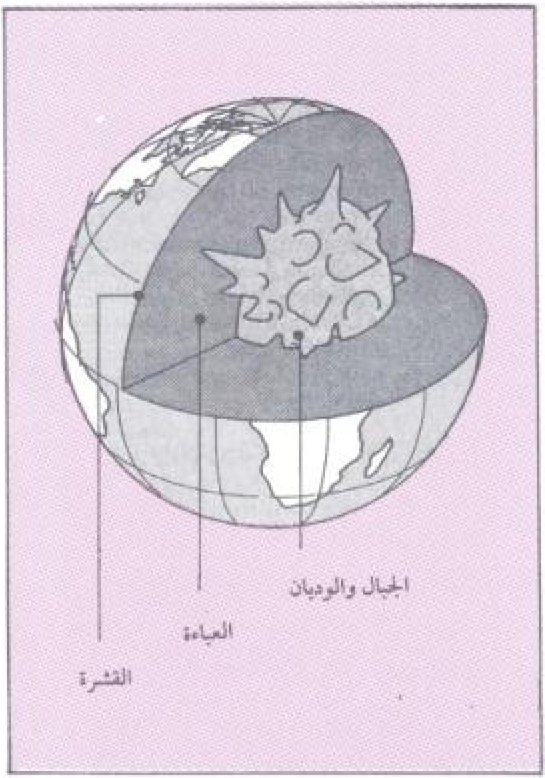


الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوى

جبال ووديان في باطن الكرة الأرضية

عقد اتحاد علماء الجيوفيزياء الامريكيين اجتماعا هاما لهم في مدينة سان فرانسيسكو في الأيام الأخيرة من السنة الماضية (١٩٨٦) .. وشهد هذا الاجتماع من المناقشات والنتائج ما يحمل على الشعور بأن قصص الخيال العلمي التي برز في كتابتها جول فيرن حول باطن الأرض قد أصبحت حقيقة واقعة ، أو كادت . فالنظرية الجيولوجية القائلة بأن باطن الأرض مكون من نواة تلفها عباءة ، وهذه العباءة تلفها القشرة الأرضية التي نعيش فوقها ، وأن سطح النواة والعباءة مستوية ويحاذي بعضها بعضا ، دونما تداخل ، وهي النظرية التي سادت على مدى القرون ، والتي سلم بصحتها الجميع ، قد انهارت في اجتماع العلماء المذكور ، على أن انهيارها لا يعزى الى نظرية أخرى مثلها ابتدعها أحد العلماء ، وإنما الى الرسوم والخرائط التي ساعدت على وضعها أجهزة جيوفيزيائية متطورة ، وتعرف هذه الأجهزة الحديثة باسم Seismic-Tomography Scans . انها الشق الآخر لأجهزة التصوير الطبي (CAT Scanner) التي أحدثت ضجة كبيرة ، وفتحت صفحة جديدة في عالم الطب .. أما الأمواج أو الاهتزازات التي اعتمدتها الأجهزة الجيوفيزيائية الحديثة لاستكشاف مجاهل باطن الأرض، فهي الأمواج الزلزالية Seismic التي تحدثها الزلازل . فقد عكف عدد من العلماء العاملين في معهد التقنية في كاليفورنيا .. عكفوا على دراسة الأمواج والاهتزازات التي أحدثتها مجموعة كبيرة من الزلازل .. بالتحديد (٢٥٠٠٠) زلزال ، كانت كلها بقوة تزيد على (٤,٥ رختر) . وراحوا يراقبون كيف تغيرت سرعة تلك الأمواج ، واين وعلى مدى آلاف الأميال التي قطعتها في باطن الأرض .. وهكذا اتضح لهم أن مَركز الأرض أو ان شئت النواة تتداخل وعباءتها .. وأن في كل منها نتوءات وفجوات .. وتتداخل النتوءات في كل منها مع الفجوات في الأخرى .. وبالعكس ولا يخفى أن هذه النتوءات والفجوات لابد وأن تكون ضخمة .. بضخامة السطوح التي تنتمي اليها : سطح النواة وسطح العباءة في باطن الكرة الأرضية ، فهي إذن جبال شاهقة ووديان سحيقة ، تمحو النظرية السابقة التي اعتبرت سطحي النواة والعباءة مستويين



مهدين يحاذي أحدهما الآخر أو يلامسه .

ولم تقف الأجهزة الحديثة عند رسم تلك الجبال والوديان بل ذهبت الى تحديد أبعادها ، وقد استطاعت تحديد ارتفاع بعض جبال النواة بنحو ١٨٠٠ ميل .. وتقع الجبال المذكورة تحت قارة استراليا (الى الشرق) وتحت المحيط الأطلسي الى الشمال .. وفي مواقع مختلفة .. أما الوديان العميقة فتقع في الغالب تحت أوروبا والمكسيك وتحت الجنوب الغربي في المحيط الهادي ، وتبين الخرائط الغربية الجديدة جزر الهند الشرقية عائمة فوق واد عملاق سحيق يبلغ عمقه (٦) أميال أو يزيد .

على أن هذه النظرية الجديدة لا تعدو كونها (نظرية) بالرغم من أنها مستمدة من تقارير ورسوم وضعتها أجهزة متطورة وحديثة ، إلا أنها أكثر موضوعية ووجاهة من النظرية القديمة . وقد استخلصت مما سجلته تلك الأجهزة في رسوم ومعلومات ، ولعلها هي النظرية الصادقة التي ستصمد على الزمن كعمود نظرية الجاذبية مثلا ..

والجدير بالذكر أن للنظرية الجديدة مزايا هامة ، فهي تساعد على تفسير بعض الألغاز التي لم تستطع تفسيرها النظرية القديمة ، من ذلك طول اليوم الذي كان - ومازال - يتغير كل عشر سنوات أو نحو ذلك .. بمقدار (٥) أجزاء من ألف جزء من الثانية .. فلعل الاحتكاك الذي يحدث بين سطح النواة وسطح العباءة بين حين وآخر هو الذي يتسبب لدوران الأرض حول نفسها بأن يختلف قليلا فيختلف معه طول اليوم . ومن الألغاز التي تفسرها النظرية الجديدة أيضا لغز زحزحة القارات .. وهذا هو ما يتوخاه العلماء في هذه النظرية في مستقبل قريب ..

بقي أن نشير الى أن جبال باطن الأرض ووديانه انما تنشأ تبعا لحركة تحدث داخل العباءة فهذه مكونة من صهير .. أو صخور ذائبة ذات بنية منسجمة ، فاذا ما وقعت مادة باردة على ذلك الصهير غاصت فيه وكونت الوديان،أما اذا تعرض الى تيارات ساخنة،بل قل جحيمية انبثقت القمم ، وارتفعت الجبال . هذا على الأقل هو التفسير الذي قدمه أنصار النظرية الجديدة في الاجتماع المذكور .



سلامة البشرية في سلامة البيئة

تجربة رائدة في أعمال حماية البيئة

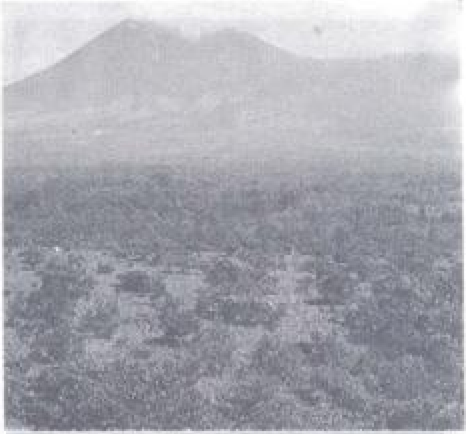
يعجب المرء للحماسة التي يقبل بها البيئيون في الغرب على أعمال حماية البيئة ومكافحة التلوث ، فنحن لم نألف مثل هذه الحماسة الا في أعمالنا الخاصة التي قد تعود علينا بالفائدة المادية ، أو تضمن اشباع لذاتنا أو غرورنا . . اما المشاريع البيئية التي قد تكبدنا المشاق او تكلفنا الخسائر والتضحيات ، والتي لاتطمح الى اكثر من تنظيف ماء بحيرة هنا ، أو انقاذ قطيع من الماشية هناك ، فلا تلقى منا في الغالب الا القصور . . هذا اذا أقدمنا عليها أو أسهمنا بها أصلا . . .

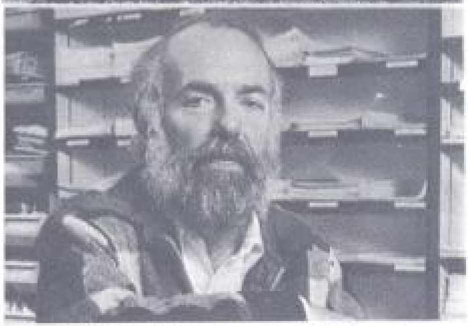
البروفسور دافيد جانزن استاذ يدرس البيولوجيا في جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الامريكية . . أشرف على الخمسين من العمر وعرف عنه الشغف بالعلم والبحث ، حتى أنه آثر العزلة واتخذ من مكتبه في الجامعة سكنا له ، وقضى معظم فراغه في جمع البذور والديدان ، ومراقبة الفئران ، والتجول في الحقول المهجورة ، الى آخر ماهنالك من هواياته العلمية والبيئية .

فوقاية البيئة ، وحماية أحيائها البرية ، والمحافظة على توازن منظوماتها ، أصبحت تحتل مكان الصدارة بين اهتمامات جانزن . . وذلك منذ نحو ١٥ عاما ، فقد راعه ماحل بالسلامة البيئية ، لا في بنسلفانيا حيث يعمل ويعيش ، ولكن في كوستاريكا ، في أمريكا الوسطى ، وعلى شواطئها الغربية بالذات ، شواطىء المحيط الهادي حيث توجد حديقة الحيوان الوطنية الشهيرة (ستاروز) ذلك أن المناطق المحيطة بتلك الحديقة فقدت حيويتها ، فاختل التوازن في منظوماتها البيئية وتحولت بالتالي من غابات استوائية ممطرة الى غابات استوائية جافة . وهكذا أصبحت امطارها موسمية تشح بل تتوقف تماما طوال ٥ - ٦ شهور ، من شهر ديسمبر حتى شهر مايو ، وأجدبت تلك المناطق وفقدت عطاءها ، سواء من النبات او الحيوان ، حتى ضاق الفلاحون ذرعا بأراضيهم وأصبحوا يرحبون ببيعها بأبخس الاثمان .

ولم يدر أولئك الفلاحون انهم كانوا السبب الأول فيما حل بمنطقتهم من دمار ، فقد بالغوا في التحطيب وقطع الأشجار ، وجاروا في الرعي والصيد ، وواصلوا اشعال الحرائق بعد المواسم بقصد تنظيف الحقول مما تراكم عليها من شوائب ، ولم يخطر لهم ببال أن اعمالهم تلك انما كانت بمثابة جريمة اغتيال ارتكبوها لابحق بيئتهم فحسب ، ولكن بحق أنفسهم وذويهم ايضا .

ودرس جانزن هذه المشاكل جميعا بتفصيل فوجد أن في الامكان انقاذ تلك المناطق مما حل بها على مدى





هذه هي الأرض التي ماتت بيئتها ثم اصلحت
وهذا هو العالم الذي أصلحها

عشرين عاما ، وذلك اذا توافر المال الكافي للقيام بالاعمال والمشاريع التي يتطلبها انقاذها ، وشعر البروفسور بالتحدي وقرر الاسهام شخصيا لا في اعمال الانقاذ فحسب ولكن في جهود جمع الاموال التي تتطلبها تلك الاعمال ايضا ، وقد قدرها بنحو ١٢ مليون دولار ، ومضى جانزن في جمع المال حتى بلغ ماجمعه منه حتى الآن « ١,٣ مليون دولار » . . يفاوض على شراء الارض . . اذ لاسبيل الى القيام بأعمال الانقاذ المرجوة مالم تتوافر له حرية التصرف التي لاتكون الا في امتلاك الارض ، وتبين له ان الحد الادنى من المساحة المطلوبة لمشروعه البيئي النموذجي يبلغ ١٥٨ ميلا مربعا على وجه التحديد . . وبلغ الثمن الذي طلبه اصحاب الاراضي للتخلي عن اراضيهم ٢٠٠ ـ ٣٠٠ دولار للهكتار الواحد . .

وواصل الشراء حتى بلغت مساحة الاراضي التي يمتلكها مشروعه نحوا من ١٥ ميلا مربعا واطلق على مشروعه اسم (جوانا كاست) وهو اسم شجرة اشتهرت بها تلك المنطقة . . وتتميز هذه الشجرة بضخامتها فهي تغطي بشتى اغصانها وفروعها أكثر من فدان من الارض وترتفع في الجو اكثر من ١٠٠ قدم . .

وأقام استاذ البيولوجيا لنفسه في المنطقة حجرة خشبية متواضعة جعل سقفها من تنك . . وسمح لبعض المزارعين بالعيش على ارض المشروع والقيام بأعمال زراعية وفق مخططه . . على ألا يقوموا بأي عمل من الأعمال التخريبية التي أدت الى تلف المنطقة . . ولعل الامتناع عن هذه الاعمال وهي التحطيب الجائر والرعي الجائر والصيد الجائر هو اهم اعمال الانقاذ التي يقوم بها جانزن .

وقد أثمرت هذه الاعمال التي مضى على مباشرتها نحو ١٥ عاما . . واخذت الحياة تعود الى التربة والاشجار والمراعي ، وبدأت الأحياء البرية التي كانت هجرت المنطقة بالعودة اليها . . وتشمل هذه الأحياء فيما تشمل ١٧٠ فصيلة طيور و (١٣٠٠٠) فصيلة حشرات و ١٠٠ فصيلة زواحف و ١١٥ فصيلة حيوانات لبون . . ناهيك عن النباتات ، وقد بلغت ٧٠٠ فصيلة وذلك وفق الدراسات المتصلة التي أجراها استاذ البيولوجيا . .

وتشير الدلائل الى أن شهر فبراير المقبل (١٩٨٨) سيشهد استكمال جمع الاموال والتبرعات ، واستكمال شراء الأراضي التي يتطلبها المشروع . . كلها . . وقد لاتحل سنة ١٩٩٠ حتى تعود الحياة البيئية الى المنطقة وذلك بفضل مشروع (جوانا كاست) بالتخصيص .

وتجدر الاشارة الى أن بعض الهيئات البيئية قد تعاونت مع البروفسور جانزن ، وأن أهالي المنطقة قدروا له مشاريعه حق التقدير ، وأسهموا في تنفيذها الى حد كبير . □



النوبة
أرض الذهب
وشعب المأساة

عاش المعاناة بالطول وبالعرض .. ومارس الصبر حتى ضاق به الصبر .. وعشق النهر فأغرقه الطوفان .. وأحب الأرض فلفظته الاعماق والشطآن .. ومع هذا فقد استمر يعيش .. ويبتسم .. ويضحك .. حتى وهو يحمل زاده وزواده مؤمنا راضيا مهاجرا على الرغم منه من موطن الى موطن .. فذلك هو قدره وماكتب عليه .. من قديم الزمان .. منذ أيام أمه إيزيس .. وأبيه اوزوريس .. وأخيه حوريس .. صقر النوبة الذهبي .. !

استطلاع : سليمان مظهر
تصوير : سليمان حيدر



البداية من أسوان . . قلب الصقر النوبي بجناحيه القديم والجديد . فمن جنوبها عند الشلال الأول للنيل ، تمتد النوبة القديمة حتى الشلال الثاني عند حدود السودان . . وإلى شمالها تمتد النوبة الجديدة الى مابعد كوم امبو وحتى أقصى قراها في دابود . . ومن بوابات سدها العالي تمتد أشهر بحيرة صنعها الانسان لتخزين مياه الحياة التي غمرت أرض الذهب والصبر . . ومن عيون أنفاقها تنطلق اكبر الطاقات لتضفي الخير والقوة والري والنماء على الأرض الطيبة .

والتاريخ . . شاهد كل العصور .

من فوق أعلى قمة في أسوان نقرأ سطور تاريخ مجيد كتبه الانسان على صفحات المكان والزمان . . إنها قمة نصب تذكاري شامخ بارتفاع الهرم الاكبر . . شيد رمزا للصداقة والتعاون ، على شكل زهرة اللوتس من خمسة أفرع ، يتوسطه من أعلاه ترس الصناعة ، وتتصدر واجهته لوحة محفورة بارتفاع النصب ، تمثل الامطار الهابطة من السماء ، وكفين يتلقيان فيض الخير ، وتتوسطه آية كريمة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . من فوق هذا النصب الرمزي نشهد معجزة صنعتها الأيادي المتلاحمة لتحول مجرى النيل الخالد وتشيد أضخم سد شهده التاريخ . . اشترك في بنائه على مدى أحد عشر عاما بدأت عام ١٩٦٠ ما لا يقل عن ٣٥ ألف خبير وعامل مصري يعاونهم في عملية التصميم والانشاء خمسة الآف خبير سوفيتي . ولا ينسى صانع هذا الرمز التذكاري جمال عبد الناصر باني السد أن يخلد قيمة التضحية الكبيرة التي قدمها أهل النوبة ، فيسجل على أحد فروع الرمز التذكاري وبارتفاعه لوحة محفورة ، خلفيتها من رسوم لوحدات زخرفية هندسية من ورق البردي وزهرة اللوتس ، وواجهتها لفلاحة نوبية في زي فرعوني وإلى جانبها رسم يمثل الاطباق الخوصية والأبراش المزخرفة الملونة التي اشتهرت بها بلاد النوبة . . وذلك رمز إشادة وتقدير للنوبيين الذين ضحوا بأراضيهم وقبلوا التهجير الى النوبة الجديدة بعيدا عن موطنهم الاصلي ، الذي غمرته مياه أكبر بحيرة صناعية في العالم ، تبدو شاسعة الأطراف ممتدة الى الجنوب بسعة ١٦٢ بليون متر مكعب على منسوب ١٨٢ مترا وبطول ٥٠٠ كم وبعرض عشرة كيلومترات مغطية مساحة ٥٠٠٠ كم^2 وراء السد العملاق . .

السد العالي وترويض النهر

نطل الى السد العالي . . ونتذكر . .

لقد كان النيل دائما مصدر الخير لمصر . . يمنحها عاما حين يفيض فينشر الخير هنا وهناك . . ويمنعها عاما آخر حين يغيض فيعم القحط والحرمان . . وهو عملاق في شهور الفيضان يجري بما يزيد عن الحاجة طوال ثلاثة شهور ، وشحيح قزم في أشهر الصيف يحمل مالايدرأ الظمأ أو يكفل الرزق . وهولا يستقر على حال ، إنما يختلف إيراده يوما عن يوم وشهرا عن شهر وموسما عن موسم وسنة عن سنة . وكان لابد من معالجة طبيعة النهر وترويضه والسيطرة عليه . . فبدأت مشروعات التخزين السنوي ببناء خزان أسوان عام ١٩٠٢ مع مجموعات القناطر على النيل لتنظيم الري . إلا أن التخزين الموسمي لم يكن إلا علاجا جزئيا برغم أن تعلية سد أسوان تمت بعد ذلك مرتين عامي ١٩١٢ و ١٩٣٧ ، فقد ظل التفاوت الكبير في إيراد النهر يختلف من عام الى عام وتضيع من مياهه ٤٠٪ يلقى بها في البحر رغم شدة الحاجة اليها . ومنذ قيام ثورة ١٩٥٢ بدأت دراسة فكرة إنشاء سد عال للتخزين على منسوب مرتفع يكفل تزويد مصر سنويا بتصرف ثابت من مياه النيل ، ويسمح بالتوسع الزراعي في مساحات جديدة ، ويقي البلاد غوائل الفيضانات العالية ، ويزودها في نفس الوقت بطاقة كهربائية كبيرة تكون الركيزة الأساسية للتنمية الزراعية والصناعية للبلاد .

وبرغم معوقات كثيرة واجهت إنشاء السد

العالي، إلا أن التنفيذ كان لابد منه، حيث بذلت جهود كبيرة لاقامته، وتم تحويل مجرى النهر في عام ١٩٦٤ وحفرت قناة بالجانب الشرقي للنيل لتصريف المياه، مزودة بستة أنفاق رئيسية، يتفرع كل منها إلى فرعين مركب على كل منها توربينة لتوليد الكهرباء، مشكلة ١٢ توربينة قدرتها الكلية تزيد عن مليون كيلوات تولد سنويا ١٠ مليارات كيلوات ساعة.

ويبلغ ارتفاع السد من متوسط سطح النهر الى القمة ١١١ مترا وطوله من السد الى نهايته ٣٨٣٥ مترا أي حوالي ٤ كيلومترات. وهو يأخذ شكل القوس حتى لا تشكل كمية المياه المخزونة في البحيرة ضغطا على جسم السد، الذي يقف على قاعدة صلبة جدا مساحتها عند القاع ٩٨٠ مترا بحيث تتحمل أي ضغط عليها، كما تتحمل جسم السد والانفاق وقناة التحويل.

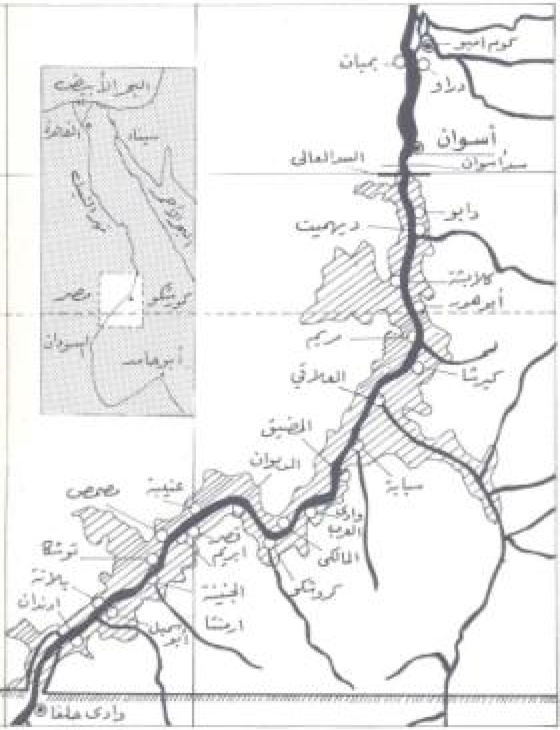
تضحيات أهل النوبة

ونلتقي بالمهندس صلاح شهاب رئيس هيئة السد العالي، ونسمع منه الكثير:

ليس هناك من ينكر أن تضحية أهل النوبة كانت وراء قيام هذا البناء الشامخ.. فقد ضحوا بالأرض والزرع والنفس من أجل أن يصنعوا الحياة والسعادة والرخاء للآخرين.

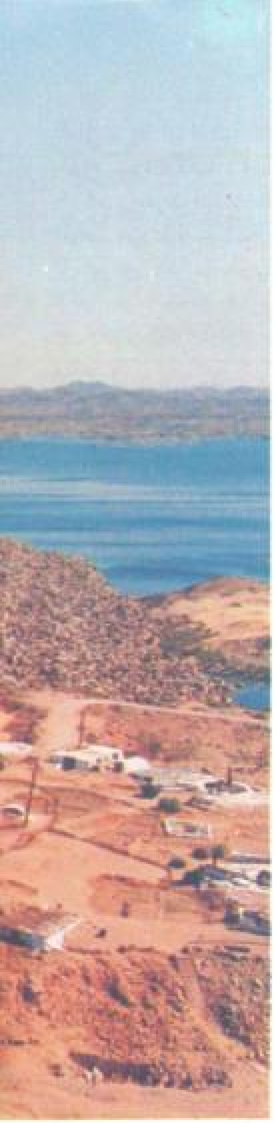
والواقع ان السد العالي أدى الى طفرة وتطور كبير، وأصبح دعامة أساسية للنهضة الصناعية والزراعية والاقتصادية والحديثة في مصر، وهو يعتبر حجر الزاوية في المشروعات الانتاجية جميعا، كما أنه وحيد نسجه بين جميع مشروعات الري الكبرى في العالم، بل إن العائد منه يفوق أي مشروع آخر.. ويكفي أن نقول أن إجمالي تكاليف إقامة السد ومحطة الكهرباء والمشروعات المترتبة على مرور خطوط الكهرباء قدر بمبلغ ٤٥٠ مليون جنيه.. وقد أتى بتكاليفه في أقل من عامين إذ بلغ العائد الاقتصادي خلال عشر سنوات منذ إنشائه مالا يقل تقديره عن عشرة الآف مليون من الجنيهات.. أي عشرين ضعفا لما أنفق عليه.

وينفرد السد العالي بظاهرة عجيبة، وهي أنه مشروع يعم أثره ويفيض خيره على أرض مصر جميعها ويتعدى ذلك ليعم السودان أيضا.. وهو متعدد الأغراض لاتقتصر أغراضه على الري فحسب ولا على توليد الطاقة الكهربائية فقط.. وإنما تمتد



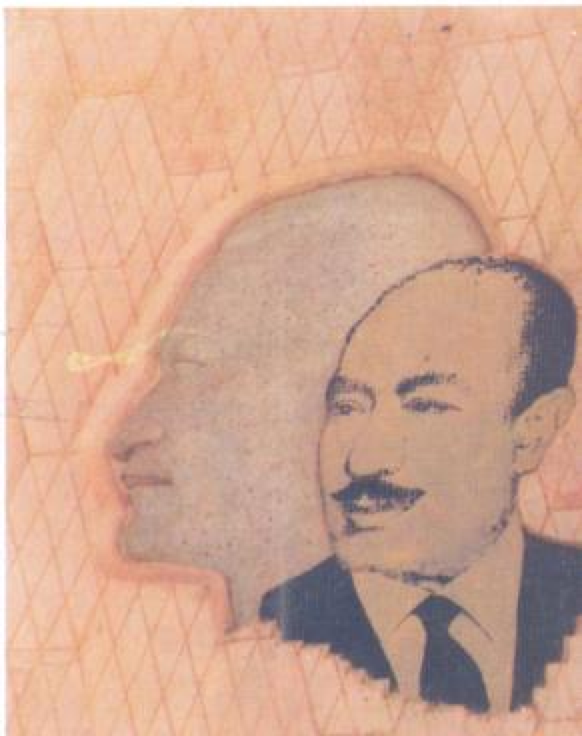
● النوبة.. القديمة والجديدة.. وموقع السد العالي وبحيرة ناصر.

لتشمل فوق ذلك القوى الكهربائية وتحسن الملاحة والوقاية من الفيضانات العالية وتأمين محاصيل البلاد في جميع السنين. ولاشك أنه كان الأصل أيضا في خلق مجتمعات جديدة، لانه لولا الكهرباء وقوة العمل التي يمكن استغلالها، ما كان من الممكن إنشاء المصانع في المجتمعات الجديدة وخاصة أنه أدى كذلك الى تحديث وتطوير القرى المصرية. وأذكر من فوائده أيضا تحويل ري الحياض الى ري دائم مع خطة ماتزال مستمرة لاستصلاح الاراضي الصحراوية تحقق مع التخطيط السليم زيادة في مساحة الأرض الزراعية تصل الى ٣،٣ ملايين فدان من أمثلتها تنفيذ مشروعات منطقة النوبارية في البحيرة والاسكندرية استصلح خلالها ٣٠٠ الف فدان، كما تم استصلاح ١٩٠ الف فدان في صحراء الصالحية كل ذلك خلاف زيادة الثروة السمكية حيث تعطينا بحيرة ناصر حوالي ٣٥ الف طن من السمك سنويا.





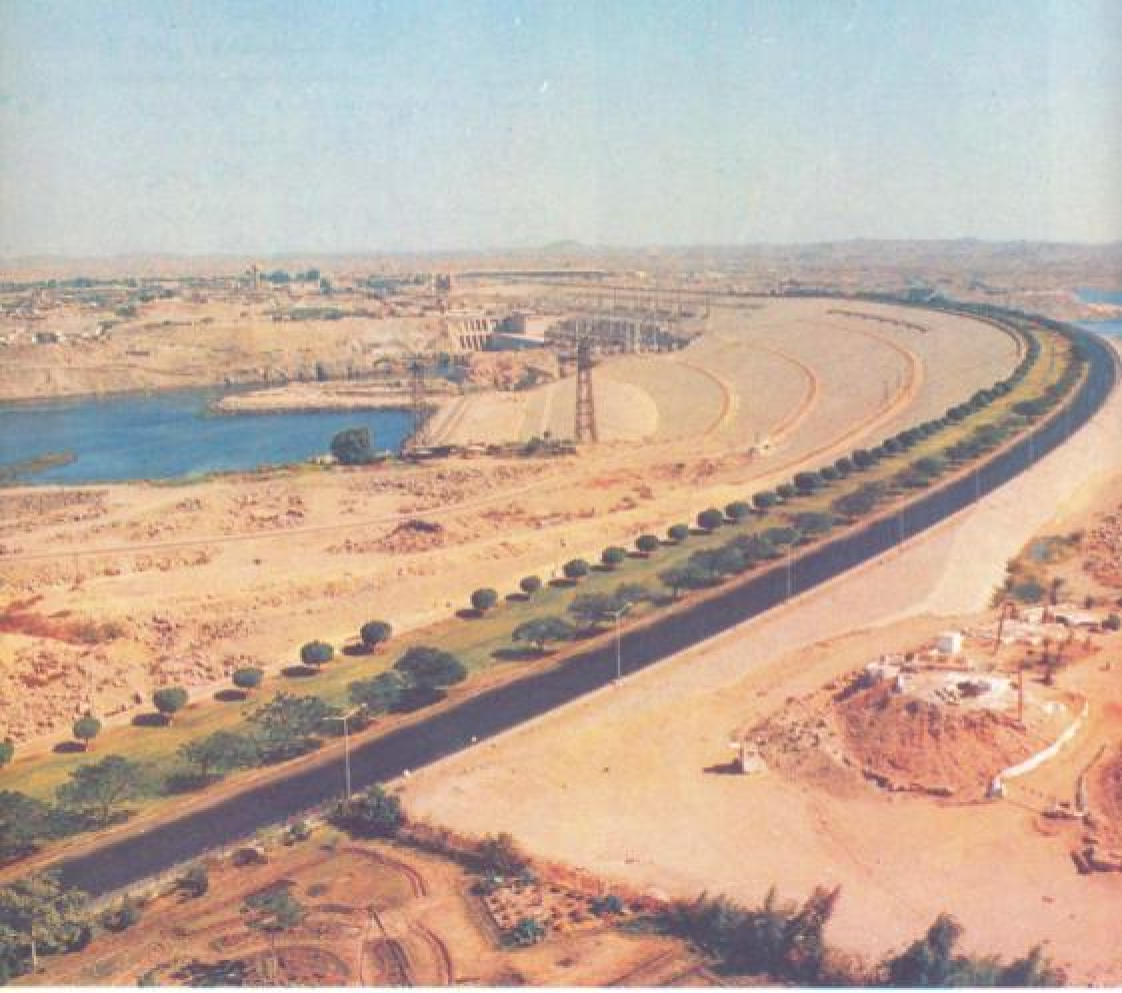
● السد العالي وبحيرة ناصر ومجرى النيل في لقطة شاملة من فوق الرمز التذكاري (الى اليسار) والرمز على شكل زهرة اللوتس بفروعه الخمسة (الى اليمين) يحكى قصة الصداقة والتعاون خلال بناء السد العظيم .





● لوحة تمثل وجه عبد الناصر باني السد ، محفور على الجدار الداخل للرمز التذكاري ، وقد حجبت نصف رأسه صورة بارزة رسمت لخلفه السادات .. تماما كما كان الخلف في مصر القديمة يحجب تمثال السلف .

● مجرى النيل عند الشلال الأول .. ومدخل مقبرة الأديب عباس محمود العقاد .. أشهر من أنجبته أسوان (الى اليسار) .




مقبرة الأديب الراحل
عباس محمود العقاد



لا مجال لأوهام المتشائمين

ويثور سؤال : ولكن ماذا عن موجات الهجوم والانتقادات المستمرة على السد وآثاره الجانبية التي سمعنا منها الكثير . . ؟

ويأتي الجواب : الحديث عن الآثار الجانبية هو في الحقيقة أمر يجانبه الصواب الى حد كبير وقد حققته أوهام المتشائمين . فأما عن حرمان الأرض من الطمي ، فحسب الأرقام كان النيل يحمل إلى الجمهورية حوالي ١٠٠ مليون طن اثناء الفيضان ، ولكن لم يكن يستهلك منها إلا الربع ، لان ثلاثة أرباع كمية الطمي كانت تذهب الى البحر . . هذه الكمية ثبت علميا إمكان تعويضها بالمخصبات أسوة بجميع دول العالم التي لا تقدم لها أنهارها طميا . وقالوا إن المياه الرائقة ستنحر في جوانب النهر والقناطر المقامة عليه . وقد أظهرت النتائج الفعلية التي حدثت خلال ١٥ سنة منذ بناء السد أن تقديرات العلماء التي كانت متوقعة والتي درست مع إنشاء السد كان مبالغا فيها ، إذ أن ما تحقق بالفعل لا يتجاوز خمس ما كانت عليه التقديرات السابقة . ومسألة النحر أمر طبيعي وتعالج بالطرق الهندسية المختلفة وكانت موضوعة في الحسبان منذ الانشاء . أما القول بتسرب المياه وضياع المخزون بخرا . فالرد الواضح أنه امكن تخزين مخزون مياه تجاوز خلال السنوات الست الاخيرة وحدها ٦٠ مليون متر مكعب ، وقد أنقذت هذه الكمية مصر من مجاعة وقحط كانا متوقعين كما حدث في عدد من الدول الافريقية . وحسبنا أن نذكر أن السد العالي قد كفى مصر أو حماها من أربعة أعوام رهيبة جاء أولها بفيضان خطر عام ١٩٦٤ ، وثانيها بفيضان قحط عام ١٩٧٢ ، وثالثها بفيضان بالغ الخطورة عام ١٩٧٥ ، ورابعها بفيضان قحط عام ١٩٨٢ ، وقد توالت سلسلة من الفيضانات المنخفضة خلال الفترة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٤ ، ورغم ذلك لم تتأثر الزراعة في البلاد ، فقد تمت زراعة المليون فدان من الأرز ، والمليون فدان من القطن ، وربع المليون فدان من القصب ، ولم يحدث أي تخفيض في إنتاج المساحات الزراعية . ولاشك أن السد ومخزونه من الماء أظهر كفاءة وفعالية خلال سنوات الجفاف .

والواقع أن السد العالي لم يفقد أرض مصر خصوبتها ، ولم ينحر قاع النهر ، ولم تتهالك جوانبه ، ولم يتصدع أو يهبط جسمه ، ولم تتسرب مياهه أو يضيع مخزونه بخرا ، أو تسربا . . وكل ماتركه السد العالي من آثار وما صاحبه من ظواهر كان أمرا طبيعيا في حدود المسموح بل دون المقدر له بكثير . وتتحطم على مر السنين من بدء تشغيل السد أوهام المتشائمين ، ويبرز بصدق توهج آثاره المضيئة لتبدد ظلمة صور قاتمة رسمت في تجسيم كل أثر طبيعي للسد العالي .



● المهندس صلاح شهاب . . رئيس هيئة السد . .

قبل أن نمضي . . ومع نظرات أمل كبير نحو السد . . وبحيرة ناصر . . يقول رئيس هيئة السد العالي : . أحب أن أضيف شيئا . .

فبرغم كل هذا الذي يحدث . . فإننا لم ننس النوبة الأصلية أبدا . . فبحيرة ناصر التي غمرت الارض القديمة بمياهها سيتم في القريب زراعة ضفافها . وقد بدأت بالفعل في بعض مناطق بلاد النوبة الاصلية على الجانبين تجربة زراعة بعض النباتات والخضر والفاكهة بما يحقق مستقبلا زراعيا لهذه المنطقة . كما سيتم إنشاء مراع للاغنام والابقار وزراعة غابات للأشجار الخشبية التي يمكن الاستغناء بها عن استيراد الكثير من أنواع الأخشاب . وعلى جانب البحيرة قرب السد أنشأنا مصنعا لتجفيف الاسماك بالتعاون مع اليابان ، وسيتم في الخطة الخمسية القادمة توسيع المصنع ليتم تعليب الاسماك لتدعيم عملية الامن الغذائي ، وستكون أبواب العمل مفتوحة لمن يريد من أبناء النوبة للمشاركة في العمل . ومن المشروعات الجديدة بناء ميناء في ابو سمبل لتسهيل التكامل بين مصر والسودان من أبرز موقع في أرض النوبة الاصلية ، كما يجري إنشاء طرق ومراس على النيل النوبي بين أبو سمبل وأسوان حيث مازال هناك مجموعة من المعابد لتسهيل النشاط السياحي الى معابد

ابو سمبل وعمدا والسبوع والدكة . . .

ولا أخفيكم أن بعض أبناء النوبة قد بدأوا يعودون الى بعض المناطق المطلة على قراهم الاصلية ويقيمونها من جديد . . وقد بدأوا الاقامة بالفعل قرب أبو سمبل حيث أخذوا ينشئون قرية جديدة ، كما فعلوا مثل ذلك في موقع بلانة والقسطل وأدندان . . وقد يكون ذلك إيذانا بإعادة تعمير جديد للأرض النوبية على أيدي أبنائها النوبيين الذين مايزالون في شوق الى وطنهم الأم . . .

النوبة . . . الام

الحق أن أمل العودة الى الموطن الأصلي مايزال يعتمل في أعماق الكثيرين من الجيل القديم من أهالي النوبة القديمة .

واحد من هؤلاء ـ الحاج أحمد جاد ـ قال لنا حين التقيناه في مقر المكتب الاعلامي بأسوان :

لا أستطيع أن أنكر أنني كنت من ضمن المجموعات الاولى التي عادت الى النوبة الاصلية عام ١٩٨٠ . . عدت الى ابو سمبل الأصلية وبنيت لنفسي بيتا هناك . ولعل الدافع الذي حدا بي الى التمسك بالعودة الى موطني الأصلي هو إرضاء النفس والحنين الى الماضي . . وأكثر من ذلك هو أني لم أحس بالراحة النفسية عندما ذهبت الى النوبة الجديدة في كوم امبو .

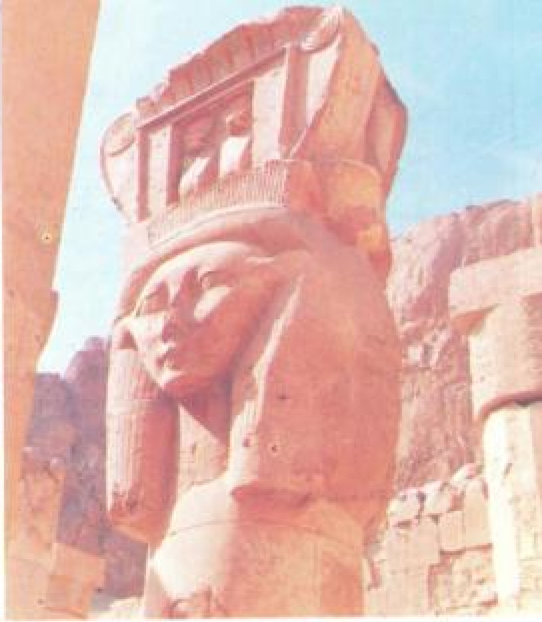
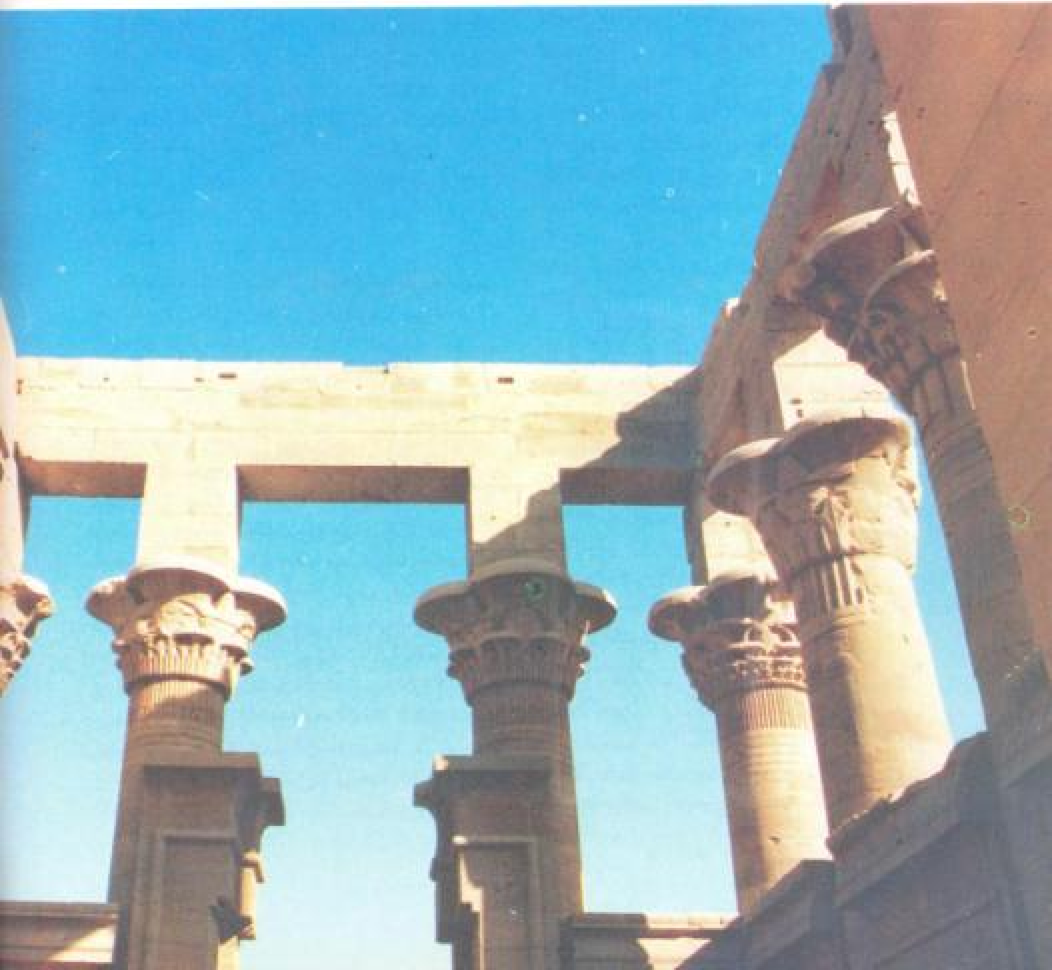
والحقيقة أننا ذهبنا إلى موطننا الجديد نحمل عاداتنا وتقاليدنا . . ولكنني ـ وأقولها عن نفسي ، والبعض من رفاقي ـ أحسسنا أن هذه العادات والتقاليد بدأت تختلف بتغير الارض أولا وبالبيوت ثانيا وبالاختلاط بالاجناس الأخرى ثالثا . بدأنا نحس بضيق نفسي مع ضيق المساحة التي نقلنا إليها بالنسبة الى الأرض البارحة الواسعة التي كان عليها موطننا الاصلي . . الهواء النقي والنور والنخيل والهدوء واتساع المسافات بين البيوت والاطلالة على مياه النيل كان يشعرنا براحة كبيرة عما أصبحنا عليه ، ولم نكن نصاب بالامراض أو اعتلال الصحة والنفس ، وهناك دافع الحنين الى الارض التي عاش عليها الأباء والاجداد . ولو أردت الموازنة فإن قريتي في أبو سمبل القديمة كانت تمتد على مساحة ٣٦ كم^2 ، بينما هنا في الأرض الجديدة نجد أن القرية على مساحة كيلو مترين فقط تضم ٢٥٠٠ بيت . الازدحام والتكدس غير أخلاق الناس . صحيح أننا في الأرض القديمة كانت حياتنا وإمكانياتنا صعبة ، ولكننا كنا نحس بالراحة النفسية وبأننا بعض من أراضينا ووطننا وترابنا في النوبة الأم . الوطن القديم هو الأم الاصلية ، أما التي هجرنا إليها فهي خالة وليست اما ، أو على الاقل زوجة أب ، وما أكثر الفارق بين الام وبين الخالة او زوجة الاب . . !

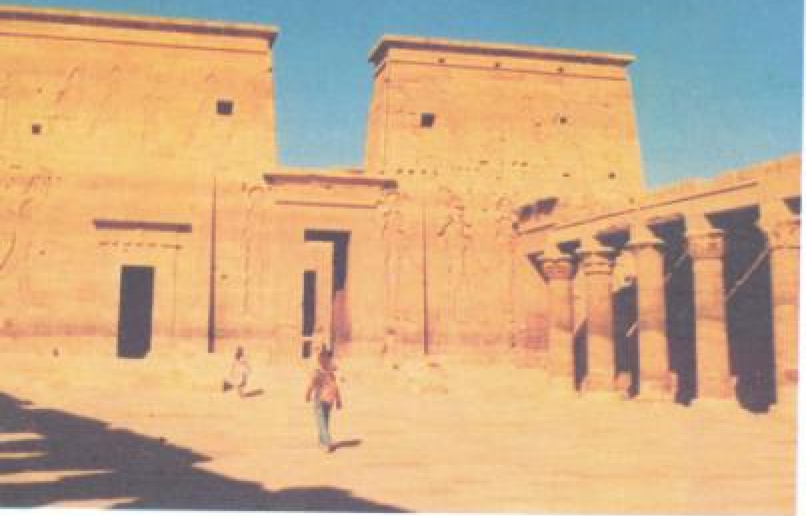
النوبة الام ، اشتق اسمها من كلمة « نوب » وتعني عند المصريين القدماء « أرض الذهب » . وكانوا يطلقون عليها أيضا اسم « الأرض المقوسة » أو « أرض القوس » . وكانت أرض النوبة مقسمةبين الشمال والجنوب ، فالنوبة السفلى وطولها ٣٥٠ كيلومترا تمتد من الشلال أو الجندل الاول عند اسوان إلى أدندان قرب الحدود المصرية عند وادي حلفا وتعتبر جزءا من مصر وكانت تسمى « واوات » . أما النوبة العليا وطولها ١٥٠ كيلومترا فتمتد بين أدندان ودنقلة عند الجندل الرابع في السودان وكانت تسمى « كوش » ، وكوش هو الجد الأعلى للنوبيين « وأخ مصرايم » الجد الاعلى للمصريين ، وكلاهما من حام « ابن نوح » . وتبدي الآثار الموجودة من بدايات العصر الفرعوني أن سكان منطقة واوات كانوا عادة لا يميلون للحرب ، بينما كان أهل « كوش » محاربين أشداء ، لهذا استعان بهم المصريون في النوبة وفي مصر نفسها وجندوهم في الجيش الفرعوني وخاصة في عصر الامبراطورية ، كما استعانوا بهم في حفظ النظام داخل مصر ، وفي محاربة الاعداء في الخارج ورد المعتدين .

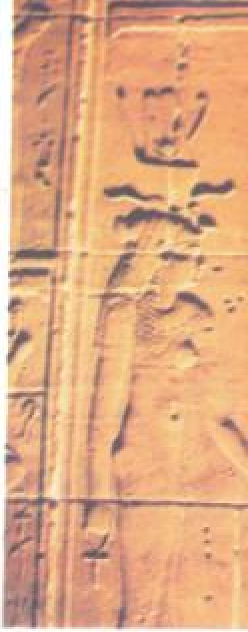
بين مصر والنوبة

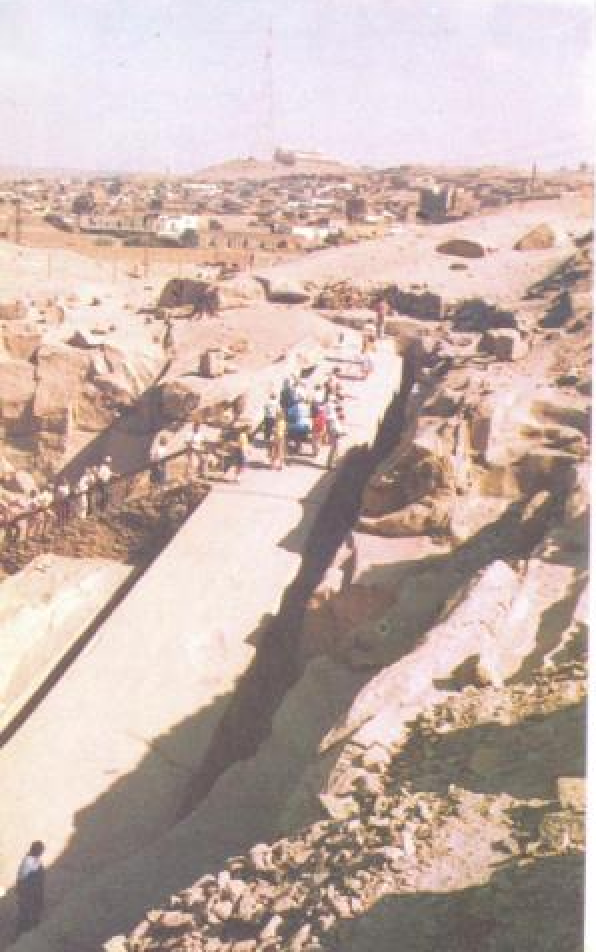
يقول التاريخ ان مصر اهتمت ببلاد النوبة لوقوعها على طريق القوافل التي تجلب اليها صادرات الجنوب وبلاد بونت (الصومال) . وكان النوبيون يتولون القيام بهذه المهمة ، فكانوا يحملون موارد بلادهم وموارد الجنوب والصومال من العاج والابنوس وريش النعام وجلود الحيوانات والبخور والمر والذهب والصموغ والمواد العطرية الى مصر ، ويعودون منها بالأنسجة والخرز والعسل والطيب والخزف المدهون وغير ذلك من السلع .

وفي عهد الدولة الوسطى في مصر وجه ملوكها ثلاث حملات الى بلاد النوبة . وبمثل هذه الحملات تمكنت مصر من احتلالها وضمها الى بلادها نهائيا ، حيث قامت هناك حضارة مصرية محلية ملائمة لها متأثرة ببيئتها . وحوالي عام ١٧٣٠ ق . م أغار

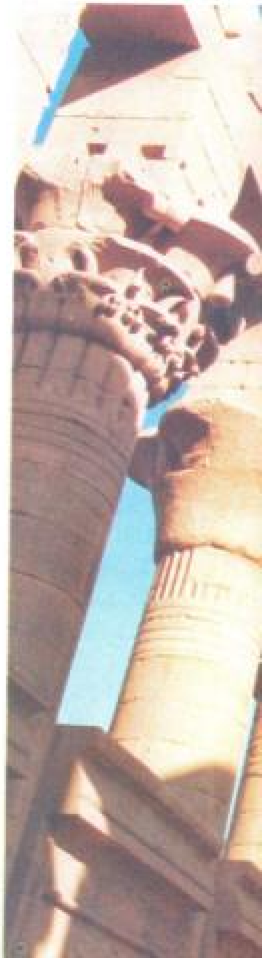










● قصة معابد فيله .. وحكاية ايزيس وأوزوريس وحورس يمكن متابعتها على الأفنية والأعمدة واللوحات والتماثيل على جدران المعابد التى شهدت كل مراحل تاريخ مصر القديمة وحكت قصة أنس الوجود من العصر العباسى .. أما الصورة الى اليسار فهى للمسلة الناقصة التى ماتزال راقدة في بطن الجبل بأسوان .



الهكسوس على مصر واستولوا عليها فهاجر كثير من المصريين الى بلاد النوبة وانشأوا مواطن لهم . والى هؤلاء المهاجرين يرجع الفضل الاول في ربط العلاقات المصرية النوبية .

وعندما تمكن أحمس أمير طيبة من طرد الهكسوس أعلن نفسه ملكا على مصر المتحدة من العاصمة طيبة . وأصبح إلهها آمون رع معبود مصر كلها . وقاد أحمس حملة عسكرية الى بلاد النوبة وكان يصحب معه عددا من الصناع والكهنة والجنود المصريين وأسكنهم هناك ، فأدخلوا عبادة آمون رع ونشروا الحضارة المصرية بين السكان . ومن ذلك الوقت اتخذ النوبيون آمون رع من معبوداتهم ، وأنشأ المصريون معابد على طول البلاد في كلابشة وجرف حسين والسبوع والدر وابريم وابو سنبل وحلفا ، وصارت هذه الاماكن مراكز لنشر الحضارة المصرية التي تأثر بها النوبيون ، وتوطدت العلاقات بينهم وبين المصريين ، وأصبحت البلاد قسما من أقسام مصر سياسيا ودينيا واداريا .

وفي حوالي ٧٥٠ ق . م قامت في بلاد النوبة مملكة مستقلة امتد سلطان ملوكها حتى شمل صعيد مصر ، بل وغزوا مصر نفسها وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين . ولكن لم يكد عام ٢٩ ق . م . يأتي حتى خضعت النوبة لنفوذ الرومان الذين غزوا مصر . ومنذ القرن الاول الميلادي ابتدأت المسيحية تنتشر في مصر ، ولاقى المسيحيون في اول عهدهم اضطهادا شديدا اضطر معه الكثيرون الى الهجرة الى بلاد النوبة فرارا من ظلم الرومان والتماسا للنجاة .... وهناك تهيأ لهم الجو الملائم لنشر المسيحية بين السكان حتى صارت هي الدين الرسمي للنوبة .

وقد عني المسيحيون في النوبة ، بأقامة الكنائس والاديرة مستغلين في كثير من الاحيان مباني المعابد المصرية القديمة لتحويلها الى كنائس واديرة ، كما حدث في معابد فيلة وابريم ودنقله ، وقد طلوا النقوش الهيرغليفية والصور القديمة بالطين ورسموا على الطلاء صور المسيح والقديسين .

ثم جاء الاسلام على أيدي العرب ، وكان العرب قبل ظهور الاسلام يعرفون بلاد النوبة ، وكان التجار العرب يعبرون البحر الاحمر وبوغاز باب المندب في طلب العاج والذهب والعبيد والبهارات ، وكثر ذلك في عصري البطالمة والرومان . ولاشك ان بعض هؤلاء قد فضلوا الاقامة في النوبة على العودة الى بلادهم . وعندما فتح المسلمون مصر حوالى عام (٦٤٠م) ، غزا حكام مصر النوبة عدة مرات ولم يهتموا بالاستيلاء عليها ، واكتفوا بما يحصلون عليه من الجزية ، حتى اتفق فيما بينهم بعد ذلك بأن تدفع النوبة لبيت مال المسلمين ما يسمى « بالبقط » وهو لم يكن جزية بقدر ما كان رمزا للأمان والهدنة ، وكان المسلمون يقابلون هذا بمثله ، فيرسلون من مصر الى النوبة الحبوب والثياب والخيل ، وسميت في العهد المكتوب « صدقة جارية » .

ومنذ ذلك الوقت أخذ الاسلام يتسرب تدريجيا عن طريق النيل وعن طريق البحر الاحمر الى بلاد النوبة .. أرض الصقر الذهبي ..

فيلة .. بين ايزيس وأنس الوجود

ونبدأ مسيرتنا مع النوبة القديمة ، من آخر حدودها عند أسوان ، حيث نشأت بداية التاريخ المصرى المعروف مع ظهور أوزوريس سيد الأرض الطيبة .

كان أوزوريس فيما يروى المصريون الأقدمون هو الذى علم سكان مصر الزرع والرى والحصاد . وكانت جزيرة فيلة المستلقية وسط مياه النهر عند الجندل الأول هى النقطة التى ينبع منها نهر النيل . ومن نقطة البداية انطلقت ايزيس مع زوجها الملك الطيب الذى خرج ينشر الخير والحب بين الناس ويعلمهم كيف يزرعون الأرض ويحترمون قانون السماء .

وفى الفناء الرئيسى لمعابد ايزيس فى فيلة ـ لؤلؤة مصر ـ نتتبع مع مرافقنا الاعلامى محمد حسين قصة البداية ..

كلمة « فيلة » جاءت من كلمة فيلاى أو بيلاك ، وكتبها الأغريق فيلا بمعنى المحبوب أو المكان المرغوب ، وسماها العرب « أنس الوجود » نسبة الى إحدى قصص ألف ليلة وليلة ، أما المصريون فنطقوها فيلة ومعناها بالهيروغليفية « الطرف » أو « البداية » وذلك باعتبارها بوابة مصر . وكان القدماء يحجون الى هذا المكان باعتباره منبع نهر الخير ، وتقديسا للإلهة ايزيس وزوجها أوزوريس وابنهما حورس .... الإله الصقر ...

تحكي الأسطورة المسجلة على جدران معبد ايزيس أنه فى قديم الزمان كان يحكم هذه البلاد ملك اسمه « جب » ، وكان له ولدان من الذكور واثنتين من الاناث . وزوج الملك ابنه أوزوريس من أخته

ايزيس كما زوج ابنه ست من أخته نفتيس . . ولأن أوزوريس كان طيب القلب عادلا ملكه أبوه الوديان الخضراء والسهول والأنهار ، أما ست الذى كان شريرا حاقدا فقد ملكه أبوه أرض الصحارى القاحلة والرمال القفراء . وكان أوزوريس موسيقيا بارعا أحبه الناس فحقد عليه اخوه ست وتآمر مع آخرين حتى صنع صندوقا من الذهب الخالص بحجم أوزوريس زعم فى حفل أقامه أنه يهديه لمن يتسع له . .

وهنا على أرض جزيرة فيلة وعلى ساحة هذا الفناء بالذات ، أقيمت المأدبة . .

لم يتسع الصندوق لغير أوزوريس الذى كان طويل القامة . وعندما استلقى فى الصندوق أسرع ست فأمر رجاله بإغلاق الغطاء وإلقائه فى النيل . وراحت أمواج النهر تتقاذف الصندوق حتى بلغ مصب رشيد ثم تناقلته أمواج البحر حتى بلغت به شواطىء جبيل (بيلوس بلبنان) حيث كان قد توفى وهو داخل التابوت .

جدت إيزيس المخلصة الوفية فى البحث عن جثة زوجها ، ووظفت مالديها من علوم السحر الذى برع فيه المصريون حتى عرفت المكان الذى استقر فيه الصندوق . فركبت سفينة انطلقت بها الى بيلوس حيث حلمت بأن الصندوق داخل شجرة أرز كان الملك قد قطعها وأقامها عمودا ودعامة فى قصره . وتحايلت إيزيس على ملك بيلوس بعد أن كشفت له عن شخصيتها وأماطت اللثام عن سيدها ، فسمح لها باسترداد الصندوق . وإذ حل عليها المساء نامت فوق تابوت زوجها فجاءتها الرؤيا وهى نائمة بأنها حملت من روح زوجها أوزوريس ، وعندما عادت الى مصر اختفت ومعها الصندوق فى جزيرة فيله خوفا عليه من ست الذى قتله من قبل . وظلت مختفية حتى ولدت حورس بينما كان ست فى ذلك الوقت يواصل البحث حتى استطاع أن يعثر على جسد أوزوريس . وانتهز فرصة غياب إيزيس وقطع الجثة الى ستة عشر قسما بعثرها فى جميع مقاطعات مصر . وعادت هى لتواصل البحث من جديد حتى عثرت على الأجزاء جميعا عدا جزء واحد هو قدم أوزوريس اليمنى . . فقد كانت قد استقرت فى جزيرة بيجة المقابلة لجزيرة فيلة ، وكانت المياه تنساب من بين أصابعها محملة بالخصب والطمى لتنمو ربوع مصر بالخير من فيضان النهر . . ومنذ تلك اللحظة صار أوزوريس ملكا للموتى يتولى حسابهم فى الآخرة . . أما حورس الابن الذى غذت فيه أمه روح الانتقام فقد خاض صراعا مريرا مع عمه حتى انتصر عليه . وجلس الابن على عرش أبيه وتوج بالتاج الأبيض فى مقر حكمه بالمدينة الصغيرة على جزيرة فيلة المقدسة . ليصبح من بعد هو الاله حورس . . برأس الصقر الذهبى . .

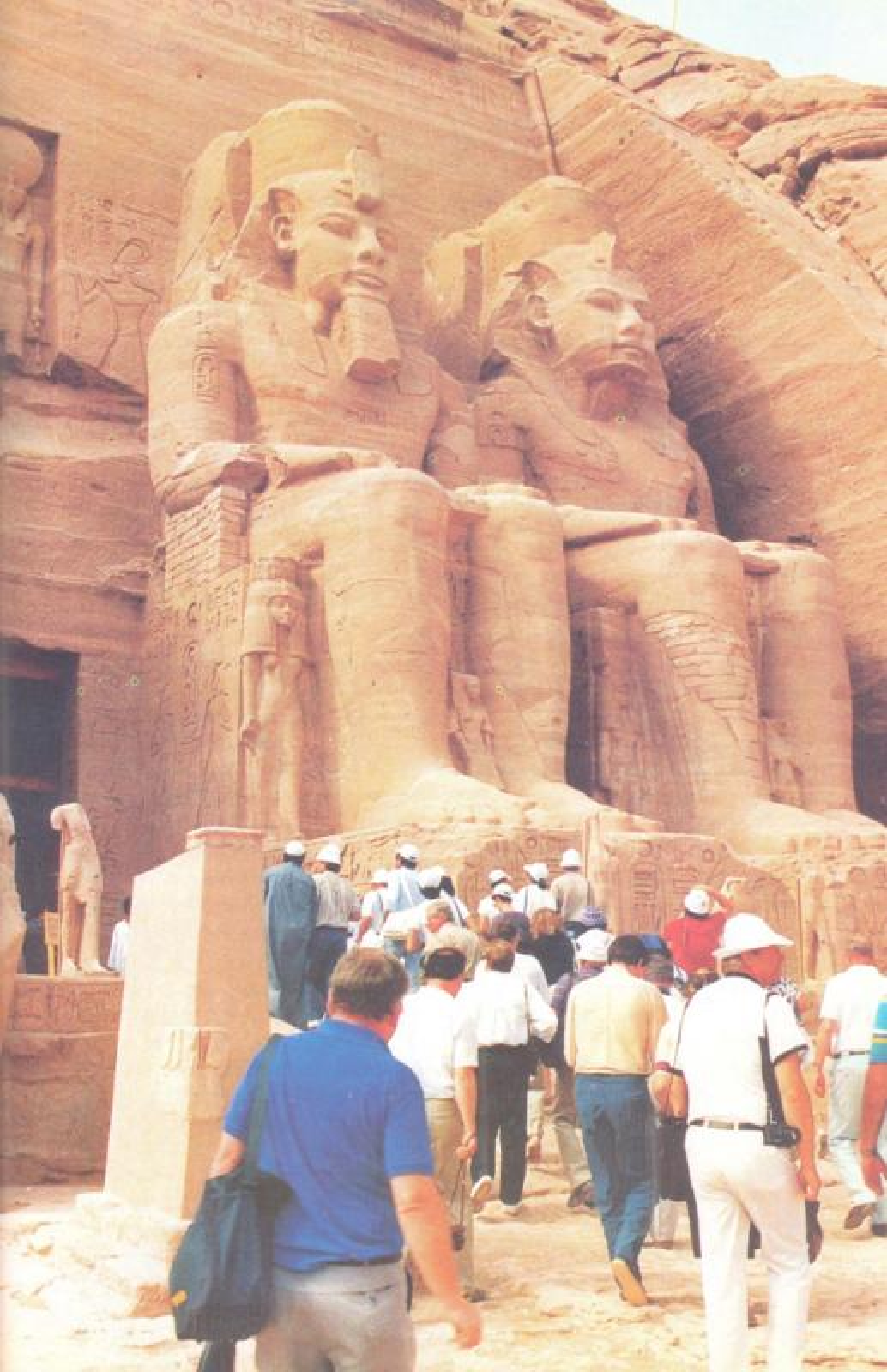
تلك هى معابد فيلة حيث وقفنا فى فناء المعبد الذى شيد لعبادة ايزيس وإبنها حورس ، بعد أن نقلت المعابد بمعاونة اليونسكو الى جزيرة إجيلكا الأكثر ارتفاعا ، وبعد ان تعاقب عليها الغرق والظهور لأكثر من ستين عاما ، كانت المدينة خلالها قد فقدت مبانيها المشيدة باللبن اذ تلاشت بفعل المياه عندما بنى خزان اسوان ، واختفت معها معالم تاريخية وأثرية كان لها أهمية كبيرة لدارس تاريخ النوبة المتأخر فى عصر ما يسمى « النوباد » الذين أتوا ليعبدوا الالهة إيزيس وليأخذوا تمثالها للزيارة السنوية الى بلادهم فى الجنوب . . !

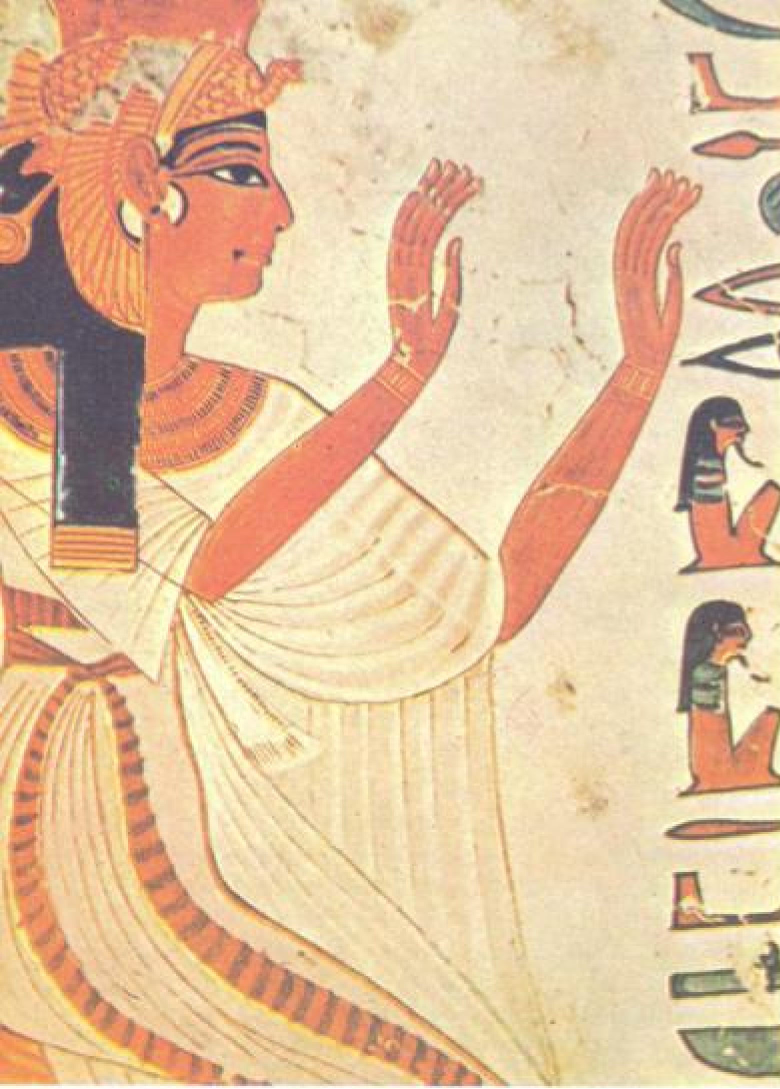
وقد كان أول من بنى معبدا تقربا لإيزيس هو الملك « طهارقة » النوبى أحد ملوك النوبة السفلى . وكانت النوبة فى ذلك الوقت ممالك مستقلة ولها ديانة قائمة بذاتها بعيدة عن الديانة المصرية القديمة . بعد طهارقة جاء الملك « نكتانبو » وحكم مصر بين ٣٩٠ و ٣٢٠ ق . م ، وهذا الملك اشتهر بثورته ضد الفرس فبنى لإيزيس هذا المعبد وبوابة تقربا إليها .

بعد الملك « نكتانبو » يجىء البطالمة أو الأغريق فيحكمون مصر بين سنتى ٣٢٢ و ٣٢ ق . م . وقد بنى بطليموس لإيزيس مجموعة من المعابد تمجيدا لها ولزوجها أوزوريس وابنها حورس . ثم يأتى بعد ذلك الرومان ويبنون المعابد تمجيدا لإيزيس ، وفى خلال فترة الحكم الرومانى يأتى التبشير المسيحى فى عهد الامبراطور « جستنيان » وتصدر مراسيم بأن تحول جميع المعابد الى كنائس . وهكذا تحولت جميع المعابد فى مصر الى كنائس ماعدا معبد فيله ، حيث كان للكهنة نفوذ وسيطرة على جميع المعابد. وعندما رفضوا أن يحولوا المعبد الى كنيسة عمد المسيحيون الى إزالة النقوش حتى رضخ كهنة المعبد لتحويله الى كنيسة . . !

ويجىء العصر الاسلامى الى مصر . . وخلال أيام العباسيين تأتى قصة « أنس الوجود » .

كان لأحد الوزراء ابنة تسمى « زهرة الورد » غاية فى الجمال ، أحبها أحد حراس القصر واسمه أنس الوجود . وأحبت الفتاة فيه الأخلاق النبيلة العالية





● الملكة نفرتارى .. زوجة رمسيس الثانى .. النوبية .. جميلة الجميلات .

● واجهة معبد رمسيس الثانى .. أكبر معبد منحوت في الصخر في العالم حيث تقوم على الواجهة أربعة تماثيل للملك يرتفع كل منها عشرين مترا يظهر في الصورة اثنان منها . (الى اليمين) .... أما الصورة السفلى الى اليسار فتمثل الأعجوبة الهندسية الفلكية التى ترتبط بالمعبد حيث تخترق أشعة الشمس قاعاته لتتعامد على وجه رمسيس الثانى يومين في السنة هما عيد ميلاده وعيد تتويجه .



التى لم تجدها فى أبناء الملوك و الأمراء . ووجد أبوها أن هذه العلاقة غير متكافئة ، فطرد أنس الوجود من أرض فيلة ، وحبس ابنته فى القصر ، وأحاط هذه الجزيرة بمجموعة كبيرة من التماسيح حتى لا يقترب منها أنس الوجود . وأخذ أنس الوجود يجوب البلاد ويبحث عن حبيبته « زهرة الورد » وراحت البلابل تتغنى له والطيور تتراص فوقه لتكون مظلة تحميه من الشمس . واستأنست له الوحوش حتى وصل الى الجزء الشرقى من شلال جزيرة فيلة . وظل الفتى يواصل الغناء ويحكى حكايته حتى أنست له التماسيح وحمله تمساح كبير على ظهره وأتى به الى شاطىء الجزيرة . وكان لا بد أن يرضخ الوزير فى النهاية ويزوج الفتى من ابنته زهرة الورد إذ وجد فيه إنسانا يتسم بالأخلاق العالية والنبل والشهامة . وهكذا سمى هذا المعبد بقصر « أنس الوجود » .

أبو سمبل . . مفخرة النوبة

كانت أرض النوبة موطنا لعبادة الكثير من الآلهة طوال العصور الفرعونية والرومانية والمسيحية . وكان النوبيون يعتزون اعتزازا كبيرا بالمعابد التى كانت - قبل أن يغمرها الماء - تمتد على طول الجانبين الشرقى والغربى من دابود الى ادندان .

وحين بدأت عمليات بناء السد العالى بذلت كل الجهود العالمية لانقاذ معابد النوبة لما لها من أهمية تاريخية كبيرة . . وأسهمت مختلف دول العالم بإرسال بعثاتها لعمليات الانقاذ والتنقيب عن آثار النوبة قبل أن تغمرها المياه ، خاصة بعد أن أعلنت حكومتا مصر والسودان أن المنقب له الحق فى نصف حصة نتائج أعماله . . ونظمت المتاحف الأجنبية بعثاتها الخاصة الى وادى النيل بهدف زيادة المعرفة بهذا التراث التاريخى الهام ، بالاضافة الى اكتساب قطع جديدة لمجموعاتها . بل لقد وافقت مصر على أن تمنح بعثات الدول المشاركة حقا فى نقل المعبد الذى تنقذه ليقام فى بلادها .

على أن أهم ما تم إنقاذه من المعابد هو معبد رمسيس الثانى ومعبد زوجته الملكة نفرتارى فى أبو سمبل .

معبد أبو سمبل بالنوبة . أكبر معبد منحوت فى الصخر فى العالم . وهو آية فى العمارة والهندسة القديمة إذ نحت فى عمق جبل صخرى لمسافة ٦٢ مترا على الضفة الغربية للنيل أمام قرية « فارك » فى الضفة الشرقية ، وفى منطقة كانت سكنية فى عصر رمسيس الثانى . يقول النص المسجل على الجدار الداخلى أن أسرى الحرب قاموا ببناء المعبد الذى كرس لعبادة « رع حور اختى » مثل بقية المعابد فى النوبة . . وهو الاله حورس الذى اندمج مع الشمس « رع » ويصور عادة على هيئة بشرية برأس صقر مرتديا قرص الشمس .

وهناك أعجوبة هندسية وفلكية ترتبط بهذا المعبد . فأشعة الشمس تدخل من باب المعبد وتخترق القاعات التى ضبطت على محور واحد يتفق فلكيا مع خط عرض معين ، بحيث تتعامد عليه الشمس مرتين فى السنه يوم ٢٢ فبراير عيد مولد الملك ويوم ٢٢ اكتوبر عيد تتويجه حسب تعامدها على مدارى السرطان والجدى . وعندما تتعامد الشمس على خط المحور يدخل أول شعاع لها من الباب عند الشروق ويستقر على تماثيل الآلهة الأربعة فى صدر قدس الأقداس فى نهاية المعبد . وقد ضبط الباب بحيث يبدأ سقوط أشعة الشمس أولا على وجهى آمون وبتاح ، ثم على وجهى بتاح ورمسيس ، ثم تنتقل الى وجهى رمسيس ورع حور اختى . . ويستمر الانتقال خطوة خطوة لفترة تمتد الى ٢٥ دقيقة من شروق الشمس . . !

أهم ملامح المعبد واجهته التى ترتفع ٣٢ مترا بعرض ٣٥ مترا حيث تقوم تماثيل أربعة لرمسيس الثانى ارتفاع كل منها حوالى ٢٠ مترا ، وهى منحوتة فى صخور الجبل ، اثنان من التماثيل على كل جانب من المدخل ، وهى تمثل الملك وهو جالس وعلى رأسه التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى ، وعلى جانبى كل تمثال وبين الأرجل نرى تماثيل تمثل الملكة نفرتارى ، وبعض الأبناء الملكيين . . وكل من المجموعات الأربع تقوم على قاعدة عالية نقش عليها خرطوش رمسيس ومجموعة من الأسرى الأسيويين والزنوج . أما المنظر الخلفى للواجهة فقد نحت على شكل صرح ذى كورنيش نقش عليه صف من القرود رافعة الأذرع الى أعلى وهى تعبد الشمس . وفوق المدخل يقوم تمثال للاله رع حور اختى برأس الصقر الذى خصص له المعبد .

وندلف الى داخل المعبد . . يقودنا الاثرى عطية رضوان رئيس تفتيش آثار أبو سمبل الى بهو كبير به صفان من أربعة أعمدة تتكىء عليها تماثيل ضخمة للملك واقفا وعلى رأسه التاج المزدوج ، حاملا « العصا والمذبة » . . وقد كسيت الأعمدة وجدران البهو الذى يصل ارتفاعه الى ٨ أمتار بمناظر ونصوص



واجهة المعبد الصغير للملكة نفرتارى . . « جميلة الجميلات » .

دينية مع رسوم لأعمال الملك الحربية فى معاركه ضد الحيثيين فى سوريا والكوشيين فى السودان كما تمثل انتصاره فى معركة قادش . أما السقف فمزين بمناظر تقليدية من الخرطوش والعقاب ذى الجناحين الممدودين .

بعد مجموعة من الأبهاء ننتقل الى بهو يقود الى غرفة تستند الى محور المعبد وتوصل الى غرفة قدس الأقداس التى تتصدرها تماثيل جالسة نحتت فى الصخر تمثل معبودات المعبد ، وهى بتاح وآمون ورمسيس نفسه ورع حور اختى . وفى وسط الغرفة تقوم مائدة غير منقوشة كانت تقدم عليها الأضحيات والقرابين ، عندما كانت أشعة الشمس المشرقة تدخل بعد الفجر . . أما فى غير ذلك الوقت فكان يوضع عليها نموذج لمركب الشمس .

جميلة الجميلات . . نوبية

على مسافة قريبة شمال المعبد الكبير نحت رمسيس الثانى معبدا صخريا صغيرا لملكته نفرتارى ومعناها « جميلة الجميلات » . وكرس المعبد لعبادة حاتحور ربة الجمال والحب والرقص والموسيقا . ومع أن عظمة المعبد الكبير حجبت معبد نفرتارى ، إلا أنه يعتبر أحد العمائر ذات الجمال الرائع فى النوبة .

المعبد شيده الملك هدية لزوجته المحبوبة نفرتارى ، وكانت هى أول زوجة تزوجها من بين ٦٧ زوجة . وكانت ابنة أحد كبار ضباطه من عامة الشعب فى منطقة النوبة .

فالملكة نفرتارى « جميلة الجميلات » نوبية ومن أجل أن يتزوجها عدل الملك القوانين التى كانت تمنع الملوك من الزواج من عامة الشعب . وبعد أن تم الزواج وتحقق عاد الملك فألغى التعديل وأعاد القانون الى أصله . من هنا بالغ رمسيس فى تكريم نفرتارى ، وليجعلها فى نظر الشعب مقدسة أعطاها الصفة الالهية .

واجهة معبد نفرتارى على شكل بيلون ، وكانت تنتهى أصلا على شكل كورنيش . وعلى كل جانب من جانبى المدخل نجد ثلاث مشكاوات محفورة تقف فيها تماثيل ضخمة يصل ارتفاعها الى عشرة أمتار وهى أربعة للملك واثنان للملكة . ونلاحظ هنا أن تمثال الملكة بنفس حجم تمثال الملك ، وهى أول مرة فى التاريخ الفرعونى والحضارة المصرية القديمة يكون فيها تمثال الملكة فى حجم تمثال الملك . . !

الى جانب كل تمثال نجد تمثالين صغيرين يمثلان طفلين ملكيين هما أبناء أو أقرباء الملك من الأمراء ، وبنات أو قريبات الملكة من الأميرات . أما فى الداخل فنجد أن جدران الصالة العرضية وقدس الأقداس قد نقشت عليها مناظر دينية ، منها نقش عليه منظر بارز للربة حاتحور على هيئة رأس البقرة ورمزها « الشخشيخة » ، ويقف الملك تحت رأسها .

المعجزة الرئيسية الجديدة التى تمت هنا هى كيفية إنقاذ المعبدين قبل أن تغمرهما مياه السد . . نسمع التفاصيل من المهندس عطية رضوان بعد أن ينتقل بنا الى القبة الخرسانية التى يستند إليها المعبدان . . قال :

لنترك الآن ما خلّفه الأجداد ونتحدث عن حضارة أحفاد الأحفاد . . فما فعله المصريون فى العصر

الحديث لا يقل عظمة عما فعله الأجداد .

لقد كانت عملية إنقاذ معابد أبو سمبل معجزة بكل المقاييس ، سواء في ذلك إزالة الجبل وتقطيع أجزاء المعبد الصخري أو إعادة رفعه وبنائه بنفس المسافات والمقاييس وبدون أن يفقد منه حجر أو نقش واحد . ويضاف الى ذلك إقامة هذه القبة الخرسانية التي تعتبر معجزة وحدها . هذه القبة كان الغرض منها حماية المعبد وإعادة شكل الجبل الذي كان موجودا قبل عملية الانقاذ . .

فقد كان من المستحيل إعادة بناء الجبل فوق المعبدين ، لأن ذلك يمثل خطورة من الناحية الجيولوجية والطبيعية ، وخاصة أن هذه المنطقة منطقة زلازل قد يؤدي حدوثها الى سقوط المعبدين وانهيارهما . فكان لابد من الاستعاضة عن ذلك بانشاء هذه القبة الخرسانية فوق المعبد الكبير وقبة إخرى فوق المعبد الصغير . تمتد القبة ٥٦ مترا بعرض ٦٠ مترا وارتفاع من أسفل الى أعلى يصل الى ٣٨ مترا ، وسمك الخرسانة من المركز ١٤٠ سنتيمترا ومن الجانبين حوالي مترين . وقد تم تركيب ستين جهازا في سقف القبة وأنحائها لاعطاء كل القياسات المطلوبة للمحافظة على القبة والمعبد بحيث يتم اكتشاف أي شروخ أو هزات أو تفتت في الصخور .

أما عملية الانقاذ نفسها التي جرت في عام ١٩٦٣ فقد بدأت باحاطة المعبدين بسد يعزلها عن مياه النهر ، ثم جرى رفع الجبل وإزالته . بعد ذلك تم تقطيع المعبدين بجدرانها مع تقسيم الجدران الى أجزاء لا تتعارض مع سلامة النقوش ، واستخدم في ذلك المنشار اليدوي الدقيق من الامام والمنشار الكهربائي من الخلف ، وتم بذلك تقطيع كل أجزاء المعبد وترقيمها ثم نقلها الى الموقع الجديد ، حيث أعيد بناؤه وتركيب أجزائه مع المحافظة على الاتجاهات الهندسية التي كان مقاما عليها . . أما هذا المكان الجديد فهو فوق مستوى سطح البحر بارتفاع ١٨٩ مترا بعد أن روعي أن أعلى منسوب يمكن أن تصل إليه مياه السد هو ١٨٣ مترا ، وبذلك يصبح من المستحيل أن تصل المياه الى المعبدين .

المجتمع النوبي

بين أرض النوبة القديمة والنوبة الجديدة نلتقي بأبناء المجتمع النوبي ونتنقل بين قراهم الثلاث والأربعين .

والنوبة الجديدة تقع في منطقة أراضي الاستصلاح الزراعي الجديدة بمنطقة كوم امبو في محافظة اسوان ، على بعد حوالي ٥٠ كيلو مترا الى الشمال من مدينة اسوان ، وتمتد على طول المنطقة شمال وشرق مدينة كوم امبو في شكل يقارب نصف الدائرة ، ويتخللها طريق ممهد للمواصلات يربط جميع القرى النوبية بعضها ببعض ويمتد بين اسوان وكوم امبو وطريق اخر يمتد بين مدينة نصر النوبة ومدينة كوم امبو . وذلك على العكس مما كانت عليه القرى في منطقة النوبة الاصلية حيث لم يكن هناك الا النيل طريقا للمواصلات .

وتضم بلاد النوبة ثلاث جماعات : الكنوز والعرب والنوبيين . فالكنوز يقيمون في القسم الشمالي من المنطقة ويشمل ١٧ قرية . ويقيم العرب في القسم الأوسط ويشمل خمس قرى . ويقيم النوبيون في القسم الجنوبي ويضم ١٨ قرية . فالاقليم النوبي ينقسم الى ثلاث مناطق وفقا للتقسيم الأصلي في المنطقة الأصلية . وتتوسطه الآن مدينة نصر العاصمة الجديدة التي تضم ست قرى هي كورسكو والريقة وابو حنضل والدر والديوان وقتا . ولم تكن نصر موجودة في النوبة الأصلية حيث كانت عنية هي العاصمة . وتحمل القرى أسماء نظائرها في النوبة الأصلية .

وعلى نفس هذا التقسيم الثلاثي تنقسم أيضا اللغة التي يتحدث بها أبناء الجماعات الثلاث . . فالأهالي النوبيون من أدندان وأبو سمبل وحتى كورسكو يتكلمون اللغة النوبية وهي المسماه (الفججكة) أو (المحسى) .

ومن كورسكو الى فورته وحتى أسوان وهم الكنوز يتكلمون حتى اليوم باللهجة المعروفة باسم « كنوز » أو اللغة الماتوكية . وقليل من الكنوز ومن النوبيين من يعرف لغة الأخر ، وكل من اللغتين تسمى « الرطان » وتنتمي الى اللغة النوبية القديمة . . أما في المناطق الأخرى بوادي العرب فهم يتحدثون العربية ولا يعرفون « الرطان » .

كان النوبيون في أول أمرهم يتخذون الهيروغليفية لغة للكتابة والتسجيل بجانب لغتهم الخاصة التي كانوا يستعملونها في أحاديثهم العادية . فلما انفصلت النوبة عن مصر أ ملوا الهيروغليفية وكتبوا لغتهم بأحرف محلية جديدة . وفي العصر المسيحي استخدمت الحروف القبطية في كتابة اللغة النوبية ، واستمر ذلك حتى انتشر الاسلام وخضعت النوبة



● واجهة بيت نوبي .. بالزخارف والألوان والرسوم ..

لنفوذ العرب المسلمين فبطل استعمال الحروف القبطية وكتابة اللغة النوبية نهائيا .

الأصول النوبية

في ذلك الوقت كانت أبواب النوبة قد أصبحت مفتوحة أمام طوائف المسلمين العرب الذين هاجروا إليها واستقروا فيها وصاهروا سكانها وأسسوا لهم منازل وقرى في صميم البلاد . ولأن الاسلام دين سمح فان السكان الأصليين من أهل النوبة لم يشعروا بعداء نحو الوافدين عليهم من المسلمين فتركوهم يعيشون بينهم .

وإذا تتبعنا أصول الجماعات النوبية فسنجد ـ كما يقول الدكتور السيد أحمد حامد في كتابه « النوبة الجديدة » ـ أن النوبيين الحاليين ينحدرون الى حد كبير من نسل هؤلاء الذين عاشوا في هذه المنطقة من وادي النيل في عصر فراعنة الدولة الوسطى . وكما كان الحال في العصور القديمة نجد أن النوبي المعاصر يختلف جنسيا عن المصري . وقد كان المهاجرون الى بلاد النوبة الأصلية يستقرون في القرى ولا يجدون ما يمنعهم من الزواج بالنوبيات . وهكذا امتص المجتمع النوبي تلك العناصر الغريبة دون التأثير في لغته وثقافته . فالزوجات النوبيات والأولاد ينشأون ويعيشون داخل المجتمع النوبي . وقد أدى ذلك الى تعدد القبائل وكثرتها واختلاف أصولها القبلية التي تعتبر إحدى المميزات الرئيسية التي يتميز بها المجتمع النوبي .

وقد أدى تعدد الغزوات والهجرات الى غلبة القبائل التي تكونت في الأصل من أصول عربية ويسمون أنفسهم الأنصار في الكنوز ، وغلبة قبائل الكشاف في النوبيين بينما يقول العرب انهم من عرب « العليقات » .

وتوجد قبائل أخرى الى جانب هذه القبائل في كل إقليم من الاقاليم الثلاثة . . الكنزية والعربية والنوبية .

كما توجد جماعات عائلية من أهالي قرى الصعيد . وبخاصة في القرى التي انشئت فيها مشروعات الري في المنطقة الأصلية حيث يتزايد عددها عن بقية القرى ، وقد تكونت في الأصل من الافراد الذين كانوا يحضرون الى تلك القرى في موسم الزراعة للعمل مقابل الأجر النقدي ومنهم من تزوج من النوبيات واستقر في القرى .

ومن الواضح أن هناك تشابها بين الكنوز والعرب والنوبيين من حيث القبائل التي تتألف كل جماعة منها ، رغم اختلاف في أصول القبائل في كل جماعة . فهناك القبائل الكبيرة الحجم التي كانت تملك غالبية الأراضي الزراعية ، والقبائل الصغيرة الغريبة ، والنوبيون الأصليون ، وجماعات الصعايدة . ولكن على الرغم من اختلاف وتعدد الأصول القبلية التي تتألف منها كل جماعة من الجماعات الثلاث الكنزية والعربية والنوبية ، وتأثير ذلك في مدى التقارب والتباعد في العلاقات بين القبائل . . وعلى الرغم من استقلال القرية كوحدة اجتماعية قائمة بذاتها وانعدام الاتصال بينها وبين غيرها من القرى في المكان الأصلي الى حد كبير . . فإن كل جماعة تعتبر وحدة كلية واحدة في علاقاتها مع كل من الجماعتين الأخريين .

الآن . . وبعد انتقال الجميع الى الارض الجديدة والتقارب المكاني بين قرى كل جماعة وأخرى مع سهولة الاتصال فيما بينهم ، ما يزال هناك تباعد في العلاقات بين الكنوز والعرب والنوبيين فيما لا يزال التبادل الاقتصادي ضعيفا بين سكان كل قرية وأخرى نتيجة لعدم استكمال استصلاح الاراضي الزراعية ولقلة حجم نتاج الاراضي التي وزعت فضلا عن زراعة نصف مساحة الاراضي في الزراعة الكلية قصبا . ويعني ذلك عدم وجود مصالح مشتركة اقتصادية تؤدي حتما الى إقامة علاقات اقتصادية بين الكنوز والعرب والنوبيين ، مما يخفف من حدة التباعد بينهم وذلك على الرغم من ظهور نوع من المشاركة أو الاتفاق الجماعي بين جميع سكان القرى نتج عن المشكلات التي تتعلق بالزراعة ، مثل عدم توفر المياه للري ، واختيار نوع من المحصول الذي يفضلون زراعته وعدم توفر الآلات الزراعية مثل الجرارات لتسوية الارض ، وغيرها من المسائل التي تهم جميع السكان والتي تتعلق بالاسكان والاعاشة فهذه المشكلات أدت الى مثل هذا الاتفاق على أساس أنها تتعلق بحياتهم ومعيشتهم وأنها تتطلب من السكان جميعا الوقوف الى جانب بعضهم البعض حتى تمتثل الادارات الحكومية لرغباتهم وتحقق مطالبهم . ويتضح ذلك من مناقشات المجالس والمؤتمرات العامة ومجلس مدينة نصر ومحافظة اسوان حيث يسود الاتفاق الجماعي العام بين الكنوز والعرب والنوبيين ـ دون اعتبار لما بينهم من تباعد ـ على حلول ايجابية لحل مشاكلهم بما يتفق والظروف العامة لمجتمعهم الناشيء عن عمليات التهجير .

في « مضيفة » بيت النوبة النموذجي ضمنا لقاء مع عدد من المدرسين وأعضاء الوحدة المحلية والشباب .. كنا ما نكاد نذكر اسم أحد من أبناء النوبة الذين نلتقي بهم في قطاعات العمل المختلفة والذين توزعوا خارج بلادهم ، حتى نكتشف أن الجميع يعرفون بعضهم بعضا حتى ولو كان بالاسم .. فقد هاجر الكثيرون للعمل في المدن والبلاد البعيدة ، ومع هذا ظلوا مرتبطين بجذورهم في أرض النوبة ، القديمة والجديدة ، فعقيدتهم أن الوطن مهما تغيرت معالمه فسيبقى بالنسبة اليهم أحب الاراضي في العالم كله .. فإليها سيرجعون في كل فرصة سانحة .. وهم إذا مرضوا أو تقدمت بهم السن فإن أملهم الوحيد هو الرجوع إلى ارضهم التى وهبتهم الحياة .

كان محور الحوار هو : ما الذى يدفع هؤلاء الناس الى ترك وطنهم الذي يكنون له هذا الحب ويعيشون بعيدا عنه لفترات طويلة ؟ وكانت الاجابة حاضرة دائما ، فالبيئة الطبيعية لم تكن توفر ـ حتى قبل بناء خزان اسوان ـ الموارد الاقتصادية أو تسمح بزراعة تحقق الاكتفاء الذاتي من المحاصيل المعيشية . وكان نتاجها أقل من المستوي الفعلى لحاجات الأسرة والأبناء .. وثمة سبب آخر هو أن النوبيين يحبون بطبيعتهم السفر والتجوال ولديهم حب استطلاع ليس له نهاية لمعرفة بلاد جديدة وشعوب جديدة .. وذكر بعضهم ان هناك نوبيين يعيشون في دول امريكا واوروبا ويعملون ميكانيكيين وبحارة وطهاة على البواخر وفي المطاعم الفاخرة والفنادق المنتشرة في كل مكان .

فإذا ربطنا بين السببين ، وأضفنا إليهما عدم قيام صناعات بالمنطقة الأصلية ، نجد أنه كان لزاما على الرجال الأشداء والشباب أن يبحثوا لهم عن مهنة في المدن المصرية والسودانية الكبيرة ... وبدأوا يكتسبون عيشهم من أعمالهم في الحراسة وأعمال الطهى والبحر ، خاصة مع ما يتمتعون به في كل مكان ذهبوا إليه من سمعة طيبة وأمانة وطهارة ذيل .. وفي الحقيقة ان من يتعمق في التعرف على عاداتهم وتميزهم يجد فيهم الصديق الوفى الذى لا ينسى الجميل أبدا .

قال لنا ناظر المدرسة :

لقد اتسع نطاق الهجرة وراء العمل مع توالى غمر المياه للأراضي النوبية ، وعلى مختلف المراحل منذ صارت بلاد النوبة خزانا للمياه لصالح الاراضى الزراعية في شمالها بعد بناء خزان اسوان . ومع توالى ارتفاعات مناسيب المياه مع تعليات الخزان غرقت كل الاراضي الواقعة تحت المنسوب المائي ، وتوقفت نتيجة الزراعة النيلية على مدى انكشاف الاراضى وانحسار المياه عنها ، وإن استثنى من ذلك القري التى انشئت بها جسور واقية ، وهي أبو سمبل وبلانة وأدندان وقسطل ، مما أدى الى احتفاظها بمعظم الأراضى التى تعتمد الزراعة فيها على الرى باستخدام السواقي ، كما استثنى منها القرى التى انشئت بها مشروعات الري الدائم والموسمى وغيرها في المنطقة الكنزية . ونتيجة لكل ذلك تعرضت بلاد النوبة لخسائر كبيرة في الأراضي الزراعية والسواقي وأشجار النخيل وغيرها من الأشجار والمساكن في كل مرحلة من مراحل بناء وتعلية خزان اسوان . وتأثرت بالتالي تربية الماشية نتيجة لارتباطها بالزراعة . ومن ثم لم تكن الخسارة مقتصرة على الأراضي الزراعية وإنما كانت أيضا بالنسبة لمصدرين مهمين من مصادر الدخل : هما النخيل الذى كان يحقق دخولا طيبة تغطى إلى حد كبير النقص في نتاج الاراضي الزراعية ، وتربية الماشية .. وهكذا كانت الاستجابة الطبيعية لهذه الظروف الاقتصادية هي زيادة معدل الهجرة للعمل في المدن ..

المهاجرون الأوائل

الحقيقة أن كل من كان يقدر على العمل في المدينة كان يهاجر اليها دون أن يقيد الآباء رغبته لضرورة بقائه في القرية لوجود غيره من أعضاء عائلته خارج المجتمع النوبي ، فقد كان من الضرورى بقاء أحد أفرادها الذكور الذين يستطيعون الاشراف على مختلف شئون العائلة وقد تميزت هجرة النوبيين بطابع معين من حيث الاتجاه الى المدن التي يتخذها النوبيون مراكز للعمل ، وبالتالي للاقامة والاستقرار فيها . فسكان كل قرية مرتبطون بمدينة معينة من المدن المصرية والسودانية يتجه إليها كل من يرغب من سكانها في الهجرة للعمل ، فالمهاجرون مثلا من قرى معينة كانوا يتجهون الى الاسكندرية ، بينما من قرى أخرى يتجهون الى القاهرة وغيرهم إلى السودان . ويرجع هذا التحديد لاتجاه الهجرة للعمل من القرى النوبية الى المهاجرين الاوائل . فالشخص من مهاجري الجيل الأول يعتبر نقطة ارتكاز أو مركز جذب لأعضاء مجتمعه المحلي تجاه المدينة التي يعمل بها .



إحدى فتيات النوبة تعمل أمام لوحة النسيج .



سيدة نوبية تعد الطعام أمام « مصطبة » الدار

فلم تكن التزامات الشخص الذي يعمل في المدينة مقصورة على تقديم المساعدات المالية والعينية لاقاربه في القرية ، وإنما كان لزاما عليه مساعدة الغير في البحث عن العمل ، سواء من أقاربه أو من سكان قريته حين يلتجيء اليه ويرغب في العمل ، فضلا عن تحمل عبء إقامته الى حين تسلم العمل . ولم يكن المهاجرون الأوائل ينتظرون التجاء القادمين اليهم أو ابداء الرغبة في العمل عن طريق المراسلة ، وان كان الشخص المقيم يرسل في طلب حضوره الى المدينة عندما تكون هناك فرصة للعمل . وكان من السهل على المهاجرين الاوائل إيجاد العمل لغيرهم لأن أعمالهم كانت حراسة المنازل والخدمة فيها وفي المحلات العامة والأندية . . فكثيرا ما يشمل مكان العمل الواحد عددا من مختلف هذه المهن تربطهم روابط القرابة أو رابطة الانتماء الى مجتمع محلي .

ويتضح هذا من السبب الاساسي الذي أدى بالنوبيين الى تكوين جمعية القرية في المدينة ، إذ كان الغرض الرئيسي من إنشائها هو توفير مكان لاستخدامه مقرا لاقامة الوافدين من القرية الى حين الالتحاق بالعمل . وهكذا أصبحت هناك مدن بالذات مركز تجمع واقامة لاشخاص من قرية واحدة . ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد ، وإنما تتكتل مساكنهم في حي واحد من احياء المدينة .

ويعتبر هذا التجمع والتكتل السكني لأعضاء المجتمع القروي الواحد احد العوامل الرئيسية لاستمرار علاقاتهم ببعضهم البعض ، خاصة أن هذا التجمع ناتج في الأصل عن التعاون لايجاد العمل المناسب للفرد ، ويعتبر استمرار العلاقات بين المهاجرين أساس ارتباطهم الوثيق بمجتمعهم المحلي ، وبالتالي خضوعهم لمختلف الالتزامات الاجتماعية تجاه أقاربهم وغيرهم المقيمين في القرية .

ايجابيات وسلبيات

وتواصل تجوالنا في قرى النوبة الجديدة . أول ما يلفت النظر هو التوسع الأفقي للمباني وكلها ذات طابق واحد ، ويندر أن يكون هناك بيت من طابقين . وقد تم بناء المساكن وفق أربعة نماذج تتفق وعدد أفراد الأسرة عند بداية التهجير . . فأحدها يتكون من حجرة واحدة لفرد واحد ، والثاني من حجرتين لفردين أو ثلاثة ، والثالث من ثلاث حجرات للاسرة التي تضم ٦ افراد ، والرابع من أربع حجرات لمن يتجاوز عددهم ستة أفراد . وكل



● مجموعة من الفتيات يحملن صفائح الماء لتزويد البيوت بمياه الشرب .

من هذه المساكن بملحقاتها معها حظيرة للحيوانات والدواجن . . وتتكتل مساكن كل نموذج في قطاع واحد مما أدى الى ان تتميز القرية بثلاثة أو اربعة أقسام سكنية واضحة .

ولكن هذا لم يمنع الأهالي من التوسع العمراني بالجهود الذاتية التى يقولون انها أدت الى إضافات تجاوزت ٧٥٪ مما كان عليه الحال عند التهجير . فقد قام الأهالي بتوسيع بعض البيوت واستغلال الارض الفضاء المجاورة لها بين كل مسكن وآخر . كما أن البعض استغل مساحات من الأراضى لاقامة مساكن أخرى على نفس النمط الذى كان سائدا في الموطن الأصلي بحيث أصبحت هذه المساكن بيوتا نموذجية تمثل الصورة التى كانت عليها النوبة القديمة . من أمثلة هذه البيوت النموذجية دخلنا البيت النموذجي الذي دعانا إليه المهندس عمر محمدين رئيس الوحدة المحلية لقرية ابو سمبل .

البيت يتكون من مدخل يفتح على مضيفة رئيسية واسعة أو « ديوان » كما يسمونها ، وهي مفتوحة من الناحية البحرية لتستقبل ريح الشمال . والى الجانب الأيمن مجموعة من الحجرات لبيت الضيوف . . ويفتح الباب الداخلي بعد ذلك على فناء واسع مفتوح على جوانبه عدد من الحجرات .

والبيت على بساطته نظيف لا ترى فيه من فتحات سوى الأبواب ونوافذ صغيرة للتهوية في أعلى الجدران . . أما الواجهات فمزخرفة بنقوش من الجير أو بقوالب من الأحجار تبرز من الجدار في أشكال مثلثة أو مربعة . أما السقوف فهي من الطوب حيث يتجنبون استعمال الخشب خوفا من حشرة « القرضة » ذات النهم الى أكل الأخشاب وهذه السقوف تتخذ شكل قبو يكبر أو يصغر بحسب مساحة « الغرف » ، أما الجدران الداخلية فتزين بأطباق مصنوعة من الصيني وغالبا ما تحتوى على زخرفة ملونة أصلا . . أو تزين بأطباق من القش والخوص الملون و« الشماليج » والأبراش والمعلقات أو الخرز والأحجبة ، الى جانب الوحدات الهندسية المرسومة بالالوان . وتتميز بعض البيوت بالنحت الزخرفي البارز في تزيين حوائط الديوان الثلاثة مع زخرفة المزالج الخشبية للأبواب بوحدات هندسية تتراوح بين الدائرة والمثلث . . وهذه الوحدات الزخرفية المستخدمة تعتبر استمرارا وتأثرا بفن الزخرفة المصرية القديمة

على ان هذه الزخارف والزينات تفتقر إليها اغلب

البيوت في القرى .. ولم تعد الصورة المميزة التى شهدناها قبل سنوات التهجير في النوبة الأصلية موجودة بشكلها التقليدي البارز في المساكن الحالية فقد شملها التغير الذى تأثرت به المجتمعات الثلاثة في الأرض الجديدة .

عن الزراعة نجد أن الارض الزراعية خصص جزء منها للتوزيع والتمليك على النوبيين في حين عرضت بقية الأراضى للبيع لهم ولغيرهم من سكان القرى والعزب الصعيدية المجاورة . وقد تجاوزت مساحة الاراضى الزراعية ١٥٠ الف فدان ممتدة إلى مسافة ٨٠ كيلومترا داخل صحراء كوم امبو الشرقية . وقد تم توزيع الاراضى ثم تمليكها للاسر النوبية ، وخصصت لتمليك أصحاب الاراضى الزراعية في القرى الاصلية ارض تساوى في مساحتها الأراضى محل التعويض ، أما الأسر التى لم تكن تملك أرضا زراعية وكانت تعمل بالزراعة فخصصت لها مساحة من الارض تم تقديرها بالنسبة لعدد أفراد الأسرة وبحد أدنى فدان واحد قد تصل الى فدانين .

وتسدد أثمان الأراضى والمساكن المملكة على أقساط سنوية لمدة أربعين عاما وبدون فوائد ..

وقد روعي عند توزيع الأراضى التى تم استصلاحها أن يقتصر التوزيع على الأسر المعدمة التى ليس لها مصدر للرزق إلا الزراعة ، واقتصر توزيع المعونة المالية والعينية التى خصصت لكل اسرة على تلك الاسر فقط . أما بقية الأسر من تجار وموظفين فجرى تسليمهم الأراضى بعد انتهاء التوزيع بالنسبة للاسر الزراعية . وتخضع الزراعة لنظام الدورة الزراعية التى يوجهها قصب السكر باعتباره المحصول الرئيسي .

في مدينة نصر العاصمة الجديدة أنشىء مستشفى عام وأقيمت مجموعات صحية في بعض القرى بالاضافة إلى وحدات اجتماعية قروية . ولا تخلو قرية من قرى النوبة من مركز تدريب على الصناعات الريفية والبيئية والمشغولات ، مع مشغل في كل قرية لتعليم الفتيات تلك الصناعات وأعمال التطريز ، وألحقت بكل وحدة اجتماعية دار للحضانة ومركز لتنظيم الأسرة وتنفيذ برامج التوعية الاسرية ، واختيرت رائدات للقرى دربن على مختلف الاعمال ، وكذلك أقيمت مراكز لأعمال التجارة وصناعة السجاد والاجهزة لتدريب الفتيات اللاتى يمنحن مكافآت شهرية . وقد تم إنشاء وتوزيع شبكة للمياه النقية لتوفير مياه الشرب النقية داخل القرى .. وأنشئت في القرى مراكز للشباب لتدريبهم على القيام بالاشراف والتوجيه في مختلف نواحي النشاط واختيار القادة المحليين منهم . وفي كل قرية أنشئت جمعية للاصلاح الاجتماعي تقتصر العضوية فيها على سكان القرية ويختار أعضاء مجلس إدارتها من بين هؤلاء الاعضاء حتى يمكن لسكان كل قرية تنظيم وتوجيه الحياة الاجتماعية داخل قريتهم على أن يقتصر دور موظفى الادارة على الارشاد والتوجيه فقط .

لماذا القلق ؟

على ان كل ذلك لم يمنع ان تسود في أعماق الكثيرين مشاعر القلق وعدم الطمأنينة .. نسمع ذلك من الكثيرين ممن التقيناهم وخاصة في قرية أبو سمبل الجديدة .. قال لنا سيد مكى احد كبار أبنائها :

لاشك أننا وجدنا مزايا في موطننا الجديد كما كانت هناك مزايا أخرى في أرضنا الأم ..

ورغم أنه مضت علينا سنوات عديدة من عام ١٩٦٤ الى ٨٦ إلا أن الكبار الذين عاشوا حياتهم السابقة في الوطن الأصيل عجزوا تماما عن التكيف مع البيئة الجديدة . ومع ذلك فنحن لا ننكر الميزات التى تلقاها هنا وخاصة من الناحية التعليمية . لقد كان التعليم هناك بسيطا وكانت لدينا مدارس ابتدائية قليلة العدد تتباعد بعضها عن بعض في القرى المترامية .. وكانت هناك مدرسة ثانوية واحدة .. الآن توجد مدارس ثانوية ومدارس اعدادية وابتدائية وبعدد كبير . كل أنواع المدارس موجودة وفي متناول أيدى كل سكان القرى وعلى بعد خطوات منهم .

وفي محيط كل قريتين أو ثلاث توجد مدرسة ثانوية ، كما توجد مدرسة صناعية ومدرسة زراعية في مدينة نصر وفي عنيبة ، علاوة على المدارس الصناعية والزراعية القريبة من كوم امبو وأسوان ، وقد يسرت المواصلات عملية التعليم بشكل كبير ..

علاوة على ذلك فالأراضي الزراعية في متناول الجميع .. كل مزارع يملك فدانا واثنين وحتى خمسة .. بينما لم يكن أي منهم يملك في الارض القديمة إلا قراريط ..

رغم كل ذلك ما زلنا نشعر بالكثير من القلق بالنسبة للحياة الجديدة التى لم نتكيف عليها بعد ، برغم أن أبناء الجيل الجديد لا يحبذون العودة الى الأرض القديمة ، وهم يتمتعون الآن بمظاهر الحضارة الجديدة التي يجدونها هنا ..

التنمية والتغيير

عكس ذلك بالضبط نسمعه من المهندس الزراعي عمر محمدين عثمان رئيس الوحدة المحلية لقرية ابو سمبل .

لقد كانت الحياة في النوبة الأصلية تتسم بالبساطة . فالأعمال التي كان يتطلبها أي نشاط انتاجي قليلة فضلا عن عدم وجود درجة كبيرة من التمايز فيما بينها ، وكان الانتاج يعتمد على مهارة عدد قليل من المنتجين إن لم يتول أحدهم العمل من بدايته إلى نهايته ، ويرتبط كل ذلك بالتقسيم الطبيعي للجنس والعمر .

أما عملية التنمية الاقتصادية فتفرض تنظيما جديدا للعمل وتقسيمه نتيجة للعمليات الجديدة التي تستخدم بها الآلات والأدوات والأساليب الفنية ، وهذا كفيل بأن يؤدي الى إحداث تغيرات في المجتمع ، لعل أهمها زيادة التخصص وتقسيم العمل وظهور ظروف جديدة للحياة وامكانات جديدة لاستخدام الموارد الطبيعية لتقابل حاجة المجتمع وتشعبها . ثم إن ازدياد حجم السلع والسوق الجديد يؤدي الى مجموعة من العلاقات غير المباشرة التي تتميز بالفائدة والربح وهي لا تخضع لاعتبارات المركز والاعراف والأخلاقيات .

وقد أدى انتقال القرى النوبية الى اختلاف الظروف البيئية والجغرافية للمنطقة الجديدة عما كانت عليه تلك الظروف القديمة التي كانت تحكم بناء المجتمع النوبي في المنطقة الاصلية .

كما أدى ذلك الانتقال الى تغير التوزيع الاقليمي للقرى وتكتل وتجمع سكان القرية في مكان واحد ، وتلاشى انقسامها الى وحدات اقليمية اجتماعية هي (النجوع) ، واختفاء التكتل السكني المرتبط بالقرابة . كما أدى الى سهولة اتصال سكان القرى وخاصة القرى المتجاورة بعضهم ببعض . وأدى ذلك بطبيعة الحال الى احداث تغيرات في المجتمع النوبي إذ أن الظروف البيئية تؤثر في دائرة العلاقات الاجتماعية وكثافتها ودرجة قوتها داخل المجتمع المحلي .

وما من شك أن عملية التهجير أدت الى تعرض المجتمع النوبي لعملية تنمية اقتصادية واجتماعية ، فتحول بمقتضاها الاقتصاد النوبي من اقتصاد المعيشة الى الاقتصاد الذي لا يقتصر على الاكتفاء الذاتي وإنما يحقق زيادة في حجم الانتاج الزراعي نتيجة لربطه بالاقتصاد القومي .

والتنمية الاقتصادية يتعدى تأثيرها التأثير المباشر على المجالات الأخرى .

ولكن الاقتصاد بطبيعته مصدر للتغيرات الهائلة التي تطرأ على بناء المجتمع حيث يرتبط استمرار وتطور البناء الاجتماعي ارتباطا وثيقا بما يحدث من تغيرات هامة في المجال الاقتصادي وعملية التنمية الاقتصادية تؤدي إلى خلق مجالات جديدة للعمل وتغيير موقف أفراد المجتمع من الاستهلاك وعلاقاتهم بمصادر الثروة ، الأمر الذي يؤدي في النهاية الى تكوين قيم جديدة ، وبالتالي ظهور العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي البحت . وعندئذ يتعرض المجتمع للتغيير .

وأدى انتقال القرى النوبية واختلاف الظروف البيئية والجغرافية للمنطقة الجديدة إلى تغيير في شكل النظم والعلاقات الاجتماعية في المجتمع النوبي عما كان عليه في المنطقة الاصلية .

نداء وأمل

في نهاية حديثه يقول رئيس وحدة ابو سمبل :

الأمور الآن تسير بشكل يبعث على الرضا ويبشر بمستقبل طيب ، خاصة إذا أمكن الاستفادة بجهود وأموال أبناء النوبة الذين يعملون في أنحاء الوطن العربي .. ولدينا مثل في منطقة أدندان وقسطل ونحن نسميها منطقة « الاوبك » .. فكل من بنوا فيها بيوتا يشتغلون في الأقطار العربية البترولية لهذا سميت بمنطقة الاوبك .. وقد أمكن لهؤلاء تعمير قراهم بشكل يستحق الاعتزاز كما تملكوا أراض زراعية جديدة ينفقون على استصلاحها ويشاركون بأموالهم في المشروعات الحيوية في القرى ..

وكل هذا هو ما نتمنى ان يتم في كل مكان في النوبة الجديدة .. وما أكثر المشروعات التي يمكن أن يسهم فيها أبناؤنا الموجودون بالخارج . إنهم يستطيعون استثمار أموالهم هنا في استصلاح الأراضي .. وفي مشروعات مصانع الملابس الجاهزة وتربية الأغنام والعجول وتسمينها ، وكذلك تربية الكتاكيت والحمام والارانب .. ولدينا مشروعات صناعية كثيرة تحتاج الى التمويل .. واستثمار الاخوة النوبيين لأموالهم في موطنهم بدلا من الاستثمار بعيدا عنه سيفيدهم ويفيد الآخرين .. ولو أسهم الجميع بجهودهم وأموالهم فستعود النوبة لتصبح في موطنها الجديد ... أرض الذهب .. والتعاون .. والحب ...... □





في مصنع شركة الألبان الدانماركية ، ينجز العمل باهتمام وحرص شديدين ، بدون كلل أو ملل ، وتسير جميع عمليات التصنيع بداية بالخلط ، وانتهاء بالتعليب والتوزيع ، وفق نظام آلي ومخبري يضمن للمستهلك سلامة المنتجات .



صناعة الألبان في الكويت
خطوة نحو تحقيق الاكتفاء الغذائي!

استطلاع : ريم الكيلاني
ثريا البقصمي
تصوير : سليمان حيدر





يبقى الغذاء حاجة أساسية وضرورة قصوى للانسان في كل مكان وعبر كل الأزمنة ، وأية أمة تسعى نحو الأفضل فإنها تدرك أهمية الغذاء وتعمل قدر المستطاع على توفيره واستمرار وجوده وتكامله ، ونقف هنا برهة لنتساءل : هل تستطيع دولة كالكويت بظروفهاالبيئية المعروفة أن توفر عنصرا أساسيا منه كالحليب مثلا ؟ وهل هي مضطرة لايجاد صناعة في هذا المجال ومنتجاتها في النفط توفر لها إمكانية استيراد أنواع الأغذية المختلفة ومنها الحليب ومشتقاته ؟ .

إن الكويت برغم مداخيلها المالية العالية تبقى ذات مساحة وكثافة سكانية قليلتين نسبيا ، ومن ثم فإنه يبدو من الصعب أن تنتج غذاء من أهم أنواع الأغذية وهي لا تكاد تمتلك من مقومات الزراعة إلا القليل. قد يبدو الأمر للوهلة الأولى لغزا يصعب حله ، ولكن هناك قضية مهمة لابد من توكيدها ، تتمثل في المحاولة الحقيقية والجريئة التي تم اتخاذها في الكويت من أجل بلوغ كثير من الأهداف دون الاعتماد على النفط كمصدر وحيد للحياة .

القضية المهمة

يدور الحديث دائما في عصرنا هذا حول الأمن الغذائي ، وحول ضرورة توفيره في أقطار العالم الثالث . فماذا يعنى الأمن الغذائي ؟ وهل تستطيع كل دولة أن توفر كل ما يحتاجه أبناؤها من الغذاء ؟

قد يكون ذلك ممكنا بشكل أو بآخر في الدول التي تجري فيها الأنهار وتسقط الأمطار فيها بغزارة ، وتحظى بتربة صالحة للزراعة ، فكيف يتحقق الامن الغذائي في بلد مثل الكويت بصيفها القائظ وشتائها الذي تقل فيه الأمطار ؟

يقول الدكتور توحيد الصفي خبير الاقتصاد الزراعي في المعهد العربي للتخطيط :

قد يكون البحث في قضية الأمن الغذائي أمرا شديد التعقيد،ولكننا لو عرفنا ما لهذه المشكلة من أبعاد وآثار ناتجة عن عدم التوازن بين الموارد الطبيعية وبين السكان لوجدنا ضرورة القيام بدراسة مستفيضة من شأنها حل مشكلة الغذاء خاصة في الدول النامية . قالوا قديما : « ان الحاجة أم الاختراع » والكون مليء بالموارد المكتشفة والكامنة . والمهم دائما هو كيف يمكن للانسان أن يوفر أفضل استخدام واستثمار ممكن للموارد المتاحة بشرية كانت أو مادية .

إن اعتمادنا كأقطار نامية - على الواردات يعني بالتأكيد أن أمننا الغذائي في خطر لارتباطنا بانتاج ومخزون الاقطار المتقدمة .

ويستطرد الدكتور الصفي قائلا :

« إذا أردنا التحدث عن هذه القضية فلابد ان نذكر أولا أن الأمن الغذائي هو قدرة الدولة على مقابلة مستويات مستهدفة من الغذاء في فترة مستقبلية .

والكويت من خلال دعمها للانتاج المحلي لبعض السلع الغذائية الرئيسية وحرصها على توفير مستلزمات الانتاج ، ستساعد على ايجاد وفرة من تلك السلع الغذائية ، التي هي محل اهتمام مما يؤدي الى زيادة الاقبال على ما هو معروض منها محليا ومنها منتجات الألبان .

وهذا يعكس قدرة الدولة على تحقيق جزء من الأمن الغذائي في تلك السلعة وخاصة أن الكويت بلد صحراوي يكاد يكون إنتاجه الزراعي محدودا جدا . صحيح أن الطقس والمناخ هما عاملان من

عوامل كثيرة متشابكة تؤثر على الانتاج الزراعي ، ولكن هناك أيضا الامكانيات الزراعية والكلفة الاقتصادية،وهما عاملان رئيسيان في قضية الأمن الغذائي،هذا إلى جانب العمالة ورؤوس الأموال والمخصبات،والآلات والتطبيق الناجح للقواعد المتبقية في الزراعة،ونوعية المشروع والبحث العلمي الذي من شأنه رفع الانتاجية الزراعية ، ولكننا للاسف ما نزال نعتمد على المعطيات الطبيعية كالتربة والمناخ والموارد المائية المتوفرة وهذا هو الفرق بين الدول المتقدمة وأقطارنا النامية .

وقد حظيت مشكلة إنتاج الغذاء باهتمام بالغ في الكويت حتى أن الدولة باتت تنفق أموالا كبيرة لتسويق المنتجات المحلية ودعمها وتشجيع المنتجين على الاستمرار في إنتاجهم مما يشكل حافزا قويا لاصحاب المزارع والشركات لزيادة الانتاج،ولقد تحققت زيادة الانتاج من ناحيتين : زاد عدد المنتجين اولا ثم ازدادت كميات الانتاج من الحليب والالبان الطازجة ومشتقاتها .

ويضيف الدكتور الصفي :

إن لدى الكويت بعض المزايا النسبية التي تستطيع بواسطتها أن تحقق أمنا غذائيا ، وذلك من خلال استثمار الثروة السمكية المتاحة وخاصة أن للكويت شواطيء ممتدة . أما بالنسبة لجانب الانتاج الحيواني ، فإن الحكومة تدعم الجهود الانتاجية لتطوير الثروة الحيوانية ومنتجات الألبان الطازجة منها على وجه الخصوص وهي تحاول أن توفر خبرات فنية وتستخدم تقنيات حديثة مثل الزراعة المحمية والزراعة بدون تربة لاستزراع بعض السلع التي يتم إنتاجها محليا ، كما توسعت في استخدام تلك الأساليب بعدما تأكدت من الجدوى الاقتصادية لمثل ذلك التوسع . وينهي الدكتور الصفي حديثه قائلا :

« إن إمكانيات تحقيق الأمن الغذائي متوفرة بالنسبة لدولة الكويت في بعض السلع الغذائية ، وأن امكانية الاستثمار الزراعي من خلال مشاريع عربية مشتركة سواء في إطار دول مجلس التعاون الخليجي أو على المستوى العربي بوجه عام قائمة أيضا مما يؤدي إلى زيادة الفرص المتاحة لضمان الأمن الغذائي ، وأن توفر العوائد النفطية يعد عاملا مهما في تطوير المشاريع القائمة أو إقامة مشاريع جديدة في اطار استخدام التقنية الحديثة بحيث يتم تحقيق مستويات إنتاجية عالية .

مفخرة صناعية

كانت عملية تربية الأبقار وإنتاج الحليب الطازج أمرا أشبه بالمستحيل ، فكيف لدولة كالكويت بظروفها البيئية والمناخية أن تمتلك قطعانا من الأبقار المنتجة أو الحلوبة طوال العام تكفي لتغطية حاجات المواطنين من تلك المادة الضرورية وهي الحليب ؟

ماكان موجوداً لم يكن يتعدى عددا بسيطا من الأبقار تربى في المنازل،وتحلب بالطريقة التقليدية اليدوية دون مراعاة لظروف النظافة والسلامة في بعض الأحيان .

البقرة الميكانيكية

يقول السيد / عزت جعفر المؤسس الأول لصناعة الألبان في الكويت ورئيس مجلس إدارة شركة الألبان الكويتية الدانماركية : كان لابد أن نجد مخرجا لهذه الأزمة ، وعدد الأبقار المصابة بالبروسيلا (١) في تزايد ، وكنت أبحث دائما عن وسيلة من شأنها أن توفر لنا هذا النوع من الغذاء بعيدا عن الجراثيم وبأسلوب صحي عصري .

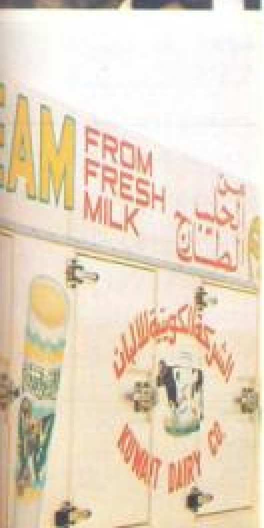
وبينما كنت أتصفح احدى المجلات الأجنبية قرأت موضوعا بعنوان « البقرة الميكانيكية » ، ولما كان اهتمامي منصبا على صناعة الحليب فقد أخذت في متابعة الموضوع حتى آخر كلمة فيه .

كان يحكي قصة إعادة تكوين الحليب باستعمال الحليب المجفف والمقشود . وكانت هذه القراءة هي نقطة البداية،والخطوة الأولى التي بدأنا

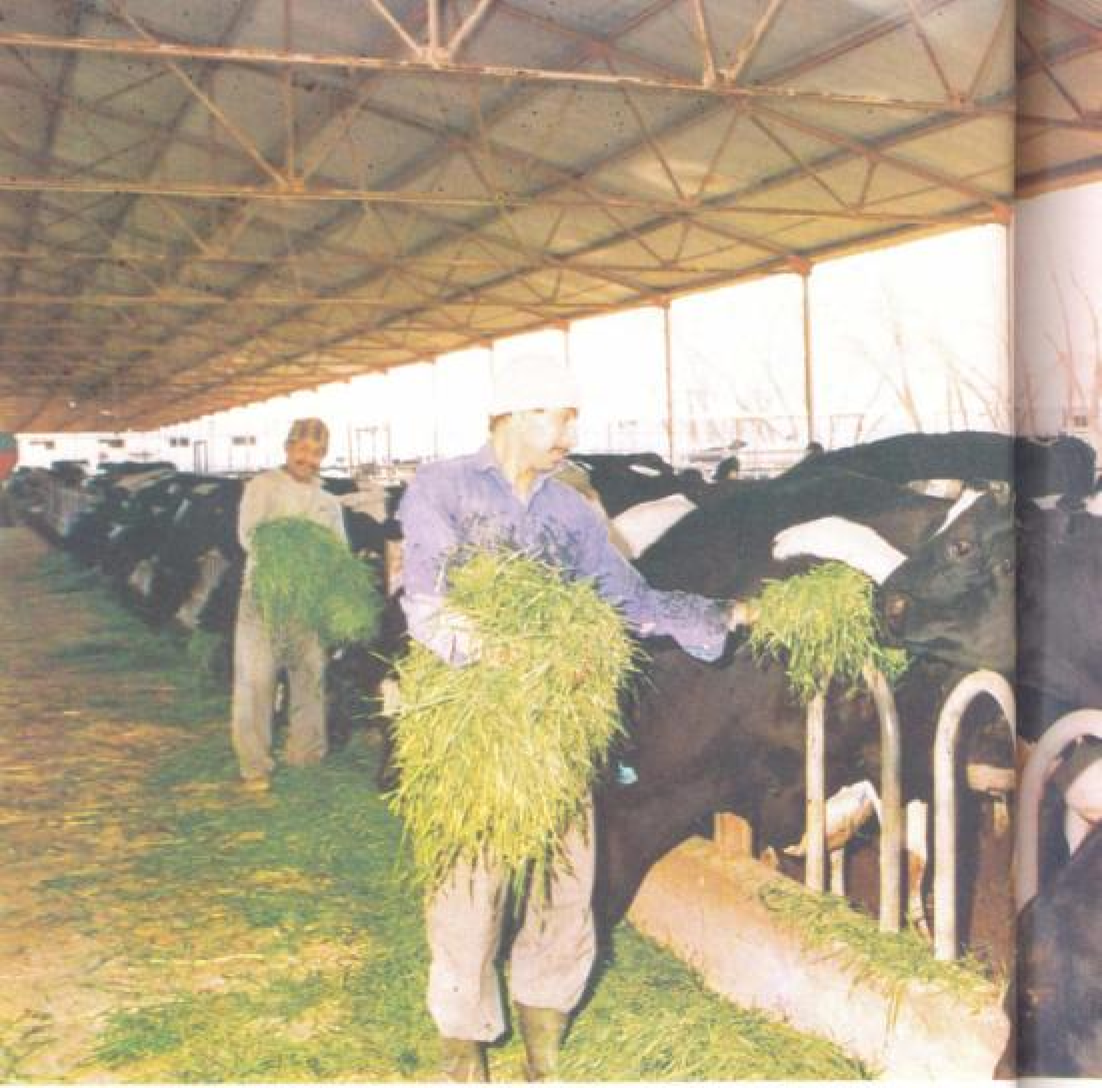







FROM
FRESH
MILK
KUWAIT DAIRY CO.





الشركة الكويتية للألبان الطازجة ، مزارع حديثة للأبقار ، مراقبة الكترونية متطورة ، حاضنات روب مبردة ، وخدمة منزلية لكي يكون كأس الحليب الدافيء على مائدتك صباحا .



منها هذا المشوار الطويل .

كانت بداية المشوار في عام ١٩٦٢ حين تأسست شركة الألبان الدانماركية الكويتية برأسمال كويتي دانماركي مقداره ٢٠٠ الف دينار . ولما كانت خبرتنا في هذا المجال ضئيلة فقد اتجهنا للاستعانة بخبرات الشريك الأجنبي في مجال إنتاج الألبان لاقامة هذا المشروع الذي كان يعد الأول من نوعه تقريبا في أقطار الوطن العربي .

كانت البداية مصنعا صغيرا في الشويخ للحليب واللبن والمثلجات (الأيس كريم) ولكن الطموح كان أبعد من ذلك بكثير . كان لابد من توسيع هذه الصناعة وتطويرها والارتقاء إلى المستوى الذي يتناسب وحاجة الأفراد . فقمنا ببناء مصنع جديد لزيادة وتنويع الانتاج ، ومع اكتساب الخبرة أمكن الاستغناء عن الشريك الأجنبي لتصبح الشركة كويتية تماما عام ١٩٨٣ .

للشركة اليوم مصنعان، أحدهما لصناعة منتجات الألبان ويقع في منطقة صبحان الصناعية على أرض تبلغ مساحتها ٣٤٠٠٠م٢ وهو متخصص في إنتاج الألبان والأجبان وعصير الفواكه الطبيعي ، ومصنع للبلاستيك لصناعة العبوات اللازمة للألبان والأجبان والمثلجات بمختلف الأحجام والأشكال ، وكانت تلك خطوة ضرورية لتوفير الوقت وتقليل نفقات استيراد هذه العبوات .

وعليه فقد قمنا باستيراد آلة صنع هذه العبوات وتركيبها،كما عملنا على شراء المتاح من المواد الخام بحيث يصبح المصنع قادرا على تغطية الحاجة الحقيقية للشركة من الأوعية البلاستيكية وهي ٢٥٠ر٢ مليون كوب في السنة ، أي أننا ننتج ٣٠٠ قطعة في الساعة قياس « ١ و ٢ و ٤ و ٦ ليتر » . كذلك ألحقنا بمصانعنا وحدة متخصصة لتنقية وتقطير المياه اللازمة للانتاج ، وتخضع هذه المياه قبل استعمالها إلى فحوص مخبرية للتأكد من سلامتها ونقائها .

والمصنع الثاني خاص بصناعة المثلجات « وأقماع » البسكويت ويقع في منطقة الشويخ الصناعية على أرض تبلغ مساحتها ١١٢٥٠م٢ ، والمصنعان مجهزان بأحدث المعدات والآلات .

إن ما يميز منتجاتنا ويجعلها صالحة لمدة أطول أنها جميعا معبأة بعبوات مبطنة بصفائح من الألمنيوم تمنع دخول الهواء والبكتريا الضارة إليها ، مما يساعد هذه المنتجات على الاحتفاظ بجميع خصائصها الغذائية .

إنتاج متنوع .. لأذواق مختلفة

ويحدثنا السيد جراهام بوليق مدير الانتاج بشكل أكثر تفصيلا عن العمل الانتاجي في الشركة . يقول السيد بوليق .

« إنتاجنا من الألبان يعتمد على ذوق المستهلك . ولا نبالغ إذا ما قلنا اننا نمتلك القدرة والامكانية لانتاج كل ما تحتاجه البلاد من الألبان حيث اننا نتسلم اسبوعيا من دائرة المبيعات قائمة بحاجة السوق من منتجات الشركة ونقوم بتلبيتها جميعها .

إنتاجنا الرئيسي في الشركة هو الحليب المعقم والقشدة ، ولدينا قسم لانتاج سبعة أنواع من المشروبات الخفيفة والطبيعية لتلائم رغبات المستهلك . يوجد كذلك قسم خاص للمنتجات التحويلية كاللبن الرائب والزبدة ، وقسم آخر لمنتجات الأجبان الطرية « وأجبان « البحر المتوسط » « واللبنة » . إن آخر وأنجح منتجاتنا هو معجون الطماطم الذي راعينا في انتاجه جودة المذاق والتعليب .

وقد بدأت الشركة عملها بطاقة انتاجية لا تزيد عن ٢٠٠ ليتر يوميا زادت إلى أن وصلت اليوم إلى ٢٠٠,٠٠٠ ليتر يوميا كحد أقصى للانتاج ، وهذا يعني توسعا كبيرا في الطاقة الانتاجية للمصنع .

ونحن في الشركة نقدم كل يوم دراسة جديدة ، وبحثا علميا لنعمل على تطوير العمل وتحسين الانتاج . ومن أهم البحوث التي قدمت ولاقت نجاحا كبيرا وحازت على رضا المستهلك دراسة حول

إنتاج الحليب السائل ليصبح صالحا لمدة طويلة لا تقل عن ستة أشهر دون الحاجة إلى تخزينه في مبردات . وكان تركيب وحدة التحكم بالكمبيوتر من أهم وأجرأ الخطوات التي اتخذت ، وهي الكفيلة بتأدية جميع عمليات التصنيع من مزج وخلط وتوزيع لكميات المياه،ودرجات الحرارة بواسطة شاشات جهاز الفيديو الذي يوضح للفني كل ما يجري في المصنع ، وهو في غرفة بعيدة . كما يطلق هذا الجهاز إنذارا في حالة حدوث أي خلل في أي مرحلة من مراحل التصنيع .

مادتنا الخام في المصنع حليب الأبقار المجفف ، وهو من أجود الأنواع حيث اننا ننقيه من مصادره الطبيعية ، وفي كل الحالات نعمل على مضاعفة البسترة حيث يتم تعريض الحليب لدرجة حرارة عالية تصل إلى ١٤٥ مْ لمدة لا تتجاوز أربع ثوان ، وهذه الفترة كافية تماما للتخلص من كل البكتريا الضارة .

وللحفاظ على سلامة منتجاتنا وملاءمتها للاستعمال الآدمي نقوم بعملية التعليب وفق نظام دقيق ومتطور لمعدات التعبئة حيث يتم استعمال نوع خاص من الورق المقوى المكسو بطبقة من صفائح الألمنيوم ، وهي عبوات محكمة الاغلاق تماما ، وتؤمن حماية جيدة للمنتجات .

تقنية عالية

ولما كان الحاسب الآلي « الكمبيوتر » هو الرئة التي من خلالها يتنفس مصنع شركة الألبان ، فقد كان لابد من الاطلاع على الآلات والأجهزة المستخدمة في التصنيع التي يعتبرها كل العاملين الشريان النابض بحياة وصحة كل المنتجات . يقول السيد معتز جعفر مدير الحاسب الآلي في الشركة : « قبل تشغيل أية آلة تصنيع أو انتاج نقوم بالتأكد من سلامة المواد الخام حتى لا تسبب عطبا في الآلات،ويتم الاشراف على العمل الآلي في الشركة فنيا بواسطة أجهزة الحاسب الآلي حيث يمر هذا النظام بثماني مراحل ، إذ يعطي كل جهاز معلوماته إلى الجهاز التالي إلى أن يصل إلى الجهاز الأخير ، حيث تكون كل المعلومات المطلوبة عن سير الانتاج قد بلغت النهاية مما يؤكد سلامة سير العمل وعدم وقوع أي خطأ » .

وقد قمنا بجولة في أرجاء المصنع اطلعنا خلالها على كيفية سير العمل،وبمرورنا على الأجهزة التي تشرف على مراحل التصنيع وجدنا وضوح صور الانتاج على شاشات تليفزيونية ، فلا تترك مجالا من مجالات الاشراف الفني إلا وتتابعه بدقة من أول مرحلة من مراحل الانتاج إلى أن يخرج معلبا جاهزا للتوزيع .

ولا تقتصر المراقبة على الانتاج فقط بل تشمل مرحلة ما قبل الانتاج وما بعده .

ويضيف السيد معتز : « نحن مثلا نراقب كمية المياه التي تستعملها كما نراقب كمية الانتاج التي تخرج من الآلات خلال كل دقيقة لنتعرف على مستواها وصحة تركيبها ، فإن حدث ما يخل بمستوى الانتاج وتم اكتشافه في مرحلة متأخرة قمنا فورا بوقف العمل . وبحثنا عن أسباب الخلل وعملنا على إصلاحه .

ونقوم باستبعاد كل المنتجات التي يقل مستوى جودتها عن المقاييس والمعايير التي وضعتها الشركة لمنتجاتها .

ولما كانت أنظمتنا وأجهزتنا من أرقى وأحدث ما أنتج في العالم،إضافة الى نظام الصيانة المستمرة من قبل الفنيين ، فإن منتجاتنا تتمتع بجودة عالية خالية من أية شوائب أو بكتريا ضارة .

فلو حدث خلل في خزان الماء أو العصير أو أن غطاء أحد الخزانات لم يكن محكما أو مكشوفا ومعرضا للتأثر بالأحوال الجوية ، فسرعان ما يعطي الحاسب إنذارا للمشرف ليقوم بوقف عملية الانتاج فورا وإصلاح الخلل حيث يوجد،قبل وقوع أية خسائر أو أضرار .

يبدأ العمل في المصنع مثلا في ساعة مبكرة ويستمر الى الثامنة مساء حيث تبدأ بعدها عمليات إعداد وصيانة بعض الآلات لليوم التالي .

مراقبة صحية

من المعروف أن المستهلك هو الحكم الأول والأخير في تقدير مدى نجاح أية سلعة ، وكلما كانت السلعة تتمتع بمذاق جيد وقيمة غذائية عالية زاد عليها الاقبال عليها وارتفعت معدلات الاستهلاك ، ومن ثم الانتاج ، ولما كانت شركة الألبان الكويتية الدانماركية شديدة الحرص على سلامة منتجاتها لتظل محل اهتمام وطلب ، فقد اوجدت قسما خاصا لمراقبة الانتاج والاشراف على جميع منتجات الشركة للتأكد من سلامة المواد الخام ومواكبة عملية التصنيع والتعبئة والتخزين قبل التوزيع .

يقول السيد راي جودفري مسئول المختبر الكيميائي في الشركة : نحن نقوم بفحص عينة من كل منتج للتأكد من سلامته وتطابقه مع أذواق المستهلكين . ونجري كل فحوصنا الصحية والمخبرية على المنتجات قبل توزيعها على السوق .

ولا أنكر أن مصاعب كثيرة كانت تواجهنا عند اكتشاف أي خطأ حتى ولو كان بسيطا في أي من منتجاتنا . ولكننا لا نتوانى عن تصحيح الخطأ أو التغلب عليه وغالبا ما نقوم باتلاف المنتج اذا تعذر ، تلافي ما وقع من اخطاء أثناء انتاجه . ولابد أن أشير هنا الى ان كل منتجاتنا تتم آليا ولا تمسها يد بشرية .

ان تسرب أي نوع من البكتريا من خلال الآلات إلى المنتجات يعني فساد المنتج ، وفي مثل هذه الحالة نوقف العمل إلى أن يتم إعادة إصلاح الآلة وتعقيمها قبل استعمالها ثانية .

إن عملنا فني آلي على درجة عالية من التقنية العلمية ونحن نتابع العمل بكفاءة عالية على المستويين الصحي والكيميائي ، وفنيا على المستوى الميكانيكي المتطور . والعاملون في المختبر جميعهم من خريجي الجامعات المتخصصة في هذا النوع من التحليلات وهم على درجة عالية من الكفاءة .

قامت صناعة الألبان في الكويت على الحليب المجفف بعد أن كانت إمكانية توفير الكميات المناسبة من الحليب الطازج أمرا يكاد يكون مستحيلا حيث ان ظروف البيئة لم تكن تساعد على توفير الكميات الكافية منه . وكانت الأبقار القليلة العدد التي تربى في المنازل ، لاتفى بحاجة السكان من الحليب وتشكل خطورة في نقل الأمراض المختلفة الى الناس احيانا .

لقد كان أمر اقامة صناعة ألبان من الحليب الطازج حلما طالما راود خيال بعض أبناء الكويت ، ولكنه كان حلما مستحيلا أثر الزيارة التي قامت بها مجموعة من الخبراء الأجانب اطلعوا من خلالها على البيئة الكويتية،وظروفها المناخية وقرروا استحالة إقامة هذه الصناعة ، وكان هذا يعني أن تستمر الكويت في الاعتماد على استيراد الحليب ، وهو من أهم المصادر الغذائية . والحقيقة أن مثل هذا القرار لم يكن يحمل في طياته إلا أطماعا استعمارية بغيضة .

ولم تفتر همة الكويتيين برغم كل المعوقات التي ذكرها الخبراء الأجانب ، بل واصلوا مسيرة التحدي محاولين إقامة مزارع للأبقار تقوم على منتجاتها صناعة الألبان فيما بعد .

بدأت الفكرة في الستينات بعدد قليل من الأبقار لم يكن يتجاوز المائة بقرة . تأسس بعد ذلك اتحاد منتجي مزارع الألبان في عام ١٩٧٨ الذي وضع قانونا صارما في مجال تربية وحلب الأبقار .

وكان من أهم شروطه عدم السماح لأي حليب بالدخول الى المصنع واستعماله ، دون أن يكون تابعا للاتحاد ، كما فرضت ضرورة تقديم أجود أنواع الأعلاف وأفضلها . وقام أعضاء اتحاد منتجي مزارع الألبان باستيراد الأبقار من هولندة ونيوزيلندة وأمريكا .



ـ الدكتور عبد الرحمن السلمان



ـ السيد ياسر حنداش

التجربة والقرار

ما هي قصة هذا الاتحاد ، وكيف استطاع القائمون عليه أن يحققوا ما كان يوما مستحيلا ؟

يقول الدكتور عبد الرحمن السلمان من أوائل الذين احتضنوا فكرة تربية المواشي وتحمس لها : التقيت صدفة عام ١٩٥٩ في الجامعة الأمريكية ببيروت بالأستاذ يحيى غنام المسئول عن الزراعة في الكويت ، والذى حدثني عن زيارة مجموعة من الخبراء الدانماركيين للكويت وقرارهم الذى أصدروه باستحالة إقامة صناعة ألبان . ولما كانت دراستي ذات صلة وثيقة بعلاقة الحيوان بالبيئة وبالمؤثرات المناخية فقد عملت على وضع المعادلة التالية :

على الرغم من الظروف البيئية القاسية فإن الانسان مايزال يعيش في الكويت وبما أن الحيوان يوجد حيثما يوجد الإنسان ، إذن فلابد من وجود الحيوان ، وقررت أن أتحدى كل مخططات الاستعمار الذى يهدف دائما الى إبقاء بلداننا سوقا رائجة لمنتجاته .

قامت تربية المواشي في بداية الستينات . وكانت تابعة آنذاك لقسم الزراعة في وزارة الأشغال ، حيث تم استيراد عشرين بقرة من هولندا من نوع « جيرسي » « وفريزين »وتأسست بعدها الشركة الكويتية للألبان التي قامت بدورها باستيراد خمسين بقرة من النوع الدانماركي الأحمر .

لم تكن البداية ناجحة تماما ، وتعثرت مسيرة الاتحاد بعض الشيء لأسباب عديدة منها عدم توفر حظائر عصرية واسعة وعدم إلمام العاملين بأفضل طرق التربية وأنواع العلف وأساليب الحلب ، ولقد كان لابد للمحافظة على المواشي الموجودة وزيادة تناسلها من تنظيم حملات للتوعية واستمرار الفحص البيطري على الأبقار للتأكد من سلامتها وخلوها من أية أمراض وبائية وتطعيمها .

كما تم تنظيم برامج خاصة بيّنا فيها الطرق الصحية في الحلب وتعقيم الحليب ، وقد زاد بناء على ذلك ـ عدد المزارع في عام ١٩٦٨ وانتشرت في عدة مناطق في الكويت (خيطان ـ الشويخ ـ الفروانية) ولقد ارتأى الاتحاد ضرورة ضم هذه المزارع وجمعها في مكان واحد واختيار منطقة الصليبية لتكون موطنا للأبقار .

ولقد كادت أن تقع كارثة حقيقية عندما أصيبت الأبقار بمرض الطاعون البقري ، وأنقذت المواشي بإحضار لقاح خاص أسهم في الحد من انتشار الوباء .

تطورت بعد ذلك عملية تربية الأبقار وخاصة بعد ما أبدت الحكومة استعدادها الكامل لدعم المربين والمنتجين للأبقار والحليب،فزاد عدد الأبقار من ألف الى ١٧ ألف رأس من البقر وازدادت المزارع من ٧ الى ٢٤ مزرعة . وكان السبب الرئيسي في هذه الزيادة المطردة اختيار أنواع من الأبقار تستطيع أن تتلاءم مع ظروف الكويت المناخية .

ويستطرد الدكتور السلمان : كان الحليب آنذاك يسوّق في مزرعة واحدة وينقل في عبوات بدون تعقيم ، وفي عام ١٩٦٤ بدأنا بتعبئة الحليب في زجاجات ، وهي اليوم تعبأ في عبوات كرتونية ذات أوصاف عالية .

إن عملية البسترة والتعقيم التي تقوم على حليب الأبقار تضمن بلاشك سلامة الحليب وارتفاع قيمته الغذائية .

الشركة الكويتية للألبان

بعد أن عشنا قصة التجربة . كان لابد لنا من الاطلاع على ثمرة ذلك الانجاز الرائع .

وعلى الجهود الانسانية المكثفة التي وضعت لتوفير عناصر غذائية هامة لاستمرار بقاء الانسان ووجوده ، ولهذا قمنا بزيارة الشركة الكويتية للألبان بمنطقة الصليبية حيث التقينا بالأستاذ « ياسر حنداش » ، نائب المدير العام للشركة الذي حدثنا عن فكرة تأسيس هذه الشركة التي انطلقت بعد أن تأسس اتحاد منتجي الألبان الطازجة .

في عام ١٩٧٨ وقد كان تعداد الأبقار في ذلك الوقت ٨،٥٠٠ بقرة بينما هو في الوقت الراهن ١٥،٠٠٠ بقرة حلوب وقد بلغ انتاجها في تلك السنوات ١٨،٠٠٠ ليتر ووصل حاليا الى ١٠٠،٠٠٠ ليتر . وشركة الألبان هي الشركة الوحيدة التي تنتج الحليب الطازج ومشتقاته،وهذه المشتقات هي اللبن الخاثر ، والمجفف والقشدة والروب بأنواعه والمثلجات والجبنة ذات القشدة المضاعفة والجبنة المغلية بأنواعها واللبنة الجامدة ، وينتج الحليب بنكهات الفواكه المختلفة،والحليب بنوعيه الدسم والخالي من الدسم .

عمليات البسترة

ويمر الحليب الطازج بعمليات بسترة وتعقيم ينتفي بعدها وجود أي نوع من الميكروبات . إن الرقابة البيطرية الحكومية للأبقار وعمليات التطعيم واستبعاد الأبقار المريضة في حالة اكتشاف المرض ، كل ذلك يضمن للمستهلك سلامة الحليب الذي ينقل مباشرة من المزارع المحيطة بالمصنع ، ويخضع لعدد من الفحوص المخبرية للتأكد من سلامته .

ترفع درجة حرارة الحليب الى ٧٥ درجة مئوية وتثبت لمدة ١٨ ثانية ثم تخفض الى درجة ٢ مئوية ، وهذا كفيل بالقضاء على الميكروبات الموجودة في الحليب،ثم يعلب في عبوات لها مواصفات عالمية ومحلية سهلة الاستعمال والفتح ، ويتم تعليب الحليب ومنتجاته آليا ، ويعمل في المصنع ٧٥ عاملا و ٣٠ فنيا ، وفي المصنع غرفة تحكم الكترونية . يراقب الفنيون من خلالها كميات الحليب المصنع وعمليات تخمير الروب ، في الحاضنات الالكترونية .

تتعاون وزارة الصحة معنا بشكل منتظم فتأخذ عينات من منتجاتنا يوميا ليتم فحصها في مختبراتها ، وكذلك يزورنا مندوبون من وزارة الصحة الوقائية باستمرار للتأكد من نظافة عمال المصنع .

هل يتحقق الأمل ؟

ويبقى أمامنا الايمان بهدفنا والتخطيط له ومن ثم العمل على إنجاحه ، ويظل الأمل في تحقيق أمن غذائي محلي وعربي حلم كل عربي يدرك أهمية هذا الهدف ويعي الأزمة الاقتصادية التي تطرق بعنف أبواب القرن الحادي والعشرين . □


البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع
• رسوم الأطفال دلالات عنهم
• حبوب منع الحمل



قبل أن تعاقبي طفلك

رسوم الأطفال..

دلالات عنهم وفرص لتوجيه سلوكهم

إعداد : زينب الكردي

« نخطيء كثيرا عندما لا نرى في رسوم أطفالنا إلا أنها مجرد خطوط بلا معنى ، ونظل نطاردهم كي لا يلوثوا جدران البيت بهذه الرسوم ، فرسوم الأطفال هذه أكثر جدية وأهمية مما نظن » .

أي مشاعر غضة نقية تلك التي تدفع بطفل لم يتجاوز الرابعة من عمره بعد،لأن ينقب هنا ، أو هناك عن قلم أو قطعة طباشير ، ليرسم بها « ماما » أو « بابا » أو « قطة» الجيران ؟ !

أي نوعية من العمليات النفسية أو العقلية تلك التي تفور داخله وهو مستغرق تماما مع خطوطه التي ينقشها فوق الجدران ، وجوانب الخزانات وخلفيات المقاعد ؟ !

تأمله وهو يقوم بعمله ، فالوجه منه جاد ، والأصابع التي تتحرك بحيوية وجرأة ، لتخط على الورق ، قد تبدو لنا نحن الكبار مفرطة في السذاجة ، إلا أنها مفعمة بسحر الألوان ، وبراءة الفؤاد . وبعد أن ينتهي يتراجع قليلا إلى الخلف ، ليتأمل خطوطه بإعجاب ، ثم يسرع إلى أمه ، ويجذبها في إصرار لتشاركه مشاعر الزهو والرضا ، فإذا بالأم تحملق في إحباط ، وقد تصرخ في وجهه

غاضبة وهي تغمغم متهمة إياه بالقذارة ، وسوء السلوك ، وتعب القلب .

ويبكي الطفل بخيبة أمل ، ومرارة ، فقد عوقب في اللحظة التي كان يتوقع فيها الثناء ، أو على الأقل كلمة إعجاب ، إنه لا يفهم - بالضبط - لماذا ثارت أمه ، لكنه يدرك جيدا أن تلك الخطوط التي عوقب بسببها كانت في لحظة ما وسيلته الوحيدة في التعبير عن نفسه ، وعن رؤيته الطفلية لهذا العالم الذي يعيشه ، ويحاول اكتشاف تفاصيله ، ومفرداته ، وبلغته الوحيدة التي يجيدها في مرحلة لا يعرف فيها قراءة ولا كتابة .

مثل هذه النوعية من الأمهات والآباء تتجاهل في غمرة ردود أفعالها الغاضبة أن الطفل قد يبدو - ظاهريا - أنه يرسم بدافع اللهو ، وأن خطوطه ليست أكثر من مجرد خطوط عشوائية لا معنى لها ، إلا أن الحقيقة هي أن كل خط يقوم برسمه ما هو إلا رمز من رموز لها دلالاتها التي تعبر بصدق عن طبيعته وما يشعر به أو يفكر فيه .

تعبير عن رؤيته للعالم

الطفل في عملية إدراكه الكلي لحقائق العالم الذي يعيش فيه ولا يفهم تفاصيله،يلجأ إلى عملية التعميم الفني ، فيُسقط الصفات الثانوية ، ويؤكد على الصفات الجوهرية المشتركة فقط ، بخطوط حرة جريئة ، لم تعرف الخوف بعد ، ولا تتقيد بحدود الزمان أو المكان ، وهو يتخذ من ذلك وسيلة فعالة ، يحقق بها عملية التكيف الاجتماعي ، فالرسم عند الطفل لغة تعبير ، وليست وسيلة لخلق شيء جميل ، ولعل هذا يفسر اهتمام الدول المتحضرة برسوم الأطفال ، واعتبارها وسيلة عملية مهمة في تكوين شخصية الطفل ، بل وتقويمه ، هذا الاهتمام الذي بلغ حد إعتبار هذه الرسوم سجلاً كاملاً ، يمكن الرجوع إليه لتشخيص أمراض الطفل النفسية ، وإحدى الوسائل في قياس درجة ذكائه ، ومعرفة قدراته النفسية والحسية والعقلية .

فالطفل - خصوصا في مراحله الأولى - لا يهتم برسم ما يراه ، بل رسم انطباعه لما يراه هو ، أي رسم صورة انطباع الشيء في ذهنه ، وليس صورة الشيء نفسه ، ولهذا نراه - في تلك المرحلة - يهتم بالتفاصيل ، ثم يلجأ - في مرحلة تالية - إلى التسطيح ، وبعدها يتدرج بالخبرة والممارسة والثقافة البصرية المستمرة إلى الاهتمام بالنسب والزوايا والأبعاد .

ما الذي يعنيه هذا الكلام بتوضيح وتركيز أكثر ؟

انه يعني أن رسوم الأطفال تخضع - كفن خاص بالأطفال - لتقاليد وقواعد خاصة ، فالطفل في سن الثانية مثلا وبسبب رغبته في تقليد الكبار يقوم برسم خطوط مشوشة وغير منظمة في البداية ، لكنها بمرور الوقت تأخذ اتجاهات مختلفة ، دافعها الإحساس العضلي ، بمعنى أنه يحرك يديه وأصابعه ، ويحاول السيطرة على الأداة التي يرسم بها ، ويمسك بها بين أصابعه ، وتتجه - عادة - خطوطه من اليمين إلى اليسار ، أو تأخذ ميلا واضحا ، وبالتدريج أيضا تبدأ خطوطه بأخذ شكل أفقي أو رأسي أو دائري ، وهذه التطورات لا تتم خلال أيام أو حتى شهور ، بل تأخذ وقتها اللازم حتى يصل إلى سن الرابعة ، وهي السن التي يبدأ فيها الاعتماد قليلا على خياله ، ثم يزداد هذا الاعتماد ، فتراه يحاول تجسيد تصوراته بهيئة رموز لها دلالات خاصة لديه ، ولهذا يتحمس لها ويطلق عليها أسماء خاصة .

ومن المتابعات التربوية المستمرة لرسوم الأطفال لوحظ أن الطفل يبدأ - فيما بين الرابعة والخامسة -

برسم الانسان بشكل بدائي ، دون تفاصيل جوهرية أو ثانوية ، كما لوحظ أيضا أنه في تلك المرحلة يصبح أكثر نضجا من الناحية العقلية والبدنية والجسمية والاجتماعية ، وهذا ينعكس بالطبع على رسومه ، فنجدها ذات دلالات رمزية ، لكن بوعي أكثر ، إلا أنه رغم هذا النضج الذي بلغه يظل إحساسه بالزمان والمكان ذاتيا محضا ، ويظل استعماله للألوان ذاتيا ، بمعنى أنه يلجأ إليها لمجرد التفرقة والمتعة ، ويختار الألوان التي يريدها هو ، وليست تلك الألوان الموجودة في الطبيعة ، والتي يراها بعينيه ، إلا أنه بشكل عام - كلما تقدم في العمر ازداد تحكما في عضلاته وحركات أصابعه ، وعندما يصل إلى سن الخامسة - وهي السن التي يكون فيها مهيئا لدخول المدرسة - يصبح الانسان هو موضوعه المفضل في كل ما يبدع من رسوم ، كذلك نلاحظ أنه يحاول أن يكيف الخطوط محاولا الحصول على تأثير خاص ، كبداية لاتخاذه من الرمز وسيلة تعبيرية،وحتى سن الثامنة نرى أنه يرسم مايعرفه لا مايراه ، إلا أنه أكثر احساسا وصدقا في تسجيل التفاصيل .

تطور الرؤية وتطور الأداء

لكن ماالذي تصبح عليه رسومه فيما بين التاسعة والحادية عشرة من عمره ؟

في هذه السن نلاحظ أنه قد تطور كثيرا من حيث قدرته على التحكم في الخط ، وفي رسمه للتفاصيل ، ومراعاته للنسب ، والأبعاد ، وأصبح يستعمل ألوانه باقتدار أكثر ، كما نلاحظ أن خطوطه تتسم بالحرية ، والتلقائية التي ينحني أمام شفافيتها وصدقها كبار رسامي العالم وفنانيه ، بل إن معظمهم يعترف بصراحة بأنه يتمنى أن يدفع نصف عمره ثمنا ، مقابل أن يرتد إلى التلقائية ولو للحظة ، والمؤلم أننا - آباء ومعلمين - نفسد هذه التلقائية ، ونقضي عليها تماما بحسن نية أحيانا ، أو بدافع الجهل في أغلب الأحيان . كيف يكون ذلك ؟

ان الطفل في هذه المرحلة - وهذا يتوقف على تركيبته النفسية ، وظروفه ، ومستوى نضجه بالنسبة لعمره - يلجأ إلى التكرار والمبالغة ، ويلجأ أيضا إلى الجمع بين المسطحات المختلفة في حيز واحد . وأهم تغيير يطرأ على رسومه في هذه المرحلة هو أنه يبدأ في النقل من الطبيعة ، ويرسم ما يراه وليس ما يعرفه ، ويتجه انتباهه للأشكال المتداخلة ، ويلاحظ المنظور ، ويبدأ في إستخدام التظليل ، لكن الغريب أنه فيما بين الحادية عشرة والرابعة عشرة تفتر الصلة بينه وبين الانسان في رسومه،وتتوثق أكثر مع الطبيعة بكل مافيها من سحر ، وغموض ، وجمال ، وكائنات حية . يبدأ يتخلى عن نظرته الذاتية للأشياء ، وإن كان في رسومه يحاول أن يؤكد الجنس الذي ينتمي إليه ، ويبدأ أيضا يميز بين ماهو بعيد وماهو قريب بالخطوط والألوان ، ولم يعد يلجأ إلى المبالغة أو الحذف إلا مضطرا ، كما أخذت تلك الشفافية الرائعة التي كانت تضيء جوانب لوحاته تختفي بالتدريج ، لتحل محلها رؤية واقعية في اللون والمضمون .

المساعدة وليس الضغط

يجب ألا نضغط على الطفل لكي يكون رساما بارعا ، لأن هذا ليس هو الهدف من التربية الفنية ،



بل يجب أن يكون هذا آخر شيء نفكر فيه ، فالطفل يرسم ليعبر عن نفسه أولاً ، ومهمة المشرفين على توجيهه هي تدريبه على الخامات الموجودة بين يديه ، وليس التدخل في أسلوبه بالتعبير ، فنحن نعطيه الخامة سواء كانت ألوانا جافة أو ألوانا مائية ، كما نعطيه بعض عيدان الكبريت وعلبه ، أو أعواداً من القش ، وأوراق القص واللزق ، أو القواقع البحرية ، ونطلب منه أن يتصرف فيها بالشكل الذي يراه ، ولا نتدخل أو نفرض عليه أسلوباً معينا ، لكن علينا أن نساعده على الابداع بطريقته هو ، وبالشكل الذي يراه ، وليس بالشكل الذي نراه نحن ، وأيا كانت النتيجة يجب أن نظهر له الاعجاب ، ونثنى على جهده ، فالتربية الفنية وسيلتنا لنخلق منه ـ على المدى البعيد ـ مواطنا صالحا ، يضيف للحياة ويثريها ، بدلا من أن يتقاعس بحجة عدم الامكانيات ،ولا يشمر عن ساعده مستغلا كل الامكانيات الموجودة لديه مهما كانت ضئيلة أو عديمة النفع ، وندربه منذ الصغر على أنه هو الذي يجعل للأشياء معنى وقيمة ، وأن بإمكانه حتى لو أصبح طبيبا أو مهندسا أن يقوم في بيته بدور النجار ، والسباك ومصلح الأحذية والصباغ الذي يحيل بيته إلى جنة ، لكن هذا لايعني أن نتخذ موقفا سلبيا منه ، بل علينا أن نشجعه ، ونظهر فرحتنا بأي إنجاز يقوم به ، وخلال عملية الابداع يجب ألا نتدخل بالنقد ، ولا نحاول التصليح بحجة التوجيه ، كما يجب ألا تبدو منا أي إشارة أو نظرة تعطيه انطباعا بالاستخفاف ، فعلينا أن ندرك أنه يعبر عن عالمه هو ، لا عالمنا نحن ، وأنه وهو يقوم بذلك صادق تماما ، وعلينا أن ندرك أيضا أن عملية التعبير ذاتها هي أهم ما في الموضوع ، بغض النظر عن النتائج ، فالطفل الذي يكون إحساسه الوجداني غير مكتمل سيكون تكيفه مع مجتمعه أيضا غير مكتمل ، وبالتالي فإن انتماءه وإحساسه بالمسئولية تجاه هذا المجتمع سيكون إحساسا ضعيفا باهتا في ذهنه وضميره .

إن الطفل عندما يشرع في العمل ـ أي عمل ـ يهمك ويستغرق فيه بمتعة فائقة ، لمجرد أن يرضي نفسه فقط أولاً وأخيراً ، ومن ابتسامة أمه المشجعة ونظرة الاعجاب من أبيه وعمه ، وأصدقاء أسرته يتأكد في أعماقه أن ما يقوم به شيء مهم ورائع ، مما يجعله يستمر في العمل محاولاً انتزاع مزيد من الاعجاب ، وبقدر ردة الفعل تكون توقعات النجاح ، والتفرد ، والابداع . وقد أكد علماء النفس والتربية هذه الحقيقة عندما قالوا بأن الانسان الناجح في حياته العملية هو ذلك الشخص الذي يمارس عمله بروح اللاعب العاشق للعبته ،وكلما أكدنا لدى الصغار هذه الروح كلما شبوا وهم يعشقون العمل كقيمة بغض النظر عن النتائج .

في مراحل الطفولة المبكرة يُتاح للأم أو للمعلم أن يوجه الطفل الوجهة الاجتماعية والنفسية السليمة ، من خلال متابعة رسومه وتحليلها ، كما يمكنه تعديل سلوكه ، وتلقينه قيما أكثر فعالية ، وأكثر سموا من خلال ما يرسم . لكل هذه الأسباب أهمس إليك عزيزتي الأم وأهمس إليك عزيزي الأب بألا تنهرا صغيركما إذا ما ضبطتماه متلبسا بالتخطيط على الجدران ، بل أعطياه أكبر مجموعة من الورق الأبيض، أو كراسة مع بعض الألوان ، وقولا له بحنان حقيقي : « ارسم هنا لتظهر الخطوط بشكل أوضح ، ولنستطيع أن نحتفظ بها، ونعلقها لك في مكان بارز ، حتى نريها للأصدقاء والأقارب ليتأكدوا أن لدينا فنانا رائعا ، سيهز العالم بفنه بعد أن يكبر . □



هل هناك خطورة .. في استعمال حبوب منع الحمل ؟

بقلم : الدكتور نجم عبدالله عبدالواحد

« رغم أن استخدام حبوب منع الحمل قد أصبح وسيلة أكثر شهرة وسهولة لدى كثير من النساء ، إلا أن كثيرا من المخاوف تنتاب بعض الناس من أن تكون هذه الحبوب مصدر خطر صحيٍ وطبيٍ .

لكن لا يوجد دليل طبي واحد على صحة هذه المخاوف » .



منذ أن ظهرت حبوب منع الحمل في أوائل الستينيات سرت شائعات حول خطورة هذه الحبوب ، ونظرا لتوفر الأدلة العلمية الصحيحة أصبح في مقدورنا الآن أن نتوصل إلى حكم صحيح ، ومما يجعلنا في موقع يسهل علينا القيام بدراسة آثار استعمال هذه الحبوب هو انتشار استعمالها ، فقد بلغ عدد النساء اللواتي استعملنها حوالي ١٥٠ مليون امرأة ، وذلك منذ بداية ظهور هذه الحبوب حتى الآن ، وخلال مدة زمنية مقدارها ٣٠ سنة ، كما أن عدد النساء اللواتي يستعملن حبوب منع الحمل حاليا يقدر بحوالي ٦٠ ـ ٨٠ مليون امرأة ، وأن كثيرا منهن قد استعملن هذه الحبوب فترة قد تصل إلى عشر سنوات متتالية أو أكثر . ومما يعزز البحث والتمحيص هو توفر الدراسات الميدانية الكثيرة المنشورة في المجلات الطبية ، وأهمها ثلاث دراسات إحصائية ميدانية متخصصة واسعة ، واحدة في أمريكا ، واثنتان في بريطانيا ، وكل واحدة من هذه الدراسات قد أجريت على عدد كثير من النساء فترة طويلة من الزمن بدأت منذ عام ١٩٦٨ .

إن هذه الشائعات التي تتحدث عن الخطورة المفترضة نستطيع نقلها من كتابات كثير من الاختصاصيين التي تداولتها الدوريات الطبية ، ويمكن تلخيصها بقولنا ان هذه الحبوب قد تضعف خصوبة المرأة ، وأنها قد تحدث السرطان ، كما أنها ذات آثار جانبية ، تسبب أضرارا للجسم .

ولهذا كانت هذه الخطورة المفترضة محط اهتمام الاختصاصيين ، منذ بداية استعمال هذه الحبوب ، لكن المتتبع لكل ما نشر في الدوريات الطبية العالمية خلال الـ ٢٢ سنة الماضية لا يستطيع أن يجد دليلا واحدا قاطعا بزيادة احتمال حدوث السرطان ، نتيجة لاستعمال حبوب منع الحمل ، وهذا ينطبق على كل ما نشر عن سرطان الثدي ، وسرطان الرحم ، وسرطان عنق الرحم ، وسرطان الكبد ، أما الثلاث دراسات الميدانية الواسعة التي ذكرناها فكلها لم توضح أي دليل على صحة هذه الشائعات ، أو الخطورة المفترضة ، كما لم توضح أنه ليس هناك علاقة مباشرة بين حبوب منع الحمل وبين أي نوع من أنواع السرطان .

والطريف في الأمر أن هناك دراسات تشير إلى وجود عوامل أخرى لها علاقة مباشرة بحدوث السرطان ، سواء كانت حبوب منع الحمل مستعملة أو غير مستعملة ، وعلى سبيل المثال هناك ثلاثة عوامل تزيد من احتمال حدوث سرطان عنق الرحم عند النساء :

١ ـ إذا مارسن الجنس وهن صغيرات في السن .

٢ ـ إذا مارسن الجنس مع عدد كثير من الرجال .

ضعف الخصوبة :

إذا نظرنا إلى خصوبة النساء ، واسترجاعهن القدرة على الحمل - وذلك بين النساء اللواتي توقفن عن استعمال حبوب منع الحمل أو اللولب - نجد أن رجوع الخصوبة للنساء اللواتي استعملن اللولب أسرع من رجوعها إلى النساء اللواتي استعملن حبوب منع الحمل ، وهذه الملاحظة متوقعة وبديهية ، حيث أن حبوب منع الحمل تعتمد على إخلال التوازن بين هرمونات الدماغ وهرمونات المبايض ، ولذلك لا بد من مرور بعض الوقت حتى يرجع التوازن الطبيعي بإفراز البويضة كل شهر ، بينما نجد عند استعمال اللولب أن الدورة الشهرية الذاتية تبقى منتظمة ، لأن منع الحمل يتم بواسطة منع البويضة الملقحة من العلوق في الرحم ، وعند إزالة هذا العائق (وهو اللولب) تصبح الدورة الشهرية القادمة خصبة ، واحتمال الحمل واردا .

وعلى الرغم من وجود هذا الفرق البديهي فإن الاحصائيات تدل على أن جميع النساء اللواتي توقفن عن استخدام كل وسائل منع الحمل ، - سواء في ذلك حبوب منع الحمل أو اللولب أو غيرها - تكون نسبة الحمل لديهن واحدة ، ولا يوجد هناك فرق بين هذه الطريقة وتلك ، وأن معدل مدة تأخير حدوث الحمل هي خمسة أشهر ونصف ، لذلك فإن النتيجة واحدة ، ولا يوجد هناك خطر على خصوبة المرأة ، كما أن حبوب منع الحمل لا تسبب تبكير سن اليأس ، ومن ناحية ثانية أثبتت الدراسات الطبية أن انقطاع الدورة الشهرية بعد التوقف عن استعمال حبوب منع الحمل عند بعض النساء يرجع في الغالب لأسباب عضوية ، موجودة - أصلا - قبل استعمال حبوب منع الحمل ، ولذلك لا يوجد دليل إحصائي أو طبي يؤكد أن حبوب منع الحمل هي السبب المباشر لحصول انقطاع الدورة الشهرية بعد التوقف عن استعمال هذه الحبوب .

وكذلك نجد أن نسبة الاجهاض عند النساء الحوامل بعد توقفهن عن استعمال حبوب منع الحمل



مثل نسبته عند النساء اللواتي لم يتعاطين تلك الحبوب ، وكذلك الحال بالنسبة لمن استخدمن وسائل أخرى لمنع الحمل ، كما أن نسبة التشوهات الخلقية في حديثي الولادة واحدة عند كل النساء أيضا .

أضرار أخرى :

نستطيع تقسيم الأضرار التي تصيب أجسام النساء اللواتي يتعاطين حبوب منع الحمل إلى قسمين هما :

أ ـ الجلطة .

ب ـ الآثار الجانبية .

أ ـ الجلطة :

إن الدراسات والاحصائيات في جميع أنحاء العالم تتفق على أن هناك خطورة من حدوث الجلطة عند النساء اللواتي يستعملن حبوب منع الحمل وأعمارهن أكثر من ٣٥ سنة ، وذلك إذا كن يدخن السجائر ، أو كن مصابات بارتفاع ضغط الدم ، أو بمرض السكري ، أو بمرض زيادة الدهنيات بالدم ، وبخاصة الكوليسترول .

أما ما عدا هذه الشريحة من النساء فلا يوجد أي دليل على حدوث مثل هذه المضاعفات لديهن ، لذلك نستطيع القول بأن النساء اللواتي لم تبلغ أعمارهن ٣٥ سنة يستطعن استعمال حبوب منع الحمل دون خوف ، حتى وإن كن يدخن السجائر . أما النساء اللواتي بلغت أعمارهن أكثر من ٣٥ سنة فيستطعن استعمال حبوب منع الحمل إذا كن لا يدخن السجائر ، وليس هناك ما يثبت أن لديهن ارتفاعا في ضغط الدم ، ولسن مصابات بالسكري ، أو بزيادة الدهنيات في الدم . كما أثبتت الدراسات أنه ليس هناك خوف من الاصابة بالجلطة عند استعمال حبوب منع الحمل مدة طويلة من الزمن ، قد تصل إلى عشر سنوات متتالية .

ب ـ الآثار الجانبية :

لقد تناولت كتابات كثيرة ـ عربية وأجنبية ـ هذه الآثار الجانبية ، وأستطيع القول بأن هذه الآثار الجانبية تختلف من امرأة إلى أخرى ، وأنها تقل إذا كان الاختيار لنوع هذه الحبوب موفقا ، لا سيما أن القاعدة الأساسية تقول بأن أقل جرعة ممكنة من هذه الحبوب هي الأنسب، والأقل تسببا لهذه الآثار الجانبية ، وعلاوة على ذلك فهناك أنواع جديدة متوفرة بالأسواق ، تتميز بجرعات مختلفة لكل شهر (Triphasic pills) ، وهذه الجرعات المختلفة تعتبر أقرب إلى التكوين الوظيفي الطبيعي للدورة الشهرية للمرأة ، وبالتالي فإن الآثار الجانبية تكاد تكون مختفية تماما إذا قارنا بينها وبين حبوب منع الحمل المستعملة في أوائل الستينيات ، والتي كانت تحتوي على جرعات عالية من الاستروجين والبروجسترون .

وخلاصة القول أنه لا داعي للقلق أو الخوف عند استعمال حبوب منع الحمل ، خصوصا بعد الخبرة الواسعة في استعمالها ، فالدراسات الشاملة أصبحت كثيرة ، وكلها مطمئنة ، هذا بالاضافة الى معرفة حقيقة مكمن الخطر في بعض الحالات .

ولتحقيق السلامة للنساء اللواتي يستعملن حبوب منع الحمل يجب عليهن مراجعة الأطباء ، واستشارتهم قبل الشروع في استعمالها ، تفاديا للخطر ، ومنعا لحدوث الآثار الجانبية ، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج □

العربي - العدد ٣٤٣ - يونيو ١٩٨٧

هو..

ليس الموت ، لكنه امرأة !

لا أدري ماذا أصابه ؟ هل هو داء الوسوسة ، أم خوف الموت ؟ رغم أن سني عمره لا تتجاوز الخامسة والأربعين ، لكنه أصبح شديد الحيطة والخوف من كل عارض يصيبه ، أو يطرأ عليه .

بدأ منذ عامين يلزم البيت بنظام غذائي ، أو على الأقل لا يأكل هو إلا وفقا لذلك النظام ، ومن غير المنطقي طبعا أن أطهو الطعام بطريقتين ، فصرنا جميعا نأكل معه طعامه الصحي ، كما يحلو له أن يسميه ، وعرف طريق الزيارات الدورية للأطباء ، وإجراء الفحوصات والتحاليل .

وتحول ركن من البيت إلى صيدلية ، تحوي قدرا كبيرا من الأدوية المختلفة ، فيتامينات ومقويات ، و . . و . . . ، وكلما أتى بدواء جديد نزع منه نشرته الطبية الداخلية ، كي لا أعرف لماذا يتعاطى هذا الدواء أو ذاك ؟ وامتلأت أرفف البيت بتقارير أطباء ، وصور (أشعة) ، ونتائج تحاليل طبية ، ويوم ذهابه للطبيب يقلب البيت رأسا على عقب ، يبحث عن هذا التقرير أو ذاك ، وبدأت أحاديثنا تتعرض لترتيبات حياتنا فيما لو توفي هو ، وأحاول جاهدة أن أقول له إن الأعمار بيد الله ، وأنه لو ظل مستسلما لفكرة الموت التي تسيطر عليه لتحولت حياتنا إلى جحيم ، وأنه من المهم أن نتذكر الموت كعظة ونهاية ، ولكن لا نجلس بانتظاره .



وآخر تقاليعه التي زرعت الريبة في نفسي هي بداية نشاطاته الرياضية ، فقد بدأ مؤخرا يستيقظ مبكرا ، ويمارس بعض التمرينات الرياضية ، قد خصص يومين في الاسبوع يهبط إلى الشارع فيهما ويجري ، ثم يعود ليستحم ، ويتناول إفطاره ، ثم يذهب إلى عمله . في البداية قلت إنها حالة طارئة ، لن تستمر ، لكن استمراره بها فترة زادت عن أربعة أشهر جعلني أصاب بالقلق ، وخاصة أن قوامه عاد رشيقا ، والترهل الذي قد بدأ يصيبه تلاشى ، واسترد حيوية سنوات مضت ، وانخفض معدل تدخينه ، وهنا تحولت ريبتي إلى شك ، وبدأت أفتش في جيوبه ، وأتعقب ملابسه ، وأتشمم رائحته ، فلم يعد ينطلي علي ما يقوله ، بأن هذا كله إنما هو خوف من الموت والمرض ، فالحقيقة التي وصل إليها قلبي ، الذي لا يخطيء - هي أن في الأمر امرأة أخرى ، وخاصة بعد أن مر علينا جميعا زمن طويل يحاول هو أن يوقفه .

هي

هي..

ماذا لو ذهب الجمال ؟

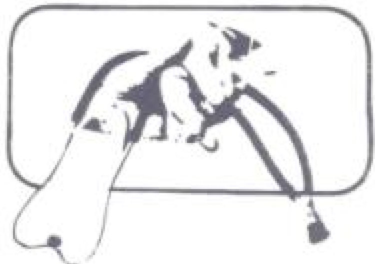
حكمة قديمة ، لكنها ما زالت صحيحة ، فهي حتى لو كانت في طريقها إلى حبل المشنقة ، فإنها سوف تطلب « أحمر شفاه » . أتعامل مع هذه الحكمة بشكل يومي ، منذ فترة قرأت في مجلة طبية متخصصة أنه يستحسن للانسان بعد سن الأربعين أن يتحكم في نظامه الغذائي ، ويمارس قدرا من الرياضة ، لأن استعداده للاصابة بأمراض القلب وضغط الدم كبير ، وبالفعل دعوت الأسرة إلى مراعاة قليل من القواعد الصحية في الطعام ، وكأنني يوم حديثي هذا فاجأت زوجتي ، فقد ذهلت عندما أدركت أنها تقترب من الأربعين ، منذ ذلك اليوم بدأت مشاهدات وطرائف لا تقل عن أي مشهد (سيرك) محترف في العالم ، أصحو من النوم ليلا فأجدها واقفة أمام المرآة ، تتأمل جسدها ، ولترى أي الأماكن فيه قد ترهلت ، وأدخل عليها الغرفة عصرا فأجدها ممسكة بمرآة ، تتأمل التجعيدات تحت جفنها ، وحول رقبتها ، ومع مضي الوقت نسيت هي النظام الغذائي وضرورة (التخسيس) .



قبل أن تمارس الرياضة المنزلية التي تكفل للدورة الدموية قدرا من الحركة والنشاط لم يكن همها إلا بوجهها والتجعيدات التي تصيبه ، ومع انتظامي في برنامجي الذي ألزمت نفسي به ، وبدأت أجني ثماره متمثلة في مرونة وحيوية ، وقدرة على الحركة ، وانتظام نشاط ، بدأت هي تدخل في طور متابعة المجلات النسائية ، والتجربة وصفات محاربة التجاعيد ، وبدأت أحاديثنا تشهد حوارا عجيبا .. ماذا لو تسللت التجاعيد إلى وجهي ، وخاصة أن المرأة يصيبها الكبر قبل الرجل ؟ هل ستتزوج ؟ وهل سترتبط بسيدة أخرى ؟ وكلما ضحكت من أفكارها ازدادت حدة ، وأخذت تتساءل : لماذا إذن تهتم بنفسك كل هذا القدر من الاهتمام ؟! ولماذا تخاف على صحتك ؟ ولماذا تنتظم في ممارسة الرياضة ؟ لا بد أن في حياتك سيدة أخرى ، ويمر الوقت وهي تزداد هلعاً ، ترقب وجهها ، وتفتش ورائي ، وأقول لها إن عناية الانسان بصحته في سن معين أمر حيوي وضروري ، وخاصة أننا لم نكن معتادين أن نعتني بأنفسنا منذ الصغر ، وأن عاداتنا الغذائية القديمة قد أفسدتنا ، لكنها لا تسمع كل هذا ، ولا ترى إلا شبح الزمن ، يهبط عليها ، يملأها خوفا من أن يضيع جمالها ، ويتشوه وجهها ، وأنني سأنصرف عنها إلى امرأة أخرى - أرأيتم مثل هذه الفكاهة من قبل ؟

هو

طبيب الأسرة



قضايا منزلية

للحذاء مع القدم حكاية !

لو تجاوزنا دور الحماية الذي تقوم به الأحذية للأقدام من عوادي البيئة ، والاصابات ، فإن القول بأن الحذاء عبء على القدم يصبح صحيحا ، أو - على الأقل - أن الحذاء لا يقدم خدمة صحية تذكر ، وإنما قد يكون سببا في المرض .

فالأصل في القدم أن تكون حافية ، عارية ، دون قيد ، شأن كافة المخلوقات ، بل لعل أفضل رياضة للقدم هي السير على أرض لينة ، ودون حذاء ، لأن الحذاء ظاهرة حضارية فرضتها طبيعة الحياة العصرية ، ومتطلبات (الموضة) ، ومنذ استخدم الانسان الحذاء،بدأت مشاكل الأقدام تشكل عبئا على صاحبها إذا لم يحسن اختيار ما يتوافق مع طبيعة قدمه وحجمها ووظيفتها . وقد تبدأ عادة استخدام الأحذية للأطفال قبل البدء في المشي ، وهنا لا بد من الحرص على اختيار حذاء مناسب ، من القماش ، لا ضيق فيه ولا ضغط ، حتى يسمح بالنمو الطبيعي ، ودورةالدم الطبيعية في القدم . وتعود بنا الذاكرة إلى الأحذية الحديدية التي كان أهل الصين يستعملونها لأطفالهم ، وما كانت تتركه من تشوه للأقدام ، فقد كانوا يتوهمون أنها تحافظ على جمال الأقدام ، وإبقائها صغيرة دقيقة .

عند الابتداء في المشي يفضل استخدام الحذاء المصنوع من جلد لين ، أو قماش ، لا كعب له ، ولا تقوس فيه ، ويجب التحذير من محاكاة أحذية الكبار ، والحرص على تغيير الحذاء كل ثلاثة أشهر ، لتتناسب مع حجم القدم النامية ، دون اعتبار للحذاء القديم أو سلامته .

أما أحذية الكبار ومشاكل أقدامهم فإن فهمها يبدأ بفهم تركيب القدم ، ووظيفتها :

أولا : إن القدم هي التي تتحمل ثقل الجسم، فقد جعلها الخالق في عدد من العظام والمفاصل والعضلات والأربطة ، بنظام خاص .

في كل قدم حوالي ٢٦ عظمة وعظيمة ، مختلفة طولا وشكلا ، تتجمع ويتصل بعضها ببعض في ٣٣

مفصلا ، تربطها أربطة مرنة مطاطة ، قد تزيد عن المائة عدداً ، ويحكم حركتها حوالي ١٩ عضلة مختلفة .

وهنا نرى أن تركيب العظام في القدم يتشكل على هيئة قوسين ، أحدهما طولي الاتجاه ، والثاني عرضي الاتجاه ، وهما متعامدان ، فإذا فقدت القدم أحد تقوساتها حدث لها ما يسمى تفرطح القدم .

وسوء اختيار الأحذية ، والتأثيرات الضارة نتيجة لذلك ، تنعكس على تركيب القدم الطبيعية ، وسلامة تأديتها لوظيفتها .

وأهم المشاكل تنشأ غالبا عن عدم توافق مقاس الحذاء مع حجم القدم ، وعدم تناسب ارتفاع الحذاء عن الارض مع طبيعة تقوس العظام ، فالحذاء الضيق يضغط على أصابع القدم ، فيعاني صاحبها من التواء الأصابع ، كما يضغط على الجلد فيؤدي إلى ظهور ما يعرف بعين السمكة ، أو (الكالو) ، وهو زيادة سماكة الجلد وموته في مواضع معينة منه .

أما التواء الأصابع فإنه يؤدي إلى حالة تعرف في الطب باسم الابهام الأروح ، أو تراكم الأصابع ، وننصح في مثل هذه الحال باختيار حذاء أطول من طول القدم بما يتراوح بين سنتيمتر واحد إلى سنتيمترين ، وقد ينصح بعضهم بشراء الحذاء في فترة المساء حيث تكون القدم قد تضخمت ، وأصبحت في أكبر حجم لها ، بتأثير العمل والمشي اللذين أديا إلى احتقانها ، فقد قدر أن حجم القدم في المساء يزيد (نمرة) واحدة عن حجمها في الصباح ، ويجب الحرص على تجربة الحذاء في القدمين معا ، حيث أن قدمي الانسان غير متساويتين تماما ، وعلى عكس ما يتوهم الناس .

لكن مشكلة ارتفاع الكعب تعتبر قضية نسائية غالبا ، ويعتبر الكعب مرتفعا إذا زاد ارتفاعه عن خمسة سنتيمترات ، وبالكعب المرتفع يندفع ثقل الجسم إلى الأمام فتحمله أطراف الأصابع ، بدلا من توزيعه على القدم كلها ، بل إن نصيب الابهام في القدم من ثقل الجسم ينتقل إلى السلاميات في الأصابع الأخرى ، وهذا يؤدي إلى شعور بالتعب ، ووجع في الظهر ، وصداع في الرأس ، والنتيجة معاناة شبه عامة عند أغلب السيدات من مستعملات الكعب العالي .

وأهم مشاكل الأقدام بسبب الأحذية غير المناسبة كما يلي :

أولا : الابهام الأروح

هو انحناء الابهام ، وتضخم مفصله ، مما يضغط على الأصابع الأخرى ، وربما أدى إلى ركوب الأصبع الثاني على الثالث ، و هو أمر يؤدي إلى الألم والتشوه والتورم .

ثانيا : الابهام المتصلب

ضيق الحذاء قد يؤدي إلى التهاب مفاصل الأصابع ، وبخاصة الابهام ، فبعد وقت طويل يصاب بالتليف ، ثم التصلب ، وصعوبة الحركة .

ثالثا : الابهام المطرقة

وهو تصلب الأصبع في وضع الأنحناء ، بسبب ضيق الحذاء ، وقصر طوله عن طول القدم .

رابعا : الظفر المنغرس

قد يؤدي ضيق الحذاء إلى ضغط على ظفر الأصبع ، وانغراز طرفه في اللحم ، فينشأ الالتهاب والورم الذي يصاحبه ألم شديد ، لا ينفع فيه سوى عملية جراحية ، يستأصل فيها الظفر ، أو جزء كبير منه .

خامسا : عين السمكة (الكالو) والقروح

سادسا : الغنغرينا أو الموت و يصاب بها خاصة مرضى السكر ، بسبب انحباس الدورة الدموية .

بريد **طبيب الأسرة**

الآيس كريم ومرض السكر

○ كنت أحب أكل الآيس كريم كثيراً إلى أن أصبت بمرض السكر ونصحني الأطباء بتجنب الحلويات . فهل هذا يعني حرماني من تناول هذه الحلوى قطعيا ؟

س . أ . ن

الكويت

ـ مرض السكر يعني عجز البنكرياس عن إفراز هرمون الأنسولين بما يكفي للتعامل الطبيعي مع سكر الدم ، المعروف بالجلوكوز ، من حيث حرقه أو خزنه ، وبالتالي فإن مريض السكر يعاني من تراكم سكر الجلوكوز في الدم ، غير أن علاج السكر بالعقاقير المنشطة أو بوساطة حقن الأنسولين يعادل من هذا الضعف ، ويتغلب على هذا الخلل ،

والأطباء بأسلوبهم التقليدي يحظرون على مريض السكر أي إسراف في تناول الحلوى والنشويات التي تتحول بعد هضمها إلى سكر الجلوكوز ، ولما كان الآيس كريم حلوى غنية بالسكريات والدهنيات فمن الطبيعي أن يشملها الحظر والتقييد ، مما ينعكس حرمانا نفسيا واجتماعيا ، وهو الأمر الذي دفع بمجموعة من الباحثين إلى دراسة تأثير تناول الآيس كريم على مريض السكر ، حتى لا يشعر بالحرمان مما يتمتع به الأصحاء .

إن الاسراف في تناول الآيس كريم لا جدال في ضرره على مريض السكر ، غير أن تناول كمية متوسطة في حدود مائة جرام ، وفي ظروف مريض بالسكر تحت العلاج المتوزان ، يؤدي إلى رفع مستوى سكر الدم مائة ملليجرام خلال ساعة أو ساعة ونصف ، وهذا هو نفس مستوى السكر لدى الانسان الصحيح ، مما اعتبره الباحثون أمرا طبيعيا ، لا يصح أن يحرم مريض السكر بسببه من متعة لا تضره ضررا بالغاً ، وبخاصة إذا كان ملتزما بالعلاج الدقيق . وياحبذا لو تعاطى مريض السكر حقنة صغيرة من الأنسولين الذائب قبل تعاطي الآيس كريم بنصف ساعة تقريبا ، فإن هذا يضمن عدم اختلال مستوى السكر في الدم .

إن الأساس الحديث لعلاج الأمراض المزمنة ـ بما فيها مرض السكر ـ هو عدم عزل المريض عن مجتمعه ، وعدم إشعاره بالحرمان من متع الحياة وطيباتها ، مراعاة لردود الفعل النفسية الضارة التي تصاحب الحرمان .

لهذا لا مانع من تناول قدر معقول من الآيس كريم ، مع الحرص على اعتباره جزءا من الطاقة التي تحددها ظروف المرض ، على أن تحسب من مقادير الطعام المسموح بها .

مساحة ود..

في الوطن متسع للجميع

كأن وطننا العربي لا يكفيه مابه ، وكأن تحدي التنمية الذي يواجه وطننا ليس جديرا بأن يجعل كل أبناء الوطن يتكاتفون للخروج به من المأزق الذي يواجهه ، فنحن في نهاية الثمانينيات غرقى في الديون ، باستثناء قطرين أو ثلاثة ، هياكل اقتصادياتنا عاجزة عن الوفاء بحاجات السكان ، واعتمادنا على الواردات يتزايد ، وحتى طعامنا فاننا عاجزون عن إنتاجه ، واعتمادنا على الغير يتعاظم ، وأطماع قوى العصر من حولنا في المكان العربي والثروات العربية تزداد شراسة .

وسط كل هذا ـ وهذا كله كفيل بأن يرفع نداء أن الوطن في خطر ـ تتهدد الفتنة وطننا ، وبدأنا ـ في السنوات العشر الماضية ـ نسمع عن تعصبات عرقية أو دينية أو مذهبية ، تعصف بالوطن ، وتشرخ جداراً من الاخوّة والمحبة ، ظل قائما قرونا عديدة ، فتاريخ الوطن العربي قائم على قدرته العظيمة على التآلف والتآخي والسماحة ، واتساع قلب الوطن ، لكي يضم كل أبنائه دونما نظر إلى عرق أودين أو مذهب ، وتاريخ الوطن الذي يلوثه بعضهم ـ للأسف ـ يزخر بميراث عبقري هائل من الانجاز الحضاري الانساني ، وإن البشر الذين أنتجوا هذا الرقي والجمال لا يمكن أن يلوثوه بالدم والكراهية اليوم .

والغريب أنه في الوقت الذي يسود العالم كله اتجاه نحو التكتلات ، وتذويب الخلافات ، ويشهد قدرا من اتفاق الغرماء ، وتحالفات أعداء الأمس الذين أصبحوا أصدقاء اليوم ، في هذا الوقت تنغمس نحن في تمزيق الوشائج بين اخوة وأصدقاء أمس واليوم ، لكي يصبحوا أعداء الغد . إن العالم قد أدرك أن الخروج من أزماته لا يمكن أن يتم إلا بالحوار بين كل أبناء الوطن الواحد ، وتكاتف كل أبناء الوطن الواحد .

لكن يبدو أن معنى الوطن لدى بعضنا غائب ، وإحساسه بعمق أزمتنا مفقود ، وإصراره على خوض معارك صغيرة لأسباب واهية كبير ، وفي تقديري أن تجاوز هذه الأزمة التي تعصف بالوطن كله يبدأ بعمل ، يسهم فيه رجال السياسة والاعلام والفن والفكر ، كما يسهم فيه البيت والمدرسة والمصنع ، وأن ننشد جميعا ـ من جديد ـ لحنا واحدا ، يتغنى للوطن ، فالوطن فوق كل صغائرنا ، وأن ندرك كلنا أن في الوطن متسعا للجميع ، وأن السماحة التي كانت تراثا مميزا لنا هي بوابة الخلاص من هذا الليل الأسود الذي يوشك أن يلفنا جميعا . □

محمود عبدالوهاب

لغة

جمال العربية

بقلم : محمد خليفة التونسي

أسئلة وأجوبة

هذا هو السؤال الثالث من أسئلة السيد/ فخري رمضان محمد الأغا (دبي/ دولة الامارات العربية المتحدة)

السِّياقة لا السِّواقة

١ - أيها أصحّ : معاهد السياقة أم معاهد السواقة . ولماذا ؟

هذه قضية صوتية صرفية ، والمعروف صرفيا أن المصدر الدالّ على حرفة يكون على وزن (فِعالة) مثل : زراعة ، وتجارة ، ونساجة - وعلى هذا القياس يكون المصدر الدالّ على الحرفة من الأصل « س . و . ق) هو « سياقة » مع أن هذا الأصل واويّ الجوف أو العين/ ويلاحظ أن الياء حرف لين ، وهي أنسب للكسرة قبلها صوتيا في مثل هذا المصدر ونحوه غالبا ، لتخفيف الجهد العضلي على جهاز النطق ، ولو كان جوف الأصل واويا ، وعلى ذلك نقول « ساق ، يسوق ، سياقة ، وحاك ، يحوك ، حياكة ، وقاد ، يقود ،، قيادة ، وساد ، يسود ، سيادة ، وساس ، يسوس ، سياسة ، وعاد ، يعود،عيادة ، وزار ، يزور ، زيارة ، وقام ، يقوم ، قيامة . وكذلك نقول : ثوب ، وثياب ، وحوض ، وحياض . وكذلك نقول في الياء اذا كانت حرف مد ، مثل : حوض ، وحيضان ، وعود ، وعيدان ، ومثله : وزن ، وميزان ، ووعد ، وميعاد .

ونقول إن ذلك يجري غالبا ، فقد تسبق الكسرة الواو وتبقى الواو كما هي ، مثل : « سِواك ، جوار ، جِوار ، قِوام » ، ولكن الأخف والأنسبَ صوتيا أن تكون مع الواو (حرف لين) ضمة قبلها ، مثل : « حُوار ، صُوَاع ، دُوار ، عُوادة » وكذلك مع الواو (حرف مد) مثل : « سُوق وعُود ، وبُوق » .

ولا أعرف في لغتنا « سواقة » (بكسر السين أو ضمها)

العرب عاملوا المثنى كالجمع :

ومن السيد/ شتوح احمد (الجلفة/ البيرين/ الجزائر) جاء هذا السؤال

في سورة الحج جاءت هذه الآية الكريمة « هذان

خصمان اختصموا في ربهم » فلماذا لم يقل : « هذا خصمان اختصما » ؟ .

ـ من المعروف أن القرآن الكريم نزل عربيا على النبي عليه السلام فهو يجري على اساليب العرب في لغتهم وان كان في المنزلة العليا من البلاغة ، وقد جرى العرب احيانا على معاملة المثنى معاملة الجمع في الشعر والنثر ، سواء كان مفرد المثنى دالاً على واحد ، او على جمع ، ومن شواهد ذلك ماذكره الثعالبي في كتابه « فقه اللغة وسر العربية » من ان الامام الشعبي فقيه العراق كان في مجلس عبدالملك بن مروان فقال : « رجلان جاءوني » فقال عبدالملك : « لحنت ياشعبي » ، فأجابه « يا أمير المؤمنين ، لم ألحن ، مع قول الله تعالى : هذان خصمان اختصموا في ربهم » فقال عبدالملك « لله درك ، يافقيه العراقين ، قد شَفَيْتَ وكفيت » .

ومثل هذا في القرآن الكريم قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »

و « الخصم » مفرد لفظا ولكنه يدل على المفرد وعلى الجمع معنى ، ومثله كثير في تراثنا القديم كلفظ « الطفل » في قوله تعالى « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » وقوله « ثم نخرجكم طفلا » أي أطفالا ، وكقول السمهري بن بشر العجلي (من الشعراء اللصوص في بداية العصر الأموي)

ولو أن ليلى أبصرتني غُدوةً
وصحبيَ والصفُّ الذين أمارس
اذن لبكت ليلى عليَّ ، وأعولت
وما نالت الثوبَ الذي أنا لابس

ففي الآية وصف « الطفل » بالذين « وكذلك في البيت الأول هنا وصف « الصف » بالذين .

ويلاحظ هنا أن « المثنى » يكاد يكون خاصا بلغتنا العربية ، ولا يوجد في اللغات الأخرى غالبا الا المفرد والجمع ، ويلاحظ أيضا في الضمائر الشخصية للمتكلم أن احدها للمتكلم وحده (انا) والثاني للمتكلم مع غيره وهو (نحن) وهكذا بقية ضمائر التكلم وليس للاثنين المتكلمين ضمير خاص ، كما يلاحظ أن التقسيم الى مفرد ومثنى وجمع تقسيم نحوي ، ولكن التقسيم اللغوي مفرد وجمع ، أو مفرد وغير مفرد ، ويدخل في غير المفرد الاثنان والجمع .

للمتكلم مع غيره وهو (نحن) وليس للاثنين المتكلمين ضمير خاص .

ومن طريف الملاحظات في لغتنا بعامة قول العلامة ابن جنى « القوم (العرب) كانوا يعتبرون المعاني ، فاذا حصَّنوها تساهلوا في العبارة عنها » .

وقد وضحنا معاملة العرب للمثنى معاملة الجمع في بحثين سابقين في العربي (العدد ٢٠٠ ص ٥٨ ـ ٥٩/ يولية سنة ١٩٧٥ ، والعدد ٢٠٩ ص ١١٨ ـ ١١٩/ ابريل سنة ١٩٧٦)

المتوفِّي والمتوفَّى صحيحان :

ومن الأستاذ ابراهيم عبدالكريم ناصر ، المحرر بجريدة الاهرام (القاهرة/ مصر) جاءنا بحث طويل في تصويب كلمة « المتوفِّي » (الفاعل) وصفا للميت ، كما أن « المتوفَّى » (المفعول) صواب ايضا ، وكانت العربي (العدد ٣٣٦) قد نشرت بحثا لغويا بعنوان « أخطاء شائعة » ذكر فيه كاتبه ان من الخطأ وصف الميت بأنه « المتوفِّي » (الفاعل) وان الصواب وصفه بأنه المتوفَّى (المفعول) ورأى الاستاذ ابراهيم هو الصحيح ، وتوضيح المسألة يظهر من ان الفعل « توفَّى » ينظر فيه الى ناحيتين :

يقال : « توفَّى الله فلانا » فالله هو المتوفِّي (الفاعل) ، وفلان هو المتوفَّى (المفعول)

ويقال : توفَّى فلانٌ عمره ، اي استوفاه ، فهنا فلان هو المتوفِّي اي المتوفِّي أجله (فاعل) والعمر هو المتوفَّى اي المستوفَى (المفعول) ، ومن هذا التوجيه يظهر أن الكلمتين ـ وصفا للميت ـ صواب . □

شعر

جمال العربية

هكذا غنى الآباء

لواعج الحب

لابن الدُّمَيْنة

ش اعر رقيق النسيب اشتهر بكنيته « ابن الدمينة » ، نسبة إلى أمه « الدمينة » وكانت من بنى سلول ، واسمه عبيد الله بن عبد الله بن عمرو بن مالك من بنى خَثعَم المشهورين بالبأس في الجاهلية ، وكانوا ينزلون في عصره جنوبي الحجاز مما يلي اليمن ، على طريق مكة ، عند بيشة ووادى تُربَة (من بلاد عسير اليوم) ، وقد كانت قبيلتا أبيه وأمه من اليمن وقد عاشتا متجاورتين منذ الجاهليّة الى أيام العباسيين .

كان الشاعر يعيش في أواخر الدولة الأموية ، وقد مات قتيلا نحو سنة ١٨٠هـ في عهد هارون الرشيد العباسي ، وكان من أجمل الرجال وأشدهم بأسا وأنفة وغيرة وأفصحهم لسانا مع حُسْن الحديث ، واللباقة في تصريفه ، مما جعله محببا إلى النساء ، وكان هو يحب الحديث إليهن وكان من شقائه أن اتهم امرأته بخيانته مع رجل من سلول فقتلها وقتل ابنته منها ، فاضطر إلى التوحش في البادية حذرا من الثأر ، وكان الناس في عهده يستحسنون شعره ويرددونه ، وكان معظمه في النسيب ، ولا سيما حبه « أميمة » التى بلغت من قلبه مالم تبلغه امرأة غيرها ممن أحبهن في فترات مختلفة ، وأكثر نسيبه فيها ، ولها فيه نسيب وقد تزوجها أخيرا ، ومات عنها .

وإذا ميزنا بين أنواع التّشبيب في الشعر وجدناها ثلاثة :

(١) النسيب ، وهو شعر الحب ، كما هو عند العذريين : جميل بثينة وكثير عزة ، ومجنون ليلى ، (٢) شعر الغزل ، وهو شعر المولعين بالنساء كافة أو طبقة منهن ، ومن هؤلاء : امرؤ القيس وخاله المهلهل بن ربيعة ، والأحوص وبشار (٣) التصابي ، وأصحابه يتظاهرون بالصبوة إلى النساء ويتحدثون بها ، وهو كثير في مقدمات القصائد التى تنظم في أغراض أخرى كالمدح والفخر ، كما هو كثير

في غير هذه القصائد .

وإذا تأملنا شعر ابن الدمينة في التشبيب وجدنا أنه يصدر عن قلب جرب الحب وكابد لواعجه كما تدلنا أبياته هنا وكثير غيرها من شعره .

وقد نسبت هذه القصيدة إليه وإلى غيره ولا سيما « ابن الطثرية » ، ونرجح لأسبابنا أن صاحبها هو ابن « الدمينة » ، وقد آثرنا في اختيار أبياتها وترتيبها أشهر الروايات وآنسها ألفاظا .

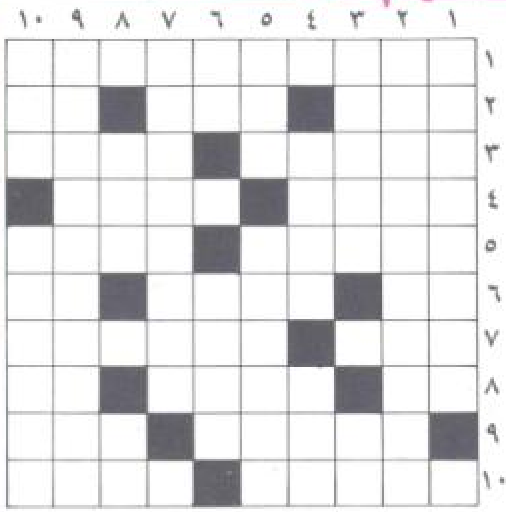
للشاعر ديوان مطبوع أشرف على تحقيقه العلامة الجليل الأستاذ أحمد راتب النفاخ ، وكتب له مقدمة مطولة في حياة الشاعر،ومصادر ترجمته ومنهجه في التحقيق .

ألا ، يا صَبا نجدٍ ، متى هِجْتَ من نجد ؟ … فقد زادني مَسْراكَ وَجْدا على وَجْد
أإن هتفت ورقاءُ في رونقِ الضحى … على فَنَنٍ غضِّ النباتِ من الرَّنْد (١)
بكيتَ كما يبكي الوليدُ ، ولم تكنْ … جليدا ، وأبديتَ الذي لم يكنْ تُبدي ؟
ألا هل من البينِ المفرِّقِ من بُدٍّ … وهل لِليالٍ قد تسلَّفن من رَدِّ ؟
وهل مِثلُ أيامٍ بِنَعْفِ سُوَيْقَةٍ … رواجعُ أيامٌ كما كُنَّ بالسَّعْد ؟(٢)
وهلْ أخواكَ اليومَ ـ إن قلتَ « عرِّجا … على الأثْلِ من وَدَّان والمشربِ البرد» (٣)
مُقِيمان حتى يقضيا من لُبانةٍ … فَيَسْتَوجِبَا أجْرى ، وَيَسْتَكْمِلا حمدى ؟ (٤)
وإن لا فسيرا ، فالسّلام عليكما … فما لكُما غَيّي ، وما لكما رُشْدي
وَمَا بِيديَّ اليومَ من حَبْلِيَ الذي … أُنازَعُ من إرخائه ، لا ، ولا شدّي
ولكنْ بِكَفَّيْ أمِّ عمرو ، فليتها … إذا وَلِيَتْ رَهْناً تَلِي الرَّهْنَ بالقصد*
ألا ، ليْت شعري ما الذي تُحْدِثَنَّ لي … نوى غربةِ الدارِ المشِتّةِ والبعد (٥)
نوى أمِّ عمرو ، حيثُ تقتربُ النوى … بها ، ثمّ يخلو الكاشحون بها بعدي ؟ (٦)
أتصرم للائي الذين هم العِدا … لتُشمتهم بي ، أم تدومُ على وُدّي ؟ (٧)
وَظَنِّي بها ، والله،أن لن يَضِيرني … وُشاةٌ لَدَيْها لا يَضِيرونها عِندي (٨)
وَقَدْ زَعَمُوا أنّ المُحِبَّ إذا دَنا … يَمَلُّ ، وَأنّ النأيَ يَشفي من الوَجدِ (٩)
بِكُلٍّ تَداوَيْنا ، فَلَمْ يُشْفَ ما بِنا … عَلَى أنَّ قُرْبَ الدّارِ خَيرٌ مِنَ البُعْدِ
عَلَى أنّ قربَ الدارِ ليسَ بنافعٍ … إذا كان من تهواهُ ليس بذي وُدِّ
هَوايَ بهذا الغَوْرِ غَوْرِ تِهامَةٍ … وَلَيْس بهذا الحيِّ من مستوى نَجْد
فَوَاللهِ رَبِّ البيتِ لا تجدينني … تَطَلَّبْتُ قَطْعَ الحبلِ منكِ على عَمْد
وَلا أشتري أمرا يكون قطيعةً … لِما بَيْنَنا ، حتى أُغَيَّبَ في لحدي
فَمِنْ حُبِّها أَحْبَبْتُ من لا يُحِبّني … وصانَعْتُ من قد كُنْتُ أُبْعِدُهُ جُهْدي
ألا رُبَّما أَهْدَى لِيَ الشّوقَ والجَوى … عَلَى النأيِ منها ذِكْرةٌ قلّما تُجدي

(١) فنن : غصن (٢) نعف سويقة : موضع في اليمامة
(٣) عرجا عليه : ميلا اليه . الأثل : شجر . ودان : موضع بين مكة والمدينة
(٤) اللبانة : الحاجة (٥) نوى : فراق ـ المشتة : المفرقة (٦) الكاشح : العدو المضمر للبغض
(٧) الشماتة : الفرح بمصيبة العدو (٨) ضاره : آذاه (٩) النأي : البعد .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة. والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذه اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم.



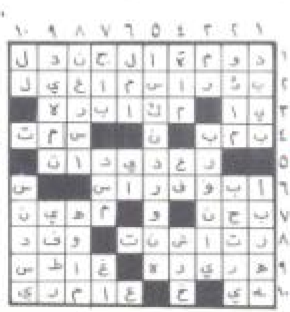
كلمات أفقية

١ ـ فرعون اكتشفت مومياؤه حديثاً
٢ ـ يتجب ، عطاء ، الثوب القديم
٣ ـ عكسها صلابة ، محترم
٤ ـ لمعان خفيف ، حيوان بحري لبون
٥ ـ سَنافر موزعة ، رضاب موزعة
٦ ـ بمعنى إذا ، غافل ، الأمر من نام
٧ ـ شلن مقلوبة ، بمعنى عرّاب موزّعة
٨ ـ حرفان متشابهان ، غير عسكري ، تجدها في واحد
٩ ـ عكسها لاهوت ، امتلأ واحتشد
١٠ ـ يقال إنها أقدم مدينة ، سيد أو عبد

كلمات رأسية

١ ـ فاتح مغولي مسلم
٢ ـ روائي أمريكي حصل على جائزة نوبل عام ١٩٤٩
٣ ـ كتابه ، أعني
٤ ـ المَرض الشديد ، أزال
٥ ـ لفت النظر ، مدّوا يد العَوْن
٦ ـ (تناول) في صيغة الأمر ، أصبحت سهلة أو رخيصة
٧ ـ مؤرخ عربي صاحب « السلوك لمعرفة دول الملوك »
٨ ـ لَمَع ، تجدها في صوت
٩ ـ رجل بشّر بنبوّة محمد (صلعم)
١٠ ـ صنو الشعْر ، كل ما أملك

حل مسابقة العدد الماضي مايو ١٩٨٧

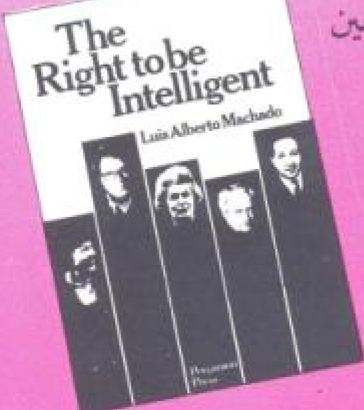




مكتبة العربي

كتاب الشهر

تأليف : لويس البرتو ماتشادو
عرض وتقديم :
د. عادل عبد الكريم ياسين



من حقك أن تكون ذكياً !

هل الذكاء وراثي يتميز به عرق أو شعب بحكم عامل الوراثة فقط ، أم هو قدرة يمكن اكتسابها وتعلمها كما يتعلم الناس العلم والأدب والموسيقا ؟

للإجابة عن هذا السؤال الخالد صاغ المؤلف ما يمكن اعتباره بياناً حول الذكاء ، ضمنه في كتاب تقدم « العربي » عرضاً لما جاء فيه .

كتاب الشهر

الذكاء كلمة سحرية براقة ، ومع ذلك ما تزال غامضة بما هو أضخم بكثير من سحرها وبريقها، وما يزال الجدل يحتدم حول هذا المفهوم . ومن القناعات الراسخة بين عدد من الناس تلك التي تقول بأن الذكاء وراثي أو « بيولوجي » .

وقد وصل هذا إلى صعيد الأمم لتعتقد أمة بأنها تتميز عن غيرها ، بسبب « صفات وراثية » خاصة.

ويدرك « ماتشادو » الفيلسوف الشاعر مدى صعوبة اقتلاع موروثة رسخت في الذهن حول وراثية الذكاء التي لها نتائج خطيرة على المجتمع ، فنجده يواصل - بإلحاح - دحض هذه الدعوى في سبيل بناء مجتمع جديد ذكي ،وينطلق من القناعة بأنه يمكن لكل فرد أن يكون ذكياً ، وأن الذكاء مهارة قابلة للاكتساب ، ومن ثم فإن الذكاء حق طبيعي لكل فرد .

يقع الكتاب في ٦٣ صفحة ، ويشتمل على ٧٨ فقرة من شعر منثور أو نثر يحمل روح الشاعر الفيلسوف في طياته ، وهو يدافع عن القضية التي يعرضها بمنطق المحامي وحماسه - وهو محام فعلاً - يؤمن بعدالة ما يدعو اليه ، ويبدأ كتابه بتحديد صلب لموقفه الرافض لمقولة الذكاء الوراثي ، وذلك في الفقرة الأولى ، ونصها :

« الذكاء هبة الوراثة : هذا ما اعتقدته البشرية طوال الوقت ، إلا أن أحداً لم يستطع تقديم دليل علمي واحد يؤيد هذا الاعتقاد ، فإن جاء شخص ما وقدم في يوم ما مثل هذا الدليل فقد هذا الكتاب قيمته بصورة تامة » .

فإذا كانت نوازع البشر مقدرة منذ لحظة الولادة فما الذي يبقى للحرية ؟ وإذا كان الذكاء وراثياً فهل نستطيع أن نكون حقاً سادة أقدارنا ؟ وليس من معنى لوجود رجل حر إذا كان الذكاء فطرياً ، وإذا كان الناس مختلفين جذرياً في ذكائهم فإنه لن يستقيم أي معنى للمطالبة « بالديمقراطية » ، وإذا كان الناس غير متساوين في عنصر أساسي من التكوين الإنساني بفعل الوراثة فإنه لا يسمح أي منطق بأن تكون لهم أصوات متساوية ، فإذا كانت المساواة فإن الديمقراطية مستحيلة كذلك .

وينتقل « ماتشادو » لتفنيد هذه الآراء والنتائج المترتبة عليها ليقول بأن التساوي بين الناس لا يعني تماثل الكيانات العضوية لهم ، لكن ذلك يعني بأن الإمكانيات متماثلة ، فما دام البشر بشراً فلا بد أن تتماثل إمكانياتهم ، أما إذا كانوا غير متساوين ضمن هذا المفهوم فيتعين أن يكون هناك حق للبعض لأن يكون أسعد من الآخرين ، يفعل ما يستطيعه لإشباع ذلك الحق حتى لو كان على حساب الباقين الذين يختلفون عنه في الإمكانيات . ولقد حدث هذا على الدوام على مر العصور ، بل إن أجزاء كبيرة من جدران قلعة التاريخ قد شيدت بطين ماؤه من عرق ذلك الاعتقاد ومن دمه .

ويعود « ماتشادو » إلى العلم لدحض هذه الفرضيات ، إذ يتزايد الوضوح في العلوم « البيولوجية » على عدم وجود رجال متفوقين . فلم يستطع أحد تقديم دليل علمي يقول بأن جنساً ما أكمل من جنس آخر . « فالبيولوجيا » تسير خطوة خطوة لتدمير العناصر التي قامت عليها ادعاءات أي نمط عنصري ، ومع أن العلم قد أدان العنصرية مراراً وتكراراً إلا أنها تعود على الدوام لترفع رأسها من جديد ، ومن ثم فهو يرى في الاعتقاد بالذكاء الوراثي « جرعة عنصرية » ، إذ سيقود ذلك حتماً إلى الاعتقاد بتفوق جنس على آخر ، ومثل هذا التفوق ينسجم مع تدبير الطبيعة ، فتسيء البشرية لنفسها بإنجاب أفراد أقل ذكاء ، وسيقود هذا الأمر إلى نوع من « العنصرية الاجتماعية » التي يعتبرها المؤلف أخطر من العنصرية العرقية

قهر التعصب :

فإذا أردنا أن تقهر التعصب وجب أن لا نقبل بفرضية أن الطبيعة هي أول من يتعصب ، وذلك بجعلها هي المسئولة الأولى عن اختلاف الناس في ذكائهم ، إذ سيكون الظلم الطبيعي بديلاً للظلم الاجتماعي ، ومن ثم فإن الخطوة الأولى في قهر الظلم تبدأ بالإنسان نفسه ، فهو لم يتغير « بيولوجياً » منذ أكثر من أربعين ألف عام ، ولم يتغير دماغه منذ نهاية العصر الحجري القديم ، وبالدماغ نفسه تزايد الرجال المبدعون كماً ونوعاً ، وهنا يؤكد « ماتشادو » على التربية :

فمن الذي ينتج هؤلاء « الكروموسومات » أم التربية ؟ لقد ظل تطور الإنسان ثابتاً على الدوام ، وظل الإنسان ينمو ، وليست العوامل الوراثية هي التي تفعل ذلك ، فدماغ الإنسان باق كما هو ، لكن حياة الإنسان هي التي طرأ عليها تغير جذري وأسباب هذا التغير ليست « بيولوجية » ، إذن فالتربية هي المفتاح ، والذي تغير وكان سبباً في هذا التغير هو التربية لا الدماغ ، فلقد ظل الدماغ والجسم على حالها على الدوام ، لكن الإنسان استمر في تطوره .

فالعملية التربوية ثورة الإنسان بفعل الحاجة ، إنها انتصار الثقافة على « البيولوجيا » .

تعلم الحريــــة :

العقلانية ليست ضرباً من الذكاء البسيط ، بل هي ذكاء حر ، في كائن حر ، ويسمى ذكاء الإنسان ليظل حراً ، فالخاصة الرئيسية للإنسانية هي الحرية ، وليست الذكاء ، وهذا هو الاختلاف الجوهري بين الإنسان والآلة والحيوان ، فإذا انعدمت حرية الإنسان فلن يختلف عن أي منهما ، ولعله يكون أكثر ذكاء فقط ، فالحرية مقصورة على الإنسان ، وهي الحقيقة التي تجعله عظيماً ، فهي جوهره الخاص .

والحرية قابلة للتعلم ، فالحرية الحقيقية تكمن في وضع الإنسان لنفسه .

وفي الحقيقة أننا ما نزال عاجزين عن فهم الكيفية التي وجدت فيها العبودية ، لتبقى مقبولة إلى عهد قريب ، وإذا كان الأمر يبدو مستهجناً وهو للأسف كذلك ، فلم يتضح لأساقفة المسيحية كيف أن إله العدل يجعل الناس غير متساوين ، ولم يقم الصراع ضد الظلم على أساس من تطابق الناس ، بل قام على أساس أنه ليس هناك إنسان أرفع من إنسان ، فاذا اختلف الناس بسبب الفروق البدنية أو البيئية فلا يعني ذلك أن هناك إنساناً « أوضع » من آخر ، وليست الطبيعة هي الإثم ، فالإثم يكمن في الناس أنفسهم وبمن أشرفوا على تربيتهم ، فالحياة ـ وليست الطبيعة ـ هي التي تنتج الفروق الاجتماعية بين الناس .

ويطرح « ماتشادو » السؤال : كيف تتجنب فرص الاستغلال ؟ ويجيب عنه بأن التربية هي المفتاح السحري لتحقيق الذكاء الجماعي للأمة ، إلا أنه يلقي ضوءاً ساطعاً على موروثة تربوية ، تعيق مثل هذا التقدم : « لقد شيد النظام التربوي حتى اليوم على افتراض أنه لا يمكن تعليم الكائن الإنساني الذكاء بطريقة محددة ، كل بنية اجتماعية على مثيل هذا الأساس .

وفي الحقيقة أن الأذكياء قلة وإذا لم تعدل في هذا الواقع فإنه لن يطاق انفاق المصادر الضرورية لتقديم فرص تربوية متساوية للمواطنين قاطبة ، وطبقاً للنظام الحالي فإن درجة ذكاء الطالب تبقى راسخة الاختلاف، ومع ذلك فإن نسق الأسلوب بقي قائماً للكل .

من يستحق التربية :

وإذا كان الافتراض المسبق صحيحاً فإن مثل هذه العملية ستكون خرقاء ، ولن يكون هناك مبرر للنفقات المتماثلة في التربية للطفل غير القادر على الإفادة من هذا الاستثمار ، وفي التربية للطفل الذي له إنتاجية عالية مضمونة مسبقاً ، ويبدو الأمر في

كتاب الشهر

النهاية وكأن من ولدوا للإفادة من التربية هم الذين يستحقونها بصفة خاصة » .

وهو يرى في النظام التربوي القائم نظاماً خاملاً ، لا يوقظ أي نوع من الفضول ، أو لا يقدر على إشباعه ، ومع أن هناك دولاً رفيعة في المستوى الثقافي فإنها تتردى تحت زوبعة من العنف ، والبنى التربوية هناك مسئولة عن ذلك .

لقد تعلم « اينشتاين » الذكاء بالطريقة التي بمقدور المرء أن يتعلم فيها العزف على البيانو ، أي بالأذن ، « فأين سيكون « اينشتاين » ، أو أي شخص آخر ، لو أنه تعلم الذكاء نظامياً في مجرى تثقيفه الكلي ؟

بدلاً من أن تهتم الدولة بشؤون الأمن والكبت عليها أن تنتزع فتيل العدوان بالعمل على رفع مستوى ذكاء الإنسان بالتطوير التربوي ، لكي يشاد المجتمع على أساس ما يكونه الإنسان حقاً ، ويتعين على السياسي الاقتراب من العلم من أجل المبادىء الأساسية للتوجه الاجتماعي ، فالسياسة تصبح مستحيلة دون مشاركة أساسية من العقل « الألكتروني » ، وأي جهل من السياسيين بتقدم العلم ليس إلا ضرباً من الغباء .

فالمسألة إذن سياسية ، ولا مفر من إقناع الدولة بالواجب الذي لا فكاك لها منه ، وهو الاضطلاع بمسئوليتها في الإصلاح العاجل للنظام بانتشاله من القاع ، « والمهمة الأساسية للدولة هي التربية ، والحكم هو التربية ، وليس بالمستطاع أن تكون هناك مهمة للحكومة أعظم شأناً من الكفاح لرفع مستوى ذكاء الشعب ، ومن ثم فإنه يتوجب أن يكون تعلم الذكاء هو شعارها اليوم ، ويتعين أن تكون الأفضلية الأولى لكل تحرك اجتماعي هو تحقيق هذا الهدف ، أي الزيادة الجوهرية في معامل ذكاء الشعب ، فإذا توفر الذكاء للقلة كان ذلك أشد أدوات الابتزاز .

ويتساءل « ماتشادو » عن أسباب تفوق من يدرسون الرياضيات في بوسطن على أقرانهم ممن يدرسونها في بوينيايرس والقاهرة ، كما يتساءل عن الأسباب التي تجعل عدداً غفيراً ممن تشكلوا في الجامعات المتطورة أكثر إسهاماً في التطور العلمي ، ويجيب عن ذلك بأن الموقف ثمرة لعملية مسبقة مبدعة في المجتمع المتطور ، « فليس كل اختراع أو اكتشاف إلا نتيجة لدراسة تأملية لفرد أو مجموعة من الأفراد الذين لهم قدرة على الإبداع ، وليست هناك استثناءات ، ولا مفر من الحقيقة » .

أما السر الحقيقي فإنه يكمن في التربية ، فالذين أبدعو قد تعلموا مسبقاً كيف يفكرون ، وهنا مكمن الإبداع » .

ويفترض « ماتشادو » أنه لا يوجد شعب أذكى من شعب آخر ، ولا يوجد شعب غير مؤهل للإبداع ، وكل ما في الأمر هو أن هناك شعوباً لم يتح لها تطوير ملكاتها العقلية ، ومع ذلك فإن عليها أن تفخر بهويتها ، وأن تحافظ عليها ، وأن ترفض التمتع بثمار العلم دون مساهمة فيه ، « ولكي يتوفر هذا ، فإنه يتعذر على أي شخص التخلف عن الإسهام في خطة تطوير الفكر » ، ويتوجب على الدول المتخلفة أن لا تستسلم فتتخلف عن مسيرة العلم والتقنية ، فالقرار قرارهم وحدهم ، فمن الممكن التمتع ـ بطريقة أو بأخرى ـ بثمار العلم دون مشاركة في إبداعه ، إلا أن في هذا مدعاة للخجل .

ويلح « ماتشادو » على الدولة لكي تتدخل ، لمنع استغلال القوي للضعيف ، وتمتنع عن استغلالها للمجتمع إذ أنها أقوى من الجميع ، « ونظرياً فإنه يمكن حجب الاستغلال عن الآخرين ، لكن كيف يمكننا أن نتحكم بذلك إذا ما كانت سلطة أي حاكم

حالي تفوق حتى تلك التي كانت « للويس » الرابع عشر ؟ » ، ولا سبيل لـذلك إلا بـالعمل على رفع مستوى الذكاء الجماعي ، لتخليص الأفراد من كل أنواع الاستغلال ، فالذكاء الجماعي يفرض أخلاقية ومواقف شريفة على الدوام ، ولا يمكن وصف حكومة « بالديموقراطية » إلا إذا سارت في هذا الاتجاه .

الذي يفكر والذي لا يفكر :

ولعلنـا نفهم جيداً كيف يـرغـب بعض القادة في إبقاء شعوبهم متخلفة الذكاء ، حتى لو أبـدعت في مجال آخر كالاقتصاد مثلاً ، ولا عجب أن هتلر قد قـال بأنـه « لمن دواعي الحظ أن تكون الجمـاهير لا تفكر ، وإلا لاختفت الانسانية من الوجود » . ولسنا ندري من الذي يفعـل ذلك أهي الشعـوب التي لا تفكر ، أم المستبدون الـذين يصرون عـلى احتكار التفكير .

فالحقوق المتساوية التي يولد بها الناس شـروط أساسية للمثل « الديموقراطية » السامية : ولا معنى للتسـاوي دون أن يوجـد ذلك التسـاوي عمليـاً ، فالحرية كانت مثلاً أسمى في التاريخ ، ومع ذلك فقد كانت عبثاً لا يطبقه كل الناس ، ولكل امرىء الحق في أن يكون حراً أو لا يكون كذلك ، ولكن « ما نفع حـرية الفكـر إذا لم يتيسـر التعليم للنـاس لإنتـاج أفكارهم الخاصة ؟

ويجب لحرية التفكير منح فـرص التفكير ، فباستخدام الـذكاء نـرفع من مستوى إعداد المرء للحرية ، والحرية هي كل ما هو ضروري ، ونحن نملك كل شيء إذا ما بقيت لنا حرية . أما الذكاء فهو أداة الحرية ، بل إنه السبب الوحيد لوجودها .

ويؤمن « ماتشادو » بالدور الـذي يجب أن يلعبه الشعب لتأكيد حريته ، لأن الشعـوب كافحت من أجل الحرية والعدل وما تزال كـذلك « فـلا حدود لطاقـات النـاس في العمـل من أجـل التحـولات العظيمة ، كما أن كفاح من يسعون لتحقيق المجتمع الأفضل لن يكون دون جدوى ، وإلا خلا الكفاح من المعنى» .

« والتطوير بوعي وتنسيق لذكاء الأفراد في كـل الأمم يعني بلوغ الحقـوق التي تقرهـا كل المبـادىء المعلنة رسمياً ، وتنفيذ تلك المسلمات تحت أي لون « أيديولوجي » يعني الاعتراف بالحق في تطوير الهوية الشخصية ، وهذا هو الطريق إلى الضـروري ، بل إنه الانبثاق العفوي (للرجل الجـديد) الـذي طال البحث عنه في الـدروب المسـدودة ، وهـو الحلم بمجتمـع عادل يـوقظ ضمير الشعب ويجعله حقيقـة ملموسة .

هذا هو ما يمكننا أن نطلق عليه « مانيفستو » ، أو « بيان الذكاء لماتشادو » ، وقد كان يحلم بأن بـلاده ستتصدر العالم في الذكاء إذا ما قدر لبرنامجه الطموح أن يحقق أهدافه .

وأخيراً يتعين علينا إعادة النظر بصورة جذرية في النظام التربوي إذا كنا نرغب ـ حقاً ـ ببناء مجتمع أكثر منعة ، لمجابهة تحديات المستقبل ، كما يتعين علينا بأن يكون « برنامج تعليم التفكير » في قمة أولوياتنا . إننا ندعو للإفادة من « برامج تعليم التفكير » أو تعليم الذكاء ـ كما يقول ماتشادو ـ كتلك البرامج المتوفرة في فنزويلا وكمبردج وهارفارد وغيرها ، وإلا فإن الهوة ستزداد متسارعة بيننا وبين الأمم الـطمـوحـة ، والمستقبـل لا يحمـل في طيـاتـه مكـانـاً لمن يتخلف ذكاؤهم .

ولقد خطت كلية الطب في جامعة الكويت ما أراه فالا حسناً في تنظيمها لمشروع تخطيط المنهج في يونيو ١٩٨٦ ، إذ لاحظت اهتمام المشروع بطريقـة بناء التفكير . فهل تعمم مثـل هذه الخطوة لبناء المعلم الذي يفكر جيداً ، والطالب الـذي يفكر جيداً ، « لتعيش في قلب العصر وليس على جوانبه » . □



من المكتبة العربية

الإرهاب السياسي

بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الانسانية

تأليف : د. أدونيس العكره
عرض وتعليق : محمد وليد جداع

الارهاب اليوم حديث الناس في كل مكان ، حديث الحكومات والمنظمات ، وحديث الارهابيين ، وحديث من يقع عليهم الارهاب . . لكن الارهاب ، أو الارهاب السياسي ، يستأهل من البحث أكثر من مجرد التحليلات الصحفية والأخبار . . هو ظاهرة إنسانية قائمة منذ زمن بعيد . . وجديرة بأن يخصص لها باحث معروف ، مثل الدكتور أدونيس العكره ، كتاباً من حجم كبير .

الارهاب يحمل عنفاً ، بل قد لا يفرق الناس بينه وبين العنف ، وهما مرتبطان في النهاية بمعنى القوة ، ولذا فإن الكاتب يبدأ في تحليل علاقة القوة بالأفكار ، فيقول : إن مشكلة العالم الحديث ؛ أنه يرفض الاعتراف بحقائق اجتماعية سياسية ، ولا يقرُّ بها إلا بلغة القوة . ولأن الحقيقة الاجتماعية ـ السياسية تتجسد في مجموعة من الناس تطالب بها ، فلابد لتحقيقها من ضربة قوية ضد الرافضين لها . . وهكذا فالوجود السياسي ، يفترض وجود نزاع من شأنه أن يخلق حالة مستمرة من العنف ، تغري الدول القوية فتستعمله علناً أو خفية ، من أجل ترسيخ سيطرتها ، وتوسيعها على الكيانات السياسية الأقل نمواً وتقدماً . فالدول القوية وصلت أصلاً الى ما هي عليه باستعمالها للعنف ، وتنظيمها له ، وجعله يشيع ويمتد في طرق التفكير والعمل ، والانتاج ، والمؤسسات .

فالعنف السياسي أضحى جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجية السياسية التي تمارسها الحكومات ، ليس ضد العدو الخارجي فحسب ، وإنما في مجريات السياسة الداخلية ، وضمن الكيان السياسي الواحد ، حيث تحتكره الدولة ، وتجعله إجراء قانونياً شرعياً منظماً ، يكسبه صفة الضرورة في بعض الأحيان .

ولكن الكاتب يشك في فعالية العنف ، فإذا نجح العنف أحياناً في حل المشكلات الاجتماعية والسياسية المطروحة ، وذلك نظراً لفعاليته

الفورية ، فهذا لا يعني أنه قد نجح بشكل نهائي ، بل لابد للعنف أن يزيد في حدة الظروف السياسية ، والأوضاع الاجتماعية العامة .. فالعنف في النهاية يدعو للعنف المضاد .

ويميز المؤلف بين الارهاب السياسي ، والارهاب الفردي المتعلق بالحق العام . فالارهاب السياسي يرتكز على معطيات اجتماعية وسياسية ، ويرمي الى بلوغ هدف سياسي يتعلق بحياة الجماعة أو المجتمع ، بينما ينطلق الثاني من دوافع فردية شخصية لتحقيق الثروة أو الانتقام ، وهو عمل إجرامي لا مكان له في هذه الدراسة .

ولا يريد الباحث أن يكون حكماً على الارهاب السياسي ، مؤيداً أو معارضاً .. بل يهدف الى استخراج المعنى السياسي من الأحداث التاريخية ، وربطها منطقياً بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي ينشأ فيه الارهاب . ومنهجه هو اعتبار الارهاب السياسي ظاهرة من الظواهر السياسية ، بطريقة غير منحازة الى التأييد أو المعارضة ، دون أن يعني ذلك موقف اللامبالاة .

خصوصيات الارهاب السياسي

وللارهاب السياسي عند الكاتب خصوصيات ، فهو ليس حرباً بالمعنى الشائع ، حيث للحرب قواعد وتقنيات ، وهو يختلف عن حرب العصابات التي يفترض تمتعها بالتأييد الشعبي . والارهاب ليس الاغتيال فقط ، وإن كان الاغتيال احدى وسائله . والارهاب عموماً ، سواء كان ارهاب ضعفاء أو أقوياء ، يتضمن استعمال العنف ، تهديداً أو تنفيذاً ، ويتميز بتضمنه عنصر الترهيب والتخويف ، فالسلاح الفعال الذي يتميز به الارهاب هو السلاح النفسي ، وحالة الرعب التي يصنعها ، بالرغم من الاخفاق العملياتي أحياناً .

يقدم الكاتب عدداً لا بأس به من التعريفات المتداولة للارهاب السياسي ولكنه يعتبر أن تقديم تعريف نهائي ليس مستطاعاً ؛ لاحتمال ظهور عناصر وتفصيلات لم يستطع التعريف أن يشملها . إلا أنه يقترح أخيراً التعريف التالي : [الارهاب السياسي منهج نزاع عنيف ، يرمي الفاعل بمقتضاه ، وبواسطة الرهبة الناجمة عن العنف ، إلى تغليب رأيه السياسي ، أو إلى فرض سيطرته على المجتمع أو الدولة ، من أجل المحافظة على علاقات اجتماعية عامة ، أو من أجل تغييرها ، أو تدميرها] .

يرى الكاتب أن الارهاب يندرج في مجال الصراع السياسي ، على اعتباره فعلاً عنيفاً ، يهدف إلى إرغام العدو ؛ على تحقيق المطالب التي يرغب الفاعل في تحقيقها ، وهو حالة خاصة من حالات الصراع . إنه نوعية قصوى من اللجوء إلى العنف . فهو ـ عند مسوغيه ـ آخر الدواء . والارهاب لا يتخذ صفة (السياسي) إلا عندما يكون له معنى معين في مجال السياسة . فهو لا يتوقف عند حد القتل ، ولا يقتصر هدفه على ذلك . إنه حاسم ومثير للغاية ، وهذا ما يسهل إمكانية استغلاله في حقل السياسة .. إنه وسيلة بامكانها أن تلعب دوراً مهماً في إيجاد مخرج للنزاعات السياسية القائمة على العنف . وهو يقدم عنصراً مسانداً لمجموع إجراءات الصراع ضد العدو السياسي .

فالارهاب السياسي عند الكاتب ، لا يرمي في الواقع إلى بلوغ الهدف النهائي للسياسة ، بل يرمي إلى ايجاد مخرج لنزاع قائم بين طرفين ، لم يستطع أي منها أن يجد هذا المخرج ، بالوسائل والاجراءات القانونية والعادية ، ودوره هو متابعة الصراع السياسي بوسائل أكثر فعالية . بل إنه في بعض الأحيان ، يتبنى وحده مهمة القيام بمقتضيات الصراع ضد العدو السياسي . ويلاحظ الكاتب (ميزة جوهرية) للارهاب ، فهو إجراء خاص استثنائي ، يدخل في مجال السياسة من خارج قواعدها وأصولها العادية .

للارهاب السياسي أسباب يدعوها الكاتب (عينية مباشرة) ، أولها : إرهاب الدولة ، فهو ـ

نظراً لشراسته ، وتأثيره الواضح - يشكل السبب الرئيسي لنشوء العنف عند الأفراد ، وبالتالي لنشوء إرهاب (الضعفاء) . . فطالما أن هناك حكومات قادرة على التفرغ لممارسة الارهاب ، فإن الارهاب المضاد يبقى الرد الوحيد الممكن من قبل ضحاياها .

وهناك أيضاً الاستعمار ، فالحال أننا نعاين أحياناً أشكالاً عدة مختلفة من الاستعمار ، علنية أحياناً ومستترة أحياناً أخرى ، لا ينتج عنها سوى التنكر لحق الشعوب الشرعي ، في تقرير مصيرها واستقلالها ، وفي التنكر لحقوق الانسان ، وحرياته الأساسية . فالمستعمِر ، ثم المستعمَر ، يمارسان الارهاب ، مع فارق أن الأول يهدف إلى تحقيق مصالحه على حساب الآخرين ، بينما الثاني يهدف إلى استعادة حقوقه الحياتية غير القابلة للتنازل عنها . .

ولعل إعلان الجزائريين في مواجهتهم للفرنسيين ، يعبر عن هذا المعنى أوضح تعبير : « إن الحصول على بندقية ، والانضمام إلى جيش التحرير الوطني ، هما الحظ الوحيد الذي يبقى للجزائري في إعطاء معنى لموته . . لقد أصبحت الحياة منذ زمن بعيد ، فارغة من معناها ، بسبب السيطرة الفرنسية » .

ومن الأسباب أيضاً ؛ الأنظمة السياسية القائمة على الدكتاتورية من جميع وجوهها ، ولا سيما الدكتاتورية العسكرية ، التي هي الشكل الحديث المتطور للاستبداد والطغيان السياسيين . والأنظمة هذه - مُعلنةً الديمقراطية أو متسترة بردائها - تضرب المعارضة السياسية بعنف ، بحيث لا يبقى أمام الشعب أية إمكانية حرة للاختيار . . وينشأ ثَمَّ العنف ، أو الارهاب المضاد للارهاب الحكومي .

والأسباب المباشرة هذه ، إنما تحدد الظروف الموضوعية ، التي تثير الدوافع التحتية الكامنة ، وتقودها إلى تفجير الارهاب ، وإعطائه معناه السياسي والأخلاقي . ولكن هناك بعداً أعمق للارهاب السياسي ، يشرحه الكاتب بالحديث عن : الارادة في اكتساب قدرة سياسية ، تستطيع تغليب وجهة نظر سياسية وفرضها ، وهذا يصح على مستوى الحكام ، وعلى مستوى المحكومين ، الذين يسعون باسم حقوقهم التي يعتبرونها شرعية ، إلى تحقيق قدرة سياسية ، تتيح لحقوقهم إمكانية صيرورتها شرعية قانونية .

في جوّانية الارهاب

يبدو - للوهلة الأولى - لمن يراقب الأعمال الارهابية التي تحصل اليوم ، في مختلف أنحاء العالم ، أن طبيعة هذه الظاهرة تختلف اختلافاً جذرياً ، عن المناخ الحضاري الذي نشأت وتطورت فيه . وهذا الانطباع لا يخلو في رأي الكاتب من بعض الأسس والمسوغات ؛ ذلك أنه في حين تتجه حضارة اليوم نحو تحسين الحياة الانسانية ، وتخفيف وطأتها على الفرد والجماعة معاً ، يصبح من البديهي أن يعتبر غريباً ، كل ما يسيء إلى هذا التطور ، وأن يواجه على اعتباره عائقاً خارجياً طارئاً ، يجب التخلص منه بكل الوسائل . . إن الكاتب يرى أنه من خلال نظرة شاملة إلى مسيرة الحضارة الطويلة ، يظهر واضحاً أن الحضارة تنجب حُفّار قبرها بنفسها !

إن موضع القلب من مسألة الارهاب السياسي ، يبرز لنا بشكل حاد ، في ارهاب الضعفاء ، أي الشعوب والأقليات المضطهدة والمقهورة . فهؤلاء لا يملكون وسائل القوة والسيطرة ، كما يملكها الأقوياء بمؤسساتهم وقواهم العسكرية . ولكنهم يملكون بالمقابل ؛ قضية يعتبرونها عادلة ، وجديرة بالدفاع عنها ، عن طريق الكفاح المسلح ، وهو كفاح شرعي .

ففي مناخ الارهاب ، حيث حرية الأقليات والشعوب المتمردة مدجنة مقهورة ، وحقوقها في الحياة السياسية الكاملة ، وفي نمو شخصيتها المعنوية والاجتماعية - على مستوى المواطنية - مهضومة مطموسة ، وحيث يفرض الأقوياء نظاماً يجعلون فيه قوانين وضعية ، تجعل المخالف لها مجرماً خارجاً عن القانون والنظام العام . . في هذا الوضع ، يجد

الضعفاء أنفسهم مضطرين لايجاد منطلقات وقوانين خاصة بهم ، يتبعونها من أجل تحقيق عدالة ، هم يريدونها ويرتضونها .

والكاتب الدكتور أدونيس العكرة يبدي تفهماً واضحاً ، وتعاطفاً ، مع ارهاب (الضعفاء) . .

ويقول : إن ما نراه (لا عقلانية) في الفعل السياسي عند الضعفاء ، هو المميزات التي يتفرد بها الارهاب الذي يقوم به الضعفاء . . هذا الارهاب الذي يفعل كل شيء ، ولا يتوانى عن أي شيء ، من أجل انتصار قضيته ، إذ ما حيلة المستعبد عندما يصار إلى اتفاق عام ـ خفي وعلني ـ على استعباده ؟ ولكن يجب أن يفهم أن الارهاب لا يخلق القضايا العادلة ، بل القضايا العادلة هي التي تقود إلى الارهاب ، عندما تعلن بقية الوسائل عن إفلاسها وعدم جدواها .

وإنه ، في عالم لا تجد فيه الجماعات مكاناً لقيمها ، وحرياتها ، وحقوقها المشروعة في الأرض والانتماء وتقرير المصير ، والحياة السياسية الكاملة ؛ لا يسعها إلا أن تجد في قضيتها الحقيقة المطلقة ، فتنقاد إلى استعمال الارهاب ، كحل أخير تلوح فيه بوارق الأمل .

ويمضي الكاتب في التفصيل وتحليل الارهاب عند (الضعفاء) . . مناقشاً مسألة الهوية ، وما تفرضه من سلوك . . فالهوية تحتل المرتبة الأولى في لائحة مطالب الشعوب والجماعات ، إذ لا شيء يغني الانسان الفرد ، عن هاجس السعي إلى تحقيق وجوده الجماعي . فالهوية تشكل بحد ذاتها ، دافعاً رئيسياً يدعو إلى النضال بعنف من أجل تحقيقها ، أو المحافظة عليها . . فمن أجل الهوية ، تصبح أعمال العنف ، ليست مسوغة قانوناً وعرفاً وأخلاقاً فحسب ، بل تصبح حقاً طبيعياً لا يمكن التنازل عنه . وبقدر ما تتهدد الهوية ، يكون العنف أشرس ، وأكثر جنوناً ولا عقلانية .

أخلاقية الارهاب السياسي

إنه بسبب القضية التي يحملها الارهاب السياسي ، المتمثلة بتقويض ما يعتبره مصدر الشرور وتدميره تدميراً كاملاً ؛ يستحيل فهم موقف الارهاب بالنسبة للأخلاق المجردة ، المبنية على الخير أو الشر ، إذ ليس بإمكان هذه الأخلاق أن تسوغ العنف ، وإلا وقعت في التناقض . إلا أن الارهاب من شأنه أن يستعيد لنفسه بعض المدلولات الأخلاقية ، بسبب القضية التي يحملها وينقل الكاتب عن روبسبير وتروتسكي رأيهما في أن الهدف حين يكون خيرا أخلاقياً ، فإن الوسيلة تكتسب بعداً أخلاقياً ، بفعل كونها مرتبطة جوهرياً وعملياً بهدف خيّر .

وعلى صعيد إرهاب الضعفاء ، تظهر هذه الناحية بشكل أكثر إثارة وحدة . . فالحياة السياسية الحرة العامة ، تأتي بالنسبة إلى الضعفاء ، قبل الأخلاق العامة . فأخلاقية الضعفاء تقوم بالأساس على البحث عن هويتهم بجميع الوسائل الفعالة . كما أنه ليست أخلاق الآخرين هي التي تحدد لهم قضيتهم ، بل إن قضيتهم هي التي تملي عليهم أخلاقها . وإذا لم يكن إنقاذ الحرية بجميع الوسائل الممكنة ، ضرورة منطقية ، فهو على كل حال واجب أخلاقي .

ويتراجع الكاتب عن هذا الحماس قليلاً ، ويقول : إن (المناقضة) بين العنف والأخلاق لا يمكن تجاوزها ، ولذا فلابد من تحاشي الموازنة بين أخلاقية الارهاب السياسي والأخلاق المجردة . . ويبقى الارهاب وسيلة ، ينظر إليها من ناحية فعاليتها ، وليس من ناحية أخلاقيتها .

بل يتراجع الكاتب أكثر قليلاً حين يقول : بينما ينتهي إرهاب الأقوياء ، إلى نقض مبادئه وقيمه وأخلاقياته ، بسبب مبدأ الاتهام العام ، فإن إرهاب الضعفاء يفقد قيمه وينقض أخلاقياته ، بسبب مبدأ عدم التمييز بين الأهداف ، أو بسبب مبدأ الضربة العمياء . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : تراث البادية

المؤلف : مجموعة من الباحثين باشراف : ألطاف الصباح

تقديم : د . أحمد أبوزيد

الناشر : مطابع كويت تايمز التجارية ـ الكويت

عدد الصفحات : ٢١٤ من القطع الكبير

سنة النشر : ١٩٨٧

هذا الكتاب المتخصص هو حصيلة جهد جماعي على أكثر من مستوى . فهو يضم بحوثا تتناول جوانب مختلفة من حياة البادية ، ألقيت في ندوة نظمها بيت السدو في الكويت بالتعاون مع جامعة الكويت ، بهدف التعريف العلمي بتراث البادية الذي ظل الى وقت قريب مرتبطا بانطباعات الرحالين الأجانب الذين فتنهم جو الصحراء المترامي .

كما ضم الكتاب الذي قدم له الدكتور أحمد أبوزيد ببليوغرافيا مختارة عن البدو تعتبر دليلاً مفيدا للقاريء العربي والباحث في هذا المجال .

■■

الكتاب / لعبة النسيان (رواية)

المؤلف / محمد برادة

عدد الصفحات / ١٤٩ صفحة

سنة النشر / ١٩٨٧م

الناشر / دار الأمان ـ الرباط ـ المغرب

خلفية رواية الناقد المغربي محمد برادة الجديدة هي مدينتا فاس والرباط ، أما حيزها الزمني فهو المغرب ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ويمتد هذا الفضاء إلى الفترة الراهنة .

الشخصية الرئيسية في هذه الرواية هي « الهادي » ، ويمكن استبدال هذا الاسم « بالدليل » ، أو « الزعيم » ، حسب التسميات الراهنة ، ويوحي اسم « الطايع » شقيق الهادي بدلالات مناقضة ، كالخضوع والتبعية ، وفي آخر الرواية ينجب « الطايع » شخصية متمردة هي ابنه « فتاح » ، وتنتهي الرواية باعتقال « فتاح » من أجل أفكاره .

تحتل الأم في رواية « برادة » مكانة مركزية ، والاحالة على الأم ضمن الرواية متواترة ، إلى درجة يحق لنا معها أن نتساءل عما إذا لم تكن تمثل الركيزة التي تزود العالم والموجودات بالتوازن ؟ وينتقي الكاتب شخوص روايته من العالم الذي ينهار ، والذي تنتشل الرواية أشلاءه من تراب النسيان ، فمحمد برادة يفتح هنا باب الذاكرة ، فيعود السرد ، وتتابع الصور ، كما في الشعر ، وعندئذ يستجيب البناء الروائي لفضاء فاس .

■■

الكتاب : بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام .

الكاتب : د . وحيد قدورة

الناشر : المعهد الأعلى للتوثيق ـ تونس

سنة النشر : ١٩٨٥

الحجم : ٣١٧ صفحة من القطع الكبير

اللغة : الفرنسية مع ملخص باللغة العربية

يحاول المؤرخ التونسي د . وحيد قدورة في كتابه الجديد « بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام » أن يؤكد أن الوطن العربي عرف المطبعة سنة ١٧٠٦ أي قبل نحو تسعين سنة من حملة نابليون على مصر ، ويوضح المؤلف أن فن الطباعة بالحروف العربية لم يظهر في المشرق الا بعد نحو قرنين ونصف

من ظهوره في أوروبا ، وقد بادرت الطائفة الأرثوذكسية في سوريا بتأسيس أول مطبعة عربية سنة ١١١٨ هـ/ ١٧٠٦ م في حلب . ثم تلاها المسلمون سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٦ م بإنشاء مطبعة بالحرف العربي في استانبول ، وظهرت بعد ذلك مطبعتان مسيحيتان أخريان في جبل لبنان (في الشوير) سنة ١١٤٧ هـ/ ١٧٣٤ م وبيروت سنة ١١٦٥ هـ/ ١٧٥١ م .

وينصب اهتمام المؤلف في هذا الكتاب على تحليل الظروف التي حفت بنشأة المطبعة العربية في المشرق ، وأسباب تأخير ظهورها بالنسبة لأوروبا ، وتناول الباحث أيضا مضمون الحرف العربي المطبوع ، وتأثيره على مجرى الحياة الثقافية في القرن الثامن عشر الميلادي .

■■

الكتاب : مدخل الى نظرية القصة

المؤلف : سمير المرزوقي وجميل شاكر

الناشر : الدار التونسية للنشر

سنة النشر : ١٩٨٥

عدد الصفحات : ٢٤٢ صفحة من القطع الوسط .

للقصة اليوم من النظريات الحديثة ما لم يعد جائزا تجاهله ، والهدف من كتاب الباحثين التونسيين سمير المرزوقي وجميل شاكر هو عرض أهم نظريات القصة في الغرب ، وخصوصا عند أحد اعلام مدرسة الشكلانيين الروس فلاديمير بروب ، الذي اهتم بدراسة مجموعة من الحكايات الشعبية العجيبة الروسية ، واعتمد في دراسته هذه أساسا النظرة البنيوية الوصفية ، فالحكاية عنده هيكل وبنية معقدة يمكن تفكيك واستنباط العلاقات التي تربط بين مختلف وظائفها في مسار قصصي معين .

ولكن المؤلفين لا يكتفيان بعرض نظرية « بروب » وانما يبينان أيضا حدودها وسلبياتها ، ثم ينتقلان الى تحليل النص القصصي (الحكاية ، السرد ، الترتيب الزمني ، التواتر ، الديمومة ، التوقف . . .) .

■■

الكتاب : جذور لسمائي ـ شعر

المؤلفة : نجاة العدواني

الناشر : دار العودة ـ بيروت

عدد الصفحات : ١٠١ من القطع الصغير

سنة النشر : ١٩٨٦

يضم هذا الكتاب الشعري الصغير مجموعة من قصائد تنتمي الى ما اصطلح على تسميته قصيدة النثر . وهي قصائد تتحدث عن أكثر من هم ، وأكثر من موضوع ، وان يكن هم الاغتراب المتمثل في الرحيل المتواصل هو الغالب على قصائد الديوان .

وتتراوح القصائد من حيث موضوعاتها بين الخاطرة الخفيفة والتعبير عن الاحساس بدقائق الحياة الصغيرة ، وبين الموضوعات ذات العمق الثقافي .

■■

الكتاب : خير الزاد من حكايات شهر زاد

المؤلف : بوعلي ياسين

الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع ـ اللاذقية

عدد الصفحات : ٣٤٣ من القطع الكبير

كما جاء في العنوان الفرعي لهذا الكتاب فانه « دراسة في مجتمع ألف ليلة وليلة » ، حيث يفترض المؤلف وجود مجتمع شهرزاد ومدينة شهرزاد ودولة شهرزاد ثم يبدأ بدراسة دور الحكاية والعلاقات الجنسية ، والنظرة الى العالم ، ونظام الحكم والطبقات في هذا المجتمع ، والدولة والمدينة .

ويقول المؤلف انه فوجىء بأن مجتمع شهرزاد يتطابق الى حد بعيد مع مجتمعنا العربي الماضي ، ومع مجتمعنا الشعبي الحالي . ومن خلال هذه الملاحظات يقدم لنا بوعلي ياسين كتابا مهما عن هذا الأثر الأدبي العظيم الذي نكاد نعرفه دون غيره في العالم . □

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٤٣
يونيو ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير .

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٤٣ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ يوليو ١٩٨٧ .

١ ـ تحدث السلف الصالح عن (مجريط) و (اقريطش) وبلاد الكرج .. فأي البلدان قصدوا بهذ التسميات ؟

٢ ـ الهند والبرازيل .. ترى أيهما أكبر مساحة ؟

* البرازيل وتبلغ مساحتها نحو ضعفي ونصف ضعف مساحة الهند .

* الهند وتبلغ مساحتها نحو ضعفي ونصف ضعف مساحة البرازيل .

* متساويتا المساحة تقريبا .

٣ ـ احدى الدول الاوروبية مكونة من :

٦ ـ جمهوريات وتشمل :

٥ ـ قوميات وتتكلم ٤ لغات وتدين ٣ أديان

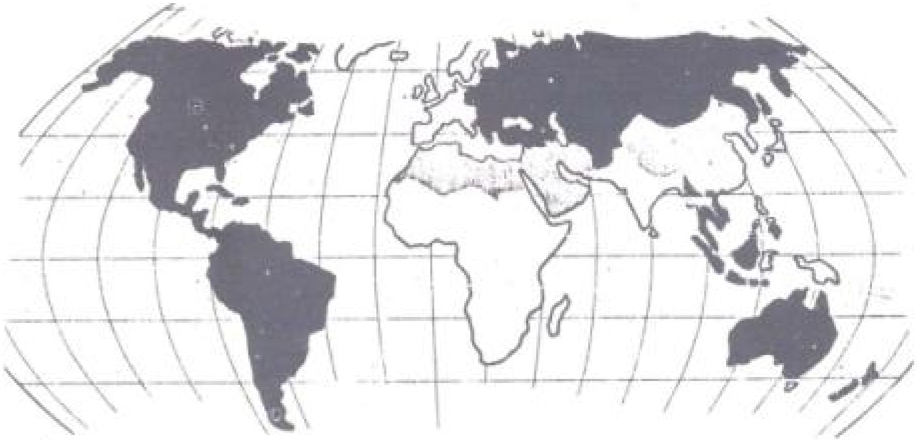
فأي دولة تلك ؟

٤ ـ دولة أفريقية سموها مجددا باسم بوركينا فاسو .. فما اسمها القديم ؟ ودولة افريقية أخرى كان اسمها القديم داهومي .. فما اسمها الجديد ؟

٥ ـ سميت بحيرة (نيازا) سنة ١٨٥٩ .. ولكنهم غيروا اسمها واستبدلوا به اسما آخر سنة ١٩٦٤ .. ترى ماهو هذا الأسم الآخر الذي يطلق حاليا على بحيرة نيازا .. ؟

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٤٣



٦ ـ « البندقية الصغيرة » هو الاسم الذي تعرف به احدى دول امريكا الجنوبية . . ترى أي دولة تلك ؟

٧ ـ باراجواي هي الدولة الوحيدة في العالم التي يختلف وجه علمها عن ظهره . فما هو هذا الاختلاف ؟

٨ ـ الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي . . تقصر المسافة الفاصلة بين حدودهما حتى تبلغ ٤ كيلومترات فقط ، وذلك عند جزيرتين صغيرتين احداهما امريكية والاخرى سوفياتية . . ترى مااسم هاتين الجزيرتين . ؟

٩ ـ أي دولة اوروبية سبق أن اختفت من الوجود تماما طوال القرن التاسع عشر ولم تعد الى الحياة ثانية الا في مطلع القرن العشرين . . سنة ١٩١٨ بالتحديد ، علما بأنها كانت في طليعة الدول الاوروبية مساحة وعدد سكان ، حتى اواخر القرن الثامن عشر حين قامت الحروب بينها وبين جاراتها ، وأدت الى ابتلاع هذه الجارات لكافة اراضيها ؟

١٠ ـ احدى دول امريكا الجنوبية . . بلغت مساحتها عند استقلالها سنة ١٨٢٥ حوالي ضعفي مساحتها الحالية البالغة نحو مليون كيلومتر مربع أو تزيد قليلا ، وقد تقلصت مساحتها بهذا القدر نتيجة الحروب التي نشبت بينها وبين جاراتها : تشيلي والبرازيل وبراجواى . فأي دولة تلك ؟

١١ ـ فانوتو هي مجموعة جزر تقع في جنوب غرب المحيط الهادي . . ترى ماهي عاصمتها ؟

١٢ ـ « أخشنة » قرية صغيرة ولكنها اشتهرت بأن الشيخ الرئيس ابن سينا ولد فيها . . فأين تقع قرية أخشنة هذه . . . . . ؟

حل مسابقة العدد ٣٤٠

١ - الكعب ليس العقب كما يظن الكثيرون ولا هو الرسغ وانما هو الكاحل .

٢ - يصاب المرء بالدوار اذا هو اكثر من الدوران حول نفسه ، لأن السائل الموجود في داخل الأذن العميقة أو الداخلية .. يتحرك عندما يتحرك جسم الانسان ، فاذا فقد السائل توازنه في أقنيته فقد الجسم توازنه وشعر صاحبه بالدوار .

٣ - يبكي المولود عقب ولادته ليتمكن من مباشرة التنفس .

٤ - يذوق المرء طعم الحلاوة بمقدمة اللسان ، ويذوق طعم المرارة بمؤخرته .. أما طعم المملوحة وطعم الحموضة فيذوقهما بجانبي اللسان . وتتم عملية التذوق هذه بواسطة حليمات التذوق المنتشرة على ظهارة اللسان في المواقع الأربعة المذكورة ويبلغ عدد هذه الحليمات نحو (٨٠٠٠) حليمة وذلك في سن الشباب وتنقص حتى تبلغ (٦٥٠٠) حليمة في سن الاربعين .

٥ - جوزة العنق تؤوي أو تحفظ الحبال الصوتية ، ولا يخفى أن هذه الحبال الصوتية هي التي ننطق ونتكلم بواسطتها .

٦ - قلب الطفل هو الاسرع ، يليه قلب المرأة فقلب الرجل . فبينما ينبض قلب الرجل بمعدل ٧٠ - ٧٢ نبضة . في الدقيقة ، وينبض قلب المرأة بمعدل ٧٨ - ٨٢ نبضة،نرى أن قلب الطفل ينبض بمعدل ١٣٠ - ١٤٠ نبضة في الدقيقة . ومن طريف مايذكر ان مجموع ماينبضه قلب الانسان على مدى الحياة يبلغ بالمتوسط حوالي (٢٠٠٠) مليون نبضة !

٧ - طبلة الأذن تقع في الأذن .

٨ - يتميز جنس الجنين فيعرف أنه ذكر أو انثى لدى بلوغه ٨ - ١٠ اسابيع من العمر .. وتجدر الاشارة الى ان الجنين مدين بجنسه الى الأب لا الأم .. فالمورثات او الكروموزومات التي تحدد جنسه انما يتلقاها من ابيه لا من امه .

٩ - احماض المعدة لاتستطيع اذابة بطانة المعدة لان هذه البطانة تتجدد خلاياها باستمرار ، وبأسرع مما يسمح للأحماض بالعبث بها .. وغني عن البيان ان حامض الهيدروكلوريك هو احد الاحماض التي تفرزها المعدة ، ان لم تقل اهمها .. ويقدر العلماء السرعة التي تتجدد بها خلايا بطانة المعدة بحوالي نصف مليون خلية في الدقيقة الواحدة .

١٠ - عظم الانسان هو الأقوى .. فهو يفوق الاسمنت المسلح بأربع مرات من حيث قوة الاحتمال . وقد اجرى العلماء تجاربهم على قطعة من العظم بحجم علبة الكبريت فبلغت قوة

احتمالها (٩) اطنان اي مايعادل الجرانيت من حيث القوة .

١١ ـ مقدار الحديد في الجسم البشري يكفي لصنع دبوس او مسمار بطول ٢٥ مليمترا أو مايبلغ وزنه ٤ ـ ٥ جرامات ، ذلك أن الجسم البشري الكامل النمو يحتوي على ٤ ـ ٥ جرامات من الحديد .

١٢ ـ القفاء (بفتح القاف) لايقع في أسفل الظهر وفوق الساقين ، كما يظن الكثيرون ، وانما في أعلى الظهر وخلف الرقبة مباشرة .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٠ مــارس ١٩٨٧

الجائزة الاولى : سيف بن عامر بن سيف الجهضمي/ المنطقة الوسطى/ ولاية المضيبي/ سلطنة عمان .

الجائزة الثانية : عبدالله أحمد عباد العرامي/ ص.ب ٧٠٥/ صنعاء/ الجمهورية العربية اليمنية .

الجائزة الثالثة : مسقم رشيد/ فاس/ المملكة المغربية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ روضة الزيتوني/ حي عين مناخ/ الجمهورية التونسية .

٢ ـ سميرة مصطفى هجرس/ العمرانية الشرقية/ الجيزة/ جمهورية مصر العربية .

٣ ـ منيرة محمود حامد/ دولة الكويت .

٤ ـ عطا محمد الأعرج/ طرابلس/ ليبيا .

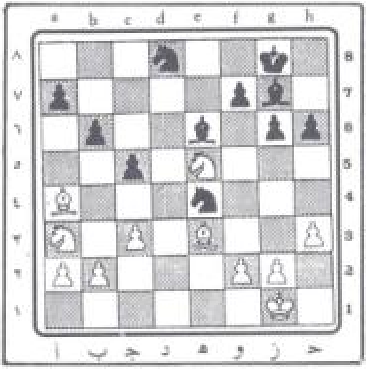
٥ ـ فرحان سعد يونس/ الحسكة/ عامودا/ الجمهورية العربية السورية .

٦ ـ علي حسين عيدان الحدباني/ الدمام/ المملكة العربية السعودية .

٧ ـ شحاتة رفاعي اسماعيل/ بروكسل/ بلجيكا .

٨ ـ جيدة رزيقة/ ولاية تيبازة/ الجزائر .

معركة بالسلاح



أقيمت البطولة العربية الفردية الرابعة للشطرنج في العاصمة التونسيّة ، فيما بين ٢٧ ديسمبر و٨ يناير من العام الحالي ، في أعقاب الأولمبياد الشطرنجي الضخم الذي عقد في مدينة دبي (من ١٤ نوفمبر الى ١ ديسمبر ١٩٨٦) ، والذي اشتركت فيه سبع عشرة دولة عربية ، تصدرتها العراق برصيد قدره ٣٠ نقطة ، وتلتها مصر (٢٩,٥ نقطة) ، ثم لبنان وتونس (٢٩ نقطة) ، ثم سوريا والمغرب واليمن الجنوبي وفلسطين (٢٧,٥ نقطة) . غير أن عدد الدول العربية المشتركة في بطولة العرب الرابعة لم يتجاوز إحدى عشرة دولة ، مَثَّل كل دولة منها لاعب واحد ، عدا الدولة المضيفة التي مثلها ثلاثة لاعبين ، هم الأستاذ الدولي سليم بوعزيز ، والأستاذ الدولي صلاح الدين حمادي ، واللاعب فارابي مالك ، وقد فاز أولهم ببطولة العرب الرابعة (٧ نقاط) ، وفاز الثاني بالمرتبة الثانية (٦,٥ نقاط) ، في حين جاء اللاعب السوري ميكائيل شادوروفيان في المرتبة الثالثة (٦,٥ نقاط) .

ومن الجدير بالملاحظة أن اللاعب السوري المذكور قد أثبت حضوراً أفضل في مهرجان دبي ، حيث حقق أفضل النتائج الفنية التي حققها أي لاعب عربي في الأولمبياد بفوزه على نخبة من الأساتذة الدوليين والأساتذة الكبار الذين يفوقونه في الرتبة والتصنيف الدولي ، من أمثال الأستاذ الكبير زاباتا

والدور التالي هو الدور الذي لعبه الفائز ببطولة العرب سليم بوعزيز مع مواطنه صلاح الدين حمادي ، الذي يعتبر من أفضل أدوار المباراة وأكثرها إثارة (انظر الشكل أعلاه) .

□ سليم بوعزيز	■ صلاح الدين حمادي
٢١ . ح - جـ ٦	ح × جـ ٦
٢٢ . ف × جـ ٦	ح - د٥
٢٣ . ف - و٤	ف - و٨
٢٤ . ح - ب٥	ح × ب٥
٢٥ . ف × ب٥	ف - جـ٨
٢٦ . ف - جـ ٦	ف - هـ ٧؟
متخلياً عن البيدق ومن ثمّ الدور	
٢٧ . أ ٤	ف - د٨
٢٨ . ف × حـ ٦	ز ٥

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد ٣٤٠

مارس ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ د . هانية السعيد ـ القادسية/ الكويت .

٢ ـ محمود مسلمي ـ الزقازيق/ ج م ع .

٣ ـ أمين كيوان ـ دمشق/ سوريا .

٤ ـ د . لينا القباني ـ موسكو/ الاتحاد السوفييتي .

٥ ـ عبد الرحمن التميمي ـ سورابايا/ اندونيسيا .

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ أحمد العاقب ـ الخرطوم/ السودان .

٢ ـ علي الحمزاوي ـ القيروان/ تونس .

٣ ـ فؤاد سلامة ـ عمان/ الأردن .

٤ ـ عبد السلام عليو ـ الرياض/ السعودية .

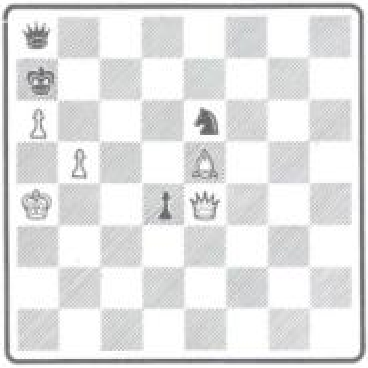
٥ ـ صلاح المبروك ـ صرمان/ الجماهيرية .

لحصر الفيل ثم أخذه ولكن هيهات

٢٩ . و ٤ !	و ٦
٣٠ . و × ز٥	و × ز٥
٣١ . ف ـ د٥+	م ـ حـ ٧
٣٢ . ف ـ و٨	ف ـ د٧
٣٣ . أ٥ (لتحطيم هيكل البيادق)	م ـ ز٦
٣٤ . ف ـ د٦	م ـ و٥
٣٥ . م ـ و٢	ف ـ هـ ٦
٣٦ . ف ـ و٣	ف ـ جـ ٤
٣٧ . أ × ب٦	أ × ب ٦
٣٨ . م ـ هـ ٣	ف ـ و ١
٣٩ . ف ـ ز٤+	م ـ ز٦
٤٠ . ز ٣	ف ـ و٦ ؟
٤١ . ف ـ د٧	م ـ و٧
٤٢ . ف ـ ز٤	ف ـ ز٢
٤٣ . م ـ د٣	ف ـ و١+ (يائسة)
٤٤ . م ـ هـ ٤	ف ـ ز٢+
٤٥ . م ـ و٥	ف ـ ب ٧ ؟

كان الأجدر به الفرار بالفيل الأسود

٤٦ . ف ـ حـ٥+ !	م ـ ز٧
٤٧ . ف ـ و٨ +	يستسلم



مسألة العدد ٣٤٣ يونيو ١٩٨٧

مات ٣

من إعداد القارىء عاطف سالم (القاهرة)

حل مسألة العدد ٣٤١

(ابريل ١٩٨٧)

و ـ هـ ٥ ثم « كش مات » في النقلة التالية .

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

« تعقيب من سفارة بوتان »

تعقيبا على استطلاع « بوتان الحياة وسط المتناقضات » المنشور في عدد مارس ١٩٨٧ أرسل سعادة سفير مملكة « بوتان » لدى الكويت إيضاحا حول عدد من الأمور التي تناولها الاستطلاع .

يقول السفير : إن « بوتان » لم تخضع لحكم مهراجانات الهند ولا للاحتلال البريطاني ، لكن كان هناك مواجهة رئيسية بين « بوتان » والهند البريطانية عام ١٨٦٤ م وذلك عندما اضطرت « بوتان » إلى الدخول في حرب من أجل السيطرة على سهول ديور ، وقد تخلت « بوتان » عن هذه المقاطعات مقابل تقديم بريطانيا مساعدة سنوية لبوتان ، لتعويضها عن خسارتها في تلك المقاطعات .

وعلى عكس ما أورد الاستطلاع فإن سياسة « بوتان » الخارجية مستقلة تماما ، وأن كل ما يربطها بالهند هو علاقات الصداقة الحميمة ، والتعاون ، وروح حسن الجوار .

ولبوتان خمسة سفراء في العالم كما أورد الاستطلاع ، هم : ممثلها الدائم في الأمم المتحدة في « نيويورك » ، وممثلها في « جنيف » ، وسفراؤها في الهند والكويت و « دكا » ، وليس الصين ، وأخيرا أكد سفير مملكة « بوتان » أن البوتانيين هم من البوذيين الأتقياء ، وأن للدين دورا مهما في حياتهم ، ورغم ذلك فإن رجال الدين لا يتمتعون بأي سلطة داخل الدولة ، بل تنحصر وظائفهم في القضايا ذات الطبيعة الدينية فقط .

« أنت تسأل ونحن نجيب »

من الواضح أن مجلة العربي قد قفزت في السنوات الأخيرة قفزة نوعية في الشكل والمضمون ، وزادت رونقا وجمالا ، ولا أظن أنني بهذا أضيف جديدا ، إلا أن التعبير عن هذا المعنى يلح أحيانا على القارىء ، كلما أراد أن يكتب ناقدا لشيء أو معلنا فقده لشيء في مجلته ، فرغم أنكم تعلنون مرارا وتكرارا بأنكم تلبون رغبات القراء في كل ما يتصل بتحرير المجلة وتبويبها ، إلا أنني لاحظت أن واقع المجلة يختلف عن ذلك ، فمثلا استحدثتم أبوابا بالمجلة لا أظنها تليق بمجلة ثقافية ، مثل « الشطرنج » ، « والكلمات المتقاطعة » ، فهل تم ذلك باستشارة القراء ، في حين أنني قد كتبت إليكم مرارا أطالب بإعادة باب « أنت تسأل ونحن نجيب » وإعادة نشر صورة « الصفحة الثانية » لكنكم لم تلبوا طلباتنا ، فلماذا ؟

محمد تيوسارين

الجزائر / مدينة المديّة

العربي

نشكر للقارىء العزيز ثقته وملاحظته معا ، ونود في البداية أن نوضح أننا لا نعد بتلبية كل مطالب القراء ، بل نقول دائما بأننا ندرس اقتراحات القراء بعناية ، نضعها دائما محل الاعتبار ، وننفذ منها ما هو أكثر ملاءمة وإمكانية .

أما بالنسبة لبابي « الشطرنج » و « الكلمات المتقاطعة » فقد تكون ملاحظة القارىء صحيحة إلى حد ما ، لكن استحداث هذين البابين تم بناء على رغبة كاسحة من محبي هذين البابين ، وهذا يدل على أننا نأخذ بعين الاعتبار رغبات القراء ، بالاضافة إلى يسر إمكانية تنفيذ البابين و صغر المساحة المخصصة لهما نسبيا .

أما فيما يتصل بباب « أنت تسأل ونحن نجيب » فنحن نناقش مدى الحاجة إلى مثل هذا الباب ؟ وكيف سيكون ؟ وبخاصة في عصرنا هذا ، وهو عصر تفجر المعرفة وتعقدها في وقت واحد ، فثمة صعوبات وإشكالات تتصل بإمكانية تنفيذه على الوجه الصحيح ، وبنوع المعلومات التي يمكن أن يقدمها .

ثم إننا لسنا في عصر الكاتب الموسوعي الذي يمكن أن يجيب عن أسئلة من القراء في شتى المجالات ، مثلما كان يفعل الكاتب الكبير عباس محمود العقاد في بابه الشهير « يسألونك » .

فقد أصبح توفير المعلومة في عصرنا مهمة من مهام المكتبات العامة أو المتخصصة ، حيث يقوم أمين المكتبة ـ مستعينا بما لديه من مراجع وفهارس وأحيانا « كمبيوتر » ـ بتوفير المعلومة أو مصدرها ، ثم تصويرها وتقديمها لمن يحتاجها وفق نظام معين ميسر .

ثم إن المجلة ـ أيضا ـ لا تملك جهازا متفرغا ، يقوم باستلام أسئلة القراء ، وتوزيعها على متخصصين ، ليجيبوا عنها ، ثم يقوم بنشر ردودهم عليها حين تصله تلك الردود في حينها ، هذا فضلا عن صعوبة متابعة مثل هؤلاء المتخصصين للحصول على إجاباتهم في الوقت والحجم المناسبين .

في ضوء هذه الاعتبارات كلها يبقى أن نقول بأن المجلة يمكنها أن تنشر من أسئلة القراء ما يتصل بما ينشر فيها على الأقل ، أو بالقضايا التي تملك بشأنها مراجع أو مواقف واتجاهات ، وتجيب عنها ، وهذا ما يتحقق بشكل ما في باب « حوار القراء » .

ومع ذلك فالموضوع كله ما يزال قيد الدراسة والبحث ، ولعلنا نصل بشأنه إلى ما يرضي القارىء ، ويسهم في تحقيق أهداف المجلة الثقافية .

حول « مقال التغذية والأسنان »

بادىء ذي بدء اسمحوا لي أن أعرب عن عميق تقديري لمجلتكم « العربي » ، لما تبثه من ثقافة علمية وأدبية وفكرية ، تسهم في تعزيز أواصر رابطة العروبة ، وتغذي الشعور بالاعتزاز بلغتنا وثقافتنا العربيتين .

واسمحوا لي أن ألفت النظر إلى موضوع قرأته في العدد ٣٣٩/ شباط/ ١٩٨٧ ، تحت عنوان (التغذية والأسنان) ، بقلم الدكتور محمد محمد منصور ، على صفحة ٦٥ ، وحيث انني طبيب أسنان ، أسهم في تحرير مجلة « طب الفم » السورية ، فقد سمحت لنفسي أن أبدي ملاحظاتي على بعض ما ورد في ذلك المقال :

أولا : بما أن مجلتنا « العربي » تعتمد اللغة العربية أساسا لإيصال كل ما هو مفيد ، إلى كل عربي ، فقد راعني أن أجد في المقال كلمات أجنبية ، مخطوطة بالحروف العربية ، وبشكل مشوه ، يستحيل على

العربي
ص ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء..

القارىء العادي أن يفهم معناها ، ومقصدها ، وبالتالي يتعذر عليه فهم المقال بالصورة المطلوبة ، مثل :

١ - كلمة (الأنامل) وقد قصد بها كلمة ENAMEL بالأجنبية التي يقابلها في اللغة العربية عبارة « طبقة الميناء » ، أي ميناء الأسنان .

٢ - كلمة (الأسمنت) ، وقد قصد بها CEMENTUM بالأجنبية التي يقابلها في العربية كلمة « الملاط » .

٣ - كلمة « الدنتين » ويقصد بها DENTINE بالأجنبية التي يقابلها في العربية كلمة « العاج » .

٤ - كلمة (ميتابلزم) ويقصد بها METABOL-ISM بالأجنبية ، ويقابلها في العربية « الأيض » أو الاستقلاب » .

٥ - كلمة (الكربوهيدرات) ويقابلها بالعربية « ماثيات الفحم » .

وكلمات أخرى لم أشأ ذكرها منعا للاطالة .

ثانيا : من حيث الأرقام الواردة تحت عنوان « عناصر تركيب الأسنان » فأفيد بأن « طبقة ميناء الأسنان » تحتوي - وزنيا - على ٩٦٪ مواد غير عضوية (معدنية) ، و ١٪ مواد عضوية ، و ٣٪ ماء ، أما طبقة العاج فتحتوي على ٧٠٪ مواد غير عضوية (معدنية) ، و ١٨٪ مواد عضوية « كولاجينية » ، و ١٢٪ ماء . وأما الملاط فيحتوي على ٦٥٪ مواد معدنية (غير عضوية) ، و ٢٣٪ مواد عضوية « كولاجينية » ، و ١٢٪ ماء .

ثالثا : إن المادة العضوية الموجودة في « طبقة الميناء » هي نوع خاص من البروتين (الأجيين) ، وليست الكيراتين وذلك حسب المرجع (ORAL ANATOMY) .

رابعا : إن للسن قدرة محدودة على تجديد نسيجه العاجي ، أو زيادته ، وهو ما يسمى العاج الثانوي DENTINE SECONDARY الذي يتشكل بصورة طبيعية بعد بزوغ السن والعاج الثالثي أو المرمم ، والذي يتشكل كرد فعل دفاعي تجاه النخر ، والعوامل المؤذية لسطح السن ، كالسحل والتآكل .

خامسا : وعلى كل حال فإننا نثمن غاليا ذلك المقال ، لأن أمراض الفم والأسنان تعتبر من الأمراض الواسعة الانتشار في الأقطار العربية ، مع ملاحظة وجود جهل كبير بمبادىء المحافظة على صحة تلك اللآلىء .

سادسا : تطويراً لرسالة مجلة « العربي » أقترح إدراج باب جديد بعنوان « التعريب » ، تنشر به المصطلحات اللغوية الأجنبية ، ويذكر ما يقابلها في لغتنا من مصطلحات عربية ، أقرتها المجامع اللغوية ، بحيث تتناول كل حلقة فرعا أو تخصصا علميا ، وبشكل متناوب .

سابعا : أقترح - أيضا - قبل نشر أي موضوع ذي صبغة متخصصة أن يعرض على ذوي الاختصاص ، للتأكد من خلوه من الثغرات ، حرصا على الأداء الكامل للرسالة . وشكرا .

د/ عزمي عبد الكريم فريد

سوريا/ الزبداني

العربي

نشكر للقارىء العزيز اهتمامه ومتابعته ، وبالنسبة لاقتراحه بتقديم باب جديد بعنوان « التعريب » فمع إدراكنا لأهمية نشر المصطلحات العلمية الجديدة باللغة العربية مع مقابلها الأجنبي ، إلا أننا نرى أن هذا يخرج - نوعا ما - عن مهمة مجلة « العربي » ،

فهذه المصطلحات تهم بالدرجة الأولى الاختصاصيين الذين بإمكانهم الحصول عليها ـ بشكل أفضل ـ من المعاجم العربية المتخصصة .

أما بالنسبة لعرض الموضوعات على ذوي الاختصاص مما يرد على المجلة من مقالات متخصصة ، فمع أن من يكتبها ـ أصلا ـ من المتخصصين أنفسهم ، إلا أننا نقوم بمثل هذا العرض أحيانا ، حين نشعر بمثل هذه الحاجة ، وعند توافر الامكانية ، وجدير بالذكر أنه وصلتنا رسالة أيضا من الدكتور محمد الحكم طليمات ، من كلية الطب ، بجامعة حلب ، تتضمن بعض ما ورد في الرسالة السالفة الذكر من ملاحظات ، لذا اكتفينا بنشر الرسالة الأولى .

« العربي » باللغة التركية

أنا محاضر في لغة القرآن الكريم ، في كلية الالهيات ، بجامعة أنقرة ، وبحكم هذا التخصص يجب علي الوقوف على كل ما يمت إلى العرب والعربية بصلة ، وبخاصة ما يستجد في تعلمها ، وتعليمها ، وفي منشوراتكم التي أراها أحيانا ، وأسمع عنها كثيرا ، أجد النافذة المثالية المطلة على العالم العربي . فنهيب بكم يا أبناء الضاد إرسال كل ما يمت إلى العربية بصلة ، وبخاصة مجلة « العربي » الغراء ، وأيضا مجلة « عالم الفكر » ، كما أقترح فتح مكتب للعربي في أنقرة ، لاصدار مجلة « العربي » باللغة التركية ، وأعتقد أن ذلك سيحقق نتائج طيبة .

مساعد رئيس قسم اللغة العربية

سليمان بايارا

أنقرة/تركيا

العربي

نشكر للقاريء الكريم اهتمامه ، وقد أرسلنا إليه ـ على عنوانه الذي في رسالته ـ بعض أعداد مجلة « العربي » الأخيرة ، وكتاب « العربي » .

ويمكنه بالنسبة لمجلة « عالم الفكر » أن يكتب للسيد رئيس تحرير المجلة ، لعلهم يوافونه بما يلبي حاجته منها ، أما فيما يتصل باقتراحه بفتح مكتب في أنقرة ، لاصدار مجلة « العربي » باللغة التركية فلا نظن أنه من المقترحات الممكنة ـ على الأقل ـ في الوقت الحاضر .

الوجود العلمي العربي في الخارج

إنها لفكرة رائعة من مجلة « العربي » أن تطرق باب الوجود العربي في دول الغرب ، وذلك من خلال الاستطلاع المصور الذي قدمه صلاح حزين عن الوجود العربي في أمريكا .

وبهذه المناسبة أرجو أن تطرق المجلة باب الوجود العلمي العربي في تلك الدول ، وبخاصة أننا نسمع كثيراً عن علماء عرب ، لهم بصمات جيدة في المجالات العلمية المختلفة في الغرب ، وفي أمريكا ، مثل الدكتور فاروق الباز ، وغيره .

إن مناقشة هؤلاء في الظروف التي دفعتهم إلى الهجرة من بلادهم ، والنجاح الذي أحرزوه في الخارج ، قد تكون من أفضل السبل لدفع بلادنا إلى تقديم رعاية أكبر للنابغين من أبنائها ، كما أنها تدعم الثقة بقدرة الانسان العربي على الابداع والانجاز إذا ما توفرت له الظروف المناسبة ، وشكرا .

منتضر قطان

حلب / سوريا

العربي

نشكر للقاريء الكريم اهتمامه ، ونعده بأن تكون وجهة نظره ، محل دراسة في مجلس التحرير .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

يونيو ١٩٨٧ م

الرياضيّات في حياتنا

تأليف: زلاتكا شبورير

ترجمة: د. فاطمة عبد القادر المما

الكتاب ١١٤

٥٠٠ فلس

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢١٣ أول يونيو ١٩٨٧

سيدات متقاعدات

تأليف: إدوارد بيرسي، ريجنالد دنهام
ترجمة: سالم علي سالم
مراجعة وتقديم: د. أحمد النادي



لوحة «الصرخة»
للفنان السعودى سلمان باجبع

ذو القعدة ١٤٠٧ هـ - يوليو (تموز) ١٩٨٧

العربي



اللاذقيّة
موطن للجمال

السياحة
في بلد حار

نيويورك
تفاحة عسيرة الهضم

SANYO سانيو



حجم وتصميم لكلّ عائلة

المطابخ الحديثة ، مثل العائلات في هذه الأيام ، تكون مختلفة . لذلك تقدم سانيو تشكيلة كاملة من البرادات/الفريزرات من حجم 'سوبر جمبو' الفائق السعة إلى حجم 'ميني كيوب' المدمج لتتناسب واحتياجاتك . كل منها تتميز بتشغيل بمنتهى السكون ، واقتصادي ، ومتانة سانيو المعهودة . لديك سانيو موديلاً لكل منا ، من 'جمبو' إلى 'ميني كيوب' من التصميم الخلفي المسطح إلى التصميم الرفيع الأنيق . إختر ما يناسب عائلتك .

العدد ٣٤٤ السنة الثلاثون يوليو ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 344 July 1987 P.O.Box:748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤١٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقياً "العربي" الكويت - تلكس: MITR 44041 KT
تليفون فكسيميلي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

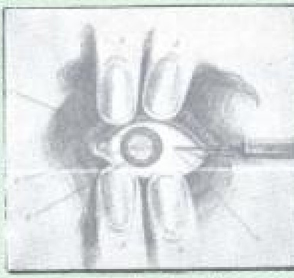
الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٢٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد



وقفة مع الكحالين العرب ص ٦٠



الطيران حول العالم ص ١٢٠



الفيلم الروائي المغربي ص ١٥٢



نعمان
عاشور



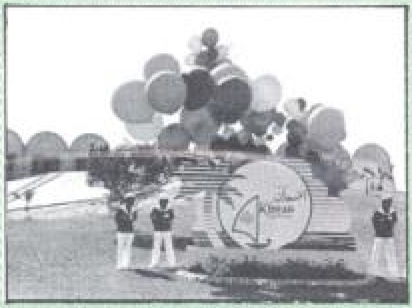
زينب
الكردي

استطلاعات ومقابلات

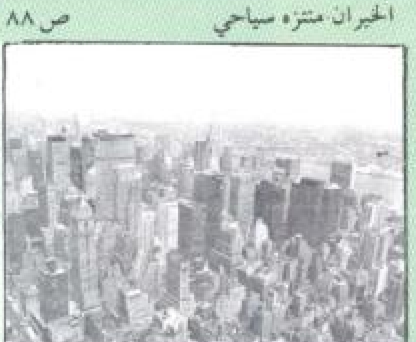


صورة الغلاف

اللاذقية موطن للجمال الطبيعي الساحر بين الجبل والبحر . .
(طالع الاستطلاع ص ٦٨)



الخيران منتزه سياحي ص ٨٨



نيويورك تفاحة عسيرة الهضم ص ١٣٢

أبواب ثابتة :

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

في الرابع من هذا الشهر (يوليو ١٩٨٧) تكون قد انقضت على معركة حطين ثمانمائة عام ، وحطين هي رمز انتصار عربي ، وإسلامي ، على عدوان مسلح ، احتل الأرض ، وأذل الأهل .

وقد ترك هذا الانتصار التاريخي آثاره التي تفاعلت في ذلك العصر ، وانتقلت الى عصرنا الحديث ، فقال الجنرال غورو القائد الفرنسي الذي احتل دمشق في العشرينيات من هذا القرن بعد أن انتصر في معركة ميسلون ما معناه : « ها قد عدنا من جديد يا صلاح الدين !! » .

بين هذين التاريخين وبعدهما أصبح العرب والمسلمون متفرقين في أوطانهم ، أذلة ، تابعين ، تأكل خيراتهم الحروب .

وعلى الرغم من أن التاريخ لا يعيد أحداثه بحذافيرها وتفاصيلها الدقيقة ، فإن اليوم أشبه بالبارحة ، حيث أننا مازلنا في دورة التاريخ منفعلين لا فاعلين !

و « العربي » التي حملت مشعل الاستنارة في الثقافة أفردت لمناسبة مرور ٨٠٠ سنة على معركة حطين ما تستحقه من اهتمام ، فكتب لنا أساتذة أجلاء مثل : د . شاكر مصطفى ، و د . سعيد عاشور ، وجمال الغيطاني ، مداخل لفهم الصراع الحضاري الذى مازال متقدا منذ زمن طويل ، كأمل يرتجى ، وعبرة تحكى .

ويساهم في هذا العدد نخبة أخرى من رجال الثقافة والعلم والفنون من الخليج العربي شرقا ، الى المحيط الأطلسي غربا ، وتذهب بك « العربي » في هذا العدد الى (نيويورك) ، في حرها الرطب ، لتسبر أغوار التناقضات في هذه المدينة الكبيرة ، كما تقدم لك « العربي » استطلاعا عن مدينة اللاذقية العربية وهي تستعد لاستقبال الدورة العاشرة لألعاب حوض البحر الأبيض المتوسط الرياضية في سبتمبر القادم .

وبين هذه المقدمة والصفحات الأخيرة من هذا العدد مجموعة مقالات منتقاة ، تزيد القاريء ثقافة ، والمثقف عمقا . والى العدد .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمّد الرميحي

الجبهة الخاطئة..!

« اننا نرى أن طاقات وثروات ايران والعراق تبدد على جبهة خاطئة ، ان المكان الطبيعي لتلك الطاقات هو جبهة الصراع على مستقبل المنطقة مع العدو المشترك التى فضحت عقود احتلاله الأربعة لأرض فلسطين حقيقة نواياه العدوانية تجاه كل دول المنطقة » .

هكذا حدد أبو الدبلوماسية الكويتية الشيخ صباح الأحمد الجابر - نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الكويتي - ذو التجربة الدبلوماسية الطويلة ، حدد موقف الكويت - ليس فقط تجاه الحرب المدمرة بين الجارتين المسلمتين العراق وايران - ولكن أيضا حدد بها جدول الأولويات التى يؤمن بها كل عربي ومسلم ومحب للعدل والانسانية ، وهى أيضا سياسة الكويت التى آمنت بها ودافعت - وماتزال - عنها .

قال الشيخ صباح الأحمد ذلك في خطابه للدورة الحادية والأربعين (سبتمبر ١٩٨٦) أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة .



● الشيخ
صباح الأحمد
نائب رئيس
الوزراء وزير
الخارجية الكويتي

وكانت روح خطابه تتركز على المطالبة بوقف استخدام القوة والعنف والحث على اللجوء الى الحوار والتفاوض ، وذلك هو العامل المشترك لكل المواقف الرسمية الكويتية تجاه الحرب المدمرة التي سوف تدخل بعد شهرين ونيف من اليوم عامها الثامن كي تكون من أطول الحروب الإقليمية في هذا القرن .

لقد أريقت دماء كثيرة حتى الآن في هذه الحرب ، وصرفت أموال طائلة ، حتى قدر بعض الاقتصاديين أن الأموال التي صرفت حتى الآن تعادل دخل ايران والعراق من النفط منذ أن اكتشف النفط في البلدين ! بجانب هذا الهدر الاقتصادي الهائل فقد قضت هذه الحرب على عشرات الألوف من الشباب المسلم في كلا الطرفين ، وهي خسارة أعظم وأفدح .

الكويت ترفض أن تستقطب لطرف عالمي ضد طرف آخر

ولقد تدخلت أطراف كثيرة للتوسط في وقف هذه الحرب ولكنها باءت كلها حتى اليوم بالفشل ، وفي الوقت الذى أعلنت العراق تكرار قبولها للمبادرات النشطة الهادفة لوضع حل عادل وشريف لهذه الحرب ، استمرت ايران في تكرار رفض هذه المبادرات ، وهى مبادرات إما دولية على مستوى الأمم المتحدة ، وإما اقليمية على مستوى دول عدم الانحياز والدول الاسلامية .

ولقد أصدر مجلس الأمن قرارات عديدة طالب فيها بوقف الحرب بين البلدين ، وقد أكد في قراره رقم ١٩٨٤/٥٥٢ - ضمن أمور أخرى - على حرية الملاحة في الخليج ، وهو ممر حيوى .

لقد كررت الكويت نداءاتها من فوق كثير من المنابر ، أن الخليج ممر مائى حيوى ، يجب أن تبقى شواطئه رمز استقرار وطمأنينة لا منطقة اهتزاز وفوضى ، كررت هذه النداءات منطلقة من مصالحها ومصالح جيرانها وأشقائها الحيوية . ولقد كانت سياستها ثابتة تجاه هذا الموضوع وهى أن هذا الممر الدولى - اذا أصبحت حرية الملاحة فيه غير آمنة (من - والى) دول ليست أطرافا في النزاع - فان هذا سيعرض حركة الاقتصاد العالمى لنكسة كبيرة .

ورغم هذا الموقف الواضح في الحياد ، فان ناقلات الكويت النفطية التجارية استهدفت بالاعتداء المتكرر ، فلجأت الكويت الى مجلس الأمن الذى أصدر قراراته بهذا الشأن ، ولكن أطرافا تريد أن تؤجج نار الصراع لم ترعو مما جعل الكويت لا تجد أمامها إلا خيارا واحدا ، وهو الاتصال بالدول دائمة العضوية في مجلس الأمن ، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

ولم تكن هذه الخطوة خارجة عن المسار المنطقى لسياسة الكويت الخارجية منذ زمن طويل ، وهو الخيار الوطنى المشترك والممكن الذى يتمثل في علاقات متوازنة مع الجميع ، وقد اقترحت تسجيل نصف أسطولها التجارى النفطى في الولايات المتحدة ، كما استأجرت بعضا من السفن السوفيتية لحمل نفطها الى العالم .

هذه الخطوة اتخذت بعد روية ودراسة ، فالكويت ترفض أن تستقطب لطرف عالمى ضد طرف آخر ، كما ترفض أن تستقطب لطرف اقليمى على حساب طرف آخر . ورغم الاستفزاز المتكرر فقد حرص مخططو السياسة الكويتية على وضع العالم ممثلا في القوتين العظميين ، والدول دائمة العضوية في مجلس الأمن أمام مسؤليتهم الدولية .

واذا كانت القوة على اطلاقها لا تمنح حقا ولا تحرمه ، فإن الكويت بخطوتها تلك حملت المسئولية لقوى دولية لها تأثيرها في العالم ـ كما ينص القانون الدولي المستقر ـ لحماية الملاحة في الخليج من مغامرات غير مدروسة .

ولقد لجأت الكويت مرارا في حالة التأزم الاقليمي للسعي بين الأطراف المتنازعة للعودة الى الحالة الطبيعية ، وقد بذلت أقصى جهدها لاستمرار حالة الاستقرار عن طريق الحوار ، ولكنها في نفس الوقت ترفض الاستفزاز مهما كانت الأطراف التى تقوم به . وكان وعى الكويت الدائم بحقائق العصر هو محور سياستها الخارجية التى قامت على أساس من العلاقات المتوازنة دون افراط ولا تفريط .

الداخل والخارج :

رفض هذا الاستفزاز نابع من ثقة تامة بالأوضاع الداخلية ، فخيارات الكويت السياسية الخارجية هى تعبير صحيح وواضح عن سياسات داخلية رشيدة ، والشعب الكويتى الذى جبل على الحوار بين فئاته يرفض عن بكرة أبيه أن يسلم استقلاله أو جزءا منه ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ لأى طرف مهما كان . فرغم مساحة الكويت وعدد سكانها المحدود ـ اذا قورنت ببعض الدول المجاورة ـ إلا أن شعبها تسوده مشاعر حقيقية من الاطمئنان والثقة ، مشاعر ليست جديدة أو طارئة وانما قديمة قدم تشكل الكويت الحديثة .

وقد ازدادت هذه المشاعر رسوخا في الكويت الحديثة نتيجة للسياسات الحكيمة التى سارت عليها قيادتها السياسية مٌنذ الاستقلال في الاستثمار الأمثل للمال والرجال على حد سواء . . المال في استخدامه لبناء دولة حديثة ، والرجال ايمانا بأن الانسان هو الهدف الحقيقى لخطط التنمية .

النموذج الذي تتبعه الكويت نموذج التوازن الفاعل.. لا المنفعل

لذلك فان أى خطوة سياسية خارجية تتخذها الكويت هى تعبير أمين عن رأى عام داخلى ، مرحب بها وموافق عليها ، وأحسب أن هذه السياسة أيضا موضع ترحيب من الجيران والأقطار العربية والأطراف الدولية !

لعل مظاهر هذا الترحيب قد ظهرت بوضوح في التئام المؤتمر الاسلامى الخامس في مطلع هذا العام بالكويت ، ورغم الصعوبات الاقليمية التى كادت أن تصبح عوائق كئودا ـ فقد التأم المؤتمر ونجح وحضره معظم المشاركين في هذه المنظمة الاقليمية الهامة . انها سياسات التوازن وتغليب الحكمة .

التوازن الفاعل لا المنفعل :

النموذج الذي اتبعته الكويت في سياستها الخارجية الأخيرة ، هو نموذج التوازن الفاعل وليس المنفعل ، توازن يعتبر أن مياه الخليج قسمان : قسم دولى على دول العالم أجمع ذات المصلحة أن تهتم به وتحمى المصالح العالمية من خلال ذاك الاهتمام ، وقسم اقليمى ، وهو المياه الاقليمية التى تمارس عليها الدولة سلطاتها ، وهى حق من حقوق الدولة لا تقبل فيه أى منازع .

وأثبتت الكويت بهذا الموقف تحركا دوليا يتسم بمبادرة عالية المرونة ، وجاء على لسان صباح الأحمد أنه « وقاية تفضل دائما على العلاج » ، وهو في نفس الوقت يثبت من جديد أن متخذ القرار السياسى في الكويت (كلى القدرة) ـ حسب تعبير أفلاطون ومن تبعه من المفكرين السياسين ـ أى أن كل الخيارات هى خيارات وطنية لا توجهها سلطة أو قوة خارجية ، وحيثما اتضحت المصلحة الوطنية باتجاه ما ، كان القرار السياسى في ذلك الاتجاه .

هذا لا يعنى أن هذا القرار أو ذاك دائم ، فلا توجد في السياسة قرارات دائمة وثابتة ، ولكن توجد مصالح وطنية ثابتة ودائمة ، وأينما وجدت هذه المصالح وجد ذاك القرار .

لقد وفرت الحربان العالميتان في هذا القرن دروسا عميقة للدول ، وبخاصة الدول الصغيرة ، وهى أن تبقى محايدة بين الشرق والغرب ، وأن تبقى مستقلة عن القوى الاقليمية ذات الطموحات غير الشرعية ، انه « الموقع الثالث » الذي تحدثت عنه في البداية بعض بلدان امريكا اللاتينية ، وأصبح حقيقة منذ مؤتمر باندونج في سنة ١٩٥٥ وحقق نجاحات كبيرة في الستينيات وربما السبعينيات . خطوة الكويت الأخيرة في حقيقة الأمر تعديل ابتكاري ناجح في ضبط سياسات قائمة على القوة ومنفلتة من كل الضمانات الدولية .

خيارات السياسة الخارجية تعبير واضح عن سياسات داخلية رشيدة

فالدول كالأفراد ، يمكن لها أن تعبث بالأمن لفترة ، ولكنها لاتستطيع أن تعبث فيه طويلا دون مسئولية دولية .

وفي ظروف الأزمات تظهر حكمة السياسة الخارجية ، وفي ظروف الأزمة اليوم في الخليج كان جليا أن تلك السياسة الكويتية ـ فضلا عن حكمتها ـ مؤيدة من كل قطاعات الشعب الكويتي .

وعندما يصدر التاريخ حكمه على المتسبب الحقيقي في ايلاج الدول الكبرى في هذه المياه الاقليمية بالغة الحساسية سيتعرف دون عناء وبداهة

تحـرك الكويت الـدولي.. وقايـة تفضـل دائـمًا عـلى العـلاج

شديدة على أن تلك القوى المغامرة البعيدة عن المنطق والسادرة في الحرب واراقة الدماء والرافضة لصوت العقل .. هي المتسبب الحقيقي في كل ذلك .

لقد أفاضت تلك القوى وملأت الدنيا ضجيجا في قضية واحدة وهي : من المتسبب بالحرب ؟ ولكن هاهي تعود وتنقض ذلك فتبادر بالاعتداء بضرب سفن تجارية تحمل قوت شعب مسالم تحت شعارات متهافتة لاتصمد للنقاش معتمدة على القوة البحتة .

لقد نسيت أو تناست أن الفرق في (القوة) بين الدول بدأ يختلف في عصرنا ، كما أن مفهوم القوة هو مفهوم معقد في السياسة ، فليست القوة في السياسة كما هي القوة في الطاقة مثلا ، ففي الأخيرة يمكن حسابها ، أما في الاولى فإن حسابها معقد ، وحتى الاختلاف في عدد السكان والمساحة والجيوش لايعني الاختلاف في كل عناصر القوة ، فمسرح القوة يعاد بناؤه اليوم ، والأدلة كثيرة في التاريخ الحديث والمعاصر ، ومن أبرزها أن أمريكا مثلا لم تستطع هزيمة فيتنام ، والاتحاد السوفيتي - من جهة أخرى - لم يستطع اسكات المقاومة في افغانستان .

ومصادر القوة في الكويت التي تستطيع بها أن تقف أمام الاستفزاز مصادر متعددة منها علاقتها المتميزة بمحيطها العربي وبمعظم دول العالم ، واعتزاز شعبها بتجربته ، ووقوفه بحزم أمام كل أشكال الابتزاز صفا واحدا ، فعندما حاولت أيد أثيمة الاعتداء على أمير الكويت في مايو ١٩٨٥ وقف أهل الكويت والمقيمون فيها صفا واحدا ضد ذاك العمل البربري ، وبعد كل محاولة تخريب تزداد الصفوف تراصا خلف قيادتها محافظة على تجربة تنموية وطنية ، معالمها واضحة في الانسان وفي المكان .

استنادا على كل هذه المعطيات نستطيع أن نؤكد أنه لاخوف على الكويت - ولاخوف على شعبها - وهي رغم كل هذا الامتحان الصعب مازالت محتفظة بخطها الواضح في الدعوة الى اطفاء نار الحرب والعودة الى السلام وتسخير كل المصادر المتاحة للتنمية لاسعاد البشر في هذا الاقليم المضطرب ، والاستعداد لدحر طرف دخيل هو للعروبة والاسلام والحق عدو مبين .

موقف مبدئي !

لقد كانت سياسة الكويت تجاه قضية الحرب واضحة ترفع صوتها بنداء العقل والمنطق ، ليس اليوم ولا أمس ، ولكن منذ زمن طويل ، وثمة وثيقة

أن تصنع حربا فتلك قضية سهلة.. ولكن الصعوبة تكمن في صناعة السلام

أخرى تمثل رأي الكويت مؤرخة في سبتمبر ١٩٨٤ عندما قالت بالنص : (ان المجتمع الدولي بأسره مدعو الى عمل جاد ونشيط في هذا المجال ـ مجال وقف الحرب العراقية الايرانية ـ دون انحياز لطرف ضد آخر فالمطلوب هو اتخاذ قرار واضح ضد استمرار الحرب ، الى جانب تحقيق السلام . . . واذا ما تصورت بعض الدول أن في استمرار الحرب فوائد لها تجنيها بشكل أو بآخر ، فاننا نذكر بأن تلك المنفعة آنية وضئيلة ، اذا ماقيست بالنتائج المريرة لاستمرار تلك الحرب ، ان الكويت ترى أن البشرية جمعاء صاحبة مصلحة مباشرة في وقف هذه الحرب الطاحنة والانتقال الى مرحلة البناء) .

هذا الموقف المبدئي ـ بتعبيرات مختلفة ـ دأبت الكويت على الحديث عنه ، علنا في المحافل الدولية ، وفي الاجتماعات الرسمية ، وقالته لكل الأطراف البعيدة والقريبة . أفبعد كل ذلك يأتي قائل ، يطفف في تلك السياسة المعلنة الواضحة . . ؟ لست أظن من يفعل ذلك الا هادفا لقصد خبيث ، ومستغلا لظرف طاريء ، وعاجزا في كل الاحوال عن اثبات عكس تلك السياسة .

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي أرادت قلة خاطئة خلقها في الداخل ، فقد رفضت القيادة السياسية الكويتية ـ عن وعي بمسؤوليتها وبالظروف ومتغيراتها ـ أن تتخلى عن الحلم والحوار الذي اختطته لنفسها وتحكيم القانون في كل خطواتها ، كما رفضت أن تحقق مايريده لها هذا البعض من عزلة ، فقد جاءت الحوادث لتزيد من التحام الحاكم بالمحكوم ، ومازالت الأبواب مفتوحة كعادتها منذ سنين ، وكذلك القلوب .

فان ارادت تلك الافعال المعزولة اثارة اليأس ، فقد ازدادت الثقة ، وان قصدت زرع الفرقة فقد حصدنا التكاتف . . والكويت في كل الأحوال قادرة على تجاوز العقبات .

أسباب الحروب :

يقول لنا مؤرخ بريطاني ذائع الصيت هو « الن تيلور » ـ بعد دراسة لعدد كبير من الحروب الاوروبية « ان هناك أسبابا ظاهرة للحروب كما أن هناك عوامل خفية » ، وكان مجال دراسته الحربين العالميتين في هذا القرن . وعلى حد تعبيره « هناك أسباب مباشرة للحرب وأسباب أكثر عمقا » ، ولقد كتب الكثير في أسباب الحرب العراقية الايرانية ، وهي الآن تتقدم لتدخل عامها

الثامن . ومن الاستخفاف بالعقل أن نقول ـ كما يقول البعض ـ انها أسباب ذات طبيعة شخصية ، أو أن انتهاءها متوقف على ذهاب هذا وذاك من الحكام ، تلك تفسيرات لاتستقيم مع المنطق ، فهناك أسباب أعمق من ذلك بكثير ، أسباب ضاربة في القدم ، وأخرى لها علاقة بالطموحات الخاصة بالسيطرة والتحكم في هذا الممر المائي الحيوي ، وبالتالي التحكم في سكانه .

فليس من المعقول أن يذهب عشرات بل مئات الألوف من الضحايا ، وتطحن الحرب الأخضر واليابس ، لأن البعض لهم وجهة نظر في كيف يحكم هذا الشعب أو ذاك ، لابد أن تكون هناك أسباب أعمق نبحث عنها في أعماق التاريخ وفي طبيعة الجغرافيا وفي واقع الاقتصاد والموارد ، هذه الاسباب العميقة المدى في الحروب هي التي يجب أن نتوجه لدراستها ، ولعلنا نبدأ بفهم طبيعة « الدولة القطرية الحديثة » وتناقض مفهومها مع فكرة (الدولة المذهبية)

أو لعلنا نبدأ بدراسة التناقض غير المحلول بين الدين والدولة في التاريخ الحديث والمعاصر لدولة الشرق الاوسط ، أو لعلنا نبدأ ـ ثالثا ـ بدراسة (الطريق المسدود) عندما تصبح الحرب طريقا للبقاء في السلطة .

كل ذلك احتمالات ممكنة لفهم طبيعة تلك الحرب المدمرة التي بدأت تضرب عرض الحائط بالأعراف الدولية المستقرة .

وأخيرا . . .

لعل التصعيد الأخير في الأسابيع القليلة الماضية ، هو تطبيق لفكرة طرحت منذ فترة ، مفادها أن احتمال تقليص هذه الحرب وحصرها ، ومن ثم وقفها ، يبدأ بمحاولة توسيعها ، لعل البعض قد اقتنع بهذا المفهوم الخاطىء ، فحاول تلك المحاولة الأخيرة ، انها تدويل الحرب من أجل الفرار من قرار شجاع بالخطو نحو السلام ، وان تصنع حربا فانها قضية سهلة ، ولكن الصعوبة تكمن في صناعة السلام .

واذا كانت أحلك الساعات هي تلك التي تسبق الفجر ، فهل ننتظر فجرا جديدا يبزغ قريبا .

نرجو أن تتغلب الحكمة ويسود منطق العقل ويعم السلام الذي سوف يكون بلا شك لصالح الشعوب المحيطة بهذا الممر المائي الحيوي ، من أجل تنميتها والأخذ بيد انسانها الى رحاب أحسن وأفضل . □

محمد الرميحي

أقوال

■ « ان شرارات حرب الخليج تتناثر الان على ضفافه وفوق مياهه وان آلام الحرب واخطارها اصبحت لا تقتصر على الذين يحملون مسؤولياتها المباشرة ، وانما امتدت حتى الى الدول الكبرى ، وهددت حرية الملاحة الدولية ، وخرجت من اطارها المحلي ، وامست من الهموم العالمية . . »

الشيخ جابر الاحمد

امير دولة الكويت

■ « نحرص على بناء علاقاتنا الخارجية على أساس المودة والصداقة والتعاون والاحترام المتبادل مع الجميع ، في اطار مصالحنا الوطنية والعربية والاسلامية ، واذا ما تعرضت ديارنا للعدوان أو انتهكت سلامة أراضينا وسيادة وطننا فلن نتردد لحظة واحدة عن مجابهة المعتدي أيا كان »

الشيخ سعد العبدالله السالم

ولي العهد رئيس مجلس الوزراء - الكويت

■ « على القوتين العظميين تحمل المسؤولية والعمل معا من أجل ايقاف الحرب المدمرة بين العراق وايران ، لأن وقف هذه الحرب يخدم أمن دول المنطقة ومصالحها »

الشيخ زايد آل نهيان

■ « إن حرية الملاحة مبدأ أساسي في السياسة الامريكية ، ليس في منطقة الخليج وحدها ، بل في العالم أجمع » .

ريتشارد ميرفي مساعد وزير الخارجية الامريكي

■ « إن الانتصار في الحرب العراقية الايرانية مستحيل ، وان السلام هو الحل الأفضل » .

الكسندر بيلونوجوف سفير الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة

■ « علينا جميعا أن نفعل كل مابوسعنا لوقف الحرب في أسرع وقت ممكن ، لأنها لاتضر فقط بالأطراف المتورطة فيها مباشرة ، وانما تضر أيضا بالعالم أجمع » .

أسامة الباز

■ « نؤكد أهمية الحفاظ على حرية الملاحة في منطقة الخليج بالنسبة لدول المنطقة نفسها وبالنسبة للاقتصاد العالمي بأسره » .

جان برنار ريمون وزير الخارجية الفرنسي

■ « إن الحكومة البريطانية تؤكد على ضرورة تأمين حرية الملاحة في الخليج ، وتعرب عن قلقها بسبب التصعيد في هذه المنطقة الذي يهدد حرية الملاحة » .

من بيان صادر عن وزارة الخارجية البريطانية .

حطين ما قبل حطين

والفرص الضائعة

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى

لا تقوم المعارك فجأة ، هكذا علمنا التاريخ .

يسبقها تمهيدات ، ومناوشات ، ومعارك صغيرة ، .. ثم تثور زوبعة عاصفة فتدمدم الحمم ، .. وتقوم قيامة المعركة .

فهل سبق معركة حطين معارك مهدت لها ؟

وما هو السلم الممتد من شخصيات التاريخ وأبطاله الذي ارتقاه صلاح الدين الأيوبي ؟

ان وقع لك كتاب النوادر السلطانية لابن شداد ، أو كتاب الروضتين لأبي شامة ، أو كتاب الفتح القدسي للعماد الأصفهاني ، فافتح فيها على حوادث سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م واقرأ ما جرى قرب طبرية يوم السبت خامس عشر من ربيع الآخر (٤ يوليو/ تموز) .

ما نسميه بيوم حطين كان ذلك اليوم ! . . .

صورته لدى الناس أعراس ، وزهو مهرجان ، وفرسان تزغرد بينها الرماح ، وسيوف تلعب بين السماء والأرض ، وطيف صلاح الدين ممدود على المعركة بين السهل والجبل ، أما الصليبيون فأقزام ، وظلال سوداء تمضي ذليلة ، محنية الهام في الأفق ! .

ولكن اقرأ التفاصيل . وقف عند ملحمة الدماء والأشلاء ، وعجين الجثث بالغبار ، ولهاث العطش ، والخيل تقضم اللجم ، أو تزحف ببطونها على السفوح ، والنيران تشوى الصدور المدرعة

و . . . العرق يسيل أنهارا مع الدم ! . . . لتعرف حطين الحقيقية ! .

حطين كانت ملحمة للرعب والموت الأحمر ولجوع السيوف ، ولكل الأهوال ، قبل ان تكون نصرا للمؤمنين . ما عرفوا النصر الأعظم فيها الا بعد أن عرفوا الهول الأعظم ! وبعد ان ذاقوا حتى الثمالة هذا الهول الأعظم .

قال أحد شهود المعركة [1] : « وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى وقيدت الأسرى بالحبال وفرشت القتلى الوهاد والجبال . ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثة وأربعين أسيرا يقودهم فارس ورأيت في بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس . ورأيت الرؤوس طائرة والعيون غائرة والجسوم رسمتها السوافي . وأشلاء الملتقى ملقاة بالعراء ، عراة ممزقة ، مقطعة السهام مبعوجة البطون ، مقلصة الشفاه . . . »

كان ثمن هذا النصر الغالي ، غاليا حقا ، وعلى الطرفين ، لا في أهوال المعركة وحدها ولكن أيضا في المعارك المتصلة التي سبقتها وعلى مدى تسعين سنة مريرة مريرة .

فرص ضائعة

السنوات التسعون التي انقضت بين سنة ٤٩٢ هـ ، سنة احتلال الفرنجة للقدس وسنة ٥٨٣ هـ سنة تحريرها منهم ، شهدت مئات المعارك من مثل هذه المعركة الأخيرة ، ثم شهدت مئات المعارك بعدها خلال مائة سنة أخرى ، . . ما فترت المعارك أبدا ولا هدأ السيف . القوس السلجوقية البعيدة المرمى كانت على الدوام على موعد مع السيف الصليبي الحديدي الثقيل . والقتال سجال . . .

هذا الثمن الغالي لحطين خاصة ، انما دفعه المشرق الاسلامي لأنه أضاع قبلها أكثر من حطين . بلى ! أضاع على الأقل أربع فرص من أثمن الفرص لانهاء هذا الوجود الفرنجي في البلاد ، . . واضطر بعد ذلك الى الانتظار الطويل ليحقق النصر الكبير الأول ، ثم ليحقق النصر الأخير . أأحدثك عن هذه الفرص الضائعة ؟ . . عن الحطينات التي ضاعت قبل حطين ؟ .

يوم وصل الفرنجة الصليبيون أول ما وصلوا الى الشام أطلوا عليه من الشمال . جاءوا من أوروبا عن طريق الأناضول ونزلوا أول ما نزلوا على انطاكية وحاصروها تسعة أشهر ، . . لا يستطيعون اختراق أسوارها .

قائدها المدافع عنها ياغي سيان مملوك تركي صمد للدفاع ، واستنجد بملوك البلاد حوله : برضوان ملك حلب ، وبأخيه دقاق ملك دمشق ، وبكربوغا صاحب الموصل ، وبابن منقذ صاحب شيزر ، وابن ملاعب صاحب حمص ، بل وبالسلطان السلجوقي نفسه بركياروق ، وبالخليفة العباسي ، فما أنجده منهم أحد . وأخيرا حين صدر أمر السلطان السلجوقي الى كربوغا بجمع قوى الشام ومعونة ياغي سيان . وسار كربوغا متثاقلا يتلوّم . . .

وتوقف ثلاثة أسابيع أمام أسوار بلدة الرها ، واجتمعت اليه جميع قوى الشام حين وصل انطاكية ، ولكنه وصلها بعد ثلاثة أيام فقط من سقوطها ودخول الصليبيين إليها ! بطلها ياغي سيان قتل وهو يحاول النجاة ، . . وضرب كربوغا الحصار على المدينة الفارغة من المؤن ! وفيها أكثر من مائة ألف صليبي ، هم كل الحملة الأولى ، فسرعان ما دب فيها الجوع حتى أكلوا النعال والجلود وعشب الأرض ، وأقبلت أعداد من الصليبيين تهرب من الحصار ، هرب الجرذان من السفينة الغارقة . وحين وصل بعض الهاربين الى القسطنطينية وأوروبا أنذروا ببوار الحملة الصليبية الأولى كلها . . . قالوا لقد هلكت !

---

(١) هو العماد الاصفهاني .

لم يكن ذلك غريباً . وقد أيقن به المحاصرون في انطاكية ، وبكوا مصيرهم . واعتمد عليه كربوغا فأقبل ينتظر انهيارهم ! . . حتى اذا خرجوا ذات يوم من أبوابها جوعا بائسة يائسة ! نصحه أصحابه باغتنام الفرصة لقتلهم دفعة بعد دفعة . . . فرفض . كان يريد ان يقتلهم دفعة واحدة ! فلما هجموا على جيشه المجموع هجمة واحدة يائسة هرب هذا الجيش كله . . . بلى ! هرب الجيش كله ! . . .

حطين الأولى كان ممكنا ان تكون في سهل العمق هناك بجوار انطاكية ، وعند الاطلالة الأولى للفرنجة على البلاد ولكن . . . ضاعت حطين الأولى !

الثانية : ووصل الفرنجة الصليبيون لفلسطين جوعا ناهبة دموية تحمل الصليب على الصدور ، وجنون الحقد والجشع في العيون والأيدي . واحتلوا القدس في مذبحة تكدست فيها الجثث أكواما في شوارع القدس وفي المسجد الأقصى . قالوا انهم ذهبوا بسبعين ألفا من المسلمين وخاضوا الدماء الى الركب !

بعد أشهر من هذا الاحتلال تحمل الفرنجة الصليبيون عائدين الى بلادهم . . . بلى ! تحملوا عائدين . لم يبق في فلسطين منهم سوى ثلاثمائة فارس ، وألفي محارب فقط . بقبضة من هؤلاء الفرسان احتل القائد الصليبي تانكريد : نابلس وبيسان وطبرية والجليل وهي من أملاك دمشق ، كما ضموا الرملة والخليل ، ونهبوا من هذه المناطق الثروات الهائلة . ولم يكن لهم من منفذ الى البحر،الا ممر ضيق عبر مرفأ يافا وكان خاوياً ، هرب أهله فاستغلوا المرفأ ! .

هل استغل ملك دمشق الفرصة ؟ هل استغلها خليفة مصر الفاطمي ؟ ما استغلها لا هذا ولا ذاك . ملك دمشق (دقاق) جاء أتابكه طغتكين الى طبريا قبل احتلالها فكان كل همه أن ينقذ نسخة مصحف عثمان رضى الله عنه منها . وأخذ المصحف . ودخل به في موكب حافل الى دمشق !! وأغلق الأبواب .

ويبلغ من جرأة الفرنجة على دمشق أن أرسل تانكريد اليها سفارة من ستة فرسان تحمل انذارا الى الملك دقاق باعتناق المسيحية ، أو ترك البلد ! وكان لدى دمشق عشرة آلاف فارس ، ولكنه الخوف على العرش شل الناس ، والقادة ، وضاعت الفرصة مرة أخرى في اقتلاع الفرنجة ، . . . وضاعت حطين الثانية !

داء التردد والخلافات

الثالثة : بعد ذلك بسنوات معدودة . وبعد أن ارتكب الفرنجة صنوف الوحشية في احتلال مدن الساحل الفلسطيني وقتلوا سكان أرسوف ، وأخذوا قيسارية بالسيف ، وذبحوا أهلها جميعا في المسجد الجامع المطل على البحر . . . وقفت الخلافة الفاطمية في مصر للمقاومة . كان لديها خمسون ألف فارس فيما يقولون . أرسلت ثلاث حملات متتالية برية وبحرية معا الأولى (في سبتمبر ١١٠١ م) بقيادة سعد الدولة القواسي (حاكم بيروت السابق) اتجهت الى الرملة . ولكن الوقت الطويل الذي أضاعته في عسقلان أعطى مملكة القدس الفرنجية فرصة الاستعداد لصدها . . . وقتل القواسي في المعركة !

وتلتها الثانية (في مايو ١١٠٢ م) قادها شرف المعالي ابن الوزير الأفضل ، وزير الخليفة ، كانت في عشرين ألف رجل . والتقت بالفرنج عند (يازور) قرب الرملة . في المعركة سحق الفرنجة في مقتلة عظيمة . وفر بعضهم الى يافا ولجأ بعضهم الى الرملة . واختفى ملك القدس في أجمة قصب فأحرقها المسلمون ، ولحقت النار ببعض جسده ففر بدوره الى الرملة . وكانت بلدا ضعيف التحصين . وكان في استطاعة المسلمين دخولها في غير عناء ليقبضوا على الملك الهارب ، ولكنهم اختلفوا ، ورأى فريق منهم الاتجاه الى يافا وفريق الاتجاه الى القدس . . . فلا حامية في المملكة كلها !

وكانت الشمس الى الغروب فأجلوا القرار الى

الصباح . وفي الليل استطاع بلدوين الملك التنكر والهرب ، ساعده شيخ من شيوخ البدو في نوع من الشهامة ! . . ودخل الفاطميون الرملة ، وقتلوا فرسان الصليبيين اللاجئين فيها . قتلوا أربعمائة ، وأرسلوا ثلاثمائة الى مصر . وطاردوا الملك حين عرفوا فراره . ولكنه فاتهم ، ودخل أرسوف وكانت فرحة الفرنجة به غامرة ، فلقد انتشرت الأخبار انه قتل . وعرف بلودوين أن نجدات فرنجية وصلت في البحر الى يافا فركب البحر اليها . . . كانت في مائتي سفينة . وقادها بلودوين ضد المسلمين الذين ضاعت عليهم الفرصة بالتردد ! . . . وخسروا حطين الثالثة !

الحملة التالية التي أرسلها الوزير الأفضل الجمالي برا بقيادة (تاج العجم) في أربعة آلاف فارس ، وبحرا برئاسة القاضي (ابن قادوس) لم تستطع فعل شيء لأن كلا من القائدين رفض التعاون مع الآخر . واكتفى ابن قادوس بأن يأخذ خطوط أهل عسقلان ، وأقام على يافا عشرين يوما ، واستدعى اليه تاج العجم فلم يأته ، ولا أرسل رجلا ! . . وكفى الله المؤمنين القتال ! ونجت مملكة الفرنجة !

معركة الأقحوانة

الرابعة : وبعد سنوات تزيد على العشر ، صح عزم سلطان السلاجقة على الوقوف للفرنجة فكلف صاحب الموصل (الأمير مودود) القيام بذلك مع أمراء الشام الآخرين .

وصاحب الموصل الأمير مودود كان رجلا عرف بالتقوى والورع . قالوا عنه انه كان من خيار الملوك دينا وشجاعة وخيرا . وانه كان مأخوذا بفكرة الجهاد في سبيل الله . فجاء الى أواسط الشام بجيشه والتقى مع القوى الاسلامية الأخرى ، ومع صاحب دمشق ، وهو مملوك بعينين كالصقر وحيوية لا توجد الا في مؤسسي الدول اسمه الاتابك طغتكين .

صحيح أن هذه القوى اعتصمت بقلعة شيزر في وسط الشام . واجتمعت بها (١٥ سبتمبر ١١١١ م/ ربيع الأول ٥٠٤ هـ) وضربت خيامها حتى على أسطح المنازل . في حين اجتمعت جيوش الفرنجة الصليبيين جميعها من الرها وانطاكية وطرابلس والقدس لقتالها في ستة عشر ألف مقاتل ! وصحيح أن المناوشات التي قام بها فرسان المسلمين منعت الصليبيين من الوصول الى مياه نهر العاصي للشرب . لكن المعركة ظلت موقوفة معلقة !! . وتخاذل الطرفان فتسربا من القتال ! الشيء الايجابي الوحيد الذي تم في هذا اللقاء هو اتفاق مودود وطغتكين على « المصافاة والمعاهدة بينهما » ، وحمل طغتكين الى صاحبه والى بقية الأمراء ما كان معه من الهدايا لهم والتحف والحصن العربية السبق والاعلاق المصرية . . . » واتفق الاثنان على معاودة الجهاد معا في السنة المقبلة . . . ولكن اللقاء لم يتم الا في عيد النحر أواخر سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م .

جاء مودود بجيوشه . وخرج طغتكين لملاقاته في أواسط سورية ، عند سلمية . وسلكا طريق سهل البقاع ووادي التيم الى بانياس المطلة على وادي الأردن . وبالغ طغتكين في اكرام صاحبه بأنواع « المأكول والملبوس والمركوب حتى نزل الطرفان على موقع الاقحوانة عند ضفاف طبرية . واجتمع الصليبيون في غربهم ، كل الصليبيين كانوا هناك ! . . .

ليس بين الاقحوانة وحطين في المدى الأرضي سوى كيلومترات معدودة ولكن بينها في المدى الزمني ٧٧ سنة ! على ان المعركة كانت واحدة . . . (وتسرع خلق كثير من العسكر . . . ونشبت الحرب بين الطرفين من غير تأهب ولا ضرب خيام ولا استقرار في منزل ولا مجال . واختلط الفريقان . فمنح الله الكريم المسلمين النصر بعد ثلاث كرات . فقتل من الافرنج تقدير ألفي رجل من الأعيان ووجوه الأبطال والشجعان . وملكوا ما كان نصب من خيامهم والكنيسة المشهورة . وأفلت (الملك)

بلودوين بعد ما قبض ، وأخذ سلاحه . وملكت دواب الرجالة وما كان لهم . وغرق منهم كثير في البحيرة ، (بحيرة طبرية) واختلط الدم والماء وامتنع الناس من الشرب أياما ، حتى صفت منه وراقت . والتجأ من نجا من الافرنج الى طبرية وأكثرهم جرحى . . . كان ذلك يوم السبت الحادي عشر من محرم سنة ٥٠٧ هـ (٢٨ يونيه ١١١٣ م . . .) .

(ولحق المسلمون بالفلول المهزومة التي لجأت الى المرتفعات غربي طبرية ، وظلت قابعة هناك ستة وعشرين يوما والماء ممتنع عليها . واجتمع بدو المنطقة عازمين على ابادتهم وان الظفر قد لاحت دلائله . والعدو قد ذل وانخذل . وليس في فلسطين ولا في القدس من حاميات تحميها بعد ان سحقت في الاقحوانة وبلغت طلائع المسلمين بيت المقدس ويافا . وأخربت أعمالها واستاقت مواشيها وغنمت ما وجدته فيها . . . ودامت هذه الحال حتى آخر شهر صفر . . .) :

لكن الجيش الاسلامي اكتفى بالمناوشات . لم يكمل الفتح « اكتفوا بارسال العسكر جرائد من بضع عشرة كردوسة في سهول فلسطين . والصليبيون في الجبل لا يظهرون للحرب . ولازم بعضهم بعضا . الفارس والراجل في مكان واحد لا يظهر منهم شخص . وجعل المسلمون يحملون عليهم فيصيبون منهم بالنشاب ما يقرب منهم ، ويمنعون المسيرة والعلوفة عنهم وقد أحدقوا بهم كالنطاق . وقد رحلوا عن منزلهم في ثلاثة أيام لكنهم اضطروا للعودة اليه . . » وبقي المسلمون ينتظرون !

« لم يبق في بلاد الفرنج مسلم الا وأنفذ يلتمس الأمان من الأتابك طغتكين ، ووصل اليه بعض ضرائب نابلس . ونهبت بيسان ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة ، والافرنج على حالهم متربعون والمسلمون على حالهم . . » لا يتحركون لاستثمار النصر ! وأخيرا قرروا العودة ! . . .

ونجت مملكة الفرنجة ! . . .

وأفلتت الفرصة . . . فرصة حطين المبكرة !

خناجر الليل

أفلتت حين استطاع طغتكين اقناع مودود بالعودة الى دمشق ومعاودة القتال في السنة التالية . ولكنهما لم يعودا للقتال أبدا . فبعد أشهر معدودة كان مودود قتيلا في صحن الجامع الأموي بدمشق بخنجر الاسماعيلية . وامتدت أصابع الاتهام الى طغتكين ! لقد خشي هذا المملوك الداهية ان ينتصر مودود على الصليبيين فيختطف منه امارة دمشق ! .

ولم تكن معركة الأقحوانة هذه فرصة ضائعة فحسب لكنها أنتجت أمراً أشد خطراً من ذلك بكثير .

فقد أعطت ملك القدس الزعامة الفعلية لجميع فرنجة المشرق . صار بعدها القائد الأعلى للقوات ، والزعيم الأوحد الذي يدين له بالطاعة أمراء الرها وانطاكية وطرابلس . وثبتت قواعد الفرنجة سنين طويلة جدا امتدت حتى سنة ١١٨٧ م . صار الصليبيون بعد ذلك جبهة متماسكة رغم قيامها على قواعد اقطاعية ، واستمر تماسك هذه الجبهة وغلابها المرير للمسلمين بعد ذلك سبعين سنة . . .

جميع قصة الصليبيات التي امتدت مائتي سنة ، انما تبدأ بهذه الفرص الضائعة . ولئن ضاع غيرها فقد كانت هي الأبرز والأخطر .

لقد ضاعت الأولى بحقد الأخ على أخيه وخوف الأخ من أخيه .

وضاعت الثانية نتيجة الجهل بقوى العدو والرعب الوهمي منه !

وضاعت الثالثة بالتردد وعدم اهتبال الفرصة .

وضاعت الرابعة بالمجان . . . ضاعت القدس لأن طغتكين خشي ان تضيع منه دمشق !

أربع مرات ارتسمت فيها حطين في الأفق ثم امحت . أربع فرص ضائعة كان كل منها إمكان حطين

قبل حطين ، كان حطين التي لم تكتمل . وبقدر ما كانت الفرص الضائعة تكثر كانت حطين تبتعد . . . وبقدر ما كان « صلاح الدينات » الآخرون يخفقون كان صلاح الدين الأخير يتأخر .

درجات السلم

وهكذا استمرت حطين الحقيقية تنتظر تسعين سنة حتى اكتملت في يوم واحد . .

اليوم الأخير (السبت ١٠ يوليو ١١٨٧ م) كان تلخيصا لآلام السنوات التسعين السابقة وان لم يكن انتقاماً لآلامها . كان نهاية خط المقاومة المتصاعد باستمرار .

فكما كانت هناك حطينات عديدة ضائعة قبل حطين . كان هناك « صلاح الدينون » عديدون ضائعون قبل صلاح الدين . ان بطولته الرائعة لا يجب ان تحجب بطولات سابقة عديدة ظهرت قبله . فما كان صلاح الدين « واحدا » فردا ولكنه « صلاح الدينون » كثيرون على امتداد مائتي سنة . وما كان « الصلاح » الا تطويرا لهم وحلقة من حلقاتهم ، وان قطفت في النتيجة ثمار تجارب الآخرين وبطولاتهم . انه البطولة البارزة في خط ممدود من رجال المقاومة ، ومن البطولات بدأ مع بدء الحروب الصليبية واستمر حتى ما بعد نهايتها . في هذا الخط تظهر سلسلة مجهولة طوتها الكتب والصفحات من كبار قواد المقاومة . وحده صلاح الدين خرج على الصف ، ترك الأسطر ، ليعيش في ذاكرتنا وخيالنا رمزا بطوليا ، لأنه أخيرا حرر القدس ! وأعاد معظم أرض الاسلام الى الاسلام .

في هذه السلسلة يأتي قبله زعماء الموصل : كربوغا ، جكرمش ، جاولي ، مودود ، اقسنقر البرسقي ، وعماد الدين زنكي ، ثم ابنه نور الدين ، ويأتي من الجزيرة سقمان ، وايلغازي بن ارتق ، وبرسق ، وبلك ، ونجم الدين البي ، ويأتي طغتكين واسماعيل واتر في دمشق ، وعلي كوجك ، ومظفر الدين كوكبرى في اربل وحران ، ويأتي الأفضل الجمالي ، والوزير المأمون ، ورضوان الولخشي من مصر . . .

هل يتذكر أحد هذه الأسماء التي كانت درجات السلم الى حطين ، وكانت الخطوات السابقة لصلاح الدين قبل صلاح الدين ؟ هل يذكر ذاكر ان على أكتافها صعد صلاح الدين الى قمته وتربع ؟ انها مشاريع أولى لصلاح الدين ، كانت تظهر وتتألق حينا من الوقت ، ثم تنطفيء في مستنقع العطالة العامة والتناثر المدمر ، والارهاصات التي تحاول وتفشل حتى اكتملت تدريجيا في عماد الدين زنكي ، ثم في ابنه نور الدين محمود وأخيرا في صلاح الدين !

القائد والفرصة السانحة

ان حطين لم تكتمل الا حين التقى القائد العبقري بالفرصة السانحة . وصورة صلاح الدين المهيمنة في التاريخ وفي الأخيلة موجات من الألوية المظفرة ، ليست أكثر من هذا اللقاء . السابقون له كانوا محاولات لم تكتمل ، أو لم تسنح لها الفرص . وقد عرضت فرص كثيرة ، لكن لم يكن هناك صلاح الدين بعبقريته الحربية ليستغلها .

انه شيء من التاريخ ، هذا الذي نسترده ، ونرويه ، ونعيد ذكره وتذكره . ولقد يكذبه رفضنا الدائم للمقولة الشائعة بأن التاريخ يعيد نفسه ، وانه لا جديد تحت الشمس . ولكنه قد يضع أمامنا بشكل أفضل واجبات وتضحيات المستقبل التي لا بد منها .

وإنها لمآس وتضحيات تزلزل الحجارة تلك التي تنتظرنا في الغد . حطين المقبلة سوف تكون قطعا من الجحيم تنفجر في الأرض والناس . وكأني أرى من خلال الغيب ، الطرق من كل العواصم العربية الى القدس مفروشة بالأشلاء الغالية ، وبالجماجم انطفأت منها العيون ونبت العشب فوق أضلاعها . . . □

الأبعاد الأربعة في منهج الإسلام

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

هناك أبعاد أربعة تربط المسلم بالعمل لدينه . . . أولها رباط العقيدة ، الثاني ارتباطه بالمجتمع الاسلامي ، والثالث ارتباطه بالعصر الذي يعيش فيه ، والرابع قدرته على التغيير نحو التي هي أحسن .

البعد الأول :

لنبدأ بالبعد الأول ، الذي يربط المسلم بعقيدته ، ولنتخذ له تشبيها نباتيا - أول الأمر - ونعتبر العقيدة جذرا للانسان ، والجذر يحتاج الى الأرض الطيبة ، وإلى أن يتعمق فيها بحثا عن الغذاء وتثبيتا للنبات ، وحملا لمسئوليات تغذية الساق والفروع والأغصان وما تحمل من الأوراق والأزهار والثمر .

والجذر في باطن الأرض وظلمتها ، يقوم بهذا الواجب . ويقابل تحديات الصخور فيلتف حولها أو يخترقها إن استطاع،وينشر فروعه وشعيراته في هدوء ودأب وصمود . وقد تدفع العواصف الساق والفروع . . ولكن على مدى تماسك الجذر ، يبقى النبات صامدا أمام العاصفة . . ولبعض الجذور امتداد رأسي ولبعضها امتداد أفقي ، وللبعض امتداد مائل ، وفي البعض تناسب بين امتداد الجذور والفروع كأن الفروع والأغصان مظلة لقطعة الأرض التي تجمع منها الجذور مادة الحياة .

ومن النبات ننتقل الى الانسان . وهو محتاج دائما الى تعميق « عقيدته » لتكون قادرة على الثبات . وهو يتحدى ظلمات الشك وعقبات الطريق لتكون العقيدة راسخة قوية قادرة على أن تمد المسلم في مساره بالاستقرار النفسي والفكري وتحفظ له صلته بالأرض الطيبة : أرض الايمان .

هذا هو البعد الأول : تعميق الايمان في نفس الفرد ،وسنرى -بعد قليل - الصلة الوثيقة بينه وبين الأبعاد الأخرى .

البعد الثاني :

ونقصد به البعد الأفقي أو الاتساع وذلك بالدعوة الى الاسلام والله يقول . . « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن . فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم . وما يلقاها إلاّ الذين صبروا . وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم . . » (فصلت : ٣٣ - ٣٥) .

والدعوة امتداد أفقي ، هي كسب لعقول وقلوب جديدة ، بالحوار العاقل ، والتي هي أحسن .

وكأن الاسلام بهذا يحمل مواجهة مستمرة بين الوحدة التي يمثلها العمق ، والتنوع الذي يمثله الاتساع .

وهنا . وعند هذه النقطة بالذات نعود الى الآيات السابقات من سورة فصلت .. ونقرؤها بكل تمعن قال تعالى :

« ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلاّ الذين صبروا وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم » . .

أدب الحوار هو المقصود ، الأدب بمفهومه الواسع الذي يحمل فهم ما عند الطرف الآخر وما عندك ، فقد يكون عرض الحق بطريقة منفّرة ، وقد يكون عرض الباطل بطريقة جذابة فأين الحسنة وأين السيئة في عرض الاسلام ؟ وأين الدفع الحسن الذي يجعل من العدو وليا صديقا ؟ ان هذا لا يتحقق إلا بالصبر والحظ العظيم .

أما الصبر فمعروف ، وأما الحظ فلابد من عودة معه الى لغتنا العربية لئلا تختلط فيه المفاهيم . الحظ : النصيب أي النصيب المفروض كما في المواريث ، والجد والسعادة (معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ١٤٢) .

والذي أود التركيز عليه هو جانب السعي والعمل الدائب في الآفاق المعينة على اختيار التي هي « أحسن » حتى يعظم حظ الانسان منها ، فاذا أضيف اليها الصبر تحققت الثمرة المرجوة ، وهي نجاح المسعى .

ولك ـ كمجرد مثال ـ أن تستعيد السنوات الأخيرة من حياة الرسول (ﷺ) في مكة ، وكيف فكر بعد الحصار الاقتصادي في الذهاب الى الطائف ، ولما ردّته ردا غير جميل ، أخذ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج .. قبيلة قبيلة ، صابرا على أذى عمه ، وصابرا على انصراف كثير من القبائل عنه ، حتى لقيه نفر من أهل المدينة وكان هذا باب الفرج ، والبعد الثاني الجديد للدعوة الاسلامية .

وقبل أن ننتقل الى البعد الثالث ، يحسن بنا ـ في عصرنا هذا ـ أن نذكر أن البعدين الأول والثاني يحملان الكثير من المشكلات التي ينبغي أن نقابلها بعقلانية واعية .

ونسأل :

هل البعد الأول له فردانية واحدة ؟ لا ، فقد تعددت الاتجاهات الاسلامية المعاصرة ، وأصبح لكل فريق ما يودّ البدء به أو التركيز عليه . ومع تعدد هذه الاتجاهات توتّرت العلاقات بين الدعاة ، ووصل الأمر الى توتر بين الدول حتى استطاع غيرنا أن يسأل : لمن نسمع منكم ؟ وأنتم أصحاب أصوات متعددة ، ومتناحرة أحيانا . وحوارها أحيانا بالكلمات ، وقد تضيف اليه السلاح ، وقد كان .

فالبعد الأول أصبح أبعادا ، كل منها يدعي لنفسه الأولوية ويثير البعض قضايا طواها الزمان ، من صراعات حدثت في صدر الاسلام وأصبح مجرد الحديث عنها مدعاة الى ارتفاع حرارة النقاش والدماء .

ونحن في حاجة فعلية الى أن نتفق على « الحد الأدنى » من البعد الأول ، وأن نقف إن استطعنا عند قواعد الاسلام الخمس .

وأذكر أن سائلا سألني في ندوة إسلامّية بعد محاضرة ألقيتها عن الاسلام المعاصر ومسئولياتنا فيه ـ قال :

عن أي اسلام تتكلم ، ولكل دولة من دول الاسلام فهمها للاسلام ؟ وقال ما هو أكبر من ذلك ، فقلت له :

أتحدث عن اسلام المؤذن ، ما تسمعه على المئذنة ، وعن اسلام قواعد الاسلام الخمس ، لا أكثر . ولندع الأمور الخلافية لقاعات البحث والدراسة .

إن الاختلافات بين أهل الأديان وبين أصحاب الدين الواحد قائمة ، ولكن كيف نتعايش

الخلافات ، وكيف تـدع المجال الأكبـر للتيار الأعظم ، وهو تيار العمل المشترك فيما نتفق عليه ؟ هذه هي القضية ، وأكثر من أهل دين تخطوا هذه العقبة ، وعبروا خندق الصراع على الخلافات ، وتفرغوا للابداع والتقدم .

كذلك الأمر في الاتساع الأفقي ، وهو بطبيعته مدعاة الى الاتصال بأقوام وبنيات مغايرة ، يحتاج هـو الآخر الى حكمـة والى نـوع من « الميثـاق الاسلامي » وله أكثر من تجربة ومشروع ، ولكن ينقصنا الصبر على التنفيذ ، والوفاء بما نتعاهد عليه ، والتعاون بين المنظمات العاملة في الحقل الاسلامي .

البعد الثالث :

ونقصد به الارتفاع بالتفاعل بين البعدين الأول والثاني الى مستوى العصر الذي نحيا فيه ، وأن نحس مسئولياته ونتعاون على القيام بها .

قل : إنه البعد الرأسي الصاعد الذي يقابل العمق والاتساع في البُعدين السابقين .

فقد يكون التفاعل بين العمق والاتساع سلبيا يؤدي الى مزيد من التآكل والتفتت في الوجود الاسلامي وتزداد به الفرق الاسلامية ويطول به جدول الأعمال التي يختلفون حولها .

ولقد حذرنا المصطفى عليه الصلاة والسلام من هذه الكثرة السلبية التي تزداد بها مطامع الأعداء في الاسلام ودياره ، ويبدو هذا في حديثه الشريف :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها . قال : قلنا : يارسول الله ، أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن . قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة ، وكراهية الموت » . (رواه أحمد في مسنده عن ثوبان ج ٥ ص ٢٧٨ مسند أحمد بن حنبل . وانظر الجامع الكبير للسيوطي ١ :١٠١٩ النسخة المصورة) .

فالكثرة ليست غاية في ذاتها . وإنما المسئولية الحقيقية في استثمارها ، وتعاون أفرادها على الصعود بالواقع الى المأمول .

وهذا الصعود يتكون من شريحتين أساسيتين :

الأولى : شريحة ثابتة ، والثانية شريحة متغيرة .

أما الثابتة فتنبع من قوله تعالى « ولقد كرمنا بني آدم » (الاسراء : ٧٠) .

وان من أدق المقاييس لانسانية أي مجتمع ، هو مدى احترامه قولا وعملا لكرامة الانسان من حيث هو انسان .

ولا تجد حاكماً مستبداً يتلذذ بإذلال الآخرين ، إلا كان في اعماق نفسه يحس المهانة،ذلك لأن احترام الآخرين ينبع من احترام الذات،فالناس ـ كما يقول الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه « إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق » . وذلك في كتابه الى الاشتر النخعي حين ولاه مصر .

وإن كلا من احترام الذات والآخرين ثمرة تربية وممارسة جذورها في المنزل والمدرسة تمتد فروعها حتى تصل الى مجالس الشورى ومقاعد القضاء والحكم والقيادة .

ومن الايمان بكرامة الانسان تنبع كل حقوق الانسان وواجباته،وتأمّل الاحساس بهذه الكرامة في قول الله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » . (الانسان : ٨ ـ ٩) وهل يستطيع المسكين واليتيم والأسير في موقفه هذا رد الجميل ؟ وهل يملك أن يفرض على صاحب الطعام ـ وهو في حاجة اليه ـ أن يؤثر غيره على نفسه ؟

هذه صورة من النفوس التي تحس بكرامتها على الله ، وتحس بكرامة خلق الله ، فتفعل الخير لا تبتغي به إلاّ وجه الله تعالى .

ومن الطعام والشراب والكساء تتسع الدائرة لممارسة حق العمل ، لتصبح اليد السفلى يدا منتجة مثمرة ، تسعد ببذل الخير والمشاركة الايجابية في

صناعة الحياة .

ولكن : أي عمل نقصد ؟

إنه العمل الذي يحتاج اليه المجتمع في وجوده وتقدمه،فمن مجموع طاقات الأفراد وابداعهم ، ومن وضع كل منهم حيث يحسن ويبدع يتكون هذا « الكل » المرتجى . وهذا ينقلنا الى . . . .

البعد الرابع :

وهو تغير الاسلوب والهدف مع تغير الزمان ، والتغير ليس هدفا في ذاته ولكنه تحرك نحو التي هي أحسن ، ويقتضي تحديدا ومعرفة لكل من نقطة البدء والمسار والهدف ، ولنضرب لذلك مثالا من تطور العلاقات بين أجزاء العالم الاسلامي ، ولنحصر أنفسنا في العالم العربي ، أو في جزء منه ، هو الجزيرة العربية وما حولها :

في العهد النبوي أمكن لأول مرة جمع الجزيرة العربية في سلطان موحد قاعدته المدينة ، وبعد وفاة الرسول (ﷺ) ، حدثت الردة ولها أسبابها ، ومبرراتها عند الذين تولوا كبْرها ، ولكن موقف المدينة الصامد وقيادة أبي بكر الصديق ودقة تحركات الجيوش الأحد عشر التي بعث بها الى مناطق الفتنة ، وتعاون هذه الجيوش ، والبطولة والفدائية وحكمة القيادات الميدانية . . كل اولئك استطاع أن يجمع الجزيرة مرة ثانية بعد التمزق وأن تتحقق الولادة الثانية للدولة الاسلامية لتنطلق بعد هذا تنشر الاسلام وراء حدودها .

ونحن نرى هذه الصفحة من أروع صفحات الجهاد الاسلامي وكانت أقسى اختبار مر فيه الاسلام بعد وفاة المصطفى (ﷺ) ، وحمل المسئولية فيه أصحابه الذين تربوا في مدرسة القرآن والسنة .

ومرت الأعوام . . وانتقل مركز القيادة الى الكوفة ودمشق وبغداد وظهرت عواصم جديدة ودول جديدة وأصبح من غير العملي ، ولا المقبول في أذهان الكثيرين أن تجتمع ملايين المسلمين تحت قيادة واحدة مركزية .

أصبحوا عمليا في حاجة الى صيغة جديدة من التعاون ، أي أن « التعاون » حل محل السلطة المركزية التي وصل الأمر بها ـ أحيانا ـ الى أنها أمست سلطة مطلقة تتحكم في الحياة والأموال . لا بقرارها الفرد ، وانما أيضا بمن يمثلونها كأنهم ظل الخليفة ، وكان الخليفة ظل الله ، أو المسئول عن تنفيذ أحكامه بقراره وسلطاته . . وطوى الزمان هذه الصحيفة . .

الصورة التي ارتضاها أهل الجزيرة العربية المعاصرون فيها تعددية وتعاون ، التعددية تمثلها الكيانات السياسية المستقلة والتعاون يمثله مجلس يضم دول الخليج ، أنشأته دوله بإرادة حرّة نابعة من الشعوب والحكومات معا ، وهو يستمد جذوره من التاريخ المشترك واللغة العربية الواحدة ، والدين الاسلامي ، والآمال والمصالح المشتركة . . ويسير هذا التعاون بخطا واثقة محاولا التغلب على الصعوبات النابعة من الواقع التاريخي أو التركيب السكاني ومصالحه واتجاهاته .

وهذه الصورة هي ـ بدورها ـ جزء من صورة أكبر هي الوجود العربي ، رغم كل المعاناة التي يلقاها الآن ، وهذه جزء من الوجود الاسلامي الممتد بين المحيطين الهادي والاطلسي ، ويضم بينهما المحيط الهندي .

ولكل من هذه الكيانات صور التعاون التي يحاول بها أهلها اتخاذ المسار الأحسن ، وتحقيق أكبر قدر من آمالهم في التعاون والتقدم ، فالأرض واحدة ، ولكن الزمان متغير ، ومع تغير الزمان تتغير المواقف والحلول ، وبهذا تبدو ضرورة الموازنات بين الثوابت في الحياة الوطنية والاقليمية والعربية والاسلامية وبين المتغيرات التي تواجهها هذه الكيانات في مسارها .

ونسير خطوة أخرى :

وهي المشاركة في صناعة المتغيرات ، ولنعترف أن القيادة والريادة في العالم المعاصر ليست في يد المسلمين والعرب ، وأن المشاركة في صناعة القرار

محدودة ، وليس أمامنا إلا الطريق الطويل ، طريق العلم والمعرفة وتربية الشباب عليه ، ولا داعي للتهوين من شأن العلم بمدح الأساس الأخلاقي والايماني .

ففي الاسلام اللقاء الحق بين العلم والايمان ، والعقيدة والعمل ، والرأي والقرار والتنفيذ ، ولا داعي لتخدير شبابنا بأن ما عندهم يكفيهم ، وأن ما عند الآخرين لا يزيد عن أعراض الحياة الفانية فنحن مأمورون بعمارة هذه الأرض ، والله تعالى استخلفنا فيها ، وما من طعام أو كساء أو صناعة أو علاج أو ابداع إلا وراء عمل وجهد وتنظيم ، والمستهلك يد سفلى ، والمنتج والمبدع يد عليا .

فلنواجه أنفسنا صادقين لنستطيع مواجهة الحياة ومسئولياتها وليكن استمساكنا بالمبادىء لا بالصور والنظم . . فهذه بطبيعتها متغيرة . . كان ابداعها خطوة تقدمية ورائدة ، ولكن الوقوف عندها جمود ، والتمسك بها بعد فوات أوانها تخلف .

تعاون الأبعاد الأربعة :

يبدو من هذا كيف أننا بحاجة الى تعميق الايمان بأوسع مدلولاته في نفس الفرد .

والاتساع الافقي في التعاون والتفاهم مع المسلمين وغيرهم .

والارتفاع الرأسي الذي يطل على حقول المعرفة ويستشرف الضوء والهواء ، ويتلقى تيارات الحياة ومؤثراتها ليبدع فيها .

والتحرك في الزمن لموازاة العصر والسعي نحو المشاركة في بناء الحياة .

وإذا كان أول الايمان في القرآن ، اقرأ باسم ربك الذي خلق . . كان العلم من أول الأمر قرين الايمان ، والفعل في الاسمية فعل « أمر » يدل على الاستمرار . . دائما اقرأ لتزداد معرفة وعلما . وتفتح الطريق الى الابداع .

وتكمن الخطورة في فقدان التوازن ، أو التعاون بين هذه الأبعاد الأربعة .

فالذين عنوا ـ أكثر ما عنوا ـ بتصفية النفس وتربيتها وصرفهم هذا عن المسئوليات الاجتماعية والابداعية والتقدمية ، عاشوا حياة نفر من الزهاد والمتصوفة ، وأنت تراهم في كل دين ، في الاسلام كما في المسيحية واليهودية ، كما في الهندوكية والبوذية. هذا التعمق العميق في التأمل الفردي والانفراد بحثا عن الصفاء أو الاستنارة أو أي هدف شاءوا له اسما يستطيع في الاسلام أن يستند الى بعض الآيات والأحاديث دون أن يضعها في إطارها الشامل .

وهناك نفر عنوا بالعمل في المجتمع ، ولو على حساب التربية الذاتية ، فحدث الانفصام الجزئي أو الكلي بين الأقوال والأعمال ، منهم من أفاد المجتمع ، وقد وقع في ذات الوقت في شعب النفاق .

وهناك نفر عنوا بالتقدم أو الابداع وحركة الحياة ، وان أدى هذا الى انفصام الجذور أو الحاضر . . وهناك دول دفعها قادتها الى هذا الطريق الوعر . . ومنهم من بدأ يعود ، ومنهم مازال سائرا في طريقه .

وتستطيع أن تقسم خريطة العالم العربي والاسلامي الى شرائح على أساس من مدى العناية ببعد أو أكثر من هذه الأبعاد ، ذلك أيضا أن تميّز بين اتجاهات الأفراد على نفس هذه القواعد .

وليس الهدف أن يلتقي الجميع على كلمة سواء في هذا الأمر بحيث يكون الأفراد نسخا متقاربة ، ولكن الهدف أن يعي الأفراد هذا الأمر ، وأن يأخذوا من كل بعد من الأبعاد الأربعة بقدر ، مع تحديد الاطار العام الذي ينظم الأنشطة الجامعة لقوى الأصالة والاتساع والارتفاع والابداع . .

ومن الصالح أن يكون في علمائنا متخصصون في كل بعد من هذه الأبعاد . . ولكنه التخصص الذي يعين على التوازن ولا تضطرب به المسيرة ، والذى تتسع به الصدور للحوار دون انغلاق ، وللسير دون أن تضل الطريق . □

قصيدتان للوطن

(١) وردةُ المُعتقل :

وردةٌ تصعَدُ من جُرحِ المسافاتِ
الى سِجنِ العذابْ
ودَمي يَرمي على نافذةِ النهرِ
عصافيرَ السحابْ
ما الذي تفعلُهُ الأرضُ
إذا ناحَتْ حماماتُ القِبابِ ؟ !
وانحنى زيتونُها الأخضرُ ،
يَروي قصةَ الزَنزانةِ الموحشةِ الجُدرانِ
للموجِ ، وذرّاتِ الترابْ ؟ !
ما الذي تفعلُه ذاكرةُ الحِبْرِ ،
اذا ضاقَ الكِتابْ ؟ !
وانقضى عامٌ ، وعامٌ ،
وأمانينا العِذابْ
قمرٌ يقذِفُهُ الرملُ الى الرملِ ،
ويطويه السَرابْ .
هذه الأعوامُ ملأى بلُغاتٍ ،
ترجَمتها نبضةٌ تَهفو
الى فصلِ الإيابْ .

* ● *

أيُها الأحبابُ ،
يا شُرفَتنا الأولى الى بُرْجِ السماءْ .
نحن لم نذهب بعيداً ،
بل سقطْنا في فراغِ الكبرياءْ .
فارفعوا حَقلَ نشيدٍ . . . ،
لشهيدٍ ،
كفّنتهُ الشُعراءْ .
واقطفوا فاكهةَ « الحُريةِ الحمراءِ »
من صخرِ الدِماءْ .
خُطوةٌ واحدةٌ نحو الفضاءْ .
تُفتَحِ الشرفَةُ للبحرِ .
وينهلِ مع الفجرِ الغِناءْ .

(٢) رصاصٌ في تراب المُخيّم :

يجثُمُ الموتُ على صدرِ المُخيّمْ ،
باسطا كفّيْهِ في الآفاقِ ،
يُلقي كِسرةَ النارِ على الأطفالِ ،
والبيتِ المهدّمْ .
زمنٌ يمضي ، . . .
وللأشجارِ أفكارٌ ،
رواها الشارعُ المسكونُ بالحسْرةِ ،
والأشباحِ ، والذُعرِ الملثّمْ .
صفحةٌ من دفترِ المأساةِ ،
في أسطرِها الحرْفُ تفحّمْ .
من رمادِ الجُثثِ المُلقاةِ تحتَ الردمِ ،
في الأنفاقِ ظِلّ يتقدّمْ .

شعر : محمود الشلبي



طائرٌ رفَّ ، انتقى وجهتَهُ ،
حطَّ على شاهدةِ الغيم ،
وفي مِنقارهِ غُصْنٌ ، وسُلَّمْ .
فاصْعَدوا شُرْفتَهُ ، . .
واشْهدوا صرخَتَهُ ، . .
واتْبعوا خطوتَهُ ، . .
فوقَ المخيّمْ .

* ● *

هذه « صَبْرا » جَناحٌ يتألَّمْ .
والدَّمُ المهدورُ ، يُرْخي شَجَرَ الليل ،
على نافذةِ النَّوْمِ المُحرَّمْ .
أيُّ موْتٍ يبعثُ الذكرى نشيجًا . .
من عذاباتِ المُخَيّمْ ؟ !
موجَةٌ مِنْ دَمِنا تسعى الى الصحراءِ ،
تُلقي قَمَرَ الرُّوحِ على التاريخِ ،
مقتولاً ، مُلَجَّمْ .

* ● *

يا صباحَ العارِ ،
هذا الشرفُ العاري . .
هوى مُنْكَسِرَ البالِ ،
وبالدَّمعِ تلعْثَمْ .
طَلْقةٌ يدخُلها القلبُ ،
فيا جُرْحَ المروءات تكلَّمْ .
ما بدا صَعْبٌ ،
وما يَخفى مِنَ المأساةِ أعظمْ . .



صَفِيَّة الإيطالِيَّة

سُلطانة في البلاط العثماني !

بقلم : الدكتور خالد محمد نعيم

إذا كان للدولة العثمانية ثقل كبير في حماية الاسلام من غارات التعصب الأوروبية .. إلا أن تدهورها وانهيارها لم يكن مفاجئا ، ولكنه كان نتيجة طبيعية في كثير من الأحيان لسلسلة من التصرفات السيئة ، التي ارتكبت في حق الدولة ، وهدمت بنيانها الشامخ من الاساس .

عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون ، واجتاحت جيوشها الاسلامية العثمانية أقاليم شاسعة في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ـ وهي أقاليم لم تخضع من قبل لحاكم مسلم ، وأحرزت باسم الاسلام انتصارات باهرة ، وتساقطت في أيديها دول أوروبية عديدة . وامتلأت قلوب الحكومات والشعوب الاوروبية فزعا وهلعا من هذه الدولة الطارئة عليها في عقر دارها . وتعرضت الدولة في مسيرتها في أوروبا لتكتلات دولية تنادت اليها البابوية في روما ، باسم الصليب ، وأسهمت فيها دول أوروبية عديدة . ولم تترك الدول الاوروبية للدولة فرصة لالتقاط أنفاسها ، عندما تبادلت الدولة مع

أعدائها - في بعض الاحيان - الهزائم والانتصارات .

ان الدولة العثمانية لم تكن تمثل عصر ظلام تام بالنسبة للاسلام ، بوجه خاص ، أو الأمة العربية ، بوجه عام ، فقد استطاعت في فترة من الفترات الوقوف في وجه الغزوات الصليبية ، والغارات الأوروبية التعصبية ، إلا أن كثيرا من الحماقات في نظام الحكم وتصرفات السلاطين هدمت بنيانها الشامخ من الاساس ، ومن جانب عدد من (الجواري) اللائي تحولن - فيما بعد - الى زوجات لبعض سلاطين الدولة .

ففي عهد خلفاء سليمان القانوني ، استمر تزايد نفوذ (الجواري) الأجنبيات بصورة خطيرة ، في البلاط العثماني ، حيث شهد عصر السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) وضوح هذه الظاهرة . فالسلطان مراد الثالث ، وقع فريسة تأثير جماعة من النساء والمحظيات ، وعلى رأسهن أمة اسمها (نوربانو) ، كانت في الأصل جارية ثم تزوجها والده ، كما كان من بينهن جارية السلطان مراد ، (صفية الايطالية) ، والتي غدت زوجته ، هذا السلطان شهد عصره ، بيع الوظائف الكبرى ، وغدت الرشوة أمرا طبيعيا ، فقد ترك السلطان شئون الدولة في يد زوجته (صفية الايطالية) ، امرأة لا تفهم ولا تحسن الادارة .

ومما فعلته هذه السلطانة الايطالية ، في عهد زوجها ثم ابنها من بعده السلطان (محمد الثالث ١٥٩٥ - ١٦٠٣) ، انها أدارت السياسة الخارجية للدولة العثمانية ، على نحو يخدم مصالح وطنها الاول - جمهورية البندقية - ، فجددت امتيازات هذه الجمهورية ، ودست على ابنها رجلا ، قيل انه كان عشيقها ، ويدعي (محمد صوقلي باشا) ، وجعلت منه وزيرا كبيرا في خدمة ابنها وخدمتها بطبيعة الحال ، فقد تدرج هذا (الصوقلي) في المناصب الخطيرة ، حتى غدا من عمد الدولة ، كما استطاعت (صفية الايطالية) ، أن تتخذ من جنود الانكشارية ، أداة لبث الفتن والثورة ضد القادة وحكام الاقاليم، بل والتمرد على ارادة السلطان مراد الثالث نفسه ، زوجها ثم من بعده ابنها (السلطان محمد الثالث) !!

البداية ، جارية في الحريم

كانت اغارات القراصنة في البحر المتوسط ، سمة من سمات القرن السادس عشر ، ففي احدى الاغارات ، سطا بعضهم على عدد من السفن ، التي كانت لبعض النبلاء الايطاليين من مدينة (جنوة) ، التابعة في ذلك الوقت ، لجمهورية البندقية . وكانت احدى هذه السفن تحمل أفراد عائلة شهيرة تدعى (بافور) . وكان من بين أفراد هذه العائلة ، فتاة تدعى (ايمي دي بافو) ، تبلغ من العمر أربعة عشر عاما ، وكانت على حظ موفور من الجمال والرقة .

وكان والدها حاكما على جزيرة (كورفو) ، وعندما اختطفها القراصنة ، ذهبوا بها الى الأستانة ، وعرضوها للبيع عام ١٥٧٧ في سراي السلطان مراد الثالث ، الذي اشتراها ، وألحقها بحريمه السلطاني كجارية .

وكانت القاعدة المتبعة في بلاط آل عثمان ، أن (الجارية) بعد دخولها (الحريم السلطاني) ، ترتقي الى رتبة (اقبال) ، واذا حملت من السلطان ، صارت رتبتها (قادين) ، فاذا أنجبت ذكورا ، أطلقوا عليها لقب (خاصكي سلطانة) .

وعندما دخلت (ايمي دي بافو) الحريم السلطاني في (يلدز) ، كان عليها أن تنسى كل ماهو في الخارج ، أهلها وأصدقاءها ، فقد نشأت هذه الجارية الايطالية ، على قواعد خاصة ، حيث تولى تربيتها نساء تعرف الواحدة في اصطلاحهم (باش قلفي) أي المعلمة .

ومكثت (ايمي) في الحريم السلطاني عامين تدربت فيهما على كل ما يسر السلطان ، من حسن الهندام أو الاحاديث ، حتى مشيتها ووقوفها

وجلوسها ، وأحفظوها بعض الاشعار والاقوال الشعرية ، ودربوها على سرعة الفهم بالرموز ، وكافة أصول « البروتوكول » المتبع في الحريم السلطاني ، والعادات والقواعد والآداب الخاصة بالمعاشرة ، ومواجهة أركان الحريم لدرجة أن (ايمي) تحولت الى جارية ، على درجة عالية من المعرفة ، لكل هذه الامور ، بدقة وعناية فائقتين .

فقد كان القائمون على (مدرسة الحريم السلطاني) ، يعدون للجواري عامة ، في الداخل دراسات في الثقافة العامة ، والسلوك الاجتماعي ، واللغة التركية ، بعد أن يطلق عليهن أسماء غير أسمائهن الاصلية ، وكان السلطان ـ أي سلطان ـ عندما يرتقي العرش ، ينتقي بنفسه ، مع كبيرة المعلمات (القلفيات) ، لجواريه أسماء جديدة ، لذلك تحول اسم (ايمي دي بافو) الى (صفية الايطالية) !!

غـرام السلطان بصفيـة

وبعد عامين ، في الحريم السلطاني ، قضتهما (صفية) ، سرعان ما تألق نجمها ، فقد ازدادت جمالا في الخلقة ، ورشاقة في الجسم ، وعمقا في الثقافة ، وأدبا في الحديث ، ورفاهة في الحس ، فلفتت انتباه السلطان ، فحصلت على رتبة (اقبال) . وكانت هذه الرتبة تجعل الحاصلات عليها ـ من الجواري ـ صاحبات نفوذ في الحريم العثماني ، حيث كان بمقدورهن رؤية السلطان ، لأنهن كن يدخلن حجرة السلطان لخدمته تحت اشراف المسئولات الاربع في البلاط السلطاني ، وكانت (الجواري) الحاصلات على لقب (اقبال) يطلق عليهن فتيات الحجرات ، فكانت (صفية) احدى فتيات الحجرات ، فجذبت انتباه السلطان اليها ، فهام بها ، فحملت منه فحصلت على رتبة (قادين » ، وحولت الى قصر خاص بها ، ولما جاء المولود ولدا ، (محمدا) ! ـ والذي أصبح بعد والده ، السلطان محمد الثالث ١٥٩٦ ـ علا مركزها ، الى مرتبة تقترب من مرتبة السلطانة ، فأعتقها السلطان وتزوجها ، واطلق عليها اسم (صفية الايطالية) . وستظل هكذا حتى تتحول الى سلطانة ، بعد الزفاف طبقا لقواعد البروتوكول .

وهكذا تحولت (ايمي دي بافو) ، الايطالية ، من جارية الى سلطانة ، تسيطر على قلب السلطان مراد وعقله معا .

أصبحت (صفية الايطالية) بعد أن أنجبت للسلطان ابنه وولي عهده (محمدا) ، هي الشخصية الثالثة ، في البلاط ، بعد (الوالدة سلطانة) ، أم السلطان التي كانت تدعى (نوربانو) ، ومعناها (سيدة النور) ، وهي جارية ثم احدى (قادنيات) السلطان سليم الثاني ، والد السلطان مراد الثالث ، و (اسمات) أخت السلطان مراد ، من زوجة أخرى غير (نوربانو) .

وأخذت الغيرة والحقد يعملان في قلب ونفس (صفية) ، من (نوربانو) و (اسمات) لتميز نفوذهما في حريم السلطان ، فقد دار صراع خفي حينا وسافر أحيانا ، بين (الوالدة سلطانة) وبين صفية . وتمثل جوهر هذا الصراع حول تميز النفوذ لكل من (الوالدة سلطانة) و (صفية) ، فكل منها تريد أن تستأثر به لنفسها ، الاولى هي أم السلطان ، وكانت ترى أنها أحق بهذا النفوذ ، والثانية ، هي زوجة السلطان وأم ولي العهد ، وكانت ترى أنها أحق من السلطانة الام ، بهذا النفوذ .

ولم تتردد صفية في استغلال هيام السلطان زوجها بها لخدمة أغراضها وطموحاتها ، لكن ببطء وذكاء ذات الوقت ، وبعد أن تأكدت الوالدة سلطانة (نوربانو) من سيطرة (صفية) على قلب وعقل ابنها السلطان ، لجأت الوالدة سلطانة الى سلاح خطير ، ثبت أنه كان مدمرا لسمعة ابنها السلطان ، في محاولة من جانبها للكيد لصفية ، فقد أحـ لت (نوربانو)

ابنها (مراد الثالث) ـ الذي كان معروفا عنه شغفه العميق بالنساء ـ بعدد ضخم من الجواري الفاتنات ، لصرف السلطان عن حبه العميق لصفية الايطالية ، وليخبو حب ابنها للايطالية الشقراء ، فينصرف عنها ، كما كانت الوالدة سلطانة تهدف كذلك ، الى تحقيق مصالحها الشخصية ، فاذا ما انصرف ابنها السلطان الى مخادع الجواري الحسان ، استأثرت هي في غفلته بالنفوذ في البلاد وفي الحريم السلطاني ، وبطبيعة الحال ، تسيطر على أجهزة الحكومة .

ولكن خضوع السلطان لصفية الايطالية ، فاق كل حد وتصور ، فقد كانت تفتعل كثيرا من المواقف ضد (الوالدة سلطانة) ، لتختبر مكانتها لدى مراد ، فكان السلطان كثيرا ما ينحاز لمالكة قلبه ووجدانه الشقراء الايطالية . وما لبث أن غدت (صفية) السيدة الاولى بين الحريم في البلاط السلطاني ، بعد وفاة « الوالدة سلطانة » .

الهيمنة على شئون الدولة :

كان من المتوقع ـ بعد وفاة الوالدة سلطانة ـ أن تخف وطأة سيطرة الحريم السلطاني ، على توجيه القرار السياسي للسلطان ، ولكن حدث أن (صفية الايطالية) أخذت تتحكم في السلطان وتحكم الدولة من وراء الستار ، بعد أن غدت مركز قوة خطيرا على أعلى المستويات في الدولة ، فتسلطت على الشئون الداخلية والخارجية للدولة العثمانية ، وعملت على توجيه سياستها الخارجية على نحو يخدم مصالح (جمهورية البندقية) ، وطنها الاول . وكانت توجه القيادات العليا على النحو الذي يحلو لها ، ويخدم مصالح ابنها ولي العهد ، فكان نفوذها الرهيب وسيطرتها على السلطان مراد الثالث ، يمثل نقطة سوداء في تاريخه ، وخاصة بعد أن ترك هذا السلطان ، شئون الدولة في يد جاريته (ثم زوجته) صفية الايطالية ، تلك الشقراء التي كانت لا تحسن الادارة .

فقد استخدمت صفية نفس السلاح الذي استخدمته ، من قبلها ، الوالدة سلطانة ضد السلطان ، الذي كان معروفا عنه شغفه العميق بالحسان من الجواري ، فاستغلت (صفية) هذه الهواية في زوجها السلطان ، التي كانت أضعف نقطة في خلقه ، ووجهت السيدة العجوز (جانفيدا خاتون) ، التي كانت تقوم بعمل (الكايا) والمتخصصة في تنظيم ليالي السلطان ـ وطلبت اليها الاكثار من شراء أعداد كبيرة من الجواري الفاتنات ، وإلحاقهن بالحريم السلطاني ، في محاولة من جانبها ، لاحكام السيطرة على السلطان ، الذي انخرط في هذا الجو ، بتوجيه من زوجته الايطالية ، السلطانة صفية .

السلطانة تجدد امتيازات البندقية

وأخذ نفوذ صفية يتعاظم ، فدست على زوجها السلطان ، رجل صوقلي من مواليد قرية (صوقل) باقليم البوسنة ، وهو (صوقلو محمد باشا) ، الذي غدا صدرا أعظم في عهد السلطان مراد الثالث ، بفضل صفية . وكان (صوقلو) قد وقع في قبضة العثمانيين أسيرا ، وهو صبي صغير . وتمكن بما له من المقدرة والمواهب الخاصة ، والذكاء ، أن ينال الحظوة لدى (السلطانة الايطالية) صفية ، فزوجته من (اسمهان) الاميرة ابنة السلطان سليم الثاني ، وأخت زوجها السلطان مراد الثالث ، وغدا اسمه (داماد صوقلو محمد باشا) ، وظل متربعا في منصب الصدر الأعظم مدة تراوحت بين خمسة عشر عاما وثلاث عشرة سنة وغدا ـ كذلك ـ من عُمد حاشية (صفية) في البلاط العثماني ، وقيل أنه كان عشيقها ، وبطبيعة الحال ، أصبح (صوقلو) ألعوبة في يد صفية ، تحركه كيف شاءت وأنى شاءت .

وفي عام ١٥٨٣ جدد (صوقلو باشا) امتيازات البنادقة ، لقاء رشوة قدرها خمسة عشر ألف دوكة ، وهي عملة ذهبية ، وجمعها (دوكات) .

وهذه الامتيازات على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ فان نصوص المعاهدة التي عقدها (صوقلو باشا) مع جمهورية البندقية ، بتوجيه من السلطانة صفية ، تشتمل على عشرات الامتيازات الاخرى ، التي حصلت عليها هذه الجمهورية ، الموطن الاول ، للسلطانة صفية ، دون سواها من الدولة الأوروبية .

وفي الداخل : اتخذت صفية من الجنود الانكشارية أداة لبث الفتن والثورات ، ضد معارضيها من القادة والولاة ، في الاقاليم ، فقد أمرت السلطان مراد ، بأن يرفع الحظر المفروض على فيالق الانكشارية بعدم الزواج ، ففعل السلطان . وبذلك غدا جنود الانكشارية أداة طيعة في يد السلطانة صفية ، كانت تحركهم كيف تشاء ، بعد أن شغلوا بمشكلات الحياة الزوجية والأنسلال عن الحياة العسكرية ، فغدت القوة العسكرية للدولة ضعيفة ، ثم نجحت صفية أخيرا ، في الاعداد والتمهيد لابنها (محمد) ، ليكون خليفة السلطان على عرش آل عثمان ، دون اخوته البالغ عددهم اثنين ومائة أخ . وهكذا تحول السلطان مراد الثالث ، في أخريات أيامه الى سلطان عاطل الرأي ، ضعيف الشخصية ، خاضع لسيطرة (الايطالية الشقراء) عليه ، وعلى مقاليد السلطة بالدولة العثمانية .

الابن بعد الأب

ولما توفي مراد الثالث ، وخلفه على العرش أكبر أولاده السلطان محمد الثالث من صفية الايطالية ، التي كانت لاتزال على قيد الحياة ، أخذ نفوذها يتعاظم على ابنها السلطان ، وبالتالي في شئون الدولة . فقد كانت صفية حريصة كل الحرص ، على استمرار نفوذها وتميزه في شتى أجهزة الحكومة ، بعد وفاة زوجها .

وكانت أول خطوة فعلتها هذه الجارية الايطالية ، أن أوعزت لابنها السلطان محمد ، أن يتخلص من جميع اخوته ، غير الاشقاء ، حتى لا ينازعوه السلطان بطبيعة الحال ، ليخلو لها الجو ، وتستأثر بمزيد من النفوذ وحدها . وقد امتثل الولد (السلطان) لأمه ـ صفيه الايطالية ـ فقتل تسعة عشر من اخوته ، الذين كان عددهم اثنين ومائة أخ هم أولاد السلطان الراحل مراد الثالث ، من زوجاته الاربع ، وقانياته الكثيرات العدد !!

نهاية الطاغية صفية :

واستمرت صفية الايطالية تسير أمور الدولة العثمانية ، وتتبوأ مكانا عاليا وتسيطر على شئون الدولة ، حتى اذا توفي ابنها السلطان محمد الثالث ، في عام ١٦٠٣ ، وخلفه على العرش ابنه ، السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧) ، وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، كان في مقدمة تصرفاته ـ وان كان هذا بتوجيه من أمه (السلطانة الجديدة) ـ تجريد جدته العجوز ، لأبيه ، (صفية الايطالية) من كل نفوذ لها في البلاط العثماني . وأمر بحبسها في السراي القديم ، ومنع اتصال أحد بها ، كما أبعد كل المخلصين لها من حولها ، فظلت (صفية الايطالية) حبيسة حتى توفاها الله ، وهي في الثالثة والستين من عمرها ، بعد أن حكمت الدولة العثمانية قرابة ثلاثين عاما .

هكذا كانت السلطانة صفية الايطالية ، تحكم الدولة العثمانية ، فقد مارست نفوذا واسعا ابان حكم زوجها ، ثم حكم ابنها ، ومن هنا تبرز حقيقة الضرر الذي ألحقته هذه الجارية الايطالية ، بالدولة العثمانية ، حين وجهت سياستها الخارجية وفق أغراضها الذاتية ، وقد ثبت ـ في هذا الأمر ـ ان الدور الذي قامت به قد جلب الكوارث على مستقبل الدولة ، عندما سيطرت بنفوذها على زوجها ومن بعده ابنها ، مفضلة مصلحتها الخاصة ، ومصلحة وطنها الأول ، على المصالح العليا للدولة □

اقرأ في العدد القادم من العربي عدد أغسطس ١٩٨٧

استطلاعات:

- الريف المغربي .. أسطورة الانسان عبر الزمان والمكان
سليمان مظهر
- جمهورية تتاريا .. إرث المغول وطموحات الحاضر والمستقبل
سليمان الشيخ

الحرب النووية وصراع "الأيديولوجيات" .... د. فؤاد زكريا

الحوار ألوان .... فتحي رضوان

الضوء وسلوك الانسان ...... د. أمل المخزومي

- التغريب ماذا يعني ؟ — د. محمد عمارة
- لماذا تحجب الأضواء عن التوبة والعفو ؟ — فهمي هويدي
- تمويل الارهاب — رافع عبد الرحمن
- أرقام الحساب .. عربية أم هندية ؟ — د. سعيد النجار
- مَن يذهب إلى السينما ؟ — رؤوف توفيق
- الأصالة في أدب عبد السلام العجيلي — محمد أحمد عطية
- جولة في العالم السفلي ! — د. سمير رضوان
- "السوبرنوفا" كارثة فلكية ! — رؤوف وصفي
- وجهاً لوجه : د. حسن الساعاتي .. ود. محمد الجوهري

واقرأ أيضاً للكتاب:

د. محمد الرميحي - جمال وردة - شوقي بغدادي - خالد القشطيني
ليلى العثمان - عبد العليم القباني - د. محمد صادق زلزلة - د. غسان حتاحت

حركات الإصلاح الحديثة

وموقفها من التربية والثقافة

بقلم : الدكتور المنجي الكعبي

لاشك أن لحركات الاصلاح في وطننا العربي وعالمنا الاسلامي مواقف واجتهادات في الكثير من القضايا العامة . من هذه القضايا التربية والتعليم والثقافة .

فكيف عالجت حركات الاصلاح في القطر التونسي هذا الأمر . . وما موقفها من ذلك ؟

إن الكتابات التي بين أيدينا حتى الآن عن حركات الاصلاح التي عرفتها أقطارنا العربية والاسلامية خلال القرن الماضي وأوائل هذا القرن اهتمت - إلا القليل منها - بالتأريخ لتلك الحركات ، من حيث نشأتها وأصولها ومؤثراتها وأهدافها ومناهجها ، والتعريف بزعمائها ، ونشر أعمالهم على نطاق واسع ، وهو اهتمام طبيعي ، له مبرره في المنهج التاريخي ، قبل الدخول في مجال الدراسات التحليلية ، والبحوث المقارنة حولها .

ورغم التقدم الذي تحقق في ميدان الكشف عن مختلف النصوص والوثائق المتعلقة بتلك الحركات بفضل جهود كثير من الباحثين العرب والمسلمين وغيرهم من المتخصصين في تاريخنا الحديث، فإن الحصيلة العلمية التي لدينا من ذلك لا تسمح - تماما - للمشتغلين بالدراسات الحضارية والمستقبلية بإطلاق الأحكام حول أهمية تلك الدعوات الاصلاحية ، وحول تأثيرها الباقي إلى اليوم .

أما إذا أردنا رسم صورة عامة لملامح تيارات

الاصلاح الكبرى التي عمّت العالم الاسلامي ، أو شملت أقطارا منه دون أخرى فإن الأمر يغدو ممكنا ، حتّى في حدود معلوماتنا الحالية عنها ، ولو قصرنا الحديث في هذا المجال على تونس وحدها في محاولة لبيان موقف الحركات الاصلاحية التي ظهرت في أفقها من التربية والثقافة كقنوات أساسية للتبليغ والانطباع،لأمكننا الوقوف على بعض الملاحظات أو الظواهر العامة التي ينبغي أن تشكل مدخلا من المداخل العامة لفهم حركات الاصلاح في القرن الماضي وتدوينها ، ليس في تونس وحدها ، بل في الوطن العربي والعالم الاسلامي بصفة عامة .

حركات واتجاهات

فلقد بات من الواضح اليوم أن الحركات التي شهدتها بلادنا خلال القرن التاسع عشر والتي تلتها تعود ـ في جملتها ـ إلى أنماط فكرية أو فلسفية معينة ، يمكن أن يقال فيها في النهاية أنّ كلّ نمط منها ما هو إلاّ ثمرة معطيات دينية ، وظروف اجتماعية وفكرية وسياسية واحدة أو متشابهة ، وذلك على امتداد الساحة العربية والاسلامية ، وهي ـ على اختلافها ـ تجري في واحد من اتجاهات ثلاثة كبرى ، الاتجاه المعبّر عنه بالسلفية ، يدور أصحابه ، والقائلون به حول الدين كمبدأ وهدف في تفكيرهم وعملهم الاصلاحي ، ويتعلقون بالاستمداد من نماذج تاريخية سابقة ، أو النسج على منوالها . ويناهض هذا الاتجاه ويناقضه اتجاه عصري ـ حسب حكم أصحابه ـ بسبب تعلّق روّاده وقادته بالنموذج الغربي المعاصر للحضارة الأوروبية الحديثة ، وإيمانهم بحتمية الاقتباس منها ، والالتحاق بركبها ، من أجل النهضة بيلدانهم الخاصة ، والخروج من التخلف ـ حسب رأيهم ـ من أقرب طريق . أما الاتجاه الثالث فهو توفيقي وسطي ، لا يولّي ظهره للمعتقدات الدينية السائدة ، ولا يلغي الاعتبارات الذاتية التقليدية للأمة ، ولا يقطع الصلة بالماضي تماما ، لكنّه لا يسمح لنفسه بالاستغراق في تقليد الغرب المتميّز ـ أساسا ـ عنه دينيا وتاريخيا ، وإنما يأخذ من مؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتطورة ما لا يتناقض ـ جوهريا ـ مع الاسلام ، لتنظيم حياته المدنية بغاية استعادة عطائه الذاتي المتميّز في مضمار الحضارة الانسانية .

ففي اختلاف الموقف من الدين ومن التراث عامة يكمن التناقض بين دعاة الاصلاح السلفيين وزعماء الاصلاح العصريين ، رغم التحفظ الشديد من جانب أنصار النزعة العصرية الغربية عن الاصداع برأيهم في ضرورة تخطي الدين في سبيل النهضة بالانسان المعاصر مسلما كان أو غير مسلم ، خلافا لما بلغت إليك جرأة بعض المتأخرين من أتباعهم وتلاميذهم في الفترة الاستعمارية أو حتى فيما بعدها .

ويبدو أن التوفيقيين ـ وهم الأحق باسم المصلحين اعتبارا لمواقفهم التوسطية مقابل غيرهم من الثوريين دعاة التغيير الجذري والمواقف الحادة ـ ، كانوا أكثر عددا وأقوى نفوذا وتأثيرا على الساحة السياسية ، لأسباب عديدة ، منها طبيعة الواقع ، والتدخلات الأجنبية بصفة خاصة .

الاصلاح والرئاسة

وليس من السهل الآن أن نقول إن ابن أبي الضياف الوزير والمؤرخ المشهور بكتابه المطول « اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان » كان مثلا من أصحاب الاتجاه السلفي ، أو أن معاصرة خير الدين ، المعروف(بالجنرال)خير الدين التونسي ، المشهور أيضا بكتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » كان من أصحاب النزعة العصرية ، لأننا نجد في كتابات هذين المصلحين الكبيرين ما ينبيء عن شدة حرصهما على التوفيق بين تعاليم الشريعة الاسلامية ومقتضيات التمدن العمراني الحديث ، على غرار ما هو قائم حينئذٍ في أوروبا ، ذلك أنه يصعب ـ في الواقع ـ إقامة حدود

دقيقة بين أصحاب النزعات المتعارضة من رجال الاصلاح ، لأن ملابسات عديدة تتدخل هنا ، بالاضافة إلى عامل الزمن ، فتؤثر بالتعديل ، والتطور في الأفكار الاصلاحية عامة ، سواء في إطار المدرسة الواحدة ، أو عبر حياة الزعيم الواحد من زعمائها .

والجدير بالملاحظة هنا أنه لم يكن أمام حركات الاصلاح التونسية في القرن التاسع عشر بد من تناول قضية الاصلاح تناولا شاملا ، ونظريا على الأقل ، والتركيز عمليا على جانب أو أكثر من جوانب الاصلاح المستعجلة ، فشؤون السياسة والاقتصاد نجدها تتصدر اهتمامات كلّ من خير الدين ، وابن أبي الضياف ، والشيخ محمد السنوسي ، في مجال الاصلاح . وبخاصة أن هؤلاء الثلاثة كانوا مدركين غاية الادراك أن الطريق المثل للنهوض بالأمة وكسب كفاحها من أجل الازدهار والتقدم هي طريق التربية والتعليم والثقافة الخالصة .

والواقع أن عامة المصلحين وقادة الاسلام والفكر العربي الحديث كانوا يمجدون هذه المسالك ، ويعوّلون عليها لبث دعواتهم ، ونشر أفكارهم الاصلاحية ، باعتبارها الأضمن والأبقى ، وإن كانت نتائجها وآثارها تستدعي وقتا طويلا لتظهر بعد جيل أو جيلين ، ولذلك فالسعيد منهم من كان يتمنى أن لو ألقيت إليه مقاليد الاشراف على هذه المسالك ، لتنظيم مناهجها وتسطير برامجها ، ورعاية أفواجها ، وقياسا على قول القائل قديما « نعم العون على العلم الرئاسة » يقول : « نعم العون على الاصلاح الرئاسة ! » .

صحيح أن موقع مصلح من المصلحين في مستوى من مستويات السلطة قد يمنحه بحسب اطراد نفوذه فرصة تنفيذ إصلاحاته النظرية عن طريق أدوات الحكم المعهودة ، بما في ذلك ممارسة الضغط والاكراه ، فضلا عن التشاريع القانونية والادارية لحمل منظوره على إصلاحاته ، دون الانتظار لنتائج ثمرات التربية والتعليم بالدعوة الحسنى ، والاقناع السليم ، حتى لكأن زعماء الاصلاح الذين لا يجدون طريقهم يوما ما إلى السلطة لتطبيق رسالاتهم مهددون بضياع ما دعوا إليه ، أو نسيانه في رفوف الكتب ، إلى أن يأتي بعدهم صاحب سلطة فيضعه موقع التطبيق ، عبر قنوات التربية والتثقيف .

والغريب المشاهد بالتجربة أن قنوات الاصلاح ومسالكه المختلفة - سواء كانت قانونية سياسية ، أو نظامية ثقافية وتربوية - لا تفضي بالضرورة إلى النتيجة المأمولة ، طالما صادفت نشوزا من الأمة عنها ، ونفرة منها ، وحتى لو كتب على أبنائها أن يرتضعوا تلك المقررات الاصلاحية في المهد وفي أقراص الحلوى ، فضلا عن معاهد التعليم ودور الثقافة وساحات اللعب والترفيه ، فإن مآلها اللفظ ، لفظ النواة ، مثلها مثل ما يجري من طرق الاصلاح مجرى القوة والالزام . والسرّ في ذلك حسب اعتقادنا هو حصانة الأمة ، أو قابليتها شبه الفطرية لتقبّل أو رفض كلّ إصلاح غريب عن مقوماتها الأساسية ، أو معاكس لحركتها الذاتية .

التطبيب بغير مشرط !

والأمة إذا حملت على إصلاح بضدّ ما ، ربما كانت قوّتها في الارتداد إلى ضده بنسبة سنوات الاكراه التي احتملتها من أجله . وبذلك نستطيع أن نفسّر ما حصل في أوائل هذا القرن وفي أواسطه من انتكاس بعض الاصلاحات التي اتصفت بالاسلامية وما هي بإسلامية ، إلا بما تأول لها أصحابها من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، ليخفوا على الأمة طعمها اللاّئكي وأصولها الأجنبية ، ولا يزال هذا الاتجاه الاقتباسي من الغرب ، المنبهر بسلطانه ، في صراع متصاعد مع تيار إصلاحي إسلامي جديد ، أشدّ رفضا وثورة من التيارات السابقة .

على أن الاصلاح بالاصلاح ينتفي ، وذلك ما

يفسر تداول الاصلاحات وتكاثرها ، لأنه مهما تكن منطلقاته الاعتقادية أو الفلسفية لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الدعوات الدينية ، وما في معناها ، كالثورات الكبرى ، لأن الاصلاح بطبيعته وبحسب مفهومه هو معالجة جزئية وظرفية للواقع ، وهو نوع من التطبيب بغير مشرط ، بينما الثورة هدم وبناء ، وتقويض وإنشاء ، ولا بدّ للثورة من أصول فكرية واعتقادية متينة وشاملة ، ولا يتخلف إصلاح من الاصلاحات عن توليد معارضة من صميم ذاته ، تتدارك ـ لحسابها ـ جوانب النقص فيه ، وهي الجوانب المتأتية من طبيعته الجزئية والمرحلية ، ولذلك فإن عناصر البقاء النسبي في حياة كلّ إصلاح لا بدّ أن تبحث عنها ليس فقط في مسالك تنفيذه وأساليب ترسيخه في الأجيال المتعاقبة ، بل في مدى مراعاته لمخلّدات الأمة وقابليتها التاريخية والمستقبلية لاستساغته على الأخص . والحركات الاصلاحية الدينية الاسلامية الشاملة التى بدأت بالظهور في القرن الثامن عشر ، وكادت تسود في القرن التاسع عشر ، وإن كانت قد غلبت عليها ـ لأسباب عديدة ـ الحركات الاصلاحية الاستقلالية ذات البعد الوطني المحدود إلاّ أنها منذ أواسط هذا القرن قد عادت إلى السطح في شكل دعوات أصولية متشددة ، في أعقاب فشل تلك الحركات الوطنية ـ بعد الاستقلال ـ في الوفاء بأبعادها الدينية والقومية الشاملة .

التربية والثقافة

ومن هنا إشارتنا الى القابلية الكامنة في الأمة إزاء كلّ إصلاح ، وتمثل التربية والتعلم والثقافة جميعها حجر الزاوية في كلّ بناء إصلاحي ، وعلى هذا الاعتبار قامت حركة السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده ، وتأكدت ، وكان القرآن الكريم ـ وهو نفسه كتاب هداية وارشاد وتعليم وتثقيف من الطراز الأعلى ـ هو القدوة فيما أخذ فيه هذان المصلحان من نشاط تعليمي وتربوي وتثقيفي تجاه المسلمين ، استثارة وشحذا للوازع الديني في نفوسهم ، من أجل النهضة والتقدم ، وقبلهما كانت التربية والتعليم في الأساس من برنامج جماعة المصلحين التونسيين في القرن التاسع عشر ، وفي مقدمتهم الوزير خير الدين ، والمؤرخ أحمد بن أبي الضياف اللذين عملا جنبا إلى جنب على نشر أفكار جماعتهم الاصلاحية في مؤلفات قيمة ، دوّناها وأشاعاها بما استطاعا من وسائل عصرهما ، لتنطبع بها أجيال المسلمين عامة ، والتونسيين بصورة خاصة . □

الحـــــرب والســـــلام

● يقول سومرست موم في كتابه « الروائيون الكبار ورواياتهم » ان بلزاك هو أعظم روائي عرفه العالم على الاطلاق ، ولكن أعتقد ان رواية « الحرب والسلام » لتولستوي هي أعظم رواية ، فلم يسبق أن كتبت رواية تضارعها في الضخامة ، وتعالج مثل هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ ، وتتناول هذه المجموعة الكبيرة من الشخصيات ، ولقد قيل عنها بحق انها ملحمة ، ولا استطيع أن أجد عملا روائيا آخر يمكن أن نصفه هكذا ونكون محقين في وصفنا .

بمناسبة مرور ثمانمئة عام

حطين
وقائع.. وعبر

بقلم : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

يصادف يوم الرابع من شهر يوليو (تموز) الحالى ذكرى مرور ثمانمائة عام على موقعة حطين (٤ يوليو ١١٨٧) ، وهى الموقعة ذات الأثر العميق ، لا في تاريخ بلاد الشام أو الوطن الاسلامى في الشرق الأدنى فحسب ، بل في تاريخ العلاقات بين العالمين الاسلامى والمسيحى الغربى في العصور الوسطى .

لم تكن موقعة حطين مجرد موقعة حربية عابرة من المواقع التى يحفل بها التاريخ ، وإنما كانت أضخم من ذلك بكثير . لقد كانت موقعة فاصلة في تاريخ أخطر صراع شهده العالم بين أتباع ديانتين سماويتين كريمتين . وهو صراع اتخذ شكل حركة استيطانية استهدفت أهدافا سياسية واقتصادية بعيدة المدى ، واتخذت من الدين ستارا يخفى نواياها الحقيقية .

وبدراسة تاريخ الحركة الصليبية يتضح أن الكيان الصليبى في بلاد الشام ظل قائما في صورة أو أخرى نحو قرنين من الزمان ، أو على وجه التحديد مائة وأربع وتسعين سنة ، هى المدة التى انقضت بين وصول طلائع الحملة الصليبية الأولى الى مشارف بلاد الشام سنة ١٠٩٧م ، وبين طرد آخر البقايا الصليبية من تلك البلاد سنة ١٢٩١ م . وشاءت الظروف أن تقع معركة حطين في منتصف هذه المدة لتشكل حدا فاصلا بين عصرين متكافئين تقريبا من الناحية الزمنية ، ولكنهما متباينان تباينا ظاهرا من ناحية أوضاع كل فريق من الفريقين المتعادين .

ذلك أن التسعين عاما التي انقضت بين وصول الصليبيين الى الشام وبين معركة حطين ، اتصفت برجحان كفة الصليبيين الذين استغلوا حالة التمزق السياسي التي سادت المجتمع الاسلامي في الشرق عندئذ ، وحققوا انتصارات سريعة مكنتهم من الامساك بزمام المبادرة في علاقتهم بالقوى الاسلامية المحلية .

ولا شك أن الانتصارات التي حققها صليبيو الحملة الأولى على المسلمين في آسيا الصغرى واقليم الجزيرة والشام ومصر ، أكسبت الصليبيين في ذلك الدور قدرا من الاعتداد بالنفس ، والاحساس بضعف خصومهم ، فأخذوا يتوسعون شمالا وجنوبا ، واتخذوا من الوحدات السياسية التي أقاموها على أرض الشام ـ في انطاكية وطرابلس وبيت المقدس ـ نقاط ارتكاز ، ينطلقون منها لمهاجمة المدن والقرى الاسلامية ، في طول البلاد وعرضها . وربما اتخذت بعض هذه الهجمات الصليبية على ممتلكات المسلمين طابع العربدة ، بحيث لم تستهدف إلا السلب والنهب والعدوان على الأهالي الآمنين .

حطين .. وقلب الموازين :

ثم كان أن دارت معركة حطين سنة ١١٨٧م لتغير وضع كفتي الميزان . فتحول الصليبيون بالشام بعد تلك المعركة الى كيان هزيل تخلى عن الهجوم والتزم بالدفاع والرغبة في مجرد المحافظة على ما تبقى له من وجود . حقيقة أننا نسمع في الفترة الواقعة بين حطين سنة ١١٨٧م ونهاية الوجود الصليبي بالشام سنة ١٢٩١م عن هجمات صليبية تعرض لها المسلمون في الشرق الأدنى ـ وبخاصة في مصر ـ ولكن مصدر هذه الهجمات كان الغرب الأوروبي وليس القوى الصليبية في بلاد الشام ، مثلما كان الحال قبل حطين . وحقيقة أننا نسمع عن حملات صليبية أتت من غرب أوروبا الى بلاد الشام في عصر ما بعد حطين ، ولكن هذه الحملات لم تستطع أن تحيي العظام وهي رميم ، ولم تفلح في إحياء مجتمع صليبي حطمته الهزيمة ومزقته الكسرة . وأقصى ما توصلت اليه هذه الحملات ـ كما هو واضح في الحملتين الثالثة والسادسة ـ هو عمل اتفاقية مع المسلمين تضمن للبقايا الصليبية بالشام قدرا من الحياة الآمنة .

أما الجانب الآخر ـ وهو الطرف الاسلامي ـ فقد ارتفعت معنوياته بعد حطين ، واستعاد الثقة بنفسه ، وأيقن أن حطين تمثل نقطة البداية لا النهاية ، وأن الوقت قد حان لاقتلاع آخر البقايا الدخيلة من أرض الاسلام ، وكان أن تحول المسلمون بعد حطين من دفاع الى هجوم ، وهو هجوم شامل لم ينته إلا بتطهير الأرض تماما من الدخلاء الغاصبين . ولئن هدأت حركة الجهاد نوعا ما لمدة نصف قرن من الزمان بعد وفاة صلاح الدين ، فان هذا الوضع جاء مؤقتا نتيجة لما أصاب الدولة الأيوبية من وهن بسبب الخلافات بين أبناء البيت الأيوبي . ولعل هذه الفترة أتاحت فرصة للمجاهدين،يلتقطون فيها أنفاسهم ويضمدون جراحهم ، ويجمعون صفوفهم ، استعدادا لمرحلة جديدة من مراحل الجهاد . ولم تلبث أن بدأت هذه المرحلة بقيام دولة سلاطين المماليك في مصر والشام عند منتصف القرن الثالث عشر للميلاد . ونستطيع أن نقرر في موضوعية أنه لولا حطين التي زعزعت أركان البناء الصليبي في بلاد الشام ، لما تحقق للمماليك اقتلاع آخر الجذور الصليبية من تلك البلاد ، وذلك في مدى قصير لا يتجاوز الأربعين عاما . بل لولا معركة حطين لما أمكن للمسلمين إحراز النصر الكبير على جحافل التتار في عين جالوت سنة ١٢٦٠م .

ما بعد حطين :

أما عن أبعاد موقعة حطين على مسرح بلاد الشام نفسها فكانت خطيرة . ذلك أن الوجود الصليبي بالشام ظل ـ كما سبق أن أشرنا ـ يعتمد اعتمادا تاما على ما يأتيه من امدادات من الغرب الأوروبي . وفي

عصور ضعفت فيها وسائل نقل الأخبار ، واتصفت طرق المواصلات البرية والبحرية ببطء الحركة ، لم يسمع الغرب الأوروبي أخبار كارثة حطين إلا بعد مدة طويلة نسبيا .

وبعد ذلك جرت اتصالات بين البابوية من جهة وملوك الغرب من ناحية أخرى لارسال حملة صليبية جديدة تنقذ ما يمكن إنقاذه في بلاد الشام . وكان أن استغرقت هذه الاتصالات من جهة ، والاستعدادات لتكوين الحملة من جهة أخرى ، نحوا من ثلاث سنين ، تمكن خلالها صلاح الدين من العمل بسرعة لاقتطاف ثمار النصر الكبير الذي حققه في حطين . وكان يظن أن صلاح الدين سيتجه بعد حطين الى بيت المقدس مباشرة بوصفها حجر الزاوية في اهتمامات المسلمين والصليبيين سواء . ولكن ذكاء صلاح الدين وعبقريته الحربية تجلت في أنه بادر بعد حطين بالاتجاه الى سواحل الشام ، ليحرم الصليبيين داخل بلاد الشام من قواعدهم الحربية التي تقع على الساحل والتي تربطهم بحرا بالغرب الأوروبي ، وبذلك يقطع الشريان الذي يمتد من قلب الحركة الصليبية الى بلاد الشام . وفي الوقت الذي استولى فيه صلاح الدين على عكا وقيسارية وحيفا وبيروت وغيرها من المعاقل الصليبية الغربية ، كان أخوه العادل سيف الدين قد خرج من مصر ليستولي على بعض الموانىء الصليبية على ساحل جنوب بلاد الشام . وبعد ذلك اتجه صلاح الدين صوب بيت المقدس ليجدها ثمرة ناضجة ، فاستولى عليها في أواخر عام ١١٨٧م وأعادها الى أحضان دولة الاسلام بعد غيبة استمرت قرابة تسعين عاما .

خطوات ما قبل المعركة :

وفي تقويمنا لمعركة حطين ، نرى أن هذا النصر المبين الذي أحرزته جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين ، لم يكن حدثا مفاجئا ، ولم يأت وليد مصادفات تاريخية ، بقدر ما كان نتيجة تطورات خطيرة ألمت بالجبهتين الاسلامية والصليبية قبل حطين .

فمن ناحية الجبهة الاسلامية ، شهدت تلك الفترة - وبخاصة خلال الستين عاما التي سبقت حطين - صحوة اسلامية شاملة انطلق شعاعها الأول من الموصل التي نجح أتابكها عماد الدين زنكي في الاستيلاء على حلب سنة ١١٢٨م ، وبذلك غرست نواة جبهة اسلامية متحدة ، امتدت من شمال العراق الى شمال الشام . ولم يلبث زنكي أن استولى سنة ١١٤٤م على الرها - حيث أقام الصليبيون أولى اماراتهم في الشرق - مما يعتبر بداية النهاية بالنسبة للبناء الذي أقامه الصليبيون في الشرق الأدنى إبان حملتهم الأولى في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد .

ثم كان أن توفي عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب سنة ١١٤٦م ، وعندئذ خلفه في حكم حلب ابنه نور الدين محمود الذي ورث عن أبيه سياسته الطموحة في اقامة جبهة اسلامية متحدة في منطقة الشرق الأدنى . وفعلا نجح نور الدين محمود بعد جهود حربية وسياسية في الاستيلاء على دمشق سنة ١١٥٤م ثم على مصر سنة ١١٦٩ م . وسرعان ما سقطت الخلافة الفاطمية المتداعية بعد ذلك بعامين . وبذلك لم يمت نور الدين محمود سنة ١١٧٤م إلا بعد أن حقق حلمه الكبير في اقامة جبهة اسلامية متحدة في الشرق الأدنى ، امتدت فعلا من الفرات الى النيل .

والواقع أن وفاة نور الدين محمود شكلت نقطة تحول خطيرة في تاريخ منطقة الشرق الأدنى ، لا لأنها حرمت الجبهة الاسلامية من جهود رائدها وبطلها فحسب ، بل لأنها مهدت الطريق لظهور صلاح الدين على مسرح الأحداث . ذلك أن نور الدين محمود لم يترك من الأبناء الذكور إلا صبيا صغيرا ، لا يدرك الأبعاد الحقيقية لسياسة أبيه الراحل ، مما جعله ألعوبة في أيدي كبار أمراء الدولة النورية . ولم يتردد بعض هؤلاء الأمراء في سبيل تحقيق مطامعهم والتغلب على خصومهم ، في



الاتصال سرا بالصليبيين . وعندما سمع صلاح الدين - وهو بمصر - بذلك « استصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم » على قول أبي شامة . ثم أعلنها صلاح الدين في صراحة « لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمع الكفار في البلاد » .

ومن هذا المنطلق - وحرصا على استمرارية سياسة الجهاد - اعتبر صلاح الدين نفسه المرشح الوحيد لأن يرث سيده نور الدين محمود ، لا في ممتلكاته ونفوذه الممتد من الفرات الى النيل فحسب ، بل أيضا في سياسته البعيدة التى اتخذت من وحدة الصف وسيلة للجهاد في سبيل الله . وقد وجد صلاح الدين في مصر ركيزة قوية يمكنه أن يعتمد على امكاناتها البشرية والمادية ، ومنها خرج الى بلاد الشام معلنا « إنا لا نؤثر للاسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم » . وكان أن قضى صلاح الدين الثلاثة عشر عاما السابقة على حطين (١١٧٤ - ١١٨٧) في عمل دائب ، استعدادا لليوم الموعود ، يوم حطين .

فحينا هو في مصر يعمل على تحصينها وبناء القلاع والأسوار لحماية عاصمتها وثغورها تحسبا من أى هجوم صليبى عليها . وأحيانا هو في الشام واقليم الجزيرة يضرب على أيدى الأمراء الانفصاليين الذين أعمتهم مصالحهم الخاصة عن رؤية الصالح العام . وبين هذا وذاك تراه يختلس بعض الوقت لاعادة تنظيم دولته الواسعة مستعينا بأبنائه واخوته وأبناء اخوته ، ليجعل منها جهازا واحدا متكاملا يمكنه الاعتماد عليه عند مواجهة الخطر الصليبى .

وفي خضم هذه المشاكل الداخلية ، لم يغفل صلاح الدين أمر الصليبيين بالشام ، فحرص على أن يوجه اليهم ضربة بين حين وآخر ، تارة في شمال بلاد الشام وأخرى في جنوبها ، ليشعرهم بقوته ويزيل من نفوسهم الوهم بأن المسلمين قد ضعف أمرهم بعد وفاة نور الدين محمود . على أن تصرفات صلاح الدين تجاه الصليبيين اتسمت بالذكاء والحرص الشديدين ، فتجنب خوض معركة فاصلة كبرى معهم ، قبل أن يعد للأمر عدته ، ويستكمل بناء جبهته الداخلية . لذلك تراه يوجه ضربة خاطفة الى الصليبيين يردفها بهدنة أو اتفاقية . وهكذا حتى استكمل استعداداته ، وعندئذ رأى أن « ينصرف بكليته الى الفرنج » .

في الجانب الآخر :

ولكن ، اذا كانت السنوات السابقة على حطين قد شهدت في الجبهة الاسلامية يقظة ونشاطا وجهودا مكثفة لجمع الشمل والاستعداد معنويا وماديا للمعركة الفاصلة ، فإن نفس الفترة شهدت خللا واضحا في الجهاز الصليبى ببلاد الشام .

ذلك أن عمورى الأول ملك بيت المقدس القوى ، الذى غزا مصر عدة مرات بين سنتى ١١٦٣م ، ١١٦٩م والذى صمد صمودا شجاعا في مواجهة خطر نور الدين محمود .. هذا الملك الصليبى لم يلبث أن توفى في ١١ يوليو سنة ١١٧٤ أى بعد وفاة نور الدين محمود بقرابة شهرين من

الزمان . وجاءت وفاة عمورى الأول بمثابة كارثة كبرى حلت بالصليبيين في الشام . ذلك أن ابنه بلدوين الرابع - الذى خلف أباه في عرش المملكة الصليبية - كان صبيا قاصرا مصابا بداء الجذام ، مما فتح باب التنافس على مصراعيه بين كبار الأمراء الصليبيين للفوز بمنصب الوصاية ، على المملكة وملكها المريض . والحق ان بلدوين الرابع رغم مرضه العضال لم تنقصه العزيمة والجرأة في مواجهة خطر صلاح الدين الذى أخذ يتفاقم يوما بعد آخر ، ولكن حالته الصحية المتدهورة كثيرا ما حالت بينه وبين تنفيذ ماكان يأمل في تحقيقه من آمال ، الأمر الذى جعله يقتنع سنة ١١٨٠ بعقد هدنة مع صلاح الدين .

وكان المفروض أن يحترم أفصال الملك هذه الهدنة ، ولكن أحد هؤلاء الأفصال - وهو ارناط أمير شرقى الأردن - استغل موقع امارته في شن اغارات غادرة على قوافل المسلمين المتجهة الى الحجاز ومنه . بل لقد أقدم هذا الأمير - الذى اشتهر بهوسه وغدره ونقضه للمواثيق والعهود - على عمل طائش سنة ١١٨٢ - ١١٨٣ ، استهدف مهاجمة المدينة المنورة وتدمير قبر الرسول عليه الصلاة والسلام . وعلى الرغم من أنه فشل في تحقيق هدفه ، إلا أن تصرفه أثار حنق المسلمين جميعا ، فأرسل صلاح الدين الى ملك بيت المقدس المريض يحتج على ما قام به فصله ، ويذكره بالهدنة القائمة بين الطرفين . ولكن الملك لم يستطع ردع فصله ، بل لقد أعلن أرناط في صراحة أن وضع الملك جدير بالعطف وليس بالاحترام !!

وفي حوادث التنافس بين كبار الأمراء حول الفوز بالوصاية على المملكة وملكها العاجز المريض ، برز اسم ريموند الثالث أميرطرابلس بوصفه أقوى أمراء الصليبيين ببلاد الشام . ولكن تخوف حاشية الملك من ذلك الأمير القوى جعلهم يدسون له عند بلدوين الرابع . فاختار الأخير جاى لوزجنان زوجا لشقيقته الأرمل سيبل ، واردف ذلك بتتويج بلدوين الخامس الطفل - ابن الأميرة سيبل من زوجها الأول - ملكا على مملكة بيت المقدس في حياة خاله بلدوين الرابع . ولم يلبث أن توفى الملك المريض بلدوين الرابع سنة ١١٨٥م ، ومن بعده ابن أخته الملك الطفل بلدوين الخامس في العام التالى ، مما مهد لمؤامرة شارك فيها بطريرك بيت المقدس ، وانتهت بتتويج جاى لوزجنان وزوجته سيبل ملكين على مملكة بيت المقدس الصليبية .

شرخ عميق :

ولا شك في أن هذا التطور الخطير الذى حدث قبل حطين بعام واحد أصاب الجبهة الصليبية بشرخ عميق ، لأنه حرم الصليبيين من جهود ريموند الثالث أقوى أمراء الصليبيين بالشام من ناحية ، فضلا عن أنه جعل على رأس المملكة ملكا ضعيفا معروفا بالتردد هو جاى لوزجنان من ناحية أخرى .

وكان الصليبيون في تلك المرحلة في أشد الحاجة الى مسالمة صلاح الدين ، فجددت المملكة سنة ١١٨٥ - بعد وفاة بلدوين الرابع مباشرة - الهدنة مع صلاح الدين . ولكن أرناط أمير الكرك أثبت أنه لا يلتزم بقرارات الدولة ، وأن سلطته تمثل دولة داخل الدولة ، فاستمر يواصل عدوانه على قوافل المسلمين ، غير دار بما غدت عليه الجبهة الاسلامية ، بزعامة صلاح الدين من تماسك وقوة .

وزاد من حرج موقف الصليبيين تفاقم الخلافات يوما بعد يوم بين مملكة بيت المقدس من ناحية وأميرى طرابلس وانطاكية من ناحية أخرى .

أما عن ريموند الثالث أمير طرابلس فلم يستطع صبرا على الجرح العميق الذى أصاب كبرياءه نتيجة لاستبعاده وتتويج جاي لوزجنان ملكا على بيت المقدس . وفي موجة غضبه ، اتصل ريموند الثالث فورا بصلاح الدين ، وانتمى اليه ، واعتضد به . وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج . ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده

بالنصر ، وذلك على قول المؤرخ المعاصر ابن الأثير . وفعلا بادر صلاح الدين بامداد ريموند بمعونة عاجلة ، مما أنذر بصدام سريع قاتل بين أمير طرابلس وملك بيت المقدس ، لولا وساطة بعض الأطراف . ومع ذلك فإن ريموند لم يهدأ ، وإنما حافظ على علاقاته بصلاح الدين «وقويت مناصحته للمسلمين وباين أهل ملته ، وبث السرايا في بلادهم» . واتخذت اتصالات ريموند الثالث بالمسلمين طابعا علنيا مكشوفا ، حتى أن بعض المعاصرين ظنوا أن هذا الأمير الصليبي قد اتجه الى الاسلام . وفي ذلك يقول المؤرخ المعاصر أبو شامة «التجأ القمص (ريموند أمير طرابلس) الى ظل السلطان (صلاح الدين) فصار له من جملة الاتباع ، فقبله السلطان وقواه وشد عضده باطلاق من كان في الأسر من أصحابه . فقويت مناصحته للمسلمين ، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم !!» .

عيون على العدو :

وزاد موقف الصليبيين سوءا في تلك المرحلة السابقة مباشرة على معركة حطين ، أن أمير انطاكية وقف هو الآخر - بالاشتراك مع زوجته - موقفا معاديا من المجتمع الصليبي ببلاد الشام . وكانت الكنيسة في انطاكية قد اتهمت بوهيموند الثالث أمير انطاكية باتخاذ أكثر من زوجة في وقت واحد ، وهي تهمة خطيرة عوقب عليها بتوقيع قرار الحرمان عليه . ولكن بوهيموند الثالث لم يرضخ ، وأعلن عداءه ليس للكنيسة فحسب ، بل للمجتمع الصليبي باكمله .

أما زوجته الأخيرة - واسمها سيبل - فقد عبرت عن نقمتها على الكنيسة وعلى المجتمع الصليبي بالاتصال سرا بصلاح الدين ، واطلاعه على خطط الصليبيين وتحركاتهم أولا بأول .. وذلك في فجر يوم حطين . ويؤكد المؤرخ المعاصر ابن الأثير هذه الحقيقة فيقول ان أميرة انطاكية «كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه ، وتعلمه كثيرا من الأحوال التي يؤثر علمها» .

أما أبو شامة فيقول «وكانت امرأة ابرنس انطاكية - وتعرف بدام (مدام) سيبل في موالاة السلطان ، عينا له على العدو ، وتهاديه وتناصحه ، وتطلعه على أسرارهم . والسلطان يكرمها لذلك ، ويهدي اليها أنفس الهدايا» .

وهكذا دخل الصليبيون معركة حطين ممزقي الشمل ، منقسمين على أنفسهم ، في الوقت الذي خاض المسلمون تلك المعركة صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص ، تحت زعامة قائد وصفه معاصره وكاتب سيرته ابن شداد بأنه «من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر .. هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ، ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة ، تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ...» .

على أن عظمة صلاح الدين - بطل حطين - لاتبدو فقط من خلال شجاعته ومثابرته على الجهاد وإيمانه بأهداف عليا يعمل لتحقيقها ، وانما أيضا في بعد نظره وحسن تصرفه في الأزمات ، وهي الأمور التي تبدو بوضوح في الاستراتيجية التي وضعها لمعركة حطين وفي الأسلوب الذي وجه به دفة هذه المعركة . ففي معركة حطين بالذات تجلت عبقرية صلاح الدين العسكرية أعظم ما تكون بحيث اننا إذا أردنا أن نعلل للنصر الكبير الذي أحرزه المسلمون في حطين ، فإن هذا التعليل لا يكون إلا بثلاثة أسباب : أولها روح البطولة والفداء التي تحلى بها مجاهدو الاسلام تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وثانيها حالة التمزق والانقسام والتفكك التي سادت جبهة الصليبيين في حطين ، وثالثها شخصية صلاح الدين القائد الملهم ، ومهارته في تحديد المكان والوقت المناسبين للمعركة ، والاسلوب السليم الذي تدور به المعركة .

ذلك أن صلاح الدين ما كاد يقرر الدخول في معركة فاصلة مع الصليبيين بعد أن استكمل استعداداته من جهة، واستبد به الغضب من تصرفات أرناط من جهة أخرى - حتى وضع خطة تستهدف استدراج الجيوش الصليبية التي احتشدت في صيف ١١٨٧ عند صفورية - قرب الناصرة - لتتجه اليه حيث حشد قواته على مقربة من طبرية، عاصمة اقليم الجليل. وكان هدف صلاح الدين من ذلك هو أن يقطع الصليبيون مسافة طويلة في ظروف طبيعية شاقة، بحيث يصلون الى المسلمين بعد أن يكون قد استبد بهم الاعياء في الوقت الذي يكتنز المسلمون جهودهم وطاقتهم للمعركة. ولكي يضطرهم صلاح الدين الى ذلك بدأ بمهاجمة طبرية في مطلع شهر يوليو ١١٨٧م، وعندئذ ثارت ثائرة الصليبيين «وغاظ ذلك الفرنج» فشرعوا في الزحف في اتجاه طبرية لانقاذها وسط ظروف بالغة السوء بسبب انحطاط روحهم المعنوية من جهة فضلا عن حرارة الجو وقسوة الطريق مع ندرة الماء من جهة أخرى.

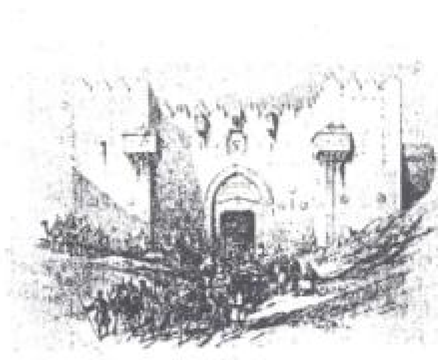
جاءنا ما نريد:

وعندما سمع صلاح الدين بأن الصليبيين قد شرعوا في الزحف تجاهه، أدرك نجاح خطته، وقال «جاءنا ما نريد». ثم تحرك قليلا على رأس قواته حتى رابط عند قرية حطين غربي طبرية، وهي قرية غنية المرعى وفيرة الماء. وبعد جهد كبير وصل الصليبيون الى «سطح جبل حطين» المشرف على سهل حطين، وكان وصولهم يوم ٣ يوليو، وهو يوم وصف في المصادر بأنه من أيام الصيف الشديدة الحرارة الراكدة الهواء. أما سطح جبل طبرية فالمقصود به هضبة واسعة تشرف على سهل حطين، وترتفع عن سطح البحر نحوا من ثلاثمائة متر، وللهضبة قمتان مرتفعتان، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم «قرون حطين» وبوصول الصليبيين الى تلك الهضبة كان قد «استبد بهم العطش» فقضوا ليلتهم فوق الهضبة يئنون، وعلى مقربة منهم - أسفل الهضبة على مسافة غير بعيدة من بحيرة طبرية ومائها الوفير - رابط المسلمون «وقد اكثروا من التكبير والتهليل طوال ليلتهم».

وفي خلال الليل أخذ الهواء يتحرك ورأى صلاح الدين «أن الريح على الفرنج» فأمر باشعال النار في الأعشاب والأشواك التي تكسو الهضبة، فحمل الهواء الدخان وحرارة النار الى أفواههم الملتهبة من العطش، فبلغوا - وهم أهل التثليث - من نار الدنيا بثلاثة أقسام في الاصطلاء والاصطلام: نار الضرام (حريق الأعشاب) ونار الاوام (العطش)، ونار السهام... «على قول المؤرخ ابن شامة.

وعندما أشرقت شمس يوم السبت ٤ يوليو، وجد الصليبيون أنفسهم فوق الهضبة محاصرين بجيوش المسلمين التي استغلت فرصة الظلام لتحيط بهم «احاطة الدائرة بقطرها» وهكذا بدأ الهجوم الاسلامي الكبير الذي اتصف بروح الفدائية والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله. ذلك أن المجاهدين المسلمين أدركوا (ان من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو، وانهم لا ينجيهم إلا القتال والجهاد». ولذا استماتوا في القتال بروح عالية، ولا نداء لهم إلا عبارة «الله أكبر، الله أكبر».

أما الصليبيون فقد أيقنوا - بعد فوات الأوان - أنهم وقعوا في الشرك الذي نصبه لهم صلاح الدين،



فحاولوا الافلات وهم في حالة بالغة السوء من الانهاك والعطش ، ولكن « أخذتهم سهام المسلمين وكثر فيهم الجراح وقوى الحر ، وسلبهم العطش القراء » على قول المؤرخ ابن واصل .

ولم يبق أمام الصليبيين من عاصم إلا قمة الهضبة ، فآووا الى جبل حطين ليعصمهم من البلاء وعندئذ أحاط بهم المسلمون وظلوا يطاردونهم من أسفل ، والصليبيون يتراجعون في اتجاه قمة الجبل .

وفي تلك الأثناء سقط أسقف عكا قتيلا ، ووقع من يده صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم الذى كان يحمله ، فاستولى عليه المسلمون « وكان ذلك من أعظم المصايب عليهم وايقنوا بعده بالقتل والهلاك » . ومازال « القتل والأسر يعملان في فرسانهم » حتى انتهى أمر الجيش الصليبى بأكمله بين قتيل وأسير » « فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » على قول صاحب كتاب الروضتين .

وكان من جملة الأسرى جاى لوزجنان ملك بيت المقدس ، وأرناط صاحب حصن الكرك ومقدم جماعة الداوية ، وغيرهم عدد كبير من كبار الفرسان .

الحساب :

أما صلاح الدين فقد صلى صلاة الشكر « على هذه النعمة » ، ثم أمر باحضار ملك الفرنجة وأمرائهم فاستقبلهم استقبالا حسنا ، وأجلس الملك الى جانبه . وعندما لاحظ صلاح الدين أن الملك « قد أهلكه العطش » أمر له بإناء من ماء مثلوج ، فشرب منه جاى حتى ارتوى ، وأعطى ما تبقى لارناط فشرب . وعندئذ غضب صلاح الدين لأنه كان قد نذر على نفسه أن يقتل ارناط إذا وقع في يده ولذا صاح مشيرا الى ارناط « ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذنى فيناله أمانى » . ويفسر المؤرخ المعاصر ـ القاضى ابن شداد ـ ذلك بأنه « كان من عادة جيل العرب وكرم أخلاقهم ان الأسير اذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره ، أمن بذلك » . ثم التفت صلاح الدين الى ارناط وذكره بجرائمه وغدره بالمسلمين ونقضه للعهود والمواثيق « وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته » وكان أرناط قد غدر مرة بقافلة اسلامية ، وأسر رجالها ، وصاح فيهم قبل أن يقتلهم جميعا « قولوا لمحمد يخلصكم » . فما كان من صلاح إلا أن ذكّر أرناط بهذه الواقعة ، ثم صاح فيه الآن انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم « وهوى صلاح الدين بسيفه على ارناط فأطاح برأسه ، وجاء ذلك « وفاء نذره » حسبما ذكرت المصادر المعاصرة .

ويبدو أن قتل ارناط بتلك الكيفية أفزع الملك جاى لوزجنان ، فظن أن دوره قريب ، ولكن صلاح الدين هدأ من روعه ، وقال له « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، أما هذا فقد تجاوز حده ، فجرى عليه ما جرى » .

ولم يلبث صلاح الدين بعد فترة أن أطلق سراح الملك الصليبى جاى لوزجنان وأعتقه فلقب في المصادر العربية باسم « الملك العتيق » .

ومرة أخرى ظهرت سماحة صلاح الدين وكرم أخلاقه في حسن معاملته للأسرى ـ وهم أعداد غفيرة ـ فسيقوا جميعا الى دمشق حيث سجن الأمراء وكبار الفرسان .

هذه هى معركة حطين ، لقد كانت أكبر من مجرد نصر حربى ، انها مدرسة في فنون الحرب والسياسة والأخلاق ، فضلا عن كونها نقطة تحول خطيرة في التاريخ . لذا كانت فرحة المسلمين بذلك النصر عظيمة ، فأقيمت الصلوات في مساجد الاسلام شكرا لله ، وانشد الشعراء القصائد يحيون فيها يوم حطين . ومن ذلك قول العماد :

يا يوم حطين والأبطال عابسة
وبالعجاجة وجه الشمس قد عَبَسَا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا
معفرا خده والأنف قد تعسا □

الكمأة

.. غــــذاء فريـــــد !

بقلم د . حسين العروسي

« فطر ينمو بريا وهو بسيط في تكوينه وتركيبه ، الا انه يتميز بمذاق طيب لايضاهيه فيه مذاق نبات أو حيوان »

توجد بالقرب من سطح الأرض أجسام متكورة ، لا هي من النباتات المعروفة ، ولا هي من حيوانات الارض ، ولا هي من صخورها أو تربتها ،

أجسام ذات رائحة خفيفة ، لها جاذبية ونكهة خاصة محببة الى النفس ، وطعم فريد لايجاريها فيه نبات أو حيوان ، تسمى هذه الأجسام الكمأ وتسمى أيضا الفقع .

جاء في لسان العرب أن الكمء نبات ينقض الأرض فيخرج كما يخرج الفطر ، والحقيقة أن الكمأ نبات ، لكنه يختلف عن غيره من النباتات ، فهو نبات بسيط ، غاية في البساطة ، ليس فيه أعضاء مختلفة وأنسجة متباينة ، ولا تحتوي خلاياه - حتى اذا عرضت للضوء - على مادة (الكلوروفيل) التي تعطي النباتات لونها الأخضر المميز ، والتي تساعد على اختزان الطاقة الشمسية وتكوين المادة السكرية .

ووفقا لما جاء في المعاجم العربية ، فان الفقع ضرب من الكمأ ، وقيل الكمأة هي التي الى الغبرة والسواد أقرب ، والجبأة هي التي تميل الى الحمرة ، والفقعة هي البيضاء ، كما قيل ان الفقع هو الأبيض الرخو من الكمأة ، وهو أردؤها وأسرعها فسادا .

تصنف الكمأة في علم النبات ضمن مجموعة الفطريات ، مثلها في ذلك « فطر عش الغراب » الذي يعرف أحيانا بالمشروم ، وكلاهما من الفطريات الشحمية التي يستحب أكلها ، والتي تنمو بريا في الصحاري والبراري والغابات .

تختلف الكمأة عن عش الغراب ، فالكمأة كروية تنمو تحت سطح الأرض ، وعش الغراب على شكل مظلة ، تظهر فوق سطح الأرض ، والكمأة تنتمي

الى مجموعة من الفطريات تعرف بالفطريات الأسكية ، في حين أن عش الغراب ينتمي الى مجموعة أخرى تعرف بالفطريات البازيدية .

منذ عهد الاغريق والرومان

عرفت الكمأة منذ عهود قديمة ، الا أن طبيعتها كانت مجهولة حتى عهد قريب ، فقد ذكرها الفيلسوف الاغريقي « ثيوفراستوس » الذي عاش قبل ميلاد المسيح بثلاثمائة عام ، وقد اعتقد أن الكمأة تظهر خلال أمطار الخريف ، وبخاصة اذا صاحبتها عواصف رعدية ، وتصبح الكمأة من أفضل الأغذية في الربيع . كما جاء ذكر الكمأة في كتابات« بليني » الروماني الذي عاش في القرن الأول الميلادي مبينا أن الكمأة تنمو بلا جذور ، وأنه تشاهد محاطة بالتربة من جميع الجهات ، ولا يلاحظ حولها سوى خيوط دقيقة ، وأنها تنمو في أراض رملية جافة ، تنمو بها شجيرات ، وذكر أيضا أن الكمأة تتميز بألوانها ، فمنها الأسود والأحمر والأبيض ، وأفضلها ما ينمو في شمال افريقيا .

وحب الكمأة ليس مقصورا على الانسان ، فهي تجذب كثيرا من الحيوانات والحشرات ، فبعض الخنافس تطير متجهة اليها من بعد يزيد عن خمسمائة متر ، وبعض القوارض تسير نحوها من بعد عدة أمتار . وقد استغلت هذه الخاصية في بعض الدول لتحديد أماكن الكمأة وجمعها .



- قطاع في كمأة

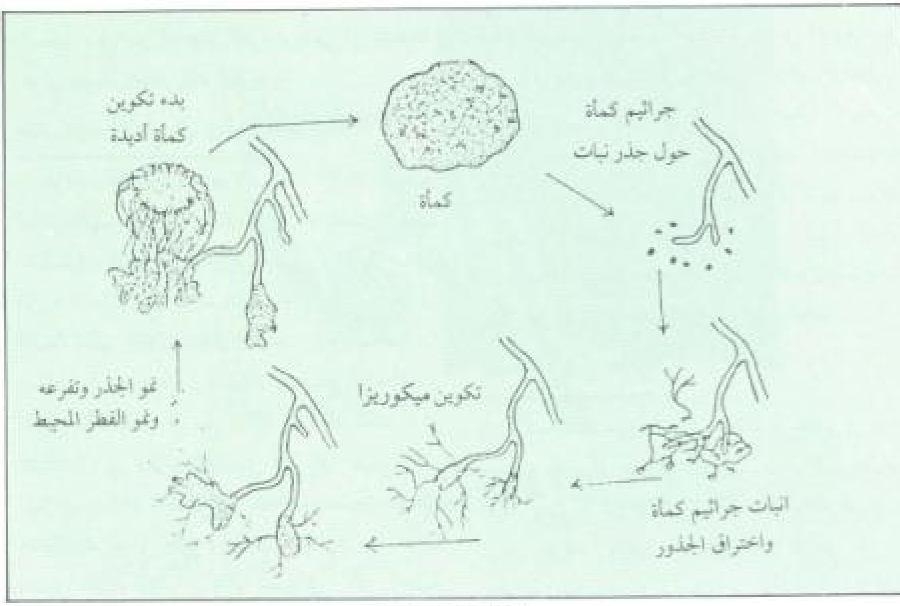
يهمنا في هذا الحديث كمأة الصحراء التي تظهر في صحاري الدول العربية في أوائل فصل الربيع مع ظهور أعشاب الربيع وزهور الصحراء ، وتتحول أماكن وجودها حينئذ الى متنزهات عامة ، يبحث فيها بعض الناس عن الكمأة ، يجمعونها ويستهلكونها بعد سلقها أو تحميرها أو شيها ، وقد يسوقونها فيحصلون على نقود كثيرة ، تفوق أثمان اللحوم الجيدة الطازجة ، وفي بعض الدول يسوقونها معلبة أو مجمدة أو مقطعة الى شرائح ومجففة .

البحث عن عائل

وكمأة الصحراء أنواع متعددة ، ينتشر في دول الخليج والعراق منها نوعان رئيسيان ، كما يعرف « بالزبيدي » ، وهو أبيض اللون وقوامه طري ، وكما يعرف « بالجبا » ، ولونه أحمر الى بني داكن ، وقوامه أصلب من « الزبيدي » . وأشهر أنواع كمأة الصحراء هو النوع الافريقي الذي اعتبره الرومان من أفضل أنواع الكمأة ، وقد كانوا يستوردونه من شمال أفريقيا المعروفة حاليا بليبيا ، وهو كما له غلاف أبيض ومذاق جيد .

وقد لوحظ منذ أزمان بعيدة وجود علاقة بين ظهور الكمأة ووجود نباتات معينة قريبة منها ، توجد الكمأة حيث توجد تلك النباتات ، وتختفي الكمأة حيث لاتشاهد تلك النباتات ، والعلاقة بينهما علاقة ارتباطية ، فكمأة الغابات يرتبط وجودها بأشجار معينة منها البلوط والزان والبندق ، وكمأة الصحراء - أيضا - يرتبط وجودها بأعشاب معينة ، ذكر منها الرقروق أو الأرقة .

بالدراسة والبحث اتضح أن العلاقة بين الكمأة والنباتات المرتبطة بها هي علاقة تكافلية ، يستفيد منها كل من الكما والنبات المرتبط به ، فالكما يبدأ نشاطه بإنبات جرثومة ميكروسكوبية دقيقة ذات خلية واحدة ، تنبت جرثومة الكما عند توافر الماء تحت ظروف حرارية ملائمة ، فتكون نموا خيطيا



- خطوات تكوين كمأة

دقيقا لايرى الا بعد تكبيره عشرات المرات . ينمو الخيط ويتفرع ، وتتشابك خيوطه مع خيوط نموات أخرى وتتلاحم ، ثم تتجه الخيوط الفطرية بعد ذلك نحو جذور النبات الكفيل ، فتخترق خلاياه ، وتعيش في الطبقات الخارجية لجذوره ، تستمد منها غذاءها ، لتستكمل نموها خارجيا ، تغلف النموات الخارجية نهايات أفرع الجذور بطبقات سميكة من خيوط الفطر ، تعمل كقفاز يحيط بأطراف الجذور مغطية قممها النامية بطول يصل حوالي ملليمترين ، ولا يمنع القفاز الفطري من استمرار نمو الجذر ، فينمو الجذر وتنمو معه الخيوط الفطرية ، وباستمرار النمو يحدث تفريع ثنائي للجذر ، وتستمر احاطة الأفرع الجديدة بخيوط فطرية جديدة ، وهذه العلاقة بين النباتات الراقية والفطر النامي حول جذورها ،دون ضرر على النباتات أو على الفطر ، محدثة حالة من العلاقة ، يستفيد منها كل من النبات والفطر ، وتسمى هذه العلاقة « ميكوريزا » والفائدة العظيمة لفطر الكمأة المكون عن طريق علاقة « ميكوريزا » مع النبات الكفيل هي أنه يزيد كثيرا من السطوح الماصة على الجذر ، حيث تمتص الخيوط الفطرية المحيطة بأطراف الجذور الماء والمواد المعدنية من محلول التربة ، وتقوم بتوصيلها الى النبات ، ويستفيد فطر الكمأة من النبات بالحصول منه على احتياجاته من المواد العضوية التي يصنعها النبات ، ولا يستطيع الفطر تكوينها ، كما أن فطر الكمأة كثيرا ما يكون بعض المواد المنشطة لنمو النبات الكفيل .

وبعد فترة من حدوث تلك العلاقة التكافلية بين النبات الراقي وفطر الكمأة - تلك العلاقة التي قد تستمر عدة سنوات ، تحت ظروف بيئية معينة - ينمو الفطر المتكافل مع النبات نموا خارجيا بعيدا عن القفاز المحيط بالطرف الجذري ، ويكون نموا غزيرا كثيفا مندمجا ، ثم ينضج فيعطي جسما ثمريا ، وهو الكمأ الذي نأكله ، وينتج عن النبات الواحد كمأ كثير .

يحتوي كمأ في داخله على آلاف من الجراثيم التي عند انتشارها قد تحدث علاقات تكافلية جديدة مع نفس النبات أو مع نباتات أخرى ، لأن الكمأة مدفونة في التربة ، ولأن جراثيمها تتكون بداخلها ، فان الحشرات والحيوانات المنجذبة اليها بفعل الرائحة والنكهة تفيد في عملية الانتشار ، وخاصة أن جراثيم الكمأة تمر خلال القناة الهضمية حية غير مهضومة .

محاولات استزراع

جرت محاولات عديدة لزراعة الكمأة ، بعد أن عرفت العلاقة بين الكمأة والنباتات الكفيلة ، وقد تمكن الفرنسيون منذ عشرات السنين من زراعتها ، الا أن زراعة الكمأة ليست بالزراعة العادية ، اذ يجب أن تسبق بزراعة النباتات الكفيلة ، فزراعة كمأة الغابات يسبقها زراعة أشجار البلوط أو الزان أو البندق أو القسطل أو غيرها من النباتات الكفيلة ، وبعد نجاح زراعة الشجر تنثر في التربة تقاوى الكمأة ، وهي أجزاء من كمأة سابقة ، ويمكن الحصول على محصول من الكمأ بعد فترة تتراوح ما بين ست سنوات إلى عشر من تاريخ الزراعة ، وتستمر في اعطاء محصول سنوي لمدة تزيد على عشرين عاما .

أما بالنسبة لزراعة كمأة الصحراء فلم يسبق لأحد أن قام بها ، فذلك يحتاج الى دراسات خاصة ، تشمل تحديد النباتات الكفيلة ، والتأكد منها عن طريق فحص جذور النباتات التي يغلب وجودها قريبا من الكمأة ، ويتم ذلك ظاهريا «وميكروسكوبيا» ، ومقارنتها بجذور نباتات من نفس النوع في مناطق خالية من الكمأة ، كما تشمل الدراسة التعرف على ظروف ظهور الكمأة التي يعتقد أن منها سقوط أمطار مصحوبة برعد في فصل الخريف ، وبخاصة في نوء الغفر (من أنواع الوسم خلال شهر نوفمبر) ، وتقدر الفترة بين سقوط الأمطار والحصول على الكمأة بحوالي شهرين الى ثلاثة أشهر ، كذلك يجب أن تشمل الدراسة أنواع التربة التي تظهر فيها الكمأة في مناطقها المختلفة ، لمعرفة أفضلها ،

وبعد اتمام تلك الدراسات وتحديد النباتات الكفيلة والظروف الجوية والأرضية المناسبة تبدأ تجارب الزراعة ، فتختار أرض ملائمة لنمو الكمأة ، وتفضل الأراضي التي ظهرت بها الكمأة ، ثم تزرع بالعشب أو الأعشاب الكفيلة للكمأة ، ثم بعد نجاح زراعة العشب تنثر في التربة - بجوار العشب النامي - قطع من الكمأة من الأنواع الجيدة المفضلة ، ويجب ري التربة في حالة عدم سقوط الأمطار بكمية من الماء كافية ، وفي الوقت المناسب لنمو العشب وإنبات جراثيم الفطر وحدوث العلاقة التكافلية ، ويجب العناية بالنباتات بالري والتسميد ، ويمكن اجراء تجارب مختلفة على ذلك ، مع فحص جذور بعض النباتات للتأكد من حصول العلاقة التكافلية مع الجذور .

ومن مميزات زراعة الكمأة أننا يمكننا في حالة نجاحها الحصول على محصول جيد سنويا ، كما يمكننا أن نحدد الصنف المرغوب ذا القيمة التسويقة العالية .

وفي ختام هذا الحديث نذكر نبذة مختصرة عن القيمة الغذائية لكمأة منطقة الخليج ، فقد وجد أنها تحتوي على ماء مقداره (٧٥-٨٠٪) من وزنها ، وأن نوع الزبيدي أكثر ماء من نوع (الجبا) ، وأن أهم مكوناتها هي البروتين ، حيث تحتوي على بروتين بنسبة (١٦-١٩٪) من وزنها الجاف ، و (الزبيدي) أكثر بروتينا من (الجبا) . وبالنسبة لمحتوى البروتين من الأحماض الأمينية ، فكلا النوعين غني بالأحماض الأساسية ، لكن الزبيدي يتفوق في كافة الأحماض الأمينيه أما «الارجنين» «والليسين» فالغني بهما هو الجبا .

وعموما ، فالكمأة غذاء فريد ، لا ننشده أساسا لقيمته الغذائية ، لكن لرائحته ، ونكهته وطعمه ، وقد جعله ذلك يحتل موضعا ممتازا على المائدة □

قصة قصيرة

عملية تزوير

بقلم : رجب سعد السيِّد

حرص طيلة الطريق إلى المطار على أن يتحاشى أي إشارة إلى الموضوع ، وأنا كنت في حالة من الصمت الكئيب ، فكرتُ قليلا في زوجتي وصغيرتي ، غادرتهما منذ دقائق ، وإلى أمد قد يطول شهوراً ، وعدت أفكر في احتمال أن يجدوني - إذا تحققت الوساوس - معهم مرة ثانية ، بعد ساعات قليلة ، وقد تبخّر مشروع السفر ، ومع التفكير في هذا الاحتمال تعود الوسوسة ، والتفت إلى أحمد خميس ، فوجدته خلف عجلة القيادة ، ممعنا في مراقبة الطريق شبه المظلم ، يلحظ صمتي الطويل القلق ، ولايفعل شيئا سوى رفع قبضته اليمنى التي يبرز منها الابهام إلى أعلى ، ويدندن - كيفما اتفق - في ثقة .

قد أبدو شريراً ، أو على الأقل ناكراً للجميل حين أكاشف نفسي بأنني لم أعد أتقبله ، أو أن أشعر بأن وجوده - معظم الوقت - صار ثقيلا ، إنني أنسى كل شيء حين يملؤني ذلك الشعور ، وأنسى - ليس فقط جهوده غير العادية لانجاح مشروع السفر - بل أنسى - أيضا - تاريخنا المشترك منذ المرحلة الابتدائية ، ولا أرغب - حين يداهمني ذلك الشعور - إلا في التخلص من وجوده بوطأته الثقيلة ، تماما مثل شعوري الآن وأنا أنظر إليه وهو يدفع قبضته الواثقة إلى الأمام بابهامها المشرع .

لا بد أنه يشعر بكل ذلك ، فهو يعرفني جيدا ، وخبرته بي كخبرتي به ، فهو لا ينقصه ذكاء ، بل إنه من أهم سماته ، وإلا لما نجح في توسيع أعمال والده ، حين تسلم منه شركة المقاولات المحدودة ، ليحيلها إلى مجموعة شركات ، ترتفع أسهمها في السماء يوما بعد يوم .

هل كانت محاولته في سهرة الأمس إشارة إلى هذه العلاقة الغريبة ؟ .

وانتابني نفس الشعور غير المريح ونحن نجلس في منزله الفخم ، أنا وهو وزوجتانا ، نتسامر بعد العشاء الشهي ، ومظاهر الكرم التي بهرت زوجتي .

بدأ أولاً باثارة اقتراحه القديم ، بتقديم البديل عن تجربة السفر للعمل في الخارج ، وهو أن أساعده في بعض أعماله ، كمصدر إضافي للدخل يعينني على تحقيق مشروعي الوحيد المأمول ، وهو الحصولُ على مسكن مناسب .

قال إنه بالرغم من مسايرته لي ، وبالرغم من كل السعي الذي فعله من أجلي ، فهو غير موافق على فكرة السفر التي ستتم الليلة القادمة ، وقال إن البلد - كما يتوقع - ستشهد - خلال عقد الثمانينات الذي بدأ الآن - مرحلة مختلفة تماما : (الانفتاح الحقيقي يا عزيزي) ، وساق تشبيهه العجيب : (إنه كموجة حائطية هابطة تدك اليابسة ، والشاطر من يجعل نفسه جزءاً من هذه الموجة ، ولايفكر في مواجهتها) .

لم يكن رأيه جديدا عليّ ، وهو يعرف موقفي جيدا . وأدهشني تشبيهه الجديد ، فهو يدل على ثقافة ، فقد حماسه لها منذ سنوات .

ولم أفلت الفرصة ، بل أشرت إلى الكلمات الجديدة في قاموسه اللغوي .

فقال : لك أن تتهكم كما تشاء ، لكنه الواقع .

قلت : وأنا أعرف ، لذلك أرفضه .

قال : لذلك تهرب .

قلت : لن نختلف في التسميات ، لكني لن أسهم في تكريس هذا الواقع ، ولن أصير سنّا في أحد « تروسه » .

وتوقفت لاحتدادي .

عند هذا الحد تململت زوجتانا ، فتركناهما تثرثران ، وتلوكان الفستق المملح ، ومضينا إلى شرفة متسعة ، وجلسنا ندخن ، وعرض علي واحدة من سيجاراته المغلفة ، فرفضته شاكرا ، مكتفيا بسجائري ، فقال ليسبر غوري :

ـ (لا أظنك تصم كل المستفيدين من الحال الراهنة بالخيانة !) .

وهنا يقترب من حقل الألغام الذي يفصل خطوطي عن خطوطه

ـ (لا أحد يملك أن يدين الآخرين ، وحتى إن فعل ذلك فما الجدوى ؟ نحن في حال من الانفرادية الشديدة ، فكل منّا كجزيرة قائمة بذاتها ، تبحث في دفاعاتها ضد الأمواج ، وتسعى لاستثماراتها الخاصة ، هكذا أصبحنا .)

ـ (ما زلت عند تساؤلي .)

وأمام إصراره على معرفة رأيي في سلوكه كأحد مقاولي الانفتاح بدأت أصارحه :

ـ (لا ضير أن يكون هناك تفاعل إيجابي بالتأثير والتأثر ، وفي طرق مضاءة ، وبسرعة شرعية .) .

وأسرع يربط سؤاله بنهاية تصريحي :

ـ (وهل رأيت لدي ما يوحي بغير ذلك ؟!) .

وعمدت إلى زيادة تركيز الجرعة :

ـ (رأيت .. رأيتك في وكر المزوّر سيداً مطاعا .) .

وأطلق قهقهة مفاجئة ، جذبت انتباه زوجتينا ، فصاحتا تستفسران عمّا إذا كان حديث السياسة قد انتهى أم لا ، وبدأنا نتبادل النكات ، ولم نعن بتعليقاتهما ، وصمت أنتظر أن ينتهي من ضحكه ، وتوقف الضحك ، وكانت الدموع تسيل من عينيه ، وكان يتأوه « آه .. آه » ، لكنه ليس تأوها فقد كان يتنفس بعمق ، ومسح وجهه بكم قميصه الحريري بحركته الطفولية العفوية التي تلازمه ، وقال في تبريره :

ـ (ياعزيزي ، أنا أعمل في السوق ، وأعيش فيه ،



وإن خرجت منه مت ، أعايشه بكل ما فيه ، بروائحه الطيبة والنتنة على السواء .) .

ـ (إلى درجة مصادقة المزورين ؟!) .

ـ (إلى ما يتعدى ذلك من المزورين ، وتجار العملة ، وتجار المخدرات المكشوفين والخفيين ، وغيرهم من القائمة التي تثير غثيانك ، ويخدش مجرد ذكرهم عذرية ضمير الشاعر ، وهؤلاء يا صديقي جزء من المناخ ، بل وأكثر من ذلك ، إنهم قوى محركة فعالة) .

وحين راجعت علامات الاستفهام التي أغلقت أمامي الطريق إلى فهم ملاحظات أخرى حوله وتفسيرها تراجعت ، وخفت أن أكتشف نفسي مفتضحاً بأحقاد دفينة تجاه نجاحه العملي وثرائه المتنامي ، ولملمت شبهاتي ، والتجأت إلى زوايا حميمة من تاريخنا المشترك ، أما هو ، فقد واصل إصراره على المكاشفة :

ـ (أتعرف أنني ـ بالرغم من كل الثروة التي حققتها ـ أشعر بالنقص وبالخسارة كلما رأيتك ، وخاصة عندما أطالع بعض قصائدك المنشورة ، لقد فقدت أشياء كثيرة في غمرة الصراعات اليومية ، لذلك أحرص على ألا أفقدك ، بالرغم من تباعدك عني ، ولذلك كان فرحي بلجوئك إليّ .) .

كنت منكمشا أدخن سيجارة جديدة ، ثم بدأت في الاستجابة الى سيولة تدفق تيار العاطفة ، ودفن الشكوك ، ففسّر صمتي تفسيرا خاطئا :

ـ (أعرفك إنّك تركن الى الصمت حينما ترغب عن القتال ، ولديك القدرة على اخفاء اسلحتك والتمويه عليها) .

ـ (أنت مخطيء)

ـ (وأنت ضميري الحي ، ارجو الاّ تتأخر عن مصارحتي عندما تناقش مع نفسك مدى اساءتي اليك ، حين التجأت معي الى التزوير لتذليل العقبات امام سفرك) .

* * *

قادني الى صالة السفر ، وكانت اول مرة أدخل مطارا ، لذلك كانت خطواتي ابطأ من خطواته ، كنت حريصا على متابعة كل شيء بعيني ، وتوقف ، والتفت اليّ :

ـ (الآن ستفصل بيننا الأسوار ، وكل شيء على مايرام ، انتهت « مأموريتي » .) .

تعانقنا ، وتركته ودخلت من البوابة الحديدية احمل حقيبتي ، وصرت وحدي ، وعجبت لأن مخاوفي قد زالت عني تماما ، بمجرد ان اجتزت السور الحديدي الى الداخل ، وتحركت بضع خطوات في اتجاه موقع شركة الطيران التي سأركب طائرتها ، وفكرت لحظات ان استمر في سيري دون ان التفت ، وحين التفت وجدته كما توقعته ، ملاصقا للسور ، يتابعني بعينيه ، وحين التقت عيوننا رفع ابهامه فابتسمت وواصلت سيري ، وفي سهولة تامة سلمت حقيبتي بعد وزنها ، ثم راجعت اوراقي ، وحصلت على تأشيرة المغادرة ، وتم كل شيء كما وصفه لي احمد خميس بالضبط .

جلست مع المسافرين على نفس الطائرة ، في صالة متسعة أنيقة المقاعد ، واستسلمت في البداية إلى الاحساس بخدر الراحة يسري في كل جزء مني ، بالرغم من إرهاق الأيام القليلة السابقة ، ودخنت سيجارة بمتعة حقيقية ، وفقد التدخين متعته في السجائر التالية ، فقد طال الانتظار ، وبدأ المسافرون يتململون ويتناقلون تخوفاتهم من طول تأخر السفر ، ولم يبق لي إلاّ تفحص الوجوه من حولي ، وتوقعت أن أجد نسخا لنفس النموذج الذي أنتمي إليه ، رأيت (الجلباب البلدي) في كل الأركان ، ورأيت مدرسين وفلاحين . الطائرة متجهة إلى (مالطا) ، والسؤال الذي يسأله ضابط وثائق السفر ـ أحيانا للتفكُّه ـ لماذا تسافر إلى مالطا ؟ ويشترك الجميع في الاجابة : للسياحة !! ويشترك الجميع في التغاضي أيضاً .

هل يمكن أن يكون كل هذا التأخير بسبب ارتيابهم



في بعض المسافرين ؟ يحكي المسافرون قصصا عن حالات إنزال المسافرين من الطائرة قبيل تحركها ، لقد حكى لي صديق قصة إنزاله من سريره بالسفينة وهو يغادر البلاد من ميناء السويس ، لاشتباه في صحة أوراقه اكتشفه الضابط المختص بعد حصوله على تأشيرة الخروج ومروره .

فقدت حالة البرود التي سيطرت علي في طوابير الدخول ، وأخذت الوساوس تعاود اضطرابها وتقافزها ، فالاحتمال الأول أن يكونوا قد قبضوا على المزوّر ، واعترف لهم بكل إنجازاته ، وتم رصد كل تعامل معه ، والاحتمال الثاني أن يكونوا متابعين لمشروع سفري ، ويفتحوا ملفي الدائم لديهم ، وسرعان ما يهبطون لمراجعة أوراقي وفحص قصائدي في حقيبة يدي .

ولشدة انصرافي إلى أفكاري المتلاطمة سمعت هتافا باسمي أولا ، قبل أن تلتقط عيناي جيدا صورة الهاتف ، كنت أشعر بالوحدة في الصالة المتسعة ، وأتوجس من طارىء موشك مخاتل . كان الوجه الذي يقف أمامي مخزونا في ركن قصي من ذاكرتي ، لكن لم أتذكره إلا بعد أن خبط كتفي محتجا على خيانة الذاكرة :

ـ (الشاعر العظيم عبدالفتاح عبدالجابر ؟) .

ـ (لا ، عبدالماجد .) .

وأخذني في حضنه بعنف واضح :

ـ (أهكذا تنساني ؟) .

ـ (كم سنة يا رجل ؟ عشر ؟ ثم ، هذا الشارب الكثيف) .

ـ شيء لزوم الشيء !) .

وقهقه ، ومضينا نثرثر ، ولاحظت عزوفه عن أي إشارة إلى الشعر الذي بدأناه معا ، وحكي لي قصته حين قرر الرجوع بعد انتهاء إعارته إلى بلد عربي لم يطق الحال ، وقرر العودة ، قلت : « عال » سيقودنا انتقاد الأحوال إلى الكلام عن أفكارنا وأشعارنا ، لكنه كان يقصد حال السوق ، والأسعار ، وسعر الدولار ، وثمن الشقة ، والرصيد المتبقي غير المطمئن ، وثمن كيلو اللحم ، ففقدت الأمل في حديث من أحاديث الأمس ، وأمسك بطرف رباط عنقه ، وقلبه ، وسحب من داخل البطانة طرف أوراق نقدية مخبأة وقال :

ـ (هذه هي لغة العصر ياصديقي ... الدولار .) .

نفس المفاجأة التي أخذتني حين دخلت مع أحمد خميس وكر التزوير ، ورأيت مختلف الأختام والنماذج المتقنة ، إنها مفاجأة لا تخلو من درجة من البلاهة .

ـ (لكن هذا خطأ ، وأنت تعرض نفسك للمساءلة .) .

ـ (أي مساءلة ياعم ؟ هذا شغل ، « شغل على ميه بيضا » ويفوز باللذات كل مغامر ، أليس هذا قولكم أيها الشعراء ؟) وضحك وهو يلكزني بكوعه ، فلم أملك إلا أن أضاحكه ، وإحساسي الدفين بالاثم يخف تركيزه نوعا ما ، ووجدت نفسي ربما إمعانا في التخفف من عبء حمل وزر مشاركة أحمد خميس في عمليتنا المشبوهة ـ أسرّ إليه ، وفمي يكاد يلامس أذنه :

ـ (تصور الظروف تدفعنا إلى أفعال لم تكن على البال ، لقد دلني صديق على مكانٍ أعطاني بطاقة

شخصية أثبت فيها أنني لا أعمل لدى الحكومة ولا القطاع العام ، لأتمكن من مغافلة جهة عملي ، وأسافر دون إذنها !) .

وارتفعت ضحكاته ، وسحب حقيبة يده ، وفتحها ، ومد يده ، وأخرج جواز سفره ، وفتحه على صفحة البيانات الشخصية ، وقال :

- (إنك لم تر شيئا ، أنظر ، الاسم عبد الفتاح عبد الماجد خير الله ، وأظنك لم تنس اسمي الثالث عبدالله ! ثم ، أنظر المهنة ، « ترزي بلدي » ، والشارب الكثيف كما لاحظت ، وثيقة سفر لاغبار عليها ، لشخص آخر لا تعرفه ، ولا يعرفونه ، لا شيء يستعصي أمام النقود !) .

ولما سمعت منه قصصا أخرى تغيرت نظرتي إلى كل الموجودين حولي ، وتهيأ لي أن لكل واحد منهم ما يخفيه ، مثلي ، ومثل عبدالفتاح عبدالماجد خيرالله .

وفجأت لكزني عبدالفتاح وهو يسألني :

- (بالمناسبة .. هل أحضرت معك شهادة خبرة ؟) .

- (أي خبرة ؟) .

- (خبرة بالتدريس - ألن تعمل مدرسا ؟) .

- (طبعا .. لكني لم أكن أعمل بالتدريس .. لم أمارسه إطلاقا ..) .

- (هذا لا يمنع أن يكون لديك شهادة خبرة ، فبدونها سيعاملونك - ماليا - كالخرّيج الحديث ..) .

ومضى يحسب - بسرعة عجيبة - مقدار ما ستجلبه شهادة الخبرة من علاوة شهرية ، قدرها بالجنيه المصري بمائتين .

ونجح في أن يستولي على تفكيري ، ويجعلني مضطربا ، ثم نادما على أنني لم أقابله قبل السفر بمدة كافية، سألني :

- (هل معك عملة كافية ؟) .

- (ما يكفي للاعاشة في مالطا قبل الحصول على تأشيرة الدخول ..) .

- (على أي حال سأقرضك المبلغ ..) .

- (أي مبلغ ؟) .

- (معي زميل هنا ، لديه شهادة خبرة زائدة ، على بياض ، يطلب في مقابلها خمسين دولارا ، ما رأيك ؟) .

ولم ينتظر ردي ، وتركني وسار إلى زميله ، ومال عليه ، فنظر إليّ زميله وابتسم ، وأخرج من حقيبته ورقة أعطاها لعبد الفتاح ، ولكزه عبد الفتاح في كتفه ، وتركه راجعا إلي ، وسلمني الورقة ، وأمرني أن أضعها في حقيبتي بحرص ، وألا أثبتها إلا بعد أن أملأ بياناتها في الطائرة ، ونفذت أمره ، وجلس بجانبي ، وعدنا إلى أحاديث مختلفة قبل أن يكتشف أن زوجته تجلس بجانبنا ، وأنه لم يقم بتعريفي عليها ، وبعد أن أتم التعريف توقفت أحاديثنا ، لحرصي على إيجاد موضوعات مشتركة ، وقد أصبحنا ثلاثة . ملت عليه أسأله مبتسما :

- (هل زوجتك ..)

ولم يدعني أكمل ، وبادلني الابتسام :

- (صورة طبق الأصل ..) .

وتبادلنا السجائر عدة مرات ، ووجدنا موضوعات عديدة للتسامر ، قبل أن يعلن صوت المكبّر البشْرى إلى ركاب الرحلة بوصول الطائرة ، ويرجوهم التوجه إلى البوابة .

سرت مسافة قصيرة قبل أن أصل إلى الحافلة التي ستقلنا إلى حيث تربض الطائرة في ظلام أرض المطار ، وقبل أن أركب الحافلة التفتّ إلى شرفة المودعين ، حيث توقعت أن أرى في ضوئها الشاحب أحد خميس يلوح مودعا ، وهو قد يكون الآن في منزله نائما في فراشه الوثير ، وقد يكون أحد الوجوه غير الواضحة الملامح المطلة من الشرفة ، وخيل إلي أن ثمة من يقف في طرف قصي من الشرفة ، يميزه امتداد ذراعه إلى أعلى ، وكأنها تؤكد على الانتصار ، رافعة الابهام في وجه السماء ، وبدون تردد دفعت بقبضة يدي إلى الأمام ، وإبهامي يضرب في الظلام مرفوعاً مشرعا . □

الأبعاد الثقافية

للإنجاز الاقتصادي الياباني

بقلم : وحيد عبدالمجيد

« تظل صحيحة مقولة ان الانسان هو محور التنمية وغايتها وأداتها ، ويعد العنصر البشري بذلك أهم كثيرا من الموارد والامكانيات .

والعنصر البشري الذي نعنيه هو الانسان ، بكل ما يمثله من نتاج ثقافي وقيمي لمجتمعه ، فاليابان معجزة القرن العشرين نموذج دراسي رائع لاختبار صحة هذه المقولة » .

عندما يرد ذكر اليابان في أي حديث،يرد الى الذهن ـ عادة ـ الانجاز الاقتصادي الكبير الذي حققته خلال السنوات الماضية ، والذي ارتفع بها الى مصاف أكبر قوة اقتصادية في عالم اليوم ، فقد غدت صورة اليابان مقترنة بالتطور التقني المستمر ، وبالانتاج الوفير الذي يغرق أسواق العالم بالمنتجات ، وبهزيمتها الغرب صناعيا في مجال الالكترونيات والسيارات والحديد والصلب بصفة خاصة ، وبالفائض المتزايد في ميزانها التجاري ، وبالارتفاع المستمر لسعر « الين » في مواجهة العملات العالمية ، وبالتوظيف الكامل تقريبا رغم التطور التقني المتسارع ، ورغم العدد الكبير من السكان .

هذا الانجاز يعد باهرا بالفعل عندما تأخذ في الاعتبار الفقر الشديد للجزر اليابانية الأربع الرئيسية (هوكايدو وهونشو و شيكوكو و كيوشو) في الموارد الطبيعية ، فالأرض اليابانية محدودة المساحة (٣٧٧ ألف كيلو متر مربع ، أي ما يعادل ٤٪ فقط من مساحة أمريكا ، وتشغل الجبال ٧١٪ منها) ومجدبة فيا يتعلق بالمواد الخام والطاقة ، كما يعيش عليها الآن حوالي ١٢٠ مليونا ، ورغم ذلك تمكن اليابانيون من إعادة بناء اقتصادهم ، بعد انهيار شبه كامل في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وحققوا أعلى معدلات للنمو الاقتصادي في عالم اليوم ، رغم اضطرارهم إلى استيراد كل الخامات تقريبا من الخارج ، ورغم أنهم

أكثر دولة صناعية تأثرت بأزمة النفط وارتفاع أسعاره عقب حرب ١٩٧٣ .

روح الجماعة :

هكذا حقق اليابانيون إنجازا اقتصاديا كبيرا في غيبة الأسس المادية الضرورية المتوفرة لدى دول الشمال بشكل عام ، سواء في بلادها أو في مستعمراتها السابقة التي نهبت مواردها ، ولذلك تعد اليابان أبرز نموذج لأهمية الدور الانساني في عملية التنمية ، فليس من المبالغة القول بأنه لم يتوفر لليابانيين غير قوة عملهم في إطار نظام للحياة ، تقف وراءه تقاليد جماعية راسخة منذ القدم .

وقد تكونت هذه التقاليد تاريخيا بحكم العزلة الجغرافية التي فرضتها الطبيعة الجزيرية لليابان ، لأن بلادهم عبارة عن مجموعة جزر تكاد تكون معزولة على الحافة الشرقية للقارة الآسيوية ، نشأ أهلها على عقدة الخوف من المارد الصيني الذي احتل البطن الجنوبي للقارة ، وأنشأ حضارة قديمة وإمبراطوريات متتالية ، بينما هم صيادون فقراء ، ليس في أرضهم مناجم ، ولا مساحات واسعة قابلة للزراعة ، وهذه الحياة الفقيرة وما صاحبها من خوف خلقت بينهم الارتباط والتعاون وكراهية كل ما هو أجنبي والخوف منه ، فتطورت لديهم روح جماعية ، تعلي من شأن الجماعة ، ولا ترى قيمة للفرد إلا في ارتباطه بها ، ولذلك كانت الجماعية والنظام والانضباط من أهم تقاليد الثقافة اليابانية ، ومن يخرج عليها تنبذه الجماعة ، فيجد نفسه في حالة اغتراب ، وعندئذ يجازي نفسه بالانتحار على طريقة « هاري كاري » اليابانية المعروفة ، أي شق البطن بالسيف . ولم تتأثر هذه الروح الجماعية بالتطور الرأسمالي في اليابان الذي بدأ متأخرا في نهاية القرن التاسع عشر ، ولا « بالليبرالية » الاقتصادية التي تفترض إطلاق الحريات الفردية والروح الذاتية وإعلاء دور الفرد في ظل الهيمنة الغربية العسكرية والسياسية على اليابان .

ورغم كثافة حملات التغريب التي تعرضت لها اليابان - وهي في موقف الضعف بعد الحرب الثانية - لم تتراجع الثقافة الجماعية التقليدية أمام قيم « الليبرالية » الاقتصادية التي اضطرت للتكيف مع الطابع الجماعي للشخصية اليابانية ، فتطورت الرأسمالية اليابانية كشركات كبيرة أكثر منها كمشروعات فردية ، وكان هناك فارق هام من هذه الزاوية بين رأسمالية الشركات اليابانية وبين الشركات الكبرى في الغرب التي تطورت كمشروعات احتكارية ، بفعل آليات السوق ، لا بحكم الطابع الثقافي ، لكن الفارق الأهم يكمن في مضمون العلاقات الاجتماعية داخل الشركات اليابانية ، فالعلاقة بين الادارة والعمل تتجاوز علاقة استغلال قوة العمل المعروفة في المشروع الرأسمالي ، لتأخذ طابعا مميزا أهم ملامحه الدعاية من جانب الادارة ، والانتماء والولاء من جانب العمال ، فالعامل يوقع تعهدا اختياريا لا اجباريا عند التحاقه بشركة ما ، ينص على أنه سيظل معها طوال حياته العملية ، ويختار أكثر من ٩٠٪ من العمال هذا العقد ، رغم إمكانية حصولهم على عقد عمل تقليدي بفترة محددة ، وهو اختيار يعكس تقاليد الارتباط بالجماعة التي ظلت صامدة في مواجهة قيم السوق ، وقوانين الرأسمالية الغربية التي تفترض البحث عن العمل الأفضل والأجر الأعلى . وفي مقابل ارتباط العامل الأبدي بشركته تلتزم إدارتها باستمراره في العمل بغض النظر عن أية تطورات تقنية في مجال عمله ، وهذا يتيح إمكانية استمرار الابتكار التقني دون معارضة من العمال المطمئنين على عملهم بحكم التزام الشركة بأن توجد لهم عملا بديلا في حالة حدوث إحلال تقني ، وبذلك يصبح العامل مرتبطا بالشركة التي يعمل بها ، ويتزايد شعوره بالانتماء إليها والولاء لها ، في الوقت الذي

بحس بمسئوليتها عنه في توفير العمل الدائم ، وفي مواجهة احتياجاته الحياتية ، بما تقدمه له من تسهيلات ، فضلا عن وقوفها بجواره في أوقات الأزمات .

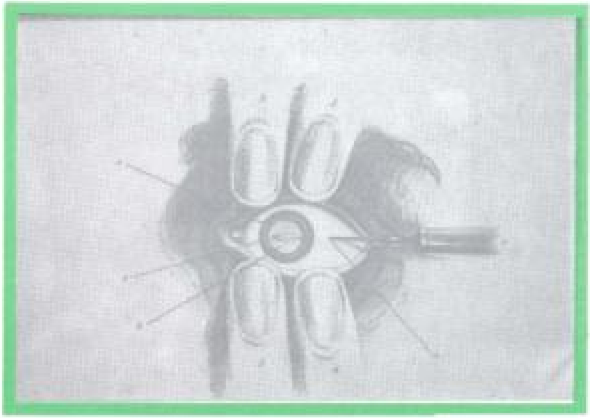
أخلاقيات العمل والادخار :

ولذلك تجد ظاهرة العمل التطوعي في اليابان ، فمن المعتاد أن يستمر العامل في أداء عمله بعد انتهاء أوقات العمل الرسمية ، لشعوره بضرورة الانتهاء من عمل قد بدأه في الصباح ، ودون مقابل مالي ، على عكس قيم المجتمع الغربي . فروح العمل التطوعي هذه جنبا إلى جنب مع تقاليد العمل الجماعي،والقدرة الفائقة على العمل كفريق هي السبب في زيادة الانتاجية ، وتحسين نوعيتها باستمرار ، وهذه هي أخلاقيات العمل التي تتميز بالايجابية ، التي تجعل الغياب عن العمل أمرا نادرا ، وإن حدث لا تتجاوز نسبته ١,٥٪ سنويا ، بالمقارنة مع نسبة غياب عن العمل تبلغ ٣,٤٪ في الولايات المتحدة ، و ٧,٧٪ في ألمانيا الغربية ، ٩,٩٪ في ايطاليا .

وتكتمل منظومة التقاليد الدافعة للتقدم الاقتصادي عندما تضاف إليها عادات الادخار القديمة في اليابان ، فالثقافة اليابانية التقليدية تتضمن تعظيما لقيمة الادخار ، ورفضا لأنماط الاستهلاك الترفي والتفاخري ، وقد تطورت هذه الثقافة عبر تاريخ طويل من الحياة ، على رقعة ضيقة مجدبة خالية من الثروات الطبيعية ، لكن المدهش أن تستمر راسخة بعد أن تمكن اليابانيون من بناء قاعدة صناعية ضخمة متطورة ، وتمكنوا من تحقيق تفوق اقتصادي عالمي ، غير مسبوق،بالنسبة لدولة تواجه مثل ظروف اليابان ، فظلت لهذا معدلات الاستهلاك الخاص محدودة ، وبقي مستوى الطلب على السلع اليابانية منخفضا ، مما أتاح إمكانيات أكبر للتصدير ، كما أدى انخفاض مستوى الطلب على السلع المستوردة إلى واحدة من أهم المشكلات التي تواجهها اليابان مع شركائها التجاريين الكبار هذه الأيام ، وعلى الأخص الولايات المتحدة التي يتزايد عجزها التجاري مع اليابان ، فلم يزل استهلاك المواطن الياباني محدودا ـ مع استثناءات واردة بالطبع ـ رغم إغراق السوق الداخلية بالسلع ، وتقدم فن الاعلان ، وارتفاع متوسط الدخل الفردي ، فعادة الادخار متأصلة في السلوك الاقتصادي للمواطن الياباني ، مهما كان دخله واسعا أو محدودا ، فلديه نسبة ادخار شهرية ضرورية ، بغض النظر عن مستوى الدخل والالتزامات ، ولذلك تأتي اليابان في مقدمة دول العالم من حيث مستوى الادخار المحلي الذي تصل نسبته إلى ١٨٪ ، مقابل ١١,٣٪ في ألمانيا الغربية ، و ١١,١٪ في فرنسا ، و ٧٪ في بريطانيا ، و ٥,٢٪ في الولايات المتحدة .

العنصرية أيضا :

تسهم الروح العنصرية اليابانية تجاه كل ما هو أجنبي في خفض الطلب على السلع المستوردة إلى أدنى مستوى عالمي ، فاليابانيون لا يحبون إلا الياباني ، ولا يثقون إلا في ما هو ياباني ، بل وينظرون إلى كل ما هو غير ياباني نظرة شك ونفور ، ولم تفلح جهود الحكومة اليابانية ـ المدفوعة بالضغط الغربي ـ في إقناع اليابانيين بالاقبال على السلع المستوردة ، بغرض الحد من المشكلات التي يعانيها شركاء اليابان التجاريون بسبب التناقص المطرد في ميزانهم التجاري مع اليابان ، وانخفاض عملاتهم في مواجهة « الين » الياباني ، ومن ضمن هذه الجهود قيام رئيس الوزراء ياساهيرو ناكاسوني بنفسه بدعوة مواطنيه لشراء السلع الغربية ، وخفض التعريفة الجمركية على بعض البضائع الأجنبية ، بل والغائها إلغاء كاملا عن السجائر الأمريكية في أكتوبر الماضي ، ومع ذلك ظل معظم اليابانيين يفضلون سلعهم الوطنية ، ويحجمون عن استهلاك السلع الأجنبية . □



وقفة مع :

الكحالين العرب وشيخهم عمار الموصلي

بقلم : الدكتورة : سرى سبع العيش

يعترف المنصفون ممن ألموا بتاريخ الطب وكتبوا عنه أن العطاء العربي لطب العيون كان أبديا وسيبقى منحوتا في كتب التاريخ .

ولنا في هذه المقالة وقفة مع ذوي الشهرة من الكحالين العرب ، وعلى رأسهم عمار الموصلي .

لقد بنى العرب هياكل علومهم الطبية عن الطب الاغريقي ، فأخذوا كثيراً عن جالينوس ، وجعلوه أستاذهم ، وألموا بالقليل من الطب الفارسي والهندي ، لكنهم كيفوا الطب حسب حاجاتهم ، وأضافوا إليه كثيراً ، فأغنوه ، وتوسعوا به ، واتبعوا طرقهم الخاصة ، وأساليبهم العلمية الرصينة ، وقاموا بالأبحاث ، وتطبيقا لأمانتهم العلمية نسبوا للاغريق كل ما ترجموه عنهم أو أخذوه منهم ، وهم الذين أغنوا التراث الاغريقي وخلدوه . وقد نشروا علومهم وثقافاتهم التي كانت هي الأساس القوي للنهضة العلمية والحضارية في أوروبا ، لكن علماء الغرب لم يكونوا مثلهم ملتزمين بالأمانة العلمية ، فأنكر كثير منهم على العرب فتوحهم الطبية ، بل لقد حاول كثيرون منهم التعتيم

على الحضارة العربية الاسلامية بعد أن اغترفوا من روائعها ، واعتاشوا على فضلها .

مع أنه منذ القرن الثاني عشر وحتى القرن السادس عشر كان الرازي وابن سينا العظيمين اللذين فاقا أبقراط وجالينوس احتراما وشهرة في أوروبا ، حتى أن دانتي ذكر في ملحمته الملهاة الالهية أبقراط وجالينوس وابن سينا .

عن العرب عرف العالم للمرة الأولى الجامعات والمستشفيات والعيادات التخصصية والأطباء الاختصاصيين والاستشاريين ، حيث كان تلامذة الطب يتعلمونه نظريا وعمليا من قبل الاساتذة والأطباء ، وكان الأطباء وتلامذة الطب يرافقون الجراحين للمستشفيات ، ولبيوت المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية .

والعرب هم أول من أسس المكتبات العلمية ، وجعلها (سبيلا) لمن أراد أن يتعلم أو يستزيد ، وهم أول من صنف الكتب في علم الأدوية ، وهم أول من أرّخ للطب وللأطباء (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) .

والحضارة العربية الاسلامية قدمت للعالم ـ لأول مرة ـ الكتب الطبية الموسوعية ذات الترتيب المنظم والمنهجي ، في حين اقتصرت المؤلفات الاغريقية على المختصرات والخلاصات ، وافتقرت الى الشمولية والبحث المنظم والمنهجي ، وقد صنف الكتب في الطب من العرب ذوي الخبرة والشهرة الواسعة ، والتمرس والمران في الطب ، وخاصة في المواضيع التي صنفوا فيها الكتب ، بينما ألف المختصرات الطبية الاغريقية بعض الفلاسفة والكهنة، المعتزلون في صوامعهم الذين لم يمارسوا الطب .

وقد ألف العرب في فترة ٨٥٠ ـ ١٢٥٠ م ما لم يستطع الاغريق تأليفه في ألف عام (منذ عهد أبقراط حتى عهد بولص) .

من الكتب الطبية الموسوعية نذكر الكتاب المنصوري ، والحاوي في الطب لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي ٩٢٣ م ، والمعالجات البقراطية لأبي الحسن أحمد بن محمد الطبري ٩٧٠ م ، والكتاب الملكي أو كامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس المجوسي ٦٩٧ م ، وكتاب التصريف لأبي القاسم الزهراوي (١٠٠٣ م) ، وكتاب القانون لابن سينا ١٠٣٧ م ، والتيسير في المداواة والتدبير لابن زهر ١١٦٢ م ، والكفاية لابن رشد ١١٩٨ م ، والمغني في الأدوية المقررة لابن البيطار ١٢٦٨ ، وكتاب التذكرة لداوود الأنطاكي الذي عاصر أواخر عهد الازدهار الاسلامي ١٣١٠ م .

الكحالة عند العرب :

أطلق العرب على علم طب العيون وجراحتها كلمة الكحالة أو الكحل ، وعلى طبيب العين وجراحها كلمة الكحّال ، وكلمة كحالة كانت تعني تخصصا طبيا رفيعا ، وشرفا مهنيا كبيرا . فالكحالة ليست مجرد وضع الكحل والذرور والشيافات والبارود أو القطرات في العيون ، وإنما تعني أيضا إجراء العمليات الجراحية ، وهو ما كان يسميه العرب (معالجة العين بالحديد) .

والكحّال يفترض فيه أن يلم بجميع الأمراض ومعالجاتها . وأن يكون ذا معرفة كبرى بتشريح العين ودقائقها ووظائفها ، وأن يكون حسن الهيئة ، جيد الصنعة ، واثقا من نفسه ، متزن اليد ، دقيق الملاحظة ، واسع الاطلاع ، عظيم الخبرة . وقد خلّف العرب كتبا عظيمة خصصت للعين وأمراضها وعلاجها ، من أهمها وأشهرها :

(المقالات العشر في العين) لحنين بن اسحق العبادي ٨٧٣ م ، وهو أول كتاب جامع عن العين ، و (المنتخب في طب العين وعلاجها بالأدوية والحديد) لعمّار بن علي الموصلي ١٠٠٠ م الذي اعتمد في كتابه على الأصالة والخبرة الشخصية ، وجاء كتابه بشكل مختصرات مكثفة . وتقارير طبية عن جراحة رائعة الوصف ، وكتاب (عمل اليد)



● المقدح الاجوف الذي صممه عمار الموصلي



● عملية شفط السّاد الطري . . الكحال يدخل المقدح في العين ، ويفتت السّاد ، بينما يقوم مساعده بالشفط

للزهراوي الذي يصف فيه تسع عشرة عملية عينية ، وفيه رسوم إيضاحية للأدوات الجراحية ، و (تذكرة الكحالين) لعلي بن عيسى ١٠١٣ م الذي ولد في بغداد ومارس فن الكحل في العراق ، ويعتبر كتابه (تذكرة الكحالين) أول موسوعة طبية عينية ، جمعت الأعراض والتشخيص والمعالجة في آن واحد ، وأصبح هذا الكتاب هو المصدر الوافر الذي اعتمدت عليه أجيال من أطباء العيون لبضع مئات من السنين . وكتاب (المهذب في الكحل) لابن النفيس ١٢٤٠ م ، وكتاب (الكافي في الكحل) لخليفة بن أبي المحاسن الحلبي ١٢٥٦ م الذي مارس الطب والكحالة في سوريا ، ويحتوي كتابه رسوما إيضاحية لست وثلاثين آلة جراحة عينية ، من بينها المهت ، والمقدح الأجوف الذي اخترعه عمار الموصلي ، وأخيرا (كتاب الكافي في الكحل) لصلاح الدين الحموي ١٢٩٦ م .

وهنالك كتاب اشتهرت ترجمته في أوروبا يسمى (نور العيون) ، وقد كتبه أبو روح محمد بن أبي عبدالله بن منصور اليماني ١٠٨٧ م الذي يلقب نفسه باليد الذهبية (زارن داست) ، إشارة إلى براعته في الجراحة ، وقد ألف كتابه هذا بالفارسية في الوقت الذي كان يتقن فيه العربية ، والغريب أنه يقول في مقدمة كتابه : « أكتب هذا الكتاب بالفارسية لأن الله يحب اللغة الفارسية . » وعلى كل حال فالكتاب - كما يراه الأوروبيون - لا يعدو أن يكون تكرارا لما فعله غيره ، ويبدو أنه قد نقل كثيرا - نقلا حرفيا - عن الطبيبين العراقيين علي بن عيسى ، وعمار بن علي الموصلي ، لاسيما فيما يختص بالساد أو نزول الماء ، وطرق معالجته . والأغرب من ذلك أن « زارن داست » يتجاهل ذكر هذين الطبيبين ، مع أنه ينسب ما في كتابه لجالينوس وحنين بن أسحق .

علي بن عمار الموصلي ـ شيخ الكحالين :

ولد عمار ونشأ في البصرة ، وتعلم فن الكحالة ومارسها في العراق ، وفيها صمم واخترع الآلة الشهيرة (المقدح الأجوف) ، ثم سافر إلى دمشق ، واجتذبته مصر فاستقر فيها ، ومارس الطب والكحل ، وأصبح ذائع الشهرة ، وقد استحدث عملية شفط الساد الطريّ بالمقدح الأجوف التي تعتبر نقلة نوعية كبرى في جراحة العين ، لا زلنا نجريها حتى الآن ، ولكن بأدوات عصرية ، وتقنية متطورة ، فبعد أن كانت عملية الساد أو نزول الماء تجرى بطريقة القدح ، أي قلع الساد ، وإبقائه في داخل العين ، أصبحت العملية بفضل عمار الموصلي تجرى بتفتيت الماء وشفطه ، كان عمار الموصلي طبيبا إنساني النزعة ، متميزا ، وجراحا بارعا في فن الكحل ، وأستاذا رائدا ، ومؤلفا ، تميل مؤلفاته للاختصار المكثف ، كما في كتابه (المنتخب) ، ومعظم ما كتب كان ينم عن أصالة ، وعن خبرة شخصية ، وتجربة وممارسة ، وليس عن العلم المنقول المدروس ، وهو أول من كتب التقارير الطبية المفصلة عن عملية (الساد) ، حيث كان يجري عملية القدح للساد الناضج المتصلب ، ويجري عملية الشفط للساد الطريّ المتورم ، وقد وصف ـ بشكل رائع ـ عددا من العمليات التي أجراها ، بكل دقائقها ومفاجآتها ، وطرق السيطرة على اختلاطاتها ، إنها تقارير تضاهي ما يكتبه جراحو العيون الآن ، دقة ، وروعة في الوصف ، وجمالا في التعبير ، وصدقا في الأداء .

وقد شاعت عملية شفط الساد الطريّ ، فذكرها أطباء المغرب والأندلس ، كالزهراوي والقصري ، وكذلك الأطباء السوريون ، كسديد الدين بن رقيقة ، وخليفة بن أبي المحاسن الحلبي ، وصلاح الدين الحموي ، وقد نسبوها كلهم لعمار الموصلي .

وعاد العالم في الربع الأخير من هذا القرن ليبدأ الشفط في إجراء عملية الساد بأسلوب وتقنية حضاريين .

هكذا كان أجدادنا أطباء العيون»الكحالون العظماء ، كانوا أساتذة العالم عندما أشرقت الشمس على الأمة العربية الاسلامية ، وحين كانت غاربة عن غيرها من الأمم ، قدموا للدنيا زادا هائلا من الحضارة والثقافة والعلوم .

فالطب علم لا يخلق من لا شيء ، ولا يكتشف للمرة الأولى ، إنه نتاج حقب طويلة من الحضارة العلمية ، يعطي فيه الأسلاف معارفهم وتجاربهم لأحفادهم وورثتهم ، وإلى سلاسل الأجيال الآتية بعدهم ، فلا بأس أن تأخذ عن الآخرين الآن ، ونبدأ بالصعود ثانية ، فلعل هنالك زمناً عربياً إسلامياً آخر في انتظارنا . □

المـــرأة والرغيـــف

● يقول الأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات : ان معركة الحياة من مبدئها الى منتهاها انما تدور على شيئين : المرأة والرغيف .. المرأة لبقاء النوع والرغيف لحفظ الذات ، واذا كان الكلام في الرغيف وما يتصل به من وسائل ومشاكل من شأن العلم ، فان الكلام في الجنس وما يتصل به من عواطف وغرائز من شأن الأدب .

إدوارد بوكوك

أول إنجليزي يكتب شعرًا بالعربية

بقلم : الدكتور نبيل ابراهيم مطر

لم يكن الاستشراق قد عرف حين أبدى ادوارد بوكوك اهتماما باللغة العربية التي أقام في مدينة حلب ست سنوات ليتقنها ، وما هو أهم من ذلك أن بوكوك كان أول انجليزي يكتب شعرا بالعربية . فكيف كان ذلك ؟ وإلى أي مدى نجح في محاولته تلك في ذلك الزمان القديم ؟

بعد عشرين عاما من الفوضى السياسية والاقتتال الطائفي ، وبعد إحدى عشرة سنة من إعدام والده الملك تشارلز الأول ، عاد الابن البكر تشارلز الثاني ، ليتربع على عرش بريطانيا في عام ١٦٦٠ م ، وكانت نظرة الشعب البريطاني لهذه العودة كنظرتهم إلى معجزة تمت بعناية إلهية ، فأقاموا الاحتفالات ، ورقصوا في الشوارع ، وأناروا لندن بالمصابيح ، وألقيت الكلمات ترحيبا بالملك ، وحمدا لله الذي حماه طوال فترة النفي في هولندا وفرنسا .

ولعل جامعة اكسفورد كانت أكثر المهتمين بهذه العودة الملكية لعائلة ستيورات ، فقد كانت مدينة اكسفورد المعقل الذي انتقل إليه تشارلز الأول قبيل نشوب أولى المعارك بينه وبين جيش البرلمانيين ، رحبت المدينة به ، وتبرعت له بمساعدة مالية ، كما جمعت كليات الجامعة أواني وأوسمة ذهبية ، وقدمتها للملك ، ليتاح له تسديد مستحقات الجيش والأعوان الذين ساعدوه ، ووقفت موقفا مؤازرا لسياسته ، بينما ساندت جامعة كمبردج البرلمانيين ، وفتحت لهم أبوابها ، ليطبعوا في مطابعها المقالات والكتب الموجهة ضد الملك ومبادئه . لهذا كان ابتهاج جامعة اكسفورد بتحقق عودته عظيما إلى درجة أنها قررت إصدار كتاب يضم قصائد للترحيب بالملك تشارلز الثاني ، للتعبير عن دعمها ووفائها له ، وقد شارك عدد من مدرسي الجامعة في إعداد هذا الكتاب ،

وكانت لهم فيه فرصة مناسبة لاظهار براعتهم في الشعر واللغة ، فكتبوا بلغات عديدة كالانجليزية ، أو اللاتينية أو اليونانية ، لكن ادوارد بوكوك أستاذ اللغة العربية في الجامعة ، وأحد أكثر اللغويين قربا إلى الملك كتب قصيدة بالعربية يحيي فيها عودة الملك الابن إلى عرش بريطانيا . ومن المؤكد أن هذه القصيدة هي أول محاولة شعرية باللغة العربية قام بها انجليزي .

محاضرة عن خطب الإمام

ولد ادوارد بوكوك في الثامن من نوفمبر ١٦٠٤ م ، ومنذ صغره أظهر شغفا باللغات الشرقية ، فما أن جاوز سن السادسة عشرة حتى ذهب إلى جامعة اكسفورد ليتابع دراسة العربية والعبرية والسريانية ، وبعد أن أنهى دراسته الجامعية سافر إلى مدينة حلب عام ١٦٣٠ م ، حيث أقام فيها ست سنوات ، دأب خلالها على إتقان العربية بمساعدة أستاذه فتح الله ، وفي عام ١٦٣٦ عاد بوكوك إلى انجلترا ، وشغل كرسي اللغة العربية في جامعتها الأم ، وقد أسس هذا الكرسي بمساعدة الملك لتشجيع الطلاب الانجليز ـ خاصة ـ على تعلم هذه اللغة لخدمة « شركة المشرق » التجارية . كان بوكوك أول انجليزي ضليع باللغة العربية ،وبعد أن أسند إليه شغل كرسي اللغة العربية قام بإلقاء أول محاضرة له ، وكانت عن خطب الامام علي بن أبي طالب « كرم الله وجهه » .

عاش بوكوك بعيدا عن الصخب السياسي الذي هز أركان بريطانيا بين ١٦٤٢ ـ ١٦٦٠ م ، ومع أن موقفه كان ملكيا إلا أنه لم يعزل من كرسيه في الجامعة بعد إعدام الملك ، لأن أحداً لم يكن يتمتع بمثل كفاءته في تخصصه .

دأب بوكوك على أعمال الترجمة ، فترجم « لامية العجم » ، والمختصر في الدول لأبي الفرج ، وأجزاء من « حي بن يقظان » لابن طفيل ، وكان معجبا بالجاحظ والغزالي والشهرستاني ، وقد اقتبس منهم كثيراً والجدير بالذكر هنا أن بوكوك كان يترجم النص من العربية إلى اللاتينية مضيفا ملاحظات وإشارات مطولة ، تتناول الوزن الشعري ، والمفردات ، والمبادىء البلاغية ، وقلما ترجم بوكوك من العربية إلى الانجليزية ، وذلك لشعوره أن مبنى اللغة العربية أقرب إلى اللاتينية من الانجليزية ، كما أنه نظر إلى أعماله بمنظار الباحث الجامعي ذي القراء المختصين ، وقد كان واضحا له في تلك الفترة أن الشعر العربي والتراث الاسلامي سيجدان منزلة يستحقانها بين المفكرين والمثقفين الانجليز الذين ألموا باللاتينية ، وليس بين عامة الشعب ، كما أنه اهتم بأن تقرأ ترجماته في بريطانيا وفي جميع أنحاء اوروبا ، لذا اعتنى بترجمة النصوص إلى اللاتينية لأنها لغة البحث الأدبي والعلمي في ذلك القرن .

قصيدتان بالعربية

احتفلت جامعة اكسفورد ـ كما ذكرنا ـ بعودة الملك تشارلز الثاني ، وقد ألف أستاذ العربية (بوكوك) بهذه المناسبة قصيدة من سبعة أبيات ، مستخدما فيها الصور الشعرية التي كانت رائجة آنذاك عند أهل العربية ، وقد كانت قصيدته هي القصيدة الوحيدة التي ألفت باللغة العربية ، وبالنسبة إلى اللغات السامية كانت قصيدته إلى جانب قصيدتين بالعبرية . والملاحظ على نص القصيدة ـ كما نشرت في الكتاب ـ صعوبة قراءة بعض الكلمات ، والسبب في ذلك أن مطبعة الجامعة لم تكن تملك أحرفا عربية متقنة ، ولهذا أيضا كان العديد من منشورات بوكوك العربية يطبع بأحرف لاتينية ، وقد تمت طباعة القصيدة المذكورة بالحرف العربي ونشرت في كتاب « مجموعة قصائد بمناسبة عودة تشارلز الثاني من تأليف أساتذة الجامعة » ، وهذا نص القصيدة تماما كما ورد في الأصل :

طال الظلام وعمت أبصار
بطلعة الشمس بهت أنوار
بالشمس قدوة لك يا شمسنا
قد زاد بالكسف لك الفخار
عيوننا تصاب لأعين الضيا
لقيمة مالنا لكم لاعار
قد صار مجدكم سواه دايما
في الأرض كلها له آثار
من كان هذا حاله مستترا
كيف يصبر إن مضت أستار
كذا جرى الأمر بداية إن
كان ظلام بعده نهار
لازال مجدك الشريف ينتمي
ما دام في الأفق يضوء نار

من الواضح أن المطبعة الجامعية ارتكبت أخطاء عديدة في قصيدة بوكوك ، سواء في ترتيب الأحرف أو في دقة البيت الشعري ، ومع ذلك فإن القصيدة بسيطة المبنى والمعنى ، إذ تناول بوكوك فيها صورة شعرية واحدة ، وهي صورة الشمس ، وبنى قصيدته على التناقض بين النور والظلام . ومن الملاحظ أن القصيدة تشبه شعر المديح العباسي ، إلا أن الصورة الشعرية التي استعملها المؤلف كانت شائعة في تلك الفترة ، خصوصا أن كسوفا رهيبا للشمس كان قد حدث قبل بضعة أشهر من عودة تشارلز الثاني ، ولذا حاول المؤلف أن يقارن بين كسوف الشمس ونفي الملك ، وبين عودة الشمس وعودة الملك إلى العرش .

وقد نجح المؤلف في إظهار عودة الملك كأنها عودة الطبيعة إلى مسارها الدائم ، وفي إظهار حاجة الشعب إلى النور الملكي ، لكنه وجد صعوبة في إدخال اسم الملك « تشارلز » إلى الوزن الشعري العربي ، فالترجمة اللاتينية وإن كانت ـ كما يقول بوكوك ـ « حرفية » تظهر مشكلة ذكر تشارلز بالانكليزية أو « كارول » باللاتينية ، لذا ذكر المؤلف اسم الملك في السطر السادس اللاتيني ، لكنه أحجم عن ذلك في القصيدة العربية ، وقد جانس المؤلف بين كلمة « Clarion » في السطر الثاني ـ ومعناها أشد نورا ـ وبين اسم الملك « cuire » ، مشيرا بذلك إلى أن الملك هو صورة لنور الشمس القوي ، وقد استعمل بعض الظواهر الشعرية في النص اللاتيني ، لكنه لم يستعملها في النص العربي ، ولا يمكن التكهن بمدى نجاح قصيدة بوكوك ، وما إذا كان تشارلز الثاني قد أعجب بها ، فالملك يعرف العربية ، لكنه ربما قرأ القصيدة اللاتينية فقد كان ضليعا بتلك اللغة ، أما عن طلاب المؤلف أو زملائه في قسم اللغة العربية ، فلم يعرف عنهم أي تعليق حولها .

في رثاء هنري

بعد بضعة أشهر من عودة الملك إلى العرش فجع بوفاة أخيه هنري الذي لم يناهز العشرين عاما ، وكان تشارلز يحب أخاه الأصغر حباً شديداً ، وبعد وفاته رفض أن يقابل أحدا من مساعديه عدة أيام ، كان هذا في شهر سبتمبر من عام ١٦٦٠ ، وقد أقيم لهنري مأتم حافل ، اشترك فيه النبلاء والسياسيون وحشد كبير من الناس ، ولما كان أسى تشارلز ظاهرا للعيان رأت جامعة اكسفورد أن من واجبها ـ مرة أخرى ـ أن تقدم كتابا يضم قصائد رثاء بهذه الفاجعة الأليمة التي حلت بالملك ، وكانت هذه هي المناسبة الثانية التي ألف بوكوك فيها قصيدة باللغة العربية .

وفي هذا دليل على أهمية كرسي العربية في جامعة اكسفورد ، وعلى تقدير الجامعة لأهمية بوكوك ، وضرورة مشاركته بالمناسبات المهمة .

تقع قصيدة الرثاء في ستة أبيات ، وتليها الترجمة اللاتينية ، وقد ظهرت في كتاب «مجموعة قصائد» بمناسبة وفاة هنري. ديوك غلوستر ، من تأليف أساتذة الجامعة ، وكما بنيت القصيدة الأولى على صورة

شعرية واحدة هي الشمس بنيت قصيدة الرثاء ـ أيضا ـ على صورة شعرية واحدة وهي صورة القمر . وهذا نص القصيدة تماما كما ورد في الأصل :

علمنا بما أصابك يا أمير
جميع الزيادة لنقص بصير
رأينا هلالك كبدر مكملا
ولاقاه ما به تصاب البدور
ضياك بظل الأرض منا تحجب
وهل للكواكب محل قبور
لضاقت بمجدك الآفاق بوسعها
صعدت السماء فيه تنور
بلغت من العلا بحدث شبابك
لما مبلغ الكبار عنه قصير
أطلت حياة مع قل الأيام
أيام لمثلك فهي دهور

رسالة من ملك المغرب

لم يحاول بوكوك بعد هاتين القصيدتين كتابة الشعر بالعربية ، بل دأب على الترجمة والاقتباس ، لكنه نجح من خلال قصيدتيه على ما يبدو في إظهار مقدرته اللغوية للملك تشارلز ، إلى درجة أن الملك استدعاه خصيصا عام ١٦٦٨ إلى لندن ليقوم بترجمة موثوقة لرسالة تلقاها من ملك المغرب . وفي عام ١٦٨٢ قام سفير المغرب بزيارة اكسفورد ، فألقى بوكوك أمامه كلمة بالعربية ، أثارت في بعض اللحظات ضحك السفير دون أن يعرف أحد سبب ضحكه ، وهل سبب ضحكه وقوع بوكوك في هفوات لغوية أم أن نكاته هي السبب . لكن من الواضح أن بوكوك كان واحداً من أوائل المستشرقين الانجليز الذين برعوا بالعربية ، وأحبوا بعض مظاهرها الشرقية ، وقد ترجم بوكوك كتابا عربيا عن القهوة ، ولم يكن هذا المشروب معروفا في انجلترا آنذاك ، وهذا مما شجع أحد التجار في مدينة اكسفورد على استيراد القهوة وبيعها ، وهكذا كان بوكوك من أوائل شاربي القهوة في انجلترا ، ومن أوائل من أسهم في تشجيع إنشاء « المقهى » كمركز لهذا المشروب الشرقي .

بقي بوكوك أستاذا ومترجما وقارئا للتراث العربي والاسلامي حتى وفاته عام ١٦٩١ ، وقد خلفه ابنه الذي سمي باسمه أيضا ، والذي أصبح فيها بعد أستاذاً للعربية في جامعة اكسفورد ، لكنه لم يلمع مثل أبيه الذي يعود إليه الفضل في تقوية كرسي العربية الذي تطور حتى أصبح يعتبر حاليا واحداً من أهم مراكز الدراسات اللغوية الشرقية في الغرب . □

القصيدة طفل

● قالوا للشاعر كارل ساندبرج : هل طلبت إليك إحدى المجلات أن تكتب لها مجموعة من القصائد على غرار قصائدك المشهورة عن الحياة في مدينة شيكاغو الأمريكية ؟ فقال ساند برج : هل سبق لكم أن سمعتم عن أمر يصدر إلى امرأة حامل بأن تلد طفلا ذكرا لون شعره أحمر ؟ إنه شيء من صنع الله ، والقصيدة طفل لا أحد يعرف ـ حتى صاحبها ـ متى تنظم ، أو كيف سيكون مولدها .

اللاذقية

موطن للجمال بين الجبل والبحر

استطلاع / ابو المعاطي ابو النجا تصوير / طالب الحسيني





تلميذتان من المدرسة التخصصية في لقطة راقصة ، ويظهر من خلفهما البحر الأبيض .



مثلما يبدو الحال في احد البيوت عشية الاحتفال بيوم عرس ، كانت تبدو لنا مدينة اللاذقية عندما وصلنا اليها في شهر فبراير سنة ١٩٨٧، فلأي عرس كانت تستعد المدينة البحرية العريقة ؟ ومن هم المدعوون ؟ ومتى يكون حفل الزفاف ؟

الملصقات في الشوارع تتحدث بالصورة والكلمة عن الاستعدادات للدورة العاشرة لالعاب حوض البحر الابيض المتوسط التي ستقام في اللاذقية في الفترة من ١١ ـ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٧ ، الاسهم تشير الى مواقع العمل الذي يجري على قدم وساق في أكثر من مكان ، الأعلام التي تحمل شعارات الدورة ترفرف هنا وهناك وكأنها تذكر العاملين في كل المواقع بأن ساعة الصفر تقترب ، وان كل شيء يجب ان يتم انجازه في موعده المحدد .

كنا في زيارة لاستطلاع مدينة اللاذقية قديما وحديثا ، وكان لابد لنا أن نتوقف أمام هذا الحدث الكبير الذي يلوح وكأنه يشغل الكثيرين ، ويكاد يفرض نفسه على أشياء كثيرة ، وكان السؤال الطبيعي من أين نبدأ ؟ وجاء جوابهم : من هنا يمكن ان تكون البداية وأشاروا الى مدرسة تقع في قلب المدينة اسمها المدرسة التخصصية وهي تقدم مقررات فنية ومهنية لمن لديهم مواهب وقدرات فنية خاصة من الطلاب ، ثم أوضحوا قائلين :

« طلاب وطالبات هذه المدرسة واساتذتهم هم الذين يقومون باعداد اكثر الاشياء اللازمة لحفل الافتتاح والختام لهذه الدورة ، ومن المشاركين في هذين الحفلين ، ثم بعد ذلك يمكنكم ان تزوروا المدينة الرياضية في منطقة « افاميا » على ساحل البحر الأبيض حيث يجري العمل للانتهاء من المنشآت الرياضية التي ستقام فيها الدورة و . . . أن تزوروا القرية الاولمبية على مقربة منها » . . .

خلية نحل

داخل المدرسة كان جو العرس أكثر وضوحا ، الكل يعمل ، الكل يشارك ، رغم تعدد نواحي العمل فيبدو ـ مثلما يحدث في خلية النحل ـ أن كل مجموعة تعمل وفق خطة مدروسة ، لتنفيذ برنامج محدد ، يعرف كل واحد دوره فيه .

في احدى الصالات طالبات يصنعن من أوراق خاصة ملونة أجزاء الزهرة ، واحدة تصنع البتلات ، واخرى تصنع الاوراق ، وثالثة تجمع الزهور كاملة وتنسقها في السلال التي فرغت من صنعها مجموعة أخيرة لتوها .

في صالة ثانية تنبعث نغمات موسيقية ، وطالبات يؤدين عليها حركات ايقاعية تعبيرية ، في صالة ثالثة مدرسات وطالبات يصممن ويحكن ملابس الاستعراضات بألوانها المتعددة ، في حجرة رابعة طالبات يصنعن نماذج ومجسدات واقنعة من عجائن لدنة ، تم تصنيعها في المدرسة لوجوه وكائنات اسطورية وتاريخية ، وبين الدهشة والتساؤل يوضح مرافقنا في المدرسة الدكتور مروان صقر :

« كان من الممكن أن نعهد لاحدى شركات القطاع العام أو الخاص بانجاز هذه المهام، لكن أردنا أن يمارس أبناؤنا من الطلاب والطالبات هذه الخبرة الهامة ، أن يطبقوا ما درسوه،وأن يبدعوا فناجديدا، وأن يعبروا من خلال ذلك كله عن حبهم لوطنهم سوريا ، هذا شيء بالغ الاهمية يتحقق من خلال هذه الدورة ، في كل المجالات سترون أن أيدي الشباب السوري هي التي تنتج وتبدع بأقل تكلفة ممكنة ، وهذا ايضا مطلوب ومقصود !

لكن ألا ترون أننا هكذا لانبدأ من البداية تماما ؟

ماذا عن الدورة ؟ ماقصتها ؟ ولماذا في اللاذقية ؟ قبل أن نتحدث عن حفلي الافتتاح والختام ، وقبل أن تزور المدينة الرياضية . . أوضح مرافقنا : في عام ١٩٤٨ انبثقت فكرة دورة رياضية لدول حوض البحر الابيض المتوسط ، بغية التقارب بين شعوب المتوسط التي تجمعها روابط حضارية وثقافية وفنية ورياضية ، على ان تقام الدورة كل اربع سنوات في احدى المدن المطلة على البحر ، وعلى ان تقام مرة في بلد اوروبي ثم في بلد افريقي ثم في بلد آسيوى ، الدورة الاولى كانت في الاسكندرية سنة ١٩٥١ ، والدورة الاخيرة كانت في المغرب سنة ١٩٨٣ ، وكان من المفروض ان تقام هذه الدورة هذا العام في اليونان لكن بطلب من سوريا وافقت اللجنة الاولمبية المختصة ووافقت قبلها اليونان على ان تستضيف سوريا هذه الدورة على ارضها في اللاذقية .

ـ لماذا ؟

ـ اننا نترك الاجابة عن هذا السؤال وعن بقية الاسئلة للسيد / الاستاذ وليد عثمان المسئول عن حفل الافتتاح والختام لانه موجود الآن بالعاصمة وسيعود بعد أيام قليلة تستطلعون خلالها معالم اللاذقية ، لأن حديثه عن هذين الحفلين وعن الدورة كلها ـ سيكون أكثر دلالة بعد التعرف على خلفية مناسبة عن اللاذقية قديما وحديثا .

اللاذقية (صورة من ماض قريب)

في ذلك الصباح كنا في طريقنا لزيارة قلعة صلاح الدين التي تقع على مسافة حوالى ٢٥ كم شمال شرق اللاذقية . قال مرافقنا السيد سهيل الخالدى :

« ان فهم اللاذقية يمكن أن يكون مدخلا مناسبا لفهم الكثير عن سوريا نفسها فأحيانا يشتمل الجزء على القانون الاساسي للكل ، ان مفتاح فهم سوريا هو فهم تاريخها ، وقد ترك هذا التاريخ بصماته على معظم المدن السورية ، وبخاصة « اللاذقية » ، ان اسم المدينة في حد ذاته يروى جزءا هاما من هذا التاريخ ، فحيث توجد الان مدينة « اللاذقية » كانت تقوم مدينة قديمة سماها الفينيقيون ـ وهم من أقدم الشعوب التي عاشت في هذه المنطقة ـ « راميتا » أي المرتفعة باللغة الفينيقية ، ثم في العصر الهلنستي في سنة ٣٠٠ ق . م بنى « سلوقس نيكاتور » أحد قواد الاسكندر الأكبر في المكان نفسه مدينة اسماها « لاذوكية » تيمنا باسم والدته ، لقد سماها الرومان بعد ذلك « جوليا » وعاشت فترة تناظر أنطاكية ، ثم افتتحها المسلمون عام ٦٣٧م واخذ الاسم قالبه العربي في زمن أبي عبيدة بن الجراح فتحول الى « اللاذقية » في ايام الصليبيين افتتحها « بوهة ريموند » « حاكم طولوز » ١١٠٩م ثم فتحها صلاح الدين الايوبي ١١٨٨م ، واقطعها الى اخيه المظفر الذي عمر قلعتها . (التي نتوجه الآن لزيارتها) ثم دخلت في الحكم العثماني ، وتتالت عليها الادوار التاريخية مثل بقية المدن السورية .

كنت وأنا استمع الى كلمات سهيل الخالدي يتداعى الى ذهني بعض ما قرأته في كتاب الصراع على سوريا « للصحفي الانجليزي « باتريك سيل » وهو يتحدث عن اهمية فهم جغرافية سوريا ايضا لفهم اقدارها السياسية ، فهو يشير الى أن سوريا : « تشرف على الممرات الشمالية الشرقية الموصلة الى مصر ، وعلى الطريق البري مابين العراق والبحر الابيض المتوسط ، وعلى شمال الجزيرة العربية



خريطة يظهر فيها موقع مدينة اللاذقيه .

والحدود الشمالية الشرقية للوطن العربي وانها كانت دائما طريق التجارة والغزوات والهجرات بين الشرق والغرب ، فاذا كانت سوريا كلها هي بوابة آسيا العربية الى أوروبا ، فقد كانت اللاذقية هي الباب الرئيسي في سوريا لاوروبا سواء عن طريق البحر أو البر ، ان الجغرافيا والتاريخ معا ، وليس واحدا منهما فقط هو مايصنع الثوابت في حياة الشعوب والدول وسياساتها في الوقت ذاته .

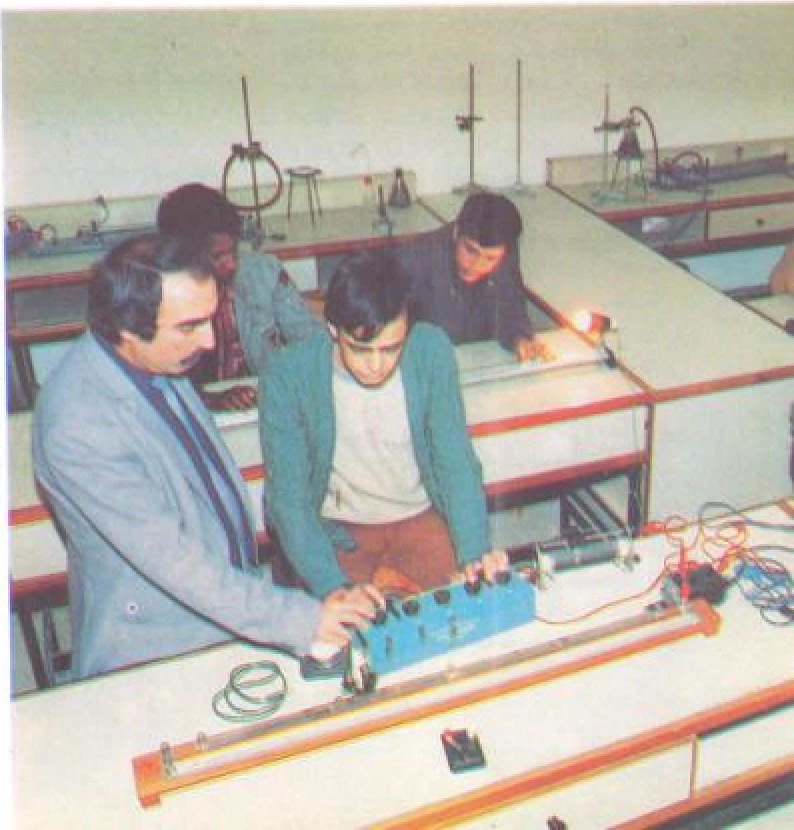
قلعة صلاح الدين

الطريق الى قلعة صلاح الدين يمضي من مدينة اللاذقية مخترقا السهل الساحلي الى جبال اللاذقية عبر مزارع الزيتون ، واشجار اللوزيات على منحدرات المرتفعات وسط غابات جميلة مزهرة بخضرتها اليانعة ، وهوائها المعبق بروائح الحقول .

توقفت السيارة فوق قمة عالية تطل على منحدر سحيق ، من قلب ذلك المنحدر ترتفع هضبة صخرية ضخمة تصل في ارتفاعها الى مستوى القمة التي نقف فوقها ، لأول وهلة يبدو المشهد وكأن ذلك كله كان جبلا واحدا ، ثم وقع حادث جيولوجي هائل أدى







أعلى الصفحة إلى اليمين :
طالب وطالبة من السودان في جامعة تشرين باللاذقية . ثم طالبة تتدرب على الحاسوب (الكمبيوتر) تحت إشراف أستاذها في الجامعة . (أسفل) .
طلبة يتدرسون في أحد معامل كلية العلوم .



مشهد عام
لميناء
اللاذقية .



منظر لجامعة
تشرين .

الى شق أرض من حول تلك الهضبة الوسطى ، صنع ذلك الخندق العميق الذي بدا لنا من حيث نقف وكأنه يحيط بتلك الهضبة من جميع الجوانب .

قال مرافقنا سهيل الخالدي وهو يشير الى اسوار القلعة في أعلى الهضبة المحصنة بالخندق العميق :

تلك هي قلعة صلاح الدين ، وذلك هو اسمها العربي وكانت تسمى في عهد الصليبيين قلعة « صهيون » ، لقد اردت ان نلقى نظرة شاملة على القلعة من الخارج قبل ان ندخل اليها ، فهذه القلعة تتحكم من موقعها هذا في الممرات التي تصل وادي نهر العاصي بالبحر كما انها تشكل مع مرتفع رأس الشمرة وقلعة بانياس في اتجاه الجنوب على الساحل السوري خط الدفاع القديم المتراص ضد اي هجوم على سوريا من البحر .

ولم أكن أتصور كيف سنصل الى هذه القلعة عبر هذا الخندق العميق ، وحين أشار سهيل الخالدي الى الطريق الذي صنع حديثا (بلهجة لاتخلو من الاعتزاز) والذي سنقطعه بالسيارة الى القلعة غاص قلبي بين ضلوعي ، فالطريق يتدلى في انحدار ملتو الى القاع البعيد بين الصخور والأحراش كحبل انفرطت أحماله ، ويرتفع من الجانب الآخر كثعبان لايقوى على الحركة .

وخلال عبور هذا الطريق لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في أولئك الذين كانوا يهاجمون هذه القلعة أو يدافعون عنها عبر مئات السنين ، وكيف انهم جميعا كانوا ينشدون الشهادة أو المجد أو السلطة وأنهم جميعا من مات منهم أو عاش او جرح ، قد واجهوا مصائرهم فوق هذه الصخور ومن حولها ، ووسط كل هذه الوحشة والصمت والجلال !

حين وصلنا الى نهاية طريق الصعود الى القلعة تبين لنا ان الخندق الذي كنا نظنه يحيط بالقلعة من كل جانب لايفعل ذلك تماما ، ان الهضبة التي بنيت فوقها القلعة كانت تتصل اتصالا وثيقا بالمرتفعات التي تقع شماليها ولكي يتم عزل هذه الهضبة نهائيا عن كل ماحولها فقد قام الجنود الصليبيون باحداث قطع في الجبل بعمق ٢٥٠ مترا وعرض ١٥ متر ، في منتصف هذا القطع (الممر) يرتفع عمود بنفس الطول فوقه جسر متحرك يكون طريق الاتصال بين القلعة والعالم الخارجي ، ويتم عزل القلعة تلقائيا برفعه .

عند بداية هذا الممر (القطع) التقينا بمراقب القلعة السيد / محمد يطار الذي بدأ حديثه معنا بشرح المزيد عن هذا الممر .«استغرق نحت هذا الممر في الجبل عشرين عاما ، وهذه التجاويف في حوائطه كان بعضها معالف للخيول التي كانت تربط هنا ، وبعضها كانت توضع فيه اخشاب مستعرضة لتتعثر فيها خيول المهاجين ويصبحون صيدا سهلا لسهام الرماة في ابراج القلعة . . »

وفي داخل القلعة عاد مرافقنا يواصل حديثه :

بنيت هذه القلعة في العصر الروماني ومساحتها ٥٠ ألف متر مربع وترتفع عن سطح البحر حوالي خمسمائة متر ، ثم جاء البيزنطيون وزادوا في بنائها ، ويمكن أن نرى الفرق واضحا بين طابع البناء الروماني بأحجاره الضخمة وبين القسم البيزنطي الذي يتميز بأحجاره الصغيرة نسبيا .

وعن الطريقة التي كانت تجلب بها هذه الأحجار الضخمة أوضح المراقب :

انها نفس الطريقة التي جلبت بها أحجار الاهرامات في مصر ، كانت تسحب من الجبل القريب على مدرج ارضي يتدرج في ارتفاعه ليصل الى مكان البناء في القلعة ، وعاد السيد / يطار يشير الى الأجزاء التي بناها الصليبيون في أعلى القلعة وهي الابراج التي تشكل خطوط مراقبة ودفاع معا من خلال فتحاتها على جميع الجوانب ، اما آخر الأجزاء التي بنيت فهي المسجد والمدرسة والحمام وقد بناها صلاح الدين ، وظهر فيها جميعا الطابع الاسلامي ، وقد أخبرنا السيد محمد مبارك مرافقنا من دمشق أن مئذنة المسجد في قلعة صلاح الدين كانت في الأصل برج كنيسة في دمشق نقلت الى هذا المسجد .

وقفنا لحظات بين الأحراش التي تنمو في جنبات القلعة القديمة نتأمل قطرات المطر المحتجزة بين فجوات الصخور الضخمة وهي تتساقط ربما حيث كان يقف القواد والملوك والجنود،ربما في المكان نفسه يفكرون في الهجوم أو الدفاع . . هنا كانت مراحل التاريخ تتجسد في هذه الأحجار القديمة التي بقيت بعد كل شيء تروي لنا تاريخ الصراعات القديمة بين اصحاب العقائد والطموحات وكيف قضوا جميعا وبقيت بعدهم أسلحة الدفاع والهجوم ووسائل العلم والحضارة تنمو وتتطور لكن من أجل من ومن أجل ماذا ؟ لنترك هذا السؤال الآن معلقا على أبواب القلعة !!

أوجاريت (صورة من الماضي البعيد)

تلك كانت محطتنا الثانية في جولتنا بحثا عن مراحل أبعد في تاريخ تلك المنطقة ، تقع مدينة « أوجاريت » او رأس الشمرة على مسافة ١١ ك م .

شمال اللاذقية ، وصلنا الى موقع المدينة بعد الظهر ، كان المشهد مثيرا ، ففي وسط الحقول الخضراء تقف هذه المجموعة من بقايا بيوت بلا أسقف ترتفع بالكاد لقامة الرجل لكنها بأحجارها القديمة العارية والمتماسكة تمتد في تناظر عجيب قطعة من الزمن القديم رحل عنها ساكنوها وتركوها تروي في صمت قصة حضارة من أقدم وأخطر الحضارات في التاريخ .

قال السيد ابراهيم الباروك مسئول الآثار في المنطقة هذه مدينة فينيقية ، يعود تاريخها الى القرن الرابع عشر ق . م اسمها « اوجاريت » مأخوذة من كلمة « اوجارو » وهي في اللغة الفينيقية تعني الارض الخصبة .

« تم اكتشاف هذه المدينة سنة ١٩٢٩ بالصدفة ، فبينما كان فلاح يحرث ارضه في هذا المكان اذا برأس المحراث يصطدم بحجر وحين أزاله الفلاح وجد اسفله سلما يؤدي الى هذه المدينة .

كانت سوريا آنذاك تحت الانتداب الفرنسي فجاء عالم الآثار الفرنسي « كلود شيفر » ومعه بعثة متخصصة،وواصلوا الحفر حتى تم اكتشاف المدينة ولاتزال عمليات التنقيب تجري حتى الآن .

كنا قد بدأنا التجول في طرقات المدينة بل وفي حجراتها فالابواب والنوافذ والطرقات كلها مفتوحة ، والحوائط متماسكة دون ملاط ، والاحجار متراصة على نحو يضمن هذا التماسك ، وفي الفراغ بين الاحجار الكبيرة حشرت احجار صغيرة متكسرة .

يواصل السيد ابراهيم الباروك حديثه :

« المدينة مقسمة الى خمسة اقسام رئيسة :

القسم الاول (الذي نحن فيه الآن) هو القصر الملكي ويضم ٩٠ غرفة ، وخمس باحات ، ومكتبتين وفرن لحرق اللوحات ، لان كل اللوحات التي وجدت في المدينة ، والتي استطاع العلماء من خلالها فك رموز اللغة الاوجاريتية كانت من التراب المحروق الفخار .

« القسم الثاني : حي الاغنياء والثالث : الاسطبلات الرابع : السوق ، الخامس : الشعب »

كان من الصعب أن تتبين فوارق بين ماتبقى من البيوت في مختلف الاحياء ، مثلما يكون من الصعب أن تتبين فروقا بين هياكل عظمية لمن تختلف حظوظهم في الحياة بعد الموت .

ويتابع السيد / الباروك حديثه قائلا :

« ومن اخطر الكشوف التي تمت في مكتبة القصر الملكي اللوحات المكتوبة باللغة الأوجاريتية ، والتي تعتبر أبجديتها حتى الان أول أبجدية في التاريخ ، وهي مكونة من ثلاثين حرفا ، وتسمى اللغة المسمارية،لأن الشكل الأساسي في حروفها هو شكل مسمار،ثم يأخذ الحرف شكله النهائي من تشكيل المسمار مع آخر ، وتتنوع الحروف بتنوع هذه الاشكال ، وتتميز هذه اللغة بأنها أول لغة في العالم لها صوت ، بينما كانت اللغات قبلها مجرد صور مرسومة كاللغة الهيروغليفية .

وعن علاقة هذه اللغة بغيرها من اللغات اوضح السيد الباروك :

ان العلماء اكتشفوا ، ان هناك علاقات وثيقة بينها وبين اللغة العربية القديمة في قواعد الصرف وأن هناك اكثر من ٧٠٠ كلمة مشتركة ، وانه وجدت في المكتبة الملكية الى جوار اللوحات التي تحمل اللغة الاوجاريتية لوحات اخرى عليها ثماني لغات كانت معروفة في المدينة ، وتحتوي على مراسلات بين اوجاريت ومصر وبينها وبين البابليين في العراق ، والحيثيين في تركيا ، والقبرصيين في قبرص وان اوثق العلاقات ، كانت بين اوجاريت ومصر لموازنة خطر الحيثيين الذي كان يهدد اوجاريت دائما ويضيف السيد / الباروك : لقد بلغ من اهتمام العلماء بدراسة آثار اوجاريت ان بلغ عدد الكتب التي صدرت في العالم بمختلف اللغات عن هذه الحضارة مئات الكتب التي تحمل العديد من الفروض العلمية الخطيرة حول هذه الآثار .

ثقافة أوجاريت أصل لثقافات عديدة

لقد دفعنا حديث السيد / الباروك الى البحث وراء بعض هذه الفروض فرجعنا الى الكتاب الهام بعنوان « أوجاريت » للكاتب اللبناني الشيخ « نسيب وهبة الخازن » الذي يقدم عرضا شيقا لاكثر الفروض العلمية خطرا حول هذه الآثار ونلتقي هنا بالفرض الذي قدمه العالم الفرنسي « كلود شيفر » بعد دراسته للعديد من اللوحات المكتشفة في اوجاريت ومقارنتها بنصوص توارتية:

يقول كلود شيفر :

« ان الأمثلة التي ذكرناها هنا ، تكفي للدلالة على العلاقة الوثيقة بين نصوص رأس الشمرة ، ونصوص التوراة،وهي تثبت أن الانتاج الأدبي كان عظيما في فلسطين ولبنان وسوريا قبل عصر ملوك







أعلى الصفحة : صورة لسد تشرين على نهر الشمالي الكبير .
في الوسط : حقول من أشجار الزيتون .
أسفل : فتيات يقمن بإعداد شتلات الزيتون .
(أقصى اليمين) في إحدى حقول الحمضيات سيدة تقطف بعض الثمار .



اسرائيل ، وان هـذا الانتاج الأدبي هـو في الواقـع المورد الذي نهل منه كتاب التوراة والانبياء ، وعليه فأخبار التوراة التي توحي بالتدين في عصرنا تعود الى عهد أبعد بكثير مما كان علماء الآثار يعتقدون » .

ثم يضيف : ان ظهور هـذا الأمر الـذي يـبدا واضحـا من نصوص رأس الشمـرة قد أجمع علماء الآثار على انه أحد الاكتشافات العظمى في الأبحاث التوراتية » .

حضارة أوجاريت

وعن اهم مـلامح الحضـارة الاوجاريتية يقـول الـسيد / البـاروك « تقوم الحضارة الاوجاريتية على الزراعة والتجارة ، فلقد وجدت ضمن آثار المدينة معاصر للزيتـون والعنب ، ولهـذا السبب عرف الفينيقيون بعامة بحبهم للسلام وبصلاتهم الواسعة بالحضارات المجاورة وعندما كانـوا يجبرون على خوض الحرب كانوا يجمعون رؤوس القتلى على شكل هرم يقيمونه أمام المدينة ليعرف النـاس مـاذا تفعل الحروب بهم » .

« حضارة أوجاريت هي خامس حضارة سكنت في هذه المنطقة ، أحد العلماء حفر على عمق ١٤ مترا فوجد المدينة الأولى وكـانت على مستوى سطح البحـر ، ويرجـع تاريخهـا الى ٧ آلاف سنه ق . م وتنتمي الى العصـر الحجرى من تحليل المـواد التى وجدت من فخار وأوان ، وجد بها اثـار تنتمي الى العصـر البرونـزي القـديم والـوسيط والحـديث ، واغلب الـظن ان كل المـدن التى بنيت بعد المـدينة الاولى قد محتها الـزلازل التى تعرضت لهـا المنطقـة قديما ، وان اوجاريت أورأس الشمرة وهى الحضارة الخامسة قد قامت على انقاض كل هذه الحضارات ، وفى طريق عودتنـا كنت افكر بهـذه المفارقـة ، لقد اهـدت هـذه المنطقـة الى العـالم أول اداة خصبـة للتفكير ، أول ابجدية ، بينما اهدت روما الى هذه المنطقة أول قلعة للحرب .

ميناء اللاذقية (صورة من الحاضر)

الميناء هو المؤسسة التى يمكن ان تروي من خلال تطورها الكثير عن اللاذقية بل عن سوريا نفسـها ، وعن دورها كمعبر بحرى للعديد من دول المنطقة الى اوروبا .

ويروي تاريخ الميناء انـه كان مـزدهرا في عهـد الفينيقيين واليونان والرومان ، وانه تأثر بـالزلازل التى حدثت في المنطقة في فترات متباعدة في سنة ٥٢٩ م و سنة ١٧٩٦ م وان اهميته ضعفت في عهد المماليك والعثمانيين وانه كان له دور عسكرى ايام الحروب الصليبيـة ، واهتم به الفـرنسيـون ابـان احتلالهم لسوريا لخدمة مصالحهم العسكرية التجارية اما التاريخ الحـديث للميناء وهـو الذي يعنينـا فيمكن القول بأنه بدا مع استقلال سوريا سنة ١٩٤٦ م .

كانت البداية بانشاء شركة الميناء سنة ١٩٥٠ وتمكنت هـذه الشـركـة من استكمـال الانشـاءات الرئيسة في الميناء سنة ١٩٥٦ حيث قـامت بانشاء مكسر للامواج يبلغ طولـه ١٤٣٢م ويحيط بحوض مساحته ٢٤ هكتاراً ، في عام ١٩٥٤ قامت بانشاء رصيف كحـالـة بـطـول ٦٠٠ مـتر وبعمق ٩,٥ والرصيف الشرقي بطول ٢٧٠ م وبعمق ٧ م .

وفي سنة ١٩٥٨ أنشيء رصيف السيلو بطول ١٨٥م وبعمق ٩م ، وفي العام نفسه تم انشاء صوامع الحبوب ، وهى تضم ٥٦ وحدة تخزين سعتها من ٣٥ الى ٤٠ الف طن من الحبوب التى تشحن على السفن بصورة آلية وبقدرة تعادل ١٥٠ طنا في السـاعة ، ثم جرى تزويد هذه الصوامع بشفاطات هوائية لتفريغ الحبوب ، واجهزة اكثر حداثة لادخال الحبوب الى الصوامع بقدرة ٤٥٠ طنا في السـاعة .

وفي سنة ١٩٦٣ ، انشيء مستودع التـبريـد ، وتبلغ سعة تخزينه ألفا وخمسمائة طن موزعة بين قاعات تبريد وأخرى للتجميد تصل فيها درجة الحرارة الى ٤٠ درجة تحت الصفر .

خطوة متقدمة على طريق التطور

في سنة ١٩٧٢ وفي اطار اتفاقيـة مـع الاتحاد السـوفيتي وضعت الدراسـات الفنية لتطوير مرفأ اللاذقية على مرحلتين :

وعن دواعى هـذا التطوير وأهميته تحدث الينا السـيد / رمضان عطيه المدير الحالي للشركة فقال :

في ظل الزيادة المطردة في حركة النقل البحرى بمرفأ اللاذقية سواء لتلبية نمو النقل الدولى عبر الميناء أو لتلبيـة النمو الاقتصـادي في القـطر الـسورى ، ولمواجهة التطور الكبير في السفن التجارية ، وظهور أجيـال جـديـدة من الحـاويـات وسفن النقـل المتخصصة ، كان لابد أن يجيء . التطوير الجديد للميناء بحيث يستجيب لكل هذه المتغيرات ثم تابع المدير العام للشركة حديثه قائلا :

« في اطار المرحلة الأولى من الاتفاق امكن تحقيق الانجازات التالية :

انشاءات بحرية

« اطالة مكسر الأمواج الرئيسي بمقدار ١٧٣٠ مترا بحيث أصبح طوله الاجمالي ٣١٦٢ مترا ويحمي وراءه حوضا مائيا مساحته ١٤٥ هكتارا » .

« انشاء ١١ رصيفا بطول اجمالي ٢١٠٠ متر تقريبا وبعمق يتراوح بين ١٠ - ١٣م .

انشاءات برية من أهمها :

« ٤ مستودعات بمساحة اجمالية قدرها أربعون ألف متر مربع » ساحات ايداع وطرق مساحتها ٤٣٥ ألف متر مربع منها ٢٥٠ ألف متر مربع مصبوبة « بالباطون » المسلح لايداع الحاويات .

« تمديد شبكات السكك الحديدية في منطقة التوسع بطول ١٨ ك م . . .

تجهيزات وآلات

تم اجراء التعاقدات لتوريد التجهيزات التالية لتعمل في مناطق التوسع الجديدة .

« ١٦ رافعة رصيف قوة ٦ أطنان »

« رافعتا رصيف كهربائيتان قوة ١٦ طناً »

« زورقان لقطر السفن بقوة ١٥٠٠ حصان »

« روافع رصيف جسرية (كانترى) بقدرة ٤٥ طناً »

« عشر ناقلات شوكية قدرة ١٠ أطنان »

« أربع حاضنات للحاويات »

ويختتم السيد رمضان عطية حديثه إلينا بقوله :

« اننا نتطلع الآن الى انجاز متطلبات المرحلة الثانية من الاتفاق بيننا وبين الاتحاد السوفيتي وهي المتطلبات التي تلبي احتياجات نمو الميناء حتى سنة ٢٠٠٠ حيث نتوقع ان ترتفع طاقة مرفأ اللاذقية الى ١٥ مليون طن في هذا العام .

جامعة تشرين في اللاذقية

كانت لنا زيارة سريعة في الجامعة قبيل بداية الفصل الدراسي الثاني ، افتتحت الجامعة في العام الدراسي ٧١/ ١٩٧٢ بثلاث كليات هي : كلية الآداب والعلوم الانسانية ، كلية الزراعة ، كلية العلوم .

في الأعوام التالية تم افتتاح كلية الهندسة المدنية ٧٢/ ١٩٧٣ وكلية الطب ٧٤/ ١٩٧٥ والهندسة الميكانيكية ٨٠/ ١٩٨١ وكلية طب الأسنان ٨٣/ ٨٤ ، وكلية الهندسة المعمارية ٨٤/ ١٩٨٦ ، وكلية الاقتصاد ٨٦/ ١٩٨٧ .

« يوجد بالجامعة مركز الحاسب الآلي ، به ثلاثة مخابر في كليات الهندسة والطب والعلوم لتدريب الطلاب واعضاء الهيئة التدريسية والموظفين،ولخدمة الأنشطة العلمية » ، البرامج الدراسية في الجامعة توضع وفق توجيهات مجلس التعليم الجامعي العالي الذي يخطط لجامعات دمشق وحلب واللاذقية ، وباعتبار أن الجامعة لا تزال ناشئة فانها تستعين بعدد من الأساتذة من الأقطار العربية ومن الخارج في بعض التخصصات .

« تضم الجامعة بين طلابها نسبة من طلاب الأقطار العربية » .

اللاذقية تحت المطر

ترتفع مدينة اللاذقية عن سطح البحر حوالي ١٠ امتار تمضي شوارعها في انحدار خفيف لتصب كلها على امتداد شارع الكورنيش على البحر الأبيض

طراز مبانيها يجمع بين القديم والجديد ، وغالبا ما تجد المباني القديمة ذات الأبواب والنوافذ الخشبية المستطيلة المزخرفة تحيط بشوارع ضيقة تكتظ بالمارة والمحال التجارية الصغيرة والباعة ، أما المباني الحديثة وبخاصة في ضواحي المدينة المرتفعة وشوارعها الرئيسية فهي تقوم على ضفاف شوارع متسعة مشجرة بديعة التنسيق ، ومثل أغلب المدن الساحلية فان الرطوبة التي ينفثها البحر على مدار العام تترك آثارها على واجهات المباني القديمة بقعا قاتمة وتشققات في دهان بعض البيوت ، لا فرق من هذه الناحية بين القوس الروماني في وسط المدينة أو البيوت التي تحيط به .

في ذلك اليوم كنا في طريقنا للقاء مدير الزراعة في اللاذقية وفجأة اختفت سماء اللاذقية وراء غيوم داكنة ، وكاد البحر ذاته أن يختفي خلف ضباب كثيف ثم هطل المطر غزيرا متواصلا ، المارة يهرولون للاحتماء بأقرب سقف ، السيارات وحدها هي التي تبطىء حين يشتد المطر وكذلك يفعل الفتيان والفتيات العائدون من مدارسهم حيث يجعلون من حقائبهم المدرسية مظلات واقية ويضحكون ويتفتحون تحت المطر كالزهور اليانعة .

الأشجار الخضراء التي يغسلها المطر تبدو وكأنها نمت فجأة في أماكنها منذ لحظات ، كان المطر يغسل كل شيء في المدينة ، يغسل حتى البحر .



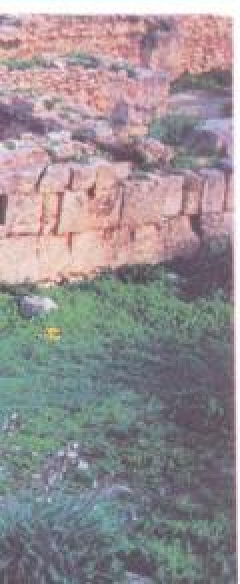


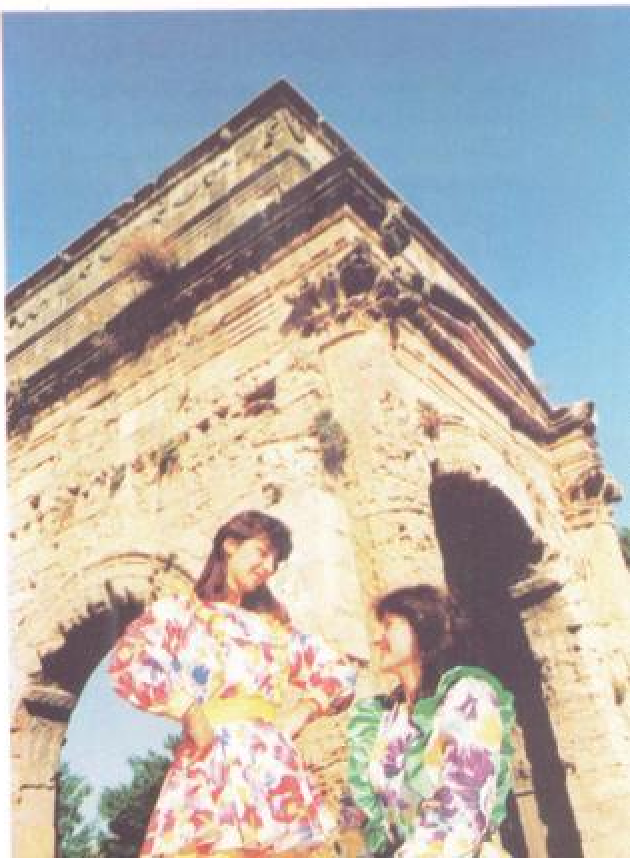
● قلعة صلاح الدين ، ويظهر الممر الذي نحت في الصخر ليعزلها عن الجبل المجاور .

أسفل الصفحة إلى اليمين :
القوس الروماني باللاذقية .

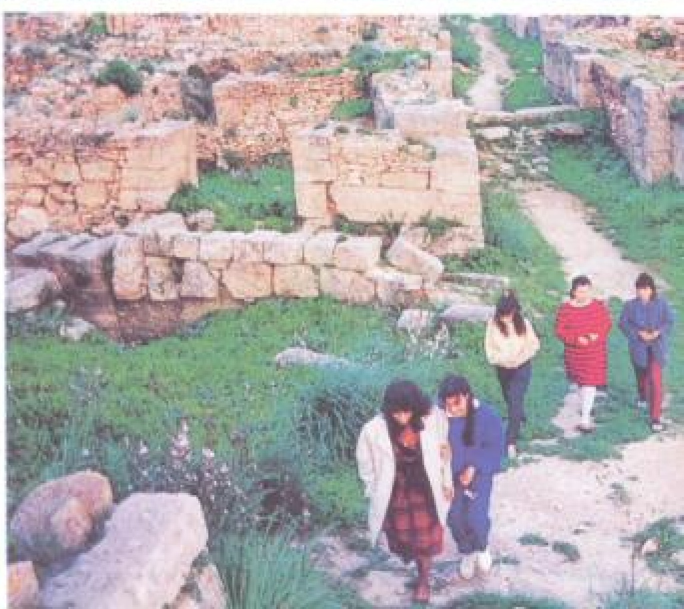
(الى اليسار) :
طلاب وطالبات في المدرسة التخصصية يتدربون على رقصة شعبية (فلكلورية) .

أسفل الصفحة إلى اليمين :
منظر عام لمدينة أوجاريت الأثرية . وإلى اليمين : وجه من الغجر التقينا به فوق جبال اللاذقية .









اللاذقية : مدينة الغابات والزيتون

قال لنا السيد ثابت مدير الزراعة في اللاذقية :

« حتى الآن لا تزال الزراعة هي أهم ملامح الاقتصاد في محافظة اللاذقية ، الصناعة موجودة وتنمو .. هناك مصنع للمحركات الصغيرة ومصنع للألمنيوم هو الوحيد في القطر السوري ، وهناك طبعا صناعة الدخان الذي تجود زراعته في اللاذقية ، وصناعة الحرير من دود القز الذي يربى هنا في اللاذقية أيضا ... لكن الاتجاه الجديد والهام للصناعة هنا هو صناعة المواد الغذائية .. لكن دعونا نبدأ من البداية :

السياسة الزراعية

« مساحة محافظة اللاذقية ٢٢٩ ألف هكتار ، المستثمر منها في الزراعة حوالي مائة ألف هكتار ، منها حوالي ٨٦ ألف هكتار غابات طبيعية واصطناعية تملكها الدولة .

« الأراضي المستثمرة في المحافظة جزء منها يستثمر من قبل الدولة ، من خلال المؤسسة العامة لمزارع الدولة والباقي وهو الأعظم يستثمر من قبل الفلاحين وفق خطة موضوعة من قبل الدولة .

وعن أهم ملامح السياسة الزراعية قال السيد ثابت :

« الذين يعملون في المزارع المستثمرة من قبل الدولة هم أنفسهم الفلاحون الذين كانوا يزرعون الأراضي ذاتها وهي في حوزة الاقطاعيين ، وهؤلاء يتقاضون أجورهم وفق نظم مستقرة وعادلة بالاضافة الى نظام للحوافز لزيادة الانتاج ، وتعويضات وفق طبيعة العمل ، ونظام للتأمين وخدمات صحية واجتماعية .

والى جوارهم عمال مؤقتون يأتون الى العمل في مواسم الحصاد والبذار ، وأجر العامل المؤقت يتراوح بين ٥٠ ، ٦٠ ليرة في اليوم حسب طبيعة العمل .

« عائدات مزارع الدولة : نسبة محددة منها تستخدم لاستثمار أراض جديدة وفق خطة الدولة (كل سنة يتم استصلاح ما بين ألف وألف وخمسمائة هكتار أراضي زراعية جديدة) والباقي يعود لتطوير المزرعة ذاتها ، سواء باضافة أرض جديدة أو تطوير وسائل الري من البعلي الى الدائم أو تحسين البذور .

« الأراضي التي يمتلكها الفلاحون ملكية خاصة تخضع بدورها لنوع من اشراف الدولة ، فالدولة هي التي توفر لهؤلاء الفلاحين البذور والسماد والمبيدات الحشرية وآلات البذور والحرث والحصاد مقابل أجور رمزية كما ان الدولة هي التي تضع السياسة التسويقية للانتاج .

تلك هي ملامح عامة للسياسة الزراعية في القطر السوري بما فيها اللاذقية .

« لكن ثمة ما يمكن أن يكون سياسة خاصة بالتشجير في اللاذقية حيث تجود فيها (نظرا للظروف المناخية الخاصة بها وطبيعة الأرض) زراعة أشجار الحمضيات واللوزيات والزيتون والتفاح وغيرها ..

« يتمثل اهتمام الدولة بالتشجير في محافظة اللاذقية ، بأنها (من خلال المؤسسة العامة) تبدأ في استصلاح الأرض لصالح الفلاح ، ثم تمنح كل فلاح قطعة أرض مناسبة بعد استصلاحها ، ليقوم هو بزراعتها بالأشجار وتعفيه من سداد ثمنها لمدة خمس سنوات وهي تقريبا المدة التي تحتاجها مثل هذه الأشجار لكي تعطي ثمارها لأول مرة ، يمكن للفلاح خلال هذه السنوات أن يزرع الأرض تحت الأشجار بأنواع من الخضار تعطي عائدا مرة ومرات كل سنة

« الدولة هي التي تحدد للفلاح نوع الشجر الذي يزرع في هذه الأرض وفق اعتبارات منها المناخ ومدى ارتفاع الأرض عن سطح البحر ، فالحمضيات - وتأتي في الدرجة الأولى من الأهمية - تزرع في السهل الساحلي على ارتفاع أقل من ٣٠٠ متر ، والزيتون - ويأتي في الدرجة الثانية - يزرع على ارتفاع أقل من ٦٠٠ متر والتفاح والكرز والأجاص - ويأتي في الدرجة الثالثة يزرع على ارتفاع أقل من ٨٠٠ متر .

« الدولة توفر للفلاح دائما آلات الزرع والري بكل أنواعه (الرش والتنقيط) وبخاصة في مثل هذه المناطق المرتفعة » .

« بعد هذه السنوات يقسط ثمن الأرض على الفلاح لمدة عشر سنوات بأقساط رمزية أقل بكثير من كلفة اصلاحها » .

نتيجة لهذا الاهتمام تطور انتاج الحمضيات حيث كان في عام ١٩٧٥ حوالي ١٩ ألف طن وأصبح في سنة ١٩٨٦/ ١٣٠ ألف طن وبالنسبة للزيتون فقد زرعنا في عام ١٩٨٦/ ٢٠٠ ألف غرسة زيتون في المحافظة بلغ انتاجها ٢٥٠ ألف طن ، كما بلغ جملة انتاج اللاذقية من التفاح في العام نفسه ٣٠ ألف طن .

للتبغ أهمية خاصة

لزراعة التبغ في اللاذقية تاريخ قديم ، وللفلاح خبرة قديمة بأساليب زراعته ، وقد انتشرت زراعة التبغ في محافظات غير اللاذقية مثل درعا وحلب والجزيرة ، ونتيجة لهذا التطور أنشئت مؤسسة عامة للاشراف على زراعة التبغ في كل انحاء الجمهورية العربية السورية .

« والتبغ كالزيتون يزرع أولا في مشاتل صغيرة ، هي عبارة عن كيس من البلاستيك فيه خلطة تراب من نوع خاص مخلوط بالأسمدة وتبقى هذه المشاتل عدة شهور في بيوت من البلاستيك ، ثم تنقل الى الأرض لتواصل نموها ، وقد تابعنا احدى مراحل هذه العملية في احد الحقول القريبة من اللاذقية اثناء جولتنا في مزارع الحمضيات والزيتون .

أثناء تجوالنا في مزارع الحمضيات والزيتون بمشارف اللاذقية قمنا بزيارة لاحدى محطات تربية الأبقار التابعة للدولة .

قال لنا السيد/ اسماعيل مدير المحطة :

هذه المحطة بها ست حظائر تضم حوالى ٥٠٠ رأس ومساحتها الاجمالية حوالى ٥٠٠ دونم وتزرع هذه المساحة بالأعلاف الخضراء التي تغطي حاجة الأبقار الى العلف ، ويعمل بها ٣٢ عاملا بينهم طبيب بيطري ومهندس زراعي وفنيون لتشغيل الآلات وصيانتها .

تربى الاناث لانتاج الحليب ، وعمر الأنثى حوالى ١٠ أعوام وتذبح الذكور .

لا توجد صناعة ألبان في اللاذقية لأن كمية الحليب المنتجة في اللاذقية كلها لا تكفي لتشغيل مثل هذه الصناعة .

توجد محطات أخرى يمتلكها القطاع الخاص وهي أصغر من هذه المحطة تضم كل واحدة منها من ١٠ ـ ٢٠ رأسا ، وانتاج جميع هذه المحطات يغطي حاجة محافظة اللاذقية للألبان .

جملة ما يوجد في اللاذقية وحدها حوالى ٦٠ ألف رأس تتبع الدولة والقطاع الخاص .

توجد في سوريا كلها ١٢ محطة تتبع الدولة .

سد تشرين

لا يكتمل الحديث عن قطاع الزراعة في اللاذقية دون الحديث عن أحدث سد تم بناؤه فيها ، فتنمية الزراعة في محافظة مثل اللاذقية ، تقوم الزراعة فيها في سهل ساحلي ضيق وعلى منحدرات الجبال ، وفي مناطق تختلف فيها طبيعة التربة والمناخ ، يعني ضرورة الاهتمام بتوفير مياه الري بكميات مناسبة وعبر شبكات متعددة ومتنوعة للري والصرف ، ترتفع الى مناطق تصل أحيانا الى ٨٠٠ م ، ومن هنا فإن اقامة السدود على مجاري الأنهار في سوريا ، وما يتصل من شبكات الري جزء لا يتجزأ من السياسة الزراعية في سوريا ، وتقوم على ضرورة الاستفادة من كل مصادر المياه جوفية أو نهرية وحسن توزيعها عبر شبكات الري الدقيقة لتجعل من كل قطعة أرض في السهل أو في الجبل مكانا صالحا للزراعة .

وصلنا الى موقع السد الذي أقيم على نهر الشمالي الكبير في منطقة تبعد حوالى ٢٠ كم شمال شرق اللاذقية ، مشينا فوق الجسر الترابي الممتد فوق السد (لم يكتمل رصفه بعد) قال مرافقنا .

« ان ارتفاع السد يبلغ ٥٢ مترا ، وعرضه عند القمة (عرض الطريق الذي نسير فيه) ١٢ مترا وطوله ٨٥٤ م ، المنظر من حولنا بالغ الروعة فالبحيرة خلف السد تحيط بها الغابات الخضراء ، وتظهر لنا من بعيد في قلب البحيرة مرتفعات مكسوة بالأشجار الباسقة .

سألنا مرافقنا هل ثمة اتجاه لاستغلال هذه البحيرة سياحيا ؟

« هذه البحيرة وطولها ١١ ك م تمثل فرصة سياحية رائعة لأنها تجمع بين ميزتي البحر ، والجبل فحين يرتفع منسوب المياه في هذه البحيرة في موسم الفيضان الى أعلى طاقة له ، سوف تتحول المرتفعات الخضراء في داخلها ومن حولها الى ما يشبه الجزر العائمة ويمكن أن يقوم الاتصال بينها عبر الزوارق البخارية وحين تقام فيها الفنادق السياحية يمكن أن تصبح مثل مدينة البندقية في ايطاليا بالاضافة الى الطبيعة الساحرة من حولها ، وهناك دراسات حول أفضل الوجوه لاستثمار هذه البحيرة سواء للسياحة أو لتربية الأسماك .

وعن كمية المياه المحتجزة في البحيرة يقول المرافق :

« حجم المياه المختزنة خلف السد والمستعملة بالفعل ١٣٠ مليون متر مكعب أما الطاقة الكاملة للتخزين خلف السد فتبلغ ٢١٠ مليون متر مكعب وعن مساحة الأراضي المستفيدة من انشاء السد يقول :

مياه هذا السد تكفي لري حوالى ١٣ ألف هكتار

أعلى الصفحة وفي الوسط : المدرسة التخصصية ، وتظهر بعض الطالبات اللواتي يقمن بإعداد الزهور ، ورسم اللوحات الفنية .
أسفل الصفحة : منظر للاستاد الكبير بالمدينة الرياضية ، لايزال تحت الاعداد .
أعلى الصفحة : منظر لاحد الملاعب المغطاة في المدينة الرياضية .
أسفل الصفحة : طلاب وطالبات يتدربون على العزف ، في المدرسة التخصصية .











من الأرض الزراعية منها ألفان وخمسمائة هكتار تروى بالطرق التقليدية المحسنة وعشرة آلاف وستمائة هكتار تروى بالرش والتنقيط ، كما يوفر احتياطيا لمياه الشرب يقدر بـ ٣ ملايين متر مكعب في السنة .

كنا قد وصلنا في مسيرتنا فوق جسم السد الى فتحات المياه فقال المرافق : توجد ثلاث فتحات في السد : هذه الفتحة ، هي قناة التحويل من أجل تمرير مياه الفيضانات المتوسطة التي تصل غزارتها ٩٠٠ متر مكعب في الثانية .

وتلك الفتحة تسمى « قناة المفيض » من أجل تمرير الفيضانات العالية التي تصل غزارتها ١٨٠٠ متر مكعب في الثانية ، والفتحة الثالثة هي « مأخذ الري » لتأمين المياه اللازمة للري في وادي النهر وفي المنطقة الجنوبية .

لا تزال تجرى الدراسات حول الاستفادة من مساقط مياه السد في توليد الكهرباء .

استغرق بناء السد أربع سنوات ، قامت بانجازه شركات سورية والأيدي العاملة فيه ـ في مختلف مستويات العمالة ـ كلها سورية بالتعاون مع الاتحاد السوفيتي في اطار اتفاقية خاصة بذلك .

الدورة العاشرة لألعاب حوض البحر الأبيض

عود على بدء

عدنا الى المدرسة التخصصية لنلتقي بالسيد/ وليد عثمان المسئول عن حفلي الافتتاح والختام في الدورة .

كان الرجل ودودا ومرحبا ببعثة مجلة العربي وبدأنا معه بآخر سؤال طرحناه في أول لقاء لنا بالعاملين في المدرسة .

* لماذا كان قرار سوريا باستضافة الدورة العاشرة لألعاب حوض البحر الأبيض ؟؟

هناك ابعاد كثيرة وراء هذا القرار !

* هناك أولا بعد اهتمام الدولة بالشباب ، فاستضافة الدورة ، واتخاذ الاجراءات الخاصة باقامة مدينة رياضية كاملة في اللاذقية يعني في المقام الأول اتاحة الفرصة أمام شباب سوريا لترسيخ اهتمامهم بالرياضية وممارستهم لها ، باعتبار الرياضية مقوما من مقومات الشخصية في هذا العصر الذي لا تنفصل فيه الصحة الروحية والاخلاقية عن صحة الجسد وكفاءته وفعاليته ، ان المدينة الرياضية سوف تخدم الدورة اثناء انعقادها لكنها بعد ذلك ستبقى لخدمة الشباب السوري وللدورات ولقاءات أخرى .

* ثانيا : لقد زرتم اللاذقية ولعلكم رأيتم في زيارة المعالم التاريخية بها ما الذي يعنيه موقع سوريا للمنطقة العربية ؟ وما الذي يعنيه موقع اللاذقية لسوريا ؟؟ بلادنا دائما كانت أرضا تلتقي وتتعايش فيها الثقافات والحضارات ، بلادنا مستقر بقدر ما هي ممر ، سوريا كانت دائما منطقة احتكاك وتفاعل ، وعندما تدعو الشباب الرياضي من ثلاث قارات ليلتقوا بشباب بلادنا من خلال هذه الدورة وليروا على أرض الواقع لمحات من حضاراتها وثقافتها فنحن في الحقيقة نواصل دور سوريا في صيغة عصرية انسانية وأملنا أن يكون لقاء الشباب في ميادين الرياضة مقدمة طبيعية للتعارف ثم تبادل الخبرات في مجالات أخرى علمية وثقافية وفنية .

ثالثا : لقد تعرضت سوريا لحملة تضليل كبيرة بسبب مواقفها المبدئية ، ومن خلال هذه الدورة وما تتيحه من فرص اتصال مباشر ، سواء بين المشاركين فيها من ناحية أو بينهم وبين العالم كله (من خلال الأقمار الصناعية) من ناحية أخرى فان هذه ستكون فرصتنا لنوصل لشعوب العالم في بيوتهم رسالة عن حقيقة سوريا المعاصرة ودورها من أجل سيادة السلام والعدالة والحرية في الوطن العربي وفي العالم .

رابعا : هذا القرار يعني توظيف العديد من الخبرات والكفاءات السورية ووراءه هدف كبير على مستوى القطر السوري كله ، سوف تزورون المدينة الرياضية ، وسوف ترون متى وكيف تم هذا الانجاز الكبير ؟ كله قام بسواعد الشباب في زمن قياسي ، وأصبح مدرسة لاعداد الأطر والخبرات في ميادين بغير حصر ، وهذه الأطر ستكون في النهاية رصيدا لنا وللأمة العربية .

خامسا : لعلكم لاحظتم ما هو متوفر في اللاذقية من امكانات طبيعية هائلة للسياحة ، سواء ما هو موجود فيها من طبيعة ساحرة أو من قيم ثقافية وتاريخية كبيرة ، وستكون هذه الدورة مناسبة كبيرة ، لكي توجه بطاقة دعوة الى من يهتمون بالجمال الطبيعي والقيم الانسانية العالية لزيارة بلادنا .

● ماذا عن حفلي الافتتاح والختام باعتباركم مسئولا عنها ؟

● سيكون هذا الحفل مفاجأتنا للمشاهدين في سوريا وفي العالم ولأننا حريصون الى حد ما على أن يبقى مفاجأة فلا مانع من أن أقول كلمات قليلة من حوله لا عنه .

في مثل هذه المناسبات يعتمد حفلا الافتتاح والختام على الابهار من خلال التقنية المتقدمة ، وسنحاول أن يقوم عملنا على المزج بين التقنية المتقدمة والجانب الانساني .

ستكون مراسيم الافتتاح التقليدية جزءا حيا ويرتبط دراميا ببقية الفقرات التي ستقدم في هذا الحفل ، علما بأننا قد أدخلنا تطويرا جديدا وافقت عليه اللجنة الأولمبية في شكل مراسيم الافتتاح التقليدية التطوير ليكون مفاجأة للمشاهدين .

ستبرز فقرات الحفل النكهة السورية في اطار البعد القومي العربي ، ففي الوقت الذي سيشاهد فيه الجمهور العربات التدمرية والسفن الفينيقية وهي تمخر البحار ، سوف يشاهد أيضا والشخصيات العربية والأسطورية فيها مثل السندباد وعنترة بن شداد بصفاتها العربية الأصيلة وبالمعاني التي ترتبط بها في وجدان الأمة كل ذلك من خلال دراما تتضافر في صنعها التقنية والكلمة والموسيقا والحركة والثياب والأقنعة .

المدينة الرياضية

في منطقة افاميا وهي واحدة من أجمل المناطق على ساحل اللاذقية كان العاملون في المدينة الرياضية يسابقون الزمن وهم ينجزون المراحل الأخيرة من العمل الكبير . .

من خلال نظرة شاملة للموقع الذي يمتد على ساحل البحر الأبيض بمسافة مساحتها الاجمالية مليون و ٦٠٠ ألف متر مربع يمكن أن تتبين أن منشآت المدينة تتوزع في مجموعات بينها مساحات واسعة ستكون حدائق خضراء وملاعب للأطفال حين ينتهي العمل .

هناك مجموعة الملاعب المكشوفة وهي تضم الاستاد الرئيسي في المدينة . . والى جانبه ملعبان تدريبيان لكرة القدم وألعاب القوى . .

الاستاد الرئيسي يتسع لـ ٤٥ ألف متفرج منهم ١٢ ألف متفرج تحت المنصة الرئيسية المغطاة بسقف بني على هيئة خيمة عربية ، وسيغطى هذا السقف بمادة معدنية مضادة للصدأ والتآكل لمقاومة تأثير المناخ والرطوبة البحرية .

هناك مجموعة الصالات المغلقة ، وتضم خمس صالات : الصالة الرئيسية بها تتسع لخمسة آلاف متفرج ، وثلاث صالات تتسع كل واحدة منها لـ ١٥٠٠ متفرج ، والصالة الخامسة للتدريب .

مجمع السباحة ويضم المسبح الأولمبي ، وبركة غطس وبركة سباحة ومسبحان للأطفال ، ومسبح مغلق للتدريب .

نادي التنس ، ويضم ست ساحات للتدريب سعة كل مدرج مائة متفرج ، وأربع ملاعب للكرة الطائرة وملعب لكرة السلة ، وملعب لكرة اليد . .

كل مجموعة من هذه المجموعات لها ادارة مستقلة لكن المدينة كلها تخضع لمجمع اداري شامل .

المجمع الاداري ويضم صالة للاجتماعات ، ومبنى للاذاعة والتلفزيون ، ومبنى للصيانة وآخر للرعاية الطبية .

كان العمل يستمر في هذه المنشآت طوال اليوم من خلال ثلاث ورديات ، في قلب المدينة كانت توجد مصانع صغيرة تعمل في وقت واحد منذ بداية تنفيذ المشروع لاعداد كل العناصر اللازمة لانجاز المشروع كالبلاط والخشب والقيشاني والسيراميك والجبس .

بدأ العمل في هذه المدينة في نيسان ١٩٨٤

يشارك في الدورة ٥ آلاف لاعب وألفان من المرافقين والصحفيين والمدربين .

تشارك حوالى ١٧ دولة في الدورة ويشارك من أبناء اللاذقية في حفل الافتتاح والختام حوالى ٢٠ ألفا .

كان النهار يوشك أن ينقضي ، حين مضت بنا السيارة عبر سهول اللاذقية المفعمة بالحياة والخضرة والغابات ، وشذا الأزهار التي تختفي ألوانها وتبقى روائحها ترشد الخيال الى وجودها الخفي الجميل كنا في طريق العودة الى دمشق نودع موطنا للجمال بين الجبل والبحر وفي الأعماق رغبة بأن نعود يوما الى هذا الوطن الذي يتعانق فيه الماضي والحاضر لنلتقي في المرة القادمة بالمستقبل . □

السياحة في بلد حار



"الخيران"

منتزه سياحي

استطلاع : سليمان الشيخ   تصوير : طالب الحسيني

هل هي أمنية ، أم حلم ،

أم مخاطرة في التفكير والتخطيط

ومن ثم تنفيذ مشروعات سياحية

في الكويت ، هذا البلد الحار

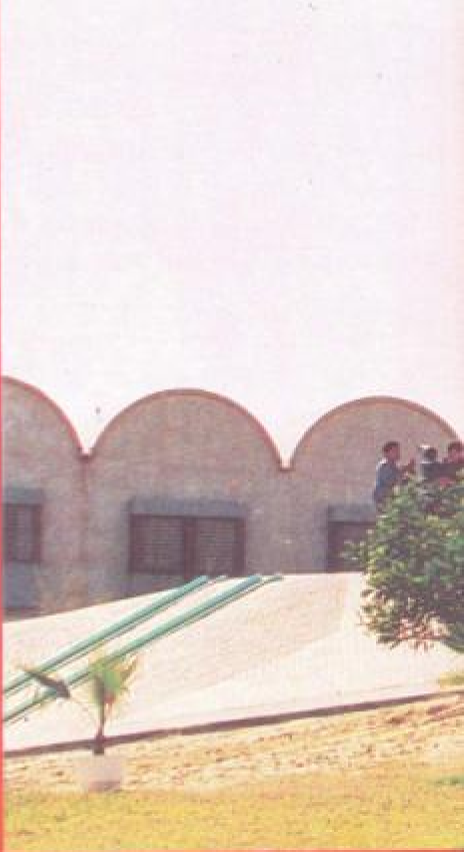
صيفا ، البارد برودة الصحراء

في الشتاء ؟

إن الأمر فيه من كل ذلك

فتعالوا معنا نشاهد ونسمع

ونرى !





هي بلاد يعرفها أهلها كمعرفتهم لبواطن أكفهم ، فبها عاشوا ، وتعايشوا ، وخبروا كل مافيها وعليها ، كأي مواطنين آخرين في أي بلد من بلاد الدنيا . مساحاتها مكشوفة ، لايوجد فيها غموض ، أو على الأصح أصبح لايوجد فيها غموض ، بحر وصحراء ، البحر ممتد وشاسع ، كان فيه غموض عندما كان الناس يجوبون غموضه بسفن ، تسير أشرعتها الرياح وقوة الانسان العضلية .

أما الآن فإن العلم قد ذلل كثيراً من الصعوبات والغموض ، ودخلت سفن تمخر العباب بواسطة التقنية الحديثة ، ولم يبق من الغموض إلا قليله .

والصحراء هذا الامتداد المكشوف قطعت غموضه شرايين الطرق الكثيرة التي ترتادها السيارات ، هذه « الجمال الحضارية » الحديثة التي أصبحت تصل إلى أقصى مساحة فيها ، هذا عدا عن الطائرات ، وغيرها من منجزات عصرنا .

أي مخاطرة ! :

فأي مخاطرة يركب ، من يريد « تعليب » الهواء والشمس والرطوبة والغبار ليبيعها للناس في بلاد كالكويت ؟ أي مخاطرة وأي مركب يركب ذلك الذي يريد أن « يسوق » السياحة في درجة حرارة تصل إلى الخمسين في بعض الأحيان ، تترافق مع رطوبة قد تصل إلى مائة بالمائة ، وربما يرافق ذلك غبار ناعم ، يحيل زرقة السماء إلى اصفرار أو احمرار خانق ؟

أي مخاطرة في الحديث عن سياحة ومشروعات سياحية في بلاد يهجرها نصف سكانها تقريبا إذا مابدأت سياط الشمس تلهب ظهور الجماد والأحياء ، من نهاية الربيع إلى نهاية الخريف ؟

هل سيغطي قرص الشمس بالأصابع ؟ وهل سيركب «فلتراً» كبيراً لتنقية الهواء ؟ وكيف سيتغلب على اختناقات الأنفاس من جراء العجاج « الطوز » أو الرطوبة ؟

أسئلة كثيرة تدعو للحيرة ، وحتى لانطيل فيها ، وندخل في تشعباتها ، نقلنا بعضها إلى بعض المسئولين الذين يركبون ظهر « المغامرة » ، فقال لنا السيد فوزي التميمي مدير العلاقات العامة والتسويق في شركة المشروعات السياحية :

- لقد احتفلنا في شهر مارس - آذار - الماضي بالذكرى الحادية عشرة على إنشاء الشركة (٩٢٪ من أسهمها حكومية و ٨٪ مملوكة لشركات أهلية) ، وقد تم إنجاز عدة مشروعات مهمة ، تعتبر أساسات لقيام « صناعة سياحية » في البلد منذ أن تم إنشاء الشركة .

* ماهو هدفكم في الأساس ؟

- إن هدفنا الأساسي هو رسم بسمة على شفتي كل إنسان في الكويت ، وإدخال السعادة على المواطن والمقيم .

* إنه ككلام بعض الشعراء ، وككلام بعض الشعارات !

- إذن عليك أن تستمع ، وأن تسجل : لقد ثبت من خلال الدراسات الاحصائية أن ٧٠٪ من المواطنين والمقيمين في الكويت يتجهون لقضاء إجازاتهم السنوية إلى أقطار عربية ، أو مناطق أخرى من مناطق الشرق الأوسط ، و ٣٠٪ يتجهون إلى أوروبا وأميركا .

ونحن نسعى إلى خوض المنافسة على نسبة السبعين في المائة في هذه المرحلة .

إن المرافق التي أنشأناها في الكويت تتفوق على كثير من المنشآت القائمة في بلاد الشرق الأوسط .

فالمدينة الترفيهية ومايوجد فيها من مرافق لايوجد شبيه لها في المنطقة كلها ، وقد زارها سنة ١٩٨٦ ٦٩٥،٣٥٢ زائرا ، عدا زوار أبراج الكويت ، والنوادي البحرية ، والحدائق ، والاستراحات ، وصالة التزلج ، والنافورة الموسيقية ، والمتنزهات السياحية . إن هذه المرافق وغيرها توفر للمواطن والمقيم كل مستلزمات السياحة المناسبة .

* هل تعتقد أن « صناعة السياحة » - خصوصا في الكويت - تقوم على توفير المرافق فقط ؟ ألا تجد أن طبيعة الطقس تسهم في « الطرد » السياحي نحو الخارج ؟

- إن توفير المرافق الترفيهية عامل من عوامل أخرى ، تسهم في توفير مستلزمات الترفيه للمواطن والمقيم ، وصحيح أننا بإقامة المرافق الترفيهية العديد لن نقضي على السياحة في الخارج ، لكن طموحنا المرحلي الآن هو الحد من ظاهرة السياحة في الخارج .

إن مرافقنا موجهة لخدمة الانسان ، وخدمة الاقتصاد الكويتي ، وأستطيع أن أقول بكل ارتياح بأن الجمهور لم يخذل محاولاتنا ، فلقد ارتاد مرافقنا ثلاثة ملايين نسمة تقريباً سنة ١٩٨٦ ، بالرغم من وجود العوامل الطبيعية التي تحد من ذلك ، كالغبار (الطوز) والرطوبة والحرارة المرتفعة ، وقد تم حجز كثير من (شاليهات) الخيران لأشهر عديدة قادمة على سبيل المثال وليس الحصر .

متنزه سياحي :

* من المشروعات السياحية التي تم إنجازها ، وأضيفت إلى مرافق شركة المشروعات السياحية ، متنزه الخيران السياحي ، فما هو هذا المتنزه ؟ وماذا يقول المواطنون عنه ؟

- بتاريخ ١٩٨٧/٢/٢٣ افتتح سمو أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد متنزه الخيران بصورة رسمية .



- السيد فوزي التميمي

* بعد ذلك أصبح اسم (الخيران) يتكرر على كثير من الألسنة .

فما هي طبيعة هذا المرفق ؟ ومن أين جاءت التسمية ؟ وماذا يوجد في ذلك المكان القصي من الأراضي الكويتية ؟

- قليلون هم الذين كانوا يعرفون المكان ، وقلة من الصيادين كانوا يقصدونه ، لكنه أصبح الآن مرفقا مقصودا لعائلات كثيرة ، فما الذي تغير فيه ؟

- تقع المنطقة التي تسمى بالخيران على بعد حوالي ٩٤ كيلومتراً جنوبي مدينة الكويت ، وتبعد عن الحدود السعودية حوالي ٢٠ كيلومتراً تقريبا ، وقد جاء في « الموسوعة الكويتية المختصرة » لحمد محمد السعيدان ، التعريف التالي للخور والخيران :

« خور : منعطف أو لسان من البحر يكون في البر على شكل خليج صغير جدا ، ويوجد في الكويت عدد من الخيران - جمع خور - منها : خور الأعمى ، وخور المفتح ، وخور الصبية ، وخور عبدالله . . إلخ .

أما « الخيران » فجاء في تعريفها بأنها قرية كويتية ، تقع على بعد ٩٤ كيلومترا إلى الجنوب من العاصمة ، وهي عبارة عن خورين هما خور الأعمى وخور المفتح »

● السياحة في بلد حار

وللوصول إلى القرية التي أصبحت متنزها يمكن للمرء ان يسلك الطريق السريع - الجديد - المتجه الى المملكة العربية السعودية ، وهو يبعد عن الطريق القديم المحاذي للبحر تقريبا كيلومترات قليلة ، تقل أو تزيد بين منطقة وأخرى ، إلى أن يتلاقى الطريقان ويصبحان طريقا واحدا بالقرب من استراحة النويصيب التابعة لشركة المشروعات السياحية ، بعد أن يكون قد مر بمحاذاة مدينة الأحمدي والفحيحيل والشعيبة وميناء عبدالله والجليعة ، وعند الوصول إلى الطريق المؤدي إلى ميناء الزور فإن الخيران تصبح على بعد حوالي ١٨ كيلومتراً فقط ،والطريق ممهد ومضاء موزع على اتجاهين للذهاب والاياب ، ويتسع كل اتجاه منه لثلاث سيارات .

أبرز معالم الطريق تتمثل بوجود عشرات المصانع أو منشآت الموانيء واحتياجاتها ، وأبرزها جميعا مصانع البتروكيمياوات ومشتقات البترول الأخرى ، وخطوط الضغط العالي الكهربائية ترافقك - تقريبا - الطريق كله .

خضرة بعض المزارع بالقرب من ميناء عبدالله وبعده تجبرك على الالتفات والتمعن ، فمعالم الخضرة من المعالم المميزة حقا ، خاصة أن ماعدا ذلك يتمثل في صحراء مترامية الأطراف ، أو معالم من الأسمنت ، غزت الصحراء ، واحتلت مواقع فيها .

من المعالم التي تلفت النظر أيضا ذلك اللمعان الذي يتكرر على طول الشواطيء التي تمر بها ، لكن عندما تقترب من بعض مصادر اللمعان فإنك تكتشف سره ، وتجده بسيطا جدا ، إنه بعض صهاريج واسطوانات الماء التي أقامها رواد الشواطيء بالقرب من البيوت الصيفية - « الشاليهات » التي أقامها الكثيرون من سكان الكويت على الشاطيء ، كي يلجأوا إليها في إجازاتهم وعطلاتهم الأسبوعية .

تلوح بعض مساحات الخضرة على جانبي الطريق الذي تحفه الصحراء ، وعلى تلك المساحات كانت قطعان الغنم والماعز والابل ، ترعى وتمارس شقاواتها ؛ خاصة أن أيام الحر لم تكن بعد مارست هجومها الشديد « تمت الزيارة في نهاية الربيع » .

بعد أن تتخطى استراحة النويصيب فإن





- أحد المسابح الداخلية .. ورواد ما قبل الصيف - أعلى -
- الجمهور .. يمارس «رياضة» المشي داخل المنتزه .
- القطار .. معلم سياحي .. يتعرف الجمهور بواسطته على منشآت المنتزه .





سمو أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد بعد افتتاحه المنتزه يحيط به بعض رجالات الكويت ، منهم :
ناصر القطامي ، يوسف الفليج ، محمد عبد المحسن الخرافي



- ميناء القوارب ..
زرقة ماء .. ومهرجان
ألوان .

لوحات الارشادات تتوالى في تذكيرك بأنك أصبحت على بعد كيلومترات قليلة من « الخيران » .

ثم تصل إلى المفرق المعني ، وتأخذ بالاتجاه نحو البحر ، والطريق ممهد حديثا ، وهو على اتجاهين للذهاب والاياب ، زرعت بينهما بعض أشجار النخيل التي تحتاج إلى عناية أكثر كي تسري الحياة في أوصالها .

مازالت المساحات الصحراوية الكبيرة على جانبي الطريق تحتضن عشباً جذب بعض قطعان الماشية .

مدخنة مصنع الزور الذي اختص بتصدير مكامن البترول البحرية تحاذيك على اليسار ، ثم تواصل سيرك فتجد أن البحر حين حل الجزر قد ترك بعض مياهه على يسارك ، وبرزت بعض « الشاليهات » الخاصة بعيدا عنها ، لقد كان هذا جزء من خور الأعمى .

ثم تصل إلى مبنى الاستقبال في المتنزه بعد أن تدخل معمعة التنافس مع الآخرين للدخول ، فتمتع ناظريك بعض خضرة الأشجار والنباتات .

داخل الخيران :

أنت الآن في داخل « الخيران » وهذا هو القطار الذي يتسع لحوالي ٥٠ فردا ، ويسير على الطريق العادي ، يمارس دورته ، ليطلع ركابه على معالم المتنزه ، صفيره يلفت الأنظار ، وبعض الشبان والشابات يتبعونه بواسطة سياراتهم الخاصة ، أو دراجاتهم التي استأجروها من إدارة المتنزه ، أو أحضروها معهم .

تظهر خيمة كبيرة تتسع لحوالي ٩٠٠ شخص .

قال لنا السيد سعيد النمر الموظف في العلاقات العامة للمتنزه أن كثيراً من البرامج والمسابقات الخاصة بالأطفال تتم داخل هذه الخيمة ، ويتم توزيع عشرات الجوائز على الأطفال فيها .

يغريك منظر البيوت التي أخذت شكل نصف دائرة تقريبا ، وكلها تقع على شاطيء البحر ، وتقف على التل القريب من الخيمة وتتجول بناظريك في المكان ، فتجد بعض الناس قد جلسوا للتشمس أمام « الشاليهات » ، وبعضهم يمارس رياضة المشي ، أو يمارس رياضات أخرى عديدة ككرة القدم ، وكرة المضرب « التنس » ، أو السباحة في المسابح الداخلية ، أو التمشي على شاطيء البحر ، أو السباحة في مياهه ، أو التمشي على رصيف ميناء القوارب الجميل المتعدد الألوان ، ثم تجد الأطفال يمارسون ألعابهم في الأماكن المخصصة لهم ، لقد اتضحت صورة المكان بشكل جلي لك الآن .

خور الأعمى أصبح على يسار المكان ، وخور المفتح أصبح على يمينه ، وبينهما قامت البيوت أو « الشاليهات » ، فماهي مميزات الخورين ؟ ولماذا أطلقت هذه التسمية عليها ؟

قال السيد سعيد النمر :

إن خور المفتح سمي بذلك لأنه عميق ، يدخل في اليابسة مسافة ١٠ كيلومترات تقريبا ، وكان عمقه حوالي متر قبل إنجاز المشروع ، فتم تعميقه مع إنجاز المشروع ، وأصبح عمقه حوالي ثلاثة أمتار ونصف ، وتم « غرس » الفنارات داخله ، كي لاتحصل اصطدامات بين القوارب لاتحمد عقباها ، وعلى أحد فروعه تم إنشاء مرسى للقوارب .

أما خور الأعمى فإنه يدخل في اليابسة مسافة ٣ كيلومترات تقريبا ، وعمقه قليل ، لذلك سمي خور الأعمى ، ولأن من يقصده لايشاهد مدخله إلا عندما يصل إليه .

* ما الذي يوجد في المتنزه ، وماهو عدد « الشاليهات » ؟

- التقينا بالسيد عدنان سعد مدير العلاقات العامة والمبيعات في شركة صفاة الفندقية التي تدير المشروع فقال :

هو رئة للتنفس ، وأحد مرافق السياحة الداخلية ، نعم إنه رئة ، لأنه يوفر المناخ النظيف البعيد عن الضوضاء ، يجد فيه زائره كل وسائل الراحة والنشاط في نفس الوقت ، وفيه كثير من مرافق الرياضة والسباحة ، وفيه الهدوء والاسترخاء .

وإذا كان لابد من ذكر المرافق فإنني أوجز فأقول :

إن المتنزه يحتوي على ١٣٦ « شاليها » بغرفتي نوم في الطابق الثاني ، و ٤٨ « استوديو » بغرفة نوم واحدة ، و ١٢ « شاليهاً » فاخراً ، وجميعها مزودة بأثاث فاخر ، ومكيفة الهواء صيفا وشتاء ، وكل منها فيه غرفة معيشة ، ومطبخ مزود بكامل المعدات وحمامين ، وشرفة مطلة على البحر ، و « صالون » فيه الأثاث المناسب ، ومجهز بهاتف

وتلفاز مع قناة « فيديو » ، وموقف مغطى يتسع لسيارتين .

ويوجد مطعم مجهز بكامل التجهيزات ، يقدم أشهى المأكولات الشرقية والغربية ، ومقهى ، وشرفة تطل على الميناء ، وهناك حمامان للسباحة ، وكل حمام فيه « كافيتيريا » تقدم الوجبات الخفيفة ، ويوجد أربعة ملاعب مضاءة للتنس ، وملعبا لكرة القدم ، وآخر لكرة الطائرة وكرة السلة ، وأربعة ملاعب ترفيهية للأطفال ، عدا عن رياضة التزلج على الماء ، والرحلات بالقوارب والسفن ، وقاعة للتمارين الرياضية « جنيزيوم » مجهزة بمعدات مناسبة ، وقاعات « للسونا » ، وهناك قاعات داخلية لحفلات الزفاف ، وعروض الأزياء ، والمعارض ، والندوات ، وهناك أيضا مركز تسلية بالألعاب الكهربائية للشبان ، إضافة إلى سوق مركزي فيه جميع مايحتاجه الرواد .

نادي « اليخوت » :

عن نادي اليخوت والقوارب حدثنا مديره السيد محمد الحشاش ، فقال :

لقد فتحنا مجال العضوية للنادي ، ويستفيد العضو من جميع التسهيلات الموجودة في المنتزه والنادي معا ، وهناك مرسى لليخوت ، مجهز بأفضل التجهيزات ، وهو يستوعب ٢٢٤ قارباً ويختاً صغيراً ومتوسط الحجم ، و ٦ يخوت كبيرة ، كما توجد ورشة صيانة . يحق لأي فرد الاشتراك في النادي البحري ، أو الاستفادة من الخدمات التي تقدم لليخوت ، كما توجد مخازن خاصة بالرواد ، وخدمات طبية كاملة في المنتزه ، وهناك خدمات أخرى كالهواتف والتلكس وغيرها .

رأي للجمهور :

● عن المنتزه ومرافقه وخدماته كان لنا هذا اللقاء مع مجموعة من الرواد :

● السيد عبدالرزاق عبدالوهاب المطوع موظف بوزارة العدل ، والسيد عبدالله السلطان طالب جامعي ، كانا مع أسرتيهما قالا : هذه ثاني مرة نأتي إلى هذا المنتزه ، وهو جيد للعائلات ، ولقضاء الاجازات القصيرة ، ففيه كثير مما يشبع احتياجات الرواد ، أما بالنسبة لقضاء الصيف في هذا المنتزه والاستغناء عن التصييف في الخارج فإننا لم نجرب ذلك ، لكننا نعيد القول بأن المنتزه يلبي احتياجات الاجازات القصيرة .


ـ د. محمد مبارك الصوري


ـ السيد محمد الحشاش .


ـ السيد عدنان سعد


ـ السيد صلاح سليم خليل .

○ أما ساجدة نايف طالبة في الثالث متوسط ، وخولة الأيوب طالبة في الثاني متوسط ، فقالتا :

إننا نأخذ حريتنا في المنتزه ، ونلتقي بصديقاتنا ، ونجد أنفسنا بين الأهل ، وقريبين من مناطق الكويت السكنية ، وتوجد في المنتزه وسائل ترفيهية مناسبة لعمرينا .

○ د . محمد مبارك الصوري ، مدرس مادة النقد والأدب المسرحي فى المعهد العالي للفنون المسرحية ، التقيناه مع عائلته وأولاده ، قال : إن هذه هي المرة الثانية التي أحجز فيها بمنتزه الخيران ، نتيجة لتوفر الكثير من مجالات الترفيه التي لاتكلف كثيرا .

وإذا لم تفكر بالسفر في الصيف فإن « الخيران » يمكن أن يوفر مجالا من مجالات الترفيه والسياحة ، وهناك سلبيات تتمثل في زحمة السيارات في الداخل ، وسباقات بعض الشبان فيها ، مما يمثل خطرا على الرواد ، وعلى الشبان أنفسهم .



ـ إيمان الغانم .. مع مجموعة من صديقاتها داخل المتنزه

* السيدة إيمان الغانم موظفة في وزارة التخطيط قالت :

صحيح أن المتنزه يوفر احتياجات العائلة ، وأماكن ترفيهية وسكنية مناسبة ، إلا أنني أجده مرتفع الأسعار ، خاصة بالنسبة للعائلات ذات الدخل المتوسط أو مادون ذلك ، والمكان مناسب تماما للاجازات ، لكن الاجازات القصيرة فقط ، وأعتقد أن المتنزه لايغني عن السفر في الصيف .

* صلاح سليم خليل ، موظف بوزارة الخارجية ، كان مع أسرته قال :

إن المكان مناسب ، ونظيف ، لكنني أعتقد أنه لايغني عن سفر الصيف ، فهو مناسب فقط للاجازات القصيرة .

* الاخوة بشار وفراس ونزار أبناء يوسف الشاهين ، وأعمارهم ١٨ و ١٦ و ١٤ سنة ، كانوا مع مجموعة من أصدقائهم ، يتشمسون أمام أحد « الشاليهات » ، قالوا :

هذه هي المرة الثانية التي نأتي فيها إلى هذا المتنزه ، وهو مناسب لنا نحن الشباب ، ففيه أنواع متعددة من وسائل الترفيه ، وملاعب الرياضة ، نلتقي فيه مع أصدقائنا ، ونمارس هواياتنا البريئة كالسباحة ، وألعاب رياضية أخرى كالتزلج ، ونشاهد فرقاً فنية عديدة ، وماهو متوفر يريحنا ، وينشطنا ، ويجعلنا نقبل على دراستنا بشكل جيد .

○ أربع مدرسات رفضن التقاط صور لهن ، صرحت إحداهن وهي « أم علي » ، قائلة : المكان نظيف وجميل وقريب من المناطق السكنية في الكويت ، وربما يشجعنا على عدم السفر في الصيف ، لأننا من ذوي الدخول المتوسطة ، لكننا وجدنا أن الأسعار غالية نسبيا ، ونأمل مراعاة ذوي الدخول المتوسطة أو المتدنية .

○ نقلنا ماسمعناه خاصة بالنسبة للأسعار إلى المسؤولين عن ذلك فأجمع السيد فوزي التميمي ، وعدنان سعد بأن الأسعار مدروسة ومناسبة إلى حد كبير ، لأن « الشاليه » الواحد يستوعب ثمانية أفراد ، ولو تم توزيع المبلغ على الأفراد الثمانية فإن المبلغ لن يصل إلى خمسة دنانير في اليوم الواحد من أيام الصيف ، ويقل عن ذلك في الفصول الأخرى بالنسبة للفرد الواحد .

مركز علاجي متخصص :

أخيرا سألنا السيد فوزي التميمي عن صحة مايتردد من إضافة منشآت جديدة إلى متنزه الخيران ، فقال :

لقد تم اختيار قطعة الأرض المناسبة داخل المتنزه لإقامة مركز علاج طبيعي عليها ، وسيتخصص المركز بعلاج الأمراض العصبية والعظام والسمنة وغيرها ، وسيتم التركيز على العلاجات الطبيعية مثل الحمامات الساخنة والباردة ، والتدليك ، والعلاج بواسطة الأعشاب والطين وغيرها .

كما سيتم إيجاد مراكز لتعليم السباحة والغوص ، ومعسكرات « كمبيوتر » وغيرها .

قبل ان نصل الى بوابة الخروج التفتنا إلى خور المفتح ، فوجدنا المتزلجين يتبارون في التزلج على الماء ، و « الطرادات » تمخره رائحة غادية ، وكان القطار يصفر ، والأطفال يتابعون شقاواتهم في ملاعبهم وأراجيحهم ، وبعضهم يطلق طائرات الورق نحو السماء ، وغيرهم يتسابقون بواسطة الدراجات ، فيما كان بعض الشبان يطلقون أبواق سياراتهم ، ويتابعون دوراتهم التي لاتنتهي بين « الشاليهات » ، وعندما وصلنا البوابة الخارجية كان زحام الناس مازال كثيفا من أجل الدخول ، تماما كما كان عندما وصلنا منذ ساعات . □

وجهاً لوجه





نعمان عاشور و زينب الكردي

■ يمكن للكاتب أن يضمن كل مايريد قوله في العمل الفني . ■ الطبقة الوسطى تراجعت ، وعجزت عن تحقيق أبسط أحلام « الطواف » . ■ المسرح ليس أكثر من نص جيد وممثل . ■ الفن يأخذ من الواقع ، ثم يعود اليه ، ليؤثر فيه من جديد . ■ في الثمانينيات عاد المسرحيون الذين تربوا في أحضان الستينيات . ■ في « عيلة الدوغري » تنبأت بظهور الطبقة الطفيلية التي تسود الآن . ■ لا ألجأ الى الرمز ، أو الاسقاط التاريخي ، وأعتبرهما نوعا من الهروب . ■ المسرح التجاري ازدهر في مرحلة الانفتاح ، لأنه يتوجه الى طبقة لاتبحث عن أكثر من التسلية .

نعمان عاشور هو أبو المسرح الواقعي العربي ، فهو بالاضافة الى الشكل المسرحي الواقعي الذي اختاره لمسرحياته صاحب رأي وفكر جاد ، التزم بهما على مدى أكثر من ربع قرن ، تغيرت خلاله الأحداث ، والمواقف ، بينما ظل هو في مكانه كالجبل الشامخ ، لايقبل أبدا بالتنازل من أجل أي امتيازات أو مكاسب ، بل بقي كما عرفناه دائما نفس الكاتب الحر الذي يطرح أفكاره وقضايا مجتمعه بوعي ونضج ، وقدرة على استشفاف المستقبل ، لقد بقي كذلك حتى وافاه أجله في أبريل الماضي وكانت العربي قد أجرت معه آخر حوار قبل رحيله . أما محاورته فهي الكاتبة الصحفية زينب الكردي .

● كيف اكتشفت موهبتك ككاتب مسرحي ؟ ولماذا المسرح بالذات ، وليس القصة أو الشعر ؟

- أنا لم أبدأ بالمسرح ، بل بالشعر الذي عشقته ، وكنت أكتبه أيضا ، لكني لم أجد نفسي في مجال الشعر ، فاتجهت الى المسرح ، والنقلة لم تكن كبيرة ، فالدراما نشأت مع الشعر ، وقراءاتي النهمة لشكسبير جعلتني أتميز حتى على طلبة الامتياز في قسم اللغة الانجليزية الذي كنت واحدا من طلابه ، وأذكر أن أحد أساتذتي - وكان انجليزيا - قال لي مرة : ستكون أحسن من ينقد الدراما ، أو يكتبها .

أول مسرحية

● هل تذكر أول مسرحية كتبتها ؟ وأين عرضت ؟

- كان ذلك أثناء الحرب العالمية ، وبالتحديد عام ١٩٤٣ ، حين أعلن الحلفاء من خلال سفاراتهم عن اجراء مسابقة مسرحية ، تتناول النازية ، ولأنني من خلال قراءاتي عرفت ماهي النازية ، واتخذت موقفا معاديا لها ، فقد اشتركت بمسرحية من فصل واحد ، وليطمئن قلبي أخذت المسرحية الى ممثل ، اسمه عبد النبي محمد ، قرأها ، ثم ردها الى قائلا ان الحوار جيد ، والفكرة ممتازة ، لكنها لاتصلح للعرض .

● في كتابك « المسرح حياتي » قلت انك كاتب مسرحي ، تكتب من منظور اشتراكي ، لمجتمع وصفته في الكتاب بأنه غير اشتراكي - كيف ؟

- لويس عوض هو الذي قدمني الى (سارتر) ، بصفتي كاتبا اشتراكيا ، وقد نفيت عني هذه الصفة ، فأنا كاتب واقعي لا اشتراكي ، لأنني لست تابعا من مجتمع اشتراكي ، والمسرح رؤيا ، فيها نوع من الشمولية : «رؤى سياسية ، واجتماعية ، وروحية ، وكونية ، وانسانية » ، وكل هذه الرؤى تتجمع في بؤرة واحدة ، هي التي تعبر عنها المسرحية .

● لمن تكتب اذن ؟

- أكتب للانسان العادي الذي يجيء ليرى نفسه في مسرحياتي ، لقد قيل انني أكتب عن الطبقة المتوسطة ، وقد كتبت عن هذه الطبقة في حدود علاقاتها بباقي الطبقات ، لكن - في نفس الوقت - كانت هناك في نفس المسرحيات طبقات أخرى تتفاعل معها ، بعضها « ارستقراطي » ، وبعضها الآخر طبقات دنيا بكل المقاييس . وهناك كاتبة كانت تحضر رسالة دكتوراه عن مسرحي في باريس قالت : ان المستعرب الفرنسي « جان بيرك » - وكان هو أحد ممتحنيها - قال لها انني كاتب ناصري ، أتبنى قضايا الطبقة الوسطى ، فردت عليه قائلة : انني في مرحلة سابقة توجهت الى هذه الطبقة باعتبارها الطبقة الوحيدة ، القادرة على احداث التغيير ، لكنها عندما

بدأت تتفتت وتتراجع هاجتها . والكاتبة على حق ، ففي تلك المرحلة لم تكن طبقة العمال قد نهضت بدرجة تمكنها من احداث التغيير ، وكذلك كان حال طبقة الفلاحين ، لذا توجهت الى هذه الطبقة ، بهدف دفعها للنهوض بمسئولياتها ، لكنها للأسف لم تقدم شيئا ، بل فشلت في مهمتها ، وعجزت عن تحقيق أبسط أحلام « الطواف » . وفي مسرحية « بلاد بره » انتهيت تماما من التزامي بجمهور هذه الطبقة ومثقفيها ، ووقفت الى جانب ابن محمد « التمس » الذي واجه هذه الطبقة بادانة صارخة ، عندما قال : « أنتم لن تبنوا الاشتراكية ! الاشتراكية سيبنيها ابني » ، وفي « وابور الطحين » انتقدت محاولة فرض الاشتراكية عن طريق سن القوانين ، وقلت ان من يسن قانونا يملك أن ينسخه بجرة قلم ، وهذا ماحدث فعلا بعد مرحلة عبد الناصر .

الفن والواقع

● ماهي القضايا ، والأفكار التي تلح عليك ، وتحاول التعبير عنها ؟

ـ أنا لا أكتب عن موقف ، ولابسبب فكرة تلح على فجأة ، ولا أقيم مسرحي على « حدوتة » انني أكتب عن مرحلة اجتماعية كاملة ، بعد أن أكون قد استوعبتها تماما ، فالتفاعل بين الفن والواقع تفاعل جدلي ، أي أن الفن يأخذ من الواقع ، ثم يعود اليه ليؤثر فيه ، ورؤيتي في جميع أعمالي مستقبلية ، لذا نهاياتها مفتوحة .

● قلت في لقاء صحفي أجري معك في الستينات انك تكتب مسرحا تسجيليا . لأنك تكتب بالحس الصحيح ، ولأن المسرح عملية اكتشاف دائم ، وتجديد في الشكل والاتجاه .

ـ أقصد من قولي « كاتب تسجيلي » أنني أسجل مرحلة ، لكنني لا أكتب مسرحيات تعتمد على صراع الأفكار الذهنية ، بدلا من تصارع الشخصيات ، كما يفعل « شو » ، فرؤيتي مستقبلية ، وكل مسرحية هي امتداد لما سبقتها ، ورؤية متطورة ، تنبع من تطور الواقع نفسه ، وهذا يعني أنني أخاطب جمهورا ، لايتأثر بالفكرة المؤقتة ، فبدون الماضي لايكون حاضر ولامستقبل ، وكل شخصياتي لها جذور في الماضي ، وواقع « حاضر » تعيشه ، وهدف مستقبلي تسعى اليه ، أي أنها ليست مرحلية على الاطلاق ، فلو عرضت « عيلة الدوغري » الآن مثلا للاقت نفس الحماس والنجاح الذي لاقته ، لأن امكانياتها موجودة في النص نفسه . في « عيلة الدوغري » ، طلب مني المخرج « تعصير » المسرحية لتتلاءم مع الجمهور الحالي ، فرفضت وطلبت منه أن يعيد قراءتها ، وبعد أيام أعادها وهو يعتذر قائلا انه بعد أن أعاد قراءتها اكتشف أنها تتضمن نبوءة بكل مايجري الآن ، فقد تنبأت المسرحية بظهور الطبقة الطفيلية التي نعاني منها الآن ، وتراجع الطبقة الوسطى ! وفي نفس المسرحية ناديت بعدم التخلي عن جماهير الشعب ، لأننا بدونها لن نستطيع احداث أي تغيير ، وقد قلت نفس الكلام في مسرحية « بلاد بره » .

الرمز والاسقاط

● في احدى مقالاتك قلت انك ضد اللجوء الى الرمز ، ومع المباشرة ، مع أن هذه المباشرة التي تدعو اليها قد تكون مستحيلة أحيانا ، وقد تؤدي الى أن تمنع الرقابة العمل الفني من الوصول الى الجمهور .

ـ المنع لايحدث الا لمن يكتبون بشكل « زاعق » لامبرر له ، أما عندما يكون العمل الفني ناضجا فيمكن للكاتب أن يضمنه كل مايريد قوله ، ففي كل مسرحياتي التي كتبتها لم تمنع لي الرقابة الا مسرحية واحدة هي مسرحية « سر الكون » ، وهي مسرحية تترجم مرحلة مابعد النكسة . ففي نهاية الفصل الأول صورت الجيش وهو يتراجع حافيا من

المعركة . وقد رفضت الرقابة المسرحية دون أن تقرأ الفصل الثاني والفصل الثالث . ولو أنها فعلت ذلك لأدركت أن الفصلين الثاني والثالث قد بنيا على الفصل الأول ، فقد بنيت عليه مرحلة الصمود والدعوة الى عدم اليأس والعودة الى القتال ، وفي مسرحية « الجيل الطالع » قلت كل ماكنت أود أن أقوله . هناك من يتعمد الكتابة بشكل « زاعق » كي يمنع ويصادر ، وبعد أن تهدأ الضجة يذهب برجليه الى الرقابة ويحذف الشتائم ، دون أن ينطق بحرف ، وقد رأيت هذا ـ للأسف ـ بعيني !

● كنت دائما ضد الاسقاط التاريخي مع أنه وسيلة جيدة في التعبير عن رؤيا الكاتب .

ـ الاسقاط التاريخي أسلوب يحتاج الى نوع من الاحكام والاتقان من الكاتب ، وأنا مسرحي واقعي ، لا ألجأ للرمز ، ولا الاسقاط التاريخي ، اذ أعتبرهما نوعا من الهروب في الغالب ، وهناك قلة تلجأ الى ذلك لأنها تميل بطبيعتها للتاريخ فيأتي الاسقاط رغما عنها ، لأنها في النهاية جزء من الشريحة الاجتماعية ، تتأثر بما يدور حولها ، مهما حاولت الافلات ، وأنا أؤيد اتجاه هذه الفئة ، لكن هناك فئة تلجأ اليه لتسب السلطة على أمل أن تصادر فتكسب نوعا من الدعاية الرخيصة ، لا أرفض الرمز على علاته ، اذا كان العمل ناضجا والنص ينطق به ، وليس مفتعلا .

● ما سبب حالة التردي الذي يعيشها المسرح حاليا في رأيك ؟

ـ السبب عدم وجود أي تغيير جذري ، سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية ، فكل واحد من مصلحته أن تبقى الأمور على ماهي عليه ، و « النبش » ليس مطلوبا ، ولهذا يحدث نوع من « الاسكات » لأي صوت يطالب بالتغيير ، ففي السابق كانت الحياة الثقافية تزدهر في ظل استقرار الملوك . « والأرستقراطية » هي التي كانت تتبنى وتشجع ، أما اليوم فيحدث العكس ، لأن الاستقرار يتم على حساب الفن والفكر والثقافة ، لأنها تحمل طابع ثورة تختلف عن الطابع الذي يريده هؤلاء الذين يفترض فيهم أن يتبنوه ، فالفكر يقلق استقرارهم ، الا أن هذا الركود في النهاية ركود ظاهري ، لأن كل مجتمع لابد أن يعبر عن نفسه ، ولن يتوقف هذا ، ولن ينقطع مهما كانت المحاولات ، والتاريخ يقول ذلك ، لكن المشكلة أن من يهيمنون على الحركة الثقافية والفنية لايجيدون القراءة !

في مرحلة الستينيات كانت الدولة ترى في المسرح مهدا للفنون ، ومنبرا للتوعية السياسية ، وجزءا مكملا لكيانها الحضاري ، كثورة لها مدلول حضاري ، وبموت عبد الناصر وانتهاء الثورة خلت الساحة لفئة لاتريد أن يصبح للمسرح أي دور ، واعتبرت مسرح الستينيات هو مسرح عبد الناصر ، وهذا غير صحيح ، لأن مسرح الستينيات كان ينتقد عبد الناصر أكثر من انتقاد أعدائه له ، فالمثقفون كانوا على اختلاف جوهري معه ، فيما يتعلق بموضوع « الديموقراطية » ، وهو النقص الذي كان بارزا في ثورة ٢٣ يوليو ، وفي مرحلة السبعينيات عمد بعض الأشخاص الى دفع المسرح الى أحضان مايسمى بالمسرح التجاري ، وهو مسرح لايقدم الا التجهيل والتخدير والتسلية الرخيصة للناس ، ودفع شعار الضحك للضحك ، وفي مرحلة الانفتاح ازدهر المسرح التجاري أكثر وأكثر ، وكان لابد أن يزدهر ، لأنه كمظهر حضاري توجه الى طبقة جديدة طفيلية ، لاتبحث عن أكثر من التسلية ، ولاتعتبر المسرح مؤسسة ثقافية ، لأنها هي نفسها بلاثقافة .

أجيال المسرح

● هل يمكن أن تعقد لنا مقارنة تحليلية بين كتاب المسرح من أبناء جيلك ، وكتاب هذا الجيل ؟

ـ لقد عاصرت ثلاثة أجيال ـ جيل الستينيات والسبعينيات والثمانينيات ـ جيل الستينيات ، الجيل

الذي جمعته وحدة الهدف في الاستقلال ، والثورة على الأوضاع السائدة ، ومقاومة المحتل ، والاقطاع ... الخ ، وهذه أهداف حققتها ثورة ٢٣ يوليو ، ولأن بناء « الديموقراطية » والحرية السياسية أملان لم يتحققا في ظل الثورة كان الكتاب مطاردين خلال عهدها ، لكن كانت ميزة عبد الناصر أنه لم يمنع أبدا أي نص من العرض . قيل له ان مسرحية « انت اللي قتلت الوحش » لعلي سالم ، فيها تلميحات صريحة ضدك ، ومع هذا رفض أن يوقفها ، ورواية أخرى لثروت أباظة كان واضحا للأعمى أنها تعنيه ، ومع ذلك سمح بنشرها ، وحدث منه نفس الموقف مع « ميرامار » . وغيرها .

● لماذا كان يفعل ذلك ـ حسب رأيك ـ وماتفسيره ، وخاصة أن معظم المثقفين في عهده قد دخلوا السجون ؟

ـ كان يفعل ذلك لأنه في أعماقه كان مؤمنا بتقصيره في هذه الناحية ، وأن من حق الناس أن يعبروا عن أنفسهم ، وهذا مما جعله لايصادر أي عمل ، ولايمنع وصوله الى الناس ، صحيح أن ثلاثة أرباع المثقفين قد دخلوا السجن في عهده ، لكنهم كانوا يخرجون في النهاية ، ثم ان الذين جاءوا بعده قد عمدوا الى « البتر » من الجذور ، أي المنع الكامل .

جيل الستينيات كان له فضل وجود عناصر جديدة وجيدة من جيل السبعينيات ، الا أنه لم يتح لها أن تعبر عن نفسها ، ومن هؤلاء أذكر محفوظ عبد الرحمن ، ويسرى الجندي ، وأبو العلا السلاموني ، وعلي سالم ، وغيرهم ، فهؤلاء كانوا عناصر ممتازة ، لكن مجموعة الكتاب « الدكاترة » كبتتهم ، وهيمنت هي ، وكانت مستعدة لأن تقول أي كلام يرضى السلطة ، والسلطة بدورها اطمأنت لهم ، لأنها تدرك جيدا مافعلته بهم ، لقد فتكت بهم ثم اشترتهم ، الا أنه في الثمانينيات عاد الفريق الممتاز الذي تربى في احضان الستينيات ، والذي تحدثت عنه ليتألق ، وقدم أعمالا جيدة .

● وماذا عن المسرح الاجتماعي ؟

ـ لقد بدأ يفقد أرضيته ، لأننا لسنا في مرحلة تغير اجتماعي ، لذا ظهرت أصوات تطالب بألوان من المسرح ، تحت شعار التجديد في الشكل ، وتبحث عن قضايا أخرى كإنشاء مسرح عربي ، واستلهام التراث ، أو الدعوة الى مسرح المخرج ، وبشكل عام بدأ المسرح يتخلى عن النص كأساس ، مما أدى الى منع ظهور كتاب جدد ، يؤمنون بالكلمة ، مع أن المسرح كلمة . وللأسف فإن الاجيال الجديدة مشغولة بقضايا فرعية ، واختلاق موضوعات لامعنى لها ، فأحدهم يدعو لاستلهام التراث ، وآخر ينادي بضرورة أن يكون لنا مسرح خاص ، ونحن لانستطيع أن نكون كالصين أو اليابان لنا مسرحنا الخاص ، ولو أن بعضهم يزعم أن هناك مسرحا فرعونيا ، وهذا غير صحيح .

المخرج أم المؤلف ؟

● في كتابك « المسرح حياتي » ، لاحظت أنك وضعت المخرج في المرتبة الرابعة من حيث الأهمية ، وفي الستينيات أعلنت مرة أنك تفكر جديا باخراج مسرحياتك بنفسك فما سبب هذا الموقف من المخرجين ؟

ـ المسرح ليس أكثر من نص جيد وممثل بالدرجة الأولى ، وحتى مرحلة قريبة لم يكن هناك مخرج مسرحي متخصص ، فأحيانا كان المؤلف يقوم باخراج المسرحية ، لكن للأسف بعض المخرجين تلبستهم في السنوات الأخيرة فكرة أن المخرج هو خالق العمل الفني ، وهذا الكلام قد يكون مقبولا في السينما ، لكن في المسرح لا ، فالمسرح كلمة وفكر ، وأنا شخصيا لا أقبل أبدا أن يمس المخرج جوهر عملي ، ويعتدى على النص تحت أي شعار ، فمهمة المخرج الأساسية ـ في نظري ـ هي أن يدعم فكرتي التي أريد توصيلها الى الجمهور بالعرض الجيد

والحركة المدروسة ، والاضاءة الموحية ـ انني من الكتاب الذين يهتمون كثيرا بحركة الممثل داخل المشهد ، لكن مايحدث هو أن بعض المخرجين يتجاهلون دراسة النص ، بل حتى الارشادات المسرحية المدونة ، ويكتفون بانطباعهم عن المشهد والشخصيات ، وهناك أيضا مخرج يلجأ لنوع من استعراض العضلات على حساب النص ، فيعمد الى الابهار والجماليات المبالغ فيها ، وهذا ما أرفضه ، فالعناية بالشكل والعناية بالإبهار توجدان عندما يغيب النص الجيد المرتبط بالواقع الاجتماعي الحي . مسرحي قائم على الالتحام الفكري في نظرة موحدة للمجتمع ، انني في كل أعمالي أصدر عن تفسير اجتماعي ، ومنهج تحليلي ، والنص الجيد يفرض نفسه دائما .

● هل يوجد لدينا ـ الآن ـ نقاد بالمستوى المطلوب ؟

ـ لا ، لأنه لاتوجد نصوص في المستوى المطلوب ، والناقد لايأتي من فراغ ، ولذا لايوجد لدينا نقاد بمستوى نقاد الستينيات .

● من الذين تعنيهم بنقاد الستينيات ؟

ـ كثيرون ، منهم مثلا عباس صالح ، ومحمد مندور ، وعلي الراعي ، وعبد القادر القط ، ومحمود العالم .

في فن القصة

● قلت في بداية الحديث انك كتبت القصة ، فلأى مدى وصلت ؟

ـ معظم كتاب المسرح بدأوا بالقصة ، وأنا بدأت قاصا ، ولي أربع مجموعات قصصية ، لكن المسرح أخذني من القصة والشعر معا ، وأنا سعيد بهذا ، وأحمد الله عليه ، لأن أهم شيء بالنسبة للفنان أن يعرف أين تكمن مقدرته ، ويركز عليها .

● أكثر من مرة قلت ان ازدياد العامية سببها ازدياد حدة الصراع مع الطبقة الوسطى وغيرها ، فلم لايكون السبب مختلفا ؟ كأن يكون مجرد الرغبة في التعبير عن الذات بشكل أكثر بساطة ويسرا ؟

ـ أولا أنا لا أكتب باللغة العامية ، أنا أكتب بلغة درامية ، بمعنى أن ما أكتبه للمسرح غير ما أتكلم به ، لأنني غير موجود في مسرحياتي ، فشخصياتي موضوعية ، تعبر عن نفسها ، وثمة لفظ يمكن أن يؤثر في جمهور معين ولايؤثر في آخر ، لأن الكلمات هنا ليست مجرد كلمات ، بل هي حوار درامي .

● في لقاء قديم ، بالتحديد عام ١٩٦٩ ، قلت انك " ترفض كل النظريات المستوردة التي تدعو لخلق قوالب مسرحية جديدة ، وفي نفس اللقاء قلت ان « المغناطيس » رفضت لأنها لم تتبع المنهج الارسطي ، أي أنك تمردت على أرسطو !

ـ التمرد على أرسطو حدث منذ « زمان » ، فقد تمرد شيكسبير على قواعد أرسطو ، وكل ماحدث هو أن أعضاء المسرح حينذاك كانوا حديثي التخرج ، فلم يهضموا المسرحية .

● لكنك بالفعل لم تغير في الشكل الذي تقدمه حتى هذه اللحظة !

ـ ولماذا أغيره ؟ أنا مقتنع بهذا الشكل وحده ، وقد نجح ، والجمهور قد تفاعل معه ، ثم انني أعتمد على مقدرتي الدرامية في المحل الأول ، وهذا ما يجعلني لا أرفض أي أشكال درامية جديدة ، لكنني أرفض النظريات ، وان ما أقدمه هو الشكل المناسب لفني وجمهوري ، ومع ذلك اخترقت الحائط الرابع في « الناس اللي تحت » ، وفي « الناس اللي فوق » فعلت نفس الشيء ، وقد لجأت للتجديد ، لكن بحذر .

● باعتبارك كاتب قصة « سابق » من هم الذين تقرأ لهم من كتاب القصة ؟

ـ يوجد جيل من شبان القصة يبشر بالخير ، منهم مثلا بهاء طاهر ، والمرحوم يحيى الطاهر عبد الله ، وعبد الحكيم قاسم ، وغيرهم كثير ، ومن خارج مصر قرأت لحنا مينا ، وعبد الرحمن منيف ، والأخير ممتاز جدا .

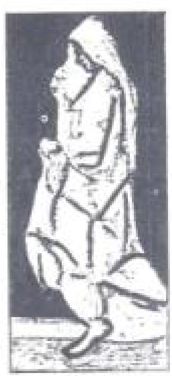
مشروعات مستقبلية

● هل هناك مشروعات مستقبلية ؟

ـ لا ، مهمتي الآن أن أحرس انتاجي ، وأقوم بمراجعة كل ماكتبته من مقالات ومسرحيات وقصص وغيره وتجميعه ، فليست لدي القدرة على الكتابة الآن ، في ظل هذه الظروف التي تهدر فيها المسرحيات ! ثم ان تفاصيل عملية العرض المسرحي تأخذ مني مجهودا أكبر بكثير من جهد الكتابة نفسها ، واذا لم تكوني قريبة من السلطة التي تمسك بزمام الأمور ، وتحرك المسرح ، فلا أمل باخراج مسرحيتك بالشكل الذي ترضين عنه . مسرحية « الجيل الطالع » أخرجت في السبعينيات دون أي معاناة ، لأن مدير المسرح آنذاك كان الفريد فرج ، وهو الذي طاردني لأكتب ، ثم سلمته النص وأنا مطمئن ، وقد نفذه باعتدال وأمانة ، ولم يعبث به ، أما مسرحية « برج المدابغ » فقد طبعتها في كتاب عام ١٩٥٥ ، ثم قابلني المرحوم السباعي وسألني عن سبب توقفي عن الكتابة ، فقلت له بأني لم أتوقف ، وثمة مسرحية جديدة في الأسواق ، وأمن سعد الدين وهبة على كلامي ، ثم اكتشفت سر السؤال ، فقد مثلوا المسرحية في سوريا ، دون أن أدري فقلت له اني لست مسئولا عن ذلك فقال : لا ، لابد أن تمثل هنا ، وآنذاك طلب السباعي من سعد الدين وهبة أن يدرجها ضمن المسرحيات التي سيقدمها المسرح القومي في موسمه ، لكنهم استبدلوها بمسرحية مترجمة ، لمجرد أن فيها دورا نسائيا ، وهو دور « بطولة » يلائم مديرة المسرح حينذاك !! وبصراحة لم أعد قادرا على تحمل مثل هذه التصرفات وأنا أجتاز هذه المرحلة من عمري .

● اذن ما الذي تفعله الآن ؟

ـ ابتسم بحزن قائلا : كما ترين . بعد رحيل زوجتي فقدت الحياة بهجتها ، فقد كانت أجمل مامنحته لي الأيام ، . . كانت زوجة وشريكة وصديقة ، واحتوتني بحنانها ، وكانت تهتم بعملي بدرجة غير عادية ، ولم أعان ـ وأنا معها ـ من المشاكل الصغيرة التي تشغل النساء عادة ، وهأنذا بعد رحيلها أحاول أن أشغل نفسي بمراجعة أعمالي ، ومابقي لي من وقت أقضيه مع أبنائي الثلاثة ـ فابنتي الكبرى متزوجة ، ، وعندما تزورني بصحبة أولادها أقضي لحظات قصيرة من الفرح الملون ، وابني سعد متزوج ، وقد أنجب لي نعمان الصغير ، ولايقيم معي في شقتي هذه الآن الا ابنتي الصغرى « هالة » □



الفنـــون الشـــعبية

● يقول الأستاذ ثروت عكاشة في حديث له عن الفنون الشعبية : « ان الاهتمام بفنوننا الشعبية جزء من العناية بمقومات شخصيتنا ، فهي صورة من طبيعة شعبنا توارثها على مر الزمن ، حتى رسبت في أعماقه ، وانطلقت على لسانه حِكَماً وأمثالاً ، وأغنيات وألحانا ، كما ظهرت في مجموعة رقصاته ، بل ان هذه الفنون أخذت طريقها الى انتاج الشعب ، فأضفت عليه طابعا خاصا يميز شخصيته ، والذين يبنون للمستقبل ينبغي عليهم ألا يتجاهلوا هذه المقومات والعناصر ، فعليها يستند البناء ويعتمد التطور » .



"الاعتبار"

للأمير أسامه بن منقذ

اعداد وعرض : جمال الغيطاني

ثمة رأي شائع حول ندوة التراجم الذاتية في تراثنا العربي ، فإلى أي حد يعتبر هذا الرأي صحيحاً ؟ يقدم الكاتب نماذج من هذه التراجم الذاتية المتميزة من هذا التراث ، ليهز هذه المسلمة ، وفي هذه المرة يقدم لنا نموذجاً مما كتبه الأمير أسامة بن منقذ في كتابه الشهير « الاعتبار » .

« إن ركوب أخطار الحروب لا ينقص أجل المكتوب . فإنني رأيت معتبراً يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر مؤقت ، مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر » .

هذا ما خطه الأمير العربي أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » ، الذي بدأ تدوينه بعد أن بلغ التسعين من العمر ، عمر طويل شهد فيه أحداثاً جسيمة وحاسمة ، كالحروب الصليبية ، وزوال الدولة الفاطمية في مصر ، وصلاح الدين الأيوبي ، والعادل نور الدين ، وعاش في البلاط الفاطمي ، وكان طرفاً رئيسياً في الصراعات التي جرت في عهد الخليفة الحافظ ، والخليفة الفائز ، وخاض معارك لا حصر لها ، وكان فارساً شجاعاً ، أديباً ، قطع سنوات طويلة من عمره جوّاباً .



ولد في ٢٠ جمادى الآخرة ٤٨٨هـ (٤ يوليو ١٠٩٥) . أطلق عليه والده اسم أول قائد عربي عهد إليه فتح الشام ، وقد نشأ في قلعة (شيزر) على ضفاف نهر العاصي ، قضى معظم شبابه ما بين بلاط نور الدين في دمشق ، والبلاط الفاطمي في القاهرة ، أما كهولته فقد أمضاها في الموصل ، في حصن (كيفا) المطل على نهر دجلة ، وزار بيت المقدس في فلسطين ، وحج إلى الحرمين ، وتنقل بين معظم البلاد الإسلامية ، وخلال سنوات عمره الأخيرة ، وفي حصن (كيفا) ، كان يشرف على السنوات الطويلة التي قطعها في هذه الحياة الدنيا ، يتأمل ، ويسجل ، ويستخلص العِبَر .

وفي حدود ما أعلم ، فإن هذا الكتاب فريد من نوعه في التراث العربي ، إذ يمكن اعتباره سيرة ذاتية متكاملة . فالكاتب والمكتوب عنه شخص واحد ، وهو سيرة ذاتية ، تتطرق إلى تفاصيل إنسانية ، لم تتطرق إليها السير الأخرى ، كعلاقة المؤلف بوالده ، وإحساسه بالطبيعة ، والزمن ، مما يجعل من الكتاب أثراً فريداً في الأدب العربي ، حيث لا يتكلف السجع ، أو يستعرض فخامة الألفاظ ، إنما يترك أسلوبه يسترسل على سجيته .

وهناك سيرة ذاتية أخرى تسبق (الاعتبار) بسنوات قليلة ، وهي لأحد الدعاة الفاطميين ، وهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى « ٤٧٠هـ » ، غير أن الطابع العقائدي يغلب عليها ، كما أنها لا تتطرق إلى التفاصيل .

مخطوطة كتاب (الاعتبار) وحيدة ، لا أخت لها ، محفوظة في مكتبة « الأسكوريال » ، وقد نشرت لأول مرة في (ليون) عام ١٨٨٤م ، وفي عام ١٩٣٠م نشر الأستاذ فيليب حتي هذا السفر العربي محققاً في الولايات المتحدة ، وقد أعيد نشره في بيروت منذ عدة سنوات ، وفي هذا الإعداد الذي أقدمه أحاول أن أجعل النص متاحاً للقارىء ، لا أتدخل أبداً بالتعديل في الأجزاء التي أقتطعها منه ، وقد حرصت على توضيح خلفيات بعض الحوادث التاريخية ، وإعادة ترتيب بعض الأجزاء ، حتى يكون واضحاً للقارىء الذي تبدو أمامه كتب التراث كالألغاز والأحاجي . وتنأى عن المتناول بسبب ظروف عديدة في حياتنا الثقافية .

أسامة في مصر

(الدولة الفاطمية في مصر تمزقها الانقسامات ، والاضطرابات ، وتزايد الصراع بين أطراف الدولة المختلفة ، وفي هذه الأوقات العصيبة وصل إلى مصر من الشام الأمير أسامة بن منقذ) .

« فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس ، الثاني من جمادى الآخرة ، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٩ - ١١٤٤م) ، فأقرني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع علي بين يديه ، ودفع لي تخت ثياب ، ومائة دينار ، وخولني دخول الحمام ، وأنزلني في دار من دور الأمير الأفضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ، ومرتبة كبيرة ، وآلتها من النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة في إكرام واحترام ، وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج » .

(في الوقت الذي وصل فيه أسامة بن منقذ الى

مصر) كان يتولى الوزارة رضوان بن الولخشي ، وكان شاعراً ، وجندياً مقداماً ، ثم عزل من الوزارة ففر إلى الشام ، وطلب إلى زنكي أتابك الموصل مساعدته ، وكان يريد غزو مصر ، غير أن الأمير أسامة بن منقذ أثناه عن ذلك ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار ، ودفعها له من أموال الخليفة الفاطمي وعاد الوزير رضوان إلى القاهرة بعد أن أمنه الخليفة الفاطمي الحافظ ، غير أنه لم يف بعهده ، فقد حبسه عشر سنوات ، تمكن في آخرها من الفرار ، وجمع أنصاراً كثيرين ، واستقر في الجامع الأقمر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وأسروه ، فقطعوا رأسه ، وقطعوا جسمه ، والتهموه ، اعتقاداً منهم أنهم بذلك سيماثلونه في بأسه وشجاعته ـ وبعد يومين من مقتل رضوان توفي الخليفة الحافظ)

* * *

« وجلس بعده الظافر بأمر الله ، وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخاً كبيراً ، والأمير سيف الدين أبو الحسن ، علي ابن السلار رحمه الله إذا ذاك في ولايته ، فحشد ، وجمع ، وسار إلى القاهرة ، ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونفذ اليأ زمام القصور يقول : « يا أمراء ، هذا نجم الدين ، وزيري ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ، ويمتثل بأمره » .

قال الأمراء : « نحن مماليك مولانا ، سامعون ، مطيعون » .

فقال أمير من الأمراء ، شيخ يقال له « لكروان » : « يا أمراء ، نترك علي بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال : « قوموا ، فنفروا كلهم ، وخرجوا من القصر ، رشدوا على خيلهم وبغالهم ، وخرجوا إلى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك ، وغلب عن دفعه ، أعطى نجم الدين بن مصال مالاً كثيراً ، وقال :

« اخرج إلى الحوف ، اجمع ، واحشد ، وأنفق فيهم ، وادفع ابن السلار . . . ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفرد لي موضعاً في الدار أكون فيه » ، ودارت الحرب بين ابن السلار والوزير المخلوع ابن مصال ، وكان الأمير أسامة بن منقذ في جانب ابن السلار ، وعند مدينة الواسطي بالوجه القبلي دارت معركة حاسمة ، هزم فيها ابن مصال ، واستقر ابن السلار عنوة في منصب الوزارة غير أن الخليفة الظافر لم يكف عن الكيد له .

استدعى الأمير أسامة بن منقذ لمقابلة الوزير بن السلار الذي طلب منه أن يتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين ، ليطلب مساعدته ، لغزو مدينة طبرية التي كان يحتلها الصليبيون ، فيمنع بذلك غزو الصليبين لمصر ، وفي هذه الأثناء يسير الوزير ابن السلار لغزو غزة وعسقلان .

من أخلاق الأمير

يقول أسامة بن منقذ :

« وسرت وقد أزاح علة سفري بكل ما أحتاجه من كثير وقليل ، فلما من الجفر واحة بين مصر وفلسطين ، قال لي الأولاد : « هذا مكان لا يكاد يخلو من الإفرنج » ، فأمرت اثنين من الأولاد ، ركبا مهرين ، وسارا قدامنا إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا والمهران يطيران بهما ، قالا : « الفرنج على الجفر ! » . فوقفت ، وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ، ورفاقاً من السفارة كانوا معي ، ورددتهم الى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكي ، وقلت : « تقدموا وأنا في أثركم » .

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، قام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود ، فأخذناه ، وتفرق أصحابي ، فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبياناً ، فجاءت امرأة منهن ، مسكت ثوبي وقالت : « يا شيخ ، أنا في حسبك » ، قلت

« أنت آمنة ، مالك ؟ » ، قالت : « لقد أخذ أصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابحاً وخرزة » ، قلت لغلماني : « من كان أخذ شيئاً يرده » .

* * *

« ومما جرى في تلك الطريق أن الملك العادل (الوزير بن السلار) قال لي : لا تعلم الزملاء الذين معك بالمال ، فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي مجنوب معي ، وسلمته إلى غلام وجعلت ألفي دينار في خرج على حصان مجنوب معي ، وسلمته إلى غلام ، فكنت إذا نزلت جعلت الخرجين في وسط بساط ، ورددت طرفيه عليها ، وبسطت فوقه بساطاً آخر ، وأنام على الخرجين ، وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي ، ويجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانها ، فإذا شداهما على الجنائب ركبت ، وأيقظت أصحابي ، فهممنا بالرحيل ، فنزلنا ليلة في تيه بني اسرائيل ، فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب ، وأخذ الخرج وطرحه على روكي البغل ، ودار يريد شده ، فنزل البغل ، وخرج يركض وعليه الخرج ، فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني : « اركب . . اركب » . وركضت خلف البغل ، فماطقته ، وهو كان حمار وحش ، وحصاني قد أعيى من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت : « اتبع البغل » ، فمضى ، وقال : « والله يا مولاي ما رأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج ، وقد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت أطلب ، والبغل أهون مفقود » ، ورجعت إلى المنزلة ، وإذا بالبغل قد جاء يركض ، ودخل في طوالة الخيل ، ووقف ، فكأنه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار » .

أسامة بن منقذ في الشام

ويمضي أسامة إلى الشام ، ويلتقي بأسد الدين شريكوه ، وبالعادل نور الدين ، فيرفض نور الدين محاربة الصليبيين في هذه الفترة ، لأن أهل دمشق لم يكونوا معه ، وبرغم ذلك سمح للأمير أسامة أن يجند تحت لوائه عدداً كبيراً من المتطوعين ، وسمح لعدد من جنود حرسه الخاص الانضمام إليه ، لينسب إلى نفسه ما قد يحوزه أسامة من نصر ، ويحاصر أسامة الفرنج في عسقلان مدة أربعة شهور ، غير أن قواته اندحرت ، لعدم ثباتها أمام الفرنج من جهة ، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره ، وسار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب ، غير أن ابن السلار أمره بالعودة إلى القاهرة ، وفي القاهرة كانت تنتظره أحداث جسام .

لقد كان بصحبة أسامة شاب اسمه عباس ، وهو في نفس الوقت ابن زوجة الوزير ابن السلار ، وكان عباس متألماً بسبب سفره إلى الشام لمحاربة الصليبيين ، ومغادرة مصر الجميلة ، ذات المناخ الجميل ، وكذلك كان يضيق بعبء الحياة العسكرية . وفي بلبيس أفضى عباس بمتاعبه إلى أسامة ، ويقال إن أسامة أراه حينئذ أنه في إمكانه أن يتجنب هذا كله بقتل الوزير ابن السلار ، زوج أمه ، وعندئذ أرسل عباس ابنه المسمى نصر إلى القاهرة ، فقام باغتيال الوزير ابن السلار ، وعاد عباس إلى القاهرة ، وتقلد الوزارة بدلاً من ابن السلار .

يقول ستانلي لين بول : « إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر ، وما تبعه من قتل الخليفة بنفس هذه اليد الآثمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر » .

غير أن الخليفة لم يكتف بقتل ابن السلار ، بل راح يحرض نصر على قتل أبيه عباس ، وكان نصر والخليفة في نفس السن تقريباً ، وكانا أصدقاء ، غير أن تدبير الخليفة انقلب عليه .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« كانا يخرجان في الليل متنكرين ، وهما أتراب ، وسنهما واحدة ، فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السوفيين ، ورتب من أصحابه نفراً في جانب الدار ، فلما استغربه المجلس خرجوا عليه فقتلوه ،

وذلك ليلة الخميس ، سلخ المحرم ، سنة تسع وأربعين وأربعمائة (١٥ ابريل ١١٥٤) ، ورماه في جبٍّ في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه ، يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه . وأصبح عباس ، فجاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجلس الوزارة ، كأنه ينتظر جلوس الخليفة الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال :

« ما لمولانا ما جلس للسلام » ؟ .

فتبلد الزمام في الجواب ، فصاح عليه ، وقال :

« مالك لا تجاوبني ؟ »

قال :

« يا مولاي ، مولانا ما ندري أين هو ؟ »

قال :

« مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال »

فمضى ورجع ، وقال : « ما وجدنا مولانا » ، فقال عباس : « ما بقي الناس دون خليفة ، أدخل إلى الوالي اخوته ، يخرج منهم واحد نبايعه » ، فمضى ، وعاد ، وقال :

« الوالي يقول لك ، نحن مالنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا ، وجعله في الظافر ، والأمر لولده بعده » .

قال : « أخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر ، وعزم على أن يقول : « اخوته قتلوه ، ويقتلهم ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي ، محمول على كتف أستاذ من أساتذة القصر ، فوجده عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم دخل به إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن أخيهم أبو البقى » .

أثار قتل الخليفة وأهله أهالي القاهرة ، فنشبت المعارك في طرقات المدينة ، وأخذت النسوة والأطفال يرجمن أتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهن ، ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه ، ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سلطة الأهالي ، وثورتهم ، ففر هو وابنه إلى الشام ، وكان الأمير قريباً من عباس فتأهب لمغادرة مصر .

ويستمر الأمير أسامة في طريقه إلى دمشق ، يلقي مصاعباً جمة ، وفي دمشق يتصل مرة أخرى بخدمة الملك العادل نور الدين ، غير أن أسرته كانت ما تزال في القاهرة ، وأرسل الملك العادل إلى الوزير الفاطمي الصالح طلائع بن رزيك ، يطلب منه السماح بسفر أسرة الأمير أسامة ، فرد الصالح قائلاً إنه يخاف عليهم من الفرنج ، وفكر الأمير أسامة في العودة إلى مصر .

الكتاب أنفس ثروة

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« ففاوضت الملك العادل ، واستطلعت أمره فقال : يا فلان ، ما صدّقت متى تخلص من مصر وفتنتها تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، أنا أنفذ ، وآخذ لأهلك الأمان من ملك الفرنج ، وأسير من يحضرهم .

فأعاد ـ رحمه الله ـ أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر ، وسيرت الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل ، وكتابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعوا من دمياط في مركب من مراكب الإفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك نفذ رحمه الله ، فيها نفذ قوماً في مركب صغير ، كسروا المركب بالفؤوس ، وأصحابي يرونهم ، وركب ، ووقف على الساحل ، ونهب كل ما فيه ، فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه ، وقال له : « يا مولاي الملك ما هذا أمانك ؟ » قال : « بلى . . ولكن هذا رسم المسلمين : إذا انكسر لهم مركب على بلد نهب أهل ذلك البلد » ، وقال : « فتسبينا ؟ » قال : لا ، وأنزلهم ـ لعنه الله ـ في دار ، وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم ، وقد كان في المركب حلي أودعه النساء وكسوات وجوهر ، وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار ، فأخذ الجميع ،

وترك لهم خمس مائة دينار ، وقال : « توصلوا بهذه إلى بلادكم » .

ولا يكتب الأمير أسامة ما يشير إلى تحسره على سرقة ماله ، ومتاعه ، غير أن حديثه عن كتبه يختلف .

يقول الأمير أسامة :

« وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود (قونية) ، فهوّن عليّ سلامة أولادي ، وأولاد أخي ، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت ، فهذه نكبات تزعزع الجبال ، وتفني الأموال ، والله سبحانه يعوض برحمته ، ويختم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نكبتها ، سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال . وأجحفت بهلاك المال .

ويتوقف الأمير أسامة بن منقذ عن سرد الحوادث التاريخية التي عاشها ، ثم ينتقل إلى نوع من التذكر ، واسترجاع التفاصيل الدقيقة التي لم تغب عن ذهنه ، وقد بلغ التسعين من العمر .

ترى في أي موضع من حصن (كيف) المطل على نهر دجلة كان يجلس الأمير أسامة بن منقذ ، يحملق في مياه النهر ، وأمواجه المتتابعة كسنوات عمره التسعين ، لا بد أنه كان يستدعي أيامه البعيدة ، وما مر به من أحداث ، ومن مخاطر .

أول معركة للأمير

يقول الأمير أسامة بن منقذ وهو يحدثنا عن أول مرة خاض فيها القتال :

« ومثل ذلك ما جرى لي على أفامية (بلدة في الشام) ، فإن نجم الدين بن الباورزي بن أرتق ـ رحمه الله ـ كسر الإفرنج على البلاط ، وذلك يوم الجمعة ، خامس جمادى الأولى ، سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وأفناهم ، وقتل صاحب الكاكيت روجار ، وجميع فرسانه ، فسار إليه عمر عز الدين أبو العساكر سلطان ـ رحمه الله ـ وتخلف والدي ، ـ رحمه الله ـ في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أفامية بمن معي بشيزر من الناس ، ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية ، وكان قد هدف من العرب إلينا خلق كثير ، فلما سار عمي نادى المنادي بعد « يوميات » من مسيره ، وسرت في نفر قليل ما يلحق عشرين فارساً ، ونحن على يقين أن أفامية ما فيها خيالة ، ومعي غلام عظيم من النهابة والبادية ، فلما صرنا على وادي أبي الميمون ، والنهابة والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الإفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارساً وستون راجلاً ، فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان عليّ الموت لهلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليحوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً ، ثم استقبلت خيلهم المتتابعة ، فولوا وأنا غر من القتال ، ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم أجتن عنهم ، وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولامة الحرب ، أنا خائف منه لا يكون جاذباً لي ليعود علي ، حتى رأيته خرب حصانه بمهمازه ، فلوّح بذنبه ، فعلمت أنه قد أعيا . فحملت عليه وطعنته ، فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة ، وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا أظن أني قتلته ، فجمعت أصحابي وهم سالمون ، وكان معي مملوك صغير ، يجر فرساً لي ، وهماء مجنونة ، وتحته بغلة مليحة سروجية ، وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة ، وسيبها ، وركب الحجرة ، فطارت به إلى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة سألت عن الغلام

الذي راح ، فعلمت أنه قد يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ـ رحمه الله ـ . فدعوتُ رجلاً من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر وتعرف والدي بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال : « أي شيء لقيتم ؟ قال :

يا مولاي ، خرج علينا الإفرنج في ألف ، وما أظن أحداً يسلم إلا مولاي ، قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيته قد لبس وركب الخضراء » ، وبينما هو يحدثه إذا بالفارس قد وصله ، وأخبره باليقين ، ووصلت بعده ، فاستخبرني ـ رحمه الله ـ ، فقلت :

« يا مولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان عليّ الموت ، فرجعت إلى الإفرنج ، لأقتل أو أحمي ذلك العالم » .

قدر الحياة والموت

ثم ينصح الأمير أسامة من وصل إلى الطعن أن يشد ذراعه ، ويده على الرمح ، ويدع الفرس يعمل ما عمله في الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح ومدها به لم يكن لطعنته تأثير . ويتذكر مواقف مرت به أثناء القتال . فيقول :

« شاهدت رجلاً من رجالنا يقال له ندى بن تليل القسيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والإفرنج وهو تعرى ما عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الإفرنج في صدره ، فقطع هذه العصفورة التي في الصدر ، وخرج الرمح من جانبه ، فرجع ، وما نظنه يصل منزله حياً ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ، لكنه لبث سنة إذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يجلسه إنسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه ، وعاد إلى تصرفه ، وركوبه كما كان .

قلت : فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير » .

غير أن أسامة إذ يفرغ من تذكره هذا الرجل الذي عاش بعد أن قطع قلبه بالسيف ، يذكر آخر مات بسبب إبرة .

« كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال ، وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه كانت فيه إبرة ، دخلت في راحته ، فمات منها ، وبالله لقد كان يئن في المدينة ، فيسمع أنينه من الحصن ، لعظم خلقه وجهارة صوته . . يموت من إبرة ، وهذا القسيري يدخل في صدره قنطارية (رمح) تخرج من جنبه لا يصيبه شيء ؟ » .

ويتذكر الأمير أسامة فارساً إفرنجياً هزم أربعة من المسلمين :

« وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم ، يقال له بدرهوا ، فكان أبداً يقول : « ترى ما ألتقي جمعة في القتال ؟ » .

وجمعة يقول : « ترى ما ألتقي بدرهوا في القتال ؟ » .

فنزل علينا عسكر أنطاكية ، وضرب خيامه في



الموضع الذي كان ينزله ، وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم ، وصاح بهم : « فيكم جمعة ؟ » .

قالوا : « لا . . . » .

وكان ذلك الفارس « بدرهوا » ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته ، فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحداً منهم طعنه طعنة فشلة ما ألحقه خصائه ليمكن الطعن ، وعاد إلى الخيام .

ودخل أولئك النفر إلى البلد فافتضحوا ، واستخفهم الناس ، ولاموهم ، وأزروا بهم ، وقالوا : أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ! كنتم افترقتم له ، فكان طعن واحداً منكم ، وكان الثلاثة قتلوه ، ولا قد افتضحتم » ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري ، فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوباً غير قلوبهم ، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا ، واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة .

أما « بدرهوا » فإنه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله ، يريد أنطاكية ، فخرج عليه الأسد في طريقه ، فخطفه عن بغلته ، ودخل به إلى الغاب وأكله ، لا رحمه الله .

كثيرة تلك التفاصيل التي يتذكرها الأمير في آخر حياته ، إن ذاكرته تعج بأصوات صليل السيوف ، وركض الخيول ، لا ينسى قط أنه طعن فارساً من رجاله على سبيل الخطأ ، وأن طعنة واحدة من فارس مسلم أودت بحياة فارسين من الإفرنج في وقت واحد ، ولا ينسى هذه اللحظة التي جرح فيها عمه في جفن عينه ، وكيف أن الجفن سقط ، وبقي معلقاً بجلدة من مؤخرة العين ، والعين تلعب لا تستقر ، حتى جاء الطبيب وداواها فعادت كحالها الأولى ، لا تعرف العين المطعونة من الأخرى ، ويتذكر قتاله مع الفارس الشجاع جمعة ، وكيف أنهما هزما ثمانية فرسان من الإفرنج ، ولا يلبث أن يتذكر كيف هاجمها شاب صغير منهم ، واضطرهما إلى الفرار .

طويل ذلك العمر الذي عاشه الأمير ، وخلال حروبه مرت به مواقف كثيرة كان يمكن أن يقتل خلالها ، ومن هنا يحدثنا عن عجائب السلامة فيقول :

« ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر ، وسبقت المشيئة ، أن الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق ـ رحمه الله ـ عمل على مدينته آمد عدة مرات ، وأنا في خدمته ، ولا يبلغ عنها مقصوده ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميراً من الأكراد كان مديوناً بآمد راسله ، ومعه جماعة من أصحابه ، وقدر الأمر أن يصله العساكر في ليلة تواعدوا إليها ، ويطلعهم بالحبال ، ويملك آمد ، فعوّل فخر الدين في ذلك المهم على خادم له إفرنجي ، يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب باقي الأمراء فتبعوه ، وتوانى هو في السير ، فسبقه الأمراء إلى آمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ، ودلوا إليهم الحبال ، وقالوا : « اطلعوا » ، فما طلع منهم أحد ، فنزلوا وكسروا أقفال المدينة ، وقالوا : « ادخلوا » ، فما دخلوا ، كل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار ، وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان والبلاية والجند ففرغوا إليهم ، فقتلوا بعضهم ، ورمى بعضهم نفسه ، وقبضوا بعضهم ، ومد بعض الذين رموا نفوسهم وهو نازل في الهواء يده كأنه يريد شيئاً يتمسك به ، فوقع في يده حبل من تلك الحبال التي دلوها أول الليل وما طلعوا فيها ، فتعلق به فنجا دون أصحابه ، إلا أن كفيه انسلختا من الحبل ، وأنا حاضر ، وأصبح صاحب آمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلوهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة أنقذ الإنسان من لهاة الأسد ، فذلك حق لا مثل » □

يصدر في ١٥ يوليو ١٩٨٧

العربي - العدد ٣٤٤ - يوليو ١٩٨٧

كتاب العربي

السادس عشر

دراسات حول

الطبّ الوقائيّ

بقلم مجموعة من الكُتّاب



الرحلة

شعر : الدكتور عبده بدوي

وطفلٍ كوجهِ الصباحِ الوديعِ   وأوّلِ نوّارةٍ في الربيعْ
تمطّى ، وغرّدَ في فرحةٍ   ومدّ جناحيْهِ فوقَ الرُّبوعْ
ولمّا رأى لُغةً فظّةً   تشيعُ ، وما ينبغي أن تشيعْ
وكفًّا تُشيرُ بلا غايةٍ   فتمضي وراءَ الهوانِ الجُموعْ
تهاوى ، وقرّبَ في الحاجبيْنِ   وحدّثهُ قلبُه بالرُّجوعْ
ولكنّه قد رأى محبساً   تموتُ على جانبيْهِ الشّموعْ
فعاشَ كما أطرقتْ مُقلةٌ   تضمُّ على الخوفِ بعضَ الدُّموعْ
ومرّ الزمانُ بأوجاعِه   يُحاولُ تحتَ الرُّكامِ الطُّلوعْ
ويملأُ كأساً بماءِ الهوانِ   ويزرعُ وردًا بماءِ الخُضوعْ
ويطرحُ من صدرِه حزنَهُ   فتذبلُ ليلكةٌ في الصقيعْ
ولمّا مشى الشّيبُ في عمرِهِ   وأجهشَ قلبٌ وراءَ الضُّلوعْ
وقيلَ له : قد بلغتَ القِطافَ   وآنَ الحصادُ لكلّ الزُّروعْ
بكى ، واستجارَ ، ومدّ اليدينِ   ليحيا دقائقَ بعدَ النُّزوعْ
وسارَ ، وفي نفسِه لو يعيشْ   ولوْ لحظتينِ قُبيلَ القُلوعْ



منتدى العربي

قضية

الدخول في دائرة الحداثة

بقلم : الدكتور عبد الرحمن ياغي

لقد دقت الأبواب على الحياة العربية أيد عنيفة قوية في أوائل عهد النهضة ، ولئن تساقطت في ساحاتها شظايا تفجر رهيب إلا أن مركز هذا التفجر لم يكن في الوطن العربي بل كان في العالم الأوروبي الغربي الذي أحدثت فيه آثار الثورة الصناعية تفجرات هائلة ، قلبت كل كيانه ، وغيرت تركيبه الاجتماعي ، وأقامت على أنقاضه بناء اجتماعياً جديداً .

اهتزت مع عصر النهضة نظم سياسية ودستورية ، ونشأت روابط اجتماعية جديدة ، وقامت علاقات ، غير تلك العلاقات الطبقية التي كانت سائدة في نظم الحكم ، وازدهرت طبقة لم يكن ليتاح لها كل هذا النمو ، وهذا النضج ، وهذا التحكم في وسائل الإنتاج ، وأقيم بناء اقتصادي جديد ، يقوم على الصناعة ، وما يربطها بالطبقة الوسطى غير ذلك البناء الذي كان يقوم على الزراعة والتجارة ، ويعود مردوده على النبلاء أو الاقطاعيين المرتبطين بروابط النظام الإقطاعي .

ونتيجة لهذه التحولات الجديدة في التركيب الاجتماعي الغربي نشأت تيارات فكرية جديدة ، ومجالات أدبية جديدة ، وأدوات مادية ، تحقق كثيراً من حاجات هذه الطبقة الناشئة الجديدة التي برزت

إلى الوجود في شكل موجات جديدة ، ذات زخم سياسي واجتماعي واقتصادي وفكري وثقافي جديد ! !

أصبح التعليم الحديث في خدمة هذه الطبقة ، وكذلك أصبحت المطبعة الحديثة ، والصحف والمجلات والترجمة .

لكن ماذا حدث للموج العارم الذي تدفق بفعل هذه الطاقات الإنتاجية الجديدة في أوروبا ؟ لقد أصبح زخم الموج يهدد كل السدود ، ويزلزل كل الحواجز ، ويقتحم الأسوار ، فلقد زاد الإنتاج ، زاد إنتاج الآلة عن حاجات الناس في أوروبا ، وأصبحت الآلة كأنها الغول الذي لا يمكن أن يمتلىء شدقاه بما يرضيه ، وإذا الأمواج في أوروبا تتدفق ، وشظاياها تبلغ المدى البعيد،وإذا السيل يندفع في غزو ساحق ماحق لا يتريث ولا يتلبث ، وإذا هذا الغول يطلع على منطقة الشرق العربي في شكل موجات تتزاحم ، كل يسابق الآخر للظفر بسوق لهذا الإنتاج ، وإذا كل يحاول السيطرة على بقاع من الشرق ، ويفرض عليها تسلطه وسلطانه ، ويتخذ في سبيل ذلك كل وسائل الغزو العسكرية ، حتى ان القوى الغازية تكاد أن تصطدم فيما بينها ، فنشطت لذلك شركات بريطانيا في الهند ، وفي موانىء البصرة والسويس وفي البحر الأبيض المتوسط ، وكانت حملة نابليون ، وكان التنافس .

تكون الدول الحديثة

وهكذا كان التفجر الذي وقع في أوروبا نتيجة للثورة الصناعية ، وحملة نابليون ، وما تلا ذلك من نزوع إلى تكوين دول حديثة في منطقة الشرق العربي . كان ذلك كله يشكل محاور تحول في التركيب الاجتماعي الغربي .

ونتيجة لهذا التحول الذى أصاب تلك المجتمعات الغازية حدثت تحولات مشابهة في المجتمع العربي المغزو ، واهتز في شرقنا البناء الذى يشبه البناء الاقطاعي في اوروبا ، وذلك نتيجة هذه الشظايا التي زلزلت سلطة المماليك شبه الاقطاعية ، وجعلت ظروف الطبقة الوسطى تبرز ، انفتحت الآفاق على نشوء الطبقة الوسطى المشابهة في بعض الوجوه لمثيلتها في أوروبا .

وأخذت المدارس الحديثة تنشأ ، وتخرج أعداداً كبيرة من المتعلمين الجدد ، من أبناء هذه الطبقة ، وتطلعت هذه الطبقة إلى ما تطلعت له شبيهتها في أوروبا ، وحاولت أن تتلمس لنفسها مواد الزاد الفكري والثقافي والأدبي ، وتيسرت المطبعة في خدمتها ، وأنشئت الصحف والمجلات ، وقامت الترجمات ونشطت ، وأصبحت هذه الطبقة ذات كيان ذاتي معترف به ، غير أن هذا التفجر في المجتمع العربي الذي تلا التفجرات في المجتمع الأوروبي قد أفرز موقفين :

الأول : موقف الإنسان الذي أفزعته هذه العاصفة ، وأرعبته ، وزرعت في قلبه الهول ، وظنها ـ رغم شدتها ـ عابرة فمضى في فزعه ورعبه ، واحتضن شجرة فارعة قوية ، تمتد جذورها إلى أعماق القاع ، ومن خوفه أحاط هذه الشجرة بذراعيه ، وغمس في ساقها عينيه ، ولم يتمكن من أن ينظر حواليه ، بل سمر وجهه في جذع الشجرة ، ينتظر مرور العاصفة التي ولدت في قلبه عقدة الخوف منها ، ومن مسببها ، ومن الأمواج التي حملتها ، والتيارات التي أطلقتها .

والثاني : موقف الإنسان الذي أحس بأن هذه العاصفة ليست عابرة ، وأنها أمواج ستتبعها أمواج ، وأنه لا قبل له بدفعها ، ولا يستطيع أن يتمرد عليها ، فيواجهها مواجهة القوي ، مواجهة الند للند ، فأطلق ذراعيه ، وفرد جناحيه ، وأسلم هذه الأذرع وتلك الأجنحة لتيارات هذا التحول الجديد ، يدفع به حيث يشاء ، ويقذفه حيثما يحل ، ولو أدى به الأمر إلى أن يرتطم بصخور المرتفعات الشاهقة ، أو يلقي به في هاوية ، لكنه لم يغمض عينيه فزعاً ، ولم يتق

الانطلاق مع التيار الجارف .

وكان لنا من نتاج هذين الموقفين ثمار وآثار في فن الرواية العربية ، في مطلع النهضة الأدبية الحديثة ، وقد ظل هذان الموقفان متجاورين ، يتسابقان حتى انحسر أحدهما ، وفسح الطريق للآخر فمضى فيه حتى آخر الشوط وحده ، وابتدأ مرحلته الجديدة بمفرده ، دون أن يحس بظل التيار الآخر يزاحمه أو يرافقه .

ومهما يكن من أمر هذه التفجرات في المجتمع العربي الذي تلقى شظايا التفجرات الأوروبية فقد ظهرت عليه الأعراض التفجيرية التي ظهرت على ملامح المجتمع الأوروبي .

«الرومانس» وليس «الرومانسية»

ومن مظاهر هذا التحول والتغيير في المجتمع الأوروبي ما انعكس على الفكر والثقافة والفنون الأدبية ، فأوروبا ذات النظم الإقطاعية وذات العلاقات الإنتاجية والطبقية والاجتماعية والإدارية التي كانت سائدة راسخة ، وجاثمة على الصدور طوال القرون الممتدة من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر ، وكانت أوروبا هذه بنظمها ومجتمعاتها وعلاقاتها تلك تلقي ظلها الدافع على الفنون الأدبية ، ومنها فن الرواية ، وقد كانت رواياتها في الغالب الأعم أشبه بقصص الملاحم والسير البطولية ، وكأن أبطال هذه القصص ـ قصص الرومانس وليس الرومانسية ـ من بين الذين تنحصر في أيديهم مقدرات الناس ، هؤلاء الذين يحتلون القمة في التركيب الاجتماعي،أصحاب القوة والبطش والمغامرة أو من هم في مقامهم ! !

فدارت لذلك الروايات حول (شارلمان) مثلاً ، واتخذت من قوته وسطوته مداراً لها ، ودارت حول بطولات الملك (آرثر) ، وأعماله ومغامراته ، واتخذت الأحداث الماثلة محوراً روائياً ، كحصار طروادة ، وبطولات الاسكندر ! !

وحين نشأت الطبقة الوسطى لم تعد الرواية تدور حول (شارلمان) وأمثاله ، بل أخذت تدور حول أحد أبناء هذه الطبقة الوسطى ، ولم تعد عاطفة الحب مقصورة في تصويرها على طبقة الفرسان وسيدات القصور ، بل تناولت هذه الروابط البسيطة التي تربط الإنسان البسيط الذي بدأ يصنع تركيبه الجديد .

وإن لم تتخلص في أول الطريق من فكرة المغامرات والمخاطر فإنها نفضت عن معمارها ذلك اللون من مغامرات الفرسان ومبارزاتهم الخارقة ، واستبدلت بها مخاطر الحياة وصعابها الواقعية ، ولم يعد لمظاهر البذخ والثراء مكان الصدارة في روايات مجتمع الطبقة الوسطى في أوروبا .

انحسار«الرومانس»

ومن هنا يعد الدارسون رواية (روبنصون كروزو) أول ظاهرة من ظواهر هذه الاهتمامات الجديدة ، ولو ظهرت هذه الرواية قبل زمنها بمائة عام ما كان نصيبها غير الإهمال ، وما كان لمؤلفها (دانيال ديفو) حينذاك أن يظفر بأهمية تذكر كالتي ظفر بها فيما بعد ، لكنها ظهرت بعد أن أخذت موجة (الرومانس) تنحسر نتيجة للتحولات الجديدة .

لقد وضع (ديفو) في أوائل القرن الثامن عشر اللبنة الأولى في معمار الرواية الفني ، وتبعه في إرساء قواعد هذا المعمار الفني (سويفت) ، و (فيلدنغ) ، و (ريتشاردسون) ، وغيرهم ، ممن كان لهم الفضل في ترسيخ أصول الفن الروائي القصصي على هذا النحو من المعمار في شكله ومضمونه ! !

وما قد أصاب المجتمع الأوروبي بصورة قوية عنيفة ، وما قد حدث له من تحولات وما قلب بناءه رأساً على عقب ، وما أعان على ظهور الطبقة الوسطى واستلاكها زمام الأمور ، كل هذا قد ألم بالمجتمع العربي بصورة أو بأخرى ، وظهرت في

مجتمعنا طبقة وسطى ، وتخلى مجتمعنا عما كان يشبه الإقطاع في نظمه ، وكانت تطلعاته تمتد إلى الآفاق البعيدة ، وإلى التجارب الجديدة لاستيرادها ، أو الانتفاع بها ، أو من أجل اللقاء معها ، فحين قامت بعض المغامرات في المنطقة العربية ، وتطلعت إلى تأسيس دولة حديثة في هيكلها ونظمها ودستورها وقوانينها وإدارتها ، والأخذ بالتطورات الاقتصادية والمادية الجديدة ، والاهتمام بأدوات الإنتاج الحديثة ، والوسائل التنظيمية ، والعلاقات المهنية والفنية ، والعناية بالنظريات السياسية والاجتماعية والحضارية ، حين حدث ذلك اتجهت السلطات المغامرة الجديدة إلى منافذ تطل منها على الغرب ، فاقتبست من تجاربه ، وأقامت مدارسها على غرار مدارسه ، واتخذت مناهجها ومدرسيها من مناهجه ومدرسيه ، واستوردت منه المطابع ، وأنشأت الصحافة كما أنشأ ، وأصدرت مثله المجلات التي تحمل وجهة نظر الأحزاب السياسية ، حيث تعمل على خلق الرأي العام السياسي والاجتماعي والثقافي والفكري والأدبي ، وعمدت إلى تبادل الخبرات ، وإلى توجيه البعثات ، وإلى الترجمة ! !

وكما انحسر في أوروبا أو بدأ ينحسر تيار القصص الذي يصور مغامرات الفرسان والنبلاء مع نساء القصور على وجه خارق ، وفي إطار فن (الرومانس) ، كذلك بدأت موجة الأدب الروائي العربي الذي يمثل هموم المجتمع الشبيه بالمجتمعات الإقطاعية تنحسر هي كذلك ، وتخلي الطريق لهذا المعمار الفني الجديد في صورته التي رسا عليها في أوروبا حين اطمأن مجتمعه الجديد إلى ما رسخه الكتاب الروائيون في القرن الثامن عشر ، أمثال ديفو وسويفت وفيلدنغ وريتشاردسون وسواهم .

مبادلات فنيـــــة

ثم أخذت تتم المبادلات الفنية ، وأشكال المعمار الروائي بين الشرق والغرب ، وحين استوعب جورجي زيدان تجربة الكستدر دوماس في رواياته التاريخية عكف على الانتفاع بهذا المعمار ، وملأه بمضامين تاريخية إسلامية .

وليس من قبيل المصادفة أن تأتي مغامرات الفن الروائي العربي القديم ، فتتسرب إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وتتسلل إليه ، وتلقى بعض الترحيب في صورة (المقامات) التي اتخذت الرداء التقليدي القديم لدى الشيخ ناصيف اليازجي ، وإن يكن بالإمكان استطلاع الوعي العربي ، ويقظة هذا الوعي ، داخل إطارها القديم كما يمكن للقارىء المتنبه أن يرى في كتاب (الساق على الساق) لأحمد فارس الشدياق صورة لأربع مقامات ، عليها ملامح لأقصوصته الاجتماعية ، ويلمح القارىء المتنبه كذلك حركة التطور في هذه الصورة حين يكتب المويلحي مقاماته (حديث عيسى بن هشام) ، كما يكتب صورة أخرى من هذا القبيل ـ تقصر عنها أو تقترب منها ـ علي مبارك في كتابه (علم الدين) ، ويضع شيئاً شبيهاً بذلك رفاعة الطهطاوي في كتابه الذي ألفه عن رحلته إلى باريس باسم (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) ، ومن هذا الوادي ما كتبه حافظ ابراهيم بعنوان (ليالي سطيح) .

الزمن والابداع

● ثم مضت حركة المسيرة الروائية في التطور ، حتى انتهت إلى احتلال حيز متميز في الواقع العربي ، وأصبحت الرمح الذي يخترق به الإنسان العربي المبدع هذا السقف الصفيق المظلم الذي يحط على رأسه وعلى صدره ، وبرمح الرواية ، وحربة القصة استطاع المبدع العربي أن يشير إلى أن الزمن الرديء قادر على أن يثمر إبداعاً متفوقاً .

ففي فترة ما بين الحربين العالميتين اقترب الروائي العربي من تمثل بيئته المحلية ، وأخذ يحدق في واقعه الخاص ، ويحن إلى طعم التراب والأرض والشخصية والروح الإنسانية الخاصة :

فالعلاقة بين القرية والمدينة يصورها (الخوري مارون غصن) في لبنان في روايته (البركة بعد اللعنة - ١٩٢٧) ، حيث يضيع ابن القرية في المدينة ، وينهزم ، ويعود إلى قريته . كل ذلك ليتكلف الدعوة إلى حب الأرض .

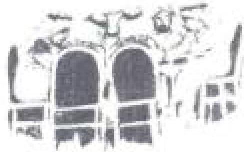
كما يصور (الياس أبو شبكة) في روايته (العمال الصالحون ١٩٢٧) محاولة انتحار طفل في السابعة من عمره ، ليتخلص من حياة الشقاء التي تسومه إياها امرأة أبيه .

وتحاول الرواية التقدم على يد (كرم ملحم كرم) ، لكنها لا تتضح لها المعالم إلا حين نشأت مرحلة جديدة ، ذات آفاق جديدة ، متأثرة بالمدرسة المصرية ، أو متأثرة بالظروف التي خلقت المدرسة المصرية الجديدة ، وقد صدر عنها إنتاج جديد لا يقل - من حيث المستوى الفني - عن إنتاج المازني والعقاد وطه حسين وتيمور والحكيم .

وتأتي على قمة الإنتاج في هذه المدرسة رواية (الرغيف سنة ١٩٣٩) التي كتبها (توفيق يوسف عواد) ، حيث تدور حول صراع العرب من أجل استقلالهم ، ورغيف خبزهم ، وبها وقف عواد إلى جانب توفيق الحكيم في (عودة الروح) ، وتجاوز شكيب الجابري في (قوس قزح) ، حيث اقترب بها من الخطوط الأمامية للواقع الاجتماعي والسياسي العربي .

حتى إذا جاء دور الإنتاج الاجتماعي المبصر على يد (نجيب محفوظ) (جمال الغيطاني) ومن على شاكلتهما حاولوا الانتقال بالزمان التاريخي إلى الزمان الاجتماعي .

ثم جاء الدرب الملتزم الذي يطالعنا فيما كتبه وما يكتبه (حنا مينه) و (غائب طعمة) و (اميل حبيبي) و (غسان كنفاني) و (يحيى يخلف) و (كاتب ياسين) و(الطاهر وطار) ورفاقهم في سائر أقطار العربية ، ممن واصلوا السير والتطور في هذه السبيل ، مثل (يوسف القعيد) وسواه ، ممن التزموا بالفكر الاجتماعي الفلسفي في إبداعهم الروائي .



منتدى العربي

تعقيبات

ملاحظات على مقال

حركة الزمن ..

لقد أثار مقال عبد الأمير المؤمن عن « الزمن » - الصادر في مجلتنا العزيزة « العربي » عدد ٣٣٧ لشهر ديسمبر ١٩٨٦ - بعض الملاحظات ، غير المألوفة ، أود أن أسوقها اليكم .

أما كون البحث في « الزمن » أمرا شاقا فلأنه لا يخضع للمقاييس العلمية التجريبية ، وهذا أمر

عجيب ، خاصة أننا نتعامل اليوم مع الزمن تعاملا كميا ، سواء كان ذلك ضمنه أو عليه !

وفي رأيي أن المشكلة تنحصر في تعريف « الزمن » في طبيعته ، وإدراكها في مدلول كلمات مثل الحاضر ، والماضي ، والمستقبل ، وفي مدى صحة وجود الزمن ، وفي كونه حقيقة أم فرضية رياضية أم شيئا آخر .

لقد تمت الاجابة عن القضايا الآنفة الذكر ، بصورة أو بأخرى ، منذ القديم ، كما أشار الى ذلك كاتب المقال ، الى أن جاء المسلمون من أمثال محمد بن زكريا الرازي ، وجاء الفيلسوف هنري برغسون ، ووصل العلماء الى اعتبار « الزمن » ، وجاء اينشتاين الذي قال أيضا بوجود « الزمن » ، واعتبره بعدا رابعا للكون ، مؤكدا نسبيّته ، على عكس ما كان معروفا قبله ، في كون « الزمن » مطلقا . ولكن قبل القول بوجود « الزمن » ، أو عدم وجوده أود - بدون تسرع - أن أبدأ بالقول لنقبل الكلمات المتداولة التي تشير الى « الزمن » وأجزائه ، مثل يوم ، وساعة ، ولحظة ، وقبل ، وبعد ، في بداية الأمر ، ولنفرض أننا على الأرض ، في موضع ما من تونس ، وأضرب موعدا مع صديق ، في لحظة محددة من اليوم التالي .

ومن البديهي أن لحظة الموعد في اليوم التالي لن تأتي إلا إذا دارت الأرض حول نفسها ، وأحدثت بذلك زاوية مركزية حول محورها ، وفي آن واحد تحولت في مدارها حول الشمس الى موضع آخر معين ومغاير للموضع الذي كان فيه عند تحديد الموعد ، أي إلا إذا توافرت شروط فيزيائية معينة ، فعند ذلك فقط يحدث ما يسمى باللحظة المحددة ، وعليه يصبح الاستنتاج أن لا وجود موضوعيا للحظة الموعد ، وبالتالي لا وجود موضوعيا لما يسمى بالمستقبل . إذن فلم نتحدث عن لحظة الموعد وكأنها حاصلة لا محالة ؟

إن تجربتنا « للزمن » وكيفية إدراكنا له تجعلنا نتعامل معه وكأنه حاصل لاشك فيه ، والحقيقة هي أنه يحصل في صورة ما ، إذا توافرت الأحداث اللازمة فقط ، وبذلك يتبين لنا أن الماضي قد حصل بالأحداث التي شكلته ، وأنها قد ترتبت ضمن نظام مكاني معين . وبعد أن ذكرنا كلمة « نظام » ، فإن النظرة الجديدة لما يسمى - تجاوزا - « الزمن » تجعلنا نفهم نسبيّته .

إن الحقيقة الموضوعية تتمثل في ترتيب الأحداث في المكان ، وعلاقاتها ببعضها . وبهذه الصورة يكون « الزمن » موضوعيا ، وهو اعتبار آخر للأحداث في علاقاتها ببعضها ، ضمن ترتيب معين ، ينتمي الى نظام مكاني معين ، وهذا الاعتبار الآخر للأحداث يتميز بكونه جامدا ، وبذلك تبرز تلك الخاصية الفيزيائية التي تقول : (الزمن لا رجعة فيه) ، فالرجعة في الزمن تستوجب عمليتين ، هما تفكيك الأحداث ، وإعادة ترتيبها ، وذلك غير ممكن ، بل مستحيل .

الاستنتاج الأخير

هو أن الحدث يشكل زمنه ، أي أنه - في الحقيقة - يأخذ مكانه ، ضمن ترتيب الأحداث الأخرى في المكان ، فيكون بذلك إما قبل ، أو بعد ، أو متزامنا مع حدوث ظواهر أخرى .

لقارىء المقال أن يتساءل معارضا : (والحركة إذن ؟) . والجواب على ذلك أن الحركة ليست حدثا واحدا ، أي ليست وحدة متماسكة ، أي ليست أولية بسيطة لا تتجزأ ، وإنما هي مجموعة أحداث ، وكل حدث - كما ذكرنا آنفا - يشكل - كبقية الأحداث - علاقته مع الأحداث الأخرى ، فيصبح ذا ترتيب في المكان .

محمد بن حسن الشريف

إنجاز علمي جديد

الطيران حول العالم دون توقف

بقلم : المهندس : سعد شعبان

« في الأيام الأخيرة من العالم الماضي سجل مهندس طيران أمريكي انجازا علميا جديدا ، فقد تمكن هو وزميلته من الطيران حول العالم ، دون توقف ، في رحلة استغرقت تسعة أيام كاملة ، ليصبح بذلك أول من يفعل هذا في التاريخ »

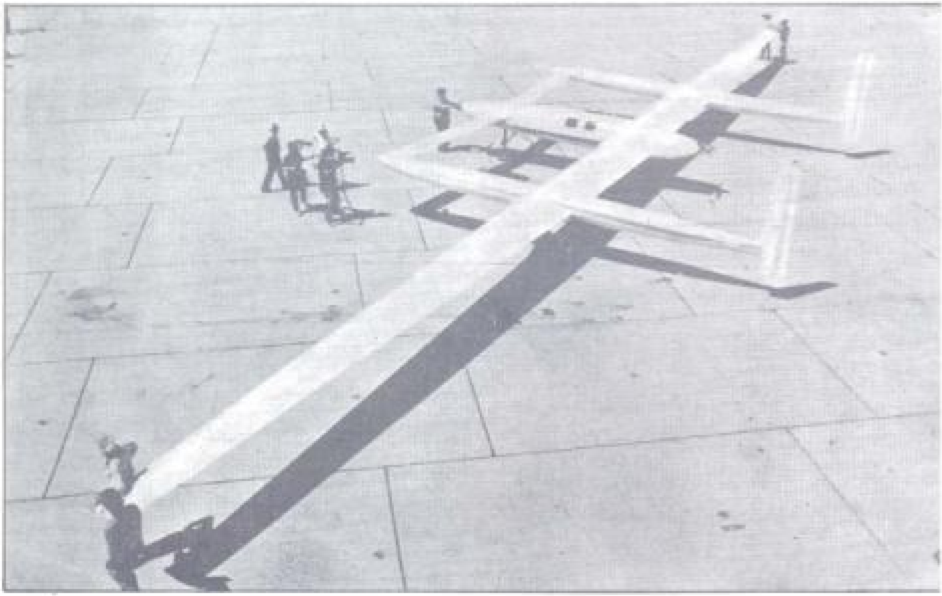
عندما كتب الأديب الفرنسي (جول فيرن) قصته الخيالية« حول العالم في ثمانين يوما » في اواخر القرن الماضي قبل استخدام الطائرات لم يكن يتصور أن « شطحات » خياله يمكن أن تتحول يوما ما الى حقيقة ، وخاصة أن الوسيلة التي تنقل بها بطل الرواية من بلد الى آخر ، حينذاك هي « البالون » الذي كان اختراعا جديدا .

ولقد تحقق في نهاية عام ١٩٨٦ إنجاز ، أعاد الى الأذهان حلم « جول فيرن » ، وذلك بنجاح مهندس الطيران الأمريكي « ديك روتان » وزميلته الطيارة الأمريكية « جينا ياجر » في الطيران حول الكرة الأرضية بطائرة خفيفة دون توقف ، ودون تزود بالوقود .

والحق يقال إن هذا الانجاز لايقل أهمية عما حققه الطيار « لندبرج » ، عندما عبر المحيط الاطلسي من نيويورك الى باريس عام ١٩٢٧ خلال ٣٣ ساعة ونصف ، بل ويفوقه بمراحل ، كما لايقل أيضا عما حققته الطيارة الأمريكية« إميليا ايرهات » بعبورها الاطلسي من أمريكا الى ايرلندا عام ١٩٣٢ ، وليس هناك مغالاة في القول ان انتصار الدوران حول الأرض عام ١٩٨٦ يعادل في أهميته ماحققه الاخوان « ولبر رايت وأورفيل رايت » عام ١٩٠٣ بالارتفاع بالطائرة فوق متن الهواء ، رغم أن ذلك لم يدم لأول مرة غير ١٢ ثانية .

لذلك يمكن القول ان هذا الانجاز الى جانب كونه انجازا لم يحدث من قبل ، فقد انطوى على قدر كبير من الجرأة والشجاعة ، ولاشك أنه سيكون له آثار عسكرية ومدنية مقبلة .

وقبل ظهور الطائرة ذات المحرك بعدة سنوات ظل حلم صناعة الطائرات الخفيفة يداعب خيال كثيرين من مصممي الطائرات ، وفي هذا المضمار تطورت الجهود ، بدءا من محاولة الطيران بطائرات



ـ الطائرة فوايا جير.

خفيفة ، يستخدم فيها الجهد البدني ، متمثلا في تحريك بدالات ، أو تحريك الأجنحة لترفرف كما ترفرف الطيور .

ومن أشهر من نجحوا في ذلك المغامر الألماني « أوتو ليلنتال » الذي حلق عام ١٨٩٠ بطائرة ذات أجنحة خفيفة يتدلى جسمه تحتها ، ثم تطور الأمر الى استخدام خشب « البلسا » الذي يجمع بين المتانة وخفة الوزن بدرجة كبيرة ، والذي يستخدم في صناعة الطائرات الشراعية حتى الآن .

وعندما انتشر استخدام اللدائن وعلى رأسها (البلاستيك) التي دخلت في صناعة كثير من أجزاء الطائرات ، فخف وزنها ، أصبحت قادرة على أن تحل محل المعادن الخفيفة مثل (الألومنيوم) .

وجدير بالذكر أن أول طائرة استخدمت لأغراض تجارية طارت من مدينة (بتسبرج) الأمريكية عام ١٩١٤م الى مدينة (تامبا) ، وكانت مزدوجة الأجنحة ، وأغلب أجزائها من الخشب .

وتعاقب ظهور أجيال من الطائرات التي تصنع بعض أجزائها من الخشب أو اللدائن أو المشمع ، وظهر ذلك بوضوح في طائرات الهواة ذات الراكب الواحد ، أو العدد المحدود من الركاب ، بقصد قطع مسافات طويلة .

ولم يكن الهدف من تخفيف أوزان الطائرات الا من أجل زيادة مداها ، باستهلاك وقود أقل . وربما كان التركيز في تحقيق هذا الهدف قد اعتمد في أغلب المحاولات على زيادة قدرة محركات الطائرات ، للعمل على زيادة سرعتها ، حتى تجاوزت حاجز الصوت ، واليوم أصبحت بعض الطائرات المدنية تطوى المسافات بين القارات خلال ساعات قليلة ، بسرعات تفوق ضعف سرعة الصوت ، فضلا عن أن كثيرا من الطائرات العسكرية أصبحت قادرة على أن تمرق في السماء بسرعات تجاوزت ثلاثة أمثال سرعة الصوت .

وقد شهدت البشرية تحقيق قطع مسافة قياسية في الجو عام ١٩٦٢م ، عندما سجلت طائرة أمريكية عسكرية من طراز « ب ـ ٥٢ » الطيران في قفزة واحدة الى مسافة ٢٠٠٠٠ كيلو متر .

وفكر بعض العلماء في تقليد الطيور ، اذ يستطيع بعضها أن يمتص رحيق الزهور وهو يرفرف بأجنحته ، معلقا في الهواء .

ولذلك بدأ منذ أوائل الخمسينيات استخدام الطائرات العسكرية ، للتزود بالوقود في الجو ، وذلك باقتراب طائرة من أخرى ، تعمل كمستودع طائر للوقود في الجو ، بحيث لايفصل بينها أفقيا غير أمتار قليلة ، ورأسيا غير بضعة سنتيمترات ، تكفي للسماح لخرطوم ذا نهاية خاصة ، بالتدلي من طائرة المستودع الى الطائرة الأخرى ، فتلتقط نهايته لتدخله في فتحة خاصة ، تنتهي الى مستودع الوقود فيها ، وبضغطة زر واحدة يمكن أن يتدفق الوقود من طائرة المستودع الى الطائرة الأخرى ، فيمكنها أن تواصل رحلتها لمسافة أطول ، بدلا من ضرورة الهبوط للتزود بالوقود على الأرض ، وأطلق على هذه العملية اسم إعادة الملء .

ولاشك أن عملية إعادة الملء تحتاج الى مهارة عالية في الطيران ، ودقة بالغة في التحكم في كلتا الطائرتين ، لتفادي احتكاكها ببعضهما ، وتحقيق النجاح في التقاط نهاية خرطوم الوقود ، وكم من حوادث وقعت لطائرات أثناء القيام بهذه العملية ، وكان أخطرها الحادث الذي وقع عام ١٩٦١ للطائرات الأمريكية (ب - ٥٢) التي كانت تعمل في دوريات الحراسة العالمية حول دول المعسكر الغربي ، وهي تحمل القنابل الذرية ، فقد تحطمت الطائرة أثناء عملية اعادة الملء ، وسقطت وبها أربع قنابل ذرية قرب شواطىء اسبانيا ، وظل البحث عن هذه القنابل اكثر من خمسة شهور حتى تم العثور عليها والتقاطها .

طائرة في خفة الريش

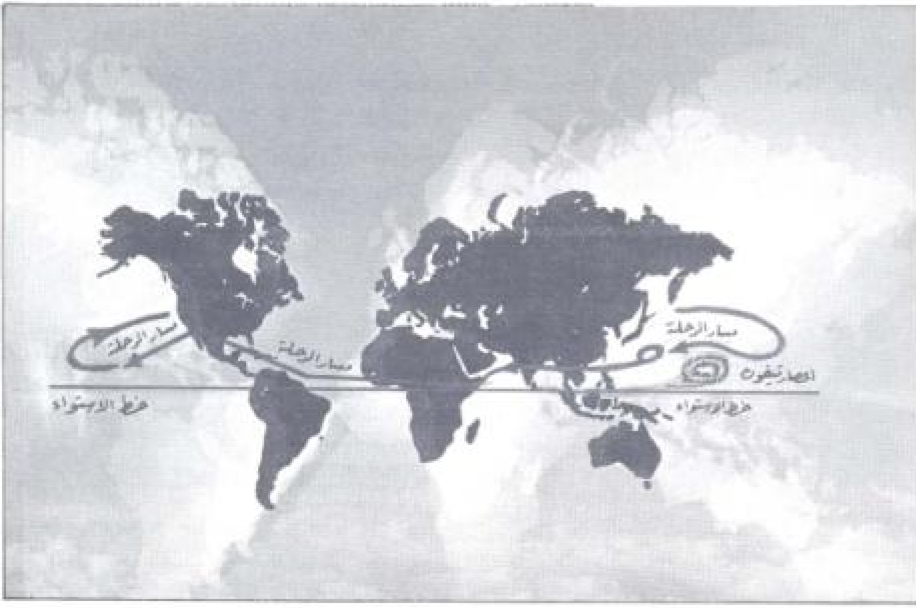
لم يأت نجاح « ريتشارد روتان - الشهير بديك - في الدوران حول الأرض في قفزة واحدة من فراغ ، بل يرجع الى جهود مكثفة ، بدأها قبل ذلك بخمس سنوات ، مع شقيقه المهندس مصمم الطائرات «برت روتان » . ولقد شهدت صحراء (موجافا)

في ولاية (كاليفورنيا) الأمريكية محاولات مبكرة منها ، لصناعة طائرة خفيفة الوزن ، صغيرة الحجم وحينذاك كان تقديرهما أنه يمكن التحليق بها حول العالم لمدة خمسة أيام دون توقف ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف كان هناك عدد من المشكلات التي أخذا في تذليلها واحدة بعد الأخرى ، وكان على رأس تلك المشكلات استغلال أكبر حجم ممكن في جسم الطائرة كمستودعات للوقود ، ولذلك تعددت هذه المستودعات داخل أجنحة الطائرة ، وهيكلها ، حتى بلغت سبعة عشر . كما كان لازما استخدام المعادن الخفيفة الوزن كالألومنيوم والصوف الزجاجي والبلاستيك وبعض السبائك الخفيفة التي تصنع على شكل عش النحل في تصنيع هيكل الطائرة ، بدلا من الألواح المعدنية المصنعة ، وفي نفس الوقت حرصا على عدم الاخلال بمتانة هذا الهيكل ، تحسبا لما يمكن أن تتعرض له الطائرة أثناء رحلتها من مؤثرات جوية ، ولم يسمح الشكل الانسيابي للطائرة الا بوجود شخص واحد على مقعد القيادة ، أمام العدادات والحواكم .

ومنذ أكثر من سنتين حاول « روتان » وزميلته تنفيذ رحلة الدوران حول الأرض ، غير أن المحاولة باءت بالفشل ، بعد طيران دام أكثر من يومين ، ولكن ذلك لم يثنه عن إعادة النظر في تصميم الطائرة ، ومحاولة التغلب على المصاعب .

وبعد أن استمرت المحاولات المضنية أكثر من خمس سنوات تحقق تصنيع طائرة ، ذات شكل عجيب ، وخواص أعجب ، يمكن وصفها أنها في خفة الريش بالنسبة للطائرات الأخرى التي في نفس حجمها ، ولها مزايا لم تتحقق لغيرها من قبل ، فقد تميزت بجناحين طويلين ، يبلغ « الباع » بينهما (٣٢ مترا) ، وينتهي كل جناح عند طرفه بقائم رأسي عمودي على مستوى الأجنحة ، مهمته خلق الاتزان ، ويتكون جسم الطائرة من ثلاثة أجزاء اسطوانية ، أوسطها هو الهيكل الذي يستقر في مقدمته ومؤخرته محرك مروحي ، وتتوسطه قمرة القيادة التي تعلوها قبة شفافة من البلاستيك ، تسمح لقائد الطائرة بالرؤية أمامه وحوله ، ولأن القمرة ضيقة ، لاتزيد مساحتها عن (متر × ٢,٢٥ متر) فانها لاتتسع الا لجلوس طيار واحد على مقعد القيادة ، بينما يجب على زميله أن يستلقي متمددا بجواره ، واذا ما أرادا تبادل المكان فان عليهما الانثناء والانحناء كلاعبي (الاكروبات) .

يوازي جسم الطائرة الرئيسي هيكلان اسطوانيان آخران ، عن اليمين وعن اليسار ، تستند عليهما الأجنحة ، ويربط بينهما أيضا من الأمام عبر جسم



ـ مسار الرحلة موازيا لخط الاستواء

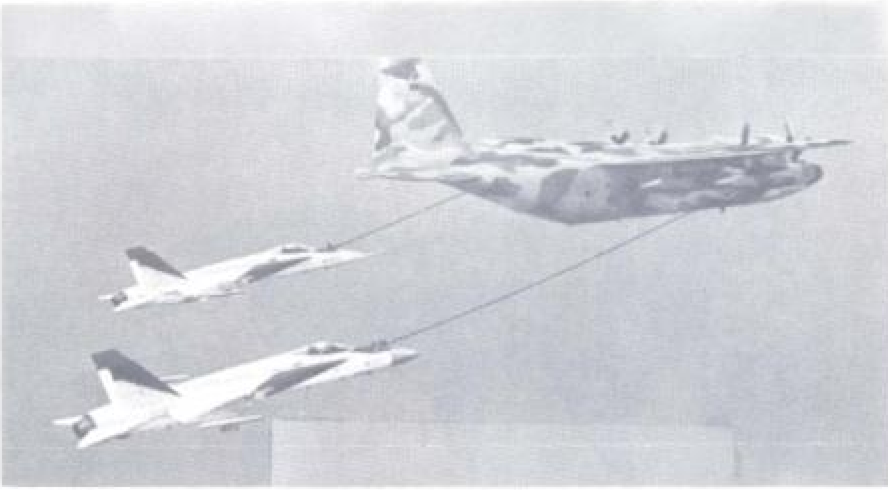
الطائرة قائم عرضي ، وتبرز عند نهاية كل منها من الخلف « دفة » رأسية ، يتم التحكم بهـا لتغيير الاتجاه . وقد بلغ طول جسم الطائرة ثمانية أمتار ، واستغلت أغلب فراغات الأجنحة والهيكل لتعمل كمستودعات للوقـود ، وقـد أدى الطـول المفـرط للأجنحة بالاضافة الى خفة وزنها الى اعطائها المرونة المفصلية ، والاهتزاز الرأسي ، دون أن تنكسر .

أما المحركـان فيوفـران قوة دفـع ، تكفي لبلوغ سرعة قصوى ، قدرها ٣٢٠ كيلو مترا في السـاعة ، أو الطيران بسرعة متوسطة قدرها ١٧٠ كيلو مترا في السـاعة أثنـاء التحليق الحر الـذي يمكن أن يتم على ارتفـاع ثمانية كيلو مترات ، لتتمكن الطائرة من أن تقـطع مسـافـة طـويلة ، تصـل الى (٤٠,٠٠٠ كيلو متر) ، وقد قـدر المصمم أن الـوقـود المتـوفـر في مسـتودعـات الـطـائـرة السبعة عشر سيبلغ وزنـه (٤٠٨٠ كيلوجراما) ، على أن يضع الطيار باعتباره تشغيل المحركين معا في بدء الرحلة ، وعند اشتداد الرياح ، لكن عليه بعد ذلـك أن يعمد الى ايقـاف المحرك الأمامي ، والاكتفاء بتشغيل المحرك الخلفي وحده .

وكـانت حصيلة هذه الاعتبـارات كلهـا أن غدت الطائرة « فواياجير » ـ أي « الرحالة » ـ خفيفة الوزن بما لايتجاوز ٨٤٠ كيلوجراما ، وهو وزن يقل عن نصف وزن الـطـائرات التي تمـاثلهـا في الحجم لـو صنعت من المعادن التقليدية ، ومن ثم فقد قدر أنه يمكن التحليق بها ، لمدة عشـرة أيام متصلة ، دون توقف ، أو حاجة لاعادة التزود بالوقود في الجو .

وجدير بالذكـر أن اسم « فوايـاجير » هـو نفس الاسم الـذي سبق اطـلاقـه عـلى سفينتي فضـاء أمريكيتين ، أطلقتا لتجوبا الفضاء القريب من أربعة كواكب في « المنظومة » الشمسية .

فاذا أضفنا الى ذلك حنكة الطيار في الملاحة الجوية باستغلال التيارات الهوائية الدافعة باتجاه الذيـل ، واستغلال التيارات الهـوائية الصـاعدة في اكتسـاب الارتفـاع ، فان ذلـك يشكل إضـافـات الى مـدى الطائرة ، دون الاعتماد على دفع المحركات بحرق الوقود .



اعادة التزود في الجو

الطيران حول خط الاستواء

في الرابع عشر من ديسمبر ١٩٨٦ بدأت رحلة الدوران حول الكرة الأرضية ، بالطائرة الخفيفة « فواياجير » ، بقيادة الطيار « ديك روتان » ، البالغ من العمر (٤٨ سنة) ، وزميلته الطيارة المساعدة « جينا ياجير » ، البالغة من العمر (٣٤ سنة) ، وهما عازمان على التحليق فوق مناطق قريبة من خط الاستواء .

ووفقا للحسابات الملاحية التي أجريت على مسار الطائرة فقد قدرا للرحلة أن تدوم مدة عشرة أيام متصلة تقطع خلالها الطائرة مسافة ٤٣٤٠٠ كيلومتر ، دون حاجة للتزود بالوقود ، أو الهبوط على أي مكان على الأرض .

غير أن أحد المصاعب الهامة التي برزت أمام الرحلة هي عدم امكان معرفة الأحوال الجوية على مدى العشرة أيام التالية ، لأن أقمار التنبوء الجوي ، ووسائل الارصاد الجوية النمطية ، لاتستطيع أن تعطي تنبؤا جويا لمدة تزيد على سبعة أيام ، ومن ثم فقد كان لزاما عليهما المغامرة ببدء الرحلة ، مع احتمال التعرض لبعض المصاعب الجوية ، غير أن المفاجأة قد وقعت أثناء السير على الأرض استعدادا للاقلاع ، فقد احتك الجناحان بالأرض ، نتيجة اهتزازهما وتهدلهما الى أسفل، وقد أدى ذلك الى انفصال طرف قائم الاتزان الرأسي .

وقد اتخذت الطائرة مسارها من ولاية (كاليفورنيا) الأمريكية متوجهة الى جزر (هاواي) فوق المحيط الهادي ، بسرعة متوسطها ١٧٠ كيلومترا في الساعة ، وقد دام عبور المحيط ساعات طويلة ، بلا أي معالم ملاحية واضحة فوق لجة المياه ، وقد ظل الطيار (روتان) فوق مقعد القيادة طوال المرحلة الأولى من الرحلة التي امتدت ٥٥ ساعة ، قبل أن يتبادل المكان مع زميلته . وبعد عبور المحيط ، وعندما أصبحت الطائرة قرب (استراليا) واجهت اعصار « تيفون » المدمر ، واضطرت للحوم حوله ، لتتجنب الدخول في منطقة الاعصار المضطربة بالتيارات الهوائية العاتية ، لكن قبل الخروج من هذه المنطقة اضطرت الطائرة لتغيير اتجاهها ١٨٠° ، والدوران دورة كاملة لتفادي منطقة تسود فيها الرياح الشديدة التي زادت سرعتها عن ١٦٠ كيلومترا في الساعة ، ثم واصلت الطائرة الرحلة عبر آسيا ، فوق أجواء الفلبين ، واندونيسيا ، والملايو ، وجزيرة سيريلانكا ، ثم فوق جزيرة مدغشقر ، قرب سواحل أفريقيا ، ثم فوق كينيا ، حتى

الشاطىء الغربي لأفريقيا ، محاذية خط الاستواء تماما ، ثم واصلت الطائرة الطيران فوق المحيط الأطلسي الفاصل بين قارتي أفريقيا وأمريكا الجنوبية ، وبعد أن أصبحت فوق البرازيل توجهت نحو كوبا ، ثم المكسيك ،حيث بدأت رحلة العودة الى الولايات المتحدة الأمريكية ، والاستعداد للهبوط في قاعدة (ادواردز) في كاليفورنيا ، عائدة الى نفس المطار الذي بدأت منه .

وعندما لامست عجلات « فواياجير » أرض المطار يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٨٦ ، كانت الطائرة قد قطعت ٤٢,٠٠٠ كيلو متر ، خلال تسعة أيام ، أو على وجه التحديد ٢١٦ ساعة وأربع دقائق ، دارت خلالها دورة كاملة حول الكرة الأرضية ، وكان أكثر من مائة ألف شخص بانتظار الطائرة ، لتحية صاحبي هذا الانجاز العالمي ، أو لتحية البطولة والشجاعة والجلد وروح المغامرة .

وجدير بالذكر أنه خلال هذه الساعات الطوال كان الطيار يتبادل التحكم في قيادة الطائرة مع زميله في نوبات ، ولم يكن أي منهما يستطيع أن ينال قسطا من الراحة يزيد عن ست ساعات ، كما لم يكن التحكم في قيادة الطائرة مقصورا على التحكم اليدوي ، بل يوكل أمره أحيانا الى أجهزة التحكم الآلي التي تعمل تلقائيا دون تدخل من الطيار .

كما كانت الطائرة على اتصال بمراكز المراقبة الجوية في كل دول العالم ، وتستقبل نشرات الارصاد الجوية من الأقمار الصناعية ، والشبكات اللاسلكية الخاصة ، ولقد واجهت الطائرة أثناء الرحلة بعض المصاعب ، ففي اليوم الثاني تعرضت الطائرة لعاصفة رعدية ، فقد أثناءها جزءا من طرف أحد الأجنحة فانفصل عنها ، ولكن لم تحدث مخاطر نتيجة لذلك لأن الأجنحة صممت من أجزاء منفصلة .

وفي اليوم الثامن توقف المحرك فجأة لمدة خمس دقائق ، أثناء تغيير الوقود من مستودع الى آخر ، وفقدت الطائرة فجأة كيلومترا من ارتفاعها ، قبل أن يعود المحرك الى العمل ، كما ارتفعت درجة حرارة المحرك الخلفي لنسيان تزويده بالزيت .

ولقد حفلت الرحلة بكثير من المفارقات والطرائف ، فعندما طلب (روتان) العبور فوق أجواء فيتنام قوبل من السلطات المحلية بالرفض ، واضطر الطيار الى الطيران عبر ممر ضيق يؤدي الى شبه جزيرة الملايو .

كما أن سلطات تايلاند تشككت في نوايا الطائرة ، ورفضت الاذن لها بالعبور ، وعندما أفصح الطيار أن مهمته هي الدوران حول الكرة الأرضية زادت شكوك ضابط المراقبة الجوية ، وأعلن أنه لا توجد طائرة يمكنها القيام بذلك .

ولقد سيطر اليأس على (روتان) بعد تعرضه لاعصار « تيفون » ، واضطراره للدوران دورة كاملة ، إذ ظن أنه استهلك قدرا كبيرا من الوقود ، لكن عادت الثقة إليه بعد إعادة حساباته فوق ميربلانكا .

نتائج كثيرة في المستقبل

على الرغم من أن الطائرة الخفيفة « فواياجير » قد قام بصنعها يدويا مجموعة صغيرة من الهواة ، دون أي تمويل حكومي ، الا أن هناك نتائج كثيرة متوقعة لهذا الانجاز ، ولا شك أن عصرا جديدا في الملاحة الجوية قد بدأ ، ستكون له آثاره على صناعة طائرات النقل ، والطائرات العسكرية المخصصة للاستطلاع ، لأن الطائرة (فواياجير) لم يتوفر لها المدى غير العادي فحسب ، بل توفر لها أيضا الافلات من شبكات الرادار ، وعدم ظهورها على شاشات محطاته ، لأن الأجزاء المعدنية فيها صغيرة الحجم ، ولا شك أن وزنها الخفيف سيكون له أثره أيضا على الطائرات التجارية الأكثر سرعة ، عندما يتحقق تصنيعها بنفس الخامات التي استخدمت في تصنيع فواياجير ، فلقد نجح مصمموها في استخدام خامات خفيفة الوزن جدا ، ومتينة جدا في نفس الوقت ، وقد امكنها حمل ٧٠٠٠ رطل من الوقود ، وهو ما يعادل ضعف وزنها الفارغ ، ولا شك أن هذا سيفتح آفاقا هندسية جديدة .

ولقد تكلف بناء هذه الطائرة الخفيفة مليوني دولار ، لأن كثيرا من خطوات التصنيع قد تمت بجهود فردية وبدائية . ولا شك أن العالم سيشهد دخول تقنية صناعة الطائرات الخفيفة في ناقلات الجنود ، والمظليين ، حيث تكون الحاجة ماسة لهذه الخاصية . □

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

لقاح جديد ضد مرض الايـدز

لعل الخطر الأكبر الثاني الذي يتهدد البشرية بالفناء هو مرض الايدز ، فليس هناك ما يفوق هذا الوباء خطورة سوى الحرب النووية وحسبك التفاقم الذي يسجله في أمريكا وأفريقيا وغيرهما شهرا تلو شهر .. فقد بلغ مجموع الذين ماتوا بالايدز في الولايات المتحدة الامريكية (١٧٠٠٠) نسمة ، وذلك حتى نهاية شهر فبراير/ ١٩٨٧ .. ولكن الرقم ازداد وكبر في غضون يومين إذ بلغ ١٨٣٨٥ حالة وفاة في ٢/ ٣/ ١٩٨٧ .

لا عجب إذن أن انصبت جهود العلماء في كل مكان - لا سيما في فرنسا والولايات المتحدة - على البحث عن دواء يعالج مرض الايدز .. وعن لقاح يكسب المرء مناعة ضده ، وهذا هو الأهم ، ذلك ان الذين يعانون من قابلية الاصابة بهذا المرض يعدون بالملايين وهم أكثر بكثير من المصابين به .

والظاهر أن تلك الجهود قد أثمرت .. أو كادت . فقد حملت الينا آخر الانباء (٢٣/ ٣/ ١٩٨٧) نجاح العلماء في جامعة بيير وماري كوري في باريس في تطوير المصل المطلوب للقاح الايدز الواقي . وتـ … ـاتشر (NATURE) بحثا وافيا حول ذلك المصل بقلم العلماء الذين طوروه ، ولعل أغرب ما يذكر في هذا الصدد أن أحدهم وهو الدكتور دانيل زاكوري قد أقدم على تلقيح نفسه بذلك المصل بقصد تجربته ... وهذه مجازفة كبيرة ، كما لا يخفى ، وكان من الممكن أن تسبب للعالم الاصابة بمرض الايدز أو الموت بسببه في غضون الشهور التسعة التي انقضت على تلقيحه . ولكن تلقيحه هذا حقق النتيجة المرجوة ، إذ نشط أجهزة الدفاع في جسم الدكتور زاكوري ، وأكسبه مزيدا من المناعة ضد مرض الايدز .

ولم تقف تجربة اللقاح عند هذا الحد ، فقد جرى تلقيح عدد من المتطوعين في زائير في افريقيا ، فكانت النتيجة في كل تلك التجارب كما يؤكد مقال المجلة العلمية البريطانية (ناتشر) ، تنشيط أجهزة الدفاع في الجسم ، واكساب الملقحين مزيدا من مناعة .

على أن تطوير المصل الفعال شيء ، وكبح جماح وباء الايدز على نطاق عالمي شيء آخر ، فلو ثبت بالفعل نجاح العلماء الفرنسيين في تطوير مصل الايدز المناسب في الوقت الحاضر لكان علينا الانتظار مدة خمس أو عشر سنوات قبل أن يصبح في

يفحصون الدم ليتأكدوا من خلوه من فيروس المرض



الامكان انتاجه والافادة منه على نطاق عالمي ، وهذه مدة طويلة تكفي لفناء البشرية كلها ، فيما لو استمر الوباء في استفحاله على النحو الذي استفحل به حتى الآن ، والذي أثبتته ومازالت تثبته الاحصاءات يوما بعد يوم . من هنا كانت التوعية هي الوسيلة الفعالة الوحيدة التي تضمن لنا كبح وباء الايدز في المستقبل المنظور ، وبالقدر الممكن ، هذا ما قاله وزير الصحة في الولايات المتحدة في تعقيبه على أخبار تطوير مصل الايدز ، وتشمل التوعية المطلوبة التبصير بمخاطر المرض الكبيرة . . والتعريف بأسباب انتشاره بوضوح وتجنبها . .

وتجدر الاشارة هنا الى المؤتمر الذي عقدته منظمة الصحة العالمية في جنيف بتاريخ ١٩/٣/١٩٨٧ والذي أكد على أننا على أبواب ثورة عارمة في عالم الطب والعافية . . تلك هي ثورة اللقاحات ، فقد ثبت بما لا يقبل الشك أن الكثير الكثير من الأمراض والأوبئة ـ وليس الايدز فحسب ـ يمكن كبحه وتجنبه باللقاحات قبل الاضطرار للجوء الى العلاجات ، وثورة اللقاحات هذه ذات هدفين . . أولهما تصنيع اللقاحات الجديدة ، والثاني تحسين وتعميم اللقاحات القديمة ، أما رائدها فانقاذ ٥ ملايين نسمة من سكان العالم يموتون كل سنة بسبب اللقاحات القديمة ، نظرا لعدم صلاحها أو لقلة انتشارها ، وانقاذ ٩٠٠٠ طفل يموتون يوميا تبعا لتطوير لقاحات جديدة طالما مست الحاجة اليها .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الهيئات الطبية البريطانية تعلن الحرب على الادمان



صدرت في المدة الأخيرة تقارير علمية وافية ، حول الادمان على التدخين ، ومضاره ، ولعل أهم هذه التقارير ذلك الذي أصدرته كلية الأطباء الملكية في لندن ، في مطلع ابريل (١٩٨٧) ، ونوجز فيما يلي أهم محتويات هذه التقارير :ـ

* حددت التقارير مفهوم الافراط في تناول الكحول بشرب الرجال مايزيد على ٢١ كوبا ، والنساء مايزيد على ١٤ كوبا من (البيرة) في الأسبوع في بريطانيا .

* وأكدت أن ١١ ٪ من الرجال و ٦ ٪ من النساء في بريطانيا يشربون البيرة بمعدل ١٠ أكواب يوميا .

* دلت الاحصاءات التي أوردتها التقارير على أن ٢٠ ٪ من المرضى يدخلون المستشفيات بسبب الكحول ، وأن (٢٥٠٠) من الذين يموتون في سن مبكرة (٣٦ ـ ٦٥ سنة) سنويا يموتون بسبب الافراط في تناول المشروبات .

* وتحدثت التقارير عن أمراض تشمع الكبد ، وتضخمها الذي يسببه الادمان كما هو معروف ، وتحدثت أيضا عن أمراض أخرى خطيرة ، يسببها الادمان ، علما بأن صلة هذه الأمراض بالكحول خافية على كثيرين ، ومن هذه الأمراض ارتفاع ضغط الدم ، وأمراض القلب والمخ ، والسكتات الدماغية .

* وأشار أحد التقارير إلى التغيرات الجذرية التي يحدثها الادمان في أجسام

المدمنين ، فالمرأة المدمنة تفقد كثيراً من معالم أنوثتها ، لتحل محلها معالم الذكورة ، فقد تتقلص الصدور ، وتنكمش المبايض ، ويعاد توزيع الطبقة الشحمية في أجسامهن ، بحيث يصبحن أشبه بأجسام الجنس الخشن ، ويفقدن مزايا الجنس اللطيف الناعم .

وقل مثل ذلك في المدمنين من الرجال الذين لايلبثون أن يعانوا نقصا في الحيوانات المنوية وإفرازها ، وتقلصا في حجم أعضائهم التناسلية ، وتضخما في الثديين ، أضف إلى ذلك مايرافق هذا وذاك من عقم وعنّة ، وحسبك أن تصف الذين يزورون مستوصفات العقم في لندن هم من المدمنين .

● أجمعت التقارير على أن الادمان يعبث بالهرمونات التي تفرزها غدد الجسم الصماء ، وبالوظائف الهرمونية التي يعتمد عليها الجسم اعتمادا كبيرا .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

كيفية التخلص من البدانــة

البدانة آفة كبيرة لاريب ، وعلة من علل الحياة العصرية ، كادت أن تكون مستعصية ، فالأدوية المتاحة لمعالجتها إما فعالة وخطيرة ، وإما غير فعالة ، لذلك كان الاكتشاف الجديد الذي يبشر بتخسيس الوزن دون اضرار بالذي يتناوله موضع اهتمام كبير .

على أن الذي اكتشفه العلماء في أمريكا ليس دواء جديدا ، وإنما هو خصائص جديدة ، لمادة غذائية قديمة ، وليست هذه المادة سوى سكر (البوليستر) التي درجت اليابان على إنتاجها ، واستعمالها مثبتا للطعام،وقد عرف عن هذه المادة أنها دهن صناعي ، بديل ، قوامه جزيء من السكر ، وثمانية جزيئات من الأحماض الدهنية ، بخلاف الدهن الطبيعي ، المكون من جزيء سكر ، وثلاثة جزيئات أحماض دهنية .

أما الخصائص الجديدة التي اكتشفوها في هذه المادة القديمة فهي أنها غير قابلة للهضم ، وتمر بالجهاز الهضمي مرور الكرام ، ذلك أن كثرة الجزيئات الدهنية فيها تحول دون خضوعها للخمائر الهاضمة التي تفرزها المعدة والأمعاء .

واكتشفوا أيضا أن من شأن هذا الدهن الصناعي أن ينقص محتويات (الكولسترول) في الدم ، فيساعد على إنقاص الوزن ، دون أن ينال من مذاق الطعام ونكهته ، وبما أن سكر (البوليستر) خال من السعرات الحرارية وهذه ميزته الأخرى الهامة فهو إذن يحول دون زيادة (الكولسترول) في الدم ، لأنه لايترك في الجسم شيئا مما يفقده أصلا ، هذا بخلاف الدهن الطبيعي الذي اشتهر بكثرة سعراته الحرارية،وبكثرة مايتركه في الجسم منها ، ومايتسبب به من زيادة مستويات الكولسترول في الدم .

بقي أن نذكر أن الترخيص باستعمال سكر (البوليستر) لانقاص الوزن لم يصدر بعد ، وقد تمر سنة أو سنتان قبل أن تقره الوكالة (FDA) ، وتسمح باستعماله . □

اسم المرأة روث بونتيكو وزنها ٨١٥ رطلاً انكليزيا



سلامة البشرية في سلامة البيئة

نحل يقتل الانسان ويعبث بالبيئة



○ يظن كثيرون أن لاوجود للنحل القاتل ، وأنه من نسج الخيال ، خيال العلماء وكتاب سيناريو أفلام السينما ، وهو مع ذلك حقيقة واقعة ، فقد غزت جموعه في السنوات الأخيرة دولا شتى في أمريكا اللاتينية ، وبدت على أهبة الاستعداد لغزو الولايات المتحدة الامريكية نفسها ، ويؤكد المسؤولون في دوائر الزراعة الأمريكية أن الخسائر التي قد ينزلها هذا النحل في المحاصيل الزراعية الامريكية لن تقل قيمتها عن (٢٠,٠٠٠) مليون دولار .

والغريب في النحل القاتل أنه يشبه كثيرا نحل العسل الأوروبي ، لكنه عدواني ، مفطور على الهجوم . ويقدر العلماء نزعته العدوانية هذه بثلاثين ضعف نزعة النحل الاوروبي ، وهو يفوقه بعشرة أضعاف من حيث اللسع ، ثم إنه غالبا مايهاجم الناس والحيوانات وغير ذلك بجموع حاشدة إن لم نقل بمستعمراته الكاملة .

والنحل القاتل ماض في رحلته التخريبية الحالية في أقطار امريكا اللاتينية ، فقد بدأ هذه الرحلة منذ نحو عشر سنوات ، فانطلق من البرازيل سنة ١٩٧٥ ، ووصل كولومبيا سنة ١٩٨٠ ، ثم حل ضيفا على بنما سنة ١٩٨٢ ، فكوستاريكا سنة ١٩٨٣ ، ثم وصل إلى جنوب المكسيك في السنة الماضية ، وقد يصل إلى شمالها سنة ١٩٨٨ ، ثم يصل إلى تكساس وغيرها من ولايات الجنوب في الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٨٩ ، ويتابع النحل القاتل رحلته بعد ذلك الى ولايات الشمال ، فكندا بسرعة تبلغ أضعاف السرعة التي قطع بها المسافة من البرازيل إلى المكسيك ، والتي بلغت ٥٠٠ كم في السنة ، وذلك لأن وسائل النقل الحديثة التي ستتاح للنحل في مناطق الشمال كثيرة ووفيرة .

وتسميته بالنحل القاتل تسمية واقعية لامجازية ، فهو يهاجم الانسان ، ويقتله ، وقد قتل عدة رجال في كوستاريكا ، وفتك بآخر ضحاياه في شهر تموز (يوليو) (١٩٨٦) ، ولو ذكرنا أن هذا

الرجل ـ وكان طالبا جامعيا يجري بعض الأبحاث العلمية على النحل ـ قد امتلأ جسمه بلسعات النحل ، بمعدل ٤٥ لسعة لكل بوصة مربعة ، لما عجبنا للموت الفوري الذي انتهى إليه .

أما أكبر ضرر يحدثه النحل القاتل فهو للنباتات بالذات ، فهو يحجم عن تلاقيح النباتات التي تعتمد على النحل المحلي في تلقيحها ، ويفسد هذا النحل بالتزاوج معه وبتوريثه تلك الخاصية السلبية الهدامة ، ويترتب على ذلك موت تلك النباتات التي يبلغ عددها في الولايات المتحدة ٩٠ فصيلة ، ومن ثم كان تقدير الخسائر التي ستنزل بولاية جورجيا وحدها بأكثر من ٩٠ مليون دولار ، هذا إذا تسنى للنحل القاتل الوصول إليها .

ذلك أن الدوائر المعنية في امريكا قد بدأت تعد العدة لقطع الطريق على النحل القاتل منذ الآن ، وترمى الخطة الموضوعة إلى إنشاء منطقة عازلة في جنوب المكسيك ، يجري فيها التفتيش الدقيق لكل سيارات الشحن والسفن المتجهة إلى الشمال ، بحثا عن النحل القاتل ، حتى إذا عثروا عليه عمدوا إلى الفتك به بكافة الوسائل الفعالة ، بما في ذلك رش المبيدات ، وترمي الخطة ـ أيضا ـ إلى دفع المكافآت المجزية إلى كل من يرشد المسؤولين إلى مستعمرات ذلك النحل ، وتقدر مخصصات هذه الخطة بنحو (١٠) ملايين دولار .

درع واق لصور الحياة



منذ عشر سنوات والأدلة العلمية تتوالى مؤكدة التلف الذي لحق بطبقة « الاوزون » الموجودة في أعالي الجو وما زال يلحق بها ، ذلك أن « الفلوروكربونات » ـ وهي مواد يستعملها الناس في الزراعة والتبريد والتجميل وغير ذلك ـ ما زالت تواصل الفتك بطبقة « الاوزون » ، وما زالت تنتج في المصانع ، ويستعملها الناس على نطاق واسع .

ولا يخفي أن طبقة الاوزون هي بمثابة درع واق لشتى صور الحياة القائمة على سطح الارض ، وهي أيضا الكفيلة بتصفية أشعة الشمس ، والحيلولة دون تسرب الاشعة فوق البنفسجية ، والاشعة تحت الحمراء ، بمقادير كبيرة تتسبب بأبلغ الاضرار للانسان والحيوان والنبات ، وتهدد بفناء الجميع في مستقبل غير بعيد .

واتفقت الدول على هذه الحقائق الأساسية ، واتفقت أيضا على ضرورة الحد من انتاج « الفلوروكربونات » إلا أنها اختلفت على أي هذه المواد الكيماوية أولى بالحد من انتاجها أكثر من الاخرى ، واختلفت أيضا على مستوى الانتاج الذي يجب عدم تجاوزه ، واستمر خلافها طيلة السنوات الماضية وحتى شهر مايو (آيار) الماضي من هذا العام ، حين عقدت المنظمة الدولية مؤتمرا بيئيا دوليا في « جنيف » ، حضره مندوبون عن دول متقدمة وأخرى نامية ، بلغ مجموعها (٣١) دولة ، وأقر المؤتمرون بالاجماع مشروع القرار الذي يقضي بتجميد انتاج « الفلوروكربونات » ، عند مستويات انتاج عام ١٩٨٦ وذلك قبل حلول ١٩٩٠ م ويقضي المشروع أيضا بالسعي للحد من انتاج « الفلوروكربونات » في فترة (١٩٩٠ م ـ ١٩٩٢ م) بنسبة ٢٠٪ ، على أن يعاد النظر في الموضوع ككل في أواسط التسعينيات .

وسوف تشهد « مونتريال » مؤتمرا بيئيا دوليا آخر في شهر سبتمبر القادم ، وذلك من أجل الاقرار النهائي للمشروع السالف الذكر ، ووضعه موضع التنفيذ .

تلوث الهواء في أوروبا وأمريكا وبوادر القضاء عليه

يبدو أن اوروبا وامريكا توشكان أن تحرزا نصرا مبينا في المعركة الحامية التي كانتا تخوضانها ضد تلوث الهواء ، منذ اكثر من ربع قرن ، فمن جهة مضى العلماء في دراسة ظاهرة التلوث من كافة جوانبها ، ومن جهة ثانية مضى المخترعون والخبراء في العمل على ابتكار الاساليب والأجهزة الكفيلة بالحد من التلوث ، ومن جهة ثالثة مضت مجالس التشريع في شتى الدول في سن القوانين ووضع الانظمة ، وفق ماتستوجبه البيئة النظيفة . .

وقد دلت دراسات حديثة على أن الأمطار الحمضية قضت على ٥٠ ٪ من الاشجار في المانيا و ٧٥٪ من اشجار الغابة السوداء فيها . . وقل مثل ذلك في فرنسا وسويسرا ، وقد بلغت نسبة الاشجار التي أتلفتها الامطار الحمضية ٥٠ ـ ٦٠٪ في الاولى ، ونحو ٦٥٪ في الثانية . . ولم تنج أوروبا الشرقية من دمار تلك الامطار ، وقد بلغ ما أتلفته من اشجار بولونيا نحو ٤٠٪ على سبيل المثال . .

ودلت دراسات أخرى على أن مسؤولية الامطار الحمضية انما تقع على السيارات وعلى المصانع التي تتخذ من مصادر الطاقة الأحفورية وقودا لها . .

وجاءت دراسات أخرى أحدث من هذه وتلك ، لتثبت أن اكاسيد الازوت هي الملوثات الرئيسية التي تخرجها السيارات ، وأن ثاني اكسيد الكبريت هو الملوث الرئيسي الذي تنفثه مداخن المصانع ، ولتبين أن ملوثات السيارات ذات أثر محلي ، ولا تجتاز الحدود لتصل الى مناطق اخرى بعيدة ، كما تفعل ملوثات المصانع ذات الاثر المحلي والخارجي في آن معا .

أما الوسائل التي ابتكروها لكبح تلوث الهواء فكانت ثلاثا . أولاها متصلة بالسرعة التي تنطلق بها السيارات ، وقد وضعوا الانظمة لتحديدها بسرعة ٥٠ ـ ٥٥ ميلا في الساعة ، باعتبار أن هذه السرعة هي التي تكفل الحد الادنى لكمية الملوثات التي تخرج من عادم السيارة .

وتتصل ثانية تلك الوسائل ببنزين السيارة ، وضرورة خلوه من الرصاص ، فوضعت التشريعات الخاصة بذلك على أن توضع موضع التنفيذ في المستقبل القريب ، حينما يتوافر البنزين الخالي من الرصاص بكميات تجارية ، وبأسعار معقولة . والمتوقع أن يتم ذلك في أكثر الدول المتقدمة قبل حلول التسعينيات .

أما ثالثة تلك الوسائل فمتصل بمحرك السيارة بالذات ، فلو أمكن صنع محرك جديد أو تعديل المحرك القديم بحيث يتم احتراق الوقود بالكامل فلا يخرج من عادم السيارة اى من الغازات الملوثة التي طالما افسدت الجو والهواء الذي تتنفس . . وفيما يجرى العمل في هذا الاتجاه على قدم وساق ، لاسيما في اليابان ، فاجأتنا مجلة نيتشر (NATURE) العلمية المعروفة مؤخرا باكتشاف امريكي يضمن القضاء على اكاسيد الازوت من عادم السيارة ، ويبشر بالتحكم بالامطار الحمضية وسخام المدن .

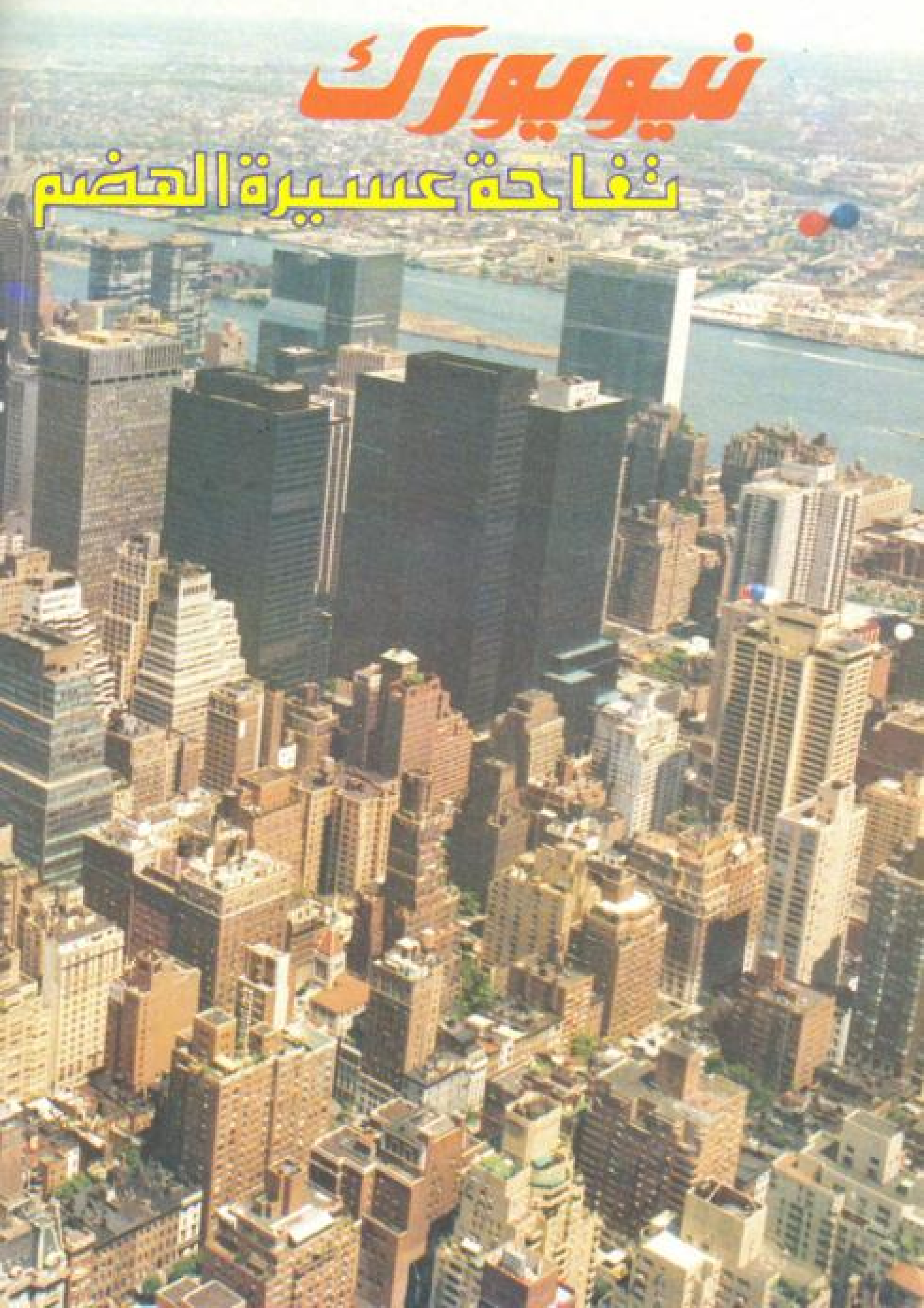
وحامض السيانوريك هو قوام الاكتشاف الجديد . . فهذا غاز غير سام ومن شأنه أن يحول الغازات الساخنة التي تخرج من عادم السيارة الى غاز يتفاعل مع اكاسيد النيتروجين ، فيحللها كيماويا ، ويحولها الى ماء وآزوت ، وغني عن البيان أن الشرط الوحيد لتحقيق هذه النتيجة المرجوة إنما هو في تمرير غازات السيارات الساخنة عبر حامض السيانوريك وهو أمر سهل المنال من الناحية التكنولوجية .

وتذكر المجلة فائدة أخرى للأسلوب المبتكر الجديد ، فهو كفيل بفصل التحكم في اكاسيد النيتروجين عن التحكم في السخام بما يضمن التخلص من اكسيد النيتروجين حتى في محركات الديزل ذات (السلندر) الواحد بنسبة ٩٩٪ . □

العربي
عيونك
على العالم

نيويورك

تفاحة عسيرة الهضم



استطلاع : صلاح حزين
تصوير : اوسكار متري



حين تعبر الطائرة بك الأطلسي ، وتهبط بين كتل الاسمنت التي تحولت عبر أشكالها الهندسية المختلفة الى عمائر تناطح السماء ، تصبح دون أن تدري تفصيلة صغيرة من تفاصيل تلك الحضارة الشاهقة ، وتنسى وأنت تجوب في أرجاء تلك الغابة المنضدة ، أن هناك بحراً وأشجاراً وخضرة ، وتذكر فقط أنك جزء من مملكة الكائنات الصغيرة التي تعيش في هذا العالم الذي يطاول السماء .

إنك الآن في نيويورك تلك المدينة الهائلة القاسية ، أو التفاحة الكبيرة كما كانوا يسمونها في أمريكا في الثلاثينيات ، وقد تكون نيويورك تفاحة بالفعل ، لكنها بقسوتها واسمنتها وحديدها الصلب تفاحة عسيرة الهضم .

في البدء جاء الانكليز ، عبروا الأطلسي بسفنهم الصغيرة ، ونزلوا على الشاطيء الشرقي الأخضر المغطى بغابات كثيفة ، سكانها الهنود الحمر الأقوياء الأبرياء البدائيون . بنى الانكليز المستوطنات واستقروا بها ، وأطلقوا على منطقة الاستيطان الأولى اسم بلادهم التي جاءوا منها فكانت نيوانجلند ، وجاءت بعد ذلك أعداد قليلة من الهولنديين والسويديين والألمان ، وعلى مدى مئات السنين التالية جاءت أقليات من كل بقاع العالم ، وضاعت في القارة الجديدة لتصبح جزءاً من الموزاييك الأمريكي الحالي .. جاء البعض هرباً من الحروب ، والبعض الآخر هرباً من الفقر ، وآخرون هرباً من الاضطهاد الديني ، ومن غير هؤلاء وأولئك جاء المجرمون المطلقون من سجونهم ، وتبعهم المغامرون والباحثون عن خلاص خارج أوروبا التي مزقتها الحروب الدينية ، والطامعون في الثراء والطامحون الى مجد جديد ، والباحثون عن ثروة سهلة ، والسائرون وراء حلم الرخاء اليسير .

حط الهولنديون القادمون من البلاد المنخفضة الرحال في ملتقى عظيم من الغابات والأنهار والتلال ، وأعطوها اسم بلادهم ، فكانت نذرلاند ، وبنوا مدينة عند ملتقى الأنهر والمحيط والتلال والغابات فكانت نيو امستردام .

لكن خصومهم المستعمرين الانكليز انتزعوا المدينة منهم بقوة الغزو ، فتحول الاسم الى نيويورك نسبة الى دوق يورك الذي أصبح فيما بعد الملك جيمس الثاني ، آخر من حكم بريطانيا قبل ثورة كرومويل البيوريتانية .

الزحف على الأرض العذراء :

انبسطت الأرض عذراء أمام الزحف الأوروبي ، وجاء الرجال والنساء ، وبنوا الأكواخ التي تكاثرت ، فأصبحت مستوطنات في الأراضي البكر ، وبدأوا صراعاً مع الطبيعة القاسية العنيدة ، وكان .. الهنود الحمر - سكان البلاد الأصليون - جزءاً من هذه الطبيعة،تلك القبائل البدائية التي لم تفلح قوة رجالها الجسدية ولا شجاعتهم البدائية في مساعدتهم على مواجهة هؤلاء القادمين الجدد ، الذين اعتمدوا في حياتهم على أبصارهم الحادة ، وبنادقهم الجيدة الصنع،والقوة التدميرية لذلك المسحوق الأسود الذي حشوا به بنادقهم ، فأصبحوا بالضرورة قوماً ذوي بأس شديد ، فأحرقوا الشجر البري ، ودفعوا الهنود الحمر الى الداخل ، واستقروا

عند الشواطيء المواجهة لبلادهم الأصلية في العالم القديم . وواصل القادمون الجدد زراعتهم وحصدهم ، وأقاموا حفلات الرقص والشراب والصيد والرماية التي كانت لعبتهم المفضلة ، ومن هذه البقعة في شرق القارة الجديدة بدأ السكان في الاتجاه غرباً نحو حدود جديدة ، حتى وصلوا حافة القارة الغربية .

لم تزد الفترة التي كانت خلالها نيويورك عاصمة للولايات المتحدة الأمريكية عن السنة إلا قليلاً ، ومع ذلك فقد ظلت ـ ولا تزال حتى الآن ـ المعبر الرئيسي الى تلك البلاد ، تستقبل القادمين من كل مكان الى العالم الجديد . ومنذ اكتشف هنري هدسون المدينة في بداية القرن السابع عشر فأعطته اسم نهرها الكبير ، ومنذ اشترى الهولنديون جزيرة مانهاتن بمبلغ لا يتجاوز ٢٤ دولاراً دفعوه للهنود الحمر على شكل عقود من خرز رخيص ، لم ينقطع سيل المهاجرين الى المدينة التي امتدت من الجزر الصغيرة التي تحيطها أنهار ـ هدسون وإيست وهارلم الى الداخل صوب الأرض التي لم تعد بكراً بعد تعاقب موجات المهاجرين عليها ، فأصبحت واحدة من أضخم مدن العالم .

خمس مدن في مدينة :

تنتشر مدينة نيوبورك فوق جزيرتي مانهاتن وستاتن ايلاند بالاضافة الى بروكلين وكوينز وبرونكس ، وهي المناطق الداخلية للمدينة ، وتحرص كل من هذه المدن ـ إن جاز تعبيرنا ـ على تميز ذاتي تملك مقوماته دون شك ، غير أن جزيرة مانهاتن هي القسم الأكثر شهرة من بين هذه « المدن الخمس » ، وتقوم شهرة الجزيرة على أنها سوق المدن الأخرى ومركزها التجاري والثقافي والفني والاجتماعي ، وحين تنشر صورة ما لمدينة نيويورك بالعناقيد الاسمنتية التي تناطح السماء ، فتلك هي في الغالب صورة مانهاتن ، هي جزء المدينة الذي ينوب عن الكل ، ويمثله ويشير اليه . ففي هذه الجزيرة التي مكنتها أرضيتها الصخرية الصلبة من احتمال البنايات الشاهقة المتراصة ، توجد المعالم الرئيسية لهذه المدينة التي امتدت في جميع الاتجاهات على اليابسة ، وفي الجزر الصغيرة المتناثرة قربها . وعندما أعياها الانتشار فوق الأرض اتجهت بناياتها نحو السماء ، فكانت ناطحات السحاب ، تلك البنايات التي أعطت المدينة طرازها المميز ، وشكلها المألوف ، وأضحت سرها ورمزها في الآن نفسه .

عند معبر المدينة البحري يقوم تمثال الحرية الشهير بلونه الأخضر وشعلته الجديدة التي حملها يوم الرابع من يوليو من العام الماضي ، وفوق هذه الجزيرة ذات الشكل الطولي تقوم المعالم الرئيسية الأخرى ، بناية ورلد تريد سنتر ببرجيها اللذين يبلغ ارتفاع كل منهما ١١٠ طبقات ، وبناية الأمباير ستيت الشهيرة ـ التي كانت أعلى بنايات نيويورك قبل بناء ورلد تريد سنتر ـ ومبنى الأمم المتحدة ، والمركز المالي العالمي ، وشارع وول ستريت الشهير ، وبورصة نيويورك ، وحي غرينتش ، والحي الصيني ، وحديقة سنترال بارك ، ومركز روكفلر ، والشارع الخامس الشهير ، بكونه المكان المفضل للتسوق لدى أثرياء العالم ، وشارع برودواي ، والشارع الثاني والأربعون ، ومركز جاكوب جافيتس ، ومركز لنكولن ، وكنيسة سانت باتريك ومسرح راديو سيتي ومتحف المتروبوليتان ، ومسرح ماديسون سكواير غاردن ، وحي هارلم وعشرات الأماكن والمراكز والشوارع والأحياء والجامعات والكنائس الأخرى ، كل هذا فوق جزيرة صغيرة ضاقت بما عليها ، فانطلقت بناياتها باتجاه السماء ، حتى اذا أعيا البناية الارتفاع ، لملمت نفسها وتدبب طرفها العلوي ، وتحولت الى سهم ضاع في الفضاء .

الحرية وشعلتها :

« أماه ، لقد سجنوا الحرية » قال الطفل لأمه وهو يرى تمثال الحرية الضخم تحيط به سقالات الترميم





فوق الى اليمين : بضاعة عربية في مخزن امريكي .
الى اليسار : جيل أمريكي جديد .
الى اليمين : صبيتان تعتمران قبعة الحرية الامريكية .
فوق الى أقصى اليسار : طفل ينظر الى نيويورك من فوق بناية امباير ستيت .
الى اليسار : بحر وشواطيء في مدينة ناطحات السحاب .







من كل جانب ، فبدا وكأنه سجن في قفص هائل الحجم على بوابة العالم الجديد ، فعلى مر السنين تسلل الصدأ الى الدعامات الحديدية الداخلية التي وضعت لتسند جسم التمثال الكبير ، وأثرت في تمثال الحرية عوامل النحت والتعرية ، فاحتاج الى الترميم والاصلاح ، فجاء فنيون من فرنسا لترميم التمثال وأخذوا جذوة الحرية ولم يعيدوها إلا في الرابع من يوليو ١٩٨٦ ، حين حملت الحرية مشعلها في احتفال مهيب .

لم تكن هذه المرة الأولى التي تتآكل فيها أجزاء « الآنسة حرية » ، وهو الاسم الذي يطلقه الأميركيون على التمثال ، في السابق كانت المعالجة تتم باستخدام القار والنيتروجين السائل والصبغ ولكن مع حلول العيد المئوي « للآنسة حرية » ومع كل هذا التقدم التقني لم يعد القار والأصباغ والنيتروجين السائل تكفي لصيانة « الآنسة » ذات المئة عام .

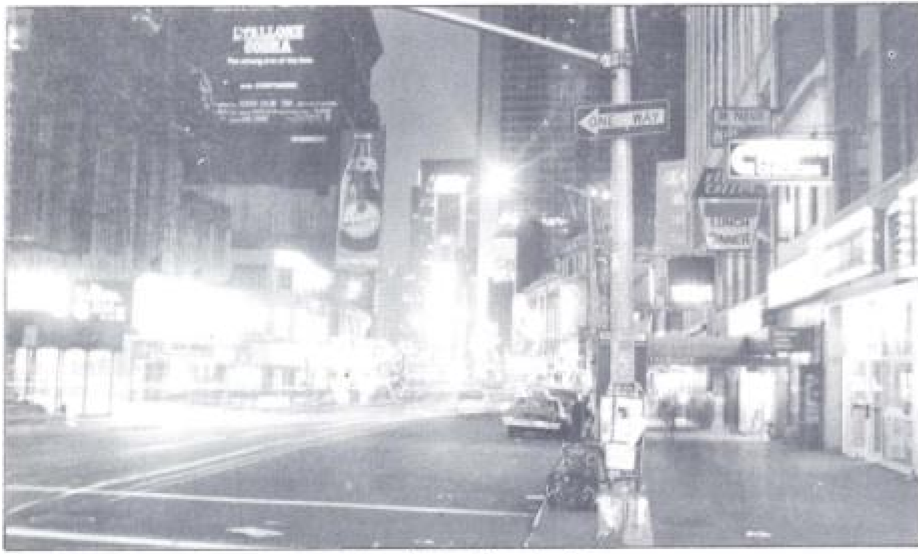
فأخذ الخبراء الفرنسيون الشعلة ليقوموا بعملية ترميم شاملة ، ويعيدوها في شكل مذهب جديد . ولكن لماذا الفرنسيون وليس الأميركيين هم الذين يرممون تمثال الحرية وشعلتها ؟ الإجابة عن هذا السؤال تمر عبر مفارقة طريفة تتلخص في أن تمثال الحرية الأمريكي يحق له أن يحمل عبارة « صنع في فرنسا » . فكيف صنع ؟ وكيف نقل بحجمه الهائل عبر كل تلك الآلاف من الأميال الى نيويورك ؟

كانت البداية في باريس في ستينيات القرن الماضي ، عندما فكر المهندس الفرنسي فردريك أوغوست بارتولدي بتصميم التمثال ، وفي عام ١٨٧١ سافر بارتولدي الى الولايات المتحدة ، ووقف على جزيرة صغيرة في مدخل المدينة الكبيرة وقال : « هنا سيقوم التمثال » ، ومضت خمس عشرة سنة قبل أن تتحول الفكرة الى حقيقة ، ويضع بارتولدي تمثاله الذي استوحى فكرته من تماثيل مصر القديمة ، وتمثال رودس العظيم الذي تحطم فوق جزيرة رودس ، وأعطى التمثال وجه والدته وجسم حبيبته التي أصبحت فيما بعد زوجته ، فكانت الحرية وتمثالها ، ثم فكك بارتولدي قطع التمثال الذي بلغ طوله ٣٦ قدماً ، وفي ورش العمال الفرنسيين الذين كانوا يشكون مظالم حكم نابليون الثالث ، بدأ تكبير القطع المفككة بقياسات محسوبة جيداً ، وبدأت بعد ذلك الرحلة الى أمريكا ، حيث شحنت الحرية في صناديق بلغت المائتين عبر الأطلسي الى ميناء نيويورك عام ١٨٨٥ ، وهناك في نقطة متوسطة بين ستاتن ايلاند ونيوجيرزي وبروكلين ومانهاتن وقف التمثال متجهاً نحو القادمين الجدد حاملاً المشعل وكتاباً نقشت عليه كلمات « الرابع من يوليو ١٧٧٦ » . وهو رمز له مغزاه بالنسبة لأتباع الماسونية أو البنائين الأحرار .

ومنذ ذلك الحين ظلت عيون العابرين الى العالم الجديد تقع أول ما تقع على التمثال الذي ارتبط بقطعة شعرية قصيرة كتبتها شاعرة يهودية ، تنتمي الى عائلة ثرية تدعى ايما لازاروس « تأثرت » بما سمعته عما كان يلاقيه اليهود في روسيا القيصرية عام ١٨٨١ من اضطهاد . تقول الكلمات التي تحتل مكاناً بارزاً في متحف التمثال : « ارسلوا إلى متعبيكم ، وفقراءكم وجموعكم الغفيرة التائقة الى التنفس بحرية » ، ومنذ ذلك الحين جاء الكثيرون من هؤلاء ، وأخذوا مواقعهم في المجتمع الجديد الذي كان يتشكل في غرب القارة الكبيرة التي أدار لها التمثال الكبير ظهره مشغولا في استقبال القادمين الذين لم يتوقفوا عن المجيء .

مهاجرون .... ومهاجرون :

كانت عيون المهاجرين تقع على التمثال ذي الشعلة في البداية ، ومن هناك كان المهاجرون من الدرجة الأولى والثانية ينزلون في مانهاتن ، بينما ينزل مهاجرو الدرجة الثالثة في جزيرة ابليس الصغيرة القريبة من التمثال . ومن هناك تبدأ رحلتهم ويتوزعون على طبقات المجتمع الجديد .



برودواي شارع الأضواء والفن والمسارح .

أما قبائل الهنود الحمر فتراجعت أمام زحف « الفقراء والمتعبين والتائقين الى التنفس بحرية » كما تقول قصيدة لازاروس . قليل من هؤلاء الهنود استوعبهم مجتمع القادمين الجدد أما الأغلبية فتقوقعت على نفسها ، وواصلت نمط حياتها القديم في تجمعات متناثرة على سطح قارتهم القديمة بعد أن أيقن هؤلاء أن لا قبل لهم بمواجهة « فقراء ومتعبي » العالم القديم ذوي الحضارة المتفوقة ، لكن هؤلاء لم يكونوا قساة بشكل مطلق ، ولم يعتمدوا على بنادقهم ومدافعهم وبارودهم وديناميتهم فقط ، في دفع السكان الأصليين الى الداخل ، فقد كانوا في كثير من الأحيان يشترون الأراضي والغابات والسهول والجبال بحر مالهم ، وبأسعار يحددها قانون السوق الذي أتوا به معهم من بلادهم الأصلية .

هكذا اشتروا مانهاتن بالثمن الذي أوردناه ، وزادوا بأن أبقوا على اسمها بلغة هؤلاء ، فمانهاتن تعني بلغة الهنود الحمر أرض التلال ، وهذا ما فعله القادمون الجدد في كثير من الأحيان ، حيث دفعوا الهنود الى الداخل ، واشتروا أو صادروا أرضهم ، لكنهم أبقوا على الأسماء القديمة ، مثل ماساتشوستس وبوتوك والموهوك . . وغيرها .

لكن مانهاتن ليست كلها ناطحات سحاب ، مثل ورلد تريد سنتر وبناية الامباير ستيت ، رغم أن ناطحات السحاب والبنايات الشاهقة تشكل المدخل الأنسب الى عالم مانهاتن المكتظ بكل شيء .

قبل الانتهاء من بناء ورلد تريد سنتر كانت بناية الأمباير ستيت هي أعلى بنايات نيويورك ، ورغم تقهقرها الى المرتبة الثانية من حيث العلو ، الى أنها لا تزال أشهر بنايات نيويورك ، عدا عن كونها واحدة من أشهر بنايات العالم ، بمرصدها الشهير الذي يمكنك من خلال المنظار المثبت في قمته أن ترى بانوراما كاملة لغابة الاسمنت العظيمة التي تسمى مانهاتن ، وعن بعد ، ومن جميع الجهات ، يمكنك رؤية الأفق وقد التقى بآخر نقطة أرضية في شريط غطاه ضباب خفيف تشكل من أبخرة الماء والندى والمطر ، أو من دخان المصانع التي اخترقت الغابات المحيطة بضواحي نيويورك .

وحين صعدت الى أعلى البناية وشاهدت الناس



باعة متجولون ومأكولات صينية في شارع المال « وول ستريت ».



قطعة من الصين في قلب نيويورك هو الحي الصيني.



نيويورك في الليل بحر أضواء وناطحات سحاب.
أقصى اليسار: الناس، وقد تحولوا الى تفاصيل صغيرة في عالم نيويورك الشاهق.


EASY
NO LEFT TURN

والسيارات والحافلات تتحول الى نقاط صغيرة متحركة على مسافة بعيدة جداً الى الأسفل ، أدركت أي نظرة خذلان ألقاها كنغ كونغ ذلك الوحش الأعجمي الكاسر من كل هذا الارتفاع الشاهق على عالم لا حدود لقسوته . فبناية الأمباير ستيت تشتهر من ضمن ما تشتهر به ، بمصرع الغوريلا كنغ كونغ على الدرجة الأخيرة من سطح البناية المدبب في الفلم الذي حمل اسم الغوريلا والذي يعتبر الآن علامة في تاريخ السينما الأمريكية والعالمية ، ومنذ الثلاثينيات حين أنتج الفلم والغوريلا والبناية مرتبطان ببعضهما بعضاً ، ويستدعي ذكر أحدهما الآخر ، وقد يفاجأ الزوار الواقفون في طوابير طويلة في انتظار الصعود الى قمة البناية بالغوريلا تنتقل من مكان لآخر مداعبة جمهور المنتظرين قبل أن يكتشفوا أن كنغ كونغ لم يبعث حياً ، بل ان هذه الغوريلا ليست سوى رجل تنكر في زي الغوريلا ليعيد الى الأذهان ذكرى مصرع « الوحش الذي قتله الجمال » ، كما تقول الجملة الأخيرة في الفلم .

عند الحديث عن ورلد تريد سنتر يمكنك أن تورد حشداً من الأرقام الطريفة التي تصبح في لحظة ما مرعبة لضخامتها وغرابتها ، اذ يبلغ ارتفاع البناية المكونة من برجين ١٣٥٠ قدماً ، استخدم في بنائها نحو ٤٢٥ الف ياردة مربعة من الاسمنت المسلح ، و ٢٠٠ الف طن من الحديد وفتحت فيه ٤٣٦٠٠ نافذة ، ويعمل في مكاتبها ٥٠ الف شخص ، ويدخلها يومياً لقضاء أعمالهم ٨٠ ألف زائر آخر ، ومن فوق سطحها يمكن رؤية مناطق على بعد ٥٣ ميلاً ، ويمكن رؤية مدينة فيلادلفيا اذا كان الجو صحواً . وهكذا يمكن المضي في ايراد أرقام شبيهة الى ما لا نهاية ، لكن ما أوردناه من أرقام يغني عن أي وصف .

نيويورك ليست ناطحات سحاب فقط كما ذكرنا ، فهناك حديقة سنترال بارك ، وهي واحدة من أكبر وأضخم حدائق العالم ، ويمكنك مشاهدتها وقد امتدت في نهاية جزيرة مانهاتن المستطيلة الشكل لتكسر بلونها الأخضر الداكن قسوة المشهد الاسمنتي المغبر . وهناك أيضاً برودواي الذي يعرف بأنه شارع المسارح والاستعراضات والأضواء ، لكن المسارح المذكورة لا تشكل سوى ركن بسيط جداً في شارع برودواي الذي بالرغم من اسمه الذي يعني « الشارع العريض » هو « أطول » شارع في العالم ، وفي القسم المعروف منه بأنه شارع المسارح ذهبنا وفي أذهاننا صورة مسرح الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات الأمريكي باستعراضاته المبهرة ومسرحياته الغنائية الكلاسيكية والتجريبية الحديثة ، كان الأمر مختلفاً هذه المرة ، لقد فقد الشارع جزءاً من أهميته ، لكنه بقي محتفظاً ببريقه وابهاره ، وفي لحظة تخيلت الشارع كما كان في الأربعينيات بالسيدات ذات القبعات المريشة ، والأثواب البراقة المزركشة ، والرجال ببدلاتهم الطويلة ، وسراويلهم العريضة الأنيقة ، وأحذيتهم الملونة بالأبيض والأسود والبني ، وشعورهم اللامعة المطلية بالزيوت والدهون والعطور الفواحة الصاعدة من جموع جماهير الأربعينيات السائرة الى المسرح ، لقد سرحت بخيالي لأعيد تركيب هذا المشهد القديم في ذهني ، عندما رأيت مسرحية غنائية قديمة تنتمي الى ذلك « العصر » ، تعرض على أحد مسارح شارع برودواي الطويل ، هي مسرحية « كيسمت » أو « قسمت » التي تدور أحداثها في عصور العرب القديمة ، حيث الخليفة المرح ، والنساء الجميلات بألبستهن الحريرية ، وبائعو الأسواق والمتشردون والوزراء والسحرة الذين لا يكفون عن الغناء .

في العشرينيات عندما عرضت مسرحية « كيسمت » لأول مرة ، لم تكن صورة العربي كارهابي أو بدوي جاهل قد اكتسحت هوليود كما هي الآن ، ولم يكن العربي كوغد شبق يتميز بالغدر والقسوة والخشونة قد ظهرت على شاشات السينما وخشبة المسرح والمسلسلات التلفزيونية ، كانت

الأجواء العربية كما تعكسها الأعمال المسرحية والسينمائية مزيجاً من السحر والخيال والعلاقات الغرامية التي تنمو بين النساء الجميلات والشبان الوسيمين في القصور الضخمة ، بأفرشتها الحريرية ذات الألوان الزاهية ، أو بين مضارب الخيام في الصحراء الممتدة ، وفي أجواء رومانسية صافية تتناقض مع قسوة الصحراء .

بعد خروجنا من المسرحية القديمة اصطدمنا بجمع من البشر المتجمهرين في عرض الشارع ، وقد ضاعت أصواتهم وضحكاتهم في ضجيج موسيقا راقصة صاخبة ، وفي وسط الحلقة الضخمة كان راقصو ديسكو الشوارع يعرضون فنهم الذي تمتزج فيه قوة التعبير برشاقة الحركة وخفتها ، وتتثنى الأجساد المرتعشة لتتخذ أوضاعاً غريبة وجميلة وطريفة في آن واحد .

انها واحدة من المتع المجانية التي يمكنك مشاهدتها في شوارع المدينة الهائلة التي لا تعبأ كثيراً براقصيها ، اذا لم يتحولوا الى نجوم لامعين مخترقين جدار الحديد والاسمنت المحيط بهم ، وقد يحدث مثل هذا الاختراق ، ويتحول فنانو الشوارع والأزقة الخلفية الى نجوم تبرق في سماء الفن ، ويغادروا هذه الأماكن إلى مواقع عملهم الجديدة في كاليفورنيا وفلوريدا .



مازال في نيويورك متسع لسفينة شراعية .

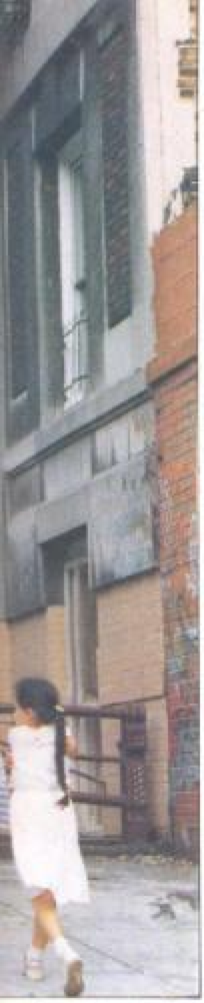
عن البؤس والفن :

لقد جاء هؤلاء الراقصون ومعظمهم من السود ، من حي هارلم الشهير ، بكونه مركزاً للعنف والجريمة غير المنظمة ، وبؤرة للفقر وتعاطي المخدرات والمتاجرة بها ، فمانهاتن ليست كلها مكاتب فخمة وشوارع تتلألأ ببريق الأضواء ، اذ أن حي هارلم هو الآخر في مانهاتن .

عندما تبدأ بالاقتراب من الشارع الرئيسي في هارلم تبدأ العين في التعود على لون البشرة السوداء ، وعندما تصل وسط الشارع يصبح لون البشرة السوداء والملونة هو كل ما تراه ، لا أضواء ولا بريق ، بل سكون تقطعه صرخات الأطفال الذين يقفزون على الحبال بمهارة شديدة تثير الاعجاب ، فهذا الحي البائس الذي أخرج أعظم عازفي موسيقا الجاز في بداية هذا القرن ، وأخرج راقصي ديسكو الشوارع التي تحولت الى صرعة عالمية في بداية هذا العقد ، وأخرج فريق هارلم العجيب لكرة السلة ، يتأهب لتقديم فن آخر هو فن الرقص بالقفز فوق الحبال .

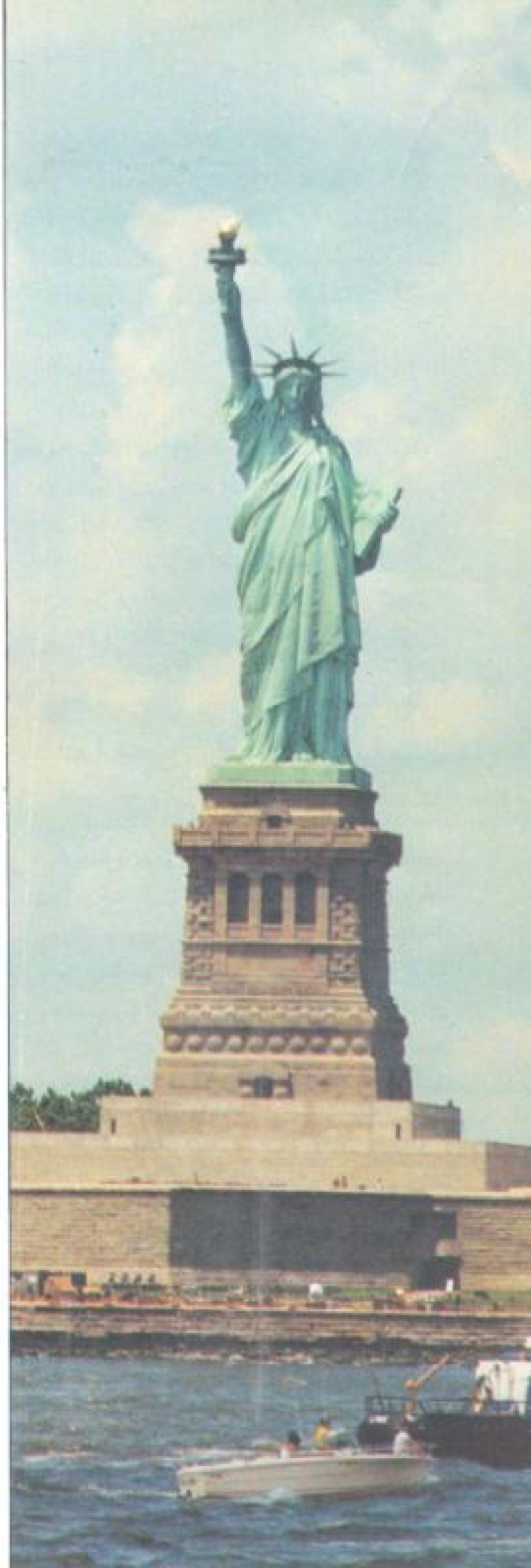
فتيات صغيرات يلوحن بأكثر من حبل ، وأخريات يقفزن من بين هذه الحبال ببراعة مدهشة ، ويتناوبن تلويح الحبال والدخول للقفز بينها على ايقاع قباقيبهن التي أصدرت نغماً حوّل هذه اللعبة المجانية الى متعة للمتسكعين والسكارى والمدمنين . . ولنا نحن القادمين عبر المحيط للاكتشاف والمتعة والمعرفة ، فماذا عرفنا عن هذا الحي الذي اختلط فيه البؤس بالجريمة ، والفن بالفقر ، والادمان بتجارة المخدرات المربحة ؟

عرفنا أن هناك هارلم السوداء وهارلم الأسبانية ، في الأولى يعيش الزنوج أساساً في بيوتهم البائسة تحت ظروف قاسية ، وفي الثانية يعيش ذوو الأصول الأسبانية ، وهو الاسم الذي يطلق على أولئك القادمين من أمريكا الوسطى ، وبشكل خاص جزر الهند الغربية وبورتوريكو والمكسيك ، وهنا في هارلم





صخب وضجيج وأطفال
في هارلم الاسبانية .
امرأة من سكان هارلم
السوداء تستكشف العالم
من حولها .
الآنسة حرية تحمل
شعلتها الجديدة .
الى اليسار : راقصوا
ديسكوا الشوارع
يعرضون فنهم المجاني في
شارع برودواي .




5589 BSG







الرقص على الحبال آخر الصرعات الفنية الآتية من حي هارلم .

الأسبانية يزداد حجم البؤس ، ولكن يكثر الضجيج ويرتفع صوت الموسيقا الصاخبة الراقصة التي اشتهرت بها تلك المنطقة من العالم . ومن المناظر المألوفة أن ترى فتيات وشباباً يرقصون في الشوارع ، وقد حمل بعض منهم جهاز تسجيل ضخم الحجم في يده أو دلاه من عنقه ، وان كانت العلاقة بين البؤس والجريمة أكيدة ، فهل من علاقة بين البؤس والفن ؟ سؤال ليس باستطاعتنا الإجابة عنه بالتأكيد . لذا فاننا نتركه للمهتمين ، ونمضي لنذكر بعض الحقائق المهمة حول حي هارلم الذي كان في بداية القرن حي أثرياء اليهود والايطاليين المرتبطين بالمافيا ، وكبار عازفي موسيقا الجاز التي ذهبت بعقول الأمريكيين في تلك الفترة ، لكن هؤلاء تركوا الشارع ورحلوا بسبب الوجود الكثيف لرجال الشرطة القادمين لفض منازعات السود المنتشين بموسيقا الجاز ، وبعشرات زجاجات النبيذ ، فبقي هارلم حياً لجرائم الادمان والسرقة والقتل ، وانتقلت الجريمة المنظمة الى أماكن أقل إثارة للشبهة ، وأكثر بعداً عن هذه الجرائم الصغيرة .

ومن الطريف أن هذا الحي نفسه يضم واحدة من أعرق جامعات نيويورك هي جامعة سيتي يونيفير سيتي التي تقوم وسط الشارع الرئيسي بالحي ، وعند نهاية القسم الأسباني من حي هارلم تقوم جامعة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ، هي جامعة كولومبيا التي تعد من أبرز وأشهر جامعات العالم ، وفي هذه الجامعة يعمل الدكتور ادوارد سعيد ـ وهو من أصل فلسطيني ـ رئيساً لقسم اللغة الانكليزية . ولأن هذه الجامعة كذلك ، فان الحي الذي تقوم فيه يمتاز بتكاليف المعيشة المرتفعة ، ففيه يسكن الطلبة الذين أتوا للدراسة في الجامعة العريقة ، مما رفع تكاليف المعيشة فيه ، وخلال دقيقتين ـ سيراً على الأقدام ـ يتم الانتقال من أفقر أحياء نيويورك الى واحد من أرقاها وأعلاها تكلفة .

لكن ادوارد سعيد ليس العربي الوحيد الشهير في تلك المنطقة من نيويورك ، فقد سمعنا عن شخص يعرف باسم « النحاس » قيل لنا انه واحد من « أكبر » المتاجرين بالمخدرات ، وأنه نجم لامع في هذا المجال ، فقد وصل العرب الى هنا أيضاً وتوزعوا على الأحياء والمهن ، وتغلغلوا في المجتمع الكبير ، وأصبح بعضهم نجوماً في سماواته المختلفة ، من قمة الهرم السياسي الى القاع

الاجتماعي ، ومن الفن الى تجارة المخدرات .

مأكولات صينية في شارع المال :

ومدينة نيويورك كما هو معروف هي مدينة الأمم المتحدة ، حيث يقوم العرب بشرح قضاياهم العادلة ، ومع أنهم لا ينجحون الا قليلاً ، فانهم لا يكفون عن تقديمها ، فلعل انتصاراً مثل قبول منظمة التحرير الفلسطينية عضواً مراقباً في الأمم المتحدة ، أو صدور قرار يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال التمييز العنصري أن يحدث ثانية .

ذهبنا لزيارة مبنى الأمم المتحدة ، فصادف يوم إجازة رسمية ، لم يتح لنا أكثر من السير في حديقة البناء الضخم المميز على النهر الشرقي ، والتمتع بمشهد النهر والسفن والجسور التي تربط مانهاتن ببروكلين وبرونكس ، ورؤية امتداد المدينة العملاقة التي أطبق أفقها على الخضرة والأبنية في اطار ضبابي جميل .

لم نستفد كثيراً من يوم العطلة الرسمية ، فحاولنا زيارة شارع المال والمعاملات المالية التي تعقد في بورصة نيويورك الشهيرة الرابضة في الشارع الصغير الضيق شارع وول ستريت ، لكن الاجازة كانت هناك أيضاً ، فأقفر الشارع وسكنت حركته ، وبدلاً من مشاهدة رجال المال بسيارات الليموزين الفاخرة غادين الى عقد الصفقات الكبيرة ، وانجاز المعاملات المالية ، جلس الباعة المتجولون الى جانب بسطاتهم الصغيرة يعرضون بضاعتهم الرخيصة على أرصفة الشارع الضيق ، وجلس الصينيون حول مطاعمهم المتنقلة يطبخون أكلاتهم المميزة على قارعة طريق المال « ربما للتمويه بدخانها على الطبخات الامبريالية التي تعد في هذا الشارع الشهير عادة » كما علق صديق لي ضاحكا ، ولكن لم يبد لي هذا الشارع الضيق الصغير مقنعاً ، كمكان تتم داخل بناياته المتراصة عملية التحكم بدورة المال في العالم كله ، وفشلت في تخيل الصورة التي كان عليها هذا الشارع في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٢٩ ، يوم حدث الانهيار العظيم في بورصة نيويورك القائمة وسطه ، والتي بدت حينذاك « كبيت تسكنه الأرواح الشريرة ، حيث أدرك ١٠٠٠ سمسار و ٢٠٠٠ من موظفي البورصة ، ان هذا اليوم هو يوم مذبحة أصحاب الملايين » كما يصفه غوردن توماس وماكس مورغان في كتابها « يوم انفجرت الفقاعة » . لقد بدا (وول ستريت) أضيق وأصغر من أن يحدث كل ذلك الأثر في الاقتصاد العالمي في تلك الأعوام المضطربة . . . كانت تلك بداية لسنوات الكساد العظيم التي اجتاحت أمريكا والعالم الرأسمالي من بعدها ، وعندها انتشرت مقولة لكاتب أميركا العظيم مارك توين على لسان إحدى شخصياته « ان اكتوبر شهر في غاية الخطورة بالنسبة للمضاربة على الأسهم ، أما الشهور الخطرة الأخرى فهي : يوليو وينابر وسبتمبر وابريل ونوفمبر ومايو ومارس ويونيو وديسمبر وأغسطس . . وفبراير » .

ولكن رب ضارة نافعة ، فسنوات الكساد تلك أفرزت فائضاً من الأيدي العاملة ، استغلها الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت في بناء عدد هائل من الانشاءات الأساسية من جسور وشوارع وطرق وأوتوستردادات . وأشار مرافقنا الى جسر ضخم لولبي الشكل يؤدي من برونكس الي نيوجيرزي ، وقال وهذا أحد تلك الجسور .

حين صعدنا الى أعلى الجسر شاهدنا البحر الكبير والأنهار العظيمة التي كانت البنايات العالية من حولنا تحول دون رؤيتها . وتساءلنا ان كانت هناك شواطىء للسباحة ! وبدا السؤال ساذجاً ومشروعاً في الوقت نفسه ، ولم تكترث حين نظر مرافقنا الينا نظرة دهشة ، وقررنا أن نزور أحد الشواطىء الكثيرة في نيويورك ، وأن نستمتع بالسباحة في بحر مدينة ناطحات السحاب ، فقد كانت تلك بالنسبة لنا مفارقة طريفة ، قررنا ألا نتركها تفوتنا قبل أن نغادر مدينة الاسمنت والحديد والشواطىء الكثيرة . □

قصة مترجمة

الغريب

للكاتب الفرنسي : شارل لوكانتريك *

ترجمة : جليل العطية

كان يعيش في غرفة تطل على حديقة صغيرة محاذية لنهر (أودية) في قرية (بونو) لقد هيأ لنفسه ، تقاعدا ، متواضعا في هذه البقعة الوادعة من الأرض .

فهنا في هذا المكان المنعزل تبدو السعادة في الأيام المشمسة شيئا ممكنا . كان يشغل وقته كل صباح بتنسيق الورود ، وقص الأعشاب ، وتقليم الأشجار ، والاستماع بزقزقة الطيور وتغريدها ، وعندما تحل الظهيرة في المنطقة يستغرق بقيلولة ناعمة . وبعد ذلك ينصرف الى طوابعه ، فيفحصها بعدسة مكبرة ، فيرى عليها وجوه زعماء وأبطال ، وصورا لمنجزات بعض الدول ، واحتفالات بعضها بيوبيل فضي أو ذهبي ، أو احتفاء بعضها بذكرى عزيزة ، ويحدق ـ بشكل خاص ـ بوجوه الشعراء والمحاربين والمكتشفين والموسيقيين ، ثم يعمد ـ بعد أن ينهكه التعب ـ الى التسكع في أزقة القرية الضيقة ، يوزع التحيات على النساء : (نهار سعيد يا امرأة) ، وعلى الفتيات : (نهار سعيد يا جميلتي) .

وينتبه بين فترة وأخرى الى صفير باخرة ، أو يدهشه منظرها وهي تشق طريقها عبر أمواج البحر ، فيطلق لشفتيه العنان ، مغمغما بصوت شبه مسموع ، ويداعب أطفال القرية بمرح ، ثم يختم نهاره بلعب الكرات المعدنية على أرصفة الساحة المركزية مع المتقاعدين من البحارة وموظفي الطرق والجسور وغيرهم .

لم يكن أحد في القرية يعرف صاحبنا بغير اسم « الباريسي » الذي حلّ مع الأيام عوضا عن اسمه في سجل الأحوال المدنية .

كانوا ينادونه جميعا : « الباريسي » بلطف وبخبث أيضا ، فالجميع يكن لهذا الغريب تقديرا واحتراما ، غير أنه احترام ممزوج بسخرية مبهمة ، لأسباب مجهولة ، لا يعلم سرها الا الله .

ـ « الباريسي » إذن ! .

لقد أمضى صاحبنا شطرا من حياته في شارع صغير في حي « بيير لاشيز » بباريس ، بشارع شعبي ، اعتاد قاطنوه على تسمية بعضهم بعضا بأسمائهم المجردة .

---

* كاتب معاصر من مواليد مدينة نانت ١٩٤٢ ، مجاز في الآداب . من أعماله : الرحيل ، مجموعة قصص « الشمس الساطعة » رواية . * نهر في غرب فرنسا ، يقع عليه ميناء بونو الصغير المخصص للصيد .



كان بطلنا يتذكر « جان » صاحب المقهى ، و « موريس » الذي مات غمًا بسبب خيانة زوجته له ، و « دوادا » ماسح الأحذية ، و « ايتبانيت » سيئة السيرة ، و « كارابوس » بائعة الصحف التي لم يكن صوتها يلعلع يوما من قلب حانوتها الصغير إلا لزف أخبار محزنة كالكوارث والفواجع .

كان مقهى « جان » ممتلئا بذوي الكروش المترهلة ، بسبب كثرة تناول الخمور الرديئة ، وعلى الرغم من ذلك فان ادارة المقهى تؤثرهم على غيرهم من روادها .

وفي أصيل كل يوم كانت تمر أمام صاحبنا فتاة جميلة ، لم يكن يعرف حتى اسمها ، فسماها « إميلي » . كان طيفها العابر يعمق في قلبه الأحلام .

كانت له زوجة أيضا ، وهي امرأة نذرت نفسها للدفاع عن بنات جنسها ، وعندما ماتت دفنها في مقبرة « بير لاشيز » المحاذية للحي .

ومنذ فجع بوفاة زوجته أضحى له ميل غريب لمجاورة القبور ، فكان يتسكع كل يوم بمحاذاة مدينة القبور ، تلك التي تعتبر بحق أجمل مقبرة في باريس .

كان يقرأ باهتمام « شواهد » القبور ، وتواريخ الميلاد والوفيات المنقوشة على الرخام ، وكان يردد على نفسه : إن الناس يرون النور ويموتون بلا متاعب ، ومع ذلك فان متاعب تاريخ فرنسا منقوشة

هنا ، إما بتواضع أو بتباه ، والمؤمن بجانب غير المؤمن ، والطيب بجانب الخبيث ، والشاعر ينام في مثواه هنا الى جانب الثري ، أما الكاتب « فيليتيه دي لامنيه » فهو الوحيد الذي ذُرّ رماده ، على الطريقة التي يتبعها بعض الهنود .

هكذا استرجع صاحبنا شلال ذكريات الماضي ، وهو يحمد الله لأنه يعيش في الريف ، بعيدا عن صخب العاصمة ، وكان لتقدمه في السن أكبر الأثر في احترام الناس له أينما حل .

الآن صار جزءا من عالم صغير ، يعنى بشؤون الغيوم ، وحوادث السفن ، والرياح والأمطار ، والسباحة وعبور المحيط الأطلسي ، وأخبار « أريك تابارلي » الذي عبر الأطلسي بمفرده .

حياة بسيطة وادعة ، لم يقطعها سوى حلول طفل غريب في القرية ، راح يسأل عن عنوان صاحبنا ، ويومئذ تساءل أهل القرية :

ـ أهو ابنه ؟

ـ كلا ، ففارق العمر كبير جدا .

ورددوا على أنفسهم :

ـ احتفظ « الباريسي » بسره لنفسه ، ياللعين .

في الأيام التالية كثر تساؤل الناس عن « السر » سواء في المخبز ، أو المغسلة ، أو في الحقول المجاورة ، وكان بعضهم يزعم أنه حفيده .

لكن لو كان حفيده لماذا لا يقدمه للآخرين أو لماذا هذا الغموض ؟

لكن الفرحة كانت تغمر الاثنين ، صاحبنا الشيخ وضيفه الطفل ، وكان صاحبنا يعرف المنطقة جيدا ، ويعرف الى أين يؤدي كل درب من دروب الحقول القريبة ، كما يعرف الطرق المؤدية الى « الأحجار الخاصة » .

كان الشيخ والطفل يسيران في هذه الطرق ، ويستمتعان بالأشواك وبأصوات الطيور ، وبالأحجار المتناثرة هنا وهناك ، وكانا في منتهى السعادة ، وكان الطفل يحب في رفيقه الشيخ البساطة



والورع ، بينما كان صاحبنا الشيخ يجد في الطفل صورة من طفولته هو شخصيا . راح الاثنان يعيدان اكتشاف الدنيا ومخلوقات الله ، سواء أكانت الشمس متألقة أم متوارية خلف الغيوم .

كانت صاحبة مخزن البقالة تردد دائما : هذان الكائنان ليسا بحاجة الى أي إنسان آخر إذا أرادا أن يصنعا من أي نهار عيدا .

ـ يا للباريسي اللعين !

أمضى صاحبنا وضيفه صيفا رائعا ، بعيدا عن الفضول والفضوليين ، في أحضان الصخور ، ووسط الأعشاب ، وبين الطيور التي تتهادى تحت أشعة الشمس .

وعند حلول موعد العام الدراسي ودع الطفل الشيخ قائلا :

ـ سأرجع ، أعدك بذلك . .

وعكف « الباريسي » يعد الأيام التي تفصله عن عيد الميلاد والعطل الدينية الأخرى وعطلة الصيف الكبرى ، واكتشف أن الزمن يمر ببطء شديد .

ذبلت الأزهار ، ورفضت الحديقة أن تعطي خضرتها للخريف المتوحش ، وجاء موزع البريد مرات عديدة ، ليسلم الشيخ بطاقة بريدية من

« ريمي » وهو اسم الطفل ، أو رسالة صغيرة كتبها من الجبال ، حيث يقضي عطلة الشتاء مع والديه ، يشرح فيها طرائف صادفته ، وهو يجرب التزحلق على الجليد ، ويوضح انطباعاته الساذجة عن قمم الجبال البيض التي تسيطر على الحدود الفرنسية السويسرية .

فإذا كانت احدى البطاقات قادمة من « كورفو » فتح الشيخ خارطة كبيرة عتيقة ، راح يبحث بدأب عن موقع هذه القرية أو المدينة ، غير أنه لم يجد لها ذكرا ، وأخيرا ذهب الى معلم مدرسة القرية يسأله عن موقع « كورفو » ، فما كان من « لارمور بادان » المعلم الا أن قام بارشاده الى موقع « كورفو » ، فأحس الشيخ بسعادة كبيرة ، وراح يفكر بتلك المدينة النائية التي يزورها صديقه الصغير ، ويتذكر الأيام الجميلة التي أمضياها معا .

ـ لن يأتي الآن ، بل سيأتي في مطلع الصيف .

وعاد الشيخ يلتقي بالبحارة والمسنين ، ويصرف الوقت في المقهى أو في الدروب المتعرجة ، غير أنه كان يبدو وكأنه يحمل هموم الدنيا ، وقد شحب وجهه ، وأصبح غريب الأطوار ، يكلم نفسه ، ويسير بمساعدة عصا دقيقة ، ويغضب لأتفه سبب .

قالت صاحبة مخزن البقالة :

ـ ان الوحدة لا تعني شيئا ، صدقوني ان الشيخوخة لا تسامح أحدا . ولكن صاحبة مخزن البقالة لم تر « الباريسي » سعيدا الا في شهر تموز ، وهو موعد عودة الطفل « ريمي » . لقد تحول الشيخ تحولا تاما ، فغير طقمه ، ولبس ملابس أنيقة ، وعاش عشرة أسابيع في غاية السعادة ، بين نزهات ورحلات على الأقدام ، واستحمام في البحر ، ولهو على الرمال ، عشرة أسابيع قص كل منهما على الآخر ما نسي أن يقصه في الصيف السابق . وهرم الشيخ وكبر الفتى ، تأمل الاثنان بيراعة القوارب المتجهة نحو جزيرة « آرسي » وميناثي نافلو وسان كولومبان . كان « ريمي » يهوى الأحجار والصخور ، يفرح كلما وقع نظره على حصاة تتميز بشيء ما ، ويسر كلما رأى حجرة من الجرانيت وقد حفرتها الأمطار ، فيخيل إليه أنها كتابات من حضارات بائدة ، يلتقط « ريمي » الحصى والأحجار ، ويحفظها بعناية في حقيبته كتحف نادرة .

كان « الباريسي » يشفق على صديقه الصغير ، فيعينه بالعثور على التحف الرائقة ، وللصغير هواية أخرى ، وهي اصطياد الفراشات والاحتفاظ بها ، ومحاولة معرفة أسمائها .

أما « الباريسي » الذي أذهلته حماسة رفيقه فقد صار لا يكترث بالساعات والأيام والشهور ، وعندما انهمرت أول زخة مطر في منتصف أيلول (سبتمبر) هرع الاثنان وأدخلا الكراسي والطاولة الى داخل المنزل ، وأطرقا يفكران باقتراب ساعة الفراق .

راح « ريمي » يفكر بمغادرة هذه الحديقة المملوءة بالطحالب والفراشات والخلجان الصغيرة ، بينما راح الشيخ يفكر بأن رحيل الطفل سيقوده مرة أخرى الى الوحدة والسأم .

شعر الشيخ أنه لن يقضي صيفا آخر مع ريمي الذي سيحمل النور في حقائبه الى الأبد . صاح الطفل : سأرجع ، أعدك بذلك .

وفي هذه الأثناء نفد صبر سائق الحافلة من استرسال الاثنين ، فتوعد وهدد باغلاق الباب والشروع في الرحيل ان لم يصعد الطفل فورا .

ـ الى اللقاء ، الى اللقاء .

ـ الى اللقاء يا ريمي ، لا تنس أنني أحبك حديقتي .

رحل الصبي ورحل « الباريسي » .

وما زال ريمي يستمتع الى اليوم بحديقة الشيخ ويجمع الحصى ، ويستدر اعجاب طيور النورس ، ويبحث عن صخور العالم القديم ، ومنذ ذلك الوقت تبناه أهل (بونو) ، وأطلقوا عليه اسم « الباريسي » . □



نظرة عامة على الفيلم الروائي المغربي

بقلم : علاء الدين محسن

على الرغم من ان أول الأفلام التي صورت بالمغرب يعود تاريخه الى عام ١٨٩٧م ، اذ يتضمن فهرس المرئيات اشارة الى شريط أنجزه في ذلك العام « لويس لومير » وعنوانه الفارس المغربي ، فان المغرب يمتلك الآن رصيدا سينمائيا لايضم سوى أقل من سبعين فيلما روائيا .

اذا ما وضعنا جانبا فيلم لومير السالف الذكر ، وعدة أفلام أخرى تعود إلى تلك المرحلة المبكرة ، وتصنف عادة في اطار « السينما الاستعمارية » فان أول الأفلام الروائية المغربية التي أنجزها مخرجون وممولون وتقنيون وممثلون مغاربة ، وتتناول مواضيع مستقاة من الواقع المغربي ، قد ظهرت عام ١٩٦٨ ، أي بعد مرور أكثر من عشر سنوات على استقلال المغرب في ١٩٥٦ ، واكثر من سبعين عاما على تصوير لويس لومير لشريطه « الفارس المغربي »

وبسبب ضآلة الرصيد السينمائي المغربي ، وحيث يبلغ معدل الانتاج السينمائي في هذا البلد فيلمين سنويا ، فان أولى الملاحظات التي يمكن معاينتها عندما نكون بصدد الحديث عن السينما المغربية ، هي أن كل مخرج مغربي قد تمكن من اخراج فيلمين في أحسن الأحوال ، فيما لم يتمكن عدد كبير من المخرجين المغاربة الا من اخراج فيلم واحد فقط ، وقد استطاع مخرجان فقط هما « سهيل بن بركة » و



من فيلم « عرائس من قصب ـ ١٩٨١ » للجيلالي فرحاتي .

« تيل كلو » انجاز أربعة افلام لكل منها ، دون أن ننسى المخرج مومن السميحي الذي يحضر لفيلمه الرابع « قفطان الحب » ، وانجاز معظم المخرجين المغاربة لفيلم أو فيلمين يجعل الحديث عن اسلوب أي منهم وشخصيته ورؤاه واختياره السينمائي أمرا في غاية الصعوبة . وانطلاقا من تقديرنا لهذه الصعوبة ستقوم في الفقرات اللاحقة بالتعرض لأهم الأفلام المغربية من خلال تصنيفها على مرحلتين :

تبدأ الأولى من عام ١٩٦٨ ولغاية ١٩٨٠ ، وتبدأ الثانية حيث انتهت المرحلة الأولى ولغاية ١٩٨٥ ، وقد اعتبرنا عام ١٩٨٠ فاصلا بين مرحلتين لأنه شهد صدور قانون جعل الدولة تسهم في انتاج الأفلام السينمائية بتقديم مساعدة مالية للمخرجين ، الأمر الذي ساعد على دوران عجلة الانتاج السينمائي بوتيرة عالية تمخضت عن ثلاثة عشر فيلما روائيا ، انتجت ما بين « ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢ » ، وهو رقم قياسي مقارنة بمعدلات الانتاج السابقة لهذه الفترة ، وللفترة اللاحقة لها أيضا !

وستعرض لهذه الأفلام ـ ثانية ـ من خلال تصنيفها على أساس مجموعة سمات مشتركة بينها ، أو بين كل مجموعة منها ، ونعتقد أن هذه الطريقة يمكنها أن تساعد على تكوين تصور عام عن الطريقة التي يتعامل بها المخرجون المغاربة مع واقعهم ، وما الذي يسترعي انتباههم في هذا الواقع .

أولا : مرحلة ١٩٦٨ ـ ١٩٨٠

شهد عام ١٩٦٨ ولادة فيلمين هما « عندما يثمر النخيل » لعبد العزيز الرمضاني والعربي بناني و « الحياة كفاح » لأحمد المسناوي ومحمد التازي

يتعرض الفيلم الأول الى مشاكل تحدث بين قبيلتين في جنوب المغرب ، فيما يروي الشريط الثاني

قصة شاب يغادر قريته نحو مدينة كبيرة هي الدار البيضاء ، حيث تصبح حياته فيها مغامرة متصلة .

وتحضر الدار البيضاء في فيلم آخر يعود الى هذه المرحلة هو « شمس الربيع » للمخرج لطيف كلو المأخوذ عن قصة للكاتب المغربي المعروف عبد الكريم غلاب ، ويتحدث(شمس الربيع)عن حياة موظف من أصل ريفي يعمل بمدينة الدار البيضاء ، ويعجز عن الإئتلاف معها ، وقد افتتح هذا الشريط عهد التعامل السينمائي المغربي مع القصة والرواية المغربية ، وهو عهد لم يشهد للأسف العديد من المحاولات على هذا الصعيد .

وبمقابل هذه الأفلام الروائية التي اتسمت ببدائية واضحة في صياغتها السينمائية وتعاملها مع تقنيات الفن السابع ، جاء فيلم « وشمة » للمخرج حميد بناني عام ١٩٧١ - ليشكل نقلة نوعية بالمقارنة مع الأفلام التي سبقته .

ويتطرق هذا الشريط الى المشاكل النفسية التي يعيش تحت وطأتها طفل ترك وحيدا ليعايش عالما يتصف بالقسوة .

انجز حميد بناني فيلمه بامكانيات بسيطة وبالأبيض والاسود ، ولكنه استطاع رغم ذلك التوصل الى تعبير خاص به عن قضايا مغربية شكلت سينمائيا بمهارة ، بحيث صار لها بعد انساني شمولي ، فبناني في فيلمه يهشم - في العمق - تركيبة الأسرة العربية التي تنهض على سلطة أبوية مطلقة ، وهو يتوسع في ذلك ، بما يجعل المشاهد يحس أن هم المخرج هو تحليل طبيعة السلطة السياسية في العالم العربي .

وقد حظي هذا الشريط بتقدير كبير في المهرجانات السينمائية العربية والافريقية والدولية ، ويمكن اعتباره بداية الاهتمام بالسينما المغربية ، والحديث عنها ، وأخذها مأخذ الجد خارج حدود بلادها ، ولذلك فـ « وشمة » هو بحق وشمة في مسيرة الانتاج السينمائي المغربي ، مثلما هو كذلك أيضا في مسيرة مخرجه الذي لم يقدم فيلما آخر بعد « وشمة » .

مرحلة ١٩٨٠ - ١٩٨٢

تحركت عجلة الانتاج السينمائي في هذه المرحلة بسرعة قياسية ، وانتجت ثلاثة عشر فيلما روائيا وعشرة أفلام قصيرة ، ويعود الفضل في ذلك الى أن البرلمان المغربي أقر عام ١٩٨٠ قانونا جعل الدولة - من خلال المركز السينمائي المغربي الذي يتبع اداريا وزارة الاعلام - تسهم في تمويل انتاج الأفلام السينمائية بما نسبته ٣٠ - ٥٠ بالمئة من ميزانية هذه الأفلام .

وقد ساعدت هذه الكثافة في الانتاج على ظهور أول مهرجان للسينما المغربية شهدته الرباط عام ١٩٨٢ ، عرضت خلاله جميع تلك الأفلام ، اضافة الى الأفلام التي تعود الى المرحلة السابقة .

ولكن السنوات التي تلت المهرجان شهدت عودة الركود الى الانتاج السينمائي ، وفي المهرجان الثاني للسينما المغربية الذي اقيم بعد عامين من المهرجان الأول لم تقدم فيه - وبصعوبة - سوى ستة أفلام جديدة .

وتميزت أفلام هذه المرحلة ، وكذلك أفلام المرحلة التي سبقتها بالكثير من الملامح المشتركة نعرضها كالآتي :

القرية - الطفل ، والمدينة - الغول :

تشكل العلاقة بين عالم (ومجتمع) القرية ، وعالم ومجتمع المدينة محورا يشترك في تناوله العديد من الأفلام المغربية ، منذ البدايات الأولى للفيلم الروائي المغربي في عام ١٩٦٨ .

وتنهض هذه العلاقة كما يقدمها المخرجون المغاربة على فرضيات مسبقة ، ومهمة شريط الصوت والصورة الوحيدة هي اثباتها عبر حكاية ما .

وتتمثل هذه الفرضيات في اعتبار القرية دائما مقابلة للبراءة والبكارة ، حيث مجتمعها لم يتشوه بعد ، وعلاقاته خالية من التعقيد ، وتطبعها التلقائية ، والناس « القرويون » طيبون رغم

ظروفهم الصعبة .

أما المدينة فهي ذلك الغول المتوحش ، حيث يحترق الناس ويضيعون في علاقات معقدة وصراع من أجل البقاء ، وفي هذه المدينة دائما يتم افتراس براءة الوافدين الجدد من القرويين .

ومشهد محطة الحافلات الرابطة بين القرى والمدن يتكرر في معظم الأفلام المغربية ، والأمر ليس مجرد مصادفة ، لأن هذه المحطة غالبا ما تقدم باعتبارها الجسر الواصل بين عالمين متناقضين ، وهي تشكل في معظم الأفلام المغربية انتهاء مرحلة وابتداء أخرى في حياة شخصيات هذه الأفلام .

فالشخصية المحورية في فيلم « السراب ـ ١٩٧٩ » لأحمد البوعناني تعثر ـ خلال احدى سنوات المجاعة التي مربها المغرب في فترة نهاية الاربعينيات ـ على عملات نقدية أجنبية ، وتغادر القرية نحو المدينة قصد استبدالها بعملة مغربية ، وفي المدينة ينكشف أمامها عالم يزخر بالعنف وبالعلاقات الغامضة .

استقبل هذا الفيلم في المغرب بترحيب كبير ، ولاحظ النقاد أن البوعناني أجاد توظيف مرحلة مهمة من تاريخ المغرب في بنية حكائية لم تخل تجسيدها السينمائي من شاعرية .

وشخوص المخرج محمد الركاب في فيلمه « حلاق درب الفقراء ـ ١٩٨٢ » ذوو أصول قروية ، ويعيشون في مدينة الدار البيضاء حباطاتهم وانهيارهم ومستقبلهم المبهم .

ولد محمد الركاب عام ١٩٤٢ ، ودرس السينما في موسكو وعلم النفس في بروكسل ، وفيلمه هذا أحد أهم وأفضل الأفلام المغربية لجماليته العالية ، ولنفسه الواقعي الذي يحيلنا مباشرة الى أفضل أعمال المخرج المصري صلاح أبو سيف ، ويشرح الركاب واقعيته بالقول : « انني مخلص للصورة اليومية التي أشاهدها في الشارع ، واذا كان من واجبي أن أنطلق من واقع ، فهذا الواقع هو واقعي » .

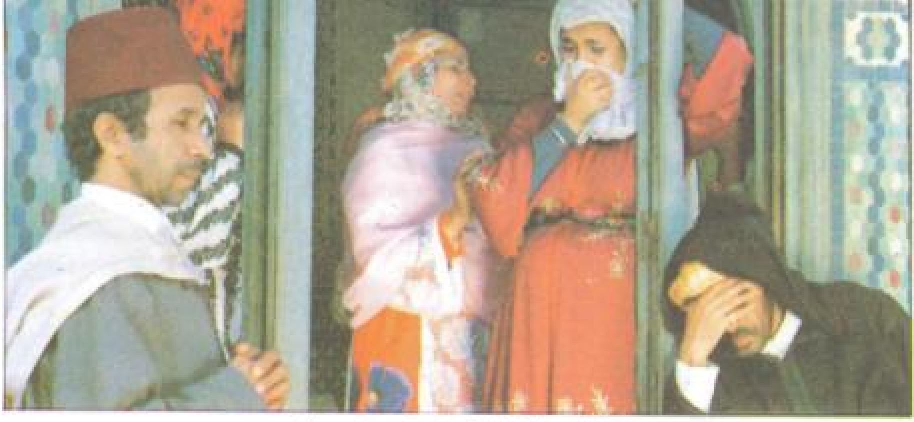
ويرسم هذا الشريط المقتبس عن مسرحية بنفس الاسم للكاتب المغربي فاضل يوسف صورة متشائمة لمدينة الدار البيضاء وناسها المسحوقين ، فالفيلم يبدأ بمشهد الغروب ، وينتهي بنفس المشهد أيضا . « احساسي الداخلي انني أعيش الضباب ، وقرب حلول الليل ، ولا أرى الصباح ، انني متشائم كما ترى » يقول الركاب : ويروي الفيلم قصة ميلود الحلاق في درب الفقراء الذي تسرق منه زوجته وعمله ومستقبله على يد شخصيات ذات ماض ملوث ، بتعاونها مع الاستعمار فترة احتلاله المغرب ، وبثرائها غير المشروع بعد استقلال المغرب .

وفي فيلم «الورطة» ـ ١٩٨٤ ـ للمخرج مصطفى الخياط تغادر «السعدية» قريتها ، وبعد عدة مآزق تواجهها هناك تضطر للعمل كمومس في ليل المدينة القاسي ، كنهارها .

أما « عبدة » الرأسمالي في فيلم مصطفى الدرقاوي « أيام شهر زاد الجميلة ـ ١٩٨٢ » فهو يعيش تحت وطأة تاريخه المليء بالانتهازية والوصولية منذ أن غادر الريف وسكن مدينة الدار البيضاء .

ولد مصطفى الدرقاوي عام ١٩٤٤ ، ودرس المسرح قبل أن يدرس السينما بباريس وبولونيا . وله فيلم لم يعرض في المغرب منذ انتاجه عام ١٩٧٥ ، هو « أحداث بلا دلالة » . وقدم عام ١٩٨٤ فيلمه الثالث « عنوان مؤقت » ، وتتميز أفلامه بحرصه الشديد على بناء مشاهده واختيار زوايا التصوير التي تقدم اكبر شحنة جمالية ممكنة ، وبتركيزه على الانفعالات الداخلية لشخصيات أفلامه ، وتكسيره لبنية السرد التقليدية ، فهو يروي حكاية أفلامه من خلال فيلم يصور داخل الفيلم ، حيث تتم استعادة القصة نفسها من خلال الشخصيات ، المرة تلو الأخرى .

وقد اشترك مصطفى الدرقاوي مع محمد الركاب عام ١٩٧٦ في اخراج فيلم « رماد الزريبة » الذي تناول قصة شباب قرويين يتوجهون الى الدار البيضاء



من فيلم « للاشافية ـ ١٩٨٢ » لمحمد التازي

بحثا عن العمل والمستقبل الأفضل ، ولكنهم في النهاية يتلاشون فيها ، دون أن يتمكنوا من تحقيق تطلعاتهم .

وتنهض البنية الحكائية في أفلام مغربية أخرى على شخصيات قروية تحلم بالهجرة الى مدينة أوروبية ، تقدم في العادة باعتبارها الفردوس الذي تتحقق فيه حياة الغنى والراحة والعمل و . . . النساء .

و « علي » في فيلم « ابن السبيل ـ ١٩٨١ » للمخرج محمد عبدالرحمن التازي يغادر مدينته القروية الصغيرة في أقصى جنوب المغرب ، ويقود شاحنة بضائع باتجاه الشمال ، وبعد عدة مشاكل يواجهها في طريقه ، حيث يُخدع المرة تلو الأخرى في المدن التي يمر بها ، وتُسرق حمولة شاحنته ، يكتشف أن خلاصه الوحيد هو بالسفر الى اسبانيا ، ولكن عصابة لتهريب العمال عبر الحدود تخدعه وتتركه تائها وسط البحر .

وعبد الواحد « في فيلم « اليام . . . اليام ـ ١٩٧٨ للمخرج أحمد المعنوني يحلم هو الآخر بالتخلص من واقع الاستغلال الذي يعيشه في القرية بالسفر الى فرنسا .

درس المعنوني مخرج « اليام . . . اليام » السينما في بروكسل وفيلمه هذا مثال آخر بالاضافة الى « وشمة » حميد بناني » على امكانية صنع فيلم عميق وجميل بامكانيات مادية بسيطة ، فقد استغنى المعنوني عن الممثلين المحترفين ، واعتمد على سكان القرية التي صور فيلمه فيها ليؤدوا في الشريط أدوارهم الحقيقية على أرض الواقع ، وكان يتكون فريق العمل ـ بالاضافة الى المعنوني ـ من تقنيين اثنين فقط ، ففريق العمل الضخم ـ يقول المعنوني ـ كان سيفسد بالتأكيد عفوية سكان القرية ، وكانت المحصلة فيلما يرتقي بتوثيق الواقع الى مستوى العمل الروائي الخلاق .

ويحاول مخرجون مغاربة آخرون استحضار مراحل من تاريخ بلادهم سينمائيا ، في محاولة لاستخلاص دلالات يمكن اسقاطها على الحاضر ، من جهة ، وتخلصا من اعتراضات الرقابة ، كما يقول بعضهم ، من جهة أخرى فيما يعلن مخرجون آخرون عن رغبتهم في توثيق تاريخ بلادهم سينمائيا ، كما هو الحال مع المخرج مومن السميحي .

ولد السميحي عام ١٩٤٥ ، ودرس السينما بباريس ، وله ثلاثة أفلام هي « سي موح بدون حظ ـ ١٩٦٩ » و « الشركي او الصمت العنيف ـ ١٩٧٥ » و « ٤٤ أو أسطورة الليل ـ ١٩٨١ » .

وهو يعود بذاكرته الى الماضي في فيلميه الأخيرين . فـ « اسطورة الليل » يتناول تاريخ المغرب فيما بين ١٩١٢ ـ ١٩٥٠ ، أي كامل فترة الاستعمار تقريبا (استقل المغرب في ١٩٥٦) ، من خلال قصة عائلتين مغربيتين الأولى من فاس ، حيث الاستعمار الفرنسي ، والثانية من مدينة الشاون في شمال المغرب ، حيث الاستعمار الاسباني .

وتدور أحداث فيلم « السراب » الذي تطرقنا اليه سابقا خلال فترة استعمار المغرب أيضا ، ويقدم المخرج الجيلالي فرحاتي أحداث فيلمه « عرائس من قصب - ١٩٨١ » باعتبارها حدثت عام ١٩٥٣ في مدينة طنجة ، ولكنه فيلم لايتناول حدثا أو أحداثا تاريخية معينة . بقدر ما يتناول قصة بسيطة ذات أبعاد اجتماعية واضحة عن « عائشة » التي تحمل بشكل غير مشروع .

ويتعرض فيلم « نهيق الروح - ١٩٨٤ » للمخرج نبيل كلو لفترة استعمار المغرب أيضا ، فيما يروى المخرج ادريس المريني في فيلمه « بامو - ١٩٨٣ » المأخوذ عن رواية بنفس الاسم للكاتب أحمد زياد قصة بداية المقاومة المسلحة ضد الاستعمار في المغرب .

تهشيم الواقع بالسخرية :

للمخرج نبيل كلو موقع خاص في السينما المغربية ، فقد استطاع المضي في مغامرته السينمائية رغم الظروف المادية الصعبة التي يعمل ضمنها - شأنه شأن المخرجين المغاربة الآخرين - اذ استطاع انجاز أربعة أفلام هي « القنفوذي - ١٩٧٨ » ، والحاكم العام لجزيرة شاكر باكربن - ١٩٨٠ » و « ابراهيم باش - ١٩٨٢ » و « نهيق الروح - ١٩٨٤ » .

وهو يلخص فلسفته السينمائية بالقول : ان السخرية هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا العالم المعقد وغير المفهوم ، والزاخر بالمتناقضات .

بدأ كلو حياته الفنية ممثلا ومخرجا مسرحيا ، وقد تركت هذه المرحلة بصماتها الواضحة على أعماله السينمائية المتميزة بالاضافة الى السخرية برؤية وأداء مسرحيين .

فيلمه الأول « القنفوذي » يروى قصة موسيقي مغمور يربح الجائزة الأولى في اليانصيب ، فتتغير حياته من الفقر الى الغنى ، الأمر الذي يعيد صياغة علاقاته وعلاقات الآخرين به ، وهو عن طريق شاهد تزخر بالسخرية والمرارة يكشف زيف العلاقات واستحالة العيش في مجتمع همّ الجميع فيه الحصول على الثروة لتغيير حياتهم ، وبمختلف الوسائل ، المشروع منها وغير المشروع .

وبنفس أسلوبه الساخر يتعرض في فيلمه « الحاكم العام . . . » للديمقراطيات المزيفة في العالم الثالث ، فبطل فيلمه بعد أن يصيبه اليأس من أحزاب بلاده يعلن نفسه حاكما عاما على . . . جزيرة « شاكر باكر بن » التي لاوجود لها على الخريطة .

ويسخر في فيلمه « ابراهيم باش » - وتعني « ابراهيم - من ؟ » - من بيروقراطية الادارة في العالم المتخلف ، فبسبب خطأ في تدوين اسمه العائلي يحرم ابراهيم بطل الفيلم من حقوقه التقاعدية بعد أكثر من عشرين سنة من العمل ، ويقضي حياته حتى موته في محاولة مستحيلة لتصحيح اسمه في سجلات الادارة وعقولها الالكترونية .

وتبلغ سخرية كلو ذروتها عندما يموت بطله وتصل روحه الى السماء فتؤجل محاكمته ، لأن ملفه لم يصل الى هناك بعد ، فالبيروقراطية تطارده حتى العالم الآخر .

ويقدم في فيلمه « نهيق الروح » نقدا لواقع بلاده بعد الاستقلال ، فالذين ناضلوا ضد الاستعمار تم التنكر لهم وأصبحوا متسولين ، فيما أصبح من كانوا يتعاونون مع المستعمر أغنياء يحظون بالمناصب الرفيعة بعد الاستقلال ، وينهض الفيلم على مغامرة بطله وسعيه لتصحيح هذا الواقع .

الا ان نهايات أفلام نبيل كلو متشابهة ومكرورة ، حيث يكتشف المشاهد في الأخير أن جميع الأحداث التي مرت عليه إنما جرت في الأحلام ، وأفلامه ناطقة باللغه الفرنسية في الغالب ، وهو يفسر ذلك بالقول أن الرقابة في المغرب تقبل النقد برحابة صدر اذا قدم بهذه اللغة ، ولاتقبله اذا قدم باللغة العربية أو بالدارجة المغربية .

وعندما قرر مخرج مسرحي معروف هو الطيب الصديقي خوض المغامرة السينمائية،قدم فيلمه

« الزفت ـ ١٩٨٤ » الذي تميز هو الآخر بالتعامل مع الواقع بسخرية فيها الكثير من المرارة .

فضريح أحد الأولياء الصالحين يلتهم جزءاً من أرض الفلاح « بوعزة » . أما الجزء الآخر فيذهب من بين يديه عندما تقرر الحكومة بناء طريق حديث سريع « اوتوستراد » ولايظل لديه مأوى . فيسكن مع عائلته في عربة متنقلة . ويكتشف مهندسو الطريق الجديدة ان « الاوتوستراد » يعترضها ضريح ذلك الولي الصالح فيغيرون اتجاه الطريق بدل ازالة الضريح الذي يعرفنا الفيلم في بدايته انه لايعود لأي ولي صالح أبدا . وان بعض المتفعين من النذور التي تقدم للضريح قد قاموا بخلق أسطورته منذ البداية .

وهكذا ، وعبر رموز كهذه يرسم الصديقي صورة لواقع تتعايش فيه بشكل غريب الأساطير والخرافات والشعوذة مع التقدم والتقنية وانجازات العصر . وقد أخذ الطيب الصديقي قصة فيلمه « الزفت » من مسرحية له سبق أن مثلت على الخشبة في المغرب عنوانها « سيدي ياسين في الطريق » .

المرأة المغربية : الحريم والضحية

كانت المرأة المغربية أحد محاور ـ أو المحور الأساسي ـ للعديد من الأفلام المغربية وهو ما يعكس الاهتمام الشديد للسينمائيين المغاربة بواقع المرأة في بلادهم الذي لم يتأثر بعمق بحدث حاسم في تاريخ المغرب هو الاستقلال .

لقد تعاملت السينما المغربية مع امرأة لاتزال تعيش وتعاني من وطأة أفكار وتقاليد تعود لقرون ماضية ، بموازاة الانفتاح الى أقصى حد على نمط وقيم الحياة الأوروبية من خلال النموذج الفرنسي ، وتظهر هذه الازدواجية بالاضافة الى شبكة من العلاقات الاستغلالية في الافلام المغربية باعتبارها السبب الرئيسي لصفة البؤس والتشتت والضياع التي تطبع حياة المرأة المغربية ، والخلاصة التي يقدمها المخرجون المغاربة بهذا الصدد هي أن سطح المجتمع المغربي هو الذي يتحرك ويتغير ، ولكن عمقه وبنيته لم يمسهما التغير . ولهذا لن يكون مستغربا أن جميع الأفلام المغربية تقدم نماذج نسوية تعيش حياة ومصائر متشابهة .

ففيلم « عرس الدم ـ ١٩٧٧ » للمخرج سهيل بن بركة يقدم حالة المرأة ـ الحريم كما تتجلى في منطقة جبلية بجنوب المغرب ، حيث مكان المرأة هو المنزل ومهمتها الوحيدة هي الانجاب وخدمة البيت وسيده ، وحيث تعامل « كشيء » ولايقام اعتبار لانسانيتها وعواطفها . وقد اقتبس بن بركة فيلمه عن مسرحية الشاعر الاسباني لوركا التي تحمل الاسم نفسه : « عندما قرأت مسرحية لوركا عرس الدم شعرت أنها تروى جزءا من حياتنا ، ولكنها تتجاوز السطحية التي غالبا ما تطبع معالجتنا للتراث الشعبي ، الى مستوى مدهش من العمق .

يقول بن بركة : ان الطابع السوسيو ـ ديني لجنوب المغرب يشبه أندلس الثلاثينيات التي يتحدث عنها لوركا في مسرحيته ، والشخصيات هنا تخضع للتاريخ ، ولاتصنعه . . .

ويروى فيلم « عرس الدم » قصة قبيلتين متصارعتين بسبب ثأر قديم بينهما ، وعندما يرتبط شاب وشابة من القبيلتين بقصة حب ، لايستطيعان الزواج بسبب العداء بين قبيلتيهما ، ويخطف « عمروش » حبيبته ليلة زواجها من شخص آخر ، وتبدأ مطاردة في الصحراء تنتهي بمقتله ومقتل عريس حبيبته برصاص بعضهما .

ويتميز هذا الشريط ، كما هو شأن أفلام بن بركة الأخرى بحرفية سينمائية عالية ونجوم عالميين ، فقد مثلت فيه ايرين باباس ولوران ترزيف ، ويكاد أن يكون سهيل بن بركة المخرج المحترف الوحيد في المغرب ، فقد توفرت له في جميع أفلامه ميزانيات كافية جعلته قادرا على اظهار حرفيته دون صعوبات ، وعلى تجاوز عقدة « الفيلم الواحد » التي يعاني منها المخرجون المغاربة الآخرون . فهو يقدم

فيلما كل عامين تقريبا . وله غير عرس الدم : « ألف يد ويد - ١٩٧٢ » الذي تناول فيه ظروف عيش وعمل الفتيات ناسجات الزرابي - السجاد - وأخرج عام ١٩٧٥ فيلمه « حرب البترول لن تقع » ، وقدم عام ١٩٨٢ فيلم « أموك » المقتبس عن رواية « ابك يابلدي الحبيب » للكاتب آلان بوت ، وتوفر لهذا الفيلم - الذي يروي قصة تتعرض للتمييز العنصري في جنوب افريقيا - تمويل ضخم ساهمت فيه ثلاث دول هي المغرب والسينغال وغينيا .

ويقول بن بركة انه مخرج واقعي وتشغله قضية اللاعدالة والاستغلال والاضطهاد في كل مكان .

وفي فيلم « عرائس من قصب ١٩٨١ » للمخرج الجيلالي فرحاتي فان « عائشة » بعد ان تحمل دون زواج ترفضها عائلتها وعائلة زوجها المتوفي ولاتجد أمامها من وسيلة للعيش غير بيع جسدها .

وفي فيلم « أمينة - ١٩٨٠ » للمخرج محمد التازي ، ترفض البطلة التي يحمل الفيلم اسمها التخلص من جنينها غير الشرعي ، واذا كانت عائشة في فيلم الجيلالي فرحاتي امرأة فقيرة وأمية ، تعمل خادمة في المنازل ، فأن أمينة في فيلم محمد التازي طالبة جامعية ، ولكن هذا لايحول بينها وبين رفض مجتمعها لها بسبب حملها بدون زواج .

ولاتخرج أمينة من مأزقها والصراع الذي تعيشه بين الأفكار المتعلقة بحرية المرأة التي تدرسها في الجامعة وبين أفكار وتقاليد مجتمعها الابالصدفة عندما تصاب في حادثة سير ، وتفقد جنينها ، ان السماء ، بالاضافة الى المجتمع ، تعاقب المرأة التي لاتصون جسدها .

وفي ١٩٨٢ قدم محمد التازي فيلما آخر هو « للاشافية » الذي تدور أحداثه في الريف هذه المرة ويتناول قضية المرأة أيضا من خلال علاقات الانتاج القائمة في الريف المغربي . وتتمحور موضوعاته حول الزواج المفروض على المرأة ، والتهميش الذي تعاني منه على جميع المستويات .

ويتطرق فيلم مومن السميحي « الشركي أو الصمت العنيف - ١٩٧٥ » ، وفي اطار تاريخي الى مشكلة الضغط الاجتماعي على المرأة .

ويتحدث فيلم « الورطة - ١٩٨٤ » للمخرج مصطفى الخياط عن بطلته « السعدية » وهي فتاة قروية تذهب للخدمة في البيوت بمدينة الدار البيضاء ، وهناك يخدعها صديق لها يدعي أنه يحبها ويقوم باستغلالها بالاتجار بجسدها ، ولكنه عندما يقتل على يد فتاة أخرى من ضحاياه تجد السعدية نفسها وحيدة في المدينة الكبيرة التي لاترحم . وقد انقطعت كل طرق عودتها الى قريتها ، فتضطر الى احتراف البغاء .

وفي فيلم « ابن السبيل - ١٩٨١ » لمحمد عبدالرحمن التازي ، يلقى مجموعة من الشباب من سيارتهم في عرض الشارع بفتاة بعد ان اعتدوا عليها ، ويعثر عليها « علي » بطل الفيلم وتصبح صديقته ، ولكنه لايبقى معها بسبب تاريخها الذي يعرف على الأقل جزءا منه ويحاول بسبب مشاكل عديدة واجهها الهروب الى اسبانيا ولكنه يفشل في ذلك .

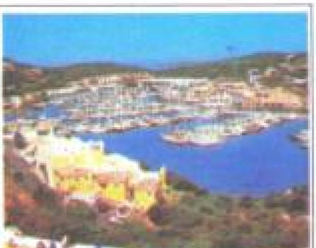
ويعيد مصطفى الدرقاوي في فيلمه « أيام شهر زاد الجميلة - ١٩٨٢ » صياغة اسطورة شهر زاد في ألف ليلة وليلة ، فبطلة فيلمه اسمها « نعيمة » أما في الملهى الليلي الذي تعمل فيه كمطربة فاسمها هو شهرزاد ، وحياتها خارج عملها الليلي - المليء بالأضواء والأغاني - في غاية البؤس والتعقيد ، فهي قد اضطرت للعمل كمطربة بعد ان اغتصبها مديرها في البنك الذي كانت تعمل فيه ، ولها ابنة بدون زواج شرعي ، وكل ذلك اضافة الى عملها في الملهى يجعلها مرفوضة من عائلتها .

ومن اللافت للانتباه بعد كل ما سبق أن الأفلام الروائية المغربية لم تقدم أي نموذج ايجابي للمرأة ، يعادل ولو تلميحا النموذج السلبي الدائم الحضور فيها . □



اليخوت الطويلة: الكلاسيكيات تحمّل وثبات.





قيادة يخت "مكسي" طويل حلم يراود جميع أصحاب اليخوت من الفئة الممتازة. فمهمة الربان تتطلب تنفيذ مناورات الملاحة بدقة لا تتعدى قيد شعرة. وما ذلك بعمل سهل، فكل ما يتعلق باليخت الطويل له شأن كبير.

وقيادة يخت طويل بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة لا تثير الإعجاب فحسب، بل انها محفوفة بالمخاطر. فالجنوا وحدها تزن ٢٥٠ باوندا، والحمل الذي تتعرض له المعدات، كل بمفردها، انما يبلغ حدًّا هائلا. فلا غرابة، أن تنهار تحت تأثير الإجهاد فيتأذى بعض أفراد طاقم اليخت.

سرعة البديهة مقترنة مع روح العمل الجماعي أمران حيويان لقيادة هذه اليخوت العملاقة عند السباق.

ومهما كان لسباق الزوارق الطويلة من إعتبار، فإنه لا يفوق مكانة سباق اليخوت الطويلة "أيكايا" لبطولة العالم عندما بلغ أوجه في المرحلة الثانية وانتهى بجائزة كأس رولكس التي منحت في "بورتو سيرفو"، سردينيا.

تصميم كلاسيكي يعمل ضمن نطاق دقيق من القدرة والتحمّل... وهي مميّزات يعطيها المشتركون في سباق اليخوت الطويلة حق قدرها، وكذلك صانعو ساعة كلاسيكيّة دقيقة رولكس من جنيف.



ساعات رولكس صبماريز مكفولة ضد الماء حتى عمق ٣٠٠ متر. وهي من الذهب عيار ١٨ قيراطا، او من الفولاذ والذهب.

ROLEX

رولكس

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

- طفلك والمولود الجديد

- المرأة ولعبة القوة







طفلك

والمولود الجديد

إعداد : ريم الكيلاني

قد يعتبر بعضنا أن الوحدة أمر مزعج ، لكنها تشكل متعة حقيقية في عالم الأطفال ، هذا العالم الذي يتغذى حبا وعطفا واهتماما ، ويرفض من يشاركه جزئية بسيطة منها . لكن ، ماذا يحدث حين تقع المشاركة فعلا ، ويحل على الأسرة طفل جديد ؟

تشعر الأم الحامل عادة بقلق لخوفها مما قد تحدثه الغيرة بطفلها الأكبر من جراء وجود طفل جديد في الأسرة ، فتراها دائما تتساءل عن كيفية إعداد الطفل الأول نفسيا لاستقبال الخصم الجديد .

لا شك أن عمر الابن الأول له تأثير كبير في تقبل الوضع أو رفضه ، لكن ، نتوقع من هؤلاء الأطفال نوعا من التفهم أو التقبل لانضمام فرد جديد للأسرة ، ونشعر بضرورة التحدث إليهم في هذا الموضوع ، تمهيدا لتهيئتهم للتغير الذي سيحدث في البيت ، وغالبا ما نجدهم مضطربين عاطفيا ، قلقين ، خاصة حين يصبح الوضع حقيقة ملموسة أمام أحدهم .

فإذا كنت تحرصين على نفسية ابنك فعليك تقع مسئولية إعداده إعدادا مسبقا ، ليكون على علم بكل ما سيجري حوله من أحداث ، من شأنها أن تغير في كثير من عادات الأسرة ، كأن تدخل والدته المستشفى فيضطر إلى اللجوء لأحد أقاربه أو جيرانه للعناية به ، وهو وضع جديد لم يعتد عليه الطفل مسبقا .

زيارة للمستشفى :

قد يعبر الطفل عن رغبته في زيارة أمه في المستشفى ، وهذا حق لا نستطيع أن نهضمه إياه ، لكن هذه الزيارة ستكون مهمة جدا ، فعليها سيبني الطفل كثيراً من الأفكار ، لذلك يتوجب على الأم والأب أن يكونا مستعدين تماما لهذه الزيارة ، متجنبين للمخاطرة غير الضرورية التي قد ينتج عنها شعور بالغيرة .

ويتحتم هنا على الأب أن يكون أكثر حرصا من الأم ، فيقوم أولا باطلاع الهيئة التمريضية في المستشفى على أهمية هذه الزيارة وخصوصيتها ، وذلك للقيام بالاستعدادات اللازمة لها ، كأن يكون المولود الجديد نائما في سريره الخاص ، غير ملتصق بأمه ، أو نائم بين ذراعيها ، لأن الحرص على خلو يدي الأم من أي شيء أمر ضروري ، إذ يجب أن تكون مستعدة للاستقبال الكبير ، لتحتضن طفلها ، وتقبله ، وتمطره بعبارات الحب والشوق ، ولا داعي للاستعجال في هذه اللحظات الحميمة ، لتقديم الطفل الجديد ، فهناك متسع من الوقت ليتعرف كل منهما بالآخر . والأمر الآخر الأكثر أهمية هو مراعاة الأم عدم إطالة النظر إلى سرير الطفل الجديد ، لأن إحساس الطفل بتكرار نظر الأم إليه يؤدي الى الغيرة ، وعلى الأم أن تتحين الفرص لتقديم الطفل الجديد إلى أخيه ، وإلا فإن شعوره بالغيرة سوف يبدأ في الظهور لا محالة .

كثير من الاهتمام والحنان :

في هذه اللحظات الحرجة التي سوف يلتصق فيها الطفل بسريرك عليك أن تبدي اهتماما حقيقيا به ، وتنصتي لحديثه ، ولكل ما يرويه لك من أخبار مثيرة وجميلة حدثت أثناء غيابك عنه ، دعيه يشعر أنك تهتمين بكلامه وبمغامراته ، وتستمعين له بإمعان .

فبعد أن يفرغ من سرد حديثه سيشعر أنه أكثر اطمئنانا ، وعند ذلك يمكنك أن تقدمي إليه أخاه الجديد أو أخته الجديدة ، مع مراعاة ضرورة تبادل الهدايا بين الاخوة ، لما في ذلك من تأثير على نفسية الابن الأكبر ، لأن إحساس الابن الأكبر بأنه يتلقى هدية من الضيف الجديد سيخلق شعورا من الود والألفة بينهما ، وإن كان هذا شعورا قصير المدى ، لكن يجب أن لا يغيب عن ذهنك أن الطفل في هذه المرحلة لا يحتاج لهدية قيمة أو لعبة يحبها ، إن ما يحتاجه حتما هو تأكيدك المستمر على حبك له .

في حالة ملاحظة الأم لطفلها الأكبر على أنه طبيعي ، لا تبدو عليه علامات ضيق أو إحباط ، فليس هناك داع للقلق ، لان اللقاء سيكون بين ابنك الأكبر ووليدك تجربة مثيرة ممتعة ، كما لا يهم ما سوف يقوله أو يفعله في اللقاء الأول ، بل إن ما يهم فعلا هو كيفية تلاؤمهما ، وتكيفهما بعد ذلك .

مع الضيف الجديد :

على الرغم من السعادة والحفاوة التي قد يبديها طفلك في بادىء الأمر تجاه أخيه الجديد أو أخته الجديدة ، فإن هذا لا ينفي ضرورة تأكيدك المستمر على حبك له ، فهو قد لا يظهر غيرته بشكل واضح

في الكلام أو في السلوك ، لكنه سيبدو قلقا فيما يخص علاقته بك .

هنا يتوجب على كل أم تحرص على نفسية ابنها أن تجعله يبوح لها بكل مشاعره تجاه الطفل الجديد ، فلا تتضايق أو تتذمر إذا أبدى طفلها غيرة ، أو أظهر مشاعر عدم رضى ، فإنه الوقت المناسب لمساعدته على فهم الوضع الجديد ، وإحاطته علما بأن أمه ستكون أكثر انشغالا من قبل ، فعليها تقع أعباء ومسئوليات أكبر تجاه طفلين ومنزل ، وإن محاولة إقناعه بأنه اليوم قد أصبح كبيرا ، وعليه أن يلهو وحده دون الالتصاق بأمه طول الوقت سوف يكون مجديا .

قد يجد الطفل صعوبة في التصرف أو التعامل بشكل طبيعي في الأسبوعين الأولين ، أو الثلاثة أسابيع الأولى ، ولا بد له أن يتصرف بالفطرة ، وأن يظهر بعض علامات الضيق والتذمر المعتدل غير الحاد التي يعبر بها عن رفضه للمولود الجديد ، وقد يبدو الأمر أكثر صعوبة خاصة إذا كان الطفل دون الثانية من العمر .

قد يصل الأمر إلى درجة الحسد ، فقد يحسد الابن الأكبر المولود الجديد على الامتيازات الكثيرة التي يحصل عليها ، كالتغذي من ثدي أمه ، وقد يطلب منها أن يشاركها حمله أثناء إرضاعها له ، بل إن بعضهم يصر أن يأخذ غذاءه من ثدي أمه ، تماما كأخيه الأصغر ، ولن يكون من المجدي حينها أن ترفض ، اسمحي له بيضع دقائق ، فهي مرحلة عابرة سرعان ما تنتهي .

عادات جديدة :

قد تلاحظ الأم تغيرا في كثير من عادات ابنها ، تكون الغيرة غير الظاهرة سببا رئيسيا فيها ، فكثير من الأطفال يبدءون بالقلق في نومهم ، وقد يرفضون النوم مبكرا ، أو يستيقظون عدة مرات أثناء الليل ، خاصة إذا كان العمر يزيد على سنتين ، ويشارك أحدهم المولود الجديد حجرته ، فتراه يسير على نهج أخيه في الاستيقاظ أثناء الليل ، محاولة منه للفت الانتباه ، أو لكي يحظى بجزء من اهتمام أمه الممنوح لأخيه الصغير ، وسيكون من الأفضل توفير بعض من وقتك تقضينه مع الابن الأكبر ، خاصة في أوقات النوم ، وإذا كان الطفلان يشتركان في غرفة واحدة فيجب أن تراعي إخراج المولود الجديد من الغرفة في الأوقات المخصصة للرضاعة ، ليتسنى لأخيه نوما هادئا .

وقد يرفض بعض الأبناء تناول الطعام ، وقد يصبح مزعجا أو مشاغبا أثناء جلوسه إلى مائدة الطعام ، بل قد يصل الأمر ببعضهم إلى رفض الأطعمة التي اعتاد عليها من قبل ، ويبدأ في هذه المرحلة كثير من حالات التبول اللاإرادي ، فيفقد خلالها الطفل قدرته في السيطرة على المثانة ، فإذا كان الطفل كبيرا ، إلى درجة تشعرين بها أن الوضع أصبح مختلفا ، وتأكدي أنها مرحلة مصاحبة لوجود طفل جديد ، وهي فعلا حالة لا إرادية ، ستزول مع زيادة الاهتمام به .

وقد يبالغ بعض الأطفال في غيرتهم فيزداد إلحاحهم غير المباشر على الوالدين لزيادة الاهتمام بهم عن طريق اختلاق آلام وأوجاع وهمية أو تصنعها ، مما قد يضطرك للجلوس بجانبه ، وتقديم المساعدة الممكنة له .

على أية حال مهما كان حجم المشكلة فالأمر طبيعي تماما ، لا تدعي فكرة وجود طفل جديد تسيطر

عليك ، فتحملي هذا القادم مسئولية حدوث تغيرات وتقلبات في نفسية الطفل الأكبر ، فكل تصرف جديد قد يطرأ على سلوك ابنك ليس بالضرورة أن تكون الغيرة سببا فيه ، فهو قد يرفض الطعام تعبيرا عن عدم رغبته في الذهاب إلى المدرسة ، وقد يتبول لا إراديا كطلب غير مباشر للخروج في نزهة أثناء إجازة نهاية الأسبوع .

المساعدة البناءة :

إن تفاعلك كأم مع الوضع الجديد له أكبر الأثر في زيادة تقارب الأخوين من بعضهما بعضاً ، ويمكنك إبراز هذا التفاعل الايجابي بأكثر من شكل ، كأن تخلقي شعورا في نفس ابنك الأكبر بأنه أصبح كبيرا وواعيا ، فيبدأ في الاستقلال بمتطلباته شيئا فشيئا عن رضى وقناعة ، فيذهب إلى دورة المياه دون مساعدة أحد ، ويتناول طعامه بيده دون الاعتماد عليك ، وثقي أنه سيكون سعيدا بهذه الاستقلالية ، طالما أنك تشعرينه بأنه قادر على الاعتماد على نفسه .

يحاول معظم الأطفال إظهار تصرفات وسلوكيات جديدة تجاه الأخ الجديد أو الأخت الجديدة ، فبعضهم قد يبدي سعادة فائقة في الأيام الأولى للطفل في البيت ، خاصة إذا حظي بزيارة له في المستشفى ، حيث يكون قد نقل ما حدث حرفيا لأصدقائه وجيرانه ، ليعبر عن سعادته ، أو ربما رضاه بهذه التجربة الجديدة .

وقد تراه يظهر نوعا من الحب المادي تجاه الطفل الجديد ، فيحضر له كثيراً من الهدايا واللعب التي قد يشعر أنها مجدية ، خاصة أثناء البكاء ، وهذا النوع من الحب الانفعالي الذي يظهر فجأة ، ويقل تدريجيا بعد أسابيع قليلة ، وبمجرد الاعتياد على الوضع الجديد ، وبخفة حدة هذا النوع من الحب تبدأ مشاعر العدوان في الظهور والنمو تجاه هذا القادم الجديد ، لكن نعود لنؤكد أن ذلك كله ليس قاعدة ثابتة ، خاصة في المرحلة الأولى لهذه العلاقة ، إنما هي تعتمد فعلا على عمر الابن الأكبر ودرجة حساسيته .

للأب دور :

إن هذا هو الوقت المناسب لتنمية علاقة الأب بابنه وتعزيزها ، حيث تتجه هذه العلاقة لتأخذ بعداً جديداً ، خاصة حين يشعر الأب بما كان يعانيه ابنه من وحدة ، وإن شعور الأب بحاجة ابنه الفعلية له ، فإنه لا شك سيكون سعيدا أكثر بقضاء معظم الوقت معه ، سواء باللعب داخل المنزل ، أو الخروج معا في نزهة ، وذلك على خلاف ما كان يراه أفضل من قبل ، كالقيام بزيارة لأحد الأصدقاء ، أو التجول في الأسواق .

وقد تشعر الأم بعد فترة من الولادة بحاجتها إلى المشي أو التنزه ، وقد تجد صعوبة في اصطحاب طفلين معها ، خاصة في حالات عدم مرافقة الزوج لها ، لكن تلك ليست بمشكلة إذا تمكنت من خلق شعور لدى ابنك الأول بأن هذه النزهة له ، وأنك توقفت عن المشي فترة ما بسبب الظروف الطارئة ، لكن نزهة اليوم ما هي إلا عملية استعادة لعادات المشي والتنزه .

تذكري عزيزتي الأم أن الطفل بحاجة في كل لحظة لمزيد من الحب والتشجيع ، وإلى مزيد من تعزيز ثقته بنفسه ، فإذا استطعت أن تحافظي على هدوء أعصابك ، وتحتفظي بقدر من الصبر ، وكنت مقدرة لكل ما قد يحدث من تغيرات في نفسية ابنك وسلوكه فإنك سوف تجتازين هذه المرحلة الحرجة بهدوء ، بدون أي آثار سلبية في نفسية طفلك . □

المرأة ولعبة القوّة !



بقلم : الدكتورة علياء شكري

« منذ بدء الخليقة والجدال قائم بين الرجل والمرأة ، عنصري الوجود والحياة ، من منهما الأقوى ؟ ومن منهما يتفوق على الآخر ؟ ورغم أن المجتمعات في سيرها وتطورها كرست بعض الأوضاع ، إلا أن الجدل لم ينته . وهذه رؤية علمية هادئة للقوة ومؤشراتها » .

المرأة مخلوق ضعيف ، محدود الإمكانيات الجسمية والنفسية (وبعضهم يضيف والعقلية) ، ولذلك تحتل مكانة أدنى من الرجل ، ليس لأن الرجل يتعمد الحط من شأنها ، أو يضطهدها ، لكنه قد وضعها حيث انتهت بها إمكانياتها ، وقدراتها .

وترد بعض النساء بأن المرأة ليست مخلوقا ضعيفا ، بل العكس ، إنها أقوى احتمالا ، وأصلب عودا ، على المستويات الجسمية والنفسية ، وأطول بالا ، وأوسع صدرا ، وأكثر عملا من الرجل ، (إذا حسبنا ساعات العمل داخل المنزل وخارجه ، وليس خارج المنزل فقط) ، ورغم كل تلك



المميزات الواضحة ، والإمكانيات الهائلة ، فهي في مرتبة أدنى ، ووضع ضعيف ، لأن الرجل يقهرها ، ويسلبها حقوقها ، ويأخذ عرقها ، وفي النهاية ينسب الأولاد إليه ، رغم كل ما بذلته من جهد وعرق في إنجابهم ، وتنشئتهم ، ورعايتهم .

وتسمع أصوات من صفوف الرجال تقول : إن ادعاء المرأة الضعف ، والدونية ، والحديث عن قهر الرجل ليست سوى أكاذيب نسائية ، فالمرأة كائن شديد الذكاء ، (إن لم يقولوا شديد الخبث) ، وهي تتظاهر بالضعف ، لتغلب الرجل ، وتدعي العجز ، لتتقوى عليه ، وتنسب الى نفسها الخضوع ، لتحكم سيطرتها ، فالمرأة كانت سيدة البيت ومازالت ، وشريكة الرجل ، وأم الأولاد .

ويحتدم الجدل ، سواء عندنا ، أو عند من سبقنا من الأمم في التقدم الحضارى ، وكل طرف يبرهن على سداد رأيه ، ويتبارى الخطباء والكتاب والساسة وأصحاب الرأي ، لكن أين الحقيقة من كل هذا ؟ وأين الوهم ؟ وأين اليقين ؟

رؤية هادئة

لن يدلنا على ذلك سوى أن نلوذ بالعلم الاجتماعي ، حيث يستطيع علماء الاجتماع أن يكشفوا لنا النقاب عن حقيقة وضع المرأة في المجتمع ، وفي الأسرة ، أي أن يكشفوا النقاب عن قوتها الحقيقية .

ما هو المقصود بالقوة ؟ وما هو المقصود بالمكانة التي تحققها تلك القوة ؟ وما هي المؤشرات الواقعية الملموسة التي تدل على تلك القوة ، وعلى حدودها ، وأبعادها ، وذلك على مستوى المجتمع الكبير ، وعلى مستوى الأسرة ؟

القوة في تعريفها البسيط هي القدرة على التأثير ، والسيطرة على الآخرين ، من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي ، وهي نوع من القدرة على التحكم في سلوك الغير ، وتغييره ، وتوجيهه وجهة معينة .

ويمكن كذلك تعريفها بأنها القدرة على فرض إرادة حائز القوة ، حتى برغم معارضة الآخرين لها ، أو في وجود معارضة الآخرين لها .

وهكذا يمكن تعريف قوة المرأة بأنها قدرتها على السيطرة ، أو على تغيير سلوك غيرها من النساء والرجال ، والقدرة على توجيه أحداث هامة في حياتهم ، حتى ولو كان هؤلاء وهؤلاء من النساء والرجال ضد هذا التصميم .

لكن التصور الشائع الآن أن حظ المرأة من القوة - حسب هذا التعريف - حظ ضئيل ، وأن الرجل أوفر منها حظا . لذلك ربما يرى بعضهم طالما أن الأمر بهذا الوضوح عدم جدوى البحث في مؤشرات القوة ، وحدودها .

لكنهم نسوا أن الموقف يتطلب منا الوقوف بشكل دقيق ، أي كمي إن أمكن ، على حدود هذه القوة ، ثم إن تحديدها في ظرف زمني معين يعني إمكانية قياسها بعد حين ، لمعرفة اتجاهها الى الزيادة والنمو ، أو الى النقصان والأفول ، فنحن هنا - وفي كل موقف علمي - نحاول أن نعرف لنفهم الواقع القائم ، ولنتمكن من التنبؤ بما سيكون من أمر حياتنا .

مؤشرات القوة :

يجب أن نعترف أن المؤشرات التي سأتحدث عنها لابد أن تجيء عامة ومجملة بالضرورة ، ذلك أن محاولة التعميم على ظروف اجتماعية وتاريخية كثيرة في الوقت نفسه هي التي تؤدي الى هذا الإجمال ، وتلك العمومية ، والسبيل الى صياغتها بصورة أكثر تفصيلا ، وأشد تدقيقا - وبالتالي أكثر كمية - مرهون بإجراء مزيد من الدراسات عن أوضاع المرأة ، في أقطار وطننا العربي الكبير ، لتأتي تلك المؤشرات منبثقة عن معطيات البناء الاجتماعي القائم ، ودالة عليه، ومتناسقة معه .

وقد أشارت « كونستانتينا سافيليوس روتشيلد » الى بعض الأسس العامة التي يرتكز عليها اختيار هذه المؤشرات ، وأهمها الآتي :

- كلما زادت قدرة المرأة على التحكم في الأحداث الهامة في حياتها (مثل سن الزواج ، والزواج للمرة الثانية) ، دل ذلك على ارتفاع مكانتها .

- ترتفع مكانة المرأة كلما زاد عدد النساء اللاتي يتساوين مع الرجال في أمور الحياة ، وقراراتها ، من نفس السن والطبقة الاجتماعية ، وذلك من حيث الطعام ، والتعليم ، والتدريب ، والوظائف ، والمرتبات ، والترقي الوظيفي ، والهجرة ، واستخدام الوقت ، والتصرف في وقت الفراغ ، وملكية الأراضي ، وغيرها من الممتلكات ، وأمد الحياة المتوقع .

وقد بنيت على هذين الأساسين بعض المؤشرات الدالة على قوة المرأة ، وعلى المكانة التي تحظى بها نتيجة لهذه القوة ، وهذه المؤشرات هي :-

١ - النسبة المئوية للنساء اللاتي لم يتزوجن في الفئة العمرية (١٥ - ١٩ سنة) ، وفي الفئة العمرية (٢٠ الى ٢٤ سنة) .

وأهمية هذا المؤشر أن زواج كثير من الفتيات في هاتين الفئتين العمريتين - وبخاصة الفئة الأولى - يدل على تدني مكانة المرأة ، وعلى ضعف ما تتمتع به من قوة ، فهي في مثل هذه السن تتزوج عادة من يكبرها سنا ، وقبل أن تستكمل عدتها من التعليم والتدريب ، مما سيؤثر بدوره فيما بعد على تدني وضعها الوظيفي ، وهبوط مكانتها الاقتصادية .. الخ .

٢ ـ النسبة المئوية للنساء اللاتي يتزوجن رجالا أصغر منهن سنا .

ووجهة النظر هنا بأن الزواج من قرين أصغر سنا كان دائما من حق الرجل وحده ، وهو الذي قد يرضاه أو لا يرضاه ، وزواج كهذا يعد ـ ولكن ليس بالضرورة ـ سبيلا لسيطرة الرجل واخضاع المرأة ، بما يعنيه التفوق في السن ، من تفوق في الخبرة ، وفي المقدرة الاقتصادية ، والأهلية الاجتماعية ... الخ .

وقد توصلت الدراسات الثقافية المقارنة الى أنه كلما زاد تحرر المرأة الاقتصادي في مجتمع ما زادت حريتها في اختيار الزواج من زوج أصغر منها سنا ، (وقد تأيد هذا الحكم العام من خلال اتجاهات حديثة في بعض المجتمعات المتقدمة كالولايات المتحدة) .

٣ ـ معدلات الزواج مرة أخرى بين الأرامل والمطلقات ، حسب الفئات العمرية ، ومكان الإقامة (في الريف أو في الحضر) ، ذلك لأن من المعروف أن الرجال الأرامل والمطلقين أيسر في الزواج مرة أخرى من النساء الأرامل والمطلقات ، وتغير هذه المعدلات وزيادتها مؤشر على قوة المرأة ومكانتها ، خاصة في الفئات العمرية (٣٠ سنة فما فوق) ، وفي المناطق الريفية .

٤ ـ نسبة الرجال الى النساء في الفئة العمرية (٣٠ الى ٣٩ سنة) ، والفئة (٤٠ الى ٤٩ سنة) ، والسبب في ذلك أن المجتمعات التي يسيطر عليها الرجال سيطرة واضحة ، والتي يسيطر فيها نظام تدرج هرمي على أساس النوع تكون نسبة الرجال الى النساء عالية فيه ، وهي في الهند ٩٣٠ امرأة لكل ١٠٠٠ رجل ، وفي باكستان ٩٠٠ امرأة لكل ١٠٠٠ رجل ، وذلك لأن متوسط أمد الحياة المتوقع للمرأة منخفض ، بسبب قلة ما تحصل عليه في طفولتها من رعاية صحية وغيرها ، الأمر الذي يؤدي الى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال من الإناث ، كما أن ارتفاع معدلات الإنجاب ، والزواج المبكر ، وتوزع نشاط المرأة بين العمل داخل البيت وخارجه يؤدي أيضا الى ارتفاع نسبة الوفيات بين الإناث في هاتين الفئتين العمريتين بصفة عامة .

أشكال للقوة :

وتنتقل المؤشرات بعد ذلك من الجانب المعنوي والاجتماعي الى الجانب المادي ، فيتحكم فيها :

١ ـ نسبة النساء اللاتي يمتلكن أرضا ، أو اللاتي لهن أعمال تجارية خاصة بهن ، ودلالة ذلك المؤشر واضحة لا تحتاج الى تعليق .

٢ ـ مدى التفرقة في الوظائف ، أو درجة تركز المرأة في بعض المهن . فكثير من المجتمعات تقيم بصفة عامة عديدا من الحواجز في وجه عمل المرأة ، وبعضها يبيح ذلك العمل أو يشجعه ، لكنه يفرق في الوظائف بين الرجل والمرأة ، سواء بحجب المرأة عن تولي بعض الوظائف ، وقصرها على الرجال ، أو بحجب المرأة عن تولي الوظائف القيادية ، والعليا في الكوادر المهنية المختلفة ، وهذا التمييز قائم في أغلب مجتمعات العالم ، حتى في بعض البلاد التي نقول عنها بأنها بلاد متقدمة .

٣ ـ النسبة المئوية للنساء اللاتي يشغلن المستويات العالية في المهن المختلفة . وقد أشرت الى دلالة هذا المؤشر في البند السابق .

٤ ـ نسبة الرجال للنساء في القطاع الاقتصادي غير الرسمي مقابل نسبتهم في القطاع الرسمي . حيث ان ارتفاع نسبة الإناث في القطاع الاقتصادي غير الرسمي هو دليل على استئثار الرجل بفرص

العمل في القطاع الرسمي الأكثر تميزا ، ومن ثم فهو مؤشر على تدني مكانتها .

٥ ـ درجة التفاوت بين أجور الرجال والنساء عن نفس نوع العمل . وهذه نقطة لا تحتاج الى تعليق .

٦ ـ الفروق بين الذكور والإناث في معدلات سوء التغذية بين الأطفال ، والمراهقين تحت سن (١٥) عاما . فقد أثبتت أحدث الدراسات التي أجريت على هذا الموضوع ـ بشكل مستقل أو ضمن دراسات التنشئة الاجتماعية ـ في بلاد العالم الثالث أن الأسرة (وبخاصة الأكثر فقرا بطبيعة الحال) تميز بين الذكور والإناث الصغار تمييزا واضحا في كمية الأكل وفي نوعياته ، فتؤثر الطفل الذكر بكمية أكبر ، ونوعية أفضل ، بالقياس الى أخته أو أخواته ، وقد درسنا هذا الأمر باستفاضة في بحث لنا عن المرأة والمشكلات الديموجرافية ، وذلك له حديث آخر .

٧ ـ تقسيم العمل حسب النوع (ذكور/ إناث) بين الأطفال من سن خمس سنوات حتى سن ١٢ سنة . حيث نجد الأطفال الإناث في تلك الفئة العمرية يكلفن عادة بالعمل المنزلي ، ورعاية أخواتهن الأصغر منهن ، في حين تتاح للأطفال الذكور في نفس السن فرص المواظبة على حضور المدرسة ، وأداء الواجبات المدرسية ، أو أداء النشاط الذي يحقق دخلا ، إذا لم يكن هؤلاء الذكور يترددون على المدرسة .

العلم قوة :

ولا تقتصر المؤشرات العديدة التي يلجأ اليها رجال الاجتماع على الجوانب السابقة فقط بل تمتد الى نواحي المعرفة والعلم والتدريب والمشاركة في الانتاج مثل :ـ

١ ـ نسبة الرجال ـ الى النساء ـ الذين يتمون المدرسة الابتدائية ، فالتعليم أهم مؤشر من مؤشرات المكانة ، وبالتالي القوة ، لأنه يعد سلاحا فعالا في تحقيق مكانة اقتصادية ، ومن ثم وضعا متكافئا ، هذا بالطبع فضلا عن وظيفته كأداة تنوير وتحديث بصفة عامة .

٢ ـ نسبة الريفيين ـ للريفيات ـ الذين يتلقون تدريبا زراعيا ، ويحصلون على مؤهلات ، كما يشتركون في مشروعات وبرامج تحسين الانتاج .

٣ ـ درجة التفرقة بين الرجل والمرأة في نسبة الوقت الذي ينفقونه في الأنشطة الانتاجية ، مقابل الوقت الذي ينفقونه في الترفيه . وقد دلت نتائج البحث الذي أجريناه عن المرأة والسلوك الديموجرافي أن الوقت الذي تنفقه المرأة في العمل يفوق كثيرا الوقت المخصص للترفيه أو العناية بالنفس ، ولاحظنا أن المرأة في الطبقات العاملة الأدنى تكاد لا تجد وقتا تنفقه في الترفيه أو العناية الشخصية ، فلا يوجد في بنود استخدام الوقت عندها ثمة وقت للاستحمام ، أو تصفيف الشعر ، أو سماع المذياع أو مشاهدة التلفاز ، أو زيارة الأقارب والصديقات ، واللافت للنظر أن الرجل في نفس هذه الطبقات أو المستويات الاجتماعية يجد متسعا من الوقت ، يخصصه لأغراض الترفيه ، والمتع الخاصة ، وتؤكد الملاحظات ذلك في القرية وفي المدينة على السواء ، عندنا وعند غيرنا من المجتمعات التي تقاربنا في مستوى النمو الاقتصادي الاجتماعي .

٤ ـ نسبة هجرة الرجال والنساء من الريف الى الحضر ، وكذلك نسبة كل نوع في الهجرة الدولية ، فقرار الهجرة في ذاته مؤشر على القدرة على بلورة

موقف ، واتخاذ مبادأة ، وممارسة سلوك ايجابي ، من أجل تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي للفرد المهاجر ، هذا فضلا عن أن الهجرة من الريف الى الحضر ، والهجرة الدولية إنما تكون هجرة انتقائية في الغالب ، فالعناصر الأفضل هي الأميل للهجرة ، ولذلك لن تعدم الشواهد والبراهين الاحصائية من سجلات الهجرة في بلاد العالم الثالث التي تؤكد لنا ارتفاع نسبة الرجال المهاجرين بالقياس الى النساء ، سواء كانت الهجرة من الريف الى الحضر ، أو كانت هجرة دولية .

٥ ـ وجود مؤسسات اقتصادية خاصة بالمرأة (كالتعاونيات وشركات الاقراض وغيرها من المؤسسات التي تدعم وجود المرأة على نحو معين) قد يبرز في بعض جوانبه تحيزا ضدها .

تلك في رأيي أهم المؤشرات الدالة على حيازة المرأة للقوة في المجتمع المعاصر ، وكثير منها يمكن الحصول على بيانات كمية (دقيقة الى حد ما) عنها بالنسبة لمعظم الدول النامية ، إما عن طريق التعداد العام ، أو عن طريق معالجات خاصة لبعض بيانات التعداد ، كذلك يمكن الحصول على بيانات عن كثير من هذه المؤشرات عن طريق مشروعات بحثية ، ودراسات خاصة ، كالدراسة التي أشرت اليها عن المرأة والسلوك الديموجرافي التي أجريت في وقت واحد في عدد من الدول ، وهي : مصر ، والأردن ، والهند ، وباكستان ، والاتحاد السوفيتي ، ضمن اطار مشروع واحد ، قام بالاشراف عليه ، والتنسيق بين عملياته ، منظمة العمل الدولية في جنيف ، وقد اضطلعت بالاشراف على مشروع البحث في مصر في الفترة من (١٩٨٢ ـ ١٩٨٦) .

ولكن هذه المؤشرات ليست كل الحكاية ، وليست نهاية المطاف في موضوع قياس المرأة ، والتعرف على مكانتها في مجتمعنا المعاصر ، ذلك أن المؤشرات السابقة تعطي صورة احصائية عامة ، مستمدة من مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية المختلفة ، لكن هناك مؤشرات دالة على القوة التي تتمتع بها المرأة ، سواء تلك المستمدة من الرجل ، أو القوة المترتبة عن ممارستها نشاطا يدر دخلا . والآن عزيزتي المرأة انظري الى وضعك ، والى المجتمع الذي تعيشين فيه ، واقرئي الموضوع مرة ثانية ، لتعرفي موقعك في لعبة القوة . □

---

* بعد والدتي . . فقدت يدا حانية كنت أجفف بها عرق المسير .

(جبران خليل جبران)

* عجبت لمن يغسل وجهه مرات في النهار ، ولا يغسل قلبه ولو مرة واحدة في السنة .

(ميخائيل نعيمة)

* ازرع كل يوم . . تأكل كل يوم .

(مثل شعبي)



هو..

لو كنا معاً

يتصور رفضي لفكرته أنه مجرد رغبة في التملك ، وأنها أنانية مفرطة ، ومصادرة لحريته ، وغيرة عليه ، ولا يدور بذهنه أبدا أفكار وتفسيرات أجمل وأرق وأنبل .

تزوجنا بعد قصة حب رقيقة ناعمة ، قائمة على اتفاق عقل ، ودفء مشاعر ، وغرقنا في زحام الحياة ومشكلاتها منذ اليوم الأول للزواج ، ولأننا لم نكن نملك إلا إرادتنا واصرارنا على النجاح فقد انصرفنا بكامل طاقتنا الى بناء حياتنا ، مسكن ، وأثاث ، وعاما إثر عام ، بدأت المطالب تخف ، وأصبح في مقدورنا أن نستريح دون أن نلهث ، وفوجئت به يقول لي انه سيأخذ إجازة ، ويسافر بعيدا ، ليقضيها وحده ، وأعترف أن الدهشة قد أصابتني ، تساءلت : لماذا ؟ وكيف ؟ . . و . . . و . . . ولم يقدم تفسيرا مقنعا ، أو سببا وجيها ، فكل ما قاله هو أنه يشعر أن عبء الأعوام الماضية ، ورتابتها ، قد أصاباه بالاختناق ، وأنه يريد أن يستريح قليلا ، ولتكن هذه فرصة للراحة ، وإجازة زوجية ، يعود بعدها متجدد النشاط والمشاعر .

ولم أوافق ، وبدأ التوتر يصادقنا ، وكذلك الخصام والاكتئاب ، وقلت له إن ما يقوله لا يقبله عقل ولا منطق ، فعبء الحياة لم يكن على كتفيه وأعصابه وحده ، بل لقد شاركته فيه إحساسا ومسئولية ، وليس مهما أنه وعدني أن أسافر معه مرة أخرى بعد عودته هذه ، وشرحت له بأن رصيد حياتنا الذي يبقى معنا على مدى العمر ليس هو تفاصيل الحياة اليومية بكل أعبائها ، ولكن الرصيد الذي يبقى هو أحلامنا الصغيرة التي حققناها ، ونجاحنا في التوصل الى أهداف خططنا لها ، وأن الذكريات لكي تكون مشتركة ينبغي أن نعيشها معا ، وقلت له إن الوقت قد حان لكي يكون لنا متع صغيرة مشتركة ، وأنه ليس صحيحا أن كل طرف قادر على الاستمتاع بالحياة وحده ، وأن المتعة تصبح أروع وأجمل عندما يكتشفها اثنان ، و (المونولوج) رائع لكنه مبتور ، أما (الديالوج) فهو أكثر روعة وخصوبة وثراء ، وهكذا هي الحياة ، ليست ترديداً ذاتياً ، ورؤية ذاتية ، لكنها رؤية اثنين ، وحوار اثنين .

وقلت له ليس صحيحا على الإطلاق أنني رافضة بسبب رغبتي في تقييد حريتك ، ولا غيرة مني عليك ، فما ستفعله وأنت مسافر تستطيع أن تفعله وأنت معي هنا ، لكنني رافضة لأنني أدافع عن حقنا المشترك في الحلم ، والراحة ، كما دافعت عن حقنا في تحمل المسؤولية ، والعبء . وأنا على يقين أكيد أن كل هذه الأحلام الصغيرة ستصبح أجمل ، وأرق ، فقط لو كنا معا .

هي



هي..

كي لا يقتلنا الاعتياد

أكثر الأفكار «دكتاتورية» في العالم يمكن تغليفها بعبارات رقيقة ناعمة، عن الحرية والمشاركة والمصير الواحد. ويبدو لي ـ أحيانا ـ أن الزواج كلعبة السياسة، بها معا قدر من الذكاء، والمناورة، والمراوغة، والضرب تحت الحزام.

تحولت الأمور عندها الى قضية مصير، وخيانة والقضية أكثر بساطة، وأقل تعقيدا مما حاولت هي أن توحي به، فنحن ذوو رغبات مختلفة ومتباينة، وأذواقنا وثقافتنا ليست متطابقة تماما، وإلا لأصبح كل واحد منا نسخة باهتة من الآخر، بيننا قدر من الاتفاق، ومثله من التباين.

في عام مضى سافرنا لقضاء إجازة، بدعوة من قريبة لها، كانت نزهاتنا تختلف، فهي تريد الذهاب الى البحر، والأماكن الهادئة الجميلة، وأنا مفتون بالسير في شوارع المدن وأحيائها ومقاهيها، والتعرف على سكانها، فعشق المدن عندي داء، وكسر دائرة الوقت والتوقيت أمر أجد فيه متعة، وثراء معرفة، فالسهر حتى ساعات متأخرة لرؤية جانب آخر من حياة المدن أمر يفتنني، والاستيقاظ مع أول خيوط الفجر لرؤية المدن وهي تنفض عن نفسها ثوب النوم يروق لي، وأرى فيه جزءا مهما من حياة المجتمعات والناس.

وهذه كلها خبرات لا أستطيع ممارستها وهي معي، وفضلا عن ذلك فهي ممارسات لا تروق لها.

قلت لها كل ذلك، وقلت لها إنني أريد أن أخوض هذه التجربة، خاصة أننا منذ زواجنا لم نفترق إلا أياما قصيرة كنت أسافر فيها في مهمات عمل، وقلت لها انه من الصحي لكلينا أن نجرب الحياة بعيدا عن بعضنا بعضا فترة، يراجع فيها كل منا ـ على حدة ـ مواقف اجتزناها معا، واختلافات حدثت.

وقلت لها إن الأشياء لا تتأكد إلا بأضدادها، فالنور بالظلام، والليل بالنهار، والظلم بالعدل، والكراهية بالحب، وكذلك المشاعر الإنسانية، لا يتأكد معنى وجودنا معا وقيمته وجماله إلا إذا خضنا تجربة أن يكون كل منا وحده فترة، وأن هذا التجديد أمر أكثر أهمية مما نظن أو نتصور، فمن خلاله تستمد العلاقة حيويتها، وحرص أطرافها على دعمها ورعايتها، والابتعاد فترة أهون وأكثر رحمة من أن تضيع العلاقة، لتصبح عادة، وننسى أنها كانت اختيارا واعيا، وضرورة لازمة، لأننا بعقل ووعي قد اختار أحدنا الآخر، ولأننا ندرك أن ما تبقى لنا من حياة ـ لو قضيناه معا ـ سيكون أرق وأجمل، ومن الظلم أن يضيع هذا المعنى البالغ الرقة والوعي في دهاليز الاعتياد والملازمة تحت دعاوي المشاركة التي تفيد وتضر وضررها ـ أحيانا ـ أكثر من فائدتها.

هو

طبيب الأسرة



الدكتور حسن فريد أبو غزالة

قضايا منزلية

جدري الماء

قلما تطرح قضية جدري الماء على بساط التوعية كما تطرح قضايا الصحة والمرض الأخرى ، قناعة من أصحاب الشأن بضآلة شأنه ، وانعدام خطره ، وقد جانبوا الصواب في هذا الأمر ، وشطوا بعيدا عن الحقيقة والواقع .

لقد سموه الجديري تصغيرا لاسم الجدري الذي كان يختلط معه في بعض أعراضه ، مما كان يخشى معه أن تختلط الأوراق ، ويخطىء الطبيب القليل التجربة ، فيتفشى وباء الجدري الخطير ، ويشيع وينتشر .

غير أن انحسار موجة الجدري بعد أن أعلنت منظمة الصحة العالمية عن انقراضه عام ١٩٧٩ ، وانتقال أخباره من كتب الطب إلى كتب التاريخ ، عقب نجاة آخر مريض صومالي كان مصابا بالجدري عام ١٩٧٧ ، ومضي سنتين على هذه الحادثة ، دون ظهور حالة أخرى ، في أي قطر من أقطار المعمورة ، ثم إعلان انقراض مرض الجدري من العالم بفضل حملة التطعيم العام .

ومن هنا لم يبق مجال للشك في أمر جدري الماء ، ولم يعد لاسم الجديري مبرر ، وربما كان أقرب الأسماء صوابا هو الاسم الذي يطلقه العامة أحيانا « أبو شنيتر » ، لأنه مرض خفيف ، يتميز بطفح مسالم ، لايثير أكثر من شعور الحكة والهرش دون ألم . وجديري الماء مرض سريع الانتشار ، بواسطة الرذاذ ، أو المخالطة المباشرة عن طريق التنفس ، حيث تنتقل مسببات المرض ـ وهي من نوع الفيروسات ـ عبر الأنفاس المشتركة .

والفيروس المسبب لجدري الماء الذي لا توجد أية علاقة له مع الجدري الحقيقي هو أقرب مايكون إلى فيروس المرض المعروف باسم الهيربس ، أو العقبولة ، فهما شقيقان .

وجدري الماء أو الجديري يتميز بحمى خفيفة مدة يوم تقريبا ، يعقبها ظهور طفح جلدي ، على الأجزاء المغطاة من الجسم ، وبخاصة البدن ، وتحت

الابطين ، وربما فروة الرأس ، ويتميز هذا الطفح بكونه غير متجانس ، حيث يبدأ ببقع ، ثم بثور ، فتتحول إلى حويصلات مائية ، ثم تجف خلال أربعة أو خمسة أيام من ظهورها ، مسببة حكة وهرشا .

وحضانة المرض تمتد من أسبوعين إلى ثلاثة ، ويكون المصاب فيها معديا لمن حوله ، في مدة خمسة أيام سابقة لظهور الطفح ، وخمسة أيام أخرى بعده ، ولهذا يفضل عزل المصاب ، وراحته لمدة أسبوع تقريبا .

والمرض شائع في الأطفال ، وسريع العدوى ، وبخاصة بين تلاميذ المدارس ، لكنه لايستثني الكبار ، بل ربما كان أشد وقعا عليهم من صغار السن .

هذا إلى أن فيروسات المرض قادرة على التسرب عبر المشيمة ، ولهذا فالأم الحامل إذا أصيبت قد تعدي جنينها ، وتكسبه المرض ، وتسبب له عاهة ، وتخلفا عقليا ، إذا لم تصل الحال إلى وفاة الجنين قبل أن يولد .

ربما اعتبر الناس جدري الماء مرضا خفيفا ، لكنه مرض غدار ، لايصح معه التهاون ، والتراخي في رعاية المريض ، وبخاصة الأطفال ، ولهذا لابد من عزل المصاب عن إخوته وأصحابه ، وفرض الراحة عليه ، تجنبا لحدوث المضاعفات النادرة التي لها عواقب وخيمة أهمها :

أولا : تقرح الجسم بسبب شدة الحكة ، ومن هنا وجب قص الأظافر ، والحرص الشديد على النظافة في استعمال عقاقير مهدئة للحكة .

ثانيا: التهاب الرئتين : هذا أحد المضاعفات المحتملة نتيجة تسرب ميكروبات (انتهازية) تجد في ضعف الطفل فرصتها للتسلل إلى رئتيه ، وأحيانا يكون هذا الفيروس سبب التهاب الرئتين .

ثالثا : التهاب المخ : هذا أحد المضاعفات النادرة ، لكن كتب الطب تسجلها ، وتؤكد تواترها .

رابعا : جدري الماء النزفي وهو المرض الذي يصاحبه نزيف مفاجىء ، يداهم المريض دون مقدمات ، بسبب نقص حاد في الصفائح الدموية ، المسؤولة عن تخثر الدم .

خامسا : جدرى الماء الخلقى : سببه كما أسلفنا هو تسلل الفيروسات ، عبر المشيمة ، من أم حامل ، مصابة إلى جنينها .

قد يظن بعض الناس أن التطعيم ضد الجدري واق ضد الجديري ؛ غير أن اختلاف الفيروسين تماما ينفي هذا الاعتقاد الخاطىء ، حيث لايوجد تشابه بين الجدري والجديري ، سوى أن كليهما يعطي منعة دائمة للجسم ، لاتحتمل معه العدوى مرة أخرى ، ولكن لايعطي أحدهما مناعة ضد الآخر ، أما الشبه الثاني فهو أنه لايوجد علاج خاص للجدري أو الجديري يقضي على المرض ، وإنما هناك عقاقير هي كلها من قبيل التسكين ، والتخفيف من المعاناة .

وحيث ان الجدري قد مضى ، وولى ، بفضل التطعيم ، فقد بقي جدري الماء وحيدا ، دون منازع ، لكن الأسف كل الأسف أن العلماء لم يتوصلوا إلى تطعيم مضاد ، يقضي عليه ، بمثل ماصنعوا مع الجدري الشرس ، ومن هنا لانجد بين أيدينا سوى الوعي ، والحذر من مخالطة المرضى ، ورعاية المصاب ، وعزله ، وراحته حتى يشفى باذن الله .

بريد طبيب الأسرة

عمى الألوان

● مصاب بعمى الألوان الذي اكتشفته على يدي الطبيب مصادفة ، وأود أن أعرف مدى تأثير هذا المرض على أولادي في المستقبل ، واحتمال انتقاله اليهم .

م ٠ م ٠ م
اسيوط - مصر

- شبكية العين هي الجزء العصبي الحساس من العين نفسها ، وهي تتركب من نهايات عصبية ، ترتبط بالعصب البصري ، وهي نوعان ، الأول يسمى العصيات ، والثاني يسمى الأقماع ، أو المخاريط ، وهذه التسمية نسبة الى شكلها ، فالأول بشكل عصا صغيرة ، يختص برؤية الأبيض والأسود ، والثاني على شكل مخروط ، أو قمع ، وعمله التمييز بين الألوان ، والألوان الأساسية ثلاثة ، هي الأحمر والأزرق والأخضر ، وكل قمع يختص بلون واحد من هذه الألوان ، فاذا افتقد الانسان أحد هذه الأقماع فقد قدرته على رؤية اللون المختص به ، وفي أغلب الحالات يصاب الانسان بعمى اللون الأحمر ، وربما يصاب بفقد لونين ، أو ربما ثلاثة معا ، لكنه أمر نادر .

ان هذا العيب لايصيب سوى الذكور فقط ، لكن الولد يرثه عن أمه ، لا عن طريق أبيه ، لهذا فالأم هي حاملة المرض ، وليست مريضة وهي تنقل هذا العيب الوراثي لأولادها الذكور فقط ، واذا انتقل للبنات فانهن لايعانين منه ، وانما يصبحن حاملات له ليصيب أولادهن الذكور فقط من بعدهن ، وقد سميت مثل هذه الأمراض الوراثية باسم الأمراض المرتبطة بالجنس ، كمرض النزاف مثلا أو الهيموفيليا على سبيل المثال .

وبالمناسبة فان كثيرا من الحيوانات تعاني من مثل هذا النقص الوراثي كما هو حال الثور والحصان والسنجاب والأفعى وما الى ذلك .

بعض المحللين يرى في عمى الألوان ميزة دفاعية ، لأنهم اكتشفوا أن الحيوانات المصابة بعمى الألوان وكذلك الانسان المصاب لاينخدع بحيل الألوان ، فالجنود الذين يعانون من عمى الألوان لاتخدعهم حيل الأعداء (الكاموفلاج) . على أي حال بامكانك أن تطمئن على نسلك ، انه لن يصاب بهذا العيب الوراثي عن طريقك ، لكنك ان تزوجت امرأة حاملة لهذا المرض فسوف يصاب .

بعد هذا يبدو لك واضحا جليا أن لاعلاج لهذا العيب الوراثي ، وليس منه خطر كبير أبدا .

ردود سريعة :

● السيد / هاني صيرفي - حلب - سوريا :

- ليس هنا من مبرر ولاسبب لاهمال ازالة الزوائد اللحمية من الأنف ، بل هي ضرورة ، لاكتمال النمو على الوجه الأصح ، غير أن الأمر يحتاج الى كشف اختصاصي الأنف والأذن والحنجرة ، ومشورته ، فهو أعلم بالأمر ، وبخاصة بعد اجراء الكشف .

مساحة ود..

جهل ومال

كان صاحبنا كاتب حسابات ، صغير الشأن ، في شركة خاصة كبرى ، وبحكم عمله في مكتب صاحب الشركة كان كثيرا ما يكلفه بالذهاب الى البيت لقضاء بعض الأعمال ، أو توصيل السيدة وصغيرتها .

كان في العشرين من عمره ، أو مايقرب من ذلك ، وكانت المرأة قد تجاوزت الثلاثين ، أنيقة ، جميلة ، فيها كبرياء الجمال والغنى ، متعالية ، فخورة بنفسها .

ذات يوم ترك الموظف الشركة ، وبدأ يعمل لحسابه « سمسارا » بين تجار الخضراوات ، ثم « سمسارا » بين عدد من التجار في مجال الحديد وبعض المعادن المستعملة ، ثم قام ببعض العمليات لحسابه الخاص ، ودارت الأعوام ، وانتقل صاحبنا من « السمسرة » الى التجارة ، وازدادت ثروته ، وتضخمت ، وأصبح له مكاتب يدير بها أعماله ، وعنده موظفون ، وسيارات ، ومعاونون .

ثم بدأ يمد نشاطه الى نفس القطاع الذي كان يعمل فيه يوم أن ابتدأ حياته كاتب حسابات صغير الشأن ، فقيرا ، متوسط التعليم ، ودخل صفقات مع صاحب الشركة التي كان يعمل بها ، وكثرت لقاءاته به ، وتردد على بيته في دعوات للعشاء والغداء ، وفي أوقات كثيرة لم يكن صاحب البيت موجودا ببيته .

وحدثت المفاجأة ، وطلبت زوجة صاحب الشركة الانفصال عن زوجها ، وألحت ، وأصرت ، وهددت ، وبعد الانفصال تزوجت من كاتب الحسابات صغير الشأن ، متوسط التعليم الذي كان يحمل لها مشترياتها ، ويصعد بها اليها ، ويقف مبهورا أمام كبرياء جمالها وتعاليها .

وعرف الناس أن كاتب الحسابات السابق قد وضع لزوجته الجديدة مبلغا من المال في البنك ، يعادل كل رأسمال زوجها السابق .

ولم أنتبه كثيرا لمحدثي وهو يستكمل وقائع هذه الحادثة الغريبة ، ولأنه ذكر لي بعض الأسماء ، ولأنني أعرف بعضا منهم ، فقد كانت دهشتي كبيرة ، ولم يعنني في الأمر كيف أثرى الرجل ، ولا بأي أعمال هامشية ، ولم يعنيني جهله المطبق وادعاؤه ، ولم أهتم لحجة وضاعة أصله ، وسوء منشئه .

وليس هذا كله في تقديري تفسيرا ولا تبريرا، وأتصور أنه كان يحل عقدته التي ترسبت مع الزمن ، ويحاول الخلاص من احساس مطلق بالدونية ، طارده طول عمره ، حتى بعد ما أصبح ثريا ، فقد كانت النظرات تطارده ، وتقول له ان الثراء يصنع أرقاما في « البنوك » ، ولكنه لايصنع قيمة ، ولاثقافة ، ولامكانة بين كثير من الناس .

محمود عبد الوهاب

جمال العربية

لغة

بقلم : محمد خليفة التونسي

حول إعراب المنقوص

جاءتنا رسالة من السيدين صلاح القبعي وفوزي أمين شهاب الدين (جنزور / المنوفية / مصر) يثنيان فيها على كتابتنا « لغتنا السمحة »[1] ، ويعترضان على بعض ما أوردناه في « إعراب المنقوص » في العدد ٣٢٥ (ديسمبر سنة ١٩٨٥) ، ويستوضحان بعض قضاياه ، ونحن نشكر لهما الثناء والاعتراض والاستيضاح .

وكنا قد اعترضنا على تعريف جمهور النحاة للمنقوص بأنه اسم معرب ، وقلنا « انه ليس على الدوام اسماً ولا معرباً ، بل هو أحياناً اسم ، وأحياناً صفة ، لأن الاسم يدل على مسمى (معنى أو ذات) ، والصفة تدل على موصوف » ووضحنا ذلك بما فيه الكفاية شرحاً وأمثلة ، على قدر ما تحتمل الصفحة اللغوية ، حتى كدنا نقع في الاطناب الممل

ولهذا نود من السيدين أن يراجعا ما كتبناه في ذلك ، ليعرفا أن الصفة قسم مستقل عن الاسم وليست منه ، وان شاركته في بعض معالمه ، ونزيد الأمر إيضاحاً بالاشارة الى أن الصفات قد تستعمل أحياناً كالأسماء كما ترى ذلك في الاعلام : شاكر ، محمد ، محمود ، فاطمة ، بل ان بعض الأفعال قد تستعمل أحياناً كالأسماء ، كما في الاعلام : أحمد ، يزيد ، ينبع ، تبارك ، جاد ، وكذلك قد تستعمل الجمل كما في الاعلام : عفا الله ، جاد الحق ، جاد الرب ، تأبط شرا . ولكن استعمالها هكذا ينبغي أن لا ينسينا أن هذه الاعلام أو الأسماء منقولة من صفات أو أفعال أو جمل .

كما نود من السيدين أن يراجعا التقسيم الثلاثي لأنواع الكلمة ، وهو ما استشهدا له بقول ابن مالك « واسم وفعل ثم حرف الكلم » ورضيه جمهور النحاة قبله وبعده ، فهذا التقسيم المشهور يحتاج الى تفصيل أكبر ، لأنه يدخل في دائرة الاسم كل ما ليس فعلاً ولا حرفاً « أداة » ، ومن ذلك ادخاله في الأسماء ما سموه « اسم الفعل » ، مثل : عليك ، واليك ، ودونك ، ونحوها ، وقد أحسن بعضهم حين جعل اسم الفعل قسماً مستقلاً ، وسماه « الخالفة » ، لأن كل لفظة منها تخلف الفعل في معناه ، كما أن هذا التقسيم المشهور أدخل في قسم الاسم ما هو صفة للفاعل أو المفعول أو التفضيل ولهذا سموه اسم الفاعل واسم المفعول واسم التفضيل ، وأدخلوا في قسم الاسم أيضاً كل الضمائر الشخصية والاشارية والموصولة وسمي بعضهم كلمات هذا القسم « الكنايات » وقد أحسن في عزلها عن الاسم .

وكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة (الخالفة والصفة والضمير) يختلف عن الآخر ، وكلها تختلف عن الاسم في بعض جوانبه ، وسنعود الى توضيح هذه الأقسام في صفحة أخرى بعون الله .

وقد استوضح السيدان منا الفرق بين إعرابنا للمنقوص في حالتي الرفع والجر ، وبين إعراب النحاة التقديري له ، والفرق يتضح في المثال الآتي : « القاضي عادل » .

فالنحاة يقولون : القاضي مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل ، ونحن نكتفي بقولنا : « القاضي مبتدأ في محل رفع . فأيهما أخصر وأسهل ، مع الخلو من الوهم ؟

ولا حاجة هنا لبيان محله (الرفع) الا حين يأتي بعده تابع كالنعت والتوكيد والبدل والعطف ، فيكون كمتبوعه في الاعراب ، والا فلا حاجة لبيان محله . وكذلك يقال في حالة جر المنقوص .

وكنا قد ذكرنا أن الفتحة في حالة نصب المنقوص قد تختفي في الشعر ، لاقامة الوزن ، واستشهدنا لذلك بقول عنترة .

ان الأفاعي ـ وان لانت ملامسها

عند التقلب ـ في أنيابها العطب

والمعنى لا يستقيم الا كذلك باثبات « الواو » ، ولكنها سقطت في الطباعة ، وقد أشرنا الى هذا وصححناه في جواب سؤال (العدد ٣٢٨ / ص ١٩٥) .

وإذن فلا حاجة لتقطيع البيت عروضياً ليستقيم الوزن ، كما فعل السيدان .

ونحن لم نقل إن الفتحة عند نصب المنقوص تختفي دائماً ، بل قلنا انها قد تختفي في الشعر لاقامة الوزن ، فهذه اذن من الضرورات الشعرية ، وقد استشهدنا لذلك هناك بشواهد كافية ولدينا عشرات الشواهد عليها .

كما أشرنا هناك الى أن المنقوص في حالتي الرفع والجر قد تظهر عليه علامة الإعراب (الضمة والكسرة) في الشعر لاستقامة الوزن،واستشهدنا له

ونزيد هنا أن المنقوص قد يصغر ، فتحذف ياؤه أيضاً في حالتي الرفع والجر ومن ذلك قول ابي الميمون القشيري :

اتاهم رُوَيـعٍ ، لا رعى المال بعدها

فقال : الا لم تلحق اليوم مرتعا ؟[٢]

فكلمة (رويعٍ) فاعل لم تظهر ضمة على آخره (الياء) ، لأن الياء محذوفة ولو كان في حالة الجر لكان أمرها كذلك ، فنقول « نظرت الى رويع في الحقل » ولكنها لو كانت في حالة نصب لكانت معربة ، فظهرت الفتحة في آخرها ، فنقول « رأيت رويعياً » .

والحركة لا تظهر على المنقوص الا حين يكون منصوباً ، فتظهر عليه الفتحة سواء وصل بما بعده في الكلام أو وقف عليه ، وسواء كان معرفاً بأل أو غير معرف بها ، ولكن لا تظهر عليه حركة الضم ولا الكسرة حين يكون في موضع رفع أو موضع كسر مع وصله بما بعده في الكلام ، فاذا وُقف عليه سقطت ياؤه ووقع السكون على الحرف السابق لها ، سواء كان معرفاً بأل أو غير معرف بها ، كما في المثالين الآتيين من قوله تعالى في سورة الرعد : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعالْ » وقوله « وما لهم من دونه من والْ » .

وكلمة « ثماني » تعامل ككل منقوص ، ولكنها حين تركب مع عشرة تظهر الفتحة على يائها (ككل منقوص) وتنفرد بجواز ظهور الفتحة على النون قبل الياء ، كقول الشاعر (الشريب) يذكر عدد ما شرب من الكئوس :

ولقد شربت ثمانياً وثمانيا

وثمانَ عشرة واثنتين وأربعا

---

(١) كتاب جمعنا فيه بعض صفحاتنا اللغوية التي نشرتها « مجلة العربي » من مارس سنة ١٩٧٣ الى يونيو سنة ١٩٧٩ ، وأخرجته المجلة حلقة في سلسلة « كتاب العربي » في أكتوبر سنة ١٩٨٥ .

(٢) التعليقات والنوادر لأبي علي الهجري ٢ / ٤١ .

جمال العربية

شعر

هكذا غنى الآباء

عذاب الحب

للصمّة بن عبدالله القشيري

الصِّمَّة [١] بن عبد الله بن الطفيل القشيرى شاعر اسلامى بدوى مقل ، عاش في العصر الاموى . احب إحدى بنات عمه (العامرية التي يسميها هنا « ريا ») فلما خطبها الى عمه اشتط عليه في المهر فسأل اباه - وكان كثير المال - أن يعاونه فلم يعنه بشيء فسأل عشيرته فأعطوه ، فلما ساق الابل الى عمه رفضها ، وطلب منه أن يسأل أباه تبديلها له ، فلما سأل اباه ذلك رفض طلبه ، ولما رأى ذلك من عمه وابيه قطع حبال الابل وخلاها ، فعاد كل بعير الى صاحبه ، ثم تحمل راحلا ، فقالت بنت عمه حين رأته يرتحل : « تالله مارأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته بأبعرة » ومضى من وجهه حتى لحق بثغر طبرستان للجهاد ، وقد طال مقامه هناك ، وكان يشتاق صاحبته ويندم على سفره ، وقد علم انها زوجت من غيره ، وكان ينظم الشعر في الحنين اليها ، ولكن عزة نفسه ويأسه ابت عليه الرجوع .

وقيل : انه لما خذله ابوه وعمه قال : « تالله مارأيت ألأم منكما جميعا ، واني لألأم منكما ان اقمت بينكما » ثم ركب ناقته وارتحل فأقام في الثغر حتى مات . ويظهر ان الحب أضناه وابلاه ، فقد حكى شيخ من أهل طبرستان - كانت له فيها ضيعة - ، أنه يوما رأى رجلا مطروحا ، وعليه ملابسُ بالية ممزقة فلما دنا منه وجده لايتحرك فأصغى اليه فاذا هو يقول بصوت خفي :

تَعزَّ بصبرٍ ، لا وجدِّك ، لا ترى … بَشامَ الحمى أخرى الليالي الغوابرِ [٢]

كأن فؤادي من تذكّرهِ الحمى … وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

ثم فاضت روحه ، فلما سأل عنه قيل له : « هذا الصمة بن عبدالله القشيرى »

ومعظم الأبيات هنا تنسب اليه في مصادرنا التراثية ، ولكن بعضها ينسب الى مجنون ليلى أو قيس بن ذريح صاحب لبنى ، ولاسبيل الى القول الفصل هنا ، لانها نتاج شعراء ظهروا في عصر واحد (الاموى) وبيئة واحدة (بوادى الحجازونجد) بعد انتشار آداب الاسلام فيها واشتداد الفاقة مع إهمال

الدولة شئونها ، فظهر هؤلاء الشعراء الثلاثة وامثالهم من الشعراء المحبين ، وكانت اشعارهم في النسيب متشابهة .

وكان المغنون القدماء يتغنون ببعض هذه الابيات ، وكان من الرواة من يعدونها احسن ماقيل في النسيب في الجاهلية والاسلام .

أمن ذكر دارٍ بالرقاشين اصبحت ... بها عاصفات الصيف بدءاً ورُجَّعا (٣)
حننتَ الى « ريّا » ونفسُك باعدتْ ... مزارك من « ريا » وشعباكما معا
فما حسنٌ أن تأتي الامر طائعاً ... وتجزع إنْ داعي الصبابة أسمعا
فليست عشيات الحمى برواجعٍ ... إليك ولكنْ خلّ عينيك تدمعا
كأنك لم تشهد وداع مفارقٍ ... ولم تر شعبَيْ صاحبين تقطعا
تحمّل أهلي منْ « قنين » وغادروا ... به أهل ريا حين جيدَ وأمرعا (٤)
ألا ياخليليَّ اللذين تواصيا ... بلوميَ إلا أن أطيع وأسمعا
قفا ودّعا نجداً ، ومن حلّ بالحمى ... وقلّ لنجدٍ عندنا ان يودّعا
قفا ، إنه لابدّ من رجع نظرةٍ ... يمانيةٍ ، شتى بها القومُ ، أو معا
لمغتصبٍ قد عزّه القومُ أمرَهُ ... حياءً يكفُّ الدمع ان يتطلّعا (٥)
تبرّضُ عينيه الصبابة كلما ... دنا الليلُ ، أو أوفى من الارض ميفعا (٦)
ولما رأيت « البشر » قد حال دوننا ... وجالت بنات الشوق يحنّنَّ نزّعا (٧)
تلفّتُّ نحو الحيّ ، حتى وجدتُني ... وجِعتُ من الاصغاء ليتاً وأخدعا (٨)
بكتْ عينيَ اليسرى ، فلما زجرتُها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
وأذكر ايام الحمى ، ثم أنثني ... على كبدي من خشيةٍ أن تصدّعا
معي كلُّ غرٍّ قد عصى عاذلاته ... بوصل الغواني من لدُنْ أنْ ترعرعا (٩)
إذا راح يمشي في الرداءين أسرعتْ ... اليه العيونُ الناظرات التطلّعا (١٠)
أما ، وجلالِ الله ، لو تذكرينني ... كذكريك ما كفكفت للعين مدمعا
فلو كنتِ من صخر ، وأعلمتك الهوى ... رثيتِ لنا حزناً ، وملتِ تضرّعا
فقالت : بلى ، والله ، ذكراً لو انّه ... يُصبُّ على صُمّ الصفا لتصدّعا

---

(١) الصِّمّة : الأسد ، والشجاع ، والمادة تدل على الصلابة .

(٢) البشام : شجر عطر الرائحة : الغوابر : الباقية

(٣) الرقاشان : جبلان في الحجاز كانت تنزلها قبيلة الشاعر .

(٤) جيد الوادي : اصابه الجَوْد وهو المطر الغزير،وقنين واد بالحجاز .

(٥) لمغتصب : مُكْرَهٌ غلبه قومه على أمره وحاول أن يمنع دمعه حياء (يقصد نفسه)

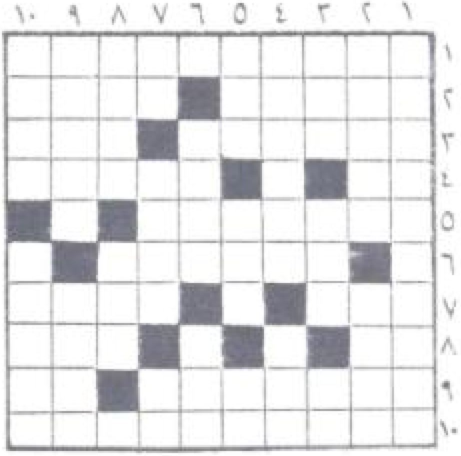
(٦) تبرض عينيه الصبابة : تأخذ دموعه شيئا فشيئا ـ الميفع : المكان المرتفع

(٧) البشر : جبل في الحجاز ـ بنات الشوق : آثاره في النفس

(٨) الليت : جانب العنق ـ الأخدع : أحد عرقين خفيين في جانبي العنق

(٩) الغر : الساذج ، الذي لم يجرب الامور ـ عاذلاته : اللاتي يلمنه ـ الغواني : جمع غانية : المرأة التي غنيت بزوجها عن غيره ، أو التي غنيت بجمالها عن الزينة . (١٠) لبس الرداءين : دليل الوجاهة

الكلمات المتقاطعة



يهدف هذا اللغز الى تسليتك، وامتاعك، بالاضافة الى إثراء معلوماتك، وربطك بتراثك الفكري والحضاري، بتعويدك على البحث الجاد المثمر في المعاجم، والموسوعات، وغيرها من المراجع. والمطلوب منك ايجاد اجابات هذه الشبكة ومقابلة اجاباتك بالحل الذي سينشر في العدد القادم.

الكلمات الأفقية :

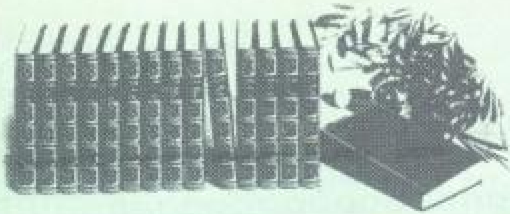
١ - مسرحية مأساوية لشكسبير
٢ - متوسطة، خوف مرضي
٣ - امرأة طلبت رأس قديس ثمنا لرقصها، ضرب ضربا خفيفا
٤ - تجدها في وفاء، عنصر أساسي في الفحم
٥ - شاعر أموي اشتهر بالهجاء
٦ - استخدمها الرسول في وصف النساء
٧ - نتاج الشجر، شجيرة مزهرة شائكة
٨ - برد شديد، (الوحش) مفترس
٩ - عالم فيزياء بريطاني له اكتشافات خطيرة في الكهرباء، نغمة موسيقية
١٠ - يعرف أيضا بالناصري

الكلمات الرأسية :

١ - والد الحجاج
٢ - جمع وسيلة، شدة وقوة
٣ - عكسها نهار، من أعداء الانسانية، تجدها في روع
٤ - يطورون مبعثرة، مكيال للحبوب
٥ - خوف لا أساس له، طعام، دام مبتورة
٦ - يزعج، ضائع
٧ - عكسها حر، أحق أو تافه، بحر
٨ - يفر، أرض مخضرة
٩ - منظف، المتلذذ بتعذيب الغير
١٠ - ضربن ضربا خفيفا، مصاب

حل مسابقة العدد الماضي يونيو ١٩٨٧



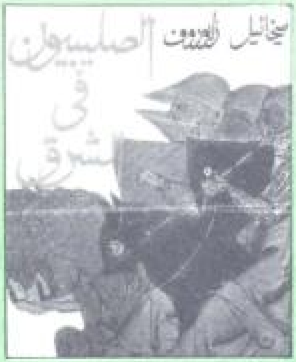


مكتبة العربي

كتاب الشهر

تأليف : ميخائيل زابوروف   عرض : محسن خضر

الصليبيون في الشرق



رغم مرور ٨٠٠ عام على انتصار صلاح الدين الحاسم على الصليبيين الغزاة فان جرح الهزيمة لم يندمل ، بل بقي ندب الاحتكاك المسلح بين الشرق والغرب حاضرا في علاقتهما على الدوام ، فالمؤرخون الغربيون يحاولون تبرير الحروب الصليبية ، ومؤرخو الشرق يرفضون التبرير ، ويقدمون تفسيرهم الخاص .

وأخيرا دخل الاستشراق السوفياتي عبر هذا الكتاب ليقول كلمته في الحروب الصليبية التي مازالت حاضرة في الذاكرة رغم القرون التي مضت على انتهائها .

كتاب الشهر

تكتسب دراسة «الصليبيون في الشرق» للمستشرق الروسي ميخائيل زابوروف أهميتها بسببين رئيسيين، فهي من ناحية الشكل تتزامن مع مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين (٤ يوليه ١١٨٧)، ومن ناحية الموضوع لعلها الدراسة الأولى في مدرسة الاستشراق الروسي عن هذه الحروب.

ومن الواضح أن مؤلف الدراسة التي ترجمها الياس شاهين قد استفاد جيدا من المراجع الاوروبية حول هذه الحروب التي تتناثر عبر صفحات الكتاب. يعجبنا هذا الربط العلمي الذكي عند زابوروف لتاريخ الحروب الصليبية بالوضع الدولي المعاصر «فالحروب الصليبية التي صارت طي الزمان وثيقة الارتباط بالعصر الراهن، لا سيما بالصراع الايديولوجي والسياسي في العالم».

ويشير زابوروف الى أن تاريخ الحروب الصليبية مازال يشغل العقول كثيرا في أوروبا، والولايات المتحدة، وآسيا، وأفريقيا، بل حتى في استراليا أيضا.

ويلاحظ المؤلف أن الجاسوس الانجليزي الشهير ت. إي. لورنس قد اختار ـ حين كان طالبا في اكسفورد ـ موضوع «تأثير الحروب الصليبية في الهندسة المعمارية الحربية القروسطية في أوروبا» ليقدم أطروحته وقد ذهب الى لبنان وسوريا لمعاينة القلاع الصليبية المتبقية، مما يؤكد تشابك العلم مع السياسة في دراسة تاريخ الحروب الصليبية.

حروب قبل الحروب

لم يظهر مصطلح الحروب الصليبية في رأي زابوروف إلا حديثا، حيث ان أول من استعمله هو المؤرخ الفرنسي لويس ممبور، في مؤلفه «تاريخ الحروب الصليبية» سنة ١٦٧٥م، أما في القرون الوسطى فكان يشار إلى هذه الحروب بمصطلحات أخرى، مثل الترحل، والتجواب، والحملة، والسفر وراء البحار، والطريق الى الأرض المقدسة. ويجرد زابوروف الحروب الصليبية من قناعها الديني، ويردها الى أسبابها الداخلية، وهي تدهور الأحوال الزراعية في الدول الأوروبية، وانتشار المجاعة، حيث سادت «سنوات سبع عجاف»، قبيل الحروب الصليبية مباشرة، كما سادت الحروب الداخلية المتكررة، وقد ساعدت الكوارث الطبيعية والأوبئة الفتاكة والظلم الاقطاعي للفلاحين على التمهيد لفكرة تلك الحروب، ومما ساعد على ذلك أيضا تعاظم الميول الدينية في الريف، نتيجة ظروف حياة الفلاحين والعبيد القاسية، من فقر وظلم وجهل وعبودية.

ويصل المؤلف الى الدافع الرئيسي للحروب الصليبية «إن مصالح الاقطاعيين الملحة والحيوية قد طرحت أمامهم، بوصفهم طبقة، مهمة عاجلة قوامها البحث عن أسلوب لحل القضايا الناشئة، يتيح لهم تلبية حاجاتهم المتعاظمة الى الأراضي والأيدي العاملة الاجبارية، والنقود والثروات من كل نوع، ويخلص كبار الأسياد من مآثم صغار الفرسان، والفرسان من مصير المعدمين ونصيبهم، ويثبت في الوقت نفسه دعائم النظام القائم ويوطده».

وبرغم تعقد أبعاد اللوحة التي أطلق البابا نداءه وسطها إلى الشرق، إلا أن المغزى والتأثير المحيطين بعملية الحج إلى فلسطين باعتباره من الطقوس المسيحية المقدسة له أهميته الخاصة، لأن السفر إلى

الشرق رمز إلى تحول الانسان العادي إلى قديس ، كما صار الحج أهم علامة على قطع صلته بالعالم الباطل ، وبالرغم من أن الحج مشروع ديني صرف ، إلا أنه كان ذريعة مناسبة ، لبلوغ هدف سياسي معين ، يتمثل في كونه وسيلة مضمونة لتوطيد نفوذ الأعيان بين أفراد الشعب ، خالطتها الرغبة في اكتساب سلع الترف في الشرق ، ورؤية أماكن جديدة ، وأصبح الفرسان الذين كانوا ينهبون الكنائس والأديرة في بلادهم يتطلعون الى الغفران وخلاص الروح عن طريق الحج ، بالرغم من أعمالهم السابقة.ويخلص المؤلف إلى أن « حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريا وعمليا ، فقد أسهمت في تعاظم الأمزجة والميول الدينية الزاهدة ، وعرفت الأوروبيين على الطريق إلى الشرق ، وعلى الوضع في البلدان الشرقية ، وهيجت تعطش الاقطاعيين الذي لا يرتوي إلى امتلاك الأراضي فيما وراء البحار » .

وبالاضافة الى الحج،فقد هيأت الحروب التي نشبت في القرن الحادي عشر في الغرب والتي جرت تحت راية دينية الأرضية من أجل التوسع الاقطاعي الواسع إلى الشرق ، وانخرط الفرسان الفرنسيون في الصراع ، من أجل استعادة الأراضي التي سبق أن احتلها العرب في أسبانيا ، وكانت هذه الحروب ـ كما يذهب المؤلف ـ بمثابة (حروب صليبية) قبل الحروب الصليبية . ومن ناحية الكنيسة يعتقد المؤلف أن الاصلاحات الكنسية في القرن الحادي عشر هي إحدى المقدمات المباشرة للحروب الصليبية في الشرق ، حيث ضمنت للبابا مكانة راسخة ، وأجبرت العالم الاقطاعي على الاصغاء بانتباه إلى صوت الحبر الأول في روما.وفي سنة ١٠٧٤ وجه البابا رسالة الى الكونت غليوم الأول ، والامبراطور الألماني هنريخ الرابع ، وماتيلدا مارك كونتيسة توسكانا ، وجميع الأوفياء للقديس بطرس ، ودعاهم فيها إلى تخليص الكنيسة الشرقية من البلية ، وإلى الاشتراك في الحرب في الشرق لهذا الغرض ، ووعدهم بالثواب على محاربة الكفار ،«ونصحهم قائلا : قاتلوا بجرأة ، لكي تنالوا في السماء مجدا ، يتجاوز جميع توقعاتنا ، وتسنح لكم الفرصة لاكتساب الغبطة الأبدية بعمل طفيف » ، ولقي هذا النداء صدى واسعا لدى الملوك والفرسان والأعيان والمعدمين على السواء ، لأسباب مختلفة .

ويعلق المؤلف على هذا النداء بأن « نوايا روما لم تكن تمت بصلة إلى إنقاذ المسيحية » ، ويدفع المؤلف عن السلجوقيين تهمة التعصب الديني ضد المسيحيين ، والأقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين في ظل حكم السلجوقيين ، وعن العقبات التي أقاموها في وجه الحجاج ، وهي اختلاقات باطلة ، تفتق عنها خيال كتاب كنسيين بيزنطيين وغربيين ، وعلى العكس من ذلك يرى زابوروف أن المتوفر للمسيحيين ولليهود هو إمكانية ممارسة شعائرهم الدينية بلا عائق .

ويستخلص المؤلف بأن الباباوات قد استغلوا ضعف اطلاع أوروبا الغربية على ما كان يجري فعلا في الشرق ، فانصرفوا الى تضليل العالم الكاثوليكي ، وقررت البابوية تحقيق أهدافها السياسية بتأسيس دولة ثيوقراطية عالمية ، مستغلة الميول العدوانية للحكام الاقطاعيين . وقد اتفق نداء البابا أوربان الثاني في كليرمون مع مصالح الاقطاعيين ، وكذلك الفرسان والأسياد ، حيث وجد بينهم تربة صالحة لفتح بلدان وراء البحار ، كما أهاج خطابه الفلاحين الفقراء ، لأنه وعدهم بمنالين عزيزين ، الأرض والحرية .

موقعة حطين

ربما كانت وقائع الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام معروفة لعامة القراء ، ولذا سنتوقف عند الجوانب التحليلية في كتاب المستشرق الروسي ، وبخاصة الفصل الخاص بنتائج الحملات الصليبية .

لقد توقفت الحروب الصليبية وانتهت عندما

سحق مماليك مصر آخر ممتلكات الفرنجة في الشرق وأبادوها واحدة تلو الأخرى، وباستيلاء قوات الملك الأشرف خليل بن قلاوون على طرابلس (١٢٨٩)، وعكا (١٢٩١) انتهى عهد الحروب الصليبية التي تكونت من أربع حملات صليبية، وحملتين طفوليتين. وتحظى موقعة حطين بيريق وأهمية خاصة في تاريخ الحروب الصليبية، فقد وحد صلاح الدين الأيوبي مصر، وقسما كبيرا من سوريا، وبلاد ما وراء النهرين، واعتبر حاكم الموصل زنكي الثاني نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين الذي صار «أقوى حاكم في العالم الاسلامي»، وقد وجه صلاح الدين الذي أسس سلالة الأيوبيين جميع موارد الدولة إلى النضال ضد الافرنج، وبما أنه استهدف في المقام الأول القضاء على مملكة القدس، فقد تعهد بشن الجهاد على أعداء الاسلام، فأغار على غزة، وايله، وبلغت فصائل المسلمين صيدا وبيروت، وفي سنة ١١٨٠ انتزع أسطول صلاح الدين جزيرة أرواد من الصليبيين.

بدأ ضغط المسلمين المنتظم المستمر على ممتلكات الافرنج، منذ الثمانينيات من القرن الثاني عشر، وقد أتاح ذلك لصلاح الدين الفرصة، وأن يقتحم بقواته المقاطعات الداخلية من مملكة القدس، في سنة ١١٨٧، نتيجة غياب التلاحم بين القوات الصليبية، والتنازع بينها على الأراضي والألقاب، وفي الحيل والمؤامرات الديبلوماسية.

وتطورت الأحداث، بنقض البارون القرصان رينودي شايتون - حاكم الكرك - معاهدة الهدنة، بين مصر ومملكة القدس، وذلك عندما نهب قافلة مسلمة، كانت فيها أخت صلاح الدين، فطالب صلاح الدين ملك القدس جي دي لوزينيان بالتعويض، ومعاقبة الناهب، والافراج عن الأسرى، إلا أن الأخير خشي معاقبة تابعه القوي، فاجتاحت قوات صلاح الدين مناطق الكرك وكراك دوي مونريال. وبعد شهرين بدأ الجهاد ضد الفرنجة، واحتشدت قوات المسلمين الموحدة التي قدمت من دمشق وحلب والموصل ومقاطعات ما بين النهرين. وفي مايو ١١٨٧ أبيدت فصيلة كبيرة، مؤلفة - أساسا - من الفرسان الرهبان في الشمال الشرقي من الناصرة، وفي الثاني من يوليو استولى جيش صلاح الدين على طبرية، ثم ضرب حصارا مكثفا حول مواقع الصليبيين، بجوار قرية حطين، بين الناصرة وبحيرة طبرية، وفي ٤ يوليو دار القتال واستمر، وجرت المعركة في وضع غير ملائم للصليبيين، في قيظ رهيب، مع نقص مياه الشرب، وأحرق المسلمون الأعشاب والشجيرات في المنطقة، فلفت سحب الدخان طوابير الفرسان الصليبيين، ودارت معركة استمرت سبع ساعات، سقط فيها مئات الفرسان، وآلاف المقاتلين المشاة، ووقع في أسر صلاح الدين الملك جي دي لوزينيان، وقائد الجيش الفرنسي أموري دي لوزينيان، وكثيرون من البارونات، وحفظ صلاح الدين حياة أغلبية الأسرى، باستثناء ٢٠٠ من فرسان الهيكل والاوسبيتاليين فقد أعدموا، أما حاكم الكرك دي شايتون، وناقض الهدنة، فقد قطع السلطان الظافر رأسه.

فتح انتصار حطين الطريق أمام صلاح الدين، لاسترداد المدن الساحلية كلها، الواقعة جنوبي طرابلس، فاحتل المسلمون عكا، وبيروت، وصيدا، ويافا، وقيسارية، وعسقلان، وقطع اتصالات القدس مع أوروبا. وفي النصف الثاني من

يوليو ١١٨٧ حاصرت قوات صلاح الدين القدس ، ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة حمايتها من ضغط جيش مؤلف من ٦٠ ألف رجل ، وفي اكتوبر من نفس العام استسلمت المدينة ، وسيطر المسلمون على القدس ، وبرهن صلاح الدين أنه رجل دولة حكيم ، فعامل القدس وسكانها معاملة أرق وأخف بكثير مما عاملهم الغزاة الصليبيون ، حين انتزعوا المدينة من حكم مصر ، قبل ذلك بنحو مائة سنة ، فلم يبطش بسكانها ، ولم يدمرها ، وسمح للسكان المسيحيين بمغادرة القدس بعد دفع الفدية ، عن كل رجل ١٠ دنانير ذهبية ، و ٥ عن كل امرأة ، ودينارا ذهبيا واحدا عن كل طفل ، ولم يستطع ١٥ ألف شخص افتداء أنفسهم ، فبيعوا عبيدا .

ويفسر المؤلف الأسطورة التي أحاطت بصلاح الدين في الغرب قائلا انها تعود إلى رقته ورحمته في معاملة سكان القدس بعد فتحها ، كما أن اعتداله قد أتى لاعتبارات سياسية ، وهي رغبته في ضم أراضي دول الصليبيين إلى الدولة المصرية .

وأصبحت مملكة القدس بصورة كلية في يد صلاح الدين ، عدا مدينتي صور ، وطرابلس ، وبضعة استحكامات صغيرة ، وحصن الاوسبيتاليين المنيع كراك دي شيفاليه ، وعندما سمع البابا أوربان الثامن بسقوط القدس توفي من وقع الصدمة .

هزائم في مصر

لقي الصليبيون هزيمتين في مصر ، الأولى عام ١٢٢١ ، بعد أن احتلوا دمياط ، احتلالها كان عام ١٢١٩ بعد حصار سنة ونصف السنة وبعد إبادة حاميتها ، إلا أنهم ردوا عند المنصورة بفعل فيضان النيل ، وقطع المسلمون طريق التراجع ، وحوصر الصليبيون من جميع الجهات ، من جانب قوات السلطان الكامل وأخويه ، الأشرف والمعظم ، فانسحب الصليبيون من مصر عام ١٢٢١ ، وضاعت دمياط على الصليبيين ، وفارق الصليبيون مصر ، ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل التام » . أما الحملة الثانية فكانت في يونيو عام ١٢٤٩ ، نزل الصليبيون مصب نهر النيل ، وأشاعوا الذعر بين سكان دمياط ، واحتلوا المدينة ، وقد أثار سقوطها الذعر في بلاط الملك المحتضر الصالح . وقد حاصروا المنصورة ، واستولوا عليها ، في فبراير ١٢٥٠ ، وساعدتهم الخيانة على ذلك ، كما استشهد القائد المصري فخر الدين .

لكن سرعان ما حاصر المسلمون بقيادة الملك المعظم طوران شاه ـ وهو الملك الأخير من سلالة الأيوبيين ـ الغزاة ، ولقي كثير من الفرسان الصليبيين وبضع مئات من المشاة مصرعهم ، وبعد فترة من الوقت أغرق المصريون الأسطول الصليبي الذي كان يرسو قرب المنصورة ، وقطعوا طريق الفرسان مع دمياط التي كانت قاعدة لتموينهم ، وتحت طائلة الموت جوعا أسرع الصليبيون في الجلاء عن المنصورة ، وقد فروا منها برا وبحرا ونهرا ، وزال جيشهم من الوجود ، ووقع في الأسر آلاف الفرسان والمشاة ، وفي عداد الأسرى كان لويس التاسع ذاته ، مع أخويه ، وسرعان ما صار المقاتلون الصليبيون الأسرى ضحية للأمراض ، كالملاريا والدوستاريا والأسقربوط ، وقد سقطت أسنان الملك ، وحملوه على نقالة . وفي مايو ١٢٥٠ أخلي سبيل لويس التاسع لقاء فدية ضخمة (٢٠٠ ألف ليرة) ، وغادر الصليبيون دمياط ، ورحلت بقاياهم إلى عكا .

وبالرغم من أن لويس التاسع بقي في فلسطين أربع سنوات أخرى إلا أن ملوك أوروبا تجاهلوا إغاثته ، فقد كفاهم الدرس الذي تلقوه في مصر .

ريح الشرق وريح الغرب

يعدد المستشرق الروسي أوجه التأثير الثقافي الشرقي على أوروبا من خلال الحملات الصليبية ، فالتعرف على الشرق أسهم في إحداث تغيرات في

نمط حياة الأسياد في الغرب ، فان الفارس الصليبي كانت تستحوذ عليه - بعد عودته إلى الوطن - مطامح جديدة ، ولم يكن يعارض الاستعاضة عن اللباس الخشن المغزول في البيت بالألبسة الشرقية الناعمة الجميلة ، وتزيين جدران بيته بالسجاجيد ، والاستعاضة عن المرآة من البرونز المصقول أو من الفولاذ بالمرآة من الزجاج ، ولماذا لا يستكمل المائدة القروية البسيطة بمآكل متأنقة من المطبخ الشرقي ، وبالتوابل ؟ ولماذا لا يشرب الخمر الشرقي ويقدمه لضيفه ؟ وخلاصة القول ان حاجات الاقطاعيين قد تزايدت ، وبنيتها قد تغيرت ، وقد اقتبس الغرب كثيراً من شعوب العرب المسلمين في مجال التقنية ، فاقتبسوا الطاحون الهوائي من سوريا ، ومن سوريا أيضا أخذ الغرب الدولاب المائي المحسن الذي حسنه الميكانيكيون العرب ، بعد أخذه من روما ، وكان يستعمل على نطاق واسع في سوريا ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، واشتهر صناع أنطاكية بصنعه ، كما شرعوا في أوروبا في استعمال الحمام الزاجل الذي كان مستخدما من قديم الزمان في بلدان المشرق ، ففي القرن التاسع كان الحمام يؤمن « خط البريد » بين الموصل وبغداد وغيرهما من المدن . ثم ان الأوروبيين اقتبسوا من الشرق بعضا من مزروعات الحقول والبساتين والقرعيات التي لم يكونوا يعرفونها ، مثل القمح الأسود ، والأرز ، والبطيخ ، والمشمش ، والليمون وبعض أصناف الزهور ، وسكر القصب ، ودخلت كلمة « السكر » العربية محورة إلى كثير من لغات الشعوب الأوروبية ، وفي القرن الثاني عشر أيضا تطور صنع الأقمشة ، حسب النمط الشرقي .

كذلك انعكس تأثير الشرق على نطاق واسع جدا في ميدان الآداب والمعيشة . ومنذ الحملات الصليبية شرع الأوروربيون يربون اللحى، ويلبسون العمائم على الطريقة الشرقية ، ويأخذون الحمامات الساخنة ، ويغيرون الثياب الداخلية والخارجية ، كذلك نقل الغزاة إلى أوروبا سمات الأسلوب الشرقي في الهندسة المعمارية ، وقد كان جامع الخليفة عمر في القدس المثال الأولي للهياكل ذات القبب في كنائس الرهبان الهيكليين ، وفي القرن الثاني عشر تم بناء عدد كبير من المعابد ، وبخاصة في فرنسا ، نقلا عن كنيسة القبر المقدس في القدس .

ثم إن الصليبيين حملوا إلى أوروبا بعض الأدوات الموسيقية ، ومنذ زمن الحملات الصليبية بدأت عادة عزف المؤلفات الموسيقية العسكرية في ميدان القتال ، اقتباسا عن جيوش المسلمين . ولكن زابوروف يلاحظ أنه لم يطرأ في دول أوروبا الصليبية تفاعل ، أو تأثير متبادل بين الثقافة الروحية الشرقية والثقافة الروحية الغربية ، فقد منعت الحروب ، وتمرد السكان المحليين تحقيق ذلك ، كما لم يهتم رجال الكنيسة الكاثوليكية المتعصبون بثروات العالم العربي الروحية ، فقد أحرقوا مكتبة طرابلس مثلا ، بعد استيلائهم على المدينة ، لأنهم وجدوا فيها بضع نسخ مخطوطة من القرآن .

كما وسعت الحملات الصليبية آفاق تصورات الأوروبيين الغربيين الجغرافية والعرقية ، وازداد نظام العلاقات الدولية بين الغرب والشرق تعقدا من جراء الحروب الصليبية . ويشير المؤلف إلى

« تشرّق » الأعيان الأوروبيين ، باندماجهم في المجتمع العربي ، وزواجهم من سريانيات وأرمنيات ومسلمات ، وكانوا يعيشون حسب عادة زوجاتهم ، فمن كان رومانيا أو فرنسيا صار جليليا أو فلسطينيا ، ومن جاء من ريمس أو من شارتر صار ـ هنا ـ صوريا أو أنطاكيا .

فشل أم نجاح ؟

في الفصل الأخير من الكتاب يقيّم زابوروف الحروب الصليبية التي امتدت ٢٠٠ عام ، فإن الأهداف المباشرة التي طرحها ملهموها ومنظموها لم تتحقق ، بهذه العبارة يلخص المستشرق السوفييتي نتيجة الحروب الصليبية :

فالدول الاقطاعية التي أسسها الاقطاعيون الغربيون في المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط دامت حقبة قصيرة نسبيا ، ولم تستطع أن تصمد لضغط العالم الاسلامي .

أما الكنيسة ، فالكرسي الرسولي ، وإن نجح في تعزيز قاعدته المالية بفضل الضرائب والاتاوات الصليبية ، إلا أنه أدى إلى إخفاق الحملات الصليبية في النهاية ، وإلى تقويض سمعة البابوية وتدهورها حقا .

ومن عواقب اشتراك الاقطاعيين في الحركة الصليبية ارتفاع مستوى وعيهم الذاتي الطبقي ، فباشتراكهم في المعارك ضد العدو المشترك ـ بوصفهم القوة الحاسمة ـ أدركوا بجلاء انتماءهم إلى فئة اجتماعية واحدة ذات مصالح مشتركة .

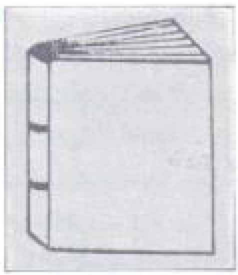
واختلفت مصائر الدول الاوروبية المشتركة في الحملات الصليبية ، فقد عززت مركز الفرنسيين ، وتوطد مركز فرنسا سياسيا تحت حكم ملوكها ، مما أسهم في نمو الوعي القومي ، وعززت في ألمانيا الميول اللامركزية فيها ، معجلة بانقسامها إلى إمارات مستقلة ، كما كسبت جنوة والبندقية من الحملات الصليبية كثيرا ، وقد عنت الحملات الصليبية بالنسبة للطبقة الاقطاعية في أوروبا الغربية سفك الدماء بمقادير هائلة ، ذلك أن النجاح في الشرق كلف ضحايا كثيرة ، وقد نتج عنه تغيرات ملحوظة في توزيع ملكية الأرض في بلدان الغرب ، وبالأخص توسيع ملكية الكنيسة للأرض ، فلقد كلفت الحروب الصليبية شعوب أوروبا كثيرا ، حيث هلك مئات الألوف من الناس ، وأنفقت الملايين من الأموال التي ترسب قسم كبير منها في خزائن بابا روما ، وتركت هذه الحروب في وعي الجماهير الشعبية في اوروبا عن نفسها ذكرى حزينة ومشؤومة .

وكما يقول زابوروف : « إن الحروب الدينية عنت من وجهة نظر التقدم الأوروبي العام ، بتبديد القيم المادية ، والموارد البشرية ، بمقادير كبيرة ، وعبثا لقد تسببت الحروب الصليبية في انحطاط مراكز الشرق الأدنى المزدهرة اقتصاديا وثقافيا ، وكانت بالنسبة لبلدان شرقي البحر الأبيض المتوسط كارثة حقيقية ، ذلك أن الصليبيين حملوا إليها الخراب لعشرات السنين ، اجتاحوا خلالها المدن والقرى في آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر ، ونهبوها ، واستحقوا عن جدارة كره شعوبها لهم وازدراءها .

إن سحق بيزنطة في سنة ١٢٠٤ لصالح الاقطاعيين الاوروبيين كان أهم ثمرة من الثمار المشؤومة للحروب الصليبية ، لأن الصليبيين دمروا بيزنطة التي كانت على امتداد مئات السنين حصنا ضد جحافل البرابرة من كل شكل وطراز ، وبذلك فتحوا الطريق أمام الاجتياح العثماني . □

✽ بعض الناس يمارس الحياة في اطار نفسه ، وكأنه يعيش في جزيرة منعزلة .

(براتراند رسل)



«أم أيشين» والشهادة على زمن مضى

تأليف : دكتور جاسم الهاشمي

عرض : دكتور محمد حسن عبد الله

«أم أيشين» أو أم أي شيء» رواية مستفزة ، تشق الأعوام الطويلة ، لتقدم صورة تراجيدية للريف ، تنتفض بقوة الحياة ، وتنازل قسوة المقادير ، حتى وهي تعاني آلام الاحتضار بفعل الجفاف المميت» .

«أم أيشين» رواية شعرية ، وهي طفرة على طريق خاص للرواية العربية العراقية ، لا تشبه أي رواية أخرى . فيها من «زينب» الدكتور هيكل أشباه ، وفيها من «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح ملامح ، أهمها تلك الخصوصية الرائعة التي تحمل عبق الزمان والمكان ، فتصل إلى جوهر الانسان العام ، لصدق هذه الخصوصية . »

«أم أيشين» اسم قرية صغيرة ، بائسة ، صنعت بيوتها من بوص الأهوار في جنوب العراق ، تعيش في عزلة عن الزمن ، وغياب عن العصر ، وقد عرفنا بعد مائتي صفحة أن ما يجري كان حول عام ١٩٤٤ ، ومع هذا فقد كانت غاية المتمنى أن يذهب الرجل إلى السوق ، إن كان من السادة ، أما رؤية مدينة العمارة ، أو التفكير في زيارة البصرة ، فهذا مما لا يسهل المجازفة به . تتأمل الاسم «أم أي شيء» فتجده يحمل معنى التناقض : التنكير والتجهيل ، إنها أم أي شيء ، كلا شيء ، كما يعني أنها أصل كل شيء . كاتبها طبيب وأستاذ ، لم يستخدم خبرته العلمية ، ولا وعيه المنهجي وأسلوبه المعقم في كتابة الرواية ، لقد كتبها بكل ما في النفس الانسانية من أحلام البراءة والفطرة وحرارة الشوق لمعانقة الحياة ، فجاءت الرواية تضج حياة وموتا ، شعرا وواقعية ، عذرية وجنسا ، تساميا روحيا ، وتجديفا قلقا ، إنها ليست حديقة زهور نسقتها خبرة البستاني ، بل هي الغابة العذراء ، لم تطأها قدم إنسان ، فانطلقت

صورها الرائعة بكل ما في الفطرة من جمال الحرية .

عندما تضحك الحياة

الحكاية في الرواية هي حكاية الحياة في القرية ، القرية هي البطل ، والطبيعة هي صانعة القرية ، إذا اقبل الربيع ، وأزهرت الصحراء الماحلة ، واخضرت سنابل القمح ، ضحكت الحياة ، وأزهرت القلوب بالحب ، فجرى الماء في سيقان النبات ، وفي قلوب العذارى والفتيان ، وإذا جاء الأزرق ، الشتاء ، أو استحكم الجفاف ، تحولت الطبيعة إلى ضبع كريه ، مكشر عن أنيابه ، يرى الناس جِيَفاً ، ينبغي تطهير الأرض منها .

للقرية سيد ، لم نعرف اسمه ، إن صفته المكتسبة بالانتساب إلى بيت ديني تكفي ليكون المطاع ، حول هذا السيد مجموعة من السادة ، من الدرجة الثانية ، لهذا يسميهم الناس « طيور السادة » ولهذا يحملون أسماء تميزهم ، مثل أهل القرية : جاسم ، وباص ، وماذى . هؤلاء لا يعملون في غير فلاحة الأرض ، وهم من حيث الانتماء العرقي أعوان للسيد ، ولكنهم في موقعهم الاجتماعي أقرب إلى سائر الناس ، يتبادلون معهم الصداقة ، والشتائم أيضا .

تنقسم الرواية إلى ثلاثة أقسام ، متقاربة الحجم ، وإن لم تكن متقاربة المساحة الزمنية ، القسم الأول أقصرها زمانا ، ولعل الكاتب استخدم فيه ـ دون غيره ـ أسلوب استعادة الماضي ، عن طريق التذكر ، ليوازن بين هيمنة الراهن ، وتوضيحه بالكشف عن جذوره . كل قسم يمضي في خطين متوازيين من حياة القرية في مجموعها ، وحياة عدد قليل من أفرادها ، هم الأكثر تمثيلا لطبيعة المرحلة . القسم الأول هو الأكثر تماسكا ، لوضوح عنصر الحكاية ، ولامتزاج الخطين الممتدين في مساحات ليست قليلة ، بحيث تبادلا الاشعاع ما بين الواقع والرمز ، فمن بين فتيان القرية وفتياتها يزهر حب ، له جذور قديمة بين حسن وفطومة ، يتوقان للقاء ، وتلتهب القرية بالجفاف ، فيأتي السيد « بماكينة » ، يضعها على النهر البعيد ، ويسوق جميع الرجال في القرية ـ سخرة ـ لحفر قناة ، تحمل الماء إلى مشارف القرية ، لري الأرض . حسن يشارك في الحفر ، ويغني للرجال ، هو في الحقيقة يغني وجده الخاص ، حين يظهر المنافس العجوز المزواج « شحيت » ، وينال الحظوة لدى سلطان ، والد فطومة ، لأنه يملك المال ، يتغير سلوك حسن وفطومة ، ويغادران مشاعر العذرية ، ويقرران القفز فوق عوائق المجتمع ، يلتقيان بين السر والعلن ، فتتحول الأشواك من حولهما إلى ورود . وفي اليوم الذي ينتهي فيه الرجال من حفر القناة ، ويفرحون بوصول الماء لأول مرة ، تشتعل البيوت نارا ، وهي من البوص ، في يوم عاصف ، ويكون الحبيبان من بين الضحايا ، وقبل أن يشرب الناس من الماء يغسلون موتاهم .

اقترن في هذا القسم الأول البحث عن الحب ، والبحث عن الماء ، وانهزم الحب حين أشعل « شحيت » الحريق ، وقضى على الحبيبين ، لكن الماء وصل القرية ، ومنه استمدت دوافع جديدة للاستمرار ، فانطوت على جراحها ، تطببها بالبناء من جديد ، إن رموز البقاء لاتزال صامدة ، لم يجرء الحريق على الاقتراب منها : القلعة القديمة المطلة من فوق التل ، والمضيف ، والماء ، أو لنقل : إنها التاريخ ، والايمان ، والعمل .

ملح الأرض

في القسم الثاني يختفي التركيز على شخصين ، بل ينقطع ذكر « فطومة » و « حسن » ، وتتحدد معالم الحياة الاجتماعية أكثر ، ما بين السيد ، وطيور السادة ، وملح الأرض من المعدمين . جرت المياه ، فبدأ التحكم فيها ، ومن خلالها ، فنشب الصراع حولها إذ حال السيد بين القرية واستخدام الماء في حياتها اليومية ، إنه للزرع فقط ، و « الماكينة » لن ترفع

الماء من النهر إلا حين يحتاجه الزرع . ثم إن للسيد من محصول كل فلاح حصة ، بحق السيادة ، وحصة لما بذل من ماله ثمنا « للماكينة » ، وللمضيف حصة ، فمن المحتمل ألا يبقى للفلاح شيء ، بل قد يخرج مدينا ، على أن السيد يشاغل القرية بأمل جديد ، بعد أن استنفد أمل الماء ، وانتهى إلى بقايا آسنة خضراء ، لا تجري إلا إذا عطش الزرع ، إنه يبشر القرية بالمدرسة ، لا يعرف اكثرهم ما المدرسة ، ولا ما هو القلم ، لكن السيد صرح أنه سيأتي بالمدرسة ، ويجعل من أبنائهم وزراء !! فما أروع هذا الأمل الجديد ، وما أحرى القرية أن تبني المدرسة ـ سخرة ـ كما حفرت القناة سخرة ، وأن تكون لاهجة بالثناء على السيد في كل حال ، غير أن السيد الذي استطاع أن يبسط سيطرته على الماء لم يستطع أن يفعل الشيء نفسه مع المدرسة ، لقد بنيت في موقع بين القرى ، وليست ملاصقة لأم أيشين ، لقد أرادها أو أريد لها أن تكون بعيدة عن القرية ، لكن هذا البعد أدى إلى معرفة ومخالطة بين أولاد أم أيشين وأولاد القرى المجاورة ، فبدأ أفق الناس يتسع باتساع عالمهم ، وفي المدرسة سمع الأولاد لأول مرة كلمة جديدة ، عرفوا معناها : الوطن ، وهذا الوطن اسمه العراق ، وله علم ينبغي أن يصفقوا له عندما يرتفع في ساحة المدرسة ، وحين يتحدث أحد المدرسين إلى السيد ، يطلب منه إطلاق الماء لترتوي المدرسة ، فيرفض ، وتظهر مخاوفه أو موقفه الحقيقي ، بدرجة تجعلنا نتشكك في أنه كان صاحب قرار المدرسة ، أو كان موافقا عليها ، إنه الآن يعلن أنه لم يوافق على أن يكون مقرها في أم أيشين ، فقد أراد أن تكون بمعلميها وطلابها وحكومتها بعيدة عن القرية ، أما وان هذا البعد النسبي لم يصرف الناس عنها ، فإن السيد مضطر أن يقف وراء متاريس الورع : « أريدكم أن تعلموا .. أن المدرسة للكبار والصغار .. وحتى أبريء ذمتي أقول : نعم ، إني غير متأكد من حرام المدرسة وحلالها »

(ص ٢١٩) ، بهذا الموقف المتناقض ، الكاشف عن روح الاقطاعي في إهاب رجل الدين والزعيم الروحي ينتهي هذا القسم الثاني ، غير أنه اشتمل على حكاية حب أخرى ، فاجعة ، هي بمثابة رمز ، مستخلص من وضع المدرسة بين الأمل والمتحقق ، فقد أحب البدوي(منيهل)الفتاة الحسناء (حميدة) ، ابنة كبير الجمالة ، فاستعان بواحد من طيور السادة ـ جاسم مؤذن القرية ـ اخضر القلب ، فخطبها له ، والسيد ـ مهما كان موقعه من تسلسل السيادة في القرية ـ هو سيد بنسبه وشرفه لا ترد كلمته . وهكذا تزوج منيهل من حميدة ، وعاشا سعيدين ، ولكن كبير الجمالة (وهم أشبه بالغجر في نشاطهم وقيمهم) قرر أن يسترد ابنته ، ويكره البدوي الفقير على طلاقها ، ليزوجها لرجل غني من الخليج . وهكذا خطف حميدة بليل ، وهام زوجها البائس على وجهه في الصحراء ، لا يجد من يعطف على جرحه ، فتقوض حلم آخر من أحلام الحب ، بفعل الأب أيضا ، كما حدث بين حسن وفطومة ، ففي النهاية يلتقي خط المدرسة التي بدأت أملا ، واستقرت قلقا بين الحلال والحرام ، بخط منيهل وحميدة التي بدأت زوجة مجنونة وانتهت حزنا هائما ، لا هي زوجة ، ولا هي مطلقة !!

الحب الأقوى

يبدأ القسم الثالث بتاريخ محدد ، وشعور معلن . « كان صباح ١٩٤٤/٩/٢٠ رائعا في « أم أيشين » ، فقد أصبحت المدرسة حقيقة مستقرة ، ومع تغير البنية الاجتماعية نتيجة ذهاب الأولاد إلى المدرسة تغيرت أشياء كثيرة ، لقد عرفوا كم هم فقراء ، مالا وإدراكا ، فقد طلب المعلمون منهم أن يلبسوا أحذية ، فكان الجواب : « الحذاء يلبسه السادة » ، ثم : من يذهب للسوق غير السادة » ، ولكنها بداية لا بد أن تؤتي ثمارها ، فقد تغيرت أساليب لعب الأولاد في شوارع القرية ، فبعد أن كانت مهارشة

الكلاب أصبحت اختيار الذكاء في المحفوظ من الشعر ، وإجراء مسائل الحساب !! . لقد خلا هذا القسم الأخير من حكاية حب بين رجل وامرأة ، كما حدث في القسمين السابقين ، ليفسح المكان لحب أقوى ، حب الأرض ، والارتباط بالوطن .

جاء شتاء أزرق ، كسا أرض أم أيشين برقائق الثلج ، وقضى على الزرع ، فصبر له قوم ولدوا في مهاد الصبر ، حتى إذا جاء الربيع ، وابتسمت أزاهيره ، ظهر الجراد الأحمر فعفى على كل شيء ، وكل أمل . إن السيد العائد من رحلة الحج أصبح في حالة يأس الآن ، حتى نصح الناس بالنزوح عن القرية ، والرحيل إلى موقع آخر أحنى عليهم ، وإذا كان من المستغرب أن يأتي هذا الحل من جهة السيد ، فليس بمستغرب أنه ووجه بالرفض من هؤلاء الذين لم يجنوا من قريتهم غير الجوع والدموع !! . إن الخط المزدوج في هذا القسم الثالث يقوم على التنافر ، وليس على التوازي ، ففي حين يبتعد السيد عن القرية ـ حسيا ومعنويا ـ يكون الناس أكثر تجذرا بها من خلال المعاناة نفسها ، إن المفارقة في المشهد الأخير علامة على اختلاف المصير .

وحدة الجو الروحي

لا يخفى ما بين الأقسام الثلاثة من انقطاع ـ ولو انه جزئي أحيانا ـ أثر على جمالية الشكل الفني ، وتماسكه حول محور أساسي ، ولكن : ما أهمية ذلك ونحن لم نغادر أم أيشين ، ولم نبرح أجواءها المشبعة بالايمان القدري الصارم ، والفقر المادي المدقع ، والحلم بيوم تنجلي فيه الكروب ؟ على إن مستوى الصياغة الشعرية التي تسمو بالنفس إلى مستوى التراتيل المقدسة ، والتصوف في محراب الطبيعة ، قد عوض الوحدة الموضوعية بوحدة الجو الروحي ، وتناغم إيقاعات اللغة الشعرية ، وصورها المبتكرة النادرة ، وهذا يرتبط أقوى ما يرتبط بالطبيعة الصامتة ، والمتحركة ، الحانية والقاسية . الطبيعة تحضر للمشهد وكأنها عزف الموسيقا الذي يهيء المشاعر لبلوغ ذروة خوف أورجاء أو سعادة ، وهي تتجاوب وأصداء الضمير كأنها الجوقة الأغريقية ، ولولا أن الكاتب قد آثر القالب الروائي ، وأبدع فيه هذا العمل الفريد ، لتأكد الظن بأن موهبته الحقيقية هي الشعر ، بدءا من توليد استعارات جديدة وصور مبتكرة ، إلى تحقيق مبدأ الموسيقا الروحية التي تسري في العبارة سريان اللون والعطر في ورق الورد . نكتفي بمثل واحد ، بعض ما صور به الحنطة في الحقل ، وسنابلها الخضراء :

« الحنطة في الليل تغني ، كل سنبلة تغني ، كل حبة تهمس لجارتها أغنية ، سيقانها تدغدغ الأرض ، وفي الليل تنحني السنبلة ، وتصفع المياه بشعيراتها (ص ٩٣) .

إن حواس هذا الشاعر الروائي تعمل في كل اتجاه ، تلتقط الجديد المثير للدهشة من المألوف الدارج ، حتى أشكال السحاب في الجو : « الغيوم . . المردة التي بدأت ترتسم في السماء لوحات كثيرة ، أقوام تغزو أقواما ، وبحار تنهد على رءوس جبال ، ومردة يمسكون بأعمدة هائلة ، يهددون بها الأرض ، وأسود تطارد أشباحا صغيرة ، شبح ملتح وعليه عباءته يتناول القهوة ، ويتأمل ما يجري على الأرض » (ص ١٥٠) ، إن الجو الشعري يبسط أضواءه وعطره وحزنه الشفيف على الرواية كلها ، فالصور هنا ليست تجسيدا أو تقريبا أو وسائل إيضاح ، إن الكاتب يقدم كونا شعريا ، يلتقط من سديمه المترامي قرية ، هي شعر أيضا ، فليس هذا الوصف مقصورا على الطبيعة ، إنه ينبثق من إحساس الأشخاص ، بصرف النظر عن أن هذا في مكنتهم أو خارج استطاعتهم ، بل بصرف النظر عن الواقع القاسي في صورته المجردة الناضبة ، فهكذا يبدو لصانعيه ، وصانعوه هم أهل القرية ، وليس الكاتب متحدثا باسمهم » . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : الصهيونية المعاصرة .

المؤلف : د . اميل توما .

الناشر : الدار العربية للنشر والتوزيع ـ عمان

عدد الصفحات : ٣٣٩ من القطع الكبير

سنة النشر : ١٩٨٧

يضم هذا الكتاب مجموعة من المقالات كان قد كتبها المفكر الراحل اميل توما حول الفكرة الصهيونية ، من خلال تطبيقاتها العملية ، ومن خلال الدور الذي وجدت من أجل تنفيذه .

ومن خلال معرفته الوثيقة بممارسات هذه الحركة التي تحولت من ايدبولوجية حركة الى ايدبولوجية دولة ، يعود المؤلف الى جذور الافكار الصهيونية الأصلية ، ومقولاتها الرئيسية ، ويدرسها في حركتها الدائبة ، وتحولاتها التي لاتتوقف،كما يتابع الاشكال الجديدة التي تتخذها هذه الايديولوجية ، عندما تصطدم بالواقع الذي غفلت الصهيونية عن التنبؤ به والازمات التي لم تتوقعها .

■ ■

الكتاب : دهاليز الزمن الممتد / قصص

المؤلف : أبوبكر العيادي

الناشر : دار الرياح الأربع ـ تونس

عدد الصفحات : ١٢٥ صفحة

سنة النشر : ١٩٨٦

تضم مجموعة القاص التونسي المعروف ، ابو بكر العيادي الجديدة ١٦ قصة قصيرة ، كتبت كلها بين سنتي ١٩٨٠ و ١٩٨٣ ، ويغلب عليها الطابع الواقعي الذي ميز قصص الكاتب مذ كان شابا ، ينشر في المجلة التونسية المتخصصة « قصص » .

وشخصيات قصص العيادي مستمدة من واقع المجتمع التونسي . وبشكل خاص من الريف ، وهو ـ الى ذلك ـ يسيطر على الحبكة القصصية ، ويتحكم في كل تفاصيل البنية .

أما من ناحية المضمون ، فإن احد الافكار الاساسية التي برع الكاتب في تصويرها ، هي الصراع بين الجيل التقليدي والجيل الجديد المتفتح على الحضارات الاخرى ، سواء في الريف أو في المدينة ، من خلال صور وحالات اجتماعية مختلفة وعميقة الدلالات . ويعد القاص ابوبكر العيادي أحد أبرز المترجمين للقصص العالمي في تونس ، ولاشك أن سعة اطلاعه على الآثار العالمية البارزة في مجال الرواية والقصة ساعده على تطوير مواهبه .

■ ■

الكتاب : أنا . . أنت والثورة . . . شعر المرأة في العالم الثالث .

ترجمة واعداد : إلهام ابو غزالة

الناشر : مطابع القبس التجارية

عدد الصفحات : ١٣٣ من القطع المتوسط .

سنة النشر : ١٩٨٧

يطمح هذا الكتاب الى تقديم بانوراما شاملة لشعر المرأة في بلدان العالم الثالث المختلفة . وهو عالم لايزال يبحث عن هوية خاصة به فامتزجت فيه الثورة بالتمرد ، والشعر بالابداع ، والقضايا الاجتماعية بمشكلات البحث عن هوية .

وقد اختارت المؤلفة عددا من الشاعرات من

بلدان مختلفة من العالم الثالث ، طرحن قضية المرأة التي تعيش - في ذلك العالم - أوضاعا خاصة ، امتزجت فيها الظروف الاجتماعية بظروف القهر والاستغلال والتخلف .

والى جانب الشاعرات الآتيات من ذلك العالم ، قدمت المؤلفة شاعرات اميركيات وكنديات من أصول هندية حمراء وعربية وافريقية .. الخ ووضعت انتاجهن ضمن هذا الكتاب الذي ضاقت صفحاته عن اتساع الموضوع وشموله .

■■

الكتاب : الدليل اللغوي

المؤلف : سليمان فياض

الناشر : دار المريخ - الرياض

عدد الصفحات : ١٥٠ من القطع المتوسط

سنة النشر : ١٩٨٧

يمكن اعتبار هذا الكتاب الذي وضعه القاص والروائي سليمان فياض معجما وجيزا في الادوات والتراكيب والمهارات الكتابية ، كما هو مذكور على غلاف الكتاب .

وميزة هذا المعجم أو الدليل هو تبسيطه لمشكلات لغوية غير معقدة لكنها شائعة في الكتابة اليومية ، ثم عرضها عبر ترتيب ابجدي يسهل عملية الرجوع الى هذا المعجم الصغير الحجم ، مما يوفر على القارىء عبء الرجوع الى المعاجم والمراجع اللغوية والصرفية والاملائية التقليدية .

■■

الكتاب : آخر العنادل (شعر)

المؤلف : مصطفى فهمي

الناشر : دار قرطبة - المغرب

سنة النشر : ١٩٨٧

هذا الكتاب هو المجموعة الشعرية الاولى للشاعر المغربي مصطفى فهمي وقد رحب به النقاد كعلامة على ميلاد شاعر واعد ، وقال الشاعر عبدالله راجع في مقدمة المجموعة : « حين تكون الاداة تكون القصيدة .. وحين يرتبط الشعر كتجربة ، بتجربة الاحتراق الداخلي ، تكون الشفافية .. لا أدرى كيف يمكن أن يعيش مبدع ما وجوداً شعريا ، لعل عنصر الصدق في التعامل مع الذات والعالم الخارجي ، يمكن أن يشكل عنصرا من عناصر تحقق هذا الوجود ، وهو شيء موجود في « آخر العنادل » باعتبارها خطوة في اتجاه منبع الحرائق » .

قصائد « آخر العنادل » مكتوبة بلغة رقراقة ، وبايقاع شعري هفهاف يجعلان من مصطفى فهمي واحدا من رموز شعر الثمانينيات في المغرب ، وهو الجيل الذي مدّ ذراعيه ليعانق التجارب الشعرية المتقدمة في المشرق العربي ، دون أن ينقطع عن ارهاصات التجديد في اوروبا .

■■

الكتاب : أهم الامراض الجلدية - أسبابها اعراضها وعلاجها .

المؤلف : د . محمد عبدالله المشاري

الناشر : مطبعة الفيصل - الكويت

عدد الصفحات : ٢٣٩ من القطع الكبير

سنة النشر : ١٩٨٦

في هذا الكتاب جمع المؤلف ، وهو طبيب مختص في الامراض الجلدية والتناسلية ، مقالاته التي كان قد نشرها في عدد من المجلات الثقافية والعلمية المتخصصة ، والتي عرض فيها لعدد كبير من الأمراض الجلدية والتناسلية المنتشرة في العالم ، وفي وطننا العربي بشكل خاص .

وقد اتخذ الكتاب بعد الذي يضم من المقالات المذكورة شكلا مرجعيا طبيا يستفيد منه القارىء العادي في التعرف على هذا اللون من الامراض التي تشمل امراضا جلدية ، بسيطة وشائعة مثل الثآليل ، وامراضا خطيرة ومدمرة مثل مرض الايدز . □

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٤٤
يوليو ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة اسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 ـ الكويت . « مسابقة العربي العدد ٣٤٤ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ أغسطس ١٩٨٧ .

١ ـ قطعتان من ديناميت ، تزن كل منها نصف كيلو غرام ، فجرت إحداهما في الهواء ، من فوق تلة ، تقع على شاطيء البحر ، وفجرت الأخرى ، من فوق صخرة قريبة ، لكنها مغمورة بمياه البحر ـ سمع صوت أحد الانفجارين من على بعد كيلو متر واحد تقريباً ، وسمع صوت الانفجار الآخر على بعد ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ كيلومتر . ترى أي الصوتين هو الذي قطع هذه المسافة الهائلة ، أهو الصوت الذي انتقل عبر الهواء ، أم الصوت الذي انتقل عبر الماء ؟

٢ ـ التلسكوب والمرقاب : أيهما مكبر ، وأيهما مقرّب ؟

٣ ـ الأطباق الطائرة ظاهرة خارقة لاريب ، لكنها ليست وقفا على العصور الحديثة كما يظن كثيرون ، فقد ظهر كثير منها في العصور الوسطى ، وظهر أحدها في عهد أحد الأباطرة الاوروبين ، وقد أعلن هذا الامبراطور أن كل من يهبط على الأرض على متن طبق طائر يعتبر مجرما ، ويستحق العقاب . ترى من هو الامبراطور ، علما بأن حكمه طويل امتد من سنة ٧٤٢م الى سنة ٨١٤م ؟

٤ ـ ابراهام لنكولن أحد رؤساء الولايات المتحدة ، يذكر له التاريخ فضل تحرير العبيد ، وقد أصدر إعلانه الشهير بتحريرهم في سنة ١٨٦٣ . ترى متى تم تحرير العبيد في الولايات المتحدة :

* عقب صدور إعلان لنكولن بتحريرهم مباشرة ؟
* قبل صدور الإعلان بنحو سنتين ؟
* بعد صدور الإعلان بنحو سنتين .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٤٤

٥ ـ استسلمت اليابان في الحرب العالمية الثانية بتاريخ ١٠/٨/١٩٤٥م بسبب إلقاء الولايات المتحدة القنبلة الذرية على إحدى المدن اليابانية بتاريخ ٩/٨/١٩٤٥ . ترى ما اسم تلك المدينة ؟

٦ ـ درجة الصفر المطلق تعادل ٢٧٣،١٥ درجة مئوية تحت الصفر و ٤٥٩،٦٧ درجة فهرنهيت تحت الصفر . فأين توجد هذه البرودة القصوى ؟

* في القطب الشمالي .
* في القطب الجنوبي .
* في إحدى بقاع سيبيريا .

٧ ـ ما الفرق بين مصارعة الجودو اليابانية ومصارعة الجوجتسو ؟

* لا فرق بينهما .
* مصارعة الجوجتسو هي الأصل الذي اقتبست عنه مصارعة الجودو .
* مصارعة الجودو هي الأصل الذي اقتبست عنه مصارعة الجوجتسو .

٨ ـ بهارات هو الاسم الذي يطلقه الهنود على بلادهم ـ فأي الشعوب يطلق اسم (هلفيا) على بلده ، كما تدل على ذلك طوابعه البريدية ؟

٩ ـ من المعروف أن الفروسية في أوروبا إبان القرون الوسطى قد أوجبت على الفارس ارتداء دروع واقية كالثياب ، ويذكر عن تلك الدروع أنها كانت ثقيلة الوزن ، بحيث ان الفارس كان بحاجة إلى من يساعده على النهوض إذا سقط عن فرسه . ترى كم بلغ وزن تلك الدروع بالتقريب ؟

* مائة كيلو غرام .
* خمسين كيلو غراما .
* خمسة وعشرين كيلو غراماً .

١٠ ـ شبت النار في روما ، في القرن الأول ، أيام حكم الامبراطور نيرون . ترى من تسبب بذلك الحريق ؟

١١ ـ هناك (الجيوكندا) ، وهناك الأناكوندا ، والجيوكندا هي الموناليزا ، لوحة الفنان ليوناردو دافنشي الشهيرة ، فما هي الأناكوندا ؟

* إنها لوحة فنية منافسة ، رسمها الفنان روفائيل ، بقصد منافسة ليوناردو دافنشي .
* الأناكوندا والجيوكندا اسمان للوحة واحدة .
* الأناكوندا حية ضخمة ، تعيش فى أمريكا الجنوبية .

١٢ ـ غزا يوليوس قيصر بريطانيا في شهر أغسطس سنة ٥٥ ، ومع أنه انتصر وسحق المقاومة التي اعترضت سبيله إلا أنه لم يقطف ثمار نصره ، بل قرر العودة إلى روما ، في شهر سبتمبر من السنة المذكورة . ترى لم فعل ذلك ؟

* بسبب مرض معد تفشى في جيشه .
* بسبب محاولة الانقلاب التي بلغه خبرها ، والتي قام بها بعض خصومه في العاصمة الرومانية .
* بسبب المد والجزر الذي أغرق بعض سفن أسطوله . □

حل مسابقة العدد ٣٤١

١ ـ اللحية معروفة إنها شعر الخدين والذقن ، وجمعها ـ لحًى ولحُى والنسبة (لحوي) .

أما اللَّحي فهو عظم الحنك الذي عليه الأسنان ، إنه منبت اللحية .

٢ ـ الحيوانات الثلاثة المذكورة كلها لاتميز الألوان بما فيها الثور ، فالذي يستثير الثور في حلبة المصارعة ليس اللون الأحمر ، وإنما هو حركة المصارع ، وضجيج الجمهور .

٣ ـ الزنبور (الدبور) ، وهو الذي يلسع ، لا ذكر النحلة : وهو اليعسوب ، هذا بالاضافة إلى النحلة الأنثى التي اشتهرت بلسعتها ، على أن النحلة لاتموت إثر لسعتها إلا في الحالات التي تفقد فيها إبرة اللسع ، بعضها أو كلها .

٤ ـ لامنافس للأرنب من حيث التكاثر ، فأنثاه تستطيع البدء بالانجاب وهي في الشهر الرابع من عمرها ، وتستطيع حمل (٩) أجنة في بطن واحد ، ولايطول حملها أكثر من ٣١ يوما ، وتستطيع الحمل ثانية بعد وضعها مباشرة (تقريبا) ، ويؤكد العلماء أن مايستطيع إنجابه ذكر واحد وأنثى واحدة من الأرانب في غضون ٣ سنوات يبلغ ٣٣ مليون أرنب ، على أن ٩٠٪ من الأرانب تفترسه بعض الحيوانات .

٥ ـ الفئران لاتفضل الأجبان ، بالرغم مما تؤكده أفلام (الكرتون) وقصص الأطفال ، فالحبوب والمكسرات والخضار الطازجة هي الأكلات المحببة للفئران ، حسبما تؤكده العلوم .

٦ ـ العصفور الطنان يستطيع الطيران إلى الخلف ، وهو عصفور صغير ، يعيش في غابات أمريكا ، وعلى رحيق زهور أشجارها ، وهو يرفرف بجناحيه بمعدل ٥٠ ـ ٨٠ مرة في الثانية ، فيحدث ذلك الطنين الذي سمي بالطنان نسبة إليه .

٧ ـ الخنزير هو أقرب الحيوانات إلى الانسان من حيث قابلية أعضائه للزرع في الجسم البشري ، فصمامات قلبه يمكن أن تحل محل صمامات قلب الانسان ، وجلده قد استعمل بنجاح لمعالجة الحروق البالغة في جسم الانسان ، ويعزى ذلك إلى أن أعضاء الخنزير كبيرة الشبه بأعضاء جسم الانسان من حيث التركيب الكيماوي .

٨ ـ لبن الأتان أقرب إلى لبن المرأة من لبن الناقة ، ومن لبن البقرة ، كما يدل على ذلك الجدول التالي :ـ

	الزلال	اللاكتوز	الزبد	الحريرات
لبن المرأة	١٥ غ	٦٣ غ	٣٨ غ	٦٥٠ حريرة
لبن البقرة	٣٣ غ	٥٥ غ	٣٧ غ	٧٠٠ حريرة
لبن الأتان	١٦ غ	٦٠ غ	٢٧ غ	٤٦٠ حريرة

هذه هي المقادير التي يحتوي عليها لتر واحد من الألبان الثلاثة المذكورة .

٩ ـ الفيل هو صاحب أطول أنف بين الحيوانات جميعا ، ودون منازع ، وذلك لأن خرطومه هو أنفه ـ وقد يبلغ طول خرطومه مترين !

١٠ ـ الديناصورات لم تكن كلها ضخمة ، فبعضها لم يتجاوز حجمه حجم الديك الرومي ، على أن الاعتقاد السائد بأن الديناصورات كلها ضخمة له مايبرره ، فالاسم نفسه (ديناصور) وهو يوناني الأصل إنما يعني « الضخم المفزع » .

١١ ـ البطريق لايبني أعشاشا ، بل يحتفظ ببيضه فوق قدميه ، وهو يضعه على الأرض ، ثم لايلبث أن يرفعه فوق قدميه ، نظرا لبرودة الأرض البالغة في القطب المتجمد الجنوبي ، وخوفا على البيض من التجمد، والبطريق المقصود هنا من فصيلة البطريق الملك أو الامبراطور ، وهو أكبر فصائل البطريق حجما .

١٢ ـ الهامة : رأس كل شيء ، ورئيس القوم وسيدهم ، ولها معان أخرى غير ذلك .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤١ ابـريـل ١٩٨٧

الجائزة الاولى : عبدالمجيد طواف / حي الخوادرية / مدينة خريبكة / المملكة المغربية .

الجائزة الثانية : موسى سلمان محمد عبد المنعم / بنغازي / ليبيا

الجائزة الثالثة : المنصف السالمي / المعهد الثانوي بنصر الله / القيروان / تونس .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ ابراهيم محمد يوسف النهاري / جامعة صنعاء / كلية التربية / الجمهورية العربية اليمنية .

٢ ـ عفاف غالب عبدالكريم / خورفكان / دولة الامارات العربية المتحدة .

٣ ـ م . عبدالله محمد السلمي / كلية الانصار العربية / كيرالا / الهند .

٤ ـ طارق عثمان محمد علي / محطة ١٠ / البراري / السودان .

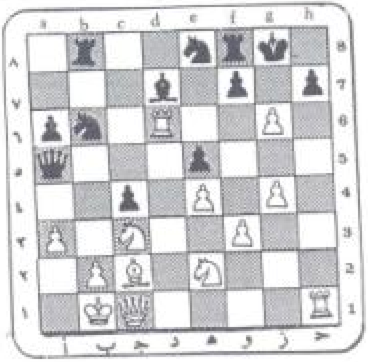
٥ ـ هيثم عبدالله جاسم الخياط / محافظة بغداد / قضاء المحمورية / العراق .

٦ ـ صافيناز محمد احمد نصر / كفر الزيات / جمهورية مصر العربية .

٧ ـ فائق بن سيدو ديكو / دمشق / الجمهورية العربية السورية .

٨ ـ قاسم حمودة عاشور / المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية .

معركة بلا سلاح



«في الأردن نهضة (شطرنجية) ، تثلج الصدور ، وتبشر بغدٍ مشرق لهذه اللعبة في البلاد» بهذه العبارة الموجزة أعرب الأستاذ الدولي الروسي فلاديمير غريغوريف عن إعجابه بالمستوى الذي حققه اللاعبون الأردنيون .

كان ترتيب الأردن التاسع بين الأقطار العربية المشاركة في الأولمبياد السادس والعشرين للشطرنج ، المنعقد في مدينة (سالونيكا) اليونانية ، برصيد قدره (٢٤,٥ نقطة) ، وقد حافظ على نفس المركز في الأولمبياد الأخير ، المنعقد في أواخر العام الماضي ، في مدينة دبي ، وهو أول أولمبياد تم عقده على أرض عربية ، وكان رصيده (٢٧ نقطة) ، وقد كان ترتيب البطل الأردني بهجت الريماوي الخامس في البطولة العربية الرابعة المقامة في تونس العاصمة .

ومن الأبطال الأردنيين المرموقين اللاعب حافظ بكر ، بطل الأردن لعدة سنوات سابقة ، واللاعب حسين البطيخي الذي حل بطولة بلاده لعامي ١٩٨٤ ، ١٩٨٥م إلى أن فاز بها بطل الأردن الحالي بهجت الريماوي .

والدور الذي اخترناه لكم في هذا العدد من الأدوار المميزة بين بطل الأردن السابق حسين البطيخي واللاعب الأردني الناشيء محمد يوسف داود (٢١ سنة) الذي يبشر بمستقبل واعد ، والدور من دفاع الملك الهندي .

□ محمد يوسف داود	■ حسين البطيخي
١ . د٤	ح - و٦
٢ . جـ ٤	ز٦
٣ . ح - جـ ٣	ف - ز ٧
٤ . هـ ٤	د٦
٥ . و٣	جـ ٦
٦ . ف - هـ ٣	ح ب - د٧
٧ . و - د٢	أ ٦
٨ . ف - حـ ٦	ف × حـ ٦
٩ . و × حـ ٦	و - ب ٦
١٠ . ث ت	و - أ ٥
١١ . ز٤	ب ٥
١٢ . م - ب ١	ب × جـ ٤
١٣ . ف × جـ ٤	ر - ب٨
١٤ . ح ز - هـ ٢	و - ب٤
١٥ . ف - ب٣	جـ ٥

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٤١ ابريل ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١) سامية العشري ـ بركات/ السودان .
٢) محمد أبو التوت ـ قونيا / تركيا .
٣) محمد عامر ـ مصر القديمة / ج٠م٠ع٠
٤) ربيع رسلان ـ حمص / سوريا .
٥) هنده شرف الدين ـ تونس .

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

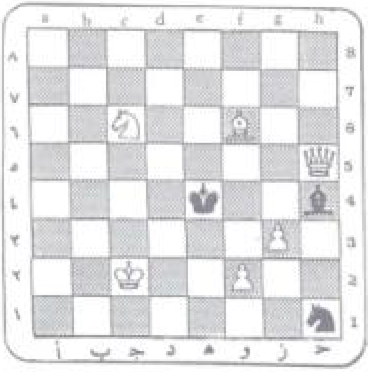
١) حمدي عبد الراضي ـ القاهرة
٢) منى فؤاد ـ عمان / الأردن .
٣) غسان صلاح ـ الشعب / الكويت .
٤) ابراهيم الشويكي ـ الرياض / السعودية .
٥) نبيل ابراهيم عدوان ـ غريان/ ليبيا

---

١٦ . و ـ جـ١	جـ٤
١٧ . ف ـ أ٤	ت
١٨ . حـ٤	هـ٥
١٩ . حـ٥	ح ـ ب٦
٢٠ . أ٣	و ـ أ٥
٢١ . ف ـ جـ٢	ف ـ د٧
٢٢ . د × هـ٥	د × هـ٥
٢٣ . ر ـ د٦ !بديعة	ح ـ هـ٨

٢٤ . حـ × ز٦ (مهدداً مات لو أخذ بالحصان (الشكل)

٢٤	و × ز٦
٢٥ . و ـ حـ٦	ر × و٣
٢٦ . و × حـ٧	م ـ و٨
٢٧ . ر × ز٦	ر ـ و٧
٢٨ . و ـ حـ٨+	م ـ هـ٧
٢٩ . و ـ حـ٤+	ح ـ و٦ (مضطراً)
٣٠ .. ر ـ و١	ر ب ـ و٨
٣١ . ح ـ ز٣	و ـ جـ٥
٣٢ . ح ـ حـ٥	و ـ د٦
٣٣ . ز٥!	ثم يستسلم الأسود بعد النقلة ٣٩



مسألة العدد ٣٤٤
مات ٢

مهداة من القاريء محمد صلاح مبروك (عُمان)

حل مسألة العدد ٣٤٢ مايو ١٩٨٧

١ . ر ـ حـ٤+	م ـ ز٦
٢ . و٨= كش مات	

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

المثقفون العرب بين الحسرة والأمل

○ بهذا العنوان جاء حديث الشهر في مجلة « العربي » ، العدد ٣٤١ ، شهر ابريل سنة ١٩٨٧ للدكتور محمد الرميحي .

وفي المقال نقاط جديرة بالتأمل والتعليق ، أولها « مصطلح الثقافة » ، فقد استعمل العرب كلمة ثقافة بمعان كثيرة ، من أبرزها - وهو ما يخدم المقال - الثقافة بمعنى التقويم والتهذيب ، قال : ثقفت الرمح ، إذا هذبته ، وقومته ، وأيضا الثقافة بمعنى الحذق والمهارة ، وقد وردت أيضا بمعنى الوجود ، والتمكن ، والغلبة ، وهي معان تشير إلى النقطة الثانية التي ينبغي أن نتوقف عندها في هذا المقال ، وقد أوردها الكاتب في شكل تساؤل : ما هو دور المثقفين العرب ، في تبصير الأمة ، بتلك المخاطر التي لا تهددها الآن فقط ، وإنما تهدد بقاء أجيالها القادمة ، كالتشتت العربي ، والحروب القطرية ، والأهلية ؟ وما هي المخارج المعقولة لهذا الضياع الكبير ؟

والسؤال المطروح هنا : من هو المثقف العربي القادر على أن يبصر الأمة بمثل هذه المخاطر ؟ هل هو ذلك المثقف الذي تشرب بثقافة الغرب وحده ، أو الشرق وحده ، دون ثقافة أمته العربية ، ودون أن يستخدم ثقافته الحديثة ، ومهما يكن مصدرها لاخصاب ثقافته القومية ، وإحداث نوع من الثورة فيها والتجديد الذي يحترم أصولها وينميها ؟

ان المثقف الذي يدين لثقافة الغرب وحدها ، أو الشرق وحدها ، قد يجد نفسه دون أن يدري يعمل لخدمة هذا التشرذم والتمزق الواقع في أمته .

النقطة الثالثة : نحن ندرك أن مثل هذا المثقف موجود ، لكن أين يجب أن يمارس دوره ؟ هل يمارسه فقط بالكتابة في المجلات الثقافية ، والكتب ، وشتى وسائل الاعلام ، أم أنه من الضروري أن يمارسه في البيت ، والشارع ، والمدرسة ، والجامعة ، وحيث يعمل ، ويتخذ القرارات في أي مؤسسة من مؤسسات الدولة والمجتمع ، لقد سمعت شكوى طالب بقسم اللغة العربية بإحدى كليات الآداب ، من أن بعض أساتذته يدرسون باللغة العامية ، فهل تلك هي الطريقة المثلى للمحافظة على تراث الأمة ، والسعي لنهضتها ، على أساس قوي ؟

النقطة الرابعة والأخيرة (أن بعض المثقفين العرب ذهب إلى اتهام الشخصية العربية بأنها شخصية ثنائية ، تحمل الشيء ونقيضه في الوقت ذاته) وهذا الاتهام رغم خطورته لا نستطيع نفيه ، كما اننا لا نستطيع تعميقه ، فالثنائية موجودة ، لكن المثقف الواعي الذي يدرك اتجاه التطور ، هو الذي يغلب في هذه الثنائية الجانب الذي يخدم التطور على الجانب الآخر الذي يمثل الرواسب القديمة التي قد تبقى مؤثرة حتى على سلوك بعض المثقفين .

وهذا المثقف الواعي هو الذي ينمى في داخله

أفضل ما في تراث أمته ، ويأخذ من الثقافات الحديثة أفضل ما فيها مما يوشك أن يصبح تراثا للانسانية كلها .

حمودي أحمد سعيد

السودان / الخرطوم

رسالتان وسؤال واحد

○ الرسالة الأولى من الدكتور شريف زكريا عبد الرحمن ، مدرس بقسم الكيمياء الطبية التطبيقية ، بمعهد البحوث الطبية ، بجامعة الاسكندرية وقد جاء في هذه الرسالة :

قرأت أحد موضوعات العدد ٣٤١ - ابريل سنة ١٩٨٧م من مجلة العربي بعنوان : « مرضك هل له علاقة بالكهربائية » ، للدكتور سامي عزيز ، وقد تناول هذا الموضوع جهود العالم السويدي : د / بجورن نورد نشترم لعلاج السرطان بالكهرباء ، ولما كانت أغلب الأبحاث في قسم الكيمياء الطبية بمعهد البحوث الطبية تدور حول السرطان ، فقد أثار هذا الموضوع اهتمامي ، لذلك أرجو أن تتكرموا بارسال عنوان الدكتور / بجورن نورد نشترم الي ، حتى أتمكن من مراسلة هذا العالم ، والحصول على معلومات علمية دقيقة عن أبحاثه .

آملا أن تسرعوا بالرد ، لنتمكن - في معهد البحوث الطبية - من دراسة جدية هذا الاتجاه الجديد لعلاج السرطان ، وإمكانية تطبيقه في مصر ، وبالتالي في الوطن العربي .

الرسالة الثانية من الدكتورة صفاء كيرتاه ، من قسم التخدير بجامعة الاسكندرية ، وتحمل تقريبا الاهتمام نفسه بموضوع المقال ، والرغبة في معرفة عنوان العالم السويدي ، لمراسلته ، ومناقشته ، في أبحاثه .

العربي

ولما كنا في مجلة « العربي » لا نملك عنوان الدكتور « بجورن نورد نشترم » ، فإننا ننشر هنا عنوان كاتب المقال الدكتور سامي عزيز ، ليتمكن الكاتبان الفاضلان اللذان كتبا للعربي من مراسلته ، لعله يرسل لهما عنوان العالم السويدي ، أو لعله يرسل العنوان للعربي ، فننشره ، ليستفيد بذلك كل من يهمه الأمر ، وهذا هو عنوان الدكتور سامي عزيز : ص.ب - رابغ - السعودية .

مجلة الثقافة العالمية

○ قرأت في الصفحات الأخيرة من مجلة « العربي » إعلانا عن مجلة جديدة ، هي مجلة « الثقافة العالمية » ويشير الاعلان إلى أنها تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة ، لكن هذه المجلة الهامة جدا - كما هو واضح من الاعلان - لا تصل إلى مدينتي « حائل » ، بالمملكة العربية السعودية ، لذلك أرجو أن تنشروا في باب حوار القراء بعض المعلومات عن هذه المجلة ، مثل سعرها ، وقيمة الاشتراك السنوي ، ومتى بدأت تصدر ؟ ولكم الشكر .

عامر حوراني

حائل / السعودية

العربي

مجلة الثقافة العالمية ، تصدر دورية ، كل شهرين ، عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت .

حوار القراء..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

وقد صدرت المجلة لتقديم الجديد من تيارات الفكر العالمي ، في مختلف ميادين المعرفة إلى القاريء العربي عن طريق الترجمة ، وهي ليست متخصصة ، لهذا فهي تغطي ميادين عديدة ، منها : نظريات الفكر ، والسياسة ، والتنمية ، والفنون ، والآداب ، والانسانيات ، ومبتكرات التقنية ، وآفاق العلوم ، والمستقبليات ، الخ .

الاشتراك السنوي ٣ دنانير في الكويت ، و٤ دنانير في أقطار الوطن العربي ، خارج الوطن العربي ٢٠ دولارا متضمنة أجر البريد .

الارهاب من زاوية عربية

○ تعقيبا على مقال الدكتور فؤاد زكريا « الارهاب من زاوية عربية » الذي نشر في العدد ٣٣٩ فبراير سنة ١٩٨٧م من مجلة « العربي » وصلتنا عدة رسائل ، ولا يسعنا في حدود هذا الباب إلا أن نختار من بين ما ورد في هذه الرسائل ما يلقي الضوء على موقف هؤلاء القراء من هذه القضية .

ضمن ما جاء في رسالة السيد علي حسين مراد ـ من دمشق ـ أن الدكتور فؤاد زكريا محق في قوله : إن الاعلام الأمريكي يتحكم في الصورة التي تكونها معظم الشعوب عن الارهاب من وجهة النظر الأمريكية ، وهو كل عمل يمس مصالحها ، ولو كان هذا العمل ردا على محاولة إبادة شعب بأكمله ، فهل نضعف في الدفاع عن حقنا ، في وقت يقوى فيه عدونا على فرض باطله ، إن الارهاب الأمريكي وحده مبرر ، يمنحنا حق استخدام العنف الثوري ، وبخاصة إذا أمكننا أن نصل إلى بعض نقاط الضعف في عدونا ، لنجعلها من أهداف نضالنا .

إذ ماذا يتوقع العالم من إنسان رأى ـ بأم عينه ـ أباه يقتل في دير ياسين ، وأخاه يستشهد في كفر قاسم ، وابنه يذبح في صبرا وشاتيلا ؟ هل نتوقع منه أن يجلس ليفكر بهدوء في كيفية إتقان رد على تلك المجازر ، بحيث لا يغضب أعداءه ، أو الرأي العام العالمي ؟

وضمن ما ورد في رسالة طويلة للقاريء علي أبو أحمد ـ من دمشق ـ إذا استعرضنا مقال الدكتور فؤاد زكريا نجد أنه في البداية يقول عن العالم الغربي بأنه كان إلى عهد قريب استعماريا ، وكأنه بهذه العبارة يعطي للاستعمار الغربي صك البراءة من الأعمال الوحشية التي ما زال هذا العالم يدعمها ، بشكل مباشر ، أو غير مباشر كالذي تقوم به دولة جنوب أفريقيا ، أو « اسرائيل » .

وإذا عدنا إلى مقال الكاتب نجد أنه يرى « أن اختطاف طائرة مدنية ، أو قتل عجوز مشلول ، وإلقاءه في البحر من سفينة مخطوفة ، سيلفت إلينا أنظار العالم ، بأسوأ صورة يمكن تخيلها ، إلخ » .

أريد أن أشير إلى أن رأي الكاتب يمكن أن يكون صحيحا ، لكن سبب هذا هو تقصير الاعلام العربي ، فهذا الاعلام لم ينقل للعالم ـ بنفس قوة الاعلام الأمريكي أو الغربي ـ ما حدث قبل ذلك ، حين قصفت « اسرائيل » بيروت بآلاف الأطنان من القنابل الحارقة ، وعندما دمرت المخيمات الفلسطينية أثناء اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ ، وقبل ذلك كله ، عندما أسقطت طائرة مدنية فوق سيناء ، وعندما خطفت الطائرة الليبية .... إلخ .

وضمن ما جاء في رسالة السيد مصطفى محمد عطيفي ـ من أسيوط ـ « إن الارهاب صناعة غربية ،

وليست عربية ، فأول من نادى باستخدام الارهاب كوسيلة لتحقيق الأهداف هو المفكر الفرنسي « هوبهان موست » ، بل إن أقدم المنظمات الارهابية وهي المافيا قد خرجت من أوروبا ، ويرجع تاريخها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وقد عقدت بعض المنظمات الارهابية الأوروبية ثلاثة مؤتمرات ، اثنان منها في قلب أوروبا ، والأخير كان في مدينة لشبونة البرتغالية وفي مدينة نيويورك تقع جريمة كل خمس دقائق ...... إلخ .

« التدخين هذا المبيد البشري » مرة أخرى

○ جاء في عدد ٣٤٠ مارس سنة ١٩٨٧ من مجلة « العربي » بعنوان « التدخين هذا المبيد البشري » ، تعقيبا على نفس المقال المنشور في عدد ٣٢٠ يوليو سنة ١٩٨٥ ، ولما كنت أنا كاتب المقال الدكتور بدوي بدران فاسمحوا لي بالرد على الأخ القارىء خالد مرعي الذي يقول في تعقيبه : « أن هناك تناقضا في المعلومات ، حيث ورد أن التدخين يؤدي إلى توسيع الأوعية الدموية ويضيقها في آن واحد وخلاصة الرد : أن التدخين يوسع الأوعية الدموية ويضيقها لكن ليس في آن واحد ، بل على مرحلتين ، فجميع الدراسات العلمية تشير إلى أن النسبة القليلة من (النيكوتين) في الدم توسع الأوعية الدموية ، فترة قصيرة ، ومع استمرار التدخين ، وازدياد نسبة تركيز (النيكوتين) في الدم تضيق الأوعية الدموية ، لكن يستمر ذلك فترة زمنية أطول ، وهذا التوسيع والتضييق يحدث بتأثير (النيكوتين) على الجهاز العصبي المركزي ،وعلى الخيوط العصبية ، فالنسب القليلة من (النيكوتين) تزيد من مرور الاشارات العصبية ، فيحدث التوسع الذي يؤدي الى تحسن الدورة الدموية في الدماغ ، وبالتالي يحدث الانتعاش ، ويزول وجع الرأس ، ومع ازدياد نسب النيكوتين يقل مرور الاشارات العصبية الأمر الذي يؤدي إلى تضييق الأوعية الدموية ، وبالتالي يؤدي إلى الشعور بالخمول ، وتوتر الأعصاب ، مما يدفع بالمدخن إلى تناول سيجارة أخرى ، وهكذا .

التدخين وعلاقته بالضعف الجنسي

ويواصل الدكتور بدوي بدران تعليقه على نقطة أخرى ذات صلة بالتدخين في رسالته نفسها على النحو التالي :

« اسمحوا لي أن أبدي ملاحظتي بالنسبة لما ورد في نفس العدد ٣٤٠ صفحة ١٧٨ بعنوان « ضعف الحيوانات المنوية » الذي ورد في أن لا تأثير للتدخين أو الكحول على قضية الضعف» .

وأود أن أشير إلى أن الدراسات العلمية والملاحظات السريرية تدل على أن التدخين يضعف الجنس عند الرجال ، كذلك يقلل الرغبة عند النساء ، فالاحصائيات الطبية تشير إلى أن ١١٪ من الرجال الذين يعانون من ضعف جنسي هم من مدمني التدخين ، وفي تقرير للدكتور « اكتون اوكستر » ، وهو كبير مستشاري مؤسسة أوكسترا في ولاية نيواولينز الأمريكية ، وكبير الحملة الامريكية ضد التدخين يقول : « إن التدخين يعتبر عاملا مهما في ضعف الناحية الجنسية عند الرجل » .

وفي تقرير للدكتور كارل شيرن « من جامعة هامبرغ الالمانية الذي درس أنماط الاخصاب لدى عشرة آلاف شخص ، فلاحظ ضعفا في حركة الحيوانات المنوية عند الرجال المدخنين الذين يعانون من ضعف جنسي ، وبعد تركهم التدخين أظهرت الفحوصات تحسنا في قدرتهم الجنسية ، كذلك تحسنا في حركة الحيوانات المنوية ، وأن كثيرين استطاعوا إنجاب أطفال ، ويمكن تفسير هذه الحالات بأن (النيكوتين) يؤثر على مراكز الانتصاب العصبي ، وعلى إفرازات الغدد الجنسية ، فمن الثابت علميا أنه يؤثر تأثيرا ساما على الخلايا التناسلية ، فيؤدي إلى ضعف إفرازاتها وإلى نقص الافراز ، وكذلك يحدث

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء..

ضمورا في الخصيتين ، وقد تصبح الواحدة في حجم البندقة ، كذلك بسبب استرخاء في العضو التناسلي ، ويجعل الحيوانات المنوية ضعيفة ونادرة ، وأثبتت الدراسات الطبية أن أكثر من ثلث مدمني الكحول يعانون من ضعف جنسي ، وضمور في الخصيتين .

وغير ذلك هناك تقارير طبية كثيرة ، تشير إلى تأثير التدخين ، والكحول على الناحية الجنسية .

الدكتور / بدوي بدران
عمان / الاردن

الهندسة الوراثية

○ قرأت في العدد ٣٤٠ مارس سنة ١٩٨٧ من مجلة « العربي » ، في باب مكتبة العربي عرضا لكتاب « تجارة الجينات » لادوارد يوكسن ، بقلم بهاء الدين محمود ، وقد سعدت لفتح باب جديد عن علم الهندسة الوراثية ، لكن ما تم نشره لا يكفي ليشبع القاريء لهذا الموضوع الهام ، فقد عرضت المجلة مقاطع من الكتاب دون تفصيل ، وأملنا جميعا أن نرى على صفحات مجلة « العربي » موضوعا مفصلا عن علم الهندسة الوراثية ، وأهم ما توصل إليه العلماء في هذا العلم ، ولكم الشكر .

عادل السيد سرايا
ج.م.ع / فاقوس شرقية

العربي

ليست هذه أول مرة تنشر فيها مجلة « العربي » عن علم الهندسة الوراثية ، وطبعا لن تكون الأخيرة ، ولن يفي مقال واحد أو عدة مقالات بحاجة المتابعين والمهتمين من القراء ، للاحاطة بتفاصيل هذا العلم ، وأهم ما توصل إليه العلماء في مجاله . لكن نعد القاريء ، وندعو المختصين للكتابة في هذا العلم الجديد الهام ، ومتابعة ما يجد فيه .

عنوان الدكتورة بربارة شاهين

○ قرأت في العدد ٣٣٩ فبراير سنة ١٩٨٧ من مجلة « العربي » استطلاعا بعنوان « العرب في أمريكا » . . الحلم الامريكي ، والوهم المغترب ، وإني إذ أشكر للقائمين على مجلة « العربي » جهودهم من خلال هذه الاستطلاعات ، في تزويد القاريء بصور حية ، ومعلومات هو في أمس الحاجة إليها ، عن مختلف بلاد العالم ، فأرجو من الاستاذ صلاح حزين كاتب الاستطلاع المساعدة في الاتصال بالاستاذة بربارة شاهين ، المديرة التنفيذية للجنة مكافحة التمييز ضد العرب ، وشكرا .

م . سائدة الجمال
حلب : جامعة حلب / كلية الآداب

العربي

يسرنا ان نقدم للقارئة الكريمة عنوان الدكتورة بربارة شاهين ، ويمكنها الاتصال بها في العنوان المذكور .

1731 Connecticut Avenue N.W.,
Washington ,D.C. 20009

عناوين أخرى مطلوبة

● وللقارئة الدكتورة سحر الحاجة / حماة / سوريا : نقدم عنوان الدكتور محمد نبهان سويلم / ص.ب ٥١٣٦ ـ هليوبوليس غرب مصر الجديدة ـ القاهرة ـ ١١٧٧١ جمهورية مصر العربية . □

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

جائزة الكويت

تمشيا مع أهداف مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وتحقيقا لاغراضها في تدعيم الانتاج العلمي وتشجيع العلماء والباحثين ، تقوم المؤسسة بتخصيص جوائز في مجالات العلوم والاداب والفنون والتراث وذلك وفق برامجها السنوية .

وتسجل المؤسسة من خلال هذه الجوائز اعترافها بالانجازات الفكرية المتميزة التي تخدم التقدم العلمي وتساعد على النهوض بالمجهودات المبذولة لرفع المستوى الحضاري في مختلف الميادين .

وموضوعات جائزة الكويت لعام ١٩٨٧ في المجالات الخمسة هي كما يأتي :ـ

١ ـ العلوم الاساسية : الميكروبيولوجيا Microbiology

٢ ـ العلوم التطبيقية : الهندسة الميكانيكية Mechanical Engineering

٣ ـ العلوم الاقتصادية والاجتماعية : السياسة المصرفية في الوطن العربي Banking Policy in the Arab World

٤ ـ الفنون والاداب : الشعر Poetry

٥ ـ احياء التراث العربي والاسلامي : الفيزياء في التراث العربي Physics in Arab Heritage

وتخصص المؤسسة سنويا جائزتين مقدار كل منهما (١٠٠٠٠ د . ك) عشرة آلاف دينار كويتي في كل مجال من المجالات المذكورة ، جائزة لواحد (أو أكثر) من أبناء دولة الكويت واخرى لواحد (أو أكثر) من أبناء البلاد العربية الاخرى . كما تقدم المؤسسة مع الجائزة النقدية درع المؤسسة وشهادة تقديرية تبين مميزات الانتاج بصورة مختصرة .

ويتم منح جائزة الكويت وفق الشروط الاتية :

١) يجب ان يكون الانتاج مبتكرا وذا اهمية بالغة بالنسبة الى الحقل المقدم فيه خلال السنوات العشر الماضية .

٢) الا يكون المرشح قد نال جائزة ، عن الانتاج المقدم من اية جهة أخرى .

٣) تقبل المؤسسة طلبات المتقدمين وترشيحات الجامعات والهيئات العلمية كما يحق للافراد الحاصلين على هذه الجائزة ترشيح من يرونه مؤهلا لنيلها . ولا تقبل ترشيحات الهيئات السياسية .

٤) يتضمن الترشيح السجل العلمي للمرشح ونبذة مختصرة عن حياته وانتاجه ومبررات ترشيحه لنيل هذه الجائزة .

٥) لايعاد الانتاج المقدم الى مرسله سواء فاز المرشح أو لم يفز .

٦) لا تقبل الاعتراضات على قرارات المؤسسة بشأن منح الجوائز للفائزين

٧) على الفائز ان يقدم محاضرة عن الانتاج الذي نال الجائزة بسببه

٨) تقبل الترشيحات ابتداء من ١٩٨٧/٥/١ ولغاية ١٩٨٧/١٠/٣١ .

٩) ترفق مع الترشيحات أربع نسخ من الانتاج المقدم وترسل على العنوان الاتي :

السيد/ مدير عام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

ص . ب : ٢٥٢٦٣ ـ الصفـاة

الكويت : 13113

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

يوليو ١٩٨٧ م

معالم على طريق تحديث الفكر العربي

تأليف

د. معن زيادة

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١٥

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢١٤ أول يوليو ١٩٨٧

الهارب

تأليف : جون جولزورذي
ترجمة وتقديم : أ. د. داود حلمي السيد
مراجعة : د. طه محمود طه



لوحة العُقاب

للفنان البحريني عبدالله المحرقي

ذو الحجة ١٤٠٧ هـ - أغسطس (آب) ١٩٨٧ م

العربي

الريف المغربي

أسطورة الإنسان
عبر الزمان والمكان

تاتاريا

إرث المغول
وطموحات الحاضر
والمستقبل



SANYO سانيو



مسجل فيديو كاسيت VHR-2300M بال BG/ME سيكام و إن تي اس سي ٤٫٤٣

وراحة أكبر. لأن فيديوهات سانيو تعتمد الصورة HQ الأكثر نقاءً لتعطيك أفضل صورة ممكنة. ستشاهد اللون الأبيض يفوق بياض فراء الأرنب الناصع كالثلج وأدقّ إرتعاشة من شاربي الأرنب. صُوَر صافية ستحوز إعجاب العيون اليقظة الأكثر دقة.

مسجّلنا الفيديو كاسيت VHR-2300M يعتمد أيضاً موقّت مبرمج ٤ برامج/١٤ يوماً، ووحدة تحكّم عن بُعد بالأشعة تحت الحمراء، تشغيل سريع للتسجيل - ٣١ وظيفة. إذن، انظر بنفسك إلى مسجّل الفيديو كاسيت من سانيو. وسترى ما فاتك.



VHR-2200PS مسجل فيديو كاسيت بال BG/ME سيكام.



VHR-1700M سهل الإستعمال بفضل ٧ أنظمة عالية

VHS HQ

SP-87-25

العدد ٣٤٥ السنة الثلاثون اغسطس ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 345 Aug 1987 P.O.Box:748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس: MITR-44041KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات.

الإشتراكات

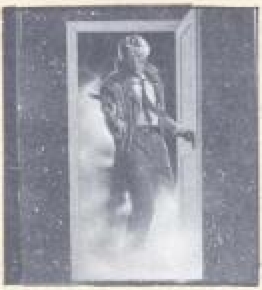
ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهماً
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	لبنان ٣ ليرات	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٣٠ قرشاً	سوريا ٣ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد


الحرب النووية ص١٨


من يذهب الى السينما ؟ص ٩٠


خصومة الأديب والفنان ص ١٠٢

المراسلات باسم رئيس التحرير.. والمجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.. والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء.



صورة الغلاف

● «بين متناقضات الريف المغربي تجري أسطورة الانسان عبر الزمان والمكان».

(طالع الاستطلاع ص ٦٨)



د. حسن الساعاتي



د. محمد الجوهري

استطلاعات ومقابلات



«تاريا» إرث المغول ...... ص ١٣٢



«السوبرنوفا» كارثة فلكية ص ١٥٤

أبواب ثابتة :

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

هذا الشهر هو أحد شهور الاجازات عند كثير من الناس ، كالطلبة والمدرسين وبعض العاملين في قطاعات كثيرة ، شهر يتوجه الناس فيه الى الأماكن التي يستطيعون فيها شم نسيم بحر ، أو استنشاق هواء جبل ، أما نحن في « العربي » فقد أعددنا عدتنا على الاستمرار في تقديم مواد مثقفة ومفيدة .

يأخذك هذا العدد من « العربي » الى الريف المغربي ، فقلم سليمان مظهر وعدسة سليمان حيدر قد طافا بريف المغرب ، ريف الذكريات النضالية ، وريف الجمال ، ومن الريف المغربي الى أرض المغول في تتاريا في الاتحاد السوفيتي يطوف بنا سليمان الشيخ هذه الأماكن المجهولة لكثيرين حتى قبل فترة ليست ببعيدة ، ويكتب لنا الكاتب الكبير فتحي رضوان عن ألوان الحوار ، كما يكتب الدكتور فؤاد زكريا عن « الحرب النووية وصراع الايديولوجيات » .

أما رءوف توفيق فإنه يحاول أن يجيب على سؤال عالق في أذهان كثيرين منا ، بعد انتشار التلفاز والفيديو ، والسؤال هو : من يذهب الى السينما ؟

وفي « وجها لوجه » نقدم وجهين « أكاديميين » في علم الاجتماع العربي الحديث ، يدور حوارهما حول الرواد في هذا المجال ودورهم ، ودور الجيل الجديد واهتماماته .

ويكتب لنا خالد القشطيني عن الاختلاف والتطابق بين طبيعة الأديب أميل زولا وطبيعة الفنان [illegible]

[illegible] على حياتنا النفسية والتعليمية وكثير من [illegible]

هذا بعض [illegible] هذا العدد من موضوعات ، وهناك موضوعات أخرى [illegible] ، [illegible] والقصيدة والطب ، وفي البيت العربي أيضا .

نرجو لك قراءة ممتعة ، وعطلة أمتع ، والى اللقاء .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

الحِوار الثقافيّ
مع العالم الثالث

■ لعل أكثر مواقفنا السلبية - نحن العرب - وربما أكثرها إثارة للعجب ، هو ما التقطناه من تأثيرات العالم الغربي وحضارته ، وربما كان ذلك جزءا من تكويننا الثقافي المعاصر ، أو هو ظاهرة من ظواهر تخلفنا ! هذا الموقف السلبي الذي اعنيه هو نظرتنا الى ثقافات العالم الثالث ، بكل مفرداتها ، وطريقة حياة افرادها وكيف يكسبون معاشهم ، وكيف ينظمون تعاملهم الاجتماعي . . الخ هذه النظرة التي تتجاوز الاستغراب الى شيء من التفكه وربما النظرة الدونية !



وللأسف فنحن لا نستطيع أن نقيس على وجه الدقة - وبطريقة علمية مقننة - مدى انتشار ذلك الموقف بيننا ، لكن الرصد العلمي الحي يكاد يوصلنا الى قناعة تقول بأن هذا الموقف من الثقافات الأخرى ينتشر في معظم الطبقات والفئات الاجتماعية لدينا ، متعلمة أم جاهلة ، غنية أم

فقيرة ، سافرت حول العالم وجابت أرجاءه وشاهدت ورأت أم قبعت في مدينتها أو حيها أو قريتها ولم تغادرها .

العادات بنت مجتمعها وظروفه :

■ فوجيء صاحبي ونحن في (بوتان)* بالأدب الجم الذي يعد سمة مميزة لسلوك الناس ، وكذلك بالكرم الذي فاق - كما قال - كرم العرب رغم فقر البلد والناس هناك .

وكانت مفاجأته أكبر عندما علم أن الرجال في تلك البلاد يمكنهم أن يتزوجوا من النساء أربعا أو أكثر ، واتسعت دهشته عندما قيل له - أنه نظريا أيضا - يمكن أن تكون الزوجات أخوات من أم وأب واحد !

ورغم أن الاختلافات بين الشعوب في عاداتها وتقاليدها أمر ممكن بل هو حتمي ، مادامت الظروف الاجتماعية والاقتصادية وعوامل الجغرافيا والتاريخ متغايرة ، الا أن الملاحظ أن هناك من يندهش عندما يرى ان هناك اختلافا أو توافقا وتشابها في تلك العادات . فالتصور المرجعي لدى كثير منا هو إما أن تكون عادات وتقاليد الآخرين مشابهة لنا تماما أو هي مخالفة لعاداتنا وتقاليدنا تماما . . أما أن يكون شيء من هذا أو من ذاك فذلك ما يثير عجب كثير منا ، ولكن الحقيقة ان عادات الشعوب تتماثل وتختلف وتلك هي الحياة .

لقد أثبتت كثير من البحوث العلمية ، أن خصائص التأثير والتأثر بين الشعوب والمجتمعات ليست كما يقال لنا بأنها من نتائج عالمنا المعاصر ، ولا هي من نتائج ثورة الاتصال الحديثة التي حولت العالم المترامي الأطراف الى قرية صغيرة حسب المفهوم المعلوماتي المتداول . فلم يعدم الانسان منذ القدم - وربما منذ أن وجد - طريقة للتفاهم بين أفراده ومجموعاته ، ونقل خبرته الى الاخرين ، والأخذ من خبراتهم . إن الاتصال الانساني الذي يتجاوز اللغة والعرق ، بل وأي حاجز آخر ، كي يربط الانسان بأخيه الانسان ، قديم قدم حضارة الانسان نفسه .

لذلك نجد أن القسمات الحضارية للشعوب - حتى وان تباعدت في الارض - تتناقل خبراتها عن طريق التجارة ، وطلب العلم ، وبعثات الاستطلاع ، بل حتى الحروب ، ووجوه اخرى عديدة للنشاط الانساني ،

العزلة الثقافية لم تعد ممكنة في عصرنا

---

* بوتان : تقع مملكة بوتان في قلب جبال الهملايا تحدها الصين شمالا والهند جنوبا وقد كان الكاتب في زيارة لها مؤخرا .

قد يتم فيها التأثير والتأثر ، ويحتدم الحوار ، حتى لو كان هذا (الحوار) بواسطة السيف او المدفع . واذا كان ابن خلدون من الأوائل الذين تنبهوا الى أحد طرق انتقال الثقافة ، وهي على حد تعبيره (تأثر المغلوب بالغالب ومحاولة تقليده في اشعاره وتربيته وأعماله وسائر احواله وعاداته) فان هذا السبب مازال قائما ، ومازال يثبت مصداقيته العلمية في حياتنا المعاصرة .

الحوار قائم وقديم قدم تجمع البشر :

■ أريد أن أقول بأن الحوار بين الأمم والشعوب كان قائما ، وقد يعجب المعاصرون كيف وصلت ثقافات معينة الى مقاطعات جديدة متجاوزة الجبال والبحار وعوائق أخرى ، وتفاعلت هذه الثقافات ، حتى اصبحنا نرى جزءا من انفسنا هنا أو هناك ، ويرى بعضهم لدينا جزءا من أنفسهم .

كل شعب من الشعوب قد تأثر وأثر في جيرانه ، أو أبعد من جيرانه ، ولا توجد اليوم ثقافة بالمعنى (النقي) غير المختلط ، فكل ثقافة مجدولة بتأثيرات اخرى ، التقطتها وضمتها الى سياقها ، متجاورة او مندمجة .

لذلك فان اولى خطوات التفاهم الدولي ـ في نظري ـ هي الحوار الذي يجب أن يجري بين الثقافات المختلفة ، حوار يعترف بالاخر ولا يلغيه ، ولعل أهم حوار ثقافي نطلبه نحن العرب ، ويجب ان نسعى اليه حثيثا ، هو حوار مع العالم الثالث . هذا العالم المليء بألوان الطيف من الشعوب والثقافات والأديان والتقاليد والمواقف والسياسات ، وهو يشكل ثقلا لا يمكن تجاهله على الساحة الدولية اليوم ، ويشكل عمقا وامتدادا على المستوى الجغرافي ، وانتماء ومصالح على مستوى حاجات الاقتصاد والرؤية الجديدة للتنمية والتكافل فيما بين الجنوب والجنوب .

هذا الحوار تجاهلناه كثيرا حتى الآن ، ويممنا وجوهنا شطر الغرب ، نترجم عنه ، نتتبعه ، وننبهر به ، ونعتمد عليه ، ونفتح معه حوارا سياسيا واقتصاديا وثقافيا . وحتى نظرتنا الى ثقافات العالم الثالث كانت من منظور غربي ، وقد نظرت الينا دوله من نفس المنظور والتصور ، فجاءت صورتهم في خيالنا مشوشة ، وانعكست صورتنا لديهم أكثر تشويشا .



الثقافة مفاهيم ورؤى :

■ وللثقافة ـ كما نعلم جميعا ـ تعاريف مختلفة ، ومفاهيم متعددة ، ويعرف « ريتشارد ماك كيون » الثقافة في كتابه « أصالة الثقافات ودورها في



التفاهم الدولي » بأنها انماط ناشئة عن تطور تاريخي ، ومن ناحية أخرى أنها مجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة في جماعة معينة ، كما يمكن متابعة آثارها في كل دوائر النشاط الإنساني ، كالسياسة والحقوق والفن والدين ، والمعرفة العقلية بمختلف صورها .

ويوجز الدكتور زكي نجيب محمود فهمه للثقافة بقوله :

(أن النسيج الثقافي في بلد ما ، وعند فرد معين من الناس انما هو « الأداة » التي يعيش بها الانسان كيفما كان عيشه ، فان رأيت صورة الحياة العملية قد اختلفت بين شعبين ، أو بين فردين ، فاعلم يقينا ان ذاك الاختلاف مرده الى اختلاف فيما نسميه « الثقافة » ، أياما كانت العناصر التي تتألف منها الثقافة)

مكونات ثقافتنا تقف بين المتساهلين والمتشددين في فتح أو قفل الأبواب

صحيح ـ كما يذهب الدكتور زكي محمود ـ أن هناك (خصوصية) في صورة ثقافة كل شعب ، وهذه الخصوصية تتميز ، وتعلن ، وتوضح ، وتشير الى التمايز بين هذا الفرد من هذه الأمة أو الجماعة وبين ذاك الفرد من الجماعة أو الأمة الأخرى ، وفي بعض الأوقات بين هذا الفرد أو الجماعة وبين ذاك الفرد أو الجماعة من نفس الأمة .

لكن مهما حاولنا التوكيد على ما هو (خصوصي) و (ذاتي) فاننا في الوقت نفسه نرى شواهد أخرى ، تؤكد على المشترك والعام في مظاهر

الأقوى في عالم اليوم هو الذي تروج ثقافته وهي تتبع صناعته وتقنيته

العلاقات الانسانية ، وهي تؤكد أن الإنسان أخ الإنسان ، مهما اختلف اللون والعرق أو العقيدة ، والنقاء الخالص لثقافة أي أمة هو ضرب من المكابرة ، يقود في النهاية الى التعصب والايمان بنظرية الشعب المتفوق التي تؤدي بالتالي الى الحروب والدمار .

وحتى في الشعب الواحد فاننا نجد صعوبة هذا التطابق الكامل في الثقافة ، ويقول لنا « ايفان ديشاشيك » الذي درس نظام الحكم المقارن : « ان من بين أكثر من ١٥٠ دولة موجودة في العالم يمكن فقط وصف تسع أو عشر دول منها بأنها « قومية » بالمعنى الاحادي العرقي فقط ، أما الأغلبية العظمى من الدول الحديثة فانها متعددة الأعراق » .

فالتنوع الثقافي ظاهرة حقيقية في العالم ، ولا يجب ليّ ذراع الحقيقة للحديث عن التطابق ، من أجل قمع التطلع الشرعي للتعبير عن الذات لدى الثقافات المتعددة في المجتمع الواحد ، فما بالنا مع المجتمعات الأخرى !

المهمة العسيرة :

■ على قاعدة التعددية الثقافية يصبح الأمر أكثر تشويقا عندما يوضع في اطار حوار العرب مع ثقافات العالم الثالث وشعوبه ، لكننا نحن والعالم الثالث - ونحن جزء منه - قد خضعنا لآليات التكوين الثقافي المعاصر ، وهي آليات فرضت علينا وعليهم ، وصورتها النهائية هي الهيمنة من جانب الغرب ، والتبعية من جانبنا .

وفيما يتعلق بالمشهد الثقافي في عصرنا يمكننا أن نسجل - دون خوف من تعميم أو عجالة - بأن الأقوى ثقافيا في عالم اليوم هو الذي تروج بضاعته الثقافية والاعلامية وهي تتبع صناعته وتقنيته ، ويبدو أن ما تحدث عنه ابن خلدون مازال صحيحا مع شيء طفيف من التعديل ، حيث أن (الغالب) في عصرنا لايريد ان يحتل ارضا ، بقدر ما يريد أن يفرض طرق حياة ، طرق حياة في الاقتصاد ، والاجتماع ، والسياسة . وتعتمد دول العالم الثالث على نماذج ثقافية كثير من مكوناتها مستورد ، تعكس قيم التعامل الغربي ، ونمط حياته ، وأساليبه . وتتآكل الذاتية الثقافية لدى شعوب العالم الثالث ، رغم أن شعوبها وارثة ثقافات أقدم عهدا ، وأكثر ثراء وتنوعا .

قد يغري التحليل السابق بالمطالبة بالنكوص ، والتقوقع ، ورفض الآخرين لمجرد رفضهم ، وذاك مالا نرمي اليه ، بل ولا حتى نلمح .

« فالتعليب الثقافي » والعزلة عن الاخرين ـ حتى لو كان مطمحا ـ لم يعد ممكنا ، فهناك أقمار صناعية تسبح في الفضاء ، وموجات أثير تجتاز البحار والجبال ، وأجهزة اتصال تقتحم المعاقل ، وكتب ، وأشرطة ، وانتقال سريع بين القارات ، كل ذلك يمنع التقوقع ، ويجعله أقرب الى المستحيل .

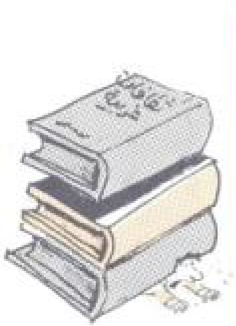
عرب وإنسانيون :

■ بين المتشددين في قفل الأبواب والمتساهلين تقف مكونات الثقافة العربية ، وبصراحة شديدة وفي أحسن الحالات مترددة ، منها أطراف معجبة بالغرب ، مقلدة له ، وفي نفس الوقت نافرة من ثقافات شعوب العالم الثالث ، ومنها أطراف اخرى نابذة للغرب ، بيد انها لا تقبل ايضا ثقافات شعوب العالم الثالث ، وهناك فئة صغيرة مستنيرة ، تحمل مشعل التعايش والاستفادة .

وينقسم الولاء الثقافي على الساحة العربية اليوم الى قطري ، منقطع عن الاخرين ، مغرق في قطريته ، وشمولي متجاوز كل الخصوصيات الاقليمية المشروعة ، وهذا الانقسام يخلق ـ بين فترة واخرى ـ معارك ليس لها سبب حقيقي .

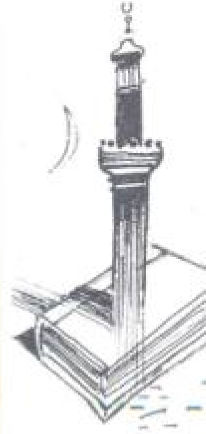
اما الفئة المستنيرة فان موقفها هو قبول الخصوصية ضمن حدود الغصن في الشجرة ، وقبول الشمولية ضمن الفروع المثمرة ، على قاعدة ان الثقافة العربية بحر واسع تكونت مادته الاساسية منذ آلاف السنين ، وأن هذا البحر انضمت اليه الكثير من فروع الانهار والروافد التي جاءت تحمل خصوصيات المنبع ثم أصبحت جزءا من التكوين النهائي .

فالثقافة العربية في مجملها ليست غريبة في المغرب او الخليج او مصر ، ان كانت بلغة عربية وهدف عربي ، وتعبر عن واقع عربي ، أما الخصوصية الموجودة في تلك الاقطار والاقاليم فهي جزء من الثقافة العربية العامة ، وهي احدى تلوينات الطيف في قوس قزح الثقافة العربية المتعدد الألوان .



قنوات التكامل :

■ اذا كانت الثقافة العربية هي كما وصفنا في السابق فهي قادرة وقابلة للتعامل مع العالم الثالث . فهناك دائرة منه تربطنا بها عقيدة هي الاسلام ،



والعربية لغة الاسلام ، ولعلنا في « العربي » نستطيع ان نقدم شهادة على هذا التفاعل عندما نعدد مايصلنا من رسائل وطلبات من الهند وباكستان واندونيسيا وتركيا ونيجيريا والسنغال ومالاوي . . وبلاد كثيرة مسلمة . . طلبات تريد الاطلاع وبإلحاح على الثقافة العربية ، لغة الاسلام ، يؤمن أبناؤها بالدين الاسلامي السمح ، ويريدون أن يحصلوا على شيء من الثقافة التي نتكلم بها وهي لغة القرآن .

وتجمعنا محاولات النمو والنهوض من التخلف مع شعوب اخرى كثيرة من العالم الثالث ، فكلانا في دائرة ما يسمى اليوم بالجنوب المتخلف الفقير ، وبالتالي فنحن نستطيع أن نتبادل خبراتنا معها ، نعطيها بلا منة ونأخذ منها بشكر ، ونقربها من فهم مطالبنا العادلة ، ونشرح وجهة نظرنا في القضايا الحيوية التي نؤمن بها في هذا العالم المضطرب . وقنوات التفاعل الثقافي مع العالم الثالث كثيرة ، ثنائية بين البلد العربي الواحد والبلد الآخر ، وجماعية من خلال المؤسسات العربية العديدة .

ولكن المؤسف أن كثيرا من هذه المؤسسات الثقافية العربية المشتركة ، وكذلك جهود الدول الفردية ، انصب معظمها باتجاه الشمال الثقافي ، سواء كان رأسماليا أو اشتراكيا ، ولكنها تقلصت وكادت أن تنضب بيننا وبين دول العالم الثالث .

دول العالم الثالث هي في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، في الحلقتين الأوليين (آسيا وأفريقيا) نجد أن صلة الاسلام تربطنا مع كثير من هذه الشعوب ، وعلى الرغم من أن الدين الاسلامي أحد الركائز الاساسية والجوهرية التي تجمعنا بهذه الشعوب ، كذلك يجمعنا بها علاقات ثقافية ضاربة في القدم . ومع الاسلام انتشرت اللغة العربية . صحيح أن اللغة العربية واجهتها صعوبات تتعلق بخصوصيات حضارية لتلك الشعوب ، فإن انتشار الاسلام وفر للعربية قواعد الانتشار ، حيث أن العبادات والمناسك لا تؤدى بصورة كاملة إلا باللغة العربية .

لذلك فإن الشعوب الاسلامية التي لم تتعرب ، دخلت العربية في خصائص تكوينها اللغوي ، وأصبح الحرف العربي هو الحرف الذي تكتب به الكثير من لغات شعوب العالم الثالث كالفارسية والأوردية ، وحتى التركية - قبل ظهور الأتاتوركية - وغيرها من اللغات .

فتلازم الدين الاسلامي مع اللغة العربية يمهد لنا الأجواء لنقيم علاقاتنا الثقافية مع دول كثيرة في العالم الثالث ، على أساس الاحترام المتبادل .

فالعناصر الذاتية اللغوية ليست مجرد عقائد ورموز فقط لكنها أيضا منهج فكر وطريقة حياة وأسلوب تصور ، وهي في نهاية المطاف رؤية متكاملة للحياة .

ودول امريكا اللاتينية نرتبط بها نحن العرب بتاريخ النضال ضد الاستعمار ، وتخليص ثرواتنا القومية ، ومن بعد ذلك التوجه والطموح الى نماء متوازن لصالح الانسان . كل هذه القيم يمكن ان نؤسس عليها تعاونا ثقافيا عميقا نكسب من بعده تأييدا عالميا لمواقفنا وحقوقنا العادلة . . والعالم الثالث بعد ذلك يمثل عمقا جغرافيا لنا ، ونظرة على الخريطة تقول أن افريقيا مثلا هي الفناء الخلفي للوطن العربي ، وهي المكان المتاح اقتصاديا وسياسيا لكي نضيف الى قدراتنا قدرات ، ولكي نعزز معا ـ نحن وهم ـ جبهتنا وموقفنا في مواجهة الاخرين ومحاولات اختراقهم لنا .

أين هو القرار ؟

■ عظم الانجاز الحضاري المتحقق من اقامة حوار مع العالم الثالث يفوق كل التضحيات التي يمكن ان نقدمها من أجله . . ولكنه فرصة عظيمة تتسرب من بين أيدينا

لقد أحزنني كثيرا ـ كما احزن المهتمين بالثقافة في العالم الثالث ـ ذاك القرار الذي اتخذ في إحدى اجتماعات اليونسكو في باماكو عاصمة مالي ١٩٧٦ ، القرار يقضي بكتابة اللغات الافريقية بالحروف اللاتينية واهمال ما عداها !

هذا القرار ـ في نظري ـ هو تغليب (السياسي) على (الثقافي) ، أو بالأحرى هو انحياز ثقافي له مترتبات وأبعاد خطيرة باتجاهين : أولهما اقتراب أكثر الى الغرب لدى هذه الشعوب ، وثانيهما ابتعاد عن العربية والاسلام .

ورغم خطورة هذا القرار فلم تكن للهيئات العربية ردة فعل وجهد يناسب هذا القرار وخطورته .

ان العوامل التكوينية التي تم ترسيخها عبر مئات السنين ، يمكن ان تتخلخل ويصيبها التعطل ، وربما التشويه ، من خلال اختراق مكونات





اخرى جديدة ، وما قرار اليونسكو في باماكو السابق الذكر ، الا محاولة جادة لتمتين الصلة بين اللغات الأوروبية من جهة ، واضعاف العلاقة باللغة العربية من جهة اخرى .

أي أن مكون اللغة الجامع الموحد الممهد لأرضية الحوار مع شعوب كثيرة من العالم الثالث أصبح بعد قرار اليونسكو سابق الذكر ليس ذا قيمة ، وسوف تتضاءل قيمة الحوار مع مرور الزمن وضياع الوقت المناسب له .

وهذا يحتم علينا أن نشير الى أهمية ضبط خطوات السياسه مع الاقتصاد ومع الثقافة في اطار العلاقات العربية مع دول العالم الثالث .

كما أن الأهداف الثقافية يمكن الوصول اليها من خلال التعاون الاقتصادي ، فالمشروعات المشتركة والمعونات الاقتصادية يمكن أن ينتج عنها فتح أبواب التعامل الثقافي المؤثرة في القطاعات الأوسع من الناس .

الأرضية المناسبة :

■ تجمعنا - نحن العرب - منظمات دولية واقليمية كثيرة مع دول العالم الثالث ، مثل منظمة دول عدم الانحياز ، ومنظمة الوحدة الافريقية ،

تلازم الإسلام ولغة القرآن يمهد الأجواء لإقامة علاقات ثقافية مميزة

ومنظمة المؤتمر الاسلامي ، وغيرها كثير . . واذا كانت مرحلة سابقة من تأييد حركات التحرير في افريقيا وآسيا قد جعلت لنا سمعة طيبة لدى تلك الشعوب ، وتلتها مساعدة اقتصادية كثيرة ومتنوعة ، فان هذه العوامل المتراكمة تعطينا مفاتيح التعاون الثقافي وتوسيع لغة الحوار مع شعوب العالم الثالث . والخطوات العملية كثيرة ، فالمساعدة في افتتاح جامعة أو مدرسة ، أو زيادة عدد المقاعد الممنوحة لهذه البلاد أو تلك من العالم الثالث في مؤسساتنا التعليمية العالية ومعاهدنا الدينية والثقافية ، وإرسال المعلمين والبعثات العلمية ، أو حتى توفير برامج ثقافية سينمائية وتلفازية تخاطب وجدان الشعوب ، والاعتناء بتوصيل نتاجنا الثقافي من كتب ومجلات وصحف ، واقامة أسابيع ثقافية ، وتقوية البث الاذاعي الموجه بلغات شعوب أخرى ، كل هذه الخطوات تفيد كثيرا في توفير لغة حوار حضاري بين شعوب العالم الثالث وبيننا .

لكن هذه الجهود التي تخاطب الوجدان أكثر من مخاطبتها للبطون والأجسام تبقى مكشوفة ومعرضة للاختراق مالم تغطي بغطائين ضروريين :

الأول : ان ترسم الخطط وتنفذ من خلال مؤسسات قومية تغلب المصلحة القومية بعيدة المدى على المصالح الاقليمية والذاتية .
الثاني : أن تتوافق لغة الخطاب السياسي مع لغة الخطاب الثقافي ، والأرجح ان الثقافي هو أول ضحايا السياسي إن تعارض الخطابان .

ويبقى أن نعترف أننا لسنا وحدنا في ساحة العمل الثقافي أو غيره على مجمل ساحة العالم الثالث ، فهناك آخرون لهم أهدافهم السياسية والاقتصادية ويعملون بدأب لاختراق تلك الساحات . كما أن الحوار الثقافي يحتاج الى عقول نيرة يقظة وأجهزة تنفيذ ومال وفير يساعد في كل ذلك .

« القرية الصغيرة » التي أصبح عليها العالم تعج بمختلف البرامج والسياسات التي تحاول السيطرة علينا وعلى الاخرين ، والتسابق رهيب على غزو العقول ، وان لم ننسق بيننا فان الغزو يهدد بأن يطولنا ، وهو يحاول من حولنا بكل قوة !

محمد الرميحي

الحرب النووية

وصراع «الأيديولوجيات»

بقلم : الدكتور فؤاد زكريا

لو قامت الحرب النووية ، فماذا سيحدث بعدها لعقول الناس ، وكيف ستكون اتجاهاتهم السياسية ، واختياراتهم (الأيديولوجية) ؟

لقد أثار دهشتي أنني لم أجد اجابة على هذه الأسئلة فيما قرأت عن الآثار المحتملة للحرب النووية ، مع أن رفوف المكتبات قد امتلأت بدراسات تتحدث عن الخسائر البشرية والمادية الهائلة التي ستلحق بالعالم ، اذا ما نشبت مثل هذه الحرب ، وقدم بعضها تفاصيل دقيقة عن أعداد من سيموتون من جراء الضربة الأولى ، وأعداد من سيفنون بالضربة الثانية ، وازدادت التفاصيل دقة ، فتحدثت بعض الدراسات عن الفارق بين خسائر المهاجم والمدافع ، وحددت مقدار الدمار الذي سيلحق بمركز سقوط قنبلة ذات قوة تدميرية معينة ، والتخريب الذي سيحدث في المناطق المحيطة بهذا المركز ، حسب درجة ابتعادها عنه . وتناولت دراسات لا حصر لها أخطار الاشعاع المباشر وغير المباشر في المدى القريب والبعيد . وآخر الاجتهادات في هذا الصدد نظرية « الشتاء النووي » التي عرض صاحبها ـ وهو العالم الفيزيائي الفلكي المشهور « كارل ساجان » ـ صورة مخيفة لعالم ما بعد الحرب النووية الذي تخيم عليه سحب كثيفة ، تخفض درجة حرارة الأرض الى حدود لايتحملها الانسان ، وتقضي على معظم أشكال الحياة على سطح الأرض ، وتتلف التربة الزراعية ، وتجعل ظهور أي محصول نباتي أمرا يكاد يكون مستحيلا .

منتصر ومهزوم

لكن الأمر الملفت للنظر حقا هو ندرة الكتابات التي تتحدث عن التغيرات التي يمكن أن تطرأ على

عقل الانسان أو انعدام تلك الكتابات ، وعلى نظر الانسان الى العالم ، وعلاقاته مع البشر ، نتيجة نشوب مثل هذه الحرب . وليس من الصعب أن نستنتج سبب هذا الاغفال ، لأن التركيز انما ينصب على تأكيد الدمار الشامل الذي ستحدثه الحرب النووية ، والتحذير من أن الحياة ستصبح بعدها مستحيلة ، فاذا كانت تلك الحرب مؤدية الى فناء البشرية ، فلن يعود هناك معنى للحديث عن التغيرات التي تترتب عليها في عقول البشر ، ومن جهة أخرى فإن الخوض في موضوع التحولات السياسية أو (الأيديولوجية) التي ستنبثق عن هذه الحرب ، قد يترتب عليه التهوين من شأنها ، لأن معناه أن نسبة معينة من البشر ستظل على قيد الحياة بعد نشوب حرب كهذه ، وستعيد بناء حياتها ، وتراجع مواقفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من جديد ، وهو أمر قد يحمل ضمنا معنى التشجيع على شن هذه الحرب .

لكن الغريب في الأمر بحق أن هذا هو بعينه الأساس الذي تبنى عليه وجهة النظر المعلنة للقيادات السياسية والعسكرية المسئولة في البلد الذي أدخل العالم الى عصر الحروب الذرية والنووية ، أعني الولايات المتحدة الأمريكية . فالتقارير المطولة التي يعدها أساطين (الاستراتيجية) الأمريكية تقوم بحسابات معقدة لخسائر الضربة الأولى ، والضربة الانتقامية ، والاشعاع والتلوث . . . الخ ثم تنتهي من هذا كله الى أن الطرف الذي يتفوق على الآخر في ابتكار وسائل لتدمير قوة الخصم المهاجمة ، ولضمان وصول أكبر عدد من صواريخه النووية الى أهدافها في أراضي العدو هو الذي سيكتب له البقاء ، وبعبارة أخرى فإن هذه التقارير المعقدة لاتبنى على أساس أنه الحرب النووية هلاك الجميع ، بل على أساس أن « هناك منتصرا ومهزوماً » ، وان المنتصر يمكن أن يعيش ويجني ثمار انتصاره ، بينما يزول المهزوم نهائيا من الوجود .

والحق أن العقيدة العسكرية السائدة في أمريكا ترتكز بالفعل على الاعتقاد بأن التفوق التقني يمكن أن يصل الى نقطة تمثل فيها الحرب النووية الشاملة خسارة نسبية للطرف المتفوق ، وفناء حاسما للطرف الخاسر ، وبذلك يضمن الغالب بقاء جزء معين من سكانه ، ومن ثم بقاء نظامه الاجتماعي ، وسيادته على العالم بلا منافس ، وتلك هي الفلسفة الكامنة وراء فكرة « حرب الكواكب » التي تدافع عنها حكومة (ريجان) في وجه مقاومة حادة من بقية شعوب العالم على اختلاف أنظمتها ، والفكرة هي إقامة شبكة دفاعية ، متطورة الى حد مذهل ، يضمن بها اصطياد صواريخ العدو ، أو معظمها على وجه أدق ، وهي لما تزل في الجو ، وتدميرها قبل أن تصل الى أهدافها ، في الوقت الذي تكون فيه الصواريخ الأمريكية قد الحقت بالخصم فناء شاملا . وبالطبع فان صفة « الدفاعية » في هذا النظام صفة خداعة ، لأنها دفاع في الظاهر ، لكنها في حقيقتها أكبر عامل مشجع على الهجوم ، ما دامت ستضمن عدم وقوع ضربة مضادة بعد هذا الهجوم ، تلحق بالمهاجم الأصلي خسارة مدمرة .

استئصال الافكار المضادة !

وعلى هذا النحو تكون (حرب الكواكب) في نظر أنصارها ، وهي الحل الجذري للصراع (الأيديولوجي) بين معسكر رأسمالي ومعسكر اشتراكي مثير للمتاعب ، فبدلا من استمرار هذا الصراع بما فيه من مد وجزر ، وانتصارات وهزائم ، يأتي هذا الحل « المثالي » لكي يمحو العدو من الوجود ، ومعه (أيديولوجيته) المشاغبة ، لكي يستقر الأمر في نهاية المطاف للمعسكر الذي تحقق له (ايديولوجيته) الرأسمالية تفوقا تقنيا كاسحا وليبدأ البشر الذين كتبت لهم الحياة بعد المحرقة الكبرى ـ والمفروض أن معظمهم سيكونون من البلاد الرأسمالية ، ومن أمريكا على وجه التحديد ـ مرحلة جديدة من التاريخ ، يتم فيها استئصال أي

(أيديولوجية) مضادة أو منافسة .

لكن هذا « السيناريو » الذي يدور في أذهان المخططين (الاستراتيجيين) لحكومة « ريجان » على الأخص ، وعلى أساسه تعد ميزانيات الدفاع خلال العقد القادم على الأقل ، في أقوى وأغنى دولة في العالم ، وتكرس الموارد البشرية والمادية بغية تحقيق التفوق المطلق في أي حرب نووية مقبلة ، ينقص هذا السيناريو عنصر يبدو في ظاهره بسيطا ، وإن كانت له في حقيقة الأمر أهمية حاسمة ، وأعني به نوع التغييرات الذهنية و (الأيديولوجية) التي يمكن أن تؤدي إليها حرب نووية شاملة ، ومع ذلك فان هذا العنصر يظل مفتقدا في كافة الخطط التفصيلية الدقيقة التي يرسمها مروجو « حرب الكواكب » ، بالرغم من أنه هو المبرر الرئيسي لتلك الجهود الشاقة ، والأموال الطائلة التي تبذل في سبيل تنفيذ هذا البرنامج .

فلم يسمع أحد عن بحث حاول أن يقدم إجابة تفصيلية وعملية بقدر الامكان على السؤال الحاسم التالي : إذا افترضنا أن التفوق التقني الأمريكي قد ضمن بقاء نسبة معينة من سكان العالم ، ومن سكان أمريكا على الأخص بعد الحرب النووية الشاملة ، فهل سيظل هؤلاء الباقون الأحياء وسط مظاهر الفناء والخراب في العالم المحيط بهم رأسماليين أو مؤمنين بالرأسمالية ؟ وهل سيكون الانتصار العسكري في مثل هذه الحرب انتصارا للايديولوجيا السائدة حاليا في المعسكر الذي يعتقد أنه سيحرز هذا النصر ، أم أن هذه الحرب نفسها لابد أن تؤدي إلى تغييرات جذرية في نظرة الانسان الذي يعيش بعدها الى العالم ، والى علاقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ببقية البشر ؟

افتراضات وأسئلة

سنفترض أن المجزرة الكبرى قد اندلعت في العالم ، وأن الأسلحة النووية القادرة على قتل عشرة أضعاف سكان العالم قد استخدمت ، وسنفترض أيضا أن التدابير الوقائية التي تتيحها « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » ، قد نجحت في نشر مظلة من أشعة الليزر ، أدت الى تدمير نسبة كبيرة من صواريخ الخصوم ، سواء تلك التي أطلقت من البر أم من البحر أم من الجو وسواء كان إطلاقها من مواقع متحركة في غواصات تجوب أعماق المحيطات ، أو ثابتة تختفي في صوامع تحت الأرض ، أيضا أن هذا النظام الدفاعي المحكم قد أدى الى بقاء نسبة معينة من الشعب الأمريكي على قيد الحياة ، لأن أشد أنصار برنامج « حرب الكواكب » تفاؤلا لايزعمون بأنه سيكون نظاما دفاعيا مانعا لكل صواريخ العدو ، بل يعترفون بأن نسبة من هذه الصواريخ ستفلت منه ، وستصيب أهدافها ، وبأن القوة التدميرية للصاروخ الواحد الذي يحمل رءوسا نووية متعددة قادرة على سحق مدن عديدة بكل من فيها من البشر ، فكيف سينظر هؤلاء الناجون من المحرقة الى العالم والى أنفسهم والى مجتمعهم ؟

إن هؤلاء البشر الذين ينتفضون رعبا ، والذين خرجوا من مخابئهم المحصنة بعد شهور طويلة من العزلة عن العالم الخارجي ، وعانوا خلال ذلك أهوالا لاتوصف ، ليس أقلها تلك الحرارة الشديدة المتولدة عن وجودهم في أماكن مغلقة فترات غير عادية ، فضلا عن الصدمات النفسية التي تثيرها أهوال الحرب ، والتوقعات المخيفة في كل لحظة . هؤلاء البشر يستحيل أن يعودوا الى اسلوب الحياة والتفكير الذي كانوا يتبعونه من قبل ، فأهل الكهف العصريون هؤلاء سيتعرضون للموت بالاشعاع بعد خروجهم ، ولن يجدوا حولهم الا الدمار المرعب ، وسيبحثون عن الغذاء وعن الكهرباء وعن الماء غير الملوث فلا يجدون من ذلك شيئا . فهل يمكن أن يظل هؤلاء رأسماليين ، حتى لو كانت البلاد الاشتراكية قد سويت بالارض ، وحتى لو كان كل من ينتمي الى (أيديولوجية) مخالفة قد أصبح رمادا ؟

هل ستصفق لهذا الانتصار (جنرال موتورز) و



الحرب النووية حل « مثالي » للصراع « الايديولوجي » !

(جنرال الكتريك) و (جنرال ديناميكس) ؟ وهل ستحتفل به (آي . بي . أم) و (آي تي تي) ؟ وهل سيكون هناك مجال لاجتماع مجالس ادارات الشركات العملاقة ، المتعددة الجنسية ، ذات القدرات الجهنمية والشبكات الأخطبوطية ، ليشرب مدخنوا السجاير من أعضائها نخب الانتصار الذي استأصل العدو من جذوره ، وترك العالم كله خاليا لهم ، يصولون ويجولون فيه كما يشاءون ؟

إن هذه الشركات لن تجد عندئذ عمالا قادرين على الانتاج ، ولا خامات مواد قابلة للتصنيع ولا أسواقاً مستهلكة للمنتجات ، بل انها لن تجد لنفسها وسط الدمار الشامل مقرا تمارس فيه نشاطها ، او وسائل تتصل عن طريقها بالعالم ، ولن تستطيع اعادة بناء هذا كله طوال اجيال كاملة .

ولكن الأهم من ذلك هو التغيير العقلي الهائل الذي لابد ان يطرأ على تلك الفئة القليلة التي خرجت من مخابئها حية ، اذا افترضنا بأن هذا قد أمكن حدوثه . فهل يعقل ان هذه الفئة التي عانت اقسى تجربة مر بها البشر طوال تاريخهم سوف تتطلع وسط مشاهد الموت والدمار الى الكسب والتوسع وغزو الأسواق ؟ وهل سيكون للطموح الرأسمالي الى الربح والمبادرة الفردية مكان في ذهن انسان يحيط به الخراب والألم طوال حياته وحياة ابنائه واحفاده ، ويرى الناس يتساقطون من حوله كالذباب في كل يوم من ايام عمره ؟ وهل سيكون للمال ، وللاسهم والسندات وللبنوك والبورصة معنى في هذا الجحيم المقيم ؟

انسان مختلف

باعتقادي أن بشاعة التجربة ستنتج انسانا مختلفا كل الاختلاف عن ذلك الذي عاش قبلها ، وان القضاء الحالي بين الرأسمالية والاشتراكية او الشيوعية لا يكتسب معناه الا في اطار الظروف الموضوعية للعالم « الحالي » ، اما في ظل الاوضاع التي تولدها حرب نووية شاملة فان ظروفا جديدة كل الجدة ستطرأ على حياة البشر ، يفقد فيها هذا الصراع كل معنى له ، ولابد ان تسفر من الوجهة (الايديولوجية) - عن شيء مختلف كل الاختلاف ، قد يكون من الصعب الآن تحديد معالمه ، لكنه سيكون قطعا بعيدا كل البعد عن الرأسمالية كما نعرفها الآن .

ولو كان لي ان اجازف لقلت ان ما يمكن ان يسود ، في ظل هذه الظروف الفريدة ، هو شكل معدل من اشكال الدعوة الى الحفاظ على البيئة التي تتبناها الآن جماعات « السلام الأخضر » وغيرها ، وذلك لسبب بسيط هو ان مشكلة ايجاد بيئة تتيح استمرار الحياة البشرية ستظل وقتا طويلا جدا ، هي المشكلة المسيطرة على عقول اولئك الذين ظلوا على قيد الحياة وسط انقاض الحضارة البشرية .

وهنا يصبح باستطاعتنا ان نجيب على التساؤل الهام الذي طرحناه من قبل ، ولم نجد له عندئذ اجابة شافية ، وأعني به : لماذا لم تظهر دراسات دقيقة للنتائج (الايديولوجية) المترتبة على الحرب النووية الشاملة ؟ وذلك لأن دراسة هذا الموضوع من زاوية (الايديولوجيا) ستكشف عن حقيقة اساسية ، يحرص اساطين التسلح واقطاب الحرب النووية على اخفائها ، وهي ان النظام الذي تندلع هذه الحرب من اجل خدمة مصالحه لابد ان يختفي في اعقابها ، ايا كانت النتائج التي تسفر عنها ، وان التقنية الرفيعة التي تبتكر ابشع اسلحة الدمار ، واقوى وسائل الدفاع ، انما تهدم نفسها بنفسها لو حققت الهدف الذي تعمل من أجله ، وان المنتصر الاكبر في الحرب القادمة لابد ان يكون من الوجهة (الايديولوجية) هو الخاسر الأكبر .

هي معركتنا ايضا

ويظل بعد ذلك سؤال اخر محير : هل هم يجهلون هذا ؟ اغلب الظن انهم لا يجهلون ، وانهم على وعي بان الحرب التي يبيتون انفسهم لها مستحيلة « عقليا » ، مادامت ستؤدي الى عكس المقصود منها ، بل انهم على وعي بالمأزق الفكري لعملية التسلح النووي في عالمنا المعاصر،ذلك المأزق الذي يتمثل في ان هذا التسلح اذا حقق اهدافه بنشوب حرب فسوف تقضي هذه الحرب على النظام الذي هيأ لها الظروف الملائمة ، اما اذا لم يحقق اهدافه ، ولم تقم الحرب ، فسيكون معنى ذلك ان صناع الاسلحة وتجارها قد ارغموا العالم كله على ارتكاب اكبر عمل جنوني في تاريخه ، وهو ان يستنزف أثمن موارده البشرية والمادية في انتاج « لعب » مميتة ، لن يستخدمها احد .

وأغلب الظن ايضا ان هذا هو بعينه المقصود ، فأسلحة الدمار الشامل تنتج من اجل الانتاج لا من اجل الاستخدام ، لأن الانتاج عملية مربحة الى أقصى حد ، أما الاستخدام فسيكون الجميع منه خاسرين ، ومن هنا كان من واجبنا - نحن شعوب العالم الثالث - أن نحدد موقفنا من هذه المسألة بوضوح قاطع ، ما دمنا نعيش في عالم ينفق على انتاج تلك اللعب المميتة التي لن تستخدم،أضعاف ما يكفي لحل جميع مشكلات التخلف والفقر والمرض والجهل في مجتمعنا ، فمن واجبنا أن نكون على وعي بأن معركة (الحد من التسلح) هي معركتنا ، قبل أن تكون معركة أمريكا والسوفييت ، أو حلف الاطلنطي وحلف وارسو ، لأننا أكبر الخاسرين من هذا الجنون اللامنطقي الذي يرغمنا صناع الأسلحة وتجارها على أن نقبله ، وكأنه حقيقة أساسية من حقائق الكون . □

أقوال

■ « إن الكويت تود أن تؤكد بأن الاجراءات التي تمت أخيرا هي إجراءات تجارية بحتة ، تتعلق بتأمين مصالحها التجارية والاقتصادية ، وهي بعيدة كل البعد عن أي شكل من أشكال التدخلات الأجنبية في المنطقة » .

راشد عبد العزيز الراشد

وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء الكويتي

■ « لن نسمح بأن يصبح المواطنون أقلية في بلدنا ، وعلينا الانتباه الى مخاطر الاعتماد والاتكال على العمالة الأجنبية » .

السلطان قابوس

سلطان عُمان

■ إن أول التجديد هو أن نقتل القديم بحثا .

أمين الخولي

■ مأساة الشعب الفلسطيني ليست مجرد مشكلة سياسية محلية في الشرق الأوسط ، إنها مأساة تعنينا جميعا ، لأنها تكشف السر عن العنف والظلم الماثلين في صلب حضارتنا .

ج . م . لوكلوزيو

روائي فرنسي

نبيل السلمي

في ذمة الله



فوجئنا وهذا العدد ماثل للصدور بوفاة زميلنا الفنان الكبير رسام الكاركاتير « نبيل السلمي » ، إثر أزمة قلبية ألمت به ، وهو أوفر ما يكون عطاء لعشاق فنه ، ولمجلة « العربي الصغير » التي ولدت على يديه ، ونمت ، ومازال تحفظ له فضل سخاء فنه ، وروعة شخصيته .

كان فن نبيل السلمي يتميز برقة النبرة ، وحدة النفاذ ، فهو يمضي مع الخيال إلى أقصى إمكاناته ، ويخاطب أولئك الأكثر ذكاء ، والأقدر على اكتشاف لغة الهمس ولغة القلب المثقل بآلام الآخرين وبنبل المسئولية ، وكان فنه صورة من شخصيته الهادئة ، هدوء من أدرك أن الصخب لا يجدي ، وأن التظاهر لعنة على صاحبه ، وأن الصوت العالي يتبدد في الفضاء الواسع ، وأنك لكي تغير لابد أن تعمل في صمت ، وفي صدق ، وفي أمانة ، لكي تصل رسالتك ، وتسهم في إيجاد من يعملون في صمت وصدق وأمانة .

قد لا تسمح لنا المساحة ولا الوقت بالحديث عن هذا الفنان بما يستحق شخصه وفنه ، وبالتأكيد فإن لمثل هذا الحديث وقته ومكانه ، ولا يسعنا في هذه السطور وأمام ذهول المفاجأة سوى أن نضرع إلى الله العلي القدير أن يتغمد الفقيد الغالي بواسع رحمته ، وأن نتقدم إلى أسرته ومحبي فنه وأصدقائه في الوطن العربي بخالص العزاء .



الحوار ألوان

بقلم : فتحى رضوان

الحوار حاجة انسانية لازمة قلما يستغنى عنها الانسان .. منه ما هو داخلى يقيمه الانسان مع ذاته ، ومنه ما هو مع الآخرين .. فما هى « الوان » الحوار التى قصدها الكاتب ؟

ربما لا أكون موفقا اذا قلت أن الحوار وسيلة متخلفة ، في حين اريد أن أقول إنها وسيلة عاجزة غير مؤثرة في اقامة علاقة عقلية بين رأيين أو مذهبين أو فردين أو جماعتين .

ان بعض مفكرى العرب المحدثين راجعوا صفحات التاريخ الانسانى منذ البداية حتى اللحظة التى تكتب فيها هذه السطور ، فلم نعرف أن فيلسوفا أقنع فيلسوفا آخر بنظريته ، كما لم يقنع سياسيا ممثلا لدولة أقامها وآتاه بالاسلوب الجذاب واللسان الخلاب ، والحجة الصادقة ، والبينة القاطعة ، ان يخرج السياسى الممثل لدولة اخرى عن اعتقاده ويسلم لزميله المتحدث الرائع ، والمحاور البارع بما قاله وأفضى من الحقائق والمعلومات فأنهى ما كان بينهما أو بين دولتيهما من نزاع ، وهدأت السيوف في اغمادها والخناجر في قرابها ، وبقيت الجيوش فى ثكناتها لم تبرحها .

وقد رأينا على مدى التاريخ الانسانى ، مذاهب سياسية تنشأ ، وعقائد دينية تولد ، ومدارس فكرية

تقدم ، ورأينا لكل مذهب وعقيدة ومدرسة ، أنصارا ودعاة يبشرون بفكرتهم ، ويروجون لعقيدتهم ، ويجادلون عن مذهبهم بالخطبة الأخاذة والحوار الذى يسد على الخصم المنافذ بعنف أو برفق ، وبالحديث البسيط المسترسل الذى لا تحس فيه بنبرة الاعتزاز بالنفس ولا الرغبة في القهر ثم تتوالى الكتب رسائل صغيرة ، فأسفارا ضخمة فمجلدات تنوء بثقلها الجمال في القوافل ، وكلها دفاع عن تلك المذاهب ، ومفاتحة ـ عن صدقها ورد على خصومها . ثم يهدأ غبار المعارك فاذا كل شيء في مكانه ، واذا الناس يزدادون تعصبا لمذهب بعينه أو ينفضون عنه ، ويغادرون هذه الدنيا وهم لم يسمعوا شيئا مطلقا عن هذه الاسفار الضخمة ، ولا تلك المجلدات التى تعد صفحاتها بالمئات .

حوار لا ينتهي

ولكن الشيء الذى لا يمكن تفسيره أن الحوار لم ينقطع بين الناس من المذهب الواحد ، وبين الناس من المذاهب المتباينة ، وبين الناس التى تريد أن تحاور وتجادل ، وهى لا تنتمي الى عقيدة ، ولا تنحاز لأسلوب فكر . الحوار إذن حاجة انسانية لا يستغنى عنها ولا يعيش بغيرها . وهناك حوار لا نعترف به ، ولا نعطيه حقه من العناية والدراسة ، والتأمل هو الحوار مع النفس .

وليس حتما ان يكون الحوار مع النفس بالصوت المسموع ولكنه يحدث بالصوت المسموع . فما أكثر المسرحيات والخطب والمرافعات التى قالها أصحابها لانفسهم وهم يتصورون انفسهم انسانا يجادلهم أو جماعة جالسة على مقاعد مصفوفة تستمع وتستمتع وتهز رؤوسها بالموافقة أو تلهب أيديها بالتصفيق وهى لا وجود لها ، ولكنها انبثقت من خيال الكاتب أو المسرحي أو الخطيب .

هذا الحوار الذى لم نسمعه ولم يسمعه أحد هو أعظم أنواع الحوار الانسانى تأثيرا وان كان حديثا من طرف واحد ، ولكن اليه ينسب أكبر الأفكار وأعظمها وأجلها وأجلها ، ففي هذا الحديث الذى لا يبغى به المتحدث أن يقر رأيا ، ولا أن يكسب نصيرا هو الحوار الذى يوحى الى صاحبه أولا بالأفكار ، وثانيا بالتغيير والتعديل ، وثالثا بالاقتناع والطمأنينة .

واذا التقى اثنان من مذهب واحد فانهما ـ وللعجب ـ يبدآن في الحال حوارا ، ليتبينا بعده أنهما جد مختلفين وان ما يفهمه احدهما من مذهبه يفهم الآخر نقيضه ، فاذا هما خصمان لدودان وخصمان متناقضان ، واذا الحوار الهادىء المريح قد استحال الى قذائف متطايرة ولعنات متصاعدة ، تتقلص لها الأيدى وتنقبض بسببها أسارير الوجه وقسماته ، ويتصبب العرق ، ويشيح كل منهما عن صاحبه بوجهه كرها وضيقا ، ثم يهدآن ثم يستأنفان الحديث ، فاذا هما متصافيان يتودد احدهما للآخر ، واذا الخلاف الذى أجج النقاش بينهما يتبخر فلا يجدان له أثرا ، ولا يحسان لوقدته لذعا فيحسان انهما أقرب ما يكون احدهما من الآخر ، ولكن إلام انتهيا وعلام اتفقا ؟ لا شيء مطلقا . . والموضوع الذى دار حوله الخلاف بقي في موضعه لم يتقدم خطوة ، ولم يتحرك من مكانه قيد شبر .

من الحوار الى الخصومة

والغريب انه اذا التقى فردان من مذهبين وعرف كل منهما أن صاحبه على النقيض منه ، دار بينهما الحديث هادئا خاليا من العنف كأنهما لا يجدان ما يدعو الى التصادم فكل منهما قانع بمذهبه مكتف به ، وكل منهما يعلم أن استمالة صاحبه الى مذهبه أمر لا أمل فيه ، ولا نفع منه . فاذا ما ساءت علاقتهما لسبب لا يمت الى العقيدة بصلة رأيت كلا منهما ميالا الى الانقضاض على الآخر ، والامساك بتلابيبه ، واذا بالحوار المذهبي يشتعل ويتقد ويتحول مع الزمن الى خصومة معلنة . فلا يلتقيان الا ويستثير صاحبه

بكلمة أو دعاية ، وفي الحال يتماسكان وتتجدد هذه الحالة . ولسنا نذكر هذا المثل لمجرد بيان صورة من

صور التوتر الذى يسود علاقات أصحاب المذاهب والمواقف المتباينة ، وانما لنستمد من هذه العلاقة بين الأفراد للعلاقة بين المجتمعات ، فما أكثر الدول أو مجموعات الدول التى عاشت حياتها تخشى مجموعة اخرى ، وتتوجس من كل حركة تصدر عنها ، أو خطوة تقدم عليها ، ثم تنشب الحروب وتستمر لسنوات والمراقبون يحسبون أن الخلاف مرده المذهب ، فاذا ما تغيرت الظروف ، تجاوزت الظروف الجديدة الأوضاع السياسية القديمة ، الفيت المجموعتين المتصادمتين وقد تلطفت العلاقة بينهما ،

وكل منها على مذهبه . وكان هذا الخلاف المذهبى قد وقع ونشبت بسببه حروب طاحنة ومعارك دامية ، فالمانيا وفرنسا تحاربتا قبل النازية وبعدها . تحاربا والمانيا في ظل بسمارك ، ثم المانيا في ظل غليوم ثم تحاربا والمانيا في ظل هتلر،فكأن المذهب الذى قيل إنه الداعى الى القتال لم يلق بالعداوة . . ولم يؤججها وكأن التنافس على الأسواق الذى قيل انه السبب الثاني والذى تزيا بزى المذاهب لم يفسد للجماعتين علاقة .

فالتنافس بين الجماعات البشرية ضرورة اجتماعية وحين يتزيا بزي العقائد يزداد تأصلا ولكنه في الوقت نفسه يؤدي الى تدافع هذه المجتمعات والى احداث صور من الصراع ينتفع به التقدم . ويتلون به التنافس . وتبحث عن الحوار فلا تراه ، لم يفسد العلاقة فيها أفسدها ، وانما صاحبها ولم يصلح تلك

العلاقة متى صلحت وانما عاصرها،والغريب أيضا اننا بعد ان حسبنا ان الحوار لا يحسم مشكلة من مشكلات الفكر المستعصية،ولا يقرب بين متنافرين ولا يؤثر في فرد أو جماعة اختارت لها منهجا يحاول الحوار تحويلها عنه أو تنفيرها منه ، فانه ـ أي الحوار ـ

مستمر ومؤثر وفعال ولا يبدو هذا تناقضا،فهذا الحوار الذى نعنيه هو حوار داخلى لا تسمعه الآذان ، وان

كانت الضمائر تتابعه وتتأثر به وتحرص عليه ولا تتجاهله أبدا ، فالجماعات المتنافرة المتباغضة لا تنقطع عن مخاطبة الجماعات التى تقف منها على النقيض ، ولكنه خطاب جميع ، خطاب لا تنفرج عنه الشفاه ، ولا تنطق به الألسنة ، فالحديث بين الشيوعية والنازية ، والحديث بين الديموقراطية والديكتاتورية ـ والحديث بين الرأسمالية والاشتراكية بل الحديث بين المتدينين والملاحدة ، وبين المسلمين والمسيحيين دائم وموصول ومؤثر ، وكله لا يسجل في كتاب ، ولا تحتويه رسالة ولا يلقى في محفل . انه التساؤل الانساني الموصول الذى يبدى دهشته واستغرابه ـ وربما ضيقه واعتراضه بأراء الأخرين ومواقفهم ، والذى يبدو على قسمات الوجه واشارات اليد ، ونغمات الصوت وهو يحرج صدر الذين وجه اليهم : فالملاحدة يسمعون في كل



لحظة من المؤمنين المتدينين : كيف تعمى عيون هؤلاء القوم عن رؤية آثار الله في كل مكان ، ألا يرون أن هذا الكون بغرائبه وعجائبه لا يمكن أن يأتي من فراغ . ألم ير هؤلاء الذين خلت قلوبهم من الايمان والتسليم بقدرته المحيطة ، ان هذا الكون بنظامه المستمر ، واتساقه المستقر ، وخضوعه من ألفه الى يائه لقواعد واحدة في أقصى الأرض وأدناها ، في الصيف المتقد الحرارة ، والبرد الذى تتجمد له الأطراف .

النازيون والديمقراطية

ولا ينقطع النازيون والفاشيون عن الهزء بالنظريات الديموقراطية ، والايمان بسيادة الأمة ، وتمثيل الفرد للمجموع بصوته ، وكون النائب المنتخب عن دائرة هو الحارس على حقوق الشعب والممثل له ، وما يصحب صدور القرار في الحكم الديموقراطى من أدوار طويلة تعقد بها حكومة الديمقراطية من خصائص الحزم ، ما يهدد دولها بالمخاطر . ولكم سخروا في مقالاتهم وصورهم بقادة الديمقراطية الذين يكونون عادة شيوخا فانين ذوى شوارب تغطي شفاههم ويبدون حكاما متهالكين . في حين زعماء النازية والفاشية ـ رجال عملثون بالحيوية متمتعون بالقامات الممدودة والخطوات العسكرية في حين تبلغ أصواتهم بمكبرات الصوت وبغيرها عنان السماء.دع عنك الحوار المباشر واستمع الى الحوار غير المباشر بين المذاهب والجماعات المختلفة الذى لا تنطق به الشفاه ، وانما ينطق به لسان الحال .

وجملة القول ان هناك حوارا يتم بين الضمائر التى في الصدور ويتلقاها الذين يديمون النظر في شئون البشر ، ويقارنون بين أحوال الناس ويتأثرون بما يلحظونه وما يمر بهم من الظروف والتغيرات مر البرق الخاطف،فيهتزون من الأعماق ويخيل لهم ان عقائدهم تهتز من القواعد فيتشبثون بها ويقبضون عليها كما يقبض الممسك بالجمر وهو يتلظ من النار ، ويكاد يفقد احتماله .

هذا الحوار الصامت الناطق المستمر والمتقطع هو الحوار الذى يصوغ في الواقع الأفكار والخواطر والعقائد والميول ، والذى يدفع الناس الى التصادم والتماسك ، وبغيره لا يكون للفلسفة وجود ، ولا لمعارك الرأى والفكر أثرها الباقى والدامى ، فهو في الواقع خلاصة تاريخ البشرية ، وسر عظمة المجددين والثوار .

ولكنه مع ذلك مغبون الحق ، مجحود المكانة شأنه شأن كل العظائم في حياة الناس . □



■ ليس ثمة أمة استطاعت أن تنهض من غير أن تطهرها نار

(غاندي)

■ من العظماء من يشعر المرء في حضرتهم بأنه صغير ، ولكن العظيم بحق هو الذي يشعر الجميع في حضرته بأنهم عظماء .

(مكسيم جوركي)

■ لم أطمئن قط إلا وأنا في حِجْر أمي

(سقراط)

القصيدة الدافئة

شعر : شوقي بغدادي



كَم حبةٍ جنيتُ
من بستاننا الأمينْ ؟
كَمْ لَوْزَةٍ في أوّلِ الصيفِ ،
وكَمْ تينٍ ، وكَمْ عِنَبٍ
قَطَفْتُ في تشرينْ ؟
كَمْ ضحكةٍ غَسلَتْ في فِضّتِها
مسائيَ الحزينْ ؟
كَمْ لَمْسةٍ في السّرِّ ،
ثُمّ كَمْ صَراحةٍ ،
وكُنْتِ تَستحينْ ؟
كَمْ جُملةٍ قيلَتْ لِمَعْنىً وَاحِدٍ ،
كُنّا نُعيدها ، وَنَسْتَزيدُها
في جلسةٍ واحدةٍ مئينْ ؟
كَمْ مِعْطَفٍ زَرَرتُه عَلَيْكِ في البَرْدِ
وأنتِ تَخرُجينْ ؟
وكَمْ فَراشةٍ رَفّتْ عَلى الفَساتينِ
التي تُبدِّلينْ ؟
كَمْ قُبْلةٍ عَلى الهواءِ ،
كَمْ صَدىً ،
وكَمْ رَنينْ ؟
الله ، ما أطول ذلك الحنينْ ! .
هأنذا أراكِ من عشر سنين ،
مِن عشرينْ ،
كأنني الآن تعرّفتُ إليكِ ،
الآن أحبَبْتُكِ ،
قَبلَ لحظةٍ رأيتُ عينيكِ تُحدّقانِ بي ،
وتُلغيانِ كُلّ أعينِ الحشدِ الذي يُنصِتُ لي ،
فلاأرى سِواهُما ،
ولا أقولُ كِلْمةً إلا إليْهما .
الآنَ صافحتُكِ في الزّحامِ ،
ثُمّ تحتَ شَجرِ الطريقِ حاوَرْتُكِ ،
ثُمّ إذْ تأخّرنا عنِ الجمعِ ،
واستفاقَ بُلبُلٌ في شُرفةٍ قريبةٍ ،
وعَلّقتْ إحدى العَجائزِ الحنوناتِ
علىَ مَنْظرِنا بقولها : « جلوينْ » ! .
الله ، كَمْ مَرّ مِنَ الأيامِ ،

كَمْ فاتَ مِنَ السِّنينْ ؟ .
لَيْسَ سِوَاكِ الآنَ ،
لَيْسَ غيرِ الذَّهَبِ العتيقِ ،
لَيس سِوَى شَعْرِكِ خيْمةً
في صَيفِنا المُمْتَدِّ حتى آخرِ الطريق ،
ليس سِوَاكِ رَشّةَ الماءِ
التي تُقاوِمُ الحريقْ ؟

ماذا جَرَى للشجرِ المائِلِ نحو النهر ،
ينحني ، وينحني ،
وَصَرْخَتِي وَحيدَةً ،
لاتُنْقِذُ الغريقْ ؟
مَاذا جَرَى للرَّجُلِ البَشُوشِ ؟ !
كَانَ وَجْهُهُ صَبَاحَنا ،
وفي المساءِ نكهة المدينةِ الدّافئةِ الأصْواتِ ،
وابنَ الحارةِ العريقْ ،
مَاذا جَرَى لِلُقْمَةِ الخُبْزِ ،
ولِلْمُزَاحِ ،
وَالزِّيَارَاتِ ،
وعزفِ جَرَسِ البَابِ
الذي يُعْلِنُ عَنْ صَديقْ ؟
مَاذا جَرَى لخطبةِ الجُمْعَةِ ،
والمُصَلِّينَ ،
وَذَلِكَ السِّربِ مِنَ الحَمَامِ ؟
كَانَ يَمْسَحُ الرِّيشَ عَلَى الأكْتَافِ ،
ثُمَّ صَارَ لايطِيقُ مَرْآنا ، ولانُطيق .
ماذا جَرَى للطيرِ ، والغزلانِ ، والسيرانِ ،
والصبارِ ، والكلامِ ، والسلامِ ، والهواءِ ،
والزفيرِ ، والشهيق ؟
ياليتني البحر الذي يستوعبُ الأنهارَ ،
والصوت الذي صرتُ له صَدَى .
أفكِّرُ الآنَ بها ،
فإنْ تَعَجَّلْتُ
فذَاكَ أنني أسابِقُ المَدَى ،
أعرف أنها على الطريق ،
أنها تسبقني دوماً ،
وأنها بالجسدِ الفذِّ الذي لها
تختصِرُ الشَّعْرَ برنَّةٍ مفاجئة ،
وتسبق الروح بقفزةٍ نحوي ،
وأنْ تكونَ دائما
البادئة .
كيف أجاري فتحة القميص ، والذراعين ،
وكركرات الجرس الفضّي
إذ تطلقها مثل الرَّذاذِ بُغْتةً
فيشهقُ القلب من المفاجأة ؟ !
كيف أجاريها إذا انفعلَتْ واحتدَمَتْ
وهي هادئة ؟

ياليتني أحبُّها غدا
كما أحبُّها اليوم
لقد تَسلَّلَ الصقيعُ ،
حتى أعذَبَ الكلام ،
إلا هذه القصيدة الدافئة ،
أكتبها ،
وأصطلي بوهجها ،
ونشوتي بأنها المُلهمة القارئة .

التغريب

ماذا يعني ؟

بقلم : الدكتور محمد عمارة

من أكثر المصطلحات المثيرة للجدل التي يكثر ويشيع استخدامها في حياتنا الفكرية الراهنة .. مصطلح « التغريب » !

ففي « الصراع » بيننا وبين الحضارة الغربية .. بل وفي مناطق وميادين « الوفاق » بيننا وبينها ، يكثر استخدامنا لمصطلح « التغريب » !

في المعارك الفكرية التي شهدتها حياتنا الثقافية ، منذ بدء الغزوة الاستعمارية الحديثة التي [illegible] الشرق [illegible] الغربي [illegible] الكامل هذا المصطلح [illegible] شاع مضمون [illegible] « التغريب » !

الشيوع والغموض

ومع هذا الشيوع .. يعجب المرء لبقاء هذا المصطلح محملا بقدر كبير من التعميم والابهام والغموض .. الأمر الذي يدعو الى تأمل : ماذا يعنيه ؟ وماذا مثلت مقولاته ؟ وماهي آثاره التي تجسدت في واقع أمتنا ، منذ أن هيمن عليها الاستعمار الغربي ، وحضارته قبل نحو قرنين من الزمان ؟ .

لقد جاء الغرب الى بلادنا في غزوته الاستعمارية [illegible] ، وقد وعى [illegible] للوحش . [illegible] غيرها من الفكر والحضارة [illegible] البلاد التي سيطر عليها [illegible] كانوا كما قال الفارس المؤرخ [illegible] منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ - ١١٨٨ م) : كانوا « بهائم ليس لديهم سوى « فضيلة القتال » ، فلما استفزت فروسيتهم الهمجية فروسيتنا الاسلامية ، واندحرت غزوتهم واستسلمت حصونهم ، لم يخلفوا وراءهم -

بعد قرنين من الزمان ـ أي أثر في عقل الأمة الاسلامية ، يغري بالاقتداء والاستلهام والتقليد . . . فكان جلاء قوات الغزو انجازا كاملا للاستقلال الوطني الكامل . . .

جاء الغرب في غزوته الحديثة ، وهو على وعي كامل بهذا الدرس . . وكان عازما على أن يلحق عالم الاسلام بالمركز الغربي الحاقا مؤبدا ، فخطط ، منذ البدء ، لتلافي مصيره في غزوته الصليبية . فالاحتلال العسكري ، لا بد يوما أن يستفز الحس الوطني فيجليه . . والنهب الاقتصادي لابد وأن يستنفر المصالح القومية فتنتزع الأمة ثرواتها من مغامريه وشركاته . . والأيدي العاملة الرخيصة التي تعتصر احتكاراته جهودها ، لابد وأن يوقظ الاستغلال حسها الطبقي فتثور على هذا الاستغلال . . اذن . . كيف السبيل لتأبيد تبعية عالمنا الاسلامي للغرب وحضارته ؟

المركز والهامش !

لقد بدأ فأطلق على بلادنا أسماء فقبلناها ، دون أن نفطن الى أنها « طعم » و « طعام » يؤدي تناوله الى ترسيخ فكرة : أن الغرب هو « المركز » وماعداه فهو « الهامش ـ التابع » فالشرق الأدنى » هو كذلك لأنه الأدنى من المركز الغربي . . وكذلك « الأوسط » و « الأقصى » ، إنه هو « وحدة القياس » ثم مضى على هذا الدرب ، حتى غدت مفاهيمه وتجاربه ومذاهبه ، بل « وتقاليعه » هي أول مايقفز الى ذهن « النخبة » و « الصفوة » التي تغربت ، كمعايير ووحدات قياس ، عندما يُذكر أمر من الأمور . . فليبراليته هي النموذج لليبراليِّتنا ، وشموليته هي النموذج للشموليين منا . . ومذاهبه الأدبية والفنية هي الغاية والنموذج . . وفلسفته هي الفلسفة . . والروح المادية الحاكمة لعلومه الانسانية هي التي سرت في دراساتنا لهذ العلوم الانسانية . . وكل ماهو غربي فهو المتحضر ، وماعداه رجعية وتعصب وتخلف متلكيء في مجرى تطور التاريخ .

وعلى درب « التغريب » هذا ، وفي ميادينه يستطيع الباحث أن يرصد الكثير من المعالم والشواهد التي مثلت ـ وما تزال ـ « جهودا » و « معارك » و « أفكارا » و « دعوات » حاول بها الغرب وعملاؤه ، والذين خدعوا بمقولاته أو اندهشوا وانبهروا بزخرف دعاويه ، إغواء أمتنا بالالتحاق بحضارته الغربية والتخلي عن درب « التواصل الحضاري » الذي يجعل نهضتنا المأمولة ذات امتداد متطور لحضارتنا المتميزة . . . .

فـ « بالتبشير » خلق لمذاهبه الدينية ركائز وكنائس في بلادنا ، انتزعت أرضا التحقت بمراكز اللاهوت في بلاده . . وكان ذلك على حساب اسلامنا حينا ، وعلى حساب كنائسنا الوطنية الشرقية في أغلب الأحايين .

جانب من دور الاستشراق

و « بالاستشراق » الذي ارتاد اعلامه ميادين تحقيق مخطوطات تراثنا ، والكتابة عن مذاهبنا وفرقنا ومجتمعاتنا . . سلط الضوء على كل مايؤدي الى ضعفنا وتشرذمنا ، لتسهل التبعية ويتيسر الالحاق . . فتوجهت جهود كثيرة من الدراسات الاستشراقية ، لتسليط الأضواء على الفرق الشاذة ، والأقليات النافرة ، والمذاهب الدخيلة ، تعطيها أكثر من حقها ، وتضفي عليها جمالا لاتملكه . . وبثت أغلب هذه الدراسات في عقول قرائها ، أن أسلافنا لم يكونوا غير نقلة وحفظة لتراث اليونان ، لتولد في هذه العقول اقتناع باستحالة إبداعنا المستقل حضارة ونهضة مستقلة ، طالما أن التميز والاستقلال لهما أكثر من خرافة ، حتى في تاريخنا الحضاري وتراثنا الذي نفخر به ونتيه . . وحتى الدراسات التي لم تقل ذلك ، ولم تقصد اليه ، جعلت معاييرها في تقييم تراثنا معايير غربية ، فأسهمت هي الأخرى في تكريس روح التغريب في ثقافتنا المعاصرة .

وانطلاقا من « المعايير الغربية » التي جعلت حضارة الغرب ، وتطوره التاريخي « وحدة

القياس » في كل شيء ، شهدت ساحات الفكر في بلادنا ـ تحت هيمنة الاستعمار ودعاة التغريب ـ الكثير من الدعوات التي قامت حولها المعارك الفكرية . .

فالمستشرقون يدرسون « مقدساتنا » كتاريخ بشري ، لا قداسة له . . وفي هذه الدراسات غير الخطأ والجهل والمغالطات ، غمز ولمز كثير . . وعلى هذا الدرب سار منا نفر ، تناولوا بعضا من مقدساتنا بنفس الروح وذات المعايير .

واللاتينية عندهم قد أخلَتْ المكان للغات القومية . . فرأيناهم يدعون الى دفن العربية ، وإحلال العاميات المحلية مكانها . . متجاهلين الفروق الموضوعية التي تميزنا عنهم في هذا الميدان . . فنحن أمة واحدة ، أما هم فقوميات وأمم عدة . .

وأن العربية ، فضلا عن أنها رباط الوحدة القومية للأمة الواحدة ، فهي لسان « الاسلام ـ الدين » ولم تكن كذلك لاتينيتهم في علاقتها بالمسيحية . . والذين دعوا الى ذلك ، لقصورٍ زعموه في وفاء العربية بمتطلبات النهضة العلمية الحديثة ، لم يقولوا لنا : كيف استطاعت العربية يوما أن تكون لسان العلم العالمي ؟ . . ولم يقولوا لنا ـ أيضا هل ستنهض بهذه المهمة ـ خيرا من العربية ـ العاميات المحلية ؟ لم يقولوا شيئا من ذلك ، فلقد كان الهدف واضحا : ازاحة العربية لمصلحة اللغات الغربية الوافدة ، واستخدام التعددية في اللهجات العامية ، لتنفصم عروة وثقى من عرى وحدة الأمة . . وفوق ذلك وقبله ، جعل العلاقة منبتة بين حاضرنا ومستقبلنا ، وبين تراثنا الحضاري المكتوب بالعربية ، وذلك حتى لايكون هذا الحاضر والمستقبل الامتداد لماضي الأمة الحضاري ، وإنما الهامش التابع للمركز الغربي وحضارته الغربية ، فلما فشلت هذه المعركة ، خاضوا معركة أخرى دعوا فيها الى الابقاء على العربية مع كتابتها بالحرف اللاتيني ، لتغترب الأمة وتغترب عن دينها وتراثها .. تحقيقا لذات الأهداف المبتغاة من « التغريب » !

التحديث

وحتى يوهمونا بأن « تقدمنا » لابد وأن يكون « تحديثا » على النمط الغربي ، وأن خيارنا في الخلاص من مشكلاتنا لابد وأن يكون « خيارا » غربيا ذهبوا يوهموننا بوحدة نمط التطور في تاريخنا وتاريخهم ، منطلقين من الاستعلاء الذي يريد أن يفرض على الأمم والشعوب « النمط الغربي » لا للمستقبل فقط ، وإنما للماضي وتطوره الحضاري أيضا ! .

فكما كانت علاقة دينهم بدولتهم « كهانة » و « ثيوقراطية » ، و « تفويضا إلهيا » و « حكما بالحق الالهي » زعموا أن إسلامنا كان كذلك ، وأنه قد جعل خلافتنا الاسلامية حكما مطلقا ، الخليفة فيه يستمد سلطانه من الله ، لا من الأمة . . وولايته على دين الناس ودنياهم عامة ومطلقة كولاية الله سبحانه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، على الناس . . . .

ولما كانت مسيحيتهم قد طلبت أن يدع الناس ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، لأنها رسالة روحية مُهمتها خلاص الروح وتنظيم مملكة السماء ، ولادخل لها في سياسة الدولة ، وتنظيم المجتمع ، وتنمية العمران المدني . . فلقد حاولوا تصوير إسلامنا مسيحية ، ليجردوه من جوانبه المدنية ، فزعموا « أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، ماكان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لاتشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة ، وانه لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ملك ولا حكومة ، وانه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومُرادفاتها ، وانه ماكان الا رسولا كإخوانه من الرسل ، وماكان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعيا الى ملك » .

وهم بذلك لاينكرون حقائق التاريخ وحدها ،

بل ويتنكرون لحقيقة التمايز بين الحضارات والأمم في أنماط التطور .. فإذا كانت هيمنة الكنيسة على الدول والمجتمعات الغربية . قد أصابتها بالجمود والجهل والتخلف في كل الميادين ، فان احتكام أمتنا الى شريعتها هو الذي أثمر أزهى عصور ازدهارنا الحضاري ، وقمة استنارتنا وعقلانيتنا ، ولم تدخل أمتنا الى طور التراجع والتخلف والجمود الا عندما أزاحت دول العسكر المماليك الصبغة الاسلامية عن قطاعات من الواقع ، وعن القانون الذي ينظم حركة هذا الواقع .

دوائر الولاء

ولما كانوا قد حلوا مشكلة استبداد كنيستهم بدولتهم وفق « المعيار الانجيلي » : « دع مالقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، فلقد أرادوا أن تكون « علمانيتهم » التي تفصل « الدين » عن « الدولة » ، هي النهج الذي يحكم علاقة الاسلام بالسياسة في بلادنا ، فارتبط تزايد نفوذهم الاستعماري بين ظهرانينا ، باستبدال قانونهم المعبر عن فلسفة حضارتهم ـ بفقه المعاملات الاسلامي ، الذي هو القانون الطبيعي للأمة الاسلامية ، المتسق مع عقيدتها والمحقق لمقاصد شريعتها ، والذي تكن له الاحترام .

وعلى عكس مفهوم حضارتنا « للأمة » ـ وهو المفهوم الذي بريء من عصبية العرق ـ حتى لقد وفق وجمع وألف بين الولاء للدوائر « الوطنية » و « القومية »دونما تعارض أو تناقض .. على عكس هذا المفهوم رأيناهم يزرعون في واقعنا الفكري والسياسي « المفاهيم القومية » للحضارة الغربية فقامت ، تبعا لها ، في عقول البعض وتوجهاتهم وبرامج أحزابهم التناقضات بين هذه الدوائر ، ورأينا من يقف عند الدائرة « الوطنية » دون « القومية » ، ومن يهمل ، بل وينكر الدائرة « الوطنية » و « الاسلامية » معا ، مانحا ولاءه فقط للدائرة « القومية » ، لأن المفاهيم والمعايير الغربية لهذه المصطلحات ، وتطبيقات تلك المفاهيم ، قد صنعت ذلك في التطور القومي لأمم الحضارة الغربية

الميراث والحقيقة

نعم .. لقد نجح الغرب الاستعماري ، مستخدما سلطانه السياسي والعسكري والاقتصادي ، ومستفيدا من هيمنته الاستعمارية على ميادين التأثير الفكري وأدواتها في بلادنا ، ومستندا الى الانجازات الرائعة ، التي حققتها نهضته الحضارية الحديثة .. نجح في خلق « نخبة » و « صفوة » متغربة من أبناء أمتنا ، أغلبها سلك هذا السبيل عندما انبهر بروعة الحضارة الغربية وهو يقارنها بتخلفنا الموروث عن نظم وأحقاب دول العسكر التُرك والمماليك ، ظانًا أن هذا « الميراث » هو حقيقة الاسلام وحضارته ، فاعتقد ـ « مخلصا ـ ومخلصا » أن السبيل الى التقدم وإلى مغالبة الغرب ، والانعتاق من قيوده الاستعمارية ، هو في استعارة الحضارة الغربية بحلوها ومرها ، بخيرها وشرها ، فدعا الى أن نكون غربا ، نصيب كما يصيبون ، ونخطىء كما يخطئون .. وحتى يدعم من منطلقات هذه الدعوى ويجمع لها المبررات ، ذهب ليوهم الأمة انها والغرب يجمعها جامع حضاري واحد هو حضارة البحر المتوسط ، وأن هذا الجامع هو أكثر الجوامع الحضارية أصالة ومتانة وجدوى في تاريخنا ، وأن غيره من التأثيرات الحضارية ـ افريقية ـ أو آسيوية (اسلامية) ـ انما هي عابرة وسطحية وموقوتة .

وإنصافا للحقيقة ، ولهذا الفريق من النخبة و « الصفوة » المتغربة ، فان الكثيرين من أعلام هذا الفريق ، قد عاد ـ بعد مرحلة الانبهار ـ فراجع موقفه ، وانحاز الى الخيار العربي الاسلامي ، ومنهم من انتقد مرحلة « تغربه الفكري » ومنهم من قال ذلك ، عمليا من خلال ، الاهتمامات التي ركز

مليها في إنتاجه الفكري الجديد . .

لكن فريقا آخر من الذين تغربوا لم يكن دافعهم الى تبني هـذا « الخيار » والـدعوة اليـه « خطأ المخلصين » المنبهرين بالحضارة الغربية ، والساعين الى إنهاض الأمذكي تتحرر من هيمنة استعمارها . . وإنما كان دافعهم الكراهية للاسلام والرغبة في إزاحة نمطه الحضاري عن النهضة المنشودة ، فكان النموذج الغربي في الحضارة هو البديل ، الذي ليس لـديهم سـواه ، كي لاتصطبغ نهضتنا بـالاسـلام الـذي يكرهون .

جهد على الجبهة الحضارية

وهذا الفريق من المتغربين هو الذي تَكَوَّن من عدد من المسيحيين الشاميين ، الفارين من تسلط الدولة العثمانية ، فتبلور تيارهم المتغرب على أعتاب دار المعتمد البريطاني في مصر ، ثم جعلوا من صحيفة المقطم سنة (١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ م) مدرسة لهذا اللون من فكرية التغريب . . ولقد نحا نحوهم وسار على دربهم نفر ضئيل من أبناء مصر وغيرها ، حمل للاسلام العداء الذي يحملون . . وكان سلامة موسى سنة (١٨٨٨ ـ ١٩٥٧ م) الصوت العالي لهذا الفريق . . فهو القائل : إنه إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، لأنها تقوم على أصل كاذب ، فإن الرابطة الدينية وقاحة ، اننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا . . ونحن في حاجة الى ثقافة حرة أبعد ماتكون عن الأديان . . وحكومة ديمقراطية برلمانية ، كما هي في أوروبا ، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أو « توقراطية » ودينية ، وكلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت امامي أغراضي . . يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوروبا ، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها ، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها ، وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرا وجهرا ، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب .

هكـذا أرادوا بـالتغـريب ، نفي « الاسلام ـ الحضاري » عندما أنكروا التمايز الحضاري تاريخيا ، والتعددية الحضارية للأمم العريقة في مواريثها الحضارية ، ومن ثم أنكروا التمايز في سبل اليقظة والنهضة الحديثة ، وأرادوا بـ « الخيار الغربي » في « التحديث » بتأبيد تبعية أمتنا العربية الاسلامية للمركز الغربي والهيمنة الغربية .

وهكذا وجدت دعوات اليقظة الاسلامية وحركاتها وجماعاتها ـ منذ أواخر القرن التاسع عشر ـ أن التحديات والعقبات التي تواجهها وتجابهها ، قد أضيفت إليها مخاطر « التغريب » ، فكان عليها أن تبذل جهدا ملحوظا على الجبهة الحضارية ، لصياغة مشروع حضاري عربي اسلامي ، يكون دليل اليقظة الاسلامية الى النهضة المستقلة استقلالا حقيقيا عن الحبائل والشراك التي صنعها ويصنعها الاستعمار على جبهة « فكرية التغريب » .

ومنذ تلك المرحلة أضيف هذا التحدي الى المهام الأولى لليقظة الاسلامية . . مجابهة الجمود بالاجتهاد والتجديد . . والتصدي للغزوة الاستعمارية بالجهاد والتحرير . □

■ كلمة واحدة رقيقة أُصغي إليها حيًّا ، ! خير عندي من صفحة كاملة كلها تمجيد ، في جريدة كبرى ، حينما أكون قَدْ مِتّ ودُفِنْت .

(فولتير)

اقرأ في العدد القادم من "العربي"

عدد سبتمبر ١٩٨٧

استطلاعات

الموصل ..
جسر بين الحضارات
صلاح حزين

عُمان ..
بلاد النخيل والنرجيل
صادق يلي

مركز الطب الاسلامي ..
والمعالجة بالنباتات الطبية في الكويت
يوسف زعبلاوي

- أكذوبة الثقافة اليهودية — د. عبد الوهاب المسيري
- جسر من كلماتٍ ونور — د. عبد العزيز كامل
- المجهود العربي في العلوم الأساسية — د. أسامه الخالدي
- أزمة المديونية في العالم الثالث — نعوم ابراهيم عبود
- قضية التعريب في الجامعات السورية — أبو المعاطي أبو النجا
- الذكاء والذاكرة — د. فخري اسماعيل الحسن
- السينما والانواع الادبية — محمد صوف
- الشتاء النووي — د. سعود عياش
- الدلفين أفضل أصدقاء الإنسان — سمير شعبان
- امهات للايجار ! — د. غسان حتاحت
- القيم الفكرية والجمالية في أعمال الفنان سامي محمد — حميد خزعل
- وجهاً لوجه : د. فاطمة المرنيسي وعلاء الدين محسن

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - د. عيسى درويش - د. محمد موفاكو - د. محمد صادق زلزلة
د. سلمان قطاية - د. احسان صدقي العمد - د. محمد الكبرا - جار النبي الحلو

رزق الله حسون

رائد مجهول

في ميادين الصحافة والشعر والترجمة

بقلم : الدكتور علي شلش

« لم يسمع كثيرون بابن حسون ، بل لقد نسي كثير من الباحثين أنه أول من أصدر صحيفة عربية في البلدان الأوروبية ، وأول من نظم الشعر المرسل ، وأول من ترجم شيئا من الأدب الروسي إلى العربية . لقد كانت حياته رحلة طويلة ، مليئة بالخلافات والاجتهادات » .

لا بد للباحث في طوايا الصحافة والشعر العربيين خلال القرن الماضي أن يستوقفه اسم هذا الرجل الظريف المغامر ، فهناك إشارات إليه في كتب تاريخ الصحافة والشعر ، وهناك أيضا بعض بقاياه الصحافية والشعرية في بعض مكتبات القاهرة ولندن ، ومع أن ما كتب عنه قليل لا يشفي الغليل ، إلا أنه يتميز بميزة لا تتوفر لكثيرين ، فهو أول من أنشأ صحيفة عربية خارج بلاد العرب ، وأول من نظم الشعر المرسل في أدبنا الحديث ، على عكس ما هو سائد في دراساتنا من نسبة أول محاولة لغريمه أحمد فارس الشدياق ، بل إنه أول من ترجم شيئا من الأدب الروسي إلى العربية ، ومع أنه لم يكن في حياته أوضح من نار على علم - كما كان يتصور - إلا أن المصادفة وحدها قد أتاحت له أن يوضع في مكان الريادة ، والأمر الذي لا يحتمل شكا أنه لو كان ذا موهبة لتبدلت حاله ، لكن حظه المحدود منها هو الذي أطفأ ناره ، وأنزل علمه بسرعة ، حتى لم يعد باقيا منه اليوم سوى الريادة بمعناها التاريخي .

وبسبب هذه الريادة التاريخية سننظر في آثاره وأعماله ، لنرى أي نوع من الرجال كان ، وإلى أي مدى سارت محاولاته الصحافية والشعرية ، حتى استحق مكانة الرائد ثلاث مرات : مرة في الصحافة ، ومرة في الشعر ، وأخرى في الترجمة .

حياة قصيرة حافلة

لعل أهم مصدر عن حياته وأعماله المقال المطول الذي كتبه عيسى اسكندر المعلوف ، ونشره مسلسلا بمجلة « المقتطف » في القاهرة عام ١٩١٠ م ، ثم أعاد نشره فيليب دي طرازى عام ١٩١٣ م في الجزء الأول من كتابه الضخم « تاريخ الصحافة العربية » ، ففي هذا المقال ذكر المعلوف أن حسون من أصل أرمني ، هاجرت أسرته إلى حلب منذ قرنين ، حيث ولد عام ١٨٢٥ م ، وتعلم ، وأتقن الخط العربي ، ثم درس اللاهوت ، واللغة الفرنسية ، والتركية ، والأرمنية ، والعربية ، فضلا عن الرياضيات ، « وكان نابغة في جودة حفظه وذكائه ، حتى أنه نظم الشعر وهو تلميذ في الثالثة عشرة من عمره ، وطاف في لندن ، وباريس ، وجاء مصر ، واستنسخ كتبا كثيرة ، ثم عاد إلى الأستانة » ـ كما يقول المعلوف ـ وكان بينه وبين أدباء عصره في سورية ، ومصر ، وتركيا ، مراسلات ومساجلات ومشاحنات ، ولا سيما مع أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٨) .

وفي الأستانة مال حسون إلى الصحافة ، فأنشأ عام ١٨٥٥ أول جريدة تصدر بالعربية في عاصمة الخلافة العثمانية ، وكان اسمها « مرآة الأحوال » ، لكنها لم تستمر طويلا ، بسبب انتقاده للعثمانيين ، وتعرضه لبعض الدسائس ، وبسبب هذه الدسائس ـ أيضا ـ تعرض للسجن بعد إغلاق صحيفته ، لكنه ما لبث أن نجح في الفرار من سجنه ، فيمّم وجهه صوب روسيا ، أعدى أعداء الدولة (العلية) العثمانية في ذلك الوقت ، وهناك « أطلق لسانه بالانتقاد على الحكومة » العثمانية ، كما يقول المعلوف أيضا ، ثم رحل من روسيا إلى فرنسا ، فانجلترا ، وفي الأخيرة أصدر مجلة اسمها « رجوم وغساق إلى فارس الشدياق » ، لم تدم أكثر من عددين ، في يومين متعاقبين (٤ ، ٥ ، مايو) عام ١٨٦٨ م . وكانت ـ كما هو واضح من اسمها ـ مخصصة للهجوم على غريمه الشدياق الذي يقال إنه عاداه في الأستانة ، وألّب عليه سلطانها ، وبعد توقف هذه المجلة أصدر صحيفة باسم « آل سام » ، عام ١٨٧٢ م ، خصصها للمال والاقتصاد ، والتنديد بالأتراك ، والتقرب من روسيا ، ولكنها لم تدم طويلا كزميلتها ، فشغل نفسه بعدها بكتابة الشعر والترجمة ، حتى أعاد إصدار « مرآة الأحوال » عام ١٨٧٦ م أسبوعية سياسية ، ثم توقفت بعد أقل من عام ، وأخيرا أصدر مجلة أخرى عام ١٨٧٩ اسمها « حل المسألتين الشرقية والمصرية » ، وكانت تصدر كل أسبوعين ، ويكتبها شعرا كما يقول المعلوف ، وبعد أشهر أخرى توقف عن نشاطه الصحافي ، وتفرغ إلى نسخ كتب التراث ، وتصحيح حروف الطباعة العربية في أوروبا ، ومساعدة بعض المستشرقين في تحقيق عيون التراث ، وقد توفي عن ٥٥ عاما سنة ١٨٨٠ م ، وقيل إن السلطان عبدالحميد بعث إليه من دس له السم في الشراب .

مرآة الأحوال في لندن

ذكر المعلوف أنه رأى العدد السادس عشر فقط من « مرآة الأحوال » اللندنية ، ولكننا رأينا عددين منها بالمكتبة البريطانية في لندن ، فضلا عن ٣٥ عددا بدار الكتب في القاهرة في مجلد واحد ، يضم العددين (٢ ، ٣٤) الموجودين في لندن ، وهذه الأعداد الخمسة والثلاثون الأولى من الاصدار الثاني للجريدة في لندن ، أما أعداد الاصدار الأول في الأستانة ، وكذلك أعداد الصحف الأخرى التي أصدرها في لندن ، فلا توجد في القاهرة ، ولا في أوروبا ، ولا أدري إن كان قد بقي منها شيء في بيروت أم لا ، فمن المفروض أن دي طرازي قد اطلع على بعضها حين أرخ لحسون وصحفه في كتابه الضخم .

وقد صدر العدد الأول من « مرآة الأحوال »

اللندنية في ١٩ اكتوبر ١٨٧٦ م . وكانت أول جريدة عربية تصدر في بريطانيا ، وقد صدرت في أربع صفحات من قطع نصف الجريدة العادية المعروف (التابلويد) ، وكان اسمها يتصدر رأس الصفحة الأولى بخط كبير ، تأتي تحته - بخط أصغر - عبارة « في السياسة والأخلاق » ، وعلى يمين الاسم درج حسون على نشر ما يوازي خمس عامود بعنوان « شروط الاشتراك » مع عنوان الجريدة في لندن ، ثم يظهر أسفل الاسم سطر بعرض الصفحة ، أشبه بقفل لبيانات الجريدة ، تليه الأعمدة الثلاثة التي تتألف منها الصفحة ، بمقاس نحو ١١ سنتيمترا لكل عامود ، ويسري هذا التصميم على أعمدة الصفحات الثلاث الباقية ، باستثناء بداية الأعمدة من أول الصفحة .

في شارع الصحافة

صدرت الجريدة في البداية في أحد شوارع حي غرب لندن ، المعروف حاليا عند السياح ، ثم نقلت إلى شارع آخر مشهور هو « ستراند » ، ابتداء من العدد ١٥ في ٢٥ يناير ١٨٧٧ م ، حتى تكون « بجوار جميع الصحف (الجرنالات) الانكليزية الشهيرة ، وليسهل تناول كل ما يناط بها » كما يقول حسون ، فشارع ستراند هذا امتداد لشارع فليت ، أو « شارع الصحافة » المعروف .

وكان حسون يكتب أعداد الجريدة في البداية بخطه الجميل ، ويطبعها على الحجر ، ثم بدأ في صفها بحروف أعدها وصنعها بنفسه ، وكان يطبعها أيضا على ورق سميك نسبيا ، ثم تغير الورق ابتداء من العدد ١٨ في ١٥ فبراير ١٨٧٧ م إلى ورق خفيف ، كي يسهل شحنها في الغالب ، بل كان حريصا على إخراجها بشكل لائق ، ولا سيما حين درج على كتابة موادها بالخط ، فهو يترك فراغات بيضاء بين الموضوعات والأخبار ، ويستخدم العناوين أحيانا ، أو الفواصل السطرية أحيانا أخرى ، دون عناية بأدوات الترقيم مثل النقطة أو الفواصل .

ومن الواضح أن إصدار صحيفة عربية في لندن في ذلك الوقت لم يكن أمرا سهلا ولا مربحا ، ولا بد أن حسون كان يقوم بأعمال المحرر والخطاط والطابع والموزع ، ومع ذلك كان يساعده في تحريرها والترجمة لها بعض معارفه وأصدقائه ، مثل لويس صابونجي ، وعبدالله مَرّاش اللذين هاجرا من الشام إلى لندن حينذاك واحترفا الكتابة والصحافة .

استهل حسون افتتاحية العدد الأول مشيرا إلى عهد الصحيفة الأول بقوله : « مرآة الأحوال كانت فيما قد سلف تنشر كاسمها ، مرآة تتجلى فيها حقيقة الأحوال ، وفعال الرجال ، إن صالحةً فصالحة ، وإن طالحةً فطالحة ، فتأذى بها أصحاب العسف ، ونصبوا لها فخاخاً ، وما برحوا يمكرون ، حتى أوصلوا إليها صداً بغيهم وعدوانهم ، فتعطلت زمنا عن كشف مظالمهم ، واتخذت طريقها في البحر سَرَباً ، تطلب عند الانكليز مأمنا ، وقد جعلت الحرية لها شعارا ، لا تفند أحدا ما لم يأت منكرا ، ولا تمدح أحدا ما لم يحسن العمل ، تقول بلسان حالها لأولياء الأمور : من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ثم تحدث عن برنامج الجريدة ، وخطتها ، وكيف أنها لن تنشر الأخبار الأوروبية إلا بعد غربلتها ، لتنشر الملائم منها ، مرة كل أسبوع ، فضلا عن نبذة وافية عن أسعار البضائع ، كما تحدث عن أسلوبها فقال : « ومعولنا في كتابة هذه الصحيفة على اللغة المألوفة ، والاصطلاح ، يشترك فيه الخواص والعوام ، لأن الغلط المشهور خير من الصواب المهجور ، لا سيما في مواد التجارة » .

وعلى هذه الخطة سار حسون في صحيفته ، وإن كان قد ركز على أحوال الدولة العلية ومصر ، فلم يخل عدد من الأعداد الخمسة والثلاثين من التنديد باستبداد الأتراك ، وظلم الولاة العثمانيين


مرآة الأحوال

النصف العلوي من العدد الأول لمرآة الأحوال في لندن

لرعاياهم ، ولا سيما في الشام ، بل انه نشر ترجمة كاملة للدستور العثماني الذي وضعه مدحت باشا عام ١٨٧٦ م ، وعلق عليه مادة مادة ، ثم هاجمه بدعوى أنه وضع على غير أساس ، لأن الدستور في رأيه أشبه بسقف البيت ، ولا يمكن أن يوضع السقف على غير أساس أو جدران ، وكان في الوقت نفسه يثني على روسيا وقيصرها ، نكاية في الأتراك ، ويهاجم الخديوي اسماعيل ، منددا بإسرافه ، وتجريده حملات عسكرية إلى أفريقيا بغير طائل ، أو استخدامه الرقيق في حرث أراضيه بدلا من الحيوانات ، وتدخله في التجارة ، وتعطيله تجارة الأهالي ، ويبدو أنه كان يحصل على معظم المادة العثمانية والمصرية عن طريق معارفه وأصدقائه في الأستانة والقاهرة ، وكان ينقل أخبارا كثيرة من الصحف البريطانية ووكالة (رويتر) .

ومن الأخبار التي كان ينشرها ، ويحررها بطريقته الساخرة الركيكة خبر في ٢ نوفمبر ١٨٧٦ م ، هذا نصه :

« كثر موت المواشي في الاقليم المصري ، حتى أن ولي عهد الحكومة والوزراء والمأمورين استعاضوا بصهوات الخيل حيرا ، وتوفس في الحمار تبعا لقراهيته وغتدرته ، والنهضة بحملته ، وغلت سوق النواهق وقيمتها على ما أخبر (الديلي نيوز) الصحيفة الانجليزية المعروفة حينذاك) بتاريخ أمس من ستين ليرة (كانت الليرة تعادل جنيها استرلينيا) إلى مائة ليرة ، والراغب يزيد فيما يريد » .

وتوقفت مرآة الأحوال

في العدد ٣٥ الصادر في ٦/ ٦/ ١٨٧٧ م أعلن أنه « تخلصا من سقامة الطبع بالليتوغراف ، وإجابة لطلب الأكثرين من المشتركين ، وإنجازا لوعدنا المتقدم ، قد عولنا على طباعة المرآة بالحروف » ، ثم

أعلن انقطاع الجريدة عن الظهور استعدادا لتلك الطفرة ، نحو أسبوعين أو ثلاثة ، مع تعويض المشتركين بحساب ٥٢ عددا في السنة . « والمأمول - كما يقول - أنها ستأتي بالحروف طباعة تشرح الصدر ، والخاطر ، وتقي من الكلال الناظر » .

ولكن يبدو أن حلمه لم يتحقق ، فسرعان ما أوقف الجريدة ، وفسّر ذلك - فيما بعد - بقوله : « صدّني - وقاكم الله - ضعفٌ عن القيام بكتابة مرآة الأحوال ، وامتنع تصديرها بحروف الطباعة لما تقتضيه علاوة أضعاف النفقة الليتغرافية ، ولم يواز دخلُ المرآة ربع نفقتها » ، ومعنى هذا أن سر توقفها كان نقص المال ، مما ينقض فكرة أنه كان عميلا للروس ، فلو كان الأمر كذلك لقام هؤلاء بدعم الجريدة ، لا سيما بعد أن دخلوا - عام توقفها - في حرب مريرة ضد السلطان عبدالحميد ، لكن هذا لا ينفي بالطبع إمكان مساندته ماليا من جانب بعض أثرياء عصره ، ولا سيما السيد بَرْغَش ، سلطان زنجبار الذي مدحه في الجريدة أكثر من مرة .

الشعر في الأزمات

كان الشعر ملجأ رزق حسون في الأزمات ، أو النكبات على حد تعبيره ، ولا سيما ، في الحنين إلى أولاده الذين تركهم في الأستانة ، وقد ذكر المعلوف أنه ترك سبعة مؤلفات ما بين مطبوع ومخطوط ، منها ثلاثة كتب ، ورسائل مختصرة في السيرة اليسوعية ، والطباعة العربية ، والأربعة الباقية دواوين شعرية ، لكن أحد هذه الدواوين ليس له ، وهو « ديوان حاتم الطائي » الذي استنسخه عن مخطوطة قديمة ، وطبعه بخطه في لندن من ٣٣ صفحة عام ١٨٧٢ ، وأحدها أيضا ، بعنوان « النفثات » ، طبعه في لندن عام ١٨٦٧ م ، وعرّب فيه ٤١ حكاية شعرية للشاعر الروسي كريلوف ، كان قد وضعها على طريقة (بيدبا الفيلسوف الهندي) في « كليلة ودمنة » ، ولافونتين الفرنسي في « خرافات عيسوب » ، ثم أضاف حسون إلى حكايات كريلوف بعض قصائده هو في الوصف والمدح والشكوى وهجاء الشدياق ، حتى أن الأخير قال فيه : « كان حسون لصا ، وله سرقات فأصبح صِلاً وله نفثات » .

وقد اطلعت بجامعة لندن على نسخة من الطبعة الأولى لهذا الديوان ، وكذلك على نسخة من الطبعة الأولى لديوان آخر بعنوان « أشعر الشعر » ، ظهر في لندن عام ١٨٦٩ م ، وفيه نظم فصلا من سفر أيوب ، ونشيد موسى ، وسفر الجامعة ، ونشيد الانشاد ، ومراثي أرميا ، ويبدو أن عقيدته الدينية كانت قوية ، وأن محنته وغربته قد ضاعفتا قوتها ، فهو يذكر في مقدمة هذا الديوان أنه نظم سفر أيوب أيام اعتقاله في الأستانة . والديوان كله يقع في (١٣٦) صفحة من القطع الكبير ، غير مرقم الصفحات ، مكتوب بخط حسون الجميل ، وعلى صدره إشارة إلى أنه « تَسَجّل في الديوان الملوكي (أي أنه أهداه للملكة فيكتوريا في ذلك الوقت) في لندن المحمية ، وحُرِّمت طباعته على الناس كافة ، إلا بإجازة من ناظمه » ، وعلى الصفحة الثانية بعد الغلاف - المجلد بالجلد - عبارة تقول : « هذه النسخة بخط الناظم ، طبع منها مئة وإحدى ليس غير ، يخدم بها الأسياد ، ويعطيها الأصدقاء » . وفي هذا الديوان - أيضا - أورد حسون تجربته الرائدة في الشعر المرسل ، ولكن قبل أن نتوقف عندها يحسن أن نعرض لديوانه السابق « النفثات » ، لنرى إلى أي مدى أهلته خبرته الشعرية لخوض هذه التجربة .

كان « النفثات » أول أعماله الشعرية المنشورة ، وفيه شغلته مشكلة القافية إلى حد كبير ، حين حاول ترجمة حكايات كريلوف شعرا عربيا ، ويبدو أن الأصل الروسي لهذه الحكايات كان منظوما على هيئة مقطوعات ، وهذا ما فعله حسون في ترجمة الحكايات إلى شكل شعري عربي ، حتى يتيح لنفسه التخفف من غنائية القافية الواحدة ، والاقتراب من استرسال الحكايات ، فلجأ إلى المراوحة بين البحور الكاملة والمجزوءة من جهة ، والمراوحة بين القوافي من جهة

أخرى ، ومن أمثلة ذلك استخدامه للمزدوجة والثلاثية والرباعية ، وبالرغم من ركاكة تعبيره العربي نحواً وصرفاً ووزناً نورد هنا جزءا من حكاية ترجمها بعنوان « بستاني وحمار » ، وفيه يقول :

« جُنَيْنة لنزهة النظار
تشقها جداول الأنهار
محفوفة بالورد والأزهار
مغدقة بالكَرْم والأشجار
من سائر الأعناب والأثمار
وسلطة العصفور والغربان
تستهلك الغَلّة بالمنقار »

ثم تمضي الحكاية على هذا النحو كالموشحة ، ولكنها تتفاوت في مستوى النظم والاجادة .

بين المرسل والعمودي

ومن الطريف أن هذا السعي وراء شكل يناسب الشعر الروسي لا يلبث ـ في قصائد الديوان التي تنتمي إلى حسون نفسه ـ ١١ قصيدة ـ أن يختفي ، ويحل محله التزام كامل بالوزن والقافية الواحدة ، وكأنه يسعى إلى التجديد عند الترجمة وحدها ، وهذا ما نجده أيضا في ديوانه الآخر ، « أشعر الشعر » الذي حمل تجربته في الشعر المرسل ، فهو صياغة شعرية تقليدية لسفر أيوب ، مع بعض أجزاء من أسفار أخرى من « العهد القديم » ، باستثناء القطعة المرسلة القافية .

جاءت تجربته في الشعر المرسل ـ على اي حال ـ وسط تجارب أخرى ، اتبع فيها تجاربه في الديوان السابق في المزدوجة والرباعية وتصريع الأبيات ، أي توحيد القافية في شطري البيت الواحد ، فضلا عن المراوحة بين القوافي . أما في الفصل رقم ١٨ من سفر أيوب هذا فقد بلغ على يد حسون ٢١ بيتا ، جاءت على لسان (بَلْدَد) الشوحي كما في أصل السفر ، ويستهل الفصل بقوله (بغض النظر عن الركاكة) :

كم لكلام واضعوا أشراككم
تعقلوا ولنتكلم بعد ذا
لما حُسِبْنا مثل عجماء وفي
عيونكم صرنا مُنَجَّسينا
يا من غدا في غيظه وسخطه
لنفسه مفترسا مستهلكا
هل من جراك الأرض قفرى تغتدى
والصخر عن مكانه يزحزح

وعلى هذا النحو الضعيف يمضي في نظمه ، حتى البيت الحادي والعشرين ، ومن الواضح أن النص كله لا ينم عن موهبة بارزة ، وإنما يمكن أن تعد قيمته تاريخية ، فهو أول محاولة لارسال القافية في شعرنا الحديث ، بالرغم من ضعف وضوح خصائص الشعر المرسل المعروفة في الآداب الأوروبية ، بل إن العنصر القصصي أو الدرامي فيه قد أفسده الشاعر بحرصه على حبس معنى كل بيت داخل شطريه ، دون جريان عبر البيت التالي ، مما أضعف الوحدة العضوية في النص كله . فمن السهل تغيير موضع الأبيات ، وترتيبها دون إضرار ببنية النص الدرامية ، وإذا جاز ذلك في الشعر الغنائي فلا يجوز في الشعر المرسل .

وإذا كانت الريادة تتطلب الوعي بالتجديد والالحاح على الابتكار ، لا مجرد التعبير عن نزوة عابرة ، كما حدث مع الشدياق في تجربته المرسلة غير المنضبطة عام ١٨٥٥ م ، أو مجرد التعبير عن رغبة لصديق كما حدث هنا ، فإن ما فعله حسون في النهاية قد انتظر نحو ٣٥ سنة ، حتى جاء من هو أكثر منه موهبة ، ففي عام ١٩٠٦ نشر الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي قصيدة مرسلة القافية ، فدفع بتجربة الشعر المرسل في العربية خطوة إلى الأمام .

غير أنه يبقى لرزق الله حسون الحلبي فضل الريادة التاريخية في هذه الجبهة ، كما في جبهة الصحافة خارج بلاد العرب ، وترجمة بعض الأدب الروسي إلى العربية ، وهي ريادة قد توضح اسمه في الأذهان ، وإن كانت لا تجعل منه ناراً على علم ! □

جولة في العالم السفلي!

بقلم الدكتور سمير رضوان

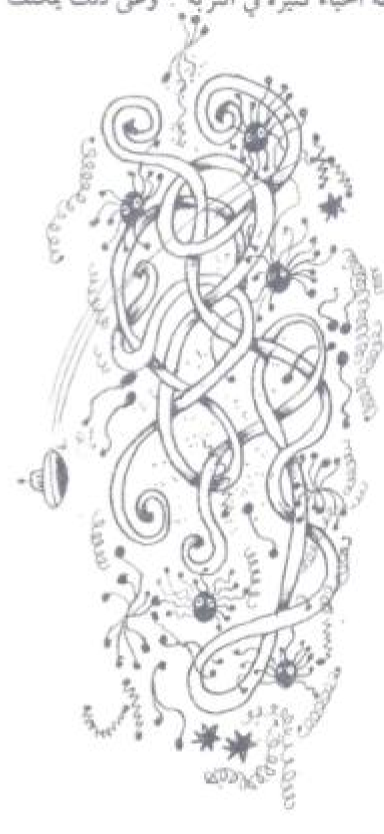
كلما أمعنا الفكر في عالمنا بصراعاته وتحالفاته ، ترسخ يقيننا بصحة القول الشائع : « لاجديد تحت الشمس » . فاذا ما دققنا النظر في العالم السفلي تحت أقدامنا ، لن يسعنا الا أن نضيف : « ولاجديد تحت سطح الارض . » .

ربما لايخطر على بالك وأنت تطأ الأرض بقدميك ، أن تحت كل قدم منها عالما بل عوالم - كاملة من الأحياء تتجاوز في أعدادها مجموع ما على الأرض من بشر بملايين الاضعاف ، أحياء تسعى في سبيل الرزق وتتكاثر او تتعاون فيما بينها ، وتتصارع ، وتموت وتفنى ، أحياء تتباين كثيرا في أساليب حياتها ، وفي أحجامها وأشكالها ، منها المسالم الوديع والعدواني الشرس ، منها مايعتمد في حياته على مجهوده الذاتي ، ومنها مايسطو بخبث على مجهودات الآخرين . ولسوف أصطحبك - لدقائق معدودة - في جولة تحت أديم الثرى لتشاهد من أسرار الوجود مالايقل اثارة عما تصادفه فوق الأرض . هلم بنا الى مركبة تبلغ في دقة حجمها أن الفا منها لاتكاد تشغل مساحة النقطة التي تأتي في نهاية هذه الجملة . فليس بامكاننا - الا بمركبة دقيقة كهذه - أن نتجول في العالم السفلي بسهولة ويسر .

ربوع العالم السفلي

أول ماسوف يسترعى انتباهك في هذه الجولة هو أن احياء التربة يوشك وجودها أن ينحصر في الطبقة السطحية التي لاتتجاوز في سمكها حوالي ثلاثين سنتيمترا . كما سوف تتبين أن هذه الطبقة الرقيقة من سطح الارض ليست مصمتة كما قد تبدو في ظاهرها . وسوف تجد نفسك محاطا بعدد لانهائي من حبيبات التربة التي تتباين كثيرا في أحجامها . فمنها الدقيق الذي لايتجاوز قطر الحبيبة منه قطر المركبة

التي نحن بداخلها ومنها الكبير الذي يبلغ الاف هذا القدر . ومهما كان حجم هذه الحبيبات ، فهي جميعا تتشابه في مادتها الكيميائية ، اذ تغلب فيها مادة ثاني اكسيد السيليكون ، وهي المادة التي يتكون منها الرمل . وربوع العالم السفلي لاتعرف الطرق المستقيمة الا نادرا ، بل هي في الواقع مجموعة من المنعطفات والتعرجات والكهوف ، فالتركيب الحبيبي المذكور تتخلله فراغات ودهاليز صغيرة وكبيرة لا أول لها ولا آخر ، وتحتل هذه الدهاليز نصف مجموع حجم التربة تقريبا ، وهي تحتوى على الهواء والماء . ولسوف تشعر بشيء من الاختناق داخل هذه الفراغات كما سوف تضايقك روائح كريهة تنبعث من هنا وهناك ، ذلك لان محتوى هواء التربة من الاكسجين قليل بينما ترتفع نسبة ثاني اكسيد الكربون مرتفعة . اما الروائح الكريهة فتسببها غازات مثل كبريتيد الهيدروجين الذي ينتج من أنشطة احياء كثيرة في التربة . وعلى ذلك يمكنك



أن تتصور أن احياء العالم السفلي يعانون بصفة دائمة من نقص الاكسجين . ولسوف يبدو لك أن حبيبات التربة الدقيقة تغلف كلا منها طبقة رقيقة للغاية من الماء المذاب ، فيه كثير من المواد العضوية وغير العضوية التي تصلح كغذاء لأحياء التربة . وحتى لو جفت التربة لفترات طويلة واندفع الهواء في دهاليزها المتشعبة تظل حبيبات التربة ممسكة بطبقات المياه من حولها بقوة . وأحياء التربة لاتبتعد كثيرا عن حبيباتها لتبقى قريبة من هذا المورد الفياض ـ تماما كما تعيش الاحياء فوق سطح الارض قريبا من مصادر المياه والغذاء . وهناك على البعد ترى اسطوانة ضخمة ملساء تخترق طبقة التربة لمسافة كبيرة وتلتصق بهذه الاسطوانة مباشرة أعداد لاحصر لها من أحياء التربة ، وهي تشبه أحد الوديان الخصبة التي تعج بالبشر في قلب صحراء قاحلة ، وما هذه الاسطوانة الملساء سوى أحد جذور النباتات الراقية يقوم بفرز مواد كيماوية كثيرة تمثل وليمة شهية لكائنات التربة الحية وفي جولتنا نرى كتلا عديدة ، داكنة اللون ، مختلفة الحجم هي في الواقع مواد عضوية في أطوار مختلفة من التحلل ، هذه الكتل كانت أجزاء من نبات مات ، أو دودة ، أو بقايا اوراق وفروع ، سقطت في التربة . هذه الكتل هي الاخرى تمثل واحات غنية تعج بآلاف الملايين من سكان التراب .

الساكنون تحت التراب

اذا أمعنت النظر ، فسوف تتبين أن الوان الأحياء تحت سطح الارض تتباين كلما تعمقت في التربة ، فهي على السطح مباشرة خضراء فاقع لونها . أما أسفل ذلك بمليمترات معدودة فمعظم الاحياء خضراء مشربة بزرقة ، واذا تعمقت الى مستوى الظلمة الدامسة اختفى اللون الأخضر بين الاحياء تماما ، وكانت في معظمها عديمة اللون ، أو مصفرة ، أو داكنة ، ولسوف ترى أن سكان التراب يشبهون الاحياء فوق التراب في أنهم ليسوا في الواقع

سوى مجموعات من النباتات والحيوانات المختلفة ، ولكن يميزها جميعا أنها مخلوقات صغيرة للغاية ، والحقيقة أن اصغر الاحياء على الاطلاق هي التي تعيش في جوف التربة ، بينما أضخمها على الاطلاق ـ كما هو معروف ـ هو الحوت الذي يعيش في المحيطات . ويقتصر تركيب الفرد الواحد من سكان التراب ـ في الغالب ـ على خلية واحدة ، قد تصل دقتها الى حد أنك لو صففت الفا منها جنبا الى جنب لما جاوز هذا الصف ملليمترا واحدا . والطحالب والبكتريا الخضراء المزرقة هي اكثر سكان التراب شبها بالنباتات الراقية ، حيث تقوم جميعا بعملية التمثيل الضوئي . لذلك فوجود الطحالب والبكتريا الخضراء المزرقة ينحصر في الملليمترات العليا من التربة حيث يتوفر الضوء . ويمكنك رؤيتها كمساحات خضراء على سطح التربة اذا ظلت مبللة لأيام عديدة متتالية على أن هذه الأحياء الخضراء قد يدفع بها دفعا الى جوف التربة حيث الظلام انظر مثلا : هاهي دودة الأرض تحفر أنفاقا هائلة في التربة ، وما أن تبلغ السطح حتى تلتصق أعداد غفيرة من الأحياء الدقيقة الخضراء بسطحها وعندما تستأنف الدودة رحلتها مرة اخرى الى الاعماق و يحتك سطحها بحبيبات التربة فتنتشر الخلايا الخضراء على أعماق متفاوتة . ومعظمها يموت في هذه الظلمة ، ويصبح طعاما لأحياء اخرى والقليل منها يحمله قدره مرة اخرى الى السطح حيث الضوء . والطحالب غذاء شهي لكثير من سكان التراب ، مثلما يأكل الانسان والحيوانات العشبية نباتات خضراء . اما الحيوانات من سكان التربة فتعرف علميا بالحيوانات الأولية ، ويتكون كل فرد منها أيضا من خلية واحدة على أنها من أكبر خلايا احياء التربة حجما . وتعيش معظم الحيوانات الاولية في التربة على حساب احياء اخرى ، تماما كما تعيش الحيوانات فوق سطح الارض على حساب احياء اخرى هناك . وتفترس الحيوانات الاولية أساسا الطحالب والبكتريا ، انظر الى خلية الحيوان الاولى كيف تقترب من فريستها الدقيقة وتلقمها في تجويف صغير يزداد عمقا حتى تصبح الفريسة في جوف خلية الحيوان الاولى كلية ، ثم ها هو يفرز أنزيمات تهضم الفريسة ، ويمتص منها غذاءه ثم ينقبض ليلفظ مخلفات الفريسة الى الخارج مرة اخرى ، وكما ترى لايختلف الأمر كثيرا عما يحدث فوق سطح الارض .

ومن سكان التراب ايضا البكتريا والفطريات ، أما البكتريا فهي أصغر احياء التراب حجما ، وأوفرها على الاطلاق عددا ، فقد يحتوي الجرام الواحد من التربة على مايزيد عن الف مليون خلية بكتيرية ، كما أنها تتباين في أنواعها ، ومعظمها ، أحياء مسالمة لاعلاقة لها بالأمراض الوبائية ، ورغم صغر أحجامها الا أنها انشط احياء التربة قاطبة ـ وهي المسئولة عن تحلل معظم المواد العضوية في التربة ، فتلعب بذلك دورا حاسما في خصوبتها . أما الفطريات فمعظمها كائنات خيطية الشكل ـ خيوطها متفرعة بكثافة في التربة الغنية ، وألد اعدائها أنواع البكتريا التي كثيرا ماتهاجم خيوط الفطريات في مناطق ضعيفة منها ، وتسطو على ما بداخلها من مادة عضوية فيموت الفطر . فلا تعجب حينما تشاهد أن الفطريات سرعان ماتنتج وحدات جرثومية مستديرة جذورها تستعصي على التحلل ـ وتكمن المادة الحية بداخلها بمجرد نفاذ المادة العضوية من التربة ، تاركة كل خيوطها الواهية طعاما لبكتريا التربة،وحينما تتحسن الظروف ، تنمو الوحدات الكامنة مرة اخرى على شكل خيوط الى أجل مسمى . ولاتحسبن أن الفطريات كائنات مسالمة تجاه باقي أحياء التربة ، فلو أمعنت النظر هناك لرأيت احدى الديدان الاسطوانية الضخمة وقد ساقها سوء حظها الى شبكة فطرية معقدة ، فتعثرت ـ مثلما تتعثر الحشرات في خيوط العنكبوت ، وها هو الفطر يغمد خيطا خاصا في جسم الدودة؛فيحقن داخلها مادة تشل حركتها تماما ، فتصبح وجبة شهية له . وفضلا عن هذه

الأحياء الدقيقة تحتوي التربة على أنواع مختلفة من الحشرات والديدان وكلها ـ من وجهة نظر التطور ـ كائنات أرقى مما ذكرنا من سكان التراب الاخر .

أحياء تأكل وتتنفس وتتكاثر

ولسوف يخيل اليك ـ أثناء جولتنا ـ أن معظم سكان التراب لايأكل ، فالصورة التي تعرضنا لها من قبل ، والتي شاهدنا من خلالها حيوانات اولية تلقم احياء اخرى دقيقة ، أو حتى مواد عضوية غير ذائبة ، تلك الصورة ليست في الواقع اكثر اساليب التغذية شيوعا بين أحياء التربة ، بل الشائع أن تنتشر المادة الغذائية الذائبة في الماء خلال أغشية الخلايا الى الداخل ، دون حاجة الى أن تلقم الخلايا غذاءً صلبا . هكذا تتغذى البكتريا والفطريات والطحالب . أما الطحالب فتمتص من الخارج العديد من الاملاح غير العضوية اضافة الى ثاني اكسيد الكربون الذي تصنع منه جميع المواد العضوية التي يدخل في تركيبها ـ تماما كما تفعل النباتات الراقية . وعلى ذلك فهذه الأحياء تمثل مصدرا اساسيا للمادة العضوية اللازمة لاحياءاخرى في التربة الفقيرة مثل تربة الصحراء أما حيوانات التربة الأولية ـ فكما شاهدنا ـ تلقم طعامها كما تفعل الحيوانات الراقية ، منها مايلتهم الطحالب ومنها مايلتهم البكتريا ، ومنها مايلتهم كتل المادة العضوية الصغيرة الميتة ، وسوف تتبين أن كل نوع من الحيوانات الاولية يستسيغ نوعا واحدا أو انواع قليلة من الكائنات الاخرى . اليس هذا ايضا مايحدث فوق سطح الارض ؟ حيث لاتأكل الحيوانات كل مايصادفها من عشب ، انما تأكل هذا وتعرض عن ذاك ، وهناك القليل جدا من الحيوانات الاولية التي تتغذى بأسلوب مشابه لاسلوب البكتريا والفطريات حيث تنتشر المادة الغذائية الذائبة خلال أغشيتها الى داخل الخلايا وقد يبدو هذا الاسلوب بسيطا في مظهره ، ولكنه في الواقع غاية في التعقيد ، فأغشية الخلايا تتحكم من خلال آلية معقدة في نوعية المواد التي يسمح لها بالمرور الى الداخل ، فتسمح للمواد المفيدة وتحول دون دخول المواد الضارة ، وأحياء التربة تتنفس كما تتنفس الاحياء فوق سطح الارض . فهي تأخذ الاكسجين لتحرق به المادة العضوية ، فتتوفر الطاقة اللازمة لشتى أنشطتها ، ثم انها تطرد ثاني اكسيد الكربون الى الخارج ، وهي ليست مزودة بفتحات تنفس خاصة مثل الأحياء الراقية ، ذلك لأنها تتنفس الاكسجين الذائب في الماء والذي ينتشر خلال أغشية الخلايا كما تنتشر المواد الغذائية . وهناك احياء في التربة تستطيع توليد الطاقة في غياب الاكسجين . وهذه قدرة يندر أن تتوفر للاحياء الراقية فوق سطح الارض . ولسوف يخيل اليك أن أحياء التربة لاتمارس الاتصال الجنسي كأسلوب للتكاثر كما يحدث فوق الارض . فهاهي معظم الاحياء تتكاثر بالانشطار البسيط أو من خلال انتاج براعم صغيرة سرعان ماتكبر ، كما أن الفطريات الخيطية يكفي أن ينفصل جزء منها كي ينشأ من هذا الجزء فرد جديد ، وهذا هو مايعرف بالتكاثر اللاجنسي ـ وهو حقا الاكثر شيوعا بين سكان التراب ، على ان التكاثر الجنسي يحدث ايضا في بعض الانواع بأساليب مختلفة ، ليس هنا مجال التعرض لها .

أحياء تتعاون وتتحالف

سوف ترى اثناء جولتنا أن الكثيرين من سكان التراب يتعاونون فيما بينهم تعاونا تحسدهم عليه الاحياء الراقية ، وتوشك ان تعتقد ان عالمهم هو عالم السلام الدائم بيد أنه ليس كذلك . وتعاون سكان التربة ضرورة لازمة لبقاء هذه الأحياء في مثل هذه البيئة القاسية حية وقادرة على التناسل . وصور التعاون كثيرة فهيا بنا نتأمل امثلة لها . هل شاهدت اثناء رحلة بحرية طيور النورس وهي تلازم السفينة لتلتقط مايلقي به البحارة من مخلفات الطعام ؟ وهل

رأيت قطيعا من الذئاب أو من افراد ابن آوى وهي تتربص صابرة حتى يفرغ سبع من التهام مايشبعه من فريسة صادها لتوه ، وما ان يمضي حتى تنقض هذه القطعان من كل اتجاه ، والطيور الجارحة من السماء على بقايا الفريسة ، فتأتي عليها ؟ أمعن النظر جيدا فهذه الصورة تتكرر من حولنا في جوف التربة كثيرا ، فها هي بكتريا وفطريات قوية تنقض على مواد عضوية معقدة التركيب مثل السيليوز والبروتينات وغيرها ، فتهضمها وتحللها الى مواد عضوية بسيطة التركيب تستهلك جزءا منها كغذاء . وهناك خلف حبيبات التربة أنواع اخرى من بكتريا وفطريات لاتقوى على هضم المواد المعقدة فتأخذ نصيبها من المواد العضوية البسيطة التي أنتجتها الاحياء الاقوى ، وهناك صورة اخرى جميلة للتعاون بين بكتريا التربة لتوفير الحاجات الغذائية ايضا . فمعظم البكتريا التي تحيى فى التربة ينبغي أن تحصل على واحد أو اكثر من الفيتامينات المعروفة والا هلكت ، على انها تستطيع ان تنتج بنفسها كل الانواع الاخرى من الفيتامينات . وتختلف انواع البكتريا في كنه الفيتامينات التي تحتاجها ، وتلك التي تستطيع صنعها . ولكنها في مجموعها معا تتضافر لتغطي حاجات بعضها البعض من الفيتامينات المختلفة . فما يعجز هذا النوع البكتري عن صنعه يزوده به نوع اخر ، ويأخذ منه بالمقابل ما لا يستطيع هو انتاجه،وهو اسلوب يشبه مايحدث فوق سطح الارض بين بني الانسان ، حينما تعقد الدول صفقات تجارية تتبادل السلع بمقتضاها . ومن صور التعاون ايضا ان تستهلك احياء هوائية الاكسجين هي خندق صغير في التربة ، فتهيء بذلك الظروف لحياة بكتريا لاهوائية يقتلها الاكسجين ـ تبقى في خندقها لاتغادره . كذلك تفرز بعض الاحياء أحماضا عضوية فتهيء درجة من الحموضة اللازمة لحياة أحياء اخرى ، كما ان هناك بكتيريا وفطريات تتغذى على مواد سامة في التربة فتنقذ بذلك انواعا اخرى كانت هذه السموم لاشك ستقتلها . وثمة صورة اخرى للتعاون المثمر بين سكان التربة تعرف بالتكافل . وفيها يرتبط فردان مختلفان من الاحياء ارتباطا حميا لا ينفصم مدى الحياة ، وواضح انهما ما اجتمعا الا على خير ، اذ انهما يتبادلان في هذه الرابطة منافع لاتستقيم حياة أي منهما بدونها . خذ مثلا التكافل بين انواع من والطحالب وأخرى من الفطريات ، ينتج الطحلب ـ خلال التمثيل الضوئي ـ مايكفيه ويكفي الفطر من مادة عضوية ، أما الفطر فيحتضن الطحلب في حنان موفرا له الحماية والأمان ، ويزوده بالماء والاملاح غير العضوية الذائبة فيه.وهناك روابط تكافلية اخرى عديدة ، مثال ذلك روابط بين حيوانات اولية وبكتريا ، وفيها يلقم الحيوان الاولى خلية بكترية ويخيل اليك انه فاتك بها ، لكنه لايهضمها انما يهيىء لها مسكنا مريحا في جوفه ويزودها بكل مالحتاجه من غذاء واكسجين في مقابل أن تنتج البكتريا مايكفيها ويكفيه من بعض الفيتامينات ، وهناك انماط لاحصر لها من هذه العلاقات التكافلية واضحة للعين ، وان كان العلماء لم يتوصلوا بعد الى كنه المنفعة المتبادلة في كثير منها . هذه العلاقات المثالية ـ مازالت موجودة ـ لكنها مع الاسف لم تعد شائعة بين الاحياء فوق سطح الارض . وقد تتكافل أحياء التربة الدقيقة مع نباتات راقية وبالتحديد مع جذور نباتات العائلة القرنية كالفول وفول الصويا والبرسيم وغيرها . انظر الى تلك الخلية البكترية العصوية الشكل التي تقترب بحذر من شعيرة جذرية لنبات الفول ، ولاحظ كيف ترحب الشعيرة بها متجاهلة كل هذا الكم الغفير من خلايا البكتريا الاخرى القريبة منها . واوضح صور هذا الترحيب هو ذلك الانبعاج الى الداخل التي تحدثه الشعيرة عند طرفها ، وكأنها تدعو هذه الخلية للدخول . وهاهي خلية البكتريا تلبي الدعوة الكريمة وقد اغرتها الشعيرة بافرازات من مواد غذائية شهية لاتستطيع البكتريا مقاومتها . ثم الانبعاج الى الداخل يزداد

عمقا ، فيتكون نفق طويل داخل انسجة جذر النبات تمضي الخلية البكترية فيه حتى نهايته فتجد انسجة الجذر وقد تشكلت على صور مهد وثير ، يحيط بها من جميع الجهات ويوفر لها كل اسباب الراحة والغذاء . فيطيب لها المقام هناك فتتكاثر وتنمو انسجة الجذر من حولها لتكون العقدة التي نراها بالعين المجردة على جذور الفول ، وما على الخلايا البكترية في هذه العلاقة التكافلية الا ان تنتج انزيما خاصا بها يساعد في تثبيت النيتروجين الغازي في التربة في صورة مادة عضوية نيتروجينية تكفيها وتكفي النبات مدى الحياة . ومن أعجب انماط التكافل في التربة تلك العلاقة القائمة بين نوع من النمل ونوع من الفطريات . انظر الى ذلك القبو الصغير في احد اركان خلية النمل ، ولاحظ أن النمل قد شغل بجمع اجزاء من ورق نبات معين يستخدمه لتغذية الفطر . والغريب أن الفطر لايعيش الا على اوراق هذا النوع النباتي . وما أن ينضج الفطر حتى يخصص النمل جزءا منه لغذائه اما الجزء الاخر فيزوده بكمية جديدة من الاوراق لينمو ويتكاثر عليها .

أحياء تتصارع وتتنازع

وهو صراع ، يتسم بالشراسة والضراوة والعدل في آن واحد ، حيث لاتتناقض القسوة مع العدل بل قد تواكبه وتؤازره ، فسكان التراب لا تتصارع ابدا من اجل سيادة او مجد ، او بحجة حقوق تاريخية كما يفعل البشر ـ انما تتصارع فقط من اجل الغذاء في بيئة هي ـ في الواقع ـ اشد البيئات بخلا على ساكنيها . لاحظت من قبل النقص الشديد في نسبة الاكسجين في التربة ، كما تأففت من الروائح الكريهة تنبعث من هنا وهناك . فاعلم الان ان المواد الغذائية التي قد تكون موجودة بكثرة في التربة لايصبح منها متاحا لغذاء الاحياء الا قدر جد ضئيل في كل عام ، يتراوح ما بين ١ الى ٤ في المئة فقط مما هو موجود . أي إذا القيت في التربة بورقة نبات فانها تحتاج كي تتحلل كلية الى سنوات تتراوح في عددها مابين ٢٥ الى ١٠٠ سنة كاملة . وحكمة الله في ذلك ظاهرة ، فسكان الارض شرهون الى الغذاء ـ فاذا كان متاحا تكاثروا بمعدلات رهيبة السرعة . وعلى ذلك فلو اصبح كل الغذاء في الارض متاحا لهم دفعة واحدة لتكاثرت هذه الاحياء لتصل اعدادها الى حدود ستهدد بلاشك وجود كل الاحياء الاخرى على كوكب الارض . ويحول بين سكان التربة وبين المواد الغذائية فيها عوامل كثيرة لامجال هنا للتعرض لها ، على اننا اردنا بهذه الاشارة ان نوضح السبب في ان احياء التربة تتصارع على الغذاء . فمن الواضح أن القدر المتاح منه دائما قليل ، وابسط صور الصراع تتجلى في ان المصارع الاقوى هو الاسرع في معدلات التكاثر ، ومن ثم فهو الذي يفوز بمعظم ماهو متاح من غذاء ، ولايترك الا القليل ـ ان ترك شيئا على الاطلاق ـ للمصارع الاضعف ، ويصبح الصراع اكثر ضرورة من ذلك في كثير من الاحيان حيث يعتدي سكان التربة الاقوياء على ضعافها،ولقد سبق سكان التربة البشر في اختراع اسلوب الحرب الكيميائية،فالمصارع القوي هنا ينتج مواد سامة توقف انشطة المصارع الضعيف ، وربما تقتله ، وهناك مصارعون اكثر شراسة ينتجون اضافة الى ذلك انزيمات تحلل جذور واغشية أعدائهم يتغذون على محتوياتها . ومن اشد اسلحة الحرب الكيماوية فتكا المواد التي نعرفها اليوم تحت اسم مضادات الحيوية والتي استأنسنا بعض منتجاتها من احياء التربة لتنتجه لنا دواء نتطبب به . . والغريب ان اكثر من نصف انواع البكتريا في التربة لها القدرة على انتاج مثل هذه المواد . . اما اشد المعارك ضراوة في التربة فهي معارك الافتراس والتطفل ، فالكثير من الحيوانات الاولية ، والقليل من الفطريات تفترس احياء اخرى ـ كما شاهدنا من قبل،وينبغي ان نشير هنا الى ان هذا الصراع الشرس يلعب دورا حاسما في استقرار التوازن العددي بين سكان التربة ، حتى لايطغى نوع على اخر . □

حالة حب مجنونة

قصة قصيرة بقلم : ليلى العثمان

تصبح وتمسي ولا شيء غير عينيك يا صويلح تصهلان ، كجواد ظامىء ، في بقاع نهارها ، وبراري ليلها المعتم ، تحدقان فيها بتلك النظرة الأخيرة الحمراء ، تنغرسان في قلبها ، ولحمها . تثور النظرة كحد سكين جائع ، تفجر الدم ، فتحس طعم السائل الأحمر بين أسنانها ، وينكسر فرحها ، وكآبة تزرع الذبول على وجهها الأسمر المملوح ، وتتأوه ، وتأكل حتى منابت الصمت في داخلها ، وتتحسس صدرها ، وتضم قبضتها عليه بقوة ، تخشى أن تشق الحقيقة أستاره ، وتجد منفذا لها ، وتعلن أنها الفاعلة .

هي تذكر آخر مرة لمحتك فيها ، كنت في عنفوان الشباب ، وكانت تمسك بمكنسة « العرفج » ، تكنس الدهليز ، عندما طرقت الباب ثلاث مرات ، ولم تفتح لك ، لقد ترددت ، وانتظرت حتى جاءت أمها ، وأشارت بيدها بحركة تفهمها البنات أمثالها ، فتوارت خلف الباب ، لكنها أطلت على وجهك من خلف الشق ، وانتفض قلبها .

صوت أمها حين لمحتك :

ـ أنت ؟

ارتعش صوتك :

ـ نعم يا خالتي ، أريد « فهدا » ، هل هو هنا ؟؟

تأتأت أمها قبل أن تجيب :

ـ اسمع يا صويلح . . .

ـ نعم يا خالتي .

رن صوتها بأمر حاد :

ـ إذا أردت فهدا فقابله في الخارج

تلعثمت أنت :

ـ ولكن يا خالتي . . أنا . . أنا . . .

[illegible]

ـ أعرف ، أنت رفيقه ، ومثل أخيه ، ولكن لا تنس أن عندي بنتا قد كبرت ، ولا تنس أيضا الجيران والناس ، ودخولك ربما ، ربما

صوتك رد هادئا حزينا :

ـ نعم ، أفهم يا خالتي .

ورجتك أمها :

ـ لا تقل لفهد أنني طلبت منك هذا ، فهد يحبك ، ويثق بك ، ولكن ، أنا . . وبكل رنة الحب والتعب سالت كلماتك :

ـ أمرك ، أمرك يا خالتي .

وحين أغلقت أمها الباب شعرت وكأنه ينطبق على وجهك ، ويصهر فرحك ، ويهرس شفتيك الكبيرتين ، ويمزق قلبك إربا إربا . حتى أوشكت أن تراها تتناثر أمامك على التراب ، وتفوح .

أحست كأن خطوتك ثقيلة لا تستطيع حملك ، وأدركت بأنك لم تتحرك ، رغم أن أمها قد صفقت

الباب ، ودخلت الحوش ، وهي تتلفظ بكلمات سريعة ، لم تفهمها ، فبقيت وحدها في الدهليز ، وقد تورم حزنها في داخلها ، وألصقت أذنها بالباب ، وخيل إليها أنها تسمع دقات قلبك المذبوح ، وتسمع لخطواتك الرابضة في التراب شهيقا حارا ، وهمس قلبها فتجرأت ، بعد أن تأكدت أن أمها ابتعدت تماما ، وفتحت الباب ، وما خاب الظن فقد رأتك واقفا ، تتدلى نظراتك ، وتنهمر من عينيك دمعات مالحة .

حين تصافح وجهاكما هتفت باسمها :

ـ عائشة

خجلت ، وأرادت أن تغلق الباب ، لكن يدك الصلدة حالت دونها ، قلت لها :

ـ أنا أحب بيتكم ، لقد تعودت أن أراك .

فأرعشها اعترافك اللذيذ ، لكن يدها امتدت ، وأبعدت يدك عن قبضة الباب ، وأغلقته مرغمة ، واستندت عليه خشية أن ينفتح ثانية وتلج منه ، وبضعف قلبها كالعصفور ، فقد كان طعم اللحظة مرًا ، وبكت .

كم تعذبت تلك الليلة ، تقلبت ، وأكل جر الليل الموحش من لحم جنبيها ، وداس بأظلافه الثقيلة على صدرها ، فتوجعت ، وأنت أنات متواصلة ، وكانت تدرك أنها فقدتك ، وفقدت تلك النظرات الحلوة التي كانت تفر من عينيك ، مثل حمامات صافيات ، تحط بمناقيرها على وجنتيها الحالمتين ، فتزرع حبيبات أمل ، وبراعم شوق ، تنتشي وتكبر .

وبكت تلك الليلة ، فقد عرفت أنها كبرت ، وأنك بأمر من أمها لن تدخل ، وأنك ستلقى « فهدا » في مكان آخر غير البيت . حاولت أن تبعد وجهك ، وأن تنساك لحظة صغيرة ، لتغمض العينين المسهدتين ، وتنسى ألم الروح ، لكن رائحة وجهك تختلط برائحة الغرفة ، ورائحة ارتعاشها ، ويظل وجهك منتصبا مثل بدر يتحدى غشاوة ليلة داكنة ، وظلت الأفكار تحرث في أرض عقلها ، ترى ما الذي تعانيه أنت بوحدتك ؟ هل تتوجع مثلها ؟ أم تراك تود اقتلاع قلبك الذي تعيش به ؟

لا تدري متى نامت ، لكنها تعرف متى فزع الصحو في عينيها ، حين جن الشارع بالصراخ .

صرخات أمك تشق صدرها ، كما شقت أشعة الشمس بكارة الصباح انفلتت مثل كف شريرة ، وصفعت الأبواب ، كل الأبواب ، حتى وصلت الى بابهم ، وفتحت أمها الباب ، واندفعت أمك كالمجنونة ، بوجهها الأسود المغبر ، ولسانها الأحمر المتدلي كلسان كلب لاهث ، وارتمت على الأرض ، وأخذت تنبش تراب الدهليز المبلول وتعفر به وجهها ، وأمها تحاول أن تفهم



ماذا حدث يا أم صويلح ؟

ورشقت أمك ردها :

صويلح جن ، فقد عقله .

لقد فقدت هي ذلك الضوء المشع حولها ، وبقيت غيوم التفَّت حولها ، تضيّق عليها ، وتحصرها في دائرة لا ترى فيها سوى وجهك الذي ورث سواده من وجه أمك ، عيناك الواسعتان ، وأهدابهما الطويلة الملتوية ، وأنفك العريض ، وشفتاك الغليظتان ، ووجه أمك أمامها مملحا بالتراب ، والباب مفتوح بثقل خطوات الفضول ، والسؤال .

وتقبل أنت ، فهل تصدق عيناها ما ترى ؟ هل أنت يا صويلح قد أصبحت أمامها ؟ « دشداشتك » مشقوقة حتى أسفل البطن ، ورأسك الحاسر مربوط بخرقة حمراء ، وقد علقت بها ألوان من ريش الدجاج ، وريش ذيول الديكة ، وفي رقبتك كنت تعلق عقدا من علب معجون الطماطم الصغيرة ، وأخذت تدور ، وترقص ، وتخترع أصواتا ، وتبصق في يدك ، وتلعق تلك البصقة ، ثم تدس أصبعك الضخم في أنفك ، وتستل خشوته وتلحسها ، وأمها تراقبك مذهولة ، وأمك ماتزال تولول ، وهي من خلف غيومها الداكنة تراك قردا ، أو ثورا ، أو أي شيء ، غير صويلح المملوح الذي كان بالأمس يدق الباب ويدخل عند فهد حتى صُفِقَ الباب في وجهه .

حولك تحلق أولاد « الفريج » الحي ، يشدونك ، ويبصقون عليك ، يتضاحكون ، ويتصايحون :

المجنون .. المجنون .

بعض رجال حاولوا الإمساك بك لتهدأ ، لتستقر في وقفتك ورفس أحدهم مؤخرتك صارخا :

بس يا صويلح .

لكنك لم تهدأ ، بل تندفع الى الباب ، وتدخل ، وتجلس قرب أمك ، وتمد قدميك المغبرتين ، وتمط لسانك ، وتقلد أمك في عويلها وولولتها ، وتنثر التراب على شعرك ، وأمها حاولت مشفقة أن تقترب منك ، وأن تذكر اسم الله عليك . لكنك رفعت وجهك اليها ، وجمعت كل ما في ثغرك وبصقت عليها ، وضحكت .

وهي . أقصد عائشة ، تقف أمامك بلا حاجز ، وتنظر اليك وأنت في لحظتك الغريبة ، وتتمنى لو يلتقي نظرك بنظرها ، لكنك أبدا لا تفعل ، بل تدور برأسك في كل اتجاه ، وتحدق بكل شيء ، بكل الوجوه ، والعيون ماعداها هي ... ماعدا عينيها ، وقلبها الذي يتقاطر ألما وأسفا .

هكذا إذن يا صويلح ، في ليلة واحدة تغادرك أساسات عقلك ، وتصير مجنونا ، ولاتعرفها ، ويسخر منك الناس ، و « فهد » أخوها جاء إليك لاهثا ، وأزاح كومة الأطفال المتربصة عيونهم بك ، ووثب من عتبة الباب ، وارتمى منهوكا قربك يا صويلح ، وحضنك ، وقبلك ، وتوسل إليك :

صويلح . بس . بس . تعال . قم معي الى غرفتي وشدك متثاقلا فاقتلعت نفسك من الأرض ، وجر يدك . فاستسلمت له وأنت تقفز قفزات قرد شقي ، والعلب على صدرك تتراقص ، وتصدر موسيقا ، تعزف لخطواتك المتقافزة ، والريش على رأسك يهتز ، ويتطاير بعضه ، ويتساقط على كتفك ويلتصق بها ، وتتوارى أنت وأخوها داخل الغرفة ، وصوت أمها الحزين يناشد أمك الباكية :

يا أم صويلح ، كيف حدث هذا ؟؟

لسان أمك اللاهث يتبلل ببصاقه وهي تروي :

سمعته يهذي هذيانا متواصلا في الليل ، وقد أخذ صوته يرتفع ، فقمت ، وقد ظننته يحلم ، لكنه صرخ ، وانتصب أمامي واقفا يضحك بلا سبب ، وصرعت أذني ضحكاته ، وخفت عليه ، وسميت ، وتعوذت من الشيطان ، وجئت له بكوب ماء ، فأوقعه من يدي ، فابتعدت عنه ، فتهاوى على الأرض ، وصمت ، قلت لنفسي : لقد نام ، واقتنعت أن ذلك حلم مزعج ، وعندما صحوت فجرا قلت أتفقده وأطمئن عليه ، لكنني لم أجده في

مكانه ، فبحثت عنه ، فلقيته في حوش الدجاج ، وقد نتف ريشها ، فصرخت فيه مؤنبة ، فهاج مثل ثور في وجهي فخفت ، وركضت ، فركض ورائي - كما ترين - حتى وصلت الى هنا ، لقد فقد عقله ، آه يا ولدي ، يا وحيدي .

قالت أمها :

سأكلم جارنا أبا محمد ليأخذه الى « الملجأ » .

صرخت أمك :

- لا .. لا .. لا ..

- يابنت الحلال قد يؤذي الناس اذا تركته هكذا .

بكت أم صويلح وأكدت :

لا ، صويلح حبيب ، لا يؤذي أحدا ، اتركوه ، فقد يعود له عقله اليوم ، أو غدا ، الله رحيم .

ورددت أمك ثلاث مرات « لاحول ولا قوة إلا بالله » قبل أن تلتفت نحو غرفة فهد ، وكأنها تأمل أن تخرج منها صاحيا معافى .

وهي . أقصد عائشة ، توارت في مكان ما ، وأسقطت رأسها بين ركبتيها ، وسدّت أذنيها في محاولة لمنع الهتاف الصارخ بداخلها ، لكنه يثور مع كل دمعة تقفز مالحة من العين ، بكت ، أيقنت أنك صرت مجنونا ، ولست ذلك « الصويلح » رفيق أخيها ، والوجه الذي يحبها ، وصرت مجرد مجنون ، يشفق عليه الناس ، ويتضاحك خلفه الصبيان مرددين « مجنون » . سمحت أمها لخطواتك أن تدخل ثانية الى البيت ، والى غرفة فهد .

ومضت الأيام مؤلمة ، وعدت يا صويلح تدخل البيت متى تشاء ، تسبقك « خراخيشك » ، وموسيقاها ، وتيجان الريش على رأسك ، وقد سقط الحاجز ، فأمها بدل أن تأمرك بمغادرة البيت صارت تأمرها هي كلما دخلت عليهم قائلة :

قومي يا عائشة ، أعطيه ماء وحلاوة .

وأوامر أخرى تلسع قلبها :

- لا تنهريه ، لا تسخري منه .

وتبتلع عائشة غصتها ، وتحنو عليك ، وتراقبك ، وأخوها فهد يلاعبك « الكرة » ، أو يجلسك قربه ، ويقص عليك قصص الليالي القديمة ، ونظرته لك لا تخلو من شفقة ، لكنها تتحول أحيانا الى قسوة إذا علا صوتك بالصراخ أو ازداد هرج رقصاتك الغريبة ، يصرخ فيك ، فإن لم تستجب بطحك على الأرض ، وداس على رأسك حتى تتأوه وتعلن الطاعة العمياء .

وهي . تراقب المشهد ، وتلمح ضعفك ، وعيناك المحمرتان اللتان تفوحان غضبا مركزتان على وجهها ، ساقطتان في بحر عينيها،ينبع منها مراره الذل وانكسار الفقير ، وتدنو من أخيها فهد ، وترجوه :

- خلاص يا فهد ، خلاص .

فيسألك ورأسك مايزال تحت قدمه :

- صحيح يا صويلح ! ستهدأ ؟

ويتناثر بصاقك ، وتضحك ، وتهز رأسك « بنعم » ، وتحرك قدم فهد ، فتلملم نفسك وتجلس وعيناك نحوها ، فيهما شكر ، وحب ، وفي عينيها هشاشة المغلوب على أمره .

أصبحت تدخل كل البيوت يا صويلح ، وصار أهل البيوت يجمعون لك العلب الفارغة والخرز ، وقصاصات القماش التي تصنع منها شرائط ، تلفها كالحزام حول خصرك ؟

ترقص في أحواش الناس حتى تلتهب عيناك ، ويسيل لعابك ، وهم يتضاحكون ، ويشدون أطفالهم الى الصدور حذرا وخشية أن تؤذي أحدا منهم .

أمها أيضا تتركك معها ، لا تمنعها ، لكنها لا تغفل أن تنبهها بحركة تذكرها أنك مجنون ، وقد تؤذيها ، فتهز رأسها ترضية لأمها ، وتصمت ، وفي قرارتها تعلم أنك لن تؤذيها أبدا فتزف لوجهك ابتسامة دافئة ، وأنت تجلس بقربها ، وتغني بصوت شجي تحس كأنه يخصها هي وحدها ، وتختار أغنياتك فتعتبرها رسائل حب مبعوثة إليها ، وتظل هادئا ، وعيناك وحدهما تنظران إليها ، وتورقان وردا ،

وترتاح هي للنظرة ، وتحس أن حالتها ترفرف وتحط على اصفرار وجهها ، فتنبتان ربيعا ، وتتمنى لو كانت اللحظة تجمعك معها وأنت لست فاقدا لشيء ، إنها لم تصدق بعد ، لكن كل ماتراه وتسمعه يوحي بذلك ويؤكده ، حتى أخوها فهد لم يعد يلاطفك ، ولا يلاعبك ، بل تحول حبه الى شفقة ، ثم الى قسوة واحتقار .

كم مرة رأته يركب ظهرك ، ويأمرك أن تسير به على أرض الحوش المتربة ، وكم سال الدم من ركبتك ، وفي الشارع كان يعاملك كنعجة ، يأمرك أن تمأمىء ، فيهزأ منك الأولاد ، وهم يدسون « الحَبّ » في ثغرك .

أنت يا صويلح مجنون ، وجنونك يمتد حتى يصل حد السخرية من الناس ، قلت لأحد الصبيان إنك دخلت يوما على أبيه في الحمام ، فرأيت « ذيلا » قد نبت له ، في ذلك اليوم خرج إليك الرجل فاقدا صوابه ، وأمسك بك ، وزج أصابعه في فمك ، وشق أطراف شفتيك حتى سال الدم ، وهدد :

ها يامجنون ، هل أشق كل وجهك حتى تخرس وتتوب ؟

من الذين شاهدوك فهد أخوها ، فقد قال إن دموعك حمراء ، طفرت من شدة الألم ، وأنك بصقت كتلا ، كتلا من الدم ، ما إن خرجت يد الرجل من فمك ، لكنك رغم هذا هددت بضحك صارخ . وداعبت الرجل واعدا ومتسائلا :

سأتوب ، ولكن كيف نبت لك الذيل ؟

قبل أن يمسك بك ثانية ، كنت تهرول والعلب في رقبتك ، تتصافق ، وتزعق والأولاد يصرخون وراءك :

المجنون . . . . المجنون .

صار دخولك يا صويلح الى بيتها مشروعا ، هي وحدها التي تعاملك بود وعطف ، ولا تسخر منك ، ولا تعترف مرة أنها أمام مجنون ، بل تجلس إليك ، وتحدثك ، فتفيض من صوتها حقول عشب حانية ، ترطب قلبك ، وتؤنسك وأنت أمامها صامت أغلب الأحيان ، وتسافر بعينيك في المكان ، وتحطان على وجهها النادر الأليف ، وتستقران على شفتيها اللتين لا تفتآن تـرجـوانـك أن تتخلص من العلب ، والريش ، والأحزمة ، وكل « الخراخيش » المتدلية التي سورت بها حتى قدميك ، لكنك تشد على أشيائك ، وتنبطح أمامها مثل الكلب الوديع في حضور سيده .

عائشة في حوش المطبخ منحنية تنظف بعض القدور ، لمحتك تدخل ، تسبقك موسيقاك ، واقتربت ، وهويت بقربها ، وطلبت مساعدتها بصوتك القديم ، فضحكت بدلال وسألتك :

ـ هل تعرف كيف تغسل المواعين ؟

ـ أعرف

ـ وتعرف كيف تطبخ ؟

ـ ونفر صوتك :

ـ لا ، هذه مهنة البنات .

قلتها بكبرياء واضح ، وبعقل ، وارتجفت هي ، وأحست سخونة الكلمات والمعنى ، وهتفت :

ـ صويلح !!

ـ يا عيون صويلح

وانتصبت أمامها ، ولمحت وجهك وقد عاد الى ماكان عليه قبل شهور ، قبل أن تصرخ أمك صرختها ، وتعلن جنونك . ومرة ثانية صدر عنها السؤال المندهش :

ـ صويلح

وتلفت برأسك سريعا لاستجلاء ما في المكان ، وحين اطمأننت مددت ذراعيك نحوها ، وحضنت كتفيها ، واقتربت ، ودنوت أكثر فأكثر ، فشمت رائحة وجهك ، وعرقك ، تختلطان برائحة شيء عذب تعرفه قبل إعلان جنونك .

وتراجعت الى الوراء مرتعشة ، لكنك اقتربت أكثر ، وألصقت شفتيك بخدها ، وامتصصت القبلة ، كأنك تمتص رحيق زهرة ، وتناقضت ،

وسقطت يداها ، وهزها الخوف ، وهتفت ، فنفذت الهمسة من قاع صدرها :

ـ صويلح

ـ عائشة

وبزغ فرح في وجهها رغم عتمة الخوف :

ـ ها أنت تعرفني

أومأت برأسك :

ـ لم أضيعك يوما

فتراجف صوتها :

ـ صويلح .. أنت !!

ـ نعم ، أنا صويلح الذي يعرفك ، ويحبك .

ـ صويلح! ماذا تقول ؟؟

شهقة كانت وليس سؤالا ، وانفلتت من بين يديك ، وهربت ، لكنك لحقت بها فوصلتها الى درج السطح المنزوي ، والتصقت بها أكثر ، وهرستها ، وتوحد الجسدان في لحظة ، وهي ترتجف مثل سعفة ، وأنت تدس أصابعك في شعرها المتناثر ، وتتقاطر شفتاك لهبا أحمر على وجهها وعنقها ، وجسدها الذي يقشعر من اللذة ، ويرفضها ، ويرفضك ، ويتحول سعيرا من الغضب ينفلت معه ذراعها الرقيق فتصفع وجهك وتصرخ .

ـ يامجنون ، يامجنون ..

ضكت على الكلمة لتؤكدها ، فشددت عليها ، وحضنتها بعنف لتوقظها من الظن .

ـ لست مجنونا .. ولم أكن أبدا . افهمي يا عائشة .

دفعتك في صدرك الذي تتراكض دقاته ، فوقعت ، ثم انتصبت ، ووقفت أمامها مطأطئا ، وهي تقذف إليك سؤالها ، وتشير الى (خراخيشك) وألوانك :

ـ وهذا ، ماذا تسميه ؟ أليس جنونا ؟

وابتسمت وغرزت النظرة الواثقة في عينيها :

ـ إنه الطريق لأراك .

تسارع رفيف أهدابها ، وتناثر صوتها المبهور :

ـ لا أصدق ، لا أصدق !

واقتربت منها ثانية ، ومسحت على وجنتيها المشتعلتين :

أمك أرادت أن تحرمني منك ، فكانت هذه وسيلتي ، ولا أحد يعاقب المجانين ، وفجأة صمت العالم أمامها ، إلا صوت الغضب النازف من صدرها ، فشحنت قوتها ، ومدت الذراعين ، ودفعتك من صدرك ، وأسقطتك على الأرض فاهتزت عليك وتطاير بعض ريشك ، وانهال عليك صراخها :

ـ ليتك كنت مجنونا حقيقيا ، كنت سأحبك ، أما هذا الذل !

وبصقت عيناها نظرة اخترقت قلبك ، ذليل في لحظتك وصوتها يأمرك :

ـ اخرج ، لا أريد أن أراك ، وسأخبر أمي ، والناس ، وفهدا ، وسأعلن حقيقتك ، وأفضحك .

تجمدت مكانك يا صويلح ، شدتك الأرض إليها ، فاغرا فمك ، مذهولا ، يائسا ، وحزينا ، وخرس لسانك ؟

وخرست النظرة العاشقة ، ولم تستطع أن تدافع عن نفسك ، وعن حبك ، وعن ذنبك ، وتركتك ملتصقا في أرضك ، وولت هاربة ، وعلى الأرض كنت ترى شيئا عزيزا يتساقط ، وأقدامها تدوس عليه .

انكفأ الليل على صدرها ، وانكفأ الحمل الثقيل ، ولم تنم حتى أشرق الصباح ، وشقت صرخة أمك السكون ، فتراجفت المراقد تقذف بأصحابها نحو بيتكم ، ليشاهدوا المنظر .

ومن النافذة أطلت ، ولمحتك تترنح عند الجدار المقابل ، عيناك دامعتان ، وأصابعك العشر مفتوحة ، تنز منها سيول دماء ، والسكين التي ذبحت بها أصابعك مغروزة في كبدك ، وأحد الرجال يحاول إسنادك لكنك وامام عينيها الأملتين تهاويت . □

تصحيحات لغوية طبية وعلمية

بقلم : الدكتور محمد صادق زلزلة

يستعمل الناس في مجال الطب والعلم بعض المصطلحات في غير مواضعها عن جهل أو تجاوز ، ومنها هذه المصطلحات الواردة في هذه المقالة مع تصحيحات لها .

الأكلينيكي ، والأكلينيكية

ان هذه الكلمة ترجمة لفظية لكلمة Clinical الأجنبية التي تعني : التعامل مع المريض في سريره ، وملاحظة حالته ، ومعالجته ، وذلك للتفريق بين هذه التعاملات وبين العلوم الطبية الأساسية والنظرية . وقد عربها البعض بقولهم : الاكلينيكي ، والاكلينيكية . فقالوا : الفحص الاكلينيكي ، والأعراض الاكلينيكية . والصواب : السريري ، والسريرية . فيقال : الفحص السريري ، والأعراض السريرية . أما إقحام كلمة الأكلينيكي ، أو الأكلينيكية ، في لغتنا ، وفيها تعريب حرفي لها ، فهو خطأ واهمال لا مبرر لهما .

بول الفراش

ويعني به : تبول الطفل في فراشه ليلا بصورة لاارادية . وقد وضعها بعض العلماء العرب مقابل كلمة Enuresis المشتقة من الكلمة اليونانية Enourein التي تعني : مرور البول . وقد ترجمت هذه الكلمة الأجنبية قبل ذلك بـ « سلس البول » . ثم بـ « التبول الليلي » . ثم أبدلت ، في السنوات الأخيرة ، بـ « بول الفراش » . فأما سلس البول فانه لا يعطي المعنى المطلوب ، لأن معناه : نزول البول لاارادیا ، ليلا أو نهارا ، وفي حالة اليقظة والنوم ، لخلل في الجهاز البولي . وأما « بول الفراش » فهو مصطلح يخرج عما يراد به من معنى . ذلك أن البول هنا ينسب للفراش ـ فهو مضاف والفراش مضاف اليه ـ كما ينسب للطفل ، أو الفصيل ـ وهو ولد الناقة ـ فيقال : بول الطفل في ملابسه ، وبول الفصيل في بطن أمه . ولا يمكن أن ينسب البول ، أو التبول ، إلى الفراش ، فيقال : بول الفراش . وقد يكون من الأصح أن يقال : البول في الفراش ولكن هذا لا يؤدي المعنى المراد منه . والمصطلح العلمي الذي يعطي المعنى تماما هو : « التبول الليلي اللاإرادي في الفراش » .

الفالج

تلفظ هذه الكلمة بفتح اللام ، فيقال : أصابه الفالَج ، وأصيب بمرض الفالَج . وهذا وهم . لأن معنى الفالَج ـ بفتح اللام ـ هو مكيال قديم كان يستعمل ، فيما مضى ، لكيل الطعام (أي الحنطة والشعير ونحوهما) . أما الصواب فهو : الفالِج ـ

بكسر اللام ـ فيقال : فُلج الرجل ـ على المجهول ـ أصابه داء الفالج ـ بالكسر ـ لأنه اسم فاعل . والفالج داء يحدث في أحد شقي البدن طولا ، فيبطل حركته واحساسه ، سمي بذلك لأنه يأخذ شطرا من البدن في الغالب ، ويندر وقوعه في الشقين وعلى هذا فيقال : أصيب بالفالِج ، ولا يقال : أصيب بالفالَج .

البنية

كثيرا ما تلفظ هذه الكلمة بضم الباء للدلالة على كيان الانسان وفطرة جسمه ، وهذا خطأ . فالبُنية ـ بالضم ـ هو ما يبنيه الانسان . والبنى ـ بالضم ـ مقصور البناء . ومنه كلمة : البُنية ، وهي الكعبة يقال : لا وربِّ هذه البُنية . أما الصواب فهو : البِنية ـ بكسر الباء ـ وهي الفطرة . يقال : فلان صحيح البِنية ، أي الفطرة . والبِنية عند الحكماء الأقدمين ـ أي قدماء الأطباء ـ عبارة عن الجسم المركب على وجه يحصل منه المزاج ، وهو شرط الحياة عندهم .

الرؤيا ، والرؤية

كثيرا ما تستعمل كلمة الرؤيا بمعنى كلمة **Vision** الأجنبية . فيقال : فلان ضعيف الرؤيا ، أو عديم الرؤيا . وهذا خطأ . لأن الرؤيا ما يراه الانسان في المنام ، أي الحلم . فهي تختص بالمنام دون النظر بالعين . فيقال : تفسير الرؤيا ، ومفسر الرؤيا ، مثلا . أما الصواب فهو : الرؤية ، وهي النظر بالعين والقلب ، ولكنها في العين حقيقة وفي القلب مجاز . كأن يقال : نظرت الى صاحبي مقبلا عليَّ ، ونظرت الى الأمور نظرة خبير مطلع .

بُحّة

وهذه الكلمة ترجمة أمينة لكلمة **Hoarseness** الأجنبية ، ولكنها تلفظ بفتح الباء خطأ . والصواب أن تلفظ بالضم ، فيقال : البُحّة . يقال : بَحَّ الرجل بَحّا وبَحَحا : أخذته خشونة وغلظ في صوته . فهو أبحّ ، وهي بحّة ـ يعني للمؤنث ـ وأبحّه الصياح : جعله أبحّ . والمصدر : بُحّة ، بالضم ، وهو الصواب .

تجربة

تلفظ هذه الكلمة ، غالبا ، بضم الراء ، فيقال : تجرُبة . وهذا خطأ . اذ أن الكلمة هي مصدر للفعل يجرِّب ، ومصدرها : تجرِبة ، بالكسر ، وهو الصواب .

حميات

كثيرا ما تلفظ هذه الكلمة بضم الحاء ، وفتح الميم وتشديد الياء ، فيقال : حُمَيّات . مثل قولهم مستشفى الحميات مثلا . والصواب أن تلفظ بضم الحاء وفتح الميم المشددة ، فيقال : حُمّيات ، جمع حمّى .

الأسقربوط

تطلق هذه الكلمة على مرض يتسبب عن قلة ، أو انعدام ، فيتامين جـ (٣) في الجسم ، يدعى **Scurvy** ، فيسبب تورم اللثة ، وحدوث النزف فيها . وكذلك النزف في أنحاء مختلفة من الجسم . والكلمة ليست عربية ، وانما هي تعريب لفظي للكلمة اللاتينية **Scorbutus** ، وهي الاسم القديم للمرض . والصواب أن يطلق على هذا المرض اسم : البَثَع . فهو وصف دقيق لهذا المرض . يقال : بثعت الشفة تبثع بثعا : غلظ لحمها وظهر دمها . وقيل : بثعت لثة الرجل اذا خرجت وارتفعت حتى كأن به ورما . والاسم منه : البثع ، وهو ظهور الدم بالشفتين والجسم كله .

اللّذع ، واللّدغ ، واللّسع

كثيرا ما توضع هذه الكلمات في غير مواقعها . فيقال : لدغته العقرب ، ولسعته الحية ، ولذعته البعوضة ، ونحو ذلك . وهذه كلها تعبيرات خاطئة ، لأنها توضع في غير أماكنها . فكلمة : لَذَع ، واللَّذْع ، لا مكان لها ، ولا مجال لها ، في هذا

الموضع ، لأنها بعيدة عنه ، وليست من جنسه . فاللذع معناه : حرقة كحرقة النار ، وهو مسّ النار وحدّتها . يقال : لذعته النار أي لفحته وأحرقته . ولذع الحب قلبه أي تيمه وآلمه .

أما اللّسع ، فهو للحشرات التي تضرب بمؤخرتها ، وهي ذوات الأبر ، كالنحلة ، والزنبور ، والعقرب ، وأما اللّدْغ فهو لما كان بالفم ، وليس بالمؤخرة ، كالبق ، والبرغش ، والناموس ، وغيرها فيقال : لسعته العقرب تلسعه لسعا . ولدغته البقة تلدغه لدغا . أما الحية فانها لا تلسع ولا تلدغ ، ولكنها تعضّ وتنهش . فيقال : عضته الحية ، ونهشته الأفعى ، ولا يقال لدغته أو لسعته . وزعم بعض اللغويين : أن من الحيات ما يلسع بلسانه كلسع حُمَة العقرب ، وليست له أسنان . فيجوز حينئذ أن يقال : لسعته الحية . ولكن الحيات ـ بصورة عامة ـ تعض بأسنانها ، وأنيابها المجوفة ، فتزرق السم في جسم ضحيتها فيقال : عضته الحية ، ولا يقال لسعته أو لدغته .

القذْف ، والقدْف ، والترجيع

توضع هذه الكلمات ترجمة لكلمة **Regurgitation** التي تعني : مرور كميات قليلة من الحليب ، أو الطعام ، لا تتعدى ملء الفم ، من المعدة إلى الفم ، أثناء الرضاع ، أو بعده .

واستعمال هذه الكلمات في هذا الموضع استعمال عاميّ وليس أكاديميا . ذلك أن هذه الكلمات جميعها لا تؤدي المعنى العلمي الدقيق المطلوب . فالقذف ـ بالذال المعجمة ـ له معان أخرى غير ماهو وارد هنا . فهو معناه : الرمي بالحجارة وما أشبه . كما أن معناه الشتم وما أشبه . فيقال : قذف المحصنة اذا رماها بريبة مثلا . وله معان متعددة أخرى .

وأما القدف (بالدال المهملة) فمعناه : الصب والنزْح ، فيقال : قدف الماء يقدفه قدفا : نزحه وصبه ، وغرفه ، من الحوض مثلا .

وأما الترجيع ، فله معان لا صلة لها بالموضوع كذلك . يقال : رجّع الرجل : ردد صوته في قراءة ، أو أذان ، أو غناء . والترجيع في الأذان : أن يكرر الشهادتين فيه . وترجيع الصوت : ترديده .

أما الصواب فهو : القَلْسُ ـ بسكون اللام ـ يقال : قلس الرجل يقلس قلْسا ، خرج من بطنه طعام ، أو شراب ، إلى فمه ـ سواء ألقاه أو أعاده إلى بطنه ـ اذا كان ملء الفم أو دونه . فاذا غلب ، أو زاد عن ذلك ، فهو قيء . والقلْس اسم علمي أكاديمي ينبغي استعماله في هذا المجال . أما ما سواه من كلمات ، وأسماء ، فهي معان خاطئة وان كانت تستعمل مجازا لتقريب الموضوع الى أذهان العامة من الناس . □

رحلة القهوة

● المعروف أن أفريقيا هي موطن شجرة البن ، والحبشة بالذات هي البلاد التى عرفت هذه الشجرة ، وقد نقل التجار العرب هذه الشجرة الى اليمن ، حيث زرعوها في القرن الرابع عشر الميلادي على سفوح الجبال ، ومن اليمن نقل الحجّاج البن الى مكة ، حيث شاع بعدها في بقية البلاد العربية ، وقد وصلت القهوة الى أوروبا عام ١٦٢٦ على يد ايطالي يدعى بيترو ديللا تالي ، وكانت تستخدم كعقار مسكن للصداع ، ولكن سرعان ما عملت لتشرب في المقاهي ، وخاصة في مدينة البندقية ومرسيليا ، ومن ثم انتقلت الى مدينة لندن و غيرها .



الأصالة والعروبة في أدب

عبدالسلام العجيلي

بقلم : أحمد محمد عطية

على الرغم من أن الروائي العربي الدكتور عبدالسلام العجيلي نهل من الثقافة الغربية الحديثة ، وأتيح له أن يعايشها قراءة ورحلة،فإن أعماله الأدبية تعكس نزعة قوية الى استلهام التراث العربي وبعثه في قوالب جديدة،تعبر عن أصالة الكاتب وعروبته .. حول هذه الملاحظة يصحبنا هذا المقال في رحلة حول أدب عبدالسلام العجيلي .

عبدالسلام العجيلي ، أديب سوري كبير ، وأحد رواد التأصيل في ثقافتنا العربية الحديثة ، فهو أديب عربي ، نشأة وانتماء ، وكتابة وفكرا ، وسلوكا ، وشكلا ، ومضمونا .

تتميز كتابات عبدالسلام العجيلي بالأصالة والعروبة ، وبالتنوع ، والتفرد ، والابتكار ، وبإحياء التراث العربي والأشكال العربية والمضامين العربية ، والاستلهام من ذلك كله ، وتسري في كتاباته الروح العربية ، والقيم العربية ، وتتنوع بين أساليب السرد لدى الرواة العرب وبين الحكاية العربية والأخبار والمقامات وأحاديث العشيات والأسمار ، والأمسيات العربية ، وأدب الرحلات ، وتعكس إيمانه القوي بدور التراث العربي والاسلامي في تعزيز ودفع التقدم العربي ، وتنطلق من وعيه العميق بخطورة الغزو الثقافي الغربي ، والتبعية للغرب .

فالعجيلي أديب عربي ، يحرص على الأصالة العربية ، ويبتعد عن القوالب الغربية ، كما أنه يستلهم التراث ولا ينقله ، بل يعيد تشكيله ومزجه بتجاربه وثقافته ، وخياله ، ويوظفه في خدمة الحاضر العربي ، ويشحنه بهموم عصره .

إنه شامل ، يجمع بين إبداع الشعر والمسرحية ،

والقصة والرواية ، وأدب الرحلات والمقالة ، والمقامات وأحاديث العشيات ، والمحاضرات والسيرة الذاتية ، كما تتعدد أعماله واهتماماته بتعدد تجاربه في الحياة كأديب ، وطبيب ، ورحالة ، ومناضل بالسلاح ، ونائب ، ووزير .

ونظرا لتنوع إنتاجه وكثرته ، مما لا يتسع المجال لتناوله كله ، فإني سأركز في هذه الدراسة على وجوه الأصالة والعروبة في أعماله التي لم تنل حقها من اهتمام النقاد والباحثين ، والتي تؤكد ريادته ـ للتأصيل في ثقافتنا العربية الحديثة ، مثل مسرحيته الأولى شبه المجهولة « أبو العلاء المعري » ، وثلاثيته الفريدة « أحاديث العشيات » ، و « السيف والتابوت » ، و « سبعون دقيقة حكايات » ، ومقاماته الصادرة في طبعة خاصة محدودة .

لقد اختار عبدالسلام العجيلي الطريق الصعب في الحياة ، والمعرفة ، والأدب ، وفي النضال من أجل قضايا قومية عربية وإنسانية ، وبالرغم من ثرائه ، وعدم اضطراره للعمل والمعاناة ، فهو أديب وعالم ملتزم بالكتابة وبالفعل والسلوك ، وليس بالنظريات و (الايديولوجيات) ، منذ تطوع للقتال في جيش الانقاذ الفلسطيني ، وحارب العدو الصهيوني في سنة ١٩٤٨ دفاعا عن عروبة فلسطين .

وبالرغم من أنه من أسرة بدوية ثرية ، وعمل وزيرا للثقافة والاعلام والخارجية ، إلا أنه لم يفارق بلدته الصغيرة النائية « الرقة » في شمال سورية ، بل رفض كل العروض لمناصب كبرى تبعده عنها ، وكان هذا التزاما وانتماء وعشقا لبلدته الفقيرة ، ولأهله في البادية ، يعالجهم ، ويعلمهم ، ويستلهم تراثهم وتجارب حياتهم الشاقة ، ويمزجها بتجاربه ورؤاه ، وحبه الغامر للتراث العربي ، ولتراث البادية الشعبي ، ولذكريات الطفولة والصبا في أحضان البدو ، والحياة البدوية التي تغذي أدبه بدماء الأصالة والعروبة . لذا أصر العجيلي على الاقامة الدائمة في « الرقة » .

الأصالة والتغريب :

تتبع أصالة عبدالسلام العجيلي وعروبته من أصوله العربية ، ونشأته البدوية ، وثقافته العربية ، وعشقه للتراث والعروبة ، ولكل ما هو عربي ، فهو ينحدر من أسرة بدوية تتفرع من عشيرة عربية ، هي عشيرة « البوبدران » ، المقيمة في بادية الموصل بالعراق ، وقد انتقلت أسرة العجيلي من الموصل الى « الرقة » مع بعض عشائرها . تنتمي عشيرته إلى سلالة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، كما يذكر العجيلي في كتابه « أشياء شخصية » (الطبعة الثانية ، دار الحقائق ، بيروت ١٩٨٠ ص ٧ وما بعدها) ، فهو عربي أصيل حسبا ، ونسبا ، كما عرفت أسرته البدوية بحب المعرفة والفنون والآداب ، فقد كان جده حميد العجيلي شاعرا .

وقد ولد العجيلي سنة ١٩١٨ ببلدة (الرقة) البدوية ، وعايش في صباه ظروف حياة البادية العربية الصعبة ، وخبرها ، وتنقل في طفولته وصباه مع أسرته ، ومع أهل الرقة البدو ، بين مراعي الكلأ في البادية ، في الربيع والخريف والصيف ، وعاد معهم في الشتاء للاقامة في تلك البلدة ، مما عمق في ذاكرته تجارب الحياة البدوية ، وتقاليد البدو ، وثقافتهم ، وقيمهم العربية الأصيلة ، مؤكدا أن المعاصرة لا تعني التخلي عن القيم الخيرة التي ترجع الى جذور البداوة في نفسه ونفس كل عربي .

أما مصادر ثقافته فهي عربية أصيلة أيضا ، فقراءاته الأولى كانت منذ طفولته وصباه في كتب دينية ، وقصص شعبية ، وكتب في التاريخ العربي ، ودواوين الشعر العربي القديم ، وقد استفاد من فترة أقعده فيها المرض أربع سنوات ، وكان عمره بين العاشرة والرابعة عشرة،فصرفها في قراءات واسعة في كتب الدين والتاريخ الاسلامي ، والقصص والسير الشعبية ، وروايات جرجي زيدان التاريخية الاسلامية ، و « ألف ليلة » ، كما أنه قارىء نهم

مسرحية شبه مجهولة :

بدأ عبدالسلام العجيلي الكتابة في سن مبكرة ، في الثلاثينيات ، فكتب الشعر والقصة والمسرحية والمقالة ، ونشرها بأسماء مستعارة ، نظرا لانطوائيته ، وخوفه من « الشهرة والنقد الذي لا يرحم » حسب تعبيره . وقد واصل كتاباته فترة طويلة ، وبأسماء مستعارة ، كان يبدلها بين الحين والحين ، حتى بلغ عددها اثنين وعشرين اسما . وقد تسبب تخفيه بالأسماء المستعارة في خسارته لعدد من الجوائز ، أهمها جائزة مسرحيته الأولى ، شبه المجهولة « أبو العلاء المعري » التي كتبها سنة ١٩٣٧ ، ونال عنها الجائزة في مسابقة مجلة « الحديث » الحلبية التي أقامها الأديب السوري الكبير سامي الكيالي .

وقد نشرت مجلة « الحياة المسرحية » السورية (في عددها المزدوج رقم ١٧ ـ ١٨ صيف ـ خريف ١٩٨١) نص مسرحية العجيلي « أبو العلاء المعري » تحت عنوان « وثيقة العدد » ، بعد أن ظلت محتجبة مجهولة ، إذ لم ينشرها في كتبه ، وقدم لها الأديب الفنان السوري وليد اخلاصي مشيرا إلى ندرة الأعمال المسرحية في هذا الوقت ، نظرا لاتجاه الكتاب آنذاك الى الشعر والمقالة . يقول وليد إخلاصي إن المسرحية كتبت في عهد الانتداب الفرنسي لسورية ، عن وقائع قديمة وحقيقية ، جرت في عصر أبي العلاء ، وأن اختيار مثل هذا الموضوع للكتابة يعود في رأيه ـ إلى اختيار مناخ قديم من التاريخ المعروف ، يمكن بواسطته التذكير بما يجري في البلاد في أيام العدوان والاحتلال من قبل أجنبي ، وأنها محاولة من شاب جاد لمناقشة أفكار أبي العلاء الفلسفية ، وتقديم شخصيته الى القاريء كنموذج عربي للبطولة العقلية والاجتماعية ، وفي وقت طغت فيه البطولة الغربية ، وباتت الحاجة ماسة للتذكير بالشخصية العربية . . »

وهذا يؤكد عمق الأصالة العربية ، والهوية العربية ، لدى أديبنا الكبير ، ففي هذه السن المبكرة (تحت العشرين) كانت كتاباته عربية ، وشخصياته عربية ، ووعيه بخطورة الاستعمار والتغريب متقدما ، كما تبرز هذه المسرحية حرصه على التفرد والتميز ، وشق الطرق الصعبة في التعبير الأدبي والفني ، مما حدا به لكتابة المسرحية والقصة في أعمال تضعه في صفوف الرواد الأوائل لهذين الفنين في القطر العربي السوري . وكما يقول وليد إخلاصي ، في تقديمه للمسرحية : « ليست مسرحية (أبو العلاء المعري) عملا دراميا كبيرا ، لارتباطها بعملية التوثيق التاريخي ، لكنها تبقى عملا دراميا متماسكا ، وطليعيا في زمنها » .

ومع أن المسرحية تسجيلية وثائقية تقدم شخصية أبي العلاء المعري مع شخصيات عصره ، وتنهض على وقائع تاريخية ، وتنطق المعري بنصوص من كلماته ، كما وردت في المصادر القديمة والحديثة ، الا أن العجيلي أبدع شخصية أخرى من خياله هي شخصية « أبو هدرش » التي يصفها بأنها « شخصية خرافية من رسالة الغفران ، وهي شخصية شيخ من شيوخ الجان ، هيئته منكرة ، وصوته رهيب ، وكلامه مملوء بالسخر اللاذع » ، وهي شخصية درامية مناوئة ومناقضة لشخصية أبي العلاء في المسرحية ، تعمق الصراع الدرامي ، وتمثل الوجه الآخر للشاعر والفيلسوف العربي الكبير ، لأنها شخصية من إبداعه في « رسالة الغفران » ، فهي جزء منه يناقضه ، ويحاوره ، وينمي الصراع الداخلي لديه ، ويدفعه الى اتخاذ المواقف والقرارات الهامة .

وتمثل شخصية « أبو هدرش » الاضافة الفنية التي يقدمها الفنان عبدالسلام العجيلي لشخصية أبي العلاء وعصره التاريخي المعروف ، إنها صوت الضمير لدى أبي العلاء ، يجسدها العجيلي بكلمات (أبي

هدرش) : « لا تضطرب يا أبا العلاء ، لست بالغريب عنك ، فلو بحثت عني لوجدتني في قرارة نفسك » . وهي شخصية خيالية ، تظهر وتختفي « بصورة سحرية » من ابداع العجيلي ، وضعها في فكر أبي العلاء ، وجعلها تدور في مخيلته ، قبل كتابته لرسالة الغفران ، باعتبارها تشغل ضمير أبي العلاء وعقله . ويؤرخ العجيلي زمن المسرحية بعام ٤١٩ هـ ، أي أنها تسبق وقت كتابة المعري لرسالة الغفران بحوالي خمس سنوات ،لأن أبا العلاء قد كتبها حوالي سنة ٤٢٤ هـ .

يختتم العجيلي المسرحية بتقديم صورة لانسانية المعري المطوية « لجوهر نفسه المتألق » ، فهو لا يكره الناس ، لكنه يترفق بهم ، كما يقول (أبو هدرش) : « يا أبا العلاء ، لست أدري كيف يعمى من حولك حول جوهر نفسك المتألق ، ولكن الناس جد قصار النظر » ، فالعمى في قصور إدراك الناس لجوهر شخصية أبي العلاء ، وتفسيته ، وليس في المعري .

أحاديث العشيات

إن « أحاديث العشيات » ، و « السيف والتابوت » ، و « سبعون دقيقة حكايات » عبارة عن ثلاثية فريدة ، تقدم نموذجا فذا لنهج عبدالسلام العجيلي ، وطريقته الخاصة المتفردة في بعث التراث واستلهامه في أشكال عربية أصيلة ، وجديدة بعيدة عن القوالب الغربية والتبعية لأشكالها ، إذ تضم الكتب الثلاثة أحاديث الكاتب في الأمسيات الثقافية ، وهي مصوغة في شكل أحاديث « العشيات » العربية القديمة ، والأسمار العربية التي شهدها العجيلي وسمعها في صباه في البادية ، فرسخت في ذهنه وذاكرته ، وأعاد شحنها بمضامين ومفاهيم عصرية أيضا ، ومزجها بأحداث التاريخ العربي القديم والحديث ، وصبها في قالب عربي متفرد متميز بالأصالة والحداثة معا ، يجمع بين القصة والحكاية والحوار والشعر والخبر والتاريخ والحكمة والقيم العربية والشخصيات والنماذج البطولية العربية ، وهو يمزج هذا كله بذكرياته ، وسيرته ، ومشاعره وآرائه ورؤاه ، وانطباعاته وطرق إبداعه ، وتنظيره لأدبه وفنه .

وقد تحدث العجيلي في مقدمة الجزء الثالث من ثلاثيته « سبعون دقيقة حكايات » عن هذه الثلاثية قائلا : « إنها ليست محاضرات ، وإنما أشياء شخصية ، وتأثرات ذاتية قليلة الموضوعية . . . » ، وأكد أنها « فن » ، أي أنها « إبداع » وأوضح قائلا : « إن محاضراتي ما هي الا متح من ذاتي ، من ذكرياتي وتأثراتي وأفكاري » (ص ٦ و ٧) ، وهي ضرورية لفهم شخصية العجيلي ، الانسان العربي الأصيل ، الأديب الطبيب المفكر الفنان ، وهي تجربة متفردة في الابداع العربي الأدبي ، خارجة عن القوالب الغربية ، متصلة بالأصالة العربية .

فالعجيلي من فرط حرصه على التفرد والأصالة والموروث يذكر بارتياح ، في « أحاديث العشيات » أنه حسن الحظ لعدم انضمامه لجمعيات المحاضرات خلال دراسته ، وعدم اتباعه لأساليبها المدرسية ، وأنه ظل وفيا للأساليب العربية القديمة ، الأصيلة التي اختزنها وتمثلها ، أبدع فيها في صياغة عصرية حديثة .

وهو ينتقي في هذه الأحاديث شخصياته العربية المتميزة بالبطولة والكرامة والكبرياء ، وحب الأدب والفن والطرافة والغرابة أيضا ، من صفحات التاريخ العربي القديم والحديث وتجاربه ، ليقدم عدة نماذج متنوعة للشخصية العربية القوية الايجابية ، والشخصية العربية الأدبية الفنانة المحبة للشعر والغناء والموسيقا ، والشخصية الصوفية التقية الورعة .

كما تحتوي ثلاثية « أحاديث العشيات » بالاضافة الى

الأحاديث الأدبية والتراثية والفكرية على أحاديث أخرى علمية في الطب والهندسة والرياضيات، وإنشاء المدن ومعمارها، ويتغلغل في كل هذه الأحاديث، ويلقي عليها بظله وروحه وقيمه وإبداعه وشخصياته، ففي الطب نجد أحاديثه مستمدة من التراث، ومن القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة، ومن سير الخلفاء والعلماء والحكماء العرب.

ويتحدث العجيلي عن ارتباط «العشيات» بذكريات طفولته وصباه، وما اختزنه من صور الحياة البدوية التي لعب الشعر دورا كبيرا فيها، فهي عشيات وأمسيات سمر، قوامها الكلمة الجميلة والحديث الجميل، والقصص والأشعار والحكايات والأخبار، ومن محصلة ذاكرته التي اختزنت قراءاته لأحاديث «العشيات» العربية الأولى التي ذكرها الشعراء العرب القدامى مع تجاربه وذكريات صباه

عن «عشيات» وأمسيات البدو، من هذه المحصلة المختزنة التي تمثلها العجيلي، وأعاد إبداعها في «أحاديث العشيات»، ليقدم صورة عصرية لأحاديث العرب القديمة وأحاديث البدو الحديثة.

المقامات

كما اتجه العجيلي الى المقامات، لينهل من هذا الفن العربي الأصيل، ويبدع على منواله، واضعا بصماته الفنية الذاتية في مقاماته الجديدة الفريدة التي كتبها بتوقيعه المستعار «ع. ع».

وفي تقديمه لمقاماته يذكر العجيلي أنه بدأ كتابتها وهو طالب في المدرسة الثانوية بحلب وفي المعهد الطبي بدمشق، وأنه كتبها للتسلية والتسرية، وأنه لم يكن يقصد كتابة المقامات بل استهدف الكتابة الساخرة، لأن قراءاته لها كانت محدودة في ذلك الوقت لا تتعدى مقامتين أو ثلاثا مما كان المؤلفون المدرسيون يختارونه في كتبهم للهمذاني،والحريري، وحديث عيسى بن هشام للمويلحي .. (المقامات) الطبعة الأولى ص ٦ و ٧)، حتى كتب مقامته الطبية الأولى التي انتقد فيها - بأسلوب لاذع ساخر - مظاهر الدراسة الطبية في المعهد الطبي العربي وجوها. ونشرتها مجلة «الصباح» الدمشقية في عدد خاص عام ١٩٤٢.

كان للنجاح الذي أحدثته هذه المقامة الطبية أثره في مواصلة كتابة مقاماته، غير أنه - بتواضعه المعهود - يشكك في قيمة مقاماته، ويقول إنه طبع منها كمية محدودة في طبعة خاصة، صدرت سنة ١٩٦٢، استجابة لاقتراحات المعجبين بها، وهو يأخذ على مقاماته إفراطها في الذاتية، ودورانها حول شخص الكاتب وشخصيات إخوانه، مع أن هذه الذاتية هي الاضافة العصرية التي قدمها العجيلي لفن المقامات العربي الأصيل. فالراوي في مقامات العجيلي هو الكاتب نفسه «عبدالسلام محب».

وقد أبدع العجيلي اثنتي عشرة مقامة هي: «المقامة الطبية الأولى»، و«المقامة الحقوقية»، و«المقامة الطبية الثانية»، و«المقامة البرازيلية»، و«المقامة النهدية»، و«المقامة القنصلية»، و«المقامة البرلمانية»، و«المقامة الصحفية»، و«المقامة الباريسية»، «والمقامة الجنيفية». وكلها

مكتوبة في شكل المقامات العربية الذي يجمع بين سرد الراوي والقصة والشعر والحوار والسخرية والفكاهة ويضيف إليها موضوعات عصرية، مستمدة من تجارب أديبنا الكبير في الطب والدراسة والأسفار والسياسة والأدب وأوجه الحياة المختلفة، كما تجمع بين السجع والأسلوب التراثي وشخصيات التراث العربي.

هذه هي - بإيجاز شديد - بعض وجوه الأصالة والعروبة في أعمال الأديب الكبير عبدالسلام العجيلي. □

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

لماذا حجب الأضواء عن التوبة والعفو ؟

لا نفهم لماذا تسلط الأضواء على النظام العقابي في الشريعة الاسلامية ،ولا يأتي أحد من الدعاة في زماننا على ذكر « التوبة » من قريب أو من بعيد .

ورغم أننا نتحفظ من الأساس على مبدأ تصور الشريعة باعتبارها حدودا فقط ، ونعتبر أن الخطاب الاسلامي رسالة هداية قبل أن يكون نظاما عقابيا ، الا أننا نسجل على الملوحين بلافقه الحدود في كل حديث عن الشريعة أنهم ارتكبوا في حق الشريعة نفسها جنايتين : جناية تقليصها الى حد اعتبار الحدود مرادفا لها ، وجناية تغييب التوبة والعفو في الحديث عن الحدود ، وإسقاطها من الحساب في الوعي الاسلامي العام .

ولقد عرضنا في مواضيع عدة من قبل ـ على صفحات « العربي » بوجه أخص ـ لآفاق الشريعة الرحبة ، وتجاوزها اطار الحدود ومفهومها ، ويهمنا هنا أن نعرض لصفحة التوبة المطوية ، ليس باعتبارها عنصرا مهما في تصحيح النظرة للاسلام ولنظامه العقابي فقط ، ولكن باعتبارها أحد مظاهر التميز الفريد للشريعة الاسلامية على غيرها من الشرائع والأنظمة القانونية السائدة . فان قلنا أن التوبة تسقط الحد في المفهوم الاسلامي لم نستطع أن نقول ذلك بالنسبة للقاعدة العامة في القوانين الوضعية لأن توبة الجاني فيها لا تسقط عنه العقوبة .

التوبة تعبير قوي عن حرص الشارع على تقويم العصاة والآثمين ، ورجوعهم الى الحق والصواب ، أكثر من حرصه على تجريم هؤلاء وتوقيع العقوبة عليهم . وهو ما انتبه اليه الباحثون المتخصصون في القانون الجزائي (الجنائي) الاسلامي ، بينما شغل عنه أكثر الدعاة وأصحاب المنابر المختلفة في الساحة الاسلامية ، وتجاهلوه .

وقد تحدثنا في عدد الشهر الماضي من العربي عن

صفحة التيسير ورفع الحرج عن الناس التي يتجاهلها المتشددون والمتعنتون ، أما حديثنا عن التوبة فيمثل خطوة على طريق فض الصفحات المطوية من سجل الفهم المستقيم للشريعة .

حصار الاثم والمعصية

وإن شئنا أن نضع الأمر في إطاره الاسلامي الصحيح فقد نقول إن حصار الاثم والمعصية بكل السبل يمثل احدى ركائز التعاون على البر والتقوى الذي دعت اليه رسالة الاسلام ، وهنا يتعين علينا أن نفرق - في مواجهة الاثم والمعصية - بين أن يكون المرء جانيا ، أو مجنيا عليه ، أو طرفا ثالثا ليس له علاقة مباشرة بالحدث .

هذا الطرف الأخير يدعوه أدب الاسلام وخلقه أن يتخذ موقف « الستر » ، وعدم إشاعة الفاحشة بين الناس ، أما الجاني فباب « التوبة » مفتوح أمامه ، وإذا كان المرء مجنيا عليه فيحثه الاسلام على أن يتحلى « بالعفو » حتى يثاب عليه .

والتوجيهات النبوية التي تحث على « الستر » عديدة ، ففي الحديث من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة ، (وفي رواية ستره الله في الدنيا والآخرة) ، وفي حديث آخر لايستر عبد عبدا في الدنيا الا ستره الله يوم القيامة ، من ستر عورة فكأنما استحيا موءودة في قبرها ، لايرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها إلا أدخله الله الجنة .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن اصطحب أحد المسلمين ليعترف أمامه بارتكاب الزنا : هلا سترته بثوبك .

ويعقب الامام الغزالي في (احياء علوم الدين) على هذه الواقعة قائلا أنها من أعظم الأدلة على طلب الشارع لستر الفواحش ، فإن أفحشها الزنا . وقد نيط بأربعة من العدول يشاهدون (الواقعة) . . وهذا لايتفق ، وإن علمه القاضي بنفسه تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه . . انظر الى كثيف ستر الله ، كيف أسبله على العصاة من خلقه ، بتضييق الطريق في كشفه (الاحياء ج٢ ص١٩٩) .

وللستر ضوابط جرت على السنة الفقهاء ، بينها أن تكون المعصية قد وقعت وانقضت ، وألا يؤدي الستر الى مفسدة أكبر (كما في حالة التستر على الجرائم) ،وان يجري الستر على من لم يعتد المعصية أو يجاهر بها ، غير أن الذي يعنينا من السياق الراهن هو إثبات قيمة الستر وأهميتها في صياغة مجتمع الفضائل الاسلامي ، وربما جاز لنا أن نفصل في ضوابط هذه القيمة ، وضماناتها في حديث لاحق ، لكن لابد ان تلفت النظر الى خطأ المسارعة الى الاعلان عن الفواحش والمنكرات ، مما يهتك الستر ، ويكشف العورات ، ويصادر فرص تقويم الانحراف ، وحصر المعاصي في أضيق نطاق .

اسقاط الحد الشرعي

ثمة جدل بين الفقهاء حول دور التوبة في اسقاط الحد الشرعي ، وإن كان اتفاقهم قائما على أن التوبة تسقط العقوبة في جريمة الحرابة ، استنادا الى النص القرآني (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم . الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم) « المائدة ٣٣و ٣٤ » .

ففي ظل هاتين الآيتين لم يعد هناك شك في قبول توبة المحارب ، وإعفائه من العقاب ، إذا تحققت التوبة قبل القدرة عليه ، أي قبل أن تصل اليه يد سلطات الدولة ، إنما الذي أثار الجدل هو مدى تأثير التوبة في وقف العقوبات المقدرة عن الجرائم الأخرى وعلى الأخص الحدود .

في هذا الأمر اتخذ الفقهاء موقفين على النحو التالي :

* فريق رأى أن التوبة ليست سببا للاعفاء من العقاب في غير جريمة الحرابة ، وإن النص القرآني ورد في شأن جريمة الحرابة ، لا يتعداها الى غيرها من الجرائم ، وهذا رأي الظاهرية والحنفية والمالكية ، وبعض الشافعية والحنابلة . وقد استدل هؤلاء بأن الامر الوارد في القرآن والسنة بتوقيع العقاب جاء عاما ، ولم يستثن من تاب من توقيع العقوبة ، وقالوا أيضا ان الرسول قد أوقع الحد على بعض من جاءوا اليه تائبين معترفين بذنوبهم ، وأضافوا بأن العقوبة هي التي تزجر المجرم عن الجريمة ، وأن القول بمنع العقاب بسبب التوبة يؤدي إلى ابطال العقوبات كلها ، وكل مجرم لا يعجز عن ادعاء التوبة .

وآخر قولهم إن مساواة المحارب بغيره من المجرمين غير عادلة ، لأن المحارب يكون غير مقدور عليه عادة ، وإعفاؤه من العقاب إذا تاب يشجعه على العدول عن موقفه ، وكف شره وفساده عن الناس ، وليس لهذا المعنى وجود في غير المحارب .

* أما الفريق الثاني فيرى أن التوبة سبب للاعفاء من العقوبة في الحدود كلها ، وليس في جريمة الحرابة فقط ، وحجتهم أن النص على جعل توبة المحارب سببا للاعفاء من عقوبة الحرابة يقتضي جعل التوبة سببا للاعفاء من بقية الجرائم ، لأن جريمة الحرابة هي الأشد الأفظع ، فاذا أسقطت التوبة عقوبتها فالأولى أن تؤدي الى اسقاط العقوبة فيما دونها من جرائم .

ويستدلون أيضا بأن القرآن الكريم قد نص على التوبة في عقوبة الزنا - قبل تشريع الحد - كمانع من العقاب ، وذلك في قوله تعالى (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) (النساء آية ١٦) .

ويستدلون كذلك بأن القرآن الكريم قد ذكر حد السارق ، وذكر معه التوبة في قوله تعالى : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فان الله يتوب عليه) (المائدة - آية ٣٩)

التائب والعقوبة

وقد احتج لهذا المذهب الامام الشافعي في كتابه (الأم) ، وأيده في ذلك ابن قيم الجوزية في (اعلام الموقعين) حيث قال ردا على المفرقين بين المحارب وغيره في الاعفاء من العقوبات بالتوبة : « أين في نصوص الشارع هذا التفريق ؟ بل نصه على اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه من باب التنبيه على اعتبار توبة غيره بطريق الأولى » ، ويقول أيضا : والله تعالى جعل الحدود عقوبة لأرباب الجرائم ، ورفع العقوبة عن التائب شرعا وقدرا ، فليس في شرع الله ولاقدره عقوبة تائب البتة ، وفي الصحيحين في حديث أنس قال : كنت مع النبي عليه الصلاة والسلام ، فجاء رجل فقال : يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه علي ، قال : ولم يسأل عنه ، فحضرت الصلاة ، فصلى مع النبي ، فلما قضيت الصلاة ، قام اليه الرجل ، فأعاد قوله ، فقال له النبي : « أليس قد صليت معنا ؟ قال ، نعم ، قال : فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك » ، وفي هذا الصدد أيضا يروى عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله : « التائب من الذنب كمن لاذنب له » .

وفي المقابلة بين الرأيين يرجح الرأي الثاني الذي يؤيده أيضا عدد عديد من فقهائنا المعاصرين ، من أمثال الشيخ محمد الغزالي ، والشيخ محمد مصطفى شلبي والاستاذ عبد القادر عودة . ومما كتبه الدكتور محمد سليم العوا لتعزيز هذا الرأي أن القرآن الكريم احتفى بالتوبة حفاوة ملحوظة ، إذ كرر السياق القرآني النص عليها أكثر من مائة مرة ، حتى لاتكاد تخلو آية فيها ذكر ذنب من ذكر التوبة معه ، والترغيب فيها ، والحض عليها ، وفي ذلك تنبيه لايخفى الى وجوب أن يكون للتوبة في المؤاخذة على الذنوب ، دنيوية كانت هذه المؤاخذة أم أخروية ،

فأما في الآخرة فإن الله يغفر الذنب ولا يعذب عليه (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) (طه - آية٨٢) .

وأما في الدنيا فيمتنع العقاب باعتبار التوبة عذرا معفوّاً منه .

ونحن نضيف الى الأدلة التي أشرنا إليها في اعتبار التوبة سببا كافيا للاعفاء من الحد أو العقوبة أن هذا الموقف يعتبر أكثر اتساقا مع وظيفة الرسالة السماوية التي تعنى بالدرجة الأولى بالهداية والاستقامة والعدول الذاتي عن المعصية .

ويرد الدكتور العوا على الادعاء بأن اقرار مبدأ قبول توبة الجاني أو الآثم يفتح الباب للهرب من العقاب ، لأنه بمقدور كل من ارتكب جريمة أن يدعي التوبة ويقول ، بأن اقرار ذلك المبدأ لايمنع القاضي من وزن التوبة بميزان الواقع ، ولا يحول ذلك دون أن يقدر القاضي طبيعة تلك التوبة ، وأثرها في ضوء ما يثبت لديه من أدلة وقرائن ، فاذا تبين لديه أنها ليست سوى حيلة من جانب الجاني الذي تكرر وقوعه في الجريمة مثلا - فلا تثريب على القاضي إن أهدر التوبة ولم يأخذ بها ، وإن كان يرى - ونحن معه - بأنه خير للقاضي أن يخطىء فيحكم بامتناع العقوبة للتوبة ، حتى لو لم تكن صادقة ، من أن يوقع العقاب مهملا اعتبار التوبة التي قد تكون صادقة ، لأن مآل مدعي التوبة أن يكشف أمره في جريمة أخرى (في أصول النظام الجنائي الاسلامي - ص١٠٩) .

ويشترط لكي تسقط التوبة العقوبة أن تكون الجريمة مما يتعلق بحق الله ، أي أن تكون من الجرائم الماسة بحقوق الجماعة ، كالزنا وشرب الخمر ، وألا تكون مما يمس حق الأفراد ، كالقتل أو الضرب لأن هذه الجرائم يسقطها العفو ، ولا تسقطها التوبة ، كما سنرى ، ويشترط بعض الفقهاء أن تكون التوبة مصحوبة باصلاح العمل ، مما يقتضي مضي مدة يعلم بها صدق التوبة ، ولكن الاتجاه الراجح يكتفي بالتوبة ، ولا يشترط إصلاح العمل (عبد القادر عودة - التشريع الجنائي الاسلامي - ج١ - ص٣٥٣)

التوبة المشروطة

ومما يسجله الدكتور محمد العوا من ملاحظات على فكرة التوبة ما يلي :

- أنها تتيح الفرصة للاقلال من توقيع العقاب في جرائم الحدود ، وتلتقي فكرة التوبة في هذا الخصوص مع فكرة درء الحدود ، أو العقوبات بالشبهات في أثر كل منها على حالات توقيع العقوبة القضائية ، والرغبة الواضحة في الفقه الاسلامي عامة الى التقليل ما أمكن من هذه الحالات .

- أن التوبة كسبب للاعفاء من العقاب ينصرف أثرها الى العقوبة فقط ، دون أن تمنع أوجه المساءلة الأخرى عن فعل الجاني ، خاصة المساءلة المدنية ، المتمثلة في تعويض من أصابه الضرر من الجريمة ، أو في رد ملكه إليه .

- ان التوبة توجب الاعفاء من العقوبة اذا كان الجاني يحاكم لأول مرة ، أما من تكرر وقوع الجريمة منه فان التوبة لاتعتبر عذرا معفيا في حقه ، الا اذا قدر القاضي غير ذلك ، أي أن الاعفاء من العقوبة بسبب التوبة هو إعفاء وجوبي في المرة الأولى ، وجوازي بعد ذلك .

- ان الاعفاء من العقوبة المقدرة في جريمة الحرابة بنص القرآن الكريم ، يماثله ما تقررة النظم الجنائية الحديثة من الاعفاء من العقوبة المقررة بالنسبة للمتهمين في جرائم أمن الدولة ، وهو ما تقررة مواد قانون العقوبات في كل من مصر والسودان ، لكن الفارق الأساسي بين التوبة المقررة في النص القرآني - بالنسبة للحرابة - ونصوص القانونين المصري والسوداني هو أن التوبة في النص القرآني مطلقة ، وليست معلقة على شرط ، بينما هي في هذين القانونين مشروطة بأن تؤدي الى ضبط جناة آخرين أو كشف جرائم أخرى .

ويضيف أستاذنا المستشار عبد الحليم الجندي في بحث له حول الشبهات المثارة حول تطبيق الشريعة في العصر الحديث ، أن نظام العقوبات الأوروبي الذي اقتبست منه دولنا أكثر مواده ـ فضلا عن فلسفته ـ لايوفر أي تشجيع للمذنب لكي يتوب عن فعله ولا يعود اليه ، وأن الفلسفة العقابية الوضعية بموقفها ذاك ـ ولأسباب أخرى ـ لم تنجح في الحد من ارتكاب الجرائم ، ومنذ دخل هذا النظام الى مصر ـ في الثلث الأخير من القرن الماضي ـ والجرائم بازدياد . وفي هذا أيضا يقول الدكتور شفيق شحاته ـ من أساطين القانون في مصر ـ « ان القانون الجنائي المصري ـ الأوروبي الأصل ـ استحدث عقوبات واجراءات للتحقيق ، غريبة عن البلاد ، مما أسفر ـ في بادىء الأمر ـ عن قدر من الاضطراب عند التطبيق ، وقد ازدادت الجرائم بعد صدوره زيادة لفتت الانظار ، وهذا مما دعا الى تشكيل لجنة لبحث الأمر في سنة ١٨٨٤ » .

قيمة جديدة

يعد « العفو » قيمة جديدة تماما ، زرعها الاسلام في مجتمع الجزيرة العربية الذي كان الثأر والقصاص من ركائز قيمه السائدة ، اذ جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (الشورى ـ ٤٠) وروى عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله : « مازاد عبد بعفو إلا عزا » ، ونقل أبي هريرة قوله : ما رفع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصاص إلا طلب العفو .

والعفو جائز في جرائم الاعتداء على الأشخاص بالقتل أو الجرح أو الضرب ، وهي الجرائم التي اصطلح الفقهاء المسلمون على تسميتها بجرائم القصاص والدية ، وهذا العفو مقرر لصاحب الحق المعتدى عليه ، سواء كان هو المجني عليه في جرائم الجرح والضرب ، أو ورثته أو أولياؤه في جرائم القتل .

والعفو من الناحية الشرعية جائز في القصاص ، وجائز أيضا في الدية ، لكن يظل أثر العفو في كل الحالات محدودا بالعقوبة ، وليس ساريا في شأن الجريمة ،

فللشخص أن يعفو عن توقيع العقوبة ، وللسلطة أن تعاقب الجاني تعزيرا ، اذا رأت أن للجماعة حقا قد تعرض للاعتداء في الجريمة يجب اقتضاؤه .

لقد أسهم غرس قيمة العفو في التربة الاسلامية المبكر في تقليص دور الثأر الذي يترتب عليه توسيع نطاق الجريمة واستمرارها ، فضلا عن أن إعلاء شأن العفو في التوجيهات القرآنية والنبوية كان بمثابة دعوة مستمرة الى ترجيح كفة المودة والتراحم ، وكبت نوازع الانتقام والشر .

إن أي حديث عن الحدود أو النظام العقابي الاسلامي يظل منقوصا ما لم يتواز معه تبيان أهمية التوبة والعفو والستر أو يسبقه ، وتجاهل تلك الصفحة على النحو الحادث للانسان يمثل ظلما فادحا للشريعة ، وجورا على عدالة الله ورحمته ، يجب تصحيحه وانكار استمراره . □

■ إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد

(أبو بكر الصديق رضي الله عنه)

■ القلم بريد القلب ، يخبر بالخبر ، وينظر بلا نظر (ابن المقفع)

في الأسواق

كتاب العربي

السادس عشر

دراسات حول

الطب الوقائي

بقلم مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي



الريف المغربي

أسطورة الإنسان .. عبر الزمان والمكان

استطلاع : سليمان مظهر
تصوير : سليمان حيدر

« الريف » كما يعرفه الناس .. قرية وحقل وزرع ومياه .. اما « الريف » كما رأيناه فشيء آخر غير كل ذلك .. جبال وهضاب وسفوح وغابات .. قمم تتوجها ثلوج بيضاء .. وأرض تغطيها صخور جرداء .. وبين كل هذه المتناقضات تجري أسطورة الانسان .. عبر الزمان والمكان ..



انطلقنا هذه المرة الى شمال المغرب . . كنا قد قررنا أن نخترق سلسلة جبال الريف المغربي بالطول وبالعرض . . نعيش مع الذين صنعوا أسطورة الحياة . . ونخوض بين ثنايا المرتفعات والهضاب والسهول والوديان . . ونغوص في أعماق الغابات والأحراش . . فوق القمم وعلى السفوح . . ونطل على أرض المعركة التي شهدت مصارع الغزاة بأيدي المجاهدين الابطال .

كان انطلاقنا من جامع القرويين قلب مدينة فاس . . نلنا البركة . . وروينا من ماء سيدي حرازم . . وبدأنا المسير . . !

في قلب الريف

كانت السيارة تواصل الصعود بنا في الطرق الجبلية وهي تتلوى كالثعابين ، ونحن نخترق جبال الريف . كنا قد تحركنا في طريقنا إلى « تازة » عند أقدام الريف ، لندخل إقليم الحسيمة ، ونبدأ اختراقنا بالعرض لسلسلة الجبال متجهين الى مدينة الحسيمة عاصمة الريف على شاطيء المتوسط . ونتطلق صاعدين ومنحدرين بين الجبال والهضاب والسهول والوديان التي كانت تشكل كلها حصن المغرب الشمالي ضد الغزاة عبر التاريخ .

مشاهد الطبيعة من حولنا مثيرة خلابة . ونهر الملوية الذي يخترق جبال الريف يجري برفقتنا ، يشق طريقه صانعا بحيرات في بعض سهول مجراه ، متيحا الفرصة للسيارات في بعض الأماكن الضحلة أن تمر مخترقة المجرى وسط مياهه الجارية . ويضرب رذاذ المياه جوانب السيارة ، ونحس برودتها وهي تتدفق من منابعها في أعالي جبال الأطلس لتصب في البحر المتوسط بين مليلية والناضور غربي الحدود المغربية الجزائرية . ونجد أنفسنا وقد أطلت علينا غابات السنديان والفلين والصنوبر والأرز من فوق القمم ، بينما تنتشر أمامنا على السفوح وفي المنخفضات أشجار اللوز والبرتقال وحقول الحبوب والخضر والقطاني والكلأ . ونشهد طوابير المزارعين يعملون في المزارع التي يشكل إنتاجها موردا أساسيا لحوالي ٧٠٪ من السكان ، وتغطي مساحة تصل الى ١٢٣ الف هكتار ، تعادل ٣٥٪ من المساحة الكلية لاقليم الحسيمة ، اكبر اقاليم الريف الذي يحتل مكانة بارزة في نشاط السكان .

الطريق يتصاعد باستمرار . والمرتفعات على شكل أمواج تتخللها بين الحين والآخر قمم واستدارات ثم سهول ووديان هي في الحقيقة أعلى من سطح البحر بمئات الأمتار . فجبال الكتلة الشرقية من الريف تتصاعد قممها حتى يبلغ بعضها ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر ، بينما تغطي سفوحها الغابات والشلالات والانهار والتلال الخضر والسهول المزهرة ، مما يجعل للمنطقة أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية ، خاصة مع توافر المياه التي تغذي أهم الأودية في (واد نكرر) و (واد عيس) و (واد بوفراح) و (واد مسطاسا) .

يقول مرافقنا الاعلامي ادريس عثمان الادريسي ونحن على الطريق : اسم « الريف » بالمعنى الجغرافي الضيق ، يطلق على القسم الشمالي من المملكة المغربية ، وهي المنطقة المحصورة التي تضم جزءا من ساحل البحر الابيض بين مضيق جبل طارق والحدود الجزائرية ، كما تطل في غربها على سواحل المحيط الاطلسي بين طنجة وجنوب العرائش ، ويفصلها عرضا عن جبال الأطلس الأوسط وادي غمارة شمال وجدة وتازة ووزان . وقد أطلق الجغرافيون العرب مثل ابن خلدون والحسن الوزان على هذه المنطقة اسم الريف . . وهي منطقة تبلغ مساحتها حوالي ٢٢ الف كيلومتر مربع وطولها حوالي ٣٢٠ كم ومعدل عرضها ٧٠ كم تتراوح بين ١٢٥ كم في الطرف الغربي و ٢٥ كم في الطرف الشرقي وحوالي ٧٥ كم في المناطق الوسطى . أما الكتلة الغربية فتقتصر على هضاب عالية وسهول وأودية ، وتطل على الساحل الافريقي الشمالي الغربي على المحيط الاطلسي وتعرف « بالجبالة » .



ـ خريطة الريف . . . في الشمال المغربي . . . على طول ساحل البحر الابيض المتوسط

قبائل الريف

أهالي الريف كله يتجاوز عددهم المليوني نسمة أغلبهم من المزارعين ومربي الماشية . . هم متشبثون بأرضهم ولو كانت قطعة صغيرة ضئيلة ، ويمارسون الفلاحة بمختلف أنواعها بما يتكيف مع حاجيات الاقتصاد المحلي . ولكن الناتج الزراعي لايغطي حاجة السكان لأن الأرض ليست خصبة بشكل جيد . ولاشك أن الانقسام الطبيعي في المنطقة يجعل هناك تفرقة في أعمال السكان تبعا لكل جبل وتل ، أوسهل وواد ، أو سفح ومنحدر . . ويؤدي ذلك بالتالي إلى اختلاف في طبيعة السكان .

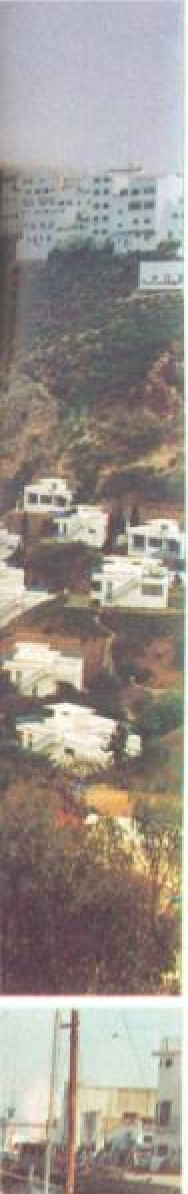
وما لفت نظرنا في لقاءاتنا بالجبليين أنهم ذوو عيون زرقاء ، بيض الوجوه ، مع شعر يميل إلى الشقرة ، كما أنهم أصحاب ذكاء ورقة ، وقد اشتغلوا خلال مختلف مراحل التاريخ بالزراعة والصيد ، ويعتبرون جنودا لا مثيل لهم ، لا يقبلون سلطة من غير من اختاروه ليمثلهم أمام نواب السلطة المركزية .

هكذا لقيناهم في مختلف المدن التي مررنا بها . . في تايسنت واكنول ثم تاركيست . . وهناك في تاوريرت ، القرية التي كان العمال يخرجون عن طريقها الى المرسى الكبير بالجزائر ، من أجل البحث عن عمل ، إذ كانت بمثابة باب الخروج من الريف والدخول اليه . . ومن تاويرت نعود الى « أنوال » لنأخذ طريقنا الى قرية أجدير ومدينة الحسيمة . ونقف عند « أنوال » . . . .

هنا . . على هذه الساحة ، دارت معركة « أنوال » ، قمة معارك الريف المغربي . وابتلعت الرمال دماء حوالي عشرين ألف جندي أسباني انتحر قائدهم العام بعد أن سحق كل جيشه على أيدي ثوار الريف . . . الذين انقضوا على الغزاة الاسبان . . بقيادة زعيمهم وقائدهم الاسطورة . . محمد عبدالكريم الخطابي . . . .

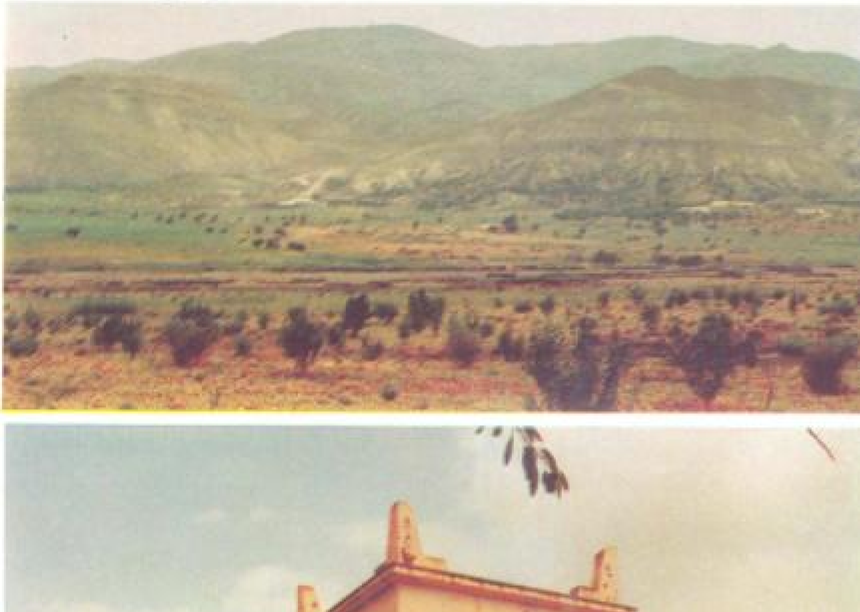
أرسلنا البصر الى ساحة المعركة حيث أشار مرافقنا . واد أخضر واسع تغطيه زراعات القمح والشعير ، وتحيط به من جميع الجوانب دائرة جبال الريف ، بقممها العالية ، التي لايبدو على سفوحها أي أثر للحياة . .

وراء هذه القمم والسفوح كان يختفي ذات يوم خمسة آلاف من المجاهدين الريفيين ، ليس بأيديهم سوى البنادق ، بينما ينتشر في قلب الوادي معسكر كبير يضم حوالي عشرين ألفا من العسكر الاسبان ، يحتمون وراء مائة وخمسين مدفعا وخمسة وعشرين ألفا من البنادق وعشرة ملايين من طلقات الرصاص ، ومئات من مركبات النقل وأدوات المواصلات وصناديق الذخيرة . .





ـ قصة البطولات الريفية كما يتذاكرها المجاهدون القدامى .. انهم لاينسون أبدا يوم « انوال » حيث دارت المعركة في الساحة (الصورة الوسطى) ليسجل التاريخ يوما من أيام العرب المجيدة .. ومن مقر قيادة الخطابي (الصورة السفلى) انطلقت اسطورة الانسان الذي صنع تاريخ الريف .











ـ شاطيء مدينة الحسيمة حيث تمتد المتجعات السياحية عند اجمل بقعة في خليجها . .
(الصورة العليا)
وغير بعيد منه يقوم الميناء . . وعلى رصيفه أحد الصيادين يصلح شباك الصيد (الى اليمين) .

وفي الواحد والعشرين من يوليو ١٩٢١ قرر قائد الريف ـ بعد أن تلقى إنذارا من القائد الاسباني ـ أن يقوم بهجوم مركز على القيادة العامة للجنرال سلفستر . وقطع عبدالكريم خطوط التموين الاسبانية بعد أن احتل المراكز الاستراتيجية المحيطة بأنوال . وأخذ المجاهدون بأمر من زعيمهم يوجهون مجاري مياه الجبال نحو المنطقة التي تحيط بالقيادة العامة . . وأرغمت الأوحال الجنرال على التمركز داخل الوادي واتخاذ قرار باستدعاء جميع قواته للخروج من المأزق .

وبدأت المعركة : . وخلد عبدالكريم وأبطاله في سجل التاريخ يوما من أيام العرب المجيدة . . هو يوم « انوال » .

ففي تلك المعركة التي ظلت مشتعلةالأوار ثلاثة أيام كاملة ، فتكت حفنة من رجال المغرب الابطال بعشرين ألف أسباني مسلحين ، فلم يفلت منهم غير عشرات ألقوا السلاح وطلبوا النجاة . ولكنهم أرغموا على التسليم وأرسلوا الى معسكرات الأسرى في الجبال بعد انتحار القائد العام . .

ولكن الأهم من كل ذلك هو استيلاء المجاهدين على كل المدافع والاسلحة والمركبات والذخيرة التي تركها المنهزمون ، وأصبحت هي عماد السلاح الذي حاربوا به الاسبان طوال خمس سنوات تحت قيادة محمد عبدالكريم الخطابي الذي لقبته دول الغرب بعد هذه المعركة « بنابليون الريف » .

في مقر القيادة الريفية

كل ذلك تتبعناه ونحن نعاود الانحدار من أعالي الجبال لنهبط الى المنطقة الساحلية .

وندخل قرية أجدير . . ونستمع . .

« أنتم أول صحفيين عرب . . بل وأجانب . . يحضرون لزيارة مقر قيادة عبدالكريم الخطابي في أجدير . . رغم أن هذا المقر لعب دورا خطيرا في ثورة الريف » . .

هكذا قال لنا رئيس دائرة أجدير أحبيب بريكي

ونحن نقف أمام مبنى القيادة العامة التي شهدت تطورات معارك الريف طوال خمس سنوات . المبنى يقع في منطقة أملاك قبيلة بني ورياغل التي كان يتزعمها عبدالكريم الخطابي ، وهو عبارة عن بيت كبير أبيض اللون من طابقين طوله خمسة وسبعون مترا وعرضه عشرة أمتار ، ويضم القاعة الوسطى وقاعتين أخريين على كل من الجانبين ، ويطل المدخل الخلفي على ساحة في نهايتها دار عبدالكريم وأسرته . . أما المدخل الأمامي فتمتد منه ردهة طولية . . ذات أعمدة شبه رومانية على الجانبين ، وتنحدر بدرجات مبلطة الى حوالي مائة متر . . وتقوم بجوار المدخل الخلفي درجات توصل الى سطح المبنى . ومن فوق هذا السطح كانت قيادة المجاهدين تطل على جزيرة الحسيمة المواجهة على مسافة قليلة من الساحل ، وتراقب تحركات الغزاة الاسبان بسفنهم وهم يوجهون نيران مدافعهم الى تجمعات المجاهدين ومركز قيادتهم . ولكن هذه المدافع عجزت عن تدمير المقر إذ كانت تواجه باستمرار بطلقات أشد من المدفعية الريفية التي كان يطلقها المجاهدون الرابضون فوق مخبأ أقاموه تحت الأرض يتخذونه مسجدا لصلاتهم ومركزا للهجوم على الاسبان ، وهو مازال حتى الآن قائما عند مدخل نادي البحر الأبيض للسياحة .

مقر القيادة كما شهدناه يكاد يكون قائماً حتى الآن ، لم يتهدم منه سوى أجزاء من جدرانه الداخلية ، بحيث لايحتاج لغير قليل من الاهتمام لاعادة ترميمه وجعله مزارا تاريخيا وسياحيا يؤمه السياح الاوروبيون والعرب ، حتى يدركوا قيمة هذه الثورة الرائعة التى خاضها الريفيون ضد الغزاة . وقد استفسرنا من رئيس دائرة أجدير عن سر إهمال ذلك المبنى التاريخي . . فكانت اجابته أن الاسبان عند انسحابهم من المنطقة بعدالاستقلال ، تركوه لأبناء قبيلة بني ورياغل ، الذين رفضوا تسليمه الى السلطات المحلية باعتباره من أملاك

القبيلة .. ولكنهم تركوه على حاله ، فلاهم اعتنوا به ، ولاهم سمحوا للسلطات بتحويله الى مزار تاريخي يمثل مرحلة طويلة من الجهاد الذي خاضه أبناء الريف المغربي .

منتجع الحسيمة

... ونصل إلى مدينة الحسيمة .. عاصمة الريف .. ونلتقي بعامل الاقليم (المحافظ) السيد البخاري محمد ونعرف منه الكثير .

عن اسم الحسيمة .. فهو من كلمة « الخزامة » وهو نبات كان منتشرا في ضواحي جزيرة النكور التي يحتلها الاسبان منذ ١٦٧٣ ، يستعمل في علاج أمراض الجهاز التنفسي وتساقط الشعر ، وحرف الاسبان الاسم الى « اللوتيماس » ثم الحسيمة في أوائل استقلال المغرب . أما المدينة فهي حديثة العهد لم تنشأ إلا في بداية القرن العشرين ، أي في ١٩٢٤ .

وقد احتلت الحسيمة في الستينيات وأواخر السبعينيات مكانة ممتازة ومركزا مهما في الميدان السياحي باعتبارها قطبا سياحيا قائما بذاته . وتم اختيارها من ضمن خمس مناطق كان لها أولوية الاعداد لمؤهلاتها التي تشكل مساحة سياحية متكاملة من مناظر طبيعية خلابة الى غابات كثيفة هي مقصد السياح الذين يفدون عليها من كل أصقاع العالم ، قاصدين الراحة والمتعة والاستجمام على أجمل الشواطيء المغربية ، وأبرزها شاطيء خليج المدينة وشاطيء المنظر الجميل وشاطيء قزح بمنطقة بني بوفراح ويعتبر من أجمل الشواطيء على ساحل البحر المتوسط .. كما أن سياحة الجبل لاتقل في أهميتها عن الشواطيء ، وهي تتمثل في روعة جباله وخاصة بمنطقة كتامة التي تحتفظ تحت ظلالها بتاريخ أكثر من قرنين من الزمان .. كما أن الجبال الشاهقة تمكن من التزلج على صفحات الجليد .

ونقف على شرفة فندق محمد الخامس المطل على خليج الحسيمة .. مشهد رائع لشاطيء سياحي تحيط به ثلاثة حوائط صخرية تزيد المشهد روعة ، بينما تبرز صخرة ناتئة في وسط المياه اللازوردية برمالها الناعمة الصافية حيث تمتد على طول الشاطيء منتجعات سياحية بعضها من المباني البيضاء والبعض الاخر من « البانجالو » تزيد المنظر جمالا وبهاء ..

وفوق سفح الجبل تتناثر البيوت ذات اللون الابيض وهي تطل على الشاطيء . ويزداد بهاء المشهد حين يأتي الليل وتتناثر الاضواء على سفوح التلال كأنها النجوم على صفحة السماء .

أما الشاطيء المواجه لجزيرة الحسيمة المحتلة فتقوم فيه قرية « نادي البحر الابيض المتوسط » على مساحة مغروسة بالاشجار والنخيل تمتد على مساحة ٩٠ هكتارا وتضم مجموعات من الاكشاك السياحية تصل طاقتها الايوائية الى أكثر من ١٤٠٠ سرير ..

بالاضافة الى كل ذلك توجد شواطيء أخرى رائعة على طول سواحل الاقليم وإن كانت غير مجهزة . ولا يمكن الوصول اليها الا عن طريق البحر . ولكنها كلها تبشر بمستقبل سياحي لو اتيحت لها فرصة الاستثمار .

تطوان .. والكنز المدفون

عندما عدنا لاستكمال جولتنا والانطلاق على طول جبال الريف من الغرب الى الشرق ، بعد أن اخترقناها عرضا من الجنوب الى الشمال ، كان علينا أن نذهب الى تطوان على مسافة حوالي ستين كيلومترا شرقي طنجة ..

ونسمع قصة رواها المؤرخون عن بدايات تطوان ..

فبعد انهيار حكم البطالمة في مصر بانتحار آخر ملوكها كليوباترا ، نقل أبناء الملكة وأفراد أسرتها الى روما في رعاية الامبراطور أوغسطس قيصر . وكان لكليوباترا ابنة من انطونيوس عرفت باسم « كليوباترا سيلانه » زفت الى « جوبا » الثاني ملك « موريطانيا » وهو الأسم الذي كان يطلق على كل الاراضي المغربية بالشمال الافريقي . فلما توفي جوبا

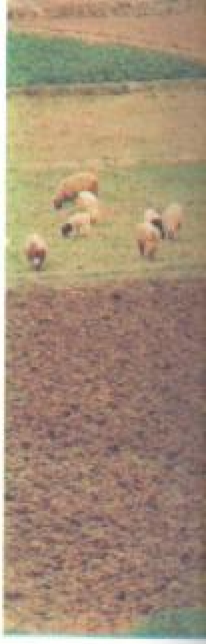






ـ تطوان .. آخر الرموز الاندلسية بعد أن أرغم عرب قرطبة على الرحيل بعيدا عن الجنة المفقودة .. كل المباني تعيد الى الأذهان صورة العمارة الاسلامية الاندلسية .. بينما بنات الريف وشبابه يبدون في أزيائهم التقليدية وهم يواصلون الحياة بين الريف والحضر لمواصلة المسيرة من اجل غد مشرق جديد .





عام ١٨ بعد الميلاد خلفه على العرش ابنه بطليموس حفيد كليوباترا من ابنتها سيلانه . وحافظ بطليموس على صداقته بالرومانيين الذين أقروه على ملكه . وفي عام ٢٧ ميلادية جاء على عرش قياصرة الرومان الامبراطور « كاليجولا » السفاح الذي كان قد بلغه أن في حوزة ملك موريطانيا اكداسا من الذهب والفضة والحلي والجواهر هي ما تبقى من كنوز البطالمة التي نقلت من الاسكندرية يوم رحلت عنها الاسرة المالكة . ورسم الامبراطور خطته للاستيلاء على الكنز الذي بلغه أن الملكة المغربية « أورانيا » زوجة بطليموس تخفيه ، .. وإذ عجز الامبراطور عن معرفة سر الكنز أرسل يطلب من بطليموس أن يهديه وصيفة الملكة لتكون في خدمته ، لعله يستطيع من خلالها معرفة المخبأ الذي لم يشك أنها كانت تعرفه . ولكن الوصيفة التي أراد الامبراطور أن تكون جاسوسة له على مولاتها أصبحت جاسوسة لها عليه .. وحين أرسل الامبراطور يدعو الملك بطليموس للنزول في ضيافته بروما أرسلت الفتاة الى الملكة « أورانيا » تحذرها من تلبية الملك للدعوة ، لأن الامبراطور قد بيت له الغدر . ولم يهتم بطليموس بالتحذير وانطلق ملبيا دعوة كاليجولا .

وفي غمرة مأدبة زاخرة أقامها الامبراطور شعر الملك بطليموس بيد تمسك بكتفه ، وسمع صوت وصيفة زوجته تقول له همسا « اهرب يامولاي قبل فوات الأوان .. فالامبراطور قد عزم على ألا يدعك تخرج من هذا المكان حيا » . ولكن بطليموس الذي كان قد سكر حتى الثمالة رفع رأسه ووقف مترنحا وهو يقهقه مخاطبا كاليجولا : « أسامع أنت ماتقوله هذه الفتاة المجنونة .. ؟ إنها تدعي أنك عازم على قتلي .. وهي تستحق الموت جزاء افترائها على مولاها القيصر .. » .

ووثب كاليجولا من مكانه وأشار الى الفتاة فأطبق عليها الحراس وأخذوا أنفاسها ، واتجه الامبراطور مخاطبا بطليموس : « صدقت يا صاحبي .. إنها تستحق الموت حقا .. ولكنها كانت صادقة أيضا فيما قالته لك أيها الملك » .

وبإشارة من الامبراطور أطبق الحراس على بطليموس الملك ومزقوا جسده بالخناجر والسيوف ، ثم أصدر أوامره بأن تكون موريطانيا ونوميديا ولاية رومانية . وحين سمعت الملكة أورانيا نبأ الكارثة فرت من عاصمتها الى الجبال القريبة واعتصمت بها . وعبثا حاول رسل كاليجولا العثور على الملكة أو المخبأ الذي أخفت فيه الكنوز ، ولم يستطع أحد حتى بعد أن قتل كاليجولا بأيدي أعوانه في عام ٤١ ميلادية معرفة مكان اختفاء أورانيا وكنوزها .. فقد كانت قد ماتت دون أن تطلع أحدا على سرها ، كما لم يتكلم أحد من الذين لازموها في الرحلة الأخيرة من حياتها في الجبال الشاهقة المشرفة على « قلعة تاماكا » .

وليست « تاماكا » .. غير تطوان الحالية .. المدينة التي قامت على أنقاض القلعة الموريطانية التي ضمت في أعماقها رفات الملكة أورانيا ، وكل ما كانت تخفيه من أكداس الذهب والحلي والجواهر التي دفنت معها ..

غرناطة الجديدة ..

تلك إذن كانت بداية تطوان ..

والى هذه المدينة القابعة عند أقدام سلسلة جبال الريف من الغرب ، كانت وجهتنا لنبدأ منها مسيرتنا ، تماما كما فعلها المسلمون الهاربون من الاندلس أمام الزحف المسيحي ، حين جاءوا ليبدأوا حياة جديدة لم يستطيعوا أن ينسوا خلالها ذكر حياتهم في الجنة المفقودة .

الصورة بدت لنا أكثر وضوحا حين دعينا الى بيت مؤرخ تطوان المرحوم محمد داود .. ودارت بنا في مكتبته الخاصة الزاخرة بالكتب والصحف والمجلات والوثائق والمخطوطات الباحثة المغربية حسناء داود ابنة المؤرخ الذي يذكره الجميع ويحفظون كتاباته ويعرفون من خلالها تاريخ مدينتهم ..

ونسمع من محدثتنا الكثير ....

فعندما أرغم الاندلسيون على مغادرة جنتهم .. تفرقوا بين المشرق والمغرب .. واتجهت جماعة من جيش المتطوعين قوامها لايزيد على ٤٠٠ رجل يقودهم بطل هو القائد أبو الحسن علي المنظري .. فاستقرت فوق « جبل درسا » على بعد ١٠ كم من ساحل البحر وحوالي ستين كيلومترا من طنجة .. وأعاد المنظري بناء مدينة تطوان مع بدايات عام ١٤٩٢ بعد أن وجدها بموقعها المتميز خير مكان حصين في منعطف الجبل ، مما يسهل للمهاجرين الدفاع عنها وحماية أنفسهم من غارات الآخرين ..

في هذا المكان كانت بقايا تطوان القديمة التي كان قد أنشأها أبو ثابت المريني عام ١٣٠٨ م لتكون معسكرا لجنده قبل أن يدمرها ملك قشتالة الاسباني هنري كاستل عام ١٣٩٩ بعد أن ذبح نصف سكانها وساق أمامه النصف الآخر أسرى . والى هذه المدينة المخربة المهجورة تتابع وصول الاندلسيين وخاصة من أهل غرناطة آخر ممالك الاندلس .. جاءوا ومعهم علومهم ومهاراتهم القيمة الرقيقة ومظاهر حضاراتهم الباذخة وموسيقاهم الاندلسية وتقاليدهم واخلاقياتهم الكريمة .. وقامت تطوان الجديدة على ايدي هؤلاء المهاجرين الذين شيدوا مبانيها وأسوارها وحصنها على نفس الطراز الاندلسي ليعيد تذكيرهم باستمرار بوطنهم الام ..

وتواصلت مظاهر الحياة في تطوان يختلط قديمها بجديدها ، وتتمازج شخصيتها الاندلسية بما تلاحق عليها من أساليب العمارة ومظاهر الطابع الحديث ، لتصبح أحد أهم المراكز التجارية على البحر الابيض ، وعلى طول مصب نهر مارتل . وفي ظل هذه التغيرات المتلاحقة تمتعت تطوان بمركز حضاري له أهميته الكبيرة في عهد مولاي اسماعيل مع أوائل القرن الثامن عشر .

ومع الاحتلال الاسباني لشمال المغرب بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٥٦ اتخذ الغزاة تطوان عاصمة لمنطقة حمايتهم .. واصبح بها مقر خليفة السلطان الذي يختاره سلطان المغرب من بين مرشحين تقدمهما أسبانيا ليتولى شئون الحكم تحت الاشراف الاسباني على المنطقة الخليفية ، وهي المنطقة الشمالية من المغرب .. !

وفي بداية عهد الاستقلال عام ١٩٥٦ استردت المدينة عافيتها ، وإن خسرت مركزها كعاصمة للمنطقة الشمالية ، ولكنها استعادت حريتها . وخلال تلك الفترة طرأ عامل جديد تمثل في نزوح عشرات الآلاف من أبناء الريف استقروا بها مهددين بتغيير عاداتها وأسلوبها في الحياة وأصالتها وعراقتها بالضياع . وكل ذلك بعض الضريبة التي دفعتها تطوان عن طيب خاطر من أجل وحدة التراب المغربي . وقبلت طوعا خروج رءوس الاموال التي تسربت مع الاوروبيين والاسبان واليهود الذين غادروها مع خروج الغزاة ليحل محلهم النازحون الجدد الذين اشتروا المتاجر الخالية ، وأسسوا صناعات جديدة ذات طابع محلي ، هو ما تعتمد عليه الآن تطوان وسكانها .

ونطوف بتطوان الحديثة بعد جولة في أسواقها وحول أسوارها وحصنها العتيق ..

المدينة تقوم في عرض الجبل الشمالي فوق الوادي الذي يجري فيه نهر مارتل . وهي تنقسم الى قسمين .. الجنوبي ، والشمالي الشرقي ، وكان يحميها ويشرف عليها حصن قديم على رأس جبل درسا .

ونطل على المدينة من فوق الجبل .. فتبدو لنا الجبال الجنوبية وفيها جبل جرجس ووراءه عند الافق جبل بوزيتون ، يرتفع الاول الى ٨٠٠ متر والثاني الى ١٢٠٠ متر .

في سفح جبل جرجس الاخضر تتناثر بضع قرى يسمونها « مشاور » منها بوسملان وبنو صالح وسافارين ، تتخللها بيوت بيضاء تطل من بين البساتين ، بينما ينساب بين الجبلين وادي مارتل ، حيث يجري بين سهول مزروعة وبساتين من التين

واللوز والزيتون تمتد حتى المستنقعات القريبة من البحر ، ومن مصب النهر عند البلدة المشاركة له في الاسم ، والتي كانت تضم ميناء تطوان .

أما في الجبال الجنوبية فتتباين مشاهد البساتين المحيطة بالبيوت والمروج المنبسطة الممتدة الى الوادي ، ثم الصخور المزينة صدورها بالخضرة المزهرة ، وبالرؤوس المسننة فوق الاعالي الجرداء .. وغير بعيد منها يقوم متنزه وطريق يشرف على المنطقة التي تزيد روعة جمالها وقت الغروب .

في قلب القصبة

وندور في شوارع القصبة .. المدينة القديمة . والقصبة في نظام تخطيط المدن الاسلامية هي المدينة المسورة التى تنشأ عادة على مرتفع ينشئون فيه حصنا للمراقبة والحماية ، فإذا اقتحم العدو الاسوار لجأ اهل القصبة الى الحصن واستمر الجند في الدفاع .

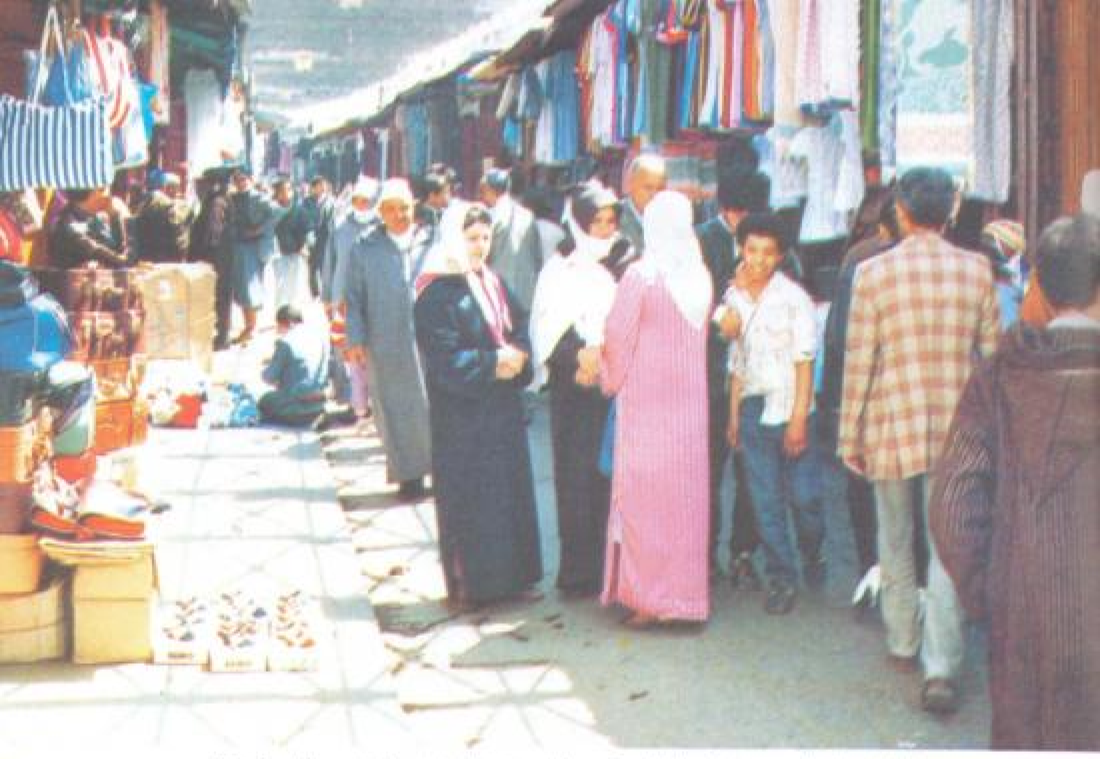
الماضى في قصبة تطوان ما يزال حيا يرزق .. نلمسه في الأسواق والأزقة المتعرجة التى يسمونها « الزنقات » .. وهى سكك ضيقة متقاطعة تقف عند جدار وتنفذ تحت جدار ، تتسع وتضيق ولكنها غاية في النظافة ، فلا أوساخ ولا فضلات أمام البيوت ذات الجدران البيضاء المتلاصقة والابواب القصيرة ذات الاقواس والزخارف ، بينما مداخل الاسواق تحمل نفس الطابع الاندلسى القديم الذى يذكر بأمجاد غرناطة الجميلة المجاهدة .

الشوارع في القسم الحديث من المدينة مخططة بتصميم هندسى وذات اتجاهات واضحة وارصفة مفروشة كلها بالاسمنت وبعضها بالاسفلت ، وتمتاز بوجود الساحات والحدائق العامة وأبرزها حديقة العشاق التى تحول اسمها الان الى حديقة مولاى رشيد ، أبرز الساحات ساحة مولاى المهدى يتوسطها بستان مزهر .. ومن هذه الساحة تتشعب ستة اسواق تمتد منها غربا وشرقا وجنوبا وشمالا وما بينها . أما المبانى حولها فحديثة البناء والهندسة ذات طبقات متعددة للسكن وبينها مبنى الاذاعة



ـ السوق في الريف هو صلة الخير بين القرية والمدينة .. ومع كل صباح جديد ينطلق الجبليون الى سوق تطوان يبيعون ويشترون ويشربون من بائع المياه .. وتمتلىء الساحات بالصناعات التقليدية التي يعتز بها اهل الحضر .





ـ الزنقات والزواريب . . ابرز معالم القصبة . . المتاجر على الجانبين تبيع كل شيء والناس في مختلف ازيائهم الوطنية يزحمون السوق المغطى . . تماما كما كان الاجداد يفعلون . .

والتلفـزة . . وكليتا الآداب الاسـلامية والعلوم والمدرسة العليا للمعلمين .

على أن من أبرز المعالم التى زرناها في تطوان مدرسة الصنايع والفنون الوطنية ، الواقعة قرب باب العقلة ، أحد الابواب السبعة لسور المدينة القديمة . . القاعة الرئيسية تضم معرضا لمختلف الفنون والاعمال والصناعات التقليدية التى تعبر عن حس مرهف ومواهب مبدعة وفن استمد منابعه من الفنون الاندلسية ، أما فصول المدرسة فعبارة عن قاعات عملية يضم كل منها مجموعة من الطلاب الذين يدرسون مختلف المهن والصناعات التقليدية ، ويقومون بتصنيعها بأنامل دقيقة في مختلف أقسام التجليد والتذهيب وزخرفة خشب الأرز المغربي والتلوين . أما في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة فيؤهل الطلبة للالتحاق بعد تخرجهم بكليات الفنون العالمية . ولعل من أبرز الدراسات الفنية ما تتدرب عليه فتيات تطوان في مدرسة المهن الفنية حيث يدرسن العزف على الكمان والقانون والعود وغناء الموشحات الاندلسية . وفي تطوان جوق اندلسى نسائى هو الوحيد من نوعه في المغرب .

تضم تطوان متحفين مهمين . أولهما : متحف البحوث الاثرية القديمة حيث تعرض قطع أثرية رومانية وأوانٍ فخارية أندلسية واغريقية ومجموعات رائعة من المجوهرات والنقود الاثرية وقطع من الفسيفساء عثر عليها في لكسوس *. أما ثانى المتحفين فمخصص للفنون والفولكلور . . ولكن أبرز المشاهد الأثرية في تطوان هو دار المخزن ، أو القصر الملكى ، إنه آية من آيات الهندسة الاندلسية الحديثة ، مزخرف بأروع صناعات الفسيفساء التطوانية . أرضه وجدرانه كلها مغطاة بالفسيفساء ، وسقفه مغطى بخشب الأرز المزخرف ، وعند مدخله نافورة تطلق المياه المندفعة من العيون التى في الجبال عبر شبكة أنابيب قديمة . . هذا القصر شيده القائد أحمد الذى تولى الحكم بعد مولاى اسماعيل ، ثم

تجددت عمارته في اوائل القرن الحالي . . .

الطريق الى شفشاون

وننطلق على الطريق الى شفشاون مخترقين جبال الريف في جناحها الغربي بطول سلاسلها .

طوال انطلاق السيارة على الطرق الجبلية نلتقي برجال البوادي الريفيين يسوقون الدواب المثقلة بالأحمال من بقول وحبوب واحطاب ، قادمين من مناطقهم الى المدينة . وتبدو الفتيات في قبعات شبيهة بالمظلات وهن يمتطين الحمير الوديعة الصابرة المكابدة الوجوه سمراء جافة الاهاب . العيون سوداء ناعسة . الخدود تملؤها الحمرة . .

وكلهن في نعال وبرانس . إنهن صلة الخير بين المدينة والريف ، يسرن في هدوء وهن يتنسمن أنفاس الطبيعة في الحقول والمروج القليلة ، حين يشرق الربيع الزاهر على المخضر من السفوح والتلال والروابي التي يشقها مجرى نهر مارتيل بمائه الهادىء الساكن . وخلال الطريق نمر بقرى صغيرة تقوم أكواخها في مجموعات بسيطة ، وهي مبنية بالطين والقش بشكل هرمي .

وحين يختفي نهر مارتيل نلتقي بنهر آخر هو نهر سيف لاو . النهر ينحدر الى واد لاو من فرعين ، أحدهما من مرتفعات شفشاون والثاني من باب تاز . جبال شفشاون تبدو أمامنا على الأفق الشرقي تغطي قممها البارزة كالقرون بقايا الثلوج . ونمر بمنحدرات مفاجئة وأودية منخفضة وانكسارات شديدة ، حيث تلعب عوامل التعرية وخاصة المائية الناتجة عن تساقط الثلوج والامطار دورا كبيرا في ضعف التربة وافتقارها للمواد العضوية الضرورية للانبات . وعند ملتقى فرعي النهر تقوم محطة لتوليد الكهرباء لتتلقى المياه المنحدرة بسرعة وقوة من المنبعين ،وأقيم سد تنطلق المياه من فتحاته لتغذي بالكهرباء مدن تطوان وشفشاون والعرائش والقصر الكبير والصغير .

ونواصل الاقتراب من المدينة . ونهبط منحدرات جبل حسان . ونصل الى مداخل اراضي بني الأخمس حيث تجري مياه عذبة تحت أشجار الزيتون . الوادي من الجانبين تغطيه حقول الشعير والقمح ، تعمل فيها حشود من المزارعين بسعادة بادية . وننتقل الى منحدرات « يزيد جبل » الوعرة . السفوح هنا خالية من المزروعات سوى بعض النخيل المتناثر هنا وهناك . وينحني الطريق عدة مرات لنجد انفسنا وقد عاودنا الصعود وسط الحقول والينابيع ، وفجأة تتكشف لنا شفشاون عند ثنية جبل القراع (١٦١٦م) الذي يطوقها بينما تحتضنها التلال الصخرية من بعيد . وتستند المدينة على جبل تيسوكا بخلفيته الصخرية المرتفعة التي تبلغ ١٢٠٠م بينما يطوقها من الناحية الشرقية جبل لشهب الذي يصل ارتفاعه الى ١٢٥٤ مترا . وعلى بعد مائة متر تقف على أعلى الطريق الذي تنتشر حوله الحدائق والبساتين والخضرة والزهور على الجانبين يتوسطها رمز المدينة على الجانب الايسر مزروعا بالزهور المتباينة الالوان .

وتتوالى بعد ذلك البساتين البديعة المنتشرة أمام منحدرات الجبل وعلى جانبي الطريق حتى تدخل شفشاون ونلتقي عند مداخلها بفندق اندلسي الطراز والطابع،في مدخله ومبناه وقاعاته الداخلية الزاخرة بألوان الفن والجمال والسحر ، نقشا وزخرفة والوانا ، وعلى الجدران والأعمدة ، وفي السقف وتحت الاقدام . . إنه نفس نمط قصر الحمراء ، أقيم باسم فندق « أسماء » . . .

على سفح التل أسفل الفندق وعند شرفته الخارجية تقترب منا فتيات مشرقات الوجه تفتر شفاههن عن ابتسامة رائعة . . انهن من البادية يرعين ماشيتهن من الماعز تحت السفح الذي يقوم عليه الفندق وقد غطين رؤوسهن بالقبعات الريفية ذات « الدلاديل » . انهن لا يتمنعن عن التصوير بل يستسلمن للكاميرا في هدوء لطيف ، يشجع على

التقاط عشرات الصور التى تبرز الخلفية الرائعة للمدينة ، بمبانيها المتصاعدة على السفوح وشوارعها وأزقتها الملتوية ، والقرميد الازرق الذى يغطى أسطح البنايات كلها .

وفي داخل المدينة نعاود الصعود والهبوط . فالبيوت كلها قائمة على سفوح ومرتفعات ما عدا وسط المدينة حيث المكان المنبسط الوحيد . ونقف عند « ساحة الخاصة » التى يتوسطها بستان قائم على الطراز الاندلسى بأعمدته الرقيقة ونقوشه ورسومه وحول نافورته ضفادع حجرية تنفث الماء ، على أحد جوانب الساحة مبنى أقامه الاسبان خلال فترة الاحتلال وتحول الآن الى مشغل للحياكة والتطريز ، وعلى الجانب الآخر « مدرسة ثانوية الشاذلى » التى احتلت نفس مبنى الثكنة العسكرية الاسبانية .

قرب الساحة العامة يقوم برج مولاى اسماعيل ، وفى الجهة المقابلة منه تقوم صومعة المسجد الكبير على قاعدته ذات الطابع المغربى الاندلسى .

ونعبر باب « العين » . .

الطريق للوصول عبر أزقة ضيقة وملتوية ومسقوفة بقباب في بعض مسالكها الى المدينة القديمة . . الى القصبة . .

في الساحة الواسعة قبل الدخول الى القصبة نجد أنفسنا وسط السوق . . نساء ورجال وفتيات وفتيان ، بدو وحضر ، كلهم يفترشون أرض الساحة ودكاكينها الضيقة « وبازاراتها » السياحية العامرة بالمنتجات والملبوسات الفولكلورية والبرانس والقبعات والاحذية والنعال ، جنبا الى جنب مع العديد من أصناف الفاكهة والخضروات والبقول والحبوب ، تتجاور مع مختلف انواع الأوانى المعدنية من النحاس،والطينية من الفخار .

على الصتوبرة بجوار القلعة القديمة نلتقى ببعض المسنين وهم يقتعدون مجلسهم يتبادلون الحكايات والذكريات ، دون أن ينظروا للحظات الى سور الحصن القديم وبوابته القائمة الى يمينهم ، فقد تعودوا مشهدها واصبحت جزءا من حياتهم ، رغم أن عمرها يمتد الى حوالى خمسمائة عام .

هذه القلعة وأسوارها المحصنة هى الأثر التاريخى الذى يكاد يكون وحيدا في المنطقة بجوار « حومة السويقة » .

من بوابة « حومة السويقة » تنفذ الى داخل زواريب القصبة . تدخلها صاعدين على بضع درجات ، وبين كل زنقة وأخرى تواجهنا درجات مشابهة أو طريق صاعد . عرض هذه الزنقات أو الزواريب لا يتسع في كثير من الاحيان لاكثر من شخصين متجاورين وإن كان بعضها يتسع لاربعة . البناء المعمارى فريد من نوعه ، يقوم وسط أقواس مستلهمة من الفن المعمارى الاندلسى ، ولا يختلف كثيرا عما شهدناه في تطوان . الابواب مقفلة دائما ومنخفضة بحيث ينحنى الداخل لينفذ منها الى الدار . الاقواس والقباب في كل مكان من البيت سواء في النوافذ المغلقة تحصناً وتمنعا أو في الاروقة والابواب . البيوت تتميز بسقوفها من القرميد المنحدر . والدكاكين ضيقة معتمة مليئة بالصناع والتجار . اما النساء والفتيات والصغيرات أيضا فيغطين وجوههن بأيديهن إذا صادفهن غريب . وينفرن من التصوير أو الحديث مع الآخرين . .

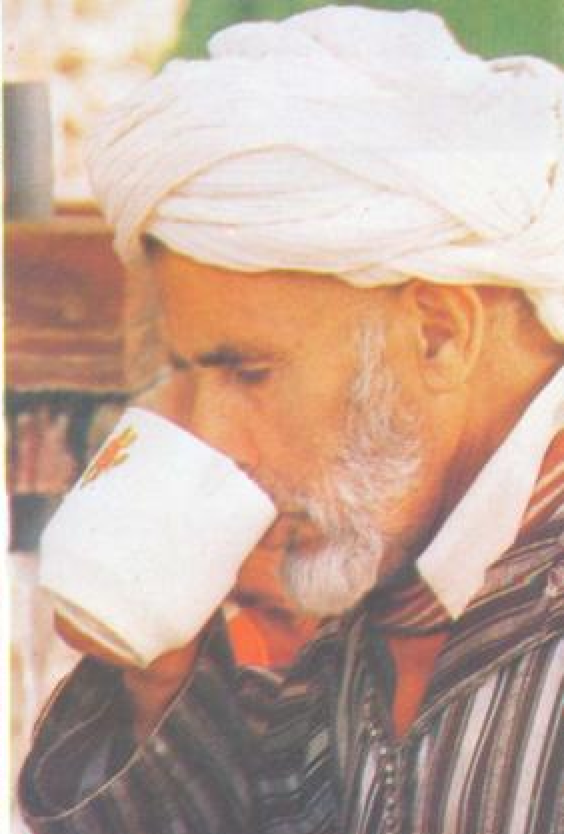
مع مؤرخ شفشاون

في أحد زواريب القصبة ، ندخل دار أحد رجالاتها من ذوى الاصل الاندلسى ، المؤرخ عبد السلام الخضرى ، ونسمع منه الكثير عن تاريخ شفشاون . . . .

قبل خمسة قرون ، وبالذات في عام ١٤٧١م (٨٧٦هـ) ، أنشئت مدينة شفشاون على يد المجاهد مولاى على بن رشيد .

كان لابد لعلى بن رشيد والمجاهدين أمام الهجمات البرتغالية أن يبحثوا لأنفسهم عن مكان أمين يستقرون فيه ويبدأون منه هجماتهم . ولم يكن هناك آمن من ذلك المكان الذى تحتضنه الجبال العالية







ـ هنا .. شفشاون .. المدينة البيضاء التي تعيش في احضان الجبال المحيطة بها كأنها قلاع الحراسة .. المباني القديمة على النمط الاندلسي وأزقة القصبة تحكي قصة تاريخ تواصل لأكثر من خمسمائة سنة .. يلخصها هذا العجوز الذي لاتقطع حكايته إلا شربة ماء عند النبع .



فتخفيه عن الانظار وتسهل الدفاع عنه . وبدأ ابن رشيد ورجاله يبنون أكواخهم في قلب الوادي ، فكانت نواة للمدينة التى توالى اتساعها حين جاء بعض مسلمى الاندلس الهاربين من وجه الزحف المسيحى الأسبانى على غرناطة قبل ان تسقط بعدة سنوات . وكان هؤلاء الاندلسيون يغادرون الاندلس على سفن « عروج وباربا روسا » التى كانت تحملهم وتنقلهم الى الشواطىء المغربية حيث استقبل ابن الرشيد كل من جاء الى مقره في احضان الجبال . .

وتوالت الافواج . وبدأ كل فوج يبنى لنفسه حيا جديدا . وكان من بين الأحياء التى قامت « حومة الاندلس » التى أقامتها عائلة الحضرى ، ولا يزال الشارع الذى تقع فيه دار العائلة يسمى شارع غرناطة ، حيث أسسوا مسجدا لا يزال يحمل نفس الاسم . ثم جاء فوج آخر وأقام « حومة الخرازين » ، وتلاه آخر أقام « حومة الصبانين » ، وفوج خامس أقام « حومة العنصة » . . وكان آخر فوج من الموركسيين الذين أرغموا على دخول المسيحية واستطاعوا الهرب من الاندلس بعد ذلك وجاءوا الى شفشاون .

انطلق الناس في شفشاون يواصلون الحياة محتضنين كل من دخل مدينتهم واستقر بها من الريفيين الذين شاركوا من قبل في عمليات التحرير ، ومع ذلك فقد ظلوا على محافظتهم وحذرهم ومنعتهم وتشددهم ، الى حد الانغلاق في كثير من الاحيان ضد كل ما هو خارجى أو أجنبى عن مدينتهم ، برغم أنها أصبحت مدينة سياحية يأتيها السياح من كل مكان .

ذلك هو ما شعرنا به ونحن نلتقى بالريفيين والحضريين معا في شفشاون . أحسسنا أنهم قوم يمتنعون عن العرض ويتمنعون عن النظر ، كأنهم يعيشون في قرون لم تبعد كثيرا عن سنوات انتقال أجدادهم من جنتهم المفقودة بالاندلس . . لهذا فإنهم يجدون لذة شديدة في نزهتهم اليومية عند « رأس الماء » . . إنه نبع يذكرهم بينابيع الماء والنوافير التى كانت تزخر بها غرناطة وقصورها وينابيع جبالها وهضابها . . ماء عذب هو أعذب الينابيع المغربية يخرج من الصخر تماما كعذوبة مدينتهم الحاضرة . . ويوزع ماءه الغزير على البساتين والحدائق .

من عند « نبع الماء » نهبط ونحن نسترق النظر من جديد الى اسفل . . إلى المدينة البيضاء الجميلة ، إذ نودعها وقد ألقت شمس الصباح غلالتها الذهبية على السهل الأخضر وعلى البساتين الزاهرة التى تنفح عطرها حولنا كأنما تدعونا للعودة من جديد . .

ولكن . . ما باليد حيلة . . .

وأخذنا نواصل صعودنا في الجناح الغربي للريف متجهين نحو الشرق . .

عالم الغابات والأحراش

الطرق تزداد وعورة ،والصعود والدوران حول الجبال التى يتزايد ارتفاعها يزيد المشقة والاحساس بالخطورة مع الالتفاف الثعباني المتواصل الذي يحبس الانفاس ، فذلك هو الطريق الى كتامة عند ملتقى الجناحين الشرقي والغربي . هنا نواجه بالقمم الصخرية التى تربط شفشاون وكتامة بمليلية ثم الناضور والسعيدية . وكلما اجتزنا مجموعة من الجبال انعرجنا الى جبال صخرية أشد منها قوة وصلابة ، تتناثر على سفوحها قرى بربرية صغيرة وسط غابات الارز والصنوبر والفلين والفرعار وانواع اخرى كثيرة .

الغابات في الجناح الغربي للريف أغلبها غابات طبيعية شاسعة تشغل حوالى ٢١٥ ألف هكتار ، بالاضافة الى غابات تم تشجيرها على مساحات يصل مجموعها الى ١٥ الف هكتار . . هذه الغابات تتميز بتنوع نباتها وأشجارها وكثرة الحيوانات البرية على اختلافها . .

ان استغلال هذه الغابات وتشجيرها وتعدد استعمالات أخشابها وأحراشها ، يوفر لليد العاملة

الريفية نصيبا هاما من العمل ، إضافة إلى زيادة الدخل لصالح ميزانيات الجماعات المحلية . ولعل ذلك هو السبب في اهتمام الدولة بعمليات التشجير ، حيث يتم سنويا تشجير حوالى ٥٠٠ هكتار من جميع الاصناف ، خاصة شجر الصنوبر .

بالاضافة الى ذلك فإن قلة الأراضي الزراعية ومحدودية المراعي اقتضت تحسين وسائل الانتاج النباتي لتنمية قطعان الماشية ، وخلق مراع تخفف ضغط الرعي في الغابات ، فأنشئت المراعي الدائمة ، غرست فيها أكثر من ٤٠ ألف شجيرة كلأ هذا العام ، كما أنجز خلال السنوات العشر الأخيرة ٢٩٦ هكتارا للمراعي ، وتم تشجير حوالى ٢٨٣ هكتارا بشجيرات الكلأ . . كما أن عمليات تنمية الثروة الحيوانية الغابوية تجرى بشكل يتيح للريفيين الاستفادة من هذه الثروة ، وقد أقيمت بعين الرامى محطة لتربية « الحجل والتدرج » تنتج سنويا حوالى ١٠٠٠ حجلة و ٢٠٠ من التدرج ، توزع على الغابات في أماكن يمنع فيها الصيد لضمان توالدها وتكاثرها ، وخاصة أن هناك وفرة في الحيوانات البرية بالغابات منها الارانب والقواع والخنازير البرية ودجاج الماء والحمام واليمام وهي كلها تثير شهوة الصيادين . .

وتدور في أذهاننا ـ ونحن نطل على كل هذه الغابات التى تغطى جبال الريف ـ تساؤلات ومخاوف من إمكانية اندلاع الحرائق ، كمثل ما نشاهد وتنقل الينا الانباء دائما فيما يحدث في الغابات والاحراش في مختلف دول الغرب والشرق على اتساع القارات كلها . .

ونتلقى الرد من مرافقنا الاعلامى :

هناك جهد واضح وحرص شديد على صيانة الأشجار،ومحاربة الحرائق والمحافظة على الغابات من مختلف الاضرار التى تتسبب في إتلافها . ولو نظرتم الى بعيد فستلاحظون مجموعات من الأبراج قائمة على مسافات غير متباعدة لمراقبة الحرائق ، مع وجود أجهزة للتبليغ عنها في كثير من المناطق . وهناك الاهتمام بشق الطرق وصيانة المسالك المهددة بالاغلاق مع توالى هطول الامطار والمساقط المائية والانهيارات الجبلية . وتقوم السلطات بشق خنادق حامية من الحرائق ، تمتد على طول حوالى ١٧٠ كيلومترا ، ويبلغ مجموع المسالك في غابات الريف حوالى الفي كيلو متر . وكل الطرق والاجراءات المتخذة ، تؤدى الى سرعة الاعلام بالحرائق في حالة اندلاعها وفي وقت حدوثها لسرعة التصدى لها وإخمادها . ولعلكم تقدرون هذه الجهود حين تعرفون ان النيران أتلفت في عام ١٩٨١ اشجار الغابات في حوالى ١١٥ هكتارا ، كما أتلفت النيران في عام ١٩٨٣ حوالى ٥١٧ هكتارا ، ولكن الرقم بدأ ينخفض كثيرا بعد الاجراءات والوسائل المشددة بحيث هبط ما أتلفته النيران إلى حوالى ١١ هكتارا في عام ١٩٨٤،وهو رقم لم تتجاوزه عمليات الاتلاف كثيرا منذ ٨٥ حتى الآن .

الريف من الجو

الآن . . تعود بنا الرحلة من جديد الى الحسيمة ، بعد أن اخترقنا الريف برا بالطول وبالعرض . . ولم يعد باقيا أمامنا إلا اختراقه من الجو . .

وذلك هو ما فعلناه حين انطلقت بنا الطائرة من مطار الحسيمة ، الذى يستقبل كل أنواع الطائرات الكبيرة عدا البوينج ٧٤٧ . . . ومع هذا فهو لا يعمل بصفة مستمرة إلا في موسم الصيف ، وهو أمر يحتاج الى إعادة نظر في فلسفة الخطوط الجوية المغربية والعمل على ربط خط الحسيمة بالطائرات التجارية .

ورحنا نطل على جبال الريف من الجو والطائرة تنطلق بنا فوق الجبال ثم على الشريط الساحلى حتى الدار البيضاء عبر تطوان . . بدت لنا جبال الريف من أعلى كثيرة التجاعيد كأنها وجه عجوز . السطح





ـ الجيل القديم ورث الفنون الزخرفية عن الاباء والأجداد . . وهم يقومون بتدريب الابناء في مدرسة الصنايع والفنون الوطنية على وسائل الابداع في الفن . . من خلال الصناعة الوطنية التقليدية . .

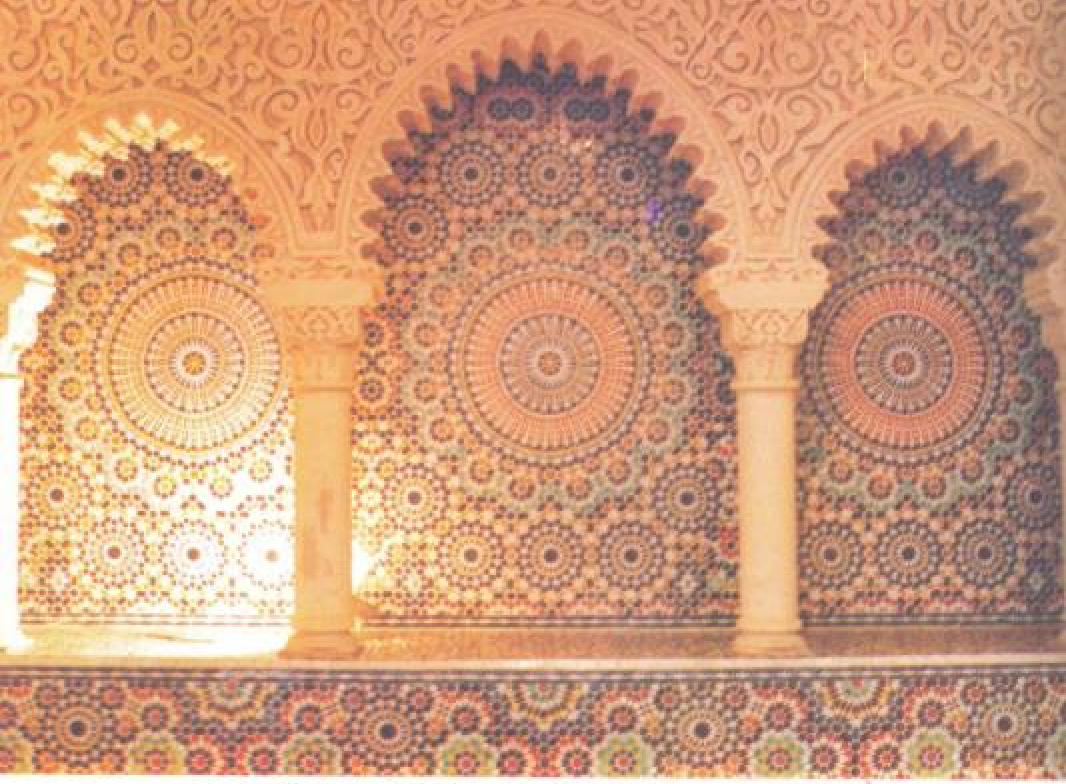
عبارة عن أرض مسنمة مجوفة مضلعة مقببة محدبة مليئة بالاخاديد والاحواض والقنوات والوديان ، ظاهرها رملي يندر فيه الاخضرار وخاصة عند القمم الجرداء والسفوح التي لا يصل بعضها ببعض غير الطرق والمسالك الجبلية التي تبدو كالخيوط الجغرافية على الخرائط . بعض الجبال تبدو عارية جافةموحشة، ومسالكها الجبلية هي الصلة الوحيدة بين أهلها . ولعل ذلك هو ما جعل الريفيين أصلب جسما وأيبس عودا .

ونطل على شاطىء البحر الابيض ، فإذا به ساحل ضيل رفيع يحدده البحر من الشمال والصخور الرملية القائمة كالجدران العالية من الجنوب ، على هذا الشاطىء وفوق الكثبان تتناثر البيوت والشواطىء السياحية والموتيلات . . وهي تبدو كلها كأحواض فارغة تتوسطها صحون مربعة أو دائرية قد طوقت بسياج من الخضرة .

تلك هي الصورة التي تؤكد أن الريف بحكم طبيعته الجبلية يشكل حاجزا هاما وعائقا ضد تسهيل وسائل المواصلات وحركة الانتقال بين شتى أطرافه . وهي العامل الاساسي لأي بناء اقتصادي . يضاف الى ذلك أن هذه الطبيعة لا تمنح سكانها أرضا خصبة كريمة مما جعل الكثيرين يتجهون الى الهجرة والترحال . .

لكن ذلك لا يمنع أن للريف المغربي معطيات ايجابية لو احسن استغلالها بشكل جيد .

اول هذه المعطيات أن الريف من أجمل مناطق المغرب السياحية ، وله مزاياه من ناحية المناخ الجغرافي الطيب في أكثر اوقات السنة ، بالاضافة الى تمتعه بدفء الشمس سواء على جباله او شواطئه الجذابة ، وهي عوامل اساسية في تنمية السياحة



ـ الزخرفة وفنون الفسيفساء .. صورة الماضي الجميل تعيش في الحاضر من اجل الذكرى ـ وكل وحدة زخرفية تزين جدران المباني والقصور القديمة هي آية من آيات الهندسة الاندلسية المبدعة .

واجتذاب السياح .

ويتمتع الريف بمدن جميلة غنية من الناحية التاريخية والأثرية ، وقد بدأت هذه المنطقة تجتذب عددا من المستثمرين العرب وغيرهم في ميدان السياحة ، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ تنفيذ مشروعات سياحية هامة في طنجة،وعلى شواطىء تطوان وفي الحسيمة واخيرا في السعيدية .

ثم ان للريف مستقبلاً مبشرا ، وإن كان هذا المستقبل يعتمد على استثمار أهم وأوسع في الميدان السياحي ، حتى يستطيع منافسة الشواطىء الاسبانية المواجهة .

ولعل أهم معطيات الريف المغربي أنه يتمتع بوجود خيرات باطنية كثيرة .. ففي الريف مناجم لمعادن الفحم والحديد وخاصة في الناضور .. كما تضم أراضيه على المستوى الجيولوجي مجموعة من المعادن من بينها الرصاص والزنك والنحاس والفضة والكروم والرخام والمنجنيز والزئبق والجرافيت .. بالاضافة الى المياه المعدنية ، وان كانت اهم الاستغلالات المعدنية قد استنزفت خلال فترة سيطرة الحماية الاسبانية .. ولكن بعض المعادن ينتظر أن يبدأ استغلالها مع جهود تقنية مبشرة في المستقبل القريب .

والملاحظ ايضا ان هناك ثروة بحرية يمكن زيادتها وتطويرها إذا تم تزويد أعمال الصيد البحرى بالاسطول والمعدات المتطورة .

ان كل ذلك يحتاج بلا شك الى مزيد من الاستثمارات في الميدانين البحرى والمعدني .. خاصة أن هناك عاملا إيجابيا متميزا .. هو قرب الريف الجغرافي من الاسواق التجارية الغنية في القارة الاوروبية . □



من يذهب الى السينما ؟

بقلم / رؤوف توفيق

المتفرج الذي يذهب إلى دار السينما ، من مرة إلى ثلاث مرات في العام يطلقون عليه اسم « المتفرج غير المنتظم » ، لكن بالرغم من ذلك فإن شركات السينما العالمية تنظر إليه على أنه أهم عنصر تقوم عليه صناعة السينما الآن ، ومستقبلا !! فهذا المتفرج يشكل نسبة ٥٩٪ من جمهور السينما .

مقياس نجاح السينما يتوقف على مدى المهارة في جذب المتفرج غير المنتظم ، وبحسب خبراء صناعة السينما واقتصاديوها ازدهار موسم سينمائي أو فشله بقدر حصيلة المحاولة في تحريك هذا المتفرج ، وإقناعه بالذهاب إلى دار العرض .

جاءت هذه « المعلومة » ضمن دراسة إحصائية ، نشرت في كتاب صدر في لندن ، عن هيئة الفيلم البريطاني ، والكتاب بعنوان « السينما في الحياة

الانجليزية » ، وهذه الدراسة الاحصائية قامت - اساسا - لمناقشة الظاهرة المحيرة التي انتشرت في كل عواصم العالم ، شرقا وغربا ، ومنذ ما يزيد على ست سنوات مضت ، حيث بدأت كل المؤشرات تؤكد انخفاض الاقبال على مشاهدة الأفلام في دور العرض السينمائي ، ورغم كل المحاولات التي جرت لتوفير الراحة والأناقة داخل دور العرض ، والاكتفاء بدور عرض صغيرة الحجم استمر الانخفاض في خط بياني مثير ، حتى سجلت الأرقام أسوأ هبوط في السنوات الثلاث الأخيرة ، بدءا من عام ١٩٨٤م .

أزمة عالمية

وترددت الأرقام في سوق صناعة السينما مؤكدة أن هذا الهبوط شمل كلا من فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا الغربية ، وكل هذه الدول رغم أنها تملك مؤسسات إنتاج وتوزيع سينمائي،واجهت مصاعب شديدة كادت تؤدي بها إلى الشلل والتوقف ، فضلا عن انخفاض جمهور السينما فإن النسبة الباقية المنتظمة في الذهاب إلى دور العرض تفضل مشاهدة الأفلام الأمريكية على مشاهدة الأفلام المحلية أو الأوروبية الأخرى ، وإزاء هذا الموقف المتأزم فكرت هيئة الفيلم البريطاني - وهي هيئة اكاديمية لها ثقلها الفني والثقافي على المستوى العالمي أن تقوم بدراسة إحصائية بين الجمهور الانجليزي حول نقطتين أساسيتين :

أولا : من يذهب إلى السينما ؟ (أعمارهم ، ومستواهم الاجتماعي : أغنياء أو من طبقة متوسطة أو عمال مهرة ، أو عمال عاديون ، متزوجون أو مطلقون أو عزاب) .

ثانيا : أفضل طريقة لمشاهدة الأفلام (دور السينما ، أم التلفاز ، أم أجهزة الفيديو) ؟ ووزعت استمارة البحث على عينة ، ضمت ٧٩٥ شخصا ، من ٦٧ منطقة ، في كل أنحاء بريطانيا ، ثم عكف المتخصصون على دراسة النتائج ، وضمنوها في كتاب صدر في أواخر عام ٨٦ ، ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي تلقي الضوء على اتجاهات متفرجي السينما عامة ،وليس في بريطانيا وحدها ، فالاتجاهات واحدة ، وإن اختلفت أرقام الاحصائيات بنسب طفيفة . ومن خلال تحديد الاتجاهات يمكننا استنتاج أسلوب تفكير شركات الانتاج السينمائي العالمي في نوعية الافلام التي يتحمسون لانتاجها الآن .

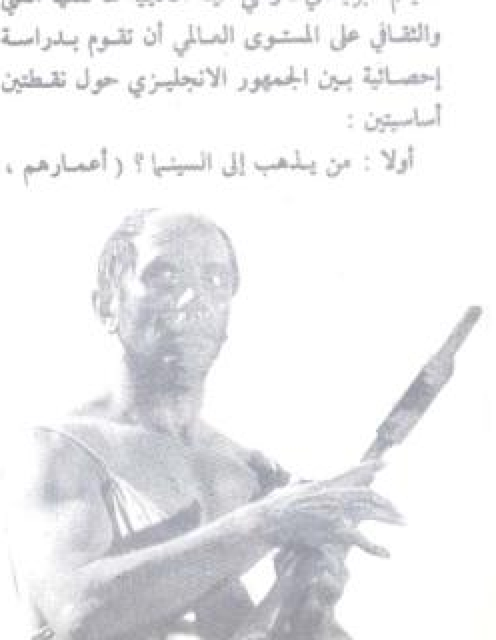
البقاء في المنازل

أظهرت الدراسة أن ٧٤٪ من الجمهور الانجليزي لا يذهب إلى السينما الآن ، وهذا الرقم - في دولة متحضرة لها تاريخها الثقافي والفني - يمثل مفاجأة قاسية ، لكن الباحثين في هذه الدراسة يفسرون هذا الرقم بقولهم : « هناك حقيقة باردة واجهتنا عندما سألنا الجمهور أين يفضلون مشاهدة الأفلام ؟ فأجابوا قائلين : « في المنزل من خلال التلفاز » .

وتساءل الدراسة : هل السينما تخوض معركة خاسرة أمام التلفاز ؟!

ويرجعون إلى الوراء ، بفلسفة تقول إنه لا يمكن فهم الحاضر إلا بتتبع الماضي ، فمنذ أن ظهر التليفزيون في الخمسينات أصبح واضحا أنه سيكون العدو الأول للسينما ، وأجمع المراقبون والباحثون على ضرورة دراسة العلاقة بين السينما والتلفزيون .

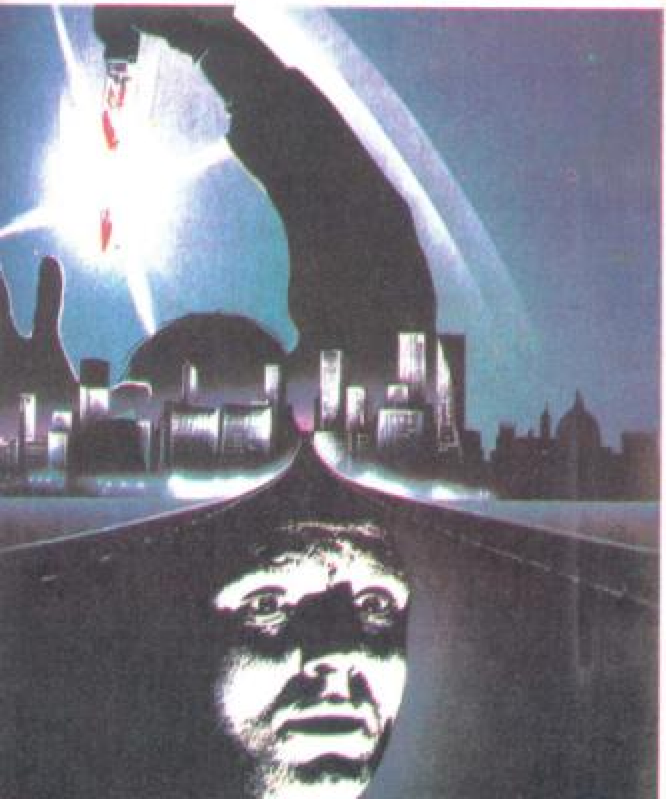
في داخل انجلترا ارتفع حائزو أجهزة التلفاز



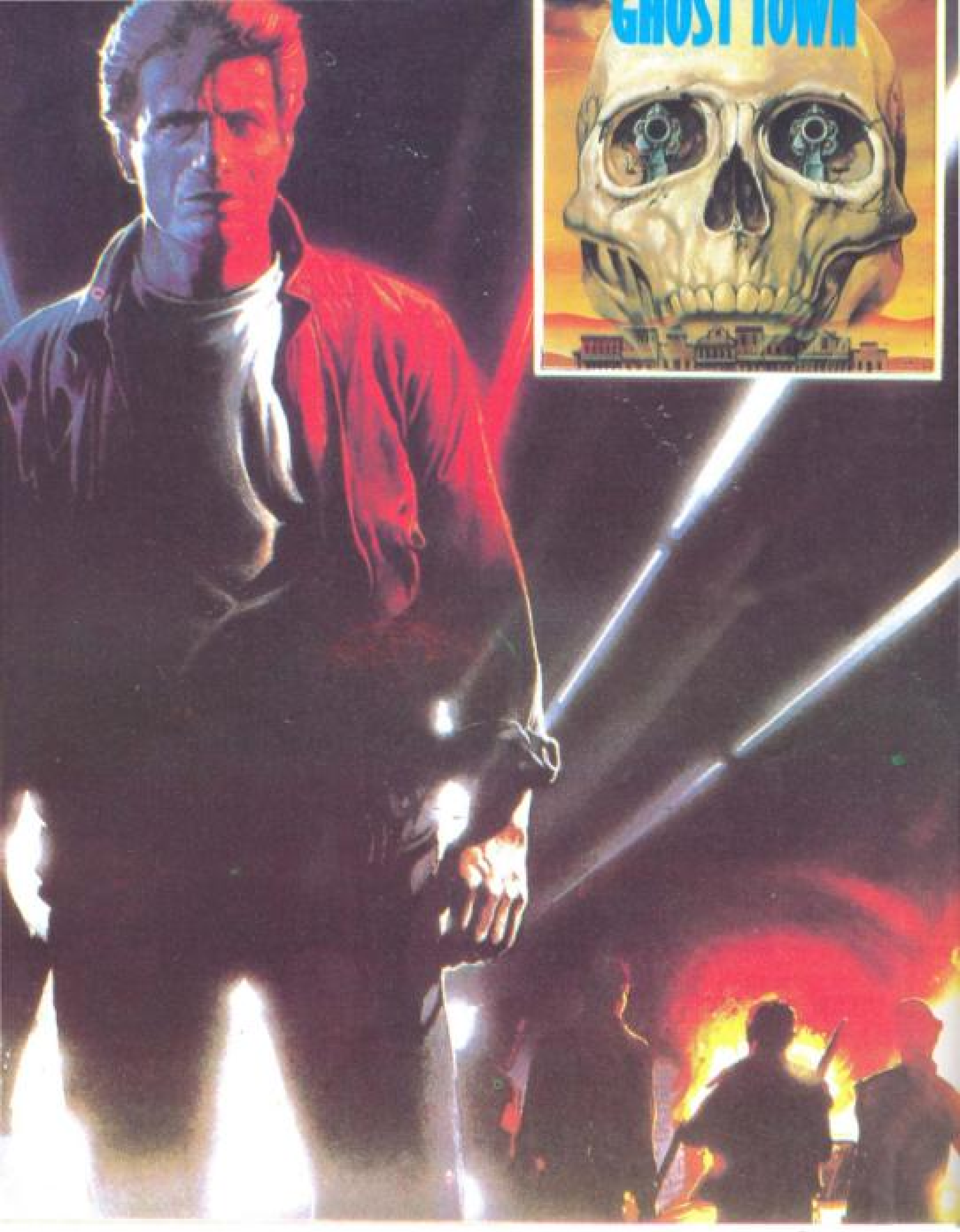












● الأطفال أحيانا هم الذين يختارون الأفلام لكي يشاهدوها مع والديهم ، ومن هذه الحقيقة الاقتصادية فكرت بعض شركات الانتاج السينمائي بتقديم نوعية خاصة من الأفلام التي يعجب بها الأطفال ، وينسى الكبار أنهم كبار ، فيتحولون الى متفرجين كالأطفال .



● كريستوفر لامبرت ، النجم الفرنسي الذى أعدوه لكي يكون النموذج الأوروبي للشباب والمراهقين ، ويكون في مقابل النماذج التي تروجها سينما هوليود .

من ٣ ملايين عام ١٩٥١م إلى ٩ ملايين عام ١٩٥٨ ، وفي نفس الفترة انخفض عدد المشاهدين للسينما من ١٣٠٠ مليون إلى ٧٥٥ مليونا ، وانخفض الرقم إلى العشر تقريبا خلال عام ١٩٨٤م ، فقد أصبح عدد مشاهدي السينما يتراوح ما بين ٦٠ إلى ٧٠ مليون مشاهد في السنة ، بينما ارتفع عدد مشاهدي الأفلام بالتليفزيون إلى ٣ بلايين ، ودخل السباق أيضا أجهزة الفيديو التي أصبحت تجذب بليون مشاهد سنويا (الرقم هنا محسوب على أساس الفرد الواحد × عدد مرات المشاهدة سنويا) .

وتقول الدراسة إن الذهاب إلى السينما كان متعة الطبقات الغنية ، حتى بدأ العمال يظهرون كقوة مؤثرة منذ سنوات الخمسينيات ، ومنذ انتقلوا للسكن داخل حدود المدن ، وأصبحوا يذهبون إلى السينما ، فحينذاك انسحب الأغنياء من دور العرض ، واكتفوا بمشاهدة الأفلام في منازلهم .

وتربط الدراسة الانجليزية بين عادة الذهاب إلى السينما وبين الحالة الاجتماعية ، فعندما يتوفر في المنزل عنصر الراحة ، وترابط العلاقات الاسرية ، تصبح مشاهدة الافلام في المنزل جزءا مكملا لعنصر الراحة ، خاصة بعد أن ثبت اقتصاديا أن الخروج من



● نماذج من الدعاية التي يجذبون بها المراهقين والشباب الى دور العرض السينمائي ، إنه الإغراق في العنف والغرابة والإثارة .

المنزل والذهاب إلى دور العرض ، يعتبر عملية مكلفة ، يدخل فيها أمر المواصلات ، وثمن تذاكر السينما ، وثمن وجبة سريعة أو مشروب ، ومع انتشار موجة الغلاء عالميا والثبات النسبي للأجور ، أصبحت المعادلة الاقتصادية تحتم البقاء في المنزل ، بل أصبح تأجير جهاز الفيديو كاسيت ، وتأجير شريط الفيلم المطلوب مشاهدته في مجموعها أرخص من تكلفة الذهاب إلى السينما ، فضلا عن متعة إرجاع الشريط في جهاز الفيديو ، وتوقيفه عند بعض اللقطات لتتبعها .

أولا الشباب

من الذى يذهب الى السينما إذن ؟ !

تؤكد الدراسة الانجليزية ما سبق أن أكدته دراسات أمريكية وفرنسية وايطالية ، وتؤكد أيضا ما سبق أن أعلنته بعض الاستنتاجات في أسواق السينما في الاقطار العربية . إن النسبة الغالبة المنتظمة من المترددين على دور العرض السينمائي هم المراهقون والشباب ، وقد حددت الدراسة الانجليزية أعمار هذه الفئة ما بين سن ١٦ الى ٢٩ عاما ، وهؤلاء يذهبون الى السينما من مرة الى ثلاث مرات في الشهر الواحد ، ولا يحدث انقطاعهم عنها إلا في حالة الزواج وإنجاب الأطفال .

وتخلص الدراسة الانجليزية من هذه الحقيقة الى حقيقة أخرى فرعية ـ لكنها في غاية الأهمية ـ وهي أن الذهاب الى السينما بعد الزواج وإنجاب الاطفال يتم بناء على رغبة الأطفال والحاحهم ، مما يضطر الآباء والأمهات الى الاستجابة ، وهنا يتحدد نوع الفيلم الذي ستشاهده الأسرة حسب رغبة الطفل ، فهو صاحب الاقتراح بالخروج من المنزل ، وصاحب الاختيار لنوع الفيلم .

وتصل تلك الدراسة الى علامة استفهام كبيرة ، حول مستقبل صناعة السينما ، فتقول : « لا يكفي أن نفهم الأفلام وتناقشها ، بل من الضروري أولا أن نفهم الجمهور ودوافعه » .

شاشة مليئة بالدم والدخان :

ونغلق الآن صفحات هذه الدراسة ، ونتأمل واقع السينما العالمية من خلال ما تم انتاجه وعرضه خلال السنوات الثلاث الماضية ، ومن خلال ما يخططون لعرضه وانتاجه خلال هذا العام ، فنكتشف أن الغالبية العظمى من الأفلام تحاول اجتذاب ذلك الجمهور المضمون من الشباب والمراهقين ، والمحاولات في هذا الباب تتباين،فمن لعب على الغرائز الحسية الى رعب وإثارة ، أو مداعبة للخيال من خلال أفلام مغامرات الفضاء ، والمخلوقات الغريبة والمركبات الجهنمية التي تسبح حول النجوم والمجرات . إنها صناعة هائلة ، يقف وراءها خبراء ومتخصصون في التقنية وفنون الخدع البصرية والسمعية ، تمتلىء شاشات عرضها بكميات مخيفة من الدم والجثث والمدافع والدخان ، وهناك من يقيس الانفعالات ويحسب عدد شهقات الإثارة ، وكلما زاد عدد الشهقات كان الفيلم أكثر نجاحا ، وكلما سجلت الإيرادات ارتفاعا زاد تكثيف الرعب والاثارة في الأفلام الجديدة .

وملصقات الأفلام ومواد الدعاية التي تنوه بالأسلحة النارية ، والمخلوقات الغريبة الشاذة ، تدعو جمهورها لمزيد من المتعة الحسية ، والسينما في سباق يومي لتجديد العنف والبحث عن الإثارة .

فيلم « رامبو » الجزء الثاني حقق أعلى الإيرادات في أمريكا وأوروبا عام ١٩٨٥م ، وفي عام ١٩٨٦م دخل المنافسة « روكي » الجزء الرابع ، وكوماندو ، وكوبرا ، وهي أفلام أمريكية تزخر بالعنف الدامي ، وتكتسح هذه الأفلام أيضا الأسواق الأوروبية بعد اكتساحها للأسواق الأمريكية .

وتحاول السينما الفرنسية الدخول في هذا السباق بنجمها الجديد « كريستوفر لامبرت » ، لكن صناعة السينما الأمريكية بكل عناصر الإبهار والتقدم التقني تسجل تفوقا ، أما السينما الايطالية فتكتفي بمغازلة الشباب بالأفلام الكوميدية والبوليسية ، لكن السينما



● نماذج من المخلوقات البشعة التي تمتلىء بها أفلام الفضاء التي لا تكف (الاستوديوهات) الأمريكية عن صنعها لكي تجذب المراهقين الى دور العرض .

التجارية في الهند وفي جنوب شرق آسيا تختط لأفلامها خطّا آخر فتدخل الى الساحة بأفلام المطاردات العنيفة والكاراتيه ، لتغزو بها أسواق العالم الثالث . وكل يحاول اصطياد المراهقين والشباب .

المتفرج غير المنتظم :

أما المتفرج غير المنتظم الذي قد يذهب الى السينما من مرة الى ثلاث مرات في العام ، فتتنافس لاجتذابه كل العقول المفكرة في شركات السينما العالمية ، فهي تعلم أنه متفرج له ذوق خاص ، يجب أن تكون دوافعه قوية لكي يقرر اختيار الفيلم الذي سيشاهده . فتبدأ المنافسة الفنية التي تنتج لنا أفضل الأفلام السينمائية خلال العام ، لكنها لا تتعدى نسبة ١٠٪ من مجموعة الانتاج العالمي ، وتلك الأفلام هي التي تذهب الى المهرجانات السينمائية ، وتتنافس على الجوائز العالمية ، فينشغل بها النقاد والمحللون ، وتلك الأفلام قد تكون جيدة على المستوى الفكري والفني لكن المعروف أنها لا تحقق مكاسب ضخمة لشركات الانتاج ، بل تحقق الاحترام والسمعة الجيدة ، وهذا ما تحرص عليه بعض الشركات العالمية ، ففيلم جيد لها قد يعدل الميزان أمام عشرة أفلام من النوع الاستهلاكي السريع ، وهناك كثير من المغريات تقدمها شركات الانتاج العالمي لجذب ذلك المتفرج غير المنتظم ليشاهد فيلما سينمائيا بعيدا عن بيته ، ومن هذه المغريات استخدام الشاشة العريضة ـ السكوب والسيراما ـ واستخدام الصوت المجسم ، وكلها عوامل لا تتوفر للعرض التلفازي أو من خلال جهاز الفيديو .

لكن يبقى السؤال قائما : الى متى تستطيع السينما الاستمرار في تلك المعركة مع الخصم التقليدى ، وهو التلفاز ، ومع الخصم الجديد ، وهو جهاز الفيديو ؟ ! □

وجهاً لوجه





د. حسن الساعاتي و د. محمد الجوهري

■ أساتذة الاجتماع الغربيون يهدفون إلى بيان عجز العرب عن التنظير . ■ سيادة مبدأ « بذل أقل مجهود والمطالبة بأكبر مردود » هي سبب أزمة علم الاجتماع . ■ فلسفة المنهج في علم الاجتماع تعاني من التخلف . ■ قدرة الباحث تبرز في اختيار التنظير المناسب للموضوع . ■ التراث الاجتماعي العربي حافل بمصادر حول فلسفة المنهج . ■ أفكار ابن خلدون والماوردي تفيد في تفسير العلاقات البشرية .

إذا تأملنا تاريخ علم الاجتماع في مصر فسوف نجد له امتداداً تاريخياً يجاوز ثلاثة أرباع القرن ، بدأت أول الدروس الاجتماعية تلقى على طلاب الجامعة المصرية التي تأسست عام ١٩٠٨ كجامعة أهلية ، ثم أصبحت حكومية اعتبارا من عام ١٩٢٥ ، ومع تبعيتها للحكومة وتحولها إلى جامعة رسمية أصبح قسم الاجتماع بكلية الآداب أحد الأقسام التي بدأت بها الدراسة ، وتخرجت الدفعة الأولى في هذا القسم في عام ١٩٢٩ .

الدكتور حسن الساعاتي صاحب أول رسالة دكتوراة في علم الاجتماع تستند إلى دراسة ميدانية ، أجريت على أرض عربية ، وعن مواطنين عرب ، وقد كانت هذه الخطوة علامة بارزة أولى .

وقد أجيزت رسالته من جامعة لندن في الوقت الذي دارت فيه بحوث الدكتوراة التي قدمها الرواد الأوائل حول موضوعات نظرية ، تقوم على دراسات مكتبية خالصة . كانت رسالة د. حسن الساعاتي عن مشكلة انحراف الأحداث في مصر ، أي أنه رائد الاتجاه الساعي نحو رؤية الواقع الاجتماعي القائم ، وأنه قد تعامل مع هذا الواقع بلغة العلم ، وأدواته المنضبطة ، وليس بالخطابة والوعظ أو بالتأمل والتخمين .

ملامح الاتجاه

لكننا نجد على أي حال أن تشخيص الدكتور الساعاتي لملامح هذا الاتجاه طريفة وغربية ، تجعله يستحق الشرح بشيء من التفصيل :

أ ـ إن هذه المدرسة واقعية تركز جهودها على دراسة واقع الحياة الاجتماعية المصرية . ويؤكد الساعاتي هذا المعنى فيقول : « إن معنى هذا أن هذه المدرسة تنأى بوضوح عن أي فلسفة اجتماعية ، قائمة على التخمين ، أو الخيال ، أو الافتراضات ، أو ما شابه ذلك » ، وهي أيضا مدرسة وصفية أساسا ، وهو يدافع بحماس عن هذه السمة ، ويطالب بتشجيع الدراسات الوصفية ، لأنها تساعد في إلقاء الضوء على كثير من الحقائق ، وعلى صياغة كثير من الفروض التي يمكن أن تصبح موضوعات ملائمة لبحوث علمية أخرى فيما بعد .

ب ـ والسمة الثانية لتلك المدرسة أنها ذات توجه اشتراكي ، ويعني الدكتور الساعاتي بذلك أنها تهتم بالمشكلات الأساسية للمجتمع « بهدف تحديد طبيعتها ، وأسبابها ، ونتائجها ، وذلك كشرط أساسي لمواجهتها ، ومن ثم تمكين المواطن من بلوغ مستوى محترم من الحياة ، يحفظ له كرامته الانسانية » ، فهي بذلك مدرسة ذات هدف محدد ، تضع العلم في خدمة المجتمع .

جـ ـ والسمة الثالثة لهذه المدرسة أنها تقوم على أساس تكاملي ، ليس من الوجهة العلمية فحسب ، وإنما من حيث توجيه البحث نفسه ، ويشرح الساعاتي ذلك بقوله ان هذه المدرسة لا تقبل فكرة العامل الواحد ، ولكنها تعترف بتفاعل العوامل المختلفة في خلق السلوك الاجتماعي ، أو الظاهرة الاجتماعية .

موقف هندسي اجتماعي

يتضح من استعراض ملامح هذه المدرسة أنها تتبنى موقفا هندسيا اجتماعيا ، وهو أمر اتفق عليه كثير من الكتابات الواعية عن علم الاجتماع في مصر ، وعدته من أبرز عيوبها ، كما أدركت أن هذا

الموقف هو الذي عوّق اهتمام هذا العلم بتكوين إطار نظري متكامل ، وهذه السمة التي عاش منها علم الاجتماع في مصر وما زال يعاني ظاهرة بكل جلاء في نتاج معظم جيل الرواد ، ونفر غير قليل من الشباب المتخصصين في هذا العلم .

● ألا ترى أن هذا الاتجاه « الهندسي الاجتماعي » يُعنى في وجهه الآخر بتبني موقف محافظ على الصعيد السياسي ، وهذا هو ما يلاحظه القارىء الواعي بين سطور كتاباتكم التي أشرت إليها ، فما تعليقكم ؟

- أود أن أوضح أمرا بالغ الأهمية ، بخصوص نتاجي العلمي ، وهو أنه - حتى الآن - يقع في ثلاث مراحل ، تبدأ الأولى بتحضيري أطروحة دكتوراة الفلسفة في علم الاجتماع سنة ١٩٤٤ م ، والقيام بأول بحث ميداني على ظاهرة اجتماعية معتلة ، وهي جنوح الأحداث في مصر ، ولي في هذه الأطروحة ثلاثة تنظيرات : أحدها حول الوعي المصري للعدالة ، وثانيها عن التَّبَوُّء الجناحي في المدينة (المعروف بمناطق تكاثر الأحداث واجتذابهم) ، وثالثها عن التحليل الظرفي للجنوح ، وكلها تنظيرات أصيلة مبتكرة ، لا في مصر وحدها ، بل في النطاق العالمي . وقد استغرقت هذه المرحلة اثنتي عشرة سنة ، انتهت سنة ١٩٥٥ .

وتبدأ المرحلة الثانية بالنشاط العلمي سنة ١٩٥٦ ، وتستمر مدة أربع عشرة سنة ، أجريت فيها مسحين اجتماعيين هامين : أحدهما لقسم باب الشعرية (١٩٦٠) ، والآخر لحي (الباطنية) الخطير لشهرته الواسعة في تجارة المخدرات (١٩٦٦) . ومن أهم البحوث التي أشرفت عليها في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في هذه المرحلة بحث البغاء في مدينة القاهرة ، والمسح الاجتماعي لمنطقة (أسوان) ، وبحث تنمية المجتمع النوبي الجديد ، ثم بحث تنمية المجتمع الريفي ، المعروف بمسح القرى الست .

وفي هذه المرحلة نشر لي مقال في عام ١٩٦٤ عن تطور المدرسة الفكرية لعلم الاجتماع في مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، ذلك المقال الذي يشار إليه كثيراً في نقد انتاجي العلمي ، علما بأنه قد مضى على نشره أكثر من عشرين عاما ، وإن آرائي المذكورة فيه تصدق على تطور المدرسة الفكرية لعلم الاجتماع حتى سنة ١٩٦٣ ، وهي السنة التي كتبته فيها ، ولذلك لا يكتمل المنظور الاجتماعي العلمي لانتاجي وعطائي إلا إذا شمل ما تبقى من هذه المرحلة ، وهو ست سنوات ، وأيضا المرحلة الثالثة وطولها سبع عشرة سنة .

تحقيق الهوية

المرحلة الثالثة من إنتاجي العلمي بدأت سنة ١٩٧٠ وما زالت مستمرة ، وتمتاز بتفجير ثلاث قضايا جديدة ، بالغة الأهمية هي : قضية تحقيق الهوية ، وقضية دراسة التراث الاجتماعي العربي بوعي حديث ، وقضية النظرية الاجتماعية العربية .

أما القضية المتعلقة بدراسة التراث الاجتماعي العربي بوعي حديث فقد شغلت بها أولا في المرحلة الأولى ، عند كتابتي عن الوعي المصري للعدالة .

وقد انطلقت في هذا الاتجاه التراثي في المرحلة الثالثة من إنتاجي ، فألفت كتابا بعنوان (علم الاجتماع الخلدوني : قواعد المنهج) وقد نشر سنة ١٩٧٢ ، وقد أسهمت بأوراق علمية ، منها « منهج البحث عند أبي الفداء » ، و « أصول الاجتماع في القرآن » سنة ١٩٧٧ ، « والبدو والحضر في مقدمة ابن خلدون » ، أكتوبر ١٩٨٣ ، « وتصنيف العلوم في الحضارة العربية الاسلامية ، وأصنافها في مقدمة ابن خلدون » ، أكتوبر ١٩٨٥ ، وأخيرا « مصادر التنظير الخلدوني من القرآن والحديث ، يوليو ١٩٨٦ .

أما القضية التي شغلت بها تنظيرا وكتابة ومحاضرة ، فتتعلق بالنظرية الاجتماعية العربية التي دارت بخصوصها تساؤلات كثيرة ، ليس بين أساتذة علم الاجتماع العرب فحسب ، بل أيضا بين الأساتذة الغربيين الذين يهدفون إلى بيان عجز العرب عن التنظير العام ، وإرغام علمائهم على التبعية الأجنبية ، تعميقا لاغترابهم عن مجتمعاتهم وتراثها الغني ، وإفقادا لهويتهم .

لكني بعد تدبر طويل في هذه القضية البالغة الأهمية ، وبعد تحليل الفكرة المحورية في تنظير العلماء العرب ، حول جوهر التفاعل الاجتماعي في العلاقات الاجتماعية ، كالألفة عند الغزالي ، والألفة الجامعة عند الماوردي ، والعصبية عند ابن خلدون ، وجدت أن هذه الأفكار المحورية تفيد في تفسير العلاقات البشرية في نطاق محدود ، كمجموعة الأسرة ، والجماعات الريفية والحضرية ، وبخاصة في تنظير ابن خلدون المتبلور في العصبية ، وهي الألفة الجامعة للأغلبية حول شخص متميز ، تجعل منه خليفة أو ملكا أو حاكما .

حديث عن الأزمة

اذا كان لنا اليوم أن نتحاور مع الدكتور الساعاتي عن علم الاجتماع في مصر فلا بد أن نتدارس معه أزمة هذا العلم في الوقت الحاضر ، لأن كثيراً من الأساتذة ، وآلافا مؤلفة من الطلاب ، وعشرات من أقسام الاجتماع ، ومعاهد الخدمة الاجتماعية وكلياتها على امتداد رقعة الوطن العربي ، ومراكز عديدة للبحوث والدراسات والتخطيط ، كل هؤلاء يمثلون كيانا متضخما بأكثر من الحاجة الحقيقية إليه ، مفككا لا يربط التواصل الشخصي أو التنظيمي بين أفراده ، والأهم من كل ذلك دوره القاصر عن فهم مشكلات الواقع الاجتماعي القائم ، ومشاركته غير الكافية .

● بعد اشتغال بعلم الاجتماع مدة تقترب من نصف قرن ، ما تعليقكم على هذه الأزمة ؟ وهل ترون امكانية للخروج منها ، وتجاوزها ؟

ـ « يرجع ذلك في رأيي إلى سيادة مبدأ « بذل أقل مجهود والمطالبة بأكبر مردود » الذي أصبح يتمسك به الطلاب ، والأساتذة ، والباحثون ، فالطلاب إن اهتموا يقرأون الكتاب المقرر ، ويطلبون بإلحاح حذف قسم منه ، وفق العرف السائد الذي أعترف به رسميا ، وأغلب الأساتذة يؤلفون كتبا منقولة من الكتب الأجنبية ، دون الاشارة إلى مصادرها ، وكثيرا ما يحشونها بأقوال الأساتذة الأجانب وآرائهم ، وهم لا يعون خطورة ذلك ، من حيث فقدهم لهويتهم المصرية ، وإرهاق الطلاب بأسماء وأقوال أساتذة كثير منهم متوسطو التفكير ، وتربيتهم على التبعية الفكرية للأجانب ، وإبعادهم عن التراث العربي ، أما الباحثون فهم فقراء في التفكير المنهجي السليم .

والسبيل إلى الخروج من الأزمة وتجاوزها يكون بالعدول عن سياسة الكم إلى سياسة الكيف ، وما تتطلبه من جدية ، وأمانة ، ومثابرة ، وسعة اطلاع ، وتعمق ، وطموح ، ووعي بالأخلاق الحسنة السائدة في الميادين العلمية ذات المستوى الرفيع ، وذلك بمرحلة الطلب والتدريب ، ومرحلة التدريس والبحث والتأليف » .

المحدود والشاسع

ومع ذلك فلا بد أن نشير بوضوح إلى أن علم الاجتماع يعاني أزمات تتجاوز المستوى المحلي ، وتكبل حركته ، وتعوق تقدمه ، من أبرزها أزمة التنظير في علم الاجتماع المعاصر .

ويمكننا القول عموما أن فلسفة المنهج في علم

الاجتماع تعاني من تخلف نسبي ، بالقياس إلى طرق جمع المادة والقياس وأساليبها ، ويجب ألا نخلط بين الميدانين ، لأنها على جانب كبير من التميز والاختلاف .

فموضوع فلسفة المنهج ينصب على تحليل طريقة العمل العلمية في علم الاجتماع ، وهو لذلك يمتد ليشمل ابتداء من إلقاء الضوء على بعض طرق البحث (من حيث قيمتها ودلالاتها وجدواها . . . إلخ) وصولا إلى المستويات العليا ، حيث يتصدى للمشكلات المعقدة المتصلة ببناء النظرية في علم الاجتماع .

فإذا ميزنا في ضوء التراث الحالي والتاريخ الذي قطعه علم الاجتماع بين علم الاجتماع النظري وتطوير الأنساق التصورية المجردة من ناحية ، والبحوث « الامبيريقية » (الواقعية) التي تجرى مستقلة عن ذلك نسبيا ، والتي كثيرا ما تؤدي إلى تحقيق إسهامات بارزة في مجال تطوير أساليب القياس لا إلى تطوير نظرية لعلم الاجتماع ، فإن ميدان فلسفة المنهج العلمي يمتد إلى الميدانين ، ويربط بينهما في نفس الوقت ، وعليه أن يسد الثغرة التي تفصل بينهما ، ويقرب الشقة التي تباعد بين جناحي علم الاجتماع الحقيقي .

فإذا كانت تلك هي ملامح الأزمة المعاصرة للتنظير في علم الاجتماع المعاصر فبديهي أن تكون لها آثار ممتدة إلى علم الاجتماع العربي خاصة ، وأن هذا العلم ـ كما أكدنا من قبل ـ يعيش على التراث الغربي ، ويأخذ عنه مظاهر ضعفه ، وأمراضه ، أكثر مما يأخذ عنه مظاهر الصحة والقوة .

* بوصفكم صاحب خبرة ميدانية طويلة في البحوث الاجتماعية ، وبوصفكم أيضا صاحب مؤلف هام في طرق البحث الاجتماعي ، ما تعليقكم على هذا التشخيص ؟

ـ إنني أوافقك فيما قلت عن أزمة التنظير في علم الاجتماع ، وعن معاناة فلسفة المنهج فيه من التخلف النسبي بالقياس إلى طرائق البحث وأساليبه ، ووسائل جمع البيانات وأدواتها التي تحقق لها تقدماً كبيراً ، ولكن الجدل حول هذا الموضوع في العالم الغربي قد انحصر بين مدرستين فكريتين ، إحداهما كيفية ، شغلت بما أطلقت عليه عبارة « التنظير الشاسع » ، والأخرى كمية ، عنيت بما أسمته « التنظير المحدود » ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى التراشق بعبارات نقد قاسية ، فالكيفيون يتهمون الكميين بأنهم مصابون باستحواذ الكم وهوس الأرقام ، والكميون ـ من جانبهم ـ يتهمون الكيفيين بأنهم كقراء الحظ في فناجين القهوة وفي الكرة البللورية ، أما القول الفصل فهو أن كلا من التنظير الكيفي والتنظير الكمي لازم لاثراء علم الاجتماع وتقدمه ، ولكن قدرة الباحث تبرز في اختيار التنظير المناسب للموضوع ، واختيار الطريقة المناسبة له ، ثم وسيلة جمع البيانات المناسبة ، وقد يحتاج الأمر في بعض المشكلات البحثية إلى استعمال التنظيرين معا ، كل واحد منهما في دائرته ، واستخدام أكثر من طريقة للبحث ، وأكثر من وسيلة وأداة لجمع البيانات .

والأمر الذي يجب الانتباه إليه فيما يتعلق بفلسفة المنهج في علم الاجتماع هو أن الذي ينقص المعنيين به تدريسا وبحثا ينحصر في العلم ، باستخدام القياس ، والاستقراء ، والاستنباط ، والاستدلال ، في منظورات اجتماعية . والتراث الاجتماعي العربي حافل بمصادر كثيرة ، ومتنوعة حول هذه العمليات المنطقية التي هي أساس فلسفة المنهج في علم الاجتماع ، والتي إن ألمّ بها المعتني بهذا العلم سهل عليه التنظير ، واستطاع أن ينأى بنفسه عن التبعية الفكرية للعلماء الأجانب ، وأمكنه تقديم إسهام نظري ومنهجي أصيل للفكر الاجتماعي العالمي » . □


أميل زولا


أدغار ديغا

اميل زولا وادغار ديغا

خصومة الأديب والرسام

بقلم : خالد القشطيني

من مفارقات الحياة أن أقرب الناس أكثرهم نزاعا ، ولا مثال أصدق على ذلك من أهل الفن والفكر الذين نجد بينهم خصومات لا تقل روعة ومهزلة . ومن أشهر هذه الخصومات وأبدعها ، الخصومة التي استعرت بين الرسام ادغار ديغا والكاتب اميل زولا .

عاش ديغا وزولا في أواخر القرن المنصرم في باريس ، وعلى مسافة لا تبعدهما كثيرا عن بعضهما ، وكانا قريبين فكريا في التقائهما في المدرسة الواقعية والطبيعية التي سادت عصرهما ، وأكثر من ذلك أن كل واحد منهما يعتبر قائدها في ميدانه ، زولا في الأدب ، وديغا في الرسم والنحت ، ولقد تمسك زولا بالواقعية والطبيعية تمسكا أعمى فنيا ونظريا ، فكتب في « القصاصون الطبيعيون » (١٨٨١) : « أن على الكاتب أن يعطي تحديداً دقيقا للمحيط وتأثيره على الشخصيات كضرورة علمية من ضرورات القصة المعاصرة . » ، وأكد في هذا الكتاب على أهمية الطبيعية في تأليف المسرحيات

وإخراجها .

وتأثر زولا باجتهادات عالمين ، الأول تاين الذي كتب كثيراً عن تأثير العرق والزمن والمحيط على تكوين الشخصية ، والثاني كلود برنارد الذي ناقش أفكاراً مشابهة في كتابه « مدخل لدراسة الطب التجريبي » (١٨٦٥) . وبوحي الكتاب الأخير نشر زولا « القصة التجريبية » ، المؤلف الذي أصبح مانفستو المدرسة الطبيعية التي ركزت في تطبيق المدرسة الواقعية ، وبالغت في ذلك ، وعولت على استخدام العلوم ، أو ما كان يتصوره الناس عليها .

التقنية العلمية في الأدب

قضت هذه الآراء بضرورة الاعتماد على التقنية العلمية في الأدب والفن ، والتأكيد على التجربة والملاحظة ، كما دعى إليها كلود برنارد ، وتطبيقا لكل ذلك كرس زولا حياته لذلك العمل الملحمي الذي صور في عشرين رواية متسلسلة الحياة الباريسية في عهد الامبراطورية الثانية ، بكل نفسخها ومشاكلها وشقائها وضياعها ، ورسم صورا دقيقة للعاصمة « البونابارتية » بمواسمها وسمائها وجمال حدائقها وصخب شوارعها ، ولتوخي التصوير الدقيق الطبيعي للحياة عمد الكاتب إلى دراسة موضوعه كما لو كان عالما اجتماعيا يعد تقريرا للحكومة ، فالأرقام والاحصائيات والتقارير الرسمية والدراسات الموضوعية أصبحت عدة له .

وعلى الطرف الآخر وقف ديغا ، يرسم لوحاته ، ويصنع تماثيله من نفس الأساس والمنطلق ، وقلما كرس فنان وقته وجهده لملاحظة موضوعه ودراسته دراسة واقعية ، كما فعل ديغا الذي اعتاد على قضاء ساعات طويلة مضنية في مراقبة موضوعه ونموذجه ، وملاحظته ، ودراسته ، وإعداد عشرات المخططات له من شتى الجوانب والزوايا قبل أن يفرغه بالزيت على اللوحة ، (قارن ذلك بما يفعله الرسامون المحدثون الذين يفرغون من الصورة في غمضة عين) ، وزيادة في ذلك أقام عدة منصات في « الاستوديو » على مستويات مختلفة ، تمكنه من ملاحظة موضوعه وتخطيطه من فوق ومن تحت ، ومن أي مستوى كان ، وطور أيضا المواد التي كان يستخدمها ، وطريقة مزجها ، ومن ذلك نفخ « الباستيل » بالبخار ، بحيث يصبح كالزيت ، أو مزجه بالغلسرين ، ونحو ذلك ، مما يخرجنا عن نطاق هذه المقالة . وقد فعل كل ذلك للحصول على أقرب تشابه مع الطبيعة .

ادغار ديغا مشهور بين الناس بلوحاته عن راقصات « الباليه » ، ولكن قلما انتبه الجمهور إلى التعابير الأليمة التي كان يضعها على وجوههن ، لقد قضى هذا الرسام أشهرا وسنين في مدارس « الباليه » ومسارحها ، وفرق « السيرك » ، يراقب الفنانات والفنانين في ساعات التعب والسأم والألم ، فالراقصة عنده ليست مخلوقا ملائكيا ساحرا ، وإنما عاملة تكسب قوتها بعرق الجبين والمعاناة ، وتجلس وراء « الكواليس » ، تنتظر دورها بملل ، وهي تتثاءب ، ولا تحلم في شيء غير أن تكون في فراشها نائمة .

عداء مستمر

كنا ننتظر من هذا الالتقاء في النظرة والمشرب أن يلتقي هذان الفنانان في جبهة واحدة ، لا سيما أنهما كانا يصوران في أكثر الأحوال نفس الشخصيات أيضا ، مثل عاملات « المكوى والغسيل » ، والراقصات والمومسات ، والعاملات والعاملين في السيرك ، وأبناء الطبقة « البرجوازية » المترهلة . . . الخ ، ولكن ذلك لم يحدث ، وما حدث هو العكس تماما ، أي عداء مستمر ، وربما عاد هذا العداء نفسه إلى استعمالهما نفس الطريقة ، عملا بالمثل الشعبي « ديكان على نفس المزبلة لا يتصافيان » ، فبادر زولا أولاً إلى كتابة قصة « القطعة الرائعة » (الماستربيس) ، وفيها صور فشل الرسام في محاولة تصوير الواقع ، وأكد على أن الكاتب بما يستعمله من



« البالرينا » من أشهر أعمال ديغا ، وتوجد في أحد متاحف باريس ، وقد رسمها عام ١٨٧٢ .

وسيلة الكلمة أقدر على التعبير والتصوير من الرسام ، وكان هذا تحديا واضحا لديغا ، فأشار بعضهم على زولا أنه يجب أن يستثنى من مثل هذا التعميم فنانا دقيقا في تصويره مثل ديغا ، لكنه أبى أن يستثنيه ، وقال : « لا أستطيع أن أقبل بأن الرجل الذي يحبس نفسه طوال حياته لمجرد أن يرسم « فتاة باليه » يساوي في المنزلة والقوة فلوبير أو دوديه أو غونكور » . وكان هذا التصريح أكثر من أن يستطيع

ديغا عليه صبرا ، والحق معه ، لأن زولا كان مجحفا

في حكمه . لم يحبس زولا نفسه في « الاستوديو » ليرسم فتاة « باليه » ، لقد كان يجول ويصول في أنحاء باريس حاملا معه قلمه ودفتره ، يراقب ، ويدرس ، ويرسم ، ويسجل ما يراه . وثأر الرسام لنفسه عندما سخر من طريقة اميل زولا في دراسة الواقع من قراءة التقارير والأرقام والاحصائيات ، فقال انه يذكره بالرجل العبقري الذي يحاول دراسة المجتمع بقراءة دليل الهاتف . وعندما نشرت قصة زولا « بهجة السيدات » في أمريكا (١٨٨٣) كتب ديغا إلى الناشر مقترحا عليه أن يضع في كل نسخة من الكتاب عينات من القماش و« الدانتيلة » التي لبستها البطلة ، وكان ديغا يستهزيء بذلك بمحاولة زولا تصوير الواقع بدقة ، فمهما أوتي القصاص أو الشاعر من عبقرية في الوصف فإنه لن يستطيع أن ينافس فرشة الرسام في تصوير الشيء أو الشخص ، والظريف في قوله أنه هو في الواقع الذي استعمل القماش « والدانتيلة » في تمثاله « الراقصة الصغيرة » إمعانا منه في الطبيعية .

واحتدمت المعركة بين الطرفين ، وتدخل فيها ادموند دي غونكور الذي وصف ديغا بأنه « رسام المومسات الساقطات » . ورد ديغا عليه بسلاحه ، وهو فرشة الرسام ، فرسم غونكور بشكل شخص مدّع يحاول أن يظهر أمام الناس بمظهر « نابليون » .

وكتب زولا فقال : « إن تخطيطات ديغا أحسن من لوحاته ، فهو يتلف لوحاته بضرباته الأخيرة ومحاولاته لانهاء الصورة » ، ثم سخر منه سخرية لئيمة فقال : « إنه ليس سوى فنان من الدرجة الأولى مصاب بالامساك » .

والمدهش في هذه المشادة أن كلا منهما كان يعرف في قرارة نفسه أن الآخر عملاق من عمالقة الفن . وكان اميل زولا من كبار النقاد الفرنسيين في الفنون التشكيلية ، ولم تغب عن ملاحظته عبقرية ديغا ، وكان ديغا ـ من جانبه ـ يقرأ روايات زولا وكأنها فصول من الكتاب المقدس ، بل وقد قام برسم بعض

مشاهد هذه الروايات . لقد كان كل منها يدرك مدى طبيعية وروعة إنتاج الآخر إلى الحد الذي جعلهما يسرقان من بعضها ، وهناك أمثلة كثيرة للتطابق بين أشخاصها ومشاهدهما ، لقد رسم ـ مثلا ـ ديغا خادمات المغسلة ، وصور حياتهن الكادحة في خمس لوحات في ١٨٦٩ ، ثم عرض هذه اللوحات في المعرض الانطباعي لعام ١٨٧٤ ، وبعد سنتين فقط نشر زولا قصة « دكان الدرام » التي وصف فيها عاملات المغسلة بشكل لا يترك شكا في أنه نقله أو استوحاه من رسوم ديغا ، وقد لاحظ نقاد آخرون تطابقا بين أعمال ديغا « صور في البورصة » وشخصيات رواية « الفلوس » لاميل زولا .

مشهد غرفة العرس

وفي مثل آخر وجد النقاد أن صورة ديغا المعروفة « بمنظر داخلي » قد جاءت في الواقع كتصوير تشكيلي لمشهد غرفة العرس التي وصفها زولا في قصة تريزة راكوا التي نشرها بعنوان « زواج حب » ، بهذه الكلمات :

« كانت هناك نار جيدة تتوهج في الموقد ، وترسل بقعا كبيرة من ضياء ذهبي ، يتراقص على الجدران والسقف ، ويضيء الغرفة بكاملها بإشعاع براق نابض ، وأمام هذا الضوء تضاءل المصباح ، واستحال إلى بصيص خافت . أرادت السيدة راكوا ـ عمة تريزة ـ أن تجعل الغرفة جيلة وناعمة ، وكل شيء فيها في بياض مضيء وعاطر كعش لغرام فتى بكر ، لقد طاب لها أن تزين الفراش بقطع إضافية من « الدانتيلة » وأن تملأ المزهريات على رف الموقد بباقات كبيرة من الورد ، وهناك تجلس تريزة على كرسي واطيء إلى يمين الموقد . . »

إن معظم ما ورد في هذا الوصف قد لقي ما يقابله في صورة ديغا « منظر داخلي » ، وقد أضاف الرسام من خياله ما يكمل ـ في الواقع ـ السرد القصصي والجو العام للرواية ، ومن ذلك « الكورسيه » الملقاة على الأرض ، القبعة العالية الرجالية ، والشال النسائي على السرير .

هناك كثير جمع بين هذين الفنانين ، لكن ما الذي أثار بينها هذه البغضاء والمشاحنة ؟

وأشار بعضهم إلى الخصومة التقليدية بين الفنون الأدبية والفنون التشكيلية ، بين القلم والفرشاة ، بين الكلمة والخط ، لكنني لم أجد ذلك التفسير مقنعا ، وكأحد الممارسين للسياسة وجدت التفسير الوحيد في إطار السياسة ، إذ لم يكن زولا فرنسي الأصل ، وإنما انحدر من عائلة إيطالية ، هاجرت إلى فرنسا في صباه ، ونشأ يتيما ، وعانى كثيراً من الفقر والحرمان والتشرد ، وقد أعطاه كل ذلك شعورا بالقلق والنقمة على المجتمع ، والتعاطف مع الحركات « الراديكالية » ، وقد نظر إلى المدرسة الطبيعية من الزاوية الاجتماعية ، كما ينظر إليها في أيامنا هذه النقاد السوفييت والاشتراكيون واليساريون عموما .

وعلى نقيض ذلك انحدر ديغا من أسرة « برجوازية » مترفة ، ذات أصول فرنسية عريقة ، ولذلك لم يتجاوب مع الحركات الثورية والاصلاحية في زمانه ، بل لقد نظر إلى المدرسة الطبيعية كما ينظر أبناء « الارستقراطية الأوروبية » وأساتذة « السوربون » و « اكسفورد » و « كيمبردج » إلى حياة البدو و « الاسكيمو » ، وبنفس الحرص على الدقة والموضوعية ، وقد تجلى هذا الاختلاف في النظرة في موقف كل منهما حيال القضية الشهيرة المعروفة بقضية « الكابتن دريفوس » ، فبينما ثار زولا على الظلم الذي أحاق بهذا الضابط اليهودي ، وصال وجال لاثبات براءته انضم ديغا إلى « البرجوازية » الفرنسية في تجريم الضابط ، ونظر باحتقار إلى محاولات زولا لاثبات العكس .

وأنّ كان سبب نزاعهما فقد جاد علينا هذا النزاع بفرص فريدة ، تفرجنا فيها على موكب العظماء ، في ساعات ظريفة من ساعات عراكهم ومهاتراتهم . □

بقلم : محمود المراغي

تحت الصفر

أطلق الاقتصاديون كلمة « معدل النمو » كتعبير موجز عن حالة الاقتصاد ومدى تقدمه .. ولكن .. ومع الارقام الاخيرة للبنك الدولي ، يبدو اننا بحاجة الى مصطلح جديد اسمه « معدل التراجع »

يسجل اطلس البنك الدولي الصادر عام ١٩٨٧ بعض المؤشرات الأساسية لحالة العالم في اثني عشر عاما ، تنحصر بين ١٩٧٣ و ١٩٨٥ .. وفي خانة متوسط دخل الفرد ، أو نصيبه من الناتج القومي تصدمنا المفاجأة ، فهناك ٣٩ بلدا اصبح نموها « تحت الصفر » .. وبعضها ـ مثل نيكاراجوا وزائير وغانا وليبيا ونيجيريا والسلفادور ومدغشقر يلغ فيها معدل التراجع نسباً تتراوح بين ٢٪ و ٤٪ كل عام .

ورغم أن معدل النمو لم يعد المؤشر الوحيد على ارتفاع مستويات المعيشة ، ورغم أن نظرية جديدة قد فرضت نفسها ، واعتمدت على ما يسمى اشباع الحاجات الأساسية ، كالمأكل والصحة والسكن والتعليم .. واعتبرت أن مؤشر النمو شيء أصم اذا لم يقترن باشباع الحاجات وبعدالة توزيع الدخل .. رغم ذلك فان نسبة النمو تظل مؤشرا رئيسيا على أي حال .

نحن إذن امام حالة يقف فيها جزء كبير من هذا العالم على عكس ما نظن أنها حركة التاريخ .. واصبح واضحا أن التاريخ لا يسير دائما للأمام ، وان التقدم ليس حتمية تاريخية . تحدث بالتقادم او مضي الزمن !

هذه الحقبة .. هذه الدول

في التفاصيل تستوقفنا الارقام واسماء الدول .

٣٩ دولة ليست عددا هينا ، بل إنه عدد يقترب من ربع ما ادخله البنك الدولي في دراسته والبالغ قدره (١٨٤) دولة .

كما أن عدد سكان هذه الدول ليس قليلا . انه يقترب من (٣٧٧) مليون نسمة .. أي ان هذه الملايين كلها تعاني ـ على الارجح ـ من تراجع في مستوى المعيشة ، وعلى مدى فترة زمنية تتجاوز الحقبة .

هنا نتوقف عند العديد من الامور .

أولها ، إن معظم الدول التي اصبح معدل نموها تحت الصفر ينتمي لما يسمى العالم الثالث ، وبالتحديد : افريقيا وامريكا اللاتينية ، الامر الثاني أن الفترة الزمنية موضع الدراسة هي الفترة التي تبدأ

بما سميناه ثورة النفط ، وقد اعقبها ومنذ عام ١٩٧٣ : ارتفاع في اسعار المواد الاولية ـ عدا النفط لبضع سنوات ـ وتأثر الكثير من الدول النامية التي واجهت عجزا شديدا في موازين مدفوعاتها مع العالم الخارجي ، وانكماشا في تجارتها وارتفاعا في مديونياتها .

لقد استطاع العالم الصناعي أن يحتوي الصدمة النفطية الاولى والصدمة النفطية الثانية .. وبينما بدأ جولته بالتكيف واعادة التوازن ، انهى الجولة بالهجوم على سلاح النفط ذاته وتجريده من ميزته النسبية التي رفعت الاسعار عدة سنوات .

في نفس الوقت ، كانت الدول النامية تسير ـ في معظمها ـ في خط آخر ، فعبر البعض أزمته ، وعجز البعض عن ذلك ، وكانت النتيجة سالبة .

ولكن .. لم تكن ثورة النفط ورد فعل الدول الصناعية ، وحصار المواد الأولية تمثل كل أسباب الأزمة .

فهناك الزيادة السكانية للبلدان النامية التي كانت تقل عن ١٪ سنويا قبل الحرب العالمية الاولى ، فأصبحت ٢,٤٪ منذ عام ١٩٥٠ وحتى الآن . وتضاعف عدد السكان من مليار الى مليارين بين منتصف القرن وعام ١٩٨٠ .

في نفس الوقت زاد سكان الحضر من (٢٥٠) مليون نسمة الى (٨٠٠) مليون نسمة في ثلاثين عاما ، ويبدو أن تكلفة ذلك كانت اكبر من عائده ـ ووسط هذا المسار التاريخي الذي زادت معه اعداد السكان واعداد المتجهين للحياة في الحضر جاءت السنوات الاخيرة بصدمات ابرزها : الجفاف والجوع والتصحر . قلت الامطار وانحسر اللون الاخضر من مساحات غير قليلة ، وبينما كانت بلدان مثل الهند تعلن الثورة الخضراء كانت الطبيعة في مواقع اخرى ـ معظمها افريقي ـ تعلن الثورة المضادة ، بتحويل مساحات غير قليلة الى أرض جدباء غير صالحة للزراعة .

... ملاحظات اساسية

في التحليل يمكن أن نقف عند ما نسميهم « الأفقر في العالم » ، وهم الذين لا يتجاوز دخل الفرد منهم دولارا وبضع سنتات في اليوم ، اي ان متوسط دخلهم يقل عن (٤٠٠) دولار في العام ، وسوف نجد تطابقا بين العديد من دول هذه المجموعة وبين من يسجلون معدلا للتراجع ، أو معدلا للنمو ، اطلقت عليه المؤشرات الاحصائية كلمة « تحت الصفر » وسوف يصدق ذلك بالنسبة لدول مثل اثيوبيا وزائير وافريقيا الوسطى وغانا وسيراليون .

مع ذلك فان التراجع ليس مقصورا على الفقراء أو الاشد فقرا،فهناك دول نفطية اصابها نفس الشيء مثل : ليبيا والامارات العربية بسبب تراجع اسعار النفط .. كذلك فان التراجع ليس متصلا في كل الاحوال بفقر الموارد ، فنيجيريا ليست اقل موردا من سنغافورة ، والارجنتين ليس اقل حالا من هونج كونج ، ومع ذلك فان نيجيريا والارجنتين يدخلان في مجموعة « تحت الصفر » ، وسنغافورة وهونج كونج والصين وبتسوانا يسجل كل منها معدل نمو يزيد عن ٦٪ سنويا .

هل تتصل الظاهرة اذن بادارة الموارد وليست بما تمتلكه الدولة من موارد ؟

الاجابة الصحيحة أن العوامل تتداخل .. وان كانت السياسة الاقتصادية تلعب دورا حاسما .. كما أن بصمات الاقتصاد الدولي ووطأة الظروف الطبيعية .. تلعب كلها ادواراً بنسب مختلفة .

وايا كان السبب ، أليس ملفتا للنظر ـ مع التقدم الهائل في العالم ـ أن يكون التقدم في ٣٩ دولة الى الخلف ؟

الامر بحاجة الى دراسة ، فالتقدم للخلف يعني تدهوراً في نصيب الانسان من الحياة ، ابتداء من وجبة الطعام الى الامتار التي يحتلها في مسكن .. أو مقبرة ! □

الضوء وسلوك الإنسان

بقلم الدكتورة : أمل علي المخزومي

هل للضوء تأثير على سلوك الانسان ، وتصرفاته ، ونشاطاته ؟ اختلف الباحثون في هذا الأمر ، وذهبوا مذاهب شتى ، لكن تعاقب الليل والنهار ، وبزوغ الشمس ، وظهور القمر ، يبين لنا الحكمة من وراء ذلك ، ويعطي بعض الأجوبة .

تعتمد الحياة على ثلاثة أسس ، هي الهواء والماء والشمس ، إذا فقد الانسان عنصرا منها يختل التوازن ، وتتعذر الحياة . وللشمس دور كبير في تنظيم الحياة العملية للأفراد . يكد الانسان طوال النهار ليخلد للراحة ليلا ، وقد سارت على هذا النظام جميع المخلوقات تقريبا ، وقد جعل الله النهار أكثر حيوية من الليل بالشمس ، بما لمفعول ذلك النور الذي يضفي على الانسان والمخلوقات الأخرى الحيوية والنشاط ، تمد الشمس الأرض بالحرارة وهذه بدورها تساعد على ادامة الحياة ، فلو لم تكن الشمس لجمدت الأرض وبالتالي استحالت الحياة ،

العين البشرية :

تؤثر أشعة الشمس على تركيب العيون ولونها ، فتتميز عيون الشعوب التي تسكن في المناطق القريبة من أشعة الشمس بسواد العيون ووسعها ، أما البعيدة عن أشعة الشمس فتتميز بعيون ملونة ، أو شديدة الزرقة .

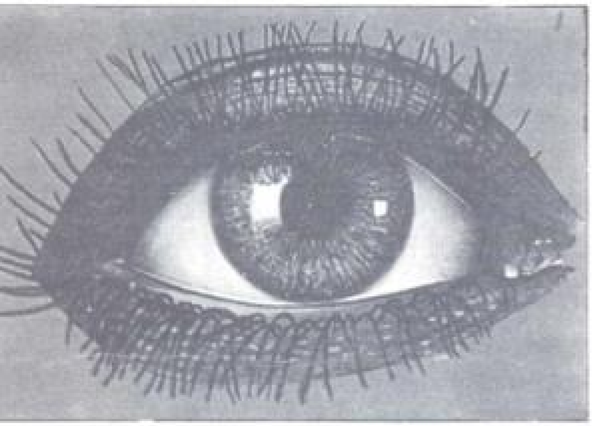
تكون العين البشرية حساسة لموجات الضوء التي لا تقل عن ٣٥٠ ولا تزيد عن ٧٥٠ جزءا من بليون من الأمتار الضوئية ، كما تستطيع العين تمييز الطيف الشمسي ، وذلك بواسطة المستقبلات الموجودة في شبكية العين ، وتحتوي هذه الشبكية على حوالي ١٢٥

ـ ١٣٠ مليون مستقبل ، مهمتها استقبال الموجات الضوئية ، وإرسالها الى المخ ، وبذلك يستطيع المخ تمييز الألوان . لا تتصل المستقبلات بالدماغ مباشرة ، بل تعطي إشارات كهربائية الى نوعين من الخلايا ، هما الخلايا ذات القطبين ، والخلايا ذات العقد ، وهما ما نسميها المستقبلات المخروطية والضوئية ، وللمستقبلات المخروطية قدرة على النظر في الاضاءة الجيدة ، ورؤية الأشياء الصغيرة والكبيرة بالتفصيل ، كما تستطيع تمييز الألوان بشكل واضح ، وتنقسم المستقبلات المخروطية الى ثلاثة أنواع ، يمكنها تمييز الطيف الشمسي ، بيد أن منها ما يكون حساسا للون الأزرق ، وما يكون حساسا للون الأخضر ، أو حساسا للون الأحمر ، أما المستقبلات العضوية فإنها تقوم بمسؤولية النظر في العتمة ، لكنها لا تستطيع التمييز بين الألوان .

تأثير الضوء على الانتاج :

تستلم الموجات الضوئية من مختلف المصادر ، كالشمس ، والمصابيح ، والشموع ، والأجهزة الالكترونية . وللضوء آثار نفسية وجسمية ، وله تأثير على الانتاج اليومي للفرد .

هناك دراسات عديدة أجريت لمعرفة مدى تأثير الضوء على إنتاج الأفراد ، اضافة الى تأثيره على العلاقات القائمة بينهم ، وعلى سبيل المثال هناك دراسة قام الدارسون فيها بمراقبة سلوكيات الأفراد ، تحت نسب مختلفة من الضوء ، فوجدوا بأن انتاج النساء يزداد عندما تكون هناك نسبة عالية من الضوء ، وتعليل هذه الظاهرة هو أن النساء يشعرن بأنهن مراقبات في ظروف الضوء الساطع ، وهذا ما يدفعهن الى زيادة انتاجهن ، وقد تكون الزيادة بسبب الراحة النفسية التي تشعر بها المرأة في الضوء الساطع ، ذلك بأن المرأة ترغب في تسليط الأضواء عليها ، لاظهار محاسنها ، وزينتها التي صرفت وقتا طويلا لاعدادها ، وهناك دراسة أخرى أظهرت نتائج ايجابية على انتاج الأفراد في أداء أعمالهم في ضوء الشمس ، والسبب هو أن ضوء الشمس أكثر راحة للعين والجسم ، لهذا دأبت الشركات على إنتاج مصابيح تحاكي ضوء الشمس ، لكن يبدو أن للضوء تأثيرا متباينا على الأفراد من مختلف الأعمار ، فقد ذكرت الباحثة جين واين بأن الضوء الساطع أكثر تأثيرا على الأفراد في سن ٢٥ سنة ، مقارنة بالأفراد البالغين ممن هم في سن ٤٥ سنة ، كما أن ضوء المصابيح الساطعة يؤدي الى انعكاسات عديدة على سطح الأجسام ، مما يؤدي الى ارهاق العين وتعبها ،



العين البشرية

ومن نتائج الاستفتاء الذي قامت به جين أن الأفراد ذكروا بأن الضوء الذي يحاكي ضوء الشمس في نسبته هو الأحسن والأفضل للعين ، كما يضفي ضوء الشمس على الانسان الشعور بالراحة .

طومسون نيلسن ، وماركريت جونسن من جامعة البرتا وجامعة جزيرة الأمير ادوارد ، لم يؤيدا الرأي القائل بأن الضوء الساطع يؤثر تأثيرا ايجابيا على الانتاج ، بل أشارا من خلال تجربتهما على الطلاب ، بأن الطلاب قد ذكروا أن الضوء الساطع يؤدي الى التعب الشديد ، مما يؤدي الى ضعف انتاجهم ، إضافة الى الشعور بالضجر من شدة الضوء .

الضوء والشاعرية :

لموقع المصابيح أثر على الراحة والهدوء والشاعرية ، فالأشخاص الجالسون حول منضدة عليها ضوء أكثر تفاعلا ، كما أن الضوء الخافت يضفي على المكان جوا من الشاعرية والتفاعلية ، لهذا

تجد الأماكن الليلية والنوادي تستعمل الضوء الخافت الذي يؤدي الى راحة الأعصاب ، وبالتالي نجدهم يتكلمون فيما بينهم بصوت خافت ، مقارنة بالأماكن

الأشد إضاءة ، كما أن وضع المصابيح على الحائط أو خلف الستائر يضفي على المكان راحة وهدوءا وشاعرية ، واذا كان جانب من الغرفة مضيئا والآخر معتما أدى الى الشعور بضيق تلك الغرفة .

أثر الأجهزة على العين :

للأشعة الصادرة من التلفاز والأجهزة المبرمجة التي تتميز بطول الموجات الضوئية أثر كبير على أعصاب العين ، ويؤدي جلوس المرء أمام تلك الأجهزة فترة طويلة وبمسافة قصيرة الى تشبع العين بهذه الأشعة ، وعندما يغلق المرء عينيه يشعر بوجود هذه الأشعة التي

تبقى فترة من الزمن ثم تتلاشى ، وهذه الظاهرة شبيهة بظاهرة التحديق في المصباح مدة طويلة ، مثلما يلاحظ الفرد عندما يكون في مكان مضيء ثم يدخل

فجأة في مكان متوسط العتمة ، فإنه لا يستطيع رؤية الأشياء الموجودة في ذلك المكان .

الضوء ومرض الكآبة :

يتكيف جسم الانسان مع البيئة الخارجية ، والضوء شيء منها . وتلعب الغدة الصنوبرية دورا

مهما في هذا التكيف ، وهي تقع تحت سطح المخ وعند قاعدته ، وتفرز هرمونا يسمى ميلاتونين **Melatonin** ، يزداد هذا الافراز كلما تلاشى النهار وقصر ، فتكون الافرازات في الشتاء أكثر من الصيف ، ويمكن قياس حساسية المرء للضوء من

خلال كمية الهرمون الذي يفرز ، فكلما زاد الهرمون أعطى الجسم اشارات لمرض الكآبة . الانسان يشعر بضيق يشبه الكآبة عند الغروب ، والسبب هو زيادة إفرازات تلك الغدة وقد اتخذت طرق علاجية لمرض الكآبة باستعمال نسبة عالية من الضوء ، تعادل ١٠ أضعاف الضوء المستعمل في المكاتب ، وذلك لعلاج المصابين بالكآبة يوميا ، فيشعر المريض نتيجة لذلك بالراحة وزوال المرض .

أشار الباحث دانيال كريك بأن مرض الكآبة يزداد في الشتاء أكثر من الربيع ، لأن ليل الشتاء أطول ، ونتيجة لذلك يتعرض الانسان الى فترة أقل للضوء . ولو قارن دانيال بين الشتاء والصيف لكان أكثر دلالة ، وقد يكون لبرودة الشتاء بشكل غير مباشر أثر في مرض الكآبة ، لأن الانسان يقبع في البيت فترة أطول طلبا للدفء ، أما في الفصول الأخرى فانه يذهب الى أماكن التسلية ، كالسباحة ، والتنزه في الحدائق ، وزيارة الاصحاب ، مما يضفي على تلك النشاطات والعلاقات الاجتماعية نوعا من الراحة والاستجمام الذي يبدد الشعور بالكآبة .

هناك طرق علاجية أخرى استعملت في المستشفيات لعلاج الأطفال المصابين بالاعياء ، أو صعوبة الوقوف ، أو الشعور بالكآبة والحزن ، واستعملت لعلاج الأطفال سريعي التهيج والبكاء دون سبب واضح ، إضافة الى استعمال الضوء لعلاج الأرق والقلق استعمل الضوء الأخضر والأزرق لتخفيف مرض الكآبة ، وكانت نتائج تلك الاستعمالات جميعها ايجابية ، واستعمل الضوء الأزرق لعلاج المولودين حديثا المصابين بمرض اليرقان ، وذلك بعمل حمامات مضيئة بالضوء الأزرق ، إضافة لاستعماله في علاج الأطفال المصابين بتسمم الدم

قام الباحث روبرت بتجربة في لوس انجلوس لقياس أثر الضوء على الأفراد من الناحية النفسية ، وطلب من طلابه أن يتخيلوا لونا معينا للضوء الذي



يضفي اللون على الجميع الهدوء والسكون

يرغبون فيه ، ولم يذكر بعض الطلبة لونا معينا ، فاقترح عليهم أن يتخيلوا اللون الأزرق أو البرتقالي ، وطلب من الجميع أن يتخيلوا أنفسهم في حمام مضيء بالألوان التي تخيلوها ، وسمح لهم برؤية الضوء الذي تخيلوه ، وسألهم فيما بعد عن شعورهم ، فاتفقت الاجابات على أنهم شعروا بنوع من الراحة ، فوجد أن رؤية الضوء لها أثر أكبر من الاستعمال الحقيقي للضوء ، وأيده في ذلك الباحث هارس من خلال نتائج الاستفتاء الذي قام به على بعض الموظفين ، فوجد أن ٨٥٪ منهم قد ذكروا بأن للضوء أثرا على راحتهم وإنتاجهم اليومي .

هناك أوقات يؤثر التطلع فيها الى أشعة الشمس تأثيرا كبيرا على أعصاب العين ، كوقت الغروب الذي قد يؤدي الى اصابة العين بأمراض عديدة ، وقد وجد الباحثون بأن التعرض الى أشعة الشمس فوق البنفسجية يؤدي الى تغيير لون الجلد وطبيعته ، وقد يؤدي الى الاصابة بمرض سرطان الجلد ، لهذا ينصح الأطباء الأشخاص المعتادين على السباحة ، والجلوس على ساحل البحر أن لا يطيلوا التعرض الى الشمس خاصة في ساعات الظهيرة .

الضوء والسلوك :

يختلف تأثير الضوء على سلوك الأفراد باختلاف الألوان ، فاللون الأحمر والبرتقالي يشعران الفرد بالحرارة والدفء أكثر من اللون الأزرق ، أما اللون الأخضر فإنه يعين الفرد على التركيز .

يستعمل الانكليز اللون الأخضر في غرفة العمليات ، فلون الجدار والشراشف والمناشف جميعا في المستشفيات هو اللون الأخضر ، كي يساعد الطبيب الجراح على التركيز في وقت اجراء العملية ، وهناك بعض المدارس تستعمل لوحات الكتابة المطلية باللون الأخضر لنفس السبب .

قام بعض علماء النفس الانكليز بتجربة ، وذلك بأخذ ٢٨ طالبا الى حانة لعب القمار ، وقسموا قسمين ، قسم يلعب في غرفة مضاءة بالضوء الأحمر ، والآخر في غرفة مضاءة بالضوء الأزرق القاتح ، فوجدوا أن المجموعة الأولى كانت تقامر أكثر من المجموعة الثانية ، لهذا نجد أصحاب الحانات يستعملون الضوء الأحمر لدفع الأفراد الى المغامرة كي يخسروا أكثر .

أما اللون الأبيض فله أثر على شعور الأفراد . قام باحث سويدي بتجربة على ١٢ ملاحا في السفن والبواخر الكبيرة ، وذلك باستعمال اللونين الأبيض والأحمر ، فوجد أن الملاحين لا يميلون الى اللون الأحمر ، وإنما يفضلون اللون الأبيض . ذكر بعضهم انهم يلاقون صعوبة في ايجاد الطريق عندما يستعملون اللون الأحمر . نلاحظ انتشار اللون الأبيض في الملاحة ، ثم يليه اللون الأزرق ، وقليلا ما يستعمل اللون الأحمر لنفس الأسباب المذكورة . □

لكنهُ.. لن يعود

إلى صديقي الشاعر الذي مضى . . .

شعر/ عزت الطيري

(١) (ابتداء)

قمرٌ أم ندى نجمةٌ أم شذى
وردةٌ أم صهيل دمعةٌ أم هديل
مطرٌ أم دماء أيهذا المساء ؟!
أيهذا الفتى الفوضوي المعبأ
بـالحـزنِ والأمـنـيـات !
أنتَ عذّبتنا بالبكاءِ الجميلِ ،
عـلى مهـرة المسـتحـيلْ
أنتَ أرهقتنا بحساباتك الخائباتِ
حينَ يسقطُ من كفكَ النردُ ،
حين يذبلُ في حقلك الوردُ ،
حينَ يلسعك البردُ ، حينَ تتكرك الفاتنات
وقد كنت أشجيتهُنّ بدمعك ،
قلْتَ في صدرهنّ المواجعَ ، عند ابتداء الغناءْ
مرة .. قلتَ لن نلتقي !!
مـرةً قلتَ لن أكتبَ الشعرَ ، لن أرشقَ الـورد
فوق جبين البنات
والتقينا كثيراً ، غير أنّ الهوى فاتنا ،
والمحطات بدّلت اللافتاتُ وتهنا كثيراً ،
وعُدنا لتسبقنا الحافلاتْ

(٢) (شهادة أولى)

كان يأتي إلينا مثقلاً بعذاباته ، حاملاً تعباً ،
وفوضاهُ في كفهِ موسماً من حنينْ ، ثم يجلس
يشرب قهوتهُ ، ويقلّب أوراقهُ
باحثاً عن صحابْ ، وعن إخوةٍ طيبينْ ،
وعن بيتِ شعرٍ جديدْ ، وعن أغنياتٍ ،
تفتش في ظمأ الروحِ ، تروي أحاديثَ قلبٍ حزينٍ ،
كان يعرفنا واحداً واحداً ،
ثم ينكرنا واحداً واحداً ، ويمضي
لتسبقه موجةٌ مِنْ جَوىً ، وعصفورة هَرَبَتْ فجأةً ،
لتحطَّ على وجههِ المتألقِ كالياسمين !.

(٣) (شهادة ثانية)

ضيّقٌ وقتهُ ، ضيّقٌ سرب أيّامهِ ،
(وعيناه واسعتان) ، واسعات سماواتهُ ،
كان يقبضُ أحزانهُ ، ويقيّد أشجانهُ ،
ثم يطلقُ أطيارهُ في الفضاءِ البعيد

مَنْ يعيدُ الفتى ياصحابْ ؟
مَنْ يعيدُ المُحبَّ الجسورَ لأحبابهِ ؟
مَنْ يعيدُ الغناء لعرسِ البناتِ ؟



مَنْ يعيدُ الغزالاتِ للسهلِ ؟
مَنْ يعيدُ الفراشات للحقلِ ؟
مَنْ يعيدُ الربيعَ لأشجارِهِ ؟
مَنْ يعيدُ الفتى الفوضويّ
لأمٍ بكَتْ ، وارتمتْ تحت أقدام آثارِهِ ؟!

(٤) (انتهاء)

لن يعودَ الفتى ياصحابْ ،
ربما يشربُ الآنَ قهوتَهُ في مكانٍ قصيّ ،
باحثاً عن قمرْ ، وعن وجه طفلٍ نقيّْ ،
وعن فاتناتٍ ، يقلنَ كلاماً جيلاً
وعن مستحيلٍ شهيّ ربما ربما
ربما يشعر الآنَ أنَّ الطريقَ الذي كادَ
يسلك صعبُ ، وأنّ الممراتِ جَدْبُ ،
وأنّ الصديقَ احتفى بالعدوّ ،
وأنّ العدوّ اختفى بالصديقِ ،
وأنَّ الطريقَ بعيدٌ ، وأنَّ البعيدَ بعيدْ .
ربما ربما ولكنّه لن يعودْ ولكنَّه لنْ يعودْ

إعراب في البدن !

بقلم الدكتور محمد حكمت عبدالدائم

تُرى لو كان لكل جملة مبنية معنى ، فما معنى مبناك ؟ وإن كان لكل كلمة مغزى ، فما مغزى أحشائك؟ وإن كان لكل عضو تأويل ، فما تأويل أعضائك ؟وإن كان لكل اسم دلالة ، فماذا أخفت أسماؤك ؟ وإن كان لكل مثلٍ عبرة ، فما عبر أمثالك ؟

أما العقل فبه تعقل لتتدبر ، ومتى عقلت فتوكل ، فلولا العقل والعقال لاستحال كل مقال ، لأن أصل القول الربط بين الاسم والخبر ، وبين الفعل والفاعل . والعقال هو الحبل الرابط . والعقل هو الاستمساك ، وأنت حين عقدت الأمر اعتقدت ، فعقلت ثم تقولت ، وحددت المعنى ثم توكلت ، ولو انفرد العقل دون التوكل،والقول دون المعنى لاختل المبنى على كل تدبير ، وما كان ليصح . أما التوكل دون تعقل فلا يحدث أصلاً . إذ علام تتوكل ، وفي أي مبنى يتجلى المعنى ؟ يولد العقل مخفياً ، ثم يستتير فينمو فيتدر ، ثم يغشاه حُسبان الأيام فيخسف به .

أما القلب فهو الباطن في يسارك ، يتقلب كالدم مع كل نبضة في وريد وارد إلى شريان شارد ، كل ساعة هو في حال ، شغوف ملتف بالشغاف ، فؤاد مفتئد بهواه ، فما صدر عنه صدر في شريان نابض مندفع . هي مضغة القلب تسري قوتها في جميع أوصالك فتحييها ، فإذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فرح طرب لفرحه الجسد كله . وأما الغضب فهو جمرة توقد في قلب ابن آدم ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه .

. واللسان هو الرسول الترجمان ، ينطق بهوى القلب ، وبدفقه النابض ، وباسم العقل وبفعله الأمر ، وهو في الوسط بينهما يشهد عليهما ، كلسان الميزان ، فما تكلم إلا بكليهما ، من العقل الأمر والنصل ، ومن قلب الصدر الصدور . فمن ادعى أن اللسان من العقل وحده فقد تعالى في دنياه ، ومن ادعى أن اللسان من القلب وحده فقد تهاوى في هواه ،وأما من أتقن صنعته وعدل ميزانه فقد أحسن مبلغه وأتم ترجمته ووفى رسالته .

وكان السمع حركة من أنفاس صدرية ، في أشكال شفوية ، فتموجات هوائية ، في مَحارة أذنية ، ثم في باطن الأذن اختلاجات عظمية ، ثم في النفوس طرب واهتزاز ، أو اضطراب ورَجَفان . فثقل الحركة له في الأذن وَقْر ، وثقل الحركة له في النفس وَقار .

ثم كان البصر للاهتداء ، والبصيرة للاستهداء . فالعين أم البصر ، والنفس أم البصيرة ، والنظر واسطة العين إلى البصر ، والقلب واسطة النفس إلى

البصيرة ، ومرض العين غشاؤها ، ومرض القلب كنانه . وميل العين حَولٌ في البصر ، وميل القلب عِوَج في البصيرة .

وفي الوجه الجبهة ، والجبينان ، والحاجبان المتوثبان ، والعينان الحيتان ، والخدان المتوردان ، والأنف الأنوف ، والفم الخلوف . والجبهة مقدمتك وحركتك ، إذا فوجئت انضمتْ وانحرفتْ ، وإن همتْ انجرتْ وانعقدتْ ، وإن تيسّرت استرختْ وسكنتْ . والعينان حيّتان توسعتا وغدقتا عند الشدة ،واستحيتا عند المذلة ، واحتجبتا بانثنين متوثّبين حاجبين عند الرهبة» وذبلتا عند التعب ، وارتبكتا عند الحيرة والأزمة ، فهما عينا حالك ، وراويتا ماقي بالك .

والخدّان المكتفان ، فيهما يتجلى القلب احراراً لبشرى أو شحوباً لنبأ ، وفيها تتجلى النفس استدارةً لانبساط فيها ، أو تكززاً لتوتر يروعها ، أو هبوطاً لخمود يتغشاها . والجبينان المُعْرضان ، والأنف الأنوف في الرّغام ، والفم الخلوف في الصيام ، كل هذا للوجه ، لذا توجه له النظر والانتظار ، وتوجب له الاحترام والاعتبار ، وانفرد بعظيم مبناه ، وبتجلي معناه ، فهو صفحة الانسان ومجلاه .

والرحم في الحوض ، والانسان على الأرض . إذا استحاض ماء الرحم فهو الحيض ، وإن استحاض ماء الأرض فهو الفيض . الرحم موضع الخلق ، والرحمة تعاطف بين الخلق . فالرحم مقر تخلّق وانفطار ، والأرض دار تخالق واعتبار . لذا استوجب كل ابن رحم الرحمة ، وكان في كل كبد حرّاء أجر .

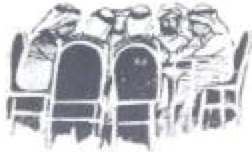
فإذا رماك النعاس فأنامك ، كان نومك كالبرزخ بين اليقظة والحلم ، والحلم رؤيا انفرد بها النائم ، واليقظة رؤية أجمع عليها الأنام ، في الحلم غلبة عليك ، وفي اليقظة غلبة لك ، وفي كليهما حياة وانفعال للنفوس والألباب . لذا كان النوم سباتاً بين حياتين ، وبرزخاً بين عالمين ، وظلمة بين نورين ، نور اليقظة الترابية ، ونور الرؤى الخيالية .

والكل في الكل إنسان ، وكلنا أنام ولا مفرد لنا . نحن الورى على الأرض ، فما أورينا إلا أنفسنا ، التبسنا البشر لبوساً وتلونّا لكل بُشرى ، أم وَرَيْنا أنفسنا وَرْياً كما يري القيح جوفه ؟ بل الانسان تراءى لنفسه في سواد نفسه ، فسمي إنساناً ، كالمثال الذي يرى في سواد العين فسمي إنسان العين . تراءى الانسان لنفسه فاستأنس ، وظن الظنون ، وأصبح كالرائي نفسه في حلم فتخبّط ، ولم يدر أهو الرائي أم المترائي ، وما هو إلا بصيرة على نفسه .

كذلك جملة أمرك ، حيرة بين رؤيتين ، وجملة بين قراءتين ، والحيرة حركة ، والحركة حياة . فما لك بعد هذا إلا الحركة والاعراب ، فاعرب إن كنت بشراً عربياً معربا ، فإن من أحسَنَ إعرابه أقام جملته ، وأصاب حركته ، وأبان معناه ، وأبرأ محياه . □

منطـــق مقبـــول

● دهش مدير الفندق الكبير عندما طلب منه « جون روكفلر » المليونير الأمريكي الشهير أن ينزله في أرخص غرفة في الفندق . فقال مدير الفندق بعد وجوم : ولكن ابنك ياسيدي يستأجر أفخر أجنحة الفندق عندما ينزل عندنا ، فرد المليونير في ابتسامة هادئة : أيها الشاب ان لابني أبا ثريا أمّا أنا فلا .



منتدى العربي

قضية

أرقام الحساب عربية أم هندية؟

بقلم : الدكتور سعيد النجار *

عرف الوطن العربي منذ مدة طويلة طريقتين لكتابة الأرقام . الطريقة الأولى وهي الشائعة في بلاد المشرق العربي وفي كل البلاد الاسلامية غير العربية التي تستخدم الأبجدية العربية مثل ايران وأفغانستان وباكستان وتركيا . وفيها تتخذ الأرقام هذه الصورة :

٠٩٨٧٦٥٤٣٢١

أما الطريقة الثانية فهي الشائعة في بلاد المغرب العربي . وفيها تتخذ الأرقام الصورة الآتية :

0987654321

وهي أيضا صورة الأرقام المعروفة في البلاد الأوروبية . ويطلق على هذه الصورة أحيانا الطريقة الغبارية .

قبل عقد السبعينيات

وقد سارت جامعة الدول العربية منذ انشائها سنة ١٩٤٤ على الطريقة المشرقية في كتابة الأرقام ، ولم يكن هذا الموضوع محل خلاف أو شكوى من أحد ، واستمر الحال كذلك حتى نهاية عقد السبعينيات ، حين قررت الجامعة التحول من الطريقة المشرقية الى الطريقة المغربية أو الغبارية ، وأعقب ذلك حدوث نفس التحول في المنظمات العربية التابعة لأسرة جامعة الدول العربية ، واليوم نجد أن كل التقارير الرسمية والبحوث والجداول الاحصائية تستخدم الطريقة المغربية في الأرقام ، واختفت الصورة المشرقية للأرقام تماما من دائرة الجامعة العربية

* استاذ سابق بجامعة القاهرة .

والمنظمات العربية الحكومية الأخرى ، بما فيها المنظمات ذات الاستقلال الذاتي ، مثل الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي وصندوق النقد العربي وغيرها .

ولا تخفى الأهمية الكبرى لهذا التحول ، فان معناه أن الجامعة العربية والمنظمات العربية الأخرى توافرت لديها أسباب قوية دفعتها الى تغليب الصورة المألوفة في ثلاثة أقطار عربية (تونس والجزائر ومراكش) وأوروبا على الصورة الشائعة في سائر الأقطار العربية ،وتغليب نظام مألوف لدى ٤٥ مليون فرد عربي على نظام مألوف لدى ١٣٥ مليون عربي ، وأخطر من هذا كله أن النسبة الساحقة من التراث العربي والاسلامي لا تعرف الا الصورة المشرقية للارقام ، ويصدق ذلك على المساجد التاريخية المنتشرة في أنحاء الوطن العربي والعالم الاسلامي ، والمخطوطات التي انتقلت الينا عن مدة تربو على ألف سنة ، والمصاحف النادرة ، والأواني الخزفية القديمة والمسكوكات النقدية الأثرية ، وهكذا حيثما قلبت النظر في تراثنا في أي مظهر من مظاهره فإنك - ولا ريب - تجد الصورة المشرقية للأرقام ، ولن تجد مسجدا يحمل تاريخا في صورة 985 مثلا ، أو مصحفا يحمل ترقيما في صورة 34 اللهم الا في حالات متناثرة في المغرب العربي ، ولكنك سوف تجد هذه الارقام في تقارير جامعة الدول العربية التي صدرت عنها بعد أواخر عقد السبعينات .

أين هي الحقيقة ؟

أقول انه لا بد من وجود أسباب بالغة القوة لنبذ نظام مستقر مألوف لمدة عشرة قرون من أجل نظام يختلط في ذهن المواطن العربي العادي في معظم أرجاء الوطن العربي والعالم الاسلامي بالصورة الأوروبية أو الافرنجية لكتابة الأرقام .

يبدو أن السبب في هذا القرار الخطر يرجع الى نظرية تقول ان الصورة المغربية أو الغبارية هي الصورة العربية الحقة ، أما الطريقة المشرقية فهي عند أصحاب هذه النظرية منقولة عن الهند ، ومن ثم فان احلال الصور المغربية للأرقام محل الصورة المشرقية نتيجة منطقية لحركة التعريب التي تقتضي الأخذ بالعربي الخالص ونبذ الغريب المستورد .

وقد جاءت هذه النظرية في بعض البحوث التي نشرت تحت اشراف المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الرباط التابع لجامعة الدول العربية ، وأود بهذه المناسبة أن أعرب عن شكري للأستاذ جورج عطية مدير الدائرة العربية في مكتبة الكونجرس في واشنطن الذي لفت نظري الى هذه البحوث ، ومن بين هذه البحوث دراسة للأستاذ محمد سراج - الأستاذ السابق في جامعة القرويين - بعنوان « الطابع العربي في الأرقام الرياضية » ونشرت في مجلة اللسان العربي في يناير ١٩٦٥ ، ويقول في نهاية بحثه

« يستنتج من كل ما ذكر أن الأرقام الحسابية الجاري العمل بها في البلاد المغربية هي من وضع عربي مغربي ، لأن عرب المغرب لم يتصلوا بالهنود ، وانما اتصلوا بالاغريق الذين لم تكن لهم طريقة منظمة لكتابة الاعداد ، كما اتصلوا بالرومان ، وهم أصحاب طريقة بسيطة في رقم الاعداد . يضاف الى ذلك الاشادة بعرب المغرب فقط ، من أجل محافظتهم على طريقة أجدادهم ، واطلاق اسم الأرقام العربية عليها ، ونقلها الى أوروبا عنهم ، وتسمية السلسلة المقابلة (يعني الطريقة المشرقية) باسم الأرقام الهندية الى غير ذلك »

وكان الأستاذ السراج قاطعا في أن الصورة المشرقية مأخوذة عن الهنود كما يبدو ذلك من عبارته الآتية :

« ان عرب المشرق كانوا وسيلة لاظهار الكنوز العلمية الهندية التي ازدهرت عندهم ومنها على الخصوص فن الحساب وأرقامه ، وان أعظم فضل يشاد به لهم هو نقلهم الأرقام الهندية » .

كذلك تناول الأستاذ سالم محمد الحميدة نفس

الموضوع في بحث له سنة ١٩٧٥ بعنوان « الأرقام العربية ورحلة الأرقام عبر التاريخ » وهو يتفق مع الأستاذ السراج في أن الطريقة المغربية أو الغبارية ابتكار عربي بحت لا يمت الى الهنود بصلة ، ولكنه يختلف مع الأستاذ السراج في أصل الطريقة المشرقية . فهو لا يذهب مذهب الأستاذ السراج في أنها منقولة عن الهنود ويرى أنها هي الأخرى ابتكار عربي ، ولو أنها منقولة عن الطريقة المغربية ، غير أن العرب أطلقوا عليها اسم الأرقام الهندية اكراما منهم للهنود الذين كان لهم الفضل في وضع النظام العشري للأرقام ، ويختتم الأستاذ الحميدة بحثه بالعبارة الآتية : « وبذلك نستطيع القول بأن العرب قد توصلوا الى نتيجة لا تقل قيمتها العلمية عن ايجاد أو اختراع أشياء جديدة ويؤهلهم ذلك الى مركز الواضع أو المخترع .

أما بالنسبة للسلسلة الثانية (يعني المشرقية) التي أطلق عليها العرب أنفسهم اسم الأرقام الهندية ، رغم أنها لا تشبه الأصل الذي أخذت عنه ، والسبب في اطلاق هذه التسمية عليها على ما يظهر هو الاكرام بعينه للشعب الهندي الذي منحهم هذا النظام ، وذلك عرفانا منهم بالجميل . .

والنتيجة التي نخرج بها من دراسة هذه الحقائق تظهر لنا أن هذه الأشكال التي أوجدها العرب في السلسلتين المستعملتين في الوقت الحاضر ما هي الا ابتكارات عربية » .

افتقار المنهج العلمي

هذه هي النظرية التي اتخذتها جامعة الدول العربية أساسا لنبذ الصورة المشرقية للأرقام ، واحلال الصورة المغربية مكانها . ومما يثير الأسى أن يكون مثل هذا القرار الخطير على أساس هذا النوع من الدراسات التي تفتقر بصورة واضحة الى المنهج العلمي في البحث التاريخي لأصول الأرقام ، فانه مما يلفت النظر في هذه الدراسات أن أصحابها لا يكلفون أنفسهم مشقة الرجوع الى المراجع العلمية المعتمدة في تاريخ الرياضيات ، واعتمدوا على بعض المراجع المغربية المتأخرة في القرن الثالث عشر الميلادي ، وما بعده ، كذلك فانه مما يلفت النظر أن أصحاب هذه الدراسات لا يرجعون الى الأصول الهندية في كتابة الأرقام ، للتحقق من مدى صواب النظرية التي ينادون بها ، ولو أنهم فعلوا ذلك لاستبانوا بسهولة خطأ الاستنتاجات التي انتهوا اليها ، ذلك ان اجماع المصادر العلمية المعتمدة أن الطريقة المغربية أو الغبارية منقولة عن الطريقة التي كانت شائعة في بعض أجزاء الهند في القرن الثامن الميلادي ، وهو الوقت الذي أخذ فيه العرب بالنظام الهندي الحسابي ، ويتبين ذلك بوضوح عند مقارنة الصورة الغبارية بالصورة الهندية حينذاك ، وخلاصة القول أن قرار جامعة الدول العربية بنبذ الطريقة المشرقية لكتابة الأرقام واحلال الطريقة المغربية مكانها لا يمكن أن يدخل تحت باب التعريب ، والحقيقة المحزنة أنه تهنيد للأرقام العربية ، بمعنى أنه يضع الأرقام العربية في صورة هندية .

دور الخوارزمي والعلماء الآخرين

وأود قبل تقديم الدليل على ذلك أن أذكر بعض الحقائق التاريخية التي لا خلاف عليها ، من الثابت أن العرب لم يكن عندهم نظام للأرقام في الفترة السابقة على ظهور الاسلام ، وكانوا يستخدمون الحروف الأبجدية للدلالة على القيمة الرقمية ، وهو النظام الذي كان معروفا عند الاغريق ، وفي أغلب الأحوال كانوا يعبرون عن الأرقام بالكلمات ، مثل : الخامس والعشرين ، أو السابع عشر بعد المائة ، أو بعد الألف . واستمر الحال كذلك الى ما بعد ظهور الاسلام ، حتى عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هجرية أو ٧٥٤ - ٧٧٥ ميلادية) وبالذات حتى سنة ٧٧٣ ميلادية ،

وتعتبر هذه السنة ذات دلالة كبرى في تاريخ الرياضيات في الوطن العربي ، وذلك أنه قدم الى بغداد في تلك السنة أحد المنجمين الهنود باسم كانكا ، وكان يحمل معه أحد الكتب الهندية في علم الفلك ، وهو كتاب « سدهانتا » من وضع الفلكي الهندي براهموبتا ، وأمر المنصور بترجمة الكتاب الى العربية ، وأصبح يعرف باسم « كتاب سند هند » وكان ذلك بداية دخول النظام الهندي للأرقام الى الوطن العربي ، غير أن الدلالة الحقيقية للنظام الهندي لم تتضح الا على يد العلامة الرياضي الخوارزمي الذي قام بالترجمة المعتمدة لكتاب « سند هند » سنة ٢٠٤ هجرية (٨٢٠ ميلادية) ، بناء على تكليف من الخليفة المأمون ، بيد أن الخوارزمي لم يقف عند حد الترجمة ، فهو الذي كشف عن عبقرية النظام الحسابي الهندي وتفوقه الكبير على الأنظمة الحسابية الأخرى ، ومن أهم صفاته البارزة أنه يعتمد على تسعة أرقام فقط ويضاف اليها الصفر ، وأن قيمة كل رقم تتوقف على مكانه ، فالرقم ٤ تصبح قيمته ٤٠ اذا كان في خانة العشرات ، أو أربعمائة اذا كان في خانة المئات ، أو أربعة آلاف اذا كان في خانة الآلاف وهكذا الى مانهاية . وهذا كله بفضل اختراع فكرة الصفر (٠) ، ووضع الخوارزمي كتابه وفيها ابتدع نظام اللوغاريتمات الذي عرف باسمه ، ووصل الى حلول مبتكرة للمعادلة التربيعية . وكان لكتب الخوارزمي أعمق الأثر في شيوع النظام الهندي في الوطن العربي ، وانتقل بعد ذلك عن طريق العرب في الأندلس الى أوروبا في القرن العاشر الميلادي ، ومن الثابت تاريخيا أن الخوارزمي استخدم الصورة المشرقية للأرقام ، وأشار في مقدمة كتابه في الحساب الى وجود طريقتين لكتابة الأرقام ، وان هناك فروقا واضحة بين الطريقتين في كتابة الأرقام ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، وانتهى الى استخدام الصورة المشرقية التي سادت دون منازع في كل بلاد المشرق العربي والعالم الاسلامي ، منذ سنة ٨٢٠ ميلادية الى وقتنا هذا ، أي لمدة تزيد على ١١٥٠ سنة ، ويصدق ذلك على كل أعلام الرياضيات من العرب ، أو من الذين كتبوا باللغة العربية في العهد الذهبي للحضارة الاسلامية ، وقد استخدموا جميعا دون استثناء الطريقة المشرقية لكتابة الأرقام وعلى رأسهم البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م) وابن الهيثم (٩٦٥ ـ ١٠٣٩ م) وثابت بن قرة (٨٢٦ ـ ٩٠١ م) والبطاني (٨٥٠ ـ ٩٢٩ م) وأبو الوفا (٩٤٠ ـ ٩٩٨ م) وابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) وعمر الخيام (١٠٥٠ ـ ١١٢٢ م) والكرخي (٩٩٠ ـ ١٠٥٠ م) وناصر الدين الطوسي (١٢٠١ ـ ١٢٧٤ م) . هؤلاء هم مفخرة العرب والحضارة الاسلامية في الرياضيات ، ولم يعرف عن أحدهم أنه كتب بالطريقة الغبارية .

رحلة الأرقام

ويرجح أن الطريقة الغبارية وجدت الى جانب الطريقة المشرقية خلال المدة من ٣٧٣ ميلادية حين دخل النظام الهندي الى بغداد الى ٨٢٠ ميلادية ، حين ترجم الخوارزمي كتاب السند هند ، وهذا هو ما يفهم من مقدمة كتابه في الحساب ، ويرجح كذلك أنها انتقلت خلال هذه المدة غربا الى بلاد الأندلس بواسطة التجار والحجاج ، واستقرت في بلاد المغرب ، وسارت في طريقها مستقلة عن الطريقة المشرقية ، غير أن الطريقة المشرقية كانت مستخدمة أيضا في بلاد المغرب وبقيت بها الى جانب الطريقة المغربية الى الوقت الحاضر .

التهنيد بدلا من التعريب !.

ويتضح مما تقدم النتائج الآتية :

١ ـ لا يوجد أي أساس للقول بأن الصورة المغربية أو الغبارية لكتابة الأرقام ذات أصل عربي بحت ، والحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها الشك أنها مأخوذة عن الصورة الهندية الغلبورية أو

الديوانغارية للتطابق الذي يكاد يكون كاملا بين الأرقام في الصورتين ، والواقع ان اسمها يدل على أصلها الهندي ، فقد سميت بالغبارية نسبة الى الغبار الذي كان ينشره الهنود على ألواح الكتابة وينقشون الأرقام عليه ، وقد انتقلت عن طريق بغداد الى الأندلس ومنها الى أوروبا في نهاية القرن العاشر الميلادي .

٢ ـ أن الصورة المشرقية للأرقام وجدت جنبا الى جنب مع الطريقة الغبارية خلال فترة التكوين ، وهي الفترة من ٧٧٣ م الى ٨٢٠ م ، حين قام الخوارزمي بترجمة كتاب « سند هند » ، بعد ذلك سادت دون منازع من القرن التاسع الميلادي الى الوقت الحاضر في كل بلاد المشرق العربي والبلاد الاسلامية .

٣ ـ ان الطريقتين المشرقية والمغربية ترجعان دون شك الى الطريقة الهندية التي كانت سائدة في الهند وقت انتقالها الى بغداد في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، ومن ثم فلا محل لوصف الطريقة المغربية بأنها عربية والطريقة المشرقية بأنها هندية ، والواقع من الأمر أنه اذا جازت التفرقة بين الطريقتين فان الطريقة المشرقية هي الأجدر بوصف العربية ، وذلك للاختلاف الواضح بين أرقامها وأرقام الأصل الهندي الذي أخذت عنه ، أما أن الأوروبيين يطلقون وصف العربية على الأرقام المغربية ، فان ذلك لا يعني أكثر من الحقيقة التاريخية ، وهي أنهم فرقوا النظام الهندي للحساب والطريقة الغبارية في كتابة الارقام عن طريق العرب في الاندلس ، ولا يجوز أن يحمل كلامهم على أنه اقرار بعروبة الطريقة الغبارية وهندية الطريقة المشرقية .

٤ ـ ان قرار جامعة الدول العربية بنبذ الطريقة المشرقية واحلال الطريقة المغربية مكانها بدعوى التعريب لا يستند الى أساس ، بل انه يتناقض تماما مع الحقائق التاريخية الثابتة ، وهو في الواقع يعتبر تهنيدا للارقام العربية وليس تعريبا للأرقام الهندية □



منتدى العربي

□□

تعقيبات

الأهم من التخطئة استقرار المصطلح

في العدد (٣٣٦) من « العربي » تكلم الدكتور محمد صادق زلزلة عن « أخطاء لغوية طبية وعلمية » ، تستخدمها بعض المحافل العلمية ومن تلك (السخد) فقال : « السخد تستعملها بعض الجهات العلمية والأكاديمية على أنها تقابل كلمة Placenta ، وهي العضو اللاصق في جدار الرحم ومنه يتغذى الجنين ، أو الحميل بواسطة الحبل السري » ، وخلص إلى أن إطلاق (السخد) على (البلاستة) وهم ، واستصوب أن توضع بدلا منها كلمة المشيمة . وبذلك يكون الدكتور زلزلة قد

أثار قضية لغوية طبية ، احتدم حولها الخلاف بين الأطباء واللغويين في عامي ١٩٢٧ م و ١٩٢٨ م .

فاللغوي المشهور الأب انستاس ماري الكرملي هو الذي كرس وضع مصطلح (السخد) ، أو بالأحرى أحياه ، مقابلا بينه وبين (البلاستة) في سنة ١٩٢٧ ، وهو يرى أن المشيمة هي (الغرس) حسب شرح صاحب التاج ، أي أنها كل ما يخرج مع الولد من الأقذار ، ولذلك فالسخد عنده غير المشيمة ، ولقد أخذ برأيه وبمصطلحه أطباء المعهد الطبي العربي بدمشق ، وعلى رأسهم الدكتور مرشد خاطر ، والدكتور شوكة موفق الشطي ، ومن ثم دخل مصطلح (السخد) بعض المعجمات الطبية الثنائية اللغة ، في حين اعترض على تسمية (البلاستة) بالسخد الدكتور عبد الرحمن الكيالي ، وانبرى لتخطئة الأب الكرملي ، مصرا على أن (البلاستة) هي المشيمة .

والحقيقة أن في كتب اللغة عدداً من المعاني للسخد ، منها تلك التي نقلها كاتب المقال عن ابن منظور ، ومنها أيضا :-

- السخد هو الذي يخرج بعد الولد (عن ابن السكيت) .

- (السخد جلدة رقيقة فيها ماء أصفر ، تكون على رأس الولد ، تنشق عنه (عن الأصمعي) .

فإذا أخذنا بالمعنى الذي انفرد به ابن السكيت في كتاب (القلب والابدال) - طبعة هفنر ١٩٠٣ - يكون معنى (السخد) هو البلاستة) حسب رأي الكرملي وخاطر ، والشطي ، وحتي ، ويكون معنى المشيمة الخوريون ، أي الغشاء الثاني من أغشية الجنين ، وقد أخذ بذلك حتّي في معجمه الطبي ، بينما اعتبر الدكتور محمد شرف - في معجمه - المشيمة والسخد شيئا واحداً ، وهذا يخالف الدقة المتوخاة في المعجمات الطبية .

والمعروف أن للجنين ثلاثة أغشية تحيط به ، سمي الأول منها (الامنيون) ، والثاني (الخوريون) ، والثالث (البلاستة) ، ولقد أشار إلى ذلك أطباء العرب القدامى ، كابن سينا حيث ذكر في « القانون » أن الجنين تحيط به أغشية ثلاثة » سماها المشيمة ، والقلاس أو اللفايفي ، والأنفس . ولقد اضطرب الاطباء واللغويون - القدامى منهم والمحدثون - في تسمية هذه الأغشية أيما اضطراب ، فاختلفوا في تسميتها اختلاف لهجات القبائل وتشعبها ، وأطلقوا عليها أسماء متعددة ، هي المشيمة ، والسخد ، والسل ، والسابياء ، والماسكة والسّقي ، إلخ .

وعندما اختار أطباء المعهد العربي الطبي بدمشق (السخد) لتطلق على (البلاستة) لم تكن لفظة (المشيمة) قد غابت عنهم هي ومرادفها (الخلاص) ، وجاء تكريسهم للفظة (السخد) لنكتة - كما يقال - هي توخي الدقة في اختيار المصطلح وملاءمته العلمية .

إذاً ليس المهم تخطئتنا لهذه المصطلح أو ذاك بقدر ما هو مهم اتفاقنا على توحيد المصطلح وإرسائه ، والابتعاد به عن التغييرات السريعة التي تبعدنا عن الاستقرار اللغوي ، فدعونا نعمم ما اتفقنا عليه ، ونشيعه بين مستعملي المصطلحات الطبية ، ودعونا ننطلق إلى عملية تعريب التعليم الطبي بهذه المصطلحات المقرة ، ونلتزم بالثبات عليها ، وبعدم الاستعجال في تغييرها ، فالممارسة وحدها تصقل اللفظ ، فتثبته أو تمجه وتلفظه .

إن الحاجة إلى توحيد المصطلح الطبي هي الأهم ، ولقد كان السير على هذا الدرب الشائك سيرا حسنا بإصدار المعجم الطبي الموحد (الطبعة الثالثة - مزيدة ومنقحه . . - ١٩٨٣) ، فخلصنا من الفوضى في المعجمات الطبية العربية الأخرى التي كان من يكشف فيها عن أحد المعاني الطبية يجد العجب العجاب من عدم الاتفاق على الأصول التي يجب أن تراعى في أثناء الوضع والتعريب والنقل والاحياء □

الدكتور إحسان جعفر



حكايات طبية

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

أخطاء طبية فادحة

عندما يخطيء شخص ما فإن تقدير مدى ذلك الخطأ يختلف اختلافا واسعا باختلاف الناس الذين يقدرونه ، فليس الخطأ الكبير حقا هو الخطأ الأكثر أهمية من سواه ، بل إن خطأ صغيرا جدا قد يأخذ لدى بعض الناس حجما كبيرا .

يقول « مايكل كوردا » مؤلف كتاب القوة Power ، وهو كتاب تصدر قائمة كتب ، كانت أكثر مبيعا في العالم فترة ما : إن على مدراء الشركات إذا أرادوا طرد موظف لديهم دون أن يحسوا بتأنيب الضمير أن يستحضروا كل الأمور الصغيرة التي كانت تزعجهم في ذلك الموظف ، كارتدائه مثلا بذلة زرقاء وحذاء بنيا وربطة عنق صفراء ، مع ما في ذلك من عدم تناسب بينها ، فحينذاك يصبح طرده أسهل عليهم من أن يستحضروا في ذهنهم إهماله وأخطاءه الكثيرة .

ويروي « لي ياكوكا » في سيرته الذاتية - وهو كتاب تصدر أيضا قائمة كتب أكثر مبيعا في العالم - ومؤلفه هو الرئيس السابق لشركة فورد للسيارات الذي طرده هنري فورد الثاني حسدا منه وغيرة ، فانتقل بعدها لينقذ شركة كرايسلر من إفلاس محقق ، ويحرز بذلك مجدا شخصيا عظيما ، يقول هذا الرجل : إن هنري فورد عندما كان يريد أن يطرد شخصا ما فإنه كان يطرده ليس بسبب أخطائه الكثيرة ، بل بسبب أمور تافهة ، كارتدائه سروالا ضيقا ، أو دخوله على رئيسه بدون استئذان أو ما أشبه ذلك من الأخطاء التافهة .

وأذكر أنني تركت التعامل مع أحد الحلاقين المشهورين ، ليس لأنه أساء قص شعري ، فذلك ذنب يسير ، بل لخطأ رأيته أكبر من ذلك ، فقد سألني مرة : هل تصبغ شعرك ؟ علما بأنني لم أشعر يوما بالحرج من وجود شعيرات بيضاء قليلة في رأسي ، ولم أفكر قط بتغيير لون ما ابيض منه ، وهو قليل جدا على كل حال ، ولا أخجل من ذكر عمري ، بل إنني عندما بلغت الأربعين كتبت مقالة بعنوان « وقفة عند الأربعين » ، نشرتها على الملأ دون حرج ، لكن سؤال الحلاق غير ذي الأهمية - يمكن إلحاق الصفة بالسؤال أو بالحلاق لا فرق - قد أحدث صدمة لي ، فتركته غير آسف ولا نادم .

لنا أخطاؤنا :

نحن الأطباء لنا أخطاؤنا أيضا ، وكل إنسان خطاء ، ومن هذه الأخطاء ما هو كبير ، يتعلق بسوء التشخيص ، أو سوء المعالجة ، أو الاهمال في

الممارسة ، ومنها ما هو صغير يتعلق بمعاملة الطبيب لمريضه . لكن الغريب أن قلائل جدا من المرضى يتركون أطباءهم بسبب ارتكابهم خطأ كبيراً جسيماً، ومعظم من يغير طبيبه إنما يفعل ذلك لأن الطبيب أخطأ خطأ حسبه صغيرا ورآه المريض كبيرا .

من ذلك مثلا الوالدان اللذان رزقا طفلا ذكرا بعد خمس بنات ، وعندما فحص الطبيب ذلك المولود الذكر فحصا عاما ، واطمأن على صحته ، وتأكد من حسن ختانه ، أخذ يحدثهما عنه بضمير الأنثى ، فكانت زيارتهما تلك هي الزيارة الأخيرة لهذا الطبيب ، وأخاله كان مستحقا لذلك .

ومن الأخطاء التي يراها الأهل فادحة أن يسخر الطبيب من اسم الطفل مثلا ، كأن يسأل لماذا سميتموه بهذا الاسم ؟ أو ما معنى ذلك الاسم ؟ مع أن الوالدين والأهل عندما اختاروا اسم طفلهم كان لديهم ملايين الأسماء المحتملة ، وهم لا يرضون بما اختاروه بديلا .

هذان مثلان عن الأخطاء الفادحة في طب الأطفال ، أما في الطب العام ، فإن من الأخطاء التي لا أعتقد أن المريض يغفرها هي أن يسخر الطبيب من شكل المريض ، أو هيئة شاربيه مثلا ، أو أن يستهزيء بتسريحة شعر المريضة ، أو أن يستهين بالتوافه من شكوى المريض . فمثلا هناك من المريضات المراهقات المصابات بداء السكري ، من يكن في وضع خطير ، غير مستقر ، وأذكر مريضة من هذا النوع ، كانت حياتها في خطر ، وكان همها الوحيد أن يأتيها الحيض ولو مرة في العمر ، كي تشعر أنها امرأة طبيعية ، وعندما وصفت لها من الأدوية الهرمونية ما أدى الى حصول دورة طمثية لديها ، كادت تجن من الفرح ، وأخذت تدعو لي بالخير في الوقت الذي كانت تدعو على طبيب آخر بالويل والثبور ، لأنه قال لها عندما ذكرت هذا الأمر : ما حاجتك الى الدورة الشهرية وأنت مصابة بهذا المرض ؟ .



إن على الطبيب أن يدرك مشاعر المرضى وأهلهم ، وأن يقدر طريقتهم في قياس الأخطاء ، وعليه أن يتجنب أي خطأ كبير أو صغير ، ويجب أن يتذكر دائما أن بعض الأخطاء الكبيرة تبقى أقل أهمية لدى المرضى من أخطاء يسيرة تافهة .

ولو كان الحلاق الذي تكلمت عنه آنفا قد قص شعري بصورة لا مثيل لها من القبح والاهمال لما تركته ، ولكن أن يتحدث عن صبغ الشعر ، وأنا الذي لم أفكر فيه قط فذلك خطأ فادح ، خطأ لا يغتفر .

درس من الكوليرا :

عندما كنا طلابا في كلية الطب ندرس الأمراض « الانتانية » ، كان أستاذنا يروي لنا كيف كانت طرق الوقاية من بعض هذه الأمراض في الماضي ، وهي طرق تثير السخرية في أحيان كثيرة ، وتدل على الجهل والسذاجة ، وكان يستشهد بما جرت عليه العادة في الوقاية من مرض الكوليرا في بداية هذا القرن ، أيام كانت بلادنا ما تزال ترزح تحت الحكم العثماني .

فالكوليرا ، والمعنى الحرفي لاسمها اللاتيني هو « الهواء الأصفر » كان يعتقد أنها تنتقل عن طريق

الهواء ، وبما أنها تأتي على شكل جوائح تصيب كثيرين وتقتل كثيرين كان لا بد من الوقاية منها .

فكانت الحكومة العثمانية ـ والعهدة على أستاذنا الذي رواها ـ تكلف بهذه المهمة بعضا من موظفيها طوال القامة ، عراض الأجسام ، ذوي الشوارب المعقوفة ، والهيبة المشعة ، ولعلها كانت تأمل ـ وهم بهذه الصفات ـ أن يخيفوا الكوليرا كما كانوا يخيفون الناس !

فكان الواحد من هؤلاء المسؤولين عن الوقاية ـ وأعتقد أن اسم نيازي بك ، أو ربما نيازي أفندي يناسبه تماما ـ يتجول في الأزقة والحواري والأسواق ، مسبوقا بقارعي الطبول ، وعازفي الموسيقا ، وكان يحمل بيده مقصا كبيرا ، يفتحه ثم يغلقه ، تعبيرا عن قيامه بقص الهواء الذي سبب المرض كما كان يعتقد !

وكان الناس يشعرون بالأمان والراحة بعد أن يمر (نيازي بك) ، أو لعله (نيازي أفندي) وجوقته ، فقد قطع هذا الرجل سبب المرض ، وجلب لهم الوقاية ، جزاه الله كل خير !

وكان أستاذنا يتابع محاضرته فيقول : « ولكننا الآن (كان ذلك في الستينيات) لدينا لقاحات فعالة ، لا تستطيع الكوليرا أن ترفع رأسها بوجودها ، وها نحن نعرف سبب المرض وعلاجه ونعلم طرق الوقاية منه » .

وأذكر مرة أن جائحة حصلت ، وكنا طلاب طب حينذاك ، فاستنفرنا جهودنا ، ووزعت على كل اثنين منا ثلاث محاقن وإبر لا يزيد عددها على عدد أصابع اليد الواحدة ، وكلفنا بتلقيح أعداد كبيرة من طلاب المدارس وعامة الناس ، وكانت التعليمات أن نعقم المحقنة بعد اجراء عدد معين من اللقاحات ، وأن نمسح الابرة بالغول (الكحول) بين كل لقاح وآخر ، وقد كان .

ومرت الأيام ، وظهر أن اللقاح المضاد للكوليرا ليست له تلك الفعالية الكبيرة التي كان يعتقد بوجودها فيه ، ولم يعد ينصح بإجراء التلقيح على



ذلك المستوى الواسع ، وثبت أن استعمال المحاقن والابر غير المعقمة يسبب أمراضا كثيرة ، لعل من أبرزها التهاب الكبد المصلي .

وهكذا نرى أن طرق الوقاية التي كنا نستعملها في ستينيات هذا القرن كانت أسوأ من الطرق التي كان يتبعها (نيازي بك أو نيازي أفندي) في أوائل هذا القرن !

من يخدع طبيبه يخدع نفسه :

ثمة قصة رواها لنا مرة أحد أساتذتنا في كلية الطب ، علقت في ذاكرتي لما فيها من عبرة ، قال هذا الأستاذ : « جاءني مرة أب ، يحمل طفلته ، وطلب مني أن أفحصها للاطمئنان عليها ، للتأكد من أنها بصحة جيدة ، وذكر لي أنها لا تشكو من شيء ، ولا تتناول أي دواء ، وقد قمت بفحصها بدقة متناهية ، وقد أشعرتني الحاسة السادسة لدي بوجود ما يريب ، لكنني لم أجد أي مظهر مرضي لديها ، فكل ما فيها مما نفحصه عادة كان ضمن الحدود الطبيعية . وبعد أن ذكرت ذلك للأب أخرج من جيبه مظروفا كبيرا سميكا ، يحوي مجموعة من التحاليل والصور الشعاعية والوصفات الطبية ، وقال بلهجة تجمع بين الانتصار والشماتة : إن هذه

لطفلة مصابة منذ ولادتها بقصور في الغدة الدرقية ، وهذه الفحوص دليل على ذلك ، فكيف تدعي أنها طبيعية ، وأنت الأستاذ المشهور ؟ » . وقد تابع الأستاذ قصته فقال : « سألت هذا الأب هل تعطي الطفلة خلاصة الغدة الدرقية ؟ قال نعم ، فقلت له : إن هذا الدواء هو الذي جعل طفلتك تبدو طبيعية للعيان ، وإن إخفاءك هذا الأمر عني منذ البداية أمر لا يتناسب مع الصراحة التي يتوجب توفرها في العلاقة بين المريض والطبيب ، ولا مع الصدق الذي لا بد منه في التعامل بينهما ، وأنا لست بحاجة الى أي امتحان آخر ، فلقد اجتزت في حياتي فحوصا كثيرة ، وامتحانات عديدة في دول شتى ، وحتى لو كنت بحاجة الى فحص جديد فلا أرضى أن تكون أنت الفاحص » . ثم تابع الأستاذ : « ثم أشرت الى باب العيادة وأنا أطرد هذا الزبون الثقيل ، بعد أن أعدت إليه أجرة المعاينة التي قد دفعها سابقا ، فليس أثقل على النفس من ثقيل ، ولو أعطانا وزنه ذهبا » .

وكنت كلما استعدت هذه القصة أشعر بكثير من التعاطف مع هذا الأستاذ ، رغم ما عرف عنه من جفاء وعبوس ، وقد صور لي الوهم أنني لن أتعرض لمثل هذه الحادثة قط ، فأنا عادة رحب الصدر ، طويل البال ، وقد أفرط في ذلك أحيانا الى حد معيب ، ولا يثير غضبي في العيادة - أحيانا - إلا أحد أمرين اثنين ، أولهما أن أحس أن ثمة ما يهين كرامة الطب كمهنة ، كأن يذكر المريض أمامي زميلا لي بسوء ، أو أن أشعر أن المريض وأهله يخدعون الطبيب ، أو يستصغرون شأنه .

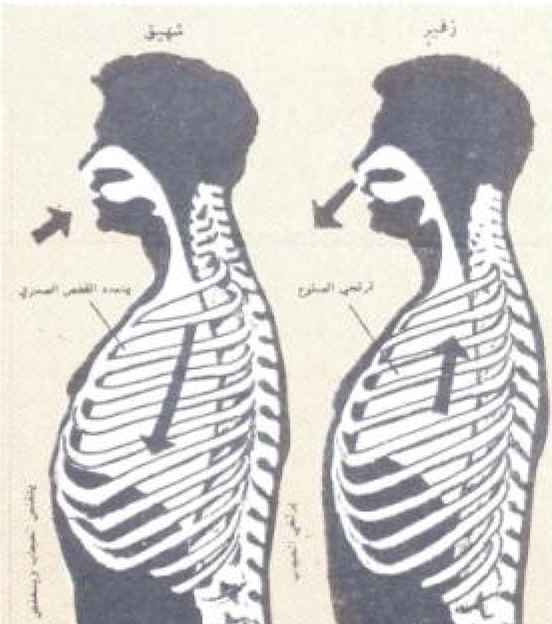
على أن توهمي كان خاطئا ، فقد حصلت معي منذ مدة قريبة حادثة مشابهة لما حصل مع أستاذي ، ما تزال تثير فيّ كوامن الغيظ كلما تذكرتها ، فقد دخل الى عيادتي مرة رجل وحده ، وأنا كطبيب أطفال يندر أن يأتي اليّ رجل أو امرأة الا وهم يصطحبون طفلا أو أكثر . قال لي هذا الرجل : « إنني قد نصحت بمراجعتك ، بسبب اهتمامك بالأمراض الوراثية ، وقد تقدم رجلان لخطبة ابنتي » . وذكر لي نوع الزمر الدموية لكل من الرجلين وزمرة ابنته ، وطلب مني أن أذكر له مَن بين هذين الرجلين أنسب من الناحية الصحية للزواج بها ، ورغم امتلاء غرفة الانتظار بالمرضى من الأطفال ما بين باك وصارخ ، ومن هو مصاب بحرارة مرتفعة ، أو اسهال شديد ، رغم ذلك كله أخذت أشرح لهذا الرجل أن الأسس التي يقوم عليها الزواج ليست الزمر الدموية فقط ، بل هنالك ما هو أهم منها بكثير ، من عوامل عاطفية واجتماعية ومادية ودينية . . الخ . ثم شرحت له أن من اختلاف بعض الزمر الدموية ما يؤدي الى حصول يرقان عند بعض المواليد ، وحتى في هذه الحالات فهنالك طرق للوقاية والعلاج ، وأخذ هذا الرجل يسألني ويستفسر مني بتفصيل شديد عن اليرقان والزمر الدموية ، وما هي احتمالات الزمر الدموية للأطفال في حالة زواج ابنته من أحد هذين الرجلين ، وبعد أن قضيت نصف ساعة أو يزيد وأنا أشرح وأوضح قال لي هذا الرجل : « لقد كذبت عليك ، فهناك زواج قائم فعلا بين ابني وامرأة ، وزمرهما الدموية هي كما ذكرت لك ، ولديهما عدة أولاد ، إلا أننا نشك بعفة الزوجة ونسبة الأطفال الى أبيهم حقا ، ونريد التأكد من فحص الزمر ، وأخرج قائمة بالزمر الدموية للأطفال ، وكانت كلها مطابقة للاحتمالات التي ذكرتها له ، مما يعني أن فحص هذه الزمر لم ينف أو يثبت شرعية هؤلاء الأطفال ، وإن كان ثمة طرق أو زمر أخرى توضح ذلك . وهنا تذكرت قصة أستاذي عن المريض الثقيل ، وقلت لهذا الرجل : لو كنت سألتني مباشرة عما يشغل فكرك لكنت أجبتك بدقائق معدودة ، وأرحت واسترحت ، وكان الواجب أن تكون صريحا معي منذ البداية ، أما والحالة هذه فأحيلك الى طبيب آخر ، لأنه لا مجال للتعامل عند انعدام الثقة والصدق . □

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوى

العلاج بأسلوب « الكيجونج » الصيني

من المعروف أن ارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية والشلل الجزئي أمراض خطيرة ، وقد يتعذر علاجها بأحدث الأدوية وأشدها فاعلية ، ومن هنا كان خبر معالجة هذه الأمراض دون استعمال أي دواء على الاطلاق خبرا مثيرا للدهشة والريبة في آن واحد ، مالم يكن



• رسم يبين تفصيل عملية التنفس .. ولكنه مع الأسف لا يوضح الأسلوب الصيني في التنفس (الكيجونج) !

هذا الخبر صادرا عن الصين ، بلد المفاجآت في كل مجال ، وبخاصة مجال العلاج الطبيعي والتداوي بالأعشاب .

ذلك أن علماء الصين والأطباء فيها قد اكتشفوا أن التنفس بأسلوب معين (يسمونه الكيجونج **Qigong**) مدة ربع ساعة في الصباح ، وربع ساعة في المساء كفيل بالقضاء على الأمراض الثلاثة السالفة الذكر ، بنسب من النجاح متفاوتة ، وأسلوب « الكيجونج » في التنفس يعرفه أهل الصين منذ القدم ـ وقد عرفوا فوائده ، ودرجوا على ممارسته بين حين وآخر ، لكنهم لم يكتشفوا كفاءة (الكيجونج) العلاجية إلا مؤخرا ، وفي سنة ١٩٧٧ على وجه التحديد .

لا عجب إذن إن أنشأت حكومة الصين جمعية للبحث العلمي الخاصة بالكيجونج ، وأقامت كذلك مئات المعاهد العلمية التي تركز أبحاثها على أسلوب التنفس المذكور ، هذا إلى جانب المراكز التي أنشأتها المستشفيات والجامعات في الصين للغرض نفسه ، فالقصد الذي تسعى إليه هذه المؤسسات العلمية جميعا واحد ، وهو مدى قدرة « الكيجونج » على معالجة الأمراض

الثلاثة السالفة الذكر ، ومدى نجاحه في الشفاء منها ، أي أن الأبحاث العلمية الحالية منصبة على (المدى)الذي تبلغه خصائص « الكيجونج» العلاجية لا على الخصائص نفسها ، فقد ثبتت هذه ثبوت اليقين بعد ألف من التجارب أو أكثر أجرتها حكومة الصين خلال السنوات العشر الأخيرة ، أي أنهم فرغوا من التجارب والدراسات الأولية ، أو إن شئت فقل المخبرية ، وانصرفوا بعد ذلك إلى التجارب الميدانية .

وتشمل هذه التجارب عددا لا يستهان به من الناس - ١٥ مليون نسمة - كلهم من موظفي الدولة المكلفين بممارسة « الكيجونج » مرتين يوميا ، الأولى في الساعة العاشرة صباحا ، والثانية في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، وذلك في مدة (١٥) دقيقة لكل مرة .

وتدل هذه التجارب على أن كفاءة « الكيجونج » العلاجية تختلف باختلاف الأمراض الثلاثة التي ذكرناها فهي تبلغ ٨٥٪ فيما يتصل بارتفاع ضغط الدم ، و ٦٧٪ فيما يختص بالشلل الجزئي ، أما الذبحة الصدرية ، « فالكيجونج » كفيل بمعالجتها والشفاء منها بنسبة ١٠٠٪ . ويجري بعض العلماء في الصين أبحاثا أخرى تتحرى فاعلية « الكيجونج » في معالجة أمراض أخرى أهمها السرطان .

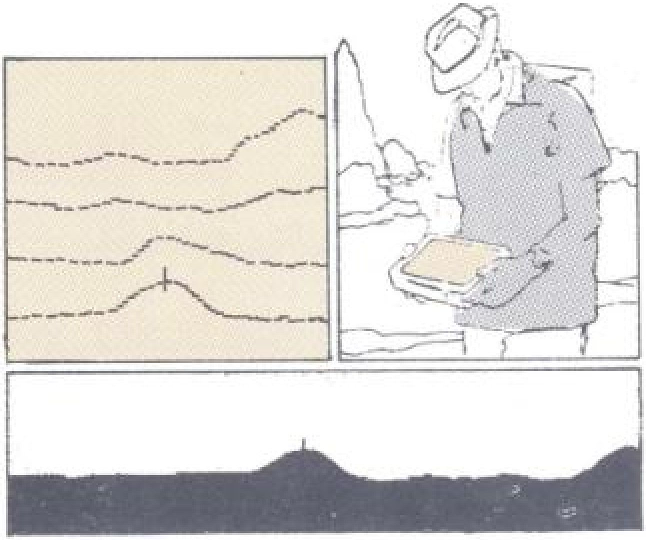
ومع أن تفاصيل أسلوب « الكيجونج » في التنفس غير معروفة ، ولم تكشف عنها التقارير التي وردتنا حتى الآن ، إلا أننا نعرف أنها بسيطة للغاية ، ولا تعقيد فيها ، وقوامها التنفس البطيء المتأني الذي يحد من كمية الأوكسجين التي تدخل جسم الانسان بنسبة ٣٠٪ تقريبا ، ويحد بالتالي من عملية الاستقلاب والسرعة في التنفس بنسبة ٢٠٪ تقريبا ، وكأن المبدأ الذي يقوم عليه أسلوب « الكيجونج » هو التقنين في استهلاك الجسم للطاقة ، وحفظ هذه الطاقة المقننة كرصيد يساعد الجسم على محاربة الأمراض ، وعلى ترميم الطاقات ، وتجديد الموارد .

جهاز جديد لسبر المياه الجوفية

اسم الجهاز « الوادي » ، وهو اسم عربي كما لا يخفى ، لكن الشركة التي صنعته شركة سويدية ، تتخصص في صنع أجهزة القياس (الالكترونية) ، أما المهمة التي طور الجهاز من أجلها فهي سبر المياه الجوفية .

فهو إذن يحل محل الأجهزة التي كانت تستعمل وما زالت من أجل اكتشاف مواطن المياه في أعماق الأرض ، وبعض هذه الأجهزة قديم ، يكتشف الماء بالصدفة ، أو بطريق الخطأ والصواب ، إن هو اكتشفه أصلا ، وبعضها حديث ، ويقوم على أساس من نظريات (جيوفيزيائية) ، لكنه باهظ الثمن ، يحتاج إلى كفاءات عالية لتفسير إشاراته ، ثم إن نجاحه غير مضمون على كل حال .

أما جهاز « الوادي » فمختلف تماماً



● رسم لجهاز الوادي ولبعض الاشارات التي تظهر على شاشته ، والتي تدل على مواطن الماء الجوفي .. وعلى مدى بعدها عن سطح الأرض .

على تلك الأجهزة، فهو صغير الحجم ، (١×٨×١٠) بوصات ، وخفيف الوزن (٥ كيلوجرامات بالتقريب) ، ومهمته تنحصر في قياس موجات (الراديو) ذات الذبذبات البالغة الانخفاض ، التي تعرف بالانجليزية باسم (VLF) ، وهذه الموجات التي تصدر عن أجهزة الارسال الحكومية والعسكرية ـ وهي أجهزة كثيرة ومنتشرة في كل مكان ـ تسير مع انحناءات الأرض في المستوى الأفقي ، ويسجلها الجهاز ، ويبينها خطا أفقيا على نحو ما ترى في الرسم .

فإذا خرج هذا الخط عن خط سيره الأفقي ، وظهرت فيه نتوءات عمودية هنا وهناك كانت هذه النتوءات مؤشرا لوجود الماء في باطن الأرض ، ذلك أن الصخور الحاوية للماء في باطن الأرض عبارة عن موصل جيد للكهرباء ، وأجود بكثير من الرواسب التي تحيط بها ، والتي ليست بصلابة تلك الصخور ، ومن شأن هذه الصخور أن تعمل على إيصال تلك الموجات ، وإحداث تلك النتوءات في الخط الأفقي الذي يسجله الجهاز . ولو أعيد تشغيل الجهاز مرتين أو ثلاث في المنطقة نفسها لأمكن التوصل إلى نتائج شبه مؤكدة عن وجود الماء الجوفي في تلك المنطقة ، لكن جهاز (الوادي) لا يقف عند اكتشاف وجود الماء الجوفي فقط ، بل هو يعطي تقديرا لمدى العمق وزاوية الانحراف حيث يمكن العثور على الماء ، أضف إلى ذلك أن الجهاز سهل الاستعمال .

والجدير بالذكر أن الجهاز ليس معصوما من الخطأ ، إذا كانت هناك خطوط أنابيب معدنية ممدودة على سطح الأرض . □

ليس ثمة بارجة كالكتاب ، تنقلنا بعيدا بعيدا ، وليس ثمة جياد كصفحة شعر متوثب .

(اميلي ديكنسون)



سلامة البشرية في سلامة البيئة

استغلال آبار النفط الناضبة

من المعروف أن آبار النفط لا تلبث أن تنضب ، فتهمل ، ومن المعروف أيضا أن هذه الآبار ليست في حقيقة الحال ناضبة ، وإنما هي « بحكم الناضبة » لتعذر استخراج الزيت المتخلف فيها ، ولو ذكرنا أن كميات هذا الزيت المتخلف كميات تجارية ، وتستحق العمل من أجل استغلالها لما عجبنا للجهود التي طالما بذلها العلماء والخبراء في سبيل تطوير التقنية اللائقة بذلك الاستغلال .

ويبدو أن تلك الجهود قد بدأت تثمر ، لكن في الاتحاد السوفيتي هذه المرة ، وليس في الولايات المتحدة كما قد يظن القارىء ، وكانت البداية في ملاحظة عابرة، تسنت للعلماء الروس ، عندما لاحظوا أن ابار النفط تعطي مردودا مضاعفا من الزيت إذا اتفق وجود هذه الآبار في منطقة تمر بها قطارات البضائع الثقيلة الوزن ، وتبين لهم أن أعظم المردود إنما يأتي من الآبار التي تسير تلك القطارات فوقها مباشرة ، ومضوا في إجراء التجارب ، وتسجيل الملاحظات ، وراقبوا الزلازل وأثرها على آبار النفط ، فثبت لهم أن الاهتزازات التي تحدثها القطارات الثقيلة ـ فضلا عن الهزات الارضية ـ هي التي تضاعف مردود الزيت .

وانعطف تفكير العلماء السوفيات بعد ذلك من الآبار الفتية والغنية إلى الآبار التي تعتبر بحكم الناضبة ، وتساءلوا : لم لا تولد اهتزازات مصطنعة ، تضمن لنا اعتصار الزيت المتخلف في تلك الآبار ؟ وقد طمأنتهم التجارب الأولية التي أجروها إلى أن ذلك الاعتصار ممكن .

فانطلقوا بعد ذلك في تطوير المعدات الكفيلة بتوليد الاهتزازات المطلوبة ، وقد اقتربوا الآن من النهاية ، لذا يستطيع المرء التحدث عن أهم ما استكملوا تطويره من تلك المعدات ، وهي الهزازات الراجفة (أو الزلزالية) ، فمن شأن هذه الهزازات أن تولد طاقة ارتجافية ، أو هزة أرضية خفيفة ، تنطلق من المنصة الفخمة حيث توجد الهزازات حتى تصل إلى البئر « الناضب » ، فتلتقطها الأجهزة الصوتية التي وضعت في البئر مسبقا .

ومن شأن الهزة الخفيفة التي تولدها هذه الهزازات أن تطلق العنان للغاز الذائب المكون من نفط وماء ، وما أسرع ما تكون فقاقيع الغاز ، فتندفق هنا وهناك ، بحثا عن قطرات الزيت المختلفة ، في الشقوق ، حتى إذا اجتمعت الفقاقيع بالقطرات ، ولامس الغاز الزيت ، التصق به وكوّن (بالونات) قوامها الغاز في الداخل والزيت الذي يحيط به من الخارج ، ثم يجري تحريك هذه (البالونات) من فوق المنصة الفخمة ، ثم يجرى توجيهها بواسطة أجهزة النشاط الصوتي الارتجافي ، بحيث ·· الاستفادة من كل الزيت

المتخلف في البئر .

ومن أهم ما يذكر عن هذه الأجهزة والمعدات أن تكلفة تشغيلها زهيدة ، لا تكاد تبلغ ٣,٠٪ من قيمة الزيت المستغل من آباره الناضبة ، أضف إلى ذلك أن نسبة ما تستغله من هذا الزيت المتخلف لا تقل عن ١٠٠٪ ، ثم إنها ضرورية لاستخراج الزيت من آباره الفتية الغنية ، فهي تقوم بتكثيف ذلك الزيت بسرعة تفوق سرعة الطبيعة ألف مرة .

حدائق الحيوان المكشوفة أكثر ربحا من المزارع

أجرى بنك التنمية الافريقي دراسة علمية ، قارن فيها بين مزارع المواشي وحدائق الحيوانات البرية ، وقدم دراسته تلك إلى منظمة الأغذية والزراعة التابعة للمنظمة الدولية ، وقد لقيت هذه الدراسة من الاهتمام والعناية ما تستحقه .

والمقصود بحدائق الحيوانات البرية تلك الحدائق المكشوفة ، أو إن شئت فسمها المعازل الشاسعة التي تترك الوحوش فيها على سجيتها ، أما الاقليم المعني بالدراسة المقارنة فهو وادي نهر الزامبيزي في أفريقيا ، حيث تكثر تربية المواشي من أجل بيع لحومها ، دون الاهتمام بجلودها أو غير ذلك .

وقد أثبتت الدراسة أمرين هامين ، أولهما أن مردود حدائق الحيوان المكشوفة يفوق مردود مزارع المواشي - البقر مثلا - بنسبة الثلث أو أكثر ، ولعلك تتعجب لهذا أو لا تتعجب ، فالايرادات المختلفة التي تتيحها الحدائق المكشوفة نذكر منها إيرادات الرسوم التي تتقاضاها الحدائق من هواة الصيادين ، ونذكر منها أثمان الحيوانات الحية التي تبيعها للحدائق الأخرى محلية أو أجنبية في دول أخرى قريبة أو بعيدة ، وتشمل تلك الايرادات أيضا أثمان جلود الحيوانات وعاجها ، هذا بالاضافة إلى رسوم السياحة التي تجنيها الحدائق المكشوفة ، وهي كبيرة ، ولعلها أكبر من سائر الايرادات .

أما الأمر الثاني الذي أثبتته الدراسة فهو أن الحدائق المكشوفة تمتاز على مزارع المواشي من حيث قدرتها على حماية البيئة ، والمحافظة على فصائل



* زرافة تتمشى . . بجانب جدول ماء . . في احدى حدائق الحيوان المكشوفة في كينيا .

الحيوان البرية المهددة بالانقراض ، ونذكر من هذه الحيوانات الكركدن الأسود ، وقد نجحت الحدائق المكشوفة في وادي الزامبيزي في انقاذ فصيلة الكركدن الأسود من الانقراض الذي طالما تهددها .

وتؤكد الدراسة السالفة الذكر أيضا مدى الحاجة إلى الحدائق المكشوفة في جهات عديدة من العالم ، وتؤكد أيضا العقبات التي تقف في طريق انتشارها ، فالموضوع متصل - كما لا يخفى - بالتقاليد والعادات الفكرية ، وأسلوب العيش على الأخص ، وهذه كلها راسخة في نفوس الفلاحين والمزارعين ، ويصعب جدا التغلب عليها لصالح الحدائق المكشوفة . □

تتاريا

إرث المغول وطموحات الحاضر والمستقبل



استطلاع : سليمان الشيخ
تصـــوير : سليمان حيدر



* يتأثر المغلوب بالغالب في معاشه ، وتصرفات حياته وفي معتقداته .

هكذا وضع ابن خلدون هذه القاعدة التي استقاها من وقائع كثيرة .

إلا أن التتار خرجوا عن هذه القاعدة ، وكانوا شواذها ، فهم بعد أن احتلوا كثيرا من بلاد الدنيا المعروفة في زمانهم إثر خروجهم العاصف من بلادهم الآسيوية أسلموا بعد وثنية ، واعتنقوا دين بعض الشعوب التي غلبوها ، وأصبحت من رعاياهم .

بعثة « العربي » زارت الجمهورية التتارية ، وكان لها مشاهدات وحوارات .

قامت جمهورية تتاريا السوفيتية سنة ١٩٢٠ م وهي جمهورية ذات حكم ذاتي ، ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، وكانت قبل ذلك ـ أي منذ سنة ١٥٥٢م جزءا من الامبراطورية الروسية ، وقد تم ضمها لهذه الامبراطورية زمن القيصر (ايفان) الذي لقب بالرهيب .

مساحة الجمهورية الآن حوالي ٦٨,٠٠٠ كيلومتر مربع ، عدد سكانها حوالي ٤ ملايين نسمة ، وعاصمتها مدينة قازان التي يتجاوز عدد سكانها المليون نسمة ، وهي تقع في قارة أوروبا ، في الجانب الشرقي من جمهورية روسيا الاتحادية ، يمر فيها نهر الفولغا ويلتقي بنهر كاما ، والفولغا من أشهر الأنهار في الاتحاد السوفيتي ، الصالحة للملاحة ، طوله ٣٥٠٠ كم ، قامت عليه مدن عريقة كثيرة في الاتحاد السوفيتي ، كموسكو التي تقع على النهر الذي يحمل اسمها الآن ، وهو متصل بالفولغا بقناة ، ومدينة غوركي ، وكويبشيف ، واستراخان ، وفولغوغراد ، وغيرها ، وقازان تقع على الجانب الأيسر من نهر الفولغا .

تحد جمهورية تتاريا من الشرق جمهورية بشكيريا ذات الحكم الذاتي ، وتحدها من الغرب والشمال جمهوريات صغيرة ذات حكم ذاتي ، مثل الجوفاش ، وماري ، وادمورت ، وفي الجنوب تقع جبال الاورال ، وجمهورية كازاخستان ـ الاتحادية ـ وجمهورية شكالوف ، ذات حكم ذاتي .

كان معظم سكان هذه الجمهوريات يدينون بالاسلام ، ومن بينها جمهورية تتاريا ، ونظرا لوجود مياه وفيرة في الجمهورية تنتشر الزراعة فيها وتزدهر ، وتزرع فيها كثير من أنواع الحبوب ، كالقمح والشعير والذرة ، والخضراوات والفواكه .

ولا تقتصر ثروة تتاريا على خصب تربتها ، ووفرة مياه أنهارها ، بل إن في باطن أراضيها كميات كبيرة من الذهب الأسود ، وهو النفط الذي تنتج منه الجمهورية ملايين الأطنان سنويا .

مع رئيس الجمهورية :

في اليوم الثاني لزيارة بعثة مجلة « العربي » للجمهورية في صيف العام الماضي التقينا بالسيد شامل مطاييف رئيس الجمهورية ، وسكرتيرته في « كرملين » قازان

قال : إن جمهورية تتاريا مشهورة بانتاجها النفطي الذي يزيد على ٥٠ مليون طن سنويا ، وقد بدىء باستخراج هذه الثروة اعتبارا من سنة ١٩٤٣ م ، وتفيد التقديرات الأولية إلى أن جمهوريتنا تحتوي على ما يزيد على ملياري طن من النفط .

وقد لا أبيح لكم سرا لو قلت إن التركيز في خطط الحكومة المركزية ينصب على توسيع انتاج المعادن



* رئيس الجمهورية التترية السيد / شامل مطاييف .

والنفط من منطقة سيبيريا ، ومن ثم توجيه كثير من الكفاءات والقدرات نحو هذه « القارة » الغنية كثيرا بالثروات .

وتمر في جمهوريتنا أنابيب النفط المتجهة من سيبيريا إلى أوروبا ، (شرق أوروبا وغربها) .

* ألا توجد عقبات تقنية تحول دون التوسع في هذا المجال ؟

ـ نعم توجد عقبات تقنية ، وهناك صراع مع الوقت لجعل الأجيال الحاضرة تستفيد من الثروات المتوفرة ، ومع ذلك فإن الخطط الطموحة ما زالت تسارع وتيرتها ، وكل عقبة لها حل بطبيعة الحال ، ولن يمضي وقت طويل إلا ونكون قد تجاوزنا المشاكل الآنية ، لندخل في مشاكل أخرى ، إنها الحياة ، وجدل الحياة لايعرف التوقف أو السكينة .

* لاشك أن جمهورية تتاريا غنية بكثير من الثروات ، فهل ينعكس ذلك على المواطن ؟ وعلى الخدمات التي تقدم له ؟

ـ صحيح إن للمواطن الحق في الاستفادة من ثروات بلاده ، لكن لا تنس أننا جزء من الاتحاد السوفيتي ، وفيه مناطق غنية وفقيرة ، كما أن للاتحاد السوفيتي التزاماته على أكثر من صعيد محلي وعالمي ، ومع ذلك فإن القرارات المركزية قد أكدت على سد ثغرات النقص ، وتقديم كل ما يمكنه أن يدخل الرفاه إلى حياة الناس ، خاصة في المناطق الغنية بثرواتها .

إن تتاريا بلاد صناعية ، تنتج كثيرا من الصناعات المهمة ، يساعدها في ذلك الطاقة الناتجة عن المياه ، والطاقة الناتجة عن النفط ، كما أن الزراعة فيها متطورة ، وهي بلاد عريقة ، فقد تخرّج في جامعة قازان عشرات ـ إن لم أقل مئات ـ من الأشخاص المشهورين والرواد في كثير من العلوم والفنون ، ولذلك فإنك لن تجد أميا واحدا فيها ، كما أن الخدمات فيها متطورة ، ويمكنك أن ترى ذلك بنفسك .

* المعلومات المتوفرة لدينا تشير إلى أن مدينة قازان يسكنها ما يزيد على مليون نسمة ، وهي مدينة واسعة ، لا يجد الزائر فيها ازدحاما كثيفا ، ومع ذلك فإنه يسكنها ربع سكان الجمهورية ، وأخشى أن تحتوي المدن الأخرى في الجمهورية على كثافة سكانية مماثلة ، والسؤال هنا : ألا تجدون أن هناك اختلالا بين عدد سكان الأرياف وبين عدد سكان المدن ، وذلك يناقض طروحاتكم النظرية ؟

ـ ملاحظتكم جديرة بالتقدير ، وجديرة بالتعليق والمناقشة ، وما يمكن أن أقوله وأجتهد فيه هو أن سنوات التطوير الأولى لم تشهد نزوحا كثيفا نحو قلب المدن ، إلا أن ظهور النفط ، وإنشاء مشروعات صناعية كبيرة دفع الناس إلى تكثيف وجودهم في الحواضر الصناعية ، مما أثر على الريف ، وعلى التنمية الزراعية ، وجعلنا ننحو إلى تحسين الظروف التقنية ، والاهتمام بتوفير الخدمات والمؤسسات المتطورة في الأرياف ، حتى أوجدنا بعض التوازن بين الريف والمدينة ، وما زلنا نوالي تحسين ظروف الاسكان ، وظروف العمل في الارياف ، وقد استقرت النسبة على وجود حوالى ٤٠٪ من السكان في الارياف ، ونحن بصدد زيادة هذه النسبة .



* أيد ناعمة ، وصناعات دقيقة .



* هذه الأعمدة التي تذكرك بالعمارة الرومانية القديمة هي أعمدة جامعة أوليانوف ، أي جامعة مدينة قازان ، إحدى أعرق الجامعات في العالم ، والتمثال للقائد لينين الذي درس في شبابه فيها .



* نهر الفولغا الذي قامت عليه أشهر الحضارات والمدن الروسية والسوفيتية ، ومنها مدينة قازان .

● تتاريا : إرث المغول ، وطموحات الحاضر والمستقبل

*هل تأثرتم بما حصل في تشيرنوبيل ، وهل وصلكم الغبار الذري ، وهل أثر على حياتكم ؟

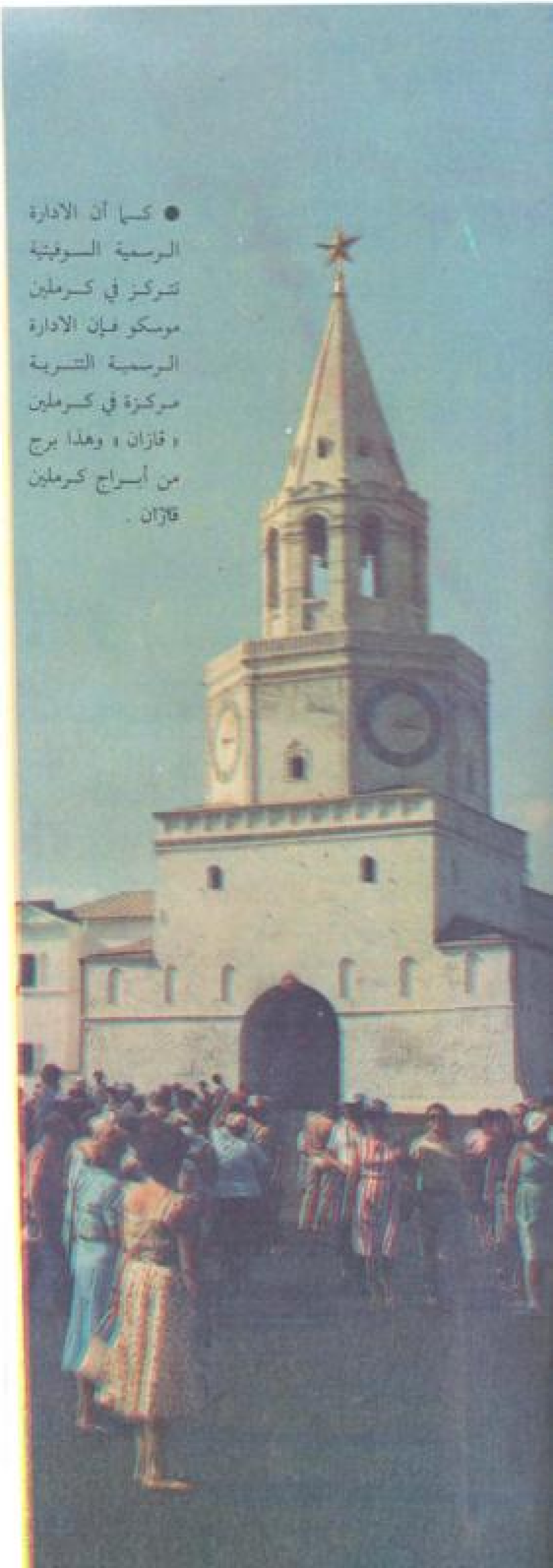
ـ لقد استقبلنا حوالي ٥٠٠ طفل وشاب وفتاة ، تتراوح أعمارهم بين ٨ سنوات و ١٤ سنة ، وهم من سكان مدينة تشيرنوبيل ، وقد أسكناهم بين العائلات التترية ، وأقول بكل اطمئنان انه لم يظهر عليهم أية مضاعفات ، أو أية ظواهر غير طبيعية ، ما عدا ذلك فإن حياتنا ما زالت تسير كما هو معتاد بالرغم من اتخاذنا لاجراءات الفحص والوقاية المستمرة .

وأنهى السيد رئيس الجمهورية حديثه بتقديره وتقدير الشعب التتري لما تقدمه حكومة الكويت من مساعدات وقروض للشعوب الأخرى ، دون منة ، أو فرض شروط خاصة ، وأعلن عن تقديره للسياسة المتوازنة التي تنتهجها الكويت في علاقاتها ومواقفها بالنسبة لكثير من قضايا العالم ومشاكله .

كرملين قازان :

تلفت نظر الزائر لمدينة قازان المباني العريقة ، والقصور المتقاربة ، والأبراج الشامخة ، تلك التي يطلق عليها اسم « كرملين قازان » ، وهي تشبه إلى حد كبير مباني الكرملين في موسكو ، وإن كانت أكثر تواضعا منها ، وهي مقر الحكومة ، حيث استقبلنا رئيس الجمهورية ، فمن بناها ؟

تذكر المصادر أن القيصر ايفان الرهيب بعد احتلاله للمنطقة وقهره ـ للخانيات ـ الامارات التتارية القائمة فيها ، جعل من قازان بوابة له نحو الشرق ، وتابع القياصرة الذين أتوا بعده هذه السياسة ، وقد اختط ايفان أبنية الكرملين القازانية ، وتابع البناء القياصرة الذين أتوا بعده ، وكان كل قيصر بعد ذلك يضيف إلى المباني أو يرممها وهي المباني التي ما زالت قائمة حتى الآن ، وهي مقصد للسياح ، إضافة إلى كونها المقر الرسمي للحكومة .



● كما أن الادارة الرسمية السوفيتية تتركز في كرملين موسكو فإن الادارة الرسمية التترية مركزة في كرملين « قازان » وهذا برج من أبراج كرملين قازان .

حكاية التتار :

* إذا كان الأمر كذلك ، فما هي حكاية التتار الأقدمين ؟

من هم البلغار الصقالبة الذين كانوا قبلهم ؟

وما هي حكاية ابن فضلان معهم ؟

بل من هو ابن فضلان نفسه ؟

* « صحيح أننا أحفاد التتار القدماء ، لكننا ندين سياسة الحرق والقتل التي أتى بها هولاكو ، وتيمورلنك ، وجنكيز خان ، وغيرهم » .

هكذا قال لنا كامل بن إمام الدين ، مؤذن مسجد مدينة قازان ، المتخرج منذ ثلاث سنوات من المدرسة الدينية التي تسمى « مير عرب » في بخاري .

فمن هم التتار الذين يقال لهم المغول في بعض المصادر أو العكس ؟

جاء في الموسوعة العربية الميسرة :

« تتار : اسم عام يطلق على شعوب اكتسحت أجزاء من آسيا وأوروبا ، بزعامة المغول في القرن الثالث عشر الميلادي ، ويرجح أن التتار الأصليين جاءوا من شرق آسيا ووسطها ، أو من وسط سيبيريا ، وبعد أن انحسرت موجة غزوهم نحو الشرق ظل التتار يسيطرون على كل روسيا وسيبيريا تقريبا ، وظلت امبراطوريتهم حتى أواخر القرن الخامس عشر ، حين تمزقت إلى خانات عديدة مستقلة ، سقطت في أيدي الأتراك العثمانيين ، والقيصر ايفان الرابع » .

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية ـ المجلد الرابع :

« ويظهر أن الشعوب التي انحدرت من أصل « مغلي » وتتحدث بالمغولية كانت تسمى نفسها دائما باسم التتر » .

* لكن كيف دخل التتار في الدين الاسلامي ، مع أنهم كانوا وثنيين ، وقد أسقطوا دولة الخلافة العباسية الاسلامية في بغداد سنة ١٢٥٨م ؟



● جمهوريات حوض نهر الفولغا ومنها جمهورية تتاريا .

جاء في كتاب « المسلمون في الاتحاد السوفيتي ـ عبر التاريخ » الجزء الأول ، للدكتور محمد علي البار ما يلي :

« كانت بداية هذا التحول عندما تولى بركة خان ابن جوجي ابن جنكيز خان الحكم لقبيلته ، المعروفة بالقبيلة الذهبية ، وذلك سنة ١٢٥٦م ، وكان بركة خان قد دخل في الاسلام منذ طفولته .

واستمر حكم بركة خان إلى سنة ١٢٦٧م ، وتحول في أثنائها معظم أفراد القبيلة الذهبية إلى الاسلام .

وكان سلطان هذه القبيلة يمتد من تركستان حتى روسيا وسيبيريا ، وقد حكموا موسكو نفسها ، ولم يكن ينصب أمير موسكو إلا بعد موافقتهم ، وقد أقاموا مدينة قازان الشهيرة في شمال نهر الفولغا التي أصبحت بعد ذلك عاصمتهم .

واختلط هؤلاء المغول الذين عرفوا باسم التتار « بيلغار » الفولغا المسلمين ، اختلاطا شديدا ، وأصبح سكان هذه المناطق يعرفون ـ جميعا ـ باسم « التتار » .

*إذا كان الامر كذلك فما الذي حدث لهذه الدولة بعد ذلك ؟

يجيب الدكتور البار في كتابه سابق الذكر قائلا : « نتيجة للخلافات انقسمت أملاك القبيلة الذهبية في مجرى نهر الفولغا وما حولها إلى عدة دويلات ، عرفت باسم الخانيات ، وذلك منذ سنة ١٤٣٨م ، حيث كانت تلك بداية النهاية » .

وهكذا سقطت الخانيات واحدة إثر أخرى بيد الروس .

بلغار الفولغا :

* لقد ورد ذكر « بلغار الفولغا » في النص السابق ـ فمن هم ؟ وهل هناك بلغار غير بلغار الفولغا ؟

« لقد انتشر الاسلام على ضفاف نهر الفولغا منذ زمن طويل ، وأرجح أنه كان منتشرا قبل وصول بعثة ابن فضلان سنة ٩٢١م الى مدينة بلغار ، عاصمة الدولة آنذاك التي ما زالت شواهدها قائمة على بعد بضعة كيلومترات من موقع مدينة قازان ، وقد لعب التجار وأصحاب بعض الطرق الصوفية دورا رئيسيا في نشر الدين الاسلامي » . هكذا قال لنا الأستاذ الدكتور مير قاسم عثمان نائب مدير جامعة أوليانوف ـ أي جامعة مدينة قازان .

ويذكر الدكتور سامي الدهان في مقدمته لرسالة ابن فضلان الذي ترأس بعثة الخليفة المقتدر العباسي إلى ملك البلغار المش بن يلطوار ، وكتب عن أحوال الناس والبلاد ما يمكن اعتباره وثيقة مهمة جدا ، ومما جاء في تلك المقدمة ما يلي :

« إن سمعة بغداد في الخارج كانت جيدة ، بل عظيمة ، يتهافت الملوك والأمراء عليها ، ليعقدوا معها أجمل الصلات ، وأوثق المحالفات ، حتى أن « الصقالبة » ـ وهم من سكان الشمال في أوروبة ، على أطراف نهر الفولغا ، وعاصمتهم على مقربة من « قازان » اليوم ، في خط يوازي مدينة موسكو طلبوا عون الخلافة ومساعدتها ، فقد ذكر ابن فضلان أن مليكهم « المش بن يلطوار » طلب إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله أن يرسل إليه بعثة من قبله ، تفقهه في الدين ، وتعرفه شرائع الاسلام ، وتبني له مسجدا ، وتنصب له منبرا ، يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته ، وسأله أن يبني له حصنا يتحصن فيه من الملوك المخالفين له ، وقد بسط ابن فضلان أمر هؤلاء المخالفين فقال : إنهم ملوك الخزر من اليهود ، كانوا يعتدون على قومه ، ويفرضون عليهم الضرائب ، يؤدونها عن كل بيت في المملكة جلد سمور ، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصبا » .

وتفيد بعض المصادر التاريخية إلى أن رحلة ابن فضلان استغرقت حوالى ١١ شهرا ، من ٢١ حزيران (يونيو) سنة ٩٢١م إلى ١١ آيار (مايو) سنة ٩٢٢م ، كما تفيد تلك المصادر إلى أن دولة الخزر كانت قائمة على جوانب نهر الفولغا الدنيا ، وعلى شواطيء بحر « الخزر » ، أي قزوين حاليا ، وكان اسم عاصمتهم (إتل) ، وهو الاسم القديم لنهر الفولغا ، وموضع هذه المدينة هو نفس موضع مدينة (استراخان) الحالية .

والخزريون كما تذكر بعض المصادر صقالبة بلغار ، من نفس جنس جيرانهم ، تهود بعضهم ، ودخل المسيحية بعض آخر ، كما أسلم منهم بعض ، خاصة أن مدينة دربند « باب الابواب » القريبة من إتل أي استراخان سيطر عليها المسلمون منذ زمن ليس بالقصير وانتشر فيها الاسلام .

ويبدو أن للصقالبة البلغار عدة فروع ، فبعض المصادر التاريخية تذكر بلغار الفولغا ، وبلغار الدانوب ، ويبدو أن الدولة البلغارية السلافية الحالية هي استمرار لما كان قائما من قبل في منطقة الدانوب ، في حين أن الروس قد قضوا قضاء تاما على دولة البلغار الخزريين سنة ٩٦٨م ، وقضى التتار على دولة بلغار الفولغا سنة ١٢٣٦م .





• الدق بعنف هي إحدى ميزات الرقص الشعبي التتري . فهل هو نوع من التنفيس عن طاقات كامنة ؟ (فوق)

• عائلة العامل السوفيتي فلاديمير تشير بانوف . (الى اليمين)

• وجهان تتريان . (الى أقصى اليسار)

• درس في فن « الكولاج » ـ القص واللصق ـ في إحدى الاستراحات . (الى اليسار)








« قازان » من تكوئين ؟

« قازان » الحالية مدينة واسعة ، وعاصمة للجمهورية التترية ، تقع على نهر قازانكا أحد فروع نهر الفولغا ، وهي مركز صناعي ، زراعي ، علمي ، تجاري مهم في المنطقة .

جاء في الموسوعة العربية الميسرة عن « قازان » « أن بها مصانع للطائرات والقاطرات والآلات الزراعية والمطاط الصناعي ، والمفرقعات والمنسوجات ، وبها أيضا كثير من المنشآت الثقافية » (من بينها جامعة أنشئت سنة ١٨٠٤م) .

نشأت قازان سنة ١٤٠١م عاصمة لخانية ـ إمارة ـ تترية قوية ، غزاها ايفان الثاني سنة ١٥٥٢م » .

ومازالت المباني القديمة تشهد على أهمية هذه المدينة عبر عصور التاريخ ، فشوارعها فسيحة ، وكثافتها السكانية قليلة بالنسبة لمساحتها الواسعة ، يتخلل قلبها وأطرافها كثير من الأشجار ، كما أن النهر يمثل رئة مهمة لسكانها ، إضافة إلى كونه وسيلة مناسبة للنقل ، ويقوم عليه كثير من المنشآت ، منها (ترسانة) لصناعة السفن وإصلاحها .

وعندما سألنا الدكتور مير قاسم عثمان عن معنى قازان أو كازان ، ومن أين جاء ، ذكر عدة اجتهادات في هذا الأمر فقال :

ـ يقال إن وعاء كبيرا سقط في النهر ، فأخذ أحد الجنود يصيح : قازان ، قازان ، وبعد ذلك أطلق هذا الاسم على الموقع .

ـ يقال أيضا انه كانت هناك قلعة مكان كرملين قازان الحالي ، وكان الناظر من القلعة يرى دوائر في الماء أو على الأرض ، ولذا كان يصيح : قازان ، قازان .

ـ كما يقال ان اسم النهر كان (قازان صو) فأطلق الاسم على المدينة .

ـ ومما يقال أيضا ان القبيلة التي سكنت المكان كان اسمها قاز ، وأن لفظ « آن » يعني أراضي بالتترية ، فيكون المعنى أراضي قاز .

توقاي في بيت شامل !

* لمن هذا التمثال ؟

ـ إنه لعبد الله توكاي « توقاي » .

* ومن يكون ؟

ـ إنه شاعرنا العتيد ، إنه « بوشكين » التتار .

* يبدو أنه لم يترجم له شيء إلى العربية ؟

ـ بل ، لقد ترجمت « شيرالاي » إلى العربية .

*وما هي « شيرالاي » هذه ؟

ـ هي قصة عن « الغول » ، كتبها توقاي للأطفال .

هكذا دار الحوار بيني وبين مرافقنا التتاري .

كان الشارع الذي تواجدنا فيه يحمل اسم توقاي أيضا ، ثم وصلنا إلى مبنى متوسط الحجم بطابقين ، يحاذي الشارع ، فقيل لنا هذا « متحف توقاي » ، فدخلناه ، فاستقبلنا مديره السيد نعمان حبيب الله ، قال :

ـ إن هذا البيت لم يكن لتوقاي ، بل كان لعميد في الجيش القيصري اسمه محمد شامل .

* هل تعني شامل داغستان القفقاسي ؟

ـ أجاب المدير : نعم إنه ابن الشيخ شامل ، لقد فعل عكس ما فعله والده ، فبينما كان الشيخ ثائرا ضد السلطة القيصرية التحق ولده بجيشها ووصل إلى رتبة عميد ، وعندما تقاعد سكن هذا البيت ، وتوفي سنة ١٩٠٦م .

ـ وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٧ طالب الناس بعدها بتحويل البيت إلى متحف لأعمال توقاي ، وكما ترى فإن كثيرا مما يخص توقاي موجود هنا ، مؤلفاته ، وكتبه ، لكنه قد مات قبل أن يشهد بزوغ شمس الثورة مع الأسف .

* متى توفي ؟

ـ في عام ١٩١٣م

* ومتى ولد ؟

ـ سنة ١٨٨٦م ، ولقد مات وهو ما يزال في عنفوان

شبابه ، ومع ذلك فقد أنتج عشرات الأعمال الشعرية والقصصية ، خصوصا المتعلقة بالأطفال ، وأصدر بعض الصحف ، ولعب دورا في تحريك الوعي ضد السلطة القيصرية وممارساتها .

رموز آخرون :

مادمنا في سيرة عبد الله توقاي ، فقد زرنا متحفا يحمل اسمه ، في قرية قرلاي ، أقيم بالقرب من بحيرة صغيرة كان يلجأ توقاي للجلوس تحت بعض الشجيرات المحيطة بها ، ويكتب بعض أعماله ، من تلك الأعمال المشهورة (شورالاي) الذي جسده أحد النحاتين بمنحوتات خشبية ، تم وضعها في حديقة المتحف ، وهي عبارة عن « غولات » الغابة كما تصورها الكاتب .

وقد تم تنفيذ بناء المتحف اعتمادا على الأسلوب الشرقي ، ومادته الأساسية من الخشب ، وقد بلغت تكلفته حوالي مليون روبل ، نفذه المهندس الفنان باقي أورمنشاه ، وافتتح عام ١٩٧٩م . وهو يحتوي على طابقين فيهما كثير من أعمال الشاعر وأشيائه .

ذكرت لنا مديرة المتحف أن لينين رئيس الدولة السوفيتية الأسبق سأل مجموعة من التتار ذات يوم :

* هل يوجد مثيل لتوقاي في تتاريا ؟

ـ أجابوا : نعم يوجد .

فعلق لينين : إذن لم تنته قوة الشعب التتري بعد .

كما ذكرت لنا المديرة أيضا أن لويس أراغون الشاعر الفرنسي المشهور كتب ذات يوم : « إن شعر توقاي ، ومسجد كافوري ، وروايات ابراهيموف ـ أحد أدباء التتار ومفكريهم ـ قد عبدوا الطريق لأدباء تتاريا السوفيتية وأوحوا لهم بما أنتجوا » .

ومادمنا في سيرة الأشخاص الرموز فلنذكر أن الساحة المقابلة لكرملين قازان تحتوي على نصب آخر ، سألنا مرافقتنا: لمن هذا النصب ؟

فجاءنا الجواب : إنه لموسى جليل الوطني الذي لعب دورا في مقاومة الألمان عندما جاءوا إلى تتاريا سنة ١٩٤٢ ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، فساقوه معهم وأعدموه ، وهو من مواليد سنة ١٩٠٦ .

وموسى جليل أديب مناضل ، له ديوان شعري مطبوع ، مترجم إلى عدة لغات ، منها الانكليزية ، ونص ديوانه الأصلي مكتوب باللغة التتارية ذات الحروف العربية .

لينين في قازان :

هناك رمز آخر ، وطني وعالمي في نفس الوقت ، إنه قائد ثورة أكتوبر ، فلاديمير ايليتش لينين .

* ما هي علاقة لينين بقازان ؟

ـ « لقد عاش فيها وناضل ، بل وتعلم في جامعتها » ،هكذا أجابتنا السيدة كلارا وليدوا مديرة البيت الذي عاش فيه لينين ، والذي تحول إلى متحف ، وافتتح سنة ١٩٣٧م ، وقد زار المتحف ٦ ملايين زائر من حوالي ١٠٤ جنسية ، وعندما عرفت المديرة جنسيتنا علقت : لقد أصبحوا ١٠٥ جنسية الآن .

وأضافت : لقد كان والد لينين مفتشا للمدارس ، فجاء إلى قازان ومعه العائلة والأولاد ، ودخل لينين جامعة قازان اعتبارا من بداية السنة الدراسية ١٨٨٨م ، إلا أن نشاطاته ، وحدوث اضطرابات في الجامعات ـ ومنها جامعة قازان ـ حتمت اعتقاله ، خاصة بعد أن عرف أنه شقيق الكسندر الذي تم إعدامه سنة ١٨٨٧م ، نظرا لنشاطاته الثورية ، ثم نفي إلى قرية تبعد ٤٠ كيلومترا ، كانت تعرف باسم كوكوشاكينو ، وهناك أمضى ساعاته وأيامه بالقراءة الجادة ، وبعد أشهر سمح له بالعودة إلى المدينة ، لكن لم يسمح له بالعودة إلى الجامعة ، وقد أمضى عدة أشهر بقراءة كثير من المراجع ، خاصة كتابات ماركس وانغلز . وفي سنة ١٨٨٩م انتقل إلى بلدة سامارا التي أصبحت تعرف بكايبيشيف ، ثم انتقل بعدها إلى العاصمة الروسية .









* مزروعات وثروة حيوانية ـ إنه الريف التتري الغني والمتنوع الثروات .
أعلى الى اليمين

* بانتظار الآتي في إحدى محطات الحافلات في مدينة قازان .
الصورة العليا

* ما زال النقش والتطريز يتمان باليد لتوكيد العراقة والمتانة في صناعة الجلود . الى اليسار

* العامل التتري السوفيتي انس غلاجيف وزوجته صوفيا .
الى اليمين





ويحتوي المتحف على بعض ممتلكات العائلة وأثاثها ، وبعض الاشياء التي تتعلق بلينين ، منها ساعة عمرها ـ كما ذكرت مديرة المتحف ـ ٢٠٠ سنة ، وهي مازالت تعمل ، حتى يوم زيارتنا .

في الجامعة :

جامعة أوليانوف (نسبة إلى اسم والد لينين ، وقد كان لينين يوقع بهذا الاسم بعض الاحيان) . تم افتتاحها سنة ١٨٠٤ ، « والمعروف أن قازان كانت مدينة علم وثقافة منذ زمن بعيد ، وفيها الآن فرع لأكاديمية العلوم السوفياتية ، وقد أنشيء فيها أول فرع للاستشراق بالاتحاد السوفيتي أيضا ثم انتقل إلى لينتغراد . وجامعة قازان تعتبر الثالثة من حيث الأهمية في الاتحاد السوفيتي بعد جامعتي موسكو ولينتغراد . »

وقد درس في هذه الجامعة وتخرج فيها عدد من الشخصيات المرموقة المهمة ، مثل لينين ، وتولستوي ، وبافلوف (عالم النفس المشهور) ، وبوتليروف اختصاصي كيمياء ، وفشيتفسكي اختصاصي جراحة ، وفانيلوف ، وغيرهم كثير .

وقد تخرج في الجامعة خلال الخمس سنوات الأخيرة حوالي ٩٨٣٤ طالبا وطالبة من أربعين قومية ، منهم بعض الطلبة العرب من سوريا ، واليمن ، وليبيا ، وغيرها من الأقطار العربية الأخرى .

حروف اللغة

لا شك أن ظاهرة لغات بعض الشعوب التي اعتنقت الدين الاسلامي المكتوبة بحروف عربية تلفت الأنظار ، وتثير كثيراً من الأسئلة ، خاصة عندما يتم التصريح بأن تلك الحروف قد تم تغييرها إلى حروف لاتينية وغيرها ، أي انه اذا ما كان استخدام الحرف العربي ، لم يخدم اللغة فلماذا لم تتم العودة إلى حروف اللغة القومية ؟ ولماذا يتم الاستعانة بالحرف اللاتيني ثم الحرف الروسي ؟ أهي قضية سياسية ، أم هي قضية لغوية ، أم أن في الأمر أسبابا خفية غير معلنة ؟

طرحنا السؤال على السيد رئيس الجمهورية ، فأجاب :

ـ إن قلت لك يقينا ما هي الأسباب فإنني أتعدى على اختصاصات غيري ، فأنا غير متخصص باللغة ، وتجربتي السابقة كانت ضمن العمل النقابي ، ومع ذلك أجتهد وأقول عندما قامت الثورة كان معظم شعبنا أميا ، وكان لزاما علينا محاربة الأمية ، واطلاع شعبنا على مجمل التطورات التي حصلت في شتى مجالات الحياة ، وهكذا وجد الاختصاصيون أن الحروف اللاتينية تسهل عملية القضاء على الأمية ، وتسهل ادخال العلوم في المناهج الدراسية .

ويمكن القول انه لا يوجد في بلادنا أي أمي الآن ، والحروف العربية واللغة العربية مازالتا تدرسان في الجامعة في الأقسام المتخصصة ، وباعتقادي أن الأمر غير مرتبط بالموقف من الدين أو غيره من اعتبارات غير فنية .

ـ بروفسير التاريخ مير قاسم عثمان اجتهد في هذا الموضوع فقال :

لقد استخدم سكان هذه المنطقة ـ البلغار أو التتار ـ حروف اللغة العربية بدلا من حروف لغتهم الوطنية منذ حوالي ألف سنة تقريبا ، ومع ذلك فإن الأمر قد تم دون قواعد لغوية ، وهناك حروف في اللغة العربية غير موجودة في اللغة التترية ، كالذال ، والضاد ، والطاء،وهم ـ أي التتر ـ يخلطون الزاي بالسين أو بالذال ، ويخلطون الصاد بالضاد والثاء . . إلخ .

وقد تم بذل جهود مضنية لتطوير الحروف التترية المكتوبة بالعربية للاستجابة للخطط الطموحة للقضاء على الأمية ، فبرزت صعوبات جمة ، منها على سبيل المثال أن اللغة العربية فيها تشكيلات وحركات ، وكان يحتار التتاري كيف يشكل لغته

المكتوبة بالحروف العربية ، وهكذا تم اللجوء إلى الحروف اللاتينية نتيجة لحيثيات تتعلق بأمور تقنية ثقافية لغوية . وليس نتيجة لأسباب أخرى سياسية أو غيرها .

ضجيج الحياة :

كان لا بد من مشاهدات تنقلنا من حالة التنظير والمناقشات إلى ما يبدعه الانسان ، ويعطي مصداقية للكلام عن تقدم الصناعات والتقنيات في قازان وغيرها .

وكانت زيارتنا الاولى لمعرض مصنع المعدات الطبية ، فالتقينا بالسيد يفغيني زليتوف رئيس قسم الانتاج ومساعديه ، قال : بعد أن اطلعنا على نماذج من تلك الصناعات :

إن مؤسسة إنتاج المعدات الطبية تأسست سنة ١٩٦٢ ، وهي تابعة لوزارة البحث العلمي ، وتنتج أربعة آلاف نوع من المعدات الطبية وأجهزة المختبرات ، كأدوات الجراحة ، والجلد الاصطناعي ، وأدوات تجميل الوجه ، وأدوات طب الأسنان ، والمعدات الخاصة بالكسور ، ومعدات المعالجة ، وفحص النساء ، وأدوات فحص الأمراض الناتجة عن الجراثيم ، وأمراض العيون ، وغيرها .

ويوجد في المؤسسة حوالي خمسة آلاف عاملة وعامل ، وبها سبعة أقسام ، منها مكتبان للتصميم ، ومكتب للتطوير والاكتشافات التقنية . والعاملون والعاملات متخرجون في معاهد وكليات تقنية ، كما أن تطوير تعليم العاملين متوفر ، وله دورات محددة وخاضع للمتابعة ، وتقوم إدارة المؤسسة بالتعاون مع الحكومة بتوفير البيوت للعاملين فيها ، ومعدل إيجار الشقة لا يتجاوز ٢٪ من الايجار ، كما يتم تأمين دور حضانة وروضات لأبناء العاملين ، وهناك استراحات للعمال .

ثم انتقلنا بعد ذلك إلى أحد المصانع التابع للمؤسسة ، وهو متخصص بأدوات جراحة الأسنان فقط ، وقد ذكر لنا رئيس المهندسين في المصنع أنه تم تأسيسه سنة ١٩٣٢ م ، في مدينة كييف الأوكرانية في الأساس ، إلا أن قيام الحرب العالمية الثانية والهجوم الالماني على الاتحاد السوفيتي حتم نقله إلى قازان ، وهو ينتج حوالي ٥٠ ألف قطعة تقريبا سنويا ، ويتم ادخال تحسينات على المعدات المنتجة كلما وجدنا الأمر يتطلب ذلك ، وينتج المصنع حوالي ٨٠٪ من احتياجات الاتحاد السوفيتي من أدوات جراحة الأسنان ، ويتم تصدير بعض المنتجات إلى حوالي ٢٠ دولة .

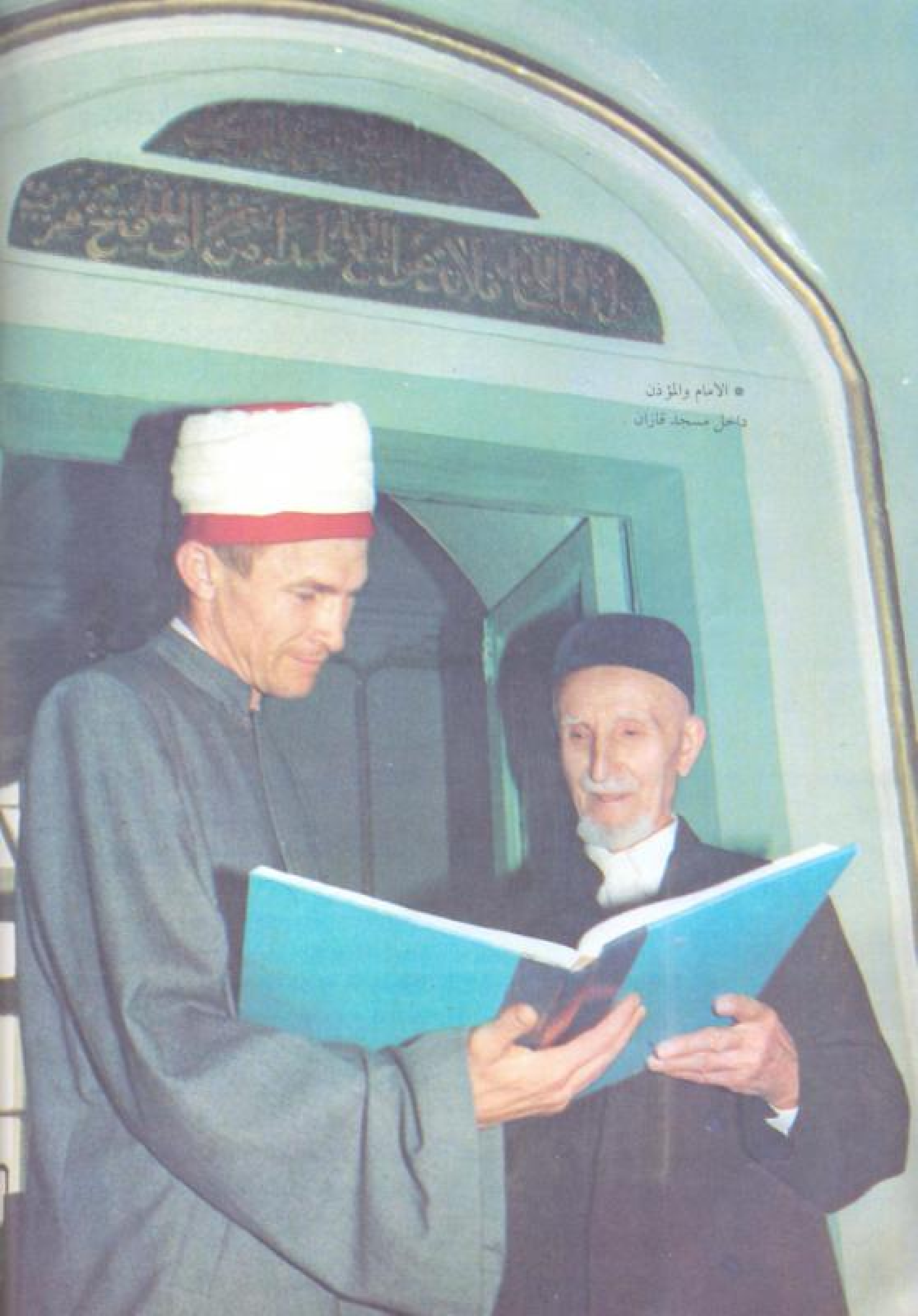
في قلب الغابة وعلى حافة النهر :

وقد آثرنا بعد زيارتنا للمصنع أن نقوم بزيارة استراحة خاصة بأبناء وبنات العاملين في المصنع ، ثم زيارة بيت عامل من عمال المصنع .

تبعد استراحة الأطفال حوالي ٢٥ كيلومترا عن مدينة قازان ، والطريق إليها معبد وتحف به أشجار الصنوبر والشربين من الجانبين ، والسيارات التي ترتاده قليلة ، ونسيم الصيف العليل يهب منعشا ناعما ، وعندما بدأنا بالاقتراب من ساحل نهر الفولغا وجدنا أنفسنا فجأة بين عشرات الفتيان والفتيات ، فالاستراحة في قلب الغابة ، والنهر يبعد حوالى كيلو متر واحد .

قالت لنا مشرفة الاستراحة ناديا سابا ايفا : إن الاستراحة تشغل حوالي ٦ هكتارات ، وتستوعب ١٥٠ فتاة وفتى ، تتراوح أعمارهم بين ٧ و ١٥ سنة . وفجأة انقطع حبل الحديث بيننا ، وانصبت الأنظار المندهشة على مشهد حدث بحضورنا ، فقد هجمت فتاة لا يزيد عمرها عن ١٠ سنوات على أحد الأشخاص المرافقين لنا واحتضنته ، وكان هذا الرجل والدها ، ولم يرها منذ أيام ، ثم تابعت المشرفة حديثها عن الاستراحة :

الفتيان لهم غرف نومهم ، والفتيات كذلك ، وهم مفصولون عن بعضهم بعضاً إلا أنهم يختلطون في النشاطات ، من تمثيل وموسيقا ونشاطات فنية ،



• الامام والمؤذن
داخل مسجد قازان



* من المؤكد أن أحلام الشاعر عبدالله توقاي لم تكن تصل إلى أن ما سيتركه من آثار سيحتويه مثل هذا المتحف في قرية قرلاي بالقرب من « قازان » .

وألعاب رياضية ، والاقامة في الاستراحة لمدة شهر تقريبا ، ويوجد حوالي ٣٨ مشرفا ومشرفة متخصصين ، إضافة إلى وجود عيادة وطبيب مقيم ، وبدفع المشترك (٩ روبلات) في الشهر ، وتدفع نقابة العاملين بقية المبلغ ، والاستراحة خاصة بأبناء العاملين في المصنع فقط .

كان الفتيان والفتيات في فترة الزيارة يمارسون هواياتهم الفنية ، ويبدو أن الدرس كان عن فن ـ الكولاج ـ القص واللصق ، طائرات ورقية ، وسفن ، وأغطية رأس كانت تخرج من بين أياديهم وهم يغنون ويترنمون ، والمشرف والمشرفة يشاركونهم أغانيهم .

مررنا بمجموعة أطفال ونحن نغادر الاستراحة ، كانوا يرسمون بالطباشير الملون على قطعة أرض مسفلتة بزفت ناعم .

أحدهم لا يتجاوز عمره السابعة ، تراءى لي أنه يرسم قوس قزح ، فسألته : ما الذي ترسمه ؟

أجاب : قوس قزح ، سألت : ما هو قوس قزح هذا ؟ بقي مشغولا بعمله وأجاب : هو القوس الملون الذي يظهر على صفحة السماء بُعيد المطر ، أو أثنائه . عندما تتكسر أشعة الشمس بذرات المياه العالقة في الهواء .

تابعنا جولتنا في بقية مرافق الاستراحة ، ثم خرجنا منها ، واقتربنا من شاطىء النهر ، كانت السفن تمخر صفحة المياه وسابحون يسبحون ، والغابة على حدود النهر ، والنوارس تتقافز وترفرف بأجنحتها ، وخيوط الشمس الذهبية تلمع على صفحة المياه كأنها اللجين الذي ذكره بعض الشعراء .

حالة سوفيتية تماما :

مع أن الرجل روسي الأصل إلا أنه ولد في مدينة باكو عاصمة أذربيجان الآسيوية سنة ١٩٣٠ ، والزوجة مولودة في مدينة أوليانسك سنة ١٩٣٩ ، على نهر الفولغا ، كان والدها ضابطا في الجيش ،

جاء إلى قازان فاستقرت العائلة فيها ، فتعرف فلاديمير على لودميلا ، ثم تزوجا سنة ١٩٥٩ ، وولدت لهما ابنة أطلقا عليها اسم ناديا في نفس عام زواجهما ، وما زالا إلى الآن يعيشان في قازان .

سألت الرجل : هل تعتبر نفسك مواطنا تتريا ، بعد أن عشت كل هذا العمر في قازان ؟

ـ أجاب وحالة تعجب وربما استنكار على محياه : أنا مواطن سوفيتي ومواطن تتري أيضا ، علي ما على الناس ، ولي ما لهم ، بل وأصبحنا نجيد التترية أيضا .

إننا نتعامل كمواطنين متكافئين في الأفراح والأتراح والمناسبات ، ولا يوجد أي تفرقة ولو للحظة في أي أمر من الأمور ، فالدستور والحقوق والواجبات هي الحكم بين المواطنين ، كل المواطنين .

* هل تتزاوجون ؟

ـ عادت علامة التعجب والاستنكار على محيا الرجل : نعم زواجنا مشترك ، وثقافتنا مشتركة ، ولنا أصدقاء كثيرون من شتى القوميات السوفيتية ممن يعيشون في قازان .

الرجل هو فلاديمير تشيرباتوف العامل الممتاز في مصنع الأدوات الطبية ، وزوجته لودميلا تعمل معه في نفس المصنع منذ سنة ١٩٦٠ ، أما ابنتهم فهي تعمل مدرسة علوم منذ سنة ١٩٧٧ بعد تخرجها في جامعة قازان . . . زرناهم في بيتهم وكان هذا الحوار معهم .

ولأنه عامل ممتاز فإنه يحصل على أجر ممتاز أيضا ، يصل إلى حوالي ٧٠٠ روبل ، في حين أن متوسط الأجور في المصنع يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ روبل ، والعائلة تعيش في شقة ، فيها ثلاث غرف مع حمام ومطبخ ، إيجارها الشهري ٢٤ روبلا مع الكهرباء والماء والتصليحات ، وهي ممنوحة للعائلة من قبل الحكومة ، وقد منحتهم النقابة ١/٢ هكتار من الأرض خارج قازان على بعد حوالي ٢٨ كيلومترا منها ، بعد أن دفعوا رسوما قليلة ، يزرعون فيها خضراوات وفواكه ، ولهم فيها بيت ريفي ، يقضون فيه عطلاتهم وإجازاتهم . وهذه ظاهرة سوفيتية منتشرة في كل الجمهوريات والمناطق .

* هل تزوجتم بعد معرفة ؟

ـ نعم تعارفنا والتقينا ، ثم تزوجنا عن طريق مكتب الزواج في منطقتنا .

* هل تشعرون باختلاف بين شباب الأمس وشباب اليوم ؟

ـ شباب اليوم أقل إحساسا بالمسؤولية .

* ورأي ناديا ؟

ـ لأقل ان نسبة كبيرة من جيل الشباب غير جادة ، ولا تسعى إلى الاستقرار الأسري .

* ولذلك لم تتزوجي حتى الآن ؟

احتقن وجهها قليلا ، وبانت حمرة الخجل على محياها ، ثم أجابت : ربما ، ولأقل بصراحة انني لم أصادف بعد الشاب الجاد كوالدي ، صحيح أن لي صداقات لكنها لم تتطور إلى زواج .

* من الذي أشرف على تربيتك وأنت صغيرة ، عندما كان والدك ووالدتك يذهبان إلى العمل ؟

ـ جدتي وجدي هما اللذان لعبا دورا في طفولتي ، وبعد ذلك دخلت الروضة ، وعندما كبرت وأصبح عمري حوالي ٨ سنوات حصل والدي ووالدتي على شقة واستقلا في حياتها .

* هل لكم اهتماماتكم خارج العمل ؟

ـ نقرأ الكتب والصحف ونتابع برامج التلفاز ، ونذهب إلى السينما والمسرح .

* هل أنتم حزبيون ؟

أجاب الرجل : نعم أنا حزبي منذ سنة ١٩٦٤ . وأجابت الزوجة وناديا إننا غير حزبيتين .

* لماذا ؟

ـ لا يوجد قانون يجبر كل الناس بأن يكونوا حزبيين .

* والدين ما هو موقفكم منه ؟

ـ الدين تراث نحترمه ، لكنه لا يلعب دورا في حياتنا ، ومن أراد الصلاة فهو حر ، شرط أن يلتزم بقانون عدم إثارة الحزازات والكراهية بين الناس .

* وهل يثير الدين ذلك ؟

ـ يثيره بعض المتعصبين وجهات أخرى يهمها تفتيت الناس والشعوب بسبب المعتقد الديني .

*** لكن الدين ليس كذلك .**

ـ صحيح ذلك ، لكن بعض الناس يجعلون أنفسهم أدوات تخريب وفرقة .

*** هل تنتميان إلى نقابة المصنع ؟**

ـ نعم ننتمي ، والنقابات قوية في الاتحاد السوفيتي ، والانتخابات فيها مباشرة ، وليس بالضرورة أن كل من فيها هو حزبي ، وقد حققت كثيراً من المكاسب للعاملين فيها .

*** هل تتابعون الأخبار عن منطقتنا ؟**

ـ لا شك في ذلك ، وبعض أقطاركم غنية بالنفط ، ويمكن استغلال ذلك لتطوير الحياة ، لكن حروباً كثيرة قائمة في منطقتكم ، نأمل الاستقرار والسلام في العالم وخصوصاً في منطقتكم .

الوجه الآخر :

تبعد منطقة أرسك ـ « أرشاي » كما كان يطلق عليها من قبل ـ حوالي ٥٠ كيلومتراً عن مدينة قازان ، وهي منطقة زراعية ، أشهر المزروعات فيها القمح والذرة والبطاطة . ذهبنا إليها لنرى وجه الحياة الآخر .

قال لنا السيد دامير فاليوف السكرتير الأول للجنة الحزبية المحلية : يبلغ عدد السكان في المنطقة حوالي ٦٥ ألف شخص ، منهم ١٢ ألف شخص يعيشون في بلدة أرسك نفسها ، ويعمل في الزراعة حوالي ١٧ ألف فرد ، وإنتاج القمح السنوي يصل إلى حوالي ٢٠٠ ألف طن ، في مساحة تقدر بحوالي ٩٥ ألف هكتار ، كما ينتج حوالي مائة ألف طن من البطاطة ، في مساحة تقدر بحوالي ٧ آلاف هكتار ، والمنطقة مشهورة أيضاً بإنتاجها من الحليب واللحوم ، إذ يربى فيها حوالي ١٨ ألف بقرة ، والمصانع الموجودة في المنطقة هي مصانع تتعلق باللحوم والمنتجات الزراعية ، ومعامل أخرى تتعلق بالمصنوعات التقليدية ، كالأحذية وغيرها ، ويبلغ عدد التلاميذ في المنطقة حوالي عشرة آلاف ، موزعين على جميع مراحل الدراسة ، بالإضافة إلى المدارس التقنية والزراعية .

وانتقل الى الحديث عن البيوت التي يفضل ناس الريف أن تكون ملكية خاصة بهم ، لذلك فإن أكثر من نصف البيوت في المنطقة حسبما ذكر مملوكة للناس ، والنصف الآخر بنته الحكومة والنقابات الزراعية والصناعية .

وعن الأجور في المزارع والمصانع ذكر بأن معدلها الوسطي متقارب ، وهو يتراوح بين ١٧٠ إلى ٢٠٠ روبل تقريباً ، وأن نسبة ما يدفع كأجرة لا يتعدى ٢٪ من الأجور .

سألت : هل يوجد عاملون من قوميات أخرى غير التتر في هذه المنطقة الريفية ؟

واجهني بنظرة خاصة ثم أجاب قائلاً : لا يوجد إلا مائتا روسي في المنطقة كلها ، والباقي من التتار .

واتممنا جولتنا في مصنع الأحذية التقليدي الذي يعمل به ١٥٠٠ عامل وعاملة ، وينتج حوالي مليون حذاء سنوياً ، وينقسم إلى ٢٢ قسماً .

مكان لكل إنسان

وانتقلنا إلى بيت العامل أنس غلاجيف الذى يعمل بمصنع الاحذية وهو من مواليد سنة ١٩٤٠ ، وزوجته صوفيا العاملة في نفس المصنع ، وهي من مواليد سنة ١٩٤٣ . رافقنا مدير المصنع ورئيسة النقابة فيها . يتكون البيت من ثلاث غرف مع منافعها .

قال أنس وصوفيا بأنهما تزوجا سنة ١٩٦٢ ، وهما تتريان من نفس منطقة أرسك ، وأنهما تعارفا مدة سنتين ، ثم تزوجا بعد ذلك .

قالت الزوجة انها تعمل في المصنع منذ سنة ١٩٦٤ ، أما الزوج فقال : إنني أعمل في المصنع منذ سنة ١٩٥٩ وأتقاضى ٢٠٠ روبل كأجر .

*** والزوجة كم هو أجرها ؟**

أجابت : أجري ٢٣٠ روبلا شهرياً .

استفسرت : لماذا يفوق أجر الزوجة زوجها مع أنه أقدم منها في العمل ؟

أجاب مدير المصنع : لأن عمل الزوجة فيه دقة فنية تفوق عمل الزوج .

*** كم عدد أطفالكم ؟**

أجابت المرأة : لقد أصبحوا كباراً الآن ، فأنيس عمره ٢٣ سنة ، يتعلم بكلية الاقتصاد بجامعة قازان ، وروزيلا تعمل في قازان وتسكن هناك ، وفولناس عمرها ١٦ سنة وتعيش معنا وهي ما زالت طالبة .

سألت : ما هي إجراءات الزواج عندكم ؟

أجابوا : تتم الموافقة التقليدية من قبل الأهل ، ثم يتم عقد الزواج في القسم المخصص لذلك .

*** والشيخ ؟**

ـ يمكن أن يعقد الزواج بواسطة الشيخ أيضاً ، حسب رغبة طرفي الزواج .

*** هل أفهم بأنكما غير متدينين ؟**

ـ إننا نحترم التراث الديني ونقدره ، ونحترم التقاليد ، لكننا غير متدينين ، صحيح أننا لا نصلي ، لكننا قلما نشرب المشروب ، ولا نميل إلى أكل لحم الخنزير ، ونادراً ما ندخن السجائر .

*** لكنكما مسلمان ؟**

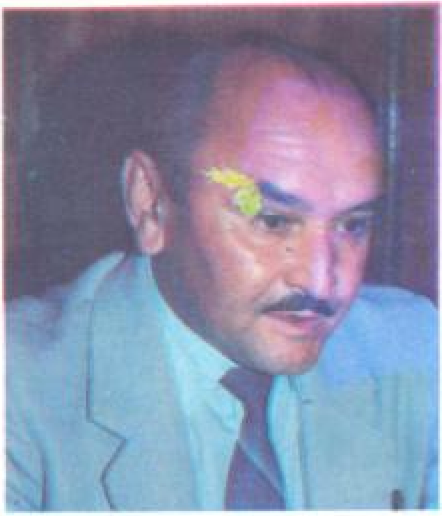
ـ نعم نحن تاريخياً مسلمون ، ونحس أننا قريبون من العرب .

*** هل أفهم أنه أصبح لا يوجد لكم علاقة بالإسلام ؟**

ـ نحن تاريخياً مسلمون .

*** والآن ؟**

ـ لا يوجد في الدستور أو في غيره من النصوص ما يمكن أن يشير إلى دين الفرد . ونحن في الحقيقة غير



* الأستاذ الدكتور مير قاسم عثمان .

متدينين .

*** هل أنتما حزبيان ؟**

ـ قال الرجل : نعم أنا حزبي ، لكن زوجتي غير حزبية ، أما الأولاد فهم في منظمات الشبيبة .

*** كيف تنظرون إلى وجود القوات السوفيتية في أفغانستان ؟**

ـ هذا اجراء ـ كما نعتقد ـ مؤقت أملته التدخلات الاستعمارية ، وقد جاء بطلب من الحكومة الشرعية ، ونأمل أن ينتهي في أقرب فرصة ممكنة .

*** والحرب العراقية الايرانية ؟**

ـ إنها حرب غير مفهومة وغير مبررة ، والشعوب هي التي تدفع الثمن ، نأمل أن تنتهي ، ويحل السلام بين الجارتين .

*** والقضية الفلسطينية كيف تنظرون إليها ؟**

ـ لا يوجد إنسان بلا وطن ، فلماذا يفرض على الفلسطيني أن يكون بلا وطن ؟

تهامس الحضور فيما بينهم ، ثم طلبوا من الزوجة إحضار آلة موسيقية ، ثم أعلنوا : أن الزوج ماهر في العزف على الجارموشكا ، وهي آلة تشبه الناي ، قال

الزوج : إنه يعزف عليها منذ الصغر ، وعندما بدأت الموسيقا تتداخل مع مواطن الاحساس في كل فرد منا انطلق صوت الزوجة بعد تمنع ، وشاركها الحضور .

كانت النغمة نغمة شرقية ، والكلمات عصية على الفهم ، وعندما انتهى العزف والغناء سألت : ماذا كانت تقول كلمات الأغنية ؟

أجابت الزوجة : هي أغنية تترية قديمة ، يقول كلامها : « العالم كالدائرة » ، وفيها مكان لكل الناس ، فلماذا لا نعيش عليها بسلام ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

الـــدق بعنف :

قبل أن نذهب إلى أحد قصور الثقافة في المدينة آثرنا زيارة إحدى الحدائق الكبيرة فيها ، وكان المساء يرخي سدوله ورؤوس الأشجار تتمايل برقة ، كأنها تشارك بدورها في التجاوب مع نغمات الموسيقا التي كانت تتسلل إلى آذاننا من بعيد ، وعن يسارنا كانت حديقة حيوانات صغيرة ، ونوافير ماء ، وملاعب لعدة رياضات على اليمين ، وتزايدت نغمات الموسيقا وضوحاً بشكل تدريجي ، وكانت حشود الشبان والشابات تتجه إلى مكان محدد ، فسرنا وراء الحشد ، وإذا بنا في مواجهة مساحة مسورة مكشوفة ومئات الشبان والفتيات فيها ، بعضهم في قلب الساحة ، وبعضهم خارجها ، ودقات الموسيقا الغربية ونغماتها تتردد بين الجنبات ، والفتيات والفتيان يرقصون على نغماتها فرادى وجماعات ، والداخل إلى الحلبة يدفع كوبيكات قليلة ، ثم يشارك مع الجمع بالدق أو التمايل حسب اجتهاده .

● سألت : هل هي طريقتكم في الخروج من القاعات المغلقة ، وما يمكن أن يحصل فيها ؟

ـ أجاب مرافقنا : يبدو أنها طريقة الرفاق التتار الخاصة للاستجابة إلى رغبات الشبان والشابات وميلهم إلى الموسيقا والرقص .

رذاذ المطر كان ينثر حباته بتؤدة ، والشبان والشابات لا يأبهون لذلك ، ودقات الموسيقا تتوالى ، والجمع لاه يمارس حركات تنفيسية عن طاقاته الكامنة .

وانتقلنا من الحديقة العامة إلى قصر الثقافة التابع لنقابة البناء في المدينة ، قال لنا السيد مارس شالداي نائب مدير النادي : يوجد برنامج سنوي لتنفيذ كثير من النشاطات الثقافية والفنية ، والاتجاه الأساسي ينصب على الاستجابة إلى رغبات الشبان والأطفال .

بالنسبة للنشاطات الفنية وبخاصة بالنسبة للرقص الشعبي فإننا نستفيد من مجمل الموروث الشعبي ، بل ونذهب إلى القرى ، ونستفيد مما يقدم فيها من نشاطات ، وأحياناً نبقيه على ما هو عليه ، وأحياناً أخرى نطور ما نجده بحاجة إلى تطوير .

وعلى سبيل المثال فإن فرقة الرقص الشعبي التي تراها أمامك شاركت في كثيرمن المهرجانات العالمية ، كمهرجان الشباب الذي أقيم في موسكو سنة ١٩٨٥ ، وهي تعتبر من الفرق المشهورة في الاتحاد السوفيتي ، وقد عرضت في موسكو ، كما عرضت في أسبانيا ، واليونان ، ومالطا ، وغينيا بيساو وغيرها .

ملابس الفرقة كانت تحاكي اللباس التتري التقليدي كما ذكر السيد شالداي ونغمات الموسيقا بدأت تتوالى ، وتنغيمات الأيدي والأرجل التي يؤديها فتيان وفتيات الفرقة أخذت تتجاوب وتتوافق معها ، وتلتها الأصوات .

الخفة والسرعة والدق العنيف على الأرض هو ما يميز الرقص التقليدي التتري .

تخرج الفرقة إلى الساحة الأمامية للنادي وتأخذ في توزيع نغماتها ودقاتها ، فيتجمع حولها الناس ، ويسارع زميلي المصور إلى التقاط عشرات الصور ، ثم ننشد جميعا اللحن والكلمات :

« العالم كالدائرة ، وفيها مكان لكل الناس ، فلماذا لا نعيش عليها بسلام ؟ » تجاوبت مع الكلمات ورددتها ، لكنني أضفت إليها ، السلام العادل ، نعم السلام العادل . ! □

السوبرنوفا
كارثة فلكية !

بقلم : رؤوف وصفي

شوهدت ظاهرة فلكية نادرة الحدوث في شهر فبراير الماضي ، فقد انفجر نجم هائل في مجرة سحابة ماجلان الكبرى التي تبعد عنا (١٧٠,٠٠٠) سنة ضوئية ، وهي مسافة قريبة بالمقاييس الفلكية ، واهتم العلماء بتسجيل ذلك الحدث الفريد الذي انتظروه حوالي أربعمائة عام ، فلم يحدث أن انفجر نجم بهذا اللمعان منذ عام ١٦٠٤م .

وجه علماء الفلك مراصدهم البصرية و (الراديوية) إلى موقع محدد من مجرة سحابة ماجلان الكبرى ، كما صدرت الأوامر إلى عدد من الأقمار الصناعية بتوجيه أجهزة الرصد لديها نحو مكان الانفجار ، لقياس الإشعة الصادرة عنه ، مثل أشعة جاما ، والأشعة السينية ، والأشعة الكونية ، والأشعة فوق البنفسجية .

فالعلماء يدرسون حدثا فلكيا ، وقع منذ ١٧٠,٠٠٠ سنة ضوئية ، وهو يشاهد أمام أعينهم في الوقت الحاضر ، لأن الضوء استغرق كل هذه السنوات في الوصول إلى كوكب الأرض ، وهي فرصتهم للدراسة الواقعية لمراحل تطور النجوم ، بعد أن كانوا يلجأون للمعادلات الرياضية النظرية .

وهذا الانفجار المروع الذي يطلق عليه اسم (السوبرنوفا) يقذف بمادة النجم ومجالاته المغناطيسية وإشعاعاته إلى أعماق الكون ، وهو يمثل كارثة لنجم يحتضر ، بعد حياة مثيرة استمرت بلايين السنين ، لكن الأمر الغريب هو أن قلب النجم سيبقى ينبض ملايين السنين مفعما بالحياة في شكل نجم (نيوتروني) ، أو قد يخلف الانفجار هوة لا قرار لها ، تبتلع النجوم التي حولها ، وتمثل إحدى أغرب ظواهر الكون كافة ، وهي الثقب الأسود .

وأثناء حدوث (السوبر نوفا) تتسارع العناصر إلى الفضاء بفعل قوة الانفجار ، لتكون سحبا من الغاز والغبار ، ثم تنتج أيضا موجات صدمية تتخلل هذه السحب ، وربما تكون السبب في نشأة نجوم وكواكب جديدة .

فما هو سر ـ السوبر نوفا ـ ذلك الحدث الفلكي الذي يحمل في طياته موتا لنجم ، ويمنح الحياة لأجرام فضائية أخرى ؟

« السوبر نوفا » عبر التاريخ

ظل الفلكيون الصينيون القدماء يرقبون السماء آلاف السنين ، ويسجلون بدقة بالغة كل الظواهر الكونية ، لاعتقادهم بأنها ترتبط بأقدار الناس ، وبالأحداث فوق كوكب الأرض . وكان أكثر ما يثير تساؤلاتهم تلك النجوم التي كانت تتوهج فجأة في مكان ما من السماء ، لم تشاهد فيه نجوم من قبل ، ثم تعود للاختفاء مرة أخرى ، وقد أطلقوا على تلك النجوم المتوهجة « النجوم الزائرة » .

وقد سجل الصينيون في عام ١٨٣م نجما متوهجا في كوكبة (قنطوروس) ، وقد استمر تألقه عدة أسابيع ، وكان أكثر الأجرام الفضائية إضاءة بعد الشمس والقمر ، كما رصدوا نجما آخر أقل توهجا في عام ٢٩٣م في كوكبة (العقرب) ، وقد ظل متأججا في السماء حوالي ثمانية شهور .

وفي عام ١٠٠٦م سجل الفلكيون في الصين ومصر وسويسرا وإيطاليا ظهور نجم جديد في كوكبة (الذئب) ، واستمر فترة طويلة متألقا في الفضاء ، وتوهج نجم في كوكبة (الثور) عام ١٠٥٤م ، وكان واضحا للفلكيين في نصف الكرة الشمالي ، وكان متألقا بأكثر من عدة أضعاف تألق كوكب الزهرة الذي يسمى نجم الصباح والمساء ، وبقي هذا النجم الجديد مدة ثلاثة أسابيع متألقا ، حتى أنه يمكن رؤيته أثناء النهار ، وبعد ذلك بقي حوالي سنتين واضحا للعين المجردة .

واكتشف الفلكيون الصينيون واليابانيون نجما متوهجا عام ١١٨١م في كوكبة (ذات الكرسي) ، ثم مرت أربعة قرون دون اكتشافات جديدة ، وعندما ظهر نجم « جديد » في القرن السادس عشر كانت الأمور مختلفة ، فقد تقدمت العلوم في أوروبا في مختلف المجالات ، ومنها علم الفلك ، حيث أحدث (نيقولا كوبر نيكوس) البولندي - ١٤٧٣ - ١٥٤٣ - ثورة في المفاهيم السائدة في ذلك الوقت



مجرة سحابة ماجلان الكبرى
حيث شوهدت سوبر نوفا ١٩٨٧م

عندما قال إن الأرض تدور حول الشمس ، بعد أن ظل العالم يعتنق نظرية (بطليموس) التي تقول بأن الأرض هي مركز الكون مدة ألف وخمسمائة عام .

سديم السرطان بقايا « سوبر نوفا »

إن انفجار « السوبر نوفا » حدث فلكي مروع ، ولهذا كان من الصعب على العلماء أن يتصوروا أنه لا يترك أثرا في الفضاء ينم عن هذا الانفجار الذي يجعل النجم يضيء فترة محدودة ، مثل مجرة كاملة تحتوي على بلايين النجوم .

وتحقق أمل العلماء أخيرا ، فاكتشفوا « سديم السرطان » على بعد ٦٠٠٠ سنة ضوئية ، وهو عبارة عن كتلة غازية ممزقة ، تشبه شكل حيوان السرطان البحري . وقد بدأ سديم السرطان يجذب اهتمام الفلكيين ، لأنه فريد في الفضاء . وبدراسته اتضح أنه يتمدد بسرعة ١٣٠٠٠ كيلومتر في الثانية ، كما أنه مصدر قوي للنبضات الراديوية .



انفجار السوبر نوفا





قزم أبيض يحيط
به سديم كوكبي

رسم قديم يبين
كوكبات السماء



ميلاد النجوم



سديم السرطان



مراحل حدوث « النوفا » بين العملاق الأحمر والقزم الأبيض



التلسكوب الراديوي



انفجار « السوبر نوفا » (أ) وما تخلف عنه من سديم ونجم نيوتروني (ب)

وبالمزيد من الدراسات الفلكية وبتحديد موقع سديم السرطان في كوكبة الثور بالقرب من المكان الذي سجله الصينيون القدماء للنجم الزائر في عام ١٠٥٤م اتضح أن سديم السرطان هو بقايا النجم المتوهج المذكور ، وبدراسة الاشعاعات التي تصدر عن السديم يظهر أنها لابد أن تنتج عن مصدر يطلق طاقة هائلة أكبر من « النوفا » ، إذن فالانفجار الذي شوهد في عام ١٠٥٤م نشأ عنه سديم السرطان ، وهو « سوبر نوفا » واتضح أيضا بدراسة الانفجارات ١٠٠٦ ، و ١٥٧٢ ، و ١٦٠٤م أنها ليست « نوفات » بل « سوبر نوفات » .

أكثر ضياء من بليون شمس

استطاع العلماء تقسيم « السوبر نوفات » إلى نوعين ، النوع الأول هو الشديد التألق والأكثر ضياء ، ويصل لمعانه إلى ما يقرب من ٢,٥ بليون مرة قدر ضياء الشمس ، وعندما يصل إلى أقصى تألقه يعود إلى الخفوت بطريقة منتظمة . وقد اتضح من دراسة طفيفة أنه يفتقر افتقاراً شديداً إلى الأيدروجين ، كما أنه يحدث في المجرات اللولبية والبيضاوية ، وفي أذرعتها ومراكزها أيضا ، أما النوع الثاني المتألق فأقل ضياء ، إذ يصل لمعانه إلى ما يقرب من بليون مرة قدر ضياء الشمس ، وبعد أن يصل إلى أقصى تألق يعود إلى الخفوت بطريقة غير منتظمة ، كما أنه غني بالأيدروجين ، ويكاد يحدث هذا النوع في المجرات اللولبية فقط ، وفي أذرعها بالتحديد .

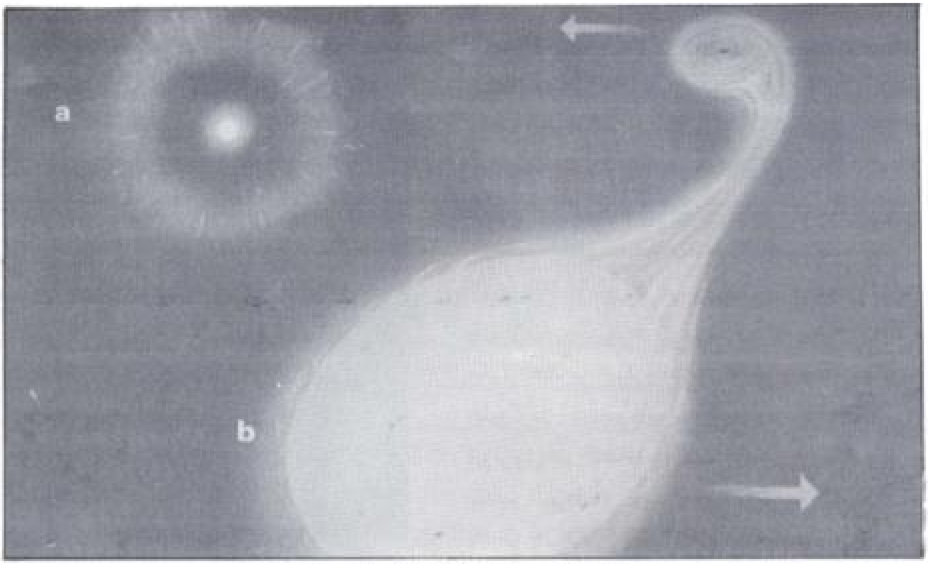
أما عن الاختلافات في التركيب الكيميائي بين النوعين فالنوع الشديد التألق لا يحتوي على الأيدروجين ، وهذا يعني أن النجم المتفجر في نهاية حياته ، وأن عدم وجود الأيدروجين وتوفر الكربون والنيتروجين والاكسوجين يدل على أنه قزم أبيض .

فهل هذه الأنواع الشديدة التألق عبارة عن أقزام بيضاء منفجرة نتيجة وجودها في نظام ثنائي قريب مع عملاق أحمر كما أوضحنا من قبل في حالة « النوفا » ؟

إن الأمر يختلف قليلا في حالة السوبر نوفا ، فإذا كان القزم الأبيض كبيرا ، ولتكن كتلته ١,٣ قدر كتلة الشمس ، أي أقل من « حد شاندر اسيخار » ، أو إذا كان النجم الرفيق له في النظام الثنائي عملاقا أحمر هائلا ، ومن ثم يلقي بمادته إلى القزم الأبيض أسرع من المعتاد في حالة « النوفا » ، أو إذا حدث الأمران معا فإن « السوبر نوفا » هي التي تحدث ، وليس « النوفا » فقط .

وذلك أنه في هذه الحالة يكتسب القزم الأبيض المادة بمعدل سريع ، وبكمية هائلة ، وهكذا يتعدى حد (شاندر اسيخار) ، ومن ثم لا يتمكن من الاحتفاظ بكتلته ، فيتقلص وينهار فجأة ، فتصطدم نويات الكربون والاكسجين والنيتروجين معا بقوة هائلة ، فتحدث تفاعلات نووية نورية ، تنتج عنها طاقة مروعة سريعة ، ينشأ عنها انفجار مروع ، يصدر طاقة - في عدة أسابيع - تعادل ما تطلقه شمسنا طوال عمرها ؛ أي خلال عشرة بلايين سنة .

أما النوع الثاني من « السوبر نوفا » (المتألق) فيحدث للنجم عندما يصل إلى مرحلة العمالقة الحمر ، وتكون كتلة النجم حوالي (٣) إلى (٤) مرات بقدر كتلة الشمس . ويتكون العملاق الأحمر من طبقات عديدة ، تحتوي الطبقة الخارجية على الأيدروجين والهيليوم ، وتليها طبقات من الكربون والنيتروجين والاكسجين والنيون والصوديوم ، وذرات أخرى أثقل ، حتى نصل إلى المركز فنجد ذرات الحديد والكوبالت والنيكل . وبصفة عامة تتكون كل طبقة من ناتج الاندماج النووي للذرات في الطبقة السابقة ، وعندما يصبح مركز النجم من الحديد والكوبالت والنيكل لا يمكنه أن يصدر طاقة ، فسواء حدث تغيير نووي في هذه العناصر بالاندماج النووي لينتج عنه نويات أكثر تعقيدا،أو انشطار نووي تنشأ عنه نويات أقل تعقيدا ، وهنا لن يصدر النجم طاقة ، بل سوف يمتص الطاقة .



انفجار « السوبر نوفا » وتكوّن الثقب الأسود

وبينما يكبر مركز النجم المكون من الحديد . يصل النجم إلى مرحلة يصبح فيها غير قادر على إصدار طاقة للاحتفاظ بكتلته ، ومن ثم تتقلص طبقاته الداخلية بشكل مفاجىء ، فتتحرر طاقة من الجاذبية ، فيطلق موجة صدمية تؤدي إلى انفجار الطبقات الخارجية إلى الفضاء ، وكذلك تشعل تفاعلات نووية فيها ، ومن ثم تتحرر طاقة إضافية تميز النوع الثاني (المتألق) من « سوبر نوفا » .

تقول نظرية حديثة بأن حدوث « السوبر نوفا» بسبب جسيمات النيوترينو . ولنتعرف أولا على هذا الجسم الغريب . ففي داخل الفرن الذري للنجوم يتحلل النيوترون إلى بروتون والكترون ، لكن اتضح بأن كتلة الجسيمين الأخيرين معا لا تساوي كتلة النيوترون التي نشأت عنه ، ولا يمكن تفسير هذا النقص في الكتلة الكلية ، إلا بأن جزءا بسيطا من كتلة النيوترون قد تحول إلى طاقة يحملها جسيم آخر ، متعادل الشحنة ، له طاقة ، لكنه يكاد يكون بلا كتلة ، وقد أطلق على هذا الجسيم الشبح اسم (النيوتريبنو) .

يتكون عدد هائل من جسيمات النيوترينو في مرحلة ما قبل « السوبر نوفا » ، وذلك بطريقتين ، في الطريقة الأولى يتكون من الإشعاع مادة ، والمعروف أن لكل جسم من المادة جسيم من المادة المضادة ، ويتشابه الجسيمان في كل شيء ماعدا الشحنة الكهربية ، ويمكن للاشعاع إذا كان عالي الطاقة أن ينتج جسيمات من المادة والمادة المضادة ، فأشعة (جاما) التي تنتج في مركز نجم هائل لديها من الطاقة ما يمكنها من إنتاج الكترون والكترون مضاد (بوزيترون) ، وعندما يصطدمان ينتج النيوترينو .

أما الطريقة الثانية فعند اتحاد الالكترون مع البروتون لتكوين نيوترون ينتج عن هذا الاتحاد تحرير جسم نيوترينو ، وعند تحلل النيوترون إلى الكترون وبروتون ينتج أيضا جسيم نيوترون آخر ، وتهرب جسيمات النيوترينو محملة بجزء من الطاقة ، وهذه الطاقة التي تحملها هي سبب حدوث « السوبر نوفا » ، فهذه الطاقة التي تتخللها جسيمات النيوترينو المتسارعة إلى الفضاء هي التي يفقدها



بقايا « سوبر نوفا » في كوكبة الشراع ،
وتحوي في داخلها على نجم نيوتروني

النجم بشكل مفاجىء ، بينها الطاقة التي تتحول إلى إشعاعات تندفع الى الطبقات الخارجية للنجم ، وهي بهذا تساعد في دعم النجم في مواجهة ضغط الجاذبية ، وكلما فقدت الطاقة من مركز النجم بتأثير جسيمات النيوترينو يصبح غير قادر على مقاومة الجاذبية ، وعند حد معين تتغلب الجاذبية ، ويصبح تقلص النجم أمرا لا مفر منه ، ويؤدي هذا التقلص إلى اندماج الالكترونات والبروتونات لتنتج النيوترونات ، وعند تكوّن كل نيوترون يتحرر نيوترينو ، وهذا التقلص المفاجىء يحرر طاقة تحملها جسيمات النيوترينو إلى الطبقات الخارجية للنجم ، فتشتعل فيها التفاعلات النووية ، فتنفجر بشكل مروع مكونة « سوبر نوفا » .

بالرغم من أن « السوبر نوفا » تحدث عندما يكون النجم في مرحلة الاحتضار إلا أنه ينتج عنها « جنينا » ينبض بالحياة ، فعند حدوث « السوبر نوفا » يكون تقلص مركز النجم مفاجئا وعنيفا ، بحيث يحطم التركيب الذري ، فتندمج الالكترونات مع البروتونات مكونة نيوترونات ، تتلاصق مع النيوترونات الموجودة من قبل ، وهكذا يصبح النجم مكونا فقط من نيوترونات متراصة ، ولهذا يطلق عليه اسم « النجم النيوتروني » . وكان أول نجم نيوتروني تم اكتشافه في ذلك السديم الغامض هو سديم السرطان . وبالمزيد من الدراسة اتضح أن النجم النيوتروني يصدر نبضات سريعة جدا في الثانية الواحدة ، ولهذا أطلق عليه أيضا اسم « النجم النابض » ، كما ظهر أيضا أنه يدور حول محوره بمعدل مرتفع جدا ، وهو لم يتفتت في الفضاء بسبب كثافته العالية .

لكن إذا كانت كتلة المركز المتقلص للنجم ـ بعد حدوث « السوبر نوفا » ـ تزيد عن ٣,٢ قدر كتلة شمسنا فإنه يظل يتقلص بعد مرحلة الأقزام البيضاء والنجوم النيوترونية ، ويكون أغرب ظواهر الكون « الثقب الأسود » ، وهي هوة لا قرار لها ، وقبر مظلم في الفضاء ـ وحتى الضوء بسرعته الهائلة لا يستطيع الهرب من قبضتها ، وهي تبتلع النجوم التي تقترب منها ، حيث تنضغط وتتضاءل ، وتختفي مادتها في أسرع من لمح البصر ، وبالرغم من أنها تصبح غير مرئية ، أي أن حجمها يصبح أصغر ، إلا أنها تبقى هناك في مركز الثقب الأسود بكتلتها وثقلها ، ومن ثم ـ ومع تراكم المادة ـ تصبح الجاذبية لا نهائية ، ويختلط الزمان بالمكان ، وتخرق كل النظريات الفيزيائية ، وتصبح الكثافة غير محدودة . ويرى بعض العلماء أنه بعد أن تختفي المادة في الثقب الأسود ، فإنها تمر في نفق كوني ، حيث تنبثق مرة أخرى من خلال ثقب أبيض ، سواء في كوننا أو في كون آخر . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

أحواض أسماك الزينة متعة وتثقيف

الوصفات الشعبية داء .. ودواء



أحواض أسماك الزينة

جمال للبيت وأداة تثقيف ومتعة



بقلم : رجب سعد السيد

أحواض أسماك الزينة في المنازل ليست قطعة (ديكور) جميلة فقط ، لكنها تؤدي وظائف كثيرة ، فهي تمتص ارهاق اليوم الطويل وتوتره ، وهي متعة للأبناء ، ومدخل طريف يتيح لهم الاطلاع على بعض أسرار الحياة .

انتشرت هواية تربية أسماك الزينة انتشارا واسعا ، وأصبحت صناعةتلقى رواجا كبيرا عند مختلف شعوب العالم ، فأنشئت المصانع العديدة لانتاج مختلف مستلزمات هذه الهواية ، وافتتحت المتاجر الفخمة لتسويق هذه المنتجات،وأقيمت المعارض الاحتفالية لترويجها والاعلان عنها .

وأحواض أسماك الزينة ليست شكلا جميلا يزين البيت فحسب ، لكنها أداة ثقافية ، تدفع أفراد الأسرة إلى القراءة في مجالات عديدة متنوعة ، قد تكون جديدة بالنسبة لهم ، بل وأكثر من ذلك ، فقد يكتسب بعض أفراد الأسرة عددا من المهارات اليدوية لكي يتسنى لهم القيام بأعمال الصيانة والرعاية للحوض وما فيه .

أما الأطفال فإن الحوض لن يكون مصدر بهجة مستمرة لهم فقط ، لكنه أيضا معرض علمي يطلعهم على بعض أسرار الحياة ، وينمي فيهم قوة الملاحظة ، ويقوي قدرات التفكير العلمي لديهم ، ويمكن للحوض أيضا أن يكون عاملا مشتركا يجمع حوله كل أفراد الأسرة ، يفكرون ويتحاورون ويتبادلون الاهتمام به وبما يحتويه .

وكما يقول كثير من علماء النفس فإن مراقبة حركة الحياة الجميلة في حوض الأسماك يمكن أن تكون منقذا من الاجهاد العصبي ، إذ تمتص شحنات التوتر ، وتساعد على تهيئة أفراد الأسرة على نوم طبيعي عميق .

وقبل أن يتخذ القرار لتحديد المكان الذي سيوضع فيه الحوض لا بد من دراسة عاملين مهمين ، وهما الاضاءة ، ودرجة حرارة الموقع ، فالضوء الطبيعي المباشر - ضوء الشمس - يساعد على نمو الكائنات النباتية في الحوض ، كالطحالب غير المرغوب فيها ، مثلا ، ويفضل الخبراء الاكتفاء بالاضاءة الصناعية لسهولة التحكم فيها ، ويراعى كذلك عدم تعريض الأسماك لتغيرات مفاجئة في درجة الحرارة ، فهذه التغيرات قد تؤدي إلى صدمة تقتل بعض أنواع الأسماك الحساسة أو تمرضها ، لذلك يستحب الابتعاد بالحوض عن أجهزة التكييف .

ولا بد أيضا من التأكد من أن الطاولة أو الحامل المخصص لحمل الحوض مناسبا للثقل الذي سيكون عليه . ولا تستهن بوزن الحوض في شكله النهائي .

ويفضل كثير من الهواة الاحواض ذوات الزوايا الحديدية المدهونة بمادة تمنع الصدأ ، مثل الكروم . ويوصي الخبراء بأن لا تقل سعة أول حوض تقتنيه الأسرة عن عشر جالونات ، ويفضل أن يكون أكبر من ذلك ، فهو لن يحتاج فقط إلى عناية أقل ، بل سوف يعطي أيضا الحرية لاختيار أكبر مجموعة من الأسماك والنباتات .

سيحاول البائع إقناعك بضرورة شراء غطاء للحوض ، وهذا حق ، لأن الغطاء المحكم يقلل من تسريب الحرارة من الماء إلى الخارج ، ويقلل أيضا من كمية المياه التي يفقدها الحوض بالبخر ، كما أنه يمنع الأسماك من الهرب قفزا إلى خارج الحوض ، ويقلل من احتمالات العبث بمحتوياته ، ولغطاء الحوض فائدة إضافية ، إذ تثبت به وسيلة الاضاءة ، وتتفق آراء الخبراء على أن مصابيح الفلورسنت (النيون) أفضل من المصباح الكهربائي العادي من عدة أوجه هي قلة استهلاك الكهرباء ، وعدم إشعاع كمية كبيرة من الحرارة ، تؤثر على النظام الحراري للحوض .

خطوات تمهيدية

أما عن أسماك الزينة فإنها تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين : أسماك المياه الاستوائية أو الحارة ، وأسماك المياه الباردة ، والمجموعة الأخيرة أسهل من الأولى في تربيتها ، لأن الأسماك الاستوائية تحتاج إلى مزيد من الجهد لتوفير درجة الحرارة المناسبة لمياه الحوض .

ستجد عدداً من أنواع السخانات ، يمكنك المفاضلة فيما بينها من حيث المزايا والتكاليف ، لكنك تحتاج إلى سخان ذي منظم حراري (ترموستات) ، بالاضافة إلى ميزان حراري (ترمومتر) ، لتسجيل درجة حرارة مياه الحوض مرة في اليوم أو أكثر .

وستحتاج إلى معدات للتهوية والترشيح ، وأهمها مضخة ، وأنابيب مرور الهواء إلى داخل الحوض ، وهي تنتهي بالقرب من قاع الحوض بقطعة من الحجارة المسامية ، تسمى (حجر الهواء) ، تنظم تدفق فقاعات الهواء في مياه الحوض . ولا يكتمل رونق الحوض إلا بعد فرش قاعه بالرمال والحصى .

وتباع في المحلات المخصصة لأسماك الزينة أنواع عديدة من الحصى ، أفضلها ذو الحجم المتوسط ، ويفضل ذو الألوان الطبيعية ، فإن كانت صناعية ،



أوجد حوض السمك في الغرفة ركناً جميلاً تقضي فيه الأسرة بعض أمسياتها .

وجب التأكد من ثبات اللون ، وخلوه من السمية . ويمكنك أن تحسب احتياجك من الرمل أو الحصى على أساس رطلين لكل « جالون » من مياه الحوض .

والنباتات ضرورية للحوض ، وقيمتها الجمالية في المرتبة الثانية بعد ما توفره للأسماك من بيئة طبيعية ، تجد فيها المأوى والظل وحماية البيض في وقت التكاثر . هذا بالاضافة إلى وظيفتها الأساسية ، وهي استهلاك ثاني أكسيد الكربون الذائب في الماء ، وإمداد الحوض بغاز الأكسجين .

حرص ومتابعة

ومعظم أسماك الزينة تعيش في المياه التي تحتوي على نسب ضئيلة من أملاح الكلوريد أو الكبريتات أو الكربونات ، وبعضها يعيش في المياه المالحة ، بينما تعيش مجموعة ثالثة في المياه القليلة الملوحة .

وإذا كانت أسماكك من بيئة المياه العذبة ، فيمكن استخدام مياه (الصنبور) بعد تركها معرّضة للهواء لمدة يومين أو ثلاثة أيام قبل صبها في الحوض ، وذلك للتخلص من الكلوريد الضار بالأسماك .

والمستحسن أن تختار أسماكك من الأنواع التي تتكيف مع ماء (الصنبور) العادي ، مع مراقبته لكي لا ينحرف في أي من الاتجاهين : الحمضي أو القلوي ، ويمكنك التأكد من ثبات تعادلية ماء الحوض باستخدام أوراق عبّاد الشمس الملونة ، فإن بقيت كما هي بعد غمسها في الماء ، فإن الحالة مطمئنة ، وإن احمرّ لونها أو ازرقّ ، فإن ذلك يعني تغير حالة الماء إلى الحمضية أو القلوية ، على

الترتيب .

وأخطر مؤشرات تلوث مياه الحوض هو زيادة نسبة أملاح النيتريت والنيترات المذابة في الماء ، فإذا حدث ذلك فإن الأسماك تموت تباعا بعد أن ينعدم إقبالها على الطعام ، وتتقلص زعانفها ، وتضطرب حركتها ، ويمكنك في هذه الحالة أن تستخدم العقاقير الخاصة المتوفرة في الأسواق ، لكن أساس معالجة هذه الحالة هو أن تقوم بتغيير ثلث ماء الحوض ، من حين لآخر ، مع التأكد من ثبات درجة الحرارة .

كيف تختار الأسماك ؟

إن اختيار الأسماك التي ستسكن الحوض بعد تجهيزه يحتاج إلى دراسة متأنية ، للمفاضلة بين مختلف مزاياها ، فإذا توفرت في بعض الأنواع خصائص الجمال ، مع عدم الاحتياج إلى مزيد من الجهد في الرعاية كانت هي الأفضل .

وبعض أنواع الأسماك لا تطيق مشاركة أنواع أخرى لها في مياه الحوض ، فهي تعيش فردية ، ولا تكف عن العراك مع غيرها ، مثل : أوراتوس ، وسياميز فايتينج ، وريد تايل بلاك شارك ، فهي أنواع مزعجة ، يستحسن أن تتجنبها ، ما لم توفر لها ظروف المعيشة الخاصة بها .

ولا يغب عن بالك أنك تستضيف في بيتك كائنات حية ، وهي ضيوف عزيزة لديك ، ويجب أن تقوم بواجب إكرامها على الوجه الأكمل ، فتعرف أولا حاجاتها الغذائية ، فالأسماك إما آكلات عشب (نباتية) ، أو آكلات لحوم ، أو خليط من هذا وذاك ، فالنباتية منها تحتاج إلى وجبات صغيرة متلاحقة (كل ثلاث ساعات) ، أما آكلات اللحوم فإنها تفضل الوجبات الدسمة المشبعة ، ويفضل تثبيت مكان أو مكانين في الحوض لالقاء الطعام منها ، وذلك لاتاحة الفرصة لكل سكان الحوض لأخذ احتياجاتهم من الطعام ، ومن المفضل أيضا أن (يتنوع) الطعام ، فيكون جافا مرة ، وطريا أخرى . وكثير من أنواع الأغذية الجافة يباع معلبا في متاجر أسماك الزينة ، وأحسن أنواعه تلك المصنعة من عدة حبوب ، أما الأغذية الطرية فهي تشمل الطحالب والعقد البكتيرية الملتصقة بسيقان النباتات وجذورها ، وبرغوث الماء ، وديدان الأرض ، ويرقات الحشرات والقشريات .

وعلى أي حال فثمة بعض القواعد الأساسية التي يجب ألا تغيب عن ذهن أي هاو لأسماك الزينة :

أولا : مراقبة العوامل والمؤشرات الطبيعية والكيميائية للحوض يوميا (درجة الحرارة - درجة الحموضة . . . الخ) .

ثانيا : تنظيم عملية التغذية للاحتفاظ بالأسماك في حالة صحية جيدة .

ثالثا : مراعاة توفير الفراغ الحيوي المناسب لمعيشة كل سمكة ، فلا يزدحم الحوض بالأسماك .

رابعا : ضرورة تغيير جزء من ماء الحوض كل أسبوعين للمحافظة على صلاحيته لمعيشة الأسماك .

خامسا : الكشف الدوري على الأجهزة الملحقة بالحوض (كالمضخة والمرشحات والسخان) والتأكد من كفاءة عملها .

سادسا : يجب ألا تزيد قوة السخان عن « واحد » لكل لتر من الماء .

سابعا : مراعاة النظافة العامة والتامة بالحوض ، واستبعاد أي جسم عالق بالماء قابل للتحلل .

ثامنا : القراءة المستمرة ، للتعرف على أحدث الأفكار في مجال تربية أسماك الزينة .

ألم أقل لك ، في البداية ، أن حوض أسماك الزينة في بيتك جهاز تثقيفي ؟؟ !! □ .

الوصفات الشعبية

داء.. ودواء!

بقلم : ريم الكيلاني

لم تزل وصفات جداتنا وامهاتنا هي اسلوب العلاج لكثير من الامراض رغم العلم وتقدم الطب ، ورغم ما تسببه من نتائج وخيمة .

الدنيا تتغير كل يوم ، والعالم لم يعد يومه كالأمس ، فالتغيير السريع الحادث في مظاهر الحياة أصاب كل مناطق وطننا العربي من مدن وقرى وكفور ونجوع وبدو وحضر ، واصبحت أدوات الحياة العصرية منتشرة في كل مناطق الوطن على اتساعه ، وعلى الرغم من هذا فان ثقافتنا الاجتماعية لم يصبها نفس القدر من التغيير ، فما زالت عادات وتقاليد كثيرة تتحكم فينا ، وما زالت سلوكيات كثيرة منتشرة وسائدة رغم كل الاستنارة والعلم والتقدم .

حالات وشهود

لم يزل العلاج بالوصفات الشعبية قائما حتى اليوم ، وما زالت امثالنا الشعبية تحث على سؤال المجرب ذي الخبرة بدلا من سؤال الطبيب وبينما يشهد العالم ثورة علمية في علم الوراثة وتتم فيه عمليات جراحية معقدة ، فما زلنا في عديد من القرى والكفور والنجوع وحتى في الاحياء الفقيرة والمتوسطة في المدن الكبرى تعالج الاسهال بماء الارز أو البطاطس المسلوقة ، ونداوي الجرح بالبن المطحون ، ونسقي اطفالنا الصغار « الخشخاش » المغلي لكي يناموا ليلا ، وكثير من الامهات ما زلن يدلكن أجسام المواليد الجدد بالملح والزيت مدة أربعين يوما لمنع التهابات الجلد أو ظهور الحبوب ، وما زال العلاج بالكي منتشرا على خريطة مناطق كثيرة وأحياء عديدة في وطننا العربي .

تقول السيدة أم غازي وعمرها قد تجاوز الثمنين : الحمد لله أنني لم أذهب للطبيب في حياتي



كلها ، ولماذا أذهب اليه وكل الامراض معروفة لي وخلال عمري الطويل رأيت كل الأمراض ؟ واعرف كيف كان آبائي وأهلي يعالجونها قبل أن يظهر ما يسمى بالاطباء .

اما الحاجة خنساء فتقول : لماذا اذهب للطبيب واعراض المرض واضحة امامنا ؟ فمثلا نعرف أن الذي يمكن أن يسبب ارتفاع درجة حرارة الطفل إما التهاب اللوزتين أو ظهور اسنان جديدة او حصبة وهكذا ، وكل هذه امور علاجها مضمون ومعروف ، فلماذا الطبيب ؟

أما السيدة أم عصام فتقول : الطبيب بشر مثلنا يصيب ويخطىء ، وكثير من المرضى ذهبوا الى اطباء ولم يجدي معهم العلاج ، ولكن الوصفات الشعبية معروفة ومجربة ومأمونة الجانب .

فهل نحتاج الى مزيد من شهادات الشهود ، والى أقوال افراد آخرين من المجتمع ؟ اعتقد أن في الذهن وفي العالم المحيط بنا كثيراً من الشهود والوقائع التى تفوق غرابتها كل مقدرة للخيال .

محاولة فهم

عوامل كثيرة تقف وراء هذه المفاهيم التي نعيشها ، منها اننا مستوردون للعصرية وادواتها ، وان علاقتنا بمظاهر التقدم هي علاقة استعمال وليست معايشة وخلقاً وابتكاراً ، ونحن بالتالي نعيش العصر بعقلية وثقافة قديمة ، وليس بعقل العصر وثقافته ، ومن هذه العوامل أيضا الظروف الاقتصادية لوطننا العربي ، والفقر وما يستتبعه من ظواهر اجتماعية .

ومن هذه العوامل ايضا أن الثقافة الاجتماعية تتغير ببطء شديد واذا كان مطلوبا أن تتغير نحو الايجابية ، فيجب ان يكون المناخ العام كله ايجابيا .

الدكتورة ليلى الفزيع اختصائية امراض الأطفال بمستشفى الصباح بالكويت تقول :

الوصفات او الممارسات الشعبية موجودة في كل ارجاء المعمورة ، وهي ليست بالشيء الغريب . بل إن هذه الممارسات كانت بداية وجود علم الطب الحديث . لقد جاء الطب اليوم ليكمل ويضيف لكثير من الوصفات الشعبية القديمة التي ابتكر منها اشياء كثيرة معتمداً في ذلك على النظريات العلمية ، والقواعد الأساسية في تركيب العقار .

ونحن كأطباء لا نرفض كل الممارسات الشعبية ، بل اننا وفي احيان كثيرة نصفها لمرضانا من ذوي الحالات البسيطة ، بكميات محدودة،بحيث تكون مناسبة لعمر المريض وحالته ، خاصة ان قدرة الطفل على الاحتمال اقل بكثير من الشخص الكبير ، فالطفل حديث الولادة حين يصاب بالاسهال لا نستطيع مداواته بعقار ما ، لكننا ننصح الأم بوقف عملية الارضاع الطبيعية ، بل ان هذا النوع من العلاج معروف لدى جميع الامهات ، لكن على النقيض من هذا التصرف التلقائي الايجابي ، نجد أن *الام غالبا ما تخفف آلام طفلها باستعمال* الخشخاش ، وهو نوع من الاعشاب ذات النتائج السيئة الخطيرة ، فهو الى جانب كونه مخدراً ، قد يؤثر على مركز التنفس عند الطفل مما يسبب بعض حالات الاختناق ، وقد تلجأ بعضهن لاستعمال اليانسون ـ خاصة في الليل ـ باعتباره نوعاً من الاعشاب المنومة مما قد ينتج عنه اسهال شديد .



كذلك فان كثيرات يفضلن علاج القروح والجروح باستعمال المؤن المنزلية كالبن للجروح ، ومعجون الطماطم ومعجون الاسنان للحروق ، وأحيانا يعالجن التهاب الجلد أو الاصابة بالحساسية بالزيت والملح،والحقيقة ان هذه الاستعمالات لا تشفي بقدر ما تكون مصدراً فعالا لادخال الجراثيم الى الجسم فتسبب تلوث الجروح وتقرحها .

وتضيف الدكتورة الفزيع : أن بعض النساء المتقدمات في السن يعبن اللجوء للطبيب واستعمال العقاقير الجديدة ، باعتبار أن الادوية الحديثة تزيد الوفيات ولا تقلل منها .

والحقيقة أن تطور الطب والمجتمعات أعطى فرصاً لظهور امراض كثيرة،والسبب في ذلك زيادة الاهتمام بصحة المولود والطفل ، ففي الماضي كان

الطفل اذا اصيب بالتهاب رئوي ، او التهاب السحايا يموت فورا فلا تكون هناك فرصة اخرى ، زد على ذلك عدم الاهتمام بالرضاعة الطبيعية اليوم ، حيث يعني ذلك قلة المناعة عند الطفل .

ان الوصفة الشعبية تعالج الاعراض ولا تعالج المرض الاصلي،لان الانسان العادي غير المتخصص لا يكون قادرا على الوصول لحقيقة المرض وأسبابه ، ومن ثم فإن الوصفة لا تكون مجدية في كل مرة ، خاصة ان هناك تشابهاً كثيراً في اعراض بعض الامراض كالتهاب السحايا ، والالتهاب الرئوي ، والتهاب المجاري البولية ، والتهاب الاذن ، والنزلات المعوية،حيث يصاحبها جميعا صداع وارتفاع في درجة الحرارة مع اسهال واستفراغ . واستعمال وصفة شعبية واحدة لهذه الاعراض يعني تمكين المرض من الجسم .

الكي كذلك نوع من انواع العلاج الممتاز ، ونتائجه مضمونة شريطة استعماله بطريقة علمية سليمة ، وإلا اصبح مصدراً لادخال الجراثيم ، اضافة الى أنه نوع من التعذيب .

اما عن اصعب الحالات التي يواجهها الطبيب كل يوم فهي تلك الحالات التي تدخل المستشفى بعد عدد من الممارسات الشعبية التي اجريت دون ادنى فائدة ، فهناك حالات كثيرة تم فيها كي اليافوخ ، بسبب انتفاخه الناتج عن وجود التهاب في السحايا ، لكنه لم يشف ، بل أدى ذلك لزيادة حالة المرض حتى وصل الى التهاب في الدماغ ، ولما كانت المناعة في جسم الطفل قليلة ادى ذلك إلى سرعة تأثير الجراثيم داخل هذا الجسد الضعيف . كذلك فان عمليات كي سلسلة الظهر او كي البطن قد يؤدي لشلل او تلوث الدم . ومن اكثر الحالات المستعصية استعمال الدواء دون استشارة طبيب ، وباجتهاد شخصي من الأم كأن يكون هذا اعتقادا منها بأن هذا الدواء او ذاك له فائدته وفعاليته .

هذه بعض الآراء في امور ما زالت سائدة وموجودة،ويواجهها الناس يوميا . بالرغم من نقلة التطور الكبيرة في العلاجات الطبية وغيرها . □

شهية متفتحة

دعي فيكتور هيجو أحد أقطاب الأدب الفرنسي مرة لتناول طعام العشاء لدى أسرة فرنسية ، تعرف عليها منذ عهد قريب ، وقد راق له الطعام ، فأقبل عليه بشهية ، حتى أن ربة البيت لم تتمالك نفسها ، فهنأته على ذلك ، فأحرج هيجو ، لكنه تخلص من هذا الاحراج قائلا في لباقة : لو أنني كنت قد تعرفت إليك من قبل يا سيدتي لتفتحت شهيتي أكثر من ذلك .



هو..

برود

لم يثر بيننا خلاف حول هذا الموضوع أبدا ، لكنني بين الحين والآخر ، وكلما دار نقاش ألمح نبرة لا تروق لي ، وأسمع رأيا لا يوافقني ، إلى أن جاء مساء وفتحت الموضوع معه عن عمد ، محاولة أن أصل إلى ما يفكر فيه ، وأسمع رأيه كاملا .

رزقنا الله بثلاثة أبناء على مدى سنوات ، ومن علينا بسعة في الرزق ، فابتنينا بيتا من طابقين ، ولمعاونتي في أعمال البيت استأجرنا خادمين وسائقاً ، ونظرا لطبيعة عمل زوجي فقد أصبح عبء إدارة شئون البيت والاشراف على الأولاد من مسئولياتي وهمومي ، ومنذ استقر الأمر على هذا وزوجي لا يتدخل في شيء إطلاقا ، فإذا ذاكر الولد ، أو مرض ، أو استأذن ليخرج مع أصحابه ، أو حقق تقدما في درجاته المدرسية ، كل ذلك لا يدخل في دائرة اهتمامه . يعود أحيانا من العمل في المساء ، فأشكو إليه من تصرف الأولاد ، أو من خطأ ارتكبه أحد الخدم ، وأطلب منه أن يثور عليهم ويحتد ، ويصدر أوامر صارمة حادة ويترك لي بعد ذلك مهمة المتابعة ، لكن برودة أعصابه وعدم اهتمامه يسببان لي صدمة ، وكثيرا ما يعود وأنا في ذروة غضبي فأطلب منه التدخل وإنزال العقاب ، لكنه ينظر إلي طويلا ، ويبتسم ، ثم يقول هذه معاركك أنت فخوضيها ، فليس لدي أي استعداد لأن أخوض معاركك بالنيابة .

إلى أن عاد يوماً وقت الظهر ، وكنت لا أرى ما أمامي من الغضب ، فقد أرسلت السائق منذ الصباح إلى بيت أختي الذي لا يستغرق الطريق إليه أكثر من نصف ساعة ، لكن السائق لم يعد حتى الظهر ، وعندما حان موعد عودة الأولاد من المدرسة طلبت سيارة أجرة واضطررت للذهاب بها إلى المدرسة لاحضارهم ، وعدت والسائق لم يعد بعد ، وبعد أن رويت لزوجي ما حدث طلبت منه أن ينزل العقاب اللائق بالسائق ، إذا كان يريد لأمور البيت أن تنتظم ، وبالفعل ناديت على السائق ، وما أن رآه زوجي حتى قال بصوت هادىء : « عليك أن تطيع أوامر سيدة البيت ، ونحن من طرق عملك » هذا كل ما قاله فقط ، وهذا كل ما تفضل به ، ولذا فقد حرصت أن أسمع منه وأعرف رأيه ، ورؤيته ، فقد يكون في اعتقاده أنه يقيم في فندق لا في بيت ، وبالتالي فهو لا يتحمل أي مسئولية .

هي





هي..

عصا

لا تريد أن تصدق ، وتظن انني أقصد إثارة غيظها ، وكأنني متآمر لإصابتها بأمراض ضغط الدم والأعصاب .

لظروف عملي لا أعود إلى البيت إلا وقت الظهر للغداء ، والراحة ساعة واحدة ، ثم العودة مرة أخرى إلى العمل ، ثم أعود في المساء لأراجع أوراقا ومذكرات وتقارير سأباشرها في اليوم التالي ، وهكذا ، فأنا نصف مقيم ، ونصف متابع ، ولكنها تريد اشراكي في مشاكلها الصغيرة على طريقة المقيم المتابع المهتم .

وأحاول أن أشرح لها وجهة نظري ، فأقول لها إن السلطة صنو المسئولية ، ومادمت أنت قد تحملت المسئولية فأنت تملكين سلطة الثواب والعقاب ، وليس جيدا في حقك أن أتدخل أنا بعقاب ما ، فإن هذا كفيل بأن يفقدك قدراً من هيبتك لدى الأبناء والخدم سواء بسواء . والجزء الأكبر أهمية أنني كثيرا ما أكون غير حاضر هذه المشاحنات ، ولا يمكن أن ينقل إلي الاستفزاز بالعدوى ، ولا الغضب بالملامسة ، وبالتالي فإن ردود فعلي لا يمكن أن تتناسب مع الخطأ ولا تصححه .

ثم الأمر الآخر الذي حاولت كثيرا أن أقوله وهو أن العلاقات بين البشر لها قانون ، يتسجه أطرافها ، مهما كان أطراف هذه العلاقة ، ومهما كان مستوى هذه العلاقة ، فأنا مثلا أكثر الناس مقدرة على إدارة موظفي مكتبي وضبط عملهم ، وأدرى بما يصلحهم ، فهذا يصلح بالكلمة الطيبة ، وذاك بالزجر ، وغيره بالتهديد ، وهكذا ، وليس مستساغا أبدا أن أوقع عقاباً على أحد ثم تأتي هي بعد ذلك وتلغي العقاب . ورغم إيماني بصحة سلوك إيقاع العقاب والعفو ، أو التوقف عن استمرار العقاب ، إلا أن هذا السلوك في تقديري مشروط بأن الذي يعاقب يجب أن يكون هو الذي يعفو ، لكن أن يعاقب طرف ويعفو آخر فهذا ما لا أقره بحال ، لأن الطرف المعاقب سيصبح بمثابة مصدر نكد وهم لأهل البيت ، يكرهون تواجده ، ويتقبضون عند وصوله ، لكنها تقول إن هذا ليس هدفها ، وهي لا تريد للأبناء والخدم أن يكرهوا تواجدي في البيت .

قلت لها مازحا : إذن لم يبق إلا أن أصبح عصا في يدك ، تضربين بها من تشائين ، وأغير مهنتي في البطاقة الشخصية لتصبح المهنة « عصا منزلية » ، وثارت ، وأزبدت ، واتهمتني بالبرود ، والرغبة في إصابتها بضغط الدم .

هو





طبيب الأسرة

الدكتور حسن فريد أبو غزالة

قضايا منزلية

صيف بلا عناء

في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو تتعامد الشمس مع خط ٥ر٢٣ شمال خط الاستواء المعروف بمدار السرطان ، وهنا فان شمال الكرة الارضية يحظى بالقدر الأوفر من أشعتها التي تختزن حرارتها في القشرة الأرضية فيكون بهذا أعلى درجات الحرارة خلال شهري يوليو واغسطس .

بالمقابل فان شهور الشتاء تكون سائدة في جنوب خط الاستواء من الكرة الأرضية .

بعض الناس يعاني من شهور الصيف بقدر بعده أو قربه من مدار السرطان ، غير أن الذي يحدد درجة المعاناة ثلاثة عوامل رئيسية هي :

أولا : درجة الحرارة ، فالانسان من المخلوقات التي تتميز بدرجة حرارة جسمانية ثابتة بفضل منظم للحرارة يقع في المخ ، وهي درجة ٣٧ مئوية تقريبا ، غير أن جسمه قابل للتأقلم مع درجات متفاوتة حول درجة حرارة جسمه ، بفضل أجهزة تكييف تشكل أحد أسس تركيب جسمه ، منها الغدد العرقية ومنها أوعية الدم الجلدية .

ولعل أفضل درجة حرارة جوية يرتاح لها البدن دون ارهاق لأجهزة التكييف الذاتية تتراوح بين ١٨ إلى ٢٢ درجة مئوية ، فاذا زادت درجة الحرارة ، فان الأوعية الدموية في الجلد تتفتح لتطلق فائض الحرارة ، هذا الى أن الانسان بفضل عقله ، وبفضل طبيعة جسمه يعزف عن تناول أغذية الطاقة المنتجة للحرارة كالسكريات والدهنيات ، بل إن الطبيعة تعطيه الفرصة لتناول العديد من الفواكه والخضراوات في فصول الصيف مما لا تحمل في طياتها مخزونا كبيرا من مواد الطاقة .

ثانيا : الرطوبة النسبية : والرطوبة النسبية تعني نسبة الماء الموجود في الهواء بالنسبة لكمية الماء التي تشبع الهواء في درجة حرارة معينة ، فاذا قلنا ان الرطوبة النسبية هي مئة في المئة ، فهذا يعني أن الهواء يحمل أكبر كمية من بخار الماء يمكن له أن يحمل،واذا كانت الرطوبة النسبية خمسين بالمئة فهذا يعني أن الهواء يحمل من بخار الماء نصف طاقته ، ومن هنا فان نسبة الرطوبة العالية تحرم العرق الذي تفرزه

الغدد العرقية من التبخر ، وبالتالي فان عملية التبريد الذاتية بواسطة العرق تبطىء أو تتوقف ، ومن هنا تكون المعاناة في الجو مرتفع الرطوبة النسبية . وقد وجدوا أن افضل نسبة للرطوبة يرتاح لها الجسم هي ما بين ٦٠ الى ٧٠ بالمئة ، لان الدرجات الدنيا من الرطوبة النسبية تسبب الجفاف للجلد ، والضيق للنفس .

ثالثا : حركة الهواء : إن تبخر العرق من ناحية ، وتبريد الجلد من خلال التلامس لابد له من حركة الهواء الذى يتجدد ، إذ يتحرك الهواء الساخن الرطب ليحل محله هواء باردوجاف ، ففي الأجواء ساكنة الهواء يصاب الناس بالضيق والعناء ، ومن هنا لجأ الانسان منذ القدم الى ابتكار المراوح بدءا بمراوح القش البدائية ، وانتهاء بالمراوح الكهربائية التى تحرك الهواء فتخفف المعاناة .

من هذا المنطلق يجب التعامل مع الصيف حتى لا يحملنا معاناة وضيقا .

طعام الصيف :

حرارة الجسم تتولد أساسا من حرق الطعام ومصدرها الرئيسي هو النشويات والسكريات المعروفة باسم الكربوهيدرات ومن الدهنيات . إن جرام الكربوهيدرات يعطى ـ اذا ما احترق ـ أربعة سعرات ، فيما يعطى جرام الدهنيات تسعة سعرات ، لهذا فلابد من الاقلال ما أمكن من الأطعمة النشوية والسكرية والدهنية،بينما لابد من زيادة شرب الماء الذى يفرزه الجسم في هيئة العرق مختلطا بملح الطعام ، لذا ينصح الاطباء بزيادة رصيد الطعام من الملح لتعويض افراز الغدد الدرقية ، والحمد لله اذ وفر لنا الخضراوات والفواكه المتنوعة في أيام الصيف .

في الصيف إذ ينصح بزيادة السوائل ينصح الاطباء بالاقلال من الطعام عامة ، والبعد عن الاسراف والتخمة .

ملابس الصيف :

يجب أن تتوفر في الملابس شروط تتلاءم والعوامل التى تتحكم في راحة الانسان او عنائه ، اذ لابد من الألبسة التى توفر التهوية وتسمح للعرق أن يتبخر وهذا لا يعنى التعرض المباشر للشمس بل لابد من ملابس تحمى الجلد من أشعة الشمس المباشرة ، ولهذا تعتبر الدشاديش القطنية هي الأفضل بينما أقمشة النايلون والأكمام القصيرة لا تصلح للأجواء الخارجية المعرضة للشمس .

والأقمشة الصوفية على عكس ما يتوهم البعض فانها لا تزيد حرارة الجسم بل ربما تحفظها ، ومن هنا نجد أن العمال أمام الافران يلبسون البسة صوفية لان مسام القماش تحوى كثيرا من الهواء بين ثناياها والهواء عازل جيد للحرارة يمنعها من أن تصل الى جسم الانسان .

الرياضة في الصيف :

الالعاب الرياضية عادة ما تولد الحرارة لهذا فليس كل الالعاب الرياضية صالحة لفصول الصيف لكن بعضها مثل السباحة يعتبر أفضل ما يمكن لأيام الحر واذا كان هناك من رياضة مستحبة فالافضل أن تمارس داخل غرف مغلقة ذات تبريد مكيف .

أمراض الصيف :

ترتبط أمراض الصيف باختلال العوامل الثلاثة التى ذكرناها ، واستجابة الجسم لذلك ويمكن

استعراض هذه الأمراض التي يمكن تلافيها بالسيطرة على العوامل التي تتحكم في قدرة الانسان على التأقلم :

أولا : الانهاك الحراري وهي آلام عضلية عامة وشعور بالتعب والارهاق نتيجة فقد كمية كبيرة من ملح الطعام ومن الماء أثناء العرق ، خاصة في الأجواء ذات الرطوبة النسبية العالية ، حيث يفرز الانسان عرقا لا يتبخر الا القليل منه .

ثانيا : ضربة الحر : حين يعجز المركز المنظم للحرارة عن السيطرة على ميزان الصرف الحراري ، ويفقد القدرة على التفريق بين الحرارة المتولدة والمكتسبة وبين الحرارة المصروفة من وسائل التبريد الذاتية فانه يتوقف عن العمل ، وبهذا يجف الجلد وترتفع درجة الحرارة ارتفاعا عاليا لان وسائل التبريد قد فقدت قدرتها على العمل حين غابت السيطرة العصبية ، هذه الحال التي كانت تعرف باسم ضربة الشمس لا ترتبط بالشمس فقط وانما هي من تأثير الحرارة المرتفعة ، ومن هنا يجب اللجوء الى الاجواء الباردة المكيفة وعدم العمل في الأجواء والاوقات الحارة .

ثالثا : الطفح الحراري : وهو احتقان يصيب الغدد العرقية التي تطفح بالعرق ، لان فوهاتها قد سدت ولا سبيل لها لافرازها ، فيتسرب جزء من العرق تحت سطح الجلد ، ويسبب التهابا .

وربما كان الاستحمام المتكرر خير وقاية من هذه الحال التي يمتلىء بها الجلد بالحبيبات التي تثير الحكة والازعاج والمعاناة .

رابعا : تسمم الطعام : من المتفق عليه في جو الحرارة والرطوبة أن تترعرع الميكروبات والجراثيم ، وتنمو بأكثر من جو البرودة والجفاف ، لهذا تجد هذه الميكروبات فرصتها للنمو السريع في الاطعمة غير المحفوظة ، وخاصة ما تعرض منها للحشرات ، مسببة أشكال التسمم الغذائي المختلفة ، ومن هنا كان الصيف فرصة مواتية للتسمم الغذائي ، وعليه فلا يجب اعداد كميات كبيرة من الطعام أيام الصيف ، وتحاشي الأطعمة القابلة للتسمم كالبيض والكريمات ومنتجات الحليب ، واذا ما فاض بعض منها فلابد من حفظه في الثلاجات .

الصيف يحمل حقا أسباب المعاناة ولكن لكل مهمل لأسباب الوقاية ولغير المدرك لاسباب المعاناة .

بريد طبيب الأسرة

ردود سريعة

● السيد محمد الحسناوي - طرابلس - ليبيا :

اسم العقار المنتظر لعلاج الصلع هو المينوكسيديل ، سيطرح في الأسواق في القريب العاجل ، ومعه تفاصيل استعماله ، لأنه مازال قيد التجربة والاختبار .

● السيد أ . ع . - محرم بك - الاسكندرية - مصر :

لاشيء يمنع من الانجاب ، فتوكل على الله .

● السيد ي . ع . ع - اليمن الديمقراطي :

ربما لو استشرت طبيبا اختصاصيا في الغدد الصم لكان أفضل ، حيث أن رسالتك لا تتضمن أي تفصيل .

مساحة ود..

الخطر القادم

يبدو أننا وسط انشغالنا بقضايا كثيرة قد أصابنا الارتباك ، فلم نعد قادرين على تحديد ما هو مهم ، وما هو أهم ، وأصبحنا غارقين في كمّ من التفاصيل الصغيرة ، والخلافات ، والاتهامات ، وكلما استغرقتنا هموم الحاضر غاب عنا أفق المستقبل . ورغم أن العالم يطل على القرن الجديد بعقل جديد ، وثورات عديدة في مجالات شتى ، فإننا ما زلنا نعيش السنوات الباقية من قرننا هذا بعقلية قرن مضى ، وفي تقديري أن أخطر ما ينتقل إليه عالمنا هو هذا التحول الهائل في أثر المعرفة ، وقيمة المعلومات ، وآثار البحث العلمي ونتائجه ، وفوق أن البحث العلمي قد أصبح واحدا من مجالات التنافس (الاستراتيجية) الكبرى ، فإن نتائج هذا البحث ، وشمول آثاره للمجتمع كله ، بنظم تعليمه ، وهياكل إنتاجه ، وشكل الانتاج ، وكيفيته ، قد أصبحت قضية تشغل العالم المتقدم ، لكيْ يستطيع أن يواكب هذا التغيير الجذري الذي يحدث ، ولقد شهدت السنوات الماضية تراجعاً في كثير من (الكلاسيكيات) السائدة ، فلم تعد العمالة - أي العنصر البشري - تمثل قيمة كبيرة في العمل والصناعة ، وبدأ العالم يعرف (الأوتوماتية) ، وليس مجرد (الميكنة) ، وبدأ يشهد هذا التحول التدريجي من الصناعات ذات العمالة الكثيفة إلى الصناعات ذات المعرفة الكثيفة .

وعند هذه النقطة تتضح ملامح الخطر القادم الذي يتهددنا ، والذي سوف يحكم علينا بالتخلف سنوات أخرى طويلة ، إن لم نلحق بالركب ، فالمعرفة التقنية الحديثة تمثل الآن ٧٠٪ من قيمة إنتاج قطع (الكمبيوتر) ، مقابل ١٢٪ للعمالة ، وتمثل أيضا ٥٠٪ من قيمة إنتاج الأدوية ، مقابل ١٥٪ للعمالة ، وهكذا - في عديد من قطاعات الانتاج والصناعات الحيوية - تتزايد القيمة النسبية للمعرفة ، وتتضاءل قيمة الكم البشري - والمعرفة ليست نتاجا ذهنيا لفرد ، ولا معلومة يمكن تداولها عند مستوى ما من المجتمع ، يتولى إدارة الحياة والتخطيط لها ، لكنها عقل المجتمع كله ، ونظمه ، وقوانينه ، وثقافته ، وسلوكه ، وما لم نكف عن كثير من القضايا التي تأكل حاضرنا ، وتبعدنا عن آفاق المستقبل ، وننتبه لهذا التحول الذي ينتقل إليه العالم ، فإن آفاق المستقبل لن تكون أبدا أفضل من حاضرنا . □

محمود عبد الوهاب

رسالة إلى الله

قصة مترجمة

تأليف : جيورجيو لوبيز فيونتس * / ترجمة : زهير شفيق رومية

يقع المنزل - وهو المنزل الوحيد في الوادي كله - على قمة هضبة منخفضة ،من هذا الارتفاع يستطيع المرء أن يرى النهر و« الزريبة » قربه،وحقل القمح الناضج المنقط بأزهار اللوبياء التي كانت تعطي دوما محصولا وافرا .

هطول المطر أو بعض زخات قليلة منه كان هو الشيء الوحيد الذي تحتاجه الأرض . منذ الصباح لم يفعل(لينشو)الذي يعرف حقوله بالتفصيل شيئا ، سوى تفحص صفحة السماء الشمالية الشرقية .

- « الآن ستمطر فعلا يا امرأة » .

أجابت المرأة التي كانت تحضر طعام الغداء :

- « أجل ، هذه مشيئة الله » .

كان الأولاد الكبار يعملون في الحقل ، بينما الصغار يلعبون قرب المنزل حين دعتهم الأم جميعا :

- « تعالوا لتناول الغداء » .

أثناء تناولهم لتلك الوجبة - كما توقع لينشو تماما - بدأت قطرات ضخمة من المطر بالتساقط ، وفي الشمال الشرقي كانت تبدو جبال ضخمة من السحب ، وهي تتقدم ، وكان الهواء نقيا لطيفا .

خرج الرجل يبحث عن شيء ما في « الزريبة » ، لا لسبب ، بل ليسمح لنفسه بالاستمتاع بالشعور الناتج عن انهمار المطر على جسده ، وعندما رجع هتف قائلا :

« ليست تلك قطرات مطر تنهمر من السماء ، انها عملة معدنية جديدة ، فالقطرات الكبيرة كأنها عشر قطع (سنتافو) ، والصغيرة كأنها خمس منها » نظر بعين الرضا الى حقل القمح الناضج ، وأزهار اللوبياء المتمايلة تحت غطاء من المطر ، وفجأة بدأت تهب ريح عاصفة ، تسقط معها حبات برد ضخمة جدا . وكانت الحبات فعلا تشبه عملة فضية جديدة ، مما جعل الصبية يخرجون لجمع اللآلىء المتجمدة ، معرضين أنفسهم للمطر . وصرخ

* الكاتب : ولد ونشأ بين هنود مكسيكو مما أتاح له النفاذ الى تركيبة حياتهم اليومية . كان شاعرا،وصحفيا ، وكاتب قصة ورواية . ربح جائزة مكسيكو الوطنية عام ١٩٣٥ عن روايته « الانديو » .

الرجل بمشاعر يعتريها الألم :

- « في الواقع صار الوضع سيئا الآن ، وآمل أن تمر العاصفة سريعا » .

ولم ينجل المطر ، بل هطل المطر والبرد مدة ساعة على البيت والحديقة ، وسفح الهضبة ، وحقل القمح ، وعلى الوادي كله ، فأصبح الحقل ناصع البياض كأنه قد غطي بالملح . ولم تبق ورقة واحدة على الشجرة ، وأتلف القمح كله ، واختفت الأزهار من نباتات اللوبياء ، وغمر الحزن روح لينشو . وعندما انجلت العاصفة ، وقف وسط الحقل وخاطب أولاده : -

- « لو أنها كارثة جراد لأبقت أكثر من هذا ، لم يترك البرد شيئا ، لن نأكل القمح أو اللوبياء هذا العام »

كانت تلك ليلة تعيسة :

- « كل تعبنا راح سدى » .

- « لاأحد يستطيع مساعدتنا » .

- « سنجوع جميعا هذا العام » .

لكن ثمة أملاً وحيداً في قلوب الجميع الذين سكنوا في ذلك البيت المنعزل وسط الوادي : عون من الله .



ـ « لاتكن قلقا جدا ، حتى لو بدا هذا كخسارة اجمالية ، تذكر أن لاأحد يموت من الجوع » .

ـ « ذلك مايقولونه : لاأحد يموت من الجوع » .

طوال الليل كان لينشو يفكر بأمله الوحيد وهو عون الله الذي ترى عيناه كل شيء ، حتى ماهو خاف في ضمير المرء .

كان لينشو كثور في هيئة انسان ، يعمل كحيوان في الحقول ، لكنه مازال يعرف كيف يكتب . وفي اليوم التالي عند انبلاج النهار ، وبعد أن أقنع نفسه بوجود روح حامية ، بدأ يخط رسالة سيحملها بنفسه الى المدينة ، ليضعها في البريد . ولم تكن سوى رسالة الى الله .

كتب : « يا الله ، اذا لم تساعدني سأجوع مع أسرتي هذا العام ، انني بحاجة الى مائة (بيزو) ، لكي أحرث الأرض من جديد ، وأعيش حتى مجيء المحصول ، لأن البرد . . » وكتب على المغلف « الى الله » ، ووضع الرسالة داخله ، وذهب الى المدينة مرتبكا ، وفي مكتب البريد وضع طابعا على المغلف ، وأسقطه في صندوق البريد .

أحد المستخدمين الذي كان ساعي بريد وموظفا فيه أيضا أسرع الى مديره ضاحكا من أعماق قلبه ، ليريه الرسالة التي كتب على مغلفها الى الله ، فلم يعرف أبدا خلال حياته كساعي بريد عنوانا كهذا ، أما مدير البريد ـ هذا الرجل البدين اللطيف ـ فهو أيضا ينفجر مقهقها ، لكنه سرعان مايتقلب الى الجد فيطوي الرسالة ويضعها على مكتبه ويعلق قائلا : « ياله من ايمان ، ليت لي ايمان الرجل الذي كتب هذه الرسالة ، حتى أؤمن بطريقته ، وآمل بالثقة التي يأمل بها ، فهاهو عنون الرسالة الى الله ! » .

وحتى لايفقد الرجل ايمانه ، خطرت للمدير فكرة الاجابة على الرسالة ، لكنه عندما فتحها أدرك بوضوح أنه لكي يجيب عليها سيحتاج الى أكثر من النية الطيبة والحبر والورق ، لكنه مضى فيما عقد العزم عليه ، فطلب نقودا من مستخدميه ، ودفع هو جزءا من راتبه ، وأرغم عددا من أصدقائه لتقديم شيء ، لأن في ذلك « عملا من أعمال الخير » .

كان مستحيلا أن يجمع مائة(بيزو)، لكنه تمكن أن يرسل الى ذلك المزارع أكثر من نصف المائة بقليل . وضع الأوراق النقدية في ظرف معنون الى لينشو ، مع رسالة له تتضمن كلمة واحدة فقط كتوقيع وهي (الله) .

قدم لينشو في يوم الأحد التالي مبكرا أكثر من العادة ، ليسأل اذا كان ثمة رسالة له ، فسلمه ساعي البريد الرسالة بنفسه ، بينما راح المدير ينظر اليه من مدخل مكتبه ، ليجرب رضا رجل قام بعمل خير .

لم يظهر لينشو أدنى مفاجأة عند رؤية الأوراق النقدية لأنه واثق من حدوث ذلك ، لكنه أصبح غاضبا عندما عدها ، ان الله لايمكن ان يخطيء ، ولا أن ينكر على لينشو ما يطلبه .

وسرعان ماصعد لينشو الى الكوة ، وطلب ورقة وحبرا ، وعلى طاولة الكتابة العامة بدأ يخط رسالة أخرى ، وحاجباه منعقدان بشدة ، بسبب الجهد الذي كان يبذله ليعبر عن أفكاره ، وعندما انتهى ذهب الى الكوة ليشترى الطابع الذي لعقه بلسانه ثم ثبته على المغلف بضغطة من أصبعه .

وفي اللحظة التي أسقط فيها الرسالة في صندوق البريد أسرع المدير وفتحها فوجد المزارع قد كتب فيها :

« يا الله ، بالنسبة للنقود التي طلبتها لم يصلني منها سوى سبعين بيزو.أرسل الباقي ، لأنني بأمس الحاجة اليه ، لكن لاتبعثهم بالبريد ، لأن موظفيه ليسوا أكثر من مجموعة من اللصوص . لينشو » . □



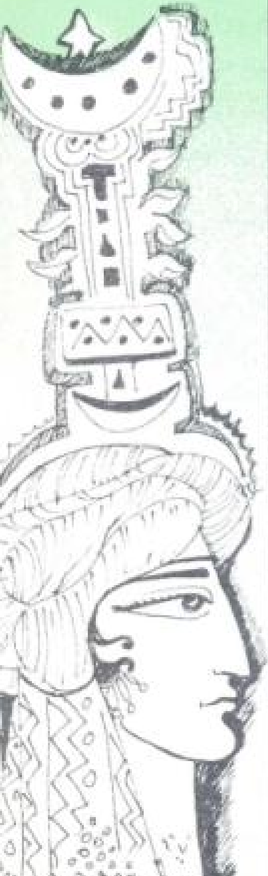
حديث الشباب

شعر : عبدالعليم القباني

يامن صِباهُ أثارني وأنا الذي
أنسيتُ كلَّ مَشاعري حَتّى الصِّبا
حَدَّثتني فتركتُ عُمْرِيَ كُلَّه
وَسَبَحتُ للأملِ البعيدِ مداعِبا
وعرَضتَ ما قدْ كانَ أوْ هُو كائنٌ
لم تُبْقِ ثمَّ مشارقا ومغاربا
حتى تركتَ دمي وقدْ أشعلتَهُ
لهباً تدفَّقَ في عُروقي لاهبا
وَرَجعتُ أسْبحُ في الخيالِ وَفي المُنى
حَتّى لبستُ مِنَ الشبابِ جَلابِبا
ورأيتني ورأيتُ أحلامَ الصِّبا
كالأمسِ ثمَّ دوافعاً وَجواذِبا

* * *

قل للذي راعَ المشيبُ شَبابَهُ
فيمَ الحياةُ إذا انْزوَيْتَ مُجانِبا ؟
ياما ظننتُ الشيبَ يمنعُ خافقي
أن يستجيبَ ، فكانَ ظَنِّيَ كاذِبا
أقبِلْ على الدنيا بقلبٍ ضاحكٍ
تلقَ الذي شيَّعْتَ منها آيِبا
هذي العيونُ الواسعاتُ دلالُها
لم يُبْقِ للشيبِ الموقرِ جانِبا
فاجْعلْ حياتكَ رحلةً في ظلِّها
تنسَ الذي قدْ كانَ منها غائِبا



لغة

جمال العربية

بقلم : محمد خليفة التونسي

إعراب المقصور

يقسم النحاة الاسم (والصفة) - بالنظر الى حرفه الاخير - اربعة اقسام : منقوص ومقصور وممدود وصحيح .

المنقوص - عندهم - هو الاسم المعْرَب الذي آخره ياء لازمة مكسور ما قبلها مثل : القاضي والجواري ، وقد سمي منقوصا لنقص حرفه الأخير (الياء) نطقا ثم كتابة في بعض التراكيب فيقال : هذا قاض ، وهؤلاء جوار ، ويدخلون في هذا النوع ما اشبهه اذا كان منتهيا بهمزة عند حذفها مثل : المرجيء والمستهزيء وشاطيء وشواطيء ، فيقال فيها مُرجٍ ومُستهزٍ ، وشاطٍ وشواطٍ ، ولا تظهر على آخره الا الفتحة حين يكون منصوبا ، ولا تظهر عليه الضمة في الرفع أو الكسرة في الجر أو الخفض لثقلهما الا لضرورة شعرية .

والمقصور عندهم هو الاسم المعرَب الذي آخره الف لازمة (ولا بد من فتح ماقبلها) مثل : هدى ومُرتقى ، ومستشفى ، وسمي مقصورا لقصر النطق بألفه أو انحباس الصوت معها . ومن المتعذر أو المستحيل ان تظهر على آخره حركة من ضمة او فتحة او كسرة .

والممدود وهو الاسم المعرب الذي آخره الف زائدة بعدها همزة ، مثل سماء ، وخضراء وأنباء وسمي ممدودا لامتداد النطق بألفه أو امتداد الصوت فاذا وقف عليها ظهرت منها همزة في النطق ، والفرق بين الف المقصور والف الممدود صوتيا فرق في الكم وان كانتا متحدثين اصلا ، وتظهر على الممدود كل الحركات : الضمة والفتحة والكسرة ، وقد يمد المقصور ، ويقصر الممدود .

والصحيح هو الاسم المعرب الذي ليس بمنقوص ولا مقصور ولا ممدود ، مثل : جحر وكفه وسبأ وتظهر عليه الحركات الثلاث كالممدود .

وفي صفحة لغوية سابقة (العربي العدد ٣٢٥ ، ديسمبر سنة ١٩٨٥) ناقشنا رأى النحاة في المنقوص ، ووضحنا ما فيه من مآخذ ، وخلاصة ما انتهينا اليه انه قد لايكون اسما بل صفة،ويكون مفردا وجمعا،وأنه يكون مبنيا في حالة الرفع والجر أو الخفض

غالبا ، ولا تظهر عليه الا حركة الفتحة عند نصبه فيكون حينئذ معربا .

وقد تدعو ضرورة الشعر الى عدم اظهار الفتحة عند نصبه .

والبناء في المقصور اوضح فآخره يلتزم حالة واحدة كيف كان موقعه من الاعراب،وهذا هو البناء ، ونعرض هنا لتعريف النحاة اياه فنشير الى انه قد لايكون اسما مثل : سهى ومرعى بل يكون صفة ، مثل : الأولى والصغرى ويكون مفردا كما في الامثلة هنا ، أو جمعا مثل ، الربى والنهى والعلى ، ولالتزام آخره حالة واحدة يكون اعرابه بحركات مقدرة على الألف تمحلا وتعقيدا لامسوغ له ولا مبرر ، ولايزيد على انه دسيسة تسربت الى أوهام النحاة لولعهم بالاعراب ، كما توهم الاسلاف الاقدمون في مجموعات النجوم وعدوا من بينها الدب القطبي والمرأة المسلسلة وبنات نعش ، وعدوا البروج اثنى عشر ، منها الجدي والسنبلة والسرطان والدلو والحوت، واذا كانت هذه التسميات قد أفادت ولم تزل مستعملة ومفيدة ، فلا فائدة من الاعراب التقديرى على المقصور والمنقوص وغيرهما إلا تصعيب النحو على المتعلم ولاسيا الناشيء ، وهو لا يُسّهل نطقا ولا فهما في الكلام بل يضيف صعوبة الى صعوبات أخرى في النحو وهي كثيرة .

ان الحركات على آخر الكلمات ليست الا قرينة واحدة من القرائن التي تبين وظيفة الكلمة في الجملة ، وبأمثال هذه القرائن بين كلمات الجملة نستدل على وظيفة الكلمة في موقعها من الجملة ومن سائر الجمل دون حاجة الى حركة اعرابية بل من أمثال هذه القرائن نعطي آخر الكلمة حقه من الحركة في الاعراب . ان كان مما تظهر عليه الحركة لا العكس ، ولهذا يصيب النحاة حين يقولون « ان الاعراب فرع المعنى » فالحركة تتبع المعنى لا العكس .

وليس معنى هذا ان نستغني عن الحركات في لغتنا الفصيحة فالحركات فيها من أقوى خصائصها فإهدارها اهدار للغة نفسها ، والحركات من مزاياها التي تمكننا احيانا كثيرة من ترتيب الكلمات في الجملة تقديما وتأخيرا كما يقتضي المعنى ، فتكون عونا على الأداء الدقيق الحاسم لهذا المعنى دون ادنى التباس بغيره . ولكن هذا شيء وافتراض الحركة حيث لاتوجد شيء آخر ، وهذا هو الوهم التي نتوخى الخلاص منه لأنه لايفيد شيئا ، ثم هو يصعب اللغة على طلابها ولا سيما الناشئة .

ولننظر مثلا إلى اعراب كلمة « موسى في هذه الجملة على طريقة متأخرى النحاة المتعارفة : «أصدّقُ بنبوة موسى » فكلمة موسى عندهم مجرورة بفتحة مقدرة على الالف نيابة عن الكسرة المقدرة على الالف لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، « أفليس الأولى أن نقول في الاعراب : موسى مضاف اليه مبني ؟ وان شئتنا قلنا أنه في محل جر .

شبه المقصور والمنقوص

وتكثر في لغتنا الاسماء (والصفات) المقصورة والمنقوصة ، ولكنّ هناك نوع من الاسماء ليس من صميم لغتنا،وقد كشفه نحاتنا في اللغات الاخرى وهو الاسم الذي ينتهي بواو قبلها ضمة،وكانوا يمثلون لها بكلمتي « سمندو ، وقمندو » ولكن لو تتبعنا امثالها اليوم لوجدناها عندنا بالعشرات بل بالمئات مثل : ادكو وادفو ، ومثل خوفو ، ومثل : بنيتو وتيتو ، وفتوريو ، ومثل الأسماء المصغرة للتدليل : زوزو ، وتوتو وفوفو ـ ومثل هذه الاسماء يجب اعتبارها مبنية ، وكذلك الاسماء الاجنبية المشاكلة للمنقوص مثل : بيجى ، وكامي ، وموسوليني ، وكرايسكي ، ونضيف اليها الاسماء العربية التي نقلناها عن التركية مثل : شوقي وصدقي وصبري وحفظي وشكري ، فالأفضل عدها مبنية وأن لا نحرك اخرها بالفتحة وان وقعت منصوبة ، فهذا أيسر نطقا واعرابا وأحفظ لبنية الكلمة . □

ش ع ر

جمال العربية

هكذا غنى الآباء

إلى أم كلثوم

لمعروف الرصافي

معروف (بن عبد الغني) الرصافي (١٨٧٧ - ١٩٤٥م) يعد هو وزميله جميل صدقي الزهاوي أشهر شعراء العراق في الجيل الماضي ، عاشا في بغداد وكان بينهما تنافس يخفى حينا ، ويظهر حينا ، ولد في الرصافة (أحد شطري بغداد) فنسب اليها ، وفيها نشأ وتعلم ، وكان تلميذا مدى عشر سنوات لنابغة علمائها محمود شكري الآلوسي في العلوم العربية والدينية ، ثم صار معلما ومفتشا في مدارسها ، رحل الى مصر وأقطار الشام وتركيا ، وانتخب نائبا في مجلس المبعوثان العثماني (البرلمان التركي) ثم نائبا في مجلس النواب العراقي عدة مرات ، وفي سنة ١٩٤١ خلال الحرب العالمية الثانية شارك في ثورة العراق ضد الاحتلال الانجليزي بخطبه وأناشيده ، فلما فشلت الثورة اعتزل في بيت متواضع بحي الأعظمية (نسبة للامام الأعظم أبي حنيفة حيث مشهده ومسجده) ببغداد ، وبقي في عزلته ليعيش في ضنك حتى وفاته . وقد تولى جهازه ودفنه أحد أعيان بغداد ، وقبره في مدافن الاعظمية كسائر ما حوله من قبور العامة ، ومنذ نحو عشرين سنة أقيم له تمثال في أحد ساحات بغداد .

ألف عدة كتب في اللغة والادب ، وقد ألف بعض مريديه العراقيين عدة كتب في أدبه وحياته ، وكلها مطبوعة ، وله ديوان كبير (طبع أكثر من مرة) في موضوعات قومية ووطنية واجتماعية ، وكان من دعاة الحرية والتجديد في الادب والاجتماع .

وقصيدته هنا أهداها الى مغنيتنا الكبيرة أم كلثوم حين غنت في بغداد سنة ١٩٣٢ كما قدم اليها أمثالها يومئذ كثير من شعراء بغداد

أمُّ كُلثوم في فنون الأغاني   أمةٌ وحدها بهذا الزمان
هي في الشرق وحدَها ربةُ الفنِ   فما إنْ للفن ربٌ ثاني
ذاع من صوتها لها اليوم صيتٌ   عمَّ كلَّ الأمصارِ والبُلدان
ما تغنت إلا وقد سحرتْنا   بافتتانٍ لها ، وأيِّ افتتان
في الأغاني تُمثِّل الحبَّ تمثيـ   ـلا صريحا بصوتها الفتان
يتجلَّى في لحنها مَشهدُ الحبِّ   ولونُ الوصال والهِجران
فتُريك المحبَّ عند التنائي   وتُريك المحبَّ عند التداني
وتُريك الحبيبَ عند افتراقٍ   وتُريك الحبيبَ عند اقتران
كلُّ هذا في صوتها يتجلَّى   من خلال الأنغامِ والألحان
صفحاتٌ من الغرام تراها   ظاهراتٍ في صوتها للعِيان
تُنشدُ الشعر في الغناء ، فتأتي   بلحونٍ مطابقاتٍ المعاني
فاذا أنشدَتْ عن الوصلِ أبدتْ   فيه لَحْنَ السرور والجَذلان
واذا أنشدتْ عن الهجر جاءت   بلحُونٍ تدعو الى الأحزان
كم سقتْنا كأسَ السرور بلحنٍ ،   وبلحنٍ كأسا من الأشجان
تُفهِمُ الروحَ منطقَ الحبِّ بما   تتغنَّى به ، بلا ترجمان
فكأنَّ الانغامَ في الصوت منها   ناطقاتٌ لنا بغيرِ لسان
قد سمعنا غِناءها فعرفْنا   كيفَ فعلُ الغناء في الانسان
حُسنُ صوت يَزينه حُسنُ لحنٍ   فيه للسامعين حُسنُ بيان
نبراتٌ في صوتها مُشجياتٌ   تتركُ السامعينَ في هَيَجان
تسترقُّ القلوبَ منا بصوتٍ   تعبدُ الحسنَ منه بالآذان
كلُّ لحنٍ اذا سمعناه منها   دبَّ فينا دبيبَ بنتِ الحانِ(١)
في وقارِ الحليم تجعلنا طوْ   را ، وطورا في خفة النشوان
نتفانى في الاستماع اليها   ونرى لذةً لنا في التفاني
وترانا نهتز حين تغنِّى   فكأنا في حالة الطيَران
وكأن الأرواح ـ اذ تتعالى   طربا ـ جُرِّدتْ من الأبدان
هي في مرتقى الأغاريد تعلو   حين تشدو ونحن في خَطَران
يشعر المرءُ حين يُصغى اليها   بغرام من صوتها روحاني
بنتُ فنٍّ غنَّت لنا فسقتنا   من فنون الغناء بنت دِنان(٢)
هكذا فلتكنْ يدُ الفن عُليا   هكذا فلتكن على الفنانِ

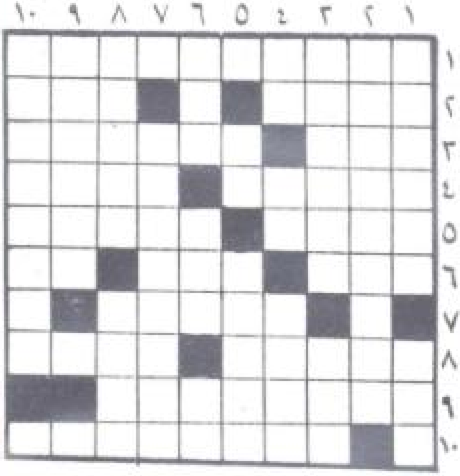
---

(١) بنت الحان : الخمر ، والحان : موضع شرابها

(٢) بنت الدنان : الخمر ، والدنان ، جمع دن ، وهو : الوعاء الذى تخزن فيه الخمر

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة. والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذه اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم.



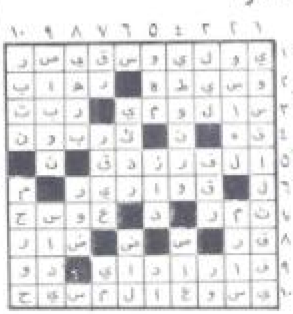
كلمات أفقية

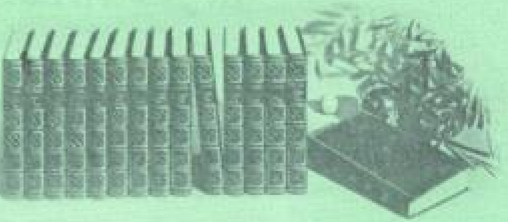
١ ـ صاحب نظرية النشوء والارتقاء
٢ ـ مادة غرويّة ، بطريق الجو
٣ ـ أعلى الشيء ، مستأجر مبعثرة
٤ ـ ايزيس مبعثرة ، تجدها في فيران
٥ ـ محيط الشيء ، زلزال مبعثرة
٦ ـ جادت بالخير ، سَمَح ، حرف نداء
٧ ـ تفاخر
٨ ـ الاسم الأول لرحالة ايطالي مشهور ، منسوب للأرض .
٩ ـ مؤلف وفيلسوف ومؤرخ وسياسي تونسي
١٠ ـ من ألقاب الأكاسرة

كلمات رأسية

١ ـ بطلة أقاصيص ألف ليلة وليلة ، اضطرب
٢ ـ أداة اخترعها الفلكيون العرب تعرف أيضاً بمرآة النجوم .
٣ ـ وصف للجبال ، أدام النظر
٤ ـ حرف نفي وَجَزْم ، أرض مبثورة ، ختنك مبعثرة
٥ ـ سَقْي ، إله النور والجمال عند اليونان
٦ ـ كثير الدهن والشحم ، أداة شرط ، شَدّ مقلوبة
٧ ـ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بين (١٩٥٣ ـ ١٩٦١م)
٨ ـ سفرجل مبعثرة ، ينظر متأملاً
٩ ـ معركة كبرى انهزم فيها نابليون بونابرت
١٠ ـ مدينة يابانية نكبت في الحرب الكونية الثانية

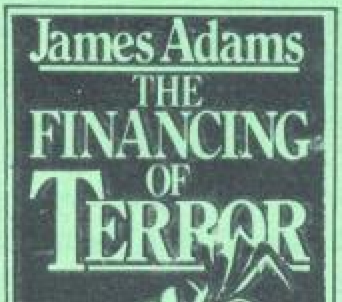
حل مسابقة العدد ٣٤٤ ـ يوليو ١٩٨٧





كتاب الشهر

تأليف: جيمس آدمز/ عرض ونقد : رافع عبد الرحمن



تمويل الإرهاب

الثائر إرهابي في نظر عدوه ، وهكذا ، فبينما يعتبر كثيرون ثورة الشعب الفلسطيني حركة مشروعة للتحرر الوطني يراها أعداؤ ها حركة إرهابية .

مؤلف هذا الكتاب الذي يبين وجهة النظر المعادية لا يتوقف ليناقش تهمة الارهاب التي تلصقها « اسرائيل » وأمريكا بمنظمة التحرير الفلسطينية ، بل يأخذها كمسلمة بديهية ، ويمضي للبحث عن مصادر تمويل المنظمة التي يقرنها بعدد من المظمات الارهابية الأخرى .

من أجل إيجاد تعريف الإرهاب والإرهابيين يختار المؤلف تعريفا واحدا ، يورد نصه في مدخل الكتاب ، ليناقشه شكليا ، ويضع تعريفا أكثر تحديدا منه .

فأي تعريف يختار ؟

هل يختار تعريفا يربط الإرهاب بانتهاك حقوق الانسان ، وإخضاعه بالعنف ؟ هل يختار تعريفا يميز بين الإرهاب والنضال المشروع الذي تخوضه الشعوب المقهورة ضد المستبدين بها ومستغليها ؟

إنه لا يفعل ذلك ، فهو لا ينتمي الى شعب من هذه الشعوب ، ولا تهمه قضاياها ، ولا يهمه من حقوق الانسان إلا حق اليهود في الهجرة من الاتحاد السوفيتي ، وبعض الحقوق الشكلية الأخرى ، لذا يختار تعريفا يناسب كل هذه المنطلقات ، إنه تعريف المخابرات المركزية الأمريكية للإرهاب الذي تبنته وزارة الخارجية الأمريكية فيما بعد ، يقول التعريف : الإرهاب هو التهديد باستخدام العنف ، من أجل أغراض سياسية ، من قبل أفراد أو جماعات ، سواء كانوا يعملون من أجل سلطة حكومية قائمة أو ضدها ، فعندما يكون القصد من هذه الأعمال زعزعة مجموعة مستهدفة تتجاوز الضحايا الفعليين ، أو ضربها أو إرهابها .

ويشمل الإرهاب مجموعات تسعى الى قلب نظم حكم معينة ، أو إزالة ظلم وقع على أمة ، أو مجموعة ، أو الإخلال بالنظام الدولي كغاية في حد ذاتها .

وهو يلاحظ محقا أن صيغة التعريف واسعة تماما ، بحيث تجعل كل من يستعمل العنف إرهابيا ، لكن المؤلف لا يهدف من وراء ذلك الى إبعاد تهمة الإرهاب عن الشعوب المضطهدة التي تستخدم العنف لرفع الاضطهاد عنها ، بل يسعى الى اخراج القوى التي تدعمها وكالة المخابرات المركزية من الصف الإرهابي ، فالمؤلف في بحثه عن تعريف « أضيق » ملكي أكثر من الملك .

تعريف آدمز وحقائق الكون

ويقدم آدمز تعريفه : « الإرهابي فرد ، أو عضو في جماعة ، تريد تحقيق أهداف سياسية ، مستخدمة وسائل عنيفة غالبا ، تلحق إصابات بالمدنيين الأبرياء ، تؤيدها أقلية فقط من الشعب الذي تدعي تمثيله » ، واستنادا الى تعريفه هو يقوم المؤلف بحركة تنقصها الرصانة باخراج من يريد من دائرة الإرهاب ، وادخال من يريد ، فيخرج معارضي النظام الأفغاني ، ومعارضي نظام نيكاراغوا ، ويبقي من التعريف ما يتسع لمنظمة التحرير الفلسطينية التي يضعها جنبا الى جنب مع الألوية الحمراء والجيش الجمهوري الايرلندي .

فكيف أدخل المؤلف منظمة التحرير في الثوب الذي أعده لها مسبقا ؟ لقد شوه ببساطة صورة المنظمة ، ولنقرأ ما يقول عن المنظمة والألوية الحمراء ، وقد قرنها معا : « إن جذور مثل هاتين الجماعتين الإرهابيتين تكمن في الاستياء الاجتماعي لدى أقلية من السكان التي تفشل في الوصول الى التعبير من خلال القنوات الديمقراطية العادية » : إنه بذلك لا يشوه المنظمة فحسب ، بل يشوه مجمل القضية الفلسطينية التي يعرف القارىء العربي حقيقيتها ، ثم يزعم أن المنظمة لم تنجح قط في كسب « التأييد الشعبي من الفلسطينيين في « اسرائيل » والضفة الغربية ، حيث تعيش الغالبية العظمى من الفلسطينيين .

ومن الحقائق الموضوعية التي لا تخضع للاجتهادات واختلاف وجهات النظر أن غالبية أبناء فلسطين يعيشون خارجها ، وليس داخلها ، كما أن تأييد أبناء فلسطين الذين يعيشون في الأراضي المحتلة لمنظمة التحرير واضح لكل من يريد أن يرى الواقع كما هو ، والتأييد الشامل الذي يعترف به العالم أجمع إلا أميركا و « اسرائيل » يتجسد يوميا في التصدي للمؤامرات التي تستهدف عقد الصفقات بالقفز عن المنظمة أو النيل من انفراد المنظمة بتمثيل الشعب الفلسطيني .

لكن آدمز لا يرى إلا ما يريد ، وقد أعد تعريفه مسبقا للإرهاب ، وعلى المنظمة أن تدخل ضمن هذا التعريف ، حتى لو تناقض تعريفه المذكور مع حقائق الكون .

إرهاب الدولة

تحت هذا العنوان يخصص المؤلف الجزء الأول من الكتاب ليتناول دور بعض الدول في دعم الإرهاب ، وقد لاحظنا أن تعريفه للإرهاب لايشمل إرهاب الدولة ، والعنوان يستدعي الى ذهن القارىء ممارسات الولايات المتحدة في كثير من أنحاء العالم ، وممارسات « اسرائيل » ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية ، وممارسات النظام العنصري في جنوب افريقيا الخ . لكننا لن نجد في هذا الفصل شيئا مما يخطر ببالنا ، فلسان حال المؤلف يقول : (من كان ضدنا فهو الإرهابي . ومن كان معنا فهو ضد الإرهاب) . وهكذا نجد أنفسنا أمام أحاديث عن بلغاريا ، وارتباطها بالحركات الإجرامية في اوروبا والشرق الأوسط ، وعن الأسلحة التي وصلت الى منظمة التحرير الفلسطينية عن طريقها ، وعن دور كوبا في دعم الثورات في مختلف أنحاء العالم . وبعد أن يفرغ من كل ذلك دون أن ينسى ربط كل ذلك بموقف الدول الاشتراكية يتناول دور الولايات المتحدة في مواجهة الإرهاب ، وعلى الأخص منذ جاءت إدارة ريغان الى السلطة ! ويشير الى دعم الولايات المتحدة لحرب العصابات في ليبيا ، و أفغانستان ، و إيران ونيكارغوا و كمبوديا و تشاد ، فينقطع آخر خيط يربط المؤلف والقارىء الباحث عن الإرهاب الحقيقي ، ناهيك عن تمويله .

وفي الفصل الثاني من الجزء الأول يستعرض المؤلف تطورات القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٤٨ كما يراها بمنظاره ، لفهم تطور الحركات الإرهابية التي تعمل تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية ، وينطلق من حقيقة وجود جماعات فلسطينية لا وزن لها في الساحة الفلسطينية ليزعم أن كل دولة رئيسية في الشرق الأوسط لها جماعتها الإرهابية الخاصة في منظمة التحرير ، ثم يصف المنظمة بأنها مؤسسة متعددة الجنسيات .

وفي الفصل الثالث من الجزء الأول يقرر المؤلف أن المنظمة استفادت من الارتفاع المفاجىء لعائدات النفط ، هذا الارتفاع الذي أسهم في تكريس الإرهاب ، كسمة دائمة في السياسة الدولية ، ثم يشير الى اضطرار المنظمة الى الاعتماد المتزايد على مصادرها المالية الخاصة في السنوات الأخيرة ، بعد انخفاض المساعدات العربية التي تتلقاها .

ويخلص الى أن « إرهابيي اليوم » قد علموا أن الدعم الذي يتلقونه من الحكومة لا يركن اليه ، وأن عليهم أن يهتموا بمصادر تمويلهم الخاصة ، للمحافظة على بقائهم ، مشيرا الى أن منظمة التحرير كانت في المقدمة على هذا الطريق .

رأس المال المجرم

في الجزء الثاني من الكتاب ، المخصص لتناول المنظمة يلقي الكاتب الضوء على مؤسسة « صامد » ، في سياق إبرازه لتطوير « بنية أساسية » للمنظمة ، وسعيها الى الاعتماد على مصادر تمويل خاصة ، ثم يفيض في الحديث عن منظمة « أيلول الأسود » ، وينتبه الى حقيقة يعتبرها مهمة ، وهي أن « صامد » و

كتاب الشهر

« أيلول الأسود » أنشئتا في نفس الفترة ، وبنسى أن « صامد » مؤسسة خيرية ، تساعد أبناء الشهداء الفلسطينين ، وتسهم في المحافظة على التراث الفلسطيني أمام محاولات تشويهه ، لكن هذا لا يضير المؤلف كثيرا ، فيضع « صامد » و « أيلول الأسود » بنفس السلة ، تحت عنوان استفزازي هو (رأس المال المجرم) ، ويبالغ آدمز في تشويه صورة المنظمة ، فالفدائيون يلتحقون بالمنظمات طمعا في المال ، والمنظمات تتنافس في إغرائهم ، « كأن للولاء سعره » ، بل « تسرق كل منها صيد الأخرى » ، ومنظمة التحرير وحزب الكتائب في كتاب آدمز يقومان معا بالسطو على البنك البريطاني للشرق الأوسط عام ١٩٧٦ .

وفي نهاية هذا الجزء يشير آدمز الى أن « اسرائيل » ارتكبت خطأ أساسيا حين اعتقدت أن بإمكانها حل مشكلتها الأمنية بـإخراج المنظمة من لبنان ، إذ لم تدرك مدى التطور الذي حققته المنظمة خلال الأعوام الخمسة عشر الماضية ، وهو يقصد مصادر التمويل الخاصة التي نجحت المنظمة في تأسيسها ، ويرسم آدمز صورة للصندوق الفلسطيني ، واستثمارات المنظمة التي توفر لها دخلا مضمونا ، مشيرا الى أنه « مع نمو ثرواتها تراجع الإرهاب ، وتم الاعتماد على القوة العسكرية ، فقرار بسيط بشن هجوم إرهابي في القدس أصبح في غاية التعقيد .

والمؤلف هنا يتجاهل العقبات الكبيرة التي تعترض العمل المسلح الفلسطيني ضد « اسرائيل » ، ويتناسى أن هذه العقبات راجعة الى تعقد الأوضاع الفلسطينية والعربية ، وليس الى الثروة التي أعاقت العمل المسلح .

ويبالغ المؤلف في تضخيم حجم استثمارات المنظمة ، فيجعلها تغطي الكرة الأرضية من نيكاراغوا غربا الى اليابان شرقا ، وتشمل أسواق المال العالمية ، وأسواق التجارة ، والنقل الجوي في أوروبا الغربية ، وعددا من دول العالم الثالث . وفي النهاية يدعو الى تناول هذه الصورة كدراسة حالة ، تبين اخفاقات المواجهة التقليدية للإرهاب .

وكان جديرا بإنجازات المنظمة في الميادين الاقتصادية والاجتماعية وغيرها أن تشكل صورة ، تعكس الوجه الحقيقي لنضال الشعب الفلسطيني ومنظمته ، وتميز بوضوح بين التمرد الأخرق من الحركات الإرهابية من جهة والنضال الحتمي المعبر عن حركة شعب ، لحقت به أبشع أشكال الظلم والقهر الذي يتناسب مع اتجاهات تتشكل في النسيج التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، لكن كيف لكاتب يشهر تعريفه العجيب في وجه القارىء منذ البداية أن يدرك ذلك ، أو يفكر في الالتفات اليه ؟

يستعرض الكاتب في الجزء الثالث نشأة الجيش الجمهوري الايرلندي عام ١٩٥٦ ، بشكله المعروف ، نتيجة للتفرقة التي يتعرض لها (الكاثوليك) على أيدي (البروتستانت) في ايرلندا الشمالية ، وانشقاقه عام ١٩٦٩ ، ثم يستعرض الدور الذي قامت به منظمة « توريد » في دعم الجيش بالمال والسلاح ، قبل أن تتعاون الولايات المتحدة مع بريطانيا في قطع هذه القناة التمويلية .

والمؤلف ـ كالعادة ـ لا يتطرق الى الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء حركة الجيش الجمهوري الايرلندي ، باعتباره نتيجة لظلم تاريخي ، وقع على

هذا الشعب ، منذ زمن طويل ، وذلك بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف على مشروعية الأسلوب ، لكنه في محاولة للظهور بمظهر الكاتب الموضوعي الأمين يشير الى التضحية بالذات والإضراب عن الطعام في السجون ، كصور تدعو الى احترام رجال الجيش الجمهوري الايرلندي ، وإشارة كهذه لم يكن ممكنا منحها لرجال منظمة التحرير الذين زعم الكاتب أنهم لم يحسنوا استخدام الأسلحة التي كانت بحوزتهم عندما غزت « اسرائيل » لبنان .

الخطف والفدية

تحت هذا العنوان يتناول المؤلف ممارسات الألوية الحمراء ، حيث ان « الخطف من أجل الفدية يبقى الطريقة المفضلة لدى الألوية الحمراء » لزيادة ماليتها ، كما يشير الى دور الجيش الجمهوري الايرلندي ، ويقول إن عمليات خطف من أجل الحصول على فدية نفذت في ثلاث وسبعين دولة منذ عام ١٩٦٨ ، وحصل الخاطفون على ثلاثمائة وخمسين مليون دولار بهذه الطريقة ، منها أكثر من مائة وخمسين مليونا دفعتها شركات أمريكية ، ويتطرق الى استفادة شركات التأمين من قيام كثير من المؤسسات بالتأمين على الضحايا المحتملين للخطف من كبار موظفيها ، ويشير الى دور المفاوضين الذين يساومون الخاطفين لإخلاء سبيل الضحايا مقابل الفدية ، مؤكدا الضرر الذي يلحقونه بمكافحة هذا النوع من الإرهاب .

الربح والخسارة

يضع المؤلف في النهاية خلاصة ما توصل اليه ، فيشير الى أن منظمات إرهابية عديدة قد ظهرت في الستينات والسبعينات ، وقد تلاشت ، بينما نمت منظمات أخرى ، واستمرت ، وفي تعليله لاستمرار الأخيرة يقول : السبب هو أنهم كانوا رأسماليين أفضل .

ويقول آدمز : « آن الأوان لتدرك الحكومات الغربية أنه لا يوجد حل سريع وسهل لمشكلة الارهاب» ، ويدعو تلك الحكومات الى التضحية بالكسب قصير المدى الذي يحقق أغراضا سياسية لصالح تحقيق فوائد بعيدة المدى ، عن طريق تقويض القاعدة الاقتصادية للإرهاب الدولي ، ويدعو الى بذل الجهود في تعقب مصادر التمويل ، والحسابات المصرفية (البنكية) ، والاستثمارات الخاصة بالجماعات الإرهابية ، بدل التركيز على مكافحة الإرهابيين الذين يقومون بعمليات التفجير والاغتيال ، ومن أقواله في هذا المجال قوله : « مادامت « اسرائيل » تصر على قياس نجاحها بعدد إرهابيّ منظمة التحرير الفلسطينية الذين تستطيع قتلهم ، فإن المنظمة تستمر في النمو ثروة وقوة » .

إن ضيق الأفق هو الذي يجعل آدمز يرى في المال المحرك الأساسي ، والعامل الذي يضمن الاستمرار ، لحركة تحرر وطني ، لها قاعدة سياسية ، واجتماعية واسعة جدا ، كمنظمة التحرير ، وتاريخها يثبت أنها وجهت الى العدو ضربات موجعة ، وخاضت معارك كثيرة ، خرجت منها أقوى مما كانت في وقت لم تكن تملك فيه أموالا تذكر . ألم يقل آدمز نفسه إن « الإرهاب » والاعتماد على القوة العسكرية قد تراجع مع نمو ثروة المنظمة ؟

إن منظمة التحرير ليست مثل تلك الجماعات التي يقارنها بها آدمز ، كمنظمة (بادر ماينهوف) ، والجيش الأحمر الياباني ، إن العنف الذي تمارسه منظمة التحرير يعبر عن حركة شعب شرد في المخيمات والمنافي ، واقتلع من أرضه ، بينما خضع من بقي منه في أرضه لظلم لا يحتمل ، لذلك فهو عنف له ضرورته التاريخية ، وهو يحظى بتأييد الشعوب العربية ، وعشرات من دول العالم وشعوبه . لكن كيف يمكن لكاتب منحاز مسبقا ضد كل ما هو مشروع أن يرى كل هذه الحقائق ؟ ! □

من المكتبة العربية



تكوين العقل العربي

تأليف : الدكتور محمد عابد الجابري
عرض وتعليق : جمال وردة

إن نقد العقل الصانع للفكر جزء أساسي وأولي من كل مشروع حضاري نهضوي ، لكن هل يمكن بناء نهضة بعقل غير ناهض ، عقل لم يقم بمراجعة شاملة لأدواته ومفاهيمه وتصوراته ورؤاه ؟

عن جماعة الدراسات العربية للتاريخ والمجتمع ومقرها ـ الكويت ـ صدرت هذه الدراسة العلمية للدكتور محمد عابد الجابري ، طارحة منهجا علميا جديدا في تناول التاريخ العربي ، وكشف المقومات الأساسية للمجتمع العربي الاسلامي ، وذلك من أجل ايضاح الرؤية المستقبلية لهذا المجتمع ، أمام التحولات الجذرية التي تجري بتسارع ملحوظ في بنياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

الثالوث العقلي

بدأ الدكتور الجابري بتعريف للعقل العربي على أنه مجمل المبادىء والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتسبين إليها كأساس لاكتساب المعرفة الانسانية ، مع ضرورة التمييز ـ في نفس الوقت ـ بين العقل العربي والعقل اليوناني والعقل الأوروبي الحديث . لكن لماذا التركيز على هذا الثالوث العقلي الانساني فقط ؟

إن المعطيات التاريخية المتوفرة تضطرنا ـ حسب رأيه ـ الى الاعتراف للعرب واليونان والأوروبين بأنهم وحدهم مارسوا التفكير النظري العقلي بالشكل الذي سمح بقيام معرفة علمية أو فلسفية أو تشريعية منفصلة تماما عن الأساطير أو الخرافات ، ومتحررة الى حد كبير عن الرؤية (الميثولوجية) التي كانت تتعامل مع أشياء الطبيعة كأشياء حية ، ذوات نفوس ، تمارس تأثيرها على الانسان ، وعلى امكاناته المعرفية . صحيح أن حضارات عريقة قد سادت قديما في مصر وبابل والهند والصين وغيرها ، وأن شعوب هذه الحضارات قد مارست العلم إنتاجا وتطبيقا ، ولكن الصحيح أيضا أن البنية العامة لهذه

الثقافات كانت بنية كالسحر ، أو ما في معناه ، وليس العلم هو العنصر الأساسي الفاعل فيها . ان الحضارات التي مارست التفكير العلمي بوعي فأنتجت الفلسفة والعلم هي تلك التي كان العقل يمارس داخلها درجة من السيادة ، لاتقل عن تلك التي للسحر أو لغيره من ضروب التفكير اللاعقلي في تلك الحضارات القديمة ، إن الحضارات الثلاث - اليونانية والعربية والأوربية الحديثة - هي وحدها التي مارست التفكير بالعقل ، وفي العقل أيضا ، رغم عملية التأثير والتأثر والتمايز بين هذه الثقافات .

دور اللغة

هناك معطيات كثيرة يمكن أن تبرر اعطاء الأولوية للغة العربية في دراسة مكونات العقل العربي ، لأنه إذا كان أهم ما ساهم به العربي في الحضارة الاسلامية التي ورثت الحضارات السابقة لها هو اللغة العربية والدين فالدين الاسلامي قد بقي عربيا ،ولا يمكن أن يستغني عن لغة العرب ، لأن القرآن وهو كتاب عربي مبين لايمكن نقله الى لغة أخرى دون المساس به ، فالعربية جزء ، كما يقول علماء أصول الفقه ، ونستطيع أن ندرك أبعاد هذا المبدأ الأصولي اذ لاحظنا ذلك الدور البالغ الأهمية الذي تلعبه اللغة العربية في الدراسات والأبحاث الاسلامية ، وإن كثيرا من الخلافات المذهبية والفقهية مرده الى اللغة ، وكذلك وجدت النزاعات السياسية التي كانت تحركها أصلا دوافع اجتماعية أو طائفية في النص الديني العربي بفضل مطاوعة اللغة ما تتخذ منه سندا أو غطاء . إن اللغة ليست مجرد أداة للفكر ، بل هي القالب الذي يتشكل فيه الفكر ، وذلك يعني أن اللغة التي تحدد قدرتنا على الكلام هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير ، ولكن لو نظرنا الى قواميسنا القديمة والمعاصرة لوجدنا أن مادتها قد جمعت في عصر التدوين ، من أفواه الأعراب الذين بقوا الى ذلك العصر متعزلين ، لم يتعكر صفو لسانهم بالاختلاط مع سكان المدن والحضر . إن قاموس « لسان العرب » ، وهو أغنى القواميس وأضخمها في اللغة العربية لاينقل الينا على ضخامة حجمه أسماء الأشياء الطبيعية والصناعية ، ولا المفاهيم النظرية وأنواع المصطلحات التي عرفها عصره - القرن السابع والثامن للهجرة - إن الثمانين ألف مادة لغوية التي يضمها هذا القاموس الذي تعتز به لاتخرج عن دائرة حياة ذلك « الأعرابي » الذي كان بطل عصر التدوين ، « تلك الحياة التي تمثل خشونة البداوة بتعبير ابن خلدون ».وهنا تكمن المفارقة الخطيرة التي يعاني منها الانسان العربي الى اليوم ، ذلك أنه من جهة تتوفر له لغة للكتابة والتفكير ، على درجة عالية من الرقي ، من حيث آلياتها الداخلية ، ولكن هذه اللغة نفسها لاتسعفه بالكلمات الضرورية عندما يريد التعبير عن أشياء العالم المعاصر ، وإن هذا الفقر الحضاري في اللغة العربية يقابله فيها غنى بدوي ، يتمثل خاصة في كثرة المرادفات التي يرجع جزء منها الى الاشتقاق الصناعي على طريقة الخليل بن أحمد ، وفي جزء آخر منها يرجع الى السماع من قبائل مختلفة ، فكانت النتيجة هذا الحكم الهائل من الكلمات التي هي من أصل واحد ، وهكذا أصبحت لغة المعجم - لغة الأصل والمشتق - أوسع كثيرا من لغة الواقع ، ولكن في دائرة خشونة البداوة فقط والنتيجة هي أن اللغة العربية الفصحى - لغة المعاجم والشعر والثقافة - ظلت تنقل الى أهلها عالما يزداد بعدا عن عالمهم وما تزال كذلك ، وهو عالم بدوي يعيشونه في أذهانهم وخيالهم ووجدانهم ، عالم يتناقض مع العالم الحضاري الذي يعيشونه ويزداد غنى وتعقيدا .

حضارة وفقه

إذا جاز لنا أن نسمي الحضارة الاسلامية باحدى منتجاتها فإنه سيكون علينا أن نقول إنها حضارة « فقه » ، وذلك بنفس المعنى الذي ينطبق على

الحضارة اليونانية حينما نقول أنها حضارة فلسفة، وعلى الحضارة الأوروبية المعاصرة حين تصفها بأنها حضارة علم وتقنية. ونستطيع أن نقول دون تردد أن الفقه الاسلامي إنتاج عربي اسلامي محض، وهو الى جانب علوم اللغة يبقى العطاء الخاص للثقافة العربية، وعبثا حاول المستشرقون إيجاد صلة مباشرة أو غير مباشرة بين القانون الروماني والفقه الاسلامي. ويبقى الفقه الاسلامي ـ أقرب منتجات العقل العربي في التعبير عن خصوصيته، والحق أن أصالة الفقه الاسلامي ترجع الى ذلك العلم المنهجي الذي لانجد له مثيلا في الثقافات السابقة أو اللاحقة، ويمكن القول أن علم أصول الفقه هو أول محاولة إنسانية استهدفت إنشاء علم للقانون، متميز عن القوانين التفصيلية الخاصة بهذا السلوك أو ذاك، علم يمكن تطبيقه في دراسة قانون أي بلد أو أي عصر. لقد وجدت على الدوام وفي كل المجتمعات قوانين وأعراف، فلقد كانت هناك شريعة حمورابي، والألواح الاثنا عشر عند اليونان، وقوانين جيستنيان عند الرومان، فضلا عن القوانين الصينية والهندية، لكن هذه القوانين كلها لم تكن مؤسسة على علم أصول، فهذا العلم قد ابتكره المسلمون، ولا نجد له نظيرا عند الأمم الأخرى. إن أهمية هذا العلم تكمن في طابعه المنهجي، وقواعده المعرفية التي يتوصل بها الى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة، وهو بالنسبة للفقه كالمنطق بالنسبة للفلسفة، فاذا كانت مهمة الفقه التشريع للمجتمع فان مهمة أصول الفقه هي التشريع للعقل، ودون التقليل من أهمية مساهمة الأصوليين الذين جاءوا بعد الشافعي في إخصاب هذا العلم نستطيع القول أن القواعد التي وضعها «الشافعي» لاتقل أهمية بالنسبة لتكوين العقل العربي الاسلامي عن قواعد المنهج التي وضعها «ديكارت» بالنسبة لتكوين الفكر الفرنسي، بشكل خاص، و العقلية الأوروبية الحديثة بشكل عام. لقد كانت الخطوة التي خطاها الشافعي بالفقه الاسلامي على صعيد التنظير خطوة متواضعة، لكن نتائجها سرعان ما ظهر في علم أصول الفقه الذي اتخذ صبغة علمية منهجية، كانت بالنسبة للشريعة كالمنطق بالنسبة للفلسفة، وقد كان هذا العلم أحد وجهي العقلية الاسلامية، أما الوجه الآخر فهو علم الكلام، لكن ما ان انتهى عصر التدوين بفترة قصيرة حتى بدأت عملية الاجترار والجمود، فقد سد باب الاجتهاد في الفقه، وانصرف الناس الى تقليد أئمة المذاهب الأربعة، وظهر ما يسمى بالمناظرات، ثم قيام علم الجدل الذي ركز على نقاط الاختلاف الفقهية. وهكذا تحول القياس البياني الذي كان في الاصل أداة إنتاج للمعرفة الفقهية والنحوية واللغوية بطريقة منظمة الى حرفة كلامية، كل همها «حفظ رأي أو هدمه» كما قال ابن خلدون، وهكذا انتهى الأمر بالعقلية العربية الى نفس النهاية التي عرفتها العقلية اليونانية، وبدأ العقل العربي مباشرة بعد عصر التدوين وكأنه يلتهم نفسه.

الفشل والنجاح

وإذا نظرنا الى طبيعة اللحظة التاريخية التي برزت فيها الحضارة العربية الاسلامية لتتسلم زمام القيادة العالمية على المستوى الثقافي وجدناها تسجل بداية النهاية للعصر «الهلينستي»، عصر الانحطاط بالنسبة لتاريخ الفكر البشري. لقد كان منظورا الى الحضارة العربية الاسلامية باعتبارها بداية البداية للنهضة التي تحققت كاملة في أوروبا، منذ نفس اللحظة التي اختنقت فيها التجربة الحضارية العربية في القرن الخامس عشر. فلماذا فشلنا فيما نجح فيه غيرنا؟

ولماذا لم تتمكن التجربة العربية من الانتشار والصمود؟ وهل يرجع ذلك الى غياب العنصر المحرك للتقدم الفلسفي وهو العلم؟ كما تطرح علينا التجربة الأوروبية التساؤل عن عدم استطاعة النهضة

العربية في القرون الوسطى بأن تشق طريقها كما فعلت أوروبا ، وهل يرجع ذلك الى غياب العنصر المحرك للتقدم العلمي وهو التجربة ؟

البياني والعرفاني

لقد صنف الدكتور الجابري كافة العلوم والمعارف في الثقافة العربية في ثلاث مجموعات ، وهي علوم « البيان » أو الفكر الديني العقلي ، وعلوم « العرفان » أو الفكر الالهامي الباطني ، ثم علوم « البرهان » أو الفكر الفلسفي العلمي .

ويلاحظ أن هذه العلوم جميعا قد بلغت ذروتها مع بداية تاريخها ، وأن العقل العربي الذي شيدها لم يضف جديدا الى ما أبدعه فيها خلال عصر التدوين ، وبقيت هذه العلوم سجينة لانتاج ذلك العصر ، فلقد كان الموضوع الذي تعامل معه العقل « البياني » العربي - وما يزال - هو النصوص ، والتعامل مع النصوص غير التعامل مع الطبيعة وظواهرها ، وإن الانجاز الذي تحقق في مجال اللغة والفقه لم يكن مجرد قوانين ، يجب التقيد بها ، بل انتهت الى قوالب وقيود للعقل نفسه ، وذلك يعني تثبيت آليات نشاطه في اطار معين ، لايجوز اختراقه ، وعندما اكتمل البناء في اللغة والتشريع ولم يعد هناك مجال للمزيد أصبح العقل العربي سجينا لهذا البناء الذي طوق نفسه به ، ولم يكن بعد ذلك مناص من الركود ولا مفر من التقليد ، وبالرغم من بعض الملامح المشرقة للتقدم العلمي العربي على يد بعض علمائنا كالخوارزمي في الرياضيات ، والسموأل المغربي في منهج التحليل والتركيب ، وابن الهيثم الذي مارس الاستقراء العلمي والتجريبي بطريقة منهجية ، بالاضافة الى بعض الانجازات العلمية في ميدان الفلك التي حققها البيروني والبطروجي وغيرهما ، الا أننا لابد أن نسجل بأن العلم العربي بهذا المعنى قد بقي من أول الأمر حتى نهايته خارج مسرح الصراع في الثقافة العربية ، و بالتالي فهو لم يدخل في أية علاقة مع أي طرف من الأطراف المتصارعة فيها ، فلا هو مع الدين ولا مع الفلسفة ، لأن الصراع في الثقافة العربية لم يكن بين الأسطورة والعلم كما كان الأمر في الثقافة اليونانية ، ولم يكن بين العلم والكنيسة ، كما حدث في التجربة الأوروبية الحديثة ، بل لقد ظل الصراع في الفكر العربي بين النظام « البياني » والنظام « العرفاني » ، وعندما دخلت الفلسفة العلمية كطرف ثالث كان دخولها كعامل مساعد لاذكاء هذا الصراع وليس لتحييده أو للحكم عليه فقد كان الصراع الفكري في الثقافة العربية صراعا سياسيا بالدرجة الأولى .

دين ودنيا

إن اللحظات الحاسمة في تطور الفكر العربي الاسلامي لم يحددها العلم ، وإنما حددتها السياسة ، ذلك لأن الاسلام التاريخي الواقعي كان في آن واحد دينا ودنيا ، وبما أن الفكر الذي كان حاضرا في الصراع (الايديولوجي) العام كان فكرا دينيا أو على الأقل في علاقة مباشرة مع الدين فإنه كان أيضا ولهذا السبب في علاقة مباشرة مع السياسة .

لقد كانت المواقف السياسية تبحث لها دائما عن سند ديني يدعم وجهة نظرها ، وهكذا تحول علم الكلام من مجرد كلام في العقيدة الى ممارسة سياسية في الدين ، وقد اتسعت لتصبح ممارسة للسياسة في الفلسفة أيضا . أما ممارسة العلم فقد بقيت على الهامش دون ضجة وبفعاليات فردية ، وهكذا ظل العلم العربي التجريبي - علم الخوارزمي وابن الهيثم وابن النفيس - خارج مسرح الحركة الثقافية العربية ، ولم يشارك في تغذية العقل العربي ، ولم يجدد قوالبه ، وهكذا بقي الزمن الثقافي ممتدا على بساط واحد ، منذ عصر التدوين وحتى عصر ابن خلدون ، وبعدها ضاع البحر ،. وتخشبت فيه الأمواج . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب/ رؤية جديدة للناصرية
المؤلف/ مصطفى طيبة
الناشر/ المركز المصري العربي ـ القاهرة
عدد الصفحات/ ١٤١ من القطع الكبير
سنة النشر/ ١٩٨٦م

بعد نحو ١٧ عاما على وفاة عبد الناصر مازال الدراسات التي تتناول تجربته وحياته وأثره تصدر بحقائق وتحليلات جديدة ، تدل على غنى شخصية الزعيم الراحل ، وغنى التجربة التي انتهت بموته عام ١٩٧٠ .

ومع ذلك فان مؤلف هذا الكتاب بعد أن يرصد التجربة الناصرية ، ويتابع تطوراتها واتجاهاتها المختلفة ، والطريق المتعرجة التي سلكتها ، يقدم أطروحته القائمة على أن المشروع العربي القومي كما طمح اليه الزعيم الراحل مايزال صالحا كأساس تنهض به أمتنا العربية ، وبالتالي فالمشروع القومي الناصري لم ينته بموت عبد الناصر ، وهذا ما يطمح الكتاب الى اثباته .

■■

الكتاب / أدب المرأة في الجزيرة والخليج العربي
المؤلفة / ليلى محمد صالح
الناشر / دار ذات السلاسل ـ الكويت
عدد الصفحات / ٤٢٠ من القطع الكبير
سنة النشر / ١٩٨٧

في هذا الكتاب ، وهو الجزء الثاني من كتاب يهدف الى التعريف بأدب المرأة في الخليج العربي ، تؤكد المؤلفة أنها لاتهدف الى نقد او تحليل النصوص الادبية ، بل الى تسجيل وتأريخ الواقع الثقافي والأدبي ، في هذه المنطقة من الوطن العربي .

والمؤلفة هنا تستكمل ما كانت بدأته في الجزء الاول من كتابها ، فتلقي ضوءاً على شاعرات وكاتبات اليمن بشطريه الشمالي والجنوبي ، وفي سلطنة عمان . والى جانب السيرة الذاتية لكل منهن ، تعطي المؤلفة الحيز الأكبر من الكتاب للنصوص الخاصة بهن ، مما يزيد من أهمية الكتاب في كونه مرجعاً ببليوغرافياً لمن يود الاستزادة بعد ذلك ، والقيام بدراسة تتضمن النقد والتحليل الذي قالت المؤلفة إنها لم تهدف اليه في هذا الكتاب .

■■

الكتاب / الضفة والقطاع ـ دراسة وثائقية
المؤلف / رفعت سيد احمد
الناشر / دار العروبة للصحافة والنشر والتوزيع ـ القاهرة
عدد الصفحات / ١١٠ من القطع الكبير
سنة النشر / ١٩٨٧

ينصب الجهد الرئيسي لهذا الكتاب على تقديم دراسة وثائقية لاهم المشكلات المتعلقة بالأراضي الفلسطينية المحتلة ، المعروفة باسم الضفة

والقطاع . وهذه المشكلات هى مشكلة المستوطنات التى قدمها المؤلف تحت عنوان مأزق المكان ومشكلة المياة التى قدمها تحت عنوان أزمة الارتواء ، ثم الوضع القانونى للضفة والقطاع الذي قدمه لنا المؤلف تحت عنوان تقنين الهوية الضائعة ، والى جانب هذه الفصول الثلاثة المهمة ، أضاف المؤلف ملحقا يتضمن الوثائق المختلفة التى بنى عليها دراسته ، ليقدم مادة مهمة للباحثين والدارسين لهذه البقعة من وطننا العربى التى تختزل صراعا يتعلق بوجودنا ومصيرنا .

■ ■

الكتاب / المملكة السوداء ـ قصص

المؤلف / محمد خضير

الناشر / وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد

عدد الصفحات / ١٩٧ من القطع الكبير

سنة النشر / ١٩٨٦

الطبعة الثانية من مجموعة القاص العراقى الاولى ، ومن خلال مجموع القصص التى كتبت بتقنية فنية عالية ، وتكثيف شديد ، يرسم المؤلف لوحات غنية للحياة العراقية . الأعياد الدينية ، العلاقات العائلية وبؤس العالم السفلى في المدينة ورثاثته وبساطته في الريف .

وقد استخدم المؤلف مهاراته الكتابية باطلاقها ليقدم العالم الداخلي لشخصياته المتحركة في عالم متشابك ببؤسه وجماله وغناه ومتعه الصغيرة ، فلجأ الى اشكال فنية راقية تجمع بين تقنيات السينما والتصوير والجملة المعبرة المثقلة بالايحاء .*

■ ■

الكتاب / تعريب العلوم بين النظرية والتجربة الميدانية

المؤلف / أحمد ذياب وآخرون

الناشر / التعاضدية العمالية للطباعة والنشر ـ تونس

عدد الصفحات : ١١٨ من القطع المتوسط

سنة النشر / ١٩٨٧

من أهم المشكلات التى تواجه امتنا العربية في نهضتها مشكلة المصطلحات العلمية التى لم يتم التوصل الى صيغة بشأن تعريبها ، وهذا الكتاب حصيلة أبحاث ونقاشات جرت في ندوة تحت عنوان « تعريب العلوم بين النظرية والتجربة الميدانية » شارك فيها اكثر من باحث معظمهم من تونس .

بالرغم من أن تجربة التعريب في تونس هى المطروحة في هذا الكتاب ، الا ان هذا الجهد يضاف الى جهود اخرى في مجال التعريب ، ليشكل بالتالى حصيلة جيدة في هذا المجال المهم ، والحيوى بالنسبة لأمتنا العربية .

■ ■

الكتاب / الايدز ـ معضلة القرن العشرين

المؤلف / د . محمد صادق زلزلة

الناشر / دار ذات السلاسل ـ الكويت

عدد الصفحات / ٢٦٦ من القطع المتوسط

سنة النشر / ١٩٨٦

يتناول المؤلف في كتابه هذا المعلومات الأولية والمهمة عن مرض متلازمة نقص المناعة المكتسبة « المعروف باسم الايدز » ، وهو المرض الذي أهلك مئات الألوف في انحاء كثيرة من العالم ، دون أن يعرف له علاج شاف حتى الآن .

وبالاضافة الى تاريخ اكتشافه ، والطريقة التى تم بها هذا الاكتشاف ، يقدم المؤلف معلومات مهمة عن طريقة انتشار هذا المرض في الجسم ، والحالات والاماكن التى يسود فيها ، وكذلك طرق علاجه التى يقول انها اثبتت عدم جدواها حتى الآن ، لكنه يتوقع أن يتم استخلاص طعم لهذا المرض قبل نهاية هذا العقد . □

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٤٥
أغسطس ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة اسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي - صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 - الكويت .. « مسابقة العربي العدد ٣٤٥ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ سبتمبر ١٩٨٧ .

١ - « الجامع في الأدوية المفردة » كتاب يتحدث عن ١٤٠٠ نبات ، ويحدد خصائصها النباتية ، وفوائدها الطبية ، عاش مؤلفه ـ وكان من مواليد ملقا ـ نحوا من خمسين عاما .. من سنة ١١٩٧ - ١٢٤٨م .. فمن هو مؤلفه ؟

٢ - اذكر نباتاً واحداً لا جذور له ، ونباتا آخر لا أوراق له ؟

٣ - ما وجه الشبه بين الورد والتفاح ؟ ولماذا تنتمي شجرة التفاح الى أسرة الورد في عرف علماء النبات ؟

* الشبه قائم بين زهور الورد وزهور التفاح من حيث الشكل .
* الشبه قائم بين (رائحة) الورد (وطعم) التفاح وان كان هذا الشبه غامضا
* التفاح لا يشبه الورد من قريب ولا من بعيد

٤ - نبات (رافليسيا) أو الجثة النتنة .. اشتهر بأن زهرته هي الزهرة الكبرى في عالم النبات ، ولونها برتقالي مائل الى البني .. وتعلوها بقع بيضاء ، أين ينمو هذا النبات ؟

* في احراج آسيا وغاباتها
* في القارة القطبية الجنوبية
* على سفوح جبل كلمنجارو بافريقيا

٥ - يذكر التاريخ أن عدد سكان ايرلندة نقص بنسبة الثلث تقريبا في غضون الثلاث سنوات : ١٨٤٧ - ١٨٥٠ وقد بلغ ٦,٥ مليون نسمة سنة ١٨٤٦ ولم يجاوز ٥,١ مليون نسمة عام ١٨٥١ ترى ما السبب ؟

* زلزال مدمر ضرب العاصمة دبلن ومنطقتها .
* الحروب الأهلية الضروس وكانت حروبا

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٤٥

دينية طائفية .

* المرض الفطري الذي أصاب محصول البطاطس في البلاد آنذاك .

٦ـ الكيناء دواء الملاريا الشهير ، ذو أصل نباتي وقد أثبت فاعليته على مدى القرون . . ترى ما اسم الشجرة التي استخلص هذا العقار من لحائها ؟

* شجرة الكينا .

* شكرة الكتكويا التي تنمو على سفوح جبال الانديز في أمريكا الجنوبية .

* شجرة خشخاش البرتقال .

٧ ـ يسميها أهل الغرب (بلادونا) ونسميها نحن العرب (ست الحسن) وهي لا تعدو كونها عشبة طبية سامة . . ترى لم هذه التسمية التي تبدو مضللة ؟

* نظرا لحسن شكل العشبة .

* سموها كذلك لأن عصارتها توسع العين وتزيدها جمالا وقد استعملتها النساء في الماضي

٨ ـ لبن الثدي هو الغذاء المثالي للطفل الرضيع دون أدنى ريب ولكنه ليس بلا منافس ، على كل حال ، فثمة فاكهة تتميز بنفس عناصر اللبن الغذائية

ـ والفاكهة فوق ذلك كله سهلة الهضم ويستسيغ طعمها الطفل الرضيع ، ترى أي فاكهة هذه :

* التفاح

* الموز

* كمثرى الافوكاتو

٩ ـ الشعير ، الذرة ، القمح ، الأرز

تلك هي الحبوب التي يعيش عليها الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل من البديهي أن الانسان لم يعرف هذه الحبوب الأربع كلها دفعة واحدة ، ولكن في أزمنة مختلفة من التاريخ . والمطلوب ترتيب هذه الحبوب تبعا للأوقات التي عرفها ، واعتمدها الانسان فيها ، بادئا بالأقدم فالأحدث . .

١٠ ـ الخمور إما حمراء أو بيضاء كما هو معروف ، وكذلك الأعناب إما حمراء أو بيضاء كما هو معروف أيضا ، فمن أي الأعناب تصنع الخمور البيضاء ؟

* تصنع من الأعناب البيضاء ولا تصنع من الحمراء .

* تصنع من الأعناب البيضاء كما تصنع من الأعناب الحمراء أيضا .

١١ ـ اشتهرت بورتوريكو بخليجها الوضاء الذي يضيء في الليل دون كهرباء ، والذي اشتهر باسم الخليج (الفلورسانت) ..ترى ما سر هذا الخليج ؟

* الحيوانات الصغيرة التي توجد فيه وهي من النوع الوضاء .

* النباتات الصغيرة (البحرية) التي تتكاثر فيه ، وهي من النوع الوهاج الذي يرى ضوءه من على بعد ١٥ مترا .

١٢ ـ في سنة ٩٥١م وصل الى قرطبة الراهب نيقولاوس سفيرا للامبراطور قسطنطين السابع ، امبراطور القسطنطينية آنذاك ، وهو يحمل هدية الامبراطور الى أمير الاندلس ، ولم تكن الهدية سوى كتاب ، ولم يكن موضوع ذلك الكتاب سوى النباتات الطبية ذات الفوائد العلاجية ، وكان كتابا شهيرا كتبه ديوسفوريدس أحد كتاب اليونان واطبائهم المعروفين ، ترى من كان أمير الأندلس الذي تقبل الهدية وسعد بها كثيرا ؟ □

حل مسابقة العدد ٣٤٢

١ ـ الثريد هو فتة الخبز بالمرق . يقال ثرد الخبز ، أي فته ثم بلله بالمرق ، فالخبز اذن ثريد أو مثرود .

٢ ـ القطران هو المسؤول عن اصابة المدخن بالسرطان ، والنيكوتين هو المسؤول عن اصابته بامراض القلب . . والجدير بالذكر أن القطران يتسبب بسرطان الرئة بخاصة . . وحسبك أن تضع مايكفي من القطران على اذن احد الفئران لترى بأم عينك كيف تصاب تلك الاذن بالسرطان . . ويتسبب القطران أيضا باصابات مختلفة خطيرة للجهاز التنفسي عامة . .

اما النيكوتين فهو المسؤول عن اصابة المدخن بامراض القلب ، وهو يصيب الأعصاب باضرار بالغة ، ثم أنه سام وعنصر ادمان . .

٣ ـ البقدونس هو أغناها بالفيتامين أ والفيتامين ج وبالحديد في آن معا . فالاونصة منه تحتوي على ٢٢,٥٠٠ وحدة من فيتامين أ بينما الجزر لايحتوي الا على ١,٢٧٥ وحدة . . ويحتوي البقدونس ايضا على ثلاثة اضعاف مايحتويه عصير الليمون من فيتامين ج . .

والجدير بالذكر أن البقدونس غني جدا بالحديد أيضا . . فالاونصة منه تحتوي على ٥,٧٦٣ ملغرام حديد . . بينما اونصة السبانخ لاتزيد محتوياتها من الحديد على ١,٢ ملغرام فقط . . .

٤ ـ الجزر يحسن القدرة على الرؤية في الظلام . . فهو غني بالكاروتين وهذا يصنع الفيتامين (أ) في الجسم . . ولما كان نقص هذا الفيتامين في الجسم هو سبب عمى الظلام في كثير من الاحيان ، كان الجزر سببا هاما في تغلب المرء على تلك الآفة .

٥ ـ الخبز الأسمر يحتوي على مزيد من الفيتامينات والحديد والالياف لاسيما اذا لم تسحب منه نخالته .

٦ ـ يحتوي الحليب على ٦٥ حريرة . . بينما يحتوي الجبن الهولندي على ٣٥٠ حريرة (في المائة غرام) .

٧ ـ طبعا الكستناء اذ تبلغ حريراتها ٦٢٠ حريرة او سعرا حراريا للمائة غرام ، ولاتزيد الحريرات في بيض الدجاج (١٠٠ غرام) على ١٥٠ حريرة .

٨ ـ لو قارنا بين ملعقة من البن المحمص المطحون وملعقة أخرى مماثلة من اوراق الشاي الجافة لوجدنا مقدار الكافيين (اسم المادة المنبهة في كلا القهوة والشاي) في الثانية اكثر من مقداره في الاولى ، ومع ذلك نجد أثر شرب الشاي في التنبيه أقل من اثر شرب القهوة . . ويعود ذلك كما لايخفى الى مدى التركيز او التخفيف الذي يخضع له كل من المشروبين . . فالكوب من مشروب الشاي يحتوي على ٦٠٪ من الكافيين الذي يحتويه كوب مماثل من مشروب القهوة (الامريكية بالتحديد) .

٩ ـ لحوم الاسماك وشحومها وزيوتها لاتسبب الاصابة بامراض القلب كما تفعل اللحوم والشحوم والزيوت المستخرجة من الماشية وحيوانات البر ، ذلك أن المواد الدهنية غير مشبعه في الاولى . . وهي مشبعة في الثانية ، وتسبب بالتالي أمراض القلب . . ويميزون بين المواد الدهنية المشبعة وغير المشبعة . . بأن هذه الاخيرة (تفقد سيولتها في درجة حرارة الغرف

العادية .. حوالي ٢٠ درجة مئوية) من هنا كان الشبه الكبير بين زيوت الاسماك وزيوت النباتات .

١٠ ـ سكان ولاية يوتاه من المورمون يتمتعون بحكم مذهبهم عن التدخين والكحول ، وهذا هو السبب الذي جعلهم اقل عرضة للاصابة بالسرطان من سائر سكان الولايات المتحدة الامريكية بنسبة ٤٠٪ ـ ٦٦٪ والجدير بالذكر أن عدد سكان المورمون ٢,١ مليون نسمة .

١١ ـ الفيتامينات لاتسهم في بناء انسجة الجسم ولافي توليد مايحتاج من طاقة،فمهمتها الوحيدة هي مساعدة الجسم على أدائه الفعال لوظائفه ، وهي مهمة اساسية ولاريب ، بحيث يصاب الجسم بامراض خطيرة لو نقصت مقادير الفيتامينات فيه ..

١٢ ـ الفالوذج حلواء ، طبعا .. تعمل من الدقيق والماء والعسل .. والكلمة دخيلة وجمعها فواليذ .. ومرادفها (الفالوذ) وكذلك (الفالوذق) □ .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٢ مـــايو ١٩٨٧

الجائزة الأولى : المنصف السالمي/ المعهد الثانوى المختلط/ القيروان/ الجمهورية التونسية .

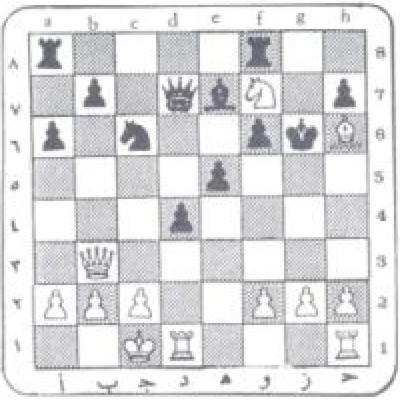
الجائزة الثانية : غادة أحمد صالح حسن/ عمان/ المملكة الأردنية الهاشمية .

الجائزة الثالثة : فتحي محمد أحمد/ المجلس القومي للبحوث/ الخرطوم/ جمهورية السودان الديمقراطية

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ محمد نبيل محمد غنيم/ القاهرة/ ميدان الدقي/ جمهورية مصر العربية .
٢ ـ باسم عبد الستار محمد فيض/ الصفاة/ الكويت .
٣ ـ محمد أيمن أبو التوت/ قونيا/ تركيا .
٤ ـ يوسف علي الشكيل/ كلية العلوم/ جامعة صنعاء/ الجمهورية العربية اليمنية .
٥ ـ دكتورة عائشة الساعي/ حماة/ الجمهورية العربية السورية .
٦ ـ محمد شريف طائم/ الجزائر .
٧ ـ سهيل موسى يوسف السكّر/ الرياض/ المملكة العربية السعودية .
٨ ـ نور الدين ياسين خضير/ بغداد/ حي الكفاح/ الجمهورية العراقية .

معركة بلا سلاح



يسود الاعتقاد بأن الهند هي الموطن الأول للعبة الشطرنج وأن اللعبة كما نعرفها اليوم قد تطورت من لعبة هندية قديمة كانت تعرف باسم « الشاطورنجا » والتي كانت شائعة في مقاطعة البنجاب الهندية حوالي سنة ٥٥٠ قبل ميلاد السيد المسيح .

وتتابعت القرون بعد ذلك دون أن يكون للهند حضور على الساحة الشطرنجية الدولية باستثناء ظهور اللاعب الهندي العبقري سلطان خان في الثلاثينيات من هذا القرن .

وفي السنوات القليلة الماضية بدأت اللعبة بالازدهار في الهند من جديد ، وفي عام ١٩٨٢ تمكن الصبيّ الهندي « باروا » من إلحاق الهزيمة باللاعب الكبير فيكتور كورشنوي وفي عام ١٩٨٤ تمكن تلميذ آخر يدعى « أناند » من الفوز بلقب أستاذ دولي . ومن أحدث انتصارات اللاعبين الهنود فوز الفتى « أناند » في أقوى المباريات البريطانية المفتوحة التي جرت مؤخراً على البطل الأمريكي المرموق « دي فرميان » في الدور الثاني من الدفاع الصقلي :

□ ف. أناند	■ ن. دي فرميان
١) هـ ٤	جـ ٥
٢) ح - و ٣	د ٦
٣) د ٤	جـ × د ٤
٤) ح × د ٤	ح - و ٦
٥) ح - جـ ٣	أ ٦

الأسود يختار تفريعة « ناجدورف »

٦) ف - هـ ٣	هـ ٥
٧) ح - و ٣	ف - هـ ٧
٨) ف - جـ ٤	ف - هـ ٦ ؟

نقلة متسرعة و - جـ ٧ أفضل ثم التبييت

٩) ف × هـ ٦	و × هـ ٦
١٠) ح - ز ٥	و - د ٧

١١) و - و ٣ استعداداً لنقل الوزير الى حـ ٣ لمهاجمة هـ ٦ ولو لعب الأسود بالحصان لنقله بعد ذلك الى د ٨ لرد الأبيض بنقل الفيل الى ب ٦

١١)	د ٥
١٢) هـ × د ٥	هـ × د ٥
١٣) ت ت (طويل)	د ٤
١٤) ح (٣) - هـ ٤	ت

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد ٣٤٢ مايو ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ مدحت توفيق ـ شبرا / ج م ع
٢ ـ فايزة أسعد ـ حمص / سوريا
٣ ـ عبدالمطلب نورفكي / السودان
٤ ـ أحمد كرامة ـ عدن / اليمن الديمقراطية
٥ ـ حسام عبدالهادي / العراق

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ أسامة رمضان ـ القاهرة / ج م ع
٢ ـ جمال عبدالغني ـ الدوحة / قطر
٣ ـ سارة الزيد / السعودية
٤ ـ حسين عبدالسلام ـ طرابلس / ليبيا
٥ ـ الأزهر بوعوني ـ الرديف / تونس

---

١٥) ف - د ٢	ح - جـ ٦
١٦) ح × و ٦ +	ز × و ٦ ؟
١٧) و - ب ٣ +	م - حـ ٨
١٨) ح - و ٧ +	م - ز ٧
١٩) ف - حـ ٦ +	م - ز ٦ شكل (١)
٢٠) ف × و ٨	ر × و ٨

٢١) ر - د ٣ ! نقلة بديعة ، فلو أخذ الأسود الحصان لكش الأبيض الملك بالرخ في ز ٣ فيخسر الأسود رخه الثاني ومن ثم الدور كله .

٢١)	و ٥
٢٢) ر - ز ٣ +	م - و ٦
٢٣) ح - حـ ٦	و ٤
٢٤) ح - ز ٨ +	م - و ٥
٢٥) ر - ز ٧	د ٣
٢٦) ر - د ١	هـ ٤
٢٧) ح × هـ ٧ +	ح × هـ ٧
٢٨) ر - و ٧ +	ر × و ٧
٢٩) و × و ٧ +	م - هـ ٥
٣٠) جـ × د ٣	هـ × د ٣
٣١) ر - هـ ١ +	م - د ٤
٣٢) و - و ٦ +	م - جـ ٤
٣٣) و - جـ ٣ +	يستسلم



مسألة العدد ٣٤٥

مات ٤

مهداة من الصديق عزام حدبا (لبنان)

حل مسألة عدد يونيو ٣٤٣

١) و - حـ ٧	م - ب ٦
٢) و - جـ ٧ +	ح × جـ ٧

٣) ف × د ٤ كش مات .

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

المساجد القديمة في الكويت

● نشر في مجلة العربي في العدد ٣٣٧ شهر ديسمبر سنة ١٩٨٦ موضوع عن المساجد القديمة في الكويت ، وتطرق كاتب المقال إلى مسجد آل بطي ، المشهور بمسجد النصف ، فأشار - خطأ أو سهوا - إلى أن المسجد المذكور هو مسجد بطي بطي الجلاهمة ، والصحيح أن مسجد الجلاهمة كما هو معروف في « محلة ابن خميس » ، أما المسجد الذي في « محلة النصف » فهو في الحقيقة والواقع مسجد بطي آل بطي ، ومشهور باسم عائلة النصف الكريمة .

وفي معرض الحديث عن المسجد المذكور ، ولندرة المعلومات حول ذلك المسجد ، والظروف المحيطة به ، لا سيما أن معظم العائلة قد نكب بكارثة غرق في البحر منذ زمن بعيد ، ولم يبق منها إلا الأطفال والنساء ، وبصفتي أحد أفراد هذه العائلة ، فقد تجمع لدي بعض البيانات عن مسجد البطي ، وسندنا في ذلك ما عثرنا عليه في أوراق المرحوم « سلطان البطي بوطبيان » من حقائق ، وشهادات أشخاص عدول ، منهم من هو حي يرزق ، كما أن سندنا في ذلك بعض المؤرخين الثقاة في الكويت ، مثل الأستاذ حمد السعيدان في كتابه (الموسوعة الكويتية ص ٢٠٣) والسيد سيف مرزوق الشملان في برنامجه التلفزيوني (صفحات من تاريخ الكويت) ، ومساهمة منا في توضيح جانب خفي من تاريخ بلدنا أقدم البيانات التالية :

بعد بناء السور الأول جاء البطي بوطبيان من منطقة الزبارة في قطر ، ونزل ومن معه عند مكان يسمى الميدان ، ثم انتقلوا إلى منطقة الشرق ، ثم بنوا مسجد البطي (١١٩٠ هـ - ١٧٧٦ م) ، كما بنوا الجزء الشرقي من السور الشرقي من السور الثاني ، وشيدوا في السور برجاً « غولة » يطل على السيف ، وهو عبارة عن غرفة عالية للحراسة ، ثم بنوا بوابة (دروازة) في سور الكويت الثاني ، وهي البوابة الأولى من الشرق ١٢١٠ هـ - ١٧٩٥ م ، وبعد انتهاء موسم البحر كانوا يسحبون السفن إلى اليابسة ، ثم يقيمون وليمة كبيرة يكون الطعام فيها أكلة تسمى « المحمّر » ، وهي أكلة شعبية محببة لدى الكويتيين وأهل الخليج .

وتقول المصادر التاريخية بأنه قد ظهر من بين أفراد هذه الأسرة عدد من ربابنة « نواخذة » الغوص .

وقد جاء في ص ٢٠٣ من الموسوعة الكويتية أن مسجد البطي الذي أسسه المرحوم بطي البوطبيان ١١٩٠ هـ الموافق ١٧٧٦ م قد جدده راشد النصف بالاشتراك مع آل العسعوسي سنة ١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م ، ثم جددته الأوقاف سنة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م ، ومن ثم اشتهر باسم الأسرة الكريمة

المعروفة أسرة النصف .

وقبل أن أنهي رسالتي أهيب بكل من يريد الكتابة عن مسجد آل بطي ، أو بوابة (دروازة) آل بطي ، أو أسرة آل بطي بأن يراجعنا قبل ذلك ، إذ أن لدينا معلومات قد تفيده ، كما نهيب بكل من لديه معلومات أو شهادات حول هذه الموضوعات أن يوافينا بها ، شاكرين حسن تعاون الجميع .

المستشار أحمد سلطان البطي بو طيان ـ الكويت

كلمة أخيرة في موضوع الأرقام الأجنبية

● لقد رأيت أن تكون هذه الرسالة إلى المرجع الأعلى والمسؤول الأول في مجلة العربي الغراء التي جمعت بين دفتيها الأدب والعلم على أعلى المستويات .

قرأت على صفحات المجلة وفي القسم المخصص لحوار القراء في عدد نيسان ١٩٨٧ تحت عنوان « حول استعمال الأرقام الأجنبية في العربي » آراء تستنكر استعمال هذه الأرقام .

إن الأرقام الأجنبية التي استعملت في عدد العربي الممتاز سنة ١٩٨٧ ليست أجنبية ، بل هي عربية ، وقد طورتها الحضارة الاسلامية ، وقدمتها إلى العالم ضمن ما قدمت له من علم ومعرفة .

وهذه الحقيقة الثابتة قد قام بتثبيتها الأجانب قبل الأهل ، وذلك حسب ما ورد في مراجعهم ، وكتبهم ، ولو عدنا إلى الموسوعة البريطانية أو الأمريكية أو هارفر لوجدنا ما يؤكد بأن كلا نوعي الأرقام .

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٠ و 1, 0 , 9 , 8 , 7 , 6 , 5 , 4 , 3 , 2 من إنتاج الحضارة العربية والاسلامية وتطويرها .

أورد هنا على سبيل المثال لا الحصر ترجمة لما جاء على لسان السيد / سيد حسين نصر في كتابه العلوم الاسلامية طبعة عام ١٩٧٦ صفحة ٧٧ « عندما يفكر الغربيون بالحضارة الاسلامية أول ما يتبادر إلى ذهنهم هو الأرقام العربية التي وصلتهم من العالم الاسلامي بين القرنين الرابع والعاشر . . . »

أما الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية فقد أفرد بحثا خاصا لعلم الحساب على الصفحات (٣٥٥ ـ ٣٧٣) من كتابه (المرجع في تاريخ العلوم عند العرب) وتحدث فيه عن الحساب عند أمم الأرض جمعاء ، وعن ماهية الأرقام التي كانوا يستعملونها ، وماذا صنع العرب لهذا العلم ، وكيف أصبحت بفضل العرب ، وكيف تم للعرب اكتشاف الصفر ، إلى أن استتب الأمر على الشكل النهائي لمجموعتي الأرقام السابقتين .

الا يكفي أن أمم الأرض جمعاء تستعمل مراتب الأرقام من اليمين إلى اليسار وهذا ما يقطع كل شك بأن كلا المجموعتين عربيتان ؟

ملاحظة أخيرة أود أن تلقى منكم كل اهتمام ، وهي أن تقوم مجلة العربي بنشر بحث عن هذه المسألة على صفحاتها ، ليكون في متناول الجميع ، حيث يقطع الشك باليقين ، وتنتهي المسألة .

ختاما أتوجه بالتحية لمجلتنا الغراء التي أتاحت لقرائها حوارا مفتوحا على صفحاتها ، وشكرا .

محمد فائز الأصفري ـ مهندس عضو مساعد في الجمعية الأمريكية ـ سوريا ـ حلب

العربي

ـ نشكر للقاريء الكريم متابعته ، وسيلاحظ أنه يوجد على صفحات هذا العدد مقال حول هذا

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء..

الموضوع ، للدكتور سعيد النجار ، لعله يضع النقاط على الحروف .

هذه المرة من السارق ؟

● مرة أخرى تتفجر قضية السرقة الأدبية من خلال رسالتين ، وصلتا إلى مجلة العربي ، الرسالة الأولى من الدكتور ابراهيم الدسوقي ، أستاذ بكلية طب القاهرة ، والرسالة الثانية من السيد مصطفى محمد مصطفى ، بإذاعة البرنامج الثاني من القاهرة ، كلتا الرسالتين ترفعان اتهاما واحدا ، يقول الاتهام : إن القصيدة المنشورة في العدد ٣٤٠ شهر مارس سنة ١٩٨٧ من مجلة العربي تحت عنوان « الموت على صدرها » للشاعر السوداني علي عبد القيوم مسروقة . والدليل الذي تقدمه الرسالتان واحد ، وهو صورة للقصيدة نفسها ، منشورة في مجلة « القافلة الجديدة » ، وهي مسلسلة ثقافية ، غير دورية ، تصدر في جمهورية مصر العربية ، العدد السادس يونيو سنة ١٩٨٥ ، تحت العنوان نفسه ، باعتبارها من الأعمال الفائزة في المسابقة الأدبية للثقافة الجماهيرية ، للشاعر عادل فرج عبد العال » .

ثم تتحدث الرسالتان طويلا بأسىً عن العبث ، والاستهانة ، والسطو على جهد الآخرين ، وتلحان على مجلة العربي أن تتأكد قبل نشر أي عمل من صحة نسبته إلى مؤلفه » .

ولأنه لا توجد بعد طريقة قاطعة يمكن بها توفير هذا التأكد قبل النشر لم يكن أمامنا سوى أن نعود إلى الشاعر نفسه علي عبد القيوم ، لأنه بالمصادفة يعمل في معهد الكويت للأبحاث العلمية ، وبالتالي يمكن مراجعته شخصيا ، ووضعنا بين يديه الرسالتين ، وصورة القصيدة المنسوبة للشاعر عادل فرج عبد العال .

وبين الذهول والدهشة والرغبة في تبرئة ساحته طلب منا الشاعر أن نمنحه فرصة لاثبات أن القصيدة له ، لأنه هو نفسه لا يعرف كيف تم ذلك ، فهو لم يرسل بقصيدته (التي كتبها فعلا من وقت بعيد) لغير مجلة العربي ، لكنه قد قدم نسخا منها إلى بعض أصدقائه ، لقراءتها بصفة شخصية ، ولا دليل لديه سوى دعواه نفسها .

ثم عاد الشاعر علي عبد القيوم في المرة الثانية ، ليلقي إلينا ببعض الضوء على هذه القضية ، وفي هذه المرة كانت معه نسخة من جريدة « الأيام » العدد الثاني الصادر في مارس ١٩٨٥ ، وبها قصيدته « الموت فوق صدرها » ، منشورة باسمه هذه المرة ، وبأسفلها أن تاريخ كتابة القصيدة هو سنة ١٩٧٤ » ، والتفسير الذي قدمه هو أن أحد أصدقائه الذين أعطاهم نسخة من قصيدته قد أرسل بها إلى الجريدة ، فنشرت في هذا التاريخ السابق بالقطع على تاريخ نشرها في المجلة المصرية ، وهو يوجه تهمة السرقة إلى السيد عادل فرج عبد العال الذي سرق قصيدته مرتين ، مرة ليفوز بها بإحدى جوائز مسابقة الثقافة الجماهيرية في مصر ، ومرة بنشرها في « القافلة الجديدة » .

تلك هي الوقائع ، نسوقها كما جرت بتتابعها ، ونترك للقراء الكرام أن يستنتجوا الحقيقة ، وإن كنا نؤكد أن الضمان الحقيقي لوقف تيار السرقة الأدبية ـ

مهما يكن السارق ومهما تكن ظروف السرقة - هو يقظة الضمير ، وإدراك أن مضمار الكذب قصير ، وأن مكاسب السرقة لا تعني شيئا أمام يقظة القراء ويقظة الضمير

تحية من الأرجنتين

● السيد الدكتور محمد الرميحي ،

من صميم القلب نبعث إليكم بأصدق عواطف التهنئة ببلوغ مجلتنا « العربي » عامها الثلاثين ، وقد صدقتم عندما قلتم في الافتتاحية « ان العربي قد قدمت لقرائها في الوطن العربي والاسلامي وعبر البحار أيضا حصيلة ثقافية وفكرية غزيرة ، عاقدة العزم على استمرار المسيرة وتجديدها » .

صدقتم بما قلتم ، وأخذ الله بيدكم في طريق النجاح ، لكي يظل الحرف العربي والثقافة العربية في الطليعة . من صميم القلب نبعث لكم بالتحيات والاعجاب والاكبار والشكر العميق ، « فالعربي » هي مفخرة العربي أينما حل ، وحيثما وجد .

الياس قنصل وشقيقه يوسف قنصل - الأرجنتين

هل يكون تطوير التربية هو أساس النهضة ؟

● طالعت مقال الدكتور محمد عبد السلام الذي نشر بعنوان « العلوم وطموحات المستقبل » بالعدد ٣٣٨ يناير سنة ١٩٨٧ من مجلة العربي ، والذي استعرض فيه أوجه التخلف في الأمة العربية على الرغم من الامكانات البشرية والاقتصادية الهائلة التي تمتلكها هذه الأمة ، وقد عزا أسباب التخلف إلى افتقار الأقطار العربية إلى الأنظمة المتطورة للجمعيات العلمية .

وإني إذ أحيي الدكتور عبد السلام على غيرته القومية ، وتوصياته الهامة التي أنهى بها مقاله ، للخروج من هذا التخلف ، أود أن أشير الى أن مفتاح الحل لواقعنا المتخلف إنما يكمن في التربية ، فالمحاولات المختلفة لتطوير المناهج التربوية في الأقطار العربية ما زالت تراوح في مكانها ، إذ أن هذه المناهج إنما توضع للطالب المتوسط ، دون النظر إلى قدرات الطالب المبدع ، وفي ذلك قتل لمواهبه ، ودون مراعاة لقدرات من هم دون المتوسط ، وفي ذلك جور عليهم . أضف إلى ذلك إلحاح هذه المناهج على الحفظ والتلقين ، وإتيان الامتحانات بصورتها التقليدية لتكريس ذلك كله .

إن الهدف الرئيسي للتربية هو تعليم الطفل كيف يفكر ، وكيف يكتشف المشكلة ، وكيف يصل إلى حلها ، والتعليم الجديد هو الذي يعمل على تفجير الطاقات الابداعية لدى الناشئة ، وإثارة التفكير عندهم بما يؤدي إلى تغيير سلوكهم ، ليتناسب مع الثورة العلمية والتعليمية في العصر الحديث ، فعملية الابداع الفكري ، وتنميته لدى الجيل الجديد هي التي سوف تسهم في خلق التطور الحضاري والعلمي الذي نتطلع إليه .

كما أن اعتماد أسلوب التعلم الذاتي في التربية هو الأساس الصحيح لتنمية الابداع من ناحية ، ولتحقيق التعليم المستمر من ناحية أخرى ، حيث يتابع الطالب أثناء الدراسة وبعدها التطور المستمر للعلوم وللمعرفة في مجال تخصصه ، أو في أي مجال آخر يهتم به . إننا بحاجة حقا إلى الثورة على تكديس المعلومات ، وخزنها في الذاكرة ، والتخلص من الامتحانات التقليدية ، إذا أردنا أن نصل إلى تحقيق التطور الحضاري المنشود .

عبد اللطيف السعيد - سوريا - حمص

السوق العربية المشتركة

● في الوقت الذي تزداد فيه حدة الأزمة الاقتصادية التي تعصف بالدول النامية - ونحن العرب جزء منها - نجد أن كل قطر عربي يفكر بطريقته الخاصة : كيف يتفادى هذه الأزمة وحده ؟

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء..

مع أن هذه الأزمة ذات طبيعة جماعية ، وبالتالي فلا بد أن تكون المواجهة جماعية . جاء عصر النفط ، وجاءت الأرقام الخيالية لمردوداته ، وتحقق إنجازات كثيرة لهذا العصر ، لكنها كلها غالبا ذات طابع قطري . وكنا نسمع بين حين وآخر عن السوق العربية المشتركة الذي يمثل الرد الطموح على تحديات هذا العصر : عصر الشركات الكبرى المتعددة الجنسية ، والسوق الأوروبية المشتركة ، لكن هذا السوق العربي لم يظهر أبدا إلى حيز الوجود ليصبح حقيقة واقعة . وجاءت مرحلة انخفاض أسعار البترول ، ولا زلنا كما نحن ، فالبرتقال الفائض في ليبيا لا يعرفه المقيم في موريتانيا ، والتكاليف الباهظة المهدورة لزراعة الطماطم في البيوت (البلاستيكية) كان يجب أن تصرف على زراعة الخضروات في اليمن أو في السودان ـ فهل حان الوقت لنعرف الطريق إلى المواجهة الصحيحة لتحديات هذا العصر ، ولمواجهة أزماته ؟

لا زلنا على الأمل ، ولن يعرف التشاؤم طريقه إلينا .

سلطان عبده سيف الشيباني ـ اليمن / صنعاء

العبرة لمن يعتبر ؟

● قرأت باهتمام مقالة « احتكار الفضة وخسارة العرب » للدكتور غسان حتاحت ، في عدد ابريل سنة ١٩٨٧ من مجلة « العربي » ، وتأثرت بمحتواها الذي يمثل واقع امتنا العربية في هذا الظرف الراهن الذي أنعم الله عليها فيه بثروات نفطية وغير نفطية ، لكن من المؤسف لم تحسن الافادة من هذه النعمة ، كما أوضح مقال الدكتور ، وأود أن أذكر بهذه المناسبة تدليلا آخر على ما أشار إليه الدكتور غسان في مجال ثان ، وذلك بالاشارة إلى ما جرى بخصوص أسهم شركة إسلامية (في أحد الأقطار العربية) ، وهي شركة ذات نفوذ واسع ، أنشئت تحت شعار « وأحل الله البيع وحرم الربا » ، فبعد مضي ثلاث سنوات من طرح أسهم هذه الشركة للتداول كانت النتيجة إيقاف التعامل بهذه الاسهم ، بسبب الخسارة الفادحة الناجمة عن شراء كميات وفيرة من المعادن الثمينة بأسعار باهظة آنذاك ، ثم اضطرت الشركة لسبب أو لآخر ـ إلى بيع هذه الكميات بأسعار بخسة ، مما أدى إلى ضياع مدخرات كثيرة من المساهمين ذوي الدخول المحدودة .

والعبرة المستخلصة من ذلك هي ضرورة حسن التصرف في هذه النعم التي أنعم الله بها على هذه الأمة باستثمارها في مجالات إنتاجية دائمة ونامية ، وإلا فإننا بذلك نبرهن على أننا لم نكن أهلا لنعم الله سبحانه وتعالى .

د . محمد مروان النحاس ـ دمشق □

■ نظر الناس إلى داخل بيتي من الشقوق ، وعيروني ، فوجب عليّ أن أفتحَ لهم النوافذَ والأبوابَ ليروني كما أنا ، لا كما يتخيلون (روسو)

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

أغسطس ١٩٨٧ م

أدب أمريكا اللاتينية

قضايا ومشكلات

تنسيق وتقديم : فرناندث مورينو

ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد

مراجعة : د. شاكر مصطفى

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١٦

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢١٥ أول أغسطس ١٩٨٧

السحب - ١

تأليف : أريستوفانيس

ترجمة وتقديم أدبي : د. أحمد عتمان

مراجعة وتقديم تاريخي : د. عبداللطيف أحمد علي

الجزء الأول

١- المقدمة التاريخية

٢- المقدمة الأدبية



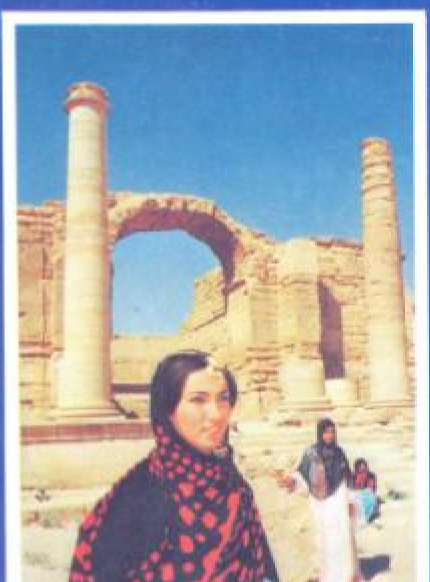
العصفور الأبيض

للفنان التونسي محمد بن مفتاح

محرم ١٤٠٨ هـ - سبتمبر (أيلول) ١٩٨٧ م

العربي





مركز الطب الإسلامي
والمعالجة بالنباتات

الموصل
جسر بين الحضارات

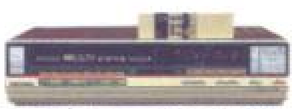
SANYO سانيو



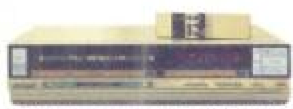
مسجّل فيديو كاسيت VHR-2300M بال BG/ME سيكام و ان تي اس سي ٤٠٤٣

وراحة أكبر. لأن فيديوهات سانيو تعتمد الصّورة HQ الأكثر نقاءً لتعطيك أفضل صورة ممكنة. ستشاهد اللّون الأبيض يفوق بياض فراء الأرنب الناصع كالثلج وأدقّ إرتعاشة من شارِب الأرنب. صُوَر صافية ستحوز إعجاب العيون اليقظة الأكثر دقّة.

مسجّلنا الفيديو كاسيت VHR-2300M يعتمد أيضًا موقت مبرمج ٤ برامج/١٤ يومًا، ووحدة تحكّم عن بُعد بالأشعة تحت الحمراء، تشغيل سريع للتسجيل - ١٣ وظيفة. إذن، انظر بنفسك إلى مسجّل الفيديو كاسيت من سانيو. وسترى ما فاتك.



VHR-1700M تعدّد الإستعمال بفضل ٧ أنظمة عالية.



VHR-2200PS مسجّل فيديو كاسيت بال BG/ME سيكام.

VHS HQ

SP-87-25

العدد ٣٤٦ السنة الثلاثون سبتمبر ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No 346 Sept. 1987. P.O.BOX 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس: MITR-44041KT
تلفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	سوريا ١٠ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد



الشتاء النووي ص٤٤



النحات سامي محمد ص٨٨



الدلفين والانسان ص١٠٣



د. فاطمة المرنيسي



علاء الدين محسن

استطلاعات ومقابلات



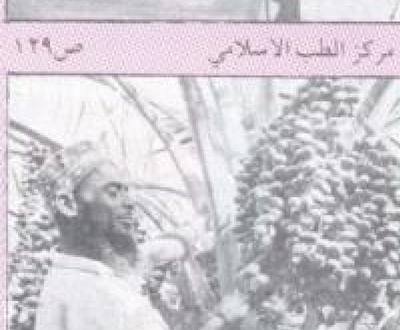
صورة الغلاف

ماذا سجل التاريخ عن الموصل، المدينة التي تبحث عن زمنها المفقود؟

(طالع الاستطلاع ص ٦٨)



مركز الطب الإسلامي ص١٢٩



عُمان بلاد النخيل والنارجيل ص١٤٤

أبواب ثابتة :

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

في اجتماع هيئة التحرير لإعداد سلسلة أعداد « العربي » للخريف ، واجهنا سؤال ذكره أكثر من قارىء في رسائل مطولة ، السؤال عن حقوق النشر باللغة العربية التي ما زال يدور حولها كلام كثير ، والمناسبة أن أحد القراء أرسل الينا مجلة تصدر في اسبانيا باللغة العربية ، نقلت موضوعاً نشرناه في العدد (٣٣٦) لشهر نوفمبر ١٩٨٦ وهو للزميل حسن عباس ، عن الآثار العربية في شمال الأندلس . والملفت للنظر أن المقال بصوره وباسم كاتبه نشر كاملاً دون إشارة للعربي . وموضوع آخر بعث لنا أحد القراء رسالة حوله ، وهو عن حركة التاميل ، كنا قد نشرناه في العدد (٣٢١) لشهر اغسطس ١٩٨٥ من العربي بقلم الزميل سليمان مظهر . . وموضوع ثالث عن الاتحاد السوفيتي . . الخ .

واذا كنا في العربي لا نستهدف الا اشاعة الثقافة الجادة ، ولا يضيرنا ما ينقل عنا . . إلا أن المطلوب هو شيء من حسن السلوك المهني . . حتى لا يضلل القارىء ولا تفقد المطبوعة حقوقها الأدبية بحكم المبادرة والريادة ، فالمطلوب فقط هو الاشارة الى مصدر النشر وتاريخه لحفظ الحقوق المعنوية .

وعلى الرغم مما يسببه هذا النوع من القضايا من مضايقات ، إلا أنه يشير أيضاً الى نجاح « العربي » في مسارها الذي دأبت عليه ، وهو تقديم كل جديد ومفيد وممتع . لذلك فان هذا العدد حافل بالموضوعات التي تجد فيها ـ عزيزي القارىء ـ متعتك الثقافية . فالدكتور عبد العزيز كامل يكتب لك عن جسر من كلمات ونور ، والدكتور عبد الوهاب المسيري يحدثك عن « أكذوبة الثقافة اليهودية » والدكتور أسامة الخالدي يستعرض معك المجهود العربي في العلوم الأساسية . . أما فتحي رضوان فيجيب على التساؤل : هل كان الرجل المريض مريضاً ؟ كما يناقش فهمي هويدي إشكالية الآخر في التفكير الاسلامي . . ويحدثك الدكتور فخري اسماعيل حسن عن الذكاء والذاكرة ، والدكتور إحسان صدقي العمد عن الأسلحة النارية . وكما عودتك العربي عزيزي القارىء فإنها تقدم لك استطلاعاً عن « الموصل . . جسر بين الحضارات » . . وآخر عن « عمان بلاد النخيل والنارجيل » . . وثالث عن مركز الطب الاسلامي في الكويت . . كل هذا عدا مجموعة من المقالات في الطب والعلوم وأبواب وجهاً لوجه والبيت العربي وكتاب الشهر وغيرها .

بجانب ذلك فإننا نعد في العربي انطلاقة جديدة لعام قادم جديد ، تدخل فيه العربي عامها الحادي والثلاثين ، نرجو من خلاله أن يتواصل إسهامنا في إغناء الثقافة العربية .

وأنت عزيزي القارىء مع كل عدد من « العربي » على طريق جديد .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

لماذا نحتاج إلى العائلة؟

فرغت توا من قراءة كتاب مشوق ، جديد في موضوعه ، يطرح قضية انسانية هامة بطريقة جديدة ، أو قل بطريقة شعبية لا تستعصي على القارىء العام . الكتاب يتحدث عن الأسرة ، الحلقة الأولى في المجتمع الانساني . عنوان الكتاب يشد الانتباه ، فقد وضع له المؤلفان عنوانا مثيرا ترجمته الأكثر قربا للمعنى باللغة العربية هو « الأسر : وكيف ننجو من رواسبها . . ! »* .

وهو عبارة عن حوار بين كاتب هو (جون كليز) ومحلل نفسي عائلي هو (روبن سكينر) .

جون كليز هذا كان يعاني كما يقول من انفلونزا مزمنة ، ومجموعة من المشكلات مع زوجته ، ولم تذهب الانفلونزا رغم العلاج الطويل لها إلا بعد أن نصحه طبيبه المعالج بالالتحاق بمجموعة تتعاطى العلاج الجماعي حيث أن مرضه ليس له أسباب عضوية ، وهناك صادف المحلل روبن سكينر ، وبعد ثلاث سنوات من العلاقة المهنية والعلاجية ظهر هذا الكتاب .

* FAMILIES: And How To Survive Them - Robin SKYNNER John Cleese.

يقول الكاتب واصفا تجربته ، أنه لم يدخل عالم التحليل النفسي والعلاج الجماعي وهو سعيد ، فهو كغيره من الرجال والنساء في العالم ، لديه تحفظات على علم النفس وما يستطيع وما لا يستطيع عمله !

ولكن الموضوع الذي اعتقد أنه سينهيه في أشهر لتجربة التغلب على مشكلاته العائلية والصحية استغرق لإنهائه ثلاث سنوات ، يقول : (كانت أفضل خبرة في حياتي الراشدة ، خرجت منها وأنا معافى صحيا ونفسيا ، ولقد كانت هذه الخبرة مساعدة كبيرة لتجاوز عقبات الحياة ومنغصاتها ، فقد أصبحت أقبل على أية مشكلة تصادفني وأنا أكثر ثقة .

لقد مر بي وقت تصورت فيه ـ بعد أن سمعت مشكلات زملائي ـ أن أعقد الأفلام الروائية الدرامية التي نشاهدها على شاشة التلفاز ما هي الا قصص واهية ومصنوعة وغير مقنعة اذا قارنتها بحقائق الحياة التي تكشفت لي . لقد اكتشفت أشياء كثيرة عن نفسي لم أكن أعرفها من قبل ، كما اكتشفت انني احمل صورة عن نفسي لم تكن واقعية .

ثم بدأت أسأل أسئلة جديدة في محور العلاقة الانسانية ، العلاقة بين الرجل والمرأة) .

إنسان واحد وشخصيات متعددة :

■ يقول الكاتب : (نتيجة للخبرة السابقة بدأت أنظر الى الحياة بشكل إيجابي ، وأستمتع بها ، ووجدت أن أية مشكلة أواجهها الآن هي بالنسبة لي أقل قسوة وأكثر قربا للحل ، نتيجة لأفكار « العلاج الأسري » ومواقفه ومناهجه ، فقد تطور كثيرا في السنوات الأخيرة) .

الكثيرون عندما يولدون ويترعرعون ويشبون في نطاق الأسرة ، تبدو لهم القضية كأنها عمل تلقائي ، ومعظمنا عندما يولد لنا أطفال (بنين وبنات) نتركهم أيضا لأشكال التنشئة الاجتماعية المتوارثة .

ولكن القليلين منا هم من يعرفون أن مستقبل هذا الطفل أو ذاك ـ ليس المادي فقط كما يتبادر الى الذهن ولكن الصحي والعقلي ـ يعتمد اعتمادا تاما على كيفية عمل الأسرة وعلاقة الوالدين بالطفل وعلاقتهما مع بعضهما ، خاصة في السنوات الأولى من حياة ذاك الطفل !



خطورة الأمر تكمن في ان هذا الطفل إن كان لديه أية أمراض عضوية فإن أعراض تلك الأمراض تظهر عليه ، ونستطيع أن نعالجها أو نتفهمها ، ولكن ضعيف الصحة العقلية لا تظهر عليه في كثير من الأوقات أعراض مرضه ، لكن نتائج ذلك المرض ـ سواء كانت قوية أو ضعيفة ، ظاهرة أو مختفية ـ تكون بالغة الخطورة عليه وعلى اسرته وعلى مجتمعه ، لذلك فإن العلماء يجتهدون لاكتشاف قوانين عمل الأسرة في « المجتمع الانساني » ، وكيف يمكن

للاسرة أن تساعد لايجاد جيل يتمتع بصحة عقلية سليمة . وحتى في داخل الأسرة الواحدة فإن الاختلاف في المعاملة بين طفل وآخر ينتج رجالا ونساء مختلفين . وكثيرا ما يحكم الشخص العادي على أختين أو أخوين بأنهما مختلفان .

أكذوبة الحب :

■ هل الحب أكذوبة إنسانية ، نريد أن نصدقها لأنها تمنحنا شيئا من الاطمئنان ، أم أن هناك بالفعل شيئا اسمه الحب ؟

تقول لنا الدراسات الحديثة في علم الاجتماع العائلي أن الحب أكذوبة صدقناها . فالناس يتزاوجون لأسباب محددة ، وهي أنهم يتشابهون في الخلفية الأسرية ، أي أن تجاربهم الاسرية متشابهة ، وذلك هو ما يشد بعضهم إلى بعض . فالذين يتزوجون يأخذون أسرهم معهم « نفسيا » . لقد اكتشفت تلك الحقيقة مما يسمى (بالتمرين الأسري) وهو تمرين طور في أمريكا ، وجرب في اكثر من مكان في العالم الصناعي ، وأتى بنفس النتائج . هذا التمرين هو أن توضع جماعة تضم من عشرين الى أربعة وعشرين شخصا ، نصفهم من الرجال والنصف الآخر من النساء دون معرفة سابقة ، ويطلب من كل واحد منهم ـ دون تبادل الحديث ـ أن يختار شخصا من الجنس المخالف مفترضا أنه اختار زوجا أو زوجة ، ثم يطلب من كل أربعة أن يشكلوا أسرة ، ويوزعوا الأدوار فيما بينهم ، كأن يختار أحدهم دور الأب والآخر دور الابن وتختار المرأة دور الزوجة أو الجدة .. الخ . لقد اكتشفت من خلال هذه التمارين أن الاختيار غالبا ما يتم نتيجة تشابه في الخلفيات الأسرية . هذا الاكتشاف جاء دائما من نفس الذين قاموا بالتمرين ، فهم يشجعون على الحديث عن أسباب الاختيار ، وبعد وقت يجد الجميع أن هناك شيئا متشابها في خلفياتهم الأسرية ، كأن تكون هناك مثلا صعوبات في المشاركة العاطفية ، أو صعوبات في التعبير عن الغضب أو الحسد ، أو يكون ما يجمعهم أنهم اناس متفائلون ضاحكون أو متشائمون عابسون . وقد يكتشفون أنهم محرومون من تواجد الأب عندما كانوا اطفالا او ان أسرهم فقدت عزيزا لديها عندما كانوا في نفس العمر . والملفت للنظر أن هذه التمارين الأسرية قد أظهرت أن من عاشوا طفولتهم في أسر بديلة أو في مؤسسات رعاية أسرية غالبا ما يختارون بعضهم بعضا كأزواج محتملين ، دون أن يعرفوا مسبقا خلفيات بعضهم ! لقد شعروا بالاهمال في بداية حياتهم فاختار بعضهم بعضا !

يقول الكتاب أن اختيار الزوجين بعضهما بعضا هو في الحقيقة اختيار (مصلحي) تتمحور أسبابه حول ثلاث قضايا :

إما أن تكون أسبابا اجتماعية ، مثل الطبقة أو المستوى الاقتصادي أو

ماهي شروط الزواج السعيد ؟



المذهب او الديانة ، وإما أن تكون أسبابا شخصية واعية مثل الشكل الخارجي أو الاهتمام بموضوعات متشابهة في الحياة ، أو قد تكون أسبابا (غير واعية) يسميها بعضهم (الكيمياء) وهي في حقيقة الأمر ما نتحدث عنه .

والأسباب الأخيرة التي سميناها أسبابا (غير واعية) ليست بالضرورة أسبابا (غير ظاهرة) ، بل على العكس ، فقد تكون ظاهرة تتضح في (لغة البدن) Body Language ، كيف تلبس ، كيف تتحرك ، كيف تشعر الناس بالاهتمام أو بقلة الاهتمام . . . الخ . فهناك جوهر للشخصية يمكن أن يظهر حتى على ملامح الانسان الخارجية .

فالشخص المكتئب يتحرك دون عناية ، مترهلاً ، عابساً . . وعلى مر الزمن يأخذ شكل وجهه وتقاطيعه مظهر الاكتئاب ، وهو نفس ما ينطبق أيضا على الشخص المرح المبتسم . فاختيار الشريك إذاً ليس كما علمتنا الكتب ، وإنما يتم عن طريق الحب ، فالحب ـ إن وجد ـ يكون وزنه النسبي قليلا في مجموعة العوامل الاجتماعية والشخصية .

مراحل التطور :

■ في الأسرة الصغيرة التي انجذب طرفاها (الزوج والزوجة) الى بعضهما لأسباب أهمها تشابه الخلفية الاجتماعية والنفسية يولد الطفل الجديد ـ كما يقول الكتاب ـ محكوما عليه سابقا بخلفيات والديه . فإذا كان والداه قد حرما من الرعاية في صغرهما فانهما لن يستطيعا أن يقدما له هذه الرعاية (فان لم يُعْتَن بنا بشكل جيد ونحن صغار ، لن نعرف كيف نَعْتَني بالآخرين عندما نكبر) ، إنها حلقة لا تعوضها الخبرة في المجتمع بعد ذلك .

لذلك فاننا نرى في الحياة أشخاصا يتصرفون اجتماعيا بطريقة مختلفة عما نتوقعه . . لماذا ؟

لأن توقعاتنا هي خبرتنا وتصرفاتهم هي خبرتهم ، وعندما يشب الأطفال فانهم يحملون خبرات أسرهم معهم . هذه الخبرات محملة بما تحدده الاسرة منذ البداية حول ما هو الشعور (الايجابي) ، وما هو الشعور (السلبي) .

فقبول السلطة أو الخروج عليها ، وقبول التعاون مع الآخرين أو الانغماس في الفردية ، والسيطرة على الشعور السلبي كالغضب أو الحسد أو الغيرة او عدم السيطرة على مثل هذا الشعور ، كل ذلك يرضعه الطفل من أسرته في سنواته الأولى ، وإذا كان ثمة انحراف سلوكي للطفل في المستقبل فانه يتكون هناك تحت سمع الوالدين وبصرهما أو بسبب سلوكهما !!

وبدون (الانضباط الشخصي) الذي يلعب الأب دورا مهما في تلقينه للطفل ، وتحديد خريطة ما هو مقبول وما هو ممنوع ، لا يستطيع الطفل ان يكون علاقات جيدة مع السلطة في المجتمع عندما يكبر ، فالأوامر والنواهي الاجتماعية ان لم يتعرف عليها الطفل لا يستطيع أن يقبلها بعد ذلك ، حيث كانت كل طلباته مستجابة ، وكل ما يفعله مقبولا ، فهو لا يقبل بعد ذلك أي تحديد لهذا السلوك ، وعند ذلك فانه يقاوم اي سلطة تريد أن تحد من شهواته .

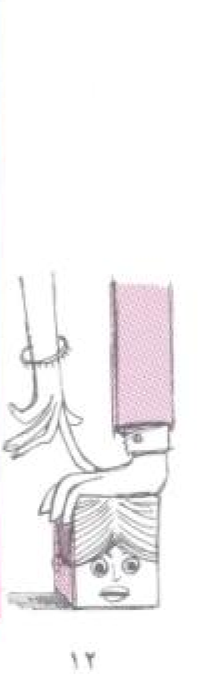
والخطورة لا تكمن هنا فقط ، فعندما يوضع وهو رجل في موضع يحتاج فيه الى ممارسة الانضباط سيجد ذلك صعبا ، فالسلطة مطلوبة (بحب وبحزم) من الوالدين تجاه الطفل ، والطفل الذي يعامل بهذه « التوليفة » يشب قادرا على اتخاذ القرار بعد الحوار حوله ، وعندما يتخذه يقوم بتطبيقه بجدية ، وهذا هو المطلوب في السلوك السوي .

والطفل أيضا يحتاج الى إخوة وأخوات وأصدقاء يلعب معهم ، ليس من أجل اللعب فقط ، وإنما من أجل أن يتعلم المشاركة ، وضبط شعور الانانية . فالاطفال الذين لا يعرفون معنى ضبط هذا الشعور ومعنى المشاركة ، لا يفهمونها عندما يواجهون بها في المجتمع وهم كبار .

خطوات الاستقلال عن الوالدة ثم عن الوالد - أي الاسرة - عملية خطيرة في حياة الاطفال والمراهقين ، ودون اجتيازها بنجاح عن طريق فهم الوالدين لهذه الضرورة - ضرورة الاستقلال - وتسهيلها امام أطفالهم ، قد تنتج عنها مضاعفات نفسية خطيرة للاطفال . وعندما لا يحصل الأطفال على تلك الفرصة بشكلها الطبيعي فانهم يتحولون الى التعلق المرضي بوالديهم أو بأحدهما ، وعندما يتزوجون يحولون أزواجهم أو زوجاتهم الى آباء وأمهات . فالخلل في مرحلة النضج والاستقلال تلك يواكب الناشيء طول حياته ، ويخلق له المشكلات مع من يحتك بهم في المجتمع .

وتشجيع هذا النضج يجب أن يتم عن طريق حث الأم لطفلها في البداية للعبور الى خبرة الوالد ، ثم حث الوالد للطفل للعبور الى خبرة المجتمع ، عن طريق تشجيعه بالالتحاق بمجاميع من سنه ، وكذلك تشجيعه على انشاء علاقات صداقة مع أفراد من نفس الجنس .

فالفشل في العبور من مرحلة الى مرحلة في سن الطفولة مع أب أو أم غير



قادرين على هذه العملية الصغيرة ـ عملية التنشئة الاجتماعية السليمة ـ تورث الأطفال مصاعب نفسية ، قد لا تكون ظاهرة بل مختفية في نفوسهم .

الظـاهـر و البـاطـن :

■ كما هو في الحياة فهو أيضا في النفس ، فعندما لا نستطيع أن نهتم بشيء فنتجاهله ، ونصرف النظر عنه الى شيء اخر ، فاننا نسقطه من حسابنا . وفي النفس نقوم بعين العملية ، الا أن هذا الاسقاط يظل حبيس ستار كثيف ، لأننا لا نريد أن نعرف ما هو خلف هذا الستار .

هذه عملية سماها عالم النفس الأمريكي هاري ستاك سولفن (التجاهل الاختياري) ، وهذا التجاهل الاختياري هو أننا نتجاهل متعمدين الشعور السلبي ، أو أي شعور تعتقد أسرتنا التي نشأنا فيها أنه سلبي ، ونضع نحن هذا الشعور خلف هذا الستار ولا نظهره لانفسنا ولا للآخرين . ولكن وضعنا ذاك الشعور أو أي أشكال أخرى من الشعور السبي خلف ذاك الستار لا يعني أنه ليس موجودا .

فالشعور يمكن أن يوضع خلف الستار لسببين رئيسين :

إما بسبب (الصدمة) أو بسبب موقف الأسرة منه . خذ مثلا شعورا بالغضب لدى طفل ، فهو إما أن يحدث بسبب حالة معزولة لكنها قوية ، كأن تدخل والدته المستشفى بعد أن يصاب بحالة غضب ، فهو أصغر من أن يفهم السبب الذي دخلت والدته بسببه المستشفى وتخلفت عن العناية به ، لذلك فانه سوف يعتقد أن والدته تركته لانه غضب ، ومن هنا فانه يشعر بخوف شديد عندما تنتابه حالة غضب ، مما يجعله يحاول إما أن يضع هذا الغضب خلف الستار ، أي لا يعترف به ، وتلك حالة الصدمة ، أو أن يضع شعور الغضب خلف الستار لأن هناك انطباعا قويا في الأسرة ان (الغضب معيب) فالطفل محبوب عندما يكون هادئا مسالما ، لهذا فهو في البداية يخفي غضبه طلبا لرضا الأسرة ، ثم بعد ذلك يخفي غضبه عن نفسه .

كل أسرة تضع بعض الشعور الذي تعتقد أنه (سلبي) خلف ستار ، ويتعلم الطفل الجديد أن هذا الشعور أو ذاك يجب ان يوضع خلف الستار مخفيا هناك عن العيون . فكل أسرة لها نقطة عمى Blind Spot ، وتنتقل نقطة العمى من جيل الى جيل ، لكن الستار لا يخفي كل شيء ، فان كنا متعبين أو مرضى أو تحت تأثير مخدر يمكن أن يتسرب ذاك الشعور من خلف الستار ، وفي بعض الأوقات قد ينفجر ذاك الشعور لسبب تافه جدا ، ويأتي الى المسرح أمام الستار ، ويشعر الانسان من بعده كأنه ليس هو ، ولابد أن يكون انسانا اخر . وتزداد الحيرة عندما يكون سبب هذا الانفجار أو رفع الستار سببا تافها . كل منا جرب ذلك في نفسه أو أصدقائه أو معارفه ، وعندما يُطلَق

إذا كنت تعاني من الإنفلونزا أو الصداع النصفي دون سبب عضوي فابحث عن السبب في علاقاتك الأسرية

الزوجان السعيدان لأن الغداء لم يكن جاهزا فإن الشعور المتراكم خلف الستار هو السبب وليس تأخر الغداء .

ولأن هناك خطورة من أن يشعر كل واحد منا بأن هناك شعورا سلبيا خلف الستار مثل الغضب أو الغيرة أو الخوف . . الخ يمكن ان ينفلت دون شعور ، فان جزءا منا يبقى متيقظا لعدو لا يستطيع ان يراه . ولا نعرف لماذا نحن متيقظون حذورن لا نشعر بالراحة ، ولذلك فان الانسان يبدو متعبا متوترا وهو يبذل الجهد لطمس ذلك الشعور غير المنظور ويصبح لهذا الجهد علاقة بمجموعة من الأمراض النفسية العضوية ، كوجع البطن ووجع الرأس (الشقيقة) أو ارتفاع ضغط الدم وأنواع من الروماتيزم . . الخ .

كيف نواجه ذلك ؟

بالاعتراف بأن كل أنواع الشعور لدى الانسان لها دور ايجابي ، ولنرجع الى الغضب عند الطفل ، فلو عرف الطفل أن الغضب ليس مصيبة عظمى ولا هو عاطفة هدامة ومميتة ، وأن غضب الانسان في بعض الأوقات يمكن أن يكون ظاهرة طبيعية ، وأن الطفل يمكن أن يتحكم في غضبه بشكل معقول ، لو حدث كل ذلك فان الطفل سيشعر بأمان عندما يعبر عن غضبه ، ويتعلم الطريقة التي يكيف بها غضبه ويكبح جماحه كما يفعل الجميع عادة . في حالات مثل الغضب والقسوة والانانية وكل شعور انساني (سلبي) يكون من الأفضل أن نعترف به ونتحكم فيه ، بدلا من أن نلقيه خلف الستار ثم يظهر بعنف وبشكل مفاجيء وهدام .

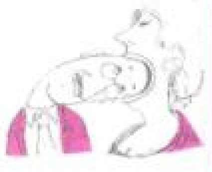
فعندما نعترف بهذه الأنواع من المشاعر نستطيع أن نستدعيها في الوقت المناسب للغرض المناسب ، فكل شعور انساني هام لحياة الانسان ، ولكن عندما نخبيء المشاعر ونلقيها خلف الستار الكثيف فاننا لا نجدها عندما نحتاجها ، وان جاءت مزمجرة ربما سببت لنا خسائر لاننا لم نتعود أن نتعامل معها جيدا .

كل البشر لهم نفس مستوى الانفعال والشعور ، مثل ذلك مثل جسم الانسان الذي يتكون من نفس النسب الكيماوية ، جميعنا لدينا الحب والغيرة والشجاعة والحزن ، والتصميم ، والفرح ، والجبن ، والحنان ، والعنف ، والجنس ، والحياء . . الخ من أنواع الشعور الانساني .

ما نبرزه من عواطف أمام الستار وما نخبئه خلف الستار يعطينا شخصيتنا ، ومن يخبيء الحب يبدو ذا شخصية غير ودودة ، ومن يخبيء الشجاعة يجعلنا نحسبه رعديدا ، ومن يخبيء الغيرة يبدو لنا أنه غير قادر على المنافسة ، ومن يخبيء الحزن يبدو مهووسا مثيرا للاهتياج ، ومن يخبيء القلق يبدو مغامرا .

هنا يبدو أن مايشد شخصين الى بعضهما كي يتزوجا ويكونا اسرة ليس





فقط مايظهر امام الستار من شعور يظهر من تصرفهما الظاهري ويقنع كثيرا من الناس انه السبب ، ولكن الذي يشدهما الى بعضهما أيضا هو ما خلف الستار من شعور .

الـــزواج السعيد والأسـرة السعيدة :

■ الزوجان السعيدان هما من يعترفان بأن هناك أشكالا كثيرة من العواطف كامنة خلف الستار ، سيسترجعانها بهدوء ويراجعانها ـ حتى لو سبب ذلك ألما مؤقتا ـ لأن في المراجعة ورفع الستار إيجابية العيش معا بشكل أكثر حرية وبهجة ومعرفة ، ومن جانب اخر فان أكثر الزيجات تعاسة تنشأ من أن هناك كثيرا من العواطف كامنة خلف الستار يرفض الاثنان الاعتراف بها ، ودع عنك مناقشتها ، تراهما وقد كثر بينهما الشجار والخلاف ، شديدي الحساسية على كل شيء ، قد يصيبان بعضهما بعضا بالنقد والتجريح .

لنأخذ مثلا على ذلك ، كأن يكون أحد الشريكين او كلاهما يحب (التدليل) لكن هذه العاطفة موضوعة خلف الستار في ما نسميه (التجاهل الاختياري) ، عندئذ تكثر بين الشريكين الخصومات ، لأنهما غير معترفين بهذه الحاجة علنا ، ولنفترض أنهما اعترفا بها وقدمها كل شريك للآخر ، فان درجة الخلاف بينهما سوف تقل بالتأكيد .

الزواج السعيد ـ كما يقول الكتاب ـ عدده مثل عدد أنواع الأشجار . وليس هناك وصفة خاصة للزواج السعيد ، أو الزواج المثالي ، ولكن علماء الصحة العقلية اليوم يؤكدون ان الزواج السعيد يقرب من تلك الدرجة كلما كان لدى الزوجين قدرة وإمكانية واستعداد للنظر خلف ذلك الستار ، وكلما ناقشا ما خلف الستار من عواطف مهما كانت درجتها ونوعها كلما أصبحت علاقتهما الثنائية أكثر غنى .

لقد اكتشف البحث الاجتماعي أن الأسر السعيدة تقبل التغير بصورة أسرع ، ربما لأنهم لا يخافون من أي تغير يطلق الشعور الخفي الذي أسدلوا الستار عليه . كما أنهم يقبلون النقد من بعضهم ، وفي الغالب يتم هذا النقد بطريقة ايجابية مساعدة ، وفي الوقت المناسب ، رغم أن النقد ـ حتى لو كان فيه بعض الحق ـ يسبب ألما نفسيا ، ويزداد هذا الألم النفسي إذا كان النقد موجها لشيء وضعناه خلف الستار ، وكنا قد وضعناه هناك في الأصل لأنه يشوه من تصورنا لأنفسنا . وذلك هو مايثير الألم .

دليـل التصرفات والسـلوك :

■ أن تستطيع بكل ما يمكن من الصعوبة أن تتحمل التغير الايجابي والسلبي دليل على صحة نفسية وأسرية ، فتقبل التغير كالتخرج في الجامعة والالتحاق بالوظيفة الجديدة أو الفصل من العمل أو التقاعد ، أو وفاة أحد

التطرّف السّياسي مـرض نفسي لـه علاقة بعقدة الاضطهاد

أفراد الأسرة ، أو الانتقال الى بلد آخر . . الخ من أشكال التغير في الحياة ، تلك عملية بحد ذاتها صعبة ، فنحن جميعا نملك في رءوسنا تصورا أو ملفا عن عالمنا كما نعرفه ، أو خريطة عقلية متماثلة لحالتنا الداخلية (مثل تماثل خريطة العالم مع واقع الكرة الارضية) ونستخدم هذه الخريطة العقلية كدليل لتصرفاتنا ، كل شيء في حياتنا في هذه الخريطة : حيّنا ، قريتنا ، أسرتنا ، أطفالنا ، والدانا ، أصدقاؤنا ، بيتنا ، جيراننا . . الخ . وأي شيء في حياتنا مخطط هناك ليرشدنا للتكيف مع حياتنا . نحن في الحقيقة ننظر الى جزء فقط من هذا المخطط وإن كان موجودا كله ، فعندما يموت قريب عليك أن تتحول من خريطة يحتل فيها شخص هذا القريب مكانا ما ، كبيرا أو صغيرا ، الى خريطة لا يوجد فيها هذا القريب ، فهذا التغير من خريطة الى أخرى هو ما يعرف عادة بالتكيف ، وهو إعادة كتابة ورسم ملفنا العقلي . واعادة الكتابة تحتاج الى طاقة حتى لو كان التغير الى الأفضل ، ولكننا نحتاج الى طاقة اكبر عندما يكون التغير الى الأسوأ أو عندما يحدث التغير المفاجيء . وقد تكون التغيرات صغيرة لكنها متتابعة لا تعطينا الوقت الكافي لنسترجع توازننا ، مثل أن يتسخ المنزل بسرعة أكبر من قدرتنا على تنظيفه ، في هذه الحالة نشعر بضغوط نحتاج فيها الى فترة (راحة) كمثل العائلة التي تفقد شخصا بالموت ، فلا تستطيع أن تمارس عملها المنظم ، فيأتي الجيران بالأكل عدة أيام لأن العائلة في (أزمة) . . !

مهمة الأم والأب تكوين هذه الخريطة العقلية لأطفالهما ، فالطفل الذي لا يعرف في الوقت المناسب أن هناك حدودا بين عالمه وعوالم أمه وأبيه وأسرته ، يصبح صاحب علاقة مشوشة بالعالم ، ويضيع بعد ذلك في أزمة التغير المفاجيء لهذه الخريطة كلما ألم به طاريء واحتك بالعالم الخارجي .

الامهات يشاركن في هذا التشوش ، فعندما تكون خريطة الأم أصلا مشوشة ـ حيث لم تحصل في طفولتها على رسم خريطة عقلية واضحة ـ فانها تنقل هذا التشوش لأطفالها ، ويعتقد العلماء أن هذا التشوش في أسوأ حالاته هو أحد الاسباب الرئيسية ـ على الأقل ـ لمرض عقلي عضال هو (انفصام الشخصية) . أما اذا كان التشوش في رسم هذه الخريطة العقلية بصورة أقل سوءا فان الطفل ينشأ وهو يعاني من الهلوسة ، فهو لا يعرف التفرقة بين الحلم وحلم اليقظة والواقع الحقيقي ، ويخضع لتأثير الآخرين بشكل غير طبيعي ، ويبدو سلوكه للناس الآخرين غير طبيعي وليس له معنى في بعض الأوقات ، فهو يتخيل قصصا ـ قد لا تكون واقعية ـ عن أهله ومدرسيه وزملائه .

لذلك فان دليل التصرفات والسلوك الذي يضعه الأب والأم مجتمعين لطفلهما أو لاطفالهما ، يعتمد عليه هؤلاء الأطفال في تحديد علاقتهم بالخارج ، وكلما حصلوا على رسائل ثنائية متناقضة زاد التشوش عندهم .

في كل منا طفل صغير :



■ دليل التصرفات الذي تقدمه الأسرة لأطفالها ليس دليلا كاملا ، فالحياة ليست مثالية ، وعملية الانفصال عن الأم والأب والأسرة تأخذ فترة طويلة ، بل ربما تأخذ فترة الحياة كلها . ولأن ظروف الأسر النفسية والصحية والاجتماعية والاقتصادية مختلفة ـ ربما باختلاف الأسر نفسها ـ فان الطفل يشب وفيه شيء من طفولته .

نحن جميعا لدينا طفل في داخلنا ، عندما تكون الأمور طبيعية يكون ذاك الطفل في داخلنا ساكنا ، لكنه تحت الضغط يبدأ بالصراخ ، فبعض (الأطفال الداخليين) يمكن إغضابهم أسرع من الأطفال الآخرين ، فحتى لو كان ذاك الطفل الداخلي صغيرا جدا لا يكاد يظهر ، فان الضغط المناسب عليه سوف يجعله يصرخ . ولا فائدة من انكار ذاك الطفل فينا ووضعه هو الآخر خلف ستار ، فالرجل القوي المتوازن حقيقة يعترف بذلك الطفل في داخله ويهتم به ويرعاه ، لأنه بذلك يستطيع رعاية الآخرين ، أما تجاهله فهو مما يتيح خروجه منفلتا في أي وقت . والاستجواب البوليسي الحديث يعتمد على هذه المعادلة في اظهار ذلك الطفل في الانسان المستجوب . عليك فقط أن تكثر من الضغط مع قطع أية امكانية للتعضيد العاطفي لتجد ذاك الطفل ظاهرا يصرخ . كذلك المرأة لابد أن تعتني بالطفلة داخلها فهي هناك قابعة ، والأم التي تشتكي من أذى أطفالها وصعوبتهم هي ابتداء قد أقفلت الباب على الطفلة الصغيرة الكامنة في داخلها ، فالطفل الذي يصرخ في الخارج هو انعكاس للطفل الذي في الداخل . والاعتراف بالطفل الداخلي هو اعتراف بطلب الحب والرعاية ، والخجل من هذا الشعور ووضعه خلف الستار يعقد المشكلة اكثر مما يحلها ، حتى لو كان هذا الشعور صعبا ، فالشعور الصعب ليس المشكلة ، المشكلة هي الاعتراف به ، الاعتراف بأن فينا جميعا طفلا صغيرا أو طفلة صغيرة .

التطرف السياسي :

■ إذا قسمنا شعورنا الى (جيد) (ورديء) وحب وكره ، ونسينا كل ما هو كريه ورديء للآخرين ، وكل ما هو جيد وايجابي لنا ، فانها طريقة مرضية في النظر الى الأمور ، إنها عقدة الاضطهاد ، ليس بمعناها المرضي ولكن بمعناها العلمي . واذا كان لومنا للآخرين على ماهو سلبي مؤقتا يزول بزوال العارض كما يحدث عندما نتحمس لفريق كرة القدم الذي نشجعه ، فان ذلك شعور طبيعي يساور كثيرين منا ، أما اذا كان ذاك الشعور مستمرا ويجعلنا ننفس عن أنفسنا ونرتاح ونضع كل شعور سلبي بشكل دائم على الآخرين ، فذلك هو جنون الاضطهاد .



وعندما تنظر الى السياسة من حيث تبرير تصرفاتك ومواقفك ، في شكل لوم على الآخرين وتحميلهم تبعات كل ما هو سيء ، فذلك عمل فني من الطراز الأول . نحن نشاهد هنا الكثير من تصرفات عقدة الاضطهاد ، وتزداد هذه العقدة وتتضح لدى المتطرفين سياسيا ، فالرجال الأصحاء يدخلون السياسة كما يدخلون مباريات كرة القدم ، ربما يشعرون بالغضب عندما يناقشون آخرين من مجموعات أخرى في تصرفاتهم ، ولكنهم بعد ذلك ينزعون العداء وينظرون الى مناوئيهم السياسيين كبشر .

اما المتطرفون في السياسة فلديهم مشكلة ، فهم لا ينظرون الى معارضيهم كبشر لهم وجهات نظر مخالفة ، إنما ينظرون اليهم على أنهم اساسا (اناس سيئون) . هؤلاء الناس عندما يكرهون ، فهم يكرهون ما بأنفسهم ، وما وضعوه خلف الستار (في التجاهل الاختياري) ويتحاشون النظر اليه ، الى أخطائهم . والانغماس الكامل في السياسة بهذه الطريقة هو في الحقيقة لوضع صراع ذاتي مؤلم خارج النفس ، ونكران الاعتراف بهذه المشاكل الذاتية . مثل ذلك مثل القيام بحرب تشنها دولة قد لا يكون لها سبب منطقي غير توجيه الرأي العام نحو قضايا خارجية ، ومحاولة تصدير صراع داخلي تبنته ضد الآخرين . فماذا يحدث لو ظهرت خطورة أن يستمعوا ويقتربوا من الاقتناع بوجهة نظر أعدائهم السياسيين ؟ سيكون ذلك أكثر خطورة لأنهم عند ذلك سيواجهون أخطاءهم ونقاط ضعفهم ، سوف يرتفع الستار ليخرج الى السطح ماأرادوا دائما إخفاءه ، ويرون في أنفسهم أسوأ ما نسبوه الى الآخرين ، واذا ظهر احتمال حدوث ذلك ، فانهم يسرعون الى تدبيج الخطب باتهام الآخرين وتهديدهم ، وبذلك يؤخرون المواجهة مع أنفسهم وقتا أطول ، أو يقللون من مواجهة أخطائهم الى درجة يمكن تحملها .

لهذا السبب فان المتشددين والغلاة يحتاجون الى هذا التشدد وتلك المغالاة كي يبقوا أصحاء عقليا .

من ظواهر التطرف السياسي ان المجموعات فيما بينها لا تستطيع التفاهم ، انهم دائما ينقسمون ويكونون مجموعات جديدة ، لأن المتشدد المغالي يرسم حدودا ضيقة حول نفسه ويبعد الشعور الذي لا يريده ، كما انه لا يستطيع ان يعقد صلحا ، فهو فخور بنقاء معتقداته ، يعتقد انه مثالي اكثر مما هو في الواقع ، ويسقط المتطرف كل الشعور السلبي الذي لديه من القسوة والحقد والغضب والغيرة ، مبررا كل ذلك بأن (عدوه) أكثر قسوة ، وهذا هو ما يبرر لماذا يكون الانسان شديد القسوة على أخيه الانسان .

انه من الصعب أن تعالج شخصا له مواقف سياسية متطرفة ومغالية ، فقط عليك أن تعطيه بعض الدواء . . . !

محمد الرميحي



تساؤلات

شعر : الدكتور عيسى درويش

أتسألني عن الماضي
وتتركني إلى الآتي
وعند القادم المجهول
أغرق في خيالاتي ؟!

ترى ..... يا زهرة الأيام
يا أنشودة الزمن ....
يمرُّ اليومُ إثرَ اليومْ
يمرُّ العامُ مثلَ الهومْ
وبين الحزنِ والأفراحْ
بين الدمعِ والأقداحْ
خيطُ الصحوِ والوسنِ ؟!

فلا تسألْ ....
فإنَّ العُمْرَ ..... مثلُ النهرْ
هذا يموتُ عند البحرْ
وذاكَ يموتُ في الزمنِ
....

أتسألني عن الشعرِ
وسرِّ الطيبِ في العطرِ
وهلْ تدري ....
بأنَّ الشعرَ ..... مثلُ الروحِ
شيءٌ غامضُ السرِّ ؟ ! ....
ترى هل موجةُ البحرِ
يحركها هوى البحرِ ؟!
أم الأحزانُ تضربُه
فيمضي هائجاً يجري ؟
وبين البرِّ والبحرِ
وبين الريحِ والمطرِ
وبين الشمسِ والقمرِ
مواضيعٌ بلا نظرِ
فلا تسألْ عنِ السرِّ
وسرِّ الروحِ .... والشعرِ
فكلُّ خليقةٍ تمشي
كما خطَّتْ يدُ القدرِ

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

جسر من كلمات ونور

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

« لو كان هذا الجسر مجرد لقاء أفكار لقلنا إنه من الكلمات . ولو كان مجرد لقاء قلبين لقلنا إنه من النور . . ولكنه جسر يضم العقل والقلب جميعا ، وهو قادر على أن يمتد عبر الزمان والمكان ، غير متقيد بوحدة إلا وحدة الانسانية في شموها » .

في هذا الحديث نذكر نماذج من الجسور ، وهي إن تغيرت في مظاهرها - والتغير في الحياة يتدفق كما يتدفق النهر - إلا أن حقيقة كبيرة تظل كامنة فيها متجلية منها ، حقيقة يظل الأفراد وتظل المجتمعات في حاجة دائمة اليها . .

ولنبدأ بنموذجين أحدهما من الشرق والثاني من الغرب . . .

مالك والشافعي وأحمد بن حنبل

ونستطيع أن نستبدل بهؤلاء الاعلام أقطارا فنقول إن الجسر كان بين الجزيرة العربية والعراق ومصر مرورا بديار الشام . .

ولنأخذ واسطة العقد وهو الامام الشافعي . . نصحبه وهو في حداثته في مكة يتلقى العلم في المسجد الحرام ويختلف الى شيوخه ، وتتطلع نفسه الى أن يتلقى عن عالم المدينة الامام مالك ، وحصل على خطاب تزكية من والي مكة الى والي المدينة ليقدمه الى مالك . ونقتبس من هذه القصة بعض ما أورده عنها ياقوت في معجم الأدباء حاكيا عن الشافعي ، وقد سار معه والي المدينة الى بيت مالك ، متهيبا هذا اللقاء ، واستأذن ، وأعلم مالكا عن طريق جارية البيت أنه يحمل اليه رسالة من أمير مكة ، وعادت الجارية وفي يدها كرسي فوضعته ، يقول الشافعي « ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابه والوقار . . فجلس . . فرفع اليه الوالي الكتاب فقرأه . . ورمى بالكتاب من يده ثم قال :

« سبحان الله ، أو صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل ؟ » فرأيت الوالي قد

تهيب أن يكلمه ، فتقدمت اليه ، وقلت : « أصلحك الله ، اني رجل مطلبي (من بني عبدالمطلب) وقص عليه الشافعي قصته . وكان لمالك فراسة ، فقال : ما اسمك : قلت محمد ، فقال : يامحمد ، اتق الله ، واجتنب المعاصي ، فانه سيكون لك شأن من الشأن ، إن الله قد ألقى في قلبك نورا ، فلا تطفئه بالمعصية ، اذا كان الغد تجيء ويجيء من يقرأ لك » .

هذه الكلمة من مالك ، من الجسور بين عقلين وقلبين ، لقد تفرس مالك في الشافعي ورأى فيه النور وأحس فيه العقل ، ودعاه الى أن يحافظ على هذا النور فلا يطفئه بالمعصية ، ودعاه الى مجلس العلم . . فلننظر ماذا كان في المجلس . . .

جاء الشافعي في غده ، ومعه موطأ الامام مالك ليقرأه عليه ، فابتدأ يقرأ ، فاعجب مالك بحسن قراءته ، فكان الشافعي كلما تهيب الاستمرار في القراءة يقول له مالك : زِدْ يافتى ، ولذلك أتمه في القراءة على مالك في أيام يسيرة .

جانب ثالث كفله مالك للشافعي ، وقد كان يعاني من ضيق ذات يوم . . وكان مالك يرعى المحتاج من تلاميذه . وصحبه الشافعي نحو تسع سنين عاد بعدها الى مكة ، وفيها لقي والي اليمن الذي صحبه وولاه أمر نجران ، وأراد أهلها أن يصانعوه ، فلم يجدوا عنده إلا العدل والاستقامة .

وضاق به بعض القادرين من أهل النفاق والظلم ، فاتهموا الشافعي بأنه مع العلويين ، وأرسلوا بهذا الى الخليفة العباسي الرشيد ، وقال الوالي الذي سعى بهذه الوشاية « إن ها هنا رجلا من ولد شافع المطلبي ، لا أمر لي معه ولا نهي ، يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه » .

وسيق الشافعي مكبلا بالحديد من نجران اليمن الى بغداد ، سنة ١٨٤هـ وسنه وقتئذ نحو أربع وثلاثين .

وفي هذا الموقف العصيب يسر الله له جسرا آخر من النور والكلمات . .

فلقد أحسن القول أمام الرشيد . . وكان في مجلسه محمد بن الحسن الشيباني . وهو أيضا من تلاميذ مالك وأبي حنيفة معا .

كان محمد بن الحسن وقتئذ قاضي بغداد ، واستأنس الشافعي عندما رآه ، ولعلهما التقيا من قبل في مجلس مالك بالمدينة .

فقال الشافعي مخاطبا الرشيد « إن لي حظا من العلم ، وإن القاضي محمد بن الحسن يعرف ذلك » فسأل الرشيد محمدا فقال : « له من العلم حظ كبير ، وليس الذي وقع عليه من شأنه » .

ووجد الرشيد في هذا القول ذريعة ، فقال لمحمد بن الحسن وهو أهل ثقته « خذه اليك حتى أنظر من أمره » وكان هذا آخر العهد بهذه الإدانة الظالمة .

وكان محمد بن الحسن للشافعي في بغداد كما كان مالك له في المدينة : يسر له الانصراف الى العلم ، وأنزله في بيته ، وآواه ، وتلقى عليه فقه العراقيين ، واجتمع له بذلك فقه الحجاز وفقه العراق . . واستطاع بهذا الجمع مع الموهبة العقلية وطهارة القلب والتفرغ للعلم أن يضع القواعد ، وأن يصل الى مرتبة الاجتهاد . وخير شاهد لذلك كتابه « الرسالة » الذي وضع به علم « أصول الفقه » .

ومع أن الشافعي استقل عن مالك ومحمد بن الحسن وكتب في ذلك كتابا سماه « خلاف مالك » وكتابا سماه « خلاف العراقيين » إلا أن الاحترام العميق الذي ظل يكنه ويعلنه لهما ، وعرفان الجميل والأدب والأمانة في العرض والنقد ظلت من أبرز صفات الشافعي ، وهي « جسور » عرفان الجميل نحو أساتذته ، وتقابل « جسور » الخير العقلي والقلبي والمادي التي سبق أن أنشأها أساتذته نحوه ونحو نظرائه من تلاميذهم . .

نستطيع أن نتتبع عودة الشافعي بعد هذا الى مكة ، ثم عودته الى بغداد ، وقد ازداد نضجه . .

وهناك تتلمذ له أحمد بن حنبل الذي لقيه في مكة من قبل ، وعجب من عقله وفكره ، ولم تطل إقامته في بغداد ، ولعل الصراع السياسي والعسكري بين الأخوين الأمين والمأمون جعله يؤثر الهجرة من بغداد . . ويؤثر الاقامة في مصر ، وكان فيها تألقه ثم مثواه ورحيله عن دنيانا سنة ٢٠٤هـ وهو في الرابعة والخمسين من عمره . ويروي عنه الحافظ بن كثير في تاريخه أنه كان يقول « وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إليّ شيء منه ، فأوجر عليه ولا يحمدوني » .

ونستطيع أن نتتبع العلاقة بين الشافعي وابن حنبل ، وكان بينهما ما يتفقان معه ، وما يختلفان . . ولكن مع الأمرين ، بينهما التوقير والمودة والاخلاص . .

تولستوي ورومان رولان وهرمان كيسه

ومن جسور الشرق ننتقل الى جسور الغرب ، وحديثنا عن ثلاثة من عمالقة الأدب : الأول روسي والثاني فرنسي والثالث ألماني فما الذي يربط بينهم ؟

ولنذكر أن وفاة الأول كانت عام ١٩١٠ والثاني عام ١٩٤٤ والثالث عام ١٩٦٢ .

اكتب هذه السطور وأمامي كتاب هرمان هيسه « عقيدتي : مقالات عن الحياة والفن » ط : ١٩٨٥ ، وله عدة طبعات سابقة ، وكان حصول الكاتب على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦ . وفي الكتاب مقالان عن رومان رولان أولها عن علاقته بتولستوي . . وكان نشر هذا المقال عام ١٩٢٢ تعقيبا على كتاب رولان « حياة تولستوي » . يقول هيسه : (والترجمة هنا للمعاني أكثر منها للألفاظ) .

« كل انسان يعرف شيئا عن رومان رولان ، يعرف الدور الكبير الذي قام به تولستوي عندما كان رولان طالبا حديث السن في باريس . . ففي يوم من الأيام جلس رولان ونفسه ممزقة بين شكوكه وأخلاقياته واختياره طريق المستقبل ، أيتجه الى الفن أم الى حرفة يعيش منها ؟ فكتب الى تولستوي خطابا لعله لم يكن يتوقع له ردا ، خطابا كان أكثر من اعتراف ، كان محاولة لتوضيح الذات ، كان صرخة يأس أكثر من كونه سؤالا . .

ولكن شيئا يهز النفس حدث ، فلقد أرسل الشيخ الروسي الذي عمت شهرته العالم الى هذا الطالب المجهول الحديث السن في باريس رد رسالته . كان ردا كريما عطوفا ، ومفصّلا ، فيه عناية واطمئنان نفس . . كان ردا منْ عدة صفحات . .

كانت هذه التجربة عميقة الأثر في نفس الطالب رولان ، وعندما نشر كتابه نحو عام ١٩١٢ بعنوان « حياة تولستوي » أي بعد وفاته بعامين تقريبا ، لم يكن الكتاب دراسة لشخصيته ، ولا مجرد دراسة أدبية طيبة ، ولكن كان أيضا اعترافا عميقا بالجميل ، وتعبيرا عن حب مخلص وتقدير يستمر مدى الحياة .

إن قدرة رولان على إبداع هذا الكتاب عن تولستوي بكل ما فيه من إنسانية وحب وحيوية كان ثمرة لخطاب تولستوي ، الذي لم يكن مجرد فنان كبير وداعية مؤثر ، ولكنه كان إنسانا مبادرا الى تقديم العون ومملوءا بالحب الأخوي .

بهذه الجوانب كانت العناية الأساسية في كتاب رولان عن تولستوي ، بمعركة حياته التي لم تنقطع فيها الآلام ، والتي شملت الكثير من الصعاب والهموم والاحباط ، ولكنها كانت حياة صادقة دائما .

وفي الكتاب دراسة لروائع تولستوي : وبخاصة كتبه الباكرة : القوزاق ، الحرب والسلام ، أنا كارنينا . وإن الصفحات التي كتبها رولان عن الحرب والسلام تعتبر من أروع ما كتب في حياته . . وأنها لسعادة أن يرى الانسان في هذا الكتاب ماذا يستطيع الحب أن يصنع : الطريقة التي فهم بها الفرنسي رولان ، الروسي تولستوي . . . وكيف يفهم هذا المثقف الفرنسي باتجاهاته الاشتراكية في غرب أوروبا ، هذا الصوفي الشرقي ، وكم كان عادلا معه

يقدر نظرياته»وكيف تتبعه في آماد حياته الدينية ، وكيف أنه لم يكن يتتبع الأخطاء العابرة ، ولكن الخطوط الأساسية في حياته .. ان قراءة هذا الكتاب متعة نادرة وغير عادية » .

وندع الآن هذا التعقيب من « هيسه » على كتاب رولان عن تولستوي ، وهو مجرد نموذج لانتقال التأثير عبر الكلمات والاحساس .. نموذج للقاء الانسان بالانسان .

جسور في تراثنا وحياتنا

ونعود الى حياتنا .. ويستطيع كل فرد منا أن يحصي من هذه الجسور الكثير .. فقط كل الذي يتحراه أنها تجمع بين الفكر والمودة،بين العلم والحب

ونبدأ بقول الله تعالى موضحا الصلة التي تربط بين الرسول والمؤمنين بالعمل لله وهي صلة تجمع بين العلم والحب .

يقول تعالى مخاطبا رسوله « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (آل عمران : ٣١) .

والآية تجمع بين الاتباع ومدخله العلم ، والحب وهو ثمرة الايمان والمعرفة .. وبهذا كان الحب في الآية طريقا وغاية ..

ولا نستطيع أن نتصور مسار الاسلام إلا بتحقق هذين الأمرين : العلم والحب .. وكل مسلم يحس أن بينه وبين الله تعالى وبين الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الرباط .. أو قل هذا الجسر .. قد يبدو بارزا في شخوص حملت الكبار من مسئوليات الاسلام .. ولكنه ميراث مشترك ، لكل مسلم فيه نصيب .

ان القرآن الكريم ـ وهو كتاب الله وكلامه ـ انتقل من فم الى أذن ، وتعيه قلوب واعية ، وسلاسل الحفاظ يرفعونها ليصلوا بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك سلاسل الأحاديث الشريفة .

وان الجانب الأكبر من حفظ التراث الاسلامي ، والاضافة اليه كانت عن طريق سلاسل من العلماء .. تبدو فيهم قمم عالية ، هي شوامخ الفكر الاسلامي ، وتجمع بين العلم والحب معا ..

كأمثلة : مجرد أمثلة .. انظر الى الامام أحمد بن تيمية وتلميذيه الامامين ابن القيم وابن كثير . ومن تاريخنا القريب لك أن تنظر الى هذه السلسلة بحلقاتها الثلاث : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا . ولكل منهم أكثر من زميل وتلميذ تلقى ووعى عنه وأبدع وحفظ الجميل والحب ونشر العلم .

الحاجة الى جسور جديدة

ولكن .. ألا نحس الآن أن هذه الجسور قد قلت في حياتنا ؟

قد تجد الترابط العلمي ، ولكن لا تجد معه التوقير والمودة ، وقد تجد الحب ، ولكن لا تجد معه الوزن العلمي الدقيق .

ولأضرب مثالا من الحياة العربية والاسلامية المعاصرة ، ولن نرجع الى أكثر من نصف قرن .. الى الحرب العالمية الثانية وما بعدها .

لقد شهدت هذه العقود القريبة تطورا ضخما في حياتنا العربية والاسلامية . ظهرت دول . استقلت دول . اشتد التفاعل مع المعسكرات العالمية . تزاحمت التيارات الفكرية فوق أرضنا . قامت أكثر من حركة اسلامية فيما اصطلحنا على تسميته بالصحوة الاسلامية . تعددت الاجتهادات والاراء . ولكن لا نحس أن هناك مائدة حوار واحدة يستطيع أبناء العروبة أو أبناء الاسلام أن يجلسوا اليها ، ودليلهم البحث العلمي المجرد ، ونورهم الحب والمودة .

ان الدفاع عن الفكرة أصبح دفاعا عن صاحبها ، واختلطت ـ أو امتزجت ـ الأفكار بالأشخاص ، وأصبح البحث العلمي في قضايا العروبة والاسلام كأن الطرفين فيه تمثل الادعاء وتمثل الدفاع .. ولكن أين القاضي ؟

لك أن تنظر الى قضايانا على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو العسكري . لك أن تنظر الى العلاقات بين المذاهب الاسلامية ، وقد تطورت الى الحرب والسلاح والتخريب وتمزيق الأوطان وحرب الجيران . والكل خاسر . والمستفيد تاجر السلاح وباعة المنشآت الذين يبنون ما تهدمه الحروب . وهؤلاء المستفيدون قد فرغوا - أو كادوا - في ديارهم من أمراض العصبيات الضيقة،دينية كانت أو سياسية ، واتجهوا الى الابداع العلمي والتقني وتسابقوا فيه ولازالوا يتسابقون ، وبينهم آفاق تعاون يعرفونها ، وآفاق تنافس يحددونها ، وآفاق صراع لا يتعدونها . .

عندهم من السلاح أضعاف ما عندنا وأقوى ، ولكنها للردع لا للقتال .

وعندنا القليل الذي يسمحون به ، وبعضه لتوازن القوى ، والبعض للاستهلاك فوق أرضنا وبأيدينا ولأبنائنا .

ألا نحتاج نحن الى جسور جديدة ومنهج جديد يجمع بين العلم مع دراساته الموضوعية دون تعصب ولا توتر ، وبين المودة دون تهاون أو ميل مع الهوى ؟

هذه هي الجسور التى نحتاج اليها في مرافقنا :

- نحتاج اليها في جامعاتنا لتحيا بها تقاليد عريقة كانت بين الأساتذة والطلاب قبل أن تتحول جامعاتنا الى معامل تفريخ شهادات إلا ما رحم ربك .

- نحتاج اليها معاهدنا الدينية ليتخرج فيها عالم الدين القادر على أن يجمع القلوب والعقول على حب الخير والعمل له والتحول الى الانتاج والتقرب الى الله بالعمل وعمارة الحياة وكراهية الظلم وحب العدل .

- نحتاج اليها في حياتنا السياسية . . ومن الساسة ؟ إنهم إفراز جامعاتنا ، وحصاد نظام التربية القائم . . فالسياسة هي الصورة التنفيذية لنظام التربية عندما تكون السلطة في يده ، نحن محتاجون الى ساسة لا يتعزلون عن الشعب، ويضعون أيديهم دائما على نبض آلامه وآماله ، ساسة قادرون على إدارة شئون الداخلية والخارجية بوعي وتدارس ومتابعة تتوطد بها المؤسسات ، وتتكون بها صفوف القيادات المتتابعة .

بحيث تصبح السياسة مدرسة سياسية للتكوين والتدريب على التنفيذ .

- نحتاج اليها في حياتنا الاقتصادية بحيث يصبح للعمل والانتاج قداسة .

نعم قداسة ترفعه الى أن يكون الميزان الأول لمكانة الفرد في المجتمع ، وأقصد العمل في أوسع آفاقه : العمل الفكري واليدوي والتنظيمي .

كل هذه جسور نحن في حاجة اليها . ولكن من أين نبدأ ؟

إن نقاط البدء قائمة ، والحياة لا تنتظر أحدا ، وهي تسير بنا ، إن لم نسر بها ، ولكن الحديث هنا موجه الى المؤسسات مباشرة ، وتستطيع كل مؤسسة بإمكانياتها وقدراتها أن تتخذ الى ذلك سبيلا ، وما عليها من حرج ، فقط تحتاج المؤسسة الى الارادة والتخطيط لها والسير والمتابعة . . ثم التنسيق مع غيرها . إن الحديث ليس على المستوى الفردي ، ولا على مستوى الدولة ، وإنما على مستوى المؤسسة وهي - عمليا - الجماعة الأقدر على الحركة والتطوير .

ولنبدأ بأمل محدود : هل تستطيع هذه المعاني أن تجد طريقها الى عقول شبابنا وأبنائنا ، ولو عن طريق الاعلام والصحافة وكتب القراءة المدرسية ؟ وهل تجد من مؤسساتنا من يسارع في الاستجابة ؟

الأمل كبير . . والحياة أمل وعمل . □

أكذوبة الثقافة "اليهودية"



بقلم : الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري

تتحدث الكتابات الصهيونية ـ وتبعها في ذلك بعض الكتابات العربية ـ عن « الثقافة اليهودية » ، وهذا الإصطلاح ـ شأنه شأن المصطلحات الأخرى ، مثل « التراث اليهودي » ، و « التاريخ اليهودي » ، و « العرق اليهودي » ، و « الشخصية اليهودية » ـ يفترض وجود إبداع « يهودي » مستقل عن إبداع الأمم التي يعيش اليهود بين ظهرانيها ، وهو افتراض تدحضه الشواهد التاريخية .

العبرانيون منذ ظهورهم في التاريخ قد تبنوا حضارات الأمم الأخرى ، ابتداء من اللغة ، ومروراً بالمفاهيم الدينية ، وانتهاء بالطراز المعماري ، وعلى سبيل المثال فليس هناك طراز يهودي معماري ، أو فن يهودي مستقل ، فهيكل سليمان من الطراز الأشوري الفرعوني ، والمعابد اليهودية في الوطن العربي من الطراز العربي ، أما في جنوب الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر فمن النمط (النيوكلاسيكي) السائد هناك آنذاك ، والفنانون التشكيليون « اليهود » في العصر الحديث أمثال مارك شاجال ينتمون إلى تراث فني غربي ، ولا يمكن رؤيتهم في إطار تراث يهودي مستقل .

ولم يعرف أيضاً تراث أدبي يهودي مستقل ، فالأدباء اليهود المستعربون في الجاهلية والإسلام

اتبعوا التقاليد السائدة في عصورهم ، وكذا الأدباء اليهود في الولايات المتحدة وانجلترا ، إبداعهم الأدبي مرتبط بالتراث الذي ينتمون إليه ، وهذا أمر طبيعي ومتوقع ، بل إن التراث الديني اليهودي نفسه ليس تراثاً مستقلاً بأي حال من الأحوال عن الموروث الديني والتقاليد والأفكار الدينية السائدة في الشرق الأدنى القديم ، خاصة بلاد الرافدين ، كما لا يمكن فصله عن الإرهاصات الدينية التوحيدية في مصر ، وعبادة يهوه في سيناء ، ولعل تطور اليهودية - من عبادة (يسرائيل) شبه الوثنية التي لا يوجد فيها مفهوم لليوم الآخر والثواب والعقاب إلى اليهودية التي تعد نسقاً دينياً توحيدياً متكاملاً - هو أكبر دليل على تأثير الحضارات المصرية والبابلية والآشورية ثم الفارسية والهيلينية على المعتقدات الدينية اليهودية .

بل إن جوانب كثيرة من الرسالات العامة للعهد القديم من تعظيم الله الواحد الذي لا تدركه الأبصار ، والوصايا العشر ، والروح العامة للأنبياء العبريين ، والأمثال ، والمزامير أصبحت جزءاً من التراث الديني المسيحي ، أما التراث (التلمودي) وكتب التفسيرات الضخمة فلم تكن معروفة عملياً لعامة اليهود ، وكانت هذه الكتب أو على الأقل الرؤى التي تتجسد من خلالها تؤثر في سلوك اليهود ، لكنه تأثير جزئي لا يشاكل بأي حال أثر تراث بلدهم الحضاري الذي يتفاعلون معه ، ويبدعون من خلاله ، ويدورون في إطاره ، ويدركون العالم ككل من داخله .

يقول آرثر كوستلر (المؤلف الانجليزي اليهودي) إن ما يعرف « بالتراث اليهودي » أو الثقافة اليهودية أمر ليس من السهل تعريفه ، إذ أن كل ما يصدر عن أعضاء الأقليات اليهودية في العالم ليس يهودياً بالمعنى المحدد ، وليس جزءاً من تراث قائم ، فالإنجازات الفلسفية والعلمية والفنية لليهود الأفذاذ . . . تتوقف على معطيات ثقافات الشعوب الأخرى وحضاراتها ، ولا تمثل عطاء حضارياً عاماً ، أو جزءاً رئيسياً مستقلاً عن التراث .

« لغات اليهود »

لعل أهم وعاء من أوعية أي موروث حضاري هو اللغة ، ومن المعروف أن اليهود لم يتحدثوا باللغة التي تعرف بالعبرية إلا فترة قصيرة جداً ، فلغة الآباء - ابراهيم واسحق ويعقوب - كانت لهجة سامية قريبة من العربية أو الآرامية ، أما العبرية فكانت لهجة من اللهجات الكنعانية ، ولم يتخذها اليهود لساناً لهم إلا بعد إقامتهم في كنعان (فلسطين) ، ويبدو أنها اختفت كلغة للحديث بين اليهود مع التهجير البابلي .

أما لغة الحديث التي كان يستخدمها أعضاء الأقليات اليهودية بعد انتشارهم في العالم في تعاملهم مع الأغيار فقد كانت في معظم الأحيان لغة الوطن الذي استقروا فيه وانتموا إليه ، أو إحدى اللغات الدولية السائدة ، فكان يهود بابل يتحدثون الآرامية ، لغة التجارة الدولية والإدارة في الشرق الأدنى القديم ، وكان يهود الاسكندرية في العصر الهليني يتحدثون اليونانية ، وبعد انقسام الامبراطورية الرومانية كان يتحدث يهود الامبراطورية الشرقية لغة هذه الامبراطورية ، أي اليونانية ، أما يهود الامبراطورية الغربية وأفريقيا وغرب أوروبا فكانوا يتحدثون اللاتينية ، وكانوا يتحدثون العربية في الوطن العربي ، وهكذا . وفي بعض الأحيان كان أفراد الأقليات اليهودية يستخدمون في التعامل فيما بينهم رطانات مكونة من اللغة الأم بعد أن تدخل عليها بضعة كلمات ومصطلحات عبرية . فيهود الأندلس على سبيل المثال كانوا يتحدثون برطانة تسمى العربية اليهودية ، ويهود اسبانيا كانوا يتحدثون اللادينو ، أما يهود أوروبا فكانوا يتحدثون اليديشية التي تحولت في مرحلة لاحقة الى ما يشبه اللغة المستقلة للحديث والكتابة ، وكان أفراد الأقليات اليهودية كثيراً ما

يستخدمون الأبجدية العبرية في كتابة هذه الرطانات في المعاملات اليومية ، مثل (الفواتير) التجارية ، أو أمور الدنيا الأخرى . ولم يكتب أحد من هذه الأقليات اليهودية أدباً ذا بال بهذه الرطانات ، سواء في العصور الوسيطة أو في العصر الحديث ، وربما يمكن استثناء اليديشية من ذلك ، فنظراً لأنها عمّرت طويلاً وأصبحت لغة مستقلة يتحدث بها معظم يهود العالم الغربي في القرن التاسع عشر قد كتب بها أدب شعبي للنساء ، وللعامة في بادىء الأمر ، ثم كتبت بها أعمال أدبية ، بعضها يرقى لمستوى الأعمال الجادة ، لكن هذه المرحلة دامت فترة قصيرة جداً ، بسبب اختفاء اليديشية .

ومع بدايات العصر الحديث وخروج اليهود من (الجيتو) وتحديثهم ، وبانتهاء تميزهم الوظيفي بدأت تختفي هذه الرطانات ، إذ أن الدولة القومية الحديثة طالبت أفراد الأقليات بأن يكون انتماؤهم القومي لأوطانهم كاملا . وقد تعرضت اليديشية خاصة لهجوم شديد ، لا سيما أن التجار اليهود كانوا يستخدمونها ، مما سهل عليهم غش الآخرين . وتظل الصورة اللغوية العامة بالنسبة لأعضاء الأقليات اليهودية في العالم - فيما يختص بالحديث ولغة المعاملات اليومية - تنبىء بأنهم يتحدثون لغة الوطن الأم أساساً .

لغـــــة التأليـــــف

أما بالنسبة للغة التأليف الديني فنجد أن العهد القديم قد كتب بعبرية العهد القديم التي اختفت كلغة حية بعد التهجير البابلي ، ولذا نجد أن لغة التلمود هي الآرامية ، ومع هذا ظلت العبرية لغة للمؤلفات الدينية في معظم الأحيان وليس كلها ، فوضع هليل وشماي مؤلفاتهم بالعبرية ، بينما وضع المفكرون اليهود في الاسكندرية في العصر الهيليني مؤلفاتهم باليونانية ، وكان موسى ابن ميمون يكتب بالعربية ، أما راشي فكان يكتب بالعبرية ، أما أدب القبالة الصوفي فقد كتب بالآرامية .

وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى القرن التاسع عشر ، حيث بدأ المفكرون اليهود يضعون مؤلفاتهم الدينية بلغة الوطن الأم . فكتب موسى مندلسون بالألمانية ، وكذا فعل مارتن بوبر ، وكل المفكرين اليهود الإصلاحيين،ويكتب كثير من المفكرين اليهود الآن في الولايات المتحدة مؤلفاتهم الدينية باللغة الإنجليزية .

أما بالنسبة للكتابات التي تقع خارج نطاق التفكير الديني من أدب وفلسفة وعلم ، والتي قام بوضعها مؤلفون يهود ، وهم قلة نادرة حتى القرن التاسع عشر ، فاللغة من البداية كانت لغة الوطن الأم ، فقد وضع فيلون السكندري مؤلفاته باليونانية ، أما موسى بن ميمون فكان يستخدم العربية ، وكذلك معظم الشعراء اليهود في الأندلس . وفي العصور الوسيطة في الغرب لم يظهر مؤلفون يهود يعتد بهم حتى القرن السابع عشر حين ظهر سبينوزا (المنشق على اليهودية) الذي كتب مؤلفاته باللاتينية ، شأنه في ذلك شأن الكتاب الغربيين في عصره . وغني عن البيان أن المؤلفات الزمنية-غير الدينية-للمؤلفين من أعضاء الأقليات اليهودية تكتب كلها في الوقت الحاضر بلغة الوطن الأم ، فيعقوب صنوع - الكاتب المصري اليهودي - قد كتب بالعربية ، وهايني وماركس كتبا بالألمانية ، وبروست بالفرنسية ، ودزرائيلي وسول بيلو بالانجليزية ، بل إن معظم (كلاسيكيات) الفكر الصهيوني قد كتبت إما بالألمانية أو بالإنجليزية . وكان هرتزل لا يعرف العبرية ولا أبجديتها ، وقد حاول في المؤتمر الصهيوني الأول أن يدخل البهجة على قلوب الحاخامات الأرثوذكس،فنطق ببعض كلمات عبرية كتبت له بالأبجدية اللاتينية ، لكنه دوّن فيما بعد في مذكراته ملاحظة يقول فيها : « إن محاولته هذه قد سببت له مشقة كبيرة ، تفوق كل متاعبه في الإعداد للمؤتمر » . وقد كان هرتزل ونوردو وكثير من

المفكرين الصهاينة الأوائل لايؤمنون بوجود ما يسمى « بثقافة يهودية » ، وقد سخر هرتزل من هذا المفهوم بصوت عال ، حينما طرحه لأول مرة في أحد المؤتمرات ، بل إن هرتزل لم يكن يتصور أن تكون العبرية لغة للوطن القومي الذي يقترحه ، فقد كان يرى أن كل مستوطن يهودي سيتحدث بلغته .

وقد نشبت في السنين الأولى من الاستيطان حرب تسمى حرب اللغة ، بين دعاة استخدام الألمانية (من أتباع الاستعمار الألماني) ، ودعاة استخدام العبرية (من يهود شرق أوروبا المؤيدين للاستعمار الانجليزي) .

رغم هذا كله تنطلق الصهيونية من مفهوم « الثقافة اليهودية » المستقلة ، بل إنها تجعل منه إحدى ركائزها الأساسية ، خاصة بعد أن انضم إلى صفوفها يهود شرق أوروبا من دعاة الصهيونية الثقافية الذين كانوا ينادون بأن اليهودية هي هوية (اثنية) بالدرجة الأولى ، لها تراثها الثقافي المستقل ، وشخصيتها الثقافية المستقلة ، ولغتها المستقلة (العبرية) ، وقد عارضتهم في ذلك ثلاثة اتجاهات يهودية :

١ ـ اليهود المتدينون الذين يؤمنون بأن اليهودية ليست مجرد تراث ثقافي ، وإنما هي انتماء ديني ، وأن اللغة العبرية لغة مقدسة (ليشون هاقدوش : أي لسان مقدس) ، لا يصح استخدامها في الحياة اليومية أو في شئون الدنيا .

٢ ـ اليهود الاندماجيون الذين كانوا يتركزون أساساً في فرنسا وانجلترا وألمانيا ، أي غرب أوروبا والذين كانوا يتركزون في الولايات المتحدة ، وهؤلاء كانوا يرون أن اليهود يكتسبون هويتهم الثقافية من الثقافات القومية المختلفة التي يتصلون بها ، وقد استبعد معظم هؤلاء كل الإشارات القومية والمصطلحات العبرية حتى من الصلوات اليهودية

٣ ـ اليديشيون أو دعاة الثقافة اليديشية الذين كانوا مركزين في شرق أوروبا التي كانت تضم غالبية يهود العالم آنذاك (في روسيا وبولندا أساساً) ، ودعاة هذا التيار يرون أن يهود شرق أوروبا يشكلون أقلية ذات شخصية ثقافية قومية مستقلة ، لكن هذه الشخصية ليست يهودية بشكل عام ، وإنما هي شرقية أوروبية ، تتحدث وتفكر وتكتب باليديشية ، وليس لها أي علاقة بالعبرية . وقد كان حزب البوند ـ أكبر تنظيم اشتراكي في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان يضم أعضاء الطبقة العاملة اليهودية في شرق أوروبا ـ من أهم المدافعين عن الثقافة اليديشية .

تحت راية وهمية

تم الاستيطان الصهيوني تحت راية الامبريالية الغربية ، والثقافة اليهودية العالمية العبرية الوهمية ، وكان المستوطنون الأوائل يرفضون أن يسموا « يهوداً » ، وكانوا يعتبرون أنفسهم « عبرانيين » ، يهدفون إلى إنشاء « دولة عبرية أو عبرانية » ، تقطع علاقتها تماماً بالتراث اليهودي . وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى منتصف الثلاثينيات ، ثم تم تبني مصطلح « الدولة اليهودية » ، بسبب إمكانياته التعبوية الواضحة ، لكن بعد إنشاء الدولة ما تزال قضية الثقافة اليهودية تلاحق الصهاينة داخل « الوطن الصهيوني » وخارجه ، فكل مهاجر صهيوني يستوطن فلسطين يحضر معه من وطنه الأصلي ثقافته الحقيقية التي تعلمها ، ونشأ عليها ، بحيث تحولت « اسرائيل » إلى ساحة صراع بين هذه الحضارات المختلفة . وقد تفاقم هذا الوضع وبحدة حينما وصل مؤخراً أعداد كبيرة من الفلاشا من الحبشة ، والفلاشا يتحدثون الأمهرية (لغة معظم أهل الحبشة) ، ويصلون باللغة الجعيزية (لغة الكنيسة القبطية هناك) . وتذكر إحدى الصحف « الإسرائيلية » ، أن معلقاً إذاعياً إسرائيلياً سأل أحد المهاجرين عن اللغة التي يتحدث بها ، ويبدو أنه لم يكن قد سمع عنها قط من قبل ، ولذا طلب منه أن يكرر الإجابة ثلاث مرات ، قبل أن يستوعب كلمة

« أمهرية » ثم طلب منه أن يشرح معنى الكلمة !

لكن الصراع الأكبر هو الصراع الدائر بين ثقافة مؤسسي الدولة ـ الاشكناز ـ من جهة ، وثقافة « السفارد » (من المتحدثين باللادينو) واليهود المستعربين من جهة أخرى . فالثقافة المهيمنة في « المستوطن الصهيوني » هي الثقافة ذات الطابع « الاشكنازي » التي تسم المؤسسات الثقافية في « اسرائيل » بميسمها . أما ثقافة « السفارد » فقد تم استبعادها على قدر المستطاع ، فلا تذكر الكتب المدرسية شيئاً عن إنجازات اليهود المستعربين داخل التشكيل الحضاري « الاسرائيلي » ، ولا عن إسهامات « السفارد » داخل تشكيل البحر الأبيض المتوسط بشكل عام ، وعلى الرغم من أن اليهود « السفارد » والمستعربين يشكلون الآن أكثر من نصف سكان التجمع الصهيوني فإن التوجه العام ما يزال اشكنازياً غربياً .

ويرى بعض دارسي المستوطن الصهيوني أن ثمة « ثقافة جديدة » متميزة آخذة في الظهور هناك ، وعاؤها اللغة العبرية الجديدة ، وأن هذه الثقافة تتخطى الانقسامات القديمة ، وتتجاوز الثقافات المختلفة التي حملها المهاجرون معهم ، ورغم أن مثل هذه الثقافة الجديدة ما تزال في طور التكوين ، باعتبار أن الاختلافات والانقسامات الثقافية ما تزال واضحة ، إلا أنه يمكن التسليم بأنه في إمكانية هذه الثقافة ـ من الناحية النظرية والمنطقية ، إن لم يكن من الناحية الفعلية أيضاً ـ أن تظهر وتكتمل معالمها بمرور الزمن . ومع هذا يمكن أن نضيف التحفظات التالية :

١ ـ إن هذه الثقافة الجديدة ، ثقافة « الصابرا » ـ أي ثقافة الاسرائيليين المولودين على أرض فلسطين ـ ستكون ذات صبغة اشكنازية واضحة ، نظراً لاستبعاد « السفارد » (واليهود المستعربين) من مؤسسات صنع القرار ، ونظراً لأن صورة الذات في « اسرائيل » اشكنازية ، ونظراً لأن أجهزة الإعلام بإدارة « اشكناز » ينظرون للعالم بعيون اشكنازية ، ونظراً لأن الأشكال الأولى لهذه الثقافة قد تم صياغتها في غياب « السفارد » ، واليهود المستعربين .

٢ ـ حينما تكتمل هذه الثقافة بأشكالها المختلفة لن تكون « ثقافة يهودية » ، وإنما ستكون « ثقافة اسرائيلية » ، تعبر عن تجربة المستوطنين الصهاينة في فلسطين ، وليس لها علاقة كبيرة بثقافات اعضاء الأقليات ، اذ سيظل هؤلاء داخل تشكيلاتهم الثقافية المختلفة ، يتفاعلون معها ، ويؤثرون فيها ، وتؤثر فيهم . ومن المعروف أن أعضاء جيل « الصابرا » لا يكنون كثيراً من مشاعر الاحترام والمودة نحو أعضاء الأقليات الذين تصفهم الأدبيات الصهيونية بأنهم شخصيات مريضة هامشية ، خانعة ، قابلة لحالة النفي كحالة نهائية . وقد حدا هذا بجورج فريدمان ـ عالم الاجتماع الفرنسي اليهودي ـ أن يسمى « الاسرائيليين » بأنهم أغيار يتحدثون العبرية ؛ أي أن مواقفهم ورؤاهم لا تختلف كثيراً عن مواقف غير اليهود ورؤاهم إلا في وعائها اللغوي .

٣ ـ لكن حتى هذا الوعاء اللغوي ـ أي العبرية التي ارتبطت دائماً بأعضاء الأقليات من الناحية الدينية ، وبأعضاء المستوطنين في كافة نشاطات حياتهم ـ قد بدأت تحيط به المشاكل . اذ كتب مواطن عربي في « اسرائيل » يسمى انطون شماس رواية بالعبرية ، تسمى «أرابيسك» ، أثنت عليها الناقدة الإسرائيلية بائيل لوتان ، وعبر الروائي الاسرائيلي « يهوشاوا » عن إعجابه بها ، وشبه كاتبها بالروائي الروسي نابوكوف الذي يكتب بالانجليزية . ويبدو أن الرواية ـ باعتبارها عمل فني جيد ـ ستفرض نفسها على الأدب العبري ، لكن كاتبها عربي فلسطيني غير يهودي ، أي أنه شخص لا يحمل عبء الوعي اليهودي ، وليس عضواً في القبيلة اليهودية ـ حسب قول لوتان ـ أي أن العبرية نفسها كوعاء يهودي قد انكسر على يد هذا الروائي العربي . □

الإقتراض الخارجي

أزمة المديونية في العالم الثالث

بقلم : نعوم ابراهيم عبود

« التنمية الاقتصادية التزام يقع على المجتمع الدولي كله ، فمن واجب الدول جميعا أن تساهم في العمل على خلق نظام اقتصادي جديد عادل ، تستطيع بظله جميع الأمم أن تحيا دون خوف أو حاجة أو بأس ، وأن تسمو الى مرتبة العضو الكامل في أسرة الأمم » .

تسعى البلدان النامية الطموحة - عقب حصولها على الاستقلال السياسي - لتحقيق تنمية اقتصادية سريعة ومتوازنة للقضاء على مظاهر التخلف الاقتصادي والاجتماعي . وقد تضطر الدولة بسبب ضعف قدرتها التمويلية من المدخرات المحلية الى الاستعانة بالقروض الخارجية التي تقوم عمليا بسد الفجوة القائمة بين الاحتياجات الاستثمارية المستهدفة والمدخرات القومية المتاحة ، فالقروض الخارجية،والخبرات الفنية،وأشكال المعونات المالية وغيرها من الدول الصديقة،تلعب دورا هاما في تسريع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وبخاصة خلال المراحل المبكرة لهذه العملية .

ويتوقف على كفية استخدام حصيلة القروض الخارجية مدى نجاح الدولة المقترضة في تخطيط مشاريع ناجحة للتنمية وتنفيذها ، يكون من شأنها تخفيف العبء الواقع على ميزان المدفوعات ، فكلما ارتفعت درجة إنتاجية مشاريع التنمية وكفاءتها زادت قدرة الدولة المقترضة على خدمة ديونها الأجنبية ، وتحمل أعبائها . ومع اطراد نجاح عملية التنمية التي لايمكن أن تتحقق تلقائيا ، والتي لا بد لها من جهد هادف ، وإرادة واعية مصممة تستطيع تدبيرها وتوجيهها ، لتجتاز البلاد النامية الطموحة مرحلة التهيؤ للانطلاق في تنميتها ، وذلك بزيادة الاعتماد على مواردها الخاصة ، وإمكانياتها الذاتية ، والقوة المتنامية لاقتصادها الوطني ، والاقلال - تدريجيا

بمقدار ثابت - من الاستعانة بالقروض الخارجية ، لتصل الى مرحلة الانطلاق التنموي ، وتوفر شروطه ، ومن تلك الشروط ارتفاع نسبة الدخل القومي المخصصة لأغراض الاستثمار المنتج ، وتحقيق الأهداف المنشودة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للبلاد .

تفاقم مديونية الدول النامية

تزايدت المديونية الخارجية للدول النامية - دول العالم الثالث - بوتائر سريعة خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، حتى غدت - في وقتنا الحاضر - تشكل أحجاما كبيرة جدا ، وباتت من الظواهر المقلقة التي تستقطب اهتمام المجتمع الدولي ، بسبب عجز عدد من الدول المقترضة عن تسديد الفوائد والاقساط المستحقة في أوقاتها ، واضطرارها الى « جدولة الديون » ، واللجوء الى المزيد من القروض الخارجية الجديدة ، لتسديد التزامات الديون القديمة ، واستخدام القروض في نفقات غير إنتاجية ، أو في مشاريع إقتصادية قليلة الجدوى ، وزيادة حدة العجز في موازين المدفوعات ، نتيجة قصور السياسات المالية والنقدية الحكيمة أو غيابها في بعض تلك الدول .

كل هذا أدى الى تطور مفزع في أرقام مبالغ القروض ، وزيادة المديونية الخارجية ، والى ارتفاع أعباء خدمة الديون (الفوائد + الاقساط) الى مستوى حرج لكثير من الدول النامية .

وتختلف أرقام المديونية الخارجية بين مصدر وآخر ، علما بأن المصدر الرئيسي لها هو تقارير البنك الدولي وصندوق النقد الدولي الذي يستقي معلوماته من الدول الأعضاء التي تستبعد عادة الديون العسكرية وبعض الديون الخارجية التي تدفع بالعملة المحلية .

وتشير تقارير البنك الدولي وبياناته إلى أن الديون الخارجية المتراكمة على الدول النامية - دول العالم الثالث - قد قدرت في عام ١٩٧٠ بمبلغ (٧٢) مليار دولار ، ووصلت الى (١٦١) مليار دولار في عام ١٩٧٤ ، ثم قفزت الى (٢٧٩) مليار دولار في عام ١٩٧٧ ، ثم الى حوالي (٨٢٨) ملياراً في عام ١٩٨٤ ، مع التنويه أن الديون الخارجية لمجموعة الدول الاسلامية قد وصلت في العام المذكور (١٩٨٤) الى حوالي (١٩٠) مليار دولار .

وفي احصائية جديدة تقدّر إجمالي مديونية دول العالم الثالث عام ١٩٨٦ بحوالي (٩٧٠) مليار دولار ، منها (٣٨٠) مليار دولار لديون أمريكا اللاتينية وحدها ، طبقا للبيان المشترك الصادر في أوائل عام ١٩٨٧ إثر الاجتماع غير العادي للمجموعة الاقتصادية لدول أمريكا اللاتينية ودول الكاريبي الذي عقد في (مكسيكو) بشأن الديون الخارجية لهذه الدول .

خدمة الديون الخارجية

يقصد بخدمة الديون مجموع الفوائد وأقساط استهلاك القروض المستحقة سنويا على الدولة المقترضة لتسديد ديونها تجاه دائنيها .

لقد بلغت خدمة الديون على بلدان العالم الثالث ككل (٢٢,١) مليار دولار في عام ١٩٧٤ ، وارتفعت بعد ذلك تباعا حتى وصلت الى ٧٦,٢) مليار دولار في عام ١٩٨٠ ، والى (١٢٥,٢) مليار دولار في عام ١٩٨٣ . وهذه المبالغ تشكل (١٤,٤٪) من قيمة صادرات هذه البلدان من سلع وخدمات في عام ١٩٧٤ ، ووصلت الى (١٧,٦٪) في عام ١٩٨٠ ، وارتفعت إلى (٢٦,٨ ٪) في عام ١٩٨٣ ، علما بأن نسبة (١٥٪ الى ٢٠٪) تعتبر حدا أقصى ، ومؤشرا خطيرا لايجوز تجاوزه .

يقول (ادوار دو ويسنر) مدير ادارة نصف الكرة الغربي بصندوق النقد الدولي - وهو وزير مالية سابق في كولومبيا - بمقال له نشرته مجلة (التمويل والتنمية) التي يصدرها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي - عدد مارس (أذار) ١٩٨٥ - ما يلي :

« إن القضية ليست في حجم الدين فقط - سواء حجمه المطلق أو بالنسبة للناتج المحلي الاجمالي - وإنما في ما اذا كان من الممكن خدمته ، ويعني هذا مقارنة بين التزامات خدمة الدين - سداد أصل الدين والفائدة - وصادرات السلع والخدمات ، وحتى اذا افترضنا أن أصل الدين لايسدد عادة وإنما يعاد تمويله فسيظل الوضع مع ذلك خطيرا » .

« ففي عام ١٩٨٣ كانت الأرجنتين تحتاج الى تخصيص (٥٤٪) من صادرات سلعها وخدماتها لدفع الفائدة على دينها الخارجي ، والبرازيل الى (٤٠٪) والمكسيك الى (٣٥٪) لنفس العام » .

ويضيف (ادوار دو ويستر) في مقاله المذكور قائلا : « من المؤسف أنه لم يحسن دائما استثمار حصيلة القروض أو استخدامها في توليد العملة الأجنبية ، أو لاستكمال المدخرات المحلية ، والواقع أنه في بعض الأوقات قد تم تمويل الاستهلاك لا الاستثمار ،

ونتيجة لذلك ارتفعت ارتفاعا شديدا نسبة خدمة الدين الخارجي الى صادرات السلع والخدمات » .

لاشك في أن قدرة الدولة على خدمة ديونها الخارجية تحكمها عوامل مختلفة ، منها : حصيلة صادراتها ، وحجم وارداتها ، واحتياطها من النقد الاجنبي ، ومدى انتفاعها من استخدام القروض الأجنبية في مشاريع التنمية التي تثبت جدواها الاقتصادية ، وقدرة المشروع الاستثماري على اعادة تسديد القرض الذي استعمل من أجله .

اعادة جدولة الديون

أدى ظهور مشكلة (أزمة المديونية الدولية) التي أخذت بالتفاقم بصورة ملموسة منذ عام ١٩٨١ الى طرح حلول لمواجهتها ، من ضمنها الحل المعروف ، وهو (إعادة جدولة الديون) كحل مؤقت قصير الأجل في إطار حلول أخرى طويلة الأجل ، تعتمد بصورة أساسية على التعديلات الهيكلية في اقتصاديات الدولة المدينة .

إن حل (اعادة الجدولة) قد برز أساساً في السنوات الأخيرة ، نتيجة غياب الحلول الفعالة الأخرى التي يمكن استخدامها لمواجهة الأزمة الحالية للمديونية الدولية أو قصور تلك الحلول ، وهذا الحل ليس جديدا ، فقد كان مستخدما منذ مدة طويلة ، وقد تكرر استخدامه في فترات سابقة على الحرب العالمية الأولى وبعدها .

وتعني إعادة (جدولة الديون الخارجية) لأي مقترض تأجيل فترة سداد الأقساط المستحقة أو التي ستستحق من أصل الدين فترة محدودة ، بشروط جديدة ، تهدف - أساسا - للتغلب على نقص السيولة لدى المدين التي تؤدي الى عدم قدرته على القيام بأعباء خدمة الدين المستحقة ، أو التي تستحق في الأمد القصير ، ولمنح الوقت للدولة المدينة لاعطائها فرصة للبدء في عملية التصحيح الاقتصادي الهيكلي ذات الآثار الطويلة الأجل وتعتمد عملية (إعادة الجدولة) على المفاوضات المباشرة بين المدين ودائنيه أو ممثليهم ، أو من خلال هيئات دولية وسيطة ، مثل نادي باريس ، وصندوق النقد الدولي ، وغيرهما .

وغني عن البيان بأن (إعادة الجدولة) لاتخفض مديونية البلد أو أعبائه المالية ، بل قد تزيدها نتيجة الاقتراض الجديد ، أو نتيجة للشروط الجديدة المفروضة على البلد المدين في اعادة الجدولة . وهكذا تصبح (الجدولة) تأجيلا لمأزق ، بل إنها أحيانا تدفع البلد المقترض الى مأزق جديد ، فيما اذا فرضت عليه شروط جديدة غير ملائمة عند إعادة الجدولة .

لذلك يجب عدم اللجوء الى (الجدولة) إلا كمنفذ أخير ، رغم أنه بديل موجود وممكن منذ البداية ، مما يتطلب تجهيز ما تتطلبه عملية (إعادة الجدولة) من معلومات واتصالات وتقدير تكاليف بالنسبة للبدائل الأخرى المطروحة ضمن الحلول المقترحة لأزمة المديونية الدولية .

إن (اعادة جدولة الديون) ما هو الا حل قصير الأجل كما أوضحنا آنفا ، هدفه توفير بعض الوقت

للبلد المدين ، حتى يتمكن من ترتيب أوضاعه الداخلية لمواجهة (أزمة مديونيته الخارجية) بالحلول الناجعة المعروفة الواجب اتباعها والتي منها :

١ ـ إعادة دراسة وتحليل الوضع الاقتصادي والمالي للبلد وتحليله ، بهدف كشف الخلل في جوانبه المختلفة ، وتقويمه بالشكل الذي يلائم ظروف البلد وأهدافه ، وإمكاناته ، وفي ظل رؤية شاملة للأمور ، وإدارة حكيمة حازمة .

٢ـ رسم سياسة رشيدة ومرنة لعلاج الاختلاف في ميزان المدفوعات ، وتخفيض عجزه ، والسعي لجعل معدل نمو الصادرات أعلى ـ ولو بقليل ـ من معدل نمو الواردات ، وتحسين ميزان المدفوعات بوضع خطة سليمة للتجارة الخارجية ، تكون مندمجة متكاملة مع خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلد .

٣ـ زيادة الاعتماد على الموارد المحلية وامكانيات البلد الذاتية ، واستخدام المدخرات الوطنية ، والقروض الأجنبية ذات الشروط الميسرة ، في مشاريع التنمية التي تثبت جدواها الاقتصادية .

٤ـ مواكبة التطور في التركيب الهيكلي لقوة العمل لمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلد ، من حيث أنواع المهارات والاختصاصات والمستويات التعليمية والتدريبية اللازمة لتحقيق زيادة الانتاج بأعلى كفاءة اقتصادية .

لاشك أن تفاقم (أزمة المديونية الخارجية) وبالشكل المرعب الذي وصلت اليه ، وكادت أن تعصف بعدد من دول العالم الثالث قد أرغمت هذه الدول أن تلجأ الى إعادة جدولة الديون ، والى اتباع الحلول الأخرى التي نوهت ببعضها سابقا ، لمواجهة أزمة مديونيتها ، ولمواصلة عملية التنمية ، ولوقف تدهور مستوى معيشة السكان .

وقد انطلقت صرخات عالية من قبل معظم قادة العالم الثالث ، تطالب بتخفيض أسعار الفائدة الحقيقية على الديون ، وتعديل شروط صندوق النقد الدولي ، ووضع حدود معقولة لخدمة الدين ، وشرع بعضهم في طرح المطالبة بإعفاء الدول النامية من ديونها المستحقة ، وبخاصة الفقيرة منها ، وأن يتحمل الدائنون الخسارة نتيجة لذلك الاعفاء .

وترددت هذه المطالب أو الأماني في مؤتمر القمة الافريقي الذي انعقد في « أديس أبابا » في يوليو (تموز) ١٩٨٦ ، وفي قمة (هراري) لمجموعة دول عدم الانحياز التي انعقدت في سبتمبر (أيلول) ١٩٨٦ ، وكذلك برزت في اعلان (قرطاج) لمجموعة دول أمريكا اللاتينية ، وقد صرح مؤخرا رئيس جمهورية (البيرو) ـ آلان غارسيا ـ أنه من أجل حل مسألة المديونية ينبغي على بلدان أمريكا اللاتينية أن ترفض ضغوط صندوق النقد الدولي ـ وأضاف قائلا : إن التاريخ نفسه يدفعنا الى الاتحاد واتخاذ قرارات موحدة بهذا الشأن .

ومنذ مدة قريبة أعلن في (مكسيكو) تأسيس جبهة موحدة لبلدان أمريكا اللاتينية . من الأهداف الرئيسية لهذه المنظمة الحديثة النضال من أجل إقامة نظام اقتصادي جديد ، وإيجاد حل عادل لمسألة تسديد الديون الخارجية .

وإني مع القائلين على بقية الدول النامية ـ دول العالم الثالث ـ أن توحد جهودها مع دول أمريكا اللاتينية ، للوقوف في وجه ضغوط الدول والجهات المقرضة ، والتعاون معا لايجاد مخرج عادل ومشرف لأزمة (المديونية الدولية) التي أصبحت قضية ساخنة مرعبة في عصرنا الحاضر ، وذلك من خلال إعادة تنظيم العلاقات الاقتصادية الدولية . □

■ الجميع أمام المال من دين واحد . (فولتير)

إقرأ
في العدد
القادم
من

العربي اكتوبر ١٩٨٧

استطلاعات

البحرين
ساعة لربك
وساعة لقلبك
سليمان مظهر

اليمن الشمالي:
مشاريع على
طريق التنمية
صادق بلحي

لوحات "روبرتس"
تحط رحالها
في الكويت
عبد الغني عبد الله

- عصر المواجهة بين الدائنين والمدينين / د. رمزي زكي
- صاحب قديم! / د. عبد السلام العجيلي
- فن القصة القصيرة في أمريكا اللاتينية / د. حامد أبو أحمد
- طعام المستقبل / ابراهيم عبد الله العلو
- بعد أن يموت السيد! / د. محمد المنسي قنديل
- طفيليات يمكن أن تعيش على كبدك / د. سامي محمود علي
- الموسيقا العربية المعاصرة / سليم سحاب
- التنبؤ بالاحوال الجوية عبر الأقمار الصناعية / طاهر بكر القيسي
- النخالة البيضاء / د. محمد عبد الله المشاري
- كتاب الشهر: البترول ولعبة السياسة الدولية / عرض: جمال وردة
- وجهاً لوجه: حنا مينا وأبو المعاطي أبو النجا

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - فتحي رضوان - فهمي هويدي - محمد الشارخ
فاروق شوشة - د. كمال زاخر لطيف - عبد السميع المصري - يوسف طافش



اللعاب

في الصحة والمرض

بقلم : الدكتور محمد الكبرا

لا نتعمق في أي وظيفة من وظائف الجسم إلا ونجد فيها عظمة الصنع ، والدقة في أداء العمل . وعلى هذه الصفحات سنستكشف أهمية اللعاب، ووظيفته الهامة التي يقوم بها .

إن الغدد الفارزة للعاب إما أن تكون غدداً كبيرة أو صغيرة ، والغدد الكبيرة مؤلفة من ثلاثة أزواج ، وهي الغدتان النكفيتان ، والغدتان تحت الفك ، والغدتان تحت اللسان وهي تفتح جميعا على باطن الفم ، أما الغدد الصغيرة فمؤلفة من مجموعة خلوية غدية عنبية موزعة في الفم والبلعوم والحنك والشفتين .

١ ـ الغدة النكفية : وهي أكبرها وموضعها تحت مجرى السمع الظاهر وأمامه ، وعلى القسم الصاعد من الفك السفلي ، وهي غير منتظمة ، هرمية الشكل تقريبا ، تنقسم إلى قسمين ، قسم سطحي ، وقسم عميق ، تمر بينهما فروع العصب الوجهي ، وتخرج من الغدة قناة مفرغة للعاب تسمى قناة (ستينون) ، حيث تسير في باطن الخد ، وتنفتح داخل الفم مقابل

الرحى الثانية العلوية .

الغدة تحت الفك : يقدر حجمها بنصف حجم الغدة النكفية ، وهي تحتل المسافة بين الحافة السفلية للفك السفلي بقرب زاويته السفلية والعظم اللامي Hoyoicl ، وتخرج من الغدة قناة تسمى قناة وارطون ، تسير إلى الأمام ، وتفتح من خلال الغشاء المخاطي لأرض الفم،وقريباً من الخط المتوسط .

الغدة تحت اللسان : وهي أصغر غدة ، يقدر حجمها بنصف حجم الغدة تحت الفك ، وتوجد على طول القسم الأمامي الوحشي ـ (أي البعيد عن الخط المتوسط) ـ من أرض الفم،تحت الغشاء المخاطي مباشرة ، لها عدة أقنية مفرغة ، أكبرها تسمى قناة ريفينوس اوبارتولان . وتفتح في ذروة الحليمة اللسانية .

كيفية تشكل اللعاب وإفرازه :

يتشكل اللعاب من حصيلة ثلاثة أمور :

١ ـ يرشح من الدم إلى خلايا الغدة الماء ، والشوارد ، وبعض الجزئيات ، وتقوم الخلايا العنبية بخزنها .

٢ ـ تقوم الخلايا العنبية بصنع بعض المواد الموجودة في اللعاب ، مثل خميرة الأميلاز والمخاطين والغلوبيوليتات المناعية ، وتفرزها إلى القناة الأنبوبية مع ما وصل إليها من الدم .

٣ ـ تقوم القناة الأنبوبية بامتصاص بعض المواد المفرزة ، وذلك كي تحصل على لعاب منخفض التوتر ، ثم تطرح بعد ذلك للقناة الرئيسية للاطراح .

تقع الغدد اللعابية تحت تأثير الضبط العصبي ، فالإفراز اللعابي له منعكس بطريق صادر وآخر وارد ، وهذا المنعكس ضروري لكي يكون الإفراز

اللعابي سريعا ، حيث أن الطعام يبقى فترة قصيرة في الفم ، وبالتالي فمن الضروري أن يكون الإفراز سريعا ، فالضبط العصبي للغدد يؤمن هذه السرعة ، ولولاه لانقطع اللعاب ، وأصاب الغدد اللعابية الضمور .

العوامل المؤثرة على إفراز اللعاب :

١ ـ إفراز الراحة أو الأساسي : إن الحفاظ على الليونة والسطح الرطب للغشاء المخاطي للفم والبلعوم يعتمد على الإفراز المستمر لكمية قليلة من اللعاب ، وهذا الإفراز يخدم أيضا في التنظيف والفعالية المضادة للجراثيم ، ويعتبر واحداً من عناصر آلية العطش ، ولهذا الإفراز أهمية أيضا خلال فترات تناول وجبات الطعام ، وأثناء النوم ، وهذا النوع من الإفراز اللعابي يسمى بإفراز الراحة أو الأساسي .

وتفرز الغدة تحت الفك كمية أكبر مما تفرزه النكفيّة بثلاث مرات أثناء الراحة ، والغدة تحت اللسان تفرز أقل من ٥٪ من الإفراز الكلي ، وينقص إفراز الراحة أثناء النوم ، وبالتمارين الشديدة والشد الفكري ، والخوف . إن حركات الفم والفك (تثاؤب ـ بلع) تحدث زيادة عابرة في إفراز الراحة ، ثم ينقص بعد ذلك ، وربما تعود الزيادة إلى الضغط الآلي على الغدة أو بتنبيه انعكاسي للآلية القابضة في الغدة . وإن هذا الإفراز (الأساسي) يحدث بسبب انعكاسي لجفاف الفم والبلعوم ، وبعض الخلايا الإفرازية ربما تفرز دون التأثر بعوامل عصبية أو خلطية ، كما أن الغدد الصغيرة لها خاصية الإفراز التلقائي أثناء الراحة .

٢ ـ الإفراز بالتنبيه : يحدث هذا الإفراز استجابة لعدد من المنعكسات وهي :

الإفراز اللعابي بالاستجابة إلى تناول الطعام ، وهذا الإفراز ناجم عن مجموعة من المنعكسات تحدث بشكل متلاحق وهي :

١ ـ إفراز بالمنعكس الشرطي بالاستجابة للتفكير والنظر والشم .

٢ ـ المنعكس الإفرازي الطبيعي المثار بالمضغ .

٣ ـ الاستجابة لمنعكسات تنبيه مستقبلات الذوق ومستقبلات اللمس الفموية .

٤ ـ إفراز بتأثير المنعكس البلعومي المريئي اللعابي .

٥ ـ إفراز بتأثير المعدي اللعابي أثناء مرور اللقمة الطعامية إلى المريء والمعدة . ويحدث عن تنبيه مخاطية المريء أو تمدده منعكس سيلان لعابي ملحوظ بشكل جيد ، وبلع اللعاب يثير الحركات الحيوية للمريء الذي يساعد بدوره على انزلاق اللقمة الطعامية إلى المعدة .

إن مجموع ما يفرز من اللعاب يتراوح بين ٥,٠ ـ ١,٥ لتر يوميا ، ومعظمه يفرز أثناء وجبات الطعام .

ويفرز منه أثناء الراحة معدل ٢٠ مل/ ساعة .

وقد وجد أن هناك مادة في اللعاب تحرض على الإفراز اللعابي لو تم حقنها في الدم .

الأدوية المؤثرة على الإفراز اللعابي :

من خلال دراستنا لآلية إفراز اللعاب وجدنا أن الأدوية المؤثرة على إفراز اللعاب قد تكون مثيرة أو مثبطة للإفراز . وهذه الأدوية تعمل في أماكن مختلفة على طول الطريق العصبي للغدد اللعابية ، وتنقسم كالتالي :

١ ـ الأدوية المنبهة للمستقبلات المحيطية :

السكروز ، ومحاليل حمض الليمون ، وحمض الخل ، والقلويات اللاذعة ، تزيد إفراز اللعاب ، بتنبيهها مستقبلات الذوق .

كما يزداد الإفراز في حال التسمم بالرصاص ، والتدخين ، وبعض المخدرات كالإيتر ، والكلوروفورم ، والسيكلوبروبان ، إذا طبقت موضعيا ، وذلك بتخريشها مخاطية الفم .

كما أن الليغنوكائين **lignocaine** ، والكوكائين ، ينقصان الإفراز ، بتخديرهما الموضعي .



٢ ـ الأدوية المؤثرة مركزيا :

إن الاستركنين **Striknine** والبيروتوكسين **Picrotoxine** والكوكايين **Cocaine** والرزربين **Reserpine** تزيد الإفراز اللعابي ، وكذلك الأدوية المسببة للغثيان ، والقيء ، وهذا يحدث بشكل انعكاسي ، أو بتأثير مركز التقيؤ في البصلة السيسائية أو بإثارة منطقة المستقبلات الكيماوية للتقيؤ في البصلة ، ومن هذه الأدوية المورفين ، وأبو مورفين ، وديجيتال ، أما المواد المخدرة فتنقص الإفراز بتخديرها منعكسات اللعاب .

٣ ـ الأدوية المؤثرة على النهايات العصبية الذاتية للغدد اللعابية :

أ ـ الأدوية المقلدة لنظير الودي : تزيد هذه الأدوية الإفراز بشكل غزير ، ومنها الاستيل كولين والبيلوكاربين **Pilocarpine** والميكوليل **Mecholyl** والأدوية المضادة لخميرة الكولين استراز .

ب ـ الأدوية الحالة لنظير الودي : وعلى رأسها الاتروبين والاسكوبولامين Scopolamine .

جـ ـ الأدوية المقلدة للودي : وهذه الأدوية تحدث الإفراز أقل بكثير مما تحدثه الأدوية المقلدة لنظير الودي ، ومنها الأدرنالين ، وأفدرين ، وايزوبرنالين ، وامفيتامين .

٤ ـ أدوية مؤثرة على الجهاز العصبي الذاتي مثل :

المخدرات العامة ، والباربيتورات ، ومضادات الهستامين ، وهذه أدوية تنقص اللعاب بتأثيرها المثبط للجملة العصبية المركزية .

وآلية عمل الجهاز الدفاعي في اللعاب ضد الجراثيم هي :

أ ـ يقوم اللعاب بعمل آلي صرف في إزالة الجراثيم من الأسنان ومخاطية الفم ، وتحمل هذه في معلق ، ثم تبتلع ، لتقتل في عصارة المعدة الحامضة .

ب ـ إن الكريات البيضاء في اللعاب يمكن أن تبلعم الجراثيم بواسطة بالعاتها ، وتحطمها بواسطة خمائرها .

جـ ـ إن اللوكوتاكسين LEUCOTAXIN في اللعاب يحدث انجذابا كيماويا للكريات البيض ، لتهاجر إلى اللعاب ، ولتقوم بعمل البلعمة للجراثيم ، وهذا يحدث بشكل خاص إذا كان هناك رض في مخاطية الفم .

د ـ إن الأوبسونين OPSONINS موجودة في اللعاب ، وتزيد من قابلية الكريات البيض على فعل البلعمة .

هـ ـ الأجسام الضدية وعلى رأسها الغلوبيولين المناعي I g A ، وهو جسم ضدي ، يعمل بشكل عام على مقاومة الجراثيم التي على سطح الغشاء المخاطي ، وحلها وتحليلها .

تركيب اللعاب :

١ ـ العناصر غير العضوية :

إن الشوارد الرئيسية في اللعاب هي الصوديوم ، والبوتاسيوم ، والكالسيوم ، والمغنزيوم ، وترافقها شوارد الكلور ، والبيكربونات ، مع كمية قليلة من الفوسفات ، والسلفا ، كما أن هناك كميات ضئيلة جدا من التيوسياتات ، واليود ، والأزوت ، والفلور .

إن مستوى هذه الشوارد يتأثر بمصدر اللعاب ، والجنس ، والعمر ، ومعدل الإفراز ، ونوعية المنبه ، وتركيز هذه الشوارد في المصل ، والغذاء ، وحالة المرض .

واللعاب بتركيبه قريب من تركيب السائل داخل الخلايا من حيث نوعية شوارده .

٢ ـ العناصر العضوية :

إن اللعاب يحتوي على حوالي ٣٠٠ ملغ/ ١٠٠ مل من البروتينات ، وكمية البروتين في اللعاب تحدد صفات اللعاب من حيث اللزوجة واللصوقية ، كما تختلف نوعية البروتين من غدة إلى أخرى ، فكمية الاميلاز الكبرى من الغدة النكفية ، بينما المخاطين (البروتين المخاطي) من الغدة تحت الفك .

ولكن اللزوجة الكبيرة تعود للعاب الغدة تحت اللسان ، حيث مقدار اللزوجة ١٣,٤ ، وللعاب الغدة تحت الفك مقدار ٣,٤ ، وللغدة النكفية مقدار ١,٥ ، وذلك يعود إلى كمية المخاطين فيه ، وعدا عن البروتينات المخاطية والاميلاز هناك أنزيمات أخرى ، ذات تركيب بروتيني ، مثل الغلوبيولين المناعي آوج IgA و IgG . والـ IgA ، وتركيزه في اللعاب أعلى بعشرة أضعاف منه في الدم ، وهذا يدل على صفة في الغدد اللعابية ، ومن الأنزيمات الفوسفات القلوية ، والحامضة ، والليباز ، وبروكسيداز ، وكاليكرين ، ودي هيدروجيناز ، وكاربونيك انهيدراز ، ولاكتوبيروكسيداز ، ولاكتوفررين .

كما يرشح في اللعاب البولة ، وحمض البول ، وهو يعكس مستوييها في الدم ، أما الجلوكوز فلا يزداد مع زيادته في الدم .

وظائف اللعاب :

إن كل ما تحدثنا عنه جاء ليسهل علينا فهم كيفية قيام اللعاب بوظائفه ، فالآلية التي يفرز فيها اللعاب ، وطبيعة تركيبه لم تكن كذلك الا لتخدم وظيفة على اللعاب أن يقوم بها .

ووظائفه كثيرة ، نستعرضها فيما يلي :

أ ـ وظيفة اللعاب في الحفاظ على صحة الفم :

يقوم اللعاب بوظيفته هذه بالطرق التالية :

١ ـ الترطيب : إن اللعاب يبقي مخاطية الفم والبلعوم رطبة ، وهذا مهم لصحة الفم ، ولولا ذلك لحصل جفاف ، وتقشر في المخاطية ، مما يؤدي إلى غزو الجراثيم .

٢ ـ التليين للمضغ والبلع : إن اللعاب يلين الطعام ، ويطريه ، ويسهل ذلك في فعل المضغ ، وحركات اللسان ، وفي تشكيل اللقمة الطعامية الطرية ، ليسهل انزلاقها في المريء .

٣ ـ التليين للكلام : إن ترطيب الفم وتطريته أساسي للكلام ، ، وإن الحركات المشتركة للسان والشفتين لإنتاج الأصوات يتطلب ذلك ، فلولاه لما حصل كلام واضح ، وإن الكلام الطويل أيضا يحتاج إلى رشفات متكررة من الماء ، بسبب التبخر الكبير للعاب أثناء الكلام .

٤ ـ دور المخاطين : إن هذه المواد تلعب دورا هاما في تنظيف الفم وتليينه ، وتمنع تراكم بقايا الطعام ، والأنقاض الخلوية ، والجرثومية ، عدا عن أنها تسهل حركات الشفتين والخدين واللسان ، وتنقص من معدل تبخر الماء من اللعاب ، كما أنها تثبط عمل بعض الخمائر الحالة للبروتين ، ولها دور في الخاصية الدارئة للعاب .

٥ ـ التمديد والتبريد والتسخين : إن اللعاب يسيل بغزارة كبيرة عند تناول المحاليل ، وبخاصة الحامضة ، فيعدل من حموضتها ، ويمنع فعلها المؤذي ، كما أنه يسخن الطعام البارد ، ويبرد الطعام الساخن .

٦ ـ الفعل الداريء : أي أنه يحافظ على التوازن الحامضي القلوي ، ويمنع أو يخفف أي تغير ملحوظ في نسبة شوارد الهيدروجين الموجودة في المحاليل ، (وهي التي تحدد نسبة الحموضة والقلوية P H) ، وهي التي قد تؤذي مخاطية الفم ، وقد تؤثر على عمل خمائر اللعاب ونشاطها ، وكذلك الحفاظ على هذا التوازن مهم للمحافظة على الزمرة الجرثومية الطبيعية للفم ، وحتى لا تحدث النخرات السنية ، وتتطور . وإن البيكربونات هي الدارئة الكبيرة في اللعاب ، كما أن للبروتينات المخاطية (المخاطين) ، والفوسفات دورا صغيرا في ذلك الفعل الداريء .

٧ ـ الفعالية المضادة للنخرة السنية : لقد لوحظ أن ازالة الغدد اللعابية عند الفئران تسبب لها زيادة ملحوظة في النخرة السنية ، وهذا يحدث عند الإنسان عندما ينقص إفراز الغدد اللعابية بشكل كبير . ويقوم اللعاب بحماية الإنسان بعدة سبل :

أ ـ يقدم بعض المعادن لتغذية السن قبل بزوغه .

ب ـ الكالسيوم وفوسفات اللعاب يعملان على منع انحلال السن .

جـ ـ تتشكل طبقة من البروتينات السكرية اللعابية ـ تسمى اللويحات PLAQUE ـ تنقص أثر الاحتكاك الحادث بالتخريش والحت .

٨ ـ الفعالية المضادة للجراثيم : إن الجراثيم التي توجد بشكل طبيعي في الفم كثيرة جدا ، فالوسط الحار الرطب داخل الفم ملائم لنمو الجراثيم ، كما أن اللعاب يحتوي على أحماض أمينية وبعض المواد الازوتية الأساسية لنموها ، كما أنه يسمح لها بالدخول إلى الفم أثناء تناول الطعام ، وأثناء التنفس عن طريق الفم ، لذلك فبقدر ما تكون الجراثيم الموجودة في الفم والداخلة كثيرة بقدر ما يجب أن يكون الجهاز الدفاعي ضد الجراثيم قويا ، وهذا ما هو موجود فعلا في اللعاب ، حيث أنه يثبط نمو الجراثيم ، وإلا تحدث انتانات كثيرة في الفم والأسنان .

□

هل كان الرجل المريض مريضا؟

بقلم : فتحى رضوان

في الأيام القليلة الماضية ، حدثت هجمة على إحدى القرى التركية ، وكان المهاجمون من أفراد منطقة مجاورة ، فجرحوا وقتلوا أكثر من ثلاثين شخصا من بينهم النساء والأطفال والشيوخ ، ولما وصلت انباء هذه المذبحة تأثر الاتراك ، ولكن زاد من حزنهم أن تعليقات وكالات الانباء الدولية كانت مشوبة بنغمة شماتة ، فقد ذكّروا الاتراك بما اقترفته أيديهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من مذابح في البلاد التي كانت خاضعة آنذاك لحكم الاتراك ، كمنطقة الأرمن والبلغار واليونان وجربب ورومانيا . وقد تداعت لهذه المذبحة الشرسة ، ولما صاحبها من تعليقات صحف الغرب ، ذكريات الحملة التي نظمتها دول أوربا الغربية مثل بريطانيا وفرنسا والتي انضمت اليها روسيا ضد تركيا ، وكان هدف هذه الحملة التي اتسع نطاقها ، وتلونت وتعددت وسائلها ، تشويه صورة تركيا ، وإظهارها في صورة الدولة الهمجية التي تتذرع بالمدفع والبندقية والخنجر في حكم رعاياها من المسيحيين ، والتي تفككت أوصالها ، وتدهورت أجهزة حكمها ، وتوقفت المدارس والمعاهد عن التعليم ، والمحاكم عن إلقضاء العادل ؛ وتوقف موظفوها عن أداء واجباتهم لتدني مستواهم ، وانعدام تدريبهم ، ولحرصهم الشديد على اقتضاء الرشوة والحصول على الثراء بفضلها ابتزازا من الرعايا ، سواء كانوا مواطنين تابعين للدولة أو كانوا من غير المسلمين .

ولقد تواصى كتاب الغرب ، وصحفيوهم ، ومؤرخوهم على استعمال « نعت » لتركيا إمعانا في النكاية ، ومبالغة في التشهير ، راح علما على تركيا ، ذلك هو لقب « الرجل المريض » في اوروبا أو « رجل اوروبا المريض » وقد استعمل هذا اللقب أول ما استعمل في النطاق الدبلوماسي الضيق ، أي في المراسلات بين رؤساء الدول وسفرائهم ، اورؤساء الدول وزملائهم أو مندوبي الدول فى ندواتهم المغلقة أو مؤتمراتهم الخاصة . فلا يقول سفير روسيا في لندن مثلا لقيصره : ان تركيا قالت او فعلت ، بل يقول قال الرجل المريض او فعل الرجل المريض ، فيفهم المرسل اليه من المقصود بهذا اللقب .

ثم خرج هذا اللقب من النطاق الخاص الى نطاق واسع قليلا ، فأصبح الحديث في قاعات (البرلمانات) وجانبها يدور على الرجل المريض بغير حاجة الى تعريف ، ثم تلقف بعض المؤرخين ذوى القيمة والاعتبار هذا اللقب ذاته ، فأطلقه باعتباره اصطلاحا علميا من قبيل أن تسمى الارض (البسيطة) أو الشمس (الجوزاء) .

القيصر مبتدع التسمية

ويقال أن أول من اطلق لقب الرجل المريض هو قيصر روسيا نيقولا الاول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) وذلك في حديثه مع اللورد ابردين رئيس وزراء بريطانيا ، ـ وكانا صديقين حيمين ـ في قصر وندسور أثناء حديث متبادل . الا أن الرجل نفسه فقد قدرته على ضبط النفس في لحظة غضب ، فقال لأحد محدثيه سنة ١٨٣٣ « ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى ، ان الدولة العثمانية دولة ميتة ، ولا أظن ان هذا الجسم العجوز سيقوى على المحافظة على الحياة ، إنه في حالة انحلال في جميع النواحي » .

ولم يكن قيصر روسيا بطبيعته مؤرخا ولا دارسا ممن تخصصوا للحكم على الدول ،إنما كان يقوم بهذه الحملة توطئة لتوزيع الممتلكات العثمانية اشلاء بينه وبين امبراطورية بريطانيا ، وقد عرض فعلا آنذاك أن تأخذ بلاده الاستانة ،وتأخذ من المضايق التركية البسفور وتأخذ بريطانيا الدردنيل ، وتحتل بريطانيا مصر وتأخذ كريت إن شاءت الى آخر هذه القسمة .

ولم تكن الحملة التي شنتها أوروبا في قسوة وضراوة ، وفي إصرار ومواظبة ، ضيقا بجسم فقد الحياة يعترض سبيل سيرهم ، بل كان الواقع انهم هم الذين فعلوا كل شيء في وسعهم ليثخنوا الدولة العثمانية جراحا ، وكان يسرهم أن يروا الدم ينزف من هذا الجسد الذي كان مليئا بالحيوية ، فياضا بالقوة ، والذي بسط نفوذه على كل شرقي اوروبا ، والذي هددت جحافله بغزوة ساحقة لفيينا عاصمة النمسا ، وكانت آنذاك امبراطورية مترامية الافاق ، ذات شهرة ضخمة ، وكان اسمها امبراطورية النمسا والمجر يملأ الاسماع . وكان شرقي آسيا وشمال افريقيا وجزر البحر الابيض كلها من ممتلكات الدولة العثمانية تديرها بكفاية واقتدار ، وقد بذل الغرب كل جهد ، وتوسل بكل وسيلة ليحول الامبراطورية العثمانية بملكها الشاسع في البر ، واساطيلها الماثلة في البحر الابيض الى خبر كان ، وتعجلوا الامر بأمل أن تلفظ الدولة العثمانية انفاسها وتستسلم للموت واعتبروها رجلا مريضا ، عاجزا عن الدفاع عن نفسه ، مستسلما لضربات القدر التي توالت عليه بشكل ثورات في شرق أوروبا ، واضطرابات في الاقطار العربية ، ومؤامرات ومكائد ودسائس في المحافل الدولية .

هل كان مريضا حقا ؟

ولكن هل كان الرجل المريض مريضا ، أم أنه كان ـ على الرغم من كل المصائب والمحن ، والمكائد ـ انسانا متمتعا بالقوة والقدرة على المناورة والمداورة والقتال والنزال . . ؟!

سنأخذ موضوع فلسطين والرغبة في الانقضاض عليها ، واقتطاعها هدية للصهيونية التي بدأت تطل برأسها في أخريات القرن التاسع عشر . . فماذا فعل الرجل المريض في هذه المكيدة الجديدة ؟

بادىء ذي بدء ، لما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ أصدر فرمانا (أي قانونا) بمنع هجرة اليهود الى سيناء . ولما تولى سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية سنة ١٥٢٠ أصدر فرمانا (قانونا) ثانيا بتأكيد حكم القانون السابق . وبعد وفاة سليمان القانوني بعد ست وأربعين سنة من الحكم خلفه سلاطين ضعاف فتنفس اليهود الصعداء فنزحوا في هجرات متقطعة الى سيناء ،وأدركوا أن

الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلمهم القديم ، وقد ركزوا هجراتهم أول الامر على الاستيطان في مدينة الطور ، تزعم حركة الهجرة الى الطور طبقا لوثائق ذلك العصر ابراهيم اليهودي ، استوطن ابراهيم هذا مع اولاده وباقي أفراد أسرته مدينة الطور . وكان من الممكن أن تستمر هذه الهجرة لعدة سنوات في غفلة من السلطات ، لولا أن اليهود حينما استقر بهم المقام في الطور تعرضوا بالأذى لرهبان سانت كاترين الذين بدأوا يشكون كتابة وشفاها ، وجاءوا الى مصر ، وكانت شكاياتهم تقوم على أن دير سانت كاترين هو مكان مقدس فلا يسوغ أن يتعرض لهم بالاذى أقوام وافدون ليسوا من أهل المنطقة ولا صلة لهم بها ، وان هجرة اليهود الى هذه المنطقة بصورة ملفتة للنظر مما يدل على أنهم ينوون أمرا ، واهتمت السلطات العثمانية فأصدرت ثلاثة قوانين مانعة لليهود من الهجرة الى سيناء ، وقد تلا ذلك إخراج ابراهيم اليهودي من سيناء . وصدر قانون سد باب التحايل في وجه هجرة اليهود مقررا أن زيارة السائح لسيناء لا يجوز أن تزيد عن ثلاثة أشهر حتى لا يكون السفر بقصد السياحة سبيلا الى الاستيطان .

بعد الاحتلال البريطاني

ولكن الايام تغيرت واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ فتشجع اليهود بنظام الحكم الجديد ولا سيما بعد أن بقي السلطان التركي عبد الحميد الثاني ، على اتباع سياسة تركيا القديمة القائمة على منع هجرة اليهود الى فلسطين ، فشمر زعيم الصهيونية ومؤلف كتاب الدولة اليهودية عن ساعد الجد ، وتصور أنه قادر بما وراءه من نفوذ الغرب ، وأموال الصهاينة وضغوط دوائر المال والاقتصاد على أن ينتزع من سلطان تركيا قرارا بفتح باب الهجرة الى فلسطين أمام اليهود . وقد دخل هرتزل فعلا في مفاوضات مع بعض أعضاء الوزارة البريطانية ، وكان منهم جوزيف تشمبرلن وزير المستعمرات واللورد لانسدون وزير الخارجية لتوطين اليهود في سيناء على أساس إقامة دولة يهودية فيها تتمتع بالحكم الذاتي في نطاق الامبراطورية البريطانية ، ووافق الوزيران على الاقتراح من حيث المبدأ ، وكان ترحيب هذين الوزيرين بهذا الاقتراح أساسه أن الدولة اليهودية ستتولى حماية قناة السويس ، وعزل مصر عن الولايات العربية في الدولة العثمانية واضعاف الدولة العثمانية بوضع شوكة في جنبها تزداد مع الايام كبرا ، وتأديبا لدولة الاتراك على تقاربها من الألمان .

وبعد مفاوضات طالت تألفت لجنة من ثمانية أعضاء قال الانجليز انهم يمثلون مصر ، مع أن الدكتور عبد العزيز الشناوي يقول أنه ليس في أسماء هؤلاء الاعضاء اسم واحد يتفق مع الأسماء المصرية . وكانت مهمة اللجنة تهيئة أسباب توطين اليهود في سيناء وانشاء مجالس بلدية يهودية في أنحاء سيناء . وانتهت اللجنة الى أن سيناء تصلح لتوطين اليهود ، واقترحت أن تكون العريش هي البداية . وكان صدور قرار هذه اللجنة في سنة ١٩٠٣ وكان من بين شروط إقامة هذه الدويلة أن تحول مياه النيل الى سيناء ، ولكن جاء الانقاذ من رجل بريطاني هو اللورد كرومر الذي كان معتمد بريطانيا في مصر بلقب قنصل جنرال ، لأن المياه المطلوبة من النيل تؤثر على المساحة المزروعة في مصر . وأرسلت الحكومة البريطانية مذكرتين آخرهما كانت بتاريخ ١٩٠٣/٧/١٦ أنهت فيها الى هرتزل أن حكومة بريطانيا عدلت عن مشروع إنشاء دولة في سيناء لليهود .

عندها استدار هرتزل الى السلطان عبد الحميد للضغط عليه بكل وسيلة متاحة لحمله على الموافقة على المشروع الصهيوني ، وكان السلطان عبد الحميد يجسد بشخصه وبمظهره وبما ينسب إليه وبتسرعه الرجل المريض تماما . وتصادف أن اليهود تعرضوا لموجة من الاضطهاد والتعذيب في روسيا ، وكانت

السلطات الروسية قد انتهزت فرصة اغتيال القيصر اسكندر الثاني فاتهمت اليهود في قضية اغتياله، وساقتهم مئات بعد مئات الى السجون، حيث عانوا عذابا رهيبا، وقصدوا القنصلية العثمانية في ميناء اودسا بروسيا الوفا وراء الوف ليحصلوا على تأشيرة دخول لفلسطين، وجاء الرد من الحكومة المركزية في استانبول برفض هذه الطلبات. وقصد اليهود المستر لويس ولاس سفير أمريكا في استانبول ليضغط على الدوائر التركية لتمنح إجازات دخول لفلسطين، وذهبت هذه الجهود سدى، فقصد اليهود أفواجا الى يافا بدون إذن دخول لفلسطين، وارادوا أن يدخلوا عنوة، ولكن السلطان أمر حاكم القدس بأن يمنع أي يهودي قادم من روسيا او رومانيا أو بلغاريا، كذلك صدر أمر بمنع دخول اليهود من موانيء بيروت واللاذقية.

مؤتمر بال

على هذا النحو، حاصرت الدولة العثمانية مولد نشأة الحركة الصهيونية. وكان الصهاينة قد عقدوا المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال السويسرية سنة ١٨٩٧ بقيادة تيودور هرتزل الصحفي النمساوي الذي سلمت اليه الاشارة، وكانت الحركة الصهيونية بعد ثلاثة أيام من الانعقاد في مؤتمر بال، قد كسبت قوة وثقة النفس.

ولم ييأس هرتزل من صدود السلطان عبد الحميد المستمر، فتوسل بأكثر من شخصية عالمية في الغرب، ليسمح بلقائه في قصره الملكى في استانبول، وتمت المقابلة في اليوم السابع عشر من مايو سنة ١٩٠١ وكان مع هرتزل اثنان من أقطاب الحركة الصهيونية. وجاءت بعد هذه المقابلة مقابلتان عرض خلالها هرتزل مشروعا صهيونيا خلاصته أن يصدر السلطان قرارا بالسماح لليهود الاجانب بالهجرة الى فلسطين والتواطن فيها ومنحهم قسطا كبيرا من الحكم الذاتي مقابل أن يدفع اليهود عند صدور الفرمان مبلغا كبيرا من المال قدر بثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترالية ثم تدفع الدولة اليهودية بعد ذلك جزية سنوية.

وأطال عبد الحميد صبره على هرتزل وأفسح له صدره، فتكلم الرجل وأفاض وظن أنه نجح في استمالة سلطان الاتراك وأن الطريق بات مفتوحا أمام الصهاينة. وفوجيء هرتزل في آخر المطاف برفض بات للمشروع الصهيوني، وخرج هرتزل شاعرا بخيبة الأمل وبالحسرة، ولم يطل عمره فقد مات في ١٣ يوليو سنة ١٩٠٤.

وقد تحدث جمال الدين الافغاني ـ وكان يجالس السلطان عبد الحميد ـ عن مواهبه السياسية وقدرته على اخفاء عواطفه، فقال: لو وزن السلطان عبد الحميد مع أربعة من نوابغ عصره لرجحهم.

ولعله يجدر بي أن اختم هذه العجالة بآخر عبارة نطق بها السلطان عبدالحميد موجهة لهرتزل:

«انصحوا هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع، موضوع توطين اليهود في فلسطين، فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الارض ورواها بدمه فليحفظ اليهود ملايينهم، وإذا مزقت امبراطوريتي يوما فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من امبراطوريتي، انى لا استطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن أحياء» لقد قال القيصر الروسى ان تركيا بلد مات وكان ذلك من سنة ١٨٣٥ ولكن تركيا بقيت بعد هذه المقولة نحو مائة عام، وقاومت الاستعمار الغربي في البر والبحر، في السياسة والحرب، وعجزت الصهيونية بكل ملايينها وبنفوذها السياسي ودسائسها أن توطن يهوديا واحدا او تنشيء مستعمرة بموافقة الدولة العثمانية، فالرجل المريض لم يكن مريضا، ولو تنبه العرب الى أهمية شفاء الرجل المريض لتغيرت الاحوال. □

الشتاء النــووي

بقلم : الدكتور سعود عياش

حتى سنوات قليلة مضت كانت هناك قناعة سائدة بأن الآثار التدميرية للحرب النووية ستقتصر على الفرقاء المتخاصمين ، وان هذه الآثار ستكون موضعية الطابع ، إذ ستقتصر على المراكز التي تتعرض للضرب بالأسلحة النووية والمناطق المحيطة بها . غير أن القناعات الحديثة تشير إلى صورة مختلفة تماما .

ان الدمار المتوقع من جراء التفجيرات النووية لن يقتصر على المتخاصمين فقط بل سيمتد ليشمل المتحاربين والمحايدين وقسماً كبيراً من الأنواع الحية الأخرى ، نباتية وحيوانية . ان الأخطار الجسيمة التي ستنجم عن صدام نووي واسع النطاق ستتمثل في التغيرات الحادة التي ستطرأ على طقس الكرة الأرضية ، ونشوء ما يعرف بظاهرة « الشتاء النووي » .

في أواخر الحرب العالمية الثانية ضربت مدينتا هيروشيما وناجازاكي في اليابان بقنابل نووية . وتعرضت المدينتان نتيجة ذلك لدمار شامل وقتل قسم كبير من سكانها . لكن التدمير بقي في نهاية الأمر ، مقتصراً على رقعتين جغرافيتين صغيرتين نسبياً . وربما كان ما حصل في المدينتين المنكوبتين هو ما شكل القناعة السالفة حول موضعية الآثار التدميرية للحرب النووية . وحسب هذه القناعة فان حرباً نوويا مقبلة ستؤدي الى قتل أعداد أكبر من البشر وتدمير مساحات أوسع نظراً لأن المخزون الحالي من الأسلحة النووية أكبر بعشرات آلاف المرات مما كان متوفراً في نهاية الحرب العالمية الثانية .

كانت القناعة السالفة تفترض أيضا أنه بعد أن يتوقف المتحاربون عن تبادل الرؤوس النووية تبدأ عمليات الإغاثة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وتبدأ عمليات إنقاذ الجرحى والمصابين ونقل الأحياء الى أماكن أكثر أمنا . ولن تمضي أسابيع قليلة حتى تعود الأمور الى سابق عهدها ، ويعود البشر إلى ممارسة أعمالهم ، وإعادة بناء ما تدمر . ألم يحصل ذلك في أعقاب كل الحروب السالفة ؟ .



من حسن الحظ ان الصورة السالفة لم تعد قائمة الآن،ولا تقبل بها أي من الجماعات العلمية على جانبي خط الصراع النووي . فهناك اجماع على أن الصدامات النووية المحدودة النطاق هي من ضروب الخيال وإن أي صدام مستقبلي سيكون واسع النطاق وشاملاً لمعظم ، إن لم يكن لكل ، المخزون النووي . وهذا يعني ان الحرب النووية المقبلة ستتضمن تفجير آلاف الرؤوس النووية التي يبلغ متوسط القدرة التفجيرية للرأس الواحد منها حوالي نصف مليون طن من المواد المتفجرة . وتشير التقديرات المختلفة الى أن ما بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ مليون طن من المواد المتفجرة ستستخدم في أي حرب نووية مقبلة . وتضع تقديرات أخرى الرقم عند ١٠,٠٠٠ مليون طن .

هذه الكمية الهائلة من المواد المتفجرة ستودي بحياة ربع سكان الكرة الأرضية في حالة حدوث صدام نووي . وسيسقط ربع آخر ما بين مصاب وجريح . وسيترك هؤلاء دون مساعدة أو اغاثة فلن تتوفر إمكانات لتقديم أي شكل من العون . واما النصف الذي سيبقى على قيد الحياة فسوف يواجه ظروفاً يتمنى معها لو أنه لحق بالربع الأول . فقد تبين من الدراسات التي أجرتها جهات علمية مستقلة أن شتاء نووياً سيعقب الحرب النووية وأنه سيستمر لأشهر طويلة ، يخيم أثناءها على معظم أجزاء الكرة الأرضية ويقضي على المحاصيل الزراعية بحيث أن من لا يموت برداً يموت جوعاً .

الشتاء النووي :

ظهر مصطلح الشتاء النووي في دراسة صدرت عام ١٩٨٣ وعرفت باسم دراسة (تابس) نسبة للأحرف الأولى لمؤلفي الدراسة . وقد صاغ ريتشارد تيركو ، أحد المؤلفين ، مصطلح الشتاء النووي ، الذي شاع استعماله منذ ذلك الحين ، لوصف جملة التغيرات البيئية التي ستطرأ على طقس الكرة الأرضية في أعقاب الحرب النووية . وكانت قد سبقت دراسة (تابس) دراسة قام بها بول كروتزين وجون بيركس نشرت في مجلة « أمبيو » التي تصدر عن الأكاديمية الملكية السويدية . وتحمل الدراسة التي صدرت عام ١٩٨٢ عنوان « الطقس عقب الحرب النووية : شفق عند الظهيرة » وقد أشار كروتزين وبيركس في

دراستهما إلى أن الصدام النووي سيؤدي إلى نشوب حرائق هائلة في الغابات ، والبراري ، وآبار النفط والغاز ، وخزانات الوقود ، والمناطق الصناعية والحضرية . وذكر المؤلفان أن كميات ضخمة من الدخان والسخام سترتفع الى طبقات الجو العليا نتيجة تلك الحرائق ، وسيؤدي ذلك إلى حجب أشعة الشمس عن الأرض بحيث لا يصلها سوى جزء ضئيل مما تستقبله في العادة . وتوقع المؤلفان أن التغير في طقس الكرة الأرضية سيحد من سقوط المطر ويقضي على الزراعة في نصف الكرة الأرضية الشمالي .

في دراسة تابس وضع المؤلفون عدة تصورات للقدرة التدميرية للحرب النووية ، لكنهم اتخذوا حالة قاعدية تفترض تفجير ٥٠٠٠ مليون طن من المواد المتفجرة . وأشارت الدراسة إلى أنه في ظل هذا الصدام النووي سيتولد ٢٢٥ مليون طن من الدخان و٦٠ مليون طن من الغبار الناعم تصعد إلى طبقات الجو العليا خلال عدة أيام ، وتؤدي إلى حجب أشعة الشمس بحيث لا يستقبل نصف الكرة الأرضية الشمالي أكثر من ٣٪ من الأشعة التي يستقبلها في العادة . وتبين من الدراسة أن الدخان أشد تأثيراً على أشعة الشمس لأنه يمتصها بينما لا يفعل الغبار سوى بعثرة الأشعة . ولهذه الظاهرة تأثير سلبي لأنها تؤدي إلى تسخين طبقات الجو العليا بحيث تسمح للدخان والغبار بالارتفاع أكثر والانتشار فوق مساحات أكبر من الكرة الأرضية وتقلل من فرص سقوط الأمطار .

يؤدي حجب أشعة الشمس إلى انقطاع مورد الحرارة - بل مورد الحياة - الأساسي عن الكرة الأرضية . وتأخذ درجة الحرارة بالانخفاض تدريجياً . وخلال ثلاثة أسابيع من نشوب الحرب النووية - التي لا تستمر بالمناسبة إلا ساعات قليلة - تنخفض درجة الحرارة بما يتراوح بين ١٠ درجات مئوية في المناطق الساحلية و٢٥ درجة في المناطق الداخلية . ويعود السبب في ذلك إلى أن المخزون



● سيختفي اللون الأخضر وتنتهي الزراعة تماما من نصف الكرة الشمالي وستتجمد كل الأشجار والنباتات .

الحراري الهائل في المحيطات يعمل على تلطيف الجو في المناطق الساحلية ، ويحد من آثار احتجاب الشمس . وتتضح أهمية الانخفاض في درجة الحرارة إذا أخذنا في الاعتبار أن متوسط درجة الحرارة على سطح الكرة الأرضية لا يزيد على ١٣ درجة مئوية وان العصر الجليدي يأخذ مداه الكامل حين ينخفض هذا المتوسط بمقدار ٣ - ٥ درجات مئوية . وهكذا ، يخيم الشتاء النووي شديد البرودة فوق نصف الكرة الأرضية الشمالي خلال أسابيع قليلة من حصول الحرب النووية .

أشارت دراسة(تابس) إلى أخطار بيئية أخرى ستترتب على الحرب النووية مثل سقوط المواد المشعة فوق مساحات شاسعة ، ونضوب طبقة الأوزون

تدريجياً بتأثير أكاسيد النيتروجين ، وتركز الغازات السامة الناتجة عن الحرائق في طبقات الجو السفلى قريباً من الأرض .

دراسات أخرى ونتائج مشابهة :

أثارت دراسة (تابس) ردود فعل متباينة ما بين مؤيد ومعارض . وتعرضت الدراسة لبعض الانتقادات على أساس أنها تبالغ في تضخيم حجم الآثار التي ستطرأ على طقس الأرض . غير ان الدراسة أثارت اهتماماً واسعاً بمسألة الشتاء النووي ، مما حدا بجهات علمية أخرى تشكيل لجان متخصصة لدراسة المسألة . ففي ديسمبر ١٩٨٤ ، أصدر مجلس البحث الوطني في الولايات المتحدة دراسة حول الموضوع بنيت على أساس أن الصدام النووي سيتضمن تفجير ٦٥٠٠ مليون طن من المتفجرات . ومع أن التقرير لم يورد حجم التغيرات المناخية المترتبة على الصدام النووي إلا أنه أشار إلى أن درجة الحرارة فوق مناطق اليابسة ستنخفض بمقدار ١٠ ـ ٢٥ درجة مئوية . وبعد فترة قصيرة في أوائل ١٩٨٥ صدر تقرير حول نفس الموضوع عن الجمعية الملكية الكندية ، أشار إلى أن درجة الحرارة ستنخفض في أعقاب الحرب النووية الى ما دون الصفر في المناطق الداخلية . وفي مارس ١٩٨٥ صدر تقرير عن وزارة الدفاع الأمريكية ذكر ان الدمار الذي سيلحق بالوجود البشري نتيجة أقل التغيرات المناخية ـ المتوقعة ـ حدة ستكون على مستوى الأخطار الأخرى المرتبطة بالحرب النووية .

في سبتمبر ١٩٨٥ صدرت دراسة عن الآثار البيئية للحرب النووية ، قامت بها اللجنة العلمية لمشاكل البيئة التابعة للمجلس الدولي للاتحادات العلمية ، وقد عرفت الدراسة باسم (سكوب) . وضمت اللجنة في عضويتها علماء من ٣٠ بلداً . وافترضت الدراسة استخدام ٦٠٠٠ مليون طن من المواد المتفجرة موزعة على ١٢٠٠٠ رأس نووي . وقد توصلت الدراسة الى نتائج مشابهة لما ورد في دراسة (تابس) . ففي الأيام القليلة الأولى تغطي الغيوم الدخانية أمريكا الشمالية وأوروبا ومعظم آسيا وتنخفض درجة الحرارة في نصف الكرة الشمالي بمقدار ٢٠ درجة مئوية . وأشارت الدراسة إلى إمكانية انتقال الدخان إلى المناطق الاستوائية ، وتضوب ١٠ ـ ٣٠٪ من طبقة الأوزون .

ظهرت بموازاة وعقب الدراسات السالفة دراسات أخرى أكدت جميعاً على حصول تغيرات مناخية نتيجة الحرب النووية ، وإن اختلفت تقديرات حجم التغيرات المرتقبة . لكن من الملاحظ انه لو قبلنا بأكثر التقديرات تحفظاً ، والقائلة بأن درجة الحرارة ستنخفض حوالي ٥ درجات مئوية فقط فان الزراعة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ستواجه كارثة لعام واحد على الأقل وربما أكثر . فمن المعروف ان الزراعة شديدة التأثر بتغير درجة الحرارة وان أي انخفاض ملحوظ سيقضي على المحاصيل الزراعية في مناطق الانتاج الرئيسية في أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا ، وقد أشارت دراسة (سكوب) الى أن « ٢,٥ بليون » شخص ـ وهم الباقون على قيد الحياة في أعقاب الحرب النووية ـ سيواجهون المجاعة .

الصورة السالفة تضاف الى صورة الدمار الشامل التي رأينا بعض نماذجها البدائية في هيروشيما وناجازاكي والتي ستكون بالتأكيد أشد هولاً في أي حرب نووية قادمة . فالمراكز الصناعية والحضرية ستسوّى بالأرض ومنظومات الخدمات الاجتماعية ستشل بالكامل ، وستتعطل محطات تزويد الكهرباء والطاقة ، وتحترق مخازن الطعام والغذاء ، وتنقطع سبل المواصلات والاتصالات ، وتختفي الخدمات الطبية .

قيل في السابق ان الحرب النووية لا يخرج منها منتصر بل الكل مهزوم . والآن يبدو أن هذه الحرب لن تخلف وراءها ولا حتى مهزومين . □

قصة قصيرة

صادق الحمال

تأليف : رامز كلمندي */ ترجمة : الدكتور محمد موفاكو

اليوم قتل إنسان ، وهذا الانسان ماهو إلا أنا . اسمي صادق ، صادق الحمال ، كانوا ينادونني أيضا « أبو بردعة » (+) ، نعم ، كنت أحمل « البردعة » على ظهري . اليوم مت ، وارتحت من حمل « البردعة » .

الجميع يعرفونني ، فالناس يعرفونني وكذلك الشوارع ، كل شوارع المدينة ، وتعرفني أيضا الأكياس والصناديق الكثيرة التي تحتوي على البضائع المختلفة . أنا صادق ، صادق الحمال ، أبو « بردعة » . فكيف لا تعرفونني أنتم ؟

لماذا توقفتم ؟ وما الذي أثاركم لتنظروا إلي بهذه العيون المندهشة ؟

عمن تسألون بعضكم بعضاً ؟ عني ؟ ألم تشاهدوا في حياتكم إنسانا ميتا ؟

نعم أنتم ، أنتم الذين قتلتم الآلاف من أمثالي ، أنتم الذين أفزعتم العالم بهمجيتكم ، أنتم الذين ثقبتم ظهري ، وقتلتموني ، والآن مابكم توقفتم تنظرون إلي ؟ هل تحزنكم رؤيتي ياترى؟ها،ها،ها ، لاتدعوني أضحك ، هل أجرب أن أضحك مرة على الأقل ؟ أأضحك بعد موتي ؟ لكن هل يمكن أن يضحك الانسان الميت ؟ ذلك الانسان الذي لم يعرف الضحك طيلة حياته .

إذا أردتم أن تحسنوا إليّ فأخرجوني من هذا الوحل الذي سقط فيه نصف جسمي ، فهذا سهل بالنسبة لكم ، لأنكم ترتدون ألبسة جديدة ، وفوقها هذه المعاطف الواقية من المطر ، أما أنا ففي الوحل دون معطف واق من المطر ، إن المطر يسقط عليّ ، وينشر

---

* رامز كلمندي من أهم الاسماء التي برزت في القصة الالبانية بعد الحرب العالمية الثانية . ولد في جنوب يوغسلافيا يعمل الان مدرساً في معهد التربية في بريشتينا . يكتب القصة القصيرة والطويلة والرواية ونشر حتى الان أكثر من عشرة كتب . ومن أهمها : « خطوط وآثار » ، « حكايتان » ، « حين تحصد المراعي » ، « رسائل من اولشين » ، « سبعة أشخاص يلاحقون المؤلف » الخ .وتتحدث القصة عن حمال خلال الاحتلال الالماني ليوغسلافيا في أثناء الحرب العالمية الثانية .

(*) البردعة في الاصل للحمار ، ويستخدم الحمالون في جنوب يوغسلافيا شكلا مبسطا منها ، من الجلد المحشي بالقش ، ليساعدهم على حمل الامتعة .



البرد في جسمي . مابكم تنظرون إليّ كالمجانين ؟ إن هذا الجسم الذي اعتاد على البرد في حياته سيعتاد عليه أيضا في مماته . اسحبوني من هنا لكي تروني بشكل أفضل ، نعم ، هكذا الآن أصبحت في وضع أفضل ، هنا لن يصيبني المطر ، كما أني قد تخلصت من الوحل ، إن الحجر يجرح عظامي ، لكن هذا ليس مهما ، شكرا لكم ، إنكم لطفاء فعلا ، أرجو أن تتركوني مع « البردعة » ، أريد أن تبقى معي . تساءلون : لماذا ؟ لقد قضيت كل حياتي معها ، لقد حملت عليها كثيراً كثيراً ، حتى صناديق العتاد وأكياس الأسلحة التي سرقت منكم هل تعرفون هذا ؟

لماذا تضربون الأرض بأقدامكم ؟ لماذا أنتم هكذا ؟ لماذا تقفون في حالة استعداد ؟ تحيّون من برفع أيديكم ؟ آه ، ضابطكم ، كدت أصدق أن هذه « التشريفات »لي ، ماذا يسألكم ؟ كيف مت ؟ أخبروه . وماذا يسألكم الآن ؟ ماذا قلتم له ؟ هل فهمتكم جيدا ياترى ؟ ألا تعرفون كيف تخبروه من أنا ؟ أنا صادق ، صادق الحمال ، أبو « بردعة » . من أين أنا ؟ هذا ليس مهما ، كان لي أب وأم في الماضي ، وقمتم بقتلهما ، لا ، لا أقصدكم أنتم بالذات ، لقد قتلها آباؤكم في الحرب العالمية الأولى ، وكان الناس هنا يسمونهم ألمانا أيضاً ، ويقال إنهم تركوني وحدي في الطريق العام ، وبعد ذلك أخذني أحدهم ، ورباني في بيته ، لا أعرف عن نفسي شيئا سوى أن اسمي صادق ، ولا أعرف شيئا أكثر من ذلك .

بدأت في العمل منذ أن بلغت الثانية عشرة ، عملت كل ما تحمله جسمي الطري في ذلك الحين ، وكنت مضطرا للعمل لأؤمن لقمة العيش ، وحين بلغت العشرين أصبحت أعمل في الحمل فقط ، وفي كل صباح ومساء كنت أذهب إلى محطة القطار ، في كل يوم ثلاثاء ، وعندما يحين يوم السوق الأسبوعي كنت أبحث عن العمل هناك ، وبعد الظهر كنت أذهب إلى محطة الحافلات في بقية الأوقات ، وكنت أبحث عن عمل في كل الشوارع ، وكنت أتواجد في أي مكان يفترض وجود حمال فيه ، كنت أقضي النهار في العمل ، وأنام في الحدائق ليلا ، وخلال فصل الشتاء كنت أنام في أروقة الجوامع .

عملت على هذا النحو ثلاثين عاما ، ولهذا أبدو الآن أكبر من عمري بعشرين سنة ، نعم ، لقد تجاوزت الأربعين ، لكن وطأة الحياة أضافت إلى عمري عشرين سنة أخرى ، لحظة من فضلكم ، ألا تريدون أن تعرفوا قصتي ؟

منذ البداية عملت مع هذه « البردعة » ، هذه التي ترونها أمامي ، لقد كانت معي دائما في الليل والنهار كنت أعمل بها ، وفي الليل كنت أنام عليها ، نعم ، في الليل كنت أفترشها ، وأنام عليها ، ومنذ عدة سنوات أصبح اسمي صادقاً الحمال ، وأخيرا « أبو بردعة » .

كانت تمر علي أيام لا أتمكن فيها حتى من تأمين لقمة الخبز ، كنت أخرج إلى المحطة أنتظر القطار الأول ، ثم القطار الثاني ، وكنت أتنقل بسرعة من عربة إلى أخرى ، متوجها إلى الركاب بتوسل : « حمال ، حمال » .

وكان ذلك دون جدوى ، فقد كان الركاب لايهتمون حتى بالالتفات إليّ ، بل كانوا يتابعون سيرهم إلى حيث يقصدون ، بعضهم كان يركب عربة في انتظاره ، بينما كان بعضهم الآخر يسرع حاملا حقائبه بيديه .

كان الركاب يهبطون من العربات ، وأنا أتنقل من عربة إلى أخرى ، حتى أصل إلى العربة الأخيرة راجيا :

ـ حمال ، حمال ، حمال ياسيد ، هل أحمل عنكم هذه الحقائب ياسيد هل آخذ عن سيادتكم هذه الحقائب ؟

حمال ياسيد ، حمال !

بعض الناس كان يلتفت إلي فقط ، بينما كان

بعضهم يجيبني : « وأنا حمال مثلك » .

بعضهم كان لا يكلف نفسه حتى بالالتفات إلي ، وكنت أهرع وراء الركاب في اتجاه المدينة ، كان لابد لي أن أومن لقمة الخبز .

وفي يوم السوق الأسبوعي كنت هناك دائما ، وكنت إذا لمحت شخصين يتساومان أمام كيس ذرة او قمح أسرعت إليهما قائلا :

- عسى ان يقدم الله مافيه الخير ، هل اتفقتما على السعر ؟

وبعد هذا كنت أقول فورا :

- إن شاء الله بالهناء والعافية ياأخي ! لقد وفقك الله بهذا ! هل أحمله لك إلى الميزان ؟

ومن الميزان كنت أحمل الكيس على « البردعة » فوق ظهري إلى بيته ، أو إلى المطحنة ، وكانوا يكافئونني كما لو كانوا يتصدقون علي ، وبعد هذا كنت أعود بسرعة إلى السوق ، ومرة أخرى انادي :

- حمال ، حمال !

كنت أعمل أحيانا ليلاً في تفريغ الشاحنات في المحطة أوتحميلها ، لم أعد إنسانا ، بل تحولت إلى حيوان ناقل ، حينذاك تغيرت حياتي تماما ، وبدأت أفكر بشكل مختلف ، بدأت أميز بشكل أفضل بين أولئك الذين يسلخون جلدي من التجار والأغنياء ، وتعاقبت الأيام إلى أن جئتم أنتم أخيرا ، فأصبح الوضع في زمنكم أسوأ بكثير ، وأحسست كما لو أن أحذيتكم قد شقت صدر هذا البلد ، جئتم وجاء معكم البؤس والعبودية ، وبخاصة للفقراء من أمثالي . هل تسمعونني ؟ لقد تغير صادق أبو « بردعة » ، لقد قمت أنا الذي تتطلعون إليه الآن بحفر عدد من قبوركم ، حيث ستلاقون مصيركم عما قريب ، فالأرض تهتز تحت أقدامكم ، فهذه البلاد سوف تتحرر ، وأناسأتحرر ، وجميع الناس من أمثالي أيضا ، أعرف أنه لن يكون بعد اليوم ازدراء ولا احتقار ولا اضطهاد ، فلقد ولّى عهد هذه الأمور . هل تعرفون هذا ؟

يكفي ماحملت لكم من صناديق ، يكفي ، طبعا يكفي ، ماذا تفكرون ؟ أتريدون أن أحمل صناديقكم لتستخدموها ضد إخواني ؟!

لماذا تغطون رأسي بهذا الكيس ؟ هل مللتم من رؤيته ، ومن سماع صادق الحمال ؟ اتركوني لحظة فقط لأكمل قصتي .

كنت قد خرجت هذا المساء أيضا لأحمل الصناديق ، وكان الظلام قد غطى الأرض حين سمعت هدير الشاحنة الكبيرة ، فهرعت بسرعة ، وتوقفت الشاحنة أمام إحدى عربات القطار ، وبعدها جاءت عدة شاحنات أخرى ، ووقفت أمام العربة المفتوحة بانتظار تفريغها ،

ونزل من الشاحنة عدد كبير من الأشخاص باللباس العسكري وبالمعاطف الواقية من المطر ، وحين لمحوني قالوا شيئا في لغتهم ، ولم أفهم ماقالوه ، إلى أن أشاروا إلي بيدهم ، ولم أرغب بهذا العمل ، ولذا لم أتحرك من مكاني .

وحينئذ سحب أحدهم مسدسه ، وشهره في وجهي ، فاضطررت أن أقوم بما أراد ، وحملت صندوقين أوثلاثة ، وألقيت بالرابع والخامس في الظلام ، وقلت لنفسي : هذه ستكون للكفاح ضدكم .

وابتعدت الشاحنات ، وذهبت أنا إلى صناديقي ، وانتظرت قليلا ، ووضعتها على ظهري ، وسرت في الظلام ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ، لقد انطلقت ورائي طلقات بندقية ، فسقطت مع صناديقي على التراب .

ثم جئتم ، فرأيتموني ، وهأنا قد رويت لكم كل شيء . هل تدرون الآن ما حدث ؟

لكن لماذا أروي لكم ذلك ؟ إنكم تدركون جيدا أن هذه البلاد قد انتفضت ضدكم ، لقد انتفض ضدكم الصغير والكبير ، إنكم تعرفون هذا ، ولذلك لست حزينا لأنني قد مت

أنا صادق الحمال ، أبو « بردعة » . □

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

إشكالية «الآخر» في التفكير الإسلامي !

لايسعُ الباحث في أمر الواقع الاسلامي ، عبر غالب مراحل تاريخه ، الا أن يقرر بأن «الآخر» ظل يمثل مشكلة محيرة ، وأحياناً مستعصية القبول والحل . من حيث أن العقل الاسلامى في تلك المراحل بات يضيق بهذا الاخر ، ولايبدى استعدادا كافيا لاحتماله والتعايش معه ، وهو شعور ربما كان للجبر والاضطرار فيه دور اكبر من التطوع والاختيار .

ولما كان الفقه مرآة عاكسة لظروف الزمان والمكان ، فقد أسهم في التعبير عن ذلك الموقف وتنظيره ، الامر الذي يطالبنا بأن نجرى نوعا من الفرز لتحديد مصادر ومظاهر ذلك الضيق المرصود ، وان نستجلى موقف الشريعة منه ، ممثلة في القرآن والسنة . وعلينا بعد ذلك أن نسعى جادين الى صياغة علاقة مع الاخر ، أكثر أمانة في التعبير عن نصوص الشريعة ومقصودها ، وأكثر استجابة للغة العصر في الخطاب الانساني والسياسى .

صور ثلاث

الآخر الذي يتجه اليه هذا الحديث له صور ثلاث : آخر يعيش خارج ديار الاسلام ـ وآخر يعيش في ظل الدولة الاسلامية ولكنه ينتمى الى دين مغاير ـ وآخر يقف على أرضية الاسلام ولكنه ينحاز الى رأى مخالف .

واذا حاولنا ان نستقصي العناصر التي أسهمت في صنع «اشكالية الاخر» في التفكير الاسلامى ، فسوف نجد أن بعضها يرجع الى التاريخ ، وبعضها يعود الى الموروث من العادات والتقاليد ، وبعضها مصدره التباس في فهم النصوص الشرعية .

وأزعم أن تجارب التاريخ كان لها دورها الاكبر في صنع هذه الاشكالية ، فالدين السماوى الذي جاء خاتما لأديان السماء ، ومقراً للسابقين من الانبياء والرسل والكتب ، لم يواجه في البداية باعتراض وصد من جانب المشركين وحدهم ، في قريش وشبه

الجزيرة العربية ، ولكنه ووجه برفض وعداء مماثلين من جانب أصحاب المصالح بين اتباع الديانتين السابقتين ، اليهودية والمسيحية . ولما أصبح لدعوة الاسلام الجديدة دولة ناهضة ، فانها ووجهت بصراع طال أجله وعداء لم يتوقف ، من جانب القوتين الأعظم في الزمن القديم ، الروم والفرس .

واذ تجح المسلمون في القضاء على التحدى الفارسى في عصر الراشدين ، والوصول بتعاليم الاسلام الى بلاد ماوراء النهر في العصر الاموى ، الا أن الانجاز لم يتحقق بالقدر ذاته في مواجهة الروم . فهزيمتهم المبكرة في الشام أيام ابى بكر الصديق ، وسقوط عاصمتهم القسطنطينية في العصر العثمانى ، لم يحسما عداء العالم المسيحى ، وكان ذلك العالم قد تحول الى الهجوم بالحروب الصليبية ، وافادته عصور انكسار العالم الاسلامى التى تلاحقت مع ترهل الدوله العثمانية حتى أصبح الواقع الاسلامى في نهاية المطاف يعيش في ظلال الحضارة المسيحية الغربية ، التى لم تخمد نزعاتها الصليبية الى الان .

وقد كان موقف الاسلام الأصيل المقر للديانتين السابقتين عليه عنصرا أساسيا في الحفاظ على كيانات المسيحيين واليهود واستمرارها داخل المجتمع الاسلامى ، مما دفع الاخر - الخارجى - الى محاولة استثمار هذا الموقف لصالحه بصفة دائمة فنجح حينا وفشل في حين اخر ، مما كان سببا اضافيا لاحداث التوتر بين الطرف الاسلامى والطرف غير الاسلامى في الدولة الواحدة .

مشهور موقف يهود خيبر وبنى قينقاع من النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو موقف المتآمر والدساس دائما ، الساعى الى الوقيعة والفتنة بكل السبل . ومعروف موقف نصارى الروم من الكيد لرسول الله ، ومساندتهم للمنافقين الذين أقاموا مسجد الضرار الذي احرقه النبى ، ثم مواجهتهم العسكرية له في السنة الثامنة من الهجرة ، مرة في « مؤته » ومرة في « تبوك » وتحريضهم نصارى العرب من الغساسنة على القتال ضد الدين في المرتين .

منذ ذلك التاريخ المبكر ومحاولات الروم مستمرة لاختراق الواقع الاسلامى ، باستخدام غير المسلمين فيه ، أو لتوجيه الضربات الى ديار الاسلام بالمواجهة العسكرية الصريحة ، التى تعددت حلقاتها وتواصلت ، منذ العصر الاسلامى الاول ، وحتى العصر الحديث حين زحفت جيوش الغرب وقامت باحتلال دول العالم الاسلامى في القرن الثامن عشر ، من اندونيسيا الى المغرب .

وفي أدبيات الروم المبكرة ، فان المسلمين اعتبروا « كفارا » ، ومنذ حوالى تسعة قرون ، أعلنها البابا اوربان الثانى صراحة عندما دعا في جلسة المجمع الدينى بكليرمونت (سنة ١٠٩٥ م) الى انقاذ المسيحيين وبيت المقدس من براثن المسلمين الكفرة .

دار الاسلام ودار الحرب

هذا الموقف العدائى في جملته ، كان طبيعيا أن يتعامل معه الفقه الاسلامى بعناصره الواضحة للعيان والتى فرضتها ظروفها التاريخية . وكان مبررا أن يتحدث الفقهاء عن دار الاسلام ودار الحرب ، اذ أن الآخر الاجنبى كان محاربا ومعاديا على الدوام . وكان مبرراً أيضا أن يتحدث المسلمون عن دار الكفر .

ولئن فرق المسلمون مبكرا بين المشركين عبدة الاوثان ، وبين اصحاب الديانات السماوية الاخرى ، واعتبروا الاولين كفارا والآخرين اهل كتاب ، فان وقوف الاثنين معا في المربع المعادي للاسلام والمسلمين ، رغم الأيدى الاسلامية الممدودة الى أهل الكتاب ، هذا الموقف دعا فقهاء المسلمين في تلك الأزمنة الى اعتبار الجميع - أيضا - أهل كفر .

في تلك الأزمنة ، قسم فقهاء المسلمين العالم بناء على موقفه المحارب من دين الله ، وان شاعت التفرقة

بين دار الاسلام ودار الحرب ، الا أن الشافعية أضافوا « دار العهد » التى تصالح أهلها مع المسلمين دون حرب ، على شيء يؤدونه يسمى « خراجا » وربط الفقهاء بين الذميين ، أهل الكتاب الذين يعيشون في دار الاسلام وكانوا يدفعون الجزية ، وبين المستأمنين ، وهم أهل دار الحرب الذين يطلبون الامان ، ويفدون على دار الاسلام ، ووضع الاثنان في مربع واحد .

لقد كان الآخر الخارجي محاربا وكان الاخر الداخلي من غير المسلمين موضع شك فألحق به ، واستقرت هذه الصيغة بمضى الوقت . ولم يرد على لغة الخطاب الفقهى احتمال أن يكون الآخر ـ الأجنبى ـ غير محارب ، أو غير معاهد ، وانما هذا الاخر جار أو عضو في الأسرة الدولية ، يتبادل مع غيره الحقوق والواجبات ويحترم سيادة الغير طبقا لمواثيق دولية متفق عليها .

بالمثل لم يخطر على بال فقهاء السلف ، أن يكون الآخر ، غير المسلم في الدولة الاسلامية شريكا في الوطن ، وليس لائذا بذمة المسلمين . أو يكون هذا الاخر ـ المواطن منفصلا عن المحارب ، وموصول التابعية بوطنه الذي يعيش فيه وليس بالآخر الاجنبى .

ويظل كتاب ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » نموذجا يعزز الفكرة التى تحاول عرضها ومعالجتها ، عندما يكون للتاريخ دوره الأساسى في صناعة الفقه ، وتشكيل العلاقة مع الاخر بناء على عناصر ذلك الظرف التاريخي ، فعندما كتب ابن القيم مؤلفه في القرن الثامن الهجرى ، كان شبح الحروب الصليبية لايزال ماثلا في الاذهان ، وكانت أفاعيل المغول في قلب العالم الاسلامى يتناقلها الناس كأنها كابوس جثم على صدر الامة ، وأشاع الرعب في أوصالها . وكانت الفظائع التى اقترفها هؤلاء وهؤلاء محفوظة في ذاكرة المسلمين ، الى جانب ذلك ، فقد كان ابن القيم مدركا للمدى الذي بلغه الصليبيون والمغول في الاستعانة ببعض نصارى العرب ، وخاصة السريان والأرمن والنساطرة .

هذه الخلفية المرة دفعت ابن القيم الى اتخاذ موقف لايخلو من تشدد وتجاوز في بعض الاحيان تجاه غير المسلمين ، فذهب الى اعتبار الجزية بحسبانها الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالا وصغاراً .

« وقال ان اسمها مشتق من الجزاء » إما جزاء على كفرهم لاخذها منهم صغارا ، او جزاء على أماننا لهم ، لأخذها منهم رفقا (حـ ١ ـ ص ٢٢) وعارض بذلك الرأى الراجح بين الفقهاء الذي يرى الجزية بديلا نقديا عن أداء واجب الدفاع عن الوطن والنفس . ولايرى في الصغار المذكور في الآية القرآنية (حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون) معنى المذلة والمهانة ، ولكن ذلك الرأى الفقهى الراجح ـ والأصدق تعبيرا عن احترام الاسلام لكرامة الانسان ـ يحمل الصغار بمعنى الامتثال لسلطان الدولة ، خاصة وأن الكلمة مذكورة في سياق موقف صدام مسلح ، هزم فيه المحاربون للمسلمين فاستحقت عليهم الجزية .

على الجملة فان ابن القيم تعامل مع غير المسلمين بحنق وسخط شديدين ، وبتأثر واضح بما تصوره اسهاما لهم في هزيمة المسلمين واذلالهم . أما ارتيابه وشكه في ولاء هؤلاء فكان شديد الوضوح ، فبعد أن قدر لهم أداء الجزية على نحو خاص وهيئة محددة ، تحقق معنى الصغار والمذلة ، دعا الى الباسهم ثيابا خاصة ، والى تمييز بيوتهم عن غيرها ، وتقييد احتفالاتهم ونشاطاتهم . . وهكذا .

واذ نفهم أن يتخذ ابن القيم ذلك الموقف الذي أنكره عليه آخرون من الفقهاء اللاحقين ، الا أن مالانفهمه حقا أن يعتمد البعض اجتهادات ابن القيم ويرى فيها صلاحية للاستمرار . وبدلا من أن يقرأ اجتهاده في ضوء ملابسات عصره ، ويجتهد غيره على نحو آخر ، بعد ما زالت الملابسات وتغير العصر ، فان بعض اللاحقين مضوا على طريق التقليد ، وتبنوا

آراء ابن القيم لغير ماداع أو مبرر ، فأساؤا وأفسدوا ولم يصلحوا .

ونحن نجد امتداداً لمنطق ابن القيم في التعامل مع غير المسلمين في تفسير الاستاذ سيد قطب للقرآن الكريم (الظلال - جـ ٢ ص ٩٠٧ و جـ ٣ ص ١٦٢٠) ونرى موقفا مماثلا في كتاب سعيد حوا (المدخل الى دعوة الاخوان) الذي يدعو فيه الى الترفع على غير المسلمين (ص ٢٤٦) في حين نقرأ في كتابات أخرى دعوة الى عدم المساواة بين غير المسلمين والمسلمين ، وضرورة اشعار الاولين دائما بقوة الاسلام وعظمته - (فقه الجاهلية المعاصرة - لعبد الجواد ياسين ص ٥٩) . . وهكذا .

بمنطق الفاتحين المنتصرين يتحدثون عن الجزية أو الرحيل (سعيد حوا) وعن أن غير المسلمين « لايتركون على دينهم الا اذا اعطوا الجزية وقام بينهم وبين المسلمين عهد » سيد (قطب) وعن أنه « لامفر من الجزية ولامشاركة في الحكم » (عبد الجواد ياسين)

نعم ان التيار الغالب بين الفقهاء المعاصرين يطرح هذه الآراء جانباً ، مستبعدا فكرة الجزية وداعيا الى المساواة بين المسلمين وغيرهم ، فيما يخرج عن نطاق الالتزام الديني الشخصي ، ولكننا فقط تدلل على استمرار الاشكالية التي نحن بصددها في مدارس الفكر الاسلامي المعاصر .

شيء من هذا القبيل نجده في كتابات مولانا أبو الاعلى المودودي ، عندما يقرر بأن القانون الاسلامي يقسم رعاياه من غير المسلمين الى ثلاثة اصناف : الذين يدخلون في كنف الدولة الاسلامية بعقد صلح او معاهدة - والمغلوبون بعد الهزيمة في الحرب ، أي الذين فتحت بلادهم عنوة ، والذين ينضمون الى الدولة الاسلامية عن طريق الصلح والحرب ، ويشرح في كتابه « نظرية الاسلام وهديه » في الفصل الخاص بحقوق اهل الذمة - وضع كل من هذه المجموعات الثلاث ، وحقوقها في الدوله الاسلامية (ص ٣٢٩ وما بعدها) .

لم ينتبه الاستاذ المودودي الى أنه يتحدث عن عصر غير عصرنا ، وعن تصور أفرزته تجربة تاريخية مضت ولم يعد لها وجود . لهذا السبب فقد كان خطأه الأساسي هو أنه حدد موقفه من الاخر في زماننا ، بمنطق عصور الاسلام الاولى ، سواء عندما كانت الدولة الاسلامية هي صاحبة اليد العليا ، او عندما كانت العلاقات الدولية قائمة على اساس فكرة الغالب والمغلوب ، او المنتصر في الحرب او المهزوم .

مشكلة الآخر الاسلامي ، المختلف في الرأي الواقف على أرضية الاسلام تداخلت في صنعها عناصر عدة ، وفي تفسيرها قد أضم صوتي الى صوت الشيخ محمد الغزالي حين اعتبرها من جملة ما جنت عليه العادات العربية الموروثة . منذ كان للقبيلة سيد أو شيخ له رأي واحد ، وأمامه لايتصور أن يكون هناك « آخر » . ومنذ كان لعصبية العرق والنسب دورها في تحديد المكانة السياسية والاجتماعية . ففي قريش كان هناك سادة القوم وعامتهم ، وبين عرب الجزيرة كان لقريش وضعها المتميز ، حتى ظن البعض خطأ أن لهم حقوقا في السيادة والقيادة بأكثر مما لغيرهم ، وفي المحيط الاسلامي ذاته ، كان هناك العرب والموالي .

وفي بعض مدارس الفكر الاسلامي المعاصر من ينادي برفض الاحزاب السياسية واستنكار فكرة المعارضة واخيرا شاع استخدام عنوان « حزب الله » الذي تردد في السياق القرآني وحمل بمفهوم الحزب المتداول في الخطاب السياسي الحديث .

دور التاريخ

ونحن نجد تأييدا لدعوة خلو الحياة السياسية الاسلامية من الاحزاب في المدونات التقليدية لجماعة الاخوان المسلمين والجامعة الاسلامية في باكستان

وان طرأ بعض التعديل على هذا الموقف مؤخرا ، حين قبلت الجماعتان ـ موقفا ـ بالمشاركة في الحياة السياسية في ظل التعددية الحزبية . وربما كان ذلك الموقف التقليدي هو السبب في أن أيا من الجماعتين ترفض أن تسمي نفسها حزبا منذ نشأة الاخوان سنة ١٩٢٨ ، ونشأة الجماعة الاسلامية في الهند سنة ١٩٤١ .

ورغم ان كلا من الجبهة الاسلامية في السودان وحزب التحرير الاسلامي في الاردن والشام وفلسطين يؤيد التعددية الحزبية ، الا اننا نرى في ادبيات جماعة الجهاد المصرية ادعاء منظريها ان « تعدد الاحزاب يختلف مع الاسلام اختلافا جذريا » ـ (من دراسة غير منشوره بعنوان ازمة النظام السياسى المصرى) ـ بينما يعتبر مؤلف (فقه الجاهلية المعاصرة) ان النظام الحزبي هو من مظاهر « الجاهلية » ـ (ص ١٨٢) .

هنا أيضا نحسب أن التاريخ لعب دوره المؤثر والحاكم ، فمنذ احداث الفتنة التى كانت بدايتها مقتل الخليفة الرابع عثمان بن عفان من قبل « المعارضين » ومنذ تعاقب الصراع بين الامام على بن ابي طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، ثم ظهور الخوارج بعد ذلك . . منذ ذلك الحين الذي بدت فيه الدولة الاسلامية مهددة بالانهيار ، والذي سالت فيه دماء المسلمين ، توجس الوعي الاسلامى شرا من المعارضة . واتجه فكر أهل السنة بوجه اخص الى ضرورة الالتفاف حول النظام السياسى القائم والحفاظ على سلطان الدولة ، التى كانت قيامة الدين من قيامتها ، وشاعت مقولة ابن عبد ربه ، صاحب « العقد الفريد » انه « اذا كان الامام عادلا فله الأجر وعليك الشكر ، واذا كان الامام جائرا فعليه الوزر وعليك الصبر » .

ورغم تغير الظرف وزوال الفتنة وثبات الاسلام وذيوعه ، فقد ظلت المعارضة في الوعى الاسلامى مقترنة بالفتنة ، وحسبها البعض بابا للشر واجب الاجتناب والصد .

اين موقف الاسلام من ذلك كله ؟

يحتاج الامر الى تفصيل وحديث مطول . □

في الكتاب العربي

في استفتاء أجرته مجلة الآداب اللبنانية في مايو عام ١٩٥٤ عن منافسة الصحافة المصورة والسينما والاذاعة للكتاب العربي منافسة حادة .

يقول الدكتور محمد مهدي البصير : لاشك أن الصحافة المصورة والاذاعة والسينما تنافس الكتاب العربي منافسة حادة ، ولكن يخيل إلي أنها لا تشكل خطرا مميتا على مستقبله ، كما أنها لم تشكل مثل هذا الخطر على غيره من الكتب الحية ، ولكن الكتاب العربي عليه أن يشعر بالخطر الداهم ، فيعد للأمر عدته ، ويتجهز بكل ما من شأنه أن يكفل له البقاء ، من جودة في المادة ، وجمال في العرض ، وإتقان ، وعندي أن الكتاب العربي سيعيش إلى جانب الصحافة والاذاعة والسينما ، ولكنه سينحط أو سيزداد انحطاطا على مر الأيام بسبب مماشاته الأهواء ، وتملقه الجماهير ، سعيا وراء الرواج والرغبة في الاستثمار .

المجهود العربي في العلوم الأساسية

بقلم : الدكتور أسامة الخالدي

حقق البحث العلمي العربي مؤخراً انجازات لاشك فيها . وبرزت بعض البلدان العربية لتنافس عدونا الرئيسي « اسرائيل » في هذا المجال ، لكن مجمل البحث العلمي العربي مازال يعاني من صعوبات ، ليست كلها فنية . فما هي الانجازات العربية في هذا الميدان الحضاري المهم ، وما هي معوقاته ؟

يقسم المجهود العلمي التقني ـ عادة ـ الى أربع مراحل . ومع وضع تحفظات على هذا التقسيم يمكن تعريف هذه المراحل كمايلي :

١ ـ البحث العلمي الأساسي :

وهو البحث الذي لا تقصد منه فائدة اقتصادية مباشرة ، فانه المجهود الذي يقوم به الباحثون ، في محاولة لفهم الظواهر الطبيعية والاجتماعية ، واستكشاف اسرارها ، وهو مانسميه الاكتشاف او « العلم من اجل العلم » . تقود هذه المرحلة ـ عادة ـ الى منشورة علمية في مجلة محكمّة تحتوي على معلومات كافية ، بحيث يتمكن زملاء الباحث من تأكيد الاكتشاف او نفيه . . ويعتمد القبول العالمي لهذا الاكتشاف على رأي هؤلاء الزملاء ، والأهمية التي يولونها له ، ويظهر ذلك من الرجوع الى هذه المنشورة في منشوراتهم ، ومن ادخالها في المراجعات العلمية .

٢ ـ البحث العلمي التطبيقي :

وهو البحث الذي يقصد منه التوصل الى منتَج جديد ، او تحسينه ، وهو ما يمكن ان نسميه الاختراع . والمفترض ان يكون القصد من ورائه الربح الاقتصادي او خدمة المجتمع . وينتج بعد صدور براءة اختراع مسجلة ، او ما يوازيها ، كتقرير او مقالة ، او قد يحافظ على سريته الى ان يتطور في مرحلة لاحقة .

٣ ـ التطوير :

وهي المرحلة التي تجري فيها دراسة الجدوى الاقتصادية للمنتج ، كما تجري فيها دراسة طرق الانتاج العملية ، وادخال التحسينات على

الاختراع ، وفي هذه المرحلة تتداخل العوامل الاقتصادية والاجتماعية مع النواحي العلمية . وفي نهاية هذه المرحلة يجب ايجاد نموذج فعلي عملي ، قد يخضع لبراءة اختراع او عدة براءات .

٤ ـ الانتاج :

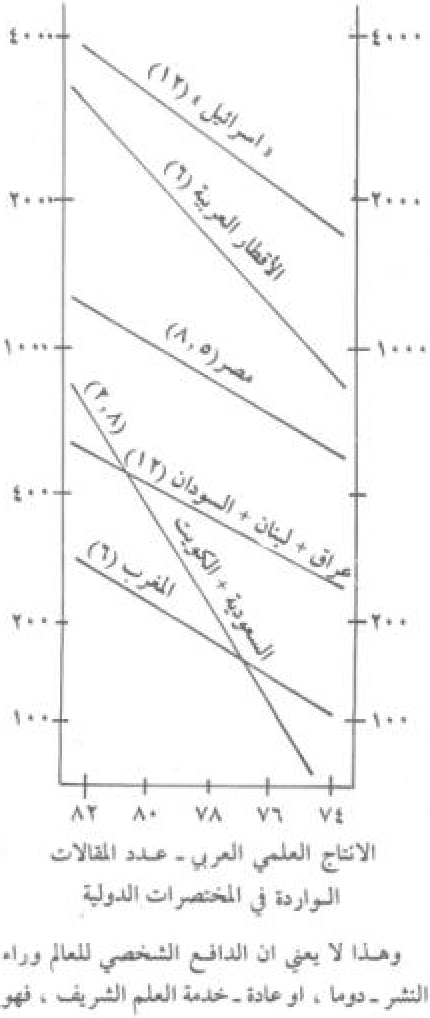
تسيطر عليه العوامل الاقتصادية ، من تمويل وتسويق وبناء وسياسة دولة ، وهو مايقود الى سلعة اقتصادية فعلية ، ومنه ترجع الاموال التي صرفت على المراحل الثلاث الأولى .

ان جميع هذه المراحل متداخلة ، واي تقسيم لها هو تقسيم مصطنع ، وكثيرا ما تسمى المرحلتان الأولى والثانية بمرحلتي البحث ، او تسمى المراحل الثلاث الأولى بمراحل البحث والتطوير (R AND D) ، كذلك تتميز هذه المراحل في ان المرحلة الأولى والرابعة هما مرحلتان علنيتان ، بينما تلف السرية كثيرا مما يحصل في الثانية والثالثة ، ولذلك فمن الصعب جدا قياس كمية الجهد او نوعيته في هاتين المرحلتين ، فبراءات الاختراع المعلنة لا تؤلف الا القليل من نتائج هاتين المرحلتين .

وسنركز بحثنا على المرحلة الأولى ، فالمرحلة الرابعة معلنة من قبل وزارات الزراعة والصناعة والصحة والاقتصاد والتنمية في البلدان المختلفة ، والمجهود العربي العلمي فيها ضئيل ، وهي تعتمد ـ غالبا ـ على التقنيات والبراءات المستوردة .

البحث العلمي الأساسي :

إن القصد المعلن وراء النشر العلمي ـ منتج المرحلة الأولى الاساسي ـ هو ايصال نتائج البحث الى المجتمع العلمي العالمي الواحد ، ولذلك فان النشر يتم مبدئيا في مجلات علمية متخصصة ، تدخل في المختصرات الدولية ، وتصل بواسطتها الى الزملاء المهتمين في هذا الموضوع العلمي الدقيق ، فيتمكنون من تقييم هذه النتائج ، ومن الحكم عليها ، كما يتمكنون من البناء عليها ، مما يقود الى تقدم العلم .



الانتاج العلمي العربي ـ عدد المقالات الواردة في المختصرات الدولية

وهذا لا يعني ان الدافع الشخصي للعالم وراء النشر ـ دوما ، او عادة ـ خدمة العلم الشريف ، فهو في الغالب يتم بدافع محاولة العالم الناشر الحصول على اعتراف المجتمع ، او زملائه بالسبق ، مما يقوده الى الترقيات او الجوائز او مجرد الاعتزاز الشخصي بالمنجزات .

يقاس المجهود العلمي الاساسي في بلد ما بعدد المنشورات العلمية التي تصدر عن ذلك البلد في المجلات العالمية التي تدخل في المختصرات التخصصية ، وبنوك المعلومات الدولية ، وقد لاحظ كثيرون ممن درسوا هذا التطور العلمي ان عدد

المنشورات العلمية عالميا يتضاعف في كل عدد معين من السنين ، وهذا هو المنوال الذي تسير عليه منذ اكثر من مائة سنة ، لكن لا يمكن ان يستمر هذا التضاعف الى مالا نهاية ، خاصة ان مدة التضاعف العالمي تقرب من عشر سنوات ، ولابد ان نصل الى وقت تتوقف فيه هذه الزيادة .

لكن حتى نصل الى ذلك الوقت يمكن وضع رسم بياني للتقدم العلمي الاساسي ، برسم عدد المنشورات في السنين المختلفة على شكل شبه « لوغارتمي » ، بحيث تظهر كخط مستقيم يمكن منه قراءة اعدادها ، كما يمكن قياس مدة التضاعف . وكلما نقصت مدة التضاعف كان التقدم العلمي يسير بتسارع اعظم .

قام الدكتور انطوان زحلان برصد المجهود العلمي العربي خلال العقدين الماضيين . وتمثل كتبه ومقالاته بما تحتويه من ارقام واحصائيات المرجع الاساسي لدراسة هذا التطور ، واعتماداً على الارقام التي نشرها د. زحلان يظهر ان اعداد المنشورات العلمية العربية ذات المختصرات الدولية تتضاعف كل ست سنوات تقريبا ، وهذه نسبة معتبرة جدا ، وتفوق التسارع العالمي ، كما ان الفجوة العلمية بين العرب « واسرائيل » قد قاربت على الاختفاء بالنسبة الى عدد المنشورات .

ويبرز من خلال هذه الارقام الدور الذي ابتدأت تلعبه المملكة العربية السعودية والكويت في العقدين الأخيرين ، ففي اواخر الستينيات كان الانتاج العلمي لهذين البلدين غير ذي بال ، لكنه اصبح الآن ينافس دور مصر ، واذا استمر هذا التضاعف المذهل - مرة كل حوالي ثلاث سنوات - فان السعودية والكويت سوف تخرجان من دائرة العالم الثالث قبل نهاية هذا القرن ، بل وتتفوقان وحدهما على « اسرائيل » في الانتاج العلمي الأساسي . من الصحيح ان جزءا لا يستهان به من الانتاج العلمي في الكويت والسعودية يقوم به علماء ليسوا مواطنين في هذه الدول ، لكن حسب هاتين الدولتين فخرا انهما وفرتا المناخ المناسب لهؤلاء العلماء ليعملوا فيهما وينتجوا هذا الانتاج الجيد،وبالاضافة الى هذا التسارع المذهل فإن حجم الانتاج العلمى الكويتى والسعودى قد تفوق في السنين الاخيرة على انتاج العديد من دول العالم الثالث الكبرى .

مجمل الانتاج العلمي الاساسي :

يعترض كثيرون في العالم الثالث على استعمال المختصرات الدولية وبنوك المعلومات لقياس الانتاج العلمي لبلدانهم . واعتراضهم قائم على ان اكثرية المجلات العلمية الصادرة عن دول العالم الثالث لا تدخل في المختصرات وبنوك المعلومات الدولية ، وان كثيرا من انتاج علماء العالم الثالث ينشر في هذه المجلات المحلية ، وتتراوح الأسباب المذكورة لعدم ادخال مجلات العالم الثالث في المختصرات الدولية بين ضعف هذه المجلات وعدم استمراريتها من جهة ، وتعصب الغرب ضد علماء العالم الثالث والسياسة التي تحكم علاقة العالم الثالث بالعالم المتقدم من جهة اخرى . ومهما يكن الامر فان جزءا مهما من الانتاج العلمي العربي الاساسي يضيع ، لعدم نشره في مجلات عالمية ، تلتقطها شبكات بنوك المعلومات الدولية ، اذ ان عدم دخولها هذه البنوك يحجبها عن المجتمع العالمي الدولي . ومجرد نشرها في مجلة محلية - غير متوفرة عالميا - لا يعتبر سابقة نشر بالمعنى الكامل .

في محاولة لقياس كمية المنشورات الصادرة عن العلماء العرب التي لا تدخل في بنوك المعلومات استعنا ببعض طلبة الطب في جامعة الخليج العربي ، فقاموا بدراسة عينة من السير الذاتية لعلماء عرب ، ممن تقدموا بطلبات عمل ، او تقدموا لجوائز علمية ، وصنفت المقالات التي ذكروها في سيرهم الذاتية بمقالات لها مختصرات عالمية ومقالات محلية ، وقد روعي في اختيار هؤلاء العلماء التوزيع الجغرافي

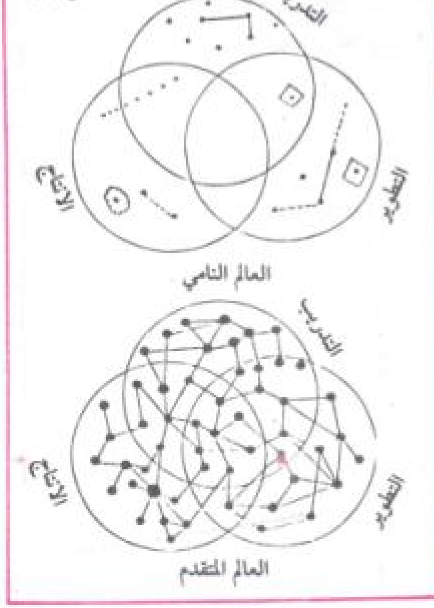
والاختصاصات المختلفة في قطاعات العلم العربي .

وقد تبين ان هذه العينة من العلماء العرب قد نشرت حوالي ٦٠ مقالة في مجلات محلية ، مقابل كل مائة في مجلات عالمية تدخل في بنوك المعلومات ، فاذا اعتبرنا ان هذه العينة قريبة من تمثيل مجموع العلماء العرب فان مجموع ما ينشره العلماء العرب يزيد بحوالي ستين بالمائة عما هو موثق في بنوك المعلومات .

المجاعة العلمية :

يمكن تقدير عدد الباحثين العرب حاليا بما يقارب الاربعين الفا ، وسواء اعتبرنا انتاجهم المنشور اربعة آلاف او ستة الاف وخمسمائة مقالة علمية في السنة فان هذه الانتاجية منخفضة جدا ، واقل بعدة اضعاف من انتاجية العلماء العالمية .

ان اول الاسباب التي يمكن ان نفسر بها هذه الانتاجية المخفضة هي الاسباب المالية ، فنحن نصرف اقل من ٢/١٪ من دخلنا القومي على البحث والتطوير ، بينما تصرف الدول المتقدمة ستة او سبعة اضعاف هذه النسبة ، وحتى دول افريقيا وامريكا



شكل (١)

اللاتينية تصرف نسبا اكبر على البحث العلمي .

وإذا حسبنا المبالغ التي نصرفها على كل باحث عربي يتضح لنا اننا ابخل اهل الارض قاطبة على علمائنا ، فبينما تصرف امريكا الشمالية ٧٦ الف دولار لكل عالم، وتصرف اوروبا ٧٥ ألفاً وآسيا ٤٥ الفاً وافريقيا ٥١ الفاً تصرف الاقطار العربية ٣٠ الفاً فقط .

قد لايكون من الممكن اجراء ابحاث علمية بمصروف أقل من مصروف الاقطار العربية فان احداً غيرنا لم يتمكن من ذلك وهذا قد يعني ان عنق الزجاجة في الانتاج العلمي هو في المصروف على هذا الانتاج .

والمهم ان زيادة المصروف على كل باحث تقود حتما الى زيادة الانتاجية بنسبة تفوق بكثير نسبة المصروف الاضافي ، فالثلاثون الف دولار المذكورة في الجدول تدخل فيها رواتب الباحثين ، وكلفة البناء ، والأدوات ، والادارة ، والصيانة ، الخ ، ومايصرف فعليا على البحث العلمي الفعلي هو جزء يسير جدا من هذا المبلغ . والباحث الذي يعمل على مستوى قريب جدا من « المجاعة العلمية » لا يمكن ان ينتج انتاجا ذا بال .

ولكن لعل هناك اسباباً اخرى غير المال تعوق تقدم انتاجية العلماء العرب وربما انعدام سياسة علمية تركز جهود الباحثين العرب في مواضيع محددة بحيث تتألف منهم الكتل الحرجة القادرة على الانتاج العلمي الجدي هي السبب الأهم في ضعف انتاجية العلماء العرب ، ونحن نعتقد ان هذا عامل اهم من الضائقة المالية الخانقة .

تصنيف المنشورات العلمية العربية :

من أجل أن نصنف المنشورات العلمية العربية في المواضيع المختلفة انتقينا جميع المنشورات العربية المذكورة في الشهرين الأولين من فهرست المصادر (Citation Index) لسنة ١٩٨٥م ، فكانت (٥٠٤) مقالات ، ودرسناها بالتفصيل ، فتبين لنا ان

العلوم الطبية تستحوذ على حصة الاسد من المنشورات العلمية العربية (٤٤٪) ، وتتفاوت هذه الحصة بين قطر وآخر ، اذ انها تتراوح بين ٣٤٪ في مصر و٧٨٪ في قطر ، ويظهر ان الاقطار التي تأسس فيها البحث العلمي قبل غيرها تتجه الى البحث العلمي في حقول اخرى ، بينما يسيطر الطب على البحث العلمي في الاقطار الحديثة العهد بالبحث العلمي ، اي ان البحث العلمي يبتديء في قطر ما اول مايبتديء في المواضيع الطبية ، وهذا متنظر ، لأن كثيرا من المنشورات الطبية ما هو الا نتيجة مباشرة للممارسة الفعلية للطب ، ولامكانية القيام بالبحث العلمي بالاعتماد على المختبرات والاجهزة الموجودة اصلا للممارسة العملية . ويساهم في ذلك ايضا التدريب الجيد الذي توليه الدول الناشئة لاطبائها ، وطول مدة هذا التدريب ، ويلفت النظر في هذه اللائحة مركز لبنان والسودان ، فمع عراقة البحث العلمي فيهما نجد ان الطب يستحوذ على نصف المنشورات العلمية في لبنان وثلاثة ارباعها في السودان ، واذا تذكرنا ان هذا حاصل في قطرين يشكوان من الحرب الأهلية المزمنة فقد يعني ان البحث العلمي في الطب هو ايضا اكثر تأصلا واصعب اجتثاثا عندما تضعف الابحاث العلمية الأخرى .

تأثير البحث العلمي العربي :

للبحث العلمي الأساسي فوائد مباشرة ، هي نتيجة نشر المقالات العلمية ، وهذا ماقد يمكن قياس بعضه ، لكن لعل الفوائد غير المباشرة أهم في الدول النامية ، فمجرد قيام الأستاذ الجامعي ببحث علمي - سواء نشره ام لم ينشره - يحافظ على مستواه العلمي كأستاذ ، كما يفتح الباب امام قيام دراسات عليا وتدريب لعلماء شبان .

وينشر العلماء مقالاتهم في المجلات العلمية لكي يتمكن العلماء الآخرون من الحصول على هذه المعلومات والبناءعليهابتطويرها إما في اتجاه البحث العلمي الاساسي او التطبيقي .

ويصعب كثيرا قياس تأثير المنشورات العلمية على العلم التطبيقي ، اذ ان كثيرا من نتائجه قد تبقى سرية ، وحتى المنشورة منها قد لا تحتوي على اشارات كاملة لمصادرها جميعا،والاستثناء الهام للسرية هو في مجال العلوم الطبية والتى تؤلف المنشورات فيها ما يقارب نصف المنشورات العربية،وفيها يظهر ضعف تأثير هذه المنشورات على صناعة الأدوية العربية أو ممارسة الطب في العالم العربي او سياسات وزارات الصحة،لكن قياس تأثير منشور ما على البحث العلمي الاساسي ممكن بالرجوع الى فهرست المصادر الذي يعدد المنشورات العلمية التي تذكر مقالة ما كمصدر اعتمدت عليه . وهنا حاولنا تصنيف المقالات التي ترجع الى عينة من المنشورات العربية الى ثلاثة اقسام :

١ ـ مقالات من نشر المؤلف نفسه (او الفريق نفسه) ، ويشترط فيها ان يكون احد مؤلفيها مذكورا مع التأليف في مقالة يمكن تحديدها . والعدد الذي حصلنا عليه هو الحد الأدنى ، اذ أننا قد لا نستطيع التعرف على مؤلفين من نفس الفريق .

٢ ـ مقالات نشرها مؤلفون من اقطار عربية .

٣ ـ مقالات نشرها اجانب .

ثم حاولنا ان نجيب على السؤال من الاتجاه الآخر ، اي الى من يرجع المؤلفون العلميون العرب في مقالاتهم ، ولذلك اخترنا عينة عشوائية من مقالات نشرها علماء عرب في العلوم المختلفة ، وصنفنا المصادر التي رجعت اليها هذه المقالات التصنيف المذكور اعلاه فتبين لنا ان البحث العلمي العربي مايزال متشرذما ، بحيث ان ابحاث عالم عربي قلما تؤثر على ابحاث عالم عربي آخر الا في العلوم الاجتماعية ، وهذا متوقع لحداثة العلم الطبيعي في الوطن العربي ، ولضآلة حجمه ، ولأنه لم يصل الى درجة (الكتلة الحرجة) عندما تتفاعل اجزاؤه مغذية بعضها بعضا،ولكون العديد من المنشورات العربية

الجيدة في العلوم الاجتماعية منشوراً باللغة العربية .

ولعدم وجود السياسة العلمية الهادفة الى زيادة تفاعل العلماء العرب ، وعدم وجود الخطة العلمية الهادفة الى تركيز البحث العلمي في مواضيع محددة ولذلك مايزال العلم العربي ـ اكثره على وجه التقريب عدا العلوم الاجتماعية ـ مرتبطا بأصوله الغربية ، اي اننا ما نزال في طور التبعية العلمية للغرب .

نموذجان للنظام العلمي التقني :

كثيرا مايلجأ المرء الى استنباط النماذج ، في محاولة لفهم النظم المعقدة ، وليتمكن في النهاية من التحكم فيها . والنموذج المنشود هو تبسيط لعمل النظام الفعلي بقدر الامكان ، مع عدم ابعاد الأمر عن الواقع ، وهذا امر ليس ممكنا نظريا ، فالتبسيط هو في جميع الحالات ابعاد عن الواقع المعقد ، والنجاح في استنباط نموذج مقبول وتطويره يعتمد على التوصل الى معادلة بين التبسيط والابعاد عن الواقع ، ولكل شخص حق في ان يقبل النموذج المعروض عليه او لا يقبله ، والنموذج الناجح هو الذي يقبله عديد من الناس ويسهل عليهم الفهم والتفكير في النظام الذي يمثله ذلك النموذج،ومهما يكن النموذج لاي نظام فلا يمكن التفكير فيه بمعزل عن العوامل التي يعمل النظام ضمنها ، واهمها الضغوط والحوافز التي يوفرها المجتمع وهذا بدوره يعتمد على ماينتظره المجتمع من ذلك النظام .

ينبع النموذج (الكلاسيكي) لعمل النظام التقني من الدراسة التاريخية لتطور التقنية في البلدان الغربية ، ومن دراسة تطوير ثمرات هذه التقنية . ويقسم هذا النموذج النظام التقني الى اربع مراحل ، وهي : البحث الاساسي والبحث التطبيقي والتطوير والانتاج :

ولا يمكن اعتبار هذه المراحل منفصلة ، كما لا يمكن اعتبار التفاعل بينها يجري في اتجاه واحد ، ويمكن ان يمثل هذا النموذج بنبتة ، جذورها العلوم الاساسية ، وساقها العلوم التطبيقية ، واوراقها وغصونها التطوير ، وثمرتها الانتاج . فاذا قبلنا هذا النموذج تصبح (استراتيجية) تطوير النظام التقني واضحة . ويجب ان تبدأ بتقوية العلوم الاساسية ، فكل دعم للبحث العلمي الاساسي سيقود عاجلا او آجلا الى الثمرات التقنية . شكل (٢)

ويزيد من قبول هذا النموذج انه يعطي التبرير للأكثرية الساحقة من المهتمين بدراسة النظم التقنية ـ من العلماء الاساسيين او الذين مارسوا البحث العلمي الاساسي سنين عديدة ـ لعمل العمر .

أما النموذج الثاني الذي نود ان نعرضه فهو مستمد من النظر في عمل النظام العلمي التقني في العالم المتقدم ، وفي العالم الثالث ، وهو ناتج اساسا عن مقارنة بين نظامين ، في محاولة للتعرف على التعديلات التي يجب ادخالها في انظمة العالم الثالث كي تلحق بركب العالم المتقدم . وقد قمنا بتطوير هذا النموذج بالاشتراك مع الاستاذ يوسف الشيراوي وزير التنمية في البحرين ، وقد نوقش وحسن هذا النموذج في احدى اللجان الفرعية ، في لجنة (استراتيجية) العلوم في دمشق . ويتألف النموذج من ثلاث دوائر ، تمثل كل واحدة منها حقلا من حقول العمل في المجال التقني العلمي ، وهي :

١ ـ البحث والتطوير :

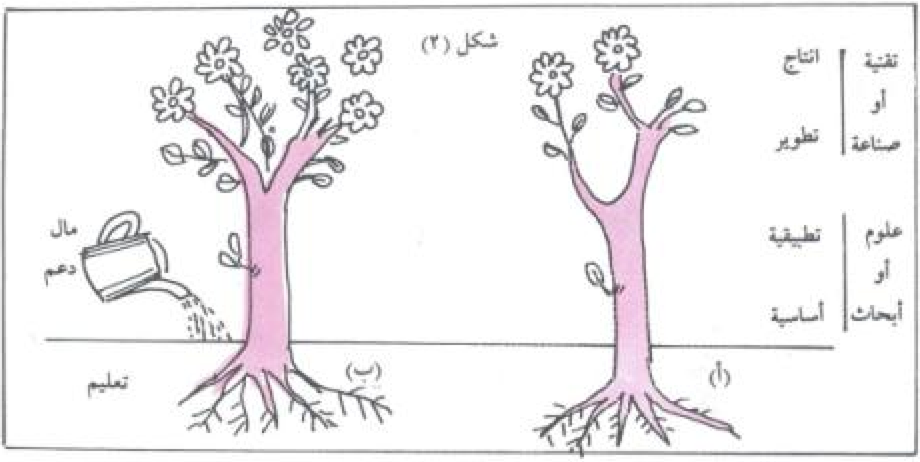
بما فيها الابحاث الاساسية والتطبيقية ، والأبحاث الابداعية او الابحاث التحويلية المجردة او للحصول على معلومات .

٢ ـ التعليم والتدريب :

في جميع مراحله واشكاله ، ومن ضمنه التدريب غير الرسمي الذي لا يقود الى الحصول على شهادات .

٣ ـ الانتاج :

بجميع فروعه الصناعية والزراعية والخدمات ، وهذه قد تكون في النظام التقني ككل ، او في فرع من



فروع المعرفة او الانتاج .

ويتمثل كل عنصر في احد هذه المجالات (عامل او مؤسسة أو جزء من مؤسسة) بنقطة قد تقع في مجال واحد من هذه المجالات ، او في اثنين منها ، او في ثلاثة معا . شكل (١)

وتتميز الدول المتقدمة على دول العالم الثالث بعدة عوامل :

١ ـ حجم العناصر : فهي اكبر بكثير في العالم المتقدم .

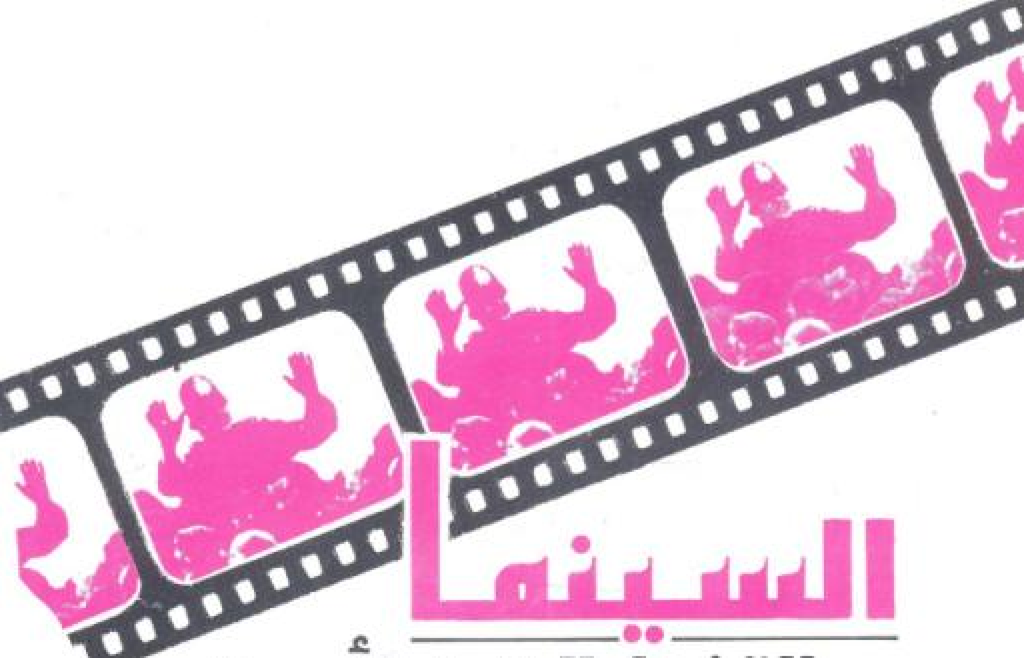
٢ ـ وجود هذه العناصر داخل الحلقات ، بينما نجدها هامشية في الدول المتأخرة ، وتتواجد عناصر كثيرة في العالم المتقدم ، تتولى القيام بأكثر من مهمة ، فهي اذن تقع ضمن دائرتين او ضمن دوائر ثلاث ، بينما تتدور هذه العناصر في العالم المتأخر .

٣ ـ ترابط العناصر بحيث تؤلف شبكة متكاملة ، يشد بعضها ازر بعض ، بحيث لا تضيع ثمرات المجهود في احد المجالات الثلاثة ، بل تنتقل الى المجالين الاخرين .

وتتضمن طرق الربط التعيين المشترك للاشخاص ، والاستعمال المشترك للمرافق ، والدعم المالي المباشر بين مؤسسة واخرى ، كما تتضمن تعريف وظائف المؤسسات او الاشخاص ، بحيث تشمل الوظائف الثلاث أواثنتين منها ، بينما نجد ان العناصر في العالم الثالث متفصلة عن بعضها بعضا تماما ، واذا كان لاي منها ارتباط فهو مع اصوله الغربية لا مع العناصر الأخرى في المجتمع نفسه ، وحتى النظم واللوائح التي تسير عليها مؤسسات العالم الثالث فانها قلما تخلو من نصوص تمنع التعاون بين هذه المؤسسات والعناصر الأخرى في المجتمع .

ولعل نجاح العلوم الطبية قبل غيرها في الدول النامية يرجع-بدرجة كبيرة ـ الى كون الانتاج فيها وهو التطبيب والبحث العلمي والتدريب للمساعدين في صلب العمل (الأكاديمي) الطبي ، فالحقول الثلاثة متواجدة بشكل طبيعي في مجال الطب .

والمهم في الأمر ان (الاستراتيجية) التي يتبعها اصحاب القرار في تطوير النظام التقني في بلد ما تعتمد على النموذج الأكثر اقناعا لهم ، فاذا ما اختاروا النموذج الأول اصبحت (استراتيجيتهم) تقوم على دعم البحوث الاساسية بشتى انواعها ، اما اذا اختاروا الثاني فعليهم اختيار مواضيع يحصرون فيها العمل (تضييق الدوائر للحصول على الكتل الحرجة ، واكمال النواقص (وأهمها وصل العناصر) . لقد اختارت اكثر الاقطار العربية النموذج الأول اساسا ، نظرا لصعوبة اتخاذ القرارات في حصر البحث العلمي في مجالات لم تظهر بعد علامات نجاحها ولا يمكن ان تظهر . □



السينما وعلاقتها بالفنون الأدبية

بقلم : محمد صوف

عندما أطلت السينما كانت فنا ، يعنى بالدرجة الأولى بالصورة ، وباستعمال دقيق لعدسة تصوير ، بغية التقاط صورة متحركة لشخص أو حيوان أو شيء ما ، تلتقط العدسة بدقة متناهية اللون والشكل ، هادفة إلى إعادة إنتاج أمينة للواقع ، ومع ذلك تظل هذه العملية جزئية ، إذ لا تتمتع بالصورة ساعة عرضها سوى العين ، وبعد ظهور تقنية الصوت ونجاحها صاحبت الصورة ، وأمتعت الأذن أيضا ، لكن المتعة بالصورة والصوت عبر حاستي البصر والسمع لم تأت تلقائيا ، ولن تأتي كذلك ، إذ لا بد من شخص يختار ويعمل ، أي يتدخل بمعرفته وذوقه ورؤيته ورؤياه ، ووجود هذا الشخص خلف العمل ينفي إمكانية الاعادة الأمينة لانتاج الواقع ، بل ويذهب إلى إدخال عناصر جديدة ، توهم بالحقيقة ، في حين أنها غير ذلك ، كالممثل والديكور إلخ . إنها لا تعيد إنتاج الواقع ، بل تنقله من خلال الموضوع ، والايقاع ، والتقطيع الفني ، والتمثيل ، والديكور ، والحوار ، والصورة ، وهي هنا تتوافق مع فن الأدب ، ولا تكمن حقيقتها إلا في الكيفية التي تعبر بها عن الواقع .

وقد كان هذا التعبير في البدء عبارة عن مزج بين الصورة والحوار المكتوب ، يرى المشاهد الصورة وشفتي الممثل تتحركان في حديث لا صوت له ، ثم تختفي الصورة ليظهر له ما قالته الشخصية مكتوباً ، وهو أسلوب يولد تفاوتا بين التعبير الواضح والتعبير الغامض ، ويفسح المجال لتدخل المؤلف في السرد السينمائي ، كما تسمح بذلك الرواية لكاتبها ، والحوار المكتوب في هذه الحالة ينحصر دوره في خدمة الصورة وإضاءتها ، وهو تابع لها ، لا يستمد وجوده إلا من وجودها ، وبدون حاجتها إليه يفقد كل مبرر في ضرورته . وبعد أن تطورت التقنية وبدأت

تسمح للصوت بأن يصاحب الصورة ، تطورت الحاجة إلى الصوت ، وأصبح التعبير السينمائي دونه ناقصا ، إذ يعتبر غياب مزج الصورة والصوت والموسيقا والمؤثرات الصوتية بترا ، وقد سمحت تقنية الصوت للصورة ان تنطلق دون حمل هم التفسير المكتوب ، وأصبح الفنان يستطيع إنجاز تركيب سريع متلاحق للقطات التي تقبلها العين ، وتتفاعل معها ، دون إحراج ، وأعطى هذا الأمر ـ بدوره ـ للسرد السينمائي متانة ، تمكنه من تحقيق تناغم على مستوى الايقاع ، وثراء تعبيري ، وخصب إبداعي ، يتولد عن تضافر جهود الصورة والصوت .

فالصوت إذن قد أضاف للسينما شحنة جديدة ، جعلته يتجاوز دور الحوار المكتوب في خضوعه للصورة ، وأصبح يحظى بتفاعل جدلي معها ، وأحيانا يتوازى معها في الفاعلية ، وحينا آخر يصبح عنصرا مضادا لها ، حسب ما تقتضيه الضرورة الابداعية ، وهدف التبليغ الذي يسعى إليه السينمائي . ويتم التعبير السينمائي عبر تركيب وأسلوب يأخذ بهما ميزة اللغة ، فهو كاللغة المكتوبة ، يستعمل الفصول والجمل والنقط ، والفواصل المصورة تأخذ في قاموس السينما مصطلحات كالوحدة الدرامية واللقطة ، واللقطة الكبيرة ، إلخ ، واستعمال هذه المكونات يجعل فن السينما أسرع من فن الكتابة في ترجمة الفكرة والخيال ، وإعطاء رؤية جديدة للعالم بواسطة إسراع حركة الصورة أو إبطائها مؤدية وظيفة شعرية ، أو بتثبيت انتباه المتلقي ، واختيارها لرؤية توجه نحوها الاهتمام ، دون أن تغير الواقع باستعمالها للقطة الكبيرة أو لتقنية الترتيب المضاد .

السينما والملحمة

الملحمة عمل أدبي يخلد موضوعا وطنيا كبيرا ، ونوع ثري من الأنواع الأدبية ، وإن كان تراثه محدودا ، حيث أنه قد يتعرض للجهل خارج البلد المعني بالأمر ، وفيه الأسطورة تمنح للسرد ميدانا واسعا ، يتحرك فيه بامكانات كبيرة . وأشهر ملاحم التاريخ هما الالياذة والأوديسا ، حتى أن بعض الناقدين وصف الأولى بأنها قصيدة كل الحروب ، والثانية بأنها قصيدة كل الرحلات ، وطابع الملحمة يجعلها أسطورة جاءت من الزمن القديم ، وبالتالي يجعل من حداثة الحربين العالميتين ـ الأولى والثانية ـ ما يمنع أن يحمل أي عمل أدبي عنهما صفة الملحمة ، وكذا ثورة أكتوبر في الاتحاد السوفياتي ، ولعل أقرب الوقائع الكبرى في التاريخ إلى الملحمة هي احتلال الغرب لأمريكا ، والحروب الأهلية التي أعطت الميلاد لشخصيات ملحمية ، أصبحت أساطير يرددها الأمريكيون ، دون أن تلقى ملحميتها معارضة ذات أهمية ، نظرا لقدمها ، ولاختفاء شخوصها من أبطال وشهود ، وهذا سبب جعل السينما الروسية تكتفي بتقديم بيير الأكبر وإيفان الرهيب . ويلاحظ على هذين العملين أنهما معنونان باسمين لشخصيتين تاريخيتين ، وذلك لأن الملحمة تعتمد على وجود شخص كمحور ، تدور حوله الأحداث ، ولا يبتعد بطل الملحمة كثيرا عن النجم السينمائي الذي جعله نظام النجوم « الستار سيستم » يحظى بهالة من الاهتمام والاقبال ، فشخصية (زورو) و (درتاكنان) و (روبان دي بوا) و (أوليس) شخصيات لها علاقة ملحمية بدوكلاس فيربانكس ، وجون وين ، وجان ماريه والتركيز على شخصية واحدة تتمحور حولها الوقائع مسألة حيوية بالنسبة للشريط السينمائي ، تجعل منها نقطة التقاء مع الملحمة ، ووجود هذه الشخصية يعطي بالضرورة وجود شخصيات تحرك الصراع ، أشهرها شخصية الخائن التي تسعى إلى تحطيم البطل ، بينما يسعى البطل إلى القضاء عليها . ويكبر عنصر الفرجة والاثارة .

نظرة قصيرة على الالياذة والأوديسا تجعلنا نكتشف أنهما تحفلان بالمواضيع السينمائية ، من صراعات

فردية وجماعية ، ومبارزات بين الأبطال وأعداء الحق الخونة ، (أوليس ضد الطامعين في الحصول على زوجته) ، والمطاردات (هكتور وأخيل) ، وكذا لحظات الوداع المؤثرة ، والمشاهد اللامألوفة كما في الجزيرة العجيبة ، والانتصار على الوحش رغم طاقته التي تفوق طاقة الانسان ، والزوجة المخلصة بينيلوب . ويجعل تنوع الاثارة من الملاحم (سيناريوهات) جيدة ، تتعانق فيها بساطة التركيب وانسيابية الأحداث ، حيث تتتابع الحلقات مترابطة مشدودة إلى موضوع رئيسي ومركزي . وعن هذا تولدت فكرة المسلسل ، والمسلسل ليس سوى نقل للتقسيم الملحمي .

السينما والرواية

إن السرد ـ بطبيعته ـ يقترب من المادة (الدرامية) أكثر من اقترابه من المادة الروائية ، إلا أن الرواية تتميز بقدرتها على تناول السرد وتطويره وإغنائه في إطار خارجي ، تستطيع الرواية تقطيع السرد وإخضاعه لتحليل تجريدي ، يصعب على السينما إدراك تحقيقه ، ومن هنا تأتي عملية نقل رواية إلى الشاشة شبيهة بتحويل العمل الروائي إلى (دراما) ، فكل شيء يصبح حركة ، وتشاء طبيعة السينما أن يتقيد هذا التعبير الحركي في زمن محدود جدا ، يبدأ وينتهي مع انتهاء عرض الشريط ، في حين أن تلقي الرواية قد يمتد أياماً أو ربما شهوراً ، وتستطيع السينما أيضا أن تقتحم ثلاثة أنواع من الرواية ، ذلك الذي يصور حقبة زمنية معينة ، وذلك الذي يحكي حياة شخص وتطوره إيجابا وسلبا ، وأخيرا النوع الذي يجعل من سرد فترة زمنية قصيرة متوترة ، وفيها أزمة ما موضوعا له ، وفي النوعين الأولين يقع اختيار السينما على لحظات ذات دلالة ، فهي لا تحكي الحقبة الزمنية المعنية بالتفاصيل (الروتينية) ، ولا تتعرض لحياة شخصية بدقة تبعث على الملل ، بل تلتقط من هذه وتلك «اللوحات الأساسية . هي إذن تختزل وتلخص لتصور مقاطع مختارة من عمل ضخم ، ومهما حاولت السينما أن تجتهد في تقديم المهم من رواية « الحرب والسلام » لتولستوي ، أومن رواية « دافيد كوبر فيلد » لشارلز ديكنز ، فثراء العملين يجعل الصورة دائما قاصرة عن عطاء أكثر ، لما يحفلان به ، لكن رواية الأزمة التي تركز على فترة قصيرة عابرة من حياة فرد أو عائلة أو جماعة الخ . تقترب أكثر من السينما ، وتيسر عملية النقل إلى الشاشة وتحويل السرد إلى حركة . وأغلب الأعمال الأدبية التي نجحت السينما في إنتاجها وعرضها تنتمي إلى هذا النوع من الرواية . وترتاح السينما في تعاملها مع رواية الحركة أكثر من ارتياحها للتعامل مع الرواية التحليلية ، إذ أن هذا النوع ينحصر في سرد أزمة يحاصرها الزمن ويعتمد على سلوك شخصياتها الخارجي ، الظاهر للعيان .

ومع ذلك فالفن السينمائي يعتمد في تعبيره على حدس المتلقي ، وهو في هذا يتأثر بالفن الروائي الذي يعتمد أيضا على ذكاء القاريء وتفاعله مع العمل ، فالفن الروائي لا يقول كل شيء ، بل إن هناك بين السطور أشياء على القاريء أن يكتشفها ، كما أن العناصر المكونة للعمل السينمائي تدع المتفرج يعتمد على تفاعله للكشف عما لم يقله (الشريط) . وهذه العملية لا تتأتى إلا بعد عشرة طويلة ، تخلق ألفة بين المتلقي والفيلم ، كما خلقت هذه العشرة ألفة بين الرواية والقاريء .

السينما والشعر

أما الشعر فباعتباره فنا أدبيا لا يعرف في السوق إقبالا إلا من طرف هواة القصيدة ، وتعامل السينما معه يطرح أولا أشكال الجمهور ، ويبقى السؤال الحاضر دوما : هل ينجح فن تجاري في خلق علاقة مع نوع أدبي لا يميل إليه إلا القلة ؟ حاولت السينما أن تتعامل مع القصيدة منذ بدايتها ، فتم إنجاز الشريط الصامت « المطلق »ABSOLU ، وكان الفشل التجاري هو النتيجة المنطقية لعرض قصيدة

مصورة ، وما تزال أفلام القصيدة تفتقر إلى إقبال الجمهور الواسع ، في حين أنها تلقى تشجيعا خلال المهرجانات ، وبما أن في كل فنان جزءا من شاعر فإن بعضهم يحرص على إدخال الشعر في الفيلم التجاري بإدخال شخصية شاعر في الحبكة ، وبالتالي تقديم نفس شعري للفيلم في خضم الحركة والتوتر ، ليصبح الشعر جزئيا لكنه على الأقل حاضر . وكلما خرج الفيلم من إطار الحكاية العادية ، ومن السرد المنطقي أمكن له أن يعانق القصيدة كما في فيلم « الجميلة والوحش » ، و « العودة الخالدة » ، حيث يفيد غياب عنصر السرد المكثف الأصالة الشعرية ، وتفرض (تيمة) الصورة نفسها حين يسوقها الشاعر في نسق لا يخضع لمنطق السببية ولا للعقل . وقد سجل فلاهيرتي FLAHERTY ـ رائد الأفلام الوثائقية ـ جمالية شعرية ناجحة ومقبولة . ولعل أنجح الأعمال الشعرية التي لا تخضع لمنطق هي الرسوم المتحركة التي تحملنا صورها إلى عالم جديد ، والتي توفق في النقل البصري إلى الرؤية الشعرية ، وكما في القصيدة لا ينخدع شاعر الصورة أو مخرج فيلم القصيدة بانفعالاته ، بل يسهر على إعطاء الايقاع والأسلوب المناسبين لترجمة إلهامه ، ولا قيمة لجمال الصورة إذا لم تهدف إلى التعبير عما يفرضه الالهام ، وتبليغ الرسالة التي يرمي الشاعر إلى إيصالها ، ومن هنا يأتي نجاح فلاهيرتي في نانوك ، وموانا ، ولويزيانا ستوري ، إذ أخضع التجربة الشعرية لعلاقتها مع الواقع ، وحرص على قيمة الايقاع في تبليغ الدلالة وترجمة الأحاسيس .

السينما والمسرح

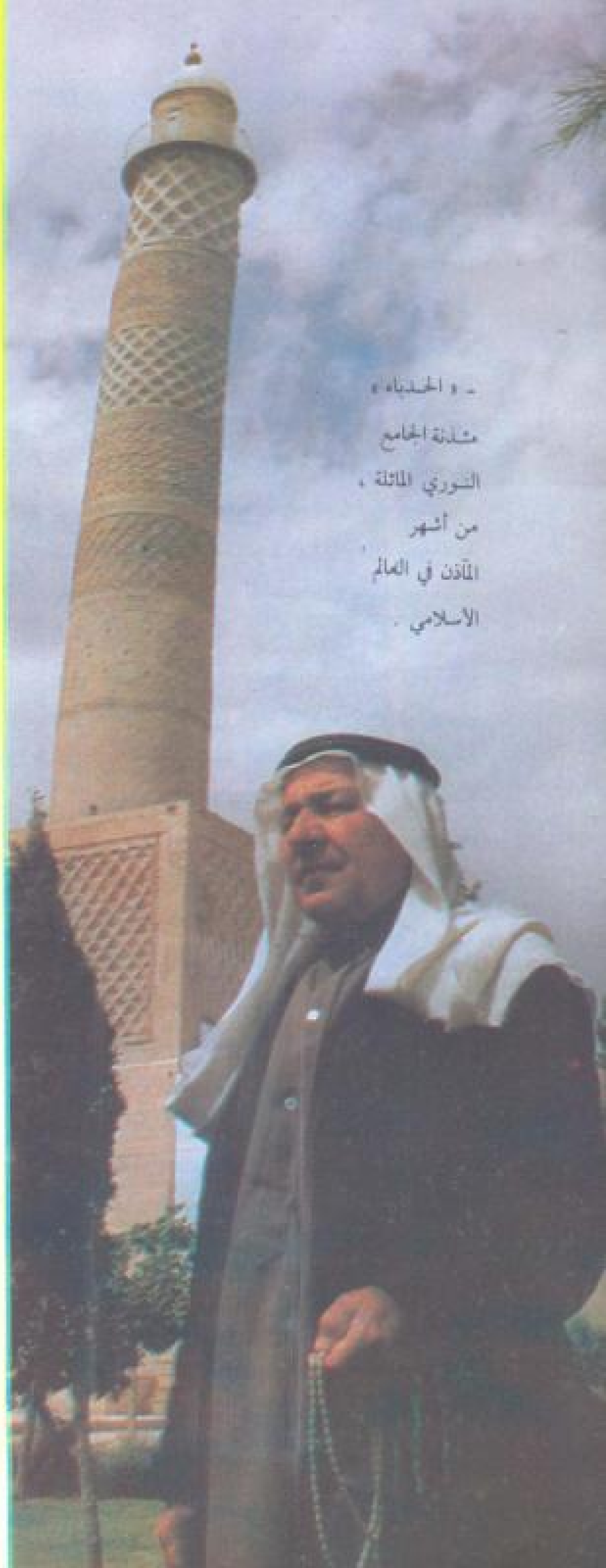
أما المسرح فهو أقرب الفنون الأدبية إلى السينما ، من حيث التركيب ، ومن حيث ضرورة الزمن التي تتحكم في الخشبة والشاشة ، ثم إن أعظم الأفلام السينمائية بنت (سيناريوهاتها) على موضوع حاد وأبدي ، حافل بالتعبير الحي ، يمنح للفنان إمكانيات العطاء . والقدر بتفاعلاته و (ميتافيزيقيته) أعطى مادة خصبة للأفلام التراجيدية ، وميزة التراجيديا أنها تتلخص في أزمة رئيسية محورية تتنامى وتتطور .

في حين أن الكوميديا تخضع الفيلم لقوانين الفرجة وإثارة الضحك التي تتحقق عبر التعبير بالصورة ، وعن طريق الحركة الكثيفة ، ونلاحظ في الأفلام الكوميدية الشهيرة أن الايقاع يحتل الصدارة في العمل الفني ، انطلاقا من ميليس MELIES ، ومرورا بماكس ليندر MAX LINDER ، إلى شارلي تشابلن CHARLES CHAPLIN وكلما تخلت السينما عن تكثيف الحركة واعتمدت التعبير على الطباع البشرية بنقدها سقطت في « تسنيم » المسرح ، إذ يصبح الحوار سائدا ، وفيه تكمن قيمة الفيلم الأساسية ولعلها الوحيدة . والحدث والحركة يشكلان الركيزة الأساسية للفيلم الضاحك ، وقد عرف تاريخ السينما أنجح ما أعطت (الكوميديا) وهو ذلك النوع الذي يأخذ شخصية نمطية ، ويعمل على تبرير تصرفاتها عبر الحركة والحدث ، مثل أفلام « شارلو » والثنائي « لوريل وهاردي » و « الأخوة ماكس » ، وقد وصلت شهرة هذه الأفلام إلى درجة (الكليشيه) ، كما أن الشاشة استفادت كثيرا من مسرح « الفودفيل » أو مسرح الشارع ، حيث تصبح الحبكة آلية ، وتخلق مشاهد موازية تناقضات مثيرة ، تعتمد على المنطق المغلوط ، وعلى سوء التفاهم ، وهما من أنجع ما يثير ضحك المتلقي .

يبقى الحوار ـ وهو العنصر الأساسي في المسرح ـ غير ذي متانة في السينما لأن الصورة تطغى ، ولأن (الدبلجة) تقتضي تسجيل الحوار بعد التصوير ، محافظة على تطابق حركة الشفتين مع القول ، وقد تخلت السينما عن قوة التعبير الشفوي المثير للعواطف والانفعالات في المسرح ، معوضة ذلك بالصورة البليغة الناطقة دون أن تتكلم ، غير أن هذا لا ينفي تأثير جودة الحوار في الفيلم ، بل ينزع عنه فقط صفة الأولوية التي تجعل منه ضرورة على الخشبة بدونها لا يتحقق العمل المسرحي . □

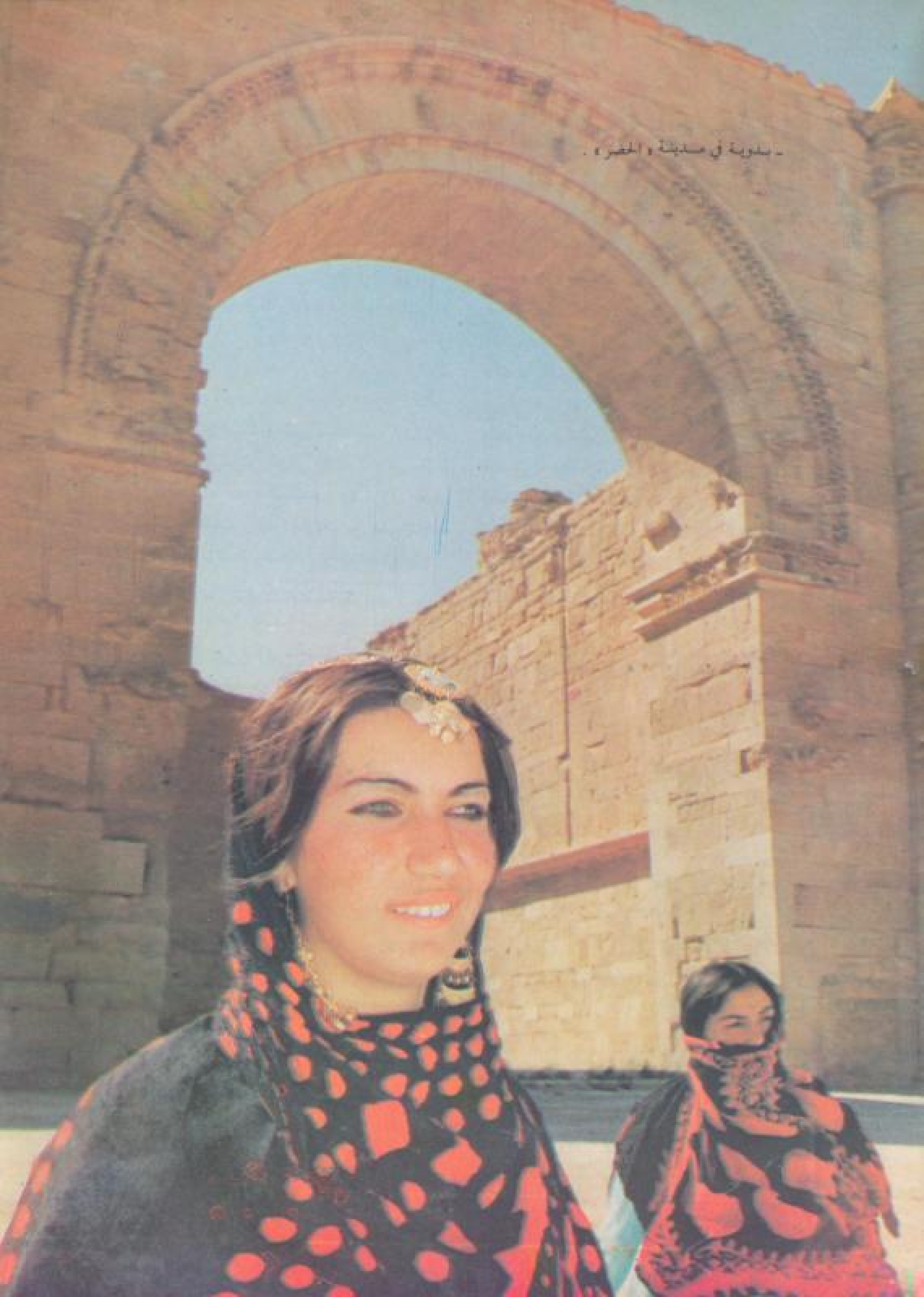
الموصل تبحث عن زمنها المفقود

استطلاع : صلاح حزين
تصوير : طالب الحسيني



ـ « الحدباء » مئذنة الجامع النوري المائلة ، من أشهر المآذن في العالم الاسلامي .

حين بلغنا الموصل كانت المدينة الخضراء تودع ربيعها الأول ، لتستقبل ربيعها الثاني ، فلكل مدن العالم ربيع واحد ، وللموصل ربيعان ، واحد في الربيع ، وآخر في الخريف ، وبين الربيعين تتزين المدينة وريفها بالثوب الأخضر الموشى بآلاف الورود الحمراء والصفراء والبيضاء ، مستقبلة السكان المحتفلين بأعياد مدينتهم الزاهية .



- بدوية في مدينة « الحضر » .

حين يأتي الربيع يخرج أهل الموصل إلى الغابات القريبة ، والجبال الخضراء ، ومساقط المياه المجاورة ، ويرقص الشباب والفتيات ، ويتقافز الأطفال بين الأشجار ، ويتمرغون فوق العشب الذي استطال فجاوز أحجامهم الصغيرة . ويتأمل الكبار في الأفق الممتد فوق السهول والجبال التي شهدوها صغارا و يافعين ، هاهي الجبال والسهول والغابات تواصل عادتها الخالدة في استبدال ثوب بثوب ، ولون بلون ، وتموت أجيال ، وتأتي أجيال ، ويزول الناس البسطاء كما زال ملوك « آشور » العظام ، وكما زال البابليون والسلوقيون والفرس والتتار ، وكل الغزاة الذين مروا بهذه المدينة العظيمة ، ولا تزول الجبال والسهول والغابات والمياه الجارية ، بل تبقى شاهدا على جبروت الانسان وضعفه ، وعلى مجده وعاره ، وعلى حياته وموته الذي تعددت أسبابه .

حين بلغنا الموصل كانت الحرب هناك أيضا ، فقد كانت المدينة تودع شهيدا سقط في الحرب التي اشتدت في الجنوب ، فاكتوى بنارها الشمال ، وألقت بظلها على كل شيء . لكن متى انتهت الحرب هناك ؟ ومتى غادرت الحرب أرض الموصل ؟ لقد بنيت الموصل بالقرب من أطلال مدينة نينوى القديمة ، حاضرة الآشوريين الذين لم يخل عصر ملك من ملوكهم من حملة أو أكثر ، حتى طغى الجانب العسكري من نشاطهم على ماعداه ، مما جعل بعض الباحثين لايرون فيهم غير أمة من الجند والقادة المقاتلين والملوك القساة المستبدين ، ويتهمونهم باتباع سياسة النار والحديد مع الأقوام المجاورة ، رغم ما عرف عن بعض ملوكهم العظام من اهتمام بالعمارة والفنون والأدب الذي حفظ منه كثير .

بعد الآشوريين جاء البابليون ، ثم السلوقيون ، فالساسانيون ، وأقوام آخرون غيرهم ، ثم جاء الفتح العربي الاسلامي . وفي كل عهد من هذه العهود كانت الحرب هناك لاتبارح . لذا كان السور المنيع الذي يحمي المدينة إحدى ضروراتها ، فكان سور نينوى القديم ، ببواباته الخمس عشرة التي أخذت أسماء الآلهة الآشورية ، مثل بوابة شمس ، وأود ، وسن ، وغيرها . ثم بعد ذلك كان سور الموصل الشهير بمنعته الذي لم يبق منه الآن غير تلك القلعة الحصينة المسماة « أشطابيا » الواقعة على ضفاف دجلة ، تروي قصة الغزاة الذين وقفوا على أعتابها دون أن يقتحموها . قال عنه ابن بطوطة : « إنه من أسوار الدنيا العظام ، وأنه لم ير مثله في أسوار الدنيا إلا السور الذي على مدينة دهلي حاضرة ملك الهند » ، وزارها الرحالة الأندلسي ابن جبير فكتب : « وهذه المدينة عتيقة ، ضخمة ، حصينة ، فخمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت أبراجها تلتقي انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض » .

حين هدمت المدينة سورها

ومع ذلك فإن التاريخ يروي لنا حادثة طريفة ، اضطر فيها أهل الموصل إلى هدم سور مدينتهم بأيديهم ، فقد ذكر المؤرخون أن الموصل ثارت على هارون الرشيد سنة ١٨٠ هـ ، فجرد حملة على المدينة ، وهدم جزءا من السور ، وأرسل مناديا في المدينة يقول : « من هدم ما يليه من السور فهو آمن » ، فهدم الناس سور مدينتهم بأيديهم .

وظلت المدينة بلا سور فترة طويلة من الزمن قبل أن يبنى من جديد ، ليهدمه المغول ، ويعاد بناؤه ثانية ، وتبليه الغزوات الجديدة والزمن ، فيتحول إلى أطلال وأنقاض بعدما دخلت الحروب عصر المدفعية الثقيلة والطائرات والصواريخ ، وبعد ما عجزت أسوار المدن عن حماية سكانها ، فقامت بلدية الموصل ببيع ما تبقى من أنقاض السور بعد عام ١٩١٥ ، فكان ذلك فصل الختام في تاريخ السور الحصين ، وبداية عهد جديد للمدينة التي شهدت فجر التاريخ . فماذا سجل التاريخ عنها ؟

« هي محط الركبان ، ومنها يقصد إلى جميع البلدان ، فهي باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنها يقصد إلى أذربيجان ، وكثيرا ماسمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور ، لأنها باب الشرق ، ودمشق ، لأنها باب الغرب ، والموصل ، لأن القاصد من الجهتين قل مالا يمر الآ بها . . وما عدم شيء من الخيرات في بلد من البلدان إلا وجد فيها . » ، هكذا وصف ياقوت الحموي الموصل في زمن غير هذا الزمن . فماذا عن تلك المدينة العراقية الواقعة على بعد ٢٦٨ ميلا إلى الشمال من بغداد اليوم ؟

لقد قدم لنا ياقوت المدينة باعتبارها جسرا يربط بين حضارات مختلفة ، في أماكن مختلفة من العالم ، ولذا كان اسمها الموصل ، يقول ياقوت : « قالوا سميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل وصلت بين دجلة والفرات ، وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة ، وقيل بل الملك الذي أحدثها كان يسمى الموصل » .

غير أن هناك من يقول أن الموصل ما هو إلا تحريف لكلمة « موسبيلا » ، وهو الاسم الذي أطلقه على المدينة القائد اليوناني « زينفون » ، حينما مر بها بصحبة عشرة آلاف مقاتل في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد .

وفي الواقع أن الموصل مدينة متعددة الأسماء والأوصاف ، فقد سماها الآراميون حصن عبرايا ، وسميت هي ونينوى بالحصنين ، كما سميت بالحدباء لاعوجاج دجلة عندها ، واحديداب الأرض القائمة عليها ، ووصفت بالبيضاء والفيحاء وبالخضراء لاخضرار بقاعها وجدرانها بعد سقوط الأمطار ، ولقبت أيضا بأم الربيعين ، لأن خريفها معتدل كربيعها .

وحين بلغنا الموصل كانت أعياد الربيع الأول قد انتهت ، فخلدت المدينة إلى السكون بين ربيعيها .



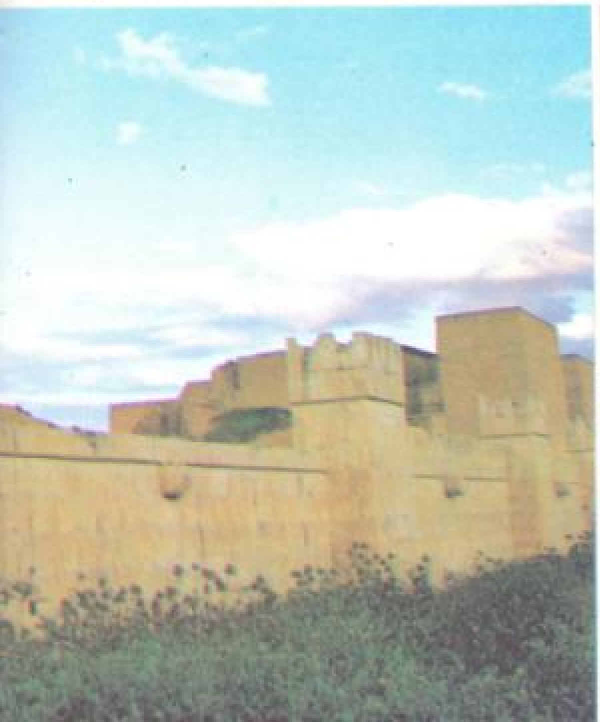
الموصل .

سباق مع الغروب

لانخيل في الموصل إلا نخيل الزينة في الشوارع الفسيحة والساحات الكثيرة التى تزين المدينة وتعلن عن الاهتمام بها . وبهذا تختلف الموصل عن مدن العراق الجنوبية المكتظة بالنخيل ، وليس في الموصل ذلك المشهد الأخضر المغبر الذي يميز جنوب العراق ووسطه ، بل الخضرة النضرة والشوارع التي اعتادت نزول المطر ليغسلها ، والساحات التي انبثقت منهامياه النوافير، والأبنية الحديثة العديدة والجسور التي تربط شطري المدينة القائمين على نهر دجلة الذي يخترقها ، وعلى أطراف المدينة تشابكت أشجار الغابات ، فوق بساط من العشب الطالع من الأرض الحمراء ، بساط يفترشه سكان المدينة حين يخرجون إلى الغابات للاحتفاء بالربيع ، بساط لمتعة الأطفال وتأمل الشيوخ ورقص الشباب حين يخرجون في استجابة عفوية لنداء الطبيعة الغامض .

في داخل المدينة كانت الحياة تسير ، والناس والسيارات والعربات والمركبات والباعة والمشترون والمتنزهون والمتسكعون والواقفون على الأرصفة يمارسون عادة الانتظار التي ألفها البشر منذ آلاف















- (أعلى) عمارات ارتفعت على جانبي دجلة (أسفل) أضرحة لأولياء مجهولين ، وقباب مخروطية مميزة (إلى اليسار) الثور المجنح ، رأس مهشمة وخمسة أقدام (أعلى يمين) لقطة شاملة للموصل من فوق جامع النبي يونس ، جزء من سور نينوى القديم وقد أعيد بناؤه (أقصى اليمين) ترميم الأدعية في دار التوتنجي .



السنين .

كانت الشمس تؤذن بالمغيب ، ودجلة يواصل سيره على عهده منذ آلاف السنين ، ولم يكن أمامنا وقد وصلنا المدينة في آخر النهار إلا مراقبة الغروب الجميل ، لكن الأبنية الحالية داخل المدينة ، والغابات الكثيفة خارجها ، كانت تحول دون استمتاعنا بمشاهدة المنظر الخالد ، ركبنا السيارة ، واتجهنا نحو الأفق ، في محاولة للظفر بمشاهدة الشمس الغاربة . ومن ضفة النهر وعبر غابات الموصل ، ومن خلال أغصان الأشجار المتهدلة شهدنا غروب شمس الموصل خلف نهرها الخالد في مشهد جميل وجليل ، والتقط زميلي المصور ما أراد من صور لهذه اللحظة التي تشي بأكثر من معنى ، وعدنا إلى الفندق للمبيت قبل أن نبدأ يوم عملنا الأول في الصباح التالي .

استيقظت المدينة في اليوم التالي على صبح ربيعي رائع ، لسعات البرد الخفيفة كانت تذوب سريعا في حرارة الشمس التي بدأت تزداد رويدا رويدا ، فتزيل غبش اليوم الذي انقضى ، وتعطي النهار وهجا جديدا . وتحت شمس النهار الصاعدة كان أهل الموصل يغادرون منازلهم نحو مراكز العمل ، غير مبالين بكل هذا الجمال الذي ألفوه ، وكانت الحوانيت تفتح أبوابها والمركبات تسير كسلى في شوارع المدينة المستيقظة ، والساحات والشوارع تمتلىء بالقادمين من أطراف المدينة ، ومن القرى المجاورة . يتوجه العاملون إلى أعمالهم ، والطلبة إلى مدارسهم ، والفلاحون إلى حقولهم القريبة . وتبدأ دورة الحياة اليومية .

في ذلك الصباح الربيعي كنا على موعد مع مزاحم الزوبعي مدير آثار النمرود في إدارة آثار نينوى ، فالموصل هي عاصمة محافظة نينوى التي أخذت اسم مدينة نينوى القديمة ، إحدى عواصم الدولة الآشورية ذات المجد القديم . أما النمرود فهو الاسم الذي أطلقه العرب على مدينة كالخو العظيمة ، وهي عاصمة المملكة الآشورية الثانية الواقعة قرب الموصل . ومع أن السيد الزوبعي اختصاصي في الحضارة الآشورية القديمة إلا أنه يعرف المدينة بأحيائها وشوارعها الخلفية وأزقتها الضيقة وأسواقها القديمة معرفة تامة .

ومن مكتبه الواقع في سفح تل كانت تقوم عليه فيما مضى أجزاء من نينوى القديمة ، بدأنا رحلتنا نحو ساحات الموصل الرئيسية التي تشكل امتدادا لبوابات سور الموصل المنيع الذي تحدثنا عنه ، فأحياء الموصل هي امتداد للأحياء القديمة التي كانت تقود إليها ، وأبواب السور القديمة مثل باب سنجار وباب البيض وباب الطوب وباب السراي وغيرها . ومن أحد هذه الأبواب ـ من باب الطوب ـ دلفنا إلى المدينة القديمة ، لنرى ماذا فعل الزمن بالموصل ، وماذا فعلت الموصل لتتحدى الزمن ـ وهي التي يعود تاريخها إلى الألف السادس قبل الميلاد ـ حين كانت قرية زراعية صغيرة تدعى نينوى .

في سوق الهرج

اخترقنا الأبنية العتيقة والأزقة الضيقة المليئة بالعربات والناس بملابسهم التقليدية ، مشترين وبائعين وعاملين ومتسكعين ، ودلفنا إلى أسواق المدينة القديمة التي تراصت الحوانيت فيها جنبا إلى جنب ، حتى وصلنا ساحة صغيرة وقفت بها عربة ، وفوق العربة جلس شاب لم يبلغ العشرين ، وقد بدا بملابسه التي تتكون من عمامة وقميص وسروال فضفاض كأنه خرج من حكايات ألف ليلة وليلة . أنه ينتمي الى ذلك الجيل الذي يحفظ للمدينة تقاليدها، وللمهن اسرارها فيحافظ على ما يمكن أن ينقطع إذا تمكن نموذج الحياة الجديد من اختراق هذا الجزء العزيز من مدننا القديمة ، إن الحياة تجري خارج هذا الجزء الموصلي القديم ، وخارج المدينة الحديثة ، وخارج العراق والوطن العربي ، لكنها تجري هنا بوتائرها الخاصة وأسلوبها المميز ، ويحاول هذا الجزء

العريق الذي كان يوما مركزها المزدهر أن يبقى على ما كان عليه من مجد غابر ، لكن للزمن قوانينه ، وللتطور الذي هو سنة الحياة منطقه الخاص الذي لايقف عند حنين الناس إلى القديم الأصيل والعريق ، بل يفرض نفسه على نمط الحياة بقسوة باترة .

في السوق وقف رجال يساومون على ثمن المسابح والعاديات والمصنوعات اليدوية الخفيفة ، رجال وشباب من مختلف الأعمار ، ارتفعت من خلال حواراتهم لهجة أهل الموصل المميزة القريبة من لهجة مدن شمال سوريا ، ويلبسون زيهم الموصلي التقليدي الشبيه بزي الريف في بلاد الشام ، الغترة والعقال والجلباب المفتوح طوليا من منتصفه ، يحيط به حزام جلدي أو قماش فوق سروال أبيض طويل .

جلس الرجال المسنون بزيهم هذا أمام حوانيتهم التي غصت ببضائعهم التقليدية ذات الألوان الداكنة المتنافرة .

اقتربنا من بعضهم ، وقدمنا أنفسنا ، طالبين التحدث إليهم ، وأخذ بعض الصور لهم ، فرحب بعضهم بالحديث لكنه اعتذر عن الصورة معلنا أنه لايحب التصوير ، وقبل بعضهم الآخر بعد مساومة أن تؤخذ له صورة بزاوية معينة اختارها هو ، ووقف آخرون لامبالين بالصورة التي التقطها لهم زميلي المصور ، واستسلم غيرهم ليده وهو يوجههم كيفما شاء ، فيما حاول بعض الشبان الصغار الدخول في محيط الصورة ، وهم يشيرون بأيديهم إلى أشخاص وهميين مومئين لهم ومبتسمين ابتسامات تمثيلية متنوعة ، وأقبل كثيرون ليروا ما يحدث في سوق الهرج ، وكان طريفا أن نعرف أن هذا السوق قد سمي بهذا الاسم لوجود المنادين على بضائعهم بصوت عال ، وحيث يكثر الهرج والمرج .

اخترق الجمع شخص تطوع فورا للحديث والشرح ، وأعلن عدم ممانعته في أن تأخذ ماتشاء له من الصور ، وصاح بعضهم « أبو علي السواس » ، وبدأ أبو علي السواس بلحيته البيضاء الجليلة وهيئته الأليفة ، وقد تمنطق بعدد من السيور الجلدية التي أحاطت بوسطه ، وامتدت من صدره إلى ظهره عبر كتفه ، وحمل قربة السوس (العرقسوس) ، وداعب بأصابعه المدربة الأكواب النحاسية التي يصب بها السوس لزبائنه ، فأضفت لحنا مميزا على حديثنا المميز .

وبدأ أبو علي السواس يتحدث بطلاقة ودربة تامتين . إنه حسين السواس ، يبيع السوس في هذا السوق منذ كان في الحادية عشرة من عمره ، وهو الآن على أبواب السبعين ، وفي الشتاء يتحول أبو علي لبيع القهوة العربية ، لذا فهو شخصية معروفة مألوفة في سوق الهرج . يسأل عنه الصحفيون والمصورون ليلتقطوا له الصور التي تمثل الموصل القديمة ، ويسألونه عن ماضي السوق كما عرفه صغيرا ، وعما حل به مع الزمن الذي طالت يده كل شيء . إنه جيل آخر من الرجال الذين حفظوا تراث المدينة العريقة ، حتى بعد اتساع الموصل ، وامتدادها ، ودخول الأسواق الجديدة و (البوتيكات) والوكالات التجارية الغربية إليها .

وبدالنا أبوعلي السواس والفتى القادم من حكايات ألف ليلة وليلة منسجمين تماما مع الدكاكين القديمة التي امتدت بشكل طولي حتى نهاية السوق ، وبداية سوق جديد ، وبدونا نحن بزينا الأوروبي وأجهزة التصوير كأننا غرباء عن المشهد كله .

من سوق الهرج إلى سوق الحبالين الذي تنعطف به الطريق الآتية من سوق الهرج . في أحد الحوانيت العتيقة وقف أحمد يونس ، يرتب حباله الملونة ، ويفك ما « تشربك » منها ، ليعرضها على أفضل صورة ، إنه يبيع الحبال في هذا المحل منذ ٤٠ سنة ، وقبلها كان والده يرعى المحل حتى توفاه الله .

وسألت أحمد يونس عن صناعة الحبال وبيعها ، أي مهنة الحبالين التي لاتعرفها أجيالنا جيدا ، فأجاب « إن مهنتنا تبور ، فلم يبق هناك ممن يستخدمون





ـ شباب الموصل
يحتضون بربيع مدينتهم
(يسار) حاملات
الجرار : من أشهر تماثيل
الموصل (أقصى اليسار)
الموصل القديمة تزول
تدريجيا إطلالة على
الموصل ساحات وتماثيل
وبنايات حديثة في
الموصل الجديدة .











الخيل والجياد في الموصل ، بعضهم يستخدم البغال ، لكن هؤلاء أصبحوا قلة لايقيمون سوقا . وتركت أحمد يونس وأنا أقلب في ذهني فكرة اختفاء الجياد التي اشتهر بها العرب ومايزالون . لقد مضى عصر الفروسية فلم لاتختفي الجياد ؟

ومن سوق الحبالين إلى سوق البزازين (الأقمشة) ، إلى سوق العطارين ، فسوق الصفافير ، وسوق السراجين ، وغيرها من المهن التقليدية التي أقامت الموصل لكل منها سوقا ، والحال هو الحال ، المهن القديمة تمضي وتبور ، ويعاني البائعون من وضع السوق الدي لم يعد كما كان ، فيهجر بعضهم حوانيتهم ، ويهجر آخرون مهنهم ، بينما يمضي آخرون متمسكين بها في وجه الحياة الحديثة الزاحفة إليهم في عقر أسواقهم .

دار التوتنجي

ومن مجمع الأسواق ذاك أكملنا جولتنا في الأحياء القديمة ، في حي القليعات ، وهو من بقايا مدينة نينوى الأشورية ، وباب السراي ، والسرج خانة ، وسوق الصغير . نفس الأزقة الضيقة تتكرر أمام عيني الزائر ، ومجاري المياه على الطريقة القديمة تنساب على امتداد الممر الضيق ، والأبواب المزخرفة وشناشيل النوافذ التي تقاربت على الالتقاء لضيق الأزقة ، ومع أن هذه الأحياء مازالت باقية إلا أن أحياء قديمة غيرها هدمت ، لتقوم مكانها شوارع فسيحة ، وبنايات حديثة ، وأسواق تعرض البضائع الاستهلاكية ، وتبيعها .

وحتى يصان الطراز الموصلي التقليدي في بناء البيوت استملكت المؤسسة العامة للآثار عدة بيوت قديمة ، بهدف ترميمها ، وإعادة بنائها حسب الطراز الأصلي الذي يعكس الهندسة المعمارية الموصلية ، من حيث ترتيب الغرف والردهات والسراديب ، ومن هذه البيوت دار التوتنجي التي كان يملكها أحد أعيان الموصل في سالف الزمان ، وحين وصلنا الدار



ـ السيد مزاحم الزويعي مدير آثار النمرود .

كانت الأشغال وأعمال الترميم قائمة فيها على قدم وساق :

تتكون الدار الموصلية التقليدية من قسمين ، وكل قسم من طابقين ، ويصل بين القسمين العلويين باب صغير ، وذلك عدا البوابة الرئيسية التي تتفرع حال دخول الدار إلى بوابتين داخليتين ، تؤدي كل منهما إلى قسم من قسمي الدار . فالقسم الأول : وهو القسم الخارجي خاص بالضيوف الذين يمكنهم ربط خيولهم في الدور الأرضي الذي تتوسط ساحته بئر للماء ، وزير مليء بالشعير لاطعام الجياد ، وفي الدور العلوي غرف للنوم ، وأخرى للسهر والمسامرة ، أما القسم الداخلي الذي يصل بينه وبين القسم الخارجي باب صغير فيسمى حرم الدار ، أي دار العائلة التي تحتوي على الايوانات وغرف النوم والسرداب الذي تتوسطه نافورة صغيرة ، وفي الدور العلوي ذي الأقواس المطل على الفناء تجلس العائلة في أمسيات الصيف ، متنعمة بنسيمه العليل ، وفي الداخل هناك المخزن الذي يوضع فيه تموين الدار ، والمطبخ ، وغرف النوم ، ثم فناء الدار الذي زينته كتابات

بالخط الكوفي الجميل . وعنصر البناء الرئيسي في الدار الموصلية هو المرمر الموصلي الذي يكثر في أطراف المدينة . وحاولت أن أتتبع يد الخطاط الذي جاء ليرمم فناء دار التوتنجي ، وقد وقف فوق (سقالته) النحيلة ، وأمسك بفرشاة ، يتتبع باللون الأبيض آثار الكتابة فوق شريط أزرق اللون ، يمتد بعرض جهات الفناء الثلاث ، فقرأت :

ياكاشف الكربات عن شاكيها
ياراحم العبرات من باكيها
غذوتني وأنا جنين في الحشا
لا أعرف الدنيا ولا أدريها
ولطفت بي في المهد طفلا مرضعا
ورزقتني التنعيم والترفيها
صلي عليه وآله وصحابه
وعلى البتول وبعلها وبنيها

وخرجنا من دار التوتنجي عبر الأزقة الضيقة التي سقفت أجزاء منها ، ونحن نتساءل عن السحر الكامن في الأماكن القديمة ، هل هو في بساطة حياتهم ، أم في نظرتهم إلى الحياةوموقفهم المبسط من الفقر والغنى ، أم في طريقة التعبير عنها ، أم هو فينا نحن ، نسقطه على شيء مضى وانقضى ، ونرسم صورة زاهية لعهد لن يعود ؟ !

الموصلين

على مقربة من دار التوتنجي تنهض الموصل الحديثة ، بشوارعها الواسعة ، وبناياتها العالية ، ذات الهندسة المميزة ، وساحاتها الخضراء الفسيحة التي تزينت بالنوافذ والأضواء والتماثيل التي تسجل جوانب من حياة الموصل القديمة ، مثل الفلاحات وحاملات الجرار وغير ذلك من أعمال فنية . وفي أحدى هذه الساحات وقف نصب معدني ضخم لاناء جميل متناسق التكوين والأضلاع ، إنه نسخة مكبرة ، لأشهر إبريق موصلي صنعه من النحاس الأصفر المطعم بالفضة شجاع بن منعة الموصلي سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) ، ويرمز هذا الابريق إلى أزهى عصور الموصل ، وأكثرها ازدهارا ورخاء ، وهو عصر الأتابكين الذين أنجبوا عماد الدين زنكي ، ونور الدين زنكي ، ومهدوا لظهور صلاح الدين الأيوبي الذي كان له شرف توحيد مصر وسوريا والعراق ، وهزيمة الصليبيين ، واستعادة القدس منهم ، لكن تلك قصة أخرى .

وقد وصف المؤرخ الشهير ابن الأثير ـ وهو من أبناء الموصل ـ حكام المدينة من الأتابكة ، فكتب يقول : إنهم « نعمة أنعم الله بها على أهل تلك العصور » ، فقد تقدمت فيها العلوم والفنون ، ونبغ منهم المؤرخ عز الدين بن الأثير ، وابن يونس الفيلسوف المشهور ، وأبناء هبل المشهورون بالطب ، والهروي السائح ، وابن عصرون ، وآخرون غيرهم .

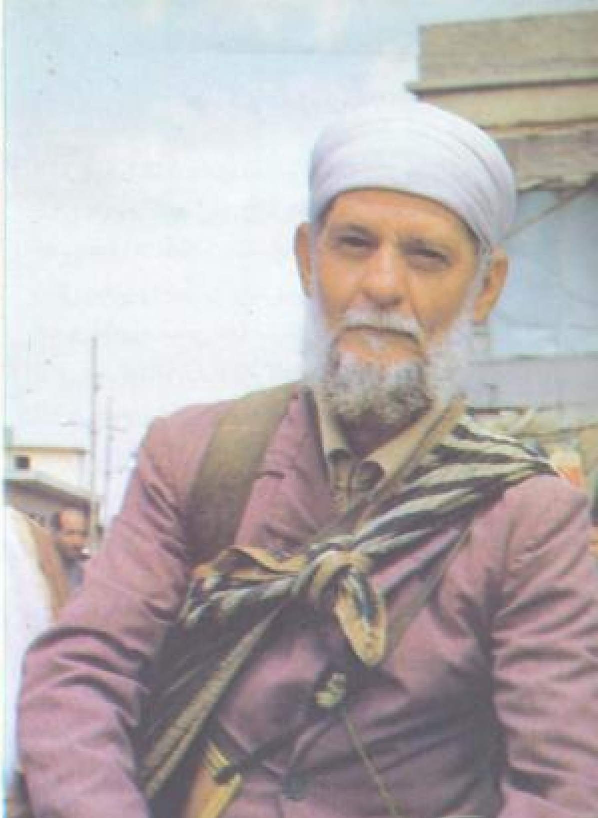
وازدهرت فيها صناعة التحف ، حتى صارت مثلا في الدقة والاتقان ، واشتهرت هذه الصناعات في أوروبا باسم الموصلين (MOSLINE) نسبة للموصل ، وهو اسم أطلقة الأوروبيون أيضا على النسيج الموصلي الذي عرفوه جيدا في القرون الوسطى .

الحدباء

وفي عهد الأتابكة أيضا بني الجامع النوري (نسبة إلى نور الدين زنكي) الذي اشتهر بمنارته المائلة نحو الشرق ، وهي واحدة من أشهر المآذن في العالم الاسلامي ، أطلق عليها اسم الحدباء لاحديدابها ، وميلانها الذي يشاهده زائر الموصل من كل مكان في المدينة ، ويبلغ ارتفاع المئذنة نحو (٥٥) مترا ، وتيحط بها على التوالي سبعة أشرطة زخرفية ، كل منها يختلف عن الآخر بطريقة الزخرفة الظاهرية التي كان أساسها الآجر أو الطابوق ، وداخل المئذنة هناك درجان ، يصعد بهما إلى الأعلى ، وينزل إلى الأسفل ، بحيث لايلتقي الصاعد بالنازل . وفي



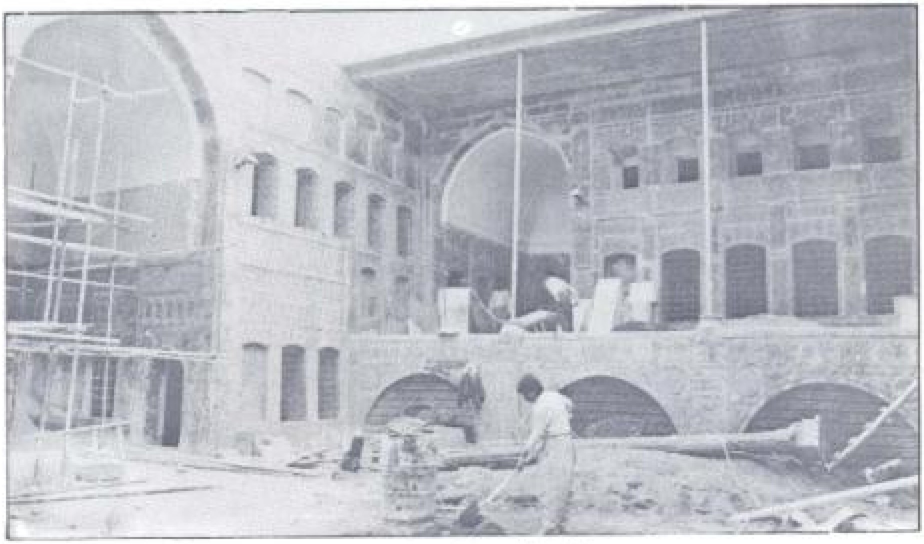




ـ أبو علي السواس (فوق) وحسين الحبال وصناع آخرون لمهن تبور في أسواق الموصل القديمة . (إلى اليسار) سوق البرج : باعة ومشترون من جميع الأعمار ـ (إلى اليسار) ابريق « شجاع بن منعة » في إحدى ساحات الموصل .





ـ أعمال الترميم في دار التوتنجي .

تفسير ميلان المئذنة الحدباء يقال أن هناك احتمالين ، الأول أن يكون المهندس هو الذي عمد إلى بنائها بهذه الطريقة ، والثاني أن تكون الرياح الغربية هي التي أمالتها نحو الشرق ، وليس بين الاحتمالات أن يكون هناك خلل في عملية البناء ، قد أدى إلى اعوجاجها بهذه الصورة . وغادرنا الجامع النوري الكبير الذي بني بين عامي ٥٦٦ ـ ٥٦٨ هـ ونحن نتساءل عما إذا كانت هناك احتمالات خطأ هندسي أدى إلى احديداب منارته كما هو الحال مع برج بيزا المائل في ايطاليا ، وهل هناك علاقة بين اسم المئذنة واسم الموصل ، حيث يطلق على كل منهما اسم الحدباء ؟ !!

وإن كانت الحدباء أشهر مآذن الموصل فان جامع النبي يونس هو أشهر جوامعها الكثيرة ، ويقع جامع النبي يونس فوق تل يسمى تل النبي يونس ، وهو أحد تلين كانت تقوم عليهما مدينة نينوى القديمة ، أما الثاني فتل قوينجق المقابل له ، وينسب تل النبي يونس إلى (يونان بن متى) ، صاحب الحوت الذي ورد ذكره في القرآن الكريم والتوراة ، ويذكر أنه عاش في مدينة نينوى وبشر فيها . وفوق هذا التل يقوم مسجد النبي يونس الذي يعد من أهم الأماكن المقدسة في محافظة نينوى ، حيث يأوي إليه الزهاد والنساك والعباد ، وبخاصة في مواسم معينة من السنة ، وقد مر المسجد بأدوار مختلفة من البناء ، فجدد بناؤه أكثر من مرة ، كما شهد الموقع نفسه تغيرات عديدة ، وأدوارا مختلفة ، فقد كان المسجد في باديء الأمر معبدا آشوريا ، ثم اتخذ موضعا لعبادة النار ، ثم ديرا أو كنيسة مسيحية ، وأخيرا اتخذ جامعا إسلاميا ، ولذا فإن أقدم غرفة تعود إلى أيام الآشوريين . وعندما دلفنا إلى تلك الغرفة وجدنا الحجارة العتيقة ، وقد اكتست بطبقة من السواد المتمكن منها ، ولما سألنا عن سر ذلك السناج قيل إن هذه الغرفة كانت « مطبخا في معبد آشوري » . فما سر هذا الحساء الآشوري العجيب وماذا عساهم كانوا يطبخون حتى بقي السناج طوال هذه الآلاف من السنين ؟ !

وفي إحدى الغرف داخل المسجد الفسيح مقام

للنبي يونس ، وقد علقت على جدران الغرفة التي تحتضن المقام عظام حيوان بحري يقال إنها عظام الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس . ومن فوق المسجد حيث القباب المميزة بشكلها المخروطي ولونها النحاسي الداكن شاهدنا مدينة الموصل بأحيائها العديدة ، منسبطة أمامنا ، يختلط فيها أسمنت الأبنية بخضرة الأشجار والغابات ، وفي الأسفل على مقربة من المسجد رقد تمثال متوسط الحجم لثور مجنح ، اشتهرت به الحضارة الآشورية حتى صار رمزا لها وحين سألنا عن سر وجوده هنا قال لنا شوقي محمد صالح الذي تتوارث عائلته حراسة المسجد أبا عن جد : إن هذا التمثال قد عثر عليه أثناء حفر الأساسات لتوسيع المسجد ، وعند ذلك تذكرت من جديد أن التل الذي يقوم فوقه المسجد هو أحد تلين قامت عليهما مدينة نينوى الآشورية قبل آلاف السنين ، وكلمة نينوى تكتب بلغة الآشوريين المسمارية لتلفظ(ننوآ) ، وتكتب بالعلامة المسمارية الخاصة بكلمة مدينة ، وداخلها السمكة ، حيث ساد الاعتقاد بأنها مدينةالآلهة نينا ، آلهة السمكة ، وهناك ما يشير إلى أن لفظة (نون) وتعني بالآشورية السمكة هي أصل اسم العلم بأشكاله المختلفة يونان ويونس وذو النون والاسم الأخير تشتهر به مدينة الموصل دون غيرها من مدن العراق . وهناك من يبالغ بالقول فيقول بأنه من بين كل ثلاثة من أهل الموصل هناك اثنان يحملان اسم ذي النون .

إذن فالموصل ليست جسرا بين حضارات ازدهرت في أماكن مختلفة فحسب ، بل جسرا بين حضارات مختلفة وعصور متباينة في أزمان متعددة . وهكذا أوقفنا رحلتنا عبر المكان ، وبدأنا رحلة أخرى عبر الزمان ، لنتابع عصور مدينتنا ، وكان مزاحم الزوبعي هو مرافقنا هنا أيضا ، فهو اختصاصي بالحضارة الآشورية دون غيرها ، وهل يمكن أن يكون دليلنا غير واحد من أهل الاختصاص مثله ؟

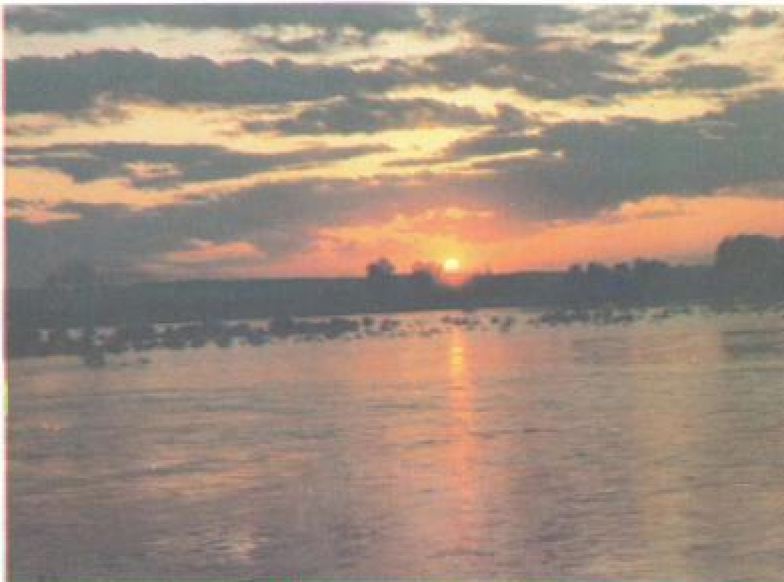
عصر الحجاب الآشوري

تعد مدينة نينوى التي قامت على أطلالها الموصل واحدة من أقدم المدن في العالم ، ويقدر أن تاريخ المدينة يعود إلى الألف السادس قبل الميلاد ، عندما كانت نينوى قرية صغيرة . وقد دلت الأدوات والآلات المكتشفة فيها على أنها قد ظلت مأهولة منذ ذلك التاريخ ، لكنها كثيرا ما كانت تقع تحت حكم الاكديين والسومريين والبابليين ، وفي أحد عهودها تبعت نينوى سلالة أور البابلية الأولى ، بزعامة سادس ملوكها حمورابي في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ، وقد ظلت هكذا حتى قام في آشور ملوك عظام ، وكانت لهم مدن وحواضر وعواصم ، وكانت نينوى تلقى اهتماماً خاصا ، حتى عندما لم تكن عاصمة للدولة ، كما تدل الألواح المسمارية المكتشفة في المناطق المجاورة . وأنجبت الحضارة الآشورية من الملوك العظام آشور ، وشمش ادد ، وسرجون الثاني الذي اتخذ من مدينة خرصباد المجاورة لنينوى عاصمة لحكمه ، وأبقى نينوى مقرا له ولأحفاده .

من أهم من حكموا نينوى ملكة آشور الأسطورية سموراميات التي يطلق عليها في الغرب الاسم اليوناني سميراميس التي جلست على العرش الآشوري مدة خمس سنوات ، باعتبارها وصية على ابنها القاصر ، وهذه هي الحالة الوحيدة في تاريخ العراق الموغل في القدم الذي حكمته فيه امرأة ، وربما كان ذلك سببا لنسج العديد من القصص والأساطير حول شخصيتها المثيرة ، رغم اجماع المؤرخين تقريبا على أن الفترة التي حكمت فيها سميراميس كانت فترة ضعف وانكماش ، أدت إلى قيام ثورة في البلاد ، انتهت بقيام الامبراطورية الآشورية الثانية في عام ٧٤٥ ق . م.



- قباب جامع النبي يونس المميزة بشكلها المخروطي .



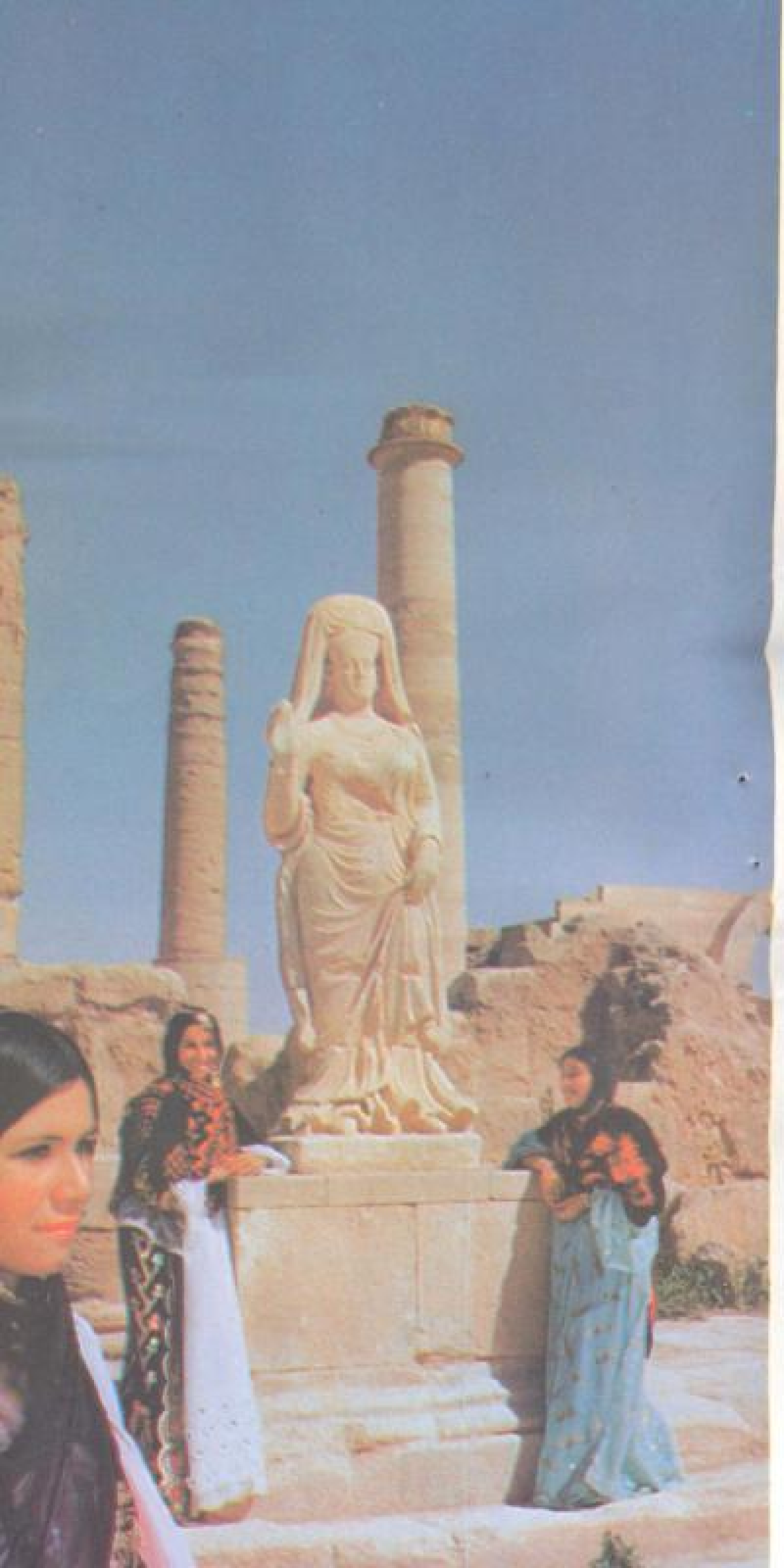
- نسق الآلهة الآشورية - غروب دجلة .



- الملاك المجنح ، حكيم آشور وطبيبها يلاحظ اللون الأسود كما هو منذ آلاف السنين .



- صبايا الحضر بجانب آلهة الشمس (الى اليسار)





حين سرقوا النمرود

تقع آثار النمرود على بعد ٣٧ كم جنوب غربي الموصل ، والنمرود هو الاسم الذي أطلقه العرب على مدينة كالخ أو كالحو ، وهي عاصمة الامبراطورية الآشورية الثانية ، ويعتقد بعض المؤرخين أن اسم نمرود جاء من القبائل العربية المجاورة التي تعزو كل عمل هائل إلى الملك الأسطوري النمرود . ويقول ابن منظور في لسان العرب : « إن النمرود اسم ملك معروف ، أو هو نمرود : الملك الذي أمر بالقاء ابراهيم في النار » ، وعلى أي حال فإن الكلمة التي هي في الأغلب تحريف لكلمة « نيمورتا » وهو اسم إله آشوري ، قد أصبحت صفة تدل على الجبروت والظلم ، وهي تقابل كلمة (فرعون) لدى بعضهم .

بنيت مدينة كالحو أول مرة في عهد الامبراطور شلمنصر ، لكنها تحولت إلى خرائب ، بعد أن فقدت أهميتها حتى جاء الملك آشور ناصر بال الثاني الذي حولها إلى عاصمة لملكه في احتفال مهيب ، استمر عشرة أيام ، وحضره ٦٩,٥٧٤ شخصا كما تذكر الألواح المسمارية التي اكتشفت على جدران قصره المعروف بالقصر الشمالي الغربي ، كما نقشت على هذه الألواح قوائم الأطعمة التي تناولها هؤلاء في حفلتهم الميمونة ، ومنها أكله تسمى (كوب باب) ، ويرجح العلماء أنها أكلة « الكبة » التي ماتزال مدينة الموصل تشتهر بها .

مررنا « بالزقورة » القريبة من القصر ، ومعبد نيمورتا ، ومعبد نابو المجاور الذي شيدته الملكة سمير أميس . والزقورة عبارة عن تل ضخم ، بني فوق كتلة صماء ، كانت في الأصل عدة طبقات بنائية متدرجة في الصغر ، تنتهي عند القمة على شكل المئذنة الملوية الشهيرة في سامراء .

على باب معبد نيمورتا وقفت ثلاثة تماثيل ضخمة للثور المجنح ، تهشم رأسا اثنين منها ، أو ربما سرقا ، والثور المجنح الذي هو أشبه برمز للحضارة الآشورية في عهودها المختلفة حيوان غريب ، له رأس إنسان ، وأرجل ثور ، وجسد أسد ، وجناحا نسر ، وقد كان هناك اعتقاد بأن من شأن هذا التمثال أن يطرد الأرواح الشريرة .

واقتربنا من التمثال الذي كان يواجه الداخلين بصدره ورجليه الأماميتين ، وحين تجاوزناه داخلين إلى المعبد لاحظنا أن له ثلاث أرجل أخرى محفورة على الصخر ، مما يعني أن للتمثال في الواقع خمس أرجل وليس أربعا . لقد واجه الفنان الذي أقام التمثال مشكلة فنية تتمثل في ما يسمى بالبعد الثالث ، فلم يجد لها حلا أفضل من صنع تمثال بخمس أرجل ، وربما كانت تلك أول محاولة في التاريخ لحل مشكلة البعد الثالث في فن التصوير !

وحين دخلنا المعبد ، دهشنا أولا لجمال التماثيل والرسومات وعظمتها ودقة التعبير فيها وشدة الشبه بينها وبين الرسومات الفرعونية ، ودهشنا ثانيا لأننا شاهدنا أكثر من دليل عيني على محاولات لم تكتمل لسرقة بعض هذه التماثيل والرسومات البارزة على الجدران ، فقد كان لصوص الآثار يلجأون إلى « السهولة » في عملية السرقة ، فيقطعون رأس التمثال أو الجزء العلوي من جسمه ، مما يسهل اقتطاعه وإخفاءه ليباع بثمن بخس في سوق الآثار الرائجة . وقد شاهدنا أكثر من تمثال للملاك المجنح أو الثور المجنح أو للملك آشور ناصر بال الثاني ، وقد دقت في الجزء العلوي منه الأزاميل بهدف اقتطاعه ، لكن المحاولة لم تكتمل لسبب أو لآخر لكن هذا السبب بالتأكيد لايتعلق بصحوة الضمير حول سرقة تراث البلاد . وفي أوائل السبعينيات سرق لصوص الآثار رأس الملك سنطروق من مدينة الحضر ، وهربوه عبر سوريا ، لكن الشرطة العراقية تمكنت من إرجاعه في مغامرة ، تحولت فيما بعد ذلك إلى فيلم سينمائي .

في بلاد عربايا

تقف مدينة الحضر بآثارها الشاخصة على بعد ١١٠ كم إلى الجنوب من الموصل ، أعمدة مرتفعة ، وبوابات عظيمة ، ومعابد شبه مكتملة ، كلها بنيت من الحجر الصلب . كنا نقترب من المدينة فتتضح معالمها وحجارتها التي احتفظت بشيء من النضارة رغم السنين ، لقد كانت الحضر عاصمة لمملكة عربية ، تسمى بلاد عربايا ، أي بلاد العرب ، وكان يطلق على المدينة اسم (حطرا) أو (حطرا دي

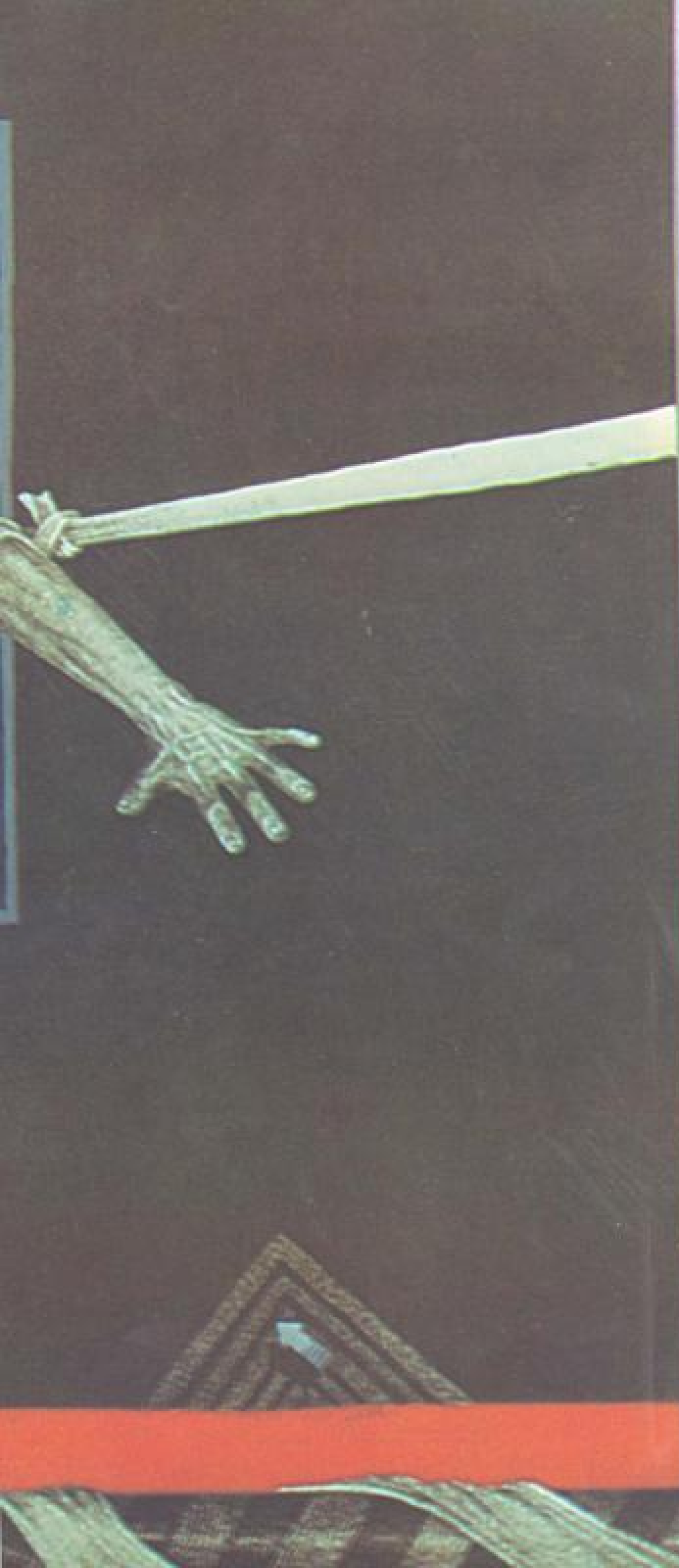
لم يكن ذلك زمن المرأة الذهبي بالتأكيد ، فقد اكتشفت في آشور بعض الألواح الطينية التي كتبت عليها باللغة المسمارية قوانين ، يتعلق بعضها بالنساء فقط ، وبالجرائم التي ترتكبها ، وبعلاقة المرأة بزوجها ، وبطقوس الخطوبة والزواج والطلاق ، وتتضمن هذه القوانين أيضا عقوبات للزوجة التي تسرق زوجها وهو على فراش المرض ، وعقوبات لجرائم الجنس ، مثل الاغتصاب والغواية والخيانة الزوجية ، تصل حد الاعدام ، وتحدثت إحدى مواد « قانون الأحوال الشخصية الآشوري » ـ إن جاز لنا أن نسميه كذلك ـ عن الحجاب ، ونصت على أن التحجب لايكون إلا للحرائر من النساء ، وليس للاماء اللواتي لايحق لهن التحجب إلا في حالة الزواج من رجل حر ، وتنص المواد الخاصة بطقوس الخطوبة على أن يقوم الخطيب بصب الزيت على رأس عروس المستقبل في يوم العيد ، وتقضي مادة أخرى من مواد القانون الطريف بإعطاء الحق للزوج بأن يشد زوجته من شعرها أو يفرك أذنيها إن رغب في ذلك !!

ومن الطبيعي في ظل ظروف تخرج مثل هذه القوانين أن يكون مصير سميراميس الحقيقي هو الاطاحة بها في ثورة عارمة لكن مثل كثير من شخصيات التاريخ أنصفتها الاسطورة الخرافة حين استكثر الواقع على المرأة أن تكون ملكة عظيمة ، وقائدة منتصرة ، فروي عنها وعن عصرها من الأساطير ماخلدها .

شمش) ؛ أي الحضر مدينة الشمس ، وقد ازدهرت المدينة في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد ، حيث بدأت القبائل العربية بالتجمع حولها ، وغدت هذه المدينة مركزا دينيا مهما ، كانت القبائل العربية تحج إليه ، وتقدم له القرابين والنذور في (بيت الاصنام) ، وقد اتصلت بمدن العراق الأخرى مثل

بابل . إن أهم مايميز الحضر أنها قامت وازدهرت بفضل العنصر العربي ، وأنها إحدى الآثار القليلة لحضارة عربية قامت قبل الاسلام ، وقد انتهت الحضر كمدينة عربية وحصن منيع عندما فتحها الملك الساساني سابور الأول عام ٢٤٠ م وسقطت أسوار الحضر المنيعة لتنهي الدور السياسي للمدينة العظيمة . وقد رويت الأساطير فيما بعد لتبرير سقوطها رغم منعتها وقوة اسوارها . تقول الأسطورة : إن ابنة ملك الحضر وقعت في حب الملك الغازي ، فطلب منها أن تمكنه من فتح المدينة ، ففعلت ، وفتحت ثغرة في السور الحصين ، نفذ منها الغزاة ، وبعد أن تم له الانتصار وتزوج ابنة الملك المهزوم تقدم الزوج من زوجته وسألها عن نوع المآكل والملابس التي كان يقدمها لها والدها ، فأجابت أنها كانت من أفخر الأنواع ، فأجاب الزوج بقسوة إن كان ذاك والدك ويوفر لك كل هذا فخنته فما الذي يضمن ألا تخونيني أنا أيضا ؟ وكانت النهاية الفاجعة بمقتل الابنة الخائنة . وتنتهي الأسطورة التي لايعرف أحد مدى صحتها ويذهب الجميع ، وتبقى الحضر واقفة في صحراء العرب ، وتندب مجدها الغابر .

ودعنا حصن العرب الذي كان يطوف به بعض سكان مدينة الحضر الجديدة القريبة من الحصن القديم ، وبعض السائحين الأوروبيين الذين كانوا يقفون مبهورين في أرجاء هذه المدينة الشاخصة التي شهدت في يوم من الأيام مجدا عربيا زاهيا ، واتجهنا نحو زمننا ومدننا التي لم يبق فيها من حضاراتنا القديمة إلا القليل . □

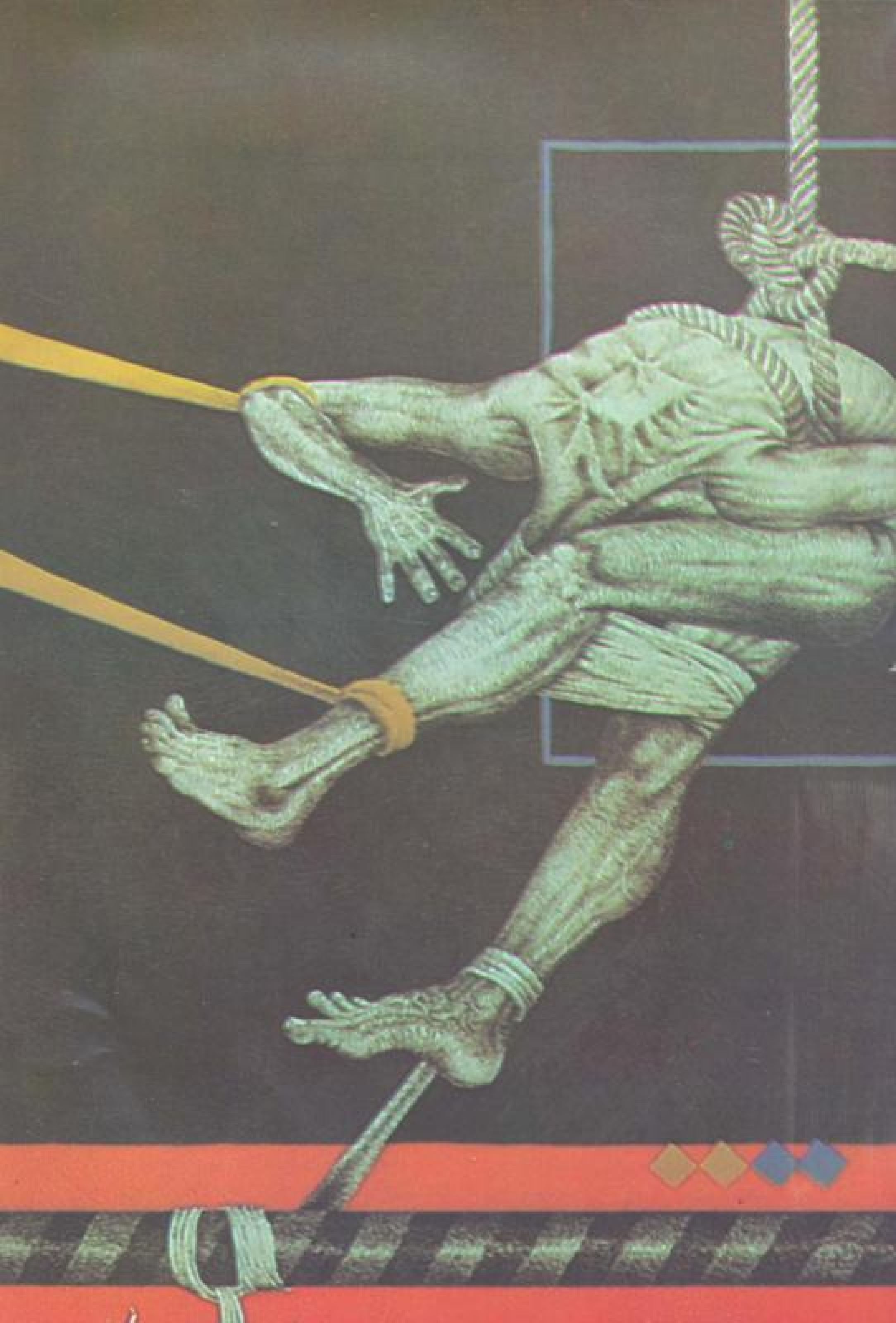


سباق القيمة الفكرية والجمالية في أعمال النحات الكويتي

سامي محمد

بقلم : حميد خزعل

أجساد آدمية مشدودة بالحبال ، وصرخة ألم مكبوتة ، ومربع مغلق على ما لا يحكى من الأسرار الرهيبة التي يعاني منها الانسان . هذه هي مكونات أعمال النحات الكويتي سامي محمد .



إن الطريقة المفرطة بالغرابة التي يعالج بها هذا الفنان أفكاره هي الميزة الأساسية في خصوصيته التشكيلية ، فهو ينتمي الى ذلك النوع من الفنانين الذين يقدمون القيمة الفكرية والفلسفية على القيمة الجمالية ، وانبعاث كل هذا الكم من الغرابة المرعبة في أعماله التي تشعر المشاهد بالقشعريرة المجنونة تجاه هذه الأجزاء الآدمية والحيوانية المتفسخة التي تكاد تشم رائحتها من بين ثنايا الكتل البرونزية تؤكد اتجاهه هذا .

والتساؤل الذي يطرح في محاولتنا للبحث عن الشخصية الخاصة لفكره هو : هل الصندوق شكل هندسي ، أم مفردة تشكيلية ؟ فأعماله المميزة ، وأشكاله المتوترة من هذا الشكل الهندسي ذي الأضلاع الأربعة ، أو هذا المكعب المليء بالأسرار القائمة تحتم طرح هذا السؤال .

والحلول الصعبة التي اختارها لأعطاء مفرداته سمة الترابط التي تعتبر سمته الأساسية في نجاح العمل النحتي من الناحية التشكيلية أسبغت على أفكاره بعدافلسفيا مميزا ، وأعفته من مهمة الاستعانة بمفردات أخرى ، كان يجب إضافتها لتكويناته ، حتى يصل لحل المعادلة ، أو للنقطة التي تتيح له التوصل لابراز هذه الأفكار ، ذات الرؤية التحليلية الغريبة .

يحاول بعضهم وضع أعمال سامي محمد ضمن المدرسة « السريالية » ، إلا أن هذا التبويب ناقص مبتور ، بالرغم من أن الخطوط العامة لأعماله توحي بأشكال سريالية ، إلا أنها تخلو في مضمونها من الفلسفة (الميتافيزيقية) التي يعتمد عليها الخط السريالي في تحقيق مفاهيمه ، وأشكاله التعبيرية المختلفة ، لموازنة « لا واقعية » مضامينه .

إن من أهم الأسباب التي أعطت المسوغ لربط هذه الأعمال بالسريالية هو نزوعها الى تشكيل عناصرها ، ومفرداتها ، بصورة مغرقة بالمأساوية التي تتجاوز الواقع ، وتتفوق عليه في احداث الصدمة ، لكن لا يمكن بأي حال ادراج هذا الفنان ضمن أصحاب الخط السريالي ، فهو وإن عمد الى ترميز عناصر أفكاره في معالجاته التشكيلية إلا أنه قد التزم خطا واقعيا في التعبير عن هاجسه الوحيد ، وهو قضية الانسان في معاناته ، وصراعه مع الحياة ، ولقد استطاع أن يستغل الاطار الرمزي ، لافكاره استغلالا جيدا تمكن من خلاله من تشكيل أعماله بأسلوب ابداعي .

ففي مجموعة « الصندوق » و « صرخة من الأعماق » و « محاولة خروج » و « الصراع » ، و « اندفاعة » ، التي رمز بها الى « القيد » أنجز معالجة ناجحة لهذا المعنى ، حلل فيها الرموز ، وشرحها بطريقة مبدعة ، فقد حصر مفرداته في كتل متماسكة ، أغنت المضمون الذي أراد التعبير عنه ، واستغل المسطحات الجانبية للصندوق في اختزال الصفات التشريحية لهذه المفردات لتقوم بدورها بالتعبير عن هذه الأفكار مقدمة تجربته الخاصة في دراسته لمفهوم الحيز تشكيليا ، مانحا قوة للنتيجة التي برزت على شكل هذه الكتلة المترابطة في قالب واحد ، تخرج فيه الأشكال من نقطة خفية ، وتعطي احساسا بالتوالد التلقائي الذي يتمثل في بناء أشكال جديدة ، تعزز قوتها فنيا وفلسفيا .

أما مجموعته المسطحة : الصراع (١) ١٩٧٩ ، والصراع (٢) ١٩٨٠ ، والمعلق ١٩٨٠ ، والحبل الأزرق ١٩٨١ ـ وهي منفذة بخامة الحبر الشيني على الورق ـ فهي لا تبتعد فكريا عن مضمون مجموعة « الصندوق » الذي استبدل هنا بالحبل ، ليؤدي نفس الغرض في التدليل البصري عن القهر الانساني بشكله العام ، ولا تبدو المقارنة الزمنية لولادة أي من المجموعتين قبل الأخرى ضرورية هنا ، فالترابط الفكري ، ووحدة الموضوع ، تلغي فكرة التسلسل الزمني ، وكلتا المجموعتين تعتبران تطويرا لمحاولة أولى ، تمثلت في مجموعة « المكبس » ، إن جاز لنا أن نطلق عليها هذه التسمية التي نفذت في سنة ١٩٧٩ ،

ثم نضجت فنيا لتولد مجموعة الصندوق ، ثم الحبال . ودمج المجموعات الثلاث في رؤية تشكيلية واحدة يبرز اهتمام الفنان في معالجة قضية علاقة الكتلة التي تعبر عن احتواء حيز « معلوم » بالمحيط الخارجي « كفراغ » ، وارتباط هذا الجانب فكريا وفلسفيا بالانسان الذي هو بطل الحدث الوحيد عند سامي محمد .

الانسان والعصر :

عندما نستعرض أهم مجموعة في أعمال هذا الفنان التي يدور من خلالها تحليلنا لفكره في العمل التشكيلي تبرز أمامنا أسماء كثيرة مختلفة ، لكنها تظل متفقة على معنى واحد ، وهو قضية « الصراع » ؟

ولكن أي صراع ؟

إن تركيز الفنان على الجانب الانساني في معالجته لأعماله قد أبرزت بشكل واضح تلك العلاقة القائمة بين الانسان ومشكلات العصر الحديثة ، وهي مشكلات لا جدوى من تبويبها ، والبحث في أنواعها ، وأشكالها ، فالمعاناة تأخذ شكلا واحدا، والقهر والإذلال لها ألف وجه ، لكن تلك الوجوه عندما تنطبع على وجوه ضحاياها تأخذ صفة واحدة .

إن سبل التعبير المميزة التي انتهجها في تحقيق آرائه جاءت إضافة انسانية جديدة لبحث العلاقة بين الفنان والمجتمع .

من أهم ما يميز « سامي » معرفته الدقيقة ، لإمكاناته الفكرية والتشكيلية ، فهو يحسب هذه الامكانات بدقة رياضية ، ويعلم تماما متى يبدأ ، ومتى يقف ، فالتمادي في السير بفكرة معينة ـ مضمونا وشكلا ـ سيؤدي الى إهدار قيمتها الفنية ، ويحولها الى قضية مستهلكة تشكيليا وفكريا ، وقد أخذ هذا الأمر بالاعتبار ، فالصندوق أوفى بجميع التزاماته تجاه أفكاره الخاصة ، وبحوثه التشكيلية والفكرية ، واستطاع أن يكون مرحلة مميزة من مراحله المتصلة بهذين الجانبين ، لذلك كان حتميا أن ينتهي هذا البحث التشكيلي للفنان ، ليبدأ مرحلة أخرى من البحث ، وهكذا جاءت مجموعة (صبرا وشاتيلا) وهي عبارة عن عملين لا يبتعدان في مضمونها عن الخط العام لالتزامه الفكري بقضايا الانسان ومعاناته ، بل إن هذين العملين يعتبران تأكيدا لهذا الالتزام الانساني ، فالميزة المهمة التي برزت من خلالها هي إشهار المضمون ، وتقديمه للمشاهد ، فبعد أن أخرج شخوصه من الصندوق لم يجد لزاما أن يستخدم الرمزية بحدة ، كما أن التعبير عن مأساة مخيمي صبرا وشاتيلا يحتاج الى كثير من الحرية في حركة المفردة التي لم تكن بعنف حركة المفردات التي احتواها الصندوق ، والتي تعبر عن قضية عامة ، قد تحتاج الى قليل من المعالجة لشرح فكرتها ، فالتجربة كانت تهدف الى إحداث صدمة للضمير الانساني بقدر قسوة المأساة التي أحاطت بضحايا صبرا وشاتيلا ، وكان التعبير التشكيلي هو الوسيلة لتحقيق هذه الصدمة الفكرية ، وقد ساعد الفنان في ذلك قوة الفكرة ، وطريقة التشكيل في إضفاء طابع الهدوء النسبي على حركة الأشكال ، بدلا من الحركة « الرياضية » المنفعلة .

وقد كان لتهدئة الحركة المقهورة فعل ايجابي في تقديم العملين تقديما مقبولا ، فضلا عن أنها شرحت بايجاز النقطة الفلسفية التي استدفها الفنان في عمليه المذكورين .

التواصل الفني والفكري :

من أهم العوامل التي أعطت أعمال سامي محمد التشكيلية قوة الثبات على أرضية صلبة هو توكيده التام على ايجاد صلة بصرية وفكرية بين كل خطوة وأخرى يخطوها ، مما جعل لأعماله اطارا واحدا وإن اختلفت طرق التشكيل والأداء حسب ما تقتضيه حاجة الفكرة التي تولد في ذهنه ، ففي مجموعة (المكبس والصندوق) اتجه لعلاج قضية العلاقة بين الكتلة والفراغ ، ومعالجة حركة هذه الكتلة كشكل



سامي محمد.. فاز بالجائزة الأولى في بينالي القاهرة الأول عام ١٩٨٤



- صبرا وشاتيلا (١٩٨٣).





ـ الصرخة (١٩٧٨)



ـ المكبس (١٩٧٩) ـ



ـ الشلل والمقاومة (١٩٨٠)

يؤدي دورا « روائيا » في أعماله ، خلال حيز معين ، يخلقه هو ، ويتحكم في حجمه وماهيته « المكبس والصندوق » ، ثم يأتي في نقلته التي تبعت مجموعة الأعمال هذه ليعالج جانبا آخر من جوانب رؤيته الفلسفية لقضية الانسان ، لكنه لم يندفع تماما الى بحثه الأول ولم ينسلخ عنه كذلك ، وهو العلاقة بين الكتلة والفراغ ، بل لقد تمكن من ايجاد مفهوم جديد ، خاصة لهذه العلاقة التي تمثلت في علاقة العمل بالفراغ المطلق .

فأعماله : (المربع الأزرق ، والحبل الأزرق ، والمعلق ، والصراع) قد حرر فيها بطل أعماله ، وأخرجه من حيز محدود الى فراغ اللوحة ، في حركات متشنجة ، حيث بدا منهكا ومستسلما لمصيره المأساوي . إن (الصندوق) بجدرانه المسطحة المغلقة بسرية تامة لن يساعد على ايجاد حلول تشكيلية وفكرية ناجحة ، تخدمه في تحليل هذه العلاقة بين أشكاله وفراغاته ، كما أنه لا يريد أن يحيد عن رؤيته الفلسفية لهذه القضية ، فكان لزاما عليه ايجاد بديل ناجح بصياغاته التشكيلية ، يؤدي نفس الغرض الذي كان يؤديه (الصندوق) ، ويتعايش مع هذه المرحلة بانسجام ، ويخدم هذا الشكل المرعب الذي يصور علاقة الانسان « بالقيد » ، فالنظر بتمعن الى هذا الجسد البشري المعلق بوحشية ، والمقيدة أجزاؤه بعضها ببعض بهذا العنف اللاإنساني يثير الغثيان ، ويعطي أساسا للتواصل الفكري بين (الصندوق) و (الحبل) ، باعتبارهما رمزين لمجموعتين أو مرحلتين من مراحل تطور الفنان ، ثم تأتي بعد ذلك مجموعته التالية بقطعتين من البرونز ، باسم صبرا وشاتيلا ، بالاضافة الى قطعة من الرخام ، باسم « يكفنون الناس وهم أحياء » ، لتشكلان الهيئة النهائية لهذه الرؤية ، ولتوظفان بشكل مدروس الواقع الذي كان مفقودا في الأعمال التي سبقت (صبرا وشاتيلا) .

لقد كانت حلوله الأخيرة ملائمة ، من حيث تشكيل العلاقة في أعماله التي تحررت من حيز (الصندوق) مع الكم الهائل من الفراغ المحيط بها من كل جانب ، فأسلوب التعبير الأدائي يفرض عليها أشكالا عديدة من (الحركة) ، تتناسب مع الدور الذي تلعبه في العمل ، وهذه الأشكال الحركية تحتاج - بالتالي - الى مساحة فراغية شاسعة ، تزج من خلالها كل هذه التشنجات العنيفة ، والانتفاضات الجسدية التي تنم عن ألم وقسوة لا نهاية لها . □

فلنترجم

يقول الأستاذ ميخائيل نعيمة في كتابه (الغربال) : نحن في مرحلة من تطورنا الأدبي والاجتماعي ، تنبهت فيها حاجات روحية كثيرة ، لم نكن نشعر بها قبل احتكاكنا الحديث بالغرب ، وليس عندنا من الاقدام ما يفي بسد هذه الحاجات ، فلنترجم . ولنجل مقام المترجم ، لأنه واسطة التعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ، ولأنه يكشف لنا أسرار عقول وقلوب كبيرة ، تسترها عنا غوامض اللغة ، فيرفعنا من محيط ضيق إلى محيط نشرف منه على العالم الأوسع .

بقلم : محمود المراغي

المجتمع العربي : نموذج مصر

قديما كانت الخليقة تتجمع حيث تتوفر أسباب الحياة : المياه والزرع والأمان والطمأنينة ، وحديثا اختلف منطق الأمور ، فأصبحت أسباب الجذب للتجمع السكاني متعددة . فهناك جاذبية النشاط الاقتصادي ، أيا كان نوعه ، وهناك جاذبية المدينة بما توفره من فرص عمل ومتع وخدمات أكثر .

لقد أصبح الناس يتجمعون ويتفرقون لأسباب شتى ، تستدعي التأمل والدراسة ، كما تستدعي طرح سؤال : هل يختلف الأمر بين دولة وأخرى ؟ وهل يختلف منطق التجمعات البشرية ، ونموها ومساراتها من بلد عربي إلى آخر على سبيل المثال ؟

مصر نموذج عربي

من المؤكد أن البيئة تختلف من قطر عربي إلى آخر ، وكذلك عنصر الثروة ، ودرجة النمو ، إلخ ، ومع ذلك فإن هناك أوجه شبه كبيرة ، والدليل هو آخر تعداد شامل للسكان أجرته مصر .

في ليلة (١٧ ـ ١٨) نوفمبر ١٩٨٦ ـ وهي ما يسميها رجال الاحصاء « ليلة العد » ـ كانت صورة المجتمع العربي في مصر على النحو التالي : (٥٠,٥) مليونا من البشر يسكنون في جزء يسير من الأرض المصرية ، ويهجرون معظم الأرض التي يكسوها اللون الأصفر . وقد نما عدد السكان بين عامي تعداد (٧٦ ـ ٨٦) بنسبة (٢,٨٪) سنويا في المتوسط ، وزاد عدد المهاجرين منهم ، كما زاد عدد المتعلمين والأصحاء والأطفال ، ونلاحظ الآتي :

أولا : ان المجتمع العربي في مصر ـ وهو ربع المجتمع العربي في الوطن العربي على وجه التقريب ـ قد حافظ على نسبة نمو سكاني عالية ، وهو نفس الأمر في معظم الأقطار العربية ، بل إنه نفس الأمر في معظم البلدان النامية ، وذلك على عكس ما يحدث في العالم الصناعي المتقدم ، حيث انخفضت نسبة النمو إلى أقل من ١٪ في معظم البلدان ، وإلى الصفر في بعض البلدان التي تعادل فيها القادمون والراحلون من البشر .

معنى ذلك أن المشكلة السكانية ـ في مصر وبقية الأقطار العربية ـ ما زالت قائمة ، وأن جهود تنظيم الأسرة لم تقدم شيئا يذكر ، وأن أحد مدخلات قضية مستوى المعيشة ـ وهي العلاقة بين الموارد والسكان ـ ما زالت خارج السيطرة .

ثانيا : يلفت النظر ارتفاع نسبة المهاجرين . بالأرقام المجردة ، فقد تقول إن عدد المهاجرين للعمل في الخارج يقترب من تعداد بعض البلدان ، لكن الأهم هو الأهمية النسبية ، وهي في مصر (٤,٥٪) ، وهذه النسبة قد تبدو صغيرة ، لكن أثرها كبير بالنظر لطبيعة المهاجرين ، فقد بلغ عدد الفنيين خريجي الجامعات منهم (٤٩) ألفا عام ١٩٨٣ ، أو : بالنظر للأهمية الاقتصادية حيث تحويلات هؤلاء المصريين أكثر من (٢٠٪) من موارد البلاد بالعملات الأجنبية . وعلى الجانب الآخر يأتي التأثير السلبي بانسحاب هؤلاء من قطاعات عمل قد تحتاجهم ، وبعودتهم من الخارج بأنماط استهلاك تفوق طاقة المجتمع .

والنموذج هنا ليس مصريا خالصا ، لكنه نموذج متكرر في السودان واليمن ، وبدرجة أقل في تونس والأردن وغيرهما .

ثالثا : تأتي حكاية الحضر والريف ، والقلب والأطراف ، وفيها أيضا تتشابه مصر مع معظم الأقطار العربية ، حيث يتزايد سكان الحضر ويقل سكان الريف ، ويتزايد سكان ما يمكن تسميته بقلب الدولة ، بينما تظل الأطراف والحدود قليلة السكان ، قليلة الكثافة .

في مصر يشكل سكان القاهرة (١٢,٥) من السكان ، فإذا أخذنا ما يسمى القاهرة الكبرى + أي النطاق الاقليمي للقاهرة الذي يضم أجزاء من محافظات أخرى فإن النسبة ترتفع إلى ٢٠٪ ، والرقم يقترب من عشرة ملايين نسمة ، لكن - في نفس الوقت - تبدو الآثار العكسية لازدحام المدينة ، وتزايد متاعبها ، فتسجل القاهرة نسبة نمو بين (٧٦ و ٨٦) أقل من النسبة العامة للتزايد ، وتتراجع قليلا نسبة التزايد في الحضر بشكل عام ، بينما تحتفظ الحدود بأهميتها النسبية الضئيلة ، حيث لا يتجاوز سكانها (١,٢٪) من بالسكان .

ظواهر اجتماعية

في نفس الوقت تبرز في التعداد مؤشرات توضح مسيرة المجتمع ، فيزداد بتحسن الصحة عدد الأطفال تحت سن ١٢ سنة ، ويزيد متوسط العمر ، بينما لا تتغير سنوات العمل ، وهو ما يعني في لغة رجال الاقتصاد :

ارتفاع نسبة ما يعوله كل مشتغل ، وبما يعكسه ذلك على مستوى حجم الأسرة ، ويتراوح بين (٤,٩) أفراد في الحضر ، و (٥,٣) أفراد في الريف ، و (٦,٣) أفراد في محافظة صحراوية كمطروح - وهو متوسط مرتفع .

ومن الأرقام ذات الدلالة تراجع الأمية ، إذ تقترب من (٥٠٪) ، وتزايد أعداد المتعلمين ، وتضاعف أعداد الجامعيين . ومن هذه الأرقام أيضا تفاقم مشكلة الاسكان ، حيث يشغل كل غرفة فرد ونصف .

لكن - مع ذلك - هناك ما يقرب من (٢) مليون شقة مغلقة ، بعضها بسبب السفر ، وبعضها بسبب ارتفاع السعر .

أليست هذه الظواهر في معظمها عربية عامة ؟ □

■ إذا سألت كريما حاجة فدعه يفكر ، فإنه لا يفكر إلا في خير ، وإذا سألت لئيما حاجة فعاجله ، فإنه إن فكر عاد الى طبعه .

(الإمام علي)

وجهاً لوجه





د. فاطمة المرنيسي و علاء الدين محسن

■ أنا امرأة خطفت حق الكلام من الرجل . ■ « الديمقراطية » قضية ، وهاجس مستمر في تاريخنا العربي . ■ الحرب اللبنانية جعلت حضورنا العالمي يتم بطريقة مذلة ■ العقل العربي يجب أن يهاجر ، ويبدع في أي مكان ، وأي ثقافة في العالم . ■ لو كان صوتي خافتا لقيل عني أنني امراه عظمة .

ضيفة « العربي » في « وجها لوجه » لهذا الشهر هي الباحثة المغربية الدكتورة فاطمة المرنيسي التي تعتبر أحد أبرز الأسماء الفاعلة في حركة الثقافة المغربية اليوم .

وعلى الرغم من أن تخصصها هو علم الاجتماع تعتقد أن البحث الاجتماعي إذا كان صحيحا أنه يهتم بدراسة ظواهر آنية ، بالاستقصاء والتحليل ، فإن هذا التحليل لا يمكن أن يخلص إلى نتائج أقرب ما تكون إلى الدقة ، بدون العودة إلى « ماضي » اللحظة الراهنة التي يجري بحثها .

وانطلاقا من هذا الاقتناع وجدت نفسها تصبح باحثة في التراث العربي ، إضافة إلى تخصصها في علم الاجتماع .

محاولاتها لفهم الظواهر والسلوكيات والمفاهيم الاجتماعية بالعودة إلى التراث ، من أجل وضع « اللحظة » ضمن سياقها التاريخي ، بما يكفي لفهم صيرورتها ، أعطت لبحوثها تميزا خاصا ، يمكن أن نجد ملامحه أيضا في جرأتها على مناقشة تراثها ومساءلته .

وبسبب ثقافتها الفرنسية الانجليزية وجد من يأخذ على أبحاثها احتواءها على شيء من « النكهة الاستشراقية » ، إلا أن الدكتورة فاطمة المرنيسي تقول في حوارها مع « العربي » : « إنني امرأة خطفت حق الكلام من الرجل ، ولأننا لم نتعود سماع صوت امرأة تتكلم ينظر إليّ بدهشة واستغراب » . وكأنها ترد بذلك على كل ما يقال بصدد أبحاثها .

صدر كتابها الأول « خلف الحجاب » عام ١٩٧٥ باللغة الانكليزية . وهو ما يزال « خلف الحجاب » للأسف ، إذ لم يترجم إلى العربية بعد ، في حين ترجمت لها كتب أخرى صدرت في بيروت والرباط ، منها : « الحب في حضارتنا الاسلامية » ، و « السلوك الجنسي في مجتمع إسلامي رأسمالي تبعي » ، و « نساء الغرب » ، و « كيد النساء » ، ومن كتبها الأخرى التي صدرت بالفرنسية ولم تترجم بعد :

« المغرب كما ترويه نساؤه » ، و « الحريم السياسي » ، وهو آخر كتاب صدر لها ، أما كتابها القادم فهو عن « حسناوات العرب » ، وقد نشرت بعض فصوله ـ خلال عام ١٩٨٦ في إحدى المجلات المغربية الصادرة بالفرنسية ـ التي حاولت فيها الاحاطة بمفهوم الجمال في الحضارة الاسلامية .

وفي هذا الحوار مع « العربي » يتعرف القراء العرب لأول مرة على جوانب من السيرة الذاتية لهذا الصوت النسائي المغربي « المشاكس » ، إضافة إلى محاور أخرى تتعلق بالجديد من أبحاثها وانشغالاتها .

أما محاورها فهو الزميل علاء الدين محسن ، الكاتب الصحفي العراقي ، مراسل « العربي » في المغرب :

ولدت في زمن مهم ، ومدينة مهمة :

* إن سيرة حياتك ـ على العكس من أبحاثك الاجتماعية والتراثية ـ غير معروفة للقراء . فهل يمكن أن نعود بالذاكرة قليلا إلى الماضي ؟

ـ أنا « مباركة ومسعودة » ـ كما يصف المغاربة الناس المحظوظين ـ فلقد ولدت في زمن مهم ، ومدينة مهمة ، فالمدينة فاس ، والزمن سنوات الأربعينيات ، وآنذاك كانت هذه المدينة عاصمة

للفكر الوطني ، وللصراع الثقافي والسياسي والعسكري ضد الاستعمار الفرنسي .

وقد فتحت عيني على مسافة ٣٠٠ متر من « القرويين » في مدينة عربية إسلامية ، تعيش ثورة ثقافية حقيقية . ومن « أجواء » هذه الثورة التي ما تزال عالقة بذاكرتي أن أمي كانت ترفض الانزواء في البيت ، والانصراف لتدبير شؤونه ، شأنها شأن باقي النسوة اللواتي كن يغادرن منازلهن قائلات لأزواجهن : « سوف لن نحضر الطعام هذا اليوم ، لأننا ذاهبات لسماع خطبة علال الفاسي في القرويين ، فلقد خرج علال الفاسي من السجن هذا اليوم » ، وكن يأخذنني معهن لسماع هذه الخطب .

لم تكن هناك ثورة تهم الرجال فقط ، بل ثورة ثقافية جذرية شاملة ، شاركت فيها جميع الطبقات . وفي وسط هذا الجو ، وهذه الثورة ترعرعت .

والعالم الاسلامي الذي تفتحت عيناي فيه كان قادته الدينيون هم زعماء ثورة ، تدفع بالمرأة للخروج لطلب العلم ، بل كانوا هم الذين يؤسسون المدارس . وقد درست في إحدى مدرستين أنشأهما أستاذي مولاي ابراهيم الكتاني ، مدير معهد المخطوطات الآن ، وكانت المدرستان مفتوحتين للجنسين ، ومتفتحتين على مختلف العلوم ، إذ كنا ندرس الرياضيات والقرآن والأدب العربي واللغة الفرنسية ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى مدرسة الأستاذ بن عبدالله ، وهو من الفقهاء ورجال الدين الذين قادوا هذه الحركة التعليمية للبنات .

إنني أتحدث عن هذه المرحلة المبكرة من حياتي وتعليمي ، لأنها كانت أساسية في تكويني ، ولأنها جعلتني أكتشف مبكرا أن ليس هناك تناقضاً أو عدم انسجام بين أن يكون المجتمع إسلاميا ، وبين أن يكون ـ في الوقت نفسه ـ ثوريا ، بمعنى إعادة النظر في بنياته ، وطرح مشاكله على بساط البحث ، وتعبئة جميع الناس على مختلف طبقاتهم واهتماماتهم وآرائهم بطريقة ديمقراطية ، من أجل التوصل إلى حلول لتلك المشاكل . إنني أؤمن بذلك ، لأنني لمسته وعشته .

* من أثر فيك بعمق من أساتذتك في تلك المرحلة ؟

ـ أثر فيّ بدرس الشعر العربي الذي كان يعلمنا إياه الأستاذ شفيق ، هذا الأستاذ لم « يلقنني » الأدب العربي فقط ، بل علمني طريقة للوقوف في وجه العالم . والأستاذ شفيق جاء من منطقة (آزرو) إلى (فاس) ، ليعلم في مدرسة فرنسية ، يديرها المستعمرون . لكن هل تدري كيف كان يدخل هذا الرجل إلى القسم « الصف » ، ويقدم درسه ، وهو مرفوع القامة ؟ كان وسيما وأنيقا ، وفي تلك المرحلة علمني أن من الفخر أن تكون عربيا وسط الظرف الاستعماري الذي يحاصرك ، وهذا الفخر هو ما يجعلك تواجه المستعمر بصلابة ، والأستاذ شفيق لم يكن يدرسنا قصائد امريء القيس وعمر بن ابن ربيعة فقط ، بل كان يعلمنا كيف نواجه العالم « الأجنبي » دون خوف ، وهذا شيء أساسي أثر فيّ بعمق .

ليس هناك عالم عربي وآخر غربي :

* والآن كيف تنظرين إلى العلاقة مع ـ الآخر ـ الغرب ؟

ـ غالبا ما أسافر إلى أقطار توصف عادة بأنها عنصرية ، لكنني لا أحسها كذلك ، إذ لا يخطر على بالي ، ولا يمكن أن أتصور أن هناك من يظن أنني أعاني من نقص في عقلي أو ثقافتي لمجرد أنني عربية ، فأنا أعرف غنى ثقافتي وتاريخي وتراثي . وهذا الاحساس بالامتلاء ، والوقوف على أرض ثقافية صلبة أنا مدينة به لتلك المرحلة الأولى التي كانت مؤثرة في حياة المغرب ، وحياتي ، وأنا لا أعتبر أن هناك عالماً عربياً وعالماً غربياً ، بل أعتبر أنني « أنا

فاطمة المرنيسي ـ مثلا ـ » أنتمي إلى مجتمع عربي ضمن العالم الأوسع ، وهذه الكرة الأرضية ليست ملكا للغرب ، إذ أن لي الحق فيها ، ولي الحق في ثقافة هذا العصر ، لأنني أمتلك حضارة يمكنني أن أساهم بها على الصعيد العالمي .

لقد مللت من النقاش حول الشرق والغرب ، إذ كيف يمكنني أن أقول : « أنا في مواجهة مع الغرب » في حين أنني أستعمل السيارة والتلفاز والحاسوب « الكمبيوتر » ؟ فالقضية ليست هي أن نكون ضد الغرب أو معه ، لكن القضية في سؤال يقول : كيف يمكننا أن نجد مكانا لنا في هذا العالم اليوم ، وكيف يمكننا مثلا المساهمة في حضارة « التلفزة » ؟

والجواب لا يمكن أن يكون أبدا بالانكماش على الذات ، وبناء الجدران ، ورسم الحدود ، لكنه ـ على العكس من ذلك ـ ممكن فقط بالانفتاح ، وبأن نأخذ من جذورنا الثقافية ما نغذي به العالم .

* وهل تظنين أن « استبداد » الشرق يمكنه أن يواجه « ديمقراطية » الغرب ، ويحقق كل ذلك ؟

ـ في كتابي الأخير ـ « الحريم السياسي » ـ أتناول بالبحث من حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الثلاث سنوات الواقعة ما بين غزوة أحد وفتح مكة التي كانت زاخرة بنقاش صاخب حول حقوق الانسان ، من خلال محورين هما : الحق بين العبيد والسادة ، والحق بين المرأة والرجل .

لقد تطلب مني هذا الكتاب خمس سنوات من العمل ، وأحس أنه سيصحح الفكرة التي تقول بأن العالم العربي ليس له في تراثه نقاش أو صراعات حول « الديمقراطية » ، وأنه نقل النقاش « الديمقراطي » عن الغرب . واعتمد في الكتاب على نصوص ووثائق استخرجتها من السيرة النبوية لابن هشام ، ومن الطبري ، وسأعطيك مثالا :

أحد هذه النصوص يعود بنا إلى أحداث الفتنة الأولى بين عائشة والامام علي ـ كرم الله وجهه ـ فقد كان طلحة والزبير يخطبان في أحد مساجد البصرة ، فقام لهما رجل من عبدالقيس ، فقال له طلحة : أيها الرجل انصت حتى نتكلم ، وقال له عبدالله بن الزبير : « ومالك والكلام » ؟ لكن الرجل تكلم ، وقال : « يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس في الاسلام كما دخلتم ، فلما توفي رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بايعتم رجلا منكم ، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك ، فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله عز وجل للمسلمين في إمارته بركة ، ثم مات رضي الله عنه ، واستخلف عليكم رجلاً منكم فلم تشاورونا في ذلك ، فرضينا وسلمنا ، فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر ، فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا ، فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ، هل أستأثر بفيء أو عمل بغير الحق ، أو عمل شيئا تنكرونه ، فنكون معكم عليه ، وإلا فما هذا ؟

فهموا بقتل ذلك الرجل ، فقام من دونه عشيرته ، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من كان معه فقتلوا سبعين رجلا .

تاريخ الأمم والملوك للطبري ، الجزء الخامس ، ص ١٧٩ .

وهذه القصة بالنسبة لي تحمل صوتا هو من أهم الأصوات المطالبة « بالديمقراطية » ، فكيف يمكن بعد ذلك القول بأن قضية « الديمقراطية » وحقوق الانسان غريبة على تاريخنا ، وأن الاستبداد هو فلسفة الشرق ؟ !

لقد قلت في جوابي السابق : إن علينا أن نواجه العالم بالعودة إلى تاريخنا ، والتمعن المتفتح في هذا التاريخ من شأنه أن يجعلنا نعرف أن الديمقراطية كانت باستمرار قضية وهاجسا ضمن هذا التاريخ ، فنحن

لسنا مجموعة من فاقدي الذاكرة ، بل لدينا ذاكرة مكتوبة ، يمكنها أن تعطينا قوة متى عرفنا كيف تجعلها تعيش العصر .

نحن اليوم نعيش العصر بشكل ما ، إنما ـ للأسف ـ حضورنا « العالمي » هذا هو محصلة تمزقات وصراعات ، فالحرب اللبنانية مثلا قد دفعت بالعقول اللبنانية الخلاقة نحو أوربا ، وهكذا « فعاليتنا » تمت بطريقة مؤلمة ، لكن فيها مع ذلك جانب إيجابي ، رغم أنه رمزي ، يتمثل في ان العالم أصبح يتعامل مع هذه الطاقات العربية الخلاقة .

هناك من يتحدث عن هجرة العقول العربية ، وسلبيات هذه الهجرة ، لكنني لا أتفق مع هذا الرأي ، لأن العقل العربي يجب أن يتنقل ويعمل ويبدع في أي مكان وأي ثقافة في العالم .

والسؤال الذي يجب أن يطرح بصدد هذه العقول العربية المهاجرة خارج اوطانها هو كيف يمكن لنا أن نربط جسرا للابداع بين الداخل والخارج . أقول هذا وفي ذهني ان الصين لها أقليات في جميع الأقطار الآسيوية ، وهي تستعملهم كوحدات جماعية او كعناصر مفردة ، وتدعمهم ثقافيا ، وتنمي بينها وبينهم علاقات اقتصادية وثقافية ، لتحقق هدفين : الأول يتجلى في استمرار محافظة هذه الأقليات على الروح والحضارة الصينيتين والثاني هو تمكين الأقليات الصينية من القيام بدور سياسي وثقافي في البلدان التي تعيش فيها .

لقد زرت ماليزيا ، وذهلت عندما رأيت ان الماليزيين من أصل صيني هم الذين يقودون البلاد ويغذونها اقتصاديا .

ويجب أن لا يفهم من مضمون جوابي هذا على أنه دعوة للاستيلاء على العالم ، لأني أدعو في العمق الى المساهمة في خلق عالم له أصوات ثقافية متعددة بما فيها الصوت العربي .

الرجل العربي تعيس !

● أبحاثك الاجتماعية والتراثية تنصب على المرأة ، واريد أن اسألك هنا ، كيف ترين الرجل العربي ؟

ـ لست أنا من سيقول رأيا في الرجل العربي ، لكن الكتاب والسينمائيين والروائيين والمغنين العرب هم الذين عندما تقرأ أعمالهم او تشاهدها او تسمعها تجدها تتحدث عن رجل تعيس ، لا ينال حقه من الحنان ، وعلاقته بالمرأة دائما علاقة بامرأة يخاف منها لأنها مخادعة ، تهجره وتختار حبيباً آخر ، وهمها هو البحث عن الرجل الغني .

وبعبارة اخرى فان الابداع الثقافي هنا هو الذي يعبر عما يجول في خاطر الرجل ، وإحساسه إزاء نفسه .

لقد استرعى ذلك الخطاب الرجالي عن الرجل العربي انتباهي ، وفي النهاية وجدت انه ليس صعبا فهمه ومعرفة اسبابه ، فالعلاقة المريضة المبنية على عدم التوازن التي احد طرفيها مهضوم الحقوق لا يمكنها سوى ان تنتج رجلا كهذا ، ومن الخطأ ان نعتبر الرجل العربي غير مقموع ، بينما الطرف الآخر الذي يعيش معه علاقة الحب والعشق مقموع ايضا ، انه يستهلك علاقة مع انسان لا حقوق له ، وعلاقتهما بالتالي علاقة السيد بالمسود ، مما يجعل الرجل مسلوب الحق بالسعادة من خلال الحب ، ولهذا تجدني اقول ان الرجل العربي غير سعيد عاطفيا .

● أي قمع تعنين في جوابك هذا ؟

ـ في سلسلة مقالات نشرتها بمجلة « كلمة » المغربية « بالفرنسية تناولت مفاهيم الحب والجمال ، وضمنها تساءلت لماذا ارتبط مفهوم الجمال بالصمت ، ولماذا يجب ان تكون المرأة الجميلة

صامتة ، ومن اين أتى الينا هذا التصور ، وما علاقة مفهوم الجمال بمفهوم الصمت ، وهل هو سياسي ويقابل الحق في التعبير .

غريب ان يصبح الجمال رقابة « بوليسية » تمارسها المرأة على نفسها ، كي تكون محبوبة ، وأي نوع من الرجال ذلك الذي يحب امرأة تمارس على نفسها مثل هذه الرقابة . لقد قالت لي ثقافتي بأنني اذا اردت ان اكون جميلة فيجب ان اصمت ، لكنني عرفت رجالا احبوني لأنني اتكلم ، وهذا معناه ان الرجل احيانا يفلت من قبضة العقلية السائدة ، وهي عقلية تحاول تبرير مواقفها بالعودة الى مرجع هو التراث . لكن هل تراثنا الحقيقي كذلك حقا ؟

إنني متشبعة بالمثال النبوي ، والنبي ـ ﷺ ـ مثلا كان يحب عائشة ، وأحب خديجة وام سلمة ، ولقد انزعج النبي(ﷺ) مرة ايما انزعاج لأن عائشة وصفت خديجة بعد موتها بالعجوز ، انزعج لأنه رفض أن تمس خديجة التي كان يحبها حتى بعد موتها . ولك ان تتصور اي احترام واي علاقة جميلة كانت تربط النبي (ﷺ) بنسائه ، فكيف يقال لي اليوم انه ليس من صميم حضارة الرجل العربي ان يحب المرأة الا اذا كانت . . صامتة ؟ هذا احد الأمثلة عن القمع الذي اعنيه .

لقد خطفت حق الرجل :

* وهل تكتبين في قضايا المرأة على الأخص احتجاجا على هذا القمع ؟

ـ اهتمامي بالمرأة هو استمرار لصيرورة تاريخية ، تتجلى في ان هناك دائما خطابا عن المرأة ، اي انني اكتب في هذا الموضوع استمرارا للموروث من تراث حضارتنا . ولقد انجزت مؤخرا لليونسكو بحثا حول كيفية تعامل الكتّاب العرب مع المرأة العربية ، وارفقته بوثيقة ، وهي لائحة كان قد وضعها صلاح الدين المنجد ، وجمع فيها ما ألفته العرب عن النساء ، وقد بلغ ذلك ثمانين كتابا ، وهذا الرقم لا يعبر بالطبع عن مسح شامل .

استخلص من ذلك ان كتابتي عن المرأة امر طبيعي ، وفي حالتي فان ما هو غير طبيعي يتمثل في كوني امرأة تكتب في قضايا المرأة لماذا ؟ لأن هذا الخطاب عن المرأة كان دائماً من قبل حكرا على الرجل ، بل هو من امتيازاته .

ما حدث اذن ، هو انني امرأة « خطفت » حق الكلام حول هذا الموضوع ، ولأننا لم نتعود سماع صوت امرأة تتكلم ينظر الي بدهشة واستغراب ، ولو كنت امرأة تتحدث بصوت خافت ، وتعيد ما قاله الرجل من قبل ، وتكرس ما هو سائد ، لقيل عنّي بأنني امرأة عظيمة . □

النحو ـ قواعد

تقول الأديبة العراقية الدكتورة نازك الملائكة : إن قواعد النحو العربي ليست إلا صورة من القوانين المنتظمة التي تخضع لها الجماعات ، والجماعة التي تضبع قواعد لغتها لابد أن تضبع قواعد تفكيرها وحياتها ، وإن لزوم القاعدة النحوية صورة من إحساس الأمة بالنظام ، ودليل على احترامها لتاريخها ، وثقتها بنفسها ثقة كاملة أصيلة .



الدلفين

أفضل أصدقاء الإنسان

بقلم : سمير صلاح الدين شعبان

في عام ١٩٥٤ م انطلقت إحدى سفن الأبحاث الفرنسية من عدن باتجاه الخليج العربي ، للتنقيب عن النفط فيه ، وبينما كانت السفينة تودع الميناء لمح القبطان في الأفق بقعة كبيرة من سطح البحر ، يرتفع فيها الزبد ، وكأن الماء « يغلي » ! فاعتقد القبطان في بادىء الأمر أن هذا الزبد المرتفع ينشأ عن ارتطام الأمواج « بشعب » أو جدار صخري ، وبغية التأكد رجع القبطان إلى خارطته « ليشاورها » ، فارتسمت على وجهه ملامح الدهشة ، إذ لاوجود لمثل هذا « الشعب » في تلك المنطقة !

اقتربت السفينة من ذلك الزبد شيئا فشيئا ، فوقعت عينا القبطان على مشهد لم ترياه ، وربما لن تراه عين بشر ، « رقصة باليه مائية » ، يشارك فيها ما يزيد عن ١٠٠٠٠ دلفين ، كل دلفين ينفث الماء في الهواء كالصاروخ ، مستمتعا بقفزاته التي تنتهي

بارتطام يثير كثيراً من الزبد . وتساءل القبطان : كيف اجتمع هذا العدد الهائل من الدلافين ، في هذا الزمان وفي هذا المكان ؟

سفينة أخرى كانت تمخر عباب البحر في المشرق الأقصى بسرعتها القصوى ، وتأرجحت مقدمة السفينة إلى الأعلى ، ثم إلى الأسفل ، لتدفع أمامها موجة عالية ، وفجأة لاحظ القبطان أن هناك من يسابقه ، مجموعة من الدلافين ترافق السفينة ، من كلا الجانبين ، وتنطلق بسرعة مساوية لسرعة السفينة ، وتزيد عنها أحيانا !

« الدلفين القائد » يأخذ زمام المبادرة ، وينطلق كالسهم أو الطوربيد إلى مقدمة السفينة ، وحينما يصل إلى قمة الموجة التي تدفعها السفينة أمامها ، يسترخي فوقها ، ويتركها تدفعه إلى الأمام ، ثم يغطس تحت الماء ، ويغيب عن الأنظار ، ليسمح للدلفين التالي « بركوب الموجة » ، وبعد قليل يفسح الثاني المجال للدلفين الثالث ، وهكذا دواليك ، كي يتسنى المجال لجميع الدلافين المشاركة في هذه اللعبة المرحة !

يحدث كل هذا والدلافين منطلقة بسرعة لاتقل عن ٥٠ كيلو متراً في الساعة ، وفجأة « يلتصق » دلفينان على جانبي السفينة ، وكأنهما يحاولان « حمل » السفينة ، لضمان بقائها طافية على سطح الماء ! وقد لاحظ القبطان أن ألعاب الدلافين هذه « جماعية » ، يشارك فيها الجميع دون استثناء ، وأن الجميع يبدءون الحركة واللعب في نفس اللحظة ! وتساءل القبطان : كيف يتم تحديد « لحظة الصفر » ؟ وهل للدلافين لغة خاصة بها ؟

شاهد الأستاذ (البروفسور) (ريني بوسني) BUSNEL في عدد من المناسبات أرتالا من الدلافين ، يزيد طولها عن (٣٥ - ٤٠) كيلو مترا ! وقد أحاطت الدلافين - مرة - بسفينة من كل جانب ، أثناء إحدى رحلاته في البحر الأبيض المتوسط ، وقد رتبت الدلافين نفسها ، بحيث يتمتع كل منها بحيز يقارب ٢٠ ياردة مربعة فقط من سطح البحر ، وقد قدر (بوسني) عددها ببضعة ملايين ! فما الذي يدفع الدلافين إلى السعي لمرافقة السفن ، بهذه الأعداد الكبيرة ؟

ومرة كان الغطاس الأمريكي (ادوارد لايبهان) يراقب فقاعات الهواء الصادرة عن زفيره ، على عمق ٣٠ قدما ، أمام شواطيء (السلفادور) ، ففوجيء دون سابق إنذار بأنه وجها لوجه مع دلفين ، لاتفصله عنه إلا مسافة « سنتيمترات » : إنسان ودلفين ! وبرفق مد (لايبهان) يده ، ليداعب بها فم الدلفين ، فأغمض الدلفين عينيه جزئيا ، لكنه بقي ثابتا بدون حراك ، بعدها فتح فمه ، وكأنه يدعو الغطاس إلى مبادلته الشعور نفسه بالثقة ، ومرت لحظات طويلة ، والاثنان يحدقان ببعضهما : إنسان ودلفين !

كان هذا الدلفين « مشهورا » لدى غطاسي أهل المنطقة ، وكان كثير التردد عليهم ومداعبتهم ، وقد أطلقوا عليه اسم (ساندي) . وفي كثير من الحالات كان ضجيج إقلاع محرك قارب أحد الغطاسين كافيا ، لكي ينطلق (ساندي) إلى القارب بأقصى سرعة ، بقفزاته المرحة المتتابعة ، حتى يضع نفسه أمام مقدمة القارب : إنه حيوان « وحشي » يبحث عن صحبة الأنسان !

بقي (ساندي) يسبح ويلعب مع الغطاسين المبهورين قرابة سنة كاملة ، لكنه اختفى فجأة ، تماما كما جاء فجأة ، ولا أحد يدري إلى أين ذهب !

حياة الدلفين

يعيش الدلفين في جميع محيطات الأرض ، وفي عدد من الأنهار ، في أمريكا الجنوبية (مثل الأمازون) ، وفي آسيا (مثل الغانج) ، ورغم أن مظهره الخارجي يشبه الأسماك ، لكنه من الحيوانات الثديية (اللبونة) التي ترضع صغارها . والدلافين - وتسمى أحيانا بوربوس PORPOISE - عبارة عن حيتان صغيرة مزودة بأسنان .

اكتشف علماء الأحياء البحرية ـ حتى الآن ـ مايُنيف عن ٥٠ نوعا من الدلافين والبوربوس ، يختلف بعضها عن بعض في كثير الصفات ، مثل الحجم والشكل والوزن ، وعلى سبيل المثال فإن « دلفين الموانيء » صغير جدا ، لايزيد وزنه عن ٣٤ كيلوغراما ، وطوله ١٥٢ سنتيمترا ، أما أكبر أنواع البوربوس ، وهو (الاوركا ORCA) ، فقد يصل وزنه إلى حوالي ٨٠٠٠ كليو غرام ، ويطلق عليه أحيانا اسم « الحوت القاتل » ، ويصل طوله إلى ٨ أمتار ، إلا أن أكثر الأنواع المشاهدة وفرة هو مايسمى « بالدلفين العادي » ، وإليه يعود الفضل في معرفة كثير من الحقائق عن الدلافين والبوربوس بشكل عام .

وبما أن الدلفين من الثدييات (اللبونات) فهو مضطر إلى تنفس الهواء ، لذا يضطر للطفو بين فينة وأخرى للتنفس ، بواسطة منخره الوحيد الموجود في قمة رأسه ، وعندما يطفو الدلفين يفتح منخره ، ليزفر الهواء المتراكم في رئته ، وليستنشق هواء نظيفا ، ثم يغلق المنخر ، ويغطس في الماء مرة أخرى .

يصعد معظم أنواع الدلافين إلى سطح الماء للتنفس مرة كل (٤ـ٦) دقائق ، وحتى عندما تكون نائمة فإنها تتحرك بصورة لاإرادية إلى السطح للتنفس ، ويضطر بعض أنواع الدلافين ـ مثل دلفين « أنف الزجاجة » ـ للتنفس مرة كل ٢٠ ثانية .

وهناك أنواع أخرى تتمكن من حبس أنفاسها مدة تصل إلى ٣٠ دقيقة أحيانا .

الدلفين « متلائم » مع بيئته المائية بشكل ممتاز ، فجسمه محاط بطبقة سميكة من الدهن ، تحميه من برودة مياه المناطق الباردة ، وجسمه الشبيه بالطوربيد ، مخزز طوليا ليسهل انزلاقه في الماء ، وزعانفه الموجودة على جانبي جسمه تساعده على التوازن ، وتغيير وجهته ، أما « زعنفة المؤخرة » فهي تمثل مجدافه القوي الذي يتحرك نحو الأعلى



الدلفين والانسان

والأسفل ، ليدفعه إلى الأمام بسرعة هائلة ، إن لزم الأمر ، وإلى هذه « الزعنفة » يعود الفضل في تصنيفه ضمن أسرع السباحين ، فهي التي تؤمن له سرعة تصل الى ٥٠ كيلومترا في الساعة في بعض الاحيان !

هل هناك علاقة بين « ألوان » جسم الدلفين « وتأقلمه » مع بيئته المائية ؟

إن ألوانه تسمح له بالاختفاء عندما يشعر بالخطر ، فمن ينظر إليه من الأعلى لايقدر على تمييز لون ظهره القاتم ، الداكن ، عن لون مياه الأعماق القاتمة أيضا ، وعند النظر إليه من الاسفل يتلاشى لون « بطنه » الفاتح مع اللون البراق لسطح الماء .

سباحة الدلافين بمجموعات كبيرة تعطيها حماية إضافية ضد الأخطار المختلفة ، ويتراوح عدد أفراد مجموعة الدلافين بين بضعة حيوانات وعدة آلاف ، وقد يتجاوز عدد مجموعة منها في بعض الأحيان ـ



تدريب الدلافين على أداء أصعب المهمات .

١٠٠٠٠ دلفين ! وعندما تسبح الدلافين بشكل مجموعات فإنها تبقى على اتصال مستمر فيما بينها ، عن طريق إصدار « الأصوات » المختلفة ، وعندما يشعر أحد الدلافين بالخطر يصيح طالبا النجدة من رفاقه .

يعرف عن الدلافين بأنها تهب مجتمعة« لإنقاذ » الدلافين المجروحة ، أو المريضة ، أو المصابة بعارض ما ، إذ كثيرا مايصعب على الدلفين المصاب الصعود إلى سطح الماء للتنفس ، وهنا تتآزر الدلافين على « حمل » المريض منها إلى السطح على زعانفها ، وتسبح معه إلى السطح .

يروى عن قيام الدلافين بإنقاذ بعض الغطاسين من البشر بالطريقة نفسها،حكايات كثيرة ! لكن هذه لاتمثل الطريقة الوحيدة لتضامن الدلافين وتكافلها ، فعندما تلد أنثى الدلفين الحامل تقوم الإناث الأخريات بمساعدتها في عملية الولادة نفسها أولا ، ثم تساعدها مع وليدها على بلوغ سطح الماء للتنفس ، علما بأن الوليد الجديد يطفو إلى سطح الماء فورا للحصول على « الشهيق الاول » ، والا مات « غرقا » ، وسبب حزناً لأمه ولرفيقاتها !

تضع أنثى الدلفين مولودا « وحيدا » ! بعد مضي سنة كاملة تقريبا على عملية الاخصاب ، وتتم الولادة غالبا في بواكير الربيع من كل سنة ، وبعد الولادة مباشرة تقوم الأم بدفع وليدها ـ بمساعدة الإناث الأخريات ـ « برفق » إلى السطح ، وقد تساعدها الأخريات أيضا في الإمساك بالوليد الجديد أثناء عمليات الرضاعة الأولى . تستمر الأم بارضاع وليدها قرابة ١٠ أشهر ، والأم مزودة بعضلات خاصة تمكنها من « عصر » حليبها في فم رضيعها .

تم « تدريب » عدد من الدلافين الذكية الفضولية على القيام بعدد من المهام والحيل في أحواض مائية خاصة ، بإشراف عدد كبير من علماء الأحياء البحرية ، وهناك يقفز عدد منها عبر حلقات معلقة في الهواء ، أو يقفز لاقتناص سمكة من يد المدرب الواقف على حافة الحوض ، وغير ذلك كثير . فمن أين لها هذا الذكاء ؟

الرؤية السمعية

يرجع الفضل للدكتور (كينيث نوريس . K) (S . NORRIS من جامعة كاليفورنيا في (سانتا كروز) ، في الاثبات العلمي على أن مقدرة الدلفين المدهشة على « الرؤية » تحت الماء ، إنما تتم بواسطة حاسة « السمع » ! ففي عام ١٩٥٩م قام (نوريس) بربط عيون أحد الدلافين ، ثم وضعه في متاهة معدنية ، لكنه أصيب بالدهشة عندما وجد أن الدلفين يشق طريقه بكل سهولة ويسر فكيف يعرف طريقه وهو معصوب العينين ؟

يجيب الدكتور (نوريس) عن هذا السؤال قائلا بأن الدلفين يطلق أصواتا مختلفة متتالية بزحزحة الهواء بين الجيوب الأنفية ، الموجودة داخل جمجمته ! وهذا الأمر يشبه صوت « البالون » عندما يفركه الطفل بين أصابعه . وبعد ذلك ينصت الدلفين إلى « الصدى » المرتد عن تلك الأصوات التي أصدرها ، ويلتقط قطارا من « الطقطقات » العالية التردد ، ثم يتم تركيز هذه الاصوات وتجميعها بواسطة « عدسة » من الدهون الموجودة في جبهة الدلفين ، تماما كما تقوم العدسات الزجاجية بتجميع إشعاعات الضوء في نقطة تجمع (محرق) رئيسية .

يطلق الدلفين مثل هذه النبضات بين فينة وأخرى ، وينصت ، علّه يعثر على طعامه المفضل ، مثل سمك البوري أو الحبار الذي يلتهم كميات كبيرة منه بشهية واضحة ، وتساعده « جلبة الصدى » هذه أيضا على الاهتداء إلى الطريق الصحيح ، وتجنب الحواجز ، وقد لاحظ العلماء أن عدد « الطقطقات » التي يصدرها الدلفين يزداد ، كلما أصبح على مسافة أقرب من فريسته ، وقد وجد الدكتور (نوريس) أن الدلفين قد تمكن بمساعدة طريقة « تحليل الموجات » هذه ، من التحديد الدقيق لموقع كبسولة (فيتامينات) تحت سطح ماء الطرف الآخر لحوض مائي كبير !

وقد أعرب (نوريس) عن اعتقاده بأن البشر سيكتشفون ـ يوما ما ـ المهارة الفائقة للدلافين « في التقاط الصور الصوتية » ، ويشير إلى أنه أصبح من الثابت الآن أن بمقدور الدلافين التعرف على طبيعة الأجسام وحجمها ، ويعتقد بأن هذه القراءات الصوتية الشديدة الحساسية قد تسمح بقراءة أحاسيس الدلافين الأخرى وانفعالاتها !

وقد وجد (نوريس) أيضا أن الدلفين ليس له « أذن » خارجية ، بل فتحة أكبر بقليل من رأس الدبوس ، لكن الأذن « الحقيقية » لديه هي عبارة عن « نافذة » رقيقة من عظام الفك الأسفل لفم الدلفين ، تمر الأصوات خلالها ، وأثناء تجارب قام بها (نوريس تم تثبيت غطاء على فكي إحدى إناث الدلافين ، ليكشف إحدى الملامح الأساسية للدلافين ، وفي البدء ابتعدت عنه ، وظلت تتحرك بحركات عنيفة ، حتى خلصت فكيها من « الوثاق » ! ثم حملت الوثاق في فمها وأعادته إلى (نوريس) ، وكأنما تريد أن تقول له : « هذه حيلة ظريفة ، فماهي حيلتك التالية ؟ »

لدى كل مدرب دلافين حكايات طريفة عن ذكاء الدلافين « وإبداعها » ، وعلى سبيل المثال ، فقد عود (جيم مالن J . MULLEN) دلافينه على « تنظيف مساكنها » ! وكلما أحضر الدلفين للمدرب قطعة من الأوساخ نال سمكة بوري مكافأة على النظافة ، لكن الشك اعتراه ، عندما أصبح أحد الدلافين ، المسمى « السيد سبوك » ينال المكافأة تلو الأخرى ، جزاء إحضاره قطعا من الاوراق المهترئة ، وأخيرا وجد المدرب أن « السيد سبوك » كان ينال مكافأة في كل مرة على قطع من الورق البني المتشابهة ، الممزقة من كيس وحيد ، وغطس المدرب في الحوض فوجد أن « السيد سبوك » كان قد خبأ كيس ورق في إحدى زوايا الحوض ، وأنه كان ينزع منه قطعة صغيرة في كل مرة ، ويقدمها للمدرب « الكريم » !

تجرى دراسات عديدة في عدد من دول العالم على

الدلفين ، لمعرفة مزيد من المعلومات حول براعاته وخصائصه ، وقد وجد الدكتور (سام ريدغواي . S RIDGWAY) أن للدلفين عدداً من « المعِدات » ، مثل البقر ، والماعز ، وقد وجد بعد دراساته المكثفة في « مركز الجمل الحيوية » في (سانديغو) أن الدلافين تركز الملح في الكلى ، مثل الجمال تماما ، وأنها بحاجة إلى ساعات محدودة من « النوم » ، مثل البقر أي من ساعتين إلى ثلاث ساعات ، كما وجد أنها قادرة على النوم مع إبقاء إحدى العينين مفتوحة ، كما يبقى نصف المخ مستيقظا !

يضع علماء هذا المركز نصب أعينهم استخدامات أقرب إلى الحياة العملية . ويشير (ريتشارد سول) الذي يرأس قسم الجمل الحيوية إلى أن أدق تجهيزاتنا (الالكترونية) لاتتمكن من محاكاة عشر مقدرة الدلفين السمعية تحت الماء .

ويقول ان البحرية الامريكية ترغب في تصغير هذه الهوة ، بغية ابتكار أذن صناعية قادرة على التصنت تحت الماء ، انطلاقا من تقليد الدلفين !

يقوم الدلفين بإصدار عدد من أصوات الاستكشاف ، بترددات أو ذبذبات أعلى بكثير من تلك التي تقدر الأذن البشرية على سماعها ، أو فلنقل إنها موجات « فوق سمعية ULTRA SOUND » ، وقد نجح مهندسو البحرية الأمريكية في توليد النبضات التي يولدها الدلفين ، ولكن بواسطة الأجهزة (الالكترونية) ، وبثها ونشرها ضمن الماء ، وبعد ذلك يقوم حاسب (الكتروني) باستقبال الأصداء المنعكسة ، وتحويلها إلى موجات تتمكن الأذن البشرية من سماعها ، وهكذا يتمكن الغطاس من البشر وهو مغمض العينين من التمييز بين الأجسام الموجودة في الماء ، مثل الدلفين تماما !

يكمن الهدف النهائي لمثل هذه الاختبارات في التوصل إلى جملة سمعية مائية (الكترونية) بالكامل ، لاتتدخل فيها قدرة حواس الانسان إطلاقا ، ويستخدمها الغطاسون ليلاً ، أو تستخدم في توجيه « الطوربيدات » إلى أهدافها المحددة سلفا !

يوجد في مركز الأبحاث هذا أنثى دلفين عجيبة ، أطلق عليها اسم (كاي KAE) ، وقد اشتركت ذات يوم مع مدربها (ايرل مور تشيسون E . MUR-CHISON) في لعبة « عشرون سؤالا » .

قام المدرب بتغطيس عدة أجسام مختلفة الأشكال والأحجام ، كل جسم على حدة في الماء ، وعلى بعد ٣٠ قدما من (كاي) - في الوقت نفسه كان أحد المحررين يستمع إلى الأصوات تحت الماء بواسطة مكبر صوت - وسأل (ايرل) : « هل هناك شيء ؟ » ، فبدأت (كاي) بإصدار (طقطقاتها) الرادارية ، حتى اطمأنت وتأكدت ، وبعد ذلك استدارت لتقدم « الجواب » ، وقد ضربت الكرة الحمراء التي يعني ضربها لها : « نعم » ولما أجابت (كاي) : نعم حصلت على مكافأتها .

وازداد إعجاب الحاضرين (بكاي) عندما أجابت إجابة صحيحة على السؤال الثاني عندما وجه إليها ، وقد كان السؤال « هل هو اسطواني ؟ » . وقد قام (ايرل) بتغطيس اسطوانات من أحجام مختلفة ومن مواد مختلفة أيضا ، منها ما هو مصنوع من الخشب ، أو الفولاذ ، أو اللدائن ، أو الالمنيوم ، ومنها ما هو مصمت (خال من التجويف) أو مجوف ، وفي كل مرة كانت (كاي) تشغل « رادارها الصوتي » ثم تقدم الاجابة الصحيحة : « نعم » .

ثم أنزل المدرب قطعة حديد بشكل زاوية ، فلم يرقها ذلك ، وأصدرت فقاعة من منخرها ، وأجابت : « لا » . وهذا يوحي بأن هذا الحيوان يدرك فعلا « المفهوم التجريدي » للاسطوانة .

كانت التساؤلات التالية في برنامج التدريب : « هل هو معدني أم لا ؟ » « هل يتحرك ؟ » ، وبالاعتماد على هذه التساؤلات التي تكفي الإجابة عليها بنعم أو بلا ، سيتمكن العلماء من معرفة المزيد عما « يراه » الدلفين بواسطة « راداره الصوتي » . □



منتدى العربي

□□

قضيــة

تعريب التعليم الجامعي

أجرى الحوار : أبو المعاطي أبو النجا

قضية التعريب قضية قديمة متجددة ، ذات اتصال وثيق باشكالية الاصالة والمعاصرة ، من أهم عناصرها قضية تعريب التعليم الجامعي ، التي تتميز فيها جامعة دمشق بموقف قومي رائد وجريء . . . حول هذا الموقف تجري مجلة العربي هذا الحوار مع أستاذين كبيرين في جامعة دمشق هما : الدكتور عادل العوا - رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب والدكتور عدنان تكريتي - أستاذ الجرثوميات والطفيليات بكلية الطب . وفي هذا العدد ننشر الجزء الاول من الحوار مع الدكتور عادل العوا .

لجامعة دمشق موقف متميز وواضح من قضية التعريب ، ولعلها أول جامعة عربية تدرس المواد العلمية باللغة العربية . قبل أن ندخل في مناقشة تفاصيل هذه القضية نود أن يوضح لنا الدكتور عادل العوا الفلسفة أو الاطار الفكري الذي يقوم عليه هذا الموقف في جامعة دمشق ؟

- ليسهل تحديد هذا الاطار نوضح في البداية ماذا نقصد بمصطلح « التعريب » ، ونفرق بينه وبين مصطلح « الترجمة » . فحين نقوم بترجمة كتاب أو نص من أي لغة إلى اللغة العربية مثلا فهذه ترجمة ، والترجمة هنا هي عملية نقل المعرفة ، وهنا ينبثق سؤال : ماذا أريد من هذه الترجمة ؟ فإذا كنت أريد

من نقل هذه المعرفة أن أتيح الفرصة لثقافتي العربية لكي تتحاور مع ثقافة جديدة ، وأن تتلاقح معها ، لتنمو ثقافتي وتزدهر ، وتصبح أكثر قدرة على الاسهام في الثقافة العالمية ، وفي النهضة العلمية العالمية ، فهذا هو التعريب ، إذن فالتعريب مصطلح يجب أن يطلق على ما نقصده من عملية الترجمة ، وهو أن تجعل الثقافة العربية المعاصرة على المستوى المعروف عالميا ، وأن تمضي بها قدما ، بحيث تساهم في تقدم المعرفة الانسانية بشكل عام .

إذا نظرنا في هذا الاطار إلى حركة النهضة العلمية العربية القديمة التي تمت في العصر العباسي في عهد المأمون من خلال إنشاء بيت الحكمة قلنا : إن الروح العربية في نهضتها هي التي أرادت أن تطلع على ماهو موجود في الثقافات العالمية آنذاك ، وهذه الروح هي التي قادت إلى حركة الترجمة ، وقد كانت الترجمة مجرد وسيلة لتغذية هذه الروح المتفتحة ، المتطلعة إلى ما حفلت به الحضارات القديمة ، سواء في أقصى الشرق في فارس والهند أم في أقصى الغرب في « اليونان » ، أو ما كان يسمى آنذاك بالمعجزة اليونانية .

بداية التعريب في جامعة دمشق

* كيف يمكن أن نحدد بداية هذه الحركة ، أعني حركة التعريب بالمفهوم الذي أشرتم إليه في الجامعة السورية في العصر الحديث ؟

- في الواقع أن روح التعريب موجودة في سوريا ، وأكاد أقول أنها موجودة قبل القرن الحالي ، ففي زمن السيطرة العثمانية كانت الروح العربية الكامنة تعبر عن نفسها باتجاه الناس إلى الترجمة من اللغة التركية ، ومن اللغة الألمانية ، وسواهما ، وفي مختلف فروع المعرفة ، والتجربة السورية المعاصرة لا يمكن فهمها إلا بإضافتها إلى التجربة العربية الكبيرة في عهد المأمون ونسبتها إليها ، حين استطاع أن يبلور النهضة بتمازج الثقافات القديمة من خلال الجهود التي قام بها بيت الحكمة الذي نظم جهود الترجمة التي كانت قبله ، وجعل منها مؤسسة تنسق جهود العلماء لغاية واضحة وتوجهها .

فالتجربة السورية في إطار التعريب إذن قديمة ومستمرة ، وعميقة الصلة بنزوع الروح العربية للنهضة والتحقق ، فإذا جئنا إلى جامعة دمشق وجدناها قد أخذت - منذ نشأتها - تستجيب للحاجات الاجتماعية والثقافية في سوريا ، فأصبح التعليم فيها منذ وجود الانتداب الفرنسي باللغة العربية . أنشئت أولا أثناء الحرب العالمية الأولى كلية اسمها مدرسة الآداب ، أغلقها الاستعمار الفرنسي بعد ثلاث أو أربع سنوات من إنشائها ، لنمو الروح الوطنية بين طلابها ، ثم أنشئت كليتا الحقوق والطب ، وكان التدريس فيها باللغة العربية ، وكان الأساتذة الرواد رائعين في نقل المصطلحات في مجال الحقوق والآداب والطب ، وقد ترجمت آنذاك بعض المعاجم المتخصصة في الطب ، وطبعت في جامعة دمشق ، وفي تلك الفترة أيضا أنشىء المجمع اللغوي في دمشق ، للعناية باللغة العربية ، ولوضع المصطلحات العلمية ، ثم حدث تنظيم الجامعة سنة ١٩٤٦ بعد الاستقلال ، ومنذ ذلك الوقت بدأت قضية التعريب والترجمة تطرح بصورة فعالة ، ليس على مستوى كليات الآداب والحقوق والطب فقط ، بل على مستوى جميع الكليات النظرية والعملية .

صعوبات على الطريق

* بطبيعة الحال واجهتكم وأنتم تقومون بهذه المهمة في التعريب صعوبات وتحديات كثيرة ، ولعلها تواجه كل المهتمين بقضية التعريب في وطننا العربي ، سواء فيا يتعلق بمنهج وضع المصطلح ، أو بتوفيره بما يجاري التطور المذهل في شتى فروع المعرفة ، أو في تأليف الكتب العلمية باللغة العربية ، أو في الترجمة ... الخ . نود أن توضحوا لنا طبيعة هذه



د . عادل العوا

الصعوبات ، وكيف تواجهونها ؟

- لقد كانت هناك صعوبات مختلفة وما تزال ، ولكن بعضها يرجع إلى العنصر الانساني بالدرجة الأولى ، إننا نسمع عما يسمى بالترجمة الآلية ولا نريد أن تكون ترجمتنا آلية ، ولو بأفضل الامكانيات ، لأن العلوم الانسانية تحتاج إلى العنصر الانساني ، لا سيا في مجال الأدب والفكر ، إذ يمكن أن نترجم معادلة رياضية أو كيميائية بطريقة آلية اصطلاحية ، أما اللغة في العلوم الانسانية والنصوص الأدبية فهي تحتاج إلى الانسان ، لفهم النص وتذوقه وقراءة ما بين السطور .

فإذا عدنا إلى الصعوبات التي تتعلق بالعنصر الانساني أمكننا أن نشير إلى أن من أهمها تنوع ثقافات أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، فبعضهم استكمل دراسته العليا في بلاد تدرس باللغة الانجليزية ، وبعضهم درس باللغة الفرنسية أو الروسية .. إلخ . ونود أن تصبح هذه الصعوبة وسيلة لاخصاب عملية التعريب وإثرائها ، لكننا اليوم نتغلب على هذه الصعوبة بالممارسة العملية ، فالمصطلحات التي تتفق عليها أو نقرها تسعى إلى تعميم استخدامها ، ونشرها بين الجميع على اختلاف خلفياتهم الثقافية .

ومن الصعوبات أيضا الاختلافات التي تظهر أحيانا بين ما يراه « المجمعيون » وبين ما يعيشه الجامعيون ، سواء فيما يتعلق بمنهج وضع المصطلح ، أو أولوياته ، فالمجمعيون يسيرون في عملهم بإيقاع هادىء ، وفق مناهج محددة ، قد يستغرق الوفاء بمتطلباتها وقتا طويلا ، بينما يجد الجامعيون أنفسهم أمام ضرورات عاجلة ملحة ، حيث يتطلب الوفاء لمنهج دراسي محدد وضع مصطلحات جديدة ، لم يتطرق إليها المجمعيون بعد . أنا أحب أن أترجم - مثلا - كتبا تتصل بالفكر العلمي الجديد ، وقد ترجمت - سابقا - كتابا يتصل بفلسفة الهندسة المعمارية ، فكنت أجد نفسي أمام مصطلحات جديدة ، لم يتطرق إليها المجمعيون بعد ، فكنت - كقاعدة - أرجع إلى زملائي في كلية الهندسة أو في كلية العلوم أحيانا « بالهاتف » ، - مناهج وضع المصطلح من نحت واشتقاق ... الخ معروفة - فأبحث وإياهم عن أفضل المقترحات لترجمة مصطلح أجنبي محدد ، وأختار من هذه المقترحات ما يؤدي المعنى بدقة ، ومع سهولة الاستعمال بهذه الطريقة نذلل بعض هذه الصعوبات . ولا أقول أننا قد تغلبنا عليها كلها .

تعاون غير تقليدي

● أرجو أن تأذن لي بشيء من التعليق على ما تفضلت بذكره من صعوبات ، ولعل ذلك يقودنا إلى أوجه جديدة لها ، فمجمع اللغة العربية مثلا في القاهرة يقوم بالاضافة إلى عمله بإعداد المعاجم اللغوية العامة مثل « الكبير » و « الوسيط » و « الوجيز » و « مجموعات المصطلحات العلمية » بتنظيم المصطلحات التي يتم إقرارها في مختلف فروع المعرفة في كتيبات خاصة ، يمكن أن تصبح عند اكتمالها معاجم متخصصة في مختلف العلوم الانسانية

والعلوم البحتة ، كالفلسفة والتربية وعلم النفس والفيزياء والكيمياء . . . الخ . فهل تصلكم مثل هذه الكتيبات أو المعاجم من مجمع اللغة في القاهرة ؟ فقد يكون في بعضها بعض ما تبحثون عنه . وإلى أي مدى يستفيد عملكم من أعمال المجامع الأخرى ، ولا يكرره ؟ وهذا الأمر يقودنا إلى صعوبة جديدة ، لعلها « التنسيق بين عمل الجهات المختلفة في قضايا التعريب ووضع المصطلح العربي » ، فقد قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بوضع معجم متخصص ،هو « المعجم العسكري » في وقت قياسي ، بفضل الدعم الذي حظي به هذا المشروع . ولعل هذه الحالة تشير أيضا بالاضافة إلى مشكلة التنسيق مشكلة الدعم المالي الذي يجب أن تحظى به مثل هذه الجهود ، لتعطي ثمارها في الوقت المناسب ، كما أن مسألة الاختلاف بين ما يراه المجمعيون وما يعيشه الجامعيون قد تجد نوعا من الحل ، وبخاصة أن معظم الأجيال الجديدة من أعضاء المجامع اللغوية هم من أساتذة الجامعات ، وكذلك كل الخبراء العاملين في المجامع اللغوية .

ـ لقد طرحت أكثر من ملاحظة في إطار واحد ، والكلام عنها يثير السرور لدى كل من يهمهم أمر قضية التعريب ، فكلها بتفاصيلها مهمة للغاية . وأقدم أمثلة ليسهل الأمر على كل من يهمهم أمر هذا البحث ، ومتابعته بين المجامع اللغوية العربية والمنظمات المعنية بشئون التعريب ، فالواقع أن هناك تعاونا فعليا ، بطرق قد لا تكون كلها « روتينية » أو مقصودة ، فمجمع اللغة العربية في دمشق حريص كل الحرص على التنسيق مع جهود مجمع اللغة العربية في القاهرة ومع غيره من المجامع اللغوية في بقية الأقطار العربية وعلى الاستفادة من مجهوداتها ، فقد كان المرحوم رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق الاستاذ حسني سبح دائم الاتصال بزملائه في بقية المجامع العربية ، وبخاصة بزميلنا الدكتور ابراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة ، حتى خارج إطار المؤتمرات السنوية .

كنت في زيادة للجزائر ، وعندما علمت وأنا في الطائرة أن هناك محاضرة للدكتور ابراهيم مدكور قد أزف موعدها نزلت من الطائرة إلى مكان المحاضرة مباشرة ، فبالرغم من كل الظروف يحصل الالتقاء حول العمل الثقافي ولا يفتر ، أضرب مثلا آخر : في القاهرة ترجم إخواننا بإشراف الدكتور عبدالرحمن بدوي « مفردات لمعجم متخصص فلسفي » ، وضعه فرنسي درس بعض الوقت في القاهرة ، اسمه « اندريه لا لاند » ، واسم المعجم « المعجم الفلسفي والتقني للمفردات الفلسفية والتقنية » . أقول لقد ترجموا المفردات فقط ولم يترجموا المعجم ، وطرحوهُ في كتيب ، ونحن هنا نستعمله ، ونوصي طلابنا وزملاءنا بقراءته ، ليعرفوا كيف يتم اقتراح ترجمة بعض المصطلحات الفلسفية والتقنية ، هذا بالاضافة إلى كتب أخرى متخصصة في مختلف العلوم الانسانية وغيرها ، تأتينا من مختلف الأقطار العربية . وهذه كلها وسائل عملية ممتازة تحقق التواصل ، والتعاون ، وتفيد كمقترحات أولية . ونحن نتابع من هنا أعمال مكتب التعريب في الرباط وتصلنا مطبوعاته ، ومجلته « اللسان العربي » ، وهذه مجرد أمثله ، تؤكد أن التعاون والتواصل قائمان بين المعنيين بقضايا التعريب . أما مسألة الاختلاف بين المجمعين والجامعيين فهي ليست مسألة اختلاف أشخاص ، وأنا معك أن معظم المجمعيين الآن من أساتذة الجامعة ، لكن الاختلاف هو في إيقاع العمل ، وفي أولوياته ، فالأستاذ في الجامعة مضطر للبحث عن حل عاجل لمصطلحات مطروحة عليه في زمن محدد ، أما المجمعيون فيعدون عملا وفق إطار خاص أو عام ، قد لا يستجيب للحاجات العاجلة ، لأنه يعد لخدمة الأجيال القادمة ، ويتم في أناة ، لاستيفاء كل قواعد البحث في المعاجم القديمة والحديثة ، ليتم وضع مصطلح قابل للاستمرار والتعميم .

إجتياز الفجوة المتزايدة .. كيف ؟

● اسمح لي أن أعود قليلا إلى ما تفضلت بالاشارة إليه في بداية هذا الحوار ، من أن فلسفة التعريب تعني في النهاية توفير فرصة التلاقح والحوار بين ثقافتنا العربية والحركة العلمية العربية وبين الثقافات المعاصرة . . . الخ .

من هذا المنطلق نفسه تنبعث بعض المخاوف والمحاذير ، فمن الواضح أن الحركات الفكرية والثقافية والعلمية في أقطارنا العربية ما تزال متخلفة إذا ما قورنت بنظيراتها في العالم المتقدم ، وأن هناك فجوة بيننا وبينهم ، خاصة في العلوم البحتة والتطبيقية ، وتدريس العلوم في الجامعة باللغة العربية قد يؤدي إلى زيادة هذه الفجوة القائمة ، حيث لا يتمكن الطالب الذي درس العلوم باللغة العربية من متابعة حركة البحث العلمي في الخارج .

في الوقت الذي ما تزال فيه حركة البحث العلمي عندنا في بداياتها ، تقول وجهة النظر التي تثير هذه المخاوف : إن القياس على ما حدث في عصر المأمون حين أنشىء بيت الحكمة قياس غير دقيق ، فالمترجمون في بيت الحكمة كانوا يترجمون عن ثقافات وحضارات في حالة سكون ، ثقافات ثاوية في الكتب ، يمكن - بعد وقت طويل أو قصير - أن تتم ترجمتها كاملة ، أما نحن في وضعنا الراهن فنلاحق تيارات ثقافية وفكرية تمور بحركة علمية مذهلة في تطورها وتقدمها . ولهذا فمخاطر بقاء الهوة - وربما اتساعها - يظل قائما .

- هذه ملاحظة ثمينة ، وابتداءً يجب أن نفرق بين ما نريد أن نأخذه من الغرب من أجل تقدمنا المادي ، وما نريد أن نأخذه من أجل تقدمنا الفكري والثقافي ، فمن الناحية المادية يخلق بنا أن نعلم أبناءنا التقنية الحديثة بكل مستوياتها ، أما الأهداف التي نستخدم من أجلها هذه التقنية فهي أهداف محلية وعربية وإنسانية . هنا تقول : توجد هوة ، والهوة قائمة فعلا ، وإذا كان الأساس في اجتيازها هو قيام حركة بحث علمي ، وحركة تصنيع وتنمية ، تخدم أهدافنا العربية والانسانية ، فمن المهم أن تكون هذه الحركة العلمية باللغة العربية ، وأن تؤسس لهذه الحركة بترجمة الكتب العلمية إلى اللغة العربية ، وبوضع المصطلحات العلمية والتقنية في اللغة العربية ، مهما يكن الجهد والوقت . أما بالنسبة للعلوم الانسانية فلا توجد مشكلة هوة بالصورة الموجودة في العلوم البحتة والتطبيقية ، وأمامنا تجارب الأمم في هذا المضمار ، ففي اليابان قد أخذوا التقنية من الغرب ، ودرسوها بلغتهم القومية ، وتفوقوا في ذلك على الغرب ، وعلى أمريكا ، من ناحية العلوم الانسانية ، وكل ما يتصل بالشخصية القومية اليابانية لم يأخذوا كثيرا عن الغرب ، بل تطوروا في مجالات العلوم الانسانية ، وأصبح لهم فيها إسهام واضح في الثقافة الانسانية .

وعندنا نحن في مجالات العلوم الانسانية تراث كبير ، وقيم كثيرة ، يحتاجها العالم ، والمهم أن نعرف كيف نعرضها بلغة العلم الحديث ، ونطورها ، ففي مجال التصوف عندنا - لا أتكلم عنه كما آل إليه الحال في أمر الفرق - لو أخذناه في ضوء فكرة التحليل النفسي لوجدنا أن النفس الانسانية في الثقافة العربية قد تم تحليلها إلى درجات لا تقل إرهافا عما وصل إليه الآخرون . .

وعندما ننقل الآداب أو العلوم الانسانية من الغرب فإننا لا نسعى إلى تقليدها ، بل نتمثلها ، ونهضمها ، لتصبح جزءا من الغذاء لثقافتنا العربية النامية ، فتعطي ثمارا عربية أغنى ، وأقدر على الاسهام في الحضارة الانسانية ، فأجدادنا عندما أخذوا المنطق اليوناني استخدموه في علم الكلام وفي الفقه ، وفي القياس ، وهكذا .

أما مسألة ضرورة أن يكون لدينا حركة بحث علمي ناهضة لترتكز حركة التعريب على أساس قوي منها فلا خلاف حولها ، لكن مسألة ضرورة الدعم المادي لجهود التعريب ، والتنسيق بين هذه الجهود

فهي مسألة في غاية الأهمية ، بيد أن مثل هذه الأمور تبقى دائما نسبية ، ومحكومة بظروفها . ودائما ستبقى هناك مسافة بين ما توفره أي دولة لهذه الأمور وبين ما يتطلع إليه القائمون بها .

المثل الشعبي يقول : « العين تتمنى أكثر مما ترى » ، وهذا في كل مكان حتى في فرنسا ، ففي المركز القومي للبحوث بفرنسا ، درس أحد الباحثين واسمه « ادجار موران » قضية الهيبيين ووضع فيها كتبا ، ودعا الدولة إلى الاهتمام بقضاياهم ، لكن للدولة أيضا أولوياتها . والمثل اللاتيني يقول : « نعيش أولا ثم نتفلسف » . ولدينا هنا مثلا ضرورات التنمية وضرورات الأمن ، ومخاطر « اسرائيل » . . . الخ .

الابداع في اللغة القومية

● حين كنت أناقش قضية التعريب في الجزائر مع الأستاذ مولود قاسم أيد بقوة وجهة النظر التي تقول : « إن تدريس العلوم باللغة القومية أمر أساسي لايجاد حركة بحث علمي عربية وتأصيلها ، ولنمو جيل من المبدعين في الآداب والعلوم ، لأن الابداع الحقيقي لا يكون إلا في اللغة القومية للمبدع . ونود أن نعرف رأيك في هذه القضية التي تتصل في صميمها بفلسفة التعريب .

ـ إذا أردنا أن نجيب بصورة دقيقة عن قضية الابداع المهمة هذه فلابد أن نميز بين الابداع في المجالات المادية والتجريبية ، والابداع في المجالات الأدبية والفنية والعلوم الانسانية ، فمثلا في مجال « الالكترونيات » أو العلوم التجريبية ليس شرطا أن يكون الابداع في اللغة القومية ، لأن هناك لغات خاصة بالبحث في هذه المجالات ، هناك لغة « البازيك » و « الفورتران » وهذه لغات عالمية .

أما بالنسبة للعلوم الانسانية فيوجد لدينا أمران : الفكر ، والتعبير عن الفكر ، والفكر لا يتوقف عند لغة معينة ، بل إن الفكر يبدع حين تتوفر الموهبة ، وحين يطلع المبدع على ما قاله الآخرون ، وعندئذ يتاح له أن يمضي قدما في الابداع الفكري ، أما بالنسبة للتعبير اللغوي فإذا كان المقصود به هو الابداع اللغوي الجمالي فيجب أن يكون باللغة القومية التي تمكنه من أن يبدع بها جماليا ، لأنه أدرى الناس بارتكازاتها ، وانعكاساتها العاطفية والجمالية ، أما من حيث المضمون الفكري لهذا التعبير اللغوي فنستطيع أن نأخذ في عرضنا الرمزية في الأدب التي قال بها « رامبو » وسواه ، فهي قد جاءت إلينا من الغرب ، فكان لها دورها العجيب في الثقافة والشعر الحديث ، فالشعر الحديث كله يريد أن يكون رمزيا ، لكن إلى أي درجة يوفق أو لا ؟ يوفق طبعا إذا كان التعبير الجمالي مستوفيا للشروط الفنية والموسيقية ، ولا يوفق إذا لم يستوف هذه الشروط ، وبقي مجرد رموز غامضة . □

الجزء الثاني من الحوار

مع الدكتور عدنان تكريتي

في العدد القادم

■ العقل ينظم الشعر ، والقلب وحده هو الشاعر . (اندريه شينيه)

■ الرجل القوي يعمل ، والضعيف يتمنى . (برنارد شو)

■ الأقارب والدواء تحتاج إليهما في اليوم العسير . (مثل حبشي)

تعقيب

بين طه حسين وأحمد أمين

كتب الأستاذ حافظ أحمد أمين في العدد رقم ٣٣٥ الصادر في شهر اكتوبر الماضي كلمة بمناسبة الذكرى المئوية لمولد والده ، العالم الأديب الدكتور أحمد أمين رحمه الله ، وقد استهلها بالحديث عن أوجه الشبه في العلاقة التي جمعت بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من جهة ، وبين طه حسين وأحمد أمين من جهة أخرى ، وأن طه حسين يعد امتداداً للأفغاني ، وأن أحمد أمين يعد امتداداً للامام محمد عبده .

وأومأ بعد ذلك إلى فساد الصداقةالتي كانت بين عميد الأدب العربي وأحمد أمين أبي مالك الحزين ، كما كانت تطلق عليه بعض الصحف ـ وذكر أنها ترجع إلى أن طه حسين كان يريد أن يظل نفوذه طاغيا على صديقه ، بيد أن هذا الصديق لما تولى عمادة كلية الآداب خرج من دائرة نفوذ طه حسين ـ تعبير الأستاذ حافظ ـ فقام بين الصديقين صراع ، أصيبت منه الصداقة بما فصم عراها .

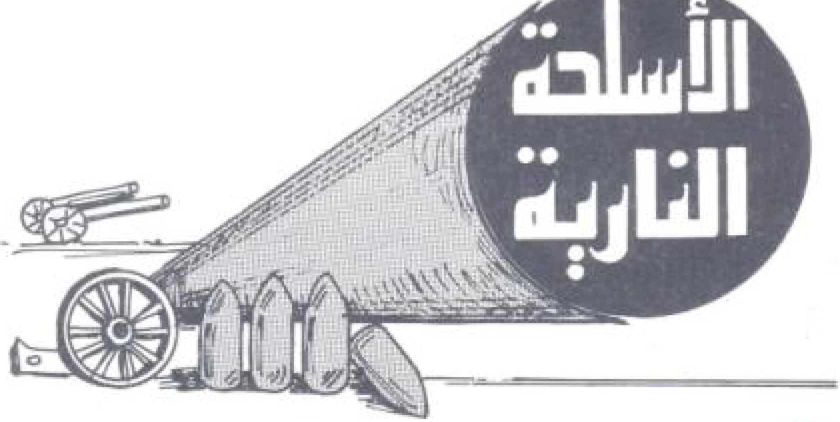
ولا مجال في هذه الكلمة لمناقشة ما ذهب إليه الأستاذ حول أوجه الشبه بين الأفغاني وطه حسين ، أو بين محمد عبده وأحمد أمين، إن ما يعنيني مناقشته أسباب الخصومة أو الخلاف بين والده وعميد الأدب العربي ، فهو لم يحدثنا عن مدى هذه الخصومة ، ومظاهرها ، بل اكتفى بالاشارة إلى التباين بين الأديبين الكبيرين في المزاج ، وهو تباين لا يمكن معه أن تدوم صداقة أو تستقر مودة ، وأن أحمد أمين تمرد على نفوذ صديقه في أواخر الثلاثينيات ، بعد أن أصبح عميدا .

فإذا كان التفاوت بينهما في المزاج هو مصدر فساد الصداقة فكيف قامت مع وجوده من قبل ؟ ، ثم إن الربط بين تولي منصب العمادة وما جد بين الصديقين من خلاف قد يوحي بأن أحمد أمين كان رجلا ضعيف الشخصية ، تابعا لغيره ، وأنه ثار بعد أن أصبح في مركز قوي ، ولا أعتقد أن الرجل كان كذلك ، وما عرفته معرفة لقاء عن طه حسين ، وما حدثني به ينفي انه كان يحب السيطرة على سواه . بل إنه ـ كما كانت زوجته تقول لي :رجل فيه طيبة وسذاجة ، يثق بكل من تربطه به علاقة ، ويصدق كل ما يقال له ، وهو يسعى لخير كل من يلجأ إليه . وكم شاهدت في بيته أساتذة ورجال صحافة لهم مشكلات مختلفة ومصالح متنوعة ، فكان ـ على الرغم من ضعف صحته وقلة حركته ـ يحقق لهم ما يريدون عن طريق الهاتف أحيانا ، وأحيانا أخرى عن طريق الرسائل الشخصية .

والعميد كان يقدر صديقه أحمد أمين كل التقدير ، ومما حدثني عن علاقته به قوله : « لقد عرفت أحمد أمين وهو يعمل في القضاء ، وعرضت عليه العمل بالجامعة ، وبعد انتقاله إليها توطدت الصداقة بيننا ، كما توطد التعاون العلمي ، فألفنا لجنة لاعادة كتابة التاريخ الاسلامي سياسيا وعقليا وأدبيا ، على نحو جديد في الجانب السياسي فعهد إلى أحمد أمين بالكتابة عن الحياة العقلية ، وعهد إلي بالكتابة عن الحياة الأدبية ، وقد نجح أحمد أمين فيما جد إليه ، فكتب موسوعته المعروفة عن فجر الاسلام ، وضحاه ، وظهره ، ويومه ، وأذكر أني كتبت مقدمة لفجر الاسلام .

رحم الله الرجلين ، وجزاهما على ما قدما خير الجزاء . □

الدكتور محمد دسوقي



أكبر تحدٍ واجه القوى العسكرية التقليدية في أواخر العصور الوسطى

بقلم : الدكتور إحسان صدقي العمد

تعتبر الأسلحة النارية أكبر تحد واجه القوى العسكرية التقليدية في العصور الوسطى ، بل لعل تطور السلاح الناري من المدفعية إلى البندقية في أواخر تلك العصور كان أوضح شاهد على انتقال الفن العسكري إلى العصور الحديثة ، وما رافق ذلك من تسارع مذهل في تطوير أسلحة الفتك والدمار .

ترتبط الأسلحة النارية عموما باكتشاف البارود ، ومن ثم استخدام خصائصه في الأسلحة القاذفة والنارية . ويرجع ذلك إلى العمليات الكيميائية التي كان بعض العلماء يجرونها على عدد من المعادن والمواد ، بهدف تحويلها إلى معادن نفيسة ، إضافة إلى انتشار الحروب السياسية والدينية في العصور الوسطى ، والحاجة إلى سلاح قوي مدمر ، لهدم الأسوار والحصون والقلاع التي كان يستعصي الاستيلاء عليها في ذلك الوقت بالوسائل والأسلحة التقليدية .

النار الاغريقية :

وربما كانت النار الاغريقية تأتي في مقدمة الأسلحة النارية التي اقتبسها العرب المسلمون عن الروم البيزنطيين وطوروها ، ومن ثم مهدت لظهور البارود ، وقد لعب هذا السلاح الاغريقي دورا هاما في الحروب مع الفرنجة في العصور الوسطى ، وهو يتكون من مزيج من مواد حارقة ، أساسها النفط والكبريت وبعض الصموغ والدهون . وكانت تنطلق من اسطوانات نحاسية ، يقذف منها السائل مشتعلا ، أو يطلق على هيئة كرات مشتعلة ، أسماها العرب بالزراقات التي كانت تنبعث منها نار بإرعاد ودخان ، فتحرق السفن .

وقد استخدمت هذه النار في حروب المسلمين مع الروم البيزنطيين ، وبخاصة في حصار الرشيد العباسي لقلعة هرقلة في آسيا الصغرى ، حيث وصف الشاعر تأثير هذا السلاح في قوله :

هَوَتْ هِرَقْلَةُ لَمَّا أنْ رَأتْ عَجَباً

جَوّ السَّمَا تُرتَمى بالنفطِ والنَّار

لكن المسلمين أدخلوا تحسينات على النار الاغريقية ، واستخدموا نوعا مطورا منها في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وأحرقوا به أبراج العدو أثناء حصاره لمدينة عكا ، في أواخر القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي .

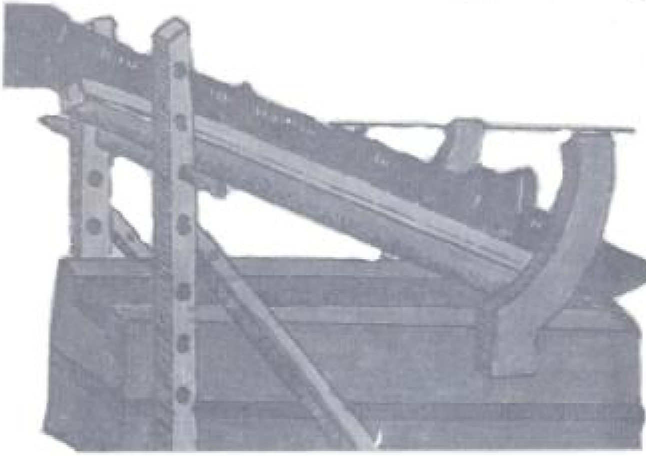
اكتشاف البارود :

وقد شهدت الآلات القاذفة تطورا ملحوظا باكتشاف البارود الذي عرف في آسيا قبل الحروب الصليبية ، وربما كان الصينيون هم مكتشفوه ، لكنهم لم يستخدموه كسلاح حربي ، بدليل أن المغول الذين فتحوا الصين لم يقتبسوه عنهم ، كما أنهم لم يستعملوه في حروبهم ، بل اقتصر استعماله في الصين مثلا على إطلاق صواريخ الألعاب النارية .

ويبدو أن من الصعوبة بمكان التوصل إلى رأي يقيني بالنسبة لتطور ظهور هذا الاختراع كسلاح فعال في الحروب ، لكن يستدل من كتاب « الفروسية والمناصب الحربية » . و مؤلفه حسن الرماح المتوفي في أواخر القرن السابع الهجري - أن البارود كان معروفا في مصر منذ زمن مبكر ، وقد أورد مؤلف الكتاب الحديث عنه في عدة صفحات ، ذاكراً تركيبه من الملح والكبريت المسحوق ، ورماد الفحم والبرادة والنشادر والزرنيخ الأحمر والنيلة الزرقاء والفتائل ، وذكر النسب بين هذه المواد ، كما تحدث عن الصواريخ والنفط الطيار الذي يصعد منه لهب النار ، وأطلق اسم الدواء على المادة المتفجرة التي يلقم بها المدفع .

المسلمون يستخدمون الأسلحة النارية :

ويؤكد جوانفيل الذي رافق ملك فرنسا لويس التاسع في حملته على مصر في منتصف القرن السابع الهجري أن القوات الأيوبية استخدمت المدافع والصواريخ في تصديها للغزاة . ويقول في مذكراته : « إن المسلمين قد استخدموا في أثناء القتال آلة لم يستعملوها من قبل ، يقذفوننا منها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب ، نار مستقيمة ، كأنها اسطوانة كبيرة ، وذيلها من خلفها مثل الحراب الطويلة ، ودويها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ، لها نور ساطع جيد ، من جراء انتشار اللهب العظيم الذي يحدث هذا الضوء ، حتى أنك ترى كل ما في المعسكر ، كما لو كان في وضح النهار » . وقد أكد بعض المتخصصين في تطور الأسلحة أن هذه الأوصاف انما تنطبق على المدافع التي أطلق عليها في ذلك العصر عدة أسماء مثل : مكاحل البارود ، ومدافع النفط ، وصواعق النفط ، وهندام النفط ، وصواريخ النفط ، او النفوط ، وقوارير النفط التي تقتلع القلاع . ويذهب بعض الباحثين ايضا الى ان المماليك قد استخدموا هذا السلاح في موقعة معينة ، هي (عين جالوت) ضد المغول عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، وأنه كان العامل الحاسم في انتصارهم في



● المدفع العربي على قاعدته الخشبية كما ورد في كتاب « العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع » لابن الفقيه الاندلسي .

تلك الموقعة . وتوالى ذكر هذا النوع من الأسلحة النارية في المؤلفات التي ظهرت في عصر المماليك ، مثل « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمري ، « و الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية » لمحمد بن منكلي ، « والسلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ، « وبدائع الزهور » لابن اياس ، و « صبح الأعشى » للقلقشندي ، ومع ذلك فإن المدافع التي كان يمتلكها المماليك ظلت تستخدم فقط في الأغراض الدفاعية ، في حين بقي فرسان المماليك بوجه عام يحتقرون هذه الأسلحة ، ويلتزمون بنظام الفروسية التقليدي في القتال ، مما سهل على العثمانيين الانتصار عليهم فيما بعد .

انتقال الأسلحة النارية الى المغرب والأندلس :

وليس غريبا أن تنتقل تقنية صنع الأسلحة النارية بعد ذلك الى المسلمين في المغرب والأندلس ، حيث كانوا يواجهون أخطارا كبيرة على المستويين الداخلي والخارجي .

وتحدثنا بعض المصادر والمراجع ان المسلمين في المغرب استخدموا الأسلحة النارية في هجومهم على سرقوسة بصقلية في أوائل القرن السادس الهجري ، وأن الموحدين قد استخدموها في مهاجتهم لمدن وهران والمهدية ومراكش ، وأنهم استولوا على قلاع اندلسية كثيرة بفضل آلات حصارهم العنيفة التي كانت تقذف كتلا هائلة من الحجارة وكرات ملتهبة من الحديد .

ويؤكد الدكتور احمد مختار العبادي أن مسلمي المغرب والأندلس توصلوا في اواخر القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - الى اكتشاف خاصية اخرى للنفط كمادة هادمة متفجرة ، وذلك اذا خلط بملح البارود او النشادر وحصى الحديد ، تحت درجة حرارة عالية ، مما أدى الى تطوير جديد في المدافع والأسلحة النارية .

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته شيئا عن هذا التطور خلال وصفه لمهاجمة سلطان المغرب يعقوب المريني مدينة سجلماسة التي كانت في أيدي بني عبدالواد عام ٦٧٢هـ ، حيث « نصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ، ينبعث من خزانة امام النار الموقدة في البارود ، بطبيعة غريبة ، ترد الافعال الى قدرة باريها » .

وما لبث هذا السلاح الناري القاذف المدمر ان استخدمه مسلموا الأندلس في صراعهم ضد الاسبان ، كما فعل سلطان غرناطة اسماعيل بن فرج ، ابو الوليد عام ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م ، مما أثر عى معنويات قوات الاسبان المعادية التي انتشرت في

صفوفها كما تقول الحوليات الاسبانية : « شائعات بأن ملك غرناطة يمتلك سلاحا جديدا مبيدا » .

ويتضح مما سبق أن الأسلحة النارية قد عرفت واستخدمت لدى المسلمين قبل الاوروبيين بحوالي نصف قرن على الأقل ، وأن الاسبان والمتطوعين الاوروبيين في صفوفهم هم الذين اقتبسوا هذه الأسلحة عن المسلمين ، فنقلوها إلى اوروبا ، وطوروها خلال حرب المائة سنة بين انجلترا وفرنسا والحروب الايطالية في الفترة التالية ، في وقت كانت فيه القارة الاوروبية على أبواب نهضة علمية شاملة ، فلم تلبث ان تلقفت السلاح الجديد ، وعكفت على تجربته وتطويره .

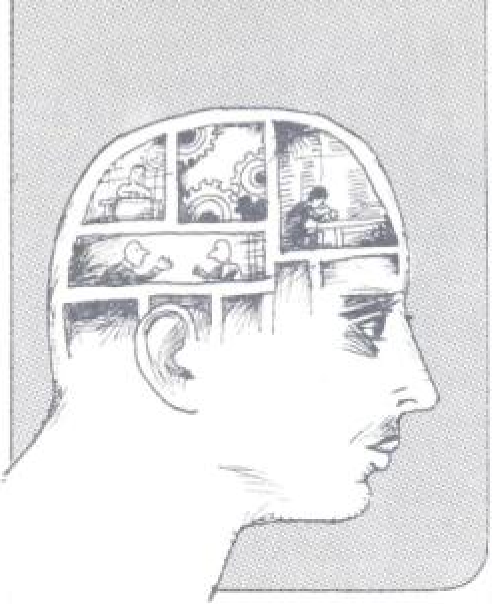
التفوق الاوروبي في تطوير الأسلحة النارية :

وقد أدى إقبال الاوروبيين على تطوير الأسلحة النارية الى تفوقهم في هذه الصناعة ، وبخاصة في استعمار كثير من الشعوب في اسيا وافريقيا ، وابادة شعوب اخرى ، كشعوب الهنود الحمر في القارتين الأمريكيتين ، بل ان هذا التفوق قد ظهر بشكل جلي أيضا عندما عجزت الدولة العثمانية او تراخت في مجاراة التقنية العسكرية للدول الأوروبية ، وهو امر أثبته ميادين القتال البرية والبحرية ، حيث بدأ العجز العسكري العثماني واضحا في اوروبا الشرقية منذ القرن السادس عشر الميلادي ، كما ادى الى تراجع قوات المماليك والعثمانيين البحرية عن التصدي للقوات البرتغالية والاوروبية في المحيط الهندي ، واستمر التراجع العسكري العثماني في القرون التالية ، حتى انتهى بسقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى .

وليس من شك في ان استمرار التفوق الاوروبي على المسلمين في صنع الأسلحة النارية المتطورة يأتي في مقدمة الأسباب التي تكمن وراء عدم انتصار العرب والمسلمين على اعدائهم في معظم المعارك البرية والبحرية التي خاضوها ، وهي المعارك التي وصفها القائد العثماني البحري سيدي علي ريس « بأنها معارك المدفعية والمسكيت » (أي البنادق) ، وقد فطن كثير من المؤرخين ودعاة الاصلاح السياسي والعسكري الاسلامي الى هذه الحقيقة منذ وقت مبكر ، ومن هؤلاء حسن كافي الاقحصاري الذي أكد في رسالته « أصول الحكم في نظام العالم » التي ألفها في اوائل القرن الحادي عشر الهجري ، اواخر السادس عشر الميلادي ، وقد أكد هذه الحقيقة بقوله : « إن أعداءنا كلما اخترعوا نوعا من الأسلحة واستعملوه غلبوا علينا ، ثم إذا اتخذنا مثله واستعملناه غلبنا عليهم بعون الله العلّام لقوة الإسلام » .

والواقع ان الاقحصاري قد وضع يده على السبب الحقيقي المباشر لتراجع العثمانيين في اوروبا الشرقية ، ونعني به التفوق الاوروبي في الاسلحة الحديثة ، وهو امر يكاد ينطبق على جميع ميادين المواجهة العسكرية غير المتكافئة التي اضطر المسلمون وغيرهم من الشعوب الى خوضها مع اعدائهم منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا ، وقد تأكدت هذه الحقيقة في جميع الحروب المباشرة التي خاضها العرب والمسلمون ضد قوى الاستعمار والصهيونية ، وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين . وترتبط هذه الظاهرة - قبل كل شيء - بالفجوة العلمية والتقنية التي تتسع بين الدول المتقدمة ، والدول النامية ، ومنها الدول العربية والاسلامية .

وأغلب الظن ان المعادلة سوف تبقى على هذه الحال ، ما لم تظهر في الأفق بوادر توازن في القوة العسكرية بين الجانبين ، مما يستغرق وقتا غير قصير ، لكن والى ان تتوازن المعادلة فليس امام الدول النامية المهضومة الحقوق سوى الحرب الشعبية المنظمة الشاملة التي تعمل فيها الأسلحة التقليدية الخفيفة على استنزاف قوى العدو المتفوق عسكريا ، وتجبره في النهاية على التسليم بالحقوق المشروعة للأمم والشعوب . □



الذكاء والذاكرة

بقلم : الدكتور فخري اسماعيل حسن

نخطىء كثيرا بالربط بين حجم الدماغ والذكاء ، ونخطىء أيضا عندما نردد المقولة الشائعة بأن الانسان الذكي قوي الذاكرة ، والواقع أن هذا الثلاثي ليس مرتبطا ببعضه بعضا .

هذا المقال يلقي أضواء على العديد من المقولات الشائعة في هذا المجال .

يعتبر الدماغ - مصدر الذكاء والمكان الذي تحفظ فيه الذاكرة - أهم وأعقد أجهزة الجسم ، وهو عبارة عن نسيج شديد الرخاوة والليونة، وكبقية أنسجة الجسم يغلب على تركيبه الماء ، تؤمن عظام الجمجمة القوية الحماية للدماغ من المؤثرات الخارجية ، ويفصل ما بين الدماغ اللين الحساس وعظام الجمجمة الصلبة القوية طبقة من الانسجة ، تسمى السحايا ، ويغلب على السحايا الملاصقة للدماغ الرخاوة ، وبالتالي لاتسبب له أي أذى ، بالاضافة لذلك يحيط بالدماغ النخاع الشوكي الدماغي الذي يحفظه من تأثير الجاذبية الأرضية التي تجذب جميع الأجسام الى أسفل ، ويعمل هذا السائل أيضا على امتصاص تأثير الصدمات التي تصيب الرأس ، فلا تؤثر على الدماغ الا اذا كانت على درجة كبيرة من العنف .

الذكاء :

إن كتلة دماغ الحوت قد تصل الى حوالي ٩كغم ، وبالتالي فإن دماغ الحوت أكبر أدمغة الكائنات الحية قاطبة ، ونحن نعلم أن الحوت ليس أذكى الحيوانات ، لذلك يمكن القول أن كبر الدماغ لايعني الذكاء ، ولايجاد نوع من العلاقة بين كتلة الدماغ أو حجمه والذكاء نلاحظ أن هنالك نوعين من الوظائف التي يقوم بها الدماغ :

١ - السيطرة على عمل جميع أجهزة الجسم والتنسيق فيما بينها .

٢ - التفكير والذاكرة والقدرة على التحليل ، وغير

ذلك من الوظائف التي تحدد مستوى الذكاء،ويطلق عليها أحيانا الادراك ، أو العقل ، فإذا كان جسم الكائن الحي ضخما ـ كما في حالة الحوت والفيل ـ فإن الدماغ قد يستنفذ معظم طاقاته في ادارة هذا الجسم الضخم ، ولا يتبقى للادراك والتفكير الا اليسير ، وبذلك ينخفض مستوى الذكاء ، لذلك يبدو واضحا أن استخدام النسبة بين كتلة الدماغ وكتلة الجسم للكائن الحي كمقياس أو دليل للذكاء أفضل كثيرا من كتلة الدماغ المطلقة ، وسوف نطلق على تلك النسبة للاختصار اسم « نسبة الكتلتين » لقد حسب (هاري جيريسون) ، من جامعة (كاليفورنيا) نسبة الكتلتين لكثير من الكائنات الحية ، فوجد أنها تزداد حسب الترتيب الآتي : أسماك ، زواحف ، طيور ، ثم ثدييات ، أي أن نسبة الكتلتين تكون أكبر ما يمكن للثدييات ، وهذا يتفق مع تطور وتعقد الأجهزة البيولوجية لهذه الكائنات ، فاذا تساوت مثلا كتلة احدى الثديات مع كتلة احدى الزواحف ، فإن دماغ الأولى يكون أكبر من دماغ الثانية ، على الأقل بعشرة أضعاف ، وقد يصل الى مائة ضعف ، وبالنسبة للثدييات فان رتبة الرئيسات [1] تملك أكبر نسبة للكتلتين ، وتكون هذه النسبة أكبر ما بين (٢-٢٠)مرة من نسبة الكتلتين للثدييات من الرتب الأخرى ، ولا شك أن نسبة الكتلتين للانسان هي أكبر النسب قاطبة ، وتساوي في المتوسط ٢٪ أي أن كل ٥٠ غم من الجسم يقابلها غرام واحد من الدماغ ، ويبين الجدول الآتي متوسط كتلة الدماغ ، ونسبة الكتلتين لبعض الكائنات الحية يلي الانسان في كبر نسبة الكتلتين ـ لاحظ الجدول ـ كل من الدلفين والشمبانزي ، والاعتقاد السائد أن كليهما ذكي نسبيا ، فالمعروف أن الدلفينات تستخدم الأمواج الصوتية كلغة تخاطب وتفاهم فيما بينها ، وتشبه لغة الدلفينات الى حد ما طريقة عمل جهاز السونار المستخدم في الكشف عن الأجسام تحت الماء ، وهذه الطريقة غير مفهومة بالضبط حتى الآن ، ولكن يعتقد بعض العلماء أن الدلفين يبث موجات صوتية مشابهة للموجات التي تنعكس عن الجسم المراد وصفه ، وعند استقبالها من قبل دلفين آخر فإن الموجات تنتج بالنسبة للدلفين ما يشبه رسما صوتيا للجسم المعني ، ويمكن القول ـ إن صح التعبير ـ أن الدلفينات تتخاطب من خلال صور سمعية ، أما بالنسبة للشمبانزي فإن هنالك محاولات كثيرة لتعليمه لغات معينة ، بعضها باستخدام الحاسوب(الكمبيوتر) ، وبعض العلماء مفرطون في التفاؤل ، اذ يعتقدون أنه يمكن أن يوجد بعد عدة أجيال جيل جديد من الشمبانزي ، له القدرة على الكلام .

لابد من الاشارة الى أن هنالك بعض الاستثناءات للعلاقة بين نسبة الكتلتين والذكاء ، فمثلا إن نسبة الكتلتين لبعض الحشرات الصغيرة قد تصل الى نسبة الكتلتين للانسان ، أو حتى تفوقها ، ويعتقد أن هنالك حداً أدنى لحجم أو كتلة الدماغ ، وإذا ما نقص الدماغ عن ذلك فإنه يفقد معظم أو حتى جميع قدرته على الادراك والتفكير ، وبالتالي فان نسبة الكتلتين في مثل هذه الحالة لاتعبر عن الذكاء .

	الانسان	الدلفين	الشمبانزي	الغوريلا	الفيل	الحوت
متوسط كتلة الدماغ	١٣٧٥ غم	١٤٠٠	٣٨٠غرام	٥٤٠غرام	٧ كغم	٩ كغم
نسبة الكتلتين بالتقريب	١ : ٥٠	١ : ١٠٠	١ : ١٥٠	١ : ٥٠٠	١ : ١٠٠٠	١ : ١١٠٠٠

(١) رتبة الرئيسات هي أكثر رتب الثديات تطورا ، وتشمل الانسان والقرد .

ليس كل كبير الدماغ ذكياً

لنركز الآن على الانسان ، فقد يتساءل بعضهم هل يمكن أن نحدد ذكاء الشخص بقياس نسبة الكتلتين له ؟ نلاحظ قبل الاجابة عن هذا السؤال ما يلي :

أولا : تقل كتلة دماغ المرأة عن كتلة دماغ الرجل بحوالي ١٥٠ غم ، وبما أن كتلة جسم المرأة في المتوسط أقل من كتلة جسم الرجل ، فإن ذلك يعني أن نسبة الكتلتين للانسان لاتعتمد على الجنس ، وكذلك الحال مع الذكاء ، فهو لا يعتمد على الجنس .

ثانيا : يولد الطفل بدماغ كبير نسبيا ، وفي المتوسط فان كتلة دماغ الطفل عند الولادة تساوي ٣٥٠ غم ، وهذا يجعل نسبة الكتلتين للوليد حوالي ١٢٪ أي ست أضعاف نسبة الكتلتين عند البلوغ ، وينمو دماغ الطفل بسرعة كبيرة جدا ، وخصوصا في الثلاث سنوات الأولى ، حيث تعتبر سنوات المحاكاة والتعلم السريع التي قد تحدد مستوى الذكاء في المستقبل .

ويؤدي تعلم الطفل ممن حوله الى زيادة كبيرة في سمك القشرة الدماغية المخية وكتلتها وبالتالي يؤدي الى زيادة عدد الخلاياالعصبية وتنشيط الموجود منها ، مما يساعد على سرعة التعلم في المستقبل ،وزيادة مستوى الذكاء ، وعندما يتم الطفل عامه الأول تنخفض نسبة الكتلتين الى نصف قيمتها عند الولادة (حوالي ٦٪) ، وعند سن دخول المدرسة (٥ - ٦ سنوات) يكون دماغ الطفل قد أصبح ٩٠٪ من دماغه عند البلوغ ، بينما تكون كتلة جسمه حوالي ٢٠٪ من كتلته عند البلوغ ، ونلاحظ من ذلك مدى أهمية سنوات الطفولة الأولى ، ليس فقط بالنسبة للنمو الجسماني ، ولكن بالنسبة لتأثيرها على الذكاء في المستقبل .

ثالثا : لايوجد - حسب معلومات الكاتب - إحصائيات شاملة دقيقة لكتل أدمغة بعض المشاهير ، وذلك لمقارنة نسبة الكتلتين مع الذكاء الفعلي لهم ، لكن هنالك بعض الحالات المعروفة ، فلقد كان دماغ (لورد بايرون) - من أشهر الأدباء الانجليز في القرن الماضي - مفرطا في الكبر (حوالي ٢٢٠٠ غم) ، وكانت بالتالي نسبة الكتلتين له كبيرة جدا ، لكن لم يكن الحال كذلك مع (ألبرت اينشتين) الذي يعتبر بحق من أعظم العلماء ، فلم تكن نسبة الكتلتين له كبيرة بشكل ملفت للنظر ، يتناسب مع ما قدمه للعلم في أوائل هذا القرن ، وهنالك كذلك بعض الأشخاص الذين عرفوا بدماغ صغير ، ومع ذلك كانوا أذكى من كثيرين ممن كانت كتلة أدمغتهم كبيرة ، ومن أشهرهم (أناتول فرانس) ، وهو أيضا كاتب عبقري ، ومع ذلك فكتلة دماغه تساوي ١١٠٠ غم ، أي أن كتلة دماغه تساوي نصف كتلة دماغ بايرون .

رابعا : لو كانت جميع أجزاء الدماغ متكافئة أو متساوية في الأهمية أو التأثير - كما تفترض بعض النظريات - لكان لحجم أو كتلة الدماغ تأثير كبير وفعال على مستوى الذكاء ، لكن الثابت أن أجزاء الدماغ غير متكافئة ، بمعنى أن أجزاء الدماغ غير متساوية في الأهمية ، فمثلا كتلة دماغ الانسان القديم المعروف باسم (نيندرتال) الذي وجد بالقرب من دوسلدورف بألمانيا ، تساوي ١٥٠٠ غم ، أي أكبر من متوسط كتلة الدماغ للانسان في الوقت الحاضر ، ولا يمكن أن يكون هذا الانسان البدائي الذي عاش قبل عشرات الآلاف من السنين أذكى من الانسان الحالي ، إن الفرق المهم بين تركيب دماغ الانسان القديم ودماغنا هو أن الفص الأمامي من القشرة المخية في الانسان الحديث تقدما واتسع ، على حساب الفص الخلفي ويجب أن لاننسى اختلاف البيئة الاجتماعية في الحالتين ، وتأثيرها على الذكاء - لاحظ

ثانيا ـ ، وإذا أخذنا كل ذلك في الاعتبار ، يمكننا القول أن كبر الدماغ أو كبر نسبة الكتلتين بشكل مفرط ، يميل الى ابراز الذكاء ولكن ذلك ليس هو العامل الوحيد او الفعال المؤثر في الذكاء وانما هنالك عوامل اخرى ، وفعلا لقد تبين حديثا ان الدماغ يحتوي على دوائر كهربائية غاية في الصغر (مجهرية) لاتزيد ابعادها عن ميكرون واحد (الميكرون الواحد = واحد من المليون من المتر) ، وتتكون هذه الدوائر في الدماغ في أواخر مرحلة الجنين .

الذاكرة :

إن عملية حفظ المعلومات في الدماغ ، ثم استرجاعها عند الحاجة ، عملية معقدة وتتم ـ اساسا ـ في القشرة الدماغية (المخية) ، وهنالك مناطق في الدماغ لخزن المعلومات للمدى القصير ، ومناطق أخرى مخصصة لخزن المعلومات للمدى الطويل [٢] ، يحتوي الدماغ باستثناء المخيخ الذي ليس له علاقة بالذاكرة ، على حوالي مائة بليون $(١٠)^{١١}$ خلية عصبية (عصبون) ، وتدعم كل خلية عصبية بعشر من الخلايا الغروية لتحافظ على هيئتها البنائية ، وهنالك ثلاثة انواع من العصبونات : العصبونات الحسية : لنقل المعلومات حول البيئة ، والعصبونات الحركية : وتنقل الانبعاث العصبي الى خلايا العضلات والغدد ، وأخيرا العصبونات المتوسطة أو التشاركية : وهذه لها علاقة بالوظائف المعقدة الخاصة بالكائنات المتطورة الذكية ، مثل الادراك والتعلم ، وعددها يختلف في الكائنات الحية ، تبعا لرقيها ، وتقدمها على سلم التطور .

لايختلف تركيب الخلية العصبية عن الخلايا الأخرى كثيرا الا أنها تحتوي على مقدار كبير نسبيا من الحامض النووي المعروف باسم حمض الريبونيوكليك والبروتين ، ويتفرع من كل خلية عصبية ما بين الف وعشرة آلاف من التفرعات الشجرية ـ تشبه تفرع الأغصان في الأشجار ـ وتصل الخلية بالخلايا العصبية الأخرى لتقل الانبعاث العصبي للخلية ، ويتفرع من الخلية أيضا ليف يتراوح قطره ما بين نصف وعشرين ميكرون ، يسمى المحور ، حيث ينتهي بفروع صغيرة ، يوجد في نهاية كل منها انتفاخ صغير ، يسمى بالزر التشابكي ، لوصل الخلية العصبية إما بخلية أخرى ، أو بعد استجابة (غدة أو عضلة) ، وينقل الانبعاث العصبي باتجاه واحد من الخلية العصبية الى الأعضاء .

إذا صح اعتقاد بعض العلماء بأن الدماغ البشري يستخدم نفس الطريقة المستخدمة في الحاسوب « الكمبيوتر » ، أي طريقة الأعداد الثنائية في حفظ المعلومات ، فإنه يمكن حفظ معلومة بسيطة [٣] في كل واحدة من التفرعات أو الأزرار التشابكية للخلايا العصبية ، ويقدر العلماء كمية المعلومات التي يمكن حفظها في الدماغ بما لا يقل عن $(١٠)^{١٥}$ معلومة (واحد وأمامه خمسة عشر صفرا) ، وقد يبدو هذا الرقم مذهلا ومبالغا فيه ، لكن إذا فكرنا في كمية المعلومات التي يستطيع الشخص العادي أن يتذكرها ـ من أرقام وعمليات حسابية وحروف ومفردات لغوية ، وتواريخ وأشخاص ومعلومات عامة وذكريات ـ لوجدنا أن الرقم قد يكون متواضعا أمام عظمة الدماغ البشري . □

---

(٢) المقصود بمعلومة بسيطة هو الاجابة على سؤال محدد إما بنعم أو لا ثم تحفظ الاجابه في الذاكرة ، وهذه طريقة الأعداد الثنائية المستخدمة في حفظ المعلومات في الحاسوب « الكمبيوتر » .

(٣) تحفظ المعلومات للمدى الطويل في القشرة المخية أما للمدى القصير ـ يوم واحد أو أقل ـ فيعتقد أنها تحفظ في تركيب صغير تحت القشرة المخية ، يسمى قرين آمون ،

قصيدتان

للخالد الأسمر



كان خيطا من الماء
يأتيكمو من أعالي الجنوب ،
ليطرح أتراحه في الخضّم .
يلفكمو بالبراءة ،
يهديكم الخبز والثوب .
خيط من الماء يأتي ، ويكفي ، ولا ينقطع ،
إنه العاشق المستهام الذي كان يأتي ،
فيلقي السلام على بكركم .
كان حلما طريفا ،
وكنتم به مترفين ،
تفشت بكم بهجة العاشقين .

إنه الآن لا يدرك
إنْ كان يبدأ أو ينتهي
صار يخلط بين حديث الضفاف ،
ويوجعه الحب مؤتلقا
لم يشخ ، ربما أثقلته الهموم
صار خيطا من القهر ،
يهديكم العجز ،
يهديكم كل يوم عدوا ،
ليس غير الدروع
أطلقوا صيحة الفاخر ،
واستعيدوا له بكركم
كي يعود فيلقي عليها السلام
وكم أنت أقسى من الحرب

شعر : محمود عبدالصمد زكريا

حين يلفك غلٌ ،
فتحمل صمت القيود ،
وتجثم فوق الذي يتحايل للطفو .
تلك مشاجرة بين لون ولون ،
وفي الصلح عرسُ الضحية .
لون الضحية أصفر ،
وفي العرس أخضر ،
وقد سلمت مقودا ساعة الامتزاج ،

وها هي ذي تنتظر ،
وكل الأجنة مدت أكفًا ،
تضرّع فيها العوزُ .
وكم أنت أقسى من الحرب ،
حين يلفك غلٌ ،
يكدر وهجك صمتٌ ،

يناطح رأسك سور الحصار ،
فترتد ، تغرز غلك في الطمي ،
تخنق صوتك ، تقطع كفك ،
تومىء في حسرة للأجنة .
وددت لو أنك تخفق أذرعها بالدماء ،
فهل كنت يوما دما ؟

لأنك حطت عليك الطيور ،
وحط النخيل ، وحط البشر ،
لأنك حلم السفر ،
تنام ، وتغط ،
وعند التقاء المناجل بالعشب ،

تهمس في السر :
يا بحر عذراً ،
فإني نسيت متاعي ،
وقصرت باعي ،
وقد خاب ظنك فيّ ،
وبيني وبينك يا بحر برزخٌ ،
هذي يراعك يا بحر تدرك وجهي
فهل أتساوى بملح ،
وقد كنت عذبا ؟
وترتد ملحا ،
فترجع كل المناجل ،
تخلع ثوب الندى ،
ترتدي « شكة » للحروب
وتكشف عن صدرها .
بالحديد يفل الحديد ،
وترجع ، تلمع ،
تخفق كل البراعم بالدم .
يرجع لونك أسمر ،
تزف المليكة ، تأخذ مقودها في يمينك .
عرس المليكة أخضر ،
ولون المليكة أخضر ،
فهل أنت نهر ،
أم أنك . . آه ؟
فكم أنت أقسى من الحرب ،
حين يلفك غلٌ ،
وتقدر .

الجديد في العلم والطب



سيارة الفستق السوداني

سيارة الفستق ، أو سيارة الصين ، صغيرة لكنها قوية .

طورتها احدى الشركات الاسترالية ، وسمتها سيارة الصين وكان الأولى أن تسميها سيارة الفستق .

أما تسميتها بسيارة الصين فلأن الشركة الاسترالية تستهدف غزو اسواق الصين بسيارتها المرتقبة .. فعدد سكان الصين يزيد على ١,١٠٠ مليون نسمة اي ما يعادل ربع مجموع سكان العالم تقريبا . والاسواق الصينية متعطشة لسيارة صغيرة قوية ورخيصة .. كالسيارة التى تنوى انتاجها الشركة على نطاق واسع قبل حلول سنة ١٩٨٩ .

وقوام هذه السيارة محرك ديزل ذو سلندر واحد ، يعمل بزيت الديزل ، ولكنه يعمل أيضا بزيت الفستق السوداني ، وتقطع السيارة نحو ثلاثين ميلا بمقدار من الوقود لا يزيد على (ربع جالون) ولا يزيد طول السيارة على ٨ اقدام ، ولا يكاد يبلغ وزنها نصف طن .. ولكنها قادرة على حمل أو جر ١,٥ طن ، والفضل في ذلك يعود الى جهاز تحويل الحركة ، وإلى علبة التروس وتبلغ سرعة السيارة القصوى ٣٠ ميلا في الساعة ، وذلك اثناء حملها ثلاثة ركاب (رجلين وفتى) .

وقد صممت سيارة الصين بحيث تلائم الطرق غير المعبدة ، وهي منتشرة في الصين ، ويجرى تطويرها حاليا لكي يسهل عليها تسلق الطرق الجبلية بسهولة .

وتسعى الشركة الاسترالية الى تسجيل

براءة اختراعها . . المحرك ومحول الحركة على الاقل . . وستعهد هذه الشركة الى الجهات المعنية في الصين بصنع هيكل السيارة ، اما صنع المحرك والمحول فستحتفظ به لنفسها ، وتنوى الشركة انتاج (١٠,٠٠٠) سيارة في السنة . . ستبيع ما يمكن بيعه منها في أسواق الصين وفي محافظة جيانسكو بالتحديد . . ولن تتردد في تصديرها الى الاسواق الاخرى . . وتقدر تكاليف السيارة الواحدة بنحو ـ ٢٥٠٠ دولار على ابعد تقدير .

الطرق الجديدة في معالجة السرطان

تحدثنا في عدد سابق (عدد شهر مايو ١٩٨٧ صفحة ١٢٨)عن إحدى طرق معالجة السرطان بواسطة أساليب الهندسة البيولوجية ، وورد الينا من رسائل القراء مايدل على مدى الاهتمام بهذه الطرق الحديثة ، التى تكلف كثيرا وتبشر كثيرا ، تبشر بالشفاء

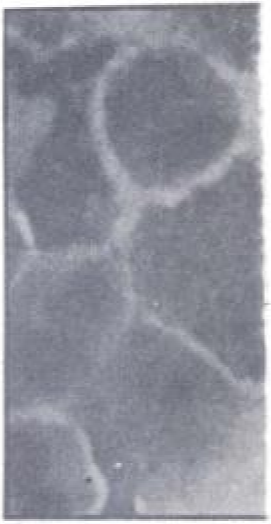


الدكتور ستيفن روز نبرغ أحد رواد أسلوب المعالجة الجديدة للسرطان .

من المرض الخبيث ، وهو شفاء عاجل وتام الى حد كبير كما تؤكد الأوساط الطبية والعلمية المعنية .

فقد نشرت مجلة نيو انجلند الطبية في أواسط شهر ابريل الماضي بحثين مختلفين لعلماء في موضوع واحد هو موضوع معالجة السرطان بواسطة جهاز المناعة ، وتوصلا الى نفس النتائج المرضية المطمئنة . لا عجب اذن أن نشرت المجلة الطبية المذكورة مقالا افتتاحيا يعلق فيه كاتبه على الموضوع الذى دار حوله البحثان المذكوران . . وقد قال فيه : « لعلنا في نهاية البداية في بحثنا عن علاج ناجح للسرطان ، علاج يعتمد في المقام الاول على اسلوب الجسم نفسه في محاربة المرض ، وهو الاسلوب الذي يعمل به جهاز المناعة في جسم الانسان » .

وتحدث البحث عن التجارب التي شملها ، وقد اجريت على (١٥٧)مريضا من المرضى المصابين بأورام سرطانية مختلفة منها سرطان الكلي ، وسرطان القولون ، والأورام الليمفاوية وسرطان الجلد . وكانت هذه السرطانات من النوع المستفحل المستشرى الذي لا أمل في الشفاء منه في نظر الاطباء .



مادة الانترلوكن يفرزها جهاز المناعة في الجسم ، ويقوم الطبيب المعالج بتنشيط هذا الجهاز عن طريقة حقنه بجرعات كبيرة .

ومضى الاطباء في معالجة المرضى باسلوب جهاز المناعة ، ودلت الفحوص في نهاية التجارب التي شملها البحث الاول على أن :

٩ مرضى شفوا تماما

٣٢ تقلصت اورامهم السرطانية تقلصا كبيرا .

٤ ماتوا بسبب آثار جانبية ذات صلة باسلوب العلاج . وطرأ تحسن ملحوظ على بقية المرضى . . .

والجدير بالذكر أن الدكتور ستيفن رونبرغ احد كبار المسؤولين في معهد السرطان القومي بالولايات المتحدة هو الذي اشرف على تجارب البحث الاول ، وساهم في الكتابة عن نتائجه وتجاربه للمجلة السالفة الذكر ، والدكتور رونبرغ هذا هو الذي شارك ونطق بلسان الاطباء الذين اجروا عملية سرطان القولون للرئيس ريجان ، ومن طليعة رواد الاسلوب الجديد في معالجة السرطان (اسلوب انترلوكن) .

أما البحث الثاني الذي نشرته المجلة فقد تولاه واسهم في كتابته الدكتور وليم وست وزملاؤه العاملون في شركة بيوترا بوتيك .

وهي الشركة التي أسسها سنة ١٩٨٤ الدكتور اولدهام مبتكر طريقة العلاج التي تحدثنا عنها في عدد مايو الماضي . . وتشابه البحثان في التجارب التي اجرياها واسلوب العلاج الذي اعتمداه ، وتشابها ايضا في النتائج التي توصلا اليها مع الفارق ان الشفاء التام لم يكتب لاي من مرضى البحث الثاني . .

بقي أن نتحدث عن اسلوب العلاج الجديد نفسه . . فنذكر أول ما نذكر مادة الانترلوكن - ٢ وهي المادة التي يقوم عليها هذا الاسلوب والتي يفرزها جهاز المناعة في الجسم بمقادير ضئيلة ، وقد أمكن انتاج هذه المادة على نطاق معقول بواسطة الهندسة البيولوجية .

ويبدأ اسلوب العلاج الجديد بحقن المادة المذكورة بجرعات كبيرة في جسم المريض من أجل تنشيط جهاز المناعة الذي يفرز مادة (IL2) بكميات قليلة كما ذكرنا .

ثم يخطو الطبيب المعالج خطوته الثانية فيسحب الدم من جسم المريض . . وتعزل الخلايا البيضاء - خلايا المناعة - من دم المريض هذا ، ثم تنقع في محلول مادة (الانترلوكن - ٢) السالفة الذكر ، فتتكاثر الخلايا بمزيد من السرعة ، وتسمى بعد ذلك خلايا (لاك) والكلمة لاك هذه اختصار للاسم الطويل (Lymphokine - Activated Killer)

وتكون الخطوة الثالثة في اسلوب العلاج الجديد بإعادة الكريات البيضاء الى دم المريض ، وإعادة دمه هذا الى جسمه ، وما اسرع ما تنجذب خلايا (لاك) الى خلايا السرطان فتهاجمها على الفور وتقضي عليها كلها او اكثرها .

ويستغرق اسلوب علاج السرطان الذي اوجزنا نحو اسبوعين،ويكلف ٣٠,٠٠٠ دولار او يزيد ، ينفق اكثرها على العناية المكثفة التي يحتاجها المريض ، والتي تكلف الكثير في الولايات المتحدة ، ذلك أن الاسلوب ليس بلا اثار جانبية ، وهذه الاثار تستوجب وضع المريض في غرفة العناية المركزة بعض الوقت . □



مركز الطب الإسلامي

والمعالجة بالنباتات الطبيّة

بقلم : يوسف زعبلاوي / تصوير : صلاح آدم

تعيش الكويت نهضة طبية ناشطة ، كادت تضاهي مثيلاتها في بعض الدول المتقدمة ، فنسبة الأطباء إلى مجموع سكان الكويت مقدارها طبيب واحد لكل (٦٤٤) نسمة . وهناك (٣٧) سريراً لكل (١٠) آلاف نسمة . وللمقارنة فإن في اليابان طبيباً واحداً لكل (٧٠٥) من السكان ، وفي الولايات المتحدة (٥١) سريراً لكل (١٠) آلاف نسمة . والمعروف أن الكويت تقدم خدماتها الطبية لمواطنيها والمقيمين بها دون مقابل ، وقد بلغت المخصصات التي أنفقتها على الخدمات الطبية في سنة ١٩٨٤ م/ ١٩٨٥ م وحدها (١٧٧) مليون دينار ، أي بواقع (٩٩) ديناراً لكل فرد واحد من السكان .

على أن ما يعنينا من نهضة الكويت الطبية المجالات الطبية التي شقت طريقها فيها ، فهذه مجالات قديمة حديثة ، تعالج فيها الأمراض بطرق أخرى غير الطرق « الكلاسيكية » المعروفة ويطلق عليها أهل الغرب مجالات الطب البديل . لقد أقامت وزارة الصحة مراكز للعلاج الطبيعي ، وأخرى للعلاج بالابر الصينية ، وأقامت أيضا مركزا خاصا للمعالجة بالنباتات الطبية ، هو (مركز الطب الاسلامي) ، أو إن شئت الدقة : « مركز يوسف المرزوق وزوجته لولوة النصار للطب الاسلامي » .

أقيم هذا المركز سنة ١٩٨٤ ، وتوفر له من الاهتمام والرعاية ما كفل له أكبر توسع في أقصر زمن ، فالعاملون في المركز يبلغ عددهم حاليا (١٦٠) ، وقد كانوا لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين عند التأسيس ، أما الخريجون والمؤهلون منهم فلا تقل نسبتهم عن الثلث . وكان مقر المركز طيلة

السنوات الماضية مبنى متواضعا ، لا تتعدى مساحته ٥٠٠ متر مربع ، فأصبح اليوم مبنى رحباً فسيحاً ، تبلغ مساحته المبنية ٦,١٠٠ متر مربع ، يضاف إليها مساحة الممرات والحدائق ، ناهيك عن المسجد ، وبذلك تبلغ مساحته الاجمالية ١٥,٥٠٠ متر مربع ، وقد بني خصيصا للمركز ، وتكلف بناؤه ملايين الدنانير ، فأصبح في طليعة المباني في الكويت روعة وجمالا ، وتجسيدا لفن العمارة الاسلامية .

وقد حظى افتتاح مركز الطب الاسلامي في مقره الجديد بمزيد من الحفاوة والتكريم ، حيث شمل أمير الكويت صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح برعايته السامية حفل الافتتاح في ٢١ فبراير شباط ١٩٨٧ م ، وذلك في مناسبة عزيزة ، هي عيد الكويت الوطني السادس والعشرون .

آية من آيات العمارة الاسلامية :

اتفقنا في باديء الأمر على إرجاء الحديث عن مبنى المركز الجديد ، حتى نفرغ من الحديث عن أعماله وخدماته ، لكن المبنى شدنا إليه ، وفرض نفسه على حديثنا ، وكنا قد عرفنا مسبقا أن تكلفة أعمال بنائه قد بلغت ٦,٥ ملايين دينار ، واستغرقت أربع سنوات متواصلة ، ثم عرفنا المعنيين الرائعين المتجسدين في المبنى ، معنى الكرم ومعنى الوفاء ، ذلك أن هذا الصرح الضخم الفخم لا يعدو كونه هدية ، مجرد هدية تبرع بها آل يوسف المرزوق وحرمه لولوة النصار ، لتكون المقر الجديد لمركز الطب الاسلامي في الكويت ، أما الوفاء فقد تجلى في الكلمات القليلة التي وردت على لسان أحد المتبرعين ، وهو السيد فيصل يوسف المرزوق ، إذ قال : « لو ذكرنا مالكويتنا الحبيبة من جميل علينا ، وذكرنا عطاءها الذي يفوق كل عطاء ، لتضاءلت الهدايا ، كل الهدايا التي يمكن أن نقدمها إليها ، وتضاءلت أيضا هديتنا الحالية ، وهي هدية متواضعة أصلا » .

ونظرنا إلى المبنى - الهدية - فإذا به آية من آيات العمارة الاسلامية ، تذكرك أقواسه وأعمدته بقصر الحمراء في الأندلس ، ويذكرك رخام بلاطه برخام تاج محل في الهند .

وللمبنى جناحان ، تصل بينهما ممرات وحدائق ، الجناح الأيمن منهما يشغله « مركز الطب الاسلامي » ، وتشغل جانبا منه « المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية » ، والجناح الأيسر وقوامه مسجد لولوة النصار ، وهو المسجد الذي ترى قبته من على بعد كبير ، ذلك أنها كبيرة جداً ، إذ يبلغ قطرها الدائري عشرين مترا ، وارتفاعها خمسة وعشرين ، وهي مطلية بالذهب الخالص ، أو هكذا تبدو لك ، إذ أن المطلي بالذهب ليس القبة نفسها وإنما الفسيفساء التي كستها ، فقد وجدت التقنية الحديثة في ذلك ضمانا لصمود الطلاء ، وتسهيلا لأعمال صيانته ، وما يقال عن القبة الكبيرة يصدق أيضا على القبة الصغيرة التي تتوج المئذنة التي يبلغ ارتفاعها (٤٥ مترا) .

أما المسجد فواسع رحيب ، لا تقل مساحة صحنه عن ١,٢٦٧ مترا ، ويتسع لألف وخمسمائة من المصلين ، ويعلو الصحن دور علوي خاص بالنساء ويبلغ نصف مساحته .

لفت نظرنا السجاد الذي غطيت به أرض المسجد ، فهو سجاد صيني ، وألوانه بديعة ، ونقوشه رائعة ، وما أسرع ما لاحظنا التطابق بين تلك النقوش ونقوش القبة التي فوقها فملكتنا الحيرة ، حتى عرفنا أن نقوش القبة هي الأصل ، وأن تصاميمها قد أرسلت الى « طيوان » ، ليجري نسج السجادة وتطريزها وفق تلك التصاميم . تقول السجادة بصيغة المفرد ، ولا تقول السجاد بصيغة الجمع ، ذلك أن ما صنعته « طيوان » وشحنته لم يكن إلا سجادة واحدة ، لكنها عملاقة ، مساحتها (٨٠٠) متر مربع .

وتجولنا في المسجد ، وتأملنا المحراب والمنبر ،



● د . أحمد رجائي الجندي رئيس مركز الطب الاسلامي .

وتأملنا أيضا الخطوط العربية الجميلة ، فشعرنا كأننا في متحف لا في مسجد ، متحف يزخر بثروة من روائع الفن الاسلامي ، وسألنا عن الخطاط فعرفنا أنه الشيخ حسن شلبي ، خطاط تركيا المعروف ، وقد حضر شخصيا إلى الكويت لوضع اللمسات الأخيرة .

ولعل أهم ما يذكر عن مسجد لولوة النصار من الناحية العمرانية أن قبته الضخمة لا تقوم على أعمدة ، ومعنى هذا أن الناس الذين يصلون في المسجد تجمع بينهم وحدة وثيقة ، ولا تفصل بينهم أي أعمدة ، ولعل هذه الميزة خاصة بمسجد لولوة ، ولا تجد لها نظيرا في سائر المساجد عندنا .

وانتقلنا بعد ذلك من الجناح الأيسر إلى الجناح الأيمن ، مقر « مركز الطب الاسلامي » ، ومقر « المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية » أيضا ، وهو مبنى واسع ، قوامه طابقان ، طابق أرضي يضم العيادات والمكتبة والقاعات والصالات ومكتب التسجيل والصيدلية ، وطابق علوي يضم الادارة والسكرتارية والمختبرات ، فضلا عن مكاتب المنظمة .

مركز الطب الاسلامي هو الأصل .

كان الدكتور أحمد رجائي الجندي أول من زرناه في مركز الطب الاسلامي . ولا عجب ، فهو رئيس المركز الذي تولى إدارته منذ تأسيسه ، وهو المؤهل (دكتوراة في العلوم الصيدلية) لاعطائنا ما كنا بحاجة إليه من إيجاز وإجمال ووضوح ، وسألنا الدكتور الجندي عن أهداف المركز وأعماله ، فابتسم ، وذكّرنا بأن الحديث عن الأصل يجب أن يسبق الحديث عن الفرع ، فمركز الطب الاسلامي هو الفرع ، أما الأصل فهو « المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية » ، تلك المنظمة التي يترأسها وزير الصحة العامة الكويتي الدكتور عبدالرحمن عبدالله العوضي ويتولى الدكتور علي سيف أعمال أمينها العام ، والدكتور أحمد رجائي الجندي أعمال أمينها المساعد .

لكن الأهداف واحدة على كل حال ، إنها إحياء التراث الطبي الاسلامي ، فبينما يعمل المركز على إحياء هذا التراث عملا وممارسة ، وذلك بمعالجة المرضى بالنباتات الطبية ، تعمل المنظمة على إحيائه فكرا وحضارة .

ومضى الدكتور الجندي في حديثه ، فأشار إلى أن الأقسام الأساسية في مركز الطب الاسلامي ثلاثة : عيادات ومختبرات ومصنع ، وأن التداوي بالنباتات الطبية هو محور تلك الأعمال والأقسام جميعا ، فالعيادات هي التي تقوم بمعالجة المرضى ، وإعطائهم ما يحتاجون من أدوية نباتية ، والمختبرات هي التي تقوم بالتحقيق والتدقيق في تلك الأدوية مسبقا ، وذلك للتأكد من أنها فعالة وآمنة ، ولتحديد جرعاتها الطبية ، ومدة صلاحيتها ، فضلا عن تحديد الأشكال التي يجب تصنيع النباتات الطبية عليها . أما القسم الثالث فهو المصنع التحويلي ، وهو الذي يقوم

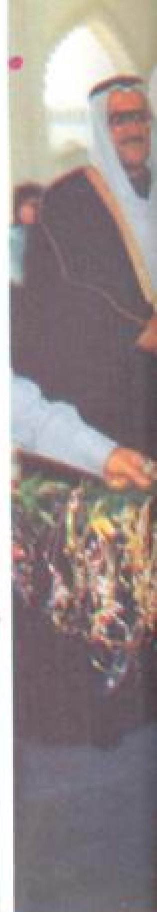




* صاحب السمو أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح في افتتاح مركز الطب الإسلامي ، وإلى اليسار مسجد لولوة النصار كما يبدو للناظر إليه من فوق الممرات .







* لوحة الاهداء لمقر المركز ، وبجانبها صورة لجهاز الفيوجراف لفحص الأدوية النباتية ، للتأكد من فعاليتها وأمانها ، وإلى اليسار محراب مسجد لولوة وهو مرصع بالفسيفساء المذهبة .







* مكتبة المركز وهي من أحدث المكتبات الالكترونية .

بإنتاج الأدوية النباتية على شكل أقراص أو « كبسولات » أو مساحيق أو أشربة أو معاجين ، وذلك بعد تركيب تلك الأدوية من خاماتها النباتية .

وتتنوع مصادر تلك الخامات ، فهي من الجذور والبذور وأوراق النبات ، ولحاء الشجر ، أو غير ذلك .. أما البلاد التي تستورد منها تلك الخامات فهي باكستان غالباً .

عيادة التشخيص أولاً ..

وانتقلنا بعد ذلك إلى قسم العيادات ، وإلى عيادة الفحص ، وعيادة التشخيص هي أولى تلك العيادات ، وهي العيادة التي لا مفر لمرضى المركز من زيارتها أولا ، ذلك أن التشخيص هو الأساس الذي يقوم عليه العلاج ، أي علاج ، والذي بدونه يفقد مركز الطب الاسلامي هويته الطبية ، ويصبح مستودعا كبيرا لتوزيع النباتات الطبية والأعشاب ، وتصبح مهمته عشوائية ، أقرب إلى مهنة العطارين .

واجتمعنا بالطبيب المسؤول في عيادة التشخيص الدكتور أحمد أبو الفضل الذي شرح لنا ما يقوم به من أعمال ، فقال :

« نعم ، أقوم بالتشخيص ، وأحرص كل الحرص على استخدام كل ما توصل إليه الطب الحديث من وسائل التشخيص والتقدم التقني الباهر ، وأجري ما أستطيع إجراءه من فحوص سريرية ، ثم أحيل المريض إلى المختبرات ومراكز الأشعة في مستشفى الصباح ، حتى إذا تجمعت نتائج التحاليل والصور في ملف المريض ، وأمكننا تشخيص مرضه ، أحلناه إلى عيادات العلاج بالنباتات الطبية ، لتبدأ المرحلة الثانية من أعمال العيادات ، ولتجري معالجته وفق حاجته ، وثمة مرحلة ثالثة من أعمال العيادات ، وهي مرحلة المتابعة التي تعقب مرحلة المعالجة ، إذ لا بد من فحص المريض مجددا ، لنتأكد من مدى الفائدة التي جناها من المعالجة بالنباتات الطبية » .

وتأملنا كلمات الدكتور « أبو الفضل » فعادت بنا الذاكرة إلى ما قبل عشرة قرون أو أكثر ، إلى أيام الرازي وابن سينا وغيرهما من عمالقة الطب الاسلامي ، فقد أولوا الفحص والتشخيص من عنايتهم واهتمامهم ما لا يقف عند حد . يقول الرازي (محمد بن زكريا الرازي المتوفي سنة ٣١٣ هـ ـ ٩٢٥ م) في كتابه الموسوعي « الحاوي » :

« كان عبدالله بن سوادة فريسة حمى قوية ، كانت تعوده كل ستة ، وأحيانا كل يومين ، وأحيانا أخرى كل أربعة أيام ، وكان يصحبها ارتجاف قليل ، ويكثر معه ماؤه ، فقلت له : ان حالته تلك ناتجة عن حمى الملاريا ، أو عن دمل في كلوته ، وبعد قليل وجدت قيحا في بول المريض ، فأخبرته بأن احتمال الحمى قد ولى ، وأن دمل الكلوة هو العلة ، ولو علمت أن أباه قد عانى الكثير من ضعف المثانة ، وأنه قد عالجها في صباه لما ترددت لحظة في معاينته وفق ذلك ، وفي الوقت المناسب وصفت للمريض مدراً ، حتى إذا خلص من القيح وصفت له دواءاً ناجحا » .

والجدير بالذكر أن كتاب « الحاوى » الذي يقع في ٢٨ مجلدا أو ثلاثين ، يفيض بقصص كالتي ذكرها الرازي ، وهي في الغالب قصص تشخيص ، سجلها الرازي في مذكراته التي انبثق منها كتاب « الحاوي » بعد وفاته .

أما الشيخ الرئيس ابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧ م) فيقول : « علينا ألا نثق بنتائج تحليل البول إلا إذا توافرت لدينا الشروط التالية : أن يكون البول أو بول المريض بول الصباح ، على ألا يكون المريض قد شرب الماء بكثرة ، أو أكل ما يمكنه أن يلون بوله كالزعفران ، كذلك يجب على المريض ألا يقوم بحركات خاصة ، أو يتبع نظاما على غير عادته ، كالصيام والتأخر في النهوض ، والامعان في التعب ، لأن كل هذا يؤثر كثيرا في تركيب البول ، كما أن الجماع يغير لونه ، والقيء والدوخة يؤثران على تركيبه » .

لقاء مع حكيم أعشابي

والتقينا بعد ذلك بالأخ الحكيم محمد ظهور الحسن أحد الأطباء أو الحكماء الأعشابيين العاملين في المركز ، بل أقدمهم ، وهو من إخواننا المسلمين الهنود ، ومن مواليد حيدر آباد ، وله من العمر ٥٤ عاما ، وقد عرفنا عنه مسبقا التخصص في دراسة التداوي بالأعشاب (الطب اليوناني كما يسمونه في الهند) ، دراسة جامعية حديثة ، وهو يشغل منصب مستشار في طب الأعشاب لدى وزارة الصحة في الكويت وذلك على أساس الاعارة من حكومة الهند .

وحدثنا الحكيم الأعشابي عن الأمراض المختلفة التي تعالج في عيادات مركز الطب الاسلامي ، وأكد لنا أن هذه العيادات لا تعالج الأمراض جميعا ، بل إنها لا تعالج إلا عددا محددا منها ، قد لا يجاوز خمسة عشر مرضا ، إلا أن عدد هذه الأمراض بازدياد ، وهي تزداد تبعا للأبحاث التي يجريها المركز للتثبت من إمكانية معالجتها بالنباتات الطبية أولا ، وللتأكد من فاعلية الأدوية النباتية المتاحة أو المقترحة لمعالجتها ثانيا .

وتشمل قائمة الأمراض التي يعالجها مركز الطب الاسلامي أمراض الجهاز التنفسي والحساسية الأنفية والجيوب والربو ، وتشمل كذلك أمراض الجهاز الهضمي من امساك وإسهال وحموضة ، فضلا عن قرحة الاثنا عشر والبواسير وتقرحات القولون وتكاسله ، ويعالج المركز أيضا أمراض الجهاز البولي بما في ذلك الالتهابات والحصى ، وأمراض الروماتزم والصداع النصفي إلى جانب الدهنيات الفائضة في الدم وتكاسل الكبد والبهاق (البرص) ومرض البول السكري .

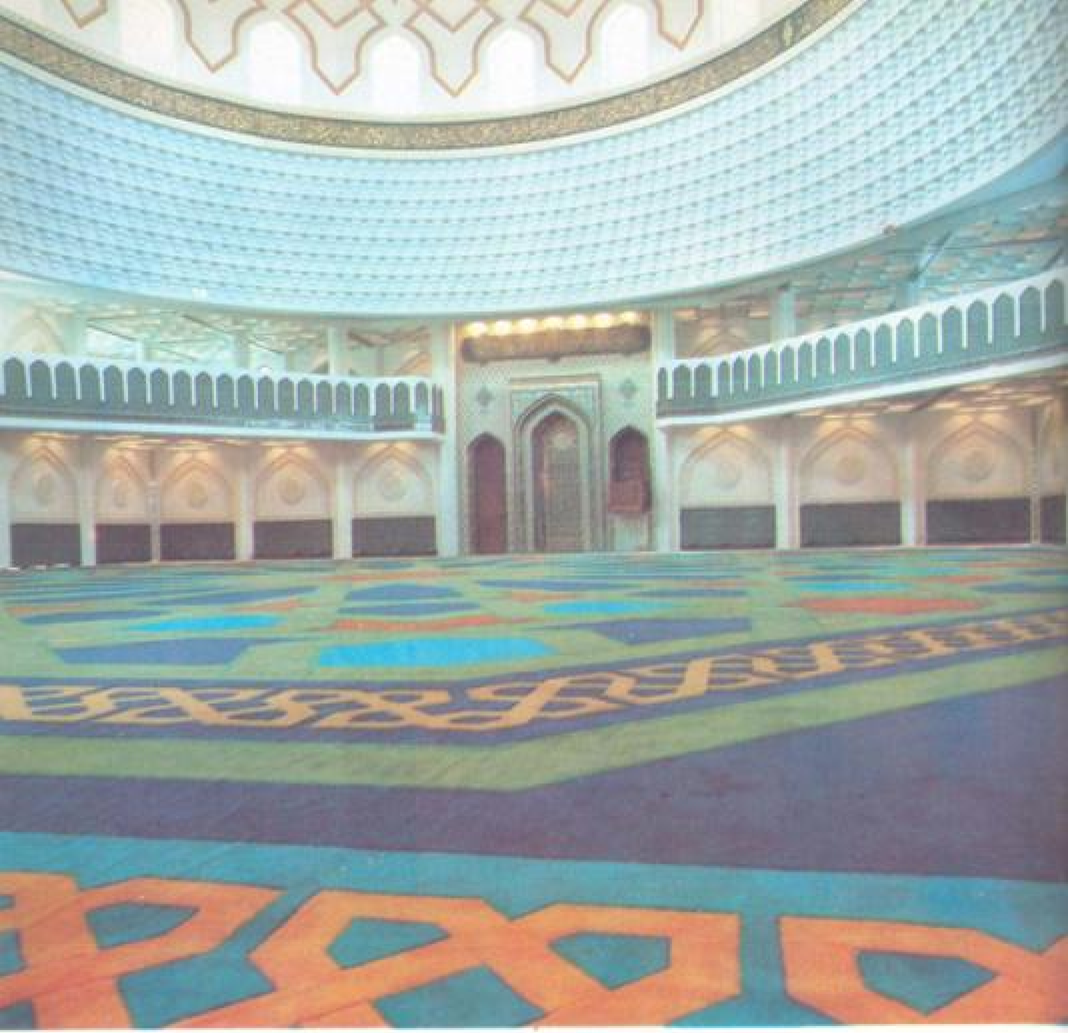
والجدير بالذكر أن عدد المرضى الذين يترددون على مركز الطب الاسلامي كانوا بازدياد في السنوات الثلاث الأخيرة ، فعددهم لم يجاوز ٩٥٠٠ مريض سنة ١٩٨٤ م ، لكن عددهم بلغ ١٣٥٠٠ مريض في نهاية السنة الماضية (١٩٨٦) ، ولعل في هذه الزيادة دليلا على ما شعر به المرضى من فاعلية المعالجة النباتية التي حصلوا عليها في المركز ، وإلا لما ترددوا على عياداته ، ولما ازداد عددهم على نحو ما ذكرنا .

وتحضرنا هنا قصة رواها لنا أحد المرضى الذين اجتمعنا بهم في المركز ، لقد عانى هذا الرجل (٦٨ سنة) من تقرحات القولون ، وذاق الأمرين من تكاسله ، ومن الآلام المبرحة التي كانت تأتيه كل يوم بميعاد ، بتمام الساعة الرابعة بعد الظهر ، وعانى أيضا من الامساك الشديد جدا ، ومن الاسهال المفرط ، وقد تناوبا عليه وتعاقبا أسبوعا بعد أسبوع ، ولم تجد فتيلاً الأدوية الكيماوية التي واصل تناولها شهوراً عديدة ، حتى يئس أو كاد ، فلجأ إلى مركز الطب الاسلامي ، ومضى في تناول الأدوية النباتية التي وصفت له طيلة أسبوعين ، ثم ما لبث أن توقف ، وقد عوفي من شتى الأعراض والآلام التي طالما شكا منها ، ولم يعاوده شيء منها ، رغم مضي









● (أعلى إلى اليمين) أحد الممرات التي تؤدي إلى مركز الطب الاسلامي المحلى بالأقواس والأعمدة ، (وإلى اليسار) السجادة العملاقة التي تبلغ مساحتها ٨٠٠ متر مربع .

وأقصى اليمين إحدى صالات انتظار المرضى ، ثم بوابة مسجد لولوة الضخمة المحلاة ، وصورة إحدى الساحات المغطاة بالخضرة التي ستتحول إلى حدائق عما قريب .



عشرة شهور على التوقف عن تناول الأدوية النباتية .

وعجبنا من حديث هذا الرجل ، فآفات القولون لا تشفى في الغالب ، ولا مفر للمصاب بها من أن يتعايش معها ، ويكتفي باللجوء إلى المسكنات المعروفة حين يتعرض لآلامها ، هذا على الأقل هو ما يردده الأطباء الذين يعالجون علل القولون بالأدوية الكيماوية .

وحدثنا الحكيم ظهور الحسن بعد ذلك عن الأدوية التي اعتمدها ، وما زال يعتمدها مركز الطب الاسلامي لمعالجة الأمراض ، ففهمنا أنها من المركبات ، أكثرها إن لم نقل كلها ، أي أن المفردات بينها نادرة ، وفهمنا أيضا أن المعادلات المعتمدة في تركيب تلك الأدوية معادلات موثوق بها كل الثقة ، وأن الكثير منها مأخوذ عن كبار الأطباء المسلمين ، وعن الشيخ الرئيس ابن سينا على وجه التحديد .

أما الخامات أو النباتات والأعشاب الطبية التي تركب منها تلك الأدوية فكثيرة ، والكثير منها غير معروف في منطقتنا ، على أن منها ما هو معروف ومألوف ، بل إن بعضها شائع ولا يخلو منه منزل ، بحيث قد يستهجن المرء أن يكون فيه أي أثر لدواء لأي داء . ونذكر من هذه النباتات والأعشاب على سبيل المثال ، البنفسج ، والعرقسوس ، والشمّار (الشَمرة) (أخو الينسون) والهندباء ، وحبة البركة ، والمصطكي (المستكة العربية) .

وسألنا الحكيم ظهور الحسن بعد ذلك عن الكيفية التي تؤثر بها الأدوية النباتية في جسم المريض ، وهل تختلف في ذلك عن الأدوية الكيماوية، وعرفنا منه أن الدواء الكيماوي يحتوي على عنصر فعال واحد بخلاف الدواء النباتي الذي يحتوي على عدة عناصر فعالة ، وعدة عناصر أخرى ثانوية ، لكنها ذات فائدة صحية ، ومن هنا كان التمييز الشائع بين هاتين الفئتين من الأدوية ، فالدواء الكيماوي يعالج المرض الواحد بالتحديد ، أما الدواء النباتي فيعالج المريض ككل ، ويعيد إليه توازن جسمه ، وهو قوام عافيته كما لا يخفى ، وهناك من يؤكد أن الأدوية النباتية تعمل على تنشيط أجهزة المناعة في جسم المريض .

وخلص الحكيم ظهور الحسن من حديثه إلى التأكيد على أن الأدوية النباتية ليست بلا محاذير ، فقد يتسبب بعضها بآثار جانبية ، لا تقل خطورة عن الآثار التي تترتب على الأدوية الكيماوية ، لذلك وجب التقيد بالتعليمات الخاصة بتناول تلك الأدوية ، كالجرعات وأوقات تناولها ومدة العلاج ، إلى آخر ما هنالك . وأشار أيضا إلى أن فاعلية الأدوية النباتية قد تختلف باختلاف المرضى ، فقد يتجاوب بعض هؤلاء للمعالجة بها ، ولا يتجاوب آخرون ، وأضف إلى ذلك أن فاعلية الأدوية النباتية قد تختلف باختلاف موطنها الأصلي ، والتربة التي نمت فيها والماء الذي رويت به .

في عيادة مرض السكر ومرض البهاق

وزرنا بعد ذلك عيادة مرض السكر ، حيث اجتمعنا بالطبيب المعالج فيها الدكتور فهد عبدالله الغانم ، وهو أحد الأطباء العاملين في عيادة السكر المركزية في حي (النزهة) ، حيث يعالج المرضى بالأنسولين والدبانيز والداونيل وغيرها من الأدوية الكيماوية المعروفة .

وحدثنا الدكتور فهد عن الازدواجية في معالجة مرضى السكر في مركز الطب الاسلامي ، فهو يعالجهم بالنباتات الطبية ، دون أن يوقف معالجتهم بالمركبات الكيماوية التي درجوا على تناولها ، ويواصل الطبيب وصف كلا العلاجين في آن معا ، حتى إذا انخفضت نسبة السكر في دم المريض انخفاضا ملحوظا عمد الطبيب إلى الحد من مقادير الأدوية الكيماوية التي يتناولها المريض ، وإلى زيادة مقادير الأدوية النباتية ، ويستمر في ذلك حتى يصبح في إمكان المريض الاستغناء عن الأدوية الكيماوية نهائيا .

ثم زرنا عيادة مرض البهاق ، واجتمعنا بالطبيب المعالج فيها الدكتور صالح سعد الجريوي ، رئيس



• جهاز تجفيف بالتبريد .



• جهاز تحليل كروماتوغرافيا الغاز

وحدة الأمراض الجلدية في مستشفى (العدان) في الكويت ، فحدثنا عن مرض البرص ، وعن النباتات الطبية التي يعالج بها المرضى في مركز الطب الاسلامي فقال :

« مرض البهاق أو البرص مرض جلدي معروف ، يتميز بالبقع البيضاء التي تظهر على الجسم ، وعلى الوجه ، وتختلف هذه البقع شكلا وحجما ، ومع أن المرض ليس معديا إلا أنه قد يتسبب بمشاكل نفسية واجتماعية ، لا تخلو من خطورة ، ولا يعرف للبهاق أسباب محددة ، وإن كانت الصدمات النفسية والعصبية قد تسبب الاصابة به في كثير من الأحيان .

« والبهاق أنواع ، منه الوراثي ، ومنه المكتسب ، ومنه ما يحدث تبعا لتعرض الجسم لبعض المواد الكيماوية ، أو للاصابة بأمراض جلدية أخرى ، أو غير ذلك .

أما الأدوية التي تصفها لمعالجة البهاق في مركز الطب الاسلامي فكلها أدوية نباتية ، تحضر وتركب في المركز ، ومنها ما هو معد للاستعمال الموضعي ، ما يجري تناوله بالفم . وقد ثبتت فاعلية هذه الأدوية العلاجية ، وبخاصة في الحالات التي يقتصر البهاق فيها على بقع محدودة » .

المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية :

المنجزات

واجتمعنا أخيراً بالدكتور على سيف الأمين العام للمنظمة الاسلامية للعلوم الطبية التي يتولى رئاستها وزير الصحة العامة الدكتور عبدالرحمن عبدالله العوضي . والدكتور أحمد رجائي الجندي أعمال أمينها العام المساعد والتي لولاها لما قامت لمركز الطب الاسلامي قائمة ، ولعل من حق قراء هذا الاستطلاع أن يلموا ـ ولو بإيجاز ـ بالمنجزات التي حققتها هذه المنظمة .

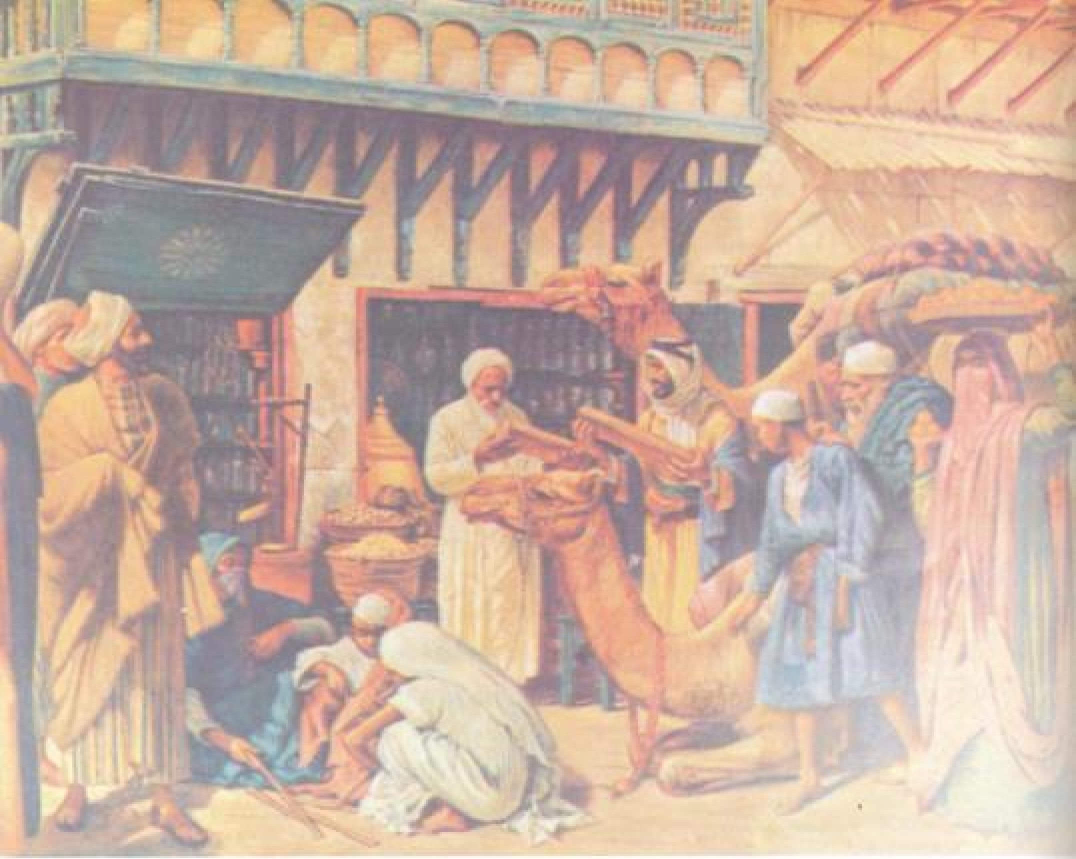
وتأتي المؤتمرات العالمية في طليعة تلك المنجزات ، وتعقد المنظمة الاسلامية هذه المؤتمرات في العواصم الاسلامية المختلفة ، وتدعو إليها نخبة من العلماء ، علماء الطب والفقه والتاريخ والعلوم الانسانية وغير ذلك ، لالقاء المحاضرات في مواضيع هامة وحيوية







● عيادة الفحص والتشخيص أول عيادات المركز، ومكتب تسجيل المرضى وفتح ملفات لهم، وإحدى المختبرات وإلى اليسار لوحة لأول صيدلية في أواخر القرن الثامن الميلادي ببغداد، وأسفلها عملية إجراء اختبار المستخلص النباتي على أمعاء منتزعة من أرنب، وبجانبها آلة لتحضير الأقراص من النباتات، وطاقتها عشرون ألف قرص في الساعة.







من مواضيع التراث الطبي الاسلامي ، وتعقب المناقشات هذه المحاضرات ، وتعقب هذه وتلك البحوث والدراسات .

وقد عقدت المنظمة أول تلك المؤتمرات في الكويت سنة ١٩٨١ ، وعقدت ثانيها في الكويت أيضا في سنة ١٩٨٢ ، أما المؤتمر الثالث فقد عقدته المنظمة في اسطنبول سنة ١٩٨٤ م ، وعقدت المؤتمر الرابع الأخير في كراتشي سنة ١٩٨٦ م ، وذلك بدعوة من الحكيم محمد سعيد رئيس مؤسسة همدرد في باكستان .

أما الندوات فغالبا ما تعقد في الكويت ، ويدعى إليها علماء الدين والفقهاء والاسلاميون من جهة ، والأطباء والمفكرون من جهة ثانية ، ذلك أن ما تسعى إليه هذه الندوات هو تحديد موقف الدين الحنيف من قضايا ومنجزات الطب الحديث .

ونضرب مثلا على ذلك بالندوة الأولى التي عقدت في الكويت في ٢٤ مايو (أيار) ١٩٨٣ التي أدت مناقشاتها إلى اتخاذ المواقف التالية :

١ ـ عدم تشجيع قيام بنوك الحليب البشري المختلط .

٢ ـ عدم جواز التحكم في جنس الجنين وذلك من وجهة نظر الشرع .

٣ ـ عدم التسرع في إبداء الرأي الشرعي في قضايا الاستنساخ بالنسبة إلى الانسان .

٤ ـ جواز أطفال الأنابيب والرحم الظئر في الشرع ولكن بشرط مراعاة الضمانات الكفيلة بمنع اختلاط الأنساب .

ونذكر على سبيل المثال أيضا الموضوع الذي تناولته الندوة الثانية التي عقدت في الكويت بتاريخ ١٥/١/١٩٨٥ ، فقد ركزت على الحياة الانسانية ، وحددت بدايتها في مفهوم الشرع ، بالتحام الحيوان المنوي بالبويضة ، ليكونا البويضة الملقحة ، كما حددت نهايتها في المفهوم الشرعي أيضا بجمود منطقة المخ التي تؤدي وظائف الحياة الأساسية ، وهو ما يعرف اصطلاحا بجذع المخ ، فموت الانسان هو موت جذع مخه لا قلبه !

قسم الطبيب وقسم ابقراط

ونذكر من منجزات المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية منشوراتها وكتبها ، وأول ما تجدر الاشارة إليه من هذه الكتب تلك التي تسجل وقائع المؤتمرات والمحاضرات التي تلقى فيها ، ولعل هذه أقرب إلى الموسوعات منها إلى الكتب العادية ، وقد أثرت المكتبة العربية والاسلامية ، وحفلت بكثير من المواضيع التي كثيرا ما يبحث عنها الباحثون في المراجع العادية بلا طائل .

وقل مثل ذلك في كتاب « الحياة الانسانية : بدايتها ونهايتها » الذي يسجل مناقشات الندوة الثانية السالفة الذكر ، والذي يقع في أكثر من ٦٥٠ صفحة ، ونذكر من كتب المنظمة أيضا « قانون ضمان سلامة الأدوية النباتية » الذي يحدد الشروط والمتطلبات الخاصة بتسجيل الأدوية النباتية ومراقبتها وتداولها ، والكتاب مطبوع في لغتين في آن واحد ، للعربية منه (٨٠) صفحة ، وللانكليزية منه (٦٤) صفحة ، وقد تعاونت المنظمة الاسلامية مع منظمة الصحة العالمية (لشرق البحر المتوسط) في إعداد هذا القانون .

ونذكر من كتب المنظمة الاسلامية كذلك « المرشد الاسلامي في الفقه الطبي » بل الجزء الأول منه ، وموضوعه الجهاز الهضمي . بالاضافة إلى كتابين للدكتور حسان حتحوت ، أستاذ الولادة وأمراض النساء بجامعة الكويت باللغة الانجليزية ، وعنوان الأول « مسائل في الطب الاسلامي » ، وعنوان الثاني « نظرات إسلامية في أمراض النساء والتوليد » .

ونأتي أخيرا إلى قَسَمْ الطبيب الذي وضعته المنظمة ، ليحل محل قسم أبقراط في عالمنا العربي والاسلامي على أقل تقدير ، حيث ترى المنظمة أن قسم أبقراط المشبع بالأدعية الوثنية لم يعد لائقا بأطباء القرن العشرين عامة ، والمسلمين منهم بخاصة ،

ويتضمن القسم الجديد فيما يتضمن : « أقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي ، وأن أصون حياة الانسان في كافة أدوارها ، وأن أحفظ للناس كرامتهم ، وأن أثابر على طلب العلم ، وأسخره لنفع الانسان لا أذاه ، إلخ . . »

إطلالة على المستقبل

على أن للمنظمة الاسلامية من التطلعات والتوجهات الجادة ما لا يقل شأنا عما حققته من منجزات . ومن تلك التطلعات إنشاء جامعة لتدريس طبابة الأعشاب والتراث الطبي الاسلامي ، ولو ذكرنا ما في الصين والهند من معاهد وجامعات متخصصة في تدريس المعالجة بالنباتات الطبية ، وتدريس طب ابن سينا والرازي وغيرهما من أطباء السلف الصالح ، ولو ذكرنا أيضا إقبال دول عديدة في أفريقيا وأمريكا اللاتينية على إنشاء المعاهد والمختبرات العلمية المتخصصة في النباتات الطبية ، وذكرنا كذلك المدينة الجامعية ، مدينة الحكمة التي قررت إنشاءها مؤسسة همدرد في كراتشي ، لشعرنا بمدى أهمية مشروع الجامعة الذي أوصى به أحد مؤتمرات المنظمة الاسلامية .

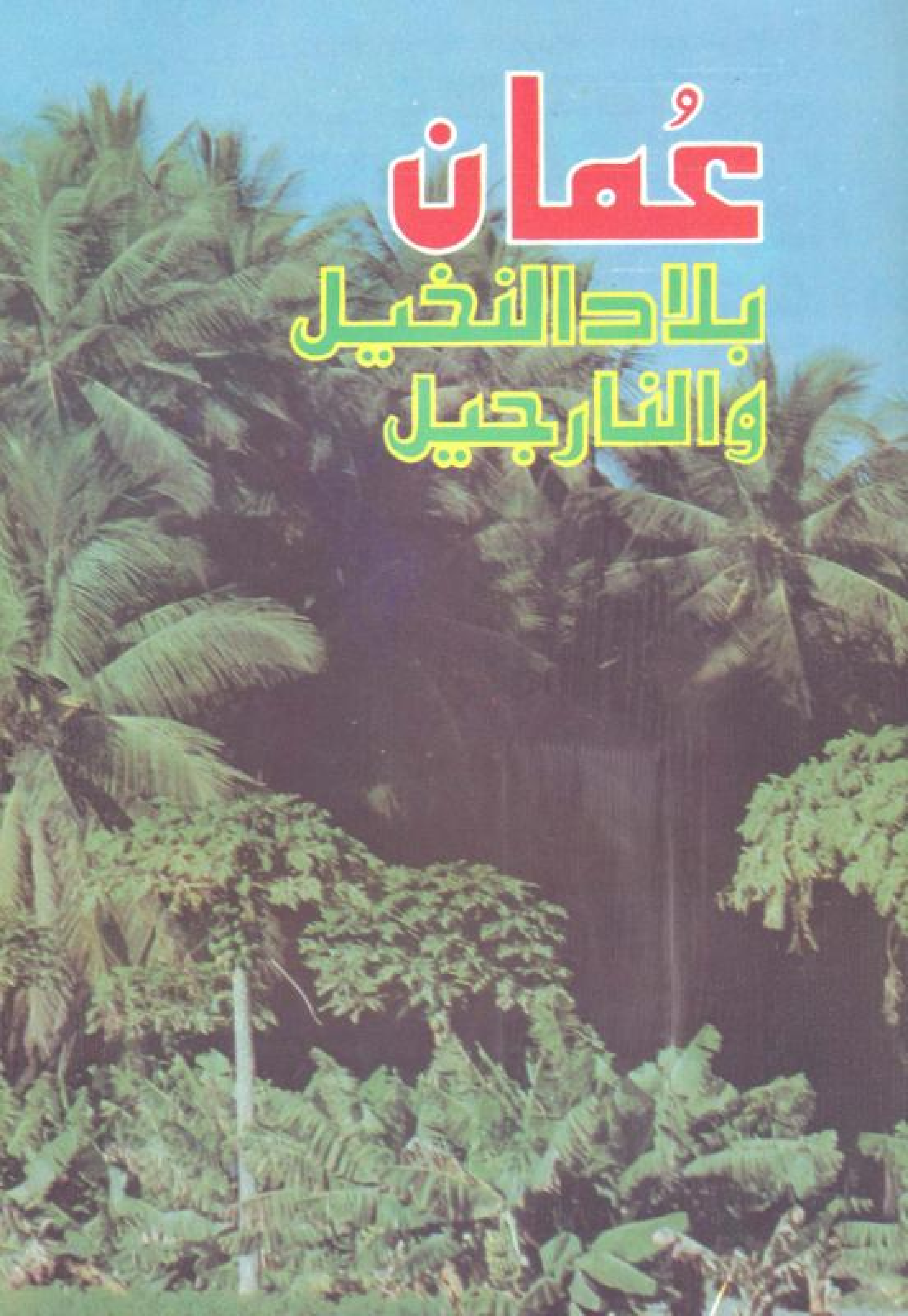
ومن تلك التطلعات أيضا إنشاء شركة لتصنيع الأدوية الحديثة من النباتات الطبية ، وتجدر الاشارة هنا إلى إحدى شركات الأدوية في ألمانيا الغربية (شركة الدكتور مداوس وشركاه) ، فقد تخصصت هذه الشركة في صنع الأدوية الحديثة من الأعشاب والنباتات الطبية ، وحققت من النجاح ما جعلها في مصاف الشركات العشرين الأولى في صناعة الأدوية في ألمانيا ، بالرغم من حداثتها نسبيا ، وقد أنشئت سنة ١٩٤٠ ، ولكن أدوية هذه الشركة أحادية العنصر الفعال ، وهي أقرب في نظر بعض الأعشابيين إلى الأدوية الكيماوية الحديثة منها إلى المستحضرات النباتية التقليدية في المفردات والمركبات ، ولا ندري ان كانت الشركة الاسلامية المزمعة ستكون كالشركة الألمانية ، تصنع الأدوية النباتية ذات العنصر الفعّال الواحد ، أم أنها ستصنعها من خاماتها النباتية ، مبقية على العناصر العديدة المختلفة التي تحتويها تلك الخامات .

ونذكر من تطلعات المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية توجّهها إلى الاستثمار وشراء وحدات سكنية بقصد تأجيرها ووقف ريعها على الخدمات الطبية المجانية التي يقدمها مركز الطب الاسلامي ، ولم لا ؟! فهذا هو ما فعلته مؤسسة جائزة نوبل ، حتى أمكنها توزيع الجوائز التي بلغت قيمتها المادية أضعاف قيمة تركة نوبل الأصلية ، وهذاهو ما تفعله مؤسسة همدرد في باكستان والهند ، فقد نجحت شركة الأدوية النباتية التي استثمرتها المؤسسة في مطلع القرن العشرين ، وحققت أرباحا وفيرة ، وما لبثت أن اعتبرت هذه الأرباح وقفا خاصا للانفاق على خدماتها الطبية ، وأعمالها الخيرية .

ولعل المجلة التي تتطلع المنظمة إلى إصدارها هي التي تستأثر بالأولوية بين مختلف التطلعات ، وذلك بالنظر إلى الحاجة الحيوية الملحة التي تدعو إلى إصدارها في أقرب وقت ممكن ، فمجتمعنا العربي ما زال بحاجة إلى توعية وتبصير حول النباتات الطبية ، والتداوي بالأعشاب ، ناهيك عن الالمام بمنجزات التراث الطبي الاسلامي ، وبأمجاده ومفاخره ، ثم إن المستجدات في طبابة الأعشاب كثيرة ، ومتلاحقة ، ولا سبيل إلى مواكبتها إلا بمجلة شهرية أو نصف شهرية ، تصدرها المنظمة ، أضف إلى ذلك النهضة الطبية في الكويت ، والنهضة البيئية التي بدأت تتبلور أخيراً .

ومن يدري . . فقد تنتشر المجلة المرتقبة هنا وهناك ، فتنتشر الوعي الأعشابي لا في الكويت فحسب ولكن في شتى الأقطار العربية الشقيقة أيضاً ، بحيث لا يمضي زمن طويل حتى تظهر في مختلف أقطارنا مراكز للتداوي بالأعشاب على غرار مركز الطب الاسلامي في الكويت . □

عُمان
بلاد النخيل والنارجيل



استطلاع : صادق يلي



عرفت عمان الزراعة كإحدى الركائز الهامة والأساسية للاقتصاد العماني ، وما طريقة الري بالأفلاج التي ابتدعها الانسان هناك ـ تلك الطريقة الفريدة المتميزة في ري الأراضي الزراعية ـ الا دليل قاطع على أن الزراعة كانت ذات مكانة مرموقة في الاقتصاد العماني ، ومازال كذلك .

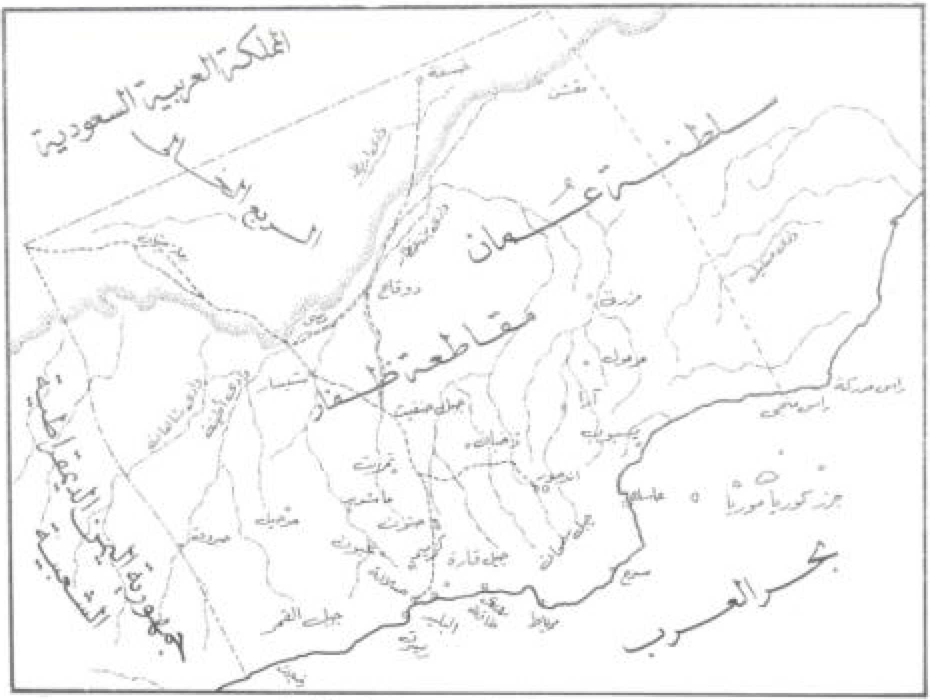
من المعروف أن سلطنة عمان من أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية اخضرارا ، ولعل موقعها الجغرافي وطبيعة أراضيها وسواحلها هي مؤهلاتها لبناء اقتصاد زراعي متطور ونام ، يكون رافدا أساسيا في تنويع مصادر الدخل القومي ، بعيدا عن الاعتماد الكلي على النفط ، فهو مورد ناضب بلاشك مهما طال به الأمد ، ولذلك انصب الاهتمام منذ بداية الحركة التصحيحية التي شهدتها عمان في عام ١٩٧٠ على قطاع الزراعة في خططها التنموية ، اذ بلغ اجمالي الانفاق في هذا المجال نحو ٤٥ مليون ريال عماني ، بالاضافة الى ٢٨ مليون ريال أنفقت لايجاد مصادر مياه جديدة ، وتطويرها ، الى جانب تحسين وسائل الري الحالية التي مازالت تعتمد ـ الى حد كبير ـ على نظام الري بالأفلاج التقليدية .

أفلاج وسدود

ولما كانت مياه الري ـ وهي عصب الزراعة ـ قد وجدت قليلة بحكم موقع سلطنة عمان الجغرافي ، وندرة مياه الأمطار التي لاتتجاوز ١٥٠ ملم . في العام ، باستثناء جبال المنطقة الجنوبية التي تعد مراعي طبيعية تروى بالأمطار الموسمية خلال الفترة من يونيو الى سبتمبر سنويا ، لذلك اهتم المسؤولون في عمان بالبحث عن مصادر جديدة للمياه ، إما عن طريق استغلال المياه الجوفية او عن طريق بناء السدود ، وتطوير أقنية الري والأفلاج القائمة التي بناها العمانيون القدامى ، كنظام مميز للري ، يتلاءم مع طبيعة الأراضي الزراعية العمانية .

يحدثنا المهندس عبد العزيز بن سالم الحارثي عن الجهود التي تبذلها حكومة عمان للإستفادة من مصادر المياه الموجودة حاليا ، وعن المشروعات الجديدة التي هي قيد الانجاز قائلا : « لقد تم اصلاح مايزيد على ٣٠٠ فلج خلال السنتين الأخيرتين ، كما تم حفر آبار مياه جديدة ، يبلغ مجموعها ٥٢٤ بئرا ، هذا فضلا عن اقامة مشروع سد وادي الخوض لحجز الأمطار ، وتخزينها قرب وادي سمايل ، ومن المتوقع أن يوفر مشروع سد وادي الخوض نحو أربعة ملايين و ٦٨٠ ألف متر مكعب من المياه العذبة سنويا ، ليسهم في توسيع الرقعة الزراعية . ويعد وادي الخوض من أكبر الانجازات المائية الحديثة في سلطنة عمان ، حيث يبلغ طوله نحو ٤٩٠٠ متر ، أما ارتفاعه فيبلغ ثمانية أمتار ، في حين يبلغ سمكه ٥ أمتار ، وقد اختير موقع هذا السد في وادي سمايل ، لأنه من أكبر الأودية التي تفيض بكميات كبيرة من المياه عند سقوط الأمطار . ويضيف المهندس الحارثي قائلا ان الهدف من بناء السدود الذي توليه الحكومة عناية فائقة هو تنمية موارد مياه الري ، ثم المحافظة على مياه الأمطار التي تهدر سنويا في البحر أو في الصحراء ، والتي تقدر بحوالي ١٢٠ مليون متر مكعب ، كما يهدف الى تجنب زحف مياه البحر المالحة الى داخل الأراضي الزراعية الساحلية ، بسبب السحب المستمر للمياه الجوفية العذبة ، ثم ليصبح في الامكان توفير مياه الري للتوسع الزراعي المستقبلي ، كما يهدف مشروع بناء السدود أيضا الى الافادة من فيضانات الأودية عقب سقوط الأمطار ، والمحافظة عليها بتخزينها في طبقات الأرض السفلى ، ومن ثم زيادة المخزون الجوفي بتغذيته بالمياه .

ان بناء مثل هذه السدود في عرض الأودية يساعد على تقليل سرعة مياه الأمطار الجارية ، ومن ثم



● عُمان بلاد النخيل والنارجيل

يساعد على تنظيم سير هذه المياه ، وانتشارها فوق مساحات كبيرة خلف السدود ، لاعطائها فرصة التسرب السريع تحت سطح الارض قبل وصولها الى البحر . وتبنى هذه السدود غالبا من الأتربة والحصى بعد دكها ، وتجهز بفتحات خرسانية أو أنابيب معدنية لتنظيم المياه المحجوزة ، بحيث تتسرب في الأراضي الخلفية . ويتابع المهندس الحارثي حديثه عن السدود قائلا : لقد أقيمت ثلاثة سدود ، هي سد وادي الخوض بمنطقة السيب ، ثم سد وادي حلتي صلاحي بولاية صحار ، وأخيرا سد وادي سيفم بمنطقة وادي قريات بولاية بهلاء ، كما أن هناك خطة هي الآن بصدد البحث والدراسة ، لتنفيذ ثلاثة سدود أخرى ، هي سد وادي الجزي بولاية صحار وسد وادي الفول بولاية الحمراء ، وسد وادي تنوف بولاية نزوى .

الري بالأفلاج

تعد الأفلاج من المصادر الرئيسية لمياه الري في سلطنة عمان . والري بالفلج طريقة فريدة ، اشتهرت بها عمان منذ القدم ، بل اننا لانبالغ اذا قلنا أن حياة الانسان العماني ارتبطت بالأفلاج ، فمنها يشرب ، ومنها يزرع ويعيش .

يوجد في عمان مايقرب من ٤٠٠٠ فلج ، تجري فيها المياه ، وتختلف أطوال هذه الافلاج تبعا لقوة تدفق المياه ، وطبيعة المنطقة التي يمر بها الفلج ، اذ يصل أدنى طول الى نحو ١٠٠ متر ، أما أقصى طول لمجرى الفلج فقد يزيد عن ١٢ كيلومترا ،وتنقسم الأفلاج من حيث طبيعة المنشأ وجريان المياه الى نوعين ، أولهما أفلاج عميقة تحت سطح الأرض ، وهذه تستمد مياهها من المخزون الجوفي مباشرة ، حيث يكون للفلج جزء جامع للمياه تحت منسوب



ـ « ميكنة » زراعية .



ـ ثمار « اللومي » .



ـ الاهتمام باختيار الشتلات العالية الجودة .



● ـ شاركت المرأة العمانية لأول مرة في العمل بتعليب التمور في مصنعي الرستاق ونزوى .



● ـ إقامة السدود في الأودية للحفاظ على مياه الأمطار . إحدى الوسائل المتبعة للاستفادة من مياه الأمطار .

المياه الجوفية ، وجزء للمجرى فوق المياه الجوفية ، أو مايسمى ناقل المياه ، أما بقية مجرى الفلج فيقع فوق سطح الأرض ، ومع وجود فتحات رأسية تستخدم في حالات التنظيف والصيانة ، وهذا النوع من الأفلاج يمثل ٨٠٪ من عددها الأجمالي ، أما النوع الثاني فيعرف بالافلاج الغيلية أو السطحية ، وتستمد مياهها من المصادر السطحية ، مثل الينابيع والبرك الناتجة عن الأمطار ، ولايزيد عمق هذه الأفلاج عن أربعة أمتار . يحدثنا عامر سعيد الحسني المسؤول عن الثروة المائية قائلا : لقد وضعت الحكومة خطة خمسية ، انتهت في عام ١٩٨٥ ، واستهدفت صيانة ٣٠٠٠ فلج،وتدريب الأهالي على استخدام مواد البناء الحديثة ، مثل الخرسانة والمواد الاسمنتية العازلة للرشح ، وذلك بغرض زيادة عمر الأفلاج ، كما اشتملت الخطة هذه على انشاء حجرات للتحكم في نهايات بعض الافلاج لحجز المياه الزائدة عن الحاجة عند الري ، كما اشتملت الخطة الخمسية السالفة الذكر على صيانة الآبار القديمة التي انهارت جدرانها بسبب القدم ، أو بفعل فيضان الأودية ، لضمان حصول المزارع في المناطق المختلفة على كفايته من المياه اللازمة للري ، وللأغراض المعيشية الأخرى . ومن المعروف أن الآبار تمثل احدى وسائل الري التقليدية التي تعتمد عليها معظم المزارع الواقعة في منطقة الباطنة وسهل صلالة بالمنطقة الجنوبية ، أو المزارع البعيدة عن الأفلاج في المناطق الداخلية ، وتعد الآبار المفتوحة،المحفورة يدويا هي السمة الغالبة على نوعية الآبار المنتشرة في السلطنة وتكون مياهها قريبة من سطح الأرض ، وتستخدم فيها مضخات لرفع المياه ، والآبار الارتوازية التي مازالت محدودة العدد ولاتوجد الا في بعض المزارع الحديثة ، وتساهم وزارة الزراعة والأسماك في نشرها عن طريق القروض التي تقدمها للمزارعين ، وبالاضافة الى ذلك هناك عدة عيون للمياه الطبيعية في كثير من مناطق السلطنة ، يستغل بعضها استغلالا جيدا في الزراعة ، مثل عين ارزات بالمنطقة الجنوبية ، وعين صحنوت ، وعين جرزيز التي تم تطويرها لتوفير المياه اللازمة لزراعة مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية ، علما بأن مشروع تحسين وسائل الري هذه يكلف ميزانية الدولة حولي ١٦ مليون ريال عماني .

تمور النخيل

اعتمد الشعب العماني منذ القدم على المحاصيل الزراعية في كسب عيشه ، والزراعة سمة بارزة في حياة الانسان العماني ، فقد كان نصف هذا الشعب يمتهن الزراعة الى سنوات قليلة خلت ، قبل اكتشاف النفط ، وتجود أرض عمان بعدد كبير متنوع من المحاصيل الزراعية ، وتأتي النخيل وثمارها من التمور في المرتبة الأولى لهذه الحاصلات الزراعية ، فالتمور لم تفقد أهميتها عبر الزمن ، بل تضاعفت قيمتها ، وتظهر أهمية النخيل فيما توفر من غذاء ، ودخل ، وظل ، فضلا عن صدها الرياح فهي تشغل مساحة تقدر بحوالي ٢٠ الف هكتار ، وتصل أعدادها الى نحو ثمانية ملايين نخلة تقريبا ، تتناثر في أنحاء السلطنة . ويصل متوسط انتاج النخلة الواحدة مابين ٥٠ الى ١٠٠ كيلو جرام من التمور في السنة ، أما متوسط انتاج الهكتار الواحد فيبلغ نحو ١٠ أطنان ، وهناك أكثر من ٣٠ نوعا من التمور ، أشهرها الهلالي ، والخلاص ، والخصاب ، والخنيزي ، والمدلوكي ، والمبسلي ، ويعد الخلاص والخصاب والخنيزي من أجود الانواع التي تؤكل طازجة ، أما التمور فتنتج أفضل انواعها من الخلاص والغرض ، ويشتد الطلب عليه من الدول الغربية حيث يدخل في صناعة « البسكويت » ، كما يستخدم كحلوى ، أما المبسلي فيجفف ، ويصدر الى الهند على وجه الخصوص .

وتستأثر منطقتا العاصمة والباطنة بأكبر عدد من أشجار النخيل ، حيث تصل النسبة فيهما الى ٥٠٪ تقريبا من اجمالي عدد أشجار النخيل في عمان ، كما

تستأثران بأكبر مساحة من اجمالي المساحة المزروعة بالنخيل ، وفي نفس الوقت فان منطقة العاصمة والباطنة تستأثران أيضا باكبر نسبة من اجمالي الأشجار المنتجة في عمان تليهما منطقتا جعلان والشرقية اللتان تستأثران بحوالي ١٢٪ من اجمالي عدد أشجار النخيل ، وبحوالي ١٣٪ من المساحة المزروعة ، والتي تصل نسبة أشجارها المنتجة الى نحو ١٣٪ من اجمالي الأشجار التي تنتج تمرا في عمان ، ثم تأتي المناطق الأخرى بالدرجة الثالثة وبنسب متفاوتة .

شكوى الأهالي

كانت لنا زيارة لاحدى مزارع النخيل في منطقة السيب ، قرب العاصمة مسقط ، وهي مزرعة أهلية ، يملكها السيد عبد الكريم محمد سالم فسألناه عن المشاكل التي تواجه زراعة النخيل في البلاد ، فأجابنا قائلا : ان أولى هذه المشاكل هي ايجاد العامل الزراعي ، فقد ترك الفلاحون الأرض ، وذهبوا يبحثون عن أعمال تعود عليهم أموالا أكثر ، مع أننا لا نبخس هؤلاء المزارعين حقهم ، فقد يصل ايجار العامل يوميا الى ثمانية أو عشرة ريالات ، ولكنهم هجروا الزراعة ، كما نطالب وزارة الزراعة والأسماك بمساعدتنا لاستيراد بعض الأجهزة الحديثة ، مثل أجهزة التلقيح ، وقطف الثمار ، فقد سمعنا أن اخواننا في المملكة العربية السعودية استخدموا بعض هذه الآلات ، وقد قمنا بعرض الشكوى على السيد محمد رضا حسن مدير عام الزراعة بوزارة الزراعة والأسماك العمانية فأجابنا قائلا : ان استخدام الآلات الحديثة في تلقيح الثمار وقطفهايحتاج الى أن تكون بساتين النخيل واسعة ، وأن تكون هناك مسافات لاتقل عن عشرة أمتار بين النخلة والأخرى ، حتى تتمكن الآلة من أداء عملها على أحسن وجه ، ولما كانت مزارع النخيل في بلادنا مزدحمة بالأشجار ، ولاتوجد مسافة كافية بين النخلة والأخرى ، فإن هذه الآلات لن تفيدنا في شيء ، ونأمل من اخواننا أصحاب مزارع النخيل أن يراعوا في المستقبل الطرق الحديثة في زراعة النخيل ، أما عن أجهزة التلقيح فإننا بصدد جلب بعضها خدمة للمزارعين ، ومع ذلك أقولها بصراحة ان النخلة لاتستغني عن خدمات الانسان بأي حال من الأحوال .

مصانع التمور

ونظرا للكميات الكبيرة التي تنتجها أشجار النخيل من تمور متنوعة ، تفيض عن حاجة المستهلك المحلي ، فقد أقيم مصنعان في كل من مدينة نزوى والرستاق ، وهذان المصنعان هما باكورة مشاريع تصنيع المواد الزراعية التي تعد بحق من أهم مجالات التنمية ، نظرا لمساهمتها في المحافظة على الانتاج الزراعي ، وللفائدة التي تعود على كل من المزارع والمستهلك والاقتصاد القومي جميعا ، لقد بدأ العمل في انشاء هذين المصنعين في عام ١٩٧٤ ، وتم افتتاحها في نهاية عام ١٩٧٥ ، وأعقبت ذلك فترة تدريب لعمال المصنعين وعاملاتهما . يقول الاستاذ محمد رضا حسن مدير عام الزراعة : لقد أحدث افتتاح المصنعين المذكورين تغيرات اجتماعية في المناطق المحيطة بهما ، حيث التحق بالعمل عدد من العاملات لأول مرة في تاريخ عمان ، وهذا شيء نعتز به ونفخر » .

يقوم المصنع بتخزين التمور في غرف مبردة ، حتى يتم تسويقها ، أو تصنيعها ، وتصل طاقة التخزين في كل مصنع الى ١٠٠ طن ، وفي هذين المصنعين خطوط آلية ، تقوم بنزع النوى ، كما تحتوي على أجهزة لتعبئة التمور ، وتغليفها آليا ، وذلك لملاحقة الاحتياجات المحلية والخارجية وتلبيتها ، وفي السنوات الأخيرة أدخلت على هذين المصنعين تعديلات وتوسيعات كثيرة ، فقد تم تكييف المصنعين ، مما ساعد على رفع كفاءة العمل بصورة ملحوظة ، وقد بلغت التكلفة الاجمالية





● ـ الري بالأفلاج إحدى طرق الري التقليدية المميزة التي يتبعها المزارع العماني .



● ـ التقنية الحديثة في عمليات الري على نطاق واسع .



● الفواكه والخضراوات من المنتجات الزراعية التي اهتمت بها سلطنة عمان في خططها التنموية الزراعية







لتحديث مصنعي نزوى والرستاق وتطويرهما حوالي مليون ريال عماني .

النارجيل

والنارجيل أو جوز الهند كما يعرف في معظم أقطارنا العربية من المحاصيل الزراعية التي تجود بها أرض السلطنة ، والنوع الطويل من أشجار النارجيل هو الشائع الغالب في عمان ، وقد تم في السنوات الأخيرة ادخال النوع المخلط الذي يجمع بين أشجار النارجيل الطويلة والأشجار والقصيرة وهو نوع يعطي ثماره بعد ثلاثة أعوام فقط من استنباته ، مقارنة بالنوع الطويل الذي يعطي ثماره بعد حوالي سبعة أعوام أو أكثر ، وتصل جملة أشجار النارجيل في عمان الى نحو ١٥٠ ألف شجرة تقريبا ، تستأثر المنطقة الجنوبية - وخاصة مدينة صلالة - بأكبر عدد منها ، وذلك لملائمة مناخها المعتدل لهذا النوع من الأشجار ، وبسبب هطول الأمطار الموسمية التي تسقط عليها . وفي احصائية أصدرتها وزارة الزراعة والأسماك في عمان يتضح أن عدد أشجار النارجيل في المنطقة الجنوبية قد بلغ نحو ١١٠ آلاف شجرة ، منها نحو مائة ألف شجرة منتجة ، أما الحيازات التي تزرع بها أشجار النارجيل فتبلغ نحو ٧٩٢ حيازة ، تمثل ٤٣٪ من عدد الحيازات الزراعية بمنطقة صلالة ، كما تستأثر المنطقة الجنوبية بمعظم المساحة المزروعة بأشجار النارجيل التي تصل نسبتها الى ٩٨٫٧٪ من اجمالي المساحة المزروعة بأشجار النارجيل في عمان . ثم تأتي منطقة الباطنة والعاصمة بفارق شاسع بعد صلالة في زراعة أشجار النارجيل ، ولايتعدى عددها أكثر من ألف شجرة ، ونظرا لجمال أشجار النارجيل وخضرتها الدائمة فقد قامت بلدية مسقط ومطرح وبعض الضواحي القريبة منها بتزيين شوارعها الرئيسية بأعداد من هذه الأشجار ، لتضفي على تلك الشوارع جمالا ورونقا .

مانجو وموز

ومن المحاصيل الزراعية الجيدة الانتاج في عمان « المانجو » ، ويطلقون عليها اسم « الهامبا » ، وقد أدخلت هذه الفاكهة الى عمان منذ مايقرب من قرن من الزمان ، وقد نجحت زراعتها في منطقتي الباطنة والشرقية ، ومن المعروف أن شجرة « المانجو » تحتاج في الغالب الى ٥ سنوات ، حتى تبدأ الانتاج ، وتستمر منتجة مدة قد تصل الى سبعين سنة شأنها في ذلك شأن النخلة ، ولاتزرع أشجار « المانجو » وحدها ، بل تزرع متداخلة مع محاصيل أخرى ، ويمكن لأشجار « المانجو » أن تنمو في أي تربة ماعدا المناطق المجاورة للبحر ، كما تحتاج هذه الاشجار الى ري منتظم في بداية زراعتها ، لكن احتياجها للماء يقل بعد اكتمال نموها ، ويقدر انتاج الهكتار الواحد في المتوسط بحوالي طن واحد من الثمار ، والنوع المسمى « الزعفراني » هو المعروف محليا في عمان ، وقد أدخلت أنواع أخرى من « المانجو » حديثا ، منها « الفونسو » ، و « لانجرا » و « سيندري » ، وبنجلورا . وتستأثر منطقة الباطنة والعاصمة بحوالي ٨٩٪ من اجمالي المساحة المزروعة بالمانجو ، وتبلغ نحو ٢٩٣٠ هكتارا تقريبا وهي تمثل ٨٢٪ من الأشجار المنتجة ، كما تعتبر منطقة الظاهرة من أفضل المناطق من الناحية الانتاجية ، ثم تليها منطقتا الباطنة والعاصمة .

أما الموز فهو أيضا من المحاصيل التي دخلت عمان حديثا ، والصنفان المعروفان في عمان من أشجاره هما الطويل والقصير ، وينتشر الصنف الطويل في شمال عمان ، وهو يتكون من نوعين أيضا يطلق عليهما الفرد والسنيلي أما الصنف القصير فيطلق عليه اسم مالندي ، وتجود زراعته في منطقة الباطنة ، وعمان الداخل ، كما تنتشر زراعة النوع القصير في منطقة صلالة ، ويشتهر النوع القصير بحلاوته الفائقة . وفي احدى المزارع التجريبية في منطقة

الرميس سألنا المدير المسؤول عن المزرعة حول امكانية ادخال بعض الأصناف الجديدة من الموز، من بعض البلدان المشهورة بانتاجه، مثل الفلبين، وهندوراس، والصومال، فأجابنا قائلا: «لايخفى أن نوع التربة في السلطنة يختلف عن نوع تربة تلك البلدان، فتربة السلطنة يغلب عليها الطابع الرملي، لذلك لم تنجح التجارب التي أجريناها على الاصناف المستوردة من الفلبين وهندوراس وربما تنجح مستقبلا في تجاربنا على الموز الصومالي، لأن هناك بعض التشابه بين تربة بلادنا وتربة الصومال.

ويقدر متوسط انتاج الهكتار من الموز في السلطنة بحوالي ٨ أطنان. أما المساحة المزروعة بأشجار الموز فتبلغ نحو ألفي هكتار، ولما كانت انتاجية المنطقة الجنوبية - خاصة مدينة صلالة - من محصول الموز جيدة، نظرا لمساعدة عاملي المناخ والتربة، حيث يساعدان على نمو أشجار الموز بكثافة، فقد بدأ في هذه المنطقة مشروع تنمية محصول الموز وتطويره. ويهدف المشروع الى تسويق الموز المحلي، وتغطية الاحتياجات الاستهلاكية، وقد أقيمت محطة لاستقبال الموز، وانضاجه، وتعبئته، بطاقة تتراوح بين عشرة آلاف الى ١٥ ألف طن سنويا، بالاضافة الى انشاء مخازن مبردة، وايجاد شاحنات مبردة لنقل الانتاج للمناطق المختلفة من السلطنة.

«اللومي»

وتشتهر عمان بزراعة «اللومي»، المعروف بشدة حوضته بالنسبة لليمون العادي المعروف بالأضاليا الذي يزرع في معظم أقطارنا العربية، وهذا «اللومي» يشبه الى حد كبير ليمون بنزهير المعروف في مصر، وقد نالت مدينة صحار في عمان شهرة فائقة في منطقة الخليج والهند وبعض البلاد في أفريقيا بانتاجها لهذا النوع من الليمون، فله سوق رائجة كبيرة، خاصة في الهند وأقطار الخليج العربي، حيث يصدر اليها مجففا، فيضاف الى الأطعمة، كنوع من البهار، يضفي على الطعام رائحة زكية ويستخدم كشراب بدلا من الشاي في معظم أقطار الخليج والعراق، أو يعصر ويحفظ في زجاجات للاستعمال اليومي، ويحتل اللومي المجفف مركزا بين الصادرات غير النفطية في عمان، فقد جاء في المرتبة الأولى في عام ١٩٧٩. ومن المعروف أن فترة نضوج اللومي تتراوح بين ١٥ و١٨ شهرا، وتشير التقديرات بأن في عمان نحو مليون شجرة منه، أما المساحة المزروعة بأشجاره فتبلغ نحو ٢٢٥٠ هكتارا، ويقدر انتاج الهكتار الواحد بنحو ٥ أطنان من اللومي الطازج. وتستأثر منطقتا العاصمة والباطنة بحوالي ٦٥٪ من اجمالي المساحة المزروعة بأشجاره، وتأتي منطقة الحجر الغربي والحجر الشرقي في المرتبة الثانية في الانتاج، أما منطقتا صلالة ومسندم فهما من المناطق القليلة الانتاج من هذا المحصول.

وهناك مساحات متفرقة في عديد من المناطق لزراعة الحمضيات الأخرى، مثل البرتقال والليمون والسفرجل والرمان، وقد أولى المسؤولون عناية خاصة بزراعة بالخضراوات، فتصل المساحة التي تزرع الخضراوات نحو ٢٢٠٠ هكتار وتعد منطقة العاصمة والباطنة من أكبر المناطق، من حيث المساحة المزروعة بالخضراوات، تليها منطقة عمان الداخل، ثم المنطقة الجنوبية، ومنطقة الظاهرة ومن أهم الخضراوات التي تزرعها عمان البصل والثوم والطماطم والفجل والفلفل، وغيرها من أصناف الخضراوات الأخرى التي أدخلت حديثا.

اهتمام بأساليب الزراعة الحديثة

اهتم المسؤولون في السلطنة بأساليب الزراعة الحديثة التي تجمع بين التطور العلمي والتقني الحديثين وبين طبيعة البنية العمانية مثل توجيه المزارعين لاعتماد أسلوب التسميد بالرش بدلا من استخدامه في التربة، مما يساعد على زيادة نمو النباتات وحجم الثمار، وقد توسع الارشاد







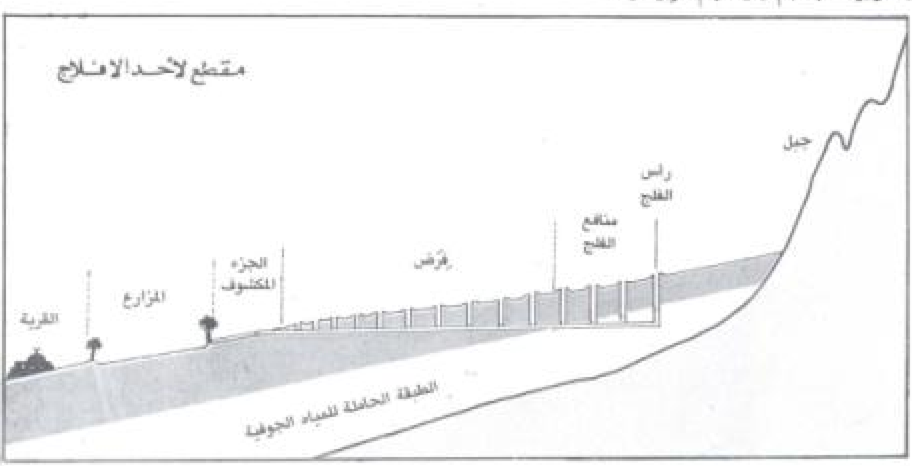
● تحتل عمان ساحلا طوله نحو ١٧٠٠ كم ، فلا غرابة أن تكون حرفة صيد الأسماك من المهن التقليدية للانسان العماني ، ولذلك أبرمت حكومة عمان اتفاقيات مع شركات للصيد متخصصة ، لتنمية هذه الثروة .



الزراعي في استخدام منشطات النمو ، وتدريب المزارعين على زراعة الحاصلات الزراعية التي تم ادخالها الى السلطنة ، مثل البطاطس والكرمب والزهرة والقلقاس وغيرها ، كما اهتم أيضا في توجيه المزارعين لاعتماد أسلوب استخدام الأسمدة المركبة ، الى جانب الأسمدة العضوية ، والتوسع في توفير الحراثة الآلية في مختلف المناطق ، واستخدام احدث ماوصلت اليه التقنية الحديثة في مكافحة الآفات الزراعية ، كما أبدى المسؤولون بالسلطنة اهتماما كبيرا في اقامة المزارع التجريبية ، ومراكز الأبحاث الزراعية ، حيث بلغ عددها ٢٤ مركزا ارشاديا ، و١٢ محطة أبحاث ، تقوم باجراء أبحاث زراعية على الحاصلات ، بالاضافة الى توزيع الأشتال والتقاوى على المزارعين بالمجان ، أو بأسعار رمزية ، والى جانب ذلك تم تطوير مصانع التمور والموز في كل من مدينة الرستاق ونزوى ، وكذلك مصنع تعبئة الموز في صلالة ، ولم ينس المسؤولون تشجيع القطاع الخاص ، لزيادة مشاركته في المشاريع الزراعية ، فهناك مشروع مزارع الشمس الأهلية التي تعد بحق من أكبر مزارع عمان النموذجية الحديثة ، كما يقوم « بنك عمان للزراعة والأسماك » بتقديم القروض الزراعية لمساعدة المزارعين في تنمية وتطوير منتجاتهم وأرضهم الزراعية .

ثروة سمكية

تشتهر سلطنة عمان بموقع جغرافي فريد ، فسواحلها طويلة تطل على خليج عمان والمحيط الهندي ، اذ يبلغ طول ساحلها نحو ١٧٠٠ كيلو متر ، فلا غرابة اذن أن تكون حرفة صيد السمك مهنة تقليدية ، توارثتها الأجيال منذ فجر تاريخ هذه السلطنة . يحدثنا الأستاذ محمد رضا حسن عن هذه الثروة قائلا : « لقد أثبتت الدراسات التي أجراها خبراء من انجلترا واليابان وجود كميات هائلة من الأسماك في المياه العمانية ، وكان الهدف من هذه الدراسات توجيه الاهتمام الى أهم مجموعة من هذه الأسماك ، وهي أسماك الأعماق ، حيث ارتفع انتاجنا الى مايزيد عن ٣٠٠ ألف طن سنويا ، بالاضافة الى انتاج مليون ونصف مليون طن من سمك السردين ، ونحو ٦٠ ألف طن من سمك التونة » ، ويضيف الأستاذ محمد رضا حسن : « وقد تضمنت الخطة بالاضافة الى الدراسات الفنية انشاء وحدات تبريد ، ومعامل ثلج ، في مناطق صيد الأسماك ، ومناطق التسويق ، والعناية بنقل الأسماك بالشاحنات المبردة من مناطق الصيد الى الأسواق ، وتوفير القوارب والمعدات الصغيرة والشباك للصيادين التقليديين ، وانشاء أرصفة



ومراسي لقوارب الصيد ، الى تنمية مصايد الأنواع الخاصة من الثروة السمكية ، كالصدفيات التي تجد سوقا رائجة في بلدان أوروبا ، كما تضمنت الخطة انشاء شركات صيد حديثة لأعالي البحار » .

شركات صيد متخصصة

لقد اتفقت وزارة الزراعة والأسماك بموجب هذه الخطة مع شركتين يابانيتين مختصتين بصيد الأسماك على القيام بالصيد في مساحة تغطي نحو ٦٠٠ كيلومتر من الساحل العماني ، تتحمل الشركتان التكاليف التي تستلزمها عملية الصيد ، والتي تقتصر على مجموعة أسماك الأعماق ، وبموجب هذا الاتفاق تحصل حكومة السلطنة على ٤٠٪ من الكميات التي يجري اصطيادها من السمك ، وتقوم الشركتان بالاضافة الى ذلك بتدريب عشرة من العمانيين على كل سفينة من سفن الصيد التي تستخدمها في منطقة امتيازها ، وكذلك تدريب ستة آخرين في المركز الاقليمي لصيد الأسماك بالكويت ، كمساعدين لربابنة سفن الصيد ، ومهندسين بحريين ، وقد التزمت الشركتان - فضلا عن كل ذلك - بشراء فائض حصة الحكومة العمانية من السمك ، وحصلت شركة أخرى هي شركة الأسماك الكورية لما وراء البحار على امتياز في مياه ساحل طوله نحو ٦٠ ميلا بحريا ، تقوم بتحمل تكاليف عملية الصيد فيه ، وتحصل على ٧٠٪ من كميات السمك التي يجري اصطيادها مقدمة للحكومة العمانية النسبة الباقية ، كما أبرمت الحكومة العمانية اتفاقا مع شركة نيوزيلندية متخصصة بصيد الأسماك ، قامت ببناء مجمع لخدمة الانتاج السمكي في مسقط بتكلفة قدرها حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون ريال واطلق على هذا المشروع اسم « مشروع مطرح لاستغلال الثروة السمكية » يحتوي هذا المشروع على برادات تخزين ، بطاقة تصل الى ١٠٠٠ طن من الأسماك ، وغرفة تجميد بطاقة ١٠ أطنان يوميا ، ثم معمل للثلج ، طاقته تصل الى ٥٠ طنا يوميا ، كما تضمن الاتفاق قيام الشركة النيوزيلندية ببناء المنشآت اللازمة على الشاطيء ، مثل الأرصفة والمراسي ، كما تولت الشركة المذكورة بناء مجمع آخر للانتاج السمكي في مدينة صلالة ، يحتوي على برادات تخزين ، سعتها ١٥٠ طنا ، ومعمل للثلج ، بطاقة ١٥ طنا يوميا ، كما أقيمت مجمعات أخرى للانتاج السمكي ، بهدف تخزين كميات كبيرة من فائض الصيد ، لتوزيعها وتسويقها فيما بعد .

وحول اهتمام الحكومة العمانية بتشجيع القطاع الخاص ، وانماء الثروة السمكية الهائلة في عمان قال الاستاذ محمد رضا حسن : « لقد قمنا في عام ١٩٨٠ بانشاء « شركة الأسماك الوطنية العمانية » لتشجيع القطاع الخاص على الاستثمار في صناعة الأسماك بالسلطنة ، برأسمال قدره مليون ريال عماني ، بلغ نصيب هذا القطاع فيه نحو ٨٠٪ ، مع ضمان حق صغار الصيادين في ٢٠٪ من رأس المال ، وبالاضافة الى ذلك قمنا بانشاء صندوق تشجيع صائدي الأسماك الذي يتيح للصيادين الحصول على إعانات ، لشراء القوارب والآلات ومعدات الصيد الأخرى ، وتصل هذه الاعانات الى ثلثي قيمة المعدات ، واتاحة الفرصة للصيادين بتقسيط الثلث الباقي على أقساط شهرية مريحة . ومما يجدر ذكره هنا أن « بنك عمان للزراعة والأسماك » الذي يبلغ رأس ماله ١٩ مليون ريال عماني يقوم بتقديم تسهيلات ائتمانية للصيادين والمزارعين » . ويضيف الأستاذ محمد رضا حسن قائلا : « لايخفى أن كميات الأسماك التي يتم صيدها في الوقت الحالي ، والتي تتراوح مابين ٦٠ الى ٧٠ ألف طن سنويا ، تعتبر جزءا صغيرا مما هو موجود في المياه العمانية وسواحلها الطويلة ، حيث أن أعمال المسح تؤكد امكانية انتاج مايقرب من ٣٠٠ ألف طن سنويا من أسماك القاع ، بالاضافة الى أنه بالامكان صيد حوالي ٤٥ طنا أخرى من الربيان « الجمبري » سنويا . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

حدة الطبع وعنف المزاج عند الطفل !

أمهات للإيجار





حدة الطبع وعنف المزاج عند الطفل

بقلم : الدكتور محمد صادق زلزلة

« قد لا يربط كثيرون بين طرق معاملة الطفل وتربيته وبين سلوكه ، وبدون أن ندري قد نساهم بذلك في إكساب الطفل عادات وسلوكيات يصعب التخلص منها مع الزمن » . .

تظهر عند بعض الأطفال - فيما بين الشهر الخامس عشر والسنة الثالثة من العمر - بعض التصرفات العنيفة والشرسة ، حيث يقوم الطفل ببعض الأعمال العنيفة المخربة ، كرمي الصحون على الأرض وكسرها ، وإتلاف بعض ما يقع في يده من أشياء صغيرة كاللعبة ، والكتب ، وما أشبه ، أو أن يضرب الباب بيده ، أو يرفس الأثاث برجله ، وما إلى ذلك من أعمال تتصف بالعنف والشدة والشراسة ، وقد تقوم الأم بمعاقبة طفلها على حدة طبعه وشراسته ، لتمنعه من التمادي فيها ، أو تكرارها في المستقبل ، لكنه لا يلبث أن يعود اليها مرة أخرى ، غير خائف ولا وجل !

ما هي أسباب حدة الطبع عند الطفل ؟

في بعض أدوار الطفولة ـ وهو الدور الذي يمر به الطفل من دور الطفولة الهادئة الناعمة ، الى دور الوعي ، والاستقلال ، والتحدي ـ يبدأ تبلور شخصية الطفل ، وظهور ما يسمى « الأنا » عنده ، و « الأنا » هي الشعور الواعي للنفس ، حيث ينظر إلى نفسه وكأن له شخصية متكاملة ، لها رغباتها ، ومتطلباتها ، وتكون حدة الطبع في هذا الدور أمراً سويا ، يظهر ـ غالبا ـ عند الأطفال جميعا بدرجات متفاوتة ، يعبر بها الطفل عن شخصيته ، ويعلن بها عن وجودها ، ويفرضها على المحيطين به كالوالدين والأهل جميعا ، ويكون لشخصية الطفل الموروثة دور كبير في ظهورها وتبلورها ، فهي تظهر غالباً عند الطفل الأيد القوي الذي يتمتع بقدر كبير من النشاط يميزه عن غيره من الأطفال ، ولا تظهر عادة عند الطفل الهادىء ، اللين العريكة ، الرضي السلوك الذي يطيع أوامر أمه ، ويتقبل إرشاداتها ، وتعليماتها .

وتزول هذه الحالة عادة في الأحوال السوية دون أن تترك في نفس الطفل شيئا من الآثار والترسبات ، وذلك عند معرفة الأم بطريقة معالجتها ، وحسن تصرفها مع الطفل في هذه الحالة ، وتجنب ما يسبب تمكنها من شخصية الطفل ، واستقرارها في أعماق نفسه ، أما إذا أساءت الأم التصرف ، وحدث التصادم بين شخصية الطفل المتنامية وروح التمرد وحب الاستقلال فيه وبين شخصية أمه وإرادتها ، وذلك بفرض سلطانها عليه ، وإخضاعه لارادتها ، وتعسفها ، فإن الطفل يبدأ بالصمود أمام إرادة أمه هذه ، فيتحدى أوامرها ، ويرفض سلطانها وتعسفها ، فتتلبسه حالة من العنف وحدة الطبع .

وتزداد تلك الحالة سوءاً إذا ما أساءت الأم التصرف أكثر من ذلك ، كأن تزجر طفلها على حدة طبعه ، وسوء تصرفه ، أو تعاقبه أو تضربه ، أو تشكوه إلى أبيه ، أو تشكو إلى بعض جاراتها وذويها ـ أثناء وجوده ـ ما تعانيه من جراء عنف صغيرها ، وتعنته ، وشراسته ، وتبدي قلقها وخوفها عليه ، فيتمادى الطفل بتلك الحالة ، ويكررها ،ليشد إليه الانتباه ، ويركز نحوه الأنظار ، ويستمر في تماديه هذا حتى تصبح حدة الطبع عادة متأصلة فيه ، يلجأ إليها كلما أراد فرض إرادته ، أو إظهار احتجاجه على بعض مالا يرضاه من تصرفات أمه معه ، ومعاملتها له ، أو عند عجزه عن الحصول على شيء يتمناه أو يرغب في اقتنائه .

لا للشدة أو فرط التدليل

ومما يسبب قيام حالة العنف وحدة الطبع عند الطفل:المحيط المتزمت ، والأنظمة الصارمة التي تفرض على الطفل ، والحساب العسير الذي يحاسب به في كل عمل يعمله أو نشاط يقوم به ، بدل محاولة تفهم مشاكله ، والبحث عما يثيره أو يريحه ، وتحقيق المعقول من طلباته ، مما يثير عنده مشاكل نفسية كثيرة ، ومن جملتها حالة العنف وحدة الطبع ، وعلى الأم أن تتذكر دائما أن الطفل يجب أن يعامل حسبما تقتضيه حالته وسلوكه ، وألا تتجاهل التباين بين شخصية طفل وآخر ، ذلك أن معاملة طفل كما يعامل غيره ممن يختلف عنه في الشخصية ، والسلوك ، والتصرف ، قد يثير المتاعب والمشاكل له ولأمه على السواء .

كذلك فإن معاملة الوالدين للطفل معاملة شديدة ، صارمة ، متعسفة ، لا تتناسب مع سنه ، ولا تتوافق مع مستوى فهمه وإدراكه تسبب للطفل

الارتباك ، وتثير فيه الحيرة ، مما يدفعه إلى التحدي والتمرد ، ثم إلى العنف وحدة الطبع ، ومن الخطأ أن تعترض الأم على كل عمل يقوم به الطفل ، حتى وإن كان لا يستدعي الاعتراض أو الزجر ، فإنها بذلك تولد فيه روح الاستياء ، والتذمر ، والتمرد ، خاصة في العمر الذي تظهر فيه روح الاستقلال ، والشعور بالكيان المستقل الذي يولده فيه ظهور « الأنا » ، وكذلك زجر الأم لطفلها أثناء لعبه ولهوه خشية إزعاج الجيران ، أو مراعاة وجود ضيوف في البيت بشدة وقسوة ، أو بعقاب وضرب ، فإنها تكبت في طفلها حب اللعب ، والرغبة في المرح والتسلية ، إذ أن لعب الطفل ، وصياحه ، أثناء ذلك أمر طبيعي ، لا يستدعي الزجر ، والتأنيب ، والعقاب ، لأن ذلك يولد في الطفل روح النقمة والغضب ، ثم التمرد ، وعدم الطاعة ، ثم حدة الطبع والعنف ، وإنما ينبغي على الأم أن تهيء لولدها جوا يلعب فيه ويمرح حسب ما يشاء ، وأن تفهمه ـ بمودة وعطف وتفاهم ـ أن إزعاج الجيران أمر غير صحيح ، وأنه لا يليق بشخص مؤدب لطيف مثله .

إن مسامحة الطفل في كثير مما يأتي به من أخطاء ، والتساهل معه في بعض الأمور التي لا ينبغي التسامح بها ، وتلبية جميع رغباته مهما كانت متزمتة ومتعبة ، والخوف عليه من كل أمر مهما كان صغيرا وتافها ، من الأسباب المهمة التي تنمي في الطفل روح العنف ، وحدة الطبع ، وذلك أن مثل هذا الطفل لا يعرف ـ عادة ـ الحدود التي ينبغي عليه أن يقف عندها في طلباته وتصرفاته ، لالتباس الأمر عليه ، ولعدم إدراكه لما هو معقول منها ، وما هو غير معقول ، بسبب تلبية أمه لجميع رغباته وطلباته دون استثناء ، فإذا ما أسرف الطفل يوما وتجاوز تلك الحدود تجاوزا مزعجا فإن أمه ستقوم إما بزجره وإيقافه عند حده ، أو ـ على الأقل ـ بعدم الاستجابة إلى تنفيذ تلك الرغبة وذلك المطلب ، وعند ذاك يثور الطفل ، ويلجأ إلى العنف وحدة الطبع ، معبراً عن رغبته في تنفيذ رغباته وطلباته كلها ، كما كان عليه الحال آنفا .

وقد تضطر الأم في بعض الأحيان أن تعد طفلها ببعض الوعود ، ثم لا تفي بها ، أو أن تقول له قولا ثم تفعل فعلا مغايرا له ، كأن تهدد طفلها بأنها سوف تعاقبه إذا فعل أمرا معينا ، أو إن امتنع عن تلبية بعض إرشاداتها أو عصى بعض أوامرها ، ثم تنسى أو تتناسى وعيدها وتهديداتها ، فيتعجب الطفل من تلك الأمور ، ويفقد ثقته بأمه ، ثم يظهر احتجاجه على ذلك بإبداء حدة الطبع والعنف والمشاكسة ، وعلى الأم أيضا ألا تعارض الأمور التي يوافق عليها الأب بطلب أو التماس من الطفل ، فتحرم الطفل من التمتع بموافقة أبيه على طلبه ، لأن ذلك يثير في الطفل روح المشاكسة ، والعنف ، وحدة الطبع .

أسباب مرضية لها علاج

وهناك أسباب عضوية لحدة الطبع ، منها : بعض الأمراض التي تصيب الطفل ، فتجعله يشعر بالضيق والانزعاج ، كالحمى ، وفقر الدم ، وأورام الدماغ في أدوارها الأولى ، ونقص السكر في الدم ، وتناول بعض الأدوية ، وبعض الأمراض المزمنة كالصمم ، والتدرن . والسؤال الآن كيف يعالج الطفل المصاب بحدة الطبع ؟ .

قبل كل شيء يجب التحري عن وجود الأمراض العضوية التي تسبب حدة الطبع للطفل ، فإن وجد بعض تلك الأمراض وجب علاجها والقضاء عليها .

أما في حالة الطفل السوي فإن على الأم أن تتفهم

سبب حدة الطبع عنده ، وأن تعمل على علاجها وإزالتها .

إن الطفل يبغي من وراء حدة طبعه وعنفه أن يشد الانتباه إليه ، ويجذب الأنظار نحوه ، ويسبب الأذى والمضايقة لأبويه ، ويبذر فيها بذور القلق ، ثم الاهتمام بأمره والانتباه لرغباته ، فيفرض إرادته عليها ، وينال منها ما يرغب ويريد ، ولذلك فإن أول ما ينبغي على الأم أن تفعله هو أن تتجاهل حدة طبعه ، وتغض النظر عن شراسته وعنفه ، وتقابل ثورته بصبر وهدوء ، فلا تزجره أو تعاقبه ، ولا تلقي لتصرفاته العنيفة بالا ، ولا تظهر على وجهها علامات الغضب أو الأسف ، أو الاشمئزاز أو النفور ، وأفضل ما تفعله هو أن تخرج من الغرفة ، وتغلق الباب خلفها بهدوء وسكينة ، وتترك الطفل في ثورته يبكي ويضرب بيديه ، ويرفس برجليه ، ويأتي بما يشاء من حركات العنف والشدة ، وذلك أن أشد ما يكون على الطفل أن تتجاهل أمه عنفه وشراسته ، ولا يؤلمه شيء كما يؤلمه عدم اهتمام أمه به وهو يبكي ويصرخ بعنف وشدة .

ثم إن على الأم أن تدرس حالتها وحالة الأب ، وهل في تصرفاتهما أو سلوكهما مع طفلهما ما يؤثر على نفسيه الطفل وسلوكه ، كالتدليل الكثير والتسامح المتمادي ، وتلبية رغبات الطفل جزافا وإسرافا ، أو كالصرامة والشدة ، وما تسببه هذه الحالة وتلك من توتر نفسي ، وقلق ، وحرمان عاطفي ، للطفل .

ومن ناحية أخرى ينبغي أن تراعي الأم حالة التغذية عند الطفل ، وتلاحظ أوقات تناول الطعام التي لا ينبغي أن تكون متباعدة عن بعضها إلى حد شعور الطفل بالجوع بعض الوقت ، ذلك أن نقص السكر في الدم الناتج عن سوء التغذية أو قلته قد يكون سببا من أسباب حدة الطبع ، ولا سيما إذا كانت أوقات تناول الطعام متباعدة عن بعضها بصورة غير معقولة ، ويجب أن تراعي الأم ذلك عند عودة طفلها من المدرسة جائعا ، فقد يكون حاد الطبع متبرماً بسبب الجوع ونقص السكر في الدم ، إذ يجب عليها أن تسرع بتقديم وجبة الغذاء لطفلها ، حيث يصبح بعد تناول غدائه هادئا في تصرفاته ، قرير العين ، سويا في سلوكه . □

■ المرأة تضحك عندما تقدر ، وتبكي عندما تريد . **(مثل روسي)**

■ قتل فتى شجاع في حرب ، فدخل المأمون على أمه معزيا بقوله : لا تجزعي يا أماه ، فإني ابنك بعد ابنك ، فأجابته : « كيف لا أجزع على ابن أكسبني ابنا مثلك » .

■ قطاع الطرق يسألونك عن كيس نقودك أو حياتك ، لكن النساء يطلبن الاثنين ! **(صموئيل بتلر)**



أمهات للإيجار!

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

« خلف كل شيء جميل هناك قبح ما ، ويختبيء في كل اكتشاف علمي جانب غير أخلاقي ، وهذه قضية تشغل بال أساتذة القانون والاجتماع والطب ، فجرها كشف علمي هز الدنيا ، وقبل أن يصبح هذا الكشف متاحا لكل البشر ، بدأ الاستغلال غير الأخلاقي له » . .

في عام ١٩٧٨ أنجز الطبيب المولد الانجليزي باتريك ستبتو تقدما طبيا رائعا ، استفاد فيه من معطيات التقنية الحديثة ، فجدد الأمل في قلوب آلاف من الأمهات العقيمات ، إذ استخرج هذا الطبيب بويضة من مبيض امرأة عاقر (هي : ليسلي براون) ، ثم لقحها في أنبوب اختبار بنطفة من زوجها (جلبرت جون براون) ، وبعد ذلك زرع البويضة الملقحة في رحم الأم التي استمر حملها طبيعيا ، وولدت أول طفلة أنبوب اختبار (كما اطلق عليها فيما بعد) .

ولقد فتح هذا الأمر باب الأمل واسعا أمام النساء اللاتي لديهن ما يسمى بانسداد بوقي (فالوب) ، بحيث أن البويضة التي تنشأ من المبيض لا تستطيع أن تصل إلى الرحم حيث يتم التلقيح ، لأن بوقي أو

أنبوبي (فالوب) اللذين يصلان بين المبيضين والرحم مسدودان ، وكأن ما قام به باتريك ستبتو هو تجاوز هذه العقبة ، وهو أمر ليس يسيرا .

ولقد كان التخوف من أن يساء استعمال هذا التقدم الطبي قائما منذ البداية ، إذ خشي كثيرون أن يصبح هذا التطور وسيلة استغلال ، غايتها الربح الحرام ، وجني المال .

ولقد بدأ ذلك الاستغلال ـ أول ما بدأ ـ عندما باع السيد جلبرت جون براون وزوجته ليسلي حقوق نشر أخبارهما إلى جريدة ديلي ميل البريطانية بمبلغ قدره (٥٦٥٠٠٠) دولار .

لكن ما أيسر ذلك الاستغلال إذا قارناه بما تلاه ، ففي محاكم نيوجرسي تعرض الآن قضية حضانة طفلة عمرها تسعة أشهر ونصف ، كانت والدتها السيدة ماري بث وايتهيد ـ قبل قرابة عام من ذلك ـ قد وقعت على عقد ، وافقت فيه أن تكون أما بديلة تحمل طفلا لحساب الزوجين ويليام واليزابت ستيرن .

وقد لقحت الأم تلقيحا اصطناعيا ، بحقنها بنطف من السيد ويليام ستيرن ، على أن تسلم محصول الحمل بعد الولادة إلى الزوجين ، وبعد تمام الحمل وضعت هذه الأم طفلة اسمتها سارة ، وعز عليها أن تسلمها إلى الزوجين المتعاقدين ، وقررت الاحتفاظ بها ، وأصر آل ستيرن على الحصول على هذه الطفلة التي سموها ميليسا ، واحتار القاضي هارفي سوركو كيف يحكم في هذه القضية ، إذ لايوجد في القانون وسالف الدعاوى سوابق مماثلة ، يمكن أن يسترشد بها .

فإذا اعتبر القاضي هذا الموضوع خلافا حول عقد قانوني ، فالعقد ساري المفعول ، والطفلة حق آل ستيرن ، أما إذا اعتبر الأمر موضوع حضانة الطفلة ، فهنا يجب النظر لمصلحة الطفلة نفسها ، وعادة يكون الحكم في هذه القضايا لصالح الأم ، وهي هنا السيدة ماري بث وايتهيد ، لكن الطفلة ميليسا في الوقت نفسه قضت معظم أيامها مع آل ستيرن ، فحق لهم أيضا شيء من الترجيح في أمر الحضانة .

هل تصبح تجارة

إن حضانة هذه الطفلة ليست هي الأمر الأكثر أهمية عندما نقارنها مع المشكلة التي تطرح ، وهي أليس من المحتمل أن تصبح تجارة الأطفال هذه شائعة مبذولة ، فيستطيع كل زوجين غنيين أن يستأجرا رحم امرأة ما ، كي تحمل طفلا لهما ، مقابل مبلغ من المال ، خاصة بعد نجاح طريقة ستبتو ؟ وحتى لو اعتبر هذا الأمر غير قانوني ، وغير شرعي فإنه سينتقل دون شك من العلانية إلى الخفاء ، لكنه سيبقى كابوسا يهدد الأسرة والمجتمع .

ونعود إلى بداية القضية عندما تعاقد وليام ستيرن ـ وعمره ٤٠ سنة ، وهو باحث في الكيمياء الحيوية ، وزوجته اليزابيت ، وعمرها ٤١ سنة ، وهي طبيبة أطفال ـ مع السيدة ماري بث وايتهيد عام ١٩٨٥ على أن تحمل الأخيرة باخصاب اصطناعي طفلا لحسابهما ، وقد كان لقاؤهم بمركز العقم في نيويورك ، وهو جمعية غايتها الربح ، وقد اختار آل ستيرن السيدة وايتهيد بعد مقابلتهم لما يقرب من ٣٠٠ مرشحة ، وقد رفض الزوجان أكثرهن لأنهن يدخن أو يشربن الخمور أو يستعملن المخدرات .

وبدت لهما السيدة وايتهيد مثالية ، فهي زوجة ، ولها طفلان في سن الدراسة المدرسية ، وهي ترغب في أن تكون أما بديلة ولا تريد مزيدا من الأطفال ، ولذا وقعت وزوجها عقداً يتعهدان فيه بتسليم

محصول الحمل بعد الولادة إلى آل ستيرن ، على أن يدفع آل ستيرن مبلغ (١٠٠٠٠ دولار) لوايتهيد ، إضافة إلى النفقات الطبية ، ومبلغ (١٠٠٠٠ دولار) أخرى لمركز العقم .

وبعد الولادة رفضت وايتهيد تنفيذ العقد ، وتركت حقها في المال ، وأبت التخلي عن طفلتها الوليدة ، وأخذتها إلى بيتها ، فجاء آل ستيرن بعد ثلاثة أيام بمرافقة رجال الشرطة وأخذوا الطفلة عنوة ، وبدأت المشاكل بين المتعاقدين .

وقد أصدر القاضي هارفي سوركو حكمه في البداية بصورة مؤقتة بأن الحضانة لآل ستيرن ، وأن من حق الأم أن ترى طفلتها مرتين كل أسبوع في مكان محايد ، ريثما يصدر الحكم النهائي الذي عليه أن يحل المعضلة ، فيحكم هل الطفلة للأب الذي قدم النطفة ، أم للأم التي قدمت البويضة ، وحملت الطفلة تسعة أشهر (وهنا على وهن) .

ولا شك أن الأمهات البديلات معروفات منذ القديم بشكل أو بآخر ، إذ نجد لهن ذكرا في الكتب السماوية ، فالسيدة سارة زوجة ابراهيم عليه السلام عندما عجزت عن الانجاب ، وغدت عجوزا عقيما ، قدمت جاريتها هاجر لسيدنا ابراهيم فحملت الأخيرة باسماعيل عليه السلام ، وقد نشأت عن ذلك مشاكل فيما بعد ، أدت إلى أن يسكن ابراهيم هاجر وابنها (بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم) ، وبقية القصة معروفة مشهورة .

أما الأمهات البديلات بوضعهن الجديد حيث يتم الاخصاب الاصطناعي ، أو يتم زرع البويضة الملقحة حسب طريقة ستبتو ، فتقدم الأم البديلة الرحم فقط ، بينما يقدم الزوجان البويضة والنطفة ، وهو أمر حديث .



يقول المحامي نويل كين ، وهو المشرف على المركز الذي جمع آل ستيرن بوايتهيد : « إن هنالك الآلاف من الذين يرغبون بالاستفادة من هذا الأمر ، ومنهم الأمهات البديلات ، وقد حصل حتى الآن في الولايات المتحدة ما يزيد على ٥٠٠ حالة ، منها ٦٥ حالة في السنة الماضية فقط ، وهناك على الأقل عشرة مراكز للأمهات البديلات » ، وإذا عرفنا أن نسبة ١٥ ٪ من الأزواج يمكن اعتبارهم عقيمين عرفنا كيف سيسير الحمل عن طريق الأمهات البديلات في طريق الازدياد والشيوع .

سوق لسلع لاتباع

ويرى بعضهم أن تشريع قوانين تنظم هذا الأمر هو اعتراف بشرعيته ، وإقرار بقبوله ، مما يشجع الناس عليه ، فتفتح سوق جديدة لبيع الأطفال .

وغني عن البيان أن الشرائع السماوية كلها ـ وعلى رأسها الدين الاسلامي الحنيف ـ تحرم ذلك ، بل إن الدين الاسلامي العظيم يحرم حتى ادعاء الأطفال عن طريق التبني .

فالاطفال ليسوا بضاعة ولا تجارة ، ولا يحق لأب أو أم أن يبيعا أطفالهما ، لكن ما يخشى منه أن تصبح الأمهات البديلات تجارة رابحة محرمة ، وأن تصبح أرحام الفقيرات الأمريكيات ، أو بعض نساء العالم الثالث بضاعة تستأجر ، وحواضن لأطفال الموسرين الذين لا يودون أن يزعجوا أنفسهم بالحمل ومشاكله وبخاصة بعد أن جاء ستبتو بطريقته الفذة .

تقول اليزابيت كاين ، وهي أم بديلة : لابد من إعطاء الخيار للأم التي حملت الطفل ، فإذا أرادته فهولها ، وإذا سلمته فإن الواجب أن تساعد في التغلب على مشاكلها النفسية ، دون أن تترك وحيدة ، فأثناء الحمل يكون الزوجان المتعاقدان ودودين مجاملين ، أما بعد الولادة فإنها يتجاهلان الأم البديلة تماما في إهمال معيب ، وتجد أن العقود الحالية للأمهات البديلات لاتعطيهن أي حق ، بل تحرم عليهن كثيرا من الأمور ، كالتدخين وشرب الخمر ، وحتى أن يجامعهن أزواجهن في فترة الاخصاب الصناعي ، بينما تسلم الأم البديلة طفلها لعائلة لا تعلم عنها شيئا .

إن العواطف في قضية الطفلة (سارة ـ ميليسا) فيمكن أن تتقسم مع هذا الفريق أو ذاك ، لكن الطفلة نفسها لا تنقسم ، بل ان هذه الطفلة ـ على الاغلب ـ سوف تبلغ عامها الأول ، ولما يصدر الحكم بعد ، ولما تستقر على اسم ، ولما تستقر في بيت .

وهكذا يخلق التقدم الطبي أحيانا مشاكل ، ويعجز عن إيجاد حلول لها ، لكن الناس هم الذين يحملون الأطفال وبالتالي عليهم أن يتحملوا نتائج ذلك . □

■ قيل إن أحد رجال الأعمال الفرنسيين ترك مبلغا يساوي مائة وعشرين ألف جنيه للمرأة التي رفضت مرتين عرضه الزواج بها ، وجاء في وصيته : إنني أترك لها هذا المبلغ اعترافا بجميلها ، فبسببها تهيأ لي أن أعيش حياة (عزوبة) هنيئة ، منطلقة ، خالية من المشاكل ، مما سهل لي النجاح في الحياة .

■ ضرب رجل ، وطولب بمال فلم يسمح به ، فأخذ ابنه وضرب ، فجزع ، فقيل له في ذلك ، فقال : ضرب جلدي فصبرت ، وضرب كبدي فلم أصبر .

■ لما بشر الحسن البصري بمولود له قال : لا مرحبا بمن إن كنت غنيا أذهلني ، وإن كنت فقيرا اتعبني .

هو..

في بيتي

يطلب مني المستحيل ، ويضعني بين خيارين ، كلاهما مر . حاولت أن أقول له أن مايريده فوق الطاقة ، ومناف لكل عرف وتقليد ، لكنه ركب رأسه وأصر .

لي في الدنيا ثلاثة إخوة ، شباب في مقتبل العمر ، موظفان وطالب جامعة ، وأمي سيدة مسنة قعيدة . ولأننا فتحنا أعيننا على الدنيا ولم نجد حولنا أحدا ، فقد توثق ترابطنا ببعضنا ، وأصبح كل منا للآخر أكثر من أخ وصديق .

وبعد زواجي صار بيتي هو ملتقى إخوتي ، فيه يتجمعون ويلتقون ، وحمدت لهم حرصهم على السؤال عني ، وشجعتهم على المجيء عندي ، لأنهم أكثر قابلية للتحرك مني ، ولايعانون مثلي مشقة الانتقال لو أردت أن أذهب إليهم ، فكيف انتقل أو أحمل طفلتي ، وأترك البيت . . . إلخ ؟

وفي البداية كان زوجي يسعد بهم . يجلسون معا ، ويشاهدون التلفاز ، أو يلعبون النرد ، وتدور بينهم مسابقات في النرد ، يخوضونها بحماس ، ويقضون بها أمسياتهم .



كنت أسعد الناس بهذا ، إلى أن بدأ زوجي يتململ ، ويضيق ، وكنت أرجع الأمر في البداية إلى أنه يمر بظروف انعكست على بيته وعلاقاته العائلية ، وعندما طال الأمر فاتحته في بوادر الضيق التي تبدو عليه ، فانتقل من التلميح إلى التصريح ، فآثرت أن أتفادى المواجهة ، وأتجاهل الأمر كله ، لكن بدلا من أن يرجع عن ضيقه بدأ يطاردني بضرورة التخلص من إخوتي !! وأن زيارتهم كل أسبوع كافية ، وأنهم بذلك قد أقحموا أنفسهم في حياته ، وأنه لم يتزوجني وحدي ، لكنه بهذا الشكل ـ هكذا يقول ـ قد تزوج إخوتي معي . قلت له إنني لا أستطيع أن أمنع إخوتي من المجيء ، ولا أستطيع أن ألمح لهم بذلك ، ولا أن أقابلهم بشكل يفهمون منه أن زوجي يضيق بهم .

وحاولت معه كثيرا . قلت له : تحملهم من أجلي ، وأحسن صحبتهم إكراما لي . لكنه ركب رأسه وأصر قائلا : بأن الزيارات العائلية يوم واحد في الأسبوع ، وبالتبادل ، يجيئون هم أسبوعا ، ونذهب نحن إليهم أسبوعاً آخر . أصبحت بين المطرقه والسندان ، وحيرتي وخجلي يلفان أيامي كلها ، فطوال حياتي لم أسمع أن أختا طلبت من إخوتها ألا يزوروها في بيتها .

هي



هي.. والعائلة

هناك فروق دقيقة بين الأشياء ، وأخطر مايمكن أن يصيبنا هو أن نتجاوز الفروق ، أو نغمض أعيننا عنها ، فعندئذ تختلط الأشياء والعلاقات والمواقف ، ويصعب علينا التفرقة بين ماهو صواب في إطار ما ، وماهو خطأ إذا ما استخدمنا نفس المعيار .

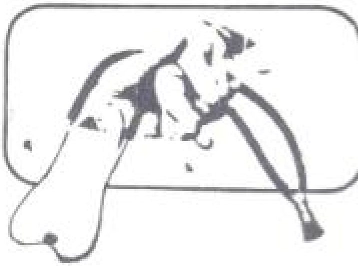
عندما تزوجنا كنت أعلم مدى ارتباط الاخوة بعضهم ، وكنت أعلم حالة أم زوجتي ، ويشهد الله أنني لم أمنع زوجتي يوما عن الذهاب لأمها ، لرعايتها أو رعاية شئون إخوتها ، لكن زوجتي حتى قبل أن تنجب طفلتنا الوحيدة استهلت الاستقرار في البيت ، وأن يأتي إخوتها لزيارتها .

ولم يكن لدي أدنى اعتراض على هذا ، بل بالعكس كنت أرحب بهم وأسعد ، وفي ظني أن ترددهم هو من قبيل الزيارة ، لكن مع الوقت تلاشت الفروق ، وتاهت وأصبحت الزيارة إقامة من ينتهون من أعمالهم فيجيئون إلى البيت ظهرا ، يتناولون طعام الغداء ، ثم يهجعون في نومة القيلولة ، وعندما يستيقظون عصرا يتحول البيت إلى مقهى ، أصدقاؤهم يأتون للسؤال عنهم ، وزيارتهم عندنا ، وصغيرهم يحتل غرفة الاستقبال للمذاكرة ، وتبدأ الطلبات ، شاي وقهوة ومرطبات ونقاشات وسجائر ، إلخ .

يحل الليل علينا ، فيكتشفون أن الوقت قد تأخر ، فيبيتون معنا ، ويجيء صباح جديد بنفس الأحداث . ومع الوقت صار لهم ركن مخصص لملابسهم في خزائن ثيابنا ، وعند الضرورة يستعيرون ملابسي ، وصارت غرفة الاستقبال مكان نومي ، على الأرائك وعلى الأرض توضع « حشية » ووسادة للنوم الدائم . حتى الحوار على ندرته عندما يحدث بيني وبين زوجتي يتدخلون دوما لصالح شقيقتهم ، ويبدو أن هذه اللعبة قد راقت لزوجتي ، فصار لايحلو لها أن تطلب شيئا إلا أمام أشقائها ، وأجد نفسي في حرج من لايستطيع الرفض. وتحولت الحياة إلى جحيم ، وأصبح البيت كأنه فندق من فنادق الدرجة الثالثة ، وأصبح إخوتها يشاركونني في كل شيء ، حتى سريري في غرفة نومي كثيرا ما أعود ظهرا لأجد أحدهم نائما فيه ، وعلي أن أختار بين النوم بجواره أو عدم النوم . وعند هذا الحد قلت لزوجتي : أهلك فوق رأسي ، لكن كضيوف ، وليسوا كمقيمين ، وعلينا أن نحدد الفارق بين معاملتهم كضيوف وبين تواجدهم الدائم بيننا .

وصمتت ، في البداية تصورت أنني مع الوقت سأتغاضى عن الأمر ، وتستمر الحياة بحكم العادة ، لكن عندما أصبح الأمر فوق الاحتمال قلت لها : اطلبي منهم المغادرة فورا ، وأن يقتصر مجيئهم على يوم الخميس مساء كل أسبوع ، والأسبوع التالي نذهب إليهم .

هو



طبيب الأسرة

الدكتور حسن فريد أبو غزالة

قضايا منزلية

غليان الحليب

لسنا في مقام الحديث عن قيمة الحليب غذائيا ، ولا عن موقعه بين عناصر التغذية الصحية ، فقد تجاوز المختصون حدود هذه القضية ، وانتهو إلى شبه اتفاق باعتبار الحليب غذاء شبه متكامل ، ولو اضيفت إلى كوب الحليب بضع تمرات - كما كان يفعل العرب القدامى في بواديهم - لارتقينا به إلى مرتبة الغذاء الكامل المتكامل ، حيث ان ماينقص الحليب من العناصر كأملاح الحديد أو بعض الفيتامينات ستجده بوفرة في تركيب التمر ، وهكذا وصل العرب القدامى بعفويتهم إلى حقيقة علمية ، وقفت سدا منيعا أمام المرض والوباء ، وحالت بينه وبين أن يتسرب إلى بواديهم ، لهذا لم نعهد مرضا قد استشرى بين العرب في جاهليتهم ، ولم نسمع عن وباء قد تسلل إلى قبائلهم .

بيد أن الحليب كغذاء شبه متكامل ليس حكرا على الانسان ، بل هو مشاع بين المخلوقات ، لهذا تجد الميكروبات والجراثيم فيه مرتعا خصبا ، تنمو عليه ، وتتكاثر فيه ، ومن ثم كان ذلك الوجه الكريه للحليب الملوث ، المتمثل في أمراض شتى ، يطول تعدادها ، وقد يكون من أبرزها السل والتيفود والحمى المالطية (البروسيلا) والتسمم الغذائي ، إلخ .

لكن الله ساق للانسان اكتشاف النار ، ثم عرف درب تعقيم الحليب بالغليان ، ولا جدال حول قيمة غليان الحليب في توفير حليب آمن من التلوث والضرر ، غير أن السؤال الأهم هو : هل نحن حقا نغلي الحليب ؟ وهل غليان الحليب بلا ثمن أو ضريبة ؟

من الملاحظ أن هناك قناعة سائدة بين الناس مؤداها أن فوران الحليب هو غليانه ، وهذا خطأ شائع ، عند ممارسة الناس لغليان الحليب ، حيث أن فوران الحليب يتم عند درجات متدنية من الحرارة ، تتراوح بين ٧٠ إلى ٨٠ درجة مئوية ، سببه تصاعد فقاعات هوائية مغلفة بغشاء رقيق من الدهن والزلال ، أما الغليان الحقيقي فعلى درجة حرارة تتعدى مائة درجة مئوية بقليل ، ولهذا فلا أحد يضمن تعقيم الحليب على وجه مرض ومقنع ، يكون معه الحليب آمنا خاليا من الميكروبات الضارة الضارية ، وهناك عصبة من الميكروبات تصمد أمام

درجات الحرارة العالية ، لا تموت إلا بعد طول غليان ، وهذا المطلب له ثمن ندفعه من قيمة الحليب الغذائية ، ومن صفاء لونه ، وطعمه ورائحته ، وهذا ما يمكن إيجازه على الوجه التالي :-

١ - اصفرار لون الحليب : إذ يتغير اللون الأبيض المعتاد للحليب إلى لون أصفر فاتح ، بسبب احتراق سكريات الحليب المعروفة باسم اللاكتوز (أو سكر الحليب) ، وهي عملية تعرف في أوساط صناعة الحليب بالكرملة .

هذا بالاضافة إلى تحول زلال الحليب المعروف بالكازين إلى هيوين ذات لون مائل إلى الصفرة .

٢ - تغير طعم الحليب : بعد الغليان يصبح للحليب طعم مميز عن طعم الحليب الطازج ، وسبب هذا الأمر هو (كرملة اللاكتوز) أولا ، وتحول دهنيات الحليب بعد تسخينه إلى مادة تعرف باسم (الاكرولين) .

٣ - رائحة الحليب المغلي : يتميز الحليب المغلي برائحة خاصة ، تعزى إلى تصاعد أحماض دهنية طيارة من الحليب في أثناء تسخينه ، وإلى رائحة أبخرة الكبريت الممتدة من بعض زلاليات الحليب .

٤ - ترسب زلاليات الحليب : يشتهر الحليب بزلاله ذي الأحماض الأمينية الأساسية النافعة للجسم ، لكن حرارة الغليان تعمل على ترسيب هذه الزلاليات في قاع الاناء .

٥ - تلف الكالسيوم : لا طعام أشهر من الحليب في محتواه من الكالسيوم سهل الامتصاص ، غير أن حرارة الغليان تحيل مركبات الكالسيوم هذه إلى تركيب عسر الهضم ، يعرف باسم (ثلاثي فوسفات الكالسيوم) ، مما يفقد الحليب أهم مزاياه ، وهو وفرة الكالسيوم .

٦ - تبديد الفيتامينات : إن أهم ما يحتويه الحليب من فيتامينات عندما يكون طازجا فيتامينا أ و ج ، فالأول منها يتأثر مع الحرارة باكسجين الهواء ، وهو ما ما يعرف بالأكسدة ، كما يتأثر الثاني ويتلف بالحرارة .

وعلى هذا يمكن القول ان غلي الحليب ليس هو الحل الأمثل ، ولا الجواب النهائي لقضية تلوث الحليب ، ومن هنا كان الطريق واسعا أمام العالم الفرنسي لويس باستير ليسير على درب جديد عرف باسمه وهو (بَسْتَرَة) الحليب .

بريد طبيب الأسرة

أسباب الزكام

● ما هو سبب الزكام وما هو سر الاصابة به في فصل الشتاء على وجه الخصوص ؟

(. . . . .)

- الزكام مرض سببه فيروس معين ، قد تصل أنواعه الى مائة ، ومن هنا يسهل تكرار العدوى ، دون أن يكتسب الانسان مناعة ، ويصيب هذا الفيروس منطقة الجهاز التنفسي العلوي ، وهو سهل العدوى في كل فصول السنة ، لكنه يشيع في فصل الشتاء والربيع ، نظرا لطبيعة الزحام ، وحصر الناس داخل غرف مقفلة ، في مجموعات كبيرة ، تعطي الفرصة للفيروسات أن تنتقل من المصاب الى السليم ، عن طريق التنفس ، والرذاذ ، وتقلب الانسان بين الغرف الدافئة والجو الخارجي البارد فجأة ، مما يؤثر على مناعة الغشاء المخاطي للأنف والحلق والقصبة الهوائية .

علاج لسقوط الشعر

● منذ سنوات طرحت احدى شركات الادوية عقارا لعلاج ضغط الدم المرتفع تحت اسم مينوكسديل ، غير أن التجربة اظهرت لهذا العقار آثاراً جانبية اهمها ظهور شعر كثيف على البدن في مواضع شتى .

لهذا فقد قام طبيب بتحضير دهان من مسحوق هذا العقار يستعمل موضعيا حين يكون هناك سقوط للشعر او ضعف فيه ، انتهت تجربة الطبيب حيث توقع ، اذ نبت الشعر في المواقع التي استعمل فيها الدواء موضعيا مما شجع الشركة المنتجة ان تتجه بعقارها الى استعماله في انبات الشعر وايقافه في علاج ضغط الدم المرتفع .

لقد وضعوا العقار تحت التجربة والاختبار فاثبت نجاحه وفعاليته بنسبة كبيرة قد تصل الى ٧٩ بالمئة لهذا فقد طرحوه في السوق التجاري بعد موافقة الجهات الصحية المختصة بمراقبة الادوية والعقاقير وقد وصل الى بعض الأقطار العربية تحت اسم ريجين Regain وقد يلفظه البعض باسم ريحان على سبيل الخطأ في اللفظ .

اذن لاغلك الا ان نقول لك اصبر وماصبرك الا بالله مع التأكيد بأن الصلع ليس بالعيب الذي تتوهمه ، بل هو ميزة يعتبره البعض احدى علامات الذكاء .

الثعلبة

● هل لي أن أعرف ماهي الثعلبة ، وماهي أسبابها وعلاجها ؟

ش . ش . ش - سوريا

- الثعلبة هي اصطلاح لسقوط الشعر الموضعي بسبب ما ، وغالبا ما يكون ذلك السبب مجهولا ، وقد يعزى لأسباب نفسية كامنة .

يداهم المرض مواضع في الجلد غير محددة ، تكون غالبا في منطقة اللحية عند الرجال ، أو في منطقة فروة الرأس ، وتظهر فجأة دون مقدمات ، أو يلاحظها المصاب فجأة ، وتدوم أياما أو شهورا لا يمكن التنبؤ بها ، وقد تختفي تلقائيا كما ظهرت ، بمعنى أن الشعر سوف ينبت دون سبب أو مبرر ، وهذا هو حال ما يقدر بخمسين بالمئة من الحالات .

وقد يستعمل بعضهم مهيجات موضعية للجلد ، مثل صبغة اليود ، وبعضهم قد يستعمل فصوص الثوم ، يدلك بها الموضع المصاب ، أو ربما حكه بقطعة من الصوف بين حين وآخر .

وقد سمي هذا المرض بالثعلبة ، لأن الثعالب تصاب به - كما قيل - من جراء حك جلدها في حقول القمح ، مما يسبب تساقط شعر فروتها .

على أي حال فالمرض لا يحمل أي خطورة على صاحبه ، ولا يؤدي إلى أي اختلال في وظائف الجسم ، أو يسبب للمريض أي معاناة أو ألم أو مضاعفات تستحق القلق .

الانسكاب البللوري

● أعاني منذ فترة طويلة من انسكاب جنب دري أيسر أي اصابة الغشاء المغلف للرئتين بسبب مرض السل ولست ادري كيف أصبت به ولاكيف اتصرف معه .

هل لكم أن تذكروا شيئا عن هذا المرض .. ولكم وافر شكري .

جميل صرفه

ميسلون - ادلب - سوريا

أي مرض يداهم الرئتين قد يتفاقم ليصيب الغشاء

المغلف للرئتين المعروف باسم الجنبة فيؤدي الى مضاعفات تعرف باسم ذات الجنب .

والجنبة هي مايعرف باسم الغشاء البللوري والغشاء ذو طبقتين بينها سائل رقيق يغلف الرئتين ، وعندما يصاب هذا الغشاء يزداد ارتشاح السائل ، ويمتلىء الفراغ بين الغشائين مما يضغط على الرئتين ، ويمنع حركتها ، وبالتالي يؤدي الى ضيق التنفس .

ومن المألوف أن يصاحب هذا الانسكاب او الارتشاح اصابة درنية للرئة واذا كانت متطرفة في نسيج الرئة فانها تسمح بتسرب العدوى الى غشاء الجنبة وتؤدي الى تهيج الغشاء وزيادة افراز السائل مما يعرف في الطب بذات الجنب يشعر معها المريض بألم حاد وخاصة عند التنفس .

ان علاج هذه الحال يتطلب بزل السائل بابرة خاصة ، وتوفير الراحة للرئتين مع اعطاء المريض العقاقير المناسبة لعلاج الدرن ، وافضلها ماجرى اختباره على مزرعة للميكروبات ، تؤخذ من عينة من المريض مع موالاة مراقبته سريريا ومخبريا بفحص البصاق وسرعة ترسيب الدم ، واستزراع افرازات المريض من موضع الاصابة .

النقـــرس

● أرجو التكرم بإلقاء الضوء على مرض النقرس ، وعلى أسبابه ، وعلاجه ، ونظام التغذية للمصاب به ؟

السعيد صلاح محمد ـ كفر الشيخ ـ مصر

ـ النقرس مرض مزمن من أمراض المفاصل ، عرفه العرب قديما باسم مرض الملوك ، لقناعتهم أن الاسراف في أكل اللحوم هو سبب الاصابة به ، وهو أمر من أمور الملوك والأمراء والأغنياء . ولقد كشف الطب الحديث سبب المرض ، حيث لوحظ ارتباط المرض بارتفاع أملاح حامض البوليك في الدم ، مما يؤدي إلى ترسبها في المفاصل ، وبخاصة في إبهام القدم ، غير أن بعض المرضى قد يعاني من الألم الشديد الذي يداهم صاحبه عقب وجبة دسمة ، أو الاسراف في شرب الخمر ، حيث يتورم المفصل المصاب ، ويصير لونه أحمر ، بالاضافة إلى الألم الشديد ، ومع هذا فإن نسبة أملاح حامض البوليك قد تكون في الحدود الطبيعية في الدم ، كما قد ترتفع أملاح حامض البوليك ارتفاعا حادا دون أي معاناة .

ويعتقد الأطباء أن المرض يعود إلى خلل في التمثيل الغذائي لبعض أنواع البروتينات التي تكثر في لحوم الأعضاء ، كالقلب والكبد والكلى وما إلى ذلك ، غير أن تمثيلها لا يتم على الوجه الأكمل ، فيتخلف عنها أملاح البوليك التي تزيد في الدم ، ومن ثم تترسب في المفاصل على نحو ما ذكرنا .

هناك علاجات كثيرة تعمل على خفض نسبة الأملاح في الدم والمفاصل ، غير أن النصيحة دائما هي بالامتناع عن المواد الغنية بالأحماض الأمينية التي تؤدي إلى ترسبات أملاح حامض البوليك ، وهذه متوافرة في لحوم الأعضاء التي ذكرناها لهذا ننصح بالاقلال من اللحوم بصفة عامة .

ردود سريعة

* الآنسة ن . ع . ب ـ المنصورة :

ـ لماذا لا تستشيرين اختصاصيا في أمراض النساء للكشف الطبي والنصيحة المثلى ، فهو المختص ، وهو أعلم بالأمر وأصدق في إسداء النصح السليم .

* ع . س ـ دمشق :

ـ من الأفضل مراجعة طبيب مختص في الأنف والأذن ، فربما احتجت إلى كي الأنف ، بسبب وجود منطقة هشة من الأوعية الدموية .

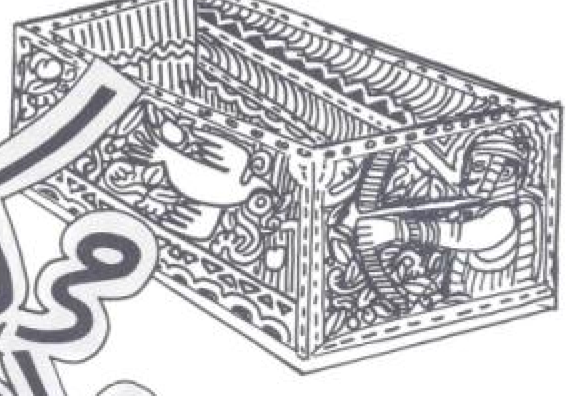
زهـرة إليـها

رقيقة كقطرة ندى ، ناعمة كزهرة ، حنونة كأم . كانت أصغر إخوتها . وهي أم لطفلين مازالا في زمن البراءة ، عمرها لم يتجاوز الثلاثين . . لايذكر أحد لها طوال هذا العمر أنها اختلفت معه ، أو تشاجرت ، أو تشاحنت ، حتى مشاحنات الأطفال وشجارهم لايذكر لها إخوتها يوما أنها فعلته ، وحتى حزنها أو غضبها كان رزينا رقيقا ، فقد كانت تنزوي في جانب من البيت ، وتلمع عيناها بالدمع ، وتلوذ بالصمت . وعندما حملها الزمن في بحاره وصارت فتاة ثم زوجة وأما ، كان الزمن يمر عليها فيفجر فيها كل يوم نبعا من الحنان والسكينة والرضى . كانت لكل إخوتها الصدر والملاذ والصديق ، وكان بيتها واحة يحتمي فيها إخوتها من قسوة الزمن حينا ، ومن غضب بعضهم على بعض حينا آخر .

وعاشت أحلام إخوتها كلهم ، وسعدت معهم ، وتعذبت ، وفرحت بهم ولهم . وراح زمان وجاء زمان ، وبدأت تشكو من ألم هنا ، وألم هناك ، وعرفها المرض ، عوارض كثيرة أضفت على أيامها آلاما ، كانت تختزنها وحدها في صمت ، حتى ضاقت بها يوما ، وعجزت عن الاحتمال ، وذهبت إلى الطبيب ، فاكتشف أن الورم قد انتشر في جسدها الرقيق ، وأن الحل والعلاج لايمكن أن يتم دون استئصال بعض الأجزاء من جسدها ، ورقدت على فراشها بين حياة يرجوها لها كل أحبابها ، وموت يلقي بظله في نهاية الطريق ، وعرف إخوتها العذاب والألم والحزن ، وفقدت الحياة كل جمال فيها ، وحولها كانوا يتجمعون فيتسولون الضحكات كي لاتدرك حقيقة مرضها ، ويتصنعون شجاعة هي أبعد ما تكون عنهم ، وبعيدا عنها عرفت بيوتهم ساعات من البكاء الحار والدعاء والابتهال الى الله بأن يأخذ من أعمارهم ويبقيها لحظة ألم .

كنت أعرف واحدا من إخوتها ، لقيته حين عرف الخبر ، وشهدت انفجاره بالبكاء ، وسمعت منه عن حزنه واحساسه الهائل بعبث الحياة ، وبأننا جميعا تراب يمشي على تراب ، فقلت له : لماذا تحزن عليها وحدها ووطننا العربي يمتلىء بأمهات وأشقاء وأبناء يتألمون كل يوم ، ويموتون كل يوم ، هذه - على الأقل - وجدت حولها من ينفق عليها ، ويمنحها علاجا يسكن آلامها ، أما غيرها فيموت من الألم والعذاب . ولماذا تحزن عليها وحدها ، وكل ما في حياتنا يصيب بالحزن ، وكل ما هو عام مليء بالخيبات والهزائم ؟ لماذا يبقى عالمك الخاص بك وحدك مزدهرا بشيء جميل ؟ إن عذاباتها ياصديقي وأخي جزء من عذاباتنا جميعا ، وقصارى ما نفعله أن نرسل لها زهرة ، علها تبتسم ، وتسعد ، وتختفي من عينيها قطرات الدمع . □

محمود عبد الوهاب



علب ملونة

قصة بقلم : جار النبي الحلو

أختي التي تكبرني لها لون وجهي القمحي ، وصفات الشعر الخشن ،وهي صمـوت ، لاتبرح الدار . تلبس فستانها ذا اللون الأصفر ، وتلف وسطها النحيل بحزام أسود ، ثم تخلعه وتجلس في حجرتها تتشنج في بكاء مكتوم .

عندما سألتها ذات مرة : لماذا لم تتزوجي يا أختي ؟ ابتسمت وقالت : إنني أجهز أشيائي وأعدها .

ثم احتضنت صندوقها بيدين ، في يد « ساعة » وفي يد « غويشة » .

وصندوق أختي من المعدن اللامع ، مرسوم عليه باللونين الأحمر والأزرق فارس وسهم ، وحيوان كغزال بلون أبيض .

وصندوق أختي غير كل الصناديق ، فهو رقيق ، وتحفة ، وله غطاء بدون قفل أو مفتاح . تحمله دائما معها في حجرة النوم أو فوق السطح ، وحين تساعد أمي في أعمال الدار تضعه على المنضدة ، حيث فرشت المنضدة بمفرش أبيض مطرز بالورد الأحمر ، والورد المنثور على المفرش كأنه قطف حالا من شجرة مزهرة .

صندوق أختي به خيوط بيضاء وحمراء وزرقاء ، وإبر طويلة وإبر قصيرة ، وخيط رفيع ، وخيط من « النيلون » ، وكمية كبيرة من الخرز الملون الذي يبدو حين تراه كنجوم السماء .

أختي التي تكبرني تصعد الى السطح عندما تكون الشمس في كبد السماء ، وتقعد على كرسي ، له ظهر مرتفع ، وأمامها منضدة صغيرة مدورة ، تضع فوقها الصندوق بلطف ، ثم تأخذ في شغل رسومها ، ومن الخرزات الملونة المثقوبة كحبات العقد تصنع حقيبة وسمكة وشمسا . وفوق السطح يتجمع حولها البط والدجاج والأرانب لكنها لا ترسم أرنبا أو دجاجا أو بطا ، فدهشت لذلك وسألتها : لماذا لا ترسمين أرنبا وبطا ودجاجا ؟

قالت وهي تنظر الى الشمس :

إنهم معي ، وأنا أرسم ما ليس في يدي ، مثل السمكـة ، والنهر ، والقمـر ، والنجمـة أخت القمر .

وسكتت ، ولم تكمل

ورأيت الشمس تلمع في عينيها ، ورأيتها حلوة واستغربت لماذا لم تتزوج ، ولماذا لم تغن لها حتى الآن ؟ ولماذا لم تشتر أمي الحناء ؟ وجرت حبات الخرز الملونة بين أصابعها الى خيوطها الرفيعة الطويلة .

أختي رصعت جدران دارنا بخرزها ، حينما رسمت الهلال والسمك ، وحاولت أن أتعلم حرفة أختي ، لكنني لا أستطيع أن أمسك الخرزة الملونة الصغيرة ، لأدخل في ثقبها الابرة الدقيقة ، لتنزلق الخرزة بسرعة إلى أخواتها ، فأصنع في النهاية حقيبة ملونة .

وحاولت أن أعرف لماذا تحملق أختي في السقف بعينين دامعتين حتى أغط أنا في النوم .

لكني هذه المرة نجحت ، فقد ظلت تحملق في السقف بعينين دامعتين حتى غطت هي في النوم ، وكانت تحتضن صندوقها ، فلما كاد أن يقع منها أمسكته برفق ، ثم وضعته أمامي ، وترددت قليلا ، ثم فتحته ، لمع الخرز ، وبهرني اللون الأزرق ، أختي تقول دائما إن اللون الأزرق أجمل الألوان ، وهي ترسم البحر والسماء وتلونهما به .

حاذرت من الابر حتى لاتؤذيني ، عندما داعبت أصابعي الخرزات الملونة كادت أن تشي بي ، وتوقظ أختي ، وبحرص أخرجت الهلال ، ثم وجدت مركبا ، وكانت المركب بنفسجية اللون ، وشراعها من خرز أحمر ، مثل حب الرمان ، لكن أختي لم تطلعني عليه من قبل .

وقمت على مهل ، وعلقت الهلال على الحائط ، وتحته بمسافة علقت المركب ، وتحت المركب علقت عدة سمكات ذات ألوان حمراء وبيضاء وصفراء ، وسمكات اختلطت في خرزها كل الألوان ، ورجعت ، وجلست بجانب أختي النائمة ، وخيل الي في هذه اللحظة أنها تبتسم وهي نائمة ، وجلست القرفصاء ، وأخذت أتامل وضع الهلال والمركب والسمك .

ودخلت أمي ، وأطفأت المصباح ، وخرجت بوجه جامد وشفتين مزمومتين ، وغاصت الأشياء في العتمة ، ثم لمع الهلال ، واشتعل الشراع احرارا ، وببطء تحرك السمك ، وظللت أحدق وأحدق .

وببطء أيضاً تحركت المركب ، ثم وقفت ، وهبت ريح باردة ، فاهتز الشراع ، وتحركت المركب ، ومضت مسرعة ، وشراعها الأحمر القاني يشق السماء ، وتمضي ، وابتلت المركب بالماء ومالت ، لكنها لم تنقلب ، لكنها بدون ربان أو ركاب ، وبدون مناديل تلوح بالوداع ، وبدون علم فوق الصاري ، وليس بها غير لونين ، أحمر وبنفسجي ، ولكنها تشق البحر في ثقة ، والبحر يتفجر زرقة وفرحة ، وكلما سارت المركب تبعها الهلال ، وسبح تحتها السمك ، لكن السمك الكبير لايأكل السمك الصغير ، حتى الطيور الجوارح في السماء لم تكن تنقض على المركب ، بل لقد تركت العصافير بألوانها الصفراء تلهو بأمان .

ومضت المركب البنفسجية بعيدا ، حتى أصبحت صغيرة صغيرة ، لكن الجبل الكبير نهض من بطن البحر فجأة ، ووقف أمام المركب ، فتوقف السمك ، وأرعب الهلال ، واختفى خلف الجبل الكبير ، فسادت الظلمة .

وعندما كبر الهلال أصبح بدرا ، وظهرت المركب بلونيها البنفسجي والأحمر ،وعادت تكبر وتكبر ، وتراقص السمك حولها ، بل لقد طار السمك من شدة السرور ، وفرحت الطيور وحطت فوق الشراع .

ولما اقتربت المركب أكثر تبينت أن الفارس الجميل الوجه قادم على المركب ، ويحمل معه سهما لامعا ، فجريت الى المركب ، فرأيتها محملة بكميات كبيرة من الخرز الملون .

ونهضت أختي فزعة من نومها ، فهمست لها : لاتخافي يا أختي ، نامي ، لقد رأيته في مركب الخرز الملون□



ل غ ة

جمال العربية

بقلم : محمد خليفة التونسي

أسئلة وأجوبة

١ - إعراب قبل وبعد :

ورد الينا السؤال التالى من السيدين/ غالب محمد غالب الحبشى ، وأشرف عبد الله محمد (تعز/ الجمهورية العربية اليمنية) :

نرجو توضيح أحوال « قبل وبعد » بالتفصيل ، فقد سمعنا من بعض علمائنا هنا من يقول : « انهما مبنيان دائما على الضم » برغم ورودهما في القرآن الكريم تارة بالضم وتارة بالكسر .

والجواب : ورد هذان اللفظان في القرآن الكريم مرات بالضم وبالفتح وبالكسر . وأيا كان أصلهما من أقسام الكلام فانهما يستعملان ظرفين للزمان والمكان .

« قبل » تدل على أن شيئا سابق لآخر زمانا أو مكانا ، و « بعد » تدل على أن شيئا تال لغيره زمانا أو مكانا ، كما سيتضح من الأمثلة الآتية .

ثم ان اللفظين اضافيان أو نسبيان ، فاذا سمعا تساءل الذهن : قبل ماذا ؟ أو بعد ماذا ؟ أو « قبل من ؟ » أو « بعد من ؟ » ، على ما يقتضى سياق الكلام ، فالاضافة مراعاة في كلا الظرفين سواء ذكر المضاف اليه بعد كل منهما في الكلام أو لم يذكر .

١ - عند ذكر المضاف اليه بعد الظرف : يفتح الظرف كما في قوله تعالى : « قالت ياليتنى مت قبلَ هذا ، وكنتُ نسيا منسيا » وقوله : « والله أنزل من السماء ماءً ، فأحيا به الأرض بعدَ موتها » واذا وقع الظرف بعد « من » فانه يكسر ، كما في قوله تعالى « ولا تعجل بالقرآن من قبلِ أن يُقضى اليك وحيُه » وقوله « وكم أهلكنا من القرون من بعدِ نوح » .

٢ - وعند حذف المضاف اليه :

أ - يجوز أن يلاحظ كأنه قائم وعندئذ يمتنع تنوين الظرف مراعاة لاضافته ، فيفتح كما في قولنا : « حين سمعنا الأذان صلينا الفريضة ، ولم نصلها قبلَ » أى قبل الأذان أو قبل سماعه ، وكما في قولنا « حين نودي للرحيل رحلنا ولم نتأخر بعدَ » أى بعد النداء .

وكذلك يكسر بلا تنوين اذا وقع بعد « من » كما في

قولنا « عرفنا أخاك اليوم ، ولم نكن نعرفه من قبلِ » أي قبلِ اليوم ، وقولنا « تمت المراجعة الأخيرة للمقالة ، ولا عودة اليها من بعدِ » أي من المراجعة الأخيرة ويؤيد ذلك قراءة قرآنية ذكرها الفراء هي قول الله تعالى « له الأمر من قبلِ ومن بعدِ » وقد عارضها بعض العلماء .

ب ـ كما يجوز في هذه الحالة ضم الظرف دون تنوين ، سواء جاء بعد « من » أو بغيرها كما في قولنا « لم أركب الطائرة قبلُ وسأركبها بعدُ » وقولنا : « لم أركب الطائرة من قبلُ ، وسأركبها من بعدُ » وتشهد لذلك قراءة لقوله تعالى « لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ » وهى أشهر القراءات القرآنية .

جـ ـ ويجوز اهمال المضاف اليه كأنه لم يكن البتة فينون الظرف لأنه غير مضاف ، وحينئذ يفتح كما في قول الشاعر (وهو من شواهد النحو) :

وساغ لى الشراب ، وكنت قبلاً
أكاد أغص بالماء الفرات

أو يكسر مع تنوينه أيضا ، كما في احدى القراءات لقوله تعالى « لله الأمر من قبلٍ ومن بعدٍ » .

٢ ـ كتابة الهمزة المتوسطة :

في رسالة من السيد/ محمد المرينى (الرباط/ المملكة المغربية) يشير الى كلمات وردت في بعض مقالات العربي وقد كتبت همزتُها على واو ، والكلمات هى « تقرؤه » وأقرؤها و « مبدؤها » كما يشير الى ورود كلمة « مئة » هكذا ، والمتعارف عليه ـ كما قال ـ ان تكتب هكذا (مائة) ثم يسأل عن الصواب في ذلك .

ـ ليت أسلافنا اخترعوا حرفا خالصا لصوت همزة القطع ، اذن لأراحونا من الحيرة والاختلاف في رسمها حيث وقعت من الكلمة (أو شبهها) وقد كان الكاتب ولم يزل يحار في كتابة الهمزة المتوسطة .

ويلاحظ أن الكلمات التى ذكرها الأخ قد لحق كل منها ضمير متصل ، فصار كأنه جزء من حروف الكلمة ولذلك عدت همزتها متوسطة ، وقبل التحاق الضمير المتصل بالكلمة كانت همزته تُكتب على ألف هكذا « تقرأ ، واقرأ ، ومبدأ » ولذلك يكتبها بعضهم على ألف حتى بعد أن يلحقها الضمير ، ولكن اعتداد همزتها متوسطة وكتابتها على هذه الطريقة أعون على قراءتها صحيحة مثل : هذا مبدؤها ، عرفت مبدأها ، أعجبت بمبدئها ، وهكذا تكتب كل همزة متوسطة اذا وقعت بعد فتح ، فتكتب على الحرف المناسب لها ، فاذا كانت مفتوحة كتبت على ألف مثل : « وأد » ، واذا كانت مضمومة كتبت على واو مثل : لؤُم ، واذا كانت مكسورة كتبت على ياء (نبرة) ، ومن هنا يظهر صواب رسمها على واو في الكلمات الثلاثة المسئول عنها .

ولكن يراعى حركة ما قبلها اذا كانت مفتوحة بعد ضم أو كسر ، فتكتب على واو اذا كان ما قبلها مضموما مثل سؤال ، وتكتب على ياء (نبرة) اذا كان ما قبلها مكسورا مثل مئة وفئة ، ومئين .
(تراجع مجلة العربي/ العدد ٢١٦ نوفمبر ١٩٧٦) .

٣ ـ رجعة الى « الغير »

ويسأل السيد/ منيب الرشدان (دير أبي سعيد/ الأردن) عن استعمال كلمة « الغير » بالألف واللام ، ونود منه أن يراجع ما كتبناه عن ذلك في العدد ٣٠٩ (أغسطس سنة ١٩٨٤) ، وقد وضحنا هناك أن استعمال « الغير » جائز . وأما العبارة التي يسأل عن صحتها وينسبها الى دكتور في احدى كليات الآداب الجامعية ـ وهي « على الطلاب الغير مكملين في اختباراتهم مراجعتي » ـ فصوابها « على الطلاب غير المكملين » لأن « الغير » هنا لا تضاف الى نكرة □

١ ـ يراجع موضع الآية في تفسير القرطبى ٧/١٤ ، والاملاء للعكبرى ٩٩/٢ ، والبحر المحيط لأبى حيان النحوى ١٦٢/٧ والكشاف للزمخشرى ٢١٤/٣ .

جمال العربية

ش ع ر

هكذا غنى الآباء

السماء

للشاعر إيليا أبي ماضي

ايليا أبو ماضي من مشاهير شعراء المهجر الامريكي الشمالي ، ولد سنة ١٨٨٩ في قرية « المحيدثة » في لبنان ، ولاضطراب موطنه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا هاجر صبيا الى الاسكندرية سنة ١٩٠٠ ، وكان يبيع فيها التبغ والسجاير ، وحين بلغ العشرين بدأ يشارك في تحرير بعض الصحف والمجلات المصرية ، وفي سنة ١٩١١ هاجر الى امريكا الشمالية واستقر في « سنسناتي » وفي صيف سنة ١٩٢٦ انتقل الى نيويورك « للاشتغال بالصحافة ، وقبل انتقاله اليها كان بعض الأدباء العرب هناك قد أنشأوا الرابطة القلمية » سنة ١٩٢٠ ، وكان هو أحد مؤسسيها مع زملائه جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وآخرين ، ثم أنشأ في نيويورك صحيفة « السمير » وكانت اسبوعية ، ثم أصدرها يومية في « بروكلين » ، فكانت من أوسع الصحف العربية انتشارا في امريكا وبقى يصدرها حتى وفاته سنة ١٩٥٧ .

وقد أغرم منذ صباه بالأدب والشعر ، فكتب كثيرا من المقالات في صحف مصر ثم امريكا ، وأكثر مبكرا من نظم الشعر ، ونشر ديوانه الاول « تذكار الماضي » ، قبل ان يبرح الاسكندرية سنة ١٩١١ ، ثم نشر ديوانه الثاني « ديوان ايليا أبي ماضي » سنة ١٩١٦ . ولكن شعره بعد ذلك كان أنضج شعورا وفكرا ولغة ، وأرفع وأوسع افقا ، وفي سنة ١٩٢٧ طبع ديوانه الثالث « الجداول » فأذاع صيته ورفع منزلته الأدبية في امريكا والاقطار العربية ، وقد كتب زميله الاستاذ ميخائيل نعيمة مقدمة قصيرة له أشبه بالتحية لشعره الجديد الرفيع ، وقد زادت شهرته ذيوعا ، ومكانته رفعة ، حين أصدر ديوانه الرابع « الخمائل » في سنة ١٩٤٧ حتى أنه أعيد طبعه بعد وقت قصير .

وقد ألفت كتب خاصة في سيرة أبي ماضي وأدبه ولاسيما شعره ، بالاضافة الى ما ورد عنه في الكتب التى عرضت للادب والشعر المهجرى .

وهذه القصيدة التى اخترناها له هنا احدى قصائد ديوانه « الجداول » وهو ديوان صغير في نحو ١٢٠ صفحة ، ومن قصائده قصيدته الطويلة (١٣٢) بيتا بعنوان « الطلاسم » التى يكرر في نهاية كل رباعية من رباعياتها « الثلاث والثلاثين » قوله « لست أدري » ، وقد تغنى ببعض أبياتها الأستاذ محمد عبد الوهاب فزادته شهرة .

لا تسلني عن السماء فما عنـ / ـدي إلا النعوت والأسماء
هي شيءٌ، وبعض شيء، وحيناً / كلُّ شيء، وعند قوم هباء

○○○

فسماء الراعي كما يتمنا / ها مروجٌ فسيحة خضراء[1]
تلبس التبرَ مئزراً ووشاحاً / كلما أشرقتْ وغابت ذكاء[2]
أبداً في نضارة، لا يجف الـ / ـعشبُ فيها، ولا يغيضُ الماء[3]

○○○

وهي عند الأم التي اخترم المو / تُ بنيها، وضلَّ عنها العزاء
موضعٌ لا ينالهم فيه ضيمٌ / لا، ولا يدرك الشبابَ الفناء[4]
وكذا يولد الرجاء من اليأ / س، إذا مات في القلوب الرجاء

○○○

وهي عند الفقير أرض وراء / الأفق، فيها ما يشتهي الفقراء
لا يخاف المثري، ولا كلبُه الضا / رى، ولا لامرىءٍ به استهزاء
وهي عند المظلوم أرض كهذي الأ / رض، لكن قد شاع فيها الإخاء
يجمع العدلُ أهلها في نظام / مثلما يجمع الخيوطَ الرداء
لا ضعيفٌ مستعبَدٌ، لا قويٌّ / مستبِدٌّ، بل كلُّهم أكفاء
كلُّ شيء للكلِّ ملكٌ حلال / كلُّ شيء فيها كما الكلُّ شاءوا

○○○

وهي عند الخليع أرضٌ تميس الـ / ـحورُ فيها، وتدفُقُ الصهباء[5]
كل ما النفسُ تشتهيه مباحٌ / لا صدودٌ، لا جفوةٌ، لا اباء
أكبرُ الإثمِ قولةُ المرءِ: هذا الأ / مر إثمٌ، وهذه فحشاء
ليس بين الصلاح والشر حد / كالذي شاء وضعه الأنبياء
واذا لم يكن عفافٌ وفسق / لم تكن حشمة ولا استحياء

○○○

كل قلب له السماء الذي يهـ / ـوى، وان شئت، كلُّ قلب سماء
صورٌ في نفوسنا كائناتٌ / ترتديها الأفعالُ والأشياء
رب شيءٍ كالجوهر الفرد فذٌّ / عدَّدتهُ الأغراض والأهواء
كلُّ ما تقصر المداركُ عنه / كائنٌ مثلما الظنونُ تشاء

---

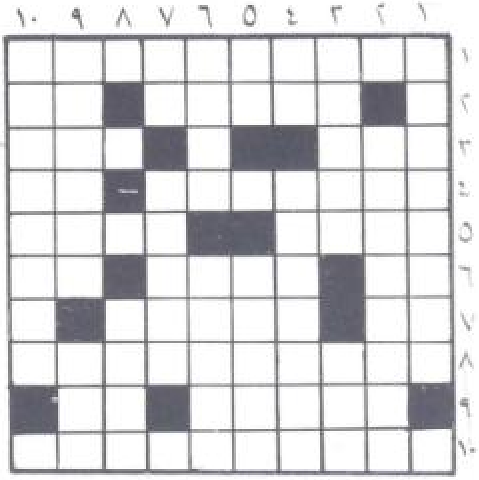
١ ـ المرج: الحقل الذي ترعى فيه الدواب

٢ ـ التبر: فتات الذهب قبل صياغته، والمراد نور الشمس وفيه صفرة كالذهب، ذكاء: الشمس

٣ ـ يغيض: ينقص، ٤ ـ ضيم: ظلم، ٥ ـ تميس: تتبختر، تدفق الصهباء: تسيل الخمر

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذه اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .



كلمات أفقية

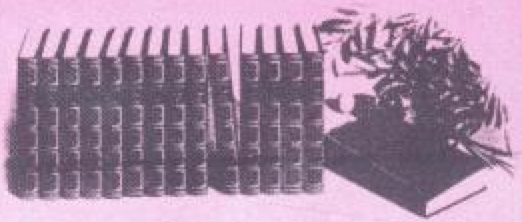
١ . القطب الجنوبي باعتباره قارة سادسة
٢ . بقايا حيوان أو نبات متحجر ، سُم وضجر
٣ . قط بري متوحش ، مملكة بلقيس
٤ . امبراطور فرنسا ، والدة
٥ . أحمق أو غبي ، تقال في معرض الترحيب
٦ . تجدها في وال ، أخمص البطن ، (القدر) غلى
٧ . ندى ، من أبناء دولة عربية شقيقة
٨ . خضاب الدم
٩ . موسيقي أندلسي كبير ، لعب ولهو
١٠ . سياسي سويدي وأمين عام للأمم المتحدة (١٩٥٣)

كلمات رأسية

١ . من كبار الرحالة العرب ولد في طنجة
٢ . لوحة ليوناردو دافنشي الخالدة
٣ . تصرف كالأرنب ، أرض كثيرة النبت
٤ . تجدها في أحمر ، من أسماء جهنم
٥ . جماعة من الطير ، من أسماء الأسد
٦ . ماء عذب ، دربيل مبعثرة
٧ . تنظر ، تأمنوا مبتورة
٨ . يظهر
٩ . عاصمة يوغندا ، يرشد
١٠ . من أكبر أنهار العالم وأعرضها وأوسعها

حل مسابقة العدد ٣٤٥ أغسطس ١٩٨٧

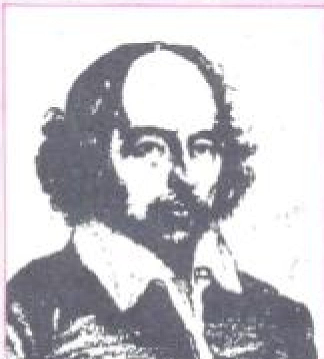




مكتبة العربي

كتاب الشهر

بقلم : الدكتور صفاء خلوصي



المسرحية المفقودة لشكسبير

« في « يناير » كانون الثاني من العام الماضي نشرت في انجلترا مسرحية قديمة لشكسبير ، لم تنشر من قبل ، يرجح الباحثون أنها كانت من البدايات المبكرة لأعماله ، فهي تتميز بذات الخصائص الرائعة التي عرفناها في أعماله المعروفة » .

لم يكن من المعقول أن يظهر شكسبير بهذا الكمال والقوة والنضج فجأة ، كما نشاهده في مسرحياته وموشحاته ، فلا بد إذن من إرهاصات ومقدمات كانت ضائعة ، ثم أخذت تظهر للعيان ، بعد أن اكتشفت موشحته « هل سأموت ؟ » في مكتبة « البودليان » باكسفورد ، واستقر رأي مطبعة جامعة اكسفورد على إدراجها في أعماله الكاملة في طبعاتها التالية ، وليس هذا فحسب ، فقد فاجأنا ايريك سامس في نهاية يناير (كانون الثاني) ١٩٨٦ بمسرحية شكسبيرية مفقودة ، عنوانها « ايدموند آيرون سامير » وايدموند هذا هو ملك الانكليز السكسوني الذي حكم سنة ١٠١٦ م ، أي قبل الفتح النورماندي بنصف قرن ، والتحم في معارك مع أمير الفايكنج الدانمركي كانوتس ، وقد تسنى لي أن أدرس المسرحية حال ظهورها ، فوجدتها - والحق يقال - ذات نكهة شكسبيرية ، لا يخطئها المطلع على أعمال شكسبير الأخرى ، فاللغة والاستعارات والتشبيهات كلها شكسبيرية ، فيها الابداع والابتكار الذي عهدناه في كل ما نظم هذا الشاعر وألف ، غير أن الانسان لايفوته أن يتبين أنها لاتقف من حيث الحبكة وتطور الأحداث وبراعة العرض في مصاف « هاملت » و « الملك لير » و « وعطيل » و « تاجر البندقية » و « روميو وجوليت » ، فهي من نتاج شاب لايتجاوز السادسة والعشرين ، إذ أن تأريخ المسرحية لايمكن أن يتعدى سنة ١٥٩٠ م ، إن لم يكن قبيل ذلك . وتضم المسرحية خمسة فصول ، ضمها ايريك سامس في إحدى وستين صفحة ، اما بقية صفحات الكتاب - وهي ثلاثمائة واثنتان وعشرون صفحة - فقد خصصت للمقدمة والحواشي والتعليقات ، لاسيما ما يتعلق بصحة نسبة المخطوط إلى شكسبير .

تقسيم انجلترا

القصة بإيجاز هي قصة الصراع بين (ايدموند) ملك السكسونيين وكانوتس أمير الدانمارك ، وينقسم نبلاء الانكليز إلى فريقين ، فريق يلتحق بهذا ، وفريق بذاك ، وضمن الفريق الأخير (ايرل جيستر) و (دوق نورفوك) و (ايرل ساوثمبتون) و ابنته (انجينا) التي تتزوج فيما بعد الأمير الدانمركي رئيس أساقفة كنتربرى ، وكلهم ناقم على الملك السكسوني ، غير أن ضميري (ايرل جيستر) و (دوق نورفوك) سرعان ما يستيقظان ، فيلتحقان بالملك السكسوني ، تاركين ولديهما رهينتين بيد الأمير الدانمركي الذي ينتقم منهما أبشع انتقام بجدع أنفيهما ، وقطع يديهما ، لأن هذا في رأيه أفظع من الاعدام ، وأروع لمن تسول له نفسه الخيانة .

وبعد معارك طاحنة يذهب ضحيتها آلاف الأبرياء يقرر الزعيمان المتنازعان أن يتبارزا ، فمن كانت له الغلبة كان له تاج انكلترا . وعندما يجد الأمير الدانمركي نفسه مندحرا يرفع يديه مستسلما طالبا الأمان . فيبلغ النبل بالأمير السكسوني مبلغ مؤاخاته ومصالحته ، على أن يقتسما انكلترا فيما بينهما ، وأن يكون للدانمركي أي جزء يشاء وهكذا تنتهي المسرحية ، إذ يخرج الخصمان المتنازعان متأبطين ذراعي بعضهما بعضا ، غير أن (ايدريكس) دوق ميرسيا - جاسوس الطرفين - يهمهم قائلا : « بحق السماء لأنتقمن منكما معا » وروعة المسرحية ليست بأحداثها ، بل بتعابيرها الشكسبيرية المبتكرة ،

وبروح شكسبير الانسانية المحبة للسلام ، المتجلية في المشهد الختامي الذي نسمع فيه الحوار التالي :

كانوتس : على مهلك يا ايدموند ، على مهلك ، فإن كانوتس مستسلم لك .

ايدموند : ماذا ؟ أتراه يستسلم بخنوع ؟ معاذ الله من الشيطان !

كانوتس : خذ أحداثين ، أيهما شئت ، يدي أو سيفي ، فيدي تمنحك الصداقة الراسخة التي لاتتزعزع ، وسيفي يجلب لك العداء العنيد .

ايدموند : لقد ظفرت ياكانوتس الشجاع باستسلامك بما لا يستطيع سيفك أن يظفر به أبدا ، وهو ما جلبه لسانك بلطف كلامك . خذ بيدي ياكانوتس ، وهاك سيفي ، فايدموند هبة لك مع كل مايملك ، وليجاهد كلانا ، ليتبين من هو أعظم من صاحبه ، فباللطف المتبادل سيتبين من هو الذي يستحق أن يلقب بالصديق .

المبارزة

كان ايدريكس هو نفسه الذي اقترح فكرة المبارزة بين الزعيمين ، على أن يقتل أحدهما الآخر ، فتنتهي الخصومة وتنقذ حياة آلاف الجنود .

اذ توقف مخاطبا كليهما في المشهد الثاني من الفصل الخامس الأخير (ص ١١٢) يقف مخاطبا فيهما وهو يقول : « فيم تتصارعان ، أنت ياآيرون سايد العظيم ، وأنت ياكانوتس الشهير مالذي تستهدف ؟ ففي كل يوم تقدمان من أجل حربكما الفانية أجسامنا ، طعمة للسيوف لتذبح وتقطع ، ومع ذلك ليس فيكما من هو منتصر ، وله اليد العليا في حسم المعركة ، فمن اندحر منكما اليوم ينتصر غدا ، من يقرع منكما طبول الانسحاب يعود فيجدد القتال بقوة مضاعفة .

وهكذا يتعلق النصر في ميزان الاضطراب ، وعدم الاستقرار ، والحظ المتذبذب يعبس أويبتسم لأحدكما اليوم . فما مصير هذا الحقد الذي لاينتهي ؟

لن تنتصرا حتى يفنى جيشاكما معا ، فتبقيان بمفردكما تقتتلان أو تتصافيان ، فمن انتصر منكما لم يجد آنذاك رعايا يحكمهم ، ولا شعبا يسوده ، فالحرب المستهلكة ستبتلع هذه الجزيرة المتعزلة دون أن تترك من يحكم ، ولا من يقاوم الغزو الأجنبي . اكبحا جماح نزوتيكما العارمتين ، وفوران عقليكما المكابرين ، فقد برهنتما على جسرأة جيشيكما وشجاعتيهما ، والآن أخيرا تصافحا وتآخيا ، واتفقا كملكين نبيلين ، ودعا الأرض لأحدكما ، وارحما هذه الجزيرة الصغيرة ، فقد ملأتما تربتها سمادا بجثث قتلاكما ، وأغرقتماها ببحر من دماء الأبرياء .

أما إذا كانت منافستكما بعضكما بعضاً عظيمة بحيث أن كلا منكما يستنكف أن يكون له منافس ، لأنه لايرى لنفسه ندا أو نظيرا في المكانة ، فاقتتلا وحدكما ، ليكون الملك لأحدكما دون الآخر .

لاتدعا الكل يهلك بسبب إرادة اثنين ، بل دعا سيفيكما يقرران من هو صاحب الحق الشرعي .

رائعة هذه الدعوة إلى السلام من فم شكسبير ، وإن جاءت على لسان بطل من أبطاله كان يتمنى في قرارة نفسه أن يقتل أحد المتبارزين لا أن يخرجا سالمين متصافيين .

وداع الملكة (ايما) لولديها

ومن أروع المشاهد المؤثرة في المسرحية المشهد الثاني من الفصل الرابع ، توديع الملكة (ايما) لولديها الأميرين ، ألفريد وادوارد (الذي أصبح فيما بعد أحد ملوك انكلترا) ، وهما في طريقهما إلى نورماندي ، حيث الأمان من ويلات الحرب ، ليكونا في رعاية الدوق ريجارد ، شقيق الملكة . ويستغرق مشهد الوداع تسعين بيتا ، وفي كل مرة يبتعدان عنها قليلا تطلب عودتهما إليها لتجدد الوداع ، وأخيراً تقرر أن تذهب معهما إلى الميناء المزبد - حسب تعبيرها - لتودعهما الوداع الأخير .

يقدر الباحثون عدد المسرحيات الشكسبيرية

المفقودة بعشرين مسرحية ، ولو أن المتعنتين من الاختصاصين يصرون على أن شكسبير لم يكتب شيئا قبل سنة ١٥٩٠ ، مع أنه ذهب إلى لندن سنة ١٥٨٢ وهو في سن الثامنة عشرة ، فما الذي فعل العبقري في هذه السنوات الثماني ؟ هل كبح جماح عبقريته منتظرا حلول سنة ١٨٩٠ ، والاحتفال ببلوغه السادسة والعشرين ، ليبدأ بالتأليف المسرحي بأقوى أشكاله دون محاولات أولية ، كمسرحية آيرون سايد التي تعد أقدم مسرحية مكتشفة لشكسبير حتى الآن ؟

الحاسب الآلي يؤكد

إن من دواعي صحة نسبة هذه المسرحية إلى شكسبير احتواءها على ٦٣٥ كلمة نادرة ، و ٧٩ لفظة فريدة ، و ٤٠٥ كلمات هي من أقدم ما عرف استعماله من الكلمات حتى الآن ، وحوالي ألفي نقطة تشابه مع ما هو موجود في مسرحيات شكسبير الأخرى المعترف بها حاليا ، وقد نجحت المسرحية بتقدير الحاسبات الآلية ، وتحليلها إياها ، وكان أحد الاختصاصين في الأدب الشكسبيري قد نسبها إلى شكسبير قبل ثلاثين عاما ، لكن كان لابد من انتظار التقدم في استخدام الحاسبات الآلية لاثبات هذه الحقيقة ، وأكبر الظن أن المسرحية دونت في فترة عصر الارمادا ، في أواخر الثمانينيات من القرن السادس عشر ، ولعل مايرد فيها من عبارات التجديف والسباب والشتائم واتهام رئيس أساقفة كنتربرى بالخيانة هو الذي جعلها من المسرحيات المغضوب عليها من السلطات الحاكمة يومذاك،يوم أن كان رئيس أساقفة كنتربري (اليتودوري) رئيس لجنة الرقابة على المسرحيات ،

فدخلت في عداد المسرحيات المهملة التي علاها غبار النسيان ، مما حدا بجامعي مسرحيات شكسبير الأوائل على أن يطوا كشحا عنها ، والشعر في المسرحية موزون ، وقد أكثر فيه شكسبير من الالتزام بالقافية ، وكان هذا بصورة خاصة في أوائل عهده بالنظم ، حيث اعتمد على موسيقا الشعر إلى حد بعيد ، وقوام المسرحية ألفان وستون بيتا . ويرجع تاريخها إلى حوالي سنة ١٥٨٨ أو ١٥٩٠ ، وبوسعي أن أستشهد بكل مقطع من مقاطعها ، لكنني سأكتفي باستشهادين يقول في أولها: «الحظ أبدا يحسد الحكماء ، ويحابي البلهاء ، رافعا إياهم إلى قمة العلياء» ، وفي ثانيهما يقول : «إن السلام بعد الحرب موسيقا عذبة لقلبي الراقص طربا» . .

وقد استقى شكسبير عناصر قصته من المؤرخ الانكليزي رافائيل هولنشيد ، المتوفى سنة ١٥٨٠ ، فضلا عن تأثره بأعمال بلوتارك ، وجرافتون ، وأوفيد ، والكتاب المقدس . □

■ من مدحك بما ليس فيك من الجميل ، وهو راض عنك ، ذمك بما ليس فيك من القبح وهو ساخط عليك .

(افلاطون)



رأس حصان
عربي أصيل

كتاب الخيل

بقلم : الدكتور سلمان قطاية

حين قدم العرب للعالم جيادهم الأصيلة قدموا معها علم الفروسية أيضا .

يقول في ذلك (افريم هويه) رئيس المرابط الفرنسية في القرن الماضي : « إن العرب هم الذين بدءوا تعليم الفروسية للعالم كله » ، ويقول (دنيس بوغروس) أكبر خبير بالحصان العربي في فرنسا حاليا : « لقد فعل العرب بالنسبة للفروسية ما فعلوه بالنسبة للفلسفة وكافة العلوم ، فقد نقلوا إلينا التراث القديم شرقيا ويونانيا ، بعد أن أضافوا عليه نتاج حضارتهم الأصيلة ، وهذا التراث هو الذي سمح لأوروبا أن تخرج إلى النور ، بعد أن قضت فترة طويلة في ظلمات العصور الوسطى » . كان من عادة الكونت (دور) أن ينصح مواطنيه الفرنسيين قائلا : « على طلابنا أن يتعمقوا تماما بالمبادىء العامة للفروسية العربية ، بحيث تصبح تلك المبادىء مبادئهم » .

الويل في أمراض الخيل

ومن المؤسف فعلا أن يكون اهتمام الغربيين بهذا الفرع من التراث أكثر من اهتمام العرب أنفسهم ، فكتاب « الويل في أمراض الخيل » ، أو كتاب « الصناعتين البيطرة والزردقة » ، أو « الناصري » من الكتب المشهورة جدا في أوروبا وبخاصة في فرنسا ، وهو من تأليف سايس مرابط الملك الناصر ملك مصر ، وهو ابن المنذر البيطار . والسبب في ذلك (بيرون) ، وهو أحد الأطباء الفرنسيين الذين ساهموا في تأسيس المدرسة الطبية بأبي زعبل في مصر مع (كلوت بك) الذي استدعاه الخديوي محمد علي

الكبير ، فقداهتم (بيرون) بالعربية وبحصانها ، فترجم الكتاب المذكور ترجمة أخاذة في ثلاثة أجزاء ، كرس الأول للحديث عن الفروسية والفرسان العرب ، فأصبح تحفة فعلا ، وقد تم نشره في باريس عام ١٨٥٢ م .

والمؤسف أيضا أن هذا الكتاب لم ينشر بعد بلغته الأصلية العربية !

لقد سبق لوي ميرسيه في الترجمة بيرون ، إذ نشر بالفرنسية عام ١٨٢٤ ترجمة ابن هذيل الأندلسي « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ، وقد نشر هذا الكتاب بالعربية عام ١٩٥١ بشكل غير لائق ، وهذا الكتاب مفقود اليوم . والمؤلفات عن الجواد العربي والفروسية العربية باللغات الأوروبية لاتتوقف ، ومن أشهرها كتاب (دوما) الذي راجعه الأمير عبدالقادر الجزائري بنفسه ، ونشر في منتصف القرن الماضي ، وسوف يعاد نشره هذا العام .

ولعل من أفضل ما نشر مؤخرا كتاب « الحصان العربي أول حصان نقي الدم » ، تأليف : (دنيس بورغومي) و (البارونه دوبلوماك) عام ١٩٧٨م . وفيه من المعلومات والدراسات مايجعله جديراً بالترجمة إلى العربية .

فالمكتبة العربية فقيرة بالكتب العلمية الجديدة في هذا الموضوع ، ولاتوجد فيها دورية متخصصة ، أما هواية ركوب الخيل فقد زالت أو كادت ، وظلت بين أيدي نخبة من المترفين ، أو في الصحراء مع البدو الذين يتناقص عددهم مع مرور الأيام .

لكل هذا كان صدور « كتاب الخيل » حدثا هاما ، إذ يضيف على القائمة القصيرة من الكتب كتابا آخر . ونرجو من صاحب هذه الدار أن يستمر في هذا العمل الجليل ، فيصدر مالم يحقق ، وبخاصة كتاب ابن منذر البيطار الذي يحققه في نفس الوقت د . ابريق بجامعة حلب ، ود . دقاق بجامعة باريس ، إلا أن للتحقيق العلمي قواعد معروفة .

كم أسفت أن الوقت وكثرة المشاغل والمهام قد منعت الأستاذ الجليل محمد العربي الخطابي من إجراء تحقيق دقيق حسب الأصول المتبعة ، إذ وقع في أخطاء كان بإمكانه بسهولة ـ وهو الأستاذ العالم المحقق ـ أن يتلافاها ، فالكتاب قد ظل يرقد على رفوف المكتبات فترات طويلة ، بل قرونا عديدة ، وكان بالإمكان أن ينتظر بضعة أشهر أو أعوام ، لكي يصدر بحلة جيدة . أعتقد أن من واجب المحقق ـ في مقدمته ـ أن يقيم الكتاب ، فيبدي مافيه من أشياء أصيلة جديدة ، وما فيه من أخطاء ، وأن يقارنه مع ما كتب قبله ، كي يأخذ الكتاب المحقق مكانته العلمية ، فالقارىء العادي قد يأخذ ما جاء في الكتاب على أنه حقائق أكيدة ، فيؤمن بها ، ويكررها عن جهل وبلاوعي ، فيساهم الكتاب في نشر الجهل أكثر من نشر العلم ، وبخاصة إذا تذكرنا أن العرب أمة تقليدية ، تنظر إلى الأجداد وثرواتهم نظرة احترام عميق ، وتبجيل يصل إلى حد التقديس أحيانا .

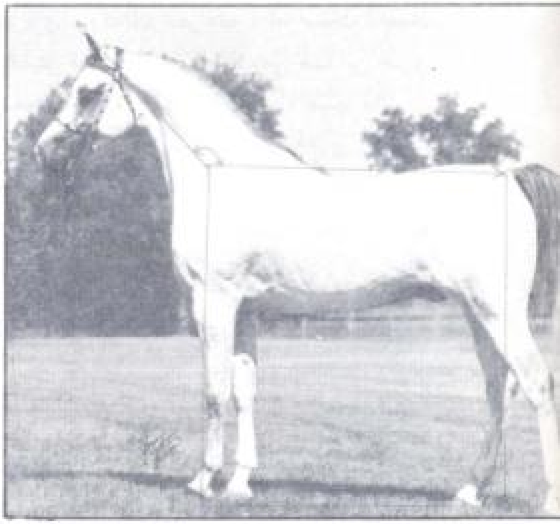
منتخب كتاب الاحتفال

يقع الكتاب في ٤٢ بابا .

والواقع أنه مختصر أو منتخب من كتاب آخر ، هو كتاب « الاحتفال » لأبي عبدالله محمد بن رضوان بن أرقم ، من وجوه وادي آش وأعيانه ، على قول ابن جُزَيّ . و أعتقد أن الكتاب مثل واضح لكتب عصور الانحطاط ، فهو ليس من تأليف ابن جزي ، ففي تلك العصور انتشرت كتابة الموجزات والمنتخبات ، لأنها أسهل وأسرع وأكثر ربحاً . والمقدمة مليئة بمدح السلاطين حتى التذلل ، وبالكلام عن النفس ، والتفاخر ، والتعالي . وثالثة الأثافي عدم احتوائها على الأصيل والجديد .

كما يتميز الأسلوب بالتكرار المملّ ، والتناقض في الآراء والأحكام ، والاستطراد في مواضيع لاعلاقة لها بالموضوع الأصلي .

فهو مثلا يمدح السلطان أبا عبدالله نثرا وشعراً في صفحتي (١٩ ـ ٢٠) ، ثم يبدأ بمدح نفسه ، فيقول



نسب الحصان العربي الأصيل

إن « محمداً نشأ في حجر العلم ، وغذي بلبانه ، وتبوأ روضه ، بجني فنون الحكم من أفنانه . . » ، ويستمر خلال حوالي صفحة في مديح عمله (٢٠ ـ ٢١) ، ثم ينتقل إلى مؤلف الكتاب الأصلي ـ « الاحتفال » ـ فيتحدث عنه ببضعة أسطر ، لينتقل مباشرة إلى مديح ملوك بني نصر (من الصفحة ٢١ إلى الصفحة ٣٢) .

يدخل ابن جُزَيّ بعد ذلك ليشرح أصل الحصان ، فيسرد قصة خلقه من الريح ، ثم يعود فينقضها ، ويثبت بآراء ومستندات كثيرة أن الحصان العربي من استئناس وتربية سليمان وداود واسماعيل .

ولقد اتخذ الصهاينة ذلك مستنداً للقول بأن استئناس الحصان العربي الذي يفضلون تسميته « الشرقي » قد تم في فلسطين ، وأن اليهود هم الذين استأنسوه وليس العرب . ومن الذين يدعون بذلك مثلا كلود ليبيناس .

ويسرد ابن جزي مجموعة من الأحاديث النبوية ، المتعلقة بالخيل وبالحض على الاعتناء بها واحترامها . ويعتبر المؤرخون المنصفون أن للرسول (ﷺ) الفضل كل الفضل في دعم الاهتمام بالجواد العربي . وبهذا لم يأت (ابن جزي) بجديد .

وبعد ذلك يدخل ذكر ألوان الخيل ، فيكرس لذلك أحد عشر بابا ، من أصل (٤٢) ، أي مايقارب الربع ! ولاأريد أن أعلق كثيرا على ما ورد ، فهو معروف ومذكور في كل الكتب ، أمثال كتاب « في فضل الخيل » للدمياطي ، وكتاب « رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد » للبخشي .

دور الكلبي

وفي باب الاستدلال على جودة الفرس « بصفاته الظاهرة » الذي كرس له المصنف عشر صفحات (١٥٤ ـ ١٦٤) يتحدث عن القراسة عند البشر في سبع صفحات ونصف ، ويترك للحصان صفحة ونصف ، وتلك من عاداته السيئة في الكتاب ، وهي الاستطراد في مواضيع أخرى ربما كان هو فيها أعلم ، أو لشطط في قلمه ، إلا أن لهذه العادة حسنة ، فهو مثلا يحدثنا عن « فطنة الكلاب » حديثا حلوا جيدا ، يناقض ما اعتاده كثيرون من رجال الدين ، وهو النهي عن مصاحبة الكلب لأنه مؤذ ينقل الأمراض ، أو لأنه نجس . فهل لهذا علاقة بلقب ابن جزي ، أي « الكلبي » ؟

وفي هذا الفصل يدافع عن نظرية التوالد الذاتي ، فيقول بأن العقارب تتولد من الباذنجان ، والدود من السوس إلخ ، ثم يدخل في متاهات فوائد النحل والعسل ، ثم الهدهد وملك سليمان ، ثم الحية والثعلب ، شعرا ونثرا ، ويستمر ابن جزي في ذلك حتى يدخل في الشعوذة والسحر ، مما حرمته الشريعة الاسلامية ، ومما انتشر في عصور الانحطاط ، فيقول بأن عين الهدهد إذا علقت على الناسي تذكر ما نسيه ، وأن مخالب الهدهد إذا أحرقت وشربت المرأة رمادها بالماء لم تحمل ، إلخ .

وفي الفصل الذي يليه يدخل في متاهات الأرقام ،

الخمسة والأربعة والثلاثة ، فيذكر ما قيل فيها من حكم ومواعظ وأحاديث ، ثم يدخل في حديث شغل بالي كثيراً ، لأننا اذا قرأنا ما جاء في الكتب العربية « المطبوعة » عن صفات الفرس الأصيل ضعنا فعلا أمام هذا الحشد الزاخر من الصفات والمواصفات ، بحيث يصبح من الصعب ، بل من المستحيل على المرء أن يتعرف على الحصان العربي الأصيل ، وشيء آخر وقع فيه الاستاذ الخطابي نفسه إذ يقول في شرح الصورة « فارس مغربي على صهوة جواد من عتاق الخيل العربية البربرية المعروفة في المغرب باسم باربي » .

والحقيقة أن الحصان البربري نوع من أنواع الخيول ، ولا علاقة له بالحصان العربي . يقول الطبيب البيطري الفرنسي « لوى كايو » : منذ البداية يلفت أنظارنا في الحصان البربري غياب ذلك الانسجام والجمال الذي نجده في الحصان العربي ، بل ـ على العكس ـ تصدمنا أشكاله الخشنة ، وخطوط جسمه المتقطعة ، غير المستديرة كما هي عند الحصان العربي ، لكنه حصان قوي » .

أوصاف الحصان العربي

وثمة علامات ملازمة للحصان العربي وهي قصبة الأنف المقعرة ، وابتعاد الذنب عن الجسم . كما يتميز ذنب الحصان العربي بأنه يرتفع بشكل جميل ، إذ يأخذ شكل ريشة نعام ، ورأسه مخروط الشكل ، ومنخراه واسعان ، أسود اللون ، عيناه واسعتان ذواتا نظرات ذكية ، وأهدابها طويلة سوداء (مكحلة) ، وأذناه صغيرتان ، موجهتان دوما إلى الأمام ، وجلده رقيق تشف من خلاله عروقه ، وشعر جلده قصير (الجُرْد) ، وعنق أنثاه مقوسة ، وعند الذكر مثلثة قوية عريضة القاعدة ، وبين محور الجسم الأفقي ومحور العنق زاوية منفرجة إلى الأعلى ، وحاركه ظاهر بارز ، صهوته عريضة ، كفله مكتنز ، وجبهته عريضة ، وعرفه طويل ناعم حريري ، وكذلك شعر ذنبه ، أما صفات الحصان الجميل فهي مختلفة ، قد كرس لها ابن جزي صفحات كثيرة ، فيها متناقضات ، سببها عائد إلى ذوق المتفحص ، وتفضيله صفة على أخرى . وهكذا فمن يحب القوة والفحولة في الحصان يفضل الذكر القوي العضلات ، ومن يحب الخطوط الجميلة المتناسقة والجمال الصافي يفضل الأنثى ، إلخ .

وثمة حكام عالميون مجازون ، هم الذين يحضرون مسابقات جمال الحصان العربي ، لأنه يعد أجمل حصان . وتجري في فرنسا بباريس كل عام بمناسبة « معرض الحصان » مسابقة لأجمل حصان عربي نال الفوز فيها في عام ١٩٨٥ « شريف باشا » الذي ارتفع ثمنه فوصل إلى أربعة ملايين دولار .

ولقد اختصر شاعر عربي قديم جمال الحصان العربي ببيتين من الشعر فقال :

وَقَدْ أغتدي قَبْلَ ضوءِ الصباح
وورد القطا في الفلاة الحثاث
بصافي الثلاث ، عريض الثلاث ،
قصير الثلاث ، طويل الثلاث

وهنا أيضا يختلف المفسرون للثلاث حسب ذوقهم وعلمهم ، فصافي الثلاث : العين واللون والصهيل ، أو : الأديم والعين والحافر ، وعريض الثلاث : الصدر والصهوة والجبهة ، أو الصدر والجبهة والمنخر ، أو الجوف ، وقصير الثلاث : الرسغ ووظيف اليد والعسيب ، أو الظهر والساق والعسيب ، وطويل الثلاث : العنق والخد والذراع ، أو الأذن والفخذ والسالفة .

وحرف الغربيون هذا التعريف المأخوذ عن العرب فقالوا : بأربعة ، فالأربعة العريضة : الجبهة والصدر والكفل والأطراف .

والأربعة الطويلة : العنق والبطن والورك والخط العلوي .

والأربعة القصيرة : الجنب والرسغ والأذن والذنب .

لأن الاعتماد على النظر فقط أمر يختلف ـ كما قلنا ـ باختلاف الذوق والعادة والتأثير ، إلخ .

إذ أن الخيول العربية « .. محتقرة من قبل بعضهم » ، كما تقول « ايزابيل جونكيز دوربولا » لأن العرقية امتدت عند بعض الغربيين ، فشملت حتى الخيول العربية !

ولقد وجدت ـ حسب معلوماتي المتواضعة ـ أخطاء كثيرة من قبل الأستاذ الخطابي ، والسيد « كليمانت موليه » المستعرب الذي ترجم كتاب (الفلاحة) .

أما الاستاذ الخطابي فهو يعتقد عن حق أن اللغات الاوروبية المعاصرة ـ وبخاصة الفرنسية لما لها من تأثير على المغرب ـ هي لغة العلم ، وهذا صحيح في أيامنا هذه ، أما في العصور الوسطى فقد كانت العربية هي لغة العلم والمرجع .

ولقد وقع أستاذنا الجليل الخطابي في هذا الخطأ ، فوافق على ترجمة كلمة **HARA** الفرنسية بكلمة حرية العربية ، ويبدو أن هذه الكلمة معتمدة في المغرب رسميا ، إذ جاءت في الدليل الثلاثي اللغات الذي وزع أثناء مهرجان المنظمة الدولية للجواد العربي الذي انعقد في المغرب عام ١٩٨٦م .

والواقع أن كلمة **HARA** مشتقة من العربية من كلمة « حرة » والسبب أن ثمة ثلاث طرق لعرض الحصان :

الأوروبية : ويعرض فيها الحصان مع لجامه واقفا ، وأثناء الجري .

والأميركية : يعرض فيها مع اللجام بدون سرج واقفا مشدود الرأس متوتر الأطراف .

والعربية : يترك فيها الجواد حرا ، بدون لجام أو سرج ، فيركض كما يريد ، ويتفحص الفاحصون .

ولقد استعملت الطرائق الثلاث أثناء المهرجان في المغرب .

أما كلمة **CHANFREIN** فأصلها شنفر ، فالشفة العليا إذا انقلبت إلى أعلى سميت شنفا ، والشنفرى ثابت ابن أوس الايادي ، الملقب بالشنفرى لعظم شفتيه ، وهو صاحب لامية العرب .

أما كلمة **GANACHE** فهي تحريف للكلمة العربية حنك ، إلخ .

وكلمة **STOOD — BOOK** التي يترجمها الاستاذ بكلمة « سجل الجياد » والتي يكرس لها الكاتب اللبناني المرحوم يوسف ابراهيم يزبك فصلا كاملا في كتابه « الجواد العربي التحفة الكنز » وفيه يطلق صرخة مجلجلة مدوية يناشد فيها الدول العربية باعتماده ، فهو معروف عند العرب ، بل هو من ابتكارهم ، فكما كانوا يفتخرون بالحسب والنسب ، كذلك كانوا يحفظون « أنساب الخيل » عن ظهر قلب ، وعندما تحضروا ظهرت كتب كثيرة تحت هذا العنوان ، أو ماشابهه ، والحجة **PEDIGREE** من ابتكار العرب أيضا .

لكن لابد أن تقوم وزارات الزراعة في البلاد العربية بمسك دفتر أنساب الخيل على غرار ما تفعله وزارة الفلاحة في المغرب ، وفي كافة بلاد العالم المتقدم .

الخلاصة

إن اهتمام دور النشر الخاصة بنشر كتب التراث أمر محمود ، وجعلها كبار المثقفين يتولون القيام بذلك أمر مشكور .

لكن حبذا لو أحسن اختيار الكتب ، فطبع كتاب « الصناعتين » مثلا بتحقيق علمي جيد أمر مطلوب وعلى المحققين أن يكرسوا الوقت اللازم الكافي من أجل ذلك .

أرحب رغم كل شيء بهذا الكتاب أجمل ترحيب ، وأهنىء القائمين على إصداره ، وآمل أن تختفي الأخطاء والهنات في طبعات قادمة إن شاء الله . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : مع غسان كنفاني
المؤلف : أحمد بيضي
الناشر : دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء - المغرب
عدد الصفحات : ٢٥٨ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٦

كتاب جديد عن الروائي والمناضل الفلسطيني الراحل غسان كنفاني . ويتناول هذا الكتاب الذي يحمل عنوانا فرعيا هو : « بين المنفى والهوية والابداع » حياة غسان وأعماله الابداعية والنقدية ، بالاضافة الى دراسة تحليلية لرواياته الأربع المكتملة ، وروايتين من رواياته التي لم تكتمل كرواية « العاشق » ، « وبرقوق نيسان » . وان كانت للكتاب ميزة الاستمرار في دراسة أدب غسان الذي استشهد منذ ١٥ عاما فان لصدوره في المغرب ميزة أخرى اضافية .

■■

الكتاب : أثر الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم
المؤلف : تسعديت آيت حمودي
الناشر : دار الحداثة - بيروت
عدد الصفحات : ٣١٥ صفحة
سنة النشر : ١٩٨٦ م

يقسم المؤلف كتابه الى أربعة فصول ومقدمة وقائمة بالمصادر والمراجع ، يتناول الفصل الأول نشأة المذهب الرمزي في الغرب ، ومفهوم هذا المذهب للأدب ، وأثره في الأدب الحديث ، ويقدم الفصل الثاني نماذج تحليلية من المسرح الرمزي (« بلياس وميليزان » للكاتب البلجيكي موريس ميترلينك ، و « البطة البرية » للكاتب النرويجي هنريك ابسن ، و « طائر البحر » للكاتب الروسي انطون تشيكوف) ، ويتناول الفصل الثالث طبيعة الرمز في مسرح توفيق الحكيم (المسرح الأسطوري أو الرمز الأسطوري ، وكذلك التوليدي) ، أما الفصل الرابع فيقدم نماذج تحليلية مقارنة هي :
البناء الرمزي في مسرحية « بجماليون » .
البناء الرمزي في مسرحية « شهرزاد » .
البناء الرمزي في مسرحية « ياطالع الشجرة » .
كما يعرض المؤلف الى مصادر الحكيم الأسطورية ، من قصص مستمدة من القرآن الكريم ، والتراث الاسلامي ، والتاريخ ، أو حكايات مستمدة من الأساطير الاغريقية ، والفرعونية ، و « الفولكلور » الشعبي .

■■

الكتاب : الطلقات الأخيرة - رواية
المؤلف : يوري بونداريف
ترجمة : غائب طعمة فرمان
الناشر : دار رادوغا - موسكو
عدد الصفحات : ٢١٢ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٧ م

يقدم لنا الروائي المعروف غائب طعمة فرمان ترجمة جديدة وجيدة لاحدى أهم روايات يوري بونداريف ، الكاتب السوفيتي الشهير .
ومثل كثير من الأعمال الأدبية السوفياتية تدور

أحداث هذه الرواية خلال فترة الحرب العالمية الثانية التي اكتوت بنارها أجيال بكاملها في أوروبا . وهذا الجيل الذي تفتح وعيه على الحرب والقتل والدمار هو الجيل الذي يكتب بونداريف قصته ، ويقدمه لنا في لحظاته غير العادية ، حيث يصبح القتال ضرورة ، وتصبح الشجاعة قيمة أساسية من قيم ذلك الجيل الذي هو جيل المؤلف نفسه .

■■

الكتاب : سيناريو المعتقلات الصهيونية ـ الكتاب الأول

المؤلفان : منية سمارة ، ومحمد الظاهر

الناشر : دار منارات ـ عمان

عدد الصفحات : ١١٥ من القطع المتوسط

سنة النشر : ١٩٨٥ م

في هذا الكتاب الفريد في موضوعه يقدم المؤلفان نماذج حية من حياة الشعب الفلسطيني الذي يخوض نضالا شرسا ضد آلة قمع هائلة ، تمتلكها السلطة « الاسرائيلية » .

من خلال أسئلة وأجوبة مع بعض من واجهوا هذه الآلة ترسم لنا صورة مناضل أو مناضلة بكل أبعادها الانسانية والثقافية والتاريخية ، وقبل هذا بأبعادها النفسية ، حيث يبدو هؤلاء أناسا عاديين ، رغم عظمة الأعمال التي قاموا بها .

وباستعراض شخصيات الكتاب وتقديم أعمالها تتكون لدى القارىء في النهاية صورة لنضال شعب كامل ، في مواجهته المباشرة مع المحتل وآلة قمعه .

■■

الكتاب : التمريض الطبي النفسي في الكويت

المؤلفون : أحمد أيوب ، ومروان سليمان المطوع ، وحوران ذيب حوران

الناشر : مطابع الخط ـ الكويت

عدد الصفحات : ١٨٤ من القطع الكبير

سنة النشر : ١٩٨٧ م

يتناول هذا الكتاب جانبا من حياتنا ، مازال الى حد كبير مجهولا ، ويلقي الضوء على فرسان مجهولين ، كرسوا أنفسهم ، وبذلوا جهدهم للتعامل مع المرضى في مستشفى الطب النفسي في الكويت

وبالاضافة الى العرض التاريخي الجيد الذي يقدمه الكتاب لتطور الاهتمام بهذه الفئة من المجتمع في الكويت منذ الثلاثينيات وحتى الآن فإنه يتناول قضايا عملية أخرى ، مثل اجراءات دخول المريض الى مستشفى الطب النفسي ، والأدوية المستخدمة في علاج بعض الحالات .

كما يتضمن الكتاب تعريفا بأهم الأمراض النفسية ، وطرق علاجها ، فضلا عن معلومات أساسية حول هذا الجانب الذي لم يلق عليه حتى الآن مايستحق من ضوء .

■■

الكتاب : فلسفة التشريع الاسلامي

المؤلف : مجموعة من العلماء

الناشر : أكاديمية المملكة المغربية ـ الرباط

عدد الصفحات : ١٩٠ صفحة من القطع المتوسط

سنة النشر : ١٩٨٧ م

أصدرت أكاديمية المملكة المغربية هذا الكتاب ضمن سلسلة « الندوات » ويضم هذا الكتاب البحوث المقدمة في الندوة العلمية التي نظمتها الأكاديمية في عام ١٩٨٥ م حول موضوع فلسفة التشريع الاسلامي ، ومن ضمنها بحث رئيسي ، أعده الشيخ مكي الناصري ، عنوانه « فقه الشريعة وفلسفة التشريع الاسلامي » ، كما يضم أبحاثا حول المبادىء العامة في القانون الاداري ، وعلاقتها بالاصول في التشريع الاسلامي ، وضبط المفاهيم في مجالات الفقه والشريعة والوحي والتشريع ، وتطور التشريع المغربي والتشريع الاسلامي مقارنة بالتشريعات الأخرى ، والقانون العام والقانون الخاص ، اضافة الى أبحاث أخرى . □

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٤٦
سبتمبر ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة اسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 ـ الكويت . « مسابقة العربي العدد ٣٤٦ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ اكتوبر ١٩٨٧ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العـــدد ٣٤٦

« عالم الرياضة »

١ ـ الألعاب الاولمبية غالبا ما يشترك فيها كبار الرياضيين وأبطال الأرقام القياسية . ترى هل يوجد بين هؤلاء الأبطال هواة ، أم أنهم كلهم محترفون ؟

٢ ـ لعبة تنس الطاولة لعبة محببة لكثيرين ، وتسمى بنج بونج أيضا ، وما زالت تعرف بهذا الاسم في أكثر بلاد الغرب . ترى في أي البلدان ظهرت هذه اللعبة أول ما ظهرت :

* في الصين بدليل اسمها القديم ، وبدليل اتقان الصينين هذه اللعبة ؟
* في الهند ؟
* في انكلترا ؟

٣ ـ أكبر ستاد مكشوف في العالم يتسع لربع مليون متفرج تقريبا ، ولأربعين ألف رياضي . أين يوجد هذا الستاد :

* في نيويورك ؟
* في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا ؟
* في لندن ؟

٤ ـ الكل يعرف شعلة الأولمبياد ، تلك الشعلة التي تقطع المسافات الطويلة حتى تصل إلى حيث تقام المباريات الأولمبية ، فتوضع في مكان مرتفع ، وتبقى مشتعلة حتى تنتهي المباريات ، لكن الشعلة انطفأت في واحدة فقط من المباريات الأولمبية الحديثة ، وبقيت نحو دقيقتين . ترى أين حدث ذلك ومتى ؟

٥ ـ رياضة « الجلة » أو الكرة الحديدية (الشوت بوت) رياضة معروفة ، يمارسها كلا الجنسين من الرجال والنساء ، ويبلغ وزن « الجلة » في لعبة الرجال (٧,٢٥) كيلو غرامات . فما هو وزنها في لعبة « الجلة » للنساء :

* وزن « الجلة » واحد في لعبة الرجال والنساء .



* وزن « جلة » لعبة النساء يبلغ نصف وزن « جلة » الرجال .

* وزن جلة النساء هو ٤ كيلو غرامات .

٦ ـ من المباريات المحببة للأمريكيين تلك التي تقام بين رعاة البقر ، وتشمل فيما تشمل ركوب الخيول البرية غير المروضة ترويضاً كافيا . ترى ما الاسم الذي تعرف به هذه المباريات ؟

* كاوبوي .
* روديو .
* جريهاوند .

٧ ـ من المهرجانات الرياضية الكثيرة في بلاد الغرب مهرجانان يلفتان النظر ، يسمى أحدهما البنتاثلون ، أي مهرجان اللعبات الخمس ، ويسمى الآخر ديكاثلون ، أي مهرجان اللعبات العشر ، لكن أحدهما خاص بالنساء ، والآخر خاص بالرجال . فأيهما هذا وأيهما ذاك ؟

٨ ـ من هو لاعب الكرة الذي سجل ١٠٠٠ هدف في غضون عشر سنوات ، أي ما بين سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٩ ، علماً بأن عدد المباريات التي سجل فيها تلك الأهداف لم يجاوز ٩٠٩ مباراة ؟

٩ ـ أكبر ستاد مسقوف في العالم يوجد في مدينة نيواورليانز في ولاية لويزيانا في الولايات المتحدة الامريكية . فما هو عدد المتفرجين الذين يتسع لهم هذا الستاد المسقوف ؟

* ٢٥٠٠٠ متفرج .
* ٥٠,٠٠٠ متفرج .
* ١٠٠,٠٠٠ متفرج .

١٠ ـ يذكر الرياضيون بطلين اثنين من أبطال الألعاب الأولمبية ، أحدهما بافو نورمي الفنلندي ، بطل مباريات سنة ١٩٢٤ ، والثاني رجسي اونز الزنجي الأمريكي ، بطل مباريات سنة ١٩٣٦ .

وكلا البطلين عدّاء ، وقد تفوق أحدهما في المسافات القصيرة ، وتفوق الثاني في ركض المسافات الطويلة . فأيهما هذا وأيهما ذاك ؟

١١ ـ قواعد أو قوانين كونيز بري ذات شهر كبيرة في عالم الرياضة ، وضعها الماركيز كونيز بري سنة ١٨٦٧ ، من أجل تنظيم إحدى الرياضات التالية :

* المصارعة .
* كرة القدم .
* الملاكمة .

ترى أي هذه الرياضات تحكمها قواعد كونيز بري في الوقت الحاضر؟

١٢ ـ من المعروف أن الألعاب الأولمبية الحديثة تشمل فيما تشمل ركض المراثون . ترى هل كانت هذه الرياضة من الرياضات التي شملتها الألعاب الأولمبية القديمة « اليونانية » ؟ □

حل مسابقة العدد ٣٤٣

١ ـ تحدث السلف الصالح عن مجريط ، وقصدوا بها مدريد ، العاصمة الاسبانية ، وتحدثوا عن اقريطش وقصدوا بها جزيرة كريت ، أما بلاد الكرج فهي ولاية جورجيا السوفياتية ، حسب تسمية السلف الصالح .

٢ ـ البرازيل أكبر من الهند مساحة ، إذ تبلغ مساحتها ٨,٥١١,٩٦٥ كيلو متراً مربعا ، بينما لاتزيد مساحة الهند على ٣,٢٨٧,٧٨٢ كيلو متراً مربعاً ، وتنقلب النسبة إذا ذكرنا عدد السكان ، إذ لايزيد عدد سكان البرازيل على ١١٩,٠٢٤,٦٠٠ نسمة ، بينما يبلغ عدد سكان الهند ٦٨٥,١٨٥,٠٠٠ نسمة .

٣ ـ إنها يوغوسلافيا كما لايخفى ، وإليك التفاصيل :

الجمهوريات الست هي : سلوفينيا / كراوشيا / صربيا / مونتنجرو / مقدونيا / بوسينا / هرزيكوفينا .

والقوميات الخمس هي : قوميات الجمهوريات المذكورة باستثناء الأخيرة التي لاتعتبر قومية بالمعنى الدقيق .

واللغات الأربع هي : الصربية والكراوشية والسلوفينية والمقدونية .

والأديان هي : الكاثوليكية والارثوذكسية والاسلام .

٤ ـ الاسم القديم لبركينا فاسو هو فولتا العليا ، والاسم الجديد لداهومي هو بنين ، والجدير بالذكر أن مساحة بركينا فاسو تبلغ ٢٧٤,٢٠٠ كم ٢ ، وعدد سكانها يقارب سبعة ملايين نسمة ، ومعنى ذلك أنها أكبر من بنين بمرتين أو أكثر ، ذلك أن مساحة بنين تبلغ ١١٢,٦٢٢ كم٢ ، وعدد سكانها ٣,٥٢٠,٠٠٠ نسمة .

٥ ـ استقلت (نيازالند) سنة ١٩٦٤ ، فاستبدلت اسمها هذا باسم ملاوي ، وغيرت اسم بحيرتها التي كانت تسمى بحيرة نيازا طيلة قرن من الزمان فأصبحت تسمى بحيرة ملاوي .

ومن طريف مايذكر أن (نيازا) اسم افريقي يعني (بحيرة) ، وقد أطلقه على البحيرة المستكشف دافيد لفنجستون سنة ١٨٥٩ حين وصلها لأول مرة .

٦ ـ فنزويلا هي الدولة المقصودة ، فاسم فنزويلا يعني باللغة الأسبانية فينسيا الصغيرة ، أي البندقية الصغيرة . وكان الرحالة الأسباني (الونصو دي اوجيدو) هو الذي أطلق عليها هذا الاسم ، وكان ذلك سنة ١٤٩٩ حين كان يبحر بمحاذاة الساحل الكاريبي لفنزويلا ، فرأى بيوت بعض الهنود الحمر المبنية على ركائز فوق الماء ، فذكره منظرها بالبندقية .

٧ ـ الألوان والخطوط واحدة على كلا الوجهين ، خطوط عادية بألوان ثلاثة ، هي : الأحمر فالأبيض فالأزرق ، لكن أحد الوجهين يشمل بالإضافة إلى ذلك رسما على القاطع الأبيض هو صورة لخاتم الخزينة .

٨ ـ ديوميد الكبرى جزيرة روسية ، وديوميد الصغرى جزيرة أمريكية ، وتقع الجزيرتان في مضيق برنج . والجدير بالذكر أن خط التوقيت الدولي يمر بين هاتين الجزيرتين ، بحيث يفصل بينهما يوم كامل بالرغم من أن الواحدة منهما لاتبعد عن الأخرى إلا مسافة (٤) كيلومترات فقط .

٩ ـ الدولة الاوروبية المقصودة من السؤال هي مملكة بولونيا ، فقد كانت الدولة الاوروبية الكبرى مساحة (بعد روسيا) ، والكبرى بعدد السكان (بعد

فرنسا) ، حتى عام ١٧٧١ ، لكن الحروب مالبثت أن قامت بينها وبين جاراتها ، روسيا والنمسا وبروسيا ، طيلة جيل كامل (١٧٧٢ - ١٧٩٥) ، وانتهت تلك الحروب بانتصار هذه الجارات على بولندة ، واقتسام أراضيها فيما بينها .

١٠ - الدولة هي بوليفيا ، وقد خسرت ماخسرت على النحو التالي :

- سنة ١٨٧٩م - ١٨٨٣م حرب الباسفيكي : وكانت نتيجتها أن ضمت شيلي سواحل بوليفيا على المحيط الباسيفيكي بما في ذلك صحراء أتكاما .

- سنة ١٩٠٣ م اضطرت بوليفيا للتخلي عن إحدى مناطقها الغنية بشجر المطاط للبرازيل .

سنة ١٩٣٢م - ١٩٣٥م فقدت بوليفيا في حرب شاكو مع الباراجواي نحو ثلاثة أرباع إقليم شاكو الجنوبي .

١١ - فانوتو هو الاسم الجديد الذي اختارته لنفسها الجزر المذكورة في عهد الاستقلال ، وقد كان اسمها السابق هو جزر الهبرايد الجديدة . عاصمتها هي فيلا.

١٢ - تقع قرية اخشنة قرب بخارى في الاتحاد السوفياتي . □

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٣ يونيو ١٩٨٧

الجائزة الأولى : أحمد محمد سالم درويش/ القطيف - المملكة العربية السعودية .

الجائزة الثانية : حامد أحمد محمد الباز/ محافظة الدقهلية - جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثالثة : برشي محمد - فرنسا .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - المنصف السالمي/ المعهد الثانوي المختلط/ القيروان - تونس .

٢ - محمود سعيد محمد مصطفى صالح نزال/ الجهراء/المنطقة الثانية - الكويت .

٣ - مالكي امحمد/ شارع علال الفاسي - مراكش - المملكة المغربية .

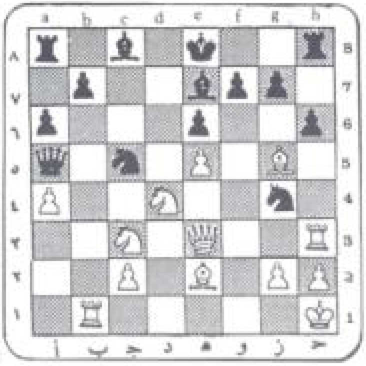
٤ - صلاح مدثر محمد عبدالله/ مغلق العمارة - السجانة - السودان .

٥ - ظافر كاظم البكري/ كلية الهندسة - جامعة كشمير - الهند .

٦ - فاطمة محمد ناصر اليزيدي/ ص.ب ١٠٧٥٥ - صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية .

٧ - السعيد زبيري - فرنسا .

٨ - مفيد جمال ياسين/ عمان - الجامعة الأردنية - الأردن .



معركة بلا سلاح

من مباريات الشطرنج الطريفة التي جرت في أواخر العام الماضي تلك المباراة التي أقامها نادي اوترخت الهولندي ، احتفالا بمرور مائة عام على تأسيسه ، فقد استضاف النادي المذكور ستة من كبار أبطال العالم في الشطرنج ، منهم البريطانيان (جون نن) و (توني مايلز) ، ليقابلا الأبطال الهولنديين في مباراة فريدة من نوعها ، تهدف إلى وضع بعض الافتتاحيات ـ محل الجدل ـ موضع الفحص والاختبار . وقد اختار منظمو المباراة افتتاحيتين من افتتاحيات جناح الوزير ، تعرف إحداهما بدفاع (جرو نفيلد) ، والثانية بدفاع الوزير الهندي ، وهما الخطان الرئيسيان لتفريعة الدراجون (التنين) من الدفاع الصقلي (السيلياني) أ. هـ ٤ جـ ٥ التي يتبعها الاسود ب (هـ ٣) إلى حين الوصول إلى البيدق المسموم ، وهي تفريعة الدفاع الصقلي المفضلة لدى بطل العالم الأمريكي بوبي فيشر (١٩٧٢ ـ ١٩٧٥) الذي كان سبباً في هزيمته أمام بوريس سباسكي بطل العالم الروسي (١٩٦٩ ـ ١٩٧٢) ـ الفرنسي حالياً ـ في مباراة ريكجافيك المشهورة .

وقد ألحق تسعة من البيادق المسمومة الكوارث على رءوس لاعبيها الذين هزموا في جميع الحالات . مما يدعونا للتساؤل فيما إذا كان من الممكن اعتبار ذلك نجاحاً متأخراً لنظرية فيشر .

□ نيوفهيس (هولندا)	■ جون نن (انجلترا)
١ ـ هـ ٤	جـ ٥
٢ ـ ح ـ و ٣	د ٦
٣ ـ د ٤	جـ × د ٤
٤ ـ ح × د ٤	ح ـ و ٦
٥ ـ ح ـ جـ ٣	أ ٦
٦ ـ ف ـ ز ٥	هـ ٦
٧ ـ و ٤	و ـ ب ٦
٨ ـ و ـ د ٣	و × ب ٢
٩ ـ ر ـ ب ١	و ـ أ ٣

وبانتهاء هذه النقلات الاجبارية بدأت حرية الاختيار ، فاختار أربعة من اللاعبين البيض ١٠ و ٥ ، وأخذ خامس الحصان بالفيل ، غير أن الباقين تابعوا اللعب كالآتي :

١٠ ـ ف ـ هـ ٢	ح (١) ـ د ٧
١١ ـ ث	و ـ جـ ٥
١٢ ـ م ـ حـ ١	ف ـ هـ ٧
١٣ ـ أ ٤	و ـ جـ ٧

الفائزون في
حل مسابقة
الشطرنج
العدد ٣٤٣
يونيو ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . محمود علي محمد ـ مقديشو / الصومال
٢ . محمد عبد الله علي ـ العوالي / البحرين
٣ . محمود عطيه البيومي ـ الدقهليه / ج م ع
٤ . تغريد حمّاد ـ عمان / الاردن
٥ . أحمد حسون ـ بغداد / العراق

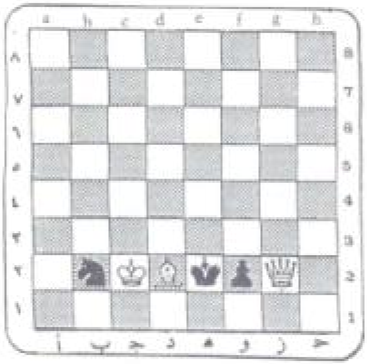
الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . علي يوسف محمود ـ حلوان / ج م ع
٢ . حامد عبدولي ـ الدوحة / قطر
٣ ـ الهام السالمي ـ فاس / المغرب
٤ ـ أميرة حسن شحات ـ الاسماعيلية / ج م ع
٥ . عناية نبهاني ـ الصفاة / الكويت

---

١٤ ـ ر ـ و ٣	حـ ٦
١٥ ـ ر ـ حـ ٣	ح ـ جـ ٥
١٦ ـ و ـ هـ ٣	و ـ أ ٥
١٧ ـ هـ ٥	د × هـ ٥
١٨ ـ و × هـ ٥	ح ـ ز ٤ (انظر الشكل)
١٩ ـ ف × ز ٤،	ف × ز ٥
٢٠ ـ و ـ هـ ٢	ت
٢١ ـ ح ـ و ٣	ف ـ هـ ٧
٢٢ ـ ح ـ هـ ٤	ح × هـ ٤
٢٣ ـ و × هـ ٤	ر ـ د ٨
٢٤ ـ ف ـ حـ ٥	و ٥
٢٥ ـ هـ × و ٦ (بالتجاوز)	ف × و ٦
٢٦ ـ ر ـ و ١	ف ـ د ٧
٢٧ ـ ح ـ د ٤	و × أ ٤
٢٨ ـ ر ـ د ٣	ر ـ و ٨
٢٩ ـ ف ـ و ٣	ر أ ـ هـ ٨
٣٠ ـ جـ ٣	و ـ جـ ٤
٣١ ـ و ـ ز ٦	ف × د ٤
٣٢ ـ جـ × د ٤	ر ـ و ٦
٣٣ ـ و ـ هـ ٤	ف ـ جـ ٦
٣٤ ـ و ـ هـ ٢	ف ـ ب ٥
٣٥ ـ ف ـ هـ ٤	و ـ جـ ٢

ويخسر الأبيض الدور . لماذا يا ترى ؟



مسألة العدد ٣٤٦ سبتمبر ١٩٨٧

مات ٢

مهداة من القارىء محمد عزّام (القاهرة)

حل مسألة العدد ٣٤٤
يوليو ١٩٨٧
مفتاح الحل ح ـ هـ ٧

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

لصوص ظرفاء

● قرأت في العدد ٣٣٨ شهر يناير ١٩٨٧ مقالا للدكتور عبد السلام العجيلي ، تحت عنوان « حيلة ... وحيلة » يحدثنا فيه الدكتور عبد السلام العجيلي عن السرقات التي حدثت في فرنسا العام الفائت .

وتوقف عند اغرب حادثة سطو وقعت في احدى ضواحي باريس واسهب الدكتور في سرد تفاصيلها بأسلوب قصصي جذاب تعودناه في رواياته العديدة . إلا أن ما استوقفني كثيرا هو بعض العبارات التي وردت في مقال - الدكتور عبد السلام العجيلي والتي تبرر للسارق فعلته لطرافة اسلوبه في السرقة وأسوق هنا عبارتين وردتا في بداية ونهاية المقال الاولى: (نكاد نغفر احيانا للسارق جرمه لطرافة اسلوبه في ارتكاب هذا الجرم) الثانية : (قال صاحبي معقبا على مارويته له : لصوص اذكياء لا شك في هذا،مغنمهم من الأثاث والتحف الثمينة يتناسب مع مايملكونه من وسائل في عالمهم المتقدم ، ونحن هنا كذلك لانعدم لصوصا ظرفاء لهم اساليبهم الذكية التي تسوق الابتسامة الى الشفاه ، ويكاد أن يغتفر لهم معها خروجهم على القانون وعلى الخلق المستقيم) .

الى هنا أتوقف : وأعترض على هذا التبرير،وعلى ورود هاتين العبارتين في مقال الدكتور الكبير عبد السلام العجيلي،لان للكلمة سحرها لدى القراء وخاصة عندما تصدر عن قلم دكتور أديب له باع طويل في عالم القصة والرواية ، وهذا السحر الموشى بـ (لصوص ظرفاء) و (طرافة الاسلوب - التي تكاد تدعونا لأن نغفر أحيانا للسارق جرمه) .

هذه الكلمات لها مفعول السحر والترغيب لدى الشباب الطائش والتي تزيده زهوا وغرورا وانحرافا .

وليسمح لي الدكتور عبد السلام العجيلي ان اسأله - متى كان اللصوص ظرفاء ؟ وهل يجتمع المكر والاحتيال والخديعة والدهاء مع الظرف ؟ والظرف يعني الكياسة واللباقة والخلق القويم

فهل في فعلة هؤلاء اللصوص كياسة وخلق قويم حتى ينعتهم الدكتور بالظرفاء واللطفاء ؟

انها عبارات لم يقصد الدكتور عبد السلام بها وضع السم بالدسم على ما اعتقد ولكن القارىء قد يتبادر هذا الى ذهنه للوهلة الاولى ، والأهم من ذلك انه لم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسي أطالع في صحيفة الثورة السورية العدد ٧٣٤٤ تاريخ ١١/ ٤/ ١٩٨٧ الصادرة في دمشق وعلى الصفحة السادسة قصة مشابهة لحادثة السرقة الباريسية بأسلوبها وتفاصيلها الا ان نجومها هذه المرة شبان عرب،وحصلت حوادثها بين مدينتي حلب ودمشق،ألم

يقل الدكتور عبد السلام في مقاله : نحن هنا كذلك لانعدم لصوصا ظرفاء بأساليب ذكية ويكاد أن يغتفر لهم معها خروجهم على القانون وعلى الخلق المستقيم ؟ ولم أكد أنتهي من قراءة هذه الحادثة حتى أصبت بالذهول لدى مطالعتي لصحيفة الوطن الكويتية العدد ٤٣٨٥ الصادرة بتاريخ ٦ مايو عام ١٩٨٧ وتحديدا على الصفحة ٢٨ الاخيرة وفيها حادثة سرقة مشابهة تحت عنوان بعيدا عن السياسة وتحت عنوان صغير / « السرقة فنون وجنون ، ايضا » ، حادثة أخرى بنفس الأسلوب والتفاصيل ولكن مسرحها هذه المرة ضاحية المنار بالعاصمة التونسية وجزيرة جربة السياحية ـ ولا أدري غدا ماذا أطالع وأين ستكون الحادثة الرابعة .. حادثة سرقة غريبة وطريفة ، نفس الأسلوب ، نفس التفاصيل لايسعني هنا الا ان اقول العبارة المشهورة :

(القانون لايحمي المغفلين) هذا صحيح ،

لكن قلم الكتاب والادباء يجب أن يكون أشد قسوة بتناوله هذه الوقائع،وأن يبتعد عن المفردات والعبارات التي تسوغ للمجرم فعلته،وتجعله نجما ظريفا يكاد أن يغتفر له معها خروجه على القانون وعلى الخلق المستقيم .

في الختام أرجو ان أكون قد وفقت في ابداء وجهة نظري وأرفق مع رسالتي هذه قصاصتين من صحيفتي الثورة السورية والوطن الكويتية وردت فيهما هاتان الحادثتان .

محمود هدبه
طرابلس / ليبيا

العربي

ـ ننشر وجهة نظر القارىء الكريم حول مقال الدكتور عبد السلام العجيلي ، ونشير الى أنه أرفق بمقاله المنشور هنا قصاصات من صحيفة « الثورة » السورية ومن صحيفة « الوطن » الكويتية ، وبها نفس الوقائع التي اشار اليها في تعليقه،ومع اننا لانشك قطعا في حسن نيه الدكتور عبد السلام العجيلي ، وتركيزه على عنصر الطرافة في الموضوع الا ان وجهة نظر القارىء الكريم جديرة أيضا بأن تؤخذ في الاعتبار .

لغة القرآن الكريم

في شبه القارة الهندية

● مجلة العربي من المجلات العربية التي يعتز بها المسلمون والعرب ، ونحن في الهند نقدمها للمثقفين غير المسلمين للدلالة على تقدم الصحافة العربية في العالم العربي ، وعلى انتشار اللغة العربية وحيويتها . والآراء التي يبديها أصحابها عبر صفحات هذه المجلة قد لاترضي الجميع ، ولكن شكل المجلة ومخبرها يستهويان كل ناظر . واني قد عرفت فترة بيعت فيها مجلة العربي مقابل ثمن مضاعف .

.ان خدمات المجلة واسعة متنوعة لايستطيع أحد التنويه بها في سطور قليلة ، ولكن الناحية التي تهمنا هي ناحية خدمة اللغة العربية ـ لغة القرآن والسنة ـ وترشيد الجهود التي تبذل في تدريس هذه اللغة ونشرها في العالم .

وقد دفعني الى هذه الكتابة المتواضعة ما قرأته في العدد (٣٤١) من العربي (ابريل ١٩٨٧) تحت عنوان (تحية من معلم بالعالم الجديد) وكذلك ما جاء بعده من وعد العربي بأنها تستمر في ترشيدها وتوجيهها؛وقد تكون هذه السطور مضاعفة للثقل دون تخفيفه ، ولكن الحقيقة ان المنطقة التي تشير اليها لوحظيت فيها اللغة العربية بعناية كافية من المسئولين

حوار القراء ..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

لتغير مجرى الأحداث في شبه القارة الهندية دون مبالغة .

وشرح هذا الاجمال أن المسلمين بالهند (وكذا باكستان وبنغلاديش) ينظرون الى اللغة العربية نظرة الاحترام والتقديس ، ويبذلون كل غال ورخيص في سبيل نشرها والحفاظ عليها .

ولاجل هذه اللغة القيمة أنشأوا عشرات المدارس الكبيرة في اقطار الهند الواسعة،وهذه المدارس أهلية أو شبه رسمية ولكنها تمتاز بعنايتها البالغة باللغة العربية تدريسا وكتابة وتكلما ، حتى ان الطلاب في مرحلة من مراحل الدراسة في هذه المدارس يقرؤون قراءة سليمة جدا ولكنهم لايستطيعون فهم كلمات التنزيل من ناحية المعنى،لانهم لم يصلوا الى مستوى فهم القرآن الكريم ان علماء المسلمين الذين تخرجوا في هذه المدارس الاسلامية ثم استكملوا دراساتهم كانت لهم مساهمة ملموسة في حركة تحرير الهند ، وفي الدفاع عن الاسلام ومبادئه وقيمه ، وفي صد هجمات المبشرين النصارى الذي هاجموا الاسلام والمسلمين بكل عنف وشراسة، أيام الاستعمار الانجليزي لشبه القارة .

ولهؤلاء العلماء مؤلفات قيمة نافعة باللغة العربية أو غيرها،وهي جميعا تتناول قواعد اللغة العربية وآدابها وثقافتها وشعبها وما الى ذلك،وفي موقف الدفاع ترد على اتجاه الشعوبية والصهيونية وتبرز معالم الحضارة العربية والاسلامية التي امتد اشعاعها الى اقصى الصين في الشرق.لست هنا كي احصى محاسن المدارس الاسلامية وخريجيها ، ولكنى اشرت الى بعضها تنويها بشأنها وتمهيدا لما اقترحه في سبيل دعمها ونهضتها . ان هذه المدارس يجهلها كثير من المسلمين بالعالم ، ومجلة العربي الموقرة قد غطت باستطلاعها كثيرا من البلاد والمعالم الاسلامية،فلو تكرم القائمون على هذه المجلة باعطاء قليل من العناية لهذه المدارس الاسلامية لتعين ذلك حافزا لها دون شك . وبما ان هذه المدارس تتبع جماعات معينة فمن الاحسن ان يتم التعريف بمدرسة واحدة فقط بين مدارس جماعة واحدة .

وأملي قوي في ان هذه اللغة الغنية ستصل الى جميع الآذان ، كما ان الدين الاسلامي الحنيف قد وصل اشعاعه الى كل مكان . رزقنا الله تعالى الاخلاص والتوفيق . . . . . .

د . مقتدى حسن محمد ياسين
وكيل الجامعة السلفية / الهند

العربي

- نشكر للدكتور مقتدى حسن اهتمامه والمعلومات التي تفضل بها حول دور مدارس تعليم اللغة العربية في الهند ، ونعده بأن يكون اقتراحه حول استطلاع او التعريف بهذه المدارس ودورها محل دراسة في مجلس التحرير خلال مناقشة خطط الاستطلاعات وشكرا .

هل كان العرب يصنعون الثلج ؟

● بين العربي وقارئها ثقة متينة متبادلة . فلاهي تبخل عليه بالثقافة في شتى مجالاتها ، ولا هو يبخل بالاستفادة . وقد لفت انتباهي من مقال بعنوان « الفصل بين الطب والفلسفة » في العدد «٣٤١» قول الدكتور عادل البكري عن الطبيب بختيشوع بن جبرائيل انه في الايام الشديدة الحر كان يجلس في

غرفة ذات طاقات ، يدخل منها هواء مبرد ، بعد مروره على مواضع فيها ثلج مكبوس ، فهل كان في ذلك العهد ثلج مصنع ، ام ان رجالات ذلك العصر كان بامكانهم حفظ الثلج من ايام الشتاء الى ايام الحر الشديد ، ام ان ماورد كان سهوا ؟

وجزاكم الله خيرا

رامز حداد

الزرقاء / الاردن

العربي

ـ حولنا هذه الرسالة الى الدكتور عادل البكري كاتب المقال المشار اليه فتفضل بالرد التالي :

اشارة الى استفسار السيد رامز حداد في رسالته المرفقة حول موضوع (التبريد بالثلج) الوارد في مقالي بعنوان (الفصل بين الطب والفلسفة) .

كان الثلج يستعمل في التبريد منذ العصر العباسي الاول ، ويشير الطبري في تاريخه ان اول من جلب له الثلج من الخلفاء هو المهدي وكان الرشيد يحمل له الثلج في حجه الى بيت الله . وبعد ان نقلت عاصمة الخلافة العباسية الى سامراء اصبح للثلج اهمية كبيرة واصبحت له وظيفة يقال لها وظيفة (الثلاج) وهو الذي يجلب الثلج من الاماكن البعيدة ويخزنه .

وكانت نفقات الثلج في زمن الخليفة المقتدر (٢٩٥ هـ ٣٢٠ هـ) تبلغ آلافا من الدنانير،ويذكر أن وزيره ابن الفرات صرف أربعين ألف رطل من الثلج في أول يوم من استيزاره في وزارته الثانية . وكان في ناحية قصره دار كبيرة للشراب يقدم فيها الماء المثلوج . وجاء في مطالع البدور للغزولي (ج ٢ ص ٤٨) أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة حجت عام ٣٦٦ هـ فسقت اهل الموسم من الحجاج السويق بالسكر والثلج .

واستعمل الثلج في الطب اذ وصفه الطبيب اسحاق بن عمران المتوفي سنة ٢٧٩ هـ لمعالجة مرض النسمة (أي ضيق النفس) الذي أصيب به ابن الاغلب حسبما ذكر ابن جلجل في كتابه (طبقات الاطباء والحكماء) . كما استعمل ابن سينا (كيس الثلج) على الرأس لمعالجة الحمى والصداع .

وكان اقبال الناس على شراء الثلج واستعماله في دورهم وقصورهم قد دفع طبقة من الناس الى العناية بجلبه من الجبال البعيدة وكبسه وحفظه في صهاريج معزولة حتى يجيء موسم الحر ، ثم يبيعونه باسعار غالية.ويذكر القلقشندي أن الثلج كان يجلب من الشام الى مصر لتبريد الماء غير أن أحدا من المؤرخين لم يذكر ابدا أن الثلج كان يصنع كما يصنع اليوم ، إذ أن طريقة استحضاره صناعيا لم تكن معروفة آنذاك .

اما القصة التي أوردتها عن استعمال ابن بختيشوع للثلج في تكييف الهواء (تبريده) فهي تدل على التطور الحضاري في ذلك العصر ، وقد ذكرها ابن أبي أصيبعه في عيون الانباء عند كلامه عن هذا الطبيب ويمكن مراجعتها في موضعها . كما يمكن مراجعة مقال ماجد عبد الله الشمس وبتول درعم ضمن ابحاث الثروة القطرية الثالثة لمركز احياء التراث العلمي العربي ببغداد ففيها مايفيد في هذا المجال .

د . عادل البكري

الجامعة المستنصرية ـ بغداد

تعالوا نتعلم كيف نعترف بالخطأ

● لقد اثارت مقالة الدكتور يحي الجمل في عدد ابريل ٨٧ م من العربي بعنوان«تعالوا نتعلم كيف نختلف» الكثير من النداءات التي يعتلج بها صدر كل عربي ويوجهها الى الحكام العرب أولا ، وكل عربي في موقع المسئولية ثانيا ، وكل الجماهير العربية ثالثا . ومن هذه النداءات نذكر مايلي :

ياعرب تعالوا نتعلم كيف نعترف بالخطأ . فان الاعتراف بالخطأ أول الخطوات نحو الصواب . وان الاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه نبل وشهامة،ولايعيب

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء ..

المرء ولاينتقص من قدره أن يحيد عن الخطأ الى الصواب .

ياعرب تعالوا نتعلم كيف نغضب وكيف نتناول مواقف الغضب بموضوعية . وكيف نحسن الى أخينا العربي ان أساء الينا . وتعالوا نتعلم كيف نخرس أجهزة اعلامنا التي تنطلق بالشتائم ضد بعضنا البعض اذا كنا نريد للخلافات العربية بعض الاصلاح .

ياعرب تعالوا نتعلم كيف ان هناك بعض الاساسيات لايجب أن تمس مهما اختلفنا مثل عدم اغلاق الحدود وعدم قطع العلاقات وعدم منع المواطنين العرب من الدخول لأي بلد عربي لزيارة أقاربهم والتواصل . هل يعقل ياعرب ان تكون لمصر قلب العروبة النابض علاقات وحدود مفتوحة مع اسرائيل وليس لها ذلك مع جارتها ليبيا مثلا ؟! .

ياعرب تعالوا نتعلم كيف أن قوتنا في وحدتنا وأن ضعفنا في تفرقنا . وأن الذي يعاني من الخلافات العربية هو المواطن العربي أولا واخيرا .

ياعرب تعالوا نتعلم كيف نتغاضى عن خلافاتنا البسيطة الزائلة في سبيل أهداف أسمى باقية .

ياعرب تعالوا نتعلم كيف أننا أحيانا نسيء الى أنفسنا والى شعوبنا أكثر مما يسيء لنا الآخرون مثل الاستعمار والصهيونية !!

هذه بعض النداءات او الآمال العربية لعلها تجد طريقها للنشر على صفحات حوار القراء وشكرا .

محمود عبد الرءوف كامل

مدرس الاعلام بجامعة قاريونس

/ بنغازي / ليبيا

الفقهاء ومشاكل العصر

● لي تعقيب بسيط على مقال الاستاذ فهمي هويدي المنشور بالعدد ٣٤٢ مايو ١٩٨٧ (استدعاء الفقه الى قلب العصر).

فلا يختلف أحد على عظمة الفقه الاسلامي ومرونته وصلاحيته مع كل بيئة،واتساعه للمشاكل المختلفة التي واجهته .

فبشأن الشرط الثاني الذي أضافه د . القرضاوي والمتعلق بضرورة توفر معرفة الناس والحياة في المجتهد،والبعد عن الاهواء الاقتصادية والسياسية المختلفة فكثير من العلماء الحديثين والقدماء انحازوا للاسف للحكام وللمال وللسلطة،فلم نسمع منهم رأيا في أمور الحياة اليومية التي تمر بالمسلم،وكذلك في الشئون العامة كتجارة العملة والمضاربة بالذهب وأشياء من هذا القبيل،وكذلك ماهي اصلح النظريات الاقتصادية التي تناسبنا للأخذ بها بدل الاقتصار على الفتاوي المكررة .

مع ذلك فكثير من الفقهاء انحازوا الى الفقراء من المسلمين لانهم كانوا على اقتناع تام بأن الرسالات السماوية جاءت لنصرة الحق والمظلومين ، ومن ثم فيجب على علمائنا ألا يحصروا أنفسهم في المسلمات بأن هذا حرام وذاك حلال وعليهم بأن يجتهدوا لادخال الفقه الى عصرنا الحديث حتى يتبوأ المسلمون مكانتهم مرة أخرى ولايتخلفوا كما هو حادث الان .

هشام محمد جلال السيد

الاسكندرية / مصر

جمالية الخط العربي

● قرأت في العدد ٣٣٨ من مجلة العربي مقالا عن « جمالية الخط الكوفي » بقلم عبد اللطيف هاشم ، وقد سعدت بما ورد في هذا المقال من معلومات وتحليل قيم لجمالية الخط الكوفي الذي يعتبر أحد اشكال الفن العربي المتميزة،وارجو بهذه المناسبة ان تدرسوا امكانية وضع باب ولو غير منتظم في الصدور عن الخط العربي بجميع اشكاله وتاريخه ومايحتوي عليه من قيم جمالية وابداعية لتعريف الجيل الجديد بهذا الفن العربي العظيم الذي يكاد يختفي،واتاحة الفرصة لامكانية تطويره من خلال جهود الفنانين العرب المحدثين وشكرا ،

منتصر الديراني

المعهد الصناعي بدمشق

العربي

ـ ابتداء ترحب العربي بنشر أي مقال جيد عن فن الخط العربي ، وتعد القارىء الكريم بأن يكون اقتراحه محل اهتمام ودراسة في مجلس التحرير .

ردود خاصة

● يرغب السيد / محمد الحسن محمد صالح عثمان المقيم في الشقة ٢٥ بناية مدرم شارع مدرم / عدن بجمهورية اليمن الديمقراطية أن ننشر عنوانه آملا أن يطلع عليه أحد أقاربه الذين انقطعت صلته بهم منذ ستة تقريبا رغم رسائله اليهم ، بعضهم كان في بيروت الغربية / لبنان ، وبعضهم في السودان .

ونأمل ياسيد / محمد أن تلتقي بأقاربك بعد هذا النشر . □

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

سبتمبر ١٩٨٧ م

الأحزاب السياسية في العالم الثالث

تأليف : د. أسامة الغزالي حرب

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١٧

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

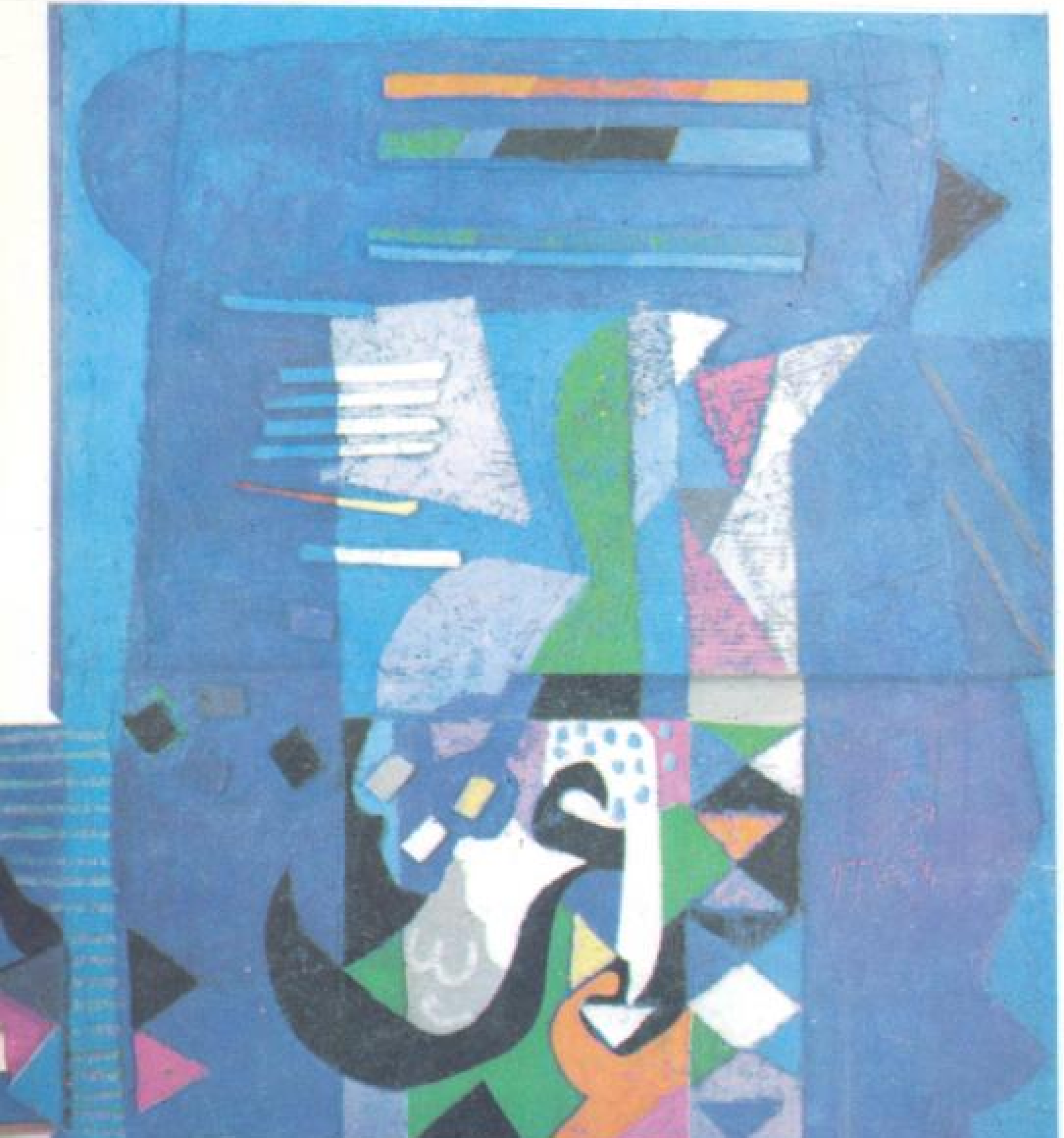
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت
العدد ٢١٦ أول سبتمبر ١٩٨٧

السحب - ٢

تأليف : أريستوفانيس
ترجمة وتقديم أدبي : د. أحمد عثمان
مراجعة وتقديم تاريخي : د. عبد اللطيف أحمد علي

الجزء الثاني

١- النص المسرحي
٢- معجم الأعلام الأسطورية والتاريخية

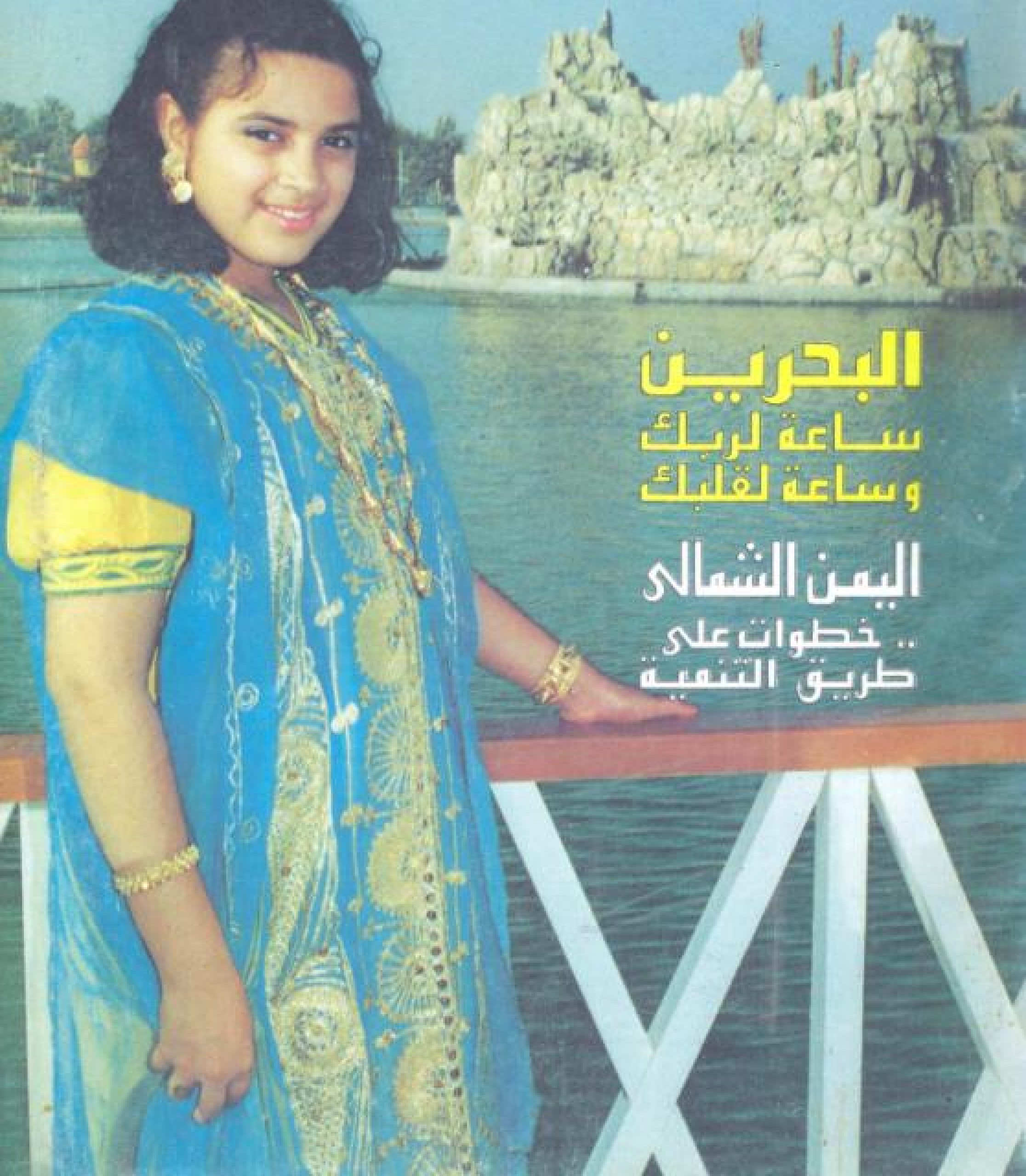


نافذة عربيّة

للفنان العراقي ضياء العزاوي

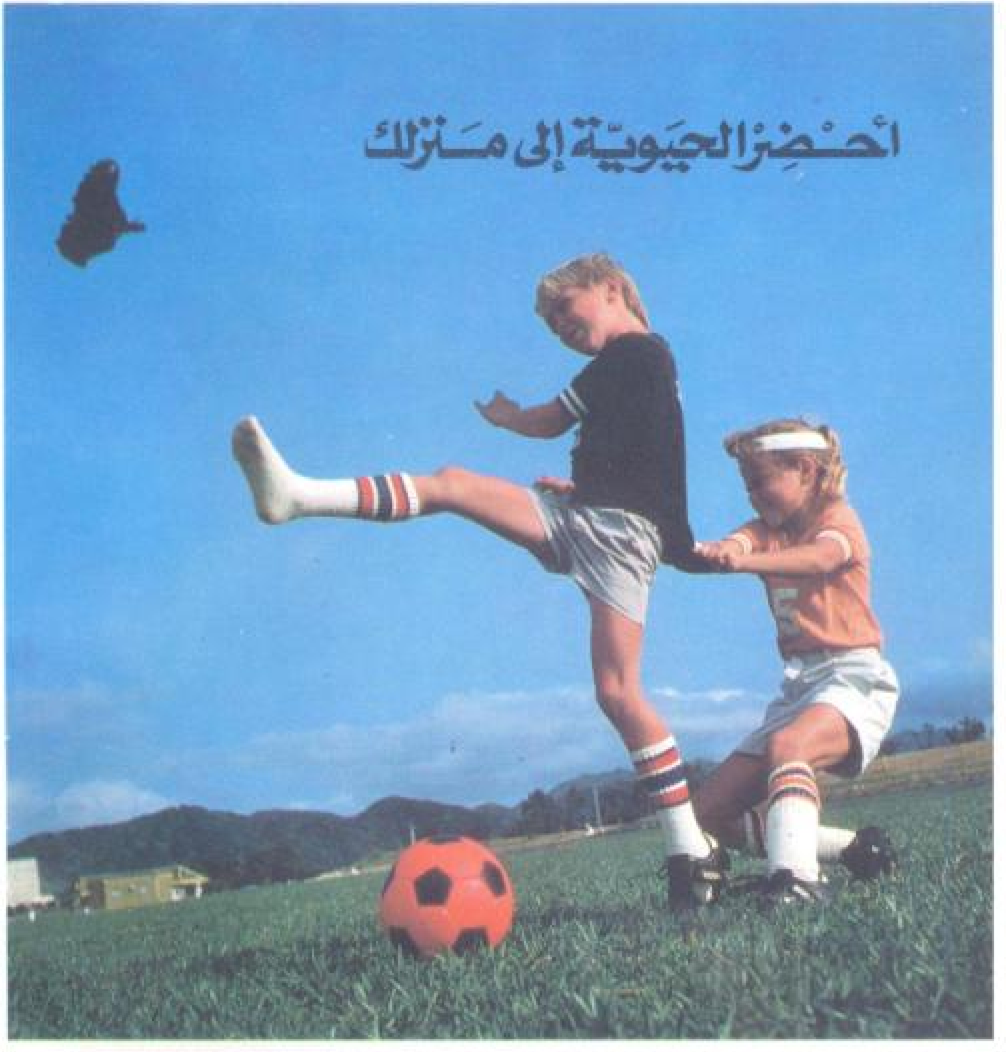
صفر ١٤٠٨هـ - أكتوبر (تشرين أول) ١٩٨٧م

العربي



البحرين
ساعة لربك وساعة لقلبك

اليمن الشمالي
.. خطوات على طريق التنمية



تتميز سانيو VM-D1P بضابط سرعة عالية ١/١٥٠٠ ثانية ذو غلق الكتروني تعطيك حركة بطيئة وإعادة بث صورة بوضوح، لتتمكنك من إلتقاط أسرع الحركات، كاللحظات غير المتوقعة والأسرع من أن تراها العين المجردة. إنها مدمجة وخفيفة (١٫٢ كغ) مع تعديل رقمي آلي. سهلة الإستعمال تسمح لجميع أفراد العائلة بأخذ أروع التسجيلات. سانيو VM-D1P، تحضرها وضع الحيوية في منزلك.



8 VM-D1P



بسرعة ١/١٥٠٠ ثانية يلتقط ضابط سرعة غلق سانيو VM-D1P الالكتروني الصور المقطوعة بدقة ووضوح.



بسرعة ١/٥٠ ثانية تبدو الحركات السريعة غير واضحة بواسطة التسجيل التقليدي.

سانيو
SANYO

العدد ٣٤٧ السنة الثلاثون اكتوبر ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريًا عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 347 Oct. 1987 . P.O.BOX 748
Postal Code No. 13008
Kuwait . A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص. ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس : MITR 44041 KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

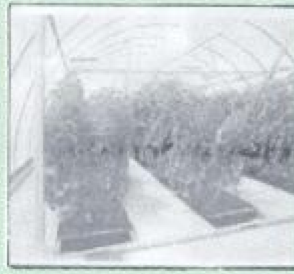
الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص. ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقًا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د. ك - باقي دول العالم ٦ د. ك

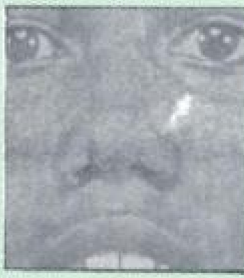
ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلسًا	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلسًا	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهمًا
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسًا	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أوجنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشًا	لبنان ١٥ ليرة	فرنسا ١٥ فرنكًا
السودان ٢٠ قرشًا	سوريا ١٠ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد



طعام المستقبل .. ص ٣٥



مرض النخالة البيضاء ص ٦٥



الموسيقا العربية ١٠٥



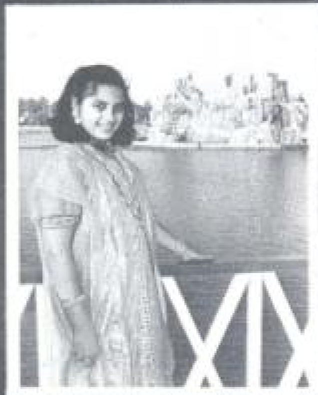
حنا
مينه



أبو المعاطي
أبو النجا

استطلاعات ومقابلات

صورة الغلاف



إذا أردت أن تلتقي بالدين والدنيا في آن معاً .. وتسعد بقضاء ساعة لربك وساعة لقلبك .. فاذهب إلى البحرين .. أرض الخلود .

(طالع الاستطلاع ص ٦٨)



اليمن الشمالي مشاريع على طريق التنمية ص ١٣٢



لوحات روبرتس تحط رحالها بالكويت ص ١٤٨

أبواب ثابتة :

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

كثير من الرسائل التي وصلتنا في الشهرين الماضيين انصبت على موضوعين أولهما ـ وربما أكثرهما ارتباطاً باهتمام القراء ـ ما نشرناه في العدد ٣٤٦ سبتمبر ١٩٨٧ حول التداوي بالأعشاب أو مركز الطب الإسلامي الذي احتضنته الكويت بمبادرة كريمة من إحدى أسرها . وكان القراء يتساءلون عن كيفية الاستفادة من هذا الصرح العلمي الثقافي الصحي الكبير ، ونحن بدورنا نحيل الجميع للكتابة إلى المسؤولين في وزارة الصحة في الكويت .

أما الموضوع الثاني فقد نشر في العدد المذكور أيضاً ، وكتبه لنا الدكتور أسامة الخالدي عن البحث العلمي وتطوره في الوطن العربي ، ولقد ذكر الكاتب في حينه التطور العلمي في الكويت ، كأحد أهم النشاطات التي يسابق بها العرب أعداءهم ، وإن كان يسرنا كل ذلك فإننا نقول ان الاستقرار هو الذي يحتضن المشروعات العلمية والصحية ويطورها . وفي منطقة ابتلاها الله في السنوات الأخيرة باضطراب شديد فيما حولها فإن ذلك يجعل كل المخلصين يتوجهون إلى دعم الاستقرار وتوكيده ، كي تظل هذه الجهود العلمية معطاءة ، وغرسها مثمراً .

وهذا ما نحرص عليه نحن في « العربي » ، كي نقدم من تلك الجهود بعضاً من عطاء العرب الثقافي ، ففي هذا العدد يجد القارىء موضوعات تعيد للأذهان ما حواه الماضي من عبر ودروس . وتواكب الحاضر وتلقي الأضواء على بعض ما فيه ، وهي لا تغفل عن المستقبل ، بل ترصد كثيراً مما يبشر فيه ويلتمع في آفاقه . من تلك الموضوعات :

ـ بدء عصر المواجهة بين الدائنين والمدينين . للدكتور رمزي زكي ـ طعام المستقبل لابراهيم عبد الله العلو ـ الموسيقا العربية متى يتم جمعها ؟ لسليم سحاب ـ التنبوء بالأحوال الجوية عبر الأقمار الصناعية لطاهر سكر القيسي .

وفي باب « الاستطلاعات » تنقلك « العربي » إلى قطرين عربيين ، هما البحرين والجمهورية العربية اليمنية ، حيث يتم التركيز في البحرين على « ساعة لربك .. وأخرى لقلبك » في حين أن التركيز في اليمن ينصب على مشاريع التنمية كتجربة تنموية عربية ينبغي الالتفات إليها .

عزيزي القارىء : هذه فقط شذرات من موضوعات العدد ، ويوجد كثير غيرها مما هو مفيد وجديد وطريف .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

المليار الخامس
نقمة أم نعمة ؟

منذ أن « احتفل » العالم في منتصف يوليو (تموز) الماضي بوصول المولود الذي أكمل ـ افتراضيا ـ المليار الخامس من البشر على هذه الأرض ، اهتمت كثير من وسائل الاعلام بتناول ما أسمته ظاهرة (الانفجار) السكاني .

وحذرت تلك التقارير الصحفية ـ التي افتقدت الكثير من العلمية ـ بشكل متشائم من هذا الانفجار الذي يحمل الويل والثبور وعظائم الأمور ، خاصة للعالم الثالث ، العالم الفقير .

فهل صحيح أن هناك انفجارا في عدد السكان في العالم ؟
واذا كان تزايد عدد البشر على هذه الأرض مقلقا فما هي أسباب هذا القلق ؟ وهل يتزايد السكان أكثر من اللازم في وطننا العربي ؟ وما هو العلاج ان كان ذلك صحيحا ؟

تلك أسئلة حاولت الاجابة عليها مستفيدا من مصادر علمية عديدة ، ومقدما وجهة نظر ، قد لا تكون هي وجهة النظر السائدة !



ـ التصحر مرض العصر .

العـــــدل المفـــقـود

■ أبدأ بالقول أن الضجة التي أثيرت حول موضوع الانفجار السكاني ـ أو قل كثيرا منها ـ يتبنى وجهات نظر وافتراضات ليست بالضرورة دقيقة كما أنه إذا كان ثمة قلق عالمي من تزايد سكاني ضخم فإن القلق يجب أن يوجه نحو موضوع آخر ، هو توزيع ثروات العالم بالعدل على هذا العدد من السكان ، أو على الأقل منع إهدار هذه الثروات من قبل قلة من البشر وعدد قليل من البلدان التي اصطلح على تسميتها « الغنية » .

إن الضجة تلك قد تبنت اقتراحات خطيرة كثيرة ، فبعضهم يحذر من تزايد سكان الأرض ويقول :

(إن الطبيعة في السابق قد تمتعت بتوازن دقيق ، فإذا زاد عدد البشر هبت رياح الأمراض المعدية وقرعت طبول الحرب لتقتل الناس) !

هذا الافتراض بنصه ـ أو بمعناه ـ قد تكرر في أكثر من مطبوع ، وخطورة هذا القول أنه يوحي بأنه إذا كانت الأمراض المعدية مسيطرا عليها في عالم اليوم ، فإن المخرج الآخر هو الحرب ، وذاك افتراض بشع في حد ذاته من جهة ، ولا تقوم على صحته أية أدلة علمية ، بل إن الأدلة العلمية تثبت عكس ذلك .

فالدراسات العلمية المنشورة ـ ومنها دراسة كوينزي رايت من جامعة شيكاغو ، ونازلي شكري من معهد ماساشوستس للتقنية في الولايات المتحدة ـ

الأرض تستطيع أن تطعم سكانها .. لكن كيف؟

عن الحروب الكبرى ، لا توجد فيها أية علاقة من قريب أو بعيد بين الحروب وبين تزايد عدد سكان العالم . وفي دراسة مباشرة مشهورة قام بها آرثر وستنج جمع فيها بعض الأرقام حول الحروب الكبيرة ـ وقصرها على الحروب التي قتل فيها أكثر من ٣٠ ألف شخص ـ قرر أن هذه الحروب كانت ٤٥ حربا منذ بداية هذا القرن ، وكان ضحاياها ٨٦ مليونا من البشر ، ٥٠ مليونا منهم في الحرب العالمية الثانية وحدها .

وعلى الرغم من هذه المأساة ، فان سكان العالم خلال تلك الحرب العالمية ـ الثانية ـ قد زادوا ٢٥ مليون نسمة !

ما هي القضية إذاً ؟

أفكار قديمة وتطبيقات جديدة

■ إن المتشائمين من تزايد عدد السكان في العالم قد رسخت في أذهانهم نظرية مالتوس * المشهورة التي ثبت عدم دقتها مرة بعد أخرى ، وكان لنجاحها في المدى القصير تأثير كبير على قناعة الناس بها بعد ذلك .

تقول هذه النظرية أن عدد سكان العالم يتزايد بمتوالية هندسية ، في حين أن الغذاء يتزايد بمتوالية حسابية . ولو كانت هذه النظرية صحيحة على إطلاقها منذ أن ظهرت في القرن الماضي لأكل الناس بعضهم بعضا . فالبشر يتزايدون ، ولكن مصادر الثروة تتزايد أيضا ، وما يعوق هذا التزايد من الوصول الى الجميع هو المواقف السياسية والاقتصادية والثقافية وسوء الادارة للموارد والبشر . فالصحيح أن الأرض خلال الثلاثمائة ألف سنة من حياة الانسان عليها ، قد عاش عليها (٤٩) مليارا من البشر تقريبا ، أي أن حوالي ١٠٪ ممن عاشوا في كل العصور يعيشون بيننا اليوم . فنحن الآن ٥ مليارات نسمة . وقد استغرقت البشرية للوصول الى المليار الأول فترة طويلة من الزمن . فقد سجل المليار الأول حوالي عام ١٨٣٠ .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الوقت قصيرا بالنسبة لتضاعف سكان الأرض ، فالمليار الثاني وصلت اليه البشرية بعد حوالي مائة سنة (عام ١٩٣٠) والمليار الثالث بعد حوالي عقدين ونصف من السنين ، أما المليار الرابع والخامس فقد وصلت اليهما البشرية بعد مرور ١٣ الى ١٤ عاما فقط !

هذه الأرقام عندما تعرض بهذا الشكل المتسارع ، لا شك أنها تخيف الكثيرين ، لكن الصورة بهذا الشكل ليست متكاملة .

أصوات التشاؤم التي تحذر من تزايد سكان العالم تنظر باتجاه واحد فقط !

---

* توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤ م) قسيس انجليزي اهتم بدراسة الاقتصاد السياسي ، وقد أثرت خصائص المرحلة الاقتصادية التي عاصرها على أفكاره وآرائه .

ففي العشرين سنة الأخيرة وجدنـا أن هناك بلدانا تحث على تحديد النسل ، بل وتستخدم طرقا ووسائل قسرية ـ على أخف تعبير ـ للحد من تزايد سكانها ، فهناك ثواب لمن يحدد النسل بمولود واحد فقط في الصين ، وهناك عقاب متصاعد لمن يتعدى هذا العدد الذي وضعته الدولة ، وهناك قصص غير معلنة في هذا الاطار ، منها التعطيل الجماعي للخصوبة عند الرجال ووأد البنات . وقد استطاعوا بكل تلك الطرق أن يحققوا انخفاضا في نسبة المواليد وصلت الى ثلث المتوقع .

إلا أن مشكلة التنشئة الاجتماعية للطفل « الصيني » الوحيد أصبحت قضية اجتماعية خطيرة ، فهناك الآن ما يسمى لعبة ٤ ـ ٢ ـ ١ « أي أن الطفل (١) الوحيد الذي أصرت العائلة على عدم إنجاب أخ أو أخت لـه يعني به والداه ، وهما (٢) ، ووالدا والديه وهم جدتاه وجداه من طرف الأم والأب وعددهم (٤) » .

وقد أظهرت الدراسات الأولية بأن هذا الطفل ـ ذكرا كان أو أنثى ـ قد أصبح يعاني من مشكلات نفسية وعاطفية جمة . وذلك ضد طبيعة الانسان .

وفي المقابل هناك بلدان اشتراكية أيضا مثل رومانيا ، تقدم تسهيلات ضريبية كبيرة للأسر كبيرة العدد ، كما أن المرأة القادرة على الحمل الممتنعة عنه توقع عليها عقوبات اقتصادية ومعنوية ، ربما بحرمانها من زيارة عيادة الأسنان أو الامتناع عن منحها إجازة قيادة سيارة .

وفي ألمانيا تتدخل الدولة لزيادة النسل . وفي الهند تتدخل الدولة أيضا لتحديده ، وفي الولايات المتحدة بدأت تتراجع سياسات تحديد النسل التي استمرت في ربع القرن الماضي .

ولو زدنا على ذلك بالقول أن هناك أغنياء كما هو معروف في بلدان فقيرة ، وفقراء في بلدان غنية ، ففي الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة أمراض أطفال لها علاقة مباشرة بأمراض الجوع السائدة في البلدان الفقيرة .

لو عرفنا كل تلك الحقائق تكون الصورة قد قاربت على الاكتمال ، وهي أن التنمية أفضل وسيلة لضبط النسل ، والتنمية هنا بمعناها السياسي والاقتصادي تعني عدالة أوسع بين الشمال والجنوب في توزيع مصادر الثروة ، وتعني خططا جادة في العالم الثالث الذي اكتسحه الاضطراب السياسي ، وعطل من قدرته على النمو وعلى إطعام أهله .

مفارقة التخلف

■ إن قضية التطور الاجتماعي هي الأهم في البلدان النامية (الفقيرة) التي يتضاعف سكانها كل ٢٥ ـ ٣٠ سنة ، والدرس التاريخي قائم ، فزيادة

انفجار سكاني أم سوء في استغلال الثروة ؟

السكان التي ظهرت بوضوح خلال المائة سنة الأخيرة في الدول الغنية لم تظهر تأثيرا سلبيا على نموها الاقتصادي ، وحتى الدول الفقيرة في تاريخها المعاصر قد تطورت اقتصاديا بشكل نسبي في فترة (١٩٥٠ ـ ١٩٧٥) على الرغم من الزيادة في عدد السكان .

إن ضبط عدد السكان وإطعامهم ، يعتمد اليوم على الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للدولة المعنية ، وأيضا يعتمد على مهارات الرجل والمرأة وتعليمهما وقيمهما في تلك المجتمعات . ومفارقة التخلف هي أنه كلما كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي متدنيا والقيم الثقافية غير مرنة ، كلما اتجه السكان لزيادة نسلهم ، فبلاد مثل نيجيريا على سبيل المثال لديها سكان أقل من ثلث سكان الاتحاد السوفيتي ، ولكن عليها أن تطعم (٢,٨) مليونين وثمانمائة ألف فم جديد زيادة على ما لديها كل عام ، بينما زيادة السكان في الاتحاد السوفيتي عدديا لا تزيد عن (٢,٢) مليونين ومائتي ألف نسمة .

وحتى تلك البلدان في العالم الثالث التي تسعى جاهدة لزيادة دخل سكانها فإن هذه الزيادة في مستوى المعيشة تتآكل بزيادة السكان ، وعلى المستوى العالمي ـ كما تقول احصاءات اليونسكو ـ فإنه على الرغم من الجهود الكبيرة لمحو الأمية وزيادة المتعلمين ، ظل العدد الاجمالي للأميين في تزايد .

مصيدة التخلف هذه اخترع لها بعضهم حلا « ديموغرافيا » في ربع القرن الأخير ، وسموه ضبط النسل أو تخطيط الأسرة .

والتجارب في هذا الاطار في السنوات الأخيرة لم تكن مشجعة ، فلقد كانت هذه الخطط فوقية ، مفروضة من قبل ثقافة أخرى ، خائفة من هذا التطور السكاني الكبير ، في عالم يتزايد اعتماد بعضه على بعضه الآخر . فالتوقعات السكانية في نهاية القرن القادم تقول إن عدد سكان العالم سيكون عشرة مليارات وخمسمائة مليون نسمة ، منهم ما بين ثمانية وتسعة مليارات سيكونون من سكان ما يسمى العالم الثالث اليوم .

أمام هذا الخوف ما كان هناك أمام قصيري النظر إلا استخدام طريق واحد هو « ضبط النسل » ، وهكذا استخدمت الرشوة في وقت والقسوة في وقت آخر لإجبار متطوعين في بعض دول العالم الثالث لقبول التطعيم الجماعي لتقليل الخصوبة عند الرجال والنساء . إلا أن التعليم ببساطة قد لعب دورا أفضل ، فهناك في ولاية (كيرالا) في جنوب الهند كانت نسب الانجاب معقولة ، وقد تم التوصل إليها فقط عن طريق سيدات متعلمات ، اتجهن طوعا لتحديد نسلهن . وقد ظهر أيضا من الاحصاءات العالمية أن النساء المتعلمات في العالم الثالث (مهما كان مستوى التعليم) ينجبن أطفالا أقل بطفلين أو ثلاثة من أخواتهن غير المتعلمات .

ودراسة أخرى أجريت في بنجلاديش وجد فيها أن النساء اللواتي لديهن سبع سنوات فأكثر من التعليم يتزايد احتمال استخدامهن لوسائل منع الحمل خمس مرات عن أخواتهن غير المتعلمات ، كما وجد أن ثلث النساء فقط في الدول النامية يستخدمن نوعا من موانع الحمل في مقابل ٧٢٪ من النساء في العالم المتقدم يستخدمن هذه الطرق . إنه حل حضاري أوفر وأفضل ، انه التعليم .

من كل ذلك يمكن لنا أن نقول ان ضبط النسل وتخطيط الأسرة يمكن أن ينتشر في مجتمعات متعلمة ، تسودها عدالة اقتصادية . إن قضية الانفجار السكاني قضية اجتماعية اقتصادية يمكن حلها ـ كما ذكرنا ـ بواسطة التعليم على المستوى الاقليمي ، وباصلاحات جذرية في النظام الاقتصادي العالمي في الكرة الأرضية التي تتوجه شعوبها قسريا الى الاعتماد المتبادل في ما بينها .

العدالة على المستوى العالمي

■ إذا كانت العدالة بين البشر قضية (طوباوية) حلم بها الانسان منذ زمن طويل ، منذ طفولته التاريخية ، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات ، ولم يحصل عليها بعد ، إلا أنها لم تتعاظم كمطلب واضح جلي إلا بعد تعرف الانسان على معظم المتاح له من موارد ، وقد كان ذلك في السنوات القليلة اللاحقة للحرب العظمى الأخيرة .

فهناك حوالي (١,٥) مليار ونصف مليار هكتار من الأراضي الزراعية في العالم ، وهناك أكثر من ٣ مليارات هكتار من أراضي المراعي ، وهناك أيضا حوالي ٤ مليارات هكتار من أراضي الغابات والأحراش ، أي أن هناك حوالي ٨ مليارات هكتار من الأراضي قادرة على الأنتاج للانسان ، ومعنى ذلك أن هناك أكثر من هكتار ونصف هكتار لكل فرد على سطح الكرة الأرضية من الأراضي المنتجة .

« ارثر وستنج » الذي ذكرنا بعض أرقامه في بداية هذا البحث ـ وهو خبير بيئي مشهود له ـ حاول أن يحسب قدرة الأرض على الوفاء باحتياجات البشر في مستويين ، مستوى عال من الرفاهية ، كما هو متحقق في الدول الغنية اليوم ، ومستوى معقول من المعيشة . وقد توصل هذا الخبير الى أنه حتى يعيش الجميع في مستوى عال من الرفاهية فإنه يجب أن يكون على الأرض ما بين مليارين ونصف وثلاثة مليارات من البشر ، أما العيش بالمستوى العادي فإن الأرض يمكن أن تقيم أود ما بين (٤) مليارات و (٤,٥) مليارات من البشر .

على الرغم من أن هذه الأرقام افتراضية إلا أنها متفائلة نوعا ما ، لكن

عقول رخيصة تذهب إلى الشمال "وحديد" غال يذهب إلى الجنوب

هناك مشكلات دونها زحزحة الجبال ، كي يصل الانسان إلى هذا التوزيع الافتراضي من الثروة .

إن الاصلاحات أولا دولية ، وثانيا إقليمية . فالدولية بعد أن ترسخ مفهوم الدولة الحديثة ، أي أن كل ثروة الدولة في حدودها الاقليمية هي ملك لمواطنيها فقط ، وهي تحول دون تحويل أي زيادة في الانتاج الى الآخرين إلا تبرعا ومنة ، أما الاصلاحات الاقليمية فهي أكثر تعقيدا من السابقة على الرغم من دقتها . فالمطلوب هنا هو إصلاحات إدارية ـ ادارة الزراعة والصناعة والتوزيع ـ خاصة أن تحقيق تكافؤ داخلي ودولي تعوقه التعقيدات والتدخلات الخارجية ، كما أن هناك عقبات بيئية أيضا .

من العقبات البيئية التي هي أسهل في التناول أن الانسان قد أصبح يستهلك الأرض ، فاستمرار النمو في الانتاج الزراعي جاء على حساب خصوبة الأرض ، فنحن نستنزف الأرض ، أو نأخذ غذاءنا ـ حسب تعبير أحد المتخصصين ـ من مصدر ناضب !.

وما بين الحرب العالمية الثانية والوقت الحاضر ، فإن الأرض الصالحة للزراعة لكل فرد قد تناقصت بمقدار الثلث ، وفي نفس الوقت فإن المخصبات التي استخدمت قد تضاعفت خمس مرات منذ ذلك التاريخ . فماذا يعني ذلك ؟

إذا أخذنا إنتاج الحبوب على سبيل المثال فالأرقام تقول لنا إن النمو في الانتاج قد زاد زيادة كبيرة ، فمنذ الحرب العالمية الثانية حتى سنة **١٩٧٣** ، كان قدر الزيادة السنوية **٣**٪ ، أي أن الانتاج قد تضاعف خلال تلك الفترة ، لكن فلاحي العالم اليوم يحققون بصعوبة زيادة لا تتجاوز **٢**٪ فقط ، بينما الجفاف المتكرر في أوروبا وآسيا يضرب الفقراء بقسوة .

أما الآن فإن نظام زراعة الأرض التقليدي قد اختفى بعد انتشار المخصبات الصناعية ، فالمزارعون في الغرب وفي بعض البلدان النامية قد تجاوزوا تقليد « إراحة الأرض » أو زراعتها بشكل دوري بمزروعات مختلفة مخصبة طبيعيا ، وبذلك خسرت الأرض خصوبتها . إن حوالي نصف الأراضي الزراعية في العالم تستغل بطريقة سيئة الى درجة أنها تفقد ـ كما يقول الخبراء ـ حوالي ٧٪ من الطبقة العلوية من التربة (الخصبة) كل عشر سنوات ، وتذرو الرياح في آسيا وأفريقيا مليون طن من التربة سنويا ، وتزحف عليها الصحراء . والتناقض هنا في أن أجراس الانذار تلك يستمع إليها في الدول الغنية وقد تلبى ، في حين أن أصوات الانذار في الدول الفقيرة تضيع بسبب اجتماعي أو ثقافي ، وبسبب عدم الاستقرار السياسي أيضا .

ومع ذلك مازال لدى العالم قدرة هائلة على إطعام الأفواه الجديدة إذا أديرت مصادره بشكل أفضل ، حتى في العالم الثالث فإن بلدانا مثل كينيا

وتنزانيا وباكستان على الرغم من زيادة سكانها قد زادت ثروتها وانتاجها الزراعي .

إن تقارير الأمم المتحدة والبنك الدولي ، وصندوق النقد الدولي ، وبعض المؤسسات العلمية المستقلة ، تقول إن العالم يمكن أن يكون أكثر أماناً وأكثر كفاية في الغذاء إن وجد فلاحو العالم طرقاً أفضل في التنمية .

وحتى المليون الجديد الذي يولد كل خمسة أيام تقريبا يمكن أن يأتي إلى عالم أكثر عدلا إن كانت لدينا جميعا الرغبة في ذلك . وبعض الحلول أسهل مما نتصور ، وعلى سبيل المثال لماذا يبقى جزء كبير من سكان العالم الثالث مهددا بالموت بأنواع من السرطان لأن شركات التبغ تريد بيع سجائر أكثر ؟

ولماذا لا تكتشف الأمم في العالم الثالث أن جرعة من الماء والسكر والملح أفضل لعلاج اسهال الأطفال الذي يموت من جرائه مئات الآلاف من البشر يوميا . أو أن الرضاعة من ثدي الأم هي أفضل طريقة عرفها العقل الانساني لحماية الأطفال من أشكال متعددة من أمراض الطفولة ، ولماذا لا ندرك أن حقنة واحدة يمكن أن تحصن الطفل من أمراض عديدة ، أو أن الزراعة الجيدة والتخلص من الآفات أفضل كثيرا من استخدام الكيماويات التي غالبا ما يكون لها مردود سلبي على الزراعة . . وما أكثر الإجابات البسيطة التي تظل بعيدة عن متناول الكثيرين في العالم الثالث نتيجة الجهل !

لو استطعنا أن نعالج كل ذلك سنجد أن توقعات « مالتوس » المتشائمة ليست بالضرورة صائبة .

تلك بعض العقبات البيئية وليس كلها .

ولكن ماذا عن العقبات الدولية ؟

مـواطنـو " الهـامبـورجـر"

■ قد نقول بشكل مجمل إن أحدى مشكلات الفقر في دول الجنوب (الفقيرة) هي عدم التكافؤ في مصادر الثروة بينها وبين الأغنياء في الشمال ، لكن الأسوأ من ذلك أن هناك استنزافا لمصادر شحيحة ومهمة لفقراء الجنوب لصالح الشمال .

فالسكر والقهوة والشاي والموز من بين سلع أخرى يعتمد عليها المزارع في كثير من دول الجنوب ، بل ان بعض الدول تشكل صادراتها من هذه البضائع معظم دخلها ـ إن لم يكن كله ـ من العملة الصعبة الأجنبية . هندوراس على سبيل المثال يعتمد ٧٠٪ من دخلها الخارجي على تصدير الموز ، وبلدان أخرى تعتمد على تصدير السكر ، وأخرى على تصدير البن ، وثالثة على الشاي . في كل هذه السلع يتحكم السوق العالمي ، والرجل الأبيض

لماذا تمنع المرأة في رومانيا من قيادة السيارة؟

بمساعدة متعاونين قليلين في الدول المنتجة يساهمون في تحديد سعر المنتج النهائي ، وتدفع في الغالب أثمان قليلة لهذه السلع ، وحتى في البلدان التي أرادت أن تشكل احتكارا لبعض السلع مثل (اتحاد مصدري الموز) في جمهوريات أمريكا الوسطى فإن هذا الاتحاد قد فشل في مواجهة التحكم الذي يفرضه العالم الغني ، لأن الموز متوافر ، أو يمكن أن يتوافر في أماكن أخرى . والتضخم في سلع المواد المصنعة يقضي على كل أمل في تحقيق تجارة متوازنة ، ففي سنة ١٩٧٠ كان بيع ١١ طنا من الموز في بلد مثل هندوراس أو الدومينكان يمكن أن يتيح للفلاح في هذين البلدين شراء جرار جديد ، أما اليوم فإن على الفلاح أن يبيع أكثر من ضعف تلك الكمية كي يحصل على جرار جديد !

وتجربة زراعة الموز في مكان آخر هو الفلبين جديرة بالرواية ، فعندما فتحت اليابان أبوابها بشكل أكثر مرونة للتجارة الخارجية في بداية السبعينيات وجدت الفلبين أن هناك تجارة رابحة لتصدير الموز فزرعت أراض خصبة كثيرة بهذا المنتج . لكن عندما وجدت اليابان أن العرض يمكن أن يفوق الطلب وبالتالي يمكن أن تتدنى الأسعار ، حددت كمية معينة من الموز للدخول الى أسواقها ، بل واشترت من بعض مزارعي الفلبين كميات كبيرة من الموز من أجل إحراقها في مزارعها !

السكر والقهوة والشاي كمثل اللحم ، فانتشار (الهامبورجر) في الغرب هو واحد من المظاهر التي تؤكد افتتان الغربيين باللحم أينما كانت مصادره . وتفاخر احدى شركات الهامبورجر الامريكية وهي « مكدونلد » أن نصف الراشدين في الولايات المتحدة يأكلون واحدة من شطائرها على الأقل مرة في الشهر .

إن فكرة وضع اللحم بين قطعتين من الخبز تبدو مثالية للمستهلك الذي يريد أكلة متكاملة سريعة ، كما تبدو كذلك للمنتج الذي يريد أن يحد من التكاليف والعمالة ، والنتيجة هي المساهمة بشكل واضح في زيادة استهلاك اللحم ، ففي الولايات المتحدة نجد أن نصف اللحم الذي يستهلك يشترى من محلات الشطائر الجاهزة (الهامبورجر) ، ويستهلك الأمريكي حوالي ١٢٠ كيلو جراما من اللحم سنويا . ولا شك أن في ذلك إهدار لمصادر الثروة ، وكذلك للصحة ، فنصف هذه البروتينات الكثيرة التي يتناولها الانسان في شطيرة يتجه الى زيادة الشحم واضطراب القلب !

لكن القضية ليست هنا فقط ، ففي كثير من بلدان العالم الثالث الفقير - مثل جمهوريات أفريقيا الوسطى وزائير وهايتي وسيريلانكا على سبيل المثال لا الحصر - يحصل المواطن فيها خلال يوم كامل على أقل من نصف البروتين الذي يحصل عليه المواطن الامريكي أو الغربي من وجبة (همبورجر) واحدة ، حتى

اليابانيين بدأوا بتغيير غذائهم التقليدي المكون من (الأرز والسمك) المنخفض في مواد البروتينات والشحوم ، كي يستسلموا الى استهلاك اللحوم ، فقد تضاعف استهلاك اللحم للفرد الواحد في اليابان أربع مرات تقريبا بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٨٠ .

إن (الهامبورجر) مسئول بشكل كبير عن إزالة الغابات في العالم الثالث ، فمع فقدان الأراضي الرخيصة لتربية الأبقار في الولايات المتحدة ، والارتفاع الضخم في الطلب على اللحوم في الغرب بشكل عام ، سعت شركات شراء اللحوم الغربية الى الخارج للبحث عن الأراضي الرخيصة ، فوجدتها في أحراش أفريقيا وأراضي أمريكا الوسطى وغاباتها . وكانت النتيجة هي إزالة الغابات وإفساد التربة وإفقار الفلاحين . وقد تمت بالفعل إزالة ثلثي الغابات في أمريكا الوسطى منذ سنة ١٩٥٠ ، بمعدل حوالي ٤ آلاف كيلو متر في العام ، واستخدمت جلها من أجل انتاج لحوم رخيصة ، لاشباع المستهلك الذي يقف بسيارته أمام بوابة الخدمة الخارجية لأحد مطاعم الوجبات السريعة .

إن الشغف باللحوم لا ينتهي هنا ، فثلثا الأراضي القابلة للزراعة في الولايات المتحدة لا تزرع كي تنتج للانسان ، بل تزرع نباتات لاطعام الحيوانات . وفي بريطانيا فإن ٨٪ فقط من الأراضي الممتازة الصالحة للزراعة تزرع بمزروعات خاصة لاستهلاك الانسان مباشرة ويترك ٩٢٪ من الأراضي للماشية .

تلك بعض مظاهر سوء استغلال الموارد على المستوى الدولي .

.. ومظاهر أخرى ..

■ ثمة مظاهر أخرى عكسية لسوء التوزيع على المستوى الدولي ، وسوء إدارة الموارد ، فكثير من الدول الفقيرة تتبنى نظريات جا[illegible] في التنمية ، منها استخدام آلات تقنية متطورة . والفكرة تقول إنه من أجل إطعام البشر لابد من زيادة الانتاج ، وذلك صحيح ، لكن دون النظر لزيادة فرص العمالة ، فاستخدام التطور الصناعي الحديث والميكنة الزراعية المتقدمة المشتراة بعملة صعبة نادرة من الدول الغنية ينتهي بطرد المزارعين من الأرض . والحلقة خبيثة ، فهي تؤدي الى شراء أدوات متطورة جديدة وطرد عمال أكثر من الأرض ، ومن الصعب فهم هذه المشكلة في اطار مفهوم المستفيدين من التصدير أو الاستيراد ، ومن الصعب أيضا فهمها على مستوى سياسة الدولة دون إعطاء تشغيل اليد العاملة أولوية في التخطيط والتنفيذ . إن هذه النظرية ملفقة وهي من الخرافات المنتشرة في أدبيات التنمية التي تقول إن الدول الفقيرة

عندما حلت الكوكا كولا محل الماء النظيف!

إن فعلت ما تفعله الدول الغنية أصبحت غنية .

إن استخدام التقنية المتطورة قد يكون اقتصاديا للدول الغنية ، لكنه بالتأكيد ليس كذلك للدول الفقيرة ، فقد أثبتت إحدى الاحصائيات العالمية أن المزارع الصغيرة تشغل عمالا أكثر ٥ مرات من المزارع الكبيرة ، كما أنها تنتج أكثر بالنسبة للهكتار الواحد .

وهجرة الفلاحين الى المدن تحت ضغوط متفاوتة معناه أن تنهار طرق الري لعدم وجود العمال الزراعيين ، وأن تهمل المسطحات الزراعية ، وبالتالي تتدهور الأرض .

لقد نسي مخططو العالم الثالث المنادون بنظرية الميكنة المتقدمة اليوم تاريخ أوروبا الاقتصادي . تقول إحدى الدراسات إنه حتى سنة ١٨٥٠ كان حوالي ٩٤٪ من مجموع الطاقة الموظفة في الصناعة والزراعة في الولايات المتحدة إما بشرية أو حيوانية ، وفي وسط السبعينيات من هذا القرن تضاعف عدد السكان ثلاث مرات ، وتراجعت الطاقة البشرية والحيوانية في الصناعة والزراعة الى ١٪ فقط من مجمل الطاقة . ويحدث ذلك في دولة تقدمت تقنيا ، وليس من المفروض أن تحاكيها في هذا المجال دولة من العالم الثالث لتكون النتيجة على حساب زيادة بطالة القوة العاملة .

فالمشروعات الكبيرة الزراعية والصناعية التي نفذت في الأرض المستعمرة سابقا أوجدت بطالة واسعة . فقد كان المزارعون البيض في أفريقيا يسخرون التقنية الحديثة على حساب اليد العاملة المحلية .

في زمبابوي على سبيل المثال ـ حتى الاستقلال ـ كان أصحاب المزارع البيض يملكون أقل من نصف الأرض الزراعية ، لكنهم ينتجون أكثر من ٤/٣ انتاج البلاد . لكن العدد الكبير من المزارعين المواطنين اليوم ـ حتى في الأرض القبلية ضعيفة الخصوبة ـ شجعوا بسبب الاستثمار الحكومي وزيادة الأسعار على أن ينتجوا أربعة أضعاف انتاجهم السابق .

إن نجاح المشروعات الزراعية الصغيرة في العالم الثالث يعتمد على ثقافة العاملين فيها . ولابد من بذل مجهود قد لا يكون مرضيا أو مماثلا لما يحدث في البلدان الغنية ولكنه في النهاية يصب لصالح الوطن .

وإحدى المظاهر المصاحبة لسوء التوزيع الدولي في الموارد هي استخدام الدول الغنية لأبناء الدول الفقيرة .

ففي الأيام الخوالي كانت الدول الغنية تستغل الأرض والبشر في الدول الفقيرة ، بالاستيلاء على الأرض واستعباد البشر ، أما اليوم فان الاستغلال المالي هو الذي يقوم بذلك . فهناك أكثر من مليون من البشر يتسربون سنويا من حدود الولايات المتحدة الجنوبية لتوفير عمالة رخيصة في المزارع الكبرى والمصانع الصغيرة ، وهناك مهاجرون من الدول الفقيرة في جنوب حوض

المتوسط يتسربون الى أوروبا . لقد استطاعت الدول الغنية أن تستقطب عمالا من العالم الفقير ، وتقدم لهم رواتب ضعيفة ، لكن العائلات القابعة في البلاد الفقيرة تعتبر هذه الأموال كنزا أو على الأقل مبالغ كبيرة .

لقد أصبح تصدير العمالة منذ السبعينيات (سلعة) معترفا بها ، ومتفاوضا عليها في بعض الأوقات ، وشكلت دخول العمالة المهاجرة إحدى المصادر المهمة في الدخل الخارجي من النقد الصعب للدول المصدرة . تقدر بعض الاحصاءات أن المال المكتسب من العمال المهاجرين شكل بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٨٢ حوالي ٢٢ مليار دولار لجميع الدول النامية .

لكن القضية بدأت تتشعب في الآونة الأخيرة ، فهناك طرد منظم للعمال من الشمال إلى الجنوب ، بعد الاستغناء عن خدماتهم ، كما أن الدول الفقيرة ـ مهما كان دخلها من العمالة المصدرة ـ تتحمل كثيرا من الخسارة في خططها التنموية ، فهذه الدول تصدر أفضل عقولها ، وقد تصدر متعلمين ومدربين فتوفر الدول المضيفة على نفسها قيمة « فاتورة » التعليم والتدريب .

وهناك مظاهر أخرى عكسية لسوء توزيع الثروة على النطاق العالمي ، وهي أشكال الاستهلاك التي تصدرها الدول الغنية الى الفقيرة . ففي الوقت الذي لا يتوفر فيه الماء الجاري الصحي النظيف للشرب في كثير من الدول الفقيرة كاد أن يكون البديل زجاجة من المياه الغازية ، ولو توفرت العزيمة الاجتماعية لوجهت الأموال التي تصرف على المياه الغازية لتوفير مصدر ماء نظيف .

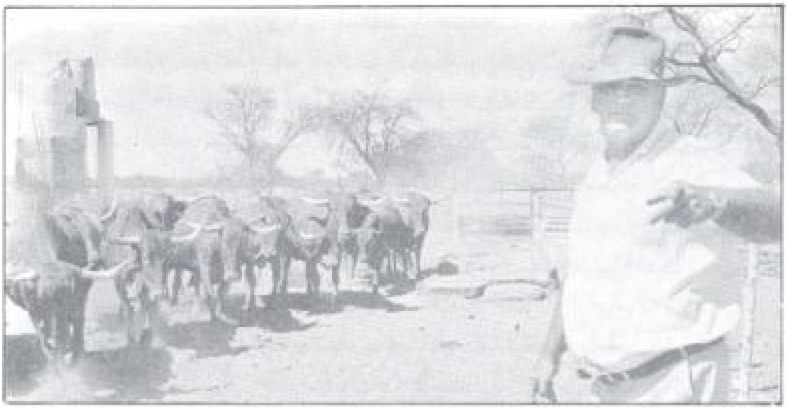
.. وماذا في الوطن العربي

■ كثير من الكتابات حول نمو السكان في الوطن العربي مليئة بالتشاؤم ، حتى أن بعضها يتبع الصيحة العالمية ، ويسمى ظاهرة التزايد السكاني العربي « انفجارا سكانيا » .

لكن حقائق الاحصاء تقول لنا غير ذلك ، فإذا كان عدد سكان العالم الثالث يتضاعف كل ٢٥ الى ٣٠ سنة فإن سكان الوطن العربي بالتالي سيزدادون فقط بمقدار الثلث إذا استمرت نسب الخصوبة كما هى الآن ، أى من حوالى مائتي مليون نسمة الان (رقم تقديري) إلى حوالي ثلاثمائة مليون نسمة بعد عشرين سنة .

أخذا بعين الاعتبار أن أغلبية السكان ستكون من الشباب في التركيبة السكانية العربية ، وإذا ظل التعليم والرعاية الصحية كما هما الآن فإن النتيجة النهائية ليست بالضرورة كما يسميها المتشائمون وكما يرونها .

لكن لابد من الحديث عن « ادارة الموارد العربية » في ربع القرن



ـ أحراش العالم الثالث تحولت إلى مراع لأبقار « الهامبورجر » .

مواطنو "الهامبورجر" يأكلون مواطني الموز!

القادم ، وأخذها بمأخذ الجد . فالثروات الزراعية والمواد الخام التي تحتوي عليها التربة العربية لابد أن تستثمر استثمارا أمثل . ولكن في بعض المناطق العربية مازالت مشكلات المواقف السياسية وتعقيداتها تحول دون ذلك ، فالحروب والمنازعات الاقليمية والتوترات الداخلية ، اضافة الى ما يفعله العدو الصهيوني بالاستفادة من كل ثغرة في الجدار الاقتصادى والسياسى العربى ، كل ذلك قد يفرض استمرار التخلف .

إن الاستثمار الأفضل للموارد هو الاستراتيجية البديلة ، فمازالت البلاد العربية تحتاج الى الاستثمار في بناء سدود صغيرة في أقطار مثل سوريا واليمن والاردن والمغرب والعراق وغيرها ، أي استخدام أمثل لمصادر المياه التي هي عصب الزراعة والتجارة ـ عشية استقلال الهند وصف الزعيم نهرو السدود بأنها « المعابد الجديدة للهند » ـ وهذه السدود توفر مياها ، وتضمن الطاقة لعشرات الآلاف من القرى العربية التي مازالت محرومة من عصب القرن العشرين أي الكهرباء ، وقد قال لينين ذات مرة أن« البولشفية تعني كهربة الريف زائد السوفيتيات » .

فالماء والكهرباء والطرق والتعليم من بين أهم الوسائل للقيام بتنمية شاملة .

كما أن التنمية تحتاج إلى ارادة سياسية تعطي الأولوية للادارة المثلى دون إهدار فقد رصدت أموال طائلة لمشروعات كثيرة في وطننا العربي ، لكنها في النهاية لم تصل إلى الجهات التي كان مؤملا أن تصل اليها ، ومازال كثير من فقراء المدن والريف العربي محرومين من الحد الأدنى للمعيشة المتحضرة .

كذلك فإن استخدام منتجات العلم الحديث والاهتمام بالبحث العلمي الموجه لحل مشكلاتنا هو أحد المفاتيح الأساسية لضمان عيش كريم

لملايين العرب القادمين . إن الثورة العلمية اليوم تفوق إنجازاتها أخصب خيال ، فصناعة واحدة لم تكن معروفة إلا بعد الحرب الثانية هي صناعة الحاسوب « الكمبيوتر » التي يستثمر فيها اليوم مئات المليارات من الدولارات ، تحل مشكلات معقدة للانسانية وهي إحدى ثمار العلم .

لقد علق أحد العلماء على التطور السريع في هذه الصناعة بقوله :

(لو قامت صناعة السيارات بما قامت به صناعة الحاسوب « الكمبيوتر » من تطوير سريع لأصبحت اليوم سيارة الرولزرويس تباع بدولارين ونصف ، وتسير ألفي ميل في الجالون الواحد) .

هذا التعبير يعني التطور الهائل في هذه الصناعة التي أصبحت تدخل في كل عملية زراعية أو صناعية أو خدمية تقريبا ، من تنقية حبات القهوة والرز للمزارعين إلى قيادة الطائرات .

إنه الاستخدام الأفضل للعلم .

أما في الوطن العربي فإن قضية العلم والبحث العلمي مازالت بعيدة عن أولويات الكثيرين منا ، فقط بلدان عربية قليلة هي التي يمكن الإشارة إليها بوضوح في إطار التقدم والبحث العلمي النسبي .

لعل النشاط الانساني المتفسخ المزري الشاذ الذي يسمى « الحرب » يضطر شعوبا كثيرة لخوضها مجبرة ، ولكن ليس من العقل أن تستمر الخلافات العربية والاسلامية كي تصل إلى حروب طويلة وتفوت على الانسان العربي والمسلم فرص النمو والترقي .

من المؤسف أن نشاط الحرب قد أصبح لدى الانسان وكأنه نشاط عادي طبيعي . يقدر الخبراء أن هذا القرن (العشرين) حتى الآن لم تمر منه إلا سنة واحدة فقط لم يكن العالم فيها مشغولا بحرب محتدمة ، وتلك السنة هي سنة ١٩٠٩ ، أما في السنوات الباقية فالانسانية قد عانت فيها ويلات الحروب . وتقدر الاحصائيات أن هناك ١٨ مليون جندي دائم تحت السلاح في العالم ، وأن مصاريف العالم العسكرية في الثمانينيات بلغت ٦٥٠ مليار دولار ، أي أن العالم يصرف ١٣٠ دولارا سنويا لكل انسان على ظهر الأرض كمصاريف عسكرية . والأكثر بشاعة من ذلك أن نصف ذلك المبلغ تصرفه القوتان العظميان في زماننا . إنه إهدار لا يفوقه إهدار أبدا !

إن الوقود الرئيسي للاسراع في تقدم العالم وإطعام أفواهه هو إيماننا بحكمة الانسان والعلم الحديث ، وثروتنا الرئيسية هي الأمل بأن لا يحطم الانسان هذه الأرض التي استخلفه الله فيها على نفسه وذويه ، وكل ما عليها وما فيها !

محمد الرميحي

انفجار
ديون البرازيل
وبدء عصر المواجهة بين الدائنين والمدينين

بقلم : الدكتور رمزي زكي

المعجزة البرازيلية ، نموذج ، كانت تروجه في السبعينيات ـ الأوساط الرأسمالية ، رسمية ، وغير رسمية لدول العالم الثالث ، ولكن مع بداية الثمانينيات إنفجرت قضية ديون البرازيل والتي جاوزت المائة بليون دولار ، فانكشفت اللعبة ، وأستبانت الحقيقة عن واقع مؤلم يعيشه الشعب البرازيلي ، وشعوب العالم الثالث التي ترزح تحت وطأة جبل هائل من الديون ، لم تستفد منه ، وعليها أن ترهن إمكانياتها ومستقبلها لتسديده .

نتيجة للتطور الدراماتيكي الذي سارت فيه ديون العالم الثالث في العقد الأخير ، فان حجم هذه الديون قد تجاوز الآن رقم الترليون دولار (أكثر من ألف بليون دولار) . وتشير الاحصائيات ، الى أن حوالى نصف هذا الرقم مستحق على مجموعة دول أمريكا اللاتينية ، بينما تحتل ديون البرازيل خمس تلك الديون المستحقة على مجموعة هذه الدول ، حيث وصلت ديونها الى ١٢٠ بليون دولار عام ١٩٨٧ . وتأسيسا على هذه الحقائق ، يمثل جبل الديون البرازيلي أعلى قمة بين جبال ديون بلدان العالم الثالث .

وتدفع البرازيل حاليا ما قيمته ١٠ بليون دولار

سنويا لخدمة الفوائد المستحقة على هذه الديون (ناهيك عما تدفعه من أقساط) كما أصبحت مبالغ خدمة الديون (الفوائد + الأقساط) تلتهم حوالي ٥٪ من الناتج القومي الاجمالي ، وهو ما يزيد عن معدل النمو السنوي لهذا الناتج ، وتفترس تقريبا ، ٥٠٪ من إجمالي حصيلة صادراتها من السلع والخدمات . وكان من جراء ذلك ، أن أصبحت البرازيل ـ التي يقدر عدد سكانها بحوالي ١٣٠ مليون نسمة ـ فريسة لغول الديون الذي راح يلتهم بشكل شرس ثمار عمل شعبها ، ويقضي على كل آثار ايجابية تتحقق في مجال التنمية والتصنيع ، وعلى كل أمل في امكانية الارتقاء بمستوى معيشة شعبها . ونظرا لشراهة هذا الغول ، فان البرازيل لم يعد لديها ما تستطيع أن تقدمه باستمرار لسد جوع هذا الغول المفترس . ولهذا طلبت أكثر من مرة منذ بداية الثمانينيات وحتى الآن من دائنيها الدخول في مفاوضات لإعادة جدولة هذه الديون أي تأجيل دفعها ، مع عدم تحمل أعباء اضافية عن هذا التأجيل .

سقوط المعجزة

والغريب في الأمر ، ان هذا العسر المالي الشديد الذي تواجهه الآن البرازيل بعد انفجار بركان ديونها الخارجية ، والذي يمثل أحد الآلام الشديدة للدائنين ـ ومعظمهم من البنوك التجارية الأمريكية ـ يأتي بعد أن ذبلت أحلام ما كان يسمى « بالمعجزة البرازيلية » فقد راحت أدبيات التنمية الغربية في عقدي الستينيات والسبعينيات تدق طبول الدعاية والمديح لنموذج التنمية البرازيلي بشكل فج ، حينما كان هذا النموذج في بداياته المبكرة يرحب بالشركات الأجنبية المتعددة الجنسية ، ويفتح أمامها المجال واسعا لنزح أنهار فياضة من الأرباح .

كان نجاح هذا النموذج في تلك الأدبيات يقاس بمدى ما يحققه لهذه الشركات من معدلات مرتفعة للربح ، ومن مجالات استثمارية واسعة ، وليس من خلال ما يحققه للشعب البرازيلي من ارتفاع في مستوى معيشته ، أو ما يحرزه لاقتصادها من تحرر وإستقلال وتقدم . على أن أصوات طبول الدعاية للمعجزة البرازيلية سرعان ماخفتت ، حينما دخل هذا النموذج في منطقة حصار شديد منذ أواخر العقد الماضي تحت تأثير النتائج والافرازات الحتمية لهذا النموذج . وأختفى مصطلح « المعجزة البرازيلية » ليحل محل هذا السيل القوي من الكتابات التي تتحدث عن أزمة الاقتصاد البرازيلي ومشكلاته الحادة . فقد لجأت الشركات الأجنبية في عصر هستريا الاقراض الدولي في السبعينيات الى الاقتراض من الخارج بضمان الحكومة البرازيلية ، وبأسعار فائدة باهظة ، وصلت الى ٢١,٥٪ . وظلت هذه الديون ، مع غيرها من الديون الأخرى التي اقترضتها الحكومة البرازيلية تتراكم عاما بعد الآخر ، الى أن وصلت الى مستواها الحرج الحالي ، وأفرزت أعباءها الشديدة . ونظرا لأن نموذج التنمية البرازيلي ـ الذي قام أساسا بحافز خارجي (الاستثمارات الأجنبية الخاصة) ـ قد اعتمد على الانتاج من أجل التصدير ، ومن ثم حكم على نفسه منذ البداية بالتبعية لحالة الأسواق الخارجية ، فإنه ما أن ضرب الكساد الاقتصادي الدول الصناعية الغربية المستوردة لهذا الانتاج ، فان حصيلة الصادرات البرازيلية ، وهي المصدر الرئيسي لخدمة أعباء الديون ، سرعان ما تدهورت وأضعفت من قدرة البرازيل على الوفاء بأعباء ديونها . حدث هذا في الوقت الذي استمر فيه نزح الأرباح منها بشكل وحشي من قبل الشركات المتعددة الجنسية . وهو الأمر الذي أدى الى نشوء أزمات حادة في النقد الأجنبي ، وفي تمويل الواردات الضرورية ، وإلى اشتعال نيران التضخم .

عجز مستمر

ومن المفارقات التي سيدهش لها القارىء ، هو أنه على الرغم من أن البرازيل أصبحت تحقق دائما في السنين الأخيرة فائضا في ميزانها التجاري (زيادة الصادرات على الواردات) ، الا أن هذا الفائض لا يكفي لتمويل تحويلات خدمة أرباح رؤوس الأموال الاحتكارية المستثمرة فيها ودفع أعباء فوائد ديونها الخارجية . نتيجة لذلك ، فان حسابها الجاري في ميزان المدفوعات يحقق عجزا مستمرا ، وهو الأمر الذي يستدعي المزيد من الاقتراض الخارجي ، والمزيد من ثم في إرتفاع جبل الديون . وطبقا للتقديرات المبدئية عن عام ١٩٨٧ ، يبلغ فائض الميزان التجاري البرازيلي حوالي ٨ بليون دولار ، بينما يصل حجم العجز بالحساب الجاري حوالي ٤ بليون دولار . فاذا أضفنا إلى ذلك أقساط الديون المستحقة للمنظمات الدولية ، مثل صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ، والبنك الأمريكي العالمي ، وتقدر بحوالي ٢ بليون دولار واجبة الأداء في هذا العام ، لتبين لنا ، أن على البرازيل ان تقترض ما لا يقل عن ٦ بليون دولار ، لتضاف الى ديونها المتراكمة من سنوات سابقة .

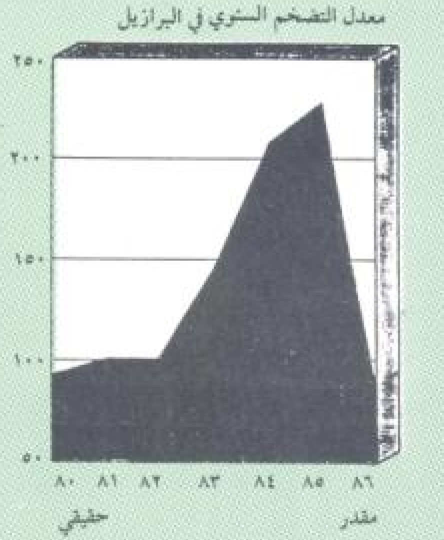
وتتيجة للأعباء الشديدة التي تمخضت عن جبل الديون البرازيلي ، وما واكب ذلك من آلام شديدة للبرازيل ووصولها إلى مرحلة عدم القدرة على الدفع - رغم الانجازات الهائلة في مجال النمو والتصنيع والتصدير ، فقد شاركت البرازيل مع المكسيك والأرجنتين وشيلي ، في تفجير أزمة الديون المصرفية في خريف عام ١٩٨٢ ، حيث توقفت عن دفع الأعباء المستحقة عليها في هذا العام . هنالك دب ذعر شديد في أروقة البنوك والمؤسسات المالية الدائنة ، لأن توقف هذه الدول التي تعد من كبريات الدول المدينة ، عن الدفع ، كان يهدد بشكل مباشر هذه البنوك والمؤسسات بالافلاس . وكان ذلك هو بداية عصر المواجهة الحقيقية بين الدائنين في العالم الغني وبين المدينين في العالم الفقير . بيد أنه نظرا لخطورة هذه الأزمة وما كانت ستحدثه من إنهيار مصرفي عالمي ، فانه سرعان ما تحركت الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، ومعهم بنك التسويات الدولية ، لمحاصرة تلك الأزمة ، وذلك عن طريق الموافقة على إعادة جدولة ديون هذه الدول وتقديم المزيد من القروض لها .

ومنذ ذلك التاريخ نشأ ما يمكن ان يسمى « بالاقراض الاجباري » بمعنى أن الدائنين أصبحوا مجبرين على تقديم مقادير معينة من القروض للدول المدينة ذات الوضع الحرج . حتى لا تفلس المؤسسات والبنوك الدائنة لها .

الاذعان للشروط

لكن تقديم تلك المقادير الاضافية من القروض والموافقة على إعادة جدولة الديون القديمة ، أصبح يرتبط بإذعان الدول المدينة للشروط التي يطلبها صندوق النقد الدولي ، من الحكومات في مجال تخفيض الانفاق العام الموجه لضروريات الحياة ، والخدمات الاجتماعية ، وتحجيم القطاع العام وبيع مؤسساته ووحداته الانتاجية للقطاع الخاص المحلي والأجنبي ، وتجميد الأجور ، وزيادة الأسعار والضرائب غير المباشرة ، وتقليل العمالة الحكومية ، وتخفيض سعر العملة الوطنية ، وتحرير التجارة والمدفوعات الخارجية من القيود .. إلى آخره . وكلها إجراءات ذات طابع إنكماشي ، ويقع عبؤها أساسا على عاتق الفقراء ومحدودي الدخل . ولهذا سرعان ما اقترنت تلك الاجراءات بحدوث إضطرابات إجتماعية وسياسية في هذه الدول وغيرها من البلاد التي سارت على نفس الدرب .

وعبر توالي السنين وتراكم التجارب ، بدأ قادة دول أمريكا اللاتينية يدركون حجم الكارثة التي ولدتها أزمة المديونية الخارجية ، وما نتج عنها من





سياسات اقتصادية أجبروا على تطبيقها . فقد بات واضحا أن عملية إعادة الجدولة ما هي إلا تأجيل ليوم الحساب ، ولكن حينما يحل هذا اليوم فان فاتورة الدفع تكون قد زادت بمقدار الفوائد الاضافية الناجة عن تأخير السداد . كما أن « الاجراءات التصحيحية » التي إشترطها الدائنون وصندوق النقد الدولي ، كانت ذات آلام شديدة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية . فلا التضخم المحلي قد إنخفض ، ولا العجز بالحساب الجاري في ميزان المدفوعات قد إنكمش ، ولا الحاجة للاستدانة الخارجية قد قلت ، ولا القدرة على سداد الديون قد ارتفعت ، بل على العكس من ذلك ، تعاصر الفشل في تحقيق تلك الأهداف بابطاء عجلات التنمية ، وبتردي مستويات المعيشة ، وبزيادة معدلات البطالة ، وبيع المصانع والأصول الانتاجية للمستثمرين والدائنين الأجانب . وكل هذه الأمور جعلت هذه الدول تغلي فوق بركان ثائر . حيث أصبح إستمرار الوفاء بتسديد فوائد الديون وأقساطها أحد العوامل الجوهرية المسئولة عن تفاقم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تلك البلدان .

كان من الطبيعي والحال هذه ، ان يبدأ بعض رجال السياسة والفكر في طرح قضية الديون من خلال التساؤل الجاد حول حقيقة حجم هذه الديون من ناحية ، وحول كيفية العلاج الجذري لها .

حقيقة حجم الديون

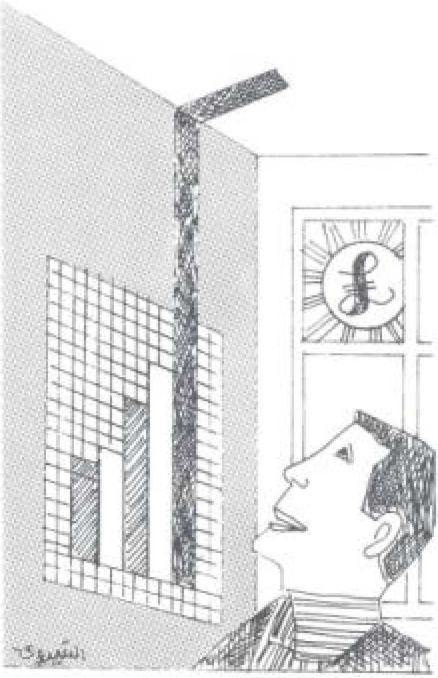
وفي ما يتعلق بالتساؤل الأول بدأ الشك يحوم حول حقيقة الأرقام الحالية الواجبة الدفع من قبل الدول المدينة . وأصبح هناك اعتقاد راسخ مؤداه ، أن هذا التطور الفلكي الذي سجلته ديون امريكا اللاتينية ، وغيرها من الدول في العقد الاخير ، لايعكس في الحقيقة حجم الموارد الحقيقية التي انسابت إلى تلك الدول ، بقدر مايعبر عن تأثير مجموعة من العوامل

الخارجية التي لا تستطيع هذه الدول ان تؤثر فيها . فهناك جزء هام من تلك الديون يعود إلى تأثير إرتفاع أسعار الفائدة العالمية ، وإلى إرتفاع سعر الدولار عالميا ، وإلى تدهور شروط التبادل التجاري لهذه البلاد على النطاق العالمي ، وهناك تأثير الكساد الاقتصادي في الدول الصناعية الغربية الذي خفض من صادرات البلاد المدينة إلى البلاد الدائنة . وهناك الارتفاع غير العادي الذي حدث في أسعار كثير من السلع التي تستوردها البلدان المدينة ، كالمواد الغذائية ومواد الطاقة والسلع الانتاجية .

وأخيرا وليس آخرا ، هناك الستار الحديدي للحماية التجارية الذي بدأت تفرضه الدول الصناعية الرأسمالية ضد نفاذ صادرات المدينة اليها ، وهناك الفساد الذي غذته الشركات المتعددة الجنسية في هذه البلدان ، والذي أدى إلى تهريب كثير من الأموال المقترضه للخارج ، في صورة سمسرة ، وعمولات ، ورشوة وإختلاسات . وهذه الأموال المهربة للخارج تعادل الآن مالا يقل عن ثلث ديون امريكا اللاتينية . وهي عبارة عن أموال مودعة أو مستثمرة بأسماء أشخاص من مواطني هذه الدول في أسواق النقد الدولية . فكل هذه العوامل كان لها باع طويل في إستمرار إرتفاع جبل ديون هذه البلاد وتفاقم أعبائها وتأسيسا على ذلك ، فان التسوية العادلة لمشكلة الديون تقتضي إذن إنقاص حجمها ، ومن ثم أعبائها ، بمقدار تأثير هذه العوامل .

تقرير لجنة تقصي الحقائق

وربما كانت حالة البرازيل نموذجا ذا دلالة خاصة عن مدى تأثير تلك العوامل في تأزيم مشكل ديونها الخارجية . فطبقا للنتائج التي توصلت إليها لجنة تقصي الحقائق التي كونها البرلمان البرازيلي للبحث في حقيقة ديون البرازيل ، يتبين أنه إذا ماروعي تأثير



العوامل السالفة الذكر ، فان حجم الدين الحقيقي البرازيل يصبح ٤١ بليون دولار بدلا من ١٢٠ بليون دولار . وكان المنطق الذي استندت اليه لجنة تقصي الحقائق للوصول الى هذا الرقم كما يلي :

* أنه يجب إستبعاد ماقيمته ٤٠ بليون دولار ، تتمثل في الكلفة المتزايدة للاقتراض التي نجمت عن الزيادة المستمرة في أسعار الفائدة . وهي الزيادة التي تحققت من إرتفاع سعر الفائدة التفضيلي من ٦,٢٥٪ في عام ١٩٧٩ الى ٢١,٥٪ في عام ١٩٨١ و ١٩٨٢ .

* كما انه يتعين إستبعاد ماقيمته ١٨ بليون دولار ، تتمثل في قيمة إجمالي القروض التي هربت للخارج ولم تدخل البلاد أصلا بعد إختلاسها ، وإيداعها وإستثمارها لحساب بعض الافراد في البنوك وأسواق النقد الخارجية .

* وهناك مبلغ ٥ بليون دولار يجب أن تستقطع من حجم الدين ، وهي عبارة عن التأثير الناجم عن إنخفاض سعر الدولار فيما بين عامي ٨٥ - ٨٦

* وهناك أيضا مبلغ ١٨ بليون دولار عبارة عن الديون التي اقترضتها الشركات المتعددة الجنسية من الخارج .

إن مجموع هذه العوامل الخارجية التي لاترجع إلى طريقة أداء الاقتصاد البرازيلي تشكل ٨١ بليون دولار ، الأمر الذي يعني أنها قد ساهمت في زيادة ديون هذه الدولة بما لايقل عن ٦٦٪ من اجمالي ديونها المعلنة من قبل صندوق النقد الدولي . ولهذا فان المنطق يقضي بتخفيض ديون البرازيل بنفس هذه النسبة . وبناء على هذا المنطق يجمع كثير من الخبراء والباحثين في أزمة الديون الخارجية على أن تلك الأزمة يجب أن يتحمل أعبائها الدائنون والمدينون معا وفقا لمبدأ المشاركه في المسئولية . وليس من الصحيح ، أو العدل أن نرجع تلك الأزمة فقط إلى أخطاء السياسات الاقتصادية الداخلية التي إرتكبتها هذه الدول في العقدين الاخيرين .

كينز والحلفاء وألمانيا

وفيما يتعلق بالتساؤل حول إمكانات الخروج من تلك الأزمة فان ذلك يذكرنا بالموقف العبقري والفذ للورد جون ماينرد كينز ، الاقتصادي البريطاني الشهير ، حول أزمة الديون والتعويضات الألمانية . حيث إنتقد كينز بلا هوادة معاهدة فرساي بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى . وهي المعاهدة التي كانت تقضي بأن تدفع ألمانيا المهزومة ديونا وتعويضات للحلفاء المتضررين تقدر بحوالي ١٢٠ مليار مارك ذهبي . وهي ديون وتعويضات كانت من الضخامة بحيث يستحيل على الاقتصاد الألماني المحطم الوفاء بها . ولهذا طالب كينز الحلفاء بإعادة النظر لتخفيض حجم هذه الديون والتعويضات ، وإعطاء الاقتصاد الألماني الفرصة الكافية لكي يعيد بناء طاقاته الانتاجية التي دمرتها الحرب ، مع تقديم بعض القروض والموارد الميسرة لألمانيا حتى تتمكن من إعادة بناء تلك الطاقات وذلك حتى يتسنى لها إستعادة قدرتها على التصدير والوفاء بهذه الالتزامات . وأكدت التجربة التاريخيه لهذه الأزمة حنكة وعبقرية الرؤية الكينزية .

ورغم إختلاف السياق التاريخي لأزمة مديونية العالم الثالث عن أزمة الديون والتعويضات الالمانية ، إلا أننا مع ذلك نستطيع القول بأن ثمة تشابه واضح بين الأزمتين . ذلك ان جبل الديون الشاهق لدول العالم الثالث غير قابل للتسوية بأي حال من الأحوال في ظل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية بالبلاد المدينة مالم يتم التفاوض على تخفيض تلك الديون من ناحية ، وتسهيل إجراءات دفعها من ناحية ثانية ، ومنح تلك البلاد القروض والموارد الميسرة التي تمكنها من الاسراع بعجلات التنمية فيها وإستعادة قدرتها على الوفاء باعباء ديونها . لكن المشكلة تتمثل في أن الدائنين حتى الآن غير مستعدين لتقديم أية تنازلات من جانبهم ، ويصممون على إعتصار البلاد المدينة لآخر مدى ممكن . وهذا يبدو بشكل جلي في موقف البنوك التجارية الدائنة التي تتسلح دوما بنظرة ضيقة قصيرة الأمد ، وتسعى دائما للمحافظة على أعلى معدلات ممكنة للربح . ولايعنيها في قليل أو كثير تأثير أزمة الديون على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد المدينة .

بيد أن بعض الحكماء في الاقتصاد الرأسمالي العالمي بدأوا يدركون مدى المخاطر الحقيقية التي يمكن أن تنجم عن إستمرار هذه الأزمة في الأجل القريب ، بعد ان اعلنت بعض الدول عن عدم قدرتها او إستعدادها لمواصلة الوفاء بأعباء الديون . ومن هنا يعتقد هؤلاء الحكماء ، بأن الوقت قد حان لأن يعقد مؤتمر دولي تحت رعاية منظمة الأمم المتحدة لمناقشة هذه الأزمة والتفاوض بين الأطراف المعنية بغية التوصل إلى حل ناجح ، قبل أن ينفجر البركان ويدمر المدينين والدائنين معا ، خاصة وأن عصر المواجهة الحقيقية بينهم قد بدأ . □

جَلْوةُ ليل

شعر : فاروق شوشة

كان طريقي يَحْمِلُ خطوي ، ويُقَرِّبُني
وَأنا أتلفَّتُ بَحْثاً عَنْ نُورِ يقيني ،
وَأطَلَّ الفَجْرُ ، فَقُلْتُ : الآنَ وَصَلْتُ ،
الآنَ عَرَفْتُ ،
الآنَ أرْوِي أشواقي وحنيني .
لاقَيْتُكَ عندَ ظلالِ الأُفقِ ،
وكان الموعدُ ساعةَ تصفو الروحُ ،
تشفُّ ، وتكشفُ عَنْ جَلْوَتِها ،
عمقَ نفاذِ شعاعِ بصيرَتِها ،
فتغادرُ طينةَ حيْرَتِها ،
وتُسَبِّحُ في فلكِ الملكوتِ .
خطواتي تُسْرِعُ نَحْوَ النُورِ ،
وشراعي في اللجةِ مَنْشُورٌ ،
والقلبُ الواجفُ يؤويني !

حدثني اللَّيلُ عَنِ الأسرارِ ،
وَعَنْ مكنونِ حكاياتِه ،
ولواعجَ نفسٍ ساهرةٍ .
يسَّاقطُ فيضُ النّورِ بدربي ،
ويضيءُ حناياي .

تتلاصقُ نفسي في نفسي ،
ويغرِّدُ طيرٌ في قلبي .
يَحْمِلُني الليلُ ، ويأخُذُني في بستانِه .
هذي نجمةُ حبٍّ تتألَّقُ ،
وشعاعةُ نُورٍ تتَخَلَّقُ ،
أقطفُ مِنْ شجراتِ اللّيلِ
ثَمراً مسكوناً بالحكمةِ ،
أسْبَحُ في ملكوتِ اللّيلِ
حتى أتلاصقَ في شطآنِه ،
ونداءُ الموجةِ يغويني .

يَذْكُرُكَ القلبُ ولاينساكَ
يانَجْمَ اللّيلِ المتوَحّدِ ،
لاتغلق بابَكَ في وَجْهي ،
فأنا ملهوفٌ للقاكَ .
لاتبعدْ طيفَكَ عَنْ أُفقي ،
فأنا أنتظرُ عطاياكَ .
ياوجهَ اللّيلِ المتفَرِّدِ ،
ياصوتَ اللّيلِ المتردّدِ ،
ياحزنَ اللّيلِ المتجدّدِ ،



الأرضُ حدودٌ لمراياكَ ،
والنفسُ وعاءُ لحكاياكَ .
يانبعَ الرؤيا ، والإلهامِ ،
وجناحَ الجَلْوَةِ ، والأوهامِ ،
ونداءَ الشوقِ المتبدِّدِ ،
إنِّي والعمرَ على بابِكَ ،
ظمأٌ موصولٌ .
والفيضُ الغائرُ يدعوني
لهوىً مأمولٍ .
يانجماً يلتمعُ ، ويخفى ،
وشعاعاً يقربُ ، ثم يغيبُ ،
مِنْ أيِّ سبيلٍ تأتينا ،
وبأيِّ رداءٍ تكسونا ،
فتضيءُ عيونُ ليالينا ،
وتبدِّدُ عن ليلي الخوفَا ؟
يافيضَ النّورِ أضيءْ دربي ،
عطِّرْ دنياي ،
يهواكَ القلبُ ، وينتظرُكَ ،
ياسرَّ هواي .

صاحب قديم

بقلم : الدكتور عبد السلام العجيلي

دخل عليّ منذ أيام غرفة المعاينة في عيادتي شاب حسن الهندام ، دون استئذان . وكأنه رأى على وجهي علائم الاستنكار لتخطيه دور من يسبقونه في قاعة الانتظار فقال مبادراً :

أرجوك . لست مريضاً . جئت إليك في استشارة غير طبية .

قلت : تفضل واجلس . ماذا تريد مني ؟

قال : أنا عائد من العاصمة ، والتقيت هناك بأحد أصحابك الأعزاء . الصحيح أن مظهره لم يعجبني في البدء ، ولكن كلامه أثار اهتمامي .

حدثني عن اختراع علمي له يحتاج إلى قليل من النفقة ليصبح ناجزاً وليدّر عليه وعلى من يشارك في نفقته الثراء والغنى . لم أحمل ما سمعته منه أول الأمر محمل الجد . إلا أنه استشهد بك على صحة ما يقول ، وأخرج من جيبه قصاصات من مجلات تحوي مقالاتٍ لك تشيد فيها به وباختراعه وتدعو القادرين إلى المساهمة في إخراج هذا الاختراع إلى حيّز الوجود . تستطيع أن تعدني واحداً من هؤلاء القادرين . وقد حدثتني نفسي بأن أوظف بعض ما أملكه من مال في إنجاز هذا الاختراع . فبماذا تنصحني ؟

وسكت محدثي بينما اتسعت ابتسامتي على شفتيّ لما سمعته منه . وحين استبطأ هو جوابي أضاف قائلا :

ـ أظنك عرفت صاحبك هذا ، وتذكرت ما كتبته عنه وعن اختراعه .

قلت ، وأنا أحبس في حنجرتي الضحكة التي كادت تتحول إليها ابتسامتي الواسعة :

ـ وكيف لا ؟ إنه صاحبي المنجم والشاعر ، ثم المخترع ، الخوري زيتوب . . . أو على الأصح البروفيسور البارون كريكور أوهانيان ! كتبت عنه أكثر من مرة ، ورويت شعره ، وتحدثت عنه ذات يوم في إحدى محاضراتي . . .

وعلى الرغم من كثرة المنتظرين دورهم في الدخول اليّ وجدتني استخلص من وقتي بضع دقائق أعرّف بها هذا الشاب بذلك الصاحب القديم .

وإذا لم يكن هذا الرجل ، أعني البروفيسور البارون كريكور أوهانيان ، الخوري زبنوب سابقاً ، صديقاً قديماً فهو على الأقل معرفة قديمة .

عرفته في صباي حين كان يلبس ثوب الكهنوت ويتردد على بلدتي الصغيرة متفقداً فيها رعيته من أبناء طائفته الدينية . وقد اضطرته أزمة عاطفية مرّت به في تلك الأيام إلى أن يتخلى عن ثوبه الكهنوتي ، وإلى أن ينحو في حياته المنحى الذي تؤهله له مواهبه الفنية ومزاجه الشاعري ومظهره الأنيق الجميل . راح ينشر في الصحف الأرمنية التي تصدر في لبنان وسورية مقطوعاته الشعرية الرقيقة ، وينشد أشعاره في الزوايا الأرمنية في الاذاعات المختلفة ، يلقيها أحياناً إلقاءً وفي أحيان أخرى ينشدها بصوته الجميل في موسيقاه العذبة . وبين هذه وتلك كان صاحبنا يطلّ على المقاهي والمرابع في بيروت ودمشق وفي المصائف الجبلية بينها ، بوجهه الصبيح وقده المشيق الطويل وبزته السوداء الأنيقة ، ليقرأ لزبائنها حظوظهم في قعر فناجين القهوة أو في خطوط أكفّهم . وكان له من ذلاقة اللسان ومن المعرفة بجوانب النفس الانسانية ما يستحوذ به على اهتمام مستمعيه ويجعلهم يصدقون ما يتنبأ به لهم عن الثروة المنتظرة والمنصب الرفيع المرتقب ، وعن فتيات شقراوات وفتيان سمر سيكنّ وسيكونون من حظ المستمعين والمستمعات بعد ثلاث إشارات من الزمن . . . وقد تكون هذه الاشارات ثلاثة أيام أو ثلاثة شهور أو ثلاثة أعوام ، أو . . . ثلاثة قرون !

كنت ألتقي بالبارون أوهانيان في هذه الفترة من حياته في أوقات متباعدة . إلا أن لقاءاتي به أصبحت أكثر تقارباً حين طعن في السن وتغيرت عليه ، وعلى غيره ، الدنيا ، فسُدّت في وجهه مرابع بيروت ومصائفها الجبلية وأصبحت إقامته الدائمة في دمشق . بعض من يراني معه في عاصمة بلادنا يعجب من مجالستي له ويظن بي تصديقاً لثرثراته في قراءة الحظ والتنبؤ بالمستقبل . غير أن تلك الثرثرات هي آخر ما يشدني إلى هذا العجوز الذي لا يزال محتفظاً بآثار الصباحة في وجهه والاستقامة في قامته ، والذي ما زالت بزته السوداء محتفظة ببقايا أناقته القديمة على الرغم من لمعة قماشها ودبيب البلى في حواشيها .

أحاديثنا في جلساتي إليه تبدأ عادة باستعادة ذكرياته في بلدتي الصغيرة حين كان كاهناً والكلام عن صداقاته لأعمامي الذين كانوا في سنه آنذاك ، وتنتهي دوماً إلى سؤالي إياه عن آخر ما نظمه من مقطوعات شعرية ، وعن آخر ما سجّل في الدفتر الذي يملأ عبه من حكايات ونوادر يسميها بلهجته المتفاصحة « نكتات » .

تلك المقطوعات الشعرية التي نظمها بالأرمنية ويترجمها إلى العربية بلكنة أرمنية فاضحة ، نقلت منها في مرات كثيرة ما كان يعجبني فيها كتبته أو تحدثت به عنه . اضرب لها مثالاً رباعياته التالية :

يا حبيبي ، إني أتوسل إليك :
لا تمش في ضوء الشمس
أخاف على ظلك أن يقع على الأرض
فيتعفّر بالتراب
عندما دخلت بيت التنور يا حبيبي
وجدت فيه ألف رغيف طازج
لم أر بينها واحداً أشقر مثل خدّك
ولا واحداً محروقاً مثل قلبي

* * *

ذهبت الى رب العزة أشكو إليه الجميلين
وما فعلوه بي
لم أفد شيئاً
فقد وجدته تعالى ، كذلك ، جميلاً !

أما « نكتاته » ، أعني حكاياته ونوادره ، فكانت لمعاً قصصية قصيرة يؤلفها أو يقتبسها مما يحفظ ، ويسجلها في دفتر سميك يملأ جيبه الداخلي.رويت في ذات مرة ، منذ خمسة عشر عاماً ، إحدى تلك الحكايات في مقال لي فأثار في حينه ضجة كبيرة نظراً لتطابق تلك الحكاية مع واقع أمتنا العربية آنذاك .

وأحسب أني لو أعدت رواية الحكاية ذاتها اليوم لما وجدت دورية ترضى بنشرها ، لصدق دلالتها على واقعنا الحاضر ولضيق المسؤولين في كثير من البلاد عن تقبل مقالة الصدق تلك .

في آخر لقاء لي بالبروفيسور أوهانيان سألته إلى أين وصل في تسجيل « نكاته » ، قال لي : بلغ عددها مائة وأربعين بعد الألف ! قلت : اسمعني الأخيرة منها . قال : إنها هذه :

« عاد فرعون من حربه بأربعة من خصومه الملوك أسرى . ولما بلغ عاصمة بلاده حلّ عن عربته خيولها الأربعة وأسرج بدلها أولئك الملوك ليجروها به .

وبينما كانت العربة تجري وفرعون يرفع سوطه يستحث به الملوك الخيول على الجري ، رأى ملك آشور ، وهو أحد تلك الأحصنة الملكية ، يدير رأسه ويلتفت إلى العربة وراءه . انتهره فرعون وقال له :

ـ لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ ألا يعجبك ما تفعل ؟

فأجابه ملك آشور بقوله :

ـ أنا لا أنظر اليك يا فرعون ، وإنما أتأمل في الدولاب كيف يدور . بالأمس كنتُ ملكاً على بلاد وشعوب ، واليوم أنا حصان على عربة ! »

* * *

هكذا ظلت أحاديث الخوري زينوب ، أو البروفيسور البارون كريكور أوهانيان ، معي أعواماً كثيرة . إلا أن صاحبي هذا أخذ في السنين الأخيرة يعقّب على مقطوعاته الشعرية ونوادره تعقيبات علمية أفضت في النهاية إلى حديث اختراعه العجيب الذي من أجله جاء هذا الشاب يستشيرني اليوم .

بداية تعقيباته العلمية تلك كانت بأن راح يهمس لي أنه وقع في دراساته وتحرياته في المخطوطات القديمة على سرّ عظيم سيوظفه في اختراع عجيب غريب .

وفي لقاءاتي التالية به صار يبشرني بأن اختراعه العجيب الغريب في طريق الانجاز ، وأن تمام انجازه يتوقف على مبلغ زهيد من المال ، عشرين ليرة أو ثلاثين ليرة فقط ، يهزّ بعدها العالم هزاً ويجلب له ولشركائه في انجازه الثروة الطائلة والغنى الفاحش .

كنت آنذاك أحك رأسي متظاهراً بتصديق ما يقول ، وأخرج من جيبي الليرات التي يذكرها وأنا متأكد من أنها لن تفيد شيئاً في إتمام ذلك الاختراع وإنما تسد عوز صاحبي حين تشح موارده من قراءة الأكفّ والتنبؤ بالمستقبل .

وتوالت الأيام ولمّا ينجزْ ذلك الاختراع . كانت اللمسة الأخيرة منه متوقفة دوماً ، ـ حسب ما يقوله البروفيسور أوهانيان ـ على مبلغ مالي أصبح يتجاوز مرتبة العشرات من الليرات الى المئات ثم الآلاف منها . قلت له مرة حين راح يذكر ذلك لي داعياً إياي إلى المساهمة في نفقات تلك اللمسة الأخيرة :

ـ عند هذا قف يا صديقي ولا تطمع بمساعدتي . ليس لأني لا أؤمن بقيمة اختراعك ، وانما لأنك تذكر أرقاماً تتجاوز إمكاناتي المادية .

قال عندها : حسناً . اذا كنت لا تستطيع اعانتي بالمادة ، ساعدني معنوياً .

قلت : ماذا تقصد ؟

قال : الناس تسمع منك وتصدقك فيما تقول . تحدّث للناس عن اختراعي . أكتب عنه . قل لهم ان الخوري زينوب وضع يده على السر الذي كان مكتوباً على عصا النبي داود وخاتم النبي سليمان ، وانتقل منهما إلى سقراط وأرسطو طاليس ولقمان

الحكيم . . . وأنه وظّف ذلك السر في اختراع هائل يمطر الذهب كما تمطر غيوم السماء الماء . . . وإن هذا الاختراع لا يحتاج إلاّ إلى آلاف قليلة من الليرات تعود على من يتقدم بها بالملايين وآلاف الملايين !

ضحكت آنئذ وقلت : لـك هـذا علـيّ يـا بروفيسور . سأقول كل ذلك على رؤوس الأشهاد ، وبأعلى صوت . . .

وكتبت من فـوري في ذلك الحين مقالاً نشرته إحدى المجلات السيارة في هذا الموضوع ، قـرأه الكثيرون وتحدثوا عنه وتندروا به . وعلى الرغم من مداعبتي لصاحبي وتشكيكي في واقعية اختراعه في ما كتبته عنه ، فقد سُرّ هو بالمقال واحتفظ بالصفحات المنشـور فيهـا في محفـظته في جيبـه ، إلى جـانب القصاصات والأوراق التي تملأ ذلك الجيب ، مبرزاً إياه إلى كل من يجالسه ويجد فيه الاستعـداد لسماع الحديث عن ذلك الاختراع الجهنمي .

وكـان هذا الشـاب واحـداً من الـذين أطلعهم البروفيسور أوهانيان عـلى ذلك المقـال . ويبدو أن روح الدعابة والسخرية في سطوره قد فاتته فحمل كلامي فيه على محمل الجد ، وجاء يستشيرني في المساهمة في نفقات اللمسة الأخيرة من هذا المشروع الخلاب . كان لا بد لي من أن أبصّر الشاب بالحقيقة وأبدد ما توهمه فيما كتبته . وأحسب أنه أصيب بشيء من خيبـة الأمل عنـدما وعى كـلامي . صحيح أني جنّبته خسارة ماله ، ولكني في نفس الوقت أيقظته من حلم لذيذ وبدّدت آماله الحلوة التي بناها على ما منّاه به الخوري زينوب ، كنتيجة لمساهمته في اختـراعه ذاك ، من ثروة طائلة ومكاسب كبيرة .

* * *

ولقـد مضت فترة طـويلة لم التق فيها بصـاحبي الخوري البروفيـسور والبارون . ولست أشك في أن بعض من يعرفون صلتي به سيحملون إليه هذا المقال ليعـرفوه بـأني أسأت اليـه ، وقطعت عليـه طريق الحصول على مبلغ محترم كان من المنتظر أن يصب في بالوعة اختراعه الوهمي . وأنا واثق من أنه سيستقبلني في لقائنا القـادم باللوم والعتـاب ، وربما بشوبة من الغضب ، لهذا التصرف مني ، أنا صاحبه القديم . ولكني واثق كذلك من أنه سيقتطع هذه الصفحات التي فيها المقال ويضمها الى ما ينتفخ به جيبه الداخلي من كتابات أخرى لي عنه ، مستشهداً بها عنـد من يجلس إليه على مواهبه في نظم الشعر وتأليف النوادر وفي ابتكار الاختراعات العلمية الغريبة العجيبة الرهيبة . □

■ من العظماء من يشعر المرء في حضرتهم بأنه صغير ، ولكن العظيم بحق هو الذي يشعر الجميع في حضرته بأنهم عظماء .

(مكسيم جوركي)

■ الذي يجدد مصيره بالفوز أو الموت قلما يواجه الموت . (كوديني)

■ نظر الناس إلى داخل بيتي من الشقوق ، وعيروني ، فوجب عليّ أن أفتح لهم النوافذ والأبوابَ ليروني كما أنا ، لا كما يتخيلون

(روسو)

اقرأ في العدد القادم من

العربي نوفمبر ١٩٨٧

استطلاعات

"بيروبيجان" من يتذكر دولة اليهود السوفييت؟
سليمان الشيخ

"المولوية" يرقصون "السيما" على أنغام جلال الدين الرومي
سليمان مظهر

- من الانحطاط إلى النهضة / د. أحمد علبي
- تقدم العلم وتلوث البيئة / د. سمير رضوان
- بخلاء الجاحظ يراوغون القلق / د. عبدالمقصود عبدالكريم
- جنون العنكبوت / عبدالرحمن حريتاني
- ساعة زرقاء / د. عبدالغفار مكاوي
- الأسنان المصابة .. بين القلع والعلاج / د. ابراهيم أبو طاحون
- جويا .. العابث الثائر / جمال قطب
- المعلم لوب ..! / د. عبدالوهاب حومد
- الحاسب الالكتروني ومستقبل الاقتصاد العالمي / سمير شعبان
- كتاب الشهر: النبوءة السياسية / طارق الحجي
- وجهاً لوجه: منح الصلح وجهاد فاضل

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - د. نقولا زيادة - فهمي هويدي - د. سامي عزيز
د. عبدالحميد يونس - محمود الراغي - محمد العشري - محمد سمارة



طعام المستقبل

اعداد : ابراهيم عبدالله العلو

كتب الكثير من العلماء والخبراء عن التغيير وطبيعة الحياة في عام ٢٠٠٠ كما برز على الشاشة كثير من الافلام والبرامج التي بحثت في هذا الموضوع ، وقرأنا وسمعنا عن توقعات عديدة وغريبة من استعمال الحاسب الآلي في شتى مجالات الحياة لكن مهما وصل بنا التقدم العلمى فهناك حقيقة لابد منها وهي أنه سيكون هناك ما يفوق الستة مليارات نسمة على سطح الأرض فماذا سيكون مستقبل الغذاء ؟

يحلو لكثير من كتاب الخيال العلمي ، وخاصة في الغرب أن يصوروا الحياة في المستقبل على أنها حياة تختلف كلية عن حياة اليوم ، ولم يتناسوا الطعام ايضا . فيقول بعضهم أن الناس سيكتفون بحبوب (اقراص) البروتين بدلا من الوجبات العادية ، ولكن خبراء التغذية يقولون أن ذلك يبقى خيالا علميا لأن تقبل الناس للطعام وطبيعة تغذيتهم لن تتغير كثيرا في هذه الفترة القصيرة نسبيا ، وستبقى



● الزراعة المائية : نباتات البندورة « الطماطم » المنتجة بهذه الطريقة .

الزراعة هي المصدر الأساسي للغذاء مع بعض التغيرات المستحدثة ، والواجب ايجادها لتواكب التطور العلمي في باقي مجالات الحياة ، وأقل التقديرات هي أن البشرية تحتاج لزيادة الانتاج الزراعي الى ثلاثة أضعاف المستوى الحالي ، لتوفر الغذاء الكافي للزيادة السكانية المتوقعة خلال هذه الفترة .

يتوقع خبراء التغذية نقصا في استهلاك اللحوم مع بعض الزيادة في استهلاك الاسماك والحبوب والخضار ، أما استهلاك الجبن والحليب والزبدة والدجاج والبيض فسيبقى عند المستوى الحالي . ولكن من المتوقع حدوث بعض التغير في طبيعة الطعام نفسه ، مثلا ، مع الارتفاع الدائم لكلفة انتاج اللحوم فسوف يتحول اللحم الصافي الى خليط من اللحم والبروتين النباتي (وتقوم كثير من مطاعم الجامعات في امريكا بتقديم الهمبورجر المصنع من اللحم وبروتين فول الصويا) أما الجبن التقليدي فسوف يكون متوفرا ولكن اكثر من نصف الجبن سيكون مصنعا من بروتين ودهن النبات (وهذا ايضا متوفر الان في الاسواق الامريكية) وحتى الاسماك سوف تكون مصنعة على شكل قطع بأشكال وقوالب معينة ، وتكون خليطاً من السمك والبروتين النباتي ، أما الدواجن فسوف تشهد تغيرا طفيفا ولكن انتاج الدجاجة الواحدة من البيض سيزداد ، وتركز أبحاث الوراثة الحيوانية على إنتاج دجاجة بحجم أكبر وربما الى حجم يوازي حجم الديك الرومي . أما إنتاج الخضار فسوف يزداد من خلال البيوت المحمية (البلاستيكية) والزراعة المائية . أما انتاج الحبوب فسوف يشهد زيادة كبيرة من خلال السلالات المحسنة وراثيا .

المحاصيل الجديدة :

يوجد في العالم اكثر من ٨٠,٠٠٠ نوع من النبات الصالح للأكل ! ولكن استهلاك البشر خلال التاريخ انحصر في حوالى ٣٠٠٠ نوع فقط ، وينحصر ٩٥٪ من السعرات الحرارية (الكولورى) النباتية في ٣٠ نوعاً من النبات فقط . ويعتبر بعض علماء النبات أن الاعتماد على نوعيات قليلة أمر خطير بعكس الاعتماد على عدد اكبر من النوعيات الذي يعتبر حاجز أمان ضد امراض النبات والكوارث الطبيعية ، كما يمكن استعمال مساحات أكبر من الارض لانتاج محاصيل أكثر ، ومصادر جديدة من البروتين .

ومن المحاصيل الجديدة التي يتوقع أن تشهد انتشارا ملحوظا في المستقبل الفاصوليا المجنحة ، وهي نبات لذيذ يحتوي على ٣٧ ٪ من البروتين ويعتبر مصدرا رئيسيا للبروتين في غويانا الجديدة وبعض بلاد جنوب شرق آسيا .

في عام ١٩٧٥ قامت اكاديمية العلوم الأمريكية باعداد تقرير عن ذلك النبات واعتبرته نباتا جديدا ذا كمية عالية من البروتين ، ومناسبا للمناطق الاستوائية . ويوجد هذا النبات الان في اكثر من ٧٠ بلدا ، ويعتقد الكثيرون أنه يمر بمرحلة مشابهة لمرحلة فول الصويا في الثلاثينيات ، عندما غزا عالم الزراعة وأصبح بسرعة فائقة المحصول الأكثر أهمية لهذا القرن ، وفي دراسة لمؤسسة العلوم القومية الامريكية تم انتقاء ٥٤ محصولا جديدا ، منها ٢٠ نباتا ذات أهمية كبرى ومن بين النباتات التي تضمنتها هذه القائمة بازلاء بيجون ويقطين بافالو ، وفاصولياء تيباري ، والبميلو ،وحب الامارانث ،بالاضافة الى بعض الجوزيات . وينمو يقطين بافالو بريا في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة في الأراضي الجافة ، وتحتوي بذوره على ٣٥٪ من البروتين وتزرع على نطاق واسع في المكسيك . أما نبات الامارانث فكان نباتا أساسيا للهنود الحمر في المكسيك وامريكا الوسطى ، ولكن المحتلين الاسبان منعوا زراعته لانه كان يلعب دورا في الحياة الدينية ، ويحتوي هذا النبات على كمية من البروتين تفوق الكمية الموجودة في محاصيل الحبوب ، ويعتبر غنيا بالحمض الامينى (لايسن) ويمتاز بقدرته على تحمل الظروف البيئية الصعبة . أما فاصولياء (المارامـا) فتحتوي على طاقة غذائية توازي طاقة الفستق وتمتاز بطعم كاللوز وتحتوي على مقدار من البروتين يوازي الكمية الموجودة في فول الصويا ، وتؤكل جذورها كنوع لذيذ من الخضار في بعض بلاد افريقيا ، ويعتقد بعض علماء النبات أنها سوف تحتل مكانا حساسا بين المحاصيل المستقبلية . وهناك ايضا نبات (الكوكويام) الذي يشابه البطاطا والذي يتوقع أن يزدهر في المناطق الاستوائية من العالم . أما الفطر (المشروم) فيعتبره العالم الصيني شانج أحد المصادر الغذائية المجهولة ، ومن خصائصه أنه غني بالبروتين والمعادن والفيتامينات بالاضافة الى الحمض الامينى (لايسين) ومن المعلوم أن بالامكان انتاج الفطر على نوعيات مختلفة من المخلفات الزراعية والصناعية .

المصادر الحيوانية :

بالاضافة الى المصادر النباتية الجديدة للغذاء فان هناك عددا آخر من المصادر الحيوانية المهمة أيضا ، وتمثل الارانب احدى المصادر المقترحة ، ومن خصائص الارانب انها تتكاثر بسرعة بالاضافة الى المساحة الصغيرة نسبيا المحتاجة لتربيتها بالمقارنة مع مصادر البروتين الحيواني الاخرى . وفي الحقيقة فان الارانب تحتوي على اكبر نسبة من البروتين بين الحيوانات المنتجة للحوم ، ونسبة أقل من الدهون اذ تحتوي على ٢٠٪ من البروتين الصالح للاكل بالمقارنة مع ١٢٪ بالنسبة للبقر .

أما المياه المتجمدة المحيطة بالقطب الجنوبي



● الجوز الأسود .

فتعتبر مصدرا مهما لاحتوائها على البلانكتون المعروف (بالكريل) المتوفر بكثرة في تلك المناطق ، وتشير التقديرات العلمية الى ان الكميات المتوفرة من الكريل في مياه القطب الجنوبي تتراوح بين ١٨٠ الى ١٣٥٠ مليون طن ، وان الانتاج السنوي يتراوح بين ١٠٠ الى ١٦٥ مليون طن . ويشير علماء البيولوجيا الى ان الكريل يحتوى على الاحماض الامنية الأساسية والفيتامينات والمعادن ، وتقوم الان بعض التجارب لتصنيع عدة انواع من الكريل ، منها اللحم الصافي والعجينة المتميزة بالاضافة الى البروتين المركز ، غير ان الامكانيات الاقتصادية والتقنية لاتزال محدودة ولكن من المتوقع تطوير تلك الامكانيات لاستغلال الكريل بشكل تجاري بحلول عام ٢٠٠٠ .



• البقرة التي في الأعلى هي أم كل العجول التي في الأسفل ، وقد تم استخدام أدوية الإخصاب ، ثم تم نقل البويضات الى أبقار أخرى لتحضنها .

أما الاسماك فانها تمتاز بقدرتها على تحويل الغذاء الى أنسجة جسمية بفعالية أكبر من حيوانات المزرعة ونتيجة لذلك تجد أن نسبة اللحم الصافي للاكل في السمك اعلى منها في البقر والغنم أو الدجاج مع تكلفة أقل لانتاج البروتين . ويتوقع العلماء أن تقوم زراعة الاسماك بتقديم كميات اضافية من السمك اللازم للغذاء في المستقبل . وقد بدأت هذه الطريقة منذ الاف السنين في فصل الصيف ولكنها لم تتطور بشكل ملموس الا في الثلاثين سنة الماضية . وتقوم زراعة الاسماك بتوفير ثلث السمك المستهلك في الصين . وبالاضافة الى الصين فان اليابان وتايوان والمكسيك من الدول الرائدة في هذا المجال . أما في امريكا فان زراعة الاسماك متركزة في الجنوب وخاصة على ضفاف نهر المسيسبي ويعتبر سمك القط (السلور) (والترويت) أهم الاسماك المنتجة في مياه البحيرات الصناعية في الوقت الحالي ، ويتوقع البعض ازدياداً ملموسا في زراعة الاسماك في امريكا نظرا لتناقص الكميات المتواجدة في مياه المحيطات .

الأطعمة المصنعة

يشكل الذوق الانساني العقبة الأساسية أمام خبراء تقنية الغذاء في تعاملهم مع الأطعمة المصنعة .

إذ أن طعم الخضار واللحوم الطبيعية لايزال اكثر تقبلا في كافة المجتمعات . ويقوم معهد ناتيك للجيش الأمريكي المسئول عن تطوير مواد غذائية جديدة للجيش بدور فعال من أجل انتاج مواد غذائية مصنعة على نطاق واسع . ومن بين المواد المصنعة اللحم المنتج من اللحوم المتبقية على العظام حيث يتم خلطها تحت ضغط عالي ثم اعادة تشكيلها بحيث تبدو وكأنها شرائح من اللحم الطازج وهناك عملية مشابهة تجرى على بقايا مصانع تعليب الاسماك والدواجن . أما فول الصويا والذي يستخدم الان كعلف للحيوانات في اغلب الاحيان فيشكل املا كبيرا في طعام المستقبل ، حيث تتم اضافته الى لحم البقر والسمك والدجاج وأغذية أخرى . وبإمكان



● الفاصولياء المجنحة Winged bean .



● الأرانب تشكل أملا كبيرا في طعام المستقبل .

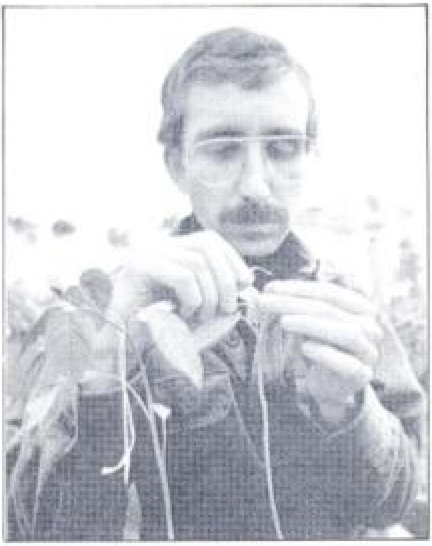
مصانع الغذاء اليوم انتاج فول الصويا بأشكال مختلفة حيث يمكن اضافته الى الحلويات وطعام الاطفال الرضع ، كما يمكن اضافته الى « الهمبورجر » والسمك . ويعتبر الكثير من العلماء أن الامكانيات المتوفرة لفول الصويا غير محدودة . وتجد اليوم في الأسواق الامريكية العديد من المنتجات التي تمتاز بطعم مشابه تماما للحم مع أنها مصنعة بشكل تام من فول الصويا .

أما الحليب فلن يحتاج الى الثلاجة في المستقبل ويوجد الان الحليب المسخن الى حرارة عالية اذ يسخن الحليب الى حرارة عالية جدا حيث تمنع تلك الحرارة نمو أية بكتريا . وهذا النوع من الحليب متوفر اليوم بنكهات مختلفة كالفريز والاناناس والموز .

أما بالنسبه لحيوانات المزرعة فمن المتوقع أن تزداد عمليات نقل الأجنة في الابقار بالاضافة لزيادة عدد المواليد لكل حمل .

« البيولوجيا » الدقيقة

يقوم علماء « البيولوجيا » الدقيقة بأبحاث سيكون لها اثر كبير في عالم الغذاء في المستقبل ، ومن المعلوم أن هنالك بكتريا قادرة على تحويل الآزوت الجوى الى مركبات ازوتية يمكن استخدامها من قبل النباتات . كما هو الحال في جذور البقوليات من خلال العقد الآزوتية . ويركز أحد الانواع من الابحاث على زيادة فعالية تلك البكتريا لتركيز الآزوت الجوى . ويؤدى ذلك بدوره الى زيادة انتاج المحاصيل من النبات ، وبالامكان القيام بذلك من خلال تعريض تجمعات تلك البكتريا الى مواد مسببة للطفرات أو تعريضها لأشعة الأيونات . وفي حال نجاح تلك الابحاث فان النتائج سوف تكون ذات تأثير كبير . اذ ان انتاج فول الصويا سيزداد بنسبة ١٥٪ وهنالك مجال بحث آخر وهو ماهية العلاقة المشتركة بين البقوليات وتلك البكتريا ، وفي حال توصل العلماء الى فهم طبيعة تلك العلاقة فسيؤدى ذلك الى ادخال تلك الخاصية الى محاصيل الحبوب ، الامر الذي



* أحد البحاثة في تجاربه على نبات الامارانثس .

سيجعل إمكانيات إنتاج الحبوب بلا حدود . كما يقوم علماء « البيولوجيا » الدقيقة بمحاولات أخرى لايجاد مصادر جديدة للغذاء ، وأحد المصادر المقترحة هي الميكروبات ، إذ أن الميكروبات الوحيدة الخلية (الخميرة - والفطريات والبكتريا والاشنيات) عوامل اساسية في كثير من عمليات تصنيع الغذاء . وعلى سبيل المثال استخدام البكتريا في تخمير اللبن، والخميرة المستخدمة في تخمير الخبز .

وتستهلك تلك المواد من خلال الاطعمة (اذ اننا نأكل الخميرة مع الخبز ، والعفن المستخدم لانتاج الجبنة مع الجبنة) . أما استهلاك تلك الميكروبات الخلوية كطعام بحد ذاته فيبقى محدودا ما عدا الفطر وبعض انواع الاشنيات المستهلكة في اماكن معزولة في افريقيا والمكسيك . ومن خصائص الميكروبات قدرتها على مضاعفة وزنها الخلوى خلال عشرين دقيقة الى ساعتين . وتحتوى البكتريا على ٨٠٪ من البروتين بالمقارنة مع ٤٠ - ٤٥٪ من البروتين بالنسبة لفول الصويا . ويتوقع بعض العلماء استخدام تلك الخلايا كمصدر رئيسى للبروتين في المستقبل . وقد قام أحد معاهد الابحاث في بريطانيا بتطوير عملية لتنمية فطر العفن من أجل استعمال البروتين الناتج في المنتجات البديلة للحم ، ولكن المشكلة الرئيسية التى واجهتهم هى الطعم واللون والتى يجب أن تحل قبل أن تصبح الميكروبات مصدرا جذابا للغذاء ، احدى الطرق الممكن استخدامها هى فقس الخلايا للحصول على محتوياتها ، ثم عزل وتركيز البروتين وتصنيعه في شكل ليف ثم تصنيع ذلك الليف كبديل للحم كما هو الحال في فول الصويا . ولكن التكلفة والمصاعب الموجودة الان لاتسمح بتطوير تلك المصادر مباشرة ، ولكنها تشكل بديلا في المستقبل على أية حال .

الزراعة المائية :

الزراعة المائية عبارة عن تنمية الخضار في بيئة مناسبة (بيوت بلاستيكية مثلا) في محلول سماد سائل بدلا من زراعتها في التربة . وهذا يتطلب بيئة محمية وتحكماً دقيقاً بالحرارة والاضاءة والرطوبة ونسبة ثانى اكسيد الكربون في الجو . وهذا النوع من الزراعة يستخدم بشكل عام لانتاج الخضار بسرعة وعلى مدار السنة ، بالاضافة الى انتاجها في اماكن قريبة للمدن بدلا من شحنها لمسافات بعيدة . وهذه الطريقة لاتزال قيد الدراسة لاستخدامها في الفضاء في حال تمكن البشر من اقامة مستعمرات فضائية لذا نجد من خلال هذا العرض السريع أن البدائل التي تبدو غريبة بالنسبة لنا ربما تكون شيئا عاديا بالنسبة لاحفادنا . اذ أن حاجة الانسان الى الغذاء في المستقبل ستكون في ازدياد دائم نظرا لزيادة عدد السكان . ولكن السؤال الرئيسى الذي يبقى محيرا لاذهان الكثيرين هو العدل في توزيع ذلك الغذاء ، وهل سيكون بإمكان كل فرد على سطح الارض الحصول على نصيبه الكافى من الغذاء ؟ لاشك بأن الجواب الشافى لهذا السؤال سيكون بعيد الأجل □

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

لأنه أرادنا مختلفين !

« اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى . والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب . كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة » . هذه العبارة التي أوردها الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه عن غير المسلمين ، تشكل أحد مفاتيح فهم موقف الإسلام من الآخر ، غير المسلم ، أو الذي يعيش خارج ديار الإسلام ، وهي القضية التي أثرناها في عدد « العربي » لشهر أغسطس (آب) الماضي بعنوان « إشكالية الآخر في التفكير الإسلامي » .

وقلنا إن « الآخر » صار مشكلة في الوعي الإسلامي المعاصر ، سواء كان يعيش خارج ديار الإسلام ، أو كان في دار الإسلام ، لكنه ينتمي إلى دين مغاير ، أو كان مسلما في دياره ، لكنه ينحاز إلى رأي مخالف .

قلنا أيضا إن إشكالية الآخر ترجع إلى سببين جوهريين ، أحدهما وقائع التاريخ الذي كان الآخر فيها معاديا للمسلمين ، ومتربصا بهم . وثانيهما تأويل النصوص الشرعية ، وتحميلها بما لا ينبغي أن تحمل به ، تأثرا بتركة التاريخ ، وبانفعالات أو ردود أفعال مراحل السلب المتعاقبة .

وستظل إحدى صعوبات البحث في هذا الموضوع الدقيق متمثلة في الجهد الذي ينبغي أن يبذل ، لتخلص التعاليم من براثن التاريخ ، بحيث ترد المبدأ الإسلامي إلى نصوص الإسلام ، وشريعة الله ، لا إلى ممارسات المسلمين ، وتجاربهم مع أنفسهم ، أو غيرهم ، في أي مرحلة من مراحل التاريخ .

وتتمثل الصعوبة الأخرى في جهد مواز ، ينبغي أن يؤدى لمحاولة وضع النصوص في إطارها الصحيح ، بحيث يكون تفسيرها أو تأويلها محكوما بمقاصد الشارع ، لا بانفعالات المجتهدين ، أو أهواء المتعصبين .

يتصل بموضوعنا قول منسوب إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، يشير إلى أن « اختلاف أمتي رحمة » ، وهو حديث ضعيف ، بطلانه راجح ، رغم شيوعه على ألسنة كثيرين . ومما قاله ابن حزم عن هذا الحديث أنه « لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطا ، وهذا ما لا يقوله مسلم » .

ورغم أننا لا ندعو إلى الاختلاف ، ولا نتمناه ، إلا أن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن الاختلاف من طبائع الناس ، وأنه واقع بمشيئة الله تعالى ، كما قال الدكتور القرضاوي بحق ، ونصوص القرآن تؤيد

هذه الحقيقة بجلاء شديد ، من هذه النصوص على سبيل المثال قوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . (هود ١١٨ - ١١٩) .

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . » (يونس ٩٩) .

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » . (النحل ٩٣) .

تلتقي هذه الآيات الثلاث على المعنى الذي نحاول لفت الأنظار إليه هنا ، وخلاصته أن الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نكون مختلفين ، لحكمة قصدها العليم الخبير ، وهو ما لا ينبغي أن يكون موضع استغرابنا ، أو إنكارنا ، فضلاً عن استفزازنا ، وإنما من مقتضى سلامة الإيمان والرضا بما قسم الله سبحانه وتعالى وقدر ، أن نقبل هذا الوضع ، ونتعامل معه على أنه حقيقة واقعة ، ونستخلص منه كل خير ممكن .

ولأن الإسلام دين هداية يخاطب العقول والقلوب أولا وقبل كل شيء ، ويحترم البشر لأنهم بشر من صنع الله وخلقه ، بصرف النظر عن أعراقهم وأوطانهم وأديانهم ، لهذين السببين كان نهج الإسلام واضحا في خطاب الجميع ، وهو نهج يقوم في الأساس على أمرين ، هما الاحترام ، والاقتناع .

فالمسلمون ليسوا أوصياء على الآخرين ، لكنهم دعاة وهداة ، ونبيهم العظيم ليس إلا مبلغا ومبشرا « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » - الغاشية (٢١ و٢٢) - (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) - سبأ ٢٨ - (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) - النحل ١٢٥ -

على هذا النسق يمضي البيان الإلهي في مواضع عديدة ، يرسم طريق التبشير ، وخطاب الناس ، وفي نفس الوقت ينبه الله سبحانه وتعالى نبيه والمسلمين إلى أن الإسلام يفتح ذراعيه لمن استجاب له ، ويحتمل التعايش مع من لم يستجب ، وهو ما تدل عليه آيات عديدة :

« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » (التوبة - ١٢٩) .

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » (فصلت - ٣٤) .

« وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » (الشورى - ١٥) .

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (المائدة - ٨) .

والآيات جلية في تبيان حقيقة موقف الإسلام من الآخرين ، المبني على قدر هائل من الاحترام والقبول ، أما ركيزة الإقناع التي يعتمدها الخطاب القرآني فشواهدها بغير حصر ، وتتمثل في ذلك الكم الكبير من الآيات الذي ما انفك يعرض آراء المخالفين وملاحظاتهم ، ثم يفندها ويرد عليها بالحجة والبرهان .

لقد كفل الإسلام للآخرين حقهم في عدم الاقتناع به ، بعد ما قرر لهم حرية الاختيار ، وأعد البيان الإلهي أنه « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (الكهف - ٢٩) وأن الله سبحانه وتعالى هو الحكم بين الجميع يوم القيامة ، أما في الدنيا فإنه « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » (الكافرون - ٦) .

ومما يدهش الباحث في هذا الصدد أن الآية الكريمة « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (البقرة - ٢٥٦) نزلت في قوم أرادوا تحويل أبنائهم قسرا من اليهودية إلى الإسلام ، إذ روى الطبري في تفسير هذه الآية أنه كان من عادة نساء قبيلة « الأوس » ، اللاتي كن ينجبن أولاداً قصار العمر في

الجاهلية ، أن تنذر الواحدة منهن إذا جاءها ولد أن تهوده حتى يطول عمره ، وكن يرسلن أبناءهن إلى قبيلة بني النضير اليهودية لهذا الغرض . وعندما جاء الإسلام ، وجرى ما جرى من مؤامرات يهود بني النضير ، وأمر الرسول بإجلائهم . كان بعض أبناء الأوس قد تهودوا . فأراد آباؤهم أن يجبروهم على الإسلام ، والانضمام إلى معسكر الرسول . فنزلت هذه الآية داعية إلى رفض الإكراه في الدين ، وبقي هؤلاء على اليهودية .

ونقل الطبري رواية أخرى عن ابن عباس تقول ان رجلا من بني سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ولدان مسيحيان وهو مسلم ، فسأل الرسول أن يرغم ولديه على اعتناق الإسلام ، بعدما أصرا على التمسك بدينهما ، فنهاه الرسول عن ذلك ، ونزل قوله تعالى : « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ » .

يتصل بذلك موقف الإسلام من معتنقي اليهودية والمسيحية الذي يقوم على الاعتراف بهاتين الديانتين ، واعتبار المنتمين إليها « أهل كتاب » ، حقوقهم معلقة في أعناق المسلمين ، باعتبارهم في ذمة الله ورسوله .

ومن قبيل التنطع المنكور أن يقول قائل بأن أهل الكتاب في زماننا ليسوا هم المعنيين بالآيات القرآنية المختلفة ، باعتبار أن التوراة والإنجيل قد تعرضا للتحريف بصورة أو بأخرى ، وهي مقولة يرددها بعضهم ليعززوا بها دعوتهم إلى الانتقاص من حقوق الآخرين ، وذلك قول مردود بأن التحريف المفترض قد حدث قبل البعثة المحمدية ، وقبل نزول القرآن ، بدليل أن الخطاب الإلهي قد انتقد بعض تلك التحريفات الأساسية في مواضع عدة ، وحاور اليهود والنصارى في كثير من دعاواهم ، فأنكر الادعاء بأن المسيح ابن الله وأن عزيرا ابن الله ، وأدان فكرة التثليث ، وندد بموقف اليهود ومسالكهم ، ومع ذلك كله ظل يخاطبهم بحسبانهم أهل الكتاب ، لهم حقوق قضى بها الله سبحانه وتعالى ، ودعا المسلمين الى البر بهم ، ما لم يعتدوا أو لم يظلموا .

وبهذا المنهج فان الخطاب القرآني فرق بين حقوق هؤلاء في الدنيا ينبغي أن تكفل ولا تنتقص ، وحساب في الآخرة يتولاه الله سبحانه وتعالى ، ولا شأن للمسلمين به . في هذا المعنى يذكر الدكتور يوسف القرضاوي أن المسلم : « ليس مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم ، أو يعاقب الضالين على ضلالهم ، فهذا ليس له ، وليس موعده هذه الدنيا ، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب ، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين . قال تعالى في سورة الحج : « وإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فيما كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (الآيتان ٦٨ و٦٩) » (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص ٢٩) .

في نفس المعنى كتب الدكتور محمد سليم العوا يقول : « إن مبدأ المساواة الذي تقرره الشريعة الإسلامية (للناس كافة) ليس خاضعا لأي استثناء ، ذلك أن أساس هذا المبدأ أو علته هي وحدة الأصل الإنساني « إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى » ، وكلكم لآدَمَ وآدَمُ مِنْ تُرَاب) ، أما « التقوى » التي تشير النصوص إلى تفاضل الناس بها فلا تأثير لها على تطبيق مبدأ المساواة في حياة الناس ، ذلك أن محل التفاضل بالتقوى في الآخرة لا في الدنيا ، أمام الله لا بين الناس » . (في النظام السياسي للدولة الإسلامية ـ ص٢٤٣) .

هذه النصوص والآراء تتفق على نقطة جوهرية ، وهي أن « الآخر » له شرعيته في التصور الإسلامي ، وله احترامه ، وله حقوقه أيضا .

وشرعية الآخر ليست مبنية على اعتقاده ، حقا كان أم باطلا ، ولكن تلك الشرعية مبنية على تلك الحقيقة الكلية التي قدرها الإسلام من البداية ، وهي أن البشر ـ لمجرد أنهم بشر ـ لهم حقوقهم في الحصانة والكرامة والحماية .

والنصوص القرآنية التي تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد كرم بني آدم ـ هكذا على الإطلاق ـ قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » (الإسراء ـ ٧٠) ، وقوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمِ » (التين ـ ٤) ، وقوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدم فَسَجَدُوا » (الأعراف ـ ١١) وأبلغهم أنه سبحانه قد استخلف الإنسان عنه في الأرض بقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَة » (البقرة ـ ٣٠) . وهذه النصوص هي الأساس الذي بنى عليه الفقهاء مختلف اجتهاداتهم التي كان إعلاء كرامة الانسان محورها ومدارها ، وقد لا نبالغ إذا قلنا أن الحفاظ على كرامة الإنسان ـ أيا كان ـ هو من المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية ، بحيث يعد المساس بهذه الكرامة انتهاكا لهذه المقاصد ، وعدوانا على حق من حقوق الله .

وقد كان أستاذنا الشيخ محمد عبدالله دراز موفقا غاية التوفيق حينما عبر عن هذا المعنى بقوله : كل إنسان له في الإسلام قدسية الإنسان ، إنه في حمى محمي ، وحرم محرم ، ولا يزال كذلك حتى يهتك هو حرمة نفسه ، وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه ، بارتكاب جريمة ، ترفع عنه جانبا من تلك الحصانة .. بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه ، كما يحمي أبناءه وأولياءه .. وهذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها ، هي الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين بني آدم » ـ (نظرات في الإسلام ـ ص ١٦٤) .

بهذا الاحترام البالغ للإنسان الآخر تعامل رسول الله ﷺ ، وظل يلقن من حوله دروسا بليغة في هذا الصدد ، فقد قام النبي من محله تحية واحتراماً لجثمان ميت مر أمامه وسط جنازة سائرة ، فقام من كان قاعداً معه ، ثم قيل له فيما يشبه التنبيه ولفت النظر انها جنازة يهودي ، فكان رده تعبيراً أمينا عن رؤية الإسلام ومنطقه ، إذ قال عليه السلام : أليست نفسا ؟ بمعنى ، أليس هذا الميت إنسانا من خلق الله وصنعه ، له كرامته وله احترامه ؟

وعندما وجد النبي عليه السلام نسخاً من التوراة بين الغنائم ، في أعقاب فتح خيبر ، أمر بردها إلى اليهود ، وهم أعداؤه المتآمرون عليه ، وقدر في ذلك أنه من حق اليهود أن يعلموا أولادهم دينهم ، وأن ترد إليهم كتبهم ، بصرف النظر عن رأيه في اعتقادهم ، أو عن عداوتهم له وجرائمهم في حقه .

وقد وجه الله سبحانه وتعالى عتابا إلى نبيه ، لأن عاطفته اتجهت نحو أحد المسلمين من الأنصار ، وكاد يحكم لصالحه ضد خصم له يهودي ، كان مظلوما ، فيما يذكر ابن كثير في تفسيره ، ولكن النبي اهتدى إلى الحق في اللحظة المناسبة ، وبرأ اليهودي ، فنزلت الآيات (١٠٥ ـ ١١٣) من سورة النساء ، التي ذكر فيها الله سبحانه وتعالى بأنه قد أنزل على نبيه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله ، وأن لا يكون للخائنين خصيما ، وأن يستغفر الله الغفور الرحيم ، وأن لا يجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، فالله لا يحب من كان خواناً أثيما ، وأن بعض الناس يخفون بعض أمورهم عن الناس والله يعلم أقوالهم وأعمالهم ، وأن المقترف إذا وجد في الدنيا من يجادل عنه فإنه لن يجد في يوم الحساب ذلك ، ثم يبين الله لنبيه بأنه لولا فضله تعالى عليه لهمت طائفة منهم أن يضلوا النبي وما هم بقادرين بفضل الله . وقصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، مع واليه على مصر عمرو ابن العاص الذي ضرب ابنه صبيا قبطيا ، فأصر عمر على أن يقتص الصبي القبطي من ابن عمرو بن العاص قائلا له : اضرب ابن الأكرمين .. ثم وجه تعنيفه إلى واليه على مصر قائلا : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟؟

ومن هذا الإدراك لكرامة الإنسان كانت وصية الإمام علي بن أبي طالب إلى مالك الأشتر ـ واليه على مصر ـ التي قال فيها : « وأشعر قلبك الرحمة

للرعيـة ، والمحبة لهم ، واللطف بهم .. فـإنهم صنفان : إما أخ لـك في الدين ، أو نـظير لك في الخلق .

ومن نفس المنطلق أفتى الإمام أبـو حنيفة بعـدم جواز الحجر على السفيه ، لأن في هذا الحجر إهدارا لآدميته ، وذهب إلى أن الضرر الذي يصيب إنسانية السفيه من جراء الحجر أكبر من الضرر الذي يترتب على سوء تصرفه في أمواله ، فإنه لا يجوز دفع ضرر بأعظم منه ، ولا يجوز بالتالي أن يحجر عليه ، لأن المساس بالمال محتمل وإن أضر ، بينما المساس بقيمة الإنسان وكرامته غير مقبـول وغير محتمـل ، وإن أفاد .

في هذا السـياق تلفت أنظارنا فتوى هامة ، وعميقة الدلالة ، ذكرها ابن عابدين في حاشيته ، خلاصتها أنه تنازع اثنان طفلا ، وكان أحدهما مسلما والآخر ذميا ، وأدعى المسلم أن الطفل ملك له (عبـد أو رقيق) ، بينما ادعى الذمي أنه ابن له ، فـإنه يحكم لصالح الذمي ، لأن تنشئة الطفل على الحريـة وإن كان على غير دين الإسلام أفضـل من تنشئته على العبودية وإن كان على الاسلام . إذ أن حرية المرء وكرامته ترتبطان بإنسانيته ، فتسبقان دينه وتتقدمان عليه .

لقد أمضى الرسول عليه الصلاة والسلام حوالي عشر سنوات في اتصال دائم بالآخرين من حوله ، يبعث إليهم بالرسائل والوفود ، رغم كـل مشاعـر العداء ، وممارسات الظلم التي قـوبل بها ، وأيد قريش في موقفها في حلف الفضول ، حينما اجتمع نفر منها لنصرة أحد الضعفاء ، وعندما وقع مع مشركي قـريش صلح الحديبية ، وسـأله بعض صحابته عما وراء قراره الـذي بـدا فيه قـدر من الاجحاف بالمسلمين ، كان رده عليـه الصلاة والسلام : « والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم (تعظيم القربات في قول آخر) إلا أعطيتهم اياها » .

وعنـدما هـاجر من مكة إلى المدينـة أصدر « الصحيفة » التي كانت بمثابة دستور لأول دولة في تاريخ الإسلام ، وفيها قرر للآخر ـ اليهود ـ أن لهم النصر والأسوة ، والأسوة في « لسان العرب » هي المساواة ، ولهذا قال عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري : آس بين النـاس في وجهك ومجلسـك وعـدلك ، (أي أن تسـوي بينهم) ، واجعل كـل واحد منهم أسوة خصمه .

يقرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وتتكرر الدعوة في البيان الإلهي إلى التعاون على البر والخير مع جميع خلق الله الراغبين في ذلك . لكن القرآن يذكر منطق الاستعلاء والتوسع والغزو في عـلاقات الـدول ، والدولة الإسلامية في مقدمتها . ونستدل على ذلك من الآيتين الكريمتين قوله تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا » (القصص ـ ٨٣) .

وقوله تعالى : « وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ » (النحل ـ ٩٢) .

ويذهب الخطاب القرآني إلى أبعد من ذلك في الآية الكريمة : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » (التوبة ـ ٦) . وهي لا تدعو فقط الى التزام المسلم بأن يهب إلى نجدة المشرك وحمايته إذا استجار به في شدة أو ضيق ، وإنما تطالبه بأن يقف إلى جواره حتى يخرج من أزمته ، فيسمعه كلام الله ثم يعينه على أن يصل إلى بر الأمان ، معززا مكرما .

هكذا يتعامل المنطق الإسلامي مع « الآخر » غير المسلم ، في غير جفاء ، أو حساسية ، أو عداوة . بقي أن نواصل الحوار حول إشكالية الآخر من زاوية تأويل النصوص ، ودعاوى النسخ التي يروج لها بعضهم في زماننا ، ولذلك حديث آخر بإذن الله . □



لحظات من الزمن العربي

بعد أن يموت السيد..!

بقلم : الدكتور محمد المنسي قنديل

« كان ـ رحمه الله ـ من محاسن الدنيا وغرائبها . . .
أنجب أربعة عشر ولدا ، ومات ولم يخلف في خزانته من الفضة والذهب إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، ودينارا واحدا ذهبيا صوريا ، ولم يخلف ملكا ولا عقارا ولا بستانا ، ولا قرية ، ولا مزرعة . . »

كان أول شيء فعله السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عندما استيقظ من نومه في ذلك الصباح ، هو ان استدعى تابعه « قراقوش » وهتف به :

ـ ابن لي قلعه في الجبل . . قلعة من الصخر يقف الموت عاجزا على ابوابها . .

كانت هذه أمنيته وهذا هاجسه منذ أن تعرض للاغتيال أكثر من ثلاث مرات بالخناجر المسمومة على أيدي الحشاشين الذين كانوا يسكنون مع النسور في أعلى قلعة « إلموت » في وسط فارس ، ومنذ أن ثار بقايا اتباع الفاطميين واجتاحوا جنوب مصر وأغرقوا القرى . ولكن هذا الهاجس لم يتجسد في صورته الملحة الا بعد أن انكسر السلطان في « الرملة » ، معركته الأولى وهزيمته الأخيرة . الافرنج كانوا متأهبين له وهو يعبر صحراء سيناء الموحشة بجيشه .



لم يتركوا له الفرصة حتى يلتقط أنفاسه ، حددوا له زمان المعركة ومكانها . وهوت سيوفهم على جنوده المتعبين فبددتهم في غضون ساعات قليلة ، نثرتهم على وجه الصحراء كعصف مأكول ، لم يجدوا قلعة يحتمون بها ولا سورا يختبئون خلفه ، وتحولت سيناء ـ كالعادة ـ الى فخ قاتل ، فخ أخذ من دمائهم سبع سنوات كاملة حتى يعاودوا عبورها والقتال من جديد . . . وهذه المرة كان هو الذي حدد المكان في تل بفلسطين يدعى « حطين » .

قال قراقوش : يا مولاي ، أسوار القاهرة في حالة يرثى لها فأين تكون القلعة ؟

قال السلطان : اختر من الأسوار أوسطها وأكثرها مناعة ، وأطيبها هواء .

وبدأ قراقوش في اختيار الموقع . علق قطعا من اللحم بطول الأسوار ، وكلف الحراس بمراقبة هذا اللحم ، متى يفسد ، ومتى يتغير لونه . وفسدت كل القطع بين يوم وليلة الا في مكان واحد لم يفسد الا بعد يومين وليلتين . وكان هذا هو الموقع الذي اختير ليكون قلعة للامان . .

وعلى مدى عامين تواصل العمل في القلعة ليلا ونهارا ، نقلوا الأحجار من المعابد والأهرامات القديمة ، وأخرجوا المساجين وأسرى الافرنج والعبيد والموالي ، ونفدت الأحجار فشقوا صخور المقطم . ولم يكف البناء عن الارتفاع ، ولم تكف المدينة الراقدة أمامه عن التضاؤل . . امتد سور الأحجار المتجهمة امام المدينة كأنما يردعها عن اي محاولة للتفكير في مهاجمتها .

من يوقف سريان الزمن ؟

ركب السلطان وأخوه الكامل وصعدا سويا فوجد الدرج الحجري ، اجتازا الابراج المنيعة حتى وصلا الى اعلى مكان فيها . وللمرة الأولى رأى السلطان المدينة التي يحكمها في كتلة واحدة ، نائمة تحت غلالة خفيفة من الضباب كأنها تحلم حلما غامضا . والمآذن ترتفع مثل أذرع لا تكف عن التوسل ، وفي الغرب ينساب نهر النيل ساجيا يخفي في داخله كل غموض السنين ، كل الذين عبروا ، وحكموا .

وفي الشرق ترتفع هامات النخيل وبينها تربض الاهرامات ، كأن الزمن ممتد ولانهائي ، عميق عمق السكون الغريب الذي يحيط بكل شيء . وأحس السلطان بالأسى . أدرك فجأة أن مدة حكمه وجيزة في عمر هذا الزمان السرمدي ، كان يظن أنه امتلكها حقا ، ولكن المدينة بدت في هذه اللحظة أشبه بحيوان خرافي بالغ المهابة والجلال عنّ له ان يرتاح قليلا واخفى في داخله كل ثروات المدن وأسرارها وخطاياها الصغيرة ومصادر قوتها ونقاط ضعفها .

وتساءل صلاح الدين في حيرة عن أناس هذه المدينة الذين يحاربون في ضراوة ويستكينون في ذلة ويعشقون في وله ويضحكون حتى البكاء . . . ؟

كان قاضي الزمان « القاضي الفاضل » قد قال له ان هذه ثامن دار للحكم قد بنيت في مصر . . واحدة قبل الطوفان في « إفسوس » ، وعندما جفت المياه وتشكل طين الخلق أصبحت الدار في « منف » ، ثم سارت شمالا مع جيوش الاسكندر الى الاسكندرية على شاطيء البحر ، ثم عادت مع جيوش ابن

العاص الى «الفسطاط»، وجاء العباسيون فأقاموا «العسكر». وتحاذلت العسكر فأنشأ ابن طولون «القطائع» وحمل الفاطميون أعلامهم من الغرب فكانت القاهرة. دولة اثر دولة. ومدينة تبزغ من أنقاض مدينة. ودورة الزمن لا تتوقف ولا تتمهل. احس صلاح الدين انه مهما امتلك فلن يمتلك مثل هذا البلد القديم المترب المتوهج المليء بالمقابر وبشائر البعث، هذا إن امتلكه حقا..

التفت الى أخيه الكامل وهو يقول:

ـ هذا الملك لن يدوم لأولادي..

كان يعرفهم، يعرف وجوههم الأربعة عشرة، كانوا أضعف من أن يضموا قبضتهم على هذا الكائن الخراق المستعصي عن الامتلاك. وحين قال الكامل:

ـ أدام الله عمرك يامولاي.

التفت اليه ببطء وهو يقول:

ـ ربما يكون لك.. ولأولادك.

وصمت الكامل. كانت هذه لحظة قراءة الغيب.. فمن يوقف سريان الزمن؟ هبط السلطان وبدأ يجهز الجيش للسير الى الشام. وخرجت القاهرة كلها تودعه. كانت امامه معركة أخرى في حربه التي لا تنتهي. وعندما جلس للراحة في أول الليل والتف حوله الشعراء والفقهاء سمع صوتا غريبا، مشروخا، أسيانا وهو يغني:

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار

ووجم السلطان، وطلب قائل هذه الأبيات فلم يجده، وتطاير الحاضرون، وبدأت رحلة الحرب.

كانت المدن الواقعة في الأسر تناديه، من الكرك الى عكا، ومن عكا الى صور وصيدا. ورغم أنه امتلك أعتى حصون الافرنج، الا انه لم يحس بالأمان. كان أمانه الوحيد في تلك القلعة الغريبة على حافة المدينة الغريبة. ولكن الحروب تواصلت والأيام تداخلت، باعدت بينه وبين حلمه مسافات من الرمل والمدن الساقطة وجثث الاعداء والأصدقاء وحسابات الظفر والخسارة... وعندما قرر العودة الى مصر أخيرا داهمته الحمى الصفراوية في العشية. ووصف له الأطباء نوعا من نبات العرار فلم يعثر عليه. وضمته الأرض. وظلت قلعة الأمان بعيدة، لم يسكنها للحظة واحدة وهو صاحب حلمها الأول.

الابن الأول.. يحلم بالثروة:

فتح «العزيز» خزائن أبيه فلم يجد بها إلا عدة دراهم من الفضة ودينارا واحدا ذهبيا فجن جنونه.

كان أول شيء فعله السلطان «العزيز» هو أنه استدعى تابع أبيه الطواشي «قراقوش» وصرخ:

ـ أين ذهبت أموال الخزائن؟

قال الطواشي: ذهبت في جهاد الفرنج..

قال السلطان: وأين المكوس والضرائب..؟

قال الطواشي: ألغاها السلطان..

قال السلطان في أسى: لعن الله الفرنج فان جهادهم مكلف، وغفر الله لأبي فقد أسرف في تدليل رعيته.

وفي اليوم التالي عادت كل المكوس مضاعفة.

ولأن أيام الحرب كانت طويلة، فقد ترك الموت بصماته فوق كل بيت وتغاضى السلطان عن فتح الخمارات وأماكن الحشيش وبيوت المزارات التي بدأت تزحف من اطراف المدينة الى أعماق الأزقة. كل ما فعل السلطان هو انه فرض عليها المزيد من الضرائب. وللمرة الأولى منذ زمن بعيد حملت اواني الخمر جهارا، وبدأت المعاصر في العمل حتى عز وجود العنب. كذلك لم تتوقف طاحونة الحشيش في حارة المصامدة. أما في قلعة الكبش فقد تواصل العمل في بيوت المزارات ليلا ونهارا. والتزم رجال السلطان جادة الأدب فلم يتدخلوا الا لقبض المعلوم وفض المشاكل.

وظلت الخزينة خاوية لا تكاد تمتليء حتى تفرغ..

ونفذت كل حيل السلطان «العزيز» حتى أنه فكر

في أن يجمع جيشا يغزو به أخاه « الأفضل » ملك دمشق . لعله يظفر منه ببعض الدنانير الذهبية . ولكن الحل جاء اليه من حيث لا يتوقع .

أقبل الرجل « المغربي » الى القاهرة . دخل من باب الفتوح وجلس بجانب الأزهر ، وأشيع أنه قد احتاز كل هذه الصحراوات سيرا على قدميه ، ولا احد يعرف كيف تجمع أتباعه ومريدوه بهذه السرعة . وكانت اولى معجزات الولي هي اكتشاف خبيئة قديمة في أحد الجدران ، جرة صغيرة مليئة ببعض الدنانير الذهبية ولكنها كانت كافية لاعتبارها معجزة حقيقية جعلت الاتباع يتزايدون والعطايا والهبات تتوالى . ووصل الأمر الى اسماع السلطان الذي كان شغوفا بمتابعة كل اخبار الذهب ، وأمر من حوله ان يحضروا له الولي فأحضروه وهتف به :

ـ كيف تعرف أسرار الذهب المخبوء ؟

قال الولي : أشم رائحته . .

قال السلطان : هل تشم شيئا تركه بنو عبيد ، أو بنو اخشيد ، أو حتى بنو طولون . .

قال الولي : أشم ما هو أبعد من ذلك ، اكثر قيمة وأعلى قدرا وأرفع ثمنا وأكثر لمعانا وأشد اصفرارا . أراه وسط الظلمة والتراب القديم يتوهج كأنه شمس مدفونة .

وأدرك السلطان أن السماء التي بخلت عليه طويلا قد سخت فجأة وأعطته ميراث كل الحكام السابقين . وأخذه الولي المغربي من يده ونزل به من قلعة الأيوبيين ، وعبر قاهرة الفاطميين ، واجتاز النيل الذي رأى مواكب الجميع ولم يدم لأحد ، حتى وقف به في مواجهة الاهرامات القديمة . واشار الى الهرم الاكبر المغطى بالصوان وهو يهتف :

ـ هنا ترقد الخبيئة . . شمس الفراعنة المتوهجة !

ولم يكن الحصول على الخبيئة بالسهولة التي يتوقعها السلطان . ولكنه لم يتراجع . طلب من الولي تحديد الجهة فرسم له على الرمل رسوما غامضة ، وأشار الى المكان . وأمر السلطان باستدعاء كل البنائين الذين شاركوا في بناء القلعة وامرهم أن يكونوا اكثر براعة واتقانا حتى ولو استلزم الأمر هدم الهرم كله . ومثلما تواصل صوت الأزاميل في عهد الأب ، تواصل صوت المعاول في عهد الابن .

جلس السلطان امام الهرم ، وسكن الولي في القلعة ، وتوالت طلباته ، فتضاعف عدد العمال عند سفح الهرم وعدد الجواري في غرفته . وفرغت الخزينة ، ففرض المزيد من الضرائب . . وقال السلطان للقاضي مبررا :

ـ كل هذا من اجل خير الرعية . . عندما نكتشف خبيئة الفراعنة لن أعود في حاجة الى دراهمهم الضئيلة .

وتوافد الناس حتى يروا كيف يمكن ان ينقذهم أجدادهم من بؤسهم اليومي .

ولكن الهرم بقي صامدا . كشفت قشرة الصوان عن صفوف من الاحجار لا يمكن للمعاول أن تقدر عليها ، وكل حجر يسقط يكشف عن المزيد من الاحجار والسلطان يواصل الانفاق . ابتلعت نفقات الحفر كل الدنانير والدراهم . وكف الناس عن شرب الخمر وتدخين الحشيش لانشغالهم بأمر الخبيئة ، فانخفضت الضرائب . وبدأ العمال يهربون والناس ينصرفون . وبحث السلطان عن المغربي ذات صباح فلم يجده . الكل تخلى الا السلطان . ظل مصمما على هدم الهرم ولم يعد قادرا على النوم.قضى الليالي الطويلة امام الهرم يتأمله ويحلم بالانتصار عليه . تماما مثلما وقف أبوه من قبل أمام تل بفلسطين اسمه « حطين » .

الابن الثاني . . . يحلم بالقوة :

كان الملك الأفضل ممتعضا منذ البداية ، منذ أن دخل دمشق وهو يصيح : هذا لا يكون . . كيف اكون الاكبر واخذ الملك الأصغر . . ؟!

مصادفة سخيفة تلك التي جعلته في دمشق عندما مات ابوه فأخذها . وكان العزيز في مصر فأخذها .

وجعلته هذه القسمة يحس بالضيق الدائم . لم يكن يكف عن الحركة . كان يخرج للصيد فيهتف : ما أضيق الطراد . ويخرج للنزهة فيهتف : ما أثقل الهواء . ويصعد الى قمة جبل قاسيون فيصيح : ما أقل ما أخذت وما اكثر ما أخذوا . كان ضيق الصدر ، ضيق النفس . كان يريد العالم بكل الامتداد الذي امتلكه أبوه ذات يوم وسارت فيه جيوشه . .

ثم أرسل يستدعي عمه ، الكامل ، الذي كان حاكما على حلب ، رابضا كالصقر العجوز يرقب أولاد اخيه وهم يتخبطون كالأفراخ الزاغبة تحاول أن تستر لحمها الطري بعيدا عن المخالب . كان يذكر دائما نبوءة أخيه الغريبة في تلك اللحظة الباردة فوق أسوار القلعة ، وأقبل على ابن اخيه الذي كان يجلس غاضبا متبرما فوق عرشه وهو يقول :

ـ ألست الأخ الاكبر ؟ ألم أكن أستحق الملك الأكبر ؟ ألم أكن أستحق الملك كله ؟

وأومأ الكامل موافقا وهو يقول : صدقت يابن اخي . .

وانتشى الأفضل من موافقة عمه السريعة وعاد يقول :

ـ أليس لي الحق في أن أرجع الحق لأهله . ملك أبي الذي ذهب الى من لا يستحقه ؟

وأومأ الكامل مرة أخرى قائلا : لم تخطيء يابن اخي . .

ووصل الأفضل الى أهم نقطة في أسئلته : أليس لي الحق في ملك مصر ؟

وقال الكامل على الفور : هي لك يابن أخي . . فهل ترسل الرسائل . . أم تبعث الجيوش . . ؟

لم يكن هناك مجال للسؤال . فبدأ الأفضل يعد الجيوش . أحضر كل القواد الذين اخذوا سنة من الراحة بعد ان مات السيد وأمرهم أن يجلوا الصدأ عن السيوف القديمة . دوى النفير ، واستيقظت الجياد ووقف الأفضل والكامل على الأسوار يشرفان على اعداد كل شيء . ووقف امامها امير الجيوش . وكان قد حارب طويلا تحت امرة السيد ويعرف اخر امنياته .

قال للملك الأفضل :

ـ أصبح كل شيء تاما يامولاي ، والجيش الآن مستعد للسير الى عسقلان .

كان حصن عسقلان هو أعتى حصون الفرنج ، ولو سقط فسوف يتهاوون كالطيور الذبيحة . ولكن الأفضل رد في برود :

ـ لن يسير الجيش الى عسقلان . الجيش سائر الى مصر .

ولم يفهم قائد الجيوش شيئا . ادار بصره بين الأفضل والكامل ، ثم هتف في فزع : هل دخل الافرنج مصر ؟

قال الأفضل بنفس البرود : هذه المرة لن نحارب الافرنج . .

وهبط القائد الدرج وهو لا يدري أين يضع قدميه . ولم تمض لحظات حتى خفتت صيحات الجند ، وكفت الخيل عن الصهيل ، وخيم على المدينة صمت قاتم .

وظل الأفضل يواصل استعداداته ، أمر الحريم ان يستعدوا للانتقال ، والغلمان أن يخرجوا كل الأمتعة . لاجدوى من بقاء اي شيء في دمشق مادام هناك قلعة الجبل . وجاء قاضي دمشق خلفه مشايخ الجامع الأموي . قال القاضي :

ـ يا مولاي . . . شريعة الله ، أم قابيل وهابيل . . ؟

قال الأفضل : لو تنازل عن العرش طائعا ظفر بحياته . .

قالوا : واذا رفض ؟ فلم يجب . ولم يكن المشايخ قادرين على حلة على التراجع . انسحبوا . وجاء التجار في الصباح قالوا :

ـ يزرع هذا العداء بيننا وبين تجار مصر . وقد ينتهز الافرنج الفرصة ويقطعون طريق القوافل .

ولم يرد السلطان عليهم . وبدأ الجيش المسير دون ان يخرج احد لوداعه . ظل الأهالي داخل بيوتهم . ربما كانت هذه اسهل الغزوات ولكنها اكثرها مرارة . والجيش يقيم ويرحل في صمت . يمر عبر كل حصون الافرنج دون ان يتعرضوا لها ودون ان تتعرض له . كانوا يدركون غايته ويباركون خطوته .

وصلوا الى حدود غزة . ولم تبق الا خطوات ويدخلوا سيناء . وكان معظم الجنود يعرفونها فأجهش واحد منهم في البكاء . وكان الكامل صامتا ، لم يتكلم الا عندما سار أمير الجيوش بجانبه ورأى رعدته فقال له :

ـ هل أنت خائف ؟

قال القائد : لا والله . . ولكن سوف ألقى فرسانا حاربت معهم واختلطت دماؤهم بدمائي وتداخلت جروحهم في جروحي فكيف ألقاهم وأواجههم دون خزي او خجل . . ؟!

وصمت الكامل قليلا ثم قال :

ـ الله غالب أمره .

وعادت العيون في اليوم التالي لدخولهم سيناء ، كل شيء هادىء ، واذا سارت الأمور على هذا النحو فسوف يصلون الى الصالحية ويباغتون العزيز داخل القاهرة . وشعر الأفضل بأنه قد ظفر بالمعركة مقدما ، وأشار للجيش أن يواصل التقدم ، ولكنه فوجىء بعمه الكامل وهو يقول له في حزم :

ـ تمضي وحدك انشاء الله .

ولم يدرك الأفضل ماذا حدث ، ولكنه حين نظر الى وجه القواد والجنود ادرك أنهم جميعا قد استدرجوه الى أبعد مكان عن مملكته . أطاعوه حتى أضاعوه . كان يرما تملكه الضيق الخانق فأعطوه ملك البراح الواسع .

أعطى الكامل أوامره للجنود ان يرشقوه بالسهام اذا حاول ان يتبعهم . ثم استدار الجيش عائدا وأصبح الأفضل وحيدا فجأة . . لم يعد هناك من يشاركه في ملك كل هذه الصحراوات .

الابن الثالث . . . يعجز عن الحلم :

تصارع الاخوة على رقعة الأرض حتى فقدوا كل شيء . كانوا اربعة عشرة وخرج منهم خمسة من الملوك . خمسة من السيوف رفعوها على بعضهم البعض ، كل واحد يريد توسيع رقعته على حساب الآخر . . فلم يكن العزيز عزيزا ، ولا الأفضل فاضلا ، ولا الظافر ظافرا . . ولم تمض عشر سنوات على موت السيد حتى انتقل الملك بأكمله الى عمهم ، ثم الى اولاد عمهم . وتحققت النبوءة الغريبة بأكملها . .

لم يبق من الملوك الخمسة الا ملكا واحدا كان أضعفهم .

كان الملك الظافر خضر ، ابن صلاح الدين شابا نحيفا ، لم يظفر بأي معركة ، وكان خفيض الصوت رغم انه يسكن أبعد البلاد . وبسبب ذلك نسيه الملك الكامل وهو يواصل اقتناص الممالك ، ونسيه ايضا الملك العادل ابن الكامل ، وربما نسيه الجميع ولكنه لسوء الحظ اراد أن يذكر الجميع بنفسه .

ذات يوم والملك العادل جالس في قلعته جاء الرسول من تيماء يحمل رسالة من ابن عم الملك المنسي تماما . لم يكن يطلب أكثر من السماح له بالذهاب الى الحج . . مسألة لم تكن في حاجة للاستئذان . وكان العادل رائق المزاج واعتبر الرسالة بمثابة اعتراف ضمني من آخر الاخوة بأنه لا يوجد الا سلطان شرعي واحد وان الممالك كلها لا يجب ان تتصرف حتى في أدق امورها الا بعد استشارته . وفي لحظة من لحظات الامتنان التي لا تنتاب السلاطين الا قليلا ، سمح السلطان له بالحج ، وأن يكون على رأس قافلة الحجيج التي تضم كل حجاج الشام . فعل السلطان كل هذا بلا أي اهتمام ، ولكن من الذي يستطيع التعامل مع حلم بلا اهتمام ؟

مرت عشر سنوات ولكن حلم السيد مازال حيا في القلوب ، كأن الناس كانوا يحاولون من خلال ذكراه أن يقاوموا مذلة المهانات اليومية وتوالي الهزائم . وعندما سمعوا أن ابن صلاح الدين سوف يقودهم في موسم الحج ذلك العام زحفوا اليه فقراء ومستضعفين وبؤساء يعانون من تحكم الوالي ومن بغي الفرنجة ومن ضيعة الكرامة . جاءوا من كل المدن التي تحررت في زمن الحلم . وسقطت في زمن الذل ، خلعوا ثيابهم القديمة ولبسوا ثياب الاحرام البيضاء ثم ساروا خلفه لعله يقودهم الى فجر جديد لم يبزغ بعد .

وكان الظافر ـ الذي لم يظفر بشيء ـ مدهوشا من هذه الجموع التي تحيط به وتدفعه الى مقدمتها وترفع نداءات التلبية عاليا ، فتهز الصحراء النائمة ، وتكشف عن جروحها الدفينة . وفي المساء جلس الملك خضر وهمس لاحد اصدقائه :

ـ انني خائف من هذه الجموع حتى لا يظن بي الفرنجة الظنون . .

قال الصديق : تخل عن خوفك ولن يقدر الفرنجة ولا غيرهم عليك . . ولم يفهم الملك . .

ولكن الظنون التي كان يخشاها ساورت غير الفرنجة ، حمل الحمام الزاجل اخبار الجموع الزاحفة الى القاهرة ، ودخل محمد ابن السلطان العادل الى ابيه وهو يهتف :

ـ فلنستعد للحرب يا ابي . .

ووقف السلطان مدهوشا . . وزادت دهشته عندما أضاف الابن :

ـ انه خضر . . خرج يزحف في جموع غفيرة للاستيلاء على اليمن والتحصن بها . قال السلطان مهونا : لقد خرج للحج . .

ولكن الابن صاح في عصبية :

ـ انه ذاهب لليمن . . جموع مثل هذه لا تخرج الا للغزو . .

واقتنع السلطان سريعا . . لا احد يثق في احد ، خاصة اذا كان ابن عمه . . كان عليه ان يقطع خط سير هذه الرحلة ايا كان هدفها ، وأصدر أوامره فخرجت العسكر سريعا . عبرت النيل والصحراء وسارت سريعا حتى تسبقه في الطريق الى مكه . .

وعندما وصل الملك الظافر ـ الذي لم يكن له ان يظفر بأي شيء ـ الى مشارف مكة ، وجد في مواجهته صفوفا كثيفة من العسكر . توقف الملك وتوقف الحجيج من خلفه . وتقدم قائد العسكر وهتف به في حزم :

ـ السلطان يأمرك بالرجوع . .

قال الظافر مذهولا :

ـ لم يبق بيني وبين مكة الا مسافة يسيرة .

قال القائد : السلطان يعرف أن مكة ليست مقصدك . . وثياب الاحرام هذه ليست الا حيلة للتنكر . انما أنت تريد غزو اليمن والتحصن بها

وهتف الملك الظافر متضرعا :

ـ والله ما قصدي اليمن . واذا أردتم قيدوني واحتاطوا بي حتى أقضي المناسك وأعود الى الشام .

وصاح القائد في وجهه :

ـ ارجع يا مشئوم .

فارتج على الملك . ولم يظفر حتى بتمالك نفسه فانخرط في البكاء . وأحاط به الجنود وقيدوه بالسلاسل . ووقف الحجيج في ذهول . وكانوا ينتظرون منه إشارة . قولا . لو أنه فقط أحس بوجودهم الى جانبه . ولكنه لم ير شيئا من خلال دموعه الغزيرة .

هل رأى أحد منكم حلما وهو يبكي . . ؟

هذا هو ما حدث بعد موت السيد . . تحولت كل الأحلام الى دموع . . وكل المواقع الى أماكن للذكرى . □

يصدر في ١٥ أكتوبر ١٩٨٧

كتاب العربي

السابع عشر

خطاب إلى العقل العربي

بقلم

الدكتور فؤاد زكريا

كتاب العربي مرآة العقل العربي

أرقام

بقلم : محمود المراغي

الإنسان رقم ٥ مليارات

في صباح يوم (١١) يوليو ١٩٨٧ شهدت البشرية حدثا هاما ، وذلك حين أعلنت إحدى مستشفيات مدينة زغرب اليوغوسلافية عن مولد الطفل « ماتيج جاسبر » الذي أنجبته إحدى الممرضات ، وشهد الاحتفال بمولده « بيريز دي كويلار » سكرتير عام الأمم المتحدة !

« ماتيج جاسبر » هو الإنسان رقم (٥) مليارات من سكان الكرة الأرضية ، وهو محظوظ لأن ولادته جاءت في بلد متوسط الدخل فيه قد بلغ (٢٠٧٠) دولارا أمريكيا ، حسب إحصاءات عام ١٩٨٥ ، وهو محظوظ لأنه انتمى إلى بلد تبلغ توقعات العمر عند الميلاد ٦٩ عاما ، أي أن مستقبلا هنيئا ، صحيا ، وعمرا مديدا ينتظر هذا الطفل الذي اعتبر العالم أن مولده حدث يستحق التسجيل .

لكن في نفس اللحظة ولد (١٤٩) طفلا آخر في شتى أنحاء العالم ، كما يقول صندوق الأمم المتحدة للسكان ـ رقم دقيق ـ إذ أن نساء العالم ينجبن بسرعة (١٥٠) طفلا في الدقيقة ، و(٢٢٠) ألفا في اليوم ، و(٨٠) مليونا في العام .

نعم ، نحن نزيد بسرعة (٨٠) مليونا كل عام ، ووفقا لتوقعات نفس المنظمة الدولية فان تعداد العالم سيصل إلى (٦) مليارات نسمة في نهاية القرن العشرين ، و(٨) مليارات في عام (٢٠٢٠) ، و(١٠) مليارات خلال قرن من الآن ، أي أنه خلال مائة عام سوف يزيد العالم بما يساوي أكبر رقم حققته البشرية في عشرين قرنا . ذلك مع التفاؤل ، وافتراض اتجاه النمو السكاني للانخفاض .

ماذا تعني تلك اللحظة التي وقف أمامها العالم ليعلن أنه يدخل عصر الأعداد الكبيرة والأخطار العظيمة ؟

هذه الخريطة غير المتوازنة :

نحن نعيش في عالم تتميز خريطته السكانية بعدم التوازن ، ويتميز مستقبله بأنه « مستقبل جنوبي » ، حيث تتركز معظم الزيادة في العالم الثالث الذي يقدم تسعة أطفال من كل عشرة أطفال جدد .

والأهم أن طفلين من كل ثلاثة أطفال يولدان فيما تسميه المنظمات الدولية « الدول الأكثر فقرا » ، وهي الدول التي يقل فيها متوسط دخل الفرد عن أربعمائة دولار كل عام . وفي حصر فعلي يشير البنك الدولي أن تلك المجموعة قد ضمت ٣٥ بلدا عام ١٩٨٥ ، وأن متوسط الدخل لم يزد عن (٢٨٠) دولارا في العام ، أي أن نصيب الفرد لم يصل إلى دولار واحد في اليوم !

هؤلاء هم أبناء الغد ! ووفقا للخريطة الجغرافية فإن أكثر من نصف العالم يعيش في آسيا والباسيفيك ، و٢٠٪ منه يعيشون في بلد واحد هو الصين ، فاذا انضمت للتعداد قارة أخرى هي أفريقيا فإن العدد يصبح قريبا من (٣,٥) ثلاثة مليارات ونصف مليار نسمة ، وبنسبة (٧٠٪) من سكان العالم .

وفي نفس الوقت فإن عالم الأغنياء ومرتفعي الدخل محدود العدد ، وهو أمريكا الشمالية والوسطى (٤٠٠) مليون نسمة ، وأوروبا (٨٠٠) مليون نسمة ، وفقا لإحصاءات ١٩٨٥ .

ومعنى ذلك أن الفقر والثراء يتناسب تناسبا عكسيا مع عدد السكان . والصحيح أن القاعدة ليست دائما سارية المفعول ، لكن الصحيح أيضا أنها هي الإطار العام لموقف البشرية اليوم .

وهــذا المستقبل :

من حقنا أن ننظر للمستقبل بقلق ، فالسؤال الدائم هو : ماذا بعد ؟ . لقد كانت السنوات الماضية مقدمات لمستقبل غير مشرق ، فبينما رفعت بعض بلدان العالم الثالث شعار الثورة الخضراء ، لتطعم الأعداد المتزايدة من الأفواه ، كان حزام الجوع يضرب عددا كبيرا من بلدان أفريقيا ، وكانت أعداد الأطفال الذين يموتون بسبب سوء التغذية في تزايد ، وكان زحف الصحراء ، وتآكل الغابات ، وانحسار اللون الأخضر ، ومشاكل المياه ، واختلال البيئة ، وهجرة سكان الريف والبدو الرحل ، كان كل ذلك نذير سوء وجرس خطر .

إن المشكلة هي ذلك التوازن بين السكان والموارد . فرقم (٥) مليارات ليس خطرا في حد ذاته ، لكن الخطر أن يتزايد هؤلاء في ظل الفقر والعوز ونقص الغذ . والكساء والوقاية من الأمراض ، أي أي الخطر في عدم التوازن بين السكان والموارد . والسؤال : هل نحد من السكان أم نزيد من الموارد ؟ وماذا نستطيع ؟

سلك الشمال الطريقين ، فوصلت بعض بلدانه إلى ما يسمى « تثبيت عدد السكان » ، أي أن المواليد تساوي أعدادهم مع الوفيات ، وبالتالي فإن أي زيادة في الموارد تعني تحسين مستوى المعيشة . وفي نفس الوقت تحكمت البلدان الأكثر ثراء - في معظمها - في نسبة التزايد السكاني ، فأصبح عدد كبير منها ينمو بنسبة لا تتجاوز ١٪ سنويا ، وقليل منها يصل إلى نسبة ٢٪ ومن جهة أخرى فإن نمو الموارد في صالحهم ، فالإنتاج يتزايد ، والابتكار العلمي والعلوم الحديثة تساعد على موقف جديد ، يستغني فيه الإنسان عن الخامات الطبيعية التي تتناقص ، ويصنع خشبه وحديده وملابسه ومسكنه من مواد جديدة جرى تصنيعها بإمكانيات صناعية !

وعلى العكس من ذلك عالم الفقراء ، فالسكان يتزايدون بنسب عالية ، والموارد تقل ، ومتوسط الدخل السنوي يتراجع . يقول تقرير اللجنة المستقلة المعنية بالقضايا الانسانية الدولية : « إن الجوع بعد ذلك لن يصبح أفريقيا ، إنه قابل للانتقال إلى أماكن أخرى » .

إن مولد الطفل « ماتيج جاسبر » يدق ناقوس الخطر ، فقد بدأ العالم في إنتاج ملياره البشري السادس ، ولم يعد هناك مفر من الهاوية ، إلا بالثورة على الأوضاع ، إذ لن يجدي الاعتماد على الشمال وإن كان التعاون ضروريا ، ولن يجدي الانكفاء على الذات قطريا فإمكانيات الجنوب محدودة . لكن المطلوب هو تعاون إقليمي أوسع ، يستفيد من علوم العصر ، ويعترف بعلوم الإدارة والسياسة والمجتمع ، ويؤمن أن الغد مسئولية الجيل الحاضر . والمطلوب أيضا ثورة فكرية تبدد ذلك الاستسلام للفقر المدقع والجوع القاتل . □

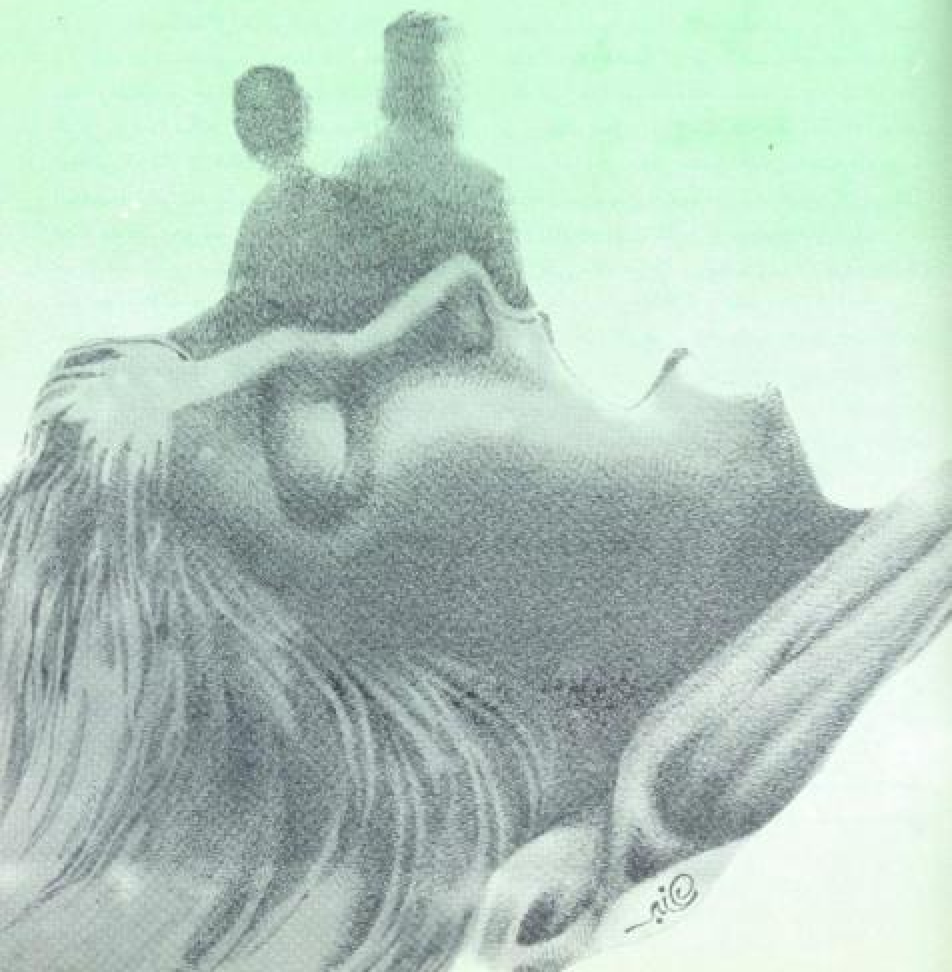
المخاض

قصة قصيرة بقلم : محمد الشارخ*

اسمع . لقد كان المخاض صعبا . ولقد خشي الطبيب على الجنين ، فذاك الضغط المتواصل قد يؤدي لمضاعفات تضر بصحة الطفل . تلك هي التعقيدات التي في ما عداها يقول لك الطبيب : « كل شيء تمام » . في الواحدة صباحا قرر الطبيب أخذ سلمى لغرفة الولادة . رفعت الممرضة الوصلة الالكترونية التي كنا عن طريقها نتابع دقات قلب وليد . فرحت سلمى كثيرا . كانت منذ السادسة تسأل الطبيب « متى سألد ؟» ، و « هل سأنتظر كثيرا ؟» ، أو « كم بقي من الوقت ؟ » ، ما حدث أن رأس الطفل لم ينزل كثيرا . في الصباح حين جئنا للطبيب قال لنا : « عودا للبيت واذا عاد المخاض بدرجة جديه اتصلوا بي » . طبعا انا لا اعرف المخاض الجدي ، وهكذا قلت للطبيب مشكلتي إنني لا اعرف ما هو المخاض الجدي ، ثم فوق ذلك ان سلمى ، وكذا كل افراد عائلتها ، صبورون جدا ومن النوع الذي لا يجزع ولا يبكي . ومع ذلك قال لي الطبيب « لكن العين تتكلم . انظر الى عينيها اذا لم تسمع صوتها » ، ولكني لم ار دموعها الا بعد الثامنة مساء . تلك الدمعات التي تترقرق على الوجنات والخدود مع ذلك الألم الجسدي والصرخات والجهش « متى الد يا ربي ؟» . كانت سلمى تتألم ، تنازع وتتلوى وتصرخ بي « امسك يدي » فلقد كنت معها طول الوقت . في امريكا يسألك الطبيب : « هل تريد ان ترافق زوجتك الى غرفة المخاض ؟» ثم يسألك « وماذا عن غرفة الولادة ؟» ، وتنظر الى زوجتك فتجد ان عينيها في عينيك ، فتسأل الطبيب ويأتيك الجواب : « طبعا لن ترى شيئا ، ستكون معها فقط . وهكذا اتفقت مع سلمى على ان ارافقها . بالطبع كانت هي اشد فرحا لمرافقتي لها ، اولا لأنه لا يوجد احد من العائلة هنا ، ثم لأنها فكرة جميلة ، وثالثا لأني اريد ان«ارفع»آلامها كما يقولون هنا . وبالطبع ما كنت لأتركها انا لانها فكرة جميلة ولأنه لا يوجد من يرافقها غيري وثالثا لأني اريد ان «ارفع»آلامها . وفعلا لقد رفعت آلامها . كيف ؟ ذاك يصعب شرحه ، لكن الطبيب كان سعيدا جدا بمرافقتي والممرضات ايضا . والأهم ان سلمى كانت اكثرهم سعادة ، بل لقد كانت تنادي : « اين زوجي ؟» ، و « رجاء نادوا زوجي » كلما خرجت من غرفة المخاض ، مع اني لم اخرج من الرابعة والثلث الا مرة او مرتين للتشاور مع الطبيب . وكانت الممرضة البيضاء السمينة الطويلة المشعرة تؤشر لي بيدها : « زوجتك تريدك » . وقال لي الطبيب فيما بعد : « لقد قمت بعمل طيب . تدري ان العرب في العادة ، ولا اقصد الاهانة لكني اعرف من قرائتي ، يضعون زوجاتهم في مرتبة ادنى وانا لا اتدخل في ذلك مادام يتم في البيت ، لكن حين تأتي الزوجة لي هنا فان ذلك يخصني . انهم في العادة

* كاتب من القطر الكويتي .

يعتبرون المرأة منذ دخول المستشفى مسألة تتعلق بالطبيب ، ويريدون ان يجلسوا في البيت وانا اخبرهم بالنتائج . هذا بالتأكيد يتعلق بي وانا اريد الزوج هنا : ان يكون معي بنفسه لأنه هو الذي يستطيع ان «يرفع» آلامها ، انا اعطيها مهدئا ، انا اساعد الطبيعة ، لكن هو الذي «يرفع» آلامها لانه هو الطبيعة لا المسكنات التي اعطيها لها ». لقد شرح لي الطبيب اشياء كثيرة خاصة حين اخبرني عن الحاجة لنزول رأس الجنين لطرف الرحم الأسفل . وسألت الطبيب : وبدون ذلك ؟ فقال وهو يفتح عينيه باتساع حدقتيها « بدون ذلك سنجري عملية . ذلك آخر شيء نعمله . فالقيصرية نلجأ لها فقط عندما نتأكد من فشل الطبيعة ». وحين دخلت على سلمى سألتني ماذا قال لي الطبيب ؟ فأجبتها انها بخير وانها في الواقع جاءت للمستشفى مبكرة ، كان يجب ألا تأتي قبل السابعة او الثامنة مساء ، قالت : « يا ربي في المستشفى أحسن . أنظر الآن : الطبيب عندنا والممرضات عندنا ، على الأقل نحن مطمئنون »، قلت : طبعا ما عليك منه . كيف لنا ان نعرف اول المخاض او نهايته ؟! قالت : « لا يا خالد هذا معروف في الدروس التي اخذتها في الصليب الأحمر ، لأن الفترات بين المخاض والآخر تكون تقريبا دقيقة ، والبارحة مثلا كانت المغصة تأتي كل عشرين دقيقة ، والآن كم ؟: اضبط الساعة في المرة القادمة . وتعض شفتها : « يا ربي ياربي » ، وتفتح عينيها الى آخرهما « خالد ماذا اعمل ؟» . . . « خذي نفسا طويلا يا حبيبتي . . خذي نفسا »« ما اقدر . . . » ثم تحاول ان تسحب نفسا وتحاول ان



تحتفظ به في جوفها . لكن الطبيب كان يريدها ان تضغط النفس الى الداخل . . « ما أقدر » . لقد شرحت لها حين انحسرت المغصة كيف تأخذ نفسا ، وكيف تدفعه للداخل بقوة . « أي مثل من يحزق للتغوط . . حين يكون لديه امساك . اضغطي للداخل بقوة . . ادفعي بقوة » ، « ما اقدر . والله ما اقدر » ولقد جربت ذلك في فترة السكون . لكن ذلك لا يفيد . الطبيب يريدها أن تحزق ، حين تأتيها المغصة . قالت « والله ما اقدر ، ما ادراك انت » واغرورقت عيناها « امسح ظهري . . أي . . يا ربي متى ألد ؟ . . امسح أسفل ظهري . . يا ربي ياربي » وتشد على حاجز السرير الحديدي بقوة « ياربي ، ياربي ، ياربي . . قل للطبيب يعطيني مسكنا » قال الطبيب « ذلك غير ممكن . . اذا اعطيتها مسكنا اكثر سيكون المخاض ضعيفا ، ربما اضعف مما هو الآن . . انا بحاجة الى مخاض قوي » والتفت اليها : « اريدك ان تساعديني ، اريدك ان تسحبي النفس ببطء وتحفظيه في جوفك ثم تدفعيه ليساعدك على ان تحزقي بقوة »؟ سألته : « ألا يوجد دواء او آلة لتقوية المخاض ؟» قال ان هناك آلة السحب لكنه لا يحبذ استعمالها ثم انه يكرهها . . قلت : « أليست فعالة » ، قال وهو يجلس على حافة السرير : « اعتقد ان الاطباء الذين يستعملونها يجدونها فعالة ، اما انا فاكرهها ، الآلة هي آخر شيء تفكر فيه ، يجب ان نعطي الطبيعة مجالها » ، ومدت سلمى يدها لي فعرفت ان المخاض عاودها . ابيضت شفتاها واصفر جبينها ولوت رقبتها . . « امسك يدي » وضغطت على كتفيها وهي ترفعها الى فوق « ياربي ، ياربي » ، وقال الطبيب « خذي نفسا » ومد يده فأنّت سلمى وهي تكاد تقفز من السرير قال الطبيب : « اعرف انك تكرهينني الآن . . لكن هذه هي الطريقة الوحيدة للتأكد من موضع رأس الطفل » ، والتفت الي قائلا : « كانت لدي ممرضة تعرف بمجرد اللمس الخارجي ، اما انا فلم اتمكن من ذلك ابدا » ، « واو . . خالد . . خالد . . امسكني . . امسكني . . ربي الد بسرعة . . ربي تهون علي . . خالد . . خالد . . امسك ظهري » وتعض شفتها وتترقرق دمعة كثيفة في حدقتيها . « احسن من قبل » . قال الطبيب : « لكن علينا ان ننتظر قليلا » ، وانحسرت المغصة . . « آسفة يا خالد عيوني عذبتك » . . سألني الطبيب ماذا تقول ، قلت تعتذر ان كانت غير متعاونة ، فالتفت نحوها : « بالعكس انت طيبة . لكنها الولادة الاولى . ربما كانت في حالتك اصعب من المعتاد لكنها دائما ليست سهلة » .

في السنة الماضية في مثل هذا الوقت كنا انا وسلمى مع الوالد في المستشفى بلندن . وكان الطبيب قد قال لنا باختصار « سوف يعيش ، لكنه لن يتمتع بحياته . كانت جلطة دموية ثم مضاعفات في القلب ، وكان هناك شلل في الجانب الأيسر وعدم قدرة على النطق . كنت في مثل هذا الوقت تقريبا من العام الماضي اسلي الوالد وازين له دنياه . قلت له « انظر الى سلمى انها حامل » لم يكن ذلك صحيحا ، كنت فقط اريد ان اشغله بشيء آخر عن مرضه . فانفجر بي بصوت عال ، وبكلام غير مفهوم ونظرات قاسية عاتبة . وحكيت لطبيبه « الأني كذبت عليه انفجر غاضبا ؟» فهز الطبيب اصبعه نافيا « لا بالعكس هذا يفرحه لكنه خائف ان يموت قبل ان يرى ذلك فعلا . انه يقول لك ماذا تنتظر؟» . ولقد كان كلما رأى بطن سلمى حين حملت يبتهج ، يضحك ، تتهلل اساريره ، ويحرك يده كما لو كان يحاول ان يحميها . كان لا يرفع عينيه عنها كلما رآها . لقد بكى بكاء طويلا . . نحيبا هادرا ، يوم انحنيت اقبل رأسه ، يوم سافرنا ، دفعني بقوة في صدري ، ووقعت على الأرض ، وامسكت يده ورحت اقبلها وابكي . سلمى تعرف ان ما من شيء يعذبني مثل تركي لوالدي . لقد كنت اشعر اني اخون هذا الرجل . كيف اسافر واتركه ؟ كان العقل والعاقلون بالطبع يقولون : أديت ما عليك . نعم ؟ ماذا ؟ ممرض خاص يأتيه يوميا للبيت ، وسائق وسيارة لتنقله لمستشفى التدليك ، وامرأة تسهر عليه ، ثم كل العائلة حوله والاصدقاء . لكنه كان يبكي ، وكنت اعرف انه يريد ان يراني ؛ ويرى سلمى ويرى وليدنا . ومنذ البداية كنت اقول له ان سلمى ستأتي بوليد . كنت منذ الصغر أكنى « أبا وليد » كان هو يسميني (بو وليد) كان يحبني . في الابتدائي حين ضربني حامد وانا عائد للبيت بكيت فأخذني بعد صلاة المغرب لأبي حامد وتحادثنا ثم صرت وحامد صاحبين ويوم وقعت من الحصان وانكسرت ساقي

وادخلوني غرفة العمليات واعطوني حقنة التخدير لم تغمض عيني الا بعد ان رأيته داخلا وسمعت صوته واحسست بيده فوق كتفي . واليوم حين كلمتنا الوالدة :

- بشروني عن سلمى
- طيبة
- الله عليك ؟
- والله من أحسن ما يمكن .
- صحتها زينة ؟
- اي والله خذي كلميها .
- مرحبا خالة . . كيف صحتكم . . . انا بخير . . بعد بعد . . ان شاء الله . . لا تقلقون علي . . والله زينة . . خالد بخير ايضا . . انتم ما اخباركم . . . عمي ما اخباره ؟

وسحبت الهاتف من سلمى :-

- اخبار الوالد ؟
- على حاله
- لا تقولي هكذا . . لا تقولي هكذا ان شاء الله هو بخير .
- بخير انشاء الله يرى ولدك .
- ان شاء الله

وامس سعاد : -

- خالد . . الو خالد . . من يتكلم . . الو
- سعاد . . مرحبا سعاد .
- مرحبا خبرونا عنكم .
- خير انت ما اخبارك ؟
- كيف سلمى ؟
- زينة
- الم تلد ؟
- لا . لكن من الآن في اي لحظة .
- ان شاء الله ليست تعبانة
- أبدا بالعكس صحتها من أحسن ما يمكن ليست مثلك
- عسى . . وانت كيف حالك ؟
- تمام وانت ؟
- كلنا « طيبين »
- والوالد
- زين فقط يريد ان يرى ابنك .
- ان شاء الله صحته احسن .
- نعم احسن مما رأيته آخر مرة . في تلك المرة كان مريضا يبطنه لكنه الآن هو احسن . .
- هل هو احسن ؟ بذمتك ؟
- احسن . . انشاء الله احسن . المهم سلمى تولد ويرى ابنك .
- بعد . . ماذا لديك ؟
- لاشيء .
- كيف لا شيء لماذا تتصلين اذن ؟
- ها ها والله لاشيء ، البارحة حلمت بكم . . وصحوت متضايقة ، ذهبت في المساء للوالدة ، لم يكن لديها اخبار لماذا لا تتصلون بها . . مسكينة طول النهار تبكي . حين عدت لبيتي لم استطع ان استقر ، كنت افكر بكم . . . قلت اتصل بكم أحسن . . .
- سعاد اسفا عليك . . طبعا سنتصل حين تلد سلمى
- نعم ضروري ، خاصة الوالدة
- طبعا
- اين سلمى ؟
- هنا جنبي
- دعني اكلمها

ثم تلك المواتف الأخرى .

قالت سلمى : « خالد . . . الكويت »

- آلو . . اخ خالد

اهلا سليمان . .

- هل ولدت سلمى
- اليوم ان شاء الله
- ممتاز سأصلكم بعد غد . اسألها هل تريد شيئا ؟

وسألتها .

- لا . . تقول تعالوا بسرعة . . ستحتاج لأدبيه
- أدبيه . . منفوخة جدا . . بالسابع . . هي تحتاج لمساعدة . خالد ساعدها انت .

وضحك ضحكته المعهودة .

فرحت سلمى اذ عرفت موعد وصوله وعائلته فسليمان صديق العمر في المدرسة ، والحي والجامعة . ما اجمل ان يكون للانسان اصدقاء العمر كله . قال سليمان : « سأهاجر » فقالت : « لا انشاء الله اريد ان اعيش بين اهلي وجيراني » وكان

سليمان مهموما بالكرامة البشرية « لا توجد هنا كرامة للانسان » واكثر من ذلك « الا ترى يا خالد ما سيحل بنا هنا . اهرب انج بجلدك » كانت سلمى ضد الفكرة وانا كذلك . لكنه شجعني على العمل في امريكا حين قال : « فرصة يا خالد فرصة . . لا تضيعها » وشجع سلمى على الولادة في امريكا عندما قال لها : « احسن يكون لديكم ولد امريكي يمكن يصير كيسنجر العرب » . وكانت سلمى تقول « تزوجوا بعدنا وعندهم اثنان وثالث بالطريق . . » كنت افكر في والدي وسلمى كذلك .

وكنت في غفوة ، واذكر اني نمت بسرعة وكنت اقول لسلمى « نامي . . نامي » وهي على ما خيل لي كانت تسند ظهرها الى السرير . لكن بعد قليل ، ربما ربع ساعة ، او نصف ساعة ، قفزت من الفراش ، كانت هناك حركة في الشرفة ، وحين فتحت عيني كانت سلمى واقفة بجانب السرير وهي تحني جسدها نحو الأرض ، تلعب رياضة ، او لعلها قد قرأت عن بعض الحركات التي تساعد على المخاض . قلت : « ماذا بك ؟» قالت : « بسم الله عليك . لاشيء . قلت : ما بالك انت ؟» « هل تلعبين رياضة؟ » فأجابت : « لا عيوني اريد ان اشعل « اللمبة » الأرضية حتى لا يأتيك نور فتنزعج » قلت : سلمى هل تعملين حركات لتساعدك على انزال الطفل » . . . قالت : « لا . . . ياعيني . . . كنت اولع النور . . . نم يا حبيبي » . . . قلت « هيا نامي انت » قالت : « ان شاء الله » قلت : « نامي يا عيوني » قالت : « معي مغص » . قلت : « حبيبتي هذا ليس المخاض ، لقد سألت الطبيب في الحادية عشرة والنصف . قالت : « لكن ماذا اعمل ؟ عندي مغص . كل ثلث ساعة يمغصني بطني » قلت : يتراءى لك فقط » قالت « كيف يتراءى لي . . عندي مغص شديد » .

وحين عدنا الى البيت هذا المساء وضعنا الصور على الطاولة امامنا . صورة سلمى الى اليمين وصورتي الى الشمال وصورتنا معا في الوسط كنت في الصورة اضحك وشعري يتطاير قليلا ولحيتي غير حليقة تماما . كانت سلمى تحب ان تراني هكذا غير متأنق تماما . وكانت تقول « مثل المثقفين » . كانت الصورة مليئة حيوية وبهجة حتى صارت صورتي « الرسمية » التي اخذتها في المكتب وكبرتها . قبل اسبوع تبدو سلمى شاحبة واكثر رصانة فعلا واقل حيوية بالتأكيد . كانت صورة سلمى مثل بنت مدرسة : عيناها الواسعتان تبحثان عن شيء ما هناك ، ربما رهبة وربما استطلاعا ، وشعرها مصفوف خلف رأسها وابتسامتها وجلة . كانت تبدو كالعادة في حالات رخائها مثل وجوه الملائكة الصغار التي نشاهدها في الصور الكنسية الشعبية . . السلام في الجبهة وعلى الوجنتين ، والشفتان مكتنزتان تكتمان ابتسامة متحفظة . . قالت : « خالد بطني يمغصني » قلت : « نامي الآن . . . لماذا انت مستعجلة ؟ . لكني كنت الاحظ قلقها طول المساء .

بعد الثالثة صباحا بدا ان سلمى لم تنم اطلاقا . صحوت انا في الثانية تقريبا على اتصال الوالدة ثم تلك الاتصالات اللعينة الأخرى . وفي الصباح قامت سلمى كالعادة ، واعدت لي الفطور . نصف بطيخة صغيرة وكأس حليب بارد مخلوط ببيض وعسل وقهوة بالحليب ودخلت الحمام . . . لم يكن نومي مريحا اطلاقا ، كانت سلمى تحسدني لأني عندما اضع رأسي على المخدة انام . وفتحت (الدش) على الماء الساخن واخذت اولا حماما بخاريا قويا . اما سلمى فاخذت حماما ليلة أمس قبل ان تنام وهي تقول : اريد ان استحم الآن ربما هذه آخر مرة قبل الولادة . « لبست ثيابي وسلمى على الفراش . قالت « عيوني لن تذهب اليوم الى العمل » قلت « عندي اجتماع الساعة العاشرة » قالت « خالد . . . يمكن يصير شيء » وكان واضحا انها لا تريدني ان اذهب . وكلمت السكرتيرة بعد قليل : « لن آتي اليوم . سآخذ زوجتي للمستشفى ، الغي موعد الغداء . سأتصل بك فيما بعد » . . . كانت سلمى قلقة تماما وقبلتني . « هل الاجتماع مهم جدا اليوم ؟» قلت « خلاص . اذا كان لابد من الغائه فلن أحضره » قالت « خذ الجريدة اقرأها واجلس جنبي » . . . بعد ذلك بدأت تتلوى . كان ألم المخاض يأتيها كل ربع ساعة . . وربما كل عشر دقائق . وذهبنا للطبيب في العاشرة وحين عدنا في الثانية عشرة قلت امازحها « هيا نذهب الى محلات (ساكس) . . ذاك الفستان الذي تحبينه دعيني اشتريه لك اليوم . . ذكرى !» ، ضحكت وقبلتني

« انت تجنن » وحين دخلت الشقة رمت نفسها على المقعد وقالت : « اعطني الوسادة اولا ثم الغطاء » وبين نوبات الم المخاض كانت تقول : « لم اعمل لك أكلا يكفيك للأيام التي سأقضيها بالمستشفى . . سامحني عيوني » . وفي الرابعة اتصل بنا الطبيب :

- كيف هي الآن ؟
- طيبة وألم المخاض يأتيها كل خمس دقائق تقريبا
- هل هو شديد ؟
- انها تتألم بشدة .
- هل مازال الماء يتسرب ؟
- تقول لا تدري .
- اذن من الأفضل ان تأتي للمستشفى حالا . اين تسكنون ؟
- الو وتر جيت .
- قلب الفضائح ؟
- نعم كل الفضائح .
- لا خوف . . عشرون دقيقة وتصلون المستشفى .

قلت : « هيا الطبيب يقول بأن نذهب اليه بالمستشفى » .

« وحين نزلنا المصعد وضعت يدي حول خصرها » « اعتدلي حبيبتي » ، واستقامت بقدر الامكان . كان وجهها مصفرا وسواد السهر تحت العينين العسليتين الواسعتين بدا واضحا . كنت احمل حقيبة ملابسها وهي تنظر اليّ في ثوبها الأبيض ذو المربعات الزرقاء وانتفاخة البطن تضيف لتدويراتها وتكويراتها ومنحنياتها العديدة رهبة وحلاوة . قالت وهي تنظر الى نظرة المتفحص « هل انت سعيد ؟ » فوضعت يدي حولها على جدار المصعد وضغطت بجسمي على جسمها وهي تدفع كتفي بيدها « ابتعد . . لا يرانا احد » واسندت ظهري الى الجدار وعيني وقلبي في الشفتين النابضتين المتشققتين والرقبة المشعة والشعر المصفوف خلفها والوجه الطفولي الملائكي . وكان البطن المنفوخ يرفع الثوب حتى الركبتين فيبدو الساقان الرخاميان المصقولان كعمودين . قالت « مابالك . . لم تحدق هكذا » قلت « هل سينخفض بطنك اليوم » قالت في غنج وهي تغمض عينيها خجلا « تريدني حامل على طول » . أخذت لسلمى صورا وهي تخرج من المصعد ، ثم وهي تخرج من باب العمارة ، ثم صورا أخرى وهي تدخل بوابة المستشفى وقالت لي الممرضة : « انتظر في قاعة الانتظار » . . وعبر تلك الثواني البطيئة كان هنالك خمسة أو ستة رجال وامرأة عجوز يقفزون كلما رن الهاتف ، ورحت أطالع في كتاب : « السيدات الحوامل » . . . كيف يتكون الجنين في الشهر الأول ، والثاني ، والرابع وكيف ينزل رأسه إلى تحت ، ثم رحت استطلع الأسماء . . . الولد . . . ليس هناك مشكلة فقد كان الوالد يدعوني « بو وليد » منذ الصغر . البنات . . . قلت لسلمى « سوسن » ولم يعجبها الاسم . اقترح صديق اسم « سما » وكانت سلمى تفكر باسم « ريم » ولم يعجبها « مي » ، ووجدت بين الاسماء « نوره » وكنت قد ذكرته لها مرة ولم تتحمس له كثيرا . حين دخلت عليها في غرفة المخاض سألتني ماذا كنت تعمل ؟ وأطلعتها على قائمة الأسماء في الكتاب وسألتها رأيها في « نوره » ، قالت : « زين . . أليس قديما ؟ . . لا أريد بنتنا تتعقد » ، ثم رفعت يدها عاليا « امسكني » . وحين انحسر ألم المخاض قالت : « خالد لا أريدك أن تذهب عني » . كنت قد لبست ثياب الممرضين الخضراء وكانت سلمى تمازحني قائلة « طبيب بلا شهادة » وفي العاشرة ساورني القلق . هل استعجلنا في الأمر ؟ يوم الأربعاء الماضي كلمتني سلمى بالهاتف من عيادة الطبيب في المستشفى وقالت « الطبيب يريد أن يراك في الحادية عشرة يوم الاثنين » وطلبت من السكرتيرة ألاّ تحدد لي موعدا صباح الاثنين . وفي البيت شرحت لي سلمى أن الطبيب يعتقد أن الجنين قد اكتمل وأن من المفيد انجابه بأسرع وقت وحين سألتها : « كيف ؟ » ، قالت هناك طريقتان : إما بالأدوية لاستعجال المخاض أو باليد لتوسيع فتحة الرحم . رحت أسأل بعض الزملاء قال لي السويدي بونغ أنه لم يسمع بطريقة اليد لكن زوجته استعجلت الانجاب بالأدوية في وليدها الثاني . وأمضيت الخميس والجمعة والسبت والأحد أفكر بالموضوع . وعلى الغداء قلت لسلمى بصراحة أني أفضل أن ننتظر ، قالت : « لماذا » ؟ قلت : « أحسن » فعقدت جبينها : « كيف أحسن ؟ » قلت : « بصراحة لا أدري لماذا نستعجل » قالت : « خالد . . الطبيب يقول الجنين

كامل لماذا ننتظر ؟ ، وكانت مصممة ، وارتفع صوتها : « يوم ١٥ يتم الجنين تسعة أشهر .. هذه أقصى مدة لنموه بعد ذلك قد يكبر في الداخل وهذا غير صحي له ويمكن خطر لي » ، أحب سلمى حين يرتفع صوتها .. واثقة ، حاسمة ، تعرف ما تريد . حين كنت أتعلم هنا كانوا يمازحون الوالدة « خالد أخذ له إنجليزية ، الله أكبر ، عيون زرق وشعر أشقر » ، وحلفتني الوالدة « أدري أنهم يمزحون لكن بالله عليك هل ستتزوج إنجليزية ؟ » ، ويوما قال الوالد تعال نتمشى في السوق . كان يسلم على أصحابه ويعرفني على بعضهم « والحمد لله أبو وليد متقدم جدا في دراسته » ثم بدأ في الحديث الجدي : « إذا أردت أن تتزوج فاسأل عن الأم أولاً ثم الأب » . ويوم أتيته وهو جالس في صيوان البيت . وقبلت رأسه تهلل وجهه : « خير .. خير » قلت « لقد خطبت » ، قال : « من ؟ » وحين أخبرته قال وهو في منتهى السعادة « عدل ، مضبوط ، قل آمين الله يوفقك يا خالد ، الله يسعدك دائما ، لقد كنت أعرف أنك لا يمكن تتزوج غريبة » ، أما الوالدة التي كانت تنصح باستمرار « جمال الثوب أن يكون خيطه منه وفيه » ، فأخذت تبكي « أريد شيئاً واحداً منك : « حاضر » قالت : « أريد أن أرى ذريتك » وكانت سلمى راغبة في الانجاب . وكان صديقي سليمان يقول بدون أطفال كأنك تعاشر صديقة ، لماذا تسميها زوجة إنها صديقة عشرة . وقالت الممرضة حين خرجنا من غرفة الولادة « أنتم الآن عائلة » ... وفي لندن قالت سلمى بلهجتها الحاسمة حين تكون قد اتخذت قراراً « أنت لا تريد أطفالا أبداً ؟ » قلت وأنا أرشف القهوة في مقهى « القمر الأبيض » في باركلين مقابل الهايد بارك والسماء تنث قطرات متقطعة « قلت لك ألف مرة بلى » قالت : إلى متى سننتظر » وبعد قليل تساقطت دموعها وهي ترشف القهوة « ماذا أنت .. ألا تشعر بأحد . ألم تر والدك أمس كيف بكى ، هل تريد أن يموت الرجل قبل أن يرى ذريتك ؟ » . كانت تتكلم طول الوقت إلى أن وصلنا شقتنا وما أن جلست على (الكنبة) حتى انهمرت في البكاء . اتصل سليمان بعد قليل ، قلت « سأخرج » ، وجلست مع سليمان على الكراسي الخارجية للمقهى المقابل لشقتنا . قلت تريد أن



تحمل ، فضحك سليمان ضحكته المعتادة « امرأة ولا تحمل ؟ » ، حين عدنا أنا وسليمان من الدراسة بأمريكا كنا مصرين على أن نتزوج بسرعة « كيف نعيش بدون امرأة » ، وكنا نغازل ونتسكع ونتسمع أخبار البنات اليافعات البائعات للغرام واللعب والزواج . وكنا نصيد سمكا على اللسان البحري بالفحيحيل ولمحنا في الماء سمكاً كبيراً يسبح ، أفخاذ وشعور وصدور وشاهدنا البنات في الماء . والأجساد الكهربية في الماء الفيروزي . واشرأبت أعناقنا وشنفنا آذاننا وقلنا « هس هس » ، وتدافعت أكتافنا . ونططنا وسألنا السائق « سيارة من هذه ؟ » . كانت

سلمى مع أخواتها يسبحن على الساحل الخاص بإدارة الميناء حيث يعمل أخوها وكانت أمها جالسة على الرمل تحدق بهن كدجاجة تحمي فراخها . وقلت وقال « سأتزوجها » وقلت وقال « يا ابن ... ابعد عنها » وتزوجتها . ولم أقل لها « هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد » وكان سليمان يقول « أنت مجنون ؟ كيف لا تريد أبناء . هي تريد » . ويوم زواجي أهداني البقال النحيف القصير علبة سيكار طويل وكانت له زوجة طويلة عريضة وسبعة أبناء وقال : « الليلة .. الليلة يتحدد الفرس والفارس » وغمزني بعينه وضحكنا « سبعة .. سبعة كيف يضع هذا بذاك » وكانت سلمى تمزح « كن حكيماً مثله » . وحين عدت قالت : سلمى « هل عدت » ؟ قلت : نعم . قالت « أريد أن نتعشى في مطعم الليلة وحدنا » ، وبدت في أبهى زينتها . وحين ركبنا سيارة الأجرة ووضعت يدي خلف ظهرها أمسكت ذراعي قائلة : « لن استعمل الحبوب بعد الآن » ثم شدت على ذراعي « لن استعمل الحبوب بعد الآن ... مفهوم ؟ ... أجبني الآن .. » قلت « طيب .. طيب .. » قالت « لا أريد كلاماً لطيفا .. لن استعمل ... » وسحبت ذراعها ورحت أقبل كفها وساعدها فاستدارت تحوي « حبيبي » وضمت رأسي لصدرها . ذهبنا لمطعم « جاكلين » الفرنسي في ليتر سكوير وطلبت سلمى أكبر وجبة باذخة ، قواقع ولحم عجل مشوي وسلطة روسية وجبن وفواكه وقهوة ، كانت تضحك وتتحدث بشهية وغنج وكانت تسألني : « هل تريد ولداً ؟ سأتيك بولد ... وليد حبيبي » . بعد ذلك رأيتها تقرأ عن الأمهات والأطفال والحمل والولادة وتتوقف عند (فترينات) ملابس الأطفال . ولم تبق حيلة أو تقنية للحمل إلا واستعملتها . أخيراً في ٢٠ نوفمبر وقعت المعجزة . وانتظرت حوالي عشرة أيام وذهبنا إلى الطبيب وقلت لعباس مدير المختبر المركزي أريدك أن تحلل هذا بنفسك وتخبرني بالنتيجة . وجاء صوت عباس مدوياً عبر الهاتف « مبروك ... حامل » وكلمت سلمى « مبروك » . كان ذاك يوم عيد في البيت .. الوالدة تسير بخيلاء والوالد يضحك وجلست أغني له : « يا أبو وليد مني غدا الشوق وبلاه .. يا أبو وليد » ، والوالد يهز رأسه مع النغم .. ثم تأوه آهة طويلة وصك أسنانه ورفع عينيه للسماء وهز يده ، وحين قلت لسلمى : ما رأيك لقد عرضوا عليّ « أن أعمل في أمريكا ؟ » قالت « أقبل يا خالد .. يقولون الولادة « في أمريكا أحسن » ، وبكت الوالدة وقالت أنا ضامنة عمري ، تذهبون وتتركوني مع هذا الرجل الذي طول النهار ينظر ويتعقب خطوات سلمى ، حين تعثرت سلمى قبل إسبوع كاد يقفز من مكانه ، إسألها بالله عليك كيف قفز والدك ... لقد غضب عليها وأخذ يهز يده في وجهها » . وأخذ بطن سلمى يكبر قليلا قليلا ... وغيرت ملابسها إلى ملابس الحمل وأخذت تمشي الهوينا وفي الشهر التاسع كان هناك البرنامج اليومي ... نتعشى في السابعة والنصف ونخرج نتمشى لكي نساعد على نزول الجنين ... على شاطىء البوتوماك . وندور حول مركز كنيدي للفنون ، ونتوقف فوق الجسور الصغيرة في طريقنا إلى جورج تاون ... وندخل السينما .. ونعود مشياً إلى شارع م ، وشارع بنسلفانيا وندور حول بعض مباني جامعة جورج واشنطن وشارع فرجينيا ... ونعبر الشارع إلى مباني الووترغيت .. قالت سلمى وهي تعتصر من الألم « إنها عينك دائما تقول لكل الناس أني لم أتأثر إطلاقا أثناء الحمل » قلت « أبداً مخاضك طبيعي » قالت « لا أصدق لقد أخبرتني شيخة أنها حين دخلت غرفة المخاض أعطوها مخدر موضعي ولم تشعر بالألم إطلاقا » كنت أنظر إلى آلة نبض الجنين وقالت الممرضة هل تريدون سماع صوت قلبه ؟ وفتحت زر التسميع « بم بم بم بم » وشرحت لي . « هذا النور يعطي إشارة القلب ، وهذا العداد يبين عدد النبضات بالدقيقة . وهذا الشريط يسجل النبضات على شريط من الورق حتى يتمكن الطبيب من قراءته لو حدث خطر .. OK! » قلت « OK » قالت : « حسنا أيها الأب .. إذا زادت النبضات عن ١٨٠ أو نقصت عن ١٢٠ أخبرنا في المكتب » وأشارت على جرس قرب السرير .

ومرة هتفت ممرضة « أوه ! ولد ! . سيكون عندك ولد » نظرت إليها مندهشا صحيح ؟ فنظرت إلى بدهشة « هل تريد ولداً ؟ » قلت « نعم » وقالت وهي تهز رأسها « سيكون عندك ولد » قلت « كيف

عرفت ؟ قالت « اذا كانت النبضات اقل من ١٤٠ باستمرار فالنتيجة ولد » سألت « متأكدة ؟ » فاجابت « طبب أنا عادة ١٠٠ ٪ صح » . في غرفة العمليات كنت مثل الآخرين ، فيما عدا سلمى ، نرتدي غطاء للرأس ومنتصف الوجه ، وأجلس بجانب رأس سلمى أحدثها بأي شيء . . . وأحياناً كنت أشعر أن موضوع الحديث قد ضاع فقد كانت جوارحنا في الجانب الآخر .

ودخل الطبيب . ونظر إلى سلمى وقال : « أنها فتاة حلوة » ثم قال بصوت عالٍ وهو يجلس على كرسي في الناحية الأخرى وحوله مساعديه « لن يكون وقتاً طويلاً » وسلمى تنصت لي وتحاول أن تتابعني وتهمهم بين الحين والحين « يا الله » . وكانت سلمى تحدق أحياناً في القماش ، قلت : « حبيبتي دعيهم ، ألم نتفق على أن نمضي الوقت معا وننسى ما يعمل الطبيب » . كنت في الواقع أخفي قلقي ، قالت : « نعم عمري . . . لكنهم يسحبون . . » قلت « ما عليك . . . » ثم أردفت قائلاً : « على فكرة حين نعود سنتوقف في لندن ، هذه المرة لن تذهبي إلى السوق . . كيف تخرجين مع طفلك ؟ » وعقدت جبينها « يا الله . . . إنهم يسحبون » كنت مرهوبا وصرخ الطبيب « لقد مسكته » . . وصرخ مساعده « شعره كثيف . . . » وعقبت الممرضة ضاحكة « مثل أبيه » قال الطبيب « صحيح ليس مثل طبيبه ؟ » قلت لسلمى وهي تهمهم وأنا أبحث عن كلام . « أنا خائف على سليمان كيف سيعيش هنا وهم يكرهون العرب » قالت وهي تنظر باتجاه الطبيب « لا تخاف عليه . . يقول إنه إسباني . . المسكينة أدبية رابطيتها أولادها . . عشرين مرة قالت لي سليمان كلامه صحيح لا أمان ولا كرامة للانسان عندنا لكن مالك غير أنفك ولو كان أعوج » . وزعق الطبيب « هذا هو . . هذا هو . . . » ورفعت سلمى رأسها قليلا وأدرت رأسي أيضاً . . . ورفع الطبيب الوليد عالياً « أنت ولد . . طبعا ماذا تريدون أن أسحب لعربي . . بنت ؟ سوف يقتلني » كان الوليد ملطخا بالدماء والطبيب يشده على صدره ويعلقه من يديه مثل أرنب مسلوخ . . « هل سمعت صوته ؟ » قالت سلمى بسرعة « لا » ، قال أوه . . . إني أتكلم كثيراً » وضرب الوليد على ظهره فارتفع صوته « . . واو . . . واو . . . واو . . . » . . . خدرت ساقاي والركبتان ، كان جسمي خفيفاً وانعدمت الجاذبية كما لو كانت في الفضاء . وسلمى أغمضت عينيها « الحمد لله . . الحمد لله » نظرت إلى « حبيبي » وقبلتها . كان خداها يتوردان وهي تتابع بعينيها الوليد بيد الممرضة . أين الوجه الشاحب ، والشفتان البيضاوتان ، كيف عاد الوجه متورداً والخدان ! قالت : عيوني لا بد أن تتصل هاتفيا بالبيت » ، وأغمضت عينيها وهمهمت « يا ربي تطوّل عمر عمي حتى يرى وليداً » ، وبدأ الطبيب يخيط الجرح . رفعنا السرير إلى غرفة النقاهة وقبلت سلمى ثانية . . . وخرجت وشددت على يد الطبيب . . « شكراً دكتور » ونظر الي فهززت يده ثانية « شكراً دكتور » قال « انت أب ممتاز . . وأنا أحب ذلك » ورفعت الهاتف « ألو . . المكالمات الخارجية . . . الكويت . . . .

ـ الو . . الو . . أين أمي . . أمي . . بسرعة . الو

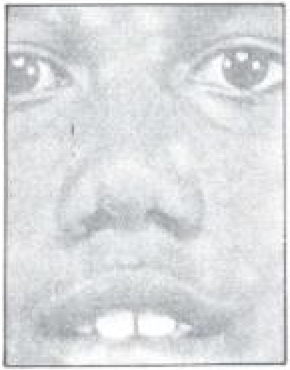
ـ يمه . . وليد . . وليد . . وصل وليد

وغرقت في البكاء

. يمه . . لماذا تبكين . . وليد . . وصل وليد . . . هو وسلمى بخير . . يمه . . خلاص لا تبكين . . هو بخير . . وامه بخير . . خلاص . . يكفي . . يمه . . .

ـ مشكور يا ولدي . . الله يحفظك . . الله يمد بعمرك . . . الله يعزك . . . الله يسرك مثلما سررتني . . . يا خالد يا ولد عبد الله يا ولد شريفه ، طول النهار والليل وأنا أفكر فيكم . الله يعلم لا أفكر إلا فيكم . الحمد لله . الحمد لله والشكر له ، الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث فيهما رجالا كثيرا ونساء . . الله يبشرك يا خالد بالخير ، الله لا يسمعك إلا الخير ، الله لا يريك إلا الخير ، الله القادر على كل شيء « كن فيكون » الحمد لله الذي خلقنا في أحسن تقويم . وأجهشت بالبكاء .

ـ أين الوالد . . . يمه . . خلاص . . أين الوالد . . . ! وزاد نشيجها . □


مرض النخالة البيضاء في الوجه

مرض النخالة البيضاء

بقلم : الدكتور محمد عبدالله المشاري

ليس كل بياض جمالا ! ذلك ماينبيء به مرض النخالة البيضاء ، فهو حين يصيب ذوي البشرة السمراء - ممن يودون لو كانوا بيضا - يصبح شائبة ، وليس أدعى لفساد اللون من أن تشويه الشوائب !

تبلغ نسبة الاصابة بمرض النخالة البيضاء ٢,١٪ من إجمالي المترددين على عيادات الأمراض الجلدية في الكويت ، وقد وردت هذه النسبة في دراسة اشتركت فيها مع آخرين ، فمن هذه الدراسة قد تبين أن ٩١٪ من الحالات تظهر قبل بلوغ سن العشرين ، وأن ٦٣٪ من هذه الحالات كانت بين أطفال دون سن البلوغ ، هذا وتبلغ نسبة إصابة الكويتيين بمرض النخالة البيضاء ٣٨٪ ، بينما نسبة إصابة غير الكويتيين ٦٢٪ .

وأود أن أنوه بأنه في دراسة لأحد الباحثين في جمهورية مصر العربية قد تبين بأن ٤٠٪ من الأطفال دون سن البلوغ مصابون بمرض النخالة البيضاء ، وتزداد هذه النسبة عند الاطفال ذوي البشرة السمراء والسوداء ، وذلك لسهولة تميز منطقة الاصابة من الجلد الطبيعي .

الأسباب

إن مرض النخالة البيضاء مجهول السبب ، لكن هناك نظريات كثيرة تتحدث في هذا الصدد ، منها نظرية تبرز دور البكتيريا كسبب لظهور هذا المرض ، حيث تبين بعد زراعة عينة من الجلد المصاب وجود البكتيريا العقدية ، ويرى بعض الباحثين أن هذه البكتيريا دوراً في ظهوره .

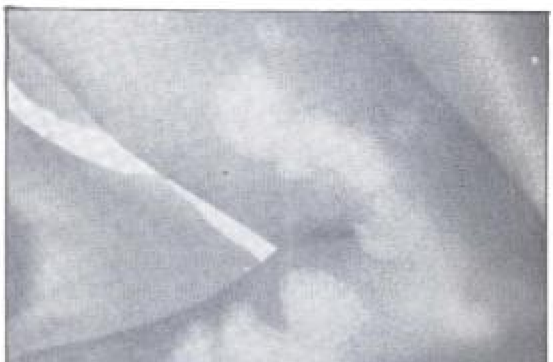
وهناك نظرية أخرى ترى أن للشمس دوراً بارزاً في ظهور هذا المرض ، وذلك بسبب ظهور الاصابة في الوجه ، ويبرر ذلك بوجود نوع من الحساسية من الشمس وهناك تفسير آخر ، وهو عدم قدرة الأشعة فوق البنفسجية من الوصول إلى خلايا الصباغ وذلك نظرا لسماكة الطبقه الكيراتينية العليا من الجلد ، مما يؤدي الى ضعف الصباغ أو عدم تكونة ، وغالباً يلاحظ وجود نزح مائي في مكان الاصابة ، مما يعوق

انتقال الصباغ من خلايا الصباغ إلى خلايا البشرة ، مما يؤدي إلى ظهور البقع البيضاء .

وهناك أيضاً نظرية أخرى تتحدث عن دور الفطريات في ظهور مرض النخالة البيضاء ، حيث اكتشف بعض الباحثين وجود بعض أنواع من الفطريات في مكان الاصابة .

وفي دراسة أخرى وجد أن ٥٦٪ من مرضى النخالة البيضاء مصابون كذلك بديدان في الأمعاء ، وأن أكثر هذه الديدان انتشارا هي دودة الاسكارس والانكلستوما ، ووجد أيضاً أن كثيرا من المرضى مصابون بسوء التغذية ونقص الفيتامينات . وهناك من يدعي بأن هذا المرض ما هو إلا أحد مظاهر أكزيما الأطفال الاستشرائية ، وذلك بسبب وجود إصابة سابقة بمرض الأكزيما في عائلة مريض النخالة البيضاء .

وتكثر الاصابة بهذا المرض عند الأطفال دون سن البلوغ ، لكن قد تظهر في بعض الأحيان عند الكبار ، فمن دراسة لأحد الباحثين تبين أن ٩٠٪ من الحالات تظهر قبل البلوغ .



مرض النخالة البيضاء على الذراع والساعد

بقي أن نعرف أن الأطفال ـ ذكوراً وإناثاً ـ معرضون للاصابة بهذا المرض ، لكن وجد أن نسبة الاصابة تكون أكبر عند الذكور ، وتفسير ذلك هو كثرة التعرض للشمس ، وقد ذكرنا في البداية أن للشمس دوراً في ظهور أعراض المرض .

ومن دراسة لأحد الباحثين تبين بان المرض يكثر بين الأطفال السود ، وذوي البشرة السمراء ، نتيجة لعدم تكوين الصباغ ، ولذلك تتلون منطقة الاصابة باللون الفاتح المختلف عن لون الجلد المحيط بالمنطقة المصابة ، وهذا مما يجعل منطقة الاصابة واضحة عند ذوي البشرة السوداء .

وقد تبين أن هذا المرض يزداد في فصل الربيع وبداية الصيف لكن هذا لا ينفي أن يظهر المرض في أي فصل من فصول السنة . وحول هذا الموضوع هناك اختلاف في وجهات النظر ، فبعض الباحثين لاحظ أن الحالة تزداد سوءاً في الصيف بينما وجد آخرون أن الحالة تسوء في الشتاء ومن هذا نستطيع أن نقول إن مرض النخالة البيضاء قد يظهر في أي فصل من فصول السنة ، لكن الحالة قد تزداد سوءاً عند التعرض للشمس فترات طويلة .

أعراض المرض

تظهر أعراض المرض على هيئة بقع بيضاء دائرية أو بيضاوية ، أو قد تأخذ شكلا غير محدد ، وحجم الاصابة يتراوح ما بين عدة مليمترات إلى بضع سنتيمترات ، ومنطقة الاصابة قد تكون واحدة أو متعددة . ونرى أن أعراض المرض تختلف ، حيث يعتمد ذلك على عمر الاصابة ولون الجلد المصاب ، فنلاحظ أن الاصابة الحديثة بلون وردي ، أو أحمر فاتح بينما نرى أن أطراف المنطقة المصابة غير محددة اللون مع وجود قشور رقيقة لاصقة .

ومن الملاحظ أن الاصابة سطحية ، وبمرور عدة أسابيع نجد أن اللون الأحمر يختفي تدريجيا ، ويبدو مكان الاصابة أبيض اللون « **HypoPigmented** مع

وجود قشور رقيقة ، وغالباً ما تكون الاصابة محددة الأطراف وواضحة خصوصا عند الأطفال ذوي البشرة السمراء أوالسوداء وغالباً تكون منطقة الاصابة جافة .

أما نقص الصباغ الذي يؤدي إلى ظهور منطقة الاصابة بلون أبيض فله عدة أسباب ، منها التعرض الطويل لأشعة الشمس ، وجفاف الجلد الناتج عن كثرة استعمال الصابون ، والتعرض للتيارات الباردة . وهناك من يرى أن وجود القشور الرقيقة في منطقة الاصابة هو الذي يؤدي إلى عدم وصول الأشعة فوق البنفسجية إلى الخلايا الصبغية الموجودة في منطقة الاصابة ، مما يؤدي إلى نقص الصباغ أو عدم تكوينها ومن ثم ظهور منطقة الإصابة باللون الابيض .

ويلاحظ بأن هذا المرض غير مصاحب بأي أعراض ، لكن قد تصاحب الحالة حكة أو حرقة بسيطة وهذا أمر نادر .

أما عن مكان الاصابة فنجد أن ٧٥ ٪ من الحالات تظهر في الوجه ، خصوصا حول الفم والأنف والخد ، والذقن ، والجبهة وأن ١٥ ٪ من الحالات تظهر الاصابة في الرقبة والذراع والكتف لاسيما عند السيدات ، وأن ١٠ ٪ من الحالات تظهر الاصابة في عدة أماكن من الجسم كالجذع والاليتين ، وفروة الرأس والفخذ ، والظهر ، وأنه في حالات نادرة قد تكون الاصابة متعددة وكثيرة حيث تغطي معظم أجزاء الجسم .

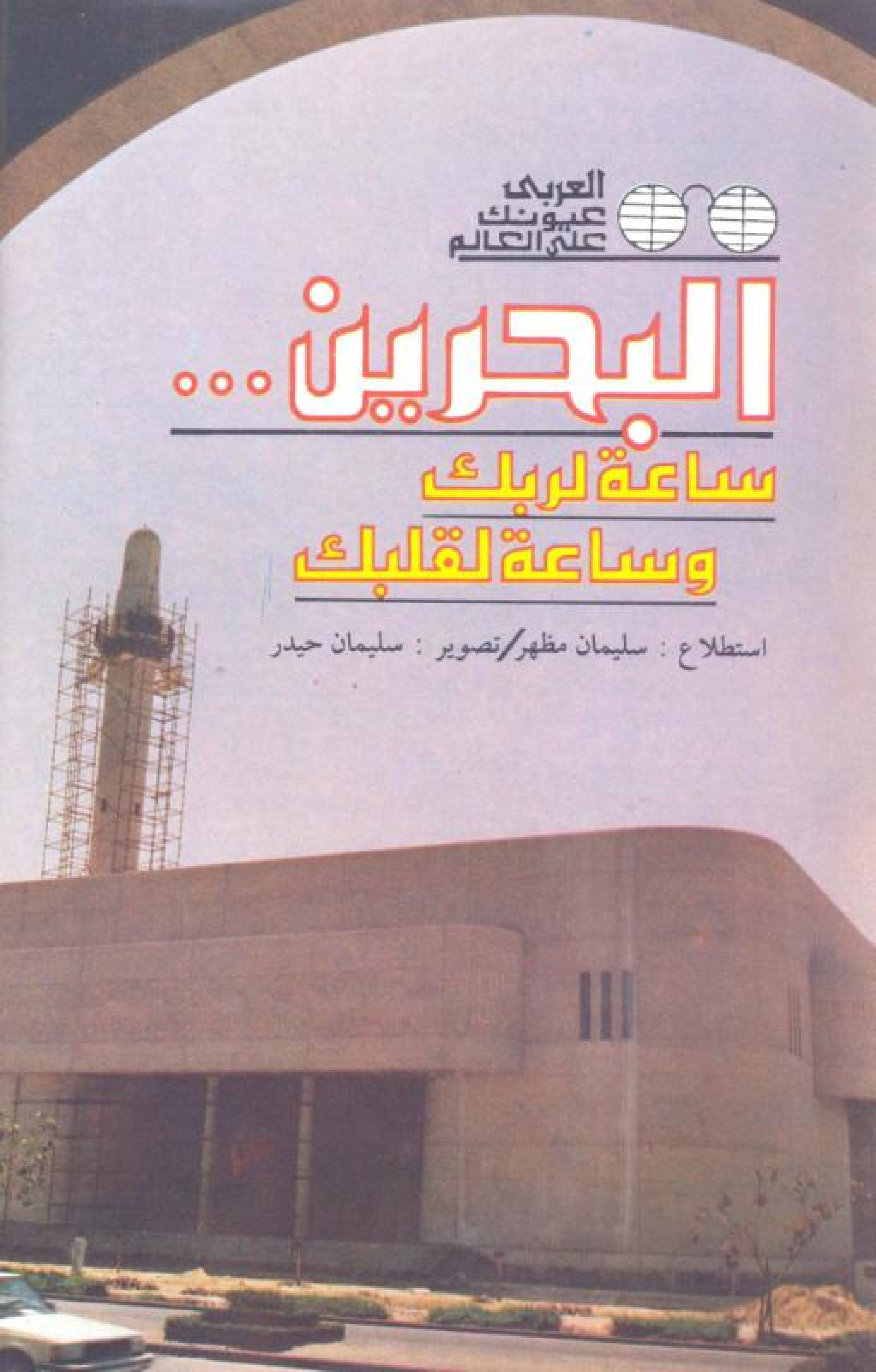
ويلاحظ بأن الاصابة قد تستمر عدة سنوات ، لكنها قد تتحسن أو قد تختفي حتى دون علاج وذلك عند سن البلوغ ، ويفسر ذلك بزيادة إفراز الغدد الدهنية ، ففي هذه المرحلة من العمر ترتفع نسبة هرمون الاندروجين ، وهو الهرمون المذكر الذي يؤدي إلى زيادة في حجم الغدد الدهنية وإفرازها .

العلاج

لا يوجد علاج حاسم وسريع لمرض النخالة البيضاء ، لأن سبب المرض مجهول ، والعلاج المستعمل علاج للأعراض ، فمعظم الأدوية التي تستعمل تؤدي إلى تحسن الحالة ، لكن بعد مرور عدة أسابيع قد يعود المرض من جديد . هناك دراسات وأبحاث عديدة للكشف عن العلاج الناجع ، لكن مع هذا لا يوجد إلى الآن علاج مثالي لهذا المرض ، والأدوية التي تستعمل في العلاج تحتوي على مواد مرطبة للجلد ، وقد تستعمل بعض مشتقات الكورتيزون ، أو حامض السليسليك والكبريت للعلاج،وقد يعطى المريض بعض الأدوية التي تحتوي على الفيتامينات ، مع الأخذ بعين الاعتبار نسبة كمية ونوعية الطعام ، حيث أن سوء التغذية قد يساعد على تدهور الحالة ، وينصح المريض بعدم التعرض للشمس .

بعض الباحثين يرون أن الحالة قد تتحسن باستعمال المراهم الموضعية التي تحتوي على مركبات الزنك ، والزئبق ، بينما يرى آخرون أن استعمال الأدوية الموضعية التي تحتوي على المضادات الحيوية قد يساعد في تحسن بعض الحالات . □

■ إن ابني لايستطيع أن يحل محلي ، وأنا نفسي لا أستطيع أن استبدل مكاني ، إني مخلوق الظروف !. (نابليون)



العربي عيونك على العالم

البحرين...

ساعة لربك وساعة لقلبك

استطلاع : سليمان مظهر/تصوير : سليمان حيدر





● بيت القرآن وقد زينت واجهته بآيات من كتاب الله .. ونموذجان من المصاحف والمخطوطات القرآنية التي يضمها متحف الحياة.

إذا أردت أن تلتقي بالدين والـدنيا في آن معـاً . . وتستظل بـالنفحة الروحانيـة والراحـة الاجتماعيـة . . وتسعد بقضـاء ساعـة لربـك وساعـة لقلبك .. وتتنقل بين آفاق رحبة مع آيات الله ، وشفافيـة الروح ، ومتعـة النفس ، وفـوح العـطر . . فـاذهب الى أرض الخلـود . . حيـث جنـة « دلمون » . . و « بيت القرآن » .

حين تطل من الطائرة وتدور بعينيك لتشهد جزر الأرخبيل المتناثرة ، وقلبها الكبير في جزيرة البحرين .. وحين تتابع الجسر الكبير الممتد ليربطها بالأرض الأم .. ستجد نفسك وقد عدت بذاكرتك الى الوراء لأكثر من خمسة عشر قرناً ، حين انطلق العلاء بن الحضرمي في المحرم من العام السابع الهجري من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة ، في أول عبور إسلامي على صفحة مياه الخليج لينزل على سواحل البحرين . كان العلاء يحمل كتاب رسول الله ﷺ الى المنذر بن ساوي أمير البحرين يدعوه الى الاسلام ويقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوي .. سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فإني أدعوك الى الاسلام . فاسلم تسلم ، يجعل الله لك ما تحت يدك . واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر » .

ستذكر تلك الرسالة الشريفة وتتابع الصحابي الجليل وهو يعبر مياه الخليج مرة أخرى ـ حيث أقيم الجسر الآن ـ حاملا الرسالة النبوية الثانية الى ابن ساوي الذي أسلم وحسن إسلامه . وقد أعطت الرسالة لسفير النبي صلاحية التفقيه في أمور الدين واتخاذ القرارات المرتبطة بالجزية والتعامل اليومي بين أهل البحرين الذي أخذوا يدخلون في دين الله أفواجاً . وكانت تلك أولى خطوات إقامة أول مسجد لله في أرض خارج شبه الجزيرة العربية ، يعتقد أنه على الساحة التي بني عليها بعد ذلك مسجد الخميس في البحرين ، حيث ارتفع من فوقها نداء الاسلام ، وانطلق صوت العلاء بن الحضرمي يتلو على أهل البحرين آيات الله البينات ...

على هذه الأرض الطيبة .. كان أول لقائنا مع المنطلق القرآني الشريف .. مع « بيت القرآن » .

مرتكز حضاري :

« بيت القرآن » ليس متحفاً للآثار ، ولا معرضاً للمخطوطات ، ولا مركزاً للثقافة والتراث ، ولا داراً لنفائس الكتاب الكريم ، ولا مدرسة للتحفيظ والترتيل ، ولا ملتقى لعلوم الدين والتفسير ، ولا مجمعاً لفنون الطباعة والخط والزخرفة والتذهيب ..

إنما هو كل ذلك معاً .. صرح عمراني فني ، ومزار ديني تاريخي ، ومرتكز حضاري إسلامي .

ولقيام هذا الصرح في البحرين قصة نبدأ متابعتها في المتحف الوطني بالكويت . فقد استقبلت دار الآثار الاسلامية مجموعة من النفائس القرآنية من مقتنيات بيت القرآن التي لم تكن قد عرضت بعد ، فكان أول عرضها في هذه الدار على مدى شهر كامل في القاعة الكبرى تحت اسم « معرض نفائس المخطوطات القرآنية لبيت القرآن » . كانت المقتنيات تضم مائة مخطوط نادر تمثل العصور الاسلامية المختلفة ابتداء من العصر الأول الهجري ، ومن مختلف أقطار العالم الاسلامي . كان واضحاً عند استعراضنا للمخطوطات أنها تمثل حركة التطور الفني الزمني والتاريخي لمراحل الخط العربي المستخدم في كتابة القرآن الكريم ، وبراعة الفنان المسلم في استخدام هذا الخط بأنواعه . كان المعرض فرصة للتعريف ببيت القرآن كمركز اسلامي ثقافي عالمي يشيد في البحرين ، من تبرعات أهل الخير والبر في الأقطار العربية والاسلامية .. كما كان فرصة للتعرف على جزء مما يضمه « متحف الحياة » في هذا المشروع الاسلامي الكبير ، باعتبار أن بيت القرآن يضم متحفاً قرآنياً متكاملا يسمى « متحف الحياة » لارتباطه بحياة الانسان المسلم ...

ذلك هو ما عبرت عنه مديرة دار الآثار الاسلامية الشيخة حصة صباح السالم وهي تقول : « لا شك أنه مما يبعث على الاعتزاز أن تتلقى هذه المجموعة القيمة من المصاحف الكريمة من بيت القرآن بهدف عرضها وجعلها في متناول الباحثين والدارسين في علوم القرآن الشريف وعلوم اللغة العربية . وان استضافة نفائس كريمة من المخطوطات الدينية من هذه المقتنيات لعرضها بين جنبات دار الآثار الاسلامية بالكويت ليزيدنا تشريفاً وتكريماً واعتزازاً ، وذلك لاختياره موقعاً تعرض فيه هذه المخطوطات الشريفة للمرة الأولى وقبل عرضها في بيت القرآن نفسه » .

وإذن فلتكن زيارة لبيت القرآن كمركز إسلامي عالمي رائد .. يشيد في منطقة متميزة على ضفاف الخليج العربي ...

في بيت القرآن :

وننطلق الى المنامة .. عاصمة البحرين .. لؤلؤة الخليج ، وفي منطقة القلب منها ، تقف أمام « بيت

القرآن » .

البناء عبارة عن صرح معماري خرساني شاهق ، أقيم على مساحة واسعة من الأرض أمر بتخصيصها أمير دولة البحرين في موقع ممتاز في أجمل بقعة بالمنطقة الدبلوماسية حيث الوزارات والفنادق والسفارات .

على الواجهة الخارجية إفريز بارز بعرض البناء ، زين بآيات من كتاب الله ، محفورة بالخط الكوفي في وحدة فنية رائعة ، أساسها البساطة والزخرفة الجمالية الحادقة ، تظهر كلوحات جدارية تكشف عن أسلوب معماري فريد متميز ، قوامه الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن ليلة النزول وأول ما أنزل ، بالاضافة الى آيات شاملة عبرت عن جلال القرآن ومكانته ، واستكملت بأسماء الله الحسنى . .

متحف الحيـــاة :

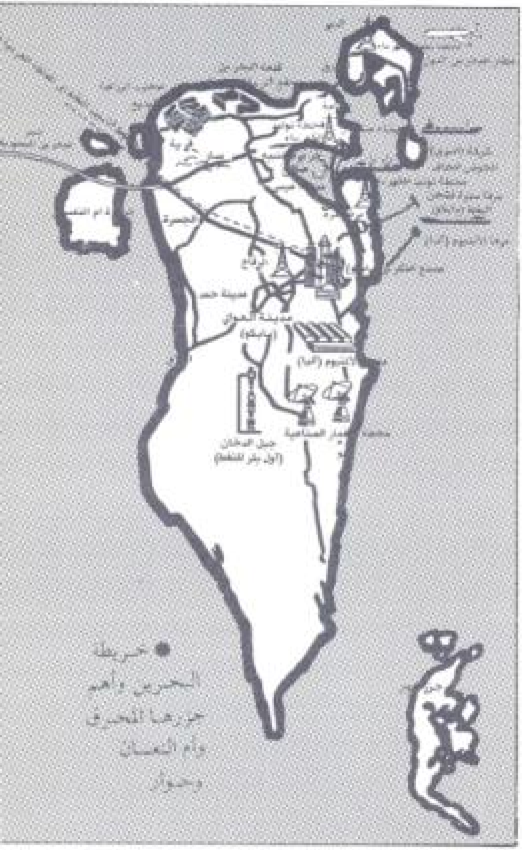
المدخل الرئيسي مفتوح على بهو واسع هو القاعة الرئيسية تتوسطها نافورة رائعة ، وإلى يسار القاعة أقيم مسجد ذو جدران دائرية تحيط بالصحن بغير أعمدة ، تعلوه قبة بلورية من الزجاج المعشق الملون غير القابل للكسر ، هذه القبة هي أكبر قبة من ذلك النوع في مساجد الشرق ، يتوسطها لفظ الجلالة ، وحول إفريز القبة الداخلي كتبت الآية الكريمة « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » .

القبة الرئيسية للبهو « خرسانية » تطل عليها مشربيات خشبية حيث توجد عشرون فتحة رباعية الشكل مغطاة بالبللور الملون لتعكس النور حسب الزخرفة الاسلامية ، تتخللها ست لوحات كبيرة لرؤساء مجلس التعاون الخليجي الذين أسهموا في التبرع لبيت القرآن .

الفكرة من وراء ذلك التعريف هي أن هذا البيت قد شارك في بنائه كل أهل الخير بما فيهم الرؤساء ، ولهذا فقد وضعت لوحة ضخمة على يسار المدخل الرئيسي سجلت عليها أسماء المتبرعين لإقامة هذا الصرح . أما الذين تبرعوا باسم فاعل خير أو فاعلة خير فقد سجل عددهم في آخر القائمة لتأكيد دورهم في المشروع ، بصرف النظر عن أسمائهم إذ آثروا ألا يذكروها عند تبرعهم .

عند الواجهة المقابلة للمسجد تبدأ قاعات « متحف الحياة » .

التسمية جديدة ، لكنها تعبر عن ارتباط المتحف



● خريطة البحرين وأهم جزرها المحرق وأم النعسان وحوار

بحياة الانسان والصلة الوثيقة بأعظم كتاب عرفته البشرية .

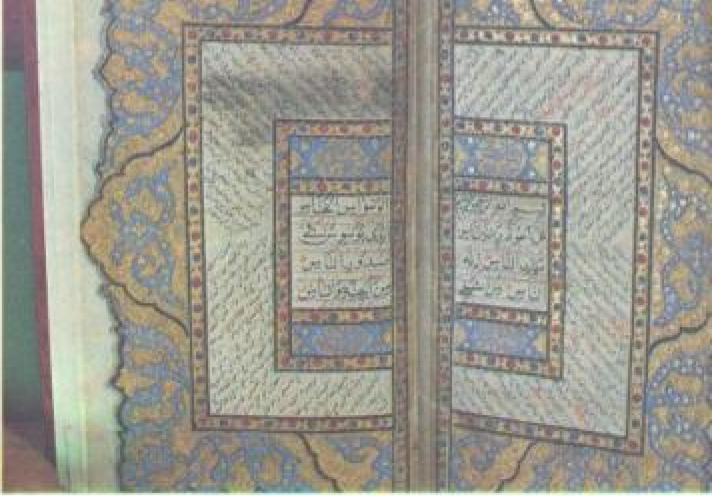
متحف الحياة حيث تعرض نفائس القرآن الكريم يضم ثماني قاعات واسعة كبيرة ، متصلة بممرات مائلة صممت بحيث ينتقل الزائر من قاعة لأخرى بيسر وسهولة واستمرارية دون انقطاع . وإذا كانت الصورة النهائية لما يعرض في هذه القاعات لم تستكمل بعد ـ حيث مازال التنفيذ مستمراً حتى تاريخ الافتتاح الرسمي في ديسمبر القادم ـ فلا بد لاستكمال معالم الصورة التي سيكون عليها متحف الحياة أن تمتزج أمام أبصارنا الصورتان الحاضرة والمستقبلية ، وهما تتلاحقان وتتداخلان مع كل خطوة نخطوها بين القاعات الثماني .

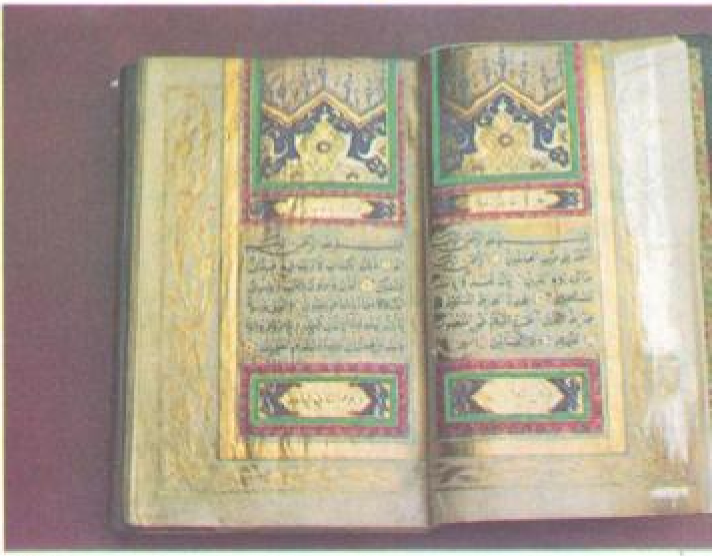
ونقف وسط القاعة الأولى متأملين ما حولنا . إنها مخصصة للعرض الدوري لما سيتلقاه بيت القرآن على





● صفحة من مصحف كريم مخطوط بالخط الكوفي المجود كتبت على الرق المصقول من القرن الثالث الهجري ، استعمل فيها التنقيط باللون الأحمر .. وإلى اليسار فاتحة الكتاب على ورق من القرن الثامن الهجري .







● صفحتان من مصحف كريم، كتب بخط النسخ (الصورة العليا) .. ويشتمل المخطوط على تحلية جمالية مكونة من إطار ذهبي مع ترجمة لمعاني الآيات باللغة الفارسية كتب باللون الاحمر من خطين بين سطور المخطوط .. وتبدو التحلية الجمالية المذهبة على الصفحتين المتقابلتين وقد استعملت فيها زخرفة على شكل أغصان أشجار كما استعمل اللون الازرق والاحمر والذهبي في أشكال هندسية متجانسة . أما الصورة الوسطى فلصفحتين متقابلتين لسورة الفاتحةوأول سورة البقرة وقد أدخلت التحلية الجمالية من خلال اطار محلي بالزخارف الذهبية بأوراق نباتية على خلفية زرقاء مع زخارف تحتل عنوان السورة في أعلى الصفحة وعدد الآيات في أسفلها .

فترات متتابعة من مقتنيات المتاحف العالمية من نفائس المخطوطات القرآنية وفق خطة عرض تحقق الاستمرارية . هنا يمكن التعرف على المخطوطات النادرة المتواجدة في مكتبات ومتاحف العالم ، ويستطيع الباحث والدارس الذي يصعب عليه الانتقال إليها في أماكنها المختلفة بأنحاء العالم ، أن يطلع عليها ويدرسها في بيت القرآن على ضفاف الخليج العربي .

وننتقل الى القاعة الثانية . هنا تعرض نماذج عديدة من المخطوطات القرآنية بأحجام ومقاسات متباينة . القاعة بمحتوياتها تعطي فكرة شاملة لمخطوطات القرآن الكريم من البلاد الاسلامية الشاسعة من الهند والشرق الآسيوي الى موريتانيا في المغرب الأفريقي والأندلس الاسلامية . فهي تضم نماذج من مختلف العصور التاريخية بالاضافة الى بعض المصاحف النادرة وبعض المصاحف التي خطت بأقلام المشاهير بالاضافة الى بعض الصفحات التي يعود تاريخها الى القرن الأول الهجري ، وتبدو بعض المصاحف الصغيرة المثمنة الأضلاع ولا تتعدى مساحة صفحتها سنتمترين ، كما أن بعضها كتب على شريط ملفوف من الورق عرضه عشرة سنتيمترات وطول المصحف كله ٢٥٠ سم .

القاعة الثالثة لمتحف الحياة خصصت لتاريخ القرآن منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، هنا تجد معلومات مبسطة عن تاريخ نزول القرآن وأسماء كتاب الوحي الأربعة والأربعين منهم الخلفاء الأربعة والزبير بن العوام وخالد بن سعيد بن العاص ويزيد ومعاوية ابني أبي سفيان وزيد بن ثابت وعمرو بن العاص ، ومن بين المعلومات المعروضة ، كيف تم الجمع الأول للقرآن في عهد الرسول . فنعرف أن النبي كان يجمع نفرا من الصحابة لكتابة وتدوين ما أنزل عليه من الآيات ، ثم يدل كتاب الوحي لوضعها في موضعها الصحيح من سور القرآن .

ونعرف أن القرآن لم يجمع في مصحف موحد متكامل حسبما هو عليه الآن ، وإنما بقي محفوظا في القلوب ومسجلا على مواد الكتابة المعروفة آنذاك كسعف النخل واللخاف من الحجر الرقيق وعظام الأكتاف والأضلاع والرقاع وقطع الأديم .

وتتحدث المعلومات عن الجمع الثاني في عهد الخليفة الصديق أبي بكر ، بعد استشهاد عدد من حفظة القرآن في حروب الردة ، ثم الجمع الثالث في عهد الخليفة عثمان بن عفان وأسماء الذين شاركوا من الصحابة في تدوينه ، حيث عهد الى زيد بن ثابت ومعه عبد الله بن الزبير وسعد بن العاص وعبد الرحمن الحارث بن هشام للقيام بجمع القرآن مستعينين بالصحف التي احتفظت بها أم المؤمنين حفصة بنت عمر .

هنا نتتبع كيف أن عثمان بن عفان اختار زيد بن ثابت لأنه كان من كتاب الوحي ، وشهد القراءة الأخيرة وكتبها وقرأها على النبي سنة وفاته ، وعرف ترتيب الآيات والسور في القرآن وكتب الصحف للخليفة الصديق . وكان عثمان يراجع ما يكتب أولاً بأول . وبعد الانتهاء من النسخ التي طوبقت بعضها ببعض أمر عثمان بإجماع الأمة أن تحرق جميع المخطوطات والصحف التي كانت لدى الصحابة ، ولم يبق إلا على الصحف التي أعادها إلى زوج النبي حفصة ، ثم أرسلت نسخة واحدة من المصحف بخط زيد بن ثابت الى كل مصر من الأمصار الاسلامية .

تطوير الخط القرآني :

يرتبط بتاريخ القرآن ما يعرض في القاعة الرابعة من متحف الحياة . . فهنا نجد المخطوطات التي كتبت على الرق من المدينة المنورة ومن العراق وشمال أفريقيا والأندلس ، وهي كلها توضح تطور الخط القرآني واستعمال النقاط الدالة على الاعراب . كما تعرض صفحات نادرة من الورق المستعمل لأول مرة لكتابة القرآن عليها .

سيلاحظ الزائر المراحل العديدة التي مرت بها كتابة المصحف الشريف ، وأهمها تطوير الخط العربي وتجويده . كما يجد أن المواد التي استعملت في كتابة القرآن قد تغيرت وتطورت في الأبجدية والهجاء ، وأدخل التنقيط لفك إعجام الأحرف العربية ، كما أدخل الإعراب النحوي على كلمات القرآن الكريم من أجل تسهيل عملية القراءة السليمة والنطق الصحيح بالنسبة للمسلمين الأعاجم الذين دخلوا الاسلام وكانوا يحتاجون الى أن يرتلوه بلغة سليمة .

ومن المراحل المهمة التي مرت بها كتابة القرآن إدخال

التحلية الجمالية حيث تفنن في صناعتها الخطاطون المسلمون عبر الزمان .

من ملاحظة المخطوطات والزخرفة الجمالية في المصحف كما تتبعناها في القاعة الخامسة مع الدكتور عبد اللطيف كانو ، الذي بذل جهداً رائداً في جمعها من مختلف أنحاء العالم وجعلها نواة لبيت القرآن ، نعرف أن مصاحف عثمان كانت عادية بسيطة لم تدخل عليها الصنعة المجودة ولا الفن المطور ، وإنما كتبت بمداد أسود بغير ألوان ولا زخرفة ولا إعجام ، وقد استعمل الخط المدني البسيط المجرد في كتابتها على صفحات من الورق المصقول ، وكتبت الآيات الكريمة على وجهي الصفحة ، كما تركت الحواشي الفراغية من أطراف الصفحة خالية .

ومن استعراض المصاحف في القرن الأول الهجري نجد أنها كتبت بأنواع عديدة من الخط الكوفي وباللون الأسود ، ثم أدخلت عليها نقاط الإعجام بالألوان المختلفة منها الأحمر والأصفر والأخضر . وكانت الزخرفة الجمالية محدودة في المصاحف العادية ، وقد استعملت الدوائر والمربعات الصغيرة بزخارف جمالية منوعة وبألوان مختلفة للفصل بين الآيات ، كما استعملت المستطيلات الزخرفية البسيطة بالألوان والتذهيب في بداية السور ، وأدخلت بعض الدوائر الصغيرة المكررة أو المستطيلات المحلاة في آخر سطر من السور لملء الفراغ بين آخر كلمة من السطر والهامش قبل بدء السورة الجديدة . وكذلك أدخلت بعض الأشكال الهندسية البسيطة في حواشي الهامش لبعض المصاحف المرتبطة بهذه الفترة .

المصاحف المملوكية :

على أن أجل ما شاهدناه من مخطوطات ومصاحف العصر العباسي ، هو تلك الزخرفة الجمالية التي زخرت بها الصفحات والأغلفة . فقد برز التزويق الذهبي الذي زينت به صفحات من القرآن الكريم ، كما بدت جمالية التنسيق في الكتابة والحواشي والاخراج المبدع الميسر للصفحات القرآنية والتجليد المتميز الفاخر . وتبدو الصفحات الأولى والأخيرة من المصاحف مزينة بأنواع مختلفة من الألوان الزاهية الجميلة ، كما ظهرت التحلية الذهبية والزخارف في الهامش أحياناً على شكل دوائر أو مشتركة مع النصوص الكتابية . وجودت المصاحف بفواصل مزخرفة للآيات وفواتح السور ، كما أدخلت الزخارف الملونة على أطراف الكتابة في الحواشي . ومن العناصر الأساسية في هذه الزخرفة استعمال الوحدات الهندسية المكونة من الدوائر المتجانسة والمتجاورة والخطوط المتكسرة والمتشابكة بالاضافة الى الأشكال الهندسية المكونة من المثلثات والمربعات والمخمسات والمسدسات . كما استعملت النجوم المختلفة والأشكال والزخارف النباتية .

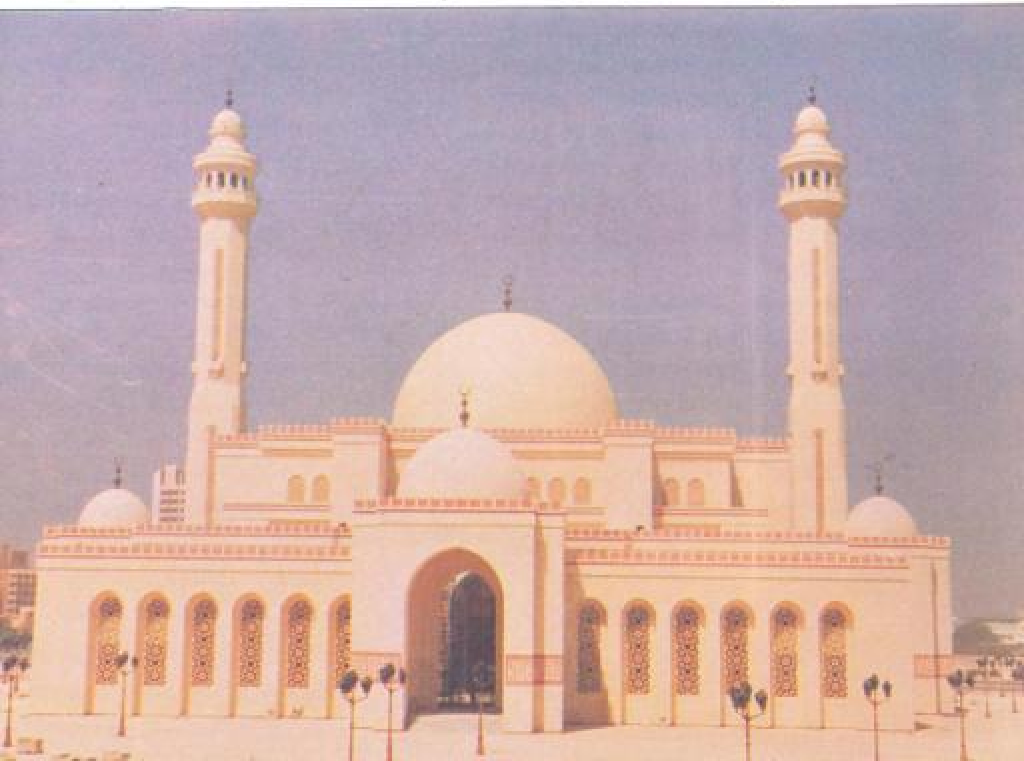
من أبرز المصاحف التي تعرض في قاعة الزخارف الجمالية مصاحف مملوكية مكتوبة بخط النسخ الكبير الواضح ذي الزخرفة الفنية والهندسية والوحدات النباتية . والأشكال الزخرفية ملونة بالألوان الزرقاء المنسجمة مع الألوان الأخرى المموهة بالذهب . كما شهدنا مصاحف مكتوبة كلها بماء الذهب ، بينما تكون مصاحف أخرى من أسطر مختلفة الألوان ، تبدأ الصفحة بسطر كتب باللون الأزرق يليه سطر كتب بماء الذهب ويليهما سطر كتب باللون الأحمر . ثم تكرر العملية الثلاثية من الأسطر الى أن تنتهي الصفحة . بعض صفحات المخطوطات المملوكية تبدأ وتنتهي بخط كبير جداً ثم تكتب بقية أسطر الصفحة بالخط المعتاد .

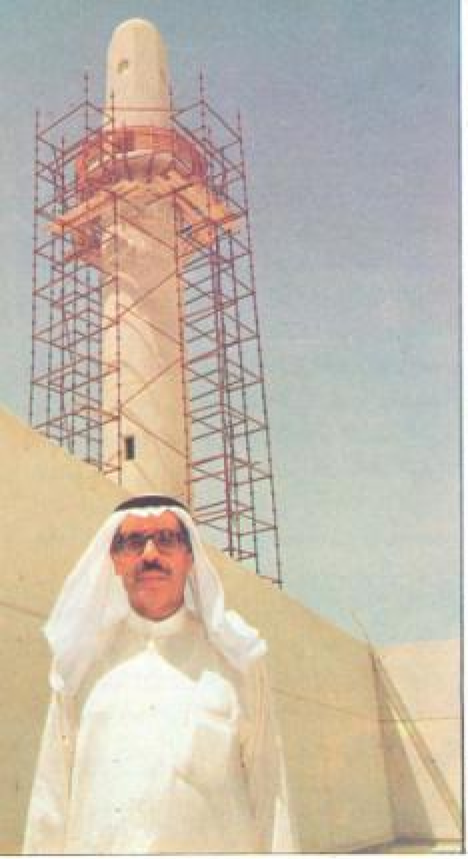
وننتقل الى القاعة السادسة فنجدها محجوزة لعرض تراجم مختلفة لمعاني القرآن الكريم باللغات الأجنبية ، وتحتوي على أول تراجم لمعاني القرآن إلى بعض اللغات الأوروبية . أما القاعة السابعة فمخصصة لعرض نماذج مختلفة للقرآن الكريم المطبوع بعد أن أدخلت آلات الطباعة في البلاد الاسلامية وتاريخ الطباعة المرتبطة بالقرآن الكريم . وهنا توجد نماذج توضح تطور أسلوب طباعته ابتداء من الكتابة باليد والطباعة بالحجر حتى الطباعة بأحدث الأساليب التقنية .

أما القاعة الثامنة فعبارة عن قاعة جامعة شاملة لأدوات الكتابة المستعملة في كتابة القرآن الكريم على مر العصور . كما تعرض نماذج لمواد مختلفة كتبت عليها الآيات القرآنية ، بالاضافة الى لوحات من الفنون التشكيلية الحديثة المرتبطة بتشكيل متناسق معبر من الآيات القرآنية الكريمة .



● مصحف نادر من الحجم الصغير مزخرف بالتحلية الجمالية بالألوان المذهبة (أعلى) والصورة السفلى لمركز أحمد الفاتح والمسجد الكبير المرتكز الثاني للمثلث الحضاري .









● البهو الكبير لبيت القرآن في مرحلة التشييد الأخيرة بقاعته الرئيسية التي تتوسطها نافورة ، وتبدو شرفات الطابقين الثاني والثالث حيث تتواصل قاعات متحف الحياة .
(الصورة اليمنى أعلى) والى يسارها الدكتور كانو ومئذنة المسجد التي شيدت على نمط مئذنة مسجد الخميس .. أما الصورة التي الى اليمين فهي لمدخل جسر الملك فهد حيث شريان الحياة الجديد بين البحرين والسعودية .

حول المعروضات التي سيشهدها الزائر في القاعات الثلاث الأخيرة يقول الدكتور كاتو وهو يستعرضها معنا : ـ

« منذ إدخال فن التذهيب والزخرفة الجمالية فإن الصفحتين الأولى والثانية كانتا تخرجان في أجمل ثوب من زخرفة وفن وجمال . أما بدايات السور فتكون عادة داخل مستطيل محلي بأشكال هندسية رائعة ويترك فراغ في وسط هذا المستطيل ليكتب فيه اسم السورة بخط مختلف عن خط الكتابة المستعملة في المصحف . وفي حالات كثيرة من المصاحف نرى أواخر الصفحات محلاة ومذهبة ومزينة بالألوان والأشكال الهندسية . وترون هنا بعض المصاحف الهندية والفارسية وقد أدخلت الزخرفة الجمالية على الصفحتين اللتين تحتويان على بداية سورة الإسراء . كما أن بعض الزخارف مرتبطة في بعض المصاحف بالأجزاء الثلاثين . فكل جزء منها محلى بأجمل أنواع الزخرفة في حواشي كل جزء » .

مبنى بيت القرآن لا يقتصر على المسجد والبهو الكبير وقاعات الحياة فحسب . فحين نصعد الى الطابق الأعلى نجد أننا أمام مؤسسة علمية دينية ثقافية جمعت بين الدين والعلم والثقافة في مؤسسة واحدة ، شيدت لتكون ملتقى للدارسين والباحثين حتى تتوافر السبل والوسائل للبحث والاطلاع والمعرفة .

ففي هذا الطابق الأعلى نجد أنفسنا في قاعة المكتبة الاسلامية الجامعة ، وحولها فصول مدرسة لتحفيظ القرآن ، وقاعة للمؤتمرات والمحاضرات .

المكتبة يحفظ بها حوالي أربعين ألف مجلد بالاضافة الى الوثائق والمراجع الدينية ، وهي بثلاث لغات : العربية والانجليزية والفرنسية .

وأما المدرسة ستقام فيها حلقات المواعظ والارشاد للمسلمين في البلاد ، لتعريفهم بأمور الدنيا والدين وفق الأسس الاسلامية الصحيحة ، بالاضافة الى تحفيظ القرآن وتعليم الكبار والأطفال الصغار ترتيل القرآن وتجويده .

وأما قاعة المؤتمرات والمحاضرات فسيدعى لالقاء المحاضرات فيها والمشاركة في ندواتها والاسهام في مؤتمراتها ، أصحاب الفكر والرأي والعلم من مختلف أنحاء الوطن العربي والعالم الاسلامي . وتطل على المبنى كله مئذنة المسجد ، وقد أقيمت على هيئة منارتي مسجد الخميس ، تأكيداً لأصالة البحرين وعراقتها في عالم الاسلام . . وهو بعض ما قصد من إنشاء بيت القرآن .

تبرعات . . وأمل في المزيد :

ولكن . . لماذا بيت القرآن ، وما هي الفكرة وراء إنشائه ؟

ونسمع الاجابة :

اهتم المسلمون على مختلف العصور بالمصحف الشريف ، وكانت طريقة كتابته وزخرفته وتجليده تدل على روعة ما أبدعه الفنانون المسلمون وما حققوه من إنجاز في فنون الزخرفة الجمالية والخط العربي . من بين هذه الانجازات مصاحف كتبت بخطوط مجودة وجلدت بدقة وإبداع ، حقق بعضها الرقم القياسي في كبر الحجم ، وبعضها في صغره . هذه الكنوز الأثرية التي تجمعت عبر القرون وكتبت بخط أعظم الخطاطين وزخرفت بأزهى ما يمكن إبداعه من ألوان الزخرفة ، كانت عرضة لعوامل الزمن وسوء الحفظ ورداءة التخزين ، وتآكل بعضها وبليت صفحاتها وبهتت طباعتها ، كما تناثر ما بقي منها بين متاحف العالم ودور الفنون وبعض البيوتات القديمة والمكتبات الخاصة . ومن أجل الحفاظ عليها وإحياء مخطوطاتها وجمعها وحصرها ، كان لا بد من إعداد المكان اللائق المناسب القريب من الناس لعرض هذه المصاحف التي حاولنا تتبعها في أماكن تواجدها واستطعنا أن نقتني الكثير منها .

من هنا كان مشروع إنشاء بيت القرآن ليكون متحفا لعرض نفائس المخطوطات القرآنية وقاعدة للبحث والدراسة . وهو في ذلك يختلف شكلاً ومضموناً عن دور الحكمة ومراكز العلم والتجمعات الحضارية المماثلة ، لمعاصرته الحضارية الحديثة ومتطلباتها وإفرازاتها العلمية ، مع محافظته فكراً وروحاً على نتاج المجتمعات الاسلامية بمختلف عصورها .

ونسأل عن التكاليف ، وقيمة التبرعات ، ونسمع الجواب :

بيت القرآن مشروع أهلي خيري يقوم تنفيذه على التبرعات من أهل الخير والبر والهيئات والمؤسسات في الأقطار العربية والاسلامية . التكاليف الاجمالية

بلغت حوالي ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف دينار بحريني ، ما زال متبقياً منها ربع مليون دينار لاستكمال المرحلة الأخيرة من الانشاءات وأجهزة العرض ، بعد أن أصبح البيت حقيقة واقعة يقوم على إدارته مجلس أمناء يضم عدداً من الشخصيات الاسلامية المعروفة . ويجري افتتاح بيت القرآن رسمياً في ديسمبر من العام الحالي .

من أجل استكمال جمع المبالغ المتبقية أصدرت اللجنة التنفيذية شهادات ذهبية تقدم للمتبرع بمبلغ ألف دينار ، وأخرى فضية للمتبرع بخمسمائة دينار ، وتقديرية لمن يتبرع بمائتين وخمسين ديناراً .

وليس أروع من أن نقرأ بعض نماذج الرسائل التي تحمل تبرعات أخرى مهما قلت قيمتها ، من بين هذه النماذج رسالة من طالبة في الصف الثالث الابتدائي بالبحرين تقول فيها : « أنا طفلة أبلغ من العمر ثماني سنوات ، أتبرع بهذا المبلغ من مصروفي وأرجو أن تقبلوه مني رغم معرفتي أنه أقل من القليل » . ونموذج آخر من بنات مدرسة في سلطنة عمان يقول : « يسرنا أن نقدم هذا المبلغ البسيط مشاركة منا في بناء بيت القرآن ، حتى ولو كان اسهامنا يكفي لحجر واحد أو حجرين » . ونموذج ثالث من فنانة تشكيلية من القاهرة : « أتشرف بأن أهدي بيت القرآن لوحة من أعمالي تكون رمزاً لعظمة حضارتنا الاسلامية ، وإني على استعداد لإقامة معرض كامل لأعمالي في هذا المشروع العظيم يخصص إيراده لبيت القرآن » .

أما النموذج الرابع فهي رسالة تقول « أتقدم اليكم برسالتي هذه نيابة عن ابنتي البالغة من العمر أربع سنوات . فقد كانت تسمع حديثي مع والدتها عن بيت القرآن . فقامت وأحضرت كل ما كان مدخراً في حصالتها وأعطته لي لاهدائه للمشروع » .

مثلث حضـــــاري :

العلاقة بين الدين والدنيا وثيقة لا انفصام لها ، وحياة الانسان على هذه الأرض دين ودنيا .. ساعة منها لربه وساعة لقلبه .

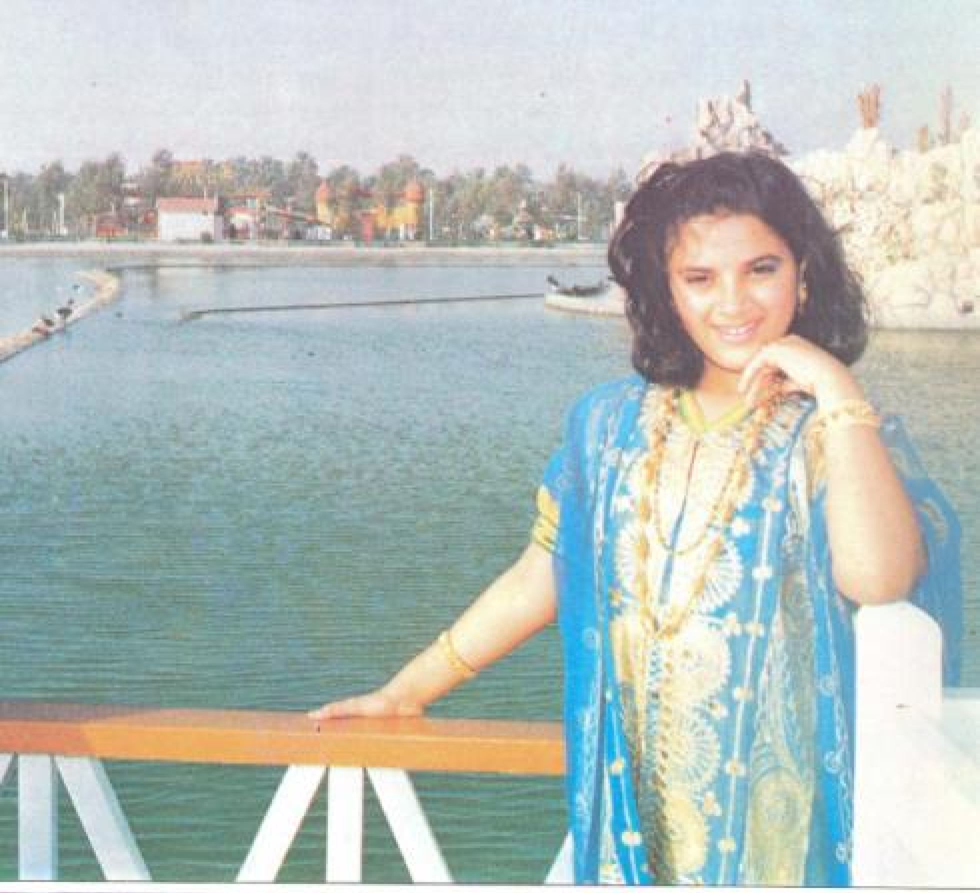
وهنا في البحرين لن تجد صعوبة في مواصلة الحياة ديناً ودنيا .. تسبح في آفاق روحانية رحبة ، تماماً كما تنعم بمتعة النفس وإشراقة الحياة . لهذا لم نحس غرابة ونحن ننتقل في جولتنا من بيت القرآن لنخوض في معالم السياحة بين حنايا جنة دلمون .... !

بدأنا طريقنا من رأس المثلث الحضاري في بيت القرآن الى المرتكزين الآخرين حيث مركز أحمد الفاتح والمتحف الوطني الكبير . فالرؤوس الثلاثة تجمع بين الأصالة والمعاصرة ، وتشكل وجهاً مشرقاً تطل منه البحرين بحضارتها وتاريخها وتطلعاتها ومستقبلها ، وإذا كان بيت القرآن مرتكزاً رائداً بفكرته الحضارية المتقدمة ، فعلى رأس المرتكز الثاني يقع مركز أحمد الفاتح في منطقة الجفير على مساحة تبلغ حوالي ٢٠ ألف متر مربع . المركز يضم مسجد الدولة الكبير الذي يستوعب حوالي سبعة آلاف من المصلين رجالا ونساء . وهو تحفة معمارية على النمط التقليدي استخدمت في إنشائه كل وسائل التقنية الحديثة ، كما يضم بين أنحائه معهداً دينيا ومكتبة إسلامية جامعة وسكناً داخليا للدارسين وعدداً كبيراً من قاعات الدرس .

أما المركز الثالث فيقوم عليه المتحف الوطني الجديد الذي يتم افتتاحه في أواخر هذا العام . وقد روعي في تصميمه أن يكون داراً حضارية على مستوى متميز من التقدم العلمي والفني والثقافي ، ليصبح منارة للتاريخ والآثار على أحدث طراز . وهو يتكون من قاعات عديدة لعرض ما تزخر به البحرين من آثار ومعالم ووثائق ومستندات تاريخية منذ التاريخ الدلموني الى الحضارة الاسلامية . وتم تجهيز المتحف لعرض نماذج متعددة للمراكب الشراعية في بحيرة أعدت خصيصا لهذا الغرض ، بالاضافة الى إبراز الفنون والتقاليد في الماضي والحاضر ليتعرف أبناء البحرين وزوارها على معالم الحياة الاجتماعية وكيف تجري مسيرة الانسان على هذه الأرض الطيبة في حياة كل يوم .

وننطلق مع دنيا الناس بين مجالي البحرين .. في بدايات عصر ما بعد الجسر .

وهل أروع من عصر تحققت معه وحدة حقيقية تنفيذية إيجابية راسخة توثق الصلة بين قطرين عربيين ؟ أليس هذا ما فعله جسر الملك فهد الذي أقام طريقاً بريا صلباً بين جزيرة البحرين وأرض السعودية الأم ، والذي يحتفل بعد شهرين بعيد ميلاده الأول ؟ .





● مقومات السياحة العائلية متعددة الجوانب ، والمدن الترفيهية منتشرة في الحدائق .. خضرة وماء وجمال .. ومعالم تاريخية أبرزها منارتا مسجد الخميس .. ومحمية العرين .. حيث رعاية الحيوانات النادرة التي كادت تندثر من الصحراء وأصبحت تعاني من خطر الانقراض .







الحديث عن الجسر وقيامه وأهدافه ليس جديداً[1] ، لكن المهم الآن هو أن جسر الأمل والحياة الممتد مسافة ٢٥كم استطاع أن يتعدى أكثر التوقعات تفاؤلاً للدعم الاقتصادي والتنمية الاجتماعية الى جانب العمل على ازدهار الحركة السياحية في البحرين . وبمنطق الأرقام نجد أن أكثر من أربعة ملايين شخص قد زاروا البحرين على مدى عشرة شهور منذ أول ديسمبر الماضي مع تشغيل الجسر ، بما في ذلك أفواج السياح من دول مجلس التعاون . ويكفي أن نشير الى بعض الأمثلة من إحصائيات إدارة الهجرة والجوازات في البحرين . فقد سجل شهر يناير أعلى نسبة عبور إذ بلغ عدد العابرين من الاتجاهين ٥٤١١٦٦ شخصاً . وبلغ عدد السعوديين والكويتيين والبحرينيين الذين عبروا الجسر خلال شهور يناير وفبراير ومارس وابريل ١،٧٤٠،٢٢٣ شخصاً ، كما بلغ عددهم في ابريل وحده ٤٢١٨٤٢ شخصاً . وهكذا كان للجسر أثر كبير فيما تحقق من دعم تصب روافده في مصب الناتج المحلي والدخل القومي ، بالاضافة الى تعزيز مكانة البحرين حضارياً ، وتوثيق الصلات بينها وبين باقي دول مجلس التعاون ، بل بينها وبين دول العالم براً ، كل ذلك يضاف الى ما حققه الجسر من تنشيط الحركة السياحية والتعرف على معالم البحرين وتاريخها بين الماضي والحاضر .

وزير الاعلام والسياحة العائلية :

قبل أن ندور بين المعالم السياحية ونتعرف على مشروعاتها المستقبلية نلتقي وزير الاعلام السيد طارق المؤيد ، ونسمع منه الكثير . . .

تتجه اهتماماتنا في الحقيقة الى تنمية السياحة الخليجية ، لأننا نعرف أن أكبر ما تملكه البحرين هو محبة أبناء الخليج ، وقد لاحظنا بصفة خاصة بعد افتتاح الجسر أن هذا النوع من السياحة يتجه في الاتجاه الصحيح ، وهو السياحة العائلية ، وهو ما كنا نطمح اليه منذ بدأنا التفكير في التنشيط السياحي . لقد أثبتت الأيام أن الكثيرين ممن يأتون الى البحرين يحبذون أن ترافقهم عائلاتهم وأطفالهم ليتمتعوا بالمرافق السياحية التي أقيمت ، سواء لأهالي البحرين أو للقادمين من أبناء الخليج ، ومنها الحدائق العامة وملاعب الأطفال والحدائق الترفيهية . ونحن نرحب بذلك لأننا نعتقد بأن السياحة لها مردود سياسي على المدى البعيد ، فهي تقرب بين أبناء المنطقة وتزيد تلاحمهم وتقوي رغبتهم في المحافظة على المكتسبات الأمنية والاقتصادية والاجتماعية .

سعينا كذلك للسياحة العائلية بنطلق من اهتمامنا بمجلس التعاون الخليجي ، فهو قوة سياسية وإرادة جماهيرية ، وتلاحم الدول يسبقه دائماً تلاحم الشعوب . . وحين يأتي الخليجي للزيارة أو السياحة ويجد الترحيب الكبير والاستعداد الفندقي الجيد ، ويتمتع بالأمن والاطمئنان ، ولا يجد أي معوقات أو منغصات تتعلق بالعادات والتقاليد الخليجية ، فلا شك أن ذلك سيكون عاملاً مشجعاً على مزيد من التلاحم بين أبناء المنطقة .

إننا نتمنى أن تكون هناك مشاريع سياحية مشتركة بين البحرين والرأسمال العربي والخليجي . ولدينا عدد من الطلبات لانشاء بعض المرافق السياحية تدرسها إدارة السياحة ، وهي كلها تستهدف استمرار تدفق إخواننا أبناء الخليج للبحرين في العطلات الرسمية والأعياد القومية . وتجري دراسة أخرى لاقرار أسعار مخفضة خلال تلك الأعياد .

وإذا كان لنا انتقاد فإنه لشركات الطيران التي لم تواكب الرغبة الشعبية والقيادية من أجل مزيد من التلاحم ، فأسعار التذاكر ما زالت مرتفعة وعدد الرحلات لا يتناسب مع الرغبة في زيادة عدد الزائرين ، ونعتقد أن تفكير الشركات من منطلق تجاري بحت لم يكن موفقاً ، لأن الأيام أثبتت بعد افتتاح الجسر أن هناك رغبة كبيرة في زيارة البحرين ، على سبيل المثال من المنطقة الشرقية في السعودية ومن الكويت ، وتجاوزت الأرقام عشرات الآلاف . وفي الأعياد الرسمية أصبحنا نتكلم عن عشرين و ٣٠ ألفاً ، جاء الى البحرين في عيد الفطر حوالي ٦٠ ألف زائر ، هذه الأعداد كان يمكن الوصول الى أضعافها لو تدنت الأسعار وخصصت ترتيبات خاصة . وأنا أعتقد باستمرار أنه إذا زادت الرحلات الجوية وقلت الأسعار فسيزداد عدد الركاب بما يعوض شركات الطيران .

---

(١) راجع عدد العربي ٣٣٧ ديسمبر ١٩٨٦ استطلاع « البحرين بين أصالة الأمس واشراقة الغد » .



وزير الاعلام السيد طارق عبد الرحمن المؤيد .

إننا نعمل للتوسع في مرافق التنشيط السياحي ، وإن كنا في الواقع نقيمها لأبناء البحرين أولاً .. وعلى سبيل المثال فحين يفتتح المتحف الوطني قريباً فسوف يكون أكبر مرفق سياحي لأبناء الخليج الذين يهمهم أن يتعرفوا على التراث والتاريخ والحضارة في منطقتهم . كذلك بالنسبة لمركز التراث فأبناء الخليج يزورونه لأنه من صميم المجتمع الخليجي ومن صميم العادات والتقاليد والربط بين الماضي والحاضر .. وهو نفس الشيء بالنسبة لترميم القلاع والآثار الأخرى مثل مسجد الخميس ، ولأن المرافق السياحية تعتمد أساساً على تشجيع أبناء الخليج فإننا نشجع أبناءنا على العمل في هذا المجال .

ومركز التدريب الفندقي تسعى من خلاله الى أن تتحول جميع المرافق السياحية إلى مرافق تديرها أياد بحرينية ، حيث أقيم المركز نتيجة لانتشار صناعة الفندقة ، وقيام عدد كبير من الفنادق في البحرين ، وحاجة هذه الكمية الى أعداد متزايدة من العاملين المتدربين تدريباً أكاديمياً وعلمياً على صناعة الفندقة .

بالاضافة الى ذلك فإننا نسعى الى أن تكون السياحة نفسها هدفاً ثقافياً واجتماعياً مثلما يكون لها هدف ومردود مادي . إن ما نسعى اليه هو استمرار عطاء المحبة بين أبناء البحرين وإخوانهم في المملكة والكويت وكل أقطار الخليج من خلال السياحة العائلية في هذا البلد المضياف .

إنجازات سياحية :

في كثير من الأحيان يستغرب بعضهم الحديث عن السياحة في البحرين ، ويقولون أنها لا تملك من مقومات السياحة إلا قلعتي عراد والبحرين ..

وقد نسي هؤلاء ـ وهو ما شهدناه بالفعل وأكده لنا أيضاً الشيخ راشد الخليفة مدير إدارة السياحة ـ أن مقومات السياحة متعددة في كثير من الجوانب التي يمكن تطويرها واستثمارها وتنويعها . وليس شرطاً وجود عشرات القلاع والمتاحف والأماكن الأثرية ، لكن الشرط هو أن تكون هناك عقول تتعمق وتستكشف وتستنهض وترصد إمكانيات البحرين السياحية وتسجلها من خلال مشاريع وأنظمة سياحية تصب روافدها في مصب الناتج المحلي والدخل القومي مادياً ، وتبرز مكانة البحرين وتعززها حضارياً بعد اتصال هذا البلد بباقي دول مجلس التعاون وباقي دول العالم براً عبر جسر الملك فهد .

وقد كان من الانجازات السياحية إنشاء المجلس الأعلى للسياحة سنة ١٩٨٥ برئاسة وزير الاعلام ، فكان من الركائز الأساسية للاهتمام بالسياحة وتطويرها من خلال رسم السياسات ووضع الخطوط العامة التي تنهض عليها ، وقد تم بالفعل تنفيذ مجموعة من الانجازات مثل تحديد أسعار الفنادق وإنهاء حرب الأسعار والضوابط التي اتخذت لتأجير الشقق المفروشة ... كما أن شركة المشاريع السياحية تواصل نشاطها لوضع الخطط التي تضمن التمويل اللازم عبر استقطاب المستثمرين لإقامة مشاريع سياحية ، وتقوم بتطوير المرافق المختلفة وزيادة الخدمات والمرافق المتاحة عملاً على تشجيع السياحة وتقديم أفضل الخدمات .

وهناك مشاريع سياحية عملاقة مثل مشروع ساحل السنابس الذي خطط له ليكون قريباً من المدينة . شاطيء السنابس يتسع بعد إنجازه لأكثر من ٣٥٠٠ شخص بخدماته المختلفة . وسيكون هناك شاطيء خاص للسياح الأجانب بينما الشاطيء الرئيسي سيكون للخليجيين والعرب حفاظاً على التقاليد والعادات وعلى التراث . الفكرة هنا أن الخليجيين الذين يتفقون معنا في العادات والتقاليد



● بيت سيادي .. بشكله المميز وزخرفته التي تؤكد أصالة الطابع الشعبي .. حيث غلفت الجدران بنوافذ خشبية في أعلاها نصف دائرة من الزجاج الملون .

يجدون المكان الذي يرتاحون فيه . أما الاجانب فلهم أيضاً مكانهم الذي يتمتعون فيه . وقد بدأ العمل فيه بالفعل ، وخلال عام من الآن سيكون شاطيء السنابس كامل التجهيز والاعداد .

بجانب هذا فقد تم تخطيط المنطقة كلها لإقامة مدن ترفيهية وخدمات أخرى تخدم السياحة ، من بين هذه الخدمات مشروع لتحويل ميناء المنامة القديم الى مركز سياحي بإنشاء بعض المطاعم المتخصصة ، وسيكون هناك سوق تباع فيه الصناعات التقليدية . وللاستفادة من هذا المرفأ الذي كان يستخدم للسفن والعبارات التي كانت تنقل الركاب بين البحرين والشاطيء السعودي ، وبعد إنشاء الجسر وتعطل أعمال العاملين على هذه السفن ، رؤى أن يعطوا مكاناً في هذا الموقع الجميل ويمنحوا خياماً كفرصة للعمل ، فيكون هناك رحلات بحرية للسياح والزوار ، والاستمتاع بالبحر وبسعر عادي جدا للاستمتاع بالرحلات والأكلات البحرية .

هناك مشروع آخر لإحياء عمليات صيد اللؤلؤ ، حيث ستوضع في مياه الخليج المقابل لهذه المنطقة قواقع ، وينزل الهواة لصيد اللؤلؤ كما كان يحدث في القديم . الفكرة من ذلك أن تكون عرضاً حياً واستمتاعاً لمن يحبون الغوص لكنهم بالطبع سيستخدمون الوسائل الحديثة ، وسيكون هناك سوق يضم الأشياء التقليدية كالحنة ودهن العود والذهب والحلوى المشهورة في البحرين . يضاف الى ذلك إنشاء مطاعم بحرية متخصصة على طول الشاطيء الممتد على شارع الملك فيصل بوسط المدينة ، كما يتم الاعداد لتنظيم جولات يومية منتظمة بحرية وبرية . وقد بدأت إدارة السياحة في عمل لافتات لتوجيه السياح وزوار الأماكن السياحية والتراثية الأثرية المختلفة ، كما تصدر إدارة السياحة قريباً مجلة سياحية جديدة تتحدث عن الأماكن السياحية والخدمات السياحية المختلفة .

قلاع وآثار :

لعل من أبرز ما يتجه اليه الاهتمام هو العمل بكل جد لترميم القلاع والبيوت الأثرية . على سبيل المثال

هناك لجنة فنية وعلمية تصل الى البحرين خلال هذا الشهر (أكتوبر) من هيئة الآثار المصرية برئاسة مدير عام الترميم المعماري لتحديد المواصفات الأثرية وكميات الأعمال المطلوبة لإعادة بناء وترميم قلعة البحرين التاريخية . ولن تقتصر أعمال اللجنة على الترميم فقط بل ستقوم أيضاً بإجراء حفائر وأبحاث داخل وخارج أرض القلعة للتعرف على الثقافات والحضارات التي مرت بالبحرين .

لكن ماذا عن هذه القلعة الأثرية التي يقصدها كل من يزور البحرين والتي جعلناها بداية لتحركنا لمشاهدة معالمها السياحية القديمة والجديدة ؟

قلعة البحرين تقع في الطرف الشمالي من الجزيرة على بعد ثلاثة أميال من مدينة المنامة ، وقد بنيت على أنقاض قلعة إسلامية من القرن السادس عشر بواسطة البرتغاليين عند احتلالهم البحرين ، وقد أقيمت على هضبة من الأرض تغطي مساحة أربعين هكتاراً تقريباً . ونطل الى مبنى القلعة الضخم بأبراجها الكبيرة والخندق الذي يحيط بها من جميع الجهات ، ونعرف أن المنقبين عثروا تحتها على آثار تكشف عن سبعة مستويات حضارية ، وبقايا مدن ازدهرت فيها حضارة دلمون قبل آلاف السنين . إحدى هذه المدن التي تقع تحت القلعة تتكون من بيوت صغيرة دمرها الملك سرجون الأكادي وقام بإحراقها عام ٢٣٠٠ ق.م . أما المدن الأخرى فتلقى الضوء على تاريخ البحرين القديم في العصور التالية . وتشمخ القلعة فوق الهضبة مطلة على البحر في منطقة مفتوحة وقد تناثرت الحدائق والبساتين الممتدة على الساحل يميناً ويساراً .

على أن قلعة البحرين ليست الأثر الكبير الوحيد في هذه المنطقة . فغير بعيد منها نقف عند لوحة مكتوب عليها « معبد برباز » . المعبد بني على ثلاث مراحل استغرقت حوالي ألف سنة ، أما عمره فيصل الى حوالي خمسة آلاف سنة . ومازال توجد فيه بقايا مذبحين لنحر القرابين التي تقدم للآلهة وهما مبنيان من الحجارة على شكل دائري . وفوق درج منحوت نصل الى المعبد العلوي الذي ينحدر حتى يصل الى النبع المقدس الذي ما زالت المياه تملؤه حتى اليوم . وقد عثر بين أطلال المعبد على أدوات نحاسية وأسلحة ومشبك ذهبي للشعر ورأس ثور من النحاس وكميات كبيرة من الفخار موجودة كلها الآن في المتحف الوطني

قلعـــة عـــراد :

أكثر القلاع الأثرية أهمية الآن هي قلعة عراد التي تقع بين شبه جزيرة المحرق ومدينة المحرق وتشرف على مضيقها . بناء هذه القلعة تاريخي قديم ، غير أن الهيكل الذي يقوم الآن والذي جرى ترميمه ليبدو في صورته الحالية يعود بناؤه الى العمانيين الذين شيدوه أثناء الاحتلال العماني القصير حوالي عام ١٨٠٠م .

وفي لقائنا مع الدكتورة الشيخة هيا آل خليفة الوكيل المساعد لوزارة الاعلام لشئون الآثار والتي قامت بالتنقيبات الأثرية الأخيرة لقلعة عراد قالت لنا : « ان القلعة لم تكن في الأصل قلعة عمانية ولكن العمانيين أقاموها داخل جدران قلعة برتغالية محكمة التشييد ذات جدران وحصون وزوايا تفصل بينها مسافة تحتوي على بعض المباني التي زالت اليوم . وكان البرتغاليون قد أقاموها على بقايا حصن بناه سكان الجزيرة حوالي ١٥٣٠م لحماية جزيرتهم ومياههم وسفن الصيد والتجارة التي كانت مصدر رزقهم . ويبدو أنها عندما أقيمت كان ذلك على أرض جزيرة صغيرة قرب جزيرة المحرق ، ولكنها أصبحت الآن جزءاً من هذه الجزيرة بعد أعمال الرديم التي ردمت الخليج الضيق الذي كان يفصلها .

الحديث مع الدكتورة هيا حول آثار البحرين وقلاعها دار معها حين التقيناها في مبنى المتحف الوطني القديم ، حيث شاهدنا بعض المعروضات التي عثر عليها من خلال عمليات التنقيب التي أسهمت فيها بجهد كبير ، وتشتمل على سكاكين ومكاشط يعود تاريخها الى ما قبل ٤٠ ألف سنة أي أواسط العصر الحجري . وكل ما بالمتحف من معروضات أثرية يلقى أضواء تكشف المراحل الثقافية من تاريخ دلمون وهو الاسم الذي عرفت به البحرين في العصور القديمة . فهناك أختام فخارية تمثل بعض الحيوانات وأختام من الحجر الصابوني وأزاميل نحاسية ورؤوس رماح تمثل مراحل تاريخية اصطلح على تسميتها بدلمون القديمة (٢٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) وآثار تمثل دلمون الوسطى (١٩٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) وآثار تمثل دلمون الأخيرة (١٢٠٠ - ٥٠٠ ق.م) وديلموس (٣٣٠ ق.م) ثم بعد ظهور الأسلام (٦٢٢م) . وتظهر تلك الآثار أنماطاً متباينة من حياة شعوب كثيرة وأحداث تاريخية شهدتها هذه الجزيرة ، ويتضح من تلك الآثار أن البحرين كانت منذ القدم مركزا تجارياً هاماً وحلقة اتصال وتفاعل بين حضارات وادي السند وبلاد الرافدين .

بيـــوت أثـــريـــة

الآثار القديمة المعروفة في التاريخ ليست هي كل شيء . . فهناك آثار حديثة تجتذب انتباه الراغبين في السياحة الخليجية العائلية في البحرين وخاصة في المحرق التي ما زالت تحتفظ بطابعها البحريني الأصيل في العمارة .

تعال بنا نزور بيت الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ، الجد الأكبر لأمير البحرين الحالي ، ويرجع تاريخه الى أواخر القرن الثامن عشر ، وهو نموذج أصيل من نماذج العمارة البحرينية .

أبرز ما في البيت برج هوائي مرتفع يفتح من الداخل عن طريق نوافذ خشبية ليدخل الهواء الى الحجرة ، كما يمتاز بأقواس فريدة على شكل حدوة حصان وسلة وسيف مع وجود زخارف شريطية ذات وحدات متناظرة وبخاصة غرف الطابق الثاني . والمبنى يتكون من ثلاثة أحواش كل حوش ينفصل عن الآخر بمرافق البيت ، ويتكون الطابق الأول من عشر غرف أما الطابق العلوي فمن ست غرف .

غير بعيد من بيت الشيخ عيسى ندخل بيتاً آخر من أبرز المعالم الأثرية في المحرق . . إنه « بيت سيادي » أحد أشهر تجار اللؤلؤ والذي بناه لعائلته ويشتهر بمجلسه الرائع وشكله الخاص المميز ودیوانين ودهليز وحوش صغير وسطح يحيط بيادكير صغير . ومن بين الغرف التي يحتويها غرفة كبيرة لها طابع خاص من ناحية الجمال والتلوين والزخرفة . وقد بني البيت من دورين وبه ثلاثة أقسام مميزة ، قسم به حجرة نوم كبيرة وقسم مخصص للحريم والثالث مخصص للرجال . أسقف الغرف تبدو عليها ملامح الزخارف المميزة لا سيما غرفة الضيوف الواقعة على اليمين من المدخل بسقفها الجميل ذي الدعامات الأفقية المطلية بألوان زاهية ، والزخرفة المنقوشة على الأبواب . أما الغرف العلوية فقد غلفت جدرانها

بنوافذ خشبية يوجد في أعلاها نصف دائرة من الزجاج الملون .

هذا المنزل الأثري أعاد متحف البحرين ترميمه عام ١٩٧٤ للحفاظ على طابعه الشعبي .

مركز التـــــراث :

الحفاظ على الطابع الشعبي البحريني يجد اهتماماً كبيراً يدل عليه مركز التراث الذي نزوره في المنامة ، والذي أقيم في المبنى القديم للمحاكم . القاعات تشتمل على عروض الغوص واستخراج اللؤلؤ واستخدام الصقور في الصيد ، كما تعرض نماذج مختارة من الآلات الموسيقية التقليدية ، والآلات البسيطة التي يستخدمها البحار ، وأنواع من الطبول والدفوف ، كما تعرض نماذج من الأشغال اليدوية من أشجار النخيل بالإضافة الى رسوم ولوحات زيتية محلية وصور فوتوغرافية تاريخية تواكب تاريخ تطور البحرين عبر الأزمان .

هنا نجد نماذج من الأبواب البحرينية القديمة عليها نقوش وزخارف تمثل الفن الشعبي الأصيل ، كما تعرض نماذج من السفن البحرينية وسفن الغوص ونماذج للغواصين والسيوب أثناء عملية الغوص مع عرض للملابس والأدوات المختلفة التي يستخدمها الغيص في عمله .

في بعض قاعات المركز في الطابق العلوي تعرض الأزياء القديمة والملابس التي ترتديها النساء والفتيات والأزياء التي يرتديها الرجال في مختلف المناسبات . كما تعرض نماذج لغرفة العروس (الفرشة) وما تحتوي عليه من مرايا على الحائط وسرير قديم وصندوق الملابس وغير ذلك من لوازم العروس .

ولعل مسجد الخميس من أبرز المعالم الأثرية في المنامة . فعلى طريق العوالي نلتقي بأحد أشهر معالم البحرين الاسلامية وهو مسجد الخميس . إنه أقدم بناء إسلامي ، ليس في البحرين وحدها بل في جميع أقطار الخليج العربي . وتكمن أهمية هذا المسجد في دقة بنائه من الأعمدة الثقيلة والأحجار الكبيرة المنحوتة وشكل مئذنتيه التوأمتين اللتين أدخلت عليها الترميمات والتجديدات . والروايات المحلية تذكر أن المسجد بني أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز عام ٦٩٢ ميلادية ، وإن كان بعضهم يقول أنه أقيم في نفس المكان الذي أقام فيه العلاء الحضرمي أول مسجد للصلاة في البحرين . على أن المئذنتين الشهيرتين اللتين تميزان هذا المسجد بنيتا في القرن الرابع عشر ، أما الآثار المتبقية من المسجد فهو الشكل الجديد الذي بني في القرن التاسع عشر ، وإن كان حجر القبلة القائم حتى الآن هو بالتأكيد من بقايا المبنى القديم منذ إقامته .

محميـــة العريـــن :

وتتخفف من وطأة الآثار القديمة لنشهد بعض المعالم السياحية الحديثة التي يتجه إليها السياح وبخاصة من العائلات . نحن الآن في « محمية العرين » .

إنها ليست مجرد حديقة حيوانات كما يتبادر الى الذهن من اسمها .. لكنها بالاضافة الى ذلك مركز للبحث العلمي والدراسة ، كما أنها مكان رعاية للحيوانات النادرة التي كادت تندثر من الصحراء وأصبحت تعاني من خطر الانقراض .

الحديقة المفتوحة مصممة للزيارة والنزهة والمشاهدة لمن يودون معرفة الحياة الحيوانية في الأقطار العربية وغيرهم ، إذ يمكنهم مشاهدة الحيوانات البرية مثل الظباء والغزلان والحمر الوحشية وغيرها ، وتنتشر في أرجاء الحديقة مظلات نموذجية صنعت من سعف النخيل وتضم حوالي ٤٠٠ حيوان من فصائل مختلفة وحوالي ١٠ آلاف من الطيور متعددة الأنواع .

أما الجزء الثاني من المحمية ويسمح بزيارته بتصريح خاص فهو يضم الحيوانات النادرة التي تحتاج لرعاية خاصة حتى تتناسل وتتكاثر ، وكان المحرك الفعال وراء جهود إنشائها ما لوحظ من أن معظم الحيوانات التي عاشت في منطقة الشرق الأوسط من تركيا شمالاً حتى اليمن جنوباً تكاد تكون في حكم المنقرضة ، بسبب التآكل المستمر في البيئة وما يطلق عليه اسم « التصحر » وزحف المباني على الأرض الزراعية والغابات التي عاشت فيها هذه الحيوانات بالاضافة الى الصيد الذي أدى الى إبادة قطعان كاملة من المها والظباء والريم من الغزلان



● عين عذاري .. أشهر المعالم السياحية بالبحرين .



● قلعة عراد من الخارج .

العربية الأصيلة . وتضم المحمية الآن من ذلك النوع المها العربي والأكداس والماعز الجبلي والغزال العربي والنعام والحباري .

عين عـــذارى :

هل سمعت عن عين عذارى .. أشهر معالم البحرين السياحية ؟

يقولون أنه كان هناك في قديم الزمان فتاة رائعة هي أجمل عذارى البحرين .. وذات صباح خرجت تستروح النسيم الندي ، فإذا بالأرض تنشق أمامها عن فارس جبل الطلعة اقترب منها وهو يتودد إليها ، وراح يلقي على مسامعها أرق عبارات الغرام ،

وحين صدته أعلن لها أنه إنما جاء ليتخذها لنفسه زوجة ، وسخرت الفتاة منه وهي تقول كيف تتزوجني وأنا مخطوبة لفتى أحبه وأهواه ولن أقبل عنه بديلاً ؟ ولكن الفارس الذي لم يصدقها طلب منها أن تضرب الأرض بقدميها ، فإذا تفجرت المياه تحت

أقدامها تأكد من صدقها ورحل عنها ، أما إذا لم تتفجر المياه تحت أقدامها فهي إذن كاذبة وسيتخذها لنفسه بالقوة . ودقت العذراء الأرض بقدمها ، فاذا بالأرض تتفجر ويندفع منها الماء في غزارة ليغطي سطح المكان وليستمر تفجره فلا يتوقف أبداً . ومنذ ذلك الحين سميت العين .. عين عذارى !

ونقف على جانب حوض السباحة الذي يقوم فوق عين عذارى ونتابع السابحين فيه ، ونطل الى ما حولنا . بحيرة من المياه الطبيعية العذبة تحيط بها حدائق ترفيهية تتغذى بمياهها الباردة . والعين من أكبر العيون التي تنتشر في البحرين ، وهي عبارة عن ينبوع من الماء العذب ينبثق من أسفل البحيرة وتمتد منه قنوات المياه الجارية لمسافات بعيدة تتيح انتشار الخضرة في كل مكان . وبرغم أن النخيل يبدو وافراً غير بعيد من محيطها إلا أن المشهد الجميل تخترقه صورة تبعث على الأسف .. فأشجار النخيل الأشد قرباً من العين تبدو جافة حزينة تثير الحسرة ، سيقان قائمة في الهواء عارية من السعف كأنها أعمدة من الخشب الجاف ليس لها رأس أخضر على الاطلاق . ويهمس في أذننا من يقول : « عندنا مثل يقول لا تكن مثل عين عذارى .. تسقي البعيد وتحرم القريب ! » .

ومع ذلك ، فقد تحولت المنطقة المحيطة بعين عذارى الآن الى حديقة عامة متسعة رائعة تظللها الأشجار وتنتشر فيها الورود والرياحين . وأنشئت في وسطها حديقة خاصة للعائلات والأطفال نصبت فيها الألعاب المسلية التي يقبل عليها الصغار

يقول مرافقنا : لقد كانت البحرين عامرة بالعيون التي لا تقل غنى عن عين عذارى . وقبل سنوات قال أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » بعد أن زار





● البرج الهوائي في بيت الشيخ عيسى بن علي .

المنطقة ، أن في البحرين نحو خمسة وعشرين نبعاً مشهوراً يبعد بعضها عشرين باعاً عن البر ويعلوها البحر من ثلاثة الى سبعة أبواع : مياه عذبة تحت المياه المالحة تفور من الأرض على الدوام ، وتلك التي تقرب من الساحل تظهر للعيان فيسقى منها أهل المكان ، وأغرب من كل ذلك أن تلك المياه تجيء الى البحر من مرتفعات نجد ومن وراء الدهناء . . وحتى في مياه البحر كان البحارة كما يقول الرحالة يملأون جرارهم من عيون البحر العذبة وهم يغوصون على اللؤلؤ دون حاجة للعودة الى البر للحصول على الماء العذب . . . » .

ويضيف الريحاني : أن عيون البحرين كانت أكثر من ذلك بكثير ، ولكن يقال أن عبد الملك بن مروان الأموي لما رأى من أهل الجزيرة تمرداً على خلفاء بني أمية أمر بردم العيون ليقل زرعهم وأموالهم فيفتقروا ويخضعوا للأمراء !

ومع ذلك فما زالت الحدائق والخضرة والماء العذب علامة من علامات الجمال والحياة في البحرين . . .

إن منتزهات عذارى واحدة فقط من مجموعة من المنتزهات والحدائق التي ترتبط بالسياحة العائلية وهي متنفس لكل أفراد الأسر لقضاء أوقات ممتعة ، حديقة الأندلس واحدة من هذه الحدائق في وسط المنامة ، وهي الى جانب الخضرة والماء ترتبط بالمعارض السنوية التي تقام في البلاد . من أبرز هذه المعارض المعرض الخيري السنوي الذي تعرض فيه الجمعيات النسائية والهلال الأحمر البحريني إنتاجها من أعمال العضوات والجماعات ذات النشاط الحرفي .

وهناك حديقة السلمانية . . وهي تكاد تكون معرضاً لرسوم الأطفال حيث يزخر سورها بما يرسمونه ويبدعونه من لوحات ، وتتناثر في الحديقة مختلف الألعاب التي تلقى إقبالاً بالغاً من الأطفال والأسر .

وغير بعيد منها نلتقي بالحديقة المائية . . حيث لمسات رائعة من الجمال في كل مكان لعل ابرزها تلك البركة المائية التي تنتشر على صفحتها القوارب الصغيرة كما خصص جزء منها للطيور المائية السابحة ومن حولها المقاعد المظللة المتناثرة وسط الأزهار والأشجار .

البحرين في الحقيقة واحة للراحة . . يقصدها أبناء الخليج للاستظلال براحتها الاجتماعية والتمتع بمائها وخضرتها وآثارها . . وليس غريباً أن تأتي الى البحرين فتجدها وقد فتحت ذراعيها لك . . فذلك جزء من دورها التاريخي والاجتماعي منذ آلاف السنين . . ولطالما كانت حاضنة البحارة وصديقة المسافرين حين كانت تشتد بهم أعباء المساقات ، وهو نفس الدور الذي ما تزال تلعبه حتى اليوم . □

طفيليات يمكن أن تعيش على كبدك

بقلم : الدكتور سامي محمود علي

قال الشاعر العربي : أولادنا أكبادنا ، تمشي على الأرض ، وجعل الأبناء بمنزلة الكبد الذي إذا حفظه المرء وابتعد به عن كل ما يضر به في صغره كشرب الكحوليات والمخدرات ، فإنه يجده قوياً عفياً في كبره ، قادراً على تحمل اختلالات الشيخوخة ومصاعبها .

الكبد غدة كبيرة ، لها لون أحمر قانٍ ، تزن حوالي ٣ أرطال ، وهي توجد أعلى البطن بجهة اليمين ، وتتكون من فصين ، أحدهما الأيمن ، وهو الكبير ، والآخر الأيسر ، والكبد ليست كأي غدة أخرى في الجسم ، بل هي معمل كامل ، يؤدي من الوظائف ما يجعلنا نقف مبهورين أمام عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، وإن فشل الكبد عن تأدية وظائفها يعني النهاية المؤكدة للشخص .

تحسس طريقنا إلى ذلك العضو الذي ترتبط حياتنا به فنرى أنه بعد إزاحة طبقات الجلد والعضلات والغشاء الذي يحيط بالكبد يمكن أن نلمح كائنات حية ، يمكن أن تصيب الكبد ، وتتطفل عليها ، وقد تتخذ منها موطناً وسكناً ، وهي في هذا تلبي نداء التطفل بكل أمانة ، فالكبد عضو غني بالدماء ، غني بالمواد الغذائية الذائبة في خلاياه ، وهو دون شك مرتع خصيب لمخلوقات ، تتفاوت في أحجامها ، منها كائنات دقيقة ، لا ترى إلا بالمجهر ، ومنها ديدان كاملة ، تبلغ عدة سنتيمترات .

طفيليات بالكبد

هذه الطفيليات لن تعدم الوسيلة في إصابة الكبد ، فكل الطرق تصل إليه ، والطفيلي أو بويضاته يمكن أن يصل إلى الكبد عن طريق الوريد البابي ، مثل طفيل البلهارسيا ، أو عن طريق

الشريان الكبدي ، مثل طفيل الايكينوكوكس ، وقد يخترق الطفيلي الغشاء البريتوني الذي يحيط بأعضاء البطن وأنسجته حتى يصل إلى الكبد ، مثل طفيل الفاشيولا ، ويمكن للطفيلي أيضا أن يتخذ الطريق الصاعد إلى الكبد مروراً بالقناة المرارية ، مثل ديدان الاسكارس .

السباحة خارج الأمعاء

هناك عدة أنواع من الأميبا ، وهي في معظمها غير ضارة ، بصحة الأنسان ، بيد أن النوع الضار يسمى أنتاميبا هستولتيكا ، فهذا النوع من الانتاميبا يسبب مرض الدوسنتريا الأميبية التي تبلغ نسبة الاصابه بها بين سكان العالم ما يقرب من ٥٠٪ وهذا المرض معروف منذ أيام قدماء المصريين حيث وصفوا أعراضه وطرق علاجه منذ آلاف السنين ، لكن اكتشافه حديثا يرجع إلى العالم « لامبل » الذي وجده في براز طفل سنة ١٨٥٩ ، ثم تلاه العالم الروسي « لوس » فوصف الطفيل وصفا دقيقا .

والانتاميبا كائنٌ مجهري الحجم دقيق ، يبلغ قطره (٢٠ ـ ٤٠) ميكرون ، (والميكرون جزء من ألف جزء من الميلليمتر) ، ويتركب جسم الطفيل من خلية واحدة ، تقوم بكل وظائف الحياة ، من تكاثر وغذاء وإخراج ، والغريب أن الطفيلي قد يعيش حياة هادئة تماما ، يغلب عليها تبادل المنفعة ، فيتغذى على البكتريا والمواد الغذائية الموجودة بكثرة في الأمعاء الغليظة ، لكنه ـ لسبب غير معروف بالتحديد ـ يأخذ في مهاجمة الغشاء المخاطي للأمعاء الغليظة ـ ويلتصق بها ، ثم يفرز خمائر تسمى « سيتوليسين » ، فيذيب بها جدار الأمعاء ، مسبباً قروحاً تسيل منها الدماء ، وهنا تظهر العدوى ، وقد يسبح الطفيل في الوريد البابي حتى يصل إلى الكبد ، أو يسبح في الدورة العامة للدم ، فيصل إلى الرئة أو المخ ، مسببا حدوث أنواع من الدمامل .

الخراج الكبدي

إن أخطر أشكال المرض هو إصـ[illegible] يصل الطفيلي إلى الكبد يسبب له الـ[illegible] إذابة النسيج الكبدي بمكان الاصا[illegible] الكبدي ، وقد يصل حجم هذا الخراج إلى حجم تفاحة كبيرة ، . . . وغالبا ما يصيب الفص الأيمن من الكبد ، وتحت الحجاب الحاجز مباشرة ، وعندما يصاب الشخص بالخراج الكبدي تتضخم الكبد ويكون ملمسها أكثر صلابة ، كما يكون موضع الكبد من البطن مصحوبا بألم عند الضغط عليه ، ويشعر المريض بالحمى ، ولعل أخطر المضاعفات التي تحدث نتيجة لهذا الخراج هو انفجاره ، فإذا حدث هذا الانفجار في التجويف البريتوني للبطن سبب التهاباً قد يودي بحياة المريض ، كما أن الصديد الذي ينبثق من الخراج في حالة انفجاره قد يصل إلى الغشاء البلوري المغلف للرئة فيسبب التهابه ، أو قد يخترق الرئة نفسها مسبباً حدوث خراج ، وفي بعض الأحوال النادرة يصل الصديد إلى غشاء التامور المحيط بالقلب فيسبب له التهابا .

والعدوى بطفيل الانتاميبا عدوى تتصف بالغدر ، فإن العلاج ـ غالبا ـ لا يكون سهلا ، لأن الانتاميبا تبدو كانها كلما عولجت بعقار طبي خسرت المعركة ، لكن فلولها انسحبت من الميدان في ثنايا القروح التي يحدثها المرض في جدار الأمعاء الغليظة حيث تنكيس وتكمن لأجل ، ثم تنشط مرة أخرى ، وتبدأ في هجومها من جديد ، لذلك يفضل دائما في علاج هذا الطفيل استخدام أكثر من سلاح واحد أو دواء ، كما يجب على المريض التذرع بالصبر وطول البال ، كذلك يجب عليه خلال فترة العلاج الامتناع عن تناول الألبان والدهنيات والبيض والخضراوات غير المطبوخة .

الاسكارس دراكيولا الامعاء

يطلق العامة على هذه الدودة ثعبان البطن ، وتنتمي الدودة إلى ما يسمى الديدان الخيطية .

ويصل طول الدودة الكاملة من ١٠ ـ ٢٠ سم تقريبا ، ولعله من المثير أن للأنثى من هذه الديدان جهازين تناسليين (مبيضين) ، يحملان ما يقرب من ٢٥ مليون بويضة في دورة حياة واحدة ، أي أن متوسط إنتاج الأنثى اليومي يبلغ ٢٠ ألف بويضة ، كل بويضة تحتوي على مقدار من المح (الزلال) يتكون من غذاء المريض المهضوم ، والدودة بالطبع تنتقي من غذاء المريض أفضله ، ولعل ذلك يرينا كم هو الضرر الذي تسببه دودة الاسكارس للانسان .

ولدودة الاسكارس خاصية الانسياب من خلال الفتحات ـ قد يكون ذلك بدافع الفضول ـ التي تلقاها في طريقها ، لذلك فهي قد تنساب خلال القناة الصفراوية ، أو القناة البنكرياسية ، فتسبب انسدادها ، فيصاب المريض بمرض الصفراء ، وقد تموت الدودة داخل إحدى القناتين فتتحوصل ، وتتحول إلى حصاة مرارية ، ويمكن أن تسبب التهابا في المرارة ، أو خراجا داخل الكبد ، إذا تمكنت من المرور خلال القناة لتصيب الكبد نفسه ، كما أن يرقات الدودة أو بويضاتها يمكن أن تتجمع داخل الكبد مكونة ورما جيبياً .

وقد استخدم الأطباء لعلاج الاسكارس « سترات البيبارازين » ، يتناولها المريض مدة يومين متتاليين ، بيد أن أدوية حديثة ظهرت مؤخرا لها قدرة فعالة في القضاء على الديدان ، لكن المهم هنا ليس العلاج ، بل الوقاية ، والوقاية تعني نظافة الطعام واليدين . وعادة تنصح بغسل الخضراوات التي تؤكل نيئة بالصابون والماء حتى يتم التخلص من البويضات اللاصقة .

الملاريا زائر الليل

عرف العرب الملاريا ، وأطلقوا عليها اسم « الرعداء » ، نتيجة للرعدة التي تصيب مريض الملاريا ، وارتعاش جسمه كله في تشنجات مستمرة ، إلا أن المرض عرف قبل ذلك بقرون سحيقة ، فقد وصف « أبو قراط » المرض ، وذكر أنواعه ، وكان ذلك في القرن الخامس قبل الميلاد ، إلا أن ابو قراط ذكر أن شرب مياه المستنقعات هو السبب في العدوى ، ثم قيل بعد ذلك أن الأبخرة المتصاعدة من المستنقعات هي السبب في العدوى ، ومن هنا جاء اسم المرض ، فالملاريا كلمة رومانية الاصل ، مكونة من مقطعين « مال » بمعنى فاسد أو رديء ، و « اريا » بمعنى هواء ، فالملاريا عند هؤلاء القدماء كانت تعني استنشاق هواء فاسد . واستمر المرض معروفا بهذه التسمية الخطأ حتى يومنا هذا .

والحقيقة أن هناك علاقة بين الاصابة بالملاريا ووجود المستنقعات وبرك المياه الآسنة ، لكن ليس ذلك بسبب استنشاق هواء أو غيره ، بل إن نوعا معينا من البعوض يسمى بعوضة « الانوفيل » هي القادرة على نقل طفيل الملاريا إلى الانسان عن طريق وخزها لجسمه .

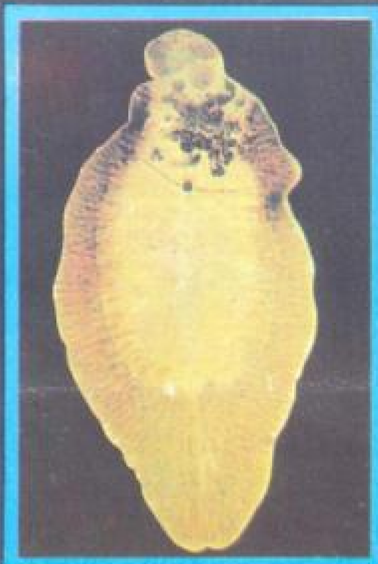
بعوض الأنوفيل ـ كما قلنا ـ هو الذي ينقل طفيل الملاريا المعروف باسم البلازموديوم ، وأنثاه هي التي تنقل الطفيل لا الذكر ، وتبدأ العدوى ليلا والشخص في حالة سكون تام ، كأن يكون نائما ، أو مستلقيا ، وهنا تغرز أنثى البعوض خرطومها في جلده ، فيسيل من خرطومها لعاب ، به مادة مهيجة ، إضافة إلى آلاف من طفيل الملاريا ، . .



ـ كيس يحتوي ـ بعد فتحه ـ على سوائل ويرقات عديدة لطفيل الايكنوكوكس وقد استخرج من كبد مريض بالطفيل



طفيل الايكنوكوكس



طفيل الفاشيولا

وبعد تهيج الجلد مكان اللدغة واحتقانه تمتص البعوضة قطرات من الدم ، وعندما تدخل الطفيليات مع اللدغة تتجه مباشرة إلى الكبد ، لتصله بعد حوالي نصف ساعة ، وعندئذ تسمى سبوروزيت ، وفي الكبد تتكاثر ويتغير شكلها ، وبعد أيام تهاجر الطفيليات من الكبد ، وتسير مع دورة الدم ، وتأخذ في مهاجمة كريات الدم الحمراء ، لتتغذى على المادة الحمراء بالكريات التي تعرف باسم الهيموجلوبين ، وعندما تنفجر كريات الدم الحمراء فإن الطفيل يفرز مواد سامة ، تسمى « هيموزين » ، وهذه المواد هي التي تسبب الحمى التي تنتاب المريض ، وقد يكمن طفيلي الملاريا داخل خلايا الكبد ، أو قد يتطور إلى خلايا جنسية مستديرة الشكل ، تسبح في الدم ، وعندما تصل هذه الخلايا الجنسية إلى معدة أنثى البعوض مع لدغة أخرى تصبح قادرة على إحداث العدوى .

وفي الغالب فإن أعراض المرض التي تمر بثلاثة أطوار هي البرودة الشديدة ، وارتعاش كل الجسم رغم أن حرارة المريض تصل إلى ٤٠ درجة مئوية ، ثم طور السخونة واحمرار الجلد ، وأخيراً طور العرق الغزير الذي يشعر المريض بعده بأنه سليم معافي ، ثم تعاوده الأعراض نفسها بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، أو بعد عدد غير محدد من الأيام .

نقول أن أعراض الملاريا لا تظهر إلا بعد مهاجمة كريات الدم الحمراء التي تجعل المريض في حالة إنهاك وضعف شديد ، كما أنه يعاني من أنيميا شديدة .

وقد استخدم الانسان لحاء شجرة « السكونا » لعلاج الملاريا ، وكانت مادة « الكينين » المستخرجة من لحاء تلك الشجرة هي المادة القادرة على اختفاء أطوار المرض . وأخيرا ظهرت عقاقير جديدة ، منها الاتبرين والكاموكين وغيرها ، بيد أن الوقاية هي خير الوسائل لحماية الانسان من عدوى المرض ، وليس أبسط من إغلاق النوافذ ليلا في الأماكن التي يكثر فيها البعوض والمستنقعات .

البلهارسيا عدو لدود

ديدان البلهارسيا مفلطحة ، صغيرة الحجم ، طولها (١٠ ـ ٢٠) ميللميتراً ، وعرضها من ربع ملليمتر إلى ملليميتر واحد ، والذكر منها يحمل أنثاه في قناة طويلة تسمى قناة الاحتضان وقت التزاوج ، ثم يسبح بها عكس مجرى الدم ، حتى يصل بها إلى الأوعية الدموية المؤدية إلى المثانة ، أو الى المستقيم تبعا لنوع كل منها ، وهناك يترك الذكر أنثاه ، لتواصل الرحلة بمفردها إلى الشعيرات الدقيقة جداً لتضع البيض ، وهي تضعه بيضة بعد أخرى ، حتى تمتلىء الشعيرة الدموية ، فتنتقل إلى شعيرة أخرى وهكذا ، وبعد وضع البيض المزود بشوكة في طرفه ، أو أحد جانبيه ، تبدأ معاناة المريض ، فالبيض عن طريق هذه الشوكة يمزق الشعيرات الدموية ، ليسقط في المثانة أو المستقيم ، ثم يخرج إلى خارج الجسم مع البول أو البراز مصحوبا بقليل من الدم .

وبعد نزول البويضة لابد من ماء لكي تفقس فيه ، ولخرج يرقة تسمى « ميراسيديوم » ، تسبح في الماء باحثة عن العائل الوسيط ، وهو نوع من القواقع البحرية ، وداخل تلك القواقع تتحور اليرقة ليخرج منها طور جديد يسمى سركاريا ، والقوقعة الواحدة تعطي ما يقرب من ٢٥٠ ألف سركاريا ، وعندما يغتسل إنسان في الماء أو يغسل فيه شيئا فإن السركاريا تخترق جلده ، وتسبح مع الدم لتصل إلى الكبد ، وبعد عدة أسابيع تصبح دودة كاملة . وفي الواقع أن خطر البلهارسيا لا يأتي من الدودة الناضجة بقدر ما يأتي من البويضات التي يمكنها أن تصل إلى أي عضو في الجسم ، مسببة الأورام والخراريج والتليف ، إلا أنها تفضل الكبد عما سواها لتجعلها مأوى لها وسكناً ، منه تنفث سمومها إلى أجزاء كثيرة في الجسم .

وعندما تغزو البلهارسيا الكبد فإنها تعكر في خلاياها ، وتبدأ الكبد في التضخم ، ويصبح ملمسها صلبا ، ثم تأخذ ـ في مرحلة لاحقة ـ بالانكماش والتليف ، وفي نفس الوقت يتضخم الطحال ، ويرتفع ضغط الدم البابي ، وأخيرا تتمزق الأوعية الدموية في الجزء الأسفل من المريء فيتقيأ المريض دما .

« الفاشيولا » . . ومن الكبد ما قتل

تعتبر الماشية والاغنام هي العائل الوسيط لهذا الطفيل ، وقد يصاب الانسان بالعدوى إذا تناول خضراوات أو فواكه ملوثة بالميتاسركريا ، وهي الطور المعدي من المرض . وتتجه الميتاسركريا مباشرة إلى الكبد ، فتصلها في مدة تتراوح بين خمسة أيام إلى عشرة ، وفي الكبد تتخذ العدوى شكل تليف لبعض الخلايا مع تضخم للكبد أو بدونه ، كما ترتفع حرارة المصاب ، ويشعر بألم في أعلى البطن في الجنب الأيمن ، مع إسهال وقيء ، ونقصان في الوزن ، وتختفي الأعراض بعد حوالي شهرين أو ثلاثة أشهر ، وقد يختفي المرض عدة سنوات ثم يظهر فجأة ، دون مقدمات ، فتظهر على الشخص أعراض الالتهاب المراري ولعل سبب ذلك أن الطفيل يتحوصل داخل الكبد فترات طويلة ، تصل إلى عشرة سنوات ، ومن الغريب أن المريض قد يشفى دون أي علاج ، ومن السهل تشخيص المرض بالعثور على بويضات الطفيل في براز المصاب .

بقيت كلمة ، إن أول أسباب العدوى بالمرض تأتي من تناول أكباد المواشي والأغنام المصابة دون طهيها جيداً أو التأكد من خلوها من بويضات الطفيل ، فالكبد الملوث قد يصيب كبد الشخص من حيث لا يدري أن السم في الدسم .

« الايكنوكوكس » شبح يعود من الماضي

غالباً يكون الأطفال أكثر عرضة للاصابة بهذا الطفيل ، وبعد الاصابة تختفي أعراض المرض تماما ، فلا تظهر أي مظاهر للعدوى ، حتى يصل الشخص

إلى سن مابين العشرين والأربعين من عمره ، وهنا تظهر الأعراض ، وكأن الطفيل كان في سبات عميق ، استيقظ منه قبل فوات الأوان . وهناك نوعان من الطفيل ، أحدهما يسمى الايكنوكوكس الحبيبي ، ويصل طول هذا الطفيل إلى ٦ ميلليمترات وتنقسم الدودة إلى ثلاثة أقسام ، وهي توجد في الكلاب والقطط ، بيد أن الأنسان والغنم والماشية والخيل هي العائل الوسيط . أما النوع الثاني فيسمى ايكنوكوكس عديد الخلايا ويبلغ طول دودته ٣,٥ ميلليمترات ، وتنقسم إلى خمسة أقسام ، وتعيش هذه الدودة في القطط والكلاب والثعالب ، أما عائلها الوسيط فهو القوارض كالفئران ، ونادراً مايكون الانسان عائلا وسيطا لها .

وعندما تصل بويضة هذا الطفيل إلى المعدة والأمعاء الرفيعة فإن يرقته تتحور من البويضة ، وتخترق جدار الأمعاء ، لكي تصل إلى الكبد أو الرئة عن طريق الأوردة الدموية والليمفاوية ، وبعد أربعة أسابيع من الاصابه يتحوصل الطفيل ، ليصل حجمه إلى ثلث ميللمتر ، وبعد ثمانية أسابيع يتحول إلى كيس يسمى هايديت يمتليء بالسوائل ويرقات أخرى للطفيل قد يصل عددها إلى ٤٠٠,٠٠٠ يرقة ، ثم تأخذ هذه الأكياس في النمو ، وعلى مدى سنوات طوال ، حتى يمتليء بعدة لترات من السوائل ، ولا يعوقها عن النمو إلا وجود أعضاء أو أنسجة ضاغطة ، وتكثر إصابة الكبد في الفص الأيمن والرئة (٩٠٪) ، كما يمكن أن يصاب القلب والمخ (١٠٪) ، وعندما تضغط هذه الاكياس الممتلئة بالسوائل فإنها تسبب الأعراض التي يشكو منها المصاب غالبا مثل الصفراء اذا كان الضغط على القناة الصفراوية ، أو ارتفاع ضغط الدم البابي إذا كان الضغط على أوردة الكبد الكبيرة ، كما قد تتحول هذه الأكياس إلى خراريج بفعل التهابها بالجراثيم ، إضافة إلى ذلك قد تتضخم الكبد ، ويشعر المريض بالحمى واستسقاء البطن والهزال المستمر ، وأخيرا تظهر أعراض الفشل الكبدي ، ولعل هذه الأعراض هي التي يشكو منها المريض في المراحل المتأخرة

وصفات شعبية للعلاج

قال أبو قراط منذ زمن بعيد : « الطبيعة وحدها تشفي » ، ونحن نقول إن هذه الكلمة تنطوي على يقين لا يشوبه شك ، وعندما نبحث في الطبيعة حولنا فإننا نجد نباتات بسيطة قادرة على التخلص من هذه الطفيليات والديدان المدمرة ، وإن الوصفات الشعبية التي نذكرها لن تضر إذا تناولها إنسان لا يشكو بالفعل من أي أعراض ، بل قد تكون شافية لمرض لايزال يلوح في الأفق ولم يكشر عن أنيابه بعد ، وهذه الوصفات الشعبية هي :

تنقع شرائح من البصل الغض في قليل من الماء طيلة الليل ، ويصفى في الصباح ، ويعطى للشخص بعد تحليته بعسل النحل ، ويستمر على ذلك يومياً إلى أن يتم طرد الديدان ، والتخلص من الطفيليات . كما يستخدم البصل كذلك لعمل حقن شرجية للغرض نفسه ، وذلك بغلي نصف بصلة متوسطة الحجم مدة ثلاث دقائق في لتر ما ، وتصفيته بعد ذلك لحقنه فاتراً في الشرج .

يقتل الثوم الديدان ويطهر الأمعاء ، ولهذا الغرض يعطى الشخص المصاب فنجان حليب غلي فيه بضع فصوص من الثوم ، ويلي ذلك حقنه شرجية دافئة بمغلي الثوم في الحليب ، ويكون ذلك بغلي ثلاثة فصوص فقط من الثوم في ثلاثة أرباع اللتر من الحليب ، ثم تصفيته ، وحقنه ببطء ساخنا في الشرج .

تؤخذ أوقية من زيت الزيتون ، وأوقية من عصير الليمون ، وأوقية من عسل النحل ، وتخلط خلطاً جيدا ، ويعطى منها للطفل ـ خاصة ـ ثلاثة ملاعق متفرقة أثناء النهار . لكن هذا لايمنع من مراجعة الطبيب للوقوف على الحالة واجراء الفحوصات اللازمة . . . ومن ثم البحث عن العلاج المناسب . □





منذ حضارة بلاد ما بين النهرين، كانت رياضة الصّقور، ولا تزال حتى يومنا هذا، رياضة النبلاء.

الصّقر طائر قويّ، أنيق وسريع الحركة، يُروّض ويُعلَّم خصيصًا فنّ الصّيد. هذا الترويض والتعليم يتمّ على يديّ أخصائيّين لمدّة طويلة تدوم أكثر من ثلاثين يومًا. العناية عينها هي التي بها تصنع كل ساعة رولكس.

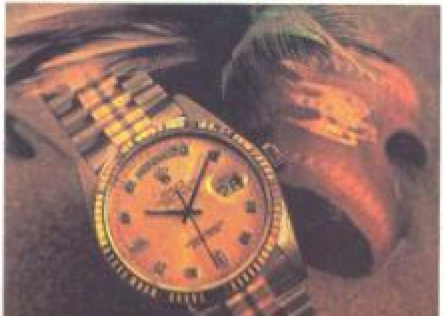
حتى اليوم لا تزال رولكس تصنع من قطعة معدن واحدة وتُنحت يدويًا، سواء من الذهب الخالص أو الفولاذ أو الإثنين معًا.

كل ساعة تمرّ إفراديًا بمجموعة تجارب قاسية قبل أن تعطى شهادة الكرونومتر السويسريّة الرسميّة.

جمال رولكس غنيّ عن التعريف وقيمتها تدوم وتدوم لسنوات وسنوات طويلة جدًا.

مجموعة ساعات رولكس رائعة ومتكاملة لترضي أصحاب الذوق الرفيع.

رولكس والصّقر رمز الدقّة والأناقة.



ROLEX

رولكس

ساعة تريبور داي-جست من الذهب الأبيض والأحمر والأصفر مرصّعة بالماس.

وجهاً لوجه





حنا مينه و أبوالمعاطي أبوالنجا

■ البحر عندي ليس خلفية طبيعية ظلالية أو تزيينية . ■ عندما كتبت عن الحياة كنت أمينا على الصيرورة الاجتماعية والتاريخية
■ لست كاتب جنس ، لكنني أكتب عن البحر ، والجنس ملازم للبحر مثل مائه وزبده . ■ أرفض التجديد القائم على تصرعات التقليد واللهاث وراء الابتكارات الشكلية . ■ تجديدي يعطي إسهامه المتعدد فوق أرضية واقعية .

حين التقينا الكاتب الروائي الكبير الأستاذ حنا مينه بمكتبه بوزارة الثقافة بدمشق ، أبدى رغبته في أن تكون أسئلة هذا اللقاء مكتوبة ، ليقدم عنها أجوبة مكتوبة كذلك ، حرصا على الدقة ، ولما أوضحنا له طبيعة هذا الباب في اعتماده على الحوار رغبة في إمكانية استنباط أسئلة جديدة من الجواب وافق على أن نبدأ بأسئلة مكتوبة يعقب إجابته المكتوبة عنها حوار آخر .

تركنا له الأسئلة ، واتفقنا على موعد للقاء ثان ، وحين عدنا في الموعد وجدنا أن الكاتب الكبير قد ألم به طارىء صحي ألزمه الفراش ، لكنه رغم ذلك غالب الظرف الصحي وجاء الى مكتبه في الموعد ، مبديا استعدادا كريما لمواصلة الحوار ، فدار بيننا حوار استغرق أكثر من ساعة . وبطبيعة الحال فقد كان من الضروري لإعداد هذا الحوار للنشر في المساحة المحددة لهذا الباب أن تكون هناك عمليات دمج بين المادة المكتوبة والمادة المسجلة ، واختصار واختيار كذلك لاعتبارات كثيرة ، وهذه العمليات كلها تخضع أيضا لاجتهاد معد هذه الحوار ، ونأمل أن يكون هذا الاجتهاد في حدود الدقة والأمانة التي نتطلع إليها جميعا .

البحر هو ذاتي

● هل يمكن في البداية أن تحدثنا عن مغزى اختيارك لعالم البحار ، بعواصفها وموانيها وسفنها ، وعالم البحارة بأسفارهم ووحدتهم وحنينهم للأرض في العديد من أعمالك الروائية ، حتى لتكاد تصنف بأنك روائي البحر في الأدب العربي الحديث ؟

- إنني فعلا وبغير تواضع روائي البحر في الأدب العربي الحديث . أقول بغير تواضع ، وبغير غرور أيضا ، لأن الصفتين كلتاهما من صفات « البورجوازية » التي تموه الأشياء ولاتسميها بأسمائها . ولا أعرف قبلي ، وكذلك بعدي ، من تصدى لعالم البحر ، بهدوئه وطمأنينته وزرقته وصخبه وعربدته وقلقه واعتكاره ، وثورته .

وقد اخترت البحر لأن عالمه هو هذا العالم الغريب ، المتقلب بين وداعة وشراسة ، بين صحو وغيم ، فكأن كف القدر هي التي تصنع أعاجيبه وغرائبه ، وتعطي للطبيعة ما يجعلها تتمثل فيه تمثلا يتراوح بين العقل والجنون ، حتى يظهر الكون فيها مسحورا ، بكل ما للسحر من قوة آسرة ، متمردة ، لا تخضع لمقياس أو قانون مما تواضع عليه البشر في الحياة على اليابسة .

والمغزى في هذا الاختيار هو الشوق الى ارتياد المجهول ، ومعانقة الشهادة على اسمه ، ثم اكتشاف هذا المجهول بكل أبعاده وخصائصه ، وابراز الانسان هذا الكائن الجبار مروض الطبيعة الذي تجرأ وحده على البحر وروضه ، وطارد العواصف على صفحته وفي أعماقه ، وواجه الخطر بصدره العاري ، وعنفوانه المضفور من شجاعة خارقة ، بعضها تهور ، وبعضها جنون .

لقد عرف العربي الصحراء وخبر وعورتها ، وانداحها أو انغلاقها ، وتاه ركبه في رمالها ، وشارف الأفق في الغروب ، ولعق السراب على ظمأ ، وانطلق قذيفة على صهوة جواد ، أو خب ماشيا بين الكثبان ، ثم عرف بعد البداوة الحضارة ، بكل ما فيها من ترف وخشونة ، ومن قيظ وفيء ، وقصر وكوخ ، وعالم مبسوط منشور ، ومعاش لم يبق فيه حتى ولا في غاباته ما هو مجهول ، يضعه على حافة

الخطر ، لكن الانسان العربي وهو على تخوم البحر لم يعرف البحر ، ولا تقحم أهواله ، ولم تنعكس إلا نادرا ، ويشكل ومضي رؤى هذا المدى المائي المترامي في خياله . وظل أدبنا العربي في عوالم اليابسة ، وكان لابد من أديب يخترق القاعدة ، ليصبح استثناء في مغامرته المائية ، حين قيض له أن يعايش البحر ، ويعاينه ، ويعانقه ، فكان هذا الأديب أنا ، وكان في أدبنا العربي لأول مرة ما يسمى بأدب البحر ، بعد أن سبقنا اليه الأدب العالمي منذ مئات السنين .

قيل لغوركي كيف تعرفت الى علم الاقتصاد ، فأجابهم : انظروا ، انه منقوش على ظهري .

كان غوركي حينذاك يشتغل حمالا على شواطيء الفولغا العظيم . تسألني لماذا أغرمت بالبحر والبحارة والسفن والموانيء ، فأجيبك أن البحر هو ذاتي ، فقد تشردت في موانئه ، وغامرت في أسفاره ، وخبرت ما في المرافيء من دنى بعضها للطهارة وبعضها للدناءة .

وتسكعت في طرقات هذه المرافيء ، وعاشرت بحارتها وحماليها وعمالها ولصوصها ، وغشوت خماراتها ، وأزقتها ، وقاسيت الجوع ، وتلذذت بالشبع ، وسرت على الرمال ، وتسلقت الصخور ، وجمعت الأصداف ، وكنت في كل ذلك كحديدة ألقيت في نار ، فانصهرت ، وتشكلت على نحو ما أراد لها الحداد أن تتشكل ، أي صرت ذات البحر ، وصار البحر ذاتي ، وعن هذه الذات عبرت في أدبي ، دون ورع أو خجل ، أو تمويه،ودون تردد ، أو خشية أو مخادعة ، فكان كل شيء في هذا الأدب واضحا كحقيقة ، مستقيما كطلقة ، عاريا كآدم وحواء عندما أكلا تفاحة الخير والشر ، ومع كل ما كتبت عن البحر فأنا ماأزال من كتابه في المقدمة ، وسيأتي غيري فيكتب متونه وهوامشه ، وعندئذ يجاري أدبنا الأدب العالمي الذي تجاوز اليابسة الى الماء ، وقدم روائي البحر من « موبي ديك » الى « الشيخ والبحر » وغيرهما كثير .

إن البحر عندي ليس خلفية طبيعية ظلالية أو تزيينية ، كما يقول الناقد عبد الرزاق عيد ، بل هو عامل روائي ، تتطور فاعليته الروائية بتطور حركة الزمن وفاعليتها ، وبتطور الشخصية الروائية وفاعليتها أيضا .

مفاتيح الرؤية

● قدمت الدكتورة نجاح العطار في دراستها المنشورة في مقدمة روايتك « بقايا صور » مفتاحا مهما لفهم أدبك سمته جدلية « الخوف والجرأة » ، وقدمت أمثلة عديدة لمستويات الخوف والجرأة ، وتفاعلاتهما ضمن الشخصية الواحدة ، أو بين عدد من الشخصيات في الرواية الواحدة ، ومع نفاذ هذه الملاحظة ودقتها ، إلا أنني أحب أن أضيف أنها ليست الجدلية الوحيدة التي تنتظم رواياتك أو تفسرها ، فهناك أيضا جدلية الحاضر والمستقبل ، وجدلية الطبيعة والعقل ، والصراع الطبقي الذي تكشف الروايات عن تخومه في الريف والمدينة ، والبر والبحر . فهل تود أن تعلق على هذا الرأي ؟

□ـ الناقدة الدكتورة نجاح العطار وضعت يدها على أحد مفاتيح الرؤية في بناء الشخصية الروائية في أعمالي ، حين كشفت عن جدلية « الخوف والجرأة » ، ووضعت في الضوء على نحو مدهش الحياة الداخلية للشخصيات . وقبل ذلك وضعت يدها على مفتاح آخر هو « الطروسية وعالم حنا مينه الروائي » ، ثم تابعت البحث عن مفتاح ثالث في دراسة بعنوان « روائي واقعي رومانتيكي » ، وما أريد قوله هو أنك في السؤال الذي تطرحه تضع يدك أيضا على أكثر من مفتاح ، بإشارتك الى أكثر من حركة جدلية في رواياتي مادامت وحدة الأضداد ، أو المتناقضات هي الحركة الجدلية للحياة ، في إيجابها وسلبها .

إن جدلية الحاضر والمستقبل التي أشرت اليها

تعطي الناقد والدارس امكانية فهم الواقعية في رواياتي . ذلك أن هناك كما هو معروف عدة واقعيات ، مثل الواقعية الطبيعية عند زولا ، والواقعية النقدية عند بوشكين وتشيخوف وغيرهما ، والواقعية الجديدة كما في الأدب التقدمي عموما ، وبخاصة الحديث منه ، واذا كانت الواقعية الاشتراكية قد اقترنت باسم مكسيم غوركي فهذا يعود الى أنه قد اكتشف البعد الثالث للواقعية ، وهو بعد المستقبل ، بعد أن كانت الواقعية أو الواقعيات السابقة تقوم على بعدين ، هما الماضي والحاضر .

الواقعية الاشتراكية

وقد اختلف النقاد زمنا حول ما إذا كان أدب الواقعية الاشتراكية يمكن أن يكتب خارج البلدان الاشتراكية ، وجرى الآن ما يشبه الاجماع ، على أن أدب الواقعية الاشتراكية قد كتب ، في روسيا نفسها ، قبل أن تصبح اشتراكية ، مادام هذا الأدب يتضمن البعد الثالث ، وهو المستقبل . وفي حال كهذه فإنه يمكن أن نطلق على أدب ما - يتوفر فيه بعد الواقعية المستقبلي - صفة الأدب الواقعي الاشتراكي ، وقد قلت في أكثر من حديث أن رواياتي تقدم شهادتها على أن أدب الواقعية الاشتراكية قد ولد ونما في الأدب العربي الحديث ، وهو الى نمو وتعاظم من خلال أعمال أدبية كثيرة ، أذكر منها بعض روايات نجيب محفوظ وبخاصة الثلاثية وبعض روايات عبد الرحمن منيف ، ويوسف القعيد ، وجمال الغيطاني ، وغيرهم ، أما بالنسبة لرواياتي فانها تنهض منذ البدء على أساس هذه المدرسة التي تتسع ، وتضم في ذاتها مدارس كثيرة ، كالواقعية والرومانتيكية ، والرمزية ، وحتى السوريالية ، وهذا هو السبب في أن أكثر كتاب السوريالية قد تحولوا الى الواقعية الاشتراكية ، مثل الشاعرين بول الوار ولويس اوراغون وغيرهما .

جدلية العقل والطبيعة

* أرجو أن تأذن لي بشيء من التوضيح لما سميته « جدلية العقل والطبيعة » في السؤال السابق ، والتي أرى أنها ظهرت بوضوح في « ثلاثية حكاية بحار » . فاذا كانت رواياتك الأولى قد ركزت على مخاوف الانسان في صراعه ضد قوى خارجية ، كالاستعمار في « المصابيح الزرق » أو قوى الطبيعة في « الشراع والعاصفة » ، أو قوى اجتماعية أو مخاوف ذاتيه كما في « الثلج يأتي من النافذة » أو « الشمس في يوم غائم » ، فان « ثلاثية حكاية بحار » تنطوي على عديد من ألوان هذا الصراع ، في اطار جدل أشمل ، وهو ما سميته جدل العقل والطبيعة ، فقد لاحظت أن شخصية « سعيد حزوم » (وهي الشخصية المحورية في الثلاثية التي تتجسد فيها قوى الطبيعة بكل فطريتها ، وعنفوانها وتلقائيتها) تتحاور طوال رحلة حياتها ، وتتفاعل مع نوعين من الشخصيات ، شخصيات تنتمي الى مملكة العقل (بغض النظر عن « ايديولوجيتها ») ، مثل قاسم العبد ، وسيد الاسكندراني ، وجيمس الميكانيكي . وشخصيات تنتمي الى مملكة الطبيعة ، بما فيها من عنف العاطفة وغناها ، وجنون المغامرة ، مثل الكابتن ارتورا ، وعمر دندني ، ووليد ناهض . تقول شخصية سعيد حزوم : « إنني أفضل ارتورا المجنون على جيمس الميكانيكي ، ووليد ناهض المريض على أي سليم خارج هذا المستشفى ، فهؤلاء يجعلون الحياة ملونة » . لقد بدا لي في اطار هذه الرؤية أن هدف رحلة شخصية سعيد حزوم في بحثها عن الأب الذي لم يتحقق هو هدف الانسان في سعيه المستحيل أو الصعب من أجل الوصول الى حالة انسان يكتسب أروع ما في مملكة العقل ، دون أن يفقد ما يملكه بالفعل من مملكة الطبيعة من عنفوان المشاعر ، وبراءة التلقائية ، وجنون المغامرة ، وفي حلمه أن يكون قادرا على تحقيق العدالة والحرية ، دون أن يفقد القدرة على

امكانية رؤية عروس البحر التي نصفها انسان ونصفها سمكة ، والتي تؤكد شخصية جيمس الميكانيكي أنه لا وجود لها » .

هل تود التعليق على هذه الرؤية لثلاثية حكاية بحار ؟؟

- إنني مسرور إذ أراك كناقد ، تسلط أضواء على مسائل حساسة جدا في رواياتي ، ويمكنني في مجال التعليق أن أقول : إن الحياة تقوم بشكل جدلي ، والكاتب مهما تكن المدرسة التي ينتمي اليها يعود أولا وأخيرا الى الواقع ، فحتى في حالة انكار الواقع هناك واقع ، لأن هناك موقفا في نتيجة التحليل ، فأصحاب عدم المواقف لهم مواقف ، وعدم اعترافهم بهذا لا يغير من الأمر شيئا . وهنا أقول : ان ملاحظة هذه الجدلية في الأساس مسلم به ، انما تتنوع هذه الجدلية بتنوع المواقف والمواقع ، فالدكتورة نجاح قد كشفت عدة جدليات ، وفي سؤالك أشرت الى عدة جدليات أخرى خطيرة ، وهذا شيء مهم يجعلني سعيدا ، لأنني عندما كتبت عن الحياة كنت أمينا للصيرورة الاجتماعية والتاريخ التي تنطوي على جدليات كثيرة مستمرة ، لكني أريد أن أوضح هنا أن وجود هذه الجدليات في رواياتي لم يكن مقصودا ، فحين أكتب لا ألاحظ أنني أتناول وحدة المتناقضات ، إنما أعبر من خلال ذاتي ومن خلال المفهوم التاريخي الذي تشكل في هذه الذات ، فأصدر عن هذا التشكل في الذات الابداعية صدورا واعيا ، لكنه غير متعمد ، فهو ينتسب الى الوعي والى العفوية في وقت واحد ، وأعتقد أن في رواياتي جوانب مازالت خفيّة ويمكن أن يكتشفها الدارس ، وفي الحقيقة أنني أجد دائما من يبهرني باكتشاف نقاط جديدة ، لم أكن قد لاحظتها في أعمالي ، إن الروائي حين يكتب يتناول حدثا ، وكل حدث في الحقيقة ينطوي على « ايديولوجية » قديمة ، وبعضا في ايديولوجية جديدة ولهذا فليست هناك ايديولوجية نقية . وفي رواياتي ألاحظ أنه ليست هناك حقيقة لا يداخلها شك ، وليست هناك غاية لا يشوبها شائب من عدم الغائية أيضا . هناك وعي ، لكن هناك أيضا في داخل هذا الوعي عفوية أحيانا ، والانسان الصادق هو الذي ينطوي على هذه الثنائية ، ويصدر عنها ، دون أن يحاول قسرا أن ينفي الجانب الآخر ، ودون أن يخاف هذا الصراع الناجم عن هذه الثنائية ، فشخصية زكريا المارسيني في رواية « الياطر » قد تجاورت في داخلها هذه الثنائية ، الشراسة والطيبة ، فهي شخصية نصفها انسان ونصفها وحش .

تعليق :

إذا أذنت لي فانني أضيف هنا أن شخصية زكريا المارسيني في « الياطر » تعكس بقوة أيضا جدلية العقل والطبيعة ، فزكريا الذي كانت تتحكم فيه نزعاته وهواجسه وفرديته ، والذي كان يمارس الصيد للصيد ، فيصيد السمكة ليعيدها الى الماء ، والذي تغلب على الحوت في المرة الأولى بروح التحدي والمغالبة ، فهو بعد أن أحب شكيبة ، وروضته قليلا ، وبعد أن عاش بعمق الشعور بالوحدة في الغابة ، عاد الى المدينة ، ليصطاد الحوت الذي روع الأهالي في الميناء بدافعية جديدة ، وباحساس جديد بالانتماء للوطن وللجماعة ، وهذا تطور باتجاه نضج العقل ، دون تضحية بعنفوان الطبيعة وبكارة المشاعر !

لست كاتب جنس

● في دراسة عن ثلاثية حكاية بحار « للناقد فاروق عبد القادر » في مجلة الهلال يدين الناقد النظرة الى المرأة داخل الرواية ، ويرى فيها « تعهيرا » للمرأة ، كما يفسر تشابك العلاقات الجنسية بين الأب والابن وكاترين في ضوء المفهوم الفرويدي للجنس ، كما يرى - وأنا معه في هذا الرأي - أن هناك مبالغات في استعراض المواقف الجنسية ، لا تتطلبها الضرورة الفنية ، فهل من تعليق على هذا الرأي ؟

- لو كان هذا الرأي مساقا من خلال تحليل نقدي ، مبني على تشريح الحدث ، ومردودا بحق الى فرويد أو غيره من علماء النفس ، لما كان لي أي تعليق ، فمن عادتي أن أكتب ، وأدع ما تبقى للقراء والنقاد ، يرون فيه رأيهم ، مع احترامي لهذا الرأي ، إذا تناول الرواية ، من خلال النص تناولا فيه نقد حقيقي ، وموضوعي ، مهما كان قاسيا أو مخالفا لرأيي ، أما إذا كان النقد جملة كلمات ، تنتسب الى الشتيمة أكثر مما تنتسب الى الرأي ، وترمي الى مجرد الانتقاص فانني أبتسم باشفاق ، لأنه نقد مجاني ، لا شيء فيه يفيدني أو يفيد القراء .

وقد قرأت ما كتبه « فاروق عبد القادر » الذي سبق له أن استخف برواية « الباطر » عند صدورها ، فلم تحل « استخفافيته دون بروز هذه الرواية كأثر فني ، حاز على اعجاب شبه اجماعي ، ومازال موضع اطراء القراء وحفاوة النقاد ، ومنهم الناقد الكبير الاستاذ علي الراعي في مجلة « العربي » نفسها . وقد كان موقفي من « نقد » فاروق عبد القادر » هو الاهمال ، لأنه لا جديد فيه ، ولا شيء فيه يمت الى الموضوعية ، فهو كما يخيل اليّ لم يفهم « الباطر » ، كما لم يفهم ثلاثية « حكاية بحار » ، بسبب عدم معرفته بالبحر ، وتسطح تناوله الذي لا يعدو أن يكون تعليقا سريعا مجانبا للحقيقة خاليا من المنهجية .

أعود الى السؤال لأوضح مسألة هامة ، هي أنني لست كاتب جنس ، ولست في وارد الاثارة ، لكنني أكتب عن البحر ، والجنس ملازم للبحر مثل مائه وزبده ، وقد تكلم الطروسي في « الشراع والعاصفة » مع بحارته فقال لهم : اسمعوا ، للبحار في كل مرفأ امرأة وخمارة ، وهذا بمثابة قانون بحري ، ذلك أن البحار لا يمكن ان يكون قديسا ، ولا رجلا عاديا ، ونساء المرافىء لسن قديسات ، ولسن نساء عاديات ، وقد سبق لي في الجواب على السؤال الأول أن قلت انني قد عرفت البحر ، وكتبت عنه بأمانة ، ومن هذه الأمانة أن أرسم الشخصيات بكل عريها وقبحها ودناءتها ، وكذلك بكل شجاعتها ، واندفاعها وجرأتها ، وجمالها ، وشهامتها ، وتعاطيها ، مع التحدي الذي هو جزء من طبيعة العمل في المرفأ والبحر .

لقد حاولت في رواياتي أن أنصف المرأة ، فكانت صورتها دائما للبهاء وللجمال ، وإن كنت قد تحدثت عن المومسات ، فقد تحدثت عن جانب لم يتحدث عنه سواي بمثل هذه الصراحة ، وبمثل هذه الجرأة ، لأنه من الضروري أن نكسر هذا الحاجز الذي يحول بيننا وبين أن نتكلم في الجنس ، فالجنس الآن يعلم للطلاب في المدارس ، فلماذا نخشى في أدبنا أن نتناول هذا الجانب كما ينبغي . وتراثنا الشعري مليء بالوصف الفني للسلوك الجنسي ، وأمامك قصائد امرىء القيس ، وكتب الجاحظ ، والأغاني . فكيف نخشى الآن أن نتناول هذا الجانب ؟!

شخصيات متشابهة

* هناك فكرة تقول : ان الكاتب يكتب في حياته كلها رواية واحدة ، ثم تكون بقية أعماله تنويعات على الخطوط الأساسية في هذه الرواية . لقد دارت برأسي هذه الفكرة حين لاحظت أن العديد من الشخصيات ذات الطابع الواقعي التي وردت في ثلاثية « بقايا صور » ، و « المستنقع » ، و « القطاف » ، وهي نوع من السيرة الذاتية ، توشك أن تكون هي المادة الخام لبعض شخصيات ثلاثية « حكاية بحار » ، ذات الطابع الملحمي ، الأسطوري ، الواقعي أيضا . هل ترى أن هذه الملاحظة تحمل شيئا من الصحة ؟ واذا كانت كذلك فكيف تم تطوير شخصيات السيرة الذاتية ؟ وما هي الأسباب التي دعتك الى ذلك ؟

- الى حد ما هذا الاستنتاج بشكل عام صحيح ، لكنه يختلف في التفصيلات ، وهي هنا جوهرية الأشخاص الذين لقيتهم في حياتي ، وعرفتهم نماذج

متعددة ومتنوعة ، غنية وفقيرة ، شجاعة وجبانة . وسيكون من الطبيعي فيما بعد حين أتناول الحياة من حولي كنطف لأشكلها في شخصياتي الروائية أن تتداخل المعرفة والخبرة الذاتية الماضية مع التشكل الثقافي المكتسب ، ومن هنا يمكن أن يكون هناك بعض التشابه ، وبسبب أن ثلاثية السيرة الذاتية وثلاثية حكاية بحار تقومان على ظروف متشابهة ، سواء في عهد الاقطاع أو عهود رجال الصناعة ، فالأب في ثلاثية « بقايا صور » يعاني من جور الاقطاع ، وصالح حزوم (الأب) في « حكاية بحار » يعاني من ظلم أصحاب المراكب ، ومستودعات البضائع ، ومدراء السكك الحديدية . وفي مواجهة هذه الجور والظلم تتشابه ردود فعل الأب هنا والأب هناك ، وكذلك تجد في الثلاثيتين شخصيات متشابهة مثل فايز الشعلة وقاسم العبد ، فهما مناضلان يبشران بأفكار وطنية واجتماعية ويلاقيان مصيرا متقاربا .

ومن جهة أخرى ثمة شبه بين خيبة الأب في ثلاثية « بقايا صور » وخيبة سعيد حزوم (الابن) في ثلاثية « حكاية بحار » ، فكلاهما شبق رخو أمام المرأة ، مدمن على الخمر ، يتقلب في مزاجه وحياته ، ويترحل من مكان الى مكان ، دون عمل ثابت ، ودون استقرار مريح ، لأنهما يحملان في نفسيهما جوحا وحبا للسفر والمغامرة .

ولكن رغم هذا التشابه فان الشخصيات تختلف ، فشخصيات « حكاية بحار » ذات طابع ملحمي أسطوري ، لأنها شخصيات تعيش في البحر حياتها ، بينما عاشت شخصيات ثلاثية « بقايا صور » مشاكل البر في الحقول والمصانع ، فكانت لها السمات والملامح الواقعية .

أشرت الى التشابه بين شخصية الأب في ثلاثية سيرة الحياة والابن « سعيد حزوم » في ثلاثية « حكاية بحار » ، فهل كان تصوير شخصية سعيد حزوم بنفس مثالب الأب في ثلاثية السيرة الذاتية هو نوع من عقاب الابن (الكاتب) لنفسه من جراء شعور خفي بالذنب لقسوته الشديدة في تصوير شخصية الأب في واقع الحياة ؟

لا أظن أنني صورت شخصية سعيد حزوم بهذه الكيفية كنوع من العقاب بدافع الشعور الخفي بالذنب .

مشكلة سعيد حزوم أنه جاء ليخلف أباه كمناضل وبحار ، لكنه جاء في عصر تعقدت فيه مشكلة النضال ، وتعقدت مشكلة التحرر الوطني ، ووصل التعقد والتمزق الى كل الناس ، وحتى التقى سعيد حزوم البحار بوليد ناهض المثقف ، نتيجة هذا التعقد في مستشفى واحد للأمراض النفسية .

التجديد في الشكل الروائي

● ثمة ملاحظة نقدية تقول ان كل رواياتك كتبت في اطار تقاليد المدرسة الواقعية في الرواية ، وأنك لم تخض مغامرة التجديد في الشكل الروائي ، فهل لديك من تعليق ؟

ـ الملاحظة في شقها الأول صحيحة ، أعني انني كتبت كل رواياتي منطلقا من الواقعية كما بينت في الأجابة على السؤال السابق ، غير أنني على أرضية هذه الواقعية قد جددت في الشكل الروائي ، في غير إسراف ، وغير تعلق بالصرعات الروائية ، ودون محاولة للتقليد ، بحيث أضع مقدما تخطيطا لرواية اللارواية ، كما هو الحال عند آلان روب غرييه واناتولي ساروت أو غيرهما ، أو تخطيطا لرواية أقلد فيها أسلوب ماركيز صاحب « مئة عام من العزلة » أو غيره .

انني أرفض التجديد القائم على الصرعات والتقليد واللهاث وراء الابتكارات الشكلية ، وأعي دوري الروائي جيدا ، وفي اطاره أجدد ، وأضرب مثلا على تجديدي رواية « الياطر » المبنية كلها على « المونولوج » الداخلي ، فوق أرضية واقعية ، وروايتي « الشمس في يوم غائم » المبنية على الرمز

والأسطورة ، فوق أرضية واقعية أيضا ، وكذلك روايتي « مأساة ديمتريو » المؤسسة على كسر الزمن الروائي فوق أرضية واقعية أيضا . ومن هنا فان تجديدي يعطي إسهامه المتعدد ، بالاستناد الى الواقعية ، وهذا كاف بالنسبة لي .

استطرادات لالزوم لها

* ثمة ملاحظة أخرى تقول انه كان من الممكن أن تقدم بعض رواياتك الطويلة نسبيا في حجم أقل لو أنك تحررت من تقاليد المدرسة الواقعية ، وأن العديد من المواقف لا تضيف جديدا الى دلالات الرواية ، بل تكرر هذه الدلالات دون ضرورة .

- اني أتقبل هذه الملاحظة ، وأقر بصحتها لو أنني خرجت أو تعمدت الخروج على الواقعية ، لكن كبار الواقعيين مثل تولستوي ، وديكنز ، ودستويفسكي ، وغيرهم ، تنطوي أعمالهم على استطرادات ومواقف تحسب لأول وهلة بألا لزوم لها ، وأنها لا تقدم دلالة جديدة ، غير أن الرواية ككل كانت تتطلب التفصيلات الصغيرة ، وهذا ما نجده في رواياتي ، وهو ينسجم من المعمار الروائي ، ويحافظ في الوقت نفسه على الايقاع والتشويق ، فهذان العنصران هما اللذان يجعلان من الرواية رواية ومن القصة قصة ، ويحملان في نفس الوقت المتعة والقدرة على التوصيل .

* هل تضع رواية « الربيع والخريف » في اطار سيرتك الذاتية ، فتكون الجزء الرابع من رباعية سيرتك الذاتية ؟ وهل تعتقد أن الحب المستحيل في « الربيع والخريف ،» هو نفس الحب الذي حاول التحقق في « مأساة ديمتريو » ؟

- « الربيع والخريف » لا علاقة لها بسيرتي الذاتية ، انما قصة عربي يعيش في الغربة ، وينغمس في أخلاقياتها ، حتى يكاد يضيع ، ثم تأتي هزة حرب حزيران فيستفيق على واقعين فاجعين ، واقع الوطن العربي ، وواقعه الشخصي . فيقرر العودة الى الوطن رغم ما ينتظره من سجن فيه .

والحب في هذه الرواية يمارس من الناحية الجسدية ، لكنه يستحيل من ناحية الارتباط الزواجي ، لأن كرم المجاهدي كان يشغله هاجسان ، هاجس العودة ، وهاجس « جنية القمر » ، أو المرأة التي يعده بها المجهول ، ومن هنا فالافتراق بينه وبين الحب في « مأساة ديمتريو » الذي لا يتحقق بسبب الفروقات والظروف الاجتماعية .

و « ديمتريو » كان فنانا ، وقد أحب ، لكنه أنكر حبه ، أو قاومه ، ووجده غير ممكن ، بينما واقع الحياة قد قرر أن هذا الحب ممكن ، وألا داعي لمقاومته ، ونكرانه ، وهكذا تتشكل المأساة الناشئة عن محاولة يائسة فاشلة في إبطال قانون الطبيعة ، حين يكون قانونا فوق الارادة البشرية . □

■ يقولون لي : إذا رأيت عبدا نائما فلا توقظه ، لئلا يحلم بالحرية ،
وأقول لهم : إذا رأيت عبدا نائما أيقظته ، وحدثته عن الحرية
(جبران خليل جبران)

■ كلَّما أَنبتَ الزَّمانُ قَناةً رَكَّبَ المَرْءُ في القناةِ سِنانَا (شعر المتنبي)



الموسيقا العربية المعاصرة

متى يتم جمعها؟!

بقلم : سليم سحاب

منذ أمد قريب نسبيا بدأ العرب المعاصرون عبر النشاطات المبعثرة للمؤسسات الثقافية العامة والخاصة ، وعبر مخاض الوعي العربي الحضاري المعاصر الذي تعبر عنه أقلام المثقفين العرب هنا وهناك بكثير من الحماس والاندفاع،وبقليل من الثمار التأسيسية الخلاقة حتى الآن . . .

بدأ العرب المعاصرون يعون أنهم لا يضعون اليد على تراثهم الموسيقى القديم الذي تشير كل الشواهد التاريخية إلى عظمته المؤكدة إلا من خلال الأبحاث التاريخية النظرية ، مثل مؤلفات الفارابي ، والكندي ، وابن سينا ، والأرموي ، وغيرهم ، ومن خلال كتب التاريخ الحضاري الجامعة ، مثل « كتاب الأغاني » بشكل خاص .

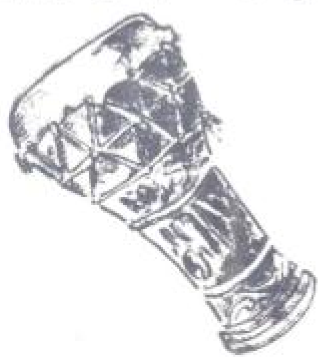
وبما أن فترات ازدهار الموسيقا العربية في صدر الاسلام ، ثم في العصر العباسي ، ثم في الأندلس ، لم تكن تعرف آلات التسجيل ولا التدوين الموسيقي الدقيق (بالنوطة) ، فإن اطلاعنا على هذا التراث الموسيقي العظيم الذي تأسست على جناحه الأندلسي كل بدايات النهضة الموسيقية في أوروبا ـ بشهادة كل الكتب الرصينة التي تؤرخ لأصول الموسيقا

الأوروبية ـ لايتجاوز الوصف : وصف مجالس الموسيقا والغناء ، ووصف بعض الألحان ، ومواضع الأصابع على العود عند العزف . وقد بذلت أكثر من محاولة لترجمة هذا الوصف إلى موسيقا حقيقية ، قابلة للعزف والاستماع ، إلا أن كل هذه المحاولات (على جرأتها) لم تعط ثمارا حقيقية حتى الآن . ومن أهم هذه المحاولات كتاب « كشف رموز كتاب الأغاني » .

من هنا يمكن القول أن تراثنا الموسيقي القديم العظيم لم يصلنا منه إلا وصفه النظري في بطون الكتب ، وشذرات يسيرة مما تبقى منه بالنقل الشفهي من جيل إلى جيل ، في بعض المواد الموسيقية التراثية ، سواء منها ما وصلنا بشكل أناشيد وتواشيح دينية ، أو بشكل تراث غنائي شعبي ، لكن حتى هذه الشذرات قليلة جدا ، ومبعثرة جدا ، وتفتقر حتى الآن إلى التحقيق العلمي الدقيق الذي يجمعها ، ويصنفها ، ويحدد مدى صحة علاقتها بأصولها التاريخية ونسبة ذلك ، لأن تناقل الألحان شفاهة من جيل إلى جيل من شأنه بعد مرور عشرات السنين بل مئات السنين أن يبتعد باللحن عن نغماته الأصلية ، ولا يحتفظ منه إلا بروحه العامة .

المشكلة الكبرى

هذه إذن مشكلة أساسية أولى في مجال جمع تراثنا الموسيقي ، وحفظه ، وتدوينه ولكنها المشكلة



الصغرى ، وأنا أقصد بهذا الكلام مقدمة للحديث عن المشكلة الكبرى ، وهي أنه إذا كان تراثنا الموسيقي القديم قد ضاع من أيدينا ، لأنه غير مسجل ، وغير مدون بالنوطة الموسيقية ، فإن تراثنا الموسيقي الحديث ، أي مجموع ما ألفه العرب من موسيقا وأغان في القرنين الأخيرين ـ وهو ثروة ثقافية هائلة ، محورها الأساسي ما أنتج في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتراث الموشحات المنتشرة بين حلب ومصر والمغرب العربي ـ معرض للتسرب من أيدينا ، ولضياع كثير من معالمه الأساسية مع مرور الزمن ، إذا استمر هذا التراث على وضعه الحالي من الاهمال في جمعه ، وفرزه ، وتصنيفه ، وتدوينه « بالنوطة » والتسجيلات الصوتية ، تدوينا علميا ، يثبت تاريخ كل عمل ، واسم مؤلف كلماته وملحنه ومغنيه .

ولو أردنا أن نرسم صورة موجزة دقيقة للوضع الحالي للتراث العربي المعاصر لأمكننا تحديد هذه الصورة بالعناصر التالية :

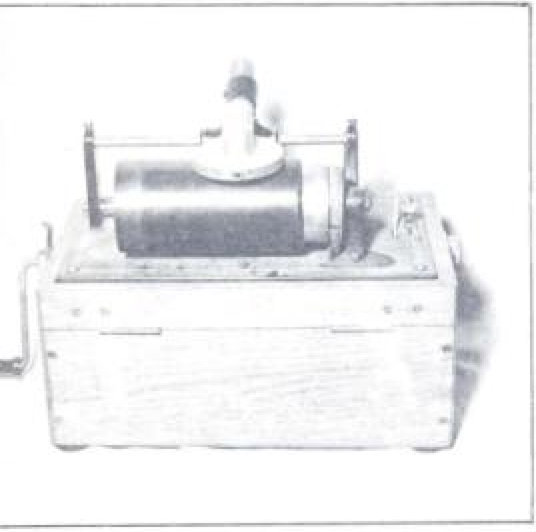
١ ـ التسجيلات الكاملة لهذا التراث غير موجودة في أي مكتبة موسيقية عربية ، بل هو مبعثر في عدة مكتبات ، أهمها إذاعة القاهرة ، وإذاعة دمشق ، وإذاعة بيروت .

أما ما هو متداول من هذا التراث على اسطوانات وأشرطة فهو أولا لايغطي إلا نصف القرن الأخير ، وهو مسجل على أساس تجاري ، بمعنى أنه انتقائي ، يحتفظ بأشياء ، ويهمل أشياء ، ثم ان تسجيلاته ـ في عدد كبير منها ـ مشوهة بالاختصار الذي تقتضيه متطلبات التجميع التجاري لأكبر عدد ممكن من الأعمال على شريط واحد ، أو بالتطويل ـ بإعادة تسجيل نفس القطعة عدة مرات على نفس الشريط ـ للأغراض التجارية نفسها ، إضافة إلى افتقار هذه المصنفات المسجلة ـ اسطوانات أو أشرطة ـ إلى المعلومات الأساسية حول كل عمل ، كاسم المؤلف

واسم الملحن ، واسم المغني ، وتاريخ العمل ، وتفاصيل عن العمل نفسه : كمقامه وشكله الموسيقي إلخ . .

٢ ـ أما من ناحية التدوين بالنوطة الموسيقية فمن المؤكد أن هذا النقص يكاد يشمل كل التراث العربي المعاصر ، المخضرم والوسيط والحديث فمن معزوفات أغاني محمد عبد الوهاب مثلا ، وهو أشهر موسيقي عربي معاصر ، مازال على قيد الحياة ـ بوسعنا الحصول على بعضها مسجلا ، لكن ليس بوسعنا الحصول على تدوين موسيقي كامل وسليم لأي منها ، كما أننا لو حاولنا الحصول على مصنف تاريخي كامل لأعمال محمد عبد الوهاب (مثلا) فلن نجد شيئا من هذا ، حتى في بيت عبدالوهاب نفسه ، ولا في أي مكتبة عربية . وإذا كان الأمر هذا يحدث لموسيقي ومغن مشهور مثل محمد عبد الوهاب ، وهو مازال على قيد الحياة ، فعلينا أن نتخيل مدى انتشار المأساة بالنسبة للملحنين والمغنين الآخرين ، ممن هم أقل شأنا وشهرة ، أو ممن قد رحلوا . والمأساة تبلغ مداها الكامل طبعا مع عباقرة الموسيقا العربية في القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، مثل عبده الحامولي ، ومحمد عثمان ، وكامل الخلعي ، وداوود حسني وسيد درويش ، وغيرهم .

٣ ـ حتى في معاهدنا الموسيقية ما زلنا حتى الآن لا نملك تصنيفا تاريخيا نهائيا محققا بالوسائل العلمية لتراثنا المعاصر . فموشح « لما بدا يتثنى » الذي قد يكون أشهر الموشحات العربية ، ينسب إلى أكثر من ملحن ، وأحيانا ينسب إلى التراث العام ، ولو حاولنا الحصول على مصنف كامل لأعمال عبده الحامولي مثلا ، أو محمد عثمان ـ في الغرب يمكن الحصول على مصنف كامل لأعمال موزار أو بتهوفن أو أي موسيقي آخر ـ لما وجدت شيئا من هذا القبيل ، حتى في المعاهد الموسيقية في القاهرة .



الفونوغراف . . جهاز استماع استخدم في أوائل القرن العشرين

أساليب انتقائية

٤ ـ هناك محاولات فردية تبذل لتدوين أجزاء من هذا التراث بالنوطة الموسيقية ، لكن هذا التدوين يحمل ثغرات هائلة ، تجعله يقصر كثيرا عن الغرض المطلوب :

أ ـ إن معظم التدوين المطبوع الموجود بين أيدي المهتمين قد تم بلا أي منهج ، وبأسلوب انتقائي محض ، وبروح ـ في الغالب ـ تجارية ، لدرجة أن كثيراً من هذه النماذج مليئة بالأخطاء الفاحشة أحيانا ، وتفتقر إلى كثير من الشروط حتى يمكن تحويلها إلى مراجع جدية للمادة الموسيقية المتعلقة بها .

ب ـ إن بعض هذه التدوينات الجادة (تدوين نوبات المالوف في تونس ، ومحاولة جمع تراث القرن التاسع عشر في مصر ، ومجهود الشيخ علي الدرويش في حلب ، وسليم الحلو في لبنان في جمع الموشحات وتدوينها ، إلى جانب المؤلف الضخم للفنان اللبناني نخلة القطريب الذي يحتوي على كمية ضخمة من

الموشحات ، إلى جانب دراسة بالغة الأهمية في السكك المقامية للموسيقى العربية) ، أقول إن بعض هذه التدوينات الجادة قدتم بطريقة تقريبية ، حيث تم تدوين الهيكل العام للحن نتيجة لانتهاج التطبيق الحرفي للأسلوب الاوروبي في التدوين) فاذا تم عزف اللحن وفقا لهذا التدوين جاء مشوها ، خاليا من الانعطافات والزخارف العربية الموجودة فيه أصلا ، والتي تعتبر أهم ما يميز الموسيقا العربية عن الموسيقا الأوروبية ، بالاضافة إلى أن المجهود الذي بذله سليم الحلو قد توقف بوفاته ، كما أنه في حوزة ابن الشيخ علي الدرويش ، الموسيقي الحلبي المعروف نديم الدرويش ، مجموعة ضخمة من الموشحات لم تنشر بعد لأسباب مالية أيضا وكذلك هي الحال في دراسة نخلة القطريب ، فيما اقتصر مجهود اللجنة الموسيقية العليا للحفاظ على التراث في مصر على أربعة مجلدات طبعت معظمها في الستينيات ، ثم توقف صدورها نهائيا ، واختفت من الأسواق حتى في مصر .

النقل الشفهي

خلاصة هذه المشكلة بكل تفرعاتها وتفاصيلها التي تعرضنا لها عرضا سريعا هي أننا نملك تراثا موسيقيا معاصرا ضخما ، دون أي مجهود لجمعه وفرزه وتصنيفه ، ناهيك عن دراسته واستخراج القواعد النظرية منه ، كما فعل الغرب بموسيقاه ، لاسيما في القرون الثلاثة الماضية ، مما يضيف إلى كل نواقص دراسة الموسيقا العربية في بلادنا نقصا هائلا ، وهو كونها بغير مراجع . حتى أن فرقة تراثية عربية كبيرة ـ كفرقة عبد الحليم نويرة ـ كانت وما زالت تعتمد على حفظ التراث بالنقل الشفهي ، وكذلك فعل الأستاذ توفيق الباشا في لبنان عندما جمع الموشحات من الحانات والمسارح الغنائية . الأمر الذي يفسر أحد أسباب العقد التي تدفع طلاب الموسيقا عندنا إلى الارتماء بسهولة في أحضان الموسيقا الاوروبية ، والوقوع في عقدة النقص تجاهها ، لأنها ـ بالاضافة إلى مادتها الفنية الغنية ـ معروضة أمام أي طالب موسيقا بأسهل وسائل التدوين العلمي الجاد وأدقها وأرقاها ، فيترسب في ذهن طالب الموسيقا العربي بأن موسيقاه « متخلفة » في مقابل الموسيقا الاوروبية المتقدمة .

اقتراحات عملية

إن الخوض في أي اقتراح عملي لسد كل هذه الثغرات منوط أولا وأخيرا بتصور الجهد الذي سيبذل في هذا المجال ، والامكانات المالية التي ستوضع في خدمته ، فمثل هذا العمل يمكن أن يحتاج إلى جهد من الأقطار العربية مجتمعة بكل طاقاتها في هذا المجال (موسيقيا وماليا) ، لأن أي انطلاق نحو سد الثغرات بأسلوب علمي وتاريخي وتأسيسي لابد أن يبدأ بتشكيل فرق كاملة ، تقوم بجمع المادة الموسيقية أولا ، ثم تصنيفها ، ثم الانطلاق لتسجيلها على أشرطة واسطوانات ، وتدوينها بالنوطة الموسيقية ، وهذا العمل قد يحتاج إلى عقدين من الزمن أو أكثر ، إذا انطلق العمل بزخم كامل وبغير انقطاع .

ومع ذلك ، واعتقادا منا بأن الجهود المتناثرة قد بذلت هنا وهناك واختصرت كثيراً من الجهد المطلوب



وإن كان ذلك قد تم بغير تنسيق حتى الآن بين شتى الأقطار العربية ، فإننا نقدم اقتراحا محدداً ، يمكن أن يكون بداية منهجية ، تتسع دائرتها كلما سمحت الامكانات والطموحات ، على أن يكون العنوان العام للاقتراح هو جمع ما تيسر من التراث وطبعه ، لكن بأسلوب منهجي دقيق صارم ، بحيث يظل النقص فقط في مدى اتساع تغطية ما سينشر (لأن هذه الثغرة تحتاج كما قلنا إلى عمل مؤسسي ، بالغ الضخامة ، طويل النفس ، هائل الامكانات المادية والبشرية) ، على أن يكون ما يصدر (على ضيق رقعته) مرجعا منهجيا لايرقى إليه أي شك علمي أو فني ، فيصبح مرجعا نهائيا للمادة الموسيقية التي يشملها .

ويمكن لعملية الجمع أن تتم وفق واحد من هذه الأساليب المنهجية :

أ ـ الجمع والتدوين وفقا للتسلسل الزمني العام .

ب ـ الجمع والتدوين وفقا لأعمال الفنان الواحد (مع مراعاة التسلسل الزمني في أعماله) .

ج ـ الجمع والتدوين وفقا لنوع المادة الموسيقية والغنائية نفسها (كالموشحات ، والأدوار ، والطقاطيق ، والقصائد ، والمعزوفات ، إلخ . .)

ونظرا للصعوبات التي يمكن أن تعترض هذه المناهج فاننا نتبنى أسلوباً أكثر يسراً ، لالشيء إلا لمراعاة الظروف العملية ، وهو أسلوب الجمع والتدوين وفقا للفنان الواحد ، ذلك أنه يمكن البدء بمجموعة من الفنانين الذين يجمعون بين القيمة الفنية الكبيرة وبين سهولة التحقق من أعمالهم كاملة ، وهؤلاء كثيرون حتى أن الانكباب على جمع أعمالهم وتدوينها سيشغل العاملين في هذا المشروع فترة طويلة ، وبخاصة إذا كانت دائرة المشتغلين في المشروع ضيقة ، على أمل أن يكون هذا العمل كلما اقترب من الحواجز الصعبة ، نجح في تحريك الهمم والحوافز ، لانتقاله إلى عمل مؤسسي على المستوى العربي عموما ، ذلك أن العمل بمنهاج التسلسل الزمني العام أو الشكل الموسيقي ـ موشحات ، وأدوار ، وقصائد ، إلخ ـ سيضطر العاملين في المشروع قطعا إلى توسيع دائرة التنقيب التأسيسي ـ قبل التدوين والنشر ـ بما نعتقد أنه يسبب صعوبات مالية وعملية إضافية لأي مشروع من هذا النوع ، إضافة إلى اعتقادنا بأن الجمع وفقا لاسم الفنان قد يدعم المشروع بفعالية أكبر في مجال التسويق التجاري ، لأنه سيعتمد ـ لاسيما في البداية ، وهي طويلة ـ على الأسماء اللامعة ، مثل محمد عبدالوهاب ، وسيد درويش ، ومحمد القصبجي ، ورياض السنباطي ، وزكريا أحمد ، وغيرهم .

طريقة التنفيذ

إذا اعتمدنا هذا الأسلوب فإن تنفيذه يمكن أن يتم وفقا للشكل التالي :

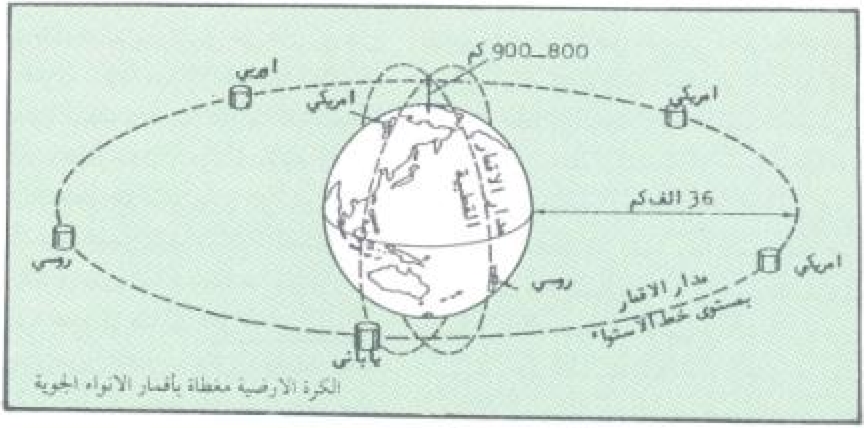
أ ـ جمع مادة الفنان الذي سيبدأ المشروع به كاملة .

ب ـ فرز هذه المادة وفقا لتسلسلها الزمني ، ووفقا لشكلها ، أو نوعها الموسيقي ، أو الغنائي .

ج ـ تقسيم هذه الأعمال على مجلدات تصدر تباعا ، بحيث يحمل النوطة الكاملة للعمل الفني ، مع تحليل مركز للشكل الموسيقي المتبع فيه ، وطريقة العزف ، والتوزيع ، مع تحديد مؤكد لتاريخه .

أما إذا كان الاختيار سيقع على أحد المنهجين الآخرين اللذين لكل منهما أفضلياته ومزاياه الكثيرة ـ وقد يعكسان على المشروع مزيدا من الهيبة العلمية ـ فيمكن تطبيق التفاصيل نفسها بالتسلسل نفسه : الجمع فالفرز ، فالتدوين فالنشر .

مع ملاحظة نهائية أساسية وهي أن يتم التدوين بمنطق الحرص العام على المحافظة على روح المقطوعة المدونة كاملة ، بحيث تخرج عند تأديتها ، وفقا للنوطة المدونة ، مطابقة تماما لروح المقطوعة كما سجلها صاحبها وكما عزفها ، في الروح والتفاصيل ، مهما كلف ذلك من جهد إضافي . □



الكرة الأرضية مغطاة بأقمار الأنواء الجوية

التنبؤ بالأحوال الجوية عبر الأقمار الصناعية

بقلم : طاهر سكر القيسي

التنبؤ بالأحوال الجوية ودراسة الطبيعة إضافة إلى الاتصالات ، هي السمات الانسانية التي أفرزتها علوم الفضاء لخدمة البشرية . آلاف التقارير الجوية ترسلها الأقمار كل يوم إلى الأرض .

فكيف يتم ذلك ؟ وأي تنظيم ينسقه ؟

ليس جديداً أن يهتم الانسان بالمناخ أو الطبيعة ، فالفصول الأربعة وأجواؤها معروفة له منذ الأزل ، يحددها ويتوقعها ، فيكيف نفسه مع كل منها ، كذلك الحالة الجوية لأيام قريبة منه لم يهملها ، نظرة فاحصة منه للنجوم في الليل ، ومحاولة استقراء الفضاء القريب منه ، تساعده على التنبؤ ، كيف سيكون الطقس غدا ، إلا أن الأمر لم يبق على هذه البدائية الآن في خضم هذا التطور الهائل ، فالأقمار الصناعية أخذت على عاتقها هذه المسؤولية .

يعتمد نظام التنبؤ بالأحوال الجوية على ثلاث شبكات رئيسية ، تشكل وحدة متكاملة : شبكة من الأقمار الصناعية إحداها تدور في مدارات قطبية ، والأخرى تدور في مدارات استوائية ، وشبكة جمع المعلومات والبيانات ، ثم شبكة للاستلام أو المحطات المستفيدة .

شبكة جمع البيانات

تقوم بجمع البيانات والمعلومات المصاحبة للتغيرات الجوية التي تحدث قريبا من سطح الأرض ، وعلى ارتفاعات معينة ، كحركة التيارات المائية ، وحرارة سطوح المياه ، وبعض متغيرات الرياح كالسرعة والاتجاه ، وتساقط الأمطار ، وانعكاس الشعاع الشمسي من الأرض الى القمر ، وغير ذلك ، وبوافي القمر بكل هذه البيانات أولا بأول ، إضافة لما سجله هو . وعناصر هذه الشبكة منتشرة في مواقع مختلفة من الكرة الأرضية ، تحمل على متنها معدات وأجهزة تسجيل لذلك ، منها مناطيد محلقة على ارتفاعات معينة ، وطائرات وبواخر تجارية ، وطوافات عائمة على سطوح البحار والمحيطات ، وطائرات تقوم بإلقاء مظلات خاصة لهذا الغرض ، ومحطات مائية ، إضافة إلى المحطات الأرضية الثابتة . وجميع عناصر هذه الشبكة مهما كان اتجاه حركتها تقع باستمرار ضمن المجال الجوي لرصد الأقمار . فمثلا برنامج (اسدار) الأمريكي له أجهزة علمية خاصة بالطبيعة والمناخ ، موضوعة على عشرين طائرة ضخمة من نوع (جامبو ٧٤٧) ، تقوم بتسجيل ثمانية تقارير كل ساعة عن الحالة الجوية ، وترسلها إلى القمر الذي تقع ضمن مجال تغطيته ، لينقلها بدوره إلى محطات الدراسة والتحليل الأرضية ، ويصل في اليوم الواحد ما بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ تقرير من كل قمر .

شبكة الأقمار

يملكها كيان شبه دولي ، هدفه دراسة الطبيعة والمناخ ، ومعرفة بعض من أسرار الغلاف الجوي ، فما يزال تفسير بعض الظواهر الطقسية والمناخية مبهما ، ومن جانب آخر ما تزال أيضا المناطق القارية ومناطق نصف الكرة الجنوبي دون دراسة ، ومعلوماتها المناخية فقيرة إلى حد ما ، ولما كانت تلعب دورا مهما في مناخ نصف الكرة الشمالي وطقسه أضحى شمولها بهذه الشبكة ضروريا . وحتى الثمانينيات كانت هذه الشبكة مؤلفة من تسعة أقمار : أربعة منها في مدارات قطبية ، تدور حول الأرض من قطب إلى قطب ، مساهمة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، إلا أن عددها قد قلص أخيرا إلى قمرين ، أحدهما أمريكي والآخر سوفيتي ، أما الأقمار الخمسة الأخرى ففي مدارات أستوائية ، بمستوى خط الاستواء ، وهي العنصر الفعال في هذه الشبكة حتى عام ١٩٨٤م ، كان لأمريكا ثلاثة منها ، وواحد لليابان وآخر لوكالة الفضاء الأوروبية ، (أيسا) إلا أنه ـ فيما بعد ـ أستبدل القمر الأمريكي الذي كان يغطي منطقة المحيط الهندي بآخر سوفيتي ، والنظام الذي تعمل على أساسه هذه الأقمار يكاد يكون متشابها ، وعلى الرغم من الاختلاف النسبي في برنامج كل قمر إلا أن النتائج واحدة ، فالقمر الأوروبي المسمى (ميتوسات) يمكن اعتباره نموذجاً للأقمار الأخرى .

القمر الأوروبي ميتوسات

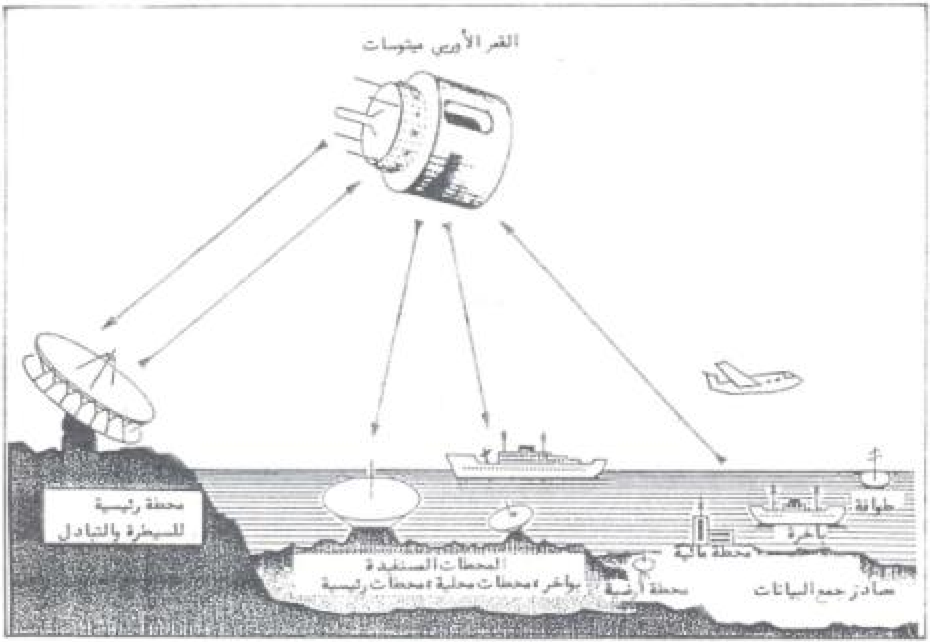
واحد من سلسلة أولها بدأ العمل بعد ساعات من إطلاقه في ٢٢ نوفمبر ١٩٧٧ ، ثم أطلق ميتوسات (٢) ليحل محل الأول في يونيو ١٩٨١ ، وأطلق الثالث في وقت مبكر من هذا العام ليحل محل الثاني ، على أن تبقى هذه السلسلة من الأقمار في الخدمة حتى عام ١٩٩٥م على أدنى تقدير بعد تعزيزها بثلاثة أقمار جديدة أخرى ، الأول منها سيطلق في سبتمبر ١٩٨٧ ، ويلحقه الثاني في أواخر عام ١٩٨٨م ، ثم يتبعهما الثالث في نهاية عام ١٩٩٠م .

ويستفيد من خدمات هذه السلسلة عدد كبير من الدول إضافة إلى نادي ميتوسات المكون من ١٦ دولة أوروبية . يدور القمر دورة كاملة حول الأرض كل ٢٤ ساعة ، وهو نفس زمن دوران الأرض حول نفسها ، أي أن له نفس السرعة والزاوية ، فيبدو للراصد على الأرض كأن القمر ثابت ، وهذا

التساوي في السرعة يمكن القمر من ملاحقة الأرض ومتابعتها ومراقبتها باستمرار من مداره الذي يرتفع ٣٦ ألف كم على خط الاستواء ، ويزن القمر ٣٢٠ كغم ، منها ٣٩ كغم من الوقود ، وعمره بحدود ٥ سنوات ، وأهم الأجهزة التي يحملها جهاز تحليل بثلاث قنوات ، إحداها للأشعة تحت الحمراء ، وقناة بخار الماء ، وأخرى للأشعة المرئية ، ويؤدي القمر مهمات متنوعة ، فهو أولا يقوم بإعادة وعكس كل ما يستلمه من محطات الرصد إلى أجزاء متفرقة من الكرة الأرضية عبر شبكة الاستلام ، وذلك لاعطائها فكرة عما يحدث هنا وهناك من تقلبات جوية ،وتزويد الأرض بالبيانات التي سجلتها قنواته لتوزع على المستفيدين بالاضافة إلى سبعة مراكز مختلفة للأنواء الجوية ، ثلاثة منها في الولايات المتحدة ، واثنان في المانيا ، وواحد في فرنسا وآخر في اليابان،ومن خلال هذه المراكز تسلك البيانات المناخية طريقها إلى أكثر من ١٠٠ محطة أخرى في مناطق متفرقة من العالم ، أما عملية تصوير الأرض فهي المهمة الثالثة للقمر الذي يعطي صورة للأرض ، واضحة المعالم ، كل نصف ساعة تقريبا ويقدر عدد الصور المرسلة إلى الأرض عن الأرض في اليوم الواحد بثلاثين صورة من كل قمر ، والصورة الواحدة تغطي ما مساحته ١٦٠×١٦٠ كم مربعا ، وباللونين الأبيض والأسود ودرجاتها ، وقناة الأشعة تحت الحمراء تقوم بقياس وتسجيل الاشعاع الحراري المنبعث والمنعكس من الأرض ، فاللون المظلم يمثل مناطق دافئة كاليابسة والمحيطات ، والغيوم المنخفضة ، أما اللون المضيء من نفس القناة فيمثل مناطق باردة غالباً ما تكون مغطاة بغيوم شاهقة ، ويعين ارتفاعها عند مرور الأشعة من خلالها في طريقها إلى قناة القمر ، أما قناة بخار الماء فتقوم بقياس كمية الاشعاع الحراري المنبعث أساسا من بخار الماء في الجو ، وعند طبقة «التروبوسفير»على الأخص ،بالتالي يتم تحديد نسبة الرطوبة ، فالمناطق المظلمة بالنسبة لهذه القناة توضح أقاليم ذات إشعاع حراري عال نسبيا ، أي رطوبة منخفضة ، في حين أن الأقاليم المضيئة ذات اشعاع أقل ورطوبة عالية ، وقناة الأشعة المرئية تصور ما يمكنها مشاهدته من الأرض اليابسة والماء ، وتجمع الصور المرسلة في القمر فتنظم بترتيب تسلسلها والتقاطها ، مبينا فيها السواحل كمنطلق لتحليلها ودراستها ، لتعطي صورة كبيرة متكاملة متجانسة واضحة للمنطقة المصورة ، ومنها يتم تحديد سرعة الرياح واتجاه حركتها ، وكذلك الغيوم التي تظهر جلية في الصورة المتكاملة التي سرعان ما تنقل على شرائط مغناطيسية لاستخدامات أخرى متنوعة في الزراعة ، وعلم المحيطات ، وعلم المياه ، وغيرها ، والنسخ الملونة من الصور في غاية الجمال ، ففي قاعة الاستقبال الخارجية لمركز بحوث الفضاء التابع (لأيسا) بهولندا ، يمكن للزائر أن يمتع نظره بصور حية متواصلة ملونة للأرض ، يرسلها القمر (ميتوسات) بين فترة وأخرى ، من خلال جهاز تلفاز كبير ، موضوع في أحد أركان القاعة .

شبكة الاستلام

بعض عناصرها يستلم المعلومات مباشرة من القمر الذي تزود بها من مصادر جمع البيانات ، وغالبا ما تكون الأساطيل الجوية والبحرية عناصر مستلمة ومستفيدة من هذه الخدمة المباشرة لأهميتها القصوى في ملاحتها ، بينما تشكل المحطات الثابتة المحلية منها والرئيسية العنصر الأساسي في هذه الشبكة ، فتقوم باستلام البيانات التي سجلتها قنوات القمر والصور المرسلة منه ، فتنجز عملية ترجمتها إلى واقع ، ومن ثم تفسيرها قبل توزيعها إلى نقاط أخرى ، ويمكن اعتبار جامعة دوندى في أسكتلندة ، وجامعة وسكونسن ، ومختبر الطبيعة والمناخ في باريس ، ومركز عمليات الفضاء الأوروبي بالمانيا ، ومركز الطبيعة والمناخ في اليابان ، أهم تلك النقاط .



نظام شبكات الانواء الجوية يمثل ميتوسات كنموذج للاقمار الاخرى

الخلاصة

إضافة إلى وسائل الاعلام ، من صحافة وتلفاز ومذياع تواجهنا كل يوم نشرات جوية.

كل شبكة من الشبكات الثلاث تكمل الأخرى ، لتكون نظاما متكاملا ، إذ أن عملية الصور تتم بعد مقارنتها ومطابقتها مع بياناتها المسجلة من مصادر جمع البيانات ، فوجود صورة وتوفر معلومات عنها يمكن من تحليلها بسهولة ، فالصورة الواحدة الكبيرة الشاملة التي تغطي - مثلا - المنطقة المحصورة بين الساحل الغربي الأمريكي والبنغال لاتدرك تفاصيلها إلا بالتحليل بعد تكامل المعلومات وموقع القمر ، وارتفاع مداره وسرعتي دورانه حول الأرض وحول نفسه من العوامل المهمة في نجاح مهمته ، ويبدو أن النفط والمنازعات والحروب والسياسية والعنف في آسيا كل ذلك لم يعد له تأثير كاف على العالم ، فمراكز التحليل والدراسة تولي اهتماما كبيرا لمنطقة المحيط الهندي لوجود تيارات الرياح الموسمية هناك وهي التي تغطي أجزاء كبيرة من آسيا ، فتؤثر إلى حد كبير في أجزاء أخرى من العالم ! فهل هناك ترابط ؟! □

!

■ إن العبد الحقيقي هو ذلك الذي لايستطيع أن يصرح بآرائه .

(يوربيديس)

كيف يصبح الأدب عالمياً؟

فن القصة المعاصر في امريكا اللاتينية

بقلم : الدكتور حامد أبو أحمد

« يبدو أن كل مايدهشنا لسنوات طويلة مقبلة سيأتي من أمريكا اللاتينية ، هذه القارة المتفجرة الساخنة الملتهبة . عن ملامح فن القصة الذي ينتسب الى هذه القارة ، والذي يغزو العالم كله ، يقدم هذا المقال رؤ ية جديدة وتحليلا نقديا » .

تعرض فن القصة في أمريكا اللاتينية خلال الأربعين عاما الأخيرة لعملية تغير عميقة وحاسمة ، حولته بصورة جذرية من فن اقليمي محلي الى فن باهر ، يجذب أنظار القراء والنقاد في شتى بقاع العالم . وقد بدأ هذا التغيير الكبير في عقد الاربعينيات من هذا القرن ، ومن ثم فان النقاد في أمريكا اللاتينية يعتبرون هذا العقد بمثابة الخط الفاصل بين القصة ذات الطابع التقليدي التي كانت سائدة من قبل في هذه القارة ، وبين القصة الجديدة ذات التقنيات الثورية والتجريبية التي ما زلنا نشهد آثارها حتى الآن .

كان عقد الاربعينيات اذن هو الذي شهد بداية هذه الحركة التي استهدفت القيام بعملية تجديد شاملة ، في بناء النوع الأدبي المعروف بفن القصة ، وفي أسلوبه بعامة . ومثلما يبدأ كل جديد برفض الأساليب القديمة فقد بدأت الحركة التجديدية في أمريكا اللاتينية برفض الأساليب والتقنيات المستهلكة ، التي كانت متمثلة في التيار الاجتماعي ، أو الواقعي الذي يعبر عن الواقع بطريقة سطحية ، اقليمية ، تاريخية ، سياسية متصلة بالعادات ، أكثر من اتصالها بالقيم الانسانية الحقيقية ، أو متمثلة في القصص ذات الاتجاه النفسي ، أو تلك التي كانت مغرقة في « الفانتازيا » (شطحات الخيال أو الوهم) . كان الرفض موجها لوجهة النظر القديمة .

والجدير بالذكر أن هذه الحركة التجديدية في أمريكا اللاتينية قد تواكبت مع حركة التجديد العالمية في فن القصة ، أو ماسمي القصة الجديدة التي كان من أبرز أعلامها في القارة الأوروبية ميشيل بوتور ، وألن روب جرويية ، وناتالي ساروت . لكن ثمة فارقا كبيرا بين الحركة التجديدية (في ذلك الوقت)

في أوروبا والحركة التجديدية في أمريكا اللاتينية ، وهو أن الأولى كانت حركة شكلية صارمة ، بينما ظل البعد الاجتماعي ـ ومازال ـ نابضا في أعمال قصاصي أمريكا اللاتينية .

وأبرز ممثلي هذه الحركة التجديدية في الأربعينيات هم خورخي لويس بورخيس ، وأليخو كاربنتير ، وماريشال ، ويانيس ، وميجيل آنخل أستورياس . ولعل الأخير هو أبرز هذه المجموعة . فقد كانت قصته المشهورة « سيدي الرئيس » تحمل تجديدا أسلوبيا جذريا في المفهوم ، وفي العرض القصصي . ثم كانت قصته « رجال من الذرة » التي نشرت عام ١٩٤٩ تمثل التغير والتجديد . ولذلك تحدث النقاد في العدد الذي خصص لهذا الكاتب من « مجلة أمريكا اللاتينية » (عدد ٦٧ . يناير ـ أبريل ١٩٦٩) وقالوا بأن ميجيل آنخل أستورياس هو الخط الفاصل في الفن القصصي في هذه القارة وأصبح الناس يتحدثون عن القصة قبله ، والقصة بعده .

اتجاهات التجديد

حاول بعض النقاد رصد ظواهر التجديد عن طريق تقسيم الكتاب الى أجيال . فالناقد المكسيكي خوسية لويس مارتنيث في مقال له عام ١٩٦٩ قسمهم الى خمسة أجيال ، في اطار زمني يقل قليلا عن خمسين عاما . والقصاص الناقد البيرواني ماريو فارجاس أيوسا في مقال له بالانجليزية ظهر في ملحق التايمز الأدبي في لندن عام ١٩٦٨ قسمهم الى جيلين : جيل الرواد ، وجيل الكتاب الحاليين . بينما رأى بعض النقاد في السبعينيات أن كتاب القصة منذ ميجيل آنخل أستورياس حتى وقتهم يمثلون جيلا واحدا ، يتفرع الى فروع متعددة . ورأى الناقد رود ريجيت مونيجال أن يتخلى عن عملية التقسيم الى أجيال ، وجنح الى وضع عمليات التجديد في محور رئيسي مركزي ، تدور حوله مجموعة من الاتجاهات ، وهذا التقسيم حظي بتأييد جمهرة النقاد ، ومن ثم أصبح الاتجاه السائد هو تقسيم الحركات التجديدية الى أربعة اتجاهات رئيسية هي : ١ ـ الواقعية الاجتماعية . ٢ ـ الواقعية النفسية . ٣ ـ الواقعية السحرية . ٤ ـ الواقعية البنائية .

أما الواقعية الاجتماعية فتعد الامتداد الطبيعي للواقعية السابقة ، مع الاختلافات العميقة التي جاءت بها عمليات التجديد ، مثل عمق الفكرة ، وثورية اللغة ، وتأنق الأسلوب . والنماذج المفضلة عند كتاب أمريكا اللاتينية كانت ـ ومازالت ـ من الفرنسيين مثل اميل زولا ، ودي بلزاك ، ومن الاسبان كلارين وجالدوس . وأبرز ممثلي الاتجاه الجديد من الأجيال المختلفة منذ الاربعينيات حتى الآن هم خوسية ماريا أرجيداس ، وكارولوس فوينتيس ، وماريو فارجاس ايوسا .

أما الاتجاهات الثلاثة الأخرى فقد كانت ـ ومازالت ـ نماذجها المفضلة من كتاب القصة العالميين هي : فلوبير ، وديستويفسكي ، وكافكا ، ومارسيل بروست ، والدوس هيكسلي ، وجميس جويس ، وفرجينيا وولف ، وجان بول سارتر ، وألبير كامي ، وأندريه جيد ، ومالرو ، وهيمنجواي ، وفوكنر ، وناتالي ساروت ، وميشيل بوتور ، وكلودسيمون ، وألن روب جرييه . وهؤلاء هم كتاب القصة العالميون الذين أحدثوا ثورات وتغييرات متعاقبة وبارزة في هذا الفن من فنون الكتابة الذي أصبح يشكل العمود الفقري للانواع الأدبية في عصرنا الحاضر .

ويتميز الاتجاه النفسي بخصائص عالمية معروفة ، هي استخدام تقنيات مرتبطة بالحلم ، والتعبير عن اللاشعور ، وتيار الوعي ، والخيال الجامح ، واستبطان الذات . وقد استطاع كتاب أمريكا اللاتينية أن يطوروا هذا الاتجاه ، وأن يصبغوه بصبغة واقعية ، تتجاوز التعبير عن تيار الوعي في حد ذاته الى التعبير عن القضايا الملحة في المجتمع ، في اطار تقنيات هذا الاتجاه . ومن أبرز من مثلوا هذا الاتجاه من قصاصي بلدان أمريكا اللاتينية أدولفو

بيوكاساريس ، وخوسيه روبن رميرو وبيدورو برادو ، وادوارد باربوس ، والأرجنتيني المشهور خورخي لويس بورخيس صاحب كتاب « الألف » الذي كان مجمع ثقافات متباينة ، وصاحب معارف واسعة ، منها الثقافة العربية . وقد استطاع قلمه المبدع أن يمزج بين كل هذه المعارف ، في أسلوب رائع شيق ، واكتسب بذلك شهرة عالمية ، لاتقل عن شهرة أعظم كتاب القارة الأوروبية . وهناك كتاب آخرون ينسبون لهذا الاتجاه منهم كتاب مشهورون مثل خوان كارلوس أونيتي ، وخوسية دونوسو ، وارنستو ساباتو .

واقعية اللاعقل

ومن أبرز اتجاهات فن القصص الأخيرة في أمريكا اللاتينية اتجاه « الواقعية السحرية » التي اشتهرت عالميا على يد الكاتب الكولومبي جابرييل جارثيا ماركيز ، وهناك آخرون قد برزوا أيضا في هذا الاتجاه ، وحازوا شهرة عالمية ، مثل ميجيل آنخل أستورياس المذكور ، صاحب قصة « سيدي الرئيس » ، وخوان رولف ، وأليخو كاربنتير ، وخوليو كورتاثار . وهذا الاتجاه يمزج بين الواقع والسحر ، أو الوقائع الغريبة التي تخرق نواميس الطبيعة . يقول جارثيا ماركيز في المحادثات التي أجراها معه صديقه بلينيو منيدوسا ونشرت عام ١٩٨٢ : « لقد بدأ اهتمامي بفن القصة ذات ليلة كنت أقرأ فيها قصة « المسخ » METAMORFOSIS لكافكا ، فقرات في أولها هذه الجملة : عندما استيقظ جريجور سامسا ذات صباح ، بعد حلم مقلق ، وجد نفسه في سريره قد تحول الى حشرة هائلة ، عندئذ أغلقت الكتاب مرتعدا ، قائلا في نفسي : ياللهول ، هل يمكن أن يحدث هذا ، وفي اليوم التالي مباشرة كتبت أول قصة لي » . وقد ذكر جارثيا ماكيز في هذه الأحاديث ، وفي أحاديث أخرى كثيرة أنه تأثر بـ « حواديت » جدته التي كانت تحكي له أشياء شديدة الغرابة ، دون أن تتأثر أو تهتز ، وكأنها تحكي عن أمور طبيعية جدا وعادية ، كما ذكر أيضا أنه تأثر بقصص « ألف ليلة وليلة » ، وعندما سئل لماذا اختار الواقعية السحرية بالذات أجاب بأن الواقع في أمريكا اللاتينية يموج بأشياء غريبة ، لايصدقها عقل ، وضرب مثالا لذلك بما جاء في مخطوطات رحالة أمريكي ، هو أوب دي جراف الذي قام في نهايات القرن الماضي برحلة لمنطقة الأمازون ، شاهد فيها ـ مما شاهد ـ مجرى مائيا تغلي مياهه ، ومكانا يؤدي فيه صوت الانسان الى حدوث وابل من المياه ، كما أشار ماركيز الى الحادثة التي وقعت في احدى المناطق الجنوبية النائية في الأرجنتين ، عندما حملت الرياح الى البحر « سيركا » برمته ، وفي اليوم التالي عثر الصيادون في شباكهم على جثث الأسود والزرافات .. الخ . لكن جارثيا ماركيز بالرغم من تعبيره في قصصه عن هذا الاتجاه السحري يعود فيؤكد في المحادثات المذكورة أن قصصه ليس فيها سطر واحد غير قائم على أساس من الواقع . وبهذا استطاع جارثيا ماركيز وخوليو كورتاثار وممثلو هذا الاتجاه الآخرون أن يمزجوا بين الواقع والسحر في أسلوب جديد ، لفت أنظار العالم اليهم ، حتى غدوا أشهر الكتاب العالميين خلال العقود الأخيرة .

وقبل أن نتناول الاتجاه الرابع ، وهو « الواقعية البنائية » ، نحب أن نؤكد على أن الكاتب الواحد من هؤلاء يمكن أن تكون له مساهمات في أكثر من اتجاه ، ومن ثم فاننا سوف نجد خوليو كورتاثار وجارثيا ماركيز وماريو فارجاس أيوسا أيضا من أبرز ممثلي الاتجاه الأخير الذي يتميز بأنه أكثر ثورية وانطلاقا في تقنياته وتجديداته ، وهناك أسماء أخرى برزت في هذا الاتجاه ، مثل أوجستو رواباستوس ، وكارلوس مارتينيث مورينو ، وجيرمو كابريرا انفانتي ، ونستور سانشز ، وسواهم .

والاتجاه « الواقعية البنائية » أكثر جرأة في تجديداته ، ويعتمد اعتمادا كبيرا على

« التجريب » ، حتى اذا أخذت التجربة شكلها الخاص ، ووصلت الى نضجها المطلوب ، وأصالتها المستهدفة ، استقرت كشكل جديد ، وأصبح لها تأثير واضح في الساحة الثقافية ، ويبنى هذا الاتجاه على أساس الاتجاهات السابقة التي مثلت علامات بارزة للتطور في هذا الفن منذ الاربعينيات حتى الآن ، ويحاول هذا الاتجاه رصد الواقع من أي منظور ، ومن أي جانب ، سواء من الداخل أم من الخارج ، ومن المنظور المستقيم أو المعكوس ، كل هذا في لغة جديدة ، وأساليب متطورة وتقنيات مختلفة . ويحاول الكتاب تسليط رؤيتهم للواقع من وجهات نظر متباينة وجديدة ، مثل الوضع اللغوي للقاص ، وجوانب الشخصية ، وترتيب الأحداث ، ويستعينون على ذلك بالأدوات الجديدة التي خولها لهم ذلك التطور المذهل في علوم اللغة الذي حدث في أوروبا وأمريكا خلال العشرين عاما الأخيرة ، ولايحاول كتاب هذا النوع تقديم الواقع في صورته البسيطة المتسلسلة ، أو يتبعون الترتيب المنطقي للحكاية ، وانما يقدمون الواقع عن طريق الضربات العنيفة ببعض النقاط الرئيسة والرمزية لهذا الواقع نفسه ، مع تداخل عناصر أخرى متعددة للزمان والمكان وتيار الوعي .

تجليات الواقعية البنائية

لقد رصد النقاد في أمريكا اللاتينية مجموعة من الأشكال ، تظهر فيها تجليات هذا الاتجاه الذي أصبح يمثل التيار الرئيسي لفن القصة في هذه القارة خلال السنوات الأخيرة ، ومن أهم الأشكال الجديدة مايلي :

١ ـ التعبير عن القبح : ويتمثل في استخدام الكلمات ، والجمل العادية الشائعة على ألسنة العامة ، تلك التي يأنف منها الحس البرجوازي المتأنق . وقد دخلت هذه الكلمات والتعبيرات العادية في نسيج الأسلوب القصصي ، بهدف جمالي جديد ، يستهدف غرس رؤية جديدة للواقع وللانسان وللعالم . ويكاد يشبه هذا الاتجاه ماعرف في الأدب العالمي في نهايات القرن الماضي باسم الطبيعية التي كان أبرز ممثليها في فرنسا الكاتب الشهير اميل زولا ، وهذا الاتجاه يعكس الطبيعة الانسانية بحالتها الواقعية التي تبرز في تصرفات الانسان العارية من أي تزويق أو تنميق ، وان كان هذا الاتجاه الآن في أمريكا اللاتينية يختلف عن الاتجاه السابق كثيرا ، من جهة الأسلوب والفنية « التكنيك » واللغة ، وما الى ذلك مما تحدثنا عنه فيما سلف . وقد لقي هذا الاتجاه هجوما عنيفا من جانب عدد كبير من النقاد الذين وصفوه بالقبح والابتذال ، لكن المدافعين عنه يقولون ان هؤلاء لم يدروا القوة التعبيرية الكامنة فيه ، لاظهار بعد جديد من ابعاد الواقع .

٢ ـ ومن الاتجاهات التجريبية الحالية الاتجاه الذي يتعامل مع اللغة الحية وكأنه في معمل ، ويرى هؤلاء أن اللغة هي المادة الأولى للعمل ، وهي لحمته وسداه ، وفيها يتركز كل الخطاب الادبي ، ورسالة القص وهدفه . انهم يعملون من أجل اعادة ابداع الكلمة كهدف في حد ذاته وليس بصفتها وسيلة أو أداة للعمل الأدبي ، وهذا الموقف يتفق تماما مع كثير من أسس علم الأسلوب الجديد . كما أن هؤلاء يقفون في وضع متواز مع مدارس التصوير المعاصرة التي تجعل من اللون في حد ذاته هدفا وغاية للعمل الفني . ويمثل هذا الاتجاه عدد كبير من الكتاب الحاليين ، من أبرزهم ماريو فارجاس أيوسا ، وخوسية اميليو باتشيكو ، وكثيرون غيرهما .

٣ ـ وثمة اتجاه آخر أسطوري ، ينطلق من « الواقعية السحرية » ، ويقوم على الفهم العميق للواقع المتعالي . فالأشياء الراهنة تتجلى من داخلها كي تكشف للانسان عن معناها الكامن فيها أما ظاهرها الحسي فيكشف عن معنى كوني وانساني عميق ، ومهمة العمل الأدبي هي ابداع هذا العمق ، ليس عن طريق اضفاء الصفة البشرية على الأشياء والموضوعات والطبيعة نفسها فقط ، وانما

تضفي هذه الصفة على معنى الشيء نفسه أو الموضوع أو الطبيعة أيضا . وفي هذا النوع لايحاول القاص اللجوء الى الصور المجازية ، كهدف من أهداف تجميل النص ، وانما يتغلغل داخل الجوهر المتعالي ، لما سوف يصبح موضوعا لصورة أدبية . ويستخدم الكاتب في هذا النوع من القص كل الامكانيات اللغوية التي تتيحها له لغة ثرية ومتطورة ، مثل اللغة الاسبانية .

٤ ـ وهناك اتجاه آخر ، كتابه أكثر تأثرا بالاتجاه الذي عرف « بالقصة الجديدة » ، أو « اللاقصة » ، وهؤلاء تأثروا مباشرة برواد هذا الاتجاه في فرنسا ، مثل ميشيل بوتور ، وناتالي ساروت ، وألن روب جرييه . لكنهم أضافوا اليه حصيلة معارفهم عن اتجاهات أخرى من هذا النوع ، انتشرت على امتداد النصف الأول من القرن العشرين ، مثل قصة « أوليس » لجيمس جويس ، وقصص كافكا ، وفوكنر ، وهكسلي ، ودوبلين . وان كانوا ـ كما أشرنا من قبل ـ لم يتخلوا عن الواقع ، وعلى الأخص الواقع الاجتماعي ، بحيث أصبح لهم موقف وجودي واضح ازاء الأزمات الوطنية والاجتماعية في بلادهم المتخلفة ، وازاء الأزمة التي تجتاح النظام العالمي برمته .

٥ ـ على أن أكثر هذه الاتجاهات البنائية تمردا يتمثل في زيادة التعبير عن اللامنطق ، والتجريد الظاهري للواقع ، وان كان ذلك يتم انطلاقا من أهداف سامية ، تبحث عن مخارج جديدة لمشكلات الانسان في أمريكا اللاتينية ، وبهذا نجد هذا النوع على الرغم من تجريديته اكثر التصاقا بمشاكل المجتمع ، وفيه قدرة التعبير عنها بطرق جديدة .

٥ ـ وهناك اتجاهات أخرى عبثية وسوريالية ، فضلا عما يسمى حاليا « القصة القصيرة » أو « الحكاية القصيرة » MINI CUENTO أو NOVELA ،وهي ليست القصة القصيرة التي نعرفها بشروطها وانماطها ، وانما هي حكايات من نوع جديد ، تحاول أن توصل اتجاهات جديدة في فن القص .

خصائص عامة

وتشترك كل الاتجاهات البنائية السابقة في خصائص عامة ، تنم عن ثراء أسلوبي لدى كتاب القصة المعاصرين في أمريكا اللاتينية ، أبرزها تداخل مستويات متعدده من القص ، كالتداخل الجغرافي ، وتعارض مستويات الزمان والمكان والذهن ، وبسط الأشياء على مساحات أوسع مما هي عليه ، والتساوي بين الكاتب والقارىء حتى يصبح القارىء كأنه هو المؤلف أو البطل ، والتلاعب الصرفي والنحوي انطلاقا من أهداف جمالية « ايديولوجية » ، والتفكيك البنائي للنسيج القصصي ، والوقف المؤقت لعنصر الزمن ، والمزج بين الحسي والأسطوري ، وتصوير العالم بلسان كلب أو شيء ، واستخدام « السيناريو » السينمائي أو مايسمى عيون آلة التصوير « الكاميرا » ، وجماعية الرؤية أو جماعية وجهة النظر ، واستخدام عناصر صوتية وموسيقية وحوارية بهدف لغوي ، والكلمة بصفتها قيمة في حد ذاتها ، وحضور الأشخاص والأحداث المتعاقبة داخل عنصر الزمان ، واعطاء أهمية للاشياء نفسها أكثر من الشخصيات ، مثلما يحدث في « اللاقصة » ، وقبول الجوانب الأسطورية والسحرية على أنها ضمن مستوى الواقع المكاني والزماني ، وظهور أصوات متعددة في بؤرة العمل القصصي ، واستخدام أدوات السينما والاذاعة والتلفزة مثل « الفلاش باك » والكلوزآب » ، وما الى ذلك ، ووضع كلمات من لغات مختلفة في جملة واحدة ، وخلق كلمات جديدة بالقياس على كلمات أخرى ، وحذف علامات الترقيم مثل الفاصلة والنقطة ، وتجريد « المونولوج » الداخلي ، ووضعه في صيغة تداخل غير مترابطة . كل هذه الخصائص ـ وغيرها كثير ـ حاول كتاب أمريكا اللاتينية خلال

الأربعين عاما الأخيرة أن يدخلوها على فن القص العالمي ، متأثرين في ذلك باتجاهات سبقتهم ، لكنهم استطاعوا أن يختموها بخاتم أصالتهم ، والنابع من واقع بلدانهم التي تكافح من أجل الوصول الى مستوى متقدم في عالم اليوم ، ومن ثم فان كتاب أمريكا اللاتينية قد استطاعوا أن يركزوا اهتماماتهم على بؤرة واحدة ، وهي التعبير عن الواقع الأصيل للانسان المعاصر في بلادهم ، وعن كينونته ، وحاله ، وحقيقته ، ومصيره .

وتتضح هذه الحقيقة اذا قرأنا انتاج الأجيال المتعاقبة من الأربعينيات حتى الآن ، فمن قصة (سيدي الرئيس) لميجيل آنخل أستورياس الى (بدروبارمو) لخوان رولف ، ومن (رابويلا) لخوليو كورتاثار الى (مائة عام من العزلة) لجابرييل ماركيز ، ومن (عن الأبطال والقبور) لارنستو ساباتو الى (محادثة في الكاتدرائية) لماريو فارجاس أيوسا ، ومن (تغيير الجلد) لكارلوس فوينتيس الى (قابيل) لادوارد كالديرون ، نجد أن الروح الكامنة في كل هذه القصص ، وفي غيرها ، هي البحث عن الحقيقة الأمريكية داخل الانسان الأمريكي نفسه ، (أعني أمريكا اللاتينية) ، والبحث عن الواقع المتعالي الذي أعطى لهذا الفن طابعه العالمي الخالد . ولعل خير تعبير عن صلة كتاب أمريكا اللاتينية بالواقع هو ما جاء في محادثات جابرييل ماركيز آنفة الذكر ، عندما قال :

« ان أفضل أنواع القصص هو مايكون تعبيرا شعريا عن الواقع » ، وعندما طلب منه أن يوضح هذه المسألة بتفصيل أكثر قال : « نعم ، اني أعتقد أن القصة تمثل تصوراً للواقع ، إنها نوع من ألغاز العالم ، والواقع الذي يبسط في قصة يختلف عن واقع الحياة ، وان كان يستند اليه ، على نحو مايحدث في الأحلام » .

وهكذا فرض كتاب أمريكا اللاتينية خلال النصف الثاني من القرن العشرين ثورة أسلوبية جديدة في فن القصة ، مثلما فرض شعراؤها ـ وعلى رأسهم روبن داريو ـ في أواخر القرن الماضي ثورة مماثلة في فن الشعر . وقد أوضح ماريو فارجاس أيوسا في مقال له بالانجليزية نشر عام ١٩٧٠ بعنوان (القصة المعاصرة في امريكا اللاتينية) أن تأثيرات الكتاب بدأت تظهر في انتاج كتاب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وفي كل أنحاء العالم ، وقد أوضح فارجاس أيوسا في هذا المقال أيضا الأسباب التي أدت الى نضوج هذا الفن في بلادهم ، وعزاها الى عملية التغيير الضخمة التي حدثت له ، والتي تمثلت ـ حسب رأيه ـ في أربع عمليات تغيير رئيسية هي :

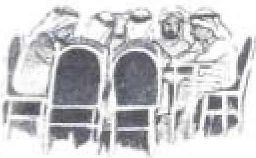
١ ـ تغيير في محور الموضوع ، حيث انتقل من تناول الطبيعة الى تناول الانسان نفسه ، أي العودة الى انسانية الفن ، على عكس بعض النزعات التي سادت من قبل ، وكانت تدعو الى تجريده .

٢ ـ التوسع في مفهوم الواقع ، حيث أخذ يمتد ليشمل بؤر إلهام جديدة ، مثل الحلم ، والاسطورة .

٣ ـ نقل بؤرة الاهتمام من الجانب الريفي الى الجانب الحضري ، بحيث تقدمت المشكلة الاجتماعية لتحتل الصفوف الأولى ، وتوضع وجها لوجه أمام الظالمين الذين يعيشون في المدن ، وضحاياهم .

٤ ـ الوعي الجمالي بالبناء الفني للعمل الروائي على أساس التجريب اللغوي المستمر .

بكل هذه الجهود ، وبالجهود التي مازالت تبذل حتى الآن ، بلغ الفن القصصي في أمريكا اللاتينية مرتبة سامية من الابداع والاتقان والجودة ، حتى أصبح مثلا يحتذى ، ونموذجا رائعا يعلمنا كيف يمكن أن يتحول الأدب من عمل اقليمي محلي الى عمل عالمي باهر ، يلفت الأنظار ، ويؤثر تأثيرا عميقا في كل آداب العالم . □



منتدى العربي

قضية

الزمن.. والنظرية النسبية

بقلم : خالد مفتاح

في الدراسة الميكانيكية والكونية بحسب قوانين نيوتن يفترض أن الزمن مطلق ، ومعنى ذلك ببساطة هو انتشار الضوء لحظيا . فالضوء هو الوسيلة الفيزيائية لرؤية مكان الأشياء ودراسة حركتها وسرعتها . . أي ميكانيكيتها ومقابل ذلك نقول ان سرعة الضوء لانهائية .

والحقيقة التى أثبتتها التجارب الدقيقة المتعددة ـ حتى الآن ـ أن سرعة الضوء مهما كانت عالية فهى محدودة ، ولها كمية ثابتة في الفراغ مهما كانت سرعة المصدر الذى أطلق الضوء نفسه .

وينص مبدأ النسبية بالمعنى المقيد على صلاحية كل مجموعات الرصد التصورية في وصف وصياغة القوانين الطبيعية بنفس الكفاءة ، وتعطى نفس الصيغة الرياضية ـ ومجموعات الرصد التصورية هنا هى كل الاحداثيات الساكنه أو التى تسير بسرعة منتظمه بالنسبة لبعضها مالم يؤثر عليها مؤثر خارجى ـ قوة خارجية ـ واذا اعتبرنا الحقيقة التجريبية القائله بثبات سرعة الضوء في الفراغ امراً مسلماً به ، ومع مبدأ النسبية السابق عرضه يتشكل هيكل النظرية النسبية الخاصة . وتبنى عليه كل حساباتها .

نسبة الزمن

ما معنى هذه الحسابات بالنسبة للزمن ؟ سنأخذ مثالا سهلا . فاذا افترضنا انطفاء نجمين بعيدين عنا في الفضاء وأن هذين النجمين بعيدان عنا بنفس المسافة على اليمين واليسار أي أن الارض في موقع متوسط بالنسبة لهما ، ثم اعيدت اضاءتهما . فان الضوء سيصل الينا من كلا النجمين بعد فترة زمنية واحدة لان المسافة واحدة ، وسنرى اضاءة النجمين في (وقت واحد) بالنسبة لنا ـ وذلك مع اهمال تأثير

حركة الارض . أو باعتبارها ساكنه في مكانها ـ ولكن بالنسبة لمشاهد احد النجمين فان الضوء المنبعث من النجم الآخر سيصله بعد فترة زمنيه هي ضعف الفترة الزمنية التي يستغرقها للوصول الى الارض لان المسافة هي الضعف ايضا . وبذلك يرى هذا المشاهد اضاءة النجم الاخر بعد اضاءة نجمه هو . فما رأيناه نحن وقد تم في وقت واحد بالنسبة لنا ، لن يراه هذا المشاهد على النجم البعيد الا كحدثين وقعا في (زمنين مختلفين) .

والمعنى من ذلك انه لن يرى الا ماضي النجم البعيد عنه ، وكلما زادت المسافة بينهما كلما زاد فرق الزمن ، ولم يستطع المشاهد الا مشاهدة الماضي الأبعد زمنا . ولذلك يقال ان كل مجموعة رصد « تأخذ زمنها معها » ويفيد الزمن المطلق معناه . ولايمكن الخروج اطلاقا من هذا النطاق . فلا يمكن بحال رؤية حاضر النجم البعيد في نفس اللحظة التي يشاهد فيها حاضره هو ، لانه لاتوجد أي وسيلة اسرع من الضوء لارسال أي اشارة أو معلومة عن هذا الحاضر . وبهذا نفهم نسبية معنى كلمات الماضي والحاضر وحتى المستقبل ، لان مانسراه بعد عشر سنوات يحدث على نجم بعيد هو في الواقع ما يحدث (الآن) فوقه ولكن لانستطيع أن ندرى عنه أي شيء .

أشكال الساعة

اذا ضبطت ساعتان متماثلتان واحدة على الارض والثانية داخل صاروخ ثم انطلق الصاروخ بعيدا عن الارض وعاد اليها ، فان الصاروخ يكتسب أولا عجلة تزايد ثم يسير بسرعة منتظمة ، ثم يغير اتجاهه الى اتجاه الارض ويسير بسرعة منتظمة ثم يسير بعجلة تناقص حتى يحط عليها بأقل قدر من الاصطدام . ، فاذا اهملنا تأثير عجلة التزايد وعجلة التناقص والدوران ، فان حسابات النظرية النسبية الخاصة أي الفترة التى يسير فيها الصاروخ بسرعة منتظمة ستؤدى الى ان تشير الساعة التى على الصاروخ الى زمن اقل من الساعة التى على الارض . ويفرق مقداره الزمن الذي قيس على سطح الارض مقسوما على اثنين ومضروبا في خارج قسمة مربع سرعة الصاروخ على مربع سرعة الضوء .

والعرض السابق بحسب النظرية النسبية الخاصة ، فاذا ما ادخلنا فترات الحركة بعجلة ، وهى التى يأخذها مفهوم النظرية النسبية العامة في الحسبان فسوف يكون هناك الزمن المقاس بكلا الساعتين . وقد تشير الساعة التى في الصاروخ الى زمن اقل للرحلة ، وقد تشير بالعكس الى زمن اكبر .

وقد درجت الكتابات العلمية التبسيطية ، على اعتبار هذا الفرق في الزمن فرقا فيزيائيا . والمفهوم النهائى من ذلك ان روادا للفضاء انطلقوا بمثل هذا الصاروخ وعادوا للارض سيكونون اكثر شبابا . ولم يمض من عمرهم ـ مثلا ـ الا اربع سنوات بالقياس الى خمس سنوات من عمرنا نحن ـ وهذا هو احد الاراء في المسألة بالفعل .

حقيقة المسألة

لقد وصف اينشتين نفسه حقيقة المسالة باعتبارها « نتيجة غريبة » لحساباته .
وتعالج هذه المسألة علميا باعتبارها « اشكالا وهميا » أو تناقضا ظاهريا » . ولن يحسم هذه المسألة الا التجربة العلمية . ويمكن تصميم تجارب تناسب هذا الفرض مع تعديل مناسب فلا يكون مطلوبا ان يغادر رواد كوكبنا لفترة زمنية طويلة وبسرعة عالية جدا مما يخرج عن نطاق أي تكنولوجيا معروفة .

وستؤدى نتائج التجربة الى واحد من ثلاثة احتمالات لارابع لها . فاما ان يشاهد حقيقة توفير للزمن تتفق مع الحسابات المذكورة ، وبذلك سيتغير كلياً مفهومنا عن الزمن حتى عن الزمن النسبى . واما ألا تؤيد التجربة أي تسويه في الزمن . وعند ذلك لابد من ادخال اعتبارات جديدة لم تكن مأخوذة

في الحسبان . فيؤدي ذلك اما الى تعديل في النظرية النسبية أو الى بروز نظرية جديدة تعالج الموقف برمته بطريقه جديدة .

على ان ما يمكن أن يؤدي الى (الاحتفاظ بالزمن) أو ابقاء الزمن فهو ليس السرعة ، لان تأثير العجلة يمكن ان يتلاشى اثرها وانما العجلة أو المجال الجاذبي عما يدخل في نطاق حسابات النظرية النسبية العامة . ومع ذلك فيمكن في حالات كثيرة اثبات فرق زمن (توفير زمن) اذا اخذنا في الاعتبار الحسابات النسبية العامة .

التأخير الظاهري للساعات

ستوضح هذا التأخير الظاهرى ، وهو الذي ينطبق على النظرية النسبية الخاصة ، فان الفترة الزمنية بين حدثين وقعا من حالة سكون بالنسبة لراصد . تتضمن زيادة بالنسبة لراصد متحرك بالنسبة للحدثين . وتكون الفترة الزمنية كما يقيسها راصد متحرك ، مساوية للفترة الزمنية التى يقيسها راصد ساكن مقسومة على الجذر التربيعى لواحد مطروحا منه خارج قسمة مربع السرعة النسبية ـ بين الراصد المتحرك والراصد الساكن على مربع سرعة الضوء .

ولكن هذا الفرق ظاهري ، ودليل ذلك انه انعكاسي ، فان الفترة الزمنية التي يقيسها الراصد المتحرك لحدثين وقعا من سكون بالنسبة له تعاني هي الأخرى من نفس التأثير وتزداد بالنسبة للراصد الاول . □

منتدى العربي

تعقيب

رُسُل الله وَسُنن آبائهم ..

لا يفوتني أن أبدي إعجابي بما تحمله هذه المجلة المباركة من تعريف حق بالإسلام ، للوصول بالانسان العربي والمسلم الى معرفة الدين ، وليظهره الله على الدين كله بإذنه .

فها هو الدكتور / محمد أحمد خلف يقول : « إن العقل البشري لا يمكن أن يضع دينا ، والذي يملكه العقل البشري هو أن يفسر هذا الدين ، ويبينه للناس ، حسب تفاعله معه ، واستجابته له » .

وهذا يعني أن مفهوم العقل البشري عن الدين لا يغنينا بحال من الأحوال عن التماس الهدى من الدين مباشرة ، أي مما أنزل إلينا من ربنا لنتدبره ، وهذا يعني أيضا أن ما يسمى بالتراث الإسلامي إن هو إلا نتيجة تفاعل عقول من سبقونا مع هذا الهدى الذي أنزل إلينا من ربنا ، وليس لنا أن نركن ونسلم لرؤية ما يقال لنا بأنه رؤية السلف الصالح ، قبل أن يكون لنا علم بأنه الحق ، وهذا يقضي أساسا أن

نعرف ما أنزل إلينا من ربنا لنتبعه مباشرة .

ولنا في القرآن الكريم خير موعظة ، فعندما كان يقول فرعون لقومه بأن موسى يريد أن يظهر في الأرض الفساد ، ويبدل دينكم ، ثم إن حجة الكفار كانت بأنهم لم يسمعوا بما جاء به رسلهم ، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون .

إن علينا ونحن أمة إسلامية معاصرة إن أردنا اتباع دين الله الحق أن نتعرف على ما أنزل إلينا من ربنا ، أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس لنا بها علم ، ونحن لا نشعر ، مصداقا لقول الله تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) ، ومن يريد أن يتخذ رسولنا أسوة حسنة عليه أن يتذكر أن رسولنا قد أمر بأن يتبع ما أوحي إليه من ربه فقط ، إذ ليس له في الأمر شيء ، وما كان الله ليشرك في حكمه أحدا .

فما الذي أوحي إلى الرسول من ربه ؟ تلك هي القضية الملحة التي ينبغي على الآمرين بالقسط من الناس أن يبينوها للناس كافة إن كانوا يريدون الدعوة الى الدين الحق .

أما ربط هدى الله بعصر من العصور مهما طال عليه العهد ، أو بكتب غير ما أنزل الله من كتاب فلن يتمكن هذا العصر ، ولن تتمكن تلك الكتب ، مهما كثرت ، أن تحيط بنور الله ، وتحتويه ، فنور الله وسع السموات والأرض ، وهو وحده الهادي الى سواء السبيل . فما بالنا لا نفقه حديثا ، ونحن نقرأ قول الله سبحانه وتعالى : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم أجرا عظيما) ؟!

إن المأزق الذي نحن فيه ليس في دين الله ، لكن في عجزنا عن فهمه الفهم الحق .

واتباعنا لما أنزل إلينا من ربنا لا يعني اتباع آراء من سبقونا وإدراكهم له ، بل هو أن يهدينا الله لمستجدات الحياة التي لم تكن من قبل موجودة ، فتحقق بذلك سنة تطور الحياة الانسانية ، على أسس سليمة ، يؤمن بها كل من عمل لإدراك السبيل الى الهدى .

فالذي جعل الذين كفروا من أصحاب السعير خوفهم من استعمال عقولهم وسمعهم وبصرهم ، واكتفاؤهم بما وجدوا عليه آباءهم من دين ومن سبيل .

ورسولنا عليه الصلاة والسلام بشر لا يعلم الغيب ، وما أرسل إلا لقوم أحياء ، أما هدي الله فهو الدائم ، وقد بلغ الرسول الرسالة بقوله : « وهذا كتاب مبارك فاتبعوه واتقوا » أما الذين يريدون أن يوقفوا مسيرة الحياة فأولئك هم المعتدون .

وأولئك هم الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ، ويبغونها عوجا برفضهم كل شيء حديث ، يهدينا به الله من خلال هداه الذي أمرنا أن نتمسك به ونتبعه من بعد أن نعلمه علم اليقين ، وإلا فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ثم علينا نحن المسلمين أن نفرق بين ما هو وحي من الله ، قد أمر الله رسوله والذين آمنوا أن يتمسكوا به وهو كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبين ما هو رأي بشر بهذا الوحي ، إذ ليس على أي بشر هدى الناس برأيه بهذا الوحي ، بل عليه أن يبين للناس ما أوحي إليهم من ربهم ، فيهدي به من يشاء . وما كان لنا أن ننقذ من في النار ، وتلك هي الحرية التي أمر بها الإسلام ، لتنال كل نفس جزاء وفاقا ، وما دمنا نؤمن باليوم الآخر والكتاب والنبيين والملائكة فلن يضرنا من ضل إذا اهتدينا ، ما دمنا نؤمن أنهم سينالون جزاءهم الأوفى ، وما علينا إلا البلاغ ، وربك بصير بالعباد . □

طارق محمد جبر

الجزء الثاني من الحوار مع الدكتور عدنان تكريتي حول تعريب التعليم الجامعي في العدد القادم

حكاية

شعر : يوسف طافش

كان الفارسُ يرفع صارية القلبِ
على أمواج النخوةِ ،
كانَ . . . وكانَ . .
تابوتُ الليلِ عميقٌ ،
وسماءٌ تبسطُ أكفانَ الثلجِ
على مدّ الأبصارِ ،
كهوفٌ
ترسلُ أبواقَ الغيلانِ ،
وأصداءُ رياحٍ تضربُ أعناقَ السَّرْوِ ،
وتشرد فوقَ الهضباتِ ،
لتحيلَ فُتاتَ الأرضِ سهاماً ،
والرحلةُ مازالتْ في أوّلها .

*

سقطَ الفارسُ عَنْ ظهرِ « الشقراءِ » ،
فعضّتْ سترتَهُ ،
حملته إلى أوّلِ دارٍ عند سفوحِ القريةِ ،
إنْ عواءُ ذئابٍ
يصدحُ في الغاباتِ ،
صهيلُ الخوفِ من (الشقراءِ)
تُرَدِّدهُ الوديانُ ،
ورفسٌ كالزلزالِ على الأبوابِ .

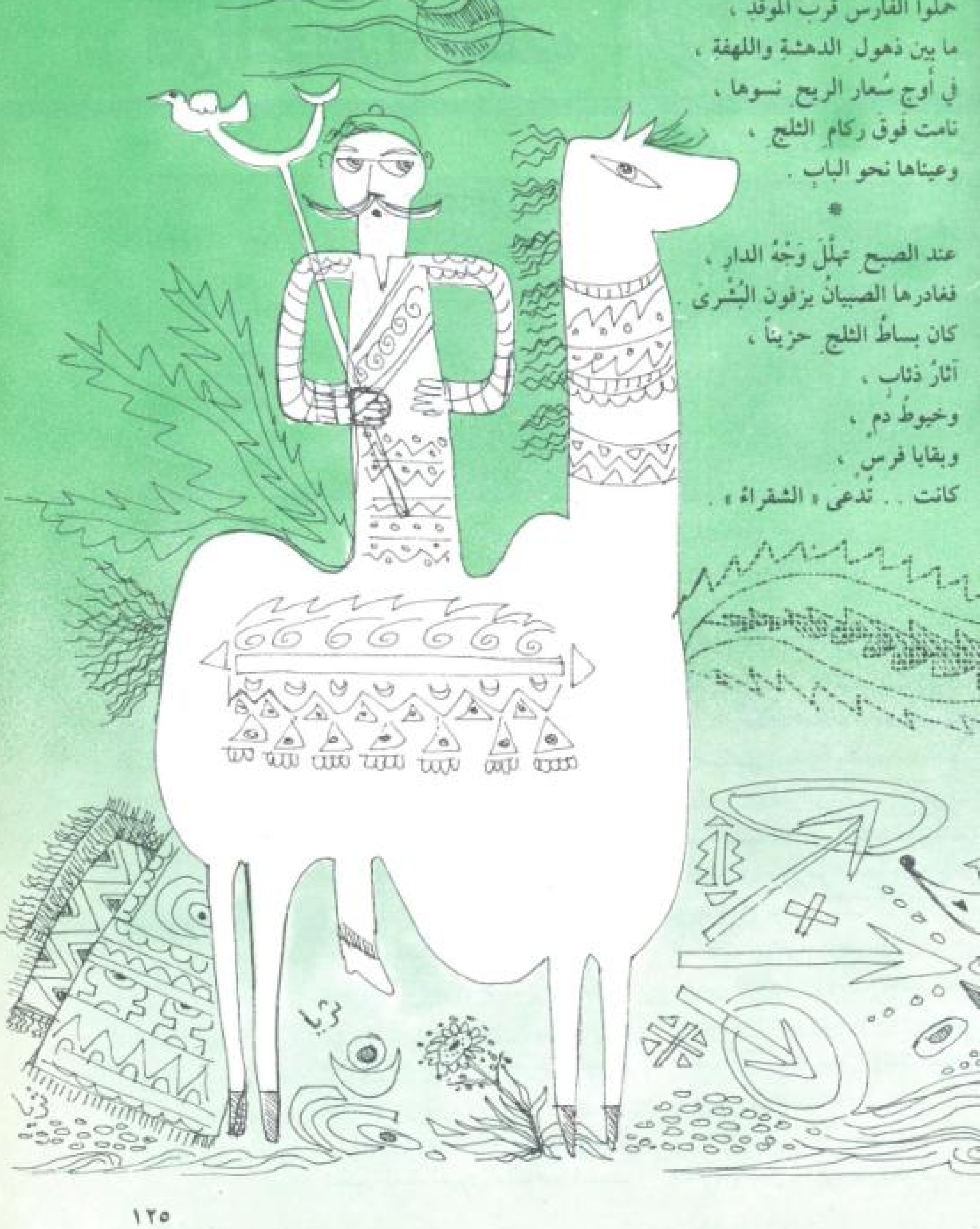
*



خرَجَ الناسُ إليها ،
حَملوا الفارسَ قربَ الموقدِ ،
ما بينَ ذهولِ الدهشةِ واللهفةِ ،
في أوجِ سُعارِ الريحِ نسوها ،
نامت فوقَ ركامِ الثلجِ ،
وعيناها نحو البابِ .

*

عند الصبحِ تهلَّلَ وَجْهُ الدارِ ،
فغادرها الصبيانُ يزفونَ البُشرى
كانَ بساطُ الثلجِ حزيناً ،
آثارُ ذئابٍ ،
وخيوطُ دمٍ ،
وبقايا فرسٍ ،
كانت .. تدعى « الشقراء » .

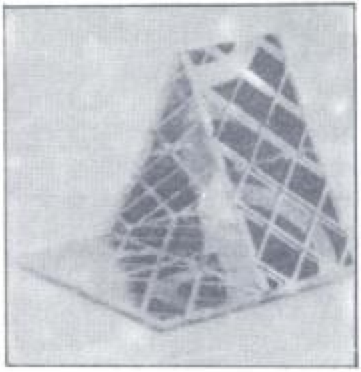


الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

صندوق روبك السحري





صندوق روبك السحري في وضعه العادي ذي الشكل المستطيل .. وفي وضع آخر في شكل مثلث .

هل تذكر مكعب روبك ؟ تلك اللعبة التي شاعت في شتى بلاد العالم ، والتي كانت على درجة من البساطة جعلت كل إنسان يراها واثقا بأنه يستطيع إعادة ترتيب المربعات التي يتكون منها ذلك المكعب وفق ألوانها المختلفة ، حتى إذا بدأ المحاولة تبخرت الثقة .

لاريب أنها كانت لعبة موفقة مربحة ، أخذت مكانها اللائق بها في متحف نيويورك للفن الحديث ، وضمنت لمبتكرها البروفسور المجري روبك (٤٣ سنة) مكانا مرموقا بين أصحاب الملايين في العالم .

لاعجب إذن إن أقدم البروفسور على ابتكار لعبة أخرى سماها (سحر روبك) . كان ذلك قبل بضعة شهور ، والمفروض أن يكون المصنع الصيني التابع لشركة (Matchbox International) قد استكمل تسجيل براءة الاختراع في الاربعين دولة التي قررت تسجيلها فيها ، وأن تكون قد بدأت تسويق اللعبة الجديدة . أما حرص المصنع الصيني على تسجيل الاختراع فسببه ماعرف عن السرقات أو المبيعات غير الشرعية التي تعرض لها مكعب روبك ، فقد فاقت مبيعاته الشرعية (١٠٠ مليون مكعب) ، وذلك بسبب إغفال تسجيل الاختراع في عدد كاف من الدول .

والظاهر أن لعبة سحر روبك لعبة سحرية بالفعل ، وهي عبارة عن صندوق

مستطيل الشكل ، يسهل تحريك جدرانه بحيث يصبح شكله مربعا أو مثلثا وغير ذلك ، حتى يتمكن اللاعب من استكمال حلقات قوس قزح الملونة التي طبعت على جدران الصندوق ، علما بأن هذه الجدران مكونة من مربعات (٢ × ٢ بوصة) يسهل تحريكها .

وتنوي الشركة الصينية ومقرها في كانتون بيع الصندوق السحري بمبلغ ١٠,- دولارات ، وتتوقع أن تصل مبيعاتها منه بضع مئات من الملايين .

ويعجب المرء للبروفسور روبك ، ولفلسفته في الحياة ، فهو يقول : « لاشيء في هذه الحياة يضاهي اللعب أهمية . . ! »

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

أسلوب جديد في معالجة الجلطة

نجح الأطباء في مستشفى ستانفورد ومستشفى سيكويا في كاليفورنيا في تطوير أسلوب جديد للقضاء على الجلطات الدموية التي كثيرا ماتسبب السكتات والنوبات القلبية ، فتؤدي أحيانا إلى الوفاة .

والأسلوب الجديد آلي لا جراحي ولا كيماوي ، قوامه مثقاب صغير ، يمكن بواسطته كشط المادة الشمعية الصفراء التي تتراكم على باطن جدران الأوردة ويسمى هذا الاسلوب الجديد (ATHEROCTOMY) ، وقد تكللت تجاربه بالنجاح بنسبة ١٠٠٪ ، ويتميز أسلوب المثقاب هذا بالبساطة وسهولة الأداء بالنسبة للطبيب والمريض سواء بسواء .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

الجروح المستعصية والسبيل إلى التآمها

من المعروف أن الجروح التي يتعرض لها مرضى السكري وأصحاب الكلى المزروعة وكذلك الذين يعانون من أمراض الأوعية المختلفة يمكن أن تكون جروحا مستعصية ، يتعذر التآمها بسرعة ، هذا إذا لم تصبح تلك الجروح غنغرينية تستوجب بتر العضو المجروح .

والظاهر أن تلك الجروح الخطيرة قد أصبح في الامكان شفاؤها بطريقة بسيطة للغاية ، وفي مدة قصيرة ، فقد تسنى لمركز معالجة الجروح في جامعة منسوتا الامريكية العثور على تلك الطريقة ، وتطويرها ، والقيام بتجربتها على نطاق واسع ، إذ بلغ عدد المجروحين الذين عولجوا بها ٦٠٠ جريح ، وقد التأمت جراح ٨٧٪ منهم التآما تاما ، وذلك في مدة قصيرة نسبيا ، بلغت أقصاها (١٠) أسابيع .

أما الطريقة فقوامها لويحات الدم ، دم الجريح نفسه . والخطوة الأولى هي عزل اللويحات من الدم الذي يسحب من جسم الجريح مباشرة ، ويكون عزلها بطرق بيوكيميائية لاتخفى على الأطباء ، والخطوة الثانية والأخيرة هي وضع تلك اللويحات على الجريح ، فلا تلبث أن تفرز مايعرف

بعوامل النمو الموضعي ، ولاتلبث إفرازاتها تلك أن تعمل على التحام الجلد ، فضلا عن التحام الأنسجة أيضا .

والجدير بالذكر أن مركز الجروح المذكور ماض في تطوير مستحضر موحد لمعالجة الجروح بلويحات الدم ، وذلك بقصد إنتاجه على نطاق واسع ، بحيث يصبح في متناول الجميع ، ويجنب الأطباء والمستشفيات عملية عزل اللويحات ولايخفى أن المشكلة التي تعترض السبيل في هذا الصدد هي مشكلة فصائل الدم المختلفة ، وحاجة الجريح إلى لويحات تنتمي إلى نفس فصيلة دمه ، ويبدو أن علماء جامعة منسوتا قد وجدوا الحل لهذه المشكلة باعتماد فصائل الدم المختلفة لعزل وانتاج اللويحات الموحدة التي تضمن تضميد الجروح والتآمها ، مهما كانت فصيلتها .

أسباب القروح المعوية

عقدت جمعية « أوباكان للميكروبيولوجي » اجتماعا هاما في أطلانطا ، عاصمة ولاية جورجيا مؤخرا (شهر مارس الماضي) ، واستمعت إلى تقارير مختلفة ، وضعها الباحثون المتخصصون عما أجروه من أبحاث ، وعما توصلوا إليه من نتائج . عالج أحد هذه التقارير آفات الجهاز الهضمي ، وبخاصة الامساك المزمن والقروح المعوية ، وأشار إلى إمكانية الشفاء من هذه الآفات ، وقد اكتشفوا سببها ، وهو بكتريا (Campylobacter) التي اكتشفوها في أجسام الأفراد الذين يعانون من الآفات الهضمية السالفة الذكر . يقول الدكتور جورج بك : « المرجح أن هذه البكتيريا هي التي تسبب الالتهابات التي تصيب الجهاز الهضمي ، وبطانة المعدة بالتحديد » .

لقاح جديد فعال لمرض قديم

نجح الأطباء الفرنسيون - أطباء معهد باستور وغيرهم - في (الايقاع) باحدى الطفيليات ، وهي طفيليات (Schistosomiasis) التي تسبب المرض الذي يعرف باسمها لأكثر من (٢٠٠) مليون نسمة في العالم ، فقد تعذر استعمال الطفيل المذكور من أجل التلقيح ، كما تعذرت الاستفادة من جهاز المناعة لمقاومة هذا المرض ، وتبين للباحثين أن هذا الطفيل يعمل ببطء شديد ، لذلك عمد الأطباء إلى تخليق بروتين هام من بروتينات هذا الطفيل ، وذلك بواسطة بكتيريا المختبرات ، ثم عمدوا إلى تلقيح المرضى بذلك البروتين - وقد نشر الأطباء الباحثون نتائج بحثهم هذا في أحد أعداد مجلة ناتشر العلمية المعروفة الصادر في شهر مارس الماضي .

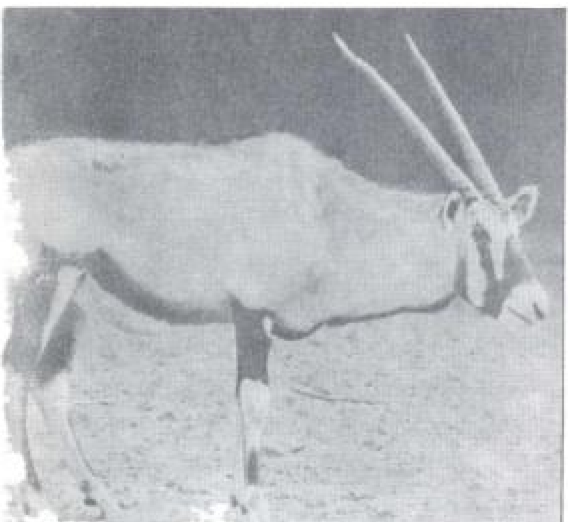
سلامة البشرية في سلامة البيئة

وعاد الأوركس الى موطنه

هذا خبر هام من أخبار البيئة .. وهو من الأخبار التي تبعث على الارتياح والتفاؤل وهي قليلة إن لم نقل نادرة . ذلك أن مواضيع البيئة وأخبارها ما زالت في أغلبها تبعث على القلق والتشاؤم ، كما هو معروف . أضف الى ذلك أن الخبر الذي نحن بصدده يدور حول ظبي (الأوركس) وهو ذو قرنين ويستوطن أرضا عربية ، هي منطقة الحدود بين سلطنة عمان واليمن ، كما يستوطن ساحل افريقيا الشرقي المواجه لشبه الجزيرة العربية . والأوركس من بقر الوحش وقد أحاطه الاغريق القدماء بمزيد من اهتمامهم حتى نسجوا الأساطير حوله .

أما الخبر فقد رواه بالتفصيل الميجور ايان جريموود في المؤتمر الذي عقد في لندن ، وذلك لسماع قصة النجاح الكبرى وهي قصة انقاذ الأوركس من الانقراض المحتم . وقد اتفق أن كان راوي هذه القصة ـ الميجور ايان ـ هو نفسه بطلها .

بدأت القصة قبل ٢٥ عاما حين اكتشف المهتمون بحماية البيئة أن ظبي الأوركس يتناقص بسرعة كبيرة ، وأنه بات معرضا للانقراض . وترتب على ذلك قيام تعاون بين الحكومة العمانية وبين عدد من الهيئات الدولية من أجل انقاذ الظبي المحبب .



ظبي الأوركس يعود الى موطنه

فجمعت الأموال بالملايين وبدأت عملية الانقاذ التي سموها « عملية أوركس » . وتم الاتفاق مع الميجور ايان جريموود وكان يعمل في الجيش الهندي ـ بقوة الحدود ـ ثم التحق بحديقة الحيوان في كينيا ، وتولى الاشراف على قسم حيوانات الصيد فيها حين عهد اليه بعملية أوركس .

قال الميجور ايان فيما قال : « كانت الخطة ترمي

الى العثور على ١٠ ـ ١٢ ظبيا ولكننا لم نعثر الا على اربعة .. فأمسكنا بثلاثة منها أخذناها الى حديقة في لندن .. حيث بلغ تعداد قطيع الاوركس الاسير نحوا من (٣٠٠) .. أو يزيد .. كانت البداية في الظبية الانثى التي اهداها الى الحديقة امير الكويت الراحل الشيخ عبدالله السالم ، رحمه الله ، وظباء الاوركس الاربعة التي قدمها الى حديقة لندن الملك سعود .

وواصل الميجور حديثه الى المشتركين في مؤتمر لندن الدولي ، فقال : « وخطوتنا الخطوة الثانية وكانت في (٣٠) ظبيا أطلقناها في موطن الاوركس العربي .. الصحراء .. وراحت هذه الظباء تتزاوج وتتكاثر حتى بلغ تعدادها ٢٠٠ ظبي ، وأصبحت بذلك في مأمن من الانقراض الى حد كبير » .

وتجدر الاشارة الى أن جلالة السلطان قابوس يولي شؤون البيئة عامة ، وعملية اوركس بخاصة كبير اهتمامه ، وله مستشار خاص بحماية البيئة ، وهو من الخبراء المتخصصين .

امريكا بلد المتناقضات

يعجب المرء للحياة في أمريكا ، ويعجب أكثر ما يعجب للتناقضات التي تتمثل فيها عامة ، وفيما يتصل بالبيئة بصفة خاصة ، فالولايات المتحدة مصدر رئيسي من مصادر التلوث والأمطار الحمضية في العالم ، وهي في الوقت نفسه في طليعة الدول من حيث المساعي الى النظافة والحماية ، على أن المساعي المذكورة ليست كلها حكومية ، بل إنها في الغالب أهلية تقوم بها جمعيات خيرية تعتمد على التبرعات الطوعية ، ولا يهمها دخل أو ربح بل يهمها حماية البيئة وانقاذها مما تتعرض له من تلف أو خطر .

وتحتل جمعية حماية الطبيعة في مدينة أرلنجتون مكانة مرموقة بين جمعيات البيئة في الولايات المتحدة جميعها ، فهي تتميز بالعمل في صمت ، بعيدا عن الدعاية والأضواء ، وتتميز بروح المسالمة ، وتجنب التصدي والمجابهة التي اشتهرت بها أكثر الجمعيات البيئية الاخرى ، هذا بالرغم من أنها اكبر مؤسسة أهلية بيئية في امريكا ، ولعلها أغنى تلك المؤسسات أيضا .

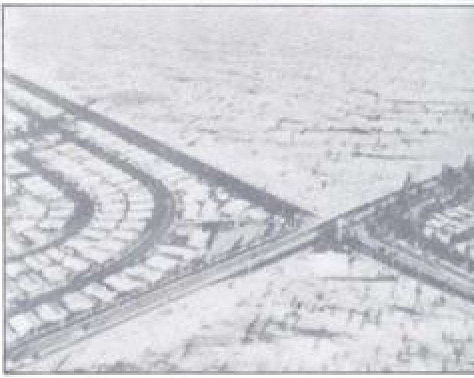
فقد بلغت مساحة الأراضي التي اشترتها بالمال من أجل حمايتها بيئيا أكثر من ٢,٥ مليون فدان ، وبلغ عدد فصائل الحيوان والنبات التي أصبحت في مأمن من الانقراض الذي كان يتهددها قبل شراء تلك الاراضي أكثر من (١٠٠٠) فصيلة ، وبلغت أرصدة الجمعية (٤٥٧) مليون دولار في سنة ١٩٨٥ ، وهي التي لم تجاوز ٩٧ مليون دولار سنة ١٩٧٥ .

وتقوم الجمعية حاليا بجمع التبرعات بحيث يصبح رصيدها ١٠٠٠ مليون دولار قبل عام ١٩٩٥ ، هذا بالرغم من أن الجمعية لم تبدأ نشاطها الا سنة ١٩٥٣ علما بأن بوادر ظهورها تعود الى سنة ١٩١٧ .

ومن طريف ما يذكر عن هذه الجمعية الصفقتان اللتان عقدتها مؤخرا ، وقد سلكت في الاولى سبيل المنافسة ، وفي الثانية سبيل التعاون مع الشركات الاستثمارية ، التي غالبا ما تتعارض أعمالها وأهدافها وصالح البيئة ..

أما الصفقة الاولى فكانت قطعة ارض مساحتها ٦٤٠٠٠ فدان تمتد على ساحل فلوريدا المطل على الخليج ، فهي اذن صالحة للمشاريع الانشائية الاستثمارية ولكنها في الوقت نفسه جديرة بالحماية والبقاء على حالتها البدائية الخام ، فهي القطعة الوحيدة على الساحل الشرقي كله التي لم تصل اليها





صورتان ـ العليا تعطي فكرة عن الصفقة الأولى ، والسفلى تبين قطع الأرض المستصلحة ، وبمحاذاتها قطع الأرض المحمية ، وهي التي تمخضت عنها الصفقة الثانية

حتى الان مشاريع التنمية والاعمال الانشائية . . وهي الموطن الرئيسي لبعض فصائل الحيوان المهددة بالانقراض . . وأهمها التماسيح والسلاحف الخضراء والنسور الصلعاء ، وبدأت المنافسة بين الجمعية التي نتحدث عنها وبين شركات الاستثمار القوية الغنية ، حتى نجحت الجمعية حيث فشلت هذه الشركات ، فاشترت الارض في شهر ديسمبر الماضي (١٩٨٦) بمبلغ (٢٠) مليون دولار .

وأما الصفقة الثانية فغريبة حقا ، فقد سعت شركات الاستثمار الى شراء اراض ممتدة ، بمساحة واسعة جدا تقع في كاليفورنيا وتبلغ قيمتها ١٩٠٠٠ مليون دولار . . وكادت الصفقة أن تتم لولا جماعات بيئية امريكية مختلفة تدخلت في الامر لصالح البيئة ، وحالت دون انجاز الصفقة ، واتضح لجمعية (ناتشر كونسرانسى) ألا مبرر لذلك التعطيل ، وان حماية الفصائل المهددة ممكن بشراء قطعة صغيرة من تلك الارض ، لا تزيد مساحتها على (١٣٠٠٠) فدان ولا تزيد قيمتها على (٢٥) مليون دولار ، وما أسرع ما اقدمت على شراء تلك القطعة تاركة لشركات الاستثمار بقية الارض التي تبلغ مساحتها عشرات الالاف من الفدادين والمضي في تنفيذ مشاريعها عليها .

انتقال التلوث بالهواء

يؤكد التقرير الذي وضعته مؤخرا جماعات بيئية معروفة في الولايات المتحدة أن التلوث الخطير الذي تعرضت له البحيرات الكبرى في المدة الأخيرة ، والذي أدى الى تسمم مياهها لم يصل الى تلك البحيرات بواسطة الأمطار الحمضية ، وإنما بواسطة الريح .

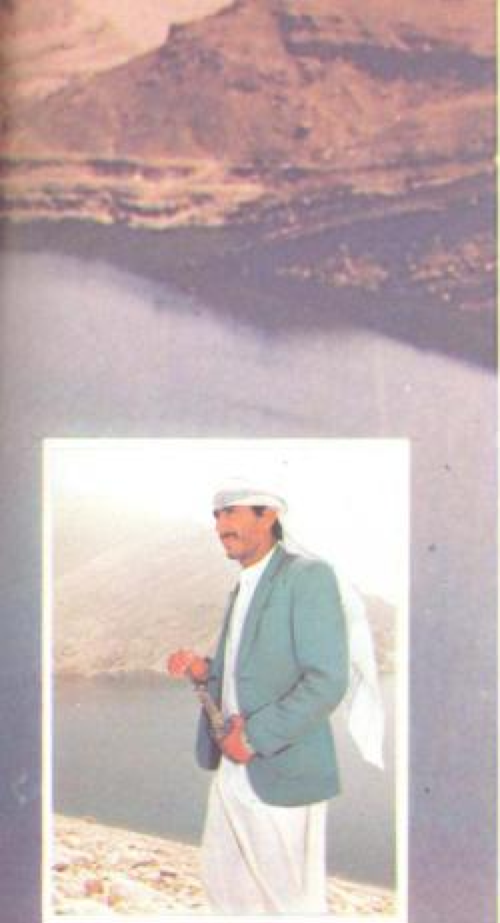
فقد حملت الريح الى مياه تلك البحيرات من المواد السامة ـ كيماوية ومعدنية ـ ما تجمع على سطحها ، وما تراكم في النهاية داخل الأسماك والكائنات الحية التي تعيش في تلك البحيرات ، والتي يستطيب الناس أكل كثير منها ، وتشمل تلك السموم فيما تشمل مادة (د . د . ت) ومادة (P. C. B.) . وقد حظرت الولايات المتحدة انتاجهما منذ زمن . وقد تبين للباحثين أن الريح نقلت تلك السموم الى بلدان مختلفة من أمريكا الجنوبية ، وهم يضعون اللوم في ذلك على كندا ، وعلى المصانع التي لا تلتزم بالقوانين في الولايات المتحدة الأمريكية . □

العربي - العدد ٣٤٧ - أكتوبر ١٩٨٧

اليمن الشمالي

مشاريع على طريق التنمية

استطلاع : صادق يلي
تصوير : سليمان حيدر

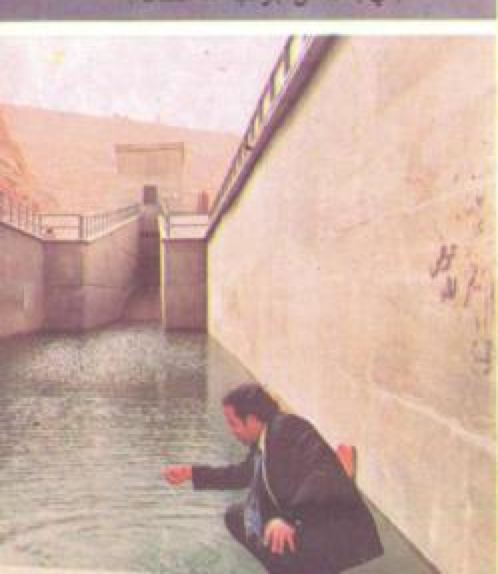


نشطت حركة التنمية في اليمن السعيد في العقدين الماضيين نشاطا عظيما، وهذه الصور تبدي بعضا من جوانب هذا النشاط.

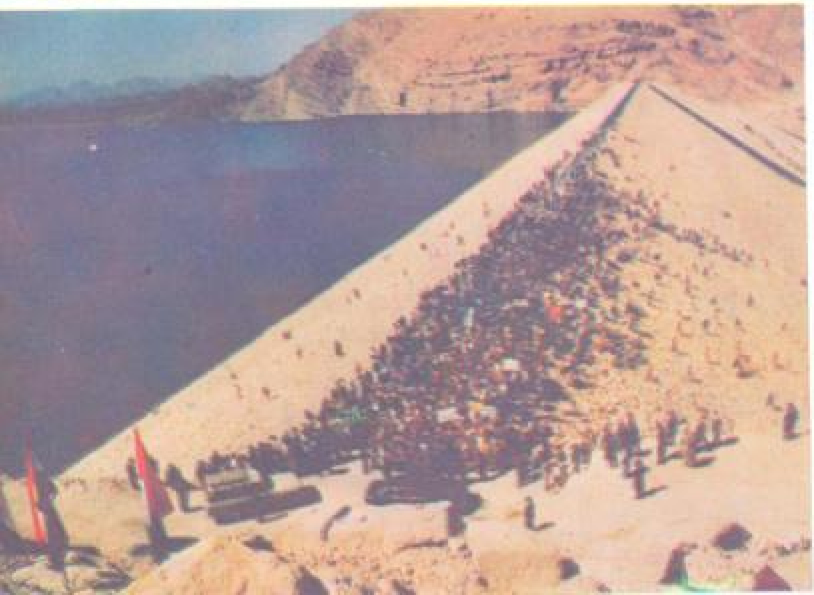
قديما كان اليمن موطن أبي زيد الهلالي، ومملكة بلقيس، وبه سد مأرب القديم، وكان إلى عهد قريب هو اليمن السعيد.

لكن التخلف - بفعل عوامل خارجية وداخلية - حط على ربوعه، فأوقف مسيرة تطوره عند لحظة زمنية بعيدة، والجيل الحالي من أبنائه يحاول بالتخطيط والعمل الجاد العبور إلى قلب العصر بمنجزاته.

فما هي الطموحات، والانجازات، والمشاكل لدى الانسان اليمني في القطاع الشمالي من اليمن السعيد، في رحلته لتجديد الحياة - بالتنمية - على أرضه؟









في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة لتعاظم دور حركات التحرر الوطني في العالم حصلت معظم دول العالم الثالث ـ أو ما يطلق عليه اسم الدول النامية ـ على استقلالها ، وبرزت قيادات جديدة ، تتحمل مسئولية الحكم فيها ، وأصبحت القضية الرئيسية التي تشغل بال شعوب العالم الثالث ، هي البحث عن أسرع الوسائل وأنجحها وسبل رفع مستوى معيشتها . من هنا برزت قضية التنمية بوصفها الأداة ، أو الوسيلة التي تستطيع بها هذه الدول أن تواجه مظاهر التخلف وعوامله التي فرضت عليها قرونا عديدة ، مستلهمة تجارب الدول المتقدمة على اختلاف نماذجها . ولقد أصبح معيار نجاح هذه القيادات الجديدة أو فشلها هو قدرتها على رفع مستوى معيشة شعوبها ، في ظل ثورة من التطلعات ، والتوقعات ، لحياة أفضل ، بعد أن طال أمد حرمانها .

والتنمية لا تحتاج إلى شعارات ترفع لالهاب حماس الجماهير ، لكنها تحتاج إلى حد أدنى من الموارد ، وإلى دراسات علمية متأنية ، تحدد أفضل الوسائل والسبل لاستخدامها .

ولقد تعددت محاولات المفكرين لتحديد معنى التنمية ، فذهب بعض المفكرين الاقتصاديين إلى أن التنمية هي عملية الاستغلال السليم الرشيد للموارد المتاحة ، بهدف إقامة مجتمع حضاري ، متقدم ، تتوفر فيه الحاجات الأساسية للمعيشة ، والعدالة في التوزيع ، ويتوفر فيه الأمن ، واحترام الكرامة الانسانية لأبنائه ، وإمكانيات الارتقاء المادي والفكري للانسان ، من خلال خطة شاملة ، أو خطط جزئية ، قطاعية ، أو زمنية .

الدول النامية والتنمية :

يعرف الدكتور عمر محيي الدين مدير الدائرة الاقتصادية في بنك الكويت الصناعي التنمية قائلا : التنمية الاقتصادية هي الزيادة المستمرة في مقدرة المجتمع الانتاجية ، أي قدرته على إنتاج السلع ، والخدمات ، فكلما زادت مقدرة المجتمع الانتاجية بمعدل أعلى من معدل زيادة سكانه ، كلما ارتفع نصيب الفرد من السلع والخدمات ، وبالتالي ارتفع مستوى معيشته ، فالزيادة في المقدرة الانتاجية تؤدي إلى رفع مستوى المعيشة،وزيادة المقدرة الانتاجية للمجتمع من ناحية الزيادة في قوى الانتاج المادية ، ورفع كفاءتها ، وحسن استغلالها ، وزيادة المقدرة الانتاجية لقوى الانتاج البشرية ، وذلك عن طريق زيادة مهاراتها ومعارفها وقدراتها من نواح أخرى .

ومع أن مشكلة الفقر والتخلف من أهم المشاكل التي تحاول التنمية الاقتصادية معالجتها والتغلب عليها ، إلا أن الاهتمام من جانب الدول المتقدمة الصناعية والمؤسسات الدولية ودور البحث العلمي لم يظهر إلا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ومرد هذا الاهتمام يرجع إلى عدة عوامل ، منها تداعي الهيكل الاستعماري القديم ، وحصول عديد من الدول على استقلالها ، وظهور مجموعة الدول المستقلة حديثا ، بالاضافة إلى زيادة حدة الصراع بين العملاقين الكبيرين ، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية ، ومحاولة كل منها التأثير في موقف الدول المستقلة حديثا تجاه هذا الصراع » .

أما الدكتورة مرفت بدوي الخبيرة الاقتصادية في الصندوق العربي للتنمية فتذهب إلى القول « بأن التنمية تستلزم تحولا جذريا في شتى جوانب البنيان الاقتصادي والاجتماعي القائم ، التي تشمل تغييرات في مجال الانتاج ، والاستهلاك ، وإجراء التحسينات على توزيع الدخل ، وعلى أوضاع العمالة ، وهذا التحول يستهدف العمل على بناء اقتصاد وطني ذي قاعدة إنتاجية متنوعة ، وترابطات قطاعية قادرة على توفير المستخدمات اللازمة للانتاج ، وتوسيع أسواق تصريفه » .

من هنا نلاحظ أن التنمية عملية صعبة ، شاملة ، تتناول كل جوانب الحياة المختلفة ، اقتصادية كانت أم اجتماعية ، أم ثقافية ، أم سياسية

والجمهورية العربية اليمنية هي احدى الدول النامية التي انتهجت أسلوب التنمية المتكاملة ، باعتباره أفضل الأساليب للنهوض باليمن ، ومواكبة الركب الحضاري الذي يشهده عالمنا اليوم ، لذلك كان من البديهي أن تخصص الحكومة اليمنية للتنمية وزيرا ، وجهازا مركزيا للتخطيط ، يقوم بمتابعة الخطط التنموية التي تطرحها الدولة وتعميمها .

في أول لقاء لنا مع الاستاذ فتحي سالم ، وكيل الجهاز المركزي للتخطيط ، سألناه أن يعطينا المامة عن مشاريع اليمن التنموية ، فقدم لنا تقريرا ، أو بالأحرى مجلدا ضخما ، يضم مئات المشاريع التنموية التي يقوم الجهاز المركزي للتخطيط بمتابعتها ، وتقييم الخطة الخمسية الثانية التي من المقرر أن ينتهي العمل بها هذا العام . وبنظرة سريعة لهذا التقرير نجد أن مشاريع اليمن الانمائية قد تناولت كافة القطاعات ، من زراعة وصناعة وتعدين ونقل ومواصلات .

ويتحدث إلينا قائلا : « لا تستغرب أخي من ضخامة هذا التقرير ، فإن الطموحات والآمال التي نتوخاها من خطط التنمية كبيرة ، وقد حرم شعبنا سنين طويلة من كافة المظاهر الايجابية لتطورات العصر الحديث التي جرت في البلدان المتقدمة ، إننا نريد أن نحقق معدلات نمو مرتفعة على مستوى الاقتصاد القومي بأجمله ، ونريد أن نرفع نصيب الفرد من الدخل القومي ، ونحسن مستوى معيشة المواطن اليمني ، ونريد أن نعمم التعليم على كافة أفراد المجتمع ، ونقضي على الأمية ، ونحسن المستوى الصحي ، ونكافح الأمراض ، ونشيد الطرق ، ونضيء المدن والقرى ، ونوفر مياه الشرب النقية لكل مواطن ، ونريد ونريد مع أن امكاناتنا ومواردنا المالية وقوانا المؤهلة محدودة ، إلى جانب المعوقات والمشاكل التي تواجه عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلادنا ، لكن بلادنا قد خطت خلال فترة وجيزة خطوات موفقة ملموسة في دفع عجلة التنمية إلى الأمام . »

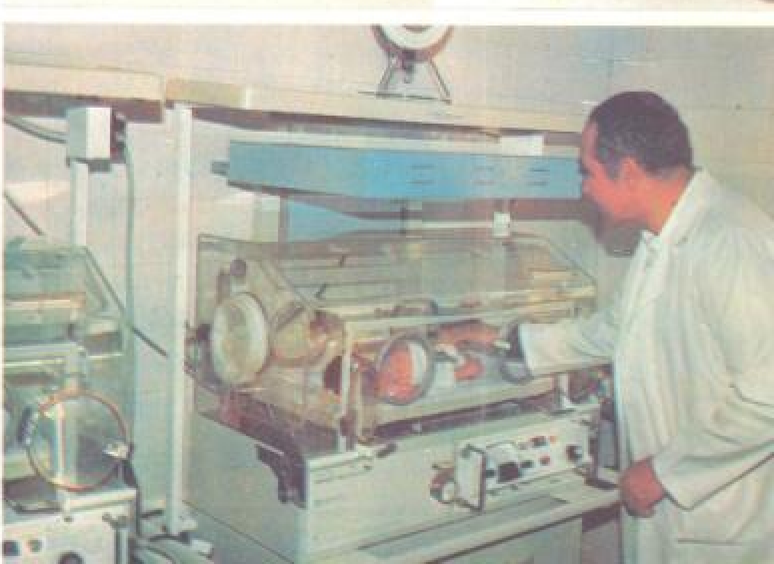


خريطة توضح أهم المدن في اليمن

لما كان تدبير الموارد المالية لتمويل المشروعات الانمائية من اهم مقومات نجاحها ، فالتقرير الصادر عن الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي بعنوان « العمليات التمويلية ـ خلاصة تجميعية » يوضح لنا أن مؤسسات التنمية العربية القطرية والقومية قد قدمت للجمهورية العربية اليمنية حتى ٣١/١٢/١٩٨٥ مبلغ ١١٧٢,٧٥ مليون دولار ، لتمويل ٨٣ عملية تمويلية ، تمثل ٥,٣ بالمائة من إجمالي العمليات التمويلية لهذه المؤسسات مجتمعة ، وتعتبر هذه النسبة أعلى النسب التي قدمتها مؤسسات التنمية العربية للبلدان المستفيدة من هذه العمليات ، التي تغطي مائة بلد نام في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، كما أن هذه النسبة التي حصلت عليها اليمن لا تضاهيها إلا النسبة التي حصل عليها الأردن (٦,٤ بالمائة) ، والمغرب (٥,٥ بالمائة) ، هذا بالاضافة إلى القروض التي تقدمها الدول الأجنبية والبنك الدولي وغيرها من المؤسسات المالية الدولية ، أو التي تمول ذاتيا وحكوميا ، والتي لم تتوفر عنها إحصاءات دقيقة تمكننا من تحديدها .



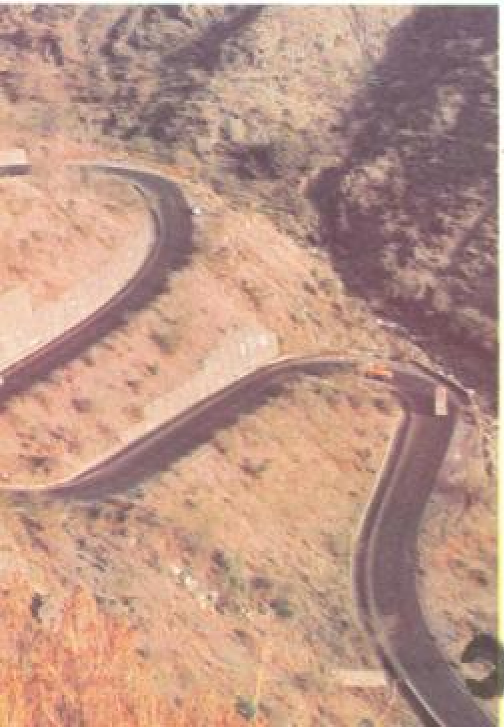


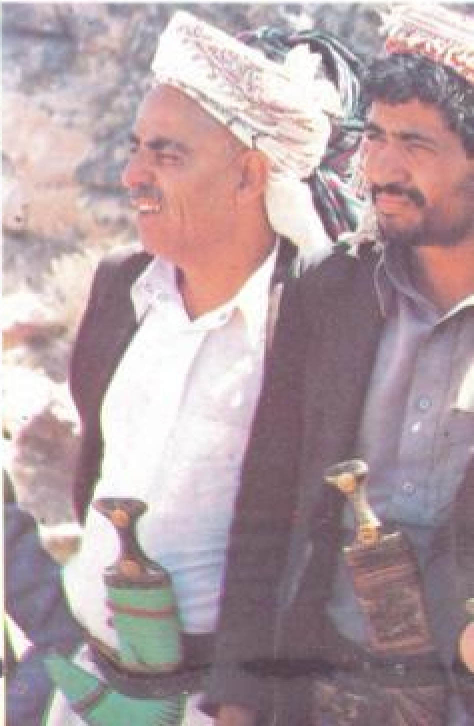


● مستشفى الكويت العام في مدينة صنعاء من المشاريع الصحية قامت الكويت بانجازه وادارته والاشراف عليه من جميع النواحي والى اليسار كلية الشرطة والعلوم العسكرية من المشاريع التنموية العديدة التي قامت الكويت بانجازها والى اسفل إحدى الطرق الحديثة التي تربط مدينة صنعاء (العاصمة) بمدينة تعز المدينة الثانية في اليمن .




كلية الشرطة





الأولوية للزراعة :

تعد الزراعة في اليمن أحد أهم القطاعات الاقتصادية التي تساهم مساهمة واضحة في الدخل القومي ، إذ يعمل في هذا القطاع حوالي ٧٠٪ من إجمالي القوى العاملة ، لذلك اهتم المسئولون بهذا القطاع ، وأعطوه الاهتمام الكافي في خطط التنمية وأولوياتها .

يقول الدكتور حسين عبدالله العمري وزير الزراعة والثروة السمكية في الجمهورية العربية اليمنية بهذا الصدد : « لقد اتجهت سياسة الوزارة وخططها منذ أن أدخل أسلوب التخطيط الاقتصادي في بلادنا الى العمل على تنشيط القطاع الزراعي ، من خلال تحريك جميع الفعاليات المتعلقة بالتنمية الزراعية على المستوى الوطني ، وتزويد هذا القطاع بالبنية الأساسية اللازمة ، لزيادة الانتاجية إلى أفضل مستوى ممكن في المجالات النباتية والحيوانية والسمكية ، إضافة إلى تنمية المجتمع الريفي الزراعي ، وزيادة دخول العاملين فيه ، كل ذلك من أجل تعزيز أمننا الغذائي الذي نعتبره جزءا لا يتجزأ من الأمن الغذائي العربي ، وتوفير المواد الخام اللازمة للصناعات الزراعية . »

وباستعراضنا للتقرير الصادر عن الجهاز المركزي للتخطيط في اليمن نجد أن مشاريع قطاع الزراعة تحتل مكان الصدارة في الخطط الخمسية المزمع تنفيذها في السنوات القادمة ، فهناك نحو ٤٠ مشروعا زراعيا مختلفا ، هي الآن قيد التنفيذ ، وهي مشاريع زراعية متنوعة ، تغطي أنحاء اليمن كافة .

يقول الدكتور العمري : « في ما يخص مشروعاتنا الزراعية فإن هناك مشروعات للقطاع الخاص والقطاع التعاوني والقطاع المختلط ، معظمها ذو جدوى اقتصادية عالية .

ويستدل على ذلك من استمرار دخول القطاع الخاص في إقامة مشروعات زراعية مختلفة ، أصبحت تغطي معظم مناطق البلاد ، أما مشاريعنا في القطاع العام فهي مشاريع خدمية يقوم بعضها بدور رائد في الانتاج ، مع التركيز على تقديم الخدمات الارشادية المختلفة ، وخدمات الاقراض الزراعي عبر « بنك التسليف » ، كما تعمل أيضا على توفير بعض المدخلات ، مثل توفير الشتلات المختلفة ، والبذور المحسنة ، وغير ذلك ، كما أننا في بعض مشروعاتنا نعمل على إيجاد البنية الأساسية التي لم تكن متوفرة في الماضي ، مثل إنشاء الطرق الريفية ، وإقامة مشاريع مياه الشرب ، وإنشاء الجمعيات الزراعية والمراكز الارشادية . »

وحول مشاريع الري والمياه التي تحتل قسما بارزا في الخطتين الخمسيتين الثانية والثالثة اللتين أقرهما المسؤولون في اليمن قال الدكتور العمري : إن اهتمامنا بمشاريع الري يتركز على زيادة الرقعة المروية ، مع التركيز على التوسع الرأسي ، وترشيد استخدام المياه ، وذلك بإقامة السدود ، وإدخال طرق الري الحديثة الملائمة ، ثم القيام بالدراسات اللازمة للموارد المائية في مناطق البلاد كافة ، والعمل على الحد من عمليات استنزاف الموارد المائية ، وبخاصة الحفر العشوائي الذي يسبب في كثير من الأحيان هدر ثروتنا المائية .

وقد جاء تدشين المرحلة الأولى لسد مأرب العظيم في أكتوبر الماضي ، تتويجا للجهود في هذا الاتجاه .

إن كثيرا من هذه المشاريع الزراعية قد أثبتت جدواها من خلال ما حققته من نجاح في تحقيق الاكتفاء من إنتاج الخضراوات والفواكه والدواجن كما أنه من المتوقع أن يزداد إنتاج الأسماك واللحوم والبيض وعدد من المحاصيل ذات الجدوى الاقتصادية خلال السنوات المقبلة ، كما أن هذه المشاريع قد وفرت بالاضافة إلى الانتاج الزراعي المباشر كثيرا من الخدمات الزراعية المختلفة ، مثل المنشآت الزراعية ، وخدمات التدريب ، فضلا عن دورها المهم في إدخال وسائل الانتاج وأساليب التقنية الزراعية الملائمة لظروف البلاد وواقعها » .

تعز ـ اب

كانت أولى مشاريع التنمية الزراعية التي أولتها اليمن عناية خاصة ضمن خططها التنموية هو مشروع (تعز ـ اب) الذي يقع في منطقة المرتفعات الجنوبية للبلاد ، وهذه المنطقة تمتاز بالكثافة السكانية العالية ، وتوفر الأيدي العاملة بالزراعة ، وتمتعها بمعدل عال من الأمطار .

بدأ المشروع بداية متواضعة عام ١٩٦٣ ، واقتصر نشاطه في الاشراف على مزارع الدولة في محافظتي تعز واب إلى جانب تقديم الخدمات الزراعية الأولية ، كتأجير الآليات الزراعية ، وتوزيع الأسمدة . ومع مرور الوقت اتسع نشاط هذا المشروع ، وتطور من تقديم الخدمات الزراعية والارشادية للمزارعين إلى إعداد الدراسات لتحسين إنتاجية المحاصيل ، وتدريب (الكوادر) المحلية .

وبعد ذلك بسنتين تأسست محطة للبحوث الزراعية في المشروع ، بالاضافة إلى تقديمها خدمات إرشادية في ١٤ منطقة ، وامتد نشاطها فشمل البيئات الزراعية المختلفة في البلاد ، من خلال محطات قطرية ، تكونت فيها جميعا هيئة للبحوث الزراعية ، تزود القطاع الزراعي في البلاد بالتوصيات الفنية التي تساهم في زيادة الانتاج الزراعي ، وخفض تكلفة الانتاج . وقد تم تأسيس مشروع (الميكنة) الزراعية ضمن الاتفاقات الثنائية بين حكومة اليمن والمملكة المتحدة ، حيث تم اختيار أنسب الآلات الزراعية الملائمة للبيئة اليمنية ، وتدريب (الكوادر) المحلية من فنيين ومرشدين زراعيين على أعمال صيانة هذه الآلات وإصلاحها ، بالاضافة إلى تدريب المزارعين من خلال جهاز الارشاد الزراعي على تشغيلها وصيانتها ، ثم أنشىء قسم لاكثار البذور المختلفة للمحاصيل الحقلية ، ملحقا بمحطة البحوث الزراعية ، بهدف توفير بذور المحاصيل الحقلية المحسنة ، كالقمح والشعير والذرة الشامية والرفيعة والدخن للمزارعين في الأقاليم الزراعية بأسعار رمزية ، كما أضيف لهذا القسم شعبة لمكافحة الآفات الحشرية والمرضية ، ومكافحة آفات الحبوب المخزونة ، لتقليل التالف منها ، إلى جانب المساهمة في تصميم وسائل تخزين محسنة للمزارعين ، وتلى ذلك افتتاح معهد آب الزراعي بهدف إعداد (الكوادر) من الفنيين الزراعيين المؤهلين علميا للمساهمة في مسيرة التنمية الزراعية بمجالاتها المختلفة .

سد مأرب عروس المشاريع :

ويعد سد مأرب الجديد الذي تم تدشينه في أكتوبر الماضي عروس المشاريع التنموية في اليمن ، وهو يحمل اسم السد القديم الذي ما تزال آثاره التي تمتع بها شعب اليمن ماثلة في وجدان الأجيال المتتالية عبر العصور .

والسد الجديد يقع على بعد ١١ كيلومترا غرب مدينة مأرب ، كما يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن موقع السد القديم ، حيث ما تزال أطلاله باقية على شكل كتل من الصخر ، وبعض الأعمدة ، ويتكون بناء السد الجديد من حائط طوله ٧٦٢ مترا ، وارتفاعه ٢٩ مترا ، ويلحق بالسد الرئيسي أربعة سدود تحويلية موزعة على طول الوادي ، تتفرع منها قنوات أخرى لسقي الأراضي الزراعية ، أما مجموع أطوال هذه القنوات فيبلغ ٦٠ كيلومترا ، إضافة إلى قنوات أخرى تستخدم في أعمال الصيانة ، كما تبلغ مساحة تساقط الامطار التي سيقوم السد بتخزينها نحو تسعة آلاف كيلو متر مربع ، وتصل طاقة تصريف المياه إلى الوادي الى ٤٠٠ مليون متر مكعب وتصل طاقة السد التخزينية إلى ٣٩٠ مليون متر مكعب ، أما مساحة البحيرة التي سيخلفها السد فتبلغ ٤٠٥ كيلو مترات .

المردود الاقتصادي :

أما عن المردود الاقتصادي والاجتماعي لمشروع سد مأرب فيقول الدكتور حسين العمري وزير

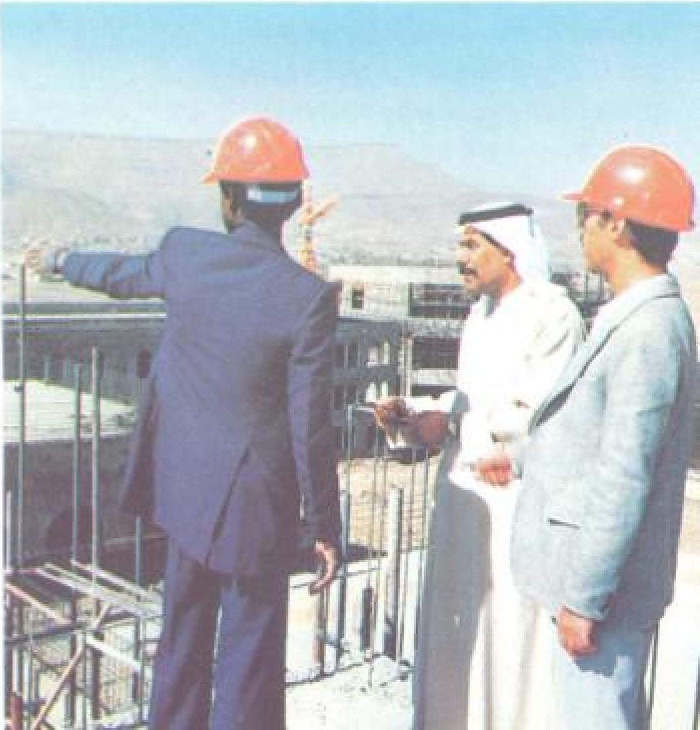


● محطة القوى الكهربائية في المخا قرب مدينة تعز تمد أجزاء كبيرة من الجمهورية العربية اليمنية بالطاقة الكهربائية والى اليسار مصنع اسمنت عمران احدى قنوات التنمية الصناعية في اليمن .









● يغطي انتاج مصنعي اسمنت عمران وباجل نحو ٧٠ بالمائة من احتياجات اليمن من مادة الاسمنت والى اليسار غرفة التحكم في محطة القوى الكهربائية في المخا والى اليمين كلية الطب والعلوم الصحية من المشاريع التنموية الرائدة في مجال الطب وصحة الانسان اليمني .

الزراعة والثروة السمكية : « الفوائد كثيرة ، أولا : سيروي السد ما يقرب من سبعة آلاف هكتار ريا منتظما ، وسوف تزيد المساحة إلى ١٠ آلاف هكتار أخرى بعد اكتمال المشروع ، بالاضافة إلى أنه سيزيد من المياه الجوفية ويغنيها ، كما ستنشأ منطقة سياحية رائعة في المنطقة الواقعة عند السد ، تضم بعض المطاعم والفنادق ومتحفا تاريخيا ، وحدائق للأطفال ، تمتد بطول المنطقة ، حتى تصل إلى منطقة السد القديم ، حيث سيتم إنشاء منطقة سياحية ثانية . ولا شك أن مدينة مأرب ستتسع ، وينشأ بها نمط جديد من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . كما أنها منطقة واعدة بما يمكن أن يغطي احتياجاتنا من الحبوب ، ويساعد في حل قضية الأمن الغذائي . »

ثم يضيف قائلا : « سد مأرب مشروع عظيم ، يشكل نقطة تحول في بلادنا . فمن المعروف أن في اليمن من الأراضي الزراعية ما يصل إلى نحو ١٩,٥ مليون هكتار ، إلا أن المستغل منها لا يزيد عن ١,٥ مليون هكتار فقط ، وأن ما يعيق التنمية الزراعية بشكل واسع هو مشكلة المياه ، لأن بلادنا تعتمد بصورة أساسية على الأمطار .

إن لدينا آمالاً عريضة ، فنحن نسعى لتشجيع بعض الشركات الهولندية واليوغسلافية والألمانية على تبني مشاريع زراعة الحبوب في منطقة الهجرة الحمراء ، وفي مناطق أخرى ، ونأمل في الوقت القريب أن يحدث لدينا الاكتفاء من الحبوب ، وقد وصل إنتاجنا في هذا العام إلى ٣٥٠ ألف طن من الحبوب ، وهذا يشكل على الأقل ٥٠٪ من حجم الاستيراد من الخارج .

ومن المعروف أن تكلفة السد تبلغ ٩٠ مليون دولار ، قدمت كمنحة من الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة ، مؤكدا بها الحرص القومي في إرساء الدعامات الأساسية لتقدم الأمة العربية ، واستعادة مكانتها الحضارية .

مصنع الغزل والنسيج :

من المشاريع التي تعتز بها اليمن مصنع الغزل والنسيج في مدينة صنعاء . وقد بدأ المشروع بداية متواضعة عام ١٩٦٧ ، بوردية عمل واحدة ، وبإنتاج الأقمشة الشعبية التي يستخدمها الانسان اليمني في حياته اليومية ، حيث وصل الانتاج إلى ستة آلاف ياردة يوميا ، وبعد إدخال الآلات الحديثة ، والتوسعات الجديدة للمصنع ارتفع الانتاج إلى ٤٠ ألف ياردة يوميا ، مقسمة على ثلاثة ورديات عمل ، وتستهلك هذه المنسوجات احتياجات الشعب عن ملايات وستاير وفوط ، واحتياجات القوات المسلحة من ملابس عسكرية ، وكذلك ملايات طلبة المدارس ، واحتياجات وزارة الصحة ، وبعض مرافق الدولة الأخرى .

ومع زيادة الجهود لتطوير الانتاج والوصول به إلى مستوى عال من الجودة بدأ المصنع يتجاوب مع احتياجات المستهلك اليمني ، بظروفه البيئية المتباينة ، فأنتج منسوجات تناسب المستهلك الذي يقطن الجبال بيردها القارس ، أو ذلك الذي يسكن المناطق التي يشتد فيها القيظ ، وترتفع فيها درجة الحرارة . وفي شهر مارس الماضي تم تدشين المشروع الثالث لصناعة النسيج في اليمن ، ويتكون من ٥٥ ماكينة بدون مكوك ، من إنتاج شركة سوفيتية متخصصة بصناعة مكائن الغزل والنسيج ، وهي مكائن متطورة ، تواكب أحدث ما وصلت اليه التقنية الحديثة في عالم الغزل والنسيج ، وما يجدر ذكره أن مصنع الغزل والنسيج كان أول باب فتح للمرأة اليمنية للعمل على قدم المساواة مع الرجل .

وفي لقاء لنا مع السيد أحمد الرحومي رئيس مؤسسة الغزل والنسيج حدثنا عن انتاج المصنع والجوانب الايجابية والسلبية ثم الخطط المستقبلية للانتاج ، فقال : « لقد افتتحنا منذ أيام خطا جديدا للانتاج ، وسوف يبلغ انتاجنا نحو ثلاثة ملايين و ٦٠٠ ألف ياردة سنويا ، من أنواع مختلفة من

المنسوجات ، ويمكننا أن نصل بانتاجنا إلى نحو مائة ألف ياردة في الشهر إذا عدلنا بعض الأصناف ، لأن طبيعة النسيج تختلف عن طبيعة بعض الصناعات الأخرى ، فكلما زادت كثافة القماش كانت النسبة أقل ، وكلما خفت نسبة القماش كانت نسبة انتاج القماش أعلى ، ونحن الآن نصنع بعض الأقمشة المهمة لنا ، خاصة الكاكي للجيش ، بعض الملابس الثقيلة ، وهذه الأصناف تغطي الاحتياج المحلي .

ويضيف قائلا : « إن أهم ما أود أن أنوه عنه أن مؤسستنا تستطيع تصنيع نحو ٩٠ أو ٩٥ بالمائة من قطع غيار الآلات والمعدات ، ولا يخفي أن هذا الانجاز هو أحد الدعائم التي تؤدي إلى استمرارية العمل ، علما بأن مصنعنا وآلاتنا متنوعة الجنسية ،إذا صح هذا التعبير ، فنحن نستورد آلاتنا من الصين ، ومن ألمانيا ، ومن الاتحاد السوفيتي ، وغيرها من دول اوروبا، حتى لا تؤدي التقلبات السياسية إلى أي عطل أو خلل في الانتاج ، وهناك ١٤ معملا نطلق عليها معامل رديفة ، وهي معامل الخياطة ، بعضها يتبع مؤسستنا ، وبعضها نساهم فيه جزئيا ، ومنها ماهو تابع للقطاع الخاص ، وهي تسع معامل ، نقوم بتغطيتها بالأقمشة التي ينتجها مصنعنا بشكل دائم منتظم ، فنحن نحدد الأصناف التي تنتجها هذه المصانع للأسواق المحلية . أما عن خططنا المستقبلية فقد وقعنا اتفاقية مع إحدى الشركات الاوروبية المتخصصة بانتاج الخيام والجعب ، للبدء في تصنيع هذه المستلزمات التي تحتاجها قواتنا المسلحة ، وبعض ، مراكز الشباب ، كما أن هناك برنامجاً ندرسه الآن لانتاج قماش « الجينز » مع شركة ايطالية متخصصة في هذا النوع من الأقمشة .

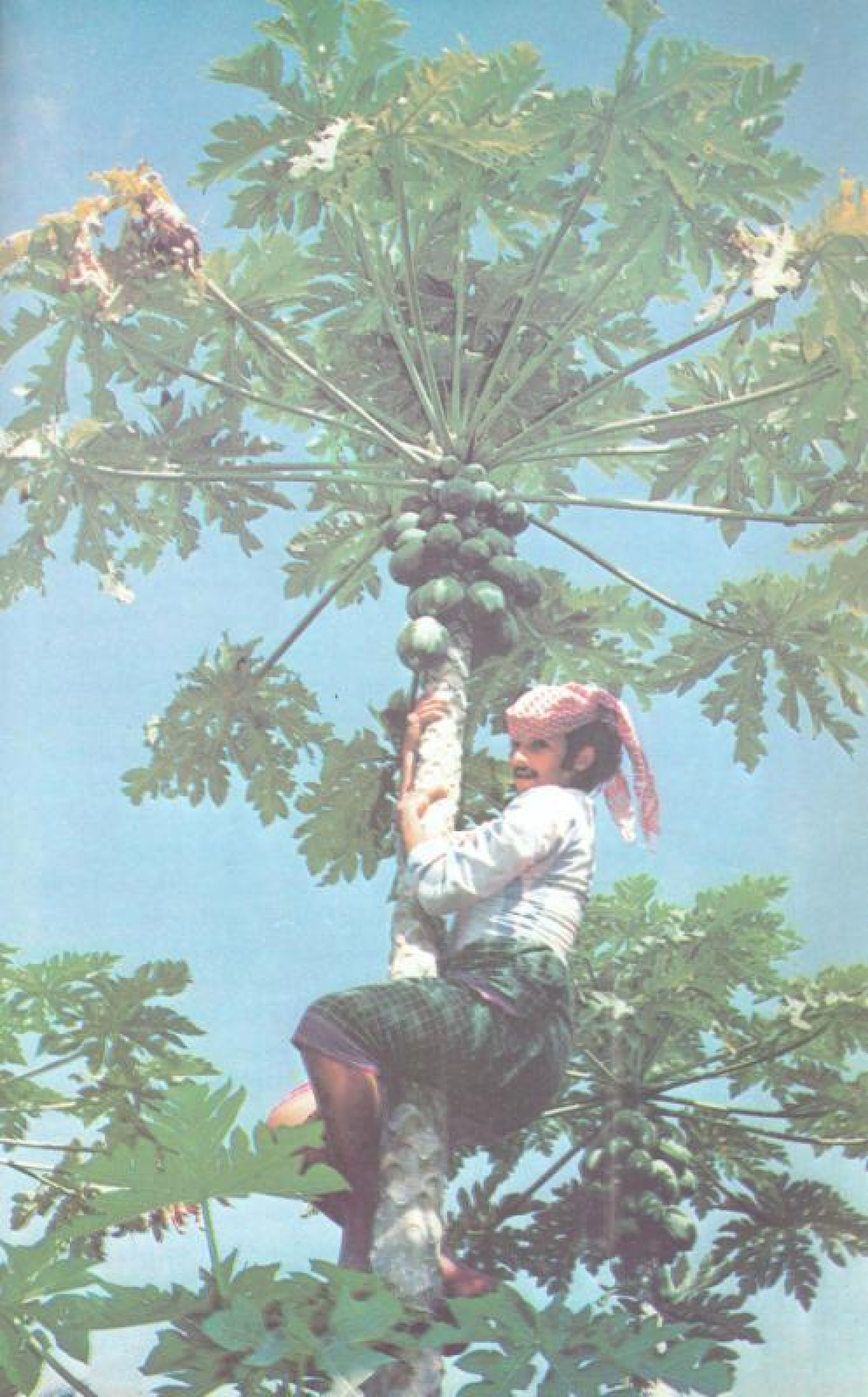
اسمنت عمران :

ومن الركائز الهامة ذات الجدوى الاقتصادية الجيدة التي تصب في مجرى التنمية مصنع اسمنت عمران الذي تم افتتاحه عام ١٩٨٢ ، ضمن مشاريع الخطة الخمسية الثانية في اليمن ، بطاقة إنتاجية تبلغ حوالي ٥٠٠ ألف طن من الاسمنت « السائب » في السنة ، ويعمل في هذا المصنع أكثر من خمسمائة عمل فني ، ومهندس ، بالاضافة إلى الجهاز الادراي ، على ثلاث ورديات متناوبة . ويغطي مصنع عمران نحو ٤٠٪ من حاجة البلاد من الاسمنت ، وإنتاجه بالاضافة إلى ما ينتجه مصنع اسمنت باجل يغطي حوالي ٧٠٪ من حاجة البلاد من الاسمنت .

وهناك دراسات قائمة للتوسعة خلال السنوات القادمة ، حيث من المؤمل أن تصل انتاجية هذا المصنع ، الى مليون طن سنويا ، والمصنع يدار بعمالة أبناء اليمن وخبرتهم ، أما الخبرة الاجنبية الفنية فهي في أضيق الحدود .

مشاريع الكويت :

تعد الكويت بلا فخر من أولى البلدان التي ساهمت في عملية التنمية في اليمن ، انطلاقا من واجبها القومي في مد يد المساعدة لشقيقاتها العربيات . يقول الاستاذ عبدالقادر الجيل مدير مكتب دولة الكويت في صنعاء : « لقد قامت الكويت ممثلة في الهيئة العامة لجنوب الجزيرة والخليج العربي التابع لوزارة الخارجية الكويتية منذ عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٨٦ ببناء ١٦ مدرسة ابتدائية للبنين ، و ٣٠ مدرسة ابتدائية إعدادية للبنين ، و ١٢ مدرسة إعدادية ثانوية ، غطت معظم مدن الجمهورية العربية اليمنية وقراها ، أما بالنسبة لجامعة صنعاء فقد قامت الكويت ببناء معظم كليات الجامعة والمباني الخاصة بإدارتها والخدمات الأخرى مثل مكتبة الجامعة ، وعمارات سكنية لأساتذة الكليات ، بالاضافة إلى قاعات للاحتفالات والمحاضرات العامة ، أما المشاريع التي تخص الخدمات الصحية فهي كثيرة متنوعة ، منها ١٢ مستوصفا موزعة على المدن والقرى المختلفة في البلاد ، وكذلك ثلاث مستشفيات ، وهي المستشفى العسكري في مدينة صنعاء ، وآخر في مدينة الحديدة ، ثم مستشفى الكويت العام في صنعاء الذي







● أعطت حكومة الجمهورية العربية اليمنية الاولوية للمشاريع الزراعية في خططها التنموية والزراعة أهم ركائز الدخل القومي لليمن (وفي الأعلى) مصنع الغزل والنسيج في مدينة صنعاء والى اليسار مشروع (تعز ـ اب) أولى مشاريع التنمية الزراعية في اليمن .

يتسع لمائتين وخمسين سريراً ، ويشتمل على أقسام للامراض الباطنية ، وأمراض النساء والولادة والأطفال ، والأنف والأذن والحنجرة ، وأقسام الأسنان ، والعيون ، والأمراض الجلدية ، والجراحة ، والتحاليل ، ثم التخدير ، والأشعة ، بالاضافة إلى هيئة طبية وتمريضية . وإدارته تتكون من ٤٨ طبيبا و ١٢٥ ممرضة ، إلى جانب الصيادلة والفنيين والاداريين ، وتقوم الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي بالنهوض بأعبائه ، سواء من الجوانب الادارية أو المالية ، كما قامت الهيئة ببناء مشاريع متنوعة أخرى ، منها كلية للشرطة في مدينة صنعاء ، وقاعتان للمحاضرات والاحتفالات ، وكذلك مبنى لمصلحة الطيران المدني .

وهناك مشروع كلية الطب والعلوم الصحية الذي وعد صاحب السمو أمير الكويت بإنشائه عند زيارته لليمن ، ويعد من أكبر المشاريع التي تقوم الهيئة العامة بمتابعة إنشائه ، وتقدر المساحة الاجمالية لمباني الكلية بما يعادل ٣٦٢٠٥ أمتار مربعة ، ويحمل بعض سمات الطابع اليمني المميز في البناء ، وهو مقسم إلى سبعة أجزاء متشابكة متصلة ببعضها بعضا ، تم وضعها على ثلاثة مناسيب ، لتناسب طبيعة الموقع المتدرج ، وقد تم وصل الأقسام السبعة بسلالم عند تغير المناسيب ، لتربط كل جزء بالآخر ، أما التكلفة الاجمالية لهذا المشروع فتبلغ ٣٥,٧٧٠,٠٠٠ دولار أمريكي ، ومن المتوقع أن يتم إنجازه في ابريل عام ١٩٨٨ .

جامعة صنعاء :

ولما كانت اليمن قد انتهجت أسلوب التنمية الشاملة في خططها التنموية بمجالاتها المختلفة لذا كان الاهتمام بالجامعة ، كأحد القطاعات الهامة التي تغذي العملية التنموية بقطاعاتها المختلفة « بالكوادر » البشرية المؤهلة ، ويساهم خريجوها في كافة مجالات التنمية . إن جامعة صنعاء التي مر على افتتاحها خمسة عشر عاما ، والتي تتألف من تسع كليات هي : كلية الشريعة والقانون ، وكلية الآداب ، وكلية التربية ، وكلية التجارة والاقتصاد ، وكلية الطب والعلوم الصحية ، وكلية الهندسة ، وكلية الزراعة ، ومركز اللغات والدراسات العليا ، لا تخطط فقط لتطوير برامجها ومناهجها كما يقول الدكتور عبدالعزيز المقالح مدير الجامعة ، بل تحاول أن توجه هذه المناهج وهذا التخطيط ليساير برامج الدولة ، ويوفر احتياجاتها من « الكوادر » اليمنية المؤهلة ، لا سيما في قطاعات التعليم والصحة والهندسة والزراعة التي تمثل حجر الزاوية في نهضة اليمن الحديثة ، ومن هذا المنطلق فتحت كليات الطب والهندسة والزراعة استكمالا لكليات الجامعة النظرية ، كي تساهم في حل المشاكل المعقدة التي تواجه احتياجات التنمية » .

ويضيف الدكتور عبدالعزيز المقالح قائلا : « إذا كان تأهيل « الكوادر » اليمنية والعربية مسؤولية أساسية للجامعات العربية فإن جامعتنا تضع كافة إمكاناتها في خدمة المجتمع ، سواء كان ذلك في دراسات أو أبحاث ، تحاول الجامعة من خلالها التعرض لقضايا المجتمع ، والاسهام في إيجاد الحلول المناسبة لها . إنني أنادي بإنشاء مركز متخصص للعلوم والتقنية ، يقوم بربط الجامعة بكافة الجهات التي ترغب في الاستشارة ، أو تطوير برامج الادارة ، وتطويع التقنية .

ويوضح لنا التقرير الذي أصدرته الجامعة بمناسبة مرور ١٥ عاما على إنشائها التزايد الكبير في أعداد الطلبة والطالبات ، حيث وصل العدد الى نحو ١٥ ألف طالب وطالبة ، موزعين على كليات الجامعة المختلفة ، علما بأن أعدادالطلبة لم تتجاوز ثلاثة آلاف طالب منذ افتتاح الجامعة حتى عام ١٩٨٤ م .

تنمية الانسان :

وعن التنمية الثقافية يحدثنا الدكتور المقالح قائلا : « إن الحديث عن التنمية في جانبها الثقافي لا يقل أهمية عن التنمية في المجالات الأخرى ، بل هو من أهم

أنواعها ، لأنه يتعلق بتنمية الانسان ، صانع كل التنميات ، وفي تقديري أن بلادنا في السنوات الأخيرة قد قطعت مرحلة كبيرة في سبيل بناء الانسان ، وإعداد « الكوادر » القادرة على تطوير البلد والنهوض بالتنمية الشاملة ، ففي مجال التعليم العام قفزت الأعداد من مئات الألوف إلى مليون وثلاثمائة ألف طالب وطالبة ، وفي الجامعة قفز العدد في السنوات الاخيرة من ثلاثة آلاف طالب إلى خمسة عشر ألف طالب ، والقفزة ليست في الكم وإنما في الكيف أيضا ، وهناك ما يشبه التطور الشامل في مجال التعليم وفي بناء المؤسسات العلمية ، وهذا الأمر في حد ذاته يؤكد أن بلادنا تمضي في حركة تنموية جادة ، وأنها لا تقف عند المجال الاقتصادي والاجتماعي ، وإنما تمضي إلى المجال الثقافي ، وتسعى إلى خلق الانسان القادر على صنع التنمية الحقيقية وحمايتها أيضا .

ويضيف قائلا : « وإذا كانت تنمية الثقافة ماتزال تخطو خطواتها الأولى في البداية ، فإن الأثر الذي ستتركه في الأيام المقبلة يمكن أن تلمسه من الآن ، وهو في نفس الوقت يؤكد أن التنمية تسير جنبا إلى جنب في مختلف المرافق ، وتسعى إلى تجاوز كل المعوقات .

مشاريع ... مشاريع :

إننا لا نستطيع في هذا التحقيق المحدود أن نتناول جميع المشاريع التنموية في الجمهورية العربية اليمنية ، لأنها عديدة ، فهناك العشرات من المشاريع الجديرة بالتنويه عنها ، وهي مشاريع متنوعة ، تخدم قطاعات كبيرة ، منها مشاريع الطرق البرية التي تربط بين مدن الجمهورية ، ومحطات القوى الكهربائية العملاقة في منطقة المخا ، ومشاريع المواصلات والنقل ، وشبكات المواصلات السلكية واللاسلكية ، ثم مشاريع الاسكان المتعددة ، وغيرها من المشاريع .

معوقات التنمية :

إن التنمية بقطاعاتها المختلفة ، وخططها ، تواجه بالكثير من المعوقات والسلبيات أثناء تنفيذها ، ومنها ضعف البناء الاداري المؤسس ، وضعف الهياكل الأساسية . يحدثنا الاستاذ فتحي سالم وكيل الجهاز المركزي للتخطيط عن هذه المعوقات والسلبيات فيقول : « أولى هذه المشاكل هي مشكلة التمويل ، فقد كانت خطط التنمية تعتمد على المصادر الخارجية في التمويل حيث كنا معتمدين في خطتنا الأولى ، والثانية أن التمويل خارجي لأي مشروع من مشاريع التنمية بنحو ٦٠ بالمائة من اجمالي التكلفة ، ويتحمل التمويل المحلي ٤٠ بالمائة ، إلا أن ارتفاع الأسعار المحلية لكثير من المواد الأولية ، وكذلك معدلات التضخم العالمية والمحلية قد أدت الى زيادة الفترة المقررة لانجاز بعض مشاريعنا التنموية .

بالاضافة إلى المشاكل التي تواجه منطقتنا العربية مثل الحرب العراقية الايرانية ، واحتلال اسرائيل لأجزاء من وطننا العربي تشكل بصورة وأخرى إحدى العوائق للتنمية ، كما أن انخفاض سعر النفط ، وانخفاض إنتاجه قد أدى أيضا إلى إطالة أمد بعض مشاريعنا ، وبالاضافة إلى ذلك هناك أشياء لم نكن نتوقعها ، مثل الزلزال الذي حدث في ذمار عام ١٩٨٢ أثناء تنفيذها للخطة التنموية الثانية ، حيث كلف الدولة مبالغ طائلة لاعادة إعمار ذمار .

مما أدى بالمسؤولين إلى استقطاع جزء كبير من المبالغ المخصصة لمشاريع التنمية لاعادة الاعمار لهذه المنطقة ، كما أن هناك مشاكل ناجمة عن التأخير في إرسال التمويل واختلاف الممولين في شروطهم بالاضافة إلى العوامل الادارية الموجودة لدينا ، وهذا مما أدى إلى وجود بعض المعوقات في طريقة مشاريعنا التنموية ، ومع ذلك خطت بلادنا خلال فترة وجيزة خطوات موفقة وملموسة كان لها اكبر الاثر في دفع عجلة التنمية الى الامام . □

لوحات روبرتس

تحط رحالها بالكويت

بقلم :

عبدالغني محمد عبدالله

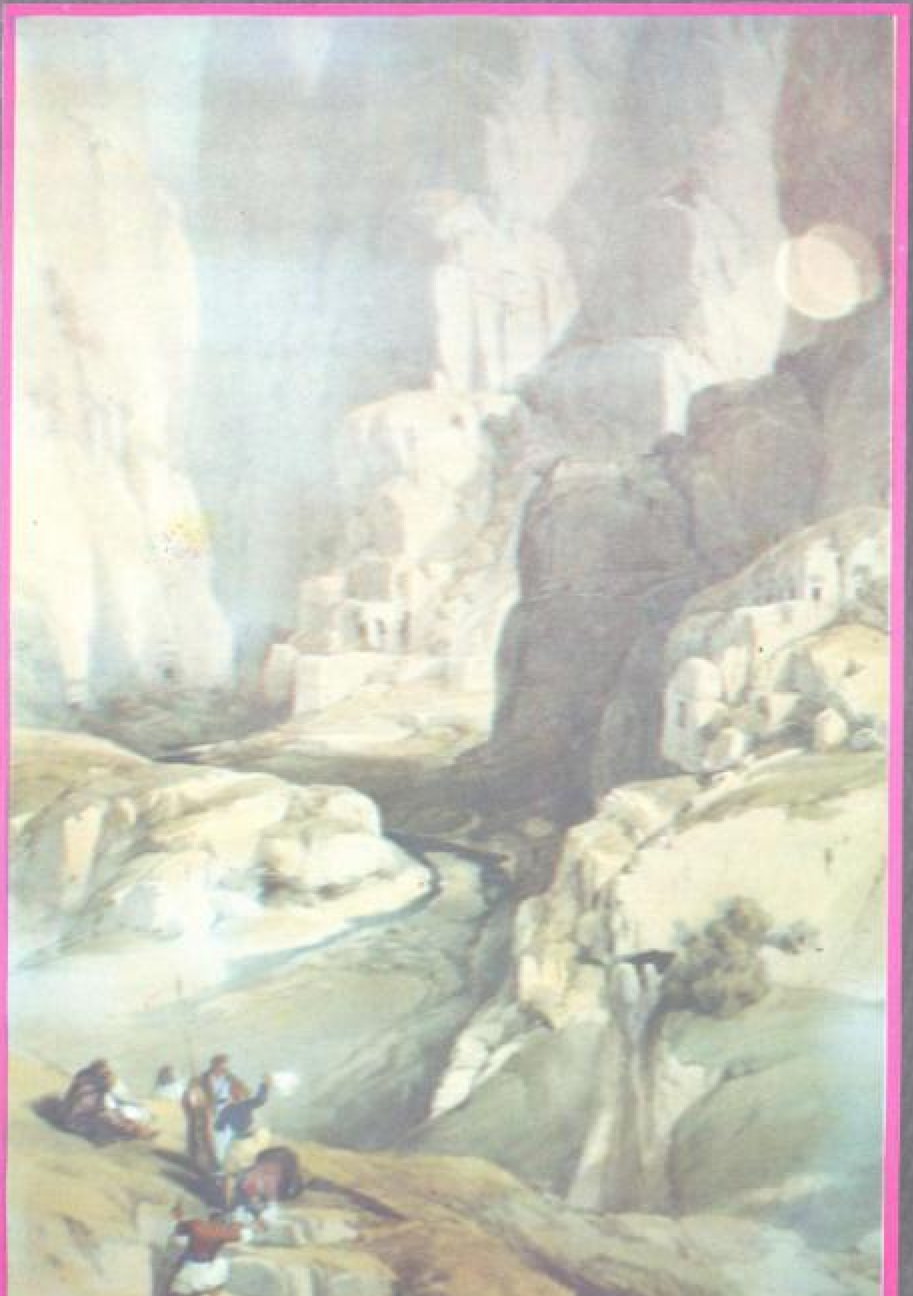
التأريخ لوطننا العربي يجب أن يمر عبر ماكتب بأقلامنا ، على الرغم مما قد يعتوره من خطأ ، اذ علينا تصحيحه . وبأقلام غيرنا رغم ماقد ينتابه من شطط ، ثم علينا تقويمه حتى لا يكون هذا التاريخ ناقصا . ويجب أيضا أن نقرأه بوعي ، فذلك يوقظ في خيالنا حياة الأجداد ، فتسهل المقارنة وتجنب الخطأ . هذا فضلا عن متعة الانبهار أمام عظمة الانتاج الفني لأولئك الرجال العظماء الذين وقفوا يوما فوق أرضنا الطيبة ، ينقلون حاضرها الذي صار ماضيا وتاريخا . أما أخطاؤهم فنحن أقدر على التجاوز عنها .



جانب من معرض ديفيد روبرتس



في الصحراء



الصعود إلى جبال سيناء

حدثان كانا وراء البحث عن « ديفيد روبرتس » ، الفنان ، وأين كان ، وإلى أين ذهب ، وماذا قدم ، وماهي حكايته ، وخصائصه ؟

أولها تلك التظاهرة الفنية التي قدمها لنا الأستاذ طارق السيد رجب بالكويت ، ممثلة في معرض لوحات الفنان ديفيد روبرتس ، خلال شهر كانون الأول « ديسمبر » الماضي ، بمتحفه الكائن بضاحية الجابرية ، وهو متحف يضم ذلك التراث الفني ، الاسلامي في غالبيته الذي صار واحدا من معالم الكويت الحديثة ، بالاضافة إلى متحف الكويت الوطني ودار الآثار الاسلامية .

وطارق رجب نفسه ذواقة باحاسيسه ، مفعم بحب الفن ، وتشجيع القائمين عليه ، جامع لجديده وتليده ، على الرغم من بذل الوقت والجهد والمال . كويتي ناجح ، أضاف بجهده الخاص ذلك الطابع الخيالي الفني المتمثل في جمعه للرائع من الفنون ، والخالد من التراث حسب قول خبير آثار مصري ، زار متحفه منذ فترة .

كان عرض لوحات ديفيد روبرتس في متحفه مناسبة يجب الوقوف عندها ، قبل تجاوزها . وتقديمها للقاريء لحما ودما .

ثاني الحدثين هو صدور كتاب « مصر في عيون الغرباء ـ من الرحالة والفنانين والأدباء ـ القرن ١٩ » في مجلدين للدكتور ثروت عكاشة ـ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة . قدم فيه المؤلف ثروة ثقافية وفنية بالغة الثراء . لم تختص بمصر وحدها ، بل شملت غيرها من خلال تناول زيارة هؤلاء الغرباء ، فصارت الفائدة أعم ، والاستفادة للمتخصصين أشمل .

لوحات روبرتس في مجلدي الدكتور عكاشة ليست كاملة ، بل لقد اختار منها أهمها . ومتحف طارق رجب عرض اللوحات دون تفاصيل قد تركها لقراءتنا الفنية . فكانت هناك ضرورة للربط بين الصورة والمادة العلمية والفنية . ويمكن القول بأن القمم قد تلاقت بين تظاهرة طارق رجب الفنية ، وموسوعة عكاشة العلمية .

نعم عبر المكان في الكويت ومصر ، وفي زمن واحد تقريبا أمكن الخروج بهذا التصور عن ديفيد روبرتس الذي أصبح قمة ثالثة التقت معهما عبر الزمان وعبر المكان .

« الكلاسيكية »

مع بداية عصر النهضة ، وبداية تبدل الأوضاع في جميع الميادين ، في العلوم ، والآداب ، حدث تغير فني عظيم ، وتطور إنساني في مجال الفن ، حوله من فن ديني إلى فن يخدم الدنيا والدين ، مرتديا لباسا « كلاسيكيا » إحياء لمذهب فني كان سائدا عند اليونان والرومان ، وانفسح المجال أمام الروائع الفنية الخالدة ، نتيجة موهبة أولئك الرجال العظماء ، مثل دافنشي وأنجلو وروفائيل ، وغيرهم من القمم الفنية الذين قادوا الحركة الفنية من عصر مظلم إلى عصر مضيء وضاح .

ومع تطور الحركة الفنية ، ومرور الأيام ، وازدهار « الكلاسيكية » ، وبلوغها القمة بدأت في الانحسار ، وبدأت « الرومانسية » في الظهور ، وتلاها ظهور الواقعية في الفن ، إلا أنه مع مرور الوقت عاد الانسان إلى تذوق « الكلاسيكية » مرة أخرى بسبب فخامتها ، ومشاهدها الأخاذة ، وروائحها العبقة ، ولتمثيلها للطبيعة على النحو المثالي الحسن . وهذا الارتداد إلى « الكلاسيكية » عند الرأي العام قد دعا الفنان إلى العودة إليها ، وقد وجد « الكلاسيكية » ، في أفخم صورها متواجدة في الشرق وسحره وعطره ، وأطلاله وفيافيه ، وحول معابده ، وخلال طرقه ومنحنياتها ، وتحت ظلال

أشجاره ، وبجوار حيطانه الاسطورية ، ووسط ذلك التيه في صحاريه ، أو في مبانيه القديمة ، أو بجوارها ، أو مع المجتمعين حولها . وهي أوضاع تسعد لها عين الرائي الحديث المفعمة بكل الشوق لرؤية ذلك العالم الخيالي الفسيح التي أضناها النظر إلى المكائن والآلات والكتل الخرسانية . . كان الصمت الذي يغلف العالم الخيالي في الشرق ترتاح له أذن الرائي بعد أن قاست الكثير من الصخب والصوت النشاز .

النزوح إلى الشرق

بدأ النزوح إلى الشرق فنيا وأدبيا وعلميا ، بعيدا عن أوروبا ، وبدأت مواطن الخيال والجمال تجتذب إليها عديداً من الفنانين والمفكرين والأدباء والكتاب والتجار والمغامرين والرحالة وأصحاب المشروعات والراغبين في الشراء ، وبخاصة خلال القرن التاسع عشر ، وقد ساعدهم على اتخاذ قرار النزوح إلى الشرق تلك الرغبة العارمة في الهجرة من بلدانهم الاوروبية إلى مناطق جديدة ، ذات تاريخ قديم ، ومشاهد مثيرة للخيال ، محركة للوجدان ، تجدد في نفوس هؤلاء الفنانين تلك « الكلاسيكية » ، في أرض بكر بعيدة عن الحقد والكراهية ، والغضب ، والتلوث . كانت حتى ذلك الوقت تحمل في شوارعها وحواريها طابعا حيا للماضي ، وكيف كان ، إضافة إلى أن بلدانهم كانت تمنعهم من المغامرة داخل أراضيها . وأي مغامرة تكون وسط ذلك الزحام وتلك المداخن والآلات ، ووسط التروس والعجلات التي أوجدتها الثورة الصناعية ؟ !

وكأي فكرة جديدة بدأ الأمر يدغدغ شعورهم ، ويتبلور في أذهان المفكرين والأدباء والفنانين في أوروبا ، فهاجروا إلى الشرق بخيالهم أولا ، وانطلقوا يتصورون ذلك العالم البسيط الخيالي . كان أول المتخيلين « فردريك شليجل » ثم « جيته » . وتطور الأمر بعد ذلك ، فارتحل عديد منهم بأجسادهم إلى الشرق ، واهتموا في أول الأمر بنواحي الجمال ، وخلدوا ذلك في أشعارهم ورسومهم ، واندمجوا مع الشرق خيالا وجمالا .

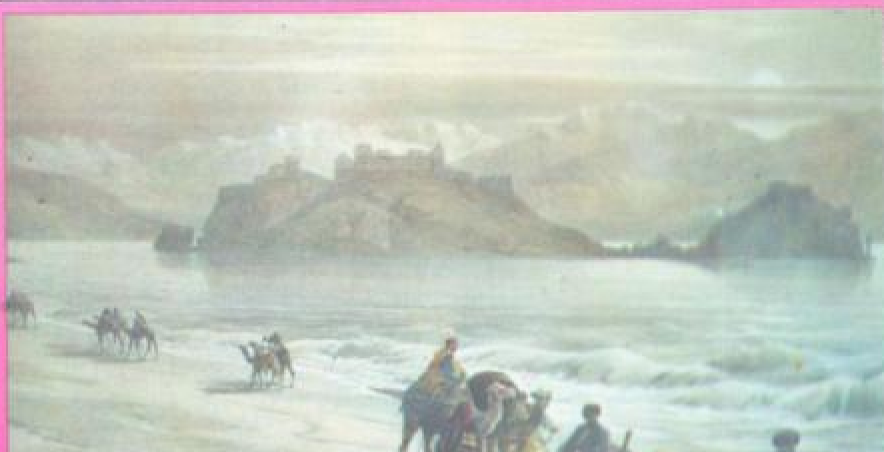
وممن جاءوا إلى الشرق - وإلى مصر على الأخص - كان رجال الحملة الفرنسية ، بعد سقوط نابليون ، مما جعلهم يخافون على أنفسهم من أنداد نابليون ، وبخاصة بعد مؤتمر فينا عام ١٨١٥ ، جاءوا يعرضون خدماتهم على حكام الشرق ، حيث أقاموا ، واعتنقوا الاسلام ، وتأثروا بنفس العادات والتقاليد ، وارتدوا نفس الملابس .



ديفيد روبرتس صورة شخصية



أهرامات الجيزة



قافلة



مخيم



فوق الأطلال

ويوجز لنا الدكتور ثروت عكاشة أسباب مجيئهم في أن الشرق قد أصبح بعد حملة نابليون على مصر موطنا للثراء الفاحش، ومكانا للحرية، ومهبطا للسحر والغموض، ومرتعا للمغامرة والمتع وإشباع الشهوات، أو للتخفيف من الرومانسية. جاءوا فامتلأت نفوسهم بذخيرة أدبية، واستحالوا وجدانيا من الأبهام إلى الوضوح.

رواد الاستشراق الفني نقلوا السائح الغربي إلى تلك البلاد البعيدة عنه، بواسطة رسومهم عن الشرق عبر الزمان والمكان، فاشتم هؤلاء السياح دون انتقال لروائح الشرق العبقة، وسحر مناظره الخلابة، وهدوء حياته وصفائها وهدوء سكانه وصفائهم، وهو نفس المعنى الحديث الذي انطلقت وراءه الشركات السياحية، لتنقل حقيد نفس السائح إلى تلك الجهات بجسده وخياله معا في العصر الحاضر.

مولد فنان

ديفيد روبرتس فنان اسكتلندي ذائع الصيت، وهو أحد «الرسامين» المشهورين، خاصة خلال العصرين الجريجوري والفيكتوري البريطانيين، وهو أيضا أحد الفنانين الذي استهواهم الشرق فارتحلوا إليه. فنان «كلاسيكي» كبير الأثر والتأثير، «مستشرق فني» إذا جازت هذه التسمية، وذلك بسبب الثراء الفني (كما وكيفا) الذي خلفه وراءه والاعجاب بانتاجه على مر السنين قد أدى إلى التهافت على شراء مجموعته الفنية، وبلغ هذا التهافت مداه إلى أن بلغ سعر المجلد الواحد الذي يضم مجموعته الفنية (٢٥٠ لوحة، ويقال ٢٤٨ لوحة) خمسة وعشرين ألف جنيه استرليني، وبلغ سعر اللوحة الواحدة من بعض لوحاته عشرة آلاف جنيه استرليني. استمرت شهرته بالانتشار بين أوساط الفنانين كمدرسة فنية رائعة، سواء في العالم الغربي على وجه العموم، أو العالم العربي على وجه الخصوص، وأكثر من ذلك في انجلترا، وذلك على الرغم من وفاته منذ ما يقرب من ١١٧ عاما.

ولد ديفيد روبرتس في عام ١٧٩٦ في مدينة أدنبره، وكان والده يعمل في صناعة الأحذية. وظهر نبوغه الفني في شبابه، وبهر الناس بموهبته المتفجرة، وبخاصة في رسم التصميمات المعمارية. وقد ولد وعاش في عصر الثورات الحادة ١٧٨٩، ١٨٣٠، ١٨٤٨. ومع نظريات كارل ماركس وفرويد، وابداعات شارلز ديكنز، وهي أمور أعادت العقل إلى الواقعية في الأدب والفن، وقد كان روبرتس متأثرا بذلك كله.

بدأ حياة الترحال ومعه أصدقاؤه، «مولر» و «وليم لير»، و «دافيد ويلكي»، في وقت كانت الدولة العثمانية قد أزاحت كل العقبات المعوقة للرحالة، هذا ويمكن النظر إلى رحلات روبرتس من زاوية الاحتراف وليس الهواية.

إلى اسبانيا والشرق

بدأت رحلاته إلى اسبانيا عام ١٨٣٠، وهو نفس العام الذي قامت به ثورة بفرنسا. وشملت رحلاته طنجة على الجانب الافريقي، والوطن العربي، حيث طاف بمصر، ووصل الى أقصى ما استطاع الوصول اليه عند الشلال الثاني، راكبا سفينة تحمل العلم الانجليزي في نهر النيل، مسجلا كل ما تراه عينه بفرشاته، مدونا يومياته التي عن طريقها استطعنا أن نتعرف على انطباعاته عن مصر في ذلك الوقت، وأثر ذلك على أعماله الفنية بها.

وزار بعد ذلك فلسطين والشام ولبنان مسلحا بأدوات الرسم، بالفرشاة والأصباغ، فرسم كنيسة



روبرتس بالملابس العربية ـ من تصوير روبرت سكوت.

القيامة ، ورسم بعض المعالم في بانياس وصفد ورأس الناقورة وبيت لحم ونابلس ، وقد أبدع في رسم شوارع القاهرة ، ومبانيها ومساجدها وعمائرها ، كما أبدع في تصوير سيناء ـ أرض التيه ـ حيث صورها لنا بجبالها ووهادها وألوانها وقسوتها ولينها ، وخيالها وذكرياتها ، وكلها مناطق لم ترها العامة ، فكانت ذخيرة حية لكل من رآها ، ليلتهب خياله ، ويذهب بعيدا إلى بلاد السحر والخيال في الشرق ، بعيدا عن تلك المجتمعات القاسية ولغة المال ، يذهب إليها بخياله مادام لم يستطع الذهاب إليها بجسده .

روبرتس الانجليزي أهدى كتابه إلى ملك فرنسا « لويس فيليب » . وهو أمر قابلته ملكة الانجليز « فيكتوريا » برغبة ملكية في رؤية ذلك الانتاج ، ومن ثم عرض هذا الانتاج الفني في لندن وباقي بلاد الانجليز تقريبا ، وحتى يمكن تخليد ذلك الانتاج اتفق روبرتس مع صاحب مطبعة بلجيكي اسمه « لويس هاف » على إعداد ألواح « زنكوغرافية » لمعظم رسومه ، ثم نشرت على حلقات مما عاد عليه بثروة طائلة وشهرة واسعة ، وأعيد نشر هذا الانتاج في فترة (١٨٤٢ ـ ١٨٤٩) في مجلدات ستة ، بعنوان أسطوري « الأرض المقدسة ـ سوريا ـ أيدوم ـ شبه الجزيرة العربية ـ مصر ـ النوبة » وهي أسماء أكثر المناطق سحرا عند أهل أوروبا حينذاك .

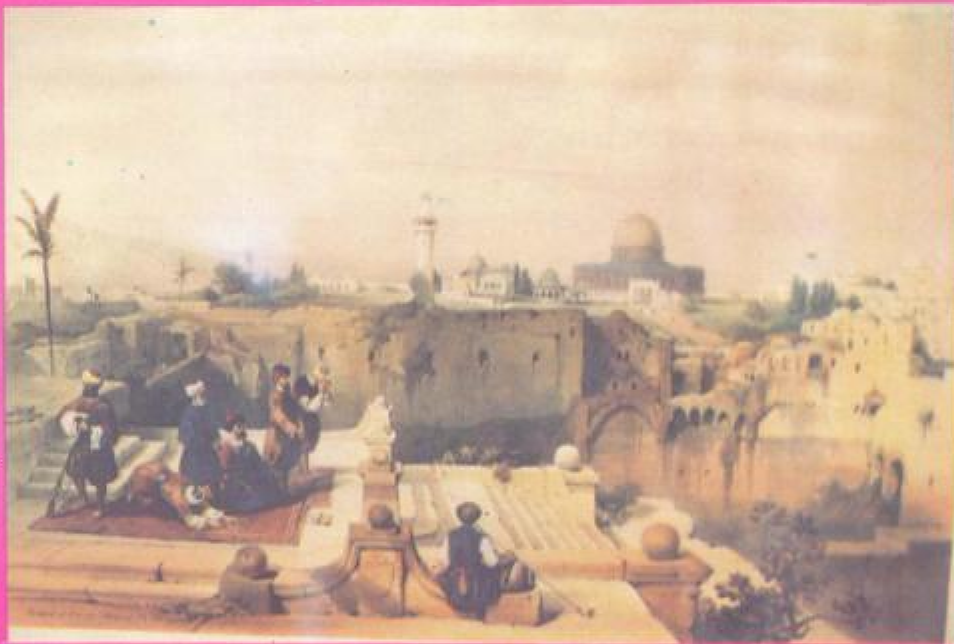
وله أيضا مجلد عن مدينة القاهرة التي بفضل رسوم روبرتس أخذت بعدا جديدا بعد طول نسيان خاصة عند الاوروبيين . وقد حرص الهواة إضافة إلى البيوت الفنية والمتاحف أن يحصلوا على أعمال روبرتس .

وفي الشرق ـ في مدينة بيروت ـ أعيد طبع أعمال روبرتس حيث لاقت نجاحا عظيما ، وحققت شهرة واسعة .

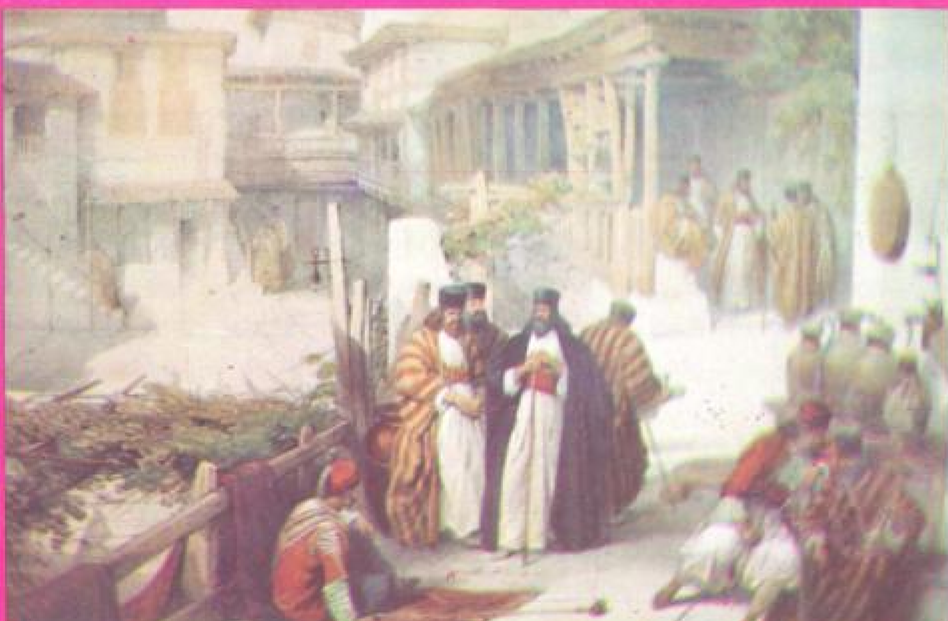
نحن ننظر الى روبرتس حينما جاء إلى الشرق بعد الانحسار الرومانسي ، راغبا في تأمل تلك المساحات النائية الواسعة ، وتائها في فيافيها ، وباحثا عن الأمل تلو الأمل . نراه وهو في صحراء سيناء ، ذلك المكان البعيد النائي ـ في ذلك الوقت ـ القاسي ، القليل السكان ـ أرض التيه ـ ، ونراه خاشعا أمام الجبل المدكوك منذ أن وقف أمامه موسى عليه السلام ، وتجلى الله سبحانه وتعالى للجبل ، فصار دكا وخر موسى صعقا . لقد صور لنا روبرتس حال هذا الجبل ، وصور لنا الأديرة والكنائس والمساجد ، ورسم لنا الرهبة والأهوال التي لاقاها في سبيل أمله اللامنتهي الذي يبحث عنه وسط ذلك التيه .

ديفيد الفنان

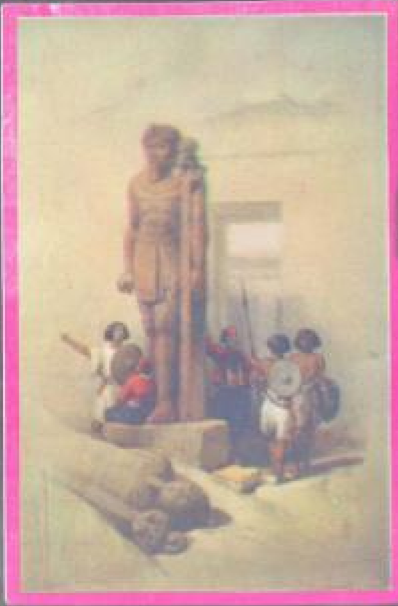
اشتهر روبرتس بمقدرة كبيرة في تصوير ارتفاعات المباني وتقدير نسبها ، واستلهام المثير من مناظر بسيطة فجاءت رسومه خاصة في مصر رومانسية الطابع ، بدليل ذلك الحزن الواضح في انتاجه الفني عن أطلال معبدي الأقصر ودندرة ، إضافة إلى تحسره على ضياع الانسان ، واندثار أعظم ماخلفته العبقرية



ذكرى اقتراب ريح السموم



قبور المماليك وجنازة عربية


« الكرنك » من الغرب


المساجد

البشرية من آثار على حد قول الدكتور ثروت عكاشة .

ولقد أبدع في الوصف الطبوغرافي « الديوراما » . بدأ حياته الفنية في تصوير المناظر المسرحية الا أنه في الشرق عشق رسم المساجد والبيوت والشوارع ، فصورها في بطء وتؤدة ، فجاءت دقيقة معبرة ، وبرز فيها فنه وموهبته ، وبخاصة في توزيع الكتل ، وباحساسه المرهف في توزيع النسب داخل الصورة ، وبراعته في إخضاع الجزء للكل ، فهو شديد الاهتمام بتكامل الوحدة المعمارية ولو استدعى ذلك التضحية بكل التفاصيل الشاعرية أو بعضها .

وقد تميزت أعماله بتوزيع الضوء والظل بشكل درامي عند رسمه للعمائر المصرية ، ويتضح ذلك في لوحة البهو الخارجي لمعبد ادفو ، كما تتميز بدوام انطلاقه وراء أي تأثير درامي أو شاعري ، وأبرز الأمثلة على ذلك كان في لوحته المعروفة باسم « ذكرى الصحراء عند اقتراب ريح السموم » ، وهي اللوحة التي تصور « أبا الهول » والهرم عندما تعانقهما الشمس ، وهي اللوحة التي انفعل معها الروائي الشهير شارلز ديكنز ، إلا أن الرسام وليم هولمان تدخل لدى ديكنز وقلل من شأن اللوحة على أساس ابتعاد روبرتس عن العقيدة المصرية القديمة بجعله أبا الهول في الاتجاه الخاطيء ، حيث ان « أبا الهول » قد بني أساسا ليواجه الشمس ، إلا أن ذلك لم يثن ديكنز عن الاستمرار في الانبهار باللوحة ، واصفا إياها بأنها ومضة شاعرية وقد أهداها له روبرتس .

كان لروبرتس العديد من العجالات التي رسمها في سرعة ، لكنها كانت تكفي بتفاصيلها لابداع لوحته فيما بعد داخل مرسمه في بطء وتؤدة وإبداع □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



■ العُرس العُماني بين بيضة الحسد ونقوش الحناء

■ أسئلة الأطفال نافذة مغلقة أم مفتوحة على مستقبلهم؟

عادات وتقاليد عربية

العُرس العماني

بين بيضة الحسد ونقوش الحناء

استطلاع : ثريا البقصمي

« عندما تقرع الطبول وتدق الصنجات ، وترتفع الخناجر بالزغاريد والغناء يكون ذلك تعبيرا عن مظهر من مظاهر الفرح البشرى . والعرس اعلان شرعي عن بداية علاقة انسانية جديدة ، الفرح فيها متجدد ، متنوع ، فبها استمرار حياة كل الشعوب . في عمان قضينا ليلة فرح ، روايتها متعة ، وتفاصيلها بهجة ، وما فيها من مظاهر العادات والتقاليد يدعونا أن نحكيها لكم »

عُمان بقعة رائعة في وطننا العربي ، تنضح بالسحر ، وتعيش جو الأسطورة ، فالألوان المبهجة ، والزخارف المطرزة ، وبريق الحلى الذهبية تتحد في تكوين لون مبهج ، يخطف الأبصار ، والعمانيون مولعون بزينة الملبس ، فكيف تكون الحال إذا كان في الأمر مناسبة سعيدة « كالعرس » ؟ عندئذ يتحول المكان الى « كرنفال » ، يتفنن المشاركون فيه بإظهار أساليب الزينة المختلفة ، وككل الأعراس في منطقة الخليج العربي تقام حفلة الزفاف دون اختلاط بين الرجال والنساء ، فهناك حفلة للرجال ، وأخرى للنساء ، تقامان في نفس الوقت ، يتخللها الغناء والرقص على أنغام فرق (السوقطري) ، و (الشرح) ، و (الدان دان) ، و (الليوة) .

فترة الخطوبة

في حفل العرس التقينا بمجموعة من السيدات العمانيات المسنات اللواتي وجدن متعة في سرد تفاصيل الخطوبة واحتفالاتها التي تسبق حفل الزفاف . وتعتبر فترة الخطوبة في عمان - كما في كل





- عروس عمانية في أبهى زينتها ، وجمال عربي أصيل (الى اليمين أعلى)
- مراسيم ليلة الحنة ، وبهجة اللون والزخرف (الى أعلى)
- رقصة حفلة الزفاف ، يشارك فيها الرجال والنساء ، ويرقصون على أنغام « الليوة » (الى اليمين)



بلاد العالم - هي الفترة الحاسمة في حياة أي فتاة . كانت تخطب الفتاة في الماضي عندما تبلغ سن الثانية عشرة ، والزواج يتفق عليه بين الوالدين ، أما « العريس » فهو في الغالب من أبناء العمومة .

ويزخر التراث العماني بالحث على زواج الأقارب وتفضيله ، كما هو الحال في الوطن العربي ، والمثل الشعبي في عمان يقول : « إن من يتزوج من امرأة غريبة مثل من يشرب من ابريق لا يعرف ما فيه ، أما الذي يتزوج من ابنة عمه فهو كمن يشرب من ابريق يرى ما فيه ويعرفه » . وقد يكون « العريس » محظوظا فيرى عروسه قبل الزفاف ، أو تكون فرصته الأولى للتعرف على زوجة المستقبل ورؤيتها بعد إتمام مراسيم حفل الزفاف .

يعتبر دفع المهر من أهم مراحل الشروع في اتمام الزواج،وفي الماضي كان أهل«العروس»يغالون في تحديد مقدار المهور،لكن الحكومة حددت مبلغا رمزيا للمهر ، فجعلته لا يزيد على ثلاثمائة ريال عماني ، بينما كان في الماضي يصل الى ١٥٠٠ ريال ، وبجانب المهر تقدم الهدايا العينية للعروس ، مثل الأقمشة الفاخرة ، والمأكولات كأكياس الرز ، والتمور ، والسكر ، وحبوب القهوة ، وتعرض هذه الهدايا في غرفة الاستقبال ببيت العروس ، لكي يطلع عليها الضيوف ، ويقدم بعضهم جزءا من المهر على شكل حلي ذهبية . ويقوم أهل العريس بنحر الذبائح في ليلة العرس ، وهذا أيضا يدخل ضمن الهدايا المقدمة للعروس ، لكن من أطرف هدايا العرس العماني « فراش العروسين » الذي يقوم بتقديمه خال « العروس » ، ويشترط فيه أن يكون من الديباج الفاخر المبطن بالحرير النفيس .



- ليلة الحناء من أجمل مراسيم العرس العماني ، يدهن جسد العروس بخليط مسحوق الكركم واللوز والرز

ليلة الحناء

تعتبر ليلة الحناء من أجمل مراسيم العرس العماني ، وتقام غالبا قبل حفل الزفاف بيومين أو ثلاثة ، ونبات « الحناء » الشهير باستعمالاته كصبغ لشعر الرأس ، ويستعمل في عمان كما في كثير من أقطار الوطن العربي لصبغ الجلد . وهناك صبغة أخرى تصنع من شجر « الشوران » ، إذ تطحن



ـ « عريس » عماني يرتدي الملابس العمانية ، ويتقلد خنجرا رمزا للرجولة والشهامة

زهورها فتصنع منها عجينة ، ثم تنقش بها اليدين نقوشا على أشكال الزهور والنباتات المختلفة ، وتحنى العروس وهي متشحة بوشاح أخضر اللون ، وهي داخل « كوشة مغلقة » تسمى « الجملة » ، ومن داخل هذه « الكوشة » تخرج يديها وقدميها فقط لتقوم احدى النساء الخبيرات بعملية الخضاب . والطريف أن مراسيم مشابهة تقام في نفس الليلة في بيت العريس ، حيث يتم خضاب العريس كنوع من الاعتقاد بأن الحناء تجلب الخير والسعادة . ويسبق ليلة الحناء ليلة « الملكة » ، أي ليلة « عقد القران » ، وفيها يقوم العريس بمسح رأس العروس ثلاث مرات بظاهر يده ، وهو يقرأ بعض آيات القرآن الكريم ، ويفعل ذلك في حضور جمع من النساء وأهل العروس .

تحجز العروس قبل حفل الزفاف بأسبوع ، ولا يراها فيها الناس ، للاعتقاد بأن رؤية الناس لها ستساهم في سرقة زينتها . ويدهن جسد العروس بخليط ـ أعد منزليا ـ مكون من مسحوق الكركم واللوز والرز المطحون ، وبعض العائلات الميسورة تضيف إليه مسحوق الصندل ، وهذا المسحوق يساعد على نعومة البشرة ، وتسمى هذه العملية بعملية « الجلي » .

زفة العروس

إن اللون الأخضر رمز للإخصاب وللخير ، ولهذا تلبس العروس العمانية ملابس خضراء اللون ، تشير فيها الى رغبتها لإنجاب العديد من الأطفال لإسعاد زوجها ، ويتكون زي العروس من « الدراعة » المطرزة « بالزري » أي بالخيوط الذهبية ، ويكون طول الثوب بمستوى الركبة ، ويحيط به إطار من الخيوط الذهبية « الزري » عريض ، وتحت الثوب تلبس سروالا ، ينتهي بحواش مطرزة ، وغالبا ما تقوم العروس بتطريز ثيابها ، وتعتبر مقدرة الفتاة على إجادة فن التطريز من أهم مواصفات زوجة المستقبل ، وترتدي العروس على رأسها وشاحا تتدلى من أطرافه النقود المعدنية ، أما الحلى الذهبية التى تغرم بها المرأة العمانية فهي تتدلى من عنقها وأذنيها . وهناك حلقات ذهبية توضع في الأنف ، تتصل بسلسلة طويلة تشبك في شعر

الرأس وتسمى « بالعوص » ، وتحلى أصابع القدم بخواتم ذهبية مختلفة .

بيضة الحسد

وتبلغ الاحتفالات ذروتها عندما يؤخذ العروسان الى بيت الزوجية ، وقبل الدخول الى حجرة الزوج تكسر بيضة على إبهام العروس والعريس ، ثم يغسل الابهامان بماء الورد ، وترش حوائط المنزل وزواياه بماء الورد أيضا ، وهذه مراسيم تجرى لمنع الحسد ، وطرد الأرواح الشريرة من البيت . ويبدأ التقارب بين زوجي المستقبل عندما يقومان بالشرب من كوب حليب دافيء ، وهو رمز للخير المقتسم بينهما ، وفي بعض المناطق العمانية يقرأ الزوج الفاتحة ، ويصلي ركعتين شكرا لله . ويكون العريس في أبهى زينته متقلدا سيفا يرمز للرجولة ، وخنجرا من الخناجر الشهيرة ، المطوق بشال من الصوف ، ويقوم أهل العريس بذبح الخرفان ، وتقديم الأضاحي فرحا بقدوم « الكنة » العزيزة ، ويتم كل ذلك مصحوبا بالرقص والغناء ، وحفلة العرس تمتد أفراحها ثلاثة أيام أخرى بعد يوم العرس ، حيث تقوم العروس برحلة « مكوكية » بين بيت أهلها وبيت الزوجية ، ففي صبيحة اليوم الثالث للزواج يأتي أهل العريس لأخذ العروس لزيارة منزلهم وللتعرف عليهم ، ثم ما أن ينتصف النهار حتى يشتاق أهل العروس لابنتهم ، فيقومون باصطحابها الى المنزل الذي ترعرعت فيه ، وعاشت فيه صباها وطفولتها ، وعند المساء يعود أهل العريس لأخذ عروسهم الغالية ، والمزامير والطبول الصنجات تشارك بأنغامها المتناسقة في عمليات الأخذ والرد بين البيتين ، وجمهرة غفيرة من الضيوف تشارك العروس في رحلتها « المكوكية » .

وعند آخر محطة تشعل أعواد البخور ، وكما يقول المثل الشعبي « بعد العود ما فيه قعود » وإشعال أعواد البخور بمثابة اعلان عن انتهاء مراسيم احتفالات العرس العماني ، لتبدأ الحياة بكل وقائعها وأحلامها . □

■ ليس في الدنيا فرح يعدل فرح الأم ، عندما يحالف ابنها التوفيق . (ريتشتند)

■ المرأة كالأقمشة ، لايحسن اختيارها إلا على ضوء الشموع . (دوره)

■ إن ابني لايستطيع أن يحل محلي ، وأنا نفسي لا أستطيع أن استبدل مكاني ، إني مخلوق الظروف . (نابليون)

■ من الرجال من يخلقون أذنابا ، ومن العبث أن تجعلهم رءوساً . (تيلر)



نابليون



أسئلة الأطفال

نافذة مغلقة أم مفتوحة على مستقبلهم ؟

بقلم : كمال زاخر لطيف*

أيهما يعبر أكثر عن درجة ذكاء الطفل ، ومدى نموه العقلي : هل هو مايرد به من اجابات صحيحة على أسئلة الكبار .. ؟ أم مايطرحه من أسئلة واستفسارات ، يطلب بها إجابات من الكبار ؟

اعتاد الكبار من آباء ومعلمين على أن يسعدوا باجابات الاطفال التي تدل ـ من وجهة نظرهم ـ على أن أطفالهم قد كسبوا القدر اللازم من المعرفة بالحقائق والمعلومات ، ولكنهم تعودوا في نفس الوقت على عدم الاهتمام بأسئلتهم ، أو تجاوزها ، أو على الأقل الإجابة عليها اجابات متسرعة غير متأنية ، دون التأمل فيها ، أو التعرف على عناصرها الفكرية وأصولها العقلية .

وقد وضع أصحاب اختبارات الذكاء شروطا ومحاذير ينبغي أن تجرى في ظلها مثل هذه الاختبارات ، لكنهم جميعا أصروا على أن الوسيلة المثلى لتقدير مستوى الطفل العقلي هو قدرته على ايجاد اجابة نموذجية ، وأحيانا قدرته على التوصل الى الإجابة المطلوبة نفسها .

لهذا السبب أهمل الكبار أسئلة الصغار.

ان اهمال أسئلة الصغار ، والتبرم منها أحيانا ليس

* موجه عام سابق للتربية وعلم النفس . بمصر

بسبب عدم معرفة أهميتها وجهل دورها النفسي والتربوي فحسب ، لكنه يكون لأسباب أخرى ، لعل أهمها : -

١ - شعور الكبير بغرابة سؤال الصغير ، أو بتفاهته أو عدم جديته ، مما يجعله لايهتم به ، أو يعيره التفاتا .

فيقع الكبار بذلك في مطب تجاوز حقوق الصغار في التفكير بطرائقهم الخاصة التي تتميز بالبساطة ، والوضوح ، والمنطق العقلي البحت أحيانا ، والمنطق الواقعي البحت أحيانا أخرى ، وهذا التجاوز يمثل شكلا من أشكال « الديكتاتورية » العقلية التي يتمسك بها الكبار ناسين أو متناسين أن الطفل يطلق سؤاله البسيط الساذج عن رغبة صادقة في المعرفة ، أو اكتشاف العالم الذي يحيط به بدافع من مثيرات خارجية في مواقف معينة ، فضلا عن الهدف النفسي العاجل لسؤاله ، وهو إعادة التوازن النفسي الذي يفقده في موقف ما .

٢ - ادراك الكبار صعوبة السؤال الذي يطرحه الطفل حين يكون السؤال متصلا بجانب من جوانب المحرمات الاجتماعية أو الأخلاقية ضمن اطار ثقافي معين ، لايسمح بتناوله الا في سن معينة .

وحيرة الكبار أو عجزهم ازاء مثل هذه الأسئلة التي يلقيها الصغار هما مشكلتا الكبار ، ومن هنا وجب على الكبار أن يعدوا أنفسهم الاعداد الجدي الذي يساهم في الاجابة السليمة عن مثل هذه الأسئلة ، حتى لايسقطوا في الامتحان ، ويظهروا بالمظهر الذي لايتوقعه منهم الصغار .

٣ - أحيانا تشكل كثرة أسئلة الأطفال ، وتلاحقها ، أو عدم انتظار الاجابة عنها سببا آخر من أسباب الاهمال الذي يبدو من الكبار .

ولو أدرك الكبار أهمية أسئلة الأطفال من الناحية النفسية لكان لهم موقف آخر ، وهو التشجيع حتى يستمر الأطفال في طرح أسئلتهم وكأنهم يفكرون بصوت مسموع .

٤ - وكذلك فان من بين الأسباب التي تجعل الكبار لايعيرون أسئلة الأطفال القدر الواجب من الالتفات والاهتمام أن بعض هذه الأسئلة يأتي بصورة ضمنية ولايأتي بشكل مباشر .

قيمة تربوية

الا أنه على الرغم مما تلقاه أسئلة الأطفال من اهمال في حياتهم اليومية فان الدراسات « الأكاديمية » بصفة عامة قد أولتها اهتماما كبيرا منذ فترة طويلة ، ويمكننا أن نجد بحوثا ودراسات تنشرها المجلات العلمية بين حين وآخر ، غير أن هذه الدراسات لم تجد طريقها الى التطبيق العلمي في حياة الأطفال ، سواء في البيت أو في المدرسة ، وبقيت هذه الأسئلة كقيمة تعليمية وتربوية مهدورة ، وليس أدل على ذلك من أن العاملين في الحقل التعليمي يلاحظون أن أسئلة الأطفال تتضاءل كما وكيفا كلما تقدموا في السن ، فاذا ما التحقوا بالمدرسة ألفيناهم يتسابقون الى الاجابة على أسئلة مدرسيهم التي لاتتوقف طيلة الدراسة ، ولايفكرون كثيرا في أن يسألوهم أسئلة قد تخطر ببالهم أو تعن لهم أثناء الشرح ، ولعلهم نسوا أو تناسوا أن حق الأطفال أن يفكروا بالطريقة التي تروق لهم ، لا بالطريقة التي تروق للكبار .

أسئلة الأطفال صيغها ووظائفها

نستطيع أن نميز بين نوعين من الأسئلة :

النوع الأول عقلي (لغوي) ، والنوع الثاني نفسي .

وفي النوع الأول (العقلي) يحاول الطفل أن يستخبر عن شيء ، أو أن يخبر عنه ، وهي تبدأ عادة بلماذا ، أو كيف ، أو ما ، أو الهمزة ، الخ .

أما النوع النفسي فعبر عنه الطفل بسؤال يأتي في شكل خبر يلقيه الى السامع ، لكنه في حقيقته سؤال يريدُ أن يتعرف على اجابته ، كأن يقول طفل : « بابا سيحضر لي لعبة » ، وهو يقصد « هل سيحضر لي بابا معه لعبة ؟ » ، ومن الضروري أن نؤكد حقيقة أساسية ونحن بصدد تحليل أسئلة الأطفال بقصد تفهم دورها في تنمية ذكائهم وقدراتهم العقلية ، وهي أن للاسئلة دلالة موقفية قاطعة ، فنحن لانستطيع أن نقدر قيمة السؤال أو أن نفهمه ونحدد معناه الا من خلال الموقف المعين الذي دفع الطفل الى السؤال ، فليس للسؤال قيمة في ذاته ، لكنه يستمد قيمته ودلالته وأهميته من طبيعة الموقف الذي يحيط به وظروفه .

ولأسئلة الأطفال ثلاث وظائف تكوينية هامة هي :

١ ـ تحقيق التوازن النفسي لدى الطفل .

٢ ـ التفكير الاستنباطي ، للتعرف على البيئة المحيطة به .

٣ ـ التعرف على القيم الخلقية والسلوكية التي تقع داخل الإطار الثقافي والاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل .



موقف الوالدين من أسئلة الأطفال

يعتمد الأطفال في مرحلة ماقبل المدرسة الابتدائية اعتمادا على الوالدين ، وعلى الأم بوجه خاص ، فعن طريقهما يتعرفون على كثير من الحقائق والمعارف والمعلومات ، وهم بهذا يحملونهما مسئولية أساسية نحو نموهم العقلي ونموهم الاجتماعي ، ، كما يحملونهما المسئولية نحو نموهم الجسمي والصحي .

ونود أن نخلص من عرضنا هذا الى بعض المبادىء الاساسية التي ينبغي على الآباء والأمهات مراعاتها .

ولنبدأ بأهم هذه المبادىء ، وهو مبدأ عدم الاهتمام بأسئلة الأطفال :

فالوالدان اللذان يصغيان لأسئلة أحد أطفالهما يشعرانه بمشاركته همومه ، وباحترامها وتقديرها ، وهذه المشاركة تعيد الى الطفل ـ في موقف التساؤل نفسه ـ توازنه النفسي ، واطمئنانه ، وسرعان مانلمس نبرة الثقة بالنفس ، والدقة في طرح السؤال ، والتتابع المنطقي في مسار الحوار ، والتوقف عنه في الوقت المناسب له ، والاكتفاء بالقدر اللازم منه .

أما ثاني هذه المبادىء فيتمثل في مبدأ الصدق في الأجابة ، ونعني بالصدق في الاجابة أن يتحرى الأباء والأمهات الدقة في الحقائق العلمية التي يقدمونها لأطفالهم من خلال مفردات لغوية معروفة ومألوفة لهم ، وتبسيط هذه المعلومات في إطارها العلمي الصحيح ، والمحافظة على إطار المفردات التي تعود عليها الأطفال ولا بأس من اضافة المفردات الجديدة ، لكن بحساب .

من المألوف عادة ـ أن يسأل الأطفال أسئلة تدور حول مسائل جنسية فليس من الغريب أو الشاذ أن يبحث الكائن الحي العاقل عن أسباب حياته ،

ومقوماتها ، بل العكس هو الغريب والشاذ ، وقد أصبحت الآن هذه الأسئلة شائعة ، ومألوفة ، وبسبب ماترده أجهزة الاعلام كالتلفاز والأذاعة وغيرهما . وصدق الاجابة على هذه الأسئلة في اطار المفردات اللغوية المقبولة المألوفة لدى الأطفال - كما سبق أن ذكرنا - يعني في نهاية الأمر تحقق حالة الاستقرار والتوازن النفسي والأمن .

ويأتي بعد ذلك ثالث المبادىء اللازمة ، وهو مبدأ معالجة الدوافع الخاصة للأطفال ، أي تلك الدوافع الناشئة من سياق الموقف الذي يعيشون فيه ، فالطفل الذي يشعر بالقلق والانزعاج من جراء مولد طفل جديد في الأسرة فيسأل : من أين يأتي الأطفال ؟ لايمكن أن تحل مشكلته بمجرد الاجابة العلمية ، لكنه في حاجة الى معالجة الدافع الحقيقي الذي دفعه الى طرح هذا السؤال ، والاهتمام به اهتماما خاصا .

موقف المدرسين والمدرسات في المدرسة :

من الملاحظ بصفة عامة أن الأطفال يفقدون اهتمامهم بالأسئلة التي يطرحونها على مدرسيهم ومدرساتهم بمرور سنوات الدراسة ، ويركزون اهتماماتهم حول الاجابات التي يتدربون عليها ، استجلابا لرضا مدرسيهم ، فالحياة المدرسية الآن بصفة عامة تعتمد على مسلمة غريبة ، هي أن السؤال حق موقوف على المدرس أو المدرسة ، وأن الاجابة واجب مقصور على التلميذ ، سواء كان صغيرا أو كبيرا ولايمكن أن يكون الأمر على عكس ذلك !

وحين يطرح هذا الموضوع على بساط البحث والمناقشة في اجتماعات المعلمين ولقاءاتهم في برامج التدريب سرعان مايتصايحون متعللين بالمناهج المقررة التي لاتسمح بالأسئلة الخارجة عنها ، وبأن الوقت والحصص المحددة لاتفسح المجال لمثل هذه الأسئلة .

ان الأمر هنا يصبح أسلوبا مباشرا لتدمير عقل الطفل ، والوقوف في طريق نموه كإنسان يتعايش مع مكونات مجتمع معين . كيف يمكن لنا أن نتوقع اكتشاف الطفل لذاته ، وفهمه لمجتمعه ، والشعور بالانتماء اليه دون أن نفتح له القلب والعقل بالأجابة على كل مايدور في خلده من تساؤلات ؟

ان التقليل من مبدأ حق الطفل في أن يسأل عن كل مايعن له اثناء الدرس يعني في نهاية الأمر إلغاء حق الطفل في النمو ، ووضعه تحت تأثير أسلوب غير « ديموقراطي » في التعليم .

نود أو نوجز أخيرا بعض السمات الأساسية لهذا التغيير اللازم فيما يلي :

١ - ضرورة أن يكون للمناهج بصفة عامة طابعها المحلي ، بالاضافة الى أهدافها العامة الشاملة .

٢ - حق التلاميذ في اختيار مواد معينة من ضمن مجموعات نوعية من المواد الدراسية .

٣ - تعديل النظم الادارية التقليدية الموجودة حاليا في شكل حصص وجداول دراسية صارمة المواعيد .

٤ - تدريب المدرسين والمدرسات في مراحل التعليم المبكرة على الاهتمام بأسئلة الأطفال ، وطرق الاجابة عليها ، وتشجيع الأطفال على طرحها دون خوف ، أو تحسب شديد .

٥ - الاقلاع عن طرق الامتحانات والاختبارات السائدة الآن ، لاسيما في سنوات الطفولة المدرسية المبكرة ، واستبدالها بأساليب حديثة ، تقوم على احترام حركة النمو ، كنشاط طبيعي نلمسه حين يلعب الأطفال منفردين أو غيرهم ، وحين يرسمون بالقلم أو الفرشاة مع غيرهم ، وحين يعلقون على أحداث أووقائع معينة . □

مساحة ود..

دفاع عن الإنسان

أعارني صديق شريط « فيديو » مسجلا عن التلفاز البريطاني ، مادته تعرض لقوافل الخدمة التطوعية التي بدأت تنتشر في أوروبا الآن . وعلى مدى ساعة ونصف ـ مدة الشريط ـ استمتعت ودهشت من هذا العمل الانساني الرائع ، وبداية قبل أن أشاهد البرنامج تناقشت مع صديقي الذي يعمل في مجال الاعلام أيضا ، وقلت له انني لست في حالة انبهار دائمة بكل ما يأتي من الغرب ، وأنني أفهم ، وأعرف كيف تعد كثير من المواد الاعلامية ، لكي تخدم أهدافا سياسية ، وأن الاعلام في الغرب لاينفصل عن « ماكينته » السياسية مهما ظهر لنا بأن هذا الاعلام حرا ومحايدا وموضوعيا ، فهو في حقيقته ليس حرا ، إذ أنه يخضع لسيطرة الاعلان والتمويل والقوى الاجتماعية الأكثر تأثيرا ، وليس محايدا عندما يتعلق الأمر بمصالح الغرب .

وكانت مادة الشريط مفاجأة ، فالمتطوعون طلاب وموظفون وشباب وكبار سن ، نساء ورجال ، يذهبون الى أماكن أكثر فقرا ، وأشد تخلفا ، في افريقيا ، ومدة التطوع عامان كاملان ، وفي ظروف معيشية مختلفة تماما عن المجتمع الاوروبي.يعيش هذا الفريق ، ويعمل في كل المجالات بيديه ، في حفر الآبار ، وشق الترع ، وتربية الحيوان ، وتعليم الأطفال ، والتمريض . وشهادات الفريق في بداية الرحلة تمتلىء باحساسهم تجاه خدمة مجتمع انساني متخلف ، وعند نهاية الرحلة يتحدثون جميعا عن احساسهم بالعار والخجل ، لأن أوروبا هي التي نهبت هذه البلدان ، وتركتها تعيش وراء التاريخ . ورغم أن كل دوافع الفريق في البداية ليست واحدة،وبعضهم كان شديد الصدق عندما تحدث ، وان هومه الذاتية كانت هي الدافع الى التطوع ، الا أن النجاح الحقيقي كان لهذه المؤسسة التي تعاملت وتفاعلت بوعي مع الظروف الذاتية المختلفة لكل فرد ، وحولتها الى طاقة توجه لخدمة إنسانية عامة .

وعلى مدى الشريط تنتقل آلة التصوير (الكاميرا) مع الأفراد في الأكواخ الافريقية ، وفي الغابات والمستنقعات ، لتنقل صوراً حية لعمل هؤلاء المتطوعين.وتذكرت تيارات مماثلة ومؤسسات مشابهة لهذه المؤسسات التطوعية التي تعمل في أوروبا بوعي صادق ، واحساس انساني عارم بكل مشكلات المجتمع الانساني والأخطار التي تهدده . ومقابل ذلك تذكرت حفلات الشاي والندوات التي تقيمها المؤسسات المشابهة في وطننا العربي ، والتي يكثر فيها الكلام ويقل الفعل ، ألم يحن الوقت لكي تظهر في مجتمعنا العربي مؤسسات مدنية تدافع عن الانسان ، وتساعده على الحياة ، وتتسع رؤيتها لكل البشر دون أن تغرق نفسها في شهوات السياسة ، وصراعات المناصب الفخرية ؟! □

محمود عبد الوهاب



هو..

عسر

أسلمت أمري لله بعد عشر سنوات حاولت فيها أن أغير منه ، وأعدل من طريقته ، لقد اتبعت كل الطرق الممكنة ، كالنقاش ، والمشاجرة ، والاقناع ، والصراخ ، حتى لجأت الى الاستعطاف كحل أخير ، لكن كل هذا لم يثمر ، بل راحت كل محاولاتي أدراج الرياح .

في سنوات خطبتنا التي لم تطل كنت أزهو به على أزواج شقيقاتي وأقاربي ـ كانت زياراته لنا تحمل في ثناياها دوما فرحاً ما ، كان يدخل البيت محملا بالهدايا لكل فرد في العائلة ، أو للبيت كله ، أو لي ، وعندما يوافق والدي ـ رحمه الله ـ على أن نخرج معا يصر على أن يدعو معنا كل من تسمح له ظروفه من أشقائي وشقيقاتي ، ونذهب الى مسرح أو سينما أو مطعم . كانت المناسبات مواسم إظهار لكرمه ، كان يقدم الهدايا في أعياد الميلاد ، وذكرى الزواج بسخاء حقيقي . وبعد زواجنا بعام أو أقل تغير السلوك تماما ، وصار يقول :

لماذا هذا ولبس ذاك الأرخص والأقل ثمنا !؟ حتى استخدامنا للثياب كان شديد التدقيق فيها : لماذا ارتدي هذا الفستان وثمنه مرتفع في غير مناسبة تستحق ؟ وظننت أنه يمر بضائقة مالية ، ويريد أن يضغط الانفاق ، وأنه يخطط لشيء ، ويريد أن يدخر له مالا ، لكن مرور الشهور التي تراكمت لتصبح أعواماً أكد لي أنه عاشق للمال ، شديد البخل ، لاينفق المال لغير ضرورة . بعد أن أنجبنا أولادنا الثلاثة صار تقتيره أشد ، فالملابس يتم تداولها بين الاطفال ، فالأصغر يرتدي ثياب الأكبر بعد تعديلها ، بل لقد اشترى الأكواب والأطباق المصنوعة من البلاستيك ، خشية أن يكسر الأطقم الصينية ، والملابس لاتستخدم الا في المناسبات .

لديه بدلتان ولدي أربع فساتين ، وللحقيقة فان أثمانها غالية لكنني لا أرتديها الا في مناسبة زيارة ، أو لاستقبال ضيوف ، أما ماعدا ذلك فله ثياب رخيصة ، « لزوم الاستخدام اليومي » كما يسميها ودخلت في محاورات معه ، ونقاشات وخناقات ، ولعنت المال ، وقلت له .

انني لا اعرف للمال الا وظيفة واحدة ، وهي أنه يسعدنا ، وييسر علينا الحياة ، وأنه حرام أن نملك مالا ولانستمتع به ، وكل مايجهد نفسه من أجله ويضيق علينا في سبيله يتحول الى تراكم في رصيده في البنك ، لايسمن ولايغني من جوع واحتياج . واتهمني بالمظهرية والرغبة في الاستعراض والتبذير والسفه فقلت ألا يهمه أن يرانا الناس والأهل والأصدقاء ونحن نعيش في بحبوحة !؟ فرد صارخا : سيضحكون لك ، لكن لو حدث في مستقبل الايام واحتجت لهم سيضحكون عليك .

هي



هي..

خوف الزمن

عجيب أمر هؤلاء النساء ، لايملكن أي قدرة للنظر الى الأمام ، ولا يبصرن الا تحت أقدامهن ، وعلى الرغم من أن الله قد منحهن قدرا هائلا من الاستعداد للتضحية الا أنهن لايمارسن هذا الاستعداد ، الا خلال علاقات الأمومة ، أما في ما عدا ذلك فتتملكهن الأثرة والمتع الوقتية .

بيننا خلاف لايمكن أن ينتهي الا اذا اقتنع طرف بصدق صحة سلوك الطرف الآخر . أحاول جاهدا أن أشرح لها تصرفاتي وأفسرها ، لكنها لاتسمع ولاتصدق ولاتعير أفكاري اهتماما .

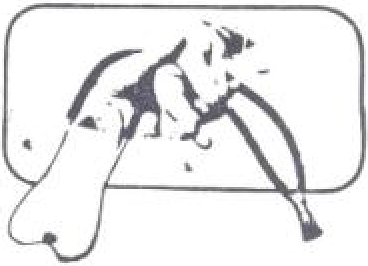
أقول لها : كنت تقبلين باسرافي عندما كنت خطيبك ، وهو اسراف بلا تبعات ، فأنا وحيد في هذه الدنيا ، وغير مسئول عن أحد ، وأهلي لاينتظرون مني مساعدة ما ، والحمد لله ، وفي هذه الحالة إن أنفقت مدخراتي كلها أو لم أنفقها ، فلا خوف ولامسئولية ، فما الضرر اذن من أن نستمتع ـ أنا وهي ، ومن نحب ـ بالمال وما يحققه من رغد ورفاهية ؟ لكن الأمر أصبح مختلفا عندما صرت مسئولا عنها ، وعن أسرة وبيت وأطفال ، فهي لاتعمل ، وحتى لو كانت تعمل فنحن لانملك الا عائد عملنا ، وأمامنا مستقبل لا أحد يأمن له ، فأمامنا أطفال يحتاجون الى تعليم وتأمين مستقبل ، وأمامنا سن قادم ، تضعف فيه صحتنا ونمرض ، ويومئذ سنحتاج الى تكاليف علاج ، وأمامنا مرحلة شيخوخة قد لايفي معاشنا فيها بحاجتنا ، والعاقل من ادخر من يسره لعسره .

لكنها لاترى في طريقتي هذه الا وصمة البخل ، وسبة التقتير . أقول لها لوكنت بخيلا لحرمت أسرتي بعض الاصناف من الطعام ، لكني أطعمهم أشهى مايحبون ، بيد أني لا أقبل أن تلقي باقي الطعام لمجرد أنه ظل في البيت يومين . وأكسوهم الغالي والنفيس الا أن حسن الاستخدام أمر ضروري ، فليس منطقيا أن أظل مرتديا ثيابي الغالية فقط صباحا ومساء ، سواء كنت ذاهبا للعمل أو للسوق أو حتى للبقال .

ولو كنت بخيلا لحرمت نفسي من التدخين ، وحرمتها هي وأولادها من الاشتراك في النادي الخاص بالموظفين أمثالي ، ومن استقبال الضيوف ، لكنني أقول ان كل شيء بقدر ـ هناك أمور لاحرص فيها ، مثل الطعام أو العلاج ، لكن المطلوب فيها هو قدر من التوظيف الأمثل .

تقول ان المال قد وجد لاسعادنا ، وأنه يجب أن ننفق عن سعة ، لكي يفرح لنا الناس والأهل والأصدقاء ، وأشرح لها قائلا ان المباهاة هذه لن تسعد أحدا ، وأنهم سيضحكون اليوم من سفهنا ، وغدا سيضحكون من حاجتنا .

هو



طبيب الأسرة

الدكتور حسن فريد أبو غزالة

قضايا منزلية

بعد الأربعين

عندما شبهوا العمر بالقطار لم يفتهم أن للعمر محطات، شأنه شأن القطار، ولا بد له من التوقف عندها.

ربما اختلفوا على بعض هذه المحطات، واتفقوا على بعضها الآخر.

فمحطة المراهقة على سبيل المثال حيث يهبط الانسان من عربة الطفولة والجهالة واللامسؤولية ليقعد في عربة الرجولة والادراك والمسؤولية تلقى إجماعا واتفاقا لا خلاف عليه.

غير أن محطة من المحطات قد تفوت أحدنا دون إدراك أو وعي لمدى أهميتها أو خطورتها، ودون أن ندرك أنه كان الأجدر بنا أن نتوقف لنلقى أنفسنا، ونلقي نظرة إلى الوراء على سنوات الصبا والشباب، ونظرة أخرى إلى الأمام على سنوات الرجوله والرشاد والنضوج، إنها محطة سن الأربعين.

ليس هناك حد فاصل ظاهر للانسان بين عهد وعهد، أو بين حال وحال، لكنهم اتفقوا أن عمر الأربعين هو الحد الفاصل بين عهد الشباب بكل مميزاته الجسدية، من انطلاق وحيويه وطاقة، وعهد الرجوله المتميز بالحكمة والاتزان الفكري وبداية التخلخل الجسدي.

إن الذين يتمسكون بعد الأربعين في نمط حياتهم بمقاييس ما قبل الأربعين يجنحون إلى الخطأ ويعايشون وهما كبيرا.

فما بعد الأربعين له مطالب وعليه التزامات، لا بد أن نراعيها، حتى تستقيم الحياة، فاذا لم نفهم منطق الحياة فإننا سندفع ثمنا باهظا من المعاناة، قد لا نقوى عليه.

قبل الأربعين يحمل الانسان صورة اللاوعي بالمسئولية، وصورة اللاإدارك بالواجبات، ثم يكتشف نفسه بعد الأربعين مكبلا بالمسئوليات والمطالب، بينما تتلاحق سنوات العمر. ومن هنا تبدأ رحلة المعاناة مع القلق، وهو مرض هذا العصر الذي تتمثل فيه أمراض القلب وارتفاع ضغط الدم

والقرحة الهضمية ومرض البول السكري .

ومن هنا لا بد من تقييم جسدي شامل ، فالغافل عن ضغط دمه لا ينتظر من ارتفاع ضغط الدم أن يوقظه من سباته ، لأن ارتفاع ضغط الدم مرض أخرس صامت ، لا يكشف عن وجهه ، وإنما تكشفه الصدفة فقط .

لقد اعتبروا سن الأربعين حدا فاصلا بين نوعين من أنواع مرض السكر ، والنوع الحميد منهما والأخف وطأة هو الذي يكشف القناع عن وجهه بعد سن الأربعين . ولا ننتظر من مرض السكر أن يكشف القناع عن نفسه بنفسه ، لأنه في بداية أمره مرض بلا ملامح واضحة ، ولا سبيل لكشف ستره إلا بالتحليل المخبري للدم والبول ، ومن هنا كان لزاما إجراء تحليل شامل لمثل هذه الأمراض الصامتة في مطلع رحلة الأربعين وما يليها .

والسنوات التالية للأربعين من العمر تحمل لنا مخاطر الاصابة بأمراض القلب . وهذا هو ما تؤكده الاحصائيات الطبية ، من كان يريد النجاه بنفسه من هذا المصير كان أولى به أن يهرب مبكرا ، منذ أيام الصبا ، حيث تبدأ تراكمات العوامل التي تتصيد القلب والأوعيه الدموية ، وهي تراكمات الشحوم والكلوليسترول والتدخين . غير أن الفرصة ما تزال مواتية لايقاف هذه العوامل عن تدمير الجسم قبل فوات الأوان عند محطة الأربعين .

فالكلوليسترول تحمله لنا الدهنيات الحيوانية ، كما تحمله لنا لحوم الأعضاء ، وكما يحمله البيض . ومن هنا وجب أن يتوقف كل من هم في بداية رحلة ما بعد الأربعين عن التهام البيض في وجباتهم اليومية ، ويكتفون ببيضة أو بيضتين على الأكثر كل أسبوع .

والتدخين الذي بدأ مع سنوات الطيش مغلفا بأوهام الرجولة والمتعة ما زالت الفرصة سانحة للأقلاع عنه مع سنوات الحكمة والتعقل ، بعد نزع الغلاف الوهمي الذي يحمل لنا في طياته أمراض السرطان ونوبات القلب .

إن منطق النمو يؤكد أن الانسان يشيخ يوما بعد يوم منذ لحظة ولادته ، وبهذا فإن الجسم عند سن الأربعين قد شاخ كثيرا .

وأطباء العيون يتحدثون عن شيخوخة العين ، ويقصدون بها ضعفا يصيب عدسة العين ، ويعجزها عن التأقلم مع بعد المنظور أو قربه من الناظر ، فالعدسة غالباً ما تتحدب عند النظر إلى القريب ، ثم ترتخي عند النظر إلى البعيد . وفي الأربعين وما بعدها تبدأ معالم هذه الشيخوخة تتضح ، حتى أن أغلب من تجاوزوا سن الأربعين يشكون من (زغللة) عند القراءة ، وعدم وضوح الرؤية لما هو قريب ، مما يتطلب نظارة طبية ، تعين على القراءة ، وعلى النظر لكل ما هو قريب .

وإذا ما تقدم العمر قليلا تبدأ حلقة بيضاء في الظهور ، تسمى حلقة الشيخوخه ، تحيط بالجزء الملون من مقلة العين ، إلى ما يعرف باسم القزحية ، وتكون واضحه في سن الخمسين وما بعدها .

هذه بعض ملامح شيخوخة العين ، أما شيخوخة الشعر التي تتضح معالمها جيدا عند سن الأربعين وما بعدها فتمثل في إحدى صورتين ، هما الشيب أو الصلع ، والوراثة تلعب دورا فيهما ، ولا حيلة في دفعهما ، لهذا فلا منجد لانسان تجاوز الأربعين عندما يشكو من بياض شعره أو من سقوطه ، فهذا الأمران طبيعيان في نظر الطب .

هناك أمران مهمان في حياة الانسان بعد الأربعين ، هما الطعام والحركة ، لأنه لا بد أن يتناسبا مع قدرات الجسم ، وحاجاته ، والذين يتوهمون أن مفهوم الرجولة هي عضلات مفتولة وقوة سوف

يفقدون ذلك بعد سن الأربعين .

وهنا يبدءون في البحث عن تعويض ما ضاع بمزيد من الطعام ، أو بأنواع معينة منه ، كما يبحثون عن التعويض بالرياضة العنيفة ، وهذان دربان يقودان إلى المعاناة والضرر والأذى للجسم .

لأن عضلات جسم الانسان بعد الأربعين لا تستقيم بالرياضة العنيفة التي اعتادها أيام الشباب ولا تصلح بها ، بل هو في حاجة إلى رياضة خفيفة ، تنشط الدورة الدموية ، وتساعد على ليونة الجسم ، ولعل أفضلها هو المشي ، ولهذا كان اعتزال الرياضيين قبيل سن الأربعين منطقيا ، أما الطعام فلا بد فيه من مراعاة أمور محددة في عرف الطب ، وهي :

أولا : الاقلال ما أمكن من ملح الطعام .

ثانيا : البعد عن الدهون الحيوانية .

ثالثا : الاقلال من البيض ولحوم الأعضاء (كالقلب والكبد والمخ) واللحوم الدهنية .

رابعا : الاكثار من الفواكه والخضروات الطازجة .

خامسا : تحاشي الأطعمة المعلبة لما فيها من تركيز عال جدا للأملاح أو السكريات . ومن الطبيعي أن ترتبط بقضية الطعام قضية زيادة الوزن عن الحد ، غير أن هذا لا يجب أن يدعو إلى القلق كثيرا لمن بلغوا الأربعين ، فقد ثبت أن كبار السن يميلون إلى السمنة ، ومن الظلم محاسبتهم محاسبة الصغار ، غير أن هذا ليس مبررا للبدانة المفرطة ، فهي أمر قاتل في هذه المرحلة الحرجة من العمر .

إن تنظيم أوقات العمل والراحة والنوم أمر ضروري لمن بلغوا الأربعين ، فقد ولت سنوات الطيش والفوضى واللامبالاة التي قد تحتملها أجسام الشباب .

إن الذين لا يحسنون معايشة العمر سوف يتركهم العمر على أحد أرصفة محطاته فحذار . □

بريد طبيب الأسرة

ردود سريعة :

*** السيد / ع . م . م - عمان - الأردن :**

- من الأفضل استشارة اختصاصي في الدم ، لتشخيص حالتك بدقة ، ووصف العلاج اللازم ، فرسالتك خالية من أي تفصيل ، يعين على التشخيص الدقيق .

*** الأخ / ع . ح . م - الظهران :**

- من الطبيعي أن تزداد ضربات القلب عند بدء ممارسة الرياضة ، وأن يشعر الانسان بالتعب ، وربما الألم أيضا ، لكن هذا سيزول مع المران ، وطول الممارسة ، ننصحك بعدم الاجهاد ، والتوقف عند بدء الشعور بأي ألم أو اضطراب ، كما يجب ممارسة الرياضة بالتدريج ، وعدم التمادي في ممارستها الى حد الارهاق .

*** السيد ادوار السبع - حمص :**

- السمنة هي نتيجة قلة الحركة ، مع افراط في الطعام ، لهذا ننصح بالحركة والنشاط ، والاقلال ما أمكن من السكريات والنشويات .

أما الوراثة فان النظريات الحديثة تنفي دورها ، وانما هي عادة الافراط في الطعام التي تورث في الأسرة ، لهذا ننصح بالابتعاد عن المرطبات والفواكه السكرية والحلويات والأرز والبطاطس والمعكرونة والخبز وما اليه .

آخر لفافة

قصة قصيرة بقلم : سعيد سالم

على الرغم من تفوري الشديد من الخزعبلات ، وتفسير الأمور في غيبة حقائق العلم ، فقد تعجبت حينما ظلت صورة « حسن عينو » تطاردني في تعاقب مستمر ، وبكثافة تكرار غريبة ، فجأة ودون سابق طبيعي يدعو إلى ذلك . فقد مضت أعوام خمسة على رحيله النهائي ، والحق أنني كنت قد نسيته بنفس الطريقة التي أعتقد أنه كان سينساني بها لو سبقته إلى الرحيل .

ولأنني رجل دنيوي ذو مزاج روحاني خاص ، فما من فعل أو موقف أو حدث يمر بي دون أن أنسبه إلى إرادة الخالق ، حتى الحسابات الهندسية المعقدة التي أرتزق من التعامل معها أرى الله فيها ، وفي عقلي القادر على التصدي لها . وحين يعتريني هاجس - مهما بلغ عنف وقعه - فإنني أشعر أن هناك قوة خفية تستوعبني ، تحيط بي من خلف وأمام ويمين ويسار أرهبها وأحبها ، لكني أظل أقاومها حتى اجاوز أزمتي ، فأحمد الله ، وأعود إلى احترامي للعقل ويقيني بسيادته .

بهذا المنطق حاولت أن أتعامل مع ظاهرة حسن عينو المفاجئة ، لكني فشلت مثلما فشل منطقي ، وتبين لي أن من آيات الجنون أن ينتابني طموح في استكناه سر من أسرار الروح الأبدية .

عامل رقيق الحال يبدو في السبعين ، وإن لم يتجاوز الخمسين ، حاضر البديهة ، واسع الثقافة ، يجيد التحدث بالانجليزية . كنت رئيسه الأعلى في العمل ، وكان يرقب صراعاتي الوحشية مع كبار لصوص المؤسسة التي تعمل بها ، دون أن أدري به .

عقب انتصار كاسح غير منتظر حققته يوماً على خصومي فوجئت به يزورني بمنزلي وبيده لفافة كبيرة من الحلوى ، لم أسأله كيف اهتدى إلى عنواني ، ولماذا قرر زيارتي دون استئذان ، بل إنني أشفقت على حاله بشدة ، فالجنيهات التي أنفقها لشراء هذه الحلوى كان أبناؤه أولى بها مني ، فضلاً عن أنني لم أعوّد أحداً من عمالي على التردد على منزلي ، لا من باب الكبر والتعالي ، وإنما لاجتناب سوء المظنة .

وأنا أرقب معالم وجهه الباسم الحزين كنت أستعيد مواقفه المتميزة في محيط عمله مع الزملاء والرؤساء والمرءوسين ، وشدة ثقته بنفسه ، واعتزازه باتقان حرفته . كان يسمي الأشياء بمسمياتها ولا يخجل من ذلك . كثيرون كانوا يتربصون به ، رغبة في إيذائه وبتر خطورته،وعلى الرغم من هذا فقد ظل حسن عينو شخصية غامضة ، تتباين من حولها الآراء ، من نقيض إلى نقيض . فمن قائل أنه معتوه لا قيمة له ، إلى قائل أنه خبيث يستند إلى قوة خفية

تدعمه ، إلى قائل أنه رجل طيب من أولياء الله الذين لا يعرفون كيف يتعاملون مع هذا العصر .

وتساءلت كيف لم أفكر من قبل في الاقتراب من هذا الرجل ؟

ويبدو أنه أدرك بذكائه الفطري ما أعانيه من حيرة في أمر زيارته المفاجئة ، فأراد أن يحسم المسألة ، فقال بصوته الأجش الخافت :

ـ جئت أهنئك بصلابتك أمام الجبابرة .

تأملت في سر اهتمامه الفائق بقضية قد تتضاءل أهميتها تماماً بالقياس إلى همومه الحياتية الملحة كرجل لا يكاد يجد أكثر من قوت يومه .

ـ من هم هؤلاء الجبابرة يا عم حسن ؟

تجاهل محاولتي المكشوفة للتغابي عليه ، متأبياً أن يستنكر استخفافي بذكائه .

ـ انها المرة الأولى في تاريخ المؤسسة ، وإنها لبشرى بخير قادم .

استبعدت فكرة المداهنة ، فالرجل لم يسألني طلباً واحداً من قبل ، كما أن تلك الصفات ليست من شيمته ، إذن فهو إعجاب حقيقي بشخصي ، وإكبار لقدرتي على تحدي عتاة اللصوص من ذوي الخبرات الأصيلة في عالم الانحراف .

ـ لست أدري كيف أشكرك يا عم حسن .

ـ لكني أخاف عليك منهم ، فانتصارك مرحلي ، أسألني أنا عنهم .

كان واضحاً أن إشفاقه علي قد فاق إشفاقي عليه ، لكن لماذا ؟

ـ إنني أحبك كما لم أحب أحداً في هذه المؤسسة ، واسمح لي أن أرى أولادك .

لم يكن أمامي إلا أن أستسلم لحب هذا الرجل فأحببته . صار ما بيننا رباط وجداني متين ، في غير حاجة إلى البحث عن مبرراته ، فرأيت في هذا الرجل أبي الذي لم أره . لم يكن يؤرقني في علاقتي به سوى عبء مسئولية حبه الشديد لي ، وهو الطرف الضعيف بحاله ، القوي بشيء أجهله ، وأنا الطرف الذي تصيبه العاطفة الصادقة بالخوف والهلع ، بقدر ما يمنحه العقل من طمأنينة وثقة .

أحبته زوجتي وأحبه أبنائي . وكثيراً ما كان يسهر معهم في غيابي ، يداعب طفلي الصغير ، ويشتري بعض الحاجيات للمنزل ، وابتسامته الحزينة المحبة لا تفارق وجهه ، ولفافات الحلوى لا تفارق يده . كان من المستحيل أن أدفع له أثمان هداياه ، وكان من الصعب إيجاد وسيلة لتعويضه عنها . ويوم رجوته أن يكف عن شراء الحلوى أقسم لي أنه يحصل عليها من محل شقيقه الحلواني بلا مقابل .

لم يلحظ أحد في المؤسسة أنه ـ رغم انصرافه إلى عمله ـ قد تحول إلى حارس جهنمي لشخصي ، لا يراه أحد ولا يفلت خصم من رقابته .

فكرت مراراً أن أرد زياراته المتكررة لأسرتي ولو بزيارة واحدة لأسرته ، لكني خشيت أمرين : أولهما أن يكلف نفسه مالا طاقة لها به ، وثانيهما أن يؤلمه إطلاعي على حال بيته المتواضع ، فهو يقيم مع زوجته وأبنائه الخمسة في شقة صغيرة من غرفتين ، لهذا لم أزره في بيته على الاطلاق ، كما أنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى رغبته في ذلك .

إنني اليوم أشك في صدق هذه المبررات ، فتراكم الزمن يعري أكاذيب كثيرة ، وادعاءات واهية كانت تحتمي بظلاله ، ومن المؤكد أن اهتمامي بحسن كان أقل بكثير من اهتمامه بي ، وإلا فلماذا لم أزره ، ولماذا نسيته ؟ .

يبكي . . يردد على الدوام .

ـ يا رب . . يا رب . . يا رب . .

أربت على كتفه وأنا أضغط بعنف على منابع الدمع في عيني . .

ـ لا تخف يا عم حسن ، قريباً سيمن الله عليك بالشفاء .

ـ يا رب . . يا رب . . يا رب .

حول بارز ظهر في عينيه ، ولفافة من الشاش الأبيض محكمة حول رأسه . شارد على الدوام ، ولم



يعد قادراً على التركيز .

ـ يطلبون مني أن أسوي معاشي . . يا رب .

ـ لن يحدث هذا يا عم حسن ، فنحن لا نستغني عن يمناك الذهبية ، ستبقى بيننا إن شاء الله .

بيده مجموعة من الأوراق ، أصول وصور ، بعضها مهترىء ، والآخر ممزق من المحال قراءته . محضر شرطة واستجواب نيابة ، ووقائع الحادث ، وغياب الشهود ، وارتجاج في المخ ، والعربة الهاربة ، واصطدام الرأس بحافة الرصيف

ـ سأقف بجانبك حتى تحصل على حقك من هذا الجبان .

ـ لا . . لا تتعب نفسك . يا رب . ربنا . . (مشيراً بأصبعه إلى السماء) .

وتتوالى الأيام فيصبح الشاذ من الأمور مألوفاً ، ويصير الساخن بارداً ، ويفتر الحماس لبعض الأشياء ، ويسود الاعتياد عليها ، ويحصل حسن على إجازات مرضية متعاقبة ، ويختفي شهرا وراء شهر ، وكلما ظهر يشتعل حماسي للبحث عن الجاني الهارب ، ثم لا أفعل شيئاً ، أو لا أستطيع . وأخيراً استغنت المؤسسة عن خدمته بناء على شهادة طبية أفادت بعجزه الكلي عن العمل .

لم أكن أدري أنني قد ارتكبت جرماً منحطاً حين شغلتني أموري اليومية عن هذا الرجل ، حتى أنني نسيته تماماً ، ولم يعد ذكر اسمه أمامي يثير في نفسي أكثر من شعور عابر بالحزن والألم ، يعقبه شرود غامض ، لا أعني بالغوص في سره ، ثم لا ألبث أن أعاود النسيان ، وأذوب في همومي الخاصة ، إلى أن جاء مساء شتوي عاصف ، انكمش فيه الناس في بيوتهم ، التماساً للدفء ، وأصبح من المحال عليهم نزول الشارع مهما عظمت الأسباب .

كنت أعالج المدفأة الكهربائية من عطب بسيط أصابها ، وكان الأولاد نائمين ، عدا طفلي الأصغر ، وكانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين خيل إلي أن جرس الباب يرن على استحياء . نظرت إلى زوجتي ، فوجدتها تبادلني نفس النظرة المتسائلة ، لكن أحداً منا لم يجرؤ على الظن بأن هناك زائراً يقف خلف الباب .

عدنا إلى انشغالنا بالمدفأة ، وإذا بحقيقة جلية تؤكد رنين الجرس ، فقمت مسرعاً أفتح الباب ، وخطوات قلبي تسبقني إليه في وجيب سريع .

لم أر في حياتي كياناً إنسانياً مهلهلاً بمثل ما رأيت في تلك اللحظة ، كان غارقاً في بلل المطر ، يقاوم بابتسامته الكسيفة ارتعاشة قوية ، تعصف بجسده المهزوم ، وعيناه الشاردتان تنظران إلى لا شيء ، وفي يده لفافة الحلوى .

ما من قدرة خارقة على النفاذ إلى نفوس البشر تستطيع أن تفسر ما رأيته في عيني عم حسن . وسواء أكانت رؤيتي نابعة من داخلي أم كانت هي الرؤية الحقيقية المطلقة ، فمن المستحيل أن أصف فيها معاني الحب أو العتاب أو الإشفاق أو الألم أو الاستنكار أو

التسامح فحسب ، بل إنني أبخسها الحق لو قلت إنها كانت نظرة تحمل في طياتها الشديدة العمق كل المعاني الإنسانية النبيلة .

في لمح البصر سارعت باصطحابه إلى غرفة مكتبي الدافئة ، حيث أحضرت له زوجتي بعضاً من ملابسي المنزلية ، وقد أصابها الهلع على مصير الرجل ، وانهمرت دموعها في صمت .

- لماذا يا عم حسن ؟ .. لماذا تنزل في هذا الجو القاتل ؟

يشير بيده إلى السماء ، ثم يربت على كتفي ، ويبتسم ، ويداعب الصغير ، ويقدم له الحلوى . غير معقول أن تطاق هذه الحياة المغلقة بأعجب الأسرار . شلني الذهول عن التفكير حين رفض عم حسن المبيت معنا بالمنزل ، بعد أن جففنا له ملابسه ، وشرب معنا الشاي ، ودب الدفء في أوصاله المتقفضة . أصر بشدة على العودة إلى بيته ، وكدت أصيح في وجهه آمراً أن يبقى على الرغم من أنفه لولا أن ألقى بنفسه على وجهي يقبلني بحرقة مذهلة ، وقد امتزج ما سال من فمه وأنفه من لعاب ساخن على وجهي .

لم يكن هناك مفر من النزول معه إلى الجحيم الذي ينتظرنا خارج المنزل ، حتى لا يموت شريداً في الطريق . ارتديت أثقل ملابسي ، وقد تجاوز الوقت منتصف الليل بساعتين أو أكثر ، وأكرمنا الله بعربة أجرة مرت أمامنا بمجرد أن عبرنا الشارع الرئيسي ، فاستوقفت السائق ، وأعطيته ضعف ما يستحق من أجر راجياً أن يدخله بنفسه إلى منزله ، ويسلمه إلى أسرته .

لست أدري كيف عادت بي قدماي الى منزلي . لو لم تكن سيارتي معطلة لما ترددت في توصيله بنفسي الى منزله ، وسارعت إلى الأغطية الكثيفة ، ألتحف بها ، وامتنعت عن الكلام تماماً ، وأدركت زوجتي حدة معاناتي ، فالتزمت الصمت هي أيضاً ، ثم نامت ، وبقيت ساهراً حتى الصباح راغباً عن النوم عاجزاً عنه .

خمسة أعوام راحت ، وراح معها بعض من العمر ، وقليل من الأمنيات ، وكثير من الفرح ، وتسربلت أيامها بأكفان النسيان ، وفجأة يعود حسن عينو بشحمه ولحمه متمثلاً أمامي في لحظة وقوفه على باب شقتي غارقاً في مياه المطر . فتشت في ثنايا ذهني ، فلم أعثر على تبرير منطقي لعودته المفاجئة ، وراجعت ظروفي الحياتية القريبة ، فلم أجد صلة واحدة تربط بينها وبين تاريخ علاقتي به ، كأن أرى حادثاً في الطريق يذكرني بحادثته ، أو ألتقي بزميل له يحدثني عنه ، أو أرى شخصاً شبيهاً به . لم يحدث شيء من هذا ، فلا سبب لما حدث ، ولا جدوى من البحث عن سبب . ووجدت نفسي في الطريق إلى بيته ، أسأل عنه في المقاهي والحوانيت ، حتى عثرت عليه .

قبل أن أطرق بابه تحسست حافظة نقودي المتخمة بالأوراق النقدية الكبيرة ، وأعطيت لنفسي الحق في تعويضه عن اللفافات التي أحضرها ، وعن الليالي التي أمضاها بصحبة أسرتي ، وعن حراسته المستترة لشخصي من غدر الخصوم . لكني لم أجرؤ على التفكير في تعويضه عن حبه لي بتلك القصاصات الورقية الخضراء ، مهما كثر عددها .

فكرت في أرملته ، وفي أولاده اليتامى . من المؤكد أنه حدثهم عني بحب شديد ، وليته لم يفعل ذلك فكيف أواجههم الآن بعد مضي تلك السنين ؟ . إن نظرة عاتبة من زوجته كفيلة بهزيمتي ، وإهدار احترامي لذاتي . حتى لو لم تكن نظرتها عاتبة فإنني سأراها كذلك . وطرقت الباب .

● ● ●

مات حسن عينو ليلة زيارته المشهودة لي حاملاً معه آخر لفافة من الحلوى . فبعد أن سلمه السائق لزوجته ، أخذ يقبل أبناءه مردداً يا رب . يا رب . وفي الصباح كان صامتاً وعلى فمه ابتسامة حزينة □ .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذه اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
							■			٢
			■							٣
								■		٤
■					■		■			٥
			■			■		■		٦
				■		■				٧
		■								٨
	■		■							٩
■									■	١٠

كلمات أفقية

١ ـ راهب فرنسي حرّض على الحروب الصليبية .

٢ ـ تفسيرية ، طبيب يوناني أثر في الطب العربي .

٣ ـ ميناء ليبي على البحر الابيض المتوسط ، سوف مبعثرة .

٤ ـ فيلسوف ألماني وصاحب مذهب التشاؤم .

٥ ـ ألحّ في السؤال ، للتحذير .

٦ ـ والده ، صانع العسل مبعثرة .

٧ ـ نظام ، مرشد .

٨ ـ مدينة تركية تقوم على نهر دجلة ، شتم .

٩ ـ فوضوي وغير ملتزم .

١٠ ـ مدينة يابانية منكوبة .

كلمات رأسية

١ ـ مضيق بين البحر الاحمر وخليج عدن .

٢ ـ تراب مجبول بالماء ، واحات في صحراء مصر الغربية .

٣ ـ خداع مرذول ، من أماكن التسلية والترويح .

٤ ـ جمع هاجس معكوسة ، جرير مبتورة .

٥ ـ بازا مبعثرة ، موارب مبعثرة .

٦ ـ الليمان مبتورة ، شبك مقلوبة .

٧ ـ غير ناضج ، ضمير منفصل ، الواحدة منها درة .

٨ ـ الانسان مبعثرة ، بحر .

٩ ـ مسرحي وشاعر يوناني قديم .

١٠ ـ منها العادي ومنها العشرى ، ميدان الصراع .

حل مسابقة العدد ٣٤٦ - سبتمبر ١٩٨٧

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ا	ك	و	ت	ك	ر	ا	ت	ت	ا	١
ل	م	■	ر	و	ف	س	أ	■	ب	٢
أ	ب	ب	■	ث	■	■	ر	م	ن	٣
م	ا	■	ن	د	ب	ا	ن	و	ب	٤
ا	ل	ه	أ	■	■	ل	ب	ن	ط	٥
ر	ا	■	م	ي	ص	ه	■	ا	و	٦
و	■	ي	ن	د	ر	ا	■	ل	ط	٧
ن	ي	ب	و	ل	ع	و	م	ي	ه	٨
■	د	د	■	ب	ا	ي	ر	ر	■	٩
د	ل	و	ش	ر	م	ه	ج	ا	د	١٠

لغة

جمال العربية

بقلم : محمد خليفة التونسي

اللغة بأنظمتها لا بمعجمها

تتقارب اللغات وتتباعد بحسب انتمائها لأسرة لغوية خاصة ، أو انتمائها لأسرة لغوية أخرى ، وأهم الأسر اللغوية ثقافيا وحضاريا ، قديما وحديثا ، اسرتان : الاسرة العروبية (السامية) والأسرة الآرية (الهندأوروبية)

ومن الأسرة العروبية لغتنا العربية والأكادية والأشورية والآرامية (السريانية) والكنعانية والعبرية والفونية (الفينيقية) والأوجرتية والحبشية،

كما أن من الأسرة الآرية ـ اللغات السنسكريتية والبهلوية والفارسية والكردية واليونانية واللاتينية (ومن فروعها الايطالية والفرنسية والاسبانية) والالمانية والانجليزية .

وما من لغة حية (أو كانت حية) الا تبادلت كثيرا من الكلمات أخذا وعطاء مع اللغة أو اللغات المعاصرة لها حيث اختلط أهل احداهما مع أهل الأخرى سلما أو حربا . والأغلب أن يكثر أخذ اللغة التي هي أقل أو أدنى ثقافة وان كان أهلها هم الغالبون حربيا ، ومن أمثلة ذلك ما أخذته اللاتينية (لغة الرومان) عن اللغة الاغريقية (اليونانية) بعد استيلاء الرومان على بلاد الاغريق ، وكذلك أخذت اللغة التركية العثمانية عن اللغة العربية بعد أن استولى العثمانيون على بلاد العرب ، وكان الأتراك على اختلاف شعوبهم قد بدءوا هذا الاقتباس عن العربية قبل ذلك ، منذ بدأ المسلمون يستولون على بعض المناطق التركية وجاراتها شرقا وشمالاً .

ويكثر اقتباس اللغة المتأخرة عن اللغة المتقدمة ثقافة وحضارة لانها أكثر احتياجا الى تتميم معارفها ، ولكن مهما تبلغ أي لغة من اتساع المعارف وتتقدم غيرها ثقافة وحضارة فانها لاتستغني عن استعارة كلمات من لغة أو لغات أخرى تخالطها مهما يكن حظها من التخلف والأمية . كما فعل أهل اللغات الأوروبية الحديثة في أخذهم كثيرا من كلمات اللغات حتى لغات الشعوب البدائية في أمريكا وأفريقية وآسيا .

ومهما يكثر عدد الكلمات التي تستعيرها لغة من غيرها حتى يبلغ مئات بل آلافا ـ فستبقى اللغة المستعيرة متميزة من غيرها بما لها من خواص في قواعدها وفقا لاعراف أهلها ، وهذه الخواص ماثلة في أنظمتها التي تنفرد بها ، وتشمل نظامها الصوتي ، ونظامها الصرفي ، ونظامها النحوي ، وأساليبها

البيانية ، ولا بد مع ذلك من مراعاة المقام وما ينبغي له من كلام ، وقد أحسن البلاغيون عندنا حين قالوا « لكل مقام مقال » .

والنظام الصوتي لأي لغة يتمثل أولا في أصواتها ونبراتها،وهي في جملتها خاصةٌ بها وان شاركتها غيرها في بعض الأصوات - ولا بد من ذلك - فأجهزة النطق البشرية تتماثل في الاستعداد والنشأة ، ثم تتناقص الأصوات فيها مع تقدم الانسان في العمر ، لاكتفائه بما يسمع من أصوات حوله في بيئته ، وهي لاتزيد على قدر معين . والاصوات في جميع اللغات تختلف من حيث مخارجها في جهاز النطق ، ثم ان الاصوات المتفقة في مخرج واحد تختلف من حيث صفاتها بين مجهور ومهموس،وشديد ورخو ، ثم هناك الصحيح والمعتل ، وكل أولئك يدرسه علم الصوتيات .

وبحسب اختلاف الاصوات يختلف تقييدها في الكتابة ، أي ما نسميه : « الحروف » وان كانت حروف أي لغة لاتكفي وحدها لتحديد أصواتها ولا بد في نطقها السليم من السماع مع الكتابة ، ومن ذلك عندنا مثلا اختلاف نطق اللام في كلمة « الله » بعد كسر مثل « بالله » عن نطقها بعد فتح مثل (والله) أو ضم مثل « كتاب الله » وقد تستعين اللغة في هذا السبيل باضافة حروف الى حروفها أو بتغيير صور حروفها .

ومن الأصوات (الحروف) تتألف الكلمات المستقلة ، وهذا ما يؤلف النظام الصرفي للغة ، ويبحث فيه « علم الصرف » وأول ذلك تقسيم الكلمة أقساما : بين اسم وفعل وحرف (اداة) وبعض اللغات تقسمها أسماء وصفات وضمائر وظروفا وأفعالا وأدوات . . بالاضافة الى خصائص أخرى يبحثها علم الصرف .

والنظام النحوي ماثل في العلاقات بين الكلمات ووظائفها في الجملة أو الجمل وما يراعى في سياقها وقرائنها لتحديد معاني الكلام ، وذلك يقتضي معرفة معنى كل كلمة واستعمالها ووضعها في المكان المناسب لها وفق المعنى المقصود ، لان مخالفة هذا الترتيب قد تفسد الفكرة أو تؤدي غير المقصود ، واللغات تختلف في كل ذلك أو تتقارب في بعضه .

ثم لكل لغة مع أنظمتها الخاصة - أساليبها البيانية في أداءالمعاني المختلفة ، واستعمال الالفاظ في معانيها الحقيقية والمجازية .

وليس بضير أي لغة أن تكثر فيها الكلمات المستعارة من غيرها ولو بلغت آلافا مادامت تجري وفق أنظمتها بل يضيرها أن تتأثر قواعدها أو انظمتها ولا سيما الصرفية والنحوية ، فتغيرها عن أصولها ولو كان هذا التغيير قليلا أو ضعيفا .

ولعل أثبت ما في أي لغة أدواتها وضمائرها الشخصية والاشارية والموصولة وأسماء الاعداد فيها . . .

أكتب هذا وأمامي عدة كتب بالفارسية التي لاأعرفها ، وقد كانت الفارسية ولم تزل تكتب بحروفنا العربية - مع اضافة حروف خاصة بها - وأتأمل سطورها من شعر ونثر ، فاذا الكلمات العربية في بعض جملها غالبة وربما تكون كل كلماتها في الجمل القصيرة عربية خالصة ، ولكن معناها العام مبهم ، لأنها تجري على النظام النحوي الفارسي لا النحوي العربي ، وهما مختلفان ، وبعض الكلمات قد تغيرت معانيها . وفي الفارسية مئات ومئات من الكلمات العربية نقرؤها في جملها فلا نفهم معنى الجملة لجهلنا بنظامها النحوي ، أو نفهمها ظنا ومن ذلك « وزارت أمور خارجه » و « وزارت صناعتي » و « لطفا استعمال دخانيات ممنوع است»ومعنى العبارة الأولى « وزارة الأمور الخارجية » ، ومعنى الثانية « وزارة الصناعة » ، ومعنى الثالثة « لطفا التدخين ممنوع » وكل ذلك لم يضر الفارسية بل زادها ثراء .

ويمكن أن يقال مثل ذلك أو قريب منه في اللغات التي استعارت من لغتنا حتى حروفها .

ومن المحال أن يختلط أهل لغة مع أهل لغة غيرها دون استعارة واعارة متبادلة . ولذلك لانشارك بعض علمائنا في خوفهم على لغتنا من استعارة الكلمات الاجنبية مادامت تسير وفق انظمتها لاسيما الصرفية والنحوية . □

شعر

جمال العربية

هكذا غنى الآباء

مجلس غناء عبّاسي

لبشّار بن بُرد

بشار بن برد ، ويلقب أبا معاذ ، فارسي الاصل ، ولكنه ولد ونشأ في البصرة في بيئة عربية فصيحة (بني عقيل) واختلف الى الأعراب حول البصرة ، فأخذ عنهم فصاحتهم ، وتعلم الشعر ثم نبغ فيه نبوغا لم يعهد في شاعر عربي قبله ، وهو أول شاعر كبير في العربية ، وكان امام الشعراء في زمانه ، وديوانه اكبر من دواوين الشعراء السابقين وأكثر تنوعا ، حافل بجياد القصائد الطوال والمقطوعات في شتى الموضوعات ، وكان قد ولد أعمى ، وأصيب بالجدري فصار قبيح المنظر ، وكان ضخم الجثة ، ولكنه كان شديد الذكاء جريء الفكر ، وكانت البصرة في أيامه حافلة بمجالس اللغة والادب والشعر، وعلوم الدين فتردد عليها ، وانغمس فيها واخذ كثيرا عنها ، حتى صار من أثقف أهل عصره ، وشارك في خلافاته الدينية والسياسية مما عاد عليه بالكراهية والاضطهاد ، وقد قتل ظلما بتهمة الزندقة ، وكانت قتلته شنيعة سنة ١٦٦ في عهد المهدي العباسي بعد حياة امتدت نحو تسعين سنة .

وقد اكثر من شعر الغزل حتى فاق فيه عمر بن ابي ربيعة أشهر الغزلين ، ونساء غزله من الجواري والمغنيات في طبقته الفقيرة ، في حين أن نساء غزل عمر من بنات الاشراف والرؤساء من طبقته ، وكان شعره الغزلي شائعا في البصرة يرويه النساء والرجال .

وهذه القصيدة التي اخترناها هنا يصف بها مجلس غناء حضره في بيت أحد اشراف العباسيين ، وقد اقترحت عليه المغنية وصفه ، وطلبت منه أن لايذكر في القصيدة اسمها ولا اسم سيدها ، وهي تدل على أنها كانت تحفظ بعض شعره الغزلي ، اذ تغنت اولا بشعر للشاعر جرير ، ثم تغنت بشعر لبشار على وزنه

وقافيته . وكانت مجالس الغناء والطرب منتشرة في كل الامصار العربية ، حتى امصار الحجاز يومئذ . كان ديوان بشار مفقودا ، حتى عثر على نحو نصفه الاستاذ العلامة التونسي المرحوم محمد الطاهر بن عاشور (شيخ جامع الزيتونة الاعظم في تونس) فنشره في مصر في ثلاثة أجزاء والحق به رابعا ضم كل ما لبشار في المصادر الادبية من قصائد ومقطوعات ، وهذه القصيدة من الملحقات .

وذاتِ دل كأن البدرَ صورتها ... باتت تغنّي عميدَ القلب سكرانا[1]
(ان العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا)[2]
فقلت : « أحسنتِ يا سُؤْلي ، ويا أملي ... فأسمعيني جزاك الله إحسانا »
(ياحبذا جبلُ الريان من جبلٍ ... وحبذا ساكنُ الريان من كانا)[3]
قالت : « فهلا فدتك النفس احسنَ من ... هذا لمن كان صبَّ القلب حيرانا »[4]
(ياقوم أذني لبعض الحي عاشقةٌ ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا [5]
قالوا : « بمن لاترى تهذى[6] » فقلت لهم ... الأذنُ كالعينِ تؤتي القلبَ ماكانا[6]
هل من دواءٍ لمشغوف بجاريةٍ ... يلقى بلُقْيانها ، رَوْحا وريحانا)[7]
فقلت : « احسنت ، أنتِ الشمسُ طالعةً ... أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعيني صوتا مطربا هزجا ... يزيد صبّا محبا فيك أشجانا[8]
(ياليتني كنتُ تفاحا مفلجةً ... أو كنتُ من قضُب الريحان ريحانا[9]
حتى اذا وجدت ريحي فأعجبها ... ونحنُ في خَلْوةٍ مُثّلْتُ إنسانا)[10]
فحرّكت عودها ثم انثنت طربا ... تشدو به ثم لاتخفيه كتمانا
(اصبحت أطوع خلق الله كلهم ... لاكثر الخلق لي في الحب عصيانا)
فقلت : اطربتنا ، يازينَ مجلسنا ... فهات ، إنك بالاحسان أولانا
لو كنت أعلم أن الحب يقتلني ... أعددت لي قبل أن القاك اكفانا
فغنت الشَّرب صوتا مؤنقا رَمَلا ... يُذكي السرورَ ويبكي العين ألوانا[11]
(لايقتل الله من دامت مودّته ... والله يقتل أهل الغدر أحيانا)

---

١ ـ ذات دل : صاحبة دلال ـ العميد : من غلبه العشق

٢ ـ الحور : شدة سواد العين في شدة بياضها والمراد النساء

٣ ـ البيتان الثاني والرابع متضمنان من شعر جرير ـ والريان : جبل شاهق بالحجاز

٤ ـ اي : هل أسمعك خيرا من هذا الشعر ، فهي تتزلف إليه لتسمعه من شعره هو

٥ ـ هذا البيت من شعر بشار ويلاحظ أنه اعمى ، فهو يشير الى ان الاذن قد تعشق قبل العين .

٦ ـ اي هل تهذي بها وانت لاتراها ، فيجيب ان الأذن تؤدي ماتؤديه العين .

٧ ـ الروح : الراحة

٨ ـ الهزج : نوع من الالحان منه سريع ومنه بطيء ، والاشجان : الاحزان

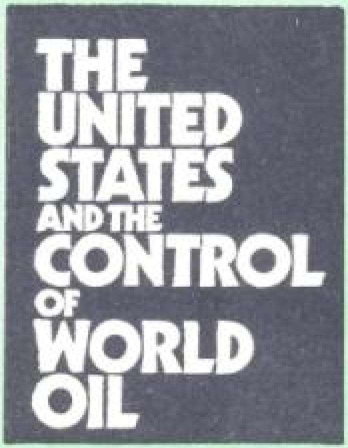
٩ ـ مفلجة : مقسمة ـ والقضب : الاعواد ، وكانوا يعطرون ويزينون مجالس الغناء والشراب بماله ريح طيبة .

١٠ ـ مثلت : صرت انسانا

١١ ـ مونقا : انيقا . والرمل : نوع من الالحان : والشرب = الشاربين

مكتبة العربي

كتاب الشهر



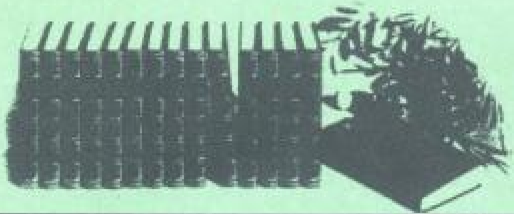
أمريكا والسيطرة النفطية العالمية

بقلم : اد شافير / عرض وتحليل : جمال وردة

مع انتهاء حقبة النفط سيسدل ستار على الدور الامريكي الامبريالي في لعبة السيطرة العالمية .. ورغم اننا لا نضمن عدم استملاك امريكا للطاقة البديلة ، الا أن هذه البدائل وبالتأكيد لن تكون أحادية الهوية ، وحكرا على أمريكا فقط !!

تكاد الأزمة الاقتصادية التي عايشها العالم في السبعينيات عقب أزمة النفط أن تكون صورة طبق الأصل لما تنبأ به ماركس وانجلز في « المانيفستو الشيوعي » . فلقد هزت هذه الأزمة المجتمع الصناعي الغربي من أركانه وخرج العالم وقتها وكأنه ينهي فترة من عصر النفط الرخيص والمتوافر الى عهد جديد مغاير .

لقد أجبرت هذه الفترة الخانقة المجتمعات الصناعية على اجراء الكثير من التعديلات الصارمة والقاسية على مخططاتها ، وكانت هذه التعديلات ذات شقين مادي واجتماعي ، فقد شمل الجانب المادى إيجاد الوسائل الأكثر فاعلية ، لتقليل الاستهلاك النفطي ، بينما كان من المفروض أن يحث الجانب الاجتماعي التحولات الشاملة في



أسلوب التوزيع الجديد ، للدخل العالمي ، والتغيرات المصاحبة له في ميزان القوى العالمية .

وبنظرة فاحصة على التعديلين ، نستنتج أن الجانب الاجتماعي هو الأكثر صعوبة ، فالجانب المادي يبدو نسبيا أكثر سهولة ، فالعلم والتقنية كفيلان بايجاد الطرق المناسبة للحد من الاستهلاك ؛ كما يستطيعان كذلك ايجاد المصادر البديلة للنفط ، ولكنهما سيعجزان عن ايجاد الحلول المناسبة للتغيرات والأزمات الاجتماعية التي ستصاحب نهاية الحقبة النفطية .

تحدي الهيمنة الأمريكية

ورغم أن عمالقة علم الاقتصاد من أمثال آدم سميث ، وكارل ماركس قد اعترفوا بهذه العلاقة الجدلية بين التقدم الصناعي والتغير الاجتماعي ، الا أن الاقتصاديين المحدثين قد تجاهلوا هذه الحقيقة ، ولا عجب بعد ذلك ان جاءت تحليلاتهم لأزمة السبعينيات مشابهة لما قالوه قبل ذلك عن أزمة الثلاثينيات .

ان أي تغير يحدث في القوة الاقتصادية ، يعني بالضرورة تغيرا مشابها في القوى السياسية ، ويمكن تطبيق هذه المقولة محليا وعالميا ، فالنمو الكبير في صناعة النفط في الولايات المتحدة أوجد بالمقابل شركات عالمية كبرى بدأت تبحث عن أسواق جديدة لانتاجها المتزايد الذي جاوز الكثير من الحاجات المحلية ، الأمر الذي دفع هذه الشركات للبحث عن منابع نفط جديدة خارج حدود أمريكا . وهذا التوجه الامبريالي الجديد كان من الممكن ألا يكتب له النجاح ، لولا التدخلات الرسمية والسياسية لحكومات الولايات المتحدة نفسها ، فبعد أزمة السبعينيات بدأت أمريكا تشعر ولأول مرة بجدية الموقف وحراجته ، فقد برزت على السطح عوامل جديدة بدأت تشكل تحديا سافرا للهيمنة الأمريكية على الطاقة ، منها العجز الأمريكي للسيطرة التامة على بلدان الأوبيك ، ومنها أيضا ظهور بلدان كالمكسيك وكندا بدأت العمل من أجل تحرير نفطها من الهيمنة الأمريكية .

ان سياسة التوسع هذه تكاد تكون ميزة أمريكية منذ عام ١٧٧٦ ، ولا عجب اذا قلنا أن الثورة الأمريكية كانت في الحقيقة ثورة على النظام الاقتصادي الأوروبي الاحتكاري الذي نشأ عقب تفسخ الاقطاع ، وذلك من أجل نظام أمريكي جديد أكثر دنامية .

ففي عام ١٧٨٣ عام توقيع معاهدة السلام ، كانت مساحة الولايات المتحدة لا تتجاوز ١/٢ مليون ميل مربع ، ولكن خلال سنوات ارتفع هذا الرقم الى ثلاثة ملايين ميل مربع ، ان هذا التوسع الجديد لم يكن سلميا طبعا ، فقد خاضت الولايات المتحدة سلسلة من الحروب الشاملة من أجل ذلك ، لقد خاضت حرب ١٨١٢ والحرب المكسيكية والحرب الأهلية ، بخلاف حروبها الصغيرة ضد الهنود الحمر ، لقد كانت الحرب الأهلية عبارة عن زحف رأسمالي شمالي نحو الجنوب ، كما أن الحرب المكسيكية أتاحت للولايات المتحدة فرصة اكتساح

الغرب الأمريكي كله ، واضافة ما يقارب مليون ميل مربع جديد ، وذلك باستيلائها على تكساس وكاليفورنيا وأريزونا ونيفادا وكولورادو وهي منطقة غنية بالمناجم وبالنفط .

الرصاصة والدولار

وقد شهدت الفترة ما بين الحرب الأهلية والحرب العالمية الأولى ازدهارا اقتصاديا كبيرا في أمريكا ، وبدأ ظهور عصر الشركات والرساميل الكبرى ، كشركات الحديد والصلب والتبغ والسكر وشركة نيوجيرزي أويل ستاندارد ، وشهد هذا التوسع نموا متزايدا في عدد المصانع والمناجم والمؤسسات الاستثمارية .

وقد ضاق المكان الأمريكي بهذا التوسع الطموح ، فكان لابد من اختراق الحدود نحو بلدان العالم والى المحيط الهادي حيث ضمت اليها جزر ميداوي ، كما تم شراء الاسكا من روسيا ، ثم دخلت حرب ١٨٩٨ مع اسبانيا التي انتهت بالسيطرة على بورتوريكو والفلبين وجزر هاواي وساموا ومنطقة قناة بنما ، وبعض الجزر الصغيرة الأخرى ، وبالتدريج تطورت فلسفة الضم والتوسع الى ما يعرف بـ « ديبلوماسية الدولار » وقد شرح هذه الفلسفة الرئيس الأمريكي « تافت » عام ١٩١٢ قائلا : « انها سياسة استبدال الرصاصة بالدولار - وهي سياسة قائمة على زيادة فاعلية التجارة الأمريكية ، بدعم ومساندة الحكومة الأمريكية » وهكذا بدأت الاستثمارات الأميركية في أوروبا وكندا في المجالين الصناعي والتقني ، ومع بداية عام ١٩١٤ بدأت هذه المؤسسات الأمريكية الخارجية تلعب دورا مهما في الاقتصاد العالمي ككل ، وليس في القارة الأوروبية فقط ، وكان معظم هذه الاستثمارات يتركز في قطاع التنقيب عن المعادن ، وقد بدأت في ذلك الوقت صناعة جديدة تظهر تدريجيا ، وهي الصناعة النفطية ، تلك الصناعة التي قدر لها أن تلعب دورا متزايدا في سياسة التوسع الأمريكي .

السلاح الامريكي

كانت الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي نجت من الدمار والخراب ابان الحرب العالمية الثانية ، وقد خرجت من الحرب باقتصاد أقوى وأعظم فقد زاد انتاجها القومي خلال سنوات الحرب بنسبة ٤٩٪ كما زادت استثماراتها الخارجية بنسبة ٨٨٪ ورغم أنها تكبدت ما يقارب المليون اصابة منها (٤٤٠,٠٠٠ قتيل) الا أن هذه النسبة كانت تعادل ٧٪ من اصابات الحرب ، و ٢,٥٪ من نسبة الوفيات ، وكانت قد اشتركت في الحرب العالمية الاولى لمدة ١٩ شهرا ، وفي الحرب العالمية الثانية ٤٦ شهرا ، وهذه النسبة كانت أقل بكثير من اصاباتها في الحرب الأهلية عددا وزمنا .

كما أن المدن الأمريكية لم تتعرض لقصف أو غزو الأمر الذي خفف من أصابات المدنيين ، ومع نهاية الحرب خرجت أمريكا وهي الأقوى صناعة وسلاحا واقتصادا ، وقد أعطاها هذا التفوق ذريعة لفرض ما يسمى بالسلام الأمريكي على العالم ، وبالفعل فقد أصبح العالم أشبه بمنطقة نفوذ جديدة للولايات المتحدة ، باستثناء دول الكتلة الشرقية والصين الشعبية .

وبدأت أمريكا بممارسة هذا الدور الامبريالي الجديد ، وأصبح لها وجود عسكري في حوالي ٦٤

دولة في العالم ، وقد ساعد النظام النقدي العالمي على تدفق الدولار الى الخارج ، وذلك باعتباره عملة عالمية كالذهب تماما ، وقد اتخذ هذا القرار صندوق النقد الدولي عام ١٩٤٤ ، وبذلك أزيلت جميع المعوقات التي كانت موجودة أمام الزحف الهادر للدولار في استثماراته الخارجية وبطريقة شرعية خالصة ، ومع نهاية الستينيات نستطيع القول أن النجاحات الأمريكية قد فاقت كل حلم ، وجاوزت كل منطق ، وأصبحت الرساميل الأمريكية تحكم العالم بالفعل .

ان السيطرة الأمريكية على أوروبا كانت ، من أهم أركان الاستراتيجية الأمريكية ، وقد تبدو الرغبة في ابقاء أوروبا بعيدة عن الايديولوجية الشيوعية من أسباب ذلك ، ولكن في الحقيقة هناك دافع حيوي أكبر ، وهو ابقاؤها تحت الجناح الأمريكي ، لتضمن عدم خروج أي منافس آخر للهيمنة الأمريكية على الاقتصاد العالمي ، وذلك بربط السياسة النفطية مع الشركات الأمريكية النفطية في الشرق الأوسط .

تقرير أرمان

كانت أوروبا مدركة تماما لمخاطر هذه النقلة النوعية في مصادر الطاقة من الفحم الحجري الى النفط ، وقامت باعداد الكثير من الدراسات والبحوث ، كان من أهمها « تقرير أرمان » الذى أعد عام ١٩٥٥ وقامت به المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي وهي احدى الوكالات المتفرعة عن مشروع « مارشال » ، وأهم ما جاء في هذا التقرير حقيقة أن أوروبا لاتملك قطرة واحدة من هذا النفط ، وكل انتاجها يعتمد على استيراد هذه الطاقة من الخارج ، وما يعني ذلك من هدر لعملتها الصعبة ، قد أوصى التقرير بضرورة تطوير وانماء مصادر بديلة للطاقة تكون أقل تكلفة ، وقد أبدى التقرير حماسا منقطع النظير ، لضرورة الاستفادة من الطاقة الذرية في المستقبل ، وتشجيع الاستكشافات الأوروبية لمصادر الطاقة الخاصة بها ، وبناء على هذه التوصيات تم تشكيل هيئة أوروبية خاصة للطاقة ، مهمتها العمل على ايجاد طرق جديدة للتعاون الأوروبي في تطوير الطاقة النووية .

كما أعد السير « هارولد هارتلي » من المملكة المتحدة تقريرا آخر ، أبدى فيه المخاوف ليس فقط من قضية الاخلال في ميزان المدفوعات ، بل على أمن وسلامة وصول هذه الامدادات المستوردة ، وقد أعد هذا التقرير عام ١٩٥٦ ، قبيل حرب السويس وقبل حلول الأزمة النفطية الأولى في أوروبا .

وكان التقرير الثاني أقل تفاؤلا من التقرير الأول ، بخصوص استغلال الموارد الأوروبية الخاصة للفحم الحجري ، وقد تنبأ التقرير بأنه مع حلول عام ١٩٧٥ ، فان الفحم الحجري لن يغطي أكثر من نصف الطاقة اللازمة للاستهلاك الأوروبي .

ونذكر أن الهيمنة الأمريكية على الطاقة العالمية كانت قد بلغت أوجها عام ١٩٥٢ ، بالقضاء على ثورة مصدق في ايران ، الا ان هذه الهيمنة كانت قصيرة الأجل وقد ساعد على ضعفها عدة عوامل منها : البلدان الاشتراكية : فالتنمية الاقتصادية لهذه الدول ساعدتها في مقاومة سياسة الاحتواء الأمريكية ، واعطاء دول العالم الثالث بديلا اقتصاديا للمشروع الأمريكي ، وكانت مساعدة روسيا لكوبا خير مثال لمقاومة سياسة الحصار الاقتصادي الأميركي ، ثم هناك استعادة القوة الاقتصادية لأوروبا واليابان التي حطمتها الحرب التقنية وبدأت السلع الأوروبية واليابانية تغزو العالم ، وتنافس المنتوجات الأمريكية ، وقد سبب ذلك هبوطا ملحوظا في ميزان الصادرات الأمريكية ، وهبوطا حادا في الميزان التجاري يقابله من ناحية أخرى ارتفاع وعجز في ميزان المدفوعات الأميركية لدرجة أصبحت فيها أمريكا عاجزة عن تمويل بعض المشاريع العسكرية ، وبعض الاستثمارات

الخارجية ، وللخروج من هذا المأزق اضطر الرئيس « نيكسون » لفك الارتباط بين الذهب والدولار ، وبيع احتياط الذهب لديها الى البنوك المركزية العالمية الاعضاء في صندوق النقد الدولي .

كما أن سياسة الحرب الباردة لعبت دورا كبيرا في هذا المضمار ، وهي السياسة التي جاءت نتائجها بعكس ما خطط لها ، فقد أثرت هذه السياسة على ميزان الصادرات والتضخم المالي ، وأبطأت من أساليب التحسين النوعي للمنتجات الامريكية ، وذلك لانشغال أمريكا بالمشاريع العسكرية ، وغزو الفضاء على حساب التنافس التجاري العالمي ، يضاف الى ذلك ظهور دول الأوبيك كشركاء منافسين لأمريكا في السوق النفطية العالمية ، وبذلك انتقل الثقل التجاري عالميا من أمريكا الى البلدان النفطية نفسها ، وبدأت أمريكا تشعر بالبساط يسحب من تحت أقدامها تدريجيا ، ودفاعا عن ذلك طالبت بتشكيل « كارتل » للمستهلكين ، حفاظا على وحدة الاسعار ومنعا للصفقات المنفردة ، ولهذا السبب رفضت أمريكا الاقتراح الفرنسي بعقد اجتماع للدول المنتجة للطاقة والدول المستهلكة لها ، وطالبت أمريكا بضرورة عقد اجتماع مسبق للدول المستهلكة للتنسيق قبل حوارها مع الدول النفطية ، ولكن فرنسا رفضت الانضمام لهذا (الكارتل) وذلك لتكون بعيدة عن السياسة الامريكية .

حرب ضد الأوبك

ومع نهاية عام ١٩٧٤ كان هناك اعتقاد شائع بأن الاسعار النفطية ستهبط وذلك لعدة عوامل أهمها تخفيض كميات الاستيراد لدول الطاقة العالمية والكساد التجاري الذي أصاب العالم آنذاك عقب هذه الثورة في الأسعار النفطية ، وزيادة كميات البترول التي أصبحت تمتلكها دول النفط نفسها بعد اتفاقيات التأميم ، وأخيرا عجز دول الأوبيك عن الالتزام بخطة بترولية تعاونية واحدة ، وبالفعل فقد قررت البلدان الصناعية تخفيف استيرادها بمعدل «٢ مليون» برميل يوميا ، وزادت هذه النسبة التخفيضية في السنوات اللاحقة ، ونتيجة لهذه السياسة فقد أصبح هناك فائض بترولي كبير ، وهكذا اضطرت دول الأوبيك في نهاية عام ١٩٧٤ ، وحسب أقوال « كيسنجر » الى فقدان ربع طاقتها الانتاجية ، ومن أجل استعادة أمريكا لسيطرتها القديمة على مصادر الطاقة ، بدأت بشن حرب لا هوادة فيها ضد منظمة الأوبيك والبلدان النفطية الأخرى ، لقد كان من أهم أهداف أمريكا القضاء على الأوبيك ، أو على الأقل اضعافها ، باعتبارها المنافس الخطير في السوق العالمية ، وقد بدأت ذلك بخلق فائض نفطي عالمي ، وذلك يمكن تحقيقه بمساعدة الدول النفطية غير المنضمة الى الأوبيك ، وبتقليص نسبة المشتريات من هذه الدول ، وقد ذكر « هنري كيسنجر » مرة « أن من أهداف سياسة الطاقة الأمريكية ايجاد مصادر بديلة ، وبأقصى سرعة ممكنة » لأن هذا البديل سيلعب دورا مهما في تخفيض أسعار النفط ، وبما أن الرد المتوقع من دول الأوبيك هو تقليص الانتاج للحفاظ على أسعاره العالمية ، الا أن هذه الدول لن تستطيع الصمود طويلا ، حيث تشكل العائدات النفطية المصدر الوحيد للدخل القومي فيها ، وبناء على ذلك ستضطر لبيع نفطها مهما كانت الاسعار لتغطية تمويل مشاريعها الانمائية والاقتصادية ، كما هو الحال في الجزائر وايران وفنزويلا ، وكلما نقصت مبيعات هذه الدول تعرضت الخطة الانمائية للخطر ،

وهذا فان قسوة هذا المأزق ستؤدي الى انهيار منظمة الأوبيك ولجوء اعضائها الى بيع انتاجهم فرادى دون خطة تنسيق موحدة ، وهذا يعني مزيدا من التفكك لهذه المنظمة ، وبالمقابل خطوة جديدة لاستعادة أمريكا السيطرة ومن جديد على مصادر الطاقة العالمية .

أمريكا والنفط المكسيكي

لاشك أن أمريكا تعتبر النفط المكسيكي جزء مهم في استراتيجيتها العامة للطاقة ، ولكن هل ستنجح أمريكا بالسيطرة على هذا المصدر القريب؟ ان البورجوازية المكسيكية كنظيرتها الكندية تريد أن تستغل نفطها لأغراضها الخاصة ، وهم لذلك يرفعون من أسعار نفطهم ، ولكن كيف سيكون الصراع الأمريكي مع هذين الجارين ؟ أن السنوات القادمة كفيلة بالكشف عن ذلك كما أن هناك منطقة صراع جديدة ومحتملة في جنوب شرق آسيا فقد أعطت الصين بعض الامتيازات للشركات الامريكية للتنقيب عن النفط في بحر الصين الجنوبي ، وهي شركات أويل ستاندارد وآركو وموبيل وتكساكو ، ويجري التنقيب أيضا حول جزيرة « هاينان » وهي منطقة تطالب بها فيتنام ، والسؤال الآن ماذا ستفعل في حال اكتشاف النفط في هذه المنطقة ؟ ان ذلك يعني بداية صراع جديد بين فيتنام والصين ، ولكن امكانية التورط الامريكي مستبعدة ايضا خصوصا ان الصين نفسها ستحاول بعد ذلك ان تستغل هذه الاكتشافات لأغراضها الخاصة التي ستكون متناقضة تماما مع المصالح الأمريكية ، كما أن هذه الدول النفطية لن توافق على سياسة الفائض النفطي ، لأن هذه السياسة في النهاية في غير صالحهم ، وكما حصل تماما مع دول الأوبيك ، وعندها ستلجأ أمريكا لضرب هذه الدول بعضها ببعض .

ويبقى على حلبة الصراع المنافس الثالث أو الدول الصناعية،والصراع مع هذه الدول صراع علمي وسباق منهك للحصول على التقنية الجديدة ، ورغم أن التوقعات لنهاية حقبة النفط قد تبدو مبالغا فيها ، الا أن ذلك لاينفي حقيقة أن كميات هذه الطاقة أصبحت محدودة ، وأن الانطلاق نحو عصر غير نفطي قد يبدو وشيكا ، وأن الدولة التي تستطيع استملاك هذا المصدر البديل سوف تتقلد حتما زعامة العالم .

ان الحرب المعلنة على الأوبيك كانت من أجل خلق فائض نفطي بعيد عن سيطرة المنظمة ، كما أن خلق فائض مشابه عن طريق البلدان النفطية الأخرى قد يستغرق وقتا طويلا ، لذلك لجأت أمريكا الى سياسة التقشف الاستهلاكي ، وكذلك المجتمعات الصناعية الأخرى ، وذلك عن طريق اكتشاف وسائل علمية جديدة لتقليل استهلاك الوقود ، ثم تخفيض مماثل في خطة التنمية والخدمات ، وهذا يعني كسادا عالميا جديدا ، ومن أخطار هذه السياسة أن هذا الكساد العالمي قد يؤدي الى المواجهات العسكرية ، فالبحث عن مصدر بديل يعني تطورا تقنيا يتطلب بدوره تمويلا اضافيا هائلا على حساب سياسة الاستهلاك القومي ، وكأن تلك ترجمة رأسمالية للسياسة الستالينية للتصنيع السريع وهذا ما يفسر سياسة البرامج التقشفية الشديدة التي بدأت في المجتمعات الصناعية العالمية منذ أواسط السبعينيات .

من الصعب التكهن الآن كم ستطول هذه الحرب الجديدة ، ولكن نستطيع أن نستنتج مدى التقهقر والتراجع للمستوى المعيشي لهذه المجتمعات ، أن نموا متصاعدا في البطالة سيصاحب هذه الحرب ، بالاضافة الى القلاقل العمالية والاجتماعية ، وعدم الاستقرار السياسي ، وزيادة حدة التوتر بين بلدان العالم ، ومن يضمن وقتها عدم تحويل هذه المبالغ الى وجهة غير اقتصادية لتدخل فورا الى باب الصناعات الحربية ؟ □



شاخت البلاغة فجاء علم الأسلوب !

تأليف : الدكتور صلاح فضل
عرض : عبد السميع المصري

مع بداية القرن العشرين لم يعد هناك من يتحدث عن البلاغة إلا بصيغة الماضي ، وقد بدأ الحديث عن الأسلوب يأخذ الأهمية الكبرى في تقييم الأعمال الأدبية ، لكن علم الأسلوب أقدم من ذلك بكثير . فما المقصود بعلم الأسلوب ؟

ومتى بدأ ؟ وما هي تأثيراته على الحركة النقدية الأدبية ؟

يقسم المؤلف كتابه الى أربعة أبواب ، بعد المقدمة التي جاء فيها أن « علم الأسلوب هو من العلوم الانسانية الشابة ، ودوره كوريث شرعي للبلاغة العجوز التي أدركها سن اليأس ، وحكم عليها تطور الفنون والآداب الحديثة بالعقم .

وعلم الأسلوب يرجع الى أبوين فتيين ، هما علم اللغة الحديث من جانب ، وعلم الجمال الذي أدى مهمة الأبوة الأولى من جانب آخر ، وان كان كلاهما لم يستقر حتى الآن بشكل حاسم على رقعة الدراسات العربية ، كي يؤدي الى ولادة علم أسلوب عربي أصيل . لكن هذا لا يعفينا من مهمة استكشاف مجالات هذا العلم ، واستيضاح مناهجه ، وتحليل مبادئه بمفهومها التاريخي كبدايات لنشأته ونموه من ناحية ، ومفهومها النظري كأسس ومقولات ، تعتمد عليها الدراسات التطبيقية ، وتستمد منها صلابتها وتماسكها ، وصدق نتائجها من ناحية أخرى ، ثم التعرض لمجموعة من الاجراءات التحليلية ، والقضايا الأسلوبية التي تدرس كيفية

وضع المنهج موضع التنفيذ ، طبقا لاطار نظري متبلور ، وخطة علمية محكمة .

وإذا كانت مادة العلم وهي الأساليب نفسها مما تزخر به لغتنا الثرية ، وتجود به ملكات أدبائنا القوية المطبوعة التي استطاعت أن تتصدى لعصرها ، وتتشرب روحه ، وتجرب أنماطه ، وترود مجالات إبداعه ، فإن قصور الدراسة المنهجية لأعمالهم ، وعجزها عن تقنين المبادىء ، وتأصيل الأساليب ، إنما يرجع الى محاولة الاكتفاء بالوعي الفطري الساذج ، والاطمئنان الى انفصام البلاغة التقليدية عن الحياة ، والاشفاق من ورود منابع العلم لدى أقوام آخرين ، والوقوف على أسرارها ، مع أن هذا التلاقح العلمي من أهم الضرورات الحيوية التي تعد من دلائل النضج والتقدم .

وإننا لا يمكن أن ندعو الى النسخ والتقليد ، أو تقبلهما في قضايا تتعلق بالذوق الجمالي ، أو بالخصائص المميزة لكل لغة من اللغات ، أو فن من الفنون ، بل إن علينا في كل مرة نتصدى فيها للبحث والتحليل أن نتقن ممارستنا ، ونبدع تطبيقنا ونبتكر حلولنا .

وبعد هذه السلسلة من الاتهامات للبلاغة العربية العجوز ، واتهامها بالانفصام عن الحياة ، يبدأ المؤلف في الباب الأول من كتابه (المبادىء والاتجاهات المبكرة) بالحديث عن نشأة علم الأسلوب ، في عالم اللغات الأوروبية الذي يفتننا دائما فيقول « إن نشأة هذا العلم تعود الى أوائل العقد الأول من هذا القرن ، وارتبطت بالتطور الذي لحق بالدراسات اللغوية في القرن الماضي » .

مولد علم الأسلوب

إن التحديد الدقيق لمولد علم الأسلوب يتمثل فيما أعلنه العالم الفرنسي جوستاف كويرتنج عام ١٨٨٦م ، ومعنى هذا أن العلماء قد حددوا منذ قرابة قرن من الزمان مجالات علم الأسلوب الحديث بحثا عن التعبير المتميز ، وأوجزوها في سبعة أبواب هي : أسلوب العمل الأدبي ، وأسلوب المؤلف ، وأسلوب مدرسة معينة أو عصر خاص أو جنس أدبي محدد ، أو الأسلوب الأدبي من خلال الأسلوب الفني ، أو من خلال الأسلوب الثقافي العام في عصر معين .

بيد أن هذا الحصر المجمل لا يفيدنا جديا في التعرف الكامل على مجالات علم الأسلوب ، وطبيعة تطوره ، وجملة مبادئه وتصوراته ، مما يقتضي العرض التفصيلي لأهم الاتجاهات التي أسهمت في تكوين علم الأسلوب ، وأبرز الأفكار التي حددت مساره ، ورسمت مصيره .

ثم يأخذ بعد ذلك في عرض الاتجاهات التي ظهرت في دراسة علم الأسلوب ، فيقدم لنا أولا المدرسة الفرنسية التي تهتم بتقنية التعبير اللغوي ، وقطب هذه المدرسة هو شارل بالي (١٨٦٥ - ١٩٤٧م) ، مؤسس علم الأسلوب ، وقد نشر عام ١٩٠٢م كتابه الأول (بحث في علم الأسلوب الفرنسي) ، ثم أتبعه بعدة دراسات أخرى مطولة ، نظرية وتطبيقية ، أسس بها علم أسلوب التعبير الذي يعرفه على النحو التالي : هو العلم الذي يدرس وقائع التعبير من واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة ، وواقع اللغة عبر هذه الحساسية ، لأن مهمة علم الأسلوب الرئيسية - في تقديري - تتمثل في البحث عن الأنماط التعبيرية التي تترجم في فترة معينة حركات فكر المتحدثين وشعورهم باللغة ، ودراسة التأثيرات العضوية الناجمة عن هذه الأنماط لدى السامعين والقراء .

فعلم الأسلوب عند بالي ليس بحثا في قسم معين من اللغة ، بل في اللغة بأكملها بملاحظة من زاوية خاصة .

ثم يقدم لنا المؤلف بعد ذلك المدرسة الألمانية في علم الأسلوب التي تتميز بالمثالية ، ومن هذه المدرسة فوسلير الذي يولي علم الأسلوب أهمية كبرى ، باعتباره العلم الوحيد الجدير بأن يقدم شروحا

حقيقية للظواهر التي يصفها علم اللغة ، والتي يعتبرها معادلة للتعبير الروحي .

في نهاية العقد الثالث من هذا القرن كانت المشكلة القائمة هي كيفية إدماج العناصر الأسلوبية في بنية العمل الأدبي الشاملة ، أو بعبارة أخرى اكتشاف العلاقة وتقديمها بين الأبنية الأسلوبية الصغرى ، والأبنية التركيبية الكبرى في وحدتها الجمالية ، وهذا ما حاول القيام به مجموعة من أقطاب النقد الموضوعي الذي يعتمد على وصف الأسلوب ، والابتعاد قدر الطاقة عن الوقوف عند حد نقد القيم الانسانية المتضمنة في العمل الأدبي ، لما في ذلك من طابع ذاتي ، لا يتكيء على الجسم اللغوي للعمل الأدبي .

ومن النقاد الايطاليين والاسبان نجد أن أمادو ألونسو الاسباني يرى « أن علم الأسلوب يهدف الى المعرفة الحميمة للعمل الأدبي ، ولمبدعه عن طريق أسلوبه » ، لأنه يقدر أن كل خاصية لغوية في الأسلوب تطابق خاصية نفسية لدى الفنان .

أما في الباب الثاني من الكتاب الذي أفرده « للإطار النظري لعلم الأسلوب » فقد قدم له بحديث عن مفهوم الأسلوب ، ونقل لنا عن ابن منظور قوله في لسان العرب : « يقال للسطر من النخيل وكل طريق ممتد أسلوب . فالأسلوب الطريق والوجه والمذهب ، يقال أنتم في أسلوب سوء . ويجمع أساليب والأسلوب الطريق تأخذ فيه . والأسلوب الفن . يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي في أفانين منه » .

اسهامات ابن خلدون وغيره

أما ابن خلدون فيقول في مقدمته عن الأسلوب « إنه عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ ، ولا يرجع الى الكلام باعتباره إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب أي النحو ، ولا باعتباره إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه ، الذي هو وظيفة العروض ، وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية ، باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة التي ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويعيدها في الخيال كالقالب والمنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الأعراب والبيان فيرصها فيه رصاً ، كما يفعل البناء في القالب ، والنسّاج في المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة ، باعتبار ملكة اللسان العربي فيه ، فان لكل فن من الكلام اساليب تختص فيه وتوجد فيه على انحاء مختلفة .

ومن الواضح ان هذا المفهوم التركيبي الدقيق للأسلوب إنما هو اصطلاحي لا لغوي ، ويسبق بقرون دخول الأسلوب في المصطلح النقدي الأوروبي . فقد استخدم في النقد الألماني منذ أوائل القرن التاسع عشر في معجم جريم ، وورد لأول مرة في اللغة الانجليزية كمصطلح عام ١٨٤٦م طبقا لقاموس اوكسفورد ، ودخل القاموس الفرنسي لأول مرة كمصطلح عام ١٨٧٢م .

أما الكونت بوفون فيقول عن الأسلوب « إن المعارف والوقائع والاكتشافات تتلاشى بسهولة ، وقد تنتقل من شخص لآخر ، ويكتسبها من هم أدنى مهارة ، فهذه الأشياء تقوم خارج الانسان ، أما الأسلوب فهو الانسان نفسه ، فالأسلوب إذن لا يمكن أن يزول ، ولا ينتقل ، ولا يتغير » .

لكن المؤلف عندما أراد تحديد علم الأسلوب عاد إلى مقولة المدرسة الفرنسية القائلة بأن علم الأسلوب هو « دراسة طريقة التعبير عن الفكر من خلال اللغة » ، وهذا تعريف مبسط مقبول في جمله ، لكنه يثير عددا من المشاكل ، أهمها مفهوم كل من الفكر واللغة الذي يوشك أن يتسع تدريجيا حتى يشمل جميع وجوه النشاط الانساني في الحياة عبر التاريخ .

ثم ينتقل بنا بعد ذلك ليوضح لنا « دور علم اللغة

في نشأة علم الأسلوب ، ودعمه ، ومده بمقولاته ، والصلة الحميمة بينهما التي قد تتشكل أحيانا في جداول كاملة من التوافقات والتخالفات » .

ثم علاقة علم الأسلوب بعلوم البلاغة ، فيطلق الشكل البلاغي ، على الصيغة الكلامية التي تتسم بحيوية أشد من اللغة العادية ، وتهدف إلى جعل الفكرة محسوسة عن طريق المجاز ، كما تلفت النظر بدقتها وأصالتها » ، وترتفع بمستوى الأسلوب .

لكنه ينتهي بعد حديث طويل إلى هذه النتيجة : « وعندما شب علم الأسلوب أصبح هو البلاغة الجديدة في دورها المزدوج كعلم للتعبير ونقد للأساليب الفردية » .

أما الباب الثالث من الكتاب فقد جعله المؤلف للحديث عن « مستويات البحث وإجراءاته » ، واستهله بأهداف البحث الأسلوبي ومناهجه ، فقال : « تقوم الأهداف العامة للبحث الأسلوبي على أساس نظرية علم اللغة التطبيقي ، مما يدعو للاهتمام بالوسائل المنهجية المشتركة بينهما ، ويصبح على البحث الأسلوبي أن يعني في المقام الأول بتحديد موضوعه ، والهدف الأخير الذي ينشده ، إذ يمكن تطبيق إجراءات التحليل الأسلوبي بطرق مختلفة .

المفهوم الوظيفي للأسلوب

أما المفهوم الوظيفي للأسلوب فيعترف المؤلف هنا بأنه « يعتمد على فكرة قديمة تتصوره ابتداء كعملية اختيار واعية لعناصر لغوية معينة ، وتوظيفها عن قصد لاحداث تأثير خاص هو التأثير الأسلوبي » .

لكنه ينتهي في هذا الباب إلى معادلات رياضية ، يرى تطبيقها على أساليب اللغة كما يطبقها المهندس في رسمه لمخطط ما ، أو المحاسب في حساباته المركبة . وهكذا يرى أن تتحول دراسة الأسلوب إلى الحاسب الآلي بدلا من التذوق الانساني .

ولا ننكر أن المؤلف قد حذر من عواقب هذا المنهج الاحصائي الذي يعتز به لسبب مؤقت ، هو أن « معظم باحثي الأسلوب لا يجيدون التقنية الاحصائية ، بل ينفرون عادة منها ، مما يجدر معه أن لا نحملهم على مشقته دون ضرورة » .

فهي ضرورة مرحلية في رأيه ، حتى يتعلم النقاد هذه المعادلات الرياضية .

ورغم ذلك فإنه يختتم هذا الباب بقوله : « ونخطيء السبيل إن قصرنا البحث الأسلوبي على مجموعة من الاجراءات التجريبية ، وظننا أنها تلغي ما قبلها من محاولات مخلصة لابراز معالمه ، بل إنها قد لا تؤدي في نهاية الأمر إلى تأكيد لمحة نقدية حدسية ، لمعت في ذهن باحث متوقد الحس » ، فإذا كانت هذه هي النتيجة فهل كانت تستحق كل هذا العناء الذي حملنا عليه في كتابه ؟ وهل خرجنا بجديد حقا من دائرة علوم البلاغة العجوز في البيان والمعاني والبديع ؟ لا سيما أن الباب الأخير من الكتاب وهو « دائرة الخواص الأسلوبية » قد بدأه بالحديث عن المجاز والاستعارة وعلاقتهما بالدراسات الأسلوبية .

وهو يرى أن « مشكلة الصورة الأدبية هي امتداد عضوي للحديث عن المجاز ، فلا يمكن أن يكون ثمة حد فاصل بين المجاز والصورة ، إذ أن الموضوع واحد في كلتا الحالتين ، والاختلاف الوحيد بينهما يكمن في زاوية الرصد ، والمصطلح الفني فحسب ، وتتميز الصورة في جميع الأحوال بصبغتها التشكيلية ، وبتعدد وظائفها ، وكثرة علاقاتها ، مما يجعلها من أقدر الوسائل على تقديم الرؤية الشخصية ، والمزاج المتفرد للكاتب ، وعندئذ يصبح دورها حاسما في تحديد الأسلوب » .

وخير ما نختتم به هذا الحديث ما قاله الدكتور صلاح عن كتابه في تواضع العلماء :

حسب هذه الدراسة أن تكون امتدادا لجهود الرواد الأوائل في فن القول والأسلوب في أفقنا العربي ، وأن تلقي حفنة ولو يسيرة من الضوء على تطور الدراسات الأسلوبية الحديثة . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : عصر البنيوية ـ من ليفي شتراوس الى فوكو
المؤلفة : اديث كيرزويل
ترجمة : د . جابر عصفور
الناشر : دار آفاق للطباعة والنشر ـ بغداد
عدد الصفحات : ٢٦٠ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٥م

عندما نشر هذا الكتاب مترجما منذ عامين لم تكن البنيوية كتيار يشمل علوم اللغة و « الانثروبولوجيا » والفلسفة والتاريخ الاجتماعي والنقد الأدبي قد بدأت بفقدان بريقها الذي اكتسبته في وطننا العربي في وقت متأخر على أي حال .

ومع ذلك فالكتاب له فضيلة الشمول والتبسيط الذي يجعل منه كتابا تعليميا على الرغم من بعض الثغرات الموجودة فيه التي ينبه المترجم القارىء اليها ، وهي تتخلص أساسا في كون الكتاب « أمريكي » النزعة ، لايخلو من توجيه « ايديولوجي » من جانب المؤلفة للقارىء ، مما يفقد هذا الكتاب المهم بعضا من رصانته .

■ ■

الكتاب : واكتشفت عالما جديدا ـ دفاتر أوزبكية .
ترجمة : دار رادوغا للطباعة والنشر
الناشر : دار رادوغا للطباعة والنشر ـ موسكو
عدد الصفحات : ١٩٨ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٦م

تضم هذه « الدفاتر الأوزبكية » مجموعة من القطع الأدبية الشعبية « والكلاسيكية » في جمهورية أوزبكستان السوفيتية .

وتتضمن هذه القطع بعض الأمثال الشعبية والقصائد الغنائية والنصوص التي تتضمن وصفا لمدن أوزبكستان بأشجارها وأبنيتها .

كما تضم هذه الدفاتر أعمال أهم شعراء اوزبكستان الكلاسيكيين وأدبائها مثل علي شيرانوائي ، صاحب ملحمة « ليلي والمجنون » ، القريبة من قصة قيس وليلى ، وملحمة البامئيس الشهيرة في الأدب الاوزبكي .

■ ■

الكتاب : الفلسطينيون ـ التهجير القسري والرعاية الاجتماعية
المؤلف : خليل السواحري
الناشر : دار الكرمل ـ عمان
عدد الصفحات : ١٠٦ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٦م

تتابع هذه الدراسة حركة الشعب الفلسطيني في ظل ممارسات تسير في اتجاهين متعاكسين ، يتمثل النوع الأول منها في حركة التهجير القسري التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني على أيدي سلطات الاحتلال « الاسرائيلية » التي تأخذ أشكالا قمعية مختلفة ، والنوع الثاني هو تلك الأشكال من الرعاية الاجتماعية التي تقدم للفلسطينيين في الداخل ، سواء

من خلال جمعيات أو منظمات فلسطينية أو عربية أو دولية . وتبرز هذه الدراسة حقيقة مأساوية ، تتلخص في أن أشكال التهجير القسري بازدياد ، بينما تتناقص باستمرار موارد برامج الرعاية الاجتماعية التي أنشئت أصلا لمواجهة عمليات التهجير القسري .

■ ■

الكتاب : سبتة ومليلية . . حتى لاننسى .

المؤلفان : محمد المعزوزي ، وجعفر بن عجيبة

الناشر : شركة الهلال العربية للطباعة والنشر ـ الرباط

عدد الصفحات : ٢٥٠ صفحة

سنة النشر : ١٩٨٧م

في غمار المعركة التي يخوضها الشعب المغربي لاسترجاع المدينتين السليبتين ـ سبتة ومليلية ـ تظهر هذه الدراسة الشاملة في أربعة أبواب ، عالج المؤلفان في الباب الأول مسألة الموقع الجغرافي للمدينتين ، مع لمحة عن تاريخها منذ الفتح العربي ، مرورا بالاحتلال البرتغالي ، ثم الاحتلال الاسباني لثغور المغرب الشمالية ، ويحدد الكتاب عدد سكان سبتة بـ ٧٢ ألف ساكن ، منهم ٢٨ ألف مغربي ، حصل ألف مغربي منهم على الجنسية الاسبانية ، كما يوجد فيها ٢٥٠٠ من اليهود الاسبان ، و ٥٠٠ من اليهود الأجانب ، وأكثر من ألف هندي بالاضافة الى عدد كبير من الجنود الاسبان ، يقارب مجموع سكان المدينتين ، أما الباب الثاني فيحتوي تعريفا بمدينة مليلية وتاريخها ، وقد تأسست عام ٩٢ للهجرة ، وقد استعمرها الاسبان عام ١٤٩٧ م . ويتناول الباب الثالث وضع جزر الشواطيء المغربية التي مازالت تحتلها اسبانيا ، وهي جزر ملوية ، والجعفريات الثلاث ، وجزيرة النكور ، وجزيرة بادس ، وجزيرة البوران ، وجزيرة الثورة . ويبحث الباب الرابع تطور الصراع الدبلوماسي منذ عام ١٩٤٧ ، وهو تاريخ المطالبة باستقلال المغرب ، ومن أجل استعادة المدينتين والجزر السليبة .

■ ■

الكتاب : البوابة

المؤلف : د . عبد الهادي عبد الرحمن

الناشر : المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر

عدد الصفحات : ١٢٥ صفحة

سنة النشر : ١٩٨٧م

يحاول د . عبد الهادي عبد الرحمن في روايته ـ البوابة ـ أن يضع بين يدي القارىء الجزائري صورة عن مرحلة مهمة من تاريخ مصر ، وهو يرصد ظاهرة الهجرة من الريف الى المدينة ، ويحلل الأوضاع الطبيعية والاجتماعية التي تدفع الريفيين الى ترك قراهم ، والبحث عن مصدر للعيش في المدينة .

وصورة المهاجر كما يعكسها د . عبد الرحمن في هذه الرواية هي صورة الانسان المتدهش الذي يقف مذهولا أمام متناقضات المدينة ، ويعيش فترة طويلة تحت صدمة انهيار القيم الأخلاقية البدوية ، فيشعر بالاحباط والقرف ، ويعجز عن الاندماج في المجتمع الجديد ، لكنه يعود فينسجم مع بيئته الجديدة بعد فترة ، ويفهم كل مايجري حوله بعمق وصفاء . □

■ لماذا تخاف الموت إذا كنا على حق ؟ خير للمرء أن يموت في سبيل فكرته ، من أن يعمر طول الدهر خائنا لوطنه ، جبانا عن نصرته . (ماتزيني)

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٤٧
اكتوبر ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة اسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي - صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 - الكويت . . مسابقة العربي العدد ٣٤٧ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ نوفمبر ١٩٨٧

١ - يروى عن أحد أطباء السلف الصالح من العلماء أنه خرج من الحمام عاريا ، يطلب ورقا وريشة وحبرا ، ليبدأ كتابه عن النبض ، حتى اذا فرغ رجع ثانية الى الحمام وكأن شيئا لم يكن . فمن هو هذا العالم الطبيب ؟

* ابن النفيس * البيروني * ابن الهيثم

٢ - من هو أول طبيب ظهر في الاسلام ؟

* الكندي * ثابت بن قرة * الحارث بن كلدة

٣ - ان الهدية التي قدمها امبراطور القسطنطينية الى عبد الرحمن الثالث حاكم الاندلس ، وذلك بقصد استمالته والتحالف معه ، لم تكن الا كتابا من كتب الطب اليوناني القديمة . ترى من مؤلف ذلك الكتاب ؟

* ابقراط * جالينوس * ديوسقوريدس

٤ - تراثنا الطبي يشمل كتبا كثيرة كما هو معروف ، الا أن أحد هذه الكتب يحتل مكانا بارزا بينها ، فهو يضم مليون كلمة ، ويقع في خمسة مجلدات ضخمة . فما اسم هذا الكتاب ، وما اسم مؤلفه ؟

٥ - الرازي أحد عمالقة الطب في الاسلام ، ألف ١٨٤ كتابا ، منها ٥٦ كتابا في الطب . ترى ما اسم أشهر كتبه الطبية هذه ، وماهو عدد أجزائه ؟

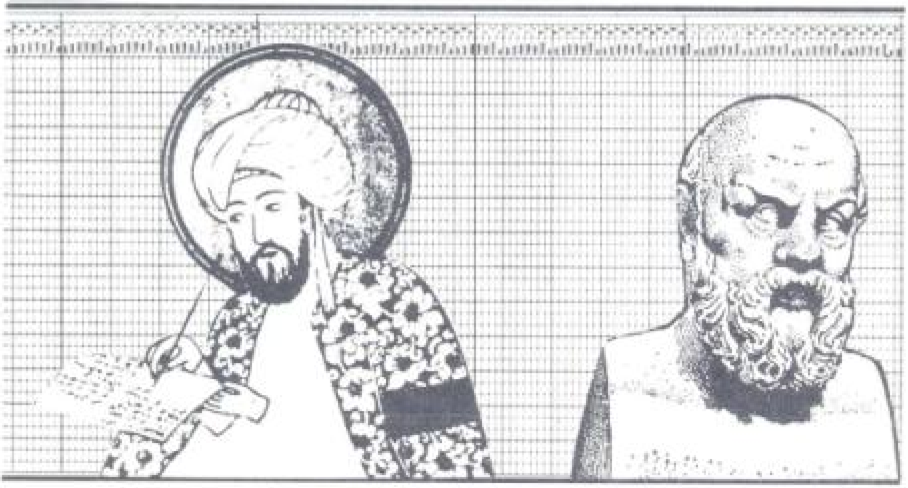
* الحاوي * كتاب المنصور * كتاب الجدري والحصبة

٦ - لقد ظهرت الصيدلية الأولى في التاريخ في بغداد في القرن الثامن الميلادي . ترى في عهد أي الخلفاء ظهرت ؟

٧ - ضياء الدين بن البيطار أحد كبار أطباء السلف الصالح وعلمائهم،اشتهر بكتابه (الجامع

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد
٣٤٧



ابقراط   ابن سينا

في الأدوية المفردة) الذي تحدث فيه بتفصيل عن ١٤٠٠ عقار . فأين ولد ابن البيطار ، وأين توفي ؟

٨ ـ ذهب الأطباء اليونان وعلى رأسهم ابقراط الى أن قيح الجروح ظاهرة صحية سوية ، لايجوز تنظيف الجروح من قيحها . ترى هل أقرهم ابن سينا على ذلك ؟

* نعم أقرهم عليه كما أقرهم على معظم المواضيع والنظريات الطبية الأخرى .

* كلا لم يقرهم عليه ، بل عارضهم ، وانتقدهم .

٩ ـ كتب أطباء السلف الصالح في الاسعافات الأولية ، ولعل أشهر كتبهم في هذا المجال هو كتاب (غنية اللبيب عند غيبة الطبيب) .

فمن مؤلف هذا الكتاب ؟

* على بن رباب الطبري * ابن الهيثم * شمس الدين الاكفاني

١٠ ـ من هو أعظم جراحي السلف الصالح ؟

* الرازي * ابن سينا * أبو القاسم الزهراوي

١١ ـ يروى عن أحد قدامى الأطباء المسلمين أنه نجح في معالجة والي بخارى ، حيث فشل كبار أطباء عصره ـ وكان ذلك الطبيب فتى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . فمن هو هذا الطبيب ؟

* الرازي * الطبري * ابن سينا

١٢ ـ الأقرباذين مصطلح يتردد كثيرا في تراثنا الطبي . فماذا يعني هذا المصطلح ؟

* انه اسم طبيب فارسي شهير .

* انه اسم طبيب هندي شهير .

* يعني المصطلح لائحة الأدوية التي تحدد خصائصها ، وطرق اعدادها وفق معادلاتها . □

حل مسابقة العدد ٣٤٤

١ ـ يسير الصوت عبر الماء بسرعة تفوق سرعة سيره عبر الهواء بخمس مرات أو تزيد ، وقل مثل ذلك في المسافة التي يقطعها ، لذلك كان صوت التفجير الذي قطع مسافة ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ كيلو متر هو الصوت الذي انتقل عبر ماء البحر . وتجدر الاشارة هنا الى تجربة أجراها علماء جامعة كولمبيا في نيويورك سنة ١٩٦٠ ، فقد استطاعت أجهزتهم الدقيقة تسجيل صوت التفجير الذي أحدثوه في مياه البحر عند استراليا ، فاستطاعت تسجيله في برمودا بعد مضي ساعتين وأربعة وعشرين دقيقة ، والمسافة بين استراليا وبرمودا تعادل نصف محيط الكرة الأرضية تقريبا !

٢ ـ التلسكوب لايكبر النجوم ، لكنه يزيدها بريقا ووضوحا ، فنحن لانرى من نجوم السماء سوى بصيص النور ، والنور لايمكن تكبيره ، لكن يمكن مضاعفة بريقه ولمعانه .

٣ ـ الامبراطور شارلمان هو الذي اعتبر كل من يهبط الى الأرض على متن طبق من الأطباق الطائرة مجرما ، يستحق العقاب .

٤ ـ أصدر لنكولن اعلانه بتحرير العبيد سنة ١٨٦٣ ، أي ابان الحرب الأهلية التي طال أمدها نحو ٤ سنوات (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ، لكن الرق بقي قائما في كثير من الولايات بعد صدور ذلك الاعلان ، على أن الاجراء الذي وضع حدا للرق في الولايات المتحدة الامريكية كان بالقانون الدستوري (أو بالتعديل رقم ١٣) الذي أصدره الكونجرس سنة ١٨٦٥ ، والذي يعود الفضل في اصداره الى الرئيس لنكولن الذي سمي اثر ذلك محرر العبيد .

٥ ـ نكازاكي هي المدينة اليابانية التي ضربت بالقنبلة الذرية الثانية في ١٩٤٥/٨/٩ ، وقد أعلنت اليابان استعدادها لمفاوضات السلام في ١٩٤٥/٨/١٠ ، أي عقب قنبلة نكازاكي مباشرة .

٦ ـ درجة الصفر المطلق لاتوجد في القطب الشمالي أو القطب الجنوبي أو في سيبيريا ، أو في أي مكان آخر على سطح الكرة الأرضية ، فهي بمثابة الدرجة (النظرية) الدنيا التي اصطلح عليها العلماء ـ ومما يذكر أن هؤلاء العلماء قد تمكنوا من احداث درجة برودة قريبة من درجة الصفر المطلق ، وذلك في المختبرات .

٧ ـ رياضة الجودو هي المصارعة اليابانية التي اقتبسوها عن الجوجتسو في الدفاع عن النفس دون سلاح وهى فن صيني قديم ، ويعتبر جيجورو صاحب الفضل في تطوير الجودو سنة ١٨٨٢ .

٨ ـ سويسرا هي هلفسيا ، كما تدل على ذلك طوابعها البريدية .

٩ ـ بلغ وزن دروع الفارس في أوروبا في القرن الوسطى ٢٢,٦ كيلوغراما على وجه التحديد .

١٠ ـ يذهب كثير من المؤرخين الى أن نيرون هو الذي أحرق روما سنة ٦٤م ، وذلك بقصد الاستمتاع برؤيتها وهي تحترق ، لكن بعض المؤرخين ينفون ذلك .

١١ ـ الأناكوندا ثعبان ضخم ، قد يبلغ طوله ١١ مترا ، ويعيش هذا الثعبان العملاق في الأنهار والمستنقعات في أمريكا الجنوبية .

١٢ ـ المد والجزر هو السبب ، وقد فوجيء به يوليوس قيصر ، واضطر لقضاء بعض الوقت لاصلاح سفنه قبل العودة الى روما . □

□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٤ يوليو ١٩٨٧

الجائزة الأولى : كمال السويلمي آسفي/ الجريفات ـ زنقة كمال ـ المملكة المغربية .

الجائزة الثانية : نصرة أنور علي مشالي/ بورسعيد ـ جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثالثة : غازي جبل الكحلوني/ كلية الحقوق ـ جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ نجاة سلام/ الدار البيضاء ـ المملكة المغربية .

٢ ـ المنجي الوغلاني/ شارع أكتوبر/ الحي العسكري ـ الجمهورية التونسية .

٣ ـ ماجدة عز الدين صالح/ ود مدني ـ السودان .

٤ ـ مراد عاطف علاء الدين أبو ذر/ عمان ـ الأردن .

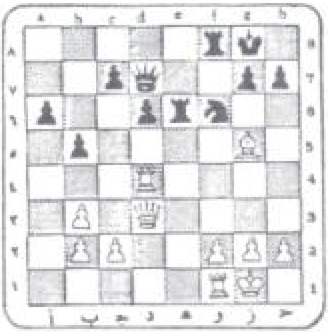
٥ ـ أحمد يونس ملا سعيد/ النزهة ـ الكويت .

٦ ـ نجاح ابراهيم محمد همام/ الاسماعيلية ـ جمهورية مصر العربية .

٧ ـ نايفة ابراهيم منصور/ شاغور/ دمشق ـ الجمهورية العربية السورية .

٨ ـ نديم حامض/ الكلية الجامعية للعلوم والآداب والتربية ـ دولة البحرين .

معركة بلا سلاح



من أبرز الأنشطة الشطرنجية المقامة في العاصمة المغربية المباراة التي نظمتها المنطقة الخامسة التابعة للجامعة الملكية المغربية للشطرنج ، في مطلع شهر ابريل من العام الحالي ، والتي أطلقت عليها اسم دوريّ الأساتذة ، لاقتصارها على كبار اللاعبين المغربيين ، الحاصلين على لقب أستاذ ، وقد أقيمت المباراة تكريماً للاعب المغربي الكبير الأستاذ المختار القادري ، بطل المغرب لعام ١٩٦٩ ، وواضع حجر الأساس للنادي الفاسي للشطرنج عام ١٩٥٨ .

بدأ الأستاذ المختار القادري نشاطه الشطرنجي الرّسمي مع بداية الأربعينيات من هذا القرن ، فقابل عدداً كبيراً من كبار الأساتذة الدوليين الذين أقرّوا له بالأستاذية ، والتّمرّس في فنون اللعب ، كما شارك في جميع البطولات الشطرنجية والدولية ، منذ عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٧ عندما أقعده المرض ، وحال بينه وبين متابعة نشاطه الشطرنجي . وقد كان عضواً أساسياً في فريق بلاده ، في عدد كبير من الأولمبيادات ، منها أولمبياد عام ١٩٦٦ في كوبا ، و ١٩٦٨ في سويسرا ، و ١٩٧٠ في ألمانيا ، و ١٩٧٢ في يوغسلافيا ، و ١٩٧٦ في القطر الشقيق ليبيا .

وقد اشترك في دوري الأساتذة الذي نحن بصدده ثمانية من الأساتذة ، منهم الأستاذ الدولي محمد مبارك ريان ، بطل المغرب لعامي ٨٢ و ٨٥ ، و الأستاذ الدولي قاسم ريّان ، والأستاذ الوطني مصطفى البقالي ، بطل المغرب في ١٩٦٥م ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٣م ، والأستاذ الوطني أحمد بنيس ،

والدور التالي الذي اخترناه لكم من هذا الدوري من الأدوار المميزة لبطل المغرب الحالي السيد عبد الحفيظ العمري .

□ خالد الشرقي	■ عبد الحفيظ العمري
٢٢) ب ٤	و - و ٧
٢٣) ر - حـ ٤	حـ ٦
٢٤) ف - هـ ٣	جـ ٦
٢٥) جـ ٤	د ٥
٢٦) ب ٣	ر (و) - هـ ٨
٢٧) حـ ٣	ر - هـ ٤
٢٨) ر × هـ ٤	ر × هـ ٤
٢٩) جـ × د ٥	و × د ٥
٣٠) و - جـ ٢	ر × ب ٥
٣١) ر - د ١	و - هـ ٤

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد ٣٤٤

يوليو ١٩٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ عفيفة عبداللطيف أبو عيسى/ اربد ـ الاردن
٢ ـ د. رندا عبدالرحمن حسن/ القاهرة ـ مصر
٣ ـ مصطفى الجمعة/ الدرعية ـ سوريا
٤ ـ عبدالحميد طيب أحمد/ محافظة الأنبار ـ العراق
٥ ـ رؤوف رابح/ المطويه ـ تونس

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ اسماعيل أحمد محمد النعاس/ الخمس ـ ليبيا
٢ ـ عكرمة خليل بكر نور/ حولي ـ الكويت
٣ ـ ابن حقي محرز/ تطوان ـ المغرب
٤ ـ شريف محمود عبدالمطلب/ السويس ـ مصر
٥ ـ علي محمد الشعبي/ الرياض ـ السعودية

مضطراً لتفادي كش مات

٣٢) ر ـ د ٨ +	م ـ حـ ٧
٣٣) و ـ د ١	ح ـ د ٥
٣٤) ف ـ جـ ٥	ح ـ جـ ٣
٣٥) و ـ د ٦	ر × ب ٣

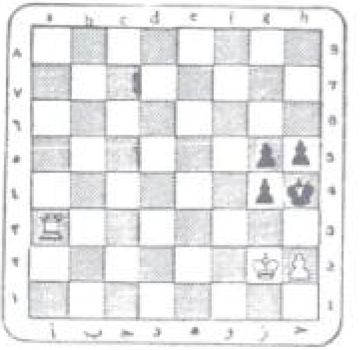
محققاً كسباً مادياً ملحوظاً

٣٦) و ـ ب ٨	ح ـ هـ ٢ +
٣٧) م ـ حـ ٢	و ـ و ٤ +
٣٨) و × و ٤ (مضطراً)	ح × و ٤
٣٩) ر ـ أ ٨	ح ـ د ٣
٤٠) ف ـ و ٨	جـ ٥
٤١) ر × أ ٦	جـ ٤
٤٢) ر ـ أ ٧	جـ ٣

غير عابيء بالتهديد الأجوف

٤٣) ر × ز ٧ +	م ـ حـ ٨
٤٤) ر ـ جـ ٧	ب ٤
٤٥) ف × حـ ٦	ح ـ هـ ١
٤٦) ر ـ هـ ٧	ر ـ ب ١
٤٧) ر ـ جـ ٧	جـ ٢
٤٨) ف ـ د ٢	ب ٣

ولا بُد الأبيض بداً من الاعتراف بالهزيمة



مسألة العدد ٣٤٧ عدد أكتوبر ٨٧

مات ٤

إهداء القاريء محمد المرزوقي
(أبو ظبي)

حل مسألة العدد ٣٤٥
أغسطس ٨٧

١) ف ـ ز ٥ +	حـ × ز ٥
٢) و × ز ٥ +	م × و ٧
٣) ر ـ هـ ٧ +	م ـ ز ٨
٤) و × ز ٧ كش مات	

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

« عتاب من كاتب » في جزء من رسالة :

الاخ الكريم الاستاذ الدكتور محمد الرميحي رئيس تحرير مجلة « العربي » الغراء ،

تحية أخوية طيبة ، وبعد :

لم تسمح لي الظروف من قبل ، أن أكاتبكم وأبدي ملاحظاتي حول المقابلة التي جرت بيني وبين الكاتب الاستاذ أبو النجا ، ولا سيما حول الجزء المتعلق بحياتي ، والتي نشرتها « العربي » بتاريخ : فبراير ١٩٨٧ / عدد ٣٣٩ . . .

ان الاستاذ أبو النجا الذي أحترمه وأحترم كتاباته ، والذي أجاد كل الاجادة في « ربورتاجه » عن الجزائر ، قد فهم عني فهما خاطئا ما أثرته أمامه من ذكريات حول دراستي وحياتي . .

فلم أقل : « . . . وصادف في هذا الوقت أن كانت هناك مسابقة في فرنسا لتكوين مخرجين اذاعيين للعمل في الاذاعة الجزائرية فدخلت المسابقة ، وحصلت على منحة لدراسة الاخراج الاذاعي . . . (ص : ١٣٠) .

ان قولا مثل هذا يضع الاستعمار الفرنسي في الوضع الذي لا يستحقه ! فأنا لم أحصل على منحة ، ولا كانت مشاركتي في المسابقة من أجل العمل في الاذاعة الجزائرية التي كانت حينئذ في يد الاحتلال الفرنسي . . .

صحيح ، شاركت في المسابقة ، ونجحت ، ودرست الاخراج الاذاعي ، لكني لم أحصل على منحة ، فلم تكن فرنسا تمنح المنح للجزائريين ! . . .

ان أبو النجا لم يفرق بين عهدين ، عن حسن نية ، ثم أنه فيما يتعلق بدراستي لم يشر حتى الى الاشارة الى قسنطينة ثم تونس اللتين درست بهما الى نهاية التعليم العالي !

عبد الحميد بن هدوقة
الجزائر

العربي

ـ يسرنا أن ننشر هذا الجزء من رسالة الكاتب الكبير عبد الحميد بن هدوقة ، والذي يوضح فيه بعض المعلومات عن حياته التي وردت في المقابلة معه في باب « وجها لوجه » بطريقة فيها شيء من اللبس ، واننا نقبل عتاب الكاتب الكبير ونشير الى أنه يحدث أحيانا أن نضطر الى إجراء بعض الاختصارات في اللحظات الاخيرة لملائمة المساحة المحددة للباب ، ولعله في نشر هذا الجزء من الرسالة ما يحقق التوضيح اللازم ، مع شكرنا للكاتب الكبير لمعاودته الكتابة القصصية لقراء العربي .

أطفال الأنابيب

قرأت في عدد مارس سنة ١٩٨٧ عن سؤال لمواطن عربي سوري من « ادلب » ، يسأل عن عمليات أطفال الأنابيب ، وأين تتم ؟ وقد جاء في ردكم عليه أنها متوافرة في البلدان الأوروبية ، وإنه ليسعدني أن أخبركم بأننا نقوم بهذه العملية في مستشفى الخالدي بعمان ، بالأردن ، وبإشراف الدكتور زيد الكيلاني مع فريق مساعد من الأطباء .

ويتم حاليا التوسع في ذلك بإنجاز المركز الأردني للعقم ، وبإشراف الدكتور زيد نفسه .

كما أن هناك عدداً من الحالات الناجحة التي سيعلن عنها فور حصول الولادة ، بعد أشهر قليلة ، حيث سيتم تصويرها تلفازيا .

وقد ترجم الدكتور زيد كتابا حول الحمل ، حيث يتطرق إلى كل التفاصيل المتصلة بهذه العملية ، وهو من تأليف الدكتور (غوردن بورن) .

طبيب بمستشفى الخالدي

في السموات والأرض

● طلعت علينا مجلة العربي - كما عودتنا دائما - بموضوعين علميين شيقين ، نشرا في عددها رقم ٣٣٩ لشهر فبراير ١٩٨٧ ، أحدهما في علم الفلك بعنوان « رحلة إلى حافة الكون » والآخر في علم الجيولوجيا والمعادن بعنوان « الكوارتز كنز في باطن الأرض » .

وقد قرأت هذين المقالين ، وأول شيء لفت نظري ، وأثار انتباهي هو الصور (الفوتوغرافية) التي أخذت ، وظهرت على صفحات المجلة ، بشكل جعلني أشعر وكأنني أركب سفينة فضاء ، فأرى تلك المجرات ، وعناقيدها ، ودواليها ، والكازارات ، رأي العين ، ونفس الشيء يقال عن حلى الكوارتز والبلورات الصخرية والأوبال وغير ذلك ، مما هو في باطن الأرض ، هذا إلى جانب جودة الحقائق العلمية المطرزة بالأرقام الكبيرة وربطها بالتراث الفكري والحضاري القديم والحديث ، في أسلوب سلس ، يشجع على الاطلاع والمعرفة ، مع ربط ذلك بالمستقبل ، وما سيكون فيه - إن شاء الله - من اكتشافات علمية جديدة .

وبناء على ماتقدم فانني أتوجه بتحيتي وإعجابي وتقديري وشكري لكاتبي هذين الموضوعين الرائعين ، الأستاذ سمير صلاح الدين شعبان ، والأستاذ رءوف وصفي ، على ما أمتعانا به من معلومات ثرية ، نابعة من بحار علمية صافية ، ومن أسلوب سهل الاستيعاب ، وأناشد مجلة « العربي » الاكثار من هذه الموضوعات العلمية ، وموافاتنا بها ، خاصة في مجالي الفلك والجيولوجيا ، والاهتمام بكل ما هو جديد في عالم الاكتشافات .

أشرف فوزي دياب

ج . م . ع - دمياط مصر

البيان في أسباب نزول القرآن

ورد في العدد ٣٣٧ ، ديسمبر سنة ١٩٨٦ ، من مجلة « العربي » ، في باب « البيان في أسباب نزول القرآن » ، للاستاذ حسين أحمد أمين ، بأن الله سبحانه وتعالى قد نقض العهد في النساء ، ثم تلا « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات » .

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء..

وأود بهذا الخصوص أن أعلق بما يلي :

كيف يتصور من الله تعالى العالم بما سيكون أن ينقض عهدا ، أو من رسوله ﷺ الذي أصر على قبول بنود صلح الحديبية حين راجعه عمر رضى الله عنه قائلا : « أنا عبد الله ، ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني » السيرة لابن هشام ٢ / ٣١٧ .

فالأولى أن يقال كما قال ابن القيم ، رحمه الله تعالى :

« لم يقع الشرط إلا على الرجال خاصة ، وأراد المشركون أن يعمموه في الرجال والنساء ، فأبى الله ذلك . » زاد المعاد / ٢ / ١٢٧ .

وفي الصحيح أن الآية : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات » ، وقد نزلت يوم الحديبية ، على رسول الله ، ﷺ ، حين صالحهم . ذكره ابن كثير في تفسير ٤ / ٥٣١ .

فأخذا برواية البخاري وهي أصح الروايات . فإن عقد الصلح لم يشمل إلا الرجال ، ولم يتناول النساء ، فلما جاءت النساء مهاجرات إلى رسول الله ، وهو بأسفل الحديبية ، أنزل الله الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا . . . إلخ » .

إذن فلا نقض من الله تعالى لعهد ، ولا فسخ من رسول الله ﷺ ، والله ولي التوفيق .

عبد الرحمن اسحق
دمشق

القتلة البيض

قرأت في العدد الممتاز رقم ٣٣٨ ، يناير سنة ١٩٨٧ ، المقال الذي كتبه الدكتور محمد نبهان سويلم بعنوان « القتلة البيض » ، وقد أعجبت كثيرا بهذا المقال ، لما يتضمنه من مادة علمية طبية ، فضلا عن بحث الآثار الاجتماعية لادمان هذا النوع من المخدرات ، لكن استوقفتني ناحية ، تتعلق بأصول هذه المواد ، فعندما عادت بي الذاكرة إلى أيام الدراسة تذكرت أن الأستاذ البلغاري « الدكتور دروميف » قد أشار في بحث له يدور حول الموضوع نفسه أن كلمة « OPIUM » اللاتينية ، وهي الأصل الذي تفرعت عنه كلمة « القتلة البيض » من مورفين وكودين . . . . إلخ » مأخوذة من الكلمة العربية « أفيون » ، ولا شك أن ورود عبارة مثل هذه في كتاب جامعي ، يدرس في جامعة (صوفيا) هو أكبر إعتراف بأن العرب قديما قد خبروا هذا العقار المهم قبل غيرهم ، وعن طريقهم انتقل إلى أوروبا . وقد أسهب الدكتور سويلم في استعمالات شعوب كثيرة لهذا العقار ، بل وأثنى على بعضها لجهود بعض أفرادها في تطوير العلوم ، ولم يورد كلمة واحدة عن العرب . فهل يجوز لنا نحن العرب ألا نسلط الضوء على دورنا في تطوير العلوم ، في مقال ينشر في مجلة تحمل اسم « العربي » ، بينما يظهره الآخرون ، في كتاب جامعي ، وليس لهم في ذلك مصلحة ، سوى إثبات وقائع تاريخية ، كأمانة علمية ؟ ! بقي لي أن أشير ـ أيضا ـ إلى أنه ورد في المقال أن « المورفين » سمي بذلك نسبة إلى إله الأحلام « ارفيوس » ، بينما ورد في الكتاب الجامعي المذكور أنه « مورفيوس » ، وفي اعتقادي أن هذا الاسم الأخير هو الصواب ، ولو لم يكن كذلك لكان أجدى به أن يطلق كلمة « أورفين » .

د / مدحت عطية
سوريا / بانياس

نشكر للقارىء الكريم متابعته ، وإذ ننشر تعقيبه نود أن نشير إلى أنه قد أرفق بهذا التعقيب صورة من بحث الدكتور « دروميف » باللغة البلغارية الذي أشار إليه في كلمته .

حاضر اللغة العربية في تركيا

● نفذت جامعة اليرموك بالمملكة الأردنية ـ شكر الله لها ـ اتفاقية بين الحكومة الأردنية والحكومة التركية ، تمثلت في إرسال سبعة من أعضاء هيئة التدريس ، ممن يحملون درجة الدكتوراة ، لتدريس العربية لمدة سنة ونصف في أربع جامعات تركية ، هي جامعة الشرق الأوسط ، وجامعة أنقرة ، وجامعة تبه ، وجميعها في أنقرة ، وجامعة بوغازجي في استانبول ، وهي خطوة من خطوات عديدة ، يمكن العمل معها على تحقيق حضورٍ أكثر للغة العربية في تركيا ، بشكل بارز ومتميز ، ونتيجة لجهود عديدة ـ إن كانت غير كافية ـ قامت بها بعض المؤسسات في بعض البلدان العربية أصبحت العربية كغيرها من اللغات الأجنبية الأخرى ذات القيمة الخاصة في تلك البلاد ، ومن مظاهر ذلك مثلا اتخاذ قرار تبناه مجلس التعليم العالي ، ينص على جعل العربية كغيرها من اللغات الأجنبية (الانجليزية والالمانية ، والفرنسية ، والاسبانية ، واليابانية ،) يمكن لمن يتقنها ـ إضافة إلى اللغة الأصيلة ـ أن يمنح رتبة علمية راقية ، ومنها إصدار جريدة ، تعنى بشؤون تركيا باللغة العربية ، وتوزع على الجهات ذات العلاقة ، أما في المجال التعليمي فهناك خمسمائة مدرسة موزعة على أنحاء تركيا ، تدرس اللغة العربية ، معظمها ذات طابع ديني ، وأهمها ما يسمى بمدارس « الأئمة والخطباء » ، أما في الجامعات التركية ـ وعددها ثلاث وعشرون جامعة ـ فإن معظمها تطرح مساقات للغة العربية بمستويات ثلاثة ، يدرسها الطالب مادة حرة ، بيد أن كليات الالهيات (الشريعة عندنا) تدرس قواعد العربية وآدابها من نحو وصرف ، وأدب قديم وحديث ، وبلاغة ، في جميع السنوات ، بل إن السنة الأولى تعد سنة مهمة للطالب ، اذ يدرس العربية بصورة مكثفة ، ولا بد له من النجاح في مواد العربية كشرط لينتقل إلى السنة الثانية ، ومن هذه الكليات كلية إلهيات جامعة أنقرة ، وكلية إلهيات جامعة مرمرة في استانبول ، وكلية إلهيات جامعة سلجوق في قونية ، عاصمة السلاجقة قديما .

كما توجد أقسام للعربية في بعض الجامعات تمنح شهادات عالية ، مثل جامعة أنقرة ، وهي أعرق جامعة في تركيا ، وجامعة استانبول ، وجامعة مرمرة ، وتمنح هذه الجامعات شهادة الدكتوراة في اللغة العربية . وقد كتب بعض خريجيها أبحاثا أصيلة عن « حماسة » أبي تمام ، وعن « الجرجاني لغويا »، وعن كتاب «قانون الأدب» للزمخشري ، غير أن اللغة التركية تنافس العربية في التدريس في تلك الأقسام ، لكن قسم اللغة العربية الذي يستحق تشجيعا كبيرا هو القسم الناشيء التابع لجامعة غازي في أنقرة ، وهو قسم افتتح حديثا ، ولغة التدريس فيه هي العربية ، وقد كان لي شرف التدريس فيه محاضرا ، غير متفرغ ، وقد لمست بطلابه ذكاء حادا ، ورغبة وكيدة في تعلم العربية ، وتنم أسئلتهم عن عمق كبير ، مثل ما الفرق بين السخاء والجود ؟ وما الفرق بين الفهم والادراك ؟

أما على المستوى الشعبي فهناك رغبة وكيدة أيضا في تعلم العربية ، وهناك احترام وتقدير لها ، ويعود ذلك لأمرين ، أولها دفين أصيل ، يتمثل في أن العربية هي لغة القرآن الكريم ، وأن معرفتها ضرورية لمعرفة أمور الدين ، ولهذا نالت العربية نوعا من التقديس ، لم تنل مثله في بعض البلدان العربية ، فقد ذكر لي أحدهم أن الناس في إحدى المدن التركية

حوار القراء..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

كانوا يلتقطون أي ورقة كتب عليها بالعربية ، ويقبلونها ، ويضعونها في مكان بعيد عن أرجل الناس ، وكان ذلك قبل بضع سنين فقط . وثانيهما اقتصادي ، يتمثل في التسلح بالعربية ، لتسهيل أمور التجارة والسياحة ، ومن هنا فالسائر في شوارع استانبول يدهش لكثرة مايسمعه من الباعة وهم ينادون بالعربية ، ويرى كثيرا من المحال وقد كتب على لوحاتها جملا بالعربية .

إن جميع ماسبق يدعو جميع المؤسسات العلمية والثقافية ، وحتى الأفراد إلى الاسهام بشكل جدي من أجل عهد ذهبي للعربية في تلك البلاد ، ومن أوجه المساهمة إهداء الكتب والدوريات والأجهزة والخطط والمناهج إلى الجامعات ، ومنها تقديم المنح للطلاب الأتراك لتعلم العربية في جميع المستويات ، واستضافة أساتذة أقسام اللغة العربية وطلابها مدة من الزمن ، ليحتكوا بأهل العربية الفصحاء فقط ، والشعب التركي من أطيب الشعوب ، فالخاصة والعامة يكرمون الضيف ، ويساعدون الغريب ، ويلتزمون بالوفاء بدرجة كبيرة .

الدكتور نحيمر صالح
جامعة اليرموك ـ الأردن

العربي

ـ إننا اذ ننشر هذه الرسالة الهامة بما تحمله من معلومات ، ذات دلالة عن واقع اللغة العربية في تركيا ، فإننا نأمل أن تلقى الدعوة التي تحملها هذه الرسالة كل ما تستحقه من اهتمام في الأقطار العربية ، والمؤسسات العلمية والثقافية ، ذات العلاقة فيها ، والأفراد الذين يملكون القدرة والفاعلية لدعم هذه الاتجاهات الجديدة نحو اللغة العربية في تركيا ، ونشكر للقارىء الكريم تفضله بإلقاء الضوء على هذا الواقع الجديد .

المسامية هل هي ملازمة للصخور النارية ؟

● منذ تعلمت القراءة وأنا أتابع مجلة العربي ، بل إني أجدها مرجعا في كثير من البحوث والدراسات ، ومن خلال حرصي على صحة المعلومات التي ترد بها ودقتها فاني أود التنويه الى خطأ وقع فيه الاستاذ رءوف وصفي في مقاله (الكوارتز كنز في باطن الأرض) في العدد ٣٣٩ فبراير ١٩٨٧ ، ففي صفحة ١٢٢ ، وخلال تعريف الكاتب بالصخور النارية ذكر الآتي : « وتتميز الصخور النارية بشدة صلابتها ، وبأنها عديمة المسام » ، وأريد القول أن صفة المسامية أو انعدامها ليست مميزة للصخور النارية ، فهناك من هذه الصخور ما هو مسامي ، بل وعالي المسامية ، لدرجة تجعلها تشابه الاسفنج في الشكل ، وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك صخر يسمى Pumice ،وهناك أيضا نوع من البازلت يسمى Vesiculao Basalt ، وهما من الصخور النارية المسامية الشائعة في الطبيعة ، ولهذه المسام أهمية كبيرة في الصخور النارية ، فهي قد تحتوي على رواسب وتراكمات معدنية اقتصادية ، وهذه المسام ناتجة عن خروج الغازات الموجودة أصلا في هذه الصخور المنصهرة ، أو نتيجة للعمليات الكيميائية أثناء تبريدها ، وتصلبهاوتحولها إلى صخور صلبة .

هذا للتوضيح ، والله الموفق

نجيب الهادي الذيب

العجيلات ـ ليبيا

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

أكتوبر ١٩٨٧ م

التاريخ النقدي للتخلّف

تأليف
الدكتور رمزي زكي

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١٨

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

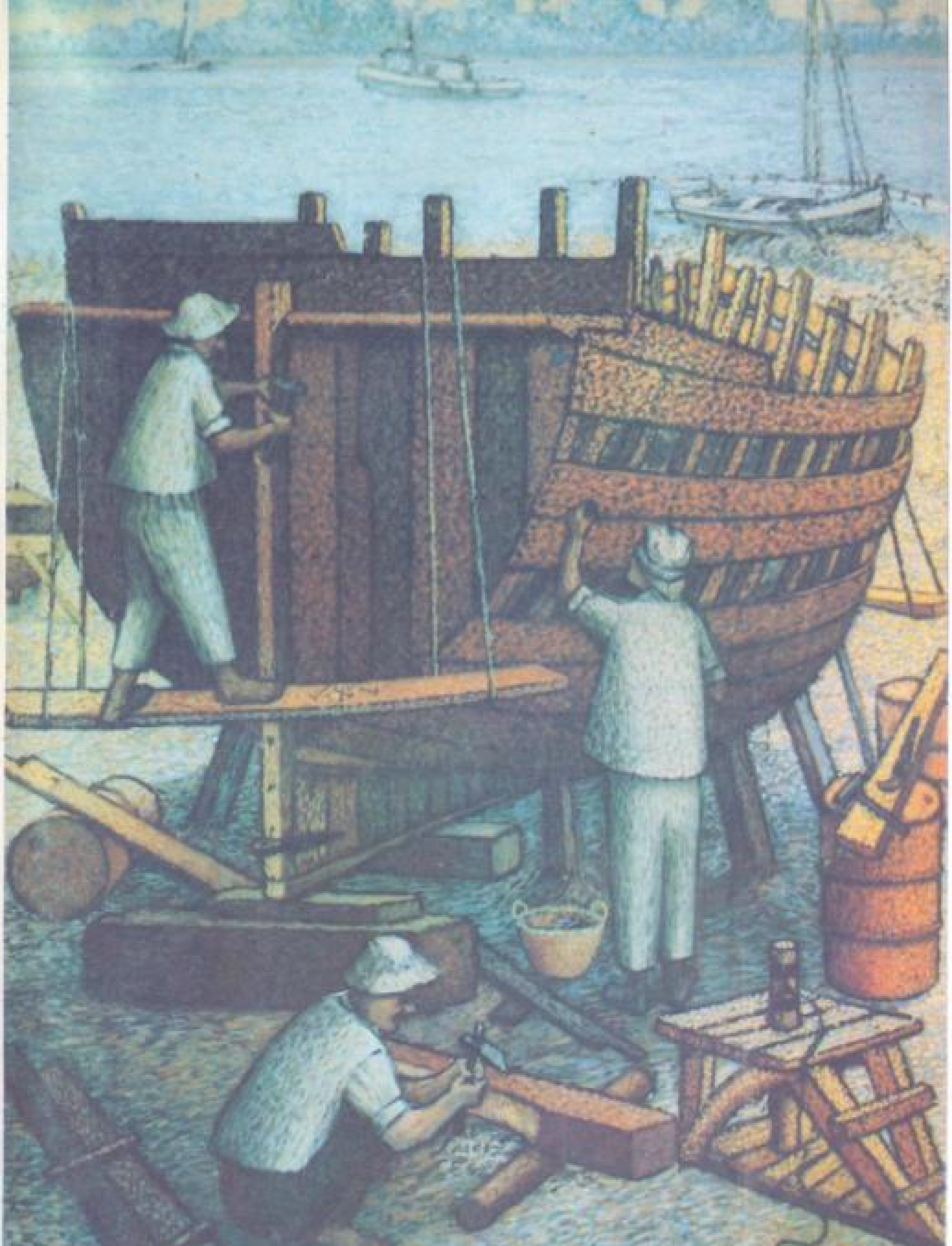
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢١٧ أول أكتوبر ١٩٨٧

من المسرح الأفريقي - ٥

مجانين واختصاصيون

تأليف : وول سوينكا
ترجمة : د. علي حجاج
مراجعة : د. طارق عبدالله
مقدمة : د. جوريس سيلينيكس

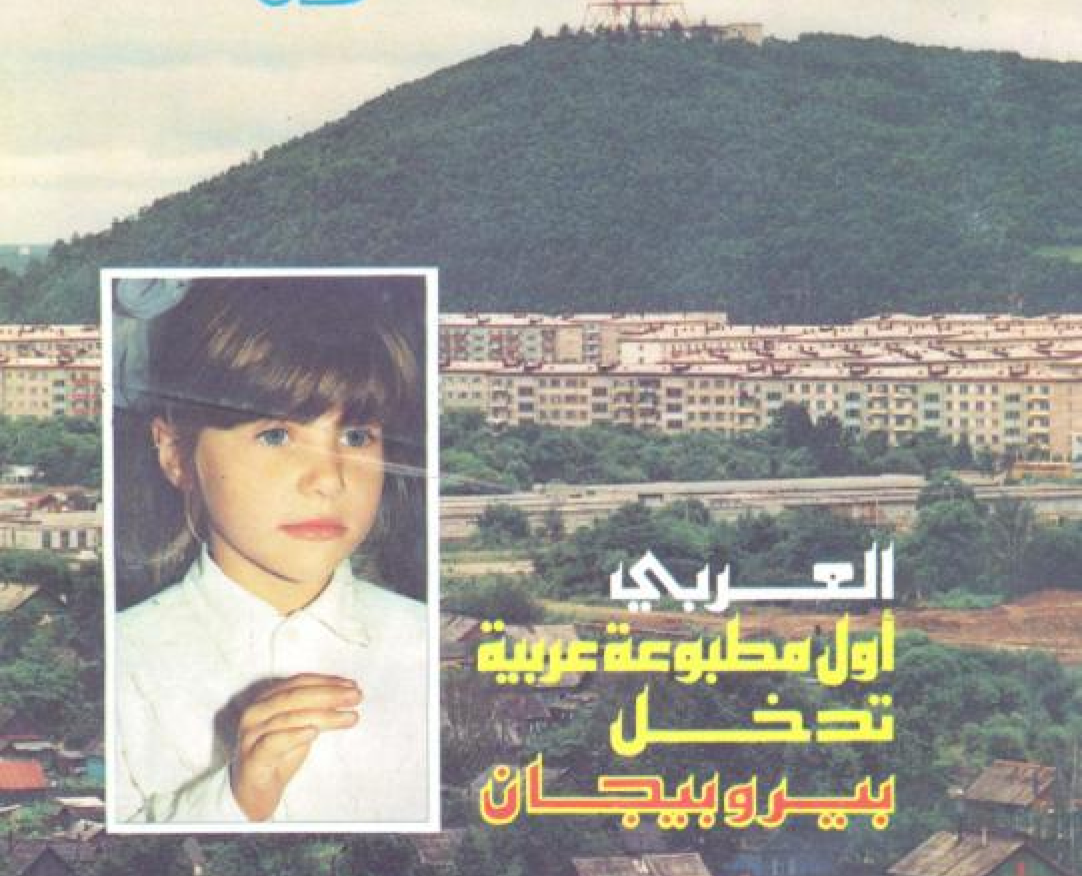


صناعة السفن

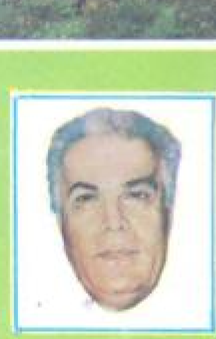
للفنان الكويتي عبدالله القصار

ربيع الأول ١٤٠٨هـ - نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٨٧م

العربي

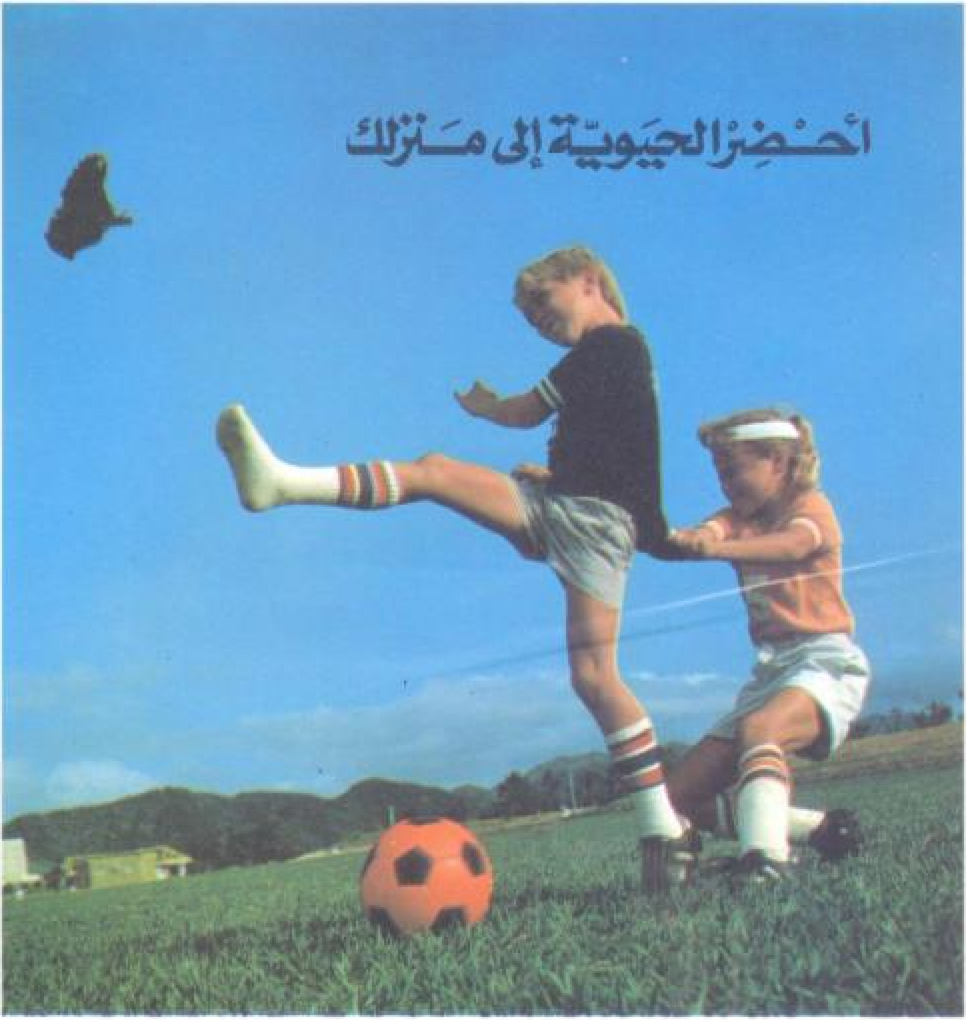


العربي
أول مطبوعة عربية
تدخل
بيروبيجان



■ "المولوية" يرقصون "السيما" على أنغام جلال الدين الرومي

■ وجهاً لوجه مع منح الصلح



تتميز سانيو VM-D1P بغالق سرعة عالية ١/١٥٠٠ الثانية
ذو غلق الكتروني لمطيئك حركة بطيئة وإعادة
بث صورة صورة بوضوح، لتمكنك من التقاط
أسرع الحركات، كاللحظات غير المتوقعة والأسرع
من أن تراها العين المجردة. إنها مدمجة وخفيفة (١,٢ كغ)
مع تعديل رقمي آلي، سهلة الاستعمال تسمح لجميع أفراد
العائلة بأخذ أروع التسجيلات. سانيو VM-D1P. احضرها
وضع الحيوية في منزلك.



8 VM-D1P



بسرعة ١/٥٠ الثانية تبدو الحركات
السريعة غير واضحة بواسطة
التسجيل التقليدي



بسرعة ١/١٥٠٠ الثانية يلتقط بغالق
سرعة عالي سانيو VM-D1P لا الكتروني
تفاصيل الحركة بدقة ووضوح

سانيو

SANYO

العدد ٣٤٨ السنة الثلاثون نوفمبر ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريا عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير

د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 348 Nov. 1987 . P.O.BOX 748
Postal Code No. 13008
Kuwait . A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص . ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس : MITR 44041KT
تليفون فكسيملى ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص . ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د . ك - باقي دول العالم ٦ د . ك

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلسا	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلسا	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهما
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسا	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أوجنيه استرليني
مصر ٢٠ قرشا	لبنان ١٥ ليرة	فرنسا ١٥ فرنكا
السودان ٢٠ قرشا	سوريا ١٠ ليرات	امريكا دولاران

محتويات العدد

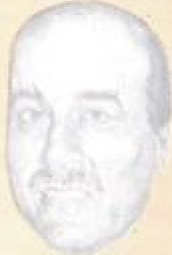

جالينوس أشهر أطباء التاريخ ص ٥٤


الأسنان المصابة ص ٦٤


جنون العنكبوت ! ص ٩٠



منح الصلح



جهاد فاضل

استطلاعات ومقابلات

صورة الغلاف



« بيروبيجان » ... المقاطعة ذات الحكم الذاتي في الاتحاد السوفيتي هي أول دولة لليهود في العصر الحديث ....

(طالع الاستطلاع ص ٦٨)



« المولوية » يرقصون « السيما » ص ١٣٢



« جويا » العابث الثائر ص ١٥٢

أبواب ثابتة :

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

رسالة هامة تلقتها العربي في بريد هذا الشهر من باحث عربي تقطر ألماً وحسرة ، هو أحد أساتذة التقنية العرب توصل الى فتح تطبيقي جديد في مجال « المحركات الاساسية » وهو ابتكار كان يمكن ان يستفيد منه الاستاذ الكريم شخصيا ولكنه فضل تأجيل نشر ابتكاره حتى يظل سرا الى أن يطبق ويجرب وينفذ ويسجل باسم (العرب) بدلا من أن يسبقنا آخرون في تطبيقه . وهنا بدأت أزمة هذا الاستاذ العربي ، فقد دار بالخطوط العريضة لاختراعه على الشركات التي من المفترض فيها أنها مهتمة ، وكاتب بعض المؤسسات العربية العلمية ، فكان أفضل جواب حصل عليه هو الصمت ! لقد شرح لنا هذا المخترع العربي بأختصار ما توصل اليه . وهو مصرّ على أن يطبقه ويختبره على أرضه العربية . ونحن بدورنا نحتفظ باسم هذا المخترع وعنوانه ، لعل بعض المؤسسات العلمية العربية تهتم بالموضوع ، حتى لا يصل به المطاف في النهاية الى أن يقدم اختراعه الى المؤسسات الأجنبية المختصة ! مع أننا نحن العرب ما زلنا نندب حظنا في كل ساعة على تأخرنا في مجال البحث العلمي .

عزيزي القارىء . .

وعن البحث العلمي تقدم لك العربي في هذا العدد موضوعا يلقي الاضواء على التقدم العلمي ومدى تأثيره على تلوث البيئة ، فبقدر ما يتقدم العلم ويتطور بقدر ما يكون ذلك في بعض وجوهه على حساب البيئة ومكوناتها .

وفي ميدان العلم أيضا تنقل لك موضوعا يربط بين الحاسوب الالكتروني ومستقبل الاقتصاد العالمي ، من خلال مفهوم جديد لمواجهة تهديد لقمة العيش والقوت اليومي على ضوء القفزات الخيالية في الاسعار والتزايد المستمر في البطالة . كما نقدم لك أيضا . . تفصيلات دقيقة عن العنكبوت ، بنظرة جديدة للعلماء تبرز آراء علمية متطورة تختلف عما يتصوره العامة من أن وجود هذه الحشرة بكثرة في مكان دليل على انعدام الحياة فيه . .

وفي الاستطلاعات فقد حققت « العربي » في هذا العدد الذي بين يديك سبقا تنفرد به على كل المطبوعات العربية ، فقد كانت العربي هي المطبوعة العربية الاولى التي تدخل الى مقاطعة « بيروبيجان اليهودية » في الشرق الاقصى السوفيتي .

وتدخل العربي أيضاً الى قلب الاناضول حيث تقدم لك استطلاعا عن « المولوية » والطريقة الصوفية التي ابتدعها جلال الدين الرومي « ورقصة السيما » التي اشتهرت بها .

وفي العدد موضوعات أخرى . . جديدة ومفيدة نأمل أن تمثل زادا ثقافيا للمختص ولقارئنا العادي ايضا .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

بعد أربعين عامًا من الاستقلال

هل تبقى الهند محافظة على كيانها؟

هل هي مفارقة أن تكون الهند قد كسبت استقلالها بحركة سلمية قادها غاندي ، لأنها لم تكن تستطيع أن توقف العنف لو تفجر ؟

فبعد ما يقارب الأربعين سنة من الاستقلال ، وأربعة أعوام على اغتيال رئيسة الوزراء الهندية السابقة أنديرا غاندي ، ما زالت نار الخلاف والاقتتال الطائفي هي العلامة المميزة للأخبار القادمة من الهند هذه الأيام . وأحسب أنها ستكون كذلك فترة أخرى .

الهند قريبة منا نحن العرب ، وما يحدث هناك يؤثر علينا أيضا ، ولكن ليس ذلك فقط هو الدافع الى اهتمامنا اليوم بالهند .

فموضوع الهند يطرح لدينا ـ نحن العرب ـ وكذلك لدى إخواننا في العالم الثالث أسئلة عميقة ، لها علاقة ببناء الدولة الحديثة .

فمشكلات الهند التي تعرضها للانفجار من الداخل ، وتعرض وحدتها للخطر ، تقرع جرس إنذار لابد من الانتباه له .

فهاهي الهند رمز المسالمة التي قادها غاندي ذات يوم كي يقول للحلفاء إنه يجب أن لا يردوا على هتلر إلا بدعوات السلام ! هذا الرمز الذي ألف بين فئات مختلفة ومتناقضة من البشر يكاد يسقط اليوم تحت ضربات العنف ، والعنف المضاد .

ويثور سؤال لابد من النظر فيه ، وهو : هل ما يحدث في الهند في السنوات القلائل الأخيرة يطرح فشلا متوقعا لفكرة الدولة العلمانية تحت طائل المطالبة بالدولة الدينية أو المذهبية ، أو فشل بناء الدولة القانونية الحديثة تحت سيادة المذهب أو الطائفة ؟

إن قضية الهند تطرح كل ذلك وأكثر منه ، تطرح قضية الأقليات في العالم الثالث وحقوقها ، وكيف تطبق في أنظمة تحاول أن تأخذ بالنظام الديمقراطي الغربي ، وتطرح أيضا احتمالات مسار التطور الاجتماعي والسياسي في كثير من دول العالم الثالث التي تتشابه ظروفها السكانية مع ظروف الهند . لقد وقعت دولة كالهند وهي في طريقها الى التطور بين شقي رحى : أحدهما الوعاظ المتعصبون ، والآخر السياسيون المجردون من المبادىء !

لم يكن اغتيال انديرا غاندي منذ أربع سنوات هو الاغتيال السياسي الأول ، لا في الهند ولا في العالم الثالث ، إنما الأسباب التي أدت الى الاغتيال هي التي يهمني عرضها ، وهي تتلخص في قضية مطروحة على امتداد الساحة الدولية وهي : إذا شجع الحاكم التطرف ـ بأي شكل من أشكاله ـ فإن سلاح التطرف هذا ـ الديني أو السياسي أو العرقي ـ سوف يرتد إليه شخصيا ، وعلى وطنه ككل . وذلك ما حدث في الهند .

أنديرا غاندي ارتكبت الخطأ المميت فانقلب السحر على الساحر!

هناك مجموعة كبيرة من الأسباب التي تجعل الهند ـ الدولة ـ تواجه ما تواجهه اليوم من اضطراب شديد ، وتجعل الكثيرين يتحسرون على دعوات الآباء المؤسسين ، غاندي ونهرو وزعماء الاستقلال الذين حلموا بدولة موحدة بعد خروج البريطانيين .

هذه الأسباب ثابتة في تكوين الدولة الهندية الحديثة ، فالهند بلاد تقطنها عناصر متباينة ومتغايرة حتى أن الباحث عن تعريف عام لتركيبها السكاني يجد نفسه أمام مشكلة تصعب على الحل فهناك الهندوس والمسلمون والسيخ والمسيحيون والبوذيون وديانات أخرى عديدة ، وهناك الانقسام الطبقي التقليدي والتاريخي ، خاصة بين طوائف الهندوس ، وهناك فوق ذلك مشكلات الفقر والجوع والفيضانات والجفاف .

إلا أن ترتيب هذه المشاكل ـ بعد أربعين عاما من الاستقلال ـ يأتي في

قمته التطرف الديني لدى السيخ من جهة ، ولدى الهندوس من جهة أخرى ، تلك النار التي تصطلي بها الهند اليوم والتي يبدو للكثيرين أن ليس لها حلول قريبة ، بل هي على العكس من ذلك تهدد بالاطاحة بالمثل الهندي الذي كان كثيرون في العالم الثالث ينظرون إليه باعجاب .

السيخ :

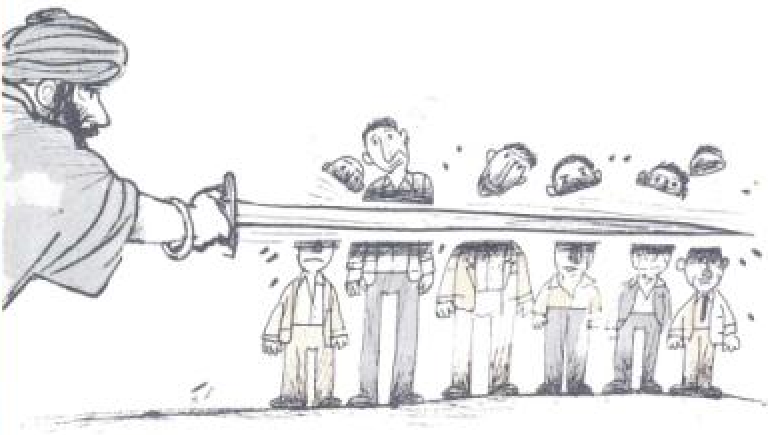
□ الديانة السيخية واحدة من أحدث الديانات في العالم . فقد ظهرت الى الوجود في القرن الخامس عشر الميلادي ، على يد « ناناك » الذى سعى الى استحداث ديانة جديدة زعم أنها تصل بين الاسلام والهندوسية ، وتعمل على تلافي الفجوة بينهما ، ولم يكن ذاك التفكير ممكنا إلا في الهند حيث أقبل الناس على الاسلام طوعا مع إمكانية أن يحتفظوا بدياناتهم الأخرى إن أرادوا ، إلا أن المصالح الدنيوية لعبت دورها وأججت الصراع بين الهندوس والمسلمين مما جعل شيئا من التصور السيخي ممكنا في ذلك الوقت . ويمكن تلخيص مذهب السيخ في أنه يهدف الى تطهير عقائد الهندوس ، ومن ثم اتسمت تعاليم صاحب المذهب الأول (ناناك) بالسلمية ، فقد أنكر قيود الطبقات السائدة في الهند والمعتقدات الخرافية ، ودعا الى المساواة بين الناس جميعا ، وقال إن الصلاة والحج بالجسم دون القلب لاتسمو بروح الانسان لأن روح العبادة في الجوهر لافي الصورة ، ولاخلاص يدركه المرء الا اذا أحب الله حبا خالصا وعمل في الدنيا عملا صالحا . والسيخية تتمسك بالتوحيد وتنكر الأصنام وربها هو رب الخلق جميعا ، (والجورو) معلم العقيدة أو المرشد أو الإمام مبجل لأن رأفة الله بالانسان لاتتجلى الا بتوسل (الجورو) ووساطته .

والمهم في الامر أن السيخية ظلت شريعة سلام وتسامح حتى تحولت بفعل صراع الأخرين معها ـ خاصة الهندوس ـ الى شريعة تقوم على الحرب .

وقد خلف المرشد الاول للسيخ (ناناك) تسعة من المرشدين تباعا ، وبوصول المرشد العاشر (جوبند سنج) بعد مائتي سنة من الدعوة ، كان السيخ قد أصبحوا طائفة ، واكتسبوا سمعة الشدة في القتال والحرب نتيجة دخولهم في صراعات عديدة مع الطوائف الأخرى ، التي كانت تنظر الى الديانة السيخية نظرة عدم الاعتراف .



وحتى يحتفظ السيخ بهويتهم المميزة ويفرقوا بينهم وبين الأخرين ، فرض على كل منهم ان يلبس سوارا من الفولاذ حول معصمه وأن لايحلق شعره مدى الحياة ، وأن يلبس عمامة . من هنا جاء منظرهم المميز . . رجال ذو لحى



طويلة ومعممون يخفون شعورهم الطويلة ويربطونها على شكل عقد تحت عمائمهم .

والسيخ اليوم ليسوا طائفة واحدة ، فهم فرق كثيرة ، شأنهم شأن المذاهب الأخرى ، ويعتقد بأنهم اليوم خمس طوائف ، أما أعظم مقاماتهم وأكثرها تقديسا فهو المعبد الذهبي في أمرتسار .

أرض الأنهار الخمسة :

□ وقد توصلت قوة السيخ كطائفة الى ذروتها بعد قرن واحد من موت المرشد (جوبند سنج) ، وكانت الامبراطورية المغولية المسلمة في طور الانحدار مع ظهور القوة البريطانية في الهند وتوسعها ، وصعد المهراجا (رانجيت سنج) الى مكان الصدارة في هذه الفترة ، وحكم في مملكة شملت اغلب مناطق الهند الشمالية ، وتاخمت مملكته حدود افغانستان غربا والتبت شرقا (شمال الهند يضم كشمير وباكستان الحالية) ، ولكن بعد وفاته بعشر سنين سقطت تلك المملكة بنفس السرعة التي ازدهرت بها ، لقد تدخل البريطانيون وهزموا السيخ بعد معارك عنيفة وأسقطوا مملكتهم .

الا أن بسالة السيخ وشجاعتهم في الحرب لم تخف على عيون الحكم البريطاني في الهند فعمد على اجتذابهم وضمهم إلى الجيش الذي يأتمر بأمر البريطانيين . لقد أدخل البريطانيون السيخ في الادارة البريطانية في الهند وأعطوهم امتيازات تفوق نسبة عددهم الى نسبة عدد السكان وقد اثمرت هذه السياسة ، فعندما حدث العصيان الكبير ضد البريطانيين في الهند في منتصف

لماذا تحولت شريعة السيخ من السلام إلى الحرب؟

القرن الماضي (١٨٥٦م) بقي السيخ على ولائهم ، فزاد البريطانيون من المكافأة بإعطائهم مساحات واسعة من الأرض أقاموا فيها حكما ذاتيا نجحوا في ادارته ، وكانت معظم تلك الاراضي في منطقة البنجاب (أرض الأنهار الخمسة) الارض المروية الصالحة للزراعة . وفي الحربين العالميتين الاولى والثانية استخدم البريطانيون السيخ محاربين في جبهات عديدة فزاد عدد الجنود السيخ في الجيش الهندي البريطاني الى درجة انه قدر ان هناك حوالى ٣٠٪ من الهنود السيخ في الجيش الهندي البريطاني عشية استقلال الهند سنة ١٩٤٧ ، مع ان نسبة تعدادهم لاتزيد عن ١,٥٪ من مجموع الشعب الهندي .

شهر العسل الذي التقى فيه السيخ مع البريطانيين ، بدأت مظاهر انقضائه تظهر بعد الحرب العالمية الاولى عندما اخذ السيخ يساهمون بشكل متزايد في الحركة الوطنية الهندية لنيل الاستقلال بقيادة المهاتما غاندى . وفي عام ١٩١٩ في (أمرتسار) وداخل قلعة تدعى (جاليان والا باغ) أمر البريجادير البريطاني (ريجنالدداير) جنوده بإطلاق النار على حشد أعزل من الجمهور الهندي بحجة تحديهم أوامر كانت قد صدرت تمنع التجمعات التي تزيد عن بضعة اشخاص ، وعندما توقف اطلاق النار كان هناك على ارض القلعة حوالى ٤٠٠ جثة لمن قتلوا برصاص الجنود البريطانيين ، وكان معظمهم من السيخ . (ومما يذكر ان هذا البريجادير قد قتله احد السيخ بعد سنوات في بريطانيا) .

الا ان مذبحة (أمرتسار) اطلقت فيما بعد صرخة التجمع المدوية التي لمت شمل نواة الوطنية الهندية وقادتها بعد ذلك الى الاستقلال .

مذبحة (أمرتسار) تلك ايضا يذكرها السيخ اليوم مقارنة بما حدث لمعبدهم في (امر تسار) الذي اجتاحته القوات الهندية في يونيو ١٩٨٤ وقتل فيه عدد كبير من ابناء الطائفة على رأسهم (جارنيل سنج بهندران والا) الذي يعتبره السيخ في مرتبة القديس .

إيجابيات وسلبيات مابعد الاستقلال :

□ حمل استقلال الهند عام ١٩٤٧ ايجابيات وسلبيات لطائفة السيخ ، هذا الاستقلال الذي لعب فيه السيخ دورا مهما أتاح لهم الاستمرار في الحصول على مميزات في الادارة والجيش . اما سلبياته فقد تمثلت في موضوعين : الاول هو ان بلادهم (البنجاب) قد توزعت بين الدولتين الوليدتين (الهند وباكستان) ، وكان على مئات الالوف منهم ان ينتقلوا من مكان الى آخر ، كما

الانجليز أغرقوا «أرض الأنهار الخمسة» بالدم فبدأ الانفجار

ان النظام الديمقراطي الذي جاء به الاستقلال قلل من امتيازاتهم التقليدية ، فقلتهم النسبية تعني اصواتا أقل .

غذىّ هذان العاملان حركة السيخ فظهرت أصوات متطرفة تقول : « لقد حصل المسلمون على باكستان ، وحصل الهندوس على الهند ، ولم يحصل السيخ على شيء » .

وبدأ السيخ يتحركون في البداية سياسيا للمطالبة بالوطن المنشود وكانت هذه المطالبة بوطن هو (بنجابي سابا) وهو شعار يحمل في معناه المطالبة بإقامة ولاية للناطقين باللغة البنجابية ، وكان ذلك تمشيا مع الاتجاه السياسي السائد في الهند وهو تقسيم البلاد الى ولايات تضم كل واحدة منها اصحاب اللغة المشتركة الواحدة . واذعنت الحكومة المركزية بعد تباطؤ شديد الى هذا الطلب ولكنه لم يأت كما توقع السيخ ، فقد قسمت الحكومة المركزية البنجاب الى ولايتين : (هاريانا) و (البنجاب) ، وفي البنجاب الجديدة كان تعداد السيخ حوالي تسعة ملايين نسمة يشكلون ٥٢٪ من السكان تقريبا ، أما بقية افراد الطائفة وعددهم أربعة ملايين فقد كانوا موزعين في بقية انحاء الهند .

وبدلا من ان يكون لإنشاء ولاية (بنجابي سابا) أثر مهدىء على الطائفة السيخية ، فقد كان - كحل وسط - هو الباب الذي دخلت منه جميع الشرور كما يقال - فقد بدأ حزب (اكالى دال) وهو حزب السيخ السياسي الذي تأسس في العشرين من هذا القرن يشق طريقه بقوة مندفعا الى المقدمة في المنطقة ، وتغلب في الانتخابات التي جرت في الثلث الأخير من السبعينيات على فرع حزب المؤتمر الهندي المحلي الذي تترأس انديرا غاندي زعامته على المستوى القومي - وتولى حزب (اكالى دال) الحكم المحلي بين ٧٧ - ١٩٨٠ . ذلك مما أزعج الحكومة المركزية وأرادت أن تقاوم التيار .



أنديرا غاندي والخطأ المميت :

□ هذا الصراع السياسي لم تتم ادارته - كما يرى معظم المحللين اليوم - بشكل عقلاني من قبل الزعامة الهندية - خاصة انديرا غاندي - فقد كانت ترمي الى شق صفوف السيخ بأي ثمن وشق حزب (اكالى دال) واضعافه .

وهنا وقعت انديرا غانـدي في الخطأ المميت ، الـذي وقع فيـه حكام آخرون بشكل أو بآخر فى العالم الثالث إبان السبعينيات والثمانينيات . لقد شجعت انديرا غاندي أحد الوعاظ السيخ الذي يتمتع بقدرة خارقة وشخصية جذابة خاصة بين أفراد طائفته الذين يقيمون في الارياف من انصاف المتعلمين والجهلة ، هذا الواعظ والزعيم الديني هو (جارنيل سنج بهندران والا) .

وكما يحدث في كثير من الأوقات فقـد انقلب السحر عـلى السـاحـر ، فالتدبير الذي اتخذه حزب المؤتمر بتشجيعه للواعظ الجديد الذي لم يكن في نظرهم سوى ألعوبة سياسية ، أصبح بعد سنوات قلائل كمارد مصباح علاء الدين الذي أطلق من قمقمه ، فلم يستطع لا حزب المؤتمر من جهة ولا حزب (اكالي دال) من جهة اخرى السيطرة على هذا الواعظ الذي حمس العامة من السيخ هذه المرة ، ليس من أجل ولاية في داخل التنظيم الهندي الاتحادى ، ولكن من أجل وطن قومي للسيـخ يطلق عليـه اسم (خالستـان) (ارض الأطهار) . وبدأ هذا الداعية السيخي يمزج في دعواه بين العودة الى الديانة السيخية الخالصة وتحقيق دولة للسيخ ، واستخدم كل قدراته الدينية في ذاك الطريق الى درجة أن خصومه أطلقوا عليه لقب (الراهب المجنون) .

لقد تركت كلماته الحماسية أثرها على جماهير السيخ ، وبـدأ الآلاف المؤلفة منهم يتجمعون كل يوم لسماع خطبه ومواعـظه ، ثم من هناك بـدأ يحضهم على استخدام (العنف) ضد خصومهم وخصوم الدولة المطلوبة ، مجندا في كل ذلك تاريخ السيخ في المقاومة وفي العنف .

وفي الأشهر القليلة التي سبقت اغتياله في المعبد الذهبي في يونيو ١٩٨٤ قام المتطرفون السيخ الذين يأتمرون بأمره ويعتبرونه قديسا بقتل المئات من الناس في البنجاب وما حولها ، وتحولت البنجاب الى ارض تسودها الفوضى والاضطراب .



والملاحظ انه في تلك الفترة من العنف كان الكثير من القتلى من طائفة السيخ الذين كانوا اما معارضين لدعوة هذا المتطرف ، أو مؤيدين للحكومة الهندية ، ثم تحولت اعمال الارهاب الى الهندوس .



وعندما تبينت الحكومة الهندية خطورة المارد الذي أطلقته فتحت باب المفاوضات من جديد مع حزب (اكالي دال) ومع (المعتدلين) من السيخ . وعندما قاربت تلك المفاوضات على الانتهاء بإعطاء السيخ بعض الحقوق تراجعت انديرا غاندي عما سبق ان وافقت عليه لأسباب يقول خصومها ان لها علاقة بكسب أصوات الناخبين من الهندوس .

واتيحت الفرصة (لجارنيل بهندران والا) ليؤكد دعوته في العودة الى العنف باعتبارها السبيل الوحيد لتحقيق مطالب السيخ.ولم يكد يمضي وقت طويل حتى حصل هو واتباعه على أسلحة جديدة واستحكموا في المعبد الذهبي هذه المرة مع مجموعة كبيرة من كبار الضباط الذين عملوا في الجيش الهندي ثم خرجوا لسبب أو لآخر . . . وعلى رأسهم الجنرال (شاهبج سنج) وهو أحد القادة الهنود السيخ الذين ساعدوا في انفصال بنجلادش عن باكستان عام ١٩٧١ ثم جرت محاكمته امام محكمة عسكرية وطرد من الجيش بتهمة الفساد ، مع كل هؤلاء قادة من المعتدلين السيخ وقد أخذوا كرهائن ، وعلى رأسهم زعماء حزب (اكالي دال) .

ووصلت المأساة الى قمتها عندما قررت الحكومة المركزية وانديرا غاندي اجتياح المعبد بالقوة في عملية أطلق عليها اسم (النجم الازرق) واستغرق تنفيذها ثلاثة أيام ، تمكنت بعدها قوات الحكومة من الاستيلاء على المعبد وقتل في العملية اكثر من ألف شخص على رأسهم (جارنيل بهندران والا) الذي أصبح بالنسبة للسيخ ، فضلا عن كونه قديسا ، بطلا وشهيدا .

هذه العملية أججت العداوة بين السيخ والهندوس ، وبعد حوالي أربعة أشهر من اجتياح المعبد الذهبي ، وفي ٣١ اكتوبر ١٩٨٤ اغتيلت انديرا غاندي من قبل أحد حراسها السيخ وهي عائدة من لقائها اليومي مع الفقراء الذين يؤمون بيتها من كل أنحاء الهند لتستمع الى شكواهم .

□ الخوف على الهوية القومية والانتماء الطائفي وراء عمليات السيخ الأخيرة :

باغتيال انديرا غاندي اندفعت أعمال عنف معادية للسيخ قام بها متطرفون هندوس خلفت آلاف الضحايا واعترفت الحكومة الهندية نفسها بأن حوالي ثلاثة آلاف من السيخ لقوا حتفهم نتيجة لأعمال العنف في عموم أنحاء الهند .

وأصبحت دورة العنف والعنف المضاد سمة من سمات الحياة السياسية الهندية حتى يومنا هذا .

الـدولـة والطائفـة :

□ تطرح المشكلة الهندية سؤالا ليس خاصا بالهند وحدها .

ففي الدول الحديثة في العالم الثالث التي لم يكتمل نمو بنائها السياسي مازالت الطائفية المذهبية والعرقية تفعل فعلها ، ولقد كانت الهند احدى الدول الاستثنائية التي يضرب بها المثل حتى وقت متأخر كلما احتد النقاش حول أي هيكل من بناء الدولة هو الأسلم في اطار التكوين الحديث للدولة المعاصرة في العالم الثالث .

الا أن ما حدث ويحدث هناك يعيد طرح التساؤل من جديد .

ويتساءل الكثيرون من علماء السياسة والاجتماع :

لماذا يشعر السيخ بأنهم محرومون من حقوقهم أو أنهم يعاملون معاملة غير عادلة بصرف النظر عن أي اعتبار آخر ؟ فالطائفة السيخية في الهند تعتبر من الطوائف الثرية والناجحة في اعمالها ، فلهم الفضل الاكبر في نجاح « الثورة الخضراء » في الهند ، اذ أن ٦٥٪ من احتياطي الهند من الحبوب تنتجه مزارع يمتلكها السيخ ، كما يحتل كثير من رجالهم مراكز رفيعة في القطاع الصناعي والزراعي والخدمي والحكومي في الهند تزيد كثيرا عن النسبة العددية التي يمثلونها بالنسبة لمجموع السكان ، والأهم من ذلك كله أنهم ـ كما يقول كاتب هندي مرموق ـ « كانوا محط إعجاب الشعب الهندي بسبب مشاريعهم ومؤسساتهم التجارية الناجحة » .

دورة العنف والعنف المضاد أصبحت سمة الحياة في الهند

لو تعمقنا في الأمور لوجدنا ان السيخ ربما يعانون من خوف فقدان الهوية القومية ، وهو شعور لايجدي الثراء ولا النجاح في التغلب عليه . انهم جالية صغيرة (١٣ مليونا) في بلاد يربو عدد سكانها على (٧٠٠) مليون نسمة ويبدو أنهم يخشون اليوم الذي يبتلعهم فيه الهندوس ويهضمونهم .

والمفارقة الكبرى هنا ان زعماء السيخ المتطرفين وجدوا ان الدعوة الدنيوية لدى السيخ تنتشر نتيجة التعليم والثقافة ، وبدأت افواج من السيخ تتخلى عن المظاهر الخارجية التي تظهر انتماءهم الطائفي (عدم قص الشعر واطلاق اللحى ولبس العمامة) لأنهم وجدوا ان مثل هذه المظاهر غير مناسبة ولا مكان لها في عالم اليوم . زعماء السيخ الدينيون خشوا أن يؤدي هذا الخروج

على التقاليد الى استمرار فقدان هؤلاء السيخ لانتمائهم الطائفي ، وربما بعد جيل او جيلين يتحول هؤلاء السيخ المحدثون ربما الى هندوس . . من هذا المنطلق الفكري يمكن تفسير الدعوة المغرقة في التعصب الى التمسك بالمظاهر والرموز . . والتمسك بوطن قومي . . وربما دولة مستقلة .

وليس الأمر خارجا عن المنطق العلمي ، فبعد شهر من اجتياح الجيش الهندي للمعبد الذهبي وقبل ثلاثة اشهر من اغتيال انديرا غاندي ، كتب (راؤول سنج) ـ وهو كاتب سيخي مستنير في مجلة الجمهورية الجديدة الامريكية ـ كتب يقول : « مع ان الاجراءات الصارمة التي اتخذها الجيش قد أفلحت حتى الآن في كبت هذه المشاعر (مشاعر السيخ المتطرفة) لكنها سوف تعود الى الظهور بشكل اكثر قوة ونشاطا . فإراقة الدماء التي جرت في المعبد الذهبي تصلح لتكون رمزا قويا لاستعداد السيخ للاستشهاد في سبيل قضيتهم . . وقد تكون هذه الحادثة أكبر تحد يواجه السيدة انديرا غاندي في الأشهر المقبلة . . » .

وبعد أشهر قليلة قتلت السيدة انديرا غاندي . فهل كان الكاتب متنبئا ؟

والسؤال الكبير : كيف يمكن حل قضية السيخ في الهند أو حل مشكلات الأقليات والتراتب الطبقي ؟ وكذلك كيف يمكن حل مشكلة المسلمين التي بدأت تتصاعد في تلك البلاد في الأونة الأخيرة ؟

والجواب ليس سهلا ، فهو يكمن في حل التناقض بين بناء الدولة الحديثة واعتبار الناس سواسية كمواطنين يحكم القانون بينهم وبين الولاءات الجانبية العرقية أو الطائفية أوالمذهبية .

إلا أن مايمكن الإشارة إليه كبداية ، أن يبتعد أهل السياسة عن تشجيع أشكال التعصب وتأجيجها ، فحتى لو كان ذلك يحقق لهم أهدافا سياسية آنية فسرعان ما ينقلب هذا التعصب وبالا على الوطن والمواطن ، ويفقد العقل قدرته على التحكم في الأمور . □

محمد الرميحي



من الانحطاط إلى النهضة

بقلم : الدكتور أحمد عُلَبي

متى بدأ عصر النهضة ، ومتى انتهى عصر الانحطاط ؟ هل هناك حدود فاصلة دقيقة ؟ ومتى بدأت محاولات الاتصال بالحضارة الحديثة ، وأين ؟ يحاول هذا المقال أن يجيب عن هذه الأسئلة ، وأسئلة أخرى مماثلة .

ندعو الأدب العربي الحديث أدب النهضة ، أو عصر الانبعاث ، لأنه واكب نهضة تجلّت في مناحٍ مختلفة من الحياة العربية ، سياسية واجتماعية وثقافية ، وقد تفتّحت هذه النهضة إثر انحطاط مديد ، مُغرق في الزمن ، إذ أن عصر الانحطاط يؤرّخ له الدارسون بأنه يبتدىء بسقوط بغداد ، على يد هولاكو الذي استباحها ، واستباح العلم في كتبها التي كانت تمنع دجلة من تدفقه . وكان ذلك سنة ١٢٥٨م وانتهى هذا العصر سنة ١٧٩٨م ، وهو تاريخ الحملة الفرنسية على مصر . والتاريخان ليسا في الواقع إلا على نحو تقريبي ، لأن الانحطاط لا يداهم الأمة دفعة واحدة ، كالصاعقة ، كما أن الانبعاث لا يسري في أوصالها بين ليلة وضحاها .

نظرة في مصطلح « الانحطاط » :

إن مصطلح « الانحطاط » نفسه يحتاج إلى تأمّل وتدبّر . فكيف يكون في حالة انحطاط فكري عصر تميّز بالتأليف الموسوعي ؟ والموسوعية علامة لافتة على الاختبار ، وعلى الغوص ، ولمّ شمل المعرفة ، وهذا أمر لا يتأتى والدنيا ظلام يخيم على الصدور والعقول . إن « الانسيكلوبيديين » العرب ـ إنْ جازت التسمية ـ هم أبناء هذه المرحلة ، وعنوان تألقها . أليس ابن منظور (ت ١٣١١) هو واضع أهم دائرة معارف لغوية عرفتها العربية ، ونعني بها « لسان العرب » ؟ ، أليس القَلْقشندي (ت ١٤١٨) الذي تولّى ديوان الإنشاء في زمن المماليك ، هو مؤلف « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ، تلك الموسوعة النفيسة في الكتابة وتاريخها وما تعاقب عليها من تطورات ؟ وابن خَلْدون (ت ١٤٠٦) ، هذا المنظّر السياسي اللامع ، صاحب العقل اللمّاح ، هل « المقدّمة » التي تركها لنا تدل على انحطاط وانهيار ، أم على يقظة عقلية وإبداع وتفلسف ؟

لا تُعوزنا الأسماء الدالّة ، فهناك ابن خِلّكان (ت ١٢٨٢) ، واضع « وَفَيات الأعيان » في التراجم ، وقد احتوى على ثمانمائة وخمس وستين ترجمة ، توخى

فيها الدقة والعلم . وهناك ابن فضل الله العُمري (ت ١٣٤٨) . في مؤلفه الجغرافي الضخم « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » . يجول بنا في رحاب دار الإسلام بدواً وحضراً . وهناك أخيراً ـ على سبيل المثال ـ جلال الدين السُّيوطي (ت ١٥٠٥) . وقد بلغ من نبوغه ودرْبته على التأليف أنه شرع في التصنيف وهو في السابعة عشرة . فأورثنا بحراً من المؤلفات انتهى تعدادها إلى المئات . فكيف يجوز . بعد هذا كله . أن ننعت . في تواريخنا الأدبية . هذا العصر قاطبة . بالانحطاط من غير تمييز ؟

ثم إن عصراً واحداً . مهما كان نصيبه . لا يمتد خمسة قرون ونصف قرن تقريباً (١٢٥٨ ـ ١٧٩٨) . وتبقى حاله كما هي على امتداد المرحلة كلها . ثم هذا العصر العباسي الزاهر (٧٥٠ ـ ١٢٥٨) قد قسمه مؤرخو الأدب إلى أعصر أربعة . امتد كل واحد من الثلاثة الأُوَل نحو قرن من الزمن . في حين أن العصر العباسي الرابع امتد نحو قرنين . فلماذا ضغطوا عصر الانحطاط على هذا الشكل المغلق المطلق ؟ ومن الناحية السياسية إذا كان مال الخلافة السقوط في بغداد . فإن أختاً لها زاهية . مشبعة بالنَّفَس الحضاري . قامت على ضفاف النيل . وتوالى على هذا المسرح الجديد الفاطميون والأيوبيون والمماليك . بيد أن الأقطار العربية عموماً قد خضعت لسيطرة العثمانيين . إثر سقوط القُسْطنطينية سنة ١٤٥٣ . وهي سيطرة غريبة عن روح الأمة . وقد امتد إخضاع العثمانيين لهذه البلاد قروناً عدة . مما ترك أثره العميق على حركة التطور الاجتماعي . وتخطت عدوى الجهالة الدولة العليّة إلى مستعمراتها . وها هو « ڤولني » يزور مصر . في أواخر القرن الثامن عشر . فتأخذه الدهشة من تخلّف الحرف اليدوية فيها . فيقول : « الجهل عام في هذه البلاد . كحال سائر تركيا . وهو يطال الطبقات كلها . ويتجلى في العوامل الأدبية والطبيعية كافة . وفي الفنون الجميلة » .

أسبقيّة لبنان في النهضة

وهذا الوضع الاجتماعي البائس . المتقدم الذكر . كان يرزح تحته لبنان وسوريا أيضاً . إلا أنه أُتيح لهما أن يتقدما على مصر قرابة قرنين من الزمن . وذلك في خطوات تمهيدية . أفضت بهما إلى تلمّس أنوار العالم الجديد . المتمثل بأوروبا الناهضة . إن التاريخ الحديث يتمحور حول الغرب . سواء في صراع سياسي معه أو في احتكاك ثقافي . إيجابياً كان هذا الاحتكاك أم سلبياً . مع العلم أن مصطلح الغرب لم يعد مقصوراً في أيامنا على أوروبا وحدها . إنما يشمل أميركا . وربما اليابان أيضاً مع أنها مشرقيّة جغرافياً . وإذا كان اتصال الشرق بالغرب قد اتّسم بالطابع العسكري . إبان الحروب الصليبية . عندما كانت الإقطاعية تهيمن على أوروبا . فإنّ الاتصال الثاني قد تم وأوروبا قد خلعت عن كاهلها القرون الوسطى . وارتدت حلة النهضة التي يدعونها « الرِّنسانس » . وكانت قد شرعت بارتدائها منذ القرن الخامس عشر . لكن الشرق كان في عزلة سياسية . يتمرّغ في حمأة الجهل والتخلف . في حين أن أوروبا كانت صاعدة نحو النظام « البورجوازي » . تسعى إلى امتلاك سر العصر . وهو الصناعة . وكان اتصال لبنان بأوروبا عَبْر إيطاليا أولاً . إذ ان الأمير المعني فخر الدين الثاني (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥) نزل « توسكانا » مضطراً . بعد اضطراب أمره مع الدولة العثمانية . ثم استعان بعدها بأمراء « توسكانا » وبالإفرنج . ونشّط سُبُل التجارة معهم . وشيّد لهم الدُّور الرحبة . وكان للمرسلين خير مشجّع لارتياد لبنان . وقد استقدم من إيطاليا مزارعين . ليكونوا عوناً للبنانيين على تعلّم أساليبهم في الزراعة . فإذا بالكرسي « البابوي » يُعنى بهذه البلاد أيما عناية . فينخرط اليسوعيون بإنشاء المدارس . ثم يتم في روما نفسها تأسيس المدرسة المارونية في سنة ١٥٨٤ . وهي التي

خرّجت الكثيرين من الأعلام الأوائل المُمهِّدين للنهضة عندنا .

الأعلام الممهّدون للنهضة

من هؤلاء الأعلام الذين كانوا ثمرة الاتصال اللبناني السوري بالغرب ـ وكان اللبنانيون منهم ـ في الأغلب ـ خرّيجي المدرسة المارونية في روما ، أو تلقوا العلم هناك ـ نأتي على ذكر بضعة أسماء ، توضيحاً لهذا التواصل العلمي المتبادل ، فهناك الكاهن جبرائيل الصهيوني الإهدني (ت ١٦٤٨) الذي ترجم إلى اللاتينية « نُزْهة المشتاق في ذكر الأمصار والآفاق » للشريف الإدريسي ، وكان من مدرّسي اللغات الشرقية في كليّة باريس . وهناك البطريرك مكاريوس بن الزّعيم (ت ١٦٧٢) الحلبي الأرثوذكسي ، وقد تميّز بالكتاب الذي تركه حول رحلته الفريدة في عهدها ، وقد كانت رحلته إلى الأستانة فبلغاريا وروسيا ، وكتابه الكبير هذا وثيقة ، لأنه حافل بالأوصاف الدقيقة المطوّلة لتلك البلاد التي حلّ فيها ، ولهذا تُرجم كتابه إلى الإنكليزية والروسية ونُشر بها ، بينما ظلّت نسخته العربية ـ وهي الأصل ـ طيّ النسيان ، ولم تُطبع . وهناك إبراهيم الحاقلاني (ت ١٦٦٤) ، وهو من ناحية جُبَيْل ، درس في روما ، وعمل كاتباً في خدمة الأمير فخر الدين المعني ، وعمل في التعليم في باريس ، حيث أطلق عليه الكردينال ريشيليو لقب « ترْجُمان البَلاط » إذ ترجم له بعض الكتب العربية .

ولا ننسى المطران جرمانوس فرحات (ت ١٧٣٢) ، ربيب حلب الذي قصد إسبانيا وحصل منها على مخطوطات تتصل بآثار العرب ، وهو الذي أنشأ في حلب المكتبة المارونية النفيسة بمخطوطاتها . وقد ألف كتباً كثيرة ، كما عرب مؤلفات كثيرة وصححها ، وقد زادت على المائة ، ومن أبرزها معجمه في اللغة « أحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب » . ونذكر أخيراً يوسف السِّمْعاني (ت ١٧٦٨) ، من حصْرون على مقربة من أرز لبنان الذي أتقن لغات كثيرة ، وتعلّم في روما وعاش فيها ، وهو واضع فهْرست الكتب الشرقية المخطوطة في مكتبة الفاتيكان التي غدا حافظاً أول لها ، كما وضع كتاب « المكتبة الشرقية » حول المخطوطات العربية والسُّريانية الكثيرة التي جمعها خلال جولته الواسعة في رحاب الشرق . وقد كتب معظم مصنفاته باللغة اللاتينية .

وهكذا نلاحظ أن رجال الدين المسيحي في لبنان وسوريا ، أو الذين ترعرعوا في كنفهم ، كانوا روّاد هذا الاتصال العلمي بالغرب ، وقد مشوْا على خطاه ، فإذا بهم يقتبسون عنه أسلوب تنظيم المدارس « الإكليريكية » والمدنيّة ، كما يأخذون عنه وسائل التقدم العلمي ، كالطباعة وغيرها ، مما سنُلم به لاحقاً ، على أنه ينبغي لنا ألا نبالغ كثيراً في صدد أسبقية لبنان وسوريا على مصر في ميدان الاتصال بالغرب ، وما ترتب على هذا الاحتكاك من تقدم في الذهنية ، أو نضج في النظرة « العقلانية » ، بدليل أن « فولني » الذي قام بزيارة إلى هنا وهناك ، قال في وصفهما : « ان الجهل سائد في سوريا ومصر وسائر تركيا . . . انقضى عصر الخلفاء ، وليس من العرب أو التُّرك الآن علماء في الرياضيات أو الفلك أو الموسيقا أو الطب . . . وفي دير مار يوحنا (بالشوير) طائفة من الرهبان ، لهم اتصال برومية ، ولا يقلّون جهلاً عن سواهم . واذا قيل لهم إن الأرض تدور عدّوا القول كفراً ، لأنه يخالف الكتاب المقدس » . ثم إن الاحتكاك بالغرب ، لكي يكون مخصباً فاعلاً ، فهو يحتاج إلى مشروع يتجسّد فيه ويندمج ، وهذا ما لم يتوافر في لبنان حينذاك ، في حين أن محمد علي ـ عندما جاء إلى السلطة ـ قد بنى في ضوء التفاعل مع الغرب دولة حديثة على النيل .

الحملة الفرنسية على مصر

اعتبر كثيرون أن دويّ مدافع بونابرت ، خلال

الحملة الفرنسية على مصر ، قد أيقظ الشرق من سباته العميق . ولم تكن هذه غاية القائد الشهير ، وإنما كانت بُغيته قطع طريق الهند على الإنكليز . كما كانت تداعب خيال بونابرت صورة متلألئة عن الشرق . هي على الأرجح صورة مستمدة من ألف ليلة وليلة . ذلك الأثر الجميل الذي أشاع إعجاباً ممزوجاً بالدهشة في فرنسا . وذلك لدُن ترجمته بشكل مقتبس في مطلع القرن الثامن عشر على يد أنطوان غالان . ولم يجد الجيش الفرنسي الغازي مقاومة شرسة ، لأن المماليك ـ حكام مصر الفعليين ـ كانوا في خُلف وتمزّق وتمزّق ، يناوىء بعضهم بعضاً . ويتآمر فريق على آخر . وكانت لهم مشيخة البلد . فما أن ينصّبوا شيخاً للبلد منهم حتى يُسقطوه أو يفتكوا به ويُطلعوا آخر مكانه . ولم تكن توحدهم عصبية جامعة . فالحاكم عليهم هو منْ يستبيح دماء الآخرين . إذ النظام الوراثي في اعتلاء السلطة لم يكن شائعاً بينهم ، إلا في النّدرة . وكانوا خليطاً من التُّرك والشّركس والكُرْج ، ويتحكمون عنْوة بمقدرات مصر وخيراتها .

ولم تعش الحملة الفرنسية طويلاً في أرض الكنانة . فاستمرت ثلاث سنوات فقط . واضطرت إلى الجلاء عن وادي النيل . وكانت مقاومة الشعب المصري لها قوية . بخلاف وقفة حكامه اللاهين ، المختلسين للشعب الذين يثقلون كاهله بالضرائب .

ومن إيجابيات الحملة أنها أيقظت في الجماهير الشعور القومي . وبصّرتهم بحقوقهم المهضومة . غير أن الحملة لم تهز المجتمع المصري قومياً فقط . وإنما كان لها أن تهزه عقلياً . فقد جاء بونابرت مصر وغزاها عسكرياً ، وثقافياً ، تطلعاً منه إلى استمالة العقول لوضع الأسس لمشروعه الشرقي . وقد اصطحب معه بعثة علمية جليلة ، ضمّت مائة وستة وأربعين من رجال العلم ، ومن المتخصصين بفنون الصناعة والهندسة والآثار وغير ذلك من العلوم المتقدمة . فمسح هؤلاء مصر على نحو علمي فريد شامل ، وتمخّض عملهم الرائع عن كتاب ضخم ، يقع في تسعة مجلدات ، وقد تمّ طبعه بعدها في فرنسا بعنوان « وصف مصر » (١٨٠٩ ـ ١٨٢٥) ، فأصبح نافذة عريضة أطلّت منها أوروبا على مصر الحديثة لتتعرف على أحوالها .

الدهشة أمام الغرب

وعلى الرغم من أن المرحلة الزمنية للحملة الفرنسية كانت [illegible] في مصر ، فلقد طرحت أمام أعين المصريين . بمحافلها الاجتماعية التي كانت تضم الرجال والنساء . الصورة الأوروبية للحياة ، في حين أن المرأة المصرية كانت مُبعدة وراء الجدران ، وهي محجّبة ، لا تبصر زحمة المجتمع إلا من خلال فُتح الأبواب وخصاص النوافذ . وكان من جملة ما أقامه الفرنسيون في القاهرة مسرحاً للتمثيل ، كما أنشأوا مدرستين لتعليم أبنائهم ، وذلك على النمط الأوروبي الذي يختلف كثيراً عما كان عندنا من كتاتيب . وهكذا نلاحظ أن الحملة قد أقامت مجتمعاً صغيراً لها ، تردّد عليه بعض المصريين من النخبة الدينية والمثقفة ، لا سيّما إذا عرفنا أن بونابرت اختار من علماء الأزهر أعضاء الديوان الخصوصي الذي أنشأه . ثم إن الحملة اصطحبت معها مطبعة ، ذات حروف عربية ، وهي الأولى التي عرفتها مصر . وقد تم بواسطة هذه المطبعة إصدار المنشورات والأوامر . كذلك أصدر الفرنسيون صحيفة رسمية عسكرية ، سموها « التنبيه » ، وقد أشرف عليها اسماعيل الخشّاب ، وحوت أيضاً الأحكام الصادرة عن ديوان القضاء . وهي ـ على نحو ما ـ أول جريدة عربية خاصة . وقد نشروا ، بفضل هذه المطبعة ، كتاب هجاء بالعربية والتركية والفارسية . وكان هذا العمل الطباعي كله جديداً على المصريين . كما اهتمت الحملة بإصدار صحيفتين بالفرنسية ، هما : « لوكوريه دجيبت » (بريد مصر) ، و « لا ديكاد اجبسيان » (العُشارة المصرية) . ولا بدّ أن هاتين

الصحيفتين قد نبّهتا المصريين إلى فن الصحافة غير المألوف لديهم . كانت الصحيفة الأولى لسان حال الحملة ، في حين أن الصحيفة الثانية عبّرت عن المجمع العلمي الذي كان أيضاً من منجزات الحملة ، وهذا المجمع قد أراده الفرنسيون على غرار مجمعهم العلمي في باريس ، وكان يطمح إلى تطوير الأبحاث المتعلقة بمصر ، وإلى دمج الثقافتين الغربية والشرقية ، لذا كان شعاره « التقدم والاتحاد » . وقد رمّموا بعض بيوت الأمراء لتنشيط الثقافة ، وجعلوا من أحدها مكتبة عامة ذات دوام ، وكانت عامرة بالكتب الثمينة المجلوبة من أوروبا أو المأخوذة من المساجد وبيوت المماليك . وكانوا يرغبون أهل البلد في ارتيادها ، ويرحّبون بهم إذا ما وفدوا عليها ، ويطلعونهم على ما شاءوا من الكتب ، خصوصاً المصوّرة منها .

كانت الحملة عالمة بأحوال المصريين المتخلفة ، لذا كانت حريصة على إدهاشهم ، مستفيدة من جهلهم بحقائق العلوم . وقد جعلت لكل علم داراً ، واهتمت بالكيمياء ، فخصّتها بمعمل كبير للتقطير والأعمال المختبرية . وكان الفرنسيون يقومون بالتجارب الكيماوية أمام الأهالي ، فيبثون في نفوسهم العَجَب . إنه السحر العلمي أمام التخلف « القَرَوسطي » . ولسنا في مجال تَعْداد كل ما نهضت به الحملة من أعمال ، على أننا نذكر ، في ختام هذه الإلمامة ، أنها أقامت المصانع للورق والأقمشة وغيرها من الحاجيات ، كما ابتنت في حارة « الناصرية » مرصداً فلكياً ودُوراً للنقش والرسم . وهذه الآثار الحضارية جميعاً كانت مظاهر جديدة قُبالة أعين غشاها التأخر ، وعنكب فوقها الجهل . وقد أحس المصريون ـ من النخبة المتعلمة ـ بالبون الشاسع بين ما هم عليه من استكانة وضعف ، وما تبدّى فيه الفرنسيون من مظاهر التقدم والاستنارة ، لذا كان لهم في الحملة آيات لقوم يتفكّرون . وكانت مصر الدَّهشة ، المستيقظة قومياً ، الباحثة عن تاريخها ، بحاجة الى حاكم ينقلها من وَهْدة الانحطاط العثماني إلى مشارف العصر والتحديث الغربي . فكان لها في محمد علي ، وقد تسلّم السلطة سنة ١٨٠٥ بتأييد من المصريين ، هذا الحاكم المستنير الطموح الذكي الأريب . إن محمد علي هو المؤسس الحقيقي لمصر الحديثة . □

عمادة الأدب


توفيق الحكيم

● سئل الأستاذ توفيق الحكيم عن رأيه في لقب عمادة الأدب ، وماذا تعني هذه الكلمة بالنسبة للأديب ؟ فأجاب قائلا : قولوا لي أولا : هل يوجد عميد للأدب في أمريكا أو في روسيا ، أو في انجلترا أو في فرنسا ؟ وهل يعرفون في تلك البلاد مثل هذه الألقاب في محيط الأدب ؟ لماذا نحن إذن في الشرق العربي نفكر دائما في العمادة والزعامة والرياسة . حتى في هذه البيئة الحرة التي هي بيئة الأدب والفكر ؟

إني أدرك أن هناك اتجاهات ومدارس ومذاهب لها من يمثلها ، لكن تنصيب شخص واحد لزعامة الأدب بأكمله شيء غير مقبول اليوم في الآداب العظيمة المتحضرة ، وقد آن الأوان أن نتخلص ـ في بلادنا ـ من هذه المخلفات العتيقة . وتذكروا أن هذا أيضا هو رأي طه حسين الذي سبق أن أبدى اعتراضه على هذه الألقاب في أكثر من مناسبة .

ندوة لانظير لها في الوطن العربي !

بقلم : فتحي رضوان

لعبت القاهرة دوراً مشهوداً في عالم الثقافة والفكر . . . . وما أكثر ما شهدت من ندوات شارك فيها عدد من أقطاب الأدب والثقافة الذين عرفهم الوطن العربي في مختلف أقطاره ، ولو جمعت أحاديثهم في هذه الندوات لملأت عشرات المجلدات .

كانت في القاهرة إبان العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين ، وما بعد ذلك بقليل ، ندوات تتناثر في مقاهي القاهرة ذات الصيت البعيد ، وكان لكل ندوة قطب ، يتحلق حوله المريدون والمعجبون ، يستطيبون حديثه ، ويسعدون بعلمه ، ويتنافسون في إذاعة نكاته ومداعباته ، مبينين للناس ما فيها من المجاز ، والبديهة الحاضرة ، والقدرة الفائقة ، في السخرية بالأشياء والأشخاص .

وقد برزت هذه الندوات ثلاثة : منها واحدة اتخذت بار الأنجلو مكانا الى جوار « البنك الأهلي » مصرف الحكومة الأول ، وكانت الثانية في بار « اللواء » في الناحية المقابلة لجريدة الأهرام ، والثالثة في قهوة متاتيا التي كان يجلس فيها ، السيد جمال الدين الأفغاني ، وقد قيل يوما عنه انه كان في هذه المقهى ، يتناول عطوسه بيمينه ، ويوزع بذور الثورة بيساره .

ولكن كانت الى جانب هذه الندوات ذات الشهرة البعيدة ، ندوة لا يسمع بها أحد ولا يتحدث عنها كاتب ولا أديب ، على الرغم من أنها كانت تحوي العديد من الأدباء والخطباء ، وأهل الثقافة وأصحاب الذوق الرفيع في الدعابة المستحبة والفكاهة اللاذعة .

رواد الندوات

أما الندوة الأولى ، وهي ندوة الأنجلو ، فكان لها قطب ، فلما لحق بالرفيق الأعلى حل محله أديب في مثل براعته في السخرية وتصوير الأشخاص ، كان القطب الأول حافظ ابراهيم شاعر النيل ، ويجالسه كل من الشيخ عبدالعزيز البشري ، كاتب الصور القلمية التي اشتهرت بلقب « المرآة » ، وخليل مطران شاعر القطرين ، وفكري أباظة باشا رئيس تحرير المصور ، وكان يختلف عليها أحيانا كاتب كان معروفا في دوائر الأدباء وكتاب الصحف ، واسمه أحمد فؤاد ، ولأنه كان يصدر جريدة اسمها الصاعقة

لصق هذا الاسم به فأصبح لقبا له وأصبح ينادى بأحمد فؤاد الصاعقة . وكان أحمد فؤاد الصاعقة قد اتهم في قضية صحفية خطيرة ، شاركه فيها نقيب الاشراف محمد توفيق البكري ومصطفى لطفي المنفلوطي .

أما الندوة الثانية التي كانت تعقد في بار (اللواء) ، فقد كان مقرها مقهى إسمه بار (اللواء) استعار اسمه من اسم جريدة مصطفى كامل باشا مؤسس ورئيس الحزب الوطني ، أقدم الأحزاب المصرية ، وأغناها بالأعوان والمناصرين ، ولأن بار اللواء ، كان في الجانب من الشارع الذي تقوم فيه بناية جريدة الأهرام ، فقد كان أكثر رواد هذه الندوة محررو الأهرام وعلى رأسهم رئيسها ، وكان هذا الرئيس أول الأمر الكاتب داود بك بركات ، فلما لحق بالرفيق الأعلى حل محله أنطون باشا الجميل ، الذي كان رئيسا للجنة المالية بوزارة المالية في مصر ثم عاد الى الصحافة ، وأقول عاد لأنه أصدر مجلة اسمها (الزهور) كانت من أولى المجلات الأدبية العربية ثم أغلقت أبوابها . وكان يجالس أنطون الجميل ، الشيخ التفتازاني شيخ مشايخ الصوفية ، وكان محسوبا من الأدباء لأنه لا يترك ندواتهم ، ولا يكف عن التردد على غرف رؤساء التحرير في صحفهم ، فكان يزور خليل ثابت في (المقطم) ومحمد حسين هيكل في (السياسة) وداود بركات ثم أنطون الجميل في الأهرام ، فلما أصدر محمد توفيق دياب جريدة الجهاد الوفدية ، وانحازت فترة لحزب الوفد ، كان مكتب رئيس تحريرها من الأماكن التي يرتادها علية القوم ، ومستقطو الأخبار ، والراغبون في الشهرة ، والحريصون على غشيان دوائر أصحاب النفوذ والسلطة .

أما الندوة الثالثة فقد كان قطبها ، قطبا بالفعل ، فقد انعقد لواؤها لزعيم تونسي هو الاستاذ عبدالعزيز الثعالبي ، وقد جاهد عبدالعزيز الثعالبي الفرنسيين في تونس ، واعتقلوه مرارا وحكموا عليه بمدد طويلة من الحبس ، ولم يكن في تونس من يناظره في اجتماع الشعب على مبايعته ، ولا في قدرته في تنظيم الصفوف ، ووضع الخطط لمقاتلة الاستعمار . وكان عالما وفقيها ، بيد أنه كان ضخم الجثة بطيء الحركة ، وان كانت حيويته قد عوضت عليه هذا البطء في الحركة . جلس الثعالبي في قهوة متاتيا كما جلس فيها الأفغاني من قبل ، ولكن لا أظنه كان يحرض على الثورة كما فعل الأفغاني ، وان كانت صلاته بالمجاهدين في تونس لم تنقطع ، واستقباله لهم في قهوة متاتيا بالقاهرة لم يفتر . ولكن الأمور تغيرت في تونس ، وظهرت طلائع من الشبان استفادوا من خلو الميدان من الثعالبي ، فتأثروا بالزعامة ، فلما عاد الثعالبي الى وطنه استقبلته الحركة الوطنية الجديدة استقبال الفاتحين ، ولكنها سدت عليه أبواب العمل السياسي ، فناضل لفك القيود التي فرضها عليه الجيل الجديد فلم ينجح فأخلد للسكون حتى توفاه الله .

هذه هي الندوات الثلاث التي كانت مراكز للفكر والثقافة ، صحيح أن الكثير مما كان يقال فيها أقرب الى إزجاء الفراغ ، والتباري في الدعابة القارصة ، إلا أنه كان فيها جد غير قليل ، وأدب يروى شعره ونثره ، ووقائع لتاريخ على البديهة وبغير تحضير ، الا أنه كان ممتعا ومنشطا للقريحة ، وراويا تاريخ الأيام التي سلفت بكل حلوها ومرها .

ندوة المترو

ولكن كانت هناك الندوة التي أريد أن أحدثك عنها ، والتي لم يسبقني أحد بذكر شيء عنها ، لم تكن في مقهى ، وانما كانت في قطار سريع عظيم السرعة ، عرف في القاهرة (بالمترو) وهو نوع من الترام السريع يشق الطريق بين واحة مصر الجديدة (وهي واحة بحق) تقع في شمال شرق القاهرة عمرها الجنرال ، امبان البلجيكي ، الذي أقام مترو

بروكسل عاصمة بلاده وعرف بالمشروعات الضخمة ، ولم يكن (المترو) الا وسيلة ، ليعمر مصر الجديدة التي نسقها على أسلوب جديد ، فخرجت تحفة في تخطيط المدن ، وكان الأجانب يحرصون على زيارتها فتعجبهم في كل شيء فيثنون عليها أجمل الثناء . كان هذا القطار السريع الذي يقطع المسافة بين واحة مصر الجديدة والقاهرة في عشر دقائق . وكان فيه من جمال مصر الجديدة وأناقتها شيء غير قليل ، فكان قطارا يمتع فيه السفر وتحلو فيه الرحلة . وكان أدباء مصر وأدباء العرب الذين يقيمون في مصر التماسا للراحة أو انتجاعاً للصحة ، يؤثرون السكن في مصر الجديدة ، ومن هنا كان القطار ملتقى أئمة الفكر وحملة القلم ، والفنانين . يحيي بعضهم بعضا أول الأمر ، بإيماءة سريعة ، ثم لا تلبث الصلات أن تتوشج ، فيخاطب بعضهم بعضا ، ويتحولون شيئا فشيئا الى أصدقاء ، فاذا اجتمع عدد منهم راحوا يقلبون الحديث على وجوهه ، وبعض ما يقولونه يتطاير حتى يصل الى اسماع الركاب ، فينعمون بالحديث الطيب من أساطينه ، وتنتشي نفوسهم ، وينزلون من القطار بعد أن تزودوا بزاد لم يطمعوا فيه ولم يسعوا اليه .

كان من يركبون المترو زعماء فكر مثل عباس العقاد ، وأستاذ جامعة صاحب مكانة عريضة مثل الدكتور أحمد أمين ، وشاعر وناثر لا يزال يشاغب الكبار ، ويحمل عليهم حملات تكلفه في الحياة الكثير ، فيتحمل بالصبر ولا يهون ، ونعني به الدكتور زكي مبارك صاحب النثر الفني . وكان هناك شعراء من الطبقة الثانية يتقدمهم عبدالرحمن صدقي ، وابراهيم ناجي ، وكاتب مسرحي من السابقين في ريادة الكتابة للمسرح ، نعني به ابراهيم رمزي صاحب المسرحية الذائعة الصيت (دخول الحمام مش زي خروجه) ومسرحيات تاريخية منها شجرة الدر ، وكتب مرموقة في السيرة النبوية مثل كتاب (باب القمر) . وكان من الفنانين ضمن هؤلاء الأفذاذ رياض السنباطي الملحن الذائع الصيت ، وخطاط كانت خطوطه طرازا من الرسم العربي التجريدي هو نجيب هواويني ، وكان يقيم في شارع بمصر الجديدة اسمه شارع (العجم) فأهدى اليه عباس العقاد أحد دواوينه فقال الى (شاعر العرب في شارع العجم) . وكان من الممثلين أحمد علام الذي كان القاؤه الشعر والنثر لونا من الطرب ، كما كان بينهم عباس فارس الذي كان يردد الأوراد في جلسته غائباً عن الناس ، وكان من الكتاب من لم يظفر بالشهرة التي يستحقها ومن هؤلاء حسن جلال وكيل مجلس الدولة الذي تخصص في رسم صور قلمية لرواد المحاكم ، فأتقن التصوير ، ثم ألف كتابا عن الثورة الفرنسية فكان تاريخاً كتب بقلم الأديب . وكان من ركاب المترو وأعضاء الندوة لفترة محمد صبري الشهير بالسربوني الذي ترك مكتبة ضخمة في تاريخ مصر الحديث بالفرنسية والذي اعتنى قبل وفاته بشوقيات شوقي المجهولة فكانت عملا عظيما ، وأثرا باقيا ، كما أخرج دراسات في شعر الجاهلية وأصحاب المعلقات ، فكانت عملا تنقطع دونه رقاب المقلدين .

كانت هذه الندوة تعج بأصحاب هذه الأسماء ، والركاب لا يدرون أن معهم في القطار أعلام الوطن ، وقادة الفكر ، وأصحاب أعظم الأسماء وكان هؤلاء على الرغم من علو مكانتهم يدخلون القطار ويخرجون في بساطة ، لا يشمخون بأنوفهم ، ولا يكاد القطار يتحرك حتى يروحوا في حديث أو نقاش لو سجل لملأ صفحات المجلدات . □

● ان الامة المستعبدة بروحها وعقليتها لاتستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها . (جبران)

تقدّم العِلم

وتلوث البيئة

بقلم : الدكتور سمير رضوان

زمـانـنا يـركض بسـاقـين ، أحدهمـا العلم ، وثانيهـا التلوث،وللتقدم العلمي إبهاره الذي قد يصرف الأنظار ـ ولو إلى حين ـ عن التلوث المصاحب له كظله ، والعارف ببواطن الأمور يضع يده على قلبه إشفاقا من كل إنجاز علمي جديد ، فهو يدرك أن هناك جانبا مظلما لهذا الانجاز غالبا .

كنت قد اخترت لهذه المقالة عنوانا آخر ، هو « تقدث العلم وتلوم البيئة » ، لكنني نحيته حتى لا أتهم بـالابهام أو الإغـراب ، ومن قبـل أن يسارع غيور على العربية إلى قواميس اللغـة لاستجلاء حقيقة الأمر حول لفظي « تقدث » و « تلوم » أسارع إلى الاقرار بأن هذين اللفظين لم يرد لهما ذكر في أي قاموس من قواميس العربية ، وبأنني قد « نحتهما » من لفظي « تقدم » و « تلوث » ، واستخدمتهما في هذه المقالة للمرة الأولى . ولاشك أن هذين اللفظين المنحوتين يحملان قدرا من المداعبة اللفظية ، على أنها يحملان أيضا نصيبا كبيرا من الجدية ، وقد أحببت أن أمزج لغويا بنحتي لهما بين التقدم والتلوث ، فلا يذكر أحدهما إلا وصـاحبه معه ، معبرا بذلك عن واقع طرأ على حياة الانسان ، فكلما تقدم العلم خطوة جاراه التلوث في ذلك ، وكأنهما ساقا عدّاء واحد، وهذا هو المعنى الذي أسعى لإيصاله إلى القـاريء بهذه المقـالـة . وليس في استطاعتي ، ولا هو في استطاعة فرد غيري ـ على ما أظن ـ حصر خطا التقدم العلمي التي خطاهـا الانسـان ، ومزاوجتها بكل مـا صاحبها من آثار سلبية ، ذلك لأن العلم الحديث قد تشعبت فروعه ، ودقت تخصصـاتـه ، حتى أصبحت أضخم من أن يحتويها عقل فرد واحد وأعظم ، وأحسب أن في ذلك عذرا مقبولا لي لدى القاريء عندما يلاحظ أنني قصرت استشهادي في هذه المقالة على أمثلة من مجال دراساتي في « علم الميكروبات » ، فهذا أمر طبيعي ، وأظنه مقبولا ، كما أنوه بأن ما سأقدمه هنا لن يزيد

عن أمثلة قليلة ، لا تدخل في باب الحصر لما أعرض له بحال .

العلم بين الماضي والحاضر والمستقبل

اتصف زماننا باسم « عصر العلم » ، وهو كذلك ، لكن ثمة حقيقة لابد من إبرازها ، وهي أن عصر العلم بكل منجزاته المبهرة لم يزل بعد في طفولته المبكرة ، فكل هذا الكم الهائل من المعارف العلمية ، وتطبيقاتها ، قد توفرت للانسان خلال ما لا يزيد عن قرن واحد فقط من الزمان ، وللقارىء بعد ذلك أن يتصور ما سوف يؤول إليه حجم المعرفة العلمية بعد مرور قرن آخر ، ثم قرون عديدة .

سوف تصبح معارف اليوم ساذجة مقارنة بعلوم المستقبل ، مثلما أصبح علم الماضي موصوفا بالسذاجة والخرافة مقارنة بمعارف اليوم ، وإن كان التقدم العلمي في زماننا قد ارتبط بكل هذا القدر الذي نلمسه جميعا من مشاكل التلوث فلنا أن نتصور مقدار المشاكل التي سوف يجلبها للبشرية تقدمها العلمي في المستقبل ، ولا يحسبن أحد أن العلم والبحث العلمي كانا حكرا على عصر من العصور ، فليس يساورنا شك بأن الانسان قد شغل بالعلم منذ خلقه الله ، وسوف يظل شغله الشاغل حتى قيام الساعة ، وعلم الماضي - قبل ما يسمى عصر النهضة العلمية - كان مشوبا بقدر من الخرافات والأخطاء ، وعلى سبيل المثال لم يعرف الانسان أن فساد الأطعمة والتخمرات الكحولية والأمراض المعدية بسبب الميكروبات إلا في الزمن الحديث ، وللانسان الماضي عذره ، إذ لم يكن هناك أجهزة تكبر الأشياء تكبيرا هائلا كي يرى بها هذه الأحياء ، ومن هنا كان لابد أن تروج التفسيرات الخرافية لظواهر طبيعية كان الانسان يشاهدها ولا يعرف لها سببا ، فعزاها إلى الأرواح والجان وغيرها ، ومن هنا جاءت مثلا تسمية الخمور بالمشروبات الروحية ، ويطلق العامة على



هكذا ارتبط التقدم العلمي وارتياد الفضاء بمشكلات التلوث

الكحول اسم « سبيرتو » وهو تعريب « لكلمة روح في اللغات القديمة » التي اشتقت منها كلمة روح بالانجليزية ، وهناك أسماء لبعض الأمراض تبدو فيها آثار هذه الاعتقادات الخرافية ، نذكر منها على سبيل المثال مرض « الانفلونزا » ، وهو اسم مشابه للكلمة الانجليزية التي تعني « تأثيرا » ، وذلك اعتقادا بأن هذا المرض كان بسبب تأثير الأرواح . وكان عجز الباحث القديم عن رؤية الكائنات الدقيقة الحجم سببا مباشرا في ميله إلى الايمان بنظرية « التولد الذاتي للأحياء » ، وتقول هذه النظرية إن الكائنات الحية يمكن لها أن تنشأ ذاتيا في أي وقت ، من مادة عضوية ميتة . ولقد اعتمد أتباع هذه النظرية في الماضي على ظواهر بسيطة ، لاحظوا من خلالها مثلا « تولد

الديدان والحشرات من مواد عضوية محفوظة في أوعية مغلقة بإحكام . ونعلم اليوم أن هذه الأحياء لا تنشأ إلا من بيض دقيق لا يرى إلا بالمجهر . ولقد شارك علماء العرب غيرهم بنصيب في الدراسات التي كانت نتائجها تؤيد صحة هذه النظرية . ونذكر على سبيل المثال أن جابر بن حيان قد وصف في أحد كتبه نشأة أنواع من الذباب من لحم ثور ميت في حظيرة بابها مغلق بإحكام . ومن الطريف أن آثار هذه النظرية ما زالت تتجلى في معتقدات العامة البسطاء ، فيشيع مثلا في الريف المصري القول الدارج « دود المش منه فيه » ، أي أن الديدان تنشأ من مادة المش نفسها . ونخلص من ذلك إلى أن العلم كان في الماضي ضعيف العود ، وبنفس القدر كانت مشاكل التلوث لا تكاد تذكر .

علماء الماضي عرفوا الأسلوب العلمي

عناصر الأسلوب العلمي الحديث الذي أدى الى انفجار بركان المعرفة هي نتيجة تخطيط التجربة المختبرية واستقراء النتائج وتحليلها منطقيا ، وقد يظن أن هذا الأسلوب لم يكن متبعا قبل عصر النهضة العلمية ، إلا أن هذا الاعتقاد خاطيء ، وللتدليل على ذلك أستأذن القاريء في أن أعود به مرة أخرى إلى نظرية (التولد الذاتي) ، كي أوجز جانبا من الجدل الذي كان يدور حولها ، والذي يذكرنا بالمساجلات الشعرية بين جرير والفرزدق ، فقد كان أول من تجرأ على نظرية (التولد الذاتي) هو الباحث ريدي عام ١٦٦٨ م ، حين أشار إلى أن نشأة الديدان من اللحم مرجعها الذباب الذي يحط عليه ، وهنا تصدى له نيدهام سنة ١٧٤٥م ، ليثبت من خلال تجارب عديدة أن هذه النظرية صحيحة ، فقد عرّض حساء اللحم للغليان في وعاء ، وأغلقه بإحكام ، وتركه يبرد ، وعندما فحص الحساء بعد أيام تأكد له تولد كائنات حية فيه ، وقد كان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت بأن الغلي يقضي على جميع صور الحياة ، وهو اعتقاد لا يتفق مع المعارف الحديثة .

وتصدى سبالاّ نزاني سنة ١٧٧٦م لنيدهام بسلسلة من التجارب ، تدحض آراءه ، وقد فرق بها بين نوعين من الكائنات الحية الناشئة في الحساء ، كائنات كبيرة الحجم نسبيا ، تتحمل الغليان لكنها تموت إذا طالت فترة الغليان إلى أكثر من ٤٥ دقيقة ، ولا تنشأ في الحساء بعد ذلك أي أحياء على الاطلاق . وطالت المساجلات بين نيدهام المؤيد وسبالاّ نزاني المعارض وشارك فيها علماء آخرون حتى قطع باستير الشك باليقين في أواخر القرن الماضي ، وقضى تماما على نظرية (التولد الذاتي) . وأهم ما يعنينا هو أن ندلل على أن الأسلوب المعتمد على التجربة المختبرية كان متبعا في الماضي ، ثم أن هناك من المعارف العلمية ما توفر للانسان في الماضي السحيق ، إليك مثلا أسرار التحنيط عند قدماء المصريين ، وعملياتهم الجراحية الطبية المعجزة ، ومعارفهم في مجالات الهندسة المعمارية وخلط الأصباغ وتثبيتها ، وغير ذلك كثير ، وهذه المعارف لا تكتسب إلا من خلال الأسلوب العلمي بمعناه الحديث .

التلوث إفراز التقدم العلمي

التلوث هو بمثابة الافرازات الكريهة للعلم أثناء تقدمه ، والمعركة الكبرى التي يتحتم على العلم أن يخوضها هي معركة الحد من آثار التلوث قدر المستطاع ، ولقد قلب العلماء بالفعل للتلوث ظهر المجن ، إلا أن أعقد ما في هذه المعركة هو أن التقدم العلمي لا يتوقف عند حد أبدا ، ولا يفتأ يفرز مشاكل تلوثية جديدة مع معظم الخطوات التي يخطوها إلى الأمام ، فبينما ينشغل الباحثون بمشكلة تظهر مشاكل أخرى ، ويستحيل حصر هذه المشاكل في مقالة واحدة ، حتى لو كانت فرعا واحدا من فروع العلوم ، واكتفاؤنا بالتعرض لمثال واحد ـ لاشك ـ يغني عن أمثلة أخرى كثيرة ، وسوف نأخذ هذا المثال من مجال لا يخطر على بال أحد أن يكون

التقدم فيه مصحوبا بمشاكل التلوث المعقدة ، وأقصد به مجال التسميد الزراعي .

حتى التقدم الزراعي قد أفرز تلوثا

أصبحت الزراعة الحديثة تعتمد اعتمادا كبيرا على التسميد ، من أجل زيادة غلة الأرض ، وباستثناء حقول الأرز الشاسعة في آسيا لا تكاد توجد زراعة على الأرض اليوم الا وتلجأ الى التسميد بغزارة ، وتستخدم الأسمدة ـ كما هو معروف ـ كي توفر لنباتات المحاصيل العناصر الغذائية الضرورية ، وتمتص نباتات المحاصيل من التربة ـ غالبا ـ عناصر عديدة موجودة في أملاح معدنية ، والهدف من التسميد هو تعويض العناصر التي تشح في التربة باستمرار ، ومن العناصر التي تمتص منها النباتات قدرا كبيرا نسبيا عنصر النيتروجين ، وذلك لأن هذا العنصر يدخل في تركيب مواد موجودة بوفرة في خلايا النباتات ، مثل البروتينات والأحماض النووية ، وغيرها ، أما معظم العناصر الأخرى ـ كالحديد والكالسيوم وغيرها ـ فتركيزها في التربة يفوق باستمرار المقادير القليلة التي تحتاجها النباتات منها في غذائها . من أجل ذلك نسمع دائما عن الأسمدة النيتروجينية ، لكننا لا نسمع عن الأسمدة الحديدية أو الكربونية بالرغم من أن عنصر الكربون هو أعلى العناصر ـ على الاطلاق ـ تركيزا في خلايا النباتات ، والنباتات الخضراء تحصل على ما يكفيها من هذا العنصر على صورة ثاني اكسيد الكربون المتوفر في الجو ، ولا تمتصه من التربة أبدا . نعود مرة أخرى إلى عنصر النيتروجين ، لنشير إلى السبب في استمرار تناقص هذا العنصر في التربة ، وهو أن النباتات تمتص قدرا كبيرا منه ، وتختزنه على صورة بروتينات في بذورها وثمارها وسوقها . وقبل أن يكتشف الانسان الزراعة كان النبات يموت في المكان الذي ينمو فيه ، فتسقط بذوره وشتى أعضائه المحتوية على المواد النيتروجينية على التربة مرة أخرى ، فيرتفع ما تحتويه من النيتروجين ، وتتوفر بذلك حاجات الأجيال الجديدة من النباتات للنيتروجين ، أما بعد اكتشاف الزراعة وتطويرها فقد أصبح الانسان يتدخل تدخلا حاسما في هذه الدورة ، فهو يحصد البذور والأعضاء الأخرى كهدف منطقي لعملية الزراعة ، وهذا أخذ محتوى التربة من المواد النيتروجينية يقل بالتدريج ، وهذا ما حدا بالانسان إلى استخدام الأسمدة النيتروجينية في الزراعة ، التي لم يكن استخدامها مقترنا بالتقدم العلمي ومقتصرا على عصره ، ان الانسان القديم قد اكتشف فوائد التسميد في مراحل مبكرة ، بعد أن عرف الزراعة ، لكن الأسمدة التي كانت تستخدم في ذلك الوقت بكميات محدودة لم تكن سوى مخلفات الحيوان والانسان . وهذه تحتوي على النيتروجين على صورة مركبات عضوية ، وتدلنا المعارف الحديثة على أن المركبات النيتروجينية العضوية تتحلل في التربة ببطء شديد وتتحول إلى أملاح نيتروجينية صالحة لغذاء النباتات ، وهذا التحلل البطيء يجعلها مثالية ، إذ لا يتوفر للنباتات في أي لحظة إلا كميات محدودة متوازنة من الأملاح النيتروجينية ، أما المخصبات النيتروجينية غير العضوية التي استحدثها التقدم الزراعي فهي توفر للنباتات مباشرة ، فتمتص منها أكثر من حاجتها ، مما يتسبب في نوع من التلوث ، سوف نتناوله بالشرح بعد قليل ، وتجدر الاشارة هنا إلى أن ميكروبات التربة لو تركت وشأنها دون تدخل من الانسان لاستطاعت أن تصحح الخلل في الميزان النيتروجيني في التربة ، دون حاجة إلى إضافة أسمدة غير عضوية ، فالتربة تحتوي على أعداد كثيرة من البكتريا التي تستطيع امتصاص غاز النيتروجين من الجو ، وتحويله في التربة إلى مواد نيتروجينية عضوية ، وهذه تتحلل بفعل ميكروبات أخرى ، فتتحول بصورة متوازنة إلى أملاح نيتروجينية صالحة لغذاء النباتات . والدليل على ذلك هو أن حقول الأرز في اليابان والصين ما زالت تؤتي غلتها منذ

عشرات القرون إلى اليوم ، دون أن يستخدم الزراع أي أسمدة نيتروجينية ، فالاعتماد على البكتريا الخضراء المزرقة المتوفرة في مياه الحقول يعوض ما يمتصه النبات من مواد نيتروجينية ، خلال تحويل غاز النيتروجين إلى مواد نيتروجينية عضوية .

ومن المفارقات العجيبة أن البحوث الحديثة قد أثبتت أن إضافة الأسمدة النيتروجينية غير العضوية إلى التربة تحدث حالة من الترهل للبكتريا التي تثبت النيتروجين الغازي ، إذ أنها تفضل استخدام الأملاح المضافة ، لتغطية حاجتها من النيتروجين ، ولا تلجأ أبدا - تحت هذه الظروف - إلى النيتروجين الغازي .

التلوث بالنترات

وعلى الرغم مما ذكرنا فمن الممكن علميا قبول مبدأ إضافة أسمدة نيتروجينية للتربة ، من أجل زيادة المحاصيل ، لكن مع تحفظ أساسي ، وهو ضرورة أن تكون كميات هذه الأسمدة محسوبة بدقة ، بحيث لا تزيد عن حاجة النبات أبدا ، وإلا تحولت الزيادة إلى تلوث ، كما هو واقع الحال الآن . يسعى الباحثون بدأب لكي يتوصلوا إلى طريقة لتحقيق ذلك ، وإلى أن يتوصل العلم إلى تلك الطريقة يتحتم على البشرية أن تتعرض إلى آثار التلوث الناجم عن سوء استخدام الأسمدة النيتروجينية ، وهو نوع من التلوث ، عمره لا يزيد على كوكبنا عن عقود قليلة من السنين ، وندعو الله ألا يطول أكثر من ذلك ، فآثاره المكتشفة حديثا التى ما زالت إلى اليوم هينة سوف تصبح « كابوسا » ، مخيفا لو لم يقض العلم على التلوث وهو ما يزال في مهده .

وينشأ هذا النوع من التلوث الذي أطلقوا عليه اسم « التلوث بالنترات » على النحو التالي : فعندما تستقبل التربة الزراعية سمادا نيتروجينيا تنشط شتى ميكروبات التربة ، وتتضافر جهودها ، لكي تحول جميع المواد النيتروجينية إلى أملاح نترات ، فهذه الأملاح هي الصورة المثلى للنيتروجين ، كما تفضله معظم نباتات المحاصيل ، ونتبين من ذلك أن إنتاج النترات في التربة الزراعية بصفة مستمرة أمر لازم لخصوبتها ، لكن كما يقولون « ما زاد عن حده انقلب إلى ضده » ، وقد أدى التسميد العشوائي إلى تراكم كميات كبيرة من النترات في الأراضي الزراعية ، تفوق كثيرا حاجة النباتات . وقبل أن نتعرض لما ينجم عن ذلك من آثار سلبية ينبغي أن نشير إلى أن شق النترات يحمل شحنة سالبة ، بعكس شق النشادر مثلا الذي يحمل شحنات موجبة ، وحبيبات التربة الدقيقة كالطمي ، تحمل شحنات سالبة ، ويعني ذلك أن المواد النيتروجينية ما دامت موجودة في صورة أملاح النشادر فلحبيبات التربة القدرة على اجتذابها والامساك بها بقوة ، أما إذا تحولت هذه الأملاح إلى نترات فانها تتنافر مع حبيبات التربة ، أي أنها تصبح حرة طليقة في مياه التربة ، وتؤدي هذه الحالة إلى امتصاص النباتات لمقادير أكبر من النترات ، كلما زادت تركيزاتها في التربة ، كما أن قدرا من هذه النترات تحمله مياه التربة دون عائق ليصل في النهاية إلى المياه الجوفية ، إذا كانت حركة مياه التربة رأسية أو إلى مياه الأنهار والبحيرات إذا كانت حركتها أفقية . ولاشك أن سؤالا قد خطر ببالك الآن : ما الذي يخشى من ارتفاع مستوى النترات في النباتات ، وفي المياه العذبة ؟ والاجابة على ذلك كما وضحتها البحوث الحديثة تقول : إن منظمة الصحة العالمية قد اشترطت ألا يزيد تركيز النترات في مياه الشرب عن عشرة أجزاء في المليون الواحد ، لكي تكون آمنة وصحية ، فإن زاد عن هذا القدر فالماء ملوث بالنترات ، يحظر شربه .

تمثل مياه الأنهار والبحيرات الملوثة بالنترات وسطا مثاليا لنمو الطحالب وحيدة الخلية ، وكثير من الأعشاب الضارة التي تنمو نتيجة لذلك بغزارة في مجاري الأنهار ، فتعوق حركة الماء ، وملاحة القوارب الصغيرة ، وعندما تموت هذه الأعشاب

وتتحلل تنمو عليها البكتريا ، فتتهدد بذلك الثروة السمكية تهديدا خطيرا . أما الطحالب - وحيدة الخلية - فوجودها في الماء بأعداد كبيرة يؤثر على صلاحية المياه للشرب ، فهي تعوق عملية تنقية المياه في المحطات الخاصة بالتنقية ، وتضفي طعما كريها على الماء . أما إذا شرب الانسان أو الحيوان ماء ملوثا بالنترات ، أو أكل خضراوات ملوثة بها فالأخطار أعتى وأدهى ، إذ يتعرض شق النترات إلى عملية اختزال في الجهاز الهضمي من خلال أنشطة الميكروبات التي تستوطن هذا الجهاز ، ويتحول هذا الشق إلى شق النتريت الذي يمتصه الدم ، وهناك يتفاعل هذا الشق مع هيموجلوبين الدم ، فيعوق قدرته على نقل الاوكسجين في الجهاز الدوري ، وهذا معناه الاصابة بمرض يعرف باسم « ميثوموجلوبينيميا » ، وهو مرض قد يؤدي إلى نفوق الماشية ، وموت الرضع من البشر الذين تقل أعمارهم عن ستة أشهر . ولا يقتصر خطر التلوث بالنترات على ما ذكرنا ، بل ما زال هناك ما هو أدهى وأخطر ، فوجود أملاح النترات بوفرة في التربة يؤدي الى تنشيط أنواع من البكتريا التي تختزل هذه النترات إلى شق النيتريت الذي قد يتفاعل مع مواد تسمى الأمينات الثانوية التي تنتجها ميكروبات أخرى في التربة ، ومنها ما ينشأ من تحلل بعض المبيدات العشبية ، وينتج عن تفاعل شق النيتريت مع الأمينات الثانوية مادة تعرف باسم « النيتروزامين » التي قد ثبت أنها مادة مسببة للسرطان ، كما أنها تحدث شذوذا في انقسام الخلية ، مما ينجم عنه تشويه الأجنة في الأرحام . ووجود مثل هذه المواد في التربة يعني أن وصولها للانسان أمر وارد من خلال النباتات التي يأكلها وهي ملوثة بهذه المواد .

ما زال هناك في جعبة الأخطار الناجمة عن التلوث بالنترات ما هو أعتى وأدهى ، فهناك في التربة أنواع من البكتريا اللاهوائية التي تستطيع اختزال شق النترات إلى شق النيتريت ، ثم إلى أكاسيد النيتروجين الغازية ، مثل أول أكسيد النيتروجين ، وأكسيد النيتروز ، وهذه تتصاعد إلى أعلى تاركة التربة متجهة إلى الجو ، فإذا بلغت طبقات الجو العليا فإنها تتفاعل مع غاز الأوزون ، فتحوله إلى الأكسجين ، أي أن هذه الأكاسيد النيتروجينية تؤدي إلى تآكل طبقة الأوزون ، وهو تآكل ما زال إلى يومنا هذا بطيئا للغاية ، لكن خطر ازدياد معدلاته قائم ، ما دامت أساليب التسميد العشوائي متبعة في الزراعة . وطبقة الأوزون تغلف الكرة الأرضية على ارتفاع في الفضاء يبلغ في متوسطه ٢٥ كيلومترا عن سطح البحر ، ولها القدرة الفائقة على امتصاص الأشعة الكونية التي لو بلغت سطح الأرض لأهلكت الحياة الراقية برمتها . هذه هي بعض الآثار السلبية التي اكتشفها العلم الحديث للتلوث بالنترات ، وما خفي كان أعظم .

حتى لا يفتننا التقدم العلمي

ما ذكرناه كان إحدى صور التلوث المصاحب لخطوة واحدة في مسيرة البحوث الزراعية ، ولا يغيب عن فطنة القاريء أن هناك صورا لاحصر لها للتلوث المصاحب للتقدم في شتى العلوم الأخرى ، ونحن كبشر غالبا ماتبهرنا الجوانب البراقة للتقدم العلمي ، فلا نذكر سواها ، لكننا إذا تجاوزنا السطح ، وأمعنا النظر في الجوهر هالنا مانرى ، ويرسخ في أذهاننا اقتناع بضرورة التريث والحذر قبل التدخل في نظام الكون تدخلا حاسما ، ويزداد هذا الاقتناع رسوخا لدينا كلما ازداد تعمقنا في العلم ، وأحسب أن أقل البشر انبهارا بإنجازات العلم الحديثة هم العلماء أنفسهم ، فهم يعلمون أكثر من غيرهم أن كل خطوة جبارة من خطا التقدم التي ينبهر بها خلق الله قد تمهد بصورة أو بأخرى إلى خطوة تلوث جبارة أيضا لم تكن في الحسبان ، ومن كان في ريب مما نقول فليسأل جده : هل كنتم تسمعون فيما مضى بشيء اسمه التلوث بالنترات ؟□

«خماسيات شعرية»

أصل البلاء

شعر : زكي قنصل

قالُوا تقارَبَتِ القلوبُ وزالَ ما بَيْنَ الورَى مِنْ فِتْنَةٍ وخِلافِ
قلتُ الشُّعوبُ مِنَ الفسادِ بريئةٌ لا يَغْدِرُ الحافي الشريفُ بحافِ
أصْلُ البلاءِ هُمُ الذينَ تحكَّمُوا بالناسِ ، وارْتفعُوا على الأكتافِ
نامَتْ عَنِ الباغي العيونُ فصفَّقَتْ أطماعُهُ بقوادمٍ وخوافِ
كالذئبِ يَسْتَشْري فيَفْتِكُ حينَ لا يَخْشَى عَصَا الرَّاعي بِسِرْبِ خِرافِ

- ٢ -

إنِّي وإنْ خانَ الصَّديقُ مودَّتي ثَبْتٌ عَلَى عهدِ الصديقِ الغادرِ
أُغضي جُفوني عَنْ مَساوِئِه ولا أَلْقاهُ إلَّا بابتسامةِ عاذرِ
أنا مِثْلُه في ضَعْفِهِ وعِثارِهِ فَعَلامَ أرْمُقُهُ بِطَرْفٍ شازرِ ؟
دُنْياكَ لُجٌّ لا يقرُّ قرارُهُ فاسْلَمْ بنفسِكَ أو فَخُضْهُ وخاطرِ
مَنْ يَرْجُ مَحْضَ الخيرِ مِنْ أصحابِهِ لَمْ تَخْبُ جذْوَةُ غيْظِهِ المتطايرِ

- ٣ -

هَوِّنْ عليكَ فلَسْتَ مَوْضِعَ حنقي أنا أنقُدُ الأعمالَ لا الأسماءَ
اللهُ يَشْهَدُ لستُ أُخفي غيرَ ما أُبدي ، فكيفَ تَظُنُّني حِرْباءَ
يَقْسُو الطبيبُ عَلَى المريضِ وقَلْبُهُ يبكي عليهِ أدْمُعاً حَمْراءَ
بَعْضُ الوَداعَةِ في النفوسِ فضيلةٌ والبعضُ يُدْعَى خِسَّةً ورِياءَ
أحْلَى عَلَى قلبي صراحةُ شاتمٍ مِمَّنْ يسوقُ هِجاءَهُ إطْراءَ



- ٤ -

عَرَّضْتَ نَفْسَكَ للمهانةِ فانْبَرى   ذِئْبٌ يَحومُ على حِماكَ وثَعْلَبُ
لَيْسَ الذي سَرَقَ الحديقةَ مُذْنِبًا   إنَّ الذي «سابَ» الحديقةَ مُذْنِبُ
جالَدْتُ عَنْ عِرْضي فَأَدْبِرْ والِغٌ   ما أخيبَ الكفَّ التي لاتَغْضَبُ
لايَفْهَمُ الأوْباشُ من لُسْنِ الوَرى   إلاّ يَداً تُمْلي وسَوْطاً يَكْتُبُ

- ٥ -

لاتَعْجَبَنَّ إذا تَبايَنَ مَوْقِفي   وتَناقَضَتْ في ساعةٍ آرائي
الحيرةُ الخَرْساءُ تَنْهَشُ أضلعي   ماحيلتي بالحيرةِ الخرساءِ ؟
دَجَتِ الطريقُ ولادليل ، فكيف لا   يَخْبُو بهاويةِ القُنوطِ رجائي ؟
مَنْ كانَ في وضحِ الظهيرةِ تائهاً   هَلْ يَهْتَدي في الليلةِ الليلاءِ ؟
ياصاحبي هَيْهاتَ تُبْصِرُ مقلةٌ   تَمْشي وَراءَ بصيرةٍ عَمْياءِ

- ٦ -

يارَبِّ حَرِّرْ أُمَّتي مِنْ نَفْسِها   خابَ الرَّجاءُ بِفَجْرِها البَرّاقِ
إن السَّلاسِلَ جَمَّةٌ ، وأخَفُّها   للعارفينَ سَلاسِلُ الأعْناقِ
حارَ الأساةُ بدائها ، هَلْ مِنْ يَدٍ   تأتي لها بالقوتِ والتِّرْياقِ ؟
ماحاجتي للنورِ يَملأُ مُقْلتي   وَظَلامُ نفسي مالِئٌ آفاقي
عَبَثاً تَشيدُ على الصَّوارِمِ دولةً   إنْ لَمْ تُؤَسِّسْها على الأخْلاقِ .

اقرأ في
العدد
القادم من

العربي

ديسمبر ١٩٨٧

استطلاعات

البرتغال..
مملكة الشمس الغاربة
محمود عبد الوهاب

فيودوروف..
وابتكارات جديدة في طب العيون
سليمان الشيخ

- العلمانية بين الدين والدولة والحياة / د. عبد العزيز كامل
- ملامح الاستراتيجية الغربية للتحكم بالعقل العربي / رفعت سيد أحمد
- رشيد رضا وقضية المرأة في العالم الاسلامي / د. رضوان السيد
- الليزر.. هل يبحث عن مشكلة ؟ / د. مجدي رحمة الله
- الموت المفاجىء ! / د. أنيس فهمي
- زفاف ابنة الباشا ! / د. محمد المنسي قنديل
- لماذا يتخلى المثقف العربي عن دوره السياسي ؟ / توفيق أبو بكر
- ربع قرن على رحيل الأديب الفرنسي سلين / د. زينب عبد العزيز
- المضامين العلمية والفنية في المخطوطات العربية / محمود شكري الجبوري
- كتاب الشهر : الشعر الانجليزي المعاصر / عرض : خالد عباس
- وجهاً لوجه : د. أسامه الخولي و علي عثمان

واقرأ أيضاً للكتاب

د. محمد الرميحي - د. عبد اللطيف كانو - د. غسان حتاحت - محسن خضر
مجاهد عبد المنعم مجاهد - د. محمد نبهان سويلم - د. محمود الربيعي - حافظ أحمد أمين

بخلاء

الجاحظ

يراوغون القلق

اعداد : الدكتور عبد المقصود عبد الكريم

يبرز الجاحظ بكتبه الباقية من انتاجه الغزير كقمة سامقة في تاريخ الأدب العربي ، ودائما ما تكشف القراءة المتجددة لكتبه عن أفكار جديدة نابضة بالحياة ، كأنها بنت زمننا الحاضر . وهذه قراءة لكتابه « البخلاء » ، ولبعض شخصياته الفريدة .

في يوم ما ، في سنة تقع بين عامي ١٥٩ و ١٦٣هـ ، ولد طفل أسمر ناتىء الجبهة ، بارز العينين ، كأنها بطن حوت مبقور . ولد هذا الطفل لأسرة مغمورة ، كانت تسكن أحد الأحياء الفقيرة في البصرة . ومات أبوه وهو طفل ، فتعهدته أمه . وراح في صباه يرتزق من بيع السمك والخبز على ضفاف نهر سيحان في البصرة . وكان مقدرا لهذا الطفل أن يحث خطاه الى الشهرة ، وأن يصبح واحدا من أبرز أعلام الأدب في التاريخ . وقد أظهر نبوغا مبكرا ، وولعا شديدا بالكتب ، واختار أن يقضي حياته التي استغرقت فترات حكم اثني عشر خليفة عباسياً بين الكتب ، كما اختار أن تكون نهايته بالكتب ، فقد حدث أن تحامل على نفسه في مرضه الأخير ـ وكان مصابا بالشلل والنقرس ، نصفه مصاب بالفالج ، ونصفه الآخر بالنقرس ـ الى غرفة كتب وجلس يبحث في خزائن المعرفة حتى انهالت الكتب فوقه وقضت عليه في الحال (عام ٢٥٥هـ ـ ٨٦٨م) ، فأصبح شهيد المعرفة على مستوى الحقيقة لا المجاز .

كان عمرو بن بحر ، المعروف بالجاحظ ، المكنى بأبي عثمان ينتمي الى بني كنانة بن خزيمة . قال عنه أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب

والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر » . ومن طريف ما يروى عن ولع الجاحظ بالكتب منذ طفولته أنه طلب من أمه طعاما فجاءت تحمل طبقا فوقه أوراق وكراسات ، ولما سألها : « ما هذا يا أماه » ؟ قالت : « هذا الذي تجيء به كل يوم » .

ويذكر للجاحظ بين مائة وسبعين ، وثلاثمائة وستين مصنفاً « ولا يعلم أحد من الرواة ، وأهل العلم ، أكثر كتبا منه » (المسعودي) ، وقد عبثت الأيام بمعظم هذه المصنفات ، فلم يصلنا إلا القليل منها ، مثل كتاب الحيوان ، والبيان والتبين ، والبخلاء ، ورسالة التربيع والتدوير . وكتب الجاحظ في رأي المسعودي : « تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء ، وسآمة السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة » .

كتاب البخلاء

يعد كتاب (البخلاء) من أهم مصنفات الجاحظ التي وصلتنا . وفي مقدمة الكتاب يحدد الجاحظ موضوعه على النحو التالي :

« ذكرتُ ملح « الحزامي » ، واحتجاج « الكندي » ، ورسالة « سهل بن هارون » ، وكلام « ابن غزوان » ، وخطبة «الحارثي» وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم،ولم سموا البخل إصلاحا ، والشح اقتصادا ، ولم حاموا على المنع ، ونسبوه الى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرفا ، والأثرة جهلا ، ولم زهدوا في الحمد ، وقل احتفالهم بالذم ، ولم استضعفوا من هش للذكر وارتاح للبذل ، ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى ثناء ، ولا ينحرف عن هجاء ، ولم احتجوا لشظف العيش على لينه ، ولمره على حلوه ، ولم عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى » .

إن الكتاب يتناول نوادر البخلاء ، وأخبارهم ، ووصاياهم ، وقدرتهم على الاحتجاج لبخلهم ، وقد اتخذوا البخل منهجا لحياتهم ، بعد أن غمرتهم المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية في العصر العباسي . وقد اجتهد الجاحظ في تصوير فلسفة البخلاء ، وقدرتهم على تبرير سلوكهم الذي يعتبر نقيصة اجتماعية ، في مجتمع يحتل الكرم فيه مكانة بارزة . وقد استطاع الجاحظ أن يتغلغل في نفوس بخلائه ، وأن يبرز « تمويه البخيل وتدليسه على نفسه » .

الوسائل الدفاعية للنفس

يمتلك الجسم الآدمي جهاز مناعة يحميه من غزوات الأجسام الغريبة ، وبالمثل تمتلك النفس البشرية وسائلها الخاصة ، للدفاع عن نفسها ضد العلل النفسية والانهيار ، عن طريق عمليات تتم على مستوى اللاوعي ، وتهدف الى حماية الانسان من القلق . ومن هذه العمليات أو « الميكانيزمات » الدفاعية قدرة النفس البشرية على التبرير ، وعلى (عقلنة) العيوب ، وهي الوسيلة التي اتبعها بخلاء الجاحظ في الاحتجاج لبخلهم .

إننا نولد كأطفال لا حول لنا ولا قوة ، ونعتمد على عالمنا ليشبع حاجاتنا ، وبالتالي فإن هذا الاشباع يتأثر بالآخرين . وحيث اننا كائنات اجتماعية ، بالضرورة ، فإننا لا نستطيع أن نشبع هذه الحاجات دون النظر الى الظروف ، والاعتبارات الاجتماعية . ونحن كبشر لا نتعامل فقط مع الأخطار الخارجية ، لكننا نتعامل أيضا مع الأخطار التي تنبت في دواخلنا ، والتي يمكن أن توقع بنا تحت طائلة الاحساس بالعار والذنب والقلق . والوسائل الدفاعية التي تمتلكها النفس البشرية تمكننا بشكل غير مباشر من إشباع رغباتنا التي قد تتعارض مع قيم



المجتمع ، دون الوقوع تحت سيطرة القلق النفسي .

وعلى الرغم من أن هذه الوسائل الدفاعية لا ترى ، فإن التعبير عنها يمكن ملاحظته في أفكارنا ، ومشاعرنا ، وسلوكنا ، وحتى في أحلامنا . والانسان الراشد يستخدم ، في حالته الطبيعية ، عددا متنوعا من الوسائل الدفاعية ، ومنها القدرة على التبرير .

يصف الجاحظ في كتاب البخلاء قدرتهم على تبرير بخلهم ، و (عقلنته) ، والاحتجاج له ، متبعين في ذلك تفكيرا شديد المنطقية ، يجنبهم الوقوع أسرى لعذاب النفس ، عن طريق عزل الأفكار عن المشاعر التي تصاحبها في العناد . وعلى سبيل المثال عندما يمتنع مقتدر عن إطعام أحد الجوعى ، فلابد أن يشعر ببعض الذنب . لكن البخيل يتمكن من الفرار من هذا الذنب بقدرته على تسويغ فعله . وفي كتاب الجاحظ يستخدم البخلاء وسائل عديدة للتعبير عن قدرتهم على (عقلنة) البخل وتسويغه ، واعتباره سلوكا حكيما . وسوف نحاول هنا رصد بعض هذه الوسائل .

خوف الفقر

إن الكرم ، عند البخيل ، وسيلة لتبديد الثروة ، وجلب الفقر . ولأن الفقر ، بالضرورة ، شيء رديء ، وضيف قبيح ، فلابد أن يحرص الانسان على ماله خوفا من الفقر . « إن للغنى سكرا ، وإن للمال نزوة ، فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى فقد أضاعه ، ومن لم يربط المال بخوف الفقر ، فقد أهمله » (رسالة سهل بن هارون) . ويحتج سهل بقول زيد بن جبلة « ليس أحد أفقر من غني أمن الفقر ، وسكر الغنى أشد من سكر الخمر » .

ويمتد الأمر بالبخيل الى الخوف من الجود بالقليل ، لأنه يقرب الى الفقر ، ويبعد عن الغنى ،

وبذلك تكون دعوة الاخوان للطعام تقريباً من الفقر ، وتهديداً به . يحكي الجاحظ أن أحد البخلاء كان لا يفارق منازل إخوانه ، وكانوا كرماء معه ، ولم يشكوا أنه سيدعوهم مرة ، فلما طال تغافله ، وعرضوا له بذلك ، فتغافل ، وصرحوا له ، فلما امتنع قالوا : « اجعلها دعوة ليس لها أخت » فلما بلغ منه ومنهم المجهود ، اتخذ لهم طعاما خفيفا ، لا ثمن له ، ولا مؤونة فيه . فلما أكلوا وغسلوا أيديهم أقبل عليهم ، فقال « أسألكم بالذي لا شيء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر وأغنى أم قبل أن تأكلوا طعامي ؟ » قالوا : « ماشك أنك حين كنت والطعام في ملكك أغنى وأيسر » قال : « فأنا الساعة أقرب الى الفقر ، أم تلك الساعة ؟ » قالوا : « بل أنت أقرب الى الفقر » قال : « فمن يلومني على دعوة قوم قربوني من الفقر ، وباعدوني من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر ، كنت من الفقر أقرب ، ومن الغنى أبعد ؟ » .

ومن نفس المنطلق لا يخرج البخيل من ماله درهما ، حتى يرى مكانه خيرا منه ، وهو لا يغتر بكثرة ماله ، فإنه لو أخذ منه ولم يرد عليه ، لذهب عن آخره .

ومن البديهي أن يقدم البخيل المال على كل شيء ، حتى على العلم ، وبذلك يستطيع تبرير حرصه الشديد على المال ـ صنمه المقدس الذي يتعبد في محرابه ليل نهار ـ . لكن كيف يحتج البخيل لتقديم منزلة المال على العلم ؟ يرى البخيل « أن بالمال يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس ، قبل أن تعرف فضيلة العلم ، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع » . وإذا سألته كيف يقدم المال وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء : « العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ » ، قال : « بل العلماء » . قيل : « فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء » ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم . لكن البخيل له رأي آخر ، فحال العالم



والغنى هي الفاصلة بينهما ، وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع اليه ، وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض ؟ .

من نوادر البخلاء

كان شيخ خراساني لا يأكل إلا مالابد منه ، ولا يشرب إلا مالابد منه ، غير أنه كان في غداة كل جمعة يحمل معه طعامه ، ويمضي وحده ، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ ، حيث يجلس تحت شجرة . وبينما هو في يوم من أيامه يأكل في بعض المواضع ، إذ مر به رجل ، فسلم عليه ، فرد السلام ، ثم قال : « هلم عافاك الله » ، فلما نظر الخراساني الى الرجل ، وقد انثنى راجعا ، قال له : « مكانك ، فإن العجلة من عمل الشيطان ، فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراساني ، وقال : « تريد ماذا ؟ قال : « أريد أن أتغدى » . قال الخراساني : « ولم ذاك ؟ وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح لك مالي » ؟ قال الرجل : « أو ليس قد دعوتني » ؟ قال : « ويلك ، لو ظننت أنك هكذا أحمق مارددت عليك السلام ، أيحسن فيما نحن فيه أن تكون إذا كنت أنا الجالس وأنت المار ، أن تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجيبا لك : « وعليكم السلام » ، فإن كنت لا آكل شيئا ، سكت أنا ، وسكت أنت ، ومضيت أنت ، وقعدت أنا على حالي . وإن كنت آكل فهاهنا وجه

آخر . وهو أن أبدأ أنا . فأقول : هلم . وتجيب أنت فتقول : « هنيئا » . فيكون كلام بكلام . فأما كلام بفعال . وقول بأكل . فهذا ليس من الانصاف » .

وكان بعض البخلاء ينفي عن نفسه صفة البخل . فقد كان أبو يعقوب الدقنان يبرر عدم بخله بأنه يأكل اللحم يوميا . منذ ملك المال . لنقرأ كيف كان يتم ذلك : إذا كان يوم الجمعة اشترى لحم بقر بدرهم .

واشترى بصلا بدانق (سدس درهم) . وباذنجان بدانق . وقرعة بدانق . فإذا كان أيام الجزر فجزرا بدانق . وطبخه كله سكباجا . فأكل وعياله يومئذ

خبزهم بشيء من رأس القدر . وما ينقطع في القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم . فإذا كان يوم السبت ثردوا (جعلوه ثريدا) خبزهم في المرق . فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل . فإذا كان يوم الاثنين أكلوا الجزر . فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع . فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان . فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم » . ولهذا كان يقول مافاتني اللحم منذ ملكت المال » .

يقول الأستاذ أحمد أمين في مقدمة كتاب « البخلاء » : « لقد كان أكثر الأدب قبل الجاحظ أدبا لا موضوع له . فاستطاع الجاحظ أن يجعل للأدب موضوعا . وجعل موضوعه كل شيء في الحياة . حتى اللص . والجارية والتاجر . والنبيذ . والمعلم . وقد كتب في كل ذلك . وكتب في البخيل . وكانت كتابته فيه أكثر مرحا . وأكثر تفننا . وأكثر إبداعا . لقد كان الجاحظ أديبا . يمتلك القدرة على التغلغل في أعماق النفس البشرية . في حالتها الطبيعية . وفي حالة شذوذها . وهكذا استطاع أن يعري نفس البخيل . ونحن حين نتناول موضوعا كهذا لا نبغي بأي حال من الأحوال أن نسبغ صفة عالم النفس على الجاحظ . لأنه لم يكن عالم نفس . لكنه ذو عبقرية أدبية فريدة . كما أن إسباغ هذه الصفة عليه لن ترفع من قدره . لكننا نبغي التأكيد على الصلة الوطيدة بين علم النفس والأدب . فحين يمتلك الأديب القدرة على التغلغل في النفس البشرية . وعلى الوصف الدقيق . فلابد أن يقدم مادة . يمكن أن تفيد عالم النفس . ولعل الصلة بين علم النفس والأدب . هي الصلة الوطيدة بين مختلف أشكال المعرفة البشرية . ولعل هذه الصلة هي ما جعلت «اينشتين» يؤكد أن الفكر العلمي ينطوي دائما على عنصر شعري . وأنه تعلم من «دستوفسكي» أكثر مما تعلم من «نيوتن» .

* لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل .

(أبو بكر الصديق)

* إن الخير أعظم من السعادة . وهو يشملها ويحتويها . ولكنها لا تشمله ولا تحتويه

(عباس العقاد)

* الوفاء : من أخلاق الملائكة والجحود : من ضيعة البشر !

(الشاعر ابراهيم ناجي)

* النور يملأ الدنيا . . فيخرج فيها العابد والفاسق . هذا الى حضرة الله . وهذا الى حظيرة الشيطان .

(عبدالعزيز البشري)

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

اشكالية "الآخر" في التفكير الاسلامي

آيات السيف !

ثمت لغم زرعه البعض في عرض الطريق الذي يصل بين المسلمين والآخرين ، اسمه : آية السيف !

وآية السيف هذه هي تلك التي بتصور هؤلاء البعض أنها تنهي علاقة الود ، وحسن الجوار ، والتعاهد بين المسلمين وغيرهم ، وتعلن الحرب على الجميع ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وهي بالموقف المستجد الذي تقرره ، تنسخ كل ما سبقها من آيات تحث على تلك المعاني التي أشرنا اليها ، من ود وتعايش وتعاهد ، وجنوح الى السلم وايثار له . وتعد مسألة آية السيف شاهدا قويا على ما قلناه في صدد الحديث الذي بدأناه عن اشكالية الآخر في التفكير الاسلامي ، من حيث أنها تثبت كيف أن تأويل النصوص أسهم بدور لاينكر في صنع تلك « الإشكالية » ، وتلغيم علاقة المسلمين بغيرهم .

ونحن عندما ندقق في أقوال بعض المفسرين والمهتمين بأمر الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم نكتشف أنه ليس هناك اتفاق على آية بذاتها ، ولكن هناك أكثر من آية وصفت بذلك الوصف . وهي آيات ثلاث على وجه التحديد ، ويجمع بينها أنها وردت في سورة « التوبة » التي تعرف أحيانا بأنها سورة « براءة » ، وهناك من يقول بأن السورة كلها محملة بالمعنى الذي يشيرون اليه .

والآيات الثلاث التي تضمنتها سورة « التوبة » هي :

« فإذا انسَلَخَ الأشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتُلوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُم وَخُذُوهم واحْصُرُوهُم واقْعُدُوا لَهُم كُلَّ مَرْصَدٍ . . » (من الآية ٥) .

« قَاتِلُوا الذين لايُؤْمِنُونَ باللهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ وَلايُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ ولايَدِينُونَ دِيْنَ الحَقِّ مِنَ الذين أوتُوا الكِتَابَ حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون » (٢٩)

« وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أنَّ الله مع المتقين » (من الآية ٣٦) . والأستاذ سيد قطب أبرز المعاصرين القائلين بأن سورة « براءة » في مجملها تشكل منعطفا حاسما في طريق علاقة المسلمين بغيرهم . فضلا عن أنه يعتبر أن أكثر آياتها تعبيرا عن ذلك المنعطف ، وتجسيدا له ، هي الآية (٢٩) التي تقول : « قاتِلُوا الذين لايُؤْمِنُونَ بالله . . . . » .

وفي تفسير « الظلال » ـ جـ ١٠ ص ١٥٦٤ ـ يبسط الأستاذ رأيه على النحو التالي :

* يقدم سورة « التوبة » التي هي في أواخر مانزل من القرآن الكريم ، باعتبار أنها تضمنت أحكاما نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض ، وجاءت تلك الأحكام على رأس أمور

أخرى تدور حول تصنيف وطبيعة المجتمع المسلم نفسه ، وفي التقديم عينه يقول : إن السورة بهذا الاعتبار ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للاسلام ومراحله وخطواته ، حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها ، مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها . وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج وعن مدى حسمه كذلك .

* يرى بعد ذلك أن السورة تتضمن عدة مقاطع ، الآيات الثماني والعشرون الأوليات منها تضمنت « تحديدا للعلاقات النهائية بين المعسكر الاسلامي والمشركين عامة في شبه الجزيرة العربية . . . أما المقطع الثاني « فقد تضمن تحديدا للعلاقات النهائية كذلك بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة . . وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدة وسلوكا بما يجعلهم في اعتبار الاسلام ليسوا على دين الله الذي نزله لهم والذي به صاروا أهل كتاب . ويعتبر أن هذا المقطع يبدأ بالآية ٢٩ التي أشرنا اليها قبل قليل .

* في السياق،استشهد بما أورده الامام ابن القيم في « زاد المعاد » حول ترتيب هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين ، حيث ذكر أن سورة (التوبة) أمرت النبي بأن يقاتل أعداءه من أهل الكتاب ، حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الاسلام وأمرته بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمرته بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم اليهم . . . . « فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول « براءة » على ثلاثة أقسام : محاربون له وأهل عهد وأهل ذمة . ثم آلت حالة أهل العهد والصلح الى الاسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربون وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب » .

بعدما أشار الى أن الأحكام التي تضمنتها سورة « التوبة » تعدل الأحكام المرحلية السابقة في السور التي نزلت قبلها قال : ان تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة ، بحيث لايجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة . . . ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي أن تحدد ـ عن طريق الاجتهاد المطلق ـ أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظل تلك الظروف .

* في ختام تقويمه للسورة ، يهاجم الأستاذ سيد قطب الذين يتمسكون بتلك « الأحكام المرحلية » ويعتبرونها من المواقف الثابتة للاسلام في العلاقة مع الآخرين . . وفي هذا الصدد يقول : ان المهزومين في هذا الزمان . . . يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التي يقوم عليها الانطلاق الاسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد ، وردهم جميعا الى عبادة الله وحده ، وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير الله والخضوع لسلطان غير سلطانه ، والتحاكم الى شرع غير شرعه .

ويضيف ، أن هؤلاء المهزومين ، يقولون مثلا : ان الله سبحانه وتعالى يقول : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » الأنفال (٦١) ، ويقول : « لَايَنْهَاكُم اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيَارِكُم أَنْ تَبَرُّوهُم وَتُقْسِطُوا إليهم » الممتحنة (٨) ، ويقول : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُم وَلَاتَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » البقرة (١٩٠) ، ويقول عن أهل الكتاب : « قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا الى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم أَلَّا نَعْبُدَ إلا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَايَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون » آل عمران (٦٤) .

ثم يقول الأستاذ قطب ان المهزومين يستندون الى أمثال تلك الآيات ليخلصوا منها الى أن الاسلام لايقاتل الا الذين يقاتلون أهل دار الاسلام في داخل حدود هذه الدار ، أو الذين يهددونها من الخارج . . ومعنى ذلك في تصورهم المهزوم أن لاعلاقة للاسلام اذن بسائر البشر في أنحاء الأرض ، ولاعليه ان يعبدوا ما يعبدون من دون الله . . وهو سوء ظن بالاسلام وسوء ظن بالله سبحانه » (ج ١٠ ص ١ ١٥٨) .

وهنا يكرر أن تلك نصوص مرحلية تواجه واقعا

معينا اذا تكرر في حياة الأمة الاسلامية فانها تطبق ولكن ليس معنى ذلك أن تلك النصوص هي موقف الاسلام النهائي والثابت ، بمعنى أن مختلف نصوص المسالمة والحرب الدفاعية ورفض العدوان ماهي الا « تاكتيك » اسلامي مؤقت ، بينما الاستراتيجية هي تلك التي أنزلت في سورة « التوبة » ومن قبلها سورة « الأنفال » التي تناولت قضية الجهاد وعالج الاستاذ قطب في تفسيرها ما أسماه « المنهج الالهي في الجهاد المطلق » .

يمضي الاستاذ سيد قطب في تفسير آيات سورة « التوبة » من منطلقه هذا ، ويخص الآية (٢٩) التي تدعو الى قتال أناس من أهل الكتاب حددت مواصفاتهم باهتمام ملحوظ . فيذكر أن الآية « ومالاها » عامة في لفظها ومدلولها وهي تعني كل أهل الكتاب في الجزيرة العربية وفي خارجها ويقول ان الأحكام التي يتضمنها هذا المقطع تحتوي تعديلات أساسية في القواعد التي كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ، وبخاصة النصارى منهم .

والتعديل البارز في هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة الا على هذا الأساس . . أساس اعطاء الجزية . وفي هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمي المعاهد ، ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين . .

« انهم لايكرهون على اعتناق الاسلام عقيدة ، فالقاعدة الاسلامية المحكمة هي : لا اكراه في الدين . ولكنهم لايتركون على دينهم الا اذا أعطوا الجزية وقام بينهم وبين المجتمع المسلم عهد على هذا الأساس . .

« وهذا التعديل الأخير في قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لايفهم على طبيعته الا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية ، ثم لطبيعة المنهج الحركي الاسلامي ، ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة ، المكافئة للواقع البشري المتغير من الناحية الأخرى .

« وطبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية هي عدم امكان التعايش الا في ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة ، قاعدتها ألا تقوم في وجه الاعلان العام الذي يتضمنه الاسلام لتحرير الانسان بعبادة الله وحده والخروج من عبادة البشر للبشر ، أية عقبات مادية من قوة الدولة ، ومن نظام الحكم ، ومن أوضاع المجتمع على ظهر الأرض ! . . . ذلك أن منهج الله يريد أن يسيطر ، ليخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . . » - انتهى .

يتفرد الاستاذ قطب بين أعلام المعاصرين بموقفه هذا ، بينما يخالفه أبرز فقهاء مصر في القرن الأخير ، من محمد عبده ورشيد رضا ، الى الشيخ محمد الغزالي ، مرورا بالشيوخ الخضري وشلتوت وعبد الوهاب خلاف ودراز . ولولا المكانة الخاصة والبارزة التي يحتلها مفكرنا الكبير ، ولولا تأثيره على قطاعات عريضة من الاسلاميين ، لَعُدّ كلامه في هذه النقطة شذوذا لاينبغي الانشغال به فضلا عن مناقشته.

فالشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » يشير الى أن آية السيف تتراوح بين الآية الخامسة من سورة « التوبة » الداعية الى قتال المشركين بعد انتهاء الأشهر الحرم ، والآية (٣٦) التي تدعو الى قتال المشركين كافة كما يقاتلون المسلمين كافة.ويلتقي مع الاستاذ قطب في كونها غير ناسخة لغيرها من الآيات . ويستشهد بما قاله السيوطي من أن أيا من الآيتين ليس ناسخا لغيرها من الآيات التي تتناول علاقة المسلمين بالمشركين . ولكن كل منها تقرر حكما يسري في ظرف معين .

غير أن الشيخ رشيد رضا انحاز الى الرأي القائل بأن الدعوة الى مقاتلة المشركين هي رد على مبادأة المشركين بالقتال . وأن المقصود بالآيتين مشركو جزيرة العرب . وليس كل مشركي الأرض .

في تعليقه على الآية (٢٩) الخاصة بأهل الكتاب فان صاحب المنار وشيخه الامام محمد عبده يذهبان الى أنها لاتمثل ذلك المنعطف الحاد الذي عبر عنه الاستاذ سيد قطب من حيث أنها نزلت في قتال أهل الكتاب ، وأن نزولها جاء تمهيدا للكلام في غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب بالشام والخروج اليها في زمن العسرة والقيظ ، فضلا عن أن المقصود بها ليس كل أهل الكتاب ، ولكنْ فريق منهم له شروط أربعة معينة ، ذكرتها الآية الكريمة

هنا يذكر الشيخ رشيد نقلا عن الامام محمد عبده « أن القتال الواجب في الاسلام ، انما شرع للدفاع عن الحق وأهله ، وحماية الدعوة ونشرها . ولذلك اشترط فيه أن يقدم عليه الدعوة الى الاسلام » .

ويعقب على الآية قائلا انها تعني : قاتلوا - هذا الفريق من أهل الكتاب - عند وجود مايقتضي وجوب القتال . كالاعتداء عليكم أو على بلادكم ، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم ، أو تهديد أمنكم وسلامتكم ، كما فعل الروم ، فكان سببا لغزوة تبوك » - (تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٥٥) .

بهذا المفهوم ، لاتمثل الآية الكريمة تلك النقلة الواسعة في مسار الدعوة الاسلامية التي استخلصها منها الاستاذ سيد قطب . ولاتعد تعبيرا عن موقف جديد ، كما أنها لاتعكس تعديلا في موقف الاسلام من أهل الكتاب . انما هي استمرار للموقف الثابت في تلك الآيات التي وصفها أستاذنا الجليل ، كما وصفها آخرون سبقوه ، بأنها مرحلية ، تعالج ظروف الاستضعاف التي تمر بها الدعوة .

ان الأمر بقتال أهل الكتاب على النحو الذي أشارت اليه الآية الكريمة ، لايطوي صفحة ولايبدأ صفحة جديدة ، ولكنه توجيه الهي متصل الحلقات بما سبقه من توجيهات ، واجب التطبيق اذا ماتوفرت شروطه ، وأهمها أن يشكل هذا الفريق من أهل الكتاب عدوانا أو خطرا على مجتمع المسلمين وعقيدتهم ، لايكون هناك سبيل الى رده الا بالقتال .

وربما كان أقوى بيان في هذا الموضوع ، هو ماتضمنه الكتاب الذي صدر مؤخرا في الجزائر ، للشيخ محمد الغزالي ، بعنوان « جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج » . ويشكل تفنيد دعاوى القائلين بآية أو آيات السيف محورا أساسيا في ذلك الكتاب . بل اننا نستشعر من مقدمة المؤلف للكتاب أن الرد على منطق هؤلاء هو دافعه الأساسي لإخراجه .

فنحن نلمس منذ السطور الأولى للكتاب رفضا قاطعا وحاسما للشيخ الغزالي لأمور ثلاثة :

فكرة أن حروب الاسلام هجومية وليست دفاعية - وأن الأحكام التي نزلت في شأن أهل الكتاب قبل سورة « التوبة » مرحلية أو منسوخة - وأن آيات سورة « التوبة » تحدد موقفا جديدا أو تشكل موقفا مستجدا للاسلام من أهل الكتاب .

في هذا المعنى يقول : من علماء الدين وقراء الكتاب العزيز ، من لم يتذوق أدب الحوار الطويل مع المخالفين ، فتجاوز الآيات التي أربت على المائة ، وزعم أن الاسلام قام من البداية باستعمال العصا الغليظة في التعامل مع خصومه ، وأنه اذا كان قد هادنهم يوما فلضرورات موقوتة ... ! ثم شرع يجتاحهم بعد ذلك دون هوادة ...

ثم يضيف : قرأت لنفر منهم كلاما طويلا في أن الاسلام دين هجومي ، يضع خططه للحرب لا للسلم ، وشعرت بتحريف الكلم عن موضعه من ناحية ، وبتناول الوقائع دون أدنى وعي بملابساتها من ناحية أخرى . (ص ١٩) .

واشارة الشيخ الغزالي مقصود بها - كما ذكر - الشيخ تقي الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير الاسلامي الذي كتب يقول « ان قول الرسول عليه الصلاة والسلام وفعله يدل دلالة واضحة على ان الجهاد هو بدء الكفار بالقتال لإعلاء كلمة الله ولنشر الاسلام » .

وهو يوضح موقفه قال : ان فن الدعوة يحتاج الى ألوف من الأذكياء الاتقياء ، يأخذون طريقهم الى الأفئدة والعقول بلباقة ورفق . فاذا اعترض السيف هؤلاء برز من جانبنا سيف يناوشه ويعيده الى غمده ، ويترك الحكم للمنطق والأدب ، لا لغرائز السباع .

وأضاف أن الاضطراب الفكري انتقل الى نصوص الكتاب والسنة ، فاذا تيار الفوضى يلغي باسم النسخ نحو ١٢٠ آية قرآنية . ويعوج بمفهوم آيات أخرى . ويخرج الاسلام للناس في صورة دميمة (ص ٢٤) .

ومن الملاحظات المهمة التي يبديها الشيخ الغزالي في هذا الصدد قوله ان « مبدأ المعاملة بالمثل كان من وراء أحكام فقهية وصفت بأنها شرعية . والواقع أنها لم تقم اعتمادا على نص ، وانما قامت على القصاص مما ينزل بالمسلمين » - ص ٨٧ .

وهو في هذه الملاحظة يبرز أهمية التاريخ في صياغة موقف الفقهاء والدعاة ، وفي التأثير على الاجتهادات المتعلقة بموقف المسلمين من الآخرين ، وهي اجتهادات نبعت من انفعال بما تعرض له المسلمون من عنت واضطهاد ، دون أن تكون مستندة

بالضرورة الى نصوص شرعية ، ولاملتزمة بمقاصد الشريعة ، وبعض اجتهادات ابن القيم الجوزية في كتابه « أحكام أهل الذمة » شاهد على مانقول ، خصوصا ماتعلق منها بختم رقاب أهل الذمة وتمييز دورهم وثيابهم ونعالهم .

ينفي الشيخ محمد الغزالي بشدة أن ثمة شيئا حقيقيا في القرآن الكريم يمكن أن يطلق عليه آية السيف . ويبدي تعجبه من اطلاق هذه التسمية في فصل بعنوان « مايسمونه آية السيف » . وهو يركز في ذلك الفصل على سورة « التوبة » التي هي موضوع الجدل - وعنها يقول : ان ناسا من المفسرين عفا الله عنهم - لم يعيشوا في جو السورة ، ولم يدركوا مواقع النزول ، ولم يربطوا الحكم بحكمته ، زعموا أن هذه السورة ألغت كل ماسبقها من آيات الدعوة والمسالمة ، وأنها أحلت العنف مكان اللطف ، والاكراه مكان الحرية . وبهذا القول الجزاف نسخت مائة آية نزلت من قبل في أسلوب الدعوة » .

ويضيف : سمعت من يحتج بالآية « وقاتلوا المشركين كافة » ، فقلت له : ألا تكملها ؟ أليس بعدها . . « كما يقاتلونكم كافة » ؟ . . فأين في الآية الدعوة الى الهجوم وإعمال السيف في الناس ؟

ثم يقول : يشيع بين المفسرين أن آية السيف نسخت ما جاء قبلها . وعند التحقيق لا يوجد مايسمى آية السيف ، وانما هناك جملة من الآيات في معاملة خصوم الاسلام ، أو في مقاتلتهم أحيانا ، لأسباب لايختلف المشرعون قديما وحديثا على وجاهتها ، وعلى أنها لاتنافي الحرية الدينية في أرقى المجتمعات ! (ص ١٠١) .

وهو يمضي مع السورة من بدايتها ، خاصة المواضع التي تعرضت فيها للمشركين وأهل الكتاب . بالنسبة للمشركين فانه يلفت النظر الى أن سبب البراءة من عهودهم والدعوة الى قتالهم ليس كونهم مشركين ، لكن كونهم معتدين وناكثين بعهودهم ، وهؤلاء على وجه الخصوص من نزل فيهم قوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهُرُ الحُرُم فاقتُلُوا المشركين حيث وجدْتُموهم » (التوبة - ٥) ، ويعقب على الآية قائلا : يأتي عقل مفسر فيقول ان المقصود بهذه الآية كل كافر على وجه الأرض ، أساء أم أحسن ، وفى أم غدر ، ظلم أو أنصف . . ثم يطلق على الآية المحددة : آية السيف ! . . ويلغي بها مائة آية في العرض الهادىء والجدال الحسن والوعظ البليغ !

ويستطرد قائلا : ثم تظهر في عصرنا الأسود طوائف من الشباب الأغرار ، تحمل العصي ، وتزعم أن الاسلام دين هجوم ، وتريد أن تقاتل رواد الفضاء !

وهنا يتساءل : أكذلك يخدم دين قوامه العقل ، وأساسه النظر الذكي والمنطق الرزين الرتيب ؟ (ص ١٠٣) .

أما في شأن أهل الكتاب - وعلى الأخص الآية ٢٩ من سورة التوبة - فإن الشيخ الغزالي ينطلق في فهمها من نفس منطلق الشيخين محمد عبده ورشيد رضا ، من حيث أنها تدعو الى قتال فئة من أهل الكتاب ، وليس كل أهل الكتاب،اعتدوا على المسلمين أو ظاهروا المعتدين (ص ١٩٨) .

ولكي يعزز رأيه فان الشيخ الغزالي خصص فصلا بعنوان « تأويلات الجاهلين » ، عرض فيه لآيات التعامل مع الآخرين من غير المسلمين كافة ، التي قال البعض انها نسخت ، وقال آخرون انها مرحلية ولاتعبر عن موقف الاسلام الثابت من الغير ، وقد حصرها شيخنا في ١٢٠ آية موزعة على ٤٨ سورة في القرآن الكريم .

لقد استعرض الآيات واحدة واحدة ، ونفى عنها النسخ أو المرحلية ، مثبتا أن الأصل في الدعوة هو المسالمة والتعاون على البر وخطاب العقل والضمير ، والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبعد ذلك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، بنص القرآن الكريم ، وحساب الجميع على الله سبحانه ، يوم يلقونه . أما القتال والسيف ، فهو في منهج الرسالة سبيل الى رد العدوان وصد الفتنة ، وليس أسلوبا في التبليغ والدعوة .

والكتاب بهذا المفهوم ، خطوة مهمة باتجاه تصحيح العلاقة مع الآخر ، بعد التشويه الذي أصاب بعض جسور تلك العلاقة ، في تأويل النصوص ودعاوى نسخها أو مرحلية العمل بها . وهو تصحيح مطلوب بالحاح لفض اشكالية الآخر في التفكير الاسلامي ، وان كان للاشكالية جوانب أخرى مازالت جديرة بالمناقشة . □

ساعة زرقاء

للشاعر : جوتفريد بن

بقلم : الدكتور عبدالغفار مكاوى

هل يستطيع الشاعر أن يلوذ بمركب القصيدة ليشدو بأغنيته النشوى فوق الطوفان ؟ هل يمكنه أن يجد النجاة في الفن والشكل الناجح بعد ان عزت عليه النجاة في العالم المخيف وتأكد من أن الشعر لايغير الواقع ولا ينفع المجتمع ؟ أم تراه ينتهى بتجربته الشعرية الساحرة المثيرة الى طريق مسدود ، ويخدع نفسه عن الأزمة الحقيقية بأزمة شكلية فيهرب من العدم الى عدم آخر ؟ .

ساعة زرقاء ، مظلمة شاحبة مرت كالطيف لتنضم الى أطياف . صمت ينمو وينتشر ويتفكر مع نفسه ، يتفكر في صمته ووحدته مع الورود الأخيرة التى تركتها محبوبة غابت ، محبوبة أبيض شعرها ، وأصبحت كالثلج المنهار ، وابيضت أعضاؤها ، وصارت كالورود المتشحة ببياض الموت ، لم يبق منها الا بهجة الحمرة على الفم ، والارجوان والأزاهير التى تتدفق عليها من نبع الأسلاف . الاحلام انقضت ، والساعة الزرقاء مرت كما تمر الساعات بلا عودة ، والحبيب المتوحد مع يأسه ومرارة ذكرياته يسأل المحبوبة التى صارت ملك انسان آخر : لم حملت الي الورود الأخيرة ؟ يسألها عن معنى هو وأنا وأنت ، عن كلمات قالاها لنفسيهما أو للغير ، وأصبحت كالعدم ، كل ماعاناه قد انتهى . وكل ماجربه قد فقد معناه ، وجاءت الساعة الزرقاء ، فتبدد الوهم وكذبت الأسطورة وانهار العالم ، ولم يتبق فيه الا الأنقاض والخراب ، ويغلق رتاج الباب ، وينفرد مع الصمت بين الجدران الصامتة ، ويمد بصره الى فضاء لانهائى بعيد ، فضاء عال وفي زرقة السماء ، ثم يمده الى

ماحوله ، فلايجد الا وحدته مع الغرفة الناصعة الأليمة . .
أخطو في الساعة الزرقاء المظلمة .
ها هو ذا المدخل الرتاج يتغلق .
وفي الحجرة تبدو الآن حُمرة على فم .
ووعاء ورود أخيرة ـ
أنت ! . .
كلانا يعلم أن تلك الكلمات .
التي كثيرا ماقلناها للغير وحملناها اليه ،
هي بيننا الآن كالعدم ، وليس لها من مكان .
هذا هو كل شيء ، وهو كذلك الملمح الأخير .
نما الصمت بيننا وانتشر .
وأخذ يملأ المكان ويتفكر مع نفسه .
لم يأمل في شيء ولم يتعذب بشيء ـ
في الساعة الزرقاء .
ووعاء الورود المتأخرة ـ
أنت .
رأسك تبدد ـ ابيض ويريد الآن أن يحمي نفسه .
بينما تتجمع البهجة كلها على فمك .
والأرجوان والأزاهير .
التي تتدفق عليك من نبع الأسلاف .
ماأشد بياضك ! تبدين كأنك ستنهارين .
كأنك ثلج خالص ! وقد تجردت من كل الأزهار .
أعضاؤك وردات في بياض الموت ـ
المرجان فوق الشفاه وحدها ،
ثقيل وكبير كالجراح .
ما أشد شحوبك ، تتكلمين عن شيء ما ،
عن سعادة السقوط والاخطار
في ساعة زرقاء ، مظلمة زرقاء ،
وعندما مرت ، لم يدر أحد أنها كانت .
أسألك ، وأنت ملك انسان آخر :
لم حلت الى الورود الأخيرة ؟
تقولين : الأحلام تنقضي ، والساعات تمر ،
مامعنى هذا كله : هو وأنا وأنت ؟
كل مايبدأ ، يريد كذلك أن ينتهي من جديد :
كل ماتجرب ـ من ذا الذي يعلم على وجه التحديد ،
الرتاج يغلق ، ونصمت بين هذه الجدران ،
وهنالك الفضاء البعيد ، عال وفي زرقة السماء .

أجواء شاحبة

هل يمكننا أن نصف القصيدة التي قرأناها بأنها قصيدة حب ؟ الا نفتقد فيها ماألفناه في قصائد الحب التقليدية من العواطف الدافئة ، والكلمات الشجية ، والتشبيهات والأوصاف التي يطلقها المحب الغارق في حمى تعاسته أو سعادته ؟ ألا نفتقر كذلك الى مانسميه الوحدة العضوية للقصيدة ، اذ تستبدل بها شذرات متقطعة من الصور الخاطفة ، والعبارات الممزقة ، والكلمات المقتصدة الحيية ، كأنها الرموز أو الشفرات المجردة ؟ ألا تعكس في النهاية صورة عالم منهار ، عالم لايسكنه الا العدم أو الصمت ، عالم سفلي اذا شئت ، . . يهبط اليه الشاعر هبوط المغني الأسطورى أورفيوس ليستنقذ حبيبته « أوريريديكه » من ظلمات « هاديس » بقوة اللحن وعذوبة الغناء ؟ أم أن الشاعر الحديث يناجي حبيبته الغائبة من عالمه الواقعي الذي أصبح في ظلام عالم الموتى كما رسمته أساطير الاغريق ؟

لنؤجل الاجابة عن هذه الأسئلة التي تضعنا في قلب الشعر الأوروبي المعاصر بكل غرائبه واشكالاته ، حتى نتعرف على شاعرنا « جوتفريد بن » الذي يذكر في سياق واحد مع أشهر أعلامه المجددين ابتداء من بودلير ، ورامبو ومالارميه وفاليرى الى لوركا والوار وأنجارتي والبرتي واليوت وباوند ، بجانب تأثيره الضخم على حركة الشعر والنقد الجديد لدى الجيل المعاصر من مواطنيه . .

شاعر مجدد

ولد جوتفريد بن في شهر مايو من سنة ١٨٨٦ في بلدة مانسفيلد ، ومات في شهر يوليو سنه ١٩٥٦ في

مدينه برلين التى قضى فيها معظم حياته ، درس علم اللغة واللاهوت في جامعه ماربورج ، ثم تحول الى دراسة الطب في جامعه برلين ، وظل طوال حياته يمارس مهنة الطب التى الهمته عددا كبيرا من عيون قصائده المبكرة ، التى تصدم القارىء بفظاعتها وبشاعة صورها ، اذ ترد عقل الانسان وروحه الى الجسد ، وترد الجسد الى مجموعة من الأعراض والأمراض والأورام والقروح والجروح ، وكأنما خلا الانسان من كل معنى أو مضمون وترك نهبا لعالم عدمي ينهشه العفن والتحلل والفساد . ولابد أن تجاربه التى مربها في أثناء الحربين العالميتين قد زادت من احساسه بالعدمية ، اذ خاضها كطبيب عسكرى مختص بالأمراض الجلدية والتناسلية ، ولعله لم يستطع أن يتخلص من نظرته العدمية الا في انتاجه المتأخر ، عندما واجهها بقوة الابداع والخلق والايمان ، بأن الشكل الفنى الكامل هو الحقيقة الوحيدة المطلقة التى يمكن أن يلوذ بها الشاعر في وحدته ويأسه .

يبدو أن النزعة العدمية التى سادت شعر « بن » في مرحلته التعبيرية الأولى قد بدأت منذ صباه : « انتزع منى الموت في فترة مبكرة كل مارتبط به شبابى ، كلفنى ذلك الدم والدموع ، غير أنى أصبحت بعد ذلك وحيدا » وقد تأثر في بداية حياته بنيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ، بل ربما حاول أن يتقمص شخصيته وينطق بلسانه . فالفيلسوف المشهور الذي كان أشبه بالطائر الذي يسبق العاصفة ، وينبىء عن الكارثة ، قد واجه عدمية عصره وزلزله بكلمته المخيفة«وأعلن أن الانسان الذي يعايشه - انسان العقل والمنطق والعلم والكتب والثقافة - انسان منقرض لامحالة ، ولابد أن يحل محله انسان أعلى جديد ، يؤكد ارادة الحياة والقوة ، ويجددها بالخلق والمغامرة والشجاعة ، ويضع قيما جديدة تبارك الارض والحياة بدلا عن القيم المنهارة . يقول عنه « بن » ، لقد حطم نيتشه كل شيء في سبيل هدف واحد : أن يجعل الحطام يتوهج بالشرر ، بصرف النظر عن كل خطر ممكن ، أو أي نتيجة ممكنة فكان وجوده في نزوعه المشبوب الى التعبير عن نفسه،الى التشكيل والصياغة،الى أن يتوهج ويعشى الابصار » . .

أعراض باقية

لم تقدم الحياة لـ « بن » كما لم تقدم لنيتشه غير صور التحلل والفساد ، وانهيار القيم التقليدية ، وتدمير الحقيقة باسم العلم والعقل والتقدم ، واللهاث وراء المعرفة الموسوعية الزائفة . اختفى الانسان الحقيقى ، فلم يعد له وجود ولم يعد لوجوده معنى اذا كان العالم قد استحال الى ركام وأنقاض ، واذا كان الانسان الحقيقى قد اختفى من الوجود ، أو أفرغ من كل مضمون ، واذا كان الاتصال بالحقيقة المتعالية قد أصبح مستحيلا في هذا العماء الشامل ، فلم يعد أمام الشاعر الا أن يواجه العدم ، ويعرفه ويشخص أعراضه ويتعذب به ، لم يعد أمامه الا أن يصور تاج الخليقة في صورة خنزير مذبوح ، أو في صورة خليط مضطرب لو انتزعت منه الأسنان ، والغدد ، والأمعاء ، والرحم ، لما تبقى منه الا شكل ممزق الأشلاء . . عندئذ يصبح الكلام عن الانسان وكأنه الكائن الأسمى مجرد ثرثرة لا غناء فيها ، كما تصبح الايديولوجيات أو النظم الفكرية التى تصوره على هذه الصورة مجرد تعمية عن الحقيقة القاسية التى تقول اننا لسنا كائنات سامية ، ولسنا بالجنس الذي يتطلع للخروج من الظلام الى النور .

ويتدخل علم الطبيب المختص بالأمراض الجلدية والتناسلية في رسم هذه الصورة البشعة للانسان فيولد شعر يوصف بشعر الجثث والأمعاء ، ويزدحم بصور الأمراض والأوجاع والندوب والأورام ، كما يمتلىء بمصطلحات طبية وعلمية متخصصة ، بجانب كلمات مستمدة من لغة الشارع ولهجة العوام،كل ذلك في أسلوب تهكمى مرير ، بارد وقاس وحاد ، كأنه مكتوب بمبضع الجراح .

ولو قرأنا بعض قصائده التي كتبها في هذه المرحلة التعبيرية الصارخة ، لتصورنا العالم معرض أمراض وآلام ، وصدمتنا اللغة الباردة المغلفة بالتهكم المرير ، من شذوذ الوجود البشري وتحلله ، ولأحسسنا مع ذلك بأنها لا تخلو من عاطفة غنائية حالمة بوجود آخر يشيع فيه الصفاء والنقاء « الرومانتيكي » ، على الرغم من مقاومة الشعراء المعاصرين لكل عاطفة أو لغة رومانتيكية ! لنقرأ معا هاتين القصيدتين اللتين تعبران عن العدمية المطلقة ، والقصيدة الأولى تحمل هذا العنوان الدال : رجل وامرأة يمران في عنبر السرطان :

الرجل : هنا على هذا الصف أرحام عفنة .
على هذا الصف صدور مهترئة .
سرير كريه الرائحة بجوار سرير .
الممرضات يتغيرن كل ساعة .
تعالي ، ارفعي هذا الغطاء بهدوء .
انظري هذه الكومة من الدهون والسوائل العطنة .
كانت يوما في نظر رجل شيئا ذا بال .
وكانت أيضا تسمى نشوة ووطنا .
تعالي ، تأملي هذه الندبة على الصدر .
هل تحسين المسبحة وحباتها الناعمة ؟
تحسسيها على مهل . اللحم طري ولا يؤلم .
هذه تنزف كما ينزف ثلاثون جسدا .
مامن أحد لديه كل هذا الدم .
وهذه . لقد استطاعوا أن يخرجوا طفلا
من بطنها المصاب بالسرطان .
أنهم يوصونهم بالنوم ليلا ونهارا .
يقولون لكل قادم جديد :
بالنوم يسترد الانسان صحته .
وفي أيام الآحاد يوقظونهم قليلا لاستقبال الزائرين
يسمحون لهم بطعام قليل .
الظهور جريحة . الذباب كما ترين .
في بعض الأحيان تغسلهم الممرضات .
كما تغسل الأرائك .

الواقع .. والعدم

واقعية لاشك فيها ، تكاد أن تقترب من النزعة الطبيعية المسرفة ، فالشاعر العظيم في رأي « بن » هو دائما واقعي عظيم ، انه مشحون بألوان مختلفة من الواقع وهو أرضي جدا ، ولكنه لايغلق أبوابه دون الأسرار الخفية والرؤى الملائكية ، وانما يوزعها بحذر شديد على أرضية واقعية صلبة ، هل نصدق كلام الشاعر وهو يصور لنا الواقع مزقا مهشمة ، لايجمعها معنى ولايتبين فيها أصل ولاهدف ؟ أليس هذا الواقع هو العدم والفراغ بعينه ؟

حقا لقد كساه بزجاج عقل بارد ، وهذا يشف عن عالم كل مافيه حطام وشظايا ، فهل وجد المعنى أو القانون الكامن وراء العماء ؟ هل توصل الى حقيقة عالية خلف القناع القاتم أو فوق الهاوية المظلمة ؟ .

لنؤجل الاجابة عن هذه الأسئلة الى أن نقرأ له قصيدة فلسفية من أهم قصائده ، والقصيدة بعنوان « أنا ضائعة » ، وتعد نموذجا للبنية في الشعر الحديث الذي اقتحم عالم الرياضيات والعلم الوضعي ، وطعم لغته بمصطلحات فنية ، كان يظن أنها غير شعرية على الاطلاق ، ولكنه طوعها لعالمه وأدمجها في ألحانه الغنائية المفعمة بالشجي والشجن :-

أناضائعة ، تفجرت من الغلاف الهوائي ،
الأيام تمضي بلا ليل ولاصباح .
السنوات تتوقف بلا ثلج ولاثمر .
اللانهائية مهددة وخفية .
العالم مهرب .
أين تنتهي ، أين تقيم ، أين تمتد أفلاكك ،
نظرة الوحوش : النجوم أمعاء حيوانات .
موت الأدغال كأنه أصل الوجود والخلق .
بشر ، مجازر شعوب ، حقول كروم
تهوى الى حلوق الوحوش .
العالم فتنة الفكر ، والمكان والأزمان
وما نسجت البشرية وما أبدعت .

ليس الا دالة اللانهاية .
الأسطورة كذبت . . .
من أين ، الى أين ـ لا ليل ، لاصباح .
لاتهليل ولا حداد .
تود أن تقترض شعارا
لكن ممن ؟
آه لما انعطفوا جميعا الى مركز واحد .
ولم يفكر المفكرون الا في الله .
وتوزعوا بين الرعاة والحمل .
عندما طهرهم الدم المنسكب من الكأس .
والجميع اندفقوا من الجرح الواحد .
كسروا الرغيف الذي تذوقه كل من شاء .
آه أيتها اللحظة البعيدة القاهرة الممتلئة .
التي عانقت الأنا الضائعة ذات يوم . .

المعنى واللامعنى

قصيدة تليق بشاعر وحيد يعيش في عصر العلم والتقنية ، والمدن الكبيرة المزدحمة بالفراغ والعدم ! وهى غنية بمصطلحات العلم الغريبة الدقيقة .

غير أن التأمل الهادىء للقصيدة يكشف عن معنى يبحث عنه الشاعر وراء اللامعنى ، ويدل على حنين رومانتيكي أو صوفي ، الى أعماق وجود أو زمان أسطوري ، لم يفلح في كتمانه على الرغم من نزعته الشكلية والعقلانية المعادية لكل عاطفة رومانتيكية . .

انها باختصار حقيقة الخلق والابداع ، هى الفن الذي يمكن الانسان من تأكيد ذاته أمام العدم ويضمن له النجاة من الهاوية التى لانجاة منها في نهاية المطاف . . فالعدم في رأيه يتطلب الشكل ، ومن واجب الفن ـ وسط الانهيار الشامل للمعاني ـ أن يجعل من نفسه معنى ويجرب نفسه كمعنى ، وعليه أن يصوغ من هذه التجربة أسلوبا جديدا ، واذا كان القدر قد حكم على الشاعر بأن يولد وسط الوجود الغامض الملتبس ، وأن يدخل في هاوية الفردية التى تحف بها ظلال الموت المفزعة ، فان وضع الشاعر وواجبه تجاه العالم يفرضان عليه أن ينظمه ويصفيه بصياغته له ، وبذلك يرفعه فوق الواقعية الوحشية للطبيعة ، ويوجد فيه نظاما يتسم بالتقنين ، ومن ثم لايكون الفن مجرد زينة أو زخرف مضاف الى الحياة ، وانما يكون « النغم التى يطلقها الشاعر فوق الهاوية » وهكذا تنتصر القصيدة على العدمية ، ويتكثف العدم في الكلمة الشعرية والشكل المكتمل،ليصبح لحظة تأكيد للذات الشاعرة،وانتصاراً للحياة المبدعة: « ان نظامنا هو العقل ، وقانونه هو التعبير والتشكيل ، والأسلوب » .

ولو عدنا أخيرا الى لقصيدة التى بدأنا بها الحديث ، وهى الساعة الزرقاء لوجدنا أن النزعة الشكلية التى ارتبطت باسم « جوتفريد بن » لم تكن نزعة جمالية صرفة على طريقة الرمزيين .

فالشكل المعزول أو الشكل في ذاته لاوجود له في رأيه ، انه في نظره هو وجود الشاعر وهدفه ، وهو « مهمته الوجودية ـ ان صح هذا التعبير ـ وسط الوجود الخالى من المعنى والأصل والهدف ، هذا الشكل لاينفصل عن الايقاع ، لأن الايقاع هو العنصر الأساسى فيه ، وهو كذلك جزء من المحاولة الفنية ـ بل من المحاولة التى تكاد أن تكون دينية ـ للانتقال بالجمال الى الانسان ، أو لإضفاء الصيغة الانسانية على الجميل ، ولو تذكرنا قصيدة الساعة الزرقاء لوجدناها تحقق هذا الهدف الأخير ، فالشجن المتغلغل فيها قد تحول الى ايقاع وكلمات ، امتزج فيها العذاب بالموسيقا ، والعاطفة مع العقل ، والشكل الدقيق مع الحنين الأسيان ، الى حب مستحيل ، أو زمان اسطورى ضائع ، والكلمات نفسها ـ وهى كلمات مقتصدة كتوم ـ قد تحولت الى شفرات أو رموز تشير الى وجود يتمناه القلب ، وأسرار عزيزة على النفس ، وبعيدة عن اليدين ، وتجربة وحدة مفتقدة مع الذات والعالم ـ وهى تجربة يطمح الشاعر الى تحقيقها في القصيدة ، لأن الذات ماتزال ضائعة في العالم ، ولأن العالم مايزال هو العدم والحطام . □

قصة

الرغبة في الكلام

بقلم : محمد سمارة

لم يكن في ميسور المريض الراقد في سريره أن يرى الكوة المطلة في أعلى الغرفة المتعزلة ، إلا أنه استطاع بحركة صغيرة من جسده أن يرى لمعانا في السماء ، وجزءا من غيمة بيضاء تشبه الحمامة ، وهو يفعل ذلك ليبدد ثقل الصمت والوحشة الخانقة . وتمنى لو يتحول الى ضباب صباحي يدفعه الريح خارج النافذة ، حيث يستحيل الى قطرات لؤلؤية صافية .

حين غادر الغرفة كانت الشمس تطل من النافذة ، والساعة قد بلغت الثانية ظهرا .

وفي الحديقة الخارجية قعد على مصطبة خشبية ، تشرف على المدخل الرئيسي ، وكان العمال يتأهبون لفتح الأبواب الخارجية العالية . اندفعت مجموعة من الزوار باتجاه الممر الاسمنتي العريض ، فاختفت خلفهم النافورات الحجرية وأزهار الربيع ، لكن أشجار اليوكالبتوس ظلت شاخصة كالأعمدة .

وحين أقبلت الفتاة ، اخترقت صف الأزهار ، واستطاع المريض أن يميز قامتها القصيرة ، وحركتها المرتبكة على الممر الاسمنتي .

قالت وهي تقترب :

أنا آسفة ، أنا آسفة ، تأخرت عليك .

نهض المريض مصافحا ، فجلست الى جانبه لاهثة لكنك لم تتأخري كثيرا . نظرت في ساعتها : عشر دقائق ، عشر فقط ، كيف صحتك الآن ؟

ـ : كما ترين .

رمقت وجهه الشاحب واستكانة نظراته الخاوية ، ولم تقل شيئا ، ووضعت الى جانبها لفافة لم يرها المريض وهي تحملها . تمعن في وجهها البيضوي وثوبها الذي بدا بلون الخشبش ، وأشار الى اللفافة . ما هذا ؟

ـ: فواكه ومناديل ورقية وجوارب .

فتح فمه دهشا : لكنك لاتودين الانصراف الآن ؟

فابتسمت خجلة : كلا ، لكنني فكرت أنك تحتاجها الآن .

حاولت أن تخفي اللفافة تحت المصطبة ، واحتارت ما الذي تقوله في مناسبة كهذه .

ـ : هل صحتك في تحسن

ـ: لاأعرف . يقولون إن المرض في بدايته .

لاحظت الفتاة أن الجزء الأمامي من الحديقة قد امتلأ بالزوار ، وأن بعضهم قد افترش « البطانيات » ، وأخرج القدور . ابتسمت وأشارت إلى مجموعة نساء .

ـ: ما هذا ؟ هل هم يقيمون عرسا هنا ؟

ـ: ربما يحتفلون بخروج أحدهم . في الأسبوع الفائت خرج أربعة مرضى دفعة واحدة ، أحدهم ترك لي رسالة يقول فيها : أنا واثق أننا سنلتقي في

مكان ما ، على رصيف شارع ، ، أو على ضفاف نهر ، أو في موضع ما من الجبهة ، وستنظر في وجهي المعفر بالتراب ، وتقول ضاحكا : هل أصدق ما أرى ؟

قالت الفتاة : هل كان صديقك ؟

ـ: طبعا . كان المسكين سيء الحظ بشكل مدهش . تصوري طلب أكثر من فتاة للزواج ، وكان طلبه يرفض في كل مرة ، حتى بلغ مجموع طلباته خمسة ، وأخيرا قرر أن يراسل المجلات التي تنشر طلبات الزواج .

ضحكت الفتاة حتى دمعت ، عيناها ، ولما هدأت فكرت هل كان لائقا أن تضحك من موضوع كهذا ؟

أشارت الى الأرض : هل نجلس ؟ أعني على الحشيش ، إنه جاف ، ويبدو مغسولا كالثوب .

ـ: آه ، ذلك مطر الأسبوع الفائت .

:ـ هل تمطر هنا كثيرا ؟

:ـ ما الذي تعنينه ؟ صحيح أن المستشفى منعزل بعض الشيء ، لكن الأمطار التي تسقط هنا هي نفسها التي تسقط فوق بيتكم .

كتمت الفتاة ضحكتها ، ورمقت وجه المريض ، فأدهشها انطفاء البريق في عينيه فقالت : هل نمت جيدا ؟ أعني هل الأغطية كافية هنا ؟

ـ: طبعا .

: أمي تسلم عليك . تقول إن الروماتيزم لايرحمها هذه الأيام ، وإلا جاءتك بطائرة .

حاول المريض جاهدا أن يبتسم ، والفتاة تجلس الى جانبه بشكل مائل ، تاركة ثوبها الطويل حولها في هيئة دائرة . لقد أفرحه أنها تبدو أجمل من المرة التي رآها فيها قبل أن يدخل المستشفى . قال :

ـ: لماذا كنت مترددة ؟ أعني مرتبكة وأنت تقبلين من بعيد ؟

ـ: إنني لم أعتد أن أراك هنا . ثم هل كنت تتوقع أن أندفع إليك معانقة فيرانا الناس ؟

ارتبك المريض ، وشعر أنها على صواب ، وأعجبه شعرها الذي انعكست عليه أشعة الشمس فبدا كالأسلاك الذهبية ، ولاحظت الفتاة ذلك قالت :

ـ: هل أعجبك شعري ؟ لقد قصصته على « الموضة » . أمي تقول إنها رأت مثل هذه التسريحة في احدى المجلات ، وهي تتمنى لو فعلت مثلها ،



لكنها لاتناسب امرأة فوق الخمسين ذات شعر أبيض .

ابتسمت الفتاة وأسعدها أن يبتسم المريض دون تكلف . وراقبت مجموعة أطفال يتقافزون بين النافورات الحجرية والأزهار .

قالت : مكان رائع .

ـ: طبعا ، لكنني أستيقظ على ضياء الشمس ، وصخب الردهات كالميت .

ـ: لماذا ؟ هل يعاودك ألم الصدر كثيرا ؟

ـ: أحيانا ، لكن تلك الحبوب الصفراء تجعل صدري كالطبل الأجوف .

ـ: لماذا ؟

ـ: عندما أسعل أشعر بوخز في صدري ، وأشعر أنه فارغ الا من الهواء ، بعد آخر مرة أصابني نفس الشعور،سألت الطبيب فقال : ذلك أمر طبيعي لمن في حالتك .

تريث برهة ثم قال : لكنني أشعر بالاختناق كما لو كنت في بئر .

ـ: اصبر .

ـ: لقد صبرت ، وأنا أختنق ، فماذا أنتظر بعد ؟

ـ: يقول فؤاد إن بعض المرضى يتعلمون ـ لطول رقادهم ـ حرفة ، ويعرفون كيف يقتلون الوقت . انتبه فالمرضى كالسجناء .

تقطب وجه الفتاة ، وتمنت لو لم تعلن هذا الرأي ، وفكرت أنه يجب عليها مراقبة كلماتها بدقة . تأملت المياه وهي تندفع في ساقية صغيرة تجاه الأزهار والاشجار المخضوضرة ، وخطر لها أن تعد الأشجار الكبيرة حولها . قالت :

في المرة الماضية لم يسمحوا لي بالزيارة ، قالوا انني تأخرت نصف ساعة . فقال : أما زلت تنامين متأخرة ؟

قالت : كلا ، انه زحام الطريق .

قال : لكنك تسهرين عادة ، ولا تنامين إلا بعد انتهاء برامج التلفاز .

قالت : كان ذلك قبل شهور .

قال : والكلمات المتقاطعة ؟ أما زلت تصرين على حل آخر مربع فيها ، ولا تتركيها حتى لو كلفك ذلك أسبوعا من التفكير ؟

تضاحكت الفتاة كاشفة عن أسنان بيضاء منضودة ، ولمس كتفها في محاولة لقول شيء ، لكن ذاكرته انغلقت فجأة ، وظل صامتا ، ولمس كتفها ثانية ، واكتشف أن حذاءها ليس هو الذي اشتراه لها في أول لقاء . قال : هل أصلحت التلفاز ؟ أعني هل انتهى منه صاحب « الورشة » ؟

قالت : كلا . قال إنه لايساوي شيئا ، فاشتريت آخر جديدا . يقول فؤاد إنه سيقدم حسب الاتفاق ، هدية الزواج ثلاجة . وقبل أسبوع بعث رسالة من البصرة ، يسألني فيها عنك ، إنه لايعلم أنك هنا ، وطلب مني أن أهديك هذه الصورة .

فتحت حقيبتها التي تركتها باهمال الى جانبها ، وأخرجت صورة ، ما أن رآها حتى شهق بالدهشة .

ـ: يا إلهي ، أهذا الرجل العسكري فؤاد حقا ؟ ما هذه الشوارب الكثة الضاحكة ؟

كتب يقول إن الجبهة قد منحته فرصة للتأمل وإعادة التفكير فيما كتبه في مذكراته .

ـ: أما زال يكتب المذكرات ؟

ـ: أوه ، باصرار عجيب ، وهو يملك الآن أكثر من ثلاثة مجلدات ضخمة . لقد قرأت بعضها فهالني أنه يملك أسلوبا للكتابة ، أعني الكتابة الأدبية ، وقد أخذت بعضها ونشرتها في النشرة الجدارية لدائرتنا ، لكنه قال : إياك إن تكتشفي أسراري ثانية

: ما الذي يعنيه بالأسرار ؟

ـ: يقول إنه ينتظر نضوج الحالة تماما ، حتى لايجدوا لديه ثغرة عندما يصبح شهيرا . وقد أضاف معاتبا : لماذا لاتكفين عن قراءة أفكاري ؟

ـ: فعلا ، لماذا تصرين على قراءة أفكاره ؟

:ـ إنه أخي

ابتسم المريض كاشفا عن أسنان أكلتها السجاير ،

فقالت الفتاة :

أما زلت مدمنا على التدخين ؟

ـ: كلا . سيجارة واحدة في اليوم . لم يعد يعنيني مراقبة دخانها ، وتأمل حلقاتها كالشعراء . ولكن لماذا تصرين على قراءة مذكراته ؟

ـ: أوه . لقد اشترى أخيرا خزانة ومفتاحا وانتهى كل شيء .

ورفعت يدها ، وأبعدت خصلة من شعرها غطت عينها ، وفكرت في مدى دقة ما ستقول .

ـ: حين يشملني الصمت ، وأكون الى جانب النافذة وحيدة أجد نفسي مدفوعة برغبة خفية لقراءة مذكراته . يتنابني إحساس وأنا أقرأ عباراته الباهرة أنني في كهف مشحون بالرهبة والترقب ، وإذ يصيبني القلق تنفتح طاقة بيضاء في الجانب الآخر ، صدقني أن في كتاباته ما يشحن صدري بالرغبة في أن أكون معه .

ـ: أما زال يعشق الرسم ؟

ـ: أوه . لقد أصبح رسام الكتيبة بحق .

ـ: هل تذكرين ؟ كان يرسم وهو صغير ، ويملأ الشارع والحيطان والأبواب ، فاضطرت أمك إلى رشوته بالحلوى ليكف عن ذلك أولا ، ثم اضطرت الى الضرب أخيرا ليرتدع .

ضحكت الفتاة ، ولمست كتف المريض برفق وقالت : أما زلت تذكر ؟ كنت حينئذ تأتي إلينا خجلا ، وما أن تجلس على الكرسي حتى تختلق الأعذار للخروج . لماذا ؟

احمر وجه المريض ، وعجبت الفتاة أن يظل خجولا كفتاة . قالت :

وهل ستكتب له رسالة ؟

ـ: طبعا ، وسأعلق صورته العسكرية على جذع شجرة وارفة أو بين الزهور حيث تنساب المياه بسحر وسكون ، سأخبره أنه بعد حديثك عنه قد فجر في رأسي ينبوعا من الرغبة الساخنة لأن أغادر سريري ، وأعبر هذه الأسوار .

في بعض الليالي أظل راقدا ، أتأمل كلمات المريض الذي غادرني قبل أيام ، وأقول : لماذا كان واثقا أن صدفة ما ستجمعنا على رصيف شارع أو على ضفة نهر أو في موضع ما في الجبهة . هل يعني أن العالم صغير كما يقولون . ! أم أنه كان شاعرا ؟

وأحيانا تختفي اللهفة إلى تلك الصدفة ، وأقول متى يطرق بابي وألتقي بصديقي الذي زرع في صدري إحساسا كالنار ، في البصرة ، في بنجوين ، في العمارة حيث يمنحني الدوي والتوجس والصمت المريب شعورا بالديمومة والحياة ؟ وفؤاد ، يالفؤاد الرائع ، إنه يكتب كلماته بأظفار البندقية ، فتخرج الكلمات كالجمر ، أما أنا فلطالما حفرت بأظافري بحثا عن الكلمة ، فتخرج حروفا عنيدة ، بل لقد صارت الكلمات ضاحكة باكية ، بناء بلا هيكل . هل تصدقين ذلك ؟

توقف المريض عن الحديث ، وسعل سعالا خافتا ، وما لبث النوبة أن اشتدت . فجحظت عيناه ، وذعرت الفتاة ، وأسندته بكتفها مربتة على ظهره ، وبعد لحظة هدأ كل شيء . فقالت الفتاة : لماذا أجهدت نفسك ؟

ـ: خفت اللغط في الحديقة .

وأخذ بعض الزوار يغادرون . ونظرت الفتاة ساعة يدها فألفتها الرابعة ، وعجبت أن تمضي ساعتان بهذه السرعة ، ورمقت وجه المريض كالمعتذرة ، فأدرك الأخير ما تقصد ، فنهض ، ومد يده مصافحا ، ونهضت الفتاة خجلة : هل أجلب لك شيئا في زيارتي القادمة ؟

ـ: لا ، لاتخبريه أنني هنا ، لاأريده أن يكون مشغول الفكر .

ومد يده وصافحها ثانية ، وابتعدت الفتاة ، وسمع المريض وقع خطواتها هادئة على الممر الاسمنتي ، وتأملها طويلا قبل أن تجتاز البوابة الخارجية ، وكانت الشمس تختفي خلف شجرة قرب غرفته ، وشعر كم هو مؤلم أن يكون معزولا . □



جالينوس

أشهر أطباء التاريخ

بقلم : الدكتور حسن فريد أبوغزالة

من هو جالينوس الذي سيطر على الفكر الطبي وعلى عقول الأطباء من أهل زمانه ومن جاء بعدهم ، الى الحد الذي اضمحل معه البحث العلمي ، وتخلف الاجتهاد الطبي عبر العصور الوسطى ، حتى ان الكنيسة ومحاكم التفتيش كانتا بالمرصاد لمن يجاهر بمخالفته ؟

يقول ابن أبي أصيبعة الطبيب المؤرخ العربي في كتابه المسمى (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) عن الطبيب جالينوس ، الذي عاش في منتصف القرن الثاني للميلاد : -

« ان الذي قد علم من حال جالينوس واشتهرت به المعرفة عند الخاص والعام في كثير من الأمم ، أنه كان خاتم الأطباء الكبار المعلمين ، وأنه ليس يدانيه أحد في صناعة الطب ، فضلا عن أن يساويه ، وذلك لأنه عندما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السفسطائيين ، وامحت محاسنها ، فانتدب لذلك ، وأبطل آراء أولئك ، وأيد وشيد كلام أبقراط ،وآراءهوآراء التابعين له ، ونصر ذلك بحسب امكانه ، وصنف في ذلك كتبا كثيرة ، كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة ، وأفصح عن حقائقها ، ونصر القول الحق منها ، ولم يجىء بعده من الأطباء الا من هو دون منزلته ، ومتعلم عنه » .

ليس بين من كتب عن جالينوس وأرخ له من كان أبلغ وصفا مما تقدم في عرض موقع جالينوس في الفكر الطبي ، الذي ساد القرون الوسطى ، فكان المدرسة التي سار على هديها وتعاليمها أطباء القرون

الوسطى ، وفي طليعتهم أطباء العرب ، الذين يتزعمهم الرئيس ابن سينا وأبو بكر الرازي وغيرهم .

حتى كان عصر النهضة الحديثة والانفتاح العلمي ، ذلك أن زعامة جالينوس ، التي سادت طيلة ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، بحيث لم يجرؤ معها أحد على مناقضته أو الاعتراض على آرائه ونظرياته ... هذه الزعامة أخذت تضعف وتتزعزع حتى آل أمرها الى الانهيار ..

قال « ريو لان » أحد قادة العلم في القرن السادس عشر : -

« اذا شوهد اختلاف بين وصف لجالينوس وبين واقع الطبيعة وحقيقتها ، فانه لا مفر من التسليم بحدوث خطأ في الطبيعة نفسها لا في آراء جالينوس » .

الزمان والمكان

ولد كلوديوس جالينوس في بلدة تسمى برجاموم اليونانية ، وهي من أعمال آسيا الصغرى ، تعرف اليوم باسم برجام وتقع شمالي أزمير ، وذلك عام ١٣١ بعد مولد السيد المسيح عليه السلام .

وبرجاموم ، التي يحلو للبعض أن يسميها برغامون ، بينما أطلق عليها العرب القدامى اسم برغاموش ، كانت مدينة جميلة ، بل ربما كانت أجمل مدن الاغريق ، كما قيل عنها ، اذ كانت تقع في موضع يطل على بحر إيجه .

ولد جالينوس لأب احترف الهندسة ، وقد تولى تربيته وتهيئته لدراسة الفلسفة ، واليك ما يقوله جالينوس عن نفسه وعن أسرته :

« ان أبي لم يزل يؤدبني بما يُحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات ، مما يؤدب به الأحداث ، حتى انتهى بي العمر الى خمس عشرة سنة ، وبعدها أسلمني الى تعلم المنطق ، وقصد بي الى تعلم الفلسفة وحدها ، ولكنه رأى في منامه رؤيا دفعته الى تعليمي الطب ، فدفعني اليه ، حتى أتممت سن السابعة عشرة » .

وعلى ما يبدو فان جالينوس كان معجبا محبا لأبيه كارها لأمه ، لهذا قال في موضع آخر : -

« كان أبي هادئا ومحبا وشريفا ، بينما كانت والدتي سيئة الخلق ، تعضّ الخدم » .

وهكذا مضى جالينوس في تعلم الطب ، فتنقّل بين البلاد بدءا بأزمير ، حيث تلقى العلم على يد طبيب مشهور في ذلك الزمان يدعونه بيلوبس Pelops ، ثم توجه بعدها الى بلاد اليونان ، ومن ثم الى فينيقيا وفلسطين وجزيرة كريت وقبرص ، حتى انتهى الى مدينة الاسكندرية .

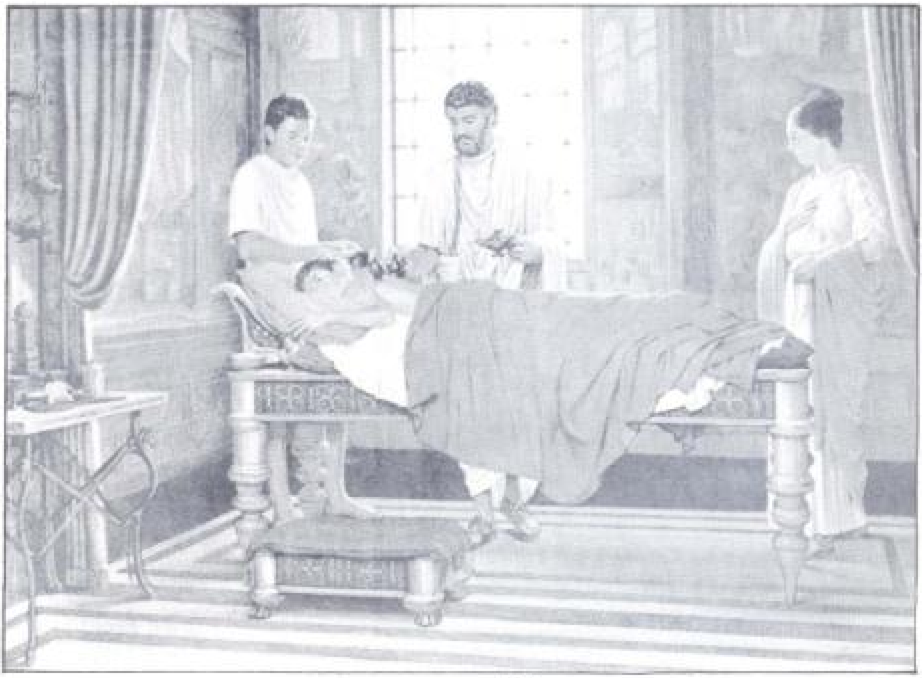
وفي جامعة الاسكندرية درس جالينوس التشريح ، حيث درج الأطباء على تشريح أجسام القرود (قردة باربرى بالتحديد) وعلى التسليم بأن كل ما يصدق على أجسام القرود يصدق أيضا على أجسام البشر . ولطالما ارتكبوا الأخطاء الفادحة تبعا لالتزامهم هذه القاعدة .. ولعل تعذر تشريح الأجسام أو الجثث البشرية في تلك الأيام كان العامل الرئيسي الذي حال بين جالينوس وبين التشريح .. وحال دون اتقانه ...

لم يمكث جالينوس مدة أكثر من خمس سنين في مدينة الاسكندرية ، لعدم قناعته بالدراسة هناك ، أو كما قال في أحد كتبه : -

« ان فن الطب كان يُدرسه الجهلة لجماهير من الصبية الصغار ، لم يبلغوا الرابعة عشرة من عمرهم ، وهم لم يقتربوا من مريض قط ، وانما كان عن طريق المحاضرات النظرية » .

جراح المصارعين !

عاد جالينوس بعدها الى بلده برجاموم ، ليمارس مهمة جراح المصارعين الرسمي ، حيث نجح نجاحا منقطع النظير ، فذهب بعدها الى روما ، حيث ذاع صيته واشتهر ، لدرجة أن عينه الامبراطور الروماني ماركوس أوريليوس طبيبا خاصا ، ولكن جالينوس الذي حظي بتقدير الاباطرة واحترامهم .. لم يحظ



الكشف على مريض

يمثل ذلك من زملائه الأطباء . . فقد تعالى عليهم وتطاول في الكلام ووجه الى بعضهم من النعوت والصفات ما لا مجال لذكره هنا . . حتى كرهوه وثاروا عليه وتآمروا على قتله . . الأمر الذي دفعه الى الهرب من روما والعودة الى بلده برجاموم . . حيث عاش بقية حياته . . .

ان اسم جالينوس هو النطق العربي لهذا الطبيب المتميز ، بالرغم من أنه في أوروبا يعرف باسم جالين **Galen**، حيث ان حرف السين في اللغة اليونانية يقابل حركة التنوين في اللغة العربية ، معنى جالين في لغة اليونان هو الهادىء أو الساكن ، ولكن بعضهم يترجمها الى معنى الفاضل أو المحترم ، وهناك من الأوروبيين من يقول إن معنى جالين هو الأشهر أو الأهم .

لقد تميز جالينوس بذكاء خارق ، ونباهة فائقة ، وقوة ملاحظة شديدة ، وطلاقة لسان جذابة . وتحلى بولعه المفرط بالقراءة والمطالعة وتعلقه الشديد بالتأليف والكتابة حتى قيل انه ألف ٤٠٠ مجلد (لم يصلنا منها سوى ثلاثة وثمانين مجلدا فقط) . .

على أي حال فقد تبنى جالينوس نظريات أبقراط الطبية (أبو الأطباء) وفصل في شرحها ، كما أخذ من أفلاطون وأرسطو ، وكان أهم ما امن به هو نظرية الأخلاط الأربعة ، التي ورثها عن أبقراط ، ثم نقلها عنه أطباء العرب والمسلمين وكل أطباء القرون الوسطى ، وهي نظرية تنادي بأن الانسان مكون من أربعة عناصر ، هي الماء والهواء والتراب والنار ، وعليه فالناس ينقسمون الى أربعة أمزجة ، هي السوداوي والبلغمي والدموي والصفراوي ، ولهذا أيضا كان هناك أربع صفات ، هي الحار والبارد والجاف والرطب ، ومن هنا كانت نشأة الأمراض من اختلاف الأخلاط ، وغلبة أحدها على الآخر .

أنواع الروح

ومن فلسفات جالينوس أن روح الانسان ثلاثية هي :

الروح الحيوانية ومركزها المخ ، وهي سر المخ ، وتسرى عبر الأعصاب ، والروح الكونية ومركزها القلب ، وهي سر العاطفة وتدخل مع النفس ، والروح الطبيعية ومركزها الكبد ، وهي سر النمو وتدخل مع الطعام .

ان سر سطوة آراء جالينوس على الفكر الطبي أنه كان غائياً ، أي بمعنى أن كل شيء خلقه الله إنما خلقه لغاية أو حكمة خاصة ، وهذا ما صادف هوى ورضا لدى الفكر الديني المتعصب ، الذي ساد الكنيسة في العصور الوسطى ، ومن هنا كان تبنّيها لآرائه ، واعتبار أي مخالفة لها كفرا وإلحادا وهرطقة .

غير أن بعض الأخطاء العلمية التي شاعت في القرون الوسطى والتي كشفت عنها الأبحاث العلمية الحديثة ، قد ظهرت أيضاً في تعاليم جالينوس وأدت الى تخلّف علم الطب قرونا عديدة . من تلك الأخطاء أن أوردة الدم تنشأ في الكبد ثم تتوزع على الأطراف ، ومنها أن الأعصاب ما هي الا أنابيب جوفاء لنقل الروح الحيوانية ، ولكنها بعد الموت تتصلب وتنسد ، ومنها أن رحم المرأة له قرنان : الأيمن منهما لتكوين الذكور ، والأيسر لتكوين الاناث ، ومنها أن وظيفة الرأس انما هي حمل العينين فقط ، أما باقي الأعضاء فيمكن لها أن تكون في أي موضع آخر .

ولعلنا لا نلوم جالينوس على هذه الأخطاء بقدر ما نلومه على نزعته الاستعراضية وميله الى الاستعلاء والأنانية ، وقد كانت أشد وطأة من أخطائه العلمية .

تعاليه !

فقد كان يعتبر نفسه خاتم الأطباء ، كما لم يتورع عن توجيه النقد الى استاذه أبقراط الذي قال عنه يوما : ـ

« ان أبقراط كان أول من اهتدى الى الطريق المستقيم ، ولكنه لم يسر عليها الا خطوات يسيرة ، ثم تعثر ، ولم يلمّ بالنقاط الهامة ، ولم يسلم من الغموض » .

ثم عرج على الفيلسوف آرسطو ، المعلم الأول ، فقال عنه : ـ

« لقد زعمت يا ارسطو أن الأعصاب تنبث من القلب ، فلماذا اكتفيت بهذا القول ، دون أن تبين لنا كيف تتشعب فيه » .

ومهما يكن من أمر فقد تحلّ جالينوس بالروح العلمية واعتمد على التجربة والمشاهدة : الأمر الذي كفل له زعامة الأطباء ، لدرجة أن وصفه الأطباء المسلمون بلقب أب الأطباء .

لا عجب اذن أن تفوق على سائر زملائه في التشخيص . فلطالما اعتمد الفراسة ودقة الملاحظة في فحوصه السريرية حتى تسنى له أن يكتشف من أعراض العلة ما خفي على غيره .. فأصاب في تشخيص الأمراض حيث أخفق الآخرون .

ومن التجارب العملية التي تؤثر عن جالينوس تلك التي أجراها لاثبات أن وظيفة الكلى الرئيسية : صنع البول .. فقط ربط جالينوس الحالبين فانتفخت الكليتان بالبول وتورمتا .

وثمة تجربة ثانية قطع فيها بعض أعصاب الرقبة فحل الشلل بالكتف .. تماما كما أكد قبل التجربة ..

وتذكر تجربة ثالثة عبث فيها جالينوس بالعصب الحنجرى الراجع . فخفت الصوت ثم تلاشى وانعدم .. كذلك عمد الى قطع بعض أعصاب القلب فأدى ذلك الى توقف ذلك القلب .

والجدير بالذكر ان جالينوس أثبت فيما أثبت في تجاربه العلمية ، ان الأعصاب انما تأتي من المخ ، لا من القلب ، كما اعتقد جمهور الأطباء والعلماء في أيامه .. □

التراث القومي

تسجيل لمعالم حضارتنا القومية

بقلم : الدكتور عبدالحميد يونس

إذا كان الإنسان قد أصبح في هذا العصر يعنى بالتراث الحضاري ، على أساس عالمي ، فإن ذلك لم يحل بينه وبين التركيز على حضارة قومه ، لكي يسجل مقوماتها ، ويتبين مكانتها من حضارات الشعوب والقوميات الأخرى

ظهرت دعوات ومحاولات مختلفة لتسجيل معالم حضارتنا القومية . ولكننا شغلنا في مجال التسجيل والتأريخ بما بين الأقطار العربية من حدود سياسية وشبه سياسية . ولقد آن الأوان لكي نحقق المسار الحضاري الطويل الذي قام به العرب في تأصيل حضارة الإنسانية على اختلاف حدودها الجغرافية في هذا الكوكب ، والذي يستوعب جهد الإنسانية منذ بدأت إلى يومنا . وجعل المعنيين برصد التطور يلتفتون إلى اتساع النظرة ، بحيث تستوعب جانبا من الكون .

كل دارس منصف لما أضافه العرب إلى التراث العالمي لابد ان يشيد بفضل الفلاسفة والعلماء والأدباء والفنانين الذين حفروا أسماءهم في ذاكرة التاريخ . وهذا مما يحفز على وجوب المبادرة الى تحقيق التعرف على هذا التراث القومي ، وتسجيل محصنته . ونشره ، ليس بين العرب فحسب ، بل بين القوميات والشعوب الأخرى .

الهوية وتصحيح الأحكام

لهذه الدعوة وظيفتان أساسيتان ، الأولى أن نعي هويتنا القومية ، بمقوماتها الحضارية ، والثانية أن نصحح بعض الأحكام التي صدرت عن بعض المستشرقين ، ومن سار على منهجهم ، في الاستعلاء على الطاقة الحضارية للأمة العربية العريقة الكبيرة . وكلنا قد واجهنا تلك الأحكام التي تخرج عن الواقع التاريخي ، والتي تصدر عن موجات المناظرة العنصرية الاستعمارية .

وعندما بدأت في مرحلة الشباب مع بعض الزملاء بترجمة « دائرة المعارف الإسلامية » أدركت انحراف لفيف من المستشرقين عن تسجيل الحقائق التاريخية والعلمية ، وذلك لكي ينتقصوا من قدر العرب في الفكر والإبداع ، وقد وجدنا النهج نفسه في كثير من المصنفات التي عرضت لأعلام العرب المبرزين ، في مختلف مناهج الحياة ، ورأينا من الواجب أن نطلب إلى علمائنا المتخصصين في الدراسات العربية أن

يصححوا تلك الأحكام ، بفصول متخصصة ، أو بتعليقات ، تجعل باستطاعة الدارس أن يوازن بين الانحراف عن الصحة وبين الحقيقة المستخلصة من الوثائق والروايات الصحيحة التي يعتمد عليها في الحكم على الطاقة الحضارية للأمة العربية والتراث القومي الذي لا يحدده الموقع الجغرافي فقط ، لأن هذا الموقع يمتاز بتبادل التأثر والتأثير في العالم ، ذلك لأن هناك بحاراً تعد من المنافذ الحضارية للوطن العربي ، هي البحر الأبيض المتوسط في الشمال الغربي من الجزيرة العربية ، والبحر الأحمر في غربها ، والمحيط الهندي في جنوبها ، والخليج العربي في شرقها . ولقد استوعب الفتح الاسلامي العراق وفارس وبلاد الشام ومصر وشمال افريقيا ، واستقر فترة طويلة من الزمن في أسبانيا ، ونفذ إلى جنوب فرنسا . ومن أهم مقومات التراث القومي العربي غلبة اللسان العربي على هذه البقعة التي ما تزال لها مكانتها وتأثيرها في المجالات الحضارية من عقيدة وأدب وفن وعلم .

واللغة بصفة عامة هي القوام الانساني للحياة وللحضارة ، ولذلك نهضت اللغة العربية بوظائفها الحضارية ، حتى حققت مزاياها في التراث الإنساني . ونحن في هذا العصر قد أصبحنا نستطيع أن نعتمد في أحكامنا العلمية على المقالات والأحاديث التي تتوسل باللغة الحية الناطقة . جاء على لسان الدكتور محمود فهمي حجازي في هذا المجال : « ظلت اللغة العربية ، على مدى عدة قرون ، أهم لغات الحضارة الانسانية . لقد استقرت العربية في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، لغة للعلم والثقافة في منطقة واسعة من العالم ، كانت اللغة العربية تستخدم في الحياة اليومية في العديد من الدول والأقاليم التي كونت الوطن العربي ، لكن استخدام اللغة العربية تجاوز هذه الأقطار والأقاليم ، فكانت تستخدم لغة للعلم والتأليف وللتعاون الدولي في منطقة أوسع . لقد ظهرت بالعربية مؤلفات كثيرة في شبه القارة الهندية ، وفي المناطق التي تقع الآن في إيران وأفغانستان وجنوب الاتحاد السوفيتي وتركيا ، إلى جانب ما ألف بالعربية في القارة الأفريقية ، فاللغة العربية كانت أهم لغات الحضارة الإنسانية على مدى عدة قرون » .

عالمية التراث القومي

إن هذه الحقيقة تثبت عالمية التراث القومي الذي جعل اللسان العربي بمثابة منارة ، تنشر ضياءها على أفق أوسع مدى بكثير من حدود الوطن العربي الكبير ، والدارسون المنصفون لهذه الحقيقة يكشفون عن تأثير هذه اللغة في عدد من لغات الدول والشعوب في آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وليس هناك شاهد أوضح من تأثير اللغة العربية في أسبانيا التي مزجت اللسان الاسباني باللغة العربية ، إذ برزت الحضارة الأندلسية فترة غير قصيرة بفضل الفتح العربي . ولسنا نتناسى المفردات والأسماء الكثيرة التي مايزال لها الطابع العربي في أحاديث الاسبان وآدابهم . وما من زائر أو سائح لاسبانيا لا يلتفت إلى هذه الملامح العربية في لغة الاسبان . ولم يعد الشعب الاسباني يخفي هذه الحقيقة الآن .

وعندما نتوقف لكي نتبين أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية ، فإننا نجد قدرا من الخروج على الواقع ، إذا نحن أخذنا الأحكام المشهورة عند معظم المستشرقين ، التي تدعي بأن أدب العرب إنما هو أدب « رومانتيكي » في جوهره ، مع أن التراث الأدبي العربي يتجاوز هذا الحكم الضيق ، ذلك لأن فن القول فيه يحقق كثيراً من الحوافز المختلفة عند الأديب العربي ، شاعرا كان أو ناثرا ، ثم إن قيام العرب بتعريب روائع عالمية ، فارسية أو يونانية ، لايمكن أن يغفلها المؤرخ ، فما بالك بقوة ظاهرة التأثر والتأثير بين الأدب العربي والآداب الأخرى ، وهناك شواهد متعددة ، تدل على احتفال العرب بالروائع العالمية . كنا نختلف في شبابنا حول أصل الرائعة العالمية المشهورة « كليلة ودمنة » لابن المقفع ، وهي

نموذج يكاد يكون متفردا في فن الحكاية ، وذلك عندما نهض أحد الغربيين بترجمة كتاب « البانجاتنترا » أو الأسفار الخمسة من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الانجليزية ، وقمت بنقله الى العربية ، لا باعتباره رائعة أدبية فحسب ، لكن باعتباره في نظري من أصول « كليلة ودمنة » ، وما يزال الموضوع محلا للدراسة المقارنة بين آداب الشعوب .

ولما أخذنا نطبق المنهج الواقعي في الكشف عن التراث الأدبي واجهتنا روائع لم يلتفت إليها الدارسون الذين ركزوا اهتمامهم على تعبير الأدب عن مشاعر الفرد . وأصبحنا نعترف بأن الوجدان الجماعي قد حقق وجوده بما نسميه الآن الأدب الشعبي ، وهو ما يبرز الشخصية الجماعية ، وما يصور الملامح القومية ، وشواهد هذا الأدب هي التي صححت النظرة القاصرة ، وأثبتت وجود الملحمة في الأدب العربي ، وهو ما نجده في السير الشعبية التي مايزال الشعب يردد بعضها .

التبادل الأبداعي

من أهم مقومات هذا الأدب الشعبي أنه يشخص أيضا ظاهرة التبادل الإبداعي بين الشعوب ، وليس هناك ما يقطع بالحيوية التي تصدر عن التأثر من « الليالي العربية » ، وهي الحكايات التي عرفت بهذا الاسم في العالم ، وبخاصة في أوروبا ، عندما ترجمت عن أصلها العربي ، وهي حكايات « ألف ليلة وليلة » . وقد اهتم بهذه الليالي الباحثون في الشرق والغرب ، وتداولها الناس في كل مكان ، واقتبسوا منها قصصا وروايات ومسرحيات و« أوبراوات » ، واستلهموا منها قطعا موسيقية رائعة .

وللعرب فضل ، لا يمكن أن ينساه المشتغلون بالعلم ، حتى في عصرنا الحديث ، وهذا الفضل يتصل بما أضافوه إلى علم الجغرافيا . وقد استعمل هذا المصطلح لأول مرة في رسائل إخوان الصفا ، لكنه فسر أيضا في هذه الرسائل بأنه « صورة الأرض » ، وظل هذا المعنى شائعا في العصور الوسطى ، ولم يصبح لهذا المصطلح المعنى الذي نعرفه اليوم إلا في أزمنة حديثة . يقول الدكتور جمال الفندي في مقالة « الجغرافيا عند المسلمين بدائرة المعارف الإسلامية » : « يمكن أن نعد القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ذروة التقدم الذي بلغته الجغرافيا العربية ، ذلك أنه ماوافق هذا العهد حتى كانت المعرفة الجغرافية عند العرب ، سواء كانت مستقاة من الإغريق وغيرهم ، أو كانت قد نمت بمعرفة العرب بفضل أبحاثهم وملاحظاتهم أو رحلاتهم ، قد بلغت مستوى رفيعا جدا من التقدم ، زد على ذلك أن الكتب الجغرافية كانت قد غدت لها مكانة خاصة في المكتبة العربية ، كما كانت الأساليب والمناهج المختلفة في عرض المادة الجغرافية قد تقدمت وانضبطت » ، واستغل العلماء والرحالة من العرب المنهج المعجمي ، لكي يستطيع كل امريء أن يحصل على مايريد من معلومات عن البلدان والأماكن ، فوضع ياقوت الحموي كتاباً يعد من المراجع الهامة التي تجمع بين المعرفة والمتعة ، وهو كتاب « معجم البلدان » الذي أصبح نموذجا يحتذي في الجمع والتصنيف . ولعل أكثر ما يشوق الدارس التجربة التي يقوم بها الذين يصفون الظواهر الطبيعية بصفة عامة ، والمدن بصفة خاصة ، واتخذت كتب الرحلات مكانها الممتاز بين الوصف الموضوعي وبين التجربة الحية . وما يزال كتاب « ابن بطوطة » المعروف باسم « تحفة النظار » من أهم الكتب العربية وأمتعها ، وهو يقدم للقاريء العربي وصفا لبلاد الهند وجنوبي شرق آسيا ، وغير ذلك من بلاد آسيا وشمال أفريقية ، والأوصاف التي يقدمها ، على الرغم مما يكتنفها من تجاوز للواقع ، أحيانا ماتزال من الوثائق التي تحكى مزاج العصر وطاقة الفكر في ذلك العهد .

تراث عالمي

إن تراثنا القومي عالمي ، لأنه يجمع في محصلته إبداع الشعب العربي في مجالات الآداب والفنون والعلوم . ولأنه في نفس الوقت قد تمثل عناصر من إبداع الشعوب الأخرى التي استطاعت أن تترك بصماتها الحضارية على مراحل مختلفة من التاريخ .

وإذا كان الانسان يجمع في سلوكه ما استطاع ان يحصله من التجارب والخبرات والأفكار ، فإنه يصدر في نفس الوقت عن ذخيرة المسار الحضاري في بيئته ، فيما يتدفق فيها من ثمرات العلاقات الإنسانية على اختلاف الأوطان والأجناس . والأسئلة المطروحة على المواطن في الوطن العربي هي : كيف يستطيع أن يعرف مقومات حضارته ، وأن يكشف عن مصادرها وتنوع عناصرها ؟ وهل يكتفي برعاية الآثار وعرضها ؟ وهل يحتفل باجتذاب السائحين الى شواهدها ومتاحفها ؟ . إن الأمر أكبر من هذا بكثير ، لأن الحاضر في عالمنا له قسمات تميز هويتنا القومية بما لها من عراقة وتاريخ إنساني متواصل .

والقوامون على السياحة يُعنون ـ في المقام الأول ـ باجتذاب الأجانب لكي يتعرفوا على المناظر الطبيعية الخاصة الجذابة ، لكي يُتاح لهم ان يشاهدوا الآثار الكثيرة المتنوعة التي خلفها الأجداد على مدى التاريخ الطويل ، وهي ذخيرة تنطق بالإبداع والتطور ، إلى جانب التنوع في العمارة والنحت والحرف والصناعات ، ويعنى الذين يعرضون الفنون الزمنية التقليدية والشعبية بالتركيز ـ في كثير من الأحيان ـ على المثير منها ، وهو ما جعل الأجانب يتصورون أن هذه الفنون هي التي تصور ملامح العرب على مدى العصور .

إن هناك جهوداً كثيرة للتعاون الثقافي في الوطن العربي الكبير ، ومع ذلك فإن الثقافة ، يجب أن تأخذ مكانها الذي تستحقه من الحياة الإنسانية ، وألا نقصرها على مجال الخدمات في توجيه الحياة ، ذلك لأن الثقافة هي القوام الانساني ، أو بتعبير أصح هي القوام الحضاري . والكتاب العربي هو أهم وسيلة للمحافظة على هذه الثقافة ، وعلى تبادلها بين الأفراد والجماعات . والكتاب ليس مجرد تدوين وطباعة للكلمات والفقرات ، لكنه يقدم الشواهد المرئية التي تحكي المنظر الطبيعي حكايتها للفنون التشكيلية والزمنية . فلقد أصبح الكتاب يتوسل باللون ، لكي يقترب إلى أقصى حد من الواقع . وتعد دور الكتب أهم وسيلة لتوثيق المسار الحضاري للشعوب ، ومن هنا كان من الضروري أن تضع التركيز على إنشاء دار كتب عربية قومية ، تشارك فيها جميع الأقطار العربية ، وتتفرع منها دور كتب أخرى في مختلف العواصم والمعاهد العربية .

ومن حسن الحظ أننا نعيش في هذه المرحلة التي استطاعت أن تسجل الصوت والصورة معا ، وهو ما يقدم الوثيقة الحية التي تدل على تجسيم الثقافة . ولابد أن نتخذ منهجا يساير هذا التقدم ، بحيث نستطيع أن نكمل المحافظة على تراثنا القومي ، وألا يظل مجرد آثار بالمصطلح التقليدي . إن تراثنا الحضاري يجب أن يحكي الكلمة الناطقة والصورة المتحركة ، والصوت الذي له دلالته ، والإيقاع الذي يسهم في التعبير ، والذي يتحقق في الفنون الزمنية ، ولابد من التأكيد على أن هذا التراث يستوعب الشخصية الوطنية والقومية ، بحيث نساير ما استطاعت العلوم الإنسانية أن تكشف عنه ، وهو ما نسميه اليوم بالمأثور الشعبي أو « الفولكلور » . فقد جعلنا اهتمامنا بالآثار ننشيء المتاحف ، فلماذا لا نسير على المنهج نفسه ؟ فننشيء المتاحف الخاصة بالمأثورات الشعبية ، مع النظرة القومية التي تعترف بأن هذه المتاحف إنما هي تفاصيل لأمارات شخصيتنا وقسماتها ، بل وبصماتها □

بقلم : محمود المراغي

حرب المعونات

هذه حرب من نوع خاص ، سلاحها المال المتدفق من الشمال إلى الجنوب في معظم الأحوال ، الذي يأتي بالمجان في بعض الأحيان ، وبأقسى الشروط في أحيان أخرى .

وهي حرب ذات تاريخ ، دخلها الشرق والغرب ، وكانت ساحتها الجنوب الممتد من أمريكا اللاتينية إلى أفريقيا وآسيا .

نقول إنها « حرب » لأنها مجال صراع شديد ، وإن حملت كل عبارات الود ، و التعاون والتضامن ، والانسانية . أما أطراف الصراع فهم رءوس المثلث العالمي : غرب وشرق وعالم ثالث ، كل طرف يريد أن يحصل على ماينا سبه في معركة المعونات .

قديم الحرب وجديدها

بعد الحرب العالمية الثانية عرفت أوروبا مشروعا ضخما للمعونات ، لعبت فيه الولايات المتحدة الدور الأول ، وهو مشروع « مارشال » ، لكن ذلك المشروع قد أخذ طابع التعاون بين أبناء المعسكر الواحد ، بعكس ماجاء بعد ذلك من تعاون بين دول متقدمة ودول متخلفة ، أو دول ذات تاريخ استعماري ودول كانت مستعمرة وأصبحت حديثة الاستقلال .

وربما كانت الخمسينات والستينات نقطة تحول ، فالدول الصغرى تستقل واحدة بعد الأخرى ، ومعركة التنمية وبناء الاقتصاد تفرض نفسها ، والأكثر قدرة هي الدول الصناعية في الشرق والغرب .

في وقت لاحق قالت الأمم المتحدة إن هناك نسبة عادلة ينبغي أن يخصصها الأغنياء لعون الفقراء ، وحددت هذه النسبة بمقدار (١٪) من الناتج القومي ، لكن هذه النسبة ـ باستثناء ما قدمته دول الأوبك في بعض السنوات ـ لم تتحقق قط . وتقول آخر إحصاءات للبنك الدولي إنه بين الدول الصناعية المتقدمة المنضمة لما يسمى منظمة التعاون والتنمية لم يقترب من الهدف عام ١٩٨٥ سوى بلد واحد هو : هولندا ، وتلتها في الأهمية فرنسا ثم كندا . . . و . . جاء في ذيل القائمة الولايات المتحدة الأمريكية التي قدمت الحجم الأكبر (٩,٤) مليارات من الدولارات ، لكن بالقياس لناتجها القومي الضخم فإنها لم تقدم سوى ربع النسبة التي حددتها الأمم المتحدة . وكانت الحصيلة النهائية أن دول المنظمة المذكورة قدمت (٢٩,٤) مليار دولار معونات خلال عام ١٩٨٥ ، وذلك في مقابل (٣,٥) مليارات من الدولارات قدمتها دول « الأوبك » التي هبطت معوناتها للعالم الثالث بسبب تراجع أسعار النفط ، حيث سجلت في فترة الرواج (١٩٨٠) على سبيل المثال رقما كبيرا في المعونات ، بلغ نحو عشرة مليارات من الدولارات .

لكن،لأن الصراع والتنافس على أسواق وقلوب

وعقول في العالم الثالث يتم بين الشرق والغرب في الأساس فإن المقارنة تتم عادة بين هذين المعسكرين .

وهاهو احصاء أخير لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية يقول : إن مساعدات الاتحاد السوفييتي قد عاودت الارتفاع ، وأن السياسة السوفييتية الجديدة سوف تدفع بهذا الاتجاه ، بعد أن دفع السوفييت للعالم الثالث (٣,٧) مليارات من الدولارات مساعدات في عام ١٩٨٦ ، وهو ما يعادل ثلث الهدف الذي حددته الأمم المتحدة .

لكن ما هي أسرار تلك اللعبة التي يسميها بعضهم تعاونا دوليا ، ويسميها آخرون : أدوات التبعية والخضوع ؟

حقيقة واحدة وزوايا رؤية متعددة

الحقيقة واحدة : أموال تتدفق من الشمال إلى الجنوب في معظم الأحوال ، تحمل اسم معونات ، وتنقسم إلى نوعين : منح بلا مقابل ، وقروض ذات شروط ميسرة في أسعار الفائدة وأجل السداد الذي يمتد الآن في كثير من الحالات إلى القرن الواحد والعشرين .

هي تدفقات تساعد على التنمية ، أو تسد ثغرة الاستهلاك ، أو تدفع بعجلة الحرب وتزيد الترسانة العسكرية . وأيا كان الغرض فإن كل طرف ينظر إليها من زاوية محددة .

يقول الفقراء : إن عالمنا الثالث قد تعرض لاستغلال طويل ، وقد حان الوقت أن يدفع العالم المتقدم بعض « دينه القديم » ، وأنه لامفر أمام دول فقيرة محدودة الموارد إلا أن تستورد جرعات مالية ، ومعونات تقنية ، وخبرة ، ومعدات عسكرية ، وكل ذلك بالمجان أو بالتقسيط .

وعلى الجانب الآخر يقول المجتمع الدولي إنه تعاون ضروري ، فمصير البشرية واحد ، وانهيار أجزاء من العالم يؤثر على بقية أنحاء العالم ، وفي التفاصيل يسفر الساسة والاقتصاديون عن وجوههم ، فيقولون : وهل يمكن أن يستمر سوق العالم الثالث مستهلكا لما تقدمه دون أن يستمر العون ؟ إن المعونات ضرورة لكي تنتقل سلع أوروبا وأمريكا الى العالم الثالث ، ولكي يظل ذلك الأخير قادرا على الشراء والتعامل . إن قدرا من النمو ضروري لتحقيق قدر من التعاون ، وتكوين « طلب » لما هو معروض في الشمال .

وفي التفاصيل أيضا تسفر بعض الدول عن أهدافها بشكل أوضح ، فها هي بعض الوثائق الأمريكية تتحدث صراحة عن أن هدف المعونات هو تحقيق أهداف السياسة الأمريكية ، وتتحدد هذه الأهداف بالتفصيل ، وتوضع على مائدة المفاوضات السرية ، وتحدث المساومات: معونات مقابل قواعد ، أو تسهيلات ، أو قبول باتجاه نمو الاقتصاد الحر ، أو قبول بأوضاع سياسية مثل وجود كيان صهيوني في الشرق الأوسط .

هنا يثير العالم قضية التعاون الكفء ، والتبعية ، ويتحدثون عن شروط للاتفاقيات ، تحد من سيادة الدولة المدينة أو التي تتلقى العون ، بل ويتحدثون عن المعادلة المطلوبة التي أصبح العالم الثالث بموجبها يدفع من الأقساط والفوائد أكثر مما يأخذ من منح وقروض كل عام !

وهنا يعرض المعسكر الآخر - الاشتراكي - بضاعته ، فيقول :

إنها سهلة الشروط ، ولا تحمل أي جانب سياسي مباشر ، لكن - وبالطبع - فإنها تتجه لدول تربطها صداقة ومصلحة بالدول المانحة ، وفي الحساب الختامي يأتي حجم معونات الشرق أقل كثيرا مما يقدمه الغرب بإمكانياته الكبيرة .

وتستمر اللعبة : كم ؟ ومتى ؟ ومن أين ؟ وبأي شروط ؟ وتحدد الأسئلة نوع العلاقة ، وإن كانت لاتحدد جدواها ، فتلك قضية يحسمها حسن أو سوء استخدام المعونات من جانب الطرف الآخر : العالم الثالث . □



الأسنان المصابة بين القلع والعلاج!

بقلم : الدكتور : ابراهيم أبو طاحون

« مهمة طبيب الأسنان في حالة اصابتها بالورم أو الألم لا تكمن بقلعها ، بل بمعالجتها وحفظها في الفم ، تماما كما يقوم طبيب العيون بمعالجة عين المريض والاحتفاظ بها بدلا من قلعها » . هذه هي خلاصة ما يذهب اليه الكاتب ، لكن كيف ؟ ولماذا ؟

اعتاد بعض أطباء الأسنان من قبل قلع تلك الأسنان التى مات فيها « اللب » ، وما يصطلح العامة على تسميته جوازا « بالعصب » ، وتلك التى يظهر حتى مجرد التهاب بسيط فيها ، وكان الدافع لذلك سيادة النظرية التى تعتبر مثل هذه الأسنان بؤر تلوث ، وتحميلها مسئولية الاصابة بكثير من الأمراض العامة . أما الآن وبعد اعادة النظر في هذا التوجه ، فبامكان الطبيب أن يبقي بعد علاج مناسب كل تلك الأسنان التى كان يحكم عليها قديما بالقلع

ويظن بعضهم خطأ بأن بقاء السن يرتبط ببقاء لبها حيا ، وهو ظن خاطىء كذلك ، لأن الأسنان المعالجة بشكل جيد ، يمكنها أن تعيش نفس فترة الأسنان التى تحتفظ بلبها حيا ، مع فارق مرونتها في الحالة الأولى ، الأمر الذى يجعلها عرضة للكسر بسهولة ، وهو مع ذلك عيب يمكن مواجهته بتركيب التيجان المختلفة ، وتحتفظ السن المعالجة بارتباطها العضوى مع الأنسجة المحيطة بها ، واستمرار ولادة مادة الملاط المحيطة بجذرها ، ولاننا نسمع الكثير عن لب السن ولا نعرف عنه سوى القليل ، لذا فإننا سنقوم

بجولة تعريفية به منذولادته .

رحلة العصب أو اللب

يبدأ تكوين الشكل الأولي للب خلال الأسبوع الثامن للجنين ، أما صورته الطبيعية المكتملة فتظهر على شكل نسيج رخو غنى بالمواد المائعة ، وشبكة واسعة من الأوعية والأعصاب ، ويعتمد اللب في حمايته على القشرة الصلبة للعاج ، حيث يصبح حساسا جداً في حالة حذفها .

وخلال ثوان من تعرضه للجو يتغير مظهر النسيج وحجمه ، حيث ان المادة المائعة تتبخر ، وهذا يعنى أن اللب لا يمكن أن يعيش بصحة إلا محميا من خلال السن ، وكثمن لهذه الحماية يشارك معها في تعايش مغلق .

ويقوم اللب بأداء وظائف متعددة ، مثل تكوين العاج ، والتغذية ، ونقل الألم والتهيجات المختلفة ، ودفاع السن واللب .

ويسكن اللب التجويف اللبى للسن ، ولا يتجاوز حجمه في أوسع قياس (في قاطع مركزى علوى) ٤ , ٠ ملم ، وفي خلال هذه الأبعاد الضيقة جداً ، تستلقى شبكة واسعة من الأوعية التى تدخل السن عن طريق شق في طرف الجذر السفلى ، حيث يبقى الكثير منها خاملا ، أو ينهار تحت ظروف طبيعية .

وحيوية اللب ترتبط بدورته الدموية ولا علاقة لها بآلية احساسه (أى بوجود أعصاب فيه) كما يظن الكثيرون خطأ . وهكذا فقدراته محدودة ودورته فريدة بحكم كونه محصورا داخل قشرة صلبة من العاج .

ومع تقدم العمر تترك السنون آثار خطاها واضحة عليه ، حيث يتعرض للهرم الطبيعى ، وتشيخ خلاياه ، حاله حال كافة أنسجة الجسم ... بينما يزداد خناق العاج عليه بسبب ترسيبه المتواصل .

أما من الناحية المرضية فيتعرض اللب للإصابة بفعل عوامل مختلفة : ميكروبية ، وآلية ، وكيميائية ، وكهربية .

فما هو ـ باختصار شديد ـ هذا العلاج الذى نتحدث عنه ، ونطالب به بديلاً للقلع السهل ؟

Endodontic Therapy كلمة يونانية تتألف من مقطعين ، وتعنى « علاج داخل السن » وهو ما نصطلح عليه بالعربية بعلاج القنوات الجذرية ، ويشمل هذا العلاج الداخلى للسن سلسلة من العمليات المتعاقبة التى تجرى في داخلها ، بهدف حفظها في موقعها في الفك ، وتتعلق هذه العمليات بفتح السن وتجهيز التجويف الداخلى ـ القنوات الجذرية ـ ثم تعقيمها ، كي يلي ذلك حشوها المحكم بشكل يمنع اتصال التجويف اللبي للسن بالأنسجة المحيطة بالجذر .

ألم الأسنان

ألم الأسنان عملية معقدة ، أرضيتها لب الأسنان والأنسجة المحيطة بها ، ويتميز بالشدة والحدة والانعكاس على مناطق الوجه الأخرى ، مما يشكل صعوبة كبيرة في طريق تحديد السن المسئولة عن الألم ، لكن لماذا نحس بألم الأسنان ؟ وكيف ؟

محاولات كثيرة جرت لدراسة ألم الأسنان ، كانت تنطلق جميعها من أساس « هستولوجى » ، مستندة الى دراسة عدد هذه الأعصاب ، ومكان دخولها ، والتغيرات التى تتم في نسيجها ، والاجابة على سؤال « لماذا تتألم ؟ » ، لكنها بقيت جميعها غير مقنعة حتى سنة ١٩٦٥ ، حيث جرت أول دراسة للنبضات العصبية للب حى ، أكدت احتواءه على نوعين من الأعصاب ، وتلا ذلك سلسلة من التجارب اهتمت كذلك بالحساسية الزائدة للعاج التى تزداد في نقطة اتحاده مع الميناء .

الى جانب ذلك تمت دراسة تغيرات الضغط والحرارة داخل اللب ، وتأثير بعض الأدوية والمواد المهيجة المختلفة عليه ، وكان الاستنتاج أن ألم الأسنان ظاهرة مركبة لا ترتبط بالمحيط ، بل بالجهاز

العصبي المركزي ، وفي أغلب الأحيان فالأعصاب التي تتعلق بذلك هي تلك الموجودة داخل اللب ، بينما تقوم في أحيان أخرى الأعصاب الموجودة في محيط السن بتعميم الألم الذي يصعب تمييزه .

وللوقاية من ذلك يستلزم الفحص الدقيق للأسنان ، وتقديم العلاج المناسب لها . ويمكن ان يظهر ألم الأسنان في حالات بعض الأمراض ، منها :

(١) اصابات القلب : وتبرز أهمية الألم في هذه الحالة بأنه أشبه بجرس انذار مبكر في أنياب الفكين العلوي والسفلي وضواحكها .

ويتميز هذا الألم بارتباطه بالجزء الأيسر من الفكين ، ثم امتداده نحو الأعلى ، وعلى الرغم من ذلك فمن الممكن أن يكون الألم الحاد محصورا في منطقة الناب العلوي ، أو احدى الضواحك قبل ظهور تخثر الشرايين التاجية .

(٢) ألم الأسنان النفسي : من المعروف أن نفسية الفرد تتدخل في مسيرة العلاج المقدم في كافة أنواع المرض ، وحين نقول ألم الأسنان النفسي ، نعني بذلك الألم النفسي الذي ينعكس على أسنان لا يظهر أي خلل عضوي بها .

ويستلزم تشخيص هذا الألم الحرص الدقيق خلال فحص المريض ، ويتميز بعدم انحصاره بشكل ثابت في منطقة معينة ، بل امتداده ليشمل كافة مناطق الفم ، ويسعى هؤلاء المرضى عادة للتحايل على الطبيب المعالج ، ويفضل تقديمهم للطبيب النفسي .

الخراج أو دمل الأسنان

يعيش في تجويف الفم أكثر من ٣٠ صنفا من أصناف البكتريا المختلفة التي يمكنها استعمار اللب عند توفر الظروف المناسبة .

ويرد اللب على الغزو الميكروبي بالتهابه وامتداد الالتهاب للأنسجة المحيطة بطرف الجذر بسبب العلاقة التشريحية والحيوية الوثيقة بينهما ، ويشترط قبل تكون الدمل أن يسبقه موت اللب ، حيث يبدأ تجمع القيح من تحلل نسيجه الميت ، وبقايا الخلايا الدفاعية والميكروبية التي تموت خلال الهجوم .

وفي المرحلة الحادة للورم تظهر الأعراض مثل : الأرق ، والحرارة التي قد تصل الى ٣٩ - ٤٠ م° والمصحوبة أحيانا بالقشعريرة الى جانب الصداع وظهور مادة بيضاء على اللسان .

وفي مرحلة الالتهاب الحاد يسعى الطبيب المعالج لتصريف القيح بكل طريقة ممكنة وذلك :

(١) من خلال فتح السن والتصريف عبر القنوات الجذرية ، مع ترك السن مفتوحة بضعة أيام لمواصلة التصريف ، مكتفيا بوضع قطعة قطن صغيرة رخوة تسمح بمواصلة التصريف ، وتمنع في نفس الوقت - باغلاق السن - من دخول بقايا الأطعمة إليها .

ومع بدء تصريف القيح يبدأ شعور المريض بالارتياح ، وتتوقف مسيرة الورم الذي يبدأ بالتراجع ، وبالامكان أيضا مساعدة عملية التصريف باستخدام المحاليل الدافئة ، ويفضل البابونج ، والقيام بالمضمضة والغرغرة ، والضغط الخفيف على منطقة الورم .

(٢) وإذا عجزنا عن التصريف من خلال هذا الطريق ، أو إن كان الورم قد وصل مرحلة متقدمة ، فالمحاولات التي يبذلها الطبيب تتجه لتصريف القيح من خلال المخاط الملتهب - (الأنسجة الرقيقة) الى جانب ذلك فعلى المريض خلال المرحلة الحادة أن يلزم الفراش ، أو أن يبقى على الأقل مرتاحا مع تغذية خفيفة،ويفضل أن تكون من السوائل .

استخدام الأسبرين

كثيرا ما يلجأ المرضى الذين يعانون من الألم أو الورم الى وضع مسحوق الأسبرين على تلك المناطق ، وهو تصرف خاطيء ، حيث ان الأسبرين وكافة المسكنات القريبة منه لا تنشط بطريقة استخدامها الموضعي ، وهي بالتالي لا تقدم أية فائدة باستخدامها بهذا الشكل ، وتسبب على العكس من ذلك حروقا موضعية في الأنسجة الرقيقة .

ان الأهم في طب الأسنان بشكل عام هو أن نقرر ان كنا سنعطي المريض المضادات الحيوية أم لا ، وليس نوع تلك التي سنعطيها . ورغم اختلاف وجهات النظر حول هذا الموضوع ، إلا ان المضادات الحيوية في حالة ما ، تمكننا من التوصل للفتح والتصريف .

مع ذلك فإن المضادات الحيوية مثل (البنسلين) تقضي على الكائنات الصغيرة ، لكنها لا تبعدها ، ولا تبعد القيح عن منطقة الاصابة ، وهكذا فالتصرف الأساسي الذي يجب أن يشغل بال الطبيب المعالج في هذه الحالة هو أن « لا شيء يعوض الفتح والتصريف الجراحي » .

وعملية الفتح عدا أنها لم تعد مؤلمة بعد استخدام الأدوات المناسبة ، فهي لا تستغرق أكثر من ثوان أو دقائق معدودة فقط لانجازها ، مع ضمان نتيجة أفضل للمريض .

زيارة الطبيب

حينما يقوم الطبيب بمعالجة الأسنان ، واستخدام الأدوية والمواد المختلفة على العاج المتعرّى ، فهو يسبب في كل مرة اضطرابا في لب الأسنان ، قد يكون بسيطا أحيانا ، وفوق قدرة اللب على الاستجابة الطبيعية أحيانا أخرى .

وبينما يعطي السوس ـ بسبب تطوره البطيء ـ الفرصة للُّب لتخزين آليته الدفاعية فان العمليات التي يقوم بها الطبيب في فم المريض تأتي بنتائج مباشرة لا تعطيه الفرصة لتحريك آليته للدفاع عن نفسه .

فالحرارة الناتجة عن الحفر بسرعة أقل من ٢٠,٠٠٠ لفة في الدقيقة ، اذا لم تتعادل بوسائل تبريدية ، مثل الماء المنبعث من جهاز الحفر ، فإن آثارا سيئة يمكن أن تصيب الأسنان . والأدوية المستعملة تؤثر أيضا في هذا المجال .

ويجب أن يوضع بعين الاعتبار ، حين انتقاء مواد الحشو ، بأنها تستعمل على أرضية مادة بروتوبلازمية حية ، وبالتالي يتوجب أن تكون مقبولة حيويا ، وغير مهيجة بفعل الضغط أو الحرارة .

وبخصوص الحشوة المعدنية التي يتعامل بها الأطباء في حشوات الأسنان الخلفية ، فهي كيميائيا لا تعتبر من المواد الضارة للب ، ومن أكثر مواد الحشو أمانا ، بشرط عزل اللُّب عن التهيجات الحرارية بالمواد العازلة المختلفة .

إعادة زراعة أسنان الأطفال

قد يكسر الأطفال بعض أسنانهم ، أثناء اللعب ، فما واجب الوالدين في هذه الحالة ؟

المهمة الأولى هي نقل الطفل على وجه السرعة مع سنه لأقرب طبيب أسنان لاعادة تثبيتها ـ زرعها ـ في مكانها ، ويمكن نقل السن هذه بإحدى الطرق التالية :ـ

١ ـ تثبيتها العفوي في موقعها في فم الطفل .

٢ ـ أن تحتفظ الأم بالسن في فمها حتى وصولها للطبيب مع الطفل .

٣ ـ حفظها في كوب من الحليب أثناء نقلها .

واعادة زراعة سن الطفل تعتمد على عمره ، فإذا كان مقاربا لموعد طلوع الثوابت ، فهناك خطر التأثير عليها ، وبالتالي فإن الجهد ينصب على اعادة زرع أسنان الأطفال الصغار التي يمكن تثبيتها فترة طويلة .

وتتوقف فترة حياة الأسنان المزروعة هذه على زمن بقائها خارج الفم .

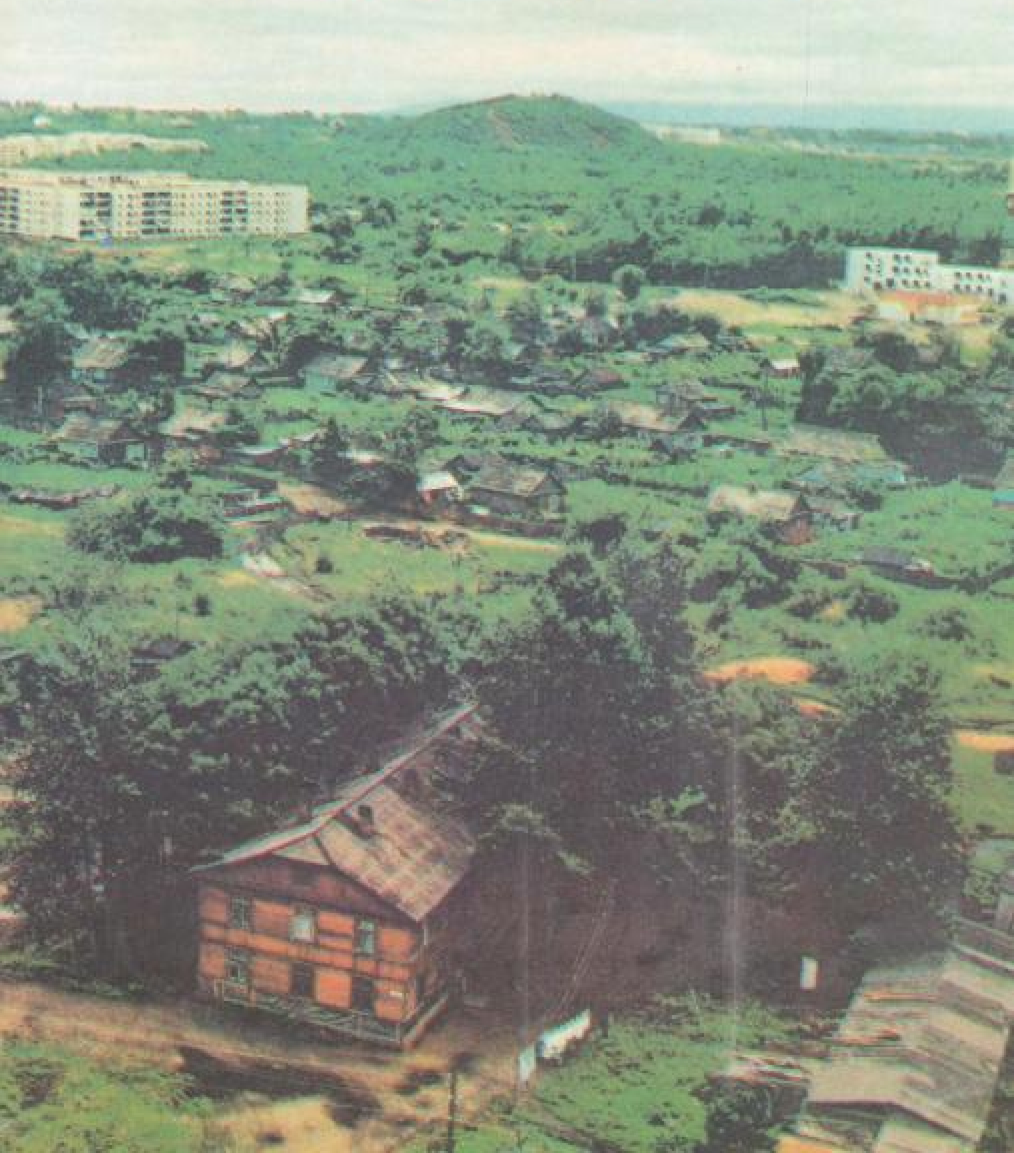
كذلك فقد يقوم الطبيب بالقلع المتعمد لأحد الأسنان للقيام بمعالجتها ، فتحها أو تعقيمها ثم حشوها ، كي يعيدها لموقعها في حالة عدم تمكنه من القيام بكل هذه المراحل داخل فم المريض لأسباب تشريحية أو غيرها .

والنجاح الأكبر يظل من نصيب « الزرع المغلق » أو الزرع داخل السن الذي يهدف عادة لتدعيم تماسكها وثباتها □

العربي
عيونك
على العالم

بيروبيجان

من يتذكر دولة اليهود السوفييت ؟



استطلاع : سليمان الشيخ
تصوير : طالب الحسيني





بيروبيجان جمع لاسمي نهرين في منطقة الشرق الأقصى السوفييتي (بيراوبيجان) ، وهو في نفس الوقت اسم لمقاطعة يهودية ، ذات حكم ذاتي أيضا ! نعم مقاطعة يهودية . . هكذا هو اسمها رسميا .

فما هي ظروف نشوء هذه المقاطعة ؟ وكيف وصل اليهود إليها ، مع أنها تبعد حوالي تسعة آلاف كيلومتر عن موسكو ؟ وكيف تعاون السوفييت والأمريكان . . نعم اليهود الأمريكان على قيامها ؟

قبل سنة ١٩٢٨م لم يكن في المنطقة مدينة أو مقاطعة اسمها « بيروبيجان » ، بل كان يوجد مكان المدينة التي عرفت بهذا الاسم محطة صغيرة للقطارات المتجهة إلى الشرق الأقصى السوفيتي (المقصود بذلك المنطقة التي تقع شرق سيبيريا وصولا إلى الحدود الصينية واليابانية والمحيط الهادي») .

كان اسمها من قبل « توخونكايا » ، وقد اختلف الرواة حول معنى الاسم ، بعضهم فضل الركون إلى معنى الكلمة اللفظي ، فالكلمة معناها بالروسية المكان الهادىء ، واعتقدوا أن معنى اسم المحطة جاء من الهدوء ، في حين أن آخرين تساءلوا : أي هدوء هذا ؟ .

كانت المنطقة وما زالت منطقة أعاصير وغابات ومستنقعات وبعوض ونمور وحيوانات أخرى مفترسة . فمن أين لها بالهدوء ؟

الشاعر المعروف آرون فيرجيليس الذي أمضى فترة صباه في بيروبيجان من سنة ١٩٣٠م إلى سنة ١٩٤١ ، وهو يشغل الآن رئيس تحرير مجلة « الوطن السوفيتي » التي تصدر شهريا في موسكو باللغة اليديشية ـ لغة يهودية تمتزج فيها الألمانية بالعبرية القديمة وبلغات محلية أوروبية أخرى ـ قال لنا عندما التقيناه في موسكو : عندما وصلت إلى المنطقة سنة ١٩٣٠ مع والديّ وجدنا بيتا محفورا ، كأنه كهف ، يسكنه صائد حيوانات مفترسة اسمه تيخون ، وباعتقادي أن اسم المحطة « تيخونكايا » قد جاء من اسم الرجل وليس من معنى الهدوء .

ليكن ما يكون في أصل الاسم ، فالمهم أن محطة تيخونكايا التي تحولت إلى قرية ، أصبحت بعد سنة ١٩٣٠ تعرف باسم بيروبيجان ، بل وتحولت إلى عاصمة مقاطعة ، حسب الاعلان الصادر عن مجلس السوفييت الأعلى في ٧/ ٥/ ١٩٣٤م ، بعد أن كانت دائرة قومية ، اعتبارا من ٢٨ مارس سنة ١٩٢٨ حسب المرسوم الصادر عن اللجنة المركزية السوفيتية .

مقاطعة بيروبيجان الآن تعتبر جزءا من إقليم « خباروفسك » الذي يمثل ١/٤ مساحة الشرق الأقصى السوفيتي .

مساحة هذه المقاطعة ٣٦ ألف كيلو متر مربع « كما قال لنا السيد ليونيد شكولينك ، رئيس تحرير صحيفة نجمة بيروبيجان التي تصدر يوميا باليديشية » ويقطنها حوالي ٢١٥ ألف نسمة منهم حوالي (١٧) ألف نسمة من اليهود .

يقطن حوالي ١٤ ألف نسمة منهم في العاصمة بيروبيجان . وقد ذكر لنا السيد ناعوم سارا شيفسكي رئيس بلدية مدينة بيروبيجان أن عدد سكان العاصمة قد وصل إلى ٨٣ ألف نسمة .

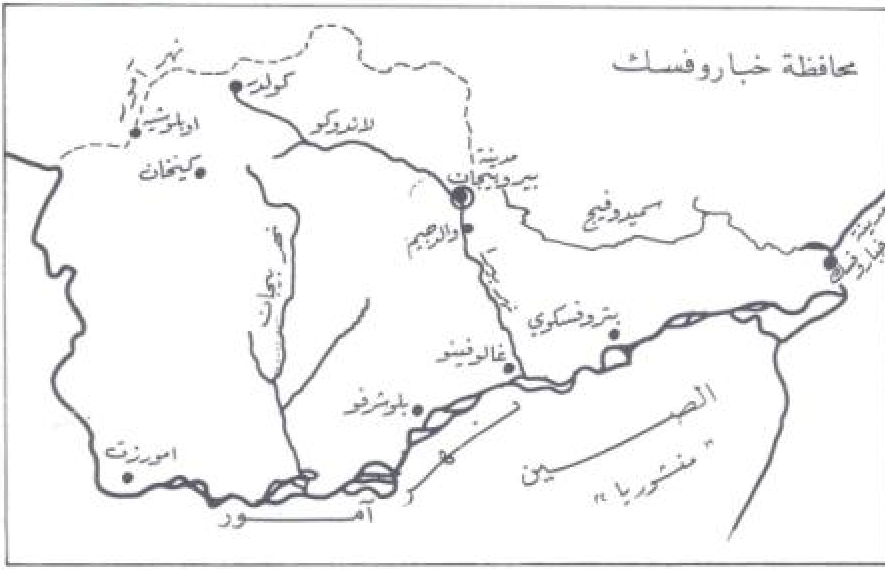
يتضح من الأرقام السابقة أن مساحة المقاطعة تساوي مساحة فلسطين ولبنان ، وأن عدد سكانها قليل ، وعدد اليهود بينهم لايمثل أغلبية .

وأعترف بأن عدد اليهود في المقاطعة التي سميت باسمهم كان مفاجأة لي ، وسأقوم بتوضيح ذلك في فقرات لاحقة .

المقاطعة والدائرة

جاء في المادة ٨٦ من الفصل الحادي عشر من دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ـ القانون الأساسي ـ مايلي :

« تدخل المقاطعة ذات الحكم الذاتي ضمن الجمهورية المتحدة أو الاقليم (بيروبيجان مقاطعة



● خريطة بيروبيجان .. لاحظ حدودها الدولية المهمة

ضمن إقليم خباروفسك) . يتخذ « السوفيت » الأعلى في الجمهورية المتحدة قانون ذات الحكم الذاتي باقتراح من « سوفييت » نواب الشعب في المقاطعة ذات الحكم الذاتي ، وجاء في المادة ٨٨ : « تدخل الدائرة ذات الحكم الذاتي ضمن الاقليم أو المقاطعة . يقر « السوفييت » الأعلى في الجمهورية المتحدة قانون الدوائر ذات الحكم الذاتي » .

وقد جاء في كتاب « بيروبيجان التجربة السوفيتية لانشاء وطن قومي يهودي » لنجدة فتحي صفوة ما يلي حول المقاطعة والدائرة :

« المقاطعة ذات الحكم الذاتي ، هي عبارة عن وحدة إدارية اعتيادية ، ولكنها تتمتع بشيء من الكيان الذاتي ، والمفروض أنها تمثل كيانا إقليميا مستقلا ، لمنطقة معينة ، تحتوي على سكان من قومية واحدة ، لايكفي عددهم لتأليف جمهورية خاصة » .

أما الدائرة القومية : فهي من الناحية العملية تؤلف جزءا من التقسيمات الادارية الاعتيادية ، ولا تكاد تتمتع بأي حكم ذاتي ، وقد أسست الدوائر القومية في المناطق النائية » .

لماذا بيروبيجان ؟

مضى على تأسيس المقاطعة حوالي ٦٠ سنة . فما هي الدوافع التي حتمت اتخاذ هذه الخطوة التي تتعارض مع الدستور السوفييتي ، ولا تتوافق مع الطروحات النظرية الماركسية حول التكوينات والكيانات القومية ؟!

لاشك أن هناك أسبابا تفوق في إلحاحها العملي كل محاذير تجاوز الدستور ، وخرق الطروحات النظرية . فما هي الأسباب ، والمراحل ؟

في جواب غير مباشر قال لنا الجنرال ديفيد دراغونسكي ، رئيس اللجنة العليا لمكافحة الصهيونية ، الحائز على لقب بطل الاتحاد السوفييتي ما يلي : بعد ثورة اكتوبر ، سنة ١٩١٧ نالت جميع الأمم في الاتحاد السوفييتي المساواة ونفس الحقوق ، وأصبح يحق لليهود بأن يعيشوا في المكان الذي يختارونه ، عكس ما كان زمن القيصرية التي كانت قوانينها تحدد إقامة اليهود في مناطق معينة ، عليهم ألا يغادروها ، وكان يمنع عليهم العمل في المصانع والحقول . وهكذا توزع اليهود في أماكن عديدة ،





● مؤسسات ومصانع في بيروبيجان ـ أعلى ـ محطة قطارات «تيخنكايا» التي تحولت الى بيروبيجان ـ أسفل .







● دار البلدية مازالت بين أشجار غابة - أعلى - نصب الشهداء في ساحة المجد - يمين - داخل مكتبة « السلام عليكم » - يسار -

وتعايشوا مع الآخرين بعد قيام الثورة ، لكن قسما من اليهود فضلوا العيش في مجتمع خاص بهم ، فاستجابت لهم الحكومة السوفيتية ، وتم إنشاء مقاطعة بيروبيجان .

ـ لكن اليهود أقلية فيها ؟

● أجاب الجنرال : أي سوفيتي حر في اختيار المكان الذي يود أن يعيش فيه .

ـ ولكن الأدبيات السوفيتية تفيد بأن « بيروبيجان » هي الحل الاشتراكي مقابل الحل الصهيوني ؟

أجاب الجنرال : لكننا لانستطيع إجبار اليهود أو غير اليهود على الانتقال من هذا المكان إلى غيره .

سجل التاريخ

فماذا يقول التاريخ في هذا المجال ؟

جاء في كتاب « الماركسية والمسألة الوطنية » لستالين[8] أن الأمة : هي جامعة أناس ثابتة ، تألفت تاريخيا ، ونشأت على أساس اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والخصائص النفسية التي تتجلى في جامعة الثقافة » .

هكذا ينسف ستالين الادعاءات الخاصة بوجود أمة يهودية .

أما لينين فإنه كتب في صحيفة « الايسكرا » سنة ١٩٠٣ ما يلي :

« الفكرة القومية اليهودية رجعية كليا ، لاعندما يدعو لها دعاتها الصرحاء الصهاينة ، لكنها كذلك عندما تنطلق من شفاه هؤلاء الذين يحاولون أن يمزجوها بأفكار الديمقراطية الاجتماعية .

إن فكرة القومية اليهودية ضد مصالح البروليتاريا اليهودية ، لأنها تروج في صفوفها مباشرة أو بشكل غير مباشر روحا معادية للتمثل ، إنها روح الغيتو »

فلماذا طرح مشروع بيروبيجان الذي يناقض التمثل الذي نادى به لينين ؟!

السنوات الصعبة

إضافة الى تردي المستوى الاقتصادي لبعض اليهود الذين كانوا يعيشون في مناطق التوطين الواقعة على الحدود بين بولندا وروسيا القيصرية ، أو في المناطق الداخلية الروسية ، فإن اضطرابات بل ومذابح ارتكبت بحق اليهود ، كرد فعل من قبل بعض الأوكرانيين ، ـ على سبيل المثال ـ من جراء الاستغلال اليهودي لهم ، وتناقض مصالحهم ، في نهاية القرن التاسع عشر . وبداية القرن العشرين . كما أن الغزو الألماني للأراضي الروسية نظم العديد من المجازر للكثير من شعوب روسيا القيصرية ، ومن بينهم اليهود ، مما دفع الكثير من اليهود للهجرة إلى المناطق الداخلية ، وقد وصل بعضهم إلى أواسط آسيا أو منطقة سيبيريا ، وجبال القفقاس ، ومنطقة القرم ، أو حتى الهجرة إلى خارج روسيا ، خاصة إلى الولايات المتحدة الاميركية التي وصلها منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية الحرب العالمية الأولى وما تلاها ، حوالي مليوني يهودي روسي .

وبقيام الثورة على القيصرية سنة ١٩١٧ فإنها ورثت مشكلة اليهود ، خاصة أن الكثيرين منهم قد أصبحوا دون أعمال بعد ان سيطرت الدولة على القطاع التجاري والمصرفي اللذين كانا مجالي عمل لكثير من اليهود ، إضافة الى أعمال هامشية أخرى .

نتيجة لهذه الأسباب وغيرها ، فإن الدولة السوفيتية الجديدة اتبعت خطة ، تقوم على محاولة تحويل الكثير من اليهود للعمل في المصانع والمزارع ، وتشجيع اندماجهم الطوعي ، إذ أن ستالين قد أعلن في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي سنة ١٩٢٠ « ان الحزب يؤمن برسوخ الأمم واللغات القومية ، ونبذ سياسة التمثل والدمج القومي نبذا تاما ، بوصفها سياسة معادية للشعب ، ومعادية للثورة » والقصد هنا الدمج والتمثل القسريين .

ومع ذلك فإن مشكلة اليهود بقيت قائمة ، خاصة أن النظام الجديد قد واجه محاولات الأنظمة الأخرى لتقويضه بالقوة ، كما أن أعداء الثورة من الروس ممن سموا بالروس البيض ألفوا كتائب عسكرية ، وبدءوا حربهم ضد الثورة أيضا ، نتج عن ذلك تحطيم الكثير من البنى الاقتصادية والصناعية ، والكثير من الموارد والثروات ، وأهمها البشر ، مما أورث مجاعات وآلاما كثيرة ، وأورث إرباكا في مجمل خطط الدولة . وقد تلقت الدولة مساعدات خارجية ، منها مساعدات من بعض المنظمات الأميركية لمواجهة الأزمة . وإجراءات اقتصادية جديدة تم اتخاذها ، كما تم اتخاذ إجراءات على صعيد التخفيف من الكثافة السكانية في المناطق المركزية ، تمثلت في استصلاح أراضي الأرياف والمناطق النائية ، وتهجير بعض سكان المدن إليها .



● رئيس البلدية ناعوم ساراشيفسكي .



● ليونيد شكولنيك رئيس تحرير صحيفة نجمة بيروبيجان .



● ريفا فيشكينا الفلاحة التي لم تتقاعد .

وضمن هذه الموجة الجديدة من التنظيمات ، وجدت منظمات سوفييتية لتوطين اليهود ، تعاونت مع منظمات أمريكية لتحقيق هذا الغرض ، خاصة في جنوب أوكرانيا ، وفي شبه جزيرة القرم ، وغيرهما ، إلا أن تجربة توطين اليهود في هذه المناطق فشلت بفعل مقاومة بعض السكان المحليين ، نظرا لاستغلال الحركة الصهيونية والحركة الدينية اليهودية ، ونشاطها بين المستوطنين اليهود في تلك المناطق ، وبالتالي تخوف السلطات السوفيتية من وجود كثافة يهودية في منطقة استراتيجية ، خاصة أن نذر الحرب العالمية الثانية قد أخذت تلوح .

في تلك الفترة تم التفكير في بيروبيجان ، بل وأرسلت بعثة استقصائية إليها سنة ١٩٢٧ ، فما الذي حتم اتخاذ هذه الخطوة ؟

أسباب وعوامل

لقد بقي قطاع واسع من بين اليهود دون استيعاب ضمن إطار المؤسسات العمالية والفلاحية السوفيتية ومجمل النظام الاقتصادي الجديد ، وكان تأهيلهم يحتاج إلى وقت وجهود ، ولذلك فإن السلطة سعت إلى تشجيع بعضهم للهجرة إلى بيروبيجان .

يقول نجدة فتحي صفوة في كتابه « بيروبيجان » :

« وجدت السلطات السوفييتية بأن المشروع سيعيد حياة اليهود في الاتحاد السوفيتي إلى الوضع الطبيعي ، بجعل اليهود « أمة » أو قومية لها جذور إقليمية . فإذا منح اليهود هذا الاقليم - بيروبيجان - واستطاعوا أن ينشئوا عليه كيانا خاصا بهم ، يكون مركزا قوميا وثقافيا لهم ، فإنهم يصبحون « أمة » بصورة « أوتوماتيكية » .

ويضيف المؤلف :

وكان هذا الحل - في رأي السلطات السوفيتية - سيؤدي أيضا إلى تحويل اليهود من طبقة إلى أخرى : من طبقة بورجوازية ، تعيش على الأعمال غير الانتاجية ، إلى طبقة عاملة منتجة .

كما هدف المشروع إلى كسب عطف اليهود في جميع أنحاء العالم ، وإحباط دعايات العناصر اليهودية المعادية للسوفييت في الخارج ، والحصول على التأييد المعنوي والمادي لليهود في الخارج ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بصورة خاصة . وهناك اعتبارات استراتيجية حتمت اتخاذ هذه الخطوة ، فقد كانت الحكومة السوفيتية غير مرتاحة لوجود منطقة حدود خالية من السكان تقريبا ، مجاورة لمنشوريا - الصينية - المزدحمة بالسكان .

- ويضيف المؤلف : ومع تدهور الوضع الدولي ، خاصة بعد الغزو الياباني لمنشوريا سنة ١٩٣١ ، أخذت الاعتبارات الاستراتيجية لمناطق الشرق الأقصى السوفيتي تظهر بصورة مضاعفة » .

إذن فإن إقامة كيان يهودي في منطقة الشرق الأقصى السوفييتي كان يستجيب إلى هدفين عمليين







● الفرقة التتارية بأغانيها وأزيائها ورقصاتها ـ أعلى ـ ساحة مسرح بيروبيجان ـ الى اليمين ـ تدريبات على مسرحية النجوم المتجولة ـ يسار .



● متحف بيروبيجان حيث كانت النمور ومازالت على مشارف المدن والقرى - أعلى - فرقة الموسيقا داخل المسرح اليهودي - أسفل .



أساسيين أولهما : محاولة إيجاد حل للمشكلة اليهودية ، ليس ليهود الاتحاد السوفييتي فقط ، بل ليهود العالم أيضا ، إذ أن باب الهجرة إلى بيروبيجان فتح أمام يهود العالم ، وفعلا فإن عائلات عديدة من الأرجنتين وانكلترا والمانيا وغيرها وصلت إلى بيروبيجان ، وبعضها مازال إلى الآن (الأبناء والأحفاد) كما ذكر لنا أكثر من مصدر في بيروبيجان أثناء زيارتنا لها .

ثانيهما : إعمار منطقة حدود خالية من السكان في مواجهة بلدين كبيرين ، يعانيان من تخمة في عدد السكان (الصين واليابان) .

وعلى الرغم من اهتمام السلطة السوفيتية العليا بالمشروع ، وتكثيف الدعايات الاعلامية داخل الاتحادالسوفييتي وخارجه ، بغرض تشجيع الهجرة إلى المقاطعة ، إلا أن النتائج لم تكن متوافقة مع حجم الآمال والطموحات ، خاصة بالنسبة لقيام كيان « قومي » يهودي اشتراكي ، يمثل نقيضا للكيان « القومي الصهيوني » .

الواقع له صور

في الرابع من شهر أغسطس ـ آب ـ من هذا العام وصلنا مدينة بيروبيجان ، ظهر ذلك اليوم ، بعد أن استغرقت الرحلة من مدينة خباروفسك بالقطار السريع حوالى ساعتين ونصف ، كان يحف بالطريق على الجانبين بين المدينتين أحراش وغابات كثيفة ، وأنهار عديدة ، ومزارع وأراض خضراء مليئة بالمزروعات والأعشاب والحشائش . الشمس في ذلك النهار كانت تحتجب وتظهر بين فينة وأخرى ، وغيوم سوداء وأخرى بيضاء تغطي وجه السماء ، ونثيث مطر يتساقط بين حين وآخر . ها هي محطة القطارات في المدينة ، إنها نفس المحطة التي كان اسمها « توختكايا » ذات يوم .

سكرتيرة رئيس البلدية ليلى ، ورئيس تحرير صحيفة نجمة بيروبيجان التي تصدر باليديشية ، ليونيد شكولنيك ، كانا بانتظارنا .

برنامجنا كان محتشدا ومكثفا . حاولنا بشتى الطرق تمديد زيارتنا لبيروبيجان أثناء وجودنا في خباروفسك ، ومناقشتنا للبرنامج ، إلا أن كل جهودنا باءت بالفشل ، فلقد تم تحديد الزيارة اعتبارا من بعد ظهر يوم ٨/٤ حتى مساء يوم ١٩٨٧/٨/٥ ، ولم تجد كل محاولاتنا مع زميلنا مراسل نوفوستي في خباروفسك لتمديد الزيارة أو تغيير المواعيد .

اذن علينا استغلال كل دقيقة من وقتنا .

وضعنا حقائبنا في الفندق ، وانطلقنا بالسيارة ، نتابع ، ونسأل ، ونستقصي ، ونستفسر . آلة التصوير تلتقط صورا ، والذاكرة تسجل صوراً ، والعين وكل الحواس أيضا . والقلم كان يعجز أحيانا عن متابعة تسجيل الصور ، ليتم تحويلها إلى مخزون الذاكرة وشاشتها .

هنا الساحة المركزية ، وتمثال القائد لينين .

هنا ساحة الشهداء ، وأسماؤهم محفورة على النصب .

تم تسجيل أسماء (١٧) ألفاً ، منهم حوالي ٧ آلاف يهودي ، قضوا في الحرب العالمية الثانية ضد الغزو النازي ، كما ذكر زميلنا شكولنيك : هذا شارع الكاتب اليهودي السلام عليكم ، وهذه هي المكتبة التي أطلق اسمه عليها ، وذاك شارع لينين ، وهذا هو نهر بيرا . أسماء الكثير من الأماكن مكتوبة بالروسية واليديشية . سألت : بيرا أم بيرو ؟

فأجاب زميلنا : القضية هي في تصريف الكلمات ، والأفعال في اللغة الروسية .

وأضاف : إن بيرا باليديشية تلفظ بيري

هكذا هو الأمر بين لغة وأخرى .

تلة محتشدة بالأشجار ، تشرف على النهر والمدينة ، يعتليها هوائي ، قال زميلنا : إنه الهوائي الخاص بتلفاز بيروبيجان . والتلة ترتفع حوالي ٣٥٠ مترا عن سطح الأرض .

التقطنا الأنفاس قليلا ثم انهالت المعلومات من زميلنا شكولنيك : تصدر جريدتان في بيروبيجان : الأولى تصدر باللغة الروسية ، واسمها نجمة بيروبيجان ، وهي يومية ، يطبع منها ٣٠ ألف نسخة ، وعدد هيئة التحرير فيها يصل إلى ٤٥ محررا .

أما الثانية فهي تحمل نفس الاسم ، لكنها تصدر باليديشية ، ويطبع منها ١٥ ألف نسخة يوميا ، وهيئة تحريرها منفصلة عن الأولى يصل عددها إلى ٥٠ فردا .

والجريدة التي تصدر بالروسية لا توزع إلا في بيروبيجان ، في حين أن التي تصدر باليديشية توزع في مناطق أخرى غير منطقتنا . واشتراكاتنا تتوزع على ٢٧٤ مدينة في الاتحاد السوفييتي ، و ١٦ بلدا في العالم ، منها الولايات المتحدة الاميركية ، والمانيا ، وانكلترا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وفرنسا ، والارجنتين ، و « اسرائيل » ، وغيرها .

معدل درجة الحرارة في الصيف يصل إلى حوالي ٢٥ درجة ، ومعدلها في الشتاء حوالي ٢٥ تحت الصفر ، مع هطول ثلوج .

المقاطعة تقع بين نهري بيرا وبيجان وهما رافدان لنهر امور الذي يمثل الحدود الدولية مع الصين ، ويحيط بالمقاطعة مسافة مقدارها حوالي ٥٥٠ كيلومترا ، من الجنوب ، والجنوب الغربي .

لا تستعمل العبرية ـ المقصود العبرية القديمة ـ إلا في الصلاة ، والكنيس في المدينة لا يؤمه إلا أقلية نادرة ، واللغة المتداولة هي لغة يديشية .

فاليديشية مستعملة في المدارس ، ويختار الطالب اللغة الروسية أو اليديشية لغة أساسية لتلقي التعليم . بعض الطلبة اليهود اختاروا الروسية لغة أساسية ، وبعض الطلبة من قوميات أخرى تسكن المقاطعة يختارون اليديشية لغة أساسية ، لتكون لغة تعليمهم .

صغيرة لكن ذات حيلة !

نعم الروس هم الأكثرية في المقاطعة ، وعددهم يتجاوز ٦٥٪ من السكان ، ويليهم اليهود ، ثم الأوكرانيون والبيلورسيون والمولدافيون وغيرهم .

يبلغ طول نهر بيرا ٢٣٠ كيلومترا ، وهو ينبع من جبال هينغان ، والمقاطعة محاطة بجبال وتلال عديدة ، وفيها حوالي ٢٠٠ نهر ، كبير وصغير ، وحوالي $\frac{1}{2}$ مساحتها يتكون من غابات ، ويسود فيها المناخ القاري ، المتناقض ، فحتى غاباتها تجمع بين الدب القطبي ونمر المناطق الدافئة ، وأشجارها مزيج من أشجار المناطق الباردة والدافئة ، وكذلك طيورها وحيواناتها .

سألت : هل ما زال البعوض يهاجم السكان ، ويزاحمهم في حياتهم ؟

أجاب : زميلنا شكولنيك : أعتقد أنه موجود في مناطق المستنقعات .

عندما زرنا نادي الشطرنج في المدينة فإن مديره ـ فايتسلاف تشيستكوف ـ همس في أذني وهو يذكر المعلومات عن النادي « مدينة بيروبيجان مدينة صغيرة ، لكنها ذات حيلة ، لأنها تقف على مستنقع ، لكنها لا تغرق فيه » .

إذن لقصة البعوض أصول معروفة ، ولذلك فإن المدينة التي لم يتوامم مع أجوائها بعض المهاجرين قد وصفوها بأنها مليئة بالبعوض ، وها هو المثل السائد يرد على ذلك ويشهر سلاحه المضاد .

ومن ضمن ما همس به مدير النادي قوله : إنه جاء إلى المدينة منذ خمسينيات هذا القرن ، حيث كان يعيش في مدينة لينينغراد .

وأنه لم يهاجر أحد من يهود بيروبيجان إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو « اسرائيل » أو غيرها من البلدان منذ ٥٠ سنة ، وأن جل هجرة بعض سكان المقاطعة كان إلى مناطق داخل الاتحاد السوفييتي نفسه .

ـ والنادي ؟

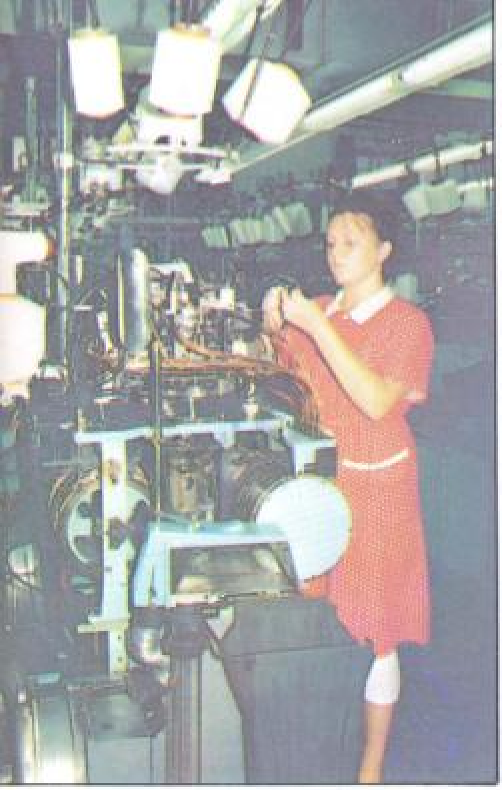
ـ ... آه .. النادي هو أحد أشهر نوادي الشطرنج في العالم . وقد تجد من بين كل اثنين من سكان المدينة لاعب شطرنج ، إنه يطور القدرات العقلية للأفراد .

يستوعب النادي ٧٠ طاولة في قسم الراشدين ، و ٣٠ طاولة في قسم الأطفال والفتيان .

وقد زارنا ٢٦ ألف زائر في العام الماضي من كبار العمر وصغاره . وبعض مدرسي الشطرنج يذهبون إلى قرى المقاطعة لتعليم الناس أصول اللعبة . وعادة ما يتجمع الرواد بعد انتهاء ساعات العمل .

ومن نادي الشطرنج انتقلنا إلى متحف المدينة . ايرينا بانكرادوفا المفتشة العلمية في المتحف أفاضت بالشرح عن وضع اليهود قبل الثورة ، وأنه كان غير مسموح لهم بالاشتغال بالزراعة والصناعة . ولما قامت الثورة فإن الكثير منهم اشتغلوا بالصناعة والزراعة . إذ أن أول معمل نسيج أنشيء في المقاطعة كان سنة ١٩٣٢ م . وتم تأسيس عدة كولخوزات ـ مزارع تعاونية ـ منذ الأيام الأولى للاستيطان في المقاطعة .

وقالت أيضا : كانت الحياة صعبة في الأيام







● ثلاث مراحل من إنتاج الجوارب .







● محطة الحافلات في قرية ـ ولدجيم ـ أعلى ـ نضج الخيار ، فحان وقت القطاف في قرية ولدجيم ـ الى اليمين ـ المحصول معروض للبيع في سوق الخضار ، بمدينة بيروبيجان ـ يسار .

الأولى ، فالحيوانات تهاجم الناس ، والرياح تعصف بالبيوت ، والطقس متقلب . لكن الناس تغلبوا على الكثير من المصاعب ، واستمرت الحياة .

هكذا كان الرواد الأول ، وهذه بيوتهم الأولى ، وهكذا كانت المنطقة الفلانية ، وهذا هو المصنع الأول ، وتلك هي المزرعة الأولى ، وهذه هي الملابس والطبيعة .

لقد أورثونا منطقة رائعة ، والفضل يعود إلى تضحياتهم .

في دار البلدية

وانتقلنا من متحف المدينة إلى دار البلدية ، والتقينا فيها برئيس البلدية ناعوم سبارا شيفسكي ، وقد اتضح أنه صديق زميلنا شكولنيك ، بل كان وإياه في مدرسة واحدة ، وهو من مواليد سنة ١٩٤٥ ، تكلم ناعوم عن المقاطعة ثم المدينة التي تصل مساحتها إلى ١٥ ألف هكتار ، فذكر أنه يوجد حوالي ٥٠ مصنعا في المقاطعة ، أكبرها مصنع الحاصدات الذي يعمل فيه ثلاثة آلاف عامل وعاملة ، وذكر الكثير من الصناعات التي تنتجها المقاطعة ، ثم ذكر هموم المدينة ومشروعاتها ، ومنها مشكلة السكن ، ومحاولة التغلب على الطلبات الكثيرة في هذا المجال ، ثم ذكر أنه يوجد حوالي ١٢ ألف طالب في المرحلة الثانوية ، وأنه سيتم بناء أول معهد للتعليم العالي للمعلمين والمعلمات ، ليتخرج منه ١٥٠ معلما سنويا .

ثم تكلم عن اللغة اليديشية والروسية ، وحرية الطالب في اختيار أيهما ليتلقى العلم بها ، ثم عرج على الحياة الاجتماعية والزواج المختلط بين أفراد من شعوب وقوميات مختلفة في المقاطعة ، وأكد أن حوالي ٨٠٪ من الزيجات زيجات مختلطة ، ثم أكد على أن سكان الريف في المقاطعة أكثر من سكان المدن ، لأنه لا يوجد في المقاطعة إلا مدينتان ، هما بيروبيجان وأوبلوشيه ، والأخيرة عدد سكانها لا يتجاوز الثلاثين ألفا .

وذكر ما يوجد في المدينة من مسارح ، فذكر أنه يوجد بها مسرح روسي ، وآخر يهودي ، وفرق للهواة ، ونوادٍ للثقافة ، إلخ .

وأكد أن المسرح اليهودي لا يكرس أعماله لكتاب يكتبون باليديشية فقط ، بل يقدم أعمالا باللغة الروسية أيضا ، ولكتاب اخرين .

وذكر أن عدد اليهود يقل تدريجيا بين السكان ، لأنه اعتبر ذلك من سنن التطور الطبيعي ، حيث يتم الزواج والاختلاط والتمثل .

وذكر زميلنا شكولنيك : أن اليهود أصبحوا « قومية » حسب مشروع مقاطعة بيروبيجان .

علقت : إن الأمر كان هكذا عند التخطيط للمشروع ، لكن أين هم اليهود الآن ؟ لقد جاءت أقلية منهم إلى المقاطعة ، صحيح أنها تحمل اسمهم ، لكنهم ليسوا أكثرية فيها ، وإذا ما عدنا إلى الطروحات الماركسية ، فإن شروط تكوين أمة في بيروبيجان لم يصبح حقيقة واقعة بعد . علق زميلنا شكولنيك : ما أعرفه أن اليهود أمة وقومية منذ زمن طويل .

علقت : أين هي الأرض والاقتصاد والمصالح المشتركة والثقافة واللغة عند اليهود حسب الأدبيات الماركسية .

علق زميلنا : بل توجد حياة ثقافية مشتركة ومعروفة .

قلت : بعض المظاهر الثقافية مشتركة هذا صحيح ، لكنها من نوع المظاهر الثقافية المشتركة بين أتباع أي ديانة من ديانات العالم ، كالمسلمين والمسيحيين وغيرهم .

انقطع النقاش . وتابع السيد ناعوم حديثه عن مشاكل البناء والكهرباء ، وزيادة عدد المدارس ، وعدم تأثير المصانع على نقاء الطبيعة ، إلى درجة أنهم أحياناً يشربون الماء من نهر « بيرا » دون تصفية وتنقية ، إنه ما يزال صافيا رائقاً صحيا ، هكذا أكد لنا .

تتار في بيروبيجان

من دار البلدية انتقلنا إلى دار الموسيقا ، حيث كانت إحدى الفرق من جمهورية تتاريا ذات الحكم الذاتي تقدم عرضا في تلك الليلة ، لموسيقاها ورقصاتها الشعبية بأزيائها المميزة ، لتتوجه بعد ذلك إلى اليابان ، وقد ذكر السيد ميخائيل كيزر مدير دار الموسيقا ، بأن الكثير من الفرق المسرحية وفرق الباليه وفرق الموسيقا وغيرها في معظم جمهوريات الاتحاد السوفييتي تتوزع في الصيف على مناطق ومدن



● رئيس سوفييت المقاطعة مارك كيوفمان .



● المخرج فلاديمير سيملانسكي .



● المدرس ايزاك بريشكولنك .

أخرى ، حسب الدعوات والترتيبات التي تكون قد اتخذتها من قبل ، لذلك فإن فرقنا المحلية غير موجودة الآن في المدينة ، لقد توجهت إلى مدن أخرى .

وذكر أنه تم إنجاز دار الموسيقا سنة ١٩٨٤ في الذكرى الخمسين لانشاء المقاطعة ، وهي من خمسة أدوار ، تتسع قاعة العرض الرئيسية فيها لسبعمائة كرسي ، وتحتوي على ١٨٦ «استوديو» صغيراً ، وأكد أنه يوجد في المدينة معهد لتدريس الموسيقا ، ومدة الدراسة فيه خمس سنوات يتابع المتخرج دراسته بعدها في معهد عال .

السلالم والبلاط المستعمل داخل المبنى من المرمر . تذكرت في هذه اللحظة قصة الملكة بلقيس مع النبي سليمان ، عندما رفعت ثوبها كي لا يتلوث بالماء ، مع أنها كانت تسير على بلاط المرمر . فقد كان البلاط يلمع ، وحتى أجزاء من السقف كانت من المرمر اللماع ، والقاعة كانت مليئة بالمشاهدين ، صفوف من الجنود جاءوا بانتظام ، واتخذوا أماكنهم بهدوء ، والناس من شتى الأعمار كانوا يتابعون عرض الفرقة التتارية باهتمام . تتكون الفرقة من ٨٠ فردا . غنت أشعارا عديدة ، منها أشعار لشاعر تتاريا المشهور عبدالله توكاي .

وقدمت عروضا شيقة من الرقصات الشعبية التتارية ، ممزوجة بمواقف ومقاطع فكاهية .

ثم انتقلنا من دار الموسيقا إلى دار المسرح اليهودي ، كان الهواة يتدربون فيه على مسرحية اسمها « النجوم المتجولة » ، وقد استندت المسرحية على مقاطع من رسائل الكاتب اليهودي المعروف « السلام عليكم » ، هكذا قال لنا مخرج المسرحية الشاب فلاديمير سيملانسكي .

وأضاف : إن فحوى المسرحية يتركز على إبراز الصعوبات التي يواجهها المهاجر من وطنه ، وحلم العودة الذي يراوده في كل لحظة .

إنها تركز على رحيل فنان كبير هاجر إلى أميركا ، حالما بأن يكتسب فيها المجد البراق والأموال ، لكنه يبقى دون سعادة حقيقية ، لأنه فقد جذوره مع الوطن ، ولأنه أصبح كشجرة دون جذور .

يقول « السلام عليكم » في نهاية المسرحية ـ أنا مثل أبطال مسرحيتي ، ذهبت إلى أمريكا (توفي هناك عام ١٩١٦ وهو من مواليد سنة ١٨٥٩ م) ولم أجد فيها ما كنت أنتظره . فهلا يأخذني أحد من هنا ويعيدني إلى بلادي ، ويدفنني في تراب المدينة التي أحببت « كييف » . سجلت الكلمات التي قالها المخرج حول هذه المسرحية وغيرها من الأمور الفنية ، وأبقيت إعجابي بما قال في جوانح نفسي التي ربما فضحتها تعابير وجهي وعيني .

لقد كان على تماس مع الواقع الذي يؤكد على ضرورة التمسك بالوطن ، وعدم الهجرة منه ، لأن جذور تربة الوطن ليست كجذور نباتات الزينة ! .

في نفس المبنى استمعنا إلى فرقة هواة موسيقية ، تعزف على آلات الكمان ، عزفت عدة مقطوعات







● الحاصدة بعد أن تم إنجاز جميع مراحل صناعتها ـ أعلى ـ
مرحلة من مراحل إنتاج الحاصدة ـ أسفل يمين أدوات
الموسيقا في مكتبة من مكتبات بيروبيجان ـ يسار .

وأغانٍ يهودية وروسية وغيرها ، بعضها كان يتعلق في بيروبيجان نفسها .

للصناعة نصيب

إذا كانت الغابات تمثل ⅔ مساحة بيروبيجان ، وهذا يعني شهرتها بالخشب ، وبعض الأنواع الثمينة منه ، فإنها أيضا تحتوي على ثروة معدنية غنية ، منها الفحم والحديد والزئبق والنحاس ، والصفيح وغيرها من المواد .

ولذلك فإن قيام صناعة في المنطقة هو من الأمور العادية والطبيعية ، وتتوزع الصناعة على صناعات ثقيلة كالحاصدات ، وخفيفة كالصناعات الغذائية والملابس وغيرها .

وتوجد مصانع لتعليب الأسماك النهرية ، مثل سمك السلمون الذي يستخرج منه الكافيار الأحمر ، ويوجد مصنع لانتاج الأسمنت ، يتجاوز إنتاجه مليون طن في السنة .

وقد زرنا في اليوم التالي لوصولنا المدينة (١٩٨٧/٨/٥) مصنعا للجوارب ، وهو متخصص بإنتاج الجوارب (حوالي ٣٣ مليون زوج) لجميع الأعمار والأجناس » ، والتريكو (حوالي ١٢ مليون زوج سنويا) .

هكذا قال لنا السيد زينوفي دودكين مدير المصنع ، وأضاف بأنه قد تم تأسيس المصنع سنة ١٩٦٦ ، ويعمل فيه ٢٥٠٠ عاملة وعامل ، ويصل عدد النساء فيه إلى حوالي ألفي عاملة ، ويقوم المصنع بتوفير السكن للعاملين والعاملات ، وقد بنى ٤ روضات للأطفال ، ووفر خدمات أخرى كثيرة للعاملين ، والآلات الموجودة في المصنع مصنوعة في الاتحاد السوفييتي ، وبعضها مصنوع في تشيكوسلوفاكيا والمانيا الديموقراطية وبعض دول أوروبا الغربية .

والعاملون من شتى القوميات التي تسكن المقاطعة (٢٠ قومية تقريبا) ، وهناك حوالي ١٠٠ عامل وعاملة فيتنامية سيعملون في المصنع لاكتساب الخبرة مدة أربع سنوات .

القطن هو المادة الأساسية للصناعة ، وأغلبه من الاتحاد السوفييتي ، وبعضه مستورد من بلدان عديدة ، منها مصر وغيرها من الأقطار العربية .

يتم استهلاك الانتاج في المقاطعة وغيرها من مناطق الاتحاد السوفييتي .

تتبع المصنع مدرسة تقنية متوسطة المستوى ، لتدريب العاملين وإعادة تدريبهم ، ومعظم العاملين متخرج من معاهد فنية صناعية ، وجميع العاملين حاصلون على الشهادة الثانوية .

المعدل الوسطي للأجور حوالي ٢٥٠ روبلا شهريا .

يوجد قسم فني يتابع التطورات الحاصلة في هذه الصناعة ، ويطورها ، ويستجيب لرغبات الجمهور ، ويتولى رفع مستوى العاملين بالتدريب .

الحزبيون من بين العاملات والعمال يصلون إلى حوالي ١٠٪ ، ومثلهم في منظمات الشباب .

سألت المدير : هل بدأتم العمل حسب الاجراءات الاقتصادية الجديدة ، أي حسب الربح والخسارة ؟

نعم لقد بدأنا بذلك ، وهذا الأمر لا يمثل لنا أي مشكلة ، لأننا كنا وما زلنا نربح .

دلسيلماش

دلسيلماش هو المصنع الشهير في بيروبيجان ، بل وفي منطقة الشرق الأقصى كلها ، إنه يصنع الآلات المختصة بالزراعة ، خاصة حاصدات الأرز والذرة . وميزة الحاصدة البيروبيجانية ـ إن صح التعبير ـ هي أنها ذات جنازير يمكنها العمل في أصعب الأراضي ، بل إنها يمكن أن تعمل بالأراضي المغمورة بالماء في المناطق كثيفة الرطوبة ؟

هكذا قال لنا مدير المصنع سيمون بالاك ، بحضور ميخائيل غومون خبير الاقتصاد ، ونائبة سكرتير الحزب في المصنع آنا كوبريفا ، وسكرتيرة منظمة الشباب في المصنع فالنتينا شنايفا .

وأضاف : أنشيء المصنع سنة ١٩٣٨ م ، ويعمل فيه الآن ٣٠٠٠ آلاف عامل وعاملة ، ويبلغ عدد العاملات ٧٥٠ ، ومعدل إنتاج المصنع هو ١٥ حاصدة في اليوم . وخامات الصناعة كلها متوافرة في الاتحاد السوفيتي ، ومعظم مراحل الانتاج تتم في المصنع نفسه ، وقليل منها يصنع في مصانع أخرى ، والآلات المستعملة في الصناعة مزودة بحاسبات ألكترونية متطورة ، والعمال متخرجون في مدارس صناعية ، ومدربون تدريبا مناسبا ، وهناك تدريب

دوري إجباري لملاحقة التطورات في هذا المجال ، وتوجد مدرسة تقنية تابعة للمصنع .

طبعا يقوم المصنع بتوفير البيوت للعاملين فيه ، ويوجد مستشفى تابع للمصنع ، ومعسكر لأبناء العاملين ، يرتادونه في عطلهم ، وروضات للأطفال ، وعيادة للتأهيل المهني ، واستراحة ، وغيرها من المرافق .

نعم صعوبة العمل تحدد الراتب أحيانا ، فالعامل الذي يعمل أمام النار يتقاضى راتبا أعلى من راتب المهندس . والمعدل الوسطي للرواتب هو حوالي ٣٠٠ روبل .

إضافة إلى تصدير الحاصدات والآلات الأخرى إلى مناطق معينة في الاتحاد السوفييتي كسيبيريا وكازاخستان وجمهوريات البلطيق فإن الانتاج يصدر أيضا إلى بعض دول أوروبا الاشتراكية ، كبلغاريا وهنغاريا ، وتصدر إلى بلدان أخرى ككوبا والمكسيك ، والعراق وفيتنام ولاوس وموزامبيق وكوستاريكا وغيرها من البلدان .

ولا توجد تفرقة طبعا بين معاشات الرجال والنساء .

- نعم نوزع أرباحا على العاملين في نهاية كل عام ، ونحقق أرباحا دائما ، وسنعتمد على خطة الربح والخسارة الاقتصادية الجديدة اعتبارا من بداية العام الجديد .

نسبة الحزبيين تصل إلى ١٣٪ بين العاملين والعاملات .

كما أن أعضاء منظمة الشباب في المصنع تصل إلى نفس النسبة ١٣٪ .

وسألت : ما هو تأثير قرارات الحد من الادمان على الخمرة على العاملين في المصنع ؟

- لقد قلت نسبة المدمنين على الخمرة ، ومن يأتي مخمورا إلى العمل فإنه يشهر به ، ويتم الاعلان عن ذلك على بوابة المصنع . وكما ترى فإنه تم تسجيل أسماء ثلاثة أشخاص فقط في الشهر الماضي .

بيت في غابة

اسم القرية ولدجيم ، ومعناه بيت في غابة ، وهي تبعد حوالي ١٢ كيلومترا عن مدينة بيروبيجان ، والقرية فعلا محاطة بالغابات ، بل إن الغابة متداخلة في جميع أنحائها . والمدن والقرى السوفييتية التي زرتها في السنوات الأربع الماضية تتداخل مع الغابة ، لذلك فإن اسم « مدن في غابات » هو الاسم المناسب لتلك المدن .

وفي حدود قرية ولدجيم يوجد كولخوز « وصية ايليتش » ، أي وصية لينين ، وهي عبارة عن مزرعة تعاونية كبيرة ، تم تأسيسها سنة ١٩٢٩ .

قال لنا السيد بوريس راك رئيس السوفييت المحلي في « التعاونية » ، وهو ابن أحد الرواد الذين جاءوا مع بداية تكوين المقاطعة : -

عدد العاملين في المزرعة يصل إلى ٨٥٠ عاملاً ، منهم حوالي ٣٣٪ من اليهود . مساحة المزرعة تصل إلى حوالي ٧,٥٠٠ هكتار ، منها ٤,٥٠٠ صالحة للزراعة ، وتختص المزرعة بتربية الأبقار والدواجن وزراعة الخضراوات ، وتصل الأرباح السنوية إلى حوالي ٥ ملايين روبل .

عدد المواشي في المزرعة حوالي ٤٠٠٠ رأس ، منها ١٥٠٠ بقرة حلوب . ونبيع سنويا للدولة حوالي ثلاثة آلاف طن من الحليب ، وسبعة آلاف ونصف طن من الخضراوات ، وألف وخمسمائة طن من البطاطا ، ومواد أخرى زراعية . والمعدل الوسطي لأجرة العامل يصل إلى ٢٠٠ روبل ، ويتم توزيع أرباح قد تصل إلى ألفي روبل في نهاية موسم الزراعة على العامل الواحد ، إضافة إلى معاشه الشهري .

- طبعا المزرعة توفر جميع الخدمات للعاملين فيها من ناحية السكن والتعليم والعلاج وغير ذلك من خدمات اجتماعية وثقافية ؟

- نعم ، إننا نعمل على أساس الربح والخسارة ، وكما ذكرت لك فإننا نربح منذ زمن طويل .

- الفرق بين الكولخوز والسوفخوز أن الأول مزرعة تعاونية ، يديرها العاملون فيها ، في حين أن السوفخوز مزرعة تدار من قبل الدولة .

- نعم الحياة الثقافية عندنا مزدهرة ، ففي المزرعة ناديان ثقافيان ، ومدرسة موسيقية ، وأخرى رياضية ، ومكتبتان ، فيهما حوالي ٧٥ ألف مجلد

وكتاب ، و ٣ قاعات رياضية ، ومتحف خاص بالكولخوز .

أثناء عودتنا إلى مدينة بيروبيجان كان العمال والعاملات قد بدءوا بقطف الخيار ، فانطلق زميلي المصور لتصوير هذا المشهد ، وبعد ذلك زرنا روضة للأطفال ، تابعة للمصنع المختص بصناعة الجوارب ، وقصرا للطلائع .

الصهيونية وفلسطين

لا يمكن أن نصل إلى بيروبيجان ، دولة اليهود السوفيتية ، دون أن نسأل عن الصهيونية ، ومشروعها لاستعمار فلسطين واحتلالها .

لذلك فإن هذا السؤال تكرر عندما زرنا مزرعة ولدجيم وإحدى العائلات التي تقطن فيها ، والسيد كيوفمان رئيس سوفييت المقاطعة ، وأثناء لقائنا بمحرري صحيفة نجمة بيروبيجان .

السيد ايزاك بريشكولنك ، مدرس اليديشية في كولخوزوصية لينين في قرية ولدجيم قال :

أنا من مواليد سنة ١٩٢٠ ، جئت إلى هنا سنة ١٩٣٧ مدرسا لليديشية ، وهأنا مازلت هنا ، أحلت على التقاعد رسميا منذ سبع سنوات ، لكنني ما زلت أعلم اليديشية . عندما سألته عن الصهيونية ضحك باستهزاء ، وقال : الصهيونية قرينة للفاشية ، لأن الفاشيست كانوا يقتلون اليهود ، والصهاينة يمضون في نفس الطريق ، ويقتلون العرب !

ـ وفلسطين والفلسطينيون ؟

نحن نؤيدهم ، ونقف بجانبهم لاقامة دولتهم الخاصة ، وتطبيق قرارات الأمم المتحدة في هذا المجال ، ونيابة عن سكان قريتنا من اليهود فإنني أقول بأننا في الاتحاد السوفييتي كنا وما زلنا أصدقاء للعرب .

السيد مارك كيوفمان رئيس سوفييت مقاطعة بيروبيجان قال :

لا يربطنا أي شيء « باسرائيل » أو بالصهيونية ، وإننا ندين سياسة « اسرائيل » المعادية للعرب ، ومع ذلك فإننا غير معادين للسكان الإسرائيليين . إن خط الحزب والدولة في الاتحاد السوفييتي يناديان بإقامة دولتين في فلسطين ، فلسطينية عربية ، ودولة يهودية غير معتدية ، دولة سلام . وللفلسطينيين حق إقامة دولتهم على أراضيهم ، ورفع الاضطهاد عنهم . وأنهى السيد كيوفمان حديثه بقوله :

هل تصدق إنني دعيت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في العام الماضي من قبل مجلة أمريكية اسمها « جويش افيرز » لكنني لم أمنح تأشيرة دخول ! ! أما السيدة ريفافيشينكينا الفلاحة في كولخوز لينين التي أحيلت على التقاعد منذ عام ١٩٨٣ ، وجاءت إلى بيروبيجان منذ سنة ١٩٤٧ فقالت :

نحن نحب السلام ونكره الصهاينة ، لأنهم لايريدون السلام ، ونحن نعرف معنى الحرب والاحتلال وويلاتهما تماما ، وقد رأينا كثيرا من الآلام ، وفقدنا الكثير من الأقارب والأحباب ـ لذلك فإننا مع السلام ، وإعطاء الحقوق العادلة للفلسطينيين .

السيد اوليغ ستيبيس رئيس القسم الاقتصادي في صحيفة نجمة بيروبيجان التي تصدر باليديشية علق قائلا :

الصهيونية من أسوأ الحركات ، وهي ليست معادية للعرب فقط ، بل إنها معادية لليهود أيضا ، إنها تريد جمع اليهود في بلد واحد ، وخلع اليهود الكادحين من البلدان التي يعيشون فيها منذ آلاف السنين ، ثم زرع العداء بين اليهود والآخرين . إنهم يضطهدون العرب ويوترون المنطقة كلها . إننا نتضامن مع الكادحين العرب والاسرائيليين الذين يناضلون ضد الصهيونية ونقف معهم بقوة ، وإن الصهيونية تعبر عن مصالح الطبقات الكبرى اليهودية .

حوار حول أسئلة صعبة

إن تسمية المنطقة باسم المقاطعة اليهودية ذات الحكم الذاتي يشير إلى طموح إقامة كيان ودولة ، إلا أن عدد اليهود فيها يشير إلى محدودية هذا النجاح ، وحول هذا الأمر تحاورنا مع بعض قيادات المقاطعة .

السيد مارك كيوفمان رئيس «سوفيتات» وممثل المقاطعة في المجلس الأعلى لسوفييت «روسيا الاتحادية



تمرينات راقصة في بيت ثقافة بيروبيجان



أطفال يوقعون إحدى موسيقا أغانيهم في الروضة

قال : لقد جئت إلى هذه المقاطعة منذ سنة ١٩٥٩ ، وتدرجت في عملي كمهندس بعد تخرجي ، حتى وصلت إلى رئيس «سوفييت» المقاطعة منذ سنتين ، وحول قلة اليهود في المقاطعة قال :

إن الإنسان حر في اختيار مكان سكناه ، وطبعا لانستطيع إجبار من لايرغب في المجيء إلى هنا .

لكن المقاطعة أنشئت باسم اليهود ، وبذلت جهود وأموال لتهجيرهم إلى هنا .

إننا لانبذل جهودا خاصة لتهجير اليهود إلى المقاطعة في الوقت الحالي أما من قبل فإن قلة عدد السكان هي الحافز على بذل الأموال والجهود لتهجير الناس إلى المقاطعة ، وعندما كثر العدد أصبحنا لانستقبل إلا المهاجرين العاديين الذين يصلون إلى حوالي ٤ آلاف نسمة في السنة منذ عشر سنوات .

ـ أليس من الضروري أن يكونوا يهودا ؟

لاطبعا ، إننا نستقبل احتياجات المنطقة من شتى الكفاءات ، ومن شتى جمهوريات الاتحاد السوفييتي وشعوبه .

ـ لكن المقاطعة تحمل اسم اليهود ؟

صحيح إن اليهود لايمثلون أغلبية بين السكان ، ولا نسبتهم العددية هي النسبة الأولى ، ومع ذلك فإننا لانستطيع إجبار أحد على المجيء إن لم يكن يرغب في ذلك ، لقد كان اليهود لايعملون في الزراعة والصناعة قبل الثورة ، لكنهم بعدها تساووا مع الآخرين في شتى مجالات الحياة ، فبعضهم عمل في الزراعة والصناعة وغيرها . ويوجد في المقاطعة مزارع ومصانع يعمل فيها الكثير من اليهود .

إنني أتساءل عن قلة العدد ؟

ربما لم يهاجر اليهود إلى هذه المقاطعة بسبب ركونهم للعيش في المناطق المركزية ، وفي المدن الرئيسية ، وربما لأنهم تعودوا على العيش في أماكن معينة ، فوجدوا صعوبة للانتقال إلى أماكن لم يعتادوا عليها .

السيد سيمون فيسنكين ، والسيدة ريفافيشنيكينا زرناهما في بيتها في مزرعة وصية لينين التي تبعد عن مدينة بيروبيجان حوالي ١٢ كيلومترا .

قال لنا الرجل : لقد كنت ضابطا في الجيش ، وجئت إلى الشرق الأقصى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتعرفت على الكثير من مناطقه ، وعندما انتهت الحرب عدت إلى أذربيجان ، حيث كنت أعيش ، أما زوجتي فهي من بلاد القرم .

تدخلت المرأة في الحديث ، فقالت : لقد جئنا للمنطقة منذ سنة ١٩٤٧م مع ٤٠ عائلة هاجرت من بلاد القرم إلى هنا .

ـ هل جئتم بدافع قومي على أساس أن المقاطعة هي مقاطعة لليهود ؟

• ضحكت المرأة الستينية الحائزة على وسام العلم الأحمر في العمل ، وعلقت :





داخل نادي الشطرنج ،

الأطفال لهم نصيبهم أيضا

أنا وزوجي حزبيان ، والبلاد السوفيتية جميعها بلادنا ، ونحن لم نأت إلى هنا بسبب أننا يهود ، فنحن ماديون ، والدين لايؤدي دورا في حياتنا ، لقد جئنا إلى هنا لأننا قرأنا في تلك الفترة إعلانات عن حاجة الشرق الأقصى إلى أيد عاملة ، فقررنا المجيء ، لأننا نعرف المنطقة ، وقد عشنا فيها أثناء الحرب .

ـ والحافز القومي ، أي وجود مقاطعة تحمل اسم اليهود في المنطقة ؟

• نحن هنا في الوطن السوفييتي، وطننا ، وقد أحببنا هذه المنطقة ، لذلك فإننا نعيش هنا ، ولا يوجد أي دوافع أخرى .

في لقائنا مع رئيس تحرير ومحرري صحيفة نجمة بيروبيجان التي تصدر باليديشية ، طرحنا عليهم السؤال المتعلق بقلة عدد السكان اليهود في المقاطعة مع أنها تحمل اسمهم .

قالوا : إن اليهود يسكنون في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي ، وهم أحرار بالسكنى في هذه المنطقة أو تلك .

ـ ألا توجد حوافز للتجمع من أجل بعث ثقافة يهودية مشتركة وعادات وتقاليد ولغة مشتركة ؟

قال السيد ليونيد شكولنيك رئيس التحرير :

• إن ذلك متوفر إلى حد ما في جمهوريات ومناطق أخرى ، وهناك دروس باللغة اليديشية في بعض المناطق ، وهناك مسرح هواة في لينينغراد على سبيل المثال ، وهناك مطبخ وأزياء ، إلخ .

ـ ولكنها ليست تماما كما هي هنا في بيروبيجان ؟!

• قد يكون ذلك ، لكن قضية العيش في هذا المكان أو ذاك تتداخل فيها أسباب عديدة ، اقتصادية واجتماعية وثقافية ، وغير ذلك .

أرض الميعاد

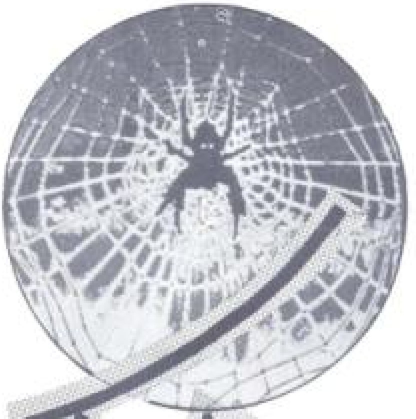
عندما كانت السيارة تقلنا نحو محطة القطارات كي نغادر بيروبيجان سألت السائق اسحاق الجل ، لماذا لاتهاجر من هنا ؟

إن الصهاينة حسب دعاياتهم يعدونك ببيت وسيارة وفتاة جميلة ، ويعدونك بأرض الميعاد أيضا .

قهقه اسحاق ، وبانت ملامح السخرية على تقاطيع وجهه وقال : لماذا أهاجر ؟ هنا وطني ، وهنا ولدت سنة ١٩٣٨ ، وجاء أبي إلى هنا سنة ١٩٢٩ ، ومات ودفن هنا ، ونصف أهلي هنا ، لماذا أهاجر ؟

إن هذه الأرض هي أرض الميعاد بالنسبة لي ، وأعتقد أنني أعيش أفضل بكثير ممن يعيشون في « اسرائيل » ، إنني أملك سيارة خاصة ، وبيتا خاصا ، وكل ما أحتاجه موجود عندي . فلماذا أهاجر ؟

... في تلك اللحظة تذكرت ما قالته الفلاحة ريفا : « خائن من يهاجر ويترك وطنه » . □



جنون العنكبوت

اعداد : عبدالرحمن حريتاني

يشعر الانسان بالضيق إذا ما أبصر نسيج عنكبوت بزاوية أو ركن في بيته ، والشعراء بل والعامة يعتبرون وجود العنكبوت بكثرة في مكان دليلا على انعدام الحياة ، لكن العلماء لهم رأي مختلف . وهذه رحلة عَالِم عقاقير في دراسته للعنكبوت .

في ضوء ذلك الصباح الباكر ، وقعت في حبائل الشرك فريسة ممكنة ، علقت بخيوط النسيج الدبقة ، ولم تستطع فكاكا ، ونزل العنكبوت الصغير من مكمنه ، ليقترب من الضحية التي تناضل للخلاص وإنقاذ حياتها ، فلسعها بشوكته السامة ، وأنهى حركات تخبطها ، ثم دار دورات قصيرة حول الفريسة ، ولفها بخيوط حريرية ، وجعلها كمومياء بشكل حبة فاصولياء ، ثم تسلق وإياها إلى قمة النسيج الذي أتلفته المعركة القصيرة ، لكن لم تكن هذه مشكلة عند العناكب قط ، فغدا باكرا سوف تبني أنثى العنكبوت نسيجا جديدا . في البداية سوف تفكك هذا النسيج الممزق ، ثم تمد خيوطا كأضلاع للتثبيت ، ثم تدور وكل ما فيها يتحرك ، عاملة بجهد مضن لا يهدأ ، وفي وقت مقداره من (٢٠ ـ ٣٠) دقيقة من الصباح الباكر . ينتهي نسج العنكبوت بآلية بارعة معجزة ، يفوق وصفها الخيال .

تجربة عالم مع العناكب

العالم الاختصاصي في علم العقاقير (بيتر . ن . وت) واحد من القلة من الناس الذين أحبوا العناكب ، فهذه الحيوانات ليست محبوبة من الناس على الرغم من أن نفعها أكثر من ضررها ، وإعجابه بها وشغفه قد دفعاه لأن يعيش معها باستمرارية مدى حياة كاملة ، ولم يترك اختبارا أو تجربة أو كشفا لعلم حديث إلا وجربه عليها طوال هذه السنين ، بهدف كشف السر في آلية تنفيذ العملية البارعة التي تؤدي بها العنكبوت عملها ، لتنتج هذا التصميم الفذ الذي عجز عن مثله العلم البشري بكل تقنياته ، وبهدف الاستفادة من تأثيرات العقاقير على العناكب أيضا وذلك لصالح الانسان . يقول العالم (وت) لو أنك حقنت إحدى العناكب بنقطة من عقار الهلوسة (LSD) أو بقليل من (المسكالين) فسترى أن نسيج العنكبوت الذي ظل مئات الملايين من السنين على الأرض بتركيبه الهندسي التصميمي الرائع المعجز قد تبدلت هيكليته وتغير . لكن كيف يحدث ذلك ؟ وكيف تؤثر هذه العقاقير وشبيهاتها على أصول أساسيات العملية المتقنة البارعة التي ظلت تؤدى على الأرض ملايين من السنين ؟ والنسيج العنكبوتي المتغير في تركيبه والذي نراه على هذه الصفحات قد تبدل بتأثير هذه العقاقير على أدمغة العناكب ، وجميعها من تصوير العالم (وت) نفسه .

و« المسكالين » من عقاقير « الهلوسة » مثل عقار (LSD) . يستخلص من نوع من نبات (الككتوس) - الصبير - بعد تجفيفه ، وهو من عائلة التين الشوكي الذي ينبت في الأراضي القاحلة الجافة في المكسيك ، وهو واحد من أغرب العقاقير في المجموعة « الفارماكولجية » ، وعقار الهلوسة هذا يؤثر على المراكز العليا في الدماغ بفاعلية أشد من فاعلية الأفيون والهيروين (ثنائي استيتيل المورفين) ، وكمية جزئية منه تؤدي بمتعاطيها إلى اضطرابات عقلية خطيرة . يقول العالم (وت) لقد جربت تأثير عقار « الهلوسة » على نفسي أنا ومجموعة علماء وذلك قبل أن نجربها على العناكب .

فأدركنا أن متعاطي هذه العقاقير يحس بشعور غريب بالبهجة والمتعة المحلقة الزائفة ، ويغيب عن هذا العالم ، ويشعر بفقده وجوده ، وبعض العلماء الذين جربوها على أنفسهم وذكروا القليل مما حدث معهم قالوا إنهم انفصلوا عن واقعهم تماما . وعاشوا في جنات صورية تراءت لهم كحقائق .

العناكب وعقاقير « الهلوسة »

لكن كيف كان تأثير هذه العقاقير على العناكب ؟ يقول العالم (وت) إن العناكب خلال بنائها لنسيجها قد تفاعلت مع جميع العقاقير التي تؤثر في عقول البشر ، فالحشيش جعلها تنسج نسيجا بشكل لولبي عوضا عن النسيج البيضوي العادي ، وعقار « الأمفيتامين » جعل نسيجها أصغر ، و « الكافايين » بعثر النموذج المرتب في تناسق الخيوط ، و « السكوبولامين » أرغم العناكب على عمل خطوط متعرجة بدلا من عمل الدوائر المعروفة ، والكثير جدا من عقار « الفاليوم » أدى بها إلى أن تتخلى عن حياكة النسج ، بل إنها استسلمت لحالة سبات شبيه بالموت .

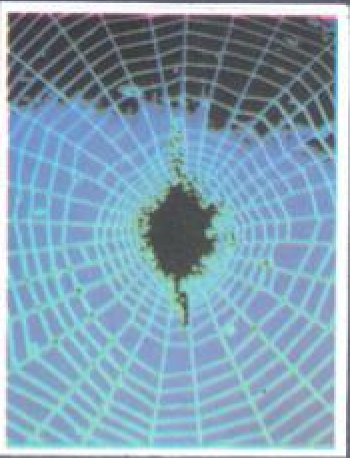
لقد جرب العالم (وت) كل وافد جديد من أنواع العقاقير في هذا الزمن الذي ازدهرت فيه صناعة العقاقير وراجت ، تلك العقاقير المنشطة ، ومضادات الاكتئاب ، والمسكنات والمهدئات ، وعقاقير « الهلوسة » ، ووضع لكل نسيج حاكته عنكبوت في حالة « هلوسة » إشارة تميزه ، حتى أصبح غير الخبير منا يستطيع بعد تمرين بسيط أن يعرف من شكل النسيج الذي ينظر إليه أنه قد نسج بتأثير « فاليوم » أو « هيروين » أو غيره من عقاقير « الهلوسة » . وكان أمل العالم (وت) الكبير وبغيته الهادفة من هذه التجارب أن يجدللعناكب ممارسات

مهمة ، وأعمالا حيوية تهم بني البشر . والاستخدام الأهم والأمثل لنتائج تجاربه كانت يجب أن يتم ـ حسب رأيه ـ في مختبرات شركات الأدوية الواسعة ، فالعناكب تستطيع أن تفيد في مجالات تصنيع الأدوية والعقاقير كافة ، خاصة في تجارب سمّية العقاقير الجديدة ، ووضع جرعات التصنيف ، ولاختبار مجموعات واسعة من العقاقير المختلفة وتأثيراتها الجانبية الضارة بالانسان . يقول العالم (وت) لايهم إن ماتت عنكبوت أو اثنتان في هذه التجارب على الرغم من أني أحبها ولا أتمنى هلاكها » .

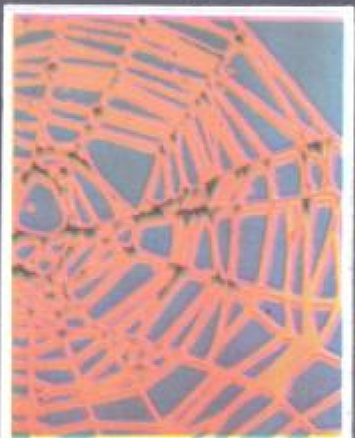
نسيج العنكبوت

العنكبوت تشريحياً ليست حشرة ، وخيوط العنكبوت تخرج من أحشائها ، وهي مرنة اكثر من النايلون ، ومتينة اقوى من الفولاذ ، لا تبلى ولا تهرأ ، ولا تتعفن ولا تفسد ، ولا تنفذ منها الأشعة أو الماء أو الغبار ، ولا يوجد نسيج خيوط من صنع الانسان بهذه المواصفات أو الاستخدامات . داخل الغدد التي يتم فيها صنع خيوط الليف المعجزة تكون مادة الخيوط سائلة ، وتنساب من الغدد خلال أقنية ضيقة طويلة ، حيث يتبدل قوامها من السيولة إلى الصلابة ، ولا أحد يعرف حتى الآن بأي وسيلة يتم ذلك ، وتنسحب الخيوط بقوامها الصلب من المغازل (الأعضاء الناسجة للخيوط) الواقعة في مؤخرة جسم العنكبوت . ونوع من الخيوط يشكل الاطار الخارجي وأنصاف الأقطار التي تشبه البرمق (شعاع الدولاب) للنسيج ، والخيوط الأخرى تستخدمها العنكبوت لتشكل شبكة النسيج التي تكون مغراة .

وإنه مما يدعو للعجب والاستغراب أن التجارب أثبتت أن العناكب تعلم مقدار كمية مادة الخيوط الموجودة في غددها ، وتبرمج خططها وفقا لمخزونها ، وما ستنتجه، وعندما تنتهي العنكبوت من بناء نسيجها تكون غددها فارغة تماما ، ولم يحدث ـ ولا مرة ـ أن فوجئت عنكبوت بفراغ مخزونها من مادة

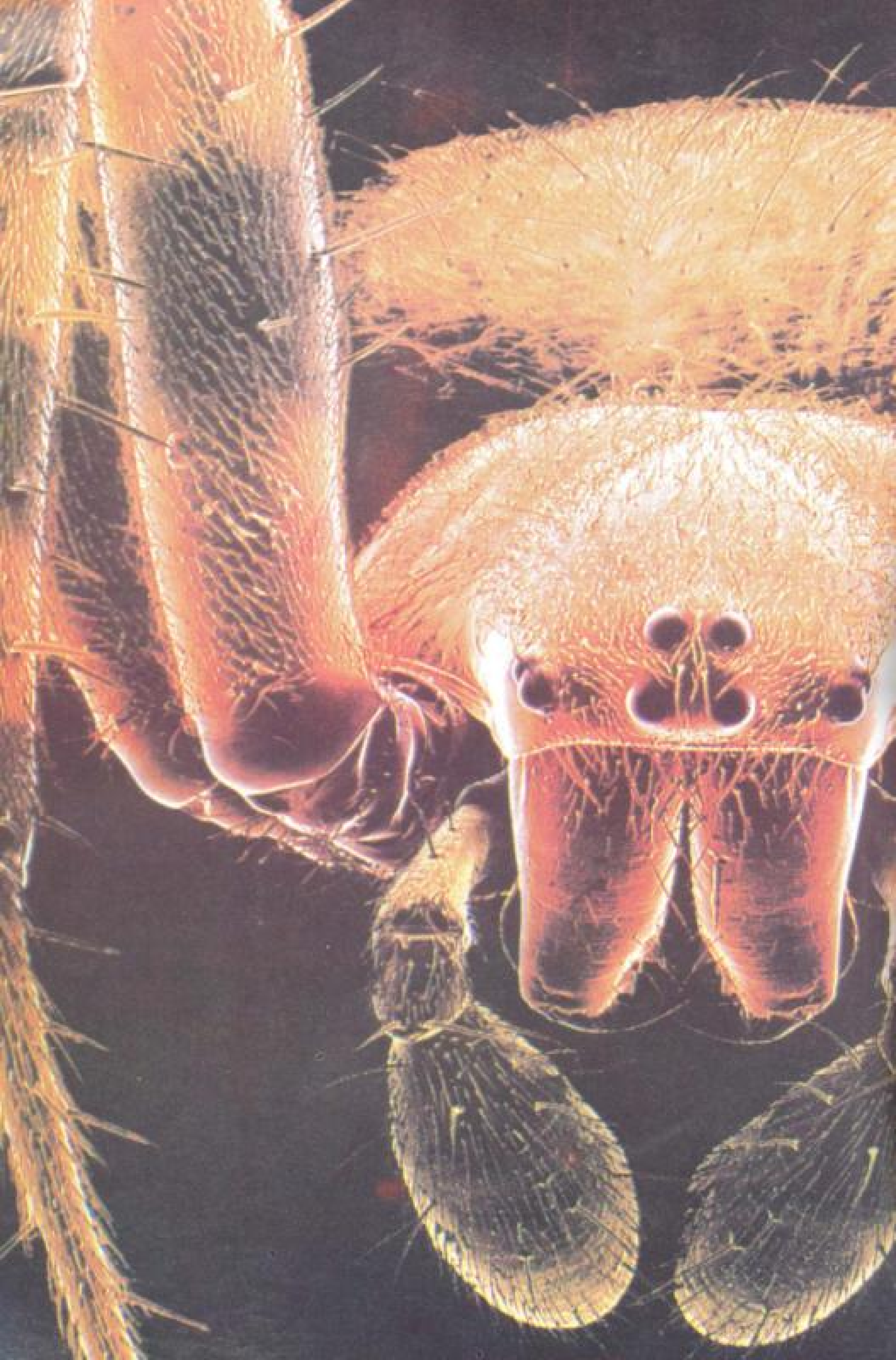


نسيج عنكبوت الحدائق الذهبي .. آية في الابداع والجمال ..



نسيج عنكبوتي حاكته عنكبوت بترت قائمتين لها

العنكبوت معجزة الله في الأرض .. في صورة مكبرة تظهر كل تفاصيل هيكله الخارجي الذي يعمل بكليته وهذه الأشواك البارزة على القوائم لها دور في سند الخيط وليه .



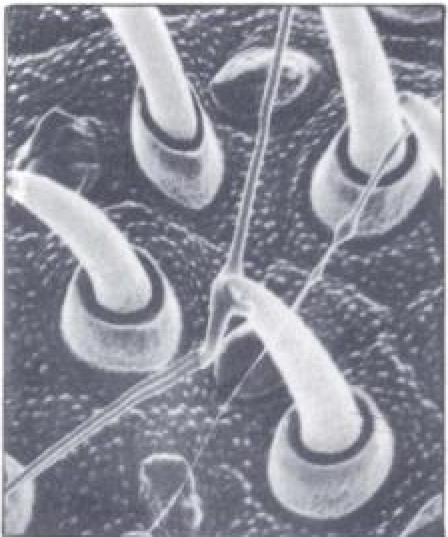
الخيوط ، وتوقفت عن بناء نسيجها ، ولم تكمله لهذا السبب . تقدير موزون محسوب مقدر ، لمخلوق صغير مدرك ، يقيم به الحجة على بني البشر . وأحيانا عندما ترى عنكبوتا قد نسجت نسيجا أصغر مما اعتاد يراعها صنعه فاعلم أن هذا ليس كسلا أو عجزا منها ، وإنما هي قد قدرت مخزونها من الخيوط ، وأجرت حساباتها الدقيقة التي تعجز عنها أجهزة الحاسوب الحديثة المتطورة ، ونسجت نسيجا لزوميا صغيرا ، بقدر ما تكفيها مؤونة ذخيرة الغدد الناسجة . لم ينقصها مقدار خيط قط ، ولم يزد عندها مقدار خيط قط فتتحسر عليه . وتقول باليتي كبّرت نسيجي « حكمة بالغة فهل من مُدّكر » .

عندما تبني العنكبوت نسيجا لا تتوقف أبدا ، بل تعمل بحركات سريعة ماهرة من البداية إلى النهاية ، وعادة يكون النسيج الأول للعناكب اليافعة صغيرا ، لكنه مثالي مكتمل الصنعة والاتقان ، ولا تجرب العناكب نفسها أو تتمرن على بناء النسيج ، بل إنها تبنيه هكذا بالفطرة ، وكأنه رسم راسم ، ولعله فعل تنبيهي غريزي فطري .

« لكل عنكبوت نموذج فردي متميز »

من خلال الملاحظات التجريبية العديدة أثبت العالم (وت) وزملاؤه العلماء أنه لا يبني عنكبوتان نسيجين متماثلين ، ومع ذلك فإن هناك فروقا واختلافات طفيفة بينهما ، تتحدى ضبط العين المجردة ، وكشف التحليل بالحاسوب لهذا النسيج ، إن لكل عنكبوت نموذجا فرديا متميزا .

وأثبت التحليل بالحاسوب أيضا أن نسيج أهل النسب والقرابة من العناكب متشابه جدا أكثر من نسيج الغرباء (غير الأقرباء) ، ويقول أيضا لو أن هذا النسيج كان من صنع الانسان لقلنا بأن الطفل يقلد أبويه أو أقاربه الذين رآهم ، لكن العناكب لم ير الواحد منها الآخر . فالعنكبوت الأنثى تموت بُعَيْد أن تضع بيوضها ، والعنكبوت الذكر يحبك النسيج ثم



صورة أكثر من رائعة لمغازل العنكبوت وهي في العمل ونشاهد الخيوط المنبثقة من فتحاتها بكل وضوح . .

يتوقف عن البناء ، ويتوقف عن الأكل ، ويتوقف نموه ، ويصبح بعد هذه التوقفات بنصف حجم أنثاه ، أما كيف يعيش بقية أيام حياته الأخيرة فهذا من باب التخمين لأكثر العلماء . وبعد تفقيس البيوض وخروج العناكب منها تبدأ في غزل النسيج بعد عدة أسابيع من تفقيسها ، وتعمل كل عنكبوت بمفردها ، ولا ترى الواحدة منها الأخرى ، ولا ترى عملها ، فكيف إذن يحدث ما يحدث ، ويتشابه نسيج الأقارب ؟ يقول (وت) لعلها هذه المرة سمات سلوكية وراثية مكتسبة .

استخدامات لنسيج العنكبوت

الدافع الغريزي لبناء النسيج عند العناكب يكون قويا جدا ، ذلك أنها وهي في المختبرات تحيك النسيج يوميا ، حتى لو اقتصر غذاؤها على فراشة كل ٢٤ ساعة ، والذي أظهرته التجارب أن العناكب لا تستجيب للاهتزازات التي تحدثها الحشرات الواقعة في حبائل شباكها إذا ما قدم لها الطعام من القمين عليها ، وهذا دليل جديد على أن وظيفة النسج

ليست إمساك الفرائس كما يظن معظم الناس ، فوراء النسيج المحاك ببراعة أمور تحليلية عجيبة ، فمن بعض استخداماته الكثيرة التمويه والدفاع الذاتي ، وفي بعض الأنواع للتحكم في درجات الحرارة والرطوبة ، كما يستخدم عند بعضها للطيران بمساعدة الرياح ، كما يستخدم لبناء غرف غوص وبيوت حضانة وحجر تزاوج .

والعلماء الذين احتجزوا العناكب في أنابيب زجاجية ـ منذ كانت بيوضا ـ مدى حياتها لاحظوا أنها حالما يطلقونها من الأسر تبدأ ببناء النسيج ، وأن ذلك النسيج يكون طبيعيا في كل شيء ، عدا الحجم الذي يصغر قليلا ، وقد قام العالم (وت) بعمل تفريغ صناعي لمادة الخيوط التي في الغدد ، وذلك بعد أن وصل الخيوط الممتدة من الغدد إلى محرك صغير ، يلفها بعيدا ، وقد لاحظ أن العناكب انصرفت عن بناء النسيج عندما لاحظت أن غددها فارغة ، وعندما جرب هذه التقنية على العناكب المرباة في الأنابيب الخارجية ، وقام بسحب الخيوط من غددها على يومين متتالين ، ثم أطلقها ، لاحظ أن هذه العناكب قد استطاعت خلال فترة قصيرة أن تملك خيوطا كثيرة ، وتبني نسيجا كبيرا ، وعندما وضع ثقلا من الرصاص على ظهور بعضها وجد أن خيوط النسيج صارت أثخن ، وعندما وضع عوائق أمامها وجد أنها استطاعت أن تتغلب على هذه المشكلة ، وتبني نسيجها بوسائل أخرى ، وعندما بتر من بعضها قائمة أو قائمتين وجد أنها لم تتأثر ، بل ظلت تبني النسيج .

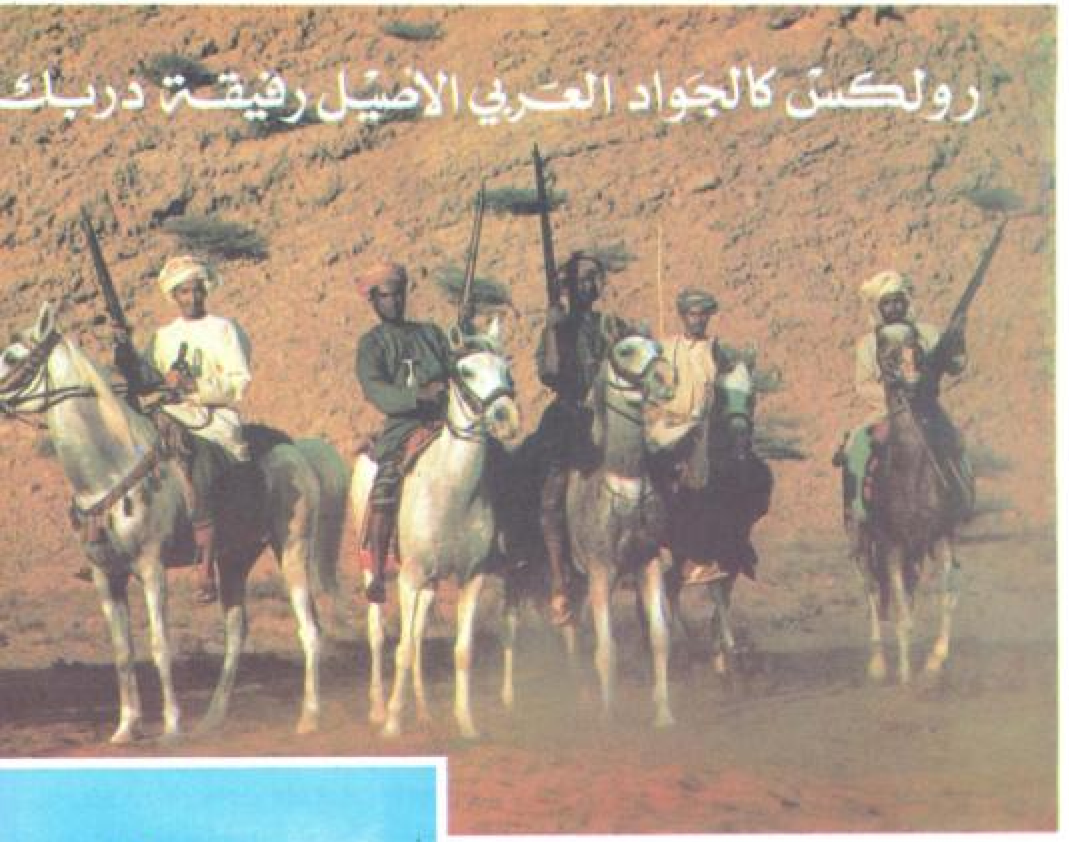
جراحات ليزرية

يقول العالم (وت) إن الكثير من العناكب تفقد قائمة أو قائمتين عندما تهاجمها الطيور ، وعلى الرغم من ذلك تظل تبني النسيج . ومنذ سنوات عندما بدأت تقنية الليزر تظهر، استطاع أن يقنع أحد أصدقائه من علماء الفيزياء ـ وكان من أوائل من برعوا باستخدام شعاع الليزر ـ بإجراء جراحات ليزرية على العناكب ، وذلك بهدف أن يكتشف بدقة أي المناطق العصبية توجه عمليات بناء النسيج ، وتهيمن عليها .

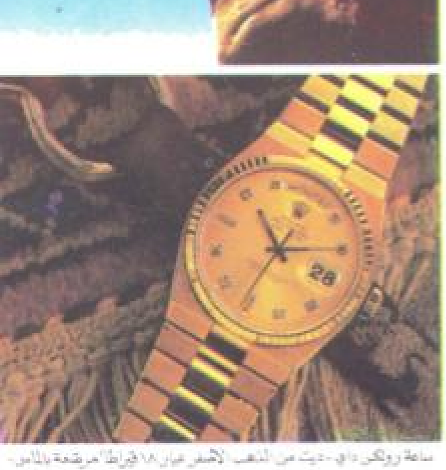
والذي ثبت من هذه الجراحات الليزرية أن للعناكب دماغا ضخما قياساً على حجومها ، أو بالأحرى أن لديها تراكما وتكديسا مكونا من مئات آلاف الخلايا العصبية الكبيرة جدا ، تتجمع في كتلة ضخمة في منطقة الصدر الرأسي ، وهي المنطقة الأمامية من الجسم التي تتكون من اندماج الرأس والصدر في العناكب والقشريات .

العناكب في الفضاء

تجربة واحدة كان يحلم بإجرائها العالم (وت) على العناكب ، وهي تبني النسيج في حالة (انعدام الجاذبية) ، أي في مرحلة انعدام الوزن في الفضاء ، وسمحت ادارة الفضاء الاميركية (ناسا) له بإرسال نوع من العناكب على متن مركبة الفضاء الأمريكية (سكاي لاب) التي ظلت في الفضاء حوالي شهر ، وقد تكيفت العناكب مع حالة انعدام الجاذبية داخل المركبة في الفضاء خلال أيام ، وبنت النسيج الذي كان فيه تماثل غير واضح في شكله البيضوي ، وكانت الخيوط أرق بنسبة مقدارها حوالي (٢٠٪) ، وربما كان سبب هذا الادراك الحسي عند العناكب لحالة انعدام الجاذبية التي تعوم فيها ، وبعد أسابيع من مكوثها في الفضاء صارت العناكب تحيك نسيجا شاذا ، غير منتظم التركيب ، وربما بسبب المعاناة . وأخيرا ماتت العناكب من العطش والجوع على الرغم من أن رواد الفضاء قد حاولوا تغذيتها بوضع فتات اللحم في النسيج ، لكنها كانت ترفض التغذي بها ، وعلى الرغم من أن تلك العناكب كانت يافعة إلا أن نسيجها الأخير الذي بنته قبل موتها كان كأنه نسيج عناكب كبيرة معمرة ، يقول العالم (وت) : لقد كانت تجربة رائعة ، أظهرت أن باستطاعة العناكب أن تبني نسيجها في أية ظروف ، حتى ولو كانت في حالة انعدام الوزن في الفضاء،ربما كان هذا الاكتشاف المذهل المثير هو الأعظم . □







ساعة رولكس داي-ديت من الذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطاً مرصّعة بالماس.

الأصالة، صفة الجواد العربي، التي تميزه عن سواه من الجياد الأخرى، كونه وفي لصاحبه حتى في أحلك الظروف والأحوال، وقوّته وقدرته على تحمّل المشقات والصّعاب لا تضاهى أينما كان. أضف إلى ذلك جمال الشكل والقيمة الأكيدة طوال مدّة حياته.

هذه الصّفات ذاتها هي التي تميّز ساعة رولكس عن سوّاها. فهي أصيلة حقًا لأنها لا زالت تصنع وتجمّع يدويًا، وهي مصنوعة من الذهب الخالص، أو الفولاذ أو الاثنين معًا، وتمرّ بكافة الاختبارات للتأكد من دقتها وقدرة تحملها قبل أن تعطى شهادة الكرونومتر السويسريّة الرسميّة.

أما جمال الشكل، فمجموعة رولكس المتنوّعة والكبيرة جدًا صُنعت لترضي أصحاب الذوق الرفيع.

رولكس كالجواد العربي، رمز الأصالة الحقّة.

ROLEX

رولكس

وجهاً لوجه





منح الصلح و جهاد فاضل

■ الطرح الاقليمي لم يستطع أن يحل مشاكل الأقطار العربية . ■ الفكر القومي لم يستطع أن يؤاخي بشكل صحيح ودائم ،النزوع الديموقراطي في الأمة العربية ■ جاءت العروبة لتمد المنطقة بمدد جديد للتعاضد والتضامن والوحدة بعد اتجاه الدولة العثمانية نحو العجز . ■ التوفيق بين القيم التراثية والصراع مع تحديات العصر هو الذي أطلق العروبة .

■ مصر بلا شك أم العرب ، ولكن من قال ان الأم وحدها تكفي كقيادة ؟

لمنح الصلح خصوصية ناتجة من تعدد الروافد التي جعلت منه سياسياً ومفكراً عربياً ، فقد نشأ في بيت سياسي قديم ، شُغِلَ بالقضية العربية والقضية اللبنانية وفيما يسمى « المسألة الشرقية » ، أي مشاكل العالم الاسلامي مع الأقليات الدينية والعنصرية المستندة إلى الغرب . وقد قال مرة انه عندما دخل الى قاعة الدراسة في الجامعة الامريكية لتلقي محاضرات في مادة تاريخ الشرق الادنى الحديث ففوجيء بأن المادة الدراسية هي نفسها موضوع احاديث العائلة وما يتشارك فيه افرادها في احاديثهم .

تخرج سنة ١٩٥٣ من جامعة بيروت الاميركية الحافلة في تلك المرحلة بالنشاط السياسي الذي كان مشاركا فيه ، ثم انتقل إلى باريس مدة سنتين للدراسة ، ورجع من هناك في أوج العصر القومي العربي ، وكان المثقفون الغربيون حينئذ مفتونين بالنهوض العربي ، على عكس ماهم عليه الآن ، وكان يسمع منهم قولهم : حضارتنا شاخت والدور الآن للشرق ، وخصوصا للعرب .

شارك منح الصلح في مرحلة صعود الأحزاب والمؤسسات القومية والانقلابات العسكرية الواعدة بالوحدة العربية وتحرير فلسطين ، فكان سوريا عراقيا مصريا جزائريا مغربيا يمنيا كويتيا ، لكن جذوره في البيت السياسي الذي خرج منه وفي مناخ لبنان الخاص كانت تجعل منه شخصا قادرا على رؤية اللعبة من داخلها وخارجها في نفس الوقت . وكان يعرف أن الماضي لم يكن سيئا إلى الدرجة التي يصفه بها الانقلابيون ، وأن المستقبل ربما لن يكون زاهيا إلى الحد الذي يتصورون . وكانت نزاهته ومكانته في عالم الفكر ، وعروبته العملية تسمح له أن يقول من الحقائق أكثر مما هو مسموح به للكثيرين في هذا العصر الذي نعيش فيه .

وقد كتب وحاضر ، وكتب بيانات تأسيسية للأحزاب ، والحركات ، ومقالات بتوقيع ، وبغير توقيع ، تشهد له بالحياة الفكرية الغنية ، ومن هذه الكتابات « الاسلام وحركة التحرر العربي » ، و « مصر العروبة » ، و « الانعزالية الجديدة في لبنان » ، و « المارونية السياسية » . وهو باختصار سياسي ، ومفكر قومي ، يعرف بلاده جيدا ، ويعرف بصورة خاصة أسرار صنع القرار السياسي فيها ، لذلك كان لعمله السياسي وفكره رنة خاصة .

مأزق الفكر القومي العربي

● ومع المفكر اللبناني العربي كان هذا الحوار الذي بدأته « العربي » بالسؤال التالي : كيف تنظرون إلى حاضر الفكر القومي العربي ؟ وأين أصبحت الدعوة لبناء دولة عربية واحدة حديثة ومتقدمة ؟

ـ بعد أن مرت مرحلة كان فيها التفاؤل والثقة بالنفس يلونان الحديث عن الفكر القومي ، نجد أنفسنا الآن في فترة ، يغلب فيها التشاؤم والاحباط

اللذان يطبعان حاليا كل حديث عن الفكر القومي والقومية العربية ، ذلك أنه قد تعاقب على الساحة القومية عدد كبير من الهزائم والنكسات التي ضربت الأمل بهذا الفكر . ومع أن وضع الفكر القومي قد تحسن حاليا ، إلا أن هذا التحسن لم يخرجنا من التراجع الذي مايزال مخيما على الفكر العربي في هذه الناحية ، ذلك أن سبب هذا التحسن كان سلبيا ، أي أنه أتى نتيجة فشل الطرحين اللذين جاءا ليرثا الفكر القومي ، وهما الطرح الاقليمي ، والطرح الديني المتطرف . وهذان الطرحان قد وصلا إلى باب مسدود . فالطرح الاقليمي لم يستطع أن يحل مشاكل الأقطار العربية ، وإن كان قد بدا في زمن معين أنه يحمل مفتاح هذا الحل . لكن الاقليمية قد فشلت في أن تجد الحلول على الصعيد السياسي ، والعسكري ، والاقتصادي . أما الطرح الديني المتطرف فقد فقد بريقه الثوري الذي اتشح به في فترة من الفترات ، وتحول إلى اتجاه بين عدة اتجاهات ، وهو الآن يصارع بوسائل تعتمدها الاتجاهات السياسية والفكرية العادية ، كقوة المال أو السلطة أو العمل العسكري أو ما أشبه ذلك .

ولم يستطع الطرح الاقليمي ولا الطرح الديني المتطرف أن يسد الفراغ الذي نتج عن انحسار المد القومي في الوطن العربي . إلا أن الوضع حاليا مايزال في وضع التحسن النسبي .

الآن أمام القيادات الفكرية وأمام المستشرين مسؤولية تاريخية ، هي أن تكون انطلاقة الفكر القومي الجديدة منصفة بالصفات التي تجنبها الهزائم والنكسات وردود الفعل التي وقعت فيها الانطلاقة الأولى .

الحلم القومي كان في الماضي ، وكان هناك الوعي القومي ، لكنني أشك أنه كان هناك العقل القومي بالمعنى الصحيح ، لهذا علينا هذه المرة أن نعتمد عروبة مختلفة في نواح كثيرة عن العروبة التي كانت في السابق ، والتي بلغت ذروتها في الستة في الخمسينات وأوائل الستينات ، وعلينا أن نعترف أولا أننا كنا ننظر إلى عوامل الوحدة في المجتمع العربي ، ولم نكن ننظر إلى عوامل التفرقة . فالوطن العربي قد كان باستمرار ساحة للصراع بين عوامل الوحدة والجمع ، وعوامل التجزئة والتفريق ، والفكر الاستعماري الغربي كان يرى الواقع العربي كما هو ، وكان يركز على هذه العوامل ، والفكر الماركسي كان أيضا يرى الصورة بشكل أفضل مما كان يراها القوميون ، إذ كان بحكم منطلقاته يلتفت إلى التناقضات ، والفروق ، ونقاط الاختلاف ، بينما كان الفكر القومي يرى وجوه التشابه في الأوضاع العربية . لذلك بإمكاننا القول أن الفكر القومي كان متخلفا من هذه الناحية بالنسبة إلى الفكرين الآخرين .

ثانيا : أن المؤسسات التي قامت بغاية وحدوية كانت أضعف بكثير من الضرورات الوحدوية والظروف المناسبة . فقد كان هناك باستمرار ظروف موضوعية مواتية وظروف ذاتية ناقصة ، وقد عجزنا عن بناء المؤسسات التي تجسد المصلحة القومية ، والتي تكون في مستوى مهمتها ، وأوجدنا مؤسسات تحمل الشعارات القومية ، وتنجح في مواضيع عديدة ، لكنها كانت دائما تفشل في الناحية القومية ، حتى تلك التي نجحت في تولي السلطة لم تنجح في بناء العلاقات القومية داخل الأمة العربية ، وداخل الوطن العربي .

والاعتراف الثالث هو أن الفكر القومي لم يستطع أن يواخي بشكل صحيح ودائم النزوع الديموقراطي في الأمة ، فكثيرا ما كنا نجد التيار القومي غير ديموقراطي في التعامل مع غيره ، وكثيرا ما كنا نجد الشعارات القومية توضع في مواقع السلطة، ماتزال تفتقر إلى مواصفات كثيرة ليصح نعتها بالديمقراطية .

هذه الاعترافات الثلاثة ضرورية لكي يكون الانسان صادقا مع نفسه ، لمواجهة حالة استئناف المد القومي المطلوب ولكي لا نكرر الأخطاء السابقة .

على أنه لابد من القول ـ في باب تحديد المفاهيم ـ أن الكلام عن الفكر القومي هو كلام عام غير محدد ، فهناك وعي قومي ، وهناك شعور قومي ، لكن لا يوجد فكر قومي ، يحمل صفة إطلاقية معينة ، لأن للفكر القومي مدارس عديدة ، وليس مدرسة واحدة ، فهناك فكر قومي علماني ، وفكر قومي يربط القومية العربية بالاسلام ، وفكر قومي يضع الاشتراكية في صلب أهدافه ، بل في صلب معناه ، وفكر قومي لا يرى شمول المفهوم القومي هذا الجانب ، ويعتبره جانبا اقتصاديا بحتا .

إذن هناك مدارس عديدة في الفكر القومي ، وإن كان هناك شعور قومي أو وعي قومي . وعندما أقول أن هناك نكسة في الفكر القومي أقصد أن كل هذه المدارس متكسة في الوقت الحاضر ، وأقصد النواحي المشتركة فيما بينها كلها .

الاخفاقات مسئولية من .. ؟

● كثيرا ما يقال أن العروبيين قد أخفقوا في معالجة قضيتين رئيسيتين : وهما العلاقة مع الاسلام ، والتعامل مع موضوع الأقليات . فإلام ترد أسباب هذا الإخفاق ؟

ـ هناك حاليا ما يسمى بالصحوة الاسلامية ، والمقصود بها يقظة العمل في السياسة ، تحت شعار الاسلام ، وهناك أيضا حركة للأقليات ، أو للشعور بالفروق الاجتماعية ، والدينية ، والمذهبية . هناك ظاهرتان بارزتان ، هما ظاهرة إسلامية وظاهرة الأقليات ، والقول بأن الفكر القومي قد حمل جانبا من المسؤولية في بروزهما فيه بعض الحق ، لكن هاتين الظاهرتين سرعان ما انكشفتا كحلين مفترضين ، وهذا الانكشاف فيهما قد أعاد الناس إلى الطريق القومي لكن بشكل غير مكتمل حتى الآن .

وإذا كانت الطروحات القومية في مأزق فإن الطروحات الأخرى في انهيار كامل ، وحقها بوراثة الطريق القومي غير مقبول عند الطلائع العربية ، والجماهير العربية بشكل عام ، بل وعند كل مستنير في الوطن العربي .

لقد سبق أن قلت إن الاتجاه القومي كان بشكل عام ذا حساسية إزاء كل ما يفرق الأمة ، أو ما يعني أن الأمة ما هي إلا أجزاء متعددة ، وهذه الحساسية تعني من المعاني مرضية ، لأنها تتصور أن المعرفة الموضوعية للمشاكل اعتراف بها ، ثم تكريس لها ، تماما كما هو الحال عند بعض المواطنين العرب الذين يرفضون معرفة الأوضاع في « اسرائيل » مثلا ، لأنهم يخشون أن يكون في هذه المعرفة معنى الاعتراف .

والفكر القومي العربي بشكل عام قد اعتبر معرفة مشاكل الأقليات ، ومشاكل التجزئة ، وعوامل التفريق في الوطن العربي من اختصاص الأعداء ، وأن العدو هو الذي يهتم بمعرفة هذه الأشياء ، أما أنا فيجب ألا أهتم بذلك . وبهذا المعنى يصح القول بأن الفكر القومي لم يحسن معالجة موضوع الأقليات ، كما أن محنة الديمقراطية الشاملة في الوطن العربي قد أطلقت النزعات الخاصة بالأقليات وشجعتها ، ولونتها بألوان الضحايا فعززتها ، وجمعت حولها المؤمنين والمقاتلين في سبيلها .

وهناك ظرف يتعلق بولادة الفكر القومي أصلا ، وهذا الظرف قد جعل الفكر القومي يظهر بأنه غير متآخ مع الاسلام . فالفكر القومي الحديث قد ولد في مواجهة الدولة العثمانية التي كانت دولة الخلافة ، وكان على القومية العربية أن تواجه الخلافة العثمانية في أول مواجهة لها بعد ولادتها في العصر الحديث ، والقومية العربية قد حاربت الدولة العثمانية قبل أن تحارب الانكليز أو الفرنسيين أو غيرهم ، فاتخذت عند بعض الناس هذا اللون ، وجاءت جماعات من أصحاب المصالح ، وفسرت ظاهرة المواجهة هذه بأنها دليل على أن العروبة قد أتت لمحاربة الخلافة

الاسلامية . بينما أن هذه العروبة ـ حسب الواقع ـ قد جاءت لتجمع وتوحد تحت راية العروبة أجزاء واسعة من العالم الاسلامي مهددة بالتفكك التام ، فالدولة العثمانية قد وحدت في فترة ، ثم اتجهت نحو العجز والتفكك ، وظهر عدم قابليتها لمواجهة الغرب ، وهنا جاءت العروبة لتحمل راية التوحيد ، وتشكل موجة ثانية في التراث التوحيدي ، وليس كما قيل بأن العروبة جاءت لتقوض دولة الاسلام ، بل على العكس جاءت لتمد المنطقة بمدد جديد للتعاضد والتضامن والوحدة ، بعد عجز الدولة العثمانية .

هذا هو التفسير الكاذب للمواجهة التي حدثت بين العروبة والاسلام .

أريد أن أقول أيضا إن القومية العربية قد نشأت فكرة أول ما نشأت في منطقة الهلال الخصيب ، ولما كان الهلال الخصيب منطقة يكثر فيها التعدد المذهبي والعنصري والديني بشكل يختلف تماما عما هو عليه الحال في الأقطار العربية الأخرى ، ولأن المؤامرة الاستعمارية المعروفة ـ بسايكس ـ بيكو ـ أرادت أن تقسم هذه المنطقة على الأخص،كان من الطبيعي أن تأتي القومية العربية بأهدافها التوحيدية بمثابة رد على مؤامرة (سايكس ـ بيكو) التجزيئية،ونحي الدين كعامل في القومية لأنه في هذه المنطقة على الأخص توجد أديان غير الاسلام وعناصر من غير العرب ، ومذاهب كثيرة ، فاضطرت القومية العربية أمام تحدي معاهدة (سايكس ـ بيكو) التي جزأت الهلال الخصيب أن تركز على عناصر معينة من عناصر التوحيد القومي ، دون عناصر ، فنشأ في الهلال الخصيب نوع من التفكير القومي العربي الذي يعطي للاسلام أقل مما يعطيه للمفهوم القومي في الوطن العربي كافة ، لذلك ظلت الفكرة القومية ـ كما نودي بها في الهلال الخصيب ـ غير كاملة الجاذبية بالنسبة لجماهير الأمة العربية جميعهم ، فالجماهير العربية لم تتعلق بالخط القومي تعلقا عاطفيا قويا إلا عندما انتقلت راية القومية من الهلال الخصيب إلى مصر أيام الرئيس عبدالناصر ، ولما كانت الجماهير المصرية لا تعاني نفس المشاكل التي تعانيها جماهير الهلال الخصيب برز في مصر نوع من القومية ، وجد فيه العربي عروبته وإسلامه في نفس الوقت ، فأعطاه عقله وقلبه معا . والقومية العربية كما نادى بها رواد الهلال الخصيب لم تكن جذابة للمغرب ، أو للجزيرة العربية ، بل اقتصرت شعبيتها في منطقة الهلال الخصيب ، أما القومية بالشكل الذي نودي به في مصر فقد كانت في تركيبها مشابهة للتركيب الموجود في معظم الأقطار العربية ، مما جعلها تدخل الضمير الشعبي العربي بشكل أكثر وأوسع .

العقلانية ، والعاطفية ، والقومية

● يرى بعض الباحثين أن فكرة القومية التي طرحت في منطقة الهلال الخصيب قد توخت العقلانية ، في حين خاطبت في مناطق أخرى من الوطن العربي ـ ومنها مصر ـ المشاعر وليس سواها . فهل تعتقد أن هذا الرأي في محله ؟

ـ كانت ساحة الفجيعة القومية هي الهلال الخصيب في الدرجة الأولى وليس في مصر ، وبقيت مصر سليمة من ناحية تماسكها الوطني قياسا بما ظهر في الهلال الخصيب ، فالمدرسة القومية في الهلال الخصيب لم تكن أقدر من الناصرية على مواجهة عوامل التفكيك في المجتمعات . وموضوع الأقليات هو موضوع فشل للقومية العربية على الأعم ، ولما في منطقة الهلال الخصيب على الأخص ، لذلك لا يمكننا القول أنه هنا كان النجاح ، وهناك كان الفشل ، أو أن الفكرة القومية في الهلال الخصيب كانت أكمل من الفكرة القومية في مناطق أخرى من الوطن العربي . لقد كانت أمام ضرورة أخرى ،

وكان عليها أن تواجه معركة في وجه الدولة العثمانية . ثم معركة ثانية في مجتمع متفسخ . أو كثير المذاهب . وكثير الطوائف. مما جعلها تصطبغ بلون معين . هو اللون الذي لم يستهو الجماهير العربية بالشكل الذي يجعل منها قوة تأثير وتحريك .

● كيف تُقيّم علاقة الفكر القومي العربي بالفكر الغربي على الأعم ؟

ـ منح الصلح : الفكر القومي ، أو ما يسمى بالعروبة الحديثة ، نشأ أصلا وكأنه يوفق أو يجمع من جهة،ما بين قيم التراث التي يمثلها الاسلام وتحدي المعاصرة . والوجود في عالم اليوم .

والتوفيق بين القيم التراثية ، والصراع مع تحديات العصر هو الذي أطلق العروبة . فالعروبة أصلا هي جمع ما بين التراث وقيمه من جهة . وقوة العالم الحديث والغرب الحضاري من جهة ثانية ، والعروبة تحارب التسلط السياسي ، والاقتصادي ، والعسكري الغربي . لكنها تقبل العناصر الحضارية والقوة الحضارية التي ينطوي عليها علم الغرب ، وتقدمه ، وصناعته .

من صميم قيم الغرب وقيم العصر مبدأ الصراع ، والذين يقاومون التسلط الغربي السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي ينتمون خلال مقاومتهم نفسها إلى جوهر هذا الغرب الذي هو جوهر الصراع ، وحق الشعوب في الحفاظ على ذاتها ، وشخصيتها ، وحقوقها .

لا يجوز أن ينظر إلى الغرب على أنه المعاهدات والاتفاقات الاستعمارية . فالغرب هو حقوق الانسان أيضا . والغرب هو حق الانسان في مقاومة الغزو . لذلك يصبح المقاومون لهذا الغرب ـ أحيانا ـ أشبه به من الذين يقبلونه بكل ما يحمل من إيجابيات وسلبيات . وليس من الغريب بالمعنى الحضاري أن يوجد من يستسلم للغرب السياسي والعسكري والاقتصادي . لأن جوهر حضارة الغرب والشيء الأساسي الذي قدمه للانسانية هو حق الانسان في أن يرفض حتى الموت مالا يمثل حقوقه وإنسانيته .

مصر ودورها بين محورين

● كتبت كثيرا عن عروبة مصر ، وعن دورها المهم في المشروع الحضاري العربي الجديد . فأي دور تراه لمصر في مستقبل الأمة العربية ؟

ـ مصر ليست عربية فقط ، بل إن مصر نصف العرب ، والأقوال كثيرة معروفة في تبيان المكان المركزي لمصر في الوطن العربي . لكن هذا لا يمنع من أنه كانت هناك باستمرار قصة مفتوحة حول العلاقات بين مصر والأقطار العربية ، فمصر كانت أحيانا تغالي في فهم مكانها بين الأقطار العربية ، بحيث كانت تنفرد بالقرار عن سائر العرب ، وهذا الانفراد قد عرف في كل العهود ، ولم يقتصر على عهد مصري دون عهد آخر ، ففي جميع العهود قد انفردت أحيانا بالقرار ، وكان هذا الانفراد يخلق مضاعفات ، كما أن جهات عربية أخرى كانت تحرص على إبعاد مصر ، وهذه الجهات كانت تلقى ـ غالبا ـ مؤازرة من جماعات كثيرة ذات مصلحة في إبعاد مصر عن دورها ، فضلا عن مؤازرة الدول الغربية بشكل عام ، وأصحاب المصالح في الأقطار العربية من الدول الأجنبية . والمعروف أن اسرائيل ـ كمشروع سياسي ـ قد لقي دعم الاستعمار لأنه يقيم حاجزا بين مصر وأقطار المشرق العربي ، فوجود اسرائيل في حد ذاته ما هو إلا تعبير عن درجة حرص الاستعمار على إبعاد مصر عن المشرق العربي .

ومعروفة من الناحية التاريخية تلك الرسائل الأولى المتبادلة بين يهود ، ورؤساء حكومة ، ووزراء في بريطانيا التي تتحدث عن ضرورة إنشاء دولة حاجزة بين مصر والمشرق العربي يعني « اسرائيل » . لكن كما أن هناك أشياء مصطنعة فهناك واقع يجب أن

نلاحظه»وهو أنه دائما كان يتشكل في الوطن العربي بنوع من التجمع الطبيعي محوران : محور مصري ، ومحور ضد مصر . المحور الأول كان يتشكل من مصر والمنجذبين إليها تحت تأثير تفوقها الحضاري والثقافي والبشري ، وتوسط موقعها في الوطن العربي ، والثاني كان يتشكل من المتخوفين من مصر ، ويضم قوى ودولاً أخرى . في كل مراحل التاريخ العربي المعاصر كان هناك هذان المحوران .

إن تاريخ السياسة العربية العملي هو هذا إلى حد بعيد ، أي الذين هم مع مصر والذين هم ضدها ، وقد كان هذان المحوران يتخاطبان ويتجاوران ويتسقان في فترة من خلال الجامعة العربية ، لكن في غياب الجامعة العربية الآن لم يعد هناك جهة تعمل على التنسيق .

ثم إن مصر مع كونها قائدة للعرب ، إلا أن التجارب دلت على أنه كان دائما ينقصها شيء ما .

مصر هي بلا شك أم العرب ، لكن من قال أن الأم وحدها تكفي كقيادة ؟ لذلك بحسب تعبير ظريف لأحدهم يقول فيه : نعرف أم العرب ، وهي مصر ، لكن من أبوهم ؟ وهذا السؤال هو من جهة يأس من هذه الحالة القائمة الآن في الوطن العربي ، المليئة بما ييئس ، لكنه من جهة ثانية شك في محله بأن تشكل مصر وحدها قيادة كاملة للأمة العربية . لو عدنا قليلا إلى التاريخ لوجدنا أنه كان دائما يلتقي عنصران ـ عنصر من داخل مصر ، وعنصر من خارجها ـ ويتحدان معاً ، وكأنها حالة زواج ، ليتشكل من الاثنين القيادة الكاملة المفتقدة في الأمة العربية .

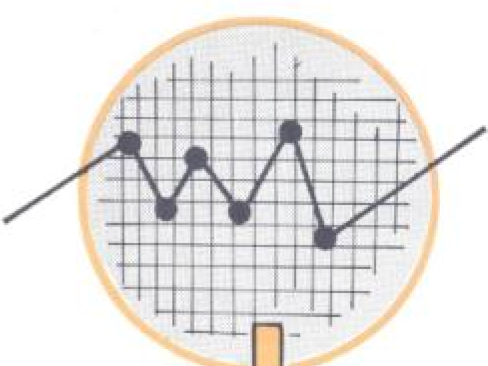
كان يأتي دائماً شيء من خارج مصر ، ويخرج من مصر شيء ، ويتلاقى الشيئان لتشكيل قيادة . وأحيانا يكون هذا الآتي من الخارج هو الاسلام ، وأحيانا يكون هو الفكر العربي بالمعنى الحديث النظري ، وأحيانا يكون حزب عربي أو رمز عربي ، ويكوّن هذا اللقاء القيادة المطلوبة .

إعادة النظر ضرورة

● كيف تنظر إلى واقع المقاطعة الحالي بين العرب ومصر ؟

ـ المقاطعة هكذا وبدون تفاصيل ، وبدون برامج ، وبدون تحديد نقاط تبدو كأنها مقاطعة للشعب المصري ، وليس لنظام حكم أو لاتجاه . وأحيانا تكون العقوبات السياسية والاقتصادية من هذا النوع خطيرة ، لأنها ضارة بالمُعَاقِب وبالمُعَاقَب أيضا . وتستحق مصر الثناء على كل مساعدة تؤديها لجهة عربية ، كما أن على العرب أن يساعدوا الشعب المصري فيما يواجهه من مشاكل ، لأن هذه المشاكل ـ إلى حد بعيد ـ مشاكل مشتركة ، آتية من قيام مصر بواجبها في الأقطار العربية . ولذلك فأنا من أنصار أن يجتمع العرب في مؤتمر قمة ، ليبحثوا من جديد العلاقة مع مصر ، لأن استمرار العلاقة بالشكل الذي هو عليه الآن ، ينقلها من كونها موقفا في قضية معينة ، إلى مقاطعة موجهة لشعب مصر ، وأن الأقطار العربية مستغنية عن طاقات عربية كبيرة ، وعازلة لا لمصر وحدها بل للطرفين . فلذلك لابد من بحث هذا الموضوع في لقاءات قمة . لكن هذا لا يعني بشكل من الأشكال تبني قرار مصري في السياسة قد اتخذته مصر منفردة وبعيدة عن العرب . □

● الذين لايتراجعون عن أفكارهم أبدا ، يحبون أفكارهم أكثر مما يحبون الحقائق .
(غوبرت)



الحاسوب ومستقبل الاقتصاد العالمي

بقلم : سمير صلاح الدين شعبان

لعل أهم ما يثير قلق البشرية عموما ، وسكان دول العالم الثالث بما فيهم الأقطار العربية والاسلامية على الأخص ، هو تهديد لقمة العيش والقوت اليومي ، من جراء القفزات الخيالية المتوالية للأسعار ، والتزايد المستمر في البطالة . فهل يلبي الحاسوب رغبة البشر في التنبؤ بمستقبل الاقتصاد العالمي ؟

لو ألقى المرء على الاقتصاد العالمي نظرة « شمولية » ، لتبين على الفور أنه يمثل جملة متشابكة ، متداخلة ، شديدة التعقيد ، تحتضن عددا لا يحصى من التحولات ، منها على سبيل المثال :

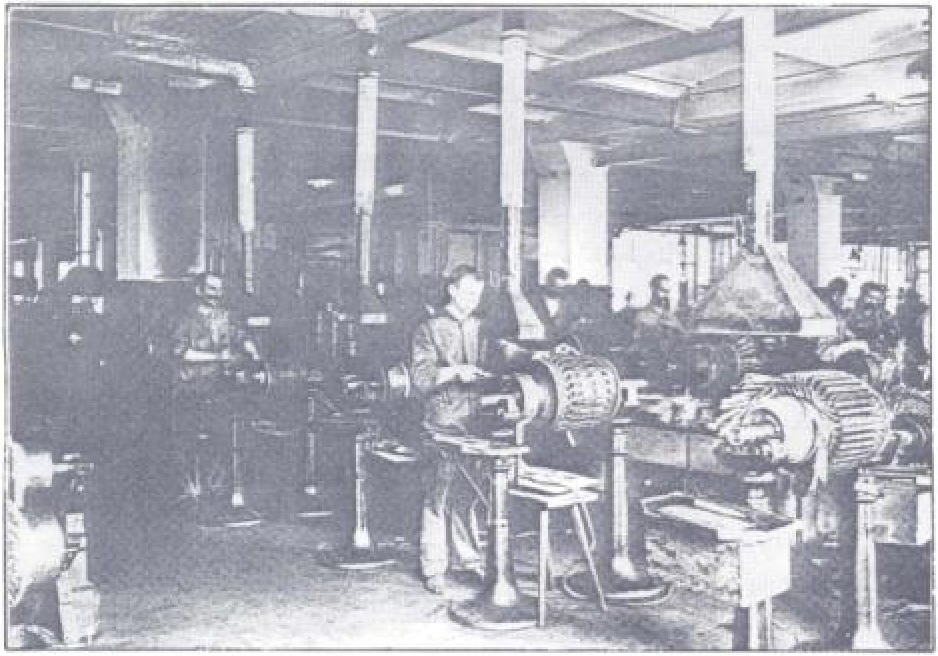
• نشاطات ألوف الشركات الكبيرة والصغيرة ، إضافة الى ملايين الحرفيين .

• استخراج المواد الخام ، وعمليات نقلها وتسويقها .

• درجة توافر السيولة النقدية والسلع النادرة .

• كيفية توزيع العدد الذي لا يحصى من السلع وتقلبات احتياجات مليارات البشر .

للوهلة الأولى يوحي هذا العدد الهائل من التحولات التي تتبادل التأثير فيما بينها باستحالة حصرها ودراستها مجتمعة من قبل إنسان واحد ، مهما بلغت شدة ذكائه ، لكن من المتفق عليه بين الباحثين التقنيين والاقتصاديين أن غموض جملة الاقتصاد العالمي ليس مرده الى الجهل بكل عامل متحول على حدة ، بل الى عجزنا عن التعرف المباشر على « التأثير المتبادل » بين هذه العناصر ، وتغير بعضها بمرور الزمن . هذا السلوك هو الذي يضفي على جملة



المحركات الكهربائية التي كانت تدير المخارط في شركة سيمنس الألمانية في ١٩١١
لا تختلف بصورة جوهرية عن تلك المستخدمة في أيامنا هذه

الاقتصاد العالمي سمة السلوك الحركي أو « الديناميكي » .

فكيف السبيل الى دراسته ، وهو لا يكف عن تبديل وجوهه ؟

نظرية الجمل

أول إنسان حاول تقديم جواب شاف عن هذا التساؤل ـ حسب علمي ـ هو الأستاذ (جاي فورستر) من كلية « سكون » لإدارة الأعمال التابعة لمعهد ماساشوستس للتقنية . . (MIT) الشهير في « كمبريدج » الأمريكية . يجمع فورستر بين الخبرة الاقتصادية و « نظرية الجمل » وقد قام خلال العقدين الماضيين بتطوير طريقة خاصة تسمح بتحليل الجمل المتداخلة شديدة التعقيد وسلوكها ، أطلق عليها اسم « ديناميكية الجمل » .

تم في البدء تسخير هذه الطريقة في وضع نموذج لاحدى « الشركات » الأمريكية الكبرى في الحاسوب ، واصدار الأمر اليه بالتنبؤ بمستقبل الشركة بعد فترة معينة من الزمن . وقد أدى ذلك الى الكشف عن العوامل السلبية الخافية على ادارة الشركة .

وشجع نجاح هذه الطريقة الشركات التجارية على توسيع الوحدة المدروسة . ففي المرحلة التالية تمت دراسة سلوك « مدينة » كاملة ، ونجحت الطريقة بشكل منقطع النظير ، والى حد سمح بتطويرها لدراسة « الاقتصاد العالمي » ككل مترابط ، خلال فترات طويلة من الزمن ، وأطلق عليها اسم « ديناميكية العالم » .

النموذج القومي الأمريكي :

بعد نجاح دراسة المدن انتقل فورستر الى دراسة جملة أوسع ، هي اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية ، فوضع ما يسمى « النموذج القومي الأمريكي » ، هذا النموذج عبارة عن برامج

حاسوب « يحاكي » جميع العمليات الاقتصادية المهمة في المجتمع الأمريكي ، المرتبط بشكل وثيق مع اقتصاد الدول الصناعية الكبرى ، ويجمع هذا النموذج سائر العوامل التي قد تؤثر في الحياة الاقتصادية والتقنية ، ويجعلها تتبادل التأثير فيما بينها بصورة « تحاكي الواقع الى حد بعيد » .

وأخيرا آن الأوان لقطف ثمار السنين الطويلة من الجهد المضني في إعداد برنامج النموذج القومي الأمريكي . فأصدر فورستر الأمر للحاسوب برسم صورة مستقبل الاقتصاد الأمريكي . لكنه ذهل حينما شاهد النتيجة . إنها « سلسلة متوالية من مراحل الازدهار الذي يعقبه الانهيار ، تستغرق كل منها حوالي خمسين سنة » .

وحين ينتهي نموذج المحاكاة الى مثل هذه النتيجة ، غير المتوقعة، فإن أول ما يتبادر الى ذهن أي مبرمج عاقل هو مراجعة نفسه : هل قمت بوضع نموذج مطابق للواقع فعلا ؟ ألا توحي النتيجة غير المتوقعة باعتماد البرامج على فرضيات لا أساس لها من الصحة ؟

صمم فورستر الى تدقيق برنامجه خطوة خطوة ، وتأكد من صحة كل شيء ، ومع هذا بقيت النتيجة على حالها دون تغيير أو تبديل . حينئذ شعر فورستر ومساعدوه بأن برنامج الحاسوب هذا يقدم لنا أو بالأحرى يكشف لنا تصورات جديدة عن العالم الخارجي الحقيقي ، وفي هذه الحالة - على الأخص - سلوك « الاقتصاد العالمي ككل » .

قام فورستر بتحليل أسباب توالي الازدهار والركود مرة كل خمسين سنة التي سنطلق عليها اسم « الدورات التقنية » ، حسب نتائج برنامجه .

وأعاد ذلك مرارا وتكرارا ، فلم يعثر على أي خطأ ، وتوصل الى الاقتناع بأن جميع الفرضيات التي سلم بها أثناء وضع البرنامج باقية ضمن حدود المعقول ، وبأنها مقاربة للواقع .

كان التوصل الى « الدورات التقنية » بمساعدة الحاسوب مفاجأة كبرى لفورستر ، جعلته يبحث مع مساعديه في المراجع العلمية عن مؤلف وحيد - على الأقل - يؤيد هذه الفكرة « المتطرفة » .

وبالفعل انكب فورستر ومساعدوه على التنقيب في المراجع العلمية ، فوجدوا فيها الكثير من التعارض . وحتى قبل الانتهاء من دراسة المراجع بفترة وجيزة لم يعثروا على أي « نظرية متكاملة » ، لتفسير مسيرة الاقتصاد العالمي بشكل يقسمه الى دورات ، تستغرق كل منها قرابة خمسين سنة ، وتعيد نفسها مرارا وتكرارا دون كلل أو ملل .

وأخيرا تبين فورستر أن عالم الاقتصاد السوفياتي « كوندراتيف » كان قد درس في عشرينيات القرن الحالي الاقتصاد العالمي في مراحله الأخيرة ، وقسمه الى « موجات طويلة » ، تستغرق كل منها قرابة خمسين سنة . وبقي التساؤل : لماذا ؟

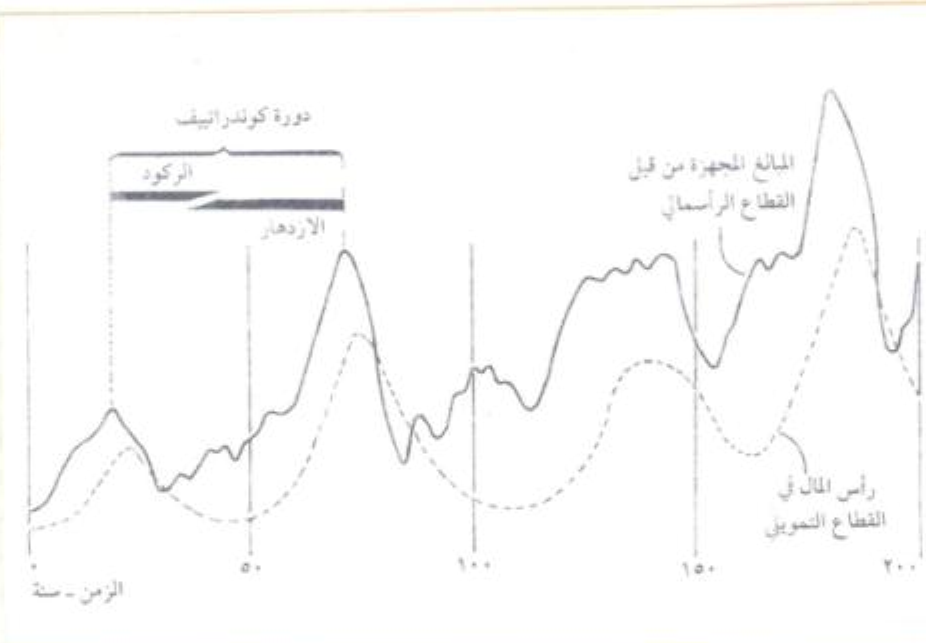
الموجات الطويلة لماذا ؟

بدأت معظم الكشوف العلمية بالمشاهدة ، وانتهت بوضع التفسير . وهنا « شاهد » فورستر نتائج الحاسوب من جهة ، ونتائج تحليل كوندراتيف الاحصائية من جهة أخرى ، فشعر بضرورة وضع « تفسير » للموجات الطويلة في عالم التقنية والاقتصاد ، يحدد القوة المؤثرة في هذه الموجات .

عرب فورستر عن اعتقاده بأن النموذج القومي الأمريكي يقدم وحده « نظرية » متكاملة ، تفسر الدورات التقنية الاقتصادية هذه . وحسب هذه النظرية فإن المسؤول الرئيسي عن نشوء كل موجة جديدة هو النمو المتطرف ، والتنقل المتضخم في القطاع المالي .

تعتمد نظرية فورستر على تحكم كمية رأس المال المتاحة في سوق النقد الدولية في استقرار الاقتصاد العالمي ، وقد لخصها في عدد شباط (فبراير) من مجلة « صورة العلم الألمانية » على النحو التالي :

« يقوم القطاع المالي أثناء فترة الازدهار بطرح كمية من رأس المال ، أكبر بكثير من تلك الضرورية



رسم الحاسوب مسار كل من انتاج رأس المال ورأس المال الموضوع قيد التداول أثناء التطور الاقتصادي خلال ٢٠٠ سنة . ويمكن تمييز أربع قمم (ازدهار) يليها (ركود) مفاجيء مرة كل حوالي ٥٠ سنة .

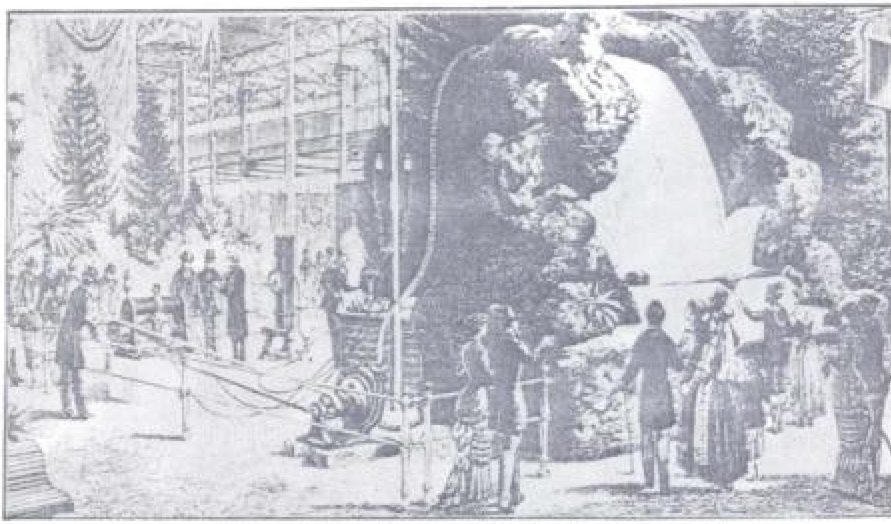
للحفاظ على التوازن الاقتصادي فترة طويلة من الزمن . هذا التنامي المتطرف يؤدي بالنتيجة الى الركود الاقتصادي ، ويتم أثناء فترة الركود الاقتصادي والتخلص من الاستثمارات المالية ورءوس الأموال الفائضة عن الحد الضروري لاقامة التوازن السليم ، بشكل يسمح بفترة ازدهار جديدة ».

آفاق المستقبل :

يتنبأ فورستر استنادا الى توقعات الحاسوب بأن العقدين القادمين سيشهدان الخطر الأكبر ، ليس على الاقتصاد العالمي فحسب ، بل كذلك على المجتمع البشري ككل ، نتيجة الانهيارات الكثيرة التي يتوقع حدوثها في هذه الحقبة التي سيتخطى تأثيرها حدود الحياة الاقتصادية الى الظروف الاجتماعية أيضا ، ويرى أن هذه العوامل التي تهدد جذور النظام العالمي السائد ستكون أشد وطأة من التهديدات العسكرية .

فالضغط المتزايد قد يقود الى تجارب اجتماعية جديدة ، سواء رضينا بذلك أم أبينا ، ويحذر فورستر من أن العجز عن إجراء « التغييرات الاجتماعية » الكفيلة بوضع أساس مقبول لمجتمع المستقبل ، قد يجعل المجتمع الغربي يعيش مخاطر أكبر بكثير من تلك التي تعرض لها بعد ثلاثينيات القرن الحالي .

يختلف فورستر عن العديد من علماء الاقتصاد والتقنية « الجبريين » الذين يتركون الانسان مستسلما « لآلة » الاقتصاد والتقنية ، ودوراته الحتمية ، ويرى فورستر أن الناس نسوا ـ على ما يبدو ـ أن استثمار رأس المال لا يمثل « هدفا » بحد ذاته ، بل « وسيلة » فقط لتحسين الظروف المعاشية للانسان ، وتحسين « نوعية الحياة » .



استئناس الكهرباء تحول الى ابتكار جذري . ففي ١٨٨٢م تعرف الناس الى الكهرباء في المعرض الحاوي على شلال « تدفعه » الكهرباء

ويشير الى أن المجتمعات الصناعية أظهرت براعة فائقة في تسخير العمليات التقنية ، واستغلالها ، لكنها لم تحرز الا تقدما متواضعا في مجال فهم السلوك الاجتماعي للبشر ، واستيعاب قوانين الجمل الاقتصادية المعقدة ، ولا بد لهذا الأمر أن يتغير ، ويجب أن يتغير !

والحل ؟ اللجوء الى « ديناميكية الجمل » التي تقدر على تقديم خدمات جليلة في هذا المضمار ، لأنها قادرة من حيث المبدأ على التعرف على ردود الفعل المتبادلة بين القطاعات المختلفة ، الاجتماعية ، والتقنية والاقتصادية ، من زاوية جديدة تماما ، وتحت أنوار لم تكن . وفي الختام يعرب فورستر عن تفاؤله بإمكانية النجاح في تحقيق « الابتكارات الاجتماعية والقانونية والسياسية » ، للخروج من الأزمات الاقتصادية المتكررة ، بعد الاقتناع بضرورتها أولا ، ومن ثم يسعى عدد متزايد من البشر لتطوير مستقبل يفهمونه ، ويرتاحون اليه .

وبعد :

شجع نجاح « ديناميكية الجمل » في إمداد الحاسوب بالبرامج القادرة على التنبؤ بمستقبل شركة ، ثم مدينة ، ثم دولة هي الولايات المتحدة الأمريكية ، على تطبيق نفس المبدأ على العالم ككل ، وتم بذلك وضع المرتكزات الأساسية لتقرير نادي روما الذي أثار ضجة عالمية كبرى . وحمل اسم « حدود النمو » .

فورستر نفسه هو الذي وضع النموذج والبرنامج الالكتروني « العالم ٣ » الذي بين عند وضعه في الحاسوب أن المثابرة على ما يسمى « النمو الأسي Exponential Growth » - تضاعف الانتاج مرة كل سبع سنين مثلا - ستؤدي الى استنزاف خيرات الأرض وثرواتها ، وقد تؤدي الى الكارثة . وعليه طالب مؤلفو « حدود النمو » بكبح وتيرة التنمية العالية ، وخفضها الى الحد المقبول ، وكأنهم يقصدون من « حدود النمو » منع استمرار الماضي في المستقبل ، وهي عين الظاهرة التي اعتمدها فورستر بمساعدة حاسوبه في التنبؤ بمستقبل الاقتصاد العالمي .

كلنا يعيش الآن « مستقبلا » مغايرا لذلك الذي تنبأ به تقرير « حدود النمو » في بواكير السبعينات .

أخفق نموذج « العالم ٣ » لأنه اضطر الى التسليم « بسرمدية » الأوضاع السائدة وقت إعداده ، وعلى رأسها النمو الأسي .

وهذا مشابه من حيث المبدأ « للنموذج القومي الأمريكي » الذي قاد فورستر الى الدورات التقنية التي تنشأ عن ظاهرة « رأس المال يدمر نفسه » لأنه اضطر الى التسليم « بسرمدية » الأوضاع السائدة وقت إعداده ، وعلى رأسها نظام الفائدة ضمن المنظومة الرأسمالية التي يتركز جل اهتمامها على تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح ولو على حساب نهب ثروات شعوب بكاملها .

تحت وطأة هذه الأوضاع تكررت الأزمة الاقتصادية الخانقة في دول الغرب الرأسمالية ثلاث مرات ، ونعيش نحن في الرابعة ، ويبدو أن التاريخ ليس لديه ما يمنع من تكرار نفسه مرة بعد أخرى ، طالما بقيت « أصول اللعبة » ثابتة لا تتغير : اختزال الانسان الى آلة شرهة للربح .

ان تفاؤل فورستر بالابتكارات الاجتماعية والقانونية والسياسية للخروج من الازمات الاقتصادية المتكررة بمساعدة ديناميكية الجمل لا يمس جوهر المشكلة . وهذا يذكرنا بمراهنة الدكتور الفرنسي الكسيس كاريل في كتابه « الانسان ذلك المجهول على « علم الانسان » للخروج من الأزمة المستعصية للحضارة المادية الغربية التي أقيم صرحها مع الجهل المطبق بالانسان ، وهو الذي يفترض ان يكون الهدف النهائي للحضارة الانسانية . وكلاهما « قفزة في قفص » الحضارة المادية التي اختزلت البشر الى « آلات إنسانية » . والتاريخ يؤكد أن عمليات « الرتوش » لا تغير الجوهر في شيء .

هذا « القفص » يملي المسلمات المعتمدة أثناء وضع البرامج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للحاسوب . فهذا « القفص » هو منظار الماديين الى العالم من حولهم . إلا أن « المبهورين » من سكان العالم الثالث ـ والصناعي على حد سواء ـ بهذه الآلة التي « تحكي » لهم المستقبل ، يثقون ثقة عمياء بالنتائج والنبوءات التي تقذفها ، الى حد دفع بعض علماء الغرب أنفسهم الى اتهام مواطنيهم بالنظر الى الحاسوب وكأنه « النبي الجديد » !

ربما ينسى هؤلاء ـ أو أنهم يتناسون ـ الضجة الكبرى التي أثارها تقرير نادي روما الأول « حدود النمو » . لقد بهر الناس في سائر دول العالم حينذاك باستخدام الحاسوب في التنبؤ بمستقبل اقتصاد العالم « ككل » . وتشاء الأقدار أن يكون جاي فورستر عينه هو الذي وضع البرنامج للحاسوب ، المسمى « العالم ٣ » معتمدا على فرضية غاية في الحساسية : (استمرار الماضي في المستقبل) لا سيما في مجال النمو الأسي (مضاعفة الاستهلاك للمواد الأولية وللانتاج مرة بعد انقضاء عدد محدد من السنين) . وبالنتيجة عرض الحاسوب المستقبل الحالك وحذر من مغبة الاصرار على معدلات التنمية العالية ، وطالب التقرير بمنع امتداد الماضي في المستقبل واستثارة عزيمة الجنس البشري في تسخير « الحرية البشرية » في الجنوح الى الحد من وتائر التنمية . فماذا كانت النتيجة ؟

تمخض تقرير نادي روما الأول هذا عن نشاط علمي وجماهيري ملموس ، بلغ حد رفع شعار « التنمية صفر » . ولم تكد تمضي على نشر التقرير عشر سنين حتى شهد الواقع بعدم مصداقية المسلمة الأساسية التي انطلق منها مبرمج الحاسوب . وأفرز انقطاع النمو الأسي العديد من نماذج العالم البديلة التي تعتمد بدورها على الحاسوب ، لكنها ترفض منطلقات تقرير « حدود النمو » .

إن هذه الأمثلة تظهر لنا بجلاء أن « الحاسوب » ليس هو « النبي الجديد » لهذا العصر ، بل هو أقرب ما يكون الى « العبد المأمور » الذي ينفذ التعليمات الصادرة اليه بحذافيرها ، دون أن يكون له الحق أو المقدرة على مناقشة الفرضيات التي اعتمد عليها « سيده » في صياغة برنامجه . □

منتدى العربي

قضية

تعريب التعليم الجامعي

أجرى الحوار: أبو المعاطي أبو النجا

حول قضية تعريب التعليم الجامعي يشارك الدكتور عدنان تكريتي أستاذ الجرثوميات والطفيليات بكلية الطب بجامعة دمشق بدلوه حول القضية التي سبق للعربي أن بدأت مناقشتها في عدد شهر سبتمبر الماضي .

* قدم لنا الدكتور عادل العوا في حوارنا معه لمحة عامة عن بدايات حركة التعريب في الجامعة السورية في العصر الحديث . هل تود أن تضيف شيئاً أو حديثاً عن هذا الجانب بخاصة فيما يتصل بتدريس الطب باللغة العربية ؟

- الطب يدرس باللغة العربية في جامعة دمشق منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . الأتراك أسسوا في دمشق مدرسة طبية وكانت آنذاك تدرس باللغة التركية . ثم في العهد الفيصلي انقلب التدريس فورا من اللغة التركية إلى اللغة العربية . وخلال الاحتلال الفرنسي كان التدريس دوما باللغة العربية ، بعد ذلك تأسست كلية الطب في حلب ثم كلية الطب في اللاذقية فسارتا على نهج كلية الطب في دمشق ، ولم يدرس الطب في أي من هذه الكليات باللغة الفرنسية قط . وحتى أسست بقية الكليات العلمية مثل كليات الهندسة والعلوم والزراعة كانت كلها تدرس العلوم باللغة العربية .

برنامج تدريس اللغة الأجنبية في الجامعة

* مفهوم ضمنا أن تدريس العلوم ومنها الطب باللغة العربية في جامعة دمشق في مرحلة البكالوريوس وفي مرحلتي الماجستير والدكتوراة يوجد إلى جواره برنامج لتدريس لغة أجنبية ثانية أو ثالثة لتمكين الطالب من مراجعة المصادر الأجنبية في اللغة



الدكتور عدنان تكريتي

الأجنبية في مجال تخصصه ، نود أن توضحوا لنا طبيعة هذا البرنامج ، ومدى قدرته على تمكين الطالب من هذه اللغة الأجنبية ؟

ـ في كل الكليات النظرية والعملية توجد دروس منذ السنة الاولى وحتى الأخيرة بلغة أجنبية حية يختارها الطالب ، الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .. في السنة الاولى والثانية تدرس اللغة من حيث هي لغة مع شيء بسيط من المفردات التخصصية . في السنة الثالثة والرابعة يدرس الطالب أربع ساعات على الأقل في الاسبوع في مادة التخصص باللغة الأجنبية التي اختارها ويقدم فيها بحثا .

في مرحلة الماجستير تبدأ بسنة اسمها دبلوم الدراسات العليا . هذا الدبلوم عبارة عن مراجعة متممة للمواد التخصصية . وربع هذا التدريس (ربعه حرفيا) باللغة الأجنبية.بعد الدبلوم ، يوجد عندنا مركز في حرم الجامعة لتعليم اللغات الأجنبية على مستوى الماجستير ، بعد هذا لا يمكن للطالب أن يسجل لدرجة الدكتوراة إلا بعد أن يجتاز فحصا متخصصا في اللغة الأجنبية التي يتقنها ، حتى يتم التأكد من صفته الجامعية التي من أهمها ، أن عنده الأداة التي تمكنه من الاطلاع على ما يجري في الثقافة العالمية في مجال تخصصه .

* هذه الخطة التي أشرتم إليها ، هل ترفدها جهود منظمة لمتابعة المصطلحات العلمية الجديدة في مختلف التخصصات ، على الأقل نود أن توضح لنا هذه الجهود في مجال وضع المصطلحات الطبية ؟

ـ هذه الجهود متواصلة في الوطن العربي ، هناك الجمعيات العلمية ، والجامعات ، والمجامع اللغوية في القاهرة وعمان ودمشق والعراق والمغرب العربي ، وهناك مركز التعريب في الرباط التابع للجامعة العربية ، وأضرب مثلا لهذه الجهود في مجال الطب ، لقد صدرت حتى الآن عدة معاجم طبية في دمشق وغير دمشق ، وآخر معجم صدر ونحن نعتمد عليه اسمه « المعجم الطبي الموحد » وهو باللغة الانجليزية والعربية والفرنسية ، وهذا المعجم مقر من مجلس وزراء الصحة العرب ، ومنظمة الصحة العالمية ، واتحاد الأطباء العرب ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهو معجم طبي محض ، وأعتقد أنه سيصدر عن قريب طبعة جديدة من هذا المعجم بالفرنسية والعربية والانجليزية مع الزيادة وبعض التصحيح ، نحن لا ننسى فضل المجامع اللغوية ، فهي كلها تعمل باستمرار لتوفير المصطلحات الطبية التي يحتاجها الأساتذة والطلاب على السواء . هناك أيضا معجم « ساكلوي » وهو معجم عام في الطب والهندسة ترجمته مجموعة من العلماء باشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

قضية التنسيق من جديد

* كل هذا يثير مجددا قضية التنسيق بين الجهات المختلفة في قضايا التعريب ووضع المصطلحات العلمية ويتصل بذات القضية مشكلة التمويل ،

فالتنسيق يمكن أن يتيح فرصا أفضل لحل جزء من مشكلة التمويل بالاضافة الى توفير الجهود.وقد تفضل الدكتور عادل العوا برأيه في هذه المسألة هل تحب أن تعلق على هذه المسألة ؟

ـ بالنسبة للمصطلحات الطبية ، كانت هناك مرحلة تعددت فيها المصطلحات الطبية للكلمة الواحدة ، مما أدى الى بعض البلبلة ، بعد ذلك تألفت لجنة دائمة أعضاؤها من جميع الأقطار العربية من مشرقها الى مغربها تتبع مجلس وزراء الصحة العرب ، اتحاد الأطباء العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومهمة هذه اللجنة توحيد المصطلح الطبي وقد أدى عمل هذه اللجنة فعلا خطوات جيدة في سبيل توحيد هذا المصطلح .

أيضا بالنسبة لعمل المجامع اللغوية فهناك تنسيق بينها من خلال المؤتمرات السنوية التي تعقدها ، وأحيانا تنسق هذه المجامع مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، أقول أحيانا :

يوجد الآن في الكويت مركز من أجل الوثائق والتعريب الطبي يتبع مجلس وزراء الصحة العرب ، ورئيسه وزير الصحة في الكويت الدكتور العوضي ، ومن جملة أعمالنا في هذا المركز تعريب الكتب الطبية.ونحن في هذا الاطار نتبنى المصطلحات الطبية التي تقرها المجامع اللغوية ، ونسهم في وضع المصطلح ، طرق وضع المصطلح معروفة وجميع العاملين في الحقل متمرسون فيها ، هناك ثلاث طرق لوضع المصطلح ، هناك المصطلح الذي استعمله الأطباء العرب القدامى كابن سينا وغيره مثل قلب ، عضد ، كبد . . . الخ . وهذه نستعملها كما هي .

وهناك نهج الاشتقاق ، مثلما استخدم كلمة « قصور الدَّرَق » لاعبر عن أن هناك قصورا في وظيفة الغدة الدرقية ، أي أنها لا تقوم بوظيفتها كاملة ، وهناك نهج التعريب حين آخذ كلمة أجنبية لها مدلول دقيق جدا ، بنصها وأضعها في وزن عربي مثل : « الديال » أو « الديلزة » بدلا من أن أقول « غسل الكلية » ، وأيضا كلمة « هرمون » فاننا نستخدمها كما هي ونخضعها للصيغ العربية المعروفة فنقول هرمون أو هرمونا أو هرمونات . . . الخ .

مستوى الخريج

● أرجو أن تسمح لي بسؤال ذي طابع عملي ، هل حدث نوع من التقويم لمعرفة مستوى خريجي برنامج تدريس الطب باللغة العربية بالقياس مع زملائهم ممن يدرسون الطب باللغة الانجليزية ؟

ـ أجيبك بشيء حي ، المقارنة قد تبدو عاطفية ، لكن الفحوص والاختبارات مسألة رياضية وعملية ، أقسام الدراسات العليا في جامعات العالم تجري فحوصا ومسابقات لمن يريدون الالتحاق بها ، وأقول لك صادقا بأن نسبة كبيرة من الذين درسوا العلوم والطب في كلياتنا باللغة العربية ويتقدمون لمثل هذه الفحوص ، لا أريد أن أفاخر وأقول أنهم يتفوقون على الذين درسوا الطب في المرحلة الجامعية الاولى باللغة الانجليزية ، وأكبر دليل على ذلك وجود أعداد كبيرة من الذين تخصصوا في الولايات المتحدة ، انجلترا ، فرنسا ، ألمانيا ، أو البلاد الشرقية ، روسيا وغيرها ، كل هؤلاء قسم كبير منهم عاد الى دمشق ويعمل بنجاح في مهنته وقسم آخر لا يزال يعمل في الخارج وقد تبوءوا مراكز عالية مع أن دراستهم الأساسية هنا كانت باللغة العربية .

الهوة بيننا وبينهم . . . في العلوم الانسانية والتطبيقية

● في حوارنا مع الدكتور عادل العوا تحدثنا عن الهوة التي تفصل بين حركة البحث العلمي في وطننا العربي وفي العالم المتقدم ، وكانت له وجهة نظره حول طريقة اجتياز هذه الهوة ، وأن هناك نوعا من الفرق بين العلوم الانسانية وبين العلوم البحتة والتجريبية

بالنسبة لهذه الهوة نود أن نعرف رأيك في هذه القضية ؟

ـ نستطيع أن نقسم العلوم من هذه الجهة الى قسمين : قسم ثابت كالفيزياء والكيمياء والرياضة ، فهذه عندنا مثلما هي عند غيرنا ، وعلينا أن نجتاز الهوة بيننا وبينهم بكل الجهود الممكنة التي من أهمها تنمية حركة البحث العلمي عندنا ، والصناعة المتطورة وتعريب المصطلحات ... الخ .

وفي العلوم الطبية يوجد قسم ثابت وقسم متحرك . المرض مرض ، لكن هناك دراسة محلية تقول ان هذا العرض من هذا المرض هو أشد ظهورا في تلك البلاد عنه في غيرها ، على سبيل المثال « الحمى التيفية » كمرض موجود في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفي كثير من البلدان وأعراضه معروفة ، وفحصه معروف ، وتشخيصه معروف ، ولكن نحن نجري بين ذراري هذه الجرثومة أبحاثا لكي نعرف هل هذا النوع من الجرثومة الموجود في بلادنا هو نفس النوع الموجود في انجلترا أو فرنسا ، وبنفس النسب ... الخ .

مثل هذه الدراسات والأبحاث تحدث عندنا الان بعد أن تأسست الدراسات العليا ، وأمكننا أن نلقي بالضوء على بعض النواحي من المرض أكثر من نواح أخرى ، في مصر مثلا يهتمون بالبلهارسيا ولهم فيها دراسات لا توجد في بلاد أخرى ليست فيها بلهارسيا ، كثير من المؤلفات الطبية التي نقدمها الان نجد فيها تأكيدات محلية واحصاءات محلية ، وهذا ما يمكن أن يمثل خصوصية لنا .

اللغة القومية ... مجال الابداع ..

ومشكلة توفير المصطلح لم تعد مشكلة

● هل ترى أن دراسة العلوم باللغة العربية ، يمكن أن توفر فرصا أفضل للابداع في المجالات العلمية مثلما هو الحال في الاداب والفنون؟ وبالتالي في تأصيل حركة البحث العلمي عندنا .

ـ فرص الابداع في مجال اللغة القومية أفضل سواء في مجال العلوم البحتة أو العلوم الانسانية أو الأداب والفنون ، حينما تقرأ فكرة بلغتك القومية ، وتقرأ نفس الفكرة بلغة أجنبية ففي أي الحالتين تتمثلها أكثر وتهضمها أكثر ...؟ بالقطع الفكرة المعروضة بلغتك القومية ولو كانت فكرة علمية ، اللغة ليست مصطلحاً ولفظا فقط ، اللغة أيضا طريقة تفكير ، طريقة التفكير العلمي حين تكون باللغة العربية تختلف عنها في اللغة الأجنبية ، الطالب الذي يتلقى علومه بالعربية يتمثلها أكثر ، ويفكر فيها أفضل ، ويبدع بها كذلك بشكل أفضل ، طبعا نحن نتكلم عن الطالب الذي لديه استعداد للابداع ، ففي كل الجامعات في كل الدنيا طلبة عاديون يتخرجون في الجامعة ويعملون في شتى مجالات التنمية في تخصصاتهم المختلفة ، وقلة هي التي تواصل الدراسات العليا في مجال التخصص ، وصفوة من هذه القلة تبدع ابداعا متميزا .

دعني أذكر لك مثالا : اليابان تعلم العلوم باللغة اليابانية الطب والهندسة والكيمياء ... الخ ، وبعض البلاد الشرقية مثل باكستان تعلم العلوم باللغة الانجليزية وأنا أسألك ماهي نسبة العلماء المبدعين بين اليابان وبين باكستان التي تعلم بالانجليزية ، في أي البلدين نجد علماء وباحثين أكثر ؟

ـ طبعا في اليابان لكن أود هنا أن أشير الى أنه ليس التدريس باللغة القومية وحده في اليابان هو السبب بل من أهم الأسباب وجود حركة بحث علمي متقدمة ومرتبطة باقتصاد قومي وصناعة متطورة جدا وتوجه سياسي يربط بين كل هذه العناصر ويوجهها وجهة تخدم التقدم والابداع العلمي ، وفي اسرائيل يمكن أن تقول نفس الشيء عن احياء اللغة العبرية واستخدامها كلغة لتدريس العلوم انما حقق نجاحا لارتباطه بحركة بحث علمي متطورة .

ـ طبعا لا خلاف حول ضرورة الاستناد الى حركة بحث علمي متقدم ، لكن اذا أضفنا الى ذلك أن هذا البحث يجري باللغة القومية يكون التقدم أفضل وفرص الابداع أكثر تحققا .

ان تدريس العلوم باللغة القومية هو الأساس في كل جامعات العالم ، ومشكلة توفير المصطلح لم تعد مشكلة . اللغة التركية غير معروفة بالدرجة التي تعرف بها اللغة العربية ومع ذلك ففي تركيا تدرس كل العلوم باللغة التركية ، من يتكلم البلغارية غير البلغار ، ومن يتكلم المنغارية غير المجر ، ومع ذلك فكل هذه البلاد تدرس العلوم بلغتها القومية .

كتبت مرة مقالا حول هذا الموضوع قلت فيه :

ان الجامعات التي تدرس العلوم باللغة القومية تسير قدما تاركة وراءها أصحاب المؤتمرات وأصحاب القرارات والمناقشات لماذا ؟

لأنه لا يكفي أن تتخذ القرار ، بل يجب أن تضعه موضع التنفيذ . كيف نعرف اذا كان القرار صحيحا أم خاطئا ؟ ونحن هنا في سوريا وضعنا هذه الفكرة .. فكرة تدريس العلوم باللغة العربية محل الاختبار منذ عام ١٩١٩ حتى الآن ، ولو كانت غير صالحة لبدا لنا ذلك .

هناك ٥ آلاف طبيب سوري يعملون في الولايات المتحدة الامريكية في جراحة القلب وفي العين وفي الدماغ وفي التخدير وفي مختلف الفروع . وحينما أقول هذا الكلام أقوله من واقع تجربة عمرها طويل ، وأحب أن أذكر لك أنني درست الطب في مرحلة البكالوريوس في فرنسا ، وتخصصت في النمسا ، فأنا استطيع أن أرى وأن أقارن بموضوعية كاملة ، وليس فيما أقوله تعصبا لنظام تخرجت فيه . □

« الأيس كريم »
اسم حارت المجامع في تعريبه

من الغريب أن « الأيس كريم » أكثر انتشارا في البلاد الباردة منه في البلاد الحارة . فقدبلغ معدل استهلاكه في الاتحاد السوفيتي ٦٢٤قطعةللفرد الواحد سنويا ، وفي فرنسا ارتفع ذلك المعدل إلى ٨٣٢ قطعة،وتأتي كندا في المرتبة الثالثة ، تليها بريطانيا ، وهي تستهلك سنويا ما يعادل ١٠٠ مليون قطعة . أما إيطاليا ـ موطنه الأصلي ـ فلم يعد يحسب له حساب في العدد .

و (الأيس كريم) لفظ انجليزي ، حارت المجامع العربية في تعريبه ، وعجزت . فكفت عن ذلك . أو لعلها ترفعت عنه ، ولم تر النزول إلى مستوى الحديث عن الأطعمة اليومية ، لهذا شاع هذا الاسم وذاع . ففي المشرق العربي شمالا يسمونه « البوظة » . والبوظة لفظ فارسي ، معناه الجليد . وفي مصر يسمونه « الجيلاتي » ، وهو لفظ إيطالي معناه الجليد أيضا . وأحيانا يسمونه « الدندرمة » ، ومعناها بالتركية مما يقارب هذا المعنى . وفي المغرب العربي يسمونه (جلاس) ، وهو لفظ فرنسي يعني الجليد .

ي الأسواق

كتاب العربي

السابع عشر

خطاب إلى العقل العربي

بقلم

الدكتور فؤاد زكريا

كتاب العربي مرآة العقل العربي



بين نهرين يمشي

شعر : أحمد فضل شبلول

هناك
على ساحةِ الروحِ
حطّتْ طيورُ الربيعِ ،
وغنّتْ زهورُ البنفسجِ ،
وفرّتْ مِنَ الحقلِ
سنبلةٌ مِنْ هجيرٍ ،
فأطعمتُها مِنْ رحيقِ الشروقِ .
وقمتُ أردّدُ شعري ،
ذاك الذي لَمْ أقلْهُ لغيرِ الأحبّةْ .
وجاءتْ شموسُ الصباحِ ،
تلفُّ الحروفَ ،
وتبعثُ دفءَ الحياةِ بقلبِ الصبيِّ .
هناك
رأيتُ أبي
بين نهرين يمشي ،
ومِنْ حولِهِ كانتِ الأغنياتُ ،
وكانَ النهارُ يصلّي .

رأيتُ أبي .
ولكنه لَمْ يشاهدْ خطايَ إليه ،
وكانتْ تُباعِدُ بيني وبينَ حنانِ يديهِ
طيورُ الظنونِ ،
ووهمُ الصحاري ،
فناديتُهُ ،
ولكنه كانَ يمضي إلى نهرِ
ولَمْ يلتفتْ للنداءِ الجريحِ .
وقفتُ علَى حافةِ الحلمِ ،
وبينَ امتدادِ الطريقِ
وعمقِ السؤالِ
تدورُ العيونُ ،
تعودُ إليَّ بغيرِ اليقينِ .
فهلْ ضاعتِ الأرضُ تحتَ الخطا ؟
وهلْ تاهتِ الموجةُ الخالدةُ ؟
رأيتُ أبي
يصاحبُ تلك الحقولَ التي أفرزتْ سنبلة



مِنَ العودِ والريحِ والأسئلةِ ،
فأطْعَمْتُها مِنْ رحيقِ الشروقِ ،
وأسْقَيْتُها مِنْ مياهِ القلوبِ
التي كُنْتَ تسقى .
فَهَلْ أغْضَبَتْكَ رياحُ الحصادِ ؟
وَهَلْ أسْلَمَتْكَ السواقي
إلى كُلِّ هذا الخصامِ ؟

رَأيتُ أبي
لاينامُ
وفي كُمِّهِ زهرةٌ مِنْ وئامٍ ،
فَنَادَيْتُهُ ، ولكنه كان يمضي بعيدا
إلى نهرِهِ ،
والأغاني تُعَبِّدُ دَرْبَ المساءِ .
فَقُلْتُ أعودُ إلى شاطئي ،
لعلَّ البحارَ تجيءُ بوشوشةٍ
مِنْ نداءِ أبي .

قصة قصيرة من أمريكا اللاتينية *

اليوم الذي دفنا فيه السلاح

للكاتب الكولومبي : بلينيو . أ . ميندوثا *
ترجمة : محمد العشيري

قاتلنا أربع سنين ، نعم ياسيدى ، أربع سنين ونحن والعسكر نتبادل النار . ولولا الموتى ، ولولا الموت الذي كان يمر بين وقت وآخر لقلت كنا في حفلة كبرى . كنت أقول لرعاعي : تعودوا على الفكرة ، سوف تموتون ، إنكم ميتون . لا تستغربوا عندما يسكتونكم برصاصة . في البداية كان عددنا قليلا ، وكنا نمشي حفاة ، وبأسلحة لاتكفي ، بمسدسات وبنادق ، متسللين عبر طرق لايمر منها إلا أبناء الجن . بعيدا عن معامل السكر والممرات الرئيسية ، حيث كان الجيش . كنا نعلق « الاماكات » (١) في « تبابيت » المزارع المهجورة ، ونضطر إلى قطع رءوس الديوك ، وشنق كلاب الأرياف ، لكي لايفضحنا أي صوت . بعد ذلك نشطت الحفلة ، وأرسلت الحكومة جيوشا أخرى ووصلت إلى المكان المقصود . هذه محرقة المزارع .

وبعد دورة عام طويل لم نعد عشرات ، بل أصبحنا آلافا ، وكان السهل كله ، من « اراوكا » إلى « سان مارتين » يحرق الرعاع العسكر ولم تنفعهم كل وسائلهم ، ولم تنقذهم الطائرات ولا القنابل .

ياتلك السنين ! مازلت أتذكر أوقات الفجر تلك وسط الثوار والقهوة المرة والنسيم وهو يهب على الغابات عندما تنطفىء النجوم الأخيرة . مازلت أتذكر النار والأحاديث في الليل . من « اماكة » إلى « اماكة » ، حينما كانت تشتد المطاردة كنا نزداد أخوة ، ويزداد صدقنا ونحن ننادي بعضنا بعضا : « كاماريطا » . لم أعرف لماذا بدأنا نسمي بعضنا بعضا هكذا « كاماريطا » مع السلامة ، « كاماريطا » ماذا جرى ؟ « كاماريطا » كان ذلك يكفي . ياله من زمن ! كانت الثورة في متناولنا . وقد أخذوها منا ، واستبدلوا بها انقلابا عسكريا ، رعاع ، مساكين .

---

* عن كتاب DIEZ NARRADORES COLOMBIENOS. - EDITORIAL BRUGURA, BARCELONA, 1977 الصفحات من ٩٣ الى ٩٩ .

* بلينيو ابوليو ميندوثا اديب وصحافي ولد في تونخا بكولومبيا عام ١٩٣٢ من اعماله : الخائن (قصص ١٩٧٤) ، وسنوات فرار (رواية ١٩٧٩) .

(١) اماكة / سرير يعلق

أتذكر اليوم الذي دفنا فيه السلاح ، وكأنه أمس . كانت الطائرات في النهار السابق قد رمت على المعسكر رزم جرائد ، وطوفان منشورات بدل القنابل . كانت الجرائد تتكلم عن نهاية « الدكتاتورية » ، وعن السلم ، وعن العفو الشامل ، وعن الاستسلام السلمي للثوار في السهل كله . ولم يكن ذلك كذبا . كانت هناك صور « قواد الوبن » ، «وألوماو» «والأخوين غاليندو » ، «والأسود ميغيل سواريث» في طليعة أرتالهم المكونة من الرعاع المصطفة اصطفافا جيدا ، وهم يسلمون سلاحهم للجيش . سلم . عفو . كلمتان وسقطوا كلهم على وجوههم . ماذا كان باستطاعتنا نحن أن نفعل ؟ كنا « كوماندو » الثوار الذين يقومون بعملياته في أقرب رقعة من الحدود . كنا «الكوماندو» الأبعد الأخير . اعتقدنا لحظة أننا نستطيع مواصلة القتال ، ولكن .



لا ، لوكنا فعلنا ذلك لسحقونا . رأينا ذلك بوضوح لما وصل ناقلو الأخبار وهم يحكون بأن الجو في المدن والقرى جو عيد ، فالرايات في كل مكان ، والنشيد الوطني ، والناس يبدلون بسلاحهم أكياس ملح وسكر ، أحيانا أقل من ذلك ، وأحيانا يسلمون أسلحتهم مقابل خطاب أو بويقة زهور تسلمها لهم طفلة من أطفال مدرسة . لهذا قررنا نحن إنهاء الحفلة بطريقة أخرى ، قررنا أن ندفن السلاح ، ونتفرق نهائيا . أتذكر أننا بكرنا لنجمع « الأماكات » والمتاع قبل أن نسرج البهائم . لقد أمرت بأن تسقط أعواد النار ، وأن يلقى التراب على الرماد ، وأن لايبقى أي أثر للمعسكر . ولما جاء وقت تفرقنا ناديت رجالي ، كنت أراهم ساكتين خشنين . لقد عشنا معا وقتا طويلا في نفس النزهة .

كثيرون كانوا قد وصلوا إلى السهل منذ البداية قبل أربع سنين ، وقصدهم أن يفلتوا بجلودهم جائعين ، خائفين ، عامرين بالقمل . ولكي يعيشوا اضطروا إلى أن يكونوا اذكياء ياسيد ، فالذي لايصير ذكيا يموت . وتعلموا أن يتحركوا في جماعات عبر السهل كله ، وتعلموا أن يمكثوا يوما هنا ويوما هناك ، وأن يتسللوا عبر الغابات مثل الهنود ، وأن ينصبوا فخاخا ليصيدوا العسكر كما تصاد الأيائل .

أما الآن فقد رأوني أخرج إليهم بهذه الحكاية الحزينة ، فلقد انتهت الحفلة ، وليتركوا السلاح ، وليرجع كل واحد إلى طريق بلا رفيق إلا حصانه وملابسه . كانوا على حق في تملصهم لكي لا ينسوا بسرعة ماتعودوا عليه . وقررت أن أبلغهم بأوامري الأخيرة بمثابة وداع : اخلعوا كل شيء عسكري ، لاأريد خوذا ، ولا قلانس ، ولا مناديل حمراء في الأعناق ، ولا أريد أقنعة .

ولم يعجبهم أن امر بونطيريبا ـ وهو نائبي ـ بجمع السلاح ،كانوا يتبادلون النظرات بقلق ، وتجرأ أحدهم وسألني متكلما عن الجميع : ماذا تنوي أن تفعل بالأسلحة ؟ ، وهنا أحسست أنهم غصوا بالسؤال الذي كان يخرج من عيونهم .

قلت لهم سأدفنها

فسألوني : أين ؟

قلت : في مكان مأمون . لنقل إنه سر عسكري .

وقال بونطيريبا : سيكون كنزاً للرعاع وواصل جمع البنادق،وضعها على قطعة قماش مشمع . ولم يضحك أحد ، بل استمروا في تبادل النظرات وكل واحد منهم يلمح شكوكا في وجه الآخر .

قلت لهم : نعم ، إنه كنز للرعاع ، ولن يمر وقت طويل قبل أن ترجع الاسلحة إلى أيدينا فالأمر الذي يجري الآن ما هو غير استراحة .

قال أحدهم : لكن السهل كبير « باكولوتيل » .

قلت : مهما كان كبيرا ، لا يمكن أن تنطلق طلقة في اراوكا الا تسمع في سان مارتين . ولن يكون السهل كبيرا إذا قرروا أن يجدونا .

وخيم صمت سمعنا أثناءه في مكان ما قرب النهر صياح طيور « غوتشاراكه »[٢].

ولأضع حدا لذاك الحوار قلت ـ على طريقة الثوار بلا وداع ـ : هيا . وأخذوا ينسحبون من الدائرة ، ويحملون الاكياس على اكتافهم كرها ، وببطء ، كأن الأمر يؤلمهم . وهكذا انتهى كل شيء .

ساعدني بونطيريبا على حمل الأسلحة إلى ضفة النهر . لقد كان من الرعاع الجيدين ، كان صغيرا وداهية مثل قط وفيه شيء آخر يذكرني بالقط كذلك ، وهو عيناه الصفراوان اللتان لا تكادان تظهران تحت « صمبريرته » اللبدية . كان الأخير والوحيد الذي بقي حيا من أربعة إخوة نزلوا من الجبال إلى السهل عندما وصلت الشرطة إلى بوياكا مدمرة قرى ومدنا ليبرالية .

كان يقول لي : لا أحد يريد أن يرجع إلى المزارع

(٢) غوتشاراكة / طائر اميريكي

والقرى ليحيي رأسه للثير ، يتفرقون وهم لايعرفون إلى أين . ان الأدغال تجذب بونطيريا الآن ، بعد أن انتهت الحرب ، وهو يريد الذهاب إلى بيتشادا . وحتى أنا لم أكن أعرف بالتحديد إلى أين سأذهب ، لأستقر ، وأستريح .

قلت له : ربما أذهب إلى فنزويلا . ففنزويلا موجودة هناك ، قريبة ، في الضفة الأخرى للنهر .

كان الزورق مهيأ ، ومحركه مركبا عليه ، ومقدمته على الرمال . وكان مانولو ماندوبال ينتظرنا بسطل وثلاثة « مرافش » وكيس جير . كان كل شيء معدا للدفن عندما جئنا بقية الأسلحة . وبدأ بالعد : عشر بنادق و F.A ، ورشاش طومبسون ، وضعناها في قعر الزورق ملفوفة في قماش مشمع .

بعد أن انحدرنا مع النهر وجدنا بقعة ، بدت لنا مناسبة . مازلت أستطيع أن أميزها بفضل التينة الكبيرة التي ترتفع في تل فوق الأوراق الساقطة للضفة ، قبالة التينة ، في الشاطىء المقابل يوجد جرف أصفر . فحصت « الجذامة » بعناية ، وبعد ذلك اضطررنا إلى فتح طريق لنصل إلى أسفل الشجرة . أخذ بونطيريا ، بعد أن أخذ حفنة تراب وفحصها ، وقال لنا هو تراب يابس وبعيد بعدا كافيا عن مستوى الماء . ولم يكن هناك خطر فيضانات . كان مانولو قد بقي ينصت إلى صياح طائر « الغواكا مايوات » [٣] في الغابة . ثم قال « هذا مكان مسحور » .

حفرنا على بعد خمس خطوات من التينة ، حتى نبعد الحفرة من عروقها ، وعملنا مدة ساعة . أولا نظفنا الأرض بساطور ، ثم أخذنا نحفر على طريقة حفاري القبور ، نغرز « المرافش » بمساعدة ضغط الأحذية ، لأن الأرض قد صلبها الصيف على ما يبدو ، حتى صار عمق الحفرة مترا ونصف متر ، عندئذ أدخلنا فيها السطل الذي كان قد أعد بمادة البينداري ، وصببنا الجير داخله ، ثم وضعنا فيه الأسلحة . أخيرا سددنا السطل بعناية ، وغطيناه بأربعين سنتيميترا من التراب المدكوك جيدا .

لما أنهينا العمل ، كان يوجد أكثر من شبرين من الشمس خارج السهل . أتذكر أن مونولو قال لي وهو يمسح صدره من العرق بنفس قميصه الذي كان قد علقه في غصن شجرة : « كولونيل ، هذا هو وقت تأدية صلاة ربانية على هذه الثورة التي لفظت آخر أنفاسها الآن . لم يكن مانولو يكف عن السخرية قط . كان طفل ثراء « ولد عائلة » ، انضم إلى الثوار مدفوعا « بشيطنته » عندما احتللنا مزرعة العجوز بيكطوريا امايا « عمته » ، كان قد تخاصم هو وخطيبته ، أظن ذلك . وكان يكتب شعرا . إن وجوده بين الثوار كان بالنسبة إليه حفلة لهو عظيمة ، ومن أجل أن تستمر الحفلة ذهب معي إلى فنزويلا .

مشى بنا الزورق النهار كله . يخيل إلي أني مازلت أرى أجراف الضفة ، ولمعان الشمس في مياه النهر . كان الفصل صيفا ، وعشب السهل كان أصفر ، وكنا أحيانا نلتقي مراكب صاعدة « المبطا » بحملها المعتاد من الملح وبراميل البنزين ، وكان البحارة يحيوننا عند مرورهم . نمت بعد أن جعلني صوت المحرك في دوامة . أتذكر أني حلمت حلما غريبا ، حلمت أن رجالي قد قبض عليهم الجيش ، وأنهم ذاهبون في مركب وأيديهم مربوطة وراءهم ، وعند مرورهم قرب الزورق يشكون قائلين لي : كولونيل ، يعطوننا طاسات نبيذ ، ثم يكسرون عظامنا » .

ولما أفقت كانت الضفاف قد ابتعدت . والشمس في جهة « كولومبيا » كانت حمراء تبدو كأنها حريق ، وفي جهة فنزويلا كانت توجد صخور هائلة ، مشتعلة كالجمر ، وكان التيار يصطدم بها رافعا أمواجا ، وكانت تهب ريح قوية جدا ، ومن خلال

---

(٣) غواكامايو / طائر أمريكي يشبه الببغاء .



الرائحة أدركت أننا قد وصلنا إلى « الاورينوكو » وأكد لي ذلك بونطيريا صارخا وهو جالس جنب مقبض المحرك ، وتحدث مانولو وهو ينظر إلى سرب من البغاوات يطير نحو الضفة الكولومبية وقال لي : ودع اهل بلدك . أخيرا لمحنا أضواء المصانع الكهربائية لمرسى سايت ، في الضفة الفنزويلية ، لامعة بين صخور وأسقف زنك . كانت أكبر مدينة رأيتها منذ أن بدأت الحرب ، وفكرت أن في إمكاني أن أنعم لأول مرة بعد زمن طويل بحمام ساخن ، وآكل ثلاث مرات في اليوم . وأشرب كأس ماء مثلج هذه الأشياء تجرى للانسان لما يجيء من الأرياف بعد زمن طويل هنالك .

رسونا على رصيف رملي . على بعد مائة متر من الديار الأولى ، ورفض بونطيريا أن يبقى معنا في فنزويلا ، وتركنا على الرمال ، واتجه نحو الضفة الأخرى ، مازلت أرى قميصه الأبيض ، وصمبريرته ، والبندية وهو يبتعد في ظلمة النهر . أظن أنه لم يصل قط إلى بيتشادا . لقد قتلوه في بار في بيا بيثيثيو بطلقة رصاص . كما قتلوا غواد النوي والأسود سواريث . كلهم قد قتلهم الجيش واحدا واحدا ، ما أسهل أن تكسر غصنا منفردا . لكن الذين انتبهوا إلى الخدعة رجعوا إلى الأرياف ، واضطروا إلى البقاء دائما تحت لافتة قطاع الطرق . وماتوا بتلك اللافتة على قبورهم كذلك . لكن تلك قصة أخرى .

بقيت أنا في فنزويلا . ورجع مانولو الذي لم يكن رحل متاف إلى داره وحل محل أبيه بعد موته ، وهو اليوم مربي ماشية غني . ذو جسم غليظ . وله ولد في المدرسة البحرية ، التي لا أثر فيها للرعاع الذين كان هو واحدا منهم . أما أنا فقد انصرمت أعوامي دون أن أعرف متى فعلت ذلك ، لقد مارست كل الأعمال ، عملت في كاراكاس في بويرطو كابيو ، وفتشت عن الماس في غوايانا أيضا .

أحيانا وأنا أعمل في بار أو في محطة بنزين ، أو أسوق شاحنة كنت ألتقي أحد الرعاع القدامى ، أحد رعاعي ، فنشرب جعة ونحن نتحدث عن الثورة ، ونشرب نخب الأخرى الآتية ، ولكن لا . اليوم أرى هذا العدد الهائل من الفتيان يتكلمون عن فيديل ، وعن التشي ، وبرغبة في إعلان الثورة ، والاسراع إلى الأرياف أدرك أن الأوان قد فات بالنسبة لنا ، لا نستطيع أن نفعل شيئا ، فالقطار قد تركنا ، وهو الآن يصفر بعيدا . أنظر شعري ولقد صار رماديا ، وبطني غليظ ، وفي الشهر الفائت اضطررت إلى شراء نظارة لأقرأ الجريدة ، وهأنا هنا في هذه المدينة أبيع المشروبات الروحية كأي خازن خمور في الليل ، ولما تشتد الحرارة ، ويصعب النوم في الغرفة أخرج الكرسي إلى الشارع ، وتمر بذهني أشياء كثيرة ، وأسأل نفسي أحيانا : عجبا ياإيميليو جانطوس ، ماذا جرى لك ؟ متى انقلبت أعوامك أفواجا من يديك ؟ منذ أيام الحرب لم يبق حيا حياة حقيقية سوى ذكرى اليوم الذي دفنا فيه السلاح . والأسوأ هو أن الأسلحة مازالت موجودة هنالك تنتظرنا تحت التينة الكبيرة ، أتمنى أن ألتقي الفتيان الذين لدغهم اليوم الزنبور نفسه الذي لدغني وأتمنى أن أقودهم إلى ذلك المكان البعيد ، إلى نهر مبطا ، حيث تركنا الكنز مدفونا قبل سنين عديدة . عشر بنادق و F . A ، ورشاش طومبسون ، ستكون مفيدة جدا كبداية ، وأتمنى أن أقول لهم : خذوا يا أولاد ، واتبعونا ، فالآن الحفلة حفلتكم . □

مواقف إنسانية

المعلم "لوب"

بقلم : الدكتور عبد الوهاب حومد

كل الذين كانوا طلابا في جامعة « السوربون » بباريس أثناء الحرب العالمية الثانية ، يعرفون المعلم « لوب » ، فقد كان معسكرا بخيله ورجله ، بين مريديه وأنصاره من طلاب الحقوق ، نظرا لأنهم أوثق صلة « بالسياسة الدولية » من طلاب الكليات الأخرى .

فما الذي كان يقوله ويهجس به ؟

كان ينقل « مقر قيادته » من مقهى الى مقهى في الحي الخامس « اللاتيني » ، يجالس هذه الحلقة من الفرنسيين ، حتى اذا اطمأن الى بيعتهم تنقل الى حلقة من الأوروبيين ، يحاورهم في وحدة أوروبا ، لكنه لم يكن يغمط « الحلقة العربية » حقوقها أيضا ، فقد كانت محببة الى قلبه ، أثيرة في نفسه ، كما كان هو محببا الى قلوبنا أثيرا في نفوسنا . فقد كنا جيران أوروبا - في نظره - ولا محيص عن نسج خيوط للتعاون معنا .

وكنا نحترم أسلوبه السياسي ، لاعترافه بنا « أمة » واحدة موحدة ، ذات حضارة تليدة ، وبسبب من ثقافته الفلسفية كان شديد التعلق بابن خلدون ، ومقدمته التي كان ينعتها بأنها أروع ما أنتجته عبقرية بشر على مر الأزمان .

معلمنا

كان المعلم يطرق أبواب السبعينيات من عمره ، فاتح اللون ، مربوع القامة ، وكان يقص شاربه على طريقة هتلر الذي كان يحتل انذاك جميع أوروبا تقريبا وبعض أجزاء من افريقية . وكان من المعقول أن تعمل ضالة جسمه بنقل السنين عن كاهله ، أو بما تمد به بطاقات الاعاشة الرسمية من أمان تحسم بها شهرا بأيامه الثلاثين ، حتى اذا حان موعد « القطاف » حصدنا عن نبضة من هواه ، تذلك بها حاجات جسد ، تألف النحول فألفه

كان « معلمنا » لايملك الا بدلتين اثنتين ، احداهما رمادية للفصول الدافئة ، وأخرى سوداء يجملها بقبعة « برنيطة » من لونها مستديرة الشكل ، للفصول الممطرة .. توقيا مما ينهمر من السماء السخية .

وأحلى ما كان يحببه الى قلوبنا تلك الأمواج من الطيبة والسذاجة ، تنطلق من عينيه الغائمتين عبر عدستين سميكتين ، يدل لون إطارهما الكالح على أنهما تعودان في عمرهما المديد الى اليوم الذي بدأ فيه تدريس الفلسفة في احدى ثانويات باريس الكبرى ،

وكان هذا في تلك الأيام منصبا مرموقا ، لا يظفر به الا من نال شهادة عليا ، وتفوق على أقرانه من المتبارين الكثيرين .

الكفاح السياسي

وحين صدر القرار بإحالته على التقاعد رفض أن يصبح «مُتْ قاعداً» ، وباشر «كفاحه السياسي» ، وكان يحب تعبير «الكفاح السياسي» ، تأثرا بكتاب لهتلر يحمل هذه التسمية ، كان يتخذه برنامجا لعمله المشئوم الذي أغرق به أوروبافي مستنقع من الدماء والدمار ، ثم انقلب عليه وعلى موطنه ، كما ينقلب السحر على الساحر ، غير أن كفاح المعلم كان نضالا «كلاميا» ، منطلقا من مشاعر الحب والرحمة .

وكان يحققه في ذاته وفي أنصاره بجولة أسبوعية ، يتحرك فيها موكبه من تقاطع «سان ميشيل» مع «سان جيرمان» ، مارا بالمقاهي التي يتردد عليها طلاب الحقوق ، حتى اذا ما وصل الى المنعطف الذي ينتصب فيه صرح «البانتيون» وقف وقفة الجنرال غورو على قبر صلاح الدين ، وحوله يتحلق أنصاره الذين لا يزيدون عن عشرة الا نادرا ، ولم يبلغوا عشرين . وولى وجهه قبل البناء الرائع ، حيث تتجاور رفات عظماء فرنسا في قبورهم .

هناك يحلو له أن يشرح مبادئه وسط هتاف وتصفيق حادين ، يدفعان الدم من أطراف جسده البارد الى وجنتيه المتغضنتين ، فتستعيدان لونهما الذي كان لهما يوم اقترن بالسيدة «لوب» . يبدو أن فكرة غامضة مستقرة في «لاشعوره» ـ كما يحلو لفرويد أن يقول ـ توسوس له بأن مرقده الأخير ، حين تنطفىء شعلة حياته المؤثرة ، سوف يكون الى جوار أقرانه من عظماء العلم والسياسة تحت تلك القبة الشامخة .

ليس غريبا أن تكون أشد المؤمنين تعصبا له زوجته الصارمة ، فلم يحدث قط أن تخلفت عن مسيرة من مسيراته «التاريخية» ، وكان كل من ينظر اليه وهو يترقب مباركتها على أقواله بلهفة ، يشعر بدالتها الكبرى عليه ، ويقتنع بأنهما تقاسما قسمة رضائية (أي بطريق المهايأة كما يعبر رجال القانون) : هي تستقل بإدارة شئون الأسرة بمالها وما عليها ، والمعلم نفسه أحد هذه الشئون ، وهو يستقل بتدبير أمور الكون ويخطط السياسة العليا لمستقبل وطنه والدول الأوروبية في انطلاقتها الى وحدتها التي يراها دانية القطوف في يوم قريب .

وكانت مبادىء هذه السياسة العليا راسخة ، لم يطرأ عليها تعديل أو تحوير ، خلال السنوات السبع العجاف التي «تتلمذنا» خلالها على صاحبها ، فقد كان يعلنها على الدنيا قبل أن يتبناها رئيس الوزراء «بيير لافال» ، لتقوده الى ساحة الاعدام يوم تحررت بلاده ، وقد ظل وفيا لها بعد أن التفت الفيالق الألمانية حول خط «ماجينو» الشهير ، تاركة وراءها قلاعه الفولاذية تلفظ أنفاسها صبرا ، دون أن تتاح لها مناسبة لاطلاق قذيفة واحدة على الغازي المستميت .

لقد استمر يبشر بها بعد أن أصبح بلده منطقتين ، محتلة يعيش هو فيها ، وحرة تتمتع بحريتها كما يتمتع العصفور بحرية القفص ، ولم يبدل شيئا من فلسفته ، حين انسحبت القوات الالمانية من باريس انسحابها الهادىء المعروف ، حتى لا تتأذى معالمها الحضارية ، وكان في استطاعتها أن تتركها أثرا بعد عين .

بقيت العقيدة «اللوبية» منتصبة كالطود ، لاتميل حيث يميل متخطفو الغنائم ، ولا تنحني كما ينحني القصب تحت ضغط الأعاصير : سلام بين الأمم الأوروبية . لاتتصافح فيه باليمنى ، لتستطيع اليسرى الطعن بخنجرها في الظهر في لحظة غدر ، وتعاون وثيق في الاقتصاد وفي الثقافة لتنشئة أجيال تحسن التفاهم على يومها وشئون غدها ، ثم إقامة اتحاد ، ليس كذلك الاتحاد الذي حاوله نابليون ففشل فيه ، ولا هو اتحاد بسمارك أو هتلر ، إنما هو اتحاد المصالح والمصير المشترك الذي يدير شئونه مجلس رئاسي واحد ، ويكون الى جانبه مجلس تمثيل

أعلى ، تذوب فيه القوميات (وهي فعلا قوميات) ، وتقبر فيه الخلافات اللاهوتية ، وتنطفىء فيه ألسنة لهيب الحروب التي ظلت مستعرة قرونا وأجيالا دون جدوى .

موقفه منا

وللأمانة التاريخية فقد ظل المعلم وفيا « لأصدقائه العرب » . وفي إحدى المسيرات استبد به حماس مذهل ، فأقطعنا مالم تكن نحلم به ، قال لنا : يا جيراننا العرب ، أنتم أبناء أمة مجيدة واحدة خالدة ، لقد حفظتم المدنية الاغريقية ، وتوجتموها بمدنيتكم المشرقة ، فمن حقكم أن تتحرروا ، وتقيموا وحدتكم قبالتنا على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط بيننا ، فنحن وأنتم أبناء هذا البحر الحنون ، هو أبونا الذي يحمينا ، وهو أمنا التي ترضعنا ، وليس العداء الصليبي الذي سفك دماءكم ودماءنا إلا من فعل الكواسر التي تعيش على الفتك ، تحت راية تحمل زورا وبهتانا شعار القبر المقدس .

ويكاد المرء أن يصاب بالدهشة حين يتذكر أن هذه « الفلسفة » كانت تقال في الأربعينيات من هذا القرن ، ففي تلك الأوقات كانت جميع الاقطار العربية على ضفاف المتوسط تتلوى تحت سنابك خيل المستعمرين ، وكان أسهل على عربي مشرقي أن يرقى أسباب السماء بسلم ، من الحصول على تأشيرة دخول الى بلد عربي مغربي ، من قنصلية فرنسية ، أو ايطالية .

وعلى الرغم من الأجواء الجادة لمسيرات المعلم فلم تكن تخلو من مناسبات حلوة،فقد اعلن في جنبات الحي عن لقاء ، يتم في مقهى أنيق بين المعلم وبين « ولي عهد اسبانيا » ، يوم لم يكن للاسبان ملك ولا ولي عهد ، وكان كتاب الاعتماد الذي يحمله الأمير المزعوم رقا من جلد غزال أصلي ، يحمل كتابة صحيحة بأحرف لاتينية ، وخاتم الملك ومباركة من « البابا » .

بلغ المعلم المقلب اللطيف ، فأعد خطابا ترحيبيا رائعا

شروط الزعماء

وفي الوقت المحدد هلت طلعته في مقدمة موكبه ، وكانت « المعلمة » ممسكة بذراعه ، والانفعال اخذ منها كل مأخذ ، وحين أقبل الأمير وعلى ذراعه ذراع « الانفانت » شقيقته الشابة الأنيقة ـ وقف الجمهور تحية واحتراما ، واستمع الى النشيدين الفرنسي والاسباني ، ثم خطا « الزعيمان » ، كل في اتجاه الآخر ، وتصافحا ، وعلى الفور أخرج المضيف الفرنسي من جيبه خطابه الترحيبي ، وتلاه في قلق واضطراب شديدين ، وقد ضمنه موجز « بيانه السياسي » ، ووقف ينتظر موافقة الضيف المفاوض على انهاء الحرب ونشر اعلام السلام ، ولم يخيب الضيف آمال المعلم ، فأعلن عن موافقته ، باسم ملوك أوروبا ورؤسائها على نظريات المضيف ، دون تحفظ ، الا أنه اشترط لاتمام المعاهدة أن يوافق « لوب » على زواجه من الأميرة أخته ، لكي يجد بيته مبررا شرعيا لدعم « الصهر » الى منصب رئاسة الدولة المنتظرة . وخيم على المقهى جو ترقب ، بلغت فيه القلوب الحناجر ، ولم يتأخر الجواب ، فقد أفصح المعلم عن قراره في هذا الشرط بصوت متهدج ، بأنه لشرف عظيم له أن يصاهر بيتا ملكيا عريقا ، من أجل غاية سامية ، هي إرساء دعائم الوحدة الأوروبية . . . « لكني يا مولاي ، وقد عشت مع مدام « لوب » نصف قرن من الزمان ، قاسمتني خلاله العزاء أكثر مما ذاقت السراء ، فإني لا أجد من الوفاء أو الشهامة أن أتخلى عنها ، وأرجو أن تعملوا على إسقاط هذا « الشرط » وكان موقفا إنسانيا لاينسى فعلا .

وعبرت مدام « لوب » عن شعورها بالعرفان لزوجها بالقاء نفسها على صدره ودمعها ينساب بين تجاعيد وجهها ، وكذلك لم يقتل الجزع « الأميرة »

بسبب رفض المعلم الاقتران بها على أنقاض السيدة المتسلطة . فتخلت عن وقارها وراحت تصفق مع المصفقين .

مصير النبوءات

واليوم ، وبعد خمس وأربعين سنة ، تعود هذه الذكرى إلى نفسي . فقد وقعت في يدي صورة للمعلم ، غير مرور الزمان ألوانها ، فرحت أمعن في صروف الدهر ، وفي أحلام الحالمين من أصحاب « الرسالات » . لقد جرت مياه كثيرة تحت الجسور ، وانقذفت في البحار .

وتغيرت حال أوروبا وأكثر بقاع العالم ـ وتغيرت حالنا نحن أيضا . فقد تحققت نبوءة « لوب » ، هذا الحالم « السيكوباتي » العاقل المجنون . فيما يخص الجانب الأوروبي . فقامت وحدة بين الدول الأوروبية ، حقيقة لامجازا ولاتأويلا ، فأصبح لها مجلس نواب منتخب ، وزالت بينها الحواجز الاقتصادية والحدود القديمة التي كانت تعز على عقبان الجو ، وتداعت الاعتبارات الادارية والجمركية ، وأصبح الأوروبي ينتقل بين دول « الجماعة الأوروبية » ، بأسهل مما ننتقل نحن بين بيوتنا ومقار أعمالنا . وكل ذي عينين بصيرتين يرى تشكل قوة عالمية ثالثة ، تستطيع بثرائها وتقدمها التقني وحضارتها ، وعدد سكانها ، أن تقف ندا مهابا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . لكن نبوءة المعلم خابت فينا ، فقد ظفرت بلادنا باستقلال سياسي ـ وتلك نعمة عظمى ـ لكن الزمن عادانا ، أو عادينا أنفسنا على الأصح ، واستهوانا أن يكون لكل منا نشيد وشعار وعلم ، ولم نعد نتذكر تلك اليتيمة التي كانت تدعى ذات يوم بالوحدة العربية ، إلا في مناسبات جنائزية ، وتشرذمنا ، وتنابزنا بالألقاب ، حتى تخطفتنا بواشق الليل ، وطمع فينا من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، وفي كل صباح نشهد تجذرا أشد عنادا للاقليمية ، حتى صح فينا قول الشاعر القديم

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر

ومن وراء حجب الغيب أستمطر شآبيب رحمة الله على روح ذلك المعلم « الخالد » الذي أحسن ظنه فينا ، فأثبتنا له أننا لسنا على مستوى مبادئه ، وكان حريا بنا أن نتجاوزها ربما لأنه كان معتوها ، ونحن عقلاء □

علامات المتقين

● يصف الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه المتقين بقوله : فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين ، وحزما في لين ، وإيمانا في يقين ، وطلبا في حلال ، ونشاطا في هدى ، وتحرجا في طمع ، قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق ، ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخدعة .



الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

آلام الحمل والوضع ، وعلاجها بإفرازاتها

من المعروف أن الآلام التي ترافق الحمل والوضع يتعذر على الرجال تقديرها ، ومن المعروف أيضا أن العلاج الذي يستطيع أن يسكن تلك الآلام كان ومازال موضع بحث علمي متواصل في عدة جهات .

الظاهر أن مركز علم الصحة في جامعة نيويورك في بروكلين قد اهتدى إلى العلاج المطلوب ، بل قل عثر عليه ، والغريب أنه وجده مقترنا بالآلام التي يراد تسكينها ، مصداقا لقول الشاعر :

« وداوني بالتي كانت هي الداء »

ذلك أن الحمل يكون مصحوبا بإفرازات داخلية مسكنة للآلام كالمورفين ، يفرزها العمود الفقري في جسم الحامل بصورة طبيعية ، وذلك من أجل الحد من الآلام التي تنتاب الحامل ، لاسيما عند الوضع ، والغريب أن الافرازات المذكورة تتزايد في فترة الحمل ، أسبوعا بعد أسبوع ، حتى تبلغ أقصاها حين الولادة،وقد دلت التجارب على أن فاعلية الافرازات ، من حيث وقف الألم ، تتراوح بين ٣٠ ـ ٥٠ ٪ .

يقول البروفسور جنترز أحد المشرفين على التجارب والدراسات التي أجراها مركز نيويورك السالف الذكر : « نستطيع الآن تحديد التركيب الكيماوي للافرازات ، ونستطيع تصنيعها ، وإنتاج بديل كيماوي لها ، كما نستطيع تحديد موقع تلك الافرازات من العمود الفقري » .

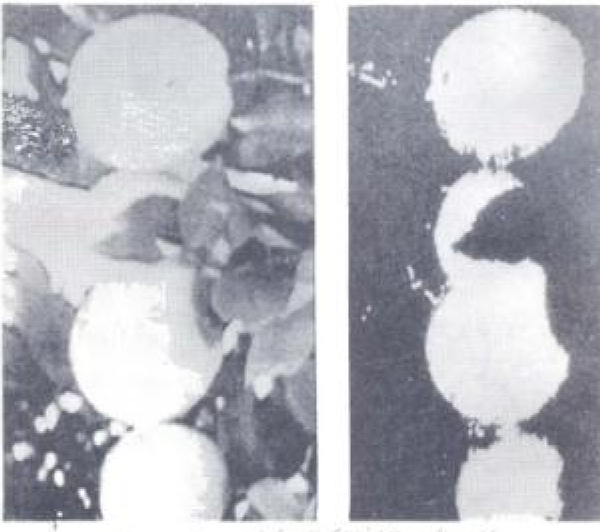
ولايخفى أن فاعلية المستحضر المرتقب لن تقتصر على حالات الحمل والولادة ، فهو فعال للقضاء على الآلام التي يتعرض لها الانسان . هذا على الأقل هو مايؤكده المشرفون على تطوير المستحضر .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

للروبوط عيون ترى

يبدو أن طغيان الرجل الآلي على الرجل البشري آت لا محالة ! فمازال العلماء يتسابقون في تدارك النواقص (الانسانية) في الروبوط .. حتى استكملوا صنع روبوط يسمع ، وآخر يشم ، وثالث يرى بعينين ، ورابع يجمع بين الحواس الخمس جميعا وكأنه من أبناء آدم !!

وحسبنا الوقوف قليلا عند الروبوط الذي طورته مؤخرا جامعة جينزفيل في فلوريدا ، لندرك مدى التقدم الذي أحرزه العلم في هذا المجال ، ولكي



كادت الصورتان أن تكونا متطابقتين ... العيون البشرية . والثانية تمثل ...

تلتقي بهذا الروبوط تفضل الذهاب الى إحدى مزارع البرتقال (البيارات) في فلوريدا لا الى مختبرات الجامعة المذكورة ، ولو تجولنا في مزرعة البرتقال المعنية لوجدنا رجلا آليا ذا عشر أذرع ، وقد جهز ذراعه هذا بمصباح وآلة تصوير الكترونية ، ويمتد هذا الذراع داخل الشجرة وبين أغصانها ، فيرسل الصورة الى أجهزة الحاسوب « الكمبيوتر » في الروبوط ، وفي لحظات تمتد أذرع الروبوط الأخرى فتلتقط البرتقالات الناضجة ولا تلمس البرتقالات غير الناضجة . والحاسوب « الكمبيوتر » هو الذي يحدد الثمار الناضجة من غير الناضجة ، ثم يترك التمييز بين هذه وتلك عمليا لأعين الروبوط المبصرة ، إذ أن له عيونا تبصر كعيون الانسان ، كما تدل على ذلك الصورتان المرافقتان لهذا الكلام . واحداهما تمثل أربع برتقالات كما تراها عين الانسان والأخرى تمثلها حسبما تراها عين الروبوط ، ويواصل الرجل الآلي قطف البرتقال بسرعة (٥٠) برتقالة في الدقيقة الواحدة حتى يفرغ من عمله .

انجاز هام لطبيب روسي

يظن البعض أن المنجزات الطبية الحديثة تكاد تكون وقفا على الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا غير صحيح .

فالكثير من هذه المنجزات يتم احرازهُ في اليابان وفي دول أوروبا الغربية والشرقية ، وبخاصة الاتحاد السوفياتي .

ففي موسكو عدة أكاديميات منها أكاديمية العلوم الطبية التي تشمل مركزا لأبحاث السرطان يتولى ادارته الدكتور فلاديمير ميتين ، وقد ركز أبحاثه في المدة الأخيرة على سرطان العظام **Osteosarcome** وهو ورم عظمي لحمي يصيب الحيوان فضلا عن الانسان ، وسعى الى تطوير أسلوب لعلاج هذا المرض الذي يودي بحياة الكثير من الناس نظرا لسرعة انتشار خلاياه . وبدأ الدكتور فلاديمير أبحاثه وتجاربه على الكلاب ، حتى اذا أصاب من النجاح ما أصاب انصرف عن الحيوان واتجه الى اجراء تجاربه على الانسان .

وكان الأسلوب العلاجي الذي جربه العالم الطبيب الروسي هو أسلوب البتر .. بتر الساق المصابة بالسرطان ،

وما اسرع ما اثبت هذا الاسلوب فشله .. فقد عاد السرطان الى الظهور والانتشار في أعضاء أخرى من الجسم ، وذلك في أكثر الحالات إن لم تقل كلها ..

وجرب بعد ذلك العقاقير ، ولكن هذه لم تقض على السرطان نهائيا الا نادرا علما بأنها كبحت انتشاره ، وحدت من حجمه في بعض الأحيان . فالعقاقير لاتقضي على خلايا السرطان بالذات ولا تقضي عليها كلها ، بل تواصل الأورام انتشارها بعد العلاج ، وبسرعة تفوق أحيانا سرعتها قبل العلاج .

وعمد الدكتور فلاديمير بعد ذلك الى معالجة الكلاب بأسلوبه العلاجي الجديد الذي يجمع فيه بين الجراحة والزرع والعلاج بالأشعة . فقد انتزع العظمة السرطانية من ساق الكلب المريض ، فعمل على تبريد هذه العظمة وتجليدها ، ثم عرضها للأشعة بجرعات محددة ، فضمن بذلك قتل الخلايا السرطانية في العظمة دون قتل نشاطها الحيوي .

وأقدم الطبيب الجراح بعد ذلك على زرع النخاع **Marrow** في تلك العظمة وذلك بقصد تعزيز مناعة جسم الحيوان ، ثم أعاد العظمة الى مكانها في ساق الكلب الذي شفي تماما من سرطان العظام الذي طالما عانى منه .

ومما يذكر أن اصابة هذا الكلب كانت اصابة طبيعية لم يكن للدكتور فلاديمير أي دخل في احداثها ، فالكلاب معرضة للاصابات بالسرطان كالانسان ولا يحول دون ظهور تلك الأورام دائما الا قصر عمر الكلاب ، فهي غالبا ما تموت قبل استفحال تلك الأورام .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

علاج ناجع للصلع

تحدثنا عن عقاقير وأساليب لمعالجة الصلع في أعداد كثيرة سابقة ولعل مستحضر المنيوكسوديل ، ذلك العقار الذي طوروه وصنعوه لمعالجة ارتفاع ضغط الدم ، والذي اكتشفوا فاعليته في معالجة الصلع بالصدفة وتحدثنا عنه مفصلا في حينه ، لعل هذا العقار هو أجدر تلك العقاقير بالاهتمام والتقدير . ذلك أن وكالة الغذاء والدواء في واشنطن رخصت مؤخرا بيع المنيوكسوديل السائل بقصد معالجة الصلع .. وذلك بالاسم التجاري روجين ..

تقول الشركة ان في استطاعة هذا العقار أن يساعد الرجل الأصلع على استرداد شعر رأسه . على أن الشعر المسترد لايكون كثيفا أو نصف كثيف الا في حوالي نصف الرجال الذين يستعملونه (٤٨٪ منهم بالتحديد) □



هذا هو الدكتور روبرت ستول .. أحد كبار المسؤولين في وكالة الغذاء والدواء ، وهو الذي ترأس اللجنة التي نظرت في طلب ترخيص عقار الصلع (الروجين) .. وأقرته

سلامة البشرية في سلامة البيئة

السوكيدو

ان كان للبيئة ألغاز حقا . فحشرة (سوكيدو) هي احدى تلك الألغاز لاريب . فهي أطول الحشرات المعروفة عمرا ، إذ تعمر ١٧ سنة . ولا تبلغ الحشرات الاخرى من العمر إلا سنة او بعض سنة في المتوسط . لكن الغريب في حشرة (السوكيدو) هذه انها تقضي عمرها كله تقريبا تحت سطح الارض . ثم تصعد الى الهواء الطلق لدى بلوغها السابعة عشرة . وذلك بقصد التزاوج . ووضع البيض . ومفارقة الحياة عقب ذلك مباشرة . وهي تفعل ذلك في أواخر فصل الربيع . وتقضي على سطح الأرض بضعة أسابيع حتى يسدل الستار على حياتها في أوائل شهر يوليو .

على أن لحشرة (السوكيدو) موطنا واحدا عرفه العلماء حتى الآن . هو الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية . فهي تستوطن نيويورك وواشنطن وفيلادلفيا وبلتيمور . وتظهر في ولايات أخرى تلي ولايات الساحل الى الغرب . وبخاصة جورجيا والينوي . وهي تبلغ بوصتين طولا ، وكثير من الناس لا يميزون بينها وبين الجراد . هذا على الرغم من أنها ملونة بألوان زاهية . ولا تسبب للمزروعات ضررا كما يفعل الجراد . إلا أنها تستطيع أن تكون مصدر ضجة كبيرة . والضجة عنصر تلويث في مجال البيئة كما هو معروف . ذلك أن



السوكيدو ليست جرادا . ولكنها حشرة على كل حال .. حشرة عجيبة ومدهشة .

طنين حالية واحدة من هذه الحشرة يقدر بحوالى ١٠٠ ديسبل . أي ما يعادل ضجيج المنشار الدائري تقريبا .

ومن طريف ما يذكر عن (السوكيدو) أنها تتسلل من باطن الأرض الى سطحها بعد غروب الشمس .

وتتسلق أول شيء عمودي تجده في طريقها ، شجرا كان أم أعمدة هاتف أم غير ذلك ، ويعقب ذلك الغزل ، فالتزاوج ، فوضع البيض بالمئات . ويفقس هذا البيض بعد مضي تسعة أسابيع ، فتخرج منه الولائد الميكروسكوبية .

وتسقط هذه الولائد على الأرض فتمضي في حفر مواطن دائمة لها تحت سطحها . وقد يبلغ عمق هذه الثقوب قدمين . نقول مواطن دائمة لأن حشرة (السوكيدو) تعيش فيها ، وتأكل وتشرب طيلة ١٧ عاما . ومعنى هذا أن هذه الحشرة التي ظهرت على ساحل أمريكا الشرقي في أواخر الربيع الماضي ، والتي وضعت بيضها في غضون شهر يوليو ستختفي ولائدها التي خرجت من بيضها تحت سطح الأرض . ولا تظهر ثانية إلا سنة (٢٠٠٤) على وجه التحديد .

ويربط العلماء بين تحركات حشرة (السوكيدو) وبين حرارة التربة التي تعيش فيها ، فهي تخرج الى السطح حالما تبلغ التربة درجة حرارة مقدارها (٦٨ - ٧٠) فهرانهيت ، لكنهم لا يعلمون أكثر من ذلك ، ولا يرغبون في أن يعلموا ، فهم يجدون متعة في أن تظل هذه الحشرة لغزا من ألغاز البيئة .

بشارة سارة لعشاق الحمامات الشمسية

● نجح الباحثون في (سان دياجو) في تطوير عقار يحول دون إصابة عشاق الحمامات الشمسية بسرطان الجلد . والعقار المذكور عبارة عن مسحوق ، قوامه ذرات اسفنجية ، توضع ذراته على الجسم ، بل قل على المادة الزيتية التي يطلى بها الجسم ، والتي تعرف باسم (Sunscreen) ، مرة واحدة في اليوم ، ويستمر أثره ١٢ ساعة كاملة ، فيقي الجسم من الاصابة بسرطان الجلد .

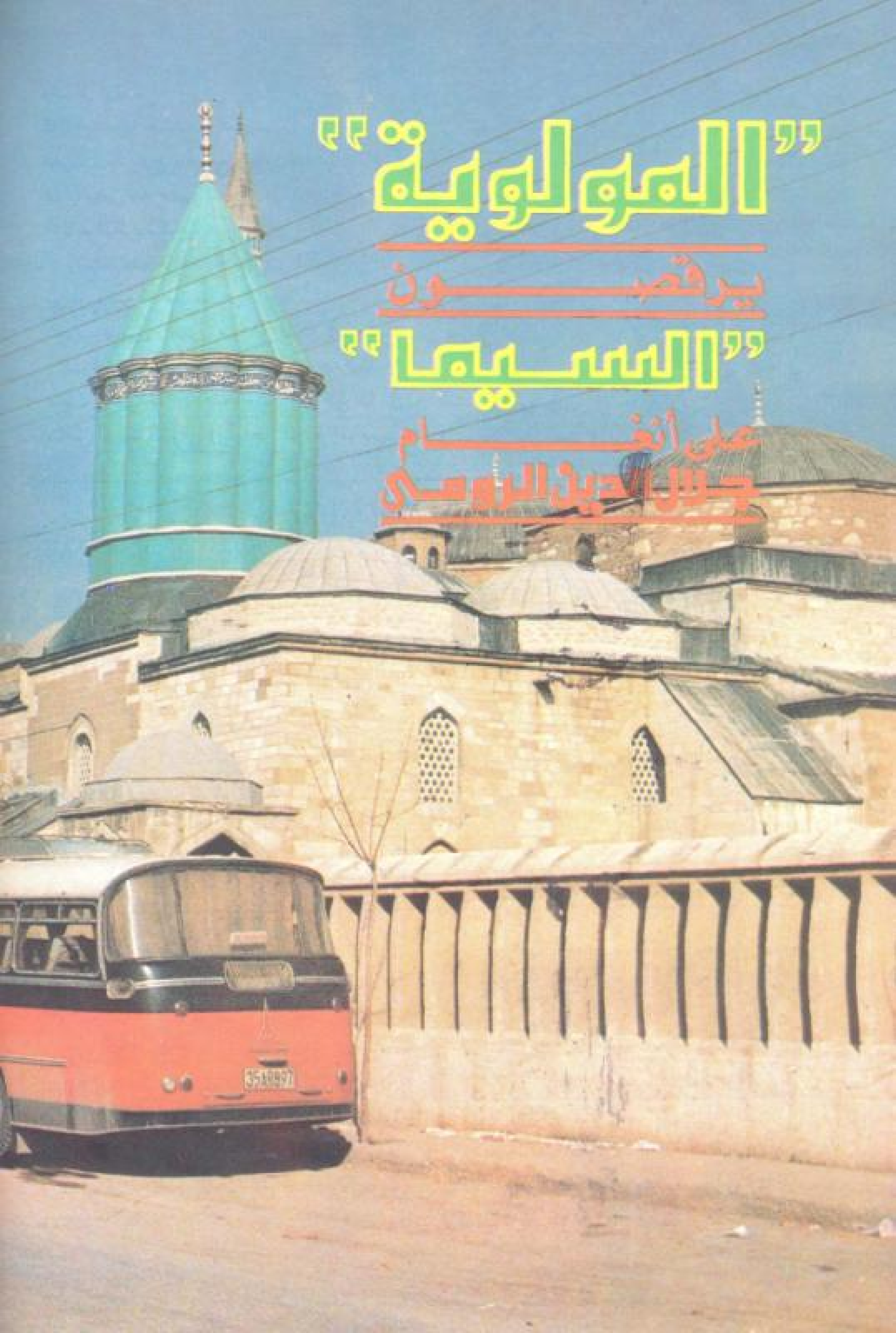
ويذكر الدكتور البرت كليجمان أحد الباحثين المعنيين في جامعة بنسلفانيا أن للعقار الجديد فائدة أخرى ، فهو يساعد على التخلص من المادة الزيتية التي يضاف إليها ، والتي تسبب الكثير من المضايقة للذين يطلون أجسامهم بها . علما بأن العقار المذكور عبارة عن مسحوق ، يصمد أمام الماء فلا يزيله .

دواجن حسب الطلب

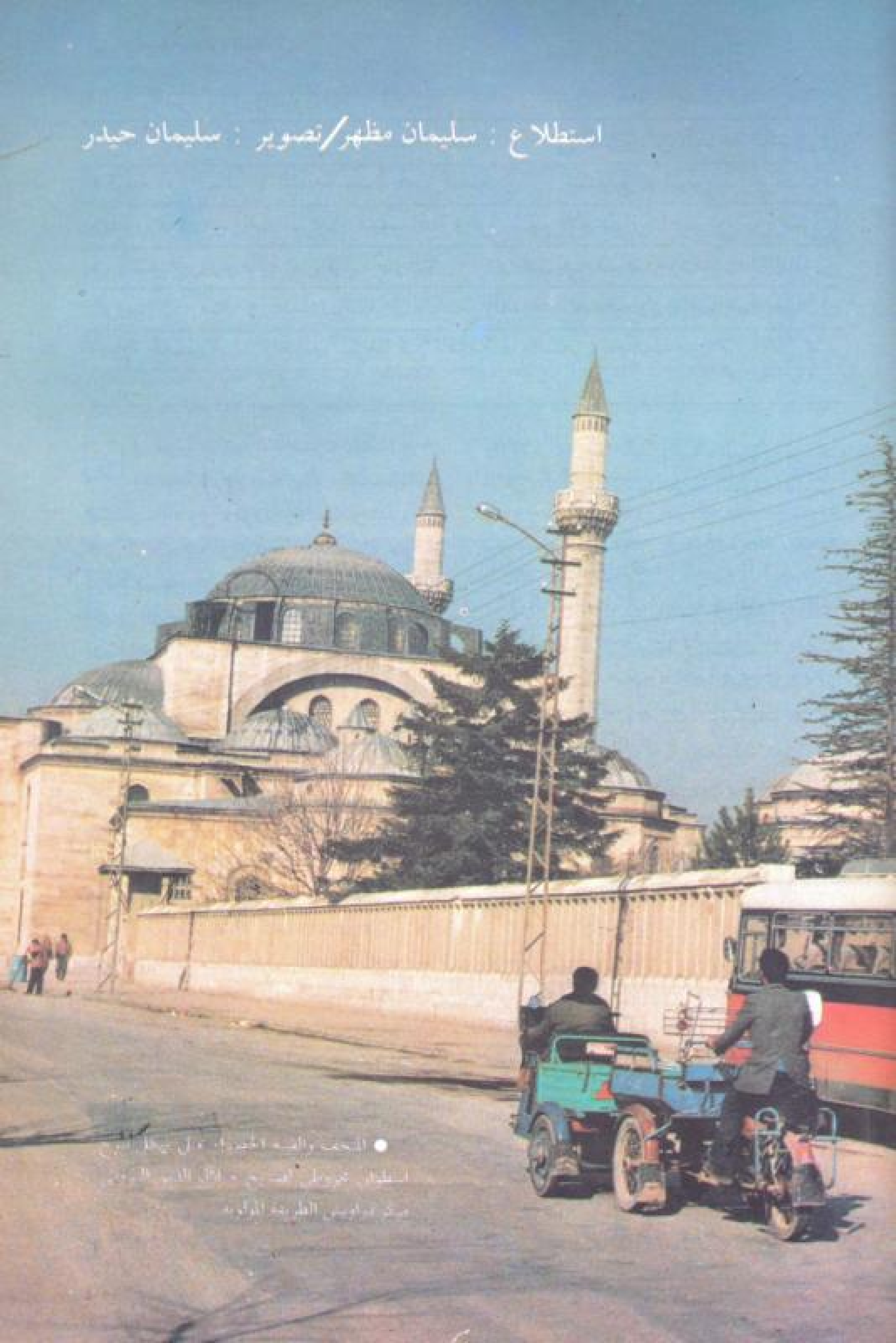
● نجح الباحثون التابعون لوكالة الزراعة في واشنطن في تطبيق أساليب الهندسة البيولوجية على الدجاج ، بحيث سيصبح في الامكان عما قريب انتاج الدجاج بصنوف مختلفة ، وفق أذواق المستهلكين المختلفة ، كأن ينتجوا دجاجا ذا مناعة ضد الأمراض ، أو دجاجا ذا بيض كبير ، أو دجاجا تزيد فيه نسبة اللحم الأحمر على اللحم الأبيض ، وهكذا .



ويبدو أن هذه التجارب العامة قد اقتربت من نهايتها ، وأن عهد الدجاج حسب الطلب آت عما قريب .


"المولوية"
يرقصون
"السيما"
على أنغام
جلال الدين الرومي

استطلاع : سليمان مظهر/تصوير : سليمان حيدر



[illegible]

الدراويش يرقصون . . . !

ويتدافع الناس . . رجالا ونساء وأطفالا . . على الطريق الى الساحة الكبرى في « قونية الاناضولية » القابعة وسط آسيا الصغرى . . ليشهدوا « المولوية » يرقصون ويدورون في عباءاتهم البيضاء الفضفاضة وطرابيشهم الاسطوانية الحمراء . . ويهتزون في استغراق وروحانية على ترنيمات الناي . . وألحان « حضرت مولانا » جلال الدين الرومي . . مبتدع رقصة « السيما » . . رمز الطريقة الصوفية التي اختارها سبيلا في حياته العملية . . وجعلها مزيجا من الفلسفة والشعر والحكمة . . من أجل مجد الانسان . . . !

في قونية - قلب الأناضول الحضاري . . وعاصمة الروم السلاجقة - كان لقاؤنا مع الفيلسوف الصوفي ، مولانا جلال الدين الرومي ، الذي أفاء ضريحه على المدينة طوال ثمانمائة عام قيمة قدسية كمركز ديني كبير ، وجعلها مزارا للمريدين المتغنين بالمثالية والروحية في عالم مادي جامد هو في أشد الحاجة إلى عودة الروح .

ففي نهاية الطريق الرئيسي للمدينة المقدسة ، والممتد من مسجد السلطان علاء الدين وتلّه - حيث يحكى الحجر على جانبيه قصة أروع عمائر السلاجقة التي تقف شامخة شاهدة على حضارة تمتد جذورها في عمق التاريخ - تشد البصر قبة خضراء على شكل برج أسطواني مخروطي ذي أضلاع يتجه الى السماء كمثل رأس مسلة مدببة ، تحيط بها مآذن مستديرة ذات رؤوس مخروطية وشرفة واحدة ، تنتهي في أعلاها بما يشبه قلم الرصاص المسنون . . !

إنها قبة ضريح الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي ، الذي يسمونه « مولانا » ، ومركز دراويش الطريقة المولوية على مدى ثمانية قرون ، حيث (تسكن) أجساد خمسة وستين من مشايخ الطائفة ، والذي تحول بعد ١٩٢٤ الى متحف يضم آثار الطريقة الصوفية المولوية . . من مصاحف وكتب وآلات موسيقية وسجاجيد وملابس وأوان ومزاهر وزخارف ، تحكي قصة رائعة لا تكاد تنساها القلوب والأبصار . وحيث تابعنا رقصة « السيما » رمز الحب الالهي والتي اشتهرت بها الطريقة الصوفية المولوية .

رقصة المولوية

هل سمعت عن رقصة « السيما » !! ؟

في البداية نعرف أن الصوفية قد أقبلوا على الغناء ولم يشترطوا الا حسن النية وشرف القصد . ولكن الطريقة المولوية تفردت بإجادة العزف على الآلات الموسيقية باختلاف أنواعها أثناء مجالس الذكر ، وخاصة استخدام « الناي » .

فما البال إذن بغناء المولوية ورقصهم المسمى بالسيما ؟ . لقد وقفنا نشهد احتفالهم السنوي الذي يقيمونه بقاعة الرقص الرئيسية في « تكية مولانا » بين الأول والسابع عشر من ديسمبر تاريخ وفاة - أو ما يسمونه سكون - شيخهم الرومي وارتفاعه لتتحد مع الاله . . ! تعال معنا نشاهد رقصة المولوية التي ابتدعها جلال الدين الرومي وما تزال مستمرة منذ القرن الثالث عشر حتى الآن ، برغم قرار أتاتورك عام ١٩٢٦ بإلغاء الطرق الصوفية وتحويل تكاياها الى متاحف أثرية . .

الحلقة تضم حوالي ٢٥ من الراقصين الذين يمثلون دراويش المولوية ، يرتدي كل منهم عباءة فوق رداء أبيض طويل ، ويحيط نصفه الأسفل (تنورة) بيضاء مفتوحة من الأمام . . وفوق رؤوسهم يضعون

طرابيش اسطوانية طويلة تسمى (السيك) . أما قيادات الدراويش فيحيطون رؤوسهم من حول الطربوش بعمامة تسمى (دستار) . أرض القاعة مفروشة ببساط أحمر يتصدرها أمام المحراب مقعد يجلس عليه الشيخ رئيس الطريقة المولوية .. أما اللون الأحمر فيمثل لون السماء عند غروب الشمس ذكرى لشمس الدين التبريزي وغروب شمس مولانا يوم سكونه الأبدي .. !

وفي مواجهة المحراب يجلس عازفو الفرقة الموسيقية يتصدرهم نافخ الناي والضارب على الطبلة والعازف على الربابة واللاعب على آلة القانون والنافخ في آلة الطنبور . وتنقسم ساحة الرقص إلى قسمين يقسمها خط رمزي يمثل خط الاستواء في منتصف الكرة الأرضية .. وهو خط محرم على الدراويش الراقصين أن يسيروا فوقه إذ يمثل الصراط المستقيم في الطريق الى الحقيقة الالهية ..

ينقسم الاحتفال قسمين .. القسم الأول يبدأ بأداء الصلاة ثم قراءة من أشعار « المثنوي » يليها غناء تواشيح تقليدية ، تنصت لها الجموع في خشوع كبير . بعد ذلك تعطى أربع من دقات الطبول إشارة البدء .

يقدم العازف على القانون بصحبة النافخ في الناي لونا من التقاسيم يقف بعدها الراقصون يتقدمهم قائدهم ، ويبدأون السير خطوة خطوة في دورة ثلاثية حول القاعة ، ثم يتوقفون في تشكيل دائري بينما يتصدر شيخهم القاعة لينحني الراقصون أمامه في تحية وتسليم ودعوات ثلاث مرات متتالية ، ثم يستأذنون بعد أن يقبلوا يده اليمنى ، فيمنحهم بركته ، ويعودون الى حلقتهم الدائرية وقد رفعوا أذرعتهم وضموها الى صدورهم ، بينما الأكف تستند على الأكتاف ، والرؤوس منحنية الى الامام . وعلى نغمات الموسيقا وترنيمات الناي التي تعزفها فرقة الانشاد على الآلات التقليدية الوترية والهوائية ، يبدأ الجميع يدورون حول أنفسهم ببطء وتهبط أكفهم على الأكتاف ثم تمتد أذرعتهم أفقيا حتى آخر امتدادها بالتدريج . وخلال الحركة الدائرية تبدأ اليد اليمنى ترتفع مع تحرك الجذع الى أعلى ، بينما تنخفض اليد اليسرى الى الجانب الآخر مع حركة الكتف . ونفهم من مرافقنا أن هذا الوضع يعني أن كل شيء في الكون في حركة دائمة ، وأنه يتلاقى مرة أخرى ، وأن اليد اليمنى حين ترتفع نحو السماء فهي تأخذ البركة من الله لتمنح العطاء والخير والبر للناس مع انخفاض اليد اليسرى نحو الأرض . وفي بعض الأحيان تمتد الذراع اليمنى كلها بينما تكون اليسرى مضمومة الى الصدر أمام القلب .

ويدور الدرويش خلال ذلك بجسمه دورة ذاتية خلال دورانه مع الحلقة ، وهو يستند على أصابع إحدى قدميه وهي ثابتة على الأرض بينما القدم الأخرى تدور مع دوران الجسم . ويخفض الدراويش أنظارهم أو يغلقون عيونهم خلال الأداء ، بينما تنحني الرأس ناحية الكتف .. وإذ تتدرج سرعة الحركة الدائرية تدور أرديتهم وتفرد (تنوراتها) من تحت الوسط لتصبح في دورانها كأنها مظلة مفتوحة ، بينما الدرويش قائد الحلقة يضم رداءه الأبيض الى جسمه دون أن يتحرك مع الراقصين . ويعطي القائد إشارة النهاية ، فتخف الحركة بالتدريج ليتوقف الراقصون في وقت واحد . وبشكل عام تكون هناك فترات توقف خلال الأداء بين كل دورة وأخرى .. وهي دورات تمثل في عددها تعاقب الفصول .. بينما الرقصات نفسها تمثل الحركة الكونية الفلكية لدوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس .. ولهذا يرتكز الدراويش على أصابع أقدامهم وهم يترنمون بذكر الله ترانيم كأنها تسبيح الملائكة والمخلوقات بحمد الله .

الحب الالهي

يقول لنا مرافقنا « جونير أوزكان » مدير الثقافة والسياحة في قونية : كان مولانا يقول « إن رقصة السيما هي جوهر الروح لاكتشاف الحب الالهي





● قبر «مولانا» جلال الدين الرومي وقد كسي بغطاء أخضر موشى بأسلاك ذهبية زنتها ٣٢ كيلوجراما من الذهب الخالص ، والى جواره قبر أبيه ، بينما (الى أسفل) قاعة «حضرة الابرار» التي تضم خمسة وستين قبرا لاقربائه البست شواهدها بالعمائم الصفراء ، (والى أقصى اليسار) الدراويش المولوية يؤدون رقصة «السما» .



والاحساس برجفة الصدمة وإزاحة الستار الحاجب للوصول الى حضرة الله » . وحتى في عصر مولانا كانت السيما نظاما روحيا تقصد الى التحام الفكر المولوي باللامحدود ، وتقود الى علاقة متحركة بين الانسان ورب العالمين . ولم تكن مواعيد رقصة المولوية محددة كما تجري في الوقت الحاضر . فقد كانت هذه المواعيد مطلقة تؤدى في أي وقت وفي أي مكان حسبما تجتذب الانسان الرغبة في انطلاقة الروح وبدون حاجة الى أصوات الموسيقا أو أنغام الناي . . بل إن المصادر تحكي أن جلال الدين كان يسير ذات يوم أمام دكان أحد الصاغة عندما هبطت عليه نفحة الحب الالهي ، فإذا به يدور على نفسه في رقصة انضم إليه فيها الصائغ . . وكانت هذه هي نقطة « البداية للسيما المولوية » . . !

ولعل الحس الفني لدى جلال الدين كان وراء إجادته العزف على بعض الآلات الموسيقية وإدخاله الموسيقا والرقص والغناء في مجالس الصوفية المولوية . حتى شعره اقترن بالموسيقا ، فكثيرا ما كان ينظم شعره في مجالس السماع وكثيرا ما ألقاه مقترنا بالانشاد والأنغام . . وقد تجلى أثر هذا الاحساس الموسيقي في شعره حتى استطاع أن ينظم غزليات ديوانه على أوزان عديدة بلغت خمسة وخمسين وزنا . . وقد استطاع أن يجعل الأوزان المهجورة بمقدرته الفنية جميلة الوقع سائغة النغم . . كما استطاع أن يوفر الموسيقا لشعره بوسائل عديدة . وكان في بعض الأحيان يختتم الأبيات بمقاطع صوتية قد لا يكون لها معنى ولكن لها وقعها الجميل في السمع . . وكان يعتبر أن الموسيقا والرقص هما إحساس الجسم والروح ، حتى قال « إن حس الدنيا سلم لهذا العالم ، وأما حس الدين فهو سلم السماء . . » هذا الحس تشعر به حينما تأتيك الرغبة في رقصة الحب الالهي عندما تتمزق نفسك وتنطلق مع مشاعرك الروحية . فالرجال يرقصون ويدورون وهم في ساحة القتال ، إن دماءهم ترقص وتدور في داخلهم ، وعندما يدعون أنفسهم للانطلاق فإنهم يصفقون بأيديهم ، وعندما يتركون وراءهم شوائب النفس فإنهم يرقصون ، وتتحرك موسيقاهم الداخلية وتجيش كل عواطفهم وتزيد على صفحات الموج الذي يفور من الأعماق » .

مهاجر من الشرق

وتتطلع بعيوننا ونحن نقترب من المزار الذي يحج اليه الأهلون تبجيلا واحتراما وتقديسا ، ونستمع الى مرافقنا العلامة محمد أمين أوغلو وهو يحكي قصة حياة الشاعر الصوفي الكبير رغم كل ما شاب بعض الفرق الصوفية مع مسيرة التاريخ من شوائب كادت تخرج بها عن الطريق القويم للاسلام . .

لم يكن قد فتح عينيه بعد على الحياة ، حين انطلق أبوه هاربا من وجه السلطان ، بعد أن تعرض لأحقاد غذاها الحسد الذي نبع في أعماق عدد من العلماء ، استطاعوا أن يغيروا ضده صدر محمد تاكيش خوارزمشاه سلطان بلخ ، من أعمال أفغانستان .

في ذلك الوقت من عام ١٢١٢ م (٦٠٦ هـ) كانت جيوش المغول قد بدأت تجتاح المنطقة وتقترب من أسوار بلخ ، وهي في طريقها عبر المدن والحقول تشعل النار في كل شيء . ومع ذلك الاجتياح لم يعد هناك أمان في كل بلاد خراسان ، وبدأت هجرة السكان الهاربين من وجه المغول تتجه الى أراضي الروم والأناضول .

وغادر « بهاء الدين ولد » بلخ مبتعدا ، ليس بسبب أحقاد الخوارزميين فقط ولكن هربا أيضا من المغول الغزاة . ففي صباح يوم جمعة حمل كتبه وأمتعته القليلة ، وكون قافلة صغيرة ، وأخذ معه ابنه جلال الدين وولده الأكبر محمد علاء الدين وزوجته « مؤمنة خاتون » وعددا قليلا من الاتباع . .

وبدأ الرحلة الطويلة الشاقة في الطريق الى الأناضول . . في الأراضي التركية .



* الفرقة الموسيقية وعازفو الناي يصاحبون رقصة السيما المولوية

بداية الطريق

انطلق الشيخ الجليل بقافلته الصغيرة الى حدود دولة الروم السلاجقة الذين كانوا يحكمون الأناضول ، حيث واصل مسيرته حتى بلغ « لارند » غير بعيد من مدينة قيصرية . ولم يمكث العلامة الفقيه بها الا قليلا لينتقل منها الى قونية بدعوة من السلطان السلجوقي « علاء الدين كيقباد » الذي احتفى به وبالغ في إكرامه وبايعه ، وأنشأ له مدرسة يقيم فيها ويمارس إلقاء دروسه . . وكان جلال الدين الصغير ينضم الى العاكفين على دروس أبيه يتلقى العلم ويقرأ ليل نهار من أجل مزيد من المعرفة .

مكث الشيخ بهاء الدين سنتين في قونية لينتقل بعدها الى ربه ، وليخلفه ولده النابغة جلال الدين ، الذي بنى له الأمير « بدر الدين كهرتاش » أستاذ السلطان مدرسة عرفت بمدرسة « خداوند كار » أوقف عليها أوقافا واسعة وولاه رئاستها . واستمر جلال الدين في التدريس والوعظ والارشاد على نمط والده الجليل ، حتى جاء ذات يوم درويش من مريدي أبيه القدامى في بلخ هو برهان الدين الترمذي الذي كان قد اعتكف طويلا في الجبال متصوفا بعيدا عن ملاذ الدنيا . وحين بلغه نبأ موت صاحبه جاء ليلتقي بولده جلال الدين وقد وجد من واجبه أن يأخذ بيده . وظل جلال الدين يتلقى العلم على يد أستاذه برهان الدين لمدة تسع سنوات . وذات ليلة بينما هو جالس بين يديه قال له : لقد تلقيت من التدريب والتعلم ما فيه الكفاية . . فالآن تمضي لتفتح عيون الناس على الحقيقة ، وتهدي أرواحهم لمعرفة الله ، وتحمل إليهم رسالة الحب الالهي » .

واستمر جلال الدين يواصل مهمته دون ان يمنعه ذلك من التوسع في الدراسات والتبحر في العلوم ، والسفر بين الحين والآخر الى حلب ودمشق ليشارك في مجالس العلماء الذين أقروا له بالنبوغ وسعة الاطلاع . . بينهم الشيخ محي الدين بن عربي وسعد الدين الحموي وصدر الدين القونوي .

وبقى جلال الدين مقيما في قونية لا يفارقها إلا ليعود إليها . وهناك تجمع حوله عدد من التلاميذ والمريدين ، وانضم إليهم عدد من العلماء والأشراف الذين هاجروا من بلادهم في فتنة التتار . وانقطع العلامة الشيخ الى التدريس وتحرير الفتاوي ، وأصبحت مدرسته عامرة يدرس فيها أكثر من أربعمائة طالب علم . . واستمر يمارس الوعظ كعالم وفقيه حتى حدثت له حادثة قلبت تيار حياته







● العلامة الفنان والمرمم الشيخ البخاري أمام المدخل الخارجي للضريح (الصفحة المقابلة) وتبدو (الى أعلى) لوحة لجلال الدين الرومي والى يسارها احدى الزائرات في انتظار فتح الباب . . (والى أسفل) مشهد عام لمدينة « قونية » المقدسة .





● « يا حضرت مولانا » .. هي أول ما تلتقي به عند دخولك الى مقر ضريح جلال الدين الرومي .. ويقول لك الشيخ البخاري « لا دخول الا بعد قراءة الفاتحة » .

واتجاهه ، وفتحت قريحته وأشعلت مواهبه ، وكانت سبب شهرته وتأثيره وخلوده كصوفي فنان شاعر وحكيم أخلاقي وفيلسوف انساني ..

كيف حدث كل هذا ؟ وما هو سر التحول الذي جعل من جلال الدين شاعرا صوفيا نزاعا إلى التأمل الروحي العميق .

ذلك هو ما كان علينا أن نسمع تفاصيله من الفنان التركي مصطفى اسماعيل البخاري الذي لقيناه عند مدخل (المتحف الضريح) الذي تعلوه لوحة كبيرة خضراء تملؤها كلمتان « يا حضرت مولانا » .

وأبى دليلنا أن يحكي التفاصيل إلا بعد أن يأخذنا الى داخل الضريح .. حيث ترتبط الأحداث بما سنراه عند وقوفنا أمام قبور جلال الدين الرومي ومريديه وأقربائه وشيوخ طريقته .. الذين دفنوا داخل الضريح الذي كان عبارة عن تكية أقيمت وسط حديقة للزهور منحها السلطان علاء الدين الى والد مولانا واستوطنها .. حيث مات فيها عام ١٢٧٣ *وأقاموا عليها ضريحه .. الضريح مشيد على* ستة أعمدة من طراز رجل الفيل ومسقوف بقبة هرمية الشكل مغطاة بالبلاط الخزفي الأخضر بينما التكية كلها مسقوفة بالقباب وتضم المسجد وقاعة الدراويش التي أنشئت زمن السلطان سليمان القانوني والمخصصة لاقامة حلقات الذكر وشعائر المولوية .. كما تضم التكية غرف الدراويش التي بناها السلطان مراد الثالث .

تحت القبة الخضراء

كان علينا أن ننتظر ونؤجل الاستماع الى بقية القصة ، وأن ندلف من بوابة الدراويش التي يقبع عند جانبيها عدد من الزوار والتابعين والحجاج القادمين للتبرك بالمزار ، ممن لا يزال في أعماقهم تبجيل واحترام وتكريم وإيمان بشيخهم الصوفي الجليل .

قال لنا الشيخ البخاري : لا دخول إلا بعد قراءة الفاتحة ..

وفعلنا .. ثم دخلنا إلى الغرفة الأولى ، ووجدنا أنفسنا داخل مكتبة عامرة بالكتب والمخطوطات . أما جدرانها فتغطيها لوحات وأعمال وآيات مكتوبة بخطوط أبرز الخطاطين ممن فيهم السلطان محمود الثاني الذي كتب بخط يده « سبحان الله وبحمده .. سبحان الله العظيم » الى جانب الآية الكريمة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ونجتاز المكتبة من خلال باب أقيم كله من الفضة ، تغطيه نقوش مموهة بالذهب هدية من السلطان سليمان القانوني ، ونجد أنفسنا وسط القاعة الرئيسية التي تسمى « حضرة الأبرار » . هنا يقوم ضريح « مولانا » فوق درج مرتفع عن الأرض بحوالي متر ، والى جواره قبر أبيه ومعلمه الأول في منزلة أعلى منه قليلا .

قبر جلال الدين يكسوه غطاء أمر بصنعه السلطان عبدالحميد ، وهو من نسيج أخضر موشى بأسلاك

ذهبية تبلغ زنتها وحدها ٣٢ كيلوجراما من الذهب الخالص . كما تحيط به مجموعات من الهدايا الذهبية والقناديل الفضية الضخمة والمزهريات المهداة الى قبره خلال السنين .

ويرتفع صوت الناي يملأ المكان ويبعث في النفس مسحة من الهدوء والراحة والسكينة . .

الى الغرب من القبر الأخضر وقرب رأس « مولانا » تقوم قبور زوجته « كيرا خاتون » وابنته « ملك خاتون » ، ثم مجموعة أخرى من قبور أقربائه ممن تولوا قيادة الطريقة بعده يبلغ تعدادها خمسة وستين قبرا ، حيث ألبست عمائم صفراء على رؤوس شواهد الأضرحة التي تضم رجالا ، بينما قبور النساء بلا عمائم أو شواهد . وننظل الى الجدران فنجدها كلها مغطاة بلوحات كتبت عليها آيات من القرآن الكريم بخط أشهر الخطاطين الذين أهدوها الى الضريح . وأبرز اصحاب هذه القبور هم حسام الدين شلبي صاحبه ومريده الذي تولى مشيخة الطريقة بعد وفاته ، وولده سلطان ولد الذي تولى تجديد وتنظيم أفكار المولوية ، والذي أقام المبنى الشامل للضريح وجعله مركزا للطريقة المولوية ، وأعادة تصنيف كتب والده ودواوين شعره .

التحول الكبير

ويتوقف بنا دليلنا وهو يشير الى ضريح تغطيه كسوة خضراء مزركشة في ركن القاعة ، علقت امامه لوحة تحمل اسم « شمس الدين التبريزي » .

ويقول الدليل : الآن . نكمل بقية القصة ، ونتحدث عن سر التحول الكبير في حياة « مولانا » . . والذي كان وراءه ذلك الصوفي الكبير المدفون في هذا الضريح .

ففي مساء يوم ٢٥ أكتوبر عام ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) بينما كان مولانا يسير راكبا بغلته في موكب من التلاميذ والعلماء والناس حوله يسألونه ويستفتونه . . تقدم رجل عجوز أخذ بعنان البغلة وأوقفها وسط الطريق .

وكان الرجل درويشا صوفيا اسمه « شمس الدين التبريزي » ، لم يكن أحد قد رآه من قبل في قونية . وراح الشيخ يلقي أسئلته على الشيخ جلال الدين . ودار حوار تتبعه الناس باستغراب كبير . .

سأل شمس : ما المقصود من الرياضيات والعلوم ؟ أجاب جلال الدين : الاطلاع على آداب الشرع .

قال شمس : لا . . بل الوصول الى العلوم . . أما سمعت قول الحكيم . . ان العلم اذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه ؟

وأخذت الحيرة جلال الدين . . بينما عاد شمس يسأله :

ـ فماذا ترى في الحب ؟

قال جلال الدين : ان الحب يحول المر حلوا . والتراب تبرا . والكدر صفاء . والألم شفاء . والسجن روضة . والسقم نعمة . والقهر رحمة . وهو الذي يلين الحديد ويذيب الحجر . ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة .

وابتسم شمس وهو يقول :

ـ أما علمت ان جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم . الا ان مرضى الحب يستزيدون المرض ، ويحبون ان يضاعف في ألمهم وحنينهم . فالحب علة ولكنها علة تخلص من كل علة ، فإذا أصيب بها إنسان لم يصب بمرض آخر قط . فهو صحة الروح ، بل روح الصحة . يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم .

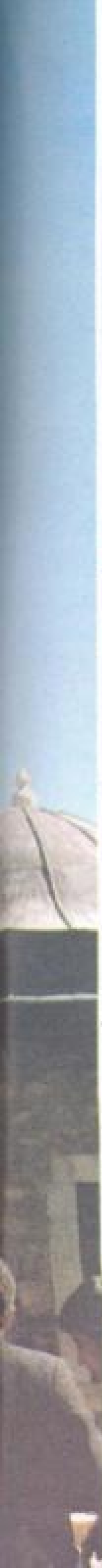
وأعجب جلال الدين بما يقوله الدرويش . الذي عاد يسأله :

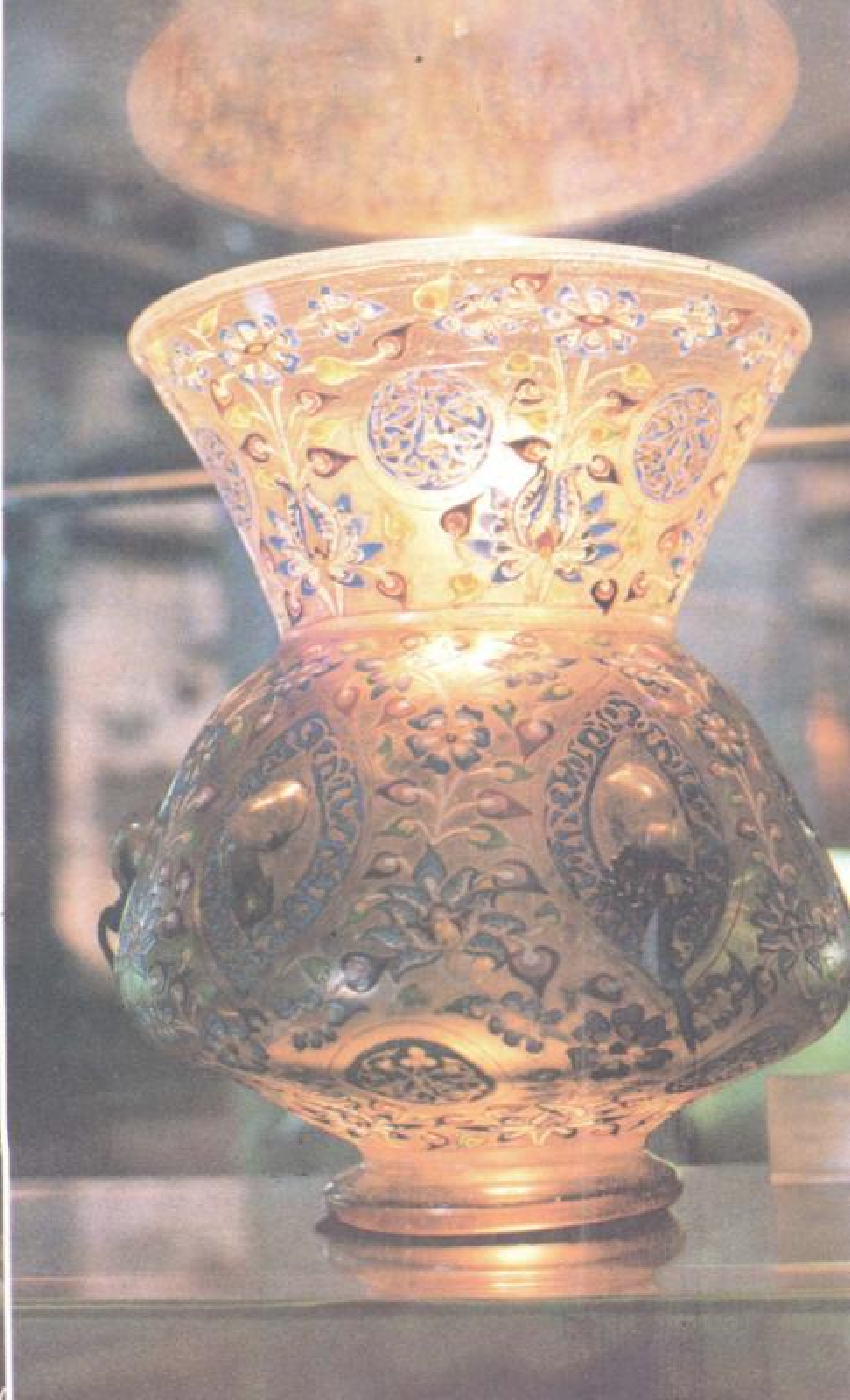
ـ فهل تعرف الفرق بين الحب . . والدهاء ؟

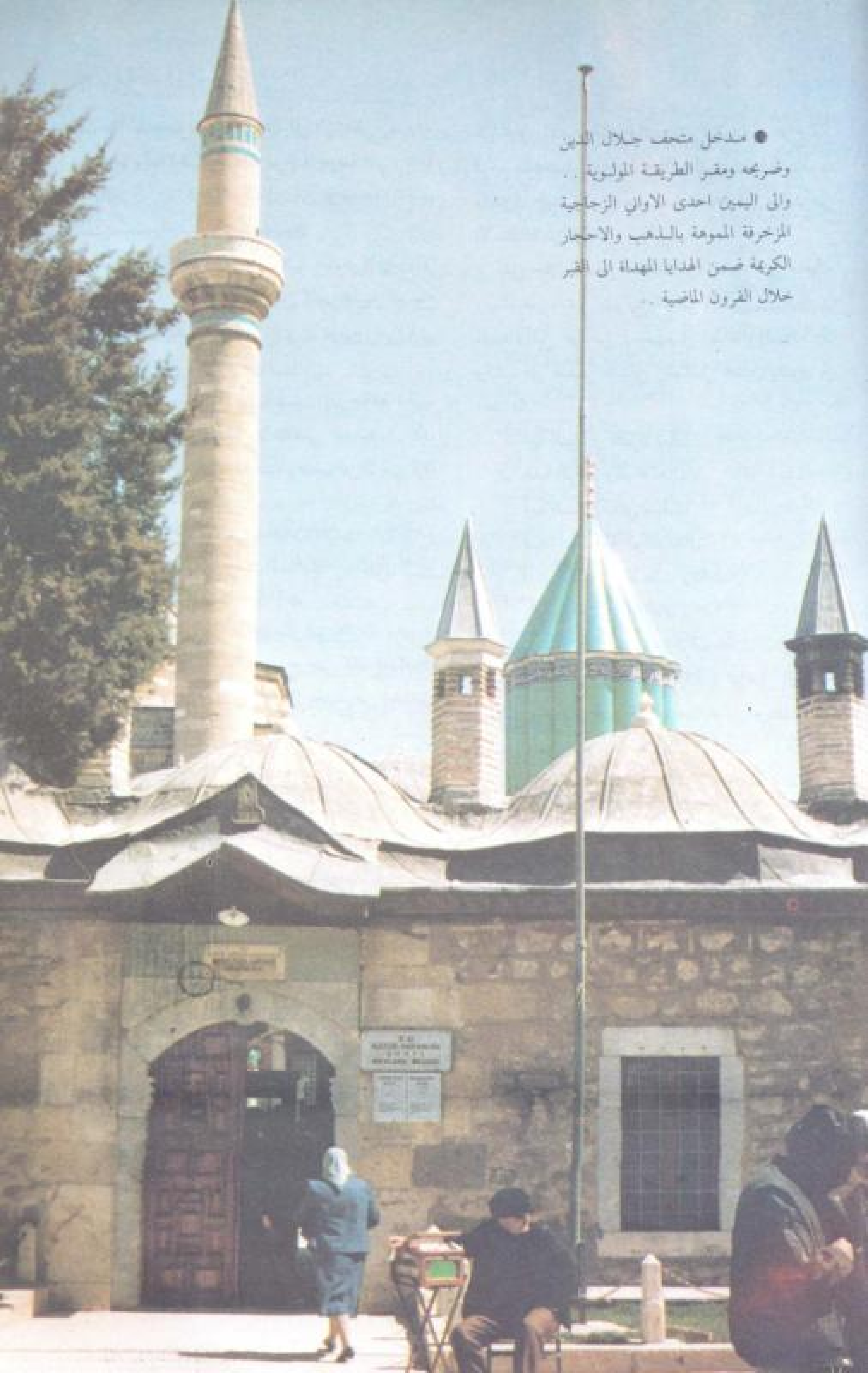
قال جلال الدين : الحب تراث أبينا آدم . . أما الدهاء فهو بضاعة الشيطان .

هز الدرويش رأسه وهو يقول :

ـ الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله . أما المحب فهو يرضي بالتفويض والتسليم . إن العقل







● مدخل متحف جلال الدين وضريحه ومقر الطريقة المولوية .. والى اليمين احدى الاواني الزجاجية المزخرفة المموهة بالذهب والاحجار الكريمة ضمن الهدايا المهداة الى القبر خلال القرون الماضية ..

سباحة قد يصل بها الانسان الى الشاطىء ، وقد يغرق ، وأما الحب فسفينة نوح لاخوف على ركابها من الغرق . ولكن أتعرف إلى من يوجه هذا الحب الذي هو نور الحياة وقيمة الانسان .. ؟

قال جلال الدين : إن الحب خالد لايجدر الا بالخالد .. إنه لايجدر بمن كتب عليه الفناء والأفول .. إنه حق الحي الذي لايموت .. الذي يفيض الحياة على كل موجود .

وأجاب الدرويش : صدقت . إن حكاية الحب لاتنتهي .. وتفنى الدنيا ولا تنقضي عجائبه .. لأن الدنيا لها نهاية وغاية ، والحب وصف من لايفني ولا يموت .

ويتزل جلال الدين من فوق بغلته .. ويحتضن الدرويش .. ثم يمضي به الى غرفته ، حيث أغلق عليهما بابها واعتكفا معا ستة اشهر .

ولايدري أحد سر الأحاديث التي دارت بينهما ، ولكن جلال الدين لم يكد يخرج حتى كان قد امتلأ بروح جديدة ، وانكشف له عالم جديد من الحقائق والآفاق . وفي ذلك قال جلال الدين : « ان شمس التبريزي هو الذي أراني طريق الحقيقة .. وهو الذي أدين له في ايماني ويقيني .. »

« عين الشمس »

خضع جلال الدين لشيخه الجديد خضوعا كاملا ، وانصرف إليه انصرافا تاما ، واشتغل به عن تلاميذه ومريديه . فكبر ذلك عليهم ، وحقدوا على الدخيل الذي صرف عنهم أستاذهم وقالوا : لقد قضينا أعمارنا في خدمة أستاذنا وشاهدنا كراماته ، ومن خلالنا طار ذكره في الآفاق ، ثم يجيء رجل غريب مجهول ويقطعه عنا ويستولي عليه ، فلا يكون لنا سبيل إلى رؤيته ولقائه ، لا شك أن هذا الرجل ساحر أو داهية .

واشتدت عداوة المريدين لشمس الدين وعزموا على إبعاده عن قونية ليخلو لهم وجه أستاذهم . وتحمل شمس الدين كراهيتهم له في صبر وحلم ، فلما تجاوز الأمر الحد وخاف الشر والفتنة ، خرج من قونيه مستخفيا . وحزن جلال الدين لغيبة أستاذه ، واعتزل جميع تلاميذه ومريديه ، فحرموا بذلك من الاستفادة من شيخهم الجليل .

بقي جلال الدين منقطعا عن الناس حتى فاجأته رسالة من دمشق بتوقيع شمس الدين .. فطابت نفسه وأقبل على من لم يسهم في إيذائه وإقصائه .. وكتب الى شمس الدين رسائل حنين يقول في احداها :

ايها النور في الفؤاد تعال ..
غاية الوجد والمراد تعال ..
أيها السابق الذي سبقت
منك مصدوقة الوداد تعال
أنت كالشمس إذ دنت وتناءت
ياقريبا على البعاد تعال !

وهدأت ثائرة الناس ، وعرف جلال الدين أنهم أقلعوا عن عداوة أستاذه وإيذائه ، فارسل إليه ابنه سلطان ولد ينثر تحت قدميه هداياه .. ويطلب منه العفو عمن آذاه وأن يعود الى قونية . وهكذا حدث .. رجع شمس مرة أخرى وطالت مجالسه مع جلال الدين الذي ازداد أجلالا له واتحادا معه . ولكن لم يمض طويل وقت حتى ثارت الفتنة من جديد . وكان لابد لشمس أن يختفي .. وقيل في تفسير ذلك الاختفاء أن تلاميذ الرومي قد قتلوه ..

وخرج جلال الدين الى الشام باحثا عن أستاذه ، وهو لايدري ما حدث له . وحين وصل الى دمشق أشعل قلوب أهلها حبا له وإيمانا بفتاويه . وفي هذه الفترة نظم ديوانا كاملا سماه « ديوان شمس تبريز » ذكرى لصديقه وموجهه الروحي .. وإذ لم يجد أي أثر لأستاذه سكنت نفسه وقال : « لافرق بيني وبين شمس الدين . إن كان هو شمسا فأنا ذرة .. وإن كان هو بحرا فأنا قطرة .. ونور الذرة من الشمس ، وحياة القطرة من البحر .. »

رجع جلال الدين الى قونية مقتنعا أنه « عين

الشمس » ومنذ تلك اللحظة راح ينظم كل معرفته وحكمته شعرا ضمنه كتابه الذي اعتبروه كتابا مقدسا وهو « المثنوي » . . كما نذر نفسه للحب الالهي ، وأنشأ طريقته الصوفية التي عرفت فيما بعد بالطريقة المولوية . . واشتهرت برقصة « السيما » . .

كل العقائد حق

يقول لنا مرافقنا :

لا يستطيع أن يفهم المولوية إلا من يمكنه أن يتمثل كيف تحول الناس في هذه المناطق الى الاسلام . فقد كان الشعب يضم فئات متباينة من الوثنيين والنصارى واليهود ، وكان على جلال الدين الرومي أن يجتذبهم الى الاسلام بأفكاره وشروحه وتفاسيره لفضائل الشريعة الاسلامية وما جاء في القرآن الكريم . . وكان لا بد له في سبيل ذلك أن يجامل النصارى والحاخامات اليهود والوثنيين وأن يعطيهم الأمثلة الرائعة التي تجتذبهم الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وبتقريب الأفكار الاسلامية الى الأذهان .

كانت الأناضول وآسيا الصغرى كلها تحت الحكم المسيحي البيزنطي ، حتى كانت معركة « ملاذ كرد » التي انتصر فيها السلاجقة ، وتوالت بعدها هزائم الدولة البيزنطية ، وبدأ معها انتشار الاسلام على أيدي الأتراك السلاجقة . . ولأجل أن ينتشر الدين الاسلامي كان عليهم أن يدخلوا بفلسفات متفاوتة في الوقت الذي كان للكنائس النصرانية تأثيرها القوي على سكان هذه المناطق . لذلك فعندما جاء الأتراك أنشئوا قرب كل كنيسة « تكية » ، فتباينت طرقها بين « البكتاشية » التي كانت في الأصل إسلامية ثم انحرفت عن مسارها مثلما انحرفت أشياء كثيرة فيما بعد . كان « البكتاشيون » و « المولويون » يدورون بأشعارهم لينشروا الدين الاسلامي في القرى والمدن ويجتذبوا النصارى الذين بدأوا يتجاوبون مع الأفكار الاسلامية والأخوة والمساواة التي يقوم عليها الدين الجديد . .

وكانت فلسفة الرومي تقوم على ما كان يعلنه للجميع « كن ما تكون . . وسواء كنت مسيحيا أو وثنيا أو يهوديا . . فبابنا مفتوح لك . . ليس بابنا باب القنوط وإنما هو باب الايمان » .

وكان يقول : « لو كفرت مائة مرة وأردت أن ترجع الى الله فتعال . . فبابنا مفتوح . . فالله سبحانه من صفاته العفو التواب » .

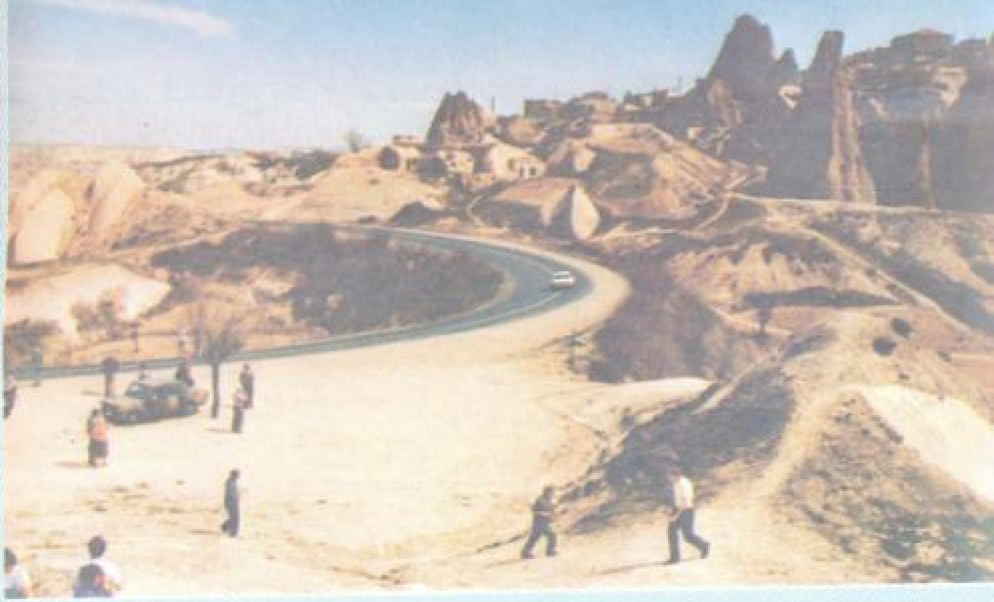
كان جلال الدين الرومي فيلسوفا صوفيا مسلما وكان مذهبه يدعو الى التسامح المطلق . . والحجج والبراهين الايجابية والخير والمحبة والموعظة من خلال الحب . .

وبالنسبة له ولمريديه كانت كل العقائد حقا . وبنفس نظرة الرعاية التي يرى بها المسلمين فإنه يرعى بنفس النظرة المسيحيين واليهود . وكانت تعاليمه السلمية توجه الى كل الناس مهما كانت أجناسهم وألوانهم وعقائدهم . . وكان يقول « إن شغلي هو المحبة . . وبيت الحبيب مفتوح للجميع » . هذه الأفكار كلها كانت ذات عون كبير في دعوة أصحاب العقائد الأخرى لدخول الاسلام . ومن هنا لقي جلال الدين حبا كبيرا من المسلمين ومن أصحاب الديانات الأخرى على السواء . . وقيل أنه لما خرجت جنازته ازدحم عليها أهل البلد ازدحاما كبيرا وشيعها أتباع كل ديانة وهم يبكون . وكان اليهود والنصارى يتلون التوراة والانجيل في الجنازة . وبلغ ذلك حاكم المدينة فقال لقساوستهم ورهبانهم : مالكم ولهذا الأمر وإنها لجنازة عالم مسلم ؟ فقالوا « به عرفنا حقيقة الأنبياء السابقين . . وفيه رأينا مسيرة الأولياء الكاملين » .

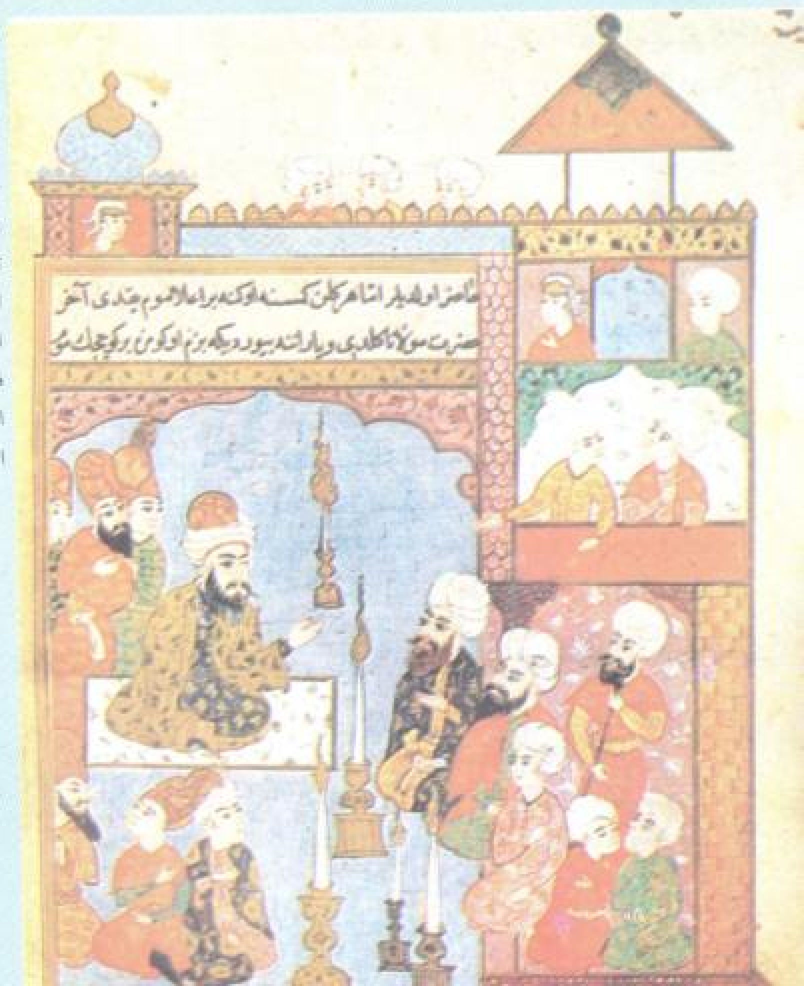
المثنوي

ما تزال نغمات الناي التي تبعث الهدوء في النفس تملأ آذاننا ونحن ما نزال داخل تكية جلال الدين وضريحه الذي تحول الى متحف يضم كل آثار الطريقة المولوية . . وقد أضيفت اليه اضافات جديدة . .

ونتنقل بين القاعات التي تضم إحداها الآلات







● الطريق الى قونية عبر « مداخن الجن » . . (أعلى) . . واحدى اللوحات التي تحكي لقاء جلال الدين مع مريديه في صفحة من كتاب عن تاريخ حياته باللغة التركية (الى اليمين) . . وتبدو فخامة الزخرفة والثريات المتدلية من سقف القاعة الكبرى (الى اليسار) .



الموسيقية التي كانت مستخدمة خلال العصور السلجوقية في الأناضول ، والتي كان يستخدمها المريدون والعازفون المولوية .. بينما هناك قاعة أخرى مخصصة لعرض ملابس مولانا جلال الدين من العباءات المصنوعة من القطن وبعضها من الحرير . أما العمامة فهي بنية اللون يحيط بها شال ملفوف رمادي اللون أو أخضره .. وفي القاعة أيضا تعرض عباءة لشمس التبريزي وأخرى لسلطان ولد ابن جلال الدين مصنوعة من الأطلس الحريري الأخضر .

ثم ندخل قاعة تعرض فيها الآثار المكتوبة لجلال الدين الرومي وأعماله الشعرية ..

ونقف طويلا أمام الكتاب الأصلي المنسوخ بخط اليد المزخرف برسوم مذهبة « للمثنوى » .

ويترجم لنا مرافقنا صفحة الكتاب المفتوحة من وراء الغطاء الزجاجي وهي تحكي حكاية تقول :

« رأيت بالأمس شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشعلا ، كأنه يبحث عن شيء . فقلت له يا سيدي تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعا . وخرجت أبحث عن إنسان عملاق وأسد مغوار بعد أن ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي . فقلت له : ان الذي تبحث عنه ليس يسير المنال .. وقد بحثت عنه طويلا فلم أجده . فقال : انني مغرم بالبحث عمن لا يوجد بسهولة ولا يعثر عليه في الطرقات » .

ونتابع أفكار الرومي من خلال حكاياته وأشعاره التي ترجمها وشرحها الدكتور محمد عبدالسلام كفافي في كتابه « مثنوى جلال الدين الرومي » :

اذا أردنا أن نقسم شعر جلال الدين على أساس مضمونه ، وجدنا أنه ينقسم الى قسمين متميزين ، الأول منهما شعر وجداني فلسفي يتناول معاني الصوفية من حديث عن المحبة الالهية والوجد والنفس الانسانية وأصلها الالهي وحنينها الى ذلك



● جانب من الراقصين والعازفين المولوية أثناء أداء رقصة السما .

الأصل الذي انفصلت عنه ، ولمحات في وحدة الوجود . ولا يكاد يمس الحياة المادية الا ليبين تفاهتها واتضاعها إذا قيست بحياة الروح وما تنطوي عليه من المباهج وما تضمره للانسان من سعادة أبدية قوامها الكمال والخلود .

أما القسم الثاني من شعره فشعر إنساني أخلاقي تناول في جانب كبير منه الانسان . وبين أهميته في هذا الكون ورسم المثل العليا للحياة الانسانية في هذا العالم . وهو في هذا اللون من الشعر معلم أكثر منه فيلسوف ، يترك الرمز في كثير من الأحوال ويستخدم القصص والأمثال لبيان الآراء التي يدعو اليها .

تراث جلال الدين الشعري ينقسم الى ثلاثة أقسام تضمها كتب هي : الديوان الذي سمي بديوان تبريز ، والرباعيات ، والمثنوى .

أما الديوان فيشتمل في أكثره على غزليات صوفية يبلغ عددها نحو ٣٥٠٠ غزلية نظمت في بحور عديدة ، كما يضم أيضا قطعا تركية وعربية ويونانية . وقصائد فارسية . ويبلغ عدد أبياته نحو ٤٣ ألف بيت .

أما الرباعيات فينسب إليه منها ١٦٥٩ رباعية عدد أبياتها ٣٣١٨ .

أما الأثر الثالث .. فهو المثنوى وكلمة المثنوى تعني ذلك النظم الذي يعرف بالمزدوج في العربية ، ويعتمد في التقفية على توحيد القافية بين شطري كل بيت من أبيات المنظومة . فكل بيت من الأبيات تكون له قافيته المستقلة . وبهذا تتحرر المنظومة من القافية الموحدة . وهذا التعدد في القوافي هو الذي مكنه من الانطلاق بشعره الى أبعد مدى .

وينقسم الكتاب الى ستة مجلدات تضم نحو ٢٥ ألف بيت .. ولا تتصل تسمية الكتاب بموضوعه وانما بشكل قوافيه .

الوجود والانسان والحياة

موضوع المثنوى هو الوجود كله بصفة عامة ، والانسان والحياة بصفة خاصة . وكل جزء من الأجزاء الستة يشتمل على أكثر من أربعة آلاف بيت . والمثنوى كله قائم على مجموعة من القصص . ولكن رواية القصص لا تقصد لذاتها وإنما هي لبيان مقاصد فلسفية أو لأهداف تعليمية . فهو يبدأ القصة . فلا يكاد يروي أولى وقائعها حتى يستطرد منها الى التحدث في حكمة هذه الواقعة ، فيذكر الآيات القرآنية ويفسرها ، وقد يذكر الأحاديث النبوية ويظل يبني عليها الآراء والحكم . ثم يعود بعد ذلك الى القصة ليستأنف روايتها ، ويظل يعالجها على هذا النحو حتى ينتهي منها . وقد وجد أن الشاعر عالج في المثنوى ١٢٨١ موضعا . ولكن طريقة المعالجة قد خلت من الترتيب الدقيق . فهو ينتقل من موضوع الى موضوع ومن مقصد الى مقصد دون منهج محدد يتبعه في ذلك الانتقال .. ولكنه في كل ذلك شاعر أصيل نلمس عنده الاحساس الصادق والعاطفة الجياشة والعقل المعلم والنفس الصافية التي تستطيع أن تبث الصفاء في نفوس الآخرين . وتصحبها معها في رفق وأناة في دروب التأمل العميق تعينها على تحقيق حياة أسمى والطموح إلى غايات أعلى وأرحب ..

والحق .. ان جلال الدين لم يكن فيلسوفا فحسب ، وإنما كان حكيما عمليا . لقد تقبل الحياة وتفاعل معها وعدها واقعا لا شك فيه وأوجب العمل فيها .. وهو يقول :

« ان الدنيا تتجدد في كل لحظة ونحن لا نحس بتجددها ، وهي باقية على هيئتها الظاهرة . والعمر وإن بدا مستمرا في الجسد ، فإنه يتجدد في كل لحظة كما يتجدد ماء النهر » .

جهاد لا بطالة

نقول ..

يتصور البعض ان الصوفيين يميلون الى التعطل والرهبانية والتوكل السلبي الذي لجأ اليه بعضهم في السنين الأخيرة حين تحولوا بالصوفية الى أمور كادت تبعدهم عن حقائق الدين في أوامره ونواهيه مما أساء الى صورة الصوفية التي كانت تتميز بها في القديم من طهارة وزهد . الا أن الرومي في صوفيته غير ذلك تماما .. انه يحارب البطالة ويدعو دعوة قوية الى الكدح والجهاد والأخذ بأسباب المعاش.من أمثلة ذلك ما يقوله على لسان الأسد في احدى قصص المثنوى :

« ان الله وهب الانسان الاعضاء والجوارح ، والمواهب والطاقات ، فدل ذلك على أنه يريد منه السعي والجهاد .. كما لو أن سيدا منح عبده فأسا أو معولا . فالظاهر أنه يريد منه أن يحفر الأرض ويشق صخرة سواء نطق بذلك أم لم ينطق . كذلك قال الله لما أعطانا هذه الأيدي العاملة والسواعد القوية والأقدام السائرة أو الطاقات الفتية ، فانه يريد منا بداهة أن نشتغل ونستخدم قوانا ، ونكدح في الحياة ونجاهد فيها ، ونكسب رزقنا بقوة اليمين وعرق الجبين . فالتوكل الصحيح أن لا نقصر في جهدنا ثم نعتمد في نتيجة السعي على الله تعالى .. فالسعي شكر لنعمة القدرة والتبطل كفران لهذه النعمة . والله يقول .. « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . □



من روائع
الإبداع العالمي

جويا.. العابث الثائر..
بين رسم الحسان وفظائع الحرب

بقلم : جمال قطب

اشتهر فنان اسبانيا الكبير جويا بلوحته عن دوقة ألبا الفاتنة التي قيل الكثير عن علاقته بها ، ولكن الفنان الذي عاش حياة خصبة ، ومتناقضة ، مابين سفح الحياة وقمتها ، أبدعت ريشته مجموعات من الأعمال المتنوعة ، عكست واقع مجتمعه وأهلته لأن يعتلي القمم العليا مع عظماء الفن التشكيلي ، ومن أهمها مجموعاته التي جسد فيها مقاومة الشعب الاسباني للغزو الفرنسي عام ١٨٠٨ .

والكاتب يصحبنا في رحلة سريعة وشيقة مع جويا في مباذله ، وابداعاته .



الثاني من مايو عام ١٨٠٨ : مقاومة أهل العاصمة (مدريد)
للغزاة من فرسان القائد الفرنسي (جنرال مورا)
في أعنف الهجمات الوحشية التي شهدتها اسبانيا .

عندما تتضح معالم الشخصية الفنية ، وتتبلور نزعاتها وطابعها المميز في نهاية المشوار الطويل لمسيرة هذا الفنان أو ذاك ، تكون هي محصلة العديد من التجارب والتأثيرات والممارسات الجادة التي واكبت مراحل العمل الابداعي في رحلة الحياة . كالنحلة عندما تجتذبها الزهور من كل نوع ولون ، ترتشف رحيقها ، ثم تفرزه عسلا صافيا من صنعها ، لا أثر فيه لزهرة بعينها دون أخرى .

وهكذا كانت حياة الفنان الاسباني الشهير فرانشسكوجويا ،وهكذا كانت سيرته الخصبة التي احتلت أسمى مكان ، وأرفع منزلة في تاريخ الفن العالمي ، ولقد زخرت بأسباب المعاناة والقلق والعواصف الدرامية الصاخبة ، بقدر ما اكتنفها من عوامل الطيش والعبث والشهرة ، والسرف والترف والبذخ . ولذلك رأينا فنه يخاطب التناقض والمحن بأبعاده الانسانية المتضاربة ، كما يخاطب البصائر والوجدان باحساس وشاعرية مرهفة . . الا أن أهم مايميز ابداعاته الخالدة تلك المواقف الصريحة الواضحة ازاء مجتمعه وانفعالاته وأهدافه ، مهما تنوعت وتناقضت الأمور والأحداث من حوله . ظل جويا مرتبطا بوطنه بأوثق الروابط والمشاعر ، حتى تحت رماح الغزاة الفرنسيين الذين حاربهم بفنه ولوحاته المدوية الصارخة . وهو يتربع على عرش الابداع في قصر الحكم الذي اغتصبه (جوزيف بونابرت) شقيق نابليون ، من فرديناند ملك اسبانيا الشرعي ، بعد أن اجتاحت القوات الفرنسية العاصمة (مدريد) في هجمة أوروبية شرسة .

كان جويا (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨) ابن فلاح بسيط ، نشأ في قرية جبلية فقيرة بمقاطعة (أراجون) . وكان كجميع صبيان القرية يكدح في الحقل منذ شروق الشمس حتى مغربها . ولكنه ولد فنانا منذ نعومة أظفاره . . لاتقع أعين أهل القرية عليه الا وقد أمسك بين أنامله الرقيقة قلما أو حجرا يخط به رسومه على أي سطح أمامه . وكبرت هوايته مع سنوات عمره ، حتى أن رجال الدين وعمدة البلدة كلفوه بزخرفة الستارة الرئيسية لكنيسة القرية ، وهو لم يزل في الثامنة عشرة من عمره .

ومن الغريب أن جويا قد زار مسقط رأسه بعد ذلك بستين عاما ، وبعد أن عمت شهرته آفاق الدنيا ، ووجد أن هذه الستارة لم تبرح مكانها ، وقد أصبحت معلما هاما من معالم القرية .

ومع بداية سن المراهقة وشبابه المبكر ، أرسله أثرياء البلدة الى مدينة (سرقسطة) ليتتلمذ على يد أحد الفنانين المرموقين من رسامي البلاد . . ومنذ ذلك الحين بدأت مرحلته العابثة الماجنة . . كما بدأت طموحاته وتطلعاته نحو القصر الملكي في مدريد . .

كان يرسم بالنهار ويعربد بالليل ، ويصارع الثيران في أيام الآحاد والأعياد ، ويغني ويرقص ، ويستهوي الغانيات ، ويهوى الشجار والمبارزة . . وكان لابد أن يودي به هذا العبث وحياة الاستهتار الى الجريمة ، ثم الى الفرار . . واستقر به المقام في العاصمة التي طالما حلم بها في تطلعاته وطموحاته الجامحة . وكانت شهرته في فنه وفي مغامراته قد ذاعت واستشرت ، فانهالت عليه العروض في المصانع الملكية لتصميم وزخرفة الطنافس والتحف والحلي للقصور والبيوت الحاكمة . . وأظهر جويا نبوغا جعله محط الأنظار من الأفراد والنبلاء . . ومن خلال تلك العلاقات الرفيعة . . توثقت عرى الصداقة بينه وبين شقيق الملك شارل الثالث . . وكانت سمعته المشينة من جراء شططه ومجونه ، قد فاقت شهرته كفنان موهوب لايبارى . . فلم يرض الملك عن جويا ، ورفض كل وساطات رجالات القصر لتعيينه رساما للبلاط . . بل وأنذر شقيقه وولي العهد بأن يبتعد عن صداقة هذا الفنان العربيد . ومن الغريب أن سوء سمعته هذه ، لم تزده الا تألقا في عيون قومه من الأسبان ، فكانت سيدات المجتمع يرتمين عند أقدامه ليرسمهن ، كما تسابق النبلاء الى مرسمه علهم يحظون بصورة لوجوههم

من ابداعه الملهم ! . . . ومات شارل الثالث ، وتولى شقيقه (صديق جويا) العرش تحت اسم شارل الرابع ، فبادر الى تعيين رفيق مغامراته وصديقه الفنان النابغة رساما للبلاط الملكي . حيث بدأت مرحلة جديدة مفعمة بالمشاعر والأحداث في حياة جويا وبلغ الذروة في فنه ، كما بلغ القمة في التحليق من القاع بين السلاطة والتهور والفجور !

وتألق العابث في أجواء الفساد :

وكانت اسبانيا في ذلك الوقت (أواخر القرن الثامن عشر) تعيش عصر الفساد والانحلال ، وقد عاشر جويا شتى طبقاتها : شعبها الذي طحنه الفقر ، وشبابها المحروم ، وفتياتها الضائعات ، وهاهو ذا يخالط أفراد البلاط الاسباني وحاشيته الأرستقراطية الذين يعيشون خلف الأستار والأسوار المحصنة ، وتترسب في ذهن الفنان ووجدانه قسوة الواقع وأطياف المستتر ، صورة قائمة مهينة تثير الاشفاق واليأس والسخرية ! وهنا تأتي مرحلة النضوج الفكري عند الفنان لاستيعاب هذه المؤثرات المتناقضة ، فيرسم لوحاته الملكية وكأنها هجاء لاذع للتفسخ الأرستقراطي والرذيلة المقنعة خلف الأسوار العالية والدروع العاتية !

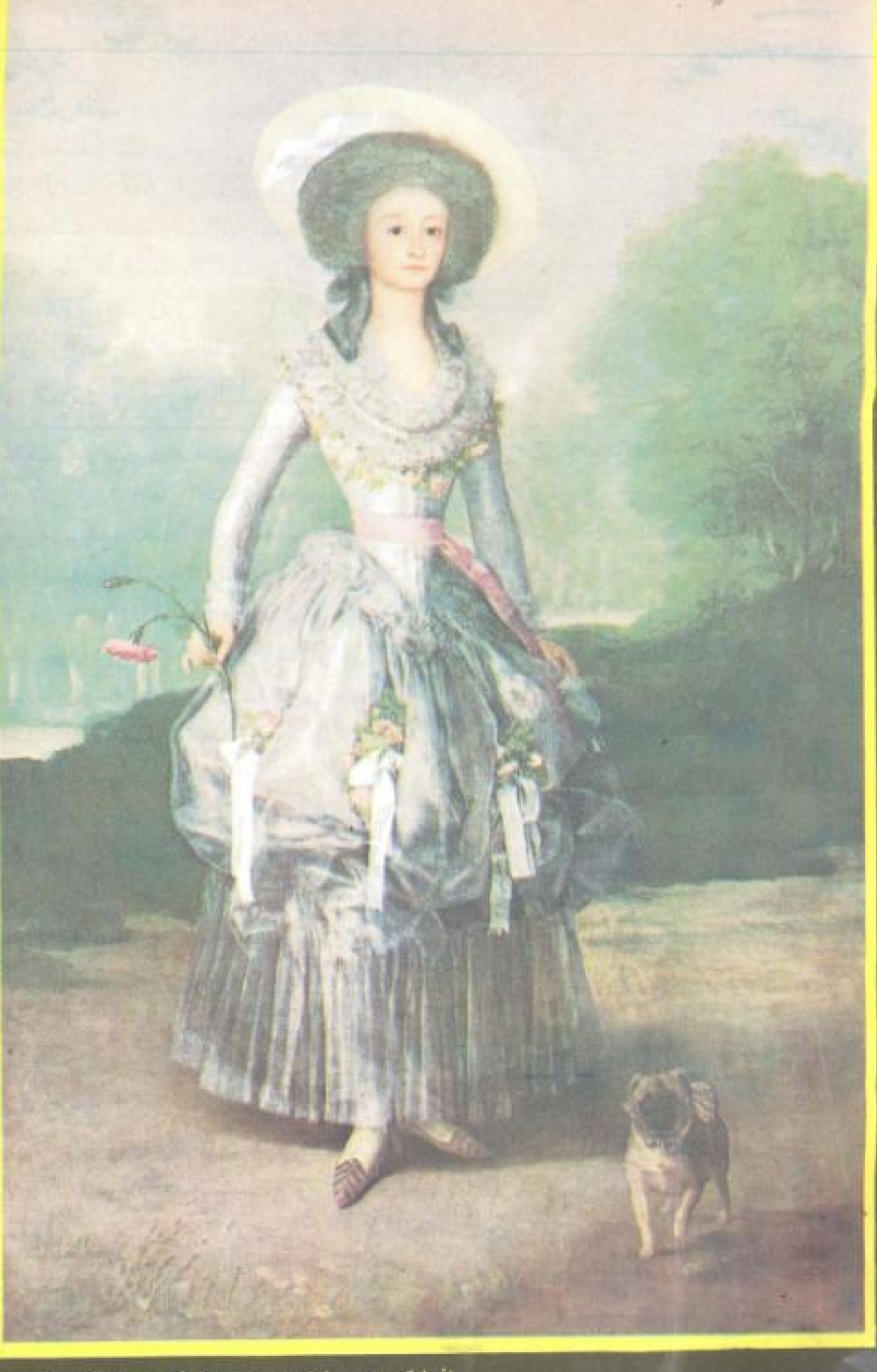
. . وكما يقال : نقيض الشيء منجذب اليه ! فبقدر ماكان يقسو الرسام في هجائه وسخريته من سادته بقدر ماكانوا يغدقون عليه ، ويبذلون له العطاء والتكريم ولاسيما السيدات منهم ، كمن يحاول أن يرشو رفيقه لانه عرف سره وعلم بخباياه ونقائصه . . لعله يسكته أو يأمن جانبه أو يروضه اذا استطاع !

واستبد الغضب بالفنان ، ولعلها صحوة الضمير أو عودة الوعي أو جلاء الواقع المرير ، وكان لابد له من متنفس يصيب فيه فيض شجونه ، وجام سخريته على مجتمعه ، وحتى على نفسه كذلك ، فعكف جويا على مجموعة لوحات حفرها على النحاس ، تعرف

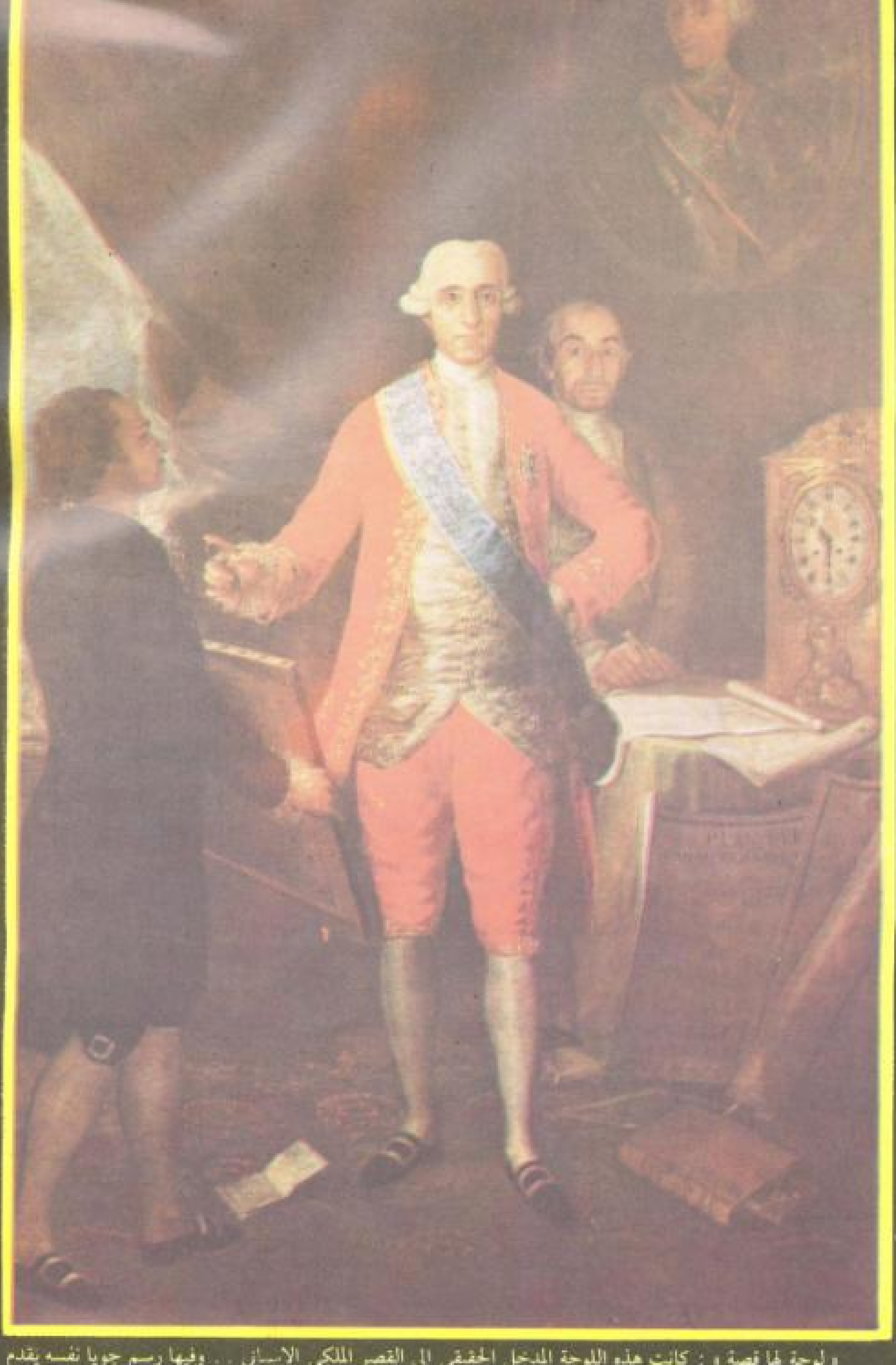


جويا : صورة رسمها لنفسه (ويعتبر جويا على رأس قائمة الفنانين العالميين الذين رسموا أنفسهم في لوحاتهم) .

باسم (النزوات) أو (لوس كابريكوس) كانت من أروع وأصدق ما رسمه فنان عالمي عبر قرون التاريخ ، جسد فيها انحلال المجتمع الاسباني ، مجتمع العبث والمتناقضات والتمزق والشهوات ! وكانت النزعة المأساوية في تلك المجموعة من اللوحات تنطق بالواقع المؤلم ، وتنضح بالمرارة والكآبة . . والمشاهد لأعمال جويا في مراحله السابقة ، في ايام اللهو والطيش والمغامرات المستهترة ، ويرى ابداعاته الحالمة التي تتغنى بفتنة النساء وأجواء المتعة والحياة المترفة ، يكتشف الصحوة المفاجئة لضمير الفنان ، وشفافية وجدانه ، كما يلاحظ جليا تلك الفجوة السحيقة التي تفصل بين مراحله الاولى والتزامه الضميري في نزعاته



الماركيزة .. احدى حسان المجتمع الاسباني الارستقراطي .



« لوحة لها قصة » : كانت هذه اللوحة المدخل الحقيقي الى القصر الملكي الاسباني .. وفيها رسم جويا نفسه يقدم لوحة لرئيس الوزراء (الكونت دي فلوريدا بلانكا) في عهد الملك شارل الثالث .

القادمة ، ويؤكد ذلك ، ماحدث لوطنه في أعوام التحول المصيري ، بدءا من عام ١٨٠٨ .

فظائع الحرب .. والتحول الفكري :

وكما يقول النقاد والباحثون عن فن جويا وآثاره في تاريخ الابداع : انه كان ملحمة من الصراعات النفسية والفكرية المستعرة ، كما أنه قد سبق عصره في لوحاته السيريالية قبل أن تظهر السيريالية بأكثر من مائة عام ، وسبق الرومانتيكية المأساوية التي ظهرت في فرنسا وبشر بها (جرو) ، وقادها (جيريكو) ثم (ديلاكروا) ، بنحو ربع قرن من الزمان !

في عام ١٨٠٨ رسم جويا أشهر لوحاته على الاطلاق ، وهي اللوحات التي رسمها في مجموعة رائعة ، ولأول مرة في تاريخ الابداع العالمي ، ننظر الى لوحات الحرب فنشعر بشعور مأساوي مقزز ، وبجو كريه رهيب ينفرنا من بشاعة القتل وسفك الدماء ! بعكس ما كان متبعا من الفنانين على مدى القرون السابقة ، حيث رأينا في لوحاتهم عن الحروب تمجيدا للمحاربين ، وأطيافا من الفخار والبطولة تتوج هاماتهم ، وتضفي هالة من الاكبار والشاعرية !

ففي ذلك العام ، اقتحم الفرنسيون أرض الوطن في هجوم وحشي ، وعززوه بهجوم شرس آخر لقمع ثورة الشعب الاسباني عقب تنصيب (جوزيف بونابرت) شقيق نابليون على عرش البلاد ، ودارت المجازر الرهيبة بين الغزاة وأهل البلاد ، واستيقظت روح المقاومة والانتماء وحب الوطن في نفس الفنان ، وكانت وسيلته هي لوحاته المعبرة التي تقطر أسى وواقعية درامية مفجعة ! فأخرج مجموعته الاولى « كوارث الحرب » ، ومالبث أن أتبعها بمجموعة أخرى عرفت باسم « فظائع الحرب » ، والزائر لمتحف (البرادو) بمدريد يقف مشدوها امام هذه اللوحات ، ويتنابه شعور غريب من الاحساس بالحقد على الغزاة ، وكراهية الاستبداد والتسلط ،



الطفل الملكي ، لوحة شاعرية رقيقة رسمها جويا في مرحلته الرومانسية الاولى .

والاشمئزاز من العنف والقتل وسفك الدماء ، فهذه الجثث المتراكمة التي صورها جويا في تراجيدية مأساوية تصارع الموت تحت الأقدام الوحشية المدججة بالسلاح ، وهذه الروح النضالية المستعرة التي تقاوم بامكاناتها القليلة الواهنة بالأيدي المعروقة والأجساد العارية .. انها انطلاقة الحياة بأقدام راسخة متشبثة بأرض الوطن .. تنطلق من عقالها في فورة أخيرة وسط ركام الظلم وظلام القهر ، انها غريزة البقاء ، تستعر هائجة في أتون حلبات التسلط وأشباح الموت وصرخات الرعب ورائحة التراب والدماء والدمار !

وكان من الطبيعي أن تنطوي على أكبر قدر من القيمة الفنية وصدق المضمون والأداء ، كما أنها تمثل أوضح صورة من العداء للفرنسيين ، وبالرغم من ذلك .. وهذا هو السر الغامض في حياة جويا ـ فقد ظل الفنان محتفظا بمكانته كرسام للبلاط ، وفي نفس وظيفته داخل القصر الملكي تحت حكم الفرنسيين ! وحتى بعد أن جاء نابليون بنفسه على رأس الجيش لقمع المقاومة الاسبانية والتنكيل بالمقاومين ، ولايقتنع عاقل بأن الفرنسيين قد أبقوا على جويا في مكانه حبا للفن وهم أول من اصطلى بنيران لوحاته المستعرة الصارخة المدوية ، وأصبح الشعب الاسباني في حيرة من أمر فنانه الكبير .. ولم يهتد الى سبب أو تبرير لما حدث .. وصار لدى الناس بكافة طوائفهم ونزعاتهم قناعة كاملة بخيانة جويا والسير في ركاب الغزاة الفرنسيين ، وانتظروا حتى تنقشع غمامة الهجمة الشرسة من سماء مدريد ، ودارت عجلة الزمان ، وسقط نابليون ، وتم جلاء الغزاة عن الأراضي الاسبانية ، وتولى « فرديناند السابع » حكم البلاد .. وجاء وقت القصاص ، وتوقع الجميع أن يثأر الملك من الفنان الخائن ..

واستدعى فرديناند جويا ، وحلت لحظة المواجهة الحاسمة ، وتسمرت أنظار الحاشية على شفاه الملك وقسماته الغاضبة .. وبعد لحظات صمت رهيبة ، قال فرديناند موجها حديثه الى الفنان الذي أطرق في يأس واستكانة : « انك تستحق النفي ، بل الشنق ، ولكنك جويا .. فنان اسبانيا الكبير ، ومن أجل ذلك ، سأنسى كل مافات » !

ولاشك أن فرديناند قد استعاد في مخيلته تلك اللوحات العبقرية التي أبدعها جويا في ايام المقاومة والاحتلال ، وكانت بمثابة الشعلة التي ألهبت روح الصمود والصلابة والكفاح ، ووجد فيها الشفاعة للفنان العظيم ، فغفر له زلة أو هفوة ربما ألمت به وبعزيمته في لحظات ضعف أو يأس يعتري البشر عادة في المسيرة الشاقة المرهقة !

غير أن جويا كان قد برم بحياة القصر في مدريد ، فرحل الى اشبيلية وقضى بها عدة سنوات شغل نفسه فيها بزخرفة كاتدرائيتها الشهيرة ، ثم عاد مرة أخرى الى العاصمة ، منطويا على نفسه ، معتكفا في بيته ، يرسم على جدرانه آخر افرازاته العبقرية وزفراته الحزينة .. صورا ذات طابع متشائم .. ومالبث أن وهنت صحته وضعف بصره ، وسئم الفنان الحياة في بيته ، وفي اسبانيا كلها .. فرحل ـ وهو في سن الثامنة والسبعين ـ الى باريس .

وأخذ يتنقل بين المدن الفرنسية ، وهو يحس بأنه يعيش آخر أيامه ، وانتهى به المطاف في مدينة (بوردو) ، حيث لقي حتفه وقد بلغ الثالثة والثمانين من عمره ..

وهكذا طويت صفحة مهيبة من صفحات الابداع العالمي الرفيع .. بعد أن انطبعت عليها بصمات أحد الأفذاذ من عباقرة التاريخ العظام .. بكل ما انطوت عليه من صنوف الفكر والعطاء والتألق . □

حياة جويا والهاماتها في عالم السينما المعاصرة

من حياة فناننا فرانشيسكو جويا ، وما تزخر به من خصوبة الالهامات والعطاء ، تسابقت شركات الانتاج السينمائي في العشرين سنة الماضية الى انتاج الافلام الروائية الطويلة عن جوانب مثيرة من مسيرة الفنان الابداعية ومغامراته العابثة .. وكان من أهمها ثلاثة أفلام عالمية كبيرة هي حسب ترتيب انتاجها :

* الفيلم الامريكي (مايا العارية) .
* والفيلم الاسباني (جويا) .
* والفيلم الالماني السوفياتي المشترك (جويا : الطريق الشاق الى المعرفة) .
* وكان الفيلم الامريكي ذا طابع تجاري كان التركيز فيه على طابع الاثارة التي تحكي



(ماخا) أو (مايا) واحدة من أشهر لوحاته .. وكم أثير حول صاحبة الصورة من حكايات ومغامرات مع الفنان الكبير .

علاقة جويا بدوقة ألبا ، تلك الفاتنة التي رسمها جويا عدة مرات ، وكان بينهما غرام جارف تحدث عنه كثير من الروائيين والمؤرخين في عصره ، ويحكي الفيلم كيف كان جويا يترك العاصمة (مدريد) وهي تغلي ثائرة في وجه الغزاة الفرنسيين أيام الاحتلال ، ويذهب الى (مايا) في مخدعها ، وفي زيارته الأخيرة لها كانت محمومة ذبل جمالها تحت وطأة المرض ، وقامت لتتزين استعدادا للقائه وهي تتحامل على نفسها ، وما أن وصل الى فراشها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة بين ذراعيه .

* أما الفيلم الاسباني فكانت تدور حوادثه عن علاقة جويا بالدوقة الفاتنة ، ولكنه يتغلغل في حياة الشعب وكفاحه ويستعرض باسهاب جو العاصمة الثائرة ، وفي الجانب الآخر تتلصص الكاميرا لتخترق الجدران وتظهر حياة المجون والتمرق والانحلال الذي عاشته اسبانيا في تلك الفترة التحولية الخطيرة .. وتموت الدوقة الحسناء ، وتشير أصابع الاتهام الى الملكة وتحملها مسؤولية موتها المفاجىء بدافع الغيرة والمؤامرات النسائية التي تدور بين أروقة القصر الملكي .. وتتحول حياة جويا بعد موت حبيبته الى بؤس وضياع .. وينتهي الاحتلال الفرنسي لاسبانيا .. ويحاكم جويا بتهمة الخيانة وصداقته للفرنسيين الغزاة .. وتنتهي المحاكمة بالبراءة ، ولكنه يخشى على حياته من انتقام البلاط ، فيترك اسبانيا كلها ويهاجر الى فرنسا الى أن يموت في مدينة بوردو بعيدا عن وطنه .

* بينما نجد أن الفيلم الالماني السوفياتي المشترك (جويا : الطريق الشاق الى المعرفة) يفسر المعرفة بأنها مسؤولية الفنان تجاه شعبه وتجاه عصره الذي يعيشه .. وهو عن قصة الروائي الألماني الشهير (ليون فاختفانجر) ، ولم يركز الفيلم على العلاقة الغرامية بين جويا والدوقة كما في الروايتين السابقتين ، ولكنه يمثل الحوار الدائم بين سلطة البلاط وحيوية الشعب وكفاحه وحركة الفن الثوري الذي يؤازر القضايا الوطنية والتحول الحضاري □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



• ليلة عرس سودانية

• شعرك المفقود .. هل يعود مرة أخرى؟

ليلة عرس سودانية

بقلم : مبارك الصادق *

« يظل الزواج فرحا حقيقيا ، وترتبط به طقوس وعادات هي نتاج ثقافة لمجتمع وتقاليده ، وعن فرحة الزواج وأحداثه في السودان نطوف بمعالم الطقوس ، ومظاهر الفرح ، ومباهج الزواج هذا الحلم الرائع والفرح المتجدد » .

عبر تفاعلات كثيرة ، طويلة هادئة تشكل المجتمع السوداني المعاصر ، بقبائله المختلفة وثقافته المتعددة في تمايزها وتمازجها .

تبدأ صلة العرب بالسودان منذ أزمان سحيقة ، قبل ظهور الاسلام ، فقد عبر عديد من العرب البحر الأحمر على الرغم من صعوبة الملاحة ، طلبا للكلأ أو التجارة ، وبدأت تتوالى الموجات العربية ، فاختلطوا بالسكان المحليين ، ونشروا الاسلام بعد ظهوره ، فشاعت الثقافة العربية ، وتداخل العرب مع المجتمع المحلي .

وعبر تفاعلات الثقافة العربية وتداخل العرب مع المجتمع المحلي ، وعبر تفاعلات اجتماعية وتاريخية تبلور شكل المجتمع السوداني المعاصر بانتمائه العربي ، وثقافته الاجتماعية التي ساهم انتماؤه العربي في اعادة تشكيلها وصياغتها في سنين طويلة .

ولأن الزواج حدث شديد الخصوصية والعمومية في آن واحد فهو يحمل في مظاهره جذور الثقافة الاجتماعية المتوارثة ، وملامح من تأثر المجتمع بالخارج ، ليصبح في النهاية بهذا المزج حدثا اجتماعيا متفردا .

* كاتب وأديب من القطر السوداني



- رقص . . وفرح . . وإبتسامات على الوجوه في ليلة العمر

وعلى الرغم من غلبة الاسلام والعروبة فانه ما زالت هناك ثمة أقليات تحتفظ بطابعها الخاص ، وبثقافتها الذاتية ، مثل القبائل في جنوب السودان ، والقبائل النيلية الدينكا والنوير والشلك وكذلك القبائل الاستوائية وقبائل الانقسنا .

إن البيئة الاجتماعية لكل المجتمعات قلما تكون متجانسة ، لاسيما في مجتمعات مثل مجتمعات الثقافات المختلفة ، كالسودان مثلا .

وسط السودان :

تمثل المنطقة الوسطى من السودان مركز الثقل الحضاري ، لتعرضها لأكبر قدر من النفوذ العربي ، بسبب كثافة استقرار الجماعات العربية التي هاجرت الى السودان ، مما أدى الى تشكيل هذه المنطقة وانصهارها تماما ، مكونة بذلك الذاتية السودانية المهجين .

وعندما نقول المنطقة الوسطى فإننا نعني المنطقة التي تبدأ من الخرطوم وتمتد الى منطقة الجزيرة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض ، وحتى سهول البطانة شرقا ، والأطراف الشمالية لكردفان .

إن الثقافات السائدة في هذه الرقعة ليست منغلقة تماما ، فهي منفتحة ومتناغمة مع الثقافات الأخرى في المناطق المجاورة ، مما يؤدي الى تواجدها بشكل أو بآخر ، على أن هذه الرقعة التي حددناها تكاد تمثل

التطابق والتوافق الكلي مع التحفظ للاختلاف الذي يمكن أن ينشأ لسبب أو لآخر .

اختيار العروس :

بانتشار التعليم ، ودخول المرأة الى ميادين العمل، وتقهقر المجتمع التقليدي، أصبحت الفتاة موجودة مع الشاب في الجامعة ، وفي مواقع العمل المختلفة ، ولهذا فليس هنالك صعوبة في المشاهدة والمعرفة ، وبالتالي في الاختيار .

وعندما يختار الشاب فتاته - عادة - يتشاور مع أسرته ، لاقرار ذلك الإختيار ، ومتى ما كانت هنالك قناعة ومباركة من الاسرة فان والد الشاب يذهب ليطلب يد الفتاة من أبيها بصفة رسمية ، وغالبا ما يطلب والد الفتاة مهلة حتى يتسنى له مشاورة كافة الأطراف المعنية ، وما لم يكن هناك ثمة اعتراض فإن والد الفتاة يخطر والد الشاب بالموافقة ، لاتمام مراسم الخطوبة الرسمية ، أو الزواج الفوري إن أرادوا ذلك .

الخطوبة :

تتم إجراءات الخطوبة بحضور العريس وأسرته من النساء الى جانب أصدقاء العريس ، وتقدم الهدايا الى العروس ، وهي ما تعارف عليه باسم (قولة خير) أي الموافقة ، وتتكون الهدايا من الثياب والفساتين والأحذية وأدوات الزينة والعطور والحلوى ، وفي حفل مصغر يقوم العريس بإلباس العروس خاتما من الذهب ، يعرف (بالدبلة) ، يلبسه لها في بنصر يدها اليسرى ، وتقوم هي بعد ذلك بإلباسه الخاتم بنفس الطريقة ، وسط زغاريد الأهل ، والعطر العابق ، والفرح الطاغي ، فيما تجتمع النساء كبيرات السن من الأسرتين ليجرين



- على الوجوه يمتزج الفرح بالحياء

المفاوضات لتحديد زمان العرس والتفاهم في المستلزمات .

المهر :

في بعض الزيجات يحدد المهر وتوابعه بعد محادثات بين الأطراف المعنية ، غير أنه في الغالب يترك حجم المهر ومقداره لتقدير العريس وأسرته ، وحتى وقت قريب كان المهر يبدأ بألف جنيه الى ثلاثة آلاف ، إلا أن المتغيرات الجوهرية التي حدثت في خارطة العلاقات الاجتماعية ، والتحولات التي تمت في

البنية الاقتصادية ، ونشوء حركة جديدة مع نمو وبروز المشاريع التنموية التي أدت الى تزايد حركة انسياب المال في أيدي مجموعة من المهنيين والحرفيين ، والعمال المهرة ، قد أدت الى قفزات في بعض الشرائح الاجتماعية إلى أعلى السلم ، هذا فضلا عن الهجرات الكبيرة التي قام بها الشباب الى الأقطار العربية النفطية التي أدت إلى تدفق الأموال في أيدى هؤلاء الشباب بشكل كبير وفي وقت قصير ، مما أفرز بعض الممارسات الغريبة ، وذلك كله قد أدى إلى تظاهر تفاخري ساذج ، وصرف بذخي كاذب ، ودفع الشباب في سبيل إشباع نزعة (الفخفخة) إلى دفع مهور مبالغ فيها .

(الشيلة) :

« الشيلة » هي الأشياء المصاحبة للمهر ، وتتكون من الثياب ، والفساتين ، والأحذية ، والعطور ، والحلي الذهبية ، والمأكولات ، من دقيق ، وأرز ، وزيت ، وخراف ، وما الى ذلك وقد انعكس ما قلناه عن المهر على حجم « الشيلة » كذلك ، فتضخمت ، وترهلت ، حتى أصبح تعداد الأشياء يحسب بالدستة بدلا من القطعة ، وأصبحت الأسر لاترحب الا بالزوج المغترب العائد من أقطار الخليج العربي !

إن الشعور بالحرمان والاحساس بالدونية الناتج عن العوز والحاجة ، والاغتناء السريع الذي حدث لفئة من الطبقة الدنيا ، وهي في الغالب فئة لم تتح لها الظروف فرصا لتلقي العلم ، قد أدى ذلك كله إلى أن تمارس تلك الفئات تصرفات استهلاكية مضحكة ، تفتقر الى الروية والحنكة ، مما تسبب في إفراز ظاهرة سلبية أخرى ، هي عزوف الشباب عن الزواج وعجزهم عنه ، بسبب عدم المقدرة على القيام بتلك التكاليف الباهظة ، حيث ان حلم الفتيات قد قد أصبح يتجسد في الشباب المغترب الذي ينفق ويدفع دونما حساب .

بطاقة الدعوة :

بعد أن يدفع العريس المهر ويرسل كل مستلزمات « الشيلة » إلى أهل العروس ، يقيم حفلا لاستقبال الأهل والاصدقاء والمعارف ، لتقبل التهاني ، ولمشاركته الفرح بهذه المناسبة ، وتختلف طبيعة هذا الحفل حسب الظروف الاجتماعية ، والأحوال الاقتصادية ، والواقع المحلي ، فإما أن يكون ذلك الحفل حفل مرطبات ، تقدم فيه المشروبات الباردة والفواكه والحلوى ، وإما أن يكون حفل عشاء ، تقدم فيه اللحوم والمأكولات .

ومن عادات المجتمع السوداني التكافل الاجتماعي في كل المناسبات ، سواء كان ذلك في الأعراس أو المآتم أو ختان الأطفال ، فإن الأهل والمعارف والأصدقاء يساهمون بالمال مع صاحب المناسبة .

لذا فإن المدعوين يقومون بدفع إسهاماتهم من المبالغ النقدية التي تقل أو تكثر حسب طبيعة العلاقة بين المدعو والعريس أو أسرة العريس ، الا أن بعض الأسر الكبيرة درجت على ألا تأخذ هذه المساهمة ، وكذلك بعض الشباب من المغتربين الذين تعللوا بعدم تواجدهم المستمر ، مما يعني اخفاقهم بالتالي في الاسهام مع الآخرين .

ولقد تعارف الناس على اصطلاح ينبيء عن قبول العريس بالمساهمة أو عدم قبوله بها ، وذلك من خلال صيغة بطاقة الدعوة نفسها التي تحدد المناسبة وزمانها ومكانها ، فمتى ما كتب في نهاية تلك البطاقة (وشكرا) ، فإن هذا يعني ـ ضمنيا ـ أن لامجال بقبول المساهمة ، أما اذا كانت نهاية البطاقة (ودامت

الأفراح) ، أو (ولكم عقبى المسرات) فإن ذلك يعني أن لامانع من المساهمة والمشاركة .

عقد الزواج :

بعد الاتفاق على موعد العقد يتولى والد العروس أو ولي أمرها دعوة أهله ومعارفه ومن يريد دعوتهم للمشاركة بحضور عقد الزواج ، ويحضر وفد صغير من أهل العريس ، وبعد حضور المأذون ، وتقديم المرطبات ، تبدأ اجراءات العقد بسؤال الفتاة عن موافقتها ، وإثبات وكيل العروس ، وتحديد مبلغ (الصداق) ، وما اذا كان مقبوضا كله أو بعضه .

ومن ثم يتم العقد ، وحال اتمامه تدوي طلقات البنادق ، فتعقبها زغاريد النساء اشهارا لذلك ، في حالة عدم وجود بنادق يتم الاشهار من خلال صيحات بالخناجر معروفة ، يطلقها بعض من المتخصصين ، تعرف باسم « الرواري » أو « الكواريك » !!

تجهيز العروس :

قبل فترة من العرس ـ تطول أو تقصر حسب الظروف ـ تكون العروس في حالة (حبس) ، لاتخرج ولا تظهر في أي مجتمع من المجتمعات ، وتكون في تلك الفترة محل العناية والرعاية من أسرتها ، ولا تؤدي أي عمل ، بل تخلد الى الراحة ، والى الطعام الخاص ، حتى تبدو في حالة طيبة عند الزواج ، وكذلك تعد لها زينة خاصة ، يطلق عليها اسم « الكابريت » ، حيث تخضب يديها بالحناء ، وكذلك قدميها ، كما يعد لها حماما ناريا بدخان الطلح ، تجلس عليه ساعات طوالا حتى يعرق جسدها ، ويتخلل الدخان مسام جسدها ، وبعد ذلك يدلك جسدها بعجينة مركبة ، هي (الدلكة) ، وتعطر بعطور مركبة معدة بشكل خاص ، هي (ريحة العرس) ، وهي عبارة عن خلطة شاملة ، من عطور جافة ومحلب وأشياء أخرى ، وإجمالا فإن العروس تبدو في يوم زفافها مجلوة مضوأة ، حتى يذهل من كان يعرفها قبل ذلك .

عادة يتم الزفاف في نفس يوم العقد ، وفي حالات أخرى يتم في وقت لاحق ، حيث يحضر العريس في رهط من أصدقائه ، وبعد حفل الزفاف يأخذ العريس عروسه ، ويذهب بها إما الى منزل الزوجية المعد ، وإما الى (شهر العسل) ، كما درج بعض الشباب الجديد .

صلة القربى :

المجتمع السوداني التقليدي يفضل ـ بصفة دائمة ـ نظام الزواج من الداخل ، حيث تكون الافضلية في الزواج من ابنة العم أو العمة أو الخال أو الخالة وهكذا ، على أن المستجدات والمتغيرات التي نتجت عن العلم والتعلم ، وكذلك عن التطور الاقتصادي قد أضعفت هيمنة هذه الأفكار التي كانت تعتمد على فلسفة « غطي ماعونك » ، وأصبحت هنالك حرية كاملة في الاختيار .

طقوس بعض القبائل :

إن المهر عند قبائل جنوب السودان ـ لاسيما القبائل النيلية ـ دائما يتكون من مجموعة كبيرة من الأبقار ، يدفعها العريس لأسرة العروسة ، وهذه الأبقار ترد في حالة الطلاق أو موت العريس !!

كذلك من الطبيعي أن تقوم العروس بالهرب من منزل الزوجية مع أي شاب من الشباب ، وتختفي

معه ، وهذا دلالة على كونها امرأة مطلوبة ومرغوبا فيها !! ويعثور زوجها عليها يعيدها الى منزل الزوجية ثانية ، وهو عارف لقدرها .

كما أنه في حالة وفاة الأب فإن الابن يرث زوجات والده !!

هذه بطبيعة الحال بعض عادات القبائل الوثنية ، أما من يدينون منهم بالاسلام فإنهم يلتزمون بالتعاليم الاسلامية .

أما قبائل النوبة بجنوب كردفان فالمهر يدفع كذلك من الأبقار الى جانب المال أيضا ، وفي فترة الخطبة يبقى الخطيب بمنزل أسرة خطيبته ، وذلك ليتسنى له معرفة خطيبته ، والتعرف على سلوكها وأخلاقها ، كما أنه يضع نفسه تحت تصرف أهلها ، ليؤدي لهم كل ما يطلبون منه من عمل ، أي أنه يعد نفسه ابنهم المطيع ، وأنه قد أصبح أحد أفراد الأسرة ، فلا غرو إذاً من أن يقوم بكل الاعمال المتصلة بالزراعة أو الرعي ، أو المساعدة في بناء المنزل ، أو بأي عمل آخر فيما تقوم الخطيبة برعاية شئونه ، من غسل للملابس ، وماإلى ذلك .

وكما ذكرنا فإن المهر عند النوبة يدفع الى جانب المال بالبقر والأغنام ، وهنالك بعض الزيجات يتم الزواج فيها عن طريق (البرسو) ، وهو أن يدفع العريس جزءا من المهر ، على أن يمهل في دفع الباقي حتى تنجب عروسه بنات ، وينشأن ويتزوجن ، فيدفع من مهرهن متأخر (البرسو)!

أما في غرب السودان فعلى الرغم من أن طقوس الزواج تتم بشكل عادي ، خطوبة فمهر فعقد فزفاف ، بعد أن يكون العريس قد أولم ودعا كل أصحابه ، إلا أن العريس ـ أو الرجل هناك بشكل عام ـ يتميز بسلطة كبيرة ، فله مطلق السيادة ، اذ هو الآمر الناهي ، وهو المعتبر المبجل ، وليس له أن يشغل نفسه بالعمل ، أو أن يكد أو يشقى ، ولذا فان دفة العمل تديرها المرأة ، وهي المشرفة على كل صغيرة وكبيرة في شئون الأسرة ، وبعد أيام قليلة من الزواج تمارس العروس حياتها العادية ، مثلها مثل الأخريات ، اذ تبدأ باعداد الشاي ، ثم اعداد الافطار للرعاة ، ومن ثم تبدأ في خض اللبن لاستخراج الزبد ، ثم تعمل على جلب الماء ونشله من البئر بواسطة الدلاء ، وبعد ذلك تقوم للفزع لجلب حطب الوقود ، ثم طحن الحبوب ، وإعداد الغذاء ، وغسل الملابس والأواني ، وهكذا . تفعل الزوجة كل ذلك والزوج يلعب (السيجة) تحت ظلال الشجر أو يستلقي على قفاه مرتاحا !!

السيرة :

عادة تصحب العرس ابتهاجات وأفراح وأغان ، تختلف من منطقة الى أخرى ، على أن أشهر الأغاني الطقسية التي تمارس هي ما يعرف (بالسيرة) ، وهي مسيرة العريس من دارهم الى دار العروس ، حيث يشيع بالفرح وأغاني (الفال) ، متمنين أن يغلبها العريس بالمال ، وتغلبه بالعيال !□



شعرك المفقود

هل يعود مرة أخرى ؟

بقلم : الدكتور سامي عزيز

لا ينتهي اهتمام البشر - رجالا ونساء - بشعرهم ، بدءا من علاج التساقط والتقصف وانتهاء بحالات الصلع ، ففي عام واحد بلغ مجموع ما أنفقه الشعب الأمريكي مثلا على علاج الشعر ٥ بلايين دولار ، أي ما يزيد على ميزانية حرب النجوم . ومنذ أعوام قلائل ثار اهتمام ملايين البشر بعقار جديد ، تمّ اكتشافه لعلاج الشعر . فما هي القصة والحقيقة والأسباب ؟

في مارس سنة ١٩٨٣ أعلن المركز الطبي التابع لمستشفى واشنطن عن حاجته إلى متطوعين ، لتجريب عقار « المينوكسيديل » الجديد ، هذا العقار له خاصية تعويض الشعر المتساقط وإطالة الشعر وتحسين مواصفاته .

ذكر المستشار الطبي لشركة « أبجون » - الشركة المصنعة للعقار الجديد - أن ما يقرب من ٢٤٠٠ متطوع قد تم اختيارهم لهذا الغرض . وتشير النتائج الى أن هذا العقار الجديد قد نجح في علاج ٧٥٪ من الحالات ، إلا أن كمية الشعر التي تمت باستخدام هذا العقار لم تكن بنفس الدرجة والجودة . ففي ٢٥٪ من الحالات كانت كمية الشعر الجديدة محدودة ، وأقل غزارة ، وفي ١٨٪ من الحالات اختفت المشكلة تماما ، وبدا الشعر الجديد كأنه متمم لباقي شعر فروة الرأس .

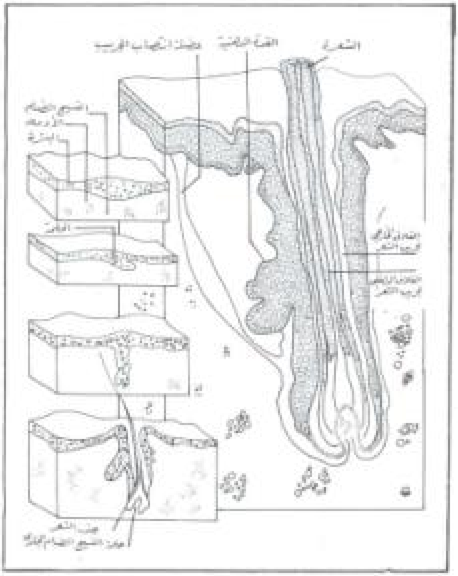
مادة « المينوكسيديل » ليست من المواد حديثة العهد ، إذ أن شركة « أبجون » نفسها سبق أن أخرجتها في صورة أقراص لعلاج ضغط الدم

المرتفع . وبذلك فإن بعض الأطباء يعمدون الى استخدام مادة « المينوكسيديل » موضعيا في بعض حالات الصلع ، على الرغم من عدم موافقة الوكالة الأمريكية للغذاء والدواء على استخدامها بالمفهوم العام حتى الآن ، لكن المناقشة الدائرة الآن عن درجة تركيز هذه المادة في الدهان الموضعي التي قد تتفاوت دون شك - من وصفة الى أخرى ، نظرا لأن النسبة المناسبة للعلاج الموضعي مازالت من الأسرار التي تحتفظ بها شركة « أبجون » حتى تتم الموافقة على تسويق الدهان الجديد

حربنا ضد الصلع :

الانسان في حربه ضد الصلع (التوزيع الطبيعي للشعر* عند الرجال) قد سجل العديد من الاجتهادات منذ القدم ، وعبر العصور المختلفة استخدام آلاف المواد التي قد تبدو عجيبة وغير مستحبة لاستعادة ولو بعض شعيراته المفقودة . فكانت وصفات كالسائل المنوي للثور ، ومخلفات البهائم ، وأحيانا دهن الحمار ، وسلطة المايونيز ، وزيت الزيتون ، وعصير الثوم ، وغيرها من المواد المقبولة وغير المقبولة . لكنها جميعا مع الأسف لم تنجح في حل مشكلته مع الصلع ، تلك المشكلة التي تكلف الشعب الأمريكي وحده أكثر من ٢٠٠ مليون دولار سنويا ، فما بالك بما ينفقه لحل هذه المشكلة على مستوى العالم !

أما تجار أدوية الصلع ومدعو علاجه الذين حققوا أرباحا خيالية - دون شك - من وراء ذلك ، فكثيرا ما كانوا على مر العصور عرضة للمساءلة القانونية ، وأحيانا للعقاب ، ففي أواخر سنة ١٨٨٠ مثلا تم القبض على أحد مدعي علاج الصلع بمدينة (دوس مونيس) ، بعد أن باع دهانا لأحد قضاة المدينة ،



خطوات نمو الشعر والتركيب التشريحي للشعرة . المعروف أن تكوّن الشعر في الجنين يبدأ في الشهر الثالث لوجوده داخل الرحم .

وأوهمه بأنه سيعيد اليه شعره إذا ما استخدمه عدة أسابيع ، لكن العلاج ذا الرائحة الكريهة لم يفد بشيء ، وتبين للقاضي فيما بعد أنه استخدم خليطا من الجير وروث بعض الحيوانات . والعجيب أن التاجر لم ينكر ذلك ، بل أوضح الأمور قائلا : « إن شعر فروة الرأس يشبه محاصيل التربة ، من هنا كان لابد من تسميدها لينمو الشعر » . والواقع أن هذه الرواية ليست أول الروايات ، ولا أعجبها ، إذ على مر العصور ومنذ القدم استخدم الرجل والمرأة على السواء العديد من الخلطات والتركيبات المختلفة ، ليعيدا شعر رأسيهما ، ويعوضا ما سقط منهما . ففي مصر القديمة مثلا تحدثنا البردية الطبية «ايبرس» عن خلطة لعلاج الصلع ، تتكون من دهن الأسد وسيد قشدة والتمساح والأوز والوعل والحية

والماعز . ووصفة أخرى تقول إن مخلب الكلب والتمر ودهن الحمار عند خلطها معا ووضعها يوميا على فروة الرأس تعيد الشعر المتساقط .

أما الطبيب الاغريقي أبقراط (أبو الطب) فاستخدم لعلاج الصلع مرهما به مواد حريفة ، كمزيج الخشخاش وروح الورد والخمر وزيت الزيتون . وأثناء القرن الرابع قبل الميلاد أعلن أرسطو أن حدوث الصلع يرجع الى زيادة في النشاط الجنسي . وعلى الرغم من أن الفيلسوف الاغريقي - الأصلع - لم يحدد بالضبط السبب الحقيقي لحدوث الصلع ، إلا أنه أشار ولو بطريقة غير مباشرة الى هرمونات الذكورة المعروفة الآن بتأثيرها المباشر على نمو الشعر وسقوطه .

في وقت من الأوقات اعتقد الناس أن الرجولة والنشاط والقوة عند الرجل ترتبط بالشعر . يحدثنا العهد القديم عن « شمشون » الذي فقد قوته وجبروته عندما خدعته « دليلة » حبيبته وقصت شعره الطويل أثناء نومه . فكانت نهايته بذهاب شعره . وحتى الآن مازال القضاة الانجليز يرتدون الشعر الأبيض المستعار « باروكة » في المحاكم والاجتماعات الرسمية ، كرمز للقوة والكيان القانوني الذي يمثلونه .

لماذا يحدث الصلع ؟

في سنة ١٩٦٥ أعلن الدكتور « أ . . جيمس » أستاذ التشريح بجامعة هوارد الأمريكية أن حدوث الصلع يرتبط بارتفاع معدلات الذكاء ، وادعى أن نمو المخ في هذه الفئة من الرجال يفوق المعدلات الطبيعية ، مما يؤثر على نمو شعر فروة الرأس في بعض المناطق ، ويعجل بتساقطه ، إلا أن هذه النظرية سرعان ما سقطت ، نظرا لضعف دليلها ، وعدم استنادها على أي برهان علمي .

والثابت علميا الآن أن الصلع عند الرجال أحد الصفات الثانوية التي تميز الذكور (مثل ضخامة الصوت ، وبروز العضلات ، وظهور الشارب واللحية وغيرها) . ولحدوث الصلع يلزم توافر العاملين الآتيين :

(١) توافر العامل الوراثي لحدوث الصلع : مثل وجود الصلع في الخال أو العم .

(٢) توافر هرمونات الذكورة حتى يتم تنفيذ العامل الوراثي . فحدوث الصلع مؤشر من مؤشرات الذكورة مثله كمثل بروز الثديين عند الاناث .

ويهمنا هنا أن نذكر حقيقة علمية ، قد تبدو لبعضنا غير مقبولة ، إذ أن الصلع جائز الحدوث في الأنثى ، كما يحدث في الذكور (تساقط الشعر المرتبط بهرمونات الذكورة) ، والصلع في الأنثى يرتبط أيضا بالأسباب الوراثية والهرمونية (هرمون الذكورة) ، مثله في ذلك مثل الصلع عند الرجال تماما ، إلا أن الصلع في الإناث يحدث بطريقة تدريجية ، ويكون أقل انتشارا منه في الرجال ، وغالبا ما يصيب المنطقة الأمامية من فروة الرأس ، كما لا يتأثر خط الشعر الأمامي في رأس المرأة (في رأس الرجل يؤدي الصلع الى تغير خط الشعر الأمامي ، ليصبح مماثلا لحرف « M » باللغة الانجليزية) . وقد يصاحب ذلك بعض العلامات التي تشير الى زيادة هرمونات الذكورة ، مثل ظهور الشعر في الوجه والجسم ، وضمور الثديين ، واضطرابات الدورة الدموية . وفي هذه الحالات يلزم فحص بعض الهرمونات ، للتأكد من عدم اضطراب بعض الغدد الصماء ، كالغدة النخامية والمبيضين والغدة « الفوق كلوية » .



لوحة توماس رولاندسون التي ترجع الى سنة ١٨١١ . وهي بعنوان « زيت ماكرسون » الزيت الذي اشتهر في ذلك الوقت بإعادة شعر فروة الرأس .

تساقط الشعر له أسباب :

في هذه الحالات يصل عدد الشعرات المتساقطة الى المئات يوميا . أما أهم الأسباب التي تؤدي الى ذلك فهي :-

(١) الضغوط النفسية الشديدة والقلق . وأنسب مثال لذلك تساقط شعر الجنود والمقاتلين العائدين من المعارك الحربية . يؤكد الدكتور « جوليا بيرني » أستاذ الأمراض الجلدية بجامعة « بادوا » بايطاليا أن ٨٧,٥٪ من مرضى تساقط الشعر يعانون من ضغوط نفسية شديدة ، خاصة خلال الستة شهور التي تسبق تساقط الشعر .

(٢) استخدام العقاقير المضادة للسرطان ، أو التعرض للمواد المشعة ، وتناول بعض العقاقير مثل الزرنيخ ، أو مضادات البيتا ، أو مركبات الذهب ، أو الكولشيسين .

(٣) النقص الشديد في تناول البروتينات فترات طويلة ، كما هو الحال في المجاعات .

(٤) بعض الأمراض المزمنة كالزهري ، والزئبة الحمراء ، وهبوط الكبد والكليتين ، والاصابة بالسرطان .

(٥) إصابة فروة الرأس ببعض الفطريات أو الفيروسات ، أو نتيجة تعرضها لبعض المواد الكيماوية .

(٦) نقص إفراز هرمون « الثيروكسين » في الجسم . فمن هنا كانت أهمية تقدير نسبة هذا الهرمون في حالة كل سيدة تعاني من تساقط شعرها .

(٧) بعد العمليات الجراحية الكبرى ، وبعد الولادة في السيدات .

(٨) بعض العادات السيئة قد تؤدي الى تساقط الشعر ، مثل شد الشعر وجذبه بقسوة للخلف ، وكثرة استخدام مجفف الشعر ، وسوء استخدام الصبغات ومشابك الشعر وبكرات لف الشعر وغيرها . وبطبيعة الحال يعتمد مقدار الضرر الناتج عن هذه العوامل على مدة تعرض الشعر لها .

(٩) بعض الأمراض التي تتميز بارتفاع درجة الحرارة قد تتسبب في تساقط الشعر . وتجدر الاشارة هنا الى أن هذه الحالات غالبا ما تتحسن دون أية عقاقير بعد اختفاء الحمى .

شعرك في أرقام

تحتوي فروة الرأس على ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ بصيلة شعر في المتوسط ، أو ١٠٠٠ بصيلة لكل بوصة مربعة من فروة الرأس ، وفي حالة (الشقر)

قد تصل الى ١٤٠,٠٠٠ بصيلة ، لكن الشعر الأشقر عموما يكون أخف وأرق من الشعر الأسود ، ويصل العدد الى ١١٠,٠٠٠ بصيلة في السود أو الزنوج ، أما في الشعر الأحمر فيبلغ نحو ٩٠,٠٠٠ بصيلة .

ويختلف معدل نمو الشعر باختلاف الجنس ، والوضع الهرموني ، والطقس ، لكنه في المتوسط يصل الى ٣٧,٠ مم في اليوم ، أي حوالى (١) سم في الشهر ، أي ثلاثة أمثال معدل نمو الظفر . ومعدل نمو الشعر يكون أسرع لدى المرأة عن الرجل ، كما أن نمو شعر قمة الرأس يفوق في معدلاته الشعر الموجود على المنطقة الصدغية . وعموما ينمو الشعر بدرجة أكبر في الصيف عن الشتاء . كما أن خصلة شعر يمكنها أن تحيا مدة ثلاثة أسابيع بعيدا عن فروة الرأس إذا ما وضعت جذورها في محلول ملحي . وبغض النظر عن الجنس فإن معدل نمو الشعر يصل الى أقصاه في سن ٥٠ الى ٧٠ سنة على الرغم من أن عدد بصيلات الشعر قد يكون أقل مما كان عليه في السن الأصغر . ولا توجد حدود لطول الشعر ، فربما يصل طوله الى قدمين أو ثلاث أقدام ، وربما أطول من ذلك . يؤكد الدكتور (ديشوف) العالم الانجليزي أن شعر المرأة السمراء إذا وصلنا بعضه ببعض سيبلغ طولا يتراوح بين ٧٠ - ٨٠ كيلومترا ، أما الشقراء فإن شعرها يصل الى ١١٠ كيلومترات . كما أن شعر السمراء أكثر مقاومة للشد والضغط من الشقراء .

هذا العلاج قد يصلح

على الرغم من أن الصلع ليس له علاج مؤكد إلا أن بعض الوسائل العلاجية المتوافرة حاليا قد تفيد في بعض الحالات :

(١) يقول الدكتور « نارين » أستاذ الأمراض الجلدية : يمكن في حالات الصلع استخدام هرمون « البروجستيرون » موضعيا ، كما أن هذا العلاج يصلح لعلاج الصلع عند السيدات ، خاصة أثناء فترة اليأس ، فهذه الطريقة أكثر أمانا ، وأقل مضاعفات ، مقارنة باستخدام هرمون « الاستروجين » . ويؤكد الدكتور « نارين » أن سرعة استخدام هذا الهرمون مع بداية تساقط الشعر يحد من تفاقم المشكلة ، ويمنع استمرارها ، إلا أن استخدام هرمون « البروجستيرون » للرجال لا يخلو من المضاعفات الجانبية ، إذ أن هرمون « البروجستيرون » قد يؤدي الى ظهور بعض علامات الأنوثة ، مثله في ذلك مثل هرمون « الاستروجين » .

(٢) يمكن استخدام العديد من العقاقير ذات التأثير المضاد لهرمون الذكورة ، مثل الاستروجين ، أو « التاجمت » (يستخدم أساسا في علاج قرحة المعدة) ، أو عقار « الاسبيرونولاكتون » (يستخدم أساسا كمدر للبول) .

(٣) كما يمكن استخدام بعض البدائل كالشعر المستعار (الباروكة) مثلا ، إلا أن هذه الوسيلة تحتاج الى عناية خاصة ، كما أن استخدامها فترات طويلة غير مستحب ، نظرا للحرارة التي تسببها ، وربما بعض الصداع وعدم الارتياح ، لكن للضرورة أحكام .

(٤) زرع الشعر بالطريق الجراحي ، حيث يتم زرع أقراص صغيرة من الجلد ، دائرية المقطع ، يصل قطرها الى ٤ ملليمترات ، وبها نحو ١٢ - ١٥

شعرة ، وهذه الأقراص يتم زرعها في المكان المناسب ، وبجوار بعضها بعضا ، ويتوقف عدد هذه الأقراص على حجم المنطقة المفتقرة للشعر ، لكن في أغلب الأحيان يتراوح عددها بين ١٠ ـ ٦٠ قرصا . والشعر الأصلي الموجود بهذه الأقراص غالبا ما يسقط خلال أسبوعين بعد زراعته ، لكن الشعر الدائم يبدأ في النمو مرة أخرى بعد أسبوعين تقريبا ، عندما تجد الشعيرات الدموية طريقها الى هذه الأقراص ، فتقوم بتغذيتها ، وحث الشعر الجديد على النمو .

« المينوكسيديل » في الميزان

شركة (ابجون) المنتجة لعقار (المينوكسيديل) ـ موضوع حديثنا في هذا المقال ـ من الشركات الأمريكية العريقة التي أنتجت مئات العقاقير المعروفة عالميا خلال المائة سنة الماضية ، والجدير بالذكر أنه في سنة ١٩٧٩ وافقت الوكالة الأمريكية للغذاء والدواء على تسويق حبوب (لونيتين) المستخدمة في علاج ارتفاع ضغط الدم المحتوية على مادة (المينوكسيديل) ، ذات التأثير الموسع للأوعية الدموية ، لكن نظرا للعديد من المضاعفات الجانبية التي تصاحب استخدام حبوب لونيتين (كالشعور بالدوار والدوخة والألم والغثيان وزيادة عدد ضربات القلب وصعوبة التنفس) ظل استخدامها محدودا في هذا المجال .

لكن كيف يؤثر عقار (المينوكسيديل) على نمو الشعر ؟ وما هي ميكانيكية فعاليته في هذا المجال الجديد ؟

الواقع أن الأبحاث العلمية التي أجريت على حيوانات التجارب لم تتوصل حتى الآن الى حقيقة فعالية عقار « المينوكسيديل » وكيفية تأثيره على نمو الشعر . إلا أن بعض النظريات قد وضعت في هذا الشأن :

(١) يُحدث عقار (المينوكسيديل) توسيعا للأوعية الدموية التي تمد فروة الرأس بالدم ، مما يزيد كمية الدم التي تصل الى بصيلة الشعر . لكن لماذا تفتقر الأدوية الأخرى الموسعة للأوعية الدموية للقدرة على زيادة نمو الشعر ؟

(٢) ربما يُحدث عقار (المينوكسيديل) تأثيرا مباشرا على بصيلة الشعر .

(٣) ربما لعقار (المينوكسيديل) تأثير معاكس لهرمونات الذكورة على بصيلة الشعر .

لكن ما هي عيوب عقار (المينوكسيديل) ؟

الواقع أن عقار (المينوكسيديل) له بعض العيوب التي يلزم أخذها بعين الاعتبار من الآن :

أولا : لا يمكن التنبؤ بفعاليته ، ولذا يلزم تجربته أولا ، ثم التأكد من قدرته .

ثانيا : إنه مرتفع الثمن ، إذ أن استخدامه يكلف ما بين ٨٠٠ الى ١٢٠٠ دولار أمريكي سنويا ، ويجب استخدامه مدى الحياة .

ثالثا : تؤكد التجارب الأولية أنه يفيد في علاج الصلع مبكر الحدوث الذي لم يمض على حدوثه فترة طويلة ، وهو أكثر فعالية في صلع مؤخرة الرأس عن صلع المنطقة الأمامية .

وعلى الرغم من العيوب السابق ذكرها إلا أن عقار (المينوكسيديل) يعتبر من أنسب الحلول المتوافرة حاليا لمشكلة الصلع وتساقط الشعر . ومن يدري ، ربما استطعنا في المستقبل القريب تطوير الأساليب الأخرى ، والاستفادة منها الى أقصى حد □



هو..

هـــوان

عذابي وهواني لاينتهيان ، ودموعي لاتريد أن تجف ، وعقلي أصابه الشلل ، ولا أعرف كيف أتخذ قرارا ، أو أي الأفعال أسلك .

كان بيني وبينه نقاش ، ومع تصاعد الحديث واختلاف وجهات النظر زادت حدتنا ، وكلما ازدادت الحدة غاب العقل ، وافتقدنا المنطق ، وألقى العناد بظلاله على الحديث . ومع العناد يولد الغضب ، وعند الغضب يفقد الانسان كل قدرته على التحكم في ألفاظه وردود الفعل لديه .

لقد تربيت في بيت كان أبي اذا تملكه الغضب اعتزلنا فترة تطول حسب حجم غضبه ومداه ، وأحيانا يغادر البيت ساعة أو ساعتين ، وكان يقول لنا عند الغضب لاتعاتب ولاتحاسب ولاتعاقب ولاتناقش ، ولذلك لم أشهد من غضب الرجال الا صوتا يعلو ، وسرعان ما يلزم أبي نفسه بالصمت ، ويعتزل أو يغادر .

لكني في ذلك اليوم ـ والمحفور في دمي وأعصابي ـ فوجئت أن الغضب انفجر بلقطة سباب مست أهلي ، فانفجر رد فعل لدي في صياح هستيري ، ولم أدر الا ويد تصفعني وركلة ، وانطلق لساني صراخا ، ومع صراخي تطاولت يده أكثر ، و . . و . . وطبق طار في الهواء ، وحذاء أصاب يدي . . و . . (وسقطت في بئر عطن كريه من الاهانة ، ودوامة من المهانة والمقت و . . وغثيان جعلني أتقيأ كل ما في معدتي ، وأخذت أتقيأ . . وأتقيأ .

في الأيام التالية ظلل الصمت المطلق حياتنا ، مع احساس بشرخ داخلي يتزايد ، وعقلي غير قادر على التفكير ، ومئات من الأسئلة لا أعرف لها جوابا . . هل ننفصل ؟ وهل بقي شيء لنا ؟ وهل ظل بيننا ما يمكن أن يتجاوز بنا ما حدث ؟ وهل أستطيع أن أغفر ؟ واذا غفرت هل أستطيع أن أنسى ؟ واذا نسيت فما الضمان بأن لايتكرر هذا مرة ثانية ؟ وكيف أرفع عيني اليه ؟ وكيف أنظر الى وجهه ؟ وكيف أترك اليد التي صفعتني تربت علي ؟ وكيف يضمنا فراش واحد ؟ ونأكل طعاما معا ؟ وماذا أفعل ؟ هل أترك البيت أياما وأنتظر أن يصالحني ؟ ام أخاصمه أياما لا أحادثه كي يشعر بعظم جرمه ؟ أصاب عقلي الشلل ، ولا أعرف أي قرار أتخذ ، ولا أي فعل أسلك ، وسقطت في دوامة عطنة من الهوان والحزن والأسى .

هي



هي ..

مغفرة

الغضب أوله جنون وأخره ندم . . . ، وتجلدني سياط الندم فينزف داخلي ، ويتمزق ، وإحساس طاغ بأنني حيوان بهيمي . كنا نتناقش ذات مساء ، ولأن كل طرف منا تمسك برأيه ، وألح في الدفاع عن وجهة نظره . . عن حق أو باطل فقد صار النقاش عنادا ، أورث غيظا ، والغيظ فرّخ غضبا ، وكأن شيطانا قد تملك روحي ، فانفجر غيظي وغضبي في أبشع صورة يمكن أن ينفجر فيها غضب ، وكلما اشتد صراخها ازداد غيظي ، وتناثر غضبي ، وحطم كل مابقي من آدميتي ، وجعلها أشلاء . مرت ساعة لم أدر كيف دار الزمن فيها ، ولا كيف تحولت المشاعر ، ولا كيف انفجر الغضب فصار جنونا دمويا مدمرا ، ثم فجأة ينتهي الى فيض من الندم والشفقة عليها وهي تتقيأ وتتألم ، والدمع يبلل وجهها ، وتنتفض كفرخ مذعور ذبحت أمه أمامه .

لم أقو على أن أطيب خاطرها ، فلم تواتني المقدرة بأن أعتذر ، لأن أي اعتذار لايمكن أن يعادل جرم ما فعلت ، ولاتوجد كلمات ولا أفعال تصحح ما اقترفت ـ كانت لحظة شيطانية ، فقدت فيها العقل والادراك والوعي والارادة . وتعذبت فيها أكثر من عذابها ، وهي لا يمكن أن تتصور الاحساس المر بكراهيتي لنفسي ، واحتقاري لذاتي ، وحزني على كل الأشياء الرائعة والانسانية التي هدمتها في لحظة جنون .



لكن عزائي أنني في أعمق مشاعري أحمل لها ودا وحبا واحتراما . ان هذا الجنون كان ساعة في عمر علاقة ، تقابلها ساعات أخرى كثيرة رائعة جميلة حنونة ، ان مابيننا يستحق أن نتحمل كثيرا من أجله ، وأن نحاول مرة أخرى أن ننسج ونبني ، فان الخبرات الانسانية تراكم من الصواب والخطأ . ولعلنا قد عرفنا أفدح وأمر ما في تجربة زواج ، وعلينا أن نتجاوزها بالمغفرة والحنان ، لكي لانعود مرة أخرى ابدا الى هذا الجنون ، وليغفر كل منا لنفسه أولا ، ثم ليغفر للآخر ، ثم لنبدأ من جديد بالتراحم ، لكن كيف تكون الخطوة الأولى ؟ وهل تقبل هي ؟ وهل تقدر ؟ وهل ترضى ؟ انها حتى الآن ملتزمة بالصمت ، ومهما كان رد فعلها فأنا لا ألومها ، فأنا أستحق أكثر ، لكنني أتعذب مثلها بالندم وكراهية النفس . أريد أن أبكي وأصرخ ، أريد مغفرتك فهل تفعلين ؟

هو



طبيب الأسرة

دكتور حسن فريد أبو غزالة

قضايا منزلية

حمّى الأرانب

مرض حديث العهد عند الأطباء ، إذ يعود اكتشافه إلى عام ١٩١٢ ، عندما اكتشف طبيب أمريكي اسمه شارل تشابين ميكروبا في القوارض التي تعيش في أحراش كاليفورنيا ، قريب الشبه بميكروب الطاعون ، وسماه ميكروب توليرنز ، واشتق له اسما من كلمة تولير ومعناها الأحراش .

وعقب اكتشاف الدكتور تشابين للميكروب الذي ثبت انتشاره بين عدد كبير من الحيوانات حتى وصل إلى الانسان في كثير من بلدان العالم ، وأهمها أميركا الشمالية ، والقارة الأوروبية ، والاتحاد السوفيتي ، واليابان ، أطلق عليه طبيب أميركي يدعونه ادوارد فرانسيس اسم « مرض تو لاريميا » نسبة إلى أرض الأحراش أو نسبة إلى كلمة « تولير » .

لهذا يجوز أن يقال عنه انه مرض الأحراش ، غير أنه يعرف عالميا باسم « حمى الأرانب » ، لأن تسعين بالمائة من العدوى التي تصل إلى الإنسان من الأرانب البرية التي يصطادها ويسلخ جلدها ويأكلها .

وعلى أي حال فالميكروب صغير ويمت بصلة قرابة إلى ميكروب الطاعون ، ويتوطن في أجسام الحيوانات البرية والقوارض والأرانب والخيول والغزلان ، والحشرات كالذباب الماص للدماء والبعوض والقراد .

كشف طبيب ياباني يدعى (أوهارا) في عام ١٩٣٠ هذا الميكروب وأطلق عليه اسما يابانيا هو (باتوبيو) ، لهذا فاليابانيون يسمون حمى الأرانب أو التولاريميا باسم مرض أوهارا .

أحد ضحايا هذا المرض الإنسان ، لكنه لا ينقله إلى إنسان آخر ، كما أن نسبة الوفاة فيه منخفضة ، أو ربما نادرة إذا ما عولج في الوقت المناسب .

غالبا يصل هذا الميكروب إلى جسم ضحيته من البشر عن طريق واحد من الأساليب التالية :

(١) عبر الجلد أثناء سلخ الأرانب المريضة ، أو حين طهيها ، أو أكلها قبل النضج الكامل .

(٢) لدغة حشرة ماصة للدم كالذباب الماص للدماء أو البراغيث أو القمل أو القراد إذا ما اختلط

بالحيوانات البرية المصابة .

(٣) شرب الماء الملوث ، حيث ان القوارض المصابة إذا ما وردت الماء قد تموت هناك ، وتلوث المياه ، فيعيش فيها الميكروب مدة طويلة .

غير أن المصدر الأساسي لعدوى الانسان هو كما قلنا الأرانب البرية .

ولأن الميكروب صغير جدا اختلط الأمر على مكتشفيه ، فظنه بعضهم من أشكال المكورات ، فيما ظنه آخرون من أشكال العصيات لكنه على أي حال ميكروب عنيد ، مقاوم ، معمر ، وقد يعيش مدة تصل إلى شهور أو سنوات .

ولما كانت له قدرة على أن يعشش داخل الخلية الحية في جسم الإنسان فهو قلما يتواجد في الدم ، ومن هنا فإنه يؤدي إلى مناعة أبدية عقب العدوى الأولى ، مما يصعب معه إمكانية العدوى مرة ثانية .

مدة حضانة المرض وهي المدة التي تمضي بين غزو الميكروب للجسم وظهور الأعراض على ضحيته ، تتراوح بين يوم واحد فقط وعشرة أيام ، والصور المرضية للمرض متفاوتة مختلفة ، تتفق وطريق العدوى ، لهذا فقد نجد من المرض صورا شتى منها :

١ ـ التولاريميا الجلدية وتأتي من لسع حشرة مصابة ، تؤدي الى ظهور حوصلة في موضع اللسعة تؤدي الى تقرح يندمل بعد ذلك ويتحول إلى ندبة .

ويصاحب هذا تضخم في العقد اللمفاوية التي تؤدي إليها منطقة اللسع ، مع ألم ، وربما تقرح أيضا ، ثم حمى تنتاب المريض مع قشعريرة وشعور بالاجهاد والتعب .

٢ ـ التولاريميا البصرية حيث تصاب العين إذا كان دخول الميكروب عبر ملتحمة العين ، كأن تتطاير الميكروبات مع الغبار في الهواء ، وفي هذه الحال غالبا ما تصاب عين واحدة ، دون العين الأخرى ، ويعاني المريض من الحكة والادماع وزغللة الضوء والألم ، كما تتورم الجفون ، وتتراكم الإفرازات ، بل قد تتقرح العين وتعمى .

ويحدث تضخم وألم في العقد اللمفاوية للرأس والرقبة .

٣ ـ التولاريميا الهضمية ، وتحدث إذا ما إلتهم الانسان لحم حيوان مصاب ، أو شرب ماء ملوثا ، وتظهر الأعراض على هيئة تقرحات والتهابات في الحلق ومؤخرة الفم .

ويحدث الم في البطن وإسهال وقيء ، ويصاحب ذلك تضخم في العقد اللمفاوية لمنطقة الاصابة أيضا .

٤ ـ التولاريميا التيفوئيدية وهي صورة من مرض التولاريميا ، تشبه صورة مرض التيفوئيد ، أو التسمم الدموي ، وتعزى هذه الصورة إلى دخول الميكروب عن طريق الاستنشاق .

وهذه الصورة المرضية شديدة الوقع ، تفاجيء الضحية على هيئة حمى شديدة ، مع قشعريرة وألم عام شديد في العضلات ، وألم أكثر شدة في المفاصل ، يصاحبها عرق غزير .

٥ ـ التولاريميا الرئوية وهي أيضا تحدث نتيجة استنشاق الميكروب ، ومظاهرها على هيئة ضيق في التنفس ، وغثيان ، وألم في الصدر ، مع حمى وقشعريرة ، مما يجعل مظاهرها تختلط مع مظاهر الالتهاب الرئوي .

ومن الطبيعي أن تتضخم العقد اللمفاوية في منطقة الصدر وما حوله ، وربما تتقرح .

قد تكون حمى الأرانب مسالمة ، محدودة الضحايا ، إلا أنها واسعة الانتشار أكثر مما نتوهم ، إذ يقدر أن ٢٣ بالمائة من سكان السويد مصابون بهذه

الحمى ، لكن دون شكوى ، لأن عدواهم خفيفة لا تخلف أعراضا واضحة مميزة .

غير أن بعض صور حمى الأرانب قد تكون شديدة قاتلة ، كما هو الحال مع الصورة الرئوية التي يتجاوز ضحاياها ٦٠٪ ، كما يتجاوز ضحايا الصور التيفوئيدية ٢٠٪ تقريبا . .

بيد أن العلاج ممكن لحمى الأرانب ، لكنها حمى طويلة الأمد ، ومضنية ، والأولى الوقاية منها ، وذلك بالبعد عن الحيوانات البرية بصفة عامة ، لأن عدوى التولاريميا تصيب أغلب الحيوانات البرية ، وليست مقصورة على الأرانب كما توهم الأطباء فيما مضى ، بل قد تنقلها الحشرات العديدة من ذباب وقمل وبراغيث وقراد ، كما أن هناك احتمال تلوث المياه ، مما يحدث ، ومما يموت فيها من حيوانات ، أو يتساقط فيها من حشرات . □

ردود سريعة

* السيد محمود حسن عيد / عمان / الأردن :

ان رأي الدكتور وهام يستند الى تجربة شخصية ، لاتستند الى دليل علمي ثابت ، ولم تؤكدها الأوساط العلمية المتخصصة ، الأمر الذي لايصح معه أن يعتمد عليها بصورة حقيقية مطلقة لاتقبل الجدل .

أما سرطان الدم فسؤالك فيه غير محدد المعالم ، وبالتالي فان الاجابة عليه تحتاج تخصيص صفحات عديدة لامكان لها في باب طبيب الأسرة ، وربما استطعنا أن نجيبك عليه تفصيلا في مقال مستقل .

* السيد / كمال الدين محمود / مصر :

ـ التهاب البروستاتا قد ينشأ عن نوع من الميكروبات المحددة ، كالميكروبات التي تسبب مرض الزهري مثلا ، أو من ميكروبات غير محددة الهوية . أما التضخم دون التهاب فالأغلب أن يحدث عند كبار السن . والعلاج في هذه الحال يعتمد على اكتشاف السبب ، واستزراع الميكروبات ، والكشف عن حساسيتها للمضادات الحيوية ، اذ أن بعضها قد يكتسب مناعة ضد بعض العقاقير ، فلا تفيد في العلاج الا العقاقير التي لم تكتسب الميكروبات مناعة ضدها .

* السيد حسن سليم / محافظة ادلب / سوريا .

ـ القشرة دون أي مضاعفات ليست مرضا دائما ، بل قد تكون نتيجة افراز غزير للدهنيات من الغدد الدهنية ، تخرج الى سطح الجلد ، فتجف ، وتصبح على هيئة قشور .

وهذه من الأمور التي يتفاوت فيها الناس ، فما بين جلد جاف الى جلد دهني ، ولاحيلة لك الا بكثرة الاستحمام ، واستشارة طبيب اختصاصي في الأمراض الجلدية ، ليصف أفضل ما يناسبك من صابون أو (شامبو) .

ونصيحتنا لك أن تبدأ باستعمال السيتافلون كخطوة أولى للخلاص من القشرة مؤقتا ، الى أن تهتدي الى (شامبو) مناسب .

* السيد / الصادق عوض حسن / السودان :

ـ نحن نشاركك التساؤل عن كيفية معرفة الانسان العادي لضعف ضربات قلبه مادام غير طبيب !

وردا على سؤالك حول الشاي نقول بأنه يحوي مادتين رئيسيتين هما الكافيين ـ مادة منبهة ـ وحامض التنيك أو العفص ـ مادة قابضة ـ كثرتها تسبب الامساك . لهذا ننصح الاعتدال في شربه دون افراط .

مساحة ود...

لم يعد في القلب مكان

يلملم العام أيامه الباقية ، ليمر عام قاس شديد القسوة ، حزين كالعلقم مؤلم كالطعنة . . . مبك كاليتم . . . . .

كان عامنا الذي مضت منه عشرة أشهر حافلا في أحداثه العامة . . . زاخرا بمزيد من التدهور . . . وعلى مستواه الخاص كان سخيا في إيلامنا وعذاباتنا .

بعد ستين يوما سيرحل العام . . ولن يكون معنا فيه أصدقاء ورفاق . . لقد اختطفهم الموت غدرا . . أو اغتالتهم الرصاصات كراهة .

عن الأحبة الذين رحلوا . . أكتب . . عن نبيل السلمي وناجي العلي . . الاثنان الأكثر تمايزا وتطورا ووعيا بين رسامي الكاريكاتير العرب ، والاثنان الأكثر حدة وتكثيفا للفكرة السياسية في الكاريكاتير . . والاثنان اللذان ملأ حياتنا دفئا وثراءً بفنهما الرفيع ، وانسانيتهما النادرة . . وطفولتهما النقية . . . ثم ملأ حياتنا حزنا . . . وأسى ولوعة لفقدهما .

في فجر ليلة صيف رحل نبيل السلمي وهو مستغرق في نومه كطفل . . وكما كان طيفا رقيقا في حياته ، رحل كطيف وتعذب القلب وفاض بالحزن واللوعة . . . وفي أمسية صيف طالت رصاصات الكراهية ناجي العلي . . وكما كان في رسوماته صارخاً رافضا كانت إصابته ثم موته صرخة إدانة لهذا العنف العربي . . وهذا القتل العربي . . . ولهذه الرصاصات المصوبة إلى الجبهة الخطأ .

ويطاردنا الموت ليختطف الذين نحبهم . . . الذين حلمنا معا . . . وسمرنا معا . . واتفقنا معا . . واختلفنا معا . . ويختفي من عالمنا هؤلاء الذين أحاطونا بدفئهم الانساني . . وصداقتهم الحميمة . . ليصبح عذابنا ضعفين نحن الذين ارتبطنا بهم بعلاقات انسانية . . فنحن ـ كالقراء ـ نفتقد زواياهم . . ونحنّ لها . . وكبشر نتعذب بفقد الأصدقاء . . الذين حملتنا معاً الأحلام والأيام . . .

يلملم العام أيامه . . حزين كالعلقم . . . مؤلم كالطعنة . .

ويا أيها الموت الغادر كفى ، فلم يعد في القلب مكان يتسع لحزن جديد . . . .

فعذابنا بفقد الصديقين ندي طريّ . . . موجع . .

وبكاؤنا كبكاء اليتيم ساخن مستمر . . . . □

محمود عبدالوهاب

جمال العربية

لغة

بقلم : محمد خليفة التونسي

بين نحو الدلالة ونحو الإعراب

لكل لغة (أولهجة) انظمتها الصوتية والصرفية والنحوية المميزة لها وان شاركتها غيرها في بعض التفاصيل ، ولا غنى لمن يريد ان يتعلم أي لغة من تعلم هذه الأنظمة الثلاثة الى جانب تعلم معجمها ، مالم يكن قد نشأ عليها وتمرس بها حتى صارت سليقة له ، أي عادة راسخة المعالم في فكره ولسانه .

والانسان الناضج السليم مخارج النطق لا يخطىء في لغته التى نشأ عليها حتى تمكن منها وتمكنت منه ، وان كان يتصرف مع قواعدها على أكثر من وجه بحسب ما يخالجه من المعاني تبعا لاختلاف مقام الكلام ، بحيث يؤدى ما في ذهنه من هذه المعاني على الصورة الكلامية الدقيقة الواضحة كما تتراءى له ، وهو في هذا التصرف لا يخل بالدستور العام للغته أو منطقها وروحها السارية فيها ، أو يزعزع من أركانها الأساسية ، ولكنه مع حاجته الى التصرف في بعض جوانبها ـ مضطر الى ان يسك كلمات وتراكيب جديدة ، أو يضمّن ألفاظها القديمة معاني وصورا جديدة ، وهذه المستحدثات من الكلمات والتراكيب هى مظاهر تطور اللغة أو نموها وتوسعها أو مرونتها.

وهذا الاختلاف بين الجديد والقديم هو ما يسميه اللغويون الغربيون « كسر البناء » وكسر البناء شائع في صرف كل لغة ونحوها ، وهذه الظاهرة اللغوية هى ما يسميه نحاتنا « الشذوذ » وهذه كلمة مقبولة وافية الاداء لمعناها ، وهو الخروج عن المألوف أو الشائع ، ولكنها أخذت عند علمائنا ثم جماهيرنا محاكاة لهم ـ صورة كريهة مقيتة . وكسر البناء أو هذا الخلاف عند الغربيين من البلغاء وتوابع اللغويين لا يأخذ هذه الصورة ، ولذلك يلقى عندهم القبول بل التقدير ، لما فيه من تنمية اللغة ، وإمدادها بالقوالب التى تساعدها على اداء وظائفها في التعبير ، كما ان هذا الخلاف عندهم بين المألوف وغير المألوف في مفردات اللغة وتراكيبها أشبه ما يكون بما يحدث بين من يستعمل يمناه في التناول ـ وهذا هو الشائع أو الغالب في الناس ـ وبين من يستعمل يسراه أو يستعمل يسراه ويمناه معا ، وكلا هذين قليل أو نادر ، ولا عيب فيه ولا قصور ، مع قلته أو ندرته أو شذوذه أو اختلافه عن الاستعمال العام .

ومواد أى لغة وانظمتها تتمثل في نصوصها المأثورة المتجددة .

ثم يأتى الباحثون فيها فيسجلون ملاحظاتهم على معجمها ، وعلى أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية ، ولكل واحد من هذه المجالات اللغوية الأربعة وجهته ومنهجه ، وله علماؤه . فنصوص اللغة هى الأصل ، وهى قائمة قبل البحث في اسرارها ، وهذا البحث أو البحوث في مجالاتها المختلفة هى مجموع ملاحظات تتكون منها علومها ،

وهذه العلوم تصيب وتخطىء ، ولكل مجتهد حظه من الاصابة والخطأ بمقدار ما له من قدرة على النظر ودقته والتوسع في مجاله ، ثم التوفيق فيه ، سواء في علوم اللغة أو غيرها من العلوم ، وان كان لابد لعالم اللغة من بعض القدرة على تذوق آدابها،مثله في هذه الكفاية مثل الباحثين في سائر الفنون ، لأن آداب اللغة أو نصوصها الأدبية هي مظهر ما فيها من قوة الحيوية .

ونحو كل لغة أو أجروميتها انما يبحث في تراكيبها أو تواليفها أو جملها فيبين علاقة كل كلمة بجاراتها المذكورة وغير المذكورة ، ووظيفتها التي تدل عليها حين تتآلف مع غيرها في جملة ، كما يبين علاقة كل جملة بجاراتها ان كانت لها علاقة بغيرها في أي عبارة . تستوي في ذلك اللغات ذوات الاعراب واللغات الخالية منه ، وان كان الاعراب في اللغات المعربة عونا على بيان وظيفة الكلمة المعربة لأن الاعراب من القرائن النحوية الدالة وليس كلها . فكل لغة لها نحو دلالة لوجود القرائن بين مفرداتها في الكلام ، وقد يكون لها كذلك نحو اعراب كلغتنا العربية أو لا يكون لها اعراب كما في معظم اللغات وفي لهجاتنا الدارجة .

وللغتنا نحوها ، وعلم النحو فيها ـ كما انتهى الينا في المطولات والمختصرات وكما شاع بيننا حتى تسلط على أفكارنا وحجر عليها ـ كان ولم يزل يعد من أعقد مشاكلها الكبرى ، وان أجمع الأسباب لهذه المشاكل المعقدة هو انه نحو اعراب ، وليس «نحو دلالة» أو هو قليل الحظ من نحو الدلالة » . وكان على النحاة ان يدرسوا ـ كبعض أوائلهم ـ نحو الاعراب بجانب نحو الدلالة ، لأن الاعراب جانب من الدلالة ، وقد فطن الى هذا من قالوا منهم « ان الاعراب فرع المعنى » وهكذا سار بعض روادهم حين بدءوا علم النحو فمضوا يتحسسون أو يتلمسون في تراكيب الكلام العربي الفصيح وفي مقدمته القرآن الكريم علاقات الكلمات والجمل بعضها ببعض فيه ، ودلالات هذه العلاقات مع ما يترتب على بعضها من اعراب بعض الكلمات رفعا أو نصبا أو جزما أو جرا ، أو هذا ما تجده عند الخليل في الكتاب لسيبويه والفراء في كتابه « معاني القرآن » ولكن خلف من بعدهم خلف لم يتمسكوا بهذا المنهج السليم . في اتمام قواعد النحو وتصحيحها ، بل تمسكوا جاهدين بالفرع ، وهو الاعراب واهملوا الأصل وهو المعنى المستفاد من العلاقات ودلالاتها ، أو هم لم يلتفتوا إليه إلا على هامش الاعراب،ولذلك كانت كل عنايتهم أو جلها متجهة الى ما يسمونها الكلمات المعربة وما يطرأ عليها خلال التركيبات المختلفة من رفع ونصب وجر وجزم فقسموا أبواب النحو بين ما يرفع وما ينصب وما يجر وما يجزم ، وتوهموا ان لهذه الآثار الاعرابية عوامل لفظية أو معنوية أدت اليها كما تؤدي الأسباب الطبيعية الى نتائجها حتما ، ومن هنا توهموا نظرية العامل أو العوامل في الاعراب ، ليعللوا بها ظواهره التي تطرأ عليها ، كأن هذه العوامل ذات قدرة ذاتية على اداء ما استندوا اليها من عمل ، وقد ادى بهم الابتداء بهذا الوهم الكبير في المنهج الى اوهام وراء أوهام ليس لها أي صلة بالدراسة اللغوية ، فجمعوا المرفوعات وعواملها عندهم معا في أبواب متلاحقة ، وكذلك فعلوا بالمنصوبات والمجرورات والمجزومات ، مع اختلاف المعاني بين ما جمعوه معا واتفاقها بين ما وزعوه . ولو انهم وجهوا عنايتهم الى « نحو الدلالة » لحصروا مهمتهم في الجملة وطرق تركيب الكلمات فيها بحسب معناها الشامل وكيف يتبدل وضع الكلمات فيها تقديما أو تأخيرا أو ذكرا أو حذفا ، وفقا لهذا المعنى الشامل ، ولاهتموا كذلك بالكلمات أو الأدوات التي تدل على هذه المعاني الشاملة من نفي أو استفهام أو توكيدأو شرط .

ولهذا احتاج « علم النحو » الاعرابي عندنا الى علم آخر يستدرك مافاته ويتجه به الى نحو الدلالة وهو علم المعاني ولابد من خلط العلمين لتقيم بذلك نحو الاعراب على أساس أصلح وأيسر وهذا ما سنحاول تجلية جوانب منه في صفحات تالية بتوفيق الله . □

شعر

جمال العربية

هكذا غنى الآباء

معابثات غزليّة

لعمر بن أبي ربيعة

أبو الخطاب : عمر (بن عبد الله) بن أبي ربيعة المخزومي - نسبة الى مخزوم أحد جدوده الأعلين - وكان بنو مخزوم من أقوى بطون قريش في مكة قبيل ظهور الاسلام وعقيبه . ولد عمر في المدينة ويقال انه ولد يوم قتل عمر بن الخطاب ، ونشأ في بيت عز وثراء وترف ، إذ كان أبوه من أشراف بني مخزوم وأثريائها ، كما كانت أمه عطارة ثرية ، وقد مكنته عيشته المترفة من التفرغ للذاته . كان جميل الصورة فاخر البزة ، حسن الحديث ، كثير الدعابة مولعا بمجالس اللهو ، وبالتحدث الى النساء ، والتشبيب بهن ، وله معهن قصص كثيرة حفلت بها سيرته ، كما حفلت بها قصائده ، مع التصريح بأسمائهن أكثر من التلميح ، وكانت بيئته وعصره - سياسيا واجتماعيا واقتصاديا - عونا له على نزعاته الغزلية .

ومن يقرأ سيرته وديوانه يجد أن النساء اللواتي شبب بهن في شعره كنّ من أعلى طبقة في المجتمع ، أي من طبقته ، ولم يشبب بغيرهن . وكان ينتظر مواسم الحج ، فيخرج في زينته ليتلقى مواكبهن ، ويحاول التعرض لهن في الطريق ، أو في مناسك الحج حيث يسفرن حين يأتينها ، ليتمتع برؤيتهن وكلامهن ، فان تمكن من ذلك نوّه به في شعره ، وإن فاته ذلك اختلق مثل هذا اللقاء ونوه به ، ولذلك نجد ديوانه حافلا بأسماء كثيرات من هؤلاء الشريفات من بنات العلية ، وكانت منهن من تشجعه على التنويه بها في شعره ، وتأخذ عليه اهماله أمرها إذا سكت عنها سواء لقيته أو لم تلقه .

ويدل تأمل شعره وسيرته على دسيسة أنثوية في طبيعته ، ينبيء عنها تدليله لنفسه واشاراته الى تدليل صواحبه له ، وربما كان ذلك مما قرّب بينه وبينهن ، وكان له أخ صالح حاول تغيير مسلكه ولكنه فشل ، كما كان له ابن صالح (جوان) يغضب لذكر اسمه في أي معرض مما كان أبوه يصبح ويمسي فيه . وقد أعفت عمر نعمته وبذخه عن قصد سراة عصره ومدحهم طمعا في الجائزة كغيره من الشعراء يومئذ ، كما قعد به حب الترف والغزل عن التطوع للغزو في الثغور . ثم ضاق بمعابثاته الخليفة الصالح عمر بن

عبدالعزيز ، فنفاه الى جزيرة « دَهْلَك » جنوبي البحر الأحمر ، حتى مات هناك سنة ٩٣ هـ .

واذا ميزنا بين صنوف التشبيب قلنا انها ثلاثة : (أولها) وأخلصها النسيب (وهو شعر الحب) كما في شعر مجنون ليلى وقيس بن ذريح ، و (ثانيها) شعر الغزل الذي يتنقل فيه الشاعر بصبوته بين عدة نساء في وقت واحد ، و (ثالثها) شعر التصابي الذي يتظاهر فيه الشاعر بالصبوة الى امرأة معروفة أو مجهولة ، وشعر عمر من النوع الثاني ، وهو مقصور على نساء طبقته ، وقد طبع ديوانه مرات .

قَالَ لِي صَاحِبِي لِيَعْلَمَ مَابِي : « أَتُحِبُّ القَتُولَ أُخْتَ الرَّبَابِ ؟ »(١)
قُلْتُ : وَجْدِي بِهَا كَوَجْدِكَ بِالعَذْ بِ اذا مَا مُنِعْتَ طَعْمَ الشَّرَابِ(٢)
مَنْ رَسُولِي الى « الثُّرَيَّا » بِأَنِّي ضِقْتُ ذَرْعاً بِهَجْرِهَا ؟ وَالكِتَابِ(٣)
أَزْهَقَتْ أُمُّ نَوْفَلٍ اذ دَعَتْهَا مُهْجَتِي ، مَا لِقَاتِلِي مِنْ مَتَابِ(٤)
حِينَ قَالَتْ لَهَا : « أَجِيبِي » . فَقَالَتْ : « مَنْ دَعَانِي ؟ » قَالَتْ : « أَبُو الخَطَّابِ »
فَأَجَابَتْ عِنْدَ الدُّعَاءِ كَمَا لَبَّـ ـى رِجَالٌ يَرْجُونَ حُسْنَ الثَّوَابِ(٥)
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ المَهَاةِ تَهَادَى بَيْنَ خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أَتْرَابِ(٦)
وَهْيَ مَكْنُونَةٌ تَحَيَّرَ مِنْهَا فِي أَدِيمِ الخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ(٧)
دُمْيَةٌ عِنْدَ رَاهِبٍ ذِي اجْتِهَادٍ صَوَّرُوهَا فِي جَانِبِ المِحْرَابِ(٨)
ثُمَّ قَالُوا : « تُحِبُّهَا ؟ » قُلْتُ بَهْراً : عَدَدَ النَّجْمِ وَالحَصَا وَالتُّرَابِ(٩)
حِينَ شَبَّ القَتُولُ وَالجِيدَ مِنْهَا ! حَسَنٌ لَوْنٍ يَرِفُّ كَالزِّرْيَابِ(١٠)
أَذْكَرَتْنِي مِنْ بَهْجَةِ الشَّمْسِ لَمَّا طَلَعَتْ مِنْ دُجُنَّةٍ وَسَحَابِ(١١)
فَارْجَحَنَّتْ فِي حُسْنِ خَلْقٍ عَمِيمٍ تَتَهَادَى فِي مَشْيِهَا كَالحُبَابِ(١٢)
غَصَبَتْنِي مُجَاجَةُ المِسْكِ عَقْلِي فَلُوهَا مَاذَا أَحَلَّ اغْتِصَابِي(١٣)
قَلَّدُوهَا مِنَ القَرَنْفُلِ وَالدُّرِّ سِخَابًا ، وَاهًا لَهُ مِنْ سِخَابِ(١٤)

١ ـ القتول : القاتلة .

٢ ـ وجدك بالعذب : شوقك الى الماء العذب .

٣ ـ الثريا بنت علي : احدى الشريفات . ضقت ذرعا بهجرها : صرت لا أحتمله . والكتاب : أقسم بالقرآن .

٤ ـ أزهقت . . مهجتي : أهلكت روحي .

٥ ـ رجال يرجون . . : حجاج يطلبون الجزاء الجميل .

٦ ـ المهاة : البقرة الوحشية ـ تهادى : تتمايل في مشيها ـ الكاعب : الفتاة الناهدة ، والجمع كواعب ـ أتراب : المولودون معا والمفرد ترب .

٧ ـ مكنونة : مستورة مصونة ـ تحير في أديم الخدين : تردد في بياضها .

٨ ـ دمية : صورة جميلة ـ راهب : منقطع للعبادة .

٩ ـ بهرا : حبا شديدا .

١٠ ـ شب القتول . . حسن لون : زادها جمالا ـ الجيد : العنق ـ الزرياب : الذهب .

١١ ـ الدجنة : الظلام .

١٢ ـ ارجحنت : مالت واهتزت ـ عميم : كامل ـ الحباب : الثعبان .

١٣ ـ مجاجة المسك : يدفق منها ريحه .

١٤ ـ السخاب : عقد من قرنفل ودرر .

الكلمات المتقاطعة

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
						■				٢
		■	■	■						٣
■									■	٤
						■				٥
	■						■			٦
			■		■			■		٧
■							■			٨
				■						٩
		■								١٠

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذه اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية

١ . فاتح عربي أطلق اسمه على معلم جغرافي هام

٢ . دَخل ، منسوب لمدينة تشتهر بيرتقالها

٣ . أولادك وأولاد أولادك ، استغاب

٤ . فيلسوف عربي وفّق بين الفلسفة الاسلامية واليونانية

٥ . زاه مبعثرة ، مدينة على ضفاف دجلة

٦ . ثني ، أوغاد

٧ . صعوبة في النطق ، غش وخداع

٨ . طاف لصيانة أرواح الناس ، قاطنات الدير

٩ . وحدة عملة ، مصغر نهر

١٠ . مصلح ديني فارسي قديم ، بين الحلو والحامض

كلمات رأسية

١ . قارب بدائي غير مجوّف ، مؤسّس الأزهر

٢ . طبيب مسلم وصاحب كتاب الحاوي ، حائط يحيط بمدينة

٣ . من صفات الرجل ، والدة مقلوبة

٤ . امتنع عمّا يشين ، دَخل

٥ . رسام ونحات اسباني شهير ، مقياس للطول .

٦ . إن مقلوبة ، زاهدة وشاعرة عربية

٧ . أهدى (العروس مثلاً) ، أداة تفضيل ، تزوّج

٨ . حرف نداء ، « برشامة » مبعثرة .

٩ - نوايا مبعثرة ، غير منفذ للماء

١٠ . جمع ديمة ، بقية ، من الحبوب

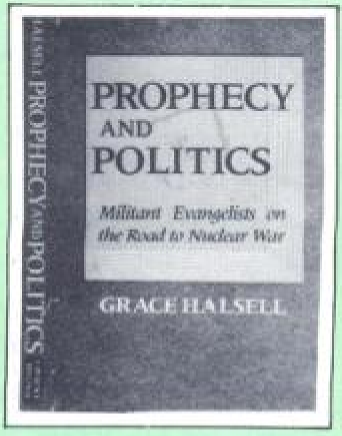
حل مسابقة العدد ٣٤٧ اكتوبر ١٩٨٧

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ك	س	ا	ن	ل	ا	س	ر	ط	ب	١
س	و	ن	ي	ل	ا	ج	■	ي	ا	٢
و	ف	س	■	ي	ز	ا	غ	ن	ب	٣
ر	و	ا	ه	ن	ب	و	ش	■	ا	٤
■	ك	ا	ي	ا	■	ه	■	ج	ل	٥
ح	ل	ن	■	م	ا	■	م	■	م	٦
ل	ي	ل	د	■	ر	■	ق	س	ن	٧
ب	س	■	ر	ك	ب	ر	ا	ي	د	٨
ة	■	ي	■	ي	م	ي	ه	و	ب	٩
■	ا	م	ي	ش	و	ر	ي	ه	■	١٠

مكتبة العربي

كتاب الشهر

تأليف : غريس هالسل/ عرض وتلخيص : طارق الحجي



النبوءة والسياسة

بينما كان المستعمرون البريطانيون يبحثون عن ذرائع لتنفيذ سياستهم في منطقتنا اكتشفوا في بعض الأفكار الدينية المسيحية غطاء مناسبا لتلك السياسات . . ومن هذا المزيج بين الدين والسياسة الاستعمارية ولدت الحركة الصهيونية .

واليوم نجد ان أمريكا هي التي تمارس هذا النشاط ، بدلاً من بريطانيا ، فكيف تعمل الصهيونية في حمى السيد الجديد ؟

كتاب الشهر

«غريس هالسل» كاتبة وصحفية من ولاية تكساس الأمريكية، تقيم حاليا في مدينة واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة.

عملت مراسلة صحفية أثناء الحرب الكورية، ثم الحرب الفيتنامية، كما عملت في البيت الأبيض كاتبة لخطب الرئيس «لندون جنسون». لها عشرة كتب مميزة، منها كتب تعالج مشكلة السود في المجتمع الأمريكي. عندما أرادت أن تكتب عن حياة السود الأمريكيين في الولايات المتحدة ومعاناتهم، ولتكون واقعية وموضوعية استعملت عقاقير حولت بها لون بشرتها فأصبحت سوداء، لكي تتمكن من أن تعيش حياة الانسان الأسود الذي يعاني من مختلف أشكال الفقر والاضطهاد.

بدأ اهتمامها بقضية الشرق الأوسط بعد حرب سنة ١٩٦٧، فأخذت تتابع تطورات هذه القضية وأثار انتباهها التيار المسيحي المتطرف الذي اكتسح الولايات المتحدة الأمريكية، المؤيد للصهيونية تأييدا أعمى، منذ نشوب تلك الحرب التي خسرها العرب، والتي كان من أهم نتائجها وقوع مدينة القدس في قبضة الصهيونية. وفي مقدمة المنظمات المتطرفة التي تمثل «اليمين المسيحي الجديد» تأتي المنظمات التبشيرية «البروتستانتية» اليمينية التي يطلق عليها وعلى زعمائها تعبير TV Evangilists، لاعتمادها على التلفزة في نشر دعوتها وأفكارها المتطرفة.

التعرف عن قرب

حتى تتعرف الكاتبة على هذا التيار السياسي الخطير الذي اتخذ المسيحية قناعاً، للتأثير على عقول الناس، وإثارة عواطفهم لصالح الصهيونية، ولمناصرة الكيان الصهيوني، وحتى تتمكن من كشف حقيقة هذه المنظمات وفضحها قامت السيدة «هالسل» بالمشاركة في عدة نشاطات تدعو لها هذه المنظمات، ومن ضمنها رحلات إلى الأراضي المقدسة، كما شاركت في المؤتمر المسيحي الصهيوني الأول الذي عقد عام ١٩٨٥م في مدينة «بازل» السويسرية، بمناسبة مرور ٨٨ سنة على المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في نفس المدينة، برئاسة الصهيوني «هرتزل». كما قامت الكاتبة بمتابعة ورصد ما تبثه هذه المنظمات المتطرفة من برامج مؤيدة للحركة الصهيونية على شاشة التلفاز التي يشاهدها أكثر من ٦٠ مليون مشاهد في الولايات المتحدة، والتي قد تجد طريقها إلى بلاد أخرى كثيرة. وهدف تلك البرامج هو إثبات حق اليهود الصهاينة باحتلال فلسطين، وقتل سكانها، تمهيدا لمجيء المسيح المنتظر الذي فيه خلاص للمسيحيين واليهود، حسب تفسير هذه المنظمات لنصوص معينة من التوراة والانجيل.

والمحور الذي ترتكز عليه حملاتهم وبرامجهم الاعلامية المسعورة نبوءة مستمدة من التوراة، يرددونها على أسماع الناس، ويعملون من أجل تحقيقها، تقول هذه النبوءة إن حربا نووية ـ يسمونها **Arma geddon** ـ تدمر العالم بأكمله ستقوم بين السوفييت وأصدقائهم العرب من جهة واليهود والمسيحيين من جهة أخرى، ويكون النصر فيها لليهود وأعوانهم، حيث تتم إبادة السوفييت والعرب إبادة تامة، ولهذا تدعو هذه المنظمات لتكديس الأسلحة النووية بكميات كبيرة في الولايات المتحدة

« واسرائيل » .

من أهم النشاطات التي تقوم بها هذه المنظمات الخطرة تنظيم رحلات جماعية إلى البلاد المقدسة ، وبخاصة مدينة القدس ، لا لأنها مدينة مقدسة عند المسيحيين ، بل لأنها مدينة يهودية ، ولأنها عاصمة مملكة « اسرائيل » الكبرى . ويشارك بهذه الرحلات المبرمجة أعداد كبيرة من أنصار هذه المنظمات ، مدفوعين بالحماس الحار للحركة الصهيونية التي تتمثل بالكيان الصهيوني في فلسطين .

ويعتبر هذا النوع من النشاط أحد الموارد الاقتصادية الهامة الذي يجلب ملايين الدولارات للكيان الصهيوني ، بالاضافة إلى التبرعات المستمرة التي تجمعها هذه المنظمات من أتباعها لمساندة الوجود الصهيوني في فلسطين ، ولاحتلال مزيد من الأراضي العربية ، ولاقامة المستوطنات الصهيونية في مختلف أنحاء فلسطين .

« مجدو » مرة أخرى !

قامت السيدة « هالسل » برحلتين من هذه الرحلات الجماعية إلى الأراضي المقدسة ، لكي يتسنى لها أن تتعرف عن كثب على هذا النشاط الشيطاني المنسق الذي يندفع له كثير من الأمريكيين ، المتحمسين لتحقيق هذه النبوءة التي تدعو الى حرب عالمية نووية مدمرة ، والتي سيكون موقع المعركة الكبرى فيها بالقرب من « مجدو » في فلسطين المحتلة وهي من أولى المناطق التي تحظى باهتمامهم خلال زيارتهم « الدينية » .

وحتى تتمكن السيدة « هالسل » من جمع المعلومات الضرورية ، لتكمل بها مادة كتابها ، بالاضافة إلى اطلاعها على مصادر متعددة ، كالكتب التي ينشرها دعاة هذه النبوءة الشريرة ، والتي تجد رواجا منقطع النظير عند ملايين من القراء ، قامت بمقابلة عدد كثير من الشخصيات التي تعمل في هذه المنظمات أو خارجها ، لكي تقدم إلى القارىء كتابا ، قوي الحجة ، يفضح مخططات هذه الجماعات التي تدعي أنها دينية (مسيحية) ، وتعمل على استغلال كل ما يمكنها لدعم الوجود الصهيوني في فلسطين .

المرعب والمخيف

بينما يعالج كتاب الدكتورة ريجينا الشريف « الصهيونية غير اليهودية »* تاريخ الصهيونية المسيحية في الفكر الغربي عبر العصور ، ويكشف عن تغلغلها في صميم العقلية الغربية في الماضي ، لاسيما عند الطوائف البروتستانتية ، تتعرض السيدة « هالسل » في كتابها الجديد « النبوءة والسياسة » إلى هذه النزعة القوية عند الغرب في الوقت الحاضر ، وبذلك يكون الكتابان متممين بعضهما بعضاً .

من أولى الحقائق التي تكشفها لنا مؤلفة هذا الكتاب المهم تأثر الرئيس رونالد ريغان بهذه الأفكار المؤيدة للصهيونية ، بالاضافة إلى عدد كبير من أصدقائه ومساعديه والعاملين في الحكومة الأمريكية ، بل إن ريغان يفخر دائما أنه يحمل هذه الأفكار ، ويؤمن بها منذ طفولته .

وتبين السيدة هالسل في كتابها بأن هذه الأفكار قد أصبحت في عهد الرئيس رونالد ريغان بالاضافة إلى المنظمات المتطرفة هي التي تحدد سياسة الحكومة الأمريكية في العالم ، وبخاصة تجاه الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط ، فلدى الولايات المتحدة الآن ٦٧٠ قاعدة نووية في ٤٠ دولة ، فيها ١٤٥٩٩ رأساً نووياً ، منها ٣٣٩٦ في ألمانيا الغربية ، و ١٢٦٨ في بريطانيا ، و ٥٤٩ في ايطاليا ، و ١٦٤ في اليونان ، و ١٥١ في كوريا الجنوبية ، و ٨١ في هولندا ، و ٢٥ في بلجيكا . وما برنامج حرب النجوم الذي تصر عليه إدارة الرئيس ريغان إلا وليد هذه النزعة العدوانية المتطرفة التي تدعو لها تلك النبوءة ، ومن

* من منشورات سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت .

أجل هذه السياسة لا تبخل أميركا بالمال والسلاح على « اسرائيل » وشعبها « المظلوم » .

وتؤكد السيدة « هالسل » أن لهذه النبوءة ونظرية معركة « مجدو » أنصاراً كثيرين ، قد يصل عددهم إلى ٤٠ مليون نسمة في الولايات المتحدة . وتتلخص هذه النبوءة الصهيونية التي ملكت عقول ملايين من السذج والمخدوعين الى أن الحرب العالمية النووية قادمة لا محالة ، وستقوم في « مجدو » في فلسطين ، وسيحل الدمار بالبشرية جمعاء ، لكن « المسيح المخلص » سيعود وينقذهم مع اليهود « شعب الله المختار » ، ثم يقيم مملكة في القدس مدة ألف سنة ، يليها الخلود السرمدي ، لكن لن تتحقق هذه النبوءة إلا إذا احتل اليهود جميع الأراضي العربية ، وهذا ما تدعو له المنظمات البروتستانتية التبشيرية اليمينية المتطرفة .

إنها تدعو إلى ضرورة قيام حرب نووية ، تشمل العالم بأكمله ، وبأقرب فرصة ممكنة ، لكي تتحقق أهم نبوءة في عقيدتهم الشيطانية . إن أتباع هذه المنظمات يصرون على قتل جميع الشعوب ، وبخاصة العرب والروس ، ويدعون بأنها مشيئة الله ، كما يصرون على ضرورة نسف الحرم الشريف في القدس وإقامة الهيكل اليهودي مكانه ، بالاضافة إلى إصرارهم الرافض لأي دعوة للسلام بين الشعوب ، إذ أنهم يعتبرون أي محاولة لاحلال السلام لاسيما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أو بين العرب واليهود بمثابة عقبة تمنع تحقيق تلك النبوءة التي ينتظرونها بفارغ الصبر .

تذكر المؤلفة أسماء كبار المروجين لهذه الأفكار المتطرفة ، مثل بات روبرتسون الذي يملك مؤسسات كبيرة لنشر هذه المعتقدات الجهنمية ، يعمل فيها ١٣٠٠ شخص ، أهمها مركز إعلامي في فرجينيا ، أقيم بتكلفة مقدارها ٢٢ مليون دولار ، على أرض مساحتها شاسعة . وتضم هذه المؤسسات جمعية تسمى (نادي السبعمائة) ، وثلاث محطات تلفازية ، ومحطة إذاعية ، وقناة بث تلفازية ومحطة تلفازية في جنوب لبنان ، وشبكة بث إذاعي تصل إلى أكثر من ٦٠ دولة ، بالاضافة إلى جامعة ، وتنظيم عالمي لجمع التبرعات ، و جماعة ضغط سياسية « لوبي » ضمن المؤسسة الحكومية الأمريكية . إن لهذا الشخص من القوة ما يدفعه للتفكير بترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة ، إذ أن عدد الذين يتابعون برامجه التلفازية والاذاعية يبلغ ٢٤ مليون شخص ، ويقدر العائد السنوي لمؤسساته بمائتي مليون دولار .

وتستمر المؤلفة بذكر أسماء كبار زعماء هذه المنظمات المتطرفة ، حتى تصل إلى ذكر جيري فالويل الذي يعتبر اليوم من أهم أنصار الصهيونية في الغرب ، والذي يرأس جماعة تسمى « الأغلبية الأخلاقية » ، وقد أنشا حديثا مؤسسة تسمى « اتحاد الحرية الفدرالي » لتسهيل نمو منظمته اليمينية المتطرفة ، وهو يملك شبكة تلفازية ، تصل برامجها إلى أكثر من خمسة ملايين ونصف مليون أسرة ، ينشر بها الأفكار الصهيونية المتطرفة ، مع التركيز على نبوءة الحرب النووية ، ومعركة « مجدو » القادمة ، وعودة المسيح المنتظر ، والدعوة لدعم الكيان الصهيوني ، وتصنيع أكبر كمية ممكنة من الأسلحة النووية ، لابادة العرب والسوفييت ، والمعروف عن جيري فالويل أنه من كبار أنصار حكومة جنوب أفريقيا العنصرية .

ولقد تابعت السيدة هالسل برامج جيري فالويل التلفازية منذ عام ١٩٨٠ التي يبثها كل يوم أحد . وفي سنة ١٩٨٣ قررت المؤلفة أن تقوم برحلة إلى الأراضي المقدسة ، ضمن الرحلات التي تنظمها هذه الجماعة ، تحت رعاية جيري فالويل نفسه ، حيث يقاد المشاركون بهذه الرحلات من تل أبيب إلى « مجدو » بالقرب من حيفا ، ليتسنى لهم أن يتخيلوا كيف سيتم دمار العالم من الشرح الوافي الذي لا يبخل به المرشد « السياحي » الصهيوني .

وتروي المؤلفة قصة من قصص كثيرة ، توضح كيف يتعمد اليهود الصهاينة تجاهل وجود الفلسطينيين في فلسطين ، فأثناء رحلتهم بالناقلة مع مرشدهم السياحي الصهيوني من بحيرة طبرية إلى القدس ـ وهي رحلة تستغرق ساعتين ونصف ـ يقترح عليهم « المرشد » أن يسترخوا في مقاعدهم ، ويغمضوا عيونهم ، ويخلدوا للنوم ، لأنه ـ حسب قوله ـ ليس هناك اي شيء في الطريق له أهمية » ، فيستجيب له الجميع . وقد لاحظت الكاتبة أنهم يمرون بمنطقة الضفة الغربية المأهولة بالفلسطينيين ، وفهمت مغزى كلام « المرشد » ، وعندما همست بأذن زميلتها الجالسة بجوارها وأخبرتها أنهم الآن يمرون بأراضي الفلسطينيين استغربت منها قائلة : « أي فلسطينيين ، أليس الجميع يهوداً هنا ؟ » .

مؤتمر صهيوني مسيحي

ثم تتحدث السيدة هالسل عن المؤتمر المسيحي الصهيوني الذي حضرته في سويسرا سنة ١٩٨٥ ، والذي شارك فيه ٥٨٩ شخصاً من ٢٧ دولة ، وتوضح كيف أن جميع الخطب التي ألقتها الوفود المشاركة كانت تدعو للحرب والعنف والدمار ، ولا أحد وقف ليدعو للسلام بين شعوب العالم ، ثم تورد أهم توصيات هذا المؤتمر الصهيوني ، وهي :

ـ أن يهاجر جميع يهود العالم إلى الكيان الصهيوني .

ـ ضم أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الكيان الصهيوني .

ـ اتخاذ القدس عاصمة للكيان الصهيوني .

ـ منع بيع السلاح وتصديره من دول الغرب إلى الأقطار العربية .

وقد لاحظت السيدة هالسل أنه بينما يدعي المشاركون في المؤتمر أنهم رجال دين إلا أنهم كرسوا ٩٩٪ من وقتهم في المؤتمر لموضوعات سياسية، لكنها لم تستغرب ذلك ، لأنها كانت تدرك أن هؤلاء هم في الحقيقة صهاينة على الرغم من مسيحيتهم .

ثم تورد السيدة هالسل مثالا من مقال كتبه جيري فالويل ، يدعو فيه الكيان الصهيوني لاحتلال المزيد من الأراضي في العراق وسوريا وتركيا والمملكة العربية السعودية ومصر والسودان ، وجميع أراضي لبنان والأردن والكويت ، كما يضيف قائلا : « إن الرب قد بارك أمريكا ، لأننا نساعده في حماية ما هو عزيز عنده ، أي (اسرائيل) » .

وفي فصل آخر تجري مقابلة مع الدكتور « اسرائيل شاحاك » الذي يخاف على الدويلة الصهيونية من الكرم الأمريكي ، والذي يصوره كعملية حقن تخدر باستمرار في جسم مدمن مخدرات ، ويخبر المؤلفة أن مجموع الأموال التي دفعتها الولايات المتحدة للكيان الصهيوني في سنة ١٩٨٥ قد بلغ خمسة بلايين دولار ، وهو المبلغ الرسمي الذي جاء من الضرائب التي تحمل عبئها الشعب الأمريكي ، وقد حسبها فوجد أنها تساوي ١٤ مليون دولار ، تدفعها أمريكا « لاسرائيل » يوميا .

وفي نهاية كتابها تؤكد المؤلفة أن هذه الحركات المتطرفة إنما هي حركات سياسة إرهابية ، بعيدة جدا عن الدين ، يمتد خطرها ليشمل البشرية جمعاء ، وأن أتباع هذه الطوائف يدعون إلى دمار العالم ، بينما دين المسيح الحقيقي دين تسامح ومحبة وسلام ، يدعو إلى تكريم الانسان وليس إلى قتل الملايين بحرب نووية مدمرة . □

من المكتبة العربية


أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
للمقدسي المعروف بالبشاري
طبع

أحسن التقاسيم "للمقدسي"

عرض : الدكتور نيقولا زيادة

حين كتب المقدسي هذا الكتاب في القرن العاشر الميلادي لم يكن هناك ما يعرف اليوم بعلم الاقتصاد . لذا يقدم لنا الكاتب قراءة اقتصادية في هذا الكتاب .

يمكن اعتبار القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، من حيث الكتابة الجغرافية عند العرب ، عصر الجغرافيين البلدانيين . وثمة أربعة منهم ، البلخي (توفي ٣٢٢/ ٩٣٤) والاصطخري (كتب بين ٣١٨ و٣٢١/ ٩٣٠ و ٩٢٢) وابن حوقل (توفي اواسط القرن الرابع هـ / العاشر م) والمقدسي (توفي بعد ٣٧٨هـ / ٩٨٨م) . وقد كان هؤلاء أهل سفر ، ومن ثم فان معرفتهم كانت نتيجة القراءة والاطلاع والتعرف الى الامور عن كثب .

والمقدسي ، الذي نريد أن نتعرف الى الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في القرن الرابع هـ / العاشر م من خلال ما أورده في كتابه أحسن التقاسيم ، هو من مواليد مدينة القدس (ويقال إنه ولد في الرملة من أعمال فلسطين) في سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م وكان جده لأبيه بناء معروفا وهو الذي بنى ميناء عكا لابن طولون حاكم مصر . ولعل هذا هو سبب عنايته بوصف الأبنية في كتابه .

واسم المؤلف ، على ما ورد ، هو شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري ، ولكنه شهر باللقبين الأخيرين فقط . واسم كتابه هو أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . وقد طبع في ليدن في عام ١٩٠٦ بتحقيق

دوخويه (وكل ما في السوق من هذا الكتاب هو إما الطبعة الأصلية ، وهي بطبيعة الحال نادرة ، أو أنه صور من تلك الطبعة) .

وقد زار المقدسي أصقاع العالم الاسلامي باستثناء الأندلس والسند وسجستان ، وانتهى من تأليف كتابه سنة ٣٧٥هـ وهو بشيراز . والمؤلف منظم في عرضه لمادته ، مرتب في تخطيطه لكتابه ، واضح الاسلوب ، وكان يتعمد السجع أحيانا ، لكنه سجع طبيعي لا تكلف فيه .

وقد وقف المقدسي من سابقيه في هذا الموضوع - أي جغرافية البلاد الاسلامية - موقف الناقد الشديد ، فهو يرى مثلا ، أن العلماء من قبل لم يكتبوا في الموضوع إلا على الاخلال .

أما تخطيطه لكتابه فيبدو في تنظيم الكتاب من حيث مواضيعه . ففيه ذكر الاقاليم الاسلامية ، ووصف تضاريسها ، ومدنها ، وتجارتها ، وصناعتها ، وعاداتها ، وما الى ذلك . ثم هو يحدد مصطلحاته تحديدا دقيقا من حيث معنى القصبة والمدينة ، ومن حيث المسافات والمراحل . ومن أطرف أبواب الكتاب « باب اختصرناه للفقهاء » ، حتى يوفر عليهم الجهد في قراءة الكتاب بأجمعه . ويروي المقدسي أخبار ما عاين من الاسباب في تأليف كتابه ، وهي أخبار طريفة لكن ليس هنا موضعها .

طبيعة الاقليم

يصف المقدسي « اقليم الشام » طبيعيا بقوله :

« ووضع هذا الاقليم طريف : وهو أربعة صفوف . فالصف الاول يلي بحر الروم وهو السهل : رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصف الثاني الجبل : مشجر ذو قرى وعيون ومزارع . يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا (بيت المقدس) ونابلس واللجون (تل المتسلم) وقدس والبقاع وانطاكية . والصف الثالث الاغوار : ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ونيل . يقع فيه من البلدان ويلة (ايلة) وتبوك (تابوك ليست من اقليم الشام) وصغر (زغر) واريحاء وبيسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع سيف البادية . وهي جبال عالية باردة ، معتدلة مع البادية ، ذات قرى وعيون واشجار . يقع فيه من البلدان مآب (مؤاب) وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب » .

يشير المقدسي الى أن اقليم الشام يقع على بحر الروم ، وانه يتصل ببحر الصين ، وذلك عن طريق البحر الأحمر عبر مدينة ويلة (ايلة) .

يتحدث المقدسي لماما عن مناخ الشام فيقول انه اقليم متوسط الهواء الا وسطه من والشراة الى الحولة فانه بلد الحر والنيل والموز والنخيل ، ويضيف : وأشد هذا الاقليم بردا بعلبك وما حولها . ويروي مثلا شاميا وهو أنه « قيل للبرد أين نطلبك ، فقال بالبلقاء ، قيل له فان لم نجدك ، قال بعلبك بيتي » . ويذكرنا المقدسي ان كل ما علا من اقليم الشام نحو الروم كان اكثر انهارا وثمارا وأبرد هواء ، وما سفل منه فانه أفضل وأطيب وألذ ثمارا وأكثر نخيلا . ويتنبه المؤلف الى ان اقليم الشام ليس فيه نهر يسافر فيه ، انما يعبر .

كان الجغرافيون يخلطون ، احيانا كثيرة ، بين المدن والبلدان والقصبات . اما المقدسي فقد وضع لنفسه تعريفا التزمه . فهو يقول :

« وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال ، واضيف اليه مدن الاقليم مثل دمشق . . . وربما كان للمصر او للقصبة نواح . . . ولا بد لكل اقليم من كور ثم لا بد لكل كورة من قصبة ثم لكل قصبة من مدن » .

ويشبه المقدسي الأمصار بالملوك ، والقصبات ، اي عواصم الكور (جمع كورة) بالحجّاب ، والمدن بالجند والقرى « بالرجالة » . وفي رأيه ان دمشق هي المكان الوحيد في اقليم الشام الذي يصح ان يسمى

مصرا ، وذلك بحكم ما كانت عليه في الماضي (اي في ايام الامويين) . اما بالنسبة الى ايامه ، فلم تكن اكثر من عاصمة لكورة فقط .

مكونات الاقليم

واقليم الشام ، كما قسمه المقدسي ، يتكون من ست كور هي : قنسرين وقصبتها حلب ، وحمص وقصبتها حمص نفسها ، ودمشق وقصبتها المدينة نفسها ، وفلسطين وقصبتها الرملة ، والاردن وقصبتها طبرية ، والشراة وقصبتها صغر .

والذي نراه هو أن المقدسي ، الذي كان يعرف أن بلاد الشام في ايامه لم يكن فيها تقسيم اداري واضح ، بسبب انقسامها الى دويلات تتحارب فيما بينها ، اعتبر في تقسيمه اياها كورا اتجاه منطقة معينة نحو مركز تجاري او اقتصادي او قبلي ، واحتفظ بفكرة الأجناد القديمة ، الا انه اعتبر ايضا ان كلمة جند لم تعد صالحة . وهذا التقسيم ـ على كل حال ـ ليس بذي اهمية عندما نحاول ان نتقصى المعلومات الاقتصادية التي نعثر عليها في احسن التقاسيم .

موارد اقليم الشام

يجمل المقدسي ما يرتفع من بلاد الشام وأجزائها من تجارات وغيرها بقوله :

« والتجارات به (اقليم الشام) مفيدة . يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والموالح والصابون والفوط ، ومن بيت المقدس الجبن وثياب القطن وزبيب العينوني والدوري غاية والتفاح غاية والمرايا وقدور القناديل والابر ، ومن اريحاء نيل غاية ، ومن صغر وبيسان النيل والتمور ، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل ، ومن طبرية شقاق المطارح « والكاغد وبز » ، ومن قدس ثياب المثيرة والبلعيسية والحبال ، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات ، ومن مآب (مؤاب) قلوب اللوز ، ومن بيسان الرز ، ومن دمشق المعصور والبلعيسي وديباج ودهن بنفسج دون والصفريات « والكاغد » والجوز والقطين والزبيب ، ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة ، ومن بعلبك الملابن . ولا نظير لقطين وزيت الانفاق (؟) وحواري ومبازر الرملة ولا لمتقة . . . ومسابح بيت المقدس » .

ويشير في مكان آخر الى وجود معدن الحديد في جبال بيروت ، والمغرة الجيدة بحلب ، وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام . وبالاغوار معدن كبريت . ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور .

على انه عندما يتحدث عن المدن وما يتبعها او يلحق بها ، يقدم لنا الكثير من التفصيل ، الذي يدلنا على المكان بالذات لا على مركز تجميع المصنوعات والغلات الزراعية وغيرها .

فالمقدسي ينصح طالب النعمة بالخيازة والرخص والفواكه باللجوء إلى دمشق وقيسارية في بلاد الشام . ويكثر من التغني بالخبز الحواري في الرملة ويمتدح كروم بصرى (اسكي شام) . ويقول ان اكثر اسواق دمشق مغطاة ، وفيها سوق على طول البلد مكشوفة . وتكثر بدمشق الثمار ولو انه يشير الى ان ثمارها تفهة .

ويشير الى موضع الوراقين في أروقة المسجد الجامع (الاموي) . والوراقون ، كما هو معروف ، هم باعة الكتب يومها . ويقول عن بعلبك انها ذات مزارع وهي معدن الاعناب . وحوران معدن القموح والحبوب ، والحولة معدن الاقطان والارزاز . وبحيرة طبرية كثيرة الاسماك . (وبهذه المناسبة فانه حري بنا أن نذكر أن السمك المملح كان ينقل من بحيرة طبرية الى تدمر في القرن الثاني الميلادي . وجبل عاملة (جبل عامل) فيه قرى نفيسة وأعناب واثمار وزيتون ، والمطر يسقي زروعهم . وبيسان كثيرة النخيل . وكابل مدينة على الساحل (قرب عكا) بها مزارع الاقصاب وبها

يطبخ السكر الفائق . وعكا في جامعها غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة . وحبرى (خليل الرحمن في جنوب فلسطين) كثيرة القرى والكروم والاعناب والتفاح . وعسقلان كثيرة الفواكه ومعدن الجميز وقزها فائق . وغزة كبيرة على جادة مصر . ويافة (يافا) صغيرة الا انها خزانة فلسطين . وقيسارية اجل بلد على بحر الروم وهي حسنة الفواكه . ونابلس كثيرة الزيتون . واريحا معدن النيل والنخيل . وعمان معدن الحبوب والاغنام . وصغر ، (جنوبي البحر الميت) بها المتجر المربح ، وويلة فرضة فلسطين وخزانة الحجاز .

ويؤكد المقدسي على التجارة البحرية عن طريق بحر الروم من يافة (يافا) وقيسارية ، وعلى اهمية ويلة (ايلة) للبحر الاحمر وبحر الصين وعلى اهمية الزقاق (البري) الذي يقود الى تيماء . وهذا هو وادي سرحان .

وجدير بالذكر ان جغرافيي القرن الرابع هـ/ العاشر م الآخرين يؤيدون ، على وجه العموم ، ما نقله المقدسي عن الحياة الاقتصادية في ذلك الوقت .

المدن وتوابعها

يورد المقدسي أسماء أربعة وستين مركزا في اقليم الشام ، وهي التي يسميها مدنا ، منها واحدة فقط اعتبرها مصرا بحكم ما كانت عليه في سابق عهدها ، وهي دمشق . ولكنه عدها في ايامه قصبة مثلها مثل القصبات الاخرى ، وهي حلب وحمص وطبرية والرملة وصغر (زغر) . وقد كانت تتبع هذه القصبات مدن اخرى . لكن المقدسي لا يعين نوع التبعية تماما أو درجتها . ويضاف الى هذه المدن قرى ونواح . وهناك تعبير آخر هو الرستاق . والكلمة معناها ، قاموسيا ، مجموع القرى . لكن المقدسي يستعملها في معنى آخر هو - فيما نعتقد - المنطقة التي تزود المدينة الكبيرة والقصبة ، بحاجتها من نتاج الزراعة خاصة ، كما انها كانت تعتمد على القصبة او المدينة في الحصول على ما تحتاجه هي من مصنوعات . والرساتيق التي يذكرها المقدسي هي :

لدمشق الغوطة وحوران والبثنية والجولان والبقاع والحولة . وجبل عاملة رستاق قدس ، وجبل جرش رستاق أذرعات ، وبيت جبريل رستاقها الداروم ، على الساحل ، والبلقاء رستاق عمان ، واريحا رستاقها الغور .

ويورد المقدسي أسماء رباطات في كورة فلسطين يقع فيها فداء الأسرى الذين يقعون بيد الروم هي : غزة وميماس (غزة) وعسقلان وماحوز ازدود (اشدود) وماحوز يبنا ويافا وارسوف . وحرى بالذكر أن افتداء الاسرى كان أمرا يتقرب به الناس الى الله .

ولنعد الى تلك التي يسميها المقدسي مدنا . وهي كما ذكرنا اربع وستون مدينة . وأما الجغرافيون الآخرون فيختلفون عنه في عدد ما يحسبونه مدنا ، هذا مع العلم بأن هؤلاء لم يحددوا المعنى المقصود بالمدينة على نحو ما حدده المقدسي . فنحن نجد ان ابن خرداذ به يورد ، (٣٥) مكانا ، واليعقوبي يورد (٣٠) مكانا ، وابن رسته يذكر (٢٠) مكانا ، والاصطخري يعين (٢٥) مكانا ، وابن حوقل يورد (٣١) مكانا .

كانت هذه محاولة تقديم دراسة حول اقليم واحد (اقليم الشام) مستخلصة من كتاب واحد (أحسن التقاسيم) القصد منها تبين ما يمكن ان نحصل عليه من معلومات اقتصادية من الكتب الجغرافية العربية . والحق يقال ان هذه الكتب الجغرافية هي مصدر مهم لدراسة المجتمع العربي - اقتصاديا وسياسيا . والذي ارجوه هو ان ألفت الباحثين الى الغوص على هذه الكنوز في مظانها ، كي تصبح دراساتنا مبنية على جهودنا ومخططة علميا . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : تاريخية الفكر العربي الاسلامي
المؤلف : محمد أركون
ترجمة : هاشم صالح
الناشر : مركز الانماء القومي ـ بيروت
عدد الصفحات : ٣٠٠ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٦

أول ترجمة لكتاب كامل للمفكر المغربي محمد أركون الذي كتب أهم أعماله باللغة الفرنسية ، يذكر الناشر أن هذا الكتاب سيكون فاتحة ترجمة كتب أركون الأخرى الى العربية ، سيكون ذلك باشرافه شخصيا كما هو الأمر في هذا الكتاب .

ويشير أركون في مقدمته الى صعوبة الترجمة الى العربية ويعزو ذلك الى اختلاف المفاهيم الواحدة في كل من اللغتين العربية والفرنسية ، بالاضافة الى حساسية الموضوعات التي يخوض فيها المؤلف ، والتي تتمحور حول إعادة قراءة الفكر الاسلامي باستخدام الأدوات المعرفية العصرية والحديثة .

■■

الكتاب : الشابي ـ ترجمة حياته وترجمة أشعاره .
المؤلف : عامر غديرة .
الناشر : الشركة التونسية لفنون الرسم والنشر والصحافة ـ تونس
عدد الصفحات : ٢٥٠ صفحة .
سنة النشر : ١٩٨٧ .

يقدم عامر غديرة أستاذ الأدب العربي في جامعة ليون الفرنسية ترجمة دقيقة موضوعية لحياة شاعر تونس أبي القاسم الشابي . وقيمة هذا الكتاب أنه تخطى الرؤية البكائية التي عرض من خلالها الدارسون سيرة الشابي ، فصوروه على أنه معدم عليل بائس ، بينما يتوقف غديرة عند أهم المحطات في حياته ، بحلوها ومرها ، مثل زواجه ، وصداقاته ، ومطالعاته ، ثم يحلل انعكاسات ذلك كله على أشعاره ، ومن ثم فقد توصل المؤلف الى كشف الكثير من مناطق العتمة في آثار الشاعر ، خاصة المؤثرات الغربية في شعره ، وأثر المدرسة الرومنطيقية بشكل أخص ، وإن كان الشابي لا يحسن اللغة الفرنسية ولا يقرأ الا باللغة العربية .

ويتنزل غديرة الشابي في إطاره التاريخي ، ويقدم لوحة دقيقة عن حقبة العشرينيات والثلاثينيات ، وملامح من أدب معاصري الشابي من الشعراء والكتاب ، ويترجم في القسم الفرنسي من الكتاب بعض أشعاره الى لغة فولتير .

■■

الكتاب : مدخل الى كافافي ، فاز انتزاكيس ، ريتسوس .
المؤلف : بيين .
ترجمة : سعاد فركوح .
الناشر : دار منارات للنشر ـ عمان ـ الأردن .
عدد الصفحات : ١٤٦ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٥ .

في هذا « المدخل » يقدم الناقد بيتر بيين دراسة في أدب ثلاثة من أبرز الشعراء اليونانيين المعاصرين : الشاعر قسطنطين كافافيس الذي عاش في الاسكندرية ، وبيكوس فازنتزاكيس الروائي

اليوناني الكبير القادم من جزيرة كريت ، ويانيس ريتسوس أحد أعظم شعراء هذا القرن .

وفي هذا الكتاب الصغير الحجم مقارنة بموضوعه يقوم الكاتب بمهمتين معاً ، فهو يقدم دراسة تتميز بالبساطة لحياة هؤلاء الأدباء وإبداعاتهم ، وتتميز بالتكثيف والتركيز في نفس الوقت ، مما يجعله كتابا مهما للقاريء العادي ، وللمثقف أيضا .

■■

الكتاب : الحوّات والقصر ـ رواية .

المؤلف : الطاهر وطار .

الناشر : دار الهلال ـ القاهرة .

عدد الصفحات : ١٣٨ من القطع المتوسط .

سنة النشر : ١٩٧٨ .

طبعة جديدة لرواية الطاهر وطار الشهيرة التي تدور حول علي الحوّات ، صائد السمك الذي تمكن من اصطياد أجمل سمكة قادمة من أعماق البحار .

في هذه الرواية تتضافر لغة الطاهر وطار الجريئة الرشيقة مع أجواء الرواية التي يمتزج فيها السحر والخيال بالواقع وبالنفس الانسانية ، ليشكل رواية جيدة تضاف الى التراث الروائي للمؤلف .

■■

الكتاب : ذكريات نفعة ابن خميس .

المؤلف : فاضل خلف .

الناشر : مطابع الرسالة ـ الكويت .

عدد الصفحات : ١٥٩ من القطع الكبير .

سنة النشر : ١٩٨٧ م .

الكتاب الذي حمل عنوانا فرعيا هو « صوت البحر » يروي مؤلفه ذكريات طفولته التي قضاها على الشواطيء الكويتية في أيام الثلاثينيات الغابرة ، ويتابع هذه الذكريات شابا وكهلا في بيروت وتونس وبريطانيا .

ومع أن الكتاب ذاتي جداً ويروي الذكريات التي تحمل طابع العمومية عن شواطيء الكويت القديمة الا أن تلك الذكريات تعيد الى الأذهان بعضا من حياة تلك الفترة ، السفن وسباقاتها والأطفال ومغامراتهم الأولى مع البحر ، ونمط الحياة الذي ولّى ولن يعود .

■■

الكتاب : دهاليز الزمن الممتد .

المؤلف : أبو بكر العيادي .

الناشر : دار الرياح الأربع ـ تونس .

عدد الصفحات : ١٢٦ صفحة .

سنة النشر : ١٩٨٦ م .

يقدم القاضي التونسي المعروف أبو بكر العيادي في هذه المجموعة القصصية ١٦ قصة قصيرة ، كتبها في فترات مختلفة ، وهي تعكس جوانب البيئة التونسية في المدينة والقرية على السواء ، يصوغ المؤلف لوحات واقعية من حياة الناس في أسلوب ناعم ، عارضا عدة نماذج اجتماعية ، مثل تاجر القرية ، والعمدة ، وزبائن المقاهي ، و « عبدالخالق » الذي سيق الى السجن بلا تهمة ، والمسؤول المتعالي على الناس . أما القصة التي منحت عنوانها للمجموعة فهي تتحدث عن تجربة مناضل ، شارك في محاربة الاستعمار ، لكنه لم يستمتع بثمار تضحياته ، وقطفها سواه . وتتناول قصة « الأمل المشنوق » علاقة رجل بامرأة ، فرارا الافتراق ، ومأساة الابن الذي أنجبه الرجل من ابنة عمه التي تزوجها بضغط من والديه ، واضطر الى الابتعاد عن حبيبته الأولى .

وأبو بكر العيادي يكرس بهذه المجموعة مكانته المميزة بين القصاصين التونسيين ، فهو صاحب عطاء غزير ، سواء في مجال الكتابة القصصية أو في مجال ترجمة عيون القصص العالمي الى اللغة العربية . □

مسابقة العربي الثقافية

العــدد ٣٤٨
نوفـمبر ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة اسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 ـ الكويت . . « مسابقة العربي العدد ٣٤٨ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ ديسمبر ١٩٨٧ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العــدد ٣٤٨

١ ـ من الشاعر العباسي صاحب الأبيات الآتية :

أَتاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يَخْتالُ ضاحِكـا
مِنَ الحُسْـنِ حَتَّى كادَ أنْ يَتَكَلَّما
وَقَدْ نَبَّهَ النَّيْروزُ في غَسَقِ الدُّجى
أوائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّما
يُفَتِّقُها بَرْدُ النَّدى ، فَكَأنَّهُ
يَبُثُّ حَديثاً كانَ قَبْلُ مُكَتَّما
وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبيعُ لِباسَهُ
عَلَيْهِ ، كَما نَشَّرْتَ وَشْياً مُنَمْنَما

٢ ـ أي الألياف النسيجية التالية كانت الأولى التي عرفها الانسان في تاريخه ؟

* القطن * الخيش * الكتان

٣ ـ أي شجر اليابسة يزرع نفسه بنفسه ، وينقل زراعته بنفسه من شواطيء الى شواطيء أخرى بعيدة ، وذلك بواسطة البحر ؟ فهو ينمو على الشواطيء وتتساقط ثماره في البحر عند نضوجها ، وتظل عائمة طيلة شهور حتى تقذفها أمواج البحر الى شواطيء أخرى بعيدة أو قريبة ، فتستقر تلك الثمار على رمال الشواطيء ، وتزرع نفسها لتصبح أشجارا جديدة .

٤ ـ خوص النخيل وسعوفه : أيها ورقة في نظر علم النبات . . ؟

٥ ـ بعض النباتات تأكل أزهارها ، وبعضها تأكل

٨ ـ الأسبرين دواء الصداع والروماتيزم المعروف ، استخرج أول ما استخرج من نبات شأنه في ذلك كعقار الكينا ، ترى ما اسم الشجرة التي استخرج منها الأسبرين ؟

٩ ـ أي الشجرتين أضخم : شجرة البنيان أم شجرة السيكويا ، علما بأن الأولى تنمو في الهند وسريلانكا والثانية تنمو في كاليفورنيا ؟

١٠ ـ ما هي شجرة البونساي ؟

* شجرة قزمة تنمو في الأنابيب ، وفي اليابان بالذات .

* شجرة عملاقة تنمو في اليابان .

* الشجرة الوحيدة التي تنمو في القطب الجنوبي .

١١ ـ نخيل البلح معروف ولعله يمثل الثروة الثانية في عالمنا العربي ، ترى ما الفرق بين : سعوف النخيل وجريده ؟

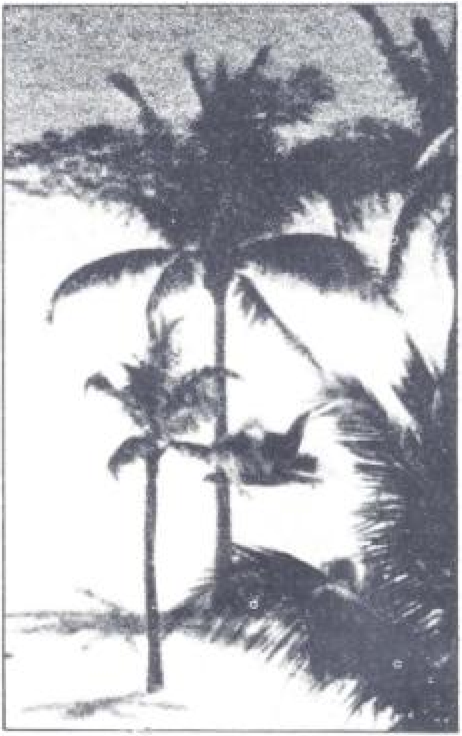
١٢ ـ شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

من هو قائل هذا البيت :

* أبو نواس

* عمر بن أبي ربيعة

* أبو الحفص الفارضي



جذورها ، وبعضها الثالث نأكل أوراقها ، نريد مثلا واحدا على كل فئة .

٦ ـ شجرة الجاك فروت اشتهرت بثمرتها العملاقة فهي تزن بالمتوسط (٢٥) كيلوجراما فأين تنمو هذه الشجرة ؟

٧ ـ شجرة بروسيموم يوتيلي شجرة متميزة حقا ، فهي تفرز لبنا يشبه لبن البقر لونا وطعما ، فأين تنمو هذه الشجرة ؟

حل مسابقة العدد ٣٤٥

١ ـ مؤلف كتاب الجامع في الأدوية المفردة هو :
ضياء الدين ابن البيطار (١١٩٧ ـ ١٢٤٨م) وكان من مواليد ملقا ، ارتحل عن الأندلس الى المشرق ، واستقر في دمشق حيث كانت وفاته . وابن البيطار هو بلا ريب أعظم علماء النبات ـ في عصره ـ المسلمين وغير المسلمين . .

٢ ـ نباتات بلا جذور : الأعشاب البحرية

نباتات بلا أوراق : الأعشاب البحرية أيضا ، والفطر

٣ ـ زهور التفاح هي التي تشبه أزهار الورد . . وهذا الشبه قائم بين زهور عائلة الورد كلها وان اختلفت كثيرا في أمور أخرى كثيرة . . ونعرف عائلة الورد هذه باسم روزاسي ، وهي كبيرة ، وتنتمي اليها فاكهة التوت والكمثرى وغيرها .

٤ ـ نبات رافليسيا ينمو في أحراج آسيا ، وزهرة النبات العملاقة هي كل ما فيه ، فهو بلا ساق وبلا أوراق .

٥ ـ السبب هو المرض الفطري الذي أصاب محصول البطاطس في ايرلندة ، فقضى على ذلك المحصول بكامله ، ذلك أن زراعة البطاطس قامت آنذاك على غرس الثمار لا البذور ، ومن ثم كانت الكارثة المفجعة ، وحلت المجاعة الشاملة التي أودت بحياة الملايين ، وحملت الكثيرين على الهجرة الى العالم الجديد ـ أمريكا .

٦ ـ شجرة الكنكونا أو السنشونا هي الشجرة التي استخلص منها عقار الكينا الناجع في معالجة الملاريا ، وقد أطلقوا على الشجرة اسمها نسبة الى المركيزة كنكونا زوجة نائب الملك في البيرو آنذاك ، اذ أصابت حمى الملاريا المركيزة وكادت أن تقضي عليها لولا لحاء الشجرة المذكورة الذي عالجوها به وكان ذلك سنة ١٦٣٠ .

٧ ـ عشبة ست الحسن سموها بهذا الاسم نظرا لاقبال النساء في الماضي على استعمال عصارتها لتوسيع العين وتجميلها ، فهي تحتوي على مادة (الاتروبين) الطبية التي يستعملها أطباء العيون حاليا من أجل توسيع العيون ، عدا عن ذلك فالعشبة سامة كثيرة السموم ، على أن أحد عناصرها الفعالة يستعمل في صنع (لزقات) الظهر ، فهو يساعد على ترخية العضلات المتقلصة .

٨ ـ كمثرى الأفوكاتو هي الفاكهة التي تتميز بفوائدها الغذائية ، ولو ذكرنا أنها تتميز أيضا بأنها سهلة الهضم لأدركنا قيمة هذه الفاكهة غذاء للاطفال . .

٩ ـ القمح سنة ٨٠٠٠ ق . م تقريبا في جارمو بالعراق واريحا بفلسطين

الذرة سنة ٥٠٠٠ ق . م تقريبا في المكسيك

الشعير سنة ٤٠٠٠ ق . م تقريبا في مصر القديمة

الارز سنة ٣٠٠٠ ق . م تقريبا

في الهندومنها انتقل الأرز الى الصين واليابان وغيرها.

١٠ ـ كثير من الخمور البيضاء تصنع من أعناب حمراء ، ذلك أن اللون الأحمر ليس في عصارة العنب بالذات بقدر ما هو في قشرته .

١١ ـ سر الخليج الوضاء في بورتوريكو إنما هو في النباتات القطرية التي تنمو فيه ، فهي نباتات مضيئة ، وفي الامكان رؤية ضوئها من بعد ١٥ مترا . . والنباتات المذكورة صنوف من البلانكتون . . .

١٢ ـ أمير الأندلس المقصود هو عبدالرحمن الثالث ، وقد تقبل الهدية شاكرا ، وطلب من امبراطور القسطنطينية أن يوفد له من قد يساعد على ترجمة الكتاب الى العربية ، فأرسل له الراهب نيقولاوس الذي وصل الى قرطبة سنة ٩٥١م ، والجدير بالذكر أن كتاب ديوستوريدس كان مترجما الى العربية في تلك الأثناء ، وقد اشتهرت ترجمته في المشرق ، دون أن يعرف في مغرب العالم الاسلامي على ما يبدو .

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

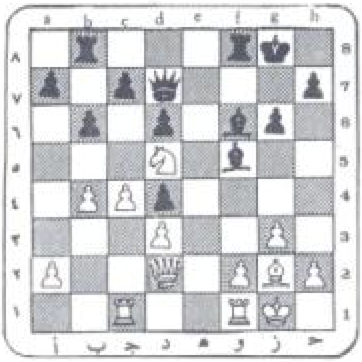
الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٥ اغسطس ١٩٨٧

الجائزة الاولى : صالحة أحمد سالم / اليمن
الجائزة الثانية : محمد عمار عبد الحميد / السعودية
الجائزة الثالثة : ثائرة العبد الباري / العراق

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ د . علاء الدين عبد الفتاح غنيم / مصر
٢ ـ رلي زهير صادق / الكويت
٣ ـ عريب الناصر / الاردن
٤ ـ ريتا جوزيف أشجيان / لبنان
٥ ـ بيوز عبد القادر / المغرب
٦ ـ حسن أحمد الزحيلي / سوريا
٧ ـ علاء الدين بيانوني / الامارات
٨ ـ محمد فال بن الطالب النافع / موريتانيا

معركة بلا سلاح



كانت المباراة الدولية التي أقامتها مؤسسة الخدمات المصرفية في بروكسل «العاصمة البلجيكية» من كبرى مباريات العام الحالي ، وقد بلغت تفقات هذه المباراة قرابة ربع مليون من الجنيهات أو أكثر ، وجذبت جائزتها الكبرى البالغة ثلاثين ألف جنيه كبار أبطال العالم ، وبينهم كاسباروف ، وكاربوف ، وكورشنوي ، والبريطاني الشاب نايجل شورت . وكان من أبرز ما تمخضت عنه هذه المباراة تراجع الأخير عن مكانته ، فقد كان الرابع بين أبطال العالم ، ثم أصبح في المرتبة الثامنة أو التاسعة ، مما قضى على آمال البريطانيين في المنافسة على بطولة العالم ، فقد كان نايجل شورت (٢١ سنة) أملهم الأبيض الكبير في الوصول إلى عرش الشطرنج بعد انتصاراته الساحقة التي حققها في وجك وريكجافيك بحصوله على المركز الأول فيهما ، بالإضافة إلى النتيجة المشرفة التي حققها في مباراته التلفازية ذات الأدوار الستة السريعة أمام بطل العالم جاري كاسباروف ، المقامة في العاصمة البريطانية في أواخر شهر فبراير من هذا العام (٢ ـ ٤) .

غير أن مباراة بروكسل الأخيرة حطمت موازين البريطانيين ، وآمالهم بالقضاء على الاحتكار الثنائي (كاسباروف ـ كاربوف) لبطولة العالم ، فقد مني نايجل شورت بهزيمة نكراء أمام جميع خصومه من كبار أبطال العالم وصغارهم على السواء ، بمن فيهم من سبق له أن هزمهم أربع مرات في مباريات التصفية قبل النهائية . وقد أثار هذا التراجع المأساوي الشكوك حول أحقيته بلقب ولي العهد الأوروبي لعرش الشطرنج ، مما عزز آمال منافسه الهولندي جان تيمان بالفوز بهذا اللقب .

ومن الجدير بالذكر أن المباراة على بطولة العالم للشطرنج ستنعقد بين كاسباروف وكاربوف في أواخر العام الحالي ، بعد فوز الأخير فوزاً ساحقاً على مواطنه سوكولوف ، ثالث أبطال العالم في مدينة ليناريس الأسبانية (٧,٥ ـ ٣,٥) .

أما الدور الذي اخترناه لكم من مباراة بروكسل فهو من أهم أدوارها إذ يعتبر مثالاً جيداً على حسن استغلال الضعف الناجم عن التحريك الخاطىء للبيادق التي تشكل درعاً واقياً للملك المحصّن ، وهذا الدور من الطابق الانجليزي .

□ ليوبوجفك (يوغسلافيا)	■ ميلدرز (بلجيكا)
١) جـ ٤	و ٥
٢) ح ـ جـ ٣	ح ـ و ٦
٣) ز ٣	ز ٦
٤) ف ـ ز ٢	ف ـ ز ٧
٥) د ٣	د ٦
٦) هـ ٤	ح ـ جـ ٦

القائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد ٣٤٥ أغسطس ٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ د. عبد الله بهان ـ المجر / بودابست .
٢ ـ الروسي عبد الحميد ـ طنجة / المغرب .
٣ ـ محمد نذير مامو ـ دمشق / سوريا .
٤ ـ رؤية سراء ـ صفاقس / تونس .
٥ ـ علي أحمد الجام ـ الرياض / السعودية .

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حمد سالم حارب ـ الجفنة / عمان .
٢ ـ جلال عبد السميع عبد العزيز ـ الجيزة / ج.م.ع .
٣ ـ مازن مشوح ـ دمشق / سوريا .
٤ ـ وسام خوشابة ـ الصباحية / الكويت .
٥ ـ عبد القادر عبد الكريم التميمي ـ أندونيسيا .

---

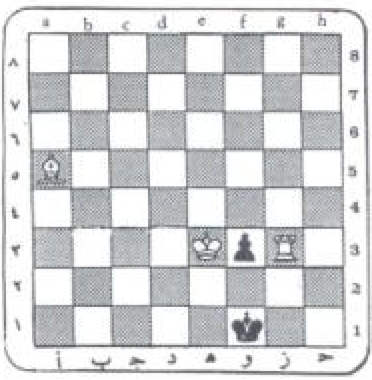
٧) ح ز ـ هـ ٢	ت
٨) ت	هـ ٥
٩) ح ـ د ٥	ف ـ هـ ٦
١٠) ف ـ ز ٥	و ـ د ٧
١١) و ـ د ٢	ر أ ـ ب ٨ ؟

نقلة رديئة ر ـ و ٧ أفضل بكثير

١٢) ر أ ـ جـ ١	ب ٦
١٣) ب ٤	ح ـ د ٤
١٤) ح × د ٤	هـ × د ٤
١٥) ف × و ٦	ف × و ٦
١٦) هـ × و ٥	ف × و ٥ ؟

الأخذ بالبيدق هو الرد الصحيح (الشكل)

١٧) ح × و ٦ +	ر × و ٦
١٨) و ـ و ٤	ر ب ـ و ٨
١٩) و × د ٤	جـ ٥
٢٠) ب × جـ ٥	ب × جـ ٥
٢١) و ـ جـ ٣	ف ـ حـ ٣
٢٢) ف ـ د ٥ +	م ـ حـ ٨
٢٣) ر و ـ هـ ١	و ـ ز ٧
٢٤) ر ـ جـ ٢	حـ ٥
٢٥) ر ٢ ـ هـ ٢	ر ٣ ـ و ٧
٢٦) و ـ جـ ١	ف ـ ز ٤
٢٧) ر ـ هـ ٧ ! ! هائلة	يستسلم



مسألة العدد ٣٤٨ نوفمبر ١٩٨٧

مات ٣

مهداة من القاريء محمد النسعة (الأردن)

حل مسألة العدد ٣٤٦

سبتمبر ١٩٨٧

مفتاح الحل و ـ حـ ٣

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

استطلاع عن الأكراد . كيف ؟

● أبدي لكم صراحة اعجابي بالاستطلاعات المصورة التي تقوم بها مجلتنا « العربي » ، حيث تعرفنا هذه المجلة بجوانب مختلفة من حياة الأمم والشعوب .

وسؤالي هو : ما هي الاعتبارات التي تلعب دورها في اختيار هذه الزاوية أو تلك في أي استطلاع تقومون به ؟ لقد قمتم باستطلاعات مصورة في بعض الجمهوريات السوفيتية ، والبرازيل ، ومدينتي هيروشيما ونجازاكي ، وقمتم باستطلاعات الى أصغر بقعة في العالم ، مثل « أدغال صباح » و « سرواك » ، لكني لا أفهم لماذا تجاهلتم حتى الآن شعبا يبلغ سكانه الملايين ، موزعا في مناطق مختلفة من العالم ، انه الشعب الكردي الذي تبلغ نسبته في تركيا ٦٥٪ من السكان ، وفي ايران والعراق وسورية يوجد منه عدة آلاف نسمة ، وأعداد لابأس بها في مصر العربية والأردن وفلسطين ، وحتى في الساحل الصومالي .

لماذا تجاهلتم مثل هذا الشعب ؟ لماذا لم تعرفونا بمثل هذا الشعب ؟ وماهي الأسباب التي وراء ذلك ؟

فارس شاكر
سوريا / الحسكة

العربي

الاعتبارات التي تلعب دورها في اختيار زاوية الاستطلاع ، أو اختيار بلد بعينه عديدة ، يصعب حصرها هنا ، لكن أهمها أن يكون هناك جديد في البلد الذي يتم استطلاعه ، أو أن تكون هناك مناسبة أو حدث يشدان الانتباه ، أو قضايا ذات أهمية قديمة أو طارئة .

فضلا عن أن هناك أولوية لالقاء الضوء على شئون العالم الاسلامي والوطن العربي وشجونهما ، والتعريف بالشعوب الاسلامية والأمة العربية ، أما بالنسبة للشعب الكردي فليس هناك تجاهل له أو لغيره ، وخطابك نفسه يحمل التفسير لما تظنه تجاهلا ، فمن ناحية عملية بحتة لايمكن عمل استطلاع واحد حول الشعب الكردي في جميع البلاد التي أشرت اليها ، لكن الحديث عنه يتم في اطار الاستطلاع عن البلد الذي يوجد فيه الأكراد ، وحين يجيء دور الحديث عن التركيبة السكانية في هذا البلد أو ذاك ، وقد حدث هذا كثيرا بالنسبة للاكراد ولغيرهم ، أما الحديث عن الشعب الكردي في كل البلاد التي أشرت اليها ، ونشأته ، وظروف انتشاره فيها ، ودوره ، فهذا يمكن أن يكون موضوع دراسة يقوم بها أحد المتخصصين ، ترحب « العربي » بنشرها ما دامت ملائمة للنشر .

القراء يواصلون مناقشة

قضيــــــة التعريب

● نشرت مجلة العربي في العدد ٣٤٢ في زاوية حوار القراء بعنوان « قضية التعريب الوجه الآخر » وأود هنا أن أرد على المخاوف التي أثارها بعض القراء من الاتجاه الى التعريب ، من واقع تجربتي كطالب عربي ، يدرس الطب في جامعات يوغسلافية .

أولا : لا أساس للصحة بالنسبة للمخاوف بشأن تدريس الطب باللغة العربية ، وأن ذلك قد يؤدي الى تخلف الطلاب والدارسين عن متابعة الجديد في ميدان الطب باللغات الأجنبية ، وأوضح هنا كيف يواجهون في يوغسلافيا مثل هذه المخاوف ، فعندما يتم اكتشاف علمي جديد في مجال ما ، فانه يتم تقديم طبعة جديدة من الكتاب الذي يدخل في مادته هذا الاكتشاف الجديد ، أي أن جوهر المسألة هو مدى نشاط حركة الترجمة والمتابعة للجديد في العلم وتنظيم ذلك ، ومثال ذلك كتاب « الفزيولوجيا البشرية » ، حيث ندرس الآن الطبعة الثامنة منه وتضم أحدث المبتكرات العلمية في ميدان هذا العلم .

ثانيا : مسألة الاختلافات في وضع بعض المصطلحات العلمية على الرغم مما قد تحدثه من ارتباك ، فأضرارها أقل خطرا من أضرار تدريس العلم بلغة أجنبية ، ، قد لايجيدها الطالب اجادة كاملة ، وبخاصة في المرحلة الجامعية الأولى ، فهنا في يوغسلافيا توجد ست جمهوريات ، وقد تختلف المصطلحات بين جمهورية وأخرى ، بل قد يختلف المنهج نفسه ، ولايوجد ضرر في ذلك ، أما الضرر الناشيء عن تدريس الطب أو غيره من العلوم بلغة أجنبية فمن المناسب أن نستمع هنا الى رأي الدكتور محمد توفيق الرخاوي أستاذ التشريح بطب القاهرة ، يقول في مقدمة ترجمته لأطلس سوبوتا التشريحي : « انه كان من معارضي تدريس الطب باللغة العربية ، لكن بعد ممارسته لتعليم الطب ، لمس صعوبة بالغة أثناء العملية التعليمية في محاولة نقل المعلومات لطلابه ، فالمحاضر يفكر باللغة العربية ، ثم يترجم فكره الى اللغة الانجليزية ، والطالب يتلقى باللغة الانجليزية ، ثم يعيد ترجمة ما تلقاه من حيث لايشعر الى اللغة العربية وهذا كله مما يثقل العملية التعليمية » .

محمد فارس عجوب
يوغسلافيا

العربي

ـ ننشر هذا الجزء من رسالة مطولة للقارىء الكريم تدل على اهتمام القراء بمناقشة ومتابعة هذه القضية القومية الهامة ، وحين تنشر هذه الرسالة في شهر نوفمبر ستكون مجلة العربي قد نشرت في شهر سبتمبر الحلقة الأولى من الحوار الذي أجرته في جامعة دمشق حول قضية التعريب في الجامعة السورية وتنشر في هذا العدد الحلقة الثانية . آملين أن تسهم هذه المناقشات في القاء المزيد من الضوء على هذه القضية الخطيرة ، وفي اتخاذ موقف قومي موحد حيالها .

جديد عن الالمنيوم

● قرأت مانشر في العدد ٣٤١ شهر ابريل بعنوان « الالمنيوم أعجوبة معادن القرن العشرين » للاستاذ محمد علي النقي ، ولأهمية هذا الموضوع واعجابي به ، أود أن أضيف بعض الفوائد التي قد تفيد القارىء .

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

حوار القراء..

« ان أول مصنع للالمنيوم في العالم قد أنشىء في بلدة جلاسيير في فرنساوان الذي أنشأه يدعى سانت كلير ديفيل . »

« ان أول مصنع لانتاج الالمنيوم بالتحليل الكهربائي في أوروبا قد تم بناؤه في مدينة « بنهاوزن » في سويسرا . »

« ان معدن الالمنيوم يأتي بعد الاكسجين والسيلكون من حيث توفره في القشرة الأرضية . »

« ان جزيرة « جامايكا » تعتبر المورد الرئيسي للبوكسيت في العالم ، ففيها احتياطي هائل من هذه المادة الأساسية اللازمة لتحضير الألمنيوم ، اذ تقدر نسبة البوكسيت في أرض هذه الجزيرة بما مقداره ٩٩٪ » .

المهندس محمد قره يوسف
سوريا / اللاذقية
الشركة العامة لصناعة الالمنيوم

أين العلماء في باب « وجها لوجه » ؟

● مجلة العربي في طليعة المجلات الثقافية في الوطن العربي ، يقرأها القارىء العادي والمتخصص في أي مجال ، ويجد فيها الجميع بغيتهم . ما أريد أن أعلق عليه هو باب « وجها لوجه » الرائع ، لأنه يحتوي على خلاصة أفكار الكبار ، وخلاصة تجاربهم في الحياة ، يقدمونها مباشرة للقارىء ، في كلمات محددة ، والذي أقترحه حول هذا الباب هو ضرورة التنوع في الشخصيات التي يقدمها ، فالذي لاحظته أن هذه الباب يركز بدرجة كبيرة على الأدباء في مجالات الشعر والقصة والرواية ، وقليلا مايتعدى هذه المجالات . نود أن يأخذ العلماء والفنانون نصيبهم في هذا الباب ، ولكم جزيل الشكر .

مصطفى المحمد الخليل
سوريا / حماة

العربي

ـ نشكر للقارىء الكريم اهتمامه ، ونقره على أهمية ملاحظته ، وهي بالفعل موضع اعتبارنا ، ونأمل أن يجد قريبا ما نتطلع اليه جميعا في هذا الباب من توازن بين العلم والأدب والفن ، واذا كانت الأغلبية في هذا الباب للأدب وما تزال كذلك ، فلعل هذا انعكاس لواقعنا الذي لاتملك فيه الحركة العلمية الحديثة تاريخا طويلا مثل الحركة الأدبية .

حول حقيقة اليهودي شابيتاي تسيبي

● في عدد ديسمبر ١٩٨٦ من مجلة العربي تحدث الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري في مقال « حقيقة الأرقام اليهودية في العالم » وكان المقال جيدا ، ومفيدا ، ولا أعتقد أني في موقف يسمح لي بالحكم على المقال ، الا أنني لاحظت غموضا يستدعي التوضيح حول اسم اليهودي الدجال شبتاي تسفي ، وأعتقد أن أسمه شابيتاي تسيفي ، وهذه قصة حياته فقد اضطرب كل اليهود في العالم كله لظهور داعية يسمى شابيتاي تسيفي ، وهو ابن تاجر من أزمير ، يدعى (مردكاي) ، زعم أنه هو المسيح المنتظر ، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة عندئذ في المجتمع اليهودي .

وكانت الأوساط اليهودية الرجعية تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح ، ولذلك صادفت دعوة شابيتاي تأييدا كبيرا بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا ، بل لقد أيدها كثير من اليهود « المتنورين » وأصحاب الأموال ، لأغراض سياسية ومالية ، وكان شابيتاي متمكنا من تعاليم « الكابالا » عليما بأسرارها ونظرياتها الروحية ، بارعا في ضروب الشعوذة .

وقيل انه كان يأتي بعض الخوارق ، وأن جلده كان ينضح مسكا ، وكان يكثر من الاستحمام في البحر ، ويعيش في حالة ذهول مستمر ، وقد انقسم اليهود ازاء مزاعم شابيتاي الذي انتحل لنفسه لقب (ملك ملوك الأرض) الى قسمين ، خصوم وأنصار ، فأما الخصوم فهم الأحبار والدعاة ، وكان هؤلاء يناصبونه العداء ، ويكثرون من لعنه والحملة عليه ، أما أولئك الذين استهوتهم دعوته ، وآمنوا بمزاعمه وتعاليمه ، فقد انقلبوا عليه ، حينما سخط منه السلطان ، وطلب اليه أن يثبت دعواه ، بأن يستقبل السهام المسمومة بصدره ، فارتد عن اليهودية فجأة ، وزعم أنه اعتنق الاسلام ، بيد انه استمر يتقلب في مزاعمه وتعاليمه ازاء المسلمين واليهود طورا بعد طور ، فيتظاهر أمام كل فريق بأنه من دينه وحزبه ، وبتلك الوسيلة استطاع أن يغتنم مؤازرة نفر من اليهود والمسلمين معا ، غير أن الأحبار اليهود قد خشوا من دعوته على تعاليم اليهودية ، فسعوا به الى السلطان حتى أمر باعتقاله ، وسجنه في احدى قلاع بلغراد ، وهناك توفي في سنة ١٦٧٦ .

جمال أحمد العيسى

سوريا / دير الزور

زكاة الجواهر كيف يتم حسابها ؟

● كيف يتم حساب زكاة الجواهر المملوكة للمسلم في كل عام ؟

سناء آل جراب

سوريا / حمص

العربي

- جاءنا هذا السؤال ضمن رسالة طويلة ، تتضمن أسئلة أخرى عن زكاة الأموال العادية،وعن زكاة فوائد العملة الاجنبية المدخرة في البنوك العربية الخ .

وقد حولنا الرسالة الى جهة اختصاص ، فوافتنا بالاجابة التالية حول السؤال الأول ، وننشرها هنا ، الى أن تصلنا بقية الاجابات على بقية الأسئلة :

أحب أن أنبه أولا الى أن الجوهر قد يعني الأحجار الكريمة ، والجوهر النفيس الذي تتخذ منه فصوص الحلي ونحوها ، وبعض البيئات العربية تتوسع فى دلالته ، فيعني الذهب والفضة ، فتقول لصانع الحلي « صائغ » ، وأحيانا تقول « جواهرجي » .

وزكاة الذهب والفضة والجواهر فيها أمور كثيرة ، واني ذاكر أكثرها شيوعا ، فاذا كان الذهب والفضة في شكل مال نام كالدنانير والدراهم والسبائك غير المضروبة فلا خلاف بين العلماء على أن فيه الزكاة .

واذا كان في شكل حلي مباح فبعض العلماء يعفيه من الزكاة ، وبعضهم قال فيه الزكاة ، واني أوثر قول القائل : « من ملك مصوغا من الذهب أو الفضة نظر في أمره ، فان كان للاقتناء والاكتناز - ذخيرة للزمن - وجبت فيه الزكاة ، لأنه مُرصد للنماء ، فهو كغير المصوغ من السبائك والنقود المضروبة .

واذا كان معدا للانتفاع والاستعمال الشخصي نظرنا في نوع هذا الاستعمال ، فان كان محرما كأواني الذهب والفضة والتحف والتماثيل وجبت فيه الزكاة ، وان كان الحلي معدا لاستعمال مباح كحلي النساء - في غير سرف - وخاتم الفضة للرجال لم تجب فيه الزكاة ، لأنه مال غير نام ، وماوجبت فيه الزكاة من الحلي أو الآنية أو التحف يزكى فيخرج ربع العشر (٢,٥ بالمئة) كل حول ، وهو بشرط أن يكون نصابا ، أو يكمل بمال عنده نصاب ، وهو ٨٥ جراما من الذهب ، أو ٥٩٥ جراما من الفضة ، وتعامل

حوار القراء..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

الحلي من اللآلىء والجواهر للنساء معاملة الذهب والفضة ، فان كانت في حدود المعقول قومت وأخرجت زكاتها .

واذا أردت المزيد فعليك بكتاب فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوي ، أو الفقه على المذاهب الاربعة ، أو أي كتاب فقه معتمد .

مقترحات من القراء باستطلاعات جديدة

● اقتراح من القارىء محمد الخضر من حلب - سوريا - باستطلاع مدينة حلب الشهباء ، وزيارة قلعتها الشهيرة ، وغيرها من المعالم القديمة والجديدة في المدينة العتيدة التي تعتبر العاصمة الثانية لسوريا .

● اقتراح من الأخ عبد الهادي شهاب حمود بجامعة دمشق باستطلاع الجزء المحرر من منطقة الجولان في سوريا ، يقول القارىء عبد الهادي : « وما حثني على الكتابة اليكم هو أنني أسكن في المدينة الجامعية بدمشق مع طلبة من المغرب العربي ، وقد اكتشفت أنهم لايعلمون أن هناك في سوريا منطقة محتلة اسمها الجولان . » .

● اقتراح من القارئة جمالات من المملكة العربية السعودية باستطلاع أوضاع وأحوال المسلمين الاجتماعية والسياسية في يوغسلافيا .

العربي

- نشكر لكل الاخوة القراء اهتمامهم ، ونعدهم بأن تؤخذ كل هذه المقترحات بعين الاعتبار حين مناقشة خطة الاستطلاعات في مجلس التحرير .

فرصة استثمارية جديدة
في عالم الوطني



صندوق الوطني للاستثمار

«أسهم دولية»

تستطيع الآن استثمار مبالغ تبدأ من ١٠٠،٠٠٠ دولار أمريكي في صندوق استثماري يتضمن أسهم شركات رائدة يجري تداولها في أهم الأسواق المالية العالمية وتدار بواسطة شركة بنك الكويت الوطني لإدارة الاستثمارات في لندن.

اتصل بمدير فرعك أو بمسئول حساباتك الشخصية

أو بدائرة الخدمات المصرفية الشخصية على هاتف رقم: ٢٤٤٨٣٥٩

أو بخدمة الوطني الممتازة على هاتف رقم: ٢٤٣٥١٤٦ / ٢٤٦٣٧٥٢

للحصول على كافة المعلومات عن هذه الخدمة الاستثمارية الجديدة.

عالم الوطني يقدم لك الفرص الاستثمارية المختلفة.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك

بنك تعرفه وتثق به منذ عام ١٩٥٢

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

نوفمبر ١٩٨٧ م

قصيدة وصورة

تأليف
د. عبدالغفار مكاوي

٥٠٠ فلس

الكتاب ١١٩

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢١٨ أول نوفمبر ١٩٨٧

من المسرح الأفريقي - ٦

الموت وفارس الملك

تأليف : وول سوينكا
ترجمة وتقديم : د. علي حجاج
مراجعة : د. طارق عبدالله



الأجــوف

للفنان الكويتي

جاسم بوحمد

ربيع الآخر ١٤٠٨هـ - ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٧م .

زفاف ابنة الباشا !

العربي

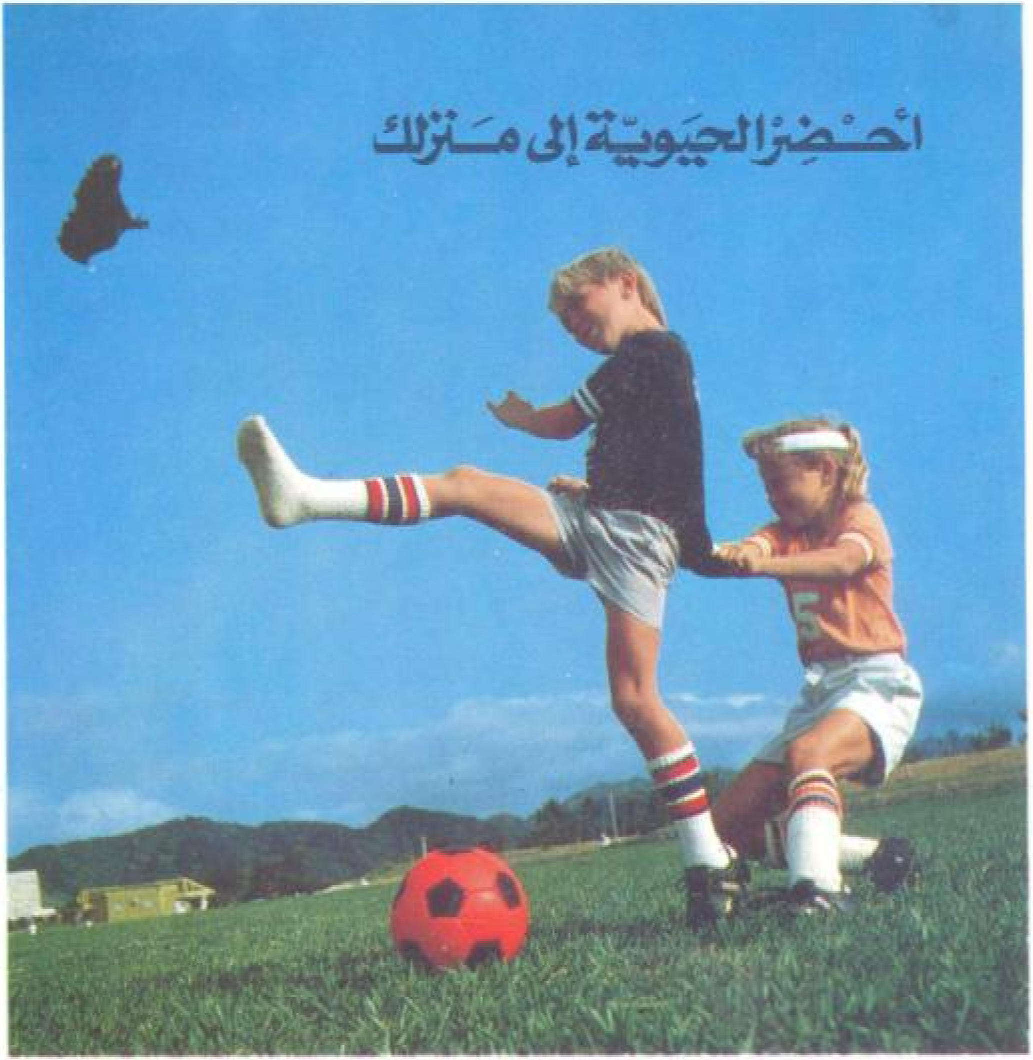




ابتكارات جديدة في طبّ العيون

البرتغال .. مملكة الشمس الغاربة .. !

المضامين العلمية والفنية في المخطوطاتِ العَربيّة



تتميز سانيو VM-D1P بضابط سرعة عالية ١/١٥٠٠ الثانية ذو غلق الكتروني تعطيك حركة بطيئة وإعادة بث صورة بوضوح، لتمكنك من إلتقاط أسرع الحركات، كاللحظات غير المتوقعة والأسرع من أن تراها العين المجردة. إنها مدمجة وخفيفة (١،٧ كغ) مع تعديل رقمي آلي، سهلة الإستعمال تسمح لجميع أفراد العائلة بأخذ أروع التسجيلات. سانيو VM-D1P، احضرها وضع الحيوية في منزلك.



8 VM-D1P



بسرعة ١/٥٠ الثانية تبدو الحركات السريعة غير واضحة بواسطة التسجيل التقليدي.



بسرعة ١/١٥٠٠ الثانية يمكنك ضابط سرعة غلق سانيو VM-D1P الالكتروني تفس المقطع بدقة ووضوح.

سانيو

SANYO

العدد ٣٤٩ السنة الثلاثون ديسمبر ١٩٨٧

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريًا عن وزارة الاعلام
بدولة الكويت

للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL-ARABI

Issue No. 349 Dec. 1987. P.O.BOX 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly-Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry Of Information - State Of Kuwait.

عنوان المجلة

ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت - تلكس: MITR 44041 KT
تليفون فكسيملي ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

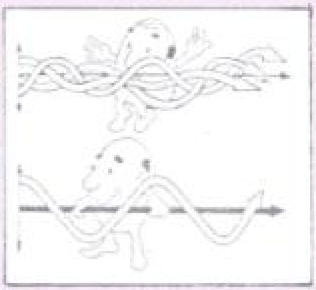
الإشتراكات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ - الكويت
على طالب الإشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقا لما يلي:
الوطن العربي ٤ د.ك - باقي دول العالم ٦ د.ك

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلسًا	تونس ٤٠٠ مليم	الامارات ٥ دراهم
العراق ٢٥٠ فلسًا	الجزائر ٤ دنانير	المغرب ٣ دراهم
الاردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	ليبيا ٢٥٠ درهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	سلطنة عمان ربع ريال
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسًا	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشًا	لبنان ١٥ ليرة	فرنسا ١٥ فرنكا
السودان ٢٠ قرشًا	سوريا ١٠ ليرات	امريكا دولاران

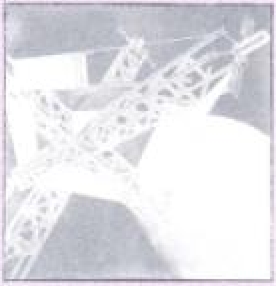
محتويات العدد



«الليزر» حل يبحث عن مشكلة ص ٣٥



العلم وحواس الأطفال ص ١٣٤



الطاقة من الفضاء ص ١٥٠

د. أسامة الخولي



علي ابراهيم عتمان

استطلاعات ومقابلات

صورة الغلاف



حول المضامين العلمية والفنية في المخطوطات العربية .. لوحة للكاتب الغارق في أفكاره بانتظار الالهام . من كتاب (رسائل اخوان الصفا) ١٢٨٧م [طالع ص ٨٨]



فيودوروف وابتكارات في طب العيون ص ١٤٢



البرتغال مملكة الشمس الغاربة ص ٦٨

المراسلات باسم رئيس التحرير.. والمجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.. والوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء.

أبواب ثابتة :

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع



عزيزي القارئ

مع نهاية عام يمضي وعلى أبواب عام جديد ، تقدم لك « العربي » في هذا العدد نخبة من الموضوعات تتناول قضايا الساعة ، فالدكتور عبد العزيز كامل ، وهو الرجل ذو الباع الطويل في الثقافة العربية والاسلامية ، يتناول موضوعا كثر الحديث حوله وانقسمت الآراء تجاهه ، ولكن الكاتب هنا يتناوله تناولا هادئا وواضحا ، فما هي العلمانية حسب وجهة نظره ؟

في مجال العلوم يكتب لك الدكتور عبد المهدي رحمة الله عن « الليزر » الذي شاع استعماله في الكثير من المجالات العسكرية والطبية وغيرها ، لكن كما يقول الكاتب : « الليزر » حل يبحث عن مشكلة ! فما هي المشكلة ؟

ويكتب الدكتور أنيس فهمي عن حالة من الحالات التي تزايدت في عصرنا ، وأخذت تقلق الانسان فيه تتمثل « بالموت المفاجيء » . . فكيف يحصل ذلك ؟ . ولماذا ؟

كما يشاركنا في هذا العدد رفعت سيد أحمد في موضوع يحتاج الى قراءة متأنية ، وهي : كيف يحاول الآخرون احتلال عقلنا ؟ أما الدكتور رضوان السيد فيتعرض لموضوع مازال بعضنا يخوض فيه ويجادل حوله ، هو موضوع المرأة ، وكيف نظر اليها داعية ومصلح اجتماعي هو رشيد رضا .

وتأخذك العربي في مجال الاستطلاعات لأول مرة الى البرتغال ـ البلاد التي اكتشف أهلها أمريكا وحاولوا السيطرة على العالم ـ فكيف هي الآن بعد أن ذهب المجد القديم ، وذهب سالازار أيضا ؟

وفي طب العيون نعرض عليك قضية لصيقة بالسباق العلمي بين الشرق والغرب فما هي ابتكارات السوفييت في طب العيون ؟

وفي مجال الأدب نعرض لك كتابا عن الشعر الانجليزي المعاصر بأجياله وخواصه ومراحله . ويشارك أيضا مجموعة من الكتاب في كتابة موضوعات أخرى علمية وثقافية متنوعة .

هكذا بعناية تختار أسرة « العربي » موضوعات الاعداد التي تقدمها لك ، لأنها تريد أن تضيف الى معرفتك واطلاعك الجديد والمفيد .

أما عدد العام الجديد الذي سيصدر في مطلع سنة ١٩٨٨ فإنه والاعداد اللاحقة له تحمل لك تطورا في التحرير ، أعددنا عدته منذ فترة ، سواء كان ذلك في اختيار الموضوعات أو في طريقة الاخراج وتقديم المادة .

والعربي بك ـ عزيزي القارىء ـ تشد عضدها ، وإليك تتوجه ، وكل عام وأنتم بخير .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

النظام العربي والمستقبل...

ثلاث ظواهر تعالج « الموضوع العربي » تعاقبت في الأشهر الثلاثة المنصرمة ، وكلها تبحث - من مداخل مختلفة - عن حلول ومخارج للوضع العربي الذي بلغ حد التأزم حتى أصبح معضلة .

أول الظواهر الثلاث من حيث الأسبقية الزمنية ، ملتقى علمي دراسي سُمّي بالمؤتمر الاستراتيجي الأول ، عقد في رحاب الجامعة الأردنية في منتصف سبتمبر الماضي ، ونظمه مركز الدراسات الاستراتيجية بالجامعة الأردنية ومركز الدراسات الاستراتيجية بمؤسسة الاهرام ، وقد قدمت في هذا الملتقى مجموعة دراسات قيمة حول الوضع الاستراتيجي العربي ومنحاه الخطير في السنوات القليلة الأخيرة .

وثاني هذه الظواهر ، ملتقى علمي آخر عقد في تونس في شهر أكتوبر الماضي ، وحضره أيضا مجموعة من المهتمين بالشأن العربي والقضية العربية ،

وقدمت فيه دراسات علمية متعمقة ، وكان تحت عنوان « مستقبل الأمة العربية .. التحديات والخيارات » .. وقد أعد لهذا الملتقى مركز دراسات الوحدة العربية ومقره بيروت ، وعمل في المشروع لسنوات عديدة نخبة من الدارسين العرب كان همهم استشراف البدائل المستقبلية لهذه الأمة .

أما ثالث هذه الظواهر فسياسي ، حيث تنادى قادة العرب الى مؤتمر لهم يعقد في عمان ، انتظرناه طويلا ـ خمسة أعوام على وجه التحديد ـ حتى يعقد لتدارس ما يمكن الخروج به من حد أدنى عربيا ، ويلاقي هذا التأزم المعضل في الوطن العربي ، ويدرس طرق وقف الهجمة الضارية على هذه الأمة .

جوهر الأزمة المعضلة :

■ الظواهر الثلاث بجانبيها العلمي البحثي والسياسي ، تنطلق من قاعدة واحدة ، هذه القاعدة التي يشعر بها كل عربي صاحب بصر وبصيرة دون استثناء ، هي أن النظام العربي برمته تحت التهديد ، وأن الأرض تميد تحت أقدام الجميع ، البعض عن ذلك غافل ، أو في سبات عميق ، والبعض يعتقد أن التهديد لا يعنيه في هذه المرحلة على الأقل .

ولكن الحقيقة ـ إن نظرنا من مصلحة عربية شاملة ـ أنه لا أحد محصن من هذا التهديد ، واذا كان التهديد بعيدا اليوم عن البعض ، فإنه سيكون في بؤرة التهديد غدا ، لأن المستهدف هو الأمة العربية ، كمفهوم حضاري وكأمل شعبي مرتجى .

ولست أعني بالتهديد هنا ، الذاتي أو المرحلي ، أو حتى القُطري ، التهديد كما أتصوره هو للنظام العربي ككل : أي أن نكون عربا أولا نكون ، أن نستطيع أن نتحرك على المسرح الدولي معبرين عن مصالحنا القومية ، أو نكون تابعين فرادى لهذه القوة الدولية أو الأقليمية أو كليهما ، أن نحافظ على أرضنا العربية أو نفقدها جزءا جزءا للطامحين من حولنا ، أن تكون لنا ارادة تعبر عن مصالحنا أم تسلب تلك الارادة ، أن نستطيع أن نتحكم في تناقضاتنا الفرعية من أجل مواجهة التحديات الرئيسية أم تغلب علينا الأثرة والأنانية فننحني للتحدي الرئيسي ، من أجل حل تناقض فرعي له مردود مؤقت ؟

النظام العربي برمته يعيش تحت التهديد

جوهر الأزمة المعضل ـ على المستوى الاستراتيجي ـ أن هناك تناقضا بين المصالح القومية العربية الكبرى ، وبين الاجتهادات القطرية في أولويات المشاكل ، وفي الطرق والمسالك التي يجب اتباعها لحل تلك المشاكل .

فالأزمة اذن ذات مستويات ثلاثة :

المستوى الاول

أن العرب ـ معظم العرب على الأقل ـ يعتقدون بأنهم ينتمون الى وطن عربي سكانيا وحضاريا واجتماعيا في رقعة جغرافية من الأرض متقاربة ، لها مصالح حيوية ، ولها أعداء ينظرون الى تجمعها على أنه خطر داهم ضد مصالحهم .

المستوى الثاني

أن الأقطار العربية المكونة لهذه الرقعة الجغرافية تنظر الى المشكلات التي تواجهها الامة بأولويات تختلف ـ بشكل جذري أو نسبي ـ من قطر الى آخر .

المستوى الثالث

أن ذلك الاختلاف الجذري أو النسبي في الأولويات يزيده تصعيدا اختلاف آخر في الطرق والسبل التي يجب أن تتخذ لملاقاة تلك التحديات أو في طرق حلها .

ولم تكن الأزمة المعضل في تاريخنا الحديث جديدة ، ولكن الجديد فيها ـ على الاقل من الخمس الى السبع سنوات الماضية ـ هو عدم الوصول الى حد أدنى متفق عليه ، ووضع أوزان نسبية للأولويات واحتمالات تطورها ، ومن ثم مواجهة هذه التطورات جماعيا .

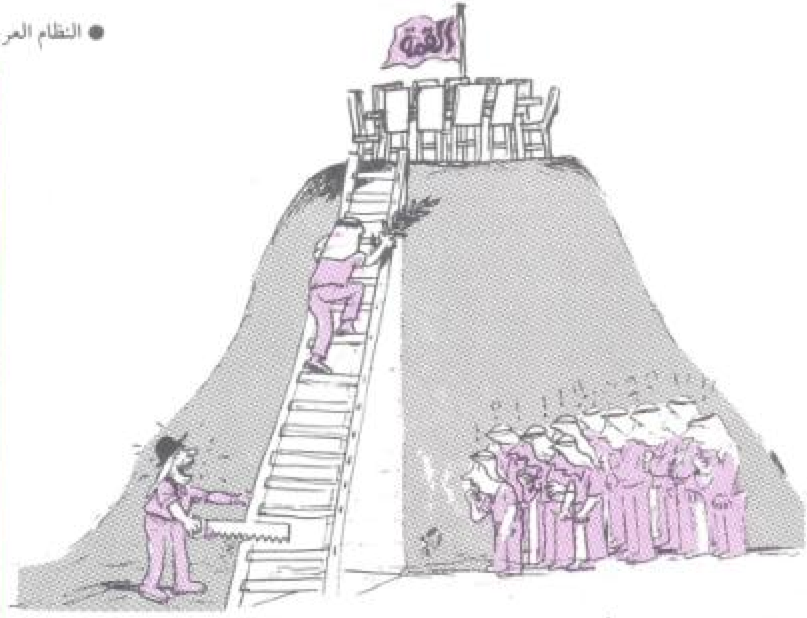
وأي قراءة مستنيرة للماضي القريب سوف توصلنا الى صيغة ثابتة هي أن تقاربنا كعرب ـ حتى على الحد الأدنى ـ تنقذنا جميعا من الوقوع فرادى تحت رحمة هذا الخصم أو ذاك . . وكلما تفرقنا تعرضنا أكثر وأكثر للاختراق .

وتلك هي دروس التاريخ من الماضي القريب .

ولنذكر بعضا منها بشيء من الايجاز :

حضروا ثمانية وعقدوا ثمانية !

■ النظام العربي بمعناه السياسي والاستراتيجي هو مفهوم حديث ، استعرناه من علم الجغرافيا السياسية الحديثة الذي أطلق مفهوم « النظام الاقليمي » على المنظومات الاقليمية المتجانسة التي تخضع علاقاتها وتفاعلاتها لقواعد وقوانين منظمة ، بينها وبين نفسها ، وبينها وبين الآخرين ، وكان لكتابنا الاستراتيجيين العرب أن يضيفوا بعض المفاهيم الأخرى كي يتحدثوا عن



« نظام عربي » فقد أضافوا الى تلك المفاهيم العامة السابقة للنظام الإقليمي ، التجانس الثقافي الفريد والعمق التاريخي والحضاري والمصالح التي تميز النظام الاقليمي العربي .

إلا أن ما أضافه الكتاب والاستراتيجيون العرب من مفاهيم على النظام الاقليمي كي يوصف ـ بالنظام العربي ـ أقول لعل ما أضافوا اليه هو أحد مكونات التعويق في أن يلعب النظام العربي دوره في التطور التاريخي ، فالمشاعر والأماني والتوقعات أقوى من الحساب المصلحي البارد ، وعندما تتفق مجموعة من الدول متقاربة جغرافيا لوضع قوانين وقواعد فيما بينها لإدارة سياستها الاقليمية ، هذه القوانين والقواعد المحسوبة تحقق للجمع الداخل كأطراف في النظام مصالح معينة ، وتعلي الولاء للسلطة الاقليمية شيئا فشيئا ، وتقلص السيادة الجزئية شيئا فشيئا .

وهناك أمثلة كثيرة ـ دول البنلكوس ، السوق الأوربية المشتركة ـ الكوميكون ، دول النوردك (الشمال الأوربي) وأمثلة أخرى عديدة . ولكن هذا الحساب البارد المصلحي ـ إن صح التعبير ـ تزيده حرارة التفاعل العربي ، فلا تترك للقواعد والقوانين المتفق عليها أن تأخذ طريقها لاتمام التفاعل المرجو .

فالبعض يعتقد ـ حسب هذا الترتيب السابق ـ أن العربة قد وضعت أمام الحصان ، وليس هناك طريق لإصلاح الوضع إلا بجر الحصان ولو قسرا لوضعه أمام العربة !!

لماذا يتجه بعضنا إلى استسهال الرفض.. بدلاً من استيعاب المشكلة والعمل على حلها ؟

وتلك إحدى معضلات العمل العربي اليوم . . كيف يتعامل مع نفسه . . ؟ ! فهو بين واقع إقليمي وبين أمل وحدوي شامل ، حائر ومتناقض بل وفي بعض الأوقات متصارع .

والحلول الوسطى إما ضعيفة أو غير فاعلة ، ومسيرة العرب السياسية السلمية في إخراج نظام إقليمي عربي يرتضونه . . هو البحث الدائم عن تلك الحلقات الوسطى بين الواقع المعاش والأمل المرجو ، وفي طريق هذا البحث يحتدم الصراع ، وفي بعض الأوقات يخرج عن القواعد المحسوبة فتتعرض الأمة كلها للخطر .

ولنعد الى التاريخ القريب لنرى حركة الواقع وهي تؤكد هذا الاتجاه . فبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء ، وضعت الأقطار العربية - في معظمها - تحت حكم الانتداب البريطاني أو الفرنسي وإلى حد أقل الايطالي والاسباني .

وفيما بين الحربين قامت حركات وطنية عديدة تطالب باستقلال قطري ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فانقسم العرب فريقين : فريق مع الحلفاء وتوقع منهم مكاسب قطرية في الأساس وقومية بعد ذلك ، وتحرك هذا الفريق من العرب بمشاريع وحدوية فدرالية خاصة في إقليم سوريا الكبرى . أما الفريق الآخر فقد رأى ضرورة فتح الحوار مع دول المحور لعلهم يفوزون بتصريح يؤيد آمال العرب في الاستقلال . الفريق الثاني حظي بتصريح هو تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ ، الذي تضمن اعتراف ألمانيا وايطاليا باستقلال (البلاد) العربية واهتمامها وعطفها على ما يقوم به العرب من جهود في سبيل تحقيق استقلالهم . ولكن الحرب لم تنته سنة ١٩٤٠ ولا هي انتهت بانتصار دول المحور .

الفريق الأول الذي نجحت مراهنته على الحلفاء بانتصارهم ، كان في ذهنه كثير من التشويش تجاه الاستقلال القطري ، أما التوجه الوحدوي فقد كان لدى المنادين به (تصورات) مختلفة تضيق وتتسع حسب وجهات نظر مقدمي المشروع من القادة العرب آنذاك .

ولم يكن الحلفاء من جهة ، ولا قادة الدول العربية المستقلة من جهة أخرى فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، قادرين أو راغبين في ايجاد اتحاد عربي قادر على العيش ، ولعل من سخرية القدر أن تنشر منذ فترة وثيقة حرب بريطانية عبارة عن ملخص لاجتماع بين وزراء بريطانيين أربعة للخارجية والمستعمرات والهند والشرق الأوسط في ١٩٤١/٩/٢٦ برأسه وزير الخارجية



البريطاني آنذاك ، تقول تلك الوثيقة من بعض ما تقول (إن للاتحاد العربي جاذبية عظيمة وفوائد كثيرة ، الا أنهم اعتبروه غير قابل للتنفيذ ، نظرا للصعاب الكثيرة التي تعترضه وأهمها الخلافات العربية . . . .)

وقد نمت فكرة تعاون عربي مشترك باتجاه السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية ، تحركت فيها كل من بغداد والقاهرة ودمشق والرياض لاجراء مشاورات تمهيدية للبحث عن صيغة مرضية . .

في الوقت الذي كانت فيه معظم أقطار الوطن العربي الأخرى تحت الاحتلال المباشر ، وتعددت صيغ اقتراحات ذلك التعاون العربي من اتحاد فدرالي الى اتحاد كونفدرالي بدول عربية وحدود جغرافية مختلفة ، وأخيرا دعا رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس في ١٢/٧/١٩٤٤ ، الحكومات العربية التي شاركت في سلسلة المشاورات لارسال مندوبيها للاشتراك في (اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام) التي ستتولى صياغة مشروع لتحقيق الوحدة العربية .

واجتمعت اللجنة يوم ٢٥ ابريل ١٩٤٤ في الاسكندرية بحضور مندوبين عن ثمانية أقطار عربية هي : مصر وسوريا ولبنان والعراق والأردن والسعودية واليمن وعرب فلسطين (ثمانية) وعقدوا (ثماني) جلسات متوالية ، واستبعد المجتمعون مجموعة من البدائل المطروحة ، ثم اتفق على تشكيل مؤسسة عربية تسمى (جامعة الدول العربية) تضم الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام اليها ، وخلال عام من العمل ظهر ميثاق جامعة الدول العربية في ٢١ ابريل ١٩٤٥ .

كيف يُمكن التوفيق بين المصالح القومية والاجتهادات والتوجهات القطرية؟

وبذلك ولد أول تشكيل إقليمي عربي متفق عليه ينظم العلاقة بين الدول العربية المستقلة في ذاك الوقت ، انضمت اليه الدول العربية الأخرى تباعا بعد ذلك ، وأول ما يلفت النظر هنا ظهور تعاون عربي في مرحلة وسط بين المأمول (الوحدة العربية) والواقع (القطرية العربية) .

نلاحظ هنا أن الجامعة هي جامعة (الدول العربية) في الوقت الذي تنص فيه معظم الدساتير للأقطار العربية على أن « الدولة هي جزء من الأمة العربية » ، كما ينص كذلك كثير من دساتير الأحزاب العربية في مختلف ديارها

على أن « الأمة العربية أمة واحدة ذات كيان واحد » !

وقد اعتبر البعض أن ميثاق الجامعة هو حد أدنى يمكن البناء عليه وتطويره ، كما رأى آخرون أنها بداية متواضعة ، ورأى فريق ثالث أنها أداة معطلة لمسيرة الوحدة . . من هنا جاءت المحاولات المتكررة لتعديل ميثاق الجامعة العربية . الا أن المؤسسة بحد ذاتها استطاعت في أوقات الصعود القومي أن تكون مسرحا لكثير من الانجازات العربية ، كما أنها في أوقات التردي تعجز عن الحفاظ على الحد الأدنى المبتغى ، فالقضية اذا ليست نصوصا وهياكل قانونية تقيد أطراف النظام العربي بسلوك إقليمي ودولي معين ، كما أن هذه النصوص من جانب آخر لا تقف حجر عثرة اذا أصبح لدى الأقطار المكونة لها ارادة سياسية . فالمشكلة اذا كما قلنا سالفا ، ليست شكل الجهاز ، ولكن كيف يتعامل النظام العربي مع نفسه . . فالقواعد لم تستقر . .

.. والقمة العربية :

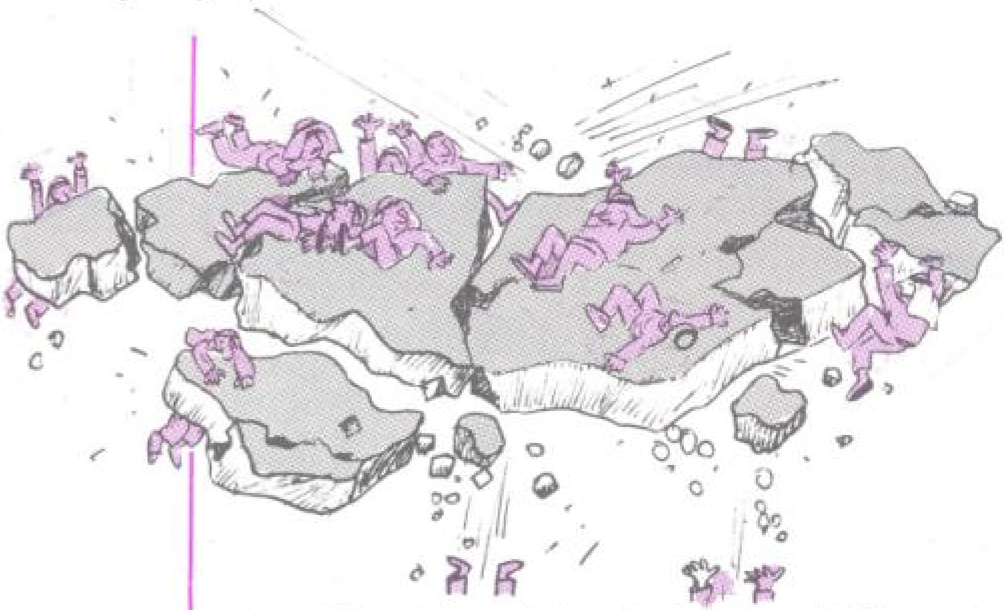
■ مؤتمرات القمة العربية هي هيكل آخر من هياكل التعاون في إطار النظام العربي ، فبعد أن ضعفت أجهزة الجامعة نتيجة المشاحنات والاختلاف في الاجتهادات السياسية والاجتماعية ، تبلور الموقف للبحث عن صيغة حد أدنى مشتركة لملاقاة الأخطار الخارجية المحدقة ، وتبين حجم الاحتياج لجماعية المواجهة ونقلها من المواجهة بالاستنكار والعزلة الى المواجهة بالتحدي والعمل الجماعي .

الا أن قراءة متأنية لأسباب مؤتمرات القمة العربية ونتائجها التي مضى على انقضاء أولها ثلاث وعشرون سنة وعقدت حوالي ثلاثة عشر اجتماعا للقمة . . هذه القراءة توصلنا الى ملاحظات أربع هي :

الملاحظة الأولى : أن هذه المؤتمرات عقدت من أجل مواجهة أو حل قضايا طرأت في الأشهر القليلة السابقة لعقد المؤتمر . على سبيل المثال تحويل مجرى نهر الأردن في المؤتمر الأول ، ومؤتمر اللاءات الثلاث في الخرطوم (الرابع) أغسطس ١٩٦٧ . أي أن هذه المؤتمرات لم تبن على نتائج سابقة ولا كانت تمهيدا لخطوات قادمة .

الملاحظة الثانية : ان معظم مؤتمرات القمة ـ وخاصة التي عقدت بعد حرب ١٩٦٧ ـ كثيرا ما قاطعتها دولة عربية أو أكثر لأسباب مختلفة ، ولكن ظاهرة المقاطعة تكررت وتكاد تصبح القاعدة التي تتسم بها هذه المؤتمرات ،





وفي بعض الأوقات ينخفض التمثيل ، فلا يصبح القرار ذا ثقل سياسي مطموح له . وفي حالة المقاطعة الواسعة لا يصدر بيان ختامي (كما حدث في مؤتمر القمة الخامس في الرباط ديسمبر ١٩٧٩) .

الملاحظة الثالثة : أن فترات انعقاد مؤتمرات القمة منذ بدأت كانت تعقد في المتوسط كل عامين مرة ، وفي بعض الأوقات مرتين في العام ، عدا الفترة من ديسمبر ١٩٦٩ « القمة الخامسة » ونوفمبر ١٩٧٣ « القمة السادسة » اذ امتدت هذه الفترة الى ثلاث سنوات ونصف ، وبين القمة قبل الأخيرة ، (أغسطس ١٩٨٢) والأخيرة (عمان نوفمبر ١٩٨٧) امتدت الفترة إلى أكثر قليلا من خمس سنوات ، وإن تخللتها قمة غير عادية في الدار البيضاء (أغسطس ١٩٨٥) لبحث حرب المخيمات فقط ، في فترات الانقطاع هذه تتصاعد المشكلات العربية العربية من جهة ، والعربية الخارجية من جهة أخرى .

الملاحظة الرابعة : أن أحد مكونات القرارات في القمة العربية هو اتخاذ موقف (جماعي) مؤيد أو معارض لقرار كان قد اتخذ قطريا ، أي أن بعض الأطراف في النظام العربي تتخذ قرارا فرديا في موضع ما ، وتطالب الآخرين بتأييده ، أو يجتمع الآخرون للتأثير في ذلك القرار .

من هذه الملاحظات نستطيع أن نصل الى نفس الخلاصة التي واجهت مسيرة الجامعة العربية وهي : كيف يتعامل النظام العربي مع نفسه ؟

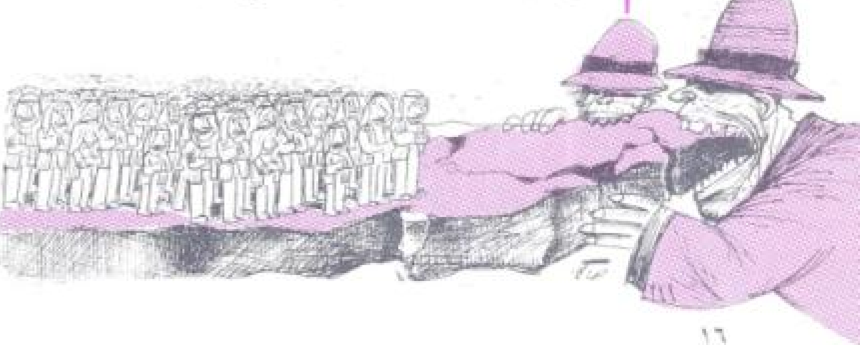
من مسيرة الجامعة العربية ، ومسيرة مؤتمرات القمة والمحاولات المتكررة للوحدة والانفصال والتعاون والاختلاف ، نستطيع أن نقول إن أحد التحديات والمخاطر التي يتعرض لها النظام العربي وبالتالي الأمن العربي هو اختلال العلاقات العربية ، الأمر الذي يؤدي الى غياب إرادة عربية واحدة ، أو غياب حركة موحدة من دولة أو عدة دول لها ثقل بشري وسياسي لفرض حد أدنى من التنسيق .

ولعل ما أدى الى تفاقم المشكلة في السنوات العشر الأخيرة هو خروج مصر من جهة ، وانشغال العراق من جهة أخرى ، مما أضعف بشدة امكانية تحقيق حد أدنى من الاجماع العربي . ولعل جذور ذلك تكمن في الخلاف بين أعضاء النظام العربي حول الاستراتيجيات أو السياسات الواجب اتباعها في مواجهة التهديد الاسرائيلي من الجار الدخيل (اسرائيل) ، وبعد ذلك الخلاف بين أعضاء النظام العربي في مواجهة مخاطر الحرب العراقية الايرانية ، من الجار (الأصيل) ، ولا شك أن هذا الخلاف - أو الخلافات الثانوية الأخرى - يجد بعض التفسير لأسبابه من اختلاف الأهمية النسبية التي تضعها الأطراف المشتركة في النظام العربي لكل منها .

وماذا عن المستقبل ؟

■ لعل الرأي العاقل والمتزن يتجه بعد دراسة ما سبق ، للعمل على الوصول الى حقائق تبدو ثابتة ، منها :

أولا : أن الهجمة على الوطن العربي - سواء من الجيران (دخيل أو أصيل) أو من الخارج ، تستهدف إضعاف هذا النظام وتطويعه ، وكل الشواهد تقول إن الأعداء يتعاونون بكل الطرق وبموازين نسبية مختلفة تختلف باختلاف المصالح ، ولكن مبدأ التعاون بينهم قائم سواء كان ذلك في تشاد ، أو في جنوب السودان أو في الخليج أو في لبنان أو على دول الطوق العربية



تقاربنا ينقذنا من الوقوع تحت رحمة الأعداء.. وتفرقتنا يعرضنا للاختراق

بمحاذاة (اسرائيل) أو على الشعب الفلسطيني . . فالتهديد قائم ومتصل ومتشابك . .

ثانيا : ان النظام العربي قد اضطر للالتجاء إلى (المجتمع الدولي) على مافيه من تناقض مصالح ، كي يحصل على حد أدنى أو يحاول الحصول عليه ، فالحديث في القضية الأولى الأم (فلسطين) حديث عن مؤتمر دولي ، والحديث عن القضية الأخرى (الحرب العراقية الإيرانية) حديث عن « تطبيق قرار مجلس الأمن » . . والغائب في الحالين هو الارادة العربية الموحدة !

ثالثا : تحت ذهنية (الأمن المحاصر) شكّ كثير من الأطراف العربية في بعضها البعض ، وتحولت المعارك الفكرية والاعلامية الى استسهال الرفض بدلا من استيعاب المشكلة ومحاولة الخروج بحلول عملية لها .

واذا كان لتجارب الآخرين معنى لدينا ، فلننظر الى أوروبا من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر ، لقد كانت مركزا للكون ، وكانت قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية تسمح لها بأن تفرض نفسها على العالم ، إلا أن التنافس بين الأشخاص والشهوات والأنانية وعدم التسامح والمفاهيم السياسية الضيقة أولجها في حروب دموية كانت قمتها حربين عالميتين قتل فيهما الملايين من البشر ، الى أن أبدلت المعارك العسكرية بتعاون اقتصادي .

واذا عدنا الى وطننا العربي فلنذكر بإحدى مقولات الوثيقة التي أشرت اليها في مطلع هذا الحديث وهي (مستقبل الأمة العربية . . التحديات والخيارات) . تقول احدى الفقرات (يذكرنا التاريخ العربي بأنه لم يكن هناك ديمومة لما يمكن أن يسمى (حالة وحدة) أو (حالة تجزئة) ، كلتا الحالتين ما هي الا لحظتان تاريخيتان مؤقتتان ، وكل منهما حمل في أحشائه البذور الجنينية للحالة الأخرى) .

فهمي لهذا الكلام أن دفع الخطر الموجه ضد مكونات النظام العربي ـ مهما اختلفنا على أوزانه النسبية ـ هو مهمة عربية تفوق اختلافنا في تقييمه ، فالخطر خطر سواء كان صغيرا أو كبيرا ، وأن رجال السياسة وأبطال العالم الذين خلدهم التاريخ ليسوا أولئك الغزاة الذين اشتهروا بالعنف ، وانما أولئك الحكام الذين تمتعوا ببعد النظر ، وعرفوا كيف يلمون شمل شعوبهم وكيف يثرونها .

محمد الرميحي

العلمانية
بين الدين والدولة والحياة

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

العلمانية ، كأي مفهوم واسع الانتشار ، تتعدد فيه التعاريف ، وإن كانت تدور حول محور أساسي هو العناية بأمور الدنيا ، فكرا وعملا ، عناية قد تصل إلى إنكار كل ما عداها ، وقد تعترف به اعترافا جزئيا وتتعايش معه .

لنعد إلى قاموس اكسفورد لنقرأ فيه بعض التعاريف عن العلمانية كمذهب ، تمييزا لها عن الدينية :

١ ـ أن تكون الأخلاقيات لصالح البشر في هذه الحياة ، مع استبعاد أي اعتبارات تأتي من الايمان بالله أو حياة أخرى .

٢ ـ أن يقوم التعليم على أساس علماني بحت (أي دنيوي لا علاقة له بالدين) .

٣ ـ هي الارتباط بالحياة وقضاياها وتمييز ذلك عن الكنيسة والدين .

٤ ـ العلمانية هي اللادين .

٥ ـ هي غير المقدس .

٦ ـ وأحيانا يقصد بها غير المتعلم .

وذكر القاموس تواريخ هذه التعريفات ، كما تحدث عن « علمنة الكنيسة » ، ويقصد بها توجيه ممتلكاتها من الخدمة الدينية إلى الخدمة المدنية . وفرّق بين رجال الكنيسة « الدينيين » ، وهم المتفرغون لخدمتها ، و « العلمانيين » الذين يعيشون بين الناس ويخالطونهم . . فكأن في الكنيسة دينيا وعلمانيا .

ويمتد التمييز ليشمل آفاق المعرفة : فالعلمانيون هم الأدباء والمفكرون والفنانون غير المعنيين بالشئون الكنسية . .

ويمتد أيضا إلى المؤسسات والمباني : فالمنشآت العلمانية هي القصور والمتاحف ودور الأوبرا ، تمييزا لها عن الأبنية الدينية كالكنائس .

من أجل ذلك كان من « المنهجي » الاتفاق ـ بين المتحاورين ـ على « المفهوم المقصود » من العلمانية ، وما مجاله وأبعاده . ولهذا القول تفصيل يحسن معه أن نرجع إلى جذور في العلاقة بين الدين والدولة والحياة . . وبين العلمانية أو « شئون الدنيا » .

ولنبدأ باليهودية :

وحين نرجع إلى العهد القديم ، بدءا بأسفاره الخمسة التي تحمل اسم التوراة أو توراة موسى (وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد

والثنية) ، والأسفار اللاحقة ، بدءا من يشوع إلى القضاة والملوك والأحبار والأنبياء اللاحقين . . . وإلى كتب تفسيرها (التلمود بقسميه المشناة والجمارة : أي صورة الشريعة وملحقها) ، نرى تعددا في مواقف اليهود منها .

هذه الأصول والشروح كثيرة التفاصيل في أمور الدين والحياة اليومية والرعوية والزراعية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية . هي أشبه ما تكون بمحيط مائج من الأحداث والأحكام والنصوص الأدبية . . وهي في هذا لا تفصل بين الدين والدنيا .

من اليهود من يقف عند قبول الأسفار الخمسة الأولى ، ومنهم من يقبل العهد القديم كله (على خلاف في عدد الأسفار المعتمدة) . ومنهم من يجعل للتلمود وأقوال الشراح الهيمنة على نصوص التوراة . ويبدو من هذا أنه حين تضيق دائرة النصوص ، تتسع معها دوائر الدنيا أو « العلمانية » ، وإن كان الأغلب عندهم هو الترابط الوثيق بين النصوص والحياة اليومية .

أما المسيحية :

فكان لها موقف آخر :

كان في اليهودية ملوك أنبياء ، أو أنبياء ملوك .

وجاء المسيح عليه السلام يتحدث عن مملكة السماء ، وأن الانسان لا يستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد : الدين والدنيا . والحواريون الذين اتبعوه تركوا أعمالهم وفرغوا له . .

وأراد اليهود أن يختبروه في أمر العلاقة بين الدين والدولة ، وقد مارس اليهود توحُّدهما من قبل ، ومارسوا السلطان الدنيوي باسم الدين ، فأرسلوا إليه من يسأله :

« يا معلم ، أيجوز تعطي جزية لقيصر أم لا ؟ فَعَلِمَ يسوع خبثهم . وقال : لماذا تجربونني يامراءون ؟ اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا . . (انجيل متى ٢٢ : ١٥ - ٢٢) .

وهذا النص صريح الدلالة على ازدواج السلطة في المجتمع : الدين والدولة . فهذا الفصل أو التمييز ليس طارئا على الفكر المسيحي ، بل هو من صميم تكوينه ، الذي يصل أحيانا إلى التناقض بين خدمة السيدين . . وهي صورة تختلف عما كان في اليهودية وعما سنراه في الاسلام .

ولقد مرت المسيحية أول أمرها في مرحلة استضعاف كانت فيها تحت سيطرة دولة لاتؤمن بها ولا ترضى بوجودها . وهذا موقف الدولتين الرومانية والبيزنطية في عهودهما الوثنية . وخضع المسيحيون لسلطان الدولة ، وتحملوا كل الأذى والتضحيات ببطولة وإيمان . ثم جاءت مرحلة القوة والظهور عندما آمنت الدولة بالمسيحية وأخذت قوة الكنيسة في الزيادة ، ونفوذها في الامتداد . وتوسعت في امتلاك الأرض وجمع الأموال . بل وتكوين الجيوش ومنازعة الحكام ، والسيطرة على الحكم حين يستطيعون ، وشهدت أوروبا هذه الملاحم ، وظلت كنائس الشرق على وفاء للمبدأ الانجيلي « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

وحدث الضغط على هذا الامتداد الكنسي من جهتين : جبهة داخلية يمثلها الاصلاح الديني وقيام البروتستانتية في اوروبا وبخاصة في القطاع الشمالي والأوسط (في المانيا على يد لوثر وفي سويسرا على يد كلفن) وارتبط هذا الاصلاح بنمو الرأسمالية والتصنيع وقيام الدول القومية التي عاونت كنائسها المحلية على بناء شخصيتها . ، وجبهة خارجية تمثلها رغبة الحكام في التحرر من نفوذ الكنيسة البابوية .

وكان الاتجاه العلماني مستفيدا من هذا كله : بتقليص مساحة « المقدس » ، واحتلال مواقع في ساحته . وحل عندهم الفكر العقلاني والعلمي محل الايمان الكنسي القديم .

وزاد من مكانة هذا الاتجاه الجديد ما كسبه « الانسان » من كشوف العلم ، وما ابتكره من أدوات السيطرة على مكونات البيئة الطبيعية .

وعندما أرادت الكنيسة أن تواجه الزحف

العقلاني لم يجد أصحابه (وهم الحكام والعلماء) إلا أن يحاصروا الكنيسة في مواقعها لتدع للعلمانية النفوذ والمجال الأوسع .

وتمضي المؤلفات التي تؤرخ لأوروبا منذ عصر النهضة في تعداد كشوف الانسان وأبطال الكفاح ضد الغموض العلمي . . .

أعظم حادث

ويذكر « بيتر برك » أن الفرق الكبير بين النظرة في القرن السادس عشر والقرن العشرين يمكن أن نلخصها في هذين الاقتباسين . فلقد وصف فرانشسكو لوبيز (١٥٥٢) كشف أمريكا بأنه أعظم حادث منذ بدء الخليقة . وفي عام (١٩٦٩) عندما هبط أول إنسان على القمر قال ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة : إن هذا هو الاسبوع الأعظم في تاريخ العالم منذ بدء الخليقة .

كما يذكر أن تعبير العلمانية بمفهومه الحديث يرجع استخدامه إلى القرن التاسع عشر ، ولا يلتفت الناس كثيرا إلى التطور الطويل الذي مر فيه التعبير . وأنه ليس من اليسير تحديد الخط الأساسي في اتجاه العلمانية . ولكن يمكن ذكر عوامل منفصل بعضها عن بعض ، وصياغتها في منظومة فكرية . هذه العوامل هي :

١ - تدهور سلطان الكنيسة .

٢ - زيادة قوة « الآخر » ونعني به غير رجال الكنيسة .

٣ - تراجع مكانة « المقدس » .

٤ - حلول الأخلاقيات الأكثر مادية محل القيم الروحية (ص ٢٩٣ - ٢٩٤) .

فالعلمانية هي الجزء الآخر النامي المقابل لتراجع الكنيسة أو الدين في حياة الغرب .

ولك أن تطبق هذه العوامل على آفاق الحياة الغربية الفكرية والمادية : التاريخ . الدين . الكتب السماوية . . كل ذلك يدرسونه مع تنحية القداسة عنه . هذا هو النهج العلماني عندهم لمن شاء أن يتبعه وهم كثيرون ، ومنهم بعض أبناء الاسلام .

وإن التاريخ يتداوله الاستمرار والتغير ، وإن التغير يزداد سرعة مع تطور الحياة وتوالي الكشوف العلمية . وفي التغير شمول لايدع جانبا من جوانب الحياة دون أن يطرقه . ومن هنا وجد الدين نفسه في حاجة إلى التجدد عندهم والتقدم إلى مواقع الخدمة في الحياة ، تخفيفا لآلامها ، وعونا هو من الصور الجديدة لدور الكنيسة .

وصفوة القول أنه مع الزحف العلماني في الغرب ، إلا أن الكنيسة تحاول أن توثق روابطها بالمجتمع والحياة وذلك بتجديد وتنويع أساليبها مستفيدة من معطيات العلم الحديث ، والميدان متسع أمام أكثر من اتجاه ، وهو يزداد اتساعا مع سير الحياة .

في المجتمعات الاسلامية

إن مفهوم « الدين » في الاسلام يجمع بين الشمول الزماني والمكاني والموضوعي الذي يمثله قول الله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . . » (الأنبياء : ١٠٧) . وهو الفطرة في قوله تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » (الروم : ٣٠) .

وإن منهج القرآن في ذكر الأحكام هو « تفصيل مالا يتغير ، وإجمال ما يتغير » وهذا (كما يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر في كتابه الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٨٩ وما بعدها) من ضرورة خلود الشريعة ودوامها . فليس من المعقول أن تعرض شريعة جاءت على أساس من الخلود والبقاء والعموم - لتفصيل أحكام الجزئيات التي تقع في حاضرها ومستقبلها . فإنها مع كثرتها الناشئة من كثرة التعامل وألوانه ، متجددة بتجدد الزمن وصور الحياة . فلا مناص إذاً من هذا الاجمال والاكتفاء بالقواعد العامة والمقاصد التي تنشدها للعالم . وبإزاء هذا حث على الاجتهاد واستنباط الأحكام الجزئية التي تعرض حوادثها من قواعدها الكلية ومقاصدها

العامة . . . . . وقد مهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده طريق الاستنباط لمن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم ، وبهذا اتضح مقدار سعة هذه الشريعة وتناولها لكل ما يجد في الحياة ، وأنها بحق صالحة لتنظيم جميع الشئون ، اجتماعية أو فردية إلى يوم الدين . . وقد درس الشيخ شلتوت بعد هذا مكانة السنة في التشريع . وبين أن السنة أقسام . منها ما هو تشريع وما هو غير تشريع (ص ٤٤٩ - ٥٠٥) وميز بين التشريع العام والخاص : ما صدر عن الرسول على وجه التبليغ بصفته رسولا ؛ وما صدر عنه بوصف الامامة ، وماصدر عنه بوصف القضاء .

أما ما ورد عنه وسبيله الحاجة البشرية كالطعام والشراب ، وما سبيله التجارب كالزراعة والطب ، وما سبيله التدبير الانساني في الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش ؛ فليس شرعا يتعلق به طلب الفعل والترك ، وإنما هو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول عليه الصلاة والسلام فيها تشريعا ولا مصدر تشريع . . (ص ٤٤٩ - ٥٠٠) .

فعلماء المسلمين متفقون أن الكتاب والسنة مصدران تستنبط منهما الأحكام الشرعية . ويأتي من بعدهما الاجماع والقياس ، وهما محل اتفاق جمهور المسلمين (وإن خالفت عنهما بعض الفرق) . . أما المختلف فيه فهو الاستحسان والاستصحاب والمصلحة المرسلة والعرف وقول الصحابي وشرع من قبلنا .

وفي حديثنا هذا سنقف عند حدود المصادر الأربعة المتفق عليها .

وإلى ما سبق قوله عن الكتاب والسنة ، فقد درس علماؤنا الاجماع والقياس كما درسوا الأدلة الأخرى . والرسول عليه الصلاة والسلام أمر بلزوم جماعة المسلمين ، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى ، إلا لزوم قول جماعتهم . وأما القياس فحين لا يكون ثمة نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع . . والاجتهاد في هذا راجع إلى الكتاب والسنة .

الاسلام والعلمانية والتجديد

نصل الآن إلى مفرق طرق :

١ - من أول الأمر لقي الاسلام أمورا هي من الدين فتناولها بأحكامه ، ولقي أمورا هي من اجتهادات البشر فتركها لاجتهادهم ، ودعا إلى الالتزام بمكارم الأخلاق ، وعدم التعارض مع ما هو مقبول في الدين بالضرورة .

العبادات هي العبادات : وهي من ثوابت الاسلام مع مرونة في التطبيق تقتضيها ظروف الصحة والمرض ، والاقامة والسفر ، والقدرة والضعف .

والمعاملات أكثر إجمالا وأقل تفصيلا ، لما في طبيعتها من تغير والجسر بينها وبين أصول الاسلام مفتوح ذو اتجاهين ، والحوار بينهما دائم .

كذلك نظم الحكم والاقتصاد أكثر إجمالا وأقل تفصيلا والاسلام يكتفي فيها بالمبادىء أكثر من وضع النظم .

وتأتي بعد هذا الأنشطة العلمية في آفاقها المختلفة المتفتحة ، وهذه يدعو إليها الاسلام ويثيب القائمين بأمرها . . ومرة أخرى نقول : يحدد لها مستواها الأخلاقي وعدم اصطدامها مع نص صريح من الكتاب والسنة ، وهي أمور تقتضي حوارا مشتركا ومن أبرز موضوعاتها هندسة الوراثة .

ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى مفهوم التجديد في حديثه الشريف :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . (رواه أبو داود عن أبي هريرة) . والتجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة . وهذا الاحياء يقتضي التعامل مع العصر دون انطواء عنه ولا ذوبان فيه . وفي هذا الضوء نستطيع أن ندرك كيف تعامل الاسلام مع الحضارات الأخرى في عهود ازدهاره ، وكيف استقبل تراثها ترجمة وحفظا وإضافة بروح إنسانية كما ندرك أبعاد مسئولياتنا المعاصرة .

مفهوم العلمنة

أما العلمانية أو العلمنة فينبغي ـ كما سبق القول ـ الاتفاق على مفهومها فإن تكن التوسع في « الأمور الدنيوية » وبحوثها ، فهذا مما يدعو إليه الاسلام ولا تعارض فيه بين الدين والدنيا . فالسعي في الأرض واستكشاف صفحات تاريخها وآفاق معرفتها . مما يدعو إليه صريح القرآن « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (الملك : ١٥ » ويقول تعالى مخاطبا رسوله وهو خطاب إلى كل انسان : « وقل ربي زدني علما » (طه : ١١٤) .

وإن تكن العلمنة صراعا بين الدين والعقل . . فلنحدد المقصود من الدين ومن العقل . . ذلك لأن الاسلام يخاطب العقل . والمكلفون به هم العقلاء . ولقد جاء العقل ومشتقاته في القرآن تسعا وأربعين مرة ، هي له تكريم . وجاء العلم ومشتقاته أكثر من سبعمائة وخمسين مرة تضاف إلى المفاهيم القريبة منه كالفكر واللب والسمع والبصر . .

والمناهج التي اتبعها المسلمون في المحافظة على القرآن الكريم كتابة له من عهد النبي وحفظا في الصدور إلى أن جمع عثمان رضي الله عنه المسلمين على المصحف الجامع . وما قام به جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم وعلماء الحديث من تحقيق الأسانيد والمتون جهود لا نجد لها نظيرا في أي حضارة أخرى ، وهي جهود عقلانية أخلاقية تجمع بين عمق العلم وسمو الاخلاص . وأمامي الآن كتاب د . محمد اركون . « تاريخية الفكر العربي الاسلامي » (منشورات مركز الانماء القومي . بيروت ١٩٨٦) وعنوان الفصل الثامن « الاسلام والعلمنة » ص ٢٧٥ ـ ٣٠٠ . . فلنقرأ معا نقولا من بعض اتجاهات العلمنة المعاصرة يقول : إن الموضوع يندرج ضمن إطار واسع كنا قد أسميناه الاسلاميات التطبيقية . . وهو ليس مفهوما جداليا يناقض الاسلاميات الكلاسيكية (الاستشراق) . . إن العلمنة تبقى مسألة حاضرة وملحة فيما يخص العالم العربي والاسلامي بشكل عام . . وذلك من أجل تشكيل الدولة بالمعنى الحديث لكلمة الدولة ، كل القادة المسلمين يتمنون تطبيقها في مجتمعاتهم . ولذلك فهم يحاولون إدخال الأفكار الحديثة إلى مجتمعات لا تزال عتيقة البنى والهياكل في معظمها (ص٢٧٦) . إن مهمة الاسلاميات التطبيقية هي أن تؤسس الاطار النظري والفكري الذي يتيح مواجهة كل الصعوبات والمشاكل المعاشة حتى الآن بشكل تجريبي واقعي ومحسوس ولكن غير منظَّر لها (ص ٣٧٧) . ومن هذا التعميم ينتقل إلى التخصيص والتطبيق .

وبعد أن درس مثالي تركيا ولبنان . درس موضوع الخلافة وفيها يذكر بكل صراحة ووضوح :

« ينبغي أن نتجنب خطأ شائعا ومنتشرا جدا في الأدبيات الاستشراقية وعند المسلمين على السواء والذي يقول بأن الاسلام لم يعرف أبدا في تاريخه التفريق بين الزمني والروحي . هذه فكرة ثابتة منغرسة في نفوس المستشرقين وعند الجمهور الغربي ككل . إذا لم نتخلص فورا من هذه النظرية ، فإنني أقول لكم بصراحة ان لقاءنا هذا لن يكون له أي معنى (ص٢٨٠) .

وعرض بعد هذا ما أسماه تجربة مكة والمدينة ويقصد بها العهد النبوي من تاريخ الاسلام . ثم أعطى تقييما لعهد الخلافة الراشدة بقوله : « كان المؤرخون السابقون والفقهاء "الثيولوجيون" قد نسجوا حكاية مسلسلة للأحداث التي جرت منذ وفاة النبي مؤكدين على شرعية الخليفة الذي كان عليه أن يتحمل مسئوليات النبي . وهذا هو الاعتقاد السائد الذي فرض نفسه في حين أننا نجد تاريخيا أن الخلافة بعد ٦٦١م كانت قد اكتسبت سلطتها فعليا وبالقوة على أرض الواقع وليس قانونيا أو شرعيا (ص ٢٨١ ـ ٢٨٢) .

ثم دعا إلى دراسة العصبيات القبلية ودورها في الوصول إلى السلطة وذلك بعد قوله « إن كل الكتابات الأرثوذكسية تعطي صورة نموذجية ومثالية عن الخلفاء الأربعة الأول . إنها لا تقدم إطلاقا أي تحليل سوسيولوجي تاريخي للأحداث (ص ٢٨٢) .. لنلاحظ هنا أن الاستشراق التقليدي لم يبرز أبدا إلى دائرة الضوء هذا المفهوم (مفهوم ايديولوجيا التبرير) المضاد للشرعية الحقيقية التي لم يتح لها الوجود أبدا (ص ٢٨٣) .

جمع القرآن الكريم

ثم لننظر ما يقول عن القرآن الكريم وكيفية جمعه وإعادة قراءته .

« راح الخليفة الثالث عثمان (أحد أعضاء العائلة المعادية لعائلة النبي) يتخذ قرارا نهائيا بتجميع مختلف الأجزاء المكتوبة سابقا والشهادات الشفهية التي أمكن التقاطها من أفواه الصحابة الأول . أدى هذا التجميع عام ٦٥٦م الى تشكيل نص متكامل فرض نهائيا بصفته المصحف الحقيقي لكل كلام الله كما كان قد أوحى إلى محمد . رفض الخلفاء اللاحقون كل الشهادات الأخرى التي تريد تأكيد نفسها (مصداقيتها) مما أدى إلى استحالة أي تعديل ممكن للنص المشكل في ظل عثمان .. (ص ٢٨٨) .

ثم دعا إلى مراجعة نقدية للنص القرآني وإعادة كتابة قصة تشكل هذا النص بشكل جديد كليا . أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التي رسخها التراث المنقول جذريا . هذا يتطلب منا الرجوع إلى كل الوثائق التاريخية التي أتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني . هكذا نتجنب كل حذف تيولوجي لطرف ضد آخر . المهم عندئذ هو التأكد من صحة الوثائق المستخدمة . بعدها نواجه ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق وإنما أيضا محاولة البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود كوثائق البحر الميت التي اكتشفت مؤخرا (ص ٢٩٠ ، ٢٩١) .

أما عن النواحي التطبيقية في الشريعة فقد ذكر عن القرآن والحديث النبوي والاجماع والقياس «ان هذه المبادىء الأربعة غير قابلة للتطبيق» (ص ٢٩٧) ونقد تطبيقها واحدا بعد الآخر (ص ٢٩٧ ، ٢٩٨) ..

بناء للغد أم هدم للماضي ؟

أراني في حدود المساحة المتاحة مضطرا إلى الوقوف .. فهنا علمنة تراجع النص القرآني ، والحديث النبوي ، والخلافة الراشدة وأصول الفقه والتشريع وتصرح باستحالة التطبيق ، وتضيق أو تتلاشى معها مساحة « المقدس » .

ومن قبلها رأينا تجديدا ، ومن قبله - ومعه - اجتهادا يدعو إليه الاسلام ، كما رأينا التطور التاريخي للعلاقة بين الدين والدولة في العالمين الغربي والاسلامي ، ورأينا الفجوة الحضارية التي علينا أن نعبرها .. فهل يكون العبور بأن تتجه الجهود إلى بناء الغد ؟ أم إلى هدم الماضي والوصول بالمراجعة حتى إلى نص القرآن الكريم ليصنع « بعض علمائنا » نصا قرآنيا جديدا ؟!...

من الممكن أن نستفيد من مناهج العلوم الحديثة ، وهذا واجب ومسئولية ، وأن نكون على صلة بها وحوار معها ، ولكن هذا لا يعني - بحال - أن ندخل بكل مقدساتنا معامل هذه العلوم فكاً وتركيبا ، وأن نهدر جهود أجيال من العلماء ، تعرضت أعمالهم للجرح والتعديل واستطاعت أن تؤكد مصداقيتها عبر الأجيال .

وإذا كان كل جيل باسم « العلمنة » يبدأ بالشك وإعادة التقييم لكل ما سبق بذله من جهد ، فمتى وكيف يكون البناء ؟ بناء الفرد والمجتمع والحضارة معا ؟

ولعلنا نصل إلى كلمة سواء تتجه بها الجهود إلى الاضافة واستكمال ما نحتاج إليه في مجتمعاتنا المتخلفة ، بدلا من هدم ما بقي لدينا من ركائز لم تكن في حياتنا إلا داعية إلى الخير والتقدم . □

احتلال العقل

ملامح الاستراتيجية الغربية للتحكم في العقل العربي

بقلم : رفعت سيد أحمد *

ينطلق الكاتب من فكرة يعتبرها مسلمة ، مفادها أن « احتلال العقل أشق بمراحل من احتلال الأرض » ، ويناقش هذه الفكرة في ضوء النشاط الأوروبي والأمريكي و« الاسرائيلي » لإكمال هذا الاحتلال الذي يتخفى وراء أقنعة عديدة .

عاصر وطننا العربي وعالمنا الاسلامي ، بامتداد المائتي عام الأخيرة من تطورهما الحضاري ، شتى صور الاستبداد التي مورست ضدهما من جميع الاتجاهات ، أحيانا من داخلهما ، وفي أغلب الأحيان من خارجهما ، من بلاد ما وراء البحار ، بلاد الغرب الأوروبي ، والأمريكي ، لكن المؤرخ المحايد يلحظ تجاه تاريخ « الاستبداد الغربي » أنه قد ظل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تغلب على آليات حركته وأساليبها السمة العسكرية الاقتصادية . وما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، حتى دخل « الاستبداد الغربي » مرحلة جديدة ـ نسبيا ـ عما سبقها ، وهي المرحلة التي تعمدت الولوج إلى العقل العربي المسلم أولا ، قبل التسلل إلى الأرض والاقتصاد ثانيا ، انطلاقا من مسلمة أساسية ، مفادها أن « احتلال العقل أشق بمراحل من احتلال الأرض » فالذي يملك هذه الأرض بإمكانه أن يُقاتل حتى يحصل على أرضه ، أو يموت دونها ، أما اذا ما أُمتلك عقله (الذي يرسم له خطط القتال) سهلت السيطرة عليه .

من هنا ، وتحديدا بمنتصف هذا القرن ، بدأت الاستراتيجية الغربية (الأوروبية الامريكية على وجه الخصوص) تخطط لعملية تحكم واسعة النطاق في العقل السياسي والثقافي العربي ، مستخدمة خبرتها الطويلة في استعمار العالم ، وأحدث وسائل السيطرة التقنية ، والسياسة والثقافية ، وما يسمى بالبحوث الميدانية المشتركة بين علماء البحث العلمي ومؤسساته الغربية ذات الصلة الوطيدة بأجهزة المخابرات وصناعة القرار السياسي الغربي و« الاسرائيلي » ، وبين بعض العلماء العرب ومؤسسات البحث السياسية والاجتماعية ، وأتت هذه (الحالة) لتمثل واحدة من أنجع وسائل الاستراتيجية الغربية خلال الثلاثين عاما الماضية من تاريخنا ، للتحكم والسيطرة والتغلغل في العقل العربي ، داخل كل قطر على حدة ، ووفق خطة مبرمجة ومتعددة الأدوار والأدوات .

فماذا حدث على وجه اليقين ؟ وهل لدينا نماذج محددة لهذا المخطط الغربي طويل المدى ، ولأدواته ، وأهدافه ؟ وإلى أين تتجه خطاه ؟

* باحث في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة .

لماذا يحتلون العقل ؟

يأتي احتلال العقل العربي امتداداً مباشراً لما سمي « وظيفة العلم ، والعلماء » في الاستراتيجية الغربية ، وإعداداً لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، حين أصبح « العلم » ـ داخل الدولة الغربية وخارجها ـ أداة للاستثمار والاشباع ، تماما كالسلعة ، فلقد وجد العلم هناك أساسا لخدمة الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، للمجتمعات الصناعية المتقدمة ، فهو يمثل عائداً نفعيا . ولنتأمل ما يقرره « فريتز مشلوب » من أن أنشطة المعلومات والمعرفة أسهمت في عام ١٩٥٨ بما يعادل ٢٩٪ من معدل الانتاج القومي لهذه السنة ، ويرى أن نسبة الزيادة السنوية لمعدل إسهام هذه الأنشطة تعادل مرتين ونصف مرة معدل نمو مكونات الانتاج القومي الأخرى .

أي أن المقولات الغربية التي تصدر إلينا من قبيل « العلم للعلم » ، و « العلم للانسان » ، مقولات لا معنى لها ، وليست سوى غطاء يخفي تحته العديد من الأهداف السياسية والاقتصادية . وتتضح هذه الحقيقة أكثر إذا ما علمنا أن جملة ما أنفقته ـ مثلا ـ وزارة الدفاع الامريكية على البحوث العلمية المختلفة في عام واحد هو عام ١٩٨١ قد بلغ ١٧ بليون دولار ، أي حوالي ١٠٪ من ميزانية الدفاع الكلية في ذلك العام التي بلغت ١٦٠ بليون دولار ، بل إن مخصصات البحث العلمي للبنتاجون ارتفعت بمقدار ٢٠٪ خلال عام واحد هو عام ٨٠/ ١٩٨١ . وأنها في عامنا هذا (١٩٨٧) وصلت إلى حوالي ٣٠٪ ، بل إن وكالة المخابرات الأمريكية كانت خلف إنشاء العديد من الجامعات في دول العالم الثالث واستمرارها مثل كلية مكومبي الدولية في زامبيا ، وبعض جامعات اكوادور . وارجواي ، والمكسيك ، والجامعة الامريكية بأنقرة وبيروت والقاهرة .

عندما نعلم ذلك ، فإن الهدف من احتلال العقول ، ومحاولات الغزو الفكري والثقافي إجمالا تتشابك ، وتتداخل مع الأهداف التوسعية والاستعمارية القديمة والحديثة التي تمثلها الشركات متعددة الجنسية ، ويصبح البحث العلمي . والعلم ، والمشتغلون به ، مجرد أدوات طيعة للسيطرة ، داخل تلك الأوطان وخارجها .

* وتذكر بعض الدراسات أن وكالة المخابرات الامريكية ـ مثلا ـ يعمل بها ١٦٥٠٠ موظف ، وأن حجم ميزانيتها ٧٥٠ مليون دولار ، بالاضافة للمعونات المنتظمة للشركات الاحتكارية ، مثل فورد وموتورز وروكفلر ، وأن جزءا من هذا الهيكل الوظيفي والمالي يخصص للبحوث السيكولوجية والسيكوبيولوجية والاجتماعية في أنحاء العالم ، وعلى الأخص الوطن العربي والعالم الثالث ، وذلك يتم من خلال تمويل منظمات وجمعيات علمية عالمية ، مثل الجمعية النفسية الأمريكية ، وجمعية علوم بيئة الانسان ، وشخصيات علمية بارزة . يذكر أحد العلماء البارزين الذين مولت المخابرات الامريكية أبحاثهم ب ـ ف ـ سيكفر ـ أنه قد تم تمويل كتابه (الحرية والشرف) بخمسة ملايين دولار ويذكر هذا العالم « أن تمويل المخابرات الامريكية للدراسات والبحوث العلمية يبغى أساسا تطوير تكتيكاتها المختلفة التي تمكنها من الاضطلاع بدورها كأداة لتحقيق التوسع الامريكي »

الصحافة واحتلال العقل

لأن لاحتلال العقل في العالم أجمع أدواته المختلفة ، فإن « الصحافة » تأتي في مقدمتها جنبا إلى جنب مع البحوث الممولة والمشتركة ، ولقد فجر هذا الجانب ضبط « نيكولاس دانيلوف » مراسل مجلة (يو ، اس ، نيوز أند وورلد ريبورت) في موسكو متلبسا بالتجسس لصالح المخابرات الأمريكية .

وفي ظل غياب السياسات القومية الواعية تجاه موجات الغزو الثقافي وأدواتها الكثيرة ، يسهل

ـ ولاشك ـ وقوع الاحتلال العقلي ، ففي بلد مثل مصر ـ على سبيل المثال ـ كان بها خلال عامي ٨٦ و ١٩٨٧ « ٤٠ الف باحث » من الحاصلين على درجة الماجستير والدكتوراة في التخصصات والفروع العلمية المختلفة ولا يجدون فرصة عمل . في دولة كهذه ، وفي حالة مثل تلك ، من المتوقع أن يذهب هذا الجيش من الباحثين ، أو على الأقل نسبة منه إلى تلك الجهات التي تستطيع توظيفه ، وتقديم الدعم المادي له ، وما أكثرها داخل مصر ، وهي جهات في أغلبها تخدم عن وعي وباستراتيجية بعيدة المدى خطط احتلال العقل في مصر وبلدان الشرق إجمالا .

احتلال ركائز العقل

في سبيل السيطرة على العقل العربي ، وعقل العالم الثالث ، استخدمت الاستراتيجية الأوروبية والامريكية ركائز هامة للانطلاق خلال الثلاثين عاما الماضية ، وللتغلغل النشط في أحشاء مجتمعاتنا يمكننا حصر أهمها :

ـ مؤسسة فورد فونديشن وهي تعمل في المنطقة منذ عام ١٩٥٢ .

ـ مؤسسة روكفلر وهي تعمل منذ الحرب العالمية الثانية .

ـ مؤسسة راند وهي قديمة نسبيا إلا أن نشاطها برز في السبعينيات من هذا القرن في مجال الدراسات الاسلامية والفلسطينية .

ـ مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية ولجنة الشرق الأدنى والأوسط المنبثقة عن المجلس وهو يعمل في المنطقة منذ منتصف الستينيات .

ـ جماعة أبحاث الشرق الأوسط وهي تقوم منذ عام ١٩٦٦ بالتخطيط والتنسيق بين وحدات شبكة الأبحاث الامريكية .

ـ جامعة جورج تاون التي قامت فقط في نوفمبر ١٩٨٥ وكنموذج لنشاطها قامت بعمل مسح شامل في ١٢ قرية مصرية ، بالاشتراك مع كلية الآداب بجامعة الزقازيق .

ـ وكالة التنمية الامريكية ، ويذكر أنها رصدت خلال عامي ٨١ و ١٩٨٢ للبحوث المشتركة بين مصر واسرائيل في مجال البحوث الميدانية الزراعية مبلغ ١٥ مليون دولار فقط ، وأنها مولت مشروع ترابط الجامعات المصرية خلال عامي ٨٤ و ١٩٨٥ بمبلغ ٢٨ مليون دولار ، بغرض تمويل البحوث الاجتماعية والسياسية بمصر !!

ـ مركز هارفارد للشئون الدولية ، ومركز برنستون للدراسات الدولية ، ومركز شيكاغو لدراسة السياسة الخارجية والعسكرية ، ومعهد بيركلي للدراسات الدولية . وجميعها ترتبط عمليا وماليا بوكالة المخابرات الأمريكية .

ـ مؤسسة فريد رش إيبرت ، وفريد رش نومن الألمانيتان اللتان تربطهما وشائج قوية ببعض مراكز البحوث في مصر ودول المشرق العربي .

ـ المركز الاكاديمي « الاسرائيلي » بالقاهرة ، وهو يقوم بدور خطير في مجال اختراق العقل المصري والعربي ، وسوف نورد فيما بعد بعضا من أهم أعماله ، بالاضافة لأجهزة السفارة الاسرائيلية ورجالها .

● وهذه المجموعة من المؤسسات الاوروبية والامريكية والاسرائيلية تنسج ـ مجتمعة ـ شبكة عميقة التأثير ، وهي تنسق فيما بينها على أعلى درجة من الترابط والدقة ، منذ ما يزيد على الثلاثين عاما على الأقل ، وإن كان نشاطها قد ازداد في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات . تقوم بعملية مزدوجة ، فتقدم المعلومات (السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية) لصانع القرار الأوروبي أو الامريكي أو « الاسرائيلي » ، هذا من ناحية ! ومن ناحية أخرى تقوم بمحاولة زرع مفاهيم وقيم فكرية واجتماعية جديدة داخل الأرض العربية ، وفي أحشاء عقلها ، وذلك من خلال سياسة ما يسمى بالبحوث العلمية المشتركة التى تهدف الى استبدال القيم الأصلية في العقل الجماعي

العربي والمسلم ، بقيم ومفاهيم غربية ، وفق خطط طويلة الأجل ، متعددة الأدوات ، ولعل في استعراض عينات من أبحاث تلك الشبكة - الخطرة - ما يقدم دليلا حيا على صدق ما نقول .

نماذج من أبحاث الاحتلال

من أهم المؤسسات في وطننا العربي وأخطرها ذلك المركز الذي انشأته « اسرائيل » بالقاهرة عام ١٩٨٢ - ونحن هنا نتبه الباحثين العرب آملين أن تصل صرختنا هذه إليهم لمحاصرة نشاط هذا المركز - واسمه « المركز الاكاديمي الاسرائيلي » ، فالمركز - كما سبق القول أنشيء عام ١٩٨٢ ، عقب اتفاقات كامب ديفيد ، وتولى رئاسته كلا من « شيمون شامير » ، ثم « جبرائيل واربورج » وهما من الباحثين اليهود الذين تدربوا على أيدي الموساد ، ونظرة سريعة على الأبحاث السياسية والثقافية والاجتماعية التي قام بها المركز منذ إنشائه حتى اليوم تبرز لنا بوضوح عمق الخطر الذي يمثله كأداة متقدمة « للموساد الاسرائيلي » تجاه العقل المصري والعربي ، فهو مثلا يبحث في الأصول العرقية للمجتمع المصري ، وفي كيفية تفتيت مصر طائفيا ، وفي الوحدة الثقافية والعقائدية بين اليهودية والاسلام ، وفي الشعر العربي الحديث ، وقضايا التعليم والزراعة والميكنة الزراعية واستصلاح الأراضي ، وفي توزيع الدخل ، وحياة البدو والبربر ، وكيفية السيطرة عليهم ، وفي تأثير السلام على العقل العربي ، وغيرها من الأبحاث المهمة .

قامت « اسرائيل » أيضا ببعض الأبحاث المهمة في مصر ، من خلال المركز الثقافي الامريكي بواسطة اليهودي الأمريكي الشهير « ليونارد بايندر » ، وهي أبحاث حول (رؤى الصراع العربي الصهيوني) ، والجماعات الاسلامية في مصر ، وبحث عن بدو مرسى مطروح .

أما الولايات المتحدة فلقد قامت من خلال مؤسساتها السابقة بالعديد من الأبحاث المهمة والندوات الأكثر أهمية ، نذكر منها على سبيل المثال :

- أبحاث قام بها البروفيسور (ناداف سفرات) ، المسئول عن مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد ، يهودي الديانة ، مصري الأصل ، حول (السعودية كمجتمع متفجر) ، « والاسلام والسياسة في العالم المعاصر » ، وأنه قد حصل على ١٤٥ ألف دولار مقابل الندوة البحثية الأخيرة ، أخذها « عدا ونقدا » من وكالة المخابرات الأمريكية ، وتسبب كشف النقاب عنها في فضيحة مدوية في الأوساط العلمية الغربية والعالمية .

● ومن الأبحاث الأخرى المهمة التي قامت بها المؤسسات الأمريكية في الوطن العربي (الصراع بين التيارات العلمانية والتيارات السلفية - التغير الاجتماعي في بلدان الشرق الأوسط - النظرية السياسية الاسلامية - العلاقات المدنية العسكرية في الوطن العربي - القومية الفلسطينية - التنبؤ بحركات التمرد في المنطقة العربية - المؤثرات في الأقليات بالوطن العربي - المهام السياسية للصفوة العسكرية العربية - مسار المنطقة العربية ومدى تأثرها بالتغيرات - المثقفون والوطن العربي الحديث - موقف المثقفين العرب في الصراع مع « اسرائيل » - المجتمع والبناء السياسي في الوطن العربي - آفاق العلاقات بين مصر و « اسرائيل » والأقطار العربية الأخرى - الفكر السياسي للعمال المصريين - دراسة عرقية لبدو النوبة في مصر - الحشود المصرية على الحدود الليبية ، واستطلاع رأي الطلبة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - ظهور الاسلام كعنصر من عناصر الصراع العربي « الاسرائيلي » - الشيوعيون والشيعة - تطور النظام التعليمي في مصر - تطور الناصرية - النساء في المجتمعات الاسلامية) .

● هذه هي أبحاثهم . ترى ، لماذا يهتمون بهذه الجوانب على الأخص ؟! ولماذا يتغلغلون في أحشاء المجتمع العربي إذا لم يكن هدفهم أبعد من مجرد الاحتكاك العلمي البريء ، والتعاون الثقافي ؟ □

الشاعر والديوان



شعر : محمد التهامي

صهرته أنفاس الحياة　　لهبا تململ في الشفاه
وأضاء نور لهيبه　　لترى الخلائق ما يراه
فلقد تقحم عالما　　ما ارتاده بشر سواه
فوق انطلاقات الظنو　　ن عوالم شذت خطاه
قد أرجفت آذانه　　فيها، وغاضت مقلتاه
لم يبق للكون الكبـ　　ـير أمامه سر طواه
وأتى يحدثنا، وقد　　لذعت مشاعرنا لغاه
نار مقدسة لدى　　الشعراء، أذكاها الإله
للشاعرين حياتهم　　ولغيرهم منا حياة

***

الطائر الهيمان ألقى　　فوق عالمنا عصاه
أشواقه الحرى أضا　　ءت في مجاهله دجاه
متوهج الرغبات في　　أعماقه لهب كواه
يقتاده حلم، يرا　　ه أمامه، أو لا يراه



يَشْتَدُّ خَلْفَ المستحيـ ـلِ ، وقَدْ تَناءى مُبْتَغاهْ
لكِنَّه نادى ، وكَا دَ يُفزِّعُ الموتى نِداهْ
وأذابَ شَمْعَةَ عُمْرِهِ لِتُضِيءَ في الدنيا رُؤاهْ
فلَعَلَّ مَنْ يَقْوى يَسـ ـيرُ فَيَبْلُغَ المَسْعى مَداهْ

***

وارْتَدَّ مَبْهُورَ المشا عِرِ بالذي صَنَعَتْ يَداهْ
مُتَوَهِّماً : أنْ يَملأَ الـ دُّنيا ، ويُتْبِعُها صَداهْ
فإذا بِهِ وكأنَّ لا عقلٌ ولا قلبٌ وعاهْ
غَطّى عليه الناشرو نَ ، ولاذَ بالصَّمْتِ الرُّواهْ
حَبَسُوهُ لَمْ تَسْمَعْ بِهِ أُذُنٌ ولا نَطَقَتْ شِفاهْ
والفَنُّ - مَهْما كانَ - مَحْمُولٌ بِأَنْفاسِ الدُّعاهْ
فالماسُ وَهْوَ الماسُ ، من في قاعِ مَنْجَمِهِ رَآهْ
والمِسْكُ إنْ تَحْبِسْهُ ،كيف يُعَطِّرُ الدُّنْيا شَذاهْ

أدب المذكرات



بقلم : فتحي رضوان

يقف كتاب « الاعترافات » لجان جاك روسو الكاتب السويسري أصلا ، الفرنسي بالاقامة والحياة الأدبية ، على رأس قائمة كتب قد تعد بالمئات ، أو بعدد قليل من الألوف ، تتحدث عن خبايا نفس مؤلفيها وخفايا دنياهم ودقائق حياتهم .

بقي كتاب اعترافات روسو سيد هذا الطراز من الكتب ، ربما لشهرته الذائعة ، ولدوره الكبير في التحضير لثورة ١٧٨٩ ، ولصراحة أسلوبه ، وحلاوة لفظه ، ولشجاعته الفائقة في تعرية نفسه أمام الناس قاطبة ، لكن الذين جاءوا من بعده ، وإن لم يبلغوا مبلغه من الجرأة فقد أثروا الانسانية بما كتبوه عن دخائل دنياهم ، إذ أزاحوا الفواصل بين حياة العظماء من أهل الفكر وسائر الناس ، فثبت لدى الناس أن الانسان هو الانسان . ولو كان الفرد من البشر يبدو في هالات من المجد والعظمة تلقي في الروع أنه ليس من طين . وقد عانى الأدب العربي من نقص في هذه الناحية في أصل من رفع الأستار عن عالمه الخاص . وقد يكون الامام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال هو أكثر الجميع جرأة وشجاعة ، وقد لانجد من يماثله أو يباريه .

وأدب الاعتراف شعبة من الأدب ، تجتمع فيها من الصفات والخصائص ما يرتفع به إلى مستوى عال ومقام رفيع ، ففيها روح القصة ، وفيها مذاق التحليل النفسي ، وفيها غرابة المصارحة المتسمة بالجرأة وبالرغبة في إرتياد المناطق المجهولة . وقد خلا أدبنا من آثار هذا الضرب المثير . ربما تكون النفس الشرقية قد جبلت على إخفاء ما ستره الله .

المذكرات الخاصة للأدباء والساسة

وقريب من هذه الشعبة من الأدب ، المذكرات الخاصة ، على الرغم من البون الشاسع بين المذكرات التي هي في الأغلب الأعم دفاع عن النفس ، وتزكية لها ، وتبرير لأخطائها ، ورد نقائصها إلى فضائل ، ومناقب ، فالضعف يستحيل إلى إنكار للذات ، والجبن يصبح تسامحا يقابل الاساءة بالمغفرة ، والتقلب بين المذاهب والمبادىء يعتبر حرصا على الصالح العام حيث يكون بغض النظر عن قوالب

الفكر التقليدية وقواعد السلوك الموروثة .

ولكن المذكرات مع ذلك يتسرب إليها شيء من الاعتراف من حيث لا يدري كاتبها ، فهي حديث عن النفس ، يؤدي إلى الدخول في دهاليز الذات التي كثيرا ما تكون من الخفايا التي يحرص الانسان على إسدال الستائر عليها .

وقد شهد النصف الأول من القرن العشرين ظهور عدد غير قليل من مذكرات الأدباء والساسة .

وقد كانت في الأغلب الأعم فتحا في الأدب وإن لم تكن الأدب المحض فقد كانت فتحا في الأدب السياسي لأن الذين كتبوها عرفوا بالتمكن من فنون القول وكان بعضهم أقرب إلى الادباء منهم إلى رجال الحكم .

وقد كان أول من كتب في هذا السبيل الأستاذ عبدالرحمن شكري فتحدث عن خوفه من المجتمع ، ولكن الحق بهذا الأثر الجميل ما أصاب صاحب الاعترافات نفسه من أفول نجمه ، وجحود فضله ، فقد بقيت الاعترافات نسيا منسيا لا يذكر ولا يشار إليه مع أنه في القمة من حيث جودة العبارة وعمق التحليل وإبداعه في سبرغور النفس والشجاعة بالاعتراف الصادق عن نواحي الضعف .

أما المذكرات التي أمتعت قراء العربية في النصف الأول من القرن العشرين فهي لأحمد لطفي السيد باشا صاحب جريدة « الجريدة » التي كانت لسان حال حزب الأمة الذي قيل إن اللورد كرومر المعتمد البريطاني هو الذي سعى إلى تأسيسه ليضم شمل الباشوات الذين أثروا بفضل هذا الاحتلال ثم تصدروا الأمة برعاية خاصة منه .

ولأحمد لطفي السيد صديق حميم لا يكاد يفارقه هو عبدالعزيز فهمي باشا . فقد كانا زميلي الدراسة الثانوية والعليا ، ورفيقي حياة عامة ، يتقاسمان فكرا سياسيا واحدا ويتجهان في الحياة اتجاها واحدا ، سماته العزلة عن الشعب والترفع عن الحياة العامة التي يباشر النشاط فيها عامة الناس، والميل إلى الاحتماء بالسلطة وإن ظهرا زاهدين في هذه السلطة مترفعين عنها . والعجيب في الأمر أن هذين الاعترافين الغريبين الجريئين لم يثيرا إهانة ضده ، فقد مرت الاعترافات بهدوء ونوقشت مناقشة علمية ، ولم ينل عبدالعزيز فهمي من ورائها نقمة أو غضبا ولو جرؤ أحد سواه على الدعوة إلى ما دعا إليه عبدالعزيز فهمي أو شيء من قبيله لغلت مراجل الغضب عليه ولناله سوء كبير . ولكن لأمر ما لم يحفل بدعوته كثيرون .

العقاد وحياة قلم

أما كاتب المذكرات الثالثة والرابعة فهو الكاتب الكبير الشاعر عباس محمود العقاد ، فقد وضع كتابين أحدهما بعنوان « حياة قلم » والثاني بعنوان « أنا » وكلاهما عبارة عن قصة حياته ، وإن كان كتاب « حياة قلم » قد اقتصر على سرد وقائع نشاطه كصحفي وككاتب . وكلا الكتابين مكمل للآخر ، وقد كتبهما بأسلوبه الرصين . ولكنه لم يفتح باب حياته الداخلية للقراء ، فقد حافظ على رصانته ووقاره . وكان أعظم ما باح به من ظلم السلطة العسكرية البريطانية به . فقد رشحه السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية ليكون خليفة الشيخ علي يوسف في رئاسة تحرير جريدة « المؤيد » ، واستقبله بالفعل رونالد ستورس السكرتير الشرقي لدار الحماية في مكتبه بدار الحماية . ولكنه استصغر سنه على المنصب المرشح له فعدل عن الترشيح .

أما المذكرات التالية فقد كانت قصة حياة أحمد قاسم أمين عميد كلية الآداب . وقد قص في هذه المذكرات التي عنوانها « حياتي » قصته منذ الطفولة ، وروى تجاربه في التعليم في الأزهر ، وتحدث عن والده بحب وإشفاق لما عاناه في تربية أولاده فقد نكب بوفاة ابنه الأكبر ، ووصف الحي الفقير الذي نشأ فيه وصفا خلاقا خاليا من المرارة ولكنه أبرز ما في حياة أهل الحي من شظف وضيق بروح صافية خالية من

الحقد .

ثم وصف تجاربه في الأزهر ورسم صورة هذا المعهد الضيق جملة وتفصيلا .

ثم انتقل إلى الأماكن التي عمل فيها قاضيا في القاهرة وفي إحدى الواحات . ولما قامت الثورة كان له دور في مظاهرات الطلبة بوصفه أول الطلبة . وكان شديد التعلق بناظر مدرسة القضاء الشرعي التي أهلته الدراسة فيها ليكون قاضيا في محكمة الأزبكية . ولكنه لم يتعلق بمهنة القضاء ، وفضل عليها مهنة التعليم . وقد تأثر تأثرا شديدا بشخصين ، ناظر مدرسة القضاء الشرعي عاطف بك بركات الذي هو ابن أخت الزعيم سعد زغلول ، وقد بلغ من حبه لهذا الناظر أنه لم يستطع أن يتعامل مع الناظر الجديد حين نقل عاطف بركات من مدرسة القضاء الشرعي وحل محله ناظر سواه .

وقد ضم كتابه وصف حالته حينما فقد بصره بفعل المياه البيضاء حتى أجريت له عملية جراحية وعاد له نور البصر الذي فقده . ولعل كتاب « حياتي » الذي قص فيه قصة حياته أول كتاب ينبيء بأنه أديب يتمتع بملكة الأدباء . وقد كان العقاد يستنكر عليه هذه الملكة ويعده من العلماء حتى وضع كتابه هذا ، فلما قدم للناس كتاب « حياتي » ورآه فياضا بالعاطفة والصور الانسانية الجميلة أقر له بأنه أديب كبير .

والحق أن هذا الكتاب من كتب الذكريات أو المذكرات يعتبر عملا أدبيا جديرا بالتصدير .

أما كتب المذكرات الباقية فواحد منها بقلم اسماعيل صدقي باشا الذي كان وزيرا من وزراء الداخلية أقوياء الشكيمة الذين اشتهروا بالقدرة على مواجهة غضب الشعب بأعصاب باردة وقدرة في قمع هياج الشعب الغاضب . وقد كان كتابه عن ذكرياته على النقيض مما عرف عن طبعه الشديد لطيفا يعين على القراءة للوصول معه إلى ختام الكتاب .

وقد وضع أحد أعضاء حزب الوفد الذي انتقل إلى الحزب المعارض للوفد الأكثر ميلا للملك فؤاد وهو حزب الأحرار الدستوريين الذي ضم صفوة البلد من الأغنياء والمفكرين هو محمد علوبة باشا الذي كان محاميا في أسيوط وهي عاصمة الصعيد . وكانت موطن عدد كبير من المحامين الذين تخصصوا في قضايا الجنايات الكبرى . قد وضع كتابا روى فيه ذكرياته ابتداء من المدرسة الابتدائية وصور الحياة الاجتماعية لأعيان مصر الأغنياء الذين أقاموا في الصعيد بعيدا عن القاهرة .

ولما كان علوبة باشا من خصوم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ، فقد روى قصة هذا الخلاف الشهير بغير عنف ولا مجاملة ، فكان كتابه وثيقة من وثائق تاريخ ما بعد ثورة ١٩١٩ ، إلى جانب الصور الاجتماعية التي رسمها للحياة في القاهرة ، وفي الصعيد . هذه هي كتب الذكريات التي صورت الحياة المصرية .

ولكن الأمر الذي يدعو للأسف الشديد أن كبار الساسة والأدباء لم يألفوا كتابة « يوميات » يسجلون فيها أحداث حياتهم ووقائع تاريخ أمتهم أولا بأول ، والأحداث حية وانطباعات السادة الكبار تنبض بالحياة . ولو فعل هؤلاء هذا واهتموا به لكان تاريخنا واضح المعالم ولأغنته الانفعالات الشخصية المباشرة عقب كل حادث قبل أن تبهت الصورة وتتداخل الوقائع .

وهذه الظاهرة واضحة تماما في الغرب في أكثر اليوميات التي تركتها هذه الشخصيات الكثيرة التي صاغت الحياة وشاركت في خلق صورتها .

وكان أول من كتب ميثاقا نبيلا لهذه اليوميات المؤرخ المصري الكبير عبدالرحمن الجبرتي التي لا تزال الصور التي أبدعها إلى اليوم كمن يشير إلى صور لم يمض عنها الزمن منذ لحظات .

ولكن الزمن لم يمن علينا بجبرتي آخر منذ سنة ١٧٩٨ ومنذ الحملة الفرنسية بقيادة نابليون ، وثورات القاهرة ضد هذه الحملة ، والانتفاضة ضد والي تركيا وتولية محمد علي بعده الملك في مصر . □

أقوال

■ إن التاريخ لا يرحم الأمم المتهاونة أمام خيارات المصير ، فإما أن ترتفع إلى مستوى تحديات المسؤولية التاريخية ، ونحفظ لأمتنا أمنها وبقاءها ، وإما أن نتهاون ، ليهددنا الضياع جميعا ، ويفتك بنا المجهول .

من خطاب الشيخ صباح الأحمد
نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الكويتي
في اجتماع وزراء الخارجية العرب في تونس

■ إذا كانت القوانين التي ارتضيناها في الأساس لتنظيم العلاقات في ما بيننا هي قوانين عادلة ، فلماذا لانترك كل شيء يسير سيره الطبيعي ؟

الشيخ نواف الأحمد
وزير الداخلية الكويتي

■ سوء استعمال الكتب يقتل العلم .

جان جاك روسو

■ كيف تريدون أن لا تكتشف الأم بسهولة كل أسرار ابنتها ، وقد كانت عندها نفس الأسرار عندما كانت في مثل سن ابنتها ؟ !

موريس غيرسون

■ الشيخوخة دائما محافظة وهذه هي تعاستها الأساسية .

مكسيم غوركي

■ الشيخوخة هي الجنازة الوحيدة التي يمشي فيها الفقيد على قدميه .

غادة السمان

■ ليس لكل انسان سوى وطن واحد .

سايمون كوجان
يهودي عائد من « اسرائيل » الى الاتحاد السوفيتي

■ التخطيط للثقافة كزراعة الزيتون ، يقوم بها جيل لصالح جيل ، ولا يأكل من ثمر زرعه فيها إلا كل طويل عمر .

د . حسام الخطيب

الليزر

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

حل يبحث عن مشكلة !

بقلم : الدكتور مهدي رحمة الله*

في مايو ١٩٦٠ أعلن للعالم ولأول مرة نبأ اكتشاف مصدر جديد للضوء ، فأحدث هذا الاكتشاف تغييرات مهمة في حياتنا اليومية وفي مجرى التطور العلمي عموماً ، وما يزال كذلك ، فما هو هذا المصدر ؟ ولماذا كان اهتمام كافة الأوساط العلمية خلال العقود الثلاثة الماضية ؟

المعروف أن الاكتشافات العلمية ـ وإن لعبت فيها الصدفة أحيانا دورا ـ عبارة عن جهد متواصل ، وتراكم للمعلومات في جانبين ، نظري وتجريبي ، وهذا هو الحال بالنسبة لاكتشاف المصدر الضوئي الجديد « الليزر » ، فقبل أن يعلن « مايمن » اكتشافه للعالم بنحو ستين عاما كان العالم المعروف « ماكس بلانك » قد طور نظرية الكم باعلانه أن امتصاص الذرات أو الجزيئات المادية أو انبعاثها لا يتم بشكل « متصل » ، إنما على شكل « كمات » من الطاقة ، سميت الفوتونات .

جاء الفيزيائي الدانيماركي « بور » بعد ذلك (١٩١٣) ليعلن نظريته المعروفة بالتركيب الذري التي جاءت تطويرا لنظرية « رذرفورد » ، التي سبقته بعامين ، حيث افترض أن الذرة مكونة من نواة محاطة بعدد من الالكترونات في مدارات دائرية ، وعندما تكتسب الذرة طاقة من مصدر خارجي فإن الكترونا أو أكثر ينتقل من مداره المستقر الى مدار أعلى غير مستقر ، ولكي تعود الذرة الى حالة الاستقرار (وهو الوضع الطبيعي) فانها تفقد ـ تلقائيا ـ الطاقة الزائدة على شكل فوتونات أو ضوء ، وهذا النوع من الانبعاث المشع هو « الانبعاث التلقائي » .

وفي عام ١٩١٧ أعلن انيشتاين للعالم أن الانبعاث التلقائي ليس هو الانبعاث الوحيد الذي يحدث للذرات المهيجة ، بل يمكن أن تفقد بعض الذرات طاقتها عن طريق « الانبعاث المحفز » الذي يتطلب شروطا خاصة لتوليده ، وهذا النوع من الانبعاث هو الشرط الضروري لتوليد الليزر .

---

* استاذ مساعد بقسم الفيزياء ـ كلية العلوم ـ جامعة بغداد .

أشعة الميزر

هذا ما كان في الجانب النظري ، أما في الجانب التطبيقي فقد كان المخاض طويلا حتى نجح العلماء - تاونس وجوردن وزيجر - عام ١٩٥١م في معهد ماساتشوستس التقني (في كامبرج MIT في الولايات المتحدة) في توليد الانبعاث المحفز في غاز الأمونيا على شكل أشعة في المنطقة المايكروية من الطيف الكهرومغناطيسي ، وسموها الميزر ، وهي كلمة تتكون من الأحرف الأولى من هذه العبارة Microwave Amplification by Stimulated Emission of Radiation التي تعني تضخيم الموجات المايكروية بواسطة الانبعاث المحفز للأشعة ، واذا كان هؤلاء العلماء قد ناقشوا أهمية توليد هذا التضخيم عام ١٩٥١ فان كلاً من باسوف وبروخوروف من معهد ليبدوف في موسكو من جهة ووبير من جهة أخرى قد نشروا مقترحات محددة لتوليد مثل هذا التضخيم في فترة ١٩٥٣ - ١٩٥٥ . وفي عام ١٩٦٤ منحت جائزة نوبل مشاركة بين العالم الأمريكي تاونس والعالمين السوفيتيين بروخوروف وباسوف للأعمال الأساسية التي أنجزوها في هذا الميدان .

كان اكتشاف الميزر قد فتح الطريق الى امكانية توليد انبعاث محفز آخر ، بأطوال موجيّة أخرى ، وهذا ما كان فعلا ، حيث نجح العالم (مايمن) في مختبرات هيوز بالولايات المتحدة في الحصول على انبعاث في منطقة الضوء المرئي ، ولذلك سمي هذا الانبعاث في البداية الميزر البصري ، لكنه استبدل - لاحقا - باسم الليزر ، وهو كلمة تتكون من الأحرف الأولى للعبارة الانكليزية المماثلة لعبارة الميزر ، بعد استبدال كلمة Microwave بكلمة Light التي تعني الضوء ، وكان هذا أول ليزر أمكن توليده في التاريخ ، فقد استخدم قضيب من بلورة الياقوت الأحمر ، ثم صقل وجهيها وطلاؤهما ، ويحيط بهذه البلورة مصباح ومضي حلزوني ، كما يحيط المنظومة سطح عاكس جيد ، لزيادة كفاءة الضخ (شكل ١) ، وهكذا تولد ضوء أحمر براق ، أثار في العالم ضجة كبرى ، أثبتت الأيام أن لها ما يبررها .

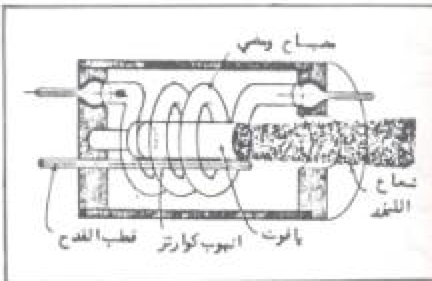
البناء العكسي

كيف يحصل الفعل الليزري ؟ وما هي الشروط المطلوبة لتوليده ؟

يشترط أولا لتوليده أن تزيد عدد ذرات المستوى العلوي (ذو الطاقة الأعلى) على عدد ذرات المستوى السفلي ، وتسمى هذه الحالة البناء العكسي ، وهي حالة غير طبيعية ، لا تحدث تحت ظروف التوازن الحراري ، فكيف يمكن إحداث ذلك ؟ في البداية تكون ذرات المادة غالبا متجمعة في المستوى السفلي ، وبعد ضخ هذه المادة بمصدر مناسب يحتوي على الترددات المناسبة للامتصاص ترتفع الذرات الى المستوى العلوي (٣) ، وتنتقل هذه بصورة سريعة الى مستوى طاقته أقل من سابقه (٢) (انظر شكل ٢) ، ويتم ذلك بعملية انتقال غير مرئية ، ثم تنتقل الالكترونات أو الذرات الى المستوى السفلي ، باعثة فوتون الانتقال الأخير المسؤول عن عملية الليزر . يبقى الآن دور عمل المرنان ، وهو الوسط الذي ينتقل فيه ويتضخم ، ويشترط لعمل الليزر توازي مرآتي مرنانه بشكل عمودي على المحور الوهمي المار من مركزيهما .

إن حصول الانعكاسات المتتالية بواسطة المرايا داخل الوسط الفعال لليزر،يتسبب في تضخيم الاشعاع المحفز عن طريق توافق طور موجاته ، وبالتالي يمكن الحصول على الليزر ، وإن إزاحة إحدى المرآتين أو كلتيهما يسبب هبوط قدرة الليزر ، وربما استحالة الحصول على حزمة الليزر .

لقد كان ما قام به (مايمن) عملا رائعا حقا ، ذلك أن موضوع توسيع تقنية الميزر ليشمل منطقة الضوء المرئي قد نوقش بصورة مطولة ، وأثبت عدم فاعليته ، كما أن استخدام الياقوت لهذا الغرض قد



صورة لأول جهاز ليزر في العالم صممه « مايمان » في مختبرات شركة هيوز للطائرات (١٩٦٠) .

واجه كثيرا من الصعوبات النظرية والتقنية .

واذا كان اكتشاف الليزر « عمليا » قد تأخر أكثر من أربعة عقود من الزمن عن توقعات اينشتاين النظرية،فان تطورات الليزر من عام ١٩٦٠ كانت سريعة جدا ، بل لقد أصبحنا دون انقطاع نشهد تطبيقات جديدة بشكل يتعذر علينا حتى متابعته والاطلاع على تفاصيله . ففي نهاية عام ١٩٦٠ أمكن توليد ليزر باعث للأشعة تحت الحمراء ، (طول موجته بين المايكروية والضوء) ،باستخدام بلورات فلوريد الكالسيوم المطعمة باليورانيوم ، على يد العالمين سوروكن وستيفنسون ، كما تم في نفس الفترة بناء أول جهاز ليزر غازي يستخدم خليطاً من الهيليوم والنيون في مختبرات شركة (بل ـ تلفون) بأيدي ثلاثة علماء هم علي جافان وبنيت ومريوث ، وكان جافان قد اقترح هذا النوع من الليزر عام ١٩٥٩ ، وفي الأعوام التي تلته تم اكتشاف ليزرات غازية أخرى ، كليزرات الغازات النبيلة ، وإن كان معظمها ذا قدرة منخفضة .

أنواع من الليزر

بعد ذلك بعام واحد تم بناء أول جهاز « ليزر الحالة الصلبة » وهو من النوع المستمر في مختبرات (بل ـ تلفون) أيضا ، وبعد عام آخر تم بناء ليزر من نوع جديد ، هو ليزر أشباه الموصلات ، بتعاون بين شركة جنرال الكتريك ومختبرات لنكولن في معهد MIT ، ويتميز هذا النوع من أجهزة الليزر بصغر حجمه ، حيث لا يزيد عن حجم القلم الاعتيادي ، ولذلك يعتبر مثاليا للاستخدام في العمليات الجراحية .

وفي عام ١٩٦٤ تمكن باتيل ومجموعته من توليد أشعة ليزر ثاني أوكسيد الكربون الغازي المستمر بطول موجي ١٠,٦ مايكرومتر وبقدرة ملي واط ، وبعد ذلك بعامين تم تطوير ليزر ثاني أوكسيد الكربون باستخدام مزيج من ثاني أوكسيد الكربون والنيتروجين (أو بخار الماء) ، وأمكن بذلك زيادة قدرة الليزر الى ١٠ واط ، وباضافة غاز الهيليوم الى المزيج السابق أمكن رفع القدرة الناتجة الى ١٠٠ واط .

وفي نفس الفترة التي طورت فيها تقنية الليزرات الصلبة أمكن توليد ليزرات سائلة ، لا تختلف عن الأولى بشيء سوى أن المادة الليزرية الأخيرة لا يمكن حصرها في وعاء من الزجاج أو الكوارتز ، بل يجب اعطاؤها مجالا يتمدد فيه حجمها ، أو جعل طول أنبوبة الليزر قابلا للتغير .

إن أكثر المحاليل الليزرية كفاءة هو محلول ايونات النيوديميوم المذابة في حامض لا يحوي عنصر الهيدروجين ، لأنه لو وجد الأخير في تكوين الحامض المذيب فان التذبذبات الجزيئية للهيدروجين تلغي إثارة الأيونات المعدنية ، لذلك فالمذيب الملائم يتكون من خليط المركبين $SeOCl_2$ و $SnCl_4$.

وفي عام ١٩٦٦ أعلن كل من سوروكن ولانكارد عن اكتشاف نوع آخر من الليزر ، من محاليل عضوية متفلورة ، مثل (كلورو ـ المنيوم ـ فثالوسيانين مذاب في كحول أثيلي) ، ويتميز هذا الليزر بشدة إضاءته ، وتتم الاثارة باستخدام مصادر ضخ قوية جدا ، ولهذا الغرض تستخدم في الوقت الحاضر أربع طرق معروفة للضخ ، هي الضخ باستخدام مصابيح ومضية قوية ، أو الضخ باستخدام ليزر النيتروجين الغازي ، أو الضخ

باستخدام ليزر ايون الاركون وايون الكربتون ، أو الضخ باستخدام ليزر الياقوت أو ليزر النيوديميوم والزجاج . وفي ليزرات المحاليل العضوية هذه يمكن توليد مدى طيفي عريض نسبيا ، يمتد من ٣٤٠ نانوميتر حتى ١١٧٥ نانوميتر ، أي أنه يشمل المناطق تحت الحمراء المرئية ، وفيا من المنطقة فوق البنفسجية من الطيف الكهرومغناطيسي ، وذلك عن طريق اختيار المحلول العضوي (الصبغة) المناسب ، حيث يبلغ المدى الطيفي لكل محلول حوالي ٤٠ نانوميتراً ، وباجراء عملية توليف لأشعة الليزر الناتجة يمكن الحصول على أطوال موجيّة ضيقة أو متلاحة .

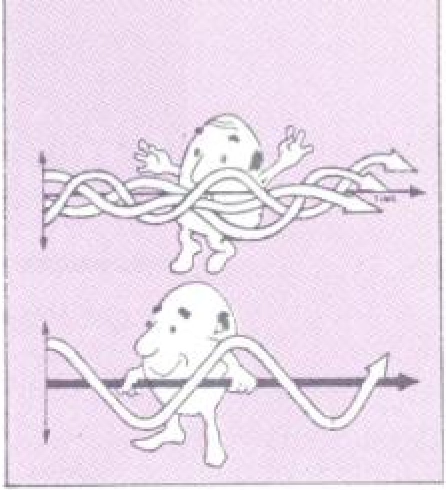
تطبيقات الليزر

بدأ الليزر كجهاز مختبري بسيط ، واصبح الآن يمثل أعظم طفرة علمية في تقنية الضوء . فقد أدخل الليزر تطورات لا يمكن حصرها في المجالات العلمية الصرفة ، في مفهوم تداخل الضوء ، وفي علم الأطياف ، لتحديد أدق النماذج أو المواد ، وفي معيار القياسات الدقيقة عموما ، وكذلك لتوليد البلازما ، وقياس توزيع الكثافة الالكترونية ، وفي عمليات السيطرة في الانشطارات النووية الحرارية . لكن الليزر فعل فعله في مجالات التطبيقات الطبية ، والصناعية ، وفي علم الاتصالات ، والملاحة ، وكذلك في الكشف عن الزلازل الأرضية ، أو التفجيرات الذرية ، بل حتى في كشف التلوث في الجو وقياسه .

ففي المجال الطبي حقق شعاع الليزر حلم الانسانية في جراحة لا تقطع الجلد أو تسيل الدماء ، وكذلك في لحام قرنية العين في زمن لا يتعدى واحدا من ألف من الثانية ، ويمكن أن تجرى مثل هذه العملية في عيادة الطبيب ... رعاج للمريض في دخول المستشفى ، بحيث يمكنه الذهاب لمنزله فور الانتهاء من العملية ، بينما كانت مثل هذه العمليات تستغرق ساعات طوالا ، وتتطلب بقاء المريض أسابيع أخرى في المستشفى ، وتعالج هذه الطريقة بعض العيوب البصرية بأساليب مماثلة أيضا .

ويستخدم الليزر أيضا لاستحداث التفاعل الكيميائي ، مما يمهد لدراسة الميكروبات والفيروسات ، بل حتى الخلايا ، وهذا مما ييسر أمر دراسة النمو الشاذ في الجسم . إن دخول الليزر لعلاج السرطان حديث في الوقت الحاضر ، وتجري - حاليا - تجارب رائدة لمعالجة أورام الجلد الخبيثة باستخدامه . وفي المجال الصناعي يستخدم شعاع الليزر في عمليات قطع المعادن الصلبة وتشكيلها ، ولعمل الثقوب في أشد السطوح صلابة ، وكذلك عمليات اللحام ، حتى للمواد غير المتماثلة ، فشعاع الليزر بحرارته التي تبلغ ١٨ ألف درجة مئوية ، وهي تزيد على حرارة سطح الشمس ، يمكن أن يستخدم لانتاج مختلف أجزاء المنظومات الصناعية بسرعة ، وكفاءة لا تضاهيها الطرق التقليدية المعروفة ، وبرغم أن كلفة أجهزة الليزر المستخدمة لمثل هذه الأغراض قد تكون في الوقت الحاضر عالية نسبيا إلا أنها تفضل لأسباب مهمة ، منها أنه باستخدام الليزر يمكن لحام مواد مختلفة سويا ، مثل لحام الزجاج بالمعدن دون إحداث أي تشويهات على أي منها ، وعند التثقيب بالليزر فان احتمال كسر المادة (خاصة الصلبة أو الهشة) معدوم تماماً ، لأن شعاع الليزر في الأساس يبخر منطقة الثقب دون إحداث تماس مع المادة ، كما الحال في الطرق التقليدية ، بالاضافة الى أن التثقيب به أسرع من أي طريقة أخرى ، فمثلا يستغرق إحداث ثقب في الماس (وهو أصلب مادة معروفة) وقتا يبلغ ثلاثة أيام بالطرق المستعملة حاليا ، لكنه باستخدام الليزر يمكن إحداث نفس الثقب في عشر دقائق ، وبكلفة زهيدة جدا .

بالاضافة الى ما تقدم فان استخدام الليزر يمكّن من إجراء العمليات المذكورة من بعد مناسب ، مما



الضوء العادي (أعلى) عبارة عن إشعاعات غير متوافقة في الطور تلغي تأثير بعضها البعض .
ضوء الليزر (أسفل) متوافق الطور لذلك تكون شدته عالية جدا .

يعطي حرية في التعامل وبشكل أفضل .

وعندما نتحدث عن القطع واللحام والتثقيب فهذا لا يعني أن كل أنواع الليزر تقوم بهذه المهام ، فلكل مهمة نوع منه ، فللتثقيب السطحي مثلا يستخدم نوع منه ، وللتثقيب العميق نوع آخر ، لكن النوع الأكثر شيوعا في الاستعمال للأغراض الصناعية هو ليزر ثاني أوكسيد الكربون بالذات لأغراض القطع واللحام ، فهذا النوع يولد قدرة تزيد على كيلو واط ، وبضغط قليل نسبيا وعندما يخلط بالاوكسجين فانه ينتج لحاما بقوس البلازما بنسبة ٢٥٪ .

واجدات المدى

أما في مجال الاتصالات فقد حقق الليزر شيئا كثيرا ، وإن شعاع ليزر واحد يمكنه حمل جميع المعلومات التي تبثها جميع إذاعات هواتف العالم قاطبة وفي آن واحد ، ولكن قبل البدء برفع مرسلات الاذاعة وأعمدة الهاتف في انتظار الليزر ، لنتمعن في المشاكل التي تواجه استخدامنا له ، فهو - كأي ضوء - يعاني من الامتصاص من قبل الرطوبة المنتشرة في الجو ، مما يحد من قدرته على البث في بعض أيام السنة ، أما النقل التلفازي بالليزر فقد أثبتت التجارب نجاحه بشكل رائع ، وقد نجح العرض الذي قدم في المعرض الدولي Expo 70 في اليابان نجاحا باهرا .

وأخيرا فان استخدام الليزر في الأغراض العسكرية لم يعد سرا ، فمنذ زمن وهو يستخدم لأغراض التوجيه كما في حالات ما يسمى « قنابل سمارت » ، حيث أنها توجه بالليزر من طائرة أخرى ، أو من قبل أفراد متسللين ، مما يوفر دقة الاصابة للهدف المطلوب . وتعتبر منظومة « الرادار البصري » التي تعمل بالليزر من أفضل أنواع الرادارات المستعملة في الوقت الحاضر ، خاصة في عمليات غزو الفضاء ، والرادار الليزري يعمل بشعاع أضيق مائة مرة - على الأقل - من نظيره الذي يعمل بالموجات المايكروية (القصيرة) ، لكن شعاعا من الضوء المتوافق الطور أكثر دقة في تحديد الأهداف ، كما أنه أسرع آلاف المرات في إعطاء المعلومات عن تحرك الأهداف وهو - أيضا - يعمل في مختلف الظروف الجوية ، وبهوائي يقل حجما عن هوائيات الرادارات الأخرى ، كما أنه استخدم بشكل متنوع فيما يعرف « بواجدات المدى » ففي مثل هذه الأجهزة قيست المسافة بين الأرض والقمر ، وبنسبة خطأ لا يزيد عن ١٥سم ، بينما تجاوز عدم دقة أفضل الطرق الأخرى المستخدمة أكثر من ٣٠٠ متر .

ويصنع جهاز « واجد المدى » بأشكال وأحجام مختلفة ، فمنه ما يمكن حمله باليد ، أو ما يمكن تثبيته على الدبابات أو السيارات . وتحدد ظروف الجو الاعتيادية عمل « واجد المدى » ، ففي الأجواء الغائمة والممطرة تتقلص المسافة التي يعمل ضمنها .

وتجري الآن تجارب رائدة لتطوير أنواع تعمل في مختلف الأجواء ضمن المشروع الامريكي المعروف بحرب النجوم الذي يتضمن أيضا تطوير ليزرات بعيدة المدى ، قادرة على تدمير الصواريخ عابرة القارات قبل وصولها الى أهدافها . □

المناقشة

بقلم : فهمي هويدي

اشكالية الآخر في التفكير الاسلامي

الاختلاف الذي لابد منه !

عندما اضطر معتزلي كبير مثل واصل بن عطاء لأن يعلن على جماعة من الخوارج اعترضوا طريقه ، أنه « مشرك مستجير » ، ليأمن شرهم ، فقد كان ذلك تعبيرا عن مدى حمق أزمة « الآخر » في بعض مدارس التفكير الإسلامي المبكرة .

لقد قدر ابن عطاء بسرعة بديهته ، أن مصيره القتل لو أنه كشف عن حقيقته ، وكونه مسلما يختلف معهم في الرأي ، بينما يظل آمنا موفور الحماية ، لو أخبرهم بصفته التي ذكرها ، وهم الحافظون لقوله تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ . . » (التوبة ـ ٦) . وقد كان حدسه صحيحا ، لأنهم ما أن علموا بأنه على هذه الصفة ، حتى أكرموه وخلوا سبيله ، كما تقول المراجع التاريخية !

آخرون غير ابن عطاء كانوا أتعس حظا ، إذ يروي المبرد في « الكامل » ، أن جماعة منهم لقيت عبدالله بن خباب ، وكان معه مصحف دل على إسلامه ، ولما حاوروه ورفض أن يؤيدهم في اتهام الإمام علي بالشرك ، قتلوه ! . . ثم حدث أن ساوموا رجلا نصرانيا على نخلة ، فقال : هي لكم ، فأبوا بشدة ، فالرجل في ذمة الله ورسوله ورعاية حقه واجبة ، وقالوا : والله ماكنا لنأخذها إلا بثمن ، وهو ما أدهش النصراني وأثار استغرابه ، حتى قال : ما أعجب هذا ، أتقتلون رجلا مثل عبدالله بن خباب ، ولا تقبلون منا نخلة ؟!

الآخر الاسلامي

منذ ذلك الحين ، وإلى الآن ، فإن الآخر المسلم في موقف لا يحسد عليه ، وهو موقف يسوء كلما بعدت الشقة بين الحفظ وبين الفهم ، وكلما انفصل التدين عن الوعي ، وكلما تصدر حماية الحق أقوام لم ينالوا قسطا وافيا من التربية الإسلامية الصحيحة .

والأمر كذلك ، فربما كان من المهم أن نحاول استجلاء هذه الصفحة ، والإسهام قدر المستطاع في تصور حقيقة الموقف الإسلامي من إشكالية الآخر ، أيا كان موقفه أو اتجاهه .

لقد تحدثنا من قبل عن جوانب متعددة من إشكالية الغير أو الآخر في التفكير الإسلامي . فكان هذا الآخر مرة خارج ديار الإسلام ، ثم كان في مرة تالية في داخل ديار الإسلام ، ولكن على غير ملة المسلمين ، وفي هذه الوقفة نبدأ مناقشة الآخر الإسلامي ، الذي نزعم أن وضعه أكثر دقة وحرجا من غيره لأن مظلة حماية غير المسلم يظل الالتباس فيها محدودا ، خصوصا إذا كان من أهل الذمة ، الذين تشدد النصوص الشرعية على البر بهم وتوفير الحماية والأمن لهم وقصة واصل بن عطاء شهادة تعزز ما نقول .

مصدر الدقة والحرج في أمر الآخر الإسلامي أنه يقف على أرضية عقيدية واحدة مع غيره ، وعندما يختلف المسلمون ، فلابد أن يكون هناك طرف مخطيء وآخر مصيب ، وعندما تضيق الصدور وتتقطع سبل الحوار ويغيب عن الناس أدبه فان الاحتماء بالنصوص الشرعية في تجريح اعتقاد الآخر يظل احتمالا واردا أو راجحا الأمر الذي يصبح من الضروري في ظله أن توضح الحدود دائما بين المقبول والمنكور من الخلاف ، في أمور الدين فضلا عن أمور الدنيا .

في هذا الصدد ، فإننا نميز بين دوائر ثلاث للخلاف بين المسلمين : فهناك الفرق الإسلامية المختلفة (شيعة إمامية ـ سنة ـ زيود ـ أباضية) ، وهناك خلاف بين مذاهب أهل السنة ، وهم القطاع الأكبر من المسلمين الآن ، وهناك خلاف ثالث يتجاوز الأمور الدينية ، ليثور حول المسائل الدنيوية ، مما يفتح الباب للحديث عن أمور هي محل جدل في زماننا ، مثل تعدد الأحزاب السياسية ، وفكرة حزب الله ، ومسألة المعارضة السياسية في المجتمع الإسلامي .

باختصار فإن هذه الدوائر تتفرع عن قضية محورية هي : حرية الحركة المتاحة للرأي الآخر في التصور الإسلامي ، دينيا كان أم دنيويا .

وقبل أن نخوض في هذه الأمور ، فإننا ننبه إلى نقاط عدة هي :

ـ أننا لسنا معنيين هنا بتاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية ، إلا بالقدر الذي يفيدنا في تقييم وتقصي واقعنا الراهن ، أو بتعبير أصرح وأدق ، فإن قضيتنا في هذه المناقشة تتوجه إلى الحاضر والمستقبل ، بأكثر مما تتوجه إلى الماضي ، إذ الماضي بالنسبة لنا ـ في هذا المقام ـ دليل وتجربة وعبرة ، وليس بالضرورة نمطا يتبع أو مثلاً يحتذى .

ـ اننا نميز بين الاختلاف والخلاف ونعتبر أن الاختلاف في الرأي أمر طبيعي وعلامة صحة ، بل ومصدر للثراء الفكري وعون على التصحيح إذا أدير بكفاءة وروعيت فيه شروط الحوار وأدبه . بينما الخلاف قرين الفرقة ، التي لا يختلف على إنكارها ونبذها .

وليس كل اختلاف مؤديا إلى الفرقة أو الخلاف ، إلا إذا اختلت موازين الحوار وأهدرت شرائطه ، أو إذا تصدى للأمر غير أهله ، بالتالي فإن الأحاديث النبوية التي تنهى عن الاختلاف ، ينبغي ألا تحمل بحسبانها دعوة إلى الرأي الواحد ـ المستحيل عمليا ـ ولكنها تعد تحذيرات من الفرقة ، التي تؤدي إلى شق الصف وفتنة المسلمين .

ـ أننا ننبه إلى خطأ المقولة المنسوبة ظلما الى النبي عليه الصلاة والسلام ، التي تقرر أن « اختلاف أمتي رحمة » ، وهو ما ينكره أهل العلم ، حتى قال ابن حزم « لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطا ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، ليس إلا اتفاق أو اختلاف ، وليس إلا رحمة أو سخط » ـ فضلا عن أن هذا الحديث الموضوع يتعارض صراحة مع حديث آخر صحيح يقول : « لا تختلفوا فتختلف

قلوبكم » .

- في الوقت نفسه فإننا لا نستطيع أن نقول ابتداء ومقدما بأن الاختلاف في الرأي هو خير مطلق أو شر مطلق ، وإنما هو خير إذا كان مصدرا للتنوع والإثراء وسبيلا إلى إظهار الحق ، وهو شر إن أدى الى الفرقة وتمزيق الصف ، وعلى ذلك فلا مشكلة ولا غضاضة في مبدأ الاختلاف أو تعدد الآراء ، إنما المشكلة تكمن في الكيفية التي يدار بها هذا الاختلاف .

- اننا نفرق أيضا بين الاختلاف في الأصول والاختلاف في الفروع ، وبين الاختلاف في الدين ، أو في الفقه ، وإذا تم الاتفاق حول الأصول ، فلا مشاحة في الاختلاف حول الفروع ، وكل اختلاف في هذه الحدود محتمل ومقبول ، بنفس المقدار ، فاذا انعقد الاتفاق حول اجتهادات الفقهاء وأقاويلهم لا يجرح عقيدة أحد ، ولا يقلل من شأن أحد .

- من ناحية أخرى ، فإننا نقرر هنا أن الإسلام قد احتمل اختلافا في العقيدة نفسها ، فاعترف بأهل الكتاب ودعا الى البر بهم ، وقبل تعايشا كريما مع أصحاب الديانات الأخرى ، فإننا لا نتصوره ضائقا بتعدد المذاهب والفرق على أرضية الاسلام وتحت مظلته ، وإذا ثبت الالتزام بالأصول فليس هناك ما يمنع من تعدد الفرق والمذاهب ، شريطة أن يحترم كل فكر الآخر ، ولا يحرجه في اعتقاده .

الاختلاف والفرق

- بالمثل ، فإنه إذا كان الإسلام قد احتمل اختلافا في أمور الدين ، عبرت عنه المذاهب والفرق الإسلامية ، فإننا نستغرب زعم البعض أن الإسلام يضيق بالاختلاف في أمور الدنيا ، مثلا في الأحزاب السياسية بمفهومها المعاصر ولا ندري أي منطق - دعك من المصلحة - يقبل اختلافا في شأن دقيق مثل صلة الانسان بربه ، ثم يرفضه فيما هو أدنى وأيسر ، مثل علاقات الناس بعضهم ببعض !

قضية الاختلاف كانت واردة في الوعي الاسلامي منذ وقت مبكر ، فقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله : « افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » - وقد تكلم علماء السنة في صحة هذا الحديث ، الذي تردد بروايات مختلفة .. وقال عنه « المقبلي » في كتابه « العلم الشامخ » : وحديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة ، يشد بعضها بعضا ، بحيث لا تبقى ريبة ، في حاصل معناه » .

وكتب الملل والنحل ، وأشهرها ماكتبه ابن حزم الشهرستاني ، شهادة تفصل في قدر التنوع الفكري العريض الذي عرفه الواقع الإسلامي ، ولئن اهتم ابن حزم بأهل السنة والشيعة والمعتزلة والمرجئة والخوارج ، فإن الشهرستاني عدد في مؤلفه ٧٦ فرقة - أما الأشعري ، فقد عرض لأكثر من مائة فرقة في « مقالات الاسلاميين » (الشيعة ٤٥ - الغلاة ١٥ - الإمامية ٢٤ - الزيدية ٢٦ - الخوارج ٣٦ - المرجئة ١٢) ، وبينما احتسب الأشعري المعتزلة فرقة واحدة ، فإن الشهرستاني رصد منهم ١٧ فرقة - والخوارزمي عرض لـ ٧٢ فرقة (د . محمد عمارة - الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية - ص ١٣١) .

ولئن اتخذ الخلاف صورة الجماعات والفرق قبل النصف الثاني من القرن الهجري الأول - تحديداً بعد مقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان وتولي الإمام علي الخلافة سنة ٣٥هـ ، إلا أن ذلك لا يعني أن الرأي الواحد كان سمة للمرحلة السابقة ، إذ جرت سنة الله في الخلق ، فتباينت المواقف بين الصحابة ، في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وبعد مماته ، في حياة النبي كانت الخلافات محدودة وكادت تكون محصورة في مجال فهم النصوص الشرعية ، وكان حسمها ميسورا نظرا لوجوده عليه الصلاة والسلام بينهم ، فعندما ثار الخلاف حول قول النبي يوم الأحزاب « لا يصلين أحد العصر إلا في بني

قريظة » ، وذهب فريق الى الالتزام بظاهر النص ، فلم يصلوا ، بينما استنبط آخرون معنى الاسراع لبلوغ الهدف ، وصلوا ، أقر النبي الاثنين ، من التزم بالظاهر ومن استنبط المعنى .

أما بعد الوفاة ، فقد تعددت مجالات الخلاف ، ويذكرنا هذا الصدد أن الخلاف بدأ منذ اللحظات الأولى لإعلان خبر الوفاة ، إذ ثار أول خلاف حول خبر الوفاة نفسه الذي اعتبره سيدنا عمر بن الخطاب ارجافات المشركين ، حتى قرأ عليه أبو بكر الآية : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، ثم اختلفوا في دفنه عليه الصلاة والسلام ، وهل يكون في مسجده أو مع أصحابه واختلفوا أيضا في خلافته ، وفي قتال مانعي الزكاة ، كما اختلفوا في أمور أخرى عديدة ، مثل قسمة الأراضي المفتوحة ، والمفاضلة في العطاء وغير ذلك .

وقد ذكر ابن القيم في أعلام الموقعين أن سيدنا عمر وابن مسعود اختلفا في ١٠٠ مسألة وعدد مؤلفو كتاب « تاريخ التشريع الاسلامي » (السايس والسبكي والبربري) عشرين مسألة اختلف فيها الصحابة .

لم يستنكر أحد هذا الخلاف ، إنما اعتبره الجميع أمرا طبيعيا لايقطع ودا ولا يفرق صفا . وهذا أيده عمر بن عبدالعزيز ، فيما يذكر الشاطبي في « الاعتصام » ، وقال ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يختلفون . لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس في ضيق وأنهم أئمة يقتدى بهم . فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة » .

يبدو أن مسألة الخلاف بين المسلمين أرقت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في لحظة تأمل وتفكر ، فظل يسائل نفسه : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ؟ ثم أعاد طرح السؤال على عبدالله بن عباس ، فيما تشير الرواية ، وقال له : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة ، وكتابها واحد ؟

رد ابن عباس قائلا : يا أمير المؤمنين إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما أنزل . وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيما نزل ، فيكون لكل قوم رأي . فاذا كان لكل قوم فيه رأي لاختلفوا فإذا اختلفوا اقتتلوا .

تقول الرواية إن سيدنا عمر زجر ابن عباس ونهره سيدنا علي : فانصرف ابن عباس ونظر عمر فيما قال فعرفه . . فأرسل إليه وقال : أعد علي ما قلته فأعاد عليه فعرف عمر قوله وأعجبه (د . يوسف القرضاوي ـ الصحوة الإسلامية ص٨٩ نقلا عن مصادر أخرى) .

علق الإمام الشاطبي على ذلك ، فأيد مقالة ابن عباس ، وأضاف أنه « إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة ، عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها ، فلم يتعد ذلك فيها . واذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أوجهاً . فذهب كل إنسان فيها مذهبا لا يذهب إليه الآخر . وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم الى الصواب ، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات . فلم يكن بد من الأخذ ببادي الرأي ، أو التأويل بالتخرص الذي لا يغني من الحق شيئا إذ لا دليل عليه من الشريعة ، فضلوا وأضلوا .

الموقف من الخلافات

أكان الخلاف ضروريا ؟

(رد أهل العلم بالإيجاب وأثبت إخوان الصفا ذلك في رسائلهم ، حيث ذكروا أن الناس تختلف اتجاهاتهم ومشاربهم . فكان طبيعيا أن تختلف مواقفهم إذ (القياسات مختلفة الأنواع كثيرة الفنون كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها ، مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء وقياسات المنجمين لا تشبه قياسات النحويين ولا المتكلمين ، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين وهكذا) .

وقالوا أيضا إن اختلاف المدارك من أسباب

اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب « لأنه اذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك) .

وقد قدم الشيخ محمد أبو زهرة للكاتب « تاريخ المذاهب الاسلامية » بدراسة لأسباب اختلاف المسلمين ، حدد لها عناصر عدة في مقدمتها :

ـ العصبية العربية التي يرى فيها استاذنا الجليل أنها « جوهر الخلاف الذي فرق أمر الأمة وأن هذه العصبية اختفت في عصر النبي عليه السلام وبعده ببعض الوقت ثم ظهرت في آخر عهد الخليفة عثمان بن عفان . وكان انبعاثها له أثره في الاختلاف بين الأمويين والهاشميين أولا ثم بين الخوارج وغيرهم . فقد كانت القبائل التي انتشر فيها مذهب الخوارج من قبائل ربيعة لا من القبائل المضرية والنزاع بين هؤلاء وهؤلاء معروف في العصر الجاهلي ، فلما جاء الاسلام أخفاه حتى ظهر في نحلة الخوارج .

ـ التنازع على الخلافة وهو ما عولج بالحكمة عندما شب بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة النبي ولكنه تصاعد بعد ذلك حول الأحق بها : قريش أم أولاد علي ، أم المسلمين أجمعين مما كان وراء قسمة المسلمين الى خوارج وشيعة وجماعات أخرى .

ـ مجاورة المسلمين لكثيرين من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم في الاسلام ونقلهم لبعض أفكارهم ومعتقداتهم الى مجتمع المسلمين . وهو ما وراء الكلام في الجبر والاختيار وصفات الله تعالى .

ـ ترجمة الفلسفة التي ظهرت عند اليونان والرومان وهو ما أثر في علم الكلام ، وطبع مجادلات المعتزلة وأهل السنة ، التي اعتمدت مجموعة من الأقيسة المنطقية والتعديلات الفلسفية والدراسات العقلية المجردة .

ـ ورود المتشابه في القرآن بالاضافة الى الآيات المحكمات وهو ما أشارت إليها الآية الثانية من سورة آل عمران . إذ اختلف العلماء في مواضع المتشابهات من القرآن . وحاولوا تأويلها والوصول الى حقيقة معناها ، فاختلفوا في ذلك اختلافا مبينا .

استنباط الأحكام الشرعية ، باعتبار أن النصوص تتناهى ولكن الحوادث لا تتناهى مما فتح الباب لاستنباط الأحكام الشرعية التي تتعلق بمختلف المستجدات فاختلف الفقهاء حول هذه الأحكام ، وحول القواعد الأصولية التي تنبني عليها . والجدال الطويل حول المصالح المرسلة وحجية أحاديث الآحاد أو الأحاديث الضعيفة والأخذ بالعرف والعادة ، ومن نماذج ذلك (ص ١٦) .

وإذ نذكر أن الاختلاف الذي جرى لم يتناول لب الدين ولا أصوله ، فإننا نثني على قول الدكتور طه العلواني ، في كتاب « أدب الاختلاف في الإسلام » أن « في ذكر هذه الاختلافات بيانا لواقعية هذا الدين . فهو يتعامل مع الناس على أنهم بشر تتنازعهم عوامل مختلفة بما فطر الله تعالى خلقه عليه . ولكن الذي تطمئن اليه النفس المؤمنة أن ذلك الاختلاف لم ينشأ عن ضعف في العقيدة أو شك في صدق ما يدعو إليه رسول الله ﷺ . بل كان لتحري الحق والرغبة في إصابة قصد الشارع والاحكام وهو بغية جميع المختلفين . (ص ١٠٢) .

يسري هذا الكلام على عصور الاجتهاد ورجاله ولكن الأمر اختلف في عصور التدهور والانحطاط التي لاحت بوادرها في القرن الرابع الهجري الأمر الذي قاد الأمة الى مرحلة التقليد ، وأوقعها فريسة للأهواء والعصبيات والبدع . وكانت تلك ابوابا نفذ منها الاختلاف الذي بسببه تقاتل الشيعة والسنة وتقاتل أهل السنة فيما بينهم (الشافعية والأحناف والحنابلة بوجه أخص) ثم تقاتل البعض مع المتصوفة وتقاتل آخرون مع من اصطلح على تسميتهم بالسلفيين . وتوالت حلقات التنازع وتبادل الاتهامات مرة بالتفسيق ومرة بالتكفير ومرة بالابتداع . وهو ما نلمسه الآن وتتناهى الى اسماعنا أنباؤه وأصداؤه ، خاصة في ظل ظاهرة المد الإسلامي التي نشهدها منذ بداية السبعينيات . □

زفاف ابنة الباشا

بقلم : الدكتور محمد المنسي قنديل

لم يكن هناك من يستطيع أن يقاوم محمد علي باشا القوللي ، فلا الذين حاربوه استطاعوا الصمود في وجهه ، ولا الذين عاونوه استطاعوا أن يجاروا خطوات صعوده . كان ريحا عاصفة أطاحت بكل مفردات الزمن القديم ، المماليك والأمراء والشراكسة والمشايخ ، حتى أن النيل ارتعد خوفا منه ، وغاضت مياهه في أول سنوات عهده .

عندما بدأ رحلة الصعود كان يسكن في أحد قصور الأزبكية ، وسط الناس ، يسمع أصواتهم ، ويرى أحجامهم الحقيقية ، ويهتز عند ثورتهم ، ويلين في وقت شكواهم ، ويعطي للمشايخ فروض الطاعة الكاذبة . ثم صعد إلى القلعة ، مكمن النسر الذي يداوم النظر إلى فريسته ، بجانب فوهات المدافع المسلطة على البيوت ، وابتعدت أصوات المدينة . وتضاءل حجمها ، وأصبحت عاجزة مبسوطة الشوارع والميادين والقصور ، وتحول أناسها إلى كائنات صغيرة ، تدب بلا صوت ، وتسعى دون جدوى ، ولا تملك حيلة أمام تماسك الصخر ، وارتفاع الأسوار . وهنا أدرك تاجر الدخان القديم أنه لا يوجد من يقاومه . وحين أتاه علي بيك الدفتردار طالبا الزواج من ابنته ، قال في اعتداد :

- أريد لابنتي زفافا لم يحدث من قبل ، لأن مصر لم تر حاكما مثلي من قبل .

بدأ الباشا ينظف المكان

كان يستعد لمحاربة الوهابيين ، ويجهز جيشه للسفر إلى الصحراء العربية . كانت هذه هي أوامر الباب العالي ، وتحمس لها الباشا ، لأنها توافق أطماعه الشخصية . بدأ سريعا في تجهيز العسكر ، وصادر كل ما وجده في طريقه من مؤن ودواب ، حتى أنه صادر سفينتين محملتين بالبن كانتا في ميناء السويس ، وأخذ يفكر فيمن سيتولى الحكم مدة غيابه ، لكنه غير رأيه فجأة ، وعاد من السويس سائرا طوال الليل ، لا يرافقه غير دليل واحد . وفور

وصوله القلعة أمر أن تضرب كل المدافع ، حتى يعلم الجميع أنه عاد ، فاستيقظت المدينة مرتعبة . قالوا إنه كانت هناك مؤامرة على حياته ، وأن الألفي بيك كان يستعد لغزو القلعة ، لكن الباشا بإسراعه في العودة أفسد كل شيء لم يكن يريد الخروج ، فليكن القائد هو ابنه طوسون باشا ، وليكن يوم الخروج سريعا . وأرسل الباشا إلى كل الأعداء القدامى من المماليك . كانوا بعد أن ظفروا بأمان الباشا الهش يعيشون في قصورهم القديمة ، وسط حالة من الأمل والخوف ، لا يعرفون إلى أين يتجه مزاج الباشا المتقلب ، لكنه حين أرسل يدعوهم للمشاركة في موكب طوسون باشا تلقوا هذه البادرة الطيبة بمزيج من الامتنان والرضا . كانوا ـ مثل اللصوص القدامى . قد عانوا فجأة من وطأة الشيخوخة ، ومن قلة الحيلة في مواجهة ذلك الألباني الذي كان شديد البراعة ، حديث الأساليب بالنسبة لهم .

وكأنه الوهج الأخير قبل الأفول . خرج المماليك من ديارهم . لبسوا الثياب الحريرية المزركشة ، وتحلوا « بالقراك » ، ووضعوا على رءوسهم العمائم الضخمة المرصعة بالجواهر ، وركبوا الجياد المطهمة ، واتجهوا إلى القلعة ، كأنما يتحدون قدرا غريبا ، حدد لهم بدقة خطة النهاية . دخلوا من باب « العزب » الضيق في نشوة من سئم كل شيء . ورأتهم القاهرة وهم يتجمعون ، ويسيرون في الحواري المتربة ، مثل بقع زاهية الألوان

تلقاهم الباشا مبتسما ، وأجلسهم بجانبه ، وطافت عليهم فناجين القهوة من البن المصادر ، وقال لهم :

ـ سوف تكرمون ابني حين تسيرون في موكبه ، وسوف تكرمون ابنتي حين تسيرون في موكب زفافها .

وأحس المماليك بالخجل ، فأثنوا على ولده ، واعتذروا عن الذين لم يحضروا ، بعض من المماليك ما يزال هاربا في أقصى الصعيد غير قانع بالعيش في ظل الباشا ، لكن الباشا قال في سماحة :

ـ سوء تفاهم بين الأخوان في طريقه للزوال .

ثم طلب منهم النصح والمشورة في حملته القادمة ، وعن أفضل الطرق لوقف المشايخ عند حدهم ، وأنجع الأساليب لجبي الضرائب . ثم دقت الطبول ، فنهض الباشا ، ونهض المماليك ، وتقدم طوسون باشا حاملا اللواء ، فأدركوا أنه قد آن للموكب أن يتحرك .

سار الفرسان في المقدمة ، وتبعهم والي الشرطة والأغا والمحتسب ثم الوجاقلية والأرناؤوط ، وكان المماليك في وسط الموكب تماما ، وبعدهم فرسان الأرناؤوط ، ثم الأعيان ، ثم طوسون باشا . وبدأ الموكب في الانحدار من أعلى القلعة ، وسط ممر وعر ، تحيط به الصخور من كل جانب ، وشعر المماليك بشيء من الزهو والتألق يعود إليهم ، حتى أنهم لم يسمعوا شيئا .

لم يسمعوا باب العزب وهو يغلق في دوي مكتوم ، كأنه إغلاق القبر ، ولا همهمات جنود الأرناؤوط وهم يتسلقون الصخور بعيدا عن الممر الوعر ، ولا « تكات » الزناد وهي تتراجع كي تفسح المجال لرصاصة الرحمة الأخيرة ، لكنهم ساروا حتى رأوا بقية الموكب قد غادر الممر ، والباب قد أغلق دونهم ، والتفتوا إلى الخلف فشاهدوا آخر جنود الأرناؤوط يتسلقون الصخور ، وعبرتهم لحظة وجيزة من الحيرة ، تضامت فيها صفوفهم ، وصهلت فيها خيولهم ، ثم انطلقت رصاصة من إحدى النوافذ ، كانت إشارة البداية ، وبعدها انهمر الرصاص كالمطر ، وتحولت السماء إلى فوهات من نار ، وتثاقل الهواء بالبارود الأسود ، وتخبط المماليك في الممر الضيق الخانق ، ولم يكونوا يحملون إلا السيوف وخناجر الزينة . لم يتصوروا ـ وهم الذين تربوا على سنوات الغدر ـ أن يغدر بهم بهذه الصورة الباترة المريعة ، وبدأوا يتساقطون من فوق الجياد ، وقد اخترقت الرصاصات أجسادهم ، وخلع



بعضهم الفراك والأردية الثمينة ، وحاولوا تسلق الصخور ، لكن الطلقات عاجلتهم . واجتاز سليمان باشا الممر وجسده ممزق ، ووصل إلى سراي الحريم ، ورأى وجه العروس الصغيرة تطل عليه ، فأخذ يصرخ :

ـ أنا في عرض الحريم ، في عرض العروس ، لكن الجنود انهالوا عليه بالسكاكين الطويلة ، حتى فصلوا رأسه ، وظل طوسون باشا واقفا ممسكا باللواء ، منتظرا أن يواصل الموكب سيرته ، وترامى على أقدام جواده المماليك الجرحى وهم يصرخون :

ـ نحن في عرض سيدنا .

لكن سيدنا ظل جامدا ، والسكاكين تهوي عليهم . وتكدست الجثث في الممر الضيق ، حتى بلغ ارتفاعها عدة أمتار .

وطوال فترة المذبحة ظل الباشا صامتا ، ساكنا في مكانه لا يتحرك ، وظل من في المجلس في نفس درجة صمته . كان وجهه الغريب قد أصبح مليئا بالرهبة ، حتى لأقرب الناس إليه كأن هذه الطلقات هي دقات قلبه ، وصوت إرادته التي سوف يمليها منذ هذه اللحظة دون أن يقدر أحد على مقاومتها .

ودخل طبيب الباشا الايطالي وهو يهتف :

ـ انتهى كل شيء ، يوم سعيد لسموك .

فنهض الباشا واقفا ، وطلب قدحا من الماء ، وقال بصوت كأنه خارج من قرار عميق :

ـ نظفوا المكان ، يجب ألا يجد موكب العروس أي ذرة من الدم .

ثم اختار الدار

كانت العروس خجولا ، لذا فقد اندهش الجميع عندما قالت :

ـ لا أريد السكن في القلعة ، أريد قصرا وسط المدينة .

وقال الباشا الفرح بابنته :

ـ اهبطوا بها إلى مدينتنا ، ودعوها تختار أي قصر تريد .

سدت العروس أنفها وهي تجتاز الحواري ، وانفرجت أسنانها وهي تعبث بقدميها العاريتين في مياه بحيرة الأزبكية ، وأكلت قطعة صغيرة من الحلوى بعد أن صادر الحرس عربة حلواني ، ثم نزلت من « المحفة » وركبت أحد الحمير ، وهنا رأت الدار التي كانت تبحث عنها ، فهتفت من أعماق قلبها :

ـ لا أريد إلا هذه الدار .

كانت هذه هي دار ابراهيم باشا ، آخر لص من لصوص المماليك ، لم يقدر عليه أحد ، لا نابليون ، ولا محمد علي ، ولا الأرناؤوط ، لكن الزمن هو الذي قدر عليه ، مات فوق جواده وهو يدبر آخر المؤامرات ، لكن ابنه مرزوق باشا سار إلى القلعة ، ومات مختنقا تحت الجثث ، ولم يبق في القصر إلا بقايا الحريم والخدم ، يعيشون لحظة الحداد ، بعد أن منحهم الباشا الأمان .

دق الأغا عليهم الباب ليخبرهم أن لديهم زائرا رفيع المقام ، وأسرعوا من خلال حزنهم وقهرهم يفرشون كل ما لديهم من سجاجيد وأبسطة ، لكن العروس الخجول رفضت أن تدخل في وجودهم ، فأسرع الحرس فأدخلوا أهل البيت في غرفة « الكرار » المخزن ، حتى ترى العروس باحة البيت ، ثم حشروهم في غرفة المسافرين حتى ترى الحديقة ، ثم صعدوا بهم حتى ترى الايوان والمجلس ، ثم أنزلوهم سريعا حتى ترى مكان الحريم ، ثم هبطوا بهم من السلم الخلفي حتى ترى مجلس البيت المطل على الشارع ، ثم أخرجوهم ريثما تلقى العروس نظرة عامة على المكان ، ثم أغلقوا الأبواب ، ولم يسمحوا لأي منهم بالدخول .

وضحك الباشا وهو يهتف :

ـ هذه الصغيرة قد أحسنت الاختيار .

وعادت الفتاة الخجول تقول :

ـ أريد أثاث الأمراء ، انا أميرة ، وأريد أثاث

الأمراء .

وفي صباح اليوم التالي امتلأت ساحة القلعة بقطع الأثاث ، كل أنواع الأثاث التي نهبت من بيوت الأمراء ، جاءت وتجمعت كأنها أضلاع عارية ، وامتلأت النوافذ المحيطة بالساحة بالعيون . أثاث غريب يضيء في وهن ، فيه لمسات من كل الذين تسلطوا وارتفعوا . فيه شيء من رائحة عطرهم ، مختلط بشيء من العطن ، ربما كانت رائحة الزمن ، وربما كانت بقايا رائحة عرق الذين صنعوها ثم لم يروها ، وحرم عليهم حتى لمسها . كان ما فيها من ذهب وفضة وميناً وخشب وصدف قد تشكل وطوع وأخذ شيئا من صدأ السنين ، فتخلت عن جمودها المعدني ، واكتسبت مسحة خفيفة من درجات الانسانية ، غير قادرة على البوح ، لكنها مفعمة بالايحاء ، حتى الباشا قد تأمل الأثاث وهو صامت . أثاث كل الأمراء وكل العصور وكل الدول ، هل يمكن أن ينتهي مصير أثاثه على هذه الصورة ؟ ! ومن أعلى النوافذ كانت العروس الخجلى ترقب الأثاث المقدم إليها .

ولم تطق صبرا ، فهبطت إليه ، ولمسته بيدها ، فتسربت إلى داخلها كل تاريخ الأيام الماضية ، وشعرت أنها قد ورثت فجأة كل متع الحكام القدامى ، وتناهى إليها من خلال صمت الحكام الداعر المهيب كل ما يحمل من رغبات مكتومة . تكونت وتراكمت ووضعت سرها الدفين بين نقوش الفضة والمينا .

ولم يقطع الصمت إلا صوت العروس الخجول ، وقد ارتعش من شدة الرغبة وهي تهتف :

ـ أريد هذه ، وهذه ، وهذه .

اختارت كل شيء تقريبا ، وأمرتهم أن يذهبوا به إلى دارها ، وابتسم الباشا ، لأن الشراهة قد أنست العروس خجلها ، وقال :

ـ لا يتم هذا إلا في موكب عظيم .

ثم بدأ يعد الطريق

كان الطريق الذي يصل القلعة ببيت العروس عبارة عن شبكة متداخلة من الحواري والأزقة والعطوف ، نسيج المدينة الحي الذي تشابك مع مرور الأيام والمدينة الغريبة التي تولد كل يوم من خلال قلب المدينة القديمة،مدينة لا تتوسع بقدر ما تزداد تعقيدا ، وخلال هذه الشبكة كان على موكب بنت الباشا أن يجد طريقه ، وأحضر الباشا مستشاره الفرنسي ، فتأمل الطرق قليلا ، ثم قال في حيرة :

ـ إنه أشبه بقصر التيه يا باشا .

ولم يكن الباشا ضليعا في معرفة الأساطير ، فقال في إصرار :

ـ أريد أن يمر الموكب ، وأن يشارك فيه كل أصحاب الحرف .

وازداد تعقيد الموقف ، فهناك عربات وخيول وجنود ومتفرجون عليه أن يجد لهم مكانا وسط بيت العنكبوت الذي يحيط بالقلعة من كل جانب .

وهبط « المسيو » وأتباعه ، وهم يحملون المقاييس ، وأحاطته المدينة من كل جانب ، واكتشف أنها مدينة قد بنيت على الخوف أكثر من محاولتها ايجاد مكان للتواجد والبقاء والتمتع ، مدينة تحاول ضم أضلاعها لعل هذا التلاصق الحميم يمنحها قدرا من الأمان . اكتشف « المسيو » أنها مدينة حارة ، لكنها ليست مشمسة ، وأنها على الرغم من كل نهار ساطع تخشى الضوء . أحس « المسيو » بالاختناق ، فأمسك المقاييس وأمر أتباعه أن يهدموا .

صرخ الناس ، فحضر جنود الارناؤوط وضربوهم بالسياط ، وألقوا أثاثهم في الشارع . واتهمهم « المسيو » بأنهم ضد التقدم ، وأمر أتباعه بمواصلة الهدم ، فأزالوا المصاطب وأبواب الحارات والحوانيت ، وامتد الشارع كأنه جرح دموي في جسد المدينة . ترك نصف غرف البيوت ، ونصف قاعات الحمامات ، ونصف ساحات المنازل

والحوانيت . وضاعت كل أصوات الاحتجاج ، وانسحب الناس بعيدا إلى أطراف المدينة ، لعلهم يختفون عن أعين القلعة .

ثم واجه « المسيو » أولى المشاكل الحقيقية ، مبنى صغيراً مترباً ، عليه نقوش وآيات مطموسة ، وأشكال من الفسيفساء معظمها قد تساقط ، فيه قبة نصف مهدمة ، ومدام تكسوه كسوة خضراء متربة ، كان واقفا في منتصف المقياس بالضبط ، فأمرهم أن يزيلوه ، لكن العمال رفعوا المعاول ثم توقفوا ، وصرخ « المسيو » حتى احمر وجهه ، وهتف به رئيس العمال :

ـ يا جناب « المسيو » ، هذا مقام ولي من أولياء الله ، الشيخ العليمي ، وصرخ « المسيو » : لا بد من هدمه فورا .

وهذه المرة لم يمهم العمال وحدهم ، لكن الناس هم الذين صرخوا ، وتدافعوا ، وتصايحوا ، ولم يبالوا بسياط الأرناؤوط ، ولا بتهديدات الباشا . لم يتحركوا بمثل هذا العنف والغضب عندما هدمت بيوتهم ، لكن غضبتهم كانت عاتية من أجل هذا البناء المتداعي ، وبدا الأمر لغزا جديدا أمام « المسيو » الذي اضطر أن يتراجع ، وأن يراجع كل المقاييس ، ليكتشف أن الطريق يجب أن ينحرف ، وواصل الشق ، وبقي المقام صامدا .

ثم بدأ يأخذ الهدايا

جلست أم العروس نفسها كي تستقبل الهدايا ، وجلست بجانبها أم العريس صامتة تماما ، تحس أن ابنها هو مجرد إضافة يمكن إزالتها بإشارة بنصر ، ولم يكن هناك مجال لقبول أي هدية صغيرة بأي حال من الأحوال ، فهي دليل على سطوة الباشا ، وعلى الأعداء أن يقدموها قبل الأصدقاء ، حتى يثبتوا حسن نواياهم ، حتى أقارب القتلى كان عليهم أن يخرجوا آخر بقايا الكنوز ، ويرسموا على الوجوه آخر الابتسامات ، ويسيروا إلى القلعة صاعدين السلم الحجري ، غير آملين إلا في همهمة من الرضا الغامض .

وكان يجب أن تأتي زوجة الألفي بيك شخصيا ، فلم يعد يجديها الجلوس في بيت متواضع على حافة المدينة . كانت قد فقدت زوجها الذي مات غما وقهرا ، وفقدت قصرها مرتين ، مرة حين أخذه بونابرت ، ومرة أخيرة حين أخذه أعوان الباشا الجديد . لم يبق لها إلا ذكريات قديمة عن سطوة زوجها التي ضاعت .

كانت الزوجة تصعد السلم ، تحمل هديتها المتواضعة ، حليها ومجوهراتها التي تحمل رائحة عرقها سنوات طويلة ، لكن زوجة الباشا قلبت فيها ثم قلبت شفتيها في ازدراء وهي تقول :

ـ أهذه هدية تليق بزوجة من كان أميرا لمصر وحاكما لها .

ورفستها بقدميها ، وحبت المرأة العجوز على ركبتها ويديها حتى التقطتها ، عقودا من الدر والياقوت ، لحقتها الشيخوخة ، فخبا بريقها . هبطت العجوز ، ثم صعدت بعد يومين ، تحمل نفس الهدية مضافا إليها كل النياشين والأوسمة التي أهداها الانجليز لزوجها ، آخر الوعود وآخر الأحلام في أن يصبح سلطانا على البركله ، لكن زوجة الباشا رفستها بقدمها وهي تقول :

ـ أين أنت من القصر الذي كان زوجك يفك أخشابه ، ثم يحمله على ظهور الجمال ، ثم يركبه في أي مكان يشاء من الأرض .

قالت الزوجة في انكسار :

ـ تكسرت أخشابه وزالت أيامه .

ولم ترحمها زوجة الباشا ، فحملت العجوز سيوف زوجها المثلومة ودروعه الصدئة ، وأضافتها إلى الجواهر القديمة والنياشين ، وصعدت القلعة ، ووضعتها أمام زوجة الباشا التي صرخت في فزع حقيقي :

ـ ما هذا ، هدايا زفاف أم إعلان للحرب ، أما

كفانا ما لقينا من عصيان زوجك ؟

وهبط البغل الذي كان يحمل هدايا السيدة سريعا ، وهبطت السيدة بنفس سرعته ، دون أن تلحق به . ذهب البغل إلى سوق البغالين حيث تم تأجيره من قبل ، واختفت السيدة في الأزقة الضيقة ، حيث لم تظهر بعد ذلك قط .

وأخيرا جاء يوم الزفاف

كان يوم خميس يوافق الثالث عشر من يناير عام ١٨١٤ ميلادية .

سبقته حركة محمومة بين أصحاب الحرف ، من أجل إعداد العربات التي سوف تشارك في هذا الموكب ، فرض شيخ كل حرفة على أتباعه مبلغا من المال ، وأحضروا الأخشاب والأقمشة والأصباغ ، وأعد فوق كل عربة حانوتا مصغراً ، فالحلواني وقطع الحلوى ، و « الشربتلي » ، و « العطار » و « الحريري » ، والعقاد ، والزيات ، والحداد ، والنجار ، والقزاز ، والخياط ، والطحان ، والفران ، والجزار ، والبناء ، والمبلط ، والمبيض للنحاس ، والسمكري ، وحتى المراكبي . واحدة وتسعون عربة كاملة كما أحصاها شيخنا الجبرتي . وأمام كل عربة كان أهل كل حرفة يسيرون ، وهم يحملون الطبول والمزامير ، ويلبسون الثياب الفاخرة التي استعاروها .

كان موكب الزفاف يشبه في ترتيبه وتنظيمه نفس الموكب الذي رتبه الباشا يوم المذبحة ، في أوله كان الفرسان الولاة . كانوا يحاربون بجنون ، ويخسرون بلا شرف ، ويبيعون ذمتهم بأبخس الأسعار ، ثم بعدهم سار والي الشرطة الذي كان راتبه الأساسي من الاتاوات التي يدفعها اللصوص ، ثم بعد ذلك المحتسب الذي كان الباشا معجبا بمهارته الفائقة في مغالطة الحسابات ، ثم فرسان الانكشارية الذين لم يكسبوا أي معركة قط إلا أمام الناس العزل ، ثم بقية التجار والأعيان ، ولم يكن هناك مكان للمماليك ، لأنه لم يكن هناك مماليك .

بدأ الموكب يتحرك ، والمدافع تدوي من كل جهات المدينة ، من القلعة ، ومن بولاق ، وعبر بر الجيزة . وبدت المدينة تستعد لاستقبال هذه اللحظات الفرحة التي فرضت عليها قسراً . وبدأ الموكب يشق طريقه في الشارع الجديد ، وبدت العروس الخجلى جميلة على الرغم من أنها كانت تشبه أباها كل الشبه . ولم يكن هناك من يقاوم محمد علي باشا إلا شيء واحد .

عندما أصبح الموكب في منتصف الشارع تماما بدأت الشمس تغيب ببطء خلف سحابة متجهمة ، ودون أي تمهيد بدأ المطر يهطل تماما مثلما هبط الرصاص كالمطر ، انفتحت أبواب السماء ، واندفعت المياه من كل اتجاه ، وتحول الطريق الجديد إلى مصيدة موحلة . وبدأ فرسان الانكشارية وهم الذين تعودوا على الخسارة في الانزلاق ، وهرولت النساء اللاتي حضرن للفرجة من فوق أسطح الحوانيت نصف المهدمة يبحثن عن ملجأ ، وأصبح الموكب في حالة يرثى لها ، وتعثر الرجال بالحمير ، وتعثرت الحمير بالعربات ، وانزلقت المحفة ، فوقعت العروس ، وأنهضوها بطيئها ، وأعادوها إلى الداخل ، ثم أسقطوها مرة أخرى ، فأصبح ثوبها الناصع أسود ، وأخذت تصرخ ، فانهدت الزينات فوق رأسها ، وتكونت لها لحية من الطين ، تشبه لحية الباشا الكبير شخصيا ، وظل المطر متواصلا حتى هرب الجميع ، وصمتت كل الأصوات ، وخلت كل الطرقات ، وتوقفت كل المدافع .

« ووصلت العروس إلى دارها قبل الغروب بقليل ، وعند ذلك صفا الجو ، وانكشف بيوت النو ، ووافق ذلك اليوم ثالث عشرة طوبة ، من شهور القبط المحسوبة ، وحصل بذلك الغيث العميم النفع لمزارع الغلة والبرسيم » .

وبهذا تم الزفاف ، وبهذا شهد شيخنا الجبرتي عليه رحمة الله . □

بقلم : محمود المراغي

ثقب في الهواء !

التاريخ : ١٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٨٧
المكان : مونتريال

المشهد : دول المجموعة الأوروبية وعدد آخر من الدول توقع على معاهدة ، هي الأولى من نوعها في التاريخ ، فيها تلتزم بتخفيض إنتاج الثلاجات وأجهزة التكييف ، وكل ما يترتب على استخدامه إنتاج غازات تفسد الجو ، وتزيد من تسرب أشعة الشمس فوق البنفسجية .

أما نسبة تخفيض الانتاج الذي يبدأ العمل به عام ١٩٨٩ فهي (٥٠٪) خمسون بالمائة .

أمطار حمضية

قبل ذلك بعدة شهور انعقد مؤتمر دولي آخر تحت رعاية اللجنة الاقتصادية الأوروبية ، ووافق ذلك المؤتمر على مسودة اتفاقية جديدة للحد من انتشار غاز أوكسيد النيتروجين الذي تنتجه السيارات والمصانع ، ويفسد الجو ، ويسقط ما يعرفه العلماء باسم « الأمطار الحمضية » التي تهلك الغرس والزرع ، حتى أن ثلاث دول أوروبية هي ألمانيا الغربية وهولندا وسويسرا قد سجلت أنها فقدت ما بين ثلث ونصف أشجار الغابات بسبب هذه الأمطار الخبيثة .

وقبل ذلك أيضا في عام ١٩٧٩ وقعت بعض الدول اتفاقية للحد من الآثار بعيدة المدى المترتبة على التلوث الجوي ، وتكونت منظمات دولية وإقليمية للدفاع عن هواء العالم ، وتربته ، وحيواناته البرية والمائية ، وتركيبه النباتي . تكون على سبيل المثال الاتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية ، وأنشيء برنامج الأمم المتحدة للبيئة ، كما أنشئت جماعات أهلية مثل جماعة « السلام الأخضر » وجماعة الأصدقاء الدوليين للكرة الأرضية » ، وتولت لجان فنية وعلمية عالمية وضع تقارير سنوية ترصد ما يجري حولنا ، وما هي التغيرات التي تجري في الأرض والسماء ، وفي الحيوان والانسان والنبات ؟ وجاء تقرير أخير يقول : سوف تزداد الحرارة في العالم ، وسوف يبلغ معدل الزيادة من درجة ونصف إلى أربع درجات ونصف خلال أربعين عاما ، مما يترتب عليه خلل في الأمطار ، فتغرق مناطق جدباء لن تنتج ، وتبخل بمائها على المناطق الخصبة الصالحة للزراعة . أما السبب في ذلك فهي كثرة ما يستخدمه الانسان من مواد الطاقة ، كالنفط والفحم ، الذي يترتب عليه إنتاج « ثاني أكسيد الكربون » وغازات أخرى تفسد الغلاف الجوي ، وتقلل من الطبقة التي تحمي الكرة الأرضية التي يعرفها العلماء باسم « طبقة الأوزون » .

نبأ هام

في الآونة الأخيرة أثار نبأ مهم دول الشمال الأوروبي ، أما النبأ فهو أن ثقبا قد حدث في الغشاء

الأوزوني بتلك المنطقة ، وهو ما يعني تسرب نسبة أكبر من الأشعة التي تطلقها الشمس ، الأشعة فوق البنفسجية التي تتحدد الكميات التي تصلنا منها بسمك طبقة الأوزون .

لم يعرف الرأي العام معنى ذلك ، فهو لم يتحدث قبل ذلك بلغة « الأوزون » لكن العلماء شرحوا الأمر ببساطة ، فقليل من أشعة الشمس البنفسجية لازم للحياة ، وكثير منها قاتل للحياة . ويبدأ القتل بالكائنات الصغيرة في الماء ، حيث تموت ويأكلها السمك ، فلما يصل السمك إلى جوف الانسان ، وتصل الأشعة مباشرة إلى الناس يصابون ـ وفقا لدرجة الاشعاع ـ بسرطان الجلد وانفصال في شبكية العين . والحماية من ذلك بطبقة كثيفة على ارتفاع ينحصر ما بين (٨) كيلومترات و (٢٠) كيلومتراً ، وقد يصل إلى (٦٠) كيلومتراً . والاسم العلمي لها « أوزون » ، ويبدأ الخطر إذا أصيبت هذه الطبقة بثقب أو قل سمكها .

الغابات الاستوائية تنحسر

كل ذلك يأتي في إطار ما يقوله العلماء ، وتخرج من أجله المظاهرات في الوقت الراهن ، وهو أن الانسان يفسد بيئته . دليل ذلك أن الشواطيء تزداد تلوثا بسبب مخلفات الانسان .

والجو يصبح أقل نقاء بسبب نفس المخلفات التي صنعها التقدم الصناعي والاسراف في استخدام المواد الكيماوية ومواد الطاقة ، فمع كل « بخاخة لانتاج الغاز في المنزل أو السيارة أو المصنع يوجد خطر داهم ، ومع كل تصاعد في استخدام الطاقة يوجد خطر آخر . وقد أفسدت قضية الطاقة واستخداماتها مستقبل الانسان مرتين : الأولى بما تنتجه من غازات ، والثانية بما اضطر له إنسان العالم الفقير من اجتثاث للغابات واستعانة بخشب الأشجار كمادة لازمة للتدفئة والمطبخ في أجزاء كبيرة من العالم الثالث . وهو ما يجعل العلماء يتوقعون انخفاض مساحة الغابات الاستوائية إلى النصف في نهاية القرن العشرين .

وبكلمات أخرى فإن التقدم الانساني أصبح سلاحا ذا حدين : حده الأول يزيد من رفاهية الانسان ، وحده الثاني يحمل المخاطر الآن أو في المستقبل .

كذلك فإن الطاقة قد أصبحت سلاحاً ذا حدين : الأول ناتج عن الاسراف في استخدام الفحم والنفط . وما يسفر عنه من تلوث الجو ، والثاني ناتج عن نقص الفحم والنفط في مناطق تضطرها ظروفها الاقتصادية للتعامل المباشر مع مواد الطاقة بأشكالها البدائية فتجتث الأشجار والنباتات الجافة ، وتحرم الأرض من غذائها الطبيعي ، كروث البهائم وبقايا النباتات . يتسابق الناس على استخدام كل ذلك فيتراجع اللون الأخضر .

التوازن المطلوب

وتمتد لعبة السلاح المزدوج للأشعة فوق البنفسجية التي تأتي عبر الأوزون . قليلها يصلح العالم ، وكثيرها يقضي على وجوه مهمة للحياة .

يقول علماء البيئة : لغتنا أيضا مزدوجة ، فالمحافظة على البيئة قد تعني عند بعضهم الابقاء على التخلف والبدائية ، وهو ما لا نقصده ، لكننا نقصد الوجه الآخر ، نقصد ذلك التوازن الذي يقدم حياة صحية ، يعيش فيها الانسان والحيوان والنبات في تكامل فعال ، وتظل فيها الأرض والبحار والسماء في وئام مع الانسان ، لا تقدم له سماء وشعاعا كالسموم أيضا .

اللعبة دائما مزدوجة ، وعلى الانسان أن يختار ، لكنه في اختياره هذه المرة إذا أراد أن يحافظ على مستقبله فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك في حدوده الاقليمية ، بل لا بد أن يكون التعاون عالميا ، فالهواء والبحار ليست لها حدود ، وإن كانت عليها قيود يسعى الانسان الآن لفرضها . □



رشيد رضا وقضية المرأة في العالم الإسلامي منذ نصف قرن

بقلم : الدكتور رضوان السيد*

مكانة المرأة في المجتمع قضية ، كان يبدو أنها حسمت لصالح أنصار تحرير المرأة واستقلالها ، وخروجها للعمل ، لكن في السنوات الأخيرة تصاعد الحوار حولها ، وعلت نبرة بعض الأصوات المطالبة بعودتها مرة ثانية إلى البيت ، حيث عالمها الطبيعي ، هذا المقال يناقش آراء الشيخ رشيد رضا في هذه القضية .

عندما أصدر قاسم أمين كتابه : « تحرير المرأة » عام ١٨٩٩ ثارت عليه حملة شعواء ، لم تكن سائغة حتى بمقاييس ذلك العصر . فقد دعا الرجل إلى أمرين اثنين : تطبيق الشريعة الإسلامية في التعامل مع المرأة ، وليس وفق مقتضيات التقاليد والعادات . وتربية المرأة وتهذيبها وتعليمها ، لكي تستطيع أن تعين نفسها وأطفالها الذين تسأل عنهم هي وحدها في سنوات العمر الأولى . وكان من بين الثائرين على هذا الكتاب ،والكتاب الذي تلاه : (المرأة الجديدة) رجلان معروفان في الأوساط الوطنية في ذلك العهد : طلعت حرب ، مؤسس بنك مصر فيما بعد (١٩٢٠) ، ومصطفى كامل ، مؤسس الحزب الوطني فيما بعد (١٩٠٨) .

أما المثير للاهتمام فيما يتصل بهذه الضجة التي أثارها كتابا قاسم أمين ، فهو وقوف مجلة « المنار » ورئيس تحريرها الشيخ محمد رشيد رضا الى جانب

* رئيس تحرير مجلة الفكر العربي - بيروت

قاسم أمين ، فقد عمد السيد رشيد رضا إلى مناقشة الكتاب الأول في ثلاثة من أعداد « المنار » ، (اثنان في شهر يوليو ١٨٩٩ ، وواحد في شهر أغسطس من العام نفسه) ، مناقشة تقريظية ، منتهياً إلى أن ما فيه هو مقتضى الشرع والعقل ، ثم أضاف لذلك حكماً لصالح الكتاب وضعه فيه إلى جانب « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده ، و « سر تقدم الانجليز السكسون » الذي ترجمه أحمد فتحي زغلول ، وهو من « أهم الأعمال الفكرية في هذا العصر » .

نداء للجنس اللطيف

كان هذا هو الموقف عندما أقبل رشيد رضا عام ١٩٣٣ على كتابة دراسته عن المرأة بطلب من لجنة هندية بلاهور ، اعتادت أن تنشر كتاباً للتوعية كل عام في عيد المولد النبوي (١٢ ربيع الأول) ، وسمى رشيد رضا كتابه : « نداء للجنس اللطيف » ، لجذب الانتباه ، لكن استعراضاً سريعاً لمحتويات الكتاب يوضح أنه لم يأت فيه بجديد ، وإنما يكاد يكون مجموعاً من مجلدات مجلة « المنار » ، ومن تفسير المنار طوال الأعوام الثلاثين السالفة مذ صدرت المجلة عام ١٨٩٩ م للمرة الأولى . وكان الشيخ رشيد رضا قد خصّص صفحات كثيرة لموضوع الزواج في المجلد الثامن من مجلته عام ١٩٠٧ / ١٩٠٨ ، فكرر ذلك هنا من ضمن ما كرره ، كما أنه ذكر مرارا كثيرة أنه ينقل عن تفسير المنار .

خطة رشيد رضا في الكتاب هي خطة الفقهاء المسلمين القدامى في تقسيم الدراسة إلى أبواب كبرى ، أو كتب تأتي تحتها فصول تفصيلية . بدأ كتابه كذلك بباب أساسي حول الطبيعة الانسانية الواحدة التي نص عليها القرآن للرجل والمرأة : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لكم مِنْ أَنْفُسِكُم أزواجا » إلخ الآية (سورة الروم/ ٢١) و « يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى ، وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُم » إلخ الآية (الحجرات ١٣) . ثم تتالت الأبواب وتحتها فصولها ، تجمعها وتضم بعضها إلى بعض أرقام متتالية ، بلغت في النهاية الستين . ويعني رشيد رضا بذلك أن القرآن والسنة منحا المرأة ستين حقاً ، لم تكن لها قبل ذلك .

الطبيعة الخاصة للمرأة

ولتوضيح ما أعنيه سأناقش فهم الشيخ رشيد لمقتضيات الطبيعة التي أعطت المرأة دورا مختلفا عن دور الرجل ، ثم أتطرق لثلاث مسائل ، لعبت دورا رئيسيا في حركة النضال النسائي ، من أجل التحرر ، وهي : مسألة الحجاب ، ومسألة قوامة الرجل ، ومسألة تعدد الزوجات .

١ ـ مسألة الفطرة : يرى رشيد رضا أن « اقتسام أعمال الزوجية بين الرجل والمرأة هو بمقتضى الفطرة : ـ والإسلام دين الفطرة ـ » ، لكنه لا يوضح ما يقصده بالفطرة أو بالطبيعة الخاصة للمرأة . فهل تكون الفطرة هي الاستعداد الجسدي الأولي ، والاستعداد العقلي الأولي ، أوهما معاً ؟ ! يبدو أن هذا هو ما يقصده المؤلف بالفطرة ، وانصراف المرأة إلى الأعمال التي تقتضيها فطرتها أي طبيعتها ، يقول رشيد رضا : « فضل الله الرجل في خلقه بقوة في الجسم والعقل ، كان بها أقدر على الكسب والحماية والدفاع الخاص بالأسرة ، والعام للأمة والدولة » . ثم يوضح ما يقصده بذلك بقوله : « ولا ينازع في تفضيل الله الرجل على المرأة في نظام الفطرة إلا جاهل أو مكابر ، فهو أكبر دماغا ، وأوسع عقلا ، وأقوى عضلاً ، وأعظم استعداداً للعلوم ، وأقدر على مختلف الأعمال ، بل هو يؤدي وظيفته من حكمة الزوجية وهي النسل بإفراغ مادته بإرادته واختياره في عامة أحواله » . هكذا فإن الطبيعة البشرية التي قدرها الله سبحانه على هذا النحو ـ كما يقول السيد رشيد رضا ـ اقتضت أن يكون الرجل أقدر جسديا وعقليا من المرأة ، حتى أن

حجم دماغه أكبر ! ، وتقدمه عليها من هاتين الناحيتين اقتضى أن يقوم بالأعمال والمهام التي هو أقدر عليها منها ، لكي ينتظم الكون ، ويستمر نظام العالم . ويبلغ بالمؤلف الأمر أن يذهب إلى أن العملية التناسلية بين الزوجين أو الطرفين هي عملية اختيارية من جانب الرجل ، بينما هي عملية اضطرارية أو « لا إرادية » من جانب المرأة ، فالمرأة « ليس لها قدرة على مثل هذا ، وإنما تنشأ فيها بويضات النسل في أوقات مخصوصة لا إرادة لها فيها ، وليست هي التي تسعى إليه ، بل هي لا تشاركه أيضا في هذا السعي ، وإنما تنتظره انتظارا . فمنه الحصول والفعل ، وعليها القبول والانفعال » . وكما أن المرأة لا تبادر في العملية التناسلية ، فإنها لا تبادر أيضاً في ضروريات العيش ، بل تتلقى فقط : « فكذلك يسعى الرجل ويكدح ، وينقل ما يكسبه إلى المرأة في الدار فتتصرف فيه بما تقتضيه حاجة الأسرة من غذاء وغيره » . بعد هذا الاستعراض لأشكال الجماجم والأدمغة ، والجهاز التناسلي ، وخلقة الإنسان لاستنطاقها في مسألة أفضلية الرجل على المرأة باسم الفطرة ، يعود الشيخ رضا إلى الفطرة من جهة أخرى ، فيقول : « ومن استقرأ طباع النساء السليمات الفطرة من جناية سوء التربية ، وفساد النظام ، يرى أن الثابت في غرائزهن أن خير الأزواج وأولاهم بالاختيار من كان قادراً على الكسب ، وحماية النسل ، وصيانته » .

إن السؤال الذي يعرض هنا ، والذي طرحه قاسم أمين في مطلع القرن العشرين فرعاً على مطالبته بتعليم المرأة ، هو مدى صحة المسألة التي يعتبرها رشيد رضا من مقتضيات الفطرة . فهل صحيح أن طبيعة المرأة تقتضي أن تنتظر الرجل ، ليجلب لها القوت ؟ وهل صحيح أن الطبيعة تقتضي أن لا تعمل المرأة خارج البيت ، وأن يعمل الرجل فقط ؟ وما معنى الحماية هنا ؟ فحتى الحيوانات في الغابات تحمي إناثها النسل لا ذكورها ، ثم إن هذه الحماية في مجتمعاتنا البشرية ليست عملية عضلية ، بل هي عملية مادية ومعنوية ، لا أحسب أن الرجل يتقدم فيها على المرأة .

وكأنما أدرك رشيد رضا أنه مضى بعيداً في تأويلاته للفطرة ومقتضياتها ، وفي التسوية بين الفطرة والطبيعة ، فعاد واعترف بإمكان قيام النساء « بالتوسع في بعض العلوم والأعمال العامة بقدر استعدادهن ورغبتهن » ، ويعني هذا أنه سلم بإمكان قيام المرأة بما اعتبره أعمالاً خاصة بالرجل ، ثم إنه استدرك من جديد على هذا التسامح الذي انزلق إليه ، فقال : « وإنما الأفضل والأنفع لهن ولأمتهن وللإنسانية كلها أن يتقن العلوم والأعمال الخاصة بالزوجية » .

نزع الحجاب

مسألة الحجاب والسفور : لعبت هذه المسألة دوراً كبيراً في تاريخ نضال الحركة النسائية من أجل التحرر ، وقد افتتحت المسألة لدى نسوة الطبقة الراقية السيدة هدى شعراوي التي نزعت الحجاب عن وجهها عند عودتها من مؤتمر نسائي بروما عام ١٩٢٣ ، ثم انتشر الأمر وصار عاديا في المدن الرئيسية بسرعة ، بحيث لم يكن بوسع السيد رشيد رضا أن يتجاهل ما آلت إليه الأوضاع وهو يكتب كتابه هذا أواخر العام ١٩٣٢ . والحق أن موقفه من الحجاب والسفور لم يتغير عما كان عليه في حياة الأستاذ الإمام ، يقسم المؤلف الموضوع إلى ثلاثة أقسام : نسوة النبي والحجاب ، وأمر القرآن لسائر النساء بالتستر ، وذهاب بعض الفقهاء إلى الحجاب من باب سد الذرائع .

في المسألة الأولى يورد رشيد رضا الآيات القرآنية التي تأمر زوجات النبي صلوات الله وسلامه عليه بالتحجب ، وتطلب من المسلمين أن لا يكلموهن إلا من وراء حجاب . فحجاب نساء النبي حجاب حقيقي ، يقتضي أن لا يراهن أحد من الرجال من غير ذوي المحارم ، والنسوة الأخريات ، ثم إن هذه الحرمة لا تتناولهن فقط ، بل تتناول بيت رسول الله

الذي يطلب منهم فيه أن يتصرفوا بطريقة معينة ، وأن لا يطيلوا المكث فيه ، ولا يرفعوا الصوت . ويوضح المؤلف بما لا مزيد عليه أن هذا كان أمراً خاصاً بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يتناول غيرهن .

وفي الأمر الثاني يوضح الشيخ رشيد رضا مورداً النص ، وهو الآيات المعروفة في سورة النور : (وقُلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أبصارِهِنّ ، ويَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ ، ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلاّ مَا ظَهَرَ منها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ ، وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلاّ لِبُعُولَتِهِنّ أو آبائِهِنّ أو آباءِ بُعُولَتِهِنّ) . إلى قوله تعالى (وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ) . إلى آخر الآية (٣١) من سورة النور .

فالآيات واضحة على هذا النحو ، إنها تتناول ماعدا الوجه والكفين ، كما تتناول طريقة التصرف في المجتمع وأمام الرجال الأجانب خاصة . ويعني هذا أن المرأة لم يكن مطلوباً منها أن تقبع في بيتها ، بل كان المتوقع أن تخرج وتدخل ، وتعمل وتتصرف ، لذلك كانت هذه الآداب التي طلب إليها أن تراعيها ليبقى تصرفها سليما ، ولا يحدث فساد اجتماعي من وراء كثرة الاختلاط ، أو الخروج على المعروف من السلوك والتصرفات . فالمرأة ليس مطلوبا منها أن تخفي وجهها ما دامت لا تخفيه في الصلاة ، كما أنه ليس مطلوبا منها أن تقبع في بيتها كما يطالبها به أنصار الحجاب ، وهذا كله ظاهر النص ومقتضاه .

أما أولئك الذين يريدون التعامل مع سائر النساء كالتعامل مع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فانهم لا يدعون الحجاب لسائر النساء بالنص القرآني ، بل من باب سد الذرائع . يقول السيد رشيد رضا : « وكل ما استحدثه الناس في المدن والقرى الكبيرة من المبالغة في حجب النساء فهو من باب سد الذريعة لامن اصول الشريعة ، فقد أجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء في المساجد مكشوفات الوجوه والكفين . . . . وكن يسافرن مع الرجال إلى الجهاد ، ويخدمن الجرحى ، ويسقينهم الماء ، وقد قاتلت نساء المهاجرين مع الرجال في واقعة اليرموك ، وكن يخدمن الضيوف ، ويقاضين الرجال إلى الخلفاء والحكام . . . . » .

الرئاسة للرجل

٣ ـ قوامة الرجل على المرأة : يستند رشيد رضا في مسألة القوامة إلى الآية الكريمة : (النساء/ ٣٤) : « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » إلخ الآية ، والآية الكريمة : (البقرة/ ٢٢٨) : « وَلَهُنّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنّ دَرَجَةٌ » . يرى رشيد رضا أن هذه القوامة تستند إلى ثلاثة أمور : الفطرة والطبيعة ، كما هو المفهوم من الآية : « بما فضل الله بعضهم على بعض » . والأمر الثاني : كسب الرجل وإنفاقه ، والكاسب هو الذي يدبر ما كسب . ومن أجل ذلك أيضاً ترث المرأة ما يرث الرجل بسبب المسؤوليات الكبرى التي يتحملها الرجل . والأمر الثالث : العادة والعرف ، فالرئاسة للرجل والقوامة له عند سائر الأمم .

والواقع أن السيد رشيد رضا لا يخرج فيما ذهب إليه عن آراء سائر المفسرين لهاتين الآيتين ، كما أن سائر المحدثين يواجهون صعوبات في تأويل الآية الأولى ، وبالتالي في تأويل الآية الثانية . ونحسب أن المسألة ليست بهذه الصعوبة ، فالواو ـ في نظري ـ تفسيرية في الآية : « بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » . إن الذي ينفق هو صاحب السلطة ، فإن انتفى ذلك ؛ فإن القوامة مسألة يمكن أن يعاد فيها النظر ، وما دام الأمر ليس أمر الطبيعة والفطرة التي أعطت الدرجة للرجل على المرأة ، فإن هذه الدرجة تزول أو تتحول أو تنتقل إذا زال السبب المادي الذي أبرزها أو جعلها ظاهرة للعيان في المنزل والمجتمع .

أما حجة العادة والعرف فهي حجة ساقطة ، لأن الأعراف نتاج غيرها ، وليست سبباً لسواها في

الغالب ، لذلك فإنها تتغير ـ وإن ببطء ـ تبعا لتغير الوضع الاجتماعي ، فإذا كان مجتمعنا الآن مجتمعا يحترم المرأة ، فإن ذلك كفيل بأن يبدل من معطيات هذا العرف وتلك العادات ، فإن المرأة العاملة المستقلة بدخلها وشخصيتها ليست بحاجة لإرث مادي منقوص ، أو دعم زوج يطلب مقابلاً للحياة المشتركة التي يحياها مع زوجة هو المتقدم عليها أياً كان مسوغ هذا التقدم ، وهذه السيادة ، ولن يخفف من وقع ذلك إصرار الشيخ محمد عبده ، وتلميذه الشيخ رشيد رضا على أن الرياسة شوروية وليست استبدادية .

الاباحة المقيدة

١ ـ مسألة تعدد الزوجات : لا يميل السيد رشيد رضا ـ شأنه في ذلك شأن شيخه محمد عبده ـ إلى تعدد الزوجات ، لكنه يخشى إن قال بذلك أن يتطرق النقاش إلى حكمة النص القرآني الوارد في المسألة ، لذلك فقد دافع عن تعدد الزوجات بحرارة ، ثم أورد صفحات كثيرة في تسويغ تعديد الرسول صلوات الله وسلامه عليه لزوجاته .

مستند القائلين بإباحة تعدد الزوجات الآية القرآنية التي يوردها السيد رشيد رضا في بداية مناقشته للمسألة : (٣/٤) : « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُم أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا » . إن هذه الاباحة التي تحيط بها أدوات الشرط من كل جانب تدل في نظر الشيخ رشيد على أن الإباحة للضرورة ، فهاهنا ـ كما يقول المؤلف ـ ثلاث مسائل قطعية : أن الاسلام يبيح تعدد الزوجات ولم يندب اليه .

الثانية : أنه لم يحرمه تحريماً قطعياً لا هوادة فيه لما في طبيعة الرجال وعاداتهم الراسخة بالوراثة في جميع أنحاء العالم من عدم اقتصارهم في الغالب على التمتع بامرأة واحدة ؛ ومن حاجة بعضهم إلى النسل في حال عقم المرأة أو كبر سنها أو وجود علة أخرى مانعة من الحمل . الثالثة أنه هذا وذاك تركه مباحا إلا أنه قيده بالعدد وشرط العدالة الذي يتقي به ضرره ويرجى به نفعه إذا التزم فاعله جميع أحكام الإسلام وآدابه في معاملة النساء » .

أما حالة الضرورة التي يرى رشيد رضا أنها تسوغ تعدد الزوجات فيذكر إمكانيات لها كما يلي :

١ ـ عقم الزوجة أو مرضها المزمن المانع من المواصلة ، وحاجة الرجل لذلك أو للنسل ، فبدلاً من أن يخادن الرجل فيظلم امرأة أخرى ويحتال على زوجته ، يتزوج أخرى زواجاً شرعياً بموافقة زوجته الأولى ورضاها .

٢ ـ زيادة عدد النساء على الرجال زيادة كبيرة كما في حالات الحروب . فإن اقتصر الأمر على الزوجة الواحدة كان من وراء ذلك فساد كبير ، فمن مصلحة الأمم في مثل هذه الحالة إباحة تعدد الزوجات لتلافي الضرر ، وكفالة النساء .

٣ ـ قوة الرجل الجسدية وعدم إقبال امرأته عليه مما يؤدي إلى مفسدة وشذوذ في حال استمرار ذلك ، فيحسن عندها التعدد .

كانت هذه أهم توجهات السيد محمد رشيد رضا في قضايا المرأة في العشرينيات والثلاثينيات وهي قضايا ماتزال مطروحة حتى اليوم ، وإن في سياقات ، ومناخات أخرى . وبالوسع القول إن ردود علماء الإسلام المعاصرين على قضايا المرأة وتساؤلاتها لا تختلف عن ردود الشيخ رشيد . كما أنه بالوسع القول إن الشيخ رشيد وفقهاء اليوم في واد ، والمجتمع بنسائه ورجاله في واد آخر . لذلك فإن اجتهاداتهم مهما بلغ حسن النية أو الجدية فيها لا تلقى التجاوب الكافي اليوم ، كما لم تلقه من قبل . والفتيات والنسوة اللواتي يعدن اليوم للحجاب وقبول التعدد لا يعدن عودة فقهية بل من ضمن نسق سياسي واجتماعي يعتبرنه معادياً للغرب ، وأكثر تحقيقاً لهويتهن الخاصة . □



انهيار الحضارة الصناعية

هل يعني العودة إلى قيم الحضارة الزراعية ؟

بقلم : حافظ أحمد أمين

هل توحي معطيات التقدم العلمي والتقني التي نعيشها بأن البشرية تقف على أعتاب حضارة عالمية جديدة ، تختلف عن الحضارات السابقة زراعية كانت أم صناعية ؟ ماهي ملامحها ؟ وكيف نواجهها ؟

في منتصف القرن العشرين تنبأ بعض المفكرين الغربيين بقيام حضارة عالمية جديدة ، وقالوا انها ستكون شديدة الاختلاف عن الحضارة الصناعية الحالية ، كما تنبأوا بأن النصف الثاني من القرن العشرين سيشهد ألوانا من الاضطراب والاغتراب والارهاب ، لأنه سيكون عصر انتقال عنيف من الحضارة الصناعية الى حضارة جديدة ، يمكن أن نطلق عليها اسم « حضارة الخدمات والمعلومات » . وقد ظهر هذا التنبؤ نتيجة ملاحظتين ذكيتين :

الأولى : أن نسبة المشتغلين في الصناعة بدأت تنخفض انخفاضا ملحوظا ، بسبب استخدام الانسان الآلي والأجهزة الالكترونية في الصناعة .

الثانية : أن قيم الحضارة الصناعية ونظمها ومهاراتها بدأت تتراجع أمام قيم ونظم ومهارات حضارة جديدة ، عندما لم تعد مهنة الصناعة هي المهنة الغالبة .

عصور الانتقال ولادة صعبة

هذا الانخفاض المستمر في نسبة المشتغلين بالصناعة لايعني نقص الانتاج الصناعي ، أو نقص التعامل مع الآلة ، بل العكس هو الصحيح

فالذي سيحدث فقط هو تقادم نظم الحضارة الصناعية وتقاليدها ، لأن مهنة الصناعة لم تعد هي المهنة الغالبة .

وهذا هو نفس ماحدث عندما انتقلت الأمم من الحضارة الزراعية الى الحضارة الصناعية ، تناقص عنيف في نسبة المشتغلين بالزراعة ، مع تزايد الانتاج الزراعي ، نتيجة لميكنة الزراعة .

وكما حدث في عصر الانتقال من حضارة الزراعة الى حضارة الصناعة من صراعات وأزمات وانهيارات ، نتيجة لتقادم قيم الحضارة الزراعية ، نعيش الآن في عصر الأزمات والارهاب ، نتيجة تقادم قيم الحضارة الصناعية ومهاراتها .

وكلما انتشرت التقنية الجديدة في حياتنا زاد عدد المهن ، ومقدار التنوع فيها ، وبالتالي زاد اختلاف القيم والعادات بين الناس ، فالعاملون في مهنة الزراعة لن تزيد نسبتهم على ١٠٪ من القوة العاملة ، بسبب ميكنة الزراعة ، وكذلك العاملون في الصناعة ، بسبب استخدام الانسان الآلي بها ، وهكذا في كل المهن الأخرى ، كالتجارة والفنون والادارة والمعلومات ، الخ .

عندما بدأت الحضارة الصناعية في الانتشار على حساب الحضارات الزراعية ، وعندما سادت قيم الصناعة ، وتفوقت نظمها ، شعر أصحاب قيم الزراعة ومهاراتها بالانكسار ، وضعفت ثقتهم بأنفسهم .

فلما جاءت الحضارة الجديدة ، وبدأت تمارس الضغوط على المتمسكين بقيم الحضارة الصناعية وعاداتها ومهاراتها ، ظن المتمسكون بقيم الحضارات الزراعية أن انكسار عدوهم (الصناعي) يساعدهم على استرجاع مافقدوه من قوة وحيوية ، فاستردوا بعض ثقتهم بأنفسهم ، وزاد حنينهم الى الماضي ، وتخيلوا أن بامكانهم استرجاع « أيام زمان » ، ولم يدركو أن القوة الجديدة سترث نفوذ القوتين الأفلتين .

ولنضرب في ذلك بعض الأمثلة :

بالنسبة للملابس ـ مثلا ـ مازلنا نذكر أيام كنا نذهب الى الخياط لنختار القماش وشكل الرداء ، ثم يقوم الخياط بقياس الأبعاد المختلفة لأجسامنا ، وغير ذلك من الأعمال التي تنتهي بتسلم الرداء .

صحيح أن هذه العملية تتميز بأنها كانت تعطينا الحرية الكاملة في الاختيار ، والهيئة التي نطلبها لكنها كانت تكلف من الجهد والوقت والمال مالم يكن يستطيعه الا قلة من القادرين .

ثم قامت المصانع الكبيرة ، لتنتج الملابس الجاهزة بكميات نمطية ضخمة ، مما يسهل علينا الحصول على الرداء في وقت قصير ، وبثمن زهيد نسبيا ، فانكسر الخياطون انكسارا كبيرا .

أخيرا ، تأتي المصانع الصغيرة ، بأجهزتها الالكترونية ، وحساباتها المتنوعة ، وتنظيماتها الحديثة ، لتضرب الانتاج النمطي بالمصانع الكبيرة ، فيظن الخياط القديم ان انكسار عدوه اللدود (المصنع الكبير) يمكنه من استرداد مكانته ، غير مدرك أن المصانع الصغيرة الجديدة ، تقدم للناس الملابس التي تتميز بالمزايا كلها ، كالسرعة ، والرخص ، الهيئة المطلوبة .

ومثال آخر في الفنون ، بالنسبة للمسرح مثلا ، مازال بعضنا يذكر الفرق المسرحية الساذجة في (روض الفرج) في بداية هذا القرن ، ثم مسارح الدولة في الخمسينات التي كانت تقدم المسرحيات الاشتراكية وشبه الاشتراكية بأسعار زهيدة .

فلما انكسرت مسارح الدولة ظن أولاد مسرح (روض الفرج) وأحفاده أن باستطاعتهم ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ، مادام عدوهم اللدود (مسرح الدولة) في حالة انكسار ، ولم يدركوا أن الجماهير الجديدة لم تعد ترضى بهذا أو ذاك ، وأنها لن تترك مقاعدها المريحة أمام التلفاز والفيديو ، الا من أجل مسرح قادر على حل المعادلة الصعبة : التخلص من تفاهة المسرح الهزلي ، وسماجة مسرح الدولة .

ملامح النظام الجديد

تسببت الحضارة الصناعية في غلق الاف (الورش) الصغيرة ، والاستغناء عن آلاف المغنين والخطباء والرواة الذين كانوا ينتشرون في المقاهي و (الشوادر) والأسواق ، وكان نتيجة هذا أن (تعملق) عدد قليل من المديرين والفنانين والمفكرين ، على رءوس المصانع والمطابع والسينما والاذاعة ، وأصبح الانتاج للسلع والفنون والتعليم وباقي الخدمات انتاجا نمطيا ، بفرض الأشكال الهرمية في التنظيم والاتصال .

ثم جاءت التقنية الجديدة ، لتفرض تعدد أشكال الانتاج المادي والفني ، وزاد عدد المنتجين وتنوع انتاجهم ، وزاد عدد المستهلكين ، وتنوعت حاجاتهم،هنا كان لابد من تغيير التنظيمات الهرمية الكبيرة التي فرضتها الحضارة الصناعية ، فقد بدأت في الانتشار التنظيمات الصغيرة المتنوعة .

انكسر أنصار الحضارة الصناعية ، وترحموا على زمان العمالقة الذين كانوا يتربعون على قمم التنظيمات الهرمية،والذين كانوا لاينظرون الى الناس الا كمصفقين أو أتباع أو بطانة .

وظن أنصار الحضارات الزراعية أن إزاحة العمالقة تمكنهم من استرجاع التنظيمات الصغيرة القديمة ولم يدركوا أن التنظيمات الصغيرة في الحضارة الجديدة تختلف كل الاختلاف عن التنظيمات الصغيرة البدائية التي كانت تقيمها الاحتياجات المحدودة ، وتثيرها العصبيات الساذجة .

مكنتنا التقنية الحديثة من اقامة تنظيمات صغيرة ، أساسها المشاركة الأفقية في الأنشطة والأعمال ، والمساندة المباشرة من الناس بعضهم لبعض ، وهذا النوع من النظم يختلف تماما عن النوع البيروقراطي العقيم الذي يقوم على صعود العمالقة على أكتاف الآخرين ، والذي فرضته الحضارة الصناعية ، كما يختلف عن النوع الساذج الفقير الذي يقوم على الروابط العائلية والعنصرية ، وتعصبات المذاهب والقوميات ، كما فرضته الحضارة الزراعية .

وزادت التطلعات في عصرنا ، لتأكيد كل شخص لفرديته ، وأخذ الذين يعيشون في الحضارات الزراعية يرفضون عبوديتهم للاقطاعيين ، والذين يعيشون في الحضارات الصناعية يثورون على الأنظمة التي تعمل على صبهم في قوالب متماثلة ، وقد أدت هذه التطلعات وذلك التمرد الى اكتشاف تقنية ، ترفع من درجة ابداع الانسان وتميزه ، وتزيد من درجة المشاركة والديمقراطية ، ومن توليد الآراء والأفكار ، ومن سرعة تداول المعلومات والاستفادة منها ، فكانت هذه التقنية بداية الحضارة الجديدة .

سنوات النهضة والثورة والأزمة

نحن نعيش الآن في سنوات النهضة والثورة والأزمة في آن واحد ، ولابد أن نعي ذلك ، وألا نخلط بين كل ظاهرة من هذه الظواهر الثلاث :
نعيش في سنوات النهضة ، لأنها السنوات التي نبني فيها المستقبل على أسس شديدة الاختلاف عن أسس الماضي .

ونعيش في سنوات الأزمة ، لأنها سنوات انتقال عنيف ، ومراحل الانتقال هي مراحل القلق والخوف والاغتراب .

ونعيش في سنوات الثورة ، لأن الحضارة الجديدة لاتعترف بكثير من قيم حضارات الزراعة والصناعة ومهاراتها ونظمها .

نعيش هذه الأمور الثلاثة في آن واحد ، فالخلط بينها يصيبنا بالحيرة والقلق ، والوعي بخصائص كل ظاهرة يحمينا من التخبط ، وينير لنا طريقنا عند تصنيف المشكلات ، وعند وضع الحلول لها .

واذا أراد الانسان أن يواجه المستقبل بشجاعة وتفاؤل ، وأن يعيش حاضره دون خوف أو اغتراب ، وأن ينظر الى ماضيه دون حنين ساذج ، لابد أن يوقف عملية تقديس الأصنام التي انتهى زمانها . □

الموت المفاجئ

بقلم : الدكتور أنيس فهمي

موت قريب أو صديق أو زميل فجأة ، مع أنه كان صحيحا لم يشكُ أو يتألم ، يمثل ظاهرة محيرة للانسان ، لا يملك ازاءها الا التسليم بحدود الأجل ونهايته . ولكن العلماء يغوصون وراء أسباب هذه الظاهرة بامكانياتهم وفرضياتهم في محاولة فهم لتحديدها ، ومن ثم مواجهتها ، فما مدى نجاحهم . . ؟ !

الموت المفاجيء ، أو السكتة القلبية من أهم أسباب الوفاة في العالم الصناعي المتقدم ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال ، تتسبب السكتة القلبية في وفاة ما يقارب من ثلاثمائة وثلاثين ألف شخص كل عام ، بينهم أكثر من مائتي ألف من الرجال . ويمكن القول بأن وفاة واحدة من بين ثلاث وفيات تحدث بسبب توقف القلب المفاجيء لدى الذكور البالغين ومعنى هذا أن عدد الوفيات بسبب توقف القلب المفاجيء أكثر من عدد الوفيات بسبب السرطان ، وضحايا الموت المفاجيء يكونون عادة في مقتبل العمر ، ويبدون في أتم صحة وعافية ، وهم يمارسون عملهم ، أو يقومون بتنسيق الحديقة ، أو بمزاولة الرياضة ، حتى دقائق أو ثوانٍ قبل أن يجتاحهم انقلاب داخلي يؤدي الى توقف قلوبهم الى الأبد .

لقد تقدمت أبـ أطباء القلب في الـ سنوات الأخيرة وأصبحوا قادرين على التغلب على الكثير من الكوارث القلبية ، بفضل العناية المركزة والعقاقير الحديثة التي تؤدي أعمالا بطولية . وتدل الأبحاث على أن سبب الموت المفاجيء يرجع في كثير من الحالات الى العوامل الانفعالية التي تؤدي تدريجيا الى خلق حالة من حالات استعداد القلب للموت ، أو قد تسبب في حالات الأزمات توقفا مفاجئا للقلب .

نوعان شائعان لموت القلب :

هناك نوعان شائعان لموت القلب . النوع الأول يسمى احتشاء القلب ، وهو الذي يطلق عليه عامة الناس « الأزمة القلبية » وينجم عن تصلب الشرايين التاجية التي تمد عضلة القلب بالاكسجين والغذاء . ويعلن هذا المرض عن نفسه بحدوث نوبات متصاعدة من الذبحة الصدرية وضيق التنفس ، تستمر شهورا أو سنوات حتى يجيء وقت يتضاعف

فيه ترسيب الصفائح الدهنية في واحد أو أكثر من الشرايين التاجية ، ويصبح من المتعذر امداد عضلة القلب بالدم المؤكسد بطريقة كافية .

فاذا تكونت جلطة دموية في أحد هذه الشرايين الضيقة ، يتوقف مرور الدم الى ذلك الجزء من عضلة القلب الذي يغذيه هذا الشريان ، ويصاب ـ نتيجة لذلك ـ هذا الجزء من عضلة القلب بالموت . فاذا لم يتدخل الطبيب في اللحظة المناسبة لانقاذ هذا الجزء من عضلة القلب فان حالة المريض تأخذ في التدهور حتى يتوقف القلب عن أداء وظيفته .

أما النوع الثاني لموت القلب فهو ذبذبة البطين ، وهذا النوع ينتج في ٩٠٪ من الحالات من حدوث سيل جارف من التيارات الكهربائية التي تسبب اضطرابات مفاجئة في ضربات القلب ، يؤدي الى ازدياد سرعة هذه الضربات ثم يدخل القلب بعد ذلك في مرحلة ذبذبة البطين . وفي هذه المرحلة يصاب البطينان ـ الأيمن والأيسر ـ بحالة من الفوضى لا يستطيع القلب معها أن يضخ الدم وكل ما يستطيع فعله هو أن ينتفض بطريقة عشوائية تؤدي الى الموت المفاجيء .

وقد أوضحت الأبحاث الحديثة أن ١٥ ـ ٢٠٪ من حالات الموت المفاجيء لا يوجد بها تصلب بالشرايين التاجية ، ونصف هذه الحالات ليست بين المدخنين ، ولم تكن تعاني من ارتفاع ضغط الدم ، أو ارتفاع نسبة الكولسترول في الدم ، أو البدانة كما أن ٧٥٪ من ضحايا الموت المفاجيء لا يوجد دليل على اصابتهم باحتشاء القلب . ومعنى هذا أن نسبة معتدلة من حالات الموت المفاجيء ، لا يمكن تفسيرها باعتبارها نتيجة محتومة لمرض بالقلب ، أو للعوامل التي يقال بأنها تؤدي اليه ، وعلى أية حال فان الشبان ذوي القلوب السليمة نادرا ما يصابون بالموت المفاجيء . . ويعتقد الأطباء أن معظم حالات الموت المفاجيء في متوسطي العمر والشيوخ تنتج عن وجود مرض آخر مدمر للصحة لم يتجح الأطباء في تشخيصه .

ما هو العامل القاتل ؟

إذا نحينا اصابة القلب بالمرض جانبا فان الأطباء المهتمين بالموت المفاجيء يتساءلون عما اذا كان الجسم أو المخ هو الذي يقوم باسدال الستار على حياة المريض في النهاية ، وبمعنى آخر انهم يتساءلون : ما الذي يقتل الناس في النهاية ؟

إن كثيرا من الناس المصابين بمرض خطير في القلب قد يعيشون سنوات طويلة ، ثم فجأة



يموتون ، ولا شك أن شيئا ما يسبب ذلك الموت . إن الشواهد لدينا تزيد من الاعتقاد بأن الخوف ، والاكتئاب ، والوحدة قد تلعب دورا كبيرا ، وخاصة لدى أصحاب القلوب الضعيفة المريضة . الا أن العالم جيمس سكينر أخصائي الأعصاب بجامعة بيلور بمدينة هوستون الأمريكية يعتقد بوجود عامل كيميائي ، من الجائز أن يكون (نيروبيبتايد) أو انزيما من الانزيمات لا يقوم بوظيفته على الوجه السليم بالفص الأمامي للمخ عند بعض الناس . وهذا لا يؤثر على الذكاء ، أو الادراك ، أو الذاكرة ، الا أن له تأثيرا قويا نوْعاً ما على تنشيط التأثيرات القاتلة للأعمال المرهقة ، ومرض الشريان التاجي ، والعوامل الأخرى التي تسبب اصابة القلب بذبذبة البطين . ويعتقد سكينر أن هذا العامل الكيميائي غير الطبيعي عند بعض الناس يتدخل في مقدرة المخ على تحديد ما اذا كان من المناسب مواجهة موقف معين أو الهروب منه مع ازدياد ضربات القلب في تلك الحالة . ان الفص الأمامي للمخ يتحكم في مواقف الرعب لدى الناس الأصحاء ، ولكن عند وجود العامل الكيميائي غير الطبيعي يتحول خط سير التيار الكهربائي بالقلب فيؤدي الى اضطرابات النبض والموت المفاجيء .

العوامل السيكولوجية والموت المفاجيء

يعتقد بعض الباحثين الأمريكيين أن الأشخاص الذين تنتمي شخصياتهم الى الفئة (أ) (وهم الأشخاص الانفعاليون العنيدون قليلو الصبر) معرضون لأمراض القلب والشرايين ، أكثر من الأشخاص الذين ينتمون الى الفئة (ب) (وهم الأشخاص المرنون المتسامحون) . وقد تعددت الدراسات حول المتغيرات السيكولوجية والاجتماعية التي قد تهيء المسرح لحدوث الموت المفاجيء ، ومن بين الحقائق التي أسفرت عنها هذه الدراسات أن :

* حوالي ٢٠٪ ممن يموتون بسبب توقف القلب المفاجيء ، أو ممن يعودون الى الحياة بعد اسعافهم كانوا قد تعرضوا لتوترات سيكولوجية حادة خلال الأربع والعشرين ساعة السابقة . ومن الأمثلة على ذلك أنه عند وقوع حادث اختطاف طائرة T.W.A في يونية ١٩٨٥ توفي فجأة والد أحد الطيارين بعد سماعه بحادث اختطاف الطائرة التي فيها ابنه بساعات قليلة ، وكان يعاني من مرض بالقلب .

* الأرامل الذين يفقدون زوجاتهم ترتفع نسبة الموت المفاجيء بينهم بمعدل ٤٠٪ أكثر من المتزوجين المساوين لهم في العمر

* تزداد نسبة حدوث الموت المفاجيء زيادة خطيرة بين الرجال خلال السنة الاولى من احالتهم الى المعاش .

* الغضب أحد الانفعالات الشائعة قبل حدوث الموت المفاجيء .

* **الافراز الزائد عن الحد للمواد الكيميائية المسماة « كاتيكولامينات » CATECHOLAMINES التي تفرزها الغدة فوق الكلوية والجهاز العصبي السمبثاوي أثناء حالات التوتر الشديد ، قد يؤدي الى تمزق بعض الألياف العضلية الدقيقة لعضلة القلب ، وهذا بدوره يسبب فراغات كهربائية ميتة تفضي الى حدوث اضطرابات بجهاز التوصيل بالقلب .**

* توجد أدلة كثيرة على أن ايقاع نبضات القلب يمكن أن يضطرب فجأة نتيجة للتوتر العصبي أثناء الخطابة في اجتماع عام ، أو قيادة السيارة أثناء ازدحام حركة المرور ، أو مشاهدة مباريات كرة القدم ، أو كرة السلة .

وهناك بعض الأبحاث الأخرى التي تؤكد أن العزلة الطويلة ، والاحباط في العمل ، والاكتئاب ، وثورات الغضب قد لا تؤدي فقط الى حدوث الموت المفاجيء بل تؤدي أيضا الى رفع نسبة التعرض للاصابة بالموت المفاجيء على المدى البعيد كما أن

الأبحاث التي أجريت على المجتمعات اليابانية في كاليفورنيا أوضحت أن أكثر العوامل خطورة للاصابة بمرض الشرايين التاجية ، هو انعدام الروابط الأسرية والاجتماعية التي تعتبر من أبرز تقاليد المجتمع الياباني .

لقد وجد أن هذا العامل أكثر خطورة من ارتفاع نسبة الكولسترول في الدم ، أو ارتفاع ضغط الدم ، أو التدخين ، أو الافراط في تناول المواد الدهنية . وقد أيدت هذه النتيجة أبحاث أخرى أجريت على الايطاليين الذين يعيشون في احدى مدن مقاطعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية . وثمة أبحاث أخرى أثبتت أن العزلة بمفردها يمكن أن تضاعف خطر الاصابة بالموت المفاجيء أربع مرات .

والتوتر العصبي

وقد وجد أيضا أن التوتر العصبي والأعمال الرتيبة المتكررة تزيد من خطر التعرض للموت المفاجيء ، والدليل على ذلك أن نظام العمل الرتيب القاسي وحركة المرور التي لا ترحم هما السبب في ارتفاع نسبة الاصابة بارتفاع ضغط الدم لدى سائقي الاوتوبيسات .

ولعل من الطريف أن نذكر أنه وجد خلال فترة الستينات أن مهندسي الصواريخ الشبان الذين كانوا يعملون بمركز كينيدي للفضاء بدأوا يصابون بالموت المفاجيء بمعدل يبلغ ضعف المعدل المعتاد لأناس في مثل سنهم .

وقد اعتقد رجال المخابرات المركزية الأمريكية في ذلك الوقت أن السبب في ذلك يرجع الى اصابتهم بتسمم متعمد . ولكن الأبحاث أثبتت أيضا ازدياد نسبة الطلاق بينهم ، وادمانهم للخمر والانتحار . وقد وجد أن السبب في كل ذلك يرجع الى خوفهم من الاستغناء عنهم ، وخاصة ان مركز الفضاء خفض قوته العاملة من ثلاثين الف موظف الى أربعة عشر ألف موظف في ظرف ثمانية أعوام وقد أثبت التشريح بعد الوفاة وجود علامات تدل على هبوط عضلة القلب نتيجة للتوتر العصبي لدى ٨٠٪ من المتوفين .

واتجه فريق آخر من الباحثين الى دراسة الموت المفاجيء لدى السيدات فوجدوا أن ثلثي ضحايا الموت المفاجيء لم يكن لديهن أية أعراض سابقة لمرض القلب . وقد أثبتت دراسة أخرى أن الاحباط والتجارب المقبضة مثل حجز المريضة في احدى المصحات النفسية ، أو حدوث وفاة أحد الأقارب ، أو زواج غير موفق ، أو العمل تحت رئاسة رجل حاد الطباع ، أو رعاية أكثر من طفل واحد ، كل هذه العوامل يمكن أن تزيد من استعداد السيدة للاصابة بمرض الشريان التاجي للقلب .

لقد أثبت بعض العلماء أن الموجات المتدفقة من افرازات الكاتيكولامينات وهرمونات المخ الأخرى التي تحدث أثناء الغضب - على سبيل المثال - تسهم بطريقة مباشرة في احداث اصابات الشرايين ، وترسيب الصفائح الدهنية على جدران الشرايين . وبمرور الوقت - مع تكرار ردود الفعل الانفعالية - تنحل ألياف نسيج القلب مما يؤدي الى اضطرابات الدورة الكهربائية بالقلب .

ومن المعروف أن الزيادة المفاجئة في افراز الأدرنالين بسبب القلق أو الغضب المفاجيء تؤدي الى انقباض آلاف من الأوعية التاجية الدقيقة ، وهذا يستدعي القلب أن يضخ الدم بنبضات أكثر قوة وأكثر سرعة .

وبينما لا أحد يعرف كم عدد الاحباطات والكوارث والنوبات الانفعالية التي تحدد مصير الانسان وقدره ، الا أنه أصبح من المعروف أن ضغط الدم ، ونسبة الكولسترول في الدم ، ينخفضان عندما يقوم الانسان باجازة للراحة والاستجمام .

محاولات التغلب على عوامل الموت

مع وضوح كل الأدلة التي تثبت العلاقة بين الحالة الانفعالية للانسان وبين موته المفاجيء اتجهت الأبحاث الى اتخاذ طريق التحدي لهذه العوامل ،

وذلك بتعقب العوامل الكهربائية والكيميائية التي تؤدي الى الموت ومعادلاتها . ويحتمل أن يؤدي هذا الطريق الى نتائج حسنة .

ووجد أنه لو ترك مرضى القلب بدون علاج فان ٣٠٪ من الذين استطاعوا أن يعيشوا ، يموتون فجأة خلال عامين من بدء اصابتهم بالأزمة القلبية .

وتستطيع المراكز الطبية أن تخفض هذه النسبة الى أقل من ٤٪ باستعمال العقاقير المنظمة لضربات القلب والرعاية المستمرة . ولكن هذه العقاقير لسوء الحظ تستطيع أن توقف أيضا التغيرات الكهربائية والكيميائية في أعضاء أخرى من الجسم ، وبذلك تؤثر على وظائف أخرى مثل الذاكرة والهضم والقوة الجنسية .

لذلك اتجه العلماء الى البحث عن بدائل لهذه العقاقير . ونذكر على سبيل المثال استخدام نوع من القسطرة تحمل في طرفها مكواة كهربائية لكي تحرق الأطراف الدقيقة من نسيج القلب الميت . أما بيتر شفارتس أخصائي القلب الذي كرس أبحاثه لدراسة الموت المفاجيء في جامعات ميلانو وأوكلاهوما وذلك باستكشاف حركة المرور الكهربائية في شبكة من الاعصاب المتقاطعة الموجودة في حافة القلب ، فقد أثبت أن قطع الفروع العصبية للعقدة العصبية النجمية اليسرى الموجودة على السطح الخارجي لعضلة القلب يمكن أن يحمي قلوب الحيوانات الشديدة المرض من الاصابة بذبذبة البطين .

أما أبحاث العالم سكينر فقد أثبتت أن تخدير مجموعات معينة من الخلايا العصبية في الفص الأمامي للمخ يمكن أن يحصن قلوب الخنازير ضد الاصابة بذبذبة البطين . ومعنى هذا أن هذه الخلايا العصبية في الفص الأمامي من المخ هي المسئولة عن احداث ذبذبة البطين . وقد وجد سكينر أن الرسائل الكهربائية التي تؤدي الى ذبذبة البطين تبدأ مسارها من الفص الأمامي للمخ ثم تصل الى الهيوثالاماس (تحت المهاد) ثم جذع المخ الذي يتصل بالقلب عن طريق فروع الجهاز العصبي اللاارادي . كما وجد أيضا أن العقاقير المنظمة لضربات القلب لا تفعل فعلها بالتأثير المباشر على عضلة القلب ، ولكن عن طريق تأثيرها على الخلايا العصبية في الفص الأمامي للمخ . ومما يؤيد هذا الاكتشاف أن أطباء القلب بجامعة كولومبيا وجدوا أن العقاقير النفسية المضادة للاكتئاب تستطيع في بعض الأحيان أن تنجح في تنظيم ضربات القلب . وتدور أبحاث العالم سكينر حول الكشف عن المادة الكيميائية ، وهي من نوع النيروبيبتايد ، التي تطلق الشلال الهادر القاتل من المواد الكيميائية السامة من خلال الجهاز العصبي اللاارادي .

فاذا ما اكتشف هذا النيروبيبتايد فان الخطوة التالية هي تحليله بطريقة دقيقة كاملة بهدف التوصل الى تخليق مادة مضادة له .

هل للغذاء تأثير . . ؟

يتجه فريق الباحثين بجامعة هارفارد وجهة أخرى تهدف الى استخدام الغذاء للتأثير على مستويات مادة السيروتونين في المخ ، وهي موصل عصبي قوي يمنع موجات المواد الكيميائية التي يمكن أن تؤثر على القلب أثناء الخوف أو الغضب ، وقد أثبت بعض الباحثين أن مستويات السيروتونين في المخ يمكن أن تهبط بشكل مخيف في فترات الاكتئاب لدرجة تنذر بامكانية حدوث الانتحار .

إن هذه الأبحاث وغيرها تثير بضعة تساؤلات : هل كل نوبة من نوبات التوتر والغضب تزيد من خطر حدوث الموت المفاجيء باستنفاد طاقة الانسان وقلبه ؟ هل يوجد شيء في المخ ينفجر تحت ضغط المواجهات والمضايقات والانفعالات فيبعث رسول الموت الى القلب ؟ هل يمكن أن تكون غالبية حالات الموت المفاجيء « ارادية » بشكل أكثر مما نعرفه ؟

لا يستطيع أحد في الوقت الحالي الاجابة على هذه الأسئلة ولكن العلم لن يتوقف عن محاولة الاجابة عليها . □

يصدر في
١٥ يناير ١٩٨٨

كتاب العربي

الثامن عشر

المسرح العربي
بين النقل والتأصيل

بقلم مجموعة من الكتاب

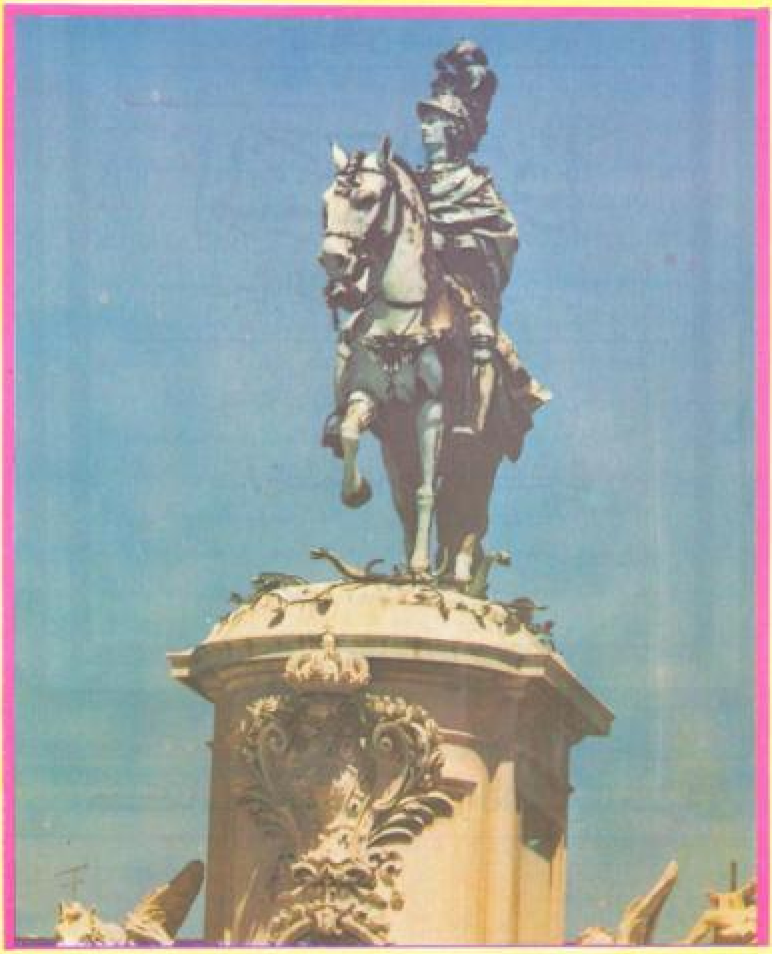
كتاب العربي مرآة العقل العربي

العربي
عيونك
على العالم

البرتغال
مملكة الشمس الغاربة

استطلاع : محمود عبدالوهاب

تصوير : سليمان حيدر





● من تحت هذه البوابة خرجت صفوف البحارة الذاهبين لرحلات الاستكشاف ، ودخلت قوافل التجار حاملة العبيد والذهب ، وتحتها الآن موقف عام للسيارات ، ومحطة « ترام » ، وسوق باعة الأحذية .

هنا مملكة من ممالك العالم التي تعتصرها الآن الهموم والمشكلات . « من هنا تغير تاريخ العالم ، فمنذ خمسمائة عام فقط كانت هذه الارض هي آخر نقطة في العالم المسكون بالبشر ، وفق الافكار التي كانت سائدة وقتئذ ، حتى بدأ عصر الكشوف الجغرافية ، فمن هنا انطلق فاسكو دي جاما ، وماجلان ، وبارثليموديا مكتشف رأس الرجاء الصالح . ومن هنا خرج أول مستعمر أوروبي لمنطقة الخليج ، وهنا شهد العالم أول صفقة عبيد في التاريخ . .

و . . وقفت الطائرة تماما في مطار لشبونة عاصمة البرتغال .

كان الوقت أصيلا عندما خرجنا من المطار ، والشمس ما زالت في ثلث السماء الأخير ، ينعكس ضوؤها على سقوف القرميد الأحمر ، وعلى أسفلت الطريق،سائق سيارة الأجرة يلتزم الصمت ، وملامح وجهه لا تنبيء بشيء الا التركيز في الطريق الذي أمامه ، وحاولت أن أكسر الصمت ، قدمت له لفافة تبغ ، فتقبلها ، وأدار وجهه للطريق .

واخترنا فندقا وسط المدينة ، وفور وصولنا ألقينا بحقائبنا ، وهبطنا الى الشوارع المظللة بالأشجار ، المليئة بالتماثيل والمقاهي .

الناس في الشوارع غير ودودين ، الوجوه متجهمة ، والضحكات غائبة والابتسامات التي يلقاها أي غريب في المدينة مفقودة . وسط المحلات الكثيرة التى يتميز بها وسط المدينة ـ في أي مدينة ـ عادة يجلس عديد من باعة الأرصفة ، والمتسولون عازفو الموسيقا ،وراسمو اللوحات ، ويتقافز حول السائرين الصبية ، يعرضون بضائعهم الرخيصة والمزيفة أمام كل غريب ، ساعات ونظارات وأقلام ، خلف منطقة وسط المدينة يقطن الفقراء ، حيث الشوارع الصغيرة المتقاطعة الضيقة ، المبلطة بالطوب ، والبيوت ذات الطابق والطابقين التي بها ترى من نافذة بيتك ، بيت جارك . والشوارع صاعدة هابطة ، وفي دوامة الطرقات ضللنا الطريق ، ثلاث ساعات ونحن نسير على أقدامنا وسط أحياء الفقراء المحصورة بين الميناء ووسط المدينة ، وطوال التجوال الطويل حاولنا أن نكسر قشرة الجمود من فوق وجوه الناس . نلاعب طفلا فيجفل ، ونحيي رجلا فيرمقنا باستغراب ، ونجلس في مقهى في قلب حي الفقراء ، فينظر الينا الرواد كأننا من كوكب آخر ، فكل رواد المقهى يعرفون بعضهم بعضا ، ونحن الغرباء فيه ، وعندما ازدادت حمرة الشفق في السماء أنقذنا انفسنا من هذا التجوال ، وركبنا سيارة أجرة ، لتعود بنا الى الفندق ، ولم نحاول ثانية مع سائق سيارة الاجرة ، فمن الواضح أن جمود الوجوه ، وعدم الاحتفاء بالغريب هو بقايا كبرياء مدينة كان لها تاريخ ، وتعتصرها الآن الهموم .

على حافة الأطلنطي

تقع جمهورية البرتغال على الجهة المقابلة للمحيط الاطلنطي من شبه جزيرة ايبريا ، تحدها اسبانيا شمالا وشرقا ، والمحيط غربا وجنوبا ، وتعتبر بذلك آخر نقطة في اوروبا باتجاه الأطلنطي ، مساحتها ٩٢ الف كيلو متر مربع تقريبا ، وعدد سكانها حوالي ١٠ ملايين نسمة . كانت البرتغال امبراطورية حتى عام ١٩١٠ ، حين أطاح انقلاب ابيض بالامبراطورية ، وأقام جمهورية ، تميزت بعدم الاستقرار ، والاضطرابات العنيفة ، وفي عام ١٩٢٦ قامت ثورة عسكرية في البلاد ، أوصلت المارشال انطونيو كاومونا الى الحكم (٢٦ ـ ١٩٥١) فحافظ على حياد بلاده ، في الحرب العالمية الثانية وأصبحت خلال

الحرب ملتقى جواسيس المتحاربين ، وشهدت قدرا من الصراع والحرب السرية الهائلة . وكان مقهى « افنيدا » أشهر مقهى في العالم في ذلك الوقت ، ففيه كانت تدور حروب العالم السرية ، فيختطف جاسوس أو يقتل أو يهرب الى امريكا ، وفيه تعقد صفقات واتصالات وتباع اسرار .

كان الرجل القوي في السلطة الجديدة التي تولت البلاد ، وهو سالازار الذي شغل منصب وزير المالية عام ١٩٢٨ ، رئيسا للوزراء من ١٩٣٢ حتى ١٩٦٨ .

وكان سالازار يرفض الديمقراطية الغربية ، والاشتراكية سواء بسواء ، ويميل علنا الى الفاشية الايطالية ، واستطاع أن يؤمن للبرتغال نوعا من الاستقرار السياسي خلال حكمه الصارم ، كما استطاع بمساعدة الكنيسة والجيش والاتحاد القومي (الحركة السياسية الوحيدة التي رخص لها بالعمل والتي تقوم على فكرة تحالف قوى الشعب العاملة ، وهو بذلك صاحب هذه الصيغة التي انتقلت بعد ذلك الى بعض الاقطار العربية) استطاع سالازار بمؤازرة هذا الثالوث أن يسيطر على البلاد وسياستها ، وحول رئاسة الجمهورية من مؤسسة فاعلة الى مؤسسة ثانوية .

وفي عام ١٩٦٨ مرض سالازار ، وانتخب مارسيلوكايتانو رئيسا للوزراء خلفا له ، وأمن كايتانو بعض الحريات ، وخفف من قبضة البوليس السري وأعاد زعيم المعارضة المنفي ماريو سواريس لكنه أبقى على خطوط اساسية لسياسته ، مطابقة لسياسة سالازار .

وفي ٢٥ ابريل ١٩٧٤ قامت ثورة بيضاء قادتها حركة القوات المسلحة ، وضعت حدا لديكتاتورية مدنية استمرت أكثر من أربعين عاما ، وشكلت حركة القوات المسلحة « مجموعة انقاذ وطني ، وكلفتها باعادة الحياة الى البلاد بشكل يتوافق مع رغبات جموع الشعب والقوى المختلفة فيه . وفي



خريطة البرتغال

عام ١٩٧٦ بدأ العمل بدستور جديد ، ينص على أن مجتمع البرتغال مجتمع اشتراكي ، وأن الحكومات المختلفة عليها - بالتالي - تحقيق هذا الهدف ، كما يقضي الدستور بأن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية الذي يبقى في منصبه خمس سنوات ، ويحق لرئيس الجمهورية تعيين رئيس الوزراء بعد التشاور مع مجلس الثورة ، والاحزاب الممثلة في البرلمان الذي يضم ٢٦٣ عضوا ، ينتخبون كل اربع سنوات . وبجانب مجلس الوزراء والبرلمان هناك مجلس الثورة الذي يضم أربعة قادة رئيسين و ١٤ ضابطا منتخبا ، والمجلس بمثابة هيئة استشارية ، تعمل للمحافظة على الدستور . وفي واقع الامر أن أبرز نتائج ثورة ١٩٧٤ والدستور الذي وضعته هو النص على اشتراكية البرتغال ، واعادة الحياة السياسية الى وضعها الطبيعي ، والسماح للأحزاب بالعمل ، واطلاق حق تكوين الأحزاب وقيام التأميمات الواسعة التي شملت حوالي ٦٠ بالمائة من وسائل الانتاج في البلاد وادخلت الحكومة شريكا في عديد من النشاطات الاقتصادية وانهاء عصر المستعمرات .

الأعوام الصعبة

كانت السنوات الطويلة التي قضاها سالازار (٣٢ - ١٩٦٨) في الحكم بديكتاتوريته وفاشيته ، وما تبع هذا من قسوة واعتقالات واطلاق للبوليس السري يجوس في حياة الناس ، ويعصف بهم لأقل تعبير عن التذمر والضيق ، كان هذا وحده سببا يبرر










NÃO
DÊS



● من أعلى اليمين ، المسجد الاسلامي في لشبونة العاصمة الذى لم يتم العمل به بعد ، وعلى الرغم من أن عدد المسلمين بالبرتغال كلها لا يتجاوز ٢٠ ألفا إلا أن الخلافات بينهم والصراع على مناصب الادارة وصل الى القضاء ! ، وأسفل صورة المسجد لقطتان من قلب الحي ، منظر عام للشارع التجاري الرئيسي فيه أناس سائرون ، وباعة متجهمو الوجوه ، وأخيرا الى اليمين مباشرة شركة إصلاح السفن الشهيرة التي ساهمت في بناء الحوض الجاف بالبحرين ، وتساهم في بناء الحوض الجاف بجدة .



كل الجهامة التي على الوجوه فكما يقول لنا خوسيه تراسياتو أحد أساتذة الجامعة في لشبونة : « الناس في وطني ما زال الخوف يملأ حياتهم ، الخوف من السلطة ، والخوف من الغرباء والخوف حتى من الأصدقاء . هناك جيل كامل ولد وعاش وتلقى تعليمه في ظل سلطة مطلقة ، وعزلة شديدة عن العالم . كان لنا ـ ما زال استاذ الجامعة يحكي ـ زميل ، وذات يوم ركب سيارة اجرة عائدا الى بيته وفي الطريق تبادل لفافة تبغ مع سائق السيارة ، ويبدو أنه كان بالسيجارة ثقب أو عيب فألقاها أستاذ الجامعة من نافذة السيارة ، وقال : « هذا هو الشيء الوحيد المثقوب في البرتغال ويمكن التخلص منه » وبعد ساعة واحدة كان رجال البوليس السري يقتادون استاذ الجامعة هذا الى دهاليز مظلمة من الاستجوابات والتحقيقات ، وعلى الرغم من أن هذه الواقعة قد مر عليها قرابة ثلاثين عاما ، إلا أنها تظل صورة لحالات الرعب والخوف والعزلة ، حتى صار الناس في وطني جزرا منعزلة . ويستمر محدثي د . خوسيه تراسياتو ـ في رسم صور لأيام من حياة جيل كامل فيقول : « كنا في الجامعة نخاف من أسئلة الطلبة ، فلم يكن مستبعدا أن يكون أحد الطلبة ـ وكان هناك كثيرون ـ له علاقة بالبوليس السري ، فابتدعنا نظاما عجيبا ، يقضي بأن يقدم الطلبة أسئلتهم مكتوبة الى الاستاذ في نهاية المحاضرة ، ليقدم الاجابة عليها في المحاضرة التالية لتكون هناك فرصة للاستاذ ، لكي يتروى ويفكر في السؤال ، ويتجنب كل ما يمكن أن يثير غضب السلطة . لكن الأزمة الحقيقية أن النظم الفاشية ليس لها خطوط حمراء ، بمعنى أن المواطن في النظام الفاشي لا يعرف ماذا يثير غضب الحكومة ، ماذا يجلب رضاها ، لان الأمر يخضع لحالات من المزاج والسوداوية والقسوة واللامنطق ، ويقوم على افتراض الريبة والشك والاتهام وهذه كلها قواعد مطاطة مرنة ، تحتمل كل شيء ، يحتمل أن يفسر مسئول ما أن السخرية من سيجارة مثقوبة تحمل وراءها كراهة للنظام ، وعداء له بينما قد يرى مسئول آخر أن الأمر برمته لا يستحق هذا التعنت في التفسير والمغالاة في افتراض السوء . ولأن القواعد والخطوط ضائعة ، يصبح كل شيء واردا ومحتملا ، ويصبح هذا المناخ هو التربة الفضلى للخوف والتوجس والقلق .

هل كانت هذه هي كل هموم السنين ومتاعبها ؟ بالقطع لا ، والدكتور تريسانو لم يتناول إلا جانبا واحدا منها ، فبجانب كل هذا الخوف كانت هناك هموم اخرى ، فقد توالت الأزمات الاقتصادية في الثلاثين عاما الاخيرة ، مما أدى الى قدر كبير من المتاعب ، خاصة أن الاقتصاد البرتغالي كان يعتمد أساسا على الزراعة، وتصدير الأقمشة والمنتجات الخشبية والنبيذ وزيت الزيتون . وكان إسهام الصناعة في الحياة الاقتصادية ضئيلا ، وفي بداية الستينيات بدأ قطاع الزراعة يتأثر بحالات التجنيد الواسعة لقمع الاضطرابات التي نشأت في المستعمرات البرتغالية في افريقيا (انجولا ، وموزمبيق ، وغينيا ، والرأس الأخضر) ، والتي جند لها ١٢٥ الف برتغالي ، بالاضافة الى بطء نمو قطاع الزراعة ، نتيجة لعدم التطوير ومسايرة التقنية الزراعية الحديثة ، الامر الذي أدى الى مزيد من الاعتماد على الواردات في مجال الغذاء ، وبالتالي ارتفاع أسعار الغذاء لارتباط اسعاره بالاسعار العالمية ، وقلة الصادرات التي تشكل المنتجات الزراعية جانبا كبيرا منها . هذه الحالة تؤدي الى عجز الميزان التجاري وتجعل الحياة الاقتصادية أكثر تعرضا للتضخم المستورد ، بالاضافة الى ضعف العملة ، نتيجة لارتفاع الاسعار المستمر . واستمرت هذه المتاعب في الازدياد ، وبشكل تفاقمي ، حتى جاءت ثورة ١٩٧٤م لتجد وضعا اقتصاديا بالغ السوء ، زاد في عبء حملة الانقاذ من أسر الأيام العصيبة .

المجد الذي كان

ينقسم تاريخ العالم الى مراحل متعددة ، لكنه في

جمله يتميز بعصرين مختلفين يحددهما « ول ديورنت » في مؤلفه الضخم « قصة الحضارة » بأنها عصر ما قبل الكشوف الجغرافية ، وعصر ما بعد الكشوف الجغرافية ، والبرتغال هي رائدة عصر الكشوف ، وأول امبراطورية في التاريخ الحديث ، تمتد الى خارج حدودها ، وتقتحم آفاق المجهول لكل الدنيا ، وتُسقط كل الافكار القائلة ، بأن خلف هذه البحار والمحيطات لا يوجد بشر ، وحتى المياه نفسها فانها مليئة بالأفاعي والحيتان والصخور وعبورها هو نوع من الانتحار » .

يبدأ تاريخ الكشف البحري العظيم للبرتغاليين على يد الامير هنري الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠م) بن الملك جون الأول الذي عاش حياته كراهب ، ولا يشغله شيء سوى الاكتشافات البحرية ، وكان هذا - كما يقول معاصروه - مزيجا من الفضول والعقل والبطولة والخيال الممتد ، وقد أنشأ الامير هنري في سانت فنسنت جنوب لشبونة العاصمة مركزا علميا وعمليا لتدريب البحارة ، واعدادهم ، وانطلاقهم لاكتشاف المجهول .

وليس من الصعب تماما تحديد دوافع الأمير هنري الملاح لتشجيع حركة الكشوف ، فهناك مثلا صديقه أزوروزا الذي الف كتاب « تاريخ غينيا » في عام ١٤٥٣ الذي يسرد فيه دوافع هنري لتشجيع رحلات الاكتشاف هذه . يقول ازوروزا : « إنه رغب في معرفة الأقطار الواقعة وراء جزر الكناري ، وان ابن الكنيسة البارهنري رغب في معرفة حقيقة ما وراء هذه الأقطار ، خاصة انه يقال ان هناك سفينتين حاولتا الذهاب ولكنهما لم تعودا قط .

وفي موقع آخر من نفس الكتاب يقول صديق الامير : « ولا شك أن الذهب الموجود في مكان ما جنوبي الصحراء الكبرى ، كان من جملة العوامل المغرية ، الا ان المؤلف يعود مرة اخرى ليؤكد نغمة الوازع الديني فيقول : « وانه رغب في معرفة مدى قوة واستعداد بلدان الكفار ، واكتشاف امكانية وجود امراء مسيحيين في تلك الجهات ، يبلغ بهم حب المسيح والخير درجة تحملهم على معاونته ضد أعداء الدين هناك .

وهكذا فان صديق الامير يمزج بين الدافع العلمي والحماس الديني ، والرغبة في الثراء ، ليرسم لنا في النهاية صورة مثالية لدوافع الامير ، ترضى كل الاتجاهات .

لكن واقع الحال يقول ان البرتغال في ذلك الوقت شأنها - شأن اوروبا كلها - كانت تعيش لحظة تاريخية من لحظات الانتقال والتطور في تاريخ الشعوب والمجتمعات ، وكما يقول هـ . وود في كتابه المشهور « الارتياد والكشف الجغرافي » الذي ترجمه الى العربية الدكتور شاكر خصباك ، فقد كانت المخاطر الخارجية في ازدياد أطماع اسبانية قديمة في البرتغال ، والاوضاع الاقتصادية اخذة في التدهور ، وكان هناك عصر بأكمله قد بدأ في التحلل ، فقد بدأت تنتهي مرحلة الاقطاع ، لتسلم الراية الى مرحلة التجارة ، وكان عائد الارض والريع ليس مجزيا بقدر الثراء الذي بدأ التجار يحققونه نتيجة ازدهار التبادل التجاري ، وفي نفس الوقت كانت كتابات ماركوبولو قد ملأت خيال اوروبا بأحلام ساخنة عن ثروة الشرق ، وعصر الذهب والتوابل والحرير ، وكانت القصص تحكى في البرتغال واسبانيا عن خطوط التجارة التي تخترق افريقيا من المغرب العربي الى بلاد مالي وحوض نهر السنغال ، وكيف تتم مبادلة الملح بالذهب ، وحكايات اخرى عن بلاد الحبشة ، وأساطير عن الهند وتجارة التوابل . كان المجتمع كله يرى أن هذه الرحلات لو قدر لها النجاح فسوف تقدم له طوق النجاة وكان بالتالي الذهاب عبر البحار هو الخيار المتاح ، بحثا عن القوة والخلاص والثراء ، وانقاذا من مصاعب اقتصادية جمة ، وتضخم حاد في ذلك الوقت ، وتدهور حال ملاك الاراضي ، ولذلك فان كل فئات المجتمع وطوائفه قد دعمت الرحلات البحرية ، فقد باركتها الكنيسة ، وموّلها





● الى اليسار نصب تذكاري ، مقام على لسان صخري ، ممتد داخل مياه المحيط ، وإذا كانت الدول تقيم النصب عادة تحية للذين يموتون دفاعا عن الوطن فإنهم في البرتغال أقاموا النصب تمجيدا للمغامرين الذين وهبوا حياتهم ثمنا للاستكشاف ، ويضم النصب صورا لكل فئات الشعب ، رجل العلم في المقدمة ، ثم المحارب ، فالفلاح ، فرجل الدين الذي يبارك الجميع ، والى أعلى اليمين قوس فوق بوابة كاتدرائية ، يعود تاريخها الى عام ١٦٠٠م ، وهي نموذج فني للعمارة في أزمنة المجد والثراء ، وبين ذلك الزمان والزمان الحالي ـ زمان باعة الأرصفة أسفل اليمين ـ تناقض لا تخطئه عين .





رجال الأعمال الاغنياء وبعض ملاك الأراضي المتوسطين ، وكان وقودها وجهدها العضلي هم البحارة والصيادين والمزارعين الذين تركوا حقولهم وانطلقوا بحثا عن الثراء ومجد الوطن .

الحبيبة تنتظر

ويلخص هذا العصر كله ، كثير من ألوان الفنون الشعبية ، واذا كان القول الشائع أن الفن هو تلخيص واختصار للمجتمع والبيئة فان هذا القول اكثر ما يكون وضوحا عندما نتناول الكشوف الجغرافية وفنون البرتغال ، فأكثر الرقصات الشعبية شيوعا وشهرة هي رقصة اسمها « مشادو » ، ويحمل أشهر مطاعم لشبونة للوجبات التقليدية اسمها ، ويقدم كل ليلة عرضا راقصا للفن الشعبي والرقصات الشعبية ومن ضمنها هذه الرقصة . وعلى مائدة صغيرة في المطعم القديم .. انزوينا زميلي المصور وأنا ومعنا مدربة الرقص « إيزابيلا أندرو » تحكي وتشرح لنا قصة الرقصة الشهيرة . تقول إيزابيلا : هذه الرقصة عبارة عن عدة لوحات تعبيرية تحكي قصة مزرعة صغيرة ، يعمل فيها عدد من الاسر ، وتنشأ قصة غرام بين فتاة ـ وهي عادة الراقصة الاولى ـ وبين أحد المزارعين ، لكن سنوات الجفاف تصيب المزرعة فيقل انتاج المزرعة ، ويتعطل الشباب عن العمل ، وتفرغ القوارير من النبيذ ، وتجف ضروع المواشي ، وتعود الفتيات كل صباح من الحظائر بلا حليب ، ويسافر الشباب في الرحلات البحرية ، وتنتظر النساء عودة الرجال وتطول أيام السفر ، والقلق يزداد ، خاصة أن أحوال المزرعة لا تسر ، ثم يعود الشباب بالمال فتنتعش المزرعة ، ويشتري الحبيب المزرعة من مالكها ، وتصبح حبيبته سيدة المزرعة بكل ما فيها .

هذه اللوحات التعبيرية التي يستغرق أداؤها حوالي ٥٠ دقيقة في عرض موسيقي غنائي راقص ، تقدم تلخيصا وافيا لرؤية المجتمع البرتغالي للرحلات الكشفية .

وقد حققت الكشوفات الجغرافية ، والمستعمرات ، الخلاص للاقتصاد البرتغالي ، فقد جلبت السفن القهوة من أنجولا ، والتبغ من موزمبيق ، والتوابل من الهند والعبيد من الساحل الافريقي وهم يمثلون الطاقة والقوة والثراء ، وقد وصلت أول صفقة عبيد في التاريخ الى أراضي البرتغال في عام ١٤٤٤م على يد (جيل ايفانس) الذي أسرهم من الساحل الافريقي ، شمال نهر السنغال ، وكانت الصفقة مكونة من مائتي رجل وكانت أول عائد من رحلات الكشف التي سرعان ما منحت الرحلات رضا كل المجتمع وحماسه وترقبه لعائداتها .

لكن ماذا حققت البرتغال من هذه الرحلات ؟ وماذا استفادت منها ؟ الاجابة يقدمها كتيب علمي لجمعية المؤرخين البرتغاليين تحت عنوان « نصف قرن على الكشوف الجغرافية » ويتناول بشكل علمي موضوعي حركة الكشوف بما لها وما عليها . يقول الكتاب :

« انطلقت رحلات البرتغاليين بجوار الساحل الغربي لافريقيا ، فعبرت لاول مرة في التاريخ النتوء الغربي الكبير لافريقيا ، واكتشفت السنغال وغينيا البرتغالية (غينيا بيساو الآن) وساحل الذهب (لكونه مصدرا للذهب) ، وكذا ساحل العاج ، والرأس الأخضر وبنين ، ومع حلول عام ١٤٦٠ كان ساحل افريقيا الغربية كله قد تم اكتشافه ، وبدأت قوافل التجارة تنتظم حاملة خيرات افريقيا الى شرايين الاقتصاد البرتغالي ، فاحتكرت البرتغال التجارة مع غينيا ، ورأس بالماس ، وبدأت تزدهر أسواق البرتغال بالخضراوات والحبوب والعاج والذهب والعبيد ، وفي عام ١٤٨٠ وصل دياجوكاو الى الكونغو ووضع هناك علامات حجرية عليها : اشارة الصليب كعلامة لوصول أول مسيحي لهذه الأراضي ، ولم يكن الساحل الغربي لافريقيا ـ وعلى الرغم من ثرائه ـ هو هدف البرتغاليين ، وكان هدفهم الأعظم

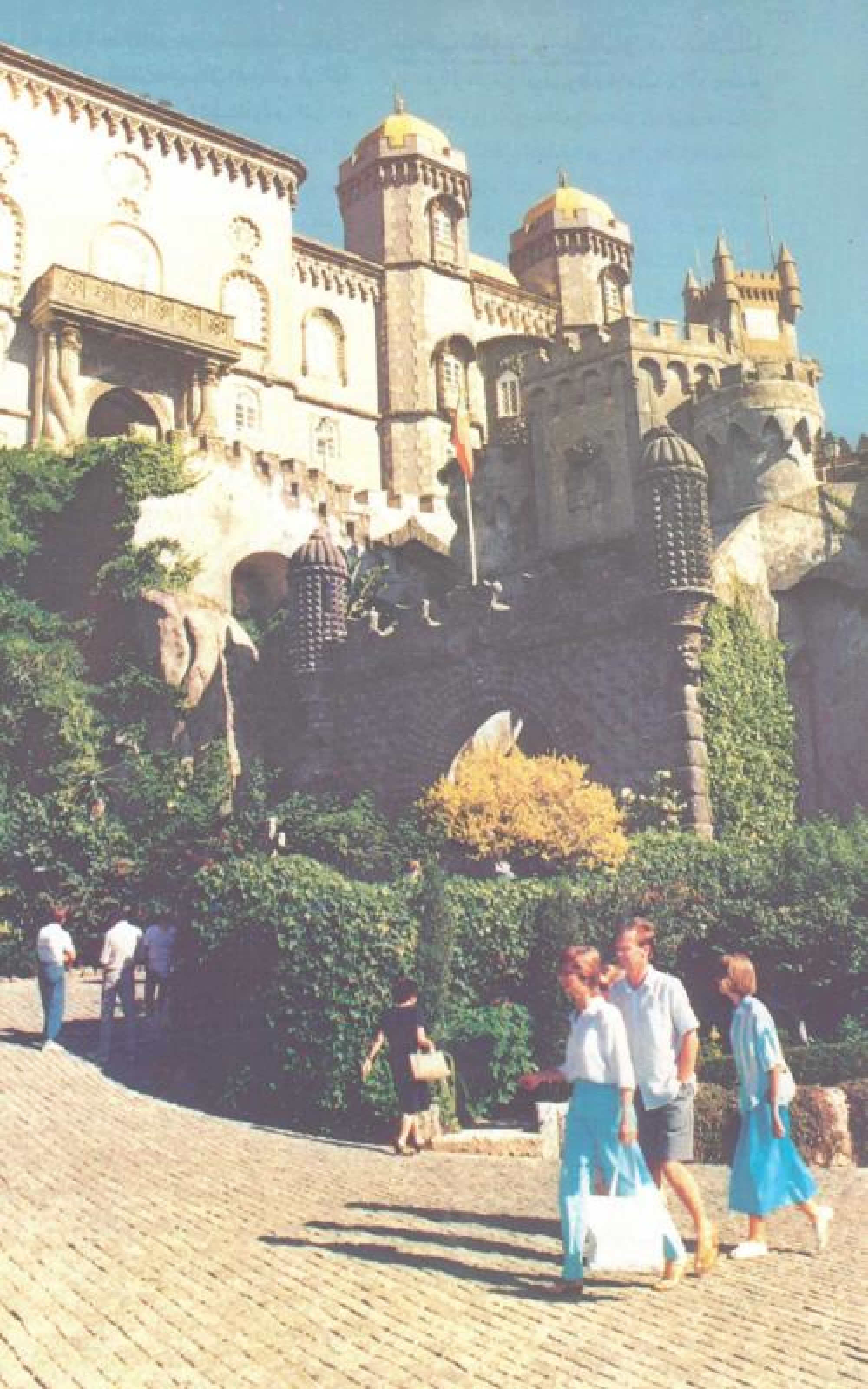
اعتبار هذه النقاط الافريقية بمثابة نقط تموين واستراحة لسفنهم اثناء رحلتهم الى الهند ، والتي فتح الطريق اليها بارثليموداياس باكتشافه رأس الرجاء الصالح ، والتفافه حول افريقيا ، ووصوله الى موزمبيق على الساحل الشرقي لافريقيا في عام ١٤٨٨م ، وعندما حاول فاسكو دي جاما الوصول الى الهند مستثمرا اكتشاف دياس فانه ضل الطريق ووصل الى ممباسا وموزمبيق . ثم انطلق دي جاما من شاطيء ماليندي (على ساحل كينيا الآن) في شهر ابريل ١٤٩٨ ، ليصل الى الساحل الجنوبي الغربي للهند في مايو من العام نفسه محققا بذلك الحلم الاسطوري لاوروبا ، وهو الوصول الى الهند ، حيث امبراطورية التجارة والخيول والتوابل والقطن ، وبدأ بذلك عصر جديد في تاريخ العالم .

وانتظمت رحلات البرتغاليين ، ووصلوا موانيء سواكن وعدن ، ومع حلول عام ١٥٠٠ بدأت رحلات القوافل التجارية تتحول الى رحلات استعمارية ارتكب فيها البرتغاليون فظائع وأهوالا لا يتصورها احد ، واستقرت لهم مستعمرات في افريقيا والهند والبرازيل ، وانتبه العالم وقوى ذلك العصر لأهمية اكتشافات البرتغال ، فبدأ عصر المنافسة على المستعمرات ، فطرد الانجليز البرتغاليين من عدن والخليج العربي ، بعد أن استقروا فيها فترة قصيرة وتحولت هذه الرحلات من مجرد رحلات للكشف والبحث عن الثروة والعالم الجديد الى رحلات للاستيطان والاستقرار ونهب خيرات هذا العالم ، وساهمت هذه المستعمرات الجديدة في تنشيط قتصاد البرتغال ، والخروج به من الأزمة التي راجهها في زمن الانتقال من عصر الاقطاع ، رضعف عائد الاراضي الى عصر التجارة ، وما ستتبع ذلك من مفاهيم السيطرة على العالم بالقوة لعسكرية ، ليبدأ عصر الامبراطوريات ، وعصر جديد في تاريخ العالم كله .

متحف للتاريخ والجمال

على الرغم من أن لشبونة ـ عاصمة البلاد ـ تقع في الجزء الجنوبي الذي يعد من مناطق السهول قياسا الى ارتفاعات المناطق الشمالية من البلاد الا أن العاصمة نفسها أو الجزء القديم منها تحديدا ـ مبنى على عدة تلال تحيط بنهر تاجو ، الذي يقسم العاصمة الى نصفين . ولقد كانت بلدية العاصمة صارمة في قرارها الصادر بالحفاظ على شكل الجزء القديم من المدينة كما هو ، فلم تمتد يد العبث الى المباني التقليدية بالتشويه ، أو الازالة ، ولذلك فالناظر للمدينة من الجو أو من فوق أي تل من التلال السبعة التي تحيط بها ، سيجد امامه امتدادا أحمر من القرميد الذي يظلل كل البيوت والمباني ، وقامات الشجر سامقة مما يعطى شكلا فاتنا خلابا للعاصمة .

وعلى الرغم من صرامة النظم المتعلقة بالبناء ، فان الصورة لم تكتمل ، فالجزء القديم من لشبونة يضم أغلب المراكز الصناعية فيها ، الميناء ـ وشركات بناء السفن ، ومصانع الاخشاب ، والورش ، ومراكز الاصلاح . . والملفت للنظر في لشبونة هذا العدد الكبير من التماثيل التي تزين شوارع العاصمة ، والحدائق ، ونافورات المياه ومما يضفي على المدينة احساسا فائقا بالتاريخ والعراقة ، خاصة أن كل مبانيها القديمة تمتاز بالفخامة وروعة التصميم . وكثرة المتاحف في لشبونة تثير الاعجاب ، فكل قصر تاريخي او مبنى عريق يتحول الى متحف ، لضمان أكبر قدر ممكن من الصيانة والحفظ له ، وفي نفس الوقت تفتح ابوابه للجمهور للزيارة والتمتع به ، ولعل أشهر هذه المتاحف قلعة سان جورج المقامة على تل يحيط بالعاصمة ، وللقلعة حديقة تقع على مساحة ثلاثين فدانا وهي مفتوحة للجمهور ، ومحاطة بسياج ، ومقسمة من الداخل الى اركان وأرائك وخمائل ، وتتخللها عيون المياه الطبيعية ، والجمال المذهل في المباني القديمة والتاريخية هو هذا القدر الرائع من التفاصيل الدقيقة ، والنقوش والرسوم على القباب ،









● الى اليمين قلعة سان جورج الشهيرة فوق أعلى قمة تل في لشبونة ، تشرف على العاصمة كلها ، محصنة تحصينا فائقا ، وهي واحدة من القلاع العديدة التي تنتشر في البرتغال . والى اليسار صورة عامة لحي الفقراء ، فالبيوت من صفيح وأخشاب ، ثم معهد الصناعات التقليدية ، وهو معهد عائلي ، تتوارثه ثماني أسر ، تمارس هذه الصناعات وتحتكرها منذ زمن طويل .

وفوق البوابات ، وعلى مداخل القصور ، وسقوف الغرف ، دقة وتفاصيل تسلب العقل ، وتبهر العين بجمالها وثرائها الزخرفي وبهائها الجميل .

في مبنى من هذه المباني العريقة التقينا بالدكتور «سيرا براندو» رئيس جمعية المؤرخين البرتغاليين ، يقول د . سيرا براندو:

البرتغال دولة من دول البحر المتوسط بثقافتها واكتشافاتها وانتمائها وحضارتها ، لكنها من دول الأطلنطي بحكم الجغرافيا . ولقد استفادت البرتغال من انتمائها لحوض البحر المتوسط ، فتأثرت بالمد والحضارة العربية ، واستفادت من العلوم والمعارف العربية ، فتم تطوير الاسطرلاب الذى استخدمه العرب من قبل ، وكذلك كتابات العرب حول تحديد المركز المغناطيسي للأرض والرياح وحركة الأمواج ، لكن يهمني أن أوضح نقطة غائبة عن أذهان الكثيرين ، وهي أن الاكتشافات كانت سابقة على المستعمرات ، واننا بعد مائتي سنة منها بدأنا المستعمرات ، وصحيح اننا أول بلد شحن صفقة عبيد من أفريقيا ، ولكننا في نفس الوقت أول بلد في التاريخ اتخذ قانونا لمنع تجارة العبيد ، وذلك في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر .

ويستكمل الدكتور « سيرا براندو » حديثه قائلا : تسألني عن البرتغال الآن في تقديري أن البرتغال تعيش الآن لحظة تاريخية في حياتها فثورة ١٩٧٤ تميزت بأربعة أشياء : هي نهاية عصر المستعمرات والديمقراطية ، والحرية ، أخيرا حركة التأميمات ، وفي تقديري الآن في عام ١٩٨٧ وبعد ثلاثة عشر عاما ، فإن هناك أربع قضايا رئيسية لابد من مواجهتها ، وهذه القضايا هي تنظيم الاقتصاد ، وتدعيم الاستقرار ، ومعالجة التضخم واخيرا مواجهة سوء الادارة المتفشي في الجهاز الادارى للدولة والحكومة ، ونحن الآن حتى بعد السنوات الطويلة ـ في نهاية دورة الثورة ، فقد فعلت الثورة كل ما يمكن أن تفعله ، ولا يمكن لأي وطن أن يستمر في حالة ثورة ، لابد من استقرار الدولة وأدائها ، فالثورة تغيير خطوط عامة ، وتوجهات واتجاهات ، وأداء هذا وتنفيذه هو دور مؤسسات الدولة التي تحقق ما قامت الثورة من أجله .

الضفة الأخرى من النهر

قلنا ان نهر تاجو « يقسم العاصمة لشبونة الى قسمين ، المدينة القديمة بآثارها وبواباتها ومبانيها ومتاحفها وشوارعها الضيقة ، ومطاعمها التقليدية ، والمدينة الحديثة بمبانيها الحديثة ، وشوارعها المتسعة ومجمعاتها السكنية والادارية ، والانتقال عبر النهر يتم بواسطة « عبارات نهرية » ينتظم سيرها بين ضفتي النهر طوال اليوم ، بمعدل عبارة كل خمس دقائق ، وبجانب العبارات هناك جسر ، مقام على طول النهر ، شاهق الارتفاع ، يربط بين ضفتي النهر ، ويضفي جمالا على شكل النهر ، خاصة وانه ينتهي عند أسوار المدينة القديمة ، فالناظر الى النهر والجسر سيرى الجسر معلقا في الهواء فوق النهر ، وتنتهي أطرافه فوق أسوار المدينة القديمة ، فيبدو المنظر العام كلوحة تشكيلية رائعة .

ذهبنا الى جمعية الصناعة ورجال الأعمال ، وأمام السيدة ناتفيا سيثر نائبة رئيس الجمعية ، ومسئولة العلاقات الخارجية ، ألقينا بتساؤلات عن أوضاع الصناعة ومشكلاتها في البرتغال ، فقالت السيدة ناتفيا « تضم الجمعية في عضويتها ١٨٠٠ مؤسسة واتحاد ، والعضوية في الجمعية للمؤسسات الفردية ، ذات الملكية الخاصة ، وذات الملكية العامة ، وهي التي تشترك فيها الحكومة بنسبة ٥٠٪ بالمائة أو أكثر ، والوضع الحالي للصناعة يسير بخطا جيدة على الرغم من أننا عقب الثورة كنا نعاني من عدة مشاكل ، تركت آثارها السلبية السيئة على الاقتصاد ، لكن في خلال العشر سنوات الماضية بدأ الاقتصاد يجتاز المراحل الحرجة الأمر الذى انعكس بالتالي على الصناعة ، وكانت مشاكلنا الرئيسية تتمثل في معدل تضخم مرتفع ، ووصل الى أقصى مدى حتى تجاوز نسبة ٣٠٪ ونسبة بطالة عالية ، وضعف معدل النمو

في الناتج القومي ، وميزان مدفوعات يعاني من الحرج ، وديون عالية ، كل هذه ارتباطات كان يواجهها الوضع الاقتصادى ككل ولا تستطيع بالطبع أن تفصل دور الصناعة كأحد أسباب هذا التدهور ولا تأثرها ثانية به ، لقد كان الأمر أشبه ما يكون بدائرة خبيثة .

والصناعات القائمة حاليا لدينا في البرتغال هي الصناعات التقليدية والتي تتفوق فيها بحكم طول الممارسة ، وأعني بها صناعة النسيج ، وصناعة الجلود والأحذية ، وصناعة الملابس والنبيذ ، وتعليب الفواكه والخضراوات وصناعة بناء السفن ، والاسمنت ، ومواد البناء ، واستخراج الفحم وتكريره ، وفي السنوات الخمس الأخيرة بدأنا الاهتمام بصناعات أخرى ، مثل البتروكيماويات والآلات الكهربائية ، ومواد الاتصالات ، والمواد الكهربائية (مصابيح وأسلاك . . . الخ)

لكن المشكلة الحرجة لنا هي اعتمادنا على الاستيراد في عدد من المواد الحيوية ، فعلى سبيل المثال تمثل مصادر الطاقة وتحديدا النفط ٣٣٪ من اجمالي حجم الواردات ، بينما تمثل المنتجات الزراعية ٢٠٪ من اجمالي الواردات .

وفي المقابل نصدر النسيج والملابس والفحم والأحذية والخشب ومنتجاته وعربات القطارات والسفن وعربات الشحن البرية والحاويات والرافعات المستخدمة في البناء .

وتطرح مشكلات اخرى يواجهها الاقتصاد البرتغالي . « تقول : وعلى الرغم من التطور الذي بدأ الاقتصاد يشهده إلا أن هناك أزمات حقيقية تواجهها ، وأتصور أن الحكومة الجديدة لابد أن تواجهها وتضعها على جدول أولوياتها ، فمثلا نعاني هنا من انتشار الرشوة والفساد الادارى ، ومتاهات البيروقراطية،وهل يتصور أحد أن يستغرق تمرير ورقة داخل الجهاز الادارى فترة تمتد ستة أشهر ؟

أسألها عن الصبية المتسولين ، والباعة الذين يتقافزون حول السائرين بالسلع المزيفة وهذا الكم من باعة الأرصفة ورسامى اللوحات وعازفى الموسيقا . . تقول ثانيا :-

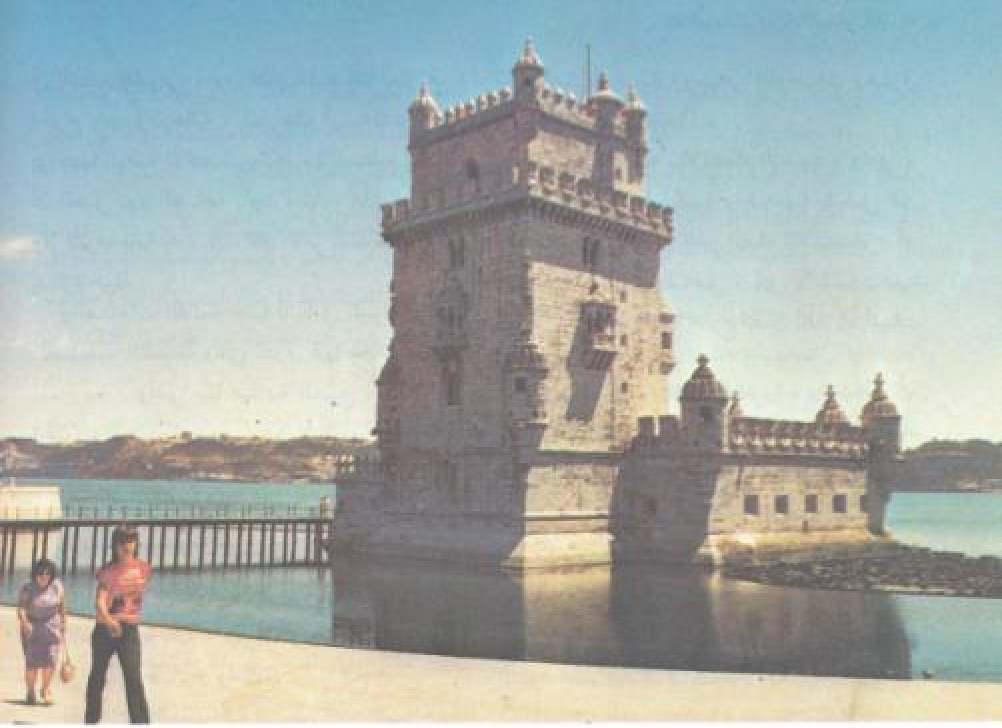
هذا هو مانسميه بالاقتصاد الأسود ، ونعني به انتشار الأعمال الهامشية والخدمية بشكل غير قانونى ، فهي خارج النهر العام اللاقتصاد ، أى خارج السيطرة والتفاعل ، فهي لا تسدد عنها ضرائب والعاملون بها خارج نطاق نظام التأمينات الاجتماعية .

ولكى تكتمل عناصر الصورة ، ونستطيع أن نقدر حجم المتاعب التي تأخذ بخناق الاقتصاد البرتغالي ، فان البرتغال ـ وكما يقول التقرير السنوى الجديد للبنك الدولى عن التنمية والذى صدر منذ أربعة أشهر فقط:قد بلغ اجمالي الناتج المحلى فيها في العام الماضى (١٩٨٦) ٤ مليارات دولار ونصف مليار يبتلع الانفاق العسكرى منه ٧٪ ، وتبلغ الديون الخارجية ١٦,٧٪ مليار دولار ، ويقدر عدد العاطلين عن العمل بـ ٩,٦٪ من حجم قوة العمل ، أما التضخم فقد كان متوسط المعدل العام لسنوات (٨٠ ـ ٨٥) ٢٢,٧٪ ، ولكنه بدأ يميل للانخفاض ، ويقدر حاليا وحتى الربع الثالث عام ١٩٨٧ بـ ١٠,٦٪ ، ومعنى هذا أن الأسعار تنمو بهذا المعدل سنويا .

وعلى الرغم من هذه المتاعب فإن الميزان التجارى (الفارق بين الواردات والصادرات) يشهد عجزا قدره ٢,٢ مليار دولار ولكن ما يخفف منه أن هناك مليارا ونصف مليار عائدات ، تمثل عائدات السياحة ومليارات ونصف مليار تمثل تحويلات العاملين في الخارج ، ويصبح الحساب الاجمالى بهذه الصورة متوازنا مع عجز الميزان التجارى ، بل محققا لنتائج ايجابية مقدارها ١,٨ مليار دولار .

حزام الكروم والزيتون

تشكل البرتغال مع اسبانيا واليونان ما يطلق عليه اساتذة الجغرافيا الاقتصادية اسم حزام الكروم والزيتون الذى يحيط بأوروبا وتشترك هذه البلدان في أنها منتجة رئيسية لهاتين السلعتين مع ما يشتق منهما











● متحف للتاريخ . انطباع زائر عاصمة البرتغال ، الى أقصى اليمين قلعة بنيت في نفس الموقع الذي انطلق منه فاسكو دي جاما ، والى أسفل مبنى متحف المركبات الملكية الذي بلغ تقدير ثمن ما فيه من تحف ـ مركبات وأدواتها ـ زهاء ١٢٠ مليون دولار ، والى اليسار من أعلى صورة لمركب النزهة الملكي ، وفي الوسط مركبة صنعت خصيصا للبابا كليمنت السابع عند زيارته للبرتغال ، والمركبة تحفة فنية نادرة ، فعلى عجلاتها الخلفية وفي الخلف مشهد كامل للجنة والجحيم ، مستوحى من أعمال دانتي ، والى أسفل مبنى جديد وسط المدينة ، يلتزم بناؤه بطراز البناء السائد ، سقف مائلة ، مكسوة بالقرميد تتناسق مع أسقف المدينة القديمة كلها ، حمرة القرميد وخضرة الشجر وآثار تنبض بالتاريخ .

من صناعات. وكان لانضمام البرتغال واسبانيا قبل عامين فقط الى السوق الاوروبية المشتركة تأثير مباشر على اقتصاديات بلدان المغرب العربي (تونس، والجزائر، والمغرب). فبلدان المغرب العربي تنتج أيضا، الكروم والزيتون، وكانت تعتمد في تنشيط اقتصادياتها على عائد تصدير هاتين السلعتين الى أسواق أوروبا وبخاصة فرنسا وايطاليا، وكانت معامل النبيذ في المنطقة الجنوبية من أوروبا تعتمد على واردات الكروم من المغرب العربي، نظرا للقرب الشديد، ورخص تكلفة النقل البحرى الذي يتم عبر المتوسط، والذى في كثير من الأحيان كان أقرب مسافة مما بين شمال بعض البلدان الأوروبية وجنوبها.

لكن قوانين السوق الأوروبية تحظر على الدول الأعضاء استيراد سلعة ما يمكن توفيرها من داخل السوق، وبالاضافة الى هذا الحظر فإن هناك رسوما ضريبية، تفرض على السلع التى تستورد من خارج السوق، لكى تظل سلع الدول الأعضاء دائما أرخص ثمنا من أى سلعة مشابهة مستوردة.

وقد كانت البرتغال مثلا تشترى قبل انضمامها للسوق البتروكيماويات من المملكة العربية السعودية والكويت، ولكنها الآن مضطرة لشراء منتجات البتروكيماويات من داخل دول السوق وفق النظم المعمول بها.

وهكذا نجد ان البرتغال بانضمامها الى السوق قد أثرت على اقتصاديات عدد من البلدان العربية، وتختلف قوة هذا التأثير من قطر عربي الى قطر آخر، فمما لا شك فيه أن تأثر بلدان المغرب العربي أشد لكون الكروم والزيتون سلعا تصديرية رئيسية وأوروبا مشتر رئيسى.

وتعود جذور العلاقات البرتغالية العربية الى أكثر من خمسة قرون، فبداية حركة الاكتشافات قد تأثرت بالعلوم والمعارف العربية، والبرتغاليون عندما عبروا رأس الرجاء الصالح، وسارت مراكبهم بجوار الساحل الشرقي لافريقيا وجدوا انهم يبحرون في مناطق سيطرة عربية لذلك ولكسر امبراطورية التجارة العربية المزدهرة في ذلك الوقت لجأ البرتغاليون الى الحل العسكرى خاصة انهم قد أدركوا أهمية موقع البلدان العربية المطلة على الخليج العربي، وان هذا الموقع هو مفتاح الطريق الى الهند، وبالفعل فقد احتل البرتغاليون البحرين في عام ١٥٨٢ تقريبا، ومكثوا فيها أربعين عاما، الى ان طردهم اليعاربة عام ١٦٢٢م، واحتل البرتغاليون مسقط في عام ١٥٠٦م باعتبارها ميناء بحريا هاما عند بوابة الخليج، وتسيطر على خطوط التجارة مع افريقيا (زنجبار وممباسا)، لكن الاتراك استولوا عليها عام ١٥٥٠ م ثم استردها البرتغاليون عام ١٥٥٣ م وفرضوا سيطرتهم على الخليج العربي كله، وليكونوا بذلك أول مستعمر أوروبى لهذه المنطقة العربية، وأول من ادرك اهميتها الاستراتيجية، فضلا عن ثرائها الهائل في ذلك الوقت من عائدات التجارة مع افريقيا والهند، الأمر الذى يدفع كثيرا من الباحثين الى القول بأن هذا العصر كان عصر الازدهار الذهبي التجارى للخليج العربي، لكن العمانيين قادوا حملة مقاومة شديدة ضد الاستعمار البرتغالى، وخاصة ان البرتغاليين قد سيطروا تماما على التجارة في الخليج كله. وبعد معارك شديدة تمكن الامام سلطان بن سيف من اجلاء البرتغاليين من الخليج بل تعقبهم حتى سواحل الهند وافريقيا الشرقية، ليقطع أثر البرتغاليين من الخليج الذى أصبح بعد ذلك الوقت محط اهتمام قوى ذلك العصر الاستعمارية (الهولنديون والاتراك والبريطانيون).

وما فشلت فيه البرتغال بالعسكر والسياسة، عادت بعده بأكثر من ٥٠٠ عام لتمد يد التعاون بينها وبين دول الخليج في اطار من احترام السيادة والحرية والتعاون المثمر بين الطرفين فشاركت البرتغال في مشروع انشاء الحوض الجاف بالبحرين وتولت مهمة امداده بالقطع الفنية وتشارك حالياً في مشروع انشاء حوض جاف بميناء جده وتربطها علاقات تجارية مع

معظم أقطار الوطن العربي ، فقد كانت تستورد (فوسفاتا وقطنا ونفطا من الأقطار العربية ، وتصدر اليها المنتجات الخشبية والفلين ومواد البناء والمنتجات المعدنية ومعدات التجهيز والسفن والمراكب الصغيرة . ويبلغ اجمالي حجم التجارة العربية والبرتغالية اليوم حوالي ٤٠٠ مليون دولار سنويا .

ويقول السيد علاوي كريم أبو عبدالله أمين عام الغرفة ان هناك آفاقا مثمرة ممكنة للتعاون ، ولعل ابرزها هو امكانية قيام شركات مشتركة ويستطيع رأس المال العربي ان يستفيد من رخص الأيدى العاملة في البرتغال ويضمن لمنتجه سوقا واسعة هى كل الأسواق الأوروبية التى سوف تعامل هذه المنتجات على انها منتجات برتغالية ، وفي نفس الوقت فان الوطن العربي يمكن ان يستفيد من البرتغال بالتقنية الحديثة والمتوسطة والتى تلائم ظروف الوطن العربى السكانية ، وخصوصية تركية القوى العاملة فيه .

منتجع للهدوء

وتعد البرتغال من الأماكن الأكثر ازدحاما بالسياحة الأمريكية والأوروبية ، وذلك لرخص اسعارها فالمائة دولار تساوى ١٤ ألف سكودا ،

ويستطيع اثنان ان يتناولا وجبة طعام فاخرة في مطعم راق بما يعادل ٢٠ ـ ٣٠ دولارا تقريبا . وتعد جزر الأزور وارخبيل ماديرا من الأماكن الأكثر جمالا وسط

سواحل أوروبا ، ولذلك فالسفر اليها والاقامة فيها لابد ان تكون بحجز مسبق . وعندما حاولنا ان نذهب الى جزر الأزور مدة يوم واحد فوجئنا بأن رحلات الطيران لمدة خمسين يوما تالية محجوزة ،

سواء للازور أو لماديرا ، ولأن السكان غير ودودين وليست لديهم رغبة في الاختلاط بالبشر ، فان هذا

وان كان في نظر بعضهم عيبا ، إلا انه بالنسبة لكثرة السائحين ميزة ، فالسائح دوما يبحث عن مكان جميل هادىء لا يزعجه فيه أحد ، ولا يتطفل عليه احد ، وفوق ذلك كله رخيص ، ومن الواضح ان هذه الشروط كلها تتوافر في البرتغال ، فالسائح الذى يبحث عن التاريخ والآثار سوف يجد أكثر من ضالته ، فالبرتغال كلها متحف حى للتاريخ ، والفن وآثارها شيدت وقت أن كانت البلاد امبراطورية مزدهرة غنية ، مما جعل آثارها تعبيرا عن هذا الازدهار فنيا وجماليا ، وهذه التحف الموجودة التى لا يمكن ان يوجد لها نظير الا في بلاد الاباطرة والمجد ،

ففي متحف المركبات الملكية مازالت هناك المركبة التى صنعت لقداسة بابا روما كليمنت التاسع عندما زار لشبونة عام ١٧١٦م ، والعربة قطعة فنية نادرة فالعجلات مزخرفة بنقوش فنية ، وظهر العربة محفور عليه بالخشب البارز مشهد فنى رائع ، يصور الجنة والجحيم ، في عمل فنى مذهل في دقته وروعته وجماله ، والقصور القديمة التى مازال بعضها مستخدما الى اليوم تشى مبانيها واثاثها بالعظمة والمجد .

ولعل هذا الشاهد الحى على المجد القديم هو الذى أورث الناس كل هذا الحزن على الماضى الذى ذهب ، والحاضر الصعب ، فقديماً كانت هذه البلاد تصنع التاريخ ، وتجبى الذهب من مستعمراتها التى نهبتها ولم تتخل عنها إلا في السبعينيات ، لتكون بذلك آخر دولة في التاريخ تجلو عن المستعمرات ،

وقد عانى اقتصادها عندما خسرت ما كانت تنهبه من منتجات هذه المستعمرات بثمن أقل من السعر العالمى ، وعانت مرة ثانية عندما عاد المستوطنون الى الوطن يبحثون عن عمل وظروف حياة ، كانت هذه البلاد امبراطورية ومملكة ، يبدأ منها الحديث عن تاريخ العالم فأصبحت الآن وطنا تتناوشه الهموم ، وتنحسر عنه شمس المجد ، وتبحث لنفسها عن مكان جديد ، وظروف أفضل .

لم يبق من التاريخ إلا ذكرى ومشاهد متحفية وجهامة على وجوه الناس . □

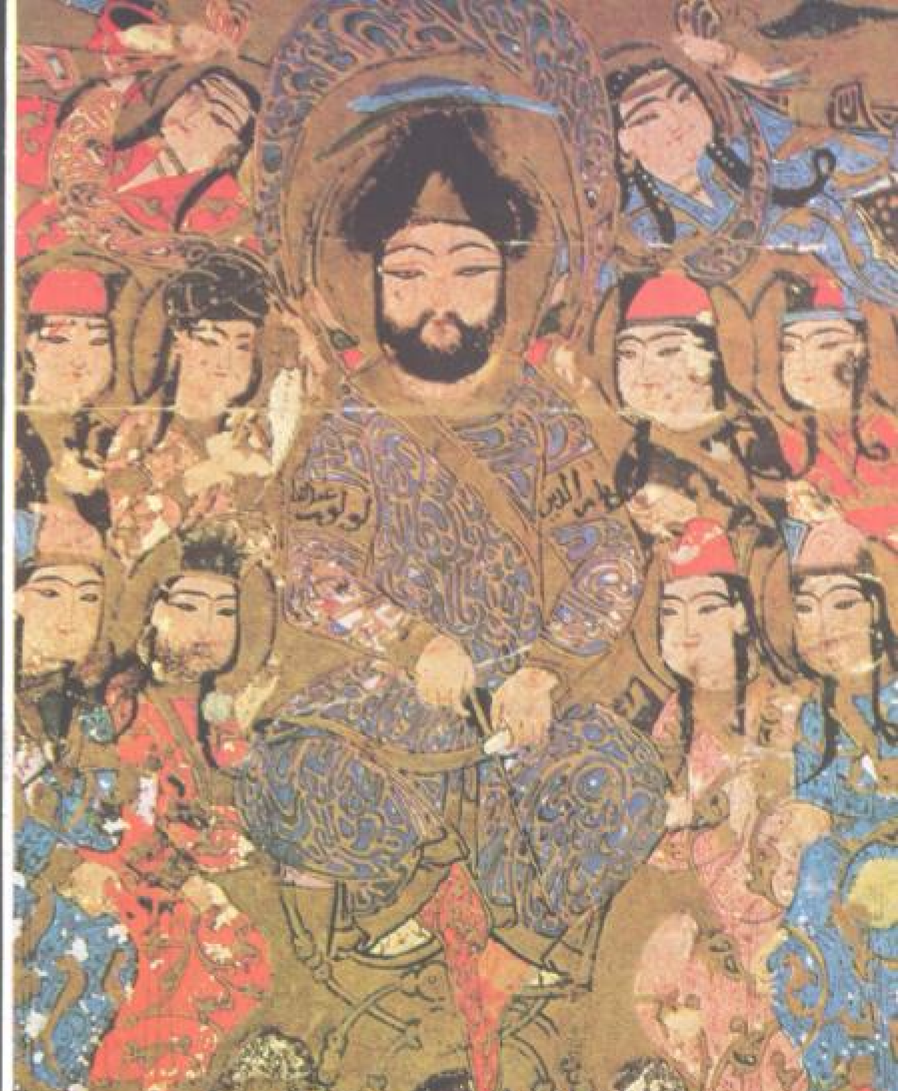


• رسم من كتاب (الأغاني) للأصفهاني .

المضامين العلمية والفنية في المخطوطات العربية

بقلم : محمود شكر الجبوري*

• أكاديمية الفنون الجميلة - جامعة بغداد



● رسم لقصة السلطان والوزراء من (كليلة ودمنة) .

يـرى بعض الـدارسـين للحضـارة العـربيـة الإسـلاميـة أنها لم تعن بالابداعات الفنية عنايتها بالجوانب العلمية والأدبية ، لكن الآثار المعماريـة والتصويرية والمخطوطات التي تزخر بها الأقطار العربية تشهد بغير ذلك .

وفنون صناعة الكتاب التي برز فيها الفنانون العرب دون غيرهم تؤكد أصالتهم ، وقدرتهم على الابتكار والابداع .

لقد ألف العرب في الجاهلية بعض الفنون ، كفن الشعر والخطابة ، لأنها أقرب الى طبيعة حياتهم الاجتماعية ، وكانت ألفتهم لغيرها أقل من ذلك .

لكن بعد امتزاج العرب بسكان البلاد التي وصلتها الفتوحات الاسلامية في القرن السابع الميلادي ، ازدهرت أغلب الفنون بمجالاتها المتعددة ، وكان « فنا البناء والزخرفة » في مقدمة ما ازدهر منها ، أما الرسم فقد تأخر تطوره كفن قائم بذاته ، حتى القرن السابع للهجرة « الثالث عشر الميلادي » .

ومازال المعلومات التاريخية قليلة عن التصوير الاسلامي في عصوره الأولى ، لكننا نستطيع - على الأقل - أن نتصور مدى الرونق والبهاء في النفائس الحائطية التي حوتها الآثار المكتشفة في سوريا والعراق ومصر وغيرها من العصر الأموي وبداية العصر العباسي .

والآثار الفنية الباقية تشهد للمصورين العرب بالقدرة على الابتكار ، وبالمهارة في التصميم ، وبقوة التعبير ، ودقة الوصف ، والخصوبة والمقدرة على التنويع . حيث تعددت مجالات ابداعاتهم في التصوير في الموضوع والمادة والأسلوب ، فصوروا على جدران القصور والأبنية بالألوان المختلفة ، وعلى الأطباق والأواني ، والقناني والبلاطات الخزفية ، وصوروا كذلك على الجلد والخشب ، والورق ، وحفروا الصور والرسوم على المعادن ، والخشب والعاج ، وتفننوا في التصوير بالفسيفساء ، والصور المائية على الجص « الفريسكو » . ولعل أقدم لوحات التصوير الاسلامي التي مازالت محتفظة برونقها حتى اليوم تلك التي شيدت على الجدران الداخلية لقبة الصخرة بمدينة القدس ، وكذلك صور الجامع الأموي بدمشق ، وقصور العباسيين في بغداد وسامراء ، وقصور الفاطميين الباقية حتى الآن في مصر .

الصور في المخطوطات

لقد كانت الكتب والمخطوطات من المجالات المستحدثة التي برع المصورون العرب في تحليتها بالخطوط والصور التي تظهر معانيها ، فقد انتعشت فنون صناعة الكتاب في العصور الاسلامية ، نتيجة اهتمام الحكام المسلمين والحاشية المحيطة بهم في عمل مصاحف جيلة لهم ، فاستعانوا بأبرع الخطاطين لكتابتها ، وأمهر المذهبين لزخرفتها ، وكان من نتيجة هذا الاقبال على اقتناء الكتب والمخطوطات أن تطورت صناعة التجليد عند المسلمين ، وظهر لها شكل مميز ، منذ القرن السابع الهجري .

ومن الطبيعي أن تكون المصاحف أول الميادين التي عمل فيها الخطاطون والمذهبون ، وقد كانت العناية الفائقة بالخط سببا في تطوره ، على يد خطاطين فنانين ، تفننوا في تجميل حروفه ، حتى انفرد الفن الاسلامي بين فنون العالم أجمع بالخط والزخرفة اللذين استعملا على أوسع نطاق وفي جميع المنتجات .

وتشتمل (فنون الكتاب) على فروع الفن التي تساهم في اخراج الكتاب الجميل وهي :

الخط والتذهيب والتلوين : كانت الصفحات أوسع مجالا للصور ، ففي القرن السابع الهجري أولع الناس في العراق بالتصوير في الكتب ، لتمثيل بعض قصصها ، ولم يقتصر التفنن على تجميل المصاحف وزخرفتها فقط ، بل (حفظ العرب في كتبهم تاريخا مجيدا لصناعة التصوير الملونة) .

وقد استعيض عن الرقاق التي كانت مستعملة حتى ذلك الحين بالورق الذي أدخلت صناعته في سمرقند أول الأمر ، على غرار صناعة الورق الصيني ، ثم لم تلبث صناعته أن انتشرت .

وقد حظيت بعض المخطوطات بعناية أصحابها ، إذ لم يقتصر الأمر بهم على حرصهم على الحصول على مخطوطات جيدة الخط ، بل عهدوا بها الى غير

الخطاطين من الفنانين المسلمين ، وذلك لزخرفة صفحاتها بالرسوم ، أو تزيينها بالصور . وزخرفة المخطوطات بالرسوم الجميلة بديعة الألوان اصطلح على تسميتها بالتذهيب لكثرة الذهب بين ألوانها ، وتعد من أهم الميادين الفنية الاسلامية ، فهي توافق الميول الفنية الاسلامية ، من حيث استخدام الرسوم المسطحة ، ذات البعدين ، وبعبارة أخرى الرسوم غير المجسّمة .

ونستطيع استجلاء جمالية الفن العربي بصورة واضحة من خلال المنمنمات ، والصور الايضاحية التي بقيت في المخطوطات العربية ، المحفوظة في المتاحف العالمية .

مدرسة بغداد في التصوير

وتعتبر مدرسة بغداد المدرسة الأولى في تصوير الصور المصغرة (المنمنمات) في الاسلام التي ظهرت بشكلها العام ، ولقد تعددت تسميات هذه المدرسة في الكتب مثل المدرسة (الميزوبوتامية) ، أي مدرسة بلاد الجزيرة أو ما بين النهرين ، والمدرسة العباسية ، وكذلك المدرسة السلجوقية ، وينسب الى هذه المدرسة ما رقمه الفنانون في صور مصغرة في المخطوطات الاسلامية التي يرجع عهدها الى خلافة العباسيين .

ولقد تركت مدرسة بغداد إرثا ضخما في التصوير ، أهمه فيما بين القرن السادس والقرن الثامن الهجريين ـ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ـ في رسوم المخطوطات التي يأتي في مقدمتها العمل الفذ الذي أتمه بإبداع (يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي) في مخطوطة (مقامات الحريري) .

وتعتبر هذه المدرسة أحد الفروع الرئيسية للمدرسة العربية التي تعتبر أولى مدارس تصوير المخطوطات في الاسلام ، والتي انتشر تأثيرها الى كل أقطار الدولة الاسلامية المترامية الأطراف حينذاك .

وكانت أقدم المخطوطات الاسلامية المصورة بعض ما ترجم وألف في الطب والعلوم والحيل الميكانيكية ، وأشهرها كتاب (الحيل الجامع بين العلم والعمل) للجزري ، ثم كتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني . ولقيت الكتب الأدبية حظا وافرا من العناية ، خاصة كتاب (كليلة ودمنة) ، و (مقامات الحريري) ، وكان وجود الصور في كل هذه الكتب إيضاحا للمتن وشرحا له .

ويمكن القول أن أغلب المخطوطات العربية المصورة في القرن الثالث عشر إنما هي ترجمات للقصص التي كتبها الشاعر الهندي بيدبا ، ولمؤلفات يونانية في علوم النبات والحيوان والطبيعة والطب . ومن أقدم المخطوطات التي ترجع الى المدرسة العراقية كتاب في البيطرة ، كتب في بغداد سنة (٦٠٥ هـ) ـ (١٢٠٩م) ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية في القاهرة .

تمتاز المدرسة العراقية في التصوير الاسلامي بأنها عربية ، فالأشخاص في منتجاتها تلوح عليهم مسحة سامية ظاهرة ، وتغطي وجوههم لحى سوداء فوقها أنوف قنواء . وكثيرا ما نرى في الصور المرسومة في المقامات دقة التعبير والمهارة في تصوير الجموع ، وأكاليل النور ، والملابس المزركشة وغيرها .

وكان المصورون في تلك المدرسة يميلون الى استخدام الألوان البراقة الخاطفة ، ولعلهم يقصدون جذب الأنظار ، ثم التعويض عما فاتهم من قصور في التجسيم والمساحة والمسافة ، وتمتاز صور هذه المدرسة بالبساطة في الرسم والتكوين الايقاعي الذي يعتمد على الحساسية في توزيع العناصر ، وما تشتمل عليه من خطوط وكتل .

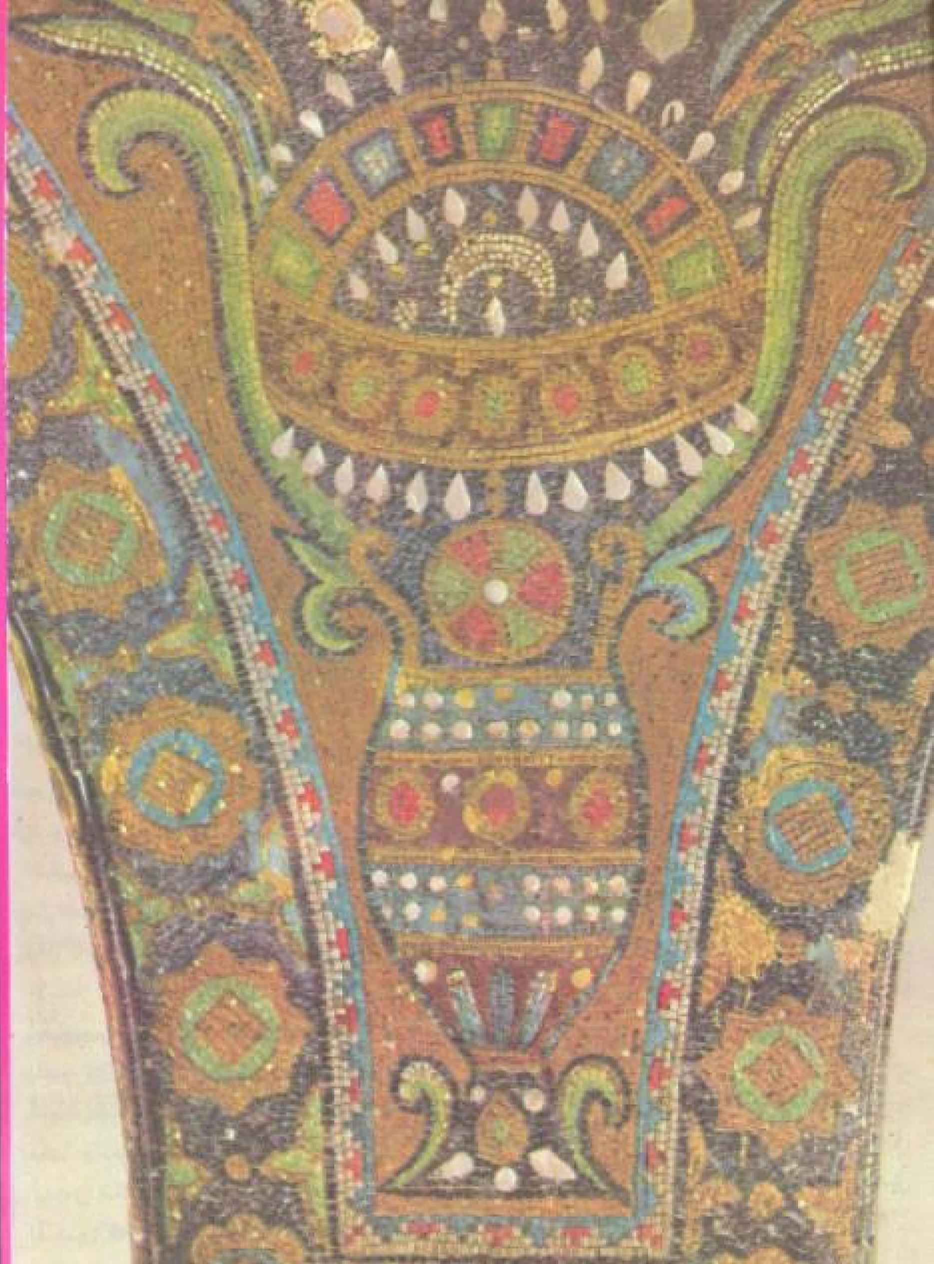
المخطوطات المزوقة بالتصاوير

تنقسم التصاوير في المخطوطات الاسلامية الى نوعين أساسيين :

النوع الأول : يشمل التصاوير التي توضح نصوص الكتب العلمية ، وتشمل كثيرا من الكتب العلمية ـ بحكم موضوعاتها ـ على تصاوير علمية



● الرجل المفضل المسموم في ديوان الملك من كتاب الترياق لجالينوس .



• فسيفساء داخل قبة الصخرة بالقدس

بحتة ، لاتدع مجالا للابداع الفني ، وقد لا تحتوي على رسوم آدمية أو حيوانية ، مثل كتب النبات والجغرافية والهندسة .

النوع الثاني : يشمل التصاوير التي تزوق الكتب الأدبية ، ويبرز الطابع الفني فيها أكثر ظهورا وتميزا ، ذلك أن المصور لم يكن يعنى في هذه التصاوير بتوضيح النص بقدر عنايته برسم صورة جميلة ، تتجلى فيها مهارته ، ومن ثم كان يضيف الى القيمة الأدبية قيمة فنية أخرى .

غير أن كتبا علمية أخرى ، تضم تصاوير ، يمكن أن تدخل ضمن الاطار الفني ، الى جانب أهميتها العلمية ، وربما يرجع ذلك الى اشتمالها على رسوم آدمية وحيوانية . وقد عني مؤرخو الفن ببحثها من الوجهة الفنية البحتة ، فدرسوا أساليبها ، وقسموها حسب طرزها الى مدارس التصوير المختلفة . ومن أشهر الكتب المزوقة بالتصاوير كتاب « الحيل الجامع بين العلم والعمل » لابن الرزاز الجزري .

ولم يقتصر تزويق المخطوطات الاسلامية في العصور الوسطى على المخطوطات العلمية والأدبية ، بل امتد الى المؤلفات التاريخية والدينية أيضا . وقد أتاحت الموضوعات التاريخية للمصورين فرصة الابتكار والتنويع ، والمزج بين الواقع والخيال في أساليبهم . ومن أهم الكتب التاريخية التي عني المصورون بتزويقها كتاب « جامع التواريخ » الذي ألفه الوزير رشيد الدين . وهذا المخطوط محفوظ في مكتبة جامعة ادنبرة .

ومن الكتب التي حظيت بعناية المصورين المسلمين كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) للبيروني ، ومما يتضمنه الكتاب تأريخ الأديان . وهذا المخطوط محفوظ في جامعة ادنبرة ، قام بنسخه ابن القطبي سنة (٧٠٧ هـ - ١٣٠٧م) .

نماذج من المخطوطات المصورة

تتألف مدرسة بغداد من عدة مخطوطات مصورة ، تحتوي على الصور المصغرة (المنمنمات) ، وقد أنجزت هذه المخطوطات في القرن (١٣) الميلادي في أنحاء متفرقة من العراق وسوريا ومصر ، وهي الآن موزعة بين المكتبات في القاهرة ، واستانبول ، وباريس ،ولينينغراد ، وفينا ، وغيرها .

كتاب « كليلة ودمنة » لابن المقفع

وهو الترجمة العربية لمجموعة من القصص ، تدور حول الحيوان ، وترد على لسانه . وهي حكايات هندية تعزى الى الحكيم الذي يعرف باسم (بيدبا) ، ترجمها عبد الله بن المقفع في أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حوالي سنة (١٣٣هـ - ٧٥٠م) .

انتشر كتاب ابن المقفع في ديار الاسلام . وكان المترجم يهدف في البداية الى جعله مصورا . وقد أقبل المصورون على تزويق مخطوطاته إقبالا عظيما . وهذا المخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس ، ويضم ٩٨ تصويرة ، بينها ست تصويرات أضيفت في عهد متأخر . ومن الكتب الأدبية التي زوقت بالتصاوير كتاب (الأغاني) لأبي فرج الأصفهاني ، وقد عثر على أجزاء من نسخة مخطوطة منه ، تشتمل على تصاوير ، وقد كتب هذه النسخة محمد بن أبي طالب البدري سنة ٦١٤هـ (١٢١٧ - ١٢١٨م) ، وهي تقع في عشرين جزءا ، لم يبق منها إلا ثلاثة عشر جزءا متتالية ، أربعة منها محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وتسعة في المكتبة الأهلية في استانبول . وقد عثر في بعض هذه الأجزاء على تصاوير تؤلف كل منها غرة أحد أجزاء الكتاب .

وتوجد هذه التصاوير في الجزء الرابع ، والحادي عشر في القاهرة ، وفي الجزأين السابع عشر والتاسع عشر في استانبول .

وتمتاز لوحات هذا المخطوط بنزعتها الزخرفية التي تبدو واضحة في نقوش ملابس الأشخاص ، كما أنها ذات علاقة برسوم المصنوعات النحاسية ونقوشها

التي ترعرعت في الموصل ، خاصة في أيام بدر الدين لؤلؤ . ولعل بعض الصور تمثله وهو في مجلسه .

وبالاضافة الى ذلك يوجد في برلين مخطوط مزوق آخر من كتاب (الأغاني) ، يرجع الى سنة (١٢٣٠م) ، كما توجد ترجمة فارسية للكتاب نفسه تزوقها التصاوير ، وترجع الى سنة (١٢٥٠م) .

مخطوطات علمية وطبية

ومن المخطوطات العلمية التي عني بتصويرها وتزويقها الفنانون العرب كتاب (الترياق) لجالينوس ، ويحتوى هذا المخطوط على (جوامع المقالة) الأولى من كتاب جالينوس في المعجونات التي ذكر منها معجون الدرياق ، خاصة بتفسير يحى النحوى الاسكندراني . وقد كتب هذا المخطوط محمد بن عبد الواحد بن الحسن بن أحمد ، في ربيع الأول سنة (٥٩٥هـ - ١١٦٩م) ، ويشتمل المخطوط على ثلاث عشرة صفحة مصورة ، لأشكال النبات ، وجدولا لرسوم الحيات ، بالاضافة الى مجموعة صور تمثل مشاهير الأطباء الأقدمين ، وكل منهم في غرفته ، بطالع ، أو يحاور تلاميذه . ويعد هذا المخطوط من الكتب العلمية أو الشبيهة بالعلمية ، وأهم نسخة محفوظة في المكتبة الأهلية في باريس ، وقد اكتشفه الأستاذ الدكتور بشر فارس .

وهناك مخطوط آخر لهذا الكتاب موجود في فينا ، إلا أنه لا يوازي مخطوط باريس من حيث اتقان التخطيط والتلوين وقوة التعبير .

وكتاب (البيطرة) وهو مختصر رسالة ، لأحمد بن حسن بن الأحنف ، ويضم هذا المخطوط (١٤٨) ورقة ، وفي نهايته أنه قد كتب في بغداد على يد علي بن هبة الله ، في آخر شهر رمضان سنة (٦٠٥هـ - ١٢٠٩م) ، وتمثل تصاوير هذا المخطوط المرحلة الأولى من مراحل المدرسة العربية .

يقول (ايتنكها وزن) إن هذا المخطوط نتاج عربي اسلامي جيد ، أهميته فنية ، تظهر ملامحها



● الراقصتان في قصر الجوسق - سامراء - العراق

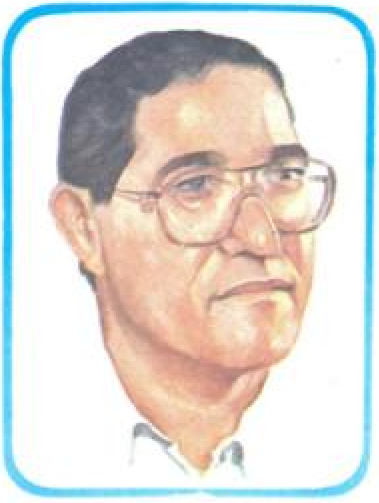
بصورة واضحة في هذه الآثار التصويرية .

وفي الصفحتين الثانية والثالثة المتقابلتين في هذا الكتاب رسوم هندسية ، تتألف من فروع نباتية ملونة بالأصباغ البراقة ، على النحو المعروف في المخطوطات الثمينة ، أما تزاويق المخطوط فتتألف من تسع وثلاثين تصويرة . وهذا المخطوط محفوظ في دار الكتب المصرية .

ومن الكتب العلمية الاسلامية التي تضم تصاوير لتوضيح نصوصها كتاب يحتوي على الترجمة العربية لكتاب ديسقوريدس الذي يسمى كتاب الحشائش أو خواص العقاقير أو خواص الأشجار . وقد كتب هذا المخطوط عبد الله بن الفضل سنة (٦٢١هـ - ١٢٣٤م) ، وهذا المخطوط يضم عددا كبيرا من التصاوير ، ثم نزع منه ثلاثين تصويرة ، تفرقت بين المتاحف والمجموعات الفنية في أوروبا وأمريكا . وبعض رسومه تمثل الأطباء وهم يقومون باعداد الأدوية ، أو بإجراء بعض العمليات الجراحية .

والمخطوط محفوظ في مكتبة (طوبقا بوسراي) في استانبول . □

وجهاً لوجه





د. أسامة الخولي و علي ابراهيم عثمان

■ حققت التجربة العربية قدرا لا بأس به من النتائج ، لكنها دون التطلعات . ■ مازلنا نلجأ للاستعانة بالخبرة الأجنبية ، دون أن نهتم بدفع ثمن تنمية قدراتنا الذاتية . ■ المقارنة بين التجربة اليابانية والتجربة المصرية مقارنة غير مجدية ! ■ مواءمة التقنية المستوردة لظروف بيئتها الجديدة ، مادية ، واجتماعية ، وبشرية ، هي البداية لتنمية تقنية وطنية . ■ جيد أن نعرف ما نريد ، والأهم هو أن نعرف سبل التطبيق في عالمنا المعاصر .

العلم والتقنية تحدى العصر أمام وطننا العربي ، ودول العالم الثالث ، قضية مهمة وحيوية ، كانت موضوع حوارنا مع الدكتور أسامة أمين الخولي مستشار أول بمعهد الكويت للأبحاث العلمية ، ومستشار مجلة عالم الفكر الكويتية . وهو واحد من العلماء العرب المبرزين في معالجة هذه القضية المهمة ، منذ أنهى دراسته بجامعة القاهرة عام ١٩٤٤ ، ثم حصوله على دكتوراة الفلسفة في الهندسة من جامعة لندن عام ١٩٥١ .

لقد أتيح للدكتور أسامة الخولى بحكم دراسته ، والمسئوليات العديدة التي أنيطت به ، على المستويين ، القطري والقومي ، وثقافته الواسعة ، والمتنوعة ، أن يشارك في تنمية الحلم والعلم العربيين بانجازاتهما وإخفاقاتهما.

أجرى الحوار مع الدكتور الخولى الزميل علي عتمان .

● هل نبدأ بتحديد مصطلحي العلم والتقنية ، والفرق بينهما ؟

ـ العلم جهد إنساني منظم ، في محاولة لفهم ما يجري حولنا في العالم (العلوم الطبيعية) ، امتد فيما بعد لمحاولة فهم ذواتنا نحن (علم النفس) ، والعلاقات التي تربط بيننا في التجمعات الانسانية (العلوم الاجتماعية) ، في إطار من علاقات الأسباب والنتائج .

أما التقنية أو التقانة ـ وهو المصطلح العربي الذي اتفق عليه كبديل ـ ، فهى مجموعة المهارات والخبرات ، ونظم العمل التي توفر المنتجات ، والخدمات وفاء لطلب اجتماعي موجود فعلا ، ومن المهم الاشارة الى أن التقنية أقدم بكثير من العلم كما نعرفه اليوم ، بل إنها قديمة قدم ظهور « الانسان الصانع » على ظهر الأرض .

ولا حاجة بنا للرجوع الى الماضي لأكثر من بدايات الثورة الصناعية في أوروبا ، وتطورها ، لنلاحظ أن تطوير المحرك البخاري وانتشاره كبديل للطاقة البشرية ، أو طواحين الهواء والماء البدائية التي كانت شائعة حينئذ قد سبق بعشرات السنين بلورة نظريات « الديناميكا » الحرارية ، وصياغة قانونيها الشهيرين ، أو نظريات حركة الموائع ، كما أن بناء الطائرات واستخدامها قد سبق ظهور الديناميكا الهوائية ، كعلم متكامل تطبق نتائجه في تصميم الطائرات .

وفي هذه المرحلة من الحضارة كانت الانجازات التقنية وما صاحبها ـ بحكم الضرورة ـ من إخفاقات ونكسات ، هي القدر المحتوم لكل مرتاد لأرض مجهولة المعالم ، والحافز للعلم ورجاله أن يرتادوا هذه الآفاق الجديدة ، وأن يحاولوا تأصيل هذه الممارسات المستحدثة ، وفهم القوانين الطبيعية التي تحكمها .

إنجازات دون التطلعات

● في إطار المراجعة الشاملة التي يجريها العقل العربي ، على اختلاف مدارسه ، منذ عقود ثلاثة مضت للتجربة العربية ، بمجالاتها المختلفة ، مقارنة بالعالم من حولنا ، وسعيا منه لدور ما للوطن العربي في الصراع العالمي المحتدم ، المحكوم بامكانية حيازة القوة بعناصرها

المختلفة ، يصدم العقل العربي بالفارق الهائل الذي يفصل-ليس بيننا وبين الغرب وحده ، لكن بيننا وبين دول تنتمي لعالمنا القديم ، كاليابان و الهند .

فما هو رأيك في قصور تجربة التنمية العلمية العربية وتخلفها خلال القرنين الأخيرين ؟

- بداية مع كل مالنا من ملاحظات وانتقادات لمسار التجربة العربية وانجازاتها ، لاشك أنها حققت قدرا لا بأس به من النتائج . وانما الملموس أنه على مر السنين كانت دائما هذه الانجازات دون التطلعات منذ محمد علي حتى الآن .

والسمة الثانية الملفتة للنظر هي أن نمط التعامل مع ما أسميته قضية التنمية العلمية في الوطن العربي ، يبدو أنه لم يتغير منذ مطلع القرن التاسع عشر .

يبقى بعد هذا أن نكون حريصين عند عقد المقارنات مع دول أخرى كالهند ، فالهند بحجمها ، وعدد سكانها ، وتاريخها ، مختلفة اختلافات جذرية عن أي قطر عربي ، وبالتالي فهذه المقارنات غير واردة ، وغير مفيدة ، إلا إذا روعي في الاستشهاد بها مثل هذه الفوارق .

وتجربة اليابان التي يستشهد بها كثيرا ، لا يجب أن تتجاهل فروقا أساسية في السوابق التاريخية لعصر (المايجي) الذي جاء هذا العصر تتويجا لها ، واستثمارا لما تحقق في فترات سابقة من بناء القواعد ، وتدعيم البنية الأساسية ، وانتشار التعليم .. الخ . مقارنا بأوضاع مصر عندما دخلها الفرنسيون ، ثم عندما حاول محمد علي أن يجعل منها دولة صناعية بمعايير ذلك الوقت .

ورأيي الشخصي أن لتجربة محمد علي مساوىء كثيرة ، لا يمكن تجاهلها ، وعلى رأسها أمران ، أولها : أن رفاهية الشعب المصري وتقدمه لم يكونا قضية واردة كأولوية أولى ، أو هدفاً من أهداف ما أحدثه محمد علي من تغيرات ، لا شك أنها عميقة ومهمة ، خاصة في مجال التعليم .

وثانيها : أن محمد علي باحتكاره التجارة الداخلية والخارجية ربط الاقتصاد المصري الذي كان مايزال يتمتع بقدر - ولو ضئيل - من الاستقلال عن الرأسمالية النشطة في أوروبا التي بدأت مرحلة التوسع بالنظام الرأسمالي .

السان سيمونيون وحكاكيان :

● لكن ألا يحسب لهذه التجربة ، البعثات العلمية التي أوفدها محمد علي لأوروبا التي كان من أهم نتائجها أن العقل العربي بدأ صحوه بعد فترة طويلة من السبات ، كما يدلنا على ذلك انتاج رفاعة رافع الطهطاوي ومن جاء من بعده ، كما أن عددا من المشاريع الضخمة مازال باقية كشاهد - مثل مشروع القناطر الخيرية على نيل مصر - وقد ساعد في بنائها السان سيمونيون الذين استعان بهم محمد علي ؟

- أولا كثيرون لا يدركون أن القناطر الخيرية واجهت صعوبات فنية ، حالت دون استخدامها ، حتى السنوات الأولى من الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ ، حين قام مهندسون بريطانيون ممن كانوا يعملون في مشروعات الري في الهند ، بحل المشاكل الأساسية التي كانت تحول دون استخدامها للتخزين ، حتى النصف الثاني من عقد الثمانينيات ، أما اهتمام محمد علي بالبعثات فحقيقة لا تنكر ، والأهم منها في نظري هو ما ذكرته من تطوير جذري في نظام التعليم الذي صاحبته حركة تعريب مذهلة حتى بمعايير هذا العصر ، لكن تبقى حقيقة ، وهي أن مجموع من أوفدوا في البعثات الأربع المشهورة كان أكثر قليلا من مائتين ، في وقت زاد فيه الاعتماد

على الخبراء الأجانب ، حتى بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف في الثلاثينيات من القرن الماضي . وكانوا من جميع بلاد العالم ، فرنسيين ، وأمريكيين ، واسكتلنديين وطليان وغساويين . وحتى المبعوثين عندما عادوا واجهوا مشاكل مازلنا نتحدث عنها الآن ، مثل وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وهجرة العقول الخ .

● لكننا لا يمكن أن نغفل دور البلاد الاوروبية (الرأسمالية الناشئة) في تحطيم تجربة محمد علي في مصر ، والتجارب المشابهة في أقطار الوطن العربي ، مثل تجربة الأمير عبد القادر في الجزائر ، وخير الدين في تونس ، سواء بحصارها اقتصاديا ، أو ضربها عسكريا ، بهدف اجهاضها ثم السيطرة عليها كسوق واسع لمنتجاتها ، وكمصدر للمواد الخام الرخيصة ، بالاضافة لكون الوطن العربي يتمتع بموقع استراتيجي مهم .

ـ لاشك أن هذه حقيقة تاريخية ، ولنا أن نسجل أن طموحات محمد علي العسكرية كان لها أثرها ، مع تسليمي بأن قدرا منها قد فرضتها عليه متطلبات الثورة الصناعية التي بدأها ، فقد كان في حاجة الى مصدر محلي للوقود ، بدلا من الفحم المستورد ، كما كان في حاجة الى خامات معدنية ، ولذا كان هناك دائما علماء ، وخبراء أجانب ، يصاحبون الحملات العسكرية في السودان والشام ، بحثا عن هذه الموارد الضرورية ، وهنا أؤكد قضية تأثير الموقع الاستراتيجي لمصر في تحفظاتي على المقارنة غير المجدية بين التجربة المصرية والتجربة اليابانية .

● ألا ترى أن الاستعانة الواسعة من قبل محمد علي بالخبراء الأجانب كانت عاملا مهما من عوامل إجهاض التجربة ، فقد حالت دون نمو التجربة ذاتيا على أيدي « الكوادر » الوطنية ، كما أنه جعلها تابعة للخارج دائما ، حيث كان الخبراء الأجانب يسعون لتدعيم نفوذ أوطانهم في إطار الصراع المحتدم بينها ، سعيا للسيطرة على أقطار الوطن العربي ، وإن كان ذلك لم يمنع من وجود استثناءات ، عملت على دعم الجهود المحلية في النمو ذاتيا ، ومنهم « حكاكيان » ، تلك الشخصية الغامضة في تاريخ مصر التى أشرت اليها في أكثر من دراسة لك ؟

ـ هذه قضية نعيشها اليوم ، وربما بنفس الحدة ، إننا مازلنا في غمرة حماسنا للاسراع بمعدلات « التنمية » ، نلجأ للاستعانة بالخبرة الأجنبية على نطاق واسع ، دون أن نهتم بدفع الثمن الذى لا مفر منه لتنمية قدراتنا الذاتية .

ولقد شهد عصر محمد علي شخصية مثيرة حقا ، هي الأرمني حكاكيان الذي أتمنى أن تتوفر الموارد المالية ، والبشرية ، لتحقيق الكم الغزير من مذكراته الموجودة بأكثر من لغة في مكتبة المتحف البريطاني ونشر ذلك . حكاكيان كتب عام ١٨٤٣ في مذكراته يقارن بين ما يفعله الأوروبيون من تحسين مستمر لآلاتهم ، وبين استمرار مصر في استيراد الآلات من الخارج ، مشيرا الى ضرورة صنع الآلات بأنفسنا ، حتى لاتتسع الفجوة بيننا وبينهم الى أكثر مما كانت عليه في خمسين عاما قبله . وقد طلب من محمد علي عشرة آلاف جنيه استرليني لبدء هذا النشاط الابداعي ، ولم يستجب لطلبه .

وأتصور أن القضية مازالت كما قلت ، هي الرغبة المفهومة ، وإن كانت غير مبررة بالاسراع بعملية التحديث ، أو التنمية بأي ثمن ، وفقدان الصبر في هذا الجو المحموم للانتظار ، ودفع الثمن الذي لابد منه ، حتى تتكون قدرات وطنية ، عن طريق سنوات من التجربة والخطأ لعملية تعلم مثل هذه .

● هنا تثار قضيتان :
أولاهما خاصة بضرورة التأريخ العلمي للتجربة العلمية العربية ،
والثانية قضية النقل الحالي من التقنية التي يشير اليها دارسو قضايا التنمية العلمية والتقنية في الوطن العربي .

ـ القضية الأولى .. أعتقد أنها مسئولية مشتركة بين العلميين والمؤرخين العرب ، فإذا كانوا قد انتقلوا في العقود الأخيرة من التأريخ السياسي الى شيء من المعالجة للتأريخ الاجتماعي ، فإن صورة التاريخ العربي لن تكتمل إلا بدراسات مستفيضة ، وفي أقطار عربية كثيرة ، للتاريخ العلمي والتقني . ولتكن هذه دعوة لحركة متصاعدة لشيء من الجهد في هذا السياق . ويندرج تحت هذا أيضا الاهتمام برصد تجربتنا الحديثة وتحليلها ، وفهم العوامل التى شكلتها ، وليس الحكم عليها بعد أن صقلتنا التجربة ، وأصبح في استطاعتنا أن ننظر الى الوراء ، ونرصد الفرق بين التوقعات والانجازات .

ويقودني هذا بالتالى الى ملاحظة غياب المدرسة العربية الأصيلة في مجال دراسات السياسات العلمية والتقنية التى تستمد مادتها من الواقع العربي ، وتوفر لصانعي القرار ومتخذيه صورة واضحة عما يحدث ، وعن النتائج المتوقعة لمختلف بدائل القرار .

وهناك بالفعل في بعض الجامعات العربية بدايات في مجال الدراسات العليا ، لكني ألاحظ عليها أنها كثيرا ما تكتفي بترديد المقولات الشائعة على المستويات الدولية حول هذه القضايا دون مساندتها بمعلومات وبيانات ، ودراسات ميدانية للتجربة العربية ، موثقة توثيقا علميا دقيقا .

وأنا لا أتصور أن النقل الحالي من التقنية قد تغير ، فالشواذ القليلة المشرفة لهذا الأسلوب في النقل الذي نعيشه أكثر من قرن ونصف حتى الآن لا تنفي هذه القاعدة ، بل إن قلتها تؤكد سيطرة نمط النقل الحالي .

التقنية والثورة

● ألا تعتبر محاولة مصر في عهد الثورة بناء قاعدة علمية بإنشاء المركز القومي للبحوث ثم أكاديمية البحث العلمي ، ووزارة للبحث العلمي ، بالاضافة الى التوسع في البعثات العلمية الى الخارج ، ومحاولة ربط البحث العلمي بمشاكل المجتمع وحاجاته ، وكذلك بناء القاعدة الصناعية والانتاجية ، والتوسع في التعليم الفني والتقني لتغذية هذه الصناعات « بالكوادر » المدربة . ألا يعتبر كل ذلك خطوة مهمة على الطريق ؟

ـ على العكس ، أنا أرى أن الفشل الأكبر للتجربة المصرية هو أنها لم تعر هذا الموضوع الاهتمام الكافي ، فربما كان السبب كما قلنا هو الاسراع في بناء قواعد انتاج تعتمد على التقنية المستوردة ، دون الاهتمام ـ على المدى الطويل ـ ببناء قواعد تقنية ، وهذا أمر يختلف تماما عن قواعد الانتاج التي تظل معتمدة طول الوقت على التقنية الخارجية .

● لكن الثورة كانت تسعى لتحقيق هذه الغاية ـ بناء القواعد التقنية ـ لكنها كانت تصطدم بانبهار غالبية « الكوادر » العلمية الوطنية بالنموذج الغربي في التنمية والحياة ، بما في ذلك انحيازهم لنمط معين في أولويات إشباع الاحتياجات لدى السكان . ولقد اشتكى عبد الناصر أكثر من مرة من هذه المشكلة ، وكذلك من نظرة بعضهم الى العلم على أنه عمل « أكاديمي » معزول عن مشاكل المجتمع ، والتجربة هي ـ بشكل ما ـ نتاج تخطيط وتوجيه هذه « الكوادر » العلمية ، خاصة في مراحلها الأولى .

ـ فرق كبير بين النوايا الطيبة وبين القدرة على

تنفيذها ، والمسئولية هنا مشتركة بين رجال العلم ، سواء في المواقع الاكاديمية ، ومراكز البحوث ، وبين صانعي القرار ، وعندما أقول هذا فلا يمكن أن أتجاهل أن هذه كانت عملية تعلم لمجتمع بأسره في ظروف معينة ، شكلت فكر الطرفين . وباختصار أقول : إن النموذج الذي بدا حينئذ أنه هو النموذج الناجح ، والمرغوب فيه كان نموذج الغرب ، والى حد ما الشرق ، بعد أن غيرت حرب ضروس كثيرا من المفاهيم في شأن العلم والتقنية ، وعلاقتهما بجهود التنمية .

● أي حرب تقصد ؟

- الحرب العالمية الثانية ، ولا أظن أنه يحق لنا الآن بعد أن كشفت لنا التجربة عن عدم ملاءمة هذا النموذج لأوضاع الدول النامية ، أن نقسو في الحكم على صانعي القرار في ذلك الوقت ، وأنا واحد من هذا الجيل ، وإن كنت لا أزعم أني كنت واحدا من صانعي القرار .

● يطرح بعض المفكرين العرب - ومعهم بعض مفكري دول العالم الثالث - فكرة الاستغناء عن الغرب بنتاجاته التقنية ، ونمط حياته ، ومناهج تفكيره ، والعودة لما يسمى - بالجذور - لتأكيد الهوية الحضارية لدول العالم الثالث ، مع استخدام التقنية المحلية ، والابداع في تطويرها ، وذلك كرد فعل على سطوة الغرب ، واستغلاله المتواصل منذ ما يزيد على أربعة قرون مضت ، وحيث أنه لا يصدر لنا إلا التقنية الملوثة للبيئة ، وتحت اشراف الشركات المتعددة الجنسية - أداته في السيطرة والاستغلال .

- إن الدعوة للعودة الى الجذور أو تأكيد الهوية الحضارية ، وعمقها التاريخي للدول النامية هو رد فعل متوقع ، لزيادة سيطرة الدول الصناعية في الشمال ، ولربما كانت ذروة ذلك التوجه في الستينيات والسبعينيات ، وقد ساعد عليها أيضا ظهور التناقضات في نموذج الشمال المصنع ، ومشاكله البيئية ، والاجتماعية والحضارية ، لكننا شاهدنا منذ بداية الثمانينيات نزعة لتجميع الشمال لقواه في مواجهة هذا المد ، وتحولات خطيرة في أنماط التجارة الخارجية ، ونزعة الحماية الواضحة ، لهذه الدول على الرغم مما بينها من خلافات ، كما حدث أخيرا بشكل واضح بين اليابان وأمريكا ، الأمر الذي أدى الى تدهور واضح في العالم الثالث ، وانهيار كثير من النماذج التي كانت تعتبر حتى وقت قريب أمثلة للنجاح - بالمقياس الرأسمالي - على الأخص في أمريكا اللاتينية .

في هذا الجو المشحون بالتوتر ، والمتسم بعدم الاستقرار ، تجيء التقدمات التقنية الجديدة التي مازالت هناك أفكار كثيرة متعارضة في الشمال والجنوب حول آثارها المتوقعة في العالمين الصناعي والنامي ، وما فيها من أخطار تنذر بمزيد من الانهيار المتسارع في أوضاع العالم النامي ، نتيجة سيطرة الشمال على منابع التقنية من ناحية ، وعلى الأسواق العالمية من ناحية أخرى ومن فرص واعدة لتحقيق مداخل جديدة للتنمية في العالم النامي .

وكل ما يمكن أن أقوله هنا ، هو أننا بشكل عام في الوطن العربي لم نعط هذا الأمر حقه من المتابعة الدقيقة ، والدراسة المتأنية ، والتحليل القائم على معرفة واضحة لظروفنا واحتياجاتنا ، ولقد عقد منتدى الفكر العربي في مطلع العام الماضي ندوة حول فرص العرب في دخول مجالات التقنية المتقدمة ، لعلها تكون بداية جهد متواصل ومتعاظم ، لمعالجة هذه الأمور المصيرية .

سلّم القدرة العلمية

● لقد طرحت أسباب كثيرة ، لتفسير عدم مساهمة الوطن العربي في الانتاج

العلمي والتقني العالمي ، كما أنها تحد من امكانياته في نقل التقنية ، وتطوير ابداعه الذاتي في مجالها ، وأهم هذه الأسباب : أن بنية اللغة العربية لا تحتمل المصطلح العلمي ، وعدم اعتماد التعليم في الدول العربية على مناهج وأسس علمية ، وغياب سياسة متكاملة للتدريب ، وأيضا ضعف المؤسسات العلمية في بعض الأقطار العربية ، مع افتقادها تماما في بعضها الآخر ، وعلى المستوى القومي ، بالاضافة الى غياب السياسات العلمية المنبثقة أصلا من استراتيجية شاملة . فما رأيكم ؟

ـ هذه مجموعة ضخمة من الاعتبارات ، من الصعب التعرض لها بما يوفيها حقها ، في كلمات معدودة ، لذا أكتفي هنا ببعض الملاحظات .

أولاها .. أقترح بأن ننظر الى بناء القدرة العلمية التقنية على أنه سلم نرقى درجاته مع مرور الزمن ، واحدة بعد الأخرى ، مسلمين بأن هذا يعني أننا سنظل سنوات طويلة قادمة معتمدين على ماهو متوفر في العالم الصناعي من تقنيات لا قبل لنا بانتاج بدائل عنها ، حتى نستكمل بناء القدرة .

وأول هذه الخطوات هو الحرص على استكمال معرفتنا وفهمنا للتقنيات المتاحة ، وهذا أمر لم يعد سرا ، بل هو متاح مع قدر مقبول من الجهد في ظل عصر ثورة المعلومات ، وسهولة الحصول عليها من عدة مصادر .

والخطوة التالية هي الاختيار المناسب لما يلائم احتياجاتنا ، وظروفنا منها ، طبقا لمعايير تعكس استراتيجيتنا التنموية التي تحدثت عنها في سؤالك ، وظروفنا الخاصة بكل قطر عربي ، سواء من حيث موارده أو نقطة انطلاقه. والمرحلة الثالثة هي اكتساب القدرة على التفاوض الكفء في استيراد مايقع عليه اختيارنا ، والتعاقد عليه .

ويأتي بعد هذا استغلاله بكفاءة تناظر كفاءة استغلاله في موطنه الأصلي ، وكلنا يعرف الشكوى المستمرة من انخفاض الانتاجية ، وتدني نوعية الانتاج في كثير مما يصنع محليا .

وهنا يدخل اعتبار آخر ، وهو محاولة مواءمة التقنية المستوردة لظروف بيئتها الجديدة ، مادية واجتماعية وبشرية . وربما كانت هذه نقطة البداية للابداع الوطني ، إذ ستؤدي بشكل شبه تلقائي الى تطوير ما نستورده ، وربما في اتجاهات تختلف عما يحدث في بلاد أخرى ، لأنها تعكس ظروفنا واحتياجاتنا .

وأخيرا تجيء مرحلة الابداع العربي لتقنية ندخل بها سوق التقنية الدولية بائعين كما يحدث في كل الدول المصنعة .

● هذا ينقلنا الى محاولة استشراف مستقبلي لامكانية تطوير تقنية عربية ، وانتقالنا الى مرحلة الابداع الذاتي ، على ضوء المعطيات التالية :

واقع التجزئة وتكريس القطرية ، وغياب المنظمات العربية الفاعلة ، وهجرة الكفاءات العلمية المتزايدة ، وشيوع أنماط الاستهلاك ، وقيمها ، والبحث عن الاشباع السريع للحاجات ، وزيادة التبعية للدول الرأسمالية وآليات سوقها .

ـ هذه هي طبيعة العقبات التي تقف في سبيل تنمية تقنية عربية ، لكن لو توفرت النية لمواجهة هذه المعوقات ، لأمكن .. أن ننظر لهذا الوضع من منظور آخر ، فنقول إن هذه الظروف تفرض الاهتمام بتنمية القدرات الذاتية التي تشير كثير من الشواهد التاريخية الى أن مثل هذه الضغوط يمكن أن تكون الحافز لتحقيقها . □

"سلين"



الأديب الفرنسي وربع قرن على رحيله

بقلم : زينب عبد العزيز*

على الرغم من مرور ربع قرن على وفاته فإن أثره في الحياة الأدبية الفرنسية لم يتوقف ، وعلى الرغم من كل محاولات التشهير به والربط بينه وبين النازية ومعاداة السامية فإن اسم هذا الأديب الفرنسي الكبير قد بقي أقوى من أن يطمس . فكان العام الماضي عام تكريم لهذا الأديب الراحل في ذكرى مرور ربع قرن على وفاته .

من أهم الأحداث الأدبية التي احتلت الصدارة في المجال الأدبي الفرنسي في نهاية عام ١٩٨٦ الاحتفال بمرور ربع قرن على رحيل الأديب لوي فرديناند سلين ، الذي يعد واحدا من الذين تصدوا لتزايد النفوذ الصهيوني في فرنسا ، بل كان أعنف الأدباء الذين أدانوا اليهود الصهاينة .

ويعتبر سلين من كبار الروائيين الفرنسيين الذين ظهروا في النصف الأول من القرن العشرين ، فعلى الرغم من الصمت الذي واكب رحيله بعض الشيء خرج النقاد عن صمتهم ، ليثروا مجال النقد الأدبي الفرنسي بعشرات الدراسات المتعلقة بحياته وبأعماله .

فقد نشأ لوي فردیناند دیتوش ، المعروف باسم سلين في أسرة متواضعة ، واضطر للعمل وهو في الثانية عشر من عمره ، لكي يتمكن من استكمال تعليمه ، حتى حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم التحق بكلية الطب . وفي عام ١٩١٤ تطوع في الحرب العالمية الأولى ، وقد أصيب في العام التالي إصابة بالغة في ذراعه . وعقب انتهاء الحرب راح يمارس مهنة الطب في الأقاليم ، إلا أنه كان يشعر

* أستاذة الحضارة بكلية الدراسات الانسانية ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة .

في قرارة نفسه أن ذلك الطريق الذي يسلكه ليس ما يبحث عنه حقيقة ، فبدأ يتنقل ما بين انجلترا وأفريقيا وجنوب أمريكا ، حيث عايش عن قرب آلام العبيد ومعاناتهم ، ثم استقر به المطاف في إحدى ضواحي باريس ، حيث راح يعالج الفقراء ، وبدأ مشواره مع الكتابة . وتلك الفترة هي التي عبر عنها في روايته الثانية « الموت بالتقسيط » التي ظهرت عام ١٩٣٦ م .

رواية في منتصف الطريق

أما الرواية الأولى التي كتبها سلين فكانت بعنوان « رحلة في آخر الليل » ، وقد نشرت عام ١٩٣٢ وكان في الثامنة والثلاثين من عمره ، هذه الرواية فريدة من نوعها في الأدب الفرنسي ، لما تتضمن من أحداث ومواقف ، فهي أشبه ما تكون بثورة بركانية صاخبة ، ثورة دفعتها شتى التجارب الانسانية الطاحنة ، لتنطلق صرخة مدوية في غياهب ليل لا نهاية له .

لكنها كانت في نفس الوقت صرخة تعاطف عميقة الأصداء ، تكشف عن آلام المعدمين في ذلك المجتمع الرأسمالي الغارق في الوحل ، فأتت الرواية وكأنها نهر متدفق من الوحل الأسود الذي لا خلاص منه ولا من ظلماته .

كاد سلين أن يحصل على جائزة « جونكور » الأدبية عن هذه الرواية لولا تراجع بعض الأصوات في آخر لحظة ، وكان لهذا الحدث أصداؤه الواسعة في التأثير على الجمهور . ولم يكن جمال الأسلوب هو أول ما لفت الأنظار الى رواية « رحلة في آخر الليل » ، وانما صراحة المؤلف الشديدة في الوصف والتحليل والادانة ، وهي صراحة فريدة من نوعها آنذاك ، فلقد لجأ سلين الى استخدام الأسلوب الشعبي الفج ، بكل ما فيه من قذف ، وفظاظة ، واستثارة ، بعد إعادة صياغته بشكل أدبي له بنيانه المعماري الخاص . وذلك ما يمكن مقارنته بما قام به الأديب البريطاني جيمس جويس بالنسبة للغة الانجليزية ، الا أن محاولة سلين كانت أكثر جرأة ، وأكثر ابتكارا ، بحيث اعتبرها النقاد ثورة لغوية أولا ، ثم تجديدا في الايقاع .

ومن أهم العناصر التي بلورها سلين في هذه الرواية إحساس الشعور بالوحدة الذي يعتصر الانسان وسط جدرانه الأربعة ، أيا كان وضعه ، وأيا كانت صلابته . مرارة الوحدة في خلفية ايقاع الحياة اليومية ، حيث لا توجد أية رابطة حقيقية بين الأشخاص ، وحيث تقتصر الصلات الانسانية ـ في خير حالاتها ـ على بعض المجاملات العابرة ، إنها صفحات بائسة يستشف منها القارىء أن الانسان ليس وحيدا في محنته فحسب ، وانما يتخبط ويصارع في أعماقه برودة ليل أصم ، لا اشراق بعده .

تقع هذه الرواية الملحمية «في منتصف الطريق» بين الرواية بمفهومها العام ، وبين السيرة الذاتية ، الا أنها لا تحيد أبدا عن فكرة التعبير عن المجتمع المتطاحن ، وما يعتريه من ضياع ، إنه يصطحب القارىء معه ليعايش أبطاله في مجازر الحرب ، وفي صراعاتهم اليومية .

عودة الى الوراء

أما الرواية الثانية « الموت بالتقسيط » التي نشرت عام ١٩٣٦ ، فقد تناول فيها الأديب بعض مراحل شبابه ، وما عاشه من تجارب مريرة في تنقلاته بين الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولقد واصل سلين في هذه الرواية ـ من حيث الأسلوب ـ نفس الخط الذي بدأه في الرواية الأولى ، وهو الابتعاد عن الجملة التقليدية ، وعدم الالتزام بالقيود اللغوية ، واستخدام التعبيرات الشعبية بشتى صورها ، فأتى أسلوبه بايقاع جديد ، يعتمد على عدد من المقاطع القصيرة المتلاصقة التي تفصل بينها بعض علامات الوقف ، لكنها تكوّن في مجملها صورة أكثر نبضا وحيوية .

تعتبر رواية « الموت بالتقسيط » بالنسبة للرواية الأولى « رحلة في آخر الليل » عودة زمنية الى الوراء ، عودة الى طفولة نفس البطل ، أي أن هذه الرواية عبارة عن مزج أدبي بين الواقع والخيال ، عبر ملحمة للتحليل النفسي الدقيق ، ملحمة تعبر عن ثورة الذات ، والشعور بالاغتراب ، من خلال تصوير طبقة البورجوازية الصغيرة في باريس . ولا يمنع ذلك الطابع الدرامي للرواية من وجود لمحات باسمة عابرة ، تزيد من سخرية الواقع ومرارته ، مما يضفي على رؤية سلين مزيدا من الايقاع الشاعري الوجداني .

وفي نفس ذلك العام بدأ نشاط سلين السياسي يتبلور ، ليتخذ موقفه الشهير ضد التوغل اليهودي الصهيوني في فرنسا ، ذلك التوغل الذي وصل آنذاك الى السيطرة على شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية ، وكم حذر من ذلك في الثلاثينيات مرددا : « إن اليهود يغزوننا ويدفعوننا صراحة الى الحرب » .

وأهم مؤلفات سلين في هذه الفترة فضلا عن المقالات الحادة الطابع ، الكاشفة بلا مواربة ، أبحاث ثلاثة ، الأول بعنوان « خطيئتي » عام ١٩٣٦ ، والثاني بعنوان « ترهات من أجل مذبحة » عام ١٩٣٨ ، ثم « الورطة » عام ١٩٤١ . وعلى الرغم من النجاح الساحق لهذه الأعمال التي كانت تؤرخ الواقع السياسي لفرنسا في تلك الفترة وتعكسه ، فقد قامت الرقابة بمصادرة أول بحثين بعد صدورهما بعدة أشهر ، كما قام رجال الشرطة بسحب أعداد البحث الثالث ومصادرتها .

ولا تعد هذه المؤلفات الثلاثة مجرد إدانات للتوغل الصهيوني بشكل خيالي ، أو افتراضي ، لكنها كتابات مدعمة بالوثائق والاحصائيات والأرقام ، والأدلة القاطعة التي يكشف بها سلين عن أساليب ذلك التوغل ، خاصة فيما يتعلق بالمجال الثقافي والاعلامي . والآن ، وبعد مرور ما يقرب من أربعين عاما على هذه الأبحاث ، وعلى أحداثها ، فإن النقاد يعتبرونها من أهم الوثائق التي تسمح بتحليل المجتمع الفرنسي حينذاك ، بالاضافة الى ما تتيحه رواياته من متابعة وتحليل .

متاعب ما بعد الحرب

وفي منتصف عام ١٩٤٤ هاجر سلين من باريس بصحبة زوجته ليستقر في الدانمرك ، أو لينفي نفسه اليها ، الا أن السلطات الفرنسية اتهمته بالخيانة ، وتم القبض عليه في ديسمبر عام ١٩٤٥ ، وظل معتقلا مدة أربعة عشر شهرا .

ولا شك في أن موقف سلين السياسي ، وقضية إدانته بالتواطؤ مع النازية بحاجة الى إعادة فتح ملفاتها ، إذ أن ما يبدو من كتاباته أن موقفه لم يكن في الواقع بدافع التواطؤ ضد وطنه ، وإنما كان بدافع الوطنية ، دفاعا عن ذلك الوطن ضد التوغل الصهيوني الثابت تاريخيا أنه كان يسيطر سيطرة تامة على المجتمع الفرنسي في تلك الفترة .

وقد تم الافراج عن سلين بعد ذلك وحددت اقامته في مسكنه ، وفي عام ١٩٤٩ أعيد فتح ملفات قضيته أمام محكمة العدل الفرنسية التي حكمت عليه بالسجن مدة عام ، مع دفع غرامة قدرها خمسون ألفا من الفرنكات ، الا أن المحكمة العسكرية قد برأته من هذه التهمة استنادا الى موقفه كمحارب وطني قديم .

وفي شهر يوليو ١٩٥١ استقر سلين مع زوجته في بلدة ميدون جنوب باريس ، حيث راح يمارس مهنة الطب في بعض الأحيان ، مكرسا كل وقته للكتابة .

وتتسم مؤلفاته في هذه الفترة بازدياد لمحة السخرية في أسلوبه ، وبرؤية جادة ثاقبة ، وإن ظل سليط اللسان ، لا يرحم خاصة كل من عادوه أو شاركوا باتهامه . وأهم المؤلفات التي ظهرت له في الخمسينيات،الثلاثية التي بدأها برواية « أحد القصرين » عام ١٩٥٧ ، والتي يقص فيها رحلته

وهو في طريقه الى المنفى ، وتم نشر الجزء الثالث منها بعد وفاته بثمانية أعوام .

وتتسم عودة سلين الى المجال الأدبي في فترة ما بعد المنفى بنفس العناصر والمعطيات التي ارتبط بها منذ بداية مسيرته الطويلة الصاخبة ، فبعد التزامه بالتعبير عن ويلات الحرب العالمية الأولى ، والاستعمار ، والحياة في تلك الضواحي النائية للمدن الصناعية الكبرى ، التي راح يشبهها بالمذابح ، أو مسالخ الأجساد البشرية ، وكلها رؤى لم يعقب عليها كأديب فحسب ، وإنما راح يصورها بنبضاتها ، وتدفق إيقاعاتها المتقطعة ، ليعبر عن وحشية الحروب والاستعمار ، كما راح يستلهم أحداث الحرب العالمية الثانية ، وينقب في أحشائها بنفس المبضع ، لكن بنظرة أكثر تطورا ، وكأنه يعيد توزيع تلك الألحان العتيدة ، ليعبر عن الانسان البسيط ، ذلك الانسان الضحية نظرا لطيبته .

واذا كان سلين في بادىء الأمر يعبر عن نفسه كناية ، تاركا للقارىء مهمة استشفاف الواقع من الخيال ، أو مهمة تحديد السيرة الذاتية من الخيال الروائي ، فانه في المرحلة الثانية من مؤلفاته يعبر عن نفسه ، ويستعين بسيرته الذاتية بلا مواربة . فاذا كان القارىء يتلمس ملامح المؤلف في المرحلة الأولى ، من خلال غلالة الشخصيات والأحداث ، فقد أصبح يراه في أعماله الأخيرة ، يقوم بدور الشخصية الرئيسية التي يتعامل معها مباشرة .

أما الملامح الأساسية لمؤلفاته ورواياته بعد المنفى ، فضلا عما بها من انعكاسات كراهيته للحروب ، وللمخططات السياسية الكبرى لاحتواء المجتمعات الأخرى ، فهي تدور حول الآفات الانسانية ، ومن أهمها الريبة ، والشك المدمر الذي يتغلب على كل شيء ، ويبتلع كل ما في الانسان من سعادة واستقرار وعطاء .

أما من حيث الأسلوب فأوضح ما يوصف به إجمالاً هو أنه أشبه ما يكون بالمطرقة التي يقرع بها فكر القارىء ، حتى يوقظه من غيبوبة طال مداها .

مفردات تفزع القارىء

وفي واقع الأمر أن أسلوب سلين يتميز بسرعة ، لا تعكس إيقاع الأحداث ، وتداخل تدفقها فحسب ، وإنما تسمح للقارىء بالامتزاج بالنص ، ليعايش الجو الإبداعي لتلك الأعمال . وعلى الرغم عما يقوله بعضهم من أن مفردات حواره تفزع القارىء أحيانا ، فلا شك في أن مؤلفاته تعد كمّا متماسكا ، لا يمكن تجاهله ، فهي جزء لا يتجزأ من التاريخ الأدبي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي لفرنسا في ما بين عام ١٩٣٠ و ١٩٦٠ .

ومن جهة أخرى فإن أسلوب سلين الأدبي ، بكل مافيه من تجديد وابتكار اتجه تدريجيا نحو التبسيط اللغوي ، والنظم في الايقاع الداخلي ، وذلك ما يمكن وصفه ـ وفقا لقول سلين نفسه ـ بأنه أسلوب أشبه ما يكون بالنغم الموسيقي الذي يكوّن سمفونية ذاتية الايقاع . إنه أسلوب لا يمكن لأي قارىء أن يغفله ، مهما كان موقفه من كتابات سلين .

كان سلين يعتبر الأشخاص والأحداث جزءا من تكوين اللغة وبنيانها ، فاللغة ـ في نظره ـ هي المجال الوحيد الذي يمكن إعادة تكوين أشلاء الانسان في أبعادها .

ومنذ وفاة سلين لم يتوقف تأثيره على الأجيال التالية من الأدباء ، بل استمر تأثيره عميق البصمات والأصداء ، من حيث تناوله للقضايا المعاصرة ومعالجتها بوضوح ، وقد وصل في ذلك المضمار الى المستوى الملحمي في التعبير . ومثلما كان في مهنته الأصلية طبيبا كانت مؤلفاته علاجا اجتماعيا ، بفضل تشخيص الآفات وتحديدها بلا مواربة . لذلك يعتبره النقاد منذرا وشاهدا على عصره ، كما يعتبرونه شريكا وضحية للأحداث التي كشف عنها وأداها بصراحة لم يسبقه اليها أحد . □

العشق هو العاشق

شعر : مجاهد عبدالمنعم مجاهد

ابتسمي ، ودعينا ندخل كعروسين الى مدن العشق السبع
إن لم تبتسمي لن أبصر وجهك في الظلمة ، حينئذ أفقد
سيفي والدرعا
ان لم تبتسمي تزداد الظلمة في مدن العشق ولن تملك
من أمر وسعا
وخذي بيدي فأنا طفل احتاج الى من يمسح
عن خديه الدمعا
شعري شاب ، ولكني ملك العشق . العشق
أشكله وجها وأشكله طبعا
أعرف أنا عشاق منذ زمان غنينا العشق لمن لا
يحسن أن يعطيه السمعا
أعرف أن العالم من غير شموع والظلمة نهر
أبدي يتدفق نبعا نبعا



أعرف أن العالم لم يمنحنا قلبا يعطف وهو يُشكِّلُ

قلب العشاق دُمىً شمعا

قدمنا قدما ، لكن أخّرنا قدمين وقد جُنّ القلب

وأصبحنا من ضمن الصرعى

نحن تلاصقنا خدًا وتلاصقنا صَدْرًا لكن الخوف

يباعدنا ضلعا ضلعا

خفنا أن يحيا الحب بهذي الظلمة مثل الشجر

المنفي بلا زهر لا ينبت في أغصنه طلعا

فوقفنا مشلولين حيرانين لا نبصر شيئا في

مدن العشق السبعة

هي مطفأة الطرقات لأنا لم ندخلها فابتسمي

فهي تنادي بالشوق إليّ ، إليّ الرجعى

فدعينا ندخلها بالعشق عروسين فقد نصبح

فيها أول شمعة

قصة قصيرة

حدود العالم

بقلم : محسن خضر *

حدود العالم تنتهي لكليهما عند جدران السطح ، ولكنها تظفر أحيانابفرصة تخطي هذه الحدود الى أرجاء جديدة ، عندما تصحب أمها مساء يوم الجمعة لشراء لوازم الأسبوع ، أو عندما تصحبها الى جدتها لأبيها . .

أما هو فيومه يمتد من السادسة صباحا ، وينتهي عند الثانية ظهرا ، وعندما تعود أم سوسن من عملها وتتسلمها منه يخيم ليله مبكرا ، ويلوذ بغرفته الوحيدة في انتظار فجر اليوم التالي ، ليتسلم سوسن من أمها المهرولة الى عملها .

يقطع ساعاته الطويلة مسترقا السمع على خطوات البنت وأمها ، فربما يخرجان ثانية من غرفتهما الى السطح ، وبذا يظفر بوقت اضافي مع سوسن .

- أين ذهبت رجلك ؟

- أكلها العاو . .

تسأله ، فيجيبها مقلدا صوت الوحش الخرافي ، فتتظاهر بالفزع وتخبيء رأسها في حجره ، وهل تفهم لو حدثها عن المنجم وكوارثه ، واليوم المشئوم الذي انهار فيه ، ليخرج وحده حيا من بين زملائه بعد ثلاثة أيام من الدفن تحت تراب الجبل ، وقد فقد ساقه ولكنه اكتسب عمرا جديداً ؟ . تعود لتسأله عن أبيها المسافر دائما . . تحدثها أمها عنه ، وعن سفره ، ولكنه لايعود أبدا محملا بالهدايا كما تسمع منها دائما . . أبوها الذي رحل يوم كانت بذرة في رحم الغيب ، وعندما احتضنت عيناها نور الدنيا ، كان أبوها قد ابتلعته الرمال الصفراء الملتهبة وسط سيناء . .

هل تفهم اذا حدثها عن الأعداء والموت واليهود والحرب . . ؟

- فسّحني . .

يطيعها كالمأخوذ ، يرفعها بيد واحدة ، لتصبح فوق المقعد الحديدي ، وبيده اليمنى يحرك عجلاته لتجوب بها محيط السطح ، وهي تتقافز فرحا ، وتملأ السماء بضحكاتها الصافية ، وتتجمع العصافير مستمتعة بضحكاتها . . تتعب يده ، وتتعب بدورها من الضحك ، فترتكن على صدره وتنام . . ويظل جامدا فوق مقعده حتى لايوقظها ، ويكاد أن يخنق أنفاسه في صدره حتى لاتهز رأسها المسترخاة . .

بعد نصف ساعة تقريبا تستيقظ ، تطلب طعاما ، يقترب بمقعده من باب غرفته الخشبية يلتقط لفافة « الساندوتشات » التي يعدها بنفسه في الصباح الباكر استعدادا لهذه اللحظة . . يأكلان معا ، عاتبته الأم كثيرا في البداية ، نبهته الى الساندويتشات التي تتركها فوق المائدة خلف باب غرفتها المفتوح ، ولكنها تجدها عند عودتها دون أن يمسها . . لم يغيره عتابها المتكرر ، فاستسلمت بدورها لمنطقه واصراره . . يحترم الأرملة الصغيرة التي عاشت على ذكرى رجلها المدفون في سيناء ، رفضت عروضا

* مدرس مساعد بجامعة عين شمس - كلية التربية

مغرية للزواج بعده ، والتحقت بمشغل للملابس لتكتسب منه ، الى جانب ما تقبضه من معاش ضئيل .

نمت سوسن على يديه ، منذ أن كانت تزحف على أربع .. راقبها وهي تحاول المشي وتتعثر ، الى أن أصبحت تختال كالنسيم .. منذ الحادث لم يفارق هذا السطح ، يتكفل زميل قديم باحضار معاشه كل شهر .. ويكفيه عناء الخروج واستعمال العكاز ..

هاجمته الكآبة في البداية حتى تمكنت منه .. غزا البياض شعره ، تعمقت تغاضينه وسقطت معظم أسنانه ، وغدت الدنيا في اتساع مقعده المتحرك الذي لايفارقه إلا عند النوم أو قضاء حاجة .. ولكن عندما ظهرت سوسن في حياته ، أو بالأصح برقت في سماه أصبحت تعني عنده الدنيا كلها ، لم يندم على عدم زواجه ، فقد عوضته عن كل شقائه وجفاف أيامه .. نسي الحادث ونسي سنوات عمله المملة الطويلة في مناجم الصحراء النائية ..

لاتستوقفه شيخوخته الا عندما تناديه معابثة :

ـ ياراجل يا عجوز .. « مناخيرك » .

تهجم عليه ، تغرز أسنانها اللبنة في طرف فخذه ، تهم بابتلاعه ، تتشبه بالشبح ، فيتظاهر بالفزع ، ويستعطفها حتى تطلق ضحكتها الواسعة علامة العفو عنه ، وتعود للسؤال عن ساقيه المقطوعتين ، تحاول جذبه من فوق مقعده ليلعب معها ، ولكنها آلفت في النهاية مشاركته من فوق المقعد ..

الشمس شمسنا ، لاتشرق الا من أجلنا ، تحاول سوسن أن تحدق فيها ، فتدمع عيناها .. يقول لها : عندما تكبرين ستنظرين اليها بلا دموع .. تسأله : ومتى أكبر ؟ ، فيجيبها : غدا ..

العصافير التي تتقافز فوق الأرض ، وتشغلين بمطاردتها ، تجيء لتسترق السمع على حكايتنا .. إنها تحب سماع الحكايات مثلك .. يضطر لابتكار حكايات جديدة ، وخلق مواقف وأحداث جذابة بعد أن حفظت حكاياته القليلة في الأيام الأولى .. يحدثها عن بطولاته الوهمية ، وأسفاره المختلفة ومعاركه الجبارة .. تحدق فيه باهتمام ، تلتمع عيناها



بفرحة أيامها البكر وهي تنصت اليه .. يعشق التماعة شعرها الأسود الفاحم ، ويعشق رائحته ، ويسأل نفسه :

ـ ماذا لو كان أبوك حيا ؟

يملأ خياشيمه مزيج من رائحة الياسمين والريحان والقرنفل آتية من خصلات شعرها ، ورائحة رمال سيناء اللزجة مختلطة بدماء الشهداء .. سأل نفسه مرارا : لماذا لاتتزوج أرامل شهداء الحروب ؟ ..

الأم كانت على درجة كبيرة من الجمال ، ولكن سوسن كانت أجمل بالتأكيد .. أصبح يخصم الساعات التي تفارقه فيها سوسن من عمره ، ويحسب عمره الحقيقي وهي معه ، منذ أن يتسلمها من أمها في الصباح الباكر ..

يدور بعد الدقائق ، ويراقب من وراء خصاصات شيش نافذته نافذتها ، ويتناوب النوم بين السرير والمقعد وتناول الشاي وسماع المذياع ، حتى تدور الدنيا دورة كاملة ، ويشرق يوم جديد على الخلق ..

لايقطع صمته الطويل الا طرقات أم سوسن على بابه في العصر ، تناوله أطباقا مختلفة من الطعام الذي أعدته بعد عودتها من العمل ، يسألها عن سوسن ، فتجيبه ضاحكة متعجبة ، فلم يفارقها الا منذ ساعة أو ساعتين .. وتصبره حتى الصباح ، وتهون عليه الانتظار .. في السادسة صباحا يكون مستعدا تماما للطرقات الموسيقية ، تبعث الحياة في أوصاله الباردة ، تدفع سوسن اليه وتوصيه بها كعادتها ، ويطمئنها ، ثم يبتلعها باب الدرج وسرعان ما تتلاشى دقات أقدامها فوق السلالم المتآكلة ..

يبدأ يومها .. الجنيهات القلائل التي تتبقى بعد سداد إيجار الغرفة تتوزع بين سجائره وطعامه وحلوى سوسن .. يشت أمها من تغيير مسلكه ، وصرفه عن ذلك .. وبالتكرار استسلمت لحنانه المتدفق .. والذي يضفي على الأشياء والمواقف منطقا غلابا .

تشاركها الطبيعة فرحتها ، تمد الشمس أذرعها لاهية معها ، وتتلكأ السحب المارة فوق السطح لتمسح بأعينها مشهدهما الممتع ، ويخيل له أن السطح يرتفع ، ويرتفع حتى ينفصل عن العالم الأرضي ، ويلتحق بمدار كوني آخر بصحبة ملاكه الصغير ..

تمنى أن يقتصر طول اليوم على ساعاته الثماني معها ، ويختصر من التوقيت الزمني الساعات التي يقضيها بعيدا عنها ، بعد أن تأخذها أمها .. غالبته رغبة قوية في البداية أن يستبدل اسمها باسم « هدى » يحب هذا الاسم ، ولا يعرف سببا لذلك .. تمنى أن يطلقه على ابنته اذا تزوج يوما ، وبمرور الأيام ، وتكاثر الضربات عليه تراجعت امنيته الى مكان قاص في قلبه ..

تتقاطر الساعات ، وتنكمش ساعاته ، ويشعر أن وقع خطوات أمها عند الظهر ، وهي عائدة من العمل تعني انقضاء سعادته وتكدر يومه .. ينتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر ، تشغل الأم في شئون التنظيف والغسيل والطهي وتتركها معه ، تمد لها بساطا على الأرض فيجلس معها ينعمان بدفء الشمس ، وتنعم بحكاياته الخرافية ، الى أن تفرغ الأم من مشاغلها فتجلس معه ، تحدثه عن أحوال الحي ، وتشكو اليه الغلاء ومتاعب المواصلات ، واستغلال صاحب المشغل لها ، ومظاهرات الطلاب في الشارع ، والبوتيكات الجديدة التي تفتح في الحي الشعبي ..

ثم في المساء تصحب سوسن لشراء حاجيات الاسبوع وزيارة حماتها .. آه .. ما أقسى الأيام .. وما أسرع دورة الحياة .. وما أضيق ابتسامة الزمن .. ففي صباح يوم صيفي تلقى الخبر الذي نغص عليه حياته ..

ـ سوف أقدم لسوسن هذا العام في المدرسة ..

قالتها واستدارت وغالب دمعة كبيرة انزلقت على شعيرات لحيته البيضاء التي لم يحلقها منذ يومين ..

يشيخ الزمن ، ويهرم الرجل ، وتُسلب متعته .. ففي العام القادم ستدخل سوسن المدرسة .. □

لماذا يتخلى المثقف العربي عن دوره السياسي ؟

بقلم : توفيق أبو بكر

تضاؤل الدور السياسي للمثقف العربي في الثمانينيات هو أحد أهم الظواهر البارزة في الحياة السياسية والثقافية والفكرية العربيةفي هذا العقد . هذا ما توصل اليه الكاتب في هذا المجال ، فما هو اجتهاده في هذا الأمر ؟

هناك تضاؤل واضح في التأثير يعبر عن نفسه بأشكال متعددة . والهجرة الداخلية (كما يسميها يهوشفاط هركابي ، أكبر الاستراتيجيين في « اسرائيل » خبرة في الشئون العربية)، هي أحد هذه الأشكال ، وهي مغادرة المثقف لدوره القيادي والطليعي في المجتمع ، والقبول بدور قاعدي ، مثل أي مواطن آخر ، والاهتمام بتعميق تخصصه وبأبحاثه الأكاديمية ، أو موقعه الوظيفي ، وما الى ذلك .

جلد الذات

وفي مقابل هذه الخطوة الانزوائية نحو الوراء يتخذ التضاؤل في دور المثقف العربي شكلا آخر ، وهو الهروب نحو الأمام ، والقيام بعملية متواصلة لجلد الذات ، والادعاء أنه يريد القيام بدور ما ، لكن المجتمع يعاني من مشاكل كثيرة ، وفي حالة مرضية . وفي كل يوم تطالعنا الصحف والمجلات بكم هائل من المقالات التي تعبر عن جلد الذات ، فالحديث عن انهيار الأمة ودخولها عصر الانحطاط الذي قد يستمر قرونا طويلة كما حدث في الماضي ، يملأ أدبياتنا ودورياتنا السيارة ، بشكل يعيد الشباب والحيوية للنكتة التي اشتهرت في مصر أيام سعد زغلول وثورته ضد بريطانيا ، نكتة (سعد باشا يقول ما فيش فايدة) .

(ما فيش فايدة) مقولة قد يقبل المنطق تبرير انتشارها في الأوساط الشعبية التي ترى

العجز العربي العام ، في مواجهة تحديات التنمية والتحديث والديمقراطية ، وفي مواجهة تحديات الغزوة الاستعمارية الصهيونية ولا تستطيع تفسير ذلك . لكن انتشار مثل هذه المقولة في أوساط المثقفين ، وقيامهم بالترويج لها خطر حقيقي ، إذ من المفروض أن تكون هذه الطلائع قادرة أكثر من الناس العاديين على تفسير هذه المرحلة الانتقالية التي تمر بها الأمة العربية ، كما حدث مع أمم كثيرة قبلنا ، وبالتالي فإن واجب الطلائع المثقفة تفسير حالة العجز العام ، والتعرف على الثغرات ، وحفز جموع المواطنين للقيام بدورها ، لاجتياز هذه المرحلة ، واجبهم أن يقوموا بدور تنويري ، وبأفق يحمل طابع التفاؤل التاريخي الاستراتيجي لازراعة اليأس والاحباط ، لتبرير تقاعسهم عن أداء مهماتهم الاجتماعية عبر الهروب للأمام .

فالصحيح تاريخيا أن المثقفين في أوساط بعض الأمم وفي مراحل ضعف كالتي تمر بها قد قاموا بعملية قاسية لجلد الذات ، كما حدث في روسيا واليابان ، لكن واجبنا أن نستفيد من دروس التاريخ ، وأن نختصر رحلة المعاناة ، من خلال استيعاب تلك الدروس ، وإلا لماذا نقرأ التاريخ ؟

هذا التضاؤل الواسع في دور المثقفين العرب الذي اتخذ خطا بيانيا متصاعدا منذ مطالع السبعينيات بشكل خاص ، يجد بالطبع تفسيرات علمية لمن يدرس بعمق مراحل تطور الحياة السياسية العربية خلال ربع القرن الماضي .

أسباب وخلفيات

من هذه التفسيرات سيطرة الجيش والقوات المسلحة على حركة التغيير في المجتمعات العربية ، فالجيش هو القوة المنظمة المتماسكة التي مثلت طموحات الطبقة الوسطى ـ الأكثر انتشارا ـ ، وذلك في مرحلة ما بعد الاستقلال الوطني عن الاستعمار الأجنبي ، وبدء مرحلة البناء الداخلي في المجتمعات العربية .

والطلائع العسكرية التي قادت الانقلابات المسلحة في العديد من الأقطار العربية في الخمسينيات والستينيات حاولت حرق مراحل التطور التاريخي الطبيعي ، وتحقيق أحلام التقدم والتنمية ، والقضاء المبرم على السرطان الذي ينهش جسم الأمة العربية ـ وهو « اسرائيل » بضربة واحدة ، ولم تستطع ، وما كان ممكنا أن تستطيع ، لذلك ، وبحكم الخلفيات الثقافية المحدودة استعانت تلك الطلائع بالمثقفين ، ثم ما لبثت أن دفعت بهم لأدوار هامشية ، باعتبارهم بورجوازيين ، متذبذبين ، مزعزعين ، لايؤمنون بالثورة ، وبحتمية انتصارها السريع .

ومن ناحية أخرى فإن حصيلة تجربة المرحلة أظهرت فرقا هائلا بين الأحلام والأمنيات التي ظنها بعضهم قاب قوسين أو أدنى من التحقيق ، وبين حقائق الواقع المرير . وهذا الأمر دفع بجموع المثقفين العرب للانزواء والتراجع ، وتوسعت الفجوة بين السلطة والمثقفين في كثير من أقطار الوطن العربي .

فالمثقفون الذين دخلوا في معمعات العمل السياسي ، عبر العديد من الأحزاب والحركات والمنظمات السياسية ، كانوا قصيري النفس ، وكانوا متطهرين إلى حد كبير ، وبعيدين عن الانغماس في الحياة اليومية لمجموع الشعب وأجادوا التنظير من فوق ، ومن أبراجهم العاجية ، ولذلك سرعان ما تراجعوا إلى الوراء ، لأنهم اكتشفوا خطأ صغيرا هنا أو هناك . والحياة بحكم الصراع اليومي مليئة بمثل تلك الأخطاء . وسرعان ما تراجعوا ، لأن أحلامهم لم تتحقق سريعا ، ولأن ما تصوروه من إنجازات لم يقع . وأمام أول تراجع للوراء ، في الحركة السياسية والكفاحية (وهو أمر طبيعي يتعلق بالظروف الموضوعية وبدرجة تفوق الخصم) نكصوا على أعقابهم ، وولوا الأدبار .

المثقفون والمقاومة الفلسطينية

المفكر السياسي الفرنسي جيرارشاليان كتب بعد حرب حزيران ١٩٦٧ عن الدور المحدود للمثقفين العرب في مواجهة تحديات المرحلة ، وقال إن هناك تراجعا كبيرا في دور هذه الفئة الاجتماعية ، ليس له مثيل ـ حسب زعمه ـ إلا في الهند ، حيث تراجع المثقفون هناك أيضا عن أداء دورهم المطلوب . تجربة المثقفين في المقاومة الفلسطينية دليل صارخ على صحة استنتاجنا السابق . بعد حرب حزيران اندفعت جموع المثقفين للالتحاق بالعمل الفدائي مقاتلين قبل أن يكونوا منظرين ، وفي معركة الكرامة (آذار ١٩٦٨) كانت نسبة عالية من الفدائيين الذين صدوا الهجوم الصهيوني على تلك القرية الواقعة في أغوار الأردن من الجامعيين والمثقفين ، وعلقت الصحف « الاسرائيلية » قائلة : إن الخطر الحقيقي لظاهرة العمل الفدائي المتصاعدة هي اندفاع المثقفين ـ الفلسطينيين والعرب ـ للالتحاق بها غير ماكان الوضع عليه في السابق ، حيث كان المقاومون الفلسطينيون من الفلاحين وبسطاء القوم ، لكن عند أول منعطف مرت به المقاومة ، وتعرضت فيه للتراجع ، بفعل تفوق الطرف الآخر (كعامل حاسم في ذلك التراجع ، إضافة لأخطاء ذاتية كبيرة) انسحب المثقفون بالمئات ، وبدأوا ينظرون منذ زمن طويل لتشييع جنازة المقاومة المسلحة .

وهناك عوامل إضافية ساهمت في تهميش دور المثقف العربي في الحياة السياسية المعاصرة . من تلك العوامل اتساع درجة الاغراءات المادية والسلطوية للمثقف ، في عصر الطفرة النفطية والثروة العربية التي عم خيرها مناطق كثيرة ، إن كان ذلك خيرا ، بالمقاييس الاستراتيجية بعيدة المدى ، ولذلك ازدهرت وترعرعت (ظاهرة الاستمالة السياسية) . والتحق كثير من المثقفين العرب ـ وقد رأوا أحلامهم في تحقيق انجازات سريعة قد تعرضت للوأد ـ بالسلطة السياسية ، بعضهم نتيجة الاحباط ، وبعضهم نتيجة ضخامة الاغراءات التي وفرتها الوفرة المالية العربية ، وبعضهم نتيجة قناعة بعد تجربة طويلة ، بأنه لاسبيل لتغيير الواقع القائم إلا من خلال الاطارات السياسية والهيكليات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية القائمة ، ببطء ودون أوهام دفعنا ثمنها غاليا ، في نظر أصحاب هذه الفكرة : العمل والاصلاح من الداخل .

الاقتتال الداخلي

لاجدال أيضا في أن طبيعة الأمراض والظواهر السلبية التي أفرزتها الحركة السياسية العربية قد دفعت مجموع المثقفين للانزواء والتواري عن أنظار المجتمع . من تلك الظواهر السلبية التي أحبطت المثقفين الاقتتال الداخلي العنيف بين التيارات السياسية . اغتيال بالكلام ، يمهد الطريق للاغتيال بالرصاص . انتشار ظاهرة احتكار الصواب ، والتخوين السهل ، وشيوع الاتهامات المتسرعة ، والاتهامات المعاكسة يمينا ويساراً .

في مثل هذه الأجواء فضل العديد من المثقفين العرب النجاة بجلودهم من هذا المسلخ السياسي ، حتى لا يصيبهم من الاتهامات رذاذ قليل أو كثير . والمثقفون في بلادنا حريصون على الطهارة ، والسمعة الطيبة ، والابتعاد عن المعارك التي قد تلوثهم بسبب محدودية درجة الفهم العام في المجتمع ، حتى لو أدى ذلك لتلوث الوطن ، وتأخر مسيرته الحضارية .

ويجب ألا ننسى أخيرا وليس آخرا أن تطور آلية قمع المعارضة قد دفعت بالمثقف لطلب أمنه الذاتي ، أمام ضخامة الثمن الذي سيدفعه إذا استمر في المعارضة ، أيا كان لونها وشكلها وحدودها . وانتشر بسبب ذلك الشعار المميت (انج سعد ، فقد هلك سعيد) □

شارات المجد المنطفئة

بقلم : الدكتور محمود الربيعي *

هل وصلت قافلة الشعر الحر حقا الى طريق مسدود ؟ ، أو على الأقل تكثر فيه العقبات التي تحول دون مواصلة نموه وازدهاره ؟ والى أي مدى يعتبر ديوان « شارات المجد المنطفئة » خطوة تبعث الأمل على طريق الشعر الجديد ؟ هذا مايقدمه هذا المقال .

أخذ الشعر الحر حظه الطويل من الزمن : بدأ ثورة عارمة جديدة ، مليئة بالحيوية وقوة الدفع ، واستقر في مجراه الذي شقه لنفسه بمواهب رواده العالية ، وباخلاصهم لفنهم ، وبطاقاتهم التشكيلية التي لاخلاف على قيمتها ، وصنع ـ لاشك ـ ثورته المؤثرة في عقول القراء وأحاسيسهم ، واحتل لذلك مساحات واسعة من اهتمام النقد الأدبي ، واكتسب مشروعيته من الاستجابة الملحوظة له من قبل القارىء العادي والقارىء المتخصص .

محاذير على طريق الشعر الحر

ومع توالي اجيال الشعراء ، واتساع مجال العمل الشعري ، وتجدد القضايا ، ودخول الظاهرة عصر استقرارها ، بدأت الشكوى ترتفع من بعض الأمور ، فعلت أصوات « الانتقاد » التي كانت من قبل خافتة ، أو غير موجودة أصلا ، وأصبح لبعض أوجه هذا الانتقاد وجاهتها ، فقد قيل ـ مثلا ـ ان الشعر الحر أصبح ميالا الى التفلسف،متابعة لظاهرة فكرية ما ، أو منحى شاعر عالمي ما ، وقيل ان الشعر الحر « يثرثر » ، محاكيا لغة الطريق والجمهور الواسع ، وقيل إن موسيقا الشعر الحر تخفت باطراد فيقترب من النثر ، وقيل غير ذلك .

وكان معنى وجه الانتقاد الأول أن الشعر الحر بدأ يتخلى عن « شاعريته » وحياه الفطرية ، ويجنح الى الفكر الفلسفي ، فيصبح قوالب « احتجاجية » ، ومقدمات ونتائج منطقية ، قد تدل على تحلي الشاعر بثقافة العصر ، لكنها تأتي ـ بالقطع ـ على حساب فيضان النبع الأزلي لفن الشعر . وكان معنى وجه الانتقاد الثاني أن الشعر ـ وهو رائد أول في الاثراء اللغوي ـ يمالىء الجمهور بالاقتراب من لغته ،

* د . محمود الربيعي أستاذ النقد الأدبي بكلية دار العلوم (سابقا) ، وبالجامعة الأمريكية بالقاهرة (حاليا) .

والشأن فيه أن يساعد الجمهور على اثراء لغته ، بتقديم مغامرات جديدة في هذه الناحية بدل استخدام صبغ لغة الطريق وأصدائها . واذا أصبح الشعر معتمدا على « لغة الشارع » أصبح المستوى اللغوي للشارع هو سيد الموقف ، وتحول الشعر ـ لغويا ـ الى صدى ، في حين أنه رائد في كل جانب . وكان معنى وجه « الانتقاد » الثالث أن الشعر يتخلى طائعا عن أقوى سلاح مميز له ، ليعلن صراحة أنه لم يعد « شعرا » ، وقد قوّى من وجاهة هذا « الانتقاد » أن بعض صنّاع القصيدة الشعرية دخلوا في مغامرات تعبيرية ، تحمل عنوانا يحتوي على قدر كبير من التناقض ، وذلك حين كتبوا ماسموه « قصيدة النثر ».

وبهذا كله يمكن القول بأن حركة الشعر الحر تواجه أخطارا ، وأنها محتاجة الى تجديد جزء كبير جدا من دمائها . ولابد أن تفلت هذه الدماء الجديدة من أسر « الانحياز » ، والتقوقع البادي في الرتابة ، أو في التعصب لفلسفات تخرج الشعر عن طبيعته . ومالم تجدد حركة الشعر الحر ذاتها على نحو أو آخر فانه يصبح محتما أن تجرفها حركة أخرى .

ويجيء ديوان « شارات المجد المنطفئة » لفولاذ عبد الله الأنور (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م) اشارة فنية ، تبعث الأمل بأن دما جديدا يسري في حركة الشعر الحر .

الهجرة المستحيلة

يعبر ديوان « شارات المجد المنطفئة » بمجمله ـ عن صورة مارسها الشعر العربي منذ كان ، وهي صورة « الهجرة » الدائمة ، والحنين المستمر ، واستحالة العودة من المهجر » . لقد هاجر امرؤ القيس عن « الطلل » ، وحن اليه ـ في نفس الوقت وانفصل المتنبي والمعري عن المجتمع ـ كل على طريقته ـ وحنا حنينا مستحيلا اليه في نفس الوقت وأحس صلاح عبد الصبور أن الناس في بلاده « جارحون كالصقور » (فهاجر عنهم) ، وحن في نفس الوقت اليهم لأنهم « طيبون » ، وأحس أحمد حجازي بأن مدينته « بلا قلب » فهاجر عنها ، لكنه حن اليها الحنين المستحيل ، فلم يفارقها قط ، وهاهو ذا فولاذ الأنور يمارس ذلك الشعور الشعري الأصيل في الحنين الدائم واستحالة العودة . ترى ما الذي يعنيه هذا الاجتماع المتآخي للمتناقضات في بؤرة واحدة : الحنين الدائم (الماضي الماثل) والضياع (التجربة الحاضرة الحية) والخيالات الشاردة (المستقبل الغامض) ؟ انه يعني ـ باختصار ـ تجربة الشاعر الوجودية في الحياة . أما فولاذ الأنور فيعبر عنها بتجسيد رمز الحنين في صورة الأب ، والاستسلام في نفس الوقت للضياع في الحاضر ، ثم الاحساس ـ مع كل ذلك ـ باستحالة الدوران على الأعقاب . وسطره الشعري ـ في هذا المضمار ـ سطر طويل ، يبدأ ويمتد ، ولايستريح الا بعد أن يفرغ دورة كاملة من تفاعل « المتقابلات » ، وهو أمر يصنع ـ في النهاية ـ حلقة تجمع كل عناصر الموقف ، وتؤدي ـ من ثم ـ الى النتيجة الحتمية التي هي الاحباط :

أعرف أنّ الزمان يمر ،
وأنك تولد في كل يوم ،
وأني أموت ،
وأنك تشرق بين صحارى المشيب ،
وأغرب بين حقول الشباب ،
وتمضي يباركك العمر ،
أبقى يحفظني العنكبوت ،
وأنك تمتلك الغد ،
والغد من مهجتي يتسرب ،

ذلك سطر شعري مشبع ، لايستقر ولايستريح الا اذا حقق دورة كاملة من الأسباب والنتائج ، ومن « الفعل » الشعري المنسوج من خيوط متقابلة ، وهو اذ يكمل تلك الدورة يستقر ويستريح على تلك القافية العينية الممدودة التي تتسرب ـ مع ذلك ـ دون أن يحس في قافية أخرى مماثلة تليها في القصيدة في:

« مدن من صقيع » . . الخ .

وكـل شيء في رحلة القصيـدة - أو في هجـرة الشاعر - يتولد من شيء سابق عليه ، ومؤثر فيه ، فمشاعر المدينة مدرجة « في سجل التجارة » ، وطبعات الجريدة في طبعتها الجديدة تسلم في كل يوم « من أول الأطلسي الى ربوات العراق » الى « مؤامرة واتفاق » . ترى ما الذي يرمز اليه هـذا الشيخ الجليل القابع في الانتظار ، والذي يؤثر بالتغير في الأشياء ، ولكنه لايتغير ؟ أيرمز الى الجذور التي تفارقها سيقانها وفروعها في رحلة أبدية تبدو دائما وكأنها ترتد ولكنها - في واقع الحال - لاترتد ؟ أو يرمز الى الحياة التي قد تدهشها المفارقة الفاجعة ولكنها لاتعظها ؟ إن قصيدة « الى أبي من عواصم الموت » (ص ١٧ ومابعدها) التي اقتبست منها تكشف عن عدد من مستويات المفارقة ، المفارقة الكائنة في الالتئام (الأبوة) التي تتحد بمايقابلها من الفراق (الهجرة الحتمية المستمرة) ، والمفارقة الكائنة في العواصم (ماتحمل صيغتها اللغوية من معنى الحفظ والعصمة) التي تتحد بمايقابلها من الضياع والتبديد ، ثم انتقال المفارقة الى المستوى العام ، فمجموع العواصم يفضي الى مفارقة عامة ساخرة تكمن في هذا التلون المأساوي الذي يتكشف في كل يوم عن « مؤامرة واتفاق » !

على أنه يبدو أن تلك « الرحلة » ، أو تلك « الهجرة بدون عودة » ، ليست كلها ضياعا مطلقا ، اذ سرعان ماتبذر قصائد الديوان بذورا جديدة في تربة الغربة ، وذلك مهما بدا من أن التربة لاتتفاعل مع تلك الجذور . هنا ينشأ رمزان متقابلان للقرية والمدينة ، الخصب والعقم ، الضياع والهدف . ويزدحم المعجم الشعري في قصيدة « سقوط المدينة النحاسية » (ص ١٧ ومابعدها) بعناصر هذين الرمزين ، فالنخلة والتربة والتراب ، والسلام ، والحب واللهب والجرار (جمع جرّة) ، والعبير ولغة الريف، و« عبير الأرض » (والتعبير الأخير - كما يتذكر القراء - لواحد من محبي الأرض هو المرحوم فوزي العنتيل ، وقد جعله عنوانا لديوانه الأول) ، والعشب ، والفأس ، والأعشاب ، كل ذلك في جانب ، والرخام والأصنام ، والتماثيل ،والحرب ، والريف ، والمداخن ، والكذب ، والمقامرة ، والمدن الحائطية ، كل ذلك في جانب آخر . ويلاحظ أن ثمة ألفاظا وتعابير تتردد بدرجة عالية في الناحيتين في حين تتردد أخرى بدرجة أقل ، ولكن أكثر هذه التعابير الرمزية ترددا هو رمز النخلة (سلاح القرية ورمزها العتيد) ، لذا لاعجب ان جاء هو المعبر عن الانتصار في آخر القصيدة ، وكأنه الراية التي جرت تحتها المعركة ، وتم تحتها الانتصار . ان الضياع الذي عبر عنه بسطر شعري طويل في القصيدة السابقة « :«الى أبي من عواصم الموت » - والذي اقتبسه فيما سبق - يرتد هنا عزيمة مباغتة ، ويعبر عنه في سطر قصير حاسم ، هو نوع من « عودة الروح » ، أو « تناسخ أرواح المهاجرين » - وهذا الحسم يتأكد في قافية السين الساكنة التي تبرز في صورة متوالية (أو شبه متوالية) في نهاية المقطع :

فلا تفرحي الآن أيتها المدن الحائطية ،
نخلته الآن تعلن اقلاعها للميادين ،
تأتي محملة بعبير من الأرض ،
يغرق كل التماثيل ،
لاتفرحي هو آت ،
على منكبيه تراب وعشب وفاس .
هو حق وان غاب لايحتويه النعاس .
انه طالع في سواه على الدرب .
يغرس أعشابه في الرخام ،
ونخلته في البلاد النحاس ،

القرية والمدينة

ويعكس الديوان ثلاثة مظاهر لعلاقة « القرية - الرمز » « بالمدينة - الرمز » : مظهر الضياع ، ومظهر الغزو ، ومظهر الاشتباك . وقد تبدو هذه

المظاهر الثلاثة ـ للوهلة الأولى ـ متباينة ، ولكنها عند التحقيق مظاهر متصلة ، ومتداخلة في العمق على نحو وثيق . ان الضياع والتلاشي الذي بدا في قصيدة : « الى أبي من عواصم الموت » تحللا وتبددا ، يتحول في قصيدة » : سقوط المدينة النحاسية » الى غزو فعلي ويتجلى في قصيدة : « اشتباك بالمدينة » (ص ٢٧ ومابعدها) في صورة جديدة هي صورة « الاشتباك » . ومن الحق أن يقال ان هذه الصورة الجديدة ليست « جديدة » تماما فقد مهّد لها من قبل في قصيدة : « الرجل القروي » (ص ٢٠ ومابعدها) ، ولكن على استحياء ، وذلك في شكل تساؤل مزدوج في موضوعه ، وفي جذوره، يدور حول كائن بشري :

من منا وسع عمق الهوة مابين القلبين
أ أنا أم ليلى ؟
من فينا الحائل بين المغتربين ،
وبين القرية والأبوين الشيخين ؟

في قصيدة « اشتباك بالمدينة » يجسد هذا الكائن البشري ، فيعطي اسما (نشوى) ومكانا (البيئة الساحلية) ، وتظل المدينة هي محور أو عقدة الفعل الشعري ، ويأتي عنصر جديد رافد في العمق البعيد هو عنصر الفن المتمثل في :

الدمع والمداد . وتتفاعل كل هذه العناصر لتنتج في النهاية صورة شعرية مركبة تأخذ شكل « التحذير » .

عمي صباحا ياحبيبة ،
وامنحيني بعض معطفك القديم ودثريني ،
خبئيني عن عيونك في الصباح ،
وبارحيني .
طالما في حوزتي حبر ،
ودمع ،
واشتباك بالمدينة ، فاحذريني .

من هذا « الاشتباك » المتعددالعناصر : البشر ، والدمع ، والحبر ، يتولد « الاهتمام » الانساني الذي يتحول الى « انتباه » ، ومن خلال الاشارات التراثية يتم الانحياز » الكامل والنهائي الى الجانب الذي يمثله ـ على طول التاريخ البشري ـ الأنبياء والمصلحون والشعراء الحقيقيون ، جانب العدل المطلق ، المتمثل في الوقوف في صف الضعفاء البسطاء الذين قد يلجأون الى ارتكاب الظلم لأنهم مظلومون :

سوف أنحاز للخارجين على الزور ،
أنحاز للخاطئين من الضعفاء .
سوف أنحاز للبسطاء ،
سأجالس من يسكرون ،
ومن يحتسون سموم النباتات .
سوف أغرس فقري في تربة النبلاء ،
وسأدرج اسمي بين قوائم
من يرفضون الولاء ،

وهكذا تنتهي « الشارة » الأولى من ديوان « شارات المجد المنطفئة » ، وقد تراوحت بين « الضياع » « والاقتحام » ، وبين « السكون » والحركة » ، واحتوت على جذور « التمرد » الذي ازداد وضوحا منذ مفتتح « الشارة » الثانية . وفي هذه « الشارة » جددت العبارة الشعرية المترددة على شكل لازمة » طبيعية هذا التمرد ومداه ، وذلك من خلال القصيدة الأولى فيها : « انتظريني مطرا لاموسميا » (ص ٤٩ ومابعدها) . ونص هذه العبارة :

فأنا كالقدر ،
وقدومي انقلاب ، وصمتي مطر .

وهي « لازمة » تتردد أربع مرات على مدى القصيدة ، وفيها الصوت الجهير المتمثل في القافية الرائية الساكنة ، وفيها كذلك « فعل شعري » حركي ذو جوانب ثلاثة ، جانب حركته المعلنة (قدومي انقلاب) ، وجانب حركته المضمرة (وصمتي مطر) ، وجانب حركته الماثلة في نتيجته الحتمية (فأنا كالقدر) . وتمثل هذه اللازمة بعناصرها تلك الركيزة الأساسية في القصيدة ، وهي توزع صفاتها

وخصائصها طردا في الأجزاء التي تليها من القصيدة ، وعكسا في الأجزاء التي تسبقها منها . وتكون النتيجة شيوع التوتر ، ونمو الاحساس بالايجابية والتمرد في القصيدة كلها . ونحن نرى العناصر« المعجمية » التي تكون هذه اللازمة ملحوظة منذ بداية القصيدة ، فمطلعها هو : « مطرا يتساقط صمتي عليك » ، وعنصر الانقلاب فيها يأتي بسرعة في عبارة شعرية معبرة هي : « لقد بللتك فجائيتي » . ولاتكاد تستقر اللازمة بصيغتها الكاملة في نهاية المقطع الأول حتى تظهر نتائجها في شكل تفاعل حاصل بين كائنين بشريين . وهذا التفاعل - بالطبع - لب الفعل الشعري الذي يربط خيوط القصيدة :

فافتحي للسحاب بالنار منك

المحمل منك بداء الرجوع اليك

(وليلاحظ نمو المفارقة الكائنة في عبارة « صمتي [انعدام] مطر [حدوث] » ، وتطوره الى السحاب المحمل [لا بالماء وانما بالنار] ، وهذا يجعل الوصول الى ذروة الفعل الشعري « المحمل منك بداء الرجوع اليك » أمرا سلسا ومؤثرا) .

اذن فقد نما المقطع الأول في القصيدة من بذور هذا التعبير الشعري الذي أخذ شكل اللازمة ، فجعل المقطع الثاني أكثر تركيبا ، بفعل عناصر الشد والجذب المتمثلة في « السحاب المحمل بالنار منك - المحمل منك بداء الرجوع اليك » ، ثم تكررت اللازمة لتثبت نتائج المقطعين ، ولتحمل القارىء الى أفق جديد . وفي هذا الأفق المتشكل منذ المقطع الثالث يدخل عنصر جديد ، يتمثل في : « يتوافد حراسك اليقظون على ساحة البيت » . لقد كان التفاعل حتى الآن مبنيا على عنصري جذب ، وها هو ذا عنصر ثالث متمثل في « حراسك اليقظون » يدخل المجال ، فيحدث فعلا زائدا على مجرد المفاجأة الذي بدا في المقطع الأول ، ومجرد « التجاذب » الذي بدا في المقطع الثاني . انه فعل قائم على « الكر والفر » .

فأبرق فيهم وأرتد عنهم

وتكون نتيجة تأثير هذا العنصر الجديد أن المجال اتسع طولا وعرضا وعمقا ، أي أنه أصبح شاملا :

فيهطل صمتي عليك ، أمامك ، خلفك ،

في أي ركن تروحين ،

في أي ركن تجيئين ،

يسقط حولك هذا المطر .

البسيط والمركب

ونتيجة لتقدم عناصر القصيدة من « البسيط » الى « المركب » ، ومن « المفرد » الى « المتعدد » يتحول الفعل من « الصمت » الى « الصوت » ، ومن « الكامن » الى « المعلن » . وفي المقطع الأخير من القصيدة يتجلى تفاعل العنصرين الرئيسين فيها بصورة ايجابية . فبعد أن كان أحدهما في المقطع الأول منها يقف « عاجز الخطو » ، « مأخوذ اللب » ، « مذهول العين » اذا به في المقطع الأخير منها يقف على قدم المساواة من العنصر الايجابي الآخر المثير :

أنت لي وأنا لك

هذا في حين تنشط العناصر الايجابية الأخرى بعوامل منها :

يسقط الحراس اليقظون

ومنها :

ستلقيني قابعا في الغصون ،

ومنتصبا في جذوع الشجر .

ومنها تكرار العنصر الحاسم : « القدر » ، متوجا الاحساس بحتمية النصر النهائي وتأبيده ، وجاعلا لورود « اللازمة » في الختام طعم الجواب الموسيقي الذي يتردد صداه مع أشباهه في نهايات المقاطع الأخرى ، فيحدث توازنا صوتيا ومعنويا شبيها بتوازن الآلات التي تعزف بانسجام ، وهذا من شأنه أن يجعل لهذه « اللازمة » وقعا جديدا في كل مرة نستمع اليها فيها :

فأنا كالقدر ،

وقدومي انقلاب ، وصمتي مطر . □



منتدى العربي

قضية

دور الأرقام العربية في الحضارة الإنسانية

بقلم : الدكتور عبد اللطيف كانو *

نشرت « العربي » في العدد ٣٤٥ أغسطس ١٩٨٧ مقالة بعنوان « أرقام الحساب ، عربية أم هندية ؟ » تناولت أرقام الحساب المعروفة بالعربية التي تستخدم في أوروبا والمغرب العربي وبلدان أخرى في العالم ، والأرقام الأخرى التي تستخدم في المشرق العربي ، وتعرف بالأرقام الهندية .

في هذا العدد يناقش الكاتب القضية نفسها من زاوية أخرى .

إن الحقيقة التاريخية المؤكدة هي أن علم الأرقام والأعداد والحساب والرياضيات لم ينهض بمستوى علمي معقول متميز فعال إلا على أكتاف علماء المسلمين ، في حوالي القرن الثاني الهجري ، حيث تمكنوا من إخراج الأرقام والأعداد من نطاق محدود ضيق ، إلى أفق واسع متطور ، ارتبط بعلم الحساب والجبر والهندسة ، وأن المسلمين إبان نهضتهم قد وضعوا مفهوم الصفر الذي في الواقع أعظم اختراع عرفته الانسانية ، وأسست عليه علومها ، وتقدمها ورقيها ، وحضارتها الحديثة .

لقد غير إدخال الصفر على الأرقام العربية المفاهيم البالية ، وجعل الأرقام تستقيم في مواقعها الصحيحة بسهولة ويسر دون لبس أو تعقيد ، والواقع أن الصفر بالنسبة لنا الآن أصبح أمرا سهلا ، لا يحتاج

* دكتوراة في الهندسة ، وكيل وزارة الاسكان في البحرين ، مدير ومؤسس بيت القرآن

إلى تفكير أو عناء ، لأننا نتعلمه ونحن أطفال ، لكن الوضع مختلف عند اختراعه ، إذ أنه كان في ذلك الوقت من أهم الانجازات الرئيسية في تاريخ الانسانية . ويمكن للمرء الآن أن يتصور كيف ستسير الأمور دون استعمال الصفر . كما أن إدخال الصفر في المعادلات الجبرية العربية قد فتح مجالا وآفاقا جديدة أمام علماء ذلك العصر ، لم تكن معروفة قبل ذلك الحين .

لقد استعمل العرب كلمة الصفر للدائرة التي تملأ الفراغ بين الأرقام العربية ، وفي نفس الوقت تعني لا شيء . وقد أخذ كثير من الشعوب تسمية الصفر من العربية ، فالأسبان يسمون الصفر ثيفر (الاسبان ينطقون (ث) بدلا من (الصاد) ، والانجليز يسمونه « زيرو » أو « صايفر » ، أما باللغة الفرنسية فهو « شيفر » ، وفي اللغة الايطالية اسمه « شيفرا » ، لكن الالمان سموا الصفر « تسفر » .

الأرقام الغبارية والأرقام الهوائية :

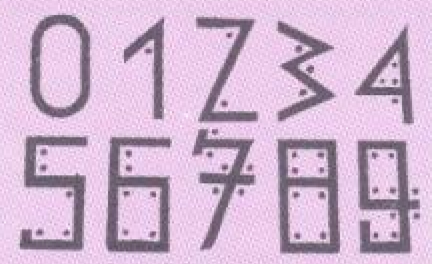
يقول الأستاذ الكبير قدري حافظ طوقان في مقدمة كتابه عن تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك : « فالتراث الذي خلفه الأقدمون والانقلابات التي تتابعت هي التي أوصلت الانسان إلى ما وصل إليه ، وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة تمهد السبيل لظهور جهود جديدة ، من أفراد أو جماعات أخرى ، ولولا ذلك لما تقدم الانسان ، ولما تطورت المدنيات ، ذلك لأن الفكر البشري يجب أن ينظر إليه ككائن ينمو ويتطور ، فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة في أوقات خاصة ، تمهد لأدوار أخرى معينة .

ويتابع الأستاذ قدري فيقول : « فاليونان (الاغريق) مثلا قاموا بدورهم في الفلسفة والعلوم ، وكان هذا الدور الذي قام به العرب ، وهو الدور الذي مهد الأذهان والعقول للأدوار التي قام بها الغربيون فيما بعد ، وما كان لأحد منهم أن يسبق الآخر ، بل إن الفرد أو الجماعة كانت تأخذ عن غيرها ممن تقدمها ، وتزيد عليه ، فوجود ابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، وأمثالهما ، كان لازما وممهدا لظهور « غاليلو » ، و « نيوتن » ، فلو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر « نيوتن » أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ، ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ « غاليلو » من حيث بدأ جابر ، وعلى هذا يمكن القول : لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر ، من النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد .

حساب الجمّل :

قبل أن تستعمل الأرقام العربية المتداولة في مشرق الوطن العربي ومغربه كان العرب يستعملون حساب الجمل ، وهو استخدام الحروف الأبجدية للدلالة على الأعداد ، فقد كان كل حرف يمثل قيمة عددية معينة ، فالعدد واحد (1) كان ممثلا بحرف (أ) ، والعدد اثنين بحرف (ب) ، والعدد ثلاثة بحرف (ج) ، وهكذا حتى عدد عشرة الذي يمثل بحرف (ي) حسب ترتيب أبجد هوز ، وابتداء من عدد عشرين حتى عدد مائة يمثل حرف (ك) عدد عشرين ، ويمثل حرف (ل) عدد (٣٠) ، وحرف (م) = (٤٠) ، وحرف (ن) = (٥٠) وهكذا حتى عدد مائة وابتداء من عدد مائتين يمثل حرف (ر) عدد مائتين ، وحرف (ش) = (٣٠٠) ، وحرف (ت) = (٤٠٠) ، وحرف (ث) = (٥٠٠) وهكذا حتى عدد ألف الذي يمثله حرف (غ) وهو آخر حروف العربية على ترتيب أبجد هوز .

فلو أننا أردنا أن نعبر عن عدد 272 لجاز لنا أن نكتب كلمة عرب ، ومسلمون كلمة عددها بالجمّل 226 وكلمة شعب ، عددها 372، وعدد اسم محمد بالجمل 92، وكلمة (البحرين) عددها بالجمّل 301، أما كلمة (سلام) فعددها بالجمل 131 .



دور الزوايا في تشكيل الأرقام العربية

نظامان للترقيم

لقد ابتكر العرب في العصر العباسي نظامين عربيين للترقيم ، هما الأرقام الهوائية ، والأرقام الغبارية . وانتشر استعمال هذه الأرقام في الأقطار الاسلامية خلال القرن الثاني الهجري . وقد طوروها ، وهذبوها ، وأصلحوا كتابتها ، وحسنوا أشكالها ، فأصبحت آية من الاتقان والضبط والسهولة في الكتابة والقراءة ، وفي هذين النظامين للأرقام استعمل الصفر الذي اشتق من دائرة ذات مركز في الوسط ، وقد استعملت الدائرة لتكون الصفر في الأرقام الغبارية ، أما الأرقام الهوائية فقد اتخذت النقطة المتواجدة في مركز الدائرة ، لتعبر به عن الصفر .

وقد استعملت الأرقام الهوائية من قبل أبي الجبر والحساب العالم الاسلامي الجليل محمد بن موسى الخوارزمي في كتابه « حساب الجبر والمقابلة » في حوالي سنة 200 هجرية (164 / 235 هـ) . في عهد الخليفة المأمون ، وقد سميت هذه الأرقام كذلك « الأرقام الهندية » ، و « الأرقام الخوارزمية » ، وهذه الأرقام هي نفسها المستعملة في المشرق العربي وبعض البلاد الاسلامية ، أما الأرقام الغبارية فهي المستعملة في المغرب العربي وفي الأندلس إبان الحكم الاسلامي ، وقد انتقلت إلى اوروبا والغرب عبر جبال البرتيز الاسبانية ، ليطلق عليها هناك اسم « الأرقام العربية » (Arabic Numbers) ، لكننا في المشرق العربي نطلق عليها خطأ اسم « الأرقام الغربية أو الأرقام الإفرنجية » ، ومهما يكن من أمر فإن النظامين المتبعين في المشرق والمغرب العربي يرجعان إلى أصول عربية واحدة ، استعملت جميعها باتقان ومعرفة تامة منذ النهضة العلمية للفكر الاسلامي .

ولقد سميت الأرقام الغبارية بهذا الاسم لأنها كانت تكتب في القديم على طاولة ، أو على لوحة تكسوها طبقة خفيفة من الرمل ، أما الأرقام الهوائية فقد سميت بهذا الاسم لأنها كانت تعد وتحسب في الذهن .

الأرقام العربية سهلة التعليم

لا بد من وقفة سريعة للتحدث عن مزايا الأرقام العربية ، الغبارية منها والهوائية على حد سواء ، فإن هذه الأرقام العربية مكونة من عشرة أشكال بسيطة ومنها الصفر ، ويمكن تركيب وكتابة أي عدد منها مهما كان كبيرا من هذه الأشكال العشرة ، وهذه الميزة الطبيعية قد أعطت السبق للأرقام العربية على الأرقام الرومانية المكونة من أشكال وحروف عديدة ، وكذلك على الأرقام اليونانية ، وعلى العربية القديمة المرتبطة بحروف أبجد هوز في حساب الجمّل ، كما أن الأرقام العربية سهلة الاستعمال والتركيب والكتابة ، ويمكن فهمها بسهولة تامة دون عناء أو صعوبة ، كما أن طابعها المنطقي البسيط قد جعلها سهلة في التعليم ، ميسرة للفهم ، مطواعة ، جيلة الشكل والتناسق ، وهي صالحة للنظام العشري ، ولجميع العمليات الحسابية والجبرية والرياضية التي لم يكن ممكنا القيام بها دون الأرقام العربية المبسطة .

الارتباط بعلم الزوايا

الأرقام العربية الغبارية مرتبطة بعلم الزوايا ، فكل زاوية تمثل رقم العدد ، فالرقم واحد يتكون من

زاوية واحدة ، والرقم اثنين يتكون من زاويتين ، والرقم ثلاث يتكون من ثلاث زوايا ، وهلم جرا ، إلى أن نصل إلى العدد تسعة ، وهو مكون من تسع زوايا،ولم يستعمل نظام الزوايا بالنسبة للصفر ، بل استعملت الدائرة ، لأنها ليست رقما أو عددا ، وإنما هي مكونة من لا شيء والقصد من استعمالها هو للدلالة على موقع الفراغ بالنسبة للأرقام ، ووضعها في الخانات الصحيحة ، لتفرق بين الخانة الأحادية والعشرية والمئوية . . . إلخ .

وقد أدخل العديد من التعديل والتجويد على الزوايا المختلفة للأرقام العربية الغبارية ، فأصبحت بشكل مقبول متناسق ، لا سيما بالنسبة للأرقام المكونة من مربعات ، حيث حلت مكان الزوايا الاستدارة والدائرة ، فأصبحت أكثر سهولة في الكتابة والتركيب والشكل .

العالم يستعمل الأرقام العربية

إن العديد من دول العالم تستعمل الأرقام العربية الغبارية ، وتسميها باسمها الحقيقي الأصلي ، وتنسبها إلى مصدرها (Arabic Numbers) ، وهي بالنسبة للعالم المتطور المتحضر موضوع مسلم به ، لا يمكن الاستغناء عنها ، وليس لها بديل ، وهي لغة الحضارة والتقدم ، وأساس العلم والتقنية المعاصرة . هذه الأرقام العربية الغبارية ما تزال بعض المصادر الأجنبية تخلط بينها وبين الأرقام الهندية القديمة ، فتسميها الأرقام الهندية العربية ، والواقع أن الأرقام الهندية تختلف اختلافا كاملا عن الأرقام العربية الغبارية المستعملة في المغرب ، إلا أن هذه المصادر مصممة على استعمال هذه المعلومات الخاطئة ، إما لعدم الالمام والاطلاع ، أو لأن هذه المصادر مأخوذة من المراجع الأوروبية التي لم تنهج المنهج العلمي الدقيق في بحوثها عند الكتابة عن الأرقام العربية آنذاك .

تستعمل الأرقام العربية الغبارية في معظم بلدان العالم . كما تستعمل الأرقام العربية الغبارية في اللغة العبرية الحديثة ، واللغة الاغريقية الحديثة (اليونانية) ، إلا أنه من المؤلم حقا أن نرى الوطن العربي منقسما على نفسه،فأقطار المغرب العربي تستعمل الغبارية ، وأقطار المشرق العربي تستعمل الهوائية ، ويقال إن هذا الاختلاف قد جعل دولة إسلامية عندما بدأت في التعريب الكامل تتحول من الأرقام الغبارية التي كانت مستعملة فيها إلى الأرقام الهوائية التي كانت تستعملها في السابق قبل التجديد ، وكلها في الواقع أرقام عربية لا تحتاج إلى تبديل .

لقد كان العرب المسلمون إبان النهضة العلمية أول من استفاد من علوم العصر وطورها ، لكننا في وقتنا الحاضر نتحدث عن تكوين اللجان لدراسة الامكانية والاستبيان بالنسبة لتوحيد الأرقام .

لقد عرف الغرب فائدة الأرقام العربية الغبارية فاستعملها دون حرج أو شعور بالعيب أو تهاون ، لكننا في المشرق العربي ما نزال نطالب الجامعة العربية أن تأتي وتحل لنا إبهام الأرقام العربية التي هي في الأصل جزء من حضارتنا والتي تستعمل على نطاق دولي عالمي . وقد قامت الجامعة العربية بتكليف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد دراسة ترمي إلى توحيد الأرقام العربية ، ولم يستجب لهذا القرار إلا العراق وسوريا وليبيا ، وعلى ما أعتقد في حدود ضيقة محدودة بالاضافة إلى المغرب وتونس والجزائر وموريتانيا والصومال وجيبوتي .

متى نوحد الجهود ؟

لقد أثيرت مشكلة اختلاف الأرقام المستعملة في كل من المشرق والمغرب العربيين رسميا ، بقصد توحيدها خلال المؤتمر الأول للتعريب الذي انعقد في المملكة المغربية في عام 1961، ومنذ ذلك الحين والدراسات تقدم من قبل المؤسسات العلمية واللجان تعقد ، والقرارات تتخذ ، لكن ما نزال كما كنا ،

تدور في دائرة مفرغة كما يقولون ، لا نريد أن نتخذ القرار الشجاع باستعمال أرقام عربية موحدة ، وكأننا نعيش في العصور الوسطى التي عاشتها أوروبا ، ووصفتها المستشرقة الالمانية زيغريد هونكه : « ووقع الناس في حيرة من أمرهم ، فهم لا يستطيعون نسيان ما اعتادوا عليه قرونا طويلة من استعمالهم لأرقام رومانية ، وهم في الوقت نفسه يتوقون إلى تعلم تلك الأرقام البسيطة ، ونحن كذلك لا نريد أن نعترف أن الأرقام العربية الغبارية والهوائية هما من أصل عربي واحد ، وما هو مطلوب منا أن ننتخب الأكثر فائدة وملاءمة ودقة وجودة ، والأكثر استعمالا وشيوعا في العالم أجمع .

لقد وافقت لجنة التنسيق التابعة للجامعة العربية على الدراسة التي أعدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حول موضوع توحيد الأرقام العربية ، على استخدام الأرقام العربية الغبارية في المنظمات العربية التابعة للجامعة العربية ، كما قررت أن ترفع الدراسة إلى الجهات المعنية في الحكومات العربية ، للاعلان عن رأيها في استخدام الأرقام العربية الغبارية بصورة رسمية ، ومعنى هذا أن الموضوع ما يزال معلقا ، ينتظر إعلان الآراء السديدة .

إن المؤسسات العلمية ، والمنظمات العربية ، والجمعيات العلمية ، والمكاتب الاستشارية المشرقية ، والعديد من المؤسسات المصرفية ، تساند استعمال الأرقام العربية الغبارية ، لأسباب عديدة ، أهمها :-

- أنها أرقام كان للعرب دور رئيسي في اختراعها وصقلها وتهذيبها واستخدامها ونشرها في العالم .

- أنها تحمل اسم الأرقام العربية (Arabic Numbers) في اللغات الأجنبية ، ومستعملة تقريبا في جميع أنحاء العالم ، وفي عدة أقطار عربية في المغرب العربي وبعض أقطار المشرق العربي .

- أنها تغني عن ترجمة الجداول الرياضية ، وتخفف أعباء ترجمة الأرقام في الكتب العلمية .

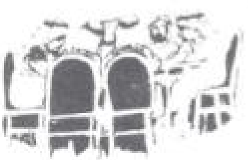
- أنها تحل مشكلة الصفر ، فهو دائرة متميزة في الأرقام الغبارية ، لا نقطة ضائعة ، كما هو الحال في الأرقام الهوائية ، مما قد يسبب صعوبات والتباساً وعدم تمييز .

- أنها تحقق مبدأ عالمية الأرقام الذي هو مبدأ مفيد ، ذو مردود متميز في العلاقات الدولية .

إنه لا بد لنا أن ننطلق في إطار متكامل من خلال مخطط سليم لاستعمال الأرقام الغبارية في الوطن العربية بأكمله ، بدلا من الأرقام الهوائية المستعملة في المشرق العربي ، ولا بد أن تبدأ هذه الانطلاقة في الجامعات والمؤسسات العلمية ، كما أن للصحافة دوراً مهماً في توعية الناس ، وحثهم على تقبل الأرقام الغبارية ، وإن خير نجاح يمكن أن يحققه هذا التطلع هو أن تبدأ الصحافة والجامعات والمؤسسات العلمية باستعمال الأرقام الغبارية على جميع المستويات ، كما أن استعمال الأرقام الغبارية على لوحات السيارات سيعطي مردودا إيجابيا مفيدا نافعا ، وسيمكن المسئولين من استعمال رقم واحد موحد بدلا من المزاوجة بين الأرقام الغبارية والهوائية في بعض الأقطار العربية .

والواقع أننا نعيش الآن نهضة علمية تقنية فنية متقدمة متفتحة ، يشكل الرقم العربي الغباري مركزا رئيسياً فيها ، كما أن علوم الحاسوب قد فجرت ثورة عارمة في عالم المعرفة ، واستعمال الأرقام العربية الغبارية في هذا العصر أصبح مطلبا واقعيا علمياً ملحّاً من أجل الأجيال القادمة ، ليتمكنوا من الاستفادة ، ومسايرة علوم العصر وتطوراته ، وسيحل ذلك كثيراً من التعقيد وصعوبة الفهم .

من هذا المنطلق فإن أقطار المشرق العربي ـ ومنها أقطار مجلس التعاون الخليجي ـ مدعوة بأن تأخذ زمام السبق والمبادرة ، وان تضع الخطوات العملية والفعلية لاستعمال الأرقام العربية الغبارية في أقرب فرصة ممكنة □



منتدى العربي

تعقيب

الجنس الثالث
بين الأنوثة والذكورة

قرأت المقالة التي نشرت في عدد ديسمبر ١٩٨٦ ، والتي كتبها الدكتور نجم عبد الله عبد الواحد بعنوان « الجنس الثالث » . . مرض نفسي أم خلل هرموني ؟ ، وأود إيضاح بعض النقاط التي وردت في تلك المقالة .

أولا : أعطى العنوان شعورا بتشابه حالات المرض النفسي واختلال الهرمونات ، ولذا فأنا أطمع في سعة صدركم وصدر القراء في أن يسمحوا لي بإيضاح ما بين الحالين ، إن حالات المرض النفسي يشاء فيها الشخص تغيير جنسه ، وما هي إلا اختلال نفسي لانسان سليم جسمانيا ، بمعنى أنه كامل التكوين ذكراً أو أنثى ، وأن ما يحدث هو أن يشاء رجل كامل الذكورة « أو سيدة كاملة الأنوثة » أن يتحول الى الجنس الآخر ، وهذه الحالة يطلق عليها بالانجليزية اسم Transsexuality ، ويتم فعلا إجراء عمليات لهؤلاء الأشخاص ، لجعل أعضائهم التناسلية تبدو بقدر الامكان شبيهة بأعضاء الجنس الجديد . وهناك حالة أخف نوعا من ذلك وهي حالة التشبه بالجنس الآخر من حيث الملبس ، وتسمى Transvistism .

وأتفق تماما مع دكتور نجم أن هذه الحالات ليست سوى اطلاق للشهوة ، والعبث بما لا يجوز أن يعبث به ، وإن كنا نسلم باستنكار تلك الحالات ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن يكشف العلم عن أنواع من الخلل في مواد المخ الكيميائية ومستقبلاته تكون مسئولة عن هذه الحالات ، شأنها في ذلك شأن بعض الأمراض النفسية الأخرى ، أو بعض السلوكيات . (ولنضرب مثلا بسيطا : حيث اكتشف أن حرمان المسجونين ذوي الميول العدوانية من المواد السكرية يؤدي الى تقليل ميولهم تلك) .

ثانيا : أما حالات اختلاط الصفات الذكرية والأنثوية في نفس الشخص ، والمسماة بالتخنث Irtersexuality فهي نقص جسماني في صفات الذكورة أو الأنوثة ، شأنها في ذلك شأن من يولد بزيادة أو بنقص في عدد الأصابع مثلا .

ولنبدأ معا الرحلة داخل بطن الأم لنرى التطور الجنسي للجنين الذي يتم على ثلاث مراحل :

تبدأ المرحلة الأولى بتأسيس التركيب الوراثي للجنين ، حيث يكون الذكر « ٤٦ ، س ص » والأنثى « ٤٦ ، س س » ، أي يشترك الذكر والأنثى

في ٤٥ كروموسوما ويختلفان فقط في الكروموسوم السادس والأربعين ، فإن كان « س » فيتم في أغلب الحالات تكون المبيض في الجنين الأنثى ، وإن كان « ص » فيتم تكون الخصية في الجنين الذكر .

من عجائب خلق القدير الحكيم أن الجنين بدءا يملك الأعضاء التناسلية الداخلية والخارجية للجنسين معا ، أي أن الجنين الذكر والأنثى يبدوان متطابقين أول الأمر ، فكل جنين عنده قناة مولر (التي يتكون منها الرحم والأنابيب فيما بعد) ، وفي نفس الوقت عنده أيضا قناة وولف (التي يتكون منها الوعاء الناقل للمني والبربخ وغيره فيما بعد) ، هذا عن الأعضاء الجنسية الداخلية . أما عن الأعضاء الجنسية الخارجية فتتكون من البروز التناسلي (الذي يكون إما القضيب في الذكر أو البظر في الأنثى) ، والثنيات الشفرية الحبالية (التي تكون الحبال الذكرى في الرجل أو الشفرين الصغيرين في الأنثى) والورمين الشفريين الصفنيين اللذين يكونان الصفن وهو كيس الخصية في الرجل أو الشفرين الكبيرين للفرج في الأنثى) .

وما يتم في هذه المرحلة هو أن تفرز الخصيتان الهرمونات الخاصة بها التي تؤدي الى نمو قناة وولف ، وضمور قناة مولر ، مما يؤدي الى نمو الأعضاء الجنسية الداخلية الجانحة الى ناحية الذكورة وأيضا تؤدي هذه الهرمونات الى نمو البروز التناسلي ليصبح قضيبا ، وتلتحم الثنيات والورمان ليتكون الحبال الذكرى والصفن على أكمل وجه .

وجدير بالذكر أنه على قدر علمنا يلزم لتكوين المبيضين تركيب وراثي سليم « ٤٦ ، س س » ولكن لا يقوم المبيض بأي دور في تكوين الأعضاء الجنسية ، أو بمعنى آخر عدم وجود غدد تناسلية على الاطلاق سوف يؤدي الى تكوين أعضاء تناسلية أنثوية داخلية وخارجية ، كما لو أن الطبيعة جعلت الأساس أن يتم التكوين على هيئة أنثى ، مالم تتدخل هرمونات الخصية لإحداث الأثر العكسي .

ونأتي الآن لشرح الاختلالات الممكنة بطريقة موجزة مبسطة ، وهي تنقسم أساسا الى ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : وهي التي تنتج عن اختلال التركيب الوراثي ، مما يؤدي الى تكوين أعضاء تناسلية شائهة ، إما داخليا أو خارجيا ، أو الاثنين

المجموعة الثانية : وهي أن يتعرض الجنين الأنثى ذو التركيب الوراثي السليم لهرمونات ذكرية ناتجة من الغدة الكظرية ، لاختلال الانزيمات فيها ، أو ناتجة عن تعاطي الأم أثناء حملها للهرمونات ، وفي الحالتين تتكون أعضاء تناسلية خارجية تجنح الى الذكورة .

المجموعة الثالثة : وهي أن يولد الطفل ذو التركيب الوراثي السليم « ٤٦ ، س ص » ، ولكنه على هيئة أنثى خارجيا ، أو ما بين الذكر والأنثى .

ثالثا : ونسأل أنفسنا الآن أين الحالة النفسية ، وإحساس الشخص بجنسه من حالات التخنث المذكورة في البند الثاني ، بل وتكملة لهذا السؤال نقول : ماذا يحدد إحساس الفرد بجنسه ؟ هل هي الهرمونات التي تعرض لها قبل الولادة ، أو عند البلوغ ، أم هي البيئة المحيطة للطفل منذ ولادته ؟ بل ونتساءل لماذا يحدث في بعض الأحيان أن يطالب المريض بتحويل جنسه الى العكس على الرغم من عدم معرفته المسبقة باختلال وظائفه الجنسية ؟

في الحقيقة تنقسم الآراء في هذا الموضوع الى قسمين : القسم الأول يتزعمه البروفسور موني من جامعة جونز هوبكنز ، ورأيه أن الطفل يعرف جنسه بناء على معاملة البيئة المحيطة به ، وأن التربية الجنسية للفرد هي أهم العوامل التي تحدد إحساس الفرد بجنسه ، أما القسم الثاني الذي يتزعمه البروفسور امبراتوماجتكي من جامعة كورنل فرأيه أن هرمونات الذكورة تطبع في خلايا المخ حالة معينة ، تميز الطفل الذكر عن الأنثى ، في اللعب والملبس والميول العدوانية . □

الدكتور يحيى زكريا جاد



الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

رجل الجبل الأسطوري ... والعلم

● ثمة ظواهر طبيعية طالما استعصى تفسيرها على العلم .. نذكر من تلك الظواهر مثلث برمودا .. والأطباق الطائرة .. والوحش الاسطوري المتواري في بحيرة نيس في اسكتلندة .. ونذكر منها أيضا رجل الجبل ..

أو ان شئت القدم الكبيرة (Big Foot) كما يسميه البعض أو (سسكواتش) (Sasquatch) كما يسميه البعض الآخر ، وذلك في المناطق التي تواترت أخباره فيها ، وفي ولاية واشنطن ، وولاية اوريجون على وجه التخصيص . وعلى كثرة ماجمع الصيادون وهواة المشي من شواهد تدل على وجود رجل الجبال فان أغلبية العلماء تطعن في تلك الشواهد ، وترفض القصص التي تتردد عن رجل الجبال وتعتبرها أضغاث أحلام .. فهم بحاجة الى دليل علمي قاطع ليعيروا تلك الظاهرة اهتمامهم ، ولم يبادر أي من العلماء الى البحث عن ذلك الدليل حتى تولى المهمة جروفر كرانتز (Crantz) وهو أحد علماء الأنثروبولوجيا في جامعة واشنطن .

وركز كرانتز جهوده على الآثار التي تركتها القدم الكبيرة هنا وهناك على ثلوج الجبال ، فجمع من هذه الآثار ١٢ أثرا تشمل تلك التي جمعها رجال مصلحة الغابات في الولايات المتحدة .. ثم صنع العالم قوالب من جبس لتلك الآثار ، وظهرت على ثلاثة منها بصمات مميزة تشبه البصمات التي يحملها ابهام اليد ، وفحص الخبراء تلك البصمات (Dermel Ridges) وأجمعوا على أنها أصيلة ..

وكشفت القوالب على أن طول القدم الكبيرة يبلغ ١٧ بوصة وأن كاحلها أكثر تقدما الى الأمام من كاحل الانسان العادي ، وذلك بالقدر الذي يستوجبه وزن رجل الجبل ، وهو يبلغ (٥ - ٦) أضعاف وزن الرجل العادي ، اذ لا يقل وزنه عن ٨٠٠ رطل انكليزي حسبما تؤكد الدراسات العلمية الدقيقة ، ويبلغ طوله ٨ أقدام أو يزيد ، وله ساقان لا تختلفان عن سيقان البشر العاديين ، من حيث طولها ونسبته الى طول الجسم . هذا بخلاف ذراعيه وهما أطول نسبيا من أذرع البشر . وتتباعد كتفاه بمقدار ياردة . وله جبين متراجع يذكرك بجبين الغوريلا . أضف الى ذلك أن الشعر يغطي جسمه كله ماعدا الوجه وقبضات اليدين ، وأنه يقبل على أكل الجذور والفئران

ويتوي العالم كرانتز القيام بجولات هليوكبتر شاملة للمناطق التي يسكنها رجل الجبل حسبما تؤكد التقارير ، وسيعتمد في تلك الجولات على أجهزة تستطيع الكشف عن جثة رجل الجبل ان كان ثمة جثة ، وذلك بواسطة الأشعة تحت الحمراء .

والجدير بالذكر أن عالم الأنثربولوجيا (كرانتز) يعتقد جازما بوجود رجل الجبل ، ويعتقد أيضا أنه من بقايا الفصيلة التي أدت الى ظهور الانسان في الوقت المناسب قبل ملايين السنين .

□□

عقار يبطل مفعول الخمور

لعل أخبار المكتشفات والمخترعات التي تأتي وليدة الصدفة تكون أبعث على التشويق والاثارة من أخبار تلك التي تأتي نتيجة البحث الهادف والتخطيط . ويصدق هذا بخاصة في الحالات التي تنجح فيها الصدفة حيث يفشل التخطيط . . وهذا هو بالضبط ماحدث للمركب الذي مازال يعرف باسمه المخبري : (Rois-4513)والذي يبطل مفعول السكر تماما في غضون ٤ ـ ٥ دقائق ، فلطالما بحث عنه العلماء بلا طائل ، مما دفع بعضهم للبحث عن مركب يبطل مفعول (الفاليوم) وقد فاجأتهم الصدف بمركب يبطل مفعول الخمور لا المهدئات ، لا عجب اذن أن أقدم معهد الصحة العقلية (التابع للمعهد الوطني في الولايات المتحدة) على مواصلة الأبحاث ، فقد بادر بيترسوزداك (Suz-dak) وهو جراح أعصاب معروف ينتمي الى المعهد المذكور ، بادر هو وزملاؤه في المعهد الى اجراء الدراسات والتجارب المخبرية التي تتحرى مدى فاعلية المركب (Rois) ونذكر من تلك التجارب ، على سبيل المثال ، تلك التي قدم فيها العلماء الخمرة بكميات لا يستهان بها الى عدد من فئران المختبر ، وما أسرع ما سكرت الفئران ، واستلقت على المائدة دون حراك ، ثم حقنها العلماء بمركب (Rois) واذا بالفئران تتحرك في غضون دقيقتين ثم تصحو ويزول عنها السكر تماماً في غضون ٤ ـ ٥ دقائق ، وكأن شيئاً لم يكن .

وأثبتت الدراسات الجديدة أن للمركب المذكور فوائد اخرى عديدة فهو يزيد التحكم بالعضلات ، وحضور البديهة ، والقدرة على اصدار الاحكام واتخاذ القرارات ، ناهيك بتقوية مشاعر الثقة والاكتفاء ، وهي عكس المشاعر التي تسيطر على السكارى .

وذهب سوزداك ورفاقه الى أبعد من ذلك ، فقد نجحوا في الكشف عن سر فاعلية (Rois -4513) . . فهو يمنع التوافق بين الكحول وبين مادة جابا (Gaba) . . وهي المادة المخدرة الطبيعية التي يفرزها الجسم في أوقات الشدة ، وذلك من أجل تخدير المخ ووقايته والتي لولاها ولولا التوافق معها لما كانت الخمور مسكرة ، فالمركب الجديد يبطل هذا التوافق . . ويبطل بالتالي مفعول السكر . . كما أسلفنا .



سلامة البشرية في سلامة البيئة

أبقار صغيرة بحجم الدجاج

لعل أطرف التجارب العلمية وأبعثها على الدهشة ، هي تلك التي تتمخض عن صنوف جديدة من المخلوقات ، تختلف اختلافا جذريا عن الصنوف الأولى التي طورت منها، ويعجب المرء أن تكون المكسيك هي البلد التي أجريت فيها التجربة الغريبة التي نحن بصدد الحديث عنها .. وأن تكون في نظر الكثيرين بحكم ثورة زراعية خضراء ، ولكن في مجال تربية المواشي لا في مجال النبات .

كانت البداية قبل ١٧ عاما ، في مطلع السبعينيات ، حين اجتمع المدعو انجل كسترليون تالن وهو عالم اجتماع وصاحب مزارع بالدكتور مانويل برويكوس فيلالوبوس الاختصاصي في علم الوراثة ، والمدير المسؤول بكلية الطب البيطري في جامعة المكسيك المستقلة الوطنية التي تقع في شمال شرق البلاد . وفكر الرجلان فيما عساهما أن يفعلا لتطوير بقرة قزمة ، تكون قليلة التكاليف ولا تحتاج مساحة كبيرة من المرعى ، وهذا هو بيت القصيد .

ووقع اختيارهما على بقرة (الزبو) ، وهي بقرة هندية - برازيلية اشتهرت بضخامتها .. فهي تبلغ (٦) أقدام طولا و (٢٠٠٠) رطل انجليزي وزنا

ومضى عالم الوراثة في اجراء أبحاثه وتجاربه العلمية التي يستوجبها القصد من المشروع ، وراح يهجن البقر من الفصيلة المذكورة على مدى خمسة أجيال وذلك وفق حسابات علمية دقيقة ومعقدة حتى توصل الى توليد البقرة الصغيرة التي يريد ، نقول صغيرة والأجدر بنا أن نقول قزمة ، اذ لاتبلغ البقرة المهجنة من الطول سوى (٢-٣) أقدام .. ولا يزيد وزنها على (٣٠٠) رطل .

والأهم من ذلك أن البقرة القزمة تكتفي بعشر المرعى الذي تحتاجه بقرة الزبو الأصلية ، أي أن مساحة ٣ فدادين من المرعى تفي بحاجة (١٠) بقرات قزمة ، وهي لاتكاد تفي بحاجة بقرة من بقر الزبو الضخم .

وفوجىء العالمان بميزات أخرى للبقرة المولدة لم يتوقعاها، فقد أثبتت أنها حلوب ودارّة للبن أيضا ، فهي تعطي ٣-٤ لترات من اللبن يوميا ، أي أكثر من نصف ما تعطيه البقرة الأم الضخمة ، وهو لايزيد على ٦لترات في اليوم وأثبتت أيضا أن لحمها مستطاب ولا يقل عن سواه من حيث قيمته الغذائية ، ومقدار ما يحتويه من البروتين ..

بيد أن البقرة القزمة ليست مثالية ، بل إنها تسبب لأصحابها من المشاكل ما لم يكن في الحسبان ، فهي أليفة جدا ، وكثيرا ما تضيع في المراعي وتختفي بين حشائشها الخضراء ..

والجدير بالذكر أن احدى حدائق الحيوان في الولايات المتحدة حاولت شراء الأبقار المولدة كلها ،

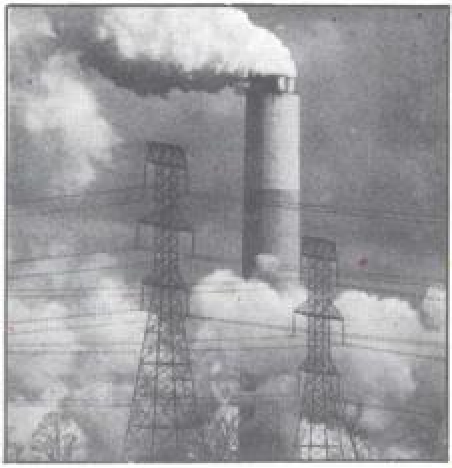
وعددها ثلاثون بقرة أو يزيد ، وذلك لقاء أثمان مغرية ، ولكن بلا طائل .

أما وكالة الأنباء المكسيكية فقد أثنت على المشروع أعطر الثناء ، وشجعت المكسيكيين جميعا على تربية الأبقار القزمة ، فحدائق المنازل تكفي لتربيتها وان لم توجد الحدائق فسطوح المنازل تفي بالحاجة .

الولايات المتحدة تصدر الأمطار الحمضية الى كندا !

ساءت العلاقات بين كندا والولايات المتحدة أكثر من أي وقت مضى ، فالملوثات التي تتصاعد في الجو لتهطل أمطارا حمضية في كندا مازالت على حالها ، ومازالت تسبب الاضرار البالغة لكندا وأهلها ، هذا بالرغم من الوعود التي قطعها المستر ريجان لرئيس وزراء كندا المستر ملروني في مؤتمرات القمة التي عقداها مؤخرا . وقد جاء آخر تلك الوعود في مطلع السنة الحالية ، وتضمن التزام الرئيس الأمريكي برصد ٢٥٠٠ مليون دولار لاجراء الدراسات الكفيلة بتطوير طرق أنظف لاحتراق الفحم ، تضمن احتراقه دون توليد الملوثات . .

والجدير بالذكر أن أكاسيد النيتروجين وثاني أكسيد الكبريت ـ وهي الملوثات الرئيسية التي تتصاعد في الجو وتتحد مع الرطوبة لتكون الأمطار الحمضية ـ مازالت تتدفق من أجواء الولايات المتحدة الى الأجواء الكندية ، ذلك أن محطات توليد الطاقة في ولاية أوهايو ووست فرجينيا وولاية أنديانا والينوي وكنتاكي وبنسلفانيا هذه المحطات التي تعتمد على الفحم وقودا هي المسؤولة عن تلويث أجواء كندا بحوالي١٧ مليون طن من ثاني أكسيد الكبريت سنويا ، أما أكاسيد النيتروجين التي تتراكم في الأجواء الكندية بمعدل ١٢ مليون طن في السنة ، فالمصادر المسؤولة عنها كندية ، وهي مسابك النحاس والنيكل في انتاريو وكويبك ومانيتوبا . . يضاف الى هذا وذلك نحو ٢٥ مليون طن من الملوثات المختلفة التي تتراكم في سماء كندا سنويا ، تقذفها السيارات في كلا البلدين ، ولا ننسى البراكين الموجودة في المنطقة فهي مسؤولة أيضا عن الملوثات التي تعاني منها كندا ،



أحدى محطات التوليد الكهربائي في أوهايو (في الولايات المتحدة) تنفث سمومها التي تتوجه الى كندا دون تأخير .

ولكن نصيبها منها ضئيل ولا يجاوز ٥٪ . . .

تلك هي الملوثات التي سرعان ما تتحول الى أمطار حمضية فتبعث فسادا في غابات كندا وبحيراتها وتسبب الأضرار للحيوان والانسان في كل مكان .

فقد دلت الدراسات الجادة التي أجرتها كندا أن حوالي (١,٠٠٠,٠٠٠) ميل مربع من غاباتها الشرقية قد تضررت أو تلفت بسبب الأمطار الحمضية وأن أشجار سكر القيقب (Maple) التي تكون عصب الحياة في اقتصاديات كويبك قد تلفت بنسبة النصف تقريبا ، هذا الى جانب الأضرار التي لحقت بالبحيرات ، فقد تحولت المياه في ٢٠٠ من هذه البحيرات الى مياه حمضية تختنق منها الأسماك وتموت ، وتوشك أن تلقى نفس المصير في (٢٠٠٠) بحيرة أخرى من البحيرات الكندية . . □



حكايات طبية

حتى لا يدفن الناس أحياء !

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

وحشة اللحد وظلمة القبر أمران مخوفان مريعان ، ترتعد لذكرهما الفرائص ، وتنهزم الملذات ، هذا اذا كان المدفون ميتا ، فما بالك إن كان المدفون حيا ؟ .

نرى الكتب تطالعنا بقصص عديدة ، عن أشخاص دفنوا خطأ ، وهم لما يقضوا نحبهم بعد ، ونكاد نجد حكايات كهذه في كل أدب وثقافة .

ففي أدبنا العربي نجد مثلا العلامة أبا الفرج بن الجوزي يروي في « كتاب الأذكياء » أكثر من قصة ، عن أشخاص ظن أهلهم أنهم ماتوا بالسكتة ، فغسلوهم ، وكفنوهم ، ثم اكتشف الأطباء الفطنون بعد ذلك أنهم ما يزالون أحياء .

وفي كتاب « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي نجده يروي على لسان الحاكم أبي سعيد عبدالرحمن بن دوست إن بديع الزمان الهمذاني مؤلف المقامات المشهورة قد توفي يوم الجمعة الحادي عشر من جماد الآخرة [سنة ٣٩٨ هجرية] ، وقد سمع الحاكم الثقات يروون « أن البديع مات من السكتة ، وقد عُجّل بدفنه ، فأفاق في قبره ، وقد سمع صوته بالليل ، وأنه نُبش عنه ، فوجدوه قد قبض على لحيته ومات من هول القبر » .

على أن الخوف من الدفن حيا كان أكثر ما يكون شيوعا في القرن التاسع عشر في انجلترا وأمريكا ، ونرى من آثار هذا الخوف كثيرا في قصص (إدجار ألن بو) وسواه .

ولا شك أننا الآن نرى مثل هذا الخوف أمرا مبالغا فيه ، لذلك يصعب علينا تقدير أهميته ، ومداه ، في ذلك العصر ، ونكاد لا نصدق أن هذا الخوف لم يكن مقتصرا على فئة من الناس ، أو مجموعة ما ، بل كان يشمل الجميع على اختلاف مهنهم وثقافتهم .

وقد شاعت في ذلك العصر قصص عن أشخاص دفنوا خطأ ، وهم ما يزالون أحياء ، ثم سمعت أصوات في قبورهم ، وعندما نبشت القبور وجدت علامات تدل على أنهم دفنوا وهم أحياء حقا . وبغض النظر عن صحة هذه الروايات فقد كان انتشارها واسعا جدا .

وقد روي أنه في عام ١٨٥٣ مات طفل عمره عشرة أعوام غرقا ، في مقاطعة ويلز بانجلترا ، وعندما كان نعشه ينزل الى القبر سمعت أصوات طرقات مريعة من الداخل ، ولما فتح التابوت خرج الطفل وانطلق نحو والديه ، رغم أن الطبيب كان قد ذكر أنه مات منذ ساعات . وقد برر الطبيب قوله فيما بعد بأنه لم يعثر على أي نبض في شرايين الطفل ، وأن جلده كان باردا ورماديا .

ولا شك أن مفهوم الموت ودلائله تختلف جزئيا من فترة لأخرى ، فقد كان توقف القلب يعتبر دليلا أكيدا على الموت ، بينما لم يعد ذلك وحده مقبولا في كل الحالات ، خاصة أن من الأجهزة الحديثة ما يبقي ضربات القلب لفترة ما حتى بعد موت المريض ، كما أن نقل الأعضاء من شخص لآخر فرض تعاريف

جديدة لمفهوم الموت ، بحيث أصبح يعتمد الآن في بعض الحالات على موت الدماغ ، وانعدام الأمواج الكهربائية فيه ، على أن هذا الموضوع أمر جانبي ، استطردنا اليه ، لنبين أن مفهوم الموت ودلائله ما تزال موضع نقاش في نهاية القرن العشرين ، فلا عجب إذن أن يكون ذلك مثار حيرة وشك في العصر الفيكتوري في القرن التاسع عشر .

لقد عالج الفيكتوريون في ذلك الزمان الخوف من الدفن حيا بطريقتين : الطريقة الأولى هي تأخير الدفن لأيام أو أسابيع حتى يتم التأكد من الوفاة بحاسة الشم ، وذلك بالانتظار حتى تظهر الروائح الجيفية النتنة ، مما لا يدع مجالا للشك في أن الموت قد حصل حقا وصدقا ، وأن الميت العزيز قد غادر الدنيا الى غير رجعة .

لذلك لم يكن غريبا في ذلك العصر أن يبقى الميت دون دفن فترة طويلة ، حتى أن دوق ولنجتون القائد العسكري الفذ، والدوق الحديدي عندما مات عام ١٨٥٢ بقي دون دفن مدة شهرين ، حتى انتهت المناقشات العامة والمجادلات حول كيفية تنظيم جنازته ودفنه ومكان ذلك الدفن .

أما الطريقة الثانية للوقاية من الدفن حيا فكانت تقنية بحتة ، وذلك بوضع أجهزة إنذار ، تمكن الشخص الميت من الاعلان عن نفسه إذا استيقظ من رقاده ، فكان الأغنياء يدفنون بعد ربط تابوتهم بشبكة معقدة من الأنابيب الحديدية التي تتصل بالأرض ، وتحمل للميت الهواء إذا احتاج اليه ، وفي الوقت نفسه تحمل استغاثته إذا خطر له أن يقوم من غيبوبته ويستنجد ، لذلك كان لا يترك أحد الخدم الأوفياء الأمناء مكان القبر ليل نهار ، مدة شهر أو أكثر ، حيطة وحذرا ، حتى اذا طلب الميت المساعدة أسرع الى العمل على استخراجه من القبر .

أما من كانوا يدفنون في مدافن فوق الأرض فقد زودت توابيتهم بنوابض ، يمكن بواسطتها فتح غطاء التابوت من الداخل ، وبمجرد حدوث أيسر حركة يقوم بها الميت ، وكانت هذه الطريقة مفضلة لاعتقاد بعضهم أن الميت اذا صحا يكون في حالة من تغيم الوعي ، ولقد فتحت بعض هذه التوابيت نتيجة أخطاء (ميكانيكية) مما زاد في الاعتقاد بصحو بعض الأموات ، وبأنهم دفنوا وهم أحياء .

ولا شك أن مثل هذه الاحتياطات كانت مكلفة غالية ، لذلك كان الفقراء يلجأون الى احتياطات أرخص ، بأن يتركوا الى جوار الميت فأسا ومجرفة ، يساعدانه على إخراج نفسه اذا عادت اليه الحياة - حسب توهمهم - .

وتعددت وسائل الاحتياط - والاحتياط واجب - .

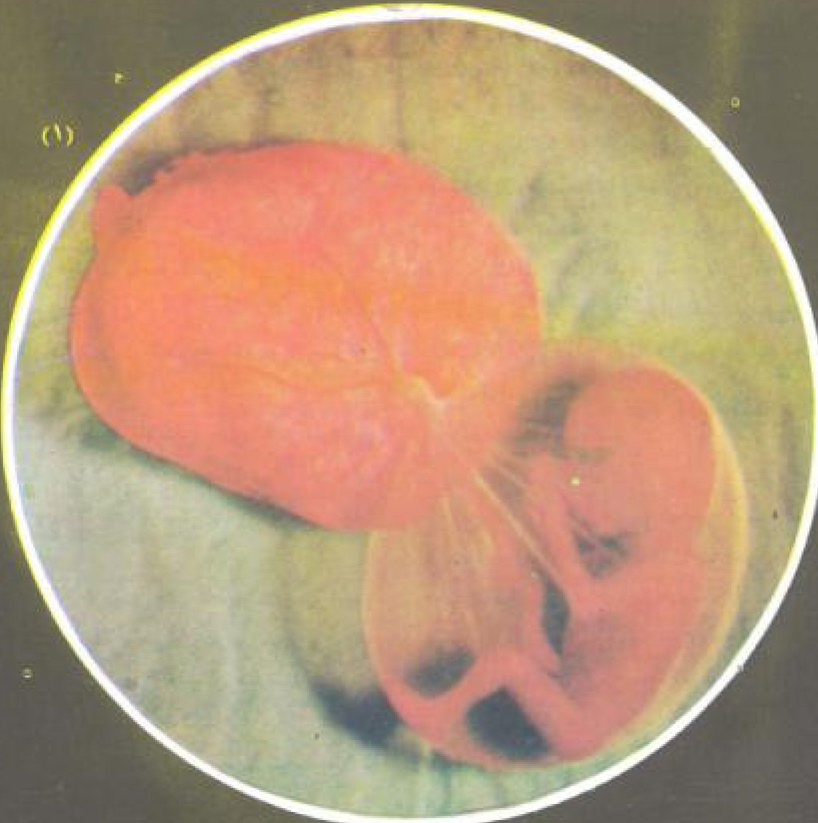
وفي عام ١٨٥٢ ابتدع شخص اسمه جورج بايتسون جهازا اقتصاديا ، يدل على عبقرية وبراعة (ميكانيكية) ، بحيث غدا الوسيلة المفضلة الشائعة لانقاذ المدفون حيا من جهة ، ولادخال الطمأنينة الى قلب الأهل الحزينين من جهة أخرى .

ويتألف هذا الجهاز من جرس ، يوضع على غطاء النعش ، ويوصل بسلك أو حبل الى يد الميت بحيث ان أقل رعشة أو حركة تسبب رنين الجرس ، مما ينبه الناس الى أن المدفون حي يرزق ، وغني عن البيان أن كثيرا من هذه الأجراس قد رنت خطأ بسبب سوء التركيب ، أو بسبب تغيرات الجيفة ، أو لوجود غازات . . الخ . ، مما عزز اعتقاد الناس أكثر فأكثر بأن الميت قد دفن وهو ما يزال حيا .

وقد شاع جهاز بايتسون كثيرا ، لرخص ثمنه بالمقارنة مع الطرق السابقة ، وأضاف بعضهم إلى التابوت ثقوبا للتهوية ، ولا تسل عن الروائح النتنة المنبعثة من تلك الثقوب ، فذلك أمر يسير أمام دفن شخص ما وهو ما يزال حيا ، وقد أصبح بايتسون خلال سنوات ثريا كبيرا .

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

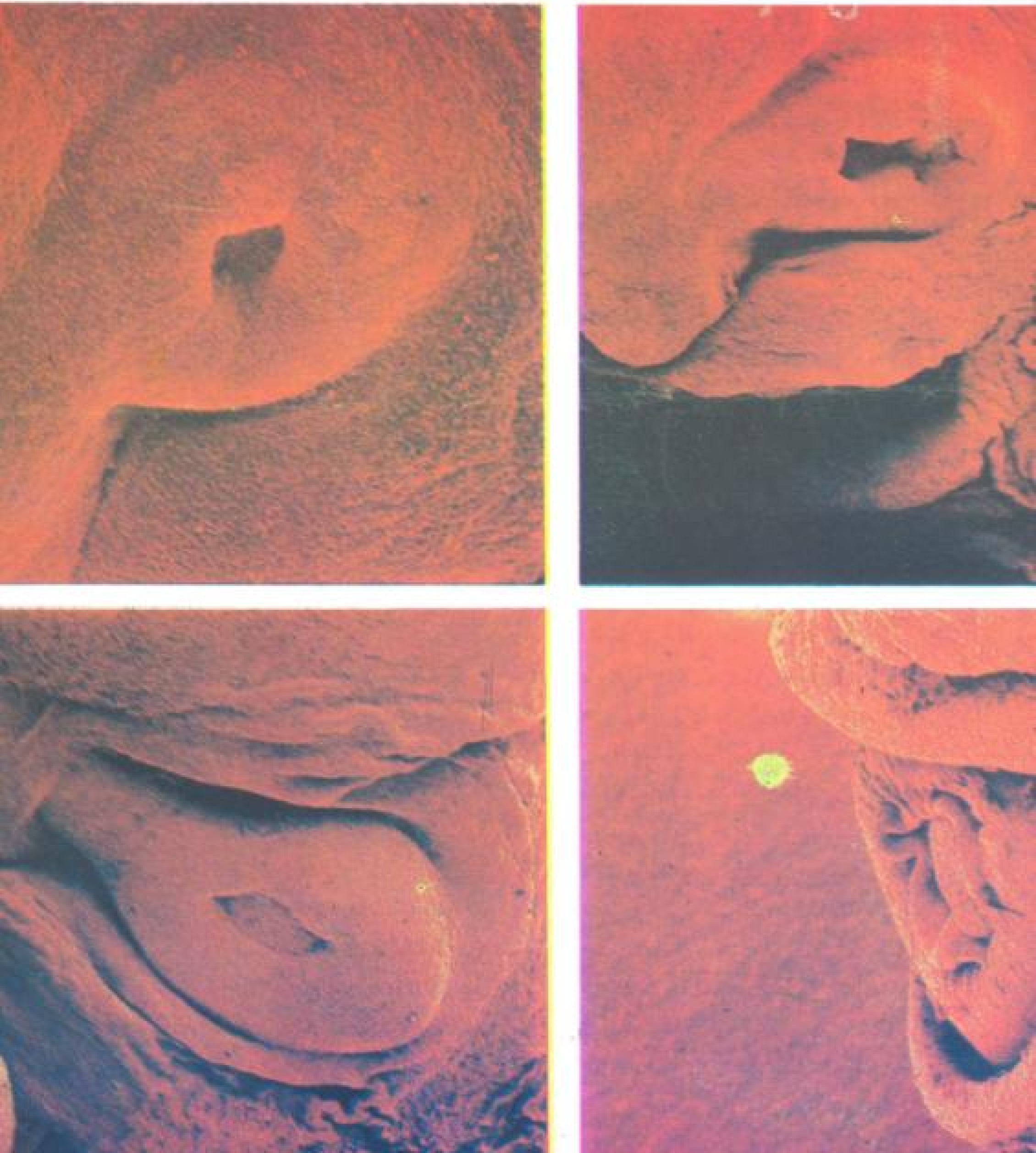
(صدق الله العظيم)


(١)

العلم و حواس الأطفال الرضّع

بقلم : الدكتور محمد نبهان سويلم

من المتعارف عليه عند معظم الناس أن الأطفال حديثي الولادة لايستخدمون حواسهم الا بعد فترة من نموهم ، ولكن العلماء الذين يتابعون كافة الظواهر الطبيعية بالرصد والبحث والتحليل أثبتوا في دراسات حديثة لهم أن الأجنة والأطفال حديثي الولادة يبصرون ، ويميزون الأصوات .



يمكن كشف بعض الأمراض أثناء بقاء الجنين في بطن أمه باختبار بعض الخلايا وقياس وتعيين خصائص السائل الواقي بمين تطور العينين من خلايا المخ ومن هنا قد تبدأ بعض أمراض العيون لدى الكبار اذا لم يتنبه الطبيب . أعلى (٢)

الرجال والنساء عضدا الدول والأمم ، وأهم عوامل تقدمها ، فهم الحركة في الحياة ، والأداة خلف الانتاج ، والتقدم ، والنماء ، والتطور ، تتأثر انتاجيتهم وأداء أدوارهم في الحياة والمجتمع بعوامل الطفولة ، والأيام الأولى من الخلق ، فهناك رابطة وعلاقة وطيدة بين أطوار حياتهم الأولى وحياتهم في شرخ الشباب والفتوة ، وما يليها من الرجولة الكاملة .

ولا نلقي القول دون سند أو دليل علمي . . فالعلماء أدركوا هذا الدليل عبر سنوات وسنوات من البحث العلمي والدراسات الاجتماعية والاحصائية المؤكدة والموثقة .

الأجنة هي الأساس

ونبدأ الرحلة من بدايتها الطبيعية فقد ظلت الأسابيع الأولى للأجنة البشرية عالماً يحيطه الغموض ، وتكتنفه الأسرار لسنوات عديدة ، طالت وامتدت رغم البحث العلمي الذي تواصل لكشف أسرارها. فالمشاكل الكبيرة التي يواجهها معظم الأطباء مع البالغين لن يحلها سوى معرفة هذا الكائن الدقيق الذي لايكاد يبلغ طوله خمسة عشر ميللمترا ، إذ أن العلاقة بين اجهزة الانسان الحيوية تبدأ منذ تكوين الأجنة في مرحلة بالغة السرعة ، فبين الأسبوع الرابع والتاسع يتضاعف طول الجنين ثلاث مرات ، ويزداد وزنه خمسين ضعفا . ولو استمر معدل النماء وفق هذه السرعة خلال شهور الحمل التسعة لولد الطفل عملاقا ضخما كالجبل يتعدى طوله مئة متر بالتمام والكمال ، ولن يقل عن أربعة عشر طنا ، وهو ما أثبتته دراسات العالم الانجليزي جيوفري تشمبرلن ، وأمكنه خلال هذه الدراسات تسجيل لقطات فريدة ومثيرة صورت نمو خلايا الوجه من جانبي البدن فوجد أن الشفتين لاتلتحمان حين تتقابلان عند منتصف الوجه أما الأطراف مثل الأذرع والأرجل فيبدأ نموها من خلايا جذع الجنين ، وهذا ما توضحه الصور بالشكل رقم (١) ونلمح فيها تكون العينين بداية من الاسبوع الرابع وحتى الأسبوع التاسع منطلقة من خلايا المخ ، ويبدأ تكونها من نتوء يبرز من خلايا المخ ، وتظل تتطور وتتعدل وتتشكل حتى تتخذ شكلا كرويا . هو ذاته شبكية العينين وخلاياهما العصبية ثم تتكون عدسة العين من غلاف شفاف ، وسائل مشف ، ولاتمضي الأسابيع التسعة إلا والعينان جهاز مستقل . . فيما يبدو جليا من الصور بالشكل رقم (٢)

ودراسات العالم الانجليزي كانت الاشارة التي انطلقت بعدها البحوث والدراسات ، انطلاقا محموما على امتداد الولايات المتحدة الأمريكية ، واليابان ، وباقي البلاد الأوروبية ، في محاولة لكشف أسرار هذه المرحلة استشراقا نحو فهم أعمق وأشمل لهذا العالم المثير ، بعد ولادة أي طفل ودخوله الدنيا بعد صرخته الشهيرة التي تستعذبها ملايين الأمهات ولقد ثبت للعلماء أنهم كانوا ـ يجهلون كثيرا ولا يعرفون سوى النادر ، ولم يعرفوا أن للرضع قدرة على الرؤية ، وتمييز الأصوات بدقة بالغة ، والتفريق بين النغمات ، والفصل بين ضحكة صافية وصرخة مدوية ، ويحبون من يضحك ويبش في وجوههم ويقتربون إلى الضاحك عبر ابتسامة طفل صافية لاتشوبها شائبة ، والمذهل أن نتائج هذه البحوث تتعارض مع معظم المعتقدات المتعارف عليها ، وهي تضع الآباء في حيص بيص وذلك لأن قدرات الرضع على الفهم والاستيعاب كبيرة ، مما يتحتم اعادة فهم نفسياتهم على ضوء هذه الحقائق المؤكدة لقدراتهم الفريدة التي كشف عنها العلم الغطاء مؤخرا .

والواقع أن هذه الحقائق كانت موجودة قبل أن يكشفها العلماء فقد كانت العقبة الأساسية التي عاقت لزمن طويل إجراء أبحاث على الأطفال أنهم لايتكلمون ، وليس في مقدورهم ترجمة أحاسيسهم ومشاعرهم لذويهم ، ومما ساعد كثيرا على تأخر هذه الدراسات قناعة العلماء بأن الرضع لايفكرون على

الاطلاق ، وأنهم يستخدمون صراخهم وعويلهم مجرد اشارة لطلب الغذاء أو الدفء والاعتقاد بأن قدرات الرضع على الرؤية محددة للغاية .

الرضع يميزون

لكن مع بدايات منتصف هذا القرن حاول العلماء كشف هذه القدرات ، وتمكن الطبيب الفرنسي روبرت فانس من تصميم عدة تجارب استطلاعية على نهج احصائي دقيق ، في محاولة لتقدير معاملات الارتباط والوثوقية بين تصرفات الأطفال ، وقدراتهم ، ولشد ما كانت دهشته ، أن حققت التجارب نتائج لم يكن يتوقعها ، فقد راقب الأطفال وهم يشاهدون أشياء مختلفة وحسب المدة التي قضوها وهم ينظرون الى كل شكل ، فاكتشف أن الرضع لايملون النظر الى لوحة الشطرنج ويتصرفون عن النظر الى قطعة ورق بيضاء لها نفس المساحة ، وكرر العالم التجربة مرات عديدة فاذا به أمام حقيقة أخرى مؤداها أن الأطفال يفضلون النظر الى الأشياء المركبة عن النظر إلى الأشياء البسيطة .

ولم تذهب نتائج العالم الفرنسي هدرا ، فقد استكملت مع ما أحدثه العصر من تقنية علمية اختبارية جبارة بدخول الدوائر الالكترونية المتكاملة ، والحسابات الالكترونية الدقيقة ، دنيا صناعة الأجهزة العلمية ، ففي دراسة تمت مؤخرا بجامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ، أمكن للعلماء باستخدام التسجيل الضوئي والصوتي التيقن من امكان الرضع تمييز أصوات امهاتهم عن كل ما اختلط بها من أصوات ، لدرجة دعت زمرة من الباحثين في جامعة نيويورك الى اجراء دراسة أخرى على طفل لم يتجاوز عمره اثني عشرة ساعة لم يتذوق خلالها أي شيء ـ مجرد سوائل وروائح لم يعرفها من قبل ـ محلول سكري وآخر ملحي ، وزجاجة بها رائحة غاز البيض الفاسد وأخرى بها رائحة خلاصة الموز ، ووضع الباحث قطرة محلول سكري على شفتي الطفل الرضيع ، فتنبه ، وبدت على محياه علامات الرضا والسرور ، وانقلب حاله الى النقيض عندما وضع له قطره من محلول الملح ، وهي نفس المشاعر والانفعالات من رائحتي الموز أو البيض الفاسد ، وبدت النتائج حيال الباحث مشجعة . لكن ليست مطمئنة أو يعتد بها لأن العلم لا يقبل تجربة على عينة واحدة ، ولا يتخذ نتائجها سندا أو مرجعا يعتد به مهما عظمت النتائج ، ففي الدراسات العلمية هناك معاملات الحرية التي تحتم الا يقل عدد العينات عن اثنتين ، وكلما زاد عدد الرصدات . ـ أي التجارب ـ زاد معامل الارتباط وبدت معاملات الوثوقية التي يعتد بها ، فان قيست بالجداول الاحصائية تأكدت مصداقيتها .

لهذا السبب ، وسواه كثير ، أخذ العالم الأمريكي طريقه الى كلية الاحصاء بالجامعة ، والتقى مع أحد اساتذتها المشهود لهم بالكفاءة على مستوى العالم ، وناقشه ، وصمم له استاذ الاحصاء منهجا علميا شاقا . . لهذا كرر الطبيب مئات التجارب على أطفال حققوا نفس الشروط الموضوعية للتجربة الأولى ، فاذا بالنتائج تثبت وجود توحد وارتباط قوى بين مشاعر الرضع والمؤثرات الخارجية ، البيئية .

ويبصرون

ولكي يتأكد العلماء من بطلان الاعتقاد القديم بأن الرضع ذووإدراك بصري محدود يكاد يقترب من حد العمى ، أو ضمن اطار فاقدي البصر . أجروا تجارب عديدة أثبتت عكس هذا الوهم ، فقوة ابصارهم تنمو بسرعة، وتتلاءم خلايا العينين مع الوسط البيئي الجديد المغلف بالضياء الطبيعي ، أو الصناعي ، ويبدأون في النظر الى أطراف الأشياء في رحلة استكشاف مبهرة ومبكرة جدا عما ظنوا ، وحتى عندما تطفأ الأنوار ويخلد الأهل للنوم يلهون بأي ضوء ضعيف ، ولا تمضي ثمانية أسابيع إلا ويعرف الرضع أشكال الأشياء ، ويفرقون بين الألوان ،



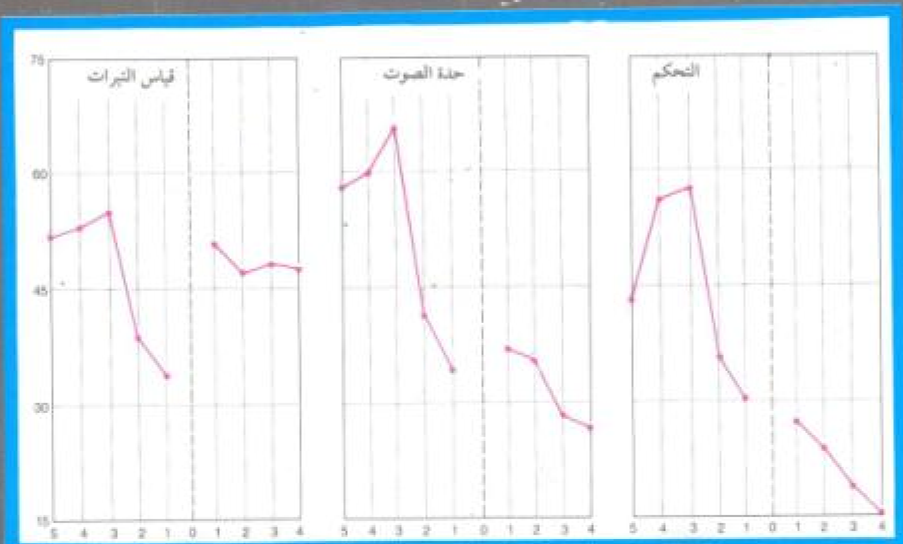
لماذا يبكي أحدهما بينما نظرات الدهشة تصيب
الآخر وكلاهما تجري إثارته بنفس الوسائل البسيطة ؟



تجاربُ الاستجابة الصوتية لدى الأطفال







الطفل أعلى تجري عليه قياس ردود الأفعال لنبرات الصوت وحدته من خلال ميكروفون يوضع أعلى سريره بينما تلقه أجهزة القياس دون أن يدري

ويدركون تماما اللون الأحمر ثم الأزرق ، وخلال الشهر الثالث يدركون البعد الثالث ، ويبدأ إحساسهم بالرؤية المجسمة . معنى هذا وببساطة شديدة أن المخ المتقدم في العينين يترجم الموجات الضوئية الباعثة للاحساس باللون الأحمر أو الأزرق فليس في الواقع لون أحمر وآخر أزرق ، ولكنها مواد تمتص أطياف الضوء ، فيما عدا موجات لها طول موجي معين تبعث داخل المخ احساسا باللون أو طيف الضوء .

ولم يترك العلماء تجارب البصر تمر دون تمحيص وتدقيق وكان الحاسب الألكتروني أداتهم نحو فهم أعمق ، فقد اكتشفوا أن الرضع يفرقون بين الخط المستقيم والخط المنحني ، صحيح أنه لم يكن خطاً مثلما ترسم بالمسطرة لكنه مستطيل ضوئي أو مستطيل بشوبه الالتواء ، وسجلت العدسات تحرك عيون الأطفال ، وتأكد أن لهم القدرة على الاحساس بالحركة والانحناء .

وقد يظن البعض أن هذه الدراسات محاطة بالغموض ، وأهدافها غير محددة ، والواقع غير ذلك تماماً ، فبعض الأطفال يعانون من أمراض العيون مثل إظلام عدستي العينين أو إنحراف محاورهما ، وهي أمراض يمكن علاجها في سن مبكرة في ظل التطورات العلمية والطبية المتعاقبة . والأهم من ذلك أنها إذا لم تكتشف مبكراً فقد تُحدث ضرراً في بعض أجزاء خلايا المخ التي تنمو بسرعة ، خلال مرحلة الطفولة وقد يصبح الضرر بالغاً ومستديماً .

الجنين وحاسة السمع :

ومن الحواس التي نالت اهتماماً بحثياً مكثفاً : حاسة السمع قبل وبعد الولادة . فما أن تتكون أذنا الجنين من انطلاق خلايا الجانبين حتى تبدأ في تلقي المعلومات عن العالم الخارجي ، وتعتبر دقات قلب الأم أول صوت يسمعه . ويخرج الى الدنيا بردود الفعل الصوتية ـ السمعية لذلك ينام الطفل قرير العين ، هانيء البال ، اذا سمع ضربات قلب حان ، أو التقط صوتا يشبه صوت الأم ، وهي أفضل أصوات كل البشر لذلك ينفك توتر الطفل وتهدأ مشاعره ، ويخلد للسكينة ، والاستقرار على نغمات هذا الصوت الفريد الذي جمع فأوفى حنان الدنيا كلها . ويعتقد البعض أن فهم أسباب بكاء الأطفال ، وترجمة هذا البكاء على ضوء معارفه القديمة في تربية أبنائه ، وتفسير الأمر بالجوع ، أو الحاجة الى الدفء ، لكن دراسات تجريبية قد أثبتت خطأ هذا الاعتقاد ، ففي عمر الشهر تتكون لدى الرضيع قدرة كبيرة على تمييز الاصوات المختلفة بأي لغة من اللغات ، وتصنيفها كرد فعل للصوت واللغة التي تتعامل بها البيئة المحيطة به ، واعمالا للنظرية العامة للاتصال بوجود مرسل ومستقبل ورجع صدى ، لذلك لم يحدث قط أن حاول الرضع تقليد صوت حيوان أو سيارة ، بل يركز الرضع قدراتهم على تعلم صوتيات اللغة ونطقها ، ويركزون جميع قدراتهم لتقليد أصوات أمهاتهم ، فقد أثبت الدكتور آندور ميلتزوف والدكتورة كيدث مورو بأن الأطفال في سن ١٢ يوما يمكنهم تقليد شخص بالغ مما يؤكد أن تراكيب وخلايا المخ بدأت عملها منذ فترة بعيدة .

ذكاء الأطفال

ذكاء الأطفال كان محور دراسات كثيرة لاتحصى ولا تعد ، فذكاء الأجيال رهن بذكاء الأطفال ، ولايكون ذلك وهم أطفال وكائنات مستقلة بل وهم أجنة لاحقون بأمهاتهم وأثبتت بعض الدراسات أن الأمر لايتوقف عند حد الأم والأب ، بل يتعداهما الى حدود الجدة للأب والأم ، فقد أجريت فيما بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٣ دراسات علمية واسعة شملت آلاف الأطفال ، تركزت على قياس الذكاء كمتغير تابع لتغذية الأم ، وكمتغير مستقل ، مع أخذ تغذية الأب أيضا كأحد المتغيرات اللاحقة ، كما ركزت على قياس المشكلات التي يعاني منها الأطفال ، ومدى الضرر

الذي يصيبهم من قبل الوالدين سواء عن قصد ، أو إهمال ، وثبت منها أن أطفالا جياعاتعني ذكاء ضحلا ومحدودا ، فمنذ أربعين عاما قدم العالم الألماني الغربي ديفيد كازتاجتر أول دراسة منهجية لأمراض الاطفال الجلدية ، كنوع من التشوهات الخلقية ، دون أن يحدد سببا لذلك ، ومنذ ذلك الوقت تضاربت تفسيرات الأطباء ، فمنها ما اعتبره انعكاسا غامضا لأداء الخلايا .

ولاحظ أحد اطباء السويد أن نقص بعض أنواع البروتينات مثل الداينينDynine له علاقة مباشرة بين هذا وذاك ، وكمن يفرغ الزناد لانطلاق السباق كانت الملحوظة بداية للتجارب التي أثبتت أن غياب البروتين الحيواني عن غذاء الأمهات والآباء يؤدي الى حدوث النقص بالبروتين السالف الذكر ، ومن قبيل الأثار التي تنتج عن غيابه ولادة طفل ذي رأسين ، أو مخه خارج رأسه أو له شعر كثيف ، وكل هذه الأمثلة للتشوهات الخلقية تنبع أساسا من تقلص البروتين الحيواني وهو يؤدي بطريقة متباعدة وراثيا الى ظهور تلك التشوهات الخلقية .

إن العلماء خاصة علماء الوراثة اتفقوا منذ وقت طويل على أن للخصائص الوراثية تأثيرها القوي على درجة الذكاء ولذلك يفضل ما أمكن الا يتم زواج أبناء أو أحفاد الأقارب من الدرجة الأولى الا فيما ندر ، ويعتقد العلماء أن حاملات الخصائص الوراثية ذات الصفات الأكثر تخلفا ، والتي لاتبرز الا اذا كانت موروثة من الوالدين ، تنشط اذا كانت هناك صلة قرابة وثيقة بينها .

ولعبة الطفل قد تكون دليلا على نفسيته ، فالطفل الهادىء يفضل الالعاب المعقدة التي تحتاج تفكيرا وجدا وجلدا ، أما العصبي المزاج فيفضل الألعاب البسيطة التي لاتحتاج الا جهدا قليلا ، وذلك من واقع دراسة لحالات أربعة الاف طفل ، ودعت نتائجها الى معالجة عصبية الطفل دون أن يدري بتعويده على تحمل المسئولية عن طريق توفير لعبة تحتاج جهدا وجدا ، لأنها الطريقة الفضلى لترويضه ومساعدته على تخفيف عصبيته .

إن دراسات عالم الاطفال شملت كل شيء ، وأي شيء ، وهي بحر ممتد أشرنا الى بعضه في عجالة ، وسبحان القائل (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) . □

الجوائز الأدبية

● من المعروف أن أول الجوائز الأدبية التي ظهرت خلال القرن العشرين ، ولم تكن لها سمة التجارة ، هي جائزة « نوبل » في بلاد السويد ، وجائزة « جونكور » ، وجائزة « فمينا » في فرنسا ، والجائزة « المرثورنيّة » في انجلترا ، وجائزة « بولتزر » في انجلترا . وقد ظهرت بعد ذلك جوائز أخرى في هذه البلاد وغيرها .

ومهما تكن هذه الجوائز صادقة في التعبير عن عصر بعينه ، أو عن أثرة الروح القومية ، أو هي مسألة مقصورة على المؤلف دون غيره ، فهي على أي حال جوائز اعتراف بالتفوق الأدبي .

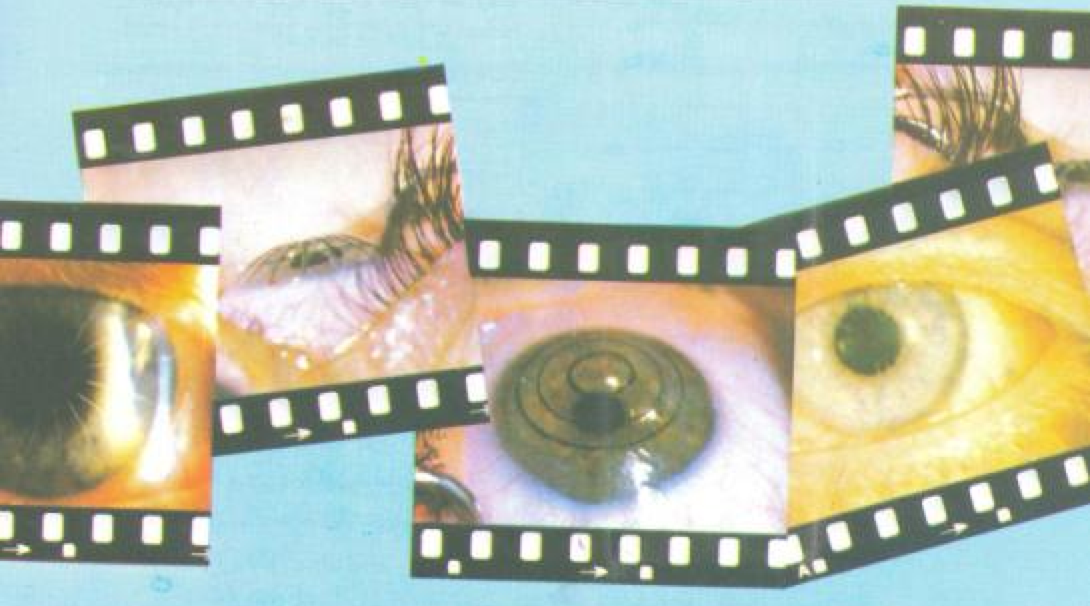
«فيودوروف»
وابتكارات جديدة في طب العيون

استطلاع : سليمان الشيخ/ تصوير : طالب الحسيني

أصبح بالإمكان الاستغناء عن النظارات الطبية ، أو العدسات اللاصقة ، بعد إجراء عملية «بسيطة» في العينين ، لا تستغرق سوى دقائق ، قد لا تصل إلى خمس !

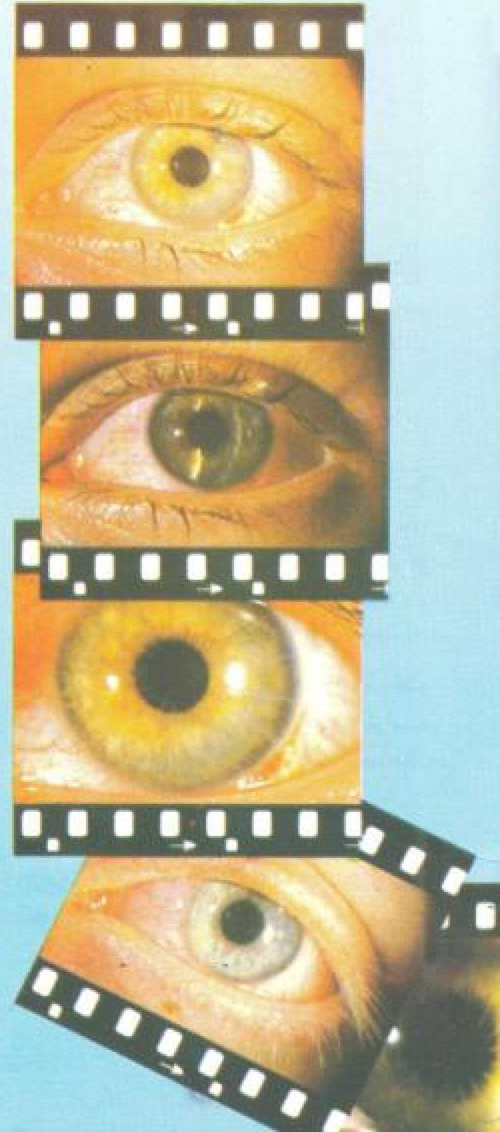
وأصبح بالإمكان التغلب على حالات قصر النظر بكل سهولة ، خلال تلك الدقائق القليلة الحاسمة .

هكذا تواترت التقارير من مصادر الأنباء العالمية التي تعنى بالأمور الطبية .





السيدة ايف وحديث عن تطوير العلم والعلاج .



فهل الأمر حقيقي وفيه إنجازات علمية عملية تم تجريبها على بشر فحصدوا نتائج إيجابية في هذا المجال ؟

هناك منظر لا يمكن أن تخطئه عين في طائرات الخطوط الجوية السوفيتية المقلعة من « أبوظبي » المارة بالكويت في طريقها إلى موسكو ، في أية رحلة من رحلاتها الأسبوعية ، حيث تجد فيها أطفالا ونساء ورجالا من أبناء منطقة الخليج العربي ، أو من الوافدين الذين يعيشون فيها .

يرافقهم من يقودهم ، بسبب قصر في النظر ، أو مرض في العيون ، وتغشى عيونهم نظارات سميكة .

وفي رحلة الإياب من موسكو ، فإن العين لن تخطيء أيضا ، في رؤية بعض الأفراد وقد عصبوا عيونهم بأربطة .

إنها ظاهرة قد أخذت تتزايد في السنين الأخيرة ، فما هو سبب شد الرحال الى موسكو على الأخص لعلاج بعض حالات أمراض العيون ؟ وما هو حجم هذه الظاهرة ؟

عندما تتحدث مع بعض الأفراد ، فإن اسم فيودوروف ـ أعني الدكتور الجراح سفياتوسلاف فيودوروف ـ يتكرر عدة مرات .

يقولون لك : إننا ننشد العلاج في مستشفى الدكتور فيودوروف . فمن يكون هذا الطبيب ؟

ويضيفون : لقد طبقت شهرة هذا الرجل الآفاق ، بل إن بعض العمليات الجراحية للعيون أصبحت تحمل اسمه ، نظراً لنجاحه ، ولإدخاله طرقاً جديدة مبتكرة في هذا المجال الطبي الدقيق .

فما هي الحكاية ؟ وهل كل ما قيل ويقال يمثل حقيقة واقعة وصحيحة ؟

شهادات حيـــة

على الطائرة العائدة من موسكو في الأسبوع الثالث من شهر آب ـ أغسطس ـ من هذا العام تحدثنا مع « عيِّنة » « عشوائية » من الأفراد الذين

كانوا يضعون « أربطة » على عيونهم .

● السيد خميس بن حصيف بن مصبح ، مواليد سنة ١٩١٠ ، قال :

لقد خف نظري ، بعد أن غطته « المياه البيضاء » ، وقد فحصني الدكتور فيودوروف عندما زار « أبوظبي » في شهر حزيران ـ يونيو ـ الماضي ، ونصحني بالذهاب الى موسكو للعلاج .

وقد وصلت منذ أسبوعين ، وأجريت لي عملية في عيني اليسرى ، واستغرق إجراؤها حوالي نصف ساعة . وقالوا لي بأن النظر سيتحسن تدريجيا ، وسيتم إجراء عملية أخرى في عيني الثانية بعد ستة أشهر .

ـ السيد يعقوب ـ والد فتاة اسمها هند ١٣ سنة ـ من دولة الإمارات أيضا قال : تعاني ابنتي من قصر النظر وقد راجعت عدة أطباء في « أبوظبي » ، إلا أنهم لم يستطيعوا معالجتها . وعندما جاء الدكتور فيودوروف إلى الإمارات نصحنا بعلاجها في موسكو ، وقد جئت وإياها ، ففحصها أكثر من طبيب ، ووجدوا أن سبب قصور نظرها ينحصر في الأعصاب ، لذلك فإنهم لم يجروا لها أية عملية .

ـ السيد جاسم الزايد ـ من دولة الكويت وعمره ٧٧ سنة ـ كان يرافقه ابنه ، قال : أشكو من وجود مياه زرقاء في عيني اليمنى منذ زمن ، وقد راجعت عدة أطباء في الكويت ، إلا أن علاجهم لم يفدني كثيرا ، وعندما سمعت بتقدم الطب بموسكو قررت المجيء ، وقد قام الأطباء بسحب المياه الزرقاء من عيني ، على أن يسحبوا المياه البيضاء في العام القادم .

وأذكر أننا حضرنا إلى موسكو ضمن مجموعة من المرضى ، كان عددهم ٧٠ شخصا ، بين طفل وامرأة ورجل .

ـ السيد حسن كاظم ، طالب في جامعة العين بالامارات العربية المتحدة فرع دراسات إسلامية ، وعمره ٢٤ سنة . قال :

أشكو من قصر النظر منذ صغري ، وعندما سمعت بالعمليات الناجحة التي يجريها الدكتور فيودوروف قررت الذهاب إلى موسكو ، وبعد أن فحصوا عيني أجروا عملية شطب في أجزاء من قرنيتي ، لم تستغرق إلا خمس دقائق ، بعد أن خدروني بمخدر موضعي ، وبعد ذلك غادرت المستشفى . وقالوا لي بأن تحسن نظري لا يمكن أن يتم إلا بعد مضي ثلاثة أشهر من إجراء العملية ، وقد خفت الآلام التي كنت أشكو منها قبل إجراء العملية .

هكذا لخص لنا هؤلاء المرضى حالاتهم المرضية ، وما واجهوه . وقد اشتكى بعضهم من الشركات التي تتولى نقلهم وإعادتهم ، وأفصحوا عن مشاكلهم مع المترجمين في موسكو ، ومحدودية المدة التي يقضونها لتلقي العلاج ، وعدم البقاء في المستشفى إلا لإجراء العملية فقط .

وواضح من خلال السرد أن المرضى كانوا يسافرون على حسابهم الخاص ، وعلى مسؤوليتهم الخاصة ، وبدون تقارير طبية ـ أحيانا ـ تبين حالاتهم ودرجة مرضهم ، وغير ذلك من معلومات .

تطوير العلم والعلاج

وكي تتضح الصورة ، أو على الأصح تكتمل أجزاؤها فإن بعثة « العربي » قامت بزيارة المستشفى في موسكو . الاسم الرسمي للمكان هو « المجمع العلمي التقني لجراحة العيون الدقيقة » ، ومديره الدكتور سفياتوسلاف فيودوروف .

ذلك أن هذا المجمع يقوم بعدة وظائف ، فهو مستشفى لجراحة العيون ، ومعهد للدراسة والبحوث ، ومختبر للتجارب ، ومصنع للصناعات الدقيقة المتعلقة بالعيون .

هكذا قال لنا السيد يوري لازريف رئيس القسم الدولي في المجمع ، والسيد سيفلوت ميلشوف الموظف في القسم الدولي ، والسيدة ايف تويوربيا من قسم العلاقات العامة فيه . وأضافوا بأن وظيفة



الدكتور سفياتوسلاف فيودوروف . . . وآفاق جديدة في طب العيون

المجمع تقوم على تطوير العلم والعلاج ، وأنه ليس الوحيد في الاتحاد السوفيتي ، إذ أن هناك ١٢ مجمعا شبيها ، لكنه الأشهر بينها ، نظرا لأن الدكتور فيودوروف هو مديره .

ويتسع المستشفى لحوالي ٣٠٠ سرير .

● لكن المرضى العرب يقولون إنهم لم يقضوا في المستشفى إلا الوقت الذي تستغرقه العملية والمراجعات .

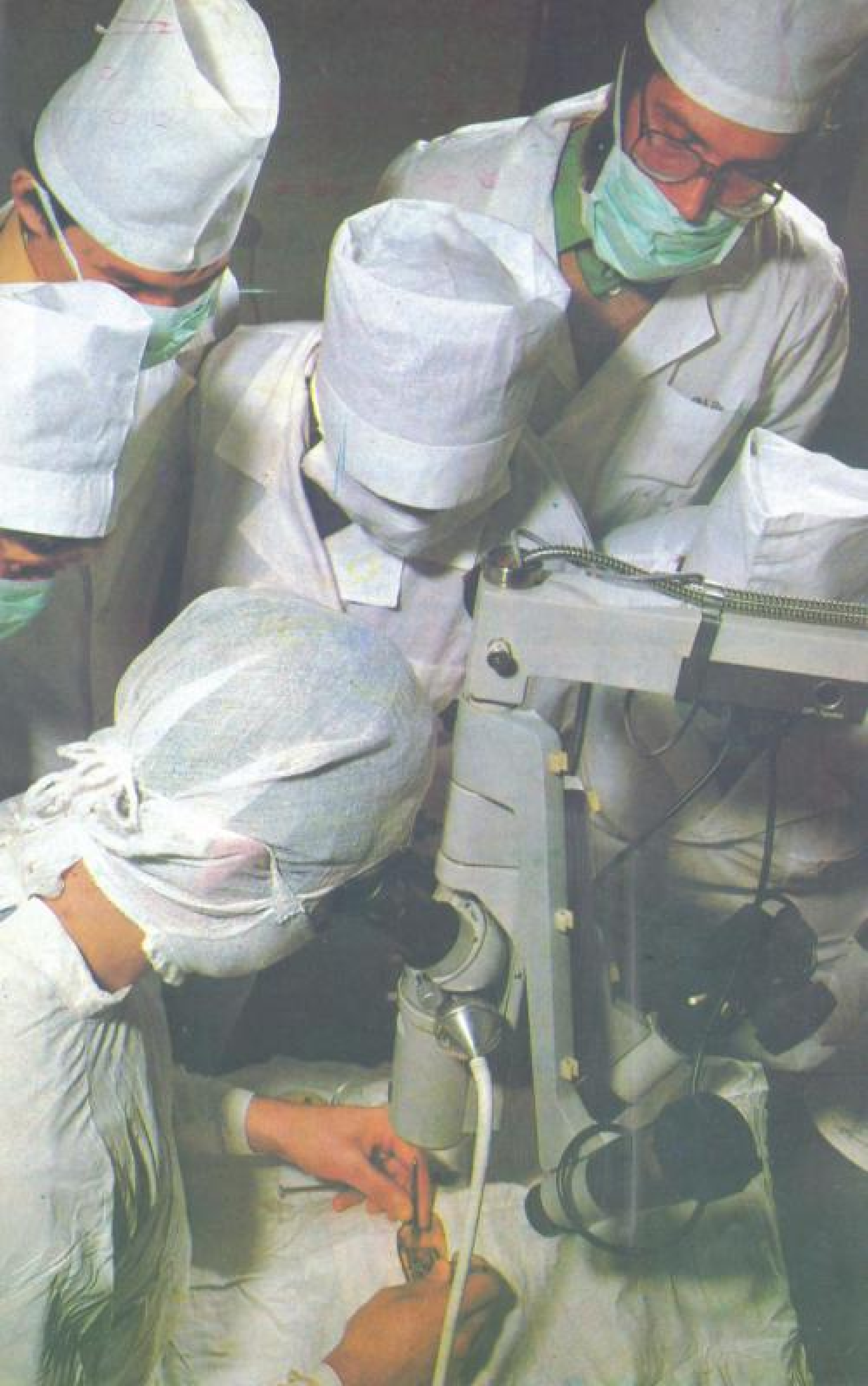
ـ إن المرضى الأجانب ـ ومنهم العرب ـ يقيمون في فندق كوزموس ، وتوجد فيه عيادة تتابع المرضى ، وتستجيب للكثير من طلباتهم .

ونعتقد أن شروط تعاقد المرضى مع الشركات التي نقلتهم إلى موسكو تنص على تلقي العلاج في الفندق ، على أساس أننا لم نفتح أجنحة خاصة بالمرضى الأجانب في مستشفانا بعد ، إن العمليات تجرى في المستشفى ، والمتابعة موزعة بين الفندق والمستشفى ، وهي لا تتجاوز ١٥ يوما ، أو حسب اتفاقهم مع الشركات .

● لكنهم مرضى ـ وهم بحاجة الى الرعاية .

ـ نعم إن ما تقوله صحيح ، إلا أننا نواجه مشاكل في هذا المجال ، إن بعض المرضى يجيئون دون تقارير طبية ، وبعضهم يعاني من أمراض كالسكر ، أو ضغط الدم الزائد ، أو يعاني من أمراض في أسنانه ، إلخ ، أو أنه يعتقد بأنه يعاني من مرض معين في عينيه ، فنكتشف أنه يعاني من أمراض أخرى ، وهناك مشكلة اللغة والترجمة وغيرها ، وهذه أمور يمكن حلها قبل أن يباشر المريض إجراءات السفر .

وهذا الأمر يجب أن تعالجه الإدارات والوزارات المتخصصة في بلدان المرضى ، بالاتفاق مع الشركات ، أو بالاتفاق المباشر بين الإدارات



فريق طبي يجري عملية دقيقة .

السيد خميس بعد اجراء
عملية المياه البيضاء .



السيد جاسم الزايد وأمل
بالشفاء من المياه الزرقاء .



السيد حسن كاظم ..
أملي كبير بتحسن النظر .







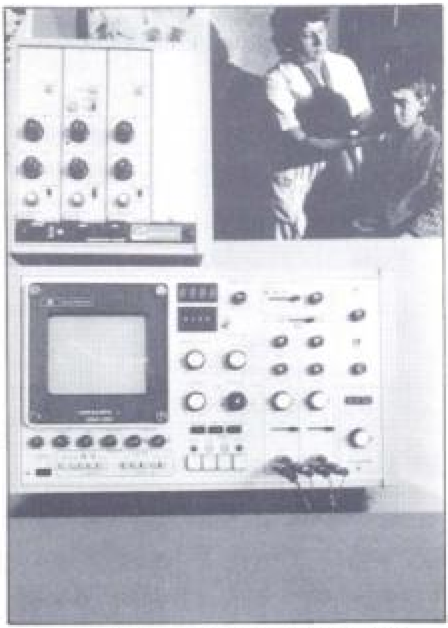


المستشفى الذي أصبح أملا لكثير من المصابين بمرض في العيون . أعلى
الفحص الدقيق قبل المباشرة بالعلاج . وسط
أصبح الحاسوب ركنا أساسيا في تحديد نوع عمليات العيون . أسفل

والوزارات المعنيّة في بلدان المرضى وبلدنا .

● لقد زار وزير الصحة الكويتي بلادكم في شهر تموز ـ يوليو ـ الماضي . فهل تم طرح هـذه الأمور وغيرها على بساط البحث ؟

ـ لاشك أن هذا الأمر وغيره قد تم طرحه ، لكن الأمور لم تتضح حتى الآن .



التقنيات الحديثة ذللت الكثير من المصاعب



الفحص ضروري قبل وبعد العلاج .

● ما هي نسبة المرضى العرب الذين توافدوا على مستشفاكم ، قياسا بالمرضى الأجانب ؟

ـ لقد تعاملنا مع حوالي ٧٠٠ مريض أجنبي تصل نسبة العرب بينهم الى ٨٠٪ من العدد الاجمالي .

أما لو أردت بعض التفصيلات المتعلقة بأعداد مرضى الأقطار العربية ، وبخاصة أقطار الخليج ، فهي : تم معالجة ١٨٦ مريضا ومريضة من الكويت سنة ١٩٨٦م .

وقد وصل العدد حتى ١/ ٧/ ١٩٨٧ إلى ١٣٣ حالة من الكويت .

أما مرضى دولة الإمارات العربية المتحدة فقد كانوا ٥٤ مريضا ومريضة حتى أوائل شهر يوليو ـ تموز ـ من هذا العام .

ووصلنا من المملكة الأردنية الهاشمية ٢١ مريضا حتى يوليو ـ تموز ـ أيضا ، أما من بقية الأقطار العربية فإنه لا يصلنا مرضاهم إلا نادرا ، لأنه توجد بعض المشاكل في تحويل العملة وغير ذلك .

ابتكارات وإنجازات

● لو أردنا التحدث عن أشهر ما يقوم به المجمع في مجال عمليات العيون ، وبخاصة ما يحظى بالشهرة العالمية التي نال الدكتور فيودوروف نصيبه بسببها ، فما الذي تقولونه في هذا المجال ؟

وجاءنا الجواب :

ـ إن بعض الشهـرة التي نـالهـا الـدكتـور فيودوروف ، ومن ثم المجمع ، تقوم على مجموعة من الابتكارات .

فقد باشر الدكتور فيودوروف إجراء عمليات جراحية لتصحيح قصر النظر اعتبارا من سنة ١٩٧٤ ، ونتيجة لنجاح العملية فإن المريض يمكنه الاستغناء عن نظارته أو عدسته اللاصقة .

وقد أجريت آلاف العمليات منذ ذلك الزمن حسب طريقة الدكتور فيودوروف ، وقد حالف

الدكتور سفياتوسلاف فيودوروف

* من مواليد سنة ١٩٢٧م .
* عضو مراسل في أكاديمية العلوم الطبية السوفيتية .
* حاصل على دكتوراة في جراحة العيون .
* حصل على لقب بطل العمل الاشتراكي هذا العام ، وهو جائزة تمنح من قبل هيئة رئاسة السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفيتي لأبرز العاملين في قطاعات العمل المختلفة ، وينالها ١٢ اسما في العام فقط .
* مدير عام المجمع العلمي التقني المتخصص بجراحة العيون الدقيقة .
* له في طب العيون وجراحتها عدة انجازات منها :
- تصحيح انحسار وقصر النظر ، من خلال إجراء شطب وقطع دقيق في قرنية العين ويعمل الآن على تصحيح النظر البعيد .
- زرع عدسة شفافة ـ توصل أخيرا إلى تصنيعها من مادة السيلكون الشفاف ـ مكان العدسة المعتمة ، وغيرها من إنجازات .

النجاح أغلبها ، وهذا الأمر يعتمد على الدرجة التي وصل إليها قصر النظر . وأساس العملية يقوم على إحداث قطوع بواسطة أشعة « الليزر » على السطح الأمامي للقرنية ، وهذا يقتضي حسابات دقيقة في هذا المجال ، كي لا تتجه أشعة القطع إلى أماكن أخرى غير المستهدفة . وقد بدأنا نعتمد على الحاسوب ـ الكمبيوتر ـ في تحديد هذا الأمر ، بل وفي تحديد نوع العملية وعمقها ومجالها . وهذه العملية قد لا يستغرق تنفيذها أكثر من خمس دقائق ، بعد إعطاء المخدر الموضعي .

هذا مثال ، وهناك أمثلة أخرى على الشهرة .

● دعونا نذكر الأمثلة الأخرى ؟

ـ عندما كان الدكتور فيودوروف يخطو أولى خطواته في مجال طب العيون قام ـ سنة ١٩٦٠ ـ بزرع عدسة شفافة من ابتكاراته لإحدى مريضاته ، بدلا من عدستها المعتمة ، وبعد ذلك تم إجراء آلاف العمليات المشابهة وثبت نجاحها . وقد تم تطوير العدسة لتصبح من مادة السليكون الشفاف . وهذه العملية دقيقة جدا أيضا . كما وان العمل يسير بنجاح لتصحيح النظر البعيد أيضاً .

● وماذا أيضا ؟

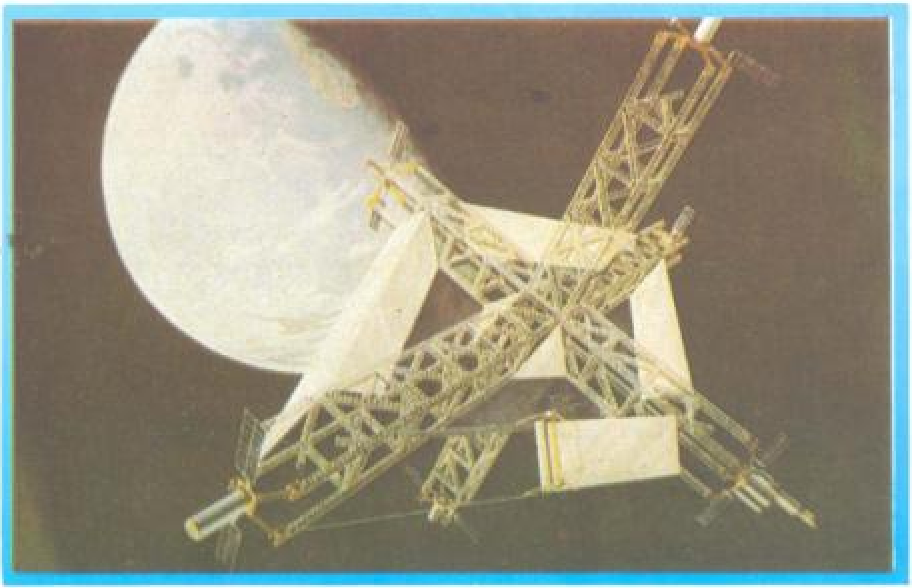
ـ إن مجال إجراء البحوث والاختبارات ، وتطوير الإمكانات والقدرات البشرية والأدوات التي نستعملها يسير سيرا حثيثا .

ويمكن الإشارة ـ على سبيل المثال ـ إلى أننا أخذنا بتطبيق العملية التي تقوم على مراحل متخصصة ، إذ يقوم بإجراء كل مرحلة فريق متخصص .

فالفريق الأول ينهي مهمته في اختصاصه المحدد الدقيق ، فينقل المريض إلى فريق آخر متخصص بناحية لاحقة من العملية ، وهكذا يتوالى نقل المريض حتى الانتهاء من العملية المطلوبة . إن هذا الإجراء قد أثبت أنه يسهل العمل ، ويعطينا نسبة إنجاز أعلى ، قد تصل إلى عشرة أضعاف ، قياسا بالجراحات العادية ، ذات الأسلوب العادي .

● وماذا أيضا ؟

ـ مادامت الحياة تسير ، وأمراضها تنتشر ، فإن العقل الانسان يجب أن يعد عدته ، ويستمر في تطوير أدواته ، كي يوفر للانسان حياة أفضل وأسهل . □



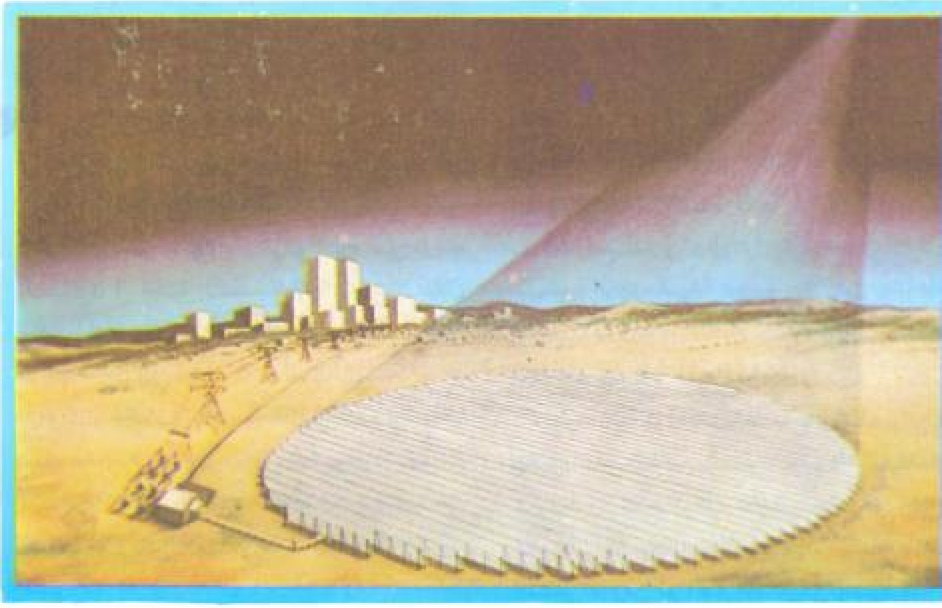
ـ محطة فضاء لتوليد الكهرباء من الطاقة الشمسية

الطاقة من الفضاء

بقلم : رؤوف وصفي

توقعت البشرية منذ زمن طويل أن يكون الغد كاليوم تماما أو يكاد ، فالتغيير شيء مثير للقلق ، ويدعو للخوف والرهبة ، لكننا في العصر الحديث نتحدث عن صدمة المستقبل ، ونعلم أن التغيير جزء متلازم مع الكون ، وأن أكثر مناهج العمل نجاحا للبشرية هو الذي يحدد كيف ننشيء بيئة تستوعب كل التغييرات التي يمكن التنبؤ بها .

يعتمد التنبؤ بالمستقبل على الأسلوب العلمي ، ودراسة الماضي ، ومواكبة الحاضر ، واستشفاف المستقبل . ومع التغيرات المتلاحقة في العصر الحديث نشأ علم جديد ، يختص بدراسة المستقبل ، وهو « علم المستقبل » الذي يجمع بين الخيال والبحث العلمي ، وشحذ الفكر ، بحيث تكون توقعاته أقرب الى النجاح ، ويمتد نطاق هذا العلم ليشمل عددا من جوانب الحياة ، كالعلم والتقنية والفن والتعليم والاقتصاد ، وغيرها ، في ظل زيادة هائلة للسكان ، حيث يتضاعف عددهم



ـ الموجات الدقيقة تبث الى محطة الاستقبال الأرضية

ليصبح حوالي ٩ بلايين* في عام ٢٠٢٠م .

ويجري العلماء أبحاثهم في الوقت الحاضر ، لايجاد بدائل للطاقة ، حيث تشير الدراسات الى أن مصادر الطاقة التقليدية الحالية ـ كالنفط والفحم ـ توشك على النفاذ في أوائل القرن القادم .

ويمثل هذا كارثة لكافة نواحي النشاط الانساني ، ومن ثم يعكف العلماء على اجراء تجاربهم على استخدام قوة الرياح والأمواج والحرارة الكامنة في باطن الأرض ، كما يحاولون تطوير المفاعلات النووية ، وذلك لتوفير الطاقة التي تعتبر مصدرا للتقدم العلمي والتقني في المستقبل .

ومن أهم تلك الأبحاث العلمية استغلال الطاقة الشمسية التي تنتشر في الفضاء السحيق ، خاصة أن مساحات كبيرة من العالم تنعم بثروات شمسية هائلة ، يمكن استغلالها كمصدر رخيص للطاقة ، فالشمس ـ وهي بمثابة فرن ذري ، يتحول فيه غاز الهيدروجين الى هليوم ـ تطلق طاقة هائلة الى الفضاء ، تنتج عن احتراق حوالي خمسة ملايين طن متري من الهيدروجين في كل ثانية ، ويتوقع العلماء أن تستمر الشمس في اطلاق الطاقة لمدة خمسة بلايين عام أخرى .

ويقدر أن كمية الطاقة الشمسية التي تصل الى كوكب الأرض خلال ساعة واحدة ، يمكن أن تكفي العالم كله كوقود مدة عام كامل ، إذا أمكن الاستفادة من طاقاتها بشكل جيد .

وقد أصبح مألوفا في العصر الحديث وجود أجهزة شمسية نافعة في المنازل ، للتسخين والطهو والانارة ، كما تستخدم الطاقة الشمسية في بعض ساعات اليد ، والأجهزة الحاسبة وغيرها .

الخلايا الشمسية (الكهربيضوئية)

يمكن تحويل ضوء الشمس الى كهرباء (أي قوة محركة) دون احتراق أو وقود أو تلوث للبيئة ،

---

* البليون (ألف مليون) أي العدد واحد وأمامه تسعة أصفار ويكتب هكذا ١٠⁹

باستخدام وحدة يطلق عليها اسم « الخلية الشمسية الكهربيضوئية » « Pholovoltaic » ، وهي تتكون بصفة أساسية من السليكون ، وهي المادة التي تتكون منها رمال الشواطيء ، وتتلخص فكرة توليد الطاقة في أن بلورة السليكون تحول أشعة الشمس الى كهرباء ، فعندما تسقط طاقة الضوء في شكل وحدات ـ يطلق عليها اسم فوتونات ـ على ذرات السليكون في الخلية الشمسية فإنها تسبب انطلاق بعض الجسيمات المكونة لهذه الذرات ، وهي الالكترونات التي تحدث التيار الكهربائي .

وتمتاز الخلايا الشمسية الكهربيضوئية بأنها مصنوعة من السليكون ، وهي مادة موجودة بكميات كبيرة في القشرة الأرضية ، ولها قدرة عالية على التحمل ، ويمكن أن تعمل دون تلف مدة عشرين عاما .

واستخدمت هذه الخلايا الشمسية لأول مرة في الولايات المتحدة بالقمر الصناعي « فانجارد » عام ١٩٥٨ ، ثم شاع استخدامها في الآلاف من الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء في الوقت الحاضر ، حيث تقوم البطاريات المكونة من عدة خلايا شمسية بتوليد الطاقة لهذه الأقمار ، لتغذية أجهزة الارسال والاستقبال ، وتشغيل أجهزة التصوير الدقيقة والحاسوب (الكمبيوتر) ، وهي تعمل بشكل أفضل في درجات الحرارة المنخفضة ، وهذا ما يتوافر في الفضاء ، خاصة أنه ليس ثمة معوقات ، مثل الغبار الذي قد يغطي سطح البطارية الشمسية ويتلفها .

ويسعى العلماء في الوقت الحاضر الى زيادة قدرة الخلايا الشمسية على تحويل الطاقة الشمسية الى كهرباء ، حيث أن قدرتها الحالية لا تتعدى تحويل سدس الأشعة التي تسقط عليها .

ويتوقع أنه في عام ٢٠٢٥ ستتمكن الخلايا الشمسية الكهربيضوئية من سد ١٠٪ من احتياجات الدول الأوروبية من الطاقة .

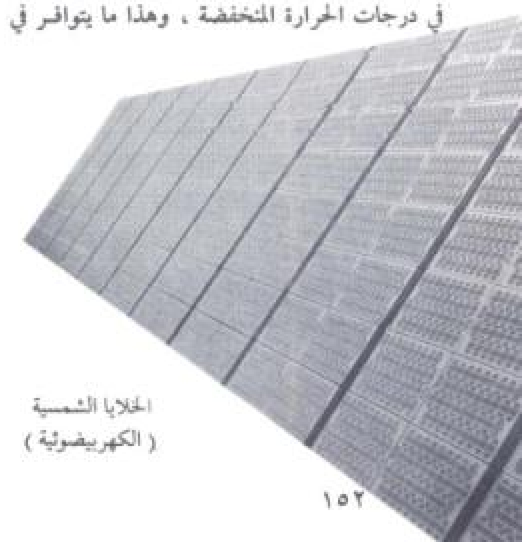
محطات فضائية للطاقة

أوضحت الدراسات العلمية بأن محطات توليد الكهرباء من الطاقة الشمسية سوف تأخذ مساحات كبيرة فوق سطح كوكب الأرض ، قد تبلغ خمسين كيلو مترا مربعا من الأجهزة التي تجمع أشعة الشمس ، ومن ثم اتجه التفكير الى إنشاء محطات فضائية ، لاستغلال الطاقة الشمسية ، حيث تظل الشمس مضيئة طول الوقت ، وهكذا يمكن الاستفادة من أشعتها ، كما أنه لا يوجد غلاف جوي يشتت ضوء الشمس ، ويخفف من حدته .

وتتكون محطة الفضاء للطاقة الشمسية من قمر صناعي ضخم ، تمتد منه لوحات ، ينتشر عليها عدد كبير من الخلايا الشمسية ، وتبدو في الفضاء كأجنحة هائلة يبلغ طول كل منها عشرة كيلو مترات ، وعرضها خمسة كيلو مترات ، وعندما تسقط أشعة الشمس على الخلايا الشمسية تنتج الطاقة الكهربائية ، ولا تكون الأجنحة مغطاة كلها بالخلايا الشمسية ، بل تتخللها مجموعة من المرايا التي تركز أشعة الشمس على الخلايا ، ومن ثم تزيد من قوة الكهرباء المولدة .

لكن كيف يتم ايصال الطاقة الكهربائية من محطة الفضاء الى سطح الأرض ؟

يتوسط أجنحة محطة الفضاء هوائي إرسال ، يبلغ طوله حوالي كيلو متر واحد ، ويتكون من مجموعة من المحولات التي تقوم بتحويل الطاقة الكهربائية



الخلايا الشمسية
(الكهربيضوئية)

الناتجة الى موجات كهرومغناطيسية دقيقة (ميكروويف Microwave) ، تبث الى محطات استقبال فوق سطح الأرض ، تبلغ مساحة كل منها حوالي سبعة كيلومترات مربعة ، حيث تحول الموجات الدقيقة الى طاقة كهربائية مرة أخرى ، ثم توزعها على المراكز السكانية والصناعية .

ويمكن لهذه الموجات الدقيقة أن تخترق الغلاف الجوي دون أن تفقد نسبة كبيرة من طاقتها ، وعندما تصل الى محطات الاستقبال فوق الأرض يمكن تحويل ٨٠٪ من طاقتها الى كهرباء ، ويجب أن يؤخذ في الاعتبار دقة توجيه هذه الموجات الدقيقة الى مراكز الاستقبال ، حتى لا تتشتت بعيدا ، ومن ثم التقاطها بجهاز تحكم خاص بالقمر الصناعي مرة أخرى ، لتوجيه إطلاق مزيد من الموجات الدقيقة الى محطات الاستقبال بدقة أكبر .

ويمكن لكل محطة فضاء للطاقة أن تولد ٥٠٠٠ ميجاواط ، وهذا يزيد حوالي خمس مرات عن أكبر مولدات الطاقة الكهربائية الموجودة في الوقت الحاضر على سطح الأرض .

ويرى بعضهم أن هناك خطرا على السكان من إطلاق الموجات الدقيقة بتركيز الى محطات الاستقبال ، حيث قد يسبب أمراضا خطيرة كالسرطان ، لكن العلماء يؤكدون بأن أجهزة البث في القمر الصناعي سوف تقلل من قوة هذه الموجات الدقيقة ، بحيث لا تحدث أي ضرر على السكان ، سوى الشعور ببعض الدفء .

فرن شمسي في الفضاء

ثمة تصميم آخر لمعدات في الفضاء لتوليد الكهرباء من الطاقة الشمسية باستخدام تقنية المولدات والمحركات ، وتتلخص هذه الطريقة الجديدة في بناء فرن شمسي هائل في الفضاء ، حيث تقوم معدات مصنوعة من البلاستيك المقوى ، المغطى بطبقة رقيقة من الألمنيوم ، بتركيز أشعة الشمس ، لتسخين خزان مملوء بغاز الهليوم ، ونتيجة لهذا التسخين يتمدد غاز الهليوم فيدير محركا هائلا ، حيث يولد الكهرباء ، تماما كما يحدث في محطات توليد الكهرباء فوق الأرض ، ثم يتم بث التيار الكهربائي في شكل موجات دقيقة ، بواسطة محولات خاصة ، الى محطات استقبال فوق الأرض ، حيث يتم تحويلها مرة أخرى الى تيار كهربائي ، يتم توزيعه وفق احتياجات استهلاك الطاقة .

ويتساءل العلماء : كيف يمكن نقل هذه المعدات العملاقة الى الفضاء ؟ وللتأكد من أن المحطات الفضائية للطاقة الشمسية ستبقى في مكان ثابت فوق كوكب الأرض فإنه يجب وضعها في مدار دائم دائري ، مواز لسطح الأرض ، في المنطقة الاستوائية ، على ارتفاع ٣٦,٠٠٠ كيلو متر في عمق الفضاء ، على أن تكون زاوية سرعتها مساوية لزاوية سرعة دوران كوكب الأرض ، وذلك لضمان توجيه الموجات الدقيقة الى محطات الاستقبال بشكل دقيق ، بالاضافة الى أن وزن كل من هذه المحطات يبلغ أكثر من ١٠,٠٠٠ طن . كل هذا يجعل من إطلاق محطة فضاء بهذا الوزن الى مثل هذا العمق في الفضاء أمرا يكاد يكون مستحيلا ، ذلك أنه يتطلب استخدام صواريخ ذات قدرات جبارة ـ حوالي ٣٠٠ طن ـ وهذا لا يمكن تحقيقه بالتقنية البشرية حتى في المستقبل المنظور ، ولهذا فكر العلماء في إطلاق أجزاء المحطة الفضائية على دفعات ، ثم تركيبها في الفضاء ، حيث تتلاشى قوة الوزن ، وينعدم الضغط الجوي ، ويقوم بتركيب هذه المعدات فريق عمل من المهندسين والعمال الذين يقيمون في محطة فضاء بصفة دائمة ، لتشغيلها وصيانتها ، ويقدر العلماء أن تكون محطات الفضاء التي تحول الطاقة الشمسية الى كهرباء حقيقة واقعة خلال الخمس والعشرين سنة القادمة ، ويتوقعون أن تسهم هذه المحطات في امداد كوكب الأرض بنسبة كبيرة من الطاقة التي يحتاج اليها التقدم العلمي والتقني في القرن الحادي والعشرين . □

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

ديسمبر ١٩٨٧ م

سيكولوجية اللعب

تأليف: سوزانا ميلر

ترجمة: د. حسن عيسى

مراجعة: د. محمد عماد الدين اسماعيل

الكتاب ١٢٠

٥٠٠ فلس

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

الخلافات الزوجية





الخلافات الزوجية: الحياة بعد العاصفة

اعداد : ريم الكيلاني

• هل يخلو بيت من خلاف ؟ وهل هناك علاقة بدون مشاحنات ؟ في لحظة الغضب قد يبدو للبعض أن الحياة لن تستمر ثانية بين الزوجين ، وان .. وان ..... ولكن بقليل من العقل وكثير من الحنان يمكن أن ننسج خيوط الحياة المستمرة مرة ثانية .

تماما كما تثور العواصف والزوابع لأوهن الاسباب ، فقد تشتعل الخلافات لاسباب واهية لايتصور أحد أنها تسبب خلافا ، ولا يستطيع أحد أن يحدد بدقة ، قائمة مسببات للخلافات الزوجية ، فقد يسبب موقفاً ما خلافا بين زوجين ، ولكنه بين زوجين آخرين قد يبعث على الضحك ، بل لعلنا لا نزيد الامر تعميا لو قلنا أن اثار ونتائج موقف ما بين زوجين في لحظة معينة تختلف عن نتائج وآثار نفس الموقف بين ذات الزوجين في لحظة اخرى .

الأمر برمته مرهون بدرجة حالتنا النفسية ، وبالتراكمات التي داخلنا لحظة مواجهة الموقف ، ومناخنا النفسي .. ولذا فانه صحيح تماما في الحياة الزوجية أن النار قد تشتعل أحيانا من مستصغر الشرر .

لحظات المواجهة

كان ابوها في زيارة لبيتها . . بدأ النقاش بينه وبين زوجها هادئا ثم ارتفعت حدة النقاش . . وفجأة ثار الاب وأرغى وأزبد إذ كيف يقول له زوج ابنته أنه مخطىء في أفكاره ؟ . . وأقسم الا يدخل البيت . . . . وانصرف الاب لتبدأ مشكلة . . الزوجة ثائرة لان الزوج لا يحسن التعامل مع ابيها . . وتقسم أنها لن تبقى معه في البيت اذا لم يتصالح مع أبيها ثانية !

كان لديه ارتباط لأداء خدمة ما لبعض أقاربه . . فترك زوجته في بيت أهلها وذهب الى مهمته . . عندما عاد في منتصف الليل ليصحب زوجته ثارت في وجهه وتساءلت بحدة . . كيف تتركني ثلاث ساعات لكي تجلس مع اهلك تثرثر هناك . . دون أي مراعاة لي . . ولا لحاجتي الى النوم . . ولا . . . . ولا . . وينشب خلاف .

في الفراش . . الزوجة نائمة والزوج يطالع احدى الصحف . . تبدأ الزوجة في التأفف . . ثم تهب صارخة . . فهي لا تستطيع النوم بسبب الضوء وصوت ورق الجريدة أثناء تصفحه . فتصيح : اذا كنت تريد أن تقرأ فأقرأ خارج غرفة النوم ثم تعال لتنام ، ولكن لا تقلق راحتي . . وكلمة من هنا . . وكلمة من هناك ويشتعل خلاف !

ونماذج كثيرة . . . ومتعددة . . فكل موقف في الحياة المشتركة وكل خبرة وكل تجربة قد يكون سببا لاشتعال خلاف . . كما قد يكون سببا لمزيد من الفهم المشترك . . ويصبح السؤال اذن لماذا نختلف ؟ وإذا اختلفنا كيف نتصالح ؟

الخلاف لماذا

تتعدد الأسباب ، وتبقى النتيجة في النهاية واحدة

تقول احدى الزوجات : لم أختلف أنا وزوجي قط يوما على موضوع ذي قيمة ، فلم يكن بيننا أي نوع من المشاكل المادية أو الأسرية أو حتى الاجتماعية فنحن قد حددنا لحياتنا منذ البداية مسارا واضحا ومحددا ، ولكنني لا أعرف لماذا تشب الثورة فجأة لتنتهي بخصام قد يطول أسابيع .

ويحاول كلانا أن يلطف الجو ويهدىء من غضب الآخر ، بافتعال موقف وضحك أو نادرة ما ، ولكن تبقى الكبرياء بعد ذلك هي المانع الأول وليس موضوع الخلاف نفسه .

ويقول زوج آخر : زوجتي مخلصة تماما ، أشعر بحبها العميق لي ولأطفالي فهي تتفنن في خلق جو من السعادة والهدوء في البيت ، لذلك فإن تقصيرا بسيطا في أي من الأمور لا يغضبني بقدر ما يزعجني ويشعرني بالضيق ، ولكنني سرعان ما أستدرك الخلاف وأمنعه من الامتداد في زوايا المنزل ، وخاصة وأنا أعلم ما تبذله من جهد في سبيل توفير كل ما احتاجه وأطفالي داخل وخارج المنزل .

تقول زوجة ثالثة بحنق وسخط غريبين : إنه إنسان مهمل لا يتحمل المسئولية ولا يعرف المعنى الحقيقي للزواج ، إنه لا يعرف في حياته سوى العمل ولا يدرك ما يحتاجه البيت والأطفال، لا من ماديات فحسب بل من عواطف واهتمام انه يلقى بكل المسئوليات والأعباء (الأولاد والبيت والمدارس) على كاهلي وأنا إنسانة لها طاقة معينة وأشعر بعد مرور عشر سنوات على الزواج بأن طاقتي قد نفدت .

اذا لم يكن الرجل قادراً على تلبية حاجات منزله وأسرته ، فلم هو اذن ؟ ويعترف زوج آخر . . ازمتها في الانتقال من الخاص الى العام . . ومن الحادثة الفردية الى تعميمات وأحكام . . ونتائج عامة . . وعند الغضب تصدر أحكامها الجاحدة . .

ويتملكني الغيظ .. و ...

ثورة مشاعر :

هناك دائما اختلاف في الرأي سواء كان صغيرا ام كبيرا ، ودائما تكون هناك ثورة مشاعر تتولد نتيجة هذا الاختلاف ، واذا كان الخلاف بين زوجين أمراً طبيعيا بل وضرورياً ، فمن الممكن ايجاد حل له عن طريق المناقشات الهادئة دون أي توتر انفعالي .

تقول الدكتور سهام أبو عيطة استاذة علم النفس التربوي بجامعة الكويت : قد ينشب الخلاف بين الزوجين حول وضع صورة معينة في مكان ما أو حول اختفاء رباط عنق الزوج من مكانه في دولاب الملابس أو حول رأي في نجم سينمائي ، قد تبدو مثل هذه الخلافات بسيطة للوهلة الاولى . ولكن ماذا لو وجدنا أن الثورة والتفاعل مع المشكلة كانا أشد بكثير من السبب ؟ لا بد أن هناك سببا آخر لا علاقة له بموضوع الشجار ، ولا نغفل أبدا أن لكل انسان جانبا انفعاليا ، فهو قد يكون سعيداً ولا يعرف لماذا ، وتجده أحيانا حزينا مكتئبا ولا يعرف السبب .

والحقيقة أن المواقف المباشرة لم تكن يوما سببا لوقوع مشاكل ، ولا يدب الخلاف الا بسبب تراكمات نفسية داخل النفس البشرية وعدم وجود مثل هذه التراكمات عند الطرف الأخر يمكن أن يساهم في اصلاح الموقف بسرعة وسهولة ، ولا يسمح له بالتطور ، وتعود المياه الى مجاريها بمجرد مرور الحالة الانفعالية . اما اذا كان الطرفان مشحونين انفعاليا لاي سبب كان (العمل ـ المال ـ الاطفال) فان الخلاف في هذه الحالة يكون هو الشرارة التي تشعل النيران .

الكرامة والزواج

وتكمل الدكتورة أبو عيطة حديثها : انه من الخطأ أن يمتنع الزوجان في حالات الخلاف البسيطة عن التنازل بحجة الكرامة والكبرياء ، فالتنازل ضروري خاصة في علاقات الزواج . وعدم التراجع هو حجر العثرة الذي يحول دون فض النزاع ، فترى الزوجة في تنازلها أنها تتنازل عما لها من قدرة على المساومة ، يرى الزوج أن تراجعه فيه انقاص من رجولته أمام نفسه بل أمام المجتمع . ولكن ، ماذا لو كانت هناك مواقف مستعصية ليس لها حل ، فيصل الامر الى حافة الانفصال ؟ غالبا ما يكون ذلك في حالات انحراف الزوج او الزوجة خلقيا ، وهذا ما نطلق عليه اسم الأمراض الاجتماعية وهي المشاكل اللا اخلاقية وغير المقبولة اجتماعيا .

وفي هذه الحالات يبحث الزوجان أو ذووهما عن حكم ليدير حلقة النقاش بين الزوجين بدون تعصب لأي منهما . وهذا من شأنه أن يضفي جوا من الهدوء والمنطقية أثناء النقاش ، كما أنه يعطي الفرصة .

لكل طرف بالتعبير عن رأيه في الطرف الآخر بكل صراحة ودون أي ضغوط ويقوم الحكم باصدار حكم في نهاية الجلسة عليهما أو يأخذ من الطرف المخطىء تعهدا بعدم تكرار الخطأ .

ويعود السؤال يلح ثانية : كيف يغفر الزوج لزوجته تفكيرها برجل آخر ؟ وكيف تسامح الزوجة زوجها الذي يقضي نهاره مشغولا بامرأة أخرى ؟

كيف سيكون الطرفان قادرين على الاستمرار وعلى نسج خيوط جديدة للحياة بعد طول خلاف ، وبعد أن عرف بعض اصدقائهم وأقاربهم بنوع وطبيعة الخلاف !

اذا كانت المشاكل البسيطة التي تحدث كل يوم وفي

كل بيت تزول بزوال النهار وتذهب دون عودة فلا تترك في النفس أحقادا ، فكيف للمشاكل الحادة أن تطوى في ذاكرة النسيان لتسير بعدها القافلة دون منغصات ؟ تقول الدكتورة سهام أن الحب او الكراهية ليس سببا واحدا وكافيا للحكم على الحياة بالاستمرار أو الانفصال فهناك قيود كثيرة تأسر الزوجين وتجعل الخلاص قضية ليس سهلة .

ولعل أقوى هذه القيود المصالح المشتركة بين الزوجين خلاصة السنين القليلة التي قضياها معا . فمصلحة المحافظة على الأبناء أسريا واجتماعيا وخلقيا ، وهي أول واسمى هذه المصالح ، ولا اعتقد أن مصلحة اخرى غيرها يمكن أن تجعل الحياة تستمر ولا انكر أن المرأة في كل الاحوال ، تجد



وضعها في بيت الزوجية مع زوجها وابنائها افضل بكثير من أي وضع آخر .

وهنا لا بد أن يعترف المخطىء بخطئه ، وان يقدم تعهداً يضمن به حق الطرف الآخر بعدم الرجوع الى الخطأ ثانية ، وقد تكون السنين كفيلة بمحو كل آثار الخلاف ، وبنسيان المرارة التي أحدثها الشقاق .

ايجابيات وسلبيات الحياة :

يقول عبد المنعم الزيادي في كتابه الزواج السعيد : « من الخطأ تماماً أن يعرب الزوجان عن العواطف الايجابية وكبت العواطف السلبية وخاصة ان الزوجين يستطيعان بسهولة أن يهولا المشكلة ويجعلا من (الحبة قبة) حتى ليستغرب المقربون والأصدقاء من الشكل الذي يتعارك به الزوجان » .

كثير من علماء النفس يفضلون أن يفض الزوجان اشتباكهما قبل الذهاب للنوم ، أما اذا وجدا نفسيهما يحتدان في النقاش فعليهما أن يتركا الأمر لحين آخر ليكونا أصفى ذهناً ونفساً .

يقول الدكتور قاسم الصراف الأستاذ بكلية التربية بجامعة الكويت : ليس من السهل أن تعود المياه الى مجاريها بعد نزاع وشجار أي زوجين ، والحقيقة أنه لو انفرد كل منهما بنفسه للحظات يستعيد معها ذكريات تلك الشركة التي يريد أن يفضها ، فعليه أن يضع الأمور جميعها في الميزان الصحيح دون اتهامات باطلة ومحاولاً البدء من جديد اذا رجحت كفة السعادة .. أما قضية كيف تبدأ من جديد فهي عملية تلقائية منبعها عاملا التعود والاستمرارية والرغبة الصادقة في ذلك .

أما اذا رجحت كفة الشقاء والألم ، فعلى الزوجين أن يتساءلا جدياً هل سيكونان على استعداد لخوض

المغامرة من جديد على أسس بديلة ، أم أن الانفصال سيكون أفضل لجميع الأطراف . ويستطرد الدكتور الصراف : أن الزوج بحكم وجوده في مجتمع بطريكي يشعر دائماً بأنه على حق وان على الزوجة أن تذعن لهذا الحق ، ولذا فهو لا يرضى بالتنازل عن حقه أو الاعتراف بأنه على خطأ ، وحتى لو كان داخلياً مقتنعاً بخطئه ، فكبرياؤه لا تسمح له بالاعتذار للزوجة ، ومع مرور الوقت تدرك الزوجة الموقف على حقيقته . وعليها في هذه الحالة أن تختار فاما أن تتقبل الوضع كما هو وتلتزم الصمت ولو على مضض فتأخذ من الزوج موقفا سلبيا عله يصلح مواقفه الخلافية معها . أو تدخل معه في مواجهة صارمة نجاحها ليس بالضرورة مضمونا بل إنها قد تؤدى للتنافر والتباعد وربما الى الانفصال بين الزوجين .

وللخلافات الزوجية أسباب عديدة مختلفة منها تدخل الاقرباء في حياة خصوصيات الزوجين كأم الزوج أو ام الزوجة اللتين تحاولان بطريقة لا أرادية توجيه حياة الزوجين بما لا يتناسب مع عقليهما . وقد تؤدي هذه التدخلات لخلافات شديدة خاصة حين نرى أن احد الطرفين يحرص اشد الحرص على ارضاء امه في كل شيء ، كذلك فللوضع الاقتصادي المتذبذب داخل الاسرة دور ايضا في الخلافات الزوجية خاصة اذا كان احد الطرفين مبذرا غير مدرك للمسئولية الاسرية .

القدرة والسيطرة

ويكمل الدكتور الصراف : لا بد للموقف من نهاية ، ولا بد من سيطرة احد الطرفين على الموقف . اما النهاية لصالح من ؟ فهذا متوقف على عدة عوامل اهمها قدرة الطرفين على اقناع الطرف الآخر بأنه كان مخطئا او ذاتيا في حكمه وموقفه ، وتجدر الاشارة هنا الى ان استخدام المنطق والموضوعية في مثل هذه المواقف قد لا يوصل الى النجاح المطلوب ، لان الانفعال عادة يتغلب على ملكة التفكير وبالتالي تسود العاطفة وتتغلب على الموقف ونجاح احد الطرفين في السيطرة على المشكلة يتوقف الى حد ما على حاجته الى الطرف الآخر ، ففي الحياة الزوجية يقوم كل طرف منها باشباع الحاجات الاولية للطرف الآخر بالاضافة الى الحاجات الثانوية ، وعندما يشعر احد الطرفين بالحرمان من هذه الحاجات بسبب غضب الطرف الآخر فانه يحاول بشتى الوسائل والامكانيات الذاتية التنازل عن موقفه لكي يستطيع التفاهم مع الطرف الآخر .

خاصة حين يدرك انه بالتنازل عن بعض المتطلبات يستطيع الحصول على اشباع لحاجاته ورغباته التي حرم منها اثناء فترة الخصام ومن خلال اللعبة الزوجية يتعرف كل من الطرفين على نقاط القوة والضعف لدى الطرف الآخر ويستخدمها كورقة مساومة في المواقف الخلافية .

وتسير القافلة

الحياة الزوجية شركة أسسها اثنان وجدا في انفسهما القدرة على التعايش والتفاهم معاً واجمعا على ضرورة تكوين اسرة قوامها الحب والتفاني ، فان حدث واختلف الشريكان - وما اكثر ما يحدث ذلك - تجدهما يفكران جليا ويتأنيان قبل أن يتخذ أحدهما او كلاهما موقفاً من الطرف الآخر ، فهناك المصالح المشتركة وعاملا التعود والاستمرارية ، هذه كلها من شأنها أن تجعل الاثنين يبقيان على هذه الشركة لتستمر الحياة وتسير القافلة . □

مساحة ود..

منطق الفخ

كنت في سفر بعيد ، وفي طريق العودة حطت بي شركات الطيران في الجنوب الاسباني ، وانتظرت في الجنوب ثلاثة أيام حتى موعد أول رحلة طيران تعود بي إلى أرض الكويت . وكان الانتظار فرصة ، كي أرى الجنوب ، وبالتحديد منطقة الاصطياف الشهيرة فيه ، وكنت أعلم أنه قد دخل اسبانيا في شهور صيف هذا العام ٤٥ مليون سائح ، وأعلم أن هذه المنطقة نفسها تشترك مع كل أقطارنا العربية المشرقية في المناخ والطبيعة والبحر ، فكل هذه المنطقة تطل على البحر الأبيض المتوسط ، ووطننا العربي يمتلك ساحلا طويلا وهائلا على هذا البحر ، بدءا من سوريا ولبنان وفلسطين ، ومرورا بمصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، ويقينا فإن عدد السائحين الذين دخلوا الأقطار العربية مجتمعة لا يعادل عدد المصطافين الذين ذهبوا إلى اسبانيا . لقد ساهم بطرح هذا التساؤل كثير من الكتاب والصحفيين والمهتمين بقضايا التنمية ، على اعتبار أن السياحة هي مصدر مهم للعملة الصعبة ، وهي صناعة متشابكة ، لكن عائدها سريع ، ودورة رأس المال فيها قصيرة ، وكثير من الدول من الممكن أن تكتفي بدخلها من السياحة ، لكي تحقق توازنا ، وتمول مشروعاتها الأخرى منه ، ولقد طرح أيضا كثير من المهتمين سؤالا بسيطاً ومعقدا مفاده : ماذا ينقصنا عن اسبانيا ؟ أو بماذا تمتاز اسبانيا عنا ؟ ولا أحد يستطيع أن يتهم وطننا بعدم الاستقرار ، أو أن يدعي بأن اسبانيا أكثر استقرارا منه ، فالباسك وعمليات العنف بها قد ساوت الكفتين ، لكن في تقديري الخاص أن هناك نقطتين هامتين ، الأولى أن كل واحدمنهم يعرف أنه يبيع لك شمسا وهواء وراحة ، ويعرف أنه يبيع لك ما هو موجود لدى الآخرين ، فعليه أن يبتسم ويرحب بك ويساعدك ، لأنك تدفع مقابل هذا . والنقطة الثانية أن سلوك الناس هناك يختلف عن سلوكنا ، بدءا من « حشايا » الاسفنج التي تبيت الليل على الشاطيء دون حراسة ولا يسرقها أحد ، ولا يمزقها صبية ، وانتهاء باحترام حريتك وحقك في أن تستمتع بأيامك بالطريقة التي تراها . والباعة على جانبي الطريق يبيعون كل شيء بدءا من التماثيل ، وانتهاء بالمتعة ، والمقاهي تعج بالمطربين الذين يغنون ويرقصون للوطن وللحبيبة وللبحر . تقف وتشاهد وتتفرج ولا أحد ينهرك ، ولا يطالبك بالجلوس . المطاعم الرخيصة والغالية جنبا إلى جنب ، تدخل وتطلب ما تشاء ، ولا أحد يلزمك بأن تأكل وجبة كاملة ، فعلى قدر ما تأكل ستدفع . مئات التفاصيل الصغيرة نفتقدها في وطننا العربي ، فنحن مازلنا للأسف نرى السائح « صيدا ثمينا » ، قد وقع في الفخ وعلينا أن نصفي دمه ، ولذلك فهو يسافر ولا يعود . هذا السلوك الجماعي ، وهذه النظرة للسائح يكمن فيها سبب جوهري لانصراف السائحين عنا إلى بلدان لا تمتاز طبيعتها بمناخ يفضل على أقطارنا في شيء إلا سلوك الناس واحترامهم لحريات الآخرين بلا تدخل ولا قيود . □

محمود عبدالوهاب



هو..

شقيقتي !

ألمح في عينيه حديثا صامتا ، وبين الحين والحين يلقي بكلمة ذات مغزى ، تحمل أكثر من معنى ، ولا أستطيع أن أحدد بالضبط ما يعنيه بها ، ويتنابني التردد والحيرة ، هل أفاتحه وأصارحه ، وأحادثه في الموضوع بكل تفاصيله ، وأسمع تعليقاته ؟ لكنني أخاف أن أسمع منه رأيا وأعمل بغيره فأقع بذلك في براثن الخطأ .

استجمعت شجاعتي ، وأعددت نفسي لكي أقول له كل شيء ، بتفاصيل كاملة . أقول له كيف هي مشاعري تجاه شقيقتي ، وكيف أن زواجها منذ البداية لم يكن موفقا ، وكيف كانت ظروفها المادية هي وزوجها صعبة ، فبعد زواجها بفترة تعرض زوجها الذي كان يعمل بالتجارة لضربة مالية ، لم يقم منها حتى الآن ، وتشتت به الأمر ، فحينا يعمل لدى بعضهم ، وحينا آخر لا يجد عملا ، وأياما يبدأ فيها مشروعا لمصالحه ، لكن سرعان ما يخفق ، ولأنه كان طيلة حياته معتادا على الانفاق بسعة لم يستطع أن يغير هذا السلوك ، وأصبح أي مبلغ من المال يتوفر لديه يتبخر .

وقررنا نحن شقيقاتها أن نمد لها يد العون ، فتكفلت أنا بملابس أطفالها ، وصرت أجمع بعض القروش ، وأدبر ما أستطيعه من مصروف البيت ، وبدلا من أن أشترى لنفسي « بلوزة أو فستان » أشتري قماشا وأخيطه أنا في البيت ، وبدأت في مناورات ضغط للانفاق التي تعرفها كل ربة بيت ، وبدأت أسمع عبارات زوجي الموحية ، مثل : مالك ومال تفصيل الثياب أم أن حمى الادخار قد استعرت . . وهكذا . . ولم أجد في نفسي القوة كي أقول له ، وإن كنت بين الحين والآخر ألمح له ، أو أخبره عرضا أنني قد اشتريت شيئا لأبناء شقيقتي ، أو يراني وأنا ذاهبة إليها محملة بالأكياس ، فينظر ويضحك ، ويلقي بكلمة من كلماته ، فتنغرس في قلبي خناجر الألم . . ماذا لو ثار يوما ، أو حتى قالها بهدوء . . ، إن الانفاق على أبناء شقيقتي مسئولية أبيهم ، وأنه ليس مسئولا عن أحد غير أبنائه وزوجته . وخوفا من كل هذا استجمعت شجاعتي لأعترف له ، لكن مفاجأتي أنني ما أن بدأت الحديث وعرف هو مضمونه حتى أشار إلي بالصمت ، وطلب مني التوقف عن هذا « السخف » ، فهو - كما قال - يعرف كل شيء ، ولو كان غاضبا أو مستاء لعبر عن ذلك ، لكن كل ما في الأمر الالتزام بقليل من التوازن ، وقال : دعينا لا نفتح هذا الموضوع مرة أخرى . . . واعتراني الخجل ، فقد أدركت أن كل تصرفاتي السابقة كانت مفضوحة أمامه من قبل .

هي



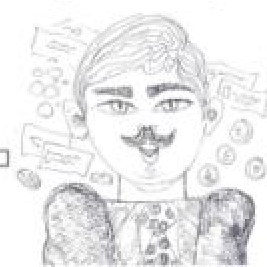
هي..

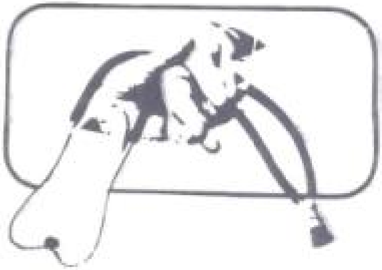
خيركم لأهله

تخطيء كثيرات من الزوجات عندما يعتقدن أن أزواجهن لا يعرفون ما يفعلن ،والحقيقة أن الأزواج يعرفون ، ويرصدون ، ويفهمون ، لكنهم يتغابون أحيانا ، ويتجاهلون أحيانا أخرى ، إما لأن الموضوع لا يستحق ، أو لأن الأفضل تجاهل الأمر بأكمله .

وهذا ما حدث بيني وبين زوجتي . منذ فترة طويلة وأنا أرى مساعداتها لشقيقتها ، ولأنني أعرف حجم ما معها من نقود ، وأنها لا تملك مصادر دخل غير ما أعطيه لها من مال ، فقد أدركت وفهمت تصرفات كثيرة تحدث أمامي ، عرفت لماذا ـ فجأة ـ استهواها تفصيل الثياب . ورصدت إجراءات ضغط الانفاق في البيت ، وكنت أراها وهي تذهب للسوق فتشتري ثيابا لأبناء شقيقتها ، وأدرك أن ملابس الصبية هذه لا تصلح لبناتي ، لكنني أصمت ، لأن مثل هذا الموضوع لا يليق أن يثار ، فحرجه أكبر ، وأنا لا أستطيع أن أمنعها من أن تمد يد العون لأختها ، وخيركم لأهله خيركم للناس ، ولا أستطيع أن أصارحها ، لأن إدراكي لحساسيتها يمنعني أن أصارحها بأنني أعرف الموضوع وأوافق عليه ، لأنها في هذه الحالة سترى أن هناك حرجا ، وأن شقيقتها انتقصت مكانتها أمامي . ودرءا لذلك كله ، وإيثارا للصمت تجاهلت الأمر ، لكنني بين الحين والآخر كنت أداعبها بكلمة من هنا أو هناك ، علها تدرك أن هذا يعني موافقة ضمنية مني على تصرفاتها ، لكن يبدو أن كلماتي قد فسرت على غير محملها ، فقد أورثتها قلقا وخوفا . وجاءت ذات ليلة وبدأت تلقي باعترافاتها أمامي ، واستبشعت الأمر ، فقد كانت تتحدث وصوتها يختنق بالبكاء ، ونظرها في الأرض ، كأنها طفل ارتكب خطيئة ، وهنا لم يكن الموضوع يحتمل أكثر من موقف واحد ، وبلا تردد قلت لها : أغلقي هذا الموضوع ، فكل ما تريدين قوله أنا أعرفه وأراه ، ولم أمنعك عنه ، فأهلك أحق الناس بعونك ومساعدتك ، وما دام الله قد بسط لنا في الرزق ، فشكر نعمته يكون بأن نمد عوننا ليشمل ذوي الأرحام ، وحتى لو لم يكن في رزقنا سعة ، فليس هناك أنبل من أن نقتسم لقمة عيش بيتنا وبين أقربائنا ، فحقك علي كزوجة أن أعينك على أن تفعلي ما تحبين . وبرك بأهلك وفاء منك تحمدين عليه ، واعترافك لي كرم منك أحمده لك ، لكن دعينا لا نفتح هذا الموضوع مرة ثانية ، فخير لنا أن نفعل الخير بصمت .

هو





طبيب الأسرة

دكتور حسن فريد أبو غزالة

قضايا منزلية

الطفل الباكي

البكاء هو لغة الطفل التي يخاطب بها من حوله حينما يعجز عن التعبير بالكلمات ، لهذا فهو يترجم مطالبه وانفعالاته إلى صراخ وعويل وبكاء بصورة أو بأخرى .

لكن الغريب أن الأطفال يعرفون لغة البكاء قبل أن يعرفوا لغة الضحك ، بل إن لغة البكاء هي الأكثر شيوعا ، لكن لا أحد يعرف السر ، أو يدرك السبب لهذا أو ذاك .

هناك بكاء معروف السبب ، واضح المعالم ، غير أن هناك بكاء آخر ، لا سبب له ، وهو في أشكال شتى وصور متنوعة ، يطلقها الطفل حسب الحاجة والسبب ، فالبكاء المبحوح قد يصاحب التهابات الحلق ، والبكاء المتقطع قد يكون عن مغص في البطن .

وربما فهم الكبار لغة بكاء الطفل ، مما يصاحبها من أعراض أو علامات ، فالبكاء الذي يصاحبه تلوي الطفل مثلا يكون غالبا عن مغص في البطن ، وبخاصة إذا صاحبه إسهال أو إمساك أو انتفاخ ، أما البكاء المصحوب بمص الأصابع فهو دليل على الجوع أو العطش ، أو هما معا .

وفيما يلي نستعرض لغة البكاء المعروفة عند الكبار .

١ - بكاء بلل القماط : إن التبول اللاإرادي التلقائي سمة مميزة للأطفال الصغار ، ينتج عنه بلل ملابسهم الداخلية وقماطهم بين حين وآخر ، وحيث ان البول حامضي التفاعل يتحول إلى قاعدي بسبب التخمر فتتكون الأمونيا التي تلهب مقعدة الطفل وبين فخذيه و يعبر عن الألم بالصراخ والعويل والبكاء .

٢ - بكاء الجوع : طلب الطعام لإسكات آلام الجوع لغته البكاء ، لهذا ترى الطفل يكف عن البكاء مع أول جرعة حليب ، أو عندما يتمكن من الامساك بحلمة الثدي أو الحلمة الكاذبة .

غالبا ما تفرغ المعدة من محتواها من الحليب في زمن مقداره ساعتان ونصف إلى ثلاث ساعات ، لهذا ينصح أطباء الأطفال بإرضاع الأطفال بنظام يأخذ



هذه المدة في الاعتبار ، حتى لا تتخم المعدة - كما يحدث مع الرضاعة العشوائية غير المنظمة - فيؤدي ذلك بالطفل إلى البكاء من التخمة .

٣ - بكاء الألم : اذا لم يكن الطفل مبللا ولا جائعا فإن بكاءه لابد أن يكون من ألم يعاني منه ، وهنا لابد من البحث عن السبب ، كوخزة دبوس عالق بالقماط أو شعور بالبرد أو الحر أو شعور بالحكة ، أو معاناة آلام المغص أو الانتفاخ بسبب جهل الأم بأصول الرضاعة .

٤ - بكاء المرض : الألم هو لغة المعاناة ، والمرض أقسى أنواع المعاناة للطفل الذي لا يجد حيلة للتعبير عن معاناته بغير البكاء ، فالتهاب أذن الطفل معاناة ، والشعور بالصداع معاناة ، وانسداد الأمعاء أو انسداد الأنف معاناة ، وقد يصاحب ذلك أعراض مختلفة ، يدركها الطبيب ، وأشهر هذه الأعراض ارتفاع درجة حرارة الطفل .

٥ - بكاء الخوف : الطفل شأنه شأن أي مخلوق يشعر بالخوف والقلق وعدم الاطمئنان والشعور بالأمان ، لهذا فهو يبكي تعبيرا عن هذه المشاعر ، ولهذا نجد الطفل يبكي إذا ما سمع صوتا عاليا ، كما قد يبكي من الظلام الدامس أو من الضوء الساطع أو من الوحدة ، وهذه أمور تعرفها الأمهات بالخبرة والغريزة .

٦ - بكاء الابتزاز : كثيرا ما تلجأ الأمهات بفضل عاطفتهن الفياضة إلى الاستجابة لمطالب الطفل ، سواء كانت معقولة أو غير معقولة ، ويبدو أن الطفل يدرك هذه الحقيقة ، فيلجأ إلى البكاء ، لتحقيق رغباته ، ما دام البكاء هو اللغة التي تحكم استجابة الأم لرغباته .

ومع الأيام يصبح البكاء هو اللغة المفضلة لابتزاز عواطف الأم ، والضمان لتحقيق طلباته .

٧ - بكاء رضاعة الثدي : لقد لوحظ أن بعض الأطفال يداهمهم البكاء عند الرضاعة من أثداء أمهاتهم ، ومع تحري السبب وجد أن الأم تضغط على رأس الطفل بشدة ، مما يسبب له شعورا بالاختناق ، بسبب كتم الأنف بثدي الأم ، ومن ذلك يصاب الطفل بخوف من رؤية الثدي الذي يسبب له الاختناق ، فيجنح إلى تفضيل الرضاعة الصناعية .

٨ - بكاء التسنين : إنه بكاء مألوف لدى كثير من الأمهات ، إذ يلاحظن أن تكرار البكاء لدى الاطفال في عمر التسنين ، نتيجة لما يصيب اللثة من تورم وحساسية ، يؤديان إلى الألم عندما يمس فمه ، لكنه ألم مؤقت ، يزول مع ظهور الأسنان أو إعطائه أدوية مسكنة .

٩ - البكاء بلا سبب : لوحظ أن بعض الأطفال يتميزون بظاهرة كثرة البكاء بلا سبب واضح ، ويقول أطباء علم النفس المتخصصون ان هؤلاء الأطفال يتميزون بالأنانية ، ويعمدون إلى هذا الاسلوب لاستقطاب الاهتمام بهم ، وتركيز الانتباه عليهم ، مما يجعل البكاء عندهم ظاهرة لا مبرر لها من المبررات السابقة الذكر . □

جمال العربية

لغة

بقلم : محمد خليفة التونسي

نائب الفاعل

هل ينبغي حذفه من كتب النحو ؟

الجملة في لغتنا ـ كما يرى نحاتنا ـ نوعان اسمية وفعلية ، وعندهم أن الاسمية هي التي تبدأ باسم أو يتقدم فيها الاسم على فعله . وان الفعلية هي التي تبدأ بفعل أو يتقدم الفعل فيها على فاعله أو نائب فاعله . ووفق هذه النظرة تكون الجملة في كل اللغات الهندية الأوربية اسمية ، ولا تكون فعلية الا شذوذا في حالات خاصة ، كالدلالة على المفاجأة فيتقدم الفعل على الاسم دون ترقب ، ولا تعد حينئذ قسما آخر مع الاسمية .

ولكن هذه القسمة إلى نوعين اصيلة في لغتنا ، فالجملة الفعلية لا تقل اصالة ولا شيوعا عن الاسمية ، وتقدم الاسم على الفعل حينا وتأخره عنه حينا آخر يجري على مقتضى اسباب نفسية بلاغية يقتضيها المقام في الكلام ، فلا تحل جملة منها محل اختها فتؤدي مثلها الغرض منها تمام الاداء ، وهذا ما يوضحه علم المعاني .

ولا يعنينا هنا ان نبين تفصيلا متى تكون الجملة اسمية ، ومتى تكون فعلية ، وان كنا نشير الى ان الجملة الاسمية بلاغيا تفيد ثبوت الحدث لما يسند اليه مثل : سعد خطيب ، وسعيد مدخن ، وأن الفعلية تفيد بلاغيا تجدد الحدث لما يسند إليه الفعل ، كقولنا : سعد يخطب ، ويخطب سعد ، وسعيد يدخن ، أو يدخن سعيد ، وأن تقدم الاسم على الفعل أو تقدم الفعل على الاسم في كلتا الجملتين المتشابهتين هنا ونحوهما ، أو تقدم أي كلمة على غيرها في أي جملتين متشابهتين لداع نفسي بلاغي ـ لا يغير شيئاً من الدلالة على تجديد الحدث .

انما يعنينا هنا ان ننظر الى الجملة الفعلية حين يتقدم فيها الفعل ويكون مبنيا للمعلوم ، فاذا جاء بعده اسم (أو نحوه) يدل على من فعل الفعل أو اتصف بالفعل فانه يسمى « فاعلا » ، كما في قولنا : « تكلم الخطيب » وطار العصفور ، وقوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر » أو يكون الفعل مبنيا للمجهول فيسمى النحاة مابعده « نائب فاعل » كما في قولنا « أُعِينَ المحتاج » و « سير في الطريق » و « سهر عندنا » .

وتعريفات النحاة للفاعل متعددة ، ولعلنا نؤدي خلاصتها حين نقول « الفاعل ما يدل على من فعل الفعل أو اتصف بالفعل ، كما في قولنا » « حضر الغائب » و « جرى الطفل » وقولنا « انكسر العود » و « احتجب النجم » و « انحسر المد » ، فكلمة « الغائب » تدل على من حدث منه الحضور ، ومثلها كلمة « الطفل » في الدلالة على من حدث منه الجري ، ولكن كلمة « العود » في الجملة الثالثة لا

تدل على من احدث الكسر ، بل ما اتصف بالكسر ومثلها كلمة « النجم » في قولنا « احتجب النجم » فهي لا تدل على ما حدث منه الحجب بل على ما اتصف به .

ولكن اذا قلنا « كُسِر العود » أو « حُجب النجم » فان نحاتنا يُعربون كلاً من « العود » و « النجم » نائب فاعل ، فهل هناك فرق في المعنى بين الجملتين « كُسر العود » و« انكسر العود » ؟ ان المعنى فيهما واحد ، وهو ان العود وقع عليه الكسر ، او اتصف به ، ولكنه لم يقع منه ، أو يحدثه .

ثم ان كلمة « العود » مرفوعة في كلتا الجملتين ، ولو انها مؤنثة للحقت تاء التأنيث بالفعل ، فيقال « كُسرت الشجرة » كما يقال « انكسرت الشجرة » . ثم ان نحاتنا يقولون ان كل ما يعامل به الفاعل ينبغي ان يعامل به ما يسمونه نائب فاعل ، فكلا الاسمين هنا فاعل لأنه متصف بالفعل وإذن فلا داعي لتخصيص باب يسمى « نائب الفاعل » .

أفليس هناك فرق في غير المعنى بين هاتين الجملتين « كسر العود » و « انكسر العود » إلا تغير صيغة الفعل بين « كسر » و « انكسر »؟

لا شك أن هناك فرقا استدعى تغاير صيغتي الفعلين في الجملتين ، فما هو ؟ انه التغاير في المقام كما يقول البلاغيون ، أي مقام الكلام بين المتكلم والسامع بحسب ما يحسه المتكلم ويراه من حالة السامع ، سواء كان المتكلم مصيبا أو مخطئا في نظرته . كما أن هنا تغايرا في المقام بين كلتا الجملتين وجملة ثالثة هي « كسر الطفل العود » .

فاذا قلنا « كسر الطفلُ العود » افادت الجملة ان السامع يعنيه أن يعرف من كسر العود ، وان المتكلم عارف به ، صريح في بيانه ولكن اذا قلنا « كُسر العود » دلت الجملة على أن السامع قد يعنيه ان يعرف من كسر العود ولكن المتكلم يسكت عن ذكره لجهله به ، أو لخوفه منه ، أو لخوفه عليه ، واذا قلنا « انكسر العود » ، دل الفعل المطاوع هنا على حالة ثالثة تخالف الحالتين السابقتين وهي حالة المتكلم حين يرى أن السامع لا يهمه الا معرفة كسر العود ، ولا يهمه من كسره ، ولا ان كان المتكلم يعرف من كسره او لا يعرفه .

وقريب من هذا في مراعاة المقام ما حكي عن الامام المبرد ، حين سمع اعتراض أحد الرؤساء على تعدد جمل تفيد معنى واحدا فاتهم العرب بالحشو ، مثل « عبدالله قائم » ، « وان عبدالله قائم » ، « وان عبدالله لقائم » فأفهمه المبرد الفرق بين استعمالاتها ، وأن جملة « عبدالله قائم » تفيد الاخبار بقيام عبدالله ، وجملة « ان عبدالله قائم » تستخدم للاجابة عن سؤال سائل تأكيداً له ، وجملة « إن عبدالله لقائم » تقال لمن ينكر قيام عبدالله ويبالغ في انكاره فتؤكد له الخبر بمؤكدين .

وهذا ما قننه البلاغيون بعد ذلك ، فميزوا بين أمثال هذه الجمل بأن الاولى « خبر ابتدائي » يقال للسامع الخالي الذهن منه ، والثانية « خبر طلبي » يقال لمن يشك في الخبر ، فيتردد في قبوله ، والثالثة « خبر انكاري » يقال للسامع حين ينكر الخبر .

ونعود الى الافعال المطاوعة في العربية فنقول انها تعبر عن حالة لاتعبر عنها غيرها من الافعال المبنية للمعلوم أو المبنية للمجهول ، وهذه فضيلة في العربية تستحق الالتفات والتقدير . ونلاحظ ان هذه الافعال المطاوعة قليلة في لغتنا اذا قورنت بغيرها من الافعال ، اذ ليس لكل فعل متعد فعل « مطاوع » منه ، مثل : كسر وانكسر ، وحسر وانحسر ، ودفع واندفع ، ومثل : وعظ واتعظ ، وحجب واحتجب ، وغمس وانغمس ، ويأتي الفعل المطاوع غالبا على صيغة من هاتين الصيغتين : انفعل وافتعل في الفعل الثلاثي .

ويظهر ان هناك افعالا مطاوعة اهمل استعمال فعلها المتعدي الاصل ، مثل : انتقب ، واختصر ، واكتأب ، كما يظهر انه ليس كل فعل على صيغة « افتعل » يعد مطاوعا . والله اعلم . □

جمال العربية

ش ع ر

هكذا غنى الآباء

مأساة سيدة قتل أخوها زوجها

في أواخر الجاهلية كان ولاة من اليمن (في جنوب الجزيرة العربية) يحكمون قبائل من معدّ (في شمال الجزيرة) ، فلما طغوا عليهم وأثقلوا الجباية ، ثارت قبائل معد وحاربوهم حتى انتصروا عليهم بقيادة زعيم من قبيلة تغلب . اسمه « كليب بن ربيعة » ، فجعلوه ملكا عليهم يرحّلهم بين الأمكنة وينزلهم فيها كما يريد . فلما رأى طاعتهم له دخله زهو شديد فكان يستأثر دونهم ببعض المراعي والمياه والمصايد ، حتى قيل إنه بلغ من فرط جبروته أنه كان اذا أعجبه موقع ربط فيه جرواً صغيراً ، فكان يحرم على الآخرين دخول الموقع حيث يسمع نباح الجرو ، ليكون حمى خاصاً به .

وكانت قبيلة تغلب تساكن قبيلة بكر (وكلتاهما تنسب الى وائل) ، وقد تزوج كليبُ شاعرتَنا جليلة بنت مرة ، وكان أبوها من زعماء بكر ، وكان أخوها جساس صديقا حميما له ، ولهذا كان يشاركه في المواقع التي يحميها لنفسه وأنعامه ، وكانت لجساس جدة تسمى البسوس تنزل في جواره بأنعامها لترعاها مع أنعامه في حمى كليب ، وقد نزل في جوارها يوما بدوي من قبيلة جَرْم كانت له ناقة تسمى « سراب » فكانت ترعى مع ابلها ، وحدث أن دخلت « سراب » مع أنعام البسوس وجساس لترعى في حمى كليب ، فلما رآها كليب أنكرها ورأى في دخولها حماه عدوانا عليه فرماها بسهم ، ورآها صاحبها الجرمي تشخُبُ دما ، فصرخ مستجيرا بالبسوس التي كان ينزل في جوارها ، فانضمت البسوس إليه مستجيرة بحفيدها جساس ، الذي رأى في عمل كليب عدوانا على جواره وكرامته ، فانتهز غفلة كليب يوما فقتله ، وكان من جرائر قتله - فيما قيل - استمرار المعارك أربعين سنة قتل فيها كثير من الطرفين .

وقيل انه لما قتل جساس (أخوها) كليبا (زوجها) اجتمع نساء تغلب للمأتم فقلن لأخت كليب : « رحلي جليلة عن مأتمك فان قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب » ، فقالت لها « ياهذه اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا ، وشقيقة قاتلنا » فخرجت وهي تجر أعطافها ، فلقيها أبوها مرّة ، فسألها : « ما وراءك ياجليلة » فقالت : « ثُكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين هذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد » . فقال لها : « أويكفي ذلك كرمُ الصفح ، واغلاءُ الديات ؟ » فقالت : « أمنية مخدوع ورب الكعبة ، أبِالبُدْنِ (١)

تدع لك تغلب دم ربها ؟ » .

وقيل : لما رحلت جليلة قالت أخت كليب : « رحلة المعتدي ، وفراق الشامت ، ويل غدا لآل مرة ، من الكرة بعد الكرة » فلما بلغ قولها جليلة قالت « وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ، أسعد الله جدّ أختي ، أفلا قالت : نَفْرَةُ الحياء ، وخوف الاعتداء » .

وهذه مأساة جليلة وهي بين نارين ، كما تصورها في هذه القصيدة مخاطبة فيها أخت كليب موجهة إياها لتبين حقيقة المأساة .

يَـاٱبْنَـةَ ٱلْأَقْـوَامِ إِنْ لُمْـتِ فَـلَا ... تَـعْـجَـلِي بِـٱلـلَّوْمِ حَـتَّى تَـسْـأَلِي
فَـإِذَا أَنْـتِ تَـبَـيَّـنْـتِ ٱلَّـذِي ... يُـوجِـبُ ٱلـلَّوْمَ فَـلُومِـي وَٱعْـذِلِي(٢)
إِنْ تَكُنْ أُخْـتُ ٱمْـرِيءٍ لِـيمَتْ عَلَى ... شَـفَـقٍ مِـنْـهَـا عَـلَـيْـهِ فَـٱفْـعَـلِي(٣)
جَـلَّ عِـنْـدِي فِـعْـلُ جَـسَّـاسٍ فَـيَا ... حَـسْـرَتِي عَـمَّا ٱنْـجَـلَى أَوْ يَـنْـجَـلِي(٤)
فِـعْـلُ جَـسَّـاسٍ عَـلَى وَجْـدِي بِـهِ ... قَـاطِـعٌ ظَـهْـرِي وَمُـدْنٍ أَجَـلِي
لَـوْ بِـعَـيْنٍ فُـدِيَـتْ عَـيْـنِي سِـوَى ... أُخْـتِـهَـا فَـٱنْـفَـقَـأَتْ لَمْ أَحْـفِـلِ
تَحْـمِـلُ ٱلْـعَـيْنُ أَذَى ٱلْـعَـيْنِ كَـمَا ... تَحْـمِـلُ ٱلْأُمُّ أَذَى مَـا تَـفْـتَـلِي(٥)
يَـا قَـتِـيلًا قَـوَّضَ ٱلـدَّهْـرُ بِـهِ ... سَـقْـفَ بَـيْـتَيَّ جَمِـيـعـاً مِـنْ عَـلِ
هَـدَمَ ٱلْـبَـيْـتَ ٱلَّـذِي ٱسْـتَـحْـدَثْـتُـهُ ... وَٱنْـثَـنَى فِي هَـدْمِ بَـيْـتِي ٱلْأَوَّلِ(٦)
وَرَمَـانِي قَـتْـلُـهُ مِـنْ كَـثَـبٍ ... رَمْـيَـةَ ٱلْـمُـصْـمَى بِـهِ ٱلْمُـسْـتَـأْصَـلِ(٧)
يَـا نِـسَـائِي دُونَـكُـنَّ ٱلْـيَـوْمَ قَـدْ ... خَـصَّـنِي ٱلـدَّهْـرُ بِـرُزْءٍ مُـعْـضِـلِ(٨)
خَـصَّـنِي قَـتْـلُ كُـلَيْـبٍ بِـلَظًى ... مِـنْ وَرَائِـي وَلَـظًى مُـسْـتَـقْـبِلِ(٩)
لَـيْسَ مَنْ يَـبْـكِي لِـيَـوْمَـيْنِ كَـمَـنْ ... إِنَّمَـا يَـبْـكِي لِـيَـوْمٍ يَـنْـجَـلِي
يَـشْـتَـفِـي ٱلْـمُـدْرِكُ بِـٱلـثَّـارِ وَفِي ... دَرَكِـي ثَـارِيَ ثُـكْـلُ ٱلْمُـثْـكِـلِ(١٠)
لَـيْـتَـهُ كَـانَ دَمِـي فَـٱحْـتَـلَبُـوا ... دِرَراً مِـنْـهُ دَمِـي مِـنْ أَكْـحَـلِي(١١)
إِنَّنِي قَـاتِـلَـةٌ مَـقْـتُـولَـةٌ ... وَلَـعَـلَّ ٱللهَ أَنْ يَـرْتَـاحَ لِي .

---

(١) البُدن : الإبل ونحوها ، وكانت الديات تدفع منها (٢) اعذلي : لومي (٣) شفق : شفقة .

(٤) عما انجلى أو ينجلي : عما ظهر ، وهو قتل كليب ، أو سيظهر حين يأخذ قومه ثاره .

(٥) تفلي المرأة رضيعها ، أو تفتليه : تعزله عن الرضاع ، فتتأذى مثله .

(٦) هدم أسرتي الجديدة بعد الزواج ، ورجع الى أسرتي القديمة قبل الزواج .

(٧) كثب : قرب : والمعنى العام : قتله أصابني من قرب كما يصيب الرامى الصيد من قرب فيقتله في مكانه ، وينتزعه من أصله .

(٨) رزء معضل : نكبة شديدة : والمعنى أن قتله أصابني وحدي ، ولم يصبكن .

(٩) اللظى : النار ، والمعنى : انني واقعة بين نارين : نار سبقت بقتله ، وأخرى متوقعة حين تتقاتل القبيلتان .

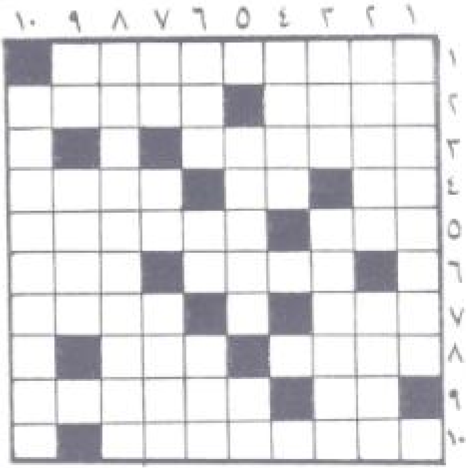
(١٠) الثكل : الموت ، وفقد العزيز ، والمعنى أن الانسان حين يأخذ ثاره من عدوه يستريح ولكن في أخذ ثأر كليب هلاكا للأعزاء .

(١١) الأكحل : عرق في باطن الذراع : والمعنى أنني كنت أتمنى لو أنني قتلت مكان كليب ، فنزفوا دمي دونه .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع العامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .



كلمات أفقية

١ . من أمهات المعاجم العربية

٢ . كاتب وفيلسوف ألماني كبير ، صوت الحمام

٣ . عنصر فلزي مشع اكتشفته ماري كوري

٤ . مثيل أو كفء ، فحص ، قيح

٥ . شدة وهلاك ، من أسماء صلاح الدين

٦ . تقال للمرأة المخصبة ، نقل أو زحزح

٧ . يتحلب منه الماء أو الدم ، جانب أو وجه الشيء .

٨ . اسم لعدد من ملوك فرنسا ، عكسها نوم

٩ . تألم ، من جموع عطر

١٠ . طبيب عربي شهير كان أستاذا لابن سينا

كلمات رأسية

١ . بلدة سوفيتية تعرضت لنكبة نووية مؤخرا

٢ . تجدها في قول مأثور بمعنى تشتتوا ، عطاء

٣ . شدة وصبر ، حلوى شبه القطائف تؤدّم بدهن اللوز

٤ . رائحة طيبة

٥ . أفكار لانفع فيها ولاخير ، ثار

٦ . عجز عن الانجاب ، خاصم ، تجدها في صراط

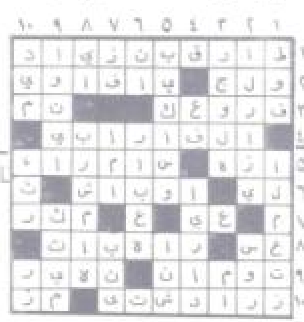
٧ . حرف مكرر ، فعل أمر بمعنى احفظ ، أطباق

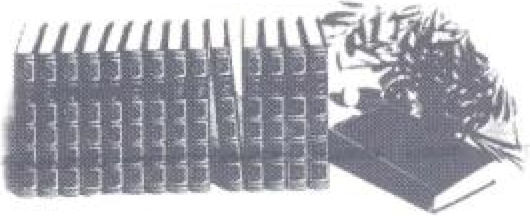
٨ . طاقة ناضبة مستخرجة من باطن الأرض

٩ . فرح ، يعلن

١٠ . عالم ألماني اكتشف موجات لاسلكية تعرف باسمه .

● حل مسابقة العدد الماضي نوفمبر ١٩٨٧

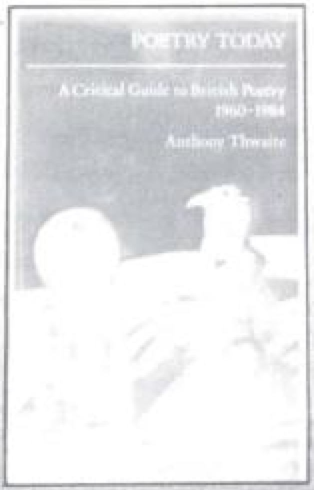




مكتبة العربي

كتاب الشهر

تأليف : أنطوني ثوايت / عرض : خالد عباس



الشعر الانجليزي المعاصر

١٩٦٠ - ١٩٨٤

تكاد تتوقف معرفة القارىء العادي بالشعر الانجليزي المعاصر عند أسماء كبيرة مثل ت. س. اليوت ، وازرا باوند ، وربما أودن ، وديلان توماس ، على الرغم من أن هؤلاء جميعاً كتبوا أهم أعمالهم قبل منتصف هذا القرن . ولكن ماذا عن الأجيال التي تلت هؤلاء الشعراء الكبار ؟ وهل برزت بين هذه الأجيال الشابة مواهب كبيرة ؟

صدر هذا الكتاب عن دار نشر « لونجمان » بلندن ١٩٨٥م ، وجاء في مائة وست وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، لمؤلفه « انطوني ثوايت » ، الشاعر ، الناقد الانجليزي ، زميل الجمعية الملكية للأدب ، الحاصل على جائزة « تشولمونديلي » ، لإسهاماته الجلية في ميدان الشعر .

يستهل « ثوايت » كتابه قائلاً بأن الشعر مايزال فناً مؤثراً في بريطانيا ، وليس مجرد صنعة ، يمكن اختفاؤها إذا لم يدركها المال أو الرعاية ، فما يزال هناك جمهور يستمع للشعر ، كواحد من الأنشطة الحيوية الممتعة ، تماماً كالاستماع إلى الموسيقا . وقد تجلى هذا في هيئة الإذاعة البريطانية (بي . بي . سي) بتقديمها لقدر معقول من الشعر الحديث كما تجلى أيضاً في دعم مجلس الفنون في بريطانيا ، ومجالس الفنون الإقليمية ، من خلال النشاط الدائب لسكرتارية الشعر القومي .

ثم ينتقل « ثوايت » إلى تناول أعلام الشعر الذين كان لهم تأثير واضح على حركة الشعر الانجليزي الحديث ، بدءاً من العقد السابع من هذا القرن . وأول هؤلاء الأعلام هو الشاعر روبرت غريفز* ، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة من شعراء ما قبل جيل ١٩٠٠* ، فقد مات ت . س . اليوت عام ١٩٦٥ ، وماتت أديث سيتويل عام ١٩٦٤ ، وكان كلاهما قد كفا عن كتابة الشعر عدة سنوات قبل وفاتهما ، ولكن بينما ما تزال قصائد ت . س . اليوت تقرأ اليوم كثيرا ، وبينما ما يزال هو صاحب الاسم المسيطر بشكل مطلق على الشعر في القرن العشرين ، فإن معظم شعر اديث سيتويل قد عانى ضموراً في قيمته على مر الأيام .

العجوز وأمير الشعراء :

أما غريفز الذي ولد عام ١٨٩٥ فلم يصل فقط إلى شهرة وتقدير الرجل العجوز ، بل ظل يكتب قصائده وينشرها حتى وقت قريب ، قصائد فيها رشاقة ورقة ونضارة .

شاعرنا الثاني هو السير جون بتجامن الذي عين « أميراً للشعراء » قرب نهاية عام ١٩٧٢ ، وهو شاعر ليس له ابتكار اليوت وتأثيره ، لكن يمكن ربط وعيه بالتقليدية الشعرية ، لكونه أصيلاً ومؤثراً ، كما هو الحال عند اليوت ، وعلى الرغم من أن بتجامن قد نشر كثيراً من القصائد الجميلة القصيرة منذ صدور ديوانه « نداء الأجراس » (١٩٦٠) ، وهو سيرة ذاتية شعرية ، إلا أن هذا الديوان يعد أفضل ما كتب ، وهو ديوان مليء بما أسماه بتجامن نفسه « تغييرات سريعة في الحالة المزاجية والموضوعات » ، ولذا فإنه تعبير عن ذاتية متنامية ، مركبة بدقة ورقة . وما تزال الأعمال الكاملة لهذا الشاعر تلقى نجاحاً شعبياً ونقدياً . هذه الأعمال نقحت عدة مرات ، وزيد عليها منذ صدورها أول مرة عام ١٩٥٨ ، وكان آخرها طبعة عام ١٩٧٩ . امتدحه « أودن » و « لاركن » ، فقد أدرك أودن مهارته التقنية طليقة الحركة ، ولمس لاركن الاستجابة الدرامية في شعره ، وهي تنبع من شعوره الحقيقي تجاه الحياة الحقيقية ، تلك الاستجابة التي هي جزء من المهارة الشعرية .

توفي الشاعر روبرت غريفز عام ١٩٨٦ ، أي بعد نشر هذا الكتاب بعام واحد .

الثلاثينيات وما بعدها :

يطلق على أودن ، ولوي ماكنيس ، وسيسل داي لويس ، وستيفن سبندر ، يطلق عليهم « شعراء الثلاثينيات » ، لأنهم برزوا في فترة ما بين الحربين العالميتين ، لكنهم ظلوا يكتبون حتى الستينيات والسبعينيات ، فقد استمر أودن الاسم المسيطر من بين هؤلاء الشعراء ، حتى بعد وفاته عام ١٩٧٣ ، وقد سبقه ماكنيس عام ١٩٦٣ ، ولويس عام ١٩٧٢ .

أصبح أودن في الستينيات حكيماً لا نبياً ، وكان فناناً آمن بأن الشعر يمكن أن يعبر عن أصوات عديدة ومهارات عديدة ، وقد صدر له « مدينة بلا أسوار » (١٩٦٩) ، تلاه ديوان آخر على (١٩٧٢) ، وبعد وفاته صدر ديوانه « شكراً لك ، يا ضباب » (١٩٧٤) ، وفي العديد من قصائد هذا الديوان يقف أودن متأملاً ممتلكاً ناصية الحوار ، في يسر مع نفسه وان لم يرض عنها ، يتحدث عن اهتمامات حقيقية ومحسوسة بعمق وبتهذيب بلا زهو أو غرور :

الفضيلةُ دائماً
أعلى كلفة من الشر ، لكنها
أرخص من الجنون ،

عندما مات لوي ماكنيس في سبتمبر ١٩٦٣ ، كان يمر بمرحلة خلاقة ، ودليل هذا في كتابيه الأخيرين : « انقلابات الشمس » (١٩٦١) و « السارية المحترقة » ، الذي أعده للنشر ، ولم يظهر إلا بعد موته بأيام قلائل . كان ماكنيس دائماً شاعراً غزير الإنتاج ، لكن كانت هناك فترات في حياته ، خاصة في أواخر الأربعينيات ومعظم الخمسينيات ، عندما بدأت قوته الحقيقية تهن في أعمال مثل « تتمة الخريف » على سبيل المثال . ومثل ماكنيس كان لويس الذي مات عام ١٩٧٢م بعد مرض طويل غزير الإنتاج ، وتقلبت شهرته صعوداً وهبوطاً . بعد صدور أعماله الشعرية عام ١٩٥٤ نشر أربعة دواوين ، كثير من القصائد في تلك الدواوين تندرج تحت شعر المناسبات ، منها ما يحتفي فيها بأصدقائه الموتى ، ومنها ما يعيد فيها اكتشاف الأماكن والجذور في موطنه الأصلي (ايرلندا) ، أو يسترجع لحظات معينة من السعادة أو الألم ، في غنائية جميلة ، تظللها كآبة رقيقة .

ويرى ثوايت أن الاعتقاد الشائع عن شعر سبندر بأن أفضل قصائده هي التي نشرت في أول ديوانين له ، هو اعتقاد صحيح ، فلا الأعمال الكاملة التي صدرت عام ١٩٥٥ ولا الديوان الوحيد الذي صدر بعدها « الأيام السخية » (١٩٧١) يبطل هذا الاعتقاد ، فهناك فقدان تدريجي للتقليدية اللفظية ، فالذات ظلت كما هي ، لكنها فقدت محورية التركيز .

ثم تأتي أسماء الشعراء الذين برزوا في الثلاثينيات أو الأربعينيات ، وهم : جورج باركر ، وديفيد جازكوين ، وس. جراهام ، ولورانس داريل ، ونورمان نيكلسون . ومعظمهم ولد بين عام ١٩١٠ و ١٩٢٠ ، وبعضهم قتل أثناء الحرب العالمية الثانية ، أو مات ، وبعضهم توقف ، وبعضهم ظل يكتب وينشر ، لكن دون إضافة قيمة كبيرة إلى أعماله الأولى ، وقليل منهم تطور وقويت شهرته . أكثر هذه الأسماء مثاراً للجدل هو جورج باركر ، ففي الوقت الذي بدأ فيه معاصره ديلان توماس يلفت الانتباه ، كان باركر وليس توماس ، هو الذي اختاره يتيس في « كتاب أكسفورد للشعر الحديث » (١٩٣٦) .

كانت ستيفي سميث التي توفيت عام ١٩٧١م متفردة تماماً ، وقد قضت من عمرها خمساً وستين سنة وهي تعيش في نفس المنزل في شمال لندن . لقصائدها نغمة لم تسمع غالباً في الشعر الحديث ، شاعرة لها خاصية الغرابة والعزلة ، صدر ديوانها « قصائد مختارة » (١٩٦٢) ، تلاه « أمير الضفادع » (١٩٦٦) ، و « العقرب المولود بنياً » ،

كتاب الشهر

(١٩٧٢) ، وصـدرت مجموعـة من أعمـالهـا (١٩٧٥) . تبني ستيفي سميث قصائدها غالباً على نسج الخيال والرؤى الغريبة ، وهي دائماً شاعرة مشغولة بقضية الموت ، وهـو موضوعها الرئيسي خلال حياتها الأخيرة . الموت لا كشيء مقيت وإنما كأمر يقابل بالترحيب والارتياح .

الحركة وما بعدها :

وينتقل ثوايت إلى تناول الشعراء المنتمين إلى « الحركة » وما بعدها ، وهم : فيليب لاركن ، وكينجسلي ايميس ، وروبرت كونكوست ، واليزابيث جيننجز ، و د. جي. أونرايت ، وجون واين ، ودونالد دايفي ، وتوم جن . وما زالت الحركة تثير نقاشاً أدبياً : هل وجدت ؟ وإن كانت كذلك ، فمن ينتمي إليها ؟ وهل أنجزت شيئاً ؟

صدر الديوان الأول لفيليب لاركن* « أبيات جديدة » (١٩٥٥) ، وتلاه « الأقل انخداعاً » (١٩٦٤) ، ثم « زفاف المتصرة » (١٩٧٤) . ومع نشر الديوان الأخير وما تلاه من سنوات ، تعزز الاتجاه العام والنقدي بأن فيليب لاركن هو أفضل الشعراء الإنجليز الأحياء ، وهذه وجهة نظر تقوم على حجم صغير من الإنتاج الشعري ، على أقل من مائة قصيدة ، لم يزد لاركن عليها إلا بضع قصائد تعد على الأصابع .

وما يزال كينجسلي ايميس كواحد من المرتبطين بالحركة يثبت وجوداً شعرياً ، مثله مثل روبرت كونكوست ، واليزابيث جيننجز ، هذه الشاعرة المؤثرة التي جمعت أعمالها على مدى خمسة عشر عاماً في ديوانها الذي صدر عام ١٩٦٧ . وقد أظهرتها شاعرة الموهبة التأملية ، بعقلانية متفتحة على الغموض ، بقوالب محكمة ، وصياغة لفظية واضحة ، غنائية إلى حد كبير . وعلى الرغم من أنها نشرت ستة دواوين منذ صدور ديوانها الأول ، إلا أن أياً منها لم يكن له وقع أجمل قصائدها الأولى ، غير أن هذا لا يمنع وجود قصائد تذكرنا بقوتها الأولى التي تلمس فيها قوة مماثلة لتلك التي تتميز بها الشاعرة الأمريكية اميلي ديكنسون ، خاصة في ديوانيها اللذين صدرا عام ١٩٧٥ ، و ١٩٧٩ .

يقول ثوايت : إنه على الرغم من أن الشعر لا يعمل في إطار القواعد التي تقاس بها الصناعة ، إلا أننا لو أردنا اختيار شاعر لكل عقد ، لكان كالتالي : أيليوت ، وديلان توماس ، ولاركن ، وتيد هيوز . فليس هناك شك في أن تيد هيوز هو كلاسيكي عقد الستينات ، فقد أصبحت كتبه نصوصاً مقررة في المدارس ، ونال من التقدير الكثير . وصفه الشاعر أ. الفيرز بأنه « شاعر من الدرجة الأولى » ، وكان الأساس في هذا كله ديوانه « الصقر تحت المطر » (١٩٥٧) ، حيث القصائد المركزة المعبرة عن الطاقة الحيوانية بلا حدود . بعد ذلك وفيما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٧ نشر هيوز بضعة كتيبات فقط ، علاوة على كتاب شعر للأطفال ، وشمل ديوانه الذي صدر (١٩٦٧) بعض قصائد من أفضل شعره ، أما مسرحيته الشعرية « الجرح » فلم تلق قبولاً مرضياً ، ثم صدر له ديوان « الغراب » (١٩٧٠) ، وبعد ذلك كتب هيوز بغزارة ، فصدرت له « قصائد مختارة ١٩٥٧ ـ ١٩٨١ » عام (١٩٨٢) . واستمر هيوز

---

* توفي جون بتجامن عام ١٩٨٤ .

الذي وضع نفسه فوق النقد قوة رئيسية في الشعر الانجليزي الحديث ، وشاعراً يقرأ له على مستوى واسع ، وصار له تلاميذ من الشعراء ، يكتبون عن نفس الموضوعات ، بنفس الأسلوب ، بل ومتأثرون بصياغته اللفظية ، لكن بعضاً من الشعراء مثل سايموس هيني تحرر من التأثير المباشر ، وانتقى خصوصيته الإبداعية ، أما جون سيلكين وبيتر ريدجروف وقليلون معهما فقد بدأوا بذواتهم المبدعة ، وانتقوا فقط ما يناسبهم من إبداعية هيوز .

بعد مرحلة تيد هيوز تأتي مرحلة شعرية جديدة ، ينتمي شعراؤها إلى ما يسمى « الجماعة » ، وهم : بيتر بورتر ، وجورج ماكبث ، وبيتر ريدجروف ، وأودين بروك ، وغيرهم . وهم مجموعة الشعراء الذين كانوا يلتقون في كمبردج ، تحت رئاسة فيليب هوبسبوم ، ثم ـ وهذا أهم كثيراً ـ في منزل أدوار لوسي ـ سميث في لندن ، حيث كانوا يلتقون مرة أسبوعياً لمناقشة قصائدهم .

وشهدت السبعينات والثمانينات نشاطاً واضحاً بين الشاعرات ، جزء من هذا النشاط مرده إلى الوعي الذاتي بحركة المرأة في تلك السنوات ، غير أن أفضل القصائد تأتي دائماً ـ كما يرى ثوايت ـ من الأفراد لا المجموعات أو الحركات ، ومن هؤلاء الشاعرات فليور آدكوك ، وجيني جوزيف ، وايلما ميتشل ، وكارول رومانز ، وأخريات .

ويتطرق ثوايت إلى مرحلة « التجريب » في الشعر الانجليزي الحديث ، فيقول بأن التجريب ، في الشعر تعبير مطاط ، يطبق على الكتاب الذين تأثروا بنماذج أجنبية ، سواء أمريكية أو بغير اللغة الانجليزية ، وعلى الذين يعيدون استخدام أساليب الكتاب المحدثين في القرن العشرين وموضوعاتهم ، وعلى آخرين انتقلوا لمناطق تشمل الفنون المرئية والموسيقا ، وأبرزوها في شعرهم ، ومن هؤلاء الشعراء المنتمين إلى هذه المرحلة جيفري هيل ، وتشارلز توميلسون ، وبازيل باتنيج ، وروي فيشر ، وآخرون .

أما « الشعر السمعي » فقد سار بدأ بيد مع تطور جهاز الكاسيت ، وأكثر الشعراء الذين لا يكلون في هذا المضمار هو الشاعر بوب كوبنج في بريطانيا ، والشاعر الأمريكي روبرت لاكس ، والألماني إرنست جاندل اللذين ارتبطا به .

وعودة إلى تقليدية الشعر الحديث يبرز سايموس هيني كواحد من الشعراء الذين تأثرت كتاباتهم الأولى بشعر الطبيعة بأول كتابين لتيد هيوز ، لكن الاكتفاء بهذا فيه ظلم لهذا الشاعر ، فقد لقيت قصائده قبولاً يفوق ما لقيه الشعراء عدا قلة منهم .

جيل السبعينيات :

ويأتي دور الشعراء الجدد الذي بدأ إنتاجهم يظهر منذ السبعينيات ، من أمثال جيمس فنتون ، وكريستوفر رايد ، وبيتر ريدنج ، وأندرو موشن ، وغيرهم ، وهم أفضل الشعراء الجدد على الساحة الشعرية الآن ، فهم في بداية الثلاثينيات من العمر ، ويبدو أنهم مدينون قليلاً بالولاء للشاعرين الكبيرين في الخمسينيات والستينيات : فيليب لاركن وتيد هيوز .

ومن الأصوات المميزة كريج راين الذي صدر له ديوان شعري عام ١٩٧٨ ، وتلاه آخر عام ١٩٧٩ ، ثم مجموعة قصائد « ترجمات بتصرف » (١٩٨١) .

وصوت آخر هو صوت الشاعر كريستوفر ريد الذي صدر له « آركاديا » (١٩٧٩) و « شوربة البازلاء » (١٩٨٢) ، وكان تأثيره سريعاً وعريضاً على كثير من الشعراء الذين يصغرونه سناً والذين يكبرونه ، في السنوات القليلة الماضية .

ومن الشعراء الذين كان لهم وزن أيضاً بيتر سيكافين ، وجون مول ، وجورج سيز براتس ، وأكبرهم سناً هو سيكافين الذي لم ينشر مجموعته الشعرية الأولى « الكرة الثلجية » (١٩٧٢) إلا في سن الأربعين تقريباً ، وقد صدر لجون مول ديوانه الأول « إطعام البحيرة » (١٩٨١) . □



مبحث في قضية الرمزية الصوتية

تأليف : الدكتور البدراوي زهران
عرض : الدكتور مصطفى رجب

إذا كانت اللغة هي رموز صوتية ، تعبر عن احتياجات البشر المادية والفكرية ، فهل من علاقة بين هذه الرموز وبين ما تدل عليه ؟ للاجابة على هذا السؤال يعود مؤلف الكتاب الذي نستعرضه إلى أصل اللغة ونشأتها ، ويعرض آراء ويناقشها ، والحصيلة هي هذا الكتاب المهم .

يقع كتاب الرمزية الصوتية الذي نحن بصدده في ثلاثمائة وسبع صفحات ، اعتمد المؤلف في تأليفه على نحو مائة مصدر عربي ، وتسعة وعشرين مرجعا إنجليزيا ، فضلا عن عدد كبير من الدوريات العلمية .

يشتمل الكتاب على قسمين كبيرين : قسم نظري ، يضم ثلاثة فصول . ثم قسم تطبيقي يضم دراسة تحليلية لنصوص قديمة .

عرض المؤلف في القسم الأول من الكتاب القضية عرضا تاريخيا ، حيث خصص الفصل الأول وعنوانه (قضية العلاقة بين الدال والمدلول) لدراسة طبيعة العلاقة بين الكلمة وما ترمز إليه منذ عصر اليونان ، وما ثار فيه من خلاف بين هير قليطس القائل بتوقيفية اللغة ، وديمقريطس القائل باصطلاحية نشأة اللغة .

وعرض المؤلف محاورة قراطيلس التي خصصها أفلاطون لمناقشة هذا الخلاف ، وما ترتب على تلك المحاورة في مجال الدراسة اللغوية الحديثة ، وبخاصة :

١ ـ وجود نظرية الاسمية في المعنى .

٢ ـ دراسات بلومفيلد ، وما انتهى إليه من أن الرومان عرفوا هذه القضية وناقشوها ، وأنها لم تكن وقفا على اليونان .

وخصص المؤلف الفصل الثاني لدراسة القضية في الفكر اللغوي الحديث ، من خلال مسارين :

ـ المسار الأول : في الفكر اللغوي الفلسفي .

ـ المسار الثاني : في الفكر اللغوي الخالص .

واهتم بصفة خاصة بآراء أولئك الفلاسفة واللغويين الذين تعرضوا لنظرية الاسمية في المعنى مبتدئا بأفلاطون ، ثم أوغسطين ، ثم هوبز ثم فتجنشتين ، وركز المؤلف تركيزا ملحوظا على آراء أبرز عالمين لغويين في العصر الحديث ، وهما العلامة الفرنسي فرديناند دي سوسير ، والأمريكي بلومفيلد ، وتحدث كثيرا عما أسماه دي سوسير (العلامة اللغوية) ، ويقصد بها أنها محصلة الفكرة داخل العقل والصورة الصوتية المعبرة عنها .

الدّال والمدلول

ثم انتقل إلى بلومفيلد الذي ينكر وجود علاقة طبيعية بين الدال والمدلول ، ويستدل بلومفيلد على رأيه بأن التحليل الاشتقاقي لا يؤدي بنا إلى أية دلالة يمكن استنتاجها بين الكلمة ودلالاتها الشائعة ، فمثلا إذا حللنا كلمة **man** (رجل) وكلمة **Woman** (امرأة) وجدنا أن الفارق بينهما الحرفان (**W O**) ، وليس لهذين الحرفين ، كحرفين ، أو كمقطع صوتي أية دلالة يمكن أن ترتبط بالفرق بين الرجل والمرأة في اللغة الانجليزية . ثم عرج المؤلف بعد هذا على آراء علماء غربيين آخرين من أمثال ستيفين أولمان وأتويسبرسن .

بعد هذا العرض انتقل المؤلف إلى النظريات الخاصة بنشأة اللغة ، وتتلخص في نظريات :

١ ـ أن اللغة وحي وإلهام من الله ، وممن ذهب إلى هذا روم فرانسوا لامي ، وديو بونالد .

٢ ـ أن اللغة نشأت بالاختراع والتواضع بين البشر ، وممن قال بهذا آدم سميث ، وريد ، ودوجالد ستيوارت ، وجون لوك ، وهم يذهبون إلى أن الانسان قد اضطر من حيث كونه كائنا اجتماعيا يعيش في بيئة اجتماعية إلى اختراع اللغة ، وقد ساعده على هذا وجود جهاز خاص بالنطق لديه .

٣ ـ نظرية الغريزة (ماكس موللر + رينان) وهذه النظرية تعتمد على تقسيم اللغات إلى ثلاث مجموعات هي :

ـ المجموعة الهندو أوروبية .

ـ المجموعة السامية .

ـ المجموعة الطورانية .

وأيضا تقسيم اللغة من حيث طبيعتها إلى مجموعات مثل :

ـ اللغات وحيدة المقطع كاللغة الصينية .

ـ اللغات المتلاصقة كاللغة التركية .

ـ اللغات الاشتقاقية كاللغة العربية .

ثم انتقل المؤلف إلى النظريات الأكثر حداثة ، مثل :

ـ نظرية التطور التدريجي ، وقد تبناها كل من وتيني ثم يسبرسن ، ثم ليبنتز الذي أراد إكساب اللغة ودراستها صفة العلم الموضوعي المبنى على أساليب البحث الحديثة كالاحصاء .

ـ نظرية (**Bow — Wow**) التي وضعها يسبرسن ، وذهب فيها إلى أن اللغة نشأت عن طريق المحاكاة ، كمحاكاة أصوات الكلاب وغيرها من الحيوانات في بدء نشأتها .

ـ نظرية (**pooh — pooh**) التي بنيت على أسس من نتائج بحوث داروين في النشوء والارتقاء ، وعلى أساس أن هناك علاقة بين اللفظ واهتزازات الجهاز الصوتي المصاحبة له .

ـ نظرية (**ding — diong**) وتقوم على أن كل مؤثر خارجي يستلزم صوتا يناسبه ، حيث يستشهد أصحابها بأن لكل شيء يصطدم بالأرض أو بشيء آخر صوتا يميزه عن غيره .

ـ نظرية The yo - he - ho ، ويذهب أصحابها إلى أن اللغات تنشأ بتطور أصوات جماعية كالحداء ، وكأصوات العمال العفوية ، مثل (هيلا هوب) .

وهذا العرض يعطينا فكرة عن مدى الجهد الذي بذله المؤلف في استعراض هذه الدراسات الأجنبية في مجال نشأة اللغة ، وإن كانت هذه النقطة ليست بالجديدة تماما في حقل الدراسات اللغوية .

السيوطي وسابقوه

فإذا انتقلنا الى الفصل الثالث الأخير من القسم النظري الذي خصصه المؤلف لدراسة القضية في الفكر العربي الاسلامي قديما وحديثا نجده يركز في القديم على عرض جهود السيوطي الذي جمع آراء سابقيه في القضية ، وبصفة خاصة آراء المعتزلة وأهل السنة ، ثم يعرض المؤلف لآراء ابن جني وما فيها من جدة وابتكار .

أما في مجال دراسة المؤلف لآراء العلماء العرب المحدثين فيمكننا أن نلمس جهدا موفورا في تقصي آراء الدكتور ابراهيم أنيس الذي استفاد من بحوث الغربيين (بلومفيلد - ودي سوسير) في رفضه لما ذهب اليه ابن جني من وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ وما يدل عليه ، إذ يرى د . أنيس أن هذا يخالف المنطق ، فمثلا حروف كلمة « فهم » ليست لها دلالة خاصة بها ، تعطينا معنى (أدرك - إدراك) ، وعلى العكس من د . أنيس نجد الدكتور صبحي الصالح الذي يسرف في الاعتماد على السيوطي ، مستنتجا أن القدماء توصلوا إلى أن هناك مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله . ويرى الصالح أن هناك اجماعا بين معظم العلماءالعرب على هذه القضية ، كما يرى سهولة الاستدلال عليها بأمثلة تقوم على مبدأ المحاكاة وتقارب بين الكلمات مثل قد القميص ، وقطع الثوب ، وقط القلم ، وقطف الثمرة . . إلخ .

وقد بذل الدكتور البدراوي جهدا كبيرا في تفنيد كلا الرأيين ، واستند الى حجج منطقية ، فالدكتور أنيس في رفضه للظاهرة - مثلا - لم يكن منصفا ، إذ فهم من كلام ابن جني ما يخالف حقيقة رأي ابن جني .

أما الدكتور صبحي الصالح فلم يذكر لنا هؤلاء العلماء الذين أسند اليهم اتفاقهم حول تأييد الظاهرة ، كما أنه لم يلتفت إلى معارضيها من القدماء ، وغفل عن حقيقة مهمة ، وهي أن السيوطي كان يؤمن بتوقيفية اللغة ، في حين أن ابن جني كان يؤمن بنظرية التوقيف ولا يرفض نظرية التواضع والاصطلاح . ويتساءل مؤلفنا عن تلك الأمثلة التي أتى بها د . الصالح للتدليل على وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله ، فيقول : هل يدرك هذه العلاقة أبناء اللغات الأخرى غير العربية ؟ بل هل يدرك هذه العلاقة أبناء العربية من غير المتخصصين في دراستها ؟

ثم يعرض لنا المؤلف بحثا للأستاذ : محمد المبارك حول القيمة التعبيرية للحرف في اللغة العربية حيث يذهب المبارك إلى أن لكل حرف في اللغة العربية دلالة معينة ، فمثلا حرف الغين ترتبط دلالته بالغيبة والاستتار ، وتدور حول هذه الدلالة كل المواد اللغوية المشتقة من هذا الحرف على غرار « غاب - غار - غاض - غال - غام - غمد - غمر - غمز - غمض - غمط - غفر - غفا . . الخ) .

وحرف النون مثلا يدل على الظهور مثل :
(نبت - نبذ - نزف - نجم - نشأ - نما - نهض . . . الخ) .

وحرف القاف يدل على (الاصطدام - الانفصال) مثل :
(قدر - قطع - قرع - دق - شق - طق - مزق - فرق - . . الخ) .

بينما يدل حرف السين على (السهولة والليونة) مثل :
(سهل - سلم - سل - سلس - سال - سار - ساح . . . الخ) .

ويرفض مؤلفنا هذا التعسف في استنباط الأحكام ويرى أن الدلالة هنا لا ترتبط بالحرف . . بل انها ترتبط بكل حروف الكلمة مجتمعة . وبالاضافة الى هؤلاء العلماء يعرض لنا المؤلف جهودا بحثية أخرى لباحثين عرب معاصرين مثل محمد الانطاكي - د . عبدالكريم مجاهد - د . عبدالسلام المسدي . ويناقشها جميعا بنفس الرؤية .

في التطبيق

وإذا كان المؤلف قد تمكن من عرض قضيته في القسم النظري من الكتاب عرضا واسعا فإنه في هذا القسم قام بعدة دراسات تطبيقية تحليلية لنصوص قديمة من :

١ ـ ابن جني في كتاب الخصائص .

٢ ـ من ابن فارس في كتاب المقاييس .

٣ ـ من ابن فارس في كتاب المجمل .

٤ ـ من الثعالبي في كتاب سحر البلاغة وسر البراعة .

٥ ـ من الثعالبي في فقه اللغة .

وكانت القاعدة التي التزمها المؤلف أن يعرض الباب أو القسم الذي يريد أن يعرضه من المتون القديمة ، ثم يشير الى ما استنتجه منها الباحثون المحدثون ، وبصفة خاصة د . صبحي الصالح ، والأستاذ محمد المبارك ، ثم يقوم بمناقشة آرائهم من واقع دراسة تحليلية للنص القديم ، في ضوء معطيات الدرس اللغويّ الحديث .

وقد توصل المؤلف الى نتائج في غاية الأهمية ، منها

١ . أن نظرية الفونيم **Phoneme** التي تحدث عنها علماء اللغة الغربيون المحدثون توجد لها أصول في تراثنا العربي القديم . ويرى المؤلف أن أسلافنا قد قطعوا مراحل في دراسة هذه النظرية لم يصل إليها الغربيون . فقد توقف البحث بالغربيين عند المرحلة الأولى من النظرية ، تلك المرحلة التي تهتم بدراسة الوحدة اللغوية الصوتية الصغرى التي يتغير بموجب تغييرها معنى الكلمة عن بقية معاني الكلمات الأخرى التي اشتركت معها في كل مكونات البنية ، واختلفت في هذه الوحدة الصغرى فقط .

بينما نجد أن لهذه النظرية عند ابن جني مثلا عدة مراحل :

ـ المرحلة الأولى : وهي مرحلة الوحدة الصوتية الصغرى **Unit** التي سبقت الاشارة إليها . وقد تأتي هذه الوحدة في البداية أو في وسط الكلمة أو في نهايتها . وقد تمكن المؤلف من دراسته لاجتهادات ابن جني أن يتوصل إلى أن ابن جني ـ وإن لم يذكر ذلك صراحة ـ قد عرف عدة قوانين ، ترتبط « بسيكلوجية » العربية منها مثلا :

ـ قانون التشابه **Law Of Similarity**

ـ قانون التقارب **Law Of Proximity**

ـ قانون التبعية . **Law Of Belongingness.**

٢ ـ توصل المؤلف كذلك إلى أن ابن جني سبق غيره في استخدام الاحصاء في تتبع الظاهرة اللغوية ودراستها .

٣ ـ كما توصل المؤلف إلى أن ابن جني من خلال بابين في كتابه هما « في امساس الألفاظ اشباه المعاني ـ باب في قوة اللفظ لقوة المعنى » قدم نظرية البنيات الشكلية التي تنطوي على دلالات معنوية . وهو في هذا يتأثر بخطا الخليل بن أحمد وسيبويه . لكنه توسع حتى أفاض في عرض جوانب هذه النظرية عرضا شائقا .

وفي نهاية هذا العرض تبقى لنا عدة ملاحظات :

أولها : أن المؤلف في القسم النظري أسرف على نفسه في تقصي آراء علماء كثيرين ، وباحثين محدثين ، ممن تناولوا قضيته . ولعل هذه الأمانة وهذا الحرص هما اللذان دفعاه إلى تكرار رأي لشخص أكثر من مرة ، مما جعل هذا القسم يبدو أكبر مما كان ينبغي .

ولا يعني هذا أننا ندعوه إلى ابتساره . لكننا ندعوه؟ عند إعادة طباعة هذا الكتاب أن يخفف هذا الجزء قليلا . وأن يعيد قراءته متأنيا . ليزيل عن هذا القسم ما يبدو من ترهل .

ثانيا : أن المؤلف أغفل ذكر جميع مراجعه في ثبت المراجع في نهاية الكتاب .

ثالثها : أن المؤلف في ترتيبه للمراجع والمصادر في نهاية بحثه لم يلتزم الترتيب الأبجدي بدقة .

على أن هذه الهنات الهينات لا تنتقص من قدر هذه الدراسة العلمية الجادة التي نحن أحوج ما نكون إليها في مكتبتنا العربية . □

مكتبة العربي

مختارات

الكتاب / تيارات الصحوة الدينية

المؤلف / خليل علي حيدر

عدد الصفحات / ٢٣٢ من القطع الكبير

الناشر / شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ـ الكويت

سنة النشر / ١٩٨٧

في هذا الكتاب الجديد يواصل الكاتب الكويتي خليل علي حيدر إلقاء الضوء الكاشف على الجماعات الدينية المختلفة ، متعرضا للأصول التاريخية للتيارات الدينية الحالية التي تشكل ما يطلق عليه المؤلف اسم تيارات الصحوة الدينية .

وفي هذا الكتاب أيضا يواصل حواره مع الرموز الفكرية والتاريخية للتيارات الدينية ، وهو حوار بدأ بكتابيه السابقين (مستقبل الحركة الدينية ، ونقد الصحوة الدينية) .

وغني عن القول أن هذا الحوار وذلك النقاش الذي تشكل مادته الكتاب هو نقاش نقدي بالدرجة الأولى .

الكتاب / القدس في العصر المملوكي

المؤلف / د . علي السيد علي

الناشر / دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ـ القاهرة

عدد الصفحات / ٣٠٦ من القطع الكبير

سنة النشر / ١٩٨٦

في هذا الكتاب المهم عن مدينة القدس المحتلة ينطلق الكاتب من فكرة ، تحمل في ثناياها أهمية فكرية وتاريخية ، بل وسياسية كبيرة ، فالقدس بالنسبة له ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من المدن التي تملأ الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، بل رمز صراع مصيري ، تخوضه الأمة العربية ، لاثبات جدارتها بتاريخها وحضارتها.

لذا يقدم الكاتب دراسة مستفيضة للمدينة كما كانت أيام الحكم المملوكي ، عندما كانت مدينة عربية خالصة . ويحمل هذا الكتاب رداً غير مباشر على بعض الآراء التي تصدر في الغرب بين آن وآخر ، وتحاول تصوير المدينة وكأنها كانت دائما مدينة يهودية ، تعيش فيها جاليتان « مسيحية ومسلمة » .

الكتاب / معجم التعابير الاصطلاحية (انكليزي ـ عربي)

المؤلف / جماعة من الأساتذة الجامعيين .

الناشر / مكتبة لبنان ـ بيروت .

عدد الصفحات / ٣٤٥ من القطع الكبير

سنة النشر / ١٩٨٥

هذا المعجم الجديد ثمرة جهد جماعة من الأساتذة العرب في جامعة الكويت ، عملت عليه برئاسة الدكتور محمد موافي ، والدكتور نايف خرما نائب الرئيس . ويتخصص في شرح استخدامات التعابير الاصطلاحية ومعانيها والأفعال المتبوعة بحروف باللغة الانكليزية .

ولأن مثل هذه الأفعال تكاد تكون هي العمود الفقري للغة الانكليزية ، ولا يتقن أحد هذه اللغة

دونها ، فإن هذا المعجم مهم جدا لدارسي اللغة الانكليزية .

وقبل ذلك كله فإن هذا المعجم الذي قامت جامعة الكويت بدعمه هو الأول من نوعه في الوطن العربي .

■■

الكتاب / أرض الميعاد ـ رواية

المؤلف / يوري كوليسينكوف

ترجمة / دار التقدم

الناشر / دار التقدم ـ موسكو

عدد الصفحات / ٣٧٧ من القطع الكبير

سنة النشر / ١٩٨٦م

ترجمة جديدة لرواية الكاتب السوفيتي يوري كوليسينكوف الشهيرة التي صدرت لأول مرة في السبعينيات ، فأثارت اهتماما كبيرا في الأوساط الأدبية والسياسية .

وأرض الميعاد ليست رواية سياسية على أي حال ، بل هي قصة الشاب اليهودي السوفيتي حاييم فولدبتير الذي هاجر إلى فلسطين قبيل الحرب العالمية الثانية متأثرا بالدعاية الصهيونية ، لكنه عندما وصل الى هناك رأى واقعا مختلفا عن الواقع الذي صورته الدعاية الصهيونية . واصطدم مع هذا الواقع ، وتبددت أحلامه ، مثل كثيرين غيره من المهاجرين اليهود المضللين بالدعاية الصهيونية .

وفي هذه الرواية فضح لجوهر الصهيونية ، وكشف لقرابتها الروحية مع الفاشية والنازية .

■■

الكتاب / أشعار فؤاد حداد

المؤلف / فؤاد حداد

الناشر / دار المستقبل العربي ـ القاهرة

عدد الصفحات / ٤٨٠ من القطع الكبير

سنة النشر/ ١٩٨٥م

لم يتسع هذا الكتاب كبير الحجم نسبيا لكل أشعار الشاعر الشعبي المصري الراحل فؤاد حداد، فلم يحتو إلا على بعض القطع الشعرية التي رسم فيها الشاعر لوحات من الحياة الشعبية الغنية في مصر ، ومنها لوحات الحياة الرمضانية التي تتميز بارتفاع الايقاع الشعبي فيها .

وليست القصائد المنشورة في هذا الديوان أفضل من قصائد الشاعر الذي كان ظهوره نقطة تحول في تاريخ الشعر بالعامية ، إذ خلا الديوان من قصائده الجميلة الطويلة ذات النفس الملحمي ، لكنها تعبير عن أهم مراحل هذا الشاعر الذي رحل عنا في العام الذي نشر فيه الكتاب .

■■

الكتاب / الديانة المصرية القديمة

المؤلف / ياروسلاف تشيرني

ترجمة / د . أحمد قدري

الناشر / هيئة الآثار المصرية ـ القاهرة

عدد الصفحات / ٤٠٠ من القطع الكبير

سنة النشر / ١٩٨٧

ضمن سلسلة تهدف إلى تكوين وعي حضاري معاصر بالثقافة الأثرية والتاريخية تصدر ترجمة هذا الكتاب الذي وضع قبل زمن طويل ، منذ الخمسينيات ، بلغته الانكليزية الأصلية ، لتسد فراغا أكيدا في مكتبة الدراسات المصرية التي ما تزال تحتاج للمزيد من الدراسات المتخصصة .

وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه على الرغم من الطابع التخصصي الذي قد يوحي به العنوان إلا أنه كتاب موجه في الأساس للمثقف العادي الذي يريد أن يعرف شيئا عن علاقة الديانة الفرعونية بالحياة الاجتماعية وبالفلسفة ، لذا ينبه المؤلف من البداية على أن هذا الكتاب قد لا يقنع علماء المصريات المتخصصين ، لأنه كتب أساسا للمثقف الذي يتطلع إلى المعرفة . □

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٤٩
ديسمبر ١٩٨٧

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٤٩ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ يناير ١٩٨٨ .

هذه مسابقة مشوقة وسهلة ، فنصف أسئلتها قوامها صور ، وكل أسئلتها مستمدة من أعداد العربي السابقة (من العدد ٣٣٦ ـ ٣٤٧) ، سواء من استطلاعاتها أو أبوابها الثابتة أو مقالات كتابها . ونحن واثقون أن الاجابة الصحيحة على هذه الأسئلة ستكون في متناول أكثر المشتركين فيها ، إن لم نقل كلهم .



١ ـ ما هذا المبنى الذي ترى في الصورة ؟ أمسجد هو أم ماذا ؟ وأين يوجد ؟



٢ ـ يسمونها (عين العذارى) . لماذا ؟ وأين تقع ؟

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٤٩



٣ـ فتاتان جميلتان ، في ثياب زاهية جميلة . ترى إلى أي البلدان تنتميان ؟



٤ـ أسلوب في ري المزروعات فريد ، اعتمده أحد الأقطار العربية منذ أقدم العصور . فما اسم هذا الأسلوب ، وما اسم القطر ؟



٥ ـ ضوء باهر غمر الفضاء في الثالث والعشرين من شهر فبراير (١٩٨٧م) . فما هو هذا الضوء ، ضوء مذنب أم نجم جديد ؟

٦ ـ صورة جسر لاريب ، لكن ما اسمه ، وما طوله وعرضه وتكاليفه ؟



٧ ـ كثر الحديث مؤخرا عن تمثال الحرية القائم في مدخل نيويورك من البحر . ترى مم صنع هذا التمثال : من رخام أم حديد أم خشب أم ماذا ؟

٨ ـ بعض المواد الخمس التالية يزيد إفراز اللعاب في فم الانسان ، وبعضها ينقصه . فأيها هذه وأيها تلك ؟

السكروز ـ محاليل حمض الليمون ـ حمض الخل ـ القلويات اللاذعة ـ الكوكائين

٩ـ السونار يمثل عاملا مشتركا بين الدلفين والوطواط . فما هو العامل المشترك بين الدلفين والجمل ؟

١٠ ـ متى فتح المسلمون البحرين ، وما اسم القائد الذي فتحها ؟

١١ـ مركز الطب الاسلامي في الكويت آية من آيات فن العمارة الاسلامية . ترى كم بلغت تكاليفه ، وما اسم الذي تبرع به ؟

١٢ـ منطقة كاهوتا في الباكستان منطقة فريدة لاريب . فبماذا تتميز هذه المنطقة ؟

حل مسابقة العدد ٣٤٦

١ـ الألعاب الأولمبية مباريات خاصة بهواة الرياضة ، لايسمح للمحترفين بالاشتراك فيها ، ولايخفى أن هؤلاء المحترفين هم الذين يمارسون الرياضة لقاء المال وطلبا للرزق ، بخلاف الهواة الذين يمارسونها دون أي دافع مادي . وتجدر الاشارة إلى أن لاعبي كرة القدم الذين يشتركون في مباريات كأس العالم كلهم محترفون .

٢ـ ظهرت لعبة البنج بونج أول ما ظهرت في بلاد الهند ، وذلك في الثمانينيات من القرن الماضي ، على أن الضباط الانجليز المقيمين في الهند آنذاك ، لا الهنود هم الذين طوروا اللعبة .

أما التسمية « فمشتقة » من الصوت الذي تحدثه الكرة أثناء اللعب ، ولاعلاقة لها باللغة الصينية أو أية لغة أخرى .

٣ـ أكبر ستاد مكشوف يوجد في براغ ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، وهو يسع ٢٤٠,٠٠٠ متفرج على وجه الدقة و٤٠,٠٠٠ رياضي .

٤ـ حدث في أولمبياد مونتريال ، في كندا في ٢٧/٦/١٩٧٦ ، حين لم يكن في الملعب سوى العمال . وكان السبب هو التقلبات الجوية المفاجئة ، على أن أحد العمال أشعلها ثانية في غضون دقيقة أو دقيقتين .

ومما يذكر أن تقليد شعلة الأولمبياد تقليد يوناني قديم ، إلا أنه لم يعتمد في المباريات الأولمبية الحديثة إلا اعتبارا من سنة ١٩٣٦ ، حين أقيمت المباريات الأولمبية في برلين ، وقد تم ذلك نزولا عند رغبة هتلر الزعيم النازي .

٥ـ وزن الجلة في المباريات الخاصة بالنساء هو ٤كيلوجرامات .

٦ـ تسمى مباريات الروديو . وأشهر هذه المباريات هي التي تقام سنويا كالجري في ألبرتا بكندا .

٧ـ البنتاثلون ، أو المهرجان ذو الألعاب الخمسة هو الخاص بالنساء .

والديكاثلون أو المهرجان ذو الألعاب العشرة هو الخاص بالرجال . وتشمل ألعاب هذين المهرجانين فيما تشمل الركض والقفز والشوت بوت . . . الخ

٨ـ إنه بيلي اللاعب البرازيلي الشهير الذي يسمونه أحيانا اللؤلؤة السوداء ، والذي أصبح في عداد الأبطال القوميين في نظر أهل البرازيل . كان في السابعة عشرة من عمره حين اشترك مع الفريق البرازيلي في مباريات كأس العالم سنة ١٩٥٨م . واسمه الحقيقي هو أدسون أرانتس دي ناسيمنتو . وقد تقاعد واعتزل منذ حين ، كما هو معروف . ولعله أعظم لاعب عرفته كرة القدم عبر تاريخها .

٩ ـ يسمونه السوبر دوم ، ويسع ٩٧٠٠٠ متفرج ، ويقال إن قبته هي أكبر قبة في العالم ، ومن ثم كانت التسمية .

١٠ـ نورمي الفنلندي هو بطل المسافات الطويلة . لقد ظفر بتسع مداليات ذهبية ، وثلاث مداليات فضية في المباريات الأولمبية ، واشترك في سبعة سباقات في أولمبياد ١٩٢٤ في باريس ، وقد فاز بها جميعا .

أما جسي أونز فكان بطل المسافات القصيرة في أولمبياد برلين ١٩٣٦ . وقد فاز بأربع مداليات ذهبية في الأولمبياد المذكور .

١١ ـ قواعد كوينزبري تحكم رياضة الملاكمة . لقد وضعها المدعو جون تشامبرز (الانجليزي) باسم ماركيز كوينزبري ، واسمه الأصلي جون شولتو دوجلاس فهذبت هذه القواعد رياضة الملاكمة ونظمتها ، وهي التي فرضت استعمال القفازات ، وقد كانت تمارس بالقبضات العارية ، وهي التي أدخلت نظام الجولات على مبارياتها . جولات تستغرق نحو ثلاث دقائق ، وتفصل بينها استراحة دقيقة واحدة . وقواعد كوينزبري هي التي حظرت لجوء الملاكمين إلى المصارعة ، على نحو ما كان يفعل الملاكمون القدامى .

١٢ ـ كلا ، فالألعاب الأولمبية اليونانية لم تشمل ركض المراثون ، فهذه رياضة حديثة ، ابتكروها ، وأدخلوها ضمن الالعاب الأولمبية الحديثة سنة ١٨٩٦ ، وذلك تخليدا لذكرى فايديدس الشاب اليوناني الذي ركض المسافة بين بلدة مراثون وأثينا البالغة ٤٠ كيلومترا ، لكي يبشر الأثينيين بالنصر الذي أحرزه جيشهم على الفرس في معركة مراثون الفاصلة سنة ٤٩٠ ق م .

□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٤٦ سبتمبر ١٩٨٧

الجائزة الأولى : د . صلاح الدين عبد القيوم أبو شامة / بورسودان ـ السودان .

الجائزة الثانية : هشام بن حسن بن سعيد / سوسة ـ تونس .

الجائزة الثالثة : ظافر كاظم البكري / كشمير ـ الهند .

الفائزون بالجوائز التشجيعية .

١ ـ وليم متواضع عجايبي / أسوان ـ مصر .

٢ ـ أحمد عبد الله الصالح / درعا ـ سوريا .

٣ ـ ابراهيم مصطفى عبد الرحمن / المنامة ـ البحرين .

٤ ـ نور الدين ياسين خضير علي / بغداد ـ العراق .

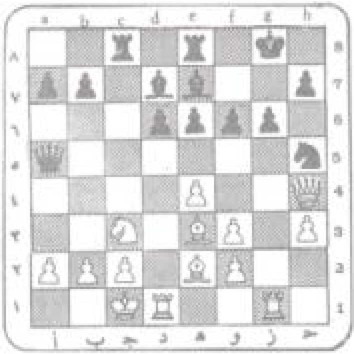
٥ ـ عبد الحفيظ أبو رطاسي / مونتريال ـ كندا .

٦ ـ حسن عبد الوهاب الوريث / ذمار ـ اليمن .

٧ ـ ريتا جوزيف اشيجان / المتن ـ لبنان .

٨ ـ ملك بنت خالد الحاج حامد / المدينة المنورة ـ السعودية .

معركة بلا سلاح



جَرَت البطولة الدولية الخامسة للشطرنج الآلي في العام الماضي ، في معرض كولونيا التجاري ، وسط اجماع عام على أن التفوق سيكون من نصيب البرنامج هايتك **Hitec** الذي قام بوضعه الدكتور هانز بيرلنر من جامعة كارنيجي . وللدكتور بيرلنر باع طويل في ميدان الذكاء الصناعي ، فهو نفسه مبرمج الحاسب الآلي الذي هزم الدكتور قبلا بطل العالم في طاولة النرد عشية فوزه بالبطولة ، وكان للهزيمة الساحقة (٧ - ١) التي مني بها بطل العالم أمام البرنامج الآلي مرارة ما تزال تعكر صفوه حتى الآن . لكن متى سيتمكن الشطرنج الآلي من هزيمة كاسباروف أو أي بطل غيره يتربع على عرش الشطرنج ؟

والحقيقة أن الشطرنج الآلي يحقق تقدماً يكاد يكون يوميا بتطور أساليب البرمجة ، وتقدر الزيادة السنوية التي يحققها في القوة بخمسين نقطة ، وعليه فإن الشطرنج الآلي سيتمكن من هزيمته في عام ١٩٩٠ م ، إذا اعتبرنا أن قوة كاسباروف حالياً هي ١٧٣٠ نقطة ، وقوة أقوى شطرنج آلي ١٦٣٠ نقطة . وواضع هذا التنبؤ هو دافيد ليفي الحائز على لقب أستاذ دولي في الشطرنج ، ورئيس الاتحاد الدولي للشطرنج الآلي حالياً ، وهو يراهن على ما يقول ، وقد سبق له أن راهن على أن أقوى شطرنج آلي لن يتمكن من هزيمته حتى عام ١٩٧٨ ، وفاز فعلا بالرهان عندما هزم البرنامج **Chess 4.7** في تورنتو في سبتمبر ١٩٧٨ . أما الآن وقد أصبح الشطرنج الآلي يفوق قدراته بمراحل فإنه يراهن على أنه سيتمكن من هزيمة البطل العالمي الآدمي كائنا من يكون بعد ثلاث سنوات على الأكثر من الآن .

غير أن الباحث التقني الهولندي المشهور « ادريان دي جروت » ، وهو من رواد أبحاث التفكير الآلي لا يتوقع أن يتم ذلك قبل عام ٢٠٠٠ ، وأن بطل العالم للشطرنج سيظل من بني البشر حتى بعد ذلك التاريخ ، فالأمر كما نرى هي مسألة وقت لا أكثر .

والدور الذي اخترناه لكم من البطولة المذكورة هو من الدفاع الصقلي ، وقد تمكن الشطرنج الآلي (هايتك) من الخروج بتركيبة مدهشة حققت له الفوز .

□ هايتك	■ شاك ٢,٧
١) هـ ٤	جـ ٥
٢) ح - و ٣	د ٦
٣) ف - جـ ٤	هـ ٦

في نقلة الأبيض خروج عن المألوف لتثبيت الخصم

٤) د ٤	جـ × د ٤
٥) ح × د ٤	ح - و ٦
٦) ح - جـ ٣	ف - هـ ٧

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج

العدد ٣٤٦ · سبتمبر ٨٧

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

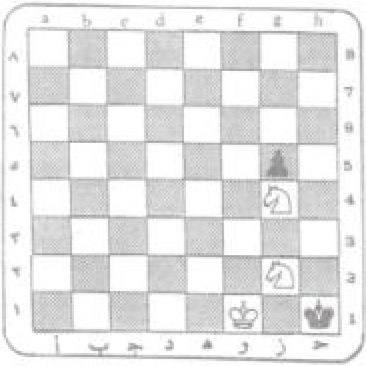
١ ـ أشرف مصطفى كامل ـ القاهرة / ج.م.ع
٢ ـ منيب الأصفر ـ حماة / سوريا
٣ ـ عادل أحمد فطاني ـ مكة المكرمة / السعودية
٤ ـ عبد العزيز منصور محمد ـ صنعاء / الجمهورية العربية اليمنية
٥ ـ رؤية سُراه ـ صفاقس / تونس

الفائزون باشتراك ستة أشهر

١ ـ حسني محمد خنفر ـ القروانية / الكويت
٢ ـ محمد سالم أحمد ـ بنغازي / الجماهيرية
٣ ـ عزة علي حسني ـ مصر الجديدة / القاهرة
٤ ـ بليليطه كمال ـ القنيطرة / المغرب
٥ ـ أمجد أحمد سعادة ـ عمان ـ الأردن

---

٧) ف ـ هـ ٣ ح ب ـ د ٧
مُضحّيًا بثلاثة بيادق مقابل قطعة واحدة
٨) و ـ د ٢ ح ـ هـ ٥
٩) ف ـ هـ ٢ ت
١٠) حـ ٣ ف ـ د ٧
١١) ح ـ و ٣ ح × و ٣
١٢) ز × و ٣ ! رائعة و ـ أ ٥
يندر أن يفكر شطرنج آلي بالأخذ بالبيدق !
١٣) ت ت (الطويل) ر أ ـ جـ ٨
١٤) ر (حـ) ـ ز ١ ر (و) ـ هـ ٨
١٥) ف ـ حـ ٦ ز ٦
١٦) ف ـ ز ٥ و ـ جـ ٥
١٧) و ـ و ٤ ح ـ حـ ٥
١٨) و ـ حـ ٤ و ٦
١٩) ف ـ هـ ٣ و ـ أ ٥ (الشكل)
٢٠) ف ـ ب ٥ ! (رائعة جداً) ف × ب ٥
تضحية رائعة لِقَطْع الوزير الأسود عن جناح الملك مع التهديد بأخذ الفيل
٢١) و × حـ ٥ ز ٥
٢٢) ف × ز ٥ !! و × ز ٥
٢٣) ر × ز ٥ + م ـ حـ ٨
أدرك كلا الحاسبين أن الأخذ بالفيل يؤدي إلى كش مات في ثمان نقلات .
٢٤) ر (د) ز ١ يستسلم



مسألة العدد ٣٤٩
ديسمبر ١٩٨٧
مات ٤

من إهداء القارىء محمد فكري محمد (ج.م.ع)

حل مسألة العدد ٣٤٧ اكتوبر ٨٧

١) ر ـ حـ ٣ + ز × حـ ٣ +
٢) م ـ و ٣ ز ٤ +
٣) م ـ و ٤ ز ٣
٤) حـ × ز ٣ (مات)

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي"

حوار القراء ..

شاب يطلب النصح

● الأستاذ الدكتور محمد الرميحي المحترم ،

في هذا العصر الذي تختلط فيه الأمور ، وفي هذه الظروف التي تمر بها الأمة العربية بأقطارها يشعر أي شاب في مثل سني في بداية حياته العملية ، والاجتماعية بحيرة شديدة ، ويجد صعوبة في معرفة الفرق بين الصواب والخطأ ، لذلك توجهت إليك ياسيدي ، لتوجه إلي نصيحة من أب إلى ابنه ، تقول لي فيها : كيف يستطيع الإنسان أن يشق طريقه إلى الأفضل ؟ وكيف يمنح ثقته لإنسان ؟ وكيف يختار الصديق ؟ وكيف يختار شريكة عمره ؟ هذا ما أريده عبر رسالة موجهة من الأب الدكتور محمد الرميحي إلى الابن محمد العناسوه ، لتبقى لي شمعة تنير الطريق ، وشكرا لك سيدي .

محمد عبدالله العناسوه
الأردن / السلط

العربي

الابن العزيز ، أفهم حيرتك ، وأشعر بكل أبعادها ، وقد يكون من الصعب في مثل هذا المجال أن أجيب بشيء من التفصيل على أسئلتك ، ولعله أيضا ليس مطلوبا أن أقدم لمثل هذه الأسئلة أجوبة محددة .

فالأجوبة الصحيحة ينبغي أن تصل إليها أنت في إطار ظروفك الخاصة التي تعرفها أنت أكثر مني ، لكني أقول لك ، ولكل شاب في مثل سنك ، وحيرتك : حاول يابني أولا أن تبذل كل جهد ممكن ، لتكون إنسانا جيدا ، ثم بعد ذلك فإن هذا الإنسان الجيد سيصل بنفسه إلى قرارات أكثر ملاءمة لما يواجهه من ظروف وتحديات وأسئلة ، ولكي تكون إنسانا جيدا في عصرنا هذا فعليك أن تعتمد الأسلوب العلمي في طريقة تفكيرك ، وأن تفتح نوافذ عقلك وقلبك لثقافة أمتك وثقافة عصرك ، تقرأ ، وتفكر ، وتهضم ، وتلاحظ ، ولا تضيق بطرح الأسئلة ، أو بالاختلاف في الرأي ، واستخدم حواسك التي منحها الله لك استخداما راشدا . اعمل بيديك ، وأحسن الاستماع ، وتعلم من التجربة ، واصبر على معاناتها ، فالصبر هو ثمن التعلم الناضج . وتأمل ، وقارن ، ولا تتعجل في أحكامك على الناس والأشياء .

وآنذاك يابني ستعرف أين تضع ثقتك ؟ وكيف تختار الصديق والزوجة والمهنة .

وفقك الله ورعاك .

د . محمد الرميحي

اقتراح لباب « هو وهي »

● **أود أن أقدم لأسرة تحرير مجلة العربي اقتراحا حول باب « هو وهي » الذي ينشر في البيت العربي ، فهذا الباب يقدم حكاية زوجين ، يواجهان مشكلة في**

حياتها اليومية ، لكن المشكلة تتعقد ، لأن كل واحد منهما ينظر إليها من زاوية مختلفة ، فالباب يقدم وجهتي النظر دون تدخل ، فتبقى المسافة قائمة بين الزوجين .

حبذا لو كان هناك تعليق على وجهتي النظر من قبل المجلة ، أو من قبل القراء الأعزاء ، حول المشكلة المطروحة ، ليعرف القاريء من هو المحق ومن هو المخطيء من الزوجين .

هاني صيرفي

سوريا ـ حلب

العربي

نشكر للقاريء اهتمامه ومتابعته ، ونود أن نوضح أن الفكرة الرئيسة في هذا الباب ، هي أن الخلاف يحدث لأن كلا الزوجين ينظر إلى المشكلة من زاويته ، ويعالجها بطريقة تفكيره الخاصة ، ويحاول الباب أن يقول لكل طرف : ثمة زاوية أخرى للموضوع ، وثمة طريقة أخرى للنظر إليه والتفكير فيه ، والباب بهذه الطريقة يريد أن يقول : إن الخطأ الأساسي يكمن في كون أحد الطرفين لايريد أن يرى وجهة النظر الأخرى ، أو ينصت إليها كما ينبغي ، وأنه لاتوجد هناك وجهة نظر واحدة صحيحة تماما ، أو خاطئة تماما ، وقد يكون الصواب ، (بمعنى الأكثر مناسبة) أمراً جديداً تماما ، يخرجان به معا من كلا الرأيين المطروحين ، بعد استماع كل منهما إلى الآخر بشكل جيد .

الأمر الأساسي إذن هو حسن الاستماع ، والقدرة على التقبل ، والتفهم ، والمشاركة ، وهذا هو المنهج الصائب في التعايش الذي يدعو إليه الباب ، فالرأي الواحد الذي يصل إليه الزوجان في النهاية بعد مثل هذا الحوار سيكون هو الصواب بمعنى (الأكثر مناسبة) ، بغض النظر عن تفصيلات هذا الرأي ووقائعه ، وأهم شيء هو أن يصل الزوجان معا إلى هذا الرأي الواحد ، بقدر من الرضا والتفاهم والاقتناع .

معلومات جديدة عن « الكمأ »

● قرأت في مجلة العربي بالعدد رقم ٣٤٤ يوليو سنة ١٩٨٧ ما كتبه الدكتور حسين العروسي عن غذاء فريد هو الكمأ ، وأود إضافة هذه المعلومات الطريفة عن هذا الموضوع :

أغلى وأفضل أنواع الكمأ هو النوع الفرنسي ، الأسود أو البني الذي ينمو في منطقة « بريجور » ، وقد اكتسب شهرته في المطبخ الفرنسي منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وتباع العلبة التي تزن ١٢,٥ جراماً من هذا النوع بمبلغ ٨,٥ جنيهات استرلينية ، لكن أعلى سعر حققه الكمأ على الإطلاق قد بلغ خمسة آلاف ريال سعودي ، ثمنا لثلاثة كيلوجرامات من الكمأ المحلي ، وقد تم ذلك في سوق (حفر الباطن) بالسعودية خلال شهر يناير ١٩٨٥ م .

يقدر الإنتاج العالمي من الكمأ بما يتراوح بين ١٥٠ و ٣٠٠ طناً سنويا ، ويشكل الكمأ البري معظم هذه الكمية . وتنتج إيطاليا بين ٣٠ ـ ٨٠ طناً سنويا ، واسبانيا من ٤٠ ـ ٦٠ طنّا سنويا ، أما فرنسا فيتراوح إنتاجها بين ٥٠ ـ ١٠٠ طن سنويا من الكمأ البري والبستاني ، والكمأ نادر جدا في أمريكا الشمالية ، لكنه يظهر أحيانا في بعض المناطق بولايتي « اوريجون » و « كاليفورنيا » .

تحتوي الكمأة على الفسفور والبوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم كما أنها غنية بفيتامين (B 1) ريبوفلافين الذي يفيد في علاج هشاشة الأظافر ، وسرعة تقصفها ، وتشقق الشفتين ، واضطراب الرؤية .

حوار القراء ..

العربي
ص.ب ٧٤٨ الصفاة
الكويت

تصبح الكمأة غذاء مستساغا سهل الهضم إذا أزيلت الأتربة عنها ، وطهيت جيدا ، أما المصابون بآفات في أمعائهم فينصحون بالإقلال منها .

احمد محمد باذيب
اليمن الديمقراطية / عدن ـ كريتر

« سبتة ومليلة »

● في البداية أشكركم كثيرا على اهتمامكم بقضايا الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وتعريفكم بالمشاكل التي يعاني منها ، ثم أتطرق إلى إثارة انتباهكم إلى بعض الملاحظات حول ما جاء في العدد ٣٤٢ شهر « مايو » من مجلة العربي عن « سبتة ومليلة » المدينتين المغربيتين السليبتين .

في معرض تناول المقال لموقع مليلة وجغرافيتها في الصفحة ١٦٦ من العدد المشار إليه ورد مانصه : « وهي أي مدينة مليلة تبعد عن الحدود المغربية الجزائرية بنحو ١٢ ميلا » ، والصحيح أن هذه المدينة تبعد عن هذه الحدود حوالي ٦٠ ميلا ، أما المدينة التي تبعد عن الحدود المذكورة حوالي ١٢ ميلا فهي الجزر الجعفرية التي ماتزال تحت سيطرة الاستعمار الاسباني ، وهي تقابل ميناء رأس كبدانة الصغير .

كما ورد في الصفحة ١٥٦ ذكر مكان باسم « إيفيس » والراجع أنه مدينة « ايفني » الواقعة في الجنوب المغربي .

شاوش محمد
المغرب / مدينة الناظور

من مقترحات القراء وتساؤلاتهم

● د . رمضان محمد سليمان فراج / ج . م . ع . الاسكندرية :

ـ العودة إلى نشر بعض الموضوعات التي سبق نشرها في (العربي) منذ ٢٥ سنة .

ـ إعادة استطلاع البلاد التي سبق استطلاعها قبل ٢٠ عاما لبيان درجة التطور .

ـ استطلاع آراء بعض المستشرقين وإقامة حوار معهم .

ـ ذكر أسماء المراجع في المقالات العلمية .

● أدبية الياس ـ دمشق ـ سوريا :

ـ استطلاع عن جمهورية«الأزبغة» وجمهورية«قابريا بلقاريا » بالاتحاد السوفيتي ، لأن العديد من قراء (العربي) في هاتين الجمهورتين يسعدهم ذلك ويطلبونه .

● صلاح الدين محمد ـ ج . م . ع / الاسكندرية :

ـ استطلاع عن الصومال ، وجيبوتي ، وموريتانيا .

● أحمد عيسى عيسى ـ سورية / حلب :

ـ زيادة أعداد (العربي الصغير) إلى سورية .

ـ تخصيص صفحات خاصة للقراء لنشر خواطرهم وقصصهم وأشعارهم ، لأن باب حوار القراء خاص بمناقشة الموضوعات التي تنشر في المجلة .

العربي

نشكر للإخوة القراء اهتمامهم ومتابعتهم ، ونعدهم بأن تكون جميع مقترحاتهم موضع دراسة مجلس التحرير أثناء بحث خطة الاستطلاعات والنظر في تطوير أبواب المجلة .

العربي

فهرس سنة

١٩٨٧

من العدد ٣٣٨ إلى العدد ٣٤٩

السنة الثلاثون

حديث الشهر — بقلم : رئيس التحرير / الدكتور محمد الرميحي

دين

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الوحدة والتنوع في العالم الاسلامي	د. عبدالعزيز كامل	١	٨٧	٣٣٨	١٨
الاسلام والتراث الاسلامي	د. محمد أحمد خلف الله	١	٨٧	٣٣٨	٣٠
مفهوم غريب للجهاد !	د. محمد عمارة	١	٨٧	٣٣٨	٨٦
المسلمون على خريطة المستقبل	د. أحمد كمال أبوالمجد	٢	٨٧	٣٣٩	١٨
الاسلام والارض	د. أحمد عُلبي	٢	٨٧	٣٣٩	٢٣
البيان في أسباب نزول القرآن	حسين أحمد أمين	٢	٨٧	٣٣٩	٩٦
البيان في أسباب نزول القرآن	حسين أحمد أمين	٣	٨٧	٣٤٠	١٠٨
العقلانية الاسلامية	د. محمد عمارة	٤	٨٧	٣٤١	٢٤
العمل الاسلامي ومسألة ترتيب الأولويات	د. أحمد كمال أبوالمجد	٥	٨٧	٣٤٢	١٨
الصحوة الاسلامية بين الجسور والعقبات	د. عبدالعزيز كامل	٥	٨٧	٣٤٢	٣٠
مآذن لها تاريخ	سليمان مظهر	٥	٨٧	٣٤٢	٦٨
الصوم وحكمة تدبير الحياة	د. محمد فتحي الدريني	٥	٨٧	٣٤٢	١٠٨
الكسب الحرام في الاسلام	د. توفيق محمد شاهين	٦	٨٧	٣٤٣	١١٢
الأبعاد الأربعة في منهج الاسلام	د. عبدالعزيز كامل	٧	٨٧	٣٤٤	٢٣
جسر من كلمات ونور	د. عبدالعزيز كامل	٩	٨٧	٣٤٦	٢٠
العلمانية . . بين الدين والدولة والحياة	د. عبدالعزيز كامل	١٢	٨٧	٣٤٩	١٨
رشيد رضا وقضية المرأة في العالم الاسلامي منذ نصف قرن	د. رضوان السيد	١٢	٨٧	٣٤٩	٥٤

سياسة واقتصاد

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الديون الخارجية للعالم الاسلامي	د. رمزي زكي	١	٨٧	٣٣٨	٧٤
الصندوق الكويتي للتنمية ، ربع قرن من العطاء والنماء	محمود عبدالوهاب	٢	٨٧	٣٣٩	٦٩
الديمقراطية والثورة العلمية والتقنية	مصطفى طيبة	٢	٨٧	٣٣٩	١٣٧
أزمة السويس واستخدام القوة	أمين هويدي	٣	٨٧	٣٤٠	٢٣
الاستخدام التآمري للقوة ، نموذج حرب السويس	أمين هويدي	٤	٨٧	٣٤١	٣٥
تعالوا نتعلم كيف نختلف !	د. يحيى الجمل	٤	٨٧	٣٤١	٤٧
الردع وتوازن القوى . . دروس حرب السويس	أمين هويدي	٥	٨٧	٣٤٢	٤١

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
ابن خلدون مفكرا اقتصاديا	د. ابراهيم عويس	٦	٨٧	٣٤٣	١٨
الأبعاد الثقافية للانجاز الاقتصادي الياباني	وحيد عبدالمجيد	٧	٨٧	٣٤٤	٥٧
الحرب النووية وصراع « الايديولوجيات »	د. فؤاد زكريا	٨	٨٧	٣٤٥	١٨
الاقتراض الخارجي أزمة المديونية في العالم الثالث	نعوم ابراهيم عبود	٩	٨٧	٣٤٦	٣٠
انفجار ديون البرازيل وبدء عصر المواجهة بين الدائنين والمدينين	د. رمزي زكي	١٠	٨٧	٣٤٧	٢٢
احتلال العقل ، ملامح الاستراتيجية الغربية للتحكم في العقل العربي	رفعت سيد أحمد	١٢	٨٧	٣٤٩	٢٤
انهيار الحضارة الصناعية	حافظ أحمد أمين	١٢	٨٧	٣٤٩	٥٩

عروبة

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
العلوم وطموحات المستقبل في الأقطار العربية	د. محمد عبدالسلام	١	٨٧	٣٣٨	٢٣
الارهاب من زاوية عربية	د. فؤاد زكريا	٢	٨٧	٣٣٩	٢٨
عروبة أم اسلام ؟	د. محيي الدين عميمور	٢	٨٧	٣٣٩	٣٣
الشخصية العربية في التلفزيون الأميركي	د. جاك شاهين	٣	٨٧	٣٤٠	١٨
ردم الهوة والخيار الصعب !	د. شاكر مصطفى	٥	٨٧	٣٤٢	٢٣
مستودع الأفكار	فتحي رضوان	٥	٨٧	٣٤٢	٥٢
لماذا يتخلى المثقف العربي عن دوره السياسي ؟	توفيق أبو بكر	١٢	٨٧	٣٤٩	١١٣

استطلاعات الكويت المصورة

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
صناعة الألبان في الكويت خطوة نحو تحقيق الاكتفاء الغذائي !	ريم الكيلاني ـ ثريا البقصمي تصوير : سليمان حيدر	٦	٨٧	٣٤٣	١٥٧
الخيران منتزه سياحي	سليمان الشيخ تصوير : طالب الحسيني	٧	٨٧	٣٤٤	٨٨

الاستطلاعات العربية والخارجية

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
نيويورك تفاحة عسيرة الهضم	صلاح حزين تصوير : أوسكار متري	٧	٨٧	٣٤٤	١٣٢
الريف المغربي أسطورة الانسان عبر الزمان والمكان	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	٨	٨٧	٣٤٥	٦٨
تاربا إرث المغول وطموحات الحاضر والمستقبل	سليمان الشيخ تصوير : سليمان حيدر	٨	٨٧	٣٤٥	١٣٢
الموصل تبحث عن زمنها المفقود	صلاح حزين تصوير : طالب الحسيني	٩	٨٧	٣٤٦	٦٨
عُمان بلاد النخيل والنارجيل	صادق يلي	٩	٨٧	٣٤٦	١٤٤
البحرين ساعة لربك وساعة لقلبك	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	١٠	٨٧	٣٤٧	٦٨
اليمن الشمالي.. مشاريع على طريق التنمية	صادق يلي تصوير : سليمان حيدر	١٠	٨٧	٣٤٧	١٣٢
بيروبيجان ، من يتذكر دولة اليهود السوفييت ؟	سليمان الشيخ تصوير : طالب الحسيني	١١	٨٧	٣٤٨	٦٨
« المولوية » يرقصون « السما » على أنغام جلال الدين الرومي	سليمان مظهر تصوير : سليمان حيدر	١١	٨٧	٣٤٨	١٣٢
البرتغال مملكة الشمس الغاربة	محمود عبدالوهاب تصوير : سليمان حيدر	١٢	٨٧	٣٤٩	٦٨
فيودوروف وابتكارات جديدة في طب العيون	سليمان الشيخ تصوير : طالب الحسيني	١٢	٨٧	٣٤٩	١٤٢

أدب ولغة

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
فهد الدويري ناقدا . .	سالم عباس خدادة	١	٨٧	٣٣٨	٧٢
أدب الرحلات في حياتنا الثقافية	د . سيد حامد النساج	١	٨٧	٣٣٨	١٣٣
مضحكات الشدائد	د . عبدالسلام العجيلي	٣	٨٧	٣٤٠	١٤٩
الثقافة والشارع	فتحي رضوان	٤	٨٧	٣٤١	١٨
طه حسين وثقافة العصر	د . أحمد عُلبي	٤	٨٧	٣٤١	٣٠
قراءة في روايات عدنان عمامة	وليد أبو بكر	٤	٨٧	٣٤١	١٧٦
هل أدب العبث عبث ؟	فتحي رضوان	٦	٨٧	٣٤٣	٢٣
في مجمع الخالدين	عبدالرزاق البصير	٦	٨٧	٣٤٣	٣٦
رؤية فنية لما بعد الموت	أبوالمعاطي أبوالنجا	٦	٨٧	٣٤٣	٦٢

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الحوار ألوان	فتحي رضوان	٨	٨٧	٣٤٥	٢٤
تصحيحات لغوية طبية وعلمية	د. محمد صادق زلزلة	٨	٨٧	٣٤٥	٥٤
الأصالة والعروبة في أدب عبدالسلام العجيلي	أحمد محمد عطية	٨	٨٧	٣٤٥	٥٧
إعراب في البدن !	د. محمد حكمت عبدالدائم	٨	٨٧	٣٤٥	١١٤
أكذوبة الثقافة « اليهودية »	د. عبدالوهاب محمد المسيري	٩	٨٧	٣٤٦	٢٥
فن القصة المعاصر في أمريكا اللاتينية	د. حامد أبوأحمد	١٠	٨٧	٣٤٧	١١٤
بخلاء الجاحظ يراوغون القلق	د. عبدالمقصود عبدالكريم	١١	٨٧	٣٤٨	٣٥
أدب المذكرات	فتحي رضوان	١٢	٨٧	٣٤٩	٣٠
شارات المجد المنطفئة	د. محمود الربيعي	١٢	٨٧	٣٤٩	١١٦

جمال العربية : صفحة لغة — بقلم : محمد خليفة التونسي

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
افتح ياسمسم	١	٨٧	٣٣٨	٢١٤
الأشجار الأولى خضراء مزهرة	٢	٨٧	٣٣٩	٢١٤
سؤالان وجوابان	٣	٨٧	٣٤٠	١٨٢
سؤالان وجوابان	٤	٨٧	٣٤١	١٨٢
أسئلة وأجوبة	٥	٨٧	٣٤٢	١٨٠
أسئلة وأجوبة	٦	٨٧	٣٤٣	١٨٢
حول إعراب المنقوص	٧	٨٧	٣٤٤	١٧٨
إعراب المقصور	٨	٨٧	٣٤٥	١٨٠
أسئلة وأجوبة	٩	٨٧	٣٤٦	١٨٠
اللغة بأنظمتها لا بمعجمها	١٠	٨٧	٣٤٧	١٨٠
بين نحو الدلالة ونحو الإعراب	١١	٨٧	٣٤٨	١٨٠
نائب الفاعل هل ينبغي حذفه من كتب النحو ؟	١٢	٨٧	٣٤٩	١٦٦

جمال العربية : صفحة شعر

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الشريف الرضي يرثي أمه	١	٨٧	٣٣٨	٢١٦

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
حنين لأبي صخر الهذليّ	٢	٨٧	٣٣٩	٢١٦
حيرة الحب لجنادة العذري	٢	٨٧	٣٣٩	٢١٧
عتاب صديق لابن الرومي	٣	٨٧	٣٤٠	١٨٤
بين التدلل والتذلل لأبي فراس الحمداني	٤	٨٧	٣٤١	١٨٤
وصف زلزال لحافظ ابراهيم	٥	٨٧	٣٤٢	١٨٢
لواعج الحب لابن الدمينة	٦	٨٧	٣٤٣	١٨٤
عذاب الحب للصمّة بن عبدالله القشيري	٧	٨٧	٣٤٤	١٨٠
إلى أم كلثوم لمعروف الرصافي	٨	٨٧	٣٤٥	١٨٢
السماء للشاعر ايليا أبي ماضي	٩	٨٧	٣٤٦	١٨٢
مجلس غناء عباسي لبشار بن برد	١٠	٨٧	٣٤٧	١٨٢
معابثات غزليّة لعمر بن أبي ربيعة	١١	٨٧	٣٤٨	١٨٢
مأساة سيدة قتل أخوها زوجها	١٢	٨٧	٣٤٩	١٦٨

شعر وشعراء

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
صـورة	خالد سعود الزيد	١	٨٧	٣٣٨	١٧
فواصل من دفتر الأرض	د. محمود الشلبي	١	٨٧	٣٣٨	٩٨
الجنوبي المسافر	د. عبده بدوي	١	٨٧	٣٣٨	١٢٣
بقايا أساطير	محمد ابراهيم أبوسنّة	٢	٨٧	٣٣٩	٧٦
الشنفرى، أسطورة الثأر ولامية العرب	د. عبدالمقصود عبدالكريم	٢	٨٧	٣٣٩	٨٢
أغنية للحياة	ابراهيم نصر الله	٢	٨٧	٣٣٩	١٤٤
وداع الشباب	أحمدمحمدآل خليفة	٢	٨٧	٣٣٩	١٨٨
ياقاتي	يعقوب السبيعي	٣	٨٧	٣٤٠	٢٨
مرثية للمساء الأخير	محمود مفلح	٣	٨٧	٣٤٠	١١٤
الموت فوق صدرها	علي عبد القيوم	٣	٨٧	٣٤٠	١٨٠
الطريق الى يافا	يوسف الخطيب	٤	٨٧	٣٤١	٢٨
استخراج اللؤلؤ في الشعر الجاهلي	د. حسين عطوان	٤	٨٧	٣٤١	١٠٨
كان طيفه حقل عنب	محمد البقلوطي	٤	٨٧	٣٤١	١٨٠
الاختيـار	د. كافية رمضان	٥	٨٧	٣٤٢	٢٨
فتى دير الغصون	يوسف عبدالعزيز	٥	٨٧	٣٤٢	١١٢
عن الحب والحرية	فاروق شوشة	٦	٨٧	٣٤٣	٢٨
قصيدتان للوطن	محمود الشلبي	٧	٨٧	٣٤٤	٢٨
ادوارد بوكوك أول انجليزي يكتب شعرا بالعربية	د. نبيل ابراهيم مطر	٧	٨٧	٣٤٤	٦٤
الرحلـة	د. عبده بدوي	٧	٨٧	٣٤٤	١١٣

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
القصيدة الدافئة	شوقي البغدادي	٨	٨٧	٣٤٥	٢٨
رزق الله حسون رائد مجهول في ميادين الصحافة والشعر والترجمة	د . علي شلش	٨	٨٧	٣٤٥	٣٦
لكنه . . . لن يعود	عزت الطيري	٨	٨٧	٣٤٥	١١٢
حديث الشباب	عبد العليم القباني	٨	٨٧	٣٤٥	١٧٩
تساؤلات	د . عيسى درويش	٩	٨٧	٣٤٦	١٩
قصيدتان للخالد الأسمر	محمود عبدالصمدزكريا	٩	٨٧	٣٤٦	١٢٤
جلوة ليل	فاروق شوشة	١٠	٨٧	٣٤٧	٢٨
حـكاية	يوسف طافش	١٠	٨٧	٣٤٧	١٢٤
أصل البلاء	زكي قنصل	١١	٨٧	٣٤٨	٣٢
ساعة زرقاء للشاعر جوتفريدبن	د . عبدالغفار مكاوي	١١	٨٧	٣٤٨	٤٥
بين نهرين يمشي	أحمد فضل شبلول	١١	٨٧	٣٤٨	١١٦
الشاعر والديوان	محمد التهامي	١٢	٨٧	٣٤٩	٢٨
العشق ، هو العاشق	مجاهد عبدالمنعم مجاهد	١٢	٨٧	٣٤٩	١٠٨

قصص

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
حيلة وحيلة !	د . عبدالسلام العجيلي	١	٨٧	٣٣٨	٩٤
السلطــــان	قصي الشيخ عسكر	١	٨٧	٣٣٨	١٢٠
التجربة الأخيرة (مترجمة)	ابراهيم عبدالله العلو	١	٨٧	٣٣٨	١٧٤
من المصحة : لمسات صغيرة	محمد المخزنجي	٢	٨٧	٣٣٩	٩٢
بين والد وولده (مترجمة)	نعوم ابراهيم عبود	٢	٨٧	٣٣٩	١٥٢
جدي عبد الوهاب	سليمان فياض	٣	٨٧	٣٤٠	٤٧
الرواق . الناس	ابراهيم زعرور	٣	٨٧	٣٤٠	١٥٢
السحر ليس للبيع (مترجمة)	شوقي جلال	٤	٨٧	٣٤١	٥٨
مقبرة الأربعين	د . محمود موعد	٤	٨٧	٣٤١	١٤٨
رائحة الأشياء	محمد كمال محمد	٥	٨٧	٣٤٢	٩٠
سبق صحفي (مترجمة)	عبداللطيف عبدالحميد	٥	٨٧	٣٤٢	١٧٦
الخـــوف	محمد عبد الملك	٦	٨٧	٣٤٣	٥٦
النخب (مترجمة)	يوسف حلاق	٦	٨٧	٣٤٣	١٢٥
عملية تزوير	رجب سعد السيد	٧	٨٧	٣٤٤	٥٢
الغريب (مترجمة)	جليل العطية	٧	٨٧	٣٤٤	١٤٨
حالة حب مجنونة	ليلى العثمان	٨	٨٧	٣٤٥	٤٨
رسالة الى الله (مترجمة)	زهير شفيق رومية	٨	٨٧	٣٤٥	١٧٦

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
صادق الحمّال (مترجمة)	د. محمد موفاكو	٩	٨٧	٣٤٦	٤٨
مركب ملونة	جار النبي الحلو	٩	٨٧	٣٤٦	١٧٧
صاحب قديم	د. عبدالسلام العجيلي	١٠	٨٧	٣٤٧	٣٠
المخـاض	محمد الشارخ	١٠	٨٧	٣٤٧	٥٦
آخر لفافة	سعيد سالم	١٠	٨٧	٣٤٧	١٧٥
الرغبة في الكلام	محمد سمارة	١١	٨٧	٣٤٨	٥٠
اليوم الذي دفنّا فيه السلاح (مترجمة)	محمد العشيري	١١	٨٧	٣٤٨	١١٨
حدود العالم	محسن خضر	١٢	٨٧	٣٤٩	١١٠

طب وعلوم

الموضوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
جراح المستقبل بين مبضع الليزر والموجات فوق الصوتية	د. عامر هشام جعفر	١	٨٧	٣٣٨	٦٠
القتلة البيض	د. محمد نبهان سويلم	١	٨٧	٣٣٨	١٢٤
دورة الحياة والموت النباتية هل تؤدي الى فك أسرار الشيخوخة الانسانية ؟	بدور عبدالكريم	١	٨٧	٣٣٨	١٣٧
أيها المرضى لا مبرر للخوف	د. ابراهيم أبو طاحون	١	٨٧	٣٣٨	١٥٠
رحلة الى حافة الكون	سمير صلاح الدين شعبان	٢	٨٧	٣٣٩	٥٦
التغذية والأسنان	د. محمد محمد منصور	٢	٨٧	٣٣٩	٦٥
الكوارتز كنز في باطن الأرض !	رؤوف وصفي	٢	٨٧	٣٣٩	١٢٠
مرض النخالة الوردية	د. محمد عبدالله المشاري	٢	٨٧	٣٣٩	١٥٦
ملح ونفط وتلوث !	د. سمير رضوان	٣	٨٧	٣٤٠	٤٠
العلاج الفيزيائي عرفه الانسان منذ أقدم العصور	د. وليد السباعي	٣	٨٧	٣٤٠	٥٠
تخزين الأرض من الأشعة النووية وحوادث المفاعلات	د. شذى الدركزلي	٣	٨٧	٣٤٠	١٠٢
الاكزيما تعددت الأسماء والمرض واحد	د. سامي محمود علي	٣	٨٧	٣٤٠	١٢٣
عزل جينات السرطان .. اعجاز علمي ..	عبدالرحمن حريتاني	٤	٨٧	٣٤١	٩٣
الألمنيوم أعجوبة معادن القرن العشرين	محمد علي النقي	٤	٨٧	٣٤١	١٣٠
مرضك هل له علاقة بالكهربائية ؟	د. سامي عزيز	٤	٨٧	٣٤١	١٥٢
الارض بلا ميكروبات كوكب ميت	د. سمير رضوان	٥	٨٧	٣٤٢	٣٥
دروس مستفادة من إدخال تقنية الفضاء	حمدي قنديل	٥	٨٧	٣٤٢	١١٤
هل يمكن أن يلد الرجال ؟	د. أحمد محمد الكباريتي	٥	٨٧	٣٤٢	١١٨
علاج قصر النظر بالعمليات الجراحية	د. سعيد السماهيجي	٦	٨٧	٣٤٣	٤٠
هل دخل السرطان مرحلة الاحتضار ؟	د. عماد شمسي باشا	٦	٨٧	٣٤٣	١٠٣

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الكمأ . . غذاء فريد !	د. حسين العروسي	٧	٨٧	٣٤٤	٤٨
انجاز علمي جديد : الطيران حول العالم دون توقف	سعد شعبان	٧	٨٧	٣٤٤	١٢٠
جولة في العالم السفلي	د. سمير رضوان	٨	٨٧	٣٤٥	٤٢
الضوء وسلوك الانسان	د. أمل علي المخزومي	٨	٨٧	٣٤٥	١٠٨
حكايات طبية	د. غسان حتاحت	٨	٨٧	٣٤٥	١٢٢
السوبرنوفا كارثة فلكية !	رؤوف وصفي	٨	٨٧	٣٤٥	١٥٤
اللعاب في الصحة والمرض	د. محمد الكبرا	٩	٨٧	٣٤٦	٣٥
الشتاء النووي	د. سعود عياش	٩	٨٧	٣٤٦	٤٤
المجهود العربي في العلوم الاساسية	د. أسامة الخالدي	٩	٨٧	٣٤٦	٥٧
الدلفين أفضل أصدقاء الانسان	سمير صلاح الدين شعبان	٩	٨٧	٣٤٦	١٠٣
طعام المستقبل	ابراهيم عبدالله العلو	١٠	٨٧	٣٤٧	٣٥
مرض النخالة البيضاء	د. محمد عبدالله المشاري	١٠	٨٧	٣٤٧	٦٥
طفيليات يمكن أن تعيش على كبدك	د. سامي محمود علي	١٠	٨٧	٣٤٧	٩٠
التنبؤ بالأحوال الجوية عبر الأقمار الصناعية	طاهر سكر القيسي	١٠	٨٧	٣٤٧	١١٠
تقدم العلم وتلوث البيئة	د. سمير رضوان	١١	٨٧	٣٤٨	٢٦
الأسنان المصابة بين القلع والعلاج !	د. ابراهيم أبو طاحون	١١	٨٧	٣٤٨	٦٤
جنون العنكبوت	عبدالرحمن حريتاني	١١	٨٧	٣٤٨	٩٠
الحاسوب ومستقبل الاقتصاد العالمي	سمير صلاح الدين شعبان	١١	٨٧	٣٤٨	١٠٤
الليزر . . حل يبحث عن مشكلة	د. مهدي رحمة الله	١٢	٨٧	٣٤٩	٣٥
الموت المفاجيء	د. أنيس فهمي	١٢	٨٧	٣٤٩	٦٢
حكايات طبية	د. غسان حتاحت	١٢	٨٧	٣٤٩	١٣٢
افاق المستقبل : الطاقة من الفضاء	رؤوف وصفي	١٢	٨٧	٣٤٩	١٥٠

الجديد في العلم والطب　　　اعداد : يوسف زعبلاوي

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
علاج الأمراض العصبية بات قريبا ـ كحل العيون سم في الدمسم ـ المادة العلاجية في الديكة ـ النقاهة ضرورية ـ حبوب شبه مثالية لتحديد النسل .	١	٨٧	٣٣٨	١٥٩
العلق ذو فوائد ـ ثورة في جراحة التجميل ـ جهاز الكتروني لمنع الحمل وتحديد النسل - لإطالة العمر ـ جهاز جديد للتأكد من الحمل مبكرا ـ المعالجة بالكالسيوم . . عقيمة .	٢	٨٧	٣٣٩	١٥٩
مادة جديدة ، ذات فوائد صناعية ـ عجيبة ـ رائحة العرق الكريهة ضرورية ومفيدة ـ لقاح جديد للجذام ـ عودة المطاط الطبيعي .	٣	٨٧	٣٤٠	١٢٧
الاهتمام بتشريح جثث الموتى مجددا ـ تلسكوبات المرايا السائلة ـ هرمون طول العمر .	٤	٨٧	٣٤١	١٢٥

سلامة البشرية في سلامة البيئة

طبيب الأسرة

تاريخ وتراث

تاريخ أشخاص

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
تولستوي والعرب	د. جابر أبي جابر	٢	٨٧	٣٣٩	١٤٦
ستان حساني من الدين الى السياسة عبرالرواية	د. محمد موفاكو	٤	٨٧	٣٤١	٤٢
انطونيو غاودي عبقري العمارة الاسبانية	طارق خالد الحجي	٦	٨٧	٣٤٣	٨٨
وقفة مع الكحالين العرب وشيخهم عمارالموصلي	د. سري سبع العيش	٧	٨٧	٣٤٤	٦٠
جالينوس أشهر أطباء التاريخ	د. حسن فريد أبوغزالة	١١	٨٧	٣٤٨	٥٤
سلين، الأديب الفرنسي وربع قرن على رحيله	د. زينب عبدالعزيز	١٢	٨٧	٣٤٩	١٠٤

وجها لوجه

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
د. فؤاد زكريا	د. امام عبدالفتاح امام	١	٨٧	٣٣٨	٦٤
عبدالحميد بن هدوقة	أبوالمعاطي أبوالنجا	٢	٨٧	٣٣٩	١٢٩
نيكولا خايتوف	وليد دسوقي	٣	٨٧	٣٤٠	٩٧
د. بدرومارتينيث	د. حامد أبوأحمد	٤	٨٧	٣٤١	١٠١
عبد الوهاب البياتي	د. جليل العطية	٥	٨٧	٣٤٢	١٠٣
رسول حمزاتوف	سليمان الشيخ	٦	٨٧	٣٤٣	٩٧
نعمان عاشور	زينب الكردي	٧	٨٧	٣٤٤	٩٧
د. حسن الساعاتي	د. محمد الجوهري	٨	٨٧	٣٤٥	٩٧
د. فاطمة المرنيسي	علاء الدين محسن	٩	٨٧	٣٤٦	٩٧
حنا مينه	أبوالمعاطي أبوالنجا	١٠	٨٧	٣٤٧	٩٧
منح الصلح	جهاد فاضل	١١	٨٧	٣٤٨	٩٧
د. أسامة أمين الخولي	علي ابراهيم عثمان	١٢	٨٧	٣٤٩	٩٧

تربية وعلم نفس

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
المدرسة والمتع الثقافية !	د. عبدالله عبدالدائم	٣	٨٧	٣٤٠	٣٤
كيف اكتشف العقل الباطن ؟	د. عبدالرؤوف ثابت	٣	٨٧	٣٤٠	١١٠
الفصام جنون فرد أم جنون مجتمع ؟	د. حلمي نجم	٥	٨٧	٣٤٢	٤٧
التعلم عن بعد .. الجامعة المفتوحة	توفيق أبوبكر	٦	٨٧	٣٤٣	١٠٨
حركات الاصلاح الحديثة وموقفها من التربية والثقافة	د. المنجي الكعبي	٧	٨٧	٣٤٤	٣٦

اجتمـــاع

فلسفـــة

منتدى العربي

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
قضية : الشعر بين التجربة والالهام	د. عبدالعزيز المقالح	٥	٨٧	٣٤٢	١٢١
تعقيب: ملاحظات على مقال دورة الحياة والموت	د. عامر شيخوني	٥	٨٧	٣٤٢	١٢٦
قضية : نحن والتراث	فاروق خورشيد	٦	٨٧	٣٤٣	١١٦
تعقيب: ملاحظات على مقال الاسلام والتراث الاسلامي	د. عجيل النشمي	٦	٨٧	٣٤٣	١٢١
قضية : الدخول في دائرة الحداثة	د. عبدالرحمن ياغي	٧	٨٧	٣٤٤	١١٤
تعقيب : ملاحظات على مقال حركة الزمن	محمدبن حسن الشريف	٧	٨٧	٣٤٤	١١٨
قضية : أرقام الحساب عربية أم هندية ؟	د. سعيد النجار	٨	٨٧	٣٤٥	١١٦
تعقيب : الأهم من التخطئة استقرار المصطلح	د. احسان جعفر	٨	٨٧	٣٤٥	١٢٠
قضية : تعريب التعليم الجامعي	أبوالمعاطي أبوالنجا	٩	٨٧	٣٤٦	١٠٩
تعقيب : بين طه حسين وأحمد أمين	د. محمد الدسوقي	٩	٨٧	٣٤٦	١١٥
قضية : الزمن والنظرية النسبية	خالد مفتاح	١٠	٨٧	٣٤٧	١٢٠
تعقيب : رسل الله وسنن آبائهم	طارق محمد جبر	١٠	٨٧	٣٤٧	١٢٢
قضية : تعريب التعليم الجامعي	أبوالمعاطي أبوالنجا	١١	٨٧	٣٤٨	١١٠
قضية : دور الأرقام العربية في الحضارةالانسانية	د. عبداللطيف كانو	١٢	٨٧	٣٤٩	١٢١
تعقيب : الجنس الثالث بين الأنوثة والذكورة	د. يحيى زكريا جاد	١٢	٨٧	٣٤٩	١٢٦

للمناقشة بقلم : فهمي هويدي

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
الشريعة والناس	١	٨٧	٣٣٨	٨٢
العالم الاسلامي من قيادة التاريخ الى حقائق الجغرافيا!	٢	٨٧	٣٣٩	٧٨
نعم : لتحقيق المصالح ، لا : لإهدار الشريعة	٣	٨٧	٣٤٠	٦٢
ما حقيقة الربا ؟	٤	٨٧	٣٤١	٥٣
استدعاء الفقه إلى قلب العصر	٥	٨٧	٣٤٢	٦٣
التشدد يحسنه كل أحد !	٦	٨٧	٣٤٣	٤٦
لماذا حجب الأضواء عن التوبة والعفو ؟	٨	٨٧	٣٤٥	٦٢
اشكالية « الآخر » في التفكير الاسلامي !	٩	٨٧	٣٤٦	٥٢
لأنه أرادنا مختلفين !	١٠	٨٧	٣٤٧	٤١
اشكالية « الآخر » في التفكير الاسلامي : آيات السيف !	١١	٨٧	٣٤٨	٤٠
الاختلاف الذي لابد منه !	١٢	٨٧	٣٤٩	٤٠

أرقام بقلم : محمود المراغي

مريض الشمال . . ومريض الجنوب	٢	٨٧	٣٣٩	٩٨
حين تجف الآبار !	٣	٨٧	٣٤٠	٣٨

كتاب الشهر

من المكتبة العربية

البيت العربي (الأسرة والمجتمع)

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
العُرس العُماني بين بيضة الحسد ونقوش الحناء	ثريا البقصمي	١٠	٨٧	٣٤٧	١٦٠
أسئلة الأطفال نافذة مغلقة أم مفتوحة على مستقبلهم ؟	كمال زاخر لطيف	١٠	٨٧	٣٤٧	١٦٥
ليلة عُرس سودانية	مبارك الصادق	١١	٨٧	٣٤٨	١٦٢
شعرك المفقود هل يعود مرة أخرى ؟	د. سامي عزيز	١١	٨٧	٣٤٨	١٦٨
الخلافات الزوجية : الحياة بعد العاصفة !	ريم الكيلاني	١٢	٨٧	٣٤٩	١٥٦

الفنون واللوحات الفنية

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
جمالية الخط الكوفي	عبد اللطيف هاشم	١	٨٧	٣٣٨	١٨٠
« طبلخانة » العرب	فرج العنتري	٢	٨٧	٣٣٩	٢١٠
الفيلم العربي يبحث عن المتفرج العربي	رؤوف توفيق	٤	٨٧	٣٤١	١٢٠
حسناء باريس بين الفن والسياسة	جمال قطب	٤	٨٧	٣٤١	١٤٠
هذا الثالوث الماسي الذي انكسر !	د. شاكر مصطفى	٦	٨٧	٣٤٣	٣٠
نظرة عامة على الفيلم الروائي المغربي	علاء الدين محسن	٧	٨٧	٣٤٤	١٥٢
من يذهب الى السينما ؟	رؤوف توفيق	٨	٨٧	٣٤٥	٩٠
أميل زولا وأدغارديغا . خصومة الاديب والرسام	خالد القشطيني	٨	٨٧	٣٤٥	١٠٢
السينما وعلاقتها بالفنون الأدبية	محمد صوف	٩	٨٧	٣٤٦	٦٤
سباق القيمة الفكرية والجمالية في أعمال النحات الكويتي سامي محمد	حميد خزعل	٩	٨٧	٣٤٦	٨٨
الموسيقا العربية المعاصرة متى يتم جمعها ؟	سليم سحاب	١٠	٨٧	٣٤٧	١٠٥
« جويا » العابث الثائر . . بين رسم الحسان وفظائع الحرب	جمال قطب	١١	٨٧	٣٤٨	١٥٢
المضامين العلمية والفنية في المخطوطات العربية	محمود شكر الجبوري	١٢	٨٧	٣٤٩	٨٨

نذكر فيما يلي الأبواب التي أغفلها هذا الفهرس العام لتعذر فهرستها ونذكر الى جانبها أسماء محرريها :

- ■ أقوال ـ سليمان الشيخ
- ■ من مكتبة العربي (مختارات) ـ صلاح حزين
- ■ هو . . هي + مساحة ود ـ محمود عبدالوهاب
- ■ طرائف ـ صادق يلي
- ■ الشطرنج + الكلمات المتقاطعة ـ د. محمد حسن التيتي
- ■ حوار القراء ـ ابوالمعاطي أبو النجا

الفهرس العام

اعداد : صلاح صادق

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢١٩ أول ديسمبر ١٩٨٧

لون بشرتنا

تأليف : ثيلستينو جورستيثا
ترجمة : محمود فكري عبد السميع
مراجعة وتقديم : د. الطاهر مكي



ليلة الحناء

للفنانة الكويتية ثريا البقصمي